







نبوءات الرسول صلى الله عليه وسلم

دروس وعبر



الجزء الأول

بقلم
عبد الستار الشيخ

إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


نبوءات الرسول ﷺ
دروس وعبر







نبوءات الرسول ﷺ

دروس وعبر

بقلم

عبد الستار الشيخ

الجزء الأول

إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر



١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

طبعة خاصة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

مقدمة

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم رسله، وبعد، فإن علماء الإسلام قد خلفوا لنا تراثا علمياً ضخماً، متعدد المناحي، وما يزال معظم هذا التراث مخطوطاً لم ير النور، ولم يتعرف عليه الباحثون، رغم ما فيه من المعاني الدقيقة والأفكار العميقة التي تخدم واقعنا المعاصر وتنير السبل لأمتنا في مجالات الفكر والتشريع والثقافة، ويقدر بعض الخبراء أن ما بقي مخطوطاً من تراث علماء الإسلام يربو على ثلاثة ملايين عنوان، تقبع في زوايا المكتبات، وظلام الصناديق والأقبية، حتى إن بعضها لم يفهرس فهرسة دقيقة فضلاً عن النشر. فكان من المهم في هذه المرحلة أن تتجه الجهود لتقويم هذا التراث واستجلاء ما ينفع الناس منه في عصرنا، ثم العمل على تحقيقه ونشره.

وإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر ـ وقد وفقها الله لأن تضرب بسهم في إحياء هذا التراث ـ لتحمد الله سبحانه وتعالى على أن ما أصدرته من نفائس التراث قد نال الرضا والقبول من أهل العلم في مشارق الأرض ومغاربها.

والمتابع لحركة النشر العلمي لا يخفى عليه جهود دولة قطر في خدمة تراث الأمة منذ ما يزيد على ستة عقود، وقد جاء مشروع إحياء التراث الإسلامي الذي بدأته الوزارة منذ ست سنوات امتدادًا لتلك الجهود وسيرًا على تلك المحجة التي عُرفت بها دولة قطر.

ومنذ انطلاقة هذا المشروع المبارك يسر الله جلَّ وعلا للوزارة إخراج مجموعة من أمهات كتب العلم في فنون مختلفة تُطبع لأول مرة، ففي تفسير القرآن الكريم أصدرت الوزارة تفسير الإمام العُليمي (فتح الرحمن في تفسير القرآن) وفي علم الرسم أصدرت كتاب (مرسوم المصحف للإمام العُقيلي) ونحن بصدد إصدار جديد متميز للمحرر الوجيز لابن عطية مقابلاً على نسخ خطية عدة.

وفي السُّنّة أصدرت الوزارة كتاب (التوضيح شرح الجامع الصحيح لابن الملقن) و(حاشية مسند الإمام أحمد للإمام السندي)، و(شرحين لموطأ مالك لكل من القنازعي والبوني)، و(شرح مسند الشافعي للإمام الرافعي)، و(نخب الأفكار شرح معاني الآثار للبدر العيني) إضافة إلى صحيح ابن خزيمة بتحقيقه الجديد المُتقن.

وأخيراً صدر عن الوزارة كتاب: (التقاسيم والأنواع) للإمام ابن حبان وكذا (مطالع الأنوار)، لابن قرقول، وهما ينشران لأول مرة، وهناك مشاريع أخرى يُعلن عنها في حينها.

وفي الفقه أصدرت الوزارة : (نهاية المطلب في دراية المذهب للإمام الجويني) الذي حققه وأتقن تحقيقه عضو لجنة إحياء التراث الإسلامي أ.د. عبدالعظيم الديب ـ رحمه الله تعالى ـ وكتاب (الأوسط لابن المنذر) بمراجعة دقيقة للدكتورعبد الله الفقيه عضو اللجنة، وكتاب (التبصرة) للخمي، و(حاشية الخلوتي في الفقه الحنبلي)، وكتاب (الإقناع في مسائل الإجماع)، لابن القطان الفاسي، وفي الطريق إصدارات أخرى مهمة تمثل الفقه الإسلامي في عهوده الأولى.

وفي السيرة النبويّة أصدرت الوزارة الموسوعة الإسنادية (جامع الآثار لابن ناصر الدين الدمشقي).

وفي العقيدة والتوحيد أصدرت الوزارة كتاباً نفيسًا لطيفًا هو (الاعتقاد لابن العطار) تلميذ النووي رحمهما الله.

ولم نغفل عن إصدار دراسات معاصرة متميزة من الرسائل العلمية وغيرها فأخرجنا (القيمة الاقتصادية للزمن) و(نوازل الإنجاب) وفي الطريق ـ بإذن الله تعالى ـ ما تقر به العيون من دراسات معاصرة في القرآن والسُّنّة، ونوازل الأمة.

وبين أيدينا اليوم كتاب جديد بعنوان «نبوءات الرسول ﷺ»، لعبد الستار الشيخ، وهو يتناول جانباً مهمّاً من سيرة رسول الله ﷺ وهو دلائل نبوته ﷺ كما حفظتها لنا كتب السنة المطهرة، فعرَّف بعلامات النبوة، ودلائلها، وذكر علامات الساعة، وأشراطها.

وقد تنوعت تلك الدلائل إلى معنوية وحسية.

فمن المعنوية: إنزالُ القرآن، وهو أعظم المعجزات، ومنها أخلاقه ﷺ.

وأمَّا الدلائل الحسية فكثيرة جدًّا منها: انشقاق القمر، والإسراء والمعراج، وتكثير الطعام، وتكثير الماء، ونبع الماء من بين أصابعه وغيرها كثير.

وقد طوّف المؤلف –حفظه الله ـ في ذلك كله، وزان كتابه باعتماده في إثبات النبوءات على الأحاديث الصحيحة والحسنة، مضربًا صفحًا عن الضعيفة والواهية.

كما تميز بجمعه لشروح المتقدمين وبعض ما جادت به أقلام المتخصصين من العلماء المعاصرين المعتبرين، مع التأكيد على الدروس والعبر والفوائد، فهنيئاً للمكتبة الإسلامية بهذا المصنف المفيد، جزى الله مؤلفه أحسن الجزاء.

إدارة الشؤون الإسلامية

من مشكاة النُّبوَّة

«إنَّ العبدَ لَيَتكلَّمُ بالكلمةِ ما يَتبيَّنُ ما فيها، يَهْوِي بها في النارِ أبعدَ ما بينَ المشرقِ والمغرِبِ».

(أخرجه الشيخان)[1]

«أولُ هذا الأمرِ نبوَّةٌ ورحمةٌ، ثم يكونُ خلافةً ورحمةً، ثم يكونُ مُلْكاً ورحمةً، ثم يَتَكَادَمُونَ عليهِ تَكَادُمَ الحُمُرِ، فعليكُم بالجهاد».

(حديث صحيح)[2]

«لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ـ الإسلامُ ـ ما بَلَغَ الليلُ والنهارُ، ولا يَتْرُكُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هذا الدينَ، بعزِّ عزيزٍ، أو بِذُلِّ ذليلٍ، عِزّاً يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلّاً يُذِلُّ به الكُفْرَ».

(حديث صحيح)[3]

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)؛ ومسلم (٢٩٨٨).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١١٣٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٨٩٤)، وإسناده صحيح.

الإهداء



● إلى زوجتي أم حذيفة، وأولادي: حذيفة وآلاء وأسماء ولُبَابة وأَروى ورَزَان ولُجين.

● إلى القابِضين على الجَمْر الذين لا يفرِّطون بجزءٍ من دينهم.

● إلى الغُرباء الذين يَصْلُحون، ويُصْلِحون ما أَفسدَ الناس.

● إلى رجال الطائفة المنصورة الذين يُقاتِلون على الحق ظاهرين، لعدوِّهم قاهرين، لا يضرُّهم ما أصابهم من لَأْوَاء.

● إلى المجدِّدين الذين يجدِّد الله بهم الإسلام، ويحفظ الأمة من الذوبان.

● إلى المجاهدين والمرابطين الذين يقاومون العدوان ويردُّون الطغيان.

● إلى دعاة الصحوة المباركة ورجالها الذين تنعقد عليهم الآمال الكبار.

● إلى النساء الطاهرات منابعِ العفّة والحشمة ومحاضنِ الرجال والأبطال.

● إلى العلماء العاملين الذين يَنْفُون عن الإسلام تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين.

● إلى أشبال الإسلام الذين ارتفع جبينُهم من مشرق الشمس مع تنفُّس الصبح، وأقبَلُوا يحملون المصحف بأيمانهم؛ ليقودوا الشرق والغرب من جديد.

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الكتاب..

عبد الستار

كلمات مضيئة

• كتبَ أبو الدرداء إلى سَلْمان الفارسي: أنْ هَلُمَّ إلى الأرضِ المقدَّسة..

فكَتَب إليه سلمان: إنَّ الأرض لا تقدِّس أحداً، وإنما يُقدِّس الإنسانَ عملُه.

• مَثَلُ أصحابِ رسول الله ﷺ مَثَلُ العيونِ، ودواءُ العيونِ تركُ مسِّها.

(عمر بن عبد العزيز)

• لما احتُضِر الخليفة العباسي الواثق بالله، ألصَقَ خدَّه بالتراب، وجعل يقول: يا مَن لا يزول مُلكه، ارحَمْ مَن قد زال مُلكه.

• كتب أبو بكر الطُّرْطُوشي إلى قائد المرابطين يوسف بن تاشفين، ناصحاً وواعظاً:

ـ اعلم يا أبا يعقوب، أنه لا يزني فرجٌ في ولايتِكَ، ومدى سلطانك، وطول عمرك؛ إلا كنتَ المسؤولَ عنه، والمُرتَهَن بجريرته...

ـ وكذلك لا يُشرب فيها نقطةُ مُسْكِرٍ إلا وأنت المسؤول عنها...

ـ ولا يُنتهَك فيها عِرْضُ امرئٍ مسلم إلا وأنتَ المطالَب به.

ـ ولا يُتعامَلُ فيها بالربا إلا وأنتَ المأخوذُ به.. وكذلك سائر المظالم.

ـ وكلُّ حُرْمةٍ انتُهِكت من حُرمات الله تعالى، فعُهدتُها عليك، لأنك قادرٌ على تغييرها.

ـ فأمَّا ما خَفِي من ذلك ولم يكن ظاهراً يراه المسلمون؛ فأنتَ المبرَّأُ منه إن شاء الله تعالى.

(من رسالة مطوَّلة بلغت «١٦» صفحة)

• قال الموفق عبد اللطيف في وصف خبر التتار:

هو حديثٌ يأكلُ الأحاديث، وخبر يَطوي الأخبار، وتاريخ يُنسي التواريخ، ونازلة تصغِّر كل نازلة، وفادِحة تطبِّق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض.

(نقله السيوطي في: تاريخ الخلفاء)

• لمَّا تواجَهَ المسلمون مع التتار، صرخَ المظفَّر قُطز صرخةً عظيمة، «واإسلاماه! ـ ثلاث مرات ـ يا الله انصُرْ عبدَكَ قطز على التتار».. فلما انكَسَر التتار، نزل السلطان عن فرسه، ومرَّغ وجهَه على الأرض وقبَّلها، وصلَّى ركعتين شكراً لله تعالى.

• حَسَناً، عن قريبٍ سيكونُ لي في القُسْطَنطينية عرشٌ، أو يكون لي فيها قبرٌ.

(السلطان محمد الفاتح)

• لمَّا تهدَّد ملكُ قَشْتالة سلطانَ الموحِّدين يعقوبَ بنَ يوسف المَرَّاكُشِي، كَتَب إليه في رقعة:

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]، الجوابُ ما ترى لا ما تسمع:

ولا كُتْبَ إلا المَشْرَفِيَّةُ عندنا ... ولا رُسْلَ إلا للخميسِ العَرَمْرَمِ!

• كان عليٌّ ومعاويةُ رضي الله عنهما أطلبَ لكَفِّ الدماء من أكثر المقتتلين، لكن غُلبا فيما وقع، والفتنة إذا ثارت؛ عَجز الحكماء عن إطفاء نارها.

(ابن تيمية)

• اليومُ الأشأمُ في التاريخ: إنه يومُ معركة بواتييه (بلاط الشهداء)، عندما تراجَعَ الفنُّ والحضارةُ العربية الإسلامية، عام (٧٣٢م) أمام البربرية الفِرنجيّـة.

(أناتول فرانس)

• ولقد درستُ سيرةَ محمد ﷺ الرجلِ العجيب، وفي رأيي إنه بعيدٌ جدّاً عن أن يكون عدوّاً للمسيح، وإنما ينبغي أن يُدعى: منقذَ البشرية.

(برنارد شو)

• إنني أقرِّر أن الصحابة رضي الله عنهم صناعةٌ سماوية عالية، وقد نجحوا في تبليغِ رسالة غيَّرت تاريخَ العالم، وأن نظامَهم الأخلاقي يُضارع في دقته القوانينَ العلمية، وأن محمداً ﷺ لا غير هو الذي قَدَر بفضل الله على إحكام هذا الجيل وإبداعه على هذا النحو.

(العلامة محمد الغزالي)



المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، الذي أرسل الرسل إعذاراً منه وإنذاراً، ونَصَب الدليل، وأنار السبيل، وأزاح العِلل، وقطع المَعَاذير، وأقام الحجَّة، وأوضح المَحَجَّة، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].. سبحانه أفاضَ على عباده النعمة، وكَتَب على نفسه الرحمة، وأودع الكتابَ الذي كتبه: «**أن رحمتي سبقت غضبي**».

أحمدُه حمداً كما ينبغي لكرمِ وجهه وعزِّ جلاله، ثم أحمدُه والتوفيق للحمد من نعمه.

وأشكره والشكرُ كفيلٌ بالمزيد من فضله وكرمه.

وأستعينُه استعانةَ مَنْ لا حولَ له ولا قوة إلا به.

وأستهديه بهُداه الذي لا يَضِلُّ مَن أَنعم به عليه.

وأستغفره لِما قدَّمتُ وأخَّرتُ استغفارَ من يُقِرُّ بعبوديته، ويعلمُ أنه لا يغفرُ ذَنْبه ولا يُنْجِيه منه إلا هو.

وأشهدُ أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريكَ له، كلمة قامت بها الأرض والسموات، وفَطَر الله عليها جميع المخلوقات، وبها أمر سبحانه جميع العباد، وهي مفتاحُ عبوديته وكلمة الإسلام ومفتاح دار السلام.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، وخِيرَتُه من خلقه، وحجته على عباده، وأمينُه على وحيه، أَرسله رحمةً للعالمين، وقدوة ومحجّة للسالكين، وحُجَّة على المعاندين، وحسرة على الكافرين.. أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة،

بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنعم به على أهل الأرض جميعاً، وأيَّده بنصره وبالمؤمنين، وأَنزل عليه الكتابَ المُبين، وآتاه مثلَه معه، وشَرَح له صدره، ووضع عنه وِزْرَه، ورَفَع له ذِكْرَه، وجعل الذلَّة والصَّغَار على مَن خالَفَ أمره.

ونشهد أنه بلّغَ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونَصَح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فأشرقت الأرض برسالته، وتألّفت به القلوب، واجتمعت عليه الأرواح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأَتَمَّ الله به النعمة على عباده. . .

فصلَّى الله وملائكتُه ورسلُه وأنبياؤه والصالحون من عباده عليه، وسلَّم تسليماً كثيراً[١].

وبعد:

●● فلقد جاء الإسلام ليكون حدّاً فاصلاً في التاريخ الإنساني بين عصر الأديان إلى عصر الدين العالمي الخاتم، برسالة القرآن وقيادة محمد ﷺ.

وكان ظهوره في جزيرة العرب، والعالم تحت هيمنة الإمبراطوريتين: الفارسية الوثنية، والرومانية المسيحية.. وكانت انطلاقته من موقع متميز؛ حيث تشكِّل الجزيرة العربية بين القارات الثلاث (آسية وإفريقية وأوروبة) همزةَ الوصل بين الأمم، وواسطةَ العقد بين الحضارات الأولى، والتقاءَ طرق التجارة القديمة فيها.

واختار الأمة العربية لتكون حاملة الرسالة التي محورها وحدانية الله تعالى، وتعزيز فكرة البعث والحساب، واتخاذ التقوى بدلاً من العصبية للقبيلة أساساً لبناء قيم أخلاقية راسخة سامقة، فأُلغيت (عصبية القبيلة) وأُقيمت بدلها (عصبية العقيدة).

---

(١) اقتطفت عبارات من مقدمة الإمام الشافعي في كتابه (الرسالة)، ص ٨؛ وابن القيم في مقدمة كتابه (إعلام الموقعين): ١/ ٣ ـ ٥، بتصرف.

فصنع الإسلام وجودَ العرب، وجعلهم أمة ذاتَ مكانة وسيادة، وصاحبةَ رسالة وحضارة، وقائدةً للبشرية ترسم لها منهجها، وتصوغ مفاهيمها، وتقوِّم عِوجَها، وتشهد عليها[١].

وليس فضل القرآن على العرب وحدهم، فإن العالم أجمع جنَى أكرمَ الثمرات من هذا الكتاب العظيم، ذلك أن تعاليمه أعادت بناء الإنسانية من جديد، وأزالت ما خلَّفَتْه القرون الأولى من عِوَج في عقلها وفؤادها وسلوكها.. ولولا ما شرع القرآن من طُرق النظر الصحيح والعمل الطيب، لظلَّ العالم يتدحرج مع خرافات الرومان والفرس واليونان حتى يبلغ الحضيض[٢].

و(الشروق المحمدي) الذي انتشر ضياؤه في جزيرة العرب، قد وضع خطة لتغيير مسار العالم، واستطاع تنفيذها في أقل من ربع قرن على صحراء الجزيرة بين يدي الرسول الخاتم ﷺ.

فنَفَث من روحه النقي وفكرِه الثاقب في مَرَدة الصحراء، وظلَّ يصقُل معادنهم بجَلَد غريب وهم يقاومون بعنادٍ رهيب، حتى نجح في آخر الأمر في إنشاء جيل كان أصلبَ عوداً وأضوأَ بصيرةً من حواريي عيسى عليه الصلاة والسلام! إن أولئك الحواريين الصالحين عجزوا عن حماية التوحيد بعد وفاة نبيِّهم، فتحوَّل على مرِّ الأيام إلى ثالوث! أما رجال محمد ﷺ فقد تحوَّلوا إلى حصون سامقة تكسرت أمواج الردَّة عند أقدامهم، ثم مَضَوا قُدُماً إلى الأمام يمنعون شعار التوحيد أن تطويه الخرافة[٣].

والدارسُ المحايد يرى آثار النبوة في شمائل أولئك الرجال الشجعان الذين أُشربوا من النبي الخاتم ﷺ حبَّ الله وطلبَ رضاه، والتمهيدَ للقائه والشوقَ إلى

---

(١) انظر: الضربات، لأنور الجندي، ص٩، ١٤ ـ ١٦.

(٢) انظر: الإسلام والطاقات المعطلة، ص٦٢.

(٣) علل وأدوية، ص١٥٢ ـ ١٥٣.

جنّته، فأقدرتْهم هذه العواطف الجيَّاشة على تهديم أسوار الباطل وكانت عالية، وتلاشَتْ إمبراطوريات استعصَتْ على الفناء قروناً متطاولة.

وتميّز أصحاب محمد ﷺ بأمرين لم يُعرفا في تاريخ النبوات الأولى:

الأول: أنهم نقلوا الوحي السماوي كلَّه؛ فما سقط منه حرف، ونقلوا السنَّة النبوية كذلك، وربَّوا من الأتباع مَن عمل عملهم، فإذا الإسلام يبقى في أصوله النظرية مصوناً من كل شائبة.

أما **الأمر الآخر**: فإن الصحابة رضي الله عنهم هم الذين جعلوا عالمية الرسالة حقيقة واقعة، فإن النبي ﷺ لَحِق بالرفيق الأعلى والإسلام لم يتجاوز حدود جزيرة العرب، وقد عَلِم الأصحاب الكرام أنه مبعوث للعالم كلِّه، فشرعوا ينساحون في الأرض مبشِّرين ومنذِرين.

وهذا الجيل الذي ربَّاه النبي ﷺ كان صلبَ المعدِن، شديدَ البأس، جمع بين الصرامة والكرامة، فلم تلِنْ قناتُه، ولم يَضْرع أمام قوى الباطل، إنه نازلها كلها حتى كسر شوكتها وأسقطَ دولتها.

إن تربية محمد ﷺ لهذا الجيل معجزتُه الكبرى بعد القرآن الكريم، وإنا لنحسّ في أولئك الأصحاب ذَوْبَ نفسه عليه الصلاة والسلام، ونُبْلَ شمائله، وعمقَ عبادته، وحبّه الجارف لذات الله، واستعلائه الفذّ على مآرب الدنيا[١].

هذا الجيل الذي أنشأه القرآن من أربعة عشر قرناً، هبط على الدنيا يومئذ وكانت ملوثة بركام فوق ركام من الدَّجَل والسُّخف، والإثم والعدوان، فكان سيلاً مطهِّراً غسل أرجاءها، ودَلَكها دلكاً شديداً، وما زال بها حتى نقّاها من رواسب الجاهلية الأولى التي علقت بها دهراً[٢].

---

(١) علل وأدوية، ص١٤٤ ـ ١٤٦، باختصار.

(٢) الإسلام والطاقات المعطلة، ص٦٤.

أولاً: نوع فريد من أساليب التربية النبوية:

●● وفي هذا الكتاب نتناول جانباً مهمّاً وكبيراً وذا مساحة واسعة من (العمل النبوي التربوي والنشاط الدائب)، والاهتمام العظيم الذي كان رسول الله ﷺ يوليه أصحابه وأمته من بعدهم، لجلالته وخطورته. . . ألا وهو (حديث النبوءات).

وهو نوع فريد من أساليب التربية النبوية، فالمعلم الحكيم البصير الشفيق ينبِّه أتباعَه وحوارييه وأمته على مكامن الخطر ومزلّات الأقدام ومتاهات الأفكار ومضيِّعات الأعمال ومدمِّرات الكيان؛ ليحذروها ويعالجوها، ويومئ إلى مصادر الفتن وسُبُل الغواية ومسبِّبات الاختلاف والفرقة والاحتراب ليجتنبوها، ثم لا يُسْلِمُهم لليأس الذي يَفُتُّ في أعضادِهم، ولا للخوف الذي يجبِّنُهم، ولا للقنوط الذي يَقعد بهم عن العمل ويقودُهم للاستسلام ونفضِ الأيدي من التغيير، وانتظارِ القوارع والمهلكات والمعجزات؛ بل يضيءُ في سبيلهم منارات تبدِّد الظلمات وتكشف المخبوءات وتنير الطريق وتهدي من الحيرة؛ فيحدِّثُهم بالبشريات وبوارقِ الأمل وحُسنِ العاقبة.

عن حذيفةَ بن اليَمان رضي الله عنه، قال: (قامَ فينا رسول الله ﷺ مَقَاماً، ما تَرَكَ شيئاً يكونُ في مَقامِهِ ذلك إلى قيامِ الساعة إلا حَدَّثَ به، حَفِظَه مَن حَفِظه، ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَه). . . الحديث[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: (قامَ فينا النبيُّ ﷺ مَقَاماً، فأَخبرَنا عن بَدْءِ الخلقِ، حتى دخلَ أهلُ الجنّةَ منازلَهم وأهلُ النارِ منازلَهم، حَفِظَ ذلك مَن حَفِظه، ونَسِيَه مَن نَسِيَه)[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠٤)؛ ومسلم (٢٨٩١) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٢٤٠)؛ وابن حبان (٦٦٣٦)، وغيرهم.

(٢) علَّقه البخاري بصيغة الجزم (٣١٩٢)، ووصله الطبراني، وابن منده في (أماليه) وصححه؛ وأبو نعيم في المستخرج. انظر: تغليق التعليق: ٣/ ٤٨٦ ـ ٤٨٨؛ والفتح: ٨/ ١٢؛ وهامش ابن حبان: ١٥/ ٧ ـ ٨.

وقال عَمْرو بن أَخْطَب الأنصاري رضي الله عنه: (صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ الفجرَ، وصَعِد المِنْبَرَ فخَطَبنا حتى حَضَرَتِ الظهرُ، فنزل فصلَّى.. ثم صَعِد المنبَر، فخَطبنا حتى حضرتِ العصرُ، ثم نزل فصلَّى.. ثم صَعِد المنبر، فخَطَبنا حتى غربتِ الشمسُ، فأخبرَنا بما كان وبما هو كائنٌ، فأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنا)[١].

وعن عَرْفَجةَ بنِ شُريحٍ رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**إنَّها ستكونُ بعدِي هَنَاتٌ وهناتٌ...**» **الحديث**[٢].

ومعنى «**هنات**»: أي: حوادث وفتن وشرور وفساد.

ثانياً: مصطلحات وتسميات:

●● وهذه الآثار النبوية استغرقَتْ مساحة كبيرة من كتب السنة المطهرة وغيرها من كتب الإسلام وما سطَّره علماء المسلمين عبر تاريخهم المديد، وأخذتْ تسميات متعددة: (**علامات النبوة، دلائل النبوة، علامات الساعة، أشراط الساعة، النبوءات**)، وهذه العبارات بينها عموم وخصوص، نقول في توضيحه:

١ ـ دلائل النبوة، وعلامات النبوة:

الدلائل: جمع الدِّلالة، وهي ما يُتَوَصَّل به إلى معرفة الشيء، وهي هنا معرفةُ صدقِ الرسول ﷺ في رسالته وما يبلِّغه للناس عن الله تعالى.

وأصلُ الدِّلالة مصدرٌ كالكتابة والإمارة، والدليل في المبالغة كعالمٍ وعليمٍ، وقادرٍ وقديرٍ، ثم يُسمَّى الدالُّ والدليلُ دِلالةً، كتسميةِ الشيء بمصدره[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٢) واللفظ له؛ وأحمد: ٥/ ٣٤١؛ وابن حبان (٦٦٣٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٢)؛ وأبو داود (٤٧٦٢)؛ والنسائي في الكبرى (٣٤٦٩ ـ ٣٤٧١)، وفي الصغرى: ٧/ ٩٢ ـ ٩٣؛ وابن حبان (٤٥٧٧)، وغيرهم، وهذا لفظ النسائي.

(٣) المفردات، للراغب، ص٣١٦ ـ ٣١٧.

والعلامات: الدلائل، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦][1]، والأمارات والبراهين التي يُستَدلّ بها على صدق الرسول.

فدلائل النبوة وعلامات النبوة بمعنى واحد.

وعلاماتُ النبوة أعمُّ من المعجزات، والمعجزة أخصُّ لأنه يُشترط فيها التحدي[2].

ودلائل النبوة أمور خارقة للعادة، يَعجِز البشر عن المجيء بمثلها في العادة.

وهي معنوية وحسِّية:

فمن الدلائل المعنوية: إنزالُ القرآن على النبي ﷺ، وهو أعظمُ المعجزات، وأبهر الآيات، وأبينُ الحُجَج الواضحات.

ومنها: أخلاقه ﷺ الطاهرة، وخَلْقه الكامل، وشجاعتُه، وحِلْمه، وكرَمُه، وزهده، وقناعته، وإيثاره، وجميلُ صحبته، وصدقه، وأمانته، وتقواه، وعبادته، وكرمُ أصله، وطيبُ مولده ومنشئِه ومرباه[3].

قال ابن تيمية: وسيرةُ الرسول ﷺ وأخلاقُه وأقواله وأفعاله من آياته ـ أي: من دلائل نبوته ـ وشريعتُه من آياته، وأمَّته من آياته[4]... إلخ.

والدلائل الحسِّية كثيرة جدّاً، منها: انشقاقُ القمر، والإسراء والمعراج، وتكثيرُ الطعام، وتكثير الماء، ونبعُ الماء من بين أصابعه، وشفاءُ المرضى، ونصرتُه بالملائكة وبالريح، وتسبيحُ الحصى بيده، وحَنِينُ الجِذْع له، وانقيادُ الشجر له، وانقيادُ الحيوانات له ونطقُها بين يديه، وغير ذلك كثير جدّاً.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٩٧ ـ ٦٩٨.
(٢) الفتح: ٨/ ٤٧١، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
(٣) البداية والنهاية: ٦/ ٦٩ ـ ٧٠.
(٤) نقله عنه تلميذه ابن كثير في البداية والنهاية: ٦/ ٧٠.

وثمة دلائل وعلامات قولية كثيرة جدّاً، وهي التي تندرج تحت مسمّى النبوءات وعلامات الساعة وأشراطها، وقد جاءت عنه ﷺ في أحاديث صِحاح وحِسَان، أنبأ فيها بأمور مستقبلية ستقع، وقد وقع كثير جدّاً منها بُعيد وفاته، وهلمَّ جَرّاً إلى أيامنا، وبقيتْ علامات أخرى لمَّا تتحقق بعدُ وستتحقق لا محالة!.

ودلائل النبوة كثيرة جدّاً، فقد قال البيهقي في «المدخل»: إنها بلغت ألفاً، وذكر النووي في مقدمة «شرح صحيح مسلم» أنها تزيد على ألف ومئتين[(١)].

٢ ـ أشراط الساعة، وعلامات الساعة:

هما بمعنى واحد.

والأَشْراط: جمع (الشَّرَط) بمعنى العَلَامة، وأشراط الساعة علاماتها التي تدلّ على قُرب مجيئها.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨][(٢)].

وقال الحافظ: المراد بالأشراط العلامات التي يعقُبها قيام الساعة[(٣)].

وقد أَطلق بعض العلماء على (الأشراط) اسم (الآيات)، **والآيات**: هي الأَمَارات الدالّة على الشيء، كالأمارات التي تُنصب في الصحراء دالَّة على الطريق، أو العلامات التي تُرفع على شواطئ البحر لتهدي السفن، أو توضع في طريق المسافرين لتدلَّهم على ما يقصدون من الأماكن والبلدان.

قال الطِّيبِيّ: (الآيات: أَمَارات للساعة؛ إما على قُربها وإما على حصولها،

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١/ ١٣، ١٤؛ الفتح: ٨/ ٤٧٣.
(٢) المفردات، ص٤٥٠؛ النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٦٠؛ لسان العرب: ٧/ ٣٢٩؛ القاموس المحيط: (شرط)؛ تكملة فتح الملهم: ٦/ ١٣١.
(٣) الفتح: ١٦/ ٤٠٦، شرح الحديث (٧١١٨)؛ وانظر: البعث والنشور، للبيهقي، ص٦٩.

فمن الأول: الدجَّال ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج والخَسْف، ومن الثاني: الدخان وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة والنار التي تحشر الناس)[١].

ومعنى الساعة في الاصطلاح الشرعي: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وسمِّيت بذلك لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تَفْجَأ الناسَ في ساعة، فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى[٢].

وأشراط الساعة وعلاماتها على قسمين:

أ ـ علامات صغرى: وهي التي تتقدم الساعةَ بأزمان بعيدة متطاولة، وتكون في أصلها معتادة الوقوع، مثل: قبض العلم، وظهور الجهل بأمور الدين، وفشوّ الربا والزنى، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان، وضياع الأمانة، وتوسيدها إلى غير أهلها، وإمرة السفهاء، والاقتتال على الحكم، وكثرة الهَرْج، والسنوات الخدَّاعات، وفشوّ الكذب، وخروج الكذابين مدَّعي النبوة، ومَنْع الزكاة، ونقض العهود، والحكم بغير ما أنزل الله، والتقلُّب بين الإيمان والكفر، وكثرة الأهواء والبِدع، وقطع الأرحام... وغير ذلك[٣].

ب ـ علامات كبرى: وهي التي تقارِبُ قيامَ الساعة مقاربةً وشيكةً سريعة، وتكون في ذاتها غيرَ معتادة الوقوع[٤].

من ذلك: ما رواه حُذيفة بن أَسِيد الغِفَاريُّ ﵁، قال: (اطَّلَع النبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكَرُ، فقال: «**ما تَذَاكَرونَ**»؟ قالوا: نَذْكُرُ الساعةَ، قال: «**إنها لن تقوم حتى تروا قبلَها عشرَ آيات**».

فذكَرَ: **الدُّخانَ، والدَّجّالَ، والدابَّةَ، وطلوعَ الشمس من مغربها، ونزولَ**

---

(١) الفتح: ١٤/ ٥٤١ (٦٥٠٦)؛ وانظر: الفتح: ١/ ٢٤١ (٥٠)؛ القيامة الصغرى، ص١٣٣.
(٢) النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٢٢؛ لسان العرب: ٨/ ١٦٩.
(٣) وهذه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، انظر ما يأتي: ١/ ٢١ «أنماط النبوءات» من هذا المجلد.
(٤) التصريح بما تواتر في نزول المسيح، ص ١١.

عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خسوفٍ: خسفٌ بالمشرقِ، وخسفٌ بالمغربِ، وخسفٌ بجزيرةِ العربِ، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ من اليمن تطرُدُ الناسَ إلى مَحْشَرِهم)[١].

٣ ـ **النبوءات:**

النبوءة في اللغة: الإخبارُ عن الشيء قبل وقته حَزْراً وتخميناً[٢].

وفي الاصطلاح: إخبار النبي ﷺ عن أمور مستقبلية على جهة العلم واليقين والتحقق الذي لا يُخالِجُه كذبٌ أو تخمينٌ أو تخلُّفٌ؛ لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى.

والنبوءات تأتي مرتبطة بالساعة وقيامها، كما ترِدُ مجرَّدة عنها:

فالأولى: بمعنى أشراط الساعة وعلاماتها.

والثانية: مثل إخباره ﷺ عن مصير بعض الرجال من استشهاد أو قَتْل أو طول عُمُر أو توسعة في الرزق، والإخبار بالفتوحات، وأمور الحكم والملك، وما تؤول إليه أحوال الإسلام والمسلمين، واقتراف الكبائر، وانتهاك المحرمات، وفتن الدنيا والمال، وما يقع من الناس في ميادين الأخلاق والعبادات والمعاملات، والعلم والرحلة فيه وانتشاره وقبضه، وظواهر طبيعية تحدث في الأرض والكون... وغير ذلك.

وكتابنا هذا قد تكفَّل بتفصيل (١٦٣) نبوءة في هذه الميادين المتنوعة.

وعليه فالنبوءات تشتمل الأشراط وزيادة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠١) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٣١١)؛ والترمذي (٢١٨٣)؛ والنسائي في الكبرى (١١٣١٦) و(١١٤١٨)؛ وابن ماجه (٤٠٤١) و(٤٠٥٥)؛ وابن حبان (٦٧٩١)، وغيرهم.

(٢) المعجم الوسيط، ص٨٩٦؛ وانظر: المفردات، ص٧٨٨ ـ ٧٩٠؛ ولسان العرب: ١/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

فتكون علامات النبوة ودلائلُها هي الأشمل والأوسع دائرة؛ وهي تشمل النبوءات وأشراط الساعة، ويليها النبوءات، ثم علامات الساعة وأشراطها.

فالدائرة الكبرى هي دلائل النبوة، والدائرة الوسطى النبوءات، والدائرة الصغرى علامات الساعة.

ثالثاً: أنماط النبوءات:

والنبوءات على ثلاثة أنماط:

١ ـ ما وقع كما أخبر النبيّ ﷺ ومضى وانتهى:

مثل: موته ﷺ، وإخباره باستشهاد عدد من الصحابة، والفتوحات الكبرى، وقتال الترك، واتساع ملك أمته، وإنفاق كنوز كسرى وقيصر، وفيض المال على المسلمين، وانتشار الأمن في ربوع الجزيرة، واقتتال المسلمين، والصلح على يدي الحسن بن علي، وركوب المسلمين البحر، وهلاك الأمة على يدي غِلْمَة من قريش، وفتنة التتار، وخروج النار في أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى، وطاعون عَمَواس، وغير ذلك.

٢ ـ ما ظهر وتحقق واسْتَحْكَمَ ولا يزال مستمراً إلى الآن:

مثل: ظهور الحكام المضلِّين والجلَّادين والشُّرَط، وإمْرة السُّفهاء، والاقتتال على الحكم، واتباع سَنَن اليهود والنصارى، وتضييع الأمانة، وفِتن الهَرْج وكثرة القتل، وظهور المتنبِّئِين الكذَّابين، والأهواء والبِدع، وفشوّ الزنى والربا وشرب الخمر، ونقض عهد الله وعهد رسوله ﷺ، وظهور الكاسيات العاريات، والفحش والتفحُّش، والكذب وقطيعة الرحم، والتطاول في البنيان، وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق، وقيام الطائفة المنصورة، ووجود المجدِّدين.

وهذان النوعان قد وقع منهما شيء كثير جدّاً.

٣ ـ نبوءات لمّا تقع بعدُ وستقع في قابل الأيام:

مثل: دخول الإسلام كل بيت، وفتح رومية، وعودة بلاد الحجاز جنات وأنهاراً، ومرور الرجل بالقبر وتمنيه أن يكون مكان صاحبه، وعودة عبادة الأوثان إلى جزيرة العرب، وخروج القَحْطاني والجَهْجَاه والمهدي، وانحسار الفرات عن جبل من ذهب، وقتال المسلمين اليهود حتى يتكلم الحجر والشجر، والملحمة الكبرى مع الروم، وغير ذلك[١].

●● وقولُ صِدِّيق حسن خان: إن الأشراط (قد كادَتْ أن تبلُغَ الغاية، أو قد بلَغَتْ، ولم يبقَ إلا الأشراط الكبرى التي أولها ظهورُ المهدي عليه السلام).

ونحوه قول القرطبي[٢].

وكذا قول مرعي بن يوسف الكرمي (المتوفى سنة **١٠٣٣**هـ) حيث سردَ الكثير من العلامات الصغرى، ثم قال: (وبالجملة: فجميعُ العلامات الصغرى قد ظَهرتْ في زماننا هذا ما عدا علامة أو علامتين، فالله يلطف بالمسلمين عند ظهورهما، وعند ظهور الأشراط الكبار)[٣].

فهذه الأقوال وما يماثلها غير صحيحة، بل باطلة، فقد مضَى على وفاة مرعي هذا أكثر من أربعمئة سنة، وظهرتْ بعده جملةٌ مستكثَرة من النبوءات وأشراط الساعة الصغرى، وبقي ـ أيضاً ـ شيء كثير منها لم يتحقق بعدُ، وليس هو من العلامات الكبرى[٤]!.

●● **ومما ينبغي التنبه له** أنه ليس كل ما جاء عن النبي ﷺ من نبوءات وأخبر أنه من علامات الساعة؛ يكون محرَّماً أو مذموماً، فإن: تطاولَ الرِّعاء في

---

(١) انظر: الفتح: ١٦/ ٤١٣ ـ ٤١٤، شرح الحديث (٧١٢١)؛ القيامة الصغرى، ص١٤١ ـ ١٤٣؛ مقدمة تحقيق كتاب الداني: «السنن الواردة في الفتن»: ١/ ٦٩ ـ ٧٤.

(٢) الإذاعة، ص١٢٣.

(٣) بهجة الناظرين (ق ١٠١/ب) نقلاً عن مقدمة تحقيق كتاب الداني: ١/ ١٠.

(٤) انظر ما كتبناه في الخاتمة: ٤/ ٥٥١ ـ ٥٥٢ من هذا الكتاب.

البنيان، وفشوَّ المال، وكونَ خمسين امرأة لهنَّ قيِّم واحد، وتقاربَ الزمان، وتقاربَ الأسواق، ووقوعَ طاعون عَمَواس، وخروجَ النار في جزيرة العرب... ونحوَ ذلك ـ ليس هذا وأشباهُه بحرامٍ بلا شك، وإنما هذه علامات، والعلامة لا يُشترط فيها شيء من ذلك، بل تكون بالخير والشر والمباح والمحرَّم والواجب وغيره، والله أعلم[1].

●● ومما يذكره العلماء في هذا الباب: (الفتن والملاحم):

ـ **الفتن**: جمع فِتنة، وأصلُ الفَتْن إدخالُ الذهبِ في النار لتظهرَ جودتُه من رَدَاءتِه. ويُستعمل في إدخال الإنسان النارَ، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

ويُطلق على العذاب، كقوله تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

وعلى الاختبار، نحو قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

وجُعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يُستعملان فيما يُدْفَع إليه الإنسان من شدَّة ورَخَاء، وهما في الشدَّة أظهرُ معنًى وأكثرُ استعمالاً، وفيهما استُعمل هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال الراغب الأصفهاني في «المفردات» بعد نقل هذه المعاني: (والفِتنةُ من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد، كالبَلِيَّة والمُصيبة والقَتْل والعذاب، وغير ذلك من الأفعال الكريهة).

وإنْ كانت من الإنسان بغيرِ أمر الله فهي مذمومةٌ، فقد ذَمَّ الله الإنسان بإيقاع الفتنة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠]، وقوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦٢]، وقوله: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦]، وقوله: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي: ١/ ١٩٤، شرح الحديث (٨).

وقال غيره: أصلُ الفتنةِ الاختبارُ، ثم استُعملت فيما أخرجَتْه المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أُطْلِقت على كلِّ مكروهٍ أو آيلٍ إليه كالكفرِ والإثم والتحريق والفضيحة والفجور.

واستُعملت أيضاً في الضلال والإثم والكفر والعذاب، ويُعرف المراد حيثما وردَ بالسياق والقرائن.

والمرادُ من (أحاديث الفتن) المدرَجة في كثير من كتب الحديث وعند من صَنَّف في هذا الموضوع: **ذِكْرُ أحاديث رسول الله ﷺ التي أَخبر فيها عن الفتن الكائنة في المستقبل إلى يوم القيامة، وحذَّر المسلمين منها، وبيَّن لهم وجهَ العمل فيها، وطريقَ التخلص منها**[1].

ـ **والملاحم**: جمع مَلْحَمة، وهي الوقعةُ العظيمةُ القتلِ في الفتنة، وقيل: هي الحرب ذات القتال الشديد، وقيل: موضعُ القتال. ذكر هذه الأقوال الثلاثة الزَّبِيدي.

وذكر ابن منظور قولاً رابعاً وهو أن الملحمة: القتال في الفتنة[2].

والمراد منها: الفتن والوقائع العظام وأمثالها.

●● ولم يَفْصِل كثير من علمائنا السابقين والمؤلفين المعاصرين بين علامات الساعة وأشراطها وبين الفِتن والملاحم، بل جمعوها كلها في كتب تتحدث عن (علامات الساعة).

فبوَّب الإمام البخاري في صحيحه: (كتاب الفتن)، والإمام مسلم: (الفتن وأشراط الساعة)، وأبو داود: (الفتن والملاحم)، وابن ماجه: (الفتن)، وذكروا

---

(١) انظر: المفردات، ص٦٢٣ ـ ٦٢٥؛ النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤١٠ ـ ٤١١؛ الفتح: ١٦/ ٢٨٧، صدر كتاب الفتن، ١٤/ ٢٧٠ (٦٣٦٧)؛ تكملة فتح الملهم: ٦/ ١٣١.

(٢) تاج العروس: ٩/ ٥٦؛ لسان العرب: ١٢/ ٥٣٧.

كثيراً من الفتن التي وقعتْ بين المسلمين، والابتلاءات التي صُبَّت عليهم، وأشراط الساعة الكبرى والصغرى.

وهكذا فعل نُعيم بن حمَّاد في كتابه «الفتن»، وأبو عَمْرو الداني في كتابه «الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها»، والقُرطبي في «التذكرة»، وابن كثير في «النهاية في الفتن والملاحم»، والبَرْزَنجي في «الإشاعة»، وصدِّيق حسن خان في «الإذاعة»، وحمود بن عبد الله التويجري في «إتحاف الجماعة»، ويوسف الوابل في «أشراط الساعة»، وغيرهم كثير.

رابعاً: الغاية من ذكر النبوءات وأشراط الساعة والفتن والملاحم:

●● من أهداف ذِكر النبوءات والأشراط والفتن والملاحم، ثم مجيئها على وفق ما أخبر به ﷺ: أنها أَمارات وعلامات وبراهين وحُجج وأدلَّة دامغة وشواهد ناطقة لصدقِ الرسول ﷺ في رسالته وبلاغه عن ربه سبحانه.

كما أن فيها استمراراً للمعجزات ـ إضافة إلى القرآن الكريم ـ للأجيال اللاحقة إلى قيام الساعة؛ ليزدادوا إيماناً بهذا النبي العظيم، ويقيناً بصدق رسالته، واستمساكاً بهذا الدين الذي حمله ﷺ للناس، وبلَّغه على أرفع صور البلاغ المبين.

ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**ما منَ الأنبياءِ نبيٌّ إلَّا أُعْطِي من الآيات ما مِثْلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وَحياً أوحاهُ الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثَرَهم تابعاً يومَ القيامة**»[1].

وقد تحققت هذه الرجوى، فإنه ﷺ أكثر الأنبياء تبعاً.

●● ولا يُفهم منها أنها دعوةٌ للاستسلام للغيبيات، والاستكانةِ للمجهول، واليأسِ من التغيير، والقنوطِ من واقع الحال، وفساد الزمان، وكثرة الفتن، واستشراء الفساد، وشيوع المنكرات... ومن ثَمّ نفضُ الأيدي من كل عملٍ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١) واللفظ له؛ ومسلم (١٥٢).

إصلاحي وتقويمِ الاعوجاج ومحاربة الفساد وتقديمِ الأسوة الحسنة في الصبر والصلاح والإصلاح، وانتظارُ الخوارق والمعجزاتِ ومجيءِ رجال كصلاح الدين ونور الدين، والتعلُّقُ بقيام المجدِّدين، وقيام المهدي، ونزولِ عيسى ﷺ، ونطقِ الحجر والشجر للمسلم ضد اليهودي!.

فالصحابة رضوان الله عليهم، وهمُ الذين سمعوا أحاديثَ النبوءات والأشراط والفتن والملاحم شِفاهاً من النبي ﷺ؛ كانوا أولَ المؤمنين بها، كما كانوا السبَّاقين لكل الأعمال العِظام؛ من طلب العلم والجهاد وفتح البلاد وقلوب العباد والدعوة ونشر الإسلام.

وكان تصديقُهم يحفِّزهم على التنافس في الطاعات والقربات، مع أنهم أول الناس اصطلاءً بفتن الاختلاف والاقتتال وظهور الأهواء والبدع والمتنبِّئين والارتداد عن الدين.. ولو أنهم أَلْقَوا بأيديهم لذاك المفهومِ الخاطئ الخطير؛ لأكلتِ الردَّة أرضَ الجزيرة وانحصر الإسلام في أضيق نطاق.

وقد أَخبر النبي ﷺ بقيام الطائفة المنصورة على مدار السنين، وفي مختلِف ظروف الشدة والرخاء، والعُسر واليُسر، وأنها قائمة بأمر الله لا يَضرُّها مَن خَذَلها ولا من خالَفَها، وأطابَ الثناء على مسلكها، مع علم أهلها التام بأحاديث النبوءات والفتن والملاحم.

كما حدَّثَ ﷺ بظهور المجددين دوماً الذين يَسلكون طريقَه ﷺ وهديَ المصلحين في كل قرن، ليُصلِحوا ما أفسدَه الناس، ويحافظوا على نقاء الإسلام وسلامة الشريعة.

وأثنى على الغُرباء الذين يَصْلُحون ويُصْلِحون الناسَ والمجتمعات وما اعترى مسيرةَ المسلمين من انحراف وأخطاء.

كذلك امتدح القابضين على دينهم الصابرين على البلاء مثلَ صبر القابض على الجمر.

كل هذا وغيره من شكله دعوات متكررة ومستمرة ومتناغمة لاستمرار العمل

الجاد والإصلاح والتغيير، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقد مرَّت بالمسلمين ظروفٌ عصيبة وأحوال قاسية، أيام الردَّة، والاقتتال بين الصحابة، والحملات الصليبية التي امتدت دهوراً، والزحف التتري المدمِّر، والاستعمار الحديث... وإلى الآن؛ فما أَلقى الفاقِهون والعقلاء أيديَ الإذعان للواقع، بل جابهوه بجَلَدٍ وعِناد، ودَأَبوا على العمل والتغيير، فقدَّموا بذلك تضحيات جمَّة.

والصحابة رضوان الله عليهم قد نقلوا إلينا أحاديثَ المهدي وعيسى ﷺ منذ أكثر من (١٤٠٠ سنة)، لكنهم ما تركوا العمل وانتظروهما حتى يأتيا ويُصلحا الأحوال.

ومهما أوتي المهدي من صفات الخير والكمال والتغيير والإصلاح، فإنه لا بدَّ له من أعوان وأعمال وتمهيد يَسبقه، حتى يُصلح العالم من الفساد والجَوْر الذي اعتراه.

ونحن مع الشيخ العلّامة محمد ناصر الدين الألباني في قوله ردّاً على مَن ادعى اقترابَ ظهور المهدي، قال رحمه الله:

(ما أظنُّ أن هذا أوانُ ظهوره، فهذا مقتضى السنَّة الكونية، وما أحسِبُ المهدي يَقْدِرُ ـ خلال سبع سنين ـ على أن يُحدِث من التغيير في العالم أكثر مما أحدثه رسول الله ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنة! وظنِّي أن المهديَّ سيكون رجلاً فريداً في كل باب: فريداً في علمه، فريداً في ورعه، فريداً في عبادته، فريداً في خُلُقه، وأنه سيظهر وقد تهيَّأ للعالم الإسلامي وضعٌ صَلُح فيه أمر الأمة، وتمَّتْ فيه مرحلتا «التصفية والتربية»، ولم يبقَ إلا ظهورُ الزعيم المُصْلِح الذي يقوده، وهو المهدي)[1].

---

(١) قال الألباني هذا منذ ثلاثين سنة في موسم حج عام ١٣٩٩هـ. فقه أشراط الساعة، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤.

وقد سبقه أحدُ الدعاة المصلحين الكبار فقال: (أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تَقُمْ لكم في أرضكم).

وفي السنّة النبوية أحاديث كثيرة تؤكِّد هذا الجانب، منها حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**بادِروا بالأعمال سِتّاً: طلوعَ الشمسِ من مغرِبها، أو الدُّخَانَ، أو الدجَّالَ، أو الدابَّـةَ، أو خاصَّةَ أحدِكم، أو أمرَ العامة**»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إنْ قامتِ الساعةُ وفي يدِ أحدِكُم فَسيلةٌ، فإنِ استطاعَ أن لا تقومَ حتى يغرسَها؛ فَلْيغرِسْها**»[2]!.

وعن داود بن أبي داود الأنصاريِّ قال: قال لي عبد الله بن سَلَام رضي الله عنه: (إنْ سمعتَ بالدجَّال قد خرج، وأنتَ على وَدِيَّة تغرسُها، فلا تَعْجَلْ أن تُصلِحَها، فإنَّ للناس بعد ذلك عيشاً)[3].

●● والفتن ليست للجَبْر والقهر المسلَّط على رقاب الأمة، فعندئذٍ يتم الاستسلام للقدر الغالب!.

فما يدري الإنسان ما الحكمة في تلك الفتن والملاحم التي تعترض مسيرة الأمة في تاريخها المتنوع مدّاً وجَزْراً، إن الحِصن لا يُفتح إلا بالجهاد والسيف، والعدوَّ لا يُقهر إلا بالجهاد والمغالبة، والبلاد لا تُصان إلا بالدفاع والمرابطة، والرزق لا يُجلب إلا بالسعي، والمرضَ لا يُتَّقى إلَّا بالعلاج، والظلمَ لا يُدفع إلَّا بالمقاومة.

والاستسلامُ لمفهوم الجبر، والتخاذلُ أمام أحاديث الفتن والملاحم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٧)؛ وأحمد: ٢/٣٣٧، ٤٠٧، ٥١١؛ والبغوي (٤٢٤٩). قوله: «خاصة أحدكم»: أي: الموت، و«أمر العامة»: أي: القيامة، أو الفتنة التي تعم الناس.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٠٦٨)؛ وأحمد: ٣/١٨٣، ١٨٤، ١٩١؛ والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)؛ وصححه الألباني في الصحيحة (٩)؛ وصحيح الجامع (١٤٢٤).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٨٠)؛ وصححه الألباني في الصحيحة: ١/٣٩ (٩). **الوديَّة**: النخلة الصغيرة.

والنبوءات؛ معصيةٌ كبيرة، وتركُ الجهاد والمجاهدة والعمل والتغيير حيالها؛ جريمةٌ وبطالة، وفسادُ عقلٍ وخمولُ قلب وانهزامُ روح.

(وكثيراً ما خَدع الجاهلون الأغرارُ من المسلمين أشباهَهم، بقولهم لهم: إن العالم قد اقترب من نهايته، وإن الأحاديث النبوية تدلّ على استمرار التدهور في شأن الإسلام والمسلمين، ولمَّا كان الأمر هكذا، كان لا جَدْوَى من السعي لعمل شيء في وقف هذا التيار الفاسد، ومنعِ هذا الانحدار، إذ هو أمرٌ قدَّره الله تعالى، وبلَّغَه رسولُه ﷺ، ولا بدَّ أنه واقع، فما علينا إلا التسليم والسكون حتى يأتي أمرُ الله الذي لا مَفَرَّ منه!)[1].

إذاً (فلماذا يسعى هؤلاء الجاهلون المصابون بهذه الفكرة المريضة، في تنمية أموالهم وأحوالهم، وتحسينِ عيشهم ومسكنهم، وما إلى ذلك من أمور الدنيا ومرافق الحياة؟! فإذا جاؤوا إلى أمور الدين والجهاد لَبِسَتْهم هذه الفكرة الشيطانية، فضَلُّوا وتخاذَلوا عن نصرة دينهم! فأين عقلُهم وفهمهم من صريح قول النبي ﷺ: «**الجهادُ ماضٍ إلى يوم القيامة**»، وأمثالِه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة؟! وقد عَلِمَ العالِمون البُصَراء أن سنّة الله في عباده: الجهدُ والجهاد، والأخذُ بالأسباب، كما هو بَدَهي عند كل مسلم فاقهٍ لدينه وإسلامه.

فتركُ الجهدِ والعملِ في نصرة الدين والإسلام جريمةٌ، وتركُ دفعِ المُبطلين والظالمين والكافرين المستولين على المسلمين ـ بسبب هذا الاعتقاد الباطل ـ جريمةٌ فوق جريمة، ومصيبةٌ عظيمة أُصِيب بها عقلُ المرضَى بهذا الاعتقاد، ويجب الإسراعُ بعلاجِهم وإنقاذهم من هذا الداء الوبيل.

وما أحسنَ قولَ الإمام الفقيه الكبير، والعالم العامل الصوفي البصير، الشيخ عبد القادر الجِيلاني البغدادي الشهير: ليسَ الرجلُ الذي يُسَلِّمُ ـ أي يَستسلِمُ ـ

---

(١) مقدمة «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للمحقق، ص (د ـ ذ).

للأقدار، وإنما الرجلُ الذي يَدفَعُ الأقدارَ بالأقدار. وفي رواية ثانية عنه يقول: نَفِرُّ من القَدَر الفاضلِ إلى القَدَر الأفضلِ)[١].

وهي كلمة حكيمة من لُباب الشرع والعقل جميعاً، وسَنَدُها ومرجعُها في الكتاب الكريم والسنة المطهرة كثير، من ذلك موقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، عندما ذهب إلى الشام سنة (طاعون عَمَواس)، واستشار الناس، ثم قال: (إنِّي مُصَبِّحٌ على ظَهْر، فأَصْبِحوا عليه). فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفِراراً من قَدَر الله)؟! فقال عمر: (لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله)[٢].

ويقول ابن القيِّم: (الفقيهُ كلّ الفقيه الذي يردُّ القَدَر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويُعارِض القدر بالقدر، بل لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا بذلك؛ فإن الجوعَ والعطش والبرد وأنواعَ المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلّهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفَّقه الله وألهَمَهُ رشده يَدفع قَدَر العقوبة الأُخروية بقَدَرِ التوبة والإيمان والأعمال الصالحة)[٣].

خامساً: من ثمرات البحث في النبوءات والأشراط والفتن، والحِكم النابعة من التحديث بها[٤]:

لا مناصَ للمؤمن من التصديق بالنبوءات النبوية وأشراط الساعة وعلاماتها، فهي جزء من الغيب الذي أَخبر به النبي ﷺ بما أطلعه عليه ربُّه سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

---

(١) مقدمة «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للمحقق، ص (ذ ـ ر).

(٢) أخرجه البخاري وغيره؛ وانظر الحديث بتمامه مع تخريجه في هذا الكتاب: ٤/ ٥١٠.

(٣) الجواب الكافي، ص١٨، ١٩؛ وانظر ما كتبناه في هذا الكتاب حول الفتن والحِكم من الابتلاء بها وطرق النجاة منها والتعامل معها.

(٤) انظر: القيامة الصغرى، ص١٣٥ ـ ١٤٠؛ فقه أشراط الساعة، ص ١٧ ـ ٢٢، أشراط الساعة، ليوسف الوابل، ص٢٩.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨].. وهو حقٌّ وصدقٌ لا مريةَ فيه مقدار ذرة، والتصديق بالغيب من أركان الإيمان وخصائص المؤمنين المتقين.

والناس اليوم يلهثون وراء العلماء الذين يكتشفون المخبوءَ في دقائق المخلوقات، ويَجُوبون أجوازَ الفضاء لمعرفة حقائق الأجرام الضِّخام، وعامة الناس يصدِّقون ما يُخبِر به العلماء والخبراء والمكتشفون والمنقِّبون والفلكيون وروَّاد الفضاء...

وتصديقُ المؤمن بما أَخبر به النبي ﷺ أَوْلى وأَحرى وأدقُّ وأصدقُ وأسلمُ؛ لأنه صادر عن المعصوم عن الله سبحانه الذي خلق فسوَّى، وقدَّر فهدى، وأحاطَ بكل شيء علماً: دِقِّه وجِلِّه، ماضيه وحاضرِه ومستقبلِه، ظاهرِه وخفيِّه، خيرِه وشَرِّه.

لا ملامةَ على المؤمن البتَّةَ في هذا التصديق، بل هو زيادة في العقل ونماء في الفكر وبَسْطة في الرؤية وسِعَة في المعرفة، مع السلامة من الكذب والتدليس... ومع هذا الإيمان بالغيب، فالمؤمنون عاملون بما يعلمون، غير متقاعسين ولا متواكلين ولا سلبيين انكفائيين.

ولهذا الإيمان بالنبوءات والتصديق بها ثمرات جليلة وفوائد عزيزة، منها:

١ ـ **هو من الإيمان بالله ورسوله، وتصديق ما يخبر به ﷺ**، وتحقيق ركن من أركان الإيمان، وهو الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٣].

٢ ـ **العلم بها جزء من الدين**: وهي من علوم الإسلام التي حَرَص رسول الله ﷺ على بيانها وترسيخها في النفوس، وأدرك الصحابة أهمية ذلك فحرصوا على سؤال النبي ﷺ عن أحداث المستقبل والفِتن القادمة، لتكون عندهم عدّة كافية للخروج منها وحسن التعامل معها، ومن ثَمّ تبليغها للأمة نُصحاً وإشفاقاً.

وكان من أشهر من يَسأل عن ذلك حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، حيث كان يقول: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأل عن الشر مخافة أن يدركني...).

بل كان عمر رضي الله عنه ـ وهو هو ـ يقول في مشهد من جِلَّة الصحابة: (أيُّكم يحفظُ حديثَ رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟) قال حذيفة: (أنا)...

٣ ـ وقوع تلك الغيبيات على النحو الذي أخبر به النبي ﷺ يثبِّت الإيمان ويقويه: ويزداد المسلم يقيناً بصدق الرسول ﷺ، ويردِّد المؤمنون قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وفيه أهم دلائل النبوّة وصدق الرسالة المحمدية.

وهو مدخل كبير للدعوة إلى الله تعالى، وبَسْط الأدلة والحقائق أمام الآخرين، ليدخلوا في هذا الدين.

٤ ـ تثبيت الإيمان بيوم القيامة ووقوع الساعة والبعث والنشور ثم مآل الناس بعد ذلك: فصِدقُ الدلائل على اليوم الآخر؛ يؤكد وجودَ ذلك اليوم وحقيقته وما يحدث فيه وما يعقبه.

فإذا عَلِم الناسُ ما أخبر به النبي ﷺ من نبوءات وأشراط الساعة، ثم رأوا تحقُّقَها؛ ازدادوا يقيناً بها.

ولقد كان رسول الله ﷺ إذا ذَكَر الساعةَ؛ احمرَّتْ وَجْنَتاه، وعَلَا صوتُه، واشتدَّ غضَبُه، كأنه نذيرُ جيشٍ يقول: صَبَّحكُم مسَّاكُم[1]!.

٥ ـ فيها دروس وعبر وفوائد وتوجيهات للأجيال التي تقع فيهم النبوءات وتتحقق أشراط الساعة، وتظهر الفتن في زمنهم وتجري الملاحم ـ بأن يحسِنوا التصرف فيها، ويتعاملوا معها بحكمةٍ وخبرة، مما يُخفِّف من غُلَوائها، ويحدُّ من

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧)؛ والنسائي: ٣/١٨٨ ـ ١٨٩، واللفظ له؛ وابن ماجه (٤٥).

شرورها، ويكسِر حدَّتها، ويخفّف وطأتها، ويقلِّل الخسائر المترتبة عليها، ويوفّر لهم رؤية واضحة، ونظرة سديدة، وخططاً ناضجة، للتعامل مع تلك الأحداث والفتن والوقائع ـ اعتماداً على ما جاء في الأحاديث الكثيرة من علامات وتوجيهات ونصائح ومخارج للسلامة من أوضارها.

مثلُ ما جاء في القتال بين الصحابة، وفتن الهَرْج والمال، وضياع الأمانة، والاقتتال على الحكم، وقطع الأرحام، ونحو ذلك مما فيه نصائح وتوجيهات رفيعة رفيقة لإحسان التعامل معها، فيما فيه سلامة الدين والمجتمع والفرد والعباد والبلاد.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّه لم يكنْ نبيٌّ قبْلي إلا كان حقّاً عليه أن يدلَّ أمتَه على خيرِ ما يَعلمُه لهم، ويُنذِرَهم شرَّ ما يعلمُه لهم، وإنَّ أمتكم هذه جُعل عافيتُها في أوَّلِها، وسيُصيب آخرَها بلاءٌ وأمورٌ تُنْكِرونها، وتجيءُ فتنةٌ فيرقِّقُ بعضُها بعضاً، وتجيءُ الفتنة فيقول المؤمنُ: هذه مُهلِكتي، ثم تنكشِفُ، وتجيءُ الفتنةُ فيقول المؤمنُ: هذهِ هذهِ. . .**» الحديث(١).

٦ ـ طائفة من هذه النبوءات تتضمن أحكاماً شرعية لا مجال للاجتهاد فيها: ولو تُرِكَ الأمر دون توجيه لتخبَّط المسلمون فيها عند وقوعها؛ كإخباره ﷺ عن كيفية الصلاة أيام الدجال الطويلة، والتعامل مع النصارى بعد نزول عيسى عليه الصلاة السلام، وقتال الخوارج، وانحسار الفرات عن جبل من ذهب، وإنكار السنَّة، وظهور الجلاوزة والجلادين، والدعاة على أبواب جهنم، وغير ذلك.

٧ ـ التطلع إلى معرفة المستقبل والوقائع وتقلبات الدول والحكام والأحوال أمر فطري يحرص عليه الناس: ويلجأ كثير من الرَّعَاع إلى السحرة والمشعوذين، الذين كثروا في زماننا، بل ذُلِّلت أمامهم القنوات الفضائية! وبدلاً من الانحطاط إلى هذا الدَّرْك والإسفاف فيه، فقد أغنى الله العقل المسلم بتلقي هذه الغيوب

(١) أخرجه مسلم وغيره؛ وانظر تمام الحديث مع تخريجه والكلام عليه في النبوءات رقم (٥٧، ٥٨، ٥٩).

من النبي المعصوم ﷺ، وفيه صيانة الفكر والقلب، وحفظ الجهد، ووقاية المال من التبذير، ورفعة الأفق الإنساني[١].

٨ ـ في النبوءات بشارات كثيرة عندما تتكاثر المحن وتتوالى الفتن ويرقِّق بعضها بعضاً وتدلهمُّ الخطوب: فتبرز بوارقُ الأمل وتمخُر قواربُ النجاة، في وجود الطائفة المنصورة، والمجدِّدين، والغُرباء الذين يُصلحون ما أَفسد الناس، والقابضين على الجمر الثابتين على الحق، وتأييد الله تعالى لهم، والوعود الحسنة الجميلة بنصرهم والتمكين لهم، وأخبار الفتوحات، وانتصار الإسلام وعلوِّ أمرِه حتى يدخل كل بيت، والانتصار على اليهود، وغير ذلك مما فيه البشريات بحسنِ العاقبة للمؤمنين في نهاية المطاف، مع رضا الله ورسوله، وما ينتظرهم من الأجر الجزيل والعزة والتمكين.

والأمثلة الشاهدة عبر التاريخ كثيرة، مما يُعطي كلَّ جيل من القوة المعنوية ما يصارع به الطغيان، وينجو من الفتن، ويتغلَّب على ما يسمِّيه المتخاذلون (بالأمر الواقع)، ليصبح العزّ والنصر والتمكين والسيادة والريادة هي الأمر الواقع!.

ورسول الله ﷺ ضَرب في هذا الميدان أروعَ الأمثلة في (غزوة الأحزاب)، فمع ما احتشد على المسلمين من ضيق وتضييق وحصار وتآمر، حتى وصف الله حالهم بقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، جاء النصر وتدخلت السماء، وأتمَّ الرسول ﷺ المهمة بأن ساق للمؤمنين من البشريات ما يخلب اللبَّ في تلك الظروف العاصفة، فبشَّرهم بفتوحات الروم والفرس واليمن وإنفاق الكنوز في سبيل الله.

٩ ـ وفي النبوءات وعلامات الساعة إيقاظ للغافلين وتنبيه للشاردين وموعظة للمقصِّرين وتقريع للعاصين: كي يَصحوا من رَقْدتهم، ويستيقظوا من غفلتهم،

(١) وقد ألمح ابن خلدون إلى هذا في مقدمته، ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

ويثُوبوا إلى رُشدهم، ويؤوبوا إلى الله من شرودهم ومروقهم، فيعود هؤلاء جميعاً للتوبة والإنابة والعمل الصالح، ولا يُباغَتوا بساعتِهم التي تقوم عليهم وتطوي صحائفهم.

١٠ ـ **ولأحاديث النبوءات أثرٌ كبير في سلوك الإنسان:** فالمسلم الذي يؤمن بها يقيناً، ويصدِّقها جملة وتفصيلاً؛ ينعكس ذلك على حياته وأخلاقه وأعماله وأشواقه ونظراته وفكره.

فالمصدِّق بها (يعملُ وهو ناظرٌ لميزان السماء لا لميزان الأرض، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا.. ويَقبل الأحداثَ خيرها وشرَّها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك، فيضيف إليها نتائجها المرتقبة حين يَزِنها ويقوّمها)[١].

فتراه له سلوك فريدٌ في الحياة، ترى فيه الاستقامة، وسعةَ التصور، وقوة الإيمان، والثباتَ في الشدائد، والصبر على المصائب، ابتغاءً للأجر والثواب، فهو يعلم أن ما عند الله خير وأبقى[٢].

١١ ـ **في ذكر أحاديث النبوءات والأشراط توضيحُ الحق من الباطل، وبيانُ الخطأ من الصواب، والسننِ من الأهواء والبدع، وكشفُ الفتن:** وتبصيرُ الناس بالمنهج الحق، وعدمُ سقوطهم في الضلال والمهالك والمحرمات، وتوفير الجهود حتى لا تضيع سُدًى في وديان الأهواء والمجازفات واتباع كل ناعق، وتوجيهها لمتابعة الحق وأهله ونصرتهم وتأييدهم، مما يزيدهم قوة ويزيد الإسلام تمكيناً وعزة ونصراً.

١٢ ـ **وفيها بيان حرصِ النبي ﷺ على صلاح أمته ورحمته بها وإشفاقه عليها:** حيث يبيِّن لها أشكال الفتن وألوانها ومواقعها وسُبُل الخروج منها،

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن، ص ٢٠.
(٢) أشراط الساعة، ليوسف الوابل، ص٢٩.

ويصف الأخطاء والخطايا والبدع والأهواء ومصادر الضلال والإضلال، ودعاة الفتنة، ومساوئ الأخلاق والأعمال.

فهو ﷺ يحذِّر أمته ويُنذرها، ويرشدها ويسدِّدها، ويبصِّرها ويُنير سبيلَها ويوضّح طريقها، ويبيِّن عواقبَ أمورها إنْ أطاعت أو خالفت.. وهو نوع فذّ من حبِّه أمته ورأفته بها، وجانبٌ ضخم مما أضاءه قولُ الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

١٣ ـ وفيها مادة جيدة ونمط فريد وأسلوب محبَّب ينهل منه الدعاة إلى الله والخطباء والمدرّسون والوعاظ: لنشر هذا الخير بين العامة، وتوعيتهم على حقائقها وركائزها، وأهدافها وغاياتها، وعِبرها وفوائدها، لترسيخِ الإيمان بها، وإيجادِ وعي جماهيري بها، وشحنِ جذوات الإيمان بصدق الرسول ﷺ وحقيقة الرسالة واليوم الآخر.

سادساً: أخطاء ومجازفات وتمحلات وتنطُّعات:

وفي هذا الميدان الرحيب تنتشر أخطاء، وتشيعُ مجازفات، وتروَّج تمحّلات، وتنفُق تنطّعات، ينبغي التنبُّه لها وإلقاءُ القبض عليها، وبيانُ خطئها وخَطَلها وخطرها، وحفظُ عقول العامة والخاصة منها، لأنها آفات تفتك بالعقل المسلم في هذا الجانب الخطير من العلوم والثقافة الإسلامية التي لا يستغني عنها أحد، **وتؤدي إلى سلوكيات خاطئة وتربية منحرفة**، نشير إلى أبرزها:

١ ـ الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والواهية والباطلة والموضوعة: وترويجها بين العامة لِما فيها من الغرائب والعجائب.. وينتشر ذلك في كثير من كتب القدماء والمعاصرين ممن صنَّف في هذا الباب، ومن أشهر ذلك كتاب «الفتن» لنُعيم بن حماد، و«التذكرة» للقرطبي، و«الإشاعة» للبَرْزَنْجي، ومن كتب المعاصرين شيء كثير، من أشهرها بل من أردئها وأكثرِها خرافات كتب محمد عيسى داود.

كما تشيع هذه الأحاديث الواهية والباطلة على ألسنة الوعَّاظ والخطباء والمدرسين والمحاضرين والمتحدثين في الإذاعات والقنوات الفضائية، وفيهم ـ للأسف ـ من يُشار إليه بالبَنان! ولقد استمعتُ لبعض أحاديث هؤلاء فرأيتُ العجبَ من سردِ الأحاديث التالفة وتركِ الصحيحة الثابتة في الموضوع نفسه.

وهذا الأمر له خطورته الكبيرة من جهتين:

الأولى: فيه كذبٌ على رسول الله ﷺ، ونشرٌ لهذا الكذب بصورة واسعة ومخيفة، وذنْبُ من يَقترِف ذلك معروف.

قال ابن تيمية: (الاستدلالُ بما لا تُعلم صحتُه لا يجوز بالاتفاق؛ فإنه قولٌ بلا علمٍ، وهو حرامٌ بالكتاب والسنَّة والإجماع)[١].

وقال الشَّوكاني: (إن الأحكام الشرعية متساويةُ الأقدام، لا فرقَ بينها، فلا يحلُّ إذاعةُ شيء منها إلا بما يقوم به الحجة، وإلا كان من التقوُّلِ على الله ما لم يَقُلْ، وفيه من العقوبة ما هو معروف)[٢].

الثانية: فيه تسفيهٌ لعقول الناس، وتربيتُها وتنميتها على الخرافات والتهاويل والأكاذيب.

٢ ـ العبث بأشراط الساعة، والتمحُّل في تفسيرها، والتألِّي على الله، والقول بغير علم، والجرأة على الخوض فيها بالظن الكاذب والتوقعات والتخمينات المستقبلية، والاعتماد في شرح النبوءات والأشراط على الأحاديث الضعيفة والباطلة والمكذوبة والإسرائيليات وأقوال كعب الأحبار وأمثاله.

فلقد أصبح ميدان (النبوءات وأشراط الساعة) كَلأً مُباحاً لكل من هبَّ ودبَّ وحاطبِ ليل، وقذَفَتِ المطابع خلال العقدين الماضيين بعشرات الكتب التي يَغلِب عليها المجازفات والشطحات والتوقعات والتكهُّنات، من قِبَل أناس وَلَجوا

---

(١) منهاج السنة النبوية: ٧/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) الفوائد المجموعة، ص ١٠٠.

ميداناً لم يتأهَّلوا له، ولا مَلَكوا أدوات البحث وشروطَه فيه، مع غياب المرجعية والرقابة الشرعية في هذه الميادين الخطيرة التي تتحدث عن الغيب!.

لكن (الأمية الدينية) والجرأة الخرقاء شجَّعتِ الكثيرين على خوض غمار هذا الباب الذي يستوجب الكثيرَ من الحذر والحيْطة وخشية العاقبة والحساب[١].

ووصلت (الخطيئة) ببعضهم أن يحدِّد تواريخَ جازمةً لأحداث كبرى: فذكر أن المسلمين سيحررون فلسطين سنة (٢٠٠٠م)، والدجّال سيخرج سنة (٢٠٠٠م)، وكذلك عيسى ﷺ سينزل سنة (٢٠٠٠م)، ويُتوفَّى سنة (٢٠٠٧م)، وطلوع الشمس من مغربها سنة (٢٠١٠م)، وقيام الساعة لن يتجاوز سنة (٢٠٣٠م)!!.

٣ ـ وثمة من يتمحَّل في تفسير النبوءات والأشراط، ويتنطَّع في تنزيلها على التاريخ والواقع والأحداث والأشخاص، ويتأوَّل النصوص بما لا تحتمله، ويلوي أعناق الأحاديث ويحملها على غير منطوقها ومفهومها.

وقد كان من هدي أئمتنا وسلفنا الراسخين في العلم منهم ومن جاء بعدهم وسار على هديهم؛ أنهم كانوا يقتصدون عند شرح أشراط الساعة وأبواب الفتن وأحاديث النبوءات، وربما اكتفى بعضهم ببيان الغريب وتوضيح الحكمة والإلماع للفوائد.

أما المتعجِّلون والمتكلِّفون والمتنطِّعون في عصرنا ممن كتب في هذا الباب، تراهم بمجرد ظهور أحداث سياسية أو عسكرية محلية أو عالمية، وبروز أشخاص تدور حولهم حركة التاريخ المحلي أو الدولي، أو قيام الإنسان

---

(١) أشرنا إلى نماذج من ذلك في هذا الكتاب في الفصل السادس (نبوءات في الأهواء والكذب)، نبوءة رقم (١١٦)؛ وانظر: فقه أشراط الساعة، ص٣٩ ـ ١٦١؛ نهاية العالم، ص١٦٦ ـ ١٧٢، ٢٨٤ ـ ٣٠٤.

باكتشافات أو ابتكارات علمية... تستخِفُّهم هذه الظواهر، فيُسابقون إلى أحاديث النبوءات وأشراط الساعة، ويُسقِطون عليها الأحداث والأشخاص.

فإذا ما انقشَع الغبار وزالتِ الغشاوة وهدأت العاصفة، سطعتْ شمس الحقيقة وتبيَّن للعقلاء المتأنِّين مجازفاتُ أولئك الكتّاب والمؤلفين المتعجلين!.

وربما كان بعضهم حسنَ النية طيّبَ الغاية، لكن هذا وحده لا يكفي، إذ لا يصحُّ الاستعجالُ في التفسير والاعتسافُ في تنزيل النصوص على الوقائع التي لا تحتملها، من أجلِ دغدغة العواطف أو تحقيق (سبق علمي!).

فيزعم بعضهم: أن الحمار الذي سيمتطيه الدجّال هو (طبق طائر).

ويجازف آخر: بأن الدجّال هو الرئيس الإيراني (محمد خاتمي)[(١)]!.

ويدعي ثالث: أن المهدي المنتظر هو صدام حسين[(٢)].

ويزعم رابع من حملة (الدكتوراه): أن صدام حسين هو السُّفياني، وأنه من نسل خالد بن يزيد، وأنه سيقود جيشاً ويطهِّر فلسطين من رجس اليهود، وأقاربه (التكارتة) هم الموعودون بدخول المسجد على بني إسرائيل في إفسادتهم المعاصرة، وأن خروج النار هي حرق آبار النفط[(٣)]!.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**والذي نَفْسي بيدِه؛ لا تقومُ الساعةُ حتى يكلِّمَ السِّباعُ الإنسَ، ويُكلِّم الرجلَ عَذَبةُ سَوْطِه وشِراكُ نَعْلِه، ويُخْبِرُه فَخِذُهُ بما حدَّثَ أهلُه بعدَهُ**»[(٤)].

---

(١) انظر: اقترب خروج المسيح الدجّال، ص١٥٦، الحرب العالمية القادمة في الشرق الأوسط، ص ١٢٧، كلاهما لهشام كمال، وأسرار الساعة، ص ٣٩، لفهد سالم.

(٢) فقه أشراط الساعة، ص٦١، ومدعي ذلك هو سعيد أيوب.

(٣) البيان النبوي، للدكتور فاروق الدسوقي، ص ٢٨ ـ ٣٤، ٤٩ ـ ٥٠، ٦٢ ـ ٦٤.

(٤) أخرجه أحمد: ٣/ ٨٣ ـ ٨٤؛ وابن حبان (٦٤٩٤)؛ والحاكم: ٤/ ٤٦٧، ٤٦٨، وغيرهم، وصحَّحه الحاكم والبيهقي والألباني وشعيب الأرنؤوط، انظر: الصحيحة، ص(١٢٢).

أَوَّلَه أحمد بن محمد بن الصدِّيق الغُماري في كتابه «مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية» تأويلاً باطلاً: فأوَّلَ كلامَ السباع في آخر الزمان بالسِّيرك الذي تُستخدم فيه الأسود والنمور والفِيَلة وغيرها... وتأوَّلَ الكلام من الفخِذ وعَذَبة السوط وشِراك النَّعْل بالفونغراف وآلة التسجيل[1]!.

سابعاً: منهجي في الكتاب:

١ ـ اعتمدت في إثبات النبوءات على الأحاديث الصحيحة والحسنة وحسب: مسترشداً في الحكم على الحديث بأقوال أئمتنا السابقين وعلمائنا المعاصرين من المحدِّثين المعتبرين، وضربتُ صَفْحاً عن الأحاديث الضعيفة بَلْهَ الواهيةَ التي تكثُر في هذا الميدان.

وفي الأحاديث الصحيحة غُنية عن سواها، وهي وافية كل الوفاء بما يحتاجه المسلم في أمر دينه وأمر دنياه، وقد أغنى الله الحقَّ عن الباطل منذ القِدم والحمد لله.

حتى في شرح متن النبوءة لم أستشهد بغير الصحيح والحسن الثابت عنه ﷺ.

٢ ـ أطلتُ الكلام في بعض النبوءات: وأطلقتُ عِقال العقل والفكر ليسبَح في آفاقها، وأرخيتُ عِنان القلم ليجول في جنباتها ويستوعب أطرافها؛ لأنها تشكل مرتكزات أساسية في تاريخ الإسلام، ويمتد شمولها الزماني والمكاني على مدى أيامه الطويلة ورقعته الممتدة.

ولأنها ـ أيضاً ـ تُعتبر منطلقاتٍ كبرى لنهضة الإسلام، كما أن فيها دروساً جَمَّة ينبغي تملِّيها والوقوفُ عندها طويلاً للفائدة والاعتبار.

مثل: حديث حذيفة في «الخير والشر» و«الخلافة والملك»، ونبوءة المجدِّدين، والطائفة المنصورة، وتداعي الأمم على أمتنا، واتباع سَنَن اليهود

(١) إتحاف الجماعة، للتويجري (المتوفى ١٤١٣هـ): ٣/ ٢٢٤.

والنصارى، والاقتتال على الحكم، وزمن القابضين على الجمر، وغربة الإسلام.

٣ ـ ثمة أحاديث تشتمل عدة نبوءات، فتكون طريقة تناولها ببحث كل نبوءة في الفصل الذي ينتظمها والموضع الذي تتضمنه:

وعليه يمكن تكرار الحديث في عدة مواضع، من ذلك مثلاً حديث عوف بن مالك رضي الله عنه، قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في غزوة تبوكَ، وهو في قُبَّة من أَدَم، فقال: «**اعدُدْ ستّاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتحُ بيت المقدس، ثم مُوْتانٌ يأخذُ فيكم كقُعَاصِ الغَنَم، ثم استفاضَةُ المال حتى يُعطى الرجلُ مئةَ دينار فيظلُّ ساخِطاً، ثم فتنةٌ لا يَبقى بيتٌ من العرب إلا دخلَتْه، ثم هدنةٌ تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدِرون، فيأتونكم تحت ثمانين غايةً، تحت كل غايةٍ اثنا عشر ألفاً**»[1].

ففيه ستُّ نبوءات، تحقَّق منها الخمسُ الأولى: موتُه ﷺ في الفصل الأول، وفتحُ بيت المقدس في الفتوحات، والمُوْتان هو طاعون عَمَواس في الفصل الأخير، وفيضُ المال في خلافة عثمان وتمَّتِ الإشارة إليها في الفتوحات وفتن الدنيا والمال، وفتنة مقتل عثمان في الفتن.

ويتمُّ تخريجُ الحديث باستفاضة في موضع، وتجري الإحالةُ عليه في المواضع الأخرى، مع ملاحظة أنه في كل فصل قد نورد سياقاً آخَر للحديث لاختلاف بعض ألفاظه بما يناسب البابَ الوارد فيه، إن توفَّرت الألفاظ والعبارات المتنوعة المناسبة.

٤ ـ عدم التنطع في الإسقاط التاريخي أو تنزيل النصوص على الأحداث والأشخاص: والبعد عن ليِّ أعناق النصوص واعتساف التفسير والتأويل، مع الاستضاءة وسعَ الطاقة بأقوال الأئمة في معاني النبوءة، وكذا الاستعانة بآراء المعاصرين المتثبتين ممن لم يتخبَّط في هذا الميدان.

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، انظر: النبوءة رقم (٢٥).

مع يقيننا التام بأن ما قالَه سيدنا رسول الله ﷺ حقٌّ واقع وخبرٌ لا يتخلَّف صدقُه، كما قال شاعر الرسالة حسان:

وقـال اللهُ: قـد أَرسـلـتُ عَـبْـداً   يـقـولُ الـحـقَّ لـيـسَ بـهِ خَـفَـاءُ[١]

وكما يقول الصحابي البطل الشهيد عبد الله بن رواحة:

أَرَانَا الهُدى بعد العَمى، فقلوبُنا   بـه مُـوقِـنَـاتٌ أنَّ مـا قـالَ واقِـعُ[٢]

٥ ـ جمعتُ في هذا الكتاب بين شروح المتقدّمين وبحوثهم وأقوالهم وكتاباتهم العامة في شروح كتب الحديث، والخاصة في علامات النبوّة وأشراط الساعة والفتن، **وضممتُ إليها ما جادت به أقلام المعاصرين من العلماء المعتبرين المتحفِّظين، وتحقيقات المتخصصين** في مختلِف الميادين التي اشتملتْها هذه النبوءات.

وحاولت الاطلاع على كل ما وصلَتْ إليه يدي وتناهَى إليه علمي في هذا الباب الواسع، حتى كُتب (العبثيين) ومَن تلاعَبَ بعلامات الساعة وأشراطها، فقرأت كثيراً من كُتب هؤلاء للعبرة وللتنبيه على الخبط الذي أحدثوه، وأسرفوا فيه على أنفسهم، وأَضرُّوا بالعامة من المسلمين! واقتديتُ في هذا بإمام الجرح والتعديل (يحيى بن مَعِين، المتوفى سنة **٢٣٣**هـ) وقد كان يحفظُ أحاديثَ الوضَّاعين لِينقّي الأحاديثَ الصحيحة ويحميها منها، وقال: حَفِظْنا أحاديثَ الكذَّابين ثم سَجَّرنا بها التَّنُّورَ، فأخرجْنَا منه خبزاً نَضيجاً!.

٦ ـ عرضُ النبوءات وشرحُها وتناولُ محاورها وأبعادها وآفاقها الرحيبة بما يناسب روح العصر: في التبويب والترتيب وتوضيح المعاني والتعريف بالوقائع والمواقع والبلدان والدول والأشخاص والمصطلحات بما يفهمه أبناء جيلنا، مع

---

(١) ضمن حديث أخرجه مسلم (٢٤٩٠).

(٢) ضمن حديث أخرجه البخاري (٦١٥١).

المحافظة على أصالة البحث والاحترام التام للنص النبوي المكرّم بمفهومه ومنطوقه.

٧ ـ أما كلامنا على الدروس والعبر والفوائد:

فتارة أفردُها بالتبويب والبيان في نهاية النبوءة، وبخاصة النبوءات الطوال.

وأحياناً أضمِّنها خلالَ الحديث والشرح لتنسابَ رقراقةً إلى قلب القارئ وعقله في مكانها اللائق بها.

وأحياناً أخرى أتركُها للقارئ ليُجيل فيها عقلَه ويقلِّب في آفاقها فكرَه، فليس هذا الكتاب كتاباً مدرسيّاً، ولا قصدنا منه التلقينَ في كل ما نكتب، ولربما سَنَحتْ للقارئ العادي فائدة ووقف بفطرته على حِكمة بارعة تخفَى على الباحث المتعمق الذي يكدُّ ذِهنَه.

٨ ـ التأكيد على الجانب الإعجازي في النبوءة وشاهد صدق الرسول ﷺ فيها، عندنا وعند من يقرأ هذا الكتاب وأمثاله ومن تصِلُهم رسالته من الناس.

والعلم بنبيِّنا ﷺ وصدقِه هو بابُ العلم ومفتاحُ الهدى وسبيل الفوز بالدنيا والآخرة، وإيماننا به وتصديقنا برسالته ـ بعد إيماننا بالله تعالى ـ يزداد يقيناً ورسوخاً إذا عَلِمنا دلائلَ نبوته وبراهينَ صدق رسالته، ولحكمةٍ عليا قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وهذا يثمِرُ مزيداً من المحبة له ﷺ والطاعة والاتباع والعمل بدعوته وهُداه.

وفي هذا الكتاب (١٦٣) نبوءة، فيها (١٦٣) دليلاً وبرهاناً على صدق رسالته.. ودلائلُ نبوته لا تنقضي، بل تتجدد بتوالي الأجيال وامتداد الزمان.

٩ ـ صنفتُ النبوءات حسب الموضوعات، ليَسهل على القارئ والباحث تناولها ومراجعتها، وقسمتُ الكتاب إلى (أحد عشر فصلاً)، وسَلَكتُ فيه كلَّ نبوءة حسب الموضوع الألصقِ بها والأكثر تعبيراً عن مضمونها ودلالتها.

ونظرة قصيرة في الفهرس تعطي القارئ فكرة جيدة عن هذا التبويب والتصنيف.

١٠ ـ ثمَّةَ نبوءاتٌ لم أتناولها في هذا الكتاب، وهي على قسمين:

الأول: نبوءات تحققت ووقع مصداقُها، لكنها محدودة التأثير، وبعضها ذكرنا في الكتاب ما يماثله فاكتفينا بالجُلِّ عن الكلّ، ومن ذلك مثلاً:

١ ـ إخباره ﷺ عن أُناس يعتدون في الدعاء والطَّهور.

٢ ـ إخباره ﷺ بأن الله تعالى سيفتح خيبرَ على يدي علي بن أبي طالب.

٣ ـ إخباره ﷺ بأن عبد الله بن سَلَام لن ينال الشهادة.

٤ ـ إخباره ﷺ بأنه سيَقتل أميَّة بنَ خَلَف.

٥ ـ إخباره ﷺ بأن أبا ذر يموت بأرض فلاة.

٦ ـ إخباره ﷺ عن ريح شديدة تهبُّ وهو في غزوة تبوك.

٧ ـ إخباره ﷺ عن أُناسٍ يأتون بعدَه يودُّ أحدُهم رؤيتَه ﷺ بأهله وماله.

ونبوءات أخرى مماثلة.

الثاني: نبوءات لم تتحقق بعد، وهي جديرةٌ بأن تُفرد في كتاب مستقلّ، وسنشير في الخاتمة إلى (٢٧) نبوءة من هذا النوع.

ومن هذا الباب ظهور المسيح الدجَّال، ونزول عيسى ﷺ، وخروجُ يأجوج ومأجوج، والخسوفات الثلاث، والدابَّة، والنار التي تحشر الناس... وهذه قد تكفَّلت «كتبُ أشراط الساعة» بالحديث عنها وتفصيل القول فيها، فلم نُرِدْ تكرارَ البحث فيها، ووفَّرنا صفحات الكتاب لدراسة نبوءات لم يتطرق إليها أحد، أو أشار إليها لكنه لم يفصِّل القولَ فيها.

وهذا الكتاب لم أقلِّد فيه أحداً من جهاته المتنوعة:

أ ـ من حيث التقسيمُ والتبويبُ والتنظيمُ والتخريجُ.

ب ـ من حيث التناولُ والشرح والتفصيل والإسقاطُ التاريخي.

ج ـ من حيث الاستقراءُ والشمولُ وتوسيعُ آفاق النبوءة ودلالاتها وفوائدها وعِبرها ونواحي الإعجاز فيها.

د ـ من حيث تناولُ النبوءة الواحدة وبيانُ معاني مفرداتها، وترتيب فقراتها، وتسلسل موضوعاتها، وترابطها مع النبوءات الأخرى، ونسقها التاريخي أو الاجتماعي أو التشريعي، وربطها بالواقع الذي حَدَثتْ فيه منذ ظهور مباديها أو استحكامها أو استمرارها إلى زماننا وما بعده.

هـ ـ من حيث مهماتُ الكتاب وأهدافُه والثمراتُ التي نرجو أن يكون قد حققها، وهي لبُّ لُبَاب مقاصدِ الكتاب، ومخُّ مِخَخَةِ الأصول التي بُني عليها.

ثامناً: مهمات الكتاب وأهدافه:

وقد توخينا من إنشاء هذا الكتاب أهدافاً وغايات نرجو أن نكون وُفِّقنا لتحقيقها، وقَصَدْنا منه آمالاً وأمنيات نتمنى أن يكون البحث قد آتى ثماره فيها، ويمكن إجمالُها فيما يلي:

١ ـ نشر المبشّرات في الميادين العامة والخاصة، وذلك مطلوب لأكثر من سبب:

أ ـ لأننا مأمورون بأن نبشِّر ولا ننفِّر، ونيسِّر ولا نعسِّر، ففي حديث أنس، عن النبي ﷺ قال: «**يَسِّروا ولا تعسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا**»(١).

وأوصى معاذَ بن جبل وأبا موسى الأشعريَّ حينما أَرسلهما إلى اليمن فقال ﷺ: «**ادْعُوَا الناسَ، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا**»(٢).

ب ـ ولأن المسلمين عامةً والعاملين للإسلام خاصةً يمرُّون بمرحلة عصيبة تكاد تغلِبُ فيها عواملُ اليأس ومشاعرُ الإحباط، التي إذا استشرَتْ قتلتِ الهممَ

(١) أخرجه البخاري (٦٩)؛ ومسلم (١٧٣٤)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٥٩)، وغيرهم.
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤١، ٤٣٤٢)؛ ومسلم (١٧٣٣) بعد رقم (٢٠٠١)، واللفظ له.

وخدَّرت العزائم ودمَّرت الطاقات، وذلك لكثرة الضربات المتلاحقة المتعددة المتنوعة الباطشة التي تُوجَّه للإسلام وأهله وحَمَلتِه، وبخاصة للصحوة المباركة والحركات الإسلامية، والتي يتعاون عليها أعداء الإسلام التاريخيون من صليبيين ويهود ووثنيين وعملاؤهم في داخل النسيج الإسلامي.

ج ـ ولأن القوى المعادية للإسلام قد أعلنت حرباً سافرة مادية ومعنوية، عسكرية ونفسية، على المسلمين والدعاة إلى الله؛ لِتُيَئِّسَهم من أيّة بارقة أمل في عودة الإسلام للحياة والسيادة والريادة وقيادة الأمة والبشرية من جديد.

ويشارك في ذلك حملات مسعورة وأبواق مأجورة وأقلام خؤونة، تلطِّخ الإسلام وتشوِّه حقائقه وتزدري بدعاته وتحاربهم في كل سبيل[١].

د ـ ولأن ذلك هَدْي قرآني ومنهجٌ نبوي؛ فعندما صُدَّ المسلمون عن البيت الحرام في عمرة الحديبية، نزلت سورة الفتح مبشِّرة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وفي غزوة الأحزاب وقد أحاطَتْ كلُّ قوى الكفر بالمسلمين، وحَصَرتْهم وضيَّقَتْ عليهم في مدينتهم، وبَلَغتِ القلوبُ الحناجر، نهضَ رسول الله ﷺ فأَطْلَق بشريات عظمى بفتح بلاد اليمن والفرس والروم وإنفاق كنوزهم في سبيل الله. والأمثلة كثيرة في أيام الدعوة بمكة والهجرة وغزوة بدر وسواها.

٢ ـ التركيز على وجود التحدي الإسلامي واستمراره على مدار حِقَب التاريخ، وفي طول الأمة الإسلامية وعرضها وعمقها زماناً ومكاناً:

وكثير من النبوءات في كتابنا هذا تعزِّز هذا الجانب؛ مثل وجود الطائفة المنصورة، والمجدِّدين، والقابضين على الجمر، والغرباء الذين يُصلحون ما أفسد الناس، وأن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وأحاديث الفتوحات، وغيرها.

---

(١) انظر: المبشرات بانتصار الإسلام، ص ٥ ـ ٧.

وقد تناول الكتاب في كثير من نبوءاته وفصوله هذه الحقيقة عبر تاريخنا الممتد.

وفي القرن المنصرم ومطالع القرن الحالي يتحدّث الدارسون والخبراء والنقّاد والمتخصصون، ممن يَرصد حركةَ التاريخ وسيرورةَ الأمة الإسلامية؛ مثل ليوبولدفايس (محمد أسد) ورينيه جينو (عبد الواحد يحيى) ومراد هوفمان وأمثالهم ـ عن أصالة الإسلام، وثبات التحدي الإسلامي لكل عوامل الإفناء والإقصاء والتغريب والتذويب: وشاهدُ الوجود قائم في الحركات الإسلامية والجهادية المقاومة، والرجال الكبار والمفكّرين والمجدِّدين والقيادات السياسية والدعوية، والكتب الأصيلة، وأنشطة المساجد، والمجامع الفقهية، والمؤتمرات والتجمعات والنقابات، والدور الرائد للمرأة، وانتشار الحجاب، وإقبال الشباب والفتيات على الإسلام، والاستبسال في الدفاع عنه بكل الأساليب والإمكانيات والطاقات، والاستهانة بكل ما يحتفُّ الطريقَ من بلاء ولَأْوَاء[1].

٣ ـ التأكيد على أنَّ المستقبل لهذا الدين:

فالمِحن الكبيرة والضربات القاسية والفتن الفتّاكة؛ تصهر النفوس وتنقي القلوب وتُلهب الهممَ وتستنزِل النصر، وحقائقُ التاريخ شاهدة على ذلك... فالنصر يأتي عند اشتداد الحال ولجوء الناس إلى الله وعياذهم به واستنصارهم به؛ وفي قصة الهجرة وأيام بدر وغزوة الأحزاب وحنين أمثلة شاخصة على ذلك، وهذا أمر ثابت في تاريخ الرسالات كلها، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

والأمة تملك من المخزون النفسي والطاقات الروحية والتجارب الضخمة ما يحوِّل المِحن بين يديها إلى مِنَح، وهذا ما أثبتَتْه الأمةُ في ساعات الشدائد

(١) انظر: المبشرات بانتصار الإسلام، ص ٤٣ ـ ٥٤.

الماحقة، كما حَدَث مثلاً في حروب الردَّة والحروب الصليبية والزحف التتري وحروب التحرير في العصر الحديث، والمواجهة السافرة الآن مع الصليبية الحديثة والشيوعية واليهودية والوثنية في فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان والبوسنة وكوسوفا وكشمير والصومال وغيرها.

وتشير توقّعات المفكّرين والخبراء إلى أنه كما كان القرن التاسع عشر قرنَ المسيحية، والقرن العشرون قرنَ اليهودية وقيام إسرائيل، فإن القرن الحادي والعشرين هو قرن الإسلام.. وممن ذهب إلى ذلك الدكتور مراد هوفمان في كتابه: «الإسلام عام ٢٠٠٠م»، الذي أكد أن الفرصة متاحة أمام الإسلام ليصبح ديانة العالم في القرن الحادي والعشرين[١].

٤ ـ التأكيد على حقيقة أن الإسلام دين ودولة:

وذلك من خلال توسيع آفاق النبوءات وتعميق مدلولاتها، دونما تنطُّع أو تمحُّل أو مماحَكَة، فالدارسُ المنصِف لمسيرة الإسلام وتقلبات دُوَلِه وحكامه على مدى أربعة عشر قرناً؛ يستيقنُ أن الإسلام: عقيدة وشريعة، ودين ودولة، وعبادة وقيادة، وصلاة وجهاد، ووطن وجنسية، وسماحة وقوة، وخُلق ومادة، وثقافة وقانون...

(وأن الإسلام يشملُ الحياة كلَّها بتشريعه وتوجيهه:

رأسياً: منذ يولد الإنسان حتى يتوفَّاه الله، بل قبل أن يُولد، وبعد أن يموت، حيث هناك أحكام شرعية تتعلق بالجنين، وأحكام تتعلق بالإنسان بعد موته.

وأفقياً: حيث يوجِّه الإسلامُ المسلمَ في حياته الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية، من أدب الاستنجاء إلى إمامة الحكم، وعلاقات السلم والحرب)[٢].

---

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، ص ٥٥ ـ ٨٣، ٩١ ـ ٩٣.

(٢) من فقه الدولة في الإسلام، للدكتور القرضاوي، ص ٢٣.

وهذا المفهوم يسعى أعداء الإسلام على مدى قرن إلى طمسِه وتغييبِه عن روح المسلم وفكره وعقله وسلوكه وحياته واهتماماته، وشارك في ذلك: التغريب والاستشراق، وأوروبة والعولمة، ودعاة العلمانية والكتّاب والمفكرون المنبتُّون عن ضمير الأمة، وكثيرٌ من سَدَنة الحكم، وأطلَقوا أكذوبة (لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين)[1]! وفي كتابنا هذا نبوءات كثيرة تمحَقُ هذا الاتجاه وتنسِفُه وتَذْرُوه مع الرياح، وبخاصة فصل (نبوءات في الخلافة والملك والإمارة والحكم).

٥ ـ توضيح الحقائق وتصويب المفاهيم:

●● فقد حَدَث عدوانٌ وتزوير وتدليس وكذبٌ وأهواء حرَّفت كثيراً من المفاهيم والحقائق والأفكار والأحداث بحقٍّ دول وطوائف وجماعات وحركات ورجال ومفاهيم وركائز ومصطلحات ووقائع، فجعلتِ الحقَّ باطلاً والباطل حقّاً، وأخَّرتْ ما حقُّه التقديم وقدَّمَتْ ما حقّه التأخير، ورفَعَتْ ما يجبُ خفضُه ورفضُه وغَيَّبتْ ما يتوجَّبُ إظهارُه وإشهاره ورفعه، واشتمل ذلك جوانب:

أ ـ العقائد والأخلاق والأهواء والمِلل والنِّحَل.

ب ـ الدول الكبرى والصغرى، كالافتراء الكبير على الدولة الأموية والعباسية والعثمانية، وتجميل صور دول أخرى كالعُبيدية (الفاطمية كذباً) والبويهية والصفوية.

ج ـ الفتن وملابستها واعتزالها: وقد خاضَتْ فيها أقلام لا تخاف الله، فخَبَطَتْ وحرَّفت وزوَّرتْ، وبخاصة القتال بين الصحابة، والدماء التي نزفت عند سقوط دولة وقيام أخرى، أو انقلاب حاكم على آخر.

د ـ تزوير أحداث التاريخ من غزوات وفتوحات ومعارك الخارجين على دولة الإسلام.

---

(١) انظر كتاب: من فقه الدولة في الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، فإنه نفيس.

هـ ـ تشويه صور وتقليل أهمية حركات وجماعات وفِرق ودعوات، مثل أهل الجمل وصفين والمرابطين والموحّدين والسلاجقة والمماليك والوهابية والسنوسية والحركات الإسلامية المعاصرة وحركات التحرر الوطني ونحوها.

وتجميل صور أمثال حركة القرامطة والباطنية وإخوان الصفا والشعوبية وحركة محمد علي باشا والاتحاد والترقي والقومية العلمانية وما في هذا الميدان.

و ـ رجال كبار كمعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وعبد الملك بن مروان وهارون الرشيد والمأمون ومحمد الفاتح وعبد الحميد الثاني... وهكذا إلى الأفغاني ومحمد عبده وحسن البنا وسيد قطب وأمثالهم.

●● ولقد حَدَثتْ قسوةٌ شديدة على تاريخنا ورجالنا، وعدوانٌ كبير على هذا التراث الضخم، من الصديق والعدو، حتى خَيَّل لنا البعضُ أن (دولة الإسلام) لم تَقُمْ لها قائمة إلا في عهد النبوة والخلفاء الراشدين، وغَلَا البعض فاقتصر على عصر الرسالة وخلافة الشيخين أبي بكر وعمر! وممن قَسَا على تاريخنا الإسلامي ودولة الإسلام وبخاصة الأموية، من كبار المعاصرين من المفكرين الإسلاميين: أبو الأعلى المودودي وسيد قطب ومحمد الغزالي(١). وإنْ تراجعوا بعض الشيء وخَفَّتْ سَوْرَةُ نقدِهم في آخر كتاباتهم، وبخاصة الشيخ الغزالي كما يتضح من نقولنا عنه من كتابه «معركة المصحف».

وقد لزِم جادَّة الاعتدال والإنصاف إلى حدّ كبير محمد قطب في كتابه «كيف نكتب التاريخ الإسلامي»، والدكتور يوسف القرضاوي في كتابه «تاريخنا المفترى عليه»، والكتابان جديران بالقراءة المتأنية.

●● ومما أخطأ فيه كثير من المسلمين في هذا الميدان قولهم: (إننا في آخر الزمان)، ويُطْلِقون القولَ بذِكْر أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة، وأن

---

(١) انظر كتاب: تاريخنا المفترى عليه، للقرضاوي، ص ٤٦ ـ ٦٤.

الإسلام في إدبار، والخير في تراجع، والشرَّ في إقبال وأهلَه في علوٍّ وغلبة وانتصار، فلا أملَ في تغيير، ولا رجاءَ في إصلاح، وأنه ما يأتي يوم إلا والذي بعده شرٌّ منه[١]، والقافلة تسير من سيِّئ إلى أسوأ، وأن الأملَ معقودٌ على مجيء المهدي ونزول عيسى ﷺ ونُطق الحجر والشجر للمسلم ضد اليهودي!.

كما أخطأ كثيرون في فهم أحاديث الفتن، وملابستها واعتزالها، ومفهوم انبساط الدنيا والاتساع في المال والزهد فيه، وشيوع المحرّمات والموقف منها. . .

هذا وذاك مما تولى الكتاب توضيحَه وبيانَ وجه الحق فيه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

٦ ـ تنمية حاسة النقد الواعي المنصف والعقل المستبصر:

كذلك حاولنا في بحوثنا هنا إيقاظَ العقل الراقد والفكر المستسلم للروايات والكتابات والأحاديث والأحداث، وما يُقرأ ويُسمع ويُنشر ويُشاهَد ويَتناقله الناس قديماً وحديثاً، وتنمية مَلَكة النقدِ وإعمال العقل المتبصِّر وعدم الاستسلام لكل شيء، فالمسلم كيِّس فِطِنٌ حصيفٌ، يجبُ عليه الاستيقاظُ والاعتبار بما يقرأ ويسمع، فلا قيمة للقراءة إذا كانت لمجرَّد الاستكثار، ولا وزنَ لها إن لم تولِّد حسّاً مرهفاً، وعقلاً حرّاً، وفكراً نقَّاداً، والموازنةَ بين أطراف المسائل ومقارنة الأمور مع أشباهها والأحداث مع مثيلاتها، والاعتبارَ بدروس التاريخ وأخطاء السابقين واللاحقين.

وقد أوضحنا ذلك في مواطن كثيرة خلال عرض النبوءات وتحليلها، أو عند الوقفات والتأملات والدروس والعِبر منها.

٧ ـ ومن مهمات هذا الكتاب أيضاً التأكيد على أدوات العلم الرئيسة ووجوب إعمالها وعدم إهمالها أو تعطيل أي قسم منها:

وهي التي تعتمد على منافذ وأركان ثلاثة أشارت إليها الآيات الكريمة في

---

(١) انظر: المبشرات بانتصار الإسلام، ص ٩.

مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالسمع لكل ما يقرأ الإنسان ويسمع مشافهة، والبصر لما يَشهده ويشاهده من أحداث تُشاهَد أو تُروى، والقلب للتعقل والتبصر.. ولقد أكد كتابنا كثيراً على أدوات العلم هذه تلميحاً وتصريحاً وتنبيهاً، أمَّا أن يكون المرء قمعاً للقول فهذا لا خير فيه.

٨ ـ إعطاء القارئ المسلم زاداً معتدلاً في الكم والكيف من العلوم الإسلامية والثقافة الشمولية المتنوعة:

المبنيَّة على الأحاديث الصحيحة والتحليل والبيان المتوازن المتزن الذي يجمع بين أقوال علمائنا السابقين وبحوث وكتابات المعاصرين الجادين المجودين، بأسلوب يفهمه المسلم في عصرنا ولا يَحرمه من علوم كانت حكراً على المتخصصين.

تاسعاً: وفي الختام نقول:

إن الكتابة في (النبوءات) شاقَّةُ المسلك، صعبةُ المرتقى لأمور عدَّة؛ أبرزها:

١ ـ غزارةُ المادة التي كُتبت فيها قديماً وحديثاً، مما يتطلّبُ من الباحث الجادِّ أن يطَّلع على أكبر قَدْرٍ ممكن تصِل إليه يدُه ويتناهَى إليه علمُه.

٢ ـ تنوُّعُ مجالاتها وتعدُّد ميادينها:

ـ في العقائد والمذاهب والأهواء والمِلَل والنِّحَل.

ـ وفي العبادات والشعائر والمعاملات.

- وفي الآداب والأخلاق والسلوك.

- وفي الفرائض والمنهيات والكبائر والمحرّمات.

- وفي الفتن والملاحم.

- وفي الجهاد والغزوات والفتوحات.

- وفي الأشخاص والجماعات والدول والحضارات.

- وفي شؤون الحكم والدولة والمجتمع... إلخ.

٣ - بعض النبوءات قد اتسع نطاقُها الزماني والمكاني لتستغرقَ الأمة كلها ومسيرتها التاريخية الممتدة، مما يتطلَّب جهداً جاهداً وعزماً صبَّاراً، واطلاعاً مستوعِباً وبصراً ناقداً؛ مثل نبوءة (المجددين)، و(الطائفة المنصورة)، و(اتباع سَنَن اليهود والنصارى)، و(تداعي الأمم)، و(حديث حذيفة في الخير والشر والخلافة والملك)، و(غربة الإسلام)، و(ظهور الأهواء والحركات الهدامة)...

٤ - كثرةُ الأحاديث الواهية والباطلة التي اقتحمتْ ميدانَ النبوءات وعلامات الساعة، في كتب القدامى والمحدَثين والعابثين! مما يستوجب تنقيةَ النصوص ونفيَ الدخيل والمكذوب.

٥ - صعوبةُ تنزيل أحاديث النبوءة على الواقع والتاريخ والأحداث والأشخاص...

وهذا يقتضي: استقراءً عريضاً، واجتهاداً منضبطاً، وحذراً شديداً، وعدمَ ليّ النصوص، وتقديمَ الشرح بأسلوب يناسب العصر ويحترم الأصل.

٦ - وجودُ كثيرٍ من الحَيْف والظلم والمفاهيم الخاطئة والتحريف والتزوير بحق الدين والأمة والدول والجماعات والأشخاص، وهو أمرٌ يتطلب مع الاطلاع الواسع: الأناة والدقة والإنصاف والاعتدال والغيرة على الدين والحقيقة وتاريخ الأمة.

وهذا الكتاب لا يُسْلِم زمامَه إلا لمن يقرأ متحرر الفكر، ولا يعطي قياده لضيِّقي العَطَن وأصحاب الرأي الأحادي، الذين يَضيقون ذَرْعاً بالرأي المخالِف، فالحق يشتمل كلَّ الاجتهادات الأصيلة والآراء الجادة والأعمال المخلصة التي جادَ بها القدماء والمعاصرون، ممَّن صدقَ اللهَ في قوله وأخلَص له في عمله واجتهدَ فيه قدر طاقته، وإنْ خالَف هذا أو عارضَ ذاك.

وقد لمعتْ فكرةُ هذا الكتاب في ذهني منذ نحو ربع قرن، وأخذتْ تعلو وتشتدُّ في نفسي، فصرتُ منذ نحو خمس عشرة سنة أَجمع الأخبار وأدوِّن الأحاديث وأقتنصُ الإشارات وأقتني الكتب التي تتناول الموضوع أو تمتُّ له بصِلة، وأقيِّدها وأُحصيها.

وكان الذي أوقد جَذوة هذه الفكرة في نفسي هو **الأستاذ الجليل محمد علي دولة**؛ صاحب دار القلم العامرة؛ حيث كان يخطب في بعض النبوءات الكبار من على منبر المسجد الجامع في بلدتنا الكسوة، وأنا أصغي إليه، فأضاء السراج أمامي في هذا الطريق.

ولقد كان هو يودُّ أن يسخِّر قلمه في هذا الميدان، ويتمنى أن ينال شرف الكتابة في نبوءات سيدنا رسول الله ﷺ، لكن عمله الدؤوب في نشر الكتاب الإسلامي، ثم الظروف الصحية التي نزلت به قد حالا دون تحقيق أمنيته.

ورأى أن أقوم أنا بهذه المهمة، فطلب مني ذلك، فوافق طلبه رغبة مني، وأخبرته باستجابتي، فسر بذلك سروراً بالغاً، ودعا لي بالعون والتوفيق.

واستمر يرغِّبني ويتابعني ويتعاهدني بالمراجع اللازمة حتى استوى البحث على سوقه.

ونال هو شرف نشره خدمة لصاحب الرسالة ﷺ.

جزاه الله تعالى خير الجزاء وأعظمه وأشمله.

وقدَّر الله تعالى لي ويسَّر التفرغَ التام للبحث الجاد الدؤوب المتواصل في

(النبوءات) منذ خمس سنين، فأعطيتُ الكتابَ نفسي، وسخَّرتُ له همَّتي، ونذرتُ له وقتي، وجرَّدْتُ له قلمي، وخُضْتُ في لُجَج موضوعاته باحثاً ومنقِّباً، فقرأت وقرأت في كتب الأقدمين والمعاصرين ما تناول دلائل النبوة وعلامات الساعة وأشراطها والفتن والملاحم والنبوءات، ما كان منها عامّاً ضمن كتب كبار، أو خاصّاً في كتب مفردة في هذا الباب.

واستمر البحث في المطالعة والتبويب، ثم الكتابة في المسوَّدة ثم نقلها إلى المبيَّضة؛ فاستغرق ذلك خمس سنين، وكان نتيجة ذلك الجهد وثمرته هذا الكتاب.

وحَسْبي أني بذلتُ في هذا الكتاب جهدَ طاقتي، واستفرغتُ في شرح النبوءات وُسْعي، بمقدار فهمي وعلمي وتوفيق الله لي، فما كان فيه من حق وخير وصواب فمن فَضْل الله تعالى ومنَّتِه وكرمِه، وما كان فيه من تقصير فمن نفسي، والله ورسوله منه بريئان.

وإني لأدعو الله قائلاً: اللهمَّ إني أعوذُ بك من الحَيْف في الحُكْم، والقولِ بالظن، والرجمِ بالغيب، والهوى في الرأي، والمداراة في الحق، والإسراف في المدح، والمجازفة في الاستنباط.

وأسألك اللهمَّ القبولَ مع المغفرة، فَلَكَ الأولى ولك الآخرة، أنت حسبي ونعم الوكيل.

دبي الإثنين ١٤/ شوال/ ١٤٢٩هـ
١٣/ ١٠/ ٢٠٠٨م

عبد الستار



نبوءات الرسول ﷺ
حسب تسلسل ورودها في هذا الكتاب 

● **الجزء الأول:**

الفصل الأول: نبوءات تتعلق بأشخاص:

١ ـ إخبار النبي ﷺ بمصارع جبابرة قريش في غزوة بدر ومواضع مصارعهم.

٢ ـ إخبار النبي ﷺ عن رجل قاتل في غزوة خيبر قتالاً شديداً أنه من أهل النار.

٣ ـ إخبار النبي ﷺ بموته، وأنه أمنة لأصحابه.

٤ ـ إخبار النبي ﷺ ابنته فاطمة بأنها أول أهله لحوقاً به.

٥ ـ إخبار النبي ﷺ بأن زوجه زينب بنت جحش أول نسائه لحوقاً به.

٦ ـ إخبار النبي ﷺ عن عدد من الصحابة بأنهم سيموتون شهداء.

٧ ـ إخبار النبي ﷺ الفاروق عمر بأنه سيموت شهيداً.

٨ ـ إخبار النبي ﷺ بأن طلحة بن عبيد الله شهيد يمشي على الأرض.

٩ ـ إخبار النبي ﷺ سعدَ بن أبي وقاص بأنه يعيش بعده حتى يَنتفع به أقوام ويُضَرَّ به آخَرون.

١٠ ـ إخبار النبي ﷺ بأن محمد بن مَسْلَمة لا تضرُّه الفتنة.

١١ ـ إخبار النبي ﷺ بأن ثابت بن قيس يعيش حميداً ويموت شهيداً.

١٢ ـ إخبار النبي ﷺ بأن عبد الله بن بُسْر يعيش قرناً.

١٣ ـ إخبار النبي ﷺ جابر بن عبد الله بأنه سيوسع له في الرزق وتكون له أنماط.
١٤ ـ إخبار النبي ﷺ أمَّ حَرَام بأنها ستركبُ البحرَ مجاهدةً في سبيل الله.
١٥ ـ إخبار النبي ﷺ بأن عمار بن ياسر تقتله الفئة الباغية.
١٦ ـ إخبار النبي ﷺ عَمَّاراً أن آخر زاده من الدنيا شربة لبن.
١٧ ـ إخبار النبي ﷺ عن مقتل سبطه الحسين بن علي.
١٨ ـ إخبار النبي ﷺ باستشهاد الصحابة الأمراء الثلاثة في غزوة مؤتة.
١٩ ـ إخبار النبي ﷺ عن رجل من التابعين يقال له: أُوَيْسٌ القَرَنيُّ.

الفصل الثاني: نبوءات عن الغزوات والفتوحات:

٢٠ ـ إخبار النبي ﷺ في غزوة الأحزاب بأنهم يغزون قريشاً بعدها ولا تغزوهم.
٢١ ـ إخبار النبي ﷺ بإجلاء اليهود عن خيبر.
٢٢ ـ إخبار النبي ﷺ بفتح اليمن والشام والعراق وهجرة بعض الناس إليها من المدينة.
٢٣ ـ إخبار النبي ﷺ عن غزو المسلمين جزيرة العرب وفارس والروم وفتحهم لها.
٢٤ ـ إخبار النبي ﷺ بفتح الحيرة، وقصة الشيماء بنت بقيلة.
٢٥ ـ إخبار النبي ﷺ بفتح بيت المقدس.
٢٦ ـ إخبار النبي ﷺ عن هلاك كسرى وقيصر، وفتح بلادهما، وإنفاق كنوزهما.
٢٧ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الأمن سيعمُّ جزيرةَ العرب.
٢٨ ـ إخبار النبي ﷺ بفتح مصر.
٢٩ ـ إخبار النبي ﷺ بأن ناساً من أمته سيركبون البحر مجاهدين في سبيل الله.
٣٠ ـ إخبار النبي ﷺ بأن المسلمين سيقاتلون الترك.

٣١ ـ إخبار النبي ﷺ بأن المسلمين سيقاتلون خوزاً وكرمان.
٣٢ ـ إخبار النبي ﷺ بأن المسلمين سيغزون الهند.
٣٣ ـ إخبار النبي ﷺ بالفتوحات على يدي القرون الثلاثة الأولى.
٣٤ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور الإسلام حتى يجاوز البحار وتخوض الخيل البحار في سبيل الله.
٣٥ ـ إخبار النبي ﷺ بفتح القسطنطينية.
٣٦ ـ إخبار النبي ﷺ عن اتساع ملك أمته ليشمل المشارق والمغارب.
٣٧ ـ إخبار النبي ﷺ بفتنة التتار واستلابهم ملك هذه الأمة ثم انحسارهم.
٣٨ ـ إخبار النبي ﷺ بتوقف الجزية والخراج والزكاة على مستوى الدولة.

● **الجزء الثاني:**

الفصل الثالث: نبوءات تتحدَّث عن الفتن:

٣٩ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور الفتن في أمته.
٤٠ ـ إخبار النبي ﷺ عن القتال الذي سيجري بين الصحابة.
٤١ ـ إخبار النبي ﷺ بأن أمير المؤمنين عمر هو غلق الفتنة.
٤٢ ـ إخبار النبي ﷺ بالفتن التي ستقع في عهد عثمان وأنه على الهدى.
٤٣ ـ إخبار النبي ﷺ بأن عثمان سيكون خليفة، وسيخرج المنافقون عليه يريدون خلعه.
٤٤ ـ إخبار النبي ﷺ عثمان بن عفان ببلوى تصيبه.
٤٥ ـ إخبار النبي ﷺ أن عثمان يُقتل مظلوماً.
٤٦ ـ إخبار النبي ﷺ بأن إحدى نسائه ستنبحها كلاب الحوأب.
٤٧ ـ إخبار النبي ﷺ بوقعة الجمل وبعض ما يحدث فيها.
٤٨ ـ إخبار النبي ﷺ بموقعة صفين وأن الطائفتين مسلمتان.
٤٩ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور الخوارج ووقته، والطائفة التي تقاتلهم وتقتلهم.
٥٠ ـ إخبارالنبي ﷺ بصفات الخوارج.

٥١ ـ إخبار النبي ﷺ بصفة رجل من الخوارج يسمى ذا الثدية وهو المخدج.
٥٢ ـ إخبار النبي ﷺ بأن علياً يقاتل الخوارج على تأويل القرآن.
٥٣ ـ إخبار النبي ﷺ علي بن أبي طالب بأنه إذا خرج إلى العراق يصيبه ذباب السيف، وإخباره بصفة مقتله.
٥٤ ـ إخبار النبي ﷺ عن وقعة الحرة.
٥٥ ـ إخبار النبي ﷺ بفتن الهرج.
٥٦ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الفتن تأتي من جهة المشرق.
٥٧ ـ ٥٨ ـ ٥٩ ـ إخبار النبي ﷺ بفتنٍ كأنها الظلل، ويرقق بعضها بعضاً، وتعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً.
٦٠ ـ إخبار النبي ﷺ بوقوع فتن عامة وتبيانه سبيل النجاة منها.

✍ الفصل الرابع: نبوءات في الخلافة والملك والإمارة والحكم:

٦١ ـ ٦٢ ـ إخبار النبي ﷺ بقيام خلافة النبوة بعده، ومدتها، ويكون بعدها المُلك.
٦٣ ـ إخبار النبي ﷺ بخلافة أبي بكر بعده، ثم خلافة عمر، وصفة خلافتيهما وانتفاع الناس بهما.
٦٤ ـ إخبار النبي ﷺ بالصلح الذي سيكون بين الحسن ومعاوية، وانتقال الخلافة إلى الشام.
٦٥ ـ إخبار النبي ﷺ بما يكون من هلاك للأمة على يدي غلمة من قريش.
٦٦ ـ إخبار النبي ﷺ بأنه سيكون بعده اثنا عشر خليفة كلهم من قريش.
٦٧ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الخلافة في قريش ما أقاموا الدين، فإذا تركوه وخالفوه زالت عنهم.
٦٨ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء خلفاء كثيرين بعده.
٦٩ ـ إخبار النبي ﷺ باستخلاف المسلمين على الروم في الشام.
٧٠ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الناس بعده سيحرصون على الإمارة.

٧١ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء أمراء يستأثرون بالحكم، ويمنعون الناس حقوقهم.

٧٢ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء أقوام من أمته يقتتلون على الملك.

٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ إخبار النبي ﷺ عن إمارة السفهاء، وبيع الحكم، والاستخفاف بالدم.

٧٦ ـ إخبار النبي ﷺ بقيام الحكام المضلين على أمور المسلمين.

٧٧ ـ إخبار النبي ﷺ عن حكام وأمراء يميتون الصلاة ويطفئون السنَّة.

٧٨ ـ إخبار النبي ﷺ بولاية أمراء يُعرِّفون الناسَ ما يُنكِرون، ويُنكِرون عليهم ما يَعْرِفون.

٧٩ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور الجلادين والشُّرَط الذين يعذبون الناس.

٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء ثلاثة أصناف من الخلفاء والأمراء من بعده:

ـ خلفاء يعملون بما يعلمون، ويفعلون ما يؤمرون.

ـ ويليهم آخرون يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، ويعملون ما لا يعلمون.

ـ وصنف ثالث يكذبون ويظلمون.

٨٣ ـ ٨٤ ـ إخبار النبي ﷺ بالدورات الحضارية والتاريخية للأمة الإسلامية، وأشكال الحكم وصوره وممارساته خلال تاريخها.

● **الجزء الثالث:**

الفصل الخامس: نبوءات في أحوال الإسلام والمسلمين:

٨٥ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الناس يكثرون والأنصار يقلُّون وتكون عليهم أثرة.

٨٦ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الله لا يهلك المسلمين بجوائح عامة تستأصلهم، ولا يسلط عليهم عدوّاً من غيرهم يستبيح بيضتهم.

٨٧ ـ إخبار النبي ﷺ بأنه إذا وضع السيف على هذه الأمة لم يرفع عنها إلى يوم القيامة، وأن بأس المسلمين بينهم.

٨٨ ـ إخبار النبي ﷺ بتضييع الأمانة، وتوسيد الأمر إلى غير أهله.

٨٩ ـ ٩٠ ـ ٩١ ـ إخبار النبي ﷺ برفع الأشرار ووضع الأخيار، وإظهار القول وترك العمل، واتباع مناهج غير كتاب الله.

٩٢ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان يكون أسعد الناس فيه لكع بن لكع.

٩٣ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان يغربل الناس فيه وتبرز حثالة قد مرجت عهودهم وأماناتهم.

٩٤ ـ ٩٥ ـ إخبار النبي ﷺ بِمَرَجِ الدِّين، واحتراقِ الكعبة.

٩٦ ـ إخبار النبي ﷺ بأنه سيكون بين المسلمين اختلاف كثير.

٩٧ ـ إخبار النبي ﷺ عن سني الخداع وظهور الرويبضة.

٩٨ ـ ٩٩ ـ إخبار النبي ﷺ عن أُناس يتقلبون بين الإيمان والكفر، ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا.

١٠٠ ـ إخبار النبي ﷺ بأن المسلمين سيبتلون حتى يخاف المسلم أن يجهر بصلاته.

١٠١ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان يكون فيه المتمسك بدينه كالقابض على الجمر.

١٠٢ ـ إخبار النبي ﷺ بنقض عُرى الإسلام عروة عروة.

١٠٣ ـ إخبار النبي ﷺ بإصابة الأمة بداء الأمم السابقة.

١٠٤ ـ أخبار النبي ﷺ باتباع أمته سنن اليهود والنصارى والفرس.

١٠٥ ـ إخبار النبي ﷺ بافتراق أمته إلى ثلاث وسبعين فرقة.

١٠٦ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الأمة الإسلامية لا تجتمع على ضلالة.

١٠٧ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً.

١٠٨ ـ إخبار النبي ﷺ بتداعي الأمم على المسلمين.

١٠٩ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور المجددين في كل قرن.

١١٠ ـ إخبار النبي ﷺ عن الطائفة المنصورة.

● **الجزء الرابع:**

✍ **الفصل السادس: نبوءات في الأهواء والكذب وانتشار الضلال والفساد:**

١١١ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور الأهواء وانتشارها.

١١٢ ـ إخبار النبي ﷺ بخروج الكذابَيْن من بعده: الأسود العنسي ومسيلمة.

١١٣ ـ إخبار النبي ﷺ بخروج رجلين من ثقيف: كذاب ومبير.

١١٤ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور القدرية والمرجئة.

١١٥ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء قوم يُعرِضُون عن الأخذ بالسنَّة.

١١٦ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور أناس يكذبون في الأحاديث والأخبار والعقائد والأفكار وغيرها، فيحدِّثون بما لم يعهده المسلمون.

١١٧ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور ثلاثين دجالاً كلهم يزعم أنه نبي.

١١٨ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الكذب سيكثر ويفشو في الأمة.

✍ **الفصل السابع: نبوءات في مقارفة الكبائر وانتهاك المحرمات:**

١١٩ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور قوم يتخذون من ألسنتهم مطية للاكتساب والمنصب والجاه وغيرها.

١٢٠ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور الفحش والتفحش.

١٢١ ـ إخبار النبي ﷺ عن أُناس يشربون الخمر ويسمونها بغير اسمها.

١٢٢ ـ إخبار النبي ﷺ عن قوم يستحلون الزنى والحرير والخمر والمعازف.

١٢٣ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور النساء الكاسيات العاريات.

١٢٤ ـ إخبار النبي ﷺ عن فشو الربا والزنى في الأمة.

١٢٥ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ ـ ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ إخبار النبي ﷺ بخمس خصال تبتلى بهن الأمة الإسلامية:

ـ ظهور الفاحشة والاستعلان بها.

ـ نقصان الكيل والميزان.

ـ منع الزكاة.

ـ نقض عهد الله وعهد رسوله.

ـ الحكم بغير ما أنزل الله.

الفصل الثامن: نبوءات في فتن الدنيا والمال:

١٣٠ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الدنيا ستبسط على المسلمين فيتنافسوا فيها.

١٣١ ـ إخبار النبي ﷺ باستفاضة المال واستغناء الناس عنه.

١٣٢ ـ إخبار النبي ﷺ عن أقوام يحبون الدنيا ويرون الجهاد ضرراً والزكاة مغرماً.

١٣٣ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء زمانٍ لا يبالي المرءُ فيه من حيث كَسَبَ المالَ.

١٣٤ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور الزينة والرغبة.

١٣٥ ـ إخبار النبي ﷺ عن إقبال الدنيا على أمته وتدفق الأموال ودعة العيش والترف.

١٣٦ ـ ١٣٧ ـ ١٣٨ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان:

ـ تَلِد فيه الأَمَةُ ربّتَها.

ـ ويكون الحُفاة العُراة ملوكاً على الناس.

ـ ويتطاولون في البنيان.

١٣٩ ـ ١٤٠ ـ إخبار النبي ﷺ عن تقارب الزمان، وعن تقارب الأسواق.

الفصل التاسع: نبوءات في الأخلاق والعبادات والآداب والمعاملات:

١٤١ ـ إخبار النبي ﷺ عن «تسليم الخاصة» وأن السلام سيكون على المعرفة.

١٤٢ ـ إخبار النبي ﷺ بانتشار قطيعة الرحم.

١٤٣ ـ إخبار النبي ﷺ بوقوع الشح الكثير والشح المطاع.

١٤٤ ـ إخبار النبي ﷺ عن تباهي الناس في المساجد.

١٤٥ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الناس سيتخذون المساجد طرقاً ولا يصلّون فيها.

١٤٦ ـ إخبار النبي ﷺ عن رجال يأتون المساجد راكبين «السيارات» ونساؤهم كاسيات عاريات.
١٤٧ ـ إخبار النبي ﷺ عن أقوام يستهينون بأمر الصلاة واليمين ولا يتورعون فيهما.
١٤٨ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور شهادة الزور وكتمان شهادة الحق.
١٤٩ ـ إخبار النبي ﷺ بفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها فيها.
١٥٠ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان يتبايع الناس فيه بالعينة ويرضون بالزرع ويتركون الجهاد.

الفصل العاشر: نبوءات في العلم:

١٥١ ـ إخبار النبي ﷺ عن الرحلة في طلب العلم.
١٥٢ ـ إخبار النبي ﷺ بظهور القلَم وانتشار العلم.
١٥٣ ـ إخبار النبي ﷺ بالتماس العلم عند الأصاغر.
١٥٤ ـ إخبار النبي ﷺ عن زمان يكون فيه:
ـ قلة الفقهاء والمعطين والأمناء.
ـ وكثرة الخطباء والسُّؤَّال والأمراء والقراء.
ـ والتفقه لغير الدين.
ـ والتماس الدنيا بعمل الآخرة.
ـ والعلم خير من العمل.
١٥٥ ـ إخبار النبيّ ﷺ عن صنف من قراء القرآن يجيدون أداءه ويتخذونه مزامير ويلتمسون به المال والرفعة وعرض الدنيا.
١٥٦ ـ إخبار النبي ﷺ عن قبض العلم ورفعه ونزول الجهل.
١٥٧ ـ إخبار النبي ﷺ عن رفع الخشوع من الأمة.

الفصل الحادي عشر: نبوءات عن ظواهر طبيعية:

١٥٨ ـ إخبار النبي ﷺ بوقوع طاعون عَمَواس.
١٥٩ ـ إخبار النبي ﷺ بأن الطاعون لا يدخل المدينة.

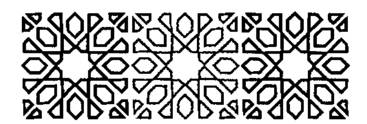
١٦٠ ـ إخبار النبي ﷺ بخروج نارٍ بأرض الحجاز تضيءُ أعناقَ الإبلِ ببُصْرى.

١٦١ ـ إخبار النبي ﷺ عن ظهور معادن يخرج إليها ويستثمرها شرار الخلق.

١٦٢ ـ إخبار النبي ﷺ بمجيء سنوات تكثر فيها الزلازل.

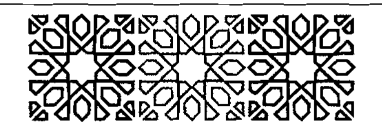
١٦٣ ـ إخبار النبي ﷺ عن كثرة موت الفجأة.





الفصل الأوّل

نبوءات تتعلّق بأشخاص



إخبار النبي ﷺ بمصارع جبابرة قريش في غزوة بدر ومواضع مصارعهم

١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ لمَّا وردَ بَدْراً، أَومأَ فيها إلى الأرضِ، فقال: «**هذا مَصْرَعُ فلانٍ، وهذا مصرعُ فلانٍ**»، فوالله ما أَمَاطَ واحدٌ منهم عن مصرعِه).

وفي رواية: قال أنس: (قال رسول الله ﷺ: «**هذا مصرعُ فلانٍ غداً**» ووَضَع يدَهُ على الأرض، «**وهذا مصرعُ فلان غداً**» ووضع يده على الأرض، «**وهذا مصرعُ فلان غداً**» ووضع يده على الأرض، فقال: والذي نفسي بيده، ما جاوز أحدٌ منهم عن موضع يدِ رسول الله ﷺ، فأَمَر بهم رسول الله ﷺ، فأُخِذَ بأرجُلِهم، فسُحِبوا، فأُلْقُوا في قَليب بدر)[١].

٢ ـ وعن أنس قال: أخذ عمر يحدِّثُنا عن أهل بدر، قال: (إنْ كان رسولُ الله ﷺ لَيُرِينا مَصَارِعَهم بالأمس، يقول: «**هذا مصرعُ فلانٍ غداً إن شاء الله تعالى، وهذا مصرعُ فلانٍ غداً إن شاء الله تعالى**».

قال: فجعلوا يُصْرَعُون عليها، قال: قلت: والذي بعثك بالحقِّ ما أخطؤوا تِيكَ، كانوا يُصْرَعون عليها! ثم أَمَر بهم فَطُرِحوا في بئرٍ)[٢].

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/٢١٩، ٢٥٧؛ ومسلم (١٧٧٩)؛ وأبو داود (٢٦٨١)؛ وابن حبان (٤٧٢٢)، و(٦٤٩٨)، والرواية الأولى لابن حبان، والثانية لأبي داود.

(٢) أخرجه أحمد: ١/٢٦ ـ ٢٧ واللفظ له؛ ومسلم (٢٨٧٣)؛ والنسائي في الكبرى (٢٢١٢)، والصغرى: ٤/١٠٩.

أولاً: شرح الغريب:

مصرع فلان: المصرع هو موضع القتل.

أماط: ماطَ وأَماطَ: أي تنحَّى وبَعُد وزالَ.

قَلِيب بَدْر: القَلِيب: البئر لم تُطْوَ، أي لم تُبْنَ بالحجارة ونحوِها، وإنما هي حُفيرةٌ قُلِب ترابُها، فَسُمِّيتْ قَلِيباً.

ثانياً: بيـــان تحقـــق النبـــوءة:

كانت غزوة بدر الكبرى في يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة، وهو يوم الفرقان الذي فرَّق الله سبحانه فيه بين الحق والباطل، ويوافق اليوم الذي ابتدأ الله فيه نزول القرآن على رسوله محمد ﷺ، وبين التاريخين أربع عشرة سنة قمرية، بُدئت بالقرآن وتُوجت بيوم الفرقان[(١)].

وهي أول غزوة واجه فيها المجتمع المسلم ـ على قلة عدده وعدم تأهبه لقتال أعدائه ـ حشودَ الشرك وطغيانَه، وفجورَ الوثنية المادية الملحدة المتكالبة على هذا المجتمع، في كثرة عددها ووفرة عتادها، وكثرة من خرج فيها من زعمائهم وأشرافهم وقادتهم، ليقاتلوا بأنفسهم، ويحرِّضوا غوغاءهم، وجماهير المستعبَدين لهم على القتال.

وعدد المسلمين كان زُهاء ثلاثمئة رجل، معهم سبعون بعيراً يعتقبونها، وكانوا على حالة من الضعف وقلة الزاد والمؤن بَعثتْ في نفس رسول الله ﷺ الإشفاقَ عليهم والرحمة لهم والرأفة بهم، فدعا لهم حين خرجوا فقال: «**اللهمَّ إنهم حُفاةٌ فَاحْمِلْهُم، اللهمَّ إنهم عُراةٌ فَاكْسُهُم، اللهمَّ إنهم جياعٌ فَأَشْبِعْهُم**»[(٢)].

أما عدد أعدائهم المشركين فكان ألف رجل، اجتمعت فيهم زعامات قريش

(١) السيرة النبوية، لأبي شهبة: ٢/ ١٤٣.
(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٤٧)، وحسَّنه الألباني.

وأشرافها، ومعهم سبعمئة بعير ومئتا فرس، ولهم من مؤن الطعام والسلاح ما بلغ بهم مبلغ الترف والفجور(١).

وأقبلت حشود الشرك في كثرتها الطاغية تجرر أذيال الغطرسة المختالة تحادّ الله ورسوله، ولم يكن يدور بأَخْلِدتها أنها جاءت لتحفر قبورها بأظلافها، وتسعى إلى حَتْفها بأرجلها، في أُهبة حربية وعدَّة قتالية أَغطشتْ أبصارها وأعمَتْ بصائرها.

وتسامَعَ رسول الله ﷺ ـ وهو مع القلة المؤمنة من أصحابه التي خرجت على غير أهبة واستعداد لحرب أو قتال ـ بزحف حشود الظالمين الطغاة إلى مدينته، فلم يغيِّر من موقفه وعزيمته شيئاً، بل مضى قُدُماً، وجلَّى الأمر لأصحابه ليكونوا على بصيرة من أمر مسيرهم، وأخبرهم أنه خرج بهم لملاقاة العِير، لا يبغي قتالاً، ولا يقصد حرباً، ولكن العير فاتَتْهم، وها هي ذي قريش مقبلة بحدِّها وجدِّها وخُيلائها وأهبتها في العدد والعدَّة والمؤن والسلاح، يقودها أشرافها طغاة الملأ فيها وزعماؤها وشياطينها وطواغيتها(٢).

وتتنزل لوائح السُّنَن الخاصة وتلوح معالمها لتأخذ مكانها في جهاد المجتمع المسلم، ولتقوي جانب المؤمنين وتربط على قلوبهم وتزيد من ثباتهم، فيلجأ رسول الله ﷺ إلى عَريشه، فيصلي ويبتهل ويبكي متضرعاً، ويُناشد ربَّه، ويسأله نَصْرَه الذي وعده، ويَستنجزه عهدَه.

ويُرِي الله نبيَّه ﷺ في منامه أعداءه على كثرة أعدادهم قلةً ضئيلة؛ ليُذْهِب هيبة كثرتهم من قلوب القلة المؤمنة، ويُطْمِعَهم فيهم، ويُجرِّئهم عليهم في قتالهم.

ويرى الصحابة رؤية بصرية قلة عدد عدوهم، حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلتُ لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة، حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه: كم كنتم؟ قال: كنا ألفاً).

(١) محمد رسول الله، لمحمد الصادق عرجون: ٣/ ٣١٤، ٣٢٩.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٤، ٣٤٧.

ومما جرى مجرى السُّنَن الخاصة في تأييد الله لعباده المؤمنين أن غشَّاهم النعاسَ أَمَنَةً منه، ليُذْهِب عنهم ما ساورهم من الخوف عند رؤيتهم كثرة أعدائهم، ويُطمئن قلوبهم، ويُسكِّن نفوسهم، ويُهدِّئ من رَوْعِهم، لتعودَ إليهم عزائمهم في صدق التوكل عليه، ويعلموا أن النصر بيد الله.

ثم تحلَّبَت السماء عليهم بالغيث، وأنزل الله عليهم الماء، فلبَّد لهم الأرض، فكانوا إذا سَعَوا عليها وتحركوا فوقها؛ كانوا كأنما يَسْعَون على الصفا مطمئنين.

ومن روائع تلك السُّنَن أن الملائكة شهدت (غزوة بدر) مدداً من الله تعالى لنبيِّه محمد ﷺ وأصحابه، وهذا صريح القرآن في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] أي: متتابعين، يَرْدفُ بعضُهم بعضاً، ويأتي بعضهم في إثر بعض[١].

وفي هذا الحديث موضع النبوءة إشعارٌ من النبيِّ ﷺ لأصحابه بأن أعداءهم على كثرتهم سيكونون غنيمة لهم، وأنهم أشباح بغير قلوب، كالشيء التافه الذي يُرمى به لمهانته، على رغم قوتهم المادية عدداً وعدّة.

فهو ﷺ يشحن بهذا الحديث عزائمهم، ويُذْكي صبرهم، ويضع أمامهم صورة ذلك النفر الطاغي الذي طالما حادَّ الله ورسوله، ونكَّلَ بالمؤمنين على رَمْضاء مكة، وهاهم أولاء قد جاؤوا إلى المدينة المنورة متجبرين يسعَوْن إلى مصارعهم، وفي هذا تسليةٌ لقلوب المؤمنين مما لاقوه منهم، وطمأنة لأنفسهم بعلوِّهم عليهم، ورؤيتهم مُجَنْدَلين على رمال بدر!.

وهؤلاء الذين أخبر رسول الله ﷺ بمصارعهم كانوا من عتاة مشركي قريش، آذوا النبي ﷺ وأتباعه، وقد سبق أن دعا رسول الله ﷺ عليهم في بواكير سني الدعوة، فأجاب الله دعاءه، وحقَّق رجاءه.

---

(١) محمد رسول الله، لمحمد الصادق عرجون: ٣/ ٣٨٣، ٣٨٧، ٣٨٨.

روى أبو إسحاق السَّبِيعي، عن عَمْرو بن مَيْمون، عن ابنِ مسعود قال: (بينما رسول الله ﷺ يصلِّي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نُحرت جَزُورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سَلَا جَزُور بني فلان، فيأخذُه فيضعُه في كتفَيْ محمد إذا سجد؟ فانبعَثَ أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفَيْه. قال: فاستَضْحَكوا، وجعل بعضُهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعةٌ طرحتُه عن ظهر رسول الله ﷺ.. والنبي ﷺ ساجدٌ ما يرفع رأسه! حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمةَ، فجاءت وهي جُويريةٌ، فطرحَتْه عنه، ثم أقبلَتْ عليهم تَشْتِمُهم.. فلما قضى النبي ﷺ صلاته، رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: «**اللهمَّ عليكَ بقريشٍ**» ثلاثَ مراتٍ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحِكُ وخافوا دعوته، ثم قال: «**اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام، وعُتْبَةَ بن ربيعة، وشَيْبة بن ربيعة، والوليد بن عُتْبة**[1]**، وأميَّة بن خَلَف، وعُقبة بن أبي مُعَيْطٍ...**» وذكر السابعَ ولم أحفظه[2]؛ فوالذي بعث محمداً بالحقِ، لقد رأيتُ الذين سمَّى صرعى يومَ بدرٍ، ثم سُحِبوا إلى القَلِيب، قَليب بدرٍ)[3].

وكان بين صدور تلك الدعوة النبوية واستجابتها في نبوءة صادقة ساطعة في غزوة بدر الكبرى، زُهاءَ عشر سنين.

❋ ❋ ❋

---

(١) وقع في رواية مسلم: (الوليد بن عقبة)، وعند البخاري وغيره كما أثبتناه، وهو الصواب كما نبّه عليه الحافظ في «فتح الباري».

(٢) قائل ذلك هو أبو إسحاق السبيعي، كما صرّح به في رواية أخرى عند مسلم.

(٣) أخرجه أحمد: ١/ ٣٩٣، ٤١٧؛ والبخاري (٢٤٠) وأطرافه؛ ومسلم (١٧٩٤)؛ والنسائي في الكبرى (٢٩٢)؛ وابن حبان (٦٥٧٠)، وغيرهم، وهذا لفظ مسلم. **والسلا**: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه. **وأشقى القوم**: هو عقبة بن أبي معيط. **والرجل السابع**: هو (عُمارة بن الوليد) كما جاء مصرحاً به في إحدى روايات البخاري (٥٢٠).

إخبار النبي ﷺ
عن رجل قاتل في غزوة خيبر قتالاً شديداً
أنه من أهل النار

١ ـ روى الزُّهرِيُّ، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبرَ[١]، فقال رسول الله ﷺ لرجلٍ ممن معه يدَّعي الإسلام: «**هذا من أهل النار**» فلما حضَر القتال، قاتل الرجل من أشدِّ القتال، وكثُرتْ به الجِراح، فأثبتَتْهُ، فجاء رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيتَ الذي تحدَّثْتَ أنه من أهل النار، قد قاتل في سبيل الله من أشدِّ القتال فكَثُرتْ به الجراح؟! فقال النبي ﷺ: «**أمَا إنه من أهل النار**»! فكاد بعض المسلمين يرتاب.. فبينما هو على ذلك، إذ وَجد الرجل أَلَمَ الجراح، فأهوى بيده إلى كِنانته فانتزع منها سَهْماً فانتحر بها! فاشتدَّ رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! صَدَّقَ اللهُ حديثَكَ، قد انتحر فلان فقتل نفسه.. فقال رسول الله ﷺ: «**يا بلال! قُمْ فأَذِّنْ: لا يدخلُ الجنةَ إلا مؤمنٌ، وإنَّ اللهَ ليؤَيِّدُ هذا الدينَ بالرجُلِ الفاجِر**»).

وفي رواية: (فقال النبي ﷺ: «**أَشهدُ أني عبدُ الله ورسولُه**» ثم أَمر بلالاً فنادىٰ في الناس: «**إنه لا يَدخلُ الجنةَ إلا نفسٌ مسلمةٌ، وإن الله ليؤَيِّدُ هذا الدينَ بالرجُلِ الفاجِرِ**»)[٢].

---

(١) في رواية مسلم وابن حبان: (حُنَيناً).

(٢) أخرجه أحمد: ٢/٣٠٩؛ والبخاري (٦٦٠٦) و(٣٠٦٢)؛ ومسلم (١١١)؛ وعبد الرزاق (٩٥٧٣)؛ وابن حبان (٤٥١٩)؛ والبغوي (٢٥٢٦)، واللفظ للبخاري.

٢ ـ وعن أبي حازم سَلَمة بن دينار، عن سَهْل بن سعد الساعِديِّ ﷺ: (أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مالَ رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخَرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلٌ لا يَدَعُ لهم شاذَّةً ولا فاذَّةً إلا اتَّبَعَها يَضْرِبُها بسيفه، فقيل: ما أَجْزَأَ منَّا اليومَ أحدٌ كما أَجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَا إنَّه من أهلِ النار**»! فقال رجلٌ من القوم: أنا صاحبُه. قال: فخرج معه كلَّما وَقَف وَقف معه، وإذا أَسرعَ أسرع معه، قال: فَجُرِحَ الرجلُ جُرْحاً شديداً، فاستَعْجَل الموتَ، فوضع نَصْلَ سيفه بالأرض وذُبَابَهُ بين ثدْيَيْه، ثم تحامَلَ على سيفه فَقَتل نَفْسَه. فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهدُ أنك رسولُ الله! قال: «**وما ذاكَ؟**» قال: الرجلُ الذي ذكرتَ آنفاً أنه من أهل النار، فأَعْظَمَ الناس ذلك. فقلتُ: أنا لكم به، فخرجتُ في طلبه، ثم جُرح جُرْحاً شديداً، فاستَعْجَلَ الموتَ، فوضع نَصْلَ سيفه في الأرض وذُبَابَه بين ثدْيَيْه ثم تحامَلَ عليه فقَتَل نَفْسَه. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**إنَّ الرجلَ لَيَعْملُ عملَ أهلِ الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإنَّ الرجلَ لَيَعمل عملَ أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**»)[1].

❁ ❁ ❁

أولاً: بيان معنى غريب الكلمات:

شاذَّة ولا فاذَّة: الشاذَّة: ما انفرد عن الجماعة، **والفاذَّة**: مثله ما لم يختلط بهم، والمعنى: أنه لا يلقى أحداً إلا قتله.

ما أَجزأ منّا اليوم أحدٌ ما أجزأ فلان: ما أَغنى وكَفى أحد غَناءه وكفايته.

أنا صاحبه: أي: أنا أصحبه في خُفْيَة وألازمه؛ لأنظر السبب الذي به يصير

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٣٣١ ـ ٣٣٢، ٣٣٥؛ والبخاري (٢٨٩٨) وأطرافه؛ ومسلم (١١٢)، وأبوعوانة في مسنده: ١/ ٥٠ ـ ٥١؛ وابن أبي عاصم في السنة (٢١٦)؛ والبيهقي في دلائل النبوة: ٤/ ٢٥٢، وغيرهم، واللفظ للبخاري.

من أهل النار، فإنَّ فعله في الظاهر جميل، وقد أخبر النبي ﷺ أنه من أهل النار، فلا بد له من سبب عجيب.

ذُباب السيف: طرفه الذي يُضْرَب به.

نَصْل السيف: حَديدُه.

ثانياً: تحقق النبوءة:

في هذين الحديثين عَلَمٌ من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، ففيه إخباره بالمغيبات، وذلك من معجزاته الظاهرة.

وقد أبان النبي ﷺ في نهاية الحديث أن الجنة لا يدخلها إلَّا نفس مؤمنة، وأن الأعمال بالخواتيم، (**وإنَّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار**)! وهذا الرجل كانت خاتمته السيئة أنه استعجل الموت فقتل نفسه بسيفه، فمات منتحراً، والمنتحر جزاؤه النار.

ويَحتمِل أن يكون النبي ﷺ اطلع على كُفْره في الباطن، أو أنه استحلَّ قَتْل نفسه[(١)].

وفي «الصحيحين» وغيرهما: عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «... **وإنَّ الرجلَ لَيعملُ بعمل أهل الجنَّة، حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ، فَيسبِقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعمل أهل النار، فيدخلُ النار**»[(٢)].

وهكذا كان حال هذا البائس الذي قاتل أشدّ القتال، حتى أُعجب الأصحاب بشجاعته النادرة وإثخانِه في العدو، لكنه كان في حقيقة أمره غير صادق في جهاده، ولا مخلص لله في قتاله في صفوف المسلمين، والله سبحانه لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، فلم تدركه السعادة، وباء بسوء الخاتمة.

---

(١) الفتح: ٧/ ٤٨٥، شرح الحديث (٢٨٩٨).

(٢) البخاري (٣٣٣٢)؛ ومسلم (٢٦٤٣).

عن أنس بن مالك: (أن النبي ﷺ قال: «**إذا أراد الله بعبد خيراً استعملَهُ**»، قيل: كيف يستعملُه؟ قال: «**يوفِّقه لعملٍ صالح قبل الموت ثم يَقبضه عليه**»)[١].

وبين القصة التي في حديث أبي هريرة والقصة التي في حديث سهل بن سعد بعضُ المُغَايَرة، (فإن في سياق سهل: أن الرجل الذي قتل نفسه اتكأ على حدِّ سيفه حتى خَرج من ظهره، وفي سياق أبي هريرة: أنه استخرج أسهماً من كنانته فنَحر بها نفسَه. وأيضاً: ففي حديث سهل: أن النبيَّ ﷺ قال لهم لمّا أخبروه بقصته: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة...**» الحديث، وفي حديث أبي هريرة: أنه قال لهم لما أخبروه بقصته: «**قُمْ يا بلال فأَذِّنْ: إنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن**». ولهذا جنح ابن التين إلى التعدد).

وقال الحافظ: (ويمكن الجمع بأنه لا منافاة في المغايرة الأخيرة، وأما الأولى: فَيَحتمِل أن يكون نَحر نفسه بأسهمه، فلم تَزْهَقْ روحُه وإن كان قد أشرف على القتل، فاتكأ حينئذٍ على سيفه استعجالاً للموت)[٢].

وهذا الذي جنح إليه الحافظ ابن حجر في الجمع بين الحديثين وأن القصة متحدة هو الظاهر، والله أعلم.

وذكر ابن إسحاق والواقِديُّ وغيرهما من كتَّاب السيرة والمغازي قصة مشابهة لرجل يُسمَّى (قُزْمان)، وقعت في غزوة أُحد.

قال ابن إسحاق: (حدثني عاصم بن عُمر بن قتادة قال: كان فينا رجل أَتِيٌّ[٣]، لا يُدرى ممَّن هو، يُقال له: قُزْمَان، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكِر له: «**إنه لَمِن أهل النار**» قال: فلما كان يومُ أُحد قاتل قتالاً شديداً، فقَتَل وحده ثمانيةً أو سبعةً من المشركين، وكان ذا بأس، فأثبتَتْه الجِراحة، فاحتُمِل إلى

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/١٠٦، ١٢٠، ٢٣٠؛ والترمذي (٢١٤٢)؛ والحاكم: ٤/٣٤٠؛ وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وابن حبان (٣٤١)؛ والبغوي (٤٠٩٨).

(٢) الفتح: ٩/٤٤٩، شرح الحديث (٤٢٠٢).

(٣) هو الرجل يكون في القوم ليس منهم.

دار بني ظَفَر، قال: فجعل رجالٌ من المسلمين يقولون له: والله لقد أَبْلَيتَ اليوم يا قُزمان، فأَبْشِر. قال: بماذا أَبْشِر؟ فوالله إنْ قاتلتُ إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلتُ. قال: فلما اشتدت عليه جراحتُه، أخذ سهماً من كِنانته فقَتَل به نفسه)[١].

وسواء وقعت هذه القصة مرة واحدة أو تعددت، وأيّاً كان ذلك الرجل الذي قاتل حميَّة وأَنَفَة وعلى أحساب قومه، ولم يخرج في سبيل الله ومناصراً لرسول الله ﷺ؛ فالمغزى واحد، والنتيجة واحدة، فلقد صدَّق الله نبيَّه ﷺ، وتحققت النبوءة مثلَ فَلَق الصبح.



(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٨٨؛ زاد المعاد: ٣/ ١٩٠؛ سبل الهدى والرشاد المعروفة بالسيرة الشامية: ٤/ ٣١٧.

إخبار النبي ﷺ بموته، وأنه أمنة لأصحابه

١ ـ عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: (أتيتُ النبيَّ ﷺ فسلَّمتُ عليه، فقال: «**عوفٌ؟**» فقلت: نعم، فقال: «**ادخُلْ**» قال: قلت: كُلِّي أو بَعْضي[١]؟ قال: «**بل كُلُّكَ**» قال: «**اعدُدْ يا عوفُ ستّاً بين يدي الساعة: أولُهنَّ مَوْتي**»، قال: فاسْتَبكيتُ حتى جعل رسول الله ﷺ يُسَكِتني، قال: قلتُ: إحدى. «**والثانية: فتحُ بيتِ المَقْدِس**»، قلت: اثنتين)... الحديث[٢].

٢ ـ وعن واثِلَةَ بن الأَسْقَع رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**تَزعُمون أنِّي من آخرِكم وفاةً، إنِّي من أَوَّلِكُم وفاةً، وتَتْبَعُوني أَفْناداً يَضرب بعضُكم رقابَ بعضٍ**»[٣].

❁ ❁ ❁

●● يتضمن الحديث الأول ستَّ نبوءات، تحقَّقتْ خمسٌ منها على الترتيب المذكور في الحديث، والأخيرة لمّا تتحقق بعدُ. . وقد كانت وفاة سيدنا رسول الله ﷺ إحدى هذه الأشراط الست بين يدي الساعة، وأولها وقوعاً.

---

(١) في بعض الروايات: (أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم)، وكانت القبة صغيرة، فلذا قال عوف: (أَدْخُل كلِّي أو بَعْضي). الفتح: ٧/ ٧٨٢، شرح الحديث (٣١٧٦).

(٢) أخرجه أحمد: ٦/ ٢٥. وانظر تمام تخريجه: ١/ ٢٣٢، النبوءة (٢٥) من هذا المجلد.

(٣) أخرجه أحمد: ٤/ ١٠٦؛ والطبراني: ٢٢/ (١٦٧) و(١٦٨)؛ وابن حبان (٦٦٤٦)، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٨٥١).
أفناداً: أي: جماعات متفرقين، قوماً بعد قوم.

ووفاته ﷺ كانت أعظمَ مصيبةٍ أُصيب بها المسلمون، وأشدَّها وقعاً على قلوبهم، وأعظمَها رُزْءاً عليهم. . بل إن النبيَّ ﷺ قد أشار إلى ذلك فيما ترويه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: (فتح رسول الله ﷺ باباً بينه وبين الناس، أو كَشَفَ سِتْراً، فإذا الناس يُصلُّون وراء أبي بكر، فَحَمِدَ اللهَ على ما رأى من حُسْن حالهم، ورجاءَ أن يَخْلُفَه الله فيهم بالذي رآهم، فقال: «**يا أيها الناس! أيُّما أحدٍ من الناس أَوْ مِن المؤمنين أُصِيب بمصيبةٍ؛ فَلْيَتَعزَّ بمصيبته بي عن المُصيبة التي تُصِيبه بغيري، فإن أحداً من أمتي لن يُصابَ بمصيبةٍ بعدي أشدَّ عليه من مُصيبتي**»)[1].

قال المُنَاوي: (مقصودُ الحديث أنَّ تذكُّرَ المصاب وقوعَ المصيبة العظمى العامة بفَقْدِ المصطفى ﷺ يهوِّن عليه ويُسلِّيه)[2].

وذلك لأن حياته ﷺ ـ بأبي هو وأمي ونفسي ـ كانت أَمَنَةً للمسلمين من الفتن، وحمايةً لهم من الأهواء والبدع، وحفاظاً على وحدة كلمتهم، ودَرْء الاختلاف والاحتراب بينهم، وغير ذلك مما فيه خيرهم.

ففي الحديث الذي يرويه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلِّيَ معه العشاء، قال: فجلسنا، فخرج علينا فقال: «**ما زِلْتُم هَهُنا؟!**» قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلسُ حتى نصلِّيَ معك العشاء، قال: «**أَحسنتُم**» أو «**أَصبتم**». قال: فرفع رأسَه إلى السماء، وكان كثيراً مما يَرفعُ رأسه إلى السماء، فقال: «**النجومُ أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذَهبتِ النجومُ أتى السماءَ ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعَدون، وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمَّتي ما يُوعَدون**»)[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٩٩)، وصحَّحه الألباني بشواهده في الصحيحة (١١٠٦)، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق سنن ابن ماجه: حسن بشواهده.

(٢) فيض القدير: ١/ ٢٨٦.

(٣) أخرجه أحمد: ٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩؛ ومسلم (٢٥٣١) واللفظ له؛ وابن حبان (٧٢٤٩)؛ والبيهقي في الاعتقاد، ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

قال الإمام النووي: (معنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة، وَهَنتِ السماء فانفطرت وانشقت وذهبت).

وقوله ﷺ: «**وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي...**»: أي: من الفتن والحروب، وارتداد مَن ارتدَّ من الأعراب، واختلاف القلوب، ونحو ذلك مما أُنذر به صريحاً، وقد وقع كل ذلك.

وقوله ﷺ: «**وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي...**»: معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه، وطلوع قَرْن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة، وغير ذلك... وهذه كلها من معجزاته ﷺ)[(١)].

وقال ابن حِبَّان كلاماً قريباً منه[(٢)].

وقال ابن الأثير: (والإشارة في الجُملة إلى مجيء الشرِّ عند ذهاب أهل الخير، فإنه ﷺ لمَّا كان بين أَظْهُرِهم كان يُبيِّن لهم ما يختلفون فيه، فلما توفي جالَت الآراء واختلفتِ الأهواء، فكان الصحابة ﷺ يُسْنِدُون الأمر إلى رسول الله ﷺ في قول أو فعل أو دلالة حالٍ، فلما فُقِدَ قلَّتِ الأنوار وقويت الظُّلَم، وكذلك حال السماء عند ذهاب النجوم. **والأَمَنة** في هذا الحديث: جمعُ أمين، وهو الحافظ)[(٣)].

●● ولقد كان هولُ الفاجعة عظيماً على قلوب الصحابة، حتى زلزل أقدامهم، وهزَّ كيانهم، فطاشَتْ عقول أشداء الرجال، وأنكر الأكابر قلوبهم، فكأنها لم تَعُدْ على أُلْفتها ورقَّتها وصفائها وأشواقها واندفاعها، وأَظلمت المدينة في أعينهم، بل الكون كله، وحُقَّ لهم ذلك؛ فلقد كان الرسول العظيم ﷺ نورَ أبصارهم، وضياءَ بصائرهم، ومُؤَجِّج طاقاتهم، ومُوقدَ عزائمهم، وقبل ذلك كله كان هو الذي يربيهم ويهديهم ويزكيهم، ويعالج مشكلاتهم، ويحلُّ خلافاتهم،

---

(١) شرح مسلم: ٨/ ٣٢٣.

(٢) صحيح ابن حبان: ١٦/ ٢٣٥.

(٣) النهاية: ١/ ٧٠ ـ ٧١.

ويجيب على سؤالاتهم، ويُنير دربهم، ويوحِّد صفَّهم، ويقود جمعهم، ويجاهد مع كتائبهم، ويواسي جراحهم، ويخفِّف مصائبهم، بل إنْ شئتَ قلتَ: كان لهم كل شيء، فإذا بهم يَفْقِدون كل شيء!.. هكذا كانت منزلته ﷺ في قلوب أصحابه، وهكذا كانوا يقيمونه من أنفسهم وحياتهم.. فكيف لا تطيش عقولهم ولا تتزلزل أقدامهم؟!.

لكنهم مع ذلك أيقنوا أن موته ﷺ حقٌّ، وهم يتلون قولَ الحق تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فأفاقوا من هول المصيبة، واعتصموا بالأصل العظيم الذي جاء به وتركَه بين أيديهم؛ كتاب الله، وسُنَّته ﷺ وهَدْيه، فحملوا الراية، وكانوا خير أتباع الأنبياء على وجه الدهر.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (لمَّا كان اليومُ الذي دَخلَ رسول الله ﷺ فيه المدينةَ، أضاءَ منها كلُّ شيء، فلما كان اليومُ الذي مات فيه، أَظْلَمَ منها كلُّ شيء، وما نَفَضْنا عن النبي ﷺ الأيديَ، وإنَّا لفي دفنِهِ، حتى أَنْكَرْنا قلوبَنا!)[١].

وانظر إلى السيدة البَتُول فاطمةَ الزهراء وموقفِها عند وفاة أبيها ﷺ ومدى حُزْنها عليه، فيما يرويه أنسٌ رضي الله عنه قال: (لمَّا تغشَّى رسولَ الله ﷺ الكَرْبُ، كان رأسُه في حَجْر فاطمةَ، فقالت فاطمةُ: وَا كَرْباهُ لِكَرْبِكَ اليومَ يا أبتاهُ! فرفع رأسَه ﷺ وقال: «**لا كَرْبَ على أبيكِ بعدَ اليوم يا فاطمةُ**».. فلما توفي، قالت فاطمة: وَا أَبَتَاهُ أجابَ ربّاً دعاهُ، وا أبتاهُ من ربِّه ما أَدْناهُ، وا أبتاهُ إلى جنة الفِردوس مأواهُ، وا أبتاهُ إلى جبريلَ أَنْعَاهُ.. قال أنس: فلما دفنَّاهُ، مررتُ بمنزل فاطمة، فقالت: يا أنسُ! أَطابَتْ أنفسُكم أنْ تَحْثُوا على رسول الله ﷺ الترابَ؟!)[٢].

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٢٢١، ٢٦٨؛ والترمذي (٣٦١٨)؛ وابن ماجه (١٦٣١)؛ وابن حبان (٦٦٣٤)؛ والبغوي (٣٨٣٤)، وقال الترمذي: حديث غريب صحيح، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ٢٠٤؛ والبخاري (٤٤٦٢)؛ وابن ماجه (١٦٣٠)؛ والبيهقي في =

قال الحافظ: (أشارت ﵂ بذلك إلى عِتابهم على إقْدامهم على ذلك؛ لأنه يدلُّ على خِلاف ما عرفَتْه منهم من رقَّة قلوبهم عليه لشدَّة محبَّتهم له، وسَكَتَ أنس عن جوابها رعايةً لها، ولسانُ حالِه يقول: لم تَطِبْ أنفسُنا بذلك، إلا أنَّا قَهَرْنَاها على فعله امتثالاً لأمره)[1].

وتصوِّر لنا أمُّ أيمن ﵂ حاضنتُه ﷺ مدى حزنها وسَبَبه، فترى من خلال كلماتها القليلة العميقة جلالةَ الفهم، ورقةَ المشاعر، وأشواقَ الروح التي كان عليها ذلك الجيل العظيم من الصحابة رجالاً ونساءً.

عن أنس قال: (قال أبو بكر ﵁ ـ بعدَ وفاة رسول الله ﷺ ـ لعُمرَ: انطَلِقْ بنا إلى أم أيمن نَزُورُها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها.. فلما انتهينا إليها بكَتْ، فقالا لها: ما يُبكيكِ؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ! فقالت: ما أبكي أن لا أكونَ أعلمُ أن ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ، ولكنْ أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء.. فَهَيَّجَتْهما على البكاءِ، فجَعَلا يَبْكيانِ معها)[2].

●● وكانت وفاته ﷺ قبل أصحابه من تمام رحمة الله تعالى لهذه الأمة، وإكرامه لها، ورفعه لمكانتها؛ لأنها الأمة الوسط، والشاهدة على الأمم، والخاتمة التي أنزلت عليها الرسالة العظمى الخاتمة، وأكرمها بالرسول الخاتم.

عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله إذا أراد رحمةَ أمةٍ من عباده، قَبَض نبيَّها قَبْلَها، فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً، وإذا أراد هَلَكَةَ أمة؛ عذَّبها، ونبيُّها حيٌّ، فأقرَّ عينَه بِهَلكتِها حين كذَّبوه وعَصَوْا أمرَهُ»**[3].

= الدلائل: ٧/ ٢١٢ ـ ٢١٣؛ وابن حبان (٦٦٢٢) واللفظ له.

(١) الفتح: ٩/ ٧٩٧، شرح الحديث (٤٤٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٤) واللفظ له؛ وابن ماجه (١٦٣٥)؛ وابن سعد: ٨/ ٢٢٦؛ وأبو نعيم في الحلية: ٢/ ٦٨.

(٣) أخرجه ابن حبان (٦٦٤٧)؛ والبيهقي في الدلائل: ٣/ ٧٦؛ والذهبي في سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٤٢٦؛ وعلَّقه مسلم (٢٢٨٨)، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

ورحل الرسول الكريم ﷺ عن هذه الدنيا، ولقي وجهَ ربِّه، بعد ما قضَى عُمُره المبارك في جهاد وأعمال تُضْني الأبطال وتُوهي الجبال، وكان آخِرَ ما قاله كما تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «**اللهمَّ اغْفِرْ لي وارْحَمْني، وأَلْحِقْني بالرَّفيق الأعلى**»[1].

والمعتمد في معنى قوله ﷺ: «**في الرفيق الأعلى**»: هم الجماعة المذكورون في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ولقد رثاه ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بأشعار رقيقة تعبّر عما يعتمل في أفئدتهم، وتجيش به أنفسهم، للمصيبة الجلل والمصاب العظيم الذي نزل بهم.

جاء عن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام أنها أَخذت تربةً من تراب الرسول ﷺ، وشَمَّتْ، ثم أَنشدتْ:

ماذا على مَن شَمَّ تربةَ أحمدٍ ... أن لا يَشَمَّ مدى الزمانِ غَوَاليا
صُبَّتْ عليَّ مصائبٌ لو أنها ... صُبَّتْ على الأيام صِرْنَ لَيَاليا[2]

وقال أبو بكر رضي الله عنه:

يا ليتني من قَبْل مَهْلِك صاحبي ... غُيِّبْتُ في جَدَثٍ عليَّ صخورُ
فَلَتَحْدُثَنَّ بدائعٌ من بَعْدِه ... تَعْيَا بِهِنَّ جوانحٌ وصُدورُ[3]

وقال شاعر الإسلام حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بالمدينة بينهمْ؟ ... يا لَهْفَ نفسي ليتَني لم أُولَدِ
بأبي وأمي مَنْ شهدتُ وفاتَهُ ... في يومِ الاثنينِ النبيِّ المهتدي

---

(١) أخرجه مالك: ١/٢٣٨؛ وأحمد: ٦/٢٣١؛ والبخاري (٤٤٣٦) و(٤٤٤٠)؛ ومسلم (٢٤٤٤)؛ والترمذي (٣٤٦٩)؛ وابن حبان (٦٦١٨).

(٢) الإذاعة: ٨٣، ٨٤.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/٣٢٠.

فَظَلِلْتُ بعدَ وفاته مُتَلَدِّداً ... يا ليتَني صُبِّحْتُ سُمَّ الأَسْوَدِ
واللهِ أسمَعُ ما حَيِيتُ بهالكٍ ... إلَّا بَكَيْتُ على النبيِّ محمدِ[١]!

❋ ❋ ❋

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٢٢، ٣٢٣.

إخبار النبي ﷺ ابنته فاطمة بأنها أول أهله لحوقاً به

١ ـ عن عامر الشَّعْبيِّ، عن مَسْروق، عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: (اجتمع نساءُ النبي ﷺ، فلم يُغادر منهنَّ امرأةً، فجاءت فاطمةُ تمشي كأن مِشْيَتَها مِشْيةُ رسولِ الله ﷺ، فقال: «**مَرْحباً بابنتي**» فأجلَسَها عن يمينه أو عن شِماله، ثم إنه أَسرَّ إليها حديثاً فبَكَتْ فاطمة، ثم إنه سارَّها فَضَحكتْ أيضاً، فقلت لها: ما يُبْكيكِ؟ فقالت: ما كنتُ لِأُفْشِيَ سرَّ رسول الله ﷺ.. فقلت: ما رأيتُ كاليومِ فرحاً أقربَ من حُزْنٍ! فقلت لها حين بكَتْ: أَخَصَّكِ رسول الله ﷺ بحديثه دُوننا ثم تبكينَ؟! وسألتُها عمَّا قال، فقالت: ما كنتُ لِأُفْشِيَ سرَّ رسول الله ﷺ.. حتى إذا قُبض سألتها، فقالت: إنه كان حَدَّثني: «**أن جبريلَ كان يُعَارِضُه بالقرآن كلَّ عام مرةً، وإنه عارَضَهُ به في العام مرتين، ولا أُراني إلا قد حَضر أَجَلي، وإنكِ أولُ أهلي لُحُوقاً بي، ونِعمَ السَّلَفُ أنا لكِ**».. فبكَيْتُ لذلكِ.. ثم إنه سارَّني فقال: «**أَلَا ترضَيْنَ أن تكوني سيِّدةَ نساءِ المؤمنين، أو سيِّدَةَ نساءِ هذه الأمة؟!**» فَضَحِكْتُ لذلكِ)[1].

٢ ـ وعن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (ما رأيتُ أحداً أشبَهَ سَمْتاً ودَلّاً وهَدْياً برسول الله في قيامها وقعودِها من فاطمة بنتِ رسول الله ﷺ.

قالت: وكانت إذا دخلتْ على النبيِّ ﷺ قام إليها فقبَّلها وأَجْلَسها في مجلسِه،

---

(١) أخرجه أحمد: ٦/ ٢٨٢؛ والبخاري (٣٦٢٣، ٣٦٢٤)؛ ومسلم (٢٤٥٠)؛ والنسائي في الكبرى (٧٠٤١، ٨٣١٠)؛ وابن ماجه (١٦٢١)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٤٤)؛ والبغوي (٣٩٦٠)، وغيرهم، واللفظ لمسلم.

وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلِسِها فقبَّلَتْه وأجلَسَتْه في مجلسِها.. فلما مرض النبي ﷺ، دخلت فاطمة فأكبَّتْ عليه فقبَّلَتْه، ثم رفَعتْ رأسَها فبَكَتْ، ثم أكبَّتْ عليه، ثم رفعتْ رأسَها فضَحِكَتْ!.

فقلتُ: إنْ كنتُ لأظنُّ أن هذه من أعقلِ نسائنا، فإذا هي من النساء! فلما توفي النبي ﷺ، قلت لها: أرأيتِ حين أكبَبْتِ على النبي ﷺ، فرفَعْتِ رأسَك فبَكَيْتِ، ثم أكبَبْتِ عليه فرفعتِ رأسك فضَحِكْتِ، ما حَمَلكِ على ذلك؟ قالت: إني إذاً لَبَذِرَةٌ! أخبرني أنه ميِّتٌ من وَجَعهِ هذا فبَكَيْتُ، ثم أخبرني أني أسرعُ أهلِه لُحوقاً به، فذلكِ حين ضحكتُ)(١).

٣ ـ وعن عروةَ بنِ الزبير، عن عائشة ؓ قالت: (دعا النبي ﷺ فاطمةَ في وَجَعِه الذي قُبِض فيه، فسارَّها بشيء فبَكَتْ، ثم دعاها فسارَّها بشيء فضحِكَتْ.. قالت عائشة: فسألتُها عن ذلك بعدَهُ، فقالت: سارَّني النبيُّ ﷺ أولَ مرةٍ، فأخبرني أنه يُقْبَض في مرضه؛ فبَكَيْتُ، ثم سارَّني فأخبرني أني أولُ أهله لحوقاً به، فَضَحِكْتُ)(٢).

❁ ❁ ❁

أولاً: توضيح معنى وإزالة إشكال:

اختلفت روايتا عروة ومسروق في أمرين:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٤٧، ٩٧١)؛ وأبو داود (٥٢١٧)؛ والترمذي (٣٨٧٢)؛ والنسائي في الكبرى (٨٣١١، ٩١٩٢، ٩١٩٣)؛ وابن حبان (٦٩٥٣)؛ والحاكم: ٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أحمد: ٦/ ٧٧، ٢٤٠، ٢٨٢؛ والبخاري (٣٦٢٥، ٣٦٢٦، ٣٧١٥، ٣٧١٦، ٤٤٣٣)؛ ومسلم (٢٤٥٠) (٩٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨٣٠٩)؛ والبغوي (٣٩٥٩)؛ وابن حبان (٦٩٥٤) واللفظ له.

الأول: ذكر عروة أن الذي سارَّ به النبيُّ ﷺ فاطمةَ في المرة الأولى أنه أخبرها بموته في مرضه هذا.

أما مسروق فذكر في المسارَّة الأولى أنه ﷺ أخبر فاطمة بقُربِ أجله، وأنها أولُ أهله لحوقاً به.

الثاني: فيما سارَّها به ثانيةً فَضحكَتْ:

ففي رواية عروة: إعلامه ﷺ إياها بأنها أولُ أهلِهِ لحوقاً به، فضحكت لذلك.

وفي رواية مسروق: إخبارها بأنها سيدة نساء المؤمنين وسيدة نساء أهل الجنة.

وقد رجَّح الحافظ ابن حجر رواية مسروق لاشتمالها على زيادات ليست في حديث عروة، وهو من الثقات الضابطين[١].

قلت: والذي نراه ونرجِّحه رواية عروة بن الزبير، فهو أيضاً من جبال الحفظ ومن أعلمِ الناس وأبْطَنِهم بحديث خالته عائشة.. ثم قد وافقه على ذلك: عائشةُ بنت طلحة وهي ثقة جليلة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وهو من أئمةِ العلم وبحورهِ.

وحديث عائشة بنت طلحة تقدَّم.

وجاء في حديث أبي سَلَمة عن أم المؤمنين عائشة: أن فاطمة عليها السلام قالت: (لمَّا أكببتُ عليه أخبرني أنه ميِّتٌ من وَجَعِه ذلك فبَكَيْتُ، ثم أَكببتُ عليه فأخبرني أني أسرعُ أهلِه به لُحوقاً، وأني سيِّدةُ نساءِ أهل الجنة إلا مريمَ بنتَ عِمران، فرفعتُ رأسي فضَحِكْتُ)[٢].

(١) الفتح: ٩/ ٧٨٣، شرح الحديث (٤٤٣٣).
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٣٠٨، ٨٤٥٩)، وإسناده أئمة.

ففي المسارَّة الأولى أخبر النبي ﷺ فاطمة ﷺ بقُرب وفاته، فجزعَتْ لذلك وحزنَتْ وبكَتْ، فلما رأى جَزَعها صبَّرها وبَشَّرها بأنها أولُ أهلِه لحوقاً به، وزادها بشارةً فذكر لها منزلتها الرفيعة في الجنة فضحكتْ سروراً بالأمرين، كما أوضحت رواية أبي سلمة، والله أعلم.

وفي الحديث حرصُ السيدة فاطمة على كتمان سرِّ أبيها ﷺ، حتى قالت في الرواية الأخرى: (إني إذاً لَبَذِرَةٌ): **والبَذِرُ**: الذي يُفشي السرَّ ويُظْهِر ما يَسْمعه.

ثانياً: تحقق النبوءة:

في هذه الأحاديث إخبارُ النبي ﷺ بما سيقع، فوَقَع كما قال، وهو معجزة ظاهرة له ﷺ، بل فيها ثلاث معجزات:

الأولى: أنه أخبرها بموته في مرضه هذا.

والثانية: أَعْلَمَها ببقائها بعده.

والثالثة: أنها أولُ أهله لحوقاً به.

وقد كان ذلك كله، واتفق المؤرِّخون على أن فاطمة ﷺ كانت أولَ من مات من أهل بيت النبي ﷺ بعده حتى من أزواجه.

عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: (مكثتْ فاطمة بعد وفاة رسول الله ﷺ ستة أشهر، ودفنت ليلاً)(١).

وصلّى عليها العباس بن عبد المطلب، ونزل في حفرتها هو وعلي والفَضْل بن العباس.

وُلدت السيدة فاطمة رضي الله عنها وأرضاها قبل البعثة بقليل، وتوفيت في شهر رمضان من سنة (١١هـ)، فيكون عمرها نحواً من خمس وعشرين سنة(٢).

---

(١) المستدرك: ٣/ ١٦٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١١٩، ١٢١، ١٢٨.

تزوجها علي رضي الله عنه في ذي القعدة أو قُبيله من سنة اثنتين للهجرة بعد معركة بدر.

عن علي رضي الله عنه قال: (جَهَّزَ رسول الله ﷺ فاطمةَ في خَميلٍ وقِرْبةٍ ووسادةِ أدمٍ حَشْوُها لِيفُ الإِذْخِر)[1].

والخَمِيل والخَميلة: القَطِيفة، وهي كل ثوب له خَمْلٌ من أي شيء كان.

وقد كان النبي ﷺ يحبُّها ويُكْرمها ويسِرُّ إليها، ومناقبها غزيرة.. وكانت صابرة ديِّنة خيِّرة صَيِّنة قانعة شاكرة لله.

وقد غضب لها النبي ﷺ لمَّا بَلَغه أن أبا الحسن علياً هَمَّ بما رآه سائغاً من خِطبة بنت أبي جهل!.

عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة قال: (إن علياً خَطَب بنتَ أبي جهل، فسمعتْ بذلك فاطمةُ، فأتت رسولَ الله ﷺ فقال: يَزعمُ قومُك أنك لا تغضبُ لبناتِك، وهذا عليٌّ ناكحٌ بنتَ أبي جهل! فقام رسول الله ﷺ، فسمعتُه حين تشهَّد يقول: «**أمَّا بعدُ: أَنْكَحتُ أبا العاص بنَ الرَّبيع فحدَّثني وصَدَقني، وإن فاطمة بَضْعَةٌ مني، وإني أَكره أن يَسُوءَها، والله لا تجتمعُ بنتُ رسولِ الله وبنتُ عدوِّ الله عند رجل واحد**». فتَرَكَ عليٌّ الخِطْبَة).

وفي رواية: «**فلا آذَنُ، ثم لا آذَنُ، ثم لا آذَنُ، إلَّا أن يريد ابنُ أبي طالب أن يُطلِّق ابنتي ويَنْكح ابنَتَهم، فإنما هي بَضْعَةٌ منِّي؛ يُرِيبني ما أَرابَها، ويُؤذيني ما آذاها**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٨٤؛ والنسائي في الكبرى (٥٥٤٦) والصغرى: ٦/ ١٣٥؛ وابن حبان (٦٩٤٧)؛ والحاكم: ٢/ ١٨٥، وصحَّحه وأقره الذهبي، وصحَّحه أحمد شاكر في «مسند أحمد».

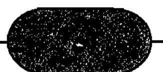
(٢) أخرجه البخاري (٣١١٠) وأطرافه؛ ومسلم (٢٤٤٩)؛ وأبو داود (٢٠٦٩، ٢٠٧١)؛ والترمذي (٣٨٦٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨٣١٢ ـ ٨٣١٤) و(٨٤٦٥ ـ ٨٤٦٩)؛ وابن ماجه (١٩٩٨، ١٩٩٩) وغيرهم.

فترك عليٌّ الخطبة رعاية لخاطرها، فما تزوج عليها ولا تسرَّى، فلما توفيت تزوَّج وتسرى، رضي الله عنهما وأرضاهما[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/١١٩، ١٢٠.



إخبار النبي ﷺ بأن زوجه زينب بنت جحش أول نسائه لحوقاً به

١ ـ قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن فِراسٍ، عن عامر الشَّعْبيّ، عن مَسْروقٍ، عن عائشة رضي الله عنها: (أن بعضَ أزواج النبي ﷺ قُلْنَ للنبي ﷺ: أيُّنا أسرَعُ بك لُحوقاً؟ قال: «أطولُكنَّ يداً».. فأخذوا قَصَبة يَذْرَعُونها، فكانت سودةُ أطولَهُنَّ يداً، فعَلِمْنَا بعدُ أنما كانت طولَ يدِها الصَّدَقةُ، وكانت أسرعَنا لُحوقاً به، وكانت تحبُّ الصدقة)(١).

٢ ـ وروى مسلم وغيره: عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: (قال رسول الله ﷺ: «أَسرعُكُنَّ لَحاقاً بي، أطولُكنَّ يداً» قالت: فكنَّ يتطاوَلْنَ أيَّتُهنَّ أطولُ يداً.. قالت: فكانت أطولَنا يداً زينبُ؛ لأنها كانت تعملُ بيدِها وتَصَدَّقُ)(٢).

❁ ❁ ❁

أولاً: توضيح وبيان:

في رواية البخاري ـ كما يقول الحافظ ـ وَهَمٌ من أبي عَوَانة في أن سَوْدة بنتَ زَمْعَة هي أولُ مَنْ مات من أزواج رسول الله ﷺ، والصواب هو أن زينبَ بنت جَحْش كانت أولَ نسائه ﷺ لحوقاً به(٣).

(١) أخرجه أحمد: ٦/ ١٢١؛ والبخاري (١٤٢٠) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٢٣٣٣)، والصغرى: ٥/ ٦٦ ـ ٦٧؛ وابن حبان (٣٣١٥)؛ وابن سعد: ٨/ ٥٤ ـ ٥٥؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٧١.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٢) واللفظ له؛ وابن حبان (٣٣١٤) و(٦٦٦٥)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٧٤.

(٣) الفتح: ٤/ ٤٦٤، ٤٦٦؛ وانظر: طبقات ابن سعد: ٨/ ٥٥.

وذكر الحافظ عدة روايات تبيّن تقدُّمَ وفاة زينب على غيرها من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، ثم قال: (فهذه روايات يَعْضُد بعضُها بعضاً، ويَحْصُل من مجموعها أن في رواية أبي عوانة وَهَماً)[١].

ويبيِّن ذلك ويوضِّحه حديثٌ صحيح أخرجه ابن سعد والطَّحاوي والحاكم: عن عَمْرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (قال رسول الله ﷺ لأزواجه: «**أَسرعُكنَّ لحوقاً بي أطولُكنَّ يداً**» قالت عائشة: فكنَّا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ، نمدُّ أيدينا في الجدار نتطاولُ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينبُ بنت جحش زوج النبي ﷺ، وكانت امرأةً قصيرةً ولم تكن أطولَنا يداً، فعرفنا حينئذٍ أن النبي ﷺ إنما أراد بطُولِ اليد: الصدقة.. قالت: وكانت زينب امرأةً صَنَاعةَ اليدِ، فكانت تَدْبَغُ وتَخْرِز وتَصَدَّق في سبيل الله ﷻ)[٢].

وقد أورد الحافظ هذه الرواية، ثم قال: (وهي رواية مفسِّرة مبيِّنة مرجِّحة لرواية عائشة بنت طلحة في أمر زينب، قال ابن رُشَيد: والدليل على أن عائشة لا تعني سودةَ، قولُها: (فعَلِمْنا بعد)، إذ قد أَخبرتْ عن سودةَ بالطولِ الحقيقي، ولم تذكر سبب الرجوع عن الحقيقة إلى المجاز إلا الموت)[٣].

ومعنى الحديث: أن نساءَ النبي ﷺ ظَنَنَّ أن المرادَ بطُول اليدِ طولُ اليد الحقيقية، وهي الجارحة، فكُنَّ يَذْرَعنَ أيديهنَّ بقَصَبة، فكانت سودةُ أطولَهن جارحةً، وكانت زينبُ أطولَهن يداً في الصدقة وفعلِ الخير، فماتت زينب أولَهنَّ، فَعَلِمْنَ أن المرادَ طولُ اليد في الصدقة والجُود[٤].

---

(١) الفتح: ٤/ ٤٦٦.
(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٠٨؛ شرح مشكل الآثار (٢١٠)؛ المستدرك: ٤/ ٢٥، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.
(٣) الفتح: ٤/ ٤٦٥.
(٤) شرح مسلم، للنووي: ٨/ ٢٤٥.

ثانياً: تحقق النبوءة وطرف من سيرة السيدة زينب ﵂:

●● في هذا الحديث عَلَمٌ باهر من أعلام النبوة، ومعجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ، ظَهر مِصْداقها وتحقَّقَ وقوعُها بعد نحو تسع سنين من وفاته ﷺ.

وفيه أيضاً منقبة جليلة لزينب ﵂؛ لأن الإيثار والاستكثار من الصدقة في زمن القدرة على العمل سبب لِلَّحاق بالنبي ﷺ، وذلك الغاية في الفضيلة[١].

●● وأم المؤمنين زينب من المهاجرات الأُوَل، وهي ابنةُ عمةِ رسول الله ﷺ، أمُّها أُمَيمة بنت عبد المطلب بن هاشم.

كانت عند زيد بن حارثة مولى النبيّ ﷺ، وهي التي يقول الله فيها: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فزوَّجها الله تعالى بنبيِّه بنصِّ كتابه، بلا وليٍّ ولا شاهد، فكانت تفخَرُ بذلك على أمهات المؤمنين، وتقول: (زَوَّجَكُنَّ أهاليكُنَّ، وزوَّجَني الله تعالى من فوقِ سبع سموات)[٢].

وكانت من سادة النساء، دِيناً وورعاً وجُوداً ومعروفاً، صالحة صوَّامةً قوَّامةً بارَّةً، يُقال لها: أم المساكين[٣].

وعن عائشة ﵂ في حديث طويل؛ قالت مُثْنِيَةً على زينبَ: (وهي التي كانت تُسَاميني من أزواج النبي ﷺ في المنزلةِ عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأةً قطُّ خيراً في الدِّين من زينبَ، وأتقى لله، وأصدقَ حديثاً، وأوصَلَ للرَّحِمِ،

---

(١) الفتح: ٤/ ٤٦٢.
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)؛ والترمذي (٣٢١٣)؛ وابن سعد: ٨/ ١٠٣.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢١١، ٢١٢، ٢١٧.

وأعظمَ صدقةً، وأشدَّ ابتذالاً لِنَفْسها في العمل الذي تَصَدَّقُ به، وتَقَرَّبُ به إلى الله ﷻ، ما عَدَا سَوْرَةً من حَدٍّ كانت فيها تُسْرِعُ منها الفَيْئَةَ)[١].

فهذه شهادة عظيمة بليغة جليلة من ضَرَّتها الصدّيقة عائشة، وكلُّ صفةٍ من هذه الصفات تُسبغ على صاحبتها هيبة وجلالاً وورعاً وجمالاً، فكيف وقد جَمعت زينبُ كل هذه الشمائل؟! فرضي الله عنها وأرضاها.

●● ومن أخبار جُودِها وكَرَمها وكثرةِ صدقتها، ما أخرجه ابن سعد، عن عبد الله بن رافع، عن بَرَّة[٢] بنتِ رافع قالت: (لمَّا خَرج العطاء أَرسل عُمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها، فلما أُدْخِل عليها قالت: غَفر الله لعمر، غيري من أَخواتي كان أقوى على قَسْم هذا مني. قالوا: هذا كلُّه لكِ. قالت: سبحان الله! واستترتْ منه بثوب، وقالت: صُبُّوه واطرحوا عليه ثوباً. ثمَّ قالت لي: أَدْخِلي يدَكِ فاقْبِضي منه قَبْضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان، من أهل رَحِمها وأيتامها.. حتى بقيتْ بقيّةٌ تحت الثوب، فقالت لها بَرَّة بنت رافع: غفر الله لكِ يا أمَّ المؤمنين! والله لقد كان لنا في هذا حق! فقالت: فَلكُم ما تحت الثوب. فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً، ثم رَفعتْ يدها إلى السماء فقالت: اللهمَّ لا يُدركْني عطاءٌ لعمر بعد عامي هذا. فماتت، فكانت أولَ أزواج النبي ﷺ لُحوقاً به)[٣].

وقال محمد بن كعب: (كان عطاء زينب بنت جحش اثني عشر ألف درهم، ولم تأخذه إلا عاماً واحداً، حُمل إليها اثنا عشر ألف درهم فجعلَتْ تقول: اللهمَّ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٩٢٥)؛ وأحمد: ٦/ ١٥٠ ـ ١٥١؛ ومسلم (٢٤٤٢)؛ والنسائي في الكبرى (٨٨٤١، ٨٨٤٣)، والصغرى: ٧/ ٦٥ ـ ٦٨؛ وابن حبان (٧١٠٥)؛ والبغوي (٣٩٦٤).
تُساميني: تعادلني وتضاهيني في الحظوة والمنزلة الرفيعة. سَوْرة: السَّورة: الثوران وعَجَلة الغضب. حدّ: شدة الخُلُق وثورانه. **الفيئة**: الرجوع.

(٢) عند ابن سعد: (برزة)، وترجم لها الحافظ في الإصابة باسم: (برة).

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٠٩ ـ ١١٠.

لا يُدْرِكْني قابلٌ هذا المال فإنه فتنة.. ثم قسمتْه في أهل رحمها وفي أهل الحاجة، حتى أتت عليه.. فَبَلغ عمرَ فقال: هذه امرأةٌ يُراد بها خير.. فوقف على بابها وأرسل بالسلام، وقال: قد بلغني ما فرَّقْتِ.. فأرسَل إليها بألف درهم تستنفقها، فَسَلَكَتْ بها طريقَ ذلك المال)[(١)].

●● **وفاتها**: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن الرجال والنساء كانوا يَخرجون بهم سواء، فلما ماتت زينب بنت جحش، أَمر عُمر منادياً فنادى: أَلَا لا يَخرجْ على زينب إلا ذو رحم من أهلها.. فقالت بنتُ عُميس: يا أمير المؤمنين! أَلَا أُريكَ شيئاً رأيتُ الحبشة تصنعُه لنسائِهم؟.. فجعَلَتْ نَعْشاً وغشَّتْه ثوباً، فلما نظر إليه قال: ما أحسنَ هذا! ما أَسْتَر هذا! فأمر منادياً فنادى: أن اخرُجُوا على أُمِّكم)[(٢)].

وعن عبد الرحمن بن أَبْزَى: (أنه صلَّى مع عمر على زينبَ بنتِ جحش، فكانت أولَ نساء رسول الله ﷺ موتاً بعده، فكبَّر عليها أربعاً، ثم أَرسل إلى أزواج النبي ﷺ: مَن تأمُرْنَني أن يُدخِلها قبرَها؟ قال: وكان يُعْجبه أن يكون هو يلي ذلك، فأرسَلن إليه: مَن كان يراها في حياتها فيُدخِلها في قبرها.. فقال عمر بن الخطاب: صَدَقْن)[(٣)].

وقال عبد الرحمن بن أَبْزَى: (صلَّيتُ مع عمر بن الخطاب على زينبَ بنت جحش، فكبَّر عليها أربعاً، ثم إنه مكث ساعة، ثم قال: مَن يُدخِلها قبرَها؟ قالوا: يُدخلها قبرها مَن كان يراها في حياتها، بنو أخيها وبنو أختها)[(٤)].

توفيت سنة عشرين للهجرة، وهي ابنة ثلاث وخمسين سنة، رضي الله عنها وأرضاها.

---

(١) المصدر السابق: ٨/ ١١٠.
(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ١١١؛ سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣.
(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ١١١ ـ ١١٢.
(٤) المصدر السابق نفسه.

قال عثمان بن عبد الله الجَحْشِيُّ: (ما تركَتْ زينب بنت جحش درهماً ولا ديناراً، كانت تصدَّقُ بكل ما قدرتْ عليه، وكانت مأوى المساكين، وتركَتْ منزلها فباعوه من الوليد بن عبد الملك حين هدم المسجد بخمسين ألف درهم)[1].



(١) المصدر السابق: ٨/ ١١٤.

إخبار النبي ﷺ
عن عدد من الصحابة بأنهم سيموتون شهداء

١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن نبيَّ الله ﷺ صَعِدَ أُحُداً، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرَجَف بهم، فضَربَهُ برِجْلِه، وقال: «**اثْبُتْ، فإنما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدان**»)[١].

٢ ـ وعن سَهْل بن سَعْد الساعِديِّ رضي الله عنه: (أن أُحُداً ارْتَجَّ وعليه النبيُّ ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال النبي ﷺ: «**اثْبُتْ أُحُد، فما عليك إلا نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان**»)[٢].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنَّ النبيَّ ﷺ صَعِدَ حِراءَ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ وطلحةُ والزُّبير، فتحرَّك بهمُ الجبلُ، فقال رسول الله ﷺ: «**اسْكُنْ حِراءُ، فإنما عليكَ نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شهيدٌ**»)[٣].

٤ ـ وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: (اهتزَّ حِرَاءُ، فقال رسول الله ﷺ: «**اثْبُتْ حِراءُ، فليس عليك إلا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيدٌ**» وعليه رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر،

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ١١٢؛ والبخاري (٣٦٧٥) وطرفاه؛ وأبو داود (٤٦٥١)؛ والترمذي (٣٦٩٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٧٩) واللفظ له؛ وابن حبان (٦٨٦٥) و(٦٩٠٨).

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٣٣١، وفي فضائل الصحابة (٢٤٧)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٥؛ والبغوي (٣٩٠٢)؛ وابن حبان (٦٤٩٢) واللفظ له. وذكره الحافظ في الفتح: ٨/ ٦١٠، شرح الحديث (٣٦٧٥) من رواية أبي يعلى وصحَّحه، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه أحمد: ٢/ ٤١٩؛ ومسلم (٢٤١٧) وفيه زيادة: (سعد بن أبي وقاص)؛ والترمذي (٣٦٩٦)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٥٠)؛ وابن حبان (٦٩٨٣) واللفظ له.

وعمر، وعثمانُ، وعليٌّ، وطلحةُ، والزُّبيرُ، وعبدُ الرحمن بن عَوْف، وسعدُ بن أبي وقاص، وأنا)[١].

❁ ❁ ❁

أولاً: كلمة بين يدي الأحاديث:

المتأمِّل في هذه الأحاديث الصحيحة الجليلة يتبيَّن له أن القصة تعدَّدتْ؛ فحديثا أنس وسَهْل يبيِّنان أن هذه النبوءة وقعت في المدينة النبوية، وكان مع رسول الله ﷺ الصحابة الأجلَّاء: أبو بكر وعمر وعثمان، وأما حديثا أبي هريرة وسعيد بن زيد ففيهما أن القصة وقعت في مكة المكرمة، وكان مع الرسول ﷺ الرَّهْط الكريم من أعيان الصحابة وهم العشرة المشهود لهم بالجنة ما عدا أبا عبيدة بن الجراح.

وهذا وذاك فضل كبير عظيم أجراه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ في بدايات الدعوة بمكة، وأكَّده في مدينته الطيبة، ليُشِيد بمنزلة هذا النَّفر المبارك من الصحابة الذين كانوا عُمُدَ الدعوة في بدايتها بمكة، وأُسُسَ قيام الدولة في أوائل تشييدها بالمدينة، وهي منقبة جليلة لهم لا تُدانيها إلا الشهادة لهم بالجنة.

ثانياً: تحقق النبوءة:

•• قوله ﷺ في حديثَيْ أنس وسَهْل: «**اثبُتْ، فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان**»: فالصدِّيق هو أبو بكر، والشهيدان هما عمر وعثمان.

وفي حديثَي أبي هريرة وسعيد بن زيد: «**فإنما عليك نبي أو صديق أو شهيد**».

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨، ١٨٩؛ وأبو داود (٤٦٤٨)؛ والترمذي (٣٧٥٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٠٠) وأطرافه واللفظ له؛ وابن ماجه (١٣٤)؛ وابن حبان (٦٩٩٦)؛ والحاكم: ٣/ ٤٥٠ ـ ٤٥١، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط، وأحمد شاكر.

و«**أو**»: للتنويع، و«**شهيد**»: للجنس.

وذَكَر من الصدِّيقين: أبا بكر، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد.

وأما الشهداء فهم: عمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير.

وكأن الجبل الراسي بصخوره الصَّلدة وجَلاَمِده الصلبة قد اطمأنَّ وخشَع لوجود هذا الرَّهْط الكريم فوقه؛ ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤]، فاضطرب الجبل سعادةً بهذا الرهط المبارك، واهتزَّ فرحاً بهم، ومادَ خشوعاً لله بما أكرمه به بأن تطأه أقدامُ هؤلاء السادة الأجلاء مع سيد ولد آدم، فيُطَمئنُه النبي ﷺ ويخاطبه بكلمات جليلة رقيقة، ويُهدِّئ من رَوْعه، ويأمره بالسَّكينة والوقار لهؤلاء الأخيار الذين صحبوا نبيَّهم، وما منهم إلا صديق أو شهيد(١).

والنبي ﷺ يخاطِب كلّاً من الجبلين في مناسبتين مختلفتين، ومكانين متنائيين، وزمانين متباعدين، بلفظ: «**اثبُتْ**» و«**اسْكُن**»، وكما يقول الحافظ: (ونداؤه وخطابه يَحتمِل المجاز، وحَمْلُه على الحقيقة أولى)(٢).

●● والصحابةُ الخمسة الذين أنبأ رسول الله ﷺ بفوزهم بالشهادة، جاءت بتصديقه السنون التالية، وكان الأمر كما قال ﷺ، فعُمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم قُتلوا ظُلماً شهداء، (وقد ثَبت أن مَن قُتل ظلماً فهو شهيد، والمراد: شهداء في أحكام الآخرة، وعظيم ثواب الشهداء، وأما في الدنيا فَيُغسَّلون، ويُصلَّى عليهم)(٣).

١ ـ واستشهاد **أمير المؤمنين عمر** أمرٌ مشهور متعالَم عند المسلمين، وكان

---

(١) انظر كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٤٩٧.
(٢) الفتح: ٨/ ٦١٠، شرح الحديث (٣٦٧٥).
(٣) شرح مسلم، للنووي: ٨/ ٢٠٥.

ذلك على يدي المجوسي الخبيث أبي لؤلؤة، حيث طعنه غِيلةً وهو قائم في صلاة الفجر يؤم المسلمين، وذلك يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة (٢٣هـ)[١].

٢ ـ **وعثمان ذو النورين** استُشهِد بعد أن حاصَرَتْه كتائب البُغَاة الآثمين من العراقيين والمصريين، واقتحمتْ عليه داره جماعةٌ من أولئك المجرمين، فقتلوه والمصحف بين يديه! وكان ذلك في المدينة المنورة يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خَلَتْ من ذي الحجة سنة (٣٥هـ)[٢].

٣ ـ **وعليٌّ** نالَ الشهادة بعد أيام عصيبة في خلافته، وبعد أن فَرِغ من فتنة الخوارج وبدَّد جَمْعَهم.. وقد انتَدَب ثلاثة من الخوارج لقتلِ علي وعَمْرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، وتكفَّل عبد الرحمن بن مُلْجَم بقَتْل أمير المؤمنين علي، فتَمَّ له ذلك يوم الجمعة سَحَراً، لسبع عشرة ليلة خَلتْ من رمضان سنة (٤٠هـ)، فمكث يوم الجمعة وليلة السبت، وفاضت روحه إلى بارئها ليلة الأحد، لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان[٣].

٤ ـ **واستشهاد طلحة بن عُبيد الله** كان في معركة الجَمَل، جاءه سَهْم غَرْب لا يُعرف راميه فقَتَله، وذلك يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة (٣٦هـ)[٤].

٥ ـ **وأما الزُّبير بن العوام**: فهو حَوَاريُّ رسول الله ﷺ، وابنُ عمَّتِه صفيَّة بنت عبد المطلب، في الذُّؤابة من قريش أصلاً ومحتِداً وشَرفاً ونُبْلاً، ومن السابقين الأوَّلين إلى الإسلام، ومن مشاهير أبطال الرسالة، وصفَه حسان بن ثابت فقال:

هو الفارسُ المشهورُ والبطلُ الذي ... يَصُول إذا ما كان يومٌ مُحَجَّلُ

---

(١) انظر تفصيل ذلك في النبوءة التالية: ١/ ١٠٤.
(٢) انظر تفصيل ذلك في النبوءة رقم (٤٤): ٢/ ٦٠.
(٣) انظر التفصيل في النبوءة رقم (٥٣): ٢/ ١٤٢.
(٤) انظر التفصيل في النبوءة رقم (٨): ١/ ١٠٩.

إذا كشَفَتْ عن ساقِها الحربُ حَشَّها بأبيضَ سبَّاقٍ إلى الموت يُرْقِلُ[(١)]

شَهِد مع النبي ﷺ غزواته كلَّها، وتابع الجهاد بعده؛ فشهد حروب الردّة، واليرموك، ونهاوند، وفتح مصر، وغيرها.

بشَّره رسول الله ﷺ بالجنة، وفدَّاه بأبويه فقال له: «**فِداك أبي وأمي**»، وأخبره بأنه سيموت شهيداً رضي الله عنه.

وقد خرج الزبير وطلحة وعائشة أم المؤمنين وغيرهم من الصحابة، وتبِعَهم خَلْق كثير، وتوجَّهوا من مكة إلى البصرة لجمعِ قوة من أهلها تتعاون مع أمير المؤمنين علي في القضاء على قَتَلة عثمان، ووصلوا البصرة وتغلَّبوا عليها، ثم جاء عليٌّ بجيشه، وأشعل جذوةَ الحرب سفهاءُ القوم من قتلة عثمان ومَنْ ناصرهم، فكانت معركة الجمل المشهورة سنة (٣٦هـ)، وفي أُخريات المعركة انسَحَب الزبير من أرضها، فتبعه نَفَرٌ وقتلوه غِيلةً!.

قال الزبير بن بكّار: حدَّثني عمي مصعبُ بن عبد الله، قال: (اشترك في قتل الزبير: عَمْرو بن جُرموز التَّمِيميُّ من مُجاشِع، والنَّعِر وفَضَالة بن حابس التميميان ثم السَّعْديان، وكان الذي وَلي قتلَه عَمْرو بن جُرموز، ورَفَده فَضالة بن حابس والنَّعِر).

وكان قَتْلُ الزبير بهذه الطريقة ظلماً وعدواناً، وكان رضي الله عنه يعرف أنه سيُقتل مظلوماً، ففي حديث البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: (لمَّا وَقف الزبير يومَ الجمل دعاني فقُمْتُ إلى جَنْبِه، فقال: يا بُنَيَّ! لا يُقتل اليومَ إلا ظالمٌ أو مظلومٌ، وإني لا أُرَاني إلا سأُقتلُ اليومَ مظلوماً)[(٢)]!.

قال الحافظ: (وظنُّه أنه سيُقتل مظلوماً قد تحقَّق؛ لأنه قُتل غَدْراً)[(٣)].

---

(١) انظر كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٥٨٢.
يوم محجَّل: أي يوم مشهور. **حَشَّ الحربَ**: أَضْرَمَ نارَها. **يُرْقِل**: يُسْرِع.

(٢) البخاري (٣١٢٩).

(٣) الفتح: ٧/٧٠٦؛ وكتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص ٦٥٠.

وكان استشهادُ الزُّبير في يوم الخميس لعَشْر خَلَوْن من جمادى الآخرة سنة (٣٦هـ)، وهو ابن أربع وستين سنة.

وباستشهاده تكون تلك النبوءة الصادقة قد تكامَل تحقُّقُها لأولئك السادة الأماجد، الذين أَخبر رسول الله ﷺ بأنهم سيموتون شهداء سعداء[١].



(١) قد فَصَّلتُ القولَ في استشهادهم في كتابَيَّ: الخلفاء الراشدون؛ والعشرة المبشرون بالجنة، وقد صدرا عن دار القلم بدمشق.

إخبار النبي ﷺ
الفاروق عمر بأنه سيموت شهيداً

روى الزُّهْريُّ: عن سالم، عن ابن عُمر: (أن النبيَّ ﷺ رأى على عُمر قميصاً أبيضَ، فقال: «**أجديدٌ قميصُك هذا أم غَسيلٌ؟**» قال: بل غَسيلٌ، فقال: «**الْبَسْ جَديداً، وعِشْ حَميداً، ومُتْ شَهيداً، ويرزقُكَ الله قرَّة عَيْنٍ في الدنيا والآخرة**» قال: وإياكَ يا رسول الله)(١).

❁ ❁ ❁

●● هذه النبوءة مفسِّرة لطَرفٍ من النبوءة السابقة، ومُفْصِحة عن اسم واحد من ذلكم الرَّهْط الكريم الذين أخبر ﷺ بفَوْزهم بالشهادة.

فالرسول ﷺ حيث بشَّر عمر بالجنة في أحاديث كثيرة، يؤكد في هذا الحديث على صفات جليلة تمتع بها الفاروق، أهَّلتْه ـ بعد فَضْل الله تعالى ورحمته وجزيل عطائه ـ أن يكون من أصحاب جنات النعيم.

فهو ﷺ يخبر أن عمر سيعيش حميداً، وقد كان كذلك منذ دَلَف إلى رياض الإسلام وأصبح واحداً من أكابر حَمَلته والمُنافحين عنه، واستمرَّ على أحسن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٨٢) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/٨٨ ـ ٨٩؛ والنسائي في الكبرى (١٠٠٧٠)؛ وابن ماجه (٣٥٥٨)؛ والطبراني في الكبير (١٣١٢٧)؛ وابن حبان (٦٨٩٧)؛ والبغوي (٣١١٢)، وغيرهم. وقال الحافظ في (نتائج الأفكار، ص١٣٦ ـ ١٣٨): هذا حديث حسن غريب ورجال الإسناد رجال الصحيح. وردَّ على النسائي قولَه: (حديث منكر)، ثم قال الحافظ: وأقل درجاته أن يوصف بالحسن. وصحَّحه الألباني في (صحيح ابن ماجه)، وشعيب الأرنؤوط في (شرح السنَّة).

ما تكون سِيَر الأماجد وهَدْيهم الرفيع، الذي هو قبس من وحي السماء وهَدْي النبوة، وعندما آلت إليه الخلافة سطع كالشمس بعدلِه ورحمته وعطائه وحُسنِ سياسته وعبقرية إدارته وبُعْد نظره، واستمر طيلة عشر سنين ونصف على أروع وأورع ما تكون سير الحكام في كل جنبات الحكم ومناحي الحياة.

فعاش حميداً عند الله، حميداً عند الناس، حميداً في نفسه، وفيما بينه وبين ربه، وتحدَّث عن مفاخِر خلافته القاصي والداني، وشهد له الخلق بذلك قديماً وحديثاً.

●● وقوله ﷺ: «**ويرزقُك الله قرَّة عين في الدنيا والآخرة**»:

فالشطر الأول قد تحقق للفاروق، فأيُّ قرَّة عينٍ أجلُّ وأرفَعُ من جهاده مع النبي ﷺ ورؤيته الأصنامَ تتهاوى، وسَدَنتها تتوارى، وشأنَ الإسلام يعلو، ودولته تُشاد؟!.

وأيُّ قرَّة عين أهنأُ وأَمْرأُ من تلك السنين الرخاء التي عاشها الناس في كَنَف عَدْله وظلال خلافته، وقد بَسَط الإسلامُ جناحيه على أصقاع ممتدة من الأرض، ودخلت أممٌ وأجناس في دين الله أفواجاً؟! ولعُمَر وللصحابة معه مثلُ أجور كل مَن اهتدى للإسلام ودخل فيه من غير أن يَنقص من أجورهم شيء.

ثم أيُّ قرَّة عينٍ أجلُّ من تلك البُشْرَيات والثناءات التي أجراها الله سبحانه على لسان نبيِّه فَوَصف عمر بأنه محدَّث مُلْهَم، وأنه ﷺ رأى في المنام أنه يشرب اللبن فأعطى فَضْلَه عمرَ، وأوَّلَه بالعلم، ورأى ﷺ أيضاً في المنام أن عمر قد لبِس قميصاً اجترَّه، وأوَّلَه بالدِّين، وأنه ﷺ قال: «**لو كان نبيٌّ بعدي لكان عُمر**»، وأن عمر ما سَلَك فجّاً إلا سَلَك الشيطان فجّاً آخر، وغير ذلك كثير.

فهل ثَمَّةَ قُرَّة عين في الدنيا أرفَعُ وأجَلُّ من كل هذا؟!.

وأما في الآخرة فتكفيه بُشريات رسول الله ﷺ بأنه شهيد، وأنه من أهل الجنة في عليين.

•• وأما قوله ﷺ: «ومُتْ شهيداً»:

فهو عنوان النبوءة، ومرتجى عمر وأمنيته التي كان يتطلَّع إليها، وقد داعبتْ خاطره تلك الحادثةُ التي وقعتْ له بمكة ثم في المدينة، عندما كان مع النبي ﷺ على حِراءٍ ثم على أُحُدٍ، ورجف الجبل، فرَكَله النبي ﷺ برِجْله وقال له: «**اهدأ، فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان**».

وتطلع عمر للشهادة، وتمنَّى أن تكون في المدينة النبوية؛ لِيَجمع بين الفضلين وينال المكرمتين: الشهادة، والموت في المدينة؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «**مَن استطاعَ منكم أن يموتَ بالمدينة فَلْيَمُتْ بالمدينةِ، فإني أَشفَعُ لمن مات بها**»[١].

فكان عمر يدعو بذلك ويرتجيه.

عن زيد بن أَسْلَم، عن أبيه، عن عمر رضي الله عنه قال: (اللهمَّ ارزُقْني شهادةً في سبيلك، واجعلْ موتي في بلدِ رسولك ﷺ)[٢].

وفي رواية عن حَفْصة بنتِ عمر رضي الله عنهما، قالت: (سمعتُ عمر يقول: اللهمَّ قتلاً في سبيلك، ووفاةً ببلد نبيِّك.. قالت: فقلتُ: وأنَّى يكون هذا؟! قال: يأتي به الله إذا شاء)[٣].

وقد كان له ما تمناه وأراده رضي الله عنه وأرضاه.

ففي آخر جمعة من أيام خلافته، قام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: (أما بعد: أيها الناس! إني أُريتُ رؤيا، لا أُراها إلا

---

(١) أخرجه من حديث ابن عمر: أحمد: ٢/ ٧٤، ١٠٤؛ والترمذي (٣٩١٧)؛ وابن ماجه (٣١١٢)؛ وابن حبان (٣٧٤١)؛ والبغوي (٢٠٢٠)؛ وقال الترمذي: حسن غريب، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٠)؛ وهو في الموطأ: ٢/ ٤٦٢ منقطع.

(٣) علَّقه البخاري عقب الحديث السابق، ووصله الإسماعيلي. الفتح: ٥/ ٥٦٤.

لحضور أجَلي، رأيتُ أن ديكاً أحمرَ نَقَرني نَقْرَتَيْن، فحدَّثـتُها أسماءَ بنت عُميس، فحدَّثَـتْني: أنه يقتلني رجل من الأعاجم)!.

وتواطأتْ رؤيا عمر بالشهادة مع رؤيا أبي موسى الأشعري الذي يحدث عن ذلك فيقول: (رأيتُ كأني أَخذتُ جَوَادَّ كثيرة، فاضمحلَّت، حتى بقيتْ جادَّة واحدة فسلكتُها، حتى انتهيتُ إلى جبل، فإذا رسول الله ﷺ فوقه، وإلى جنبه أبو بكر، وإذا هو يُومئ إلى عمرَ أنْ تعالَ! فقلتُ: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله أمير المؤمنين). فقال أنس بن مالك: (أَلَا تكتبُ بهذا إلى عمر؟ فقال: ما كنتُ لِأَنْعى له نَفْسَه)[1].

وكان عند المغيرة بن شعبة غلام صَنَعٌ هو أبو لؤلؤة فيروز، المجوسي الأصل، الرومي الدار، فكتب المغيرة إلى عمر يستأذنه أن يُدخِل أبا لؤلؤة المدينةَ ـ وكان عمر لا يأذَنُ لِسَبْيٍ قد احتَلَم في دخولها ـ؛ لأن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس، فهو حداد نقاش نجار، فأذن له عمر رضي الله عنه.

وأَضمر أبو لؤلؤة قَتْلَ عمر، واتَّخَذَ خنجراً ذا رأسين، نصابه في وسطه، وشَحَذه وسَمَّه.. وفي صبيحة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة كَمَنَ هذا العِلْجُ في زاوية من زوايا المسجد في غَلَس السَّحَر ينتظر خروج عمر.

وكان الفاروق إذا مرَّ بين الصفَّين قال: استووا، حتى إذا لم يَرَ فيهم خَلَلاً، تقدَّم فكَبَّر، فما هو إلا أن كَبَّر حتى انقضَّ عليه أبو لؤلؤة فطَعَنه ثلاثَ طعنات، إحداهن تحت السُّرَّة قد خرقت الصِّفَاق، وهي التي قتلته رضي الله عنه[2].

وغُسِّل ثلاثاً بالماء والسِّدْر، غسَّله ابنه عبد الله بن عمر، وكُفِّن في ثلاثة

(١) أخرج الخبرين ابن سعد: ٣/ ٣٣٢، ٣٣٥. وانظر كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٢٤٢.

(٢) حديث استشهاده أخرجه البخاري مطولاً (٣٧٠٠)، وقد فصلت ذلك في كتبي: أعلام الحفاظ والمحدّثين: ١/ ١٨٨ ـ ١٩١؛ الخلفاء الراشدون، ص٢٤٢ ـ ٢٤٧؛ العشرة المبشرون بالجنة، ص١١٢ ـ ١١٦، وصدرت كلها عن دار القلم بدمشق.

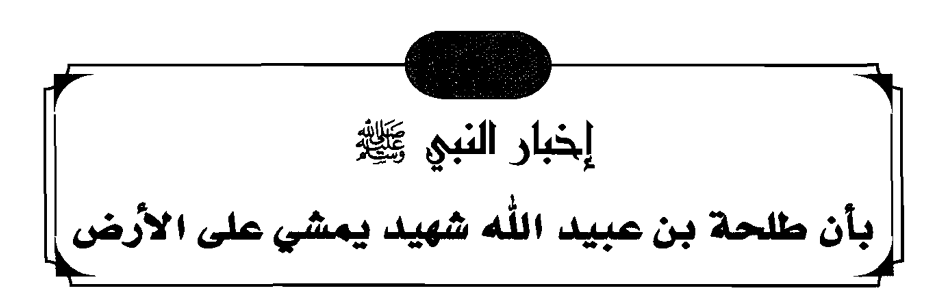
أثواب، وحُمل على سرير[1] رسول الله ﷺ، وصلّوا عليه في مسجد رسول الله ﷺ بين القبر والمنبر، وأَمَّهم صُهَيب الرومي.

ونزل في قبره ابنه عبد الله، وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، ودُفن في بيت النبي ﷺ، وجُعل رأس أبي بكر عند كتفي النبي ﷺ، وجُعل رأس عمر عند حَقْوي النبي ﷺ.

ودُفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين للهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، كَسِنِّ النبي ﷺ وسِنِّ أبي بكر، حين توفِّيا.



(١) هو: النعش.



إخبار النبي ﷺ بأن طلحة بن عبيد الله شهيد يمشي على الأرض

١ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«مَن سَرَّه أن يَنظر إلى شهيدٍ يَمشي على وجْهِ الأرض؛ فَلْيَنظُرْ إلى طلحةَ بن عُبيد الله»**)[1].

٢ ـ وعن طلحةَ بن عُبيد الله رضي الله عنه قال: (إن أصحابَ رسول الله ﷺ قالوا لأعرابيٍّ جاهلٍ: سَلْهُ عمَّن قضَى نَحْبَه من هو؟ ـ وكانوا لا يجترئون هم على مسألته، يوقِّرونه ويَهابُونه ـ فسأله الأعرابي فأعرَض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه.. ثم إني اطَّلعتُ من باب المسجد وعليَّ ثيابٌ خُضْر، فلما رآني رسول الله ﷺ قال: **«أينَ السائلُ عمَّن قضَى نَحْبَهُ؟»** قال الأعرابي: أنا يا رسول الله، قال: **«هذا ممَّن قَضَى نَحْبَهُ»**)[2].

❁ ❁ ❁

أولاً: نبوءة ومعجزة ومنقبة:

●● هذه نبوءة جليلة ومعجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ، كما أنها مَنْقبةٌ رفيعة

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٣٩) واللفظ له؛ وابن ماجه (١٢٥)؛ والطيالسي (١٧٩٣)؛ والحاكم: ٣/ ٣٧٦، وغيرهم، وصحَّحه الألباني بطرقه وشواهده: الصحيحة (١٢٦)؛ صحيح الجامع الصغير (٣٩١٥)، و(٥٩٦٢)؛ وصحيح الترمذي وابن ماجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٠٣) و(٣٧٤٢) واللفظ له؛ والطبري في تفسيره (٢٨٤٣٢)؛ وأبو يعلى (٦٦٣)؛ والضياء في المختارة: ١/ ٢٧٨؛ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الألباني: حسن صحيح. وانظر: الصحيحة (١٢٥).

لطلحة الفيَّاض، وهو أهل لها وحَقيق بها، فلقد كان ﷺ بطلاً مقداماً في ساحات الوغى، لَيْثاً بين الرجال، وَمَثلاً بين الأبطال، يقتحم الأهوال ولا يأبه بكثرة الأعداء، أستاذاً في فن الفداء والدفاع عن الإسلام.

ولقد سطَّر بمشاهده مع النبي ﷺ أروع الأمثلة في ذلك، وحسبك أن أبا بكر كان إذا ذكر غزوة أُحد قال: (ذاك يوم كلُّه لطلحة).

وقد شهد الصادق المَصْدوق ﷺ لطلحة بشهادتين عظيمتين:

فوصفه بأنه صَدَق ما عاهَدَ اللهَ عليه، وممن قَضَى نَحْبَهُ، مع أنه لا يزال حيّاً ينتظر الوفاء بما عاهَد اللهَ عليه.

قال ابن الأثير: (**النَّحب**: النَّذْر، كأنه أَلزم نَفْسَه أن يَصْدُقَ أعداءَ الله في الحرب فوَفَى به. وقيل: **النَّحْب**: الموتُ، كأنه يُلزِم نفْسَه أن يُقاتِل حتى يموت)(١).

وفي الحديث إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والشهادة الثانية من النبيِّ ﷺ لطلحةَ أنه أَخبر بأن طلحة سيقضي شهيداً، وهو وقتذاك بين أصحابه شهيدٌ يمشي على الأرض، ينتظر الأجل الذي كتبه الله تعالى له ليفوزَ بالشهادة.. وقد سبقها موقفان آخران فيهما عمومُ البشرى بالشهادة لجماعة من الصحابة، على جبل حِراء وجبل أُحد، فكانت النبوءة المستقلة هنا موضِّحة ومبيِّنة ومحدِّدة أن طلحة واحد من أولئك الصحابة السعداء.

ويلحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، وبعد وفاته بخمس وعشرين سنة تتحقق نبوءته بحق طلحة، فيموت شهيداً في معركة الجمل.

ثانياً: استشهاد طلحة:

●● بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، اجتمع

---

(١) النهاية: ٥/٢٦.

خلائق من الصحابة بمكة، للطَّلَب بدمه والقصاص من قَتَلتِه، واستقرَّ رأيُهم على المسير إلى البصرة، وسار الناس في ألف فارس صحبةَ طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة، وكان طلحة والزبير كالقرينَيْن في كثير من آرائهما وأعمالهما، فأسلما معاً، وصَحِبا النبيَّ ﷺ وشهدا مشاهدَه، وكانا مبشَّرَيْن بالشهادة، ومن العشرة المبشرين بالجنة، ومن أعيان مجلس الشورى في عهود الخلفاء الثلاثة، ومن الستة أصحاب الشورى، ووقفا معاً إلى جنب عثمان عندما حُوصر ثم قُتل، وذهبا إلى العمرة معاً بعد استشهاد عثمان، وبعدها خرجا إلى البصرة صحبة عائشة، وشهدا معركة الجمل، واستشهدا فيها: طلحة على أرض المعركة، والزبير في وادي السِّباع بُعيد انسحابه من ساحة القتال.

وتردَّدت الأخبار واضطربت فيمن قتل طلحةَ، فروي أن مروان بن الحَكَم رماه بسَهْم فقتله، وقيل: بل جاءه سَهْم غَرْبٍ لا يُعرف راميه فقتله، وهذا هو الصواب وإن كان الأول هو المشهور.

فبعد التحقيق في الروايات وغربلتها ونقدها سنداً ومتناً؛ يتبيَّن للباحث المنصف أن مروان بريء من دم طلحة، والصحيح أنه استُشهد بسهم لا يُعرف راميه.

قال الإمام المحقق أبو بكر بن العربي: (وقد رُوي أن مروان لمَّا وقعت عينُه في الاصطفاف على طلحة، قال: لا أَطلب أثَراً بعد عين، ورماه بسَهْم فقتله. ومن يَعلم هذا إلا علَّام الغيوب؟! ولم ينقله ثَبْت!.

وقد خرج كعب بن سُوْر بمصحف منشور بيده، يُناشد الناس أن لا يريقوا دماءهم، فأصابه سَهْم غَرْب فقتله، ولعلَّ طلحةَ مثلُه)[1].

وقال الإمام المؤرِّخ خليفة بن خيّاط: (كانت وقعة الجمل بالبصرة بالزاوية

(١) العواصم من القواصم، ص١٦٠. **وكعب بن سُوْر**: من جِلَّة التابعين وأكابر قضاة المسلمين.

ناحية طَفّ البصرة، يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وفيها قُتل طلحة بن عبيد الله في المعركة، أصابه سَهْم غَرْب فقتله)[(١)].

وإليه جنح الإمام ابن كثير فقال: (وأما طلحةُ فجاءَه في المعركة سَهْم غَرْب يُقال: رماه به مروان بن الحَكَم، فالله أعلم).

ثم قال في موضع آخر: (لمَّا حضَر يومُ الجمل جاءه سَهْم غَرْب، فوقع في رُكْبته، وقيل: في رقبته، والأول أشهر. ويُقال: إن الذي رماه بهذا السهم مروان بن الحَكَم. وقد قيل: إن الذي رماه غيره، وهذا عندي أقربُ، وإن كان الأول مشهوراً)[(٢)].

ولما انتهت المعركة جال أمير المؤمنين عليٌّ على أرضها بين القتلى، وترحَّم على الصالحين ممن عَرف، وصلَّى على قتلى الفريقين.

روى ابن عساكر وغيره: عن مُجالد، عن الشعبيِّ قال: (رأى علي بن أبي طالب طلحةَ بن عبيد الله ملقًى في بعض الأودية، فنزل فمَسَحَ الترابَ عن وجهه، ثم قال: عزيزٌ عليَّ أبا محمد أن أَراك مُجندلاً في الأودية وتحت نجوم السماء!.. ثم قال: إلى الله أَشكو عُجَرِي وبُجَرِي).

قال الأَصْمَعِيُّ: **عُجري وبُجري**: سرائري وأحزاني التي تموج في جوفي[(٣)].

وروى الطبراني والحاكم وابن عساكر: عن طلحة بن مُصَرِّف: (أن عليّاً انتهى إلى طلحة وقد مات، فنزلَ عن دابَّتِه، وأجلَسَه، فجعل يَمسح الغبار عن

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٨١.

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ٢٤٢، ٢٤٨؛ وانظر كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٥٤٠ ـ ٥٤٤.

(٣) مختصر ابن عساكر: ١١/ ٢٠٧؛ سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٦.

وجهه ولحيته، وهو يترحَّمُ عليه، ويقول: ليتَني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة)[١].

وهكذا تحققت نبوءة رسول الله ﷺ، واستشهد طلحة هناك على أرض البصرة، وقبره بظاهرها، وكان ابن أربع وستين سنة.. مات شهيداً مظلوماً رضي الله عنه وأرضاه، وويلٌ لمن قتله يوم القيامة!.



---

(١) الطبراني (٢٠٢)؛ المستدرك: ٣/ ٣٧٢؛ مختصر ابن عساكر: ١١/ ٢٠٧.

إخبار النبي ﷺ
سعدَ بن أبي وقاص بأنه يعيش بعده حتى يَنتفع به أقوام ويُضَرَّ به آخَرون

روى الزُّهْريُّ: عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: (عادَني النبيُّ ﷺ في حَجَّة الوَدَاع من وَجَعٍ أَشْفيتُ منه على الموت، فقلتُ: يا رسول الله! بَلَغ بي من الوجع ما تَرى، وأنا ذو مالٍ، ولا يَرِثُني إلا ابنةٌ لي واحدةٌ، أَفأتصدَّق بثُلثَيْ مالي؟ قال: «**لا**» قلتُ: أفأتصدَّقُ بشَطْره؟ قال: «**لا**» قلت: فالثُّلثُ؟ قال: «**والثلثُ كثيرٌ، إنك أنْ تذَرَ ورثتَكَ أغنياءَ خيرٌ من أنْ تذَرَهُم عالةً يتكفَّفُون الناسَ، ولستَ تُنفِقُ نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلا أُجِرْتَ بها، حتى اللقمةَ تجعلُها في في امرأتِك**» قلتُ: يا رسول الله! أَأُخَلَّفُ بعدَ أصحابي؟ قال: «**إنك لن تُخلَّفَ فتعملَ عملاً تبتغِي به وجهَ الله إلا ازددتَ به درجةً ورِفْعَةً، ولعلَّكَ تُخَلَّفُ حتى يَنتفِعَ بك أقوامٌ ويُضَرَّ بك آخَرون، اللهمَّ أَمْضِ لأصحابي هجرتَهم، ولا تَرُدَّهُم على أعقابهم، لكنِ البائسُ سعدُ بنُ خَوْلَةَ**» رَثَى له رسولُ الله ﷺ أن توفِّي بمكة)[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مالك: ٢/ ٧٦٣؛ وعبد الرزاق (١٦٣٥٧ ـ ١٦٣٥٩)؛ وأحمد: ١/ ١٦٨، ١٧١، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٩ وغيرها؛ والبخاري (٤٤٠٩) وهذا لفظه، و(٥٦) وأطرافه؛ ومسلم (١٦٢٨)؛ وأبو داود (٢٨٦٤)؛ والترمذي (٢١١٦)؛ والنسائي في الكبرى (٦٢٨٥) وأطرافه، والصغرى: ٦/ ٢٤٢؛ وابن ماجه (٢٧٠٨)؛ وابن حبان (٤٢٤٩) و(٦٠٢٦) و(٧٢٦١)؛ والبغوي (١٤٥٨) و(١٤٥٩)، وغيرهم.

أولاً: شَذْرة عن سعد وسيرته:

سعد بن أبي وقاص ﷺ واحد من أفاضل صحابة النبي ﷺ وأعيانهم، فهو أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد البدريين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من أراق دماً في سبيل الله، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأحد أمراء الرسول ﷺ، وفَدَّاه النبي ﷺ بأبويه، وكان مجاب الدعوة، وأحد فرسان الإسلام والقادة الفاتحين.

صحب رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة في مكة والمدينة، وصبر على اللأواء والشدة في سني الدعوة الأولى، وجاهد مع النبي ﷺ وحضر مشاهده كلها، وكان يحمل لواءه، ويحرسه، ويصلي خلفه.

فضائله كثيرة، ومناقبه شهيرة، افتخر به رسول الله ﷺ، ودعا له بأن يكون مجاب الدعوة، وبشَّره بالجنة، وأثنى عليه بأنه أحد الصديقين عندما رجف بهم جبل حِراء مرة، وجبل أُحد مرة أخرى.

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأقبلَ سعد بن أبي وقاص، فقال النبي ﷺ: **«هذا خالي، فَلْيُرِني امرؤٌ خالَه»!**)[١].

وعن سعد بن أبي وقاص، قال: (جَمَع لي رسول الله ﷺ أبويه يوم أُحد، قال: **«ارمِ، فِداكَ أبي وأمي»**)[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٥٢) وقال: حسن غريب؛ وابن سعد: ٣/ ١٣٧؛ والطبراني في الكبير (٣٢٣)؛ والحاكم: ٣/ ٤٩٨ وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ١٧٤، ١٨٠؛ والبخاري (٣٧٢٥) وأطرافه؛ ومسلم (٢٤١٢)؛ والترمذي (٢٨٣٠) و(٣٧٥٤)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٥٨) وأطرافه؛ وابن ماجه (١٣٠)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٦٢١)، وغيرهم.

وعن قيس بن أبي حازم، عن سعد: أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهمَّ استَجِبْ لسعدٍ إذا دعاك**»[(١)].

وكان النبي ﷺ دعا له بذلك يوم بدر.

ثانياً: وقت النبوءة وتحققها:

في السنة العاشرة للهجرة أَعلن الرسول ﷺ أنه حاجٌّ هذا العام، فأَوْعَبَ معه المسلمون من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ في حشد مَهيب، وكان سعد في مقدمة الأصحاب لأداء هذا المَنْسِك العظيم مع النبي ﷺ.

وهناك بمكة نزل المرضُ بسعدٍ واشتدَّ به حتى أشفَى على الهلاك، فأشفَقَ أن يموت بمكة، لا خوفاً من الموت، ولكن رغبة في أن لا يموت في تلك البلدة الطيبة المباركة التي هاجر لله تعالى منها، ورجاء أن يموت بالمدينة أرض مهاجَرِه.. فأكرمه الله بذلك.

وإضافة إلى هذه الشفافية في روح سعد، تتجلى صفة باهرة أخرى في هذا الموقف، تنبئ عن كرمه الأصيل وسخائه العريض، حيث أبدى رغبته للنبي ﷺ بأن يتصدق بماله كلِّه، واستشاره في ذلك، فأرشَدَه نبيُّ الرحمة ﷺ إلى ما هو أرفقُ بورثته، وأحفظُ لذرّيته، وأرفعُ لكرامتهم، وأعفُّ لأنفسهم؛ فأَذِنَ له أن يوصي بالثلث[(٢)].

وقد أخبرَنا سعدٌ بقصته هذه في الحديث الذي صدَّرنا به هذه النبوءة، وحَفِظ لنا ما أرشَدَه إليه الرسول ﷺ، وما أخبره به، وتضمَّن هذا الحديث ثلاثَ نبوءات كلّها بحقِّ سعدٍ ﷺ، وقد تحققتْ جميعها!.

●● ففي الحديث: (قلتُ: يا رسولَ الله! أَأُخَلَّفُ بعد أصحابي؟ قال: «**إنك**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٥١)؛ وابن حبان (٦٩٩٠)؛ والحاكم: ٣/ ٤٩٩، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) انظر كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٧٣٠ ـ ٧٣٢.

لن **تُخلَّفَ فتعملَ عملاً تبتغي به وجْهَ الله إلا ازددتَ به درجة ورِفعةً، ولعلَّك تُخَلَّفُ**»).

وقوله ﷺ: «**لعلَّك**»: (قال بعض العلماء: «لعلَّ» وإنْ كانت للترجّي لكنها من الله للأمر الواقع، وكذلك إذا وردتْ على لسان رسوله غالباً)[1].

وفي رواية أخرى للحديث عند البخاري: «**وعسى الله أن يرفعك**»، أي: يطيل عمرك.

وأَصْرَح منه ما جاء عند النسائي؛ عن عامر بن سعد، عن أبيه: (أنه اشتكى بمكة، فجاءه رسول الله ﷺ، فلما رآه سعدٌ بكى وقال: يا رسول الله! أَموتُ بالأرض التي هاجرتُ منها؟! قال: «**لا، إن شاء الله**»)[2].

وكذلك كان، فإن سعداً رضي الله عنه عاش بعد حجة الوداع خمساً وأربعين سنة، حيث توفي سنة (٥٥هـ).

وقد سأل سعدٌ الرسولَ ﷺ أن يدعوَ له بالشفاء، فقال: (يا رسول الله! قد خشيتُ أن أموتَ بالأرض التي هاجرتُ منها كما مات سعد بن خَوْلَة، فادْعُ الله أن يَشفيَني، قال: «**اللهمَّ اشْفِ سعداً، اللهم اشْفِ سعداً، اللهم اشْفِ سعداً**»)[3].

وفي رواية للبخاري: (ثم وَضَعَ يده على جبهتي، ثم مَسَح يدَه على وجهي وبطني، ثم قال: «**اللهمَّ اشْفِ سعداً، وأَتْمِمْ له هجرته**». فما زلتُ أجدُ بَرْدَه على كَبِدي فيما يُخَال إليَّ حتى الساعة!)[4].

---

(١) الفتح: ٧/ ٢٧١، شرح الحديث (٢٧٤٢).
(٢) البخاري (٢٧٤٢)؛ السنن الكبرى، للنسائي (٦٤٢٤).
(٣) مسند أحمد: ١/ ١٦٨؛ وقريب منه عند مسلم (١٦٢٨) (٨).
(٤) البخاري (٥٦٥٩).

•• والمعجزة الثانية في هذا الحديث تتجلى في قوله ﷺ: «**إِنك أَنْ تذرَ ورثـتَكَ أغنياءَ خيرٌ من أنْ تَذَرَهم عالةً يتكفَّفون الناسَ**».

فسعدٌ إذ ذاك لم يكن له إلا ابنة واحدة، ويَحتمِل أن تموت قبله ولا ترثه، لكن الرسول ﷺ يوجِّهه إلى أن يَترك ثلثَيْ مالِه لورثته، إشارة إلى أنه سيكون له ورثة كثيرون، وقد كان كذلك، فإن سعداً قد بُورك له في ذريته، فخلَّف أربعين ولداً ذكراً وأنثى، فيما ذكره صلاح الدين الصَّفَدي في ترجمة سعد في كتابه «نَكْت الهِمْيَان»، وسمَّى ابنُ سعد ستة وثلاثين منهم: ثمانية عشر ذكراً، وثماني عشرة أنثى.

وفي حجة الوداع ـ آخر سنة (١٠هـ) ـ لم يكن عند سعد إلا ابنة واحدة، وعُمُره آنذاك نحو أربعين سنة، فهؤلاء الأولاد كلهم وُلدوا له بعد سنِّ الأربعين، فسبحان الخالق الوهاب[1]!.

•• والمعجزة الثالثة في هذا الحديث هي عَلَم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، حيث يقول: «**ولعلَّكَ تُخَلَّفُ حتى يَنتفعَ بك أقوامٌ ويُضَرَّ بك آخرون**».

وقد جاء مِصْداق هذا واضحاً كالشمس، فسعدٌ رضي الله عنه كان من أعلام المجاهدين وقادة الفتوحات، ومن أجلِّ مناقبه جهادُه العظيم وفتوحاته الكبار، حيث تولى قتال الفُرس، أمَّره عمر بن الخطاب علىٰ ذلك، ففَتَح الله على يديه العراق، وهو كان مقدَّم الجيوش في القادسية وغيرها، وفَتَح المدائن، ومَصَّرَ الكوفةَ.

وقوله ﷺ: «**حتى ينتفعَ بك أقوام ويُضَرَّ بك آخرون**»: أي: سينتفع به أقوام في دينهم ودنياهم، فانتفع به المسلمون بما وقع لهم من الجهادِ معه والنصرِ المبين في معارك كثيرة على رأسها القادسية والمدائن، والفتوحات الواسعة التي شملت معظم العراق وجزءاً كبيراً من بلاد فارس، مع الغنائم التي تفوق الوصف

(١) انظر كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٨٥٠.

حيث فاضت على المجاهدين وعامة المسلمين، وكذلك النفع الذي تحقق لجماهير كثيرة ممن أَوْصَل لهم سعدٌ مع إخوانه المجاهدين كلمةَ لا إلـٰه إلا الله؛ فدخلوا في دين الله أفواجاً، وارتفعت راية التوحيد في تلك الأمصار بحمد الله، وهذا أَجَلُّ النفع.

وتضرَّر به آخَرون؛ هم الفُرس وغيرهم ممن وقفوا ضد سلطان الإسلام ودعوة الحق والهدى والنور، فماتوا كافرين تحت سَنَابِك خيول سعد والمجاهدين.

ولَحِقَ بجبابرة الفرس وأتباعهم الذلُّ والهَوَان والبَوار والخُسْران، مع تحطُّم دولتهم وزوالِ عرشهم وانطفاءِ نارهم.. فأيُّ ضرر أعظمُ من ذاك الضَّرر الذي نزل بأعداء سعد؟!.



إخبار النبي ﷺ
بأن محمد بن مَسْلَمة لا تضرُّه الفتنة

عن محمد بن سيرين، قال: قال حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنهما: (ما أحدٌ من الناس تدركُه الفتنةُ إلا أنا أخافها عليه، إلا محمد بنَ مَسْلَمة؛ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا تضرُّك الفتنةُ**»)[١].

❁ ❁ ❁

أولاً: كلمة عن الفتن وملابستها:

وقعت فِتنٌ كثيرة في عهد الصحابة، مثل: مقتل الخلفاء الثلاثة، ومواقع الجَمل وصِفِّين والخوارج والحرَّة، وغيرها[٢].

وقد جاءت أحاديث كثيرة تحذِّر من الفِتن وملابستها والخوضِ فيها والسعي إليها، (احتجَّ بها من لم يَرَ القتال في الفتنة، وهُمْ كل مَنْ ترك القتال مع عليٍّ في حروبه؛ كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عُمر ومحمد بن مَسْلَمة وأبي بَكْرة وغيرهم، وقالوا: يجبُ الكفُّ، حتى لو أراد أحدٌ قتْلَه لم يدفعه عن نفسه!.

ومنهم من قال: لا يدخلُ في الفتنة، فإن أراد أحدٌ قتْلَه دَفَع عن نفسه..

وذَهَب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نَصْر الحق وقتال الباغين، وحَمَل هؤلاء الأحاديثَ الواردة في ذلك على مَنْ ضَعُف عن القتال، أو قَصَر نظرُه عن معرفة صاحب الحق..

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٦٣)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦١١، وصحَّحه الألباني.

(٢) انظر ما كتبناه باستفاضة عن (الفتن) في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

واتفق أهل السنَّة على وجوب مَنْع الطعنِ على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عُرف المُحِقُّ منهم؛ لأنهم لم يقاتِلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يُؤجر أجراً واحداً، وأن المُصِيب يُؤجر أجرين)[١].

قال الإمام الطبري: (لو كان الواجبُ في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهربَ منه، بلزومِ المنازلِ وكَسْرِ السيوف؛ لَمَا أُقيم حَدٌّ ولا أُبْطِل باطلٌ، ولَوَجَد أهلُ الفسوق سبيلاً إلى ارتكاب المحرمات، من أخذِ الأموال وسَفْك الدماء وسَبْي الحريم، بأن يُحاربوهم ويكُفَّ المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا: هذه فتنة وقد نُهِينا عن القتال فيها! وهذا مخالفٌ للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء)[٢].

ومحمد بن مَسْلمة ومَن سَلَك مسلكه من الصحابة ـ وهم قلَّة ـ حَملوا أحاديث الفتنة والدخول فيها على العموم، وتمسكوا بظواهرها، فقعدوا عن الدخول في القتال بين المسلمين مُطلَقاً.

ثانياً: اعتزال محمد بن مسلمة الفتن وتحقق النبوءة:

●● لما استُشهد عثمان وجاءت خلافة عليّ ووقعت فتنة الجَمل وصِفِّين، ودبَّت الفُرقة بين المسلمين؛ آثَر محمد بنُ مسلمة السلامة، وتمسَّك بتوجيه نبوي في اعتزال الفتنة والاقتتال بين المسلمين، فكَسَر سيفَه ولَزِم بيته.

عن سَهْل بن أبي الصَّلْت قال: سمعت الحَسن البصري، يقول: (إن عليّاً بعث إلى محمد بن مَسْلَمة، فجيءَ به، فقال: ما خَلَّفَكَ عن هذا الأمر؟ قال: دَفَع إليَّ ابنُ عمك ـ يعني: النبي ﷺ ـ سيفاً فقال: **«قاتِلْ به ما قُوتل العدو، فإذا رأيتَ الناس يقتل بعضُهم بعضاً، فاعمد به إلى صخرة فاضربه بها، ثم الزم بيتك حتى تأتيك منيَّةٌ قاضية أو يدٌ خاطِئة»** قال: خَلّوا عنه)[٣].

---

(١) الفتح: ١٦/٣٦٦، شرح الحديث (٧٠٨٣).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) أخرجه أحمد: ٤/ ٢٢٥، وصحَّحه الألباني بطرقه، الصحيحة (١٣٨٠).

وعن أبي بُرْدَة بن أبي موسى الأشعريِّ قال: (مررتُ بالرَّبَذَة فإذا فُسطاط، فقلت: لمن هذا؟ فقيل: لمحمد بن مَسْلمة، فاستأذنتُ عليه، فدخلتُ عليه، فقلت: رحمك الله، إنك من هذا الأمر بمكانٍ، فلو خرجتَ إلى الناس فأمرتَ ونَهيتَ؟! فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ستكون فِتنةٌ وفُرْقةٌ واختلافٌ، فإذا كان ذلك فَائْتِ بسيفِك أُحداً فاضْرِب به حتى تقطعَه، ثم اجلِسْ في بيتك حتى تأتيك يدٌ خاطئةٌ، أو يُعافيك الله** ﷻ» فقد كان ما قال رسول الله ﷺ، وفعلت ما أمرني به.. ثم استنزل سيفاً كان معلَّقاً بعمود الفُسطاط فاختَرَطه، فإذا سيفٌ من خَشب! فقال: قد فعلتُ ما أمرني به رسول الله ﷺ، واتخذت هذا أُرهِبُ به الناسَ)(١).

وعن ثعلبة بن ضُبَيْعة قال: (دخلنا على حذيفةَ، فقال: إني لأعرفُ رجلاً لا تضرُّه الفِتن شيئاً. قال: فخرجنا، فإذا فُسطاط مضروبٌ، فدخلنا فإذا فيه محمد بن مسلمة، فسألناه عن ذلك فقال: ما أُريد أن يَشتمل عليَّ شيء من أمصاركم، حتى تنجلي عما انجلَتْ)(٢).

وبهذا الموقف من هذا الصحابي الجليل تحققت نبوءة رسول الله ﷺ فيه.

●● ومحمد بن مسلمة أنصاريٌّ أَوْسِيٌّ من نُجباء الصحابة، شهد مع النبي ﷺ بدراً والمشاهد كلها، وشارك بمقتل كعب بن الأشرف اليهودي الذي آذى النبي ﷺ.

وكان مقدَّماً عند أمير المؤمنين الفاروق، يأتمنه على محاسبة ولاته والتفتيش عليهم في الأقاليم، فإذا شُكي إليه عاملٌ أَنْفَذ محمداً إليه ليكشف أمره.. ومن

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٩٣ واللفظ له؛ وابن ماجه (٣٩٦٢)، وصححه الألباني بطرقه، الصحيحة (١٣٨٠)؛ وصحيح ابن ماجه (٣٢٠١)؛ وذكر ابن سعد: ٣/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥ طرقاً أخرى بنحوه، وهي في سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٧١ ـ ٣٧٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٦٤) واللفظ له؛ وابن سعد: ٣/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥؛ والحاكم: ٣/ ٤٣٣، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني.

ذلك عندما أَحرق بابَ قصر سعد بن أبي وقاص، لادِّعاءِ أهل الكوفة أن سعداً كان يُغلِق باب دار الإمارة ولا يتركه مفتوحاً[1].

خلَّف محمد بن مسلمة من الولد عشرة بنين وست بنات، وكان رجلاً طُوالاً ضخماً.

مات في المدينة المنورة في صفر سنة (٤٣هـ)، وعمره سبع وسبعون سنة رضي الله عنه وأرضاه.



(١) انظر كتابيَّ: الخلفاء الراشدون، ١٥٩ ـ ١٦٠؛ العشرة المبشرون بالجنة، ص٨٢٦ ـ ٨٢٧. وهما من إصدارات دار القلم بدمشق.

إخبار النبي ﷺ بأن ثابت بن قيس يعيش حميداً ويموت شهيداً

قال ابن شهاب الزهريُّ: أخبرني إسماعيلُ بن محمد بن ثابت الأنصاري، عن أبيه: (أن ثابتَ بن قيس قال: يا رسول الله! لقد خَشِيتُ أن أكونَ قد هَلكتُ! قال رسول الله ﷺ: «ولِمَ؟» قال: نهانا الله أن نُحِب أن نُحْمدَ بما لم نفعلْ، وأجدُني أحِبُّ الحمدَ، ونهانا عن الخُيلاء، وأجدُني أُحِبُّ الجمال، ونهانا أن نَرْفَع أصواتنا فوق صوتِك، وأنا جَهيرُ الصوت.. فقال رسول الله ﷺ: **«يا ثابتُ! ألَا ترضَى أن تعيشَ حَميداً، وتُقتل شهيداً، وتدخُلَ الجنة؟»** قال: بلى يا رسول الله! قال: فعاش حَميداً، وقُتِل شهيداً يومَ مُسيْلِمَة الكذّاب)(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: نبوءة وبشرى:

●● **تضمَّن هذا الحديث نبوءةً جليلة وبُشرى غالية:**

فالنبوءة هي أن ثابتاً يعيش حميداً ويقضي شهيداً، وقد تحقق ذلك على أتمّ وجه وأكمله.

وأما **البُشرى** فهي أنه من أهل الجنة، وما ينتظره فيها من منزلة صحابة النبي ﷺ وثواب الشهداء، فهنيئاً له.

وثابت بن قيس بن شمَّاس كان من نُجباء أصحاب رسول الله ﷺ، وخطيبَ

---

(١) أخرجه من طرق: ابن حبان (٧١٦٧)؛ والطبراني في الكبير (١٣١٠ ـ ١٣١٥)؛ والحاكم: ٣/ ٢٣٤؛ وأبو نعيم في الدلائل (٥٢٠)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٥٥، وغيرهم، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم، ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح بمجموع طرقه، واللفظ للحاكم.

الأنصار، وخطيبَ النبي ﷺ، شهد معه أُحداً وبقية المشاهد، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً لا يأبه بالموت، ولا يخشى بارقة السيوف!.. وقد انطوى قلبه على رقة وخشية وإحساس مرهَف، تعبِّر عنه أبلغَ تعبير كلماتُه في الحديث المتقدم، وبخاصة أنه كان جهير الصوت، فخشي أن يحبط عملُه إذا ارتفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، حتى إنه لزم بيته، وانْتُقِعَ لونُه، فافتقده الرسول الكريم ﷺ، فأرسل له بالطمأنينة أنه ليس مقصوداً بذلك، وزاده بشرى بأنه من أهل الجنة.

عن أنس بن مالك، قال: (لمَّا نَزلَتْ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] إلى آخر الآية، جلس ثابتُ بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتَبَس عن النبي ﷺ! فسأل النبيُّ ﷺ سعدَ بن معاذ، فقال: «**يا أبا عَمْرو، ما شأنُ ثابتٍ؟ أَشْتَكَى؟**»، قال سعدٌ: إنه لَجاري، وما علمتُ له بشكوى. قال: فأتاه سعد، فذَكَر له قولَ رسول الله ﷺ، فقال ثابتٌ: أُنزِلت هذه الآية، ولقد علمتم أنِّي من أرفعِكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار! فذَكَر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**بل هو من أهلِ الجنَّة**»). لفظ مسلم.

وفي رواية للنَّسائي وابن حِبَّان: (أنا أَخشى أن يكونَ الله قد غَضِب عليَّ! فَحَزِنَ واصفرَّ).

وزاد أحمد وابن حبان: (قال أنس: وكنَّا نَراه يمشي بين أَظْهُرِنا ونحن نعلمُ أنه من أهل الجنة، فلما كان يومُ اليَمامة، كان فينا بعضُ الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شمَّاس وقد تحنَّط ولبِس كَفَنه، فقال: بِئسما تعوِّدون أَقرانكم! فقاتلهم حتى قُتل)[١].

ثانياً: تحقق النبوءة:

●● وفي خلافة أبي بكر كانت حروب الردة، فسيَّر إليهم جيوشاً، منها جيش

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ١٣٧؛ والبخاري (٣٦١٣)؛ ومسلم (١١٩)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٧٠) و(١١٤٤٩)؛ وابن حبان (٧١٦٨) و(٧١٦٩).

إلى مسيلمة الكذاب وقومه بني حنيفة، تحت قيادة سيف الله خالد بن الوليد، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس، فثبت ثباتَ الأبطال، وقاتل حتى نال الشهادة، وتحققت فيه نبوءة رسول الله ﷺ.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (لمَّا كان يومُ اليَمامة جئتُ إلى ثابت بن قيس بن شَمَّاس وهو يتحنَّط، فقلت: يا عمِّ! أَلَا ترى ما يَلقى الناس؟! فلبِس أكفانَه ثم أقبل وهو يقول: الآنَ الآنَ، وجعل يقول بالحَنُوط هكذا وأومأ الأنصاري على ساقه، هكذا في وجوه القوم نُقارِع القومَ، بئسما عَوَّدْتُم أقرانكم، ما هكذا كنا نقاتِل مع النبي ﷺ! فقاتل حتى قُتل)[1].

وعن أنس أيضاً: (أن ثابتَ بن قيس جاء يوم اليمامة وقد تحنَّط ولبِس أكفانَه، وقد انهزَم أصحابُه، فقال: اللهمَّ إني أبرأُ إليك مما جاء به هؤلاء[2]، وأعتذرُ إليك مما صنع هؤلاء[3]، فبئس ما عوّدتُم أقرانَكم، خلُّوا بيننا وبين أقراننا ساعة. ثم حَمل، فقاتل ساعة، فقُتل. وكانت دِرعُه قد سُرقت، فرآه رجلٌ فيما يرى النائم، فقال: إن درعي في قِدر تحت إِكاف بمكان كذا وكذا، وأوصى بوصايا.. فطُلب الدِّرْعُ فوُجِد حيث قال، فأنفَذوا وصيَّتَه)[4].

وكانت معركة اليمامة في ربيع الأول من سنة (١٢هـ)، واستشهد فيها جَمٌّ غَفير من الصحابة رضي الله عنهم.



(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٥)؛ والحاكم: ٣/ ٢٣٤، واللفظ له.
والحنوط: هو ما يُطيَّب به الميت.

(٢) يعني: المرتدين.

(٣) يريد: المسلمين الذين انهزموا.

(٤) أخرجه الحاكم: ٣/ ٢٣٥، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٢ـ ٣٢٣، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وللخبر رواية أخرى عجيبة مطولة عند الطبراني، وساقها الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٢؛ والحافظ في الإصابة: ١/ ١٩٧.

إخبار النبي ﷺ
بأن عبد الله بن بُسْر يعيش قرناً

عن إبراهيم بن محمد بن زياد الأَلْهاني، عن أبيه، عن عبد الله بن بُسْر: (أن رسول الله ﷺ قال له: «**يَعيشُ هذا الغُلامُ قَرْناً**» قال: فعاشَ مئة سنة)(١).

❁ ❁ ❁

●● كان من كريم أخلاق رسول الله ﷺ، وجميلِ عشرته، وحسنِ هَدْيه، وجليلِ شمائله ـ وجميع أخلاقه وشمائله وعشرته كريمةٌ رفيعةٌ ـ أنه يعيش مع أصحابه كأنه واحد منهم، ويقبل دعوتهم للطعام ونحوه، ويَنفحهم بتوجيهاته الكريمة، ويُثني عليهم، ويردُّ جميلَهم، ويدعو لهم بالخير.

ومن ذلك ما كان في قصته مع عبد الله بن بُسْر، حيث دُعي إلى طعام عند والده، فيلبي النبي ﷺ دعوته، ويدعو له ولأهل بيته بالرحمة والمغفرة والبركة وتوسعة الرزق، ويبشِّرهم بأن عبد الله ـ وكان غلاماً ـ سيعيش مئة سنة، وفي العمر الطويل الخيرُ الكثير لمن اغتنم سِني حياته، وسَلَك الهدي القويم والصراط المستقيم.

عن أبي بَكْرَة ﷺ: (أن رجلاً قال: يا رسولَ الله! أيُّ الناس خيرٌ؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير: ١/ ٣٢٣، ترجمة (١٠١١)، وفي الأوسط: ١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣؛ والطبراني في مسند الشاميين (٨٣٦)؛ والحاكم: ٤/ ٥٠٠؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٥٠٣؛ وابن عساكر (عبادة بن أوفى ـ عبد الله بن ثوب)، ص ٤٤٦؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٢٦٦٠).

«**مَن طالَ عُمُره وحَسُن عملُه**» قال: فأيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «**مَن طال عُمره وساء عملُه**»[(١)].

وكان في وجه الغلام عبد الله بن بُسْر ثُؤْلُول، فأخبره النبي ﷺ بأنه سيعافى من ذلك.

وقد تحقق مِصداق قول الرسول ﷺ في هذين الأمرين.

عن عبد الله بن بُسْر قال: (نزلَ رسولُ الله ﷺ على أبي، قال: فقرَّبْنَا إليه طعاماً ووَطْبَةً، فأكل منها، ثم أُتي بتَمْرٍ، فكان يأكلُه ويُلقي النَّوى بين إصْبَعَيه ويجمع السبَّابة والوسطى. ثم أُتي بشرابٍ، فشَرِبه ثم ناوله الذي عن يمينه، قال: فقال أبي، وأخذ بلجامِ دابَّته: ادعُ الله لنا، فقال: «**اللهمَّ بارِكْ لهم في ما رَزَقْتَهُم، واغفِرْ لهم وَارحَمْهُم**»)[(٢)].

قال أبو القاسم محمد بن القاسم الحِمْصِيُّ: سمعت عبد الله بن بُسْر يقول: (أَتى رسول الله ﷺ منزلَنا مع أَبي، فقام أبي إلى قَطيفة لنا قليلةِ الخَمْل فجمعها بيده، ثم ألقاها للنبي ﷺ فقعد عليها، ثم قال أبي لأمي: هل عندك شيء تطعميناه؟ فقالت: شيءٌ من حَيْسٍ، قال: فقرَّبَتْه إليهما، فأكلا، ثم دعا لنا رسول الله ﷺ، ثم التفتَ إليَّ رسولُ الله ﷺ، وأنا غلامٌ، فمسحَ بيدِهِ على رأسي، ثم قال: «**يعيشُ هذا الغلام قَرْناً**» قال أبو القاسم: فعاش مئةَ سنة)[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٤٠، ٤٣ ـ ٤٤، ٤٧، وغيرها؛ والترمذي (٢٣٣٠)؛ والدارمي (٢٧٤٢)؛ والحاكم: ١/ ٣٣٩، وصحَّحه وأقره الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ١٨٨ ـ ١٨٩، ١٩٠؛ ومسلم (٢٠٤٢)؛ وأبو داود (٣٧٢٩)، والترمذي (٣٥٧٦)؛ والنسائي في الكبرى (١٠٠٥٠) و(١٠٠٥١)؛ وابن حبان (٥٢٩٧)، وغيرهم. **والوَطْبة**: الحَيْس يَجمع التمر البرنيّ والأَقط المدقوق والسَّمن.

(٣) أخرجه ابن عساكر، ص٤٤٧؛ وتمام في فوائده؛ وانظر: الصحيحة: ٦/ ٣٤٥ ـ ٣٤٧ (٢٦٦٠). **والحيس**: تمر ينزع نواه، ويدق مع أقِط ويعجنان بالسمن، ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد، وربما جعل معه سويق (المصباح).

وقال سلمة بن جواس: حدثنا محمد بن القاسم الطائي: (أن عبد الله بن بُسْر كان معهم في قرية، فقال: هاجر أبي وأمي إلى النبي ﷺ، وإن النبي ﷺ مسحَ بيده رأسي، وقال: «**ليَعيشُ هذا الغلام قرناً**» قلتُ: بأبي وأمي يا رسول الله، وكم القرنُ؟ قال: «**مئةُ سنة**» قال عبد الله: فلقد عشتُ خمساً وتسعين سنة، وبقيَتْ خمسُ سنين إلى أن أُتمَّ قولَ رسول الله ﷺ.

قال محمد: فحَسَبنا بعد ذلك خمسَ سنين، ثم مات)(١).

وروى إبراهيم بن محمد بن زياد الأَلْهاني، عن أبيه: (عن عبد الله بن بُسْر؛ أن النبيَّ ﷺ وَضَع يده على رأسه وقال: «**يعيشُ هذا الغلام قَرْناً**» فعاش مئةَ سنة.. وكان في وجهه ثُؤْلُولٌ، فقال: «**لا يموتُ هذا الغلام حتى يذهبَ هذا الثُّؤْلُول**» فلم يَمتْ حتى ذَهبَ الثُّؤلولُ من وجهه)(٢).

●● وعبد الله بن بُسْر وأبوه وأمه وأخوه عَطيّة وأختُه الصَّمَّاء خمستُهم صحابيون(٣).

صَحِب عبد الله النبيَّ ﷺ، وكان ممن صلَّى معه القبلتين جميعاً، وفاز بدعوة الرسول ﷺ له، حيث وضَعَ يده على رأسه وبارك عليه.

وكان من العُبَّاد الصالحين؛ قال صفوان بن عَمْرو: (رأيتُ في جبهة عبد الله بن بُسْر أثرَ السُّجود)(٤).

---

(١) أخرجه ابن عساكر، ص٤٤٧؛ وانظر: الصحيحة: ٦/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥.
والقَرن: يُطلَق على مدة من الزمان، واختلفوا في تحديدها، والمشهور أن القرن مئة سنة، وهذا الحديث يشهد له، وإليه مال الحافظ في الفتح: ٨/ ٥٦١، شرح الحديث (٣٦٥٠).
(٢) أخرجه الحاكم: ٤/ ٥٠٠؛ وابن عساكر، ص٤٤٦.
(٣) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ص٢١٦؛ تهذيب الكمال: ٣٥/ ٢١٨.
(٤) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ص٢١٤، ٢١٥؛ تاريخ ابن عساكر، ص٤٤٠، ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

وخُتم له بالحسنى؛ قال يحيى بن صالح الوُحَاظي: حدثتنا أمُّ هاشم الطائية قالت: (رأيتُ عبد الله بن بُسر جالساً يتوضأ، فبينا هو يتوضأ إذ خرجَتْ نَفْسُه)[١].

نزل عبد الله بن بُسر الشام، وسكن حِمْصَ، ومنزلُه في قرية من قراها يقال لها (تَنُونِية)، وبها مات رضي الله عنه[٢].

قال غير واحد: مات عبد الله بن بسر سنة (٩٦هـ) في خلافة سليمان بن عبد الملك.

وعاش مئة سنة كما أخبر النبي ﷺ.



(١) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ص٢١٤، ٢١٥؛ تاريخ ابن عساكر، ص٤٤٠، ٤٤٩ ـ ٤٥٠.
(٢) تاريخ ابن عساكر، ص٤٣٧.

إخبار النبي ﷺ جابر بن عبد الله بأنه سيوسّع له في الرزق وتكون له أنماط

عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: (قال لي رسول الله ﷺ: «**هل تزوَّجتَ يا جابرُ؟**» قلتُ: نعم يا رسول الله! قال: «**فهل اتَّخذْتُم أَنْماطاً؟**» قلتُ: وأنَّى لنا أَنْماطٌ؟! قال: «**إنها ستكونُ**»)[1].

۞ ۞ ۞

أولاً: كلمة بين يدي النبوءة وشذرة من حياة جابر وسيرته:

●● **الأنماط**: جمع نَمَط، وهو بِساط له خَمْلٌ رقيق، ونوع من الثياب المُصَبَّغة، ولا يكاد العرب يقولون نَمَط إلا لِما كان ذا لَوْن من حُمرة أو خُضرة أو صُفرة، فأما البياض فلا يُقال نمط[2].

ويُعرف النَّمط في زماننا باسم (المخمل)، وهو نوع من الأقمشة مشهور وشائع، ويستعمل في كسوة الفِراش والوسائد، وستائر البيوت والجدران والسيارات وغيرها، واستعمالُه دليلُ التبسّط من الدنيا والترفُّه والتنعُّم.

---

(١) أخرجه الحميدي (١٢٢٧)؛ وأحمد: ٣/ ٢٩٤؛ والبخاري (٣٦٣١) و(٥١٦١)؛ ومسلم (٢٠٨٣)؛ وأبو داود (٤١٤٥)؛ والترمذي (٢٧٧٤)؛ والنسائي في الكبرى (٥٥٤٨) والصغرى: ٦/ ١٣٦؛ وابن حبان (٦٦٨٣)، وغيرهم.

(٢) لسان العرب: ٧/ ٤١٧.

وفي وقت كان الصحابة يعيشون متقلّلين من الدنيا في الطعام والشراب واللباس وأثاث البيوت، ويَغزون مع النبي ﷺ ولا يكاد بعضُهم يجدُ الدابَّة يركبها، ويكون قوت المجاهد منهم تمراتٍ في اليوم، بل ربما تمرة يمصُّها، وأكسيتُهم في غاية البساطة والتواضع ـ في مثل هذه الحال يُعتبر الحديثُ عن (الأنماط) شيئاً مستغرَباً، فكيف باستخدامها ظِهارة للفراش، أو تُجعل على الهودج، أو تُستر بها الجدران وتُفرش على الأرض؟! إن هذا يعني إقبالَ الدنيا على الصحابة، والتبسُّط من نعيمها، والاتساعَ في زينتها ورفاهيتها!.

وجابر رضي الله عنه عندما تزوج، وسأله الرسول ﷺ: «**هل اتَّخذتُم أنماطاً؟**» تعجَّبَ لذلك واستغرب السؤال، فهو ينظر في جنبات بيته فلا يجد من متاع الدنيا إلا ما يُقيم الأَوَد ويَستر الجسد، ويعيش متقلِّلاً من الدنيا هو وزوجه وأخواتُه التسع، فمن أين تكون الأنماط؟.

ويَرْجِع جابر البصر، ويُمعن الفكر، فرسولُ الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، وهو يُطمئنه ويبشِّره بأن ذلك سيكون، وسيتحول الضيق إلى السعة، ولسوف تُبسط له الدنيا، وتكون له الأنماط، وقد كان ما أخبر به ﷺ.

●● استُشهد والد جابر رضي الله عنهما في غزوة أُحد، وترك وراءه جابراً وتسعَ بنات، وعليه دَيْنٌ كثير يتوجَّب على جابر تأديتُه.

قال عامرٌ الشعبيُّ: حدَّثني جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (أن أباه استُشهدَ يومَ أُحدٍ، وتَرَكَ عليه دَيْناً، وترك ستَّ بنات[1].. فلما حَضَرَ جِذاذُ النخل، قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت: قد علمتَ أن والدي قد استُشهد يوم أُحد، وتَرَك دَيْناً كثيراً، وإني أُحِبُّ أن يَرَاك الغُرماءُ، فقال: «**اذْهَبْ فَبَيْدِرْ كلَّ تَمْرٍ على ناحيةٍ**».

(١) في رواية غير الشعبي: (تسع بنات)، فكأن ثلاثاً منهن كنَّ متزوجات فلم يذكرهن.

ففعلتُ، ثم دَعَوتُه. . .) الحديث[١]. . . وفيه: أن جابراً أدى كل الدَّين الذي عليه، وبقي البَيْدرُ كأنه لم يَنْقُص تمرةً واحدةً، ببركة النبي ﷺ وبركة دعائه.

وفي أحد أسفاره مع الرسول ﷺ، كان على جمل ضعيف بطيء يسير في أواخر الركب، فأخذ النبي ﷺ قضيباً فزجره، فكان من ذلك المكان من أول القوم، وقال الرسول ﷺ لجابر: «**بِعْنِيه**» فقال: بل هو لك يا رسول الله، فقال ﷺ: «**بل بِعْنِيه، قد أخذتُه بأربعةِ دنانيرَ، ولك ظَهرُه إلى المدينة**» وأمر النبي ﷺ بلالاً فوزَن لجابرٍ وأَرْجَحَ في الميزان، قال جابر: (فانطلقتُ حتى وَلَّيْتُ، فقال: «**ادْعُ لي جابراً**» قلتُ: الآن يردُّ عليَّ الجملَ، ولم يكن شيءٌ أبغضَ إليَّ منه، قال: «**خُذْ جَمَلَكَ، ولكَ ثَمنُه**»!)[٢].

ويحدِّث جابرٌ عن إحدى غزواته مع النبيّ ﷺ فيقول: (أَراد رسول الله ﷺ أن يغزوَ فقال: «**يا معشرَ المهاجرين والأنصار! إن من إخوانكم قوماً ليس لهم مال ولا عشيرةٌ، فليضمَّ أحدكم إليه الرَّجُلين أو الثلاثة**»، فما لأحدنا من ظَهْر يحمله إلا عُقْبة كَعُقْبة ـ يعني ـ أحدهم، قال: فضممتُ إليَّ اثنين أو ثلاثة، قال: ما لي إلا عُقبةٌ كعُقبةِ أحدِهم من جَمَلي)[٣].

فهذه الأخبار وسواها تبيِّن أن جابراً لم يكن يملك من الدنيا إلا اليسير، فلا عجبَ أن يقول للنبي ﷺ مستغرِباً متعجباً: (أنَّى تكون لنا الأَنْماط؟!).

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٧) وأطرافه، واللفظ له؛ وأبو داود (٢٨٨٤)؛ وابن ماجه (٢٤٣٤)؛ والنسائي في الكبرى (٦٤٣٠) وأطرافه، والصغرى: ٦/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦؛ وابن حبان (٦٥٣٦) و(٧١٣٩)، وغيرهم.

(٢) قصة جمل جابر أخرجها الأئمة: البخاري (٢٠٩٧) و(٢٣٠٩) و(٤٤٣) وأطرافه؛ ومسلم (٧١٥) بعد الحديث (١٤٦٦)؛ وأبو داود (٣٥٠٥)؛ والترمذي (١٢٥٣)؛ وابن ماجه (٢٢٠٥)؛ والنسائي في الكبرى (٦١٨٨) وأطرافه؛ وابن حبان (٤٩١١) و(٦٥١٧ ـ ٦٥١٩)، و(٧١٤٠ ـ ٧١٤٣)، وغيرهم.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٣٤) واللفظ له؛ والحاكم: ٢/ ٩٠، وصحَّحه ووافقه الذهبي. **العقبة**: هي التعاقب في ركب البعير والمشي.

ثانياً: تحقق النبوءة:

وتمرّ الأيام وتُقبِل الدنيا على جابر، ويكثُر المال بين يديه، وتدخل الأنماط بيته، ويستمتع بها أهله، ويتحقق قول النبي ﷺ.

عن جابر قال: (قال النبي ﷺ: «**لو قد جاء مالُ البَحْرين قد أَعطيتُك هكذا وهكذا**» فلم يَجِئْ مالُ البحرين حتى قُبض النبي ﷺ، فلما جاء مال البحرين، أَمر أبو بكر فنادَى: مَنْ كان له عند النبي ﷺ عِدَةٌ أو دَيْنٌ، فَلْيَأْتِنا، فأتيتُه، فقلت: إن النبي ﷺ قال لي كذا وكذا. فحَثَى لي حَثْيَةً، فعددتُها، فإذا هي خمسمئة، وقال: خُذْ مِثْلَيْها)(١).

وفي خلافة الفاروق فاضت الأموال، فدوَّن الدواوين، وفَرض الأَعْطيات، وعرَّف العرفاءَ، وجعل جابراً عَريفاً على قومه، فنال من الخير مثلَ ما نال الصحابة من السابقين وغيرهم، وكان ما أخبر به رسول الله ﷺ من تغيُّر حال جابر من القِلَّة إلى انبساط الدنيا وكثرة متاعها، حتى رأى الأنماط تُفرش في بيته!.

عن محمد بن المُنْكَدر، عن جابر قال: (قال رسول الله ﷺ: «**هل لكم أنماط؟**» قلت: وأَنَّى تكون لنا أَنماط؟! قال: «**أَمَا إنها ستكونُ لكم أنماط**» قال: فأنا أقول لامرأتي: أَخّري عنِّي أنماطَكِ! فتقول: أَلَم يَقُلِ النبي ﷺ: «**إنها ستكون لكم أنماط**»؟! قال: فأدَعُها)(٢).

وجابر رضي الله عنه من مشاهير الصحابة وأعيان الأنصار، ومن حفَّاظ الحديث، والفقهاء المجتهدين، كان مقرَّباً عند النبي ﷺ، بايعه في بيعة العقبة الثانية،

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨؛ والبخاري (٢٢٩٦) وأطرافه، واللفظ له؛ ومسلم (٢٣١٤)، وغيرهم.
والبحرين الآن: هو إقليم الأحساء شرق المملكة العربية السعودية.

(٢) هذا لفظ الترمذي (٢٧٧٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وسبق تخريجه: ١/ ١٣١ في هذا المجلد.

وشهد معه حمراءَ الأَسَد وما بعدها من المشاهد، وسَعِد بأنه من أهل بيعة الرضوان، ومناقبه جمَّة.

عميَ بآخر عمره، وتوفي سنة (٧٨هـ)، وهو ابن أربع وتسعين سنة.



إخبار النبي ﷺ
أمَّ حَرَام بأنها ستركبُ البحرَ
مجاهدةً في سبيل الله

عن مالكٍ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طَلْحة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمعه يقول: (كان رسول الله ﷺ يَدخلُ على أمِّ حَرَام بنتِ مِلْحَانَ فتُطعِمُهُ، وكانت أمُّ حرام تحتَ عُبادة بن الصَّامت، فدَخَل عليها رسول الله ﷺ فأَطعمتْهُ، وجَعلت تَفْلي رأْسَه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحكُ، قالت: فقلت: وما يُضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناسٌ من أُمَّتي عُرِضُوا عليَّ غُزاةً في سبيلِ الله، يَرْكَبون ثَبَجَ هذا البحرِ، مُلُوكاً على الأَسِرَّةِ**» أو: «**مِثْلَ الملوكِ على الأسرَّة**» ـ شكَّ إسحاقُ ـ قالت: فقلتُ: يا رسول الله! ادْعُ اللهَ أن يجعَلَني منهم. فدَعَا لها رسول الله ﷺ، ثم وَضَع رأسَه، ثم استيقظ وهو يضحك، فقلت: وما يُضحِككَ يا رسول الله؟ قال: «**ناسٌ من أَمَّتي عُرِضَوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله**» ـ كما قال في الأول ـ قالت: فقلت: يا رسول الله! ادعُ الله أن يجعلَني منهم، قال: «**أنتِ من الأَوَّلِينَ**» فركبتِ البحرَ في زمنِ معاويةَ بنِ أبي سُفيان، فَصُرِعَتْ عن دابَّتِها حين خَرجَتْ من البحر، فهَلَكتْ).

وفي رواية: (فخرجَتْ مع زوجها عُبادةَ بنِ الصامت غازياً، أوَّلَ ما ركب المسلمون البحر مع معاوية، فلما انصرفوا من غزوتهم قافِلين، فنزلوا الشَّأْمَ، فَقُرِّبَتْ إليها دابَّةٌ لتركَبَها فَصَرعَتْها فماتَتْ).

وفي رواية أخرى: عن أمِّ حَرامٍ: (أنها سمعتِ النبيَّ ﷺ يقول: «**أولُ جيشٍ من أُمَّتي يَغزون البحرَ قد أَوْجَبُوا**» قالت أم حرام: قلتُ: يا رسولَ الله! أنا

فيهم؟ قال: «أنتِ فيهم» ثم قال النبي ﷺ: **«أولُ جيشٍ من أمتي يَغزون مدينة قَيْصَرَ مغفورٌ لهم»** فقلتُ: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «**لا**»)[١].

❁ ❁ ❁

أولاً: تعريف وتوضيح:

أم حَرام بنت مِلْحان صحابية أنصارية نجّارية، من عِلْيَة النساء، وهي أختُ أم سُلَيم والدةِ الصحابي الجليل أنس بن مالك، وزوجةُ الصحابي الكبير الشهيد عبادة بن الصامت.

يقال لها: الرُّمَيْصَاء، ولأختها أمِّ سُليم: الغُمَيْصاء، ومعنى الرَّمَص والغَمَصِ متقارب، وهو اجتماعُ القَذَى في مؤخَّر العين وفي هُدْبها، وقيل: استرخاؤها وانكسار الجفن[٢].

وكان النبي ﷺ يدخل عليها، فتطعمه، وتَفْلي رأسَه، ويَقيل عندها؛ لأنها كانت مَحْرماً له، واختلفوا في كيفية ذلك، فقال ابن عبد البر وغيره: كانت إحدى خالاته من الرضاعة، وقال آخرون: بل كانت خالة لأبيه أو لجدِّه؛ لأن عبد المطلب كانت أمه من بني النجار.

وقال بعضهم: إن ذلك من خصوصياته ﷺ، وقوّاه الحافظ في «الفتح»[٣].

ثانياً: مدلولات النبوءة وتحققها:

●● في هذا الحديث عدَّة معجزات لرسول الله ﷺ، وضُروب من إخباره بما سيقع، فوقع كما قال، وذلك معدود من علامات نبوته:

(١) أخرجه مالك: ٢/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥؛ وأحمد: ٦/ ٣٦١، ٤٢٣؛ والبخاري (٢٧٨٨، ٢٧٨٩) وأطرافهما؛ ومسلم (١٩١٢)؛ وأبو داود (٢٤٩٠)؛ والترمذي (١٦٤٥)؛ والنسائي في الكبرى (٤٣٦٥) و(٤٣٦٦)، والصغرى: ٦/ ٤٠ ـ ٤٢؛ وابن ماجه (٢٧٧٦)؛ وابن حبان (٤٦٠٨) و(٦٦٦٧) و(٧١٨٩)، وغيرهم، والروايات الثلاث للبخاري.

(٢) الفتح: ١٤/ ١١١، شرح الحديثين (٦٢٨٢، ٦٢٨٣).

(٣) شرح مسلم، للنووي: ٧/ ٦٧؛ الفتح: ١٤/ ١١٩ ـ ١٢٠.

منها: إعلامُه ببقاء أمته بعده، وأن فيهم أصحابَ قوة وشوكة ونكاية في العدو، وأنهم يتمكَّنون من البلاد حتى يغزوا البحر، وأن أم حَرَام تعيش إلى ذلك الزمان، وأنها تكون مع الذين يَغزون البحر في غَزَاتهم الأولى، وأنها لا تدرك زمان الغزوة الثانية. وقد تحقق ذلك كله بحمد الله تعالى[(١)].

ويخبر النبي ﷺ أن جيشاً من أمته سيخرجون مجاهدين في سبيل الله تعالى، ويركبون ثَبَجَ البحر؛ أي: مَتْنه وظَهْرَه، وذلك بركوبهم السفن التي تجري على ظهره وتمخُر عُبابَه وتشقُّ أمواجَه.

وقد وقع ذلك في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، حيث كان واليه على بلاد الشام الصحابي المجاهد معاوية بن أبي سفيان يُلحُّ عليه في ركوب البحر وغزو الروم ـ وكان تقدَّمَ قبل ذلك إلى أمير المؤمنين عمر فرفض ـ فوافَقَ عثمانُ وأَذِن له بذلك.

وخرج جيش المسلمين تحت قيادة معاوية، واتجهوا إلى حِمْصَ، ومنها إلى الساحل السوري، فنزلوا بسُفُنهم هناك، واتجهوا إلى جزيرة قُبْرص المعروفة الآن في البحر الأبيض المتوسط والمقابلة للساحل السوري، وافتتحوا تلك الجزيرة، وذلك في سنة (٢٨هـ)[(٢)].

●● وأخبر النبيُّ ﷺ في هذا الحديث أن غزوَ المسلمين في البحر سيحدثُ مرتين، وعندما أَخبر أمَّ حرام عن الغزوة الأولى قالت له: (ادعُ الله أن يجعَلَني منهم)، فدعا لها، وفي رواية: قال ﷺ: «**اللهمَّ اجعلها منهم**» ثم أخبرها بأن المسلمين سيَغزون في البحر ثانية؛ (فقالت: ادعُ الله أن يجعَلَني منهم. قال: «**أنتِ في الأوَّلِينَ ولستِ من الآخِرِين**»)[(٣)].

---

(١) شرح مسلم، للنووي: ٧/٦٨؛ الفتح: ١٤/١١٨.
(٢) انظر تفصيل ذلك في النبوءة (٢٩): ١/٢٨١ في هذا المجلد.
(٣) البخاري (٢٨٧٧، ٢٨٧٨).

وأوضح في رواية أخرى: أن الجيش الثاني سيغزون مدينةَ قيصر ـ أي: القُسْطَنطينية ـ فقالت أم حرام: (أنا فيهم يا رسول الله؟) قال: «لا»[1].

ففي قول النبي ﷺ هذا لأم حرام معجزتان:

الأولى: أنها ستكون مع أصحاب الغزوة الأولى.

والثانية: أنها لا تُدرِك زمانَ الغزوة الثانية، وهذا يقتضي استشهادها ﵂.

●● فانظر إلى هذه المرأة العظيمة الجليلة المجاهدة التي خرجت من وطنها المدينة المنورة، فكانت مع زوجها الصحابي الكبير عبادة بن الصامت في الشام، ثم خرجت صحبَتَهُ في البحر لتجاهد في سبيل الله!.

وركوب البحر مخيفٌ، ثم هو غريبٌ على المسلمين لم يكن لهم فيه سابقة أو تجربة، فلم تأبَهْ لذلك، بل إنها طلبت من الرسول ﷺ أن يدعوَ لها الله بأن يجعَلَها من أهل الغزوة الأولى ثم الثانية.

فكانت في الطائفة الأولى حيث قضَتْ شهيدةً ﵂، وتحققت فيها نبوءة النبي ﷺ.

قال أنس: (فخَرجَتْ مع زوجها عُبادة بنِ الصَّامت غازياً أوَّلَ ما ركبَ المسلمون البحر مع معاوية، فلما انصرفوا من غزوتهم قافِلين فنزلوا الشأم، فقُرِّبَتْ إليها دابَّةٌ لتركبَها، فَصرعَتْها فماتت)[2].

فبعد أن صالح معاوية أهلَ جزيرة قبرص وأراد الخروج، قُدِّمت لأمِّ حرام بغلةٌ لتركبها، فسقطت عنها، فاندقّت عنقُها، فماتت هناك ﵂، وقبرُها هنالك معروف يسمُّونه: قبر المرأة الصالحة! ولا يزال إلى الآن في مدينة لارنكا.

---

(١) البخاري (٢٩٢٤).

(٢) البخاري (٢٧٩٩، ٢٨٠٠)، وسبق تخريجه في صدر النبوءة.

ونالَتْ أم حرام ثوابَ المجاهدين، وفازَتْ بمنازِل الشهداء، وماتت غريبةً عن وطنها، رضي الله عنها وأرضاها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغَريق شهيد**» هذا لفظ مسلم.

وفي رواية أحمد وابن أبي شيبة: «**والخارُّ عن دابَّتِهِ في سبيل الله شهيدٌ**»(١).

وعن أبي أُمامةَ الباهِليِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثةٌ كلُّهم ضامنٌ على الله عز وجل: رجلٌ خرج غازياً في سبيل الله، فهو ضامنٌ على الله حتى يتوفاه فيُدخِله الجنة، أو يَرُدُّه بما نال من أجر وغنيمة. ورجلٌ راحَ إلى المسجد، فهو ضامنٌ على الله حتى يتوفاه فيُدخِله الجنة، أو يَرُدُّه بما نال من أجر وغنيمة. ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله عز وجل**»(٢).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن صُرِع عن دابَّتِهِ في سبيل الله فمات فهو شهيدٌ**»(٣).

فهنيئاً لأم حرام كل ذلك الأجر العظيم!.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ٤٤١؛ ومسلم (١٩١٥)؛ وابن ماجه (٢٨٠٤)؛ وابن أبي شيبة: ٤/ ٥٨٦؛ وابن حبان (٣١٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٩٤) واللفظ له؛ وابن حبان (٤٩٩)؛ والحاكم: ٢/ ٧٣؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ١٦٦، وصحَّحه الحاكم وأقره الذهبي، وصحَّحه الألباني.

(٣) أخرجه الطبراني؛ والروياني في مسنده؛ وحسَّنه الحافظ في الفتح: ٧/ ٣٦٨، شرح الحديث (٢٧٩٩)؛ وصحَّحه الألباني بشاهدٍ له، في الصحيحة (٢٣٤٦)، وصحيح الجامع (٦٣٣٦).

إخبار النبي ﷺ
بأن عمار بن ياسر تقتله الفئة الباغية

عن عِكْرمة: (أن ابنَ عباس قال له ولابنه عليّ: انطلِقا إلى أبي سعيد الخُدْرِيِّ فاسمعا منه حديثه. قال: فانطلقنا، فإذا هو في حائطٍ له، فلما رآنا أخذ رداءَه، فجاءنا فقعد، فأنشأ يُحدِّثُنا، حتى أتى على ذِكْر بناء المسجد، قال: كنا نَحْمِل لَبِنةً لبنةً، وعمار بن ياسر يحمل لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، قال: فرآه رسول الله ﷺ فجعل يَنْفُضُ التُّرابَ عنه ويقول: «**يا عمَّارُ! ألا تَحمِلُ لَبِنةً كما يَحملُ أصحابُك؟**» قال: إني أُريدُ الأجرَ من الله، قال: فجعل يَنْفُضُ التراب عنه، ويقول: «**وَيْحَ عمّارٍ، تَقْتُلُه الفئةُ الباغيةُ، يَدْعُوهم إلى الجنَّة ويَدْعُونَه إلى النَّارِ**»! قال: فجعل عمارٌ يقول: أعوذُ بالرحمنِ من الفِتن)(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: الحديث متواتر ومن أعلام النبوة:

روى حديثَ «**تقتل عماراً الفئة الباغية**» جماعةٌ من الصحابة بلغوا قريباً من ثلاثين نفساً، منهم ـ كما يقول الحافظ ـ: قتادة بن النعمان، وأم سلمة، وأبو هريرة، وعبد الله بن عَمرو، وعثمان، وحذيفة، وأبو رافع، وخُزيمة بن

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٩٠ ـ ٩١، واللفظ له؛ والبخاري (٤٤٧) و(٢٨١٢)؛ وابن حبان (٧٠٧٩)؛ وأخرجه من طرق أخرى بأخصر منه: مسلم (٢٩١٥)؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٩٥)؛ وأحمد: ٣/ ٢٢؛ والطيالسي (٢١٦٨)؛ وابن سعد: ٣/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣؛ وابن حبان (٧٠٧٨).

ثابت، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وأبو اليَسَر، وعمَّار نفسه.. وغالب طرقها صحيحة أو حسنة[١].

وقد نصَّ على تواتر هذا الحديث: ابن عبد البر في «الاستيعاب»، والحافظ في «الإصابة»[٢]، وغيرهما.

وفي هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام النبوة، وفضيلةٌ ظاهرة لعليٍّ ولعمار، ورَدٌّ على النواصب الزاعمين أن عليّاً لم يكن مصيباً في حروبه[٣].

ويقول الإمام النووي: (فيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أَوْجُه: منها: أن عماراً يموت قتيلاً، وأنه يقتله مسلمون، وأنهم بُغاة، وأن الصحابة يتقاتلون، وأنهم يكونون فرقتين: باغية وغيرها.. وكل هذا وقع مثل فَلَق الصبح، صلى وسلم الله على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى)[٤].

ثانياً: تحقق النبوءة، وتوضيح وبيان وتحقيق لِما جرى بين الصحابة:

●● قد تحققت النبوءة بمقتل عمار في معركة صِفِّين التي جرت بين جيش العراق تحت إمرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجيش الشام تحت إمرة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وذلك في صفر من سنة (٣٧هـ)، وكان في كل من الجيشين جماعة من الصحابة.

والفريقان من أهل الحق، وأصحاب دعوة واحدة هي الإسلام، وكل منهما اجتهد في إقامة حدود الله تعالى.

واقتتالُ المسلم مع أخيه المسلم ليس مستحيلاً، فقد قال الله سبحانه: ﴿وَإِن

---

(١) الفتح: ٢/٣٠٣ ـ ٣٠٤، شرح الحديث (٤٤٧).
(٢) الاستيعاب: ٢/٤٧٤؛ الإصابة: ٢/٥٠٦.
(٣) الفتح: ٢/٣٠٤.
(٤) شرح مسلم: ٩/٢٧٣.

طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

فالله سبحانه، العليم الخبير، قد شرع الإصلاح بين الطائفتين المختلفتين المقتتلتين من المسلمين، فإن بَغَتْ إحداهما قُوتِلت؛ لأنه سبحانه قد سبق علمُه بأن هذا ممكن الوقوع من البشر.

وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بأن معاوية وجيشَه من أهل الحق؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتان يكونُ بينهما مَقْتَلةٌ عظيمةٌ، دَعوتُهما واحدة**»[1].

قال الحافظ: (المرادُ بالفئتين: جماعةُ علي، وجماعةُ معاوية. والمراد بالدعوة: الإسلامُ، على الراجح)[2].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما الحديث الذي فيه: «**أن عمَّاراً تقتُلُه الفئةُ الباغية**»: فقد تأوَّلَه بعضُهم على أن المرادَ بالباغية الطالبةُ بدمِ عثمان، كما قالوا: ننعى[3] ابنَ عفَّانَ بأطرافِ الأَسَلْ ـ وليس بشيء. بل يُقال: ما قالَهُ رسول الله ﷺ، فهو حقٌّ كما قالَه، وليس في كون عمار تقتله الفئة الباغية ما ينافي ما ذكرناه، فإنه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠]؛ فقد جعَلَهم مع وجود الاقتتال والبغي

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/٣١٣؛ والبخاري (٣٦٠٩) و(٧١٢١) وغير موضع؛ ومسلم (١٥٧) عقب الحديث (٢٨٨٨)؛ وابن حبان (٦٧٣٤)؛ والبغوي (٤٢٤٤)، وغيرهم.

(٢) الفتح: ١٦/٦٣، شرح الحديث (٦٩٣٥). وانظر كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٦٠٦ ـ ٦١٠.

(٣) في مجموع الفتاوى: (نبغي) وهو تصحيف، وانظر الأبيات في تاريخ الطبري: ٤/٥١٨. **والأسل**: الرماح.

مؤمنينَ إخوةً، بل مع أَمْرِه بقتال الفئة الباغية جَعَلَهم مؤمنين، وليس كل ما كان بَغْياً وظلماً أو عدواناً يُخرِجُ عمومَ الناس عن الإيمان، ولا يُوجِب لَعْنَتَهم، فكيف يُخْرِج ذلك مَن كان مِن خير القرون؟!).

ثم قال: (أما إذا كان الباغي مجتهداً ومتأوِّلاً، ولم يتبيَّنْ له أنه باغٍ، بل اعتَقَد أنه على الحق، وإن كان مخطئاً في اعتقاده ـ لم تكن تسميتُه «باغياً» موجبةً لإثمهِ، فَضْلاً عن أن تُوجِب فِسْقَه)[(١)].

بل إن عماراً نفسَه رضي الله عنه ردَّ على مَن كفَّر جندَ الشام، وأنَّبَه، وكَشَف الغطاء عن عينيه؛ ليبصرَ الحقيقة بأن أهل الشام مسلمون، وإن أخطؤوا الاجتهاد حسبما يرى علي وعمار ومن معهما من الأخيار.

روى ابن أبي شيبة من طريق زياد بن الحارث قال: (كنتُ إلى جَنْب عمَّار بن ياسر بصِفِّين، ورُكْبتي تمسُّ ركبتَهُ، فقال رجل: كَفَر أهلُ الشام، فقال عمار: لا تقولوا ذلك، نبيُّنا ونبيُّهم واحد، وقِبْلَتُنا وقِبْلَتُهم واحدة، ولكنهم قوم مفتونون حادوا عن الحق، فحقَّ علينا أن نُقاتِلهم حتى يرجعوا إليه)[(٢)].

فأين هذا من ذلك الافتراء المبين الذي تزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطَّغَام من تكفيرِهم أهلَ الشام؟!.

ـ معنى قوله: «**يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**»:

كان قَتْلُ عمارٍ بصِفِّين وهو مع علي، والذين قتلوه مع معاوية وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟.

والجواب: أنهم كانوا ظانِّين أنهم يَدْعُون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لَوْمَ عليهم في اتباع ظنونهم. فالمرادُ بالدعاء إلى الجنة: الدعاءُ إلى سببها وهو طاعة

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٧٤ ـ ٧٦.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢٢؛ وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/ ٤١٧، شرح الحديث (٧١٢١)، وإسناده صحيح.

الإمام، وكذلك كان عمارٌ يدعوهم إلى طاعة علي وهو الإمام الواجبُ الطاعة إذ ذاك، وكانوا هم يَدْعُون إلى خلاف ذلك، لكنهم معذورون للتأويل الذي ظهر لهم[(١)].

●● روى عَمْرو بن مرَّة قال: سمعت عبد الله بن سَلِمَة، يقول: (رأيتُ عمَّار بن ياسر يوم صِفِّينَ ـ شيخٌ آدَمُ طُوالٌ ـ أَخذ الحربة بيده، ويَدُه تَرْعَدُ، فقال: والذي نفسي بيده لقد قاتلتُ بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاثَ مرات وهذه الرابعة، والذي نفسي بيده لو ضَرَبُونا حتى يَبْلغوا بنا سَعَفاتِ هَجَر، عرفنا أن مصلحينا على الحق وأنهم على الباطل)[(٢)].

واستَلْحَم القتالُ، وجالَ عمار في ساحة المعركة ساعة، فَحَمل عليه اثنان من الموتورين الشانئين، هما ابن جَوى السَّكْسَكي وأبو الغادية الجُهَنِيُّ، فأما أبو الغادية فَطَعَنَه، وأما ابنُ جوى فاحتزَّ رأسَه!.

روى الإمام أحمد وابن سعد ـ واللفظ له ـ قال: أخبرنا عفان بن مُسْلم، قال: أخبرنا حماد بن سَلَمة، قال: أخبرنا أبو حَفْص وكُلثوم بن جبر، عن أبي غادية قال: (سمعتُ عمار بنَ ياسر يقع في عثمان يَشتُمه بالمدينة، قال: فتوعَّدتُه بالقتل، فقلت: لَئن أمكنَني الله منك لأفعلنَّ! فلما كان يومُ صِفِّين جعل عمار يَحمل على الناس، فقيل: هذا عمار، فرأيتُ فَرْجَة بين الرئتين وبين الساقين، قال: فحملتُ عليه فطعنتُه في ركبته، قال: فوقع، فقتلتُه. فقيل: قتلتَ عمار بن ياسر! وأُخْبِر عمرو بن العاص فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: «**إنَّ قاتلَهُ وسالبَهُ في النار**»)[(٣)].

---

(١) الفتح: ٢/٣٠٢، شرح الحديث (٤٤٧).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/٣١٩؛ وابن سعد: ٣/٢٥٦ ـ ٢٥٧؛ وابن حبان (٧٠٨٠)؛ والحاكم: ٣/٣٨٤، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.
وسَعَفَات: جمع سَعَفَة، وهي أغصان النخيل. **وهَجَر**: هي الهفوف اليوم، وإنما خَصَّها للمباعدة في المسافة.

(٣) مسند أحمد: ٤/١٩٨؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٠٠٨).

وعن حَنْظَلة بن خُوَيْلد العَنَزِيِّ قال: (بينما أنا عند معاوية، إذ جاءه رجلان يختصِمان في رأسِ عمَّار، يقول كلٌّ واحد منهما: أنا قَتَلْتُه! فقال عبد الله بن عَمْرو: لِـيَطِبْ به أحدُكما نَفْساً لصاحبِه، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**تقتُلُه الفئةُ الباغيةُ**» قال معاوية: فما بالُكَ مَعَنا؟! قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: «**أَطِعْ أباكَ ما دَام حيّاً ولا تَعْصِه**» فأنا معكم، ولستُ أقاتِلُ)[١].

ومن غرائب أبي الغادية هذا ما رواه محمد بن أبي عَدِيٍّ، عن ابن عَوْن، عن كُلثوم بن جَبْر قال: (كنا بواسط القَصَب عند عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر، قال: فإذا عنده رجلٌ يُقالُ له: أبو الغادية، استسقى ماءً، فأُتي بإناءٍ مُفَضَّض، فأبَى أن يشرب، وذكر النبيَّ ﷺ، وذكر هذا الحديث: «**لا تَرْجِعوا بعدي كفَّاراً** ـ أو: **ضُلَّالاً**، شك ابن أبي عدي ـ **يَضْرِب بعضُكم رقابَ بعض**» فإذا رجل يَسُبُّ فلاناً، فقلت: والله لئن أمكنني الله منك في كتيبة! فلما كان يومُ صِفِّين، إذا أنا به وعليه دِرْعٌ، قال: فَفَطِنتُ إلى الفُرْجة في جُرُبَّان الدِّرْع، فطعنْتُه، فقتلتُه، فإذا هو عمار بن ياسر، قال: قلت: وأيُّ يدٍ كَفَتَاه، يَكره أن يَشرب في إناء مُفَضَّض، وقد قَتل عمارَ بنَ ياسر!)[٢].

وقد ترجم الحافظ لأبي الغادية قاتلِ عمار في «الإصابة»، وفي «تعجيل المنفعة» وقال فيه: (اسمه يَسَار بن سبع، وقيل غير ذلك. سكن الشام، ونزل واسط. أدرك النبي ﷺ، وسمع منه قوله: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب**

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥، واللفظ له؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢٣، وبأخصر منه النسائي في الكبرى (٨٤٩٦)؛ وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٣/ ٩٢، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند: ٤/ ٧٦، واللفظ له؛ وابن سعد: ٣/ ٢٦٠ بسياق أطول وأحسن، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٠٠٨). وعبد الأعلى بن عبد الله هو أمير واسط، وقائل: (وأي يد كفتاه...) هو رجل من حراس الأمير، كما أوضحته رواية ابن سعد. وانظر: تاريخ واسط، ص٣٥ ـ ٣٦.

بعضكم رقاب بعض». روى عنه كلثوم بن جَبْر وغيره. وكان محبَّاً لعثمان، وهو الذي قتل عمار بن ياسر.. وكان إذا استأذن على معاوية وغيره يقول: قاتِلُ عمار بالباب! يتبجَّح بذلك! وانظر إلى العجب! يروي عن النبي ﷺ النهيَ عن القتل ثم يَقتل مثلَ عمار!)[١].

وهذا الرجل وشريكُه اللذان قتلا عماراً رضي الله عنه وأرضاه، وكذلك من حَضَّ على قَتْله ورضي به؛ هم الحقيقون بقوله ﷺ: «**تقتله الفئة الباغية**»، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ثم: «**إنَّ عماراً تقتُلُه الفئة الباغية**» ليس نصّاً في أن هذا اللفظ لمعاوية وأصحابه، بل يمكن أنه أُريد به تلك العصابة التي حَمَلت عليه حتى قتلَتْه، وهي طائفة من العسكر، ومَن رضي بقَتْل عمار كان حكمه حكمها. ومن المعلوم أنه كان في المعسكر من لم يرضَ بقتل عمار، كعبد الله بن عمرو بن العاص وغيره، بل كل الناس كانوا منكرين لقتل عمار، حتى معاوية وعمرو)[٢].

وهذا الكلام من هذا العلم الشامخ في غاية الدقة والنفاسة والإنصاف والمَعْدلة.

•• وتأصيلاً على ما تقدّم: فإنه من الظلم المبين، والافتئات على الحق، والسقوط في مهاوي الهلاك؛ اتهامُ جميع جيش أهل الشام بأنهم قتلة هذا الصحابي الجليل؛ لأن له مكانة سامية في قلوب الصحابة والتابعين الأخيار، حتى الذين خالفوه في الاجتهاد وكانوا في الجيش المقابل.. والذين يتخذون مقتلَه ذريعةً للولوغ في أعراض الصحابة، وتكفيرِ فريق منهم؛ فقد جانبوا الحق وضلوا ضلالاً مبيناً.

ورجلٌ مثلُ عمارٍ بمكانته وشهرته يَخرج مع عليٍّ للدفاع عن الحق حسب اجتهاده، ويتقابل ضمن جيشه مع جيش الشام الذين خرجوا متأوِّلين للطلب بدم

---

(١) تعجيل المنفعة، رقم (١٣٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٥/٧٦ ـ ٧٧.

عثمان والاقتصاص من قتلته، ثم تنشب المعركة ويشتد وطيسها، وعمارٌ بكامل سلاحه ولَأْمَتِه وبروزِ مكانه بين المحتربين؛ حريٌّ به أن يكون هدفاً لسهام الآخرين، ومن يشهد الوغى يَقتل أو يُقتل.

وشتان بين مقتل عمار رضي الله عنه في ساحة المعركة وقد خرج للقتال متهيِّئاً له، وبين من قُتل شهيداً مظلوماً في مسجده أو بيته وهو آمن غافل عن غدر الغادرين وكيد المجرمين، لم يسلَّ عليهم سيفاً، ولم يجابهوه كفاحاً!.

فرق كبير بين قَتْلِ عمار، وقتلِ كل من الشهداء الثلاثة الأبرار: عمر في محرابه، وعثمان في بيته وهو صائم وكتابُ الله بين يديه، وعلي وقد خرج لصلاة الفجر في السابع عشر من رمضان، ولسانُ حال كل واحد منهم يقول ما قاله كعب بن مالك رضي الله عنه في عثمان:

فكَفَّ يديهِ ثم أَغْلَقَ بابَهُ   وأَيْقَنَ أنَّ اللهَ ليس بِغافلِ

إنَّ قَتْلَ هؤلاء جريمةٌ كبرى وفسادٌ عريض، ومن باشَر قتْلَهم أو كان من ورائهم، هم مجرمون قَتَلة، ملعونون على لسان محمد ﷺ.

وقد أشار إلى مثل هذا الإمام ابنُ حزم، فبيَّن أن عماراً قتَلَه أبو الغادية وهو متأوِّلٌ مجتهد مخطئ فيه باغٍ عليه، ثم قال: (وليس هذا كقَتَلَةِ عثمان رضي الله عنه؛ لأنه لا مجال للاجتهاد في قَتْله، لأنه لم يقتل أحداً، ولا حاربَ ولا قاتلَ ولا دافعَ، ولا زنى بعد إحصان، ولا ارتدَّ، فيسوغ المحاربة تأويلاً. بل هم فُسَّاق محارِبون سافكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل على سبيل الظلم والعدوان، فهم فسَّاق ملعونون)[١].



(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٤/ ١٦١.

إخبار النبي ﷺ
عَمَّاراً أن آخر زاده من الدنيا شربة لبن

عن حَبيب بن أبي ثابت، عن أبي البَخْتري: (أن عمَّار بن ياسر أُتي بشَرْبة من لبن، فضَحِك، فقيل له: ما يُضْحِكك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: آخِرُ شرابٍ أشربُه حين أموت هذا)[1].

❁ ❁ ❁

•• هذا عَلَمٌ من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، وقع كما أخبر في موقعة صِفِّين، وكان عمار رضي الله عنه يَعلم هذا ويوقن به، وقد شهد مع علي حروبه في الجَمَل وصفِّين، مجتهداً في ذلك مثلما اجتهد غيره ممن ناصر علياً، أو كان مع معاوية في أهل الشام، أو أولئك الذين لم يُلابِسوا الفتن واعتزلوا الفريقين.

فكان عمار يقاتِل وهو يعتقد أنه على الحق ـ وهو كذلك ـ ويعتصم بقول الرسول ﷺ له: «**تَقْتُلك الفئةُ الباغيةُ**»، ولا يرى أن قتاله ذاك بعهد من النبي ﷺ أو وصية.

عن قيسِ بن عُبَاد قال: (قُلنا لعمَّارٍ: أَرَأيتَ قتالَكُم، أَرَأْياً رأيتُموه، فإنَّ الرأيَ يُخْطِئُ ويُصِيبُ، أو عَهْداً عَهِدَهُ إليكم رسولُ الله ﷺ؟ فقال: ما عَهِدَ إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يَعْهَدْه إلى الناس كافَّةً)[2].

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ٣١٩؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢٨ ـ ٧٢٩؛ وابن سعد: ٣/ ٢٥٧؛ وأبو يعلى (١٦١٣)؛ والحاكم: ٣/ ٣٨٩، واللفظ له، وصحَّحه وأقرَّهُ الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة: ٧/ ٦٦٣ ـ ٦٦٤ (٣٢١٧).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٣١٩ ـ ٣٢٠؛ ومسلم (٢٧٧٩)، واللفظ له.

وروى إبراهيمُ بن عبد الرحمن بن عَوْف قال: (سمعتُ عمَّارَ بنَ ياسر بصِفِّين في اليوم الذي قُتل فيه، وهو ينادي: أُزْلِفت الجنة، وزُوِّجَت الحُور العِينُ، اليومَ نلقى حبيبنا محمداً ﷺ، عَهِد إليَّ: «**إنّ آخِرَ زادِك من الدنيا ضَيْحٌ من لَبَنٍ**»)[١].

وعن أبي البَخْتري سعيد بن فيروز قال: (قال عمارٌ يومَ صِفِّين: ائتوني بشَرْبَةِ لبن، فإن رسول الله ﷺ قال لي: «**إنَّ آخِرَ شَرْبةٍ تَشْرَبُها من الدنيا شَرْبَةُ لبنٍ**». فأُتي بلَبنٍ فشَرِبه، ثم تقدَّم فقُتل)[٢].

●● وعمار بن ياسر رضي الله عنه أحدُ السابقين الأوَّلين، ومن أعيان البدريين، عُذِّبَ في الله عذاباً شديداً، فصَبَر صبراً جميلاً، وكذلك عُذِّب أبواه فبشَّرهم النبي ﷺ بالجنة.

روى أبو الزُّبير المَكِّي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ مرَّ بعمَّارٍ وأهلِه وهم يُعَذَّبون، فقال: «**أَبْشِروا آلَ عمَّارٍ وآلَ ياسرٍ؛ فإن موعدَكُم الجنةُ**»)[٣].

وقد شهد عمار مع النبي ﷺ المشاهدَ كلَّها، وكان من المقرَّبين عند رسول الله ﷺ، وأثنى عليه ثناءً عاطراً، وامتدحه وزكّاه في غير موقف كما ثَبَت في الأحاديث الصحاح.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كنَّا جلوساً عند النبي ﷺ، فجاء عمارٌ يستأذِنُ، فقال ﷺ: «**ائْذَنوا له، مَرْحباً بالطَّيِّبِ المُطَيَّب**»)[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط؛ والحاكم: ٣/ ٣٨٩، واللفظ له، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٢١٧).
والضَّيْح: اللَّبَن الخاثِرُ يُصَبُّ فيه الماء ثم يُخْلط.

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٣١٩؛ وابن سعد: ٣/ ٢٥٧، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه الحاكم: ٣/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أحمد: ١/ ٩٩، ١٠٠، ١٢٥ ـ ١٢٦، ١٣٠؛ والترمذي (٣٧٩٨)؛ وابن ماجه (١٤٦)؛ وابن حبان (٧٠٧٥)؛ والحاكم: ٣/ ٣٨٨، وصحَّحه، وأقره الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصحَّحه أحمد شاكر والألباني.

وقال هانئ بن هانئ: (استأذن عمارٌ على عليٍّ رضوان الله عليه، فقال: مرحباً بالطَّيِّب المُطَيَّب؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عمارٌ مُلِئَ إيماناً إلى مُشَاشِه**»)(١).

وعن خالد بن الوليد قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عادَى عمَّاراً عادَاه الله، ومَن أَبْغَضَه أَبْغَضَه الله**»(٢).

وكان عمار رجلاً آدَمَ طُوالاً، مضطرباً، أَشْهَل العينين، بعيد ما بين المَنْكِبين، لا يغيِّر شيبه(٣).

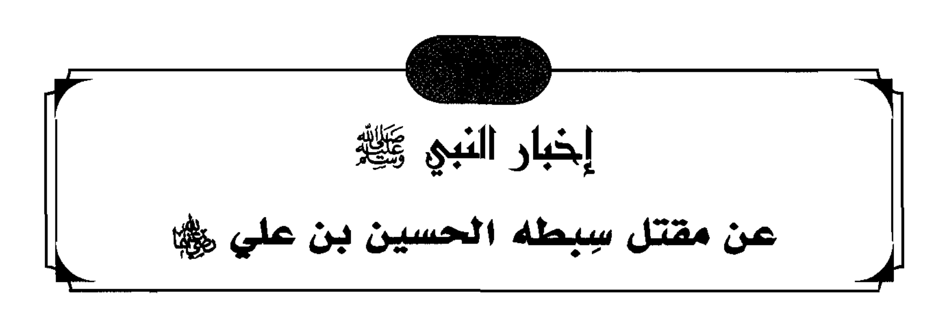
قُتل ﷺ بصفِّين في صفر من سنة (٣٧هـ)، ودفن هناك بصفين، وعاش ثلاثاً وتسعين سنة.



(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٧/ ٥٢٤؛ وابن ماجه (١٤٧)؛ وابن حبان (٧٠٧٦)؛ وأبو نعيم في الحلية: ١/ ١٣٩، وصحَّحه الألباني، وحسَّنه شعيب الأرنؤوط. وانظر: الصحيحة (٨٠٧).
والمُشَاش: رؤوس العظام.

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٨٩؛ والنسائي في الكبرى (٨٢١١)؛ والطبراني (٣٨٣٠ ـ ٣٨٣٣)؛ وابن حبان (٧٠٨١)؛ والحاكم: ٣/ ٣٩٠ ـ ٣٩١، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٦٤.
والشَّهَل: أن يَشوب إنسانَ العين حُمرةٌ.



إخبار النبي ﷺ عن مقتل سِبطه الحسين بن علي رضي الله عنهما

عن عائشة أو أم سلمة رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال لإحداهما: «**لقد دخل عليَّ البيت مَلَكٌ لم يَدخل عليَّ قبلها، فقال لي: إنَّ ابنَك هذا حسين مقتول، وإن شئتَ أريتُكَ من تُرْبَةِ الأرض التي يُقْتَلُ بها. قال: فأَخرج تربةً حمراءَ**»[1].

۞ ۞ ۞

أولاً: نبذة يسيرة عن الحسين بن علي رضي الله عنهما:

●● أبو عبد الله الحسين ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ، القرشيُّ الهاشميُّ.

سِبْط رسول الله ﷺ، وريحانتُه من الدنيا ومحبوبُه، ومحبوب المؤمنين إلى يوم الدين.

مولده سنة أربع من الهجرة، وأدرك من حياة النبي ﷺ نحو ست سنين، وقُتل شهيداً يوم عاشوراء العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة، في كربلاء من أرض العراق.

كان هو وأخوه الحسن قد تربَّيا في عزِّ الإسلام، لم ينالا من الهجرة

---

(١) أخرجه أحمد: ٦/ ٢٩٤، وصحَّحه الذهبي في «تاريخ الإسلام ـ حوادث ووفيات ٦١ ـ ٨٠هـ»، ص١٠٣ ـ ١٠٤، وقال الهيثمي في (المجمع: ٩/ ١٨٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٨٢٢)؛ وشعيب الأرنؤوط في هامش سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٠.

والجهاد والصبر على الأذى في الله ما نال سلفهما الطيب، فأكرمهما الله تعالى بما أكرمهما من الابتلاء ليرفع درجتهما، وذلك من كرامتهما عليه لا من هوانهما عنده، كما أكرم عمر وعثمان وعليّاً وحمزة وجعفراً وغيرهم بالشهادة.

ولقد أحبَّهُما النبي ﷺ حُبّاً ليس وراءه حُبّ، وأَوْجَب علىٰ الأمة حُبَّهما، وبشَّرهما بأنهما سيدا شباب أهل الجنة، وأثنى عليهما الثناء العريض المنتشر، الذي رواه الأئمة، وحفظه المسلمون، وعمِل به المؤمنون، وكانا مبجَّلَيْن مكرَّمَيْن في عهد الخلفاء الراشدين ومَنْ بعدهم.

وكان أبو بكر يُكْرم الحسينَ ويعظِّمه، وكذلك كان عمر وعثمان.

قال حماد بن زيد: حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عُبيد بن حُنين قال: حدثني الحسين بن علي قال: (أتيت على عمر بن الخطاب وهو على المنبر، فصعدتُ إليه فقلت: انزلْ عن منبر أبي، واذهَبْ إلى منبر أبيك! فقال عمر: لم يكن لأبي منبر. وأخذني وأجلسني معه، فجعلت أقلِّب خنصر يدي. فلما نزل انطلق بي إلى منزله، فقال لي: من عَلَّمك؟ فقلت: والله ما علَّمنيه أحدٌ، قال: يا بني! لو جعلتَ تغشانا. قال: فأتيته يوماً وهو خالٍ بمعاوية، وابنُ عمر بالباب، فرجع ابن عمر ورجعتُ معه. فلقيني بعدُ، فقال: لم أرَكَ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! إني جئتُ وأنت خالٍ بمعاوية، وابنُ عمر بالباب، فرجع ابن عمر ورجعتُ معه. فقال: أنت أَحَقُّ بالإذن من ابن عمر! وإنما أَنبتَ ما ترى في رؤوسنا اللهُ، ثم أنتم)[1].

وقال عبد الله بن بُريدة: (دخل الحسن والحسين على معاوية، فأَمر لهما في وقته بمئتي ألف درهم، وقال: خُذاها وأنا ابنُ هند، ما أعطاها أحدٌ قبلي، ولا يعطيها أحد بعدي.

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ١/ ١٤١، وذكره الذهبي في السير: ٣/ ٢٨٥ وصححه، والحافظ في الإصابة: ١/ ٣٣٢ وصحَّحه أيضاً.

قال: فأما الحسن رضي الله عنه فكان رجلاً سكّيتاً، وأما الحسين رضي الله عنه فقال: والله ما أعطى أحدٌ قبلك ولا أحدٌ بعدك لرجُلَين أشرفَ ولا أفضلَ منّا!)[١].

صَحِب الحسين أباه، وكان معه في مغازيه كلها في الجمل وصِفِّين، وكان معظِّماً له وموقراً، ولم يزل في طاعة أبيه حتى قُتل، فلما آلَت الخلافةُ إلى أخيه وأراد أن يصالح، شَقَّ ذلك عليه ولم يسدِّد رأيَ أخيه في ذلك، بل حَثَّه على قتال أهل الشام، فقال له أخوه: والله لقد هممتُ أن أَسجنك في بيت، وأُطبق عليك بابه، حتى أفرغ من هذا الشأن، ثم أخرجك. فلما رأىٰ الحسين ذلك سكتَ وسَلم)[٢].

●● فضائله كثيرة، ومناقبه جَمَّة، مسطورة في كتب السنّة المشهورة.

عن عبد الله بن مسعود قال: (كان النبي ﷺ يصلي، والحسن والحسين يَثِبان على ظهره، فَيُباعِدُهما الناس، فقال ﷺ: «**دَعُوهما، بأَبي هما وأُمي، مَن أَحبَّني فَلْيُحِبَّ هذين**»)[٣].

وعن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُسينٌ منِّي وأنا من حسينٍ، أَحبَّ الله من أَحَبَّ حسيناً، حسينٌ سِبْطٌ من الأَسْباط**»[٤].

وعن أسامة بن زيد؛ أن النبي ﷺ قال في الحسن والحسين: «**هذانِ ابنايَ وابْنَا ابنتي، اللهمَّ إني أُحِبُّهما، فأَحِبَّهُما وأَحِبَّ مَن يُحِبُّهُما**»[٥].

---

(١) مختصر ابن عساكر: ٧/ ١١٥؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٥٠ ـ ١٥١.
(٢) البداية والنهاية: ٨/ ١٥٠.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة: ٧/ ٥١١؛ والنسائي في الكبرى (٨١١٤)؛ وابن خزيمة (٨٨٧)؛ وأبو يعلى (٥٠١٧) و(٥٣٦٨)؛ وابن حبان (٦٩٧٠)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.
(٤) أخرجه أحمد: ٤/ ١٧٢؛ والترمذي (٣٧٧٥)؛ وابن ماجه (١٤٤)؛ وابن حبان (٦٩٧١)؛ والحاكم: ٣/ ١٧٧، وصحَّحه وأقره الذهبي، وحسنه الترمذي.
(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٦٩) وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أَحَبَّ الحسن والحسين فقد أَحَبَّني، ومن أَبْغَضهما فقد أَبْغَضَنِي»**(١).

والأحاديث في هذا كثيرة جدّاً.

ثانياً: تحقق النبوءة ووقوع الفاجعة بمقتل الحسين رضي الله عنه:

●● أخبر الرسول ﷺ بأن سِبْطه الحسين سيقضي شهيداً، وسيُقتل على شاطئ الفرات بالعراق، وأتاه جبريل بتربةٍ من تربته حمراءَ، وقد تحققت هذه النبوءة، فكانت فاجعةً كبرى للمسلمين، في مطلع سنة (٦١هـ).

روى ثابت البُنَانيُّ: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (استَأْذَنَ مَلَكُ القَطْر ربَّه أن يزورَ النبيَّ ﷺ، فأَذِنَ له، فكان في يوم أم سلمة، فقال النبي ﷺ: **«احْفَظِي علينا البابَ، لا يَدْخُلُ علينا أحدٌ»** فبينا هي على الباب إذ جاء الحسين بن علي، فَظَفَرَ، فاقْتَحَمَ، ففَتَح الباب فدخل، فجعل يتوثَّبُ على ظَهْر النبيِّ ﷺ، وجعل النبي يَتَلثَّمُهُ ويُقَبِّلُه، فقال له المَلَك: أتحبُّه؟ قال: **«نعم»** قال: أَمَا إن أمَّتَك ستقتُلُه، إنْ شئتَ أريتُكَ المكانَ الذي يُقتل فيه؟ قال: **«نعم»** فقَبَضَ قَبْضةً من المكان الذي يُقتل فيه، فأَراهُ إياه، فجاءَه بسَهْلَةٍ أو ترابٍ أحمرَ، فأخذَتْه أمُّ سلمة فجعلَتْه في ثوبها.

قال ثابت: كنا نقول: إنها كَرْبَلاء)(٢).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (دخلتُ على النبي ﷺ ذات يوم وعَيْناهُ تَفيضان، قلت: يا نبيَّ الله! أَغْضَبَكَ أحدٌ، ما شأنُ عينيك تَفيضان؟ قال: **«بل قام من عندي جبريلُ قبلُ، فحدَّثني أن الحسينَ يُقتل بِشطِّ الفُرات، قال: فقال:**

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ٤٤٠؛ والنسائي في الكبرى (٨١١٢)؛ وابن ماجه (١٤٣)، وقال البوصيري: إسناده صحيح، وحسَّنه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ٢٤٢، ٢٦٥؛ والبزَّار (٢٦٤٢)؛ والطبراني (٢٨١٣)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٦٩٤؛ وأبو نعيم في الدلائل (٤٩٢)، وصحَّحه ابن حبان (٦٧٤٢) واللفظ له، وحسَّنه شعيب الأرنؤوط.

هل لك إلى أن أُشِمَّكَ من تُرْبتِه؟ قال: قلت: نعم، فمدَّ يَدَهُ فقَبَض قبضةً من تراب فأعطانيها، فلم أَمْلِكْ عينيَّ أن فاضَتَا»[١].

وعن عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس قال: (رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام بنصف النهار، أشعثَ أغبرَ، معه قارورة فيها دمٌ يَلْتقِطُه أو يتتبَّعُ فيها شيئاً، قال: قلت: يا رسولَ الله! ما هذا؟ قال: «**دمُ الحسينِ وأصحابِه، لم أزَلْ أتتبَّعُه منذُ اليوم**».

قال عمارٌ: فَحَفِظْنا ذلك، فوجدناه قُتل ذلك اليوم)[٢].

ثالثاً: خلاصة مختصرة عن خروج الحسين رضي الله عنه واستشهاده[٣]:

●● لمَّا توفي الحسنُ بن علي رضي الله عنهما، كان الحسين يفِدُ إلى معاوية في كل عام، فيعطيه ويُكْرمه، وقد كان في الجيش الذين غزوا القُسطنطينية مع ابن معاوية يزيدَ، في سنة إحدى وخمسين.

ولمَّا أُخِذت البيعةُ ليزيدَ في حياة معاوية كان الحسين ممن امتنع عن مبايعته هو وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن عباس، ومات ابن أبي بكر وهو مصمِّمٌ على ذلك.

فلما مات معاوية سنة ستين وبويع ليزيد، بايع ابنُ عمر وابن عباس، وصمَّم على المخالفة الحسينُ وعبد الله بن الزبير، وخرجا من المدينة فارَّيْن إلى مكة فأقاما بها[٤].

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٨٥، واللفظ له، وقال الهيثمي في (المجمع: ٩/ ١٨٧): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني، ورجاله ثقات؛ وصحَّحه أحمد شاكر؛ وصحَّحه الألباني بطرقه وشواهده في الصحيحة (١١٧١)؛ وصحيح الجامع (٢١٩).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٢٦، ١٩٠، وصحَّحه أحمد شاكر؛ وأورده ابن كثير في (البداية والنهاية: ٨/ ٢٠٠)، وقال: إسناده قوي؛ وقال الهيثمي في (المجمع: ٩/ ١٩٤) ـ: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) سأتناول ذلك بالتفصيل والتحليل والنقد والتمحيص في كتابي عن (الحسين)، إن شاء الله.

(٤) البداية والنهاية: ٨/ ١٥١.

ولما احْتُضِر معاوية دعا ابنَه يزيد بنَ معاوية، فأوصاه بما أوصاه به، وقال له: (انظُرْ حسينَ بن علي ابنَ فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فإنه أحبُّ الناس إلى الناس؛ فَصِلْ رحمَهُ، وارفَقْ به، يَصلحْ لك أمرُه، فإن يكن منه شيء فإني أرجو أن يَكفيكَهُ الله بمن قتل أباه وخَذل أخاه!).

وتوفي معاوية ليلة النصف من رجب سنة ستين، وبايع الناس يزيدَ.

فكتب يزيد إلى والي المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: (أنِ ادْعُ الناس فبايِعْهم، وابدأ بوجوه قريش، وليكن أولَ من تبدأ به الحسينُ بن علي، فإن أمير المؤمنين رحمه الله عهِدَ إليَّ في أمره للرفق به واستصلاحه.

فبعث الوليد من ساعته نصفَ الليل إلى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، فأخبرهما بوفاة معاوية، ودعاهما إلى البيعة ليزيد، فقالا: نُصْبحُ وننظرُ ما يصنع الناس.. ووثب الحسين فخرج، وخرج معه ابن الزبير، وتوجها من ليلتهما إلى مكة[١].

ولمَّا بَلَغَ أهلَ العراق خبرُ موت معاوية وولاية يزيد، ومصيرُ الحسين إلى مكة فراراً من بيعة يزيد؛ كتب إليه أهل الكوفة: إنه معك مئة ألف. ووعدوه بالنصرة والمعاونة إذا هو قام بالخروج على يزيد، وقَدِمَ إليه أناسٌ منهم بعد أناس، وجعلوا يَستحثونه ويستقدِمونه عليهم، ليُبايعوه عوضاً عن يزيد بن معاوية، ويَذكرون في كتبهم أنهم فرحوا بموت معاوية، وينالون منه ويتكلمون في دولته، وأنهم لمَّا يبايعوا أحداً إلى الآن، وأنهم ينتظرون قدومك إليهم[٢].

وبَـيَّنوا في كُتبهم أنهم لا يجتمعون مع أميرهم النعمان بن بشير[٣] في

---

(١) مختصر ابن عساكر: ٧/ ١٣٧ ـ ١٣٨؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٦٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٩١؛ مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) هو أمير الكوفة.

جمعة، ويَدْعون الحسينَ إليهم، حتى إذا أقبل طردوا أميرهم وألحقوه بالشام.. ويقولون في بعضها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، لحسين بن علي من شيعتِه من المؤمنين والمسلمين، **أما بعد**: فحيَّهلا، فإن الناس ينتظرونك، ولا رأيَ لهم في غيرك، فالعَجَلَ العجلَ، والسلام عليك).

وكتبوا: (قد اخضرَّ الجَناب، وأينعتِ الثمار، وطَمَّت الجِمام، فإذا شئتَ فاقْدَم على جندٍ لك مجنَّد، والسلام عليك)[1].

فأرسل الحسين إليهم ابنَ عمِّه مُسْلم بن عَقيل بن أبي طالب، ليرى إن كانوا مستوثقين مجتمعين، لِيقدَمَ هو عليهم بعد ذلك، وضلَّ مسلم بن عقيل في الطريق، ومات من معه من العطش، فكتب إلى الحسين يستعفيه من هذه المهمة، فأجابه: خشيتُ ألا يكون حَمَلك على الاستعفاء إلا الجُبْن. فمضى مسلمٌ حتى بلغ الكوفة، وأعطاه البيعةَ للحسين اثنا عشر ألفاً منهم.

وشَعَر أمير الكوفة النعمان بن بَشير بحركاتهم، فخطب فيهم ينهاهم عن الفتنة والفرقة، وقال لهم: إني لا أقاتل إلا مَنْ قاتلني، ولا آخذُ بالظِّنَّة والتهمة، فإن أبديتُم لي صفحتكم ونكثتم ببيعتكم؛ لأضربنكم بسيفي ما ثَبَت قائمه في يدي.

وعَلِم يزيدُ أن النعمان بن بشير حليمٌ ناسك لا يصلح في مقاومة مثل هذه الحركة، فكتب إلى عبيد الله بن زياد عامله على البصرة أنه قد ضَمَّ إليه الكوفة أيضاً، وأمره أن يأتي الكوفة، وأن يطلب ابن عقيل كطلب الخرزة حتى يَثْقَفه فيوثقه فيقتله أو يَنفيه.

فاستخلف عبيد الله أخاه على البصرة، وأقبل إلى الكوفة فاتصل برؤسائها، وقبض على أَزِمَّة الأمور. فما لبث مُسْلم بن عَقيل أن رأى مبايعيه الاثني عشر

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٣؛ وانظر: العواصم من القواصم، ص٢٣٦.

ألفاً كالهباء، ورأى نفسه وحيداً طريداً، ثم قُبض عليه وقُتل.. وكان الحسين قد جاءته قبل ذلك رسائل مسلم بن عقيل بأن اثني عشر ألفاً بايعوه على الموت، فخرج عقب موسم الحج يريد الكوفة[١].

●● وقام المشفِقون على الحسين من هذا الخروج المشؤوم، وهم جميع أحبّائه وذوي قرابته والناصحين له والمتحرِّين سُنَّةَ الإسلام في مثل هذا الموقف، كل هؤلاء نَهَوه عن مسيره وحذَّروه من عواقبه، وفي طليعتهم: أخوه محمد بن الحَنَفيَّة، وابن عمّ أبيه حَبْر الأمة عبد الله بن عباس، وابنُ عمه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وشيخُ الصحابة الأجل عبد الله بن عمر، وغيرهم[٢].

ـ حدَّث عامر الشعبيُّ (عن ابن عمر: أنه كان بمكة، فبلَغَه أن الحسين بن علي قد توجَّه إلى العراق، فلَحِقَه على مسيرة ثلاث ليال، فقال له: أين تريد؟ قال: العراق، وإذا معه طوامير وكُتب، فقال: هذه كتُبهم وبيعتُهم. فقال: لا تأتهم.. فأبى، فقال ابن عمر: إني محدِّثك حديثاً، إن جبريل أتى النبي ﷺ فخيَّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يُرِد الدنيا، وإنك بَضْعَةٌ من رسول الله ﷺ، والله ما يليها أحدٌ منكم أبداً، وما صَرَفها الله عنكم إلا للذي هو خيرٌ لكم. فأبى أن يرجع. قال: فاعْتَنَقه ابنُ عمر وبكى، وقال: أَستودِعُكَ الله من قَتيلٍ)[٣].

وكان ابن عمر يقول: (غَلَبنا حسين بن علي بالخروج، ولَعَمْري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرةً، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغي له ألا يتحرك ما عاش، وأن يَدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير)[٤].

---

(١) العواصم من القواصم، ص٢٣٦؛ وانظر التفصيل في: تاريخ الطبري: ٥/ ٣٤٧ ـ ٣٩٩؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٥٢ ـ ١٥٥؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠، ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) العواصم من القواصم، ص٢٣٧، وانظر مثلاً نصيحة أخيه ابن الحنفية في تاريخ الطبري: ٥/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٢؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٦٠.

(٤) مختصر ابن عساكر: ٧/ ١٣٩.

ـ وقال له ابن عباس: (أين تريد يا بنَ فاطمة؟ قال: العراق وشيعتي. فقال: إني لَكارِهٌ لوَجْهِك هذا؛ تخرجُ إلى قوم قتلوا أباك، وطعنوا أخاك حتى تركهم سَخْطةً ومَلَّةً لهم، أُذكِّرك الله أن تغرِّر بنفسك)[١].

ـ وجاءه أبو سعيد الخُدْري فقال: (يا أبا عبد الله! إني لك ناصحٌ، وإني عليك مشفِقٌ، وقد بَلَغني أنه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة يَدْعُونك إلى الخروج إليهم، فلا تَخْرُجْ إليهم! فإني سمعت أباك يقول بالكوفة: والله لقد مَلَلْتُهم وأبغضتُهم، وملُّوني وأَبْغَضُوني، وما يكون منهم وفاءٌ قط، ومَن فاز بهم فاز بالسَّهم الأَخْيَب، والله ما لهم نيَّات، ولا عَزْمٌ على أمر، ولا صَبْرٌ على السيف)[٢].

ـ وقال ابن الزبير للحسين: (أين تذهب؟ إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟! فقال: لَأَنْ أُقْتَل بمكان كذا وكذا أحبُّ إليَّ من أن تُسْتَحَلَّ بي ـ يعني: مكة ـ)[٣].

ـ ولمَّا عَلِم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بخروج الحسين من مكة، أرسل إليه كتاباً مع ابنيه عَوْن ومحمد، يقول فيه: (أمَّا بعدُ، فإني أسألُك بالله لَمَا انصرفتَ حين تنظر في كتابي، فإني مُشْفِقٌ عليك من الوجه الذي توجَّهُ له أن يكون فيه هلاكُكَ واستئصالُ أهلِ بيتك! إنْ هلكتَ اليوم طفئ نورُ الأرض؛ فإنك عَلَمُ المهتدين، ورجاءُ المؤمنين، فلا تعجَلْ بالسير فإني في أَثَر الكتاب، والسلام)[٤].

ـ وقال له عبد الله بن مُطيع: (أينَ؟! فِداكَ أبي وأمي، متِّعْنا بنَفْسك ولا تَسِرْ إلى العراق، فوالله لئن قَتَلك هؤلاء القوم لَيَتَّخِذُنَّا خَوَلاً وعَبيداً)[٥].

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) البداية والنهاية: ٨/ ١٦١.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ١٦١؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٣.
(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨.
(٥) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٤٤ ـ ١٤٥؛ مختصر ابن عساكر: ٧/ ١٣٩.

ـ وقال الفَرَزْدق: (لقيتُ الحسين بن علي بذات عِرْق وهو يريد الكوفة، فقال لي: ما ترى أهل الكوفة صانِعين؟ معي حِمْلُ بعيرٍ من كُتبهم! قلتُ: لا شيءَ، يَخْذُلونك، لا تذهَبْ إليهم.. فلم يُطِعْني)[١].

وكلَّمه صحابة آخرون، وجماعة من التابعين.

وقال سعيد بن المسيِّب: (لو أنه لم يَخرج لكان خيراً له)[٢]!.

ـ حتى التابعية الجليلة عَمْرة بنت عبد الرحمن كتبتْ إليه تعظِّم عليه ما يريد أن يصنع، وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة، وتخبره أنه إنما يُساق إلى مصرعه[٣]!.

وكلُّ هذه الضَّراعات المشفِقة والنصائح المخلصة، من الصحابة الأبرار والتابعين الأخيار؛ لم تُفِدْ شيئاً، بل صمَّم الحسين رضي الله عنه على رأيه، وخرج إلى العراق في أهل بيته وستين شيخاً من أهل الكوفة، يوم الإثنين في عشر ذي الحجة سنة ستين للهجرة[٤].

●● وقد رَغِبَ إليه أيضاً في عدم الخروج أعيانُ بني أمية، وأمراء الأمصار منهم، بل وأمير المؤمنين[٥] يزيد بن معاوية، وأمروا بالوصاة به، وعدمِ تهييجه فضلاً عن الإساءة إليه، فما ظَنُّك بقتله؟!.

ـ فقام عبد الله بن جعفر إلى عَمْرو بن سعيد بن العاص، أمير مكة، فكلَّمه وقال: (اكتُبْ إلى الحسين كتاباً تجعلُ له فيه الأمانَ، وتمنِّيه فيه البِرَّ والصِّلة،

---

(١) مختصر ابن عساكر: ٧/ ١٤٥.
وذات عرق: ميقات أهل العراق للحج، وهو الحد الفاصل بين نجد وتهامة.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٦.
(٣) مختصر ابن عساكر: ٧/ ١٤٠؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٦.
(٤) مختصر ابن عساكر: ٧/ ١٤٣.
(٥) هكذا سماه الإمام الليث بن سعد، وهو قريب العهد به، وأعلم وأتقى لله ممن يطعن على يزيد. انظر: العواصم من القواصم، ص٢٣٣، ٢٣٤.

وتوثِّق له في كتابك، وتسأله الرجوعَ، لعلّه يطمئن إلى ذلك فيرجع. فقال عَمْرو بن سعيد: اكتُبْ ما شئتَ، وائتِني به حتى أَخْتِمَهُ! فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب، ثم أتى به عمرو بنَ سعيد فقال له: اختِمْه، وابعثْ به مع أخيك يحيى بن سعيد؛ فإنه أَحْرى أن تطمئنَّ نفسُه إليه، ويعلمَ أنه الجِدُّ منك. ففعل. وكان عَمْرو بن سعيد عامِلَ يزيد بن معاوية على مكة.

قال: فلحقه يحيى وعبد الله بن جعفر، ثم انصرفا بعد أن أقرأه يحيى الكتاب. فقالا له: أقرأناه الكتاب، وجَهِدْنا به، وكان مما اعتَذَر به إلينا أن قال: إني رأيتُ رؤيا فيها رسولُ الله ﷺ، وأُمِرتُ فيها بأمرٍ أنا ماضٍ له(١)، عليَّ كان أَوْلى. فقالا له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدَّثتُ أحداً بها، وما أنا محدِّثٌ بها حتى ألقى ربي.

قال: وكان كتابُ عَمْرو بن سعيد إلى الحسين بن علي: بسم الله الرحمن الرحيم، من عَمْرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعدُ: فإني أسألُ الله أن يَصْرِفَك عما يُوبِقُك، وأن يَهْدِيَك لِما يُرشِدُكَ؛ بلَغني أنك قد توجَّهت إلى العراق، وإني أُعيذك بالله من الشِّقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثتُ إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد، فأَقْبِل إليَّ معهما، فإن لك عندي الأمانَ والصِّلَةَ والبرَّ وحُسْنَ الجوار لك، اللهُ عليَّ بذلك شهيدٌ وكفيلٌ، ومُراعٍ ووكيلٌ، والسلام عليك)(٢).

ـ وكَتب مروانُ بن الحَكَم إلى عُبيد الله بن زياد: (أما بعدُ، فإن الحسينَ بن علي قد توجَّه إليك، وهو الحسين ابنُ فاطمة، وفاطمةُ بنتُ رسول الله ﷺ، وتالله ما أحدٌ يسلِّمه الله أحبَّ إلينا من الحسين، فإياك أن تهيِّج على نفسك ما لا يَسُدُّه شيء، ولا تنساه العامة، ولا تَدَعُ ذِكْرَه آخِرَ الدهر، والسلام عليك)(٣).

---

(١) رؤيا النبي ﷺ في المنام حق، لكنها مما لا ينبني عليها حكم شرعي في أمر أو نهي أو ندب!.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٨٨؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٦٧.

(٣) مختصر ابن عساكر: ٧/ ١٤٣؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٦٥؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٠٤ـ٣٠٥.

ـ وكتب إليه والي مكة عَمْرو بنُ سعيد بن العاص: (أما بعدُ، فقد توجَّه إليك الحسين، وفي مِثلها تُعْتَق أو تكون عبداً تُسترقّ كما يُسترقُّ العبيد)[١].

ـ وكتب أمير المؤمنين يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن عباس يخبره بخروج الحسين إلى مكة، وقال: (وأَحْسِبُه قد جاءه رجالٌ من أهل هذا المشرق فَمَنَّوْه الخلافةَ، وعندك منهم خبرة وتجربة، فإن كان قد فعل فقد قطع واشِجَ القرابة، وأنت كبيرُ أهل بيتك والمنظورُ إليه؛ فاكْفُفْهُ عن السعي في الفُرْقة).

وكتب مع الرسالة أبياتاً من الشعر رقيقةً رائعةً إلى قريش بمكة والمدينة يذكِّرُهم اللهَ والرحمَ كي يكفُّوا الحسينَ عن خروجه، ويبيِّن فيها إجلالَه للسيدة فاطمة وآلِ بيت النبي ﷺ.

فكتب إليه ابن عباس: (إني لأرجو أن لا يكون خروجُ الحسين لأمرٍ تكرهُه، ولستُ أَدَعُ النصيحةَ له في كل ما يَجمع الله به الأُلفةَ ويُطفِئ به النائرة)[٢].

ـ ودخل عبد الله بن عباس على الحسين فكلَّمه ليلاً طويلاً، وقال: (أَنشُدُك اللهَ أن تهلِكَ غداً بحال مَضْيَعَةٍ، لا تأتِ العراق، وإن كنتَ لا بدَّ فاعلاً، فأَقِمْ حتى ينقضي الموسم وتلقى الناسَ، وتعلمَ على ما يَصْدُرون، ثم ترى رأْيَكَ. وذلك في عشر ذي الحجة سنة ستين، فأبَى الحسين إلا أن يمضي إلى العراق!.

فقال له ابن عباس: والله إني لأظنُّكَ ستُقتل غداً بين نسائك وبناتك، كما قُتل عثمان بين نسائه وبناته! والله إني لأخافُ أن تكون الذي يُقاد به عثمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون!.

فقال له الحسين: أبا العباس، إنك شيخٌ قد كَبِرتَ!.

---

(١) المراجع السابقة نفسها.
(٢) مختصر ابن عساكر: ٧/ ١٤١ ـ ١٤٢؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٦٤.

فقال ابن عباس: لولا أن يُزْري ذلك بي وبك، لَـنَشَبْتُ يديَّ في رأسك، ولو أعلمُ أننا إذا تناصَيْنَا أقمتَ لفعلتُ، ولكن لا إخالُ ذلك نافعي.

فقال له الحسين: لَأَن أُقْـتَل بمكان كذا وكذا أحَبُّ إليَّ أن تُستحلَّ بي ـ يعني: مكة ـ.

قال: فبكى ابن عباس، وقال: أقررتَ عينَ ابن الزبير، فذاك الذي سلى بنفسي عنه.

ثم خرج عبد الله بن عباس من عنده وهو مغضَب)[١].

ـ وكتب يزيد بن معاوية إلى عُبيد الله بنِ زياد يوصيه في الحسين، قال: (أما بعدُ، فإنك لم تَعْدُ أن كنتَ كما أحِبُّ، عملتَ عملَ الحازم، وصُلْتَ صولةَ الشجاع الرابط الجأش. وإنه قد بلَغني أن الحسين بن علي قد توجَّه نحو العراق، فضَعِ المناظرَ والمسالحَ، واحترِسْ على الظن وخُذْ على التهمة، غير ألا تقتل إلا مَنْ قاتلك)[٢].

•• وروى الطبري: أن مسلم بن عَقيل بن أبي طالب بعد أن أثخَنَتْه الحجارة التي رُشق بها، فاستسلم، فأخذوا سيفه؛ فقال: هذا أول الغدر، وبكى! وكان بقربه عمرو بن عبيد الله بن عباس فقال له: مَن يطلب مِثلَ الذي تطلب إذا نزل به مثلُ الذي نزل بك لم يبكِ؟!.

فقال له: إني والله ما لنفسي أبكي، ولا لها من القتل أَرْثي، ولكن أبكي لأهلي المُقْبِلين إليَّ، أبكي الحسينَ وآلَ الحسين! ثم أقبل على محمد بن

---

(١) مختصر ابن عساكر: ٧/ ١٤٢؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٧؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٦٤ ـ ١٦٥.
ومعنى (تناصينا): أخذ كل منّا بناصية الآخر.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٨٠ ـ ٣٨١.
المناظر: جمع منظرة، وهي الموضع يرقب فيه العدو. **والمسالح**: جمع مسلحة، وهي موضع يكون فيه أقوام يحملون السلاح، ويرقبون العدو، لئلا يطرقهم على غفلة.

الأشعث فقال له: يا عبد الله! والله ستعجز عن أمانيَّ، فهل عندك خيرٌ! تستطيعُ أن تبعث من عندك رجلاً على لساني يبلِّغ حسيناً، فإني لا أُراه إلا قد خرج إليكم هو وأهل بيته؛ فيقول له: إن مسلماً أسير ولا يمسي حتى يُقتل، فارجع بأهل بيتك، ولا يغرّك أهلُ الكوفة؛ فإنهم أصحابُ أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل! وقد كذّبوني وكذّبوك، وليس لمكذَّب رأيٌ! فقال ابن الأشعث: والله لأفعلن.

ثم أرسل شخصاً يخبره خبر مسلم بن عقيل ورسالته، فلقي الحسينَ وأخبره، فقال له الحسين: (كلُّ ما حُمَّ نازلٌ، وعند الله نحتسب أنفسنا وفسادَ أمتنا). ثم استمرَّ في رحلته، وكان في إمكانه أن يعود[1].

وروى الطبري: أن الحسين لمَّا تيقَّن من مقتلِ ابنِ عمه مسلم بن عقيل، وتيقن من خذلان أهل العراق له، قال لمن معه من غير أسرته، ولمن انضم إليه في طريقه إلى الكوفة: (لقد خذلَتْنا شيعتُنا! فمن أحَبَّ منكم الانصراف فلينصرف). فتفرَّق أكثر الناس عنه، ولم يبقَ معه إلا أبناؤه وأقرباؤه وبعض المخلصين من أوليائه[2].

●● وسار الحسين بمن معه حتى نزل كربلاء، وكان أصحابه خمسة وأربعين فارساً ومئة راجل، ووجَّه إليه عُبيد الله بن زياد عمر بنَ سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف.

ويروى أن الحسين عرض على عمر بن سعد أن يختار واحدة من ثلاث؛ فقال: (إما أن تَدَعُوني فأنصرفَ من حيث جئتُ، وإما أن تَدَعُوني فأذهبَ إلى يزيد، وإما أن تدعوني فأُلْحَقَ بالثغور). فقبِل بذلك عمر، فكتب إليه عبيد الله: لا ولا كرامةَ، حتى يضع يده في يدي! فقال له الحسين: لا والله لا يكون ذلك أبداً[3].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥، باختصار.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٩٥ ـ ٣٩٩؛ وانظر: العواصم من القواصم، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٨٩، ٤١٣.

والصحيح في ذلك ما حدَّث به عُقبة بن سِمْعان قال: (صحبتُ حسيناً فخرجتُ معه من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قُتل، وليس من مخاطبته الناسَ كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا في العراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله؛ إلا وقد سمعتُها. ألَا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون؛ من أن يضع يدَه في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يُسَيِّروه إلى ثَغْر من ثغور المسلمين، ولكنه قال: دَعُوني فَلأَذْهَبْ في هذه الأرض العريضة، حتى ننظرَ ما يصير أمرُ الناس)(١).

فأبَوْا عليه ذلك، وسيَّر عبيد الله بن زياد شَمِر بن ذي الجَوْشَن، وقال له: (اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد، فليَعرِضْ على الحسين وأصحابه النزولَ على حكمي، فإن فعلوا فليبعثْ بهم إليَّ سِلماً، وإن هم أبَوْا فَلْيُقاتِلْهم، فإن فعل فاسمع له وأطِعْ، وإن هو أبى فقاتِلْهم، فأنت أمير الناس، وثِبْ عليه فاضرب عنقه، وابعث إليَّ برأسه)(٢).

والتحم الفريقان في معركة غير متكافئة، وتفانَى أصحاب الحسين بين يديه، وهو يشدُّ على جيش عمر بن سعد، وهم ينفرون عنه، وكلُّهم يتحامَى مواجهته وقَتْلَه، فيبوء بالخسران المبين. وقُتل أصحابه حوله وكانوا خمسين، وبقي عامَّةَ نهاره لا يَقْدَمُ عليه أحدٌ، وأحاطَتْ به الرجَّالة، وكان يشُدُّ عليهم فيهزِمُهم، وهم يكرهون الإقدام عليه!.

فنادى شَمِر في الناس: وَيْحكم! ماذا تنظرون بالرجل؟! اقتلوه ثَكِلَتْكم أمهاتُكم! فحُمِل عليه من كل جانب، فضُرِبت كفُّه اليسرى ضربةً، ضربها زُرعة بن شَريك التميمي، وضُرب على عاتقه، ثم انصرفوا وهو يَنُوء ويَكْبو. وحَمَل عليه في تلك الحال سِنانُ بن أنس النَّخعِيُّ فطعنه بالرمح فوقع، ثم قال لخَوْليّ بن يزيد الأصبحي: احتزَّ رأسه! فأراد أن يفعل، فضَعُف فأرعِد، فقال له سنان بن

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤١٣ ـ ٤١٤؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٧٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤١٤.

أنس: فَتَّ الله عَضُديك، وأبانَ يديك! فنزل إليه فذَبَحه واحتزَّ رأسه، ثم دُفع إلى خَوليِّ بن يزيد، لا رضي الله عنهما!.

وَوُجِد بالحسين رضي الله عنه حين قُتِل ثلاثٌ وثلاثون طعنة وأربعٌ وثلاثون ضربة[١].

•• وعدد الذين قُتلوا مع الحسين ثمانية عشر نفساً، كلهم من بيت رسول الله ﷺ، منهم: أبو بكر وعثمان ابنا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن الحسن بن علي[٢].

وبعد انتهاء المعركة أمر عمر بن سعد بألا يَدخل أحدٌ على نساء الحسين وصبيانه، وألَّا يتعرض أحد لهم بسوء. ورَحَل عمر إلى الكوفة، وحَمل معه بناتِ الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان[٣].

ولمَّا وصلَ نساء الحسين وصبيانه أَمر عبيد الله بن زياد لهم بمنزل في مكان معتزل، فأجرى عليهم الرزق، وأَمر لهم بالكسوة والنفقة[٤].

وقالت فاطمة بنت علي ـ أخت الحسين ـ: (لمّا أُجْلِسنا بين يدي يزيد بن معاوية، رَقَّ لنا، وأَمر لنا بشيء، وأَلْطَفَنا)[٥].

ثم قال يزيد: (يا نُعمان بن بَشير، جَهِّزْهم بما يُصلِحهم، وابعَثْ معهم رجلاً من أهل الشام أميناً صالحاً، وابعث معهم خيلاً وأعواناً، فيسير بهم إلى المدينة).

ثم أمر بالنسوة أن يُنْزَلن في دار على حِدَةٍ، معهن ما يُصْلِحهن، وأخوهن

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩.
(٣) المرجع السابق: ٥/ ٤٥٤، ٤٥٥.
(٤) أنساب الأشراف: ٣/ ٢٢٦.
(٥) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦١ ـ ٤٦٢.

معهن علي بن الحسين، في الدار التي هنَّ فيها، فخرجن حتى دخلن دار يزيد، فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين[١].

وأما ما يذكره الرافضة ومَن والاهم من أن آل الحسين عُومِلوا كالسَّبي، وسِيق النساء على البَخَاتيِّ فنَبَتَتْ أسنمتُها لتستر عُرْيَهم، وأنهم تعرَّضوا للبيع كما يُباع سبايا غير المسلمين؛ فكله كذبٌ!.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما السؤالُ عن سَبْيِ أهل البيت، وإركابِهم الإبلَ، حتى نَبَت لها سنامان وهي البَخَاتيُّ، ليستتروا بذلك؛ فهذا من أقبحِ الكذب وأَبْيَنِه. وهو مما افتراه الزنادقة والمنافقون، الذين مقصودُهم الطعنُ في الإسلام وأهله: من أهل البيت، وغيرهم).

ثم قال: (ومما يبيِّن ظهور الكذب في هذا أن المسلمين ما زالوا يَسْبُون الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ومع هذا فما عُلم أنهم قطُّ كانوا يرحلون النساء مجرداتٍ باديةً أبدانُهن، بل غايةُ ما يَظهر من المرأة المسبية وجهها أو يداها أو قدمُها.

ولم يُعْلَم في الإسلام أن أهل البيت سبى أحداً منهم أحدٌ من المسلمين في وقت من الأوقات)[٢].

رابعاً: رأس الحسين رضي الله عنه:

عن أنس بن مالك قال: (كنتُ عند ابنِ زياد إذْ جيءَ برأس الحسين، قال: فجَعَلَ يقول بقضيبه في أنفِه، ويقول: ما رأيتُ مثلَ هذا حُسْناً! فقلتُ: أمَا إنه كان من أشْبَهِهم برسول الله ﷺ)[٣].

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) مجموعه الفتاوى: ٤/ ٥٠٢ ـ ٥٠٤؛ وانظر: ٢٧/ ٤٨١.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٧٨)؛ والطبراني (٢٨٧٩)؛ وابن حبان (٦٩٧٢)، واللفظ له، وبنحوه عند أحمد: ٣/ ٢٦١؛ والبخاري (٣٧٤٨)، وغيرهم.

وقد عُوقِب هذا الطاغية من جنس عمله؛ فقد روى الأعمش، عن عُمَارة بن عُمير قال: (لمَّا جِيءَ برأس عُبيد الله بن زياد وأصحابه نُضِدَتْ في المسجد في الرَّحْبة، فانتهيتُ إليهم وهم يقولون: قد جاءَتْ، قد جاءت! فإذا حيَّةٌ قد جاءت تخلَّلُ الرؤوسَ، حتى دخلتْ في مِنْخَرَيْ عُبيد الله بن زياد، فمكثتْ هُنَيْهةً، ثم خرجتْ فذهبتْ حتى تغيَّبَتْ. ثم قالوا: قد جاءت، قد جاءت. ففعلَتْ ذلك مرتين أو ثلاثاً!)(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما الحسينُ ﷺ فقُتل بكربلاء قريب من الفرات، ودُفن جسدُه حيث قُتل، وحُمل رأسُه إلى قُدَّام عبيد الله بن زياد بالكوفة، هذا الذي رواه البخاري في صحيحه وغيرُه من الأئمة.

وأما حَمْلُه إلى الشام إلى يزيد: فقد رُوي ذلك من وجوه منقطعة لم يثبت شيء منها، بل في الروايات ما يدل على أنها من الكذب المُخْتَلَق؛ فإنه يُذكر فيها: أن يزيد جعل يَنكُت بالقضيب على ثناياه، وأن بعض الصحابة الذين حضروه ـ كأنس بن مالك، وأبي بَرْزَةَ ـ أنكر ذلك، وهذا تلبيسٌ، فإن الذي جعل يَنْكُت بالقضيب إنما كان عبيدِ الله بن زياد؛ هكذا في الصحيح والمسانِد، وإنما جعلوا مكانَ عبيد الله بن زياد يزيدَ، وعبيد الله لا ريب أنه أَمر بقَتْله، وحُمل الرأس إلى بين يديه. ثم إن ابن زياد قُتل بعد ذلك لأجلِ ذلك. ومما يوضح ذلك أن الصحابة المذكورين كأنس وأبي بَرْزة لم يكونوا بالشام، وإنما كانوا بالعراق حينئذٍ، وإنّما الكذابون جُهَّال بما يُستدل به على كَذِبهم.

وأما حَمْلُه إلى مصرَ فباطلٌ باتفاق الناس)(٢).

ثم قال ﷺ: (والذي رجَّحَه أهل العلم في موضع رأس الحسين بن علي ﷺ، هو ما ذكره الزبير بن بكار في كتاب «أنساب قريش»، والزبير بن بكار هو من أعلم الناس وأوثقهم في مثل هذا؛ ذكر أن الرأس حُمل إلى المدينة النبوية

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨٠) وقال: حسن صحيح، وصحَّحه الألباني.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/٥٠٧ ـ ٥٠٨.

ودُفن هناك، وهذا مناسب، فإن هناك قبرَ أخيه الحسن، وعمِّ أبيه العباس، وابنه علي، وأمثالهم)(١).

خامساً: الحزن على الحسين رضي الله عنه:

لقد أكرم الله تعالى الحسين بالشهادة، وأهانَ بذلك مَنْ قَتَلَه، أو أعان على قَتْلِه، أو رضي بقتله، وله أسوةٌ حسنة بمن سبقه من الشهداء.

وقَتْلُه مصيبةٌ عظيمة، وقد شرع الله سبحانه الاسترجاعَ عند المصيبة بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧](٢).

قال ابن تيمية: (وإذا كان الله تعالى قد أمر بالصبر والاحتساب عند حِدْثَان العهد بالمصيبة، فكيف مع طول الزمان؟! فكان ما زيَّنه الشيطان لأهل الضلال والغيّ من اتخاذ يوم عاشوراء مأتماً، وما يصنعون فيه من النَّدْب والنياحة، وإنشاد قصائد الحزن، ورواية الأخبار التي فيها كذبٌ كثير، والصدقُ فيها ليس فيه إلا تجديد الحزن والتعصب، وإثارة الشحناء والحرب، وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام، والتوسل بذلك إلى سَبِّ السابقين الأولين، وكثرة الكذب والفتن في الدنيا!)(٣).

ولقد حَزِن يزيدُ بن معاوية على قَتْل الحسين أشدَّ الحزن، وآلَمَهُ ذلك، ولَعَنَ قاتليه.

قال ابن تيمية: (ثم حَملوا ثَقَل الحسين وأهلَه إلى يزيد بن معاوية إلى دمشق، ولم يكن يزيد أَمَرهم بقَتْله، ولا ظَهَر منه سرور بذلك ولا رضِيَ به، بل

---

(١) مجموع الفتاوى: ٤/ ٥٠٩؛ وانظر: ٢٧/ ٤٧٩ ـ ٤٨٢؛ والبداية والنهاية: ٨/ ٢٠٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ٥١١.

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

قال كلاماً فيه ذمٌّ لهم، حيث نُقل عنه أنه قال: لقد كنتُ أَرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين. وقال: لَعَن الله ابنَ مرجانة ـ يعني: عبيد الله بن زياد ـ والله لو كان بينه وبين الحسين رَحِمٌ لَمَا قتله!)[1].

(ولمَّا جاء البشير إلى يزيد يخبره بقتل الحسين دَمعتْ عيناه، وقال: كنتُ أرضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين.

وقالت سُكينة بنت الحسين: يا يزيد! أبناتُ رسول الله سبايا؟ قال: يا بنتَ أخي! هو والله علي أشدُّ منه عليك، أقسمتُ لو أن بين ابن زياد وبين حسين قرابةً ما أَقْدم عليه! فرحم الله حسيناً، عجَّل عليه ابنُ زياد، أمَا والله لو كنتُ صاحبَه، ثم لم أَقدِر على دَفْع القتل عنه إلا بنَقْص بعض عمري؛ لأحببتُ أن أدفَعَه عنه، ولوددتُ أن أُتيتُ به سِلْماً)[2].

سادساً: من المسؤول عن قتل الحسين رضي الله عنه؟:

الذي يتحمَّلُ وِزْرَ مقتله في الدرجة الأولى هم أهل الكوفة الذين يزعمون أنهم شيعته؛ لأنهم جَنَوا عليه، فحرَّضوه بجهل وغرور ورغبة في الفتنة والفرقة والشر، ثم خذلوه بِجُبْن ونذالة وخيانة وغدر! ولم يكتفِ ورثتهم بما فعل أسلافهم، فعكفوا على تشويه التاريخ وتحريف الحقائق وردِّ الأمور على أدبارها[3].

قال مؤلف «التحفة الاثنا عشرية»: (نقل علامة الشيعة في هذا العصر الشيخ هبة الله الشَّهْرَسْتَانيُّ ما رواه الجاحظ عن خُزيمة الأَسَدي قال: دخلتُ الكوفة فصادفت منصرَفَ علي بن الحسين بالذرية عن كربلاء إلى عبيد الله بن زياد، ورأيتُ نساء الكوفة يومئذ قياماً يندبن متهتكات الجيوب، وسمعت علي بن

---

(١) مجموع الفتاوى: ٤/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦؛ وانظر: ٢٧/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠؛ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٦٠ ـ ٤٦١، ٤٦٣ ـ ٤٦٤؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٩١، ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٠٣.

(٣) من تعليقات العلَّامة محب الدين الخطيب على: العواصم من القواصم، ص٢٣٧.

الحسين وهو يقول بصوت ضئيل: يا أهل الكوفة! إنكم تبكون علينا، فمن قتلنا غيركم؟!)[١].

بل إن الصحابي الأجلَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد حمَّل أهلَ الكوفة مقتل الحسين الشهيد؛ فقد روى عبد الرحمن بن أبي نُعْم قال:

(كنت شاهداً لابن عُمر وسأله رجلٌ عن دمِ البعوض، فقال: ممَّن أنت؟ فقال: من أهل العراق، قال: انظروا إلى هذا، يسألُني عن دم البعوض، وقد قتلوا ابنَ النبي ﷺ!، وسمعتُ النبي ﷺ يقول: «**هما رَيْحَانتايَ من الدنيا**»)[٢].

ثم الذي تولى كِبْرَ هذه الجريمة الفظيعة هو عُبيد الله بن زياد، الذي هدَّد عمر بن سعد إنْ لم يُقْبِل على قتل الحسين، ثم أرسل له شَمِر بن ذي الجوشن ليؤرِّث الفتنة، فكان ما كان منه من تشجيع أولئك الفجرة الذين ذبحوا ابن بنت النبي ﷺ وريحانته، فكل هؤلاء يبوءُون بالإثم المبين.

ويليهم عُمر بن سعد الذي بقي في الجيش يقاتل ـ ولو لم يباشر بنفسه قتل الحسين ـ فكان من الواجب عليه أن يُخذِّل عن سِبْط النبي ﷺ، أو ينسحب ليسلم بدينه، ويذكره التاريخ بخير.

أما يزيد بن معاوية: فأخبار التاريخ الكثيرة تبرِّئه من دم الحسين؛ لأنه ما رضي بذلك، ولا حرَّض عليه، بل أوصى بالحسين خيراً، وحَدَب على من بقي من آله، وأكرمهم، وحَزن على الحسين وبكى عليه.. لكنه مع ذلك يُلام لأنه لم يُقم حدَّ الله تعالى على قتلة الحسين رضي الله تعالى عنه[٣].

سابعاً: درس وعبرة:

حركات الخروج على الدولة الإسلامية، وعلى الحاكم الذي رضي به

---

(١) العواصم من القواصم، ص٢٤١.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٤)، واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٨٥، ١٥٣؛ والطيالسي (١٩٢٧)؛ والترمذي (٣٧٧٠)؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٧٧)؛ وابن حبان (٦٩٦٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٤/ ٥٠٦، ٢٧/ ٤٨٠.

المسلمون في الجملة، أو تسلَّم الحُكم بالقَهْر، ولو كان مفضولاً بوجود الفاضل والأفضل، لكنه أقام شعائر الإسلام، وكانت في عهده أمور الشرع قائمة، وراياته مرفوعة، وأعلامه منشورة، وعوراته محفوظة، والحقوق مصانة ـ نقول: حركات الخروج سواء كانت للإصلاح، أو طلباً للإمارة، أو نزعَ اليد من الطاعة، أو لإنكار منكر وإحقاق معروف، أو للنَّيل من وحدة الأمة؛ كل ذلك لم يجرَّ على الأمة ـ في الأعم الأغلب ـ إلا الهلاك والفتن، وإثارة الأحقاد، وإسالة الدماء، وتوقف مدِّ الدعوة، ونشوء الفرق الضالة، وإضعاف شأن الدين والدولة والأمة.

وحسبك من ذلك ما جرَّتْه على المسلمين فتن الخارجين على عثمان، وفتنة الجمل، وصِفِّين، والخوارج، وخروج الحسين، وابن الزبير، وابن الأشعث، ومحمد بن عبد الله النفس الزكية، ووقعة الحَرَّة، وغير ذلك كثير جدّاً.

وقد غَلَّطَ عامةُ الصحابة والتابعين الحسينَ في خروجه، وبايعوا يزيد بن معاوية، مع وجود من هو أفضل منه بكثير في الأمة، وناهيك بابن عمر وابن عباس وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وغيرهم كثير.. فكان يَسَعُ الحسينَ رضي الله عنه ما وَسِع أمةَ محمد ﷺ في البيعة والحفاظ على وحدة الأمة وعدم شق عصا الطاعة.

وهذا ما أشار إليه ذلك الصحابي الجليل، فيما رواه حُميد بن عبد الرحمن الحِميري قال: (دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حين استُخلف يزيد بن معاوية، فقال: أتقولون: إن يزيدَ ليس بخيرِ أمة محمد، لا أفقه فيها فقهاً، ولا أعظم فيها شرفاً؟ قلنا: نعم، قال: وأنا أقول ذلك، ولكن والله لئنْ تجتمع أمة محمد أحبُّ إليَّ من أن تفترق. أرأيتم باباً لو دَخل فيه أمة محمد وَسِعَهم، أكان يعجز عن رجل واحد لو دخل فيه؟! قلنا: لا. قال: أرأيتم لو أن أمة محمد قال كل رجل منهم: لا أُهريق دمَ أخي، ولا آخُذ مالَهُ، أكان هذا يَسَعُهم؟ قلنا: نعم. قال: فذلك ما أقول لكم)[1].

---

(١) تاريخ خليفة، ص٢١٧، وإسناده صحيح.

وقد استظهر الإمام المحقق أبو بكر بن العربي أن هذا الصحابي هو عبد الله بن عمر[١].

ويؤكد ذلك ضراعاتُ كبار الصحابة ونصائحُهم المخلصة، وقد أكدتْ وقائعُ الأحداث ونتائجها صِدْقَ نصحهم وسدادَ رأيهم، وخطأَ الحسين في اجتهاده واعتمادِه على أهل الكوفة الذين دعا عليهم علي بن أبي طالب بما يستحقونه!.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لم يكن في الخروج مصلحةُ دينٍ، ولا مصلحةُ دنيا، بل تمكَّن أولئك الظلمة الطغاة من سِبْط رسول الله ﷺ، حتى قتلوه مظلوماً شهيداً.. وكان في خروجه وقَتْله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده! فإن ما قصَدَه من تحصيل الخير ودَفْع الشر لم يحصل منه شيء، بل زاد الشر بخروجه وقتله، ونقص الخير بذلك، وصار ذلك سبباً لشرٍّ عظيم، وكان قتلُ الحسين مما أَوْجَبَ الفتنَ، كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن)[٢].

وقال المؤرِّخ المحقق محمد الخُضَري معقِّباً على حادث مقتل الحسين: (وعلى الجملة: فإن الحسين أخطأ خطأً عظيماً في خروجه هذا الذي جرَّ على الأمة وَبَالَ الفرقة والاختلاف، وزعزع عمادَ ألفتها إلى يومنا هذا.

وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة، لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب، فيشتدّ تباعدُها.. وغايةُ ما في الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له، ولم يعدَّ له عُدَّتَه، فحِيلَ بينه وبين ما يشتهي وقُتل دونه، وقبل ذلك قُتل أبوه فلم يجدْ من أقلام الكاتبين من يبشِّع أمرَ قتلِه، ويزيدون نار العداوة تأجيجاً.

والحسين قد خالَفَ على يزيدَ، وقد بايعه الناس، ولم يَظهر منه ذلك الجَوْر ولا العَسْف عند إظهار الخلاف حتى يكون في الخروج مصلحة للأمة)[٣].

---

(١) العواصم من القواصم، ص٢٣١، ٢٣٢.
(٢) منهاج السنَّة النبوية: ٤/ ٥٣٠ ـ ٥٣١.
(٣) محاضرات الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية «الدولة الأموية»، ص٣٢٧.

إخبار النبي ﷺ
باستشهاد الصحابة الأمراء الثلاثة
في غزوة مؤتة

عن أنس بن مالك ﷺ قال: (خَطَب رسول الله ﷺ فقال: «**أخذ الراية زيد فأُصِيبَ، ثم أخذها جعفرٌ فأُصِيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأُصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إِمْرةٍ ففَتَح الله عليه، فما يَسرُّني** ـ أو قال: **ما يَسُرُّهم** ـ **أنهم عندنا**» وقال: وإن عَيْنَيْه لَتَذْرِفَان).

وفي رواية عن أنس: (أن النبي ﷺ نَعَى زيداً وجعفراً وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيَهُم خبرُهم، فقال: «**أخذ الراية زيدٌ فأُصيب، ثم أخذ جعفرٌ فأُصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب** ـ وعيناه تَذْرِفان ـ **حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**»)[١].

❁ ❁ ❁

●● أرسل النبي ﷺ الصحابي الحارث بن عُمير الأَزْديَّ بكتابه إلى ملك بُصْرى، فلما نزل (مؤتة)[٢] عرض له شُرَحْبِيل بن عَمْرو الغسَّاني ـ وكان من أمراء قيصر على الشام ـ فأوثقه رباطاً، وضَربَ عنقه[٣]!.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٣) و(٤٢٦٢) و(١٢٤٦) وأطرافه، واللفظ له؛ وأحمد: ٣/ ١١٣، ١١٧ ـ ١١٨؛ وأبو يعلى (٤١٩٠)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥١٧١)؛ والبيهقي في الدلائل: ٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧؛ والبغوي (٢٦٦٧)، وغيرهم.

(٢) بلدة في الأردن إلى الجنوب من الكرك بنحو (١١كم).

(٣) طبقات ابن سعد: ٤/ ٣٤٣.

فبَلَغ ذلك المسلمين، واشتدَّ عليهم هذا العمل الشائن الخؤون الذي قام به ذلك الوالي الأثيم لصالح الروم! فجهز الرسول ﷺ جيشاً قِوامه ثلاثة آلاف، ووجَّهَهُم إلى مؤتة للقصاص من أولئك الغادرين.

عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: (أَمَّر رسولُ الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: **«إنْ قُتِل زيدٌ فجعفرٌ، وإن قُتِل جعفرٌ فعبدُ الله بن رواحة»**)[١].

وانطلق الجيش إلى وجهته، وخرج أهل المدينة يودِّعون الجيش الزاحف وهم يقولون: صَحِبكم الله بالسلامة، ودَفَع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة يردُّ على هذا الوداع:

لكنَّنِي أسألُ الرحمنَ مغفرةً … وضربةً ذات فَرْغٍ تقذفُ الزَّبَدا
أو طعنةً بيَدَيْ حَرَّان مُجهِزَةً … بحَرْبةٍ تُنْفِذُ الأَحشاءَ والكَبِدَا
حتى يُقال إذا مرُّوا على جَدَثي … يا أرشدَ اللهِ من غازٍ وقد رَشَدا[٢]

●● وأخبار هذا الجيش سبقته إلى الروم، فلما وصل المسلمون إلى (مَعَان)[٣]، عرفوا أن في انتظارهم مئة ألف من الروم، وانضم إليهم مئة ألف أخرى من نصارى العرب، والهجوم على جيش بهذا العدد مجازفة مهولة! فأقام المسلمون ليلتين يتدبرون أمرهم، واقترح نفر منهم أن يكتبوا إلى الرسول ﷺ، فإما أن يمدَّهم بالرجال، أو يأمرهم بالمُضي له. ولم يَرُقْ ذلك لعبد الله بن رواحة، فشجَّع الناس بكلمة ملتهبة قال فيها: (يا قوم! والله إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦١).
(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٣٧٤.
ذات فرغ: ذات سعة. **الزبد**: رغوة الدم. **مجهزة**: سريعة القتل. **تنفذ الأحشاء**: تخترقها. **جَدَثي**: قبري.
(٣) مدينة أردنية في الجنوب، تبعد عن عَمَّان (٢١٢كم).

إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلِقُوا، فإنما هي إحدى الحُسنَيَيْن: إما ظهور وإما شهادة)[١].

فاختفت من صفوف المسلمين مشاعر التردد، وعزموا على القتال مهما كانت النتائج.

والتقى الجمعان في ميدان مكشوف، يقاتل فيه المسلمون جيش الروم الذي يربو عليهم سبعين ضعفاً!.

فأخذ الراية زيد بن حارثة وقاتل حتى شاط في رماح القوم!.

وتلقَّف الراية جعفر، ونزل عن فرسٍ له شقراءَ ثم عَقَرها، وانقضَّ كالصقر ينازل العدو، فأخذ اللواء بيمينه فقُطعت، فأخذه بشماله فقُطعت، فاحتضنه بعَضُديه حتى قضى شهيداً وعمره ثلاث وثلاثون سنة، فأبدله الله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيتُ جعفرَ بن أبي طالبٍ مَلَكاً يطيرُ في الجنة مع الملائكة بجناحين**»[٢].

قال عبد الله بن عُمر: (كنتُ فيهم في تلك الغزوة، فالتمسْنَا جعفر بن أبي طالب، فوجَدْناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طَعْنةٍ ورَمْيةٍ!)[٣].

وتلقى الراية بيمينه عبد الله بن رواحة، وأَقبل على الساحة المضطرمة وهو يقول:

يا نفسُ إن لا تُقتلي تموتي! هذا حِمامُ الموتِ قد صَليتِ!

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٣٧٥؛ وفقه السيرة، للغزالي، ص٣٦٦.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٦٣)؛ وابن حبان (٧٠٤٧)؛ والحاكم: ٣/ ٢٠٩، وغيرهم؛ وصحَّحه الألباني بطرقه وشواهده في الصحيحة (١٢٢٦)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.
(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦١).

وما تمنَّيتِ فقد أُعطيتِ! إن تفعلي فِعْلَهما هُديتِ!

وأتاه ابن عم له بعَرْقٍ من لحم فقال: شُدَّ بهذا صُلْبَك، فإنك قد لَقِيتَ في أيامك هذه ما لَقيتَ. فأخذه من يده، ثم انتَهَس منه نَهْسَة، ثم سمع الحَطْمَة في ناحية الناس، فقال: وأنتَ في الدنيا! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قُتل[1].

ثم أخذ الراية ثابت بن أَقْرَم أخو بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين! اصطَلِحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد[2].

وفي هذا الموقف من ثابت رضي الله عنه درس بليغ لكل من يتسلم مسؤولية، أو يوضع في منصب، أو تلقي به الأحداث في مواقع القرار؛ فإنه أبى القيادة لا نكوصاً عن الموت بل شعوراً بوجود الأكفأ منه في الجماعة.. وحملانُه الرايةَ خشية أن تسقط من آيات الجرأة في هذا الموقف العصيب، وليت كل امرئ يعرف أقدار الناس يُنزلهم منازلهم التي يستحقونها، فلا يكلِّف أمته أن تحمل عجزَه وأَثَرَتَه[3].

وأخذ الراية خالد فشَرع يقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا المأزق المتضايق، والنجاة بأرواح المسلمين. وقتالُ الانسِحاب شاق وعسير ومرهق، خصوصاً وخالد لا يريد إشعار الروم بذلك، فيكون منه هلاك المسلمين أمام ذلك الجيش العرمرم.

ولقد قاتل خالد في ذلك المشهد قتال الفئة من أبطال الرجال؛ يروي ذلك

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٣٧٩.
العرق: العظم الذي عليه بعض اللحم. **انتهس**: أخذ منه بفمه يسيراً. **الحطمة**: زحامُ الناس وحطْمُ بعضهم بعضاً.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٣) فقه السيرة، للغزالي، ص٣٦٨.

قيس بن أبي حازم فيقول: سمعت خالد بن الوليد، يقول: (لقد انقَطَعتْ في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسيافٍ، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يَمَانيةٌ!)[١].

●● ودخل الليل فكانت هدنة للفئتين، فغيَّر خالد تنظيم جيشه، فجعل المقدمة ساقة، والميمنة ميسرة، وطلع الصبح وتقابل مع الروم، فرأوا في صفوفه أشياء مفاجئة، فظنوا أن المسلمين قد جاءهم مَدد، ففَتَّ في عَضُدهم! وجعل خالد هدفه مناوشة الرومان بحيث يُلحق بهم أفدحَ الخسائر دون أن يعرِّض كتلة الجيش لالتحام عام، وقد أفلحت هذه الخطة في إنقاذ الآلاف القليلة التي معه، وإنقاذ سمعة المسلمين في أول معركة لهم مع الدولة الكبرى[٢].

واكتفى خالد بهذه النتيجة وآثر الانصراف بمن معه، وهذا العمل الجليل كان نصراً كبيراً، بل سمَّاه الرسول ﷺ (فَتْحاً).

●● وقام رسول الله ﷺ على منبره يخبر الناس بما حصل مع جيش المسلمين على الوجه الذي حدث تماماً، وقبل مجيء الأخبار إليه.

عن أبي قتادة الأنصاري ﷺ قال: (صَعِد رسول الله ﷺ المنبر، وأَمر أن يُنادى: الصلاة جامعة، فقال: «**أَلَا أُخبِرُكم عن جيشكم هذا الغازي؛ انطلَقوا فلقوا العدوَّ، فأُصيب زيدٌ شهيداً، استغفِروا له**» فاستغفر له الناس. «**ثم أخذ اللواءَ جعفر بن أبي طالب، فشدَّ على القوم حتى قُتل شهيداً، استغفِروا له. ثم أخذ اللواءَ عبدُ الله بن رواحة، فثَبَتَتْ قدماهُ حتى قُتل شهيداً، استغفِروا له. ثم أخذ اللواءَ خالدُ بن الوليد، ولم يكن من الأمراء، هو أَمَّر نفسه**» ثم رفع رسول الله ﷺ ضَبْعَيْه، ثم قال: «**اللهمَّ هو سيفٌ من سيوفِك انتصِرْ به**» فمن يومئذٍ سُمِّي خالد بن الوليد: سيفَ الله)[٣].

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٥).

(٢) فقه السيرة، للغزالي، ص٣٦٨.

(٣) أخرجه أحمد: ٥/٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١؛ والنسائي في الكبرى (٨١٠٣) و(٨١٩٢) و(٨٢٢٤)؛ وابن حبان (٧٠٤٨) واللفظ له؛ والبيهقي في الدلائل: ٤/٣٦٧ ـ ٣٦٨.
ومعنى «هو أَمَّر نفسه»: أنه لم يكن منصوصاً عليه في الإمرة، لكن المسلمين اتفقوا عليه.

ففي هذا الحديث والحديث الذي صدَّرنا به هذه النبوءة معجزتان ظاهرتان لرسول الله ﷺ، وعَلَمان من أعلام نبوته:

الأول: قوله ﷺ: «**أخذ الراية زيد فأُصِيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب**»: فكان كما قال، فاستُشهد الثلاثة واحداً تلو الآخر، وعلى الترتيب الذي ذكره النبي ﷺ.

وذكر موسى بن عُقبة في «المغازي»: (أنَّ يعلى بن أمية قدِم بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله ﷺ: «**إنْ شئتَ فأخبِرْني، وإن شئتَ أُخبرك**» قال: فأخبرني. فأخبره خبرَهم، فقال: والذي بعثك بالحق ما تركتَ من حديثهم حرفاً لم تذكره)[1].

وفي تعيينه ﷺ هؤلاء الأمراء الثلاثة، وقوله: «**إنْ قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة**»؛ كأنه ﷺ كُشِف له الغيب، وأطلعه ربه سبحانه على أن هذه المعركة سيكون لها شأن شديد، وسيُقتل الأمير، فعيَّن ثلاثة يَلُون قيادة المعركة تباعاً، وتركَ بعد ذلك الأمر للمسلمين ليجتهدوا في اختيار القائد حتى في أحلك الظروف.

والعَلَم الثاني: هو قوله ﷺ: «**حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**»: فأخبر بأن الذي قاد المعركة بعد استشهاد الأمراء الثلاثة هو خالد بن الوليد، وأن الله سبحانه أنزل الفتح على يديه، ونجا بالمسلمين في معركة مخوفة، فكان الأمر كما قال ﷺ.

●● وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ عندما أخبر المسلمين خبر استشهاد أولئك الصحابة الأبرار؛ كانت (عيناه تَذْرِفان)، حُزْناً على فراقهم، ورقَّةً لهم، ورأفةً بهم وبأهلهم.

وهكذا يكون الإمام والحاكم، يحرص على جنده ورعيته، ويَحْدَب عليهم،

---

(١) الفتح: ٩/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥، شرح الحديث (٤٢٦٢).

ويحزن لمصابهم، ويرعى حرمتهم، ويثني عليهم، ويُشيع بين الناس فضائلهم؛ لينمي في الحكام والرعاة والمسؤولين من بعده منابع الشعور بالمسؤولية العظيمة عما استرعاهم الله، وليوقد في نفوس الأمة جذوة الحب لهؤلاء الأصحاب الكرام الذين بذلوا أرواحهم في سبيل الله ونشر دينه. ويحمل الناس على الاقتداء بهم، والاستمساك بهديهم، فلقد كانوا وما زالوا أمثلة شامخة للإيمان والبطولة والفداء والتضحية، حيث تركوا أهليهم وديارهم في المدينة، وقطعوا تلك المسافات الشاسعة لإعزاز دين الله، والقصاص من ذلك الغادر الذي قتل مسلماً واحداً فقط، فما أعظمَ منزلة المسلم في الإسلام وعند رسول الله ﷺ والمؤمنين!.

ولم تكُ دموعه الطاهرة ﷺ لمجرد موتهم؛ لأنه يعلم أنهم فازوا بالسهم الأعلى، ولذلك قال: «**ما يَسُرُّهُم أنهم عندنا**»؛ وذلك لِما رأوا من الكرامة بالشهادة، فلا يعجبهم أن يعودوا إلى الدنيا كما كانوا من غير أن يُستشهدوا مرة أخرى(١).



(١) الفتح: ٧/٣٦٦، شرح الحديث (٢٧٩٨).

إخبار النبي ﷺ
عن رجل من التابعين يقال له: أُوَيْسٌ القَرَنيُّ

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قد قال: **«إن رجلاً يأتيكم من اليَمن يُقال له: أُوَيْسٌ، لا يَدَعُ باليمن غيرَ أمٍّ له، قد كان به بَيَاضٌ، فدَعَا الله فأَذْهَبَه عنه، إلا موضعَ الدينار أو الدرهم، فمن لقِيَهُ منكم فَلْيَستغفِرْ لكم»**(١).

هذا الحديث طرف من حديث طويل رواه أمير المؤمنين عمر، وجاء عنه من طرق متعددة، يبين فيها رسول الله ﷺ بعض صفات تابعي جليل في نسبه وجسمه وأخلاقه وتقواه.

عن أُسَيْر بن جابر قال: (كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أَمْدادُ أهلِ اليمن سألهم: أَفِيكم أُوَيْس بنُ عامر؟ حتى أتى على أويسٍ، فقال: أنت أويسُ بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مُرادٍ ثم من قَرَنٍ؟ قال: نعم. قال: فكان بك بَرَصٌ فبرَأْتَ منه إلا مَوْضِعَ درهمٍ؟ قال: نعم. قال: لك والدةٌ؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يأتي عليكم أويسُ بن عامر مع أمدادِ أهل اليمن، من مُرادٍ ثم من قَرَنٍ، كان به بَرَصٌ فبرَأَ منه إلا موضعَ درهم، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أَقْسَمَ على الله لأَبَرَّهُ، فإن استطعتَ أن يَستغفر لك فافعلْ»**. فاستغفِرْ لي، فاستغفَر له.

فقال له عمرُ: أين تريدُ؟ قال: الكوفةَ، قال: أَلَا أكتبُ لك إلى عاملها؟ قال: أكونُ في غَبْراءِ الناس أحبُّ إليَّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٢)، وانظر تخريج الحديث التالي.

قال: فلما كان من العام المُقْبِل حَجَّ رجلٌ من أشرافِهم، فوافَقَ عمرَ، فسألَهُ عن أويسٍ، قال: تركْتُه رثَّ البيتِ قليلَ المتاع، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أويسُ بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مرادٍ ثم من قَرَنٍ، كان به برصٌ فبرأ منه، إلا موضع درهم، له والدة هو بها برٌّ، لو أقسمَ على الله لأَبرَّهُ، فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعل**». فأتى أويساً فقال: استغفِرْ لي، قال: أنت أَحْدَثُ عهداً بسفرٍ صالح فاستغفِرْ لي، قال: استغفِرْ لي، قال: أنت أَحدثُ عهداً بسفرٍ صالح فاستغفر لي، قال: لقيتَ عمر؟ قال: نعم. فاستغفَر له. ففَطِنَ له الناسُ، فانطلَق على وجْهِه!.

قال أُسَيْرٌ: وكَسَوْتُه بُرْدةً، فكان كلما رآه إنسان قال: من أين لأويسٍ هذه البُردة؟)[1].

❁ ❁ ❁

وفي قصة أويس معجزات ظاهرة لنبيِّنا ﷺ، أخبر بها أصحابه، فكانت كما قال. وفيها أيضاً مناقب جمة لهذا التابعي الجليل.

أولاً: ما في الحديث من دلائل النبوة:

١ ـ أن هذا الرجل من اليمن، ومن مُراد من بَطْن فيهم يقال له: قَرَن.

٢ ـ وأنه كان مصاباً بالبَرَص[2]، فدعا الله تعالى، فبرأ منه إلا مقدار الدرهم، وقد حدَّد النبي ﷺ مكان تلك البقعة، ففي رواية الإمام أحمد: «**وكان به بياضٌ، فدعا الله ﷻ، فأَذْهَبه عنه إلا موضعَ الدرهم في سُرَّتِه**»!.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٢) (٢٢٥) واللفظ له؛ وأحمد: ١/ ٣٨ ـ ٣٩؛ وابن سعد: ٦/ ١٦٣ ـ ١٦٤؛ والحاكم: ٣/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٧٥ ـ ٣٧٨؛ وأبو نعيم في الحلية: ٢/ ٧٩ ـ ٨٠.
قوله: (**أمداد أهل اليمن**): هم الجماعة الغزاة الذين يُمِدُّون جيوش الإسلام في الغزو، واحدهم مدد. (**غبراء الناس**): أي ضعافهم وأخلاطهم الذين لا يؤبه لهم.

(٢) مرض جلدي هو عبارة عن بياض في الجسد يعيب منظره.

٣ ـ وأن له والدة، ليس له أهل سواها، ففي رواية مسلم: «**لا يَدَعُ باليمن غير أُمٍّ له**».

٤ ـ وأنه مجابُ الدعوة؛ «**لو أقسَمَ على الله لأبره**».

٥ ـ وأنه يجتمع بعمر؛ كما يدلّ عليه قوله ﷺ لعمر: «**فإن استطعتَ أن يَستغفر لك فافعل**».

وعند لُقيِّه عمرَ، بعد السؤال عنه وتتبُّع أحواله، تأكد من كل تلك الأمارات التي أشار إليها النبي ﷺ، فوجدها كما قال سواء، فحرص الفاروق على أن يظفر بدعوة صالحة من هذا التابعي المبارك، وأن يستغفر له، عملاً بتوجيه النبي ﷺ.

ثانياً: مناقب أويس:

وأويس سيد التابعين في زمانه، كان إماماً زاهداً قدوة، من أولياء الله المتقين، ومن عباده المخلصين، وقد جاء في هذه النبوءة الجليلة ذكر خصال بارزة فيه.

١ ـ فهو رَحِمَهُ اللهُ على جانب عظيم من التقوى والورع والعبادة والإخلاص الخالص، والذي عبَّر عنه أدق تعبير الوصفُ النبوي: «**إنَّ خيرَ التابعين رجلٌ يُقال له: أويس**»[(١)]! فوَصْفُه بالخيرية من المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، بل هو «خير التابعين»، ينبئ عما كان عليه أويس من الإيمان والورع والتبتل.

٢ ـ ثم هو بَرٌّ بأمه، واصلٌ لها، معظِّم لشأنها، حريص على إرضائها والإحسان إليها، وهذا مصداق قوله ﷺ: «**له والدة هو بها بَرٌّ**».

٣ ـ كذلك كان أويس زاهداً بالدنيا، متقللاً منها، مُقْبلاً على الآخرة، أمرُها بين عينيه، وَصَفه من رآه بأنه: (رثّ البيت قليل المتاع).

---

(١) إحدى روايات مسلم (٢٥٤٢) (٢٢٤).

٤ ـ وكان أيضاً يخفي أعمالَه، ويكتم أحوالَه، ويحرص على أن لا يطلع عليها أحد لتكون خالصة لله، ولا ينال ثناء أحدٍ ولا مديحه، لتبقى أعماله كلها مبرأة من الشوائب، منقَّاة من حظوظ النفس ووساوس الشيطان.

فعندما أراد الذهاب إلى الكوفة، قال له أمير المؤمنين عمر: (أَلَا أكتب لك إلى عاملها؟) فيوصيه به ليرعى شؤونه، ويقرِّبه ويُعْلي منزلته بين الناس، فقال أويس: (أكون في غَبْراء الناس أَحَبُّ إليَّ)؛ أي: يكون مع عامة الناس وضعافهم والبقايا المغمورين لا المتقدمين المشهورين.

٥ ـ ولا يكفي أن يكون الرجل متقرِّباً إلى الله، بل الأهم والأجَلُّ أن يكون الله تعالى قريباً منه. والإنسان يدأبُ السعيَ لمحبة الله تعالى، بيد أن الأرفع والأعلى أن يُحِبَّهُ اللهُ! ويحرص المسلم على الاستجابة لأوامر ربه ودوام ذِكْره سبحانه، ويا لَلْفَوز إذا رَفَعه مولاه تعالى إلى منزلة أولئك الأبرار الذين يَذكرهم الله فيمن عنده، ولو سأله لأجاب دعوته!.

وأويس قد نال هذه المنزلة السامقة التي عبَّر عنها سيِّدُ الفصحاء ﷺ بلفظة مختصرة باهرة، فقال: «**لو أَقْسَمَ على الله لَأَبَـرَّهُ**»!.

●● لقد فهِم الصحابة رضوان الله عليهم كل ما بيَّنَّاه، وحرصوا على الالتقاء بهذا الرجل الصالح البار الراشد؛ لينالوا منه دعوة صالحة، وفي مقدمة أولئك الكرام أمير المؤمنين عمر، الذي له من المناقب ما يغمر أويساً ومن هو أرفع منه، ومع هذا كان يَتنَطَّس أخباره، حتى إذا وجده، وعايَنَ الصفات التي حفظها عن النبي ﷺ، قال له: (استغفر لي)، فاستغفر له!.

قال الإمام النووي: (فيه استحبابُ طلبِ الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح، وإن كان الطالبُ أفضَلَ منهم)[1].

●● فكان أويس في الكوفة قد آثَر الخمولَ وعدمَ الظهور بأعماله ومناقبه،

---

(١) شرح مسلم: ٨/٣٣٦.

فكان الكثيرون لا يأبهون له، ولا يُلقون له بالاً، بل إن أحدَ كُبرائهم كان يَسْخَر به ويَحْقِره! وهذا شأن كثير من الناس على مرِّ الدهر، يُخدعون بالمناصب العالية، والمراكب الفارهة، والبيوت المشيدة، والملابس المعصفرة، والقامات الممتدة، والألسن المهذارة، متجاهلين أنه ليس كل ما يَلمع ذهباً، ولا كل عارض فيه مطر، وأن مكمن الذهب هو التراب، وسنابل القمح الممتلئة تكون منحنية متواضعة، لا كتلك الفارغة المشرئبَّة المنتصبة!.

ولأختم الكلام عن هذه النبوءة برواية توضّح ذلك، أسندها الإمام ابن سعد في «الطبقات»، وساقها الذهبي في «السِّير»:

(عن أُسَيْر بن جابر، عن عمر، سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «**خيرُ التابعين رجل يُقال له: أويس، وكان به بياضٌ، فدعا الله، فأَذْهَبَه عنه إلا موضعَ الدرهم في سُرَّته، لا يَدَعُ باليمن غيرَ أمٍّ له، فمن لقيه منكم فَمُروه فليستغفرْ لكم**».

قال عمر: فقدِم علينا رجل فقلت له: من أين أنت؟ قال: من اليمن. قلت: ما اسمُك؟ قال: أويس. قلت: فمن تركتَ باليمن؟ قال: أُمّاً لي. قلت: أكان بك بياض، فدعوتَ الله فأَذْهَبه عنك؟ قال: نعم. قلت: فاستغفِرْ لي. قال: أَوَيستغفِرُ مِثلي لِمِثلِك يا أميرَ المؤمنين؟! قال: فاستغفَرَ لي. وقلت له: أنت أخي لا تُفارِقُني. قال: فانْمَلَس مني. فأُنبِئتُ أنه قدِمَ عليكم الكوفة. قال: فجعل رجل كان يَسْخَر بأويس بالكوفة ويَحْقِرُهُ، يقول: ما هذا منّا ولا نعرفه. قال عمر: بلى، إنه رجل كذا وكذا. فقال ـ كأنه يَضَع شأنَهُ ـ: فينا رجل يا أمير المؤمنين يقال له: أويس. فقال عمر: أَدْرِكْ فلا أُراكَ تدركُه. قال: فأقبل ذلك الرجل حتى دخل على أويس، قبل أن يأتي أهله، فقال له أويس: ما هذه عادتُك، فما بدا لك؟! قال: سمعت عمر يقول فيك كذا وكذا، فاستغفِرْ لي، قال: لا أفعلُ حتى تجعلَ لي عليك أن لا تسخَرَ بي فيما بعدُ، وأن لا تذكُرَ ما سمعتَهُ من عمر لأحد. قال: نعم. فاستغفَرَ له.

قال أُسير: فما لبثنا أن فَشَا أمرُه بالكوفة. قال: فدخلتُ عليه، فقلت:

يا أخي، ألا أراك العُجب، ونحن لا نشعر؟ فقال: ما كان في هذا ما أتبلَّغ به في الناس، وما يُجزى كلّ عبدٍ إلا بعمله. قال: وانْمَلَس مني فذهب)[(١)].

ومثلما كانت بداية أويس هادئة خفيَّة، لا يعرفه إلا مَن نقَّب عنه وتتبع أعماله، كذلك كانت خاتمته رَحِمَهُ اللَّهُ.

فقيل: إنه حضر مع علي بن أبي طالب موقعة صفِّين، وقُتل فيها. وإسناد الخبر ضعيف، وما أظن أويساً شارك في الفتنة البتة[(٢)].

وقيل: خرج غازياً إلى ثغر إِرْمِينية، فمات هناك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)].

❋ ❋ ❋

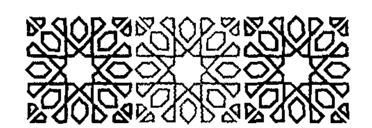
---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٦١ ـ ١٦٣؛ سير أعلام النبلاء: ٤/ ٢٢ ـ ٢٣.
انملس: أفلت.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٢ ـ ٣٣.

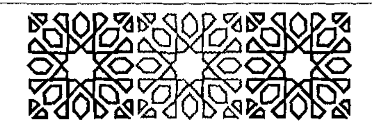
(٣) مختصر ابن عساكر: ٥/ ٩٠ ـ ٩١.





الفَصْلُ الثَّانِي

نبوءات عن الغزوات والفتوحات







إخبار النبي ﷺ في غزوة الأحزاب بأنهم يغزون قريشاً بعدها ولا تغزوهم

عن أبي إسحاق السَّبِيعيِّ قال: سمعت سُليمانَ بنَ صُرَدٍ رضي الله عنه، يقول: (سمعت النبي ﷺ يقول حين أُجْلِيَ الأحزابُ عنه: «**الآن نَغْزُوهم ولا يَغزوننا، نحن نَسيرُ إليهم**»)(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: تحقق النبوءة:

●● وقد صدَّق اللهُ رسولَه ﷺ، فكان هذا الإخبار الصادقُ عَلَماً من أعلام نبوته، إذ أخبر عن أمر مستقبل، فوقع كما أخبر به ﷺ.

قال الحافظ: (فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة، فصدَّتْه قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سببَ فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ.

وأخرج البزّار بإسنادٍ حسن من حديث جابر شاهداً لهذا الحديث، ولفظه: أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جموعاً كثيرة: «**لا يغزونكم بعد هذا أبداً، ولكن أنتم تغزونهم**»)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٤١١٠) واللفظ له؛ والطيالسي (١٢٨٩)؛ وأحمد: ٤/ ٢٦٢؛ والطبراني في الكبير (٦٤٨٤) و(٦٤٨٥)؛ وأبو نعيم في الحلية: ٤/ ٣٤٥، ٧/ ١٣٣؛ والبيهقي في الدلائل: ٣/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨.

(٢) الفتح: ٩/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

وبعد غزوة الأحزاب انطلقت جيوش المسلمين مجاهدة في سبيل الله، فغزوا قريشاً وقبائل اليهود وغيرهم في جنبات الجزيرة العربية، فكانت غزوة الحديبية، وخيبر، والفتح، وحُنين، والطائف، ومؤتة، وتبوك، وكثير من السرايا، حتى بَسط الإسلام جناحيه على جزيرة العرب، ووقع مصداق ما أخبر به النبي ﷺ.

ثانياً: نفحات من دروس غزوة الأحزاب:

●● ولقد كانت غزوة الأحزاب مدرسةَ تربيةٍ نفسية، تستهدف الصبر المرير على المِحن النفسية من الجوع وفقدان الزاد، والدأب على أشق الأعمال في حصار مضروب مستحكم من العدو، يملك على كتائب المجاهدين منافذ الحياة، مع مكايد المنافقين ودسائسهم الخبيثة، إلى جانب حماية النساء والعجزة والأطفال خوفاً من غدر اليهود وخياناتهم(١).

وقد كان في هذه الغزوة من آيات الله ومعجزاته الكونية آيات كثيرة، أكرم الله بها نبيَّه ﷺ:

١ ـ منها: ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم من إرسالِ الريح والجنود، وما صنَعَتْه بجموع الأحزاب.

٢ ـ ومنها: تكثيرُ الطعام القليل وكفايتُه العددَ الكثير حتى أشبعهم، وانحرفوا عنه وهو كما وُضِع!.

٣ ـ ومنها: حديث الكُدْيَة التي عَرضت في حفر الخندق، فنزل النبي ﷺ إليها بالمِعول، فضربها فصارت رمالاً سيالة.

٤ ـ ومنها: أنه ﷺ ضَرب الصخرة ثلاث ضربات، فكانت تبرق في كل مرة فتضيء ما بين لابتي المدينة، فرأى ﷺ على ضوئها ما يُفتح على أمته من بلاد الشام والعراق واليمن، فصدَّقه الله وصارت تلك البلاد أوطاناً للإسلام.

---

(١) محمد رسول الله، لمحمد الصادق عرجون: ٤/ ١٤٠ ـ ١٤١، باختصار.

ولهذا كانت هذه الغزوة جديرة باسم: (غزوة الإعجاز الكوني والمعجزات الحسية والعقلية).

كما كان فيها من معالم منهج الرسالة:

١ ـ أنها غزوة جامعة لدروس الكفاح المرير، والصبر على لأواء الحياة ومحنِها.

٢ ـ وفضل الله بإمداد نبيّه ﷺ بنفحات المِنن الكونية التي أنزلها حين استحكمت الخطوب؛ ففرَّج بها مضائق البلاد والمحن.

٣ ـ وأنه ﷺ مسح عن صدور المؤمنين ما أَلَمَّ بها من الهواجس والظنون، فعادوا أصفى بصائر، وأصلبَ عزائم، وأرسخَ إيماناً، وأعمق يقيناً، وأخلصَ نيَّات، وهم ينظرون إلى المستقبل بقلوب مشرقة، يرجون من الله تحقيق ما وَعَدهم على لسان رسوله ﷺ في بشراه لهم: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**»[١].

وهي دروس للجماعة المسلمة عبر التاريخ، وأحرى ما توقن به وتأتسي به في زماننا هذا، حيث تداعى الشرق والغرب علينا، وصنائعُهم في بلادنا من حكام ومسؤولين وأصحاب منابر التوجيه والتأثير ومراكز صنع القرار!.

لقد تجمعت الأحزاب علينا من جديد ـ أكثر من الأحزاب يوم الأحزاب ـ تحت رايات شتى ومسمّيات متنوعة لكن مضمونها واحد، هو شبيه بل وليد لما كان يوم الأحزاب في زمن النبوة! حيث تكالب على أمتنا وديننا شراذم المشركين، وفجَّار اليهود، ورؤوس الصليبية، وأحلاسُ الحُكْم، وعبَّاد الاستكبار المتغطرِس وأوكار المنافقين.

والقلة المؤمنة صامدة صابرة على ما يُثْخِنها من جراح، مستعصِمةٌ بمنهج ربها، مؤتسية بهدي نبيِّها، مقتفية سيرة أصحابه العظام، ولئن نال العدو منها نَيْلاً، وخَسرت جولة أو جولات، فلن يَفتَّ ذلك في عَضُدها، والعاقبة لها،

---

(١) محمد رسول الله، لمحمد صادق عرجون: ٤/٢٠٢، باختصار.

والنصر حليفها؛ فالبشريات الصادقة ناطقة بغلبة الطائفة المنصورة التي تقاتل عدوَّها، لا يَضرّها مَن خَذلَها ولا من خَالفها.. قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].





إخبار النبي ﷺ باجلاء اليهود عن خيبر

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (لمَّا فَدَعَ أهلُ خيبر عبدَ الله بنَ عمر، قام عمر خطيباً فقال: إن رسول الله ﷺ كان عامَلَ يهودَ خيبرَ على أموالِهم وقال: «**نُقِرُّكُم ما أَقَرَّكُمُ الله**».. وإن عبد الله بن عمر خَرج إلى مالِه هناك، فَعُدِيَ عليه من الليل، فَفُدِعَتْ يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدوٌّ غيرَهُم، هم عَدوُّنا وتُهَمَتُنا، وقد رأيتُ إجلاءَهم.

فلما أَجْمَعَ عمر على ذلك، أتاه أحدُ بني أبي الحُقَيْق فقال: يا أمير المؤمنين! أَتُخْرِجُنا وقد أَقَرَّنا محمدٌ ﷺ، وعامَلَنا على الأموالِ وشَرَطَ ذلك لنا؟ فقال عمرُ: أَظننتَ أنِّي نسيتُ قول رسول الله ﷺ: «**كيفَ بكَ إذا أُخْرِجْتَ من خيبرَ تَعْدُو بك قَلُوصُكَ ليلةً بعد ليلةٍ؟!**» فقال: كان ذلك هُزَيْلَةً من أبي القاسم. فقال: كذبتَ يا عدوَّ اللهِ.

فأَجْلَاهُم عمرُ، وأعطاهم قيمةَ ما كان لهم من الثَّمر، مالاً وإبلاً وعُروضاً من أَقْتابٍ وحِبالٍ وغيرِ ذلك).

وفي رواية: (فقال رئيسُهم: لا تُخْرِجْنا، دَعْنا نكونُ فيها كما أقرَّنا رسول الله ﷺ وأبو بكر. فقال عُمرُ لرئيسهم: أتراه سقطَ عني قولُ رسول الله ﷺ لكَ: «**كيف بكَ إذا أَفْضَتْ بك راحلتُكَ نحوَ الشامِ يوماً ثم يوماً**»)[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٠)؛ والطحاوي في شرح المشكل (٢٧٦٥)؛ وابن حبان (٥١٩٩)؛ والبيهقي في السنن: ٦/ ١١٤، وفي الدلائل: ٤/ ٢٣٤، والرواية الأولى للبخاري، والثانية لابن حبان.

أولاً: توضيح معاني بعض مفردات الحديث:

فَدَعَ: الفَدَعُ: عِوَجٌ في المفاصِل كأنها قد فارقت مواضعَها، وأكثر ما يكون في رُسْغ اليد أو القَدَم.

تهمتنا: الذين نتهمهم بالتعدي.

إجلاءهم: الإجلاء: الإخراج عن المال والوطن على وجه الإزعاج والكراهة.

أجمع: عَزَمَ.

قلوصك: هي الناقة الصابرة على السير.

هُزيلة: تصغير هَزْلة، واحدة الهزل وهو ضد الجد.

سقط عني: زال وغاب، بمعنى نسيت.

أفضت: خرجت، وانتهت. وفي رواية (رقصت بك): أي أسرعت في السير.

نحو الشام: أجلاهم عمر إلى تَيْماء وأَريحاء[1].

ثانياً: نبذة عن يهود خيبر وإخراجهم منها، وتحقق النبوءة:

فتح رسول الله ﷺ خيبر[2] في مطلع سنة (٧هـ)، وصالح أهلها على أن يعملوا في أرضها على نصف ما يخرج منها، وأجلاهم عمر رضي الله عنه لغدرهم وخيانتهم سنة (٢٠هـ)، فكان بين نطق النبي ﷺ بالنبوءة وبين تحققها ثلاث عشرة سنة.

---

(١) قال الحافظ: هما موضعان مشهوران بقرب بلاد طيىء على البحر في أول طريق الشام من المدينة. الفتح: ٦/ ٤٣٧، شرح الحديث (٢٣٣٨). وتيماء: تبعد عن المدينة (٤٢٠كم) شمالاً.

(٢) بلدة معروفة، تبعد عن المدينة المنورة (١٦٥كم) شمالاً، على طريق الشام.

وعندما رضي الرسول ﷺ من يهود خيبرَ أن يبقوا في خيبر على أن يعطوا نصف ما تُخرِج أرضها، لم يجعل ذلك على الأبد، لعلمه ﷺ بطبيعتهم الغادرة وجبلَّتِهم الخؤون! فاشترط عليهم بقوله: «**نُـقِرُّكُم بها على ذلك ما شِئْـنَا**»(١).

فلما نكثوا العهد ونقضوا الشرط، فاغتالوا رجلاً من الأنصار، وألقوا عبد الله بن عمر من فوق بيت ففَدَعوا يديه؛ استحقوا الطرد والإخراج مع الإزعاج.

روى نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (خرجتُ أنا والزبير والمِقْداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبرَ نتعاهدُها، فلما قدِمْنَاها تفرَّقْنا في أموالنا، قال: فعُدِيَ عليَّ تحت الليل وأنا نائم على فراشي، ففُدِعَتْ يداي من مرفقيَّ، فلما أصبحتُ استُصْرِخ عليَّ صاحباي، فأتياني فسألاني عمن صَنَع هذا بك؟ قلت: لا أدري. قال: فأصلَحا من يديَّ، ثم قدِموا بي على عمر، فقال: هذا عملُ يهودَ! ثم قام في الناس خطيباً، فقال: أيها الناس! إن رسول الله ﷺ كان عامَلَ يهودَ خيبرَ على أنَّا نُخْرِجُهم إذا شئنا، وقد عَدَوْا على عبد الله بن عمر، ففَدَعوا يديه كما بَلَغكم، مع عَدْوَتِهم على الأنصار قبله، لا نشك أنهم أصحابُهم، ليس لنا هناك عدوٌّ غيرُهم، فمن كان له مالٌ بخيبر فَلْيَلْحَقْ به، فإني مخرِجٌ يهودَ. فأَخْرَجَهم)(٢).

وتأكَّد عند أمير المؤمنين عمر إخراجُهم للحديث الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أخبرني عمر بن الخطاب: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لَأُخْرِجَنَّ اليهودَ والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أَدَعَ إلا مُسْلِماً**»(٣).

---

(١) البخاري (٢٣٣٨)؛ ومسلم (١٥٥١) (٦).

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ١٥، وصحَّحه أحمد شاكر.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٧) واللفظ له؛ وأبو داود (٣٠٣٠)؛ والترمذي (١٦٠٦) و(١٦٠٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨٦٣٣)؛ وأحمد: ١/ ٢٩؛ والطحاوي في شرح المشكل (٢٧٥٦)؛ وابن حبان (٣٧٥٣)، وغيرهم.

والهزيمةُ التي نزلت باليهود في خيبر، ثم إخراجُ عمر لهم منها؛ هذا العمل قضَى على كيانهم العسكري في جزيرة العرب قضاء تاماً، واستسلم يهود فَدَك وتَيْماء ووادي القُرى، وألقَوا أسلحتهم صاغرين. وبَسَط الإسلام جَناحَيْه على هذه الأرضين، ومدَّ رُواقَهُ عليها، بعد أن ظلت حيناً من الدهر في أيدي اليهود يعيشون فيها كما يشاؤون.

(ولو ظلَّ اليهود ألف سنة أخرى في جزيرة العرب ما زادوها إلا انقساماً، وما اكتسبتْ أقطار الأرض من بقائهم شيئاً، ربما نالت مزيداً من الحبوب والفواكه التي يتقنون زراعتها، بَيْدَ أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كِفْلٌ من الفساد الذي يصدِّره بنو إسرائيل إلى العالم، مع معاملات الربا وأخلاق العُهر والتحلل)[1]، والغدر والخيانة وتأريث الفتن وإشعال الحروب والإيقاع بين الناس.

ثالثاً: تاريخ وجود اليهود في جزيرة العرب ومواقفهم من الإسلام:

•• يرجع الوجود اليهودي في الجزيرة العربية إلى ما قبل الإسلام، وذلك عندما نزل طَيْطَس الروماني في (أورشليم)، فخرَّب المدينة والهيكل، وذَبح من اليهود مليون نفس، وفَرَّ الباقون إلى قارات الدنيا. ومن هذه الشظايا التي تناثرت طائفةٌ ألقت بها المحنة بأرض الحجاز عند (يثرب) وما يليها شمالاً[2].

فأقاموا مستعمرات قوية حصينة في جوف الصحراء بعيداً عن بطش الدولة الرومانية، ومهروا بالزراعة والتجارة. وجاءت قبيلتا الأوس والخزرج فنزلتا بيثرب كذلك، وهم أرباب القوة والغلبة والرأي، فتعاقد اليهود مع العرب على التعايش وحماية يثرب.

وحرص اليهود على إشعال نار الفرقة بين القبيلتين العربيتين، فما دام العرب مختلفين فإن استقرار اليهود أبقى وأدوم، وتلك طبيعتهم! ولم يفكروا بنشر دينهم

---

(١) فقه السيرة، للغزالي، ص٣٤٩.

(٢) بنو إسرائيل، للبهي الخولي، ص٢٩٣.

في جزيرة العرب لأنهم ليسوا دعاة إلى دين، بل يعتقدون أنهم شعب مختار، ومن حقهم أن يسودوا العالم ويستغلوه.. هكذا عاشوا، وهكذا يعيشون! وكان أفراد منهم يقولون لأفراد من العرب: (إن نبيّاً قد أَظَلَّ زمانُه، نتبعُه ونقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرَم).

وظهر النبي ﷺ بمكة، وفي أحد مواسم الحج التقى بستة من رجال الخزرج، فعرض عليهم الإسلامَ، فقال قائلهم: (إنه النبي الذي تَوعَّدُكم به يهود، فلا يَسبقنكم إليه). فكان أولئك النفر الستة هم النواة المباركة التي تألف منها فيما بعد أنصار الله بالمدينة المنورة يثرب[١].

وانتقل الإسلام إلى المدينة، وقام الرسول ﷺ يقرر علاقته بعناصر سكانها، فالأوس والخزرج هم أنصار الله، ومن ركائز دولة الإسلام، واليهود أصحاب دين سماوي، فعَقَد معهم معاهدة لم يجدوا بدّاً من قبولها، وأمضَوْها على مَضَض، برضاً ظاهر، وحقدٍ وكيدٍ دفينَيْن.

●● وكان ينبغي أن يهشَّ اليهود للمسلمين؛ لأن فيهم النبيَّ الذي بشَّرت به التوراة، وكان اليهود أنفسهم يتهددون العرب به! أَوْكان ينبغي على الأقل أن يَدَعوا المسلمين وشأنهم، لا حُبَّ ولا بُغض، ولكن القرآن الكريم يتحدث عن مستكنَّات أنفسهم نحو الإسلام ونبيّه، فيقول سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩][٢].

وهذا ما عبَّر عنه حُيَيُّ بن أَخْطَب سيدُ بني النَّضير عندما سأله أخوه أبو ياسر عن النبي محمد ﷺ: أَهُوَ هو؟ قال: نعم، هو هو. قال: أتعرفُه وتُثْبِتُه؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوتُه والله ما بَقِيْتُ[٣]!.

وهذا يبيِّن النفسية اليهودية المكظوظة بالحقد والطيش والبغضاء.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧٤.

(٢) اليهود المعتدون، للغزالي، ص٧١.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ٥١٩.

بل إن وفداً من يهود ذهب إلى مشركي العرب في مكة يحرِّضهم على النبي ﷺ ومن معه، فسأل زعماءُ مكة ـ من عَبَدة الأوثان ـ كعبَ بن الأشرف كبيرَ وفد يهود: (إنك امرؤٌ تقرأ الكتاب وتعلَمُ، ونحن أُمِّيون لا نَعلم، فأيُّنا أهدى سبيلاً وأقربُ إلى الحق: نحن أم محمد؟ فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد)[1].

وامتدَّ شَطَطُهم فوضعوا خطة فيها شيء من المكر والدهاء، وذلك بأن يدخل بعضهم في الإسلام ـ ظاهريّاً ـ ثم يرجع عنه بعد قليل ويرتد ويقول: دخلنا في هذا الدين غير متعصبين، فانكشف لنا أنه باطل وضلال؛ فتركناه! وقد رصد القرآن هذا الموقف الخبيث وسجَّله في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢][2].

وكان المسلمون يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس، فتمنى الرسول ﷺ على الله، ودعا دعاءً حارّاً أن يَصرفه عن هذه القبلة، وأن يَعْزِم له على قبلة أخرى، وكان ينظر إلى الأفق متشوقاً إلى خبر يجيء من السماء يأذن له بالاتجاه إلى القبلة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ...﴾ [البقرة: ١٤٤].

فتسافَه اليهود ولغطوا كثيراً وعابوا على المسلمين تغييرَ قبلتهم، فوبَّخهم الله تعالى بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

ولمَّا كانت وقعة بدر الكبرى، ونَزل بالكفار بأسُ الله العادل، ونَصر جندَه نصراً مؤزَّراً؛ آسَفَ ذلك اليهود، وتبجَّحوا وقالوا لرجال من الأنصار:

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/ ٢٣٩.
(٢) اليهود المعتدون، للغزالي، ص٧٢؛ بنو إسرائيل، للبهي الخولي، ص٢٨٩.

(لا يَغُرنَّكم أنكم لقيتُم ناساً لا عِلْمَ لهم بالحرب، والله لئن قاتلناكم لَتعلَمُنَّ أنَّا نحن الناسُ!).

والذين قالوا هذا هم يهودُ بني قَيْنُقاع، وقد جَمَعهم الرسول ﷺ وحذَّرهم أن يحلَّ بهم مثلُ ما نزل بقريش من النقمة، فأَغْلَظوا له القولَ، وقالوا له مثلَ مقالتهم للأنصار(١)!.

إن حزنَهم على هزيمة قريش وقتلى المشركين لَيُظهِر حقدهم المتلظِّي على الإسلام وأهله، وإلا فما معنى أن يغضب اليهود من انتصار الإسلام على الشرك؟! وبمَ يُفسَّر حنوُّهم على القتلى من عَبَدة الأصنام، وسعيهم الحثيث لتغليب كفة الوثنية العربية على هذا الدين الجديد؟! إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين، وأن سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوي(٢).

•• ومع كل ذلك فرسول الله ﷺ وأصحابه يصابرون الأيامَ حتى يقع من اليهود ما لا بدَّ من معاقبتهم عليه، وهذا ما كان؛ حيث أسفروا عن جِبِلَّتهم التي قوامها الشر والحقد والعدوان، وأظهروا صورة مُحَسَّة لتلك السجايا المهلكة الباطنة، ليصنعوا بأيديهم الفصولَ الأخيرة لنهايتهم المحتومة.

وأولُ مَن هَزَأ بالإسلام وأهله وكَشَف عن ضِغْنه وحقدِه هم يهود بني قَيْنُقاع المقيمون داخل المدينة، حيث سعوا إلى حَتْفِهم بِظِلْفِهم، فقد حدث أن امرأة مسلمة أنصارية جلست إلى صائغ بسوق بني قَيْنُقَاع، فأرادها اليهود على كشف وجهها، فأبَتْ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ـ وهي غافلة ـ فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشف جسدُها، فصرخت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/٤٧؛ بنو إسرائيل، للبهي الخولي، ص٢٩٦؛ اليهود المعتدون، ص٧٣.

(٢) فقه السيرة، للغزالي، ص٢٤٣.

فقتله! فشدَّ اليهود على المسلم فقتلوه، فكانت الشرارة التي قَدَح اليهودُ بها زناد الحرب!.

وما إن بَلَغ الأمر النبيَّ ﷺ حتى حشد جنده، وهجم بهم على سوق بني قينقاع، وعلى القبيلة كلها، وحاصرها حتى أجبرها على ترك المدينة.

ورحلوا إلى أذرعات (مدينة درعا السورية)، ولم يبقوا هناك طويلاً حتى هلك آخرهم.

●● وأبى اليهود أن يتعلموا درساً مما جرى قريباً لبني قَيْنُقاع، فقد حدث أن رسول الله ﷺ ذهب إلى منازل بني النَّضِير مع بعض أصحابه ليستعين بهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عَمْرو بن أمية الضَّمْرِي مرجِعَه من سرية بئر مَعُونة، فأظهروا له الرضا، وجلس ﷺ إلى جنب جدار لهم.

فخلا بعضهم إلى بعض وقالوا: إنكم لن تجدوا الرجلَ على مثل حاله هذه ـ ورسولُ الله ﷺ إلى جَنْب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت، فيُلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عَمْرو بن جحَّاش بن كعب فقال: أنا لذلك. فصعد ليلقي عليه صخرة، فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. فلما استلبث النبيَّ ﷺ أصحابُه قاموا في طلبه حتى انتهوا إليه بالمدينة، فأخبرهم الخبرَ بما كانت اليهود أرادت من الغدر به(١).

وجرَّد النبي ﷺ عليهم جيشَه، وحاصر بني النَّضير حتى كسر حصونها وحرق زروعها، وأنزلها على حكم الله، وتركها تخرج من المدينة لاحقة ببني قينقاع(٢)، وخرج آخرون منهم حُيَيُّ بن أَخْطَب إلى خيبر.

وفي هذه المعركة نزلت سورة الحشر بأكملها، فوصفَتْ طردَ اليهود،

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ١٩٠.

(٢) اليهود المعتدون، للغزالي، ص٧٤.

وفَضَحت مسلكَ منافقي المدينة الذين حاولوا إعانةَ بني النَّضير في غَدْرهم وحربهم، وحرَّضوهم على مقاتلة المسلمين، وَوَعَدُوهم بالأمداد والعتاد[(١)].

●● وكان ينبغي ليهود بني قريظة ـ وهم بقية اليهود في المدينة ـ أن يعتبروا بالدروس القاسية التي ذاقها إخوانهم من بني قَيْنُقاع وبني النَّضير! ولقد كان زعيمهم كعب بن أسد يريد الوفاء للمسلمين بعهده معهم، لكن حُيي بن أَخْطَب ـ سيدَ بني النَّضير وزعيمَ المتآمرين على الإسلام ـ راوده على نقض العهد، وأَمَّلَه بأن الأحزاب تقاطرت على المدينة لاستئصال شأفة الإسلام وأهله، فاستيقظَتْ طبيعة كعب وانضمَّ إلى فئة الغدر والخيانة، وأعان المشركين الذين زحفوا على المدينة.. وماج وادي العقيق وسفحُ أُحد بمن نزله من تلك الألوف التي حاصرت المدينة، ولخيلِهم صهيلٌ ولإبلِهِم رُغاءٌ يملأ الأفق.

ولم تكن غزوة الأحزاب معركةَ خسائر بل معركةَ قلوب وأعصاب، فقتلى الفريقين يُعَدُّون على الأصابع، لكنها من أَحْسمِ المعارك في تاريخ الإسلام، إذ إن مصير الرسالة العظمى كان فيها أشبهَ بمصير رجلٍ يمشي على حافة قمة سامقة لو اختل توازنه لهوى من مرتفعه إلى واد سحيق ممزَّق الأعضاء ممزَّع الأشلاء، والمسلمون كالجزيرة وسط طوفان يتهدَّدُها بالغرق ليلاً ونهاراً.

ولكن الله سلَّم وأَرْسَل جنودَه، وأنزل على المؤمنين نصرَه، وانقلَعَ الأحزاب من قريش وأوباش الأعراب إلى ديارهم، وتركوا يهود بني قريظة يواجهون المصير المحتوم. وكانت مشاعر التغيُّظ في أفئدة المسلمين قد بَلَغت ذروتها على أولئك الفجرة من يهود قريظة ومن ضَوَىٰ إليهم من بني النَّضير الذين استخرجوا العرب المشركين استخراجاً واستقدموهم إلى دار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها. وجراحاتُ المسلمين لم تندمل بعدُ من غدرات بني النضير وبني قينقاع.. فقام النبي ﷺ إليهم وأنزل بهم بأسَهُ العادل، وأدَّبَهم على غدرهم وخيانتهم العظمى التي ارتكبوها، وانتهى الأمر بضرب أعناق رجال بني قريظة.

(١) فقه السيرة، للغزالي، ص٢٨٢.

وبذلك انتهى وجود اليهود من المدينة النبوية.

●● واتجه المسلمون شمال المدينة فنازلوا يهود خيبر في حصونهم، وأنزلوهم من صياصيهم، وكسروا شوكتهم، ثم تركوهم يعملون في الأرض على أن يؤدوا نصف خراجها، وأن يخرجوهم متى شاؤوا.

وتأبى قلوبهم الحاقدة وفِطَرهم الغادرة إلا أن تظهر بين الحين والآخر على حقيقتها؛ فاغتالوا ذلك الأنصاري، ووَثَبوا على ابن عمر ليلاً فَفَدعوا يديه! فقام عمر بن الخطاب وبيَّن للمسلمين أن هذا فعل اليهود، فَهُم المتهمون به، وليس للمسلمين في تلك البقاع عدو غيرهم.. وصَدَق عمر وهو الإمام المُلْهَم المحدَّث الذي يجري الحق على لسانه.

وأمر الفاروق بإجلائهم عن خيبر، فقال له رئيسهم: (يا أميرَ المؤمنين! أَتُخْرِجُنا وقد أَقرَّنا محمد ﷺ، وعامَلَنا على الأموال وشَرَطَ ذلك لنا؟!).

فقال له عمر: (أظننتَ أني نَسيتُ قولَ رسول الله ﷺ: «**كيفَ بكَ إذا أُخْرِجْتَ من خيبرَ تعدُوُ بكَ قَلُوصُكَ ليلةً بعد ليلةٍ؟!**»).

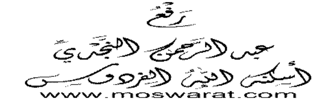
وفي رواية أخرى قال له عمر: (أَتُراهُ سَقَط عنِّي قولُ رسول الله ﷺ لكَ: «**كيف بكَ إذا أَفضَتْ بك راحلتُك نحوَ الشام يوماً ثم يوماً؟!**»).

أي: إن رسول الله ﷺ قال ذلك لكبيرِ يهود خيبر، وأَخبره بأنه سيأتي يوم يُخْرَج فيه هو وطائفته من خيبر على نُوقِهم مسرعين مطرودين مهانين لا مكرمين، مهجَّرين مَنْفيين لا مهاجرين طائعين، إلى أطراف الجزيرة قريباً من الشام. ولم يفهمها هذا الأثيم، ولو وعاها لَمَا آمَن بها، فقد ترادفت الآيات بصدق النبي ﷺ، وتوالَت النُّذر بمغبَّة مخالفته فَضْلاً عن محادَّتِه. ولكن أنَّى لليهود أن يتخلَّوا عن صَلَفِهم وغَدْرهم وحقْدِهم الذي أعمى قلوبهم؟!.

ولقد سمع الصحابة هذا الخبر الصادق، وسمعه عمر ووعاه وأَبرم مؤدَّاه لَمَّا وقع القدر، وصَدَر من اليهود الغدر، فنالوا جزاءهم، وأجلاهم أمير المؤمنين إلى تيماء وأريحاء، وذلك في سنة (٢٠هـ)، كما ذكر الطبري وغيره.

وهكذا الحياة كرٌّ وفَرٌّ، وإقبال وإدبار، والدول التي سادت أشبه بلجج البحر التي ترتفع حيناً ثم لا تلبث أن تضمحلَّ رويداً رويداً حتى تنداح على الشاطئ ضعيفة متطامنة، فقد ملك بنو إسرائيل وعَزُّوا بقدرٍ حكيم، ثم سُلبوا المُلكً بقَدَر؛ لبغيهم وطغيانهم، لترثَ ذلك دولة الإسلام الفتي الناهض، والتي عمَّت البشريةَ بخيرِها وبركاتها ورحماتها.





إخبار النبي ﷺ
بفتح اليمن والشام والعراق
وهجرة بعض الناس إليها من المدينة

عن سُفيان بن أبي زُهير رضي الله عنه: أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُفْتَحُ اليمنُ، فيأتي قومٌ يَبُسُّون، فَيَتحمَّلُون بأَهْلِهِم ومَن أَطَاعَهُم، والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يَعْلَمُونَ. وتُفتح الشامُ، فيأتي قومٌ يَبُسُّون، فيتحمَّلون بأَهْلِهم ومَن أَطَاعَهُم، والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يَعْلَمون. وتُفتح العراقُ، فيأتي قومٌ يَبُسُّون، فيتحمَّلُون بأَهْلِهِم ومَن أَطَاعَهُم، والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يَعْلمون**»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: معنى الحديث:

يبين الحديث أن اليمن والشام والعراق تفتح، فتنال إعجابَ أقوام، لِما فيها من الرخاء وطيب العيش، فيحملهم ذلك على المهاجرة إليها بأنفسهم وأهليهم حتى يخرجوا من المدينة، والحال أن الإقامة في المدينة خير لهم؛ لأنها حَرَمُ الرسول ﷺ، وجواره، ومهبط الوحي، ومنزل البركات، لو كانوا يعلمون ما في

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٥) واللفظ له؛ ومسلم (١٣٨٨)؛ والنسائي في الكبرى (٤٢٤٩) و(٤٢٥٠)؛ ومالك: ٢/ ٨٨٧ ـ ٨٨٨؛ وعبد الرزاق (١٧١٥٩)؛ والحميدي (٨٦٥)؛ وأحمد: ٥/ ٢٢٠؛ والطحاوي في شرح المشكل (١١١٢)؛ وابن حبان (٦٦٧٣)؛ والبغوي (٢٠١٨)، وغيرهم.

الإقامة بها من الفوائد الدينية بالعوائد الأخروية التي يُستحقر دونها ما يجدونه من الحظوظ الفانية العاجلة بسبب الإقامة في غيرها.

وفي قوله ﷺ: «**لو كانوا يعلمون**» تجهيلٌ لمن فَارَقَ المدينةَ وآثَر غيرها، والمراد به الخارجون من المدينة رغبةً عنها كارهين لها، وأما من خرج لحاجة أو تجارة أو جهاد أو نحو ذلك؛ فليس بداخل في معنى الحديث(١).

ومعنى يَبُسُّون: أي يسوقون دوابَّهم ويزجرونها إرادةَ السرعة في السير.

ثانياً: تحقق النبوءة:

وهذا الحديث عَلَمٌ شامخٌ من أعلام نبوة سيدنا رسول الله ﷺ، أَخبر فيه عن فتح المسلمين لهذه الأمصار الثلاثة العظيمة، وقد تحقق طرف من هذه النبوءة في حياته ﷺ، واكتمل تحققها في عهد الخليفتين الراشدين الكبيرين أبي بكر وعمر.

وقد افتُتِحت اليمن في أيام النبي ﷺ وعهد أبي بكر، ثم افتُتحت الشام بعدها، ثم العراق بعدها، فوقع ذلك كله على وفق ما أخبر به ﷺ وعلى ترتيبه(٢).

فقد جاء في رواية مسلم وعبد الرزاق: «**تُفتح اليمن... ثم تُفتح الشام... ثم يُفتح العراق**». و(ثم) تفيد الترتيب والتراخي.

●● ومن مكة كان مطلع شمس التوحيد، وملتقى آفاق السماء بأقطار الأرض، فَيُشرِق نورُ الهداية، ورسولُ الله ﷺ تكلِّمه السماء، ويتفجَّر من جوانبه الكمال، فكان يَسكب على من حوله آيات الطهر. فالتفَّ حوله فريق من الربانيين الأتقياء، فزَكَتْ بصحبتِه نفوسُهم، وشَفَّت طباعُهم، وصبروا معه على لأواء الحياة وشظف العيش، ولهيبِ العذاب، وآلام التهجير والاضطهاد.. وانضم الأنصار إلى ركب الدعوة، فوَضَعت الجماعة المسلمة مجتمِعةً حجر الأساس

---

(١) الفتح: ٥/ ٥٥٠، شرح الحديث (١٨٧٥).

(٢) الفتح: ٥/ ٥٤٩.

في بناء صرح دولة الإسلام على دعائم القوة المؤيدة بالحق الناشر لنور الهداية، المقوضة لركائز الظلم والاستبداد، الداعية إلى العدالة والتآخي، والمنادية بالمواساة والتراحم.

فصارت المدينة المنورة مسرى هذه الرسالة الخاتمة الخالدة إلى آفاق العالم شرقه وغربه، وشماله وجنوبه.. فكان ميلادُها بمكة وتناميها بالمدينة، ميلادَ الحياة الجديدة في صورتها المشرقة بالهداية والخير والنور إلى العالمين، وخَلْعَ جلابيب الوثنيات والشرك بجميع صورها وأشكالها، وتحريرَ الإنسان من طواغيت الأرض، ليُخْلِصَ الوجهةَ إلى الله ﷻ.

على هذا الهَدْي سار النبي ﷺ ومن معه من الصحابة الكرام، فخاضوا معارك كثيرة على عدة جبهات، مع الوثنية واليهودية والنصرانية، أَجبرت كلَّ المناوئين لها على إلقاء أسلحتهم صاغرين، فمات فريق منهم على دين الآباء والأجداد، وأُجْلِي آخرون بعيداً، والأَعمُّ الأغلبُ دخلوا في دين الله أفواجاً.

●● وبعد هدنة الحديبية بعث النبي ﷺ رسلَه إلى الملوك والأمراء داخل الجزيرة وخارجها، يدعوهم إلى الإسلام.. فأرسل إلى كسرى الفرس، وهرقل الروم، والمقوقس حاكم مصر، والنَّجاشي بالحبشة، والحارث ملك الغساسنة، وإلى ملك البحرين، وحاكم صُحَار.

ولم تأتِ سنة عشر من الهجرة إلا وقد بَسَط الإسلام هيمنته على أصقاع الجزيرة واليمن وعُمَان وسواها، وامتدَّ سلطانُه من دُومة الجندل وكاظمة[1] شمالاً، إلى عدن وحتى مسقط جنوباً على بحر العرب، ومن دَبَا إلى القَطِيف شرقاً، شاملاً ما يعرف اليوم بدولة الإمارات وقطر والبحرين، وغيرها، المطلة على الخليج العربي، إلى كل المناطق التي تمتد على طول بحر القُلْزُم (الأحمر) غرباً.

---

(١) دومة الجندل تقع في أقصى شمال السعودية، وكاظمة في دولة الكويت.

وزالت غبرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما تزول بقايا الليل أمام الشروق، واهتزت أرضها تِيهاً بالدين الجديد والأخلاق الرفيعة، وأقبلت الوفود إلى عاصمة الدولة الإسلامية يُعلنون الإسلام والاستمساك به ونصرته، وذلك سنة تسع للهجرة، وتقاطرت وفود بني تَميم وعبد القيس وطَيِّئ والأَزْد وتَغْلِب وبَجِيلة وأهل نَجْران وأهل اليمن وحِمْيَر وغيرهم.

والبلدان البعيدة أرسل النبي ﷺ إلى أهلها الأمراء والقضاة، ليديروا شؤونهم، ويعلموهم، وينشروا الدعوة هناك؛ فأرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن، والعلاء بن الحَضْرمي إلى البحرين (هو إقليم الأحساء شرق السعودية)، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، وغير هؤلاء.

وتحقق بذلك قوله ﷺ في (فتح اليمن)، ورأى ثمرة ذلك بعينيه فقرَّتْ نفسُه الشريفة، وألقى بناظرَيْه إلى المستقبل وكأنه يرى أصحابه الذين رباهم على عَيْنه ينساحون في الأرض كالريح الرُّخاء، ينشرون دين الله تعالى، وتتحقق على أيديهم بقية النبوءة. وأتمَّ الله عليه نعمته فأراه ذلك، فَسُرَّ به، ثم اجتباه إليه ربه ولَحِق بالرفيق الأعلى.

روى علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: (قال رسول الله ﷺ: «**عُرِض عليَّ ما هو مفتوحٌ لأمتي بعدي، فَسَرَّني، فأنزل الله تعالى**: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾» . أعطاه الله في الجنة ألفَ قصرٍ من لؤلؤ، تُرابها المِسكُ، في كلِّ قصرٍ ما يَنبغي له)[١].

●● ولم تمضِ أيام معدودات على وفاة الرسول ﷺ حتى اشتبك الإسلام في صراع رهيب مع قوى الردَّة في مواقع كثيرة من أصقاع الجزيرة، ومع الصليبية الرابضة في الشمال تمنع الدخول في الإسلام وتحبط الدعاية له. إلا أن الرجال الميامين الذين ربَّاهم رسول الله ﷺ على معرفة الحق والفناء فيه؛ صدقوا في

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧٩٠).

عملهم ونهضوا كأقوى الأبطال بالأثقال الباهظة التي رُموا بها؛ فنَهَد أبو بكر الصديق وعَقد أحدَ عشر لواء يحملها أحد عشر جيشاً، يتقدمهم أُسْد الشَّرى من أمثال خالد بن الوليد وعِكْرمة بن أبي جهل وعَمْرو بن العاص؛ فضربوا حركات المرتدين وكسروا فقارهم واعتصروا أرواحهم، فهمدوا إلى الأبد.. وطردوا الرومان عن الحدود التي تمردوا بها وتجبروا فيها.

وعادت الجيوش الزاحفة إلى المدينة، لا ليستجمُّوا بل لينطلِقوا من جديد حيث يوجههم الخليفة، لينتشروا خلال المعمور من أرض الله، يحملون معهم دعوة الحق والعدل والمرحمة، وما هي إلا سنوات حتى كان الإسلام ملءَ البر والبحر، والمسلمون ملءَ السمع والبصر.

ووجه أبو بكر جيوشه للفتوحات:

فكتب إلى خالد وهو باليَمامة وقد فَرغ من مُسَيْلِمة وبني حَنيفة، فوجَّهه بمن معه إلى العراق، فخاض هناك المعارك الفاصلة ضد الفُرس، كذات السَّلاسل، والمَذار، وأُلَّيْس، ثم ساروا إلى الحِيرة والأَنْبار وعين التَّمر، ومنها إلى دُوْمة الجَنْدَل، واتخذ من (الحِيْرة) قاعدته الكبرى بالعراق.

فمهَّد المسلمون بذلك قسماً كبيراً من العراق، وضَعْضَعوا سلطانَ الفرس، ونزعوا نواصي أشرافهم، ومنذ عهد قريب كان الفُرس ينظرون إلى هؤلاء المسلمين من العرب أنهم في مقام الخَوَل والأتباع، فأصبحوا بهذا الدين وإذا هم سادة فاتحون غَلَّابون، لا يَصدُّهم صادّ، ولا يَردُّهم عن البلاد والعباد رادّ[١].

ثم سار خالد بجيشه إلى الفِراض ـ وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة[٢] ـ

---

(١) خالد بن الوليد، لمحمد صادق عرجون، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢) **الجزيرة** هنا: هي الأرض ما بين نهري دجلة والفرات، وتضم عدداً من المدن منها: حَرَّان والرَّقَّة ومارِدين ونَصِيبين والمَوْصل.

وخاض معركة هائلة مع تحالف الروم والفرس وأخلاط العرب، أحرز فيها نصراً مؤزَّراً، وذلك في أخريات سنة (١٢هـ).

ودخلت سنة (١٣هـ)، وحَشد الصدِّيق جند الإسلام لفتح الشام، فعقد الألوية، وتوجهت الجيوش إلى منازلة الروم: فجيشٌ إلى تَيْماء، وآخر إلى فِلسطين، وثالث إلى دمشق، ورابع إلى حِمْص، وتمَّ لهم فتح تلك الأمصار.

●● وجاءت خلافة عمر، وكانت مدتها أطول من مدة خلافة الصدّيق بكثير، فكَثُر انتفاع الناس بها، واتسعت دائرة الإسلام بكثرة الفتوحات وتمصير الأمصار وتدوين الدواوين، فكانت خلافته كما أخبر رسول الله ﷺ قال: «**ثم أَخَذَهَا ابنُ الخطاب من يدِ أبي بكر فاستحالَتْ في يده غَرْباً، فلم أَرَ عبقريّاً من الناسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، فَنَزَعَ حتى ضَرَبَ الناسُ بِعَطَنٍ**»[1].

ففُتح في خلافته من الشام: اليرموك، وبُصْرى، ودِمشق، والأُردنّ، وطَبَرِيَّة، وبَيْسان، والجابية، وفِلِسْطين، والرَّمْلة، وعَسْقَلان، وغزَّة، والسواحل، والقُدس، وبَعْلَبَك، وحِمْص، وقِنَّسْرين، وحلب، وأنطاكيَة.

وفتح الجزيرةَ، وحَرَّان، والرُّها، والرَّقّة، ونَصِيبين، ورأس عَيْن، وسُمَيْسَاط، وعين وردة، وديار بَكْر، وديار ربيعة، وبلاد المَوْصل، وإِرْمِينية جميعها.

وفتح مصر، وإسْكَندرية، وطَرَابُلُس الغرب، وبَرْقة.

وبالعراق: القادسية، والحِيرة، وبَهُرَسِير، وسابَاط، ومدائن كِسرى، وكورة الفرات ودجلة، والأُبُلَّة، والبَصْرة.

وفتح الأَهْواز، وفارس، ونَهَاوَنْد، وهَمَذَان، والرَّيّ، وقُومِس، وخُراسَان،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٦)، وغيره. **والعَطَنُ**: مبرك الإبل. وسيأتي تفصيل ذلك في النبوءة (٦٣): ٢/ ٢٣٨ من هذا الكتاب.

وإِصْطَخْر، وأَصْبَهان، والسُّوس، ومَرُو، ونَيْسَابُور، وجُرْجَان، وأَذْرَبيجان، وغير ذلك.

وتمَّ في عهد عمر المبارك استكمالُ فتح الشام والعراق وفارس ومصر، وكَتب الفاتحون الحروفَ الأولى في فتح شمال إفريقية، وتحققت هذه النبوءة العظيمة المباركة.

●● وانتقل جماهير من الصحابة إلى تلك البلاد، ونزلوا في بيت المقدس ودمشق وحمص والكوفة والبصرة ومصر وغيرها، ونشروا هناك الإسلام والحق والعدل، وأقاموا مدارس علمية تحدَّث بها لسان التاريخ الصادق بالذِّكْر الجميل.

●● ولقد غرس الرسول ﷺ في قلوب أتباعه مبادئَ السماء، وارتفع بهم إلى منازل الربانيين، ونَقَلهم من العصبية للقبيلة إلى العصبية للعقيدة، فكان شعار القائد والجندي واحداً هو: (جِئنا لِنخرجَ العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، ومن جَوْر الأديان إلى عَدْل الإسلام، ومن ضِيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة).

وبذلك حوَّل الإسلام العرب من طور القبيلة إلى طور الأمة، ثم بَوَّأَ هذه الأمةَ الوليدة مكانَ الصدارة والقيادة للبشرية كلها، ترسم لها منهجها، وتصوغ مفاهيمها للإنسان والكون والحياة.

كذلك مَنَح الإسلام العربَ وجودَهم القومي والسياسي والدولي، وأهمَّ من ذلك وجودهم الإنساني، بعد أن كانوا هملاً في التاريخ، فأصبحوا أمة ذات رسالة، وحضارة بناءة مبدعة قائدة، هادية راشدة مرشدة.

يقول الأب منشون في كتابه «رحلة دينية إلى المشرق»: (إنه لَمِن المحزِن لأمم المسيحية أن يتعلَّموا التسامح من المسلمين: لَمَّا غزا العربُ الشامَ، أوصى الخليفة الصديق بالنصارى خيراً في خطبته المشهورة، ولماَّ دخل عمر القدسَ لم يسمح بإلحاق أي أذى بالمسيحيين، وتركَ كنائسَهم في أيديهم، وأحسنَ معاملة

بطريركهم، وأبى أن يصلي داخل الكنيسة حتى لا يأتي المسلمون بعده فيدَّعُوها، ويجعلوها مسجداً لهم)(١).

وبهذه الفتوحات المباركة حرَّر الإسلام جزيرة العرب حتى اليمن من سخافات الأوثان والشرك الأبله، وكسر شوكة الرومان فحرَّر بلادَ الشام من ربقة كهنوتهم وأضاليلهم، وحطَّم طغيان الفرس وأَخْمَدَ نارَهم، واستنقذ من براثنهم شعوبَ العراق وفارس، ونقل الجميع إلى ظلال دوحته، وفَيْءِ رحمته، وسماء عدله، وهَدَّم الأسوار التي كان يعيش وراءها أمم متلاطمة في تلك البلدان الشاسعة..

وبذلك أتمَّ الإسلام مرحلة كبرى من رسالته في إزالة الطواغيت الرابضين على صدور العباد، وتحرير الشعوب من التعبد لغير الله، وكسر الحواجز بين البشر، وحقق التعارف بين القبائل والشعوب، فاستظل الجميع بتعاليم كتاب واحد، بلَّغه رسول واحد، ليتجهوا إلى إلـٰه واحد، ويجتمعوا على إقامة صرح حضاري إسلامي واحد تعاونوا على بنائه وإعلائه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣](٢).



(١) الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية، لأنور الجندي، ص١٦ ـ ١٧.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣.



إخبار النبي ﷺ عن غزو المسلمين جزيرة العرب وفارس والروم وفتحهم لها

عن نافع بن عُتْبة بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تَغْزونَ جزيرةَ العرب فَيَفْتَحُهَا الله عليكم، ثم تَغزُون فارسَ فيفتَحُها الله عليكم، ثم تَغزون الرومَ فيفتَحُها الله عليكم، ثم تَغزون الدَّجَّال فيفتَحُه الله عليكم»**(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: كلمة بين يدي النبوءة:

هذه النبوءة أعمُّ وأشملُ من النبوءة السابقة، وفيها زيادة عليها:

فلفظ الحديث «**تغزون فارس**»: وهذا أعمُّ من الإخبار بفتح العراق.

وفيه أيضاً: «**تغزون الروم**»: وهو يشمل الشام وغيرَها من البلاد التي كانت تحت سيطرة الرومان.

وأما الزيادة عن النبوءة السابقة فقوله ﷺ: «**تغزون جزيرة العرب...**»، و«**تغزون الدجال...**».

ولم يذكر هنا (فتح اليمن)، وذكره في النبوءة المتقدمة.

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ١٧٨، ٤/ ٣٣٧ - ٣٣٨؛ ومسلم (٢٩٠٠)؛ وابن ماجه (٤٠٩١)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٥٥؛ وابن حبان (٦٦٧٢)؛ والحاكم: ٤/ ٤٢٦، واللفظ لابن حبان.

وقد تحققت ثلاثُ بُشريات مما في هذا الحديث، وعلى الترتيب الذي أَخبر به رسول الله ﷺ، وأَتْقَنه الراوي، وهو المستفاد من التعبير بـ«ثم». وبقيت البشرى الرابعة وهي الانتصار على الأعور الدجال، وكسر شوكته، وإبطال مخرقاته، وتطهير الأرض من فتنته وأضاليله، وهذا سيكون في آخر الزمان تحت قيادة السيد المسيح عيسى عليه وعلى نبينا أزكى الصلاة والسلام.

وكان النبي ﷺ يخبر أمته ببعض الغيبيات مما أطلعه الله سبحانه عليه؛ ليبشِّر بخيرٍ قادم، أو يُنذر من خطرٍ داهم، ويخطَّ لهم بين يدي ذلك المنهج القويم ليسلكوه، ويحققوا واجب الاستخلاف في الأرض بحق.

ثانياً: من التوجيهات النبوية الرفيعة بين يدي الغزوات والفتوحات:

أنه ﷺ يبشِّرهم بالفتح والنصر، ويدلُّهم على الالتزام بأخلاقيات الفاتح المنتصر؛ فغايةُ المسلم من هذه الفتوحات أن يفتح أقفال القلوب، وأن يُنقذ التائهين الحيارى، وأن يعالج الأخطاء القديمة برفق، وأن يلقى الأحقاد بالعفو، وأن يحبِّب الناس بالإسلام، وأن تقرَّ عيناه برؤيتهم يدخلون فيه أفراداً أو أفواجاً[1].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (انتهيتُ إلى النبي ﷺ وهو في قُبَّة حمراءَ من أَدَم، في نحوٍ من أربعين رجلاً، فقال: «**إنكم مفتوحٌ عليكم، منصورون ومُصِيبون، فمن أدرك ذلك منكم فَلْيَتَّقِ الله، وليأمُرْ بالمعروف، ولْيَنْهَ عن المنكر، وليَصِلْ رحمَهُ، ومَن كَذَب عليَّ متعمداً فليتبوَّأْ مقعدَه من النار. ومَثَلُ الذي يُعين قومَهُ على غير الحقِّ كمثلِ بعيرٍ رُدِّيَ في بئرٍ، فهو يُنزَعُ منها بذَنَبه**»)[2].

---

(١) علل وأدوية، ص١٤١.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ٤٠١، واللفظ له؛ والطيالسي (٣٣٧)؛ والترمذي (٢٢٥٧)؛ والنسائي في الكبرى (٩٧٤٢)؛ وابن حبان (٤٨٠٤)، وغيرهم. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٣٨٣).

=

وميزةُ الرسالة التي اضْطَلَعَتْ بها أمتُنا وحَمَلها هؤلاء الفاتحون إلى العالمين؛ أنها لا تسكتُ عن معروف ولا تسكت على منكر، وأنها تشتبك باسم الله مع شياطين الإنس والجن لتكفَّ بأسَهم وتكسر عدوانَهم.

ولولا ظهورُ الإسلام لبادَتْ حقائق وفضائل، ولصارت الإنسانية قطيعاً آخر من الوحوش الضارية لا تتحرك إلا بغرائز السوء.

والفاتحون الذين رفعوا عَلَمَ التوحيد وأَوْصَلوا دعوتَه إلى قارات الدنيا؛ هم وحدهم الذين قلَّموا أظافر القياصرة والأكاسرة والفراعنة وأضرابهم من الجبابرة، واحتضَنوا سوادَ الجماهير، وأَصْغَوا مُخْبِتين إلى قول نبيِّهم ﷺ: «**ابْغُوني ضُعَفَاءكم، فإنكم إنَّما تُرْزَقونَ وتُنْصَرونَ بِضُعَفَائِكم**»[(١)]!.

ثالثاً: تحقق النبوءة:

وهذا الحديث وأمثالُه أبرزَ أمامَ الصحابة والمسلمين من بعدهم طبيعةَ الإسلام وحقيقَتَهُ، بأنه دينٌ عالميٌّ يجب إبلاغُه للناس كافة، وكَسْرُ كلِّ الحواجز التي تحول دون حرية العقيدة عندهم، وكَنْسُ غبارِ الشرك الذي رانَ على قلوبهم، وهَتْكُ الحُجُب التي غلَّفت عقولَهم، بتطاوُلِ الزمان وعملِ الطغيان.. وقد حقق الصحابة ذلك؛ فَنَهدوا ينساحون في الأرض ملبِّين طائعين، مبشِّرين ومُنذِرين.

(ولم يكن الطريق سهلاً، فإن رَعاعَ العرب داخل الجزيرة حاولوا إعادةَ

= قوله: «**منصورون**»: أي على الأعداء. و«**مصيبون**»: أي للغنائم. «**مفتوح عليكم**»: أي البلاد الكثيرة. «**يُنزع بذَنَبه**»: أي وقع في الإثم وهلك، كالبعير إذا تردَّى في بئر فصار يُنْزَع بذَنَبِه، ولا يُقْدَر على خلاصه.

(١) أخرجه أحمد: ٥/١٩٨، واللفظ له؛ وأبو داود (٢٥٩٤)؛ والترمذي (١٧٠٢)؛ والنسائي في الكبرى (٤٣٧٣) والصغرى: ٦/ ٤٥؛ وابن حبان (٤٧٦٧)؛ والحاكم: ٢/ ١٠٦، ١٤٥، وصحَّحه وأقره الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح. واقتطفت الكلام من كتاب علل وأدوية، ص١٥٠.

الليل المدبر، وإحياءَ الجاهلية المسحوقة، كما أن مجوسَ فارس وصَليبيِّي الرومان اعترضوا بالعنف مسارَ الدعوة.

غير أن الجيلَ الذي ربَّاه محمد ﷺ كان صلبَ المَعْدِن، شديدَ البأس، جَمَع بين الصرامة والكرامة، فلم تَلِنْ قناتُه، ولم يَضْرع أمام قوى الباطل، إنه نازَلَها كلَّها حتى كَسَرَ شوكتَها وأَسْقَط دولتها!)[١].

وهذا ما يشير إليه حديث هذه النبوءة.

●● **قوله ﷺ: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله عليكم»:**

هذا ـ والله أعلم ـ إشارة واضحة وقوية إلى حروبِ الردَّة؛ لأن النبي ﷺ لم يَلْحق بالرفيق الأعلى إلا وقد تمهَّدَتْ له الجزيرة العربية، وتوحَّدت تحت لوائه من شمالها بمحاذاة دولة الرومان، إلى الجنوب في اليمن وحضرموت على ساحل بحر العرب.

عن أبي هريرة ﷺ قال: (لـمَّا توفِّي رسولُ الله ﷺ واستُخْلِف أبو بكر بعده، وكَفَر مَن كَفَر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيفَ تُقاتِل الناسَ وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلـه إلا الله، فمن قال: لا إلـه إلا الله؛ عَصَمَ منِّي مالَهُ ونَفْسَه إلا بحقِّه وحسابُه على الله**»؟ فقال: والله لَأُقاتِلنَّ من فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاةَ حقُّ المال، والله لو مَنَعُوني عِقالاً[٢] كانوا يؤدُّونَه إلى رسول الله ﷺ لَقَاتلتُهم على مَنْعِه. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أنْ رأيتُ اللهَ قد شَرَحَ صَدْرَ أبي بكر للقتال، فعَرَفْتُ أنه الحقُّ)[٣].

---

(١) علل وأدوية، ص١٤٥.

(٢) وفي رواية: عَنَاقاً. وهو أصح.

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٤) واللفظ له، وأطرافه في رقم (١٣٩٩)؛ ومسلم (٢٠)؛ وأبو داود (١٥٥٦)؛ والترمذي (٢٦٠٧)؛ والنسائي في الكبرى (٢٢٣٥) وفيه أطرافه، والصغرى: ٥/ ١٤، ٧/ ٧٧؛ وأحمد: ٢/ ٤٢٣، ٥٢٨؛ وابن حبان (٢١٦، ٢١٧)، وغيرهم.

وشملت حركةُ المرتدين معظمَ الجزيرة العربية عدا مكة والمدينة والطائف، وكادت تعصف بالدولة الإسلامية، لولا أن منَّ الله على الناس بالصحابة وعلى رأسهم أبو بكر، فواجهوا حركة الردَّة وكسروا فقارها، وأماتوا أنفاسها إلى الأبد.

وقام الصّديقُ فجهَّزَ أحدَ عشر جيشاً، ووجَّهَهُم إلى أصقاع الجزيرة ليقاتلوا المرتدين:

١ ـ جيش بقيادة خالد بن الوليد: توجَّه إلى طُلَيْحة بن خُويْلد الأَسَديِّ وقومه، ثم إلى مالك بن نُوَيْرة مع بني تَميم، ثم إلى مُسَيْلِمة وبني حَنيفة في اليَمَامة (قرب مدينة الرياض).

٢ ـ ٣ ـ عِكْرمة بن أبي جهل وشُرَحْبيل بن حَسَنة: إلى مُسَيْلِمة الكذاب في اليمامة.

٤ ـ عمرو بن العاص: إلى جِماع قُضَاعة ووديعة والحارث، شمال غرب السعودية قريباً من دُومَة الجَنْدل.

٥ ـ خالد بن سعيد بن العاص: إلى مشارف الشام.

٦ ـ طُرَيْفة بن حاجز: إلى بني سُليم ومن معهم من هوازن، شرقي مكة والطائف.

٧ ـ العلاء بن الحَضْرَمي: إلى البحرين، وهي المنطقة الشرقية في السعودية (الأحساء)، وفيها: الظَّهْران والقَطِيف ودارين وغيرها.

٨ ـ حُذيفة بن مِحْصَنِ الغَلْفانيّ: إلى دَبَا وصُحَار من عُمَان، على بحر العرب.

٩ ـ عَرْفَجَة بن هَرْثَمة: إلى مَهْرة، في حَضْرَموت قرب مدينة مِرْباط العُمانية على بحر العرب.

١٠ ـ المُهاجِر بن أبي أمية: إلى الأَسْود العَنْسي في اليمن جنوب نَجْران، ومن ثم إلى حضرموت.

١١ ـ سُويد بن مُقَرِّن: إلى تِهامة اليمن، وهي المناطق الغربية من اليمن المحاذية للبحر الأحمر، مجتازاً عَكّ والمَخَا إلى تعزّ.

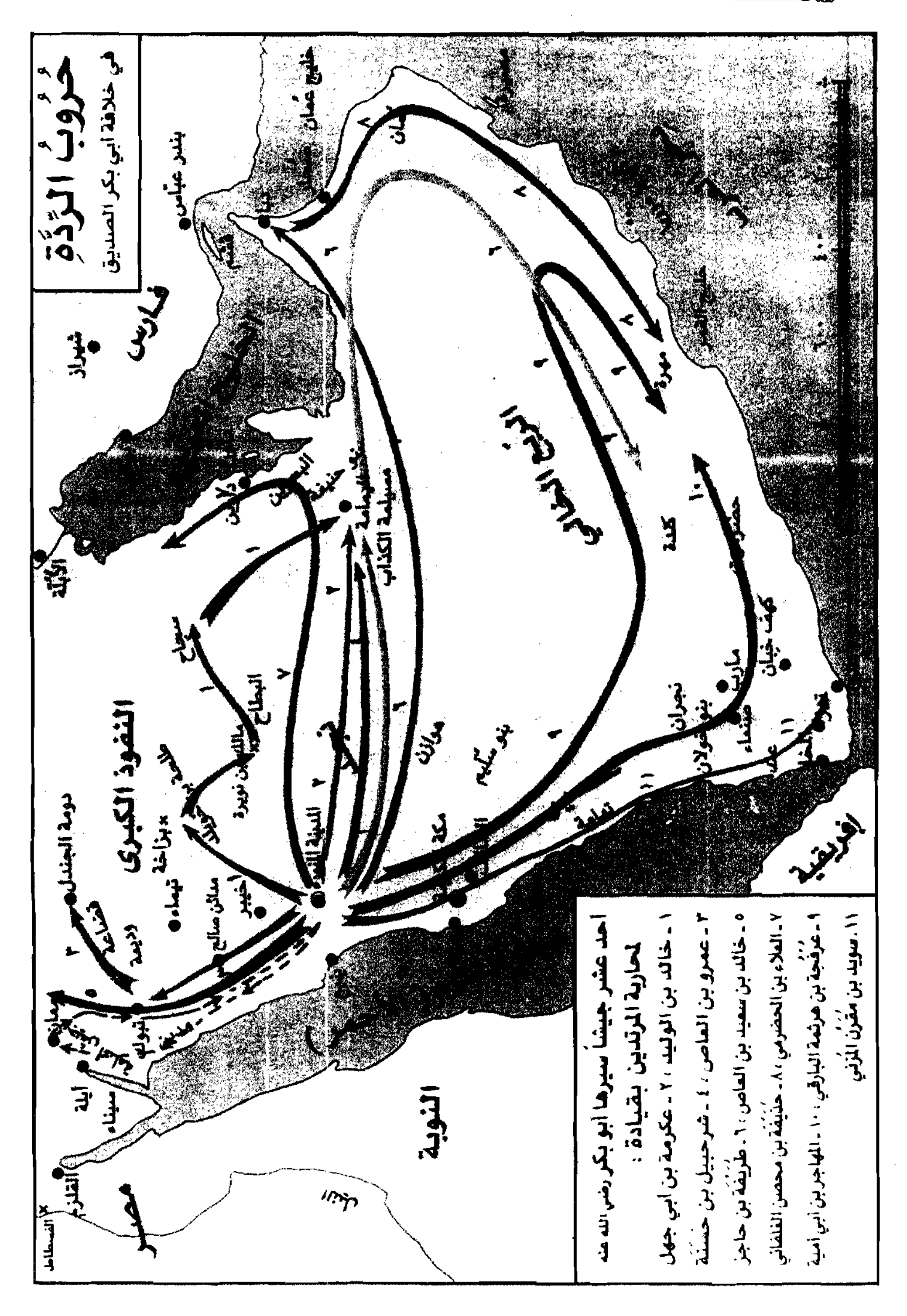
والخريطة التالية (ص٢٢٠) توضِّح خطوطَ سير تلك الجيوش، ومواقع البلاد التي توجهوا إليها في جزيرة العرب.

من هذا العرض الجغرافي يتبدَّى للمرء أن جيوش الإسلام وليوثَ الصحابة ومَن معهم من التابعين قد جابُوا أصقاعَ الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وعُمقاً، في جهاد متواصل مضنٍ، قطعوا خلاله آلاف الكيلو مترات، فقَضَوا على نبوءات المتنبئين الكذابين كمسيلمة والأَسْود العَنْسي وسَجَاح وطُليحة الأسدي، وبَسَطوا في الأرض سلطانَ الحق، وأعادوا الأمر إلى نصابه، وولَّت جيوش المرتدين الدُّبُر، وتمزقوا بَدَداً، وتحطّمت أمنياتُهم وأكاذيبهم أمام العزيمة الصلبة والحقِّ المبين.

وهذه المسافات الشاسعة التي قطعها المسلمون مجاهدين، يتعب المسافر فيها وهو يركب سيارته المكيفة، ومعه زادُه وشرابُه، وبين يديه الاستراحات وأماكن الاستجمام، فلله درُّ الصحابة! ورضي الله عنهم وأرضاهم ورفع مقامهم في أعلى عليين.

●● **قوله: ﷺ «ثم تغزون فارس فيفتحها الله عليكم»:**

وانطلق المسلمون بالإيمان والأخلاق والعلم من جزيرتهم مندفعين في فتوحاتهم الكبرى، فهدموا حائط الساسانيين الهائل في سلسلة من الوقائع الضارية، من كاظمة (ذات السلاسل) بقيادة سيف الله خالد، إلى (نَهَاوَنْد) بقيادة النعمان بن مُقرِّن. . وذَهَب أمرُ بني ساسان ومرازبتهم، وزال الحاجز الإيراني وعالـم الشر، ودخل الإيراني في الإسلام، والتقى مع العربي في بساط الولاء



الخريطة مأخوذه من:

أطلس التاريخ الإسلامي، للدكتور شوقي أبو خليل، ص٤٢

والعهد والمودة والإسلام[١].

وفي عهود أبي بكر وعمر وعثمان وصل المسلمون على الجبهة الفارسية: إلى بحر قَزْوين شمالاً، فاتحين أَذْرَبِيجان وإِرْمينية وما والاها، وإلى ما وراء إيران شرقاً، حتى كابُل عاصمة أفغانستان التي فُتحت سنة (٢٤هـ)، ويشمل ذلك العراق وإيران وبعض الجمهوريات الإسلامية التي تعرف لعهد قريب بجمهوريات الاتحاد السوفييتي، وحتى أفغانستان.

ودخلت أممٌ ضخمة من تلك البلاد في دين الله أفواجاً، وقد عبَّر سيدنا رسول الله ﷺ عن ذلك بفرحه الغامر وسروره العميم لدخولهم في الإسلام، الذي هو غاية الغايات من تلك الفتوح المظفرة.

عن أبي الطُّفَيْل رضي الله عنه قال: (ضَحِك رسول الله ﷺ حتى اسْتَغْرَبَ ضَحِكاً، ثم قال: «**أَلَا تسألوني ممَّ ضَحِكْتُ؟**» قلنا: يا رسولَ الله! ممَّ ضَحِكْتَ؟ قال: «**رأيتُ ناساً من أمتي يُساقون إلى الجنة في السَّلاسِل ما يُكرِّهها إليهم**»! قلنا: مَنْ هم؟ قال: «**قومٌ من العَجَم يَسبيهم المهاجرون فَيُدخلونهم في الإسلام**»)[٢]!.

•• وعلى الجبهة الأخرى كان المسلمون ينازلون الروم، وحققوا بذلك قوله ﷺ: «ثم تغزون الروم فيفتحها الله عليكم»:

ولقد تمكنت الأمة الإسلامية (الناشئة) من إدارة دفَّةِ الجهاد في جبهتين عظيمتين في وقت واحد؛ في مواجهة أعظم قوتين عالميتين في ذلك الوقت،

(١) انظر: الضربات، لأنور الجندي، ص٢٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان: ٢/ ٢٦٨، ترجمة (١٦٦٣)؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٧/ ٥٧٦، شرح الحديث (٣٠١٠) وسكت عليه؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٨٧٤).
ومعنى (استغرب ضحكاً): أي بالَغ فيه، وكأنه من الغَرْب: البُعْد. وقيل: هو القهقهة. وغيَّر الألباني (استغرب) إلى (استغرق)، فأخطأ!.

وهما: فارس وبيزنطة، والانتصار عليهما، وذلك مَثَل فريد في التاريخ الحربي لم تبلُغْه أقوى الأمم[١]!.

فعندما جاء الإسلام كانت الدولة الرومانية الشرقية في أَوْج مجدِها، والذي خَطَّ السطرَ الأول في صفحة جهاد المسلمين ضدها هو رسول الله ﷺ؛ لإبلاغ أهلها دعوة الحق، عندما أرسل رسولَه إلى هِرَقْل، ثم بعد ذلك في معركة مؤتة، وغزوة تبوك، وبَعْث أسامة.

وابتدأ الفتوحات على الجبهة الرومية أبو بكر، ثم تابع الفاروق على نحو فذ واسع، وأضاف عثمان في عهده أصقاعاً أخرى.

وسار عَمرو بن العاص إلى فِلسطين، وشُرَحْبِيل بن حَسَنة إلى الأُردنّ، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وأبو عبيدة إلى حِمْصَ، كلٌّ منهم على رأس جيش، وشرعوا يفتحون تلك الأمصار. وتابعت الجيوش جهادها في عهد عمر؛ فتمَّ فتح عامة بلاد الشام: سورية والأردن وفلسطين.

وبعدها وجَّه عمر جيشاً بقيادة عمرو بن العاص ففتح مصر، ووصلوا إلى أَسْوان وتابعوا نحو الشمال الإفريقي بمحاذاة البحر المتوسط حتى وصلوا إلى طرابلس.

ومن ثَمَّ في عهد عثمان أَخذوا إلى الجنوب حتى صحراء النوبة، ووصلوا دُنْقُلة شمال السودان سنة (٣١هـ)، وإلى زَوِيلَة في جنوب ليبيا، ثم شمالاً إلى قابِس في تونس، وإِسبيطلة جنوب القيروان التي فُتحت سنة (٢٧هـ)!.

وشهد عهد عثمان ميلادَ (البحرية الإسلامية)، فبَنى معاوية بن أبي سفيان أسطولاً في الشام، وعلى الجبهة الأخرى بنى عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح أسطولاً آخر لحماية سواحل مصر وشمال إفريقية.. وأَتْقَن العرب وهم أبناء

---

(١) الضربات، لأنور الجندي، ص٢٧.

الصحراء ركوبَ الأساطيل والحربَ البحرية، ونازلوا أسطول بيزنطة وكان أعظمَ قوة بحرية في زمانهم، وهزموا البيزنطيين في معارك عديدة.

(وتمكَّن العربُ المسلمون من تحرير مصر والشام وشمال إفريقية من نفوذ الدولة الرومانية الذي امتدَّ ألف عام، منذ غزو الإسكندر الأكبر عام (**٣٥٣** ق.م).

وقد اشترك العرب في الشام ومصر وشمال إفريقية في الترحيب بالعرب الفاتحين ضد الروم البيزنطيين؛ لأنهم رأوا في الإسلام الذي يَحملُه هؤلاء الفاتحون محرِّراً لهم من النفوذ الاستعماري، كما فتح أقباط مصر أبوابهم لعَمْرو بن العاص الذي دعا البطريرك المسيحي المختفي إلى استئناف عمله في كنيسته في أمانٍ تام)[١].

وتشهد نصوص التاريخ الصادقة على عَدْل المسلمين الفاتحين ورحمتِهم، وحمايتِهم دماءَ شعوب البلاد المفتوحة، واحترامِهم شخصيةَ البلد العريقة النابعة من حضارة عريقة، وضمانِهم حريةَ العقيدة تحت شعار النص القرآني: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولم يكن ثَمَّةَ استغلالُ شعب واستعبادُه وإفقارُه وإذلالُه، في سبيل الترفيه والدَّعَة للشعب الغالب، كما فعلتِ الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية وغيرهما في القديم، ومثل ما تقوم به منذ قرنين وحتى عصرنا هذا الدولُ الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية، تحت شعارات كاذبة من الحرية والعدالة والديمقراطية ومحاربة الإرهاب وتحرير البلاد العربية والإسلامية من (الديكتاتوريات)!.

لقد كان شعار المسلمين الفاتحين: (لكم ما لنا، وعليكم ما علينا)، ونُصْبَ

(١) الضربات، لأنور الجندي، ص١٨، بتصرف.

أعينهم التوجيه العالي من النبي ﷺ؛ إذ يقول: «**مَن قَتَل نَفْساً مُعَاهَدَةً بغيرِ حَقِّها؛ حَرَّم اللهُ عليه الجنة أن يَشَمَّ ريحَها**»[1].

بل قال النبي ﷺ: «**أَلا مَنْ ظَلَم معاهَداً، أو انْتَقَصَه، أو كلَّفَهُ فوقَ طاقتِه، أو أَخذ منه شيئاً بغيرِ طيبِ نفسٍ؛ فأنا حَجِيجُه يومَ القيامة**»[2].

●● لقد فتح الصحابة ومَنْ بعدهم من سلفنا الصالح تلك البلاد، وفتحوا أبواب الإسلام الرحيبة ليدخل الناس منها أفواجاً، ودَمْدَموا على ظلمات الفرس والروم، وحرَّروا الشعوب من الأصفاد التي غُلُّوا بها، ورفعوا عنهم إِصْرَهم، والأغلالَ التي ضُربت عليهم.

ثم دار الفَلَكُ دورتَهُ، ونَكَل الأخلافُ عن هدي الأسلاف في الاستمساك بعُرىٰ الدين، فنادَوا بشعارات أوحاها إليهم إخوانهم من مَرَدةِ شياطين الإنس!.

بل ثَمَّةَ طوائفُ منهم حاربوا المستمسكين بدين الله، والداعين إلى سبيله، والعاملين لإقامة دولة الإسلام على منهاج النبوة والخلافة الراشدة! فسَلَّط الله علينا اليهود والصليبيين الجُدُد، فأخذوا كثيراً مما في أيدينا.

وهكذا سُنّة التدافع، والحرب سِجَال، والأيام دُوَل، يوم لك ويوم عليك،

---

(١) أخرجه من حديث أبي بكرة: أحمد: ٥/ ٣٦، ٣٨، ٥٢؛ والنسائي في الكبرى (٦٩٢٤)، والصغرى: ٨/ ٢٥؛ والحاكم: ١/ ٤٤؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ٢٠٥؛ وصحَّحه ابن حبان (٤٨٨٢)، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢)؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ٢٠٥، قال العراقي: إسناده جيد، نقله عنه ابن عَرَّاق في تنزيه الشريعة: ٢/ ١٨٢؛ وقال السَّخاوي في المقاصد الحسنة (١٠٤٤): سنده لا بأس به، وحسَّنه الألباني في غاية المرام (٤٧١)؛ وصحَّحه في صحيح سنن أبي داود.

والأمم بين مدٍّ وجَزْر، ولن يَصلح أمرُ هذه الأمة إلا بما صَلُح به أولها، فلن تقوم للعرب قائمة إلا بالاستمساك بهدي القرآن وسنَّة النبي ﷺ، وحقائق التاريخ أصدق شاهد على ذلك.



إخبار النبي ﷺ
بفتح الحيرة، وقصة الشيماء بنت بقيلة

عن قيس بن أبي حازم، عن عَدِيِّ بن حاتِمٍ رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: «**مُثِّلَتْ لي الحِيرَةُ كأَنْيابِ الكلابِ، وإنكم ستَفْتَحُونها**» فقام رجلٌ فقال: هَبْ لي يا رسول الله ابنةَ بُقَيْلَة، فقال: «هي لك» فأَعْطَوْه إياها، فجاء أبوها فقال: أَتبيعُها؟ قال: نعم، قال: بكم؟ احْتَكِم ما شئتَ، قال: بألف درهم، قال: قد أخذتُها. فقيل له: لو قُلتَ ثلاثين ألفاً! قال: وهل عَدَدٌ أكثَرُ من ألفٍ؟!)[١].

❁ ❁ ❁

●● بشَّر النبي ﷺ المسلمين بفتح الحِيرة والمدائن بالعراق وفتح الشام واليمن عندما كان مع الصحابة يحفرون الخندق، وقد جاءتهم الأحزاب لغزو المدينة واستئصال الإسلام!.

وقد روى الحديثَ في هذا جماعةٌ من الصحابة: رواه أحمد، والنسائي في «الكبرى»، والبيهقي في «الدلائل» عن البراء بن عازب. والطبراني عن عبد الله بن عَمْرو، وابنِ عباس. وابن سعد، وابن جرير في «تاريخه»، والبيهقي عن عَمْرو بن عَوْف. والنسائي في «الكبرى» عن رجل من الصحابة.. رووه مطولاً ومختصراً بألفاظ متقاربة[٢].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٦٧٤) واللفظ له؛ والطبراني في الكبير: ١٧/(١٨٣)؛ والبيهقي في السنن: ٩/١٣٦، وفي الدلائل: ٦/٣٢٦، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط، والألباني في الصحيحة (٢٨٢٥).

(٢) انظر: مسند أحمد: ٤/٣٠٣؛ السنن الكبرى، للنسائي (٤٣٧٠) و(٨٨٠٧)؛ تاريخ =

وأصل الحديث عند البخاري دون تفصيل، وقد حسَّنَ الحافظ إسنادَ حديث البراء، وأشار للروايات الأخرى[١].

وجاء في رواية عَمْرو بن عوف: أن الصحابة عَرَضتْ لهم صخرة صَلْدة لم تأخذ فيها المعاول، فأَخبر سلمانُ الفارسي رسولَ الله ﷺ، فجاء وأخذ المِعْول فضَربها ثلاث ضربات فجعلها كَثيباً أَهْيَل! وبَرَقَتْ له في كل مرة بَرْقة أضاءت ما بين لابَتَي المدينة، فأخبره الصحابة بما رأوا وسألوه عنه، فقال ﷺ: «**صَدَقتم، ضَربتُ ضربتي الأولى، فبَرَق الذي رأيتم، أضاءَتْ لي منها قصورُ الحِيرة ومدائن كسرى، كأنها أنيابُ الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرةٌ عليها. ثم ضَربت ضربتي الثانية، فبَرَق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصورُ الحُمْر من أرض الروم، كأنها أنيابُ الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. ثم ضَربتُ ضربتي الثالثة، فبَرَق منها الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصورُ صنعاء كأنها أنيابُ الكِلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. فأَبْشِروا**»[٢].

وقد شهد كثير من الصحابة مِصداقَ تلك البشائر، وبعضُهم قضَى نَحْبَه قبل أن يراها ووقع أجره على الله سبحانه.

●● والمقصود من هذه الرواية هنا هو الفَصْلُ الأول منها، وهو البشارة بفتح (الحيرة)، وقد تحقق ذلك في عهد أبي بكر الصّديق سنة (١٢هـ) على يدي خالد بن الوليد رضي الله عنه.

ففي فتوحات خالد وجيشه في العراق، وبعد أن فرغ من (أَمْغِيشِيا) ـ وهي مصر كالحيرة ـ توجَّه نحو الحيرة، وهي عاصمة الفرس في العراق، وعَلِم

= الطبري: ٢/ ٥٦٧ ـ ٥٧٠؛ البداية والنهاية: ٤/ ٩٩ ـ ١٠١؛ مجمع الزوائد: ٦/ ١٣٠ ـ ١٣٢؛ السيرة الشامية: ٤/ ٥١٨، ٥١٩.

(١) البخاري (٤١٠١)؛ والفتح: ٩/ ٣٧٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٩.

مَرْزُبانها فخرج بجيوشه وعسكر خارجها، وأمر ابنَه أن يتقدم فيسدَّ قناطر الفرات ليفجِّر الماء إلى الأنهار المتفرّعة من الفرات حتى تقف السفن التي تحمل جيوش المسلمين!.

وحمل خالد رجالَه في السفن وسار شمالاً باتجاه الحيرة، فلم يفجَأ المسلمين إلا والسفن جوانح، فقال الملاحون: إن الفُرس قد فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه!.

ولكن وثبة من وثبات سيف الله خالد كفيلة بتفريج هذه الأزمة، فانفَلَت في كتيبة من الخيل نحو ابن صاحب الحيرة، فباغَتَ خيلَه على فم (العَتِيق)[1] وهم آمنون من الغارة في تلك الساعة، فاقتتلوا بموضع (المَقْر)[2]. حتى هزمهم بعد أن قَتل ابنَ صاحب الحيرة، وأعاد الماءَ يجري في النهر، فارتفعت سفنُ المسلمين بأحمالها وسارت باسم الله مَجريها ومُرساها ميممةً الحيرة.

وقصد خالد الحيرة، فوجد أهلها متحصِّنين داخلها، وقد فَرَّ صاحبُها بعدما عَلِمَ بمقتل ابنه وموت أَرْدَشير ملكِ الفرس، فعسكر خالد قريباً من القصر الأبيض.

وأَقحمَ خالد خيلَه في طرقات الحيرة وأَجَالها في عَرَصاتها، وضَرب الحصار على أهلها، ووكل بكل قصر من قصورها قائداً من قواده في كتيبة من جند الإسلام، وهم: ضِرار بن الأزور الأَسَدِيُّ، وضرار بن الخطاب الفِهْري، وضِرار بن مُقرِّن المُزني، والمُثنَّى بن حارثة الشَّيباني.

وعهِدَ إلى قواده أن يَدْعوا أهلَ الحيرة إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو المنابذة. فاختاروا المنابذة.

---

(١) **العَتيق**: نهر من فروع الفرات. **وفم العتيق**: يقصد به مصب الفرات الأصلي في بعض الفروع، والموضع قريب من مدينة الكوفة.

(٢) **المقر**: موضع قرب فرات بادَقْلَى من ناحية البر من جهة الحيرة.

واشتعلت الحرب، وبعد قتال انتصر المسلمون وفتحوا الدور والديرات، فنادى القسيسون والرُّهبان: يا أهلَ القصور! ما يقتلنا غيركم! فنادى أهل القصور: يا معشر العرب! قد قبِلْنا واحدة من ثلاث، فكُفُّوا عنا حتى تبلِّغونا خالداً. فكَفُّوا عنهم وأرسلوهم إلى خالد.

فكان خالد يخلو بأهل كل قصر منهم دون الآخرين، وبدأ بأصحاب عَديّ بن عدي، وقال: وَيْحكم! ما أنتم، أعربٌ؟! فما تنقِمون من العرب! أَوْ عجمٌ؟ فما تنقِمون من الإنصاف والعدل؟! فقال له عدي: بل عربٌ عاربة وأخرى متعرِّبة. فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادُّونا وتكرهوا أمرنا. فقال له عدي: لَيَدلُّك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية. فقال: صدقتَ.

وقال خالد: اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا، فَلَكُم ما لَنا وعليكم ما علينا، إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم. أو الجزية. أو المنابذة والمناجزة. فقد والله أتيتُكم بقوم هم على الموت أحرصُ منكم على الحياة! فقال: بل نعطيك الجِزْية. فقال خالد: تبّاً لكم، وَيْحكُم! إن الكفر فلاةٌ مَضَلَّةٌ، فأحمقُ العرب مَن سلكها؛ فلقيه دليلان: أحدهما عربي فتركه، واستدل الأعجميَّ!.

فصالحهم على مئة ألفٍ وتسعين ألفاً، وأَهْدَوْا له الهدايا، فأرسلها خالد مع البشرى بالفتح إلى أبي بكر الصّديق، فقبِلها أبو بكر على أن تكون من الجزية، وكتب إلى خالد أن احسُبْ لهم هديتهم من الجزية، وخُذْ بقية ما عليهم فَقَوِّ به أصحابَك.

وبذلك فتحت الحيرة أبوابها للمسلمين، وهذا عمل عظيم القيمة لمكان الحيرة الجغرافي والأدبي من العراق ومملكة فارس، فاتخذها خالد مقرّاً لقيادته ومركزاً لانطلاق الجيوش مجاهدة في سبيل الله، وقاعدة عامة للتدبير والسياسة.

وهنا وقفتان:

- **الأولى مع خالد:** وهو يُثير في نفس عدي بن عدي ومن معه الحميةَ ضد الاستعباد الفارسي، حيث يوقظ فيه الأخوةَ التي تجمعهم من روابط الدم

واللسان والوطن، فهم بالتالي أَوْلى بالوحدة معهم من أولئك الفرس. ويقول للوفد: وإنْ كنتم غيرَ عرب، فما تنقِمون وقد جئناكم ناشرين رايات العدل والإخاء الإنساني وإنقاذكم من الاستعبادِ الذي أهدر إنسانيتكم! فإن دخلتم في ديننا فأنتم إخوتنا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا! وإن أبيتم إلا العكوفَ على دينكم وحالكم مع السلم والأمان؛ فلكم علينا حقُّ حمايتكم مقابل الجزية تؤخذ منكم على قدر وسعكم وطاقتكم ما استطعنا إلى حمايتكم سبيلاً، فإن عجزنا عن أداء حقوقكم فلا جزية لنا عليكم وأمركم مردود إليكم!.

هذا غاية ما تطلبه الأمم والشعوب التي تريد السلام القائم على رعاية قواعد الحق والعدل والرحمة.

• **الثانية مع الخليفة أبي بكر**: وقد بعث له خالد ببُشرى الفتح وخُمسِ الغنيمة ومعها (هدايا المغلوبين)، فأبى الخليفة الراشد قبولها لأنها من قوم مقهورين، وكتب إلى خالد: أن احتسِبْ لهم هديتهم من جزيتهم!.

فهل يتصور المتشدّقون بنشر الديمقراطية والاشتراكية وتحرير الشعوب المزعوم ـ عدلاً فوق عدل المسلمين الفاتحين الأولين الذين كانوا نماذج حية لروح هذا الدين القويم[1]؟!.

•• **وتضمن الحديث أيضاً بشرى خاصةً لرجلٍ من الصحابة بأن تكون له من بين سَبْيِ الحيرة ابنةُ بُقَيْلة أحدِ سادات الحيرة:**

وهذا الصحابي هو خُرَيْم بن أَوْس الطائي، والمرأة هي الشَّيْماء بنت بُقَيْلة[2].

---

(١) انظر ما كتبناه في هذه الفقرة: تاريخ الطبري: ٣/٣٥٨ ـ ٣٦٥؛ خالد بن الوليد، لمحمد الصادق عرجون، ص٢١٦ ـ ٢٢٣؛ قادة فتح العراق والجزيرة، لمحمود شيت الخطاب، ص١٢٦ ـ ١٢٩.

(٢) هكذا اسم الصحابي واسم ابنة بقيلة فيما ذكره الطبراني والبيهقي وابن الأثير، وفي (تاريخ الطبري: ٣/٣٦٦) اسم الصحابي: شُوَيل، والمرأة: كريمة.

قال خُرَيْم بن أَوْسٍ ﷺ: (هاجرتُ إلى رسول الله ﷺ، فقدِمتُ عليه مُنْصَرَفَه من تبوكَ، وأسلمتُ، وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**هذه الحِيرةُ البيضاءُ قد رُفِعتْ لي، وهذه الشَّيْماءُ بنتُ بُقَيْلة الأَزْدِيَّة على بَغْلة شهباءَ مُعْتَجِرةٌ بخمارٍ أسودَ**». فقلت: يا رسول الله! فإنْ نحن دخلنا الحيرةَ، ووجدتُها على هذه الصفة، هي لي؟ قال: «**هي لكَ**».

قال: وشهدتُ مع خالد بن الوليد قتالَ أهل الردّة، ووصَلْنا إلى الحيرة، فلما دخلناها كان أوَّلَ من تلقَّانا الشيماءُ بنتُ بُقَيْلة كما قال رسول الله ﷺ، فتعلَّقتُ بها وقلتُ: هذه وَهَبَها رسول الله لي. فدعاني خالد فقال: لكَ بيِّنَةٌ؟ فأتيتُه بها، وكانت البَيِّنَة محمد بن مَسْلَمة ومحمد بن بَشير الأنصاريان، فسلَّمها إليَّ خالد بن الوليد.

ونزل إلينا أخوها[1] عبد المسيح بن بُقَيْلة يريد الصُّلحَ، فقال لي: بِعْنِيها، فقلتُ: والله لا أَنْقُصها من عشرِ مئةٍ شيئاً. فأعطاني ألفَ درهم، وسلَّمْتُها إليه. فقيل لي: ولو قلتَ مئةَ ألف لدَفَعَها إليك! فقلت: ما كنت أَحْسَبُ أن عدداً يكون أكثر من عشرِ مئة!)[2].

وفي رواية الطبري: أنه لمَّا عنَّفَهُ المسلمون على الثمن القليل الذي أخذه ثمناً لها؛ (قال: ما كنتُ أرى أن عدداً يزيد على ألف! فأبَوْا عليه إلا أن يُخاصمهم، فخَاصَمَهم، فقال: كانت نيَّتي غايةَ العدد، وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف! فقال خالد: أردتَ أمراً وأراد الله غيره، نأخذُ بما يظهر ونَدَعَك ونيَّتَك!)[3].

---

(١) هذا هو المشهور أن الذي اشتراها أخوها عبد المسيح، وفي الحديث الذي صَدَّرنا به النبوءة: أن الذي اشتراها أبوها.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤١٦٨)؛ والبيهقي في الدلائل: ٥/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩؛ وابن الأثير في أُسد الغابة: ٢/ ١١١؛ وذكره ابن حجر في الإصابة في ترجمة خريم بن أوس (٢٢٤٥)، وفي ترجمة محمد بن بشير الأنصاري (٧٧٦٢). ويشهد لهذه القصة الحديث الصحيح موضوع النبوءة.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٦٦.

إخبار النبي ﷺ بفتح بيت المقدس

عن أبي إدريس الخَوْلَانيِّ قال: سمعتُ عَوْفَ بن مالكٍ، قال: (أَتيتُ النبيَّ ﷺ في غزوة تَبُوكَ، وهو في قُبَّةٍ من أَدَمٍ، فقال: «**اعدُدْ ستّاً بين يَدَي الساعة: مَوْتي، ثم فَتْحُ بيتِ المَقْدس، ثم مُوتانٌ يأخُذُ فيكم كَقُعَاصِ الغَنَم، ثم استفاضةُ المالِ حتى يُعْطَى الرجلُ مئةَ دينار فيظلُّ ساخِطاً، ثم فِتنةٌ لا يَبقى بيتٌ من العَربِ إلا دَخلَتْه، ثم هُدْنةٌ تكون بينكم وبين بني الأَصفر فَيغْدِرُون، فيأتُونكم تحت ثمانينَ غايةً، تحت كلِّ غايةٍ اثنا عشرَ ألفاً**»)[(١)].

❁ ❁ ❁

أولاً: توضيح وبيان لمدلولات الحديث:

اشتمل هذا الحديث على ست نبوءات، تحقَّق خمسٌ منها، وبقيت السادسة؛ وهي قوله ﷺ: «**ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر..**»، فإنها لمَّا تجِئْ بعدُ، سنذكرها إن شاء الله في فصل مستقل في آخر هذا الكتاب تحت عنوان: (**نبوءات لمَّا تتحقَّق بعدُ**).

والنبوءات التي تحققت هي:

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٦) واللفظ له؛ وابن ماجه (٤٠٤٢)؛ وأحمد: ٦/ ٢٢، ٢٥، ٢٧؛ والطبراني: ١٨/(٧٠) و(٧١) و(٧٢) و(٩٨) وغيرها؛ وابن منده في الإيمان (٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠)؛ وابن حبان (٦٦٧٥)؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ٢٢٣، وفي الدلائل: ٦/ ٣٢٠ ـ ٣٢١، ٣٨٣؛ والحاكم: ٤/ ٤١٩؛ والداني في الفتن (٤٢٧) و(٥٢٥)؛ والبغوي (٤٢٤٨).

الأولى: إخباره ﷺ بموته، وأن ذلك أول تلك الأشراط المذكورة هنا.

الثانية: فتح بيت المقدس.

الثالثة: طاعون عَمَواس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الرابعة: استفاضةُ المال وكثرتُه، وقد كان ذلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

الخامسة: فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه.

وهذه النبوءات الخمس قد وَقَعتْ على هذا الترتيب، وهذا عَلَمٌ آخَر من أعلام نبوته ﷺ، يُضاف إلى ما تضمَّنه الحديث، ولا يُعكِّر على ذلك ما جاء في بعض الروايات من تقديم (الخامسة) على (الرابعة) لأنهما وقعتا في نفس العهد، وهما متداخلتان في مدة خلافة ذي النورين.

وقد سبق شرحُ النبوءة الأولى، وسيأتي تفصيلُ القول في النبوءات الأخرى كل في موضعها المناسب، ونتناول بالبحث هنا النبوءةَ الثانية.

ثانياً: فتح بيت المقدس

١ ـ عروبة فلسطين وإسلاميتها ثم دخول يهود إليها:

الذي يؤكده التاريخ الصادق أن العرب كانوا ينتشرون في جنوب الجزيرة العربية ووسطها وشمالها وفوق الشمال[١]، وأن فلسطين عربية، وجذور العرب فيها غائرة في أعماق التاريخ، فلقد كان سكانها من أربعين قرناً ـ تقريباً ـ عَرَباً يُسمَّون الكَنْعَانيين، وكَنْعان وعَدْنان وقَحْطان أسماء عربية لقبائل انتشرت في الجزيرة وفوقها وتحتها. وهذه القبائل استعصَتْ على أمر الله، وأساءت إلى نفسها، ولقي الأنبياء العرب تكذيباً متتابعاً من قومهم. . . كُذِّب هود في عاد، وكُذِّب صالح في ثمود، وكُذِّب شُعيب في مَدْيَن، وكُذِّب لوط في قرى المؤتفكة[٢].

---

(١) انظر: اليهود المعتدون، ص٢٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٥؛ مدينة القدس، ص١٠.

والجبابرة من الكنعانيين العرب، وهم امتداد لإخوانهم في جنوبي جزيرة العرب، حيث كانت توجد ديار الأحقاف، وفيها عاد ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٨]، ومنها سبأ وجِنانُها النَّضِرة التي أُغرقت لما كفرت[١].. وأنشأ الجبابرة في البلاد حضارة ضخمة أطنب في وصفها مؤرخو البلاد المقدسة[٢].

هؤلاء العرب الأقدمون جاءهم أنبياؤهم العرب وحاولوا أن يرتفعوا بمستوى الجزيرة، وأن يَصِلُوها بالسماء، وأن يجعلوا حضارتهم تُشرب الروحانية بدل القسوة، والتواضع بدل الكِبْر، والعدالة بدل المظالم، والإنصاف الاقتصادي بدل الغش والاحتكار.. واختُبِروا اختباراً مرّاً كي يكون لهم دِين يحيَوْن به، فلما تمرَّدوا على هذا الدين عُصِف بهم، وحُصِدت خضراؤهم.

والجنس العربي جنس في غرائزه قوة، وفي طباعه صلابة، وفي مواهبه امتداد، إذا سُخِّر للخير ارتفع بمواكب الحق إلى الأوج، وإذا سُخِّر للشرّ ركبَتْه شهواته، ومضى به إبليس يمنة ويسرة فأسفَّ وفعل المناكر[٣]!.

وأصاب الكنعانيين بفلسطين مِثلُ ما حلَّ بإخوانهم عاد وثمود ومَدْين والمُؤتفِكات؛ فلقد تجبَّروا في أرضهم ونَسوا رَبَّهم، فسُلِّط عليهم من كان أحقَّ منهم يومئذ بأن يسكن الأرض، وهو ما عبَّر عنه القرآن الكريم على لسان موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢١ ـ ٢٢][٤].

واليهود على عهد موسى أَجْبَنُ وأقلُّ وأذلُّ من أن يدخلوا على العرب

(١) اليهود المعتدون، ص٢٨٢.
(٢) مدينة القدس، ص١٤.
(٣) اليهود المعتدون، ص٢٨١ ـ ٢٨٢، مقتطفات.
(٤) المرجع السابق، ص٢٩٦.

أرضَهم، فلقد كانوا جبابرةً، وحاول موسى بمنطق الإيمان أن يزحف ببني إسرائيل على فلسطين يوم كان العرب الجبابرة يسكنونها، فغلبهم الجُبْن وقالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.. إنْ يخرجوا منها تدخلها الكلاب! أيُّ كرامةٍ لكم يوم تدخلون فلسطينَ وليس فيها أحدٌ من العرب؟! ولذا قال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦]. تاهوا في سَيْناء أربعين عاماً حتى هَلكت الأجيال الجبانة الخوَّارة، ونَبَت جيلٌ آخر قاده نبي الله (يُوشَع)، ودخل فلسطين وقهر الجبابرة وأقاموا دولة لهم(١).

وكما قال الله سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وهذا أول وجود لليهود في الأرض المقدسة.

٢ ـ إفسادهم مرتين وإهلاكهم:

وما مضت إلا فترة محدودة حتى أخذت قشرة التدين تتقلّص، وحتى أخذت الطبيعة الرديئة تبرز، وغرائز السوء تطفح، وإذا اليهود يُفسِدون في الأرض، ويسفكون الدم، ويملؤون أقطار دولتهم مظالم.

والعقل اليهودي مَصُوغ بطريقة لا تتسع إلا للأَثَرة والحقد، والجبلَّةُ اليهودية متشبِّعة بالهوى والغدر والكِبْر حتى على رسلهم وأنبيائهم! فلقد كان مئات الرسل يَغْدون بينهم ويروحون، فما أكبروا لهم قَدْراً، ولا اقتبسوا منهم خيراً، بل لقد تجرؤوا عليهم، وغَمَطوا حقَّهم؛ فإذا وقف نبيٌّ أمام هوًى جامح ليردّه ويحمي الأمة من شرِّه، لم يجد الأشقياء حرجاً من التخلص منه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢٨٤ ـ ٢٨٥.

إن الغدر اليهودي طبيعةُ جنس، وخصائصُ دمٍ، وميراثُ أجيال، وحقيقة لا يمكن إنكارها، ولا التغاضي عنها! واليهود يعلمون من أنفسهم هذا[١].

فلما توفي سليمان ﷺ، ظهر الشقاق بينهم، وانقسمت دولتهم قسمين: مملكة شمالية سَمَّوها (إسرائيل)، ومملكة جنوبية سَمَّوها (يهوذَا).

ولم تَدُم المملكة الشمالية طويلاً، وبقيت (يهوذا) وحدها حيناً ذاقت فيه شُؤْمَ معصية الله: في الداخل بعبادة الأصنام وأكلِ السُّحت، وشؤم سياسة الغدر ونقض العهود في الخارج.

وفي نَوْبة من نوبات الضيق بهذا الأسلوب الخسيس غزاهم (بُخْتَنصَّر) ملكُ بابل، فقَتَل منهم مقتلة عظيمة، ودمَّر مدينتَهم (أورشليم)، وخرَّب معبدهم بيتَ الربِّ الذي بناه سُليمان، وهيكلَه. ومن بقي منهم من الرجال والنساء والأطفال، ساقهم معه سبياً ذليلاً إلى عاصمة مُلكه (بابل)[٢].

وعُرف هذا بالسَّبْي البابلي وكان سنة (٥٨٦ ق.م)، وهو إنهاء للإفسادة الأولى لبني إسرائيل.

وبقيت فلسطين خالية من بني إسرائيل سبعين سنة، تغلَّب في أواخرها الفُرس على بابل، وأذِن ملك الفرس (قَوْرش) للسَّبْيِ المغترِب ـ الإسرائيليين ـ بالعودة إلى بلدهم (أورشليم)، فعادوا فعَمَروها وجدَّدوا هيكلها. لكنهم لم يعتبروا بما حلَّ بهم، فلجَّ عليهم طبعُهم الأثيم بالفساد والإفساد، فتباغضوا فيما بينهم وارتكبوا أسوأ المعاصي، وكرهوا سلطانَ الفرس الذي أحسن إليهم، وعندما جاء (الاسكندر المَقْدوني) ليغزو فارس، استقبلوه مبشِّرين بالنصر وأعانوه على فارس! وعملاً بجِبِلَّتهم وطويَّتِهم الخبيثة ضاقوا باليونان ذَرْعاً، واستمروا على سيرتهم في التباغض وأكل الأموال بالباطل[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٢، ٢٨٥، ٢٩٠، مقتطفات.
(٢) بنو إسرائيل، للبهي الخولي، ص٣٣، ١٩٥، ٢٠٧.
(٣) المرجع السابق، ص٣٤، ٢١٩.

وزال حكمُ اليونان، وحلَّ محلَّهم حكمُ الرومان في فلسطين، وبقي اليهود على ضراوتهم وحقدهم وأكلهم السُّحت، وشنآنهم لكل ما ليس بيهودي. وكانت علاقتهم بالرومان كما قال بيلاطيوس ـ أحدُ ولاة الرومان على القدس ـ: (إنهم يُضحّون بكل غال ورخيص في سبيل مصلحتهم). ووصف مدينتهم بأنها: (عُشُّ الدسائس والفتن)[1].

وضاقَ الرومان بهم ذَرْعاً، حتى جاءهم (طَيْطَس) الروماني سنة (٧٠م) ـ أي بعد رَفْع المسيح عليه السلام بأربعين سنة ـ فَدَكَّ أسوار المدينة، وهدم المنازل، وحرق الهيكل، وامتلأت الشوارع بجثث القتلى[2]!.

وهكذا أنهى الرومان إفسادة اليهود الثانية، وانساحوا في الأرض المقدسة، وشتتوا اليهود، بل منعوا بقاءهم في فلسطين[3].

٣ ـ دخول بيت المقدس حظيرة الإسلام، والفتح العمري:

ثم كان من فضل الله ﷻ أن هيأ للإنسانية مستقبلاً آخر، ونُقلت قيادة الوحي من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، ونُقلت لغة الوحي من العبرية إلى العربية، ونُقلت عاصمة الوحي من بيت المقدس إلى مكة والمدينة.

وتولى تربيةَ العالم جنسٌ آخَر ربَّاهم محمد ﷺ تربية جديدة، وسَكَب النبيُّ الكريم ﷺ من سُمُوِّهِ، ومن سناء روحه، وارتقاء ضميره ورسوخ تقواه؛ سكب في أولئك العرب ما حَوَّلهم خلقاً آخَر، فإذا هم يَخرجون على الدنيا وكأنهم ملائكة!.

إنَّ عملَ النبي الخاتم ﷺ هو المعجزةُ التي لم يعرف العالم لها نظيراً من بدء الخلق إلى الآن!..

---

(١) بنو إسرائيل، للبهي الخولي، ص٣٤ ـ ٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤ ـ ٣٥، ٢١٢ ـ ٢١٥، ٢١٩.

(٣) اليهود المعتدون، ص٢٩٨.

كيف أمكن ترويضُ هذا الجنس وحَشْد قواه ليتحول إلى زلازل تدمِّر الإمبراطوريات التي شَمَخَتْ جُدرانها على الطغيان قروناً، ما استطاع أحد أن يَهُدَّها حتى جاء المسلمون فغيَّروا الدنيا[(١)]!.

جاءت البعثة المحمدية لِتُمْلي على الدنيا حقيقةَ أن اليهود لا يُؤتمنون على التربية الإنسانية أبداً، فاختِير هذا العنصر الجديد (العرب) حتى يكونوا الأمان للبشرية.

وفي مكة المكرمة والإسلام ليس له دولة، تقع حادثة (الإسراء) برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى: ﴿۞ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ولا يَذكُر القرآن الكريم (الإسراء) إلا في آية واحدة فقط، ثم ينقل قارئه ومتدبِّرَه نقلة هائلة إلى أعماق التاريخ الماضي، إلى تاريخ بني إسرائيل، والسبب أن القوم فَسَدوا ولم يصلحوا: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

فيُعْلِم رسولَ الله ﷺ وأمته من بعده، أنه جيءَ بك إلى هنا لتُلْحِق هذا المسجد بالمسجدين الكبيرين في جزيرة العرب، ولكي تصلِّيَ بالنبيين كلِّهم، فأنت إمامهم وأنت خاتمهم، وقد انتقل إرشاد السماء بعيداً عن هؤلاء القوم، وأصبحتَ أنت وقومك المسؤولين عن هذا[(٢)].

وتمضي سنوات قليلة، وفي سنة (١٦هـ) وقد فرغ أبو عبيدة بن الجراح من فتح دمشق، كتب إلى أهل (إيلياء) يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، فحاصر بيت المقدس وضَيَّق عليهم في الحصار، حتى أجابوا

(١) اليهود المعتدون، ص٢٨٥ ـ ٢٨٦.
(٢) المرجع السابق، ص٢٩٩.

إلى الصلح بشرط أن يَقدم عليهم أمير المؤمنين عمر.. فكتب أبو عبيدة إلى الخليفة بالأمر، فلبى الفاروق الطلب، ليكون أخفَّ وطأةً على المسلمين في حصارهم.

وخرج عمر رفقة جيشه، وهو يركب ناقته، وخرج رؤوس أمراء جيوش الشام للقائه، كأبي عبيدة وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان، ولمَّا قدِم الشامَ عَرضَتْ له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خُفَّيْه فأمسكهما بيده، ومضى بناقته يخوضان الماء، فقال أبو عبيدة ﷺ: ما يَسرُّني أن أهل المدينة يستشرفونك على هذا النحو!..

فقال له عمر: وَيْحك يا أبا عبيدة! لو غيرُك قالها جعلْتُه نَكالاً لأمة محمد ﷺ، لقد كنا أذلَّ الناس حتى أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلَّنا الله![1].

عمرُ لا يدخل بيت المقدس عارضَ أزياء، عمر لا يدخل بيت المقدس في موكب فاتحين، عمر لا يدخل بيت المقدس وهو يحمل شارات العمالقة... لا، لا ثياب مارشال، ولا ثياب جنرال[2]، دخل عمر بيت المقدس مقتدياً في هيئته برسول الإسلام ﷺ عندما فتح مكة، دخلها وهو راكب ناقته ومطأطئ رأسَه حتى إن شعر لحيته لَيَمسّ واسطة رَحْلِه تواضعاً لله وشكراً.

ودخل الفاروق المسجد الأقصى من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، وصلَّى تحية المسجد بمحراب داود عليه السلام، ثم صلى صلاة الفجر في اليوم التالي حيث صلى رسول الله ﷺ، فتقدَّم إلى القبلة فصلى بالمسلمين وقرأ في الركعة الأولى بسورة (صٓ) وسجد فيها وسجد المسلمون معه، وقرأ في الثانية بسورة بني إسرائيل. ثم جاء إلى الصخرة وكنس عنها الكُناسة في طرف ردائه وكنس المسلمون معه[3].

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٥٥، ٥٩ ـ ٦٠.
(٢) اليهود المعتدون، ص٢٨٧.
(٣) البداية والنهاية: ٧/ ٥٥ ـ ٥٦، ٥٨.

ثم صالح عمر أهلَ بيت المقدس، وكَتَب لهم كتاب الأمان والصلح وضَمَّنَه الشروطَ العمرية[١]!.

وعادت لبيت المقدس عروبتُه وإسلاميته، وعاد هو إلى سلطان الوحي الإلـٰهي الذي حمله جند الإسلام بقيادة الفاروق عمر، أولئك الذين صنع منهم رسول الله محمد ﷺ خير جيل عرفته البشرية، وهم الذين علَّموا الشرق والغرب التسامح وحرية الاعتقاد، (فلو أراد المسلمون ألَّا يبقى غيرهم في الشرق الأوسط ما بقي أحد! ولكنهم أبقوهم صدقةً للإسلام؛ لأن الإسلام لا يعرف الإكراه، ولا يعرف الغصب والجبروت.. لم يجئ الخليفة ليُملي شروطه، بل جاء الخليفة ليتسلم العاصمة القديمة للوحي، وليجعلها من الناحية العملية حرماً ثالثاً للحرمين الشريفين)[٢].

وتحققت النبوءة النبوية في (فتح بيت المقدس).

٤ ـ بيت المقدس من جديد في يد الصليبيين، ثم تحريره على يد الناصر صلاح الدين:

ومضى العرب في طريقهم يحملون أمانات الوحي، ويبلِّغون رسالات الله، ولكنَّ الطبيعة العربية بدأت تُغالب تعاليمَ الإسلام! وبتطاول العهد ذَبَل تديُّنُهم، واعوجَّتْ أخلاقهم، وأصابهم في ميادين الحكم خَطَلٌ كبير، فغلَبَتْ تقاليد بعض الأسر العربية المدعية للنُّبل وللرياسة والجاه، وانشغلوا بالملذات والشهوات، واقتتلوا على المناصب، وركنوا إلى الدنيا كثيراً، وخَبَت جَذوةُ الجهاد والبلاغ، وأصابهم الترهُّل في بلاغ رسالة السماء التي شَرُفوا بها، فسلَّط الله عليهم عدوّاً أَخذ بعضَ ما في أيديهم.

وزحفت جيوش الصليبيين في مطالع القرن الخامس الهجري على الشرق الإسلامي، ووثبت الصليبية تجري في أفئدتها عواطف مشبوبة من حقدٍ لا آخِرَ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٦٠٨ ـ ٦٠٩؛ مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٨٧ ـ ٤٨٩.

(٢) اليهود المعتدون، ص٢٨٧.

له، وذهبت مخترقةً جنوب أوروبة وشمالَ آسية، وجاءت إلى فلسطين في أيام تشبه أيامنا التي نعيش فيها الآن!.

(جاؤوا وهم يلهثون بعد مراحلَ طويلة قطعوا فيها من (فيينا) و(برلين) إلى (القسطنطينية) إلى (الأناضول) إلى (الشام) إلى (بيت المقدس)، قطعوا مراحلَ استُهْلِكوا فيها، ولو أنَّ أي جيش اشتبك معهم لَهَزمهم، ولكن التاريخ قال: سكتَتْ دمشق، سكتت القاهرة، سكتت بغداد، سكتت مكة، سكتت المدينة، سكت العرب! وتركوا هؤلاء ينفردون ببيت المقدس ليذبحوا فيه سبعينَ ألف مسلم! وليؤسِّسوا فيه إمارة لاتينية ظلَّتْ تسعين سنة يُعيَّن (باروناتها) من باريس، ويبارك هذا التعيين بابا الفاتيكان)[١].

وقيَّضَ الله تعالى للأمة من يُحيي فيها روحَ الجهاد، ويقودها إلى طريق حياتها وعزِّها وكرامتها، فبرزت كفاءات غيَّرت وجه التاريخ، وكان في مقدمة أبطالها: عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين، وبيبرس، وقلاوون...

لقد أرسى نور الدين معالم العودة إلى منهج الله تبارك وتعالى، فتكونت المدرسة الإسلامية التي وهبت نفسها للجهاد، وباعَتْ نفسَها لله سبحانه[٢].

ثم جاء رجل مسلم ليس بعربي، وهو صلاح الدين الأيوبي، وشعر بأسباب الهزيمة، فبدأ بعملية إحياء كبيرة أَتمَّ فيها بناءً شامخاً، أسسه على تقوى وعلم نور الدين الشهيد، وجمع الناس على الإسلام، ثم خرج بهم لينازل الأعداء.

(إننا نقرأ في التاريخ أن بيت المقدس أُعيد بسهولة، أو أُعيد في سطرين نقرؤهما على عَجَل، لكن الواقع أن المسلمين ضَحَّوا كثيراً، وأن القائد الإسلامي صلاح الدين كان على فرسه وهو يقود المسلمين، لكن قلبه كان يَدُقُّ

---

(١) اليهود المعتدون، ص ٢٨٨.

(٢) الضربات، لأنور الجندي، ص٣١٩ ـ ٣٢٠.

خشوعاً لله ﷻ، واستمداداً منه، وخوفاً من غضبه، ورجاءً في عفوه.. وكلما رأى الصليبيين يهجمون ويتقدمون وتنداح دوائر المسلمين أمامهم؛ يصرخ (كذب الشيطان)، ويعود المسلمون مرة أخرى للهجوم.. فلما طُوِيت أعلامهم وانكشفَتْ خيمة مَلِكهم، هوى صلاح الدين مِنْ على ظهر فرسه إلى الأرض ساجداً لله! رجلٌ ما كان مستكبراً ولا كذّاباً ولا مدَّعياً، إنما كان كأنه وهو يقود المسلمين في القتال إمام في محرابه، تدمع عينه، وتخشع جوارحه، وينتظر من رب الأرض والسماء أن يُعينه! لذلك جاءت المعونة، وجاء النصر، وعاد بيت المقدس للمسلمين)[1]، في وقعة حطين الخالدة سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م).

٥ ـ عناية المسلمين ببيت المقدس:

ومنذ الفتح العُمرِي وإلى عهد قريب والمسلمون يحتضنون المدينة المقدسة احتضانَ الأم وليدَها، فلقد أَوْلَاها الخلفاء والأمراء والصالحون والعلماء كامل الرعاية؛ فهي موطن إبراهيم ﵇، ومهبط الرسالات، ومبعث عيسى ﵇، وأولى القبلتين وثالث الحرمين، ومسرى سيد الثقلين ﷺ، ومفتاح الطريق إلى مكة والمدينة، وفيها الملاحم الكبرى.

فبنَوا في مختلف العهود المساجد التي بلغت (٣٤) مسجداً، معظمها داخل المدينة القديمة، وبنَوا الزوايا والرباطات، وأنشؤوا المقابر التي دُفن فيها عدد من الصحابة والتابعين وأكابر الصالحين، وشيَّدوا (٥٦) مدرسة حَفَلت بأكابر العلماء.

وكان عدد سكان القدس القديمة حسب إحصاء سنة (١٩٤٧م) نحو (٣٣٦٠٠) عربي، مقابل (٢٤٠٠) يهودي، أي نحو سبعة في المئة، ولا يملكون إلا نسبة ضئيلة جدّاً منها، أقل كثيراً من نسبة عددهم؛ لكون معظم البيوت والحوانيت وقفاً إسلامياً، ولتحريم القانون في العهد العثماني البيعَ لليهود!

(١) اليهود المعتدون، ص٢٨٩.

وتركّز معظمُ اليهود في حي واحد اسمه (حي اليهود) الذي يوجد فيه كنيسُهم الأكبر.. وإذن فكل ما لليهود من أثر ذي قيمة هو (حائط المَبْكَى)(١).

٦ ـ سقوط بيت المقدس من جديد في يد الصليبيين، ثم سيطرة اليهود عليه:

●● خلال أربعة عشر قرناً منذ الفتح العُمري للمدينة المقدسة وإلى الآن؛ بقي بيت المقدس بيد المسلمين ثلاثة عشر قرناً، ونحو القرن كان بيد الصليبيين.

وطيلة هذه الدهور لم يفكّر اليهود منذ كسرَ الصحابة شوكتهم في القرن الأول أن يدخلوا مع المسلمين في حرب ما.. ومرت أحد عشر قرناً من تاريخ الإسلام، واليهود لا يخطر بأنفسهم ـ ولو مع الأماني الطائشة ـ أن يدخلوا مع المسلمين في حرب أبداً، وكيف وحَسْبهم النجاء حيث كانوا؟! حتى رأوا بأعينهم الأمة المرهوبة تضمحل، وتَذْوي فضائلُها، ويَذِلُّ جانبُها، وتهز الفتن الماحقة كيانَها، فعلموا أن أمرها أدبر(٢).

وغلادستون رئيس وزراء بريطانيا صدق وهو كذوب، عندما أمسك (المصحف الشريف) بيده وقال ـ من فوق منبر مجلس العموم البريطاني ـ: (ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض، فلا أملَ لنا في السيطرة على المسلمين)!.

وتَمَّ تفكيكُ الدولة العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، مما أسقط سورية ولبنان في يد فرنسا، والعراق بيد بريطانيا، وصَدَر وعدُ بلفور الذي أعطى لليهود حقَّ إقامة وطن قومي لهم في فلسطين(٣)!.

●● ومن قبل وعد بلفور ومن بعده، واليهود يعدُّون العدَّة على جميع المستويات لإقامة دولتهم في فلسطين، فكانوا شعباً فتيّاً يطلب الحياة ويبني

---

(١) مدينة القدس، ص٨٠ ـ ٨١.

(٢) اليهود المعتدون، ص٢٣٧.

(٣) الضربات، لأنور الجندي، ص٢٣٤ ـ ٢٣٥.

مستقبله.. فلم يبخلوا بالمال لإنجاح قضيتهم، بل عرفوا كيف يكسبونه كثيراً وفيراً، وكيف ينفقونه كثيراً كذلك لبلوغ مآربهم وتحقيق آمالهم!.. وشرعوا يصوغون قصائد الغَزَل في أرض فلسطين، ويقدِّسون خَصْبها وجَدْبَها، ويعلِّقون الأفئدة بحبِّها والفناء فيها.

وجاء على لسان البطل في إحدى الروايات: (تسألني عن أعزِّ أمنية عندي؟ وجوابي هي أرض الميعاد! وتسألني عما يُداعب أحلامي؟ فأقول: أورشليم!)[1].

واليهودي القادم إلى فلسطين لا يَدخلها كمستحقٍّ في وقفٍ خيري جاء ليحيا حياة الصدِّيقين؛ بل يدخلها كمحارب جاء ليحيا حياة المكافحين، وليُسْهِم في إنشاء هذا العالم الجديد، حيث يعتمد الفرد على الجماعة، وحيث يحيا المجتمع اليهودي معتمداً على نفسه مستقلّاً عن جيرانه العرب، وعن حكومة فلسطين.

أصبح هذا المجتمع يدور حول فكرة واحدة، وتحركه عقيدة واحدة، وعقلية واحدة، تتلخص في العمل على إنشاء هذا الوطن، إنشائه في هذا العالم الأرضي لا في العالم الآخر، وأن يكون إخراجه من صنع أيديهم لا اعتماداً على المعجزات في التوراة ونبوءات بني إسرائيل[2].

وخاض اليهود عام (١٩٤٨م) مع العرب معركة، قدَّمَتْ فيها الدول العربية جيوشاً هزيلة، تقودها حكومات خائرة، فهُزِموا شرَّ هزيمة!. واليهود لم يربحوا الجولة الأولى ضد أمة العروبة مجتمعة؛ لأن ملائكة السماء نزلت تُعِينهم، أو لأن الخوارق القاهرة صُنِعت من أجلهم، بل جاء انتصارهم وفق سُنن مُطَّردة؛ لأنهم أخذوا بالأسباب وقدَّموا الوسائل واستعدوا وأعَدُّوا. والذي ينظر ما تمتلكه دولة العدو من أسلحة وتكنولوجيا واقتصاد وعلماء؛ يعلم سبب تمكنهم في الأرض، وانتصارهم على العرب!.

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٧ ـ ٢٥٨.

●● وعلى الجبهة العربية الإسلامية فرَّطت الأمة في دينها وتراثها، ونشأت أجيال لاهية لا هدف لها، وسيطر على مقاليد الأمور رجالُ الحكم الجَبْري، فقهروا الشعوب ووطّؤوا ظهورهم ليكونوا قناطر يَعبُر عليها الإذلال الخارجي، وهو ما سمَّاه مالك بن نبي (قابلية الأمم للاستعمار).

وعندما اشتبكت عصابات اليهود مع دول الجامعة العربية السبعة، والتقى الجمعان، كُشفت العناوين المزوَّرة، وتجرَّع العرب الحقائق الكريهة!.

ثم وقعت الكارثة المروِّعة سنة (١٩٦٧م)، وهُزم العرب أمام اليهود هزيمة مُنكَرة، وكان من أخطر نتائجها أن (دولة إسرائيل) قد تضاعفت ماديّاً وأدبيّاً، ووقع (المسجد الأقصى) في براثن اليهود، ولا يزال أسيراً إلى هذا اليوم، ولَحِق الخزي بالعرب وسوَّدت وجوهَهم في المشارق والمغارب.

والسبب الحقيقي الكامن وراء هذه الخسائر المُرَّة المتلاحقة هو البعدُ عن الإسلام، بل إبعاده، لا بل مطاردته! وعندما يَخرج الإسلام من الميدان فإن اليهود لا يقاتلون عرباً ولا مسلمين، بل يقاتلون حُثالات لها أسماء عربية ولا عروبة، وأسماء إسلامية ولا إسلام، حثالات لا يُباليها الله بالةً!.

إن العرب لكي ينتصروا مرة أخرى ويعودوا إلى فلسطين؛ يجب أن يعودوا بدينهم، وليعلم الجيل الحالي والجيل الذي يليه أن راية الإسلام وحدها هي التي تجمع الشمل، وأن أية راية غيرها لا تنطلق بنا إلا وراء سراب خادع وأمل كاذب مع التفريط في دين الله.. كل هذا لا ينتهي بأصحابه إلا إلى الضياع والدمار[1].

وفلسطين ودرَّتُها (بيت المقدس) لن تعود إلا بالأيدي المتوضئة، التي ترفع

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢٦٢، ٢٦٨، ٢٩١، ٢٩٢، مقتطفات. وللتوسع فيما كتبناه في هذه النبوءة؛ اقرأ: الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية، لأنور الجندي؛ اليهود المعتدون، لمحمد الغزالي؛ بنو إسرائيل في ميزان القرآن، للبهي الخولي؛ مدينة القدس، للدكتور إسحاق موسى الحسيني.

القرآن بيدٍ والسلاح بيدٍ أخرى... هكذا فُتح بيت المقدس أولاً وثانياً، على يدي عُمر وأصحابه، ثم على يدي الناصر صلاح الدين وجنده، ولن يعود لنا (أقصانا) و(مسرى نبيّنا) إلا إذا سرنا على الطريق الذي سلكوه.



إخبار النبي ﷺ عن هلاك كسرى وقيصر وفتح بلادهما وإنفاق كنوزهما

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا هَلَكَ كِسْرَى فلا كِسْرَى بعدَه، وإذا هَلَكَ قَيْصَرُ فلا قَيْصَرَ بعدَه. والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ لَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَهما في سبيلِ الله**»[(١)].

وروى مثلَه جابرُ بن سَمُرة عن رسول الله ﷺ[(٢)].



أولاً: كلمة بين يدي النبوءة:

في هذه النبوءة معجزتان ظاهرتان لرسول الله ﷺ، وبشارتان للمسلمين خاصة وللإنسانية عامة:

الأولى: إخباره ﷺ بهلاك كسرى وقيصر.

والثانية: إنفاق كنوزهما في سبيل الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٨) واللفظ له، وأطرافه في (٣٠٢٧)؛ ومسلم (٢٩١٨)؛ والحميدي (١٠٩٤)؛ وأحمد: ٢/ ٢٤٠ وغير موضع؛ وعبد الرزاق (٢٠٨١٤)؛ والترمذي (٢٢١٦)؛ والطحاوي في شرح المشكل (٥٠٩)؛ وابن حبان (٦٦٨٩)؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ١٧٧، والدلائل: ٤/ ٣٩٣؛ والبغوي (٣٧٢٨، ٣٧٢٩)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٢١) وأطرافه؛ ومسلم (٢٩١٩)؛ وأحمد: ٥/ ٩٢، ٩٩؛ والطحاوي في شرح المشكل (٥١١)؛ وابن حبان (٦٦٩٠)؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ١٧٧.

وتحقق ذلك على أيدي المسلمين الأوائل في عهد أمير المؤمنين الفاروق عمر رضي الله عنه.

وقد جاءت الإشارة إلى هذه النبوءة الصادقة المباركة عندما كان الأحزاب يحاصرون المسلمين في المدينة المنورة، يريدون استئصالهم وإطفاءَ نور دينهم! وكان النبي ﷺ مع أصحابه يحفرون الخندق، وأنزل الله عليهم نَصْره من السماء، فأرسل على أعدائهم جنوداً لم يروها، فانْقَلَعوا عن المدينة يجرُّون أذيال الخزي والعار والهزيمة والخسران.

وأَطْلَق النبي ﷺ بوارقَ الأمل في أفئدة الصحابة، لِيُعلِّمهم أن النصر مع الصبر، وأن الفَرَج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، وأن كلمة الله هي العليا، وأن جنده هم الغالبون.. فنَقَلَهم بذلك نقلة بعيدة المدى، وأخبرهم أن جزاء هذا الثبات والاستمساك بالحق والذِّيادة عنه؛ هزيمةُ الأحزاب القريبين، والأباطرة البعيدين، ووراثةُ المؤمنين أرضَهم وأموالَهم واستنفاقها في سبيل الله.

وهذه سُنَّة مطَّرِدة لا تحابي أحداً، يُنعِم الله سبحانه على أمة ما بالنصر والتمكين كِفاءَ ما حَمَلت من عناء، وقدَّمَتْ من صبر، وبذَلَت من جهود وتضحيات.. وميدان السباق ممهَّد للبشر كلهم، يتقدم فيه الأتقى والأقوى والأصلح، المستمسك بعرى الهدى، السائر على خطة راشدة، والحاكم بشرعة هادية على بصيرة...

وهكذا كان المسلمون الذين فازوا بتلك البُشريات المباركة وتحققت على أيديهم.

يروي أحد الصحابة الذين حضروا غزوة الخندق، أنهم وهم يحفرون عَرَضتْ لهم صخرة غليظة صلبة، فقام النبي ﷺ وأخذ المعول فضربها ثلاث ضربات، فعادت كالكثيب الأهيل، وفي كل ضربة كانت تبرق برقة يراها الصحابة، فسألوه عن ذلك.

فقال ﷺ: «**إنِّي حين ضربتُ الضربة الأولى؛ رُفِعَتْ لي مدائنُ كِسْرى وما حَوْلها ومدائنُ كثيرةٌ، حتى رأيتُها بعَيْنَيَّ**» فقال له مَن حَضَره من أصحابه:

يا رسولَ الله! ادْعُ اللهَ أن يفتَحَها علينا، ويُغَنِّمَنا ذَرَاريهم، ويُخَرِّبَ بأيدينا بلادَهم. قال: فدَعَا رسول الله ﷺ بذلك.

قال: «**ثم ضَربتُ الضربة الثانية، فَرُفِعَتْ لي مدائنُ قَيْصَر وما حولها، حتى رأيتُها بعينيَّ**» قالوا: يا رسول الله! ادْعُ الله أن يفتَحَها علينا، ويُغَنِّمَنا ذَراريهم، ويُخَرِّب بأيدينا بلادَهم. فدعا رسول الله ﷺ بذلك.

«**ثم ضَربتُ الثالثةَ، فَرُفِعَتْ لي مدائنُ الحَبَشة وما حولها من القرى، حتى رأيتُها بعينيَّ**» فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**دَعُوا الحَبشةَ ما وَدَعُوكم، واتْرُكوا التُّرْكَ ما تَرَكُوكم**»)[١].

ثانياً: مدلول النبوءة وتحققها:

●● معنى قوله ﷺ: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده**»: إذا هَلَكَ كِسْرى فلا يَبقى كسرى بعده بأرض العراق، وإذا هلك قيصر فلا يبقى قيصر بعده بأرض الشام، كما كان في زمنه ﷺ، فأَعْلَمنا ﷺ بانقطاع مُلكِهما في هذين الإقليمين، فكان كما قال ﷺ.. وقَطَع الله الأكاسرةَ عن العراق وفارس، وقيصر ومن قام بعده بالشام.

فأما كسرى فانقطع ملكُه وزال بالكلية من جميع الأرض، وتمزَّق مُلْكُه كلَّ مُمَزَّق، واضمحل بدعوة رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ مَزِّقْ مُلْكَه**»[٢].

وأما قيصر فانهزم من الشام، ودخل أقاصي بلاده، فلم يكن بأرض الشام قيصر بعده. وقال ﷺ في قيصر: «**ثَبَت ملكُه ببلاد الروم، ويُنَحّى ملكُه عن الشام**»[٣].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٣٧٠)؛ والصغرى: ٦/ ٤٣ ـ ٤٤، وحسَّنه الألباني. وقد مرَّ مزيد من تخريجه: ١/ ٢٢٦، حاشية (٢) من هذا المجلد.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠؛ وانظر الحديث عند البخاري (٦٤) وأطرافه؛ ومسند أحمد: ١/ ٢٤٣، ٣٠٥؛ وشرح مشكل الآثار (٥١٥).

(٣) السنن الكبرى، للبيهقي: ٩/ ١٨١؛ وانظر: مشكل الآثار: ١/ ٢٨٤.

وافتتح المسلمون ما كان تحت أيديهما من بلاد الشام والعراق، وأنفقوا كنوزَهما في سبيل الله.

وتحقق المراد من الحديث؛ حيث لم تبقَ مملكتا كسرى وقيصر على الوجه الذي كانتا عليه في زمن النبي ﷺ[1].

●● ويجب وَضْعُ هذه النبوءة الجليلة في سياقها التاريخي، لا النظر إليها بعد تحققها أو في زماننا هذا، ذلك أن الناظر في أحوال الأمم عندما أعلن النبي ﷺ هذه البشارة يجدُ دولتين جبارتين قد سيطرتا على أصقاع المعمورة، ودانَتْ لهما أطرافُ الأرض، وكان العرب إما عمَّالاً للفُرس أو عمَّالاً للروم، وقُصاراهم أن يفوزوا برضا هؤلاء الجبابرة!.

لكن حَدَث في الدنيا شيءٌ آخَر، جاء الرسول الخاتم ﷺ وصَدَع بكلمة التوحيد، واتبعتْه طائفةٌ جليلة من أصحابه صبروا وصابروا، ثم هاجروا إلى الله، إلى المدينة المنورة فبنوا دولتهم هناك، وسَكَب النبيُّ ﷺ فيهم من سَناءِ روحه وذَوْب فؤاده، وصَبَّهم في قوالب جديدة، فعادوا أناساً آخرين، انتشروا في آفاق الدنيا ليُسْمِعوا الناسَ حقائق الهدى والنور والحرية والعدالة وسموّ الإنسانية، من انفلاق الصبح إلى ما بعد الغروب..

لقد حوَّل هذا الرسول العظيم ﷺ صحراءَ الجزيرة التي كانت عَطْشى إلى أَثَارة من علم، فأصبحتْ تفيضُ بحضارة موَّارة بالحياة والعطاء والإنصاف والمرحمة، وإذا بأبناء البوادي يُعلِّمون أبناءَ روما وأثينا والمدائن حقوقَ الإنسان ومعالمَ الحضارة وضوابطَ المعرفة.

إن صاحب الرسالة العظمى ﷺ بكتابه الكريم وهَدْيه القويم وسيرته المضيئة أتَمَّ صناعةَ ذلك الإعجاز، فحوَّل الجزيرة العربية الفوضوية إلى جنة فضائل،

---

(١) شرح مشكل الآثار: ١/ ٤٤٦؛ صحيح ابن حبان: ١٥/ ٨٤؛ شرح السنَّة: ١٣/ ٣١٠؛ شرح مسلم، للنووي: ٩/ ٢٧٤؛ الفتح: ٨/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩، شرح الحديث (٣٦١٨).

تخرج منها الجيوشُ موحَّدة الهوى والهدف، تنساق إلى غاياتها مرصوصةَ الصفوف، تحني أصلابَها في الصلاة على تكبير واحد، وتتسابق إلى ميادين الجهاد بيقين واحد(١).

●● ولقد عجب أعداء الإسلام في ذلك الزمان من انسياح أصحاب محمد ﷺ في أطراف الأرض فاتحين يُقارِعون إمبراطوريتي فارس والروم!.

في وقعة (نَهَاوَنْد) أرسل زعيمُ الفرس إلى المسلمين كي يبعثوا إليه رجلاً منهم ليكلِّمه، فاختار الناس المُغيرة بن شُعبة، فقام المغيرة إليهم ودخل على ملكهم، فأَقْذَعَتْ بطانةُ الملك ومستشاروه القولَ للمغيرة وانتهروه، فردَّ عليهم قولَهم بعزَّةٍ وأنَفَة، ثم قال له مِلكُهم: (يا معشرَ العرب! إنكم كنتم أطولَ الناس جوعاً، وأعظمَ الناس شقاءً، وأقذَرَ الناس قذَراً، وأبعدَ الناس داراً، وأبعدَهُ من كلِّ خير، وما كان مَنَعني أن آمُرَ هؤلاء الأَساوِرَة حولي أن يَنتظموكم بالنُّشَّاب إلا تنجُّساً بِجِيَفِكم؛ لأنكم أَرْجاسٌ! فإن تذهبوا نُخْلي عنكم، وإن تأبَوْا نُرِكُم مصارِعَكُم!).

قال المغيرة: (فحَمِدتُ الله وأثنيتُ عليه، وقلت: واللهِ ما أخطأتَ من صفتِنا ونَعْتِنا شيئاً، إنْ كنَّا لأبعَدَ الناس داراً، وأشدَّ الناس جُوعاً، وأعظمَ الناس شقاءً، وأبعدَ الناس مِن كلِّ خيرٍ، حتى بَعَث الله إلينا رسولاً، فوَعَدَنا النصرَ في الدنيا والجنةَ في الآخرة، فلم نَزَل نتعرَّفُ من ربِّنا مُذْ جاءنا رسُولُه ﷺ الفَلْجَ والنصرَ حتى أتيناكم. وإنّا واللهِ نَرى لكم مُلْكاً وعَيْشاً لا نَرْجِع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نَغْلِبَكُم على ما في أيديكم أو نُقْتلَ في أرضِكم!)(٢). وقام المغيرة من عندهم وقد أَدخل الرعبَ في قلوبهم!.

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص١٦٠، ١٦٦.

(٢) أخرجه مطولاً جدّاً: ابن أبي شيبة: ٨/ ٢٢ ـ ٢٤؛ والطبري في تاريخه: ٤/ ١١٧ ـ ١٢٠؛ وابن حبان (٤٧٥٦)، وهو حديث صحيح صححه ابن حبان والألباني في الصحيحة (٢٨٢٦)، وشعيب الأرنؤوط. وأخرجه البخاري بأخصر منه (٣١٥٩).

=

بل إن العرب أنفسَهم قد عجِبوا لذلك واستهجنوه، وهم يَرون حالَهم وما عليه الفُرس والروم من السطوة والملك والسلطان! ففي حديث عَديّ بن حاتم: (أن رسول الله ﷺ قال له: «ولَئِنْ طالَتْ بك حياةٌ لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كِسرى» قلتُ: كِسرى بنِ هُرْمُز؟! قال: «كِسرى بن هُرْمُز»)(١).

قال عديٌّ ذلك متعجباً لعظمة كسرى في نفسه وأنفس العرب آنذاك.

لكن الدرس الذي تنطوي عليه هذه النبوءة وأخواتها من أشباهها؛ أن يكون المسلمون جادِّين في حياتهم، مجتهدين في الإعداد، آخذين بالأُهبة اللازمة قدر الطاقة، مستمسكين بهدي السماء، مستعصمين بحبل الله، محققين أسباب عونه ونصره، فهو وحده القادر على نصر هذه الدولة الفتية الناشئة؛ كما نصر رسوله ﷺ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ وهو ﷺ يقول مطمئنّاً واثقاً: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

لقد قامت دول وشُيِّدت حضارات وسيطرت إمبراطوريات، فلما عَتَوا عن أمر ربهم؛ أَرسل عليهم مِن عباده مَنْ أباد خضراءَهم.. وفي الجبَّارين وعاد وثمود والمؤتفكة وسبأ والفراعنة والتتار والنازية والفاشية والشيوعية دروس بليغة لأولي الألباب.

والفرس والروم لن يخرجوا عن القانون الرباني الصارم.

١ ـ الفتوحات على الجبهة الفارسية:

●● بدأت الفتوحات على الجبهة الفارسية في أواخر سنة (١١هـ)، وكان المُثنَّى بن حارثة الشيباني أول من أضاء شعلة الجهاد ضد الفرس.

وفي مطلع سنة (١٢هـ) سيَّر أبو بكر إلى الفرس جيشين:

= **الأساورة**: جمع الإسوار، وهو قائد العجم كالأمير في العرب، والفارس المقاتل الجيد الرمي بالسهام. **الفلج**: الظفر والفوز.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٥)، وغيره، وسيأتي بتمامه مع تخريجه في النبوءة (٢٧): ١/ ٢٥٩ من هذا المجلد.

أحدهما: بقيادة خالد بن الوليد الذي يهاجم العراق من أسفله متجهاً نحو الشمال.

والثاني: بقيادة عِياض بن غَنْم ويغزو العراق من أعلاه، بحيث يُطْبق الجيشان على الفرس، ويلتقيان في (الحِيرة) عاصمة المَنَاذرة.

وتحرك خالد بجيشٍ قوامه (١٨) ألف مجاهد، وانضم إليه المثنى عن أمر أبي بكر، وسار إلى ميناء الفرس على شط العرب الذي يسمى (الأُبُلَّة)، فخاض معارك: (ذات السَّلاسل) و(المَذَار) و(الوَلَجة) و(أُلَّيْس) و(أَمْغِيْشِيا)، واتجه إلى (الحيرة) وحاصرها، فاستسلمت ودفع أهلها الجزية، وتمَّ لسيف الله فتح جنوب العراق في أقل من شهرين.

وفي الشمال حاصر عياض حِصن (دُومة الجَنْدل) فاستعصى عليه، فتحرك خالد لنجدته، وفي طريقه إليه هزم الفرس في معركة (الأَنْبار)، ثم دحرهم مع أتباعهم من العرب في (عَيْن التَّمر)، ووصل إلى حصن (دُومة الجَنْدل)، فاستنزل أهلَه وفتحه. وعاد مع عياض إلى (الحيرة)، فاستخلَفَه عليها، وتابع فتوحاته المظفرة نحو الشمال، ففتح كل الأراضي الواقعة غربي نهر دجلة.

واستمرت فتوحات خالد هذه في العراق ثلاثة عشر شهراً فقط، خاض بجيشه خلالها غمارَ إحدى عشرة معركة، ظفر فيها كلها.. وأتاه كتاب أبي بكر لنجدة أبي عبيدة في الشام، فهَبَّ لذلك وأسرَعَ، وخاض مع المسلمين معركة اليرموك[1].

وتوفي الصدّيق، وجاء بعده الفاروق فنَدَب الناسَ للجهاد في العراق، فلَبَّوا طائعين راغبين، وعلى رأسهم قادة كبار كسعد بن أبي وقاص، والمثنى، وأبي عُبيد بن مسعود الثقفي، وغيرهم.

وخاضوا مع الفرس معارك هائلة، من أكبرها وقعة (القادسية)؛ حيث التقى

(١) من كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٧٧٥.

المسلمون وقائدُهم الأعلى سعد بن أبي وقاص في جيش قوامه (٣٣) ألف مجاهد، وجابهوا جيش الفرس الذين أَجْلَبوا في (٢٤٠) ألفاً وعليهم رُسْتُم.

وتعبّأ الجيشان، وتواجه الصفان، واشتعلت معركة القادسية التي استمرت أربعة أيام وثلاث ليال، فبدأت يوم الخميس (١٣) شعبان سنة (١٥هـ) وانتهت مساء الأحد (١٦) شعبان.

وأسفرت المعركة عن نَصْر مبينٍ للمسلمين، وهزيمة نكراء للفرس الذين قُتل منهم فيها أزيد من خمسين ألفاً، واستُشهد من المسلمين ثمانية آلاف رضي الله عنهم وأرضاهم[١].

وتوجَّه سعد بجيوشه إلى (المَدَائن) عاصمةِ الدولة الفارسية، وهي تتكون من سبع مدن؛ بعضها يقع على الشاطئ الغربي لنهر دجلة، وبعضها الآخر على الشاطئ الشرقي منه، وأهم هذه المدن: (طَيْسَفُون) و(أَسْبَانَبْر) وهذه فيها مقرُّ كسرى وإيوانه وقصره والحدائق الملكية.

وتُعتبر (المدائن) من أعاجيب الدنيا، آسِرة جذَّابة بارعة الجمال، وفيها القصر الملكي الذي يُسمَّى (القصرَ الأبيض)، ويُعرف أيضاً باسم (أبيض كسرى) أو (البيت الأبيض)!.

ولمَّا سيطر المسلمون على (بَهُرَسِير) ـ وهي واحدة من المدائن السبع ـ تراءى لهم (القصر الأبيض)، وأولُ مَن رآه ضِرار بن الخطاب، فكبَّر وكبَّر المسلمون وصاحوا: (الله أكبر، هذا أبيضُ كسرى، هذا ما وَعَد الله ورسوله)!. . وتذكَّروا تلك النبوءةَ والبشارة عندما كان المسلمون يحفرون الخندق في السنة الخامسة للهجرة في غزوة الأحزاب.

وعَبَر المسلمون نهر دجلة في (معجزة تاريخية) وكرامة إلٰهية امتنَّ الله بها على جند الإسلام الفاتحين، وخرجَتْ خيولُهم تنفُض أعرافَها صاهلةً، فساقوا

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٧٨٢ ـ ٨٠٨.

وراء الأعاجم حتى دخلوا (المدائن) فلم يجدوا فيها أحداً، فقد أعجلتِ المفاجأةُ أكثرَ الفرس عن أن يحملوا أموالهم، فخرجوا بما قدروا عليه من حُرِّ متاعهم وخفيفِه وما قَدَرُوا عليه من بيت المال، وبالنساء والذراري.. وتركوا ما عَجَزوا عنه من الأنعام والثياب والمتاع والآنية والأدهان والألطاف ما لا يُدرى قيمتُه!.. وكان في خزانة كسرى ـ كما يقول ابن كثير في (البداية والنهاية) ـ (ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار)[1]، فأخذوا ما قدروا عليه وتركوا ما عجزوا عنه وهو مقدار النصف من ذلك أو ما يقاربه.

ودخل سعد بن أبي وقاص (القصر الأبيض) واتخذ من (إيوان كسرى) مصلًّى، وتلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨].

وشرع في تحصيل ما هنالك من الأموال والحواصل والتحف مما لا يُقوَّم ولا يُحَدُّ ولا يُوصَف كثرةً وعظمةً!.. وكان في جملة ذلك تاجُ كسرى وهو مُكلَّل بالجواهر النفيسة التي تحيِّر الأبصار، ومِنْطَقَتُه كذلك، وسيفُه وسِوَاره وقَبَاؤه وبساطُ إيوانه، والإيوان مربع ستون ذراعاً في مثلها من كل جانب، والبساط مثله سواء، وهو منسوج بالذهب واللآلئ والجواهر الثمينة!.

وأرسل سعد بخُمُس الغنائم ولباس كسرى والبساط إلى أمير المؤمنين عمر والمسلمين بالمدينة، لينظروا إليه ويتعجَّبوا منه.. فلما نظر عمر إلى ذلك قال: إنَّ قوماً أدَّوا هذا لَأُمناء! فقال له علي بن أبي طالب: إنك عففتَ فعَفَّتْ رعيتُك، ولو رَتَعْتَ لَرَتَعَتْ!.

وتتابعت الفتوحات شمالاً وجنوباً، وما انتهت سنة (١٦هـ) إلا وقد أتمَّ سعد مع قواده وجيوشه فتح العراق كله من البصرة جنوباً إلى الموصل شمالاً.

وذَهَب أمرُ بني ساسان عن حكم العراق، ومُزِّقت المجوسية الفارسية شَرَّ

(١) أي: ثلاثة ترليونات من الدنانير الذهبية!.

ممزَّق، وبادت الكسروية، وعَمَّ الإسلام هاتيك الربوع، وتلاشت المجوسية كما تلاشت الوثنية العربية من قبل... وهبَّتْ على العراق أنسام الإيمان والعدل والإخاء، وحَمل أهلُه الراية لينشروا الرسالة نحو الشرق والشمال[1].

٢ ـ الفتوحات على الجبهة الرومية:

●● وعلى الجبهة الرومية بعث أبو بكر أربعة جيوش إلى الشام: جيش إلى حِمْص وقائده أبو عبيدة بن الجراح، وجيش إلى دمشق وعليه يزيد بن أبي سفيان، وجيش إلى الأُردنّ وعلى رأسه شُرَحْبيل بن حَسَنة، والجيش الرابع يقوده عَمْرو بن العاص ووجهته إلى فِلِسْطين.. والقائد الأعلى للجيوش الإسلامية هو أبو عبيدة.

ولمَّا بلَغَ هرقلَ ملكَ الروم خبرُ قدوم جيوش المسلمين وقُرْبهم منه؛ استنفر الروم من أطراف مملكته، فجاشَتْ إليه جيوشُهم وتقاطروا حتى اجتمعوا في جيش عرمرم تجمعت حشوده في (اليرموك)، وبلغوا (٢٤٠) ألف مقاتل.

وواجهتهم جموع المسلمين بعد أن انضم إليهم خالد بن الوليد بجيشه قادماً من العراق، وتكامل عددُهم إلى نحو (٤٠) ألفاً، فيهم ألف من الصحابة؛ منهم مئة ممن شهد بدراً.

ونشبت المعركة بين الفريقين في شهر جمادى الآخرة من سنة (١٣هـ)، وكانت إحدى أشهر الوقائع في تاريخ الفتوحات الإسلامية، أسفرت عن انتصار المسلمين وانكسار الروم وهزيمتهم.

وانتشرت جيوش المسلمين كالريح الرُّخَاء تفتح بلاد الشام طولاً وعرضاً وعمقاً، فانساحت في سورية والأردن، ففتحوا مناطق الأغوار، وفتحوا دمشق وحمص وحماة وحلب وحتى جنوب تركيا (الآن)، ومدن الساحل السوري كاللاذقية وجبلة وطرطوس.. ثم عادوا ثانية ففتحوا بيت المقدس وسواها[2].

---

(١) مقتطفات من كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٨١٠ ـ ٨٢٣.

(٢) ذكرت تفصيلات جيدة عن فتوح الشام في كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، في سيرة أبي عبيدة، ص٢٩٤ ـ ٣٢٦.

وبذَلَتْ جيوش الإسلام جهوداً خارقة، وقدَّموا تضحيات جسيمة في سبيل تحرير الشعوب من ظلم الرومان، وبذلوا دماءهم وأرواحهم الطاهرة التي خالطت تراب الشام، فهي شهودُ صِدقٍ ومنارات هدى للأجيال المتلاحقة للاستمساك بهذا الدين، والحفاظ على كل شبر من تلك البلاد المباركة التي كَنَسوا الرومان عنها، وغرسوا فيها رايات الحق عالية خفَّاقة.

والروم قديماً قد جاؤوا من الغرب واستعمروا الشرق، وبَسَطوا نفوذهم على أقاليم فيحاء منه في الشام وآسية الصغرى والشمال الإفريقي، فجاء المسلمون وطهَّروا تلك البقاع من الاستعمار الروماني الظلوم الغشوم، لذلك هم يكرهون الإسلام لأنه الدين الذي ردَّ هجومهم، وأوقف طمعهم[1].

وكان من نتائج الجهود المتواصلة والفتوحات المتلاحقة التي حققها أمراء الجهاد أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعَمْرو بن العاص وشُرَحْبيل بن حسنة وعِياض بن غَنْم ومعاذ بن جَبَل ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم: أن الإسلام مدَّ رُواقَهُ على بلاد الشام كلها من نهر الفرات إلى العَريش المتاخم للديار المصرية، وتشمل معها: سورية والأردن وفلسطين ولبنان.

وأبو عبيدة وإخوانه وجنودهم المجاهدون قد تمكنوا بهذه الفتوحات المباركة العظيمة من تسجيل السطر الأخير في نَعْي إمبراطورية الروم في بلاد الشام! ونفذ قضاء الله على الروم حيث حرَّم عليهم أن يملكوا بلاد الشام برمّتها إلى آخر الدهر، مصداقاً لقوله ﷺ: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده**».

وانهزم هِرَقلُ في المعارك واحدة تلو الأخرى، وتقلّص مُلْكُه، وخَنَس مولياً نحو بلاد الروم، فلما وصل إلى (شمشاط) ـ جنوبي تركية ـ علا على شَرَفٍ، والتفتَ ونظر إلى سورية وقال: (قد كنتُ سلَّمتُ عليكِ تسليمَ المسافر، فأما

(١) سر تأخّر العرب والمسلمين، ص٩٢ ـ ٩٣.

اليوم فعليكِ السلام يا سورية سلاماً لا اجتماعَ بعده!).. ومضى حتى نزل القُسْطَنطينية[١].

وهلك كسرى إلى الأبد فلم تقُمْ له قائمة في العراق فيما بعد، وهلك قيصر فلم يبقَ له مُلكٌ في الشام، وسالت كنوزُهما لتصبَّ في خزائن الدولة الإسلامية، وتمَّ إنفاقُها في سبيل الله، وفاض الخير العميم في عهد عمر ثم في عهد عثمان، وتحققت النبوءة النبوية بشطريها على أكمل وجه ولله الحمد.



(١) كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٣٢٩.

إخبار النبي ﷺ بأن الأمن سيعمُّ جزيرةَ العرب

١ ـ عن عَديِّ بن حاتم رضي الله عنه قال: (بَيْنا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشَكَا إليه الفاقةَ، ثم أتاه آخَرُ فشكا إليه قَطْعَ السبيل، فقال: **«يا عديُّ! هل رأيتَ الحِيرةَ؟»** قلت: لم أَرَها، وقد أُنْبِئتُ عنها، قال: **«فإن طالَتْ بك حياةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ من الحِيرة حتى تطوفَ بالكعبة، لا تخافُ أحداً إلا الله»** ـ قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّارُ طَيِّئٍ الذين قد سَعَّروا البلادَ؟! ـ **«ولَئِنْ طالتْ بك حياة لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كِسْرى»**، قلت: كِسرى بن هُرْمُزَ؟! قال: **«كِسْرى بن هُرمز. ولئِنْ طالت بك حياةٌ لَتَرَيَنَّ الرجلَ يُخْرِج مِلْءَ كفِّه من ذَهَب أو فِضَّة، يَطْلُبُ مَن يَقْبَلُه منه فلا يجدُ أحداً يقبَلُه منه. ولَيَلْقَينَّ اللهَ أَحدُكُم يومَ يَلْقَاهُ، وليس بينَهُ وبينَه تُرْجُمانٌ يُترجِمُ له، فيقولَنَّ: أَلَم أبعثْ إليك رسولاً فيُبَلِّغَكَ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعْطِكَ مالاً وولداً وأُفْضِلْ عليك؟ فيقول: بلى. فينظرُ عن يمينه فلا يرى إلا جهنَّمَ، وينظرُ عن يسارِه فلا يرى إلا جهنَّمَ»**. قال عديٌّ: سمعتُ النبي ﷺ يقول: **«اتَّقُوا النارَ ولو بِشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يجدْ شِقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيبة»**.

قال عدي: فرأيتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة، لا تخافُ إلا اللهَ. وكنتُ فيمن افتَتَح كنوزَ كِسرى بن هُرْمُز. ولئنْ طالتْ بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: **«يُخْرِجُ ملْءَ كفِّه»**)[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٥) واللفظ له، و(١٤١٣) وفيه أطرافه؛ والبغوي (٤٢٣٨)؛ وبنحوه: أحمد: ٤/ ٢٥٧، ٣٧٧ ـ ٣٧٨؛ وابن حبان (٦٦٧٩)؛ والبيهقي في الدلائل: ٥/ ٣٤٢، وغيرهم.

٢ ـ عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ ﷺ قال: (شَكَوْنا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة، قلنا له: أَلَا تَستنصِرُ لنا؟ أَلَا تَدْعُو لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قَبْلكم يُحْفَر له في الأرض فيُجعلُ فيه، فَيُجَاءُ بالمِنْشار فيُوضَعُ على رأسِه فَيُشَقَّ باثنتينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينه! ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديد ما دُون لَحْمِه من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينه! والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يخافُ إلا اللهَ، أو الذئبَ على غَنَمِهِ، ولكنكم تَستعجِلونَ**»)[1].

۞ ۞ ۞

أولاً: شرح وبيان لمعاني بعض المفردات:

الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج، هذا هو الأصل، ثم سُمِّيت به المرأة ظعينةً وإن لم تكن في هَوْدج ولا مسافرةً.

الدُّعَّار: جمع داعِر، وهو الشاطر الخبيث المفسِد، والمراد بهم قُطَّاع الطرق.

سَعَّروا البلاد: أي ملؤوا الأرض شرّاً وفساداً، مأخوذ من اسْتِعار النار وهو إيقادها والتهابها.

فلا يجد أحداً يَقبلُه: أي لعدم الفقراء في ذلك الزمان.

متوسِّدٌ بردةً: جعلها وسادة له.

هذا الأمر: المراد به الإسلام.

ثانياً: من نفحات هذه النبوءة:

●● هذه النبوءة جاء فيها حديثان صحيحان، تكرر فيهما إخبار النبي ﷺ بها

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢) واللفظ له؛ وأبو داود (٢٦٤٩)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٦٢)؛ وأحمد: ٥/ ١٠٩، ١١٠، ١١١، ٦/ ٣٩٥؛ وابن حبان (٢٨٩٧) و(٦٦٩٨)؛ والبيهقي في السنن: ٦/ ٥.

في مكانين مختلفين وزمنين متباعدين، ويرويهما صحابيان جليلان: أحدهما متقدم الإسلام، والثاني تأخَّر إسلامه.

فخبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه كان من نجباء السابقين إلى الإسلام، وأوذي في الله بمكة، وكان المشركون يذيقونه مُرَّ العذاب، حتى إنهم أخذوه وأوقدوا ناراً ثم سلقوه فيها[١]! فصبر وصابر، وسمع من رسول الله ﷺ هذا الحديث وهو بمكة، وفوادحُ البلاء تُصبُّ على المسلمين، وعاش رضي الله عنه إلى سنة (٣٧هـ)، ورأى مصداقَ تلك البشريات التي سمعها من النبي ﷺ في أحلك الظروف.

والصحابي الثاني هو **عدي بن حاتم** رضي الله عنه: أحدُ سَرَوات العرب وأشرافهم وأعزَّتهم ونبلائهم، قدِم على النبي ﷺ في المدينة مُسْلماً سنة (٩هـ)، فأكرم ﷺ وفادتَهُ، وشَرُفَ عدي بصحبته، وسمع منه هذا الحديث وغيرَه، وعايَنَ مصداقَهُ، وعاش إلى سنة (٦٧هـ)، وتوفي عن مئة وعشرين سنة رضي الله عنه وأرضاه.

●● وحديث خَبَّاب قاله الرسول ﷺ وقد اشتدت على أصحابه المحن، وعَظُم البلاء، وتذامَرَتْ قريش على مَن في القبائل والبيوتات ممن أسلم، يُعذِّبونهم ويَفتنونهم عن دينهم، ويوقعون بهم كل بلاء يرون أنه يمكن أن يصدهم عن عقيدة التوحيد، حتى قال ابن عباس: (والله إنْ كانوا لَيَضْرِبون أحدَهم ويُجيعونه ويُعطِّشونه، حتى ما يقدر أن يستويَ جالساً من شدة الضُّر الذي نزل به!)[٢].

والنبي ﷺ يثير في أنفس أصحابه مشاعر التصبر والمصابرة وألوان الرضا بما ينالهم من المحن والشدائد تأسِّياً به ﷺ. وكان إذا رأى من بعضهم ركوناً إلى الضَّجَر وعدمَ الاحتمال؛ أثار في قلوبهم جذوة اليقين، وفي أنفسهم قوة الصبر والاحتمال، بما يَضرب لهم من الأمثال، وما يقصُّ عليهم من أنباء الذين أوذوا في سبيل الله من المؤمنين في القرون الخالية والأمم الماضية، ويفتح لهم

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٦٥.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ٣٢٠.

أبواب الأمل، ويبشِّرهم بقُرْب الفَرَج والنصر والعزة والتمكين، فيقول لخبَّاب وإخوانه: «**والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلَّا اللهَ أو الذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1].

وحديثُه ﷺ مع عديٍّ هو لونٌ آخَر من التربية النبوية التي اكْتَنَهتْ مداخلَ القلوب، وعرفَتْ أقدارَ الناس لتُنزِلَهم منازلَهم، ولتُقْبِل بهم لتسمعَ تراتيلَ الخير وترانيمَ الحق برغبة صاغِية متفهِّمة لِما تسمع.

ففي بعض روايات الحديث، يقول ﷺ: «**لعلَّك يا عديّ إنما يَمنعُك من دخولٍ في هذا الدين ما تَرَىٰ من حاجتهم!**»[2].. فعديٌّ وأمثاله من زعماء العرب الذين تباطؤوا عن الدخول في الإسلام؛ حُبّاً في التعالي بين أقوامهم، واستدامةً للجاه والثراء الذي هم فيه، وخشيةَ أن يحلَّ بهم مثلُ ما نزل بأولئك الذين دخلوا في هذا الدين منذ تنفَّس صُبْحُه!.

وعديٌّ وأمثاله يرون أن الفقر سِيما العرب قاطبة، يحيون في شَظَفه وقفَارِه وبُؤْسِه البئيس، فإذا عضَّتْهم المَسْغبةُ سطَا قويُّهم على ضعيفهم وقادِرُهم على عاجِزهم، ليستلبَ منه ما في يده ليعيش دون أن يبالي بمن سواه.

ويهزُّ النبي ﷺ كيانَ عدي ويفتح عينيه على صِدْق الأمر المتوقع في المستقبل القريب الذي سيشهده عدي ويُوغِل في متعته حلالاً طيباً: «**ولَئِنْ طالتْ بك حياةٌ لَتُفتحنَّ كنوزُ كسرى... ولئن طالت بك حياة لترينَّ الرجلَ يُخرج ملءَ كفِّه من ذهب أو فضة يطلب من يَقْبلُه منه فلا يجد أحداً يَقبله منه**».

وهذا تبشيرٌ لعديٍّ ليُسرِعَ إلى رسوخ الإيمان واليقين، وتبشيرٌ عامٌّ للمجتمع المسلم ليزدادَ الذين آمنوا إيماناً، وإنذارٌ للذين عَمُوا عن أنوار الهداية؛ ليَعلمَ الناس مؤمنُهم ومشركُهم أن الشدة التي تغلِّف حياة المجتمع المسلم إنما هي

---

(١) انظر: محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٣١.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٥٨١.

سحابةٌ عَرَضتْ في أفق الابتلاء، ليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، وستَنْجَابُ عنه قريباً سُحُب العسرة، وتُشرِق في آفاقه شموسُ الثراء الطافح الفيَّاض، فيكثر المال في أيديهم ويعمُّ الأفرادَ والجماعات.

ويَطرق الرسول ﷺ قلبَ عديٍّ ثانية ليفتح القُفْل الأخير فيه، حيث إن عديّاً وغيرَه يرون هذا الدينَ الناشئَ وأتباعَه القِلَّة في الجزيرة، بموازاة كثرة عدد الذين يُناصبونهم العداوة والبغضاء، ويَقفون منهم موقفَ المناهِض المحارِب، فهم أولئك جموعُ الروم ببلاد الشام وما وراءها من أقطار الاستعباد الروماني، وجموعُ الفُرس الضخمة وهم المنافسون للروم عدداً وعدَّة.. وكان مجرد ذِكْر هاتين الأمتين يُلقي الرعبَ في قلوب العرب، ويَصُمُّ آذانَهم، ويعمي أبصارهم، ويُبْكِم ألسنَتَهم!.. فيقول ﷺ لعدي: «**ولعلَّكَ إنما يَمنعُك من دخولٍ فيه ما تَرى من كثرة عدوِّهم وقلَّةِ عَددِهم! فوالله لَيُوشِكَنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت**».

وفي رواية البخاري: «**فإن طالَتْ بك حياةٌ لترينَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله**»!.

أي إن ظلالَ الإسلام ستمتدّ، وتُفتح الأقطار والبلاد، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً. ويتعاظَمُ عددُ المسلمين، وهم محصَّنُون بمكارم الأخلاق ونور الإيمان، ويَمدُّ الأمنُ والأمان جناحَيْهما، ويَنشران ظلالَهما على جميع من تُقِلُّه أرض الإسلام على اتساع أرجائها.

وضَرَب رسولُ الله ﷺ المَثلَ في الاستشعار بالأمن بالمرأة؛ لأنها المخلوق الإنساني الضعيف مَهِيض الجناح، ضعيف المقاومة، المُثِير للمطامع في أنفس الذين كانوا يعيشون في الزَّعَارَّة وإخافة الآمنين[1]. وهذا ما جعل عديّاً يستغرب ويُسرُّها في نفسه قائلاً: (فأين دُعَّار طَيِّئ؟!) وكانت بلاد طيئ ما بين العراق

---

(١) محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ٤/ ٥٩٠ ـ ٥٩٧، وفيه تحليل قيِّم لقصة عدي مع النبي ﷺ.

والحجاز، فكان دُعَّارُها يقطعون الطريق على من مرَّ عليهم بغير جوار، ولذلك تعجَّبَ عدي كيف تمرُّ المرأة عليهم وهي غير خائفة[(١)]!.

ثالثاً: تحقق النبوءة:

●● إن المدة التي يستغرقها الاختبار الإلٰهي قد تطول، فإن الأقدار طويلة الأنفاس، والصراع بين الحق والباطل لا تنكشف عُقْباه في ليلة أو ليلتين، ولا في جولة أو جولتين، والحكمة الإلٰهية اقتضت أن يُهيِّئ لكل إنسان فرصةً كافية يتمكن فيها من معرفة الحق ويَقدر على اعتناقه، وذلك من تمام العدل الإلٰهي؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

والمؤمنون قد تحمَّلوا العَنَت الشديد، وصابروا الليالي الكوالح، وهم يُساندون الحق ويأمُلون في الغد القريب، أو في الدار الآخرة إنْ فاتَهُم النصر في هذه الدنيا.

وكان الكفار يقاوِمون الشعاع المُقْبِل الذي حمله محمد ﷺ وأتباعه، وقد تصدَّوا له بكلِّ ما لديهم من قوة وجبروت، واستماتوا كيما يبقى ليلُ الوثنية مخيِّماً على جزيرة العرب، فأنزلوا بالمؤمنين صُنوفَ العذاب وألوان التنكيل، وكانوا يستكثرون عليهم حق الحياة كما يريدون، بل كانوا يُروِّعُونهم في الحَرَم الآمن، ويُرغمونهم على النزوح هنا وهناك.. وأمهلَهم الله سبحانه مدة كافية لتحديد مصير الفريقين، فجاءت معركة بدر الكبرى لِتَقْصِم ظَهر الوثنية بعد خمس عشرة سنة من بدء الرسالة[(٢)]!.

وتوالت القوارع تنزل بالشرك ومن سانده، وعلى مدى عشر سنين أَفَل نجمُه وهلك جُنْده، وتعالت شمس التوحيد في سماء الجزيرة العربية فأضاءت فيها كلَّ شيء، وتردَّدَت في جنباتها صيحاتُ (أشهد أن لا إلـه إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله). وتحقق وعدُ الله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(١) الفتح: ٨/٥١٨، شرح الحديث (٣٥٩٥).
(٢) انظر: علل وأدوية، ص٤٣ ـ ٤٤.

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ومكَّنَ الله لأوليائه فجَعَلهم خلفاءَ الأرض وأئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبَدَّلَهم بعد خوفهم من الناس أَمْناً وحُكْماً فيهم، ولم يَمُتْ رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين (الأحساء) وسائرَ جزيرة العرب وأرضَ اليمن بكمالها. وأَخذ الجزية من مجوس هَجَر (مدينة الهفوف) ومن بعض أطراف الشام. وهاداه هِرَقْلُ ملك الروم، وصاحبُ مصر والإسكندرية ـ وهو المُقَوْقِس ـ وملوكُ عُمان، والنَّجاشي ملك الحبشة.

وقام بالخلافة بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه ووطَّد جزيرة العرب ومهَّدَها، وبَعث جيوشه إلى العراق والشام.

وتلاه عمر رضي الله عنه فقام في الأمر بعده قياماً تامّاً، وتمَّ في أيامه فتحُ البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثَر إقليم فارس، وكَسَّر كِسْرى، وأهانَه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصَّرَ قيصرَ، وانتزع يدَه عن بلاد الشام، فانحاز إلى القسطنطينية، وأَنفق أموالَهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ﷺ.

وعَمَّ الأمنُ تلك الأصقاعَ المترامية، فكانت الظَّعِينةُ تخرج من أقاصي العراق ميمِّمةً شطْرَ البيت الحرام، آمنةً مطمئنةً. ويَسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، ولا يخاف إلا الذئب على غنمه، كما قال ﷺ[١].

قال عدي راوي الحديث: (فرأيتُ الظعينةَ ترتحلُ من الحِيرة حتى تطوفَ بالكعبة، لا تَخافُ إلا الله. وكنتُ فيمن افتتح كنوزَ كسرى بن هُرْمز. ولئن طالت بكم حياة لَترونَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «**يُخْرِج ملْءَ كَفِّه**»).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، تفسير الآية (٥٥) من سورة النور.

●● إن الخونة والناكثين والمتربِّصين قد يستطيعون الإساءة إلى غيرهم رَدْحاً من الزمان، وقد يتطاولون في المجتمعات ويحسبون أن الجو قد خَلَا لهم، غير أن القضاء الحكيم يتربَّص بهم إلى حين، ثم يَستمكن الوَثَاق من أعناقهم[1]!.

لقد شيَّد النبي ﷺ وأصحابه مجتمعاً قِوَامُه وعمادُه الإيمان بالعليِّ الأعلى، وعُدَّتُه البذل والفداء والتضحية والعطاء والصبر والمصابرة، وحُرَّاسه جُند الجهاد وكتائب الاستشهاد في سبيل العزة والكرامة، والتي تشقق بزئيرها مرائر الأعداء في أكبادها!.

ولْيَعْلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها حكَّاماً ومحكومين أن الذئاب لن تشبع من لحوم الحُمْلَان، ولن تشفع للحُمْلان محالفاتُ الصداقات ومعاهدات (المصالح المشتركة) مع قطعان الذئاب الجائعة! ولن تُجدِي في حماية ذِمارنا وبلادنا وخيراتنا والدفاع عنها الخطبُ الرنّانة، ولا أحاديثُ الإذاعة الطنَّانة، ولا الأقلامُ المأجورة المسترزقة، ولا بيانات (التلفزة) المصورة، ولا احتفالاتُ العَبَث المزوَّرة على الدين فيما يسمَّى (بالمناسبات الدينية)!.

لقد استطال الزمن بنا في (تجارب التحضُّر) بعيداً عن هداية الإسلام الروحية والفكرية والعسكرية، والتي لم نَجْنِ من ورائها غيرَ الخيبة والبوَارِ والذلِّ والهوانِ وازديادِ سوء الحال، ولم يبقَ للمسلمين من التجارب إلا تجربة العودة إلى دينهم وتاريخهم وهداية دعوتهم إلى الله عقيدة وتعبداً، وتفكيراً، ونظاماً اجتماعيّاً، وسلوكاً أخلاقيّاً، وأدباً تربويّاً، وخوضاً في غمرات الموت في سبيل العزة والكرامة.

وليعلم المتجبرون في الأرض داخليّاً ممن سُلِّطوا على رقاب الأمة، وخارجيّاً ممن يعربدون في الأرض، ويتغطرسون في جنباتها، ويسومون الشعوب سوء العذاب ـ ليعلم هؤلاء جميعاً أن لله تعالى سُنناً محكَمةً وقوانينَ صارمة،

---

(١) علل وأدوية، ص٤٥.

وأنه لا تخفى عليه خافية، وكيدَه متينٌ، وإملاءَه فُتُون، وإمهالَه استدراجٌ، وأخذَه قهرٌ واقتدارٌ[١].

ثم ليعلم المضطهَدون، والمشرَّدون، والمعذَّبون، والمسجونون، ومن رفعوا راية الدعوة إلى الله والعودة بالأمة إلى هدي ربها وسنَّة نبيِّها، والذين حملوا لواء الجهاد لمنازلة قوى الاستكبار المتألِّه والتجبر المتغطرِس، وكل مَن نصر الإسلام وناصره بالكلمة أو المال أو أي عمل من الأعمال...

ليعلم هؤلاء وأولئك أن الزمان قد استدار، ورحى الإسلام دائرة، والمستقبل لهذا الدين، ولا بد للفَلَك أن يدور دورته، ولا بد للحق أن يقول كلمته، وسوف نكرر من جديد بإذن الله - مع خبَّاب وعَديٍّ - موعودَ الله على لسان نبيِّه ﷺ: «**والله لَيُتِمَّنَ هذا الأمرَ..**»!! فإن أدركنا ذلك ورأَيْنا دولة الإسلام قائمة وأعلام الخلافة خفاقة، فلله الحمد ثم لله الحمد. وإن قضينا نَحْبَنا فنكون قد أدَّينا الأمانة مُقبِلين غيرَ مدبرين، ولنا في مصعب وحمزة وإخوانهما أسوة حسنة.. ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧][٢].



(١) محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ٤/ ٥٩٩.

(٢) انظر ما كتبته في هذه النبوءة: تفسير الآية (٥٥) من سورة النور في: تفسير القرطبي: ١٢/ ٢٧١ - ٢٧٥؛ تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٧٣ - ٣٧٦؛ في ظلال القرآن: ٤/ ٢٥٢٩، ٢٥٣٠؛ محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ٢/ ٢٢٢ - ٢٣١، ٤/ ٥٨٤ - ٥٩٩؛ علل وأدوية، لمحمد الغزالي، ص٤٠ - ٤٧؛ إضافة إلى كتب شروح الحديث والسيرة النبوية.



إخبار النبي ﷺ بفتح مصر

١ ـ عن أبي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُم سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وهي أرضٌ يُسمَّى فيها القِيراطُ، فإذا فَتَحْتُمُوها فأَحْسِنُوا إلى أَهْلِها؛ فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِماً ـ أو قال: ذِمَّةً وصِهْراً ـ**»(١).

٢ ـ وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا افْتَتَحْتُم مِصْرَ، فاسْتَوْصُوا بالقِبْطِ خيراً؛ فإن لهم ذِمَّةً ورَحِماً**»(٢).

٣ ـ وعن أم المؤمنين أم سَلَمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ أَوْصَى عند وفاته فقال: «**اللهَ اللهَ في قِبْطِ مِصْرَ؛ فإنكم ستَظْهَرُونَ عليهم، ويكونُونَ لكم عُدَّةً وأَعْواناً في سبيلِ الله**»(٣).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٣) واللفظ له؛ وأحمد: ٥/ ١٧٣ ـ ١٧٤؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٢٥٦) و(٢٣٦٣)؛ وابن عبد الحكم في فتوح مصر، ص٢ ـ ٣؛ وابن حبان (٦٦٧٦)؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ٢٠٦، والدلائل: ٦/ ٣٢١.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٣٦٤)؛ والطبراني في الكبير: ١٩/ (١١١) و(١١٢) و(١١٣)؛ وابن عبد الحكم في فتوح مصر، ص٣؛ والحاكم: ٢/ ٥٥٣، والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٢٢؛ وأخرجه عبد الرزاق (٩٩٩٦) و(١٩٣٧٥)، لكن سقط في المطبوع من المصنف اسم كعب بن مالك؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٣٧٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير: ٢٣/ (٥٦١)، وقال الهيثمي في (المجمع: ١٠/ ٦٣): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣١١٣).

أولاً: إضاءة وتوضيح بين يدي النبوءة:

•• بعد صلح الحديبية بعث رسولُ الله ﷺ الرسلَ بكُتبه إلى الملوك والحكام يَدْعوهم إلى الإسلام، وكان ممن أرسله حاطبُ بن أبي بَلْتَعَة وجَّهه إلى (المُقَوْقِس) صاحب الإسكندرية وعظيم القِبْط. فأكرم المقوقسُ وفادةَ حاطب، وقال خيراً، وقارب الأمر ولم يُسْلم. وأهدى للنبيِّ ﷺ ثلاث جوارٍ منهن (مارية)، وثياباً من قَبَاطي مصر، وبغلة هي (دُلْدُل)، وحماراً هو (يَعْفُور)، وغلاماً، وغير ذلك.

ويُروى ـ فيما ذكره ابن سعد ـ أن النبيَّ ﷺ قال: «**ضَنَّ الخَبِيثُ بِملْكِه، ولا بقاءَ لِمُلْكِه!**»(١).

وبشَّر رسول الله ﷺ أصحابه بأنهم سيفتحون مصر، فتحقق ذلك وفُتحت مصر على يدي عَمْرو بن العاص ﵁، سنة (١٦هـ) فيما رجحناه في كتابنا «عمر بن الخطاب». فكان بين إرسال النبي ﷺ حاطبَ بين أبي بَلْتَعة بالكتاب إلى المُقَوْقِس وبين فتح مصر عشر سنين.

•• والرسول ﷺ يوصي المسلمين بأهل مصر خيراً؛ لأن لهم ذِمَّةً ورَحِماً وصِهْراً.

أما **الذمَّة**: فلأنهم أهل كتاب، وقد تكاثرت نصوص الكتاب الكريم وصحاح الأحاديث التي تحضُّ وتأمر بالوصية بأهل الذمة. ولقد راعى الفاتحون المسلمون ذلك على أتمِّ وجه وأكملِه، ووفوا به أيَّما وفاء؛ كما يحدِّث التاريخ الثابت الصادق.

وأما **الرَّحِمُ**: فلأن هاجرَ أم إسماعيل منهم، وهي من قرية يقال لها: (أم

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ الإشارة إلى سيرة المصطفى، ص٢٩٣؛ زاد المعاد: ١/ ١١٨.

العرب) وتعرف اليوم بـ (تل الفَرَما) على بعد (٣ كم) من ساحل البحر المتوسط.

وأما **الصِّهْر**: فلأن مارية تسرَّى بها النبي ﷺ، ورُزق منها إبراهيم. وهي من قرية نحو الصعيد يقال لها: (حفن)، اندثرت(١).

وقوله: «**أرض يُسمَّى فيها القيراط**»: قال ابن الأثير: (أراد بالأرض المُسْتَفْتَحة مِصْرَ، وخَصَّها بالذِّكْرِ وإن كان القيراطُ مذكوراً في غيرها؛ لأنه كان يغلب على أهلها أن يقولوا: أَعْطيتُ فُلاناً قَرَاريطَ، إذا أسمعَهُ ما يكْرَهُه. واذْهَبْ لا أُعطيك قَرَاريطَكَ: أي سَبَّك وإسماعَكَ المكروهَ. ولا يوجد ذلك في كلام غيرهم)(٢).

●● وأكَّد النبي ﷺ على المسلمين أن يُحسنوا إلى أهل مصر، وجعل ذلك من جملة وصاياه عند وفاته كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها.

وهذا الإخبار النبوي يجمع بين الإعجاز والتوجيه:

ـ أما **الإعجاز**: ففي كونه إخباراً بالغيب، تحقق في واقع الحياة، وشاهده الصحابة وجماهير الفاتحين. وتضمن ذلك أربع معجزات:

الأولى: أن المسلمين ستكون لهم قوة وشوكة بعده ﷺ، بحيث يقهرون الروم وغيرهم.

الثانية: أنهم يفتحون مصر.

الثالثة: أن أهل مصر يذكرون القيراط على نحو خاص بهم.

الرابعة: أن القبط سيكونون عُدَّة وعوناً للمسلمين.

---

(١) شرح مشكل الآثار (٢٣٦٦)؛ المستدرك: ٢/٥٥٣؛ شرح مسلم، للنووي: ٨/٣٣٨؛ السيرة الشامية: ١٠/٣٦٣، وهامش ٣٦٠.

(٢) النهاية: ٤/٤٢؛ وبأوسع منه في شرح مشكل الآثار: ٣/٢٩٦، شرح الحديث (١٢٥٦).

وكل ذلك كان كما أخبر به النبي ﷺ.

ـ وأما **التوجيه**: ففي إعداد المجتمع المسلم للجهاد في سبيل الله، ونشر الدعوة، وتبليغ الرسالة خارج جزيرة العرب إلى ما وراء البحار وإلى ما شاء الله.

ثانياً: فتح مصر وتحقق النبوءة:

●● كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بعد الفراغ من فتح الشام أن يسير بجنده إلى مصر، فخرج في (٤٠٠٠) رجل، فنزل (العريش) ـ أول مدينة مصرية من جهة الشام ـ ففتحها، ثم أتى (الفَرَما) ففتحها، ومضى إلى (الفُسطاط) ـ وكان اسمها البونة ـ وقد خندق أهلها، فحاصرهم عمرو، وجاءه المدد من عند أمير المؤمنين في أربعة آلاف، وعلى رأسهم: الزبير بن العوام، وعُبادة بن الصامت، والمقداد بن عَمْرو، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد، واستمر الحصار سبعة أشهر.

وأرسل المقوقس[١] إلىٰ عمرو يقول: (ابعثوا إلينا رسلاً نُعامِلهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم)[٢].

فبعث عمرو بن العاص عشرة أنفس فيهم عبادة بن الصامت، فكان مما قالوه لهم: (إن رسول الله ﷺ قد أَعْلَمَنا أنَّا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لِرَحِمِنا فيكم. وإنَّ لكم إنْ أجبتُمونا بذلك ذمَّةً إلى ذمَّة. ومما عَهِد إلينا أميرنا: استوصوا بالقِبْطِيِّين خيراً؛ فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً؛ لأن لهم رَحِماً وذِمَّةً. فقالوا: قرابةٌ بعيدة لا يَصِلُ مثلَها إلا الأنبياء، معروفة شريفة... مرحباً به وأهلاً). ثم طلبوا الأمان فقالوا: (آمِنَّا حتى نرجعَ إليك)[٣].

فأَجَّلَهم عمرو بن العاص ثلاثة أيام، فطلبوا الزيادة، فزاد يوماً ثم يوماً،

---

(١) **المقوقس**: رجل روماني الأصل، عيَّنه هِرَقْل حاكماً على مصر.

(٢) قادة فتح الشام ومصر، ص١٣٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/١٠٧.

فرجعوا إلى المُقَوْقِس، فَهَمَّ بقبول الصلح، فأبى أَرْطَبون[١] أن يُجيبهم، وأمر بمناهدة المسلمين.

ونَشِب القتال بين الطرفين حول حصن (بابِلْيُون)، فأحرز المسلمون النصر على الروم بعد أيام معدودة من مفاوضات عبادة بن الصامت والمقوقس.

ولمَّا فتح عمرو حِصْن الفُسطاط (بابليون)، وجَّه عبد الله بن حُذَافة السَّهْميَّ إلى (عَيْن شَمْس) فغَلَبَ على أرضها، وصالح أهل قراها على مثل صلح الفسطاط. وبعث خارجة بن حُذافة العَدَويَّ إلى (الفَيُّوم) و(الأَشْمُونين) و(إِخْمِيم) وقرى الصَّعيد، فصالحها أيضاً على مثل صلح الفسطاط. وأَنْفَذَ عمير بنَ وهْب الجُمحِيَّ إلى (تِنِّيْس) و(دِمْيَاط) و(دَمِيرة) و(دَقَهْلَة) و(بَنَا) و(بُوصِير) وغيرها، فصالحها كذلك على مثل صلح الفسطاط. ووجَّه عُقبة بن عامر الجُهَنيَّ إلى سائر قرى أسفل مصر، ففعل مثل ذلك.

وبهذا استجمع عمرو فتح مصر، فصارت أرضُها أرض خَرَاج.

وتوجَّه عمرو بالجيش إلى (الإسكندرية)، فوجد أهلَها قد أعدّوا العُدَّة لقتاله، لكن القِبْط منهم كانوا يرغبون في الصلح، فحاصرها عمرو وأَرسَل إلى المقوقس: (ما بالكثرة غَلَبْنا مَنْ غَلَبْنا، فقد لقِينا هِرَقْلَ مَلِكَكم، فكان من أمره ما كان!».

فقال المقوقس لأصحابه: (قد صَدَق هؤلاء القوم! أَخْرَجوا ملكَنا من دار مملكته حتى أدخَلُوه القُسطنطينية، فنحن أولى بالإذعان)! فأَغْلَظ أصحابُه القولَ له، وأبَوا إلا القتال. فحاصرهم المسلمون ثلاثة أشهر ونازلوهم، وتمَّ فتح الإسكندرية[٢].

وبذلك أنجز عمرو بمن معه فتح مصر كلها، وأصبحت راية الإسلام ترفرف

---

(١) قائد رومي كان في فلسطين فهزمه عمرو فذهب إلى مصر.

(٢) قادة فتح الشام ومصر، ص١٣٩ ـ ١٤١.

في ربوعها، وتمَّ طردُ الرومان المستعمرين إلى بلادهم[١].

●● **وبالتدقيق في مجموع الروايات التاريخية التي تناولت فتح مصر بالتفصيل؛ يتبين أن غالبية البلاد المصرية فُتحت صلحاً دون قتال يُذكر**، والقليل منها مثل الفَرَما والإسكندرية فُتحت عَنْوَة. وذلك القتال لم يكن بين العرب والمسلمين وبين أهل مصر، وإنما كان بين المسلمين والحاميات الرومية الأجنبية. وهذا الأمر لم يَحدث اتفاقاً وصدفة، بل له أسبابه التاريخية التي وجَّهت سير الأحداث في الاتجاه المعلوم: ذلك أن غالبية أهل مصر (وهم الأقباط) استقبلوا الفتح العربي الإسلامي بالترحاب، ووجدوا فيه مخلصاً من الاضطهاد البيزنطي على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والدينية[٢].

وفي هذا تصديق باهرٌ لحديث أم سلمة: عن النبي ﷺ: أنه قال: «**الله الله في قِبْط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدَّة وأعواناً في سبيل الله**»!.

فصلَّى الله وسلَّم وبارك على المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى!.

يقول سير توماس أرنولد: (يرجع النجاح السريع الذي أحرزه «غزاة العرب» قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي...)[٣].

●● **ونلاحظ في فتح مصر ثلاث حقائق:**

الأولى: أن الروم كانوا يُمانِعون كلَّ صلح يعرضه المسلمون ويرغب فيه

---

(١) انظر في أخبار فتح مصر: فتوح مصر، لابن عبد الحكم؛ فتوح البلدان، للبلاذري، ص٢١٤ ـ ٢٢٢؛ تاريخ الطبري: ٤/ ١٠٤ ـ ١١١؛ المنتظم: ٤/ ٢٩١ ـ ٢٩٤؛ البداية والنهاية: ٧/ ٩٧ ـ ١٠١؛ النجوم الزاهرة: ١/ ٧ ـ ٣٢.
(٢) هامش النجوم الزاهرة: ١/ ٣٣.
(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص١٢٣.

القِبطُ أهلُ مصر، وذلك بسبب دفاع الروم عن مستعمرات الدولة الرومية العجوز، التي آذَنَتْ شمسُها بالأُفول لتعود أدراجَها إلى بلادها.

الثانية: رغبة القبط في الصلح ودخولهم في سلطان المسلمين، للانعتاق من ظلم الرومان الذي عانوا منه طويلاً.

الثالثة: وفاءُ المسلمين بوصية رسول الله ﷺ والتزامُهم بها، ورحمتُهم بالبلاد المفتوحة وأهلها. وهذا ما يؤكِّده سرعةُ فتوحاتهم، ورغبةُ أهل البلاد المفتوحة بهم وبالدين الذي يحملونه.

فكيف يتصوَّرُ امرؤ راشد أن (ثمانية آلاف عربي مسلم) يَصلُحون لفتح مصر وتوطين الإسلام في ديارها جيلاً بعد جيل، لولا انبهارُ الأمم بالدين الجديد، وتجاوبُها معه وإحساسها بأنه هدية الأقدار إليها!.

ماذا يصنع ثمانية آلاف رجل قطعوا مسافات شاسعة، متجهين إلى قطر كبير كمصر يبلغ عدد سكانه بضعةَ ملايين[1]، ويَصُدُّهم عنه عشراتُ الألوف من جند الرومان ومن شايعهم؟!.

وما الذي جعل جماهيرَ الشعب تسالِمُ هؤلاء الوافدين بالدين الجديد، ثم تَشْرح صَدْراً بعقائدهم، ثم تهبُّ هي لنصرتها بعدما اعتنقتها؛ لتحملها إلى الأصقاع المجاورة جهة الغرب؟!.

إنها طبيعة الدين الحق عندما يُحْسَن عَرْضُه، وتنزاح العقبات أمام الرغبة فيه.

وما مصر إلا مثلاً لشقيقاتها ـ كبلاد الشام ـ التي كانت عانيةً في أسر

---

(١) تشير كثير من الدراسات العلمية إلى أن عدد سكان مصر عند الفتح الإسلامي لها كان نحو (٦ ملايين نسمة). انظر: «دراسات عن ابن عبد الحكم: مصر عند الفتح العربي»، للدكتور مصطفى العبادي، ص٩٨ ـ ١٠٠.

الرومان، ثم شامَتْ أنوارَ الصدق في هذا الدين، فهَوَتْ إليه قلوبُها، ثم حملت لواءه إلى يوم الناس هذا عن اعتزاز وحب وفداء[(١)].

●● وتحت طغيان الرومان اجتمع لمصرَ من الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي؛ ما شَغَلها بنفسها، وكدَّرَ عليها صَفْوَ حياتها، وألهاها عن كل مكرمة.

فلقد كانت في القرن السابع الميلادي من أشقى بلاد الله بالنصرانية وبالدولة الرومية معاً، فهي لم تستفِدْ من النصرانية إلا خلافات ومناظرات في طبيعة المسيح وفلسفة ما وراء الطبيعة، ولم تلقَ من الدولة الرومانية إلا اضطهاداً دينيّاً فظيعاً، واستبداداً سياسيّاً شنيعاً!.

يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه: «حضارة العرب»: (ولقد أُكْرِهت مصرُ على انتحال النصرانية، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي. وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمان، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات.

وكانت مصر ـ التي أكلَتْها الانقسامات الدينية وأَنْهَكها استبدادُ الحكام ـ تحقد أشد الحقد على سادتها الروم، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين)[(٢)].

وقد اتخذ الروم مصرَ شاةً حلوباً يريدون أن يمتصُّوا دمها ويستنزِفوا مواردها؛ يقول الدكتور ألفرد.ج.بتلر في كتابه «فتح العرب لمصر»: (إن الروم كانوا يَجْبُون من مصر جزيةً على النفوس وضرائبَ أخرى كثيرة العدد... مما

---

(١) كفاح دين، ص١٠٧.
(٢) حضارة العرب، ص٣٣٦، نقلاً عن: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٥١.

لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجري بين الناس على غير عدل)[(١)].

●● ومقولة: (إن الشام ومصر والمغرب كانت جزءاً من العالم المسيحي، وجاء الإسلام فأخرجهم منه)؛ مقولة باطلة، ذلك أن الوجود الروماني في هذه المناطق كان وجوداً دخيلاً، وكان احتلالاً، ثم انحسر مع ترحيب أهل هذه المناطق بالوافد الذي لم يشأ أن يفرض على الناس دينه وعقيدته. ولقد عادت هذه البلاد إلى أصلها بعد جلاء الرومان عنها، فقد كانت هذه المناطق تزخر بموجات عربية كاسحة، استمرت أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الإسلام[(٢)].

فالعرب المسلمون حرَّروا مصر والشام وشمال إفريقية من نفوذ الدولة الرومانية الذي امتد ألف عام منذ غزو الإسكندر الأكبر عام (٣٥٣ ق.م). ورحَّب أهلُ تلك البلاد بالعرب الفاتحين؛ لأنهم رأوا في الإسلام محرِّراً لهم من النفوذ الرومي الاستعماري، وفَتَح أقباطُ مصر أبوابها لجيش عمرو بن العاص مرحِّبين مستبشرين[(٣)].

إن أنبل قتال وقع على ظهر الأرض هو ما خاضه أتباع محمد ﷺ لردِّ الرومان إلى أوروبة من حيث جاؤوا، بعد أن استهلكوا شعوباً كثيفة داخل سجونهم قروناً طويلة[(٤)].

والرأي الذي يقول: إن مقاتلة الرومان الذين خرجوا من أوروبة واحتلوا مصر والشام وانحدروا للحجاز هي حرب عدوان؛ هو رأي أَفِنٌ عَفِنٌ!.

فهو كذاك الذي يقول: إن مقاومة أهل فلسطين للطغيان اليهودي؛ حرب عدوان!.

---

(١) فتح العرب لمصر، ص٤٧، نقلاً عن: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٥٢.

(٢) الضربات، لأنور الجندي، ص١٣.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٨.

(٤) كفاح دين، ص١٠٦؛ جهاد الدعوة، ص١٦ ـ ١٧.

وجهاد أبطال الشيشان ضد الدُّبِّ الروسي؛ حرب عدوان!

ومنازلة الأفغان للأمريكان وعملائهم؛ تمرد وعدوان!.

ومقاومة الاحتلال الصليبي الأمريكي للعراق؛ إرهاب وعدوان!.

واستنقاذ جنوب إفريقية ومطاردة البيض الحاكمين؛ حرب عدوان!.

هذا عِوَجٌ فكريٌّ وخَبَل ونذالة ووقاحة!.

لقد أشارت سجلات البَرْدِيِّ العربية، كما ذكر (كارباتشك) في مقدمة «دليل البَرْدِيِّ المِصْري»: (إلى ما عانَتْ مصر تحت حكم الرومان من عَسْف واضطهاد، وكيف شلَّ الفقر الطبيعة الشعبية، وكيف خَلَق الضغط الضَّريبي أزمات عنيفة.

وقد كَشَفَتْ هذه الوثائق أن العرب الفاتحين لم يكونوا مجرَّد غزاةٍ، ولا كانوا جماعة مغامرين من البدو راكبي الجمال! وإنما كانوا محاربين منظَّمين أقوياء، يحملون أسلحة من الحديد والرصاص، ويقاتلون ببسالة في سبيل عقيدة اعتنقوها بإخلاص. وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطي، ورحَّبت بأبناء الصحراء الذين نادوا بحرية العقيدة. كما تشهد بذلك وثائق البَرْدِيِّ عام (٦٤٢م ـ آخر المحرم سنة ٢٤هـ).

وتشهد نصوص أخرى في عصر الفتح بأن المسلمين الفاتحين حَمَوا دماءَ المصريين وأملاكهم، واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من حضارة عريقة.

وفي كتاب الأسقف يوحنا، المعاصر لتاريخ الفتح، اعترافٌ بأن عمرو بن العاص لم ينزع شيئاً من أملاك الكنيسة)[1].

•• يقول المؤرِّخ بريستد: (إن المصريين قابلوا الفتح الإسلامي بالفرح، الذي جَلَب إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم يَنعموا بها قبل

---

(١) الضربات، لأنور الجندي، ص١٧ ـ ١٨.

ذلك الفتح بقرن من الزمان، فقد تركهم عمرو بن العاص أحراراً على أن يدفعوا الجزية، وكَفَل لهم حرية إقامة شعائرهم.

إن دخول الإسلام إلى مصر كان سفينة الخلاص للمسيحيين المصريين الذين عانوا على يد الرومان، فقد قرر الإسلام من المبادئ والشرائع ما يضمن للمسيحيين الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم، واحترام عقائدهم، والحفاظ على أموالهم، وحماية أعراضهم وأرواحهم.. واعتَبَر أيَّ عدوان على مسيحي أو يهودي عدواناً على الإسلام، وانتهاكاً لحرمة القرآن!.

كما تعهَّد المسلمون بحماية مصر من أي غزو، وتوفير الأمن والطمأنينة لكل مواطن، وتحقيق العدل والمساواة بين الجميع، بعد ذلك الظلم الذي كان يعانيه شعب مصر قبل الفتح الإسلامي على يد جماعة البيزنطيين.

وقد كان الأقباط في هذه المعاهدة هم الطرف الرابح، ذلك أن هذه الجزية لم تُفرض إلا على القادرين على حمل السلاح، وقد أُعفي منها النساء والرهبان والأطفال وكبار السنِّ، فهي ضريبة دفاعية، ولم تكن سبباً دافعاً إلى الإسلام؛ لأن الرجل إذا أسلم يدفع أضعاف هذه الجزية زكاة مفروضة على كل أنواع ثروته وماله.

وقد انبهر الناس بهذه العقيدة الجديدة، فاعتنقوا الإسلام جميعاً، عدا قلة قليلة بقيت على دينها القديم.

وهكذا نرى كيف أنقذ الإسلام المصريين من اضطهاد الرومان، رغم وحدة الدين بحجة اختلاف المذهب، فأصبح القبط مواطنين لهم كل الحقوق المشروعة في المجتمع الإسلامي الجديد. وفي عهد عمرو بن العاص الفاتح والحاكم الأول تنفَّس أقباط مصر الصُّعَداء، وعكفوا على ترميم ما ضَعُف من أمور عقيدتهم وكنائسهم، وإزالة الأسماء اللاتينية والإغريقية من قراهم ونواحيهم، ليُحِلُّوا بدلاً منها أسماءً قبطية صرفة[١].

---

(١) الضربات، لأنور الجندي، ص١٨ ـ ١٩.

ويقول ابن العبري المؤرِّخ العربي المسيحي اليعقوبي (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦م): (أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب، فعَظُمَت نعمتُه علينا؛ أنْ أَخرجَنا من ظُلم الروم، وخَلَّصنا من كراهتهم الشديدة، وعداوتهم المُرَّة)(١).

•• والجدير بالتسجيل أن الفتح الإسلامي لمصرَ وغيرها كان من أعفِّ الفتوح، وأقلِّها غُرْماً، وأبعدِها عن الفتك والفساد.

والمسلمون في انتصاراتهم كلها كانوا أشرفَ الناس وأَمْيَلَهم للعفو؛ ذلك أنهم ملتزمون بهدي النبوة. وعملُ الرسل الأولُ مخاطبةُ العقول لا ضربَ الجلود، فمن استمات في الصدِّ عن سبيل الله فله الموت الذي طلبه لنفسه ولم يطلبه الرسل له؛ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢].

فالمسلمون الفاتحون لا يجرُّون من تولَّى عن سماع الخير ليذِيقوه بأسَهم، بل يتلطَّفون مع الجهال ليعرِفوا نفاسةَ مبادئ الإسلام وجَدْواه عليهم، فإن أبَوا إلا الفرار فهم المحرومون. فإذا رفض امرؤ الحق وقرَّر المواجهة، وذَهَب ليجمع الجموع كي يُخرِس صوت الحق؛ ثبتوا له: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦](٢).

إن العرب حَملوا الإسلام للعالمين، وهذا شَرَفٌ لهم وتكريمٌ إلٰهي هم له أهلٌ؛ ذلك أنهم انقلبوا بالإسلام انقلاباً عجيباً، وتغلغل الإيمان في قلوبهم وعروقهم ومشاعرهم، وجرى منهم مجرى الدم والروح، وغمر قلوبهم وعقولهم بفيوضه، فظهر منهم من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الأفعال والأخلاق؛ ما حيَّر العقلَ والفلسفة وتاريخ الأخلاق، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد، وعَجَز العلمُ عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق(٣)!.

(١) نقلاً عن هامش النجوم الزاهرة: ١/ ٣٣.
(٢) انظر: جهاد الدعوة، ص٢٨، ٤٥، ٨٢.
(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٠٥.

وهذه الأخلاق والمشاعر مارسوها في البلاد المفتوحة، وعاشوها مع أهلها، ففتحوا قلوبهم قبل أن يفتحوا بلادهم، فلانَتْ لهم الأفئدة، وخَضَعَتْ لهم العقول، واستسلمَتْ لهم الشعوب، ورحَّبوا بهم، ودخلوا في دينهم سعداء معتزّين مناصرين، وحَمَلوا الراية معهم لنشر هديها وخيرها في البلاد القريبة والبعيدة.. وهذا ما فعله المصريون مع عمرو بن العاص وجُنْده، حيث انطلقوا معهم لفتح بلاد ليبيا، وصدَّق اللهُ رسولَه ﷺ في قوله: «**فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدّة وأعواناً في سبيل الله**»!.

فكانوا أعواناً للعرب المسلمين أولاً وثانياً، عندما جاؤوهم فاتحين فرحَّبوا بهم مستبشرين وفتحوا لهم أبواب مصر وأعانوهم ضد الرومان، ثم كانوا لهم أعواناً بعد أن دخلوا في الإسلام وحملوا رايته للجهاد في سبيل الله.



إخبار النبي ﷺ بأن ناساً من أمته سيركبون البحر مجاهدين في سبيل الله

عن مالكٍ، عن إسحاقَ بن عبد الله بن أبي طَلْحة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه سمعه يقول: (كان رسول الله ﷺ إذا ذهب إلى قُبَاءٍ، يدخل على أمِّ حَرَامٍ بنت مِلْحَانَ فتُطْعِمُه، وكانت تحت عُبَادة بن الصامت. فدخل يوماً فأطعَمَتْهُ، فنامَ رسول الله ﷺ، ثم استيقظَ يضحكُ، قالت: فقلتُ: ما يُضْحِكُك يا رسولَ الله؟ فقال: «**ناسٌ من أُمَّتي عُرِضُوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله، يَركبون ثَبَجَ هذا البحر، ملوكاً على الأسِرَّة**، أو قال: **مِثْلَ الملوكِ على الأسِرَّة**» ـ يَشُكُّ إسحاق ـ قلت: ادْعُ اللهَ أن يجعلَني منهم، فَدَعا. ثم وَضَع رأسَه فنام، ثم استيقظَ يضحكُ، فقلتُ: ما يَضحِكُك يا رسولَ الله؟ قال: «**ناسٌ من أمتي عُرِضُوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله، يَركبون ثَبَجَ هذا البحر، ملوكاً على الأسِرَّة**، أو: **مثلَ الملوك على الأسرة**» فقلت: ادْعُ الله أن يجعلَني منهم، قال: «**أنتِ من الأَوَّلِينَ**». فركبتِ البحر زمن معاوية، فَصُرِعَتْ عن دابَّتها حين خرجتْ من البحر، فَهَلكتْ).

وفي رواية عن أمِّ حَرَامٍ: (أنها سمعتِ النبيَّ ﷺ يقول: «**أولُ جيشٍ من أمتي يَغزون البحرَ قد أَوْجَبُوا**» قالت أمُّ حَرَامٍ: قلتُ: يا رسول الله! أنا فيهم؟ قال: «**أنتِ فيهم**». ثم قال النبي ﷺ: «**أولُ جيش من أمتي يَغزون مدينةَ قَيْصَرَ مغفورٌ لهم**» فقلتُ: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «**لا**»)[1].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨٢) و(٢٩٢٤)، وانظر تتمة تخريجه: ١/١٣٧ حاشية (١) في هذا المجلد.

أولاً: كلمة بين يدي النبوءة:

في هذا الحديث جملة من أعلام النبوة، وضُروب من إخبار النبي ﷺ بما سيقع في المستقبل، فوقع كما قال.

١ ـ من ذلك ما تقدَّم ذِكْره[١] من أن المسلمين سيتمكنون من البلاد حتى يغزوا البحر، وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان وتغزو في البحر معهم، وأنها تدرك زمن الغزوة الأولى لا الثانية.

٢ ـ ومنه أن الغزوة الثانية ستكون إلى مدينة قيصر وهي القُسْطَنْطينية.

وقد تحققت هذه النبوءة العظيمة بشَطْرَيْها على يدي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وابنه يزيد بن معاوية.

فالغزوة الأولى كانت في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، سنة (٢٨هـ)، وكان أميرَ الفاتحين فيها معاويةُ بن أبي سفيان، حيث فتح (جزيرة قُبْرُص).

والغزوة الثانية تمت في خلافة معاوية، وأميرُ الجيش فيها ابنه يزيد، حيث غزوا القسطنطينية لأول مرة سنة (٤٩هـ)[٢].

وقوله في الحديث: «**ثَبَجَ هذا البحر**»: وثَبَج البحر مَتْنه وظَهْره. والمقصود بالبحر هو البحر الأبيض المتوسط.

وجاء في رواية ابن حِبَّان (٤٦٠٨): «**يَرْكَبُون ظَهر هذا البحرِ الأخضرِ**»، ويُوصَف الماء بالأخضر إذا كان يَضرب إلى الخُضْرة من صفائه.

ومعنى «**أَوْجَبوا**»: فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة، وهو الجهاد في سبيل الله.

---

(١) انظر: النبوءة (١٤): ١/ ١٣٧ وما بعدها في هذا المجلد.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ٥/ ٢٣٢؛ البداية والنهاية: ٨/ ٣٢.

ثانياً: تحقق النبوءة:

١ ـ غزو قبرص وفتحها:

●● كان معاوية ﷺ تقدم إلى أمير المؤمنين عمر كثيراً بأن يركب المسلمون البحر لغزو جزيرة قبرص، وكتب إليه في ذلك يقول: (يا أمير المؤمنين! إن بالشام قريةً يسمع أهلُها نُباحَ كلاب الروم وصياحَ ديوكهم، وهم تِلْقاء ساحل من سواحل حِمْص).

فكتب عمر إلى عَمْرو بن العاص: صِفْ لي البحر وراكبَهُ، فإن نفسي تنازعني فيه. فقال عمرو في وصفه: (يا أمير المؤمنين! إني رأيتُ خَلْقاً عظيماً، يَرْكبه خَلق صغير، ليس إلا السماء والماء، وإنما هم كدودٍ على عُود، إن مال غَرِق، وإن نجا بَرِق)!.

فخاف عمر أن يخاطر بالمسلمين، وقال: (تالله لمسلمٌ أحبُّ إليَّ مما حَوَت الروم). ونهى معاوية عن ركوب البحر والقتال فيه(١).

ولم تَبْرَح الفكرة فؤادَ معاوية، فلما آلَت الخلافة إلى عثمان، عاد معاوية فعَرَض الأمر عليه في غزو البحر، فصادف ذلك رغبةً لدى الخليفة، فلا بدَّ للمسلمين أن يَدخلوا لُجَّة البحر لمقابلة عدوِّهم الذي تصول سُفُنه وتجول دون وجود قوة تردعها.

فأَذِن عثمانُ بإنشاء أسطول بحري للمسلمين، فكانت تلك هي اللحظة الحاسمة التي شهد التاريخ فيها ميلاد (البحرية الإسلامية). فبنى معاوية أسطولاً بالشام، واقتفى أثَرَه عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح فأنشأ هو الآخر أسطولاً لحماية سواحل مصر وشمال إفريقية.

وبلغ من احتياط أمير المؤمنين عثمان أنه كتب إلى معاوية يأمره قائلاً:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٥٩. ومعنى بَرِق: دَهِش وتحيَّر وفَزِع.

(لا تَنتخِب الناسَ، ولا تُقْرِعْ بينهم، خَيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمِلْه وأَعِنْهُ)[1].

●● خرج معاوية بجنده المجاهدين الذين رغبوا في نشر الإسلام، وإخراج الناس إلى عبادة الله، وتحطيم الأغلال التي ضَرَبَتْها عليهم دولة الرومان الغاشمة، وركبوا في مراكب كثيرة، ويمَّموا شطر (جزيرة قبرص).. وكان فيهم طائفة من جِلَّة الصحابة، منهم: معاوية بن أبي سفيان ومعه زوجه فاختة بنت قَرَظة، وعُبادة بن الصامت ومعه زوجه أم حَرام بنت مِلْحان، والمِقداد بن عَمْرو، وشداد بن أَوْس، وأبو الدرداء، وأبو ذَرّ الغِفَاري.

ونزلوا على سواحل (قبرص)، وأرسلوا إلى أهلها أنهم ما جاؤوا للاستيلاء على بلادهم، وإنما لنشر دعوة الإسلام، وتأمين حدود الدولة الإسلامية، حيث إن الروم يتخذون من قبرص قاعدة لانطلاقهم وتموينهم، فرفض أهلها الصلح بادئ الأمر، وطمعوا في نصرة الروم.

فشدَّد المسلمون عليهم الحصار، وما هي إلا مدة يسيرة حتى قبِل القبرصيون بالصلح، فصالحهم معاوية واشترط عليهم:

أ ـ أن يدفعوا سبعة آلاف دينار يؤدونها للمسلمين كل سنة.

ب ـ أن يُؤْذِنوا المسلمين بمسير عدوِّهم من الروم إليهم.

ج ـ ألا يساعدوا الروم إذا أرادوا غزو بلاد المسلمين، ولا يُطْلِعوهم على أسرارهم.

وعند قفول المسلمين عائدين إلى الشام، قُدِّمت لأمِّ حرام بغلتُها فركبتْها، فوَقَصَتْها فاندقَّت عنقُها، فماتت شهيدة رضي الله عنها، وقد تقدم خبرها.

وبعد نحو أربع سنين من فتح قبرص وإبرام العهد مع أهلها، خان القبارصة

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٠؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٣٦.

العهد ونقضوا الصلح؛ حيث أعانوا الروم وأمدُّوا جيشَهم لغزو المسلمين!.. فعَلِم معاوية بذلك، فهبَّ لتأديبهم، وغزاهم في (٥٠٠) مركب، ووافاه عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح بالأسطول المصري من جانب آخر، والتقى الجيشان في (قبرص)، وأطبقوا على أهلها، ونازلوهم في قتال عنيف، اضطر حاكم قبرص بعدها للاستسلام والتماس الصلح من المسلمين.

فأقرَّهُم معاوية على صلحهم الأول، وهذا من كمال العدل والرحمة.

لكن معاوية في هذه المرة أَدخل قبرصَ في سلطان المسلمين، وبعث إليها باثني عشر ألفاً من المجاهدين، فبَنَوا فيها المساجد، ونَقَل كذلك جماعة من بَعْلَبَكّ وبنى بها مدينة، وبقي المجاهدون بالجزيرة إلى أن توفي معاوية[1].

●● وفي الشام أمَّر معاوية على البحر عبدَ الله بن قيس الجاسيّ، وكان قائداً بحريّاً من الطراز الأول، فغزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة[2] في البحر، ولم يَغرق فيه أحد، ولم يُنكب. وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وأن لا يبتليه بمصاب أحد منهم، فأجابه الله لِما دعاه.. ولمَّا أراد الله له أن يموت، خرج ذات يوم في قارب طليعةً، فعرفتْهُ امرأة من الروم، فأخبرت مَنْ هناك منهم، فهجموا على عبد الله وقتلوه، وهرب المَلَّاح بالقارب[3].

وبعد عام الجماعة سنة (٤١هـ) حيث استقر الأمر لمعاوية وأضحى خليفة المسلمين؛ وضع نصب عينيه فتح عاصمة قيصر (القسطنطينية)، فقام بعدَّةِ أعمال مهمة في غاية الدقة والتخطيط والعبقرية العسكرية:

أ ـ تطوير الأسطول البحري الشامي والمصري وزيادة عدد سفنه.

---

(١) فتوح البلدان، ص١٥٧ ـ ١٥٨؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٢؛ قادة فتح الشام ومصر، ص١٧٨ ـ ١٨٠؛ الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٧١، ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) **الشواتي والصوائف**: غزوات وبعوث تسير إحداها للحرب في الصيف، والأخرى في الشتاء. وهو نظام ابتكره معاوية رضي الله عنه.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٣٩.

ب ـ تحصين الثغور في الشام ومصر، وذلك بإمداد المدن الساحلية بالمجاهدين والسلاح والمُؤَن.

ج ـ الاستيلاء على الجُزُر الواقعة شرقي البحر المتوسط، وقد تمَّ ذلك بالسيطرة عليها مثل جزر: (قبرص) و(رودس) و(كريت)(١).

٢ ـ غزو القسطنطينية ومحاولة فتحها:

●● بعث معاوية رضي الله عنه سنة (٤٩هـ) قواته في البر والبحر بقيادة كل من فَضَالة بن عُبيد اللَّيثي وسفيان بن عَوْف العامري ويزيد بن شَجَرة الرُّهَاوي، تجاه القسطنطينية، ووصل الأسطول الإسلامي إلى (خَلْقَدونية) ضاحية من ضواحي القسطنطينية على البر الآسيوي، وحاصروا القسطنطينية توطئةً لفتحها، لكن البرد القارس وانتشار مرض الجدري الذي فتك بكثير من الجند؛ جعلا ظروف الجيش المحاصِر صعبة للغاية، فطلبوا المدد من معاوية، فأمدَّهم بجيش على رأسه ابنه يزيد وفيه من الصحابة الأجلاء: عبد الله بن عُمر، وعبد الله بن عباس، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

وانضم يزيد بن معاوية بمن معه إلى الجيش المرابط هناك، وزحفوا جميعاً نحو القسطنطينية، وضربوا الحصار عليها نحو ستة أشهر، وتخلل ذلك اشتباكات بين الطرفين، وأبلى يزيد في ذلك بلاء حسناً بما أظهره من ضروب الشجاعة والنخوة والإقدام؛ مما حمل المؤرِّخين على أن يلقبوه بـ «فتى العرب»!.

وكاد هذا الجيش يحرز انتصاراً، لكن حال دون ذلك صعوباتٌ جمَّة منها: البرد القارس، والمطر الغزير، ونقص الطعام والأغذية، وتفشي الأمراض، ومناعة أسوار المدينة، والنار(٢) التي استخدمها الروم المتحصنون في حرق سفن المسلمين، كل ذلك أعاق قدرة المسلمين على فتح القسطنطينية(٣).

---

(١) الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٢) تعرف بالنار الإغريقية يقذف بها على السفن فتحرقها.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٣٢، ٢٣٤؛ البداية والنهاية: ٨/ ٣٢؛ الدولة الأموية لكل من: =

وحَسْبُ هؤلاء الجنود الميامين أنهم خاضوا أهوالَ البحار، وقطعوا الفيافي والقِفار، ونازلوا دولة بيزنطة في عُقْر دارها، بل شدَّدوا الحصار على عاصمة الرومان العريقة، وفتحوا الباب إلى مزيد من الزحوف عليها ليتمَّ فتحها كما وَعَد بذلك الصادق المَصْدوق ﷺ.

وحسبُ هذا الجيشَ المبارك الذي يقوده يزيد بن معاوية وفيه جماعة من سادات الصحابة؛ أنهم فازوا ببشارة النبي ﷺ: «**أولُ جيشٍ من أمتي يغزون مدينةَ قَيْصر مغفورٌ لهم**»!.

فأما أجْرُهم وثوابُهم فمذخورٌ لهم عند الله تعالى الذي أعدَّ للمجاهدين من الفضل والمنزلة ما هو له أهل بالإفضال والإكرام.

ويكفي يزيدَ شرفاً تلك الشهادة النبوية الغالية، حيث تحققت على يديه تلك النبوءة المباركة، بجهادٍ موصول منه، وسعيٍ حثيثٍ وتربيةٍ رفيعةٍ من أبيه الذي لم يَضنَّ به ويخلِّفْه في القصور وراء الستور، بل دفع به في صدر المعركة، ليكون قائدَها وفي مقدمة جندها، يَصْطلي بنارها، ويستنشق عبيرَ غبارها، ويرتعدُ بزمهرير بَرْدِها، على تنائي المكان، والبُعْد عن الأهل، وقلَّة الزاد؛ ليكون ذلك كلُّه شاهدَ صدقٍ عند الله وعند المنصفين الصادقين.. أما مبغضوه والمفترون على سيرته والمشوِّهون لتاريخه وتاريخ أبيه وتاريخ الأمويين عموماً، فليبوؤوا بالخسران المبين.

●● لقد كان لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ فَضْلُ السَّبْق في تكوين (البحرية الإسلامية) وفتح الباب للمسلمين لخوض غمرات البحار، وليضموا إتقانَ الحرب البحرية إلى تمرُّسِهم بالحرب البرية.. ومَهَّدَ بفتوحاته للمسلمين من بعده لفتح الأندلس غرباً، والهند شرقاً، وتركستان وما جاورها شمالاً.

وبذلك أسدى معاوية للفتوحات الإسلامية أعظم الخدمات، وخلال نصف

= يوسف العش، ص١٥٧، محمد سهيل طقوش، ص٣٢ ـ ٣٤، علي محمد الصلابي: ١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٧.

قرن من الزمان أصبح اسم البحر المتوسط: (بحر الشام)، بعد أن كان دهراً يُسمَّى (بحر الروم)!.

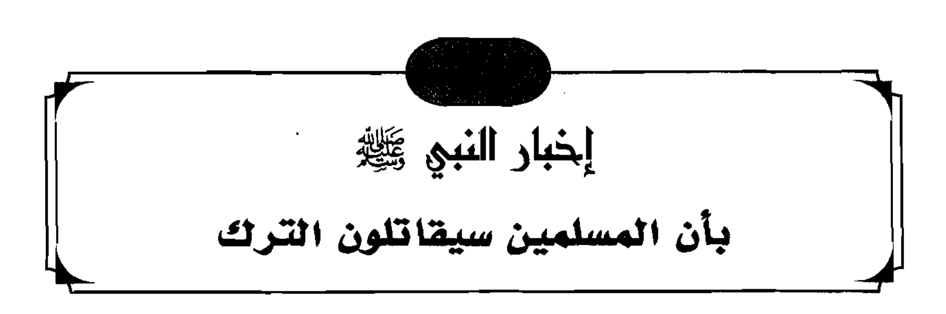
يقول المستشرق (برنارد لويس) في بحثه عن القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط: (أحالَتْ الإمبراطوريةُ الرومانية البحرَ المتوسط بحيرةً رومانيةً لمدة ستة قرون، حتى ظهر الأسطول الإسلامي منافساً ومنتصراً حتى القرن السادس عشر.

وكان العرب الفاتحون رجالَ حربٍ في البرِّ، ثم كان أولَ من فكَّر في إنشاء قوة بحرية هو معاوية بن أبي سفيان، حتى إذا ما جاء عبد الملك بن مروان أقام قاعدة بحرية في قَرْطَاجة، وقوَّى الأسطولَ الإسلامي حتى عَبَر البحر إلى الأندلس فاحتلَّها)[1].

لقد تحققت بفضل الله تعالى النبوءة بشطريها على يدي معاوية وابنه: معاوية في فتح قبرص، ويزيد في غزو القسطنطينية ومحاصرتها، وإنْ لم يفتحها، فالبشارة بفتحها جاءت في نبوءة أخرى، قد ادَّخَر الله شرفَ تحققها لفتى بني عثمان محمد الفاتح، ولكلٍّ ثوابه وأجره عند الله تعالى.



(١) الضربات، لأنور الجندي، ص٣٠.



إخبار النبي ﷺ بأن المسلمين سيقاتلون الترك

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَقُومُ الساعةُ حتى تُقاتِلُوا التُّرْكَ: صِغارَ الأَعْيُنِ، حُمْرَ الوُجُوهِ، ذُلْفَ الأُنُوفِ، كأنَّ وجُوهَهُم المَجَانُّ المُطْرَقَةُ»** لفظ البخاري.

زاد مسلم والنَّسائي وابن حِبَّان في رواية: **«يَلْبَسُونَ الشَّعَر، ويَمْشُونَ في الشَّعَر»**[١].

٢ ـ وعن عَمْرو بن تَغْلِبَ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إنَّ من أشراطِ الساعةِ أن تُقاتِلوا قوماً يَنتعِلُون نِعالَ الشَّعَر، وإنَّ من أشراطِ الساعة أن تُقاتِلوا قوماً عِرَاضَ الوُجوهِ، كأنَّ وجُوهَهُم المَجَانُّ المُطْرَقَةُ»**[٢].

❁ ❁ ❁

أولاً: الترك وبلدانهم وصفاتهم:

أُطْلِقت كلمة (الترك) منذ أواسط القرن السادس الميلادي على بعض الأقوام البدوية التي انتشرت في أواسط آسية السهوبية ما بين (منغوليا) و(البحر الأسود)، وشكَّلَتْ دويلات قبلية تعيش على رعي الخيل[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٢٨) وأطرافه؛ ومسلم (٢٩١٢)؛ وأبو داود (٤٣٠٣) و(٤٣٠٤)؛ والترمذي (٢٢١٥)؛ والنسائي في الكبرى (٤٣٧١)، والصغرى: ٦/ ٤٥؛ وابن ماجه (٤٠٩٦) و(٤٠٩٧)؛ وأحمد: ٢/ ٢٣٩؛ وابن حبان (٦٧٤٤) و(٦٧٤٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٢٧) واللفظ له؛ وابن ماجه (٤٠٩٨)؛ وأحمد: ٥/ ٧٠.

(٣) كتاب التاريخ للصف الحادي عشر الأدبي، الإمارات العربية، طبعة ١٩٩٣م.

والدَّيْلَم والغُزّ والتتار منهم.

وحدَّد ياقوت في مادة (تُرْكُسْتَان) بلادَهم: ما بين الصين والتُّبّت إلى (فاراب)[١].

ونقل الحافظ في «الفتح»: أن (بلادَهم ما بين مشارق خُراسان إلى مغارب الصين وشمال الهند إلى أقصى المعمور)[٢].

ويذكر كثير من مؤرِّخينا القدامى أن بلادهم هي ما وراء النهر، وهو نهر جَيْحُون، فما كان في شرقيه فهو بلاد ما وراء النهر، وما كان في غربيه فهو خراسان.

وبالجمع بين هذه الأقوال يمكن تحديد بلادهم لتشمل: طاجكستان، وقرغيزيا، وأوزبكستان، وتركمنستان، وكازاخستان. ومن أشهر مدنهم: بُخارى، وسَمَرْقَنْد، وبِيْكَنْد، وكَشّ، وتِرْمِذ، وطَشْقَنْد.

وقد أَطْنَب ياقوت في الثناء على تلك البلاد وأهلها، فقال: (وما وراء النهر من أَنْزَهِ الأقاليم وأخصبِها وأكثرِها خيراً، وأهلُها يرجعون إلى رغبة في الخير والسخاء واستجابة لمن دعاهم إليه، مع قلَّةِ غائلةٍ وسماحة بما ملكَتْ أيديهم، مع شدة شَوْكة ومَنَعَة وبأْسٍ وعدَّة وآلة وكُراع وسلاح. فأما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف، ويتعاظَم عن أن يكون في جميع بلاد الإسلام وغيرها مثلُه! وليس في الدنيا إقليم أو ناحية إلا ويُقْحَط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النهر)[٣].

وأما لباسُهم ففيه: القطن، والصوف، والحرير، والإِبْرَيْسَم الخجندي، والوبر الكثير، والأوبار تؤخذ من السَّمُّور والسِّنْجَاب والثعالب وغيرها[٤]. وهذا

(١) معجم البلدان: ٢/ ٢٣.
(٢) الفتح: ٨/ ٥١٠، شرح الحديث (٣٥٨٧).
(٣) معجم البلدان: ٥/ ٤٥.
(٤) المرجع السابق: ٥/ ٤٦.

ما يفسِّر قولَه ﷺ: «**يلبسون الشعر، ويمشون في الشعر**»؛ لأن بلادهم باردة جدّاً في الشتاء، وتكثر فيها الثلوج.

وقوله في الحديث: «**حُمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة**»:

حُمر الوجوه: أي بِيض الوجوه مُشْرَبة بِحُمْرة.

ذُلْف الأنوف: فُطْس الأُنوف قِصارها مع انبطاح. وقيل: هو غِلظ في أَرْنَبة الأنف. وقيل: تَطَامُن فيها. وكله متقارب.

المجانُّ المُطْرَقة: المجانّ: جمع المِجنّ، وهو التُّرس. والمُطْرَقة: هي التي أُطْرِقت أي ألبست بطراق وهو الجلد الذي يغشاه، شَبَّه وجوهَهم في عرضها وبسطها وتدويرها بالترسة وبالمطرقة؛ لغِلَظِها وكثرةِ لحمها.

ثانياً: حروبهم مع المسلمين وفتح بلادهم:

●● كان الوضع السياسي للممالك التركية مزعزعاً بفعل النزاعات التي نشبت بينها، لكن الترك بالرغم من نزاعاتهم الداخلية يمكن أن يتحدوا إذا شعروا بخطر خارجي(١)، وكانوا يمتازون بقوة الشكيمة وشدة البأس في القتال.

وإثر اتساع دولة الإسلام نتيجة الفتوحات الهائلة المباركة في عهود الخلفاء الراشدين الثلاثة؛ أصبحت بلاد الترك متاخمة لبلاد المسلمين في خُراسان، فكانوا يُكْثرون من الإغارة على أطراف الدولة الإسلامية؛ فكان لا بد من كبح جماحهم من جهة، وإبلاغهم دعوة الإسلام من جهة أخرى.

قال النووي في شرح أحاديث قتال الترك: (وهذه كلُّها معجزاتٌ لرسول الله ﷺ، فقد وُجِد قتالُ هؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ: صغار الأعين، حُمر الوجوه، ذُلْف الأنوف، عِراض الوجوه، كأن وجوهَهم المَجَانّ المُطْرَقَة، ينتعلون الشعر. فَوُجِدوا بهذه الصفات كلها في زماننا، وقاتلهم

(١) الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص١٠٦ ـ ١٠٧.

المسلمون مرات، وقتالهم الآن[١]، ونسأل الله الكريم إحسانَ العاقبة للمسلمين في أمرهم وأمر غيرهم)[٢].

وقال ابن كثير معلِّقاً على حديث عَمْرو بن تَغْلِب الذي صدَّرنا به هذه النبوءة: (والمقصود أن الترك قاتلهم الصحابة فهزموهم وغَنِمُوهم وسَبَوا نساءهم وأبناءهم. وظاهرُ هذا الحديث يقتضي أن يكون هذا من أشراط الساعة، فإن كانت أشراط الساعة لا تكون إلا بين يديها قريباً؛ فقد يكون هذا أيضاً واقعاً مرة أخرى عظيمة بين المسلمين وبين الترك، حتى يكون آخرَ ذلك خروجُ يأجوج ومأجوج. وإن كانت أشراط الساعة أعمَّ من أن تكون بين يديها قريباً منها؛ فإنها تكون مما يقع في الجملة، ولو تقدَّم قبلها بدهر طويل، إلا أنه مما وقع بعد زمن النبي ﷺ، وهذا هو الذي يظهر بعد تأمل الأحاديث الواردة في هذا الباب)[٣].

وقال ابن حجر في شرح أحاديث قتال الترك: (وقد ظهر مصداقُ هذا الخبر، وقد كان مشهوراً في زمن الصحابة حديث: «**اتركوا الترك ما تركوكم**»[٤]؛ فروى الطبراني من حديث معاوية: «سمعت رسول الله ﷺ يقوله».

وروى أبو يعلى من وجه آخر عن معاوية بن حُدَيْج قال: (كنت عند معاوية فأتاه كتاب عامله أنه وقع بالترك وهَزَمَهم، فغضب معاوية من ذلك، ثم كتب

---

(١) **وقتالهم الآن**: يعني قتال التتار.

(٢) شرح مسلم: ٩/ ٢٧٢.

(٣) النهاية في الفتن والملاحم: ١/ ٢٠.

(٤) هو جزء من حديث رواه رجل من الصحابة عن النبي ﷺ: أنه قال: «**دَعُوا الحبشةَ ما وَدَعُوكم، واتركوا التُّرك ما تَرَكُوكم**» أخرجه أبو داود (٤٣٠٢)؛ والنسائي في الكبرى (٤٣٧٠)، والصغرى: ٦/ ٤٣ ـ ٤٤، وحسَّنه الألباني. فأما حديث الطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً: «اتركُوا التُّرك ما تركوكم، فإن أولَ من يَسْلُب أمتي ملكَهم وما خوَّلهم الله بنوقنطوراء»، فهو حديث موضوع، انظر: الضعيفة، للألباني (١٧٤٧)؛ وضعيف الجامع (١٠٥).

إليه: لا تُقاتِلْهم حتى يأتيك أَمْري؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الترك تجلي العرب حتى تُلحقها بمنابت الشِّيح**» قال: فأنا أكره قتالهم لذلك).

وقاتل المسلمون الترك في خلافة بني أمية، وكان ما بينهم وبين المسلمين مسدوداً إلى أن فُتح ذلك شيئاً بعد شيء، وكَثُر السَّبْيُ منهم، وتنافسَ الملوك فيهم لِما فيهم من الشدة والبأس حتى كان أكثر عسكر المعتصم منهم، ثم غلب الأتراك على المُلْك فقتلوا ابنَه المتوكل، ثم أولاده واحداً بعد واحد، إلى أن خالط المملكةَ الدَّيْلَمُ.

ثم كان الملوك السامانية من الترك أيضاً فملكوا بلاد العجم. ثم غلب على تلك الممالك آلُ سُبُكْتِكِين، ثم آل سَلْجُوق وامتدت مملكتُهم إلى العراق والشام والروم. ثم كان بقايا أتباعهم بالشام وهم آل زَنْكي وأتباع هؤلاء وهم بيت أيوب، واستكثر هؤلاء أيضاً من الترك فغلبوهم على المملكة بالديار المصرية والشامية والحجازية)[1].

وهذا يعني أن التُّرك بعد أن قاتَلَهم المسلمون وفُتحت بلادُهم، دخلوا في الإسلام، وتوغّلوا في مؤسسات الحكم، حتى تغلبوا على السلطة واستبدوا بالأسر الحاكمة في مراحل مختلفة من التاريخ كما هو معروف.

ثالثاً: نبذة عن تلك الفتوحات:

١ ـ في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما:

ابتدأ المسلمون غزوَ بلاد الترك وفَتْحَ بلادهم في أواخر عهد عمر رضي الله عنه سنة (٢٢هـ)، واستمروا في خلافة عثمان، ثم تابع معاويةُ في أيام خلافته، وفترت الفتوحات في أيام عبد الملك بن مروان فكانت ضئيلة بسبب الأحداث الداخلية، ثم استحالت غَرْباً في عهد الوليد بن عبد الملك، وأصبحت في أيامه كل بلاد الترك تحت سلطان المسلمين.

(١) الفتح: ٨/ ٥١٢، شرح الأحاديث (٣٥٩٠ ـ ٣٥٩٢).

فبعد أن تمَّ فَتْحُ (باب الأبواب)[١] على يدي الجيش الذي يقوده سُراقة بن عَمْرو المعروف بذي النور، ومعه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وغيره من ليوث المعارك، وفتحوا (مُوْقَان)[٢] وكان يحتلها التركمان للرعي، مات سُراقة في (باب الأبواب)، واستخلَفَ بعده عبدَ الرحمن بن ربيعة الباهلي، فلما بَلَغ عمرَ ذلك أقرَّهُ، وأمَرَه بغزو الترك.

فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع (الباب) قاصداً لِما أمره عمر، فقال له شهربراز[٣]: أين تريد؟ قال: أريد (بَلَنْجر)، فقال له شهربراز: إنا لنرضى منهم بالموادعة ونحن من وراء الباب! فقال له عبد الرحمن: إن الله بعث إلينا رسولاً، ووَعَدَنا على لسانه بالنصر والظَّفَر، ونحن لا نزال منصورين. فقاتَلَ التُّركَ، وسار في بلاد بلنجر مئتي فرسخ[٤]، وغزا مرات متعددة، ثم كانت له وقائع هائلة في زمن عثمان[٥].

وهذا الخبر الذي ذكره شيخُ المؤرِّخين الطبري وتابعه ابن كثير وغيره من أعمدة المؤرِّخين؛ يؤكد أن هذه البلاد هي من بلاد الترك، وليست محصورة بما وراء نهر جَيْحُون.

٢ ـ في عهد معاوية رضي الله عنه:

في سنة (٤٧هـ) غزا الصحابي الحَكَم بن عَمْرو الغِفَاري مملكة

---

(١) هي (الدَّرْبَنْد) وتقع على بحر قَزْوين غرباً.

(٢) تقع في أَذْرَبِيْجَان.

(٣) هو ملك (الباب)، كاتب عبدَ الرحمن واستَأْمَنَه، فأَمَّنَه، وصار عوناً لهم في فتوح تلك البلاد.

(٤) **الفرسخ**: يساوي (٥٥٤٤ متراً)، فيكون عبد الرحمن قد فتح في تلك البلاد أكثر من (١١٠٠) كيلو متر في عمقها، فبارك الله في تلك الهمم الشامخة!.

(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ١٥٥ ـ ١٥٨؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٢٢ ـ ١٢٣؛ قادة فتح بلاد فارس، ص٢١٠ ـ ٢١١.

(طَخَارُسْتَان)[1]، ثم غزا ومعه المُهلَّب بن أبي صُفْرة بعضَ جبال الترك مثل (الأَشَلّ)، وقطع نهر جَيْحُون وعبر إلى ما وراء النهر ولم يفتح، وشرب من مائه وتوضأ وصلّى ركعتين.

وتابع بعده عُبيد الله بن زياد، ففتح عدة بلاد منها (بِيْكَنْد)، وعلمَتْ به خاتون ملكةُ (بخارى)، فأرسلَتْ إلى الترك تستمدُّهم، فأمدُّوها بعدد كبير، لم يلبثوا أن هُزموا أمام المسلمين، فبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان، فصالحها عُبيد الله على ألف ألف درهم.

وفي سنة (٥٦هـ) انطلق سعيد بن عثمان بن عفان في أربعة آلاف مجاهد، وقطعوا النهر إلى (سَمَرْقَنْد)، فتصدى له (١٢٠) ألفاً من أهل الصُّغْد[2] وكَشّ ونَسَف، والتقوا ببخارى، فأغرى ذلك ملكتَها خاتون فنَقَضت الصلح! لكن الجيش التركي دبَّ فيه الخلاف، فأوهى قواه، وهُزِموا أمام جيش سعيد بن عثمان، فدخل بخارى فاتحاً. ثم تابع فحاصر (سَمَرْقَنْد)، فامتنع أهلها بها، وبعد ثلاثة أيام من القتال نزلوا على الصلح على أن يدفعوا سبعمئة ألف درهم. ثم انصرف سعيد بجيشه إلى (تِرْمِذ)، ففتحها صلحاً[3].

٣ ـ في عهد عبد الملك بن مروان:

ذَوَتْ سرعة الفتوحات كثيراً بسبب الاضطرابات الداخلية؛ مثل الخلاف مع عبد الله بن الزبير، وفتنة عبد الرحمن بن الأشعث، وفتنة المُختار بن أبي عُبيد الثقفي الكذّاب. لكن على الجبهة الشرقية تابع المهلب بن أبي صُفْرة وبَنُوه الفتوحات في بلاد ما وراء النهر، خاصة مدن كَشّ والخُتَّل ورِيْخَشْ.

---

(١) تقع على ضفتي نهر جيحون، وعاصمتها مدينة بَلْخ. انظر: الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص١٠٦.

(٢) **الصغد**: قرى متصلة من سمرقند إلى قريب من بخارى.

(٣) انظر: الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٥، ولمحمد سهيل طقوش، ص ٢٩.

٤ ـ في عهد الوليد بن عبد الملك:

كانت الدولة الأموية قد استقرت من الفتن الداخلية، فانطلقت جحافل الفاتحين، وكانت العمليات العسكرية في وسط آسية على جانب كبير من الأهمية، وتتم بنجاح كبير في بلاد ما وراء النهر، وحقق القائد المظفر قُتيبة بن مسلم الباهلي ـ حاكم خراسان ـ السيطرة الأموية على تلك البلاد، فكان من أنجح وأشهر القادة العسكريين، يسانده حاكم قوي ومشهور هو الحجاج بن يوسف الثقفي.

بدأ قتيبة أعماله اعتباراً من سنة (٨٦هـ)، فعبر نهر جَيْحُون على رأس جيش كبير، وتمكن من تأديب الذين انتقضوا على الحكم الإسلامي، وأعاد فتح إقليم (طَخَارُسْتَان).

وفي سنة (٨٧هـ) تقدَّم ففتح إقليم (بُخارى)، وغزا (بِيْكَنْد) وفتحها. وتابع فتوحاته في حوض نهر جيحون، وتوَّجَها بإعادة فتح (سَمَرْقَنْد) بعد أن نقض أهلها الصلح مع المسلمين، وكان فيها مصنع للورق، وهي صناعة صينية، فحملها المسلمون إلى دمشق ثم إلى بغداد في العصر العباسي، وإلى القاهرة وإفريقية الشمالية وصقلية والأندلس، ومنها انتقلت إلى أوروبة في القرن الثاني عشر الميلادي.

وفي سنة (٩٤هـ/ ٧١٣م) انتقل قُتيبة إلى فتح مُدن الشاش وفَرْغَانة وكاشْغَر، وكانت تحت سيطرة الأتراك، فصادف مقاومة شرسة، واصطدم بهم أكثر من مرة، حتى تمكن أخيراً من فتحها في عام (٩٥هـ/ ٧١٤م).

وبوصولِ قتيبة بن مسلم إلى (كاشْغَر) يكون قد وصل إلى حدود الصين! وتوقف هناك؛ حيث إنه يواجه دولة كبيرة جدّاً، وتباعَدَتْ به المسافات عن مركز الفتوحات فضلاً عن مركز الخلافة. لكنه أرسل وفداً إلى إمبراطور الصين، كانت مهمته سياسية وتجارية، وفيه رفع لمعنويات المسلمين[١].

---

(١) انظر فيما سبق: الدولة الأموية، للصلابي: ٢/ ٨٢٤ ـ ٨٣٥؛ والدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص٩١، ١٠٧ ـ ١١٠.

رحم الله القائد العظيم قتيبة بن مسلم، فلقد كان من أعظم القادة الفاتحين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ بني أمية خاصة، وكان ـ أحسن الله جزاءه ـ قائداً عسكريّاً فذّاً، وبطلاً بارعاً، وسياسيّاً فاقِهاً، قَهَر الصعابَ، وتغلَّب على المُعْضِلات، ولم يُثْنِه عن مراده صعوبةُ طريق، ولا وعورةُ جبل، ولا قسوةُ مناخ، ولا بُعْدُ الشُّقَّة.

وجزى الله إخوانه القادة المجاهدين أمراءَ الجيوش الذين سجّل التاريخ أسماءهم، وأولئك الأبرار الذين لم يَعرف أحد عنهم شيئاً، ولكن الله تعالى يعرفهم، وكفى به شهيداً.

• **وبهذه الفتوحات العظيمة تحققت النبوءة النبوية، وكان لبني أمية ـ أحسن الله جزاءهم وغفر زلاتهم ـ أعظم الفضل في توطيد تلك الفتوحات المباركة.**

فلخلفاءِ بني أمية وقادة جيوشهم وأفراد جندهم الأجرُ العظيم الذي وعد الله به المجاهدين، ولهم كذلك مثلُ أجور تلك الأفواج من البشر الذين دخلوا الإسلام بسبب فتوحاتهم، من غير أن ينقص من أجور هؤلاء شيئاً.

ولقد أثبت الفاتحون خلال فتوحاتهم أسبابَ نصرهم وفتح أبواب الأمصار لهم؛ لأنهم كانوا حَمَلَةَ رسالة، ودعاةَ حقٍّ، قوَّامين لله بالعدل والمساواة، باذِلينَ للعالمين أصنافَ الرأفة والمرحمة. كذلك حققوا عالميةَ الدعوة وشمولها للأحمر والأسود والأصفر. ونشروا في تلك الأصقاع المتنائية لغةَ القرآن التي أقبل عليها الناس باعتزاز؛ لأنها أضحت لغة كتابهم وصلاتهم ودعائهم. كذلك أشركوا أهل تلك البلاد بحُكْمِها وإدارتها، بل وضَمُّوهم إليهم في حمل راية الفتوحات. ناهيك عن الآثار السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي صهرت الجميع في بوتقة الدين الجديد.

❋ ❋ ❋

إخبار النبي ﷺ
بأن المسلمين سيقاتلون خوزاً وكرمان

عن هَمَّام بن مُنَبِّه، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تُقَاتِلوا خُوزاً وكَرْمَانَ من الأَعَاجِمِ، حُمْرَ الوُجُوهِ، فُطْسَ الأُنُوفِ، صِغَارَ الأَعْيُنِ، كأنَّ وُجوهَهُمُ المَجَانُّ المُطْرَقَةُ، نِعَالُهُم الشَّعَرُ**»[1].

❁ ❁ ❁

أولاً: وصفُ بلاد خُوز وكِرْمَان وصفةُ أهلها:

١ ـ **الخوز**: هي بلاد خُوزُسْتَان، يُقال لها: الخُوز، وأهل تلك البلاد يقال لهم: الخوز، والنسبة إليها: الخُوزِي.

والاسم العربي لها: الأَهْواز.

وهي بلاد واسعة تقع ما بين فارس والبصرة وواسط وجبال اللور المجاورة لأصبهان، ومن أشهر مدنها: الأَهْوَاز، وتُسْتَر، وجُنْدَيْسَابُوْر، ورامَهُرْمُز.

وأرضها تشبه أرض العراق، ومياهها طيبة جارية، وخيراتها كثيرة، وفيها عامة الثمار والحبوب، والنخل فيها كثير[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٠) واللفظ له، وهو في صحيفة همام (١٢٦)؛ وعبد الرزاق (٢٠٧٨٢)؛ وأحمد: ٢/ ٣١٩؛ وابن حبان (٦٧٤٣)؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ١٧٦، وفي الدلائل: ٦/ ٣٣٦؛ والبغوي (٤٢٤٤).

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤٠٤، ٤٠٥؛ الأنساب: ١/ ٣٩١، ٥/ ٢٠٧؛ الأمصار ذوات الآثار، ص٢٢٤؛ توضيح المشتبه: ٢/ ٥٢٢. وقد أطنب ياقوت في وصفها، وذَمَّ أهلها.

وكانت إحدى البلاد المشهورة المشحونة بالأئمة والعلماء والتجار والمتموِّلين من أهل البلد والغرباء.

٢ ـ كَرْمَان: بفتح الكاف وهو الصحيح، وقيل: بكسرها وهو المشهور، وهي ناحية كبيرة معمورة ذات مدن واسعة وقرى كثيرة، يحدُّها من الغرب أرض فارس، ومن الشرق أرض مُكْران، ومن الشمال المفازة بين فارس وخُراسان وسِجِسْتان، ومن الجنوب الخليج العربي.

من أشهر مدنها: السِّيْرَجَان، جِيْرَفْت، بَمّ، خَبِيص، بُرْدَسِير، نَرْمَاسِير.

وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي والضَّرْع، وكانَ الفُرس يَجْبون خَراجها في السنة (ستين ألف ألف درهم)؛ لِسَعتِها وهي (١٨٠) فَرْسخاً في مثلها[(١)].

وقد أطابَ ياقوت الثناء عليها، ثم رثى لحالها فقال: (وأهلُها أخيار أهل سُنَّة وجماعة وخير وصلاح، إلا أنها قد تشعَّثَتْ بقاعُها، واستوحشت معاملُها، وخَرِبت أكثر بلادها؛ لاختلاف الأيدي عليها وجورِ السلطان بها، لأنها منذ زمن طويل خَلَتْ من سلطان يُقيم بها، إنما يتولاها الولاة فيجمعون أموالها ويحملونها إلى خراسان. وكل ناحية أُنفِقت أموالها في غيرها خَرِبت، إنما تعمر البلدان بسكنى السلطان).

واجتمع في مناخها الحر والبرد، ومن هنا نعلم سبب اتخاذ أهلها نِعال الشعر. وبقية أوصاف أهلها تشبه الترك، وقد أوضحنا ذلك في النبوءة السابقة.

ثانياً: فتح الأهواز:

ـ في سنة (١٧هـ) فتح الصحابيان حَرْمَلة بن مُرَيْطَة التَّمِيمي وسُلْمى بن القَيْن

---

(١) والفرسخ: يساوي (٥٥٤٤) متراً، فتكون مساحتها نحو (مليون كيلو متر مربع). وانظر: معجم البلدان: ٤/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥؛ الأنساب: ١٠/ ٤٠٠ ـ ٤٠١؛ الأمصار ذوات الآثار، ص٢٢٣.

التَّميمي بلدتي مَنَاذِر الكبرى والصغرى، و(نهر تِيْرَى)، وتيرى بلدة بالأهواز والنهر باسمها.

ـ وفتح حُرْقُوص بن زُهير التميمي (مدينة الأهواز) وتسمّى سوق الأهواز.

ـ وفتح جَزْء بنُ معاوية التَّمِيمي (مدينة دَوْرَق).

ـ وفتح الصحابي المجاهد الكبير النعمان بن مُقَرِّن (مدينة رامَهُرْمُز)، وهو قائدُ معركة نَهاوَنْد وشهيدُها، وأحدُ عشرةِ إخوةٍ مجاهدين صحابة، فلله دَرُّهُم!.

ـ وفتح أبو سَبْرة بنُ أبي رُهْم القُرشي أحدُ الصحابة السابقين الأولين (مدينة تُسْتَر) وهي أعظم مدينة بخُوْزُستان، و(مدينة السُّوس).

ـ وفتح الصحابيان أبو سَبْرة بن أبي رُهْم وزِرُّ بن عبد الله بن كُليب الفُقَيْمي (مدينة جُنْدَيْسَابُوْر) وهي مدينة حصينة واسعة.

ـ وفتح الرَّبيع بن زياد الحارثي (بَيْرُوذ) ناحية كبيرة بالأهواز، وشارك في فتح (مَنَاذِر).

ـ وشارك أبو موسى الأشعري في فتح الأهواز والسُّوس.

ـ وفي سنة (٢٣هـ) فتح سَلَمة بن قيس الأَشْجَعيُّ ـ وله صحبة ـ جبالَ الأكراد في الأهواز.

فهؤلاء القادة العشرة الكبار مهَّدوا بلاد الأهواز، ونشروا فيها الإسلام في عهد أمير المؤمنين عمر، ما بين سنتي (١٧هـ) و(٢٣هـ)[1].

ثالثاً: فتح كَرْمَان:

فتحها أولاً سُهيل بن عَدِيّ الخَزرجيُّ أحدُ الصحابة البدريين، وذلك سنة (٢٣هـ) في أواخر خلافة عمر.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٧٢ ـ ١٨٦؛ قادة فتح بلاد فارس، ص١٣٨ ـ ١٧٨.

ثم انتقضت ففتحها الصحابي مُجَاشِع بن مسعود السُّلَميُّ في عهد عثمان بن عفان.

وكان عمر الفاروق قد كَتَب إلى عبد الله بن عبد الله بن عِتْبَان: (أن سِرْ حتى تَقْدَم على سُهيل بن عدي فتجامعَه على قتال مَنْ بكَرْمَان، وخلِّف في جَيّ من بقي عن جَيّ، واستخلِفْ على أَصْبَهان السائبَ بن الأقرع)[١].

وحَشَد سُهيل جيشه في البصرة وقصد (كَرْمان)، ولحقه ابنُ عِتْبان مدداً له، فالتقى الطرفان في تخوم كَرْمان، فانهزم الفرس، ولكن المسلمين أَخذوا عليهم الطرق، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وغنموا غنائم لا تُعدُّ ولا تُحصى[٢].

ولما وُلِّي عبد الله بن عامر بن كُرَيْز إِمْرة البصرة سنة (٢٩هـ) في خلافة عثمان، أصبح مُجَاشِع بنُ مسعود ساعدَه الأيمن، فسار معه إلى (إيران) لإعادة فتح المناطق المنتقِضة.

واستعمل عبد الله بن عامر مُجَاشِعاً على (كَرْمَان)، وأمره بمحاربة أهلها، وقد انتقضوا سنة (٣٠هـ)، فتصدى مجاشِعٌ لذلك ففتح (بِيْمَنْد) عَنْوَةً واستبقى أهلَها وأعطاهم أماناً، وبنى بها قصراً عُرِف بقصر مجاشع، وأتى (السِّيْرَجَان) وهي قاعدة كَرْمان، فأقام عليها أياماً يسيرة وأهلُها متحصِّنون، فقاتلهم وفتحها عَنوة، فجَلَا كثير من أهلها عنها. وفتح (جِيْرَفْت) عَنوة كذلك، وسار في كَرْمان ودوَّخ أهلها. وأتى (القُفْص)، وقد تجمَّع له خلق كثير من الأعاجم، فقاتلهم مجاشع وظَفِر بهم، فهرب كثير من أهل كرمان وركبوا البحر، ولحق بعضهم بِمُكْران وبعضهم بِسِجِستان. فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعَمَرُوها، واحتفروا لها القَنى وأدَّوا العُشْر فيها[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٤١، وانظر: ٤/ ١٨٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ١٨٠؛ قادة فتح العراق والجزيرة، ص٤٨٢.

(٣) تاريخ خليفة، ص١٦١، ١٦٤؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٤، ٢٨٦ ـ ٢٨٧؛ فتوح البلدان، =

وبذلك تمهَّدت هذه البلاد الواسعة، وبَسَط الإسلام سلطانه عليها، ونَشر فيها رحمته وعدله، وتحققت تلك النبوءة النبوية في عهد الفاروق، واستحكم تحققها في عهد عثمان.



= للبلاذري، ص٣٨٣ ـ ٣٨٤؛ جمل فتوح الإسلام، لابن حزم (ملحق بجوامع السيرة)، ص٣٤٧ ـ ٣٤٨؛ قادة فتح بلاد فارس، ص٢٥٧ ـ ٢٥٨.

إخبار النبي ﷺ
بأن المسلمين سيغزون الهند

١ ـ عن ثَوْبَانَ مولَى رسولِ الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عِصَابَتَانِ من أُمَّتي أَحْرَزَهُما الله من النارِ: عِصَابةٌ تَغْزُو الهِنْدَ، وعِصَابةٌ تكونُ مع عيسى ابنِ مريمَ** عليه السلام»[1].

٢ ـ وقد روى حديث (فتح الهند) أبو هريرة رضي الله عنه؛ وجاء ذلك عنه من طريقين: عن جَبْر بن عَبِيدة، عن أبي هريرة قال: (وَعَدَنا رسولُ الله ﷺ غزوةَ الهِنْد، فإنْ أدركتُها أُنْفِقْ فيها نَفْسي ومالي، وإنْ قُتِلتُ كنتُ أَفْضَلَ الشُّهداءِ، وإنْ رَجَعْتُ فأنا أبو هريرة المُحَرَّرُ)[2].

ومعنى (المحرَّر): أي محرَّرٌ من النار؛ لأن النبيَّ ﷺ بشَّر كلَّ مَن شهد تلك الغزوة بأن الله يُحْرِزُه من النار، كما تقدَّم في الحديثِ السابق.

وعن البراء بن عبد الله الغَنَوِيِّ، عن الحسن البصري، عن أبي هريرة قال: (حَدَّثَني خَليلي الصادقُ رسولُ الله ﷺ: أنه قال: «**يكونُ في هذه الأمة بَعْثٌ إلى السِّنْدِ والهِنْد**».

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٢٧٨؛ والنسائي في الكبرى (٤٣٦٩)، والصغرى: ٦/ ٤٢ ـ ٤٣؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ١٧٦ ـ ١٧٧؛ وصحَّحه الألباني في صحيح النسائي (٢٩٧٥)، والصحيحة (١٩٣٤)، وصحيح الجامع الصغير (٤٠١٢).

(٢) أخرجه أحمد: ٢/ ٢٢٩؛ والنسائي في الكبرى (٤٣٦٧) و (٤٣٦٨)؛ والصغرى: ٦/ ٤٢؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ١٧٦؛ والحاكم: ٣/ ٥١٤، وغيرهم، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده ضعيف.

فإنْ أنا أَدركْتُه فاستُشْهِدتُ فذلك، وإنْ أنا رَجعتُ فأنا أبو هريرة المُحرَّر، قد أَعتقني من النار)[١].

وبمجموع هذين الطريقين، وشاهدِهما الصحيح من حديث ثَوْبان؛ يتقوَّى حديثُ أبي هريرة فيكون حسناً.

والمعوَّلُ عليه عندنا هو حديثُ ثوبان الصحيح؛ لأننا أَصَّلنَا في كتابنا هذا ألا نعتمد في إثبات النبوءة إلا على الأحاديث الصحيحة والحسنة.

۞ ۞ ۞

أولاً: كلمة موجزة عن بلاد السِّنْد والهند:

بلاد السِّنْد: إقليم كبير يحدُّه من الغرب مُكْران وسِجِستان وخُراسان، ومن الشرق الهند، ومن الشمال بلاد التُّرك، ومن الجنوب بحر العرب.

ومن أشهر مدنه: الدَّيْبُل (كَرَاتشي حالياً)، وحَيْدَر آباد، ومُلْتَان، ولاهُور. وهي الآن من مدن دولة باكستان، من الجنوب إلى الشمال حسب الترتيب المذكور.

والهند: بلاد مشهورة ضخمة واسعة، يحيط بها: من الغرب بلاد السند وبحر العرب، ومن الشرق المفاوز الفاصلة بينها وبين الصين، ومن الشمال الصين، ومن الجنوب بحر الهند[٢].

ثانياً: فتح السند والهند:

●● في هذه النبوءة تأتي البشارة النبوية لتنير طريق الغيب المكنون إلى حين، لتكشفه فيصبح واقعاً مشهوداً يتحقق على أيدي جند الإسلام الذين

---

(١) أخرجه أحمد: ٣٦٩/٢، والبراء بن عبد الله الغنوي ضعيف.

(٢) انظر: الأطلس المدرسي للمرحلة الثانوية، ص١٠٣؛ أطلس الوطن العربي والعالم، ص٧٠؛ أطلس التاريخ الإسلامي، ص٦٤ ـ ٦٧؛ تقويم البلدان، ص٣٤٦، ٣٥٣؛ صبح الأعشى: ١٧/٥.

يحملون رسالة السماء إلى تلك الأصقاع الشاسعة النائية، وليقرُّوا عين رسولهم ﷺ الذي قال: «**أُعْطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قَبْلي: كان كلُّ نبيٍّ يُبعث إلى قومه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ...**» الحديث[(١)].

فهي بشارة تحمل في مطاويها التوجيهَ بإعداد جيش من الفاتحين ينطلق إلى هاتيك البلاد وغيرها، ويحمل جندُه دينَهم معهم؛ ليحقِّقوا عالميةَ الرسالة التي ائتمنهم الله تعالى على حملها وحمايتها وإبلاغها للعالمين. ولقد قام جيل الصحابة والتابعين لهم بإحسان بذلك الواجب على خير وجه وأكمله.

وفي خلافة عمر وأوائل خلافة عثمان رضي الله عنهما، وصل المسلمون إلى حدود بلاد السند، حيث مدَّ الإسلام رُوَاقَه على مُكْران وسِجِسْتانَ وخُراسان عامة. وتوقفت الفتوحات في أواخر عهد عثمان بسبب الفتنة الظالمة، وكذلك في خلافة علي.

ثم نهضت جيوش الفاتحين من جديد في عهد معاوية بن أبي سفيان، وتابع عبد الملك بن مروان من بعده، وجاشَتِ الفتوحات في خلافة الوليد بن عبد الملك شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وشملت البلادَ التي تحدثت عنها النبوءة، وتحققت على أتم وجه في خلافة بني أمية.

●● بعد انتصار المسلمين الباهر على الفُرس في معركة القادسية، استنجد كسرى ببعض ملوك البلاد المجاورة ومنهم ملك السِّنْد، الذي أمدَّه بالمال والرجال، فكان ذلك إيذاناً منهم بالعدوان، فقام المسلمون بتأديبهم بإرسال حملات في أواخر خلافة عمر وبداية عهد عثمان.

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان اكتشف تحالفاً بين الترك والسند، فأمر بتسيير حملات متلاحقة لكسر شوكتهم، فوصلت جيوشه إلى ثغور السند[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)؛ ومسلم (٥٢١) واللفظ له؛ والنسائي: ١/ ٢٠٩ ـ ٢١١؛ وأحمد: ٣/ ٣٠٤؛ وابن حبان (٦٣٩٨)؛ والبغوي (٣٦١٦)، وغيرهم.

(٢) فتوح البلدان، ص٤٢٠ ـ ٤٢٣؛ الدولة الأموية، للصلابي: ٢/ ٨٤٠.

ففتح عبد الله بن عامر بن كُريز (كابُل) سنة (٤٤هـ)، وقد انتَقَضت عدَّة مرات ففتحها أخيراً قُتَيْبة بن مُسْلم سنة (٩٤هـ)[١].

وغزا المُهلَّب بن أبي صُفْرة سنة (٤٤هـ) فأتى (بَنَّة) و(لاهُور) وهما بين المُلْتان وكابُل.

وفي سنة (٤٨هـ) بعث زياد بن أبيه سنانَ بنَ سَلَمة الهُذَليَّ والياً على الأقاليم المفتوحة من ثغور السند، وتمكن سِنان من فتح (مُكْرن) ومصَّرَها، وأقام بها، وضبط البلاد[٢]. ومُكْران حاليّاً مقسمة بين باكستان وإيران.

●● وفي عهد الوليد بن عبد الملك كانت السفن الهندية تقوم بأعمال قرصنة بحرية، ويذكر البَلاذُرِيُّ أنهم استولوا على سفينة فيها نساء مسلمات، فصرخت امرأة من (يَرْبُوع)[٣] وقالت: يا حَجَّاج! وبَلَغ الحجاجَ ذلك، فقال للفور: يا لَبَّيكِ! وأرسل إلى (داهر) ملكِ السِّند بتخلية النسوة، فادعى أن اللصوص أخذوهن ولا يقدِر عليهم. فأرسل الحجاجُ رجلاً إلى (الدَّيْبُل) - كراتشي اليوم - فقُتل، ثم أرسل آخَر فقتله الهنود كذلك.

عندئذ عقد الحجاج الرايةَ لابن عمِّه الشاب محمد بن القاسم الثَّقفي، وضَمَّ إليه ستة آلاف من جند الشام، وجهَّزَهم بكلِّ ما يحتاجونه حتى الخيوط والإِبر، وأمره بثَغْر السِّنْد.. وهناك قام محمد بن القاسم بفتوحاته الواسعة الشهيرة الخالدة.

انتقل ابن القاسم إلى (مُكْران) وتمركز فيها وجعلها قاعدة لانطلاق جنده وفتوحاته، وخرج منها إلى (الدَّيْبُل)، وفتح وهو في طريقه إليها عدة قلاع، ولمَّا وصل إليها حاصرها واقتحمها بعد ثلاثة أيام، فهرب منها عامل داهر ملكِ السند.

---

(١) تاريخ خليفة، ص٢٠٦، ٢٠٨، ٢٣٦، ٣٠٦.

(٢) تاريخ خليفة، ص٢٠٩؛ الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٤٣٠؛ وانظر أخبار هذه المدن في معجم البلدان.

(٣) **بنو يربوع**: بطن من بني تميم.

أعاد القائد المسلم تخطيط المدينة وأسكنها بأربعة آلاف من المسلمين، وجعلها قاعدة بحرية، وكان لفتح هذه المدينة تأثير كبير على الوضع الداخلي للمدن والقرى المجاورة؛ حيث هُرِعَ السكانُ يَعرضون الصلح على المسلمين.

توجه محمد بن القاسم بعد ذلك إلى (البيرون) الواقعة على الضفة الغربية لنهر السند المعروف باسم (مِهْرَان)، فصالحه أهلها، كما صالحه سكان (سربيدوس) و(سهبان) و(سدوسان)، وهي مدن تقع على الضفة الشرقية للنهر، ثم التقى داهرَ في مدينة (مِهْران) وانتصر عليه وقتله.

سيطر المسلمون ـ بعد هذا النشاط الجهادي ـ على إقليم السند بكامله، ثم زحفت جيوشهم نحو الشمال الشرقي حتى وصلوا مدينة (برهمنآباد) وقد لجأت إليها فلول جيش داهر بقيادة ابنه جاي سنك، فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم وفتحوا المدينة عَنْوَةً. وفرَّ جاي سنك إلى الشمال، وتحصَّن بمدينة (الرور) عاصمة السند، فلحقه المسلمون وحاصروا المدينة مدة أربعة أشهر قبل أن يفتحوها.

وتابع القائد الشاب محمد بن القاسم زحفَه حتى قطع نهر (بَيَاس)، أحد روافد نهر السند، ووصل إلى (المُلْتَان) فحاصرها وفتحها عَنْوة، وأرسل فرقة عسكرية دخلت (البَيْلَمَان)، وصالحه أهل (سرست)، وفتح (الكيرج) عَنْوة.

أضحى وادي السند، بعد هذا الانتشار الإسلامي، في قبضة المسلمين، فانصرف محمد بن القاسم إلى تنظيم أمور البلاد المفتوحة، والاستعداد للزحف نحو إمارة (قَنُّوج) ـ وهي أعظم الإمارات في شمالي الهند، وتمتد من السند إلى البنغال ـ لكن أتاه نَعْيُ الحَجَّاج سنة (٩٥هـ)، ثم نعيُ الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة (٩٦هـ)، فتوقفت العمليات العسكرية[١].

---

(١) انظر: فتوح البلدان، ص٤٢٣ ـ ٤٢٧؛ تاريخ خليفة، ص٣٠٤ ـ ٣٠٥؛ قادة فتح السند، ص٢١٣ ـ ٢١٥؛ تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص١١١ ـ ١١٤؛ الدولة الأموية، للصلابي: ٢/ ٨٤٠ ـ ٨٤٤؛ معجم البلدان للتعريف بكثير من المدن المذكورة.

وكانت هذه الفتوحات ما بين سنتي (٨٩ ـ ٩٦هـ)، وكان هذا القائد المُظَفَّر يوم تولى إمرة ذلك الجيش الكبير لفتح تلك البلاد الشاسعة والنائية، ابنَ سبع عشرة سنة! وفيه يقول يزيد بن الحكم:

إنَّ الشجاعةَ والسَّماحةَ والنَّدى لمحمدِ بن القاسم بن محمدِ
قادَ الجيوشَ لسبعَ عشرةَ حِجَّةً يا قُرْبَ ذلكَ سُؤْدُداً من مولدِ[1]!

●● إن أولئك الأبطال الأماجد الذين ابتدؤوا فتح ثغور السند، وهذا الفتى العبقري القائد الفاتح، ومن معهم من جنود الإسلام؛ قد حققوا وعد الله على لسان رسوله ﷺ في فتح بلاد السند والهند، ولهم في ذلك من الأجر ما لا يعلمه إلا الله وما لا تحصيه ملائكة الرحمة من الحسنات.

وهم كذلك قد نالوا تلك البشارة النبوية الصادقة بأنهم عصابة من الجنود الميامين الذين أحرزهم الله من النار، وأوجب لهم الجنة، فهنيئاً لهم.

لقد كان الفتح الإسلامي لتلك البلاد تحوُّلاً تاريخيّاً على المستوى العقائدي والإنساني والأخلاقي، فقد كانت الهند في الحقبة الزمنية التي ظهر فيها الإسلام وأخذ يسيح في أرجاء الأرض ينشر نور رسالته؛ في حضيض الوثنية ومستقذرات الأخلاق، حيث (ساهَمَت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي، الذي شمل الكرة الأرضية في هذه الحقبة من الزمن، وأَخذتْ نصيباً غيرَ منقوص من هذا الظلام الذي مدَّ رُوَاقَه على المعمورة، وامتازت عنها في ظواهرَ وخِلالٍ يمكن أن نلخِّصها في ثلاث:

١ ـ كثرةُ المعبودات والآلهة كثرة فاحشة.

٢ ـ الشهوات الجنسية الجامحة.

٣ ـ التفاوت الطبقي المُجحِف والامتياز الاجتماعي الجائر)[2].

---

(١) تاريخ خليفة، ص٣٠٤.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٦٤.

فتجاوزت الوثنية فيها كل حدود المعقول واللامعقول، وجاوزت الآلهة المعبودة الحصرَ وأَرْبَتْ على العدِّ، فمنها: أشخاصٌ تاريخية، وأبطالٌ، وجبال، ومعادن، وأنهار، وآلاتُ حرب، وآلات كتابة، وآلاتُ تناسل، وحيواناتٌ أعظمُها قداسةً البقرة، وأجرامٌ فلكية، وعكفت الطبقات كلها من الملوك إلى الصعاليك على عبادة الأصنام!.

والشهوة الجنسية جَمحتْ جموحاً جارفاً يتندَّى له جَبين الإنسانية، حتى كان أهل البلاد من رجال ونساء وأطفال وبنات يجتمعون لعبادة آلة التناسل لإلٰههم الأكبر (مهاديو)! بل يذكر بعضُ المؤرِّخين أن رجال بعض الفِرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات، والنساء يَعْبُدنَ الرجالَ العُراة! وكان كهنةُ المعابد الخونة والفسَّاق يَرزؤون الراهباتِ والزائرات في أعزِّ ما عندهن، وقد أصبح كثير من المعابد مواخيرَ يترصَّد فيها الفاسق طِلْبَتَه، وينالُ فيها الفاجر بُغيتَه.

أما نظام الطبقات فلم يُعرف في تاريخ أمة من الأمم نظامٌ طبقي أشدُّ قسوة، وأعظمُ فصلاً بين طبقة وطبقة، وأشد استهانةً بشرف الإنسان؛ من النظام الذي اعترفَتْ به الهند دينيّاً ومدنيّاً، وخَضَعتْ له آلافاً من السنين ولا تزال[1].

●● هذه الشعوب في مِثل هذه الأوضاع الدينية والأخلاقية والإنسانية، جاء الإسلام ليرفع عنها كلَّ تلك القيود ويَكسر الأغلال ويحرر العبيد، ويرتفع بالجميع إلى قيمِه التي تحمي عقولهم وأخلاقهم وتُعْلي إنسانيتَهم وتحفظُ كرامتَهم، وتضَعُهم على قدم المساواة يتفاضلون بالتقوى والخير والعمل الصالح والنفع للبشرية.

ويذكر التاريخ للفاتح البطل والأمير العادل محمد بن القاسم الثقفي أنه نشر الإسلام في ربوع البلاد المفتوحة، وأرسل الدعاة شرقاً وغرباً يجوبون البلاد مبشِّرين بالدين الجديد، فكان أكثر مَنْ هداهم الله إلى الإسلام من أهل السند

---

(١) المرجع السابق، ص٦٥ ـ ٦٦.

على يديه. وقد وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب للدخول في الإسلام، فاستجاب له كثيرون وخاصة من البوذيين. وما كان محمد بن القاسم يدخل مدينة حتى يبني فيها مسجداً، حتى امتلأت المدن السِّنْدية بالمساجد. ويحدِّثنا التاريخ أن هذا الشاب الداعية المجاهد كان يساوي أهلَ السند المسلمين بنفسه ولا يتميَّز عليهم بشيء، ولقد بَكَوْه جميعاً عندما مات رحمه الله تعالى ورضي عنه(١).

ولقد كانت نُقْلةً هائلة بكل المقاييس وعلى شتى الأصعدة تلك النُّقْلة التي نَقل المسلمون الفاتحون أهلَ السند إليها، حيث زرعوا في ربوع بلادهم كلمة التوحيد، وأسَّسوا العدل ونشروا الإخاء والمرحمة.

يقول صاحب كتاب «الحضارة الهندية والإسلام»: (إن الإسلام قد حَمل إلى الهند مشعلاً من نور قد انجلَتْ به الظلمات التي كانت تغشى الحياةَ الإنسانية، في عصر مالَتْ فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلِّي، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية.

لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسعَ وأعظمَ منها في حقل السياسة، شأنه في الأقطار الأخرى)(٢).

●● **وفي طور آخر من الفتوحات جاءت الدولة الغَزْنَوية بأفغانستان والهند،** وقد ورثت الدولةَ السامانية، **وامتد سلطانها ما بين سنتي (٣٦٦ ـ ٥٧٩هـ)**، أسسها سُبُكْتِكِين واتخذ (غَزْنة) عاصمة لها، وأعظمُ ملوكها السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين الذي غزا الهند مرات عديدة ما بين سنتي (٣٩٠هـ) و(٤١٦هـ)، وكان أعظمَ ملوك الشرق الفاتحين(٣).

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص٤٤٥ ـ ٤٤٧؛ قادة فتح السند، ص٢٢١؛ الدولة الأموية، للصلابي: ٢/ ٨٤٥، ٨٤٦.

(٢) نقلاً عن: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٤١.

(٣) انظر ترجمة سبكتكين وابنه محمود في سير أعلام النبلاء: ١٦/ ٥٠٠ ـ ٥٠١، ١٧/ ٤٨٣ ـ ٤٩٥.

سار محمود في رعيته سيرة عادلة، وقام في نصر الإسلام قياماً تامّاً، وفتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند وغيرها، وعَظُم شأنه، واتسعت مملكته، وامتدت رعاياه، وطالت أيامه لعدله وجهاده، وما أعطاه الله إياه(١).

وقد خُطب له بالغُور وبخُراسان والسِّنْد والهند، وناحية خُوَارَزْم وبَلْخ، وهي من خُراسان، وبُجرْجَان وطَبَرِسْتَان والرَّيّ والجِبال، وأَصْبَهان وأَذْرَبِيْجَان، وهَمَذَان وإِرْمِيْنِيَة(٢).

وكانت الهند تعظِّم الصنم (سُومَنات) ويَحُجُّون إليه، ويُتحِفونه بالنفائس، ويتغالَون فيه كثيراً، فتجمَّع عند هذا الصنم مالٌ يجاوز الوصفَ، وكانوا يَغْسِلُونه كل يوم بماء وعسل ولبن، وينقلون إليه الماء من نهرِ حيل مسيرةَ شهر!.

فتوجَّه إليهم السلطان محمود في ثلاثين ألفاً، وقطعوا مفاوز شاسعة، وقاسوا مشاقَّ مضنية، ونازلهم حتى هزمهم وكَسَر صنَمَهم الذي كان في بيت عظيم منيع وعلى أبوابه السُّتُور والدِّيباج، وعلى الصنم من الحُليّ والجواهر ما لا يُوصف، وتحصل من حِلْيته من الذهب (عشرون ألف ألف دينار!).

وكانت غَيبة السلطان المجاهد بجيشه (١٦٣) يوماً، فلله دره(٣).

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (٤٢١هـ)، وعمره ستون سنة.

ثالثاً: فماذا كان بعد تلك الفتوحات؟!:

لم يُتابع الخَلَف نهجَ السَّلَف، ولم ينشروا بين عبَّاد البقر والأوثان رسالة محمد عليه الصلاة والسلام! ولا عَلَّمُوهم كلمة عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (مُذْ كم تعبَّدتُم الناسَ وقد ولدتْهُم أمهاتُهم أحراراً؟!).

وتجمَّد الإسلام في الهند وإن أَرشَدَ ثلثَ السكان، كما أنه توقف في

(١) البداية والنهاية: ١٢/٢٩.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٤٩٢.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٤٩٠ ـ ٤٩١.

الصين، لتأتي الاشتراكية الماركسية أو الماوية فتوحِّد ملياراً من البشر.. لماذا؟!.

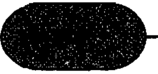
لقد اشتغل الحكام فيما بعد بالتنازع على الإمارة، وتوريث الحكم، وظهرت الفِرق وتناحرت فيما بينها، ونسي الجميع المهمة التي أُنيطت بهم وشرَّفهم الله بِحَمْلِها، فدَالَ سلطانُهم، وذَبُلَت هيبتُهم، وذهبتْ رِيْحُهم.

بل ظهر في الأخلاف أناس كبار وصغار يتناصرون بغير الإسلام، وارتفعت أصواتهم، والضجيج يملأ أفواههم، بشعارات مستوردة تُزري على السلف أعمالهم وهديهم، فكانت النتيجة كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة ٦٧]، وخسروا كل شيء!.

فَلْيعلمْ هؤلاء والسمَّاعون لهم أنه لا عِزَّ لهم، بل لا وجود إلا بالصلح مع الله، والاستمساك بهدي نبيّه ﷺ، والاقتداء بنهج السابقين الفاتحين، ليُعيدوا مجدَ أمتهم من جديد، ويُحقِّقوا عالميةَ الرسالة وتحريرَ الأمم مما ترزح تحت وطأته من هيمنة الوثنيات الغربية والشرقية[1]!..



(١) انظر: سر تأخر العرب والمسلمين، ص٤٠ - ٤١، ٤٤؛ علل وأدوية، ص٢٦٢ - ٢٦٤.



إخبار النبي ﷺ بالفتوحات على يدي القرون الثلاثة الأولى

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: حدَّثنا أبو سعيد الخُدْرِيُّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«يأتي على الناسِ زمانٌ، فَيَغْزُو فِئَامٌ من الناس، فيقولون: فيكُمْ مَنْ صاحَبَ رسولَ الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فَيُفْتَحُ لهم. ثم يأتي على الناس زمانٌ، فَيَغزُو فِئامٌ من الناس، فيُقالُ: هل فيكم مَنْ صاحَبَ أصحابَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فَيُفْتَحُ لهم. ثم يأتي على الناس زمانٌ، فيغزُو فئامٌ من الناس، فَيُقالُ: هل فيكم مَنْ صاحَبَ مَنْ صاحَبَ أصحابَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فَيُفْتَحُ لهم»**(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: بين يدي النبوءة:

هذه نبوءة عظيمة جليلة، وثناء رفيع، وتزكية غالية، من الرسول ﷺ للقرون الثلاثة الأولى الفاضلة، وهم: قَرْن النبي ﷺ وهم الصحابة الكرام، ثم التابعون، ثم تابعو التابعين، الذين امتدت أزمنتهم بعد وفاة النبي ﷺ أزيدَ من مئتي سنة.

فجيلُ الصحابة انْخَرمَ نحو سنة (١٠٠هـ)، وانقضَى جيل التابعين نحو سنة (١٧٠هـ)، وبقي جيل أتباع التابعين إلى قريب من سنة (٢٢٠هـ)، كما قال

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٩) واللفظ له، و(٢٨٩٧) و(٣٥٩٤)؛ ومسلم (٢٥٣٢)؛ وأحمد: ٣/٧؛ وابن حبان (٤٧٦٨) و(٦٦٦٦)؛ والبغوي (٣٨٦٤). **والفئام**: الجماعة.

الحافظ: (واتفقوا أن آخِرَ مَن كان من أتباع التابعين ممن يُقْبل قولُه من عاش إلى حدود العشرين ومئتين)(١).

وهذه السنون تشمل عصر النبوة الأزهر، وعهد الراشدين الأرشد، وخلافة بني أمية كلها، وصدراً من أيام بني العباس، وخلال هذه السنين المئتين كانت جُلُّ الفتوحات.

ثانياً: في بعض ألفاظ الحديث ما يدعو للتفكر والتأمل الطويل:

ـ حيث يُقال للفاتحين: فيكم مَن صَحِب رسولَ الله ﷺ، ثم مَن صَحِب أصحابَهُ، ثم مَن صَحِب التابعين: ففيه معرفة أمم الأرض بسِيَر هذه الأجيال المباركة وطهارتها وعفَّتها، لِمَا انتشر عنهم في الخافقين من جميل أخلاقهم، وسموِّ أرواحهم، ورفعةِ فضائلهم، وكريمِ تعاملهم مع أهالي البلاد المفتوحة.

ـ ثم قوله: «**فَيُفتح لهم**»: لقد فتح هؤلاء السادة قلوبَ الناس بالقرآن، قبل أن تُفتح البلاد بالسِّنان، صحيحٌ أنه حدثتْ معارك، وكان هناك قتال وملاحم، وفُتحت بلاد عَنْوَةً، وسقط شهداء وقتلى، لكن الأعمَّ الأغلب أن تلك الأمصار على امتدادها وكثرتها قد فُتحت صُلحاً، ورحَّب أهلها بالفاتحين، وشَرعوا لهم الأبوابَ مفتوحة على مصاريعها، فكان حقّاً كما جاء في الحديث: (فَيُفتح لهم)!.

ـ وفيه أن الصحابة الذين صاغهم النبي ﷺ قد أَفرغوا هَدْيَهم في أصحابهم التابعين ورسَّخوه في قلوبهم، وهؤلاء غرسوه في أفئدة أتباع التابعين، فتقلَّب الخير من جيل إلى جيل، وعَمَّ ذلك شعوبَ العالم التي حررها الإسلام، ومَحَا عنها ظلمات الطغيان، ويشير إلى هذا المعنى قوله في الحديث: «**هل فيكم مَنْ صَاحبَ أصحابَ رسول الله... هل فيكم مَنْ صاحب مَنْ صاحبَ أصحابَ رسول الله**»..

(١) الفتح: ٨/ ٥٦١، شرح الحديث (٣٦٤٩).

ويؤكده الحديث الصحيح الآخر الذي رواه واثلة بن الأَسْقَع قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تزالونَ بخيرٍ ما دام فيكم مَنْ رآني وصاحَبَني. واللهِ لا تزالونَ بخيرٍ ما دام فيكم مَنْ رأى من رآني، وصاحَبَ مَن صاحبني. واللهِ لا تزالون بخيرٍ ما دام فيكم مَنْ رأى مَنْ رأىٰ مَنْ رآني، وصاحَبَ مَنْ صاحَبَ مَن صاحَبَنِي»[١].

ثالثاً: تربية جيل الفتح ونشر الرسالة:

●● لقد تولى رسول الله ﷺ تربية أصحابه تربية جديدة متميّزة، وسَكَب من سُمُوِّهِ، ومن سَناء روحه، وارتقاء ضميره، ورسوخ تقواه... سكب في أولئك العرب ما حوَّلهم خَلْقاً آخَر، فإذا هم يخرجون على الدنيا وكأنهم ملائكة، قد تحول الجبروتُ الجاهلي إلى سناء واهتداء وافتداء في سبيل الله![٢].

وتربية سيدنا محمد ﷺ لهذا الجيل معجزته الكبرى بعد القرآن الكريم، وعملُه ﷺ هو المعجزة التي لم يعرف العالم لها نظيراً من بدء الخلق إلى الآن، وقد زوَّدهم القربُ منه بقَدْرٍ هائلٍ من الروحانية والتضحية، وتمكَّن الألوفُ من الأخذ عنه والاقتباس منه دون زحام! فكان إيمانُهم بالله يندفع مع الدماء في عروقهم، ويختلط مع الهواء في زفيرهم وشهيقهم، وكان تصديقُهم بالقدر وقوداً يجعل لزحوفهم قوة الإعصار، فما تردُّهم عقبة، ولا تُثْنِيهم خسائر، ولا يُذْهِلهم عن غاياتهم تَرَحٌ أو فَرح[٣].

لقد كان هذا الجيل الذي ربَّاه رسول الله ﷺ من طراز فذٍّ، لقد أَلَانَ القلوبَ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٧/ ٥٤٩، كتاب الفضائل، باب (٥٦)؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (١٤٨٤)؛ والطبراني في الكبير (٢٠٧)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٢٨٣)؛ وعزاه الحافظ في (الفتح: ٨/ ٥٦٠) لابن أبي شيبة وحسَّنه.

(٢) اليهود المعتدون، ص٢٨٦.

(٣) انظر: علل وأدوية، ص١٤٤ ـ ١٤٥، ١٥١ ـ ١٥٣؛ الإسلام والطاقات المعطلة، ص٨٢.

لله حتى بلَّتْ دموعُها المحاريبَ، وأَخْلَص النيّاتِ فما بقي هوى ولا غش، وتمهدت الميادين لنصرة الحق.

إن ما أحدثه نبيُّ القرآن في دنيا الناس معجزة فوق ما يعرف الناس من خوارق العادات، وعشراتُ الألوف التي استمعت إليه ﷺ في حجة الوداع وهو يهدر بآيات الحق؛ كأنما انسكب في رَوْعها قَبَسٌ من هذا الإنسان الهادي، فإذا هي تتحول إلى شُهُب في الليل المخيِّم على الإنسانية، فلا ترى فيهم إلا مجاهداً يهوى التضحية، أو فقيهاً يهوى المعرفة، أو ناسكاً تزيِّنُه التقوى، أو شهيداً يعلِّم الناس الكبرياء على الدنيا وأهوائها(١).

●● ومحمد ﷺ لم يُبعث لينسخ باطلاً بباطل، ويبدّل عدواناً بعدوان، ويحرِّم شيئاً في مكان ويحلُّه في مكان آخر، ويبدل أَثَرَة أمَّة بأَثَرَة أمة أخرى. إنه لم يُبعث زعيماً وطنيّاً أو قائداً سياسيّاً، ويُخْرج الناسَ من حكم الفُرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان.

إنما أُرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، إنما أرسل ليُخْرِج الناسَ جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

ولم يكن خطابُه لأمة دون أمة، ووطن دون وطن، ولكن كان خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنساني، فوَضَع على قُفْل الطبيعة البشرية مفتاحَه، ودعا الناس جميعاً إلى الإيمان بالله وحده، ورفض الأوثان والكفر بالطاغوت، وقام في القوم ينادي: «**يا أيها الناس! قولوا: لا إلٰه إلا الله؛ تفلحوا**».

●● ودأب النبي ﷺ على صنع الجيل الذي يتلقى عنه الرسالة، ثم يحملُها معه، ويحميها وينشرها من بعده، ولم يزل ﷺ يربي أصحابه تربية دقيقة عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويُذْكي جمرةَ قلوبهم، ولم تزل مجالس

(١) علل وأدوية، ص١٦٠، ٢٦٥.

الرسول ﷺ تزيدهم رسوخاً في الدين، وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في سبيل مرضاة الله، وحنيناً إلى الجنة، وحرصاً على العلم، وفقهاً في الدين، ومحاسبة النفس.

يطيعون الرسول ﷺ في المنشط والمكره، وينفرون في سبيل الله خِفافاً وثِقالاً، حتى هان عليهم التخلي عن الدنيا، وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم في نفوسهم، ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعوَّدوه، وبكل ما يشقُّ على النفس إتيانُه في المال والنفس والولد والعشيرة، فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها.

حتى إذا خرج حظُّ الشيطان من نفوسهم، بل خرج حظُّ نفوسهم من نفوسهم، وأنصفوا من أنفسهم إنصافَهم من غيرهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة، وفي اليوم رجال الغد، لا تُجزعهم مصيبة، ولا تُبطِرهم نعمة، ولا يَشغلهم فقر، ولا يُطغيهم غنى، ولا تلهيهم تجارة، ولا تستخفُّهم قوة، ولا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم، قوَّامين بالقِسْط شهداءَ لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين.. عندئذ وطَّأ لهم ربُّهم سبحانه أكنافَ الأرض، وفتح لهم مغاليق القلوب، وجعلهم عصمة للبشرية، ووقاية للعالم، ودعاة لدينه وحماة له.

واستخلفهم الرسول ﷺ في عمله، ولَحِق بالرفيق الأعلى قريرَ العين من أمته ورسالته(١).

●● ما الذي حوَّل الجزيرة العربية الفوضوية إلى مستودع رتيب تخرج منه الجيوش موحدة الهوى والهدف؟ وتنساق إلى غاياتها مرصوصة الصفوف، تحني أصلابها في الصلاة على تكبير واحد، وتتسابق إلى لقاء الله بيقين واحد؟.

إن صاحب الرسالة العظمى بكتابه الكريم هو الذي أتمَّ هذا الإعجاز.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، مقتطفات من ص٩٨ ـ ٩٩، ١٠٣ ـ ١٠٤.

بدأت المسيرة بنَفَر يُعَدُّون على الأصابع، وها هم أولاء في يوم عرفة يبلغون عشرين ومئة ألف، يستعدون لإصلاح العالم بعدما أصلحوا بلادهم، ويحسُّون أن رحلة جديدة توشك أن تبدأ في تاريخهم وهم يُنصتون في خشوع وأدب للوحي الإلٰهي: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣](١).

وانطلق صحابة محمد ﷺ وأتباعه في أقطار الأرض، يحملون البلاغ السماوي الأخير.

انطلق الصُّوَّام والقُوَّام الخاشِعون المُخْبِتون إلى كلِّ فجٍّ عميق، يَعرضون الإسلام على الناس باللغة العالمية التي يفهمها أهل الأرض كلهم جميعاً، لغة الخُلُق الزكي والسلوك العالي(٢).

ولقد زوَّدَهم القربُ من المربي الأعظم ﷺ بقَدْر هائل من الروحانية والتضحية وطلب الآخرة والترفُّع عن الدنيا ومغانمها، فلما اصطدموا بالضلال الجاثم على صدر الأرض من قرون؛ استطاعوا فَلَّ حَدِّه، وكَسْرَ قَيْدِهِ، وإطلاقَ الجماهير العانية تعبد ربها كيف تشاء.

وما كان إلا أصحاب محمد ﷺ مَن يقدر على هذه المهمة الصعبة(٣).

واحتشدت قوى الصحابة مع قوى تلامذتهم من التابعين ومن بعدهم ليتحولوا إلى زلازل تدمِّر الإمبراطوريات التي شَمَخَتْ جدرانُها على الطغيان قروناً، ما استطاع أحد أن يَهُدَّها حتى جاء المسلمون فغيَّروا الدنيا(٤).

---

(١) علل وأدوية، ص١٦٦.
(٢) كفاح دين، ص١٠٦.
(٣) سرّ تأخر العرب والمسلمين، ص٣٧.
(٤) اليهود المعتدون، ص٢٨٦.

رابعاً: انسياح تلك الأجيال للفتح والبلاغ المبين:

والقدرة النفسية والعقلية على المحو والإثبات انتقلت من صاحب الرسالة العظمى ﷺ إلى الرجال الذين اتبعوه ومنهم إلى تلامذتهم؛ فإذا هم يغسلون الأرض من أدرانها لتنشأ عليها أمم من طراز جديد(١).

والحديث الذي نَصَبْناه عنواناً لهذه النبوءة يَضرب المَثَل لهذه القدرة الخارقة الفائقة، ويمثل ببراعة باهرة صفات أجيال الفتوحات، ويُبرِز القدرات العارمة على التغيير الاجتماعي والسياسي الذي انتقل إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم من حامل الرسالة الخاتمة؛ هذا النبي الذي دفع القرونَ أمامه بعدما نفخ فيها من روحه، فإذا اليابس يخضرّ، والكدِرُ يصفو، والضالّ يهتدي، والمظلوم يُنصَف، والظالم يُقْصَم، والجَوْر يضمحلّ، والعدل يعلو، والأرواح تسمو، والحياة تثمر.

ومن أبرز أعمال الصحابة العظام والجيلَيْن التاليين لهم أنهم هم الذين جعلوا عالمية الرسالة حقيقةً واقعةً، بعدما كانت مقرَّراً نظريّاً أو بُشرياتٍ تُتلى في الكتاب الكريم؛ فإن النبيَّ ﷺ لَحِق بالرفيق الأعلى ودينُه لم يتجاوز حدودَ جزيرة العرب، وقد علم الأصحاب الكرام أنه مبعوث للعالم كله، فشَرَعوا ينساحون في الأرض مبشِّرين ومنذرين.

بعدما بدَّل الرسولُ الأعظم ﷺ أرضَ الجزيرة غير الأرض، فإذا البقاعُ التي غَبَرت دهراً عطْشى إلى أَثَارة من علم؛ تفيض بحضارة موَّارة بالحياة والعطاء والعدالة والمرحمة، وإذا أبناءُ البوادي يعلِّمون أبناءَ روما وأثينا والمدائن حقوقَ الإنسان، ومعالمَ الحضارة وضوابط المعرفة(٢).

انظر إلى رجال تلك القرون الثلاثة المباركة كيف لبَّوا مناديَ الجهاد: يا خيل

---

(١) علل وأدوية، ص١٦٣، ١٦٤.

(٢) سر تأخر العرب والمسلمين، ص٤٢؛ علل وأدوية، ص١٤٥، ١٦٠.

الله اركبي، فانطلق رهبانُ الليل وفرسان النهار يسيحون في المشارق والمغارب؛ فاندكَّت صروحٌ للباطل ما ظنَّ أحد أنها تزول، وتلاشَتْ أوهام وخرافات طالما حقَّرت الإنسانية وأَزْرَتْ بها، ونشأت حضارة إسلامية أَسْهَم فيها العرب وغيرهم في ظل إخاء عام وفطرة سليمة[1].

خامساً: إنجازات الفتوحات على المستوى العالمي:

●● والإسلام ليس فكرة يَحلُم بها فيلسوف، ولا نظرةً ينقطع لها راهب، بل هو دين تتغيَّر به النفوس والمجتمعات تغيُّراً يصبُّها في قوالب جديدة من صنع الله تعالى لا أثر لصنع الناس فيها.. وعندما ابتعث الله نبيَّه ﷺ كان العالم قد رانَ عليه ركامٌ هائل من الأوهام والأهواء والأضاليل؛ أثقلَتِ القلبَ الإنساني وضلَّلَتْ سعيَه.

فكان على الرسول الخاتم ﷺ وعلى الجيل الذي رباه والأجيال التالية التي حملت معهم واجبَ البلاغ؛ إنقاذُ الناس من مواريث روحية وفكرية وأَدَتِ الحقَّ وطَمست الفطرة، ففي التنزيل الحكيم: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

وانفكاكُ الأمم عمَّا أَلِفَتْ عبر القرون، وانتقالُها إلى طور آخر من الوعي والسداد؛ هو العمل الذي أتمه رسول الله ﷺ، وغيَّر به وجهَ الأرض، وصحَّحَ به أخطاءَ التاريخ، وأحاط به في تحقيق ذلك الجيلُ العظيم الذي ربَّاه، وأعانهم عليه بعد ذلك حواريوهم من التابعين.

والناس يوم جاء الإسلام وإلى الآن يقترفون من السخافات العقدية والعقلية والسلوكية ما يدعو للدهشة؛ فالذي يعبد حجراً كان من الطبيعي أن يجعله درج سُلَّم يصعد فيه، والذي يقدِّس بقرة كان من حقه أن يذبحها ويسدَّ بها جَوْعَتَهُ.

---

(١) علل وأدوية، ص٢٦٥.

والذي يطغى على الناس بسلطانه كان يتوجب عليه أن يقيم فيهم مبادئ العدل والرحمة، ويساويهم بنفسه في الإنسانية، والذي يهرب من الحياة، ويخترع تعبُّدات يهيم بها على وجهه، وقد طُلب إليه أن يعمر الدنيا بعمل الآخرة. وغير هذا كثير.

●● فالرسالة التي جاءت رحمة للعالمين، كان على حملتها أن ينيروا بالحق بصائر الناس، ويكسروا القيود التي شلت حراكهم الروحي والعقلي، وهذا ما كان! فالمصابيح التي أسرجها رسول الله ﷺ في ليل الجزيرة، سطعت هناك فبددت الظلماء، ودارت مع الأفلاك في جنبات الأرض فأقامت حضارة مادية وأدبية لا نظير لها. والتغيير الجذري الذي أحدثه الرسول ﷺ في العرب، انطلقوا به ليحدثوا تغييراً جذريّاً في آفاق الأرض، تغييراً ذاهباً إلى الطول والعرض والعمق(١).

ولقد شق الفكر الإسلامي الأول طريقه إلى الحياة والسيادة بقوة رائعة، أمكنته أن يتشعب مع النشاط الإنساني دون كلال. ونستطيع القول: بأنه ترك في الحضارة العالمية آثاراً خالدة(٢).

والحرية العقلية وُلِدت أولاً في (المدينة) و(دمشق) و(بغداد) و(مصر) و(القيروان)، و(الأندلس) و(مدن خراسان) الإسلامية، قبل أن تُولد في (لندن) و(باريس) و(برلين) و(روما)!.

وعندما فتح المسلمون الأندلس نقلوا إليها علومهم المختلفة من دمشق وبغداد ومصر والمغرب، فأصبحت الأندلس منارة مضيئة في قلب أوروبة التي كانت ما تزال غارقة في ظلمات العصور الوسطى(٣).

وبظهور المسلمين عَرف الناس حرية الفكر، وحرية الاعتقاد، وسقطت فجأة

---

(١) علل وأدوية، ص١٥٢.

(٢) ظلام من الغرب، ص٤٤.

(٣) الضربات، للجندي، ص١٢٦.

دولة الأصنام في ربوع الجزيرة المخرفة، ثم تساقطت تباعاً سلطات الكِهَانة الدينية والسياسية التي استشرت بالقارتين المعمورتين في تلك الأعصار، آسية وإفريقية.

وتوالت الانفجارات في الوعي العام، مصحوبة بالتطلع إلى مزيد من العدل الاجتماعي والكرامة السياسية.

وكان الإسلام في هذه التطورات الرائعة باعثَ النهوض، وحافزَ الهمم، وسِرَّ الطفرات الغريبة التي عَمَرت وجْهَ الأرض بعد خراب[1].

وفي عهد هؤلاء الفاتحين العظام بلغت الأندلس أوجَ الازدهار؛ حيث كانت (قرطبةُ) عاصمة الأمويين العربية معقلَ الثقافة في العالم وقلْبَها النابض، إلى الحدِّ الذي نافسَتْ فيه بغدادَ، بل فاقَتْها في كثير من النواحي[2]!.

كذلك كانت (القَيْرَوان) مركز الحضارة الإسلامية والعاصمة العلمية في المغرب[3].. وقل مثل ذلك في مدائن شتى.

•• إن نهضة العرب الكبرى إبَّان العصور الوسطى كانت الأصلَ الأول لحركة البعث العلمي والإصلاح الاجتماعي والمدني في أوروبة والعالم.. وإن الأندلسَ وجنوبَ إيطالية وشرقَ أوروبة كانت معابرَ فيَّاضة بالنشاط الإنساني الراقي لتمدين بلاد غَبَرت عليها العصور، وهي لم تتذوق طعماً للمدنية، بعدما طاحَتْ رومة وأثينة، وعفَّى على آثارهما الزمن[4]. فجاء أصحابُ محمد ﷺ وتلاميذُهم ومَن بعدهم ليفكُّوا أَسْرَهم ويحرِّروا عقولهم ويعلِّموهم!.

يقول المفكّر الشهير رجاء جارودي: (إن الإسلام عند مولده أنقذَ العالم من

---

(١) ظلام من الغرب، ص٢٦٣.

(٢) الضربات، للجندي، ص١١٨ ـ ١١٩.

(٣) الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٤) كفاح دين، ص٨٦.

الانحطاط الشامل، فقد كانت الإمبراطوريات التي تسودُ العالَم مفككة منحلَّة، سواء الفارسية أو الرومانية، أو أرجاء الهند، أو الشمال الإفريقي، أو ممالك (الفيرقوط) بإسبانية... ثم جاء القرآن مُعلِناً بقوة علوَّ الخالق ومجدِه الذي تفرَّدَ به، وبانياً على هذه (الوحدانية) نوعاً جديداً من البشرية المتساوية في عبوديتها لله سبحانه.

وبذلك مَنح الألوفَ المؤلفة من الناس وعياً بمدى الكمال الذي يحرزونه عندما يعرفون ربهم ويرتبطون به.

إن (الربانية) هي الشرفُ الحقيقي للإنسان، والبعدُ الذي يجتازه ليؤدي رسالته في الحياة).

ويقول جارودي أيضاً: (إن نهضة الغرب لم تبدأ في إيطالية مع إحياء الثقافة اليونانية والرومانية! بل بدأت في إسبانية مع إشعاع العلوم والثقافة العربية الإسلامية! لكنَّ هذه النهضة الغربية لم تأخذ من العلوم العربية الإسلامية سوى منهجها التجريبي وتقنياتها، وتركَتْ جانباً الإيمانَ الذي يوجِّهها نحو الله، ويسخِّرها لخدمة البشر!..)[1].

ويقول المؤرِّخ الإسباني الكبير يوسف كوندي متحسِّراً على انحسار الخلافة الإسلامية عن (الأندلس) وخروج المسلمين منها:

(وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ذلك الشعبُ الباسل اليقِظُ، الذكي المستنير، الذي أَحيت صناعتُه النشطة أرضَ الأندلس، هذه الأرض التي أَسْلَمَتْها كبرياءُ (القوط) الخاملة إلى الجَدْب، فلما تسلمها العرب استدرَّ عليها الرخاء وفاض، بعدما احتفَروا لها عديدَ القنوات.

ذلك الشعب الذي أحاطت شجاعته العظيمة ـ في السعود والشدائد معاً ـ عرشَ الخلفاء بسياج من البأس، والذي أقامت عبقريته ـ بالمِرَان والتقدم

(١) سرّ تأخر العرب والمسلمين، ص٥٢، ٥٧.

والدرس ـ صرحاً خالداً، طالما انبعث ضوؤه ينير أوروبة ويلقي فيها بذور الشغف بالعلم والعرفان.

هذا الشعب الذي كان روحُه الشهمُ يَطبع أعمالَه كلها بطابع لا نظيرَ له من العظمة والنُّبْل، ويُسْبغ عليه في نظر الخَلَف لوناً غامضاً من العظمة الخارقة ودهاناً من البطولة الساحرة.

ظهر العرب في إسبانية فملؤوها بنشاطهم وبراعتهم، ثم خرجوا منها حاملين أموالهم وفنونهم، فماذا أنشأ الإسبان مكانهم؟! لا نستطيع أن نجيب بشيء، إلا أن حُزناً خالداً يَغمر هذه الأرض، وكانت من قبلُ تتنفَّس فيها أبهجَ الطبائع!.

إن هناك بعضَ الآثار المشوَّهة ما زالت تُشرِف على هذه البقاع الموحِشة ولكنَّ صرخة الحقيقة تدوي من أعماق هذه الآثار، ومن صميم هذه الأطلال الدارسة، تلقي في الآذان والأفئدة: أن الشرف والمجد للعربي المغلوب، والتدهور والبأساء للإسباني الظافر!)[1].

سادساً: شرف الجهاد ورحمة الفاتحين، وفرية انتشار الإسلام بالسيف:

●● والقتال الذي أعلنه أصحابُ رسول الله ﷺ والتابعون وأتباع التابعين ـ ممن زكاهم الحديث الذي صَدَّرْنا به هذه النبوءة ـ على الفُرس والرومان هو أشرفُ قتال سجَّلَه التاريخ، وهو وحده الذي أَدَّبَ المتكبرين، وأنقذ المستضعفين. وليت هذا القتال ـ ببواعثه ونتائجه ـ يتكرر في الدنيا؛ لِيُحِق الحق، ويُبْطِل الباطل!.

والحروب الأولى في تاريخنا تمحَّضت لله، ومشَتْ في سبيله، وفوجئت الشعوب السجينة داخل أسوار الدولتين الرومانية والفارسية، بقوم اكتفوا بتقليم أظافر (الاستعمار) القديم! ثم ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١]. واختفى طغيان الفرس وكِبْر الرومان، وسَلْبُهم

(١) ظلام من الغرب، ص٢٧١؛ وانظر: كفاح دين، ص٨٦ ـ ٨٧.

ونَهْبُهم، وارتفع نداء (الله أكبر)، فعلم الناس أنهم أحرار، وأن الأرباب السابقين سقطوا!.. فشرعوا يدخلون في الإسلام أفواجاً أفواجاً، وإذا شمال إفريقية كله حتى الأندلس، وغرب آسية وشرقها حتى الهند والصين وخراسان وما وراء النهر يتدفق أهلها على الدين الجديد.

إن الفتوح العقلية والروحية كانت آلَقَ شعاعاً وأقوى اندفاعاً من النجاح العسكري، وما فعله الأصحاب والأتباع اتَّسَم بطابع الخلود؛ فالأقطار التي حرروها هي كهفُ الإسلام إلى اليوم، وهي التي تشتبك في كفاح سياسي وثقافي وعسكري مع الاستعمار الجديد، ومع فداحة ما تحمَّلتْ فهي صامدة ترجو الآخرة، وترقُّب النصر الحاسم[1].

●● والرسول الأعظم ﷺ (كان إذا أَمَّرَ أميراً على جيش أو سَرِيَّةٍ؛ أوصَاهُ في خاصَّتِه بتقوى الله ومَنْ معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «**اغْزُوا باسم الله، في سبيل الله، قاتِلوا مَنْ كَفَر بالله، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغْدِرُوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تَقْتُلوا وَليداً، وإذا لَقِيتَ عدوَّكَ من المشركينَ فَادْعُهُمْ إلى ثلاثِ خِصالٍ...**»)[2].

وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ (كان في غَزاةٍ، وعلى مقدِّمةِ الناس خالدُ بن الوليد، فإذا امرأةٌ مقتولةٌ على الطريق، فجَعَلُوا يتعجَّبُون من خَلْقِها، قد أصابَتْها المُقدِّمةُ، فأتى رسول الله ﷺ فوَقَفَ عليها، فقال: «**هَاهْ! ما كانتْ هذه تُقاتِلُ**»! ثم قال: «**أَدْرِكْ خالداً، فلا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً ولا عَسِيفاً**»)[3].

---

(١) سرّ تأخر العرب والمسلمين، ص٣٨ ـ ٣٩.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣١) واللفظ له؛ وأبو داود (٢٦١٢) و(٢٦١٣)؛ والترمذي (١٤٠٨) و(١٦١٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨٥٣٢) وأطرافه؛ وابن حبان (٤٧٣٩)؛ والبغوي (٢٦٦٨) و(٢٦٦٩)، وغيرهم.

(٣) أخرجه أحمد: ٣/ ٣٨٨، ٤/ ٣٤٦؛ وأبو داود (٢٦٦٩)؛ والنسائي في الكبرى (٨٥٧١، ٨٥٧٢)؛ وابن ماجه (٢٨٤٢)؛ وابن حبان (٤٧٨٩)، وغيرهم.

=

إن رسولَ الرحمة ﷺ لم يَسكت عن قتل امرأة، وعاتبَ خالداً فيها، وهو من هو، وقد زكّاه النبيّ ﷺ ووصفه بأنه سيفُ الله! لكنَّ المبادئ التي أقامها الإسلام لا تعرف المهادنة ولا التنازل، والإسلام رحمة مهداة جاء لإحياء النفوس واحترامها لا لإذلالها وإهدار كرامتها! فأين حروبُ الأعداء في الأمس واليوم، وأين الصليبيون والماركسيون والوثنيون وفظائعهم؛ من الجهاد الإسلامي وفتوحاته الجليلة؟!.

●● (إن الدولة لم تستخدم في الإسلام قَطُّ أداةَ قَسْرٍ على ترك دينٍ واعتناقِ آخر، كما وقعَ ويقعُ في أقطار أخرى، لخدمة أديان أخرى.

وما حاجةُ الإسلام إلى الإكراه، ومبادئه تنسابُ إلى القلوب من تلقاء نفسها، لأنها الفطرة، وتعاليمُه تنساقُ إلى العقول كما تنساق البديهات التي يلقاها الفكرُ بالتسليم ولا يستطيعُ أمامها مِراء!)[١].

لمّا استلم عمر الفاروق مفاتيحَ بيت المقدس، وأدركَتْه الصلاة، قال له بطريركُ بيت المقدس: (صلِّ حيثُ أنتَ)، فقال عمر رضي الله عنه: (لا، لو صلَّيتُ هنا لوَثَب المسلمون على المكان، وقالوا: هنا صلَّى عمر، وأخذوا الكنيسة منكم)! وذهب فصلى بعيداً!.. لو كان فاتحاً ممن يحتقرون وجهات النظر الأخرى ويدمِّرون على غيرهم، لصلَّى في المكان واغتصبه[٢]!.

والمسلمون هم الذين علَّموا الفرسَ والرومانَ واليهودَ وغيرَهم ما يُسمى (التسامح الديني)! ولو أراد المسلمون ألَّا يَبقى غيرهم في (الشرق الأوسط)

= وهاه: وعيد. **والذرية**: اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى، والمراد هنا: النساء. **والعسيف**: الأجير، والعبد، والشيخ الفاني.

(١) كفاح دين، ص١٠٨.

(٢) اليهود المعتدون، ص٢٨٧؛ وانظر: البداية والنهاية: ٧/ ٥٥ ـ ٨٥، وما كتبناه في هذا الكتاب: نبوءة رقم (٢٥).

وغيرِه من البلاد التي فتحوها؛ ما بقي أحدٌ، ولكنهم أبقوا غير المسلمين صَدَقةً للإسلام؛ لأن الإسلام لا يعرف الإكراه، ولا يعرف الغصب والجبروت(١).

إن (السَّلَف) الذي حمل الإسلام، وعَبَر به الأبعادَ الشاسعة؛ أَرى الناسَ من نفسه نماذجَ رائعة، فدخل الناس في دين الله على إعجاب ورغبة.. وما كادوا يتعمَّقون هذا الدينَ، ويتعرفون دخائلَه؛ حتى صاروا حِرَاصاً على دعوته العامة، مثلَ العرب الذين جاؤوا به، أو أشدّ.

وقد وقع قتالٌ في أثناء سعي العرب لتحرير الشعوب السجينة، وفكِّ الأغلال عنها.. وهل كان يمكن قمعُ (الاستعمار القديم أو الحديث) إلا بالسلاح؟!.

إنَّ أنبلَ قتالٍ وقع على ظهر الأرض هو ما خاضَه أتباعُ محمد ﷺ، لردِّ الرومان إلى أوروبة من حيث جاؤوا، ولكَسْرِ شوكة المجوسية في فارس، ولِهَدْمِ صرحِ الوثنية والطبقية المُستعبِدة في الهند والسند(٢).

ولقد فَتحتْ (إسبانية) أبوابها للمسلمين، إيماناً من أهلها بأنهم سيُخلِّصونهم من ظلم الرومان الطاغي الذي امتدَّ ألف عام. وكان موقفُهم ذاك أشبَهَ بموقف أهل الشام ومصر وإفريقية(٣).

إنه لولا انبهارُ الأمم بالدين الجديد، وتجاوبُها معه، وإحساسُها بأنه هدية الأقدار إليها، ما دانَتْ لأهله، ولا دَخلتْ فيه(٤).

ويؤيد ذلك أن المسلمين في كل الحروب التي خاضوها كانوا أقلَّ من عدوِّهم عدداً وعِدَّة، ومع ذلك دحروهم وفتحوا بلادهم. وما ذلك إلا لتعطُّش شعوب أمم الأرض إلى هدي الدين الجديد، والتخلُّصِ من رِبْقة الاستعباد والرق

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢٨٧.

(٢) كفاح دين، ص١٠٦.

(٣) الضربات، للجندي، ص١٢٦.

(٤) كفاح دين، ص١٠٧.

والذل والعبث بالكرامة والخيرات، والتألّه الطاغي الذي مارسه أباطرة رومة وفارس ومَنْ شابههم[(١)].

سابعاً: سماحة الإسلام تتمثل في هدي الفاتحين:

•• قال عمر رضي الله عنه لأحدِ ولاتِه موجِّهاً ومرشِداً وآمراً: (إن الله قد استَخْلَفَنا على عباده لنسدَّ جَوْعتَهم، ونستُرَ عورتهم، ونوفِّر لهم حرفتهم، فإذا أعطيناهم هذه النِّعم تقاضَيْناهم شكرها. يا هذا! إن الله قد خلق الأيدي لتعملَ، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمستْ في المعصية أعمالاً، فاشغَلْها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية).

وهذا سيد الفتوحات الإسلامية خالد بن الوليد يكتب بعد فتح العراق، فيقـول: (أيُّما شيخٍ ضَعُفَ عن العمل، أو أصابَتْه آفة من الآفات، أو كان غنيّاً فافتقر، وصار أهلُ دِينه يتصدَّقون عليه؛ طُرِحت عنه جزيتُه، وعِيلَ من بيت مال المسلمين هو وعيالُه، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام!)[(٢)].

وقال الفيلسوف الألماني (نيتشه) تعليقاً على تعاليم الإسلام: (لقد حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة ـ يقصد فلسفة الإغريق ـ ثم حرمتنا بعد ذلك من شريعة الإسلام.

لقد دِيسَتْ بالأقدام تلك المدنيةُ العظيمة في الأندلس! ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن غرائز شريفة، نعم من غرائز رجال الإسلام. إن تلك المدنية الإسلامية لم تتنكر للحياة، بل تجاوبَتْ معها وفَتحت لها صدرها. ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية بعد ذلك، وكان الأَوْلى بهم أن يسجدوا على التراب شكراً لله، ويأخذوا بها، وما مدنيتُنا في هذا القرن إلا متخلِّفة وآلية بجانب مدنية الإسلام في ذلك الوقت)[(٣)].

---

(١) انظر: المد والجزر في تاريخ الإسلام، ص٣١ ـ ٣٧.
(٢) ظلام من الغرب، ص١٧٥.
(٣) المرجع السابق، ص١٧٥ ـ ١٧٦.

•• وعلى العكس من ذلك وقع في بلاد الغرب، حتى بين النصارى أنفسهم! فإن أرقى عواصم أوروبة شهدتْ من مآسي التعصب ما ترعد له الفرائص.

كان الفرنسي الكاثوليكي يذبح الفرنسي البروتستانتي، وهو نشوان بخمرة التشفِّي والغِلّ.

ولو أن العرب النصارى ـ وأغلبهم أورثوذكسي ـ سايروا صِلَة الدين، ونزحوا إلى الغرب؛ لاستُؤصِلَت شَأْفَتُهم، وأضْحَوا أساطير يرويها التاريخ.

والفضل في هذه السماحة التي تسودُ بلادَنا، إلى تعاليم الإسلام وحدها، التعاليم التي جَعلت للنصارى ذِمَّة ورَحِماً، فَهُم وإن كانوا قلة بين جماهير غفيرة، يحيون وافرين آمنين[1]!.

لقد كان الإسلام كريماً غاية الكرم مع أهالي البلاد المفتوحة، ففي إسبانية ـ مثلاً ـ ترك لأهلها كنائسَهم وأديرتهم وحريتهم، كما رَفَع الاضطهاد عن اليهود. وما لبث الاطمئنان أن عاد إلى نفوس المسيحيين في إسبانية، وفَضَّلوا الحكمَ الإسلامي على الحكم القوطي[2].

•• ومع كل ما ذكرنا، وهو غيض من فيض من فضل العرب والمسلمين على الشرق والغرب، ورحمتهم وتسامحهم؛ فإن نفوس الصليبيين واليهود والمجوس والوثنيين تستعِرُ ناراً على أولئك الفاتحين الهداة الذين أرسلهم الله تعالى رحمة للعالمين!.

وما حدث في إسبانية مَثَلٌ شاهدٌ يغني عن ذِكْر الكثير غيره، حيث قامت الصليبية (بإكراه المسلمين المقيمين في الأندلس على التنصُّر بأبشع الوسائل وأفظعها، وحرمانهم من التخاطب بالعربية، والتسمي بالأسماء العربية، ولبس

(١) ظلام من الغرب، ص٦٨ ـ ٦٩.
(٢) الضربات، للجندي، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

الثياب العربية، ومن سائر تقاليدهم القديمة! فضلاً عمَّا أصابهم من التعذيب والتحريق على يد محاكم التفتيش الشهيرة، التي أُنشئت للعمل على إبادة بقايا الأمة الأندلسية! ولم يمضِ على سقوط غَرْنَاطة زُهاءَ خمسين عاماً حتى استحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طائفة من (الموريسكيين) المتنصِّرة! و(الموريسكيون) هم بقايا المسلمين الذين بقوا بالأندلس بعد زوال الدولة الإسلامية؛ وتعرَّضوا للاضطهاد؛ وحافظ قسم كبير منهم على دينه وعقيدته)[١].

(وحرصت إسبانية والبرتغال بعد غياب شمس الأندلس الإسلامية على محوِ كل آثارها من مساجد ومدارس، كما حوَّلت جامع قرطبة إلى كنيسة، والذي ما زال قائماً بأعمدته وشُرفاته وسائر أبنيته في أجود حالة من الحفظ، وذلك بالرغم من أن أقدم أجنحته، وهو الجناح الذي بناه عبد الرحمن الداخل الأُموي، قد مضى على بنائه زُهاء ألف ومئة عام)[٢].

وبعد:

إننا لم نكتب هذه الفصول للتغني بأمجاد الآباء، والترنم بفتوحاتهم العبقرية ومسلكهم الرشيد، ولا للتفاخر بأننا كنا سادة الدنيا ومرشدين للأنام، دهراً طويلاً! فإننا نرفض التعاظم بالآباء ونحن نَخلُد إلى الأرض.

إنما نكتب هذا لنعرِّف أجيالنا بالذخيرة المباركة التي بين أيدينا، ولنستنهض الهمم، ونثير الحمية في قلوب الشرفاء الذين يستمسكون بعُرى الحق، على غُربة من الزمان، وجَوْر من السلطان، وشراسة من الأعداء، وطمس لحقائق يُراد لها أن لا تخرج من تحت ركام التضليل الفكري والغزو الثقافي، على أيدي دهاقنته من أعداء الأمة المتربصين بها في الخارج، وصنائعهم وعملائهم في الداخل، الذين ينخرون في جسم الأمة وينهشون تراثها!.

---

(١) الضربات، للجندي، ص١٣٧ ـ ١٣٨.

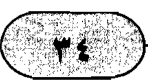
(٢) المرجع السابق، ص١٥٦.

ونؤكد على ما قاله الشيخ محمد الغزالي:

(إنني أرفضُ التعاظُمَ بالآباء، ولكنْ إذا كانت الأمم التي لا تاريخَ لها تصنعُ لنفسها تاريخاً يكون منطلَقاً لنشاطها، والأمم التي لها تاريخ حافل بالتعصب والمآسي، تستر أخطاءها وتحاول الاعتذار عنها، فهل المسلمون وحدَهم هم الذين يُستباح تاريخُهم، ويُنكَر جميلُهم، وتُلتمس العيوبُ لتراثِهم؟! ذاك ما يريده الغزو الثقافي! إنه يريد أن يعرف أولادنا الكثير عن نابليون، وواشنطن، ومونتجمري! ولا يعرفون شيئاً عن خالد، أو صلاح الدين، أو قطز، وبيبرس، ...)[1].



(١) ظلام من الغرب، ص١٤٩. وقد استقيت ما كتبته في هذه النبوءة من: كتب الحديث وشروحها، والفتوحات، و: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوي؛ وكتب محمد الغزالي: علل وأدوية؛ كفاح دين؛ ظلام من الغرب؛ الإسلام والطاقات المعطّلة؛ سرّ تأخر العرب والمسلمين؛ اليهود المعتدون؛ وكتاب: الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية، لأنور الجندي، ص١١٨ ـ ١١٩، ١٢٦ ـ ١٣٠، ١٣٤ ـ ١٣٥، ١٣٧ ـ ١٣٨، ١٥٦ ـ ١٥٧، ١٧٥ ـ ١٧٦، ١٨٨، ٢٩٧.


٣٤

إخبار النبي ﷺ بظهور الإسلام حتى يجاوز البحار وتخوض الخيل البحار في سبيل الله

١ ـ عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَظْهَرُ هذا الدِّينُ حتى يُجاوِزَ البحارَ، وحتى تُخَاضَ بالخيلِ في سبيل الله**»[(١)].

٢ ـ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَظْهرُ الإسلامُ حتى تخوضَ الخيلُ البحارَ، وحتى يَختلِفَ التجارُ في البحر**»[(٢)].

٣ ـ وعن أمِّ الفَضْل أمِّ عبدِ الله بن عباس، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**لَيَظْهَرنَّ الإيمانُ حتى يَرُدَّ الكفرَ إلى مَواطِنِه، ولَتُخَاضَنَّ البحارُ بالإسلامِ**»[(٣)].

❁ ❁ ❁

أولاً: بين يدي النبوءة:

هذه نبوءة باهرة، ومعجزة نبوية ظاهرة، أَثبتَها التنزيل العزيز في قوله

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٥٠)؛ وأبو يعلى (٦٦٩٨)؛ والبزّار (١٧٤).

(٢) أخرجه البزّار (٢٨٣)؛ والطبراني في الأوسط (٦٣٧٨)؛ وذكره المنذري في الترغيب والترهيب: ١/ ١٢٩ ـ ١٣٠، وقال: إسناده لا بأس به.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير: ٢٥/ ٢٧ ـ ٢٨؛ وذكره المنذري في الترغيب والترهيب: ١/ ١٣٠، وقال: إسناده حسن إن شاء الله تعالى. وأورد الهيثمي هذه الأحاديث الثلاثة في مجمع الزوائد: ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦؛ والألباني في الصحيحة (٣٢٣٠) وحَسَّن الحديثَ بمجموع طرقه.

سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وصَدَّقها الواقع التاريخي على أتمِّ وجه.

ويتضمن الحديث أموراً ثلاثة جليلة، كانت في مكنون الغيب، وظهرت إلى عالم الشهادة بعد حين، كما أخبر النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

الأول: أن المسلمين سيخوضون بخيولهم وأساطيلهم لُجَج البحار، مجاهدين في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله سبحانه وإبلاغ رسالته للعالمين.. وقد كان ذلك.

الثاني: أن الإيمان سيردُّ الكفرَ إلى مَواطِنه، ويَقْمعُه في جُحوره، وقد عبَّر النبي ﷺ عن ذلك بقوله: «**ليظهرن الإيمان حتى يردَّ الكفرَ إلى مواطنه**»؛ وهذا من جوامع الكلم النبوي، الذي اختصر أحداثاً ضخاماً متطاولة في جملة واحدة! وهو من معاني قول الحق تبارك وتعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]! وهذا ما كان؛ فلقد تمكن الإيمان من كسر دماغ الكفر والطغيان الروماني ورده إلى موطنه في أوروبة، وقَمَعه في بلاده دهراً طويلاً. كذلك حَطَّم الإسلام جبروتَ الفرس، ومزَّق مُلْكَهم، فانْجَحَروا في مَوَاطن ضيقة. وبَسط الإسلام مبادئه في المشارق والمغارب.

الثالث: أن التجار المسلمين بعد أن كانوا يُسيِّرون قوافلَهم التجارية عبر الصحارى والبلدان على ظهر اليابسة، سوف تمخُر سفُنُهم التجارية عُبابَ البحار، ويتردَّدون فيها ذهاباً وإياباً، فيتسع بذلك مجال التجارة عندهم ليشمل البر والبحر. وقد تحقق ذلك أيضاً.

ثانياً: تكوين الأسطول الإسلامي، ومعارك المسلمين البحرية، وفتوحاتهم من خلالها:

●● قد تحدّثنا كثيراً فيما سبق عن (فتوحات المسلمين البرية)، ونتناول في كلامنا عن هذه النبوءة معاركَ المسلمين البحرية، وتطوُّرَ إمكانياتهم بسرعة مذهلة

في مجالات تصنيع السفن، وإتقان استخدام الأساطيل، ومقارعة أعتى أسطول آنذاك وهو الأسطول البيزنطي.

وترجع بدايات غزو المسلمين في البحر إلى عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتحقق قول النبي ﷺ: «**ناسٌ من أمتي عُرِضُوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هذا البحر**»، وكان ذلك بمبادرة جريئة من الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، حيث ركب البحر في جيش من المسلمين، وغزوا جزيرة (قُبرص) وفتحوها.

وفي مصر أنشأ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح (الأسطول المصري)، وكانت أكبر معاركه وأشهرها هي (معركة ذات الصَّوَاري) مقابل (مرسى مطروح)[1]، حيث تعاون مع (الأسطول الشامي) بقيادة معاوية، والتحموا مع الروم في معركة هائلة، حققوا فيها نصراً مؤزَّراً على الروم، وذلك في سنة (٣١هـ) أو (٣٤هـ).

●● وعندما تولى معاوية حكم الدولة الإسلامية سنة (٤١هـ)، أخذ يُولِي القوة البحرية الإسلامية عناية كبيرة واهتماماً بالغاً؛ لأن البحار ثغور خطيرة يؤتى المسلمون من قِبلها، بسبب هجمات الروم المتربصين والذين كانوا يسودون على البحار آنذاك، وكثير من المعارك معهم كانت تُستخدم فيها الأساطيل.

فقام معاوية رضي الله عنه بتحصين (المدن الساحلية)، وشَحَنَها بالمجاهدين والعتاد والمُؤن، مثل مدن: عكا، وصُور، وجَبَلة، وطَرَطُوس، وغيرها.. وبعث الحملات الاستطلاعية، وتمكَّن من فتح الجزر المقابلة للساحل الشامي، مثل: (أَرْوَاد) و(قبرص) و(رُودِس)، واتخذها مراكز أمامية لتوجيه الجيوش إلى بلاد البيزنطيين.

وسيطر على جزيرة (كَرِيت)، فتمكّن من إغلاق (بحر إيجه)، وسَدِّ منافذهِ الرئيسة في وجه السفن البيزنطية.

---

(١) انظر: قادة فتح الشام ومصر، ص١٨٠؛ أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص٩٧.

ورافق ذلك إنشاءُ أسطول بحري تمكَّن من إحكام السيطرة على سواحل بلاد الشام[١].

وفكّر معاوية بفتح (القُسْطَنْطِينية)، فأرسل قواده في البر والبحر سنة (٤٩هـ)، ووصل الأسطول الإسلامي إلى (خَلْقيدُونية) ـ من ضواحي القسطنطينية ـ وحاصروا (القُسطنطينية)، وحدثت معارك بين المسلمين والبيزنطيين، لكنهم لم يتمكنوا من فتح المدينة العظيمة، لأسباب منها: متانةُ حصونها، وبعدُ طريق إمدادات المسلمين، وحداثةُ عهدهم بالحصار البحري!.

ولم يثنِ هذا الفشلُ معاوية عن فتح عاصمة بيزنطة، وتمكَّن الأسطول الإسلامي من السيطرة على جزيرة (خَيوس) التي تتحكم مع (كَريت) ببحر إيجه، واستطاع المسلمون أن يُحْكِموا الطَّوقَ البحري على (القسطنطينية)، وابتدؤوا الحصار الثاني لها بدءاً من سنة (٥٤هـ)، وظل الأسطول مرابطاً هناك حتى سنة (٦٠هـ)، ورافق ذلك حصار بري، وعُرف هذا في التاريخ بـ (حرب السنين السبع). وتمَّ فكُّ الحصار بعد ذلك بهدنة من الطرفين[٢].

●● وفي عهد عبد الملك بن مروان: تابع اهتمامه بالفتوحات، ومن ناحية غزو المسلمين في البحار تمكن القائد حسان بن النعمان الغساني من فتح (قَرْطَاجَنَّة) ـ مدينة على الساحل التونسي، شمال تونُس العاصمة[٣] ـ أقوى القواعد العسكرية البيزنطية.

وقام المسلمون بعمليات سريعة استهدفت المدن الساحلية، ففتحوها باستثناء جيوب قليلة منها (سَبْتَة) التي ظلت الحصن القوي للبيزنطيين[٤].

(١) الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٤؛ تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص٣٠ ـ ٣٢.

(٢) الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٩؛ تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص٣٢ ـ ٣٥.

(٣) نهاية الأرب: ٢٢/ ١٩؛ تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص٩٧.

(٤) تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص٩٥.

وقام حسان بن النعمان ببناء (دار لصناعة السفن)، وأنشأ مدينة إسلامية ثانية هي (تونُس)، وقد أصبحت رباطاً يحمي (القَيْرَوان)، ومَحرساً للبحر، وميناء جديداً للبلاد[1].

●● وقد شهد عصر الوليد بن عبد الملك فتوحات هائلة ونشاطاً باهراً في المجال البحري.

فمنذ بداية سنة (٨٥هـ) ابتدأ موسى بن نُصير بنشاط بحري استهدف الجُزُر القريبة من شاطئ المغرب، للقيام منها بحملات استطلاعية وشلِّ حركة الأساطيل البيزنطية في البحر المتوسط، والتي تشكل خطراً على وجود المسلمين في إفريقية. فغزا بمعاونة بعض قادته جزيرتي (صِقِلِّيَّة) و(سَرْدينيا)، غرب البحر المتوسط وجنوب إيطالية، وهما من الجُزُر الضخمة في ذلك البحر[2].

وعرض يوليان حاكم (سبتة)[3] على طارق بن زياد في (طَنْجَة) المغربية العبورَ إلى (إسبانية)، فاستشار طارقٌ موسى بنَ نصير الذي كان في (القَيْرَوان)، فاستعذب موسى الأمر، وبمشاورة أمير المؤمنين الوليد؛ نضجت الفكرة لدى الجميع، فأرسل موسى طليعة بقيادة (طَريف بن مالك المَعَافري البربري) سنة (٩١هـ) على رأس (٥٠٠) مجاهد من البربر، وقام بمهمة استطلاعية للهجوم على ساحل (إسبانية) الجنوبي، فتبيّن لهم بعد تنفيذ هذه المهمة الجريئة ضعفُ وسائل الدفاع الإسباني.

وفي رمضان من سنة (٩٢هـ ـ ٧١١م) وجَّه موسى بن نصير قائده العظيم طارق بنَ زياد، فعبر المضيق ـ الذي سُمِّي باسمه منذ ذلك الوقت ـ واتبع أسلوب (رأس الجسر)، حيث أقام على الساحل الإسباني قاعدة حصينة سوَّرها

---

(١) الدولة الأموية، للصلابي: ٢/ ٨٠٤.

(٢) تاريخ الدولة الأموية، لطقوش، ص١١٥ ـ ١١٧؛ الدولة الأموية، للصلابي: ٢/ ٨٠٥ ـ ٨٠٧؛ أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص٤٦، ٤٩.

(٣) مدينة مغربية ساحلية، قريبة من مضيق جبل طارق، كان حاكمها يوليان تابعاً لبيزنطة.

وحَمَاها، وانطلَق منها في فتوحاته، وهو أسلوب عسكري رفيع تستخدمه الجيوش الحديثة في عصرنا! وانقضَّ طارق بجنده ـ وغالبهم من البربر ـ كالعُقَاب يفتح في بلاد (شبه جزيرة إيبيرية) المعروفة باسم (إسبانية)، واسمها الإسلامي (الأندلس). والقصة التي يتداولها قُصَّاص المؤرِّخين من أن طارقاً أَحرق السفن؛ هي حكاية يعوزها السند التاريخي القوي، ولا تقف أمام النقد العلمي الرصين[(١)].

وخاض طارق معركة (وادي لكَهْ) الشهير الذي يخترقه (نهر بَرْبَاط) مع القائد القُوطي (لُذْرِيق) الذي حشد (٧٠ ألفاً)، ووقعت المعركة لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة (٩٢هـ)، واستمرت ثمانية أيام، هُزِم فيها لُذْريق، وقدَّم المسلمون فيها (ثلاثة آلاف) شهيدا!.

وتلاحقت الانتصارات علىٰ يدي طارق وجُنده الميامين، فسقطت بأيديهم (قُرْطُبَة) و(مالِقَة) و(إِلْبِيْرة) و(أَرْيُولة) و(طُلَيْطُلَة) العاصمة القوطية الشهيرة.

وكتب طارق إلى موسى بن نُصير بالفتوحات المباركة، فخشي موسى على المسلمين من انتشارهم السريع الواسع في بلاد جديدة مجهولة، فسارع لنجدته وخرج في رمضان أيضاً من سنة (٩٣هـ)، على رأس جيش قوامه (١٨ألف) مقاتل، وسار غربي الطريق التي سلكها طارق، وفتح مدناً كثيرة، وامتدت فتوحاته من (قادِس) في الجنوب الإسباني إلى (بَرْشَلونة) في أقصى الشمال الشرقي وجبال (البيرينيه) في الشمال و(جِلِّيْقِيَّة) في الشمال الغربي لإسبانية. واخترق بلاد الفرنجة فغزا (وادي الرون)، ووصل إلى مدينة (ليون) في قلب فرنسا!.

وتابع طارق بن زياد فتوحاته كذلك، وأطبق هو وموسى على بلاد إسبانية بخطة عسكرية تشبه (حركة الكَمَّاشة) في المصطلح الحربي الحديث!.

---

(١) تاريخ الدولة الأموية، لطقوش، ص١٢١ ـ ١٢٣؛ الدولة الأموية، للصلابي: ٢/ ٨٠٥ ـ ٨١٥؛ الضربات، للجندي، ص١٣٨ ـ ١٤٠.



ونتيجة فتوحات هذين القائدين العظيمين بَسَط الإسلام رُوَاقه على (الأندلس)، بعد جهاد متواصل استغرق حوالي ثلاث سنين[1].

●● وفي خلافة سليمان بن عبد الملك، وتمتد ما بين سنتي (٩٦ ـ ٩٩هـ)؛ داعبت فكرَه أهميةُ فتح (القُسْطنطينية)، لينالَ شرفَ البشرى النبوية بفتحها، الأمر الذي راود معاويةَ من قبلُ كثيراً.

فسيَّر سليمان حملة في سنة (٩٨هـ) بقيادة أخيه مَسْلَمة بن عبد الملك، وانطلقت الحملة من (سورية) في البر والبحر، فوصلت الحملة البرية إلى القسطنطينية في نفس العام (٩٨هـ)، ووصلها الأسطول سنة (٩٩هـ).

وجهَّز أمير المؤمنين الحملة بكل ما يمكن أن تحتاجه من حيثُ العتادُ والمؤن، والأخشاب اللازمة لإقامة بيوت تقي المسلمين بردَ الشتاء، وحَشَد تحت قيادة مسلمة قوات بلغت (١٨٠) ألف جندي، جمعها من أهل الشام والجزيرة والمَوْصل، بالإضافة إلى (١٨٠٠) قطعة بحرية.

ووصل الجيش الإسلامي (بحر إيجه)، وسيطر على مدينتي (سارديس) و(برجاموس)، وتقدم إلى (أبيدوس) على مضيق الدردنيل، ثم عبر إلى الشاطئ الأوروبي، فألفى أفرادُه أنفسَهم عند أسوار القسطنطينية، وحاصروها من جهة البر.

وتحرك في الوقت نفسه الأسطول الإسلامي الضخم باتجاه الدردنيل وبحر مرمرة، وحاصر المدينة من جهة البحر، وتمكَّن من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود.

وبهذا تعرضت القسطنطينية إلى حصارين بري وبحري شديدين.

---

(١) تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص١٢٢ ـ ١٢٤؛ الدولة الأموية، للصلابي: ٢/ ٨١٠ ـ ٨١٩؛ أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص٤٦، ٧٦، ٧٧، ٨١، ٨٣، ٩٨، ١٠٨ ـ ١٠٩.

لكن الجيش الإسلامي لم يتمكَّن من تطويق الجبهة الشمالية للعاصمة البيزنطية، مما مكَّنَها من الاتصال بسواحل البحر الأسود التي أمدَّتْها بحاجاتها من الغِلال والمُؤَن. في حين أخذت الإمدادات والمؤن لدى المسلمين بالتناقص، بعد فشل وصول الإمدادات من الشام، على الرغم من أنهم كانوا يأكلون مما يزرعون ويغنمون.

ولم يتمكن المسلمون من فتح العاصمة البيزنطية الحصينة، ففكَّ مسلمة الحصار عنها سنة (٩٩هـ)، بعد أن ضاق بهم الحال جدّاً[١].

ويعتبر هذا الزحف الإسلامي على القسطنطينية هو الأخير، إلى أن يحين وقتُ فتحها على يدي الخليفة العثماني الشاب محمد الفاتح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

●● ومن جهة أخرى على الجبهة الغربية تابع المسلمون فتوحاتهم ما وراء البحار، فاندفع الجيش الإسلامي بقيادة السَّمْح بن مالك بدءاً من سنة (١٠٠هـ ـ ٧١٨م) وراء جبال البيرينيه، ووصل إلى (تولوز) الفرنسية، واستشهد السَّمْحُ هناك سنة (١٠٢هـ)!.

وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ ـ ١٢٥هـ)، قام عَنْبَسة بن سُحَيْم الكَلْبيُّ بحملات واسعة لغزو بلاد الغال (فرنسا)، وفتح قسماً كبيراً منها، واجتاز (نهر الرون)، واجتاح عدة مدن؛ أهمها (ليون) و(ماسون) و(شالمون) و(سانس) التي لا تبعد أكثر من مئة ميل عن باريس! لكن جيش الفِرِنْجَة قطع عليه الطريق وانتصر عليه، واستشهد عَنْبَسة سنة (١٠٧هـ).

وتولى القائد العظيم عبد الرحمن الغافقي زمام الأمور سنة (١١٢هـ)، فقام بأعمال عظيمة، وفتح مناطق كثيرة من بلاد الفِرِنْجَة، وأدخل الإسلام إليها..

(١) تاريخ الطبري: ٦/ ٥٣٠ ـ ٥٣١؛ البداية والنهاية: ٩/ ١٧٤؛ تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص١٣٠ ـ ١٣٣؛ الدولة الأموية، للصلابي: ٢/ ٧٩١ ـ ٧٩٣.

لكن قوات الفِرِنْجَة كانت تفوق المسلمين عدداً وتنظيماً وتماسكاً وتصميماً على وقف الإسلام الجارف.

وحدث اللقاء الحاسم بين الطرفين في شهر رمضان من عام (١١٤هـ/ ٧٣٢م)، في السهل الواقع بين (تور) و(بواتييه)، ودارت رحى معركة عنيفة، انكسر فيها المسلمون، واستُشهد عبد الرحمن الغافقي في تلك المعركة الشهيرة التي تسميها المصادر الإسلامية (معركة بلاط الشهداء) لكثرة ما استشهد فيها من المسلمين[1].

وكان من نتيجتها أن الفتح الإسلامي توقف نحو قلب أوروبة، وذلك من سوء صنيع النصارى، وقلَّة سَعْدِهم، حيث حُرموا نور الإسلام.

والخريطة المرفقة توضح جانباً من تلك الفتوحات (ص٣٤١).

بهذه الجولة السريعة المختصرة نرى أن جند الإسلام الفاتحين قد خاضوا بخيولهم البحار والأنهار، واجتازوا الفيافي وقطعوا الجبال وعبروا الوديان، وأوصلوا كلمة التوحيد إلى بلاد شاسعة واسعة، من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، في أقل من مئة عام.

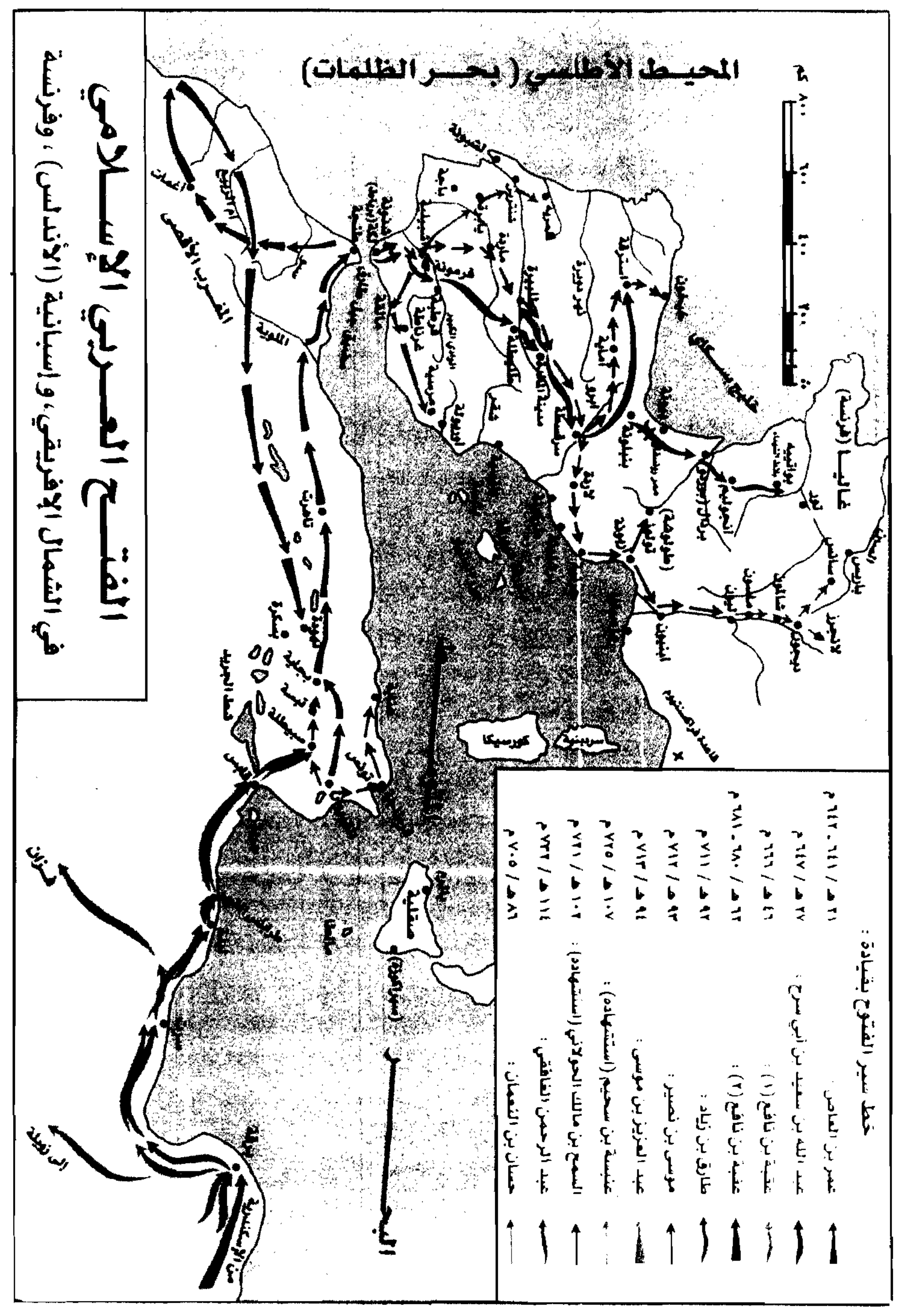
فمن البحار التي مَخَروا عُبَابَها: البحر المتوسط، والبحر الأحمر، وبحر مرمرة، وبحر إيجه، والخليج العربي، وخليج عمان، وبحر العرب، وبحر الهند، ووصلت خيولهم سواحل بحر قزوين، والبحر الأسود، والمحيط الأطلسي!.

●● وأضاف العثمانيون بعد ذلك إلى سلطان المسلمين: بحر قزوين، وبحر مرمرة، وبحر إيجه، والبحر الأسود.

وبسط المسلمون سلطانهم على أهم المضايق البحرية في العالم: مضيق

---

(١) تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص١٦١ ـ ١٦٤؛ كتاب التاريخ للصف الثاني الإعدادي بدولة الإمارات، ص٣٨.



(١) الخريطة مأخوذة من:

أطلس التاريخ الإسلامي، للدكتور شوقي أبو خليل، ص ٤٦.

جبل طارق، ومضيق باب المندب، ومضيق هرمز، ومضيق البسفور والدردنيل، ومضيق ملقا[١].

وعبروا من الأنهار: دجلة، والفرات، وسيحون، وجيحون، والسند، والنيل، والرون، واللوار، وبرباط.

وسيطروا على جزائر كثيرة، منها: أرواد، وقبرص، ورودس، وكريت، وخيوس، وصقلية، وسردينيا، وغيرها.

وبرز في قياداتهم أسماء لامعة ممن عَبَروا الأنهار والبحار، مثل: سعد بن أبي وقاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن سَعْد بي أبي سَرْح، وبُسْر بن أبي أَرْطأة، وعبد الله بن قَيْس الجاسي، وعُقبة بن نافع، وجُنَادة بن أبي أمية، وطَريف بن مالك، وحسان بن النعمان، وطارق بن زياد، وموسى بن نُصير، وعَنْبَسة بن سُحيم، وغيرهم ممن ازدانت بهم الدنيا، وسطر بطولاتهم قلمُ التاريخ الصادق.

وتحقق بجهود هؤلاء العظماء، ومعهم جنودهم البواسل، ومن ورائهم الخلفاء الكبار الذين يسَّروا لهم كل ما يحتاجونهم في مسيرة الجهاد والفتوحات، نقول: تحقق بجهود هؤلاء جميعاً موعودُ النبي ﷺ الصادق، ونبوءتُه المباركة؛ بأن أتباعه سيخوضون البحار مجاهدين في سبيل الله، ويَردُّون الكفرَ إلى مواطنه.

ثالثاً: وقفات كاشفة في تحقق هذه النبوءة:

ولنقف مع هذه النبوءة وقفات كاشفة تزيد البيان بياناً في تحققها في مجالاتها الثلاثة: خوض المسلمين البحار، وتنقل التجار فيها، وردّ الكفر إلى مواطنه.

●● لقد خاض المسلمون حروباً امتدَّت شرقاً إلى أطراف الصين، وشمالاً حتى القُسْطنطينية، وغرباً حتى المحيط الأطلسي، وعبروا مضيق جبل طارق حتى

---

(١) الضربات، للجندي، ص٢٦.

وصلوا سهول فرنسا الجنوبية، كما وصلوا إلى السند وإلى ما وراء النهر (نهر جَيْحون)[١].

وأتقن العرب ـ وهم أبناء الصحراء ـ ركوبَ الأساطيل والحرب البحرية، وتغلبوا على أسطول بيزنطة، وهو أعظم قوة بحرية في زمانهم، حتى يقول عنهم ابن خلدون: (إن المسلمين تغلبوا على لُجَّة بحر الروم ـ البحر المتوسط ـ وإن أساطيلهم سارت فيه جائيةً وذاهبةً من صِقِلِّيَّة إلى تونُس، والرومان والفِرِنْجَة جميعاً تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية، ولا تحاول الدنوَّ من أساطيل المسلمين، التي ضَرِيَتْ عليهم كضِراء الأسد على فريسته)[٢].

وكما يقول الدكتور جمال حماد: هذه الانتصارات المجيدة التي وصل بها العرب إلى تُخوم الهند والصين شرقاً، وإلى نهر اللوار في فرنسا غرباً، في قرابة مئة عام، ترجع إلى عدة عوامل أساسية؛ منها: قوة إيمان العرب، واضطرام حماستهم... وتفوُّق العرب على أعدائهم من ناحية الفن العسكري والتكتيك الحربي.

ويمكن القول: إن العرب قد اتبعوا ميادين الحرب المعروفة حالياً في معظم عملياتهم الحربية، وطبَّقوا الأساليب التكتيكية السليمة في معاركهم بوحي من العبقرية والإلهام، قبل معرفة هذه المبادئ والأساليب وتطبيقها بالطرق العلمية الحديثة بأكثر من عشرة قرون! وقد تميّزوا باتباع مبدأين من مبادئ الحرب، كانا السبب الأول في ذلك النجاح الباهر الذي أحرزوه في ساحات القتال، وهما: خفة الحركة، والمفاجأة[٣].

ويقول المستشرق برنارد لويس في بحثه عن القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط: (أحالت الإمبراطورية الرومانية البحر المتوسط بحيرة

---

(١) الضربات، للجندي، ص٢٥، ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) المرجع السابق، ص٢٨ ـ ٢٩.

رومانية لمدة ستة قرون، حتى ظهر الأسطول الإسلامي منافساً ومنتصراً حتى القرن السادس عشر. . . وكان لسقوط صقلية بأيدي المسلمين ـ سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م ـ رجة في الغرب؛ لأن المسلمين بعدها سيطروا على البحر المتوسط، وحصروا البيزنطيين والأوروبيين في البحار الضيقة. كما كان من نتائج احتلال المسلمين لصقلية أن زادت مواردهم من الحديد والأخشاب، بالإضافة إلى أنهم كانوا قد عرفوا النار اليونانية.

ولم تكن قوتهم البحرية موحدة، وكانت هناك ثلاث قوى: الأندلس في الغرب، صقلية وتونس في الوسط، سورية ومصر في الشرق)[١].

وامتلك المسلمون منافذ التجارة برّاً وبحراً، وكان (الخليج العربي) واسطة العقد في نقل التجارة بين جزأين هامين من العالم المتحضر؛ هما: الهند، وبلدان الوطن العربي المحيطة بالخليج.

ووصل التجار المسلمون إلى شواطئ الصين الشرقية، والهند، وكوريا، وجزيرة سيلان جنوبي الهند[٢].

●● كذلك فإن المسلمين قد سبقوا الأوروبيين إلى التفكير في اكتشاف أمريكة، وهم أول من اقتحم بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، وكان ذلك في محاولتين متباعدتين زماناً ومكاناً[٣].

الأولى: حدثت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) من ثغر لشبونة، أي قبل مغامرة كولمبس بنحو خمسة قرون! وامتدت خمسة وثلاثين يوماً، قام بها ثمانية فتية مغربيون، حتى رسوا على شاطئ مسكون، فاعتقلهم بعض الناس، ثم خلوا سبيلهم وأعادوهم إلى سفينتهم، فعادوا إلى وطنهم حيث

---

(١) الضربات، للجندي، ص٣٠ ـ ٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٣١.

(٣) ورد ذكر إحداهما في «نزهة المشتاق»، للشريف الإدريسي، والثانية في «مسالك الأبصار»، لابن فضل الله العمري، و«صبح الأعشى»، للقلقشندي.

قصُّوا مشاهداتهم. وقد استدلَّ الجغرافيون المتخصصون أن هؤلاء الفتية المغربيين ـ كما سمَّاهم الشريف الإدريسي ـ قد أدركوا إحدى جزائر (برمودا) أو الأنتيل أو إحدى موانئ المكسيك.

والثانية: أَقْدَم عليها مسلمو غرب إفريقية في نحو القرن السادس الهجري (الثالث عشر الميلادي)، عندما زوَّد السلطان (محمد جاد) سلطان غانة بضعَ مئات من سُفُنه بالزاد والماء، وكلَّف رجالَه أن يضربوا في عرض المحيط غرباً حتى يدركوا نهايته. فغابت السفن زمناً طويلاً ثم عادت إحداها أخيراً، فقصَّ ربَّانُها ما لقيَ في رحلته الشاقة من أهوال البحر. إلا أن السلطان أبى أن تبوء فكرته بالفشل، فأعَدَّ سُفناً أخرى أَبْحرَ على رأسها بنفسه، ولم يَلبث أن انقطعت أخبار تلك الرحلة الجريئة، ولم يُعرف شيء عن مصيرها[1]!.

كما قام البحَّار العربي المسلم أحمد بن ماجد[2] المعروف بأسد البحر الهائج بدور خطير ورائد، فهو الذي أرشد قائد الأسطول البرتغالي فاسكو دي غاما إلى مهمته، وأعانه في بلوغ شواطئ الهند، وهو أحرى بلقب (مكتشف طريق الهند) مما نسب زوراً إلى فاسكودي غاما[3].

وختاماً نقول: صدق رسول الله ﷺ الذي قال: «**يَظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار، وحتى تُخاض بالخيل في سبيل الله**».



(١) الضربات، للجندي، ص٣٢ ـ ٣٤.

(٢) من أبناء الخليج العربي، ولد في جلفار (رأس الخيمة) في النصف الأول من القرن الخامس عشر، وعُمِّر طويلاً، نشأ في أسرة تشتغل بالملاحة، فقد كان أبوه وجده ملاحين. ذكر الزركلي وفاته (بعد ٩٠٤هـ/١٤٩٨م).

(٣) انظر: الضربات، للجندي، ص٣٤ ـ ٣٦؛ الأعلام، للزركلي: ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١؛ معجم المطبوعات، لسركيس، ص٢٣٠ ـ ٢٣١؛ كتاب التاريخ للصف العاشر بدولة الإمارات، ص٤٩، طبعة ١٩٩٤م، وص٣٥ ـ ٣٦، طبعة ٢٠٠٥م، ففيها تعريف جيد بهذا الرجل الكبير.

إخبار النبي ﷺ
بفتح القسطنطينية

١ ـ عن أبي قَبِيلٍ حُيَيّ بن هانئ المَعَافِرِيِّ قال: (كنّا عند عبدِ الله بن عَمْرو بن العاص، وسُئِلَ: أَيُّ المدينتينِ تُفْتَحُ أوّلاً: القُسْطَنْطِينِيَّةُ أو رُومِيَةُ؟ فدَعَا عبدُ الله بصُنْدوقٍ له حِلَقٌ، قال: فأَخْرجَ منه كتاباً، قال: فقال عبد الله: بينما نحنُ حولَ رسولِ الله ﷺ نكتُبُ، إذ سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ المدينتينِ تُفْتَحُ أوّلاً: أَقُسْطنطينيَّةُ أو رُومِيَةُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «**مدينةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أوّلاً**» يعني: قُسطنطينيَّةَ)[1].

٢ ـ وعن عبد الله بن بِشْر الخَثْعَمِيِّ، عن أبيه بِشْر بنِ سُحَيْم: (أنَّهُ سمعَ النبيَّ ﷺ يقول: «**لَتُفْتَحنَّ القُسطنطينِيَّةُ، فلَنِعْمَ الأميرُ أميرُها، ولَنِعْمَ الجيشُ ذلك الجيشُ**» قال: فَدَعَاني مَسْلَمةُ بن عبد الملك فسأَلني، فحدَّثْتُه، فغزا القُسْطَنطينية)[2].

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ١٧٦؛ والدارمي (٤٨٦)؛ وابن أبي شيبة في أول كتاب الجهاد من المصنف: ٤/ ٥٨٥، حديث (١٥٩)؛ والداني (٦٠٧)؛ والحاكم: ٤/ ٤٢٢، ٥٠٨، ٥٥٥، وصحَّحه في المواضع الثلاثة ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه أحمد شاكر في المسند: ١٠/ ١٣١؛ والألباني في الصحيحة (٤).

(٢) أخرجه أحمد وابنه في زوائده: ٤/ ٣٣٥؛ والبخاري في التاريخ الكبير: ٢/ ٨١، والتاريخ الأوسط: ١/ ٤٤٩ (١٠٠٣)؛ والبزّار (١٨٤٨) زوائد؛ والطبراني في الكبير (١٢١٦)؛ وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١١٥٥)؛ والحاكم: ٤/ ٤٢٢، وغيرهم، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٦/ ٢١٩): رجاله ثقات؛ وذكره الألباني في الضعيفة (٨٧٨) وقال: الحديث لم يصح عندي!.

حَرَص عدد من خلفاء المسلمين على فتح القسطنطينية للفوز بتحقيق هذه النبوءة النبوية الصادقة، والظَّفَر بالثناء الذي أطرى به الرسولُ ﷺ فاتحَها وجيشَه. فسعى لذلك معاوية بن أبي سفيان مرتين، ومن بعده سليمان بن عبد الملك، ثم بايزيد الأول العثماني، ثم مراد الثاني العثماني، ولكنَّ الله سبحانه ادخرها لمحمد بن مراد الثاني المشهور بالتاريخ بمحمد الفاتح!.

أولاً: وصف موجز لمدينة القسطنطينية(١):

خَلَفَت القسطنطينيةُ مدينةَ روما كعاصمة للإمبراطورية الرومانية، وانتَزَعت منها شهرتها العريضة، وأُنشِئت القسطنطينية فوق مواقع مدينة أقدمَ منها ببضعة قرون هي (بيزنطة)، وفكَّر أباطرة الدولة الرومانية بنقل عاصمة إمبراطوريتهم من رومة، فاختار (قُسْطَنطين) بيزنطة لتكون قاعدة للإمبراطورية، تلك المدينة التي تقع على مشارف آسية وأوروبة، وتتحكَّم في تجارة البحر الأسود. ومنذ استيلاء قسطنطين على (بيزنطة) سنة (٣٢٤هـ) انصرف إلى تحصينها، ثم وضع خطط العاصمة الرومانية الجديدة سنة (٣٢٨م)، وكانت (بيزنطة) تقوم فوق خمس تلال، فأضاف لها اثنتين، وأقيمت القسطنطينية على سبع تلال. وحَمل إليها كثيراً من آثار رومة وأَثينة وصِقِلِّيَّة وأَنْطاكِيَة وغيرها، وغطَّى تلالها بالأبنية الضخمة.

وفي يوم (١١ مايو/أيار ٣٣٠م) افتُتِحت المدينة الجديدة بصفة رسمية، وأصبحت عاصمة للإمبراطورية الرومانية، وسُمِّيت (رومة الجديدة) لِيُسْبَغ عليها الجلال السياسي المنشود، وسُمِّيت بنفس الوقت (القسطنطينية) تخليداً لاسم مؤسسها.

وامتزجت الاحتفالات بالطقوس الدينية النصرانية؛ وذلك لأن (قُسطنطين) هو أولُ قيصرٍ روماني اعتنق النصرانية، وذلك سنة (٣١٢م).

---

(١) السلطان محمد الفاتح، ص٤٣ ـ ٤٩.

واتجهت قلوبُ النصارى من رعايا الدولة الرومانية نحو (العاصمة الجديدة)، وتطلَّعوا إليها لتنقذَهم وتحميهم من حكام (رومة) الوثنيين الذين كانوا يناصبون النصرانية العداء. مما حدا بالإمبراطور (تيودوسيوس الكبير ٣٧٩ ـ ٣٩٥م) إلى تقسيم الإمبراطورية بين ولديه قبل وفاته إلى قسمين: الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها (رومة)، والإمبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها (القُسطنطينية).

وتحت هجمات البرابرة على الإمبراطورية الرومانية الغربية سقطت (رومة) في أيديهم عام (٤٧٦م)، وأَفَلَتْ شمسُها. أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية والتي عُرفت بالإمبراطورية البيزنطية؛ فاستمرت بعد ذلك أكثر من (ألف سنة) وعاصمتها القسطنطينية.

وأصبحت (القسطنطينية) بتوالي السنين العاصمة العظمى للعالم، بفضل موقعها ومكانتها وثرائها وكنائسها وقصور أباطرتها، حتى قال نابليون: (لو كانت الدنيا دولة واحدة، لكانت القسطنطينيةُ أصلَحَ المدن لتكون عاصمة لها!)[1].

ثانياً: كلمة مختصرة حول الإمبراطورية البيزنطية[2]:

ظلَّت القسطنطينية (١١٠٠) سنة عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وخطَّ دفاع أول تجاه الشعوب غير النصرانية. وامتازت أحوال الإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي ـ وهو القرن السابق لقرن الفتوحات الإسلامية ـ بالقوة والتفوق الاقتصادي، حيث ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، وبخاصة في ولاياتها الكبرى: آسية الصغرى والشام ومصر.

إضافة إلى ذلك تمتعت بالتفوق في القوات البحرية، لا سيما في (القرن الذهبي)[3] المشهور. واتجهت همَّة البيزنطيين إلى احتلال الثغور البحرية

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٦٢.

(٢) السلطان محمد الفاتح، ص٥٠ ـ ٧٣.

(٣) خليج يمتد شمال القسطنطينية، ويتحكم بمضيق البوسفور بين البحر الأسود وبحر مرمرة. =

والسواحل، وتجنُّبِ التوغل في الأراضي الداخلية، مما قلَّل حاجتهم للجيوش البرية الضخمة وتكاليفها الكبيرة. وساعدهم على التفوق البحري عدمُ وجود منافس لهم.

وقد صَمَدت القسطنطينية ضد الأعداء، فردَّت هجماتِ التتار والبُلغار والهون والقُوط والسّلاف، وتميَّز شعبها بأنه محارِب جريء مظفَّر لا يُقهر!.

والأباطرة بصفة عامة كانوا طغاةً، وأفاضلُهم كانوا قساةً! وكانت الدولة البيزنطية في أخريات أيامها مباءة للدسائس والمكايد والمؤامرات، مع فساد الحكم والإدارة، وكثرة الطامعين والطامحين وأبناء الطبقات الأرستقراطية، وانتشرت الفوضى والإهمال بين موظفي الدولة.

واشتدَّ الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية، والذي أدى إلى حقد دفين بين الأمَّتين (الرومية الشرقية) و(الغربية اللاتينية)، وزادت حِدَّة الصراع بين (بابا رومة) في الغرب و(بطريرك القسطنطينية) في الشرق، على الرئاسة والصدارة.

وفكَّر اللاتين في خَلْع (الإمبراطور البيزنطي) وفَتْح القسطنطينية، وإخضاعِ الإمبراطورية الرومانية الشرقية لحكمهم بالقوة! وانتهى الأمر بتحول (الحملة الصليبية الرابعة) إلى هَدْم الإمبراطورية البيزنطية وفتح القسطنطينية ونهبِها سنة (١٢٠٤م)، لكن استطاع البيزنطيون استعادتها سنة (١٢٦١م)، وتأجَّجَت في قلوبهم نارُ البغضاء على رومة واللاتين. وباءت بالفشل محاولات توحيد القوى النصرانية الشرقية والغربية، وبقيت الهوَّة بين (البابوية) في رومة و(البطريركية) في القسطنطينية؛ مما مهَّد للعثمانيين أن يُثبِّتوا أقدامَهم في أوروبة.

ولـمَّا تزايد الخطر العثماني على البيزنطيين، لم يجد الإمبراطور مَناصاً من اللجوء إلى (رومة) بنفسه، وأَعلن للبابا اعتناقَهُ لمذهب اللاتين، ومع ذلك كانت نجدة رومة ضعيفة لا طائل تحتها.

= وسمي بالذهبي؛ لوفرة أسماكه وجودتها، ولأنه كان مرسى السفن المحمَّلة بمختلف السلع والذخائر النفيسة من شتى بلاد العالم القديم. انظر الخريطة: ١/ ٣٥٨ من هذا المجلد.

واعتلى الإمبراطور (قُسطنطين الحادي عشر) عرشَ بيزنطة سنة (١٤٤٨م)، وحاول الاستنجاد بأوروبة بكل وسيلة لإنقاذ القسطنطينية، وبَعث إلى البابا يستنصره ويُنذره بأنه إذا سقطت القسطنطينية بيد الأتراك، فسيهجمون على إيطالية نفسها، فلم يجد مُغيثاً. وانهارت الإمبراطورية وانهار هو معها.

ثالثاً: لمحة عن العثمانيين ودولتهم حتى عهد محمد الفاتح[1]:

كانت الدولة العثمانية دولة مسلمة حديثة العهد بالإسلام، شديدة التمسك به، قوية الحماس له، سبَّاقة إلى الجهاد في نشره. وكان شعبها شعباً ناهضاً متحمساً طموحاً، فيه وَقْدَةُ الجهاد، سَليماً من الأدواء الخُلُقية والاجتماعية التي أصابت الأمم الإسلامية في الشرق في مقاتلها، كالعرب في بدء حياتهم الإسلامية، تتوافر لديه القوة الحربية التي يَقْدر بها على بَسْط سيطرة الإسلام المادية والروحية، ويردُّ بها غاشيةَ الأمم المناوئة وعادِيَتَها، ويتبوَّأ بها قيادة العالم.

وبَلَغ نظام الحكم عند العثمانيين درجة رفيعة من الإتقان والضبط والعدالة، خاصة زمن محمد الفاتح، حيث يُختار لتولي مناصب الدولة من تؤهِّلُه صفاته ومواهبه العقلية والخلقية والجسدية لمنصبه.

والسلطان هو رأس الحكم، لا يحدُّ من سلطته شيء، إلا الشريعة الإسلامية، فرغم سلطانه القوي والواسع فإنه لا يجرؤ على مخالفة الشرع، ويستفتي في الأمور التي يُبْرِمها، ومن هنا نشأ منصب (المفتي).

وكان العثمانيون أوفياء مخلِصين لسلاطينهم، فلم يفكِّروا يوماً في نقل السلطنة من (آل عثمان) إلى عائلة أخرى. وكان سلاطين آل عثمان من أولهم إلى عهد محمد الفاتح من أقوى الشخصيات التي عرفها التاريخ في أي دولة ناشئة.

(١) السلطان محمد الفاتح، ص٢٤ ـ ٣٠؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٥٩ ـ ١٦٠.

والجيش التركي يسودُ فيه النظام والهدوء، ويمتاز بالطاعة لقائده، والصبر على المكاره، ويتصف بالخفَّة وسرعة الحركة، مع امتلاكه لأحدث الأسلحة وتطويرها وابتكارها، والجمع بين القوات البرية والبحرية.

وحقوق المواطنين محفوظة، والعدالة والمساواة تنتظم رعايا الدولة، والباب مفتوح أمام أصحاب الكفايات.

فكان هذا النهج الذي سلكه السلاطين الأُوَل أهمَّ عامل في ثبات سلطانهم، وكثرة فتوحاتهم، وتوسيع رقعة بلادهم.

(فكانوا يحكمون في ثلاث قارات: أوروبة وآسية وإفريقية، ملكوا الشرق الإسلامي من فارس حتى مراكش، ودوَّخوا آسية الصغرى، وتوغَّلوا في أوروبة، حتى بَلَغوا أسوار فيينّا، وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع).

(وجَمعتْ دولتُهم بين السيادتين: البرية والبحرية، وبين السلطتين: السياسية والروحية).

(وكان الأسطول العثماني مؤلَّفاً مما يزيد على (٢٠٠٠) مركب حربي، وكان القسم الشرقي من بحر سفيد وبحر الأدرياتيك ومرمرة وأزاق والأسود والأحمر وفارس في حوزته وتحت سيطرته)[١].

(وكان دويُّ المدافع التركية يُسمع على الفرات والدانوب وشاطئ ألبانية وسواحل إيطالية في آن واحد، حتى دانَتْ لمحمد الفاتح آسية الصغرى وبلاد اليونان ومعظم شبه جزيرة البَلْقان)[٢].

رابعاً: شذرة عن شخصية محمد الفاتح وعصره[٣]:

ولد محمد بن مراد الثاني المعروف بـ(الفاتح) في أدرنه، في (٢٦ رجب

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢) السلطان محمد الفاتح، ص٣٨.
(٣) السلطان محمد الفاتح، ص٣١ ـ ٣٩؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٥٧ ـ ١٦١.

٨٣٣هـ ـ ٢٠ إبريل/نيسان ١٤٢٩م). واعتنى والده بتربيته جسميّاً وعقليّاً ودينيّاً، فحفظ القرآن الكريم وهو صغير، وورث من أبيه الجَلَد والجدّ والشجاعة، وشدَّة المِراس، والصبر على المكاره، وعدمَ اليأس، والمعرفة بفنون الحرب، وإتقان وضع الخطط الحربية، وحصار المدن، وقيادة العمليات العسكرية. وتشرَّب روحَ الإسلام، ودرس تاريخه المجيد منذ عهد الرسول ﷺ حتى عصره. وكان والده يستصحبه معه في بعض المعارك؛ ليعتاد مشاهدة الحرب والطِّعان، وتحركات الجنود في الكرِّ والفرِّ.

درس على جملة من الشيوخ الرياضيات والفَلك والجغرافية والتاريخ واللغات المختلفة، فَحَذَق الفتى فضلاً عن لغته الأم التركية: العربية، والفارسية، واللاتينية، والإغريقية، والسلافية، وبعضاً من الإيطالية!.

عاش فترة سادت فيها الخشونة والقسوة واضطرام الحماس الديني بين آسية وأوروبة، بل بين الإسلام والنصرانية.

وكان (محمد الفاتح) في صفته قمحيَّ اللون، متوسّطَ الطول، متينَ العضلات، شديدَ الثقة بنفسه، ذا بصر ثاقب، وذكاءٍ وقَّاد، ومقدرة على تحمل المشاقّ، وفي تديُّنه قلَّما تفوتهِ صلاة الجماعة، مُحِبّاً لمجالس العلماء، يحب المناظرة، ميالاً للتفوق والسيطرة!..

ومع أنه ابن السلطان كان يعيش حياة بسيطة، بعيداً عن الابتذال، كارهاً للترف والإسفاف.

جمع إلى التميّز في الناحيتين الثقافية والعسكرية: الكفايةَ الإدارية والقانونية، وهو الذي وطَّد المُلك العثماني، وأَكْسَبَ الدولة النصر الخارجي، وأشاعَ الأمن بين أفراد شعبه على اختلاف طبقاتهم وأديانهم.

ويُعَدُّ من أعظم سلاطين آل عثمان، ووصل إلى درجة كان يُعتبر معها محوراً للسياسة الدولية في عصره! ومجردُ ذِكر اسمِه يُثير الرعب في قلوب أعدائه..

وهو الذي بدَّد الأحلاف الصليبية، وأول حاكم أَطلق عليه الأوروبيون اسم (السيد المعظم).

فلا غرابةَ من احتفال أوروبة بموته، حتى إن البابا أمر أن يُحتفل بعيدٍ، وأن تُقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام، لمَّا أتاه نَعِيُّ محمد الفاتح!.

كان لا بد من هذه المقدمات، لمعرفة جلالة الحدث، ومكانة القسطنطينية، وقوة الدولة العثمانية، ومؤهلات القائد الفاتح وإخلاصه، وضخامة الاستعدادات، وكثرة التضحيات؛ لتوازي ذلك الفتح العظيم.

خامساً: محاولات فتح القسطنطينية:

كان رسول الله ﷺ يَعلم تمام العلم مكانة القسطنطينية وخطورة مركزها وأهمية فتحها لتوسيع رقعة الإسلام وانتشاره في أرجاء المعمورة، وهو ﷺ بما آتاه الله سبحانه من علم وحِكْمة حين يبشِّر الصحابة ومن يليهم من المسلمين؛ يوجه في ثنايا تلك البشارة للسعي الحثيث في تحقيقها، لذا بشَّرهم بفتح بيت المقدس والشام والعراق واليمن ومصر والهند وسواها.. وبُشرى فتح القسطنطينية تنتظم في هذا العقد من البشريات والتوجيهات النبوية الكريمة، فقال ﷺ مبشّراً: «**مدينة هِرَقْلَ تُفتح أولاً**».

ـ لذا كانت (القسطنطينية) هدفاً للمسلمين منذ عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما؛ حيث أرسل حملة في البر والبحر سنة (٤٩هـ) لفتحها، فباءت بالفشل. ثم عاد ثانية فجهّز جيشاً وأسطولاً، وحاصروا المدينة برّاً وبحراً عدّة سنوات سُمِّيت (حربَ السنين السبع) ما بين سنتي (٥٤ ـ ٦٠هـ)، كان المسلمون خلالها يقضون الشتاء في جزيرة (كيزيكوس)، وفي الربيع يحاصرون القسطنطينية حتى يقبل الخريف. لكنهم لم يتمكنوا من فتحها، فأمر معاوية ـ قبيل وفاته بقليل ـ الجيش بالرجوع[1].

---

(١) السلطان محمد الفاتح، ص٦٥ ـ ٦٦؛ وهذا الكتاب: ١/ ٣٣٥ حاشية (٢).

ـ ثم في عهد سليمان بن عبد الملك أعدَّ جيشاً وأسطولاً عظيمين تحت قيادة أخيه مَسْلَمة، وساروا لفتح القسطنطينية سنة (٩٨هـ/ أغسطس (آب) ٧١٧م)، وضَربوا عليها حصاراً لمدة (١٢) شهراً، حتى سنة (٩٩هـ/ ٧١٨م)، وتوفي سليمان، وجاء بعده عمر بن عبد العزيز الذي أمر بفَكّ الحصار وقفول الجيش[١].

ـ وفي سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م) حاصر السلطان العثماني بايزيد الأول ـ الملقب (بالصَّاعِقة) لحملِه على أعدائه في القتال بصورة خاطفة وسريعة ـ القسطنطينيةَ، وشدَّد الحصار عليها حتى كاد أهلها يُشْرِفون على الموت جوعاً! وفجأة ظَهر مخلِّص من الشرق الإسلامي هم التتار الذين عزموا على وضع حدٍّ لنمو الدولة العثمانية، فاضطر بايزيد إلى فكِّ الحصار عن القسطنطينية، ليواجه حشودَ تيمورلنك في سهول أنقرة[٢].

ـ وفي عام (٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م) أعاد السلطان مراد الثاني الهجوم على القسطنطينية، لكن ثورة حدثت في الولايات البلقانية أرغمته على رفع الحصار[٣].

سادساً: فتح القسطنطينية على يدي السلطان محمد الفاتح:

ـ تولى محمد الفاتح عرش الدولة في (١٦ محرم ٨٥٥هـ ـ ١٨ فبراير/ شباط ١٤٥١م)، وورث دولة كبيرة مقسومة إلى قسمين: الأناضول في آسية الصغرى وعاصمته (بروسه)، والروملّي[٤] في أوروبة وعاصمته (أدرنة). وتشكِّل القسطنطينية صلةً بين القسمين، ومن هنا تكمن أهميتها بالنسبة للعثمانيين.

---

(١) السلطان محمد الفاتح، ص٦٧ ـ ٦٨؛ وهذا الكتاب: ١/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.
(٢) العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٨٧ ـ ٨٨؛ السلطان محمد الفاتح، ص١٥ ـ ١٦، ٦٩.
(٣) العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٨٨؛ السلطان محمد الفاتح، ص١٨ ـ ١٩.
(٤) **الروملّي**: هي الأملاك العثمانية في أوروبة.

ـ مهَّد الفاتح لعمله العظيم في (فتح القسطنطينية)، فأجرى تحالفات وعقد اتفاقيات وصداقات مع البندقية والمجر وجنوة وراجوزة وفرسان القديس يوحنا في (رودس)، وأخضع القرمانيين في آسية الصغرى، فعزل بذلك الإمبراطور البيزنطي عن العالم الغربي.

ـ وأنشأ قلعة (روملي حصار)[١] على الشاطئ الأوروبي على بعد (٧كم) من أبواب القسطنطينية عند أضيق نقطة من البوسفور، مقابل قلعة (أناضولي حصار)[٢] التي بناها بايزيد الأول على الشاطئ الآسيوي للقسطنطينية، فأصبح العثمانيون يسيطرون مباشرة على (مضيق البوسفور).

ـ وأعدَّ جيشاً جراراً قوامه (٢٥٠) ألف مقاتل، واستخدم كل جديد في فنون الحرب، خاصة المدفعية وآلات الحصار، مع تنظيم خطوط المواصلات، وتأمين خلفية الجيش، وملأ حصونه بالأسلحة والذخيرة، وأعدَّ أسطولاً ضخماً.

ـ وخلال فترة الإعداد للمعركة الفاصلة تمَّ صناعةُ عدد من المدافع، وبالاستفادة من المهندس المجري (أوربان) الذي عرض خدماته على السلطان وبمساعدة المهندسين الأتراك تم صناعة ما عُرف (بالمدفع السلطاني)، وهو مدفع عملاق يبلغ وزن الكرة التي يرمي بها (٣٠٠) كغ، ومداه أكثر من ميل، ويجره (١٠٠) ثور يساعدها (١٠٠) من الرجال الأشداء! ويُسمع دويُّه عندما يرمي على بعد (١٣) ميلاً، وتصنع قذيفتُه حفرة في الأرض عمقها متران!.

ـ وكان السلطان لا يتحدّث إلا بشؤون فتح القسطنطينية، فكان همَّه الذي يشغله بالليل والنهار، بل قد أرَّقَه وحرمه النوم.

ـ وضَرب السلطان الحصار على المدينة طوال شتاء عام (٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م)، وقام البيزنطيون بتحصين مدينتهم وإصلاح الأسوار المهدَّمة وجَمْعِ الذخائر

---

(١) أي: قلعة الروم.
(٢) أي: قلعة الأناضول.

والأسلحة بسرعة، وكذلك الغِلَال والمُؤن والزيت، وأرسل الإمبراطور يستغيث بأوروبة، فلم يجدوا نصيراً، وأيقنوا أنهم سيدافعون عن (القسطنطينية) وحدهم. واشترط البابا (نيقولا الخامس) أن تتحد الكنيستان الشرقية والغربية، فاضطر قسطنطين للموافقة، وإظهاراً منه لذلك أُجريت في (كنيسة أياصوفيا) مراسمُ دينية وفق (المذهب الكاثوليكي ـ البابوي)، واشمأز الشعب البيزنطي من ذلك، حتى قال رئيس وزرائهم جملته التاريخية: (إنني أُفضِّل أن أشاهد في ديار البيزنطيين عِمَامةَ الأتراك على أن أشاهد القبعة اللاتينية!). وجاءتهم نجدات بسيطة من البندقية وجزيرة كريت وجنوة.

ـ وأَغلق الإمبراطور خليجَ القرن الذهبي (بسلسلة حديدية عملاقة) لتحمي سفنَهم وراءها، وتمنع الأسطول العثماني من دخول الخليج هذا، وقد كان لذلك دور خطير في الدفاع عن القسطنطينية وإعاقة عمل السفن التركية.

وبلَغ عددُ المدافعين البيزنطيين عن مدينتهم (٤٠) ألف مقاتل.

ـ وأَحْكَم الأتراك الحصار على المدينة اعتباراً من (٦ إبريل/ نيسان ١٤٥٣م) من جهة البر والبحر، ومعهم أسطول مكوَّن من (٣٥٠) سفينة بين كبيرة وصغيرة، ونصبوا حولها (١٤) بطارية مدفع، وعُزِلت القسطنطينية عن البلاد المجاورة تماماً.

ـ وكانت معنويات الجيش العثماني عالية جدّاً، وحماسُهم للقتال عظيماً، وقد سيطرت عليهم فكرة (الجهاد في سبيل الله وإعزاز دينه)، ومعهم العلماء والأشراف.

وعَسْكَر السلطانُ بجنده مقابلَ خنادق المدينة، وصلّى بالجيش ركعتين، وقسّم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقَلْب، والقلب يتألف من الجنود الإنكشارية والفِرق الانتحارية وهو بقيادة السلطان نفسه.

ـ وابتدأت المعركة بقصف مدفعي، وأخذت كُتل كبيرة من الأسوار تتخلخل، ويعمل البيزنطيون على إصلاحها عند حلول الظلام.

وكانت المدينة شديدة التحصين (انظر الخريطة في الصفحة التالية):

فهي مثلثة الشكل: جانب على بحر مرمرة، وآخر على ميناء القرن الذهبي، والجانب الثالث في الجهة الغربية يصل القسطنطينية بأوروبة.

لها سوران داخلي وخارجي طولهما أربعة أميال، يرتفع السور الداخلي نحو (١٣ متراً) وخارجي يرتفع نحو (٨ أمتار) بينهما فضاء متوسط عرضه (٢٠ متراً)، وأمام السور الخارجي أرض فضاء، ثم سور ثالث يعتبر متراساً للإعاقة، ثم أمام المتراس خندق واسع عرضه نحو (٢٠ متراً)، وهو خط الدفاع الأول عن المدينة.

ـ ولم يتمكن العثمانيون من إحكام الحصار البحري، حيث تعترض سفنَهم السلسلةُ الحديدية التي أَغلقت مدخلَ (خليج القرن الذهبي)، وحاولوا عبثاً اقتحامها مراراً فلم يُفلحوا!.

ـ وتفتَّقت عبقريةُ السلطان الفاتح عن فكرة وليدة الساعة التمعت بخاطره، وهي القيام بتمهيد طريق بري عبر الحقول والتلال، فتمَّ نقلُ (٧٠) سفينة من البوسفور عبر منحدرات صعبة، ووُضِعَتْ ألواحٌ من الخشب وطُليت بالدُّهْن والزيت وتمَّ انزلاق السفن عليها إلى القرن الذهبي في يوم (٢٢ إبريل/ نيسان ١٤٥٣م)!.

وفوجئ البيزنطيون في الصباح وقد استيقظوا على صيحات المسلمين المدوِّية (الله أكبر)، وإذا بسفن الأتراك في خليج القرن الذهبي!.

ـ وبعد ستة أسابيع من الحصار والقصف، توضَّحت مواقعُ اقتحام المدينة، ومَنْعاً لمزيد من إراقة الدماء عَرض السلطان الفاتح على الإمبراطور تسليمَ المدينة بشرطين:

١ ـ أن يَخرج الإمبراطور وحاشيتُه بكلِّ الأموال والذهب، ويذهب إلى (شبه جزيرة المورة) ـ جنوب اليونان ـ ويحكمها تحت سيادة الدولة العثمانية.



الخريطة مأخوذة من كتاب:

أطلس التاريخ الإسلامي، للدكتور شوقي أبو خليل، ص ١٠٥

٢ ـ التأمين على حياة السكان بعد دخول الجيش العثماني إلى المدينة.

لكن الإمبراطور قسطنطين رفض إلا الدفاع عن عاصمته أو الموت فيها.

ـ وشكَّل السلطان الفاتح مجلسَ حرب، واستشار أركان قياداته، واستقر الأمر النهائي على الهجوم العام.

وفي يوم (٢٧ أيار/مايو ١٤٥٣م) أمر السلطان محمد الثاني جنودَه بالصيام تطهيراً لنفوسهم، وتقوية لعزائمهم وإراداتهم، وأمرهم بالإكثار من الصلاة وذِكْر الله والدعاء!.

وأخذ يستعرض قواته ويحمِّسهم، وتجوَّل حول أسوار المدينة ليرى ما أحدثَتْه الضربات من إضعاف لها، ليحدِّد المواقعَ الأضعفَ لاختراقها منها.

وكانت الاستعدادات في الطرفين على أتمها، وتتوالى بسرعة شديدة.

وفي يوم (٢٩ مايو/أيار ١٤٥٣م) بعد (٥٣) يوماً من الحصار والضرب المتواصل؛ وقع الهجوم النهائي وتركَّز على باب القديس رومانوس في وادي ليكوس. وشَقَّ العثمانيون طريقهم عبر خندق، ودخلوا كالموج المتلاطم مخترِقين الأسوار، إلى المدينة التي أخذها الفزع من كل جانب.

واستمات أهل القسطنطينية في الدفاع عنها، وتلاحم الجيشان في قتال مرير، ورَجَحت كفَّة العثمانيين وتمكَّنت الأفواج المتلاحقة من جندهم من إسقاط أعلام بيزنطة ورَفْعِ الأعلام العثمانية، فانهارت معنويات المدافعين.

ورأى قسطنطين الأعلامَ العثمانية ترفرف، وتدفُّقَ الترك كالسيل الجارف، فنزل عن جواده وسَلَّ سيفَه وأخذ يقاتل بشراسة حتى كَلَّتْ يدُه، وأصابه أحد الجنود الأتراك بضربة سيف قاتلة فخرَّ صريعاً.

وفي بحر مرمرة والقرن الذهبي حدثت بين الطرفين معارك ضارية، ولم يستطع أي من الفريقين دَحْرَ الآخر، لكن عندما رأى المدافعون الأعلام التركية

فوق أبراج السور البري أُصيبوا بالذهول، فمنهم من استسلم، ومنهم من ولى هارباً يلتمس سبيل النجاة.

واستولى الجيش العثماني على المدينة عَنْوَةً، واستسلم من بقي من أهلها والمدافعين عنها للأمر الواقع ينتظرون ماذا يُفعل بهم.

وبفتح القسطنطينية سقطت الإمبراطورية البيزنطية بعد أحد عشر قرناً ونصف تقريباً، ودخل السلطان محمد الثاني المدينة في (٣٠ من أيار/ مايو ١٤٥٣م) في احتفال كبير، ولقّب عن جدارة بـ (السلطان محمد الفاتح)[1].

سابعاً: السلطان الفاتح يتحلّى بأرفع الأخلاق الإسلامية في التسامح:

سقطت المدينة التي استعصت على الفاتحين بيد البطلِ الشاب ابنِ الأربع وعشرين سنة، وجيشِه من آل عثمان المسلمين المجاهدين، ونالَ (الفاتحُ) وجيشُه ذلك الثناءَ النبوي الرفيع الذي ادَّخره لهم العليُّ الأعلى: «**لَتُفتحنَّ القسطنطينيةُ، فلَنِعْمَ الأميرُ أميرُها، ولَنِعْمَ الجيشُ ذلكَ الجيش**».

وأقبلت جموعُ المهنئين على (الفاتح) يهنئونه بالنصر والفتح، فلم يزد على قوله: (حمداً لله، لِيرحم الله الشهداء، ويَمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبي الفخر والشكر).

وجال في المدينة مع جيشه ضمن هتافات تشقُّ عَنَان السماء: (الله أكبر، ما شاء الله، ما شاء الله، ليحيا سلطاننا). فلما وصل وسط المدينة، استوقف الحشود، وهنَّأَهم بالنصر، وقرأ عليهم بالعربية الفصحى حديثَ النبي ﷺ وبشارته: «**لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**».

---

(١) اختصرت أخبار (فتح القسطنطينية) من كتب: السلطان محمد الفاتح، ص٧٧ ـ ١٣٦؛ العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٨٧ ـ ٩٦؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٥٨؛ الضربات، للجندي، ص١٧٣.

وسار بموكبه المظفَّر في الشارع المؤدي إلى (كنيسة سانت صوفيا)، وترجَّلَ أمام الباب، وانحنَى ووَضَع حَفْنَةً من التراب على رأسه، خضوعاً لله وشكراً له.

وفُتحت له الكنيسة وفيها الراهب راعي الكنيسة، والناس يقيمون صلواتهم، فأذِنَ لهم بإتمامها دون جزع، ثم طلب من الراهب أن يَصرف المصلين ويأمرهم بالعودة إلى منازلهم آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، فنزل عليهم هذا الكلام برداً وسلاماً واطمئناناً.

ثم سجد الفاتح مرة أخرى شكراً لله، وأَمر أَحدَ المسلمين أن يرفع الأذان للصلاة في هذه الكنيسة التاريخية، وتحوَّلت (سانت صوفيا) من يومذاك إلى (جامع أيا صوفيا)، وأُزيلت عنها معالمُ النصرانية من صُلْبان وصُور القديسين، وأُقيمت فيها أول جمعة بالقسطنطينية.

وجاءه جندي صِرْبيّ يحملُ رأسَ (الإمبراطور قسطنطين) مُلَطَّخاً بالدماء، ورماه عند قدميه، وعندما تأكد السلطان من أنه رأسُ قسطنطين ظَهر الغضب على وجهه، وعَزَّ عليه أن يُمثَّل بالإمبراطور هكذا، وأَمر بأن يُحتفَلَ به ويُدفن على الوجه الذي يليق به!.

وأوصى جيشَه بأهل القسطنطينية خيراً، وأمرهم بِحُسْنِ معاملة الأسرى، وفَدَى عدداً كبيراً منهم من ماله الخاص.

واجتمع مع الأساقفة وهدَّأَ من رَوْعِهم، وأَمرهم بتنصيب بطريرك منهم، وأَوْكَل إليهم رعاية شؤون النصارى والكنيسة في القسطنطينية. ولم تمضِ أيام حتى استقر أمر المدينة، وعادت إليها حياتها الطبيعية[1].

●● ولقد مشى السلطان الفاتح على هَدْي الإسلام في معاملة أهل الكتاب والمغلوبين، واقتفى سُنَّة عمر بن الخطاب وصلاح الدين، ويَذكر التاريخ أن (الفاتح) ترك للنصارى المقهورين الحرية في انتخاب بطريركهم! ولمَّا انتخبوه

---

(١) انظر ما كتبته في هذه الفقرة: السلطان محمد الفاتح، ص١٣١ ـ ١٣٥.

ثبَّته السلطان وسلَّمه عصا البطارقة وألبسه الخاتم، حتى صرَّح ذلك البطريق وهو يلقى معاملة ما كان يتوقعها: (إنني خجِلٌ مما لاقيتُه من التبجيل والحفاوة، الأمر الذي لم يفعله ملوك النصارى مع أمثالي!).

ويصف (فولتير) الفيلسوف الفرنسي الشهير موقف المسلم المنتصر من المسيحي المنهزم بقوله: (إن الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن)[١].

وذكر المؤرِّخ الألماني (بروكلمان): أن الروم بعد فتح القسطنطينية كانوا يتمتعون بحرية مطلَقة، وكان (لبطريركهم) من القوة والسلطان في عهد العثمانيين أكثر مما كان له في عهد بيزنطة نفسها، وكانت طقوس التعميد والزواج والدفن والأعياد والمواسم تقام علناً في أبهة وعظمة[٢]!.

أما الصليبيون ففي القديم أجروا دماء المسلمين أنهاراً عندما غلبوهم أو استعمروا بلدانهم، وكان هدفُ حملاتهم المتتابعة محوَ الإسلام وإبادةَ أتباعه جملة وتفصيلاً! وسَلْ عن ذلك أرضَ الأندلس، ومدينةَ القدس التي تحولت إلى مستعمرة لاتينية، وترابَ الجزائر الذي يوجد تحت كل ذراع منه شهيد مظلوم من أفاعيل فرنسا التي كانت تحكمها ثورة تعلن شعار (الحرية والإخاء والمساواة)[٣]!.

والصليبيون الجُدُد تسري في عروقهم بغضاءُ القرون الأولى، وعلى رأسهم حاملة لواء (الحرية والديمقراطية وتحرير الشعوب) الولايات المتحدة الأمريكية! التي حوَّلت العراق وأفغانستان إلى سجون ومجازر ومقابر جماعية، وأعمالُها مع حلفائها الصِّرب في البلقان لا تخفى على أحد.

---

(١) جهاد الدعوة، ص٨٣؛ الضربات، للجندي، ص١٧٥.

(٢) ظلام من الغرب، ص٦٩.

(٣) انظر: جهاد الدعوة، ص٨٢ ـ ٨٤.

(الواقع أن الصليبيين لم تكن لهم أَثَارةٌ من شَرف في مسالكهم الأولى، وما أشبهَ الليلةَ بالبارحة!)[١].

ثامناً: العناية بالقسطنطينية:

قرر السلطان محمد الفاتح أن يتخذ من القسطنطينيةَ عاصمةً لدولته، بل العاصمة الإسلامية الكبرى، واستُبدل اسمُها باسم (إسلامبول ـ إستانبول) وهي كلمة تركية معناها (دار الإسلام).

وأقدَمَ على عدة خطوات لإنعاشها وتقوية مكانتها؛ فشجَّع الهجرات الإسلامية إليها، وحَضَّ كل من هاجر منها من أهلها على العودة ومزاولة أنشطتهم فيها، وأبقى التجار الجنَويين فيها، وعَمَّمَ سياسة التسامح الديني، ليعمل الجميع تحت سلطان الإسلام[٢].

تاسعاً: عوامل النصر:

إن النصر لا يهبط من السماء على الضعاف والمتقاعسين، ولا على الذين كلمُتهم أوزاعٌ وقلوبُهم شتَّى، كما أن النصر يتخلَّف عن الذين يخونون رسالتهم ويحاربون ربهم! فللنصر عوامل وشروط، وله أهله ومستحقوه.

يقول البارون (كارادوفو) في كتابه: «مفكرو الإسلام»، في الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح: (إن هذا الفتح لم يُقيَّض لمحمد الفاتح اتفاقاً، ولا تيسيراً لمجرد ضعف دولة بيزنطة، بل كان هذا السلطان يدبِّر التدابير اللازمة له من قبل، ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم)[٣].

وبالتأمل في حياة السلطان الفاتح، وأموره وتدبيره، وسياسته في الحكم،

---

(١) جهاد الدعوة، ص٨٤.
(٢) العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٩٥ ـ ٩٦.
(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٥٨.

ومجريات فتح القسطنطينية؛ يمكن الإلماعُ إلى العوامل التالية التي قادته إلى النصر المبين:

١ ـ الإعداد التام للمعركة من: جيشٍ كثيف، وأسلحة فتّاكة، ومدافع، وبناء قلاع، وسيطرة على القرى المجاورة للقسطنطينية.

٢ ـ التدبير السياسي الحكيم بعقد صداقاتٍ ومعاهداتٍ مع الأطراف التي تشكِّل خطراً وقد تقلب الموازين إذا تدخلت إبَّان المعركة.

٣ ـ الخطط الحربية المُحكَمة والتكتيك البارع قبل المعركة وخلالها.

٤ ـ مفاجآت العدو خلال المعركة بما لا يحتسب، كنقل السفن إلى القرن الذهبي، وحفر الأنفاق، وصنع مدفع يقذف قذيفته لأعلى لتسقط وراء الأسوار، على هيئة (مدفع الهاون) في زماننا.

٥ ـ الحرب النفسية على العدو، وتشمل: تشديد الحصار، وتسلُّق الأسوار، وصيحات التكبير، ودقّ طبول الحرب، وحفر الأنفاق، وغير ذلك.

٦ ـ اختيار القادة الأكفاء، ووضع كل منهم بمكانه المناسب، بما فيه مصلحة الأمة والدين.

٧ ـ الحرص على الشورى في قلب الأحداث، واجتماعه غير مرة مع مجلس قيادة حربه للاستشارة وعدم التفرد بالقرار.

٨ ـ الهدف الأسمى للجنود وهو الجهاد في سبيل الله، وربطهم بالله سبحانه بالذكر والتسبيح والصلاة، بل والصيام، والكل يطلب النصر أو الشهادة.

٩ ـ وحدة الجند وإقبالهم تحت قيادة موحّدة، وطاعة تامة ونظام منضبط.

١٠ ـ إخلاص القائد لله تعالى، وتعَلُّقُه به ذِكراً وصلاة وصياماً، وأخلاقاً ومعاملة لجنده وعدوِّه، وانشغالُ قلبه الدائم بالفتح فلا يذكر سواه.

١١ ـ تصديق القول بالفعل، فالسلطان في أَتون المعركة، بل كان في (قلب

الجيش)، وهو المكان الأخطر في المعارك حيث يتحمل بأسها وضراوتها ويكون هدفاً للعدو.

١٢ ـ الثبات على الهدف والإصرار عليه، فعندما احترقت القلعة الخشبية التي صنعوها إبان المعركة وفاجؤوا العدو بها، لم يزد على أن قال: غداً نصنع أربعاً أخرى غيرها.

وعندما عرض على الإمبراطور تسليم المدينة حقناً للدماء، فكان ردّه أنه سيدافع عنها حتى آخر رمق أو يدفن تحت أسوارها، فقال الفاتح: (حسناً، عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش، أو يكون لي فيها قبر!)[١].

فكان للفاتح فيها قصر تحدّث عنه التاريخ.

عاشراً: نتائج فتح القسطنطينية[٢]:

١ ـ كان لسقوط القسطنطينية بيد العثمانيين دويٌّ هائل في الشرق والغرب، واعتبره المؤرِّخون حَدًّاً فاصلاً بين تاريخ العصور الوسطى وتاريخ العصور الحديثة.

٢ ـ زُيِّنَت القاهرة وعَمَّ فيها الفرح، وأَرسل السلطان المملوكي تهنئة لمحمد الفاتح، وكان هذا في حقيقته توطئةً للنفوس في العالم الإسلامي لقبول الزعامة العثمانية الإسلامية.

٣ ـ انتاب زعماءَ الغرب شعورٌ بالهَلَع والمرارة حيث سَقط الحصن الذي حمى أوروبة من آسية طيلةَ ألف عام، وهذا إيذانٌ بتوغل العثمانيين في أوروبة.

٤ ـ أصبحت الدولة العثمانية حاميةَ حمى الإسلام والمُدافِعَ عن شرفه

---

(١) السلطان محمد الفاتح، ص١١٦.

(٢) الضربات، للجندي، ص١٧٣ ـ ١٧٦، ٢١٢، ٢٢٧؛ العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٩٧ ـ ٩٨.

ومقدساته في البر والبحر، ومنذ ذلك الوقت وليس لأوروبة النصرانية هَمٌّ أو هاجِس إلا دولة الخلافة العثمانية.

٥ ـ كانت (البابوية) تحلُم بإخضاعِ جميع المسيحيين اليونان لِحُكْم رومة، لكنْ أَفزعها سرعةُ تحول الملايين من سكان جنوب شرق أوروبة إلى الإسلام.

٦ ـ شكَّل فتحُ القسطنطينية عاملَ دعمٍ للممتلكات الجديدة في الدولة العثمانية، وفرضَ هيبتها على العالَمْين الإسلامي والأوروبي.

٧ ـ أصبحت طرق التجارة التي كانت مفتوحة أمام السفن الغربية في أيدي العثمانيين، تفرض عليها الضرائب وقت السِّلْم، أو تُغلِقُها وقت الحرب.

٨ ـ كان فتح القسطنطينية سنة (١٤٥٣م) قبل أن يستولي (فرديناند) و(إيزابيلا) على مملكة غرناطة آخر ممالك المسلمين في الأندلس سنة (١٤٩٢م)، فعوَّض ذلك على المسلمين الخسارة الفادحة في الغرب الإسلامي.

٩ ـ زالت الإمبراطورية الرومانية الشرقية بعد أحد عشر قرناً، وأصبحت (إسلامبول ـ الآستانة) بمآذنها موئلاً للحضارة الإسلامية.

حادي عشر: أحاديث ذات صلة بفتح القسطنطينية:

١ ـ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الملحمةُ الكبرى وفتحُ القسطنطينية وخروجُ الدَّجَّالِ: في سبعةِ أشهرٍ**»[١].

٢ ـ وعن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**بين الملحمةِ وفتحِ المدينة**[٢] **ستُّ سنينَ، ويَخرجُ المسيح الدَّجَّالُ في السابعة**»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٥)؛ والترمذي (٢٢٣٨)؛ وابن ماجه (٤٠٩٢)؛ وأحمد: ٥/ ٢٣٤؛ والحاكم: ٤/ ٤٢٦؛ والداني (٤٩٠)؛ والبغوي: ١٥/ ٤٧ عقب الحديث (٤٢٥٢).

(٢) أي القسطنطينية، كما جاء مصرحاً به عند نعيم في الفتن.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩٦)؛ وابن ماجه (٤٠٩٣)؛ وأحمد: ٤/ ١٨٩؛ ونعيم في الفتن (١٤٥٤) و(١٤٦٩)؛ والداني (٤٨٨)؛ والبغوي (٤٢٥٣).

وهذان الحديثان ضعيفان، ضَعَّفَهما: عبد القادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول (٧٩٣١) و(٧٩٣٢)، وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنة، والألباني في (ضِعاف السنن)، وضعيف الجامع الصغير (٢٣٦١) و(٥٩٤٥)، ومشكاة المصابيح (٥٤٢٥) و(٥٤٢٦).

ولضعفِهما لا نشتغلُ بهما، ثم هما يخالفان الواقع؛ فقد مضى على فتح القسطنطينية أزيدُ من (٥٧٠) سنة، فلا الملحمة الكبرى وقعتْ، ولا الدجّال خرج!.

٣ ـ وقال التِّرمِذِيُّ: (حدَّثنا محمود بن غَيْلَان، حدثنا أبو داود، عن شعبةَ، عن يحيى بن سعيد، عن أنسِ بن مالك قال: فَتْحُ القسطنطينيةِ مع قيامِ الساعة.

قال محمود: هذا حديثٌ غريبٌ، والقسطنطينيةُ هي مدينةُ الروم تُفتح عند خروجِ الدجال؟! والقسطنطينيةُ قد فُتحت في زمانِ بعضِ أصحاب النبي ﷺ)[1].

ومعنى قول أنس رضي الله عنه: (فتحُ القسطنطينية مع قيام الساعة):

قال المباركفوري: (أي مع قُرْب قيامها)[2].

قلت: وهو كما قال؛ فإن بعثته ﷺ من علامات الساعة، وفي الحديث الصحيح عند الشيخين وغيرهما: «**بُعِثْتُ أنا والساعةُ كَهَاتينِ**»[3]. وفي الحديث الصحيح الآخر: «**بُعِثْتُ في نَسَم الساعةِ**»[4]. بل عند الإمام أحمد: «**بُعِثْتُ أنا والساعة جميعاً، إن كادَتْ لتَسْبِقُني**»[5].

أما قول محمود بن غيلان: إن القسطنطينية فتحت في زمان بعض الصحابة؛

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٣٩)؛ وأخرج الداني (٦٠٩، ٦١٠) قول أنس فقط؛ وقال الألباني: صحيح الإسناد موقوف، وله حكم المرفوع لأنه لا يقال بالرأي.

(٢) تحفة الأحوذي: ٦/ ١٠٤.

(٣) البخاري (٦٥٠٤)؛ ومسلم (٢٩٥١).

(٤) السلسلة الصحيحة (٨٠٨).

(٥) مسند أحمد: ٥/ ٣٤٨.

فهو غلط، والصحيح أنها غُزِيتْ في زمن الصحابة ولم تُفتح، وفَتْحُها كان في زمن العثمانيين سنة (٨٥٧هـ).

وقد ردَّ الحافظ ابن كثير هذا القول[١]، وكذلك وهَّاه الألباني[٢].

❋ ❋ ❋

(١) النهاية في الفتن والملاحم: ١/ ٩٧.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٢٤٨.

إخبار النبي ﷺ
عن اتساع ملك أمته ليشمل المشارق والمغارب

عن ثَوْبَان رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَهَا ومَغَارِبَهَا، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زُوِيَ لي مِنها**»(١).

۞ ۞ ۞

هذه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ، قد وقعت كما أخبر، وتحققت خلال القرن الأول الهجري.

ومعنى «**زَوَى لي الأرض**»: جَمَعَها وقبَضها. قال التوربشتي: (زَويتُ الشيء: جمعته وقبضته، يريد به تقريبَ البعيدِ منها، حتى اطَّلَع عليه اطِّلاعَه على القريب منها. وحاصلُه: أنه طَوَى له الأرضَ وجعلها مجموعةً كهيئةِ كفٍّ في مرآةِ نظرِه، ولذا قال: «**فرأيتُ مشارقها ومغاربها**»)(٢).

قال الحافظ المنذري: (في هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ لظهوره كما قال ﷺ، وأن مُلْكَ أمته اتَّسَع في المشارق والمغارب كما أَخبر به ﷺ من أقصى بحر طَنْجة ومنتهى عمارة المغرب إلى أقصى الشرق مما وراء خُراسان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩)؛ وأبو داود (٤٢٥٢)؛ والترمذي (٢١٧٦)؛ وابن ماجه (٣٩٥٢)؛ وأحمد: ٥/ ٢٧٨، ٢٨٤؛ وابن حبان (٦٧١٤) و(٧٢٣٨)؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ١٨١؛ وفي الدلائل: ٦/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧؛ والداني (٤) و(٦)؛ والبغوي (٤٠١٥)، وغيرهم، وهو طرف من حديث طويل اكتفيت منه بالمقصود هنا.

(٢) مرقاة المفاتيح: ١١/ ٥٠، تكملة فتح الملهم: ٦/ ١٤٣.

ونهر جَيْحون وكثير من بلاد الهندِ والسِّنْد، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال الذي لم يَذكر ﷺ أنه أُرِيَه وأن مُلْك أمته سيبلُغه)[١].

وقال النووي نحوه[٢].

وللحافظ ابن كثير كلام طيِّب حول مدلول هذا الحديث، ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [النور: ٥٥][٣].

أولاً: انسياح الفتوحات ودخول الناس في دين الله أفواجاً:

●● من يستعرض النبوءات التي قدمناها، ويتأمل الفتوحات العريضة التي وقعت خلال مئة سنة بعد وفاة النبي ﷺ، والتي فَصَّلْنا القولَ فيها فيما سبق؛ يتضح له معنى هذا الحديث ودلالته وصدقُ تحققِه.

فقد جاء الإسلام والدولة الرومانية الشرقية في أَوْج مجدِها، قد بَسطت سيطرتها من جزيرة بيزنطة إلى بلاد الشام ومصر وإفريقية حتى إسبانية، كما كانت إمبراطورية الفرس تفرض هيمنتها في شرق المعمورة.

وانطلق الإسلام من الجزيرة العربية، وزحفت جيوشه على محورين في وقت واحد: محور فارس، ومحور الروم. وتمكنت الأمة الإسلامية (الناشئة) من إدارة دفَّة الحرب في جبهتين عظيمتين في وقت واحد؛ في مواجهة أعظم قوتين عالميتين في ذلك الوقت، وهما فارس وبيزنطة، والانتصار عليهما، وذلك مَثَل فريد في التاريخ الحربي لم تبلغه أقوى الأمم[٤].

وسرعان ما انهارت أمام إيمان المسلمين وقوتهم الدولتان العظيمتان،

---

(١) مختصر سنن أبي داود: ٦/ ١٣٨.
(٢) شرح صحيح مسلم: ٩/ ٢٤٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٧٤.
(٤) الضربات، للجندي، ص٢٧.

واكتسح الإسلام المشارق والمغارب؛ فشمل سلطانه في الشرق: العراق وفارس وبلاد السند والهند وحتى تُخوم الصين، وشمالاً إلى بلاد الترك وما وراء النهر وإلى القسطنطينية، وسار غرباً إلى: مصر والشمال الإفريقي حتى أقصى المغرب العربي، وعَبَر مضيق جبل طارق وفتح الأندلس وأقام فيها سبعة قرون.

(وجاوز المسلمون جبال البرانس، وانبثُّوا غَرْباً وشمالاً وإلى الشرق أيضاً: غرباً فاحتلُّوا كل الشاطئ اللازوردي الفرنسي ودخلوا إيطالية، بل إنهم جهَّزوا حملة لاحتلال رومة، وفريق منهم ذهب شمالاً حتى مقاطعة السافوا العالية على الحدود السويسرية، وغرباً في منطقة الأكسيتين واللانقدول، حيث ما تزال آثارهم في اللغة والفنون باقية، وارتقى آخرون شمالاً فاحتلوا مدناً كثيرة حتى وصلوا بواتييه. ويعني ذلك أنهم احتلوا قرابة ربع مساحة فرنسا، وقطعوا من جبال البرانس حوالي (٧٠٠) كم!)[١].

ووصلت الفتوحات إلى شمال فرنسا، ولم يبق بين المسلمين وبين (باريس) سوى نحو (١٠٠كم)، ووصلوا إلى سويسرة، ودَوَّت تكبيراتُهم على جبل عُرِف فيما بعد باسم (جبل المغربيِّين)، حيث حكم المسلمون (منطقة الألب) السويسرية مئة وخمسين عاماً (٨٥٠هـ/ ١٠٠٠هـ)، وإن آثارهم لا تزال موجودة في بعض الأماكن وبعض المؤسسات وبعض العادات واللهجات. لكن المؤرِّخين السويسريين يُكابرون في ذلك، ويسترون الحقيقة، ولا يعطون أيَّ تفاصيل عن المرحلة الإسلامية في (التاريخ السويسري) في مؤلفاتهم، ويكتفون بالإشارة إلى الغارات العربية والغارات الهونية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين[٢]!.

وتوقف زحف المسلمين بسبب انكسار طلائعهم في (معركة بلاط الشهداء)[٣]، فكان ذلك خسارة لأوروبة باعتراف العقلاء، ويعبر عن ذلك أناتول

---

(١) الضربات، للجندي، ص١٤٠.
(٢) المرجع السابق، ص١٢٠.
(٣) انظر: ١/ ٣٤٠ من هذا المجلد.

فرانس فيقول: **(اليومُ الأشأمُ في التاريخ إنه يومُ معركة بواتييه عندما تراجع الفن والحضارة العربية (الإسلامية) عام (٧٣٢م) أمامَ البربرية الفِرِنْجِيّة!)**[١].

●● وخلال هذه الجولة العالمية من الفتوحات التي قدَّمها المسلمون لأمم الأرض، وحرَّروا الشعوب من تقديس نار فارس وطغيان أكاسرتها، ومن ظلم رومة وجبروت قياصرتها ـ تحطمت الأسوار التي أُقيمت بين الشعوب، وكُسِّرت الأغلالُ التي ضُرِبت عليها، فدخل الناس في دين الله أفواجاً.

ويعبر عن ذلك الدكتور حسين مؤنس فيقول: (ظَهر الإسلام والعالم يومئذ شعوبٌ وقبائل متراصَّة، بعضُها إلى جوار بعض، بدأ الإسلام بالعربي فحطَّ من غروره، وهبط به إلى مستوى عباد الله الذين يمشون على الأرض هَوْناً، وأفهمه أنه لا يمتاز على غيره إلا بالإيمان والأخلاق والعلم؛ فاندفع في فتوحه الكبرى، فهدم حائط الساسانيين الهائل في سلسلة من الوقائع الضارية من (كاظمة) إلى (نَهَاوَنْد) وهي فتح الفتوح، وذهب أمرُ بني ساسان ومرازبتهم، وزال الحاجز الإيراني وعالم الشرّ، ودخل الإيراني في الإسلام، والتقى مع العربي في بساط الولاء والعهد والمودة والإسلام. ثم جاء قُتيبة بن مُسْلم الباهليُّ العظيم وهدم الحائط الذي يحول بين الأتراك والإيرانيين، وزلزل كبرياء (رُتْبِيل)[٢]، فانساح العرب والإيرانيون وجمعهم الإسلام في أسرته الواسعة. ثم نهض العرب والإيرانيون والأتراك وأزالوا الحواجز التي كانت أمم المَغُول تتستر من ورائها، ويُدخِلونهم في الإسلام، واجتمع الأربعة بعد ذلك فهدموا سور الجُبْن والاستعلاء الذي كان أهل الصين قد أداروه على أنفسهم، ودخل قتيبة ورجاله مدينة (كاشْغَر)، وضَربوا خيامَهم على ضفاف نهر (تاريم) وسط سلاسل من الجبال كأنها الرواسي الشاهقات.

وتهدمت الأسوار التي كان يعيش وراءها أهل الشام والعراق ومصر، وهبَّت

---

(١) الضربات، للجندي، ص٢٩٧.

(٢) هو ملك الترك.

عليهم مع الإسلام نسماتُ العدل والإخاء، فأخذوا ينتسبون إلى أمة العروبة والإسلام.

ثم سار العرب في بأس شديد ودخلوا في معارك طاحنة مع البربر دامت سبعين سنة وصل فيها العرب إلى ساحل المحيط الأطلسي، وأدخلوا أمم البربر جميعاً في أسرة العروبة والإسلام. واجتمع العرب والبربر وعَبَروا إلى الأندلس، فأدخلوا شعبها الإيبيري الأوروبي في أسرتهم، وأصبح مضيق جبل طارق مجرَّد ممرّ مائي داخل عالم الإسلام الشاسع، بعد أن كان حاجزاً بين قارتين وعالَمَيْن. وفعل المسلمون ذلك بجبال البرت وهي (البرانس) الحاجزة بين إسبانيا وفرنسا، وأصبحت هذه أيضاً مجرد مرتفعات داخل دار الإسلام.

وهكذا أتمَّ الإسلام مرحلة كبرى من رسالته وهي إزالة الحواجز بين البشر، وتحقيق التعارف بين الشعوب والقبائل، الذي بشَّر به القرآن، واجتمعت هذه الشعوب كلها على إقامة صرح حضاري إسلامي واحد، تعاونوا على بنائه وإعلائه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣][1].

ثانياً: ما السر الكامن وراء هذا الانتشار الواسع للإسلام وإقبال الشعوب عليه؟:

١ ـ مميزات القيادة الإسلامية:

كان ظهور المسلمين على ساحة الأحداث واستلامهم قيادة العالم؛ لصفات امتازوا بها، وخصائص تميزت بها رسالتهم:

ـ ومِلَاكُ الأمر في هذا أنهم أصحابُ كتاب منزل وشريعة إلٰهية، فهم لا يشترعون من عند أنفسهم، ولا يخبطون في سياستهم ومعاملتهم؛ لأن الله جعل لهم نوراً يمشون به في الناس وشريعة يحكمون بها بينهم؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ

---

(١) الضربات، للجندي، ص٢٢ ـ ٢٣.

لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فأحيىٰ الله بهم البشرية من مواتها، وهَدَوا الضالين، وأناروا السبيل للعالمين.

ـ ثم إنهم قبل أن يتولّوا الحُكْم والقيادة صُنِعوا على يدي الرسول العظيم ﷺ الذي جعل منهم خَلْقاً آخر، وهو يزكّيهم ويؤدّبهم ويأخذهم بالتقوى والورع، والزهد والقناعة، والإيثار والأمانة، والعفاف والخشية، فكانت الإمارة عندهم مَغْرماً وأمانة ومسؤولية، لا مَغْنماً وأَثَرة ومَطْمَعاً.

ـ وهم كانوا أصحاب رسالة عالمية، ودعاة حرية إنسانية، ورسل كرامة للبشرية، لم يأتوا لخدمة جنس أو عرق أو قومية، ولا جاؤوا ليحرروا الناس من حكم الفرس والرومان ليستعبدهم العرب باسم الإسلام، ولا جاؤوا مجاهدين طمعاً في خفض من العيش ورخائه على حساب الآخرين، بل كما قال رِبْعيُّ بن عامر في مجلس رُسْتُم: (الله ابتَعَثَنا لِنُخْرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعَتِها، ومن جَوْر الأديان إلىٰ عدلِ الإسلام)[1]. فكانوا بحقٍّ سحابةً انتَظَمت البلادَ وعمَّت العباد، وغواديَ مُزْنَةٍ أثنى عليها السهلُ والوعرُ، وانتفعت بها البلاد والعِباد على قَدْر قبولها وصلاحها.

ـ ورسالتهم تميَّزت بأنها جمعت بين الدنيا والآخرة، والروح والجسد، والعقل والعاطفة، والغيب والشهادة، والفرد والجماعة، وحقوق الراعي والرعية، والذكر والأنثى، والكبير والصغير، والغني والفقير، في ميزان لا يَحيف، وقِسْطاس لا يَطغى، فاستقبلَتْها الفِطَر السليمة بلهفة، وتلقَّفَتْها الأرواح بشوق، وآمنت بها العقول عن قناعة، وسارت في ركابها الشعوب باطمئنان واعتزاز.

فالإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة: (إن مملكتي ليست إلا هذا العالم)، ولا بالنظرية النصرانية التي تزدري الحياة وتقول: (ليس هذا العالم مملكتي)، وطريق الإسلام طريق وسط بينهما، فالقرآن يرشدنا أن ندعو:

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٣٩.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ـ والصحابة الذين صاغهم الرسول الأعظم ﷺ، والتابعون الذين تربوا على عين الصحابة؛ تمثَّلتْ فيهم الأخلاق العليا الفاضلة، وامتزجت فتوحاتهم برقيِّهم الحضاري، فكانوا الأنموذج الأرفع للكمال الإنساني عندما تولوا الحكم وقيادة البشرية، وأشرفوا على المدنية بعقيدتهم وتربيتهم وخُطَّتهم في الحكم وسياستهم، فكانوا أصحاب دين وأخلاق عالية أينما كانوا، كانوا أعفَّة أمناء خاشعين متواضعين، حكاماً كانوا أو رعايا أو شرطة أو جنوداً.

وَصَفَهم أحد عظماء الروم بأنهم: (يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم).

وقال آخر: (هم فرسان بالنهار، رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على مَنْ حاربوه حتى يأتوا عليه)[(١)].

هذه هي طبيعة الرسالة الخاتمة التي جاء بها رسول الله ﷺ ونشرها في ربوع الجزيرة، وتلكم صفات أتباعه الذين تمثَّلوا أخلاقه وتوجيهات الوحي الأعلى، ثم مَضَوا بها فاتحين، كالريح الرخاء والغيث الشفيق تنزَّل على أراضٍ عطشى، قد طال انتظارُها له، فلما وافاها اهتزَّت ورَبَتْ وأَنبتَتْ مدنية فاضلة قوية البنيان مُحْكَمة الأساس، يسودُ فيها روح التقوى والعفاف والأمانة، وتُقدَّر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه، والروح فوق المظاهر الجوفاء، يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى، ويهتم الناس بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة والقلوب خاشعة، ويقلّ التنافس في أسباب هذه الحياة والتكالب على حطام الدنيا، ويقلّ التشاحن والتباغض[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٥، ٥٣.

(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٢٧ ـ ١٣٦؛ المد والجزر في تاريخ الإسلام، ص٢٣ ـ ٣٠، ٥٤ ـ ٦٢.

٢ ـ حضارة شارك فيها الجميع ودخل الناس فيها راغبين:

وهكذا جاء الإسلام فأزال الغشاوة عن أعين الناس، وكسر القيود التي يَرْسُف بها المستعبَدون للفرس والروم، وكَنَس الران الذي غلَّف القلوب، وفتح مغاليق العقول، فأُطلقت الحريات من عِقالها، وأضحى الناس لا يجدون عائقاً عن الإسلام، ولا يواجهون صعوبة وعَنَتاً في سبيل قبوله، ولا يرون للجاهلية مرجِّحاً ومصلحة، ويدخل الرجل في الإسلام فلا يخسر شيئاً ولا يفقد شيئاً، ويجدُ بَرْدَ اليقين وحلاوة الإيمان وعزَّة الإسلام، ودولة قوية يعتز بها، وأنصاراً يفدونه بأرواحهم وأنفسهم، ونفساً مطمئنةً، وثقة في الحياة بعد الموت. فصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيارهم، وصارت أرض الجاهلية تُنْتَقص من أطرافها، وكلمةُ الإسلام تعلو، وظِلُّه يمتدّ، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله(١).

واستطاع هذا الدين بتعاليمه السامية، وبامتثال حَمَلتِه لمبادئه على نحو فذّ؛ أن يستوعب جميع الجنسيات والأعراق والألوان واللغات، وصهرهم تحت شعار: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي ظل ذلك الجيل الفاتح العظيم وتحت حكم الخلافة الراشدة؛ استطاعت الأمم والشعوب ـ حتى المضطهدة منها في القديم ـ أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة، وأن تُساهم العربَ في بناء العالم الجديد، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم أئمة هم تيجانُ مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدّثين، حتى قال ابن خلدون: (من الغريب الواقع أن حَمَلة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية(٢)، إلا في القليل

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٣٧.
(٢) يعني سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية.

النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته، فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن المِلَّة عربية، وصاحب شريعتها عربي)[١].

وانتقل تأثير الحضارة الإسلامية إلى كل الحضارات، وترك بصماته الواضحة عليها، يقول (روبرت بريفولت): (ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبة إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير، وآثار حاسمة لها تأثير كبير)[٢].



(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٤١.

٣٧
إخبار النبي ﷺ
بفتنة التتار واستلابهم ملك هذه الأمة ثم انحسارهم

١ ـ عن أبي بَكْرةَ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَتَنزلَنَّ طائفةٌ من أمتي أرضاً يُقال لها: البَصْرة، يَكْثُر بها عددُهم ويَكْثُر بها نَخْلُهم، ثم يجيءُ بني قَنْطُوراءَ عِراضُ الوُجوه صِغارُ العُيون، حتى ينزلوا على جِسْر لهم يُقال له: دِجْلة، فيتفرَّق المسلمون ثلاثَ فِرقٍ: فأمَّا فِرقةٌ فيأخذون بأذناب الإبل وتَلْحَقُ بالبادية وهَلَكَتْ، وأمَّا فرقةٌ فتأخذُ على أنفسها فكَفَرَتْ، فهذه وتلك سواءٌ، وأمَّا فِرقةٌ فيجعلون عِيالَهم خَلْفَ ظُهورِهم، ويُقاتِلُون، فقَتْلاهُم شهداء، ويَفتحُ الله على بَقيَّتِها**».

وفي رواية: «**يَنزِلُ ناسٌ من أمتي بغائطٍ يسمُّونه البَصْرة، عند نهر يُقال له: دِجْلَة، يكون عليه جِسْرٌ، يَكْثُر أهلُها، وتكون من أمصار المسلمين، فإذا كان في آخر الزمان جاء بنو قَنْطُورَاءَ،...**» الحديث[1].

٢ ـ وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تُقاتِلُوا قوماً صغارَ الأَعْينِ، عِراضَ الوجوهِ، كأنَّ أَعْيُنَهم حَدَقُ الجَراد،**

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٤٤ ـ ٤٥؛ وأبو داود (٤٣٠٦)؛ والطيالسي (٨٧٠)؛ ونعيم بن حماد في الفتن (١٩١٠)؛ وابن حبان (٦٧٤٨)؛ والداني (٤٧٣)، والرواية الأولى لأحمد والثانية لأبي داود. والحديث صححه ابن حبان؛ وحسَّنه عبد القادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول (٧٤٧٨)؛ وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨١١؛ وصحيح الجامع (٨١٧٠)؛ وفي المشكاة (٥٤٣٢) جوَّد إسناده.

كأنَّ وُجُوهَهم المجانُ المُطْرَقَةُ، يَنْتَعِلونَ الشَّعَر، ويَتَّخذون الدَّرَق، حتى يَرْبِطوا خيولَهم بالنَّخْل»[١].

٣ ـ وقال بُرَيْدة بن الحُصَيْب الأَسْلَميُّ رضي الله عنه: (كنتُ جالساً عند النبي ﷺ، فسمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ أمَّتي يَسوقُها قومٌ عِراضُ الأَوْجُهِ، صِغارُ الأَعْيُنِ، كأن وجوهَهُم الحَجَف، ثلاث مِرار، حتى يُلحِقُوهم بجزيرةِ العرب. أمَّا السائقةُ الأولى فينجو مَن هَرب منهم، وأما الثانيةُ فَيهلِك بعضٌ وينجو بعضٌ، وأما الثالثةُ فَيُصطَلَمُونَ كلُّهم مَن بقي منهم**» قالوا: يا نبيَّ الله! مَنْ هم؟ قال: «**هم التُّرك**» قال: «**أمَا والذي نفسي بيده لَيَرْبِطُنَّ خيولَهم إلى سَواري مساجدِ المسلمين**». قال: وكان بُريدةُ لا يُفارِقُه بعيران أو ثلاثة ومتاعُ السفر والأسقيةُ بعد ذلك للهرب؛ ممَّا سَمع من النبي ﷺ من البلاءِ من أمراءِ الترك)[٢].

وحديث بُريدة هذا أخرجه أبو داود بأخصر منه، لكنه بعكس رواية أحمد؛ ففيه: «**يُقاتِلكم قومٌ صغارُ الأعين**، يعني التُّركَ، قال: **تَسوقونهم ثلاثَ مِرار حتى تُلْحِقوهم بجزيرة العرب...**»[٣].

فهذه الرواية تعني: أن المسلمين هم الذين يَسوقون التركَ حتى يُلحِقوهم بجزيرة العرب، وهذا غلطٌ وهو مقلوب، وقد بيَّن العلماء غَلَطَ هذه الرواية، وأن الصواب رواية أحمد، كما يدلّ عليه فِعلُ بريدة بأنه كان لا يفارقه بعيران أو ثلاثة للهرب، وأيضاً لتتفق مع الأحاديث الأخرى التي تقدمت[٤].

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٣١، واللفظ له؛ وابن ماجه (٤٠٩٩)؛ وابن حبان (٦٧٤٧)، وصحَّحه شعيب الأرناؤوط في تعليقه عليه، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٤٢٩)؛ وصحيح الجامع (٧٤١٦) وصحيح ابن ماجه.

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨؛ وصحَّحه أبو الخطاب عمر ابن دحية كما نقل القرطبي في التذكرة، ص٥٤٥، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٧/ ٣١١): رواه أحمد، والبزّار باختصار، ورجاله رجال الصحيح. **قلت**: ويشهد له الحديثان السابقان.

(٣) سنن أبي داود (٤٣٠٥).

(٤) انظر: عون المعبود: ٧/ ٣٧١ ـ ٣٧٤.

أولاً: شرح معاني بعض الألفاظ ومدلولاتها:

«**بنو قنطوراء**»: هم التُّرك، وقنطوراء: اسمُ أبي الترك، وقيل: قنطوراء اسم جارية كانت للخليل إبراهيم ﷺ ولدت له أولاداً جاء من نسلهم الترك.

«**يأخذون بأذناب الإبل**»، وفي رواية: «**يأخذون أذنابَ البقر**»: أي يتركون الجهاد ويهربون إلى البادية ويحملون على إبلهم ومواشيهم، ويشتغلون بالحرث والزراعة.

«**فتأخذ على أنفسها**»: أي تطلب الأمانَ من الترك.

«**ويَفتح الله على بقيتها**»: أي يقضي أناسٌ من الفرقة الثالثة شهداءَ، ومَن بقي منها يفتح الله عليهم وينصرهم على عدوِّهم.

«**بغائط يسمُّونه البصرة**»: الغائط: المنخفض المطمئن من الأرض. والبصرة: هي المدينة الشهيرة بالعراق، ومعنى البصرة: الحجارة البيض الرخوة، وبها سُميت البلدة.

«**حَدَق الجراد**»: هو السواد المستدير وسط العين، والمراد أنها تشبهها في الصغر.

«**الدرق**»: جمع دَرَقَة، وهي التُّرس من جلد ليس فيه خشب، و«**الْحَجَف**» بمعناها.

وبقية صفاتهم تقدم شرحها في نبوءة سابقة(١).

«**يسوقها**»: من السَّوْق، أي تصير الأمة مغلوبة مقهورة منهزمة، بحيث إن عدوهم يسوقهم حتى يُلحقوهم بجزيرة العرب.

«**فَيُصْطَلَمُونَ**»: بصيغة المجهول، أي يُحصَدون بالسيف ويُستأصلون، من الصَّلْم: وهو القطْع المستأصِل، والمقصود هنا هم التتار حيث تدور عليهم

---

(١) انظر: النبوءة (٢٩).

الدائرة في خَرجتهم الثالثة، وهي الجولة الأخيرة التي يستأصلهم فيها المسلمون.

ثانياً: كلمة بين يدي الأحاديث:

●● قاتل المسلمون الترك في زمانين متباعدين ومكانين متنائيين، وكان القتال الأول في أيام الفتوحات حيث زحف المسلمون على بلاد التُّرك وحرَّروا أهلها من الطغاة، فدخلوا في دين الله، وأصبحوا من حملة الرسالة والمنافحين عنها والناشرين لها، وكان ذلك في أواخر خلافة عمر ﷺ سنة (٢٢هـ)، وحتى أواخر خلافة الوليد بن عبد الملك سنة (٩٥هـ)، وبسط الإسلام سلطانه على بلادهم كلها.

والمرة الثانية هي التي تتحدث عنها الأحاديث التي صدَّرْنَا بها هذه النبوءة، وكانت الكَرَّةُ فيها على المسلمين والدَّولة للغزاة، حيث زحفت أمواج التتار على بلاد المسلمين وعاثوا فيها فساداً.

وهذه النبوءة التي يُنذر بها رسول الله ﷺ أمته فيها **أربع معجزات واضحة**:

الأولى: أن المسلمين ينقسمون ثلاث فِرق: إحداها: تهرب من المواجهة إلى البادية والبرية وتلحق بالزَّرع والضَّرْع، والثانية: تستسلم ذليلة خاضعة، والثالثة: تتصدى للعدو وتجاهد في سبيل الله. وهكذا كان!.

الثانية: وصفُ النبي ﷺ للطائفة الثالثة المجاهدة بأن قتلاها شهداء، ومن يبقى منهم يفتح الله عليهم وينصرهم. وهكذا كان على يدي السلطان العظيم المظفر قطز.

الثالثة: وصفه ﷺ لمنزل المسلمين، وكذلك لمنزل الترك وصفاتهم ولباسهم وتسميتهم أيضاً.

الرابعة: أن هؤلاء الغزاة سيعيثون فساداً حتى في المساجد، فيربطون خيولهم بسواريها.

فصلَّى الله وسلَّم وبارك على هذا النبيِّ العظيم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

●● وقد صَرف شرّاح الحديث والمؤرِّخون هذه الأحاديث إلى (فتنة التتار) التي اجتاحت ديار المسلمين وأسقطت بغداد وأنهت الخلافة العباسية سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

ـ قال الإمام المفسّر أبو عبد الله القرطبي (توفي ٦٧١هـ)، وهو معاصر لتلك الفتنة الطامة، في تعليقه على حديث بريدة: (والحديث يدل على خروجهم وقتالهم المسلمين وقتلهم، وقد وقع ذلك على نحو ما أخبر ﷺ، فخرج منهم في هذا الوقت أممٌ لا يحصيهم إلا الله، ولا يردُّهم عن المسلمين إلا الله، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم!)[1].

ـ وقال الإمام النَّووي (توفي ٦٧٦هـ) ـ وهو يشرح أحاديثَ قتال الترك ـ: (وقاتَلَهم المسلمون مرات، وقتالُهم الآن[2]، ونسأل الله الكريم إحسانَ العاقبة للمسلمين في أمرهم وأمر غيرهم، وسائر أحوالهم، وإدامةَ اللطف بهم والحماية)[3].

ـ وذكر الحافظ قتالَ المسلمين للترك، وفتحَهم لبلادهم، وكثرةَ السَّبْي منهم، وتنافسَ الملوك فيهم حتى توغّلوا في الحكومات الإسلامية واستبدُّوا بالأمر[4]، ثم قال:

(ثم جاءت الفتنة الكبرى بالططر (التتار) فكان خروجُ جَنكيزخان بعد الستمئة، فأُسْعِرت بهم الدنيا ناراً خصوصاً المشرقِ بأَسْره، حتى لم يَبق بلد منه

---

(١) التذكرة، ص٥٤٥.

(٢) يقول النووي هذا لأنه كان معاصراً للأحداث المروعة التي قام بها التتار، ورأى وصفهم بعينه كما جاء في الأحاديث.

(٣) شرح مسلم: ٩/ ٢٧٢.

(٤) انظر ما كتبناه في هذا الكتاب: ١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢.

حتى دخله شرُّهم، ثم كان خرابُ بغداد وقتلُ الخليفة المستعصم آخر خلفائهم على أيديهم في سنة ست وخمسين وستمئة. . .)[١].

ثالثاً: حالة العالم الإسلامي عند غزو التتار له:

فَشِل الأيوبيون الأواخر في استكمال دورهم التاريخي في الجهاد ضد الصليبيين، وانحدروا إلى حالة مزرية من التشرذُم السياسي والتناحر العسكري والاقتتال فيما بينهم، بل وصل الأمر ببعضهم إلى درجة الاستعانة بالفرنج ضد البعض الآخر! وتراجع دورهم التاريخي ليقفز على مسرح الأحداث المماليك الذين ربَّاهم الأيوبيون ليكونوا عدتهم العسكرية، وغَرَبت الدولة الأيوبية وبزغت دولة المماليك لتقوم بدورها التاريخي ضد التتار.

وبعد موت السلطان الصالح نجم الدين أيوب، اختار المماليك أرملته (شجرة الدر) لتجلس على عرش السلطنة، لكن الرأي العام في مصر والعالم العربي والإسلامي لم يكن يقبل بقيام امرأة على كرسي الحكم، فالتراث السياسي للحضارة الإسلامية استقرَّ على أن يكون الحاكم رجلاً، كذلك رفض الخليفة العباسي المساندة الشرعية لشجرة الدر، فتنازلت بعد (ثمانين يوماً) من الحكم للأمير المملوكي (عز الدين أيبك) الذي تزوجها فيما بعد، وفي هذه الفترة سطع نجم الأمير (سيف الدين قطز).

ولم يَطُل الأمر كثيراً فأخذت شجرة الدر وزوجها المعز أيبك يتسابقان في نسج المؤامرات كل منهما ليتخلص من الآخر، وتمكَّنت المرأة من استدراج السلطان إلى القصر السلطاني، وحين دخل الحمام كان هناك مجموعة من الغلمان تناولوه بسيوفهم فأردَوْه قتيلاً! ولم يُمهِلْ مماليكُ أيبك شجرةَ الدر فقتلوها بعد قليل! وبذلك خلا المسرح السياسي سنة (٦٥٥هـ) من المعز أيبك وشجرة الدر معاً، فاختار المماليك (علي بن أيبك) حاكماً وسُمِّي (السلطان

(١) الفتح: ٨/٥١٣، شرح الأحاديث (٣٥٩٠ ـ ٣٥٩٢).

المنصور)، وكان سيف الدين قطز نائباً له، وهو الحاكم الفعلي، فالمنصور علي كان مشغولاً باللعب بالحَمَام وركوب الحمير مع الخدم!.

ولم يَصبر قطز على هذا العبث طويلاً، فأعلَنَ نفسه سلطاناً على المماليك وذلك سنة (٦٥٧هـ)، وتلطَّفَ إلى المنصور علي بأن الظروف تقتضي رجلاً قوياً، وعندما يجتاز المحنة يتنازل له عن الكرسي.

وفي الشرق الإسلامي كان هناك تنازعٌ بين السلطان جلال الدين خُوَارَزم شاه والخليفة العباسي الناصر لدين الله، فهاجم جلالُ الدين أراضي الخلافة العباسية، فأخطأ الخليفة العباسي خطأ قبيحاً حيث استعان بالمغول ضد خُوَارَزم شاه، فسقطت مملكة خوارزم شاه، وكان ذلك نذيرَ شؤم للخلافة العباسية.

وأرسل الخليفة العباسي المستنصر بالله يستنجد بملوك الأيوبيين في مصر والشام، كما بعث يطلب النجدة من القبائل العربية.. بيد أن الظروف التاريخية السائدة في المنطقة العربية كانت تبدو مواتية تماماً للطموح المغولي: فالخلافة العباسية أشبهُ بالرجل المريض الراقد على ضفاف الرافدين، كما أن سلاجقة فارس والعراق قد صاروا جزءاً من التاريخ ولم يَعُدْ لهم وجود حقيقي، أما دولة سلاجقة الروم فكانت متاعبها الداخلية أكبر من قدراتها، كذلك فإن الأيوبيين الصغار في بلاد الشام كانوا على حال من التشرذم والأنانية السياسية تمنعهم من أي جهد حقيقي.

وفي الشام تجِدُ بعضَ الذين تولوا عروش الحكم قد كانوا على قَدْر من الأنانية وضيق الأفق، بل والنذالة التي حملَتْهم على الاستعانة بهولاكو على إخوانهم! فترى الناصرَ يوسف الأيوبي بدلاً من أن يتدبر الأمر لمواجهة الخطر التتري المحدِق الذي أصبح يهدد بلاد الشام، إذا به يرسل ابنه الملك العزيز إلى هولاكو يطلب منه المساعدة في الاستيلاء على مصر ونزعها من يد المماليك[1]!.

---

(١) باختصار من كتاب: السلطان المظفر قطز، ص١٤ ـ ١٦، ٢٠ ـ ٢٥، ٣٤ ـ ٣٨، ٤٢ ـ ٤٥، ٧٤ ـ ٩٠، ٩٧ ـ ١٠٢.

هكذا كانت أحوال العالم الإسلامي من التمزق والتردي والصراع على السلطة، والخيانة للأمانة، والعدو يجتاح بلادهم ويدمّر حضارتهم!.

رابعاً: تحالفٌ مغولي صليبي، وزحفُ التتار واجتياحُهم عاصمة الخلافة والشام، وعزمُهم التوجُّهَ إلى مصر:

●● نجح جَنْكِيزْخان[١] في بناء إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت حدودها من شواطئ بلاد الصين شرقاً حتى منطقة البحر الأسود وبحر قَزْوين غرباً. وبرز اسم هذا القائد المغولي حين قاتل التتارَ وانتصر عليهم، وبذلك أحيا اسمَ أسرة المغول الذي كان اندثر في (منغولية) نفسها.

وتطلِق الوثائق الرسمية الصينية (يوان) على المغول والشعوب التي اندمجت فيهم داخل الصين اسمَ المغول (المنغول)، على حين أنهم عُرفوا في منغولية نفسها باسم (التتار)، وامتزج الشعبان التتار والمغول معاً.

وفي عام (١٢٠٦م) عُقد لجنكيزخان اللواء، وبايَعه أمراءُ المغول (إمبراطوراً على العالم)، وبعد أن ساد آسية كلَّها عدا (الهند واليابان)، التفتَ إلى الغرب وانقضَّ على العالم الإسلامي، وطَرق أبوابَهُ عام (١٢١٥م) من إقليم (خُوَارَزْم)، ودمَّر التتار عواصمَ الإسلام في تُرْكُسْتَان وإيران، وبلَغوا سَمَرْقَنْد سنة (١٢١٩م)، ثم مَرْو. وتوفي جنكيزخان سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م)[٢].

●● التاريخ الذي نَغْفُل عنه في كثير من دراساتنا العربية أن (خطة تدمير الخلافة العباسية) وُضِعت في (أوروبة) ونُفِّذت في (آسية)، والمؤرِّخون الأوروبيون يعرفون ذلك معرفة جيدة، ويضعون الأحداث الرهيبة تحت عنوان **(الحملة الصليبية المغولية)!**

وقد لخص ذلك الأستاذ الباحث محمد علي الغتيت في كتابه: «الغرب

(١) معناه: ملك ملوك العالم، واسمه الحقيقي (تيموجين): أي الصلب الخالص!.
(٢) المظفر قطز، ص٩٧ ـ ٩٨؛ الضربات، للجندي، ص٩٥.

والشرق» معتمداً على المراجع الفرنسية وحدها، قال: (دعا لويس التاسع ـ ملكُ فرنسا ـ بعضَ رجال أمير المغول إلى فرنسا، حيث فاوضهم في عقد اتفاق عسكري ينصُّ على قيام الطرفين بأعمال حربية واسعة ضد العرب والمسلمين. ويكون دور المغول غزوَ العراق وتدميرَ بغداد والقضاءَ على الخلافة الإسلامية. ويكون دور الصليبيين تعويقَ الجيش المصري عن مساعدة إخوانه المسلمين، أي عزل الجيش المصري عزلاً تامّاً عن سائر البلاد العربية)[١].

ولم يكن هدف (الحملة الصليبية السابعة) بقيادة (لويس التاسع) ملك فرنسا إعادة الاستيلاء على بيت المقدس فقط، وإنما تهدف أيضاً إلى تكوين حِلْف «مسيحي ـ وثني» بين الصليبيين والمغول لهدم الدولة الأيوبية في مصر والشام، ووضع المنطقة العربية الإسلامية بين شِقَّي الرَّحَى[٢]!.

وخطة البابوية الكاثوليكية تقوم على أساس أن (حملة لويس التاسع) تجتاح العالم الإسلامي من جهة مصر، على حين تتقدم القوات المغولية لتشنَّ هجومها على المنطقة من الشرق بعد اجتياح الجناح الشرقي من العالم الإسلامي[٣].

والذي أطمع (لويس التاسع) في نجاح محاولته لتكوين جبهة مشتركة مع المغول هو ما كان للنصارى النسطوريين من نفوذ وهيمنة في إمبراطورية جنكيزخان، حيث كانت سلطات الدولة في قبضتهم، وأرفع المناصب في أيديهم.

يقول الأسقف (دي مَسْنيل): (اشتهر هولاكو بميله للمسيحيين النساطرة، وكانت حاشيتُه تضم عدداً كبيراً منهم، كما كان قائده الأكبر (كَتْبُغَا) مسيحيّاً نسطوريّاً، وكذلك كانت الأميرة (دوكس خاتون) زوجةُ هولاكو مسيحيةً.

وقد أدَّت هذه الزوجة دوراً تفخر به الكنيسة في تجنيب أوروبة المسيحية أهوالَ الغزو التتري، وتحويله إلى بغداد والأمة الإسلامية.

---

(١) جهاد الدعوة، ص٧٩.

(٢) المظفر قطز ١٧.

(٣) المظفر قطز، ص١٨ ـ ١٩.

كما أنه صدرت الأوامر عند سقوط بغداد بتقتيل المسلمين وحدهم، وعدم المساس بالمسيحيين أو التعرض لأموالهم!)[١].

ويصف الأسقف (دي مَسْنيل) حملةَ التتار على بغداد فيقول: (لقد كانت الحملة التترية على الإسلام والعرب حملةً صليبيةً بالمعنى الكامل لها، فقد هلَّل لها الغرب وارتقب الخلاص على يد هولاكو وقائده المسيحي (كتبغا)، الذي تعلَّق أملُ الغرب عليه لتحقيق القضاء على المسلمين، وهو الهدف الذي أخفقت في تحقيقه الجيوش الصليبية، ولم يَعُدْ للغرب أملٌ في بلوغه إلا على أيدي التتار خصوم المسلمين)[٢].

●● وفي سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥١ م) اجتمع مجلس رؤساء التتار وانتخبوا (منكوخان بن تولاي بن جنكيزخان) ليكون هو الخان الأعظم.

وفي السنة التالية أرسل منكوخان حملتين: إحداهما: توجهت إلى الصين، والثانية: توجهت غرباً صوب الأراضي الإسلامية لتدمير الخلافة العباسية في بغداد، وتولى (هولاكو)[٣] قيادتها، وسار بنفسه حتى وصل إلى (ديار بَكْر) و(مَيَّافارِقِين)، حيث ارتكب المغول مذابحَ مهولةً راح ضحيتها آلاف الأنفس، وتركوا وراءهم من قصص الرعب والفزع ما جعل المعاصرين يصوّرونهم في صورة وحش أسطوري لا يمكن قهره[٤]!.

ووصل هولاكو إلى (بغداد) ومَلَك ظاهرها، وقتل من الناس عالماً كثيراً، ونزل تجاه دار الخلافة، وكان قد تآمر معه (الرافضيُّ الخَبيث ابنُ العَلْقَمِيّ) ـ وكان وزير سوء للخليفة المستعصم ـ لدخول بغداد، وهو الذي أغراه بذلك.

---

(١) جهاد الدعوة، ص٧٩ ـ ٨٠.
(٢) الضربات، للجندي، ص٨١؛ جهاد الدعوة، ص٨٠. وانظر مزيداً من الوثائق التاريخية عن التحالف الصليبي المغولي في: الضربات، ص٩١ ـ ٩٨.
(٣) هو حفيد جنكيزخان. انظر: النجوم الزاهرة: ٧/ ٤٢.
(٤) المظفر قطز، ص١٠٣.

وعندما جاء التتار كان أولَ من برز إليهم ابنُ العَلْقمي هذا، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه واجتمع بهولاكو، وأغراه بإخراج الخليفة العباسي من دار خلافته، ففعل، وأهان هولاكو الخليفةَ ومن معه على عين ابن العلقمي، ثم جَسَّره على قتل الخليفة وحاشيته وأهل الحلّ والعَقْد ـ وكانوا نحو السبعين ـ ففعل! ودخل ابن العلقمي مع هولاكو لم يمسسه منه سوء، لكن كانت عاقبة أمره أسوأ، نكالاً من الله، لممالأته الكفار هولاكو وجنده على الإسلام وأهله، فقد حصل له بعد ذلك من الإهانة والذلّ على أيدي التتار الذين مالأَهُم، وزال عنه سِتر الله، وذاقَ الخزيَ في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى[١].

•• ودخل التتار بغدادَ، وتزلزلَ العالمُ الإسلامي بسقوط الخلافة العباسية في أول شهر صفر من سنة (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م)، وأمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد، فأَعمل التتار السيفَ بالأعيان والوجهاء، ثم بدأ إفناء الجماهير، وعَصَف الردى بالشِّيب والشباب، والرجال والنساء، وسالت الدماء في الطرقات شاقَّةً مجراها إلى دِجْلة الذي احمرَّت أمواجه من كثرة ما أُزهق من أرواح، قدَّر بعض المؤرِّخين عددها بـ (مليون وستمئة ألف).

وظلَّت ريحُ الدمار تلفُّ البلد البائس ستة أسابيع؛ نُهبت فيها القصور العامرة، وخُرِّبت المساجد والمدارس والمكتبات، وكما احمرَّت مياه النهر عدة أميال لغلبة الدم عليها، اسودَّت بعد ذلك لفداحة ما أُحرق من مخطوطات ومؤلفات هي حصاد العقل الإسلامي عدة قرون[٢].

وأخذ الزحف التتري يطوي البلاد، وفي شهر صفر من سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) استولى هولاكو على (حلب) بعد سبعة أيام من الهول والتخريب وسفك الدماء.

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠١، ٢١٢؛ سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٣٦٢.

(٢) انظر: البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٢؛ السلوك، للمقريزي: ١/ ٤٠٩ ـ ٤١٠؛ النجوم الزاهرة: ٧/ ٤٢ ـ ٤٧؛ المظفر قطز، ص١٠٤ ـ ١٠٥.

●● وأعلن بعض ملوك الأيوبيين خضوعهم لهولاكو في محاولة لتجنُّب الخراب الذي حلَّ بمدينة حلب، فقد أحسَّ الناصر يوسف ـ حاكم دمشق ـ بخطر المغول، فأرسل إلى قريبه (المغيث عمر) صاحب الكَرَك، و(المظفر قطز) صاحب مصر، يطلب منهما النجدة السريعة. على أن كثيراً من الأمراء بالشام خافوا عاقبة مقاومة المغول، ورأوا أن لا طاقةَ لهم بهم، فأخذ الأمير زين الدين الحافظي يُعظِّم من شأن هولاكو وأيَّد مبدأ الاستسلام. ولكن الأمير (ركن الدين بيبرس) ـ أحد أمراء المماليك البحرية بالشام ـ رَفض هذا الكلام، فقام وسبَّه وضَربه، وقال له: (أنتم سببُ هلاك المسلمين!). ولم يرضَ بيبرس ومعه المماليك البحرية عن مسلك الناصر يوسف وأمراء الشام، فساروا إلى (غَزَّة)، وأرسل بيبرس إلى قطز يَعرض عليه توحيدَ جهود المسلمين ضد خطر المغول، فاستجاب قطز في الحال، وأرسل إلى بيبرس يطلب منه القدوم، واستقبله بدار الوزارة وأقطعه (قليوب) وأعمالها[١].

وبعد استيلاء هولاكو على حلب بستة عشر يوماً، أخذ في الزحف على دمشق، فدخلها المغول ونهبوها. ثم ساروا إلى بَعْلَبَكّ، واتجهت طائفة منهم إلى غزة، وخرَّبوا بانياس، وأَسْعَروا البلاد حرباً، وملؤوها قتلاً ونهباً[٢].

ويعبر عن هول الكارثة والمآسي والدمار الذي حَلَّ ببلاد الإسلام، ما نقله السيوطي عن الموفَّق عبد اللطيف في خبر التتار؛ قال: (هو حديثٌ يأكلُ الأحاديثَ، وخبرٌ يَطوي الأخبار، وتاريخٌ يُنْسِي التواريخَ، ونازِلةٌ تُصَغِّرُ كلَّ نازلة، وفادحة تطبِّقُ الأرضَ، وتملؤها ما بين الطولِ والعَرضِ!)[٣].

وبعد أن بسط التتار جبروتهم على حلب وحماة وبعلبك ودمشق وسواها، عبروا فلسطين ووصلوا غزة، ونيَّتُهم الزحف إلى مصر.

---

(١) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٨٣ ـ ١٨٤؛ المظفر قطز، ص١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٨٤.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص٤٦٧.

●● وعُقد مجلسٌ بالقلعة في القاهرة حضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة، مثل قاضي القضاة بدر الدين حسن السِّنْجَاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين. وسألهما الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود، فقال ابن عبد السلام: (إذا لم يبقَ شيء في بيت المال، وأنفقتم الحوائصَ الذهب ونحوَها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبقَ للجندي إلا فرسه التي يركبها ـ ساغَ أخذُ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، إلا أنه إذا دَهَم العدوُّ وجَبَ على الناس كافة دفعُه بأموالهم وأنفسهم)[1].

وبينما كانت هذه الأحداث العنيفة تُلهِب المشهد في المنطقة العربية، مات (منكوخان) كبيرُ المغول، فعاد (هولاكو) إلى بلاده للمشاركة في اختيار الخان الأعظم الجديد. وعندما تمَّ اختيارُ أخيه (قوبيلاي) تقبَّل الأمر ببساطة، لكنه لم يرجع إلى قيادة جيشه الذي تركه ببلاد الشام تحت قيادة القائد التتري المسيحي (كَتْبُغَانُوين)[2].

ووصلَتْ رُسُل هولاكو إلى القاهرة تحمل إلى قطز خطاباً من هولاكو يقول فيه: (الذي يَعلمُ به الملك المظفَّر قطز صاحبُ مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتَّابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها: أنَّا جندُ الله في أرضه، خَلَقنا من سخطه، وسلَّطَنا على من حلَّ به غيظُه! فلَكُم بجميع الأمصار مُعْتَبرٌ، وعن عزمنا مُزْدَجَر، فاتَّعِظوا بغيركم، وسلِّموا إلينا أمركم!.

فنحن ما نرحمُ من بكى، ولا نرقُّ لمن شكى، فتحنا البلاد، وطَهَّرنا الأرض من الفساد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأيُّ أرض تُؤويكم، وأيُّ بلاد تحميكم، وأيَّ ذلك ترى، ولنا الماء والثرى؟! فما لكم من سيوفنا

---

(١) السلوك، للمقريزي: ١/٤١٦ ـ ٤١٧؛ المظفر قطز، ص٨٧؛ وانظر: الضربات، للجندي، ص٨٤.

(٢) المظفر قطز، ص١٠٨.

خلاص، ولا من أيدينا مَنَاص، فخيولُنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسِهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعديدنا كالرمال . . .

فلا تُطِيلوا الخطاب، وأسرعوا ردَّ الجواب، قبل أن تُضْرِم الحربُ نارها، وتُوري شرارَها، فلا تجدون منَّا جاهاً ولا عِزّاً، ولا كتاباً ولا حِرْزاً، إذ أزَّتْكُم رماحُنا أزّاً، وتُدْهَوْنَ منّا بأعظم داهية، وتصبح بلادُكم منكم خالية. . .)[١] إلى آخر ما قال.

ولكن قطز لم يَجزع من الرسالة، ولا جَبُنَ أمام ذلك التهديد، بل قَتَل رسلَ المغول وعلَّق رؤوسهم على (باب زويلة)! ولمَّا وجد قطز أن بعض الأمراء مترددون في الخروج لحرب المغول صاح فيهم: (يا أمراء المسلمين! لكُم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون؟! أنا متوجِّه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطَّلع عليه، وخطيئةُ حريم المسلمين في رقاب المتأخرين!)[٢].

وخرج قطز بجيشه في (رمضان ٦٥٨هـ ـ آب/أغسطس ١٢٦٠م)، وأمر الأميرَ ركنَ الدين بيبرس أن يقود عساكره ليكونوا مقدَّمة الجيش إلى غزة، لكي يعرف أخبار التتار. وعندما وصل بيبرس إلى غزة لقي طلائعَ المغول، واستطاع أن يُلحق بهم هزيمة غيرَ حاسمة، بيد أنها كانت كافية لدفْعِهم إلى الرحيل من غزة، وسيطرت قوات بيبرس على غزة.

في الوقت نفسه وصلت قوات الجيش الرئيس إلى غزة بقيادة السلطان المظفر سيف الدين قطز، ولكنه لم يمكث سوى يوماً واحداً، ثم رحل عن طريق الساحل إلى مدينة عكا، التي كانت ما تزال تحت سيطرة الصليبيين. فخرج

---

(١) المظفر قطز، ص١٠٩ ـ ١١١؛ وانظر: الدرة الذكية، لابن أيبك الدواداري، ص٤٧ ـ ٤٨؛ السلوك، للمقريزي: ١/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨؛ صبح الأعشى، للقلقشندي: ٨/ ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) السلوك، للمقريزي: ١/ ٤٢٩؛ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٨٤ ـ ١٨٥؛ المظفر قطز، ص١١٢ ـ ١١٣.

الفرنج إليه بالهدايا، وأرادوا أن يُرسِلوا معه قوات لمساعدته، فشكرهم، واستحلَفَهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارسٌ أو راجِلٌ يريد أذى عسكر المسلمين؛ رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتار[١]!.

وكان جيش السلطان المظفر قطز قد تكاثَر بمن انضمَّ إليه من جنود الشام والخُوَارَزْمية، فضلاً عن أعداد كبيرة من المتطوعين الذين خرجوا من مصر وسائر بلاد المنطقة العربية للجهاد في سبيل الله!.

وهكذا باتت القوات الإسلامية والقوات المغولية على وَشْك الصِّدام، وتمَّ فعلاً الصدام على أرض (عين جالوت) في (٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)[٢].

خامساً: معركة عين جالوت[٣]:

في صباح يوم الجمعة (٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م) امتلأ وادي عين جالوت بالجنود، والتقى الجمعان، فاتخذ جيش المغول موقعه صوب الجبل، على حين كان جيش المسلمين بقيادة المظفر قطز في الوادي.

وكان بِيبرس قد هَزم طليعة جيش المغول بقيادة (بيدرا) في غزة، فتحوَّل (كَتْبُغَا) إلى كتلة من الغضب، وأقبل بدافع الانتقام من جيش المماليك، معتمداً على سمعة جنده وشهرة أن (الجيش المغولي لا يُهزم!).

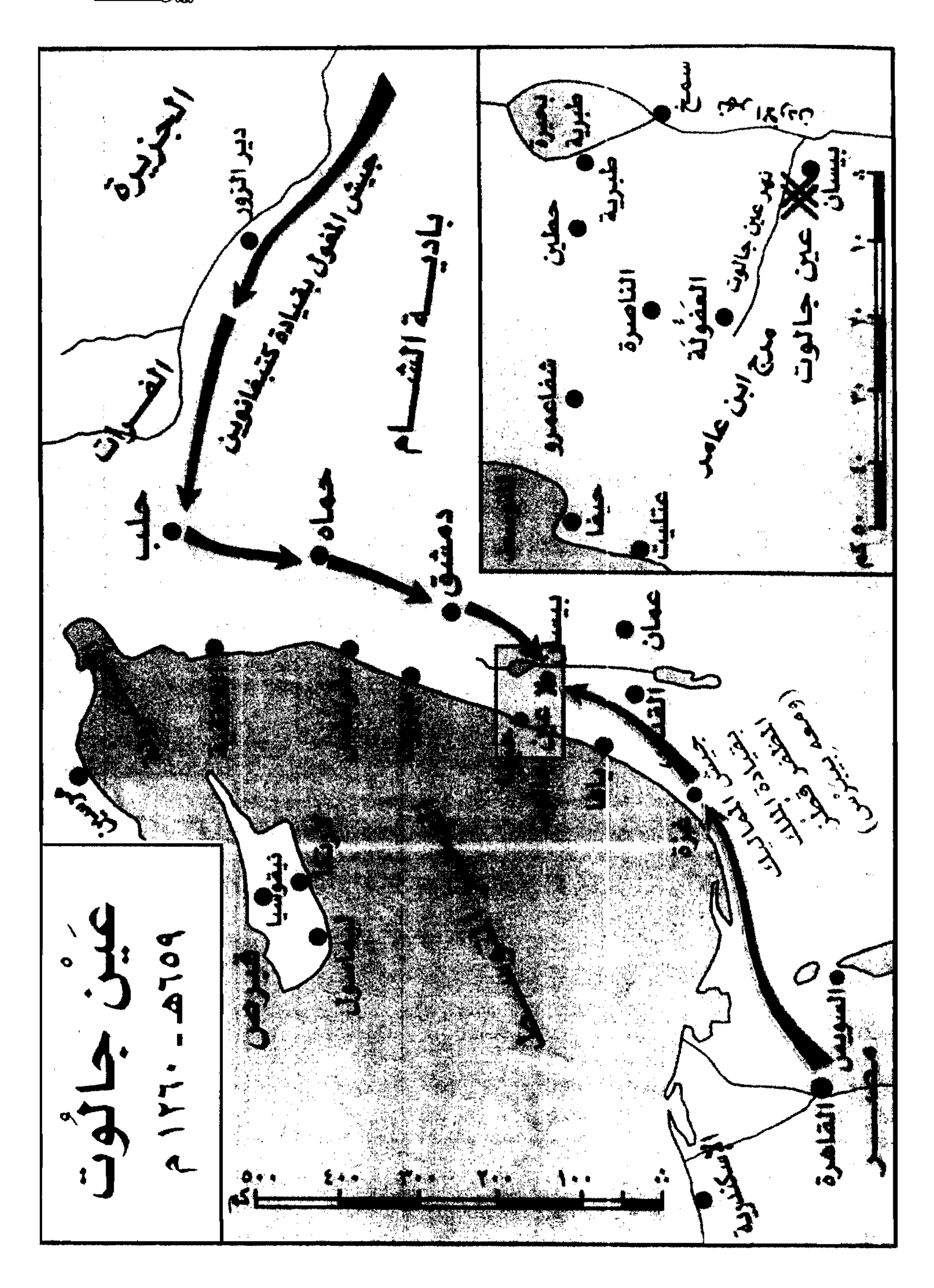
واصطدم العسكران في قتال عنيف، واضطرب جناحُ عسكر السلطان قطز، وانتقض طرف منه؛ **فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: (وا إسلاماه)!.**

---

(١) المظفر قطز، ص١١٣ ـ ١١٥؛ وانظر: السلوك: ١/ ٤٣٠.

(٢) المظفر قطز، ص١١٦.

(٣) قرية في الريف الفلسطيني بين بيسان شمالاً ونابلس جنوباً، شرقها نهر الأردن، وغربها عتليت على البحر المتوسط.



هذه الخريطة مأخوذة من كتاب:

أطلس التاريخ الإسلامي، للدكتور شوقي أبو خليل، ص١٠٢.

وهذه الصيحة الهائلة من القائد المظفّر قَصفَتْ كالرعد فوق رؤوس الناس، فإذا اليقين يَعْمُر الأفئدة، والحماسُ يُلهِب الأنفاس، وانطَلَق من بين المسلمين إعصار يطلب الآخرة ويدمِّر ما أمامه، وحَمَل السلطان المظفَّر بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيَّدَه الله بنصره، وما هي إلا جولة تتبعها أخرى حتى كان التتار بين مقتول وهارب، وقُتل (كَـتْـبُـغَا) مقدَّم التتار، وقُتل بعده (الملك السعيد حسن بن عبد العزيز وكان مع التتار!) وانهزم باقيهم، ومَنَح الله ظهورَهم للمسلمين يقتلون ويأسِرون.

ومرَّ العسكر في أثر التتار إلى قريب (بَيْسَان)، فرجع التتار وصافُّوا مُصَافّاً ثانياً أعظمَ من الأول، فهَزَمهم الله وقُتل أكابرهم وعدَّة منهم. وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصَرَخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظمُ العسكر وهو يقول: **وا إسلاماه، ثلاث مرات، يا الله انصر عبدك قطز على التتار.** فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، **نزل السلطان عن فرسه، ومرَّغ وجهه على الأرض وقبَّلها، وصلّى ركعتين شكراً لله تعالى!** ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم من الغنائم.

وسقطت في الوحل (خرافة الجيش الذي لا يُقهر)، وأخذ الوجود التتاري يتقلص مع الأيام حتى اختفى إلى الأبد[١]!.

●● ووصل خبر هزيمة التتار إلى دمشق يوم الأحد (٢٧ رمضان ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م). وبعد الفراغ من هذه الوقعة المباركة قام المظفر قطز بحركة تطهير سريعة للبلاد، فاسترد (دمشق) من المغول، في حين قام الأمير بِيْبَرْس بمطاردة المغول حتى (حلب)[٢]. وقد وصل السلطان المظفر قطز في يوم الأربعاء آخر

(١) المظفر قطز، ص١٣٠ ـ ١٣١؛ جهاد الدعوة، ص١٥٣ ـ ١٥٤؛ وانظر: البداية والنهاية: ١٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١؛ النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٢ ـ ٧٤.

(٢) النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٥ ـ ٧٦.

شهر رمضان من تلك السنة إلى ضواحي دمشق، حيث عسكر هناك حتى ثاني شوال، فدخل دمشق وأقام بقلعتها[١].

وقام بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار، ثم قفل عائداً إلى مصر[٢].

وتحققت نبوءة رسول الله ﷺ في وصف حال المسلمين ومواقفهم من الهجوم التتاري:

فالفرقة الأولى من الناس: هم أولئك الذي هربوا من بطش المغول، فاتبعهم هؤلاء وسفكوا دماءهم في الطرقات أو على الأسطحة حتى جرت الميازيب بالدماء في الأزقة! ومن هرب من أهل الشام لاجئاً إلى مصر قتلهم البرد الشديد، وكان الوقت شتاء، ونهب البدو أمتعة كثيرين.

والفرقة الثانية: ألقت بأيديها واستسلمت، كالخليفة العباسي وآل بيته، والأمير زين الدين الحافظي الذي كان يؤيد الاستسلام، والناصر يوسف والأمراء من حوله، الذين سبَّهم بِيبرس وقال لهم: (أنتم سبب هلاك المسلمين)، وأمثال هؤلاء ممن ألقى بيديه خانعاً مستسلماً، فهذه الفرقة قد هلكت أيضاً.

الفرقة الثالثة: تتمثل بأولئك الرجال الذين خلَّد التاريخ ذِكْرهم، وهم الفريق الأكبر والأكثر والأقوى والأعزّ، ويمثل بالمصريين وعلى رأسهم المظفر قطز، وأهل الشام وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس.

فهذا الجند المصري وذاك الجند الشامي هم الذين تصدَّوا للخطر الماحق، وأوقفوا الزحف الوحشي التتاري، وجرَّعُوه كأس الهزيمة، وسَقَوه الموت الزُّعَاف.

---

(١) السلوك: ١/ ٤٣٢؛ المظفر قطز، ص١٣٨.

(٢) النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٧.

هذه هي الفرقة الثالثة التي قال فيها النبي ﷺ: «وأمَّا فِرْقةٌ فيجعلون عِيالَهم خَلْفَ ظُهورِهم، ويُقاتِلون، فقَتْلَاهم شهداء، ويَفتحُ الله على بقيتها».

وصدق رسول الله ﷺ ـ بأبي هو وأمي ـ لكأنه في قلب الأحداث يصفها كشاهد عيان، وتأتي الأيام لتصدِّق قولَه بعد نحو ستمئة وخمسين سنة!.

سادساً: دروس وعبر:

وقبل أن ننهي الكلام على هذا الحدَث الخطير الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، واحتل مساحات واسعة من كتابات المؤرِّخين القدامى وكتباً من الباحثين المعاصرين؛ نقف مع بعض الدروس والعِبر فيه:

١ ـ إن هذه الأمة يعتريها الضعف والخَوَر شأن الأمم الأخرى، وقد يحلُّ بها التفرق والتشرذم، ولربما يقع منها الانحراف والغفلة عن منهجها، لكنها لا ترتكب موبقة التحريف، ولا تذوب في الأمم، ولا تموت، ولا تأفُل حضارتها عن مسرح التاريخ، كلا، فإنها سرعان ما تهبُّ من رَقْدتها، وتصحو من كَبْوتها، وتستفيق من سُباتها، وتهبُّ كالإعصار لتُثْبِت وجودها وتكْنُس عدوَّها من طريقها. وهي قادرة على أن تتصدى للأهوال والمخاطر التي تحيق بها، ولا يزال الزمان يخبئ لها الكثير من الإنجازات العسكرية والثقافية والقيادية.

٢ ـ إن المسلمين في كل زمان قادرون على صُنْع النصر من رماد الهزيمة، وبناء الحضارة من دمار العدوان، وإشعال مصابيح العلم والهداية في الدياجير التي يخلِّفها المعتدون ـ إذا وجدوا قائداً مقتدراً يضرب لهم المثل بنفسه في الشجاعة والتضحية والإيثار، وعالماً صدَّاعاً بالحق لا يخاف المُلمَّات ولا يُداهن الحكومات.

٣ ـ للقائد الكفء الذي يُحسِن بناءَ الأمة وإعدادَها روحيّاً وماديّاً، ثم يصمد بها ومعها في وجه الخطر الداهم، لهذا القائد دورٌ مهم وخطير جدّاً، بيد إنه لمن الإجحاف ما يصوِّره الكثيرون من تحويل البطل إلى (أسطورة تاريخية) صاغت الأحداث وصنعت المعجزات وغيَّرت مسيرة التاريخ.. فإن مثل هذا بلا شك هو

ضَربٌ من العبث والاستصغار لدور الأمة وقياداتها الصغيرة والكبيرة، فإن أحداً من أبطال القادة وأفذاذهم غير قادر وحده على صنع الأحداث العظيمة مهما أوتي من العبقرية والكفاءات! وقد أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وإن رجلاً مثل الفاروق عمر غير قادر على صنع ما كان في أيام خلافته لولا ذلك الرهط الكثير من أهل الشورى والوزراء والقادة والولاة والمجاهدين من حوله، ثم الأمة بأسرها أيضاً شاركت في صناعة تلك الأعمال الجسيمة في عصره.

٤ ـ لقد كانت مدة حُكْم المظفَّر قطز قصيرة جدّاً في مداها الزمني[1]، لكنه حقق إنجازاً عظيماً في تاريخ المسلمين، يفوق كثيراً مكانة أولئك النفر من (الحكام النكرات) الذين احتلوا في الزمان مساحة كبيرة في مداها، لكنهم لم يجدوا لأنفسهم مكانة في التاريخ وإن صغرت، ولم يكتبوا على صفحات التاريخ إلا سواداً في بياض!.

٥ ـ إن جناحَي الأمة العربية وقلبها النابض هما مصر وبلاد الشام، وهذا ما تؤكده حقائق التاريخ القديم والحديث، ويوم يجتمع الجند الشامي والجند المصري على كلمة سواء من الحق والصدق والتضحية؛ تقوم الأمة، وإلا فأمرها إلى إدبار. وإنَّ أمْنَ مصر من جهة بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة، ولقد وعى هذا المملوك قطز، كما وعاه ـ للأسف ـ اليهود المعاصرون.

٦ ـ كانت (عين جالوت) عامل الإنقاذ الديني والإنقاذ الحضاري الذي خلع مخالب الوحش التتاري وأصابه في مقتله، وردَّه من حيث أتى خائباً حسيراً، وأنقذ العالم الإسلامي من خطر فادح كان من الممكن أن يؤخِّر نهوضَهم رَدَحاً طويلاً من الزمان.

---

(١) تسلطن قطز في (٢٤ ذي القعدة ٦٥٧هـ) وعين جالوت في (٢٥ رمضان ٦٥٨هـ)، فالمدة (١٠) أشهر فقط!.

٧ ـ أَبْطَل الجيشُ الإسلامي بقيادة قطز (أكذوبة الجيش الذي لا يُقهر)، وأثبت للضعاف والمنهزمين والبطّالين أن عزماتِ الإيمان الصادقة والإعدادَ اللازم والقيادةَ المخلصة كفيلةٌ بإلحاق الهزيمة بكل قوى التجبر والغطرسة.

(وإن التاريخ يعيد نفسه اليوم، والمحاولات ماضية في إلحاح لإشعارنا أن يهود اليوم هم تتار الأمس، وأن الجيش اليهودي قوة لا تُقهر)[1].

وتتكرر الأكذوبة الآن على أرض العراق، وتروِّج أن (الجيش الأمريكي) لا طاقة لأحدٍ به!.

وهذا وذاك تدحضهما عزمات المجاهدين المخلصين على أرض الأقصى وبلاد الرافدين، مثلما أسقطت جهودُ قطز وجندِه (خرافة الجيش التتاري الذي لا يُقهر).

٨ ـ العلماء الصادقون الصداعون بالحق لهم دور جليل في إحياء الأمة من جهة، وكفكفة جماح الحاكم وردِّه عن غَيِّه إلى رشده من جهة أخرى، وهذا واضح في موقف العز بن عبد السلام عندما أفتى بوجوب إخراج كنوز الدولة والأمراء والأميرات ومساواتهم بعامة الشعب، ثم بعد هذا فإن أفراد الأمة يُضحُّون بما لديهم ولن يبخلوا به.

٩ ـ الخطر المغولي على العالم الإسلامي أقل بكثير من الخطر الصليبي عليه! صحيح أنهم قد زلزلوا البلاد الإسلامية بعُنْفِهم المدمِّر، لكن خطرهم كان آنيّاً، فلم يلبثوا أن ذابوا ضمن تيار الحضارة الإسلامية الدفَّاع، بل صاروا بعد جيلين فقط من المساهمين في بناء هذه الحضارة والمحافظين عليها.

أما الصليبيون فلديهم مشروع لا يتحقق سوى بالقضاء على الوجود الحضاري الإسلامي، كما أنهم لا يَنقصهم العنف المدمر، والعشرة القرون من الصراع مع الإسلام دليل قائم لا يخفى.. والصليبيون الجدد أقذر من القدامى،

(١) جهاد الدعوة، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

والأدلة الآن كثيرة من حروبهم القذرة على العالم الإسلامي، وبخاصة في العراق وأفغانستان وفلسطين والبلقان.

١٠ ـ دخل المغول في الإسلام، وكانت طلائعهم تتمثل في (القبيلة الذهبية) بقيادة ملكهم (بركة خان)، وهم (مغول القفجاق) ـ وهي البلاد الواسعة بين نهر أركش والسواحل الجنوبية لبحر قَزْوين ـ الذين تقاطرت وفودُهم إلى مصر وسورية طائعين، وأرسل الملك (بركة خان) إلى السلطان الظاهر بيبرس قائلاً:

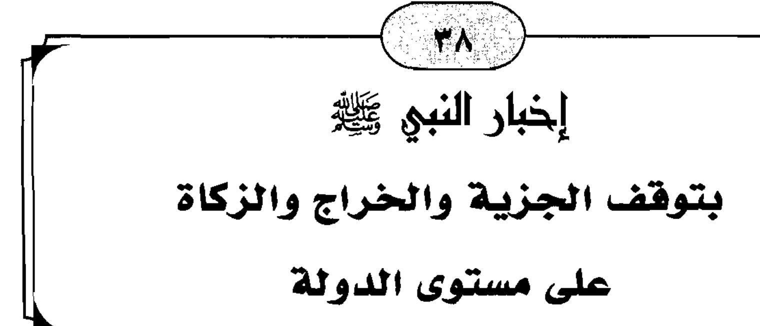
(فَلْيَعلم السلطان أني حاربتُ هولاكو الذي هو من دمي ولحمي لإعلاء كلمة الله ورسوله!).

وقد أرسل السلطان الظاهر بيبرس الردَّ في سبعين ورقة، وأمر الخطباءَ أن تدعو للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر في مكة والمدينة والقدس والقاهرة[(١)].

وثمة دروس أخرى وعبر كثيرة لا تخفى على القارئ تركناها لألمعيته وجودة قريحته.



(١) الضربات، للجندي، ص٨٧، ٨٩. وقد استفدنا في كتابة هذه النبوءة من الكتب التالية: السلطان المظفر قطز، للدكتور قاسم عبده قاسم؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوي؛ الضربات، لأنور الجندي، ص ٨١ ـ ٩٨؛ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ص١٦٥ ـ ١٨٨. إضافة إلى شروح كتب الحديث، وكتب التاريخ التي تناولت تلك الحقبة التاريخية، وهي كثيرة.



٣٨
إخبار النبي ﷺ بتوقف الجزية والخراج والزكاة على مستوى الدولة

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: («**مَنَعَتِ العراقُ دِرْهَمَها وقَفِيزَهَا، ومَنَعَتِ الشأمُ مُدْيَهَا ودِينَارَها، وَمَنَعتْ مِصْرُ إرْدَبَّها ودِينَارَها، وعُدْتُم من حيثُ بَدَأْتُم، وعُدْتُم من حيثُ بدأتُم، وعُدْتُم من حيثُ بدأتمُ**» شَهِدَ على ذلك لحمُ أبي هريرة ودَمُه)[١].

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (**كيفَ أنتُم إذا لم تَجْتَبُوا دِيناراً ولا دِرْهماً؟** قيل له: وكيف تَرى ذلك كائناً يا أبا هريرة؟ قال: إيْ والذي نفسُ أبي هريرة بيدِه؛ عن قول الصادِق المَصْدوقِ. قالوا: عَمَّ ذاكَ؟ قال: تُنْتَهَكُ ذِمَّةُ الله وذِمَّةُ رسوله ﷺ، فَيَشُدُّ الله عز وجل قلوبَ أهلِ الذِّمَّة فَيَمْنَعُون ما في أَيْدِيهم)[٢].

٣ ـ وعن أبي نَضْرَةَ العَبْدِيِّ قال: (كنَّا عند جابرِ بن عبد الله فقال: يُوشِكُ أهلُ العِراق أنْ لا يُجْبَى إليهم قَفِيزٌ ولا دِرهَمٌ. قلنا: من أينَ ذاكَ؟ قال: مِن قِبَلِ العَجَمِ، يَمْنَعُون ذاكَ. ثم قال: يُوشِكُ أهلُ الشأمِ أنْ لا يُجْبَى إليهم دِينارٌ ولا مُدْيٌ. قلنا: من أينَ ذاكَ؟ قال: من قِبَلِ الرُّومِ. ثم أَسْكَتَ هُنَيَّةً، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكونُ في آخِرِ أمتي خليفةٌ يَحْثي المالَ حَثْياً، لا يَعُدُّه عَدَداً**»)[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٦) واللفظ له؛ وأبو داود (٣٠٣٥)؛ وأحمد: ٢/ ٢٦٢؛ والداني (٦٠٢)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٢٩؛ والبغوي (٢٧٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٠) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٣٣٢.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩١٣) واللفظ له؛ وأحمد: ٣/ ٣١٧؛ وابن حبان (٦٦٨٢)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٣٠؛ والداني (٦٠٤).

أولاً: تحديد مقادير المكاييل المذكورة، وشرح بعض الألفاظ:

القَفِيز: مكيال معروف لأهل العراق، ويساوي (١٢) صاعاً، والصاع (٢١٧٥) غراماً، فيكون مقدار القفيز (٢٦,١ كغ).

والـمُدْيُ: مكيال معروف لأهل الشام، ويساوي (٢٢,٥) صاعاً، أي (٤٨,٩٣ كغ).

والإِرْدَبّ: مكيال معروف لأهل مصر، ويساوي (٢٤) صاعاً، أي (٥٢,٢ كغ).

والدرهم والدينار: أسماء للعملات والنقود، وهي تختلف حسب الزمان والبلد.

قوله: (**إذا لم تجتبوا**): من الجباية، أي لم تأخذوا من الجزية والخَراج شيئاً.

(**فيشد قلوب أهل الذمة**): يقويها وينتزع منها مهابتكم.

(**فيمنعون ما في أيديهم**): أي يمتنعون من أداء الجزية.

(**أَسْكَت هُنَيَّة**): أسكت: صَمت. هنية: قليلاً من الزمان.

«**يحثي المال حثياً**»: الحثي والحثو بمعنى الحفن باليدين. والمراد: أن المال يكثر عنده فيعطي الناس بكثرة لا يحصرها عدّ.

ثانياً: معنى الأحاديث ومدلولاتها:

في معنى قوله ﷺ: «**مَنَعت العراق درهمها وقفيزها، . . .**» قولان مشهوران:

الأول: أن أهل هذه البلاد سَيُسْلِمون، وبإسلامهم سيسقط ما وُظِّف عليهم من جِزية وخَراج[1]، وهذا قد وُجِد.

---

(١) عند الشافعية: من أسلم سقط ما عليه من الخراج وما على رقبته من الجزية.

وإليه ذهب البيهقي[١].

والثاني ـ كما يقول النووي ـ: (وهو الأشهر: أن معناه: أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان، فيمنعون حصول ذلك للمسلمين).

ويؤيّده حديث جابر: (يُوشِك أهل العراق أن لا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم، . . .) قال النووي: (وهذا قد وُجِد في زماننا في العراق، وهو الآن موجود)[٢].

وإلى هذا ذهب غيرُ واحد من الأئمة، وهو الصحيح الراجح، ولم يحكِ الخطَّابيُّ غيرَه؛ قال: (ومعنى الحديث: أن ذلك كائنٌ، وأن هذه البلاد تُفتح للمسلمين، ويوضع عليها الخَراج شيئاً مقدَّراً بالمكاييل والأوزان، وأنه سَيُمنع في آخر الزمان، وخَرَج الأمر في ذلك على ما قاله ﷺ)[٣].

وقال الشَّوْكاني: (وهذا الحديثُ من أعلام النبوة؛ لإخباره ﷺ بما سيكون من مُلك المسلمين هذه الأقاليمَ، ووضعهم الجزيةَ والخراج، ثم بُطْلان ذلك: إما بتغلُّبِهم وهو أصح التأويلين، وفي «البخاري»[٤] ما يدلُّ عليه، ولفظ المَنْع يرشِد إلى ذلك. . وإما بإسلامهم)[٥].

وذكر النووي قولاً آخر في معنى الحديث، فقال: (وقيل: معناه أن الكفار الذين عليهم الجزية تقوى شوكتُهم في آخر الزمان، فيمتنعون مما كانوا يؤدونه من الجزية والخَراج وغير ذلك)[٦].

---

(١) دلائل النبوة: ٦/ ٣٣٠.
(٢) شرح صحيح مسلم: ٩/ ٢٤٨.
(٣) معالم السنن: ٤/ ٢٤٨؛ هامش سنن أبي داود: ٣/ ٤٢٦.
(٤) يقصد حديث أبي هريرة الثاني الذي أوردناه في صدر النبوءة.
(٥) نيل الأوطار: ٨/ ١٨، ونقله عنه صاحب عون المعبود: ٥/ ٤٢١.
(٦) شرح صحيح مسلم: ٩/ ٢٤٨.

وهذه الأحاديث فيها ثلاثة من أعلام النبوة، وقد وقع الأمر على ما أخبر به رسول الله ﷺ:

الأول: أن هذه البلاد ستُفتح ويُضْرَب على أراضيها الخَراج وعلى رقاب أهلها الجزية. وقد كان ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه، ففُتحت العراق والشام ومصر، وجاءت جزيتها وخَراجها إلى عاصمة الخلافة الراشدة، كما مرَّ بيانه في نبوءات سابقة.

وهو مفهوم قوله ﷺ: «**مَنَعَت . . .**»، ومَنْعُ إعطاءِ الخَراج والجزية لا يكون إلا بعد وجودهما، ووجودُهما دليل على الفتح الإسلامي لتلك الأمصار.

ثم أسلَمَ عامة أهل هذه البلاد، وسَقطت عنهم الجزية والخراج.

وهذا أحدُ معاني الأحاديث المتقدمة، وهو ما ذهب إليه الإمام البيهقي. وهو في رأينا المرحلة الأولى من تحقق النبوءة، ولا يُعارِض الأقوالَ الأخرى.

الثاني: مَنْعُ إعطاء الجزية والخراج وبطلانُهما، وذلك لتغلُّب العجم والروم على هذه البلاد وقوة شوكتهم فيها، وهذا قد حدث أيام الحروب الصليبية والغزو المغولي لبلاد المسلمين، ثم استمكن على أشدِّه بعد ضرب الخلافة العثمانية وإسقاطها منذ نحو مئة سنة، ووقوع البلاد العربية والإسلامية تحت الاستعمار الطاغي، ثم خرج المستعمرون وخلَّفوا وراءهم مَن يقوم بدورهم على أسوأ وجه، واستحكم تحقق النبوءة على أشده، وهذا يمثل المرحلة الثانية منها.

الثالث: قوله ﷺ: «**وعُدْتُم من حيثُ بدأتُم**» ثلاث مرات: ويعني بذلك غربةَ الإسلام في هذه الدول[1]، وهو معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً**»[2] وهذه هي المرحلة الثالثة من تحقق النبوءة.

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٩/٢٤٨؛ عون المعبود: ٥/٤٢١.

(٢) قد فصَّلنا القول في معنى هذا الحديث في النبوءة رقم (١٠٧): ٣/٢٩٢ من هذا الكتاب.

ثالثاً: أوجه تحقق النبوءة منذ عدة قرون وإلى عصرنا:

●● منذ قرون خَلَتْ هاجم الصليبيون بلاد المسلمين في حملات متتابعة مشهورة، وانتقصوها من أطرافها، وكذلك زحف التتار على العالم الإسلامي من جهة الشرق، وعاثوا في الأرض فساداً، وأهلكوا الحَرْث والنَّسْل.. وتوقف إعطاءُ الجزية ودفعُ الخراج، وضَعُفت الدولة الإسلامية عن جمع الزكوات، وبقيت هذه الفريضة معلَّقة بذمم الناس، وخسرت خزائن المسلمين موارد طائلة كانت تتقاطر عليها، وبقي المسلمون في ديارهم بين مَدّ وجَزْر، ينتصرون مرة ويُدال عليهم أخرى.

●● ومنذ نحو مئة سنة وإلى أيامنا هذه قد استحكَمَ تحققُ هذه النبوءة على أكمل وجه؛ حيث تعاقدت قوى الكفر في الغرب والشرق على إسقاط الخلافة العثمانية، التي كانت تترنح من كثرة أمراضها، واستعان أعداء الأمة الإسلامية بعملائهم في بلاد العرب، وأَوْحَوا إليهم أن يعينوهم في التخلص مما سَمَّوه بـ (الرجل المريض)، ومَنّوهم الأماني!.

يقول لورنس: (إن أهدافَنا الرئيسة هي تفتيتُ الوحدة الإسلامية، ودُحُر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها. وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، وهم الأقلُّ وعياً للاستقرار من الأتراك، فسيبقون في دوَّامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك)[1].

وبعد الحرب العالمية الأولى أشعل هذا الداهية بدورِه (الحماسَ القومي، وأثار العربَ على الأتراك، وثار الشريفُ حسين في الحجاز، وأهلُ الشام في الشام، وفضَّلوا الانضمام إلى راية الحلفاء، على البقاء في جوار الأتراك المسلمين الذين كانوا رمزَ قوة الإسلام وشوكتَهُ! وتناسَوْا نصوصَ القرآن والسنَّة في هذه القضية، واعتمدوا على الوعود الخلَّابة، والسياسة المتقلِّبة التي

(١) الضربات، للجندي، ص٢٠٢.

لا تعرف إلا المصلحة)[١].

يقول لورنس: (كنتُ أُؤمِن بالحركة العربية ـ حركة الشريف حسين ـ إيماناً عميقاً، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلىٰ الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزّق تركية شَذَر مَذَر!)[٢].

لقد حَكم العرب باسم الإسلام، وحكم الأتراك باسم الإسلام، فلم يخلُ كلا الحكمين من أعمال تسرَّبت إليها النزعات الصغيرة، بَيْد أن أخطاء العثمانيين في مراحل دولتهم الأخيرة ما كان قِصاصُها أن ينضمَّ العرب للصليبيين في حربهم للمسلمين العثمانيين!.

(إن هذه الخيانةَ المظلمةَ أخذت ـ في ظاهرها ـ طابعَ الثأر من دولة الخلافة الجائرة، بَيْدَ أنها في باطنها لا تَعْدو أن تكون مطامعَ أفراد، دِينُهم هواهم، ووسائلهم كل ما أمكن من حلال أو حرام.

إن تصوير هذه الخيانة بأنها ثورات شعوب مضطهدة واتَتْها فرصة التحرر فتشبَّثتْ بها؛ أمرٌ بعيد عن الحقيقة.

لقد أفلحت سلطة الاحتلال في مصر أن تجنِّد نحو مليون ونصف عامل كانوا سنَدَها في إبادة الجيش التركي في المعارك التي دارت بصحراء سيناء وجنوب فلسطين!)[٣].

وانقضى عهد الأتراك بعد أن دام أكثر من خمسة قرون، وأتمَّ مصطفى كمال أتاتورك فصولَ المأساة فأعلن كفر الدولة بالإسلام والعرب.

(ونجحتْ سياسةُ إنجلترا في إخراج المسلمين من هذه الحرب أمةً لا وزنَ لها ولا مكان. لقد خان ساستُنا القُدامى دينَهم وتاريخَهم وحالفوا

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢١٦.

(٢) أعمدة الحكمة السبعة، نقلاً عن: الضربات، للجندي، ص٢٠٣.

(٣) اليهود المعتدون، ص٢٤٣.

إنجلترا فغدرت بهم!)[١].

والدولة العثمانية بما كان فيها من عِلل في مراحلها الأخيرة؛ إلا أنها (وأمانة للتاريخ، كانت ـ على عِلّاتها الأخيرة ـ حِصْناً منيعاً للإسلام، وسوراً قويّاً واسعاً للأقطار العربية الإسلامية، الواقعة في الشرق الأوسط بما فيها الحجاز وفلسطين، ويمنع من تدخل القوى الأجنبية الغربية في هذه البلاد، وعبثها بها عبثَ اللاعب بكرة القدم، واعتدائها على مقدساتها)[٢].

●● وكانت النتائج مُرّة تجرَّعَتْها الشعوب العربية المسلمة، فتغلغل النفوذ الأجنبي في بلادنا وتمكَّن منها لأمدٍ طويل، فحجب الشريعة الإسلامية عن الحكم والحياة، وسيطر على مناهج التعليم، وعمل على تدمير معالم الأمة الأساسية بالتبشير والاستشراق والغزو الفكري، وفرض النظام الديمقراطي المشوَّه أو الجبري الاستبدادي والقانون الوضعي الفرنسي أو الإنجليزي أو الإيطالي، وشجَّع المؤسسات الربوية، وعمل على شيوع الزنى والخنا والخمور والملاهي، وأعلى من شأن الوطنيات والإقليميات، فظهرت الفرعونية والبابلية والفينيقية والزنجية والبربرية، وحاول أن يجعل لهذه الدعوات المنهارة لغة وتاريخاً وثقافة للقضاء على الإسلام ووحدته[٣].

وخضعت الأقطار العربية المنكوبة لثقافة الأجنبي و(حضارته!)، فاستَغْلَت الثقافة الفرنسية في الجزائر وتونس والمغرب، والإنجليزية في مصر والسودان والعراق، واتسع نطاق اللغتين الإنجليزية والفرنسية، بحيث حجبتا اللغة العربية في التعليم والثقافة. وفي كل قطر إسلامي عمد النفوذ الأجنبي على حجب اللغة العربية (لغة القرآن)، وإعلاء لغته هو، وإعلاء العاميات، وذلك ضمن خطة الحرب على الإسلام[٤].

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢٤٤.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٦٨ ـ ١٦٩.

(٣) الضربات، للجندي، ص٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٤) المرجع السابق، ص٢٤٩.

ووقع المسلمون بين قطبَي الرحى، واجتمع عليهم الثالوث الخطير: الصليبية والشيوعية واليهودية؛ لترسيخ مفاهيم العلمانية وإنكار الألوهية والنبوّة والغيب واليوم الآخر، وإغراق المجتمعات الإسلامية بأدوات الانحلال ممثلة في الفكر الأسطوري والإباحي والمادي[١].

وحَرَصَ النفوذ الأجنبي في بلادنا على صناعة عملائه ليقدِّمهم في مجالات القيادة والسيطرة السياسية ومراكز التأثير وصناعة القرار، وأصبح كثير من المسلمين في الزمن الأخير حتى في مراكز الإسلام وعواصمه (حلفاءَ للجاهلية الأوروبية وجنوداً متطوعين لها! بل صار بعض الشعوب و«الدول الإسلامية» يرى في الشعوب الأوروبية التي تزعمت حركة الجاهلية منذ قرون، ونفخت فيها روحاً جديدة، وركزت أعلامها على الشرق والغرب: ناصراً للمسلمين، حامياً لذِمار الإسلام المستضعَف، حاملاً لراية العدل في العالم قوَّاماً بالقِسط!.

ورضي عامة المسلمين بأن يكون ساقة عسكر الجاهلية، بدل أن يكون قادة الجيش الإسلامي، وسَرَتْ فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية سريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك)[٢].

ولقد جرَّب العرب خصوصاً والمسلمون عموماً كل الأنظمة المستوردة والمحلية، ورفعوا هنا وهناك جميع الشعارات، وخاض الزعماء الغمرات بلا سلاح ماض، وزَجُّوا بأنفسهم وبشعوبهم وبلدانهم في بحار دون أن يمتلكوا أدوات السباحة وعوامل النجاة، فلم يجنوا سوى الخسار والبوار والدمار!.

(لقد حاول المسلمون التماسَ منهج النهضة عن طريق العلمانية ففشلوا، وعن طريق القومية فذلّوا، وعن طريق الاشتراكية فَهُزموا، ولم يَعُدْ أمامهم إلا طريق واحد هو طريق الإسلام بمفهومه الجامع الأصيل، وذلك حتى يستطيعوا

---

(١) الضربات، للجندي، ص٢٦٨.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٧١.

رَدْعَ خصومهم واسترداد أرضهم وإزاحة عدوِّهم)[(١)].

فلا غَرْوَ بعد كل هذا الضياع الذي استغرق أكثر من قرن من عمر الأمة أن يتحقق فيها الحديث الشريف: «يوشك أهل العراق أن لا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم». قلنا: «من أين ذاك؟ قال: **من قِبل العجم، يمنعون ذاك**». ثم قال: «**يوشك أهل الشأم أن لا يُجبى إليهم دينار ولا مُدْي**». قلنا: من أين ذاك؟ قال: «**من قِبل الروم**».

وحديث: «**فَيَشُدُّ الله ﷻ قلوبَ أهل الذمة، فَيَمنعُون ما في أيديهم**».

وحديث: «**وعُدْتُم من حيثُ بَدَأتُم**».

حيث سيطر على بلادنا الغربُ والشرقُ، وارتفعتْ كلمتُهم، وسادت مبادئهم، وزادت غربةُ المسلمين في ديارهم، وابتعدوا كثيراً كثيراً عن كتاب ربهم وسنَّة نبيِّهم ﷺ، وهما سِرُّ وجودهم، ومصدرُ قوتهم وعزّتهم، وأُلغيت الخلافة، وتعطلت أحكام الله في مختلف بلداننا، وأضحى اقتصادنا قائماً على الربا، بعد أن كانت خزائننا تمور بأموال الزكوات والصدقات والجزية والخراج.. والزكاة في أيامنا يؤديها الأفراد وقد تجمعها المؤسسات والجمعيات التي أصبحت الآن كذلك ـ والقلب يعتصر مرارة ـ مثارَ شبهة، وتحت الرقابة، وكفكفة أنشطتها التي تستجيب لدموع الأيتام وصيحات الأرامل وتضوُّر الجياع، وتُنقِذ الملايين من المسلمين من براثن التبشير (التكفير!).

فهل بعد هذه الغُربة من غُربة؟!.

هذا ما سنح به الفكر من معانٍ حول هذه النبوءة النبوية العظيمة، والتي تحققت في مرحلتيها الأخيرتين، واستحكمت في أيامنا هذه ومنذ سنين خلت.

والله تعالى أعلى وأعلم.

❋ ❋ ❋

---

(١) الضربات، للجندي، ص٣٠٨.



فهرس الموضوعات

الفصل الأول

نبوءات تتعلّق بأشخاص

الفصل الثاني

نبوءات عن الغزوات والفتوحات


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



نُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١







نبوءات الرسول ﷺ

دروس وعبر



الجزء الثاني

بقلم

عبد الستار الشيخ

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بتمويل الإدارة العامة للأوقاف

إدارة الشؤون الإسلامية

دولة قطر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نبوءات الرسول ﷺ

دروس وعبر







نبوءات الرسول ﷺ

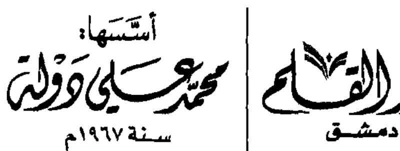
دروس وعبر

بقلم

عبد الستار الشيخ

الجزء الثاني

إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر





١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

طبعة خاصة
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
دولة قطر

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤



نبذة تعريفية
الإدارة العامة للأوقاف

الوقف علامة فارقة في مسيرة الحضارة الإسلامية، وقد أثبت دوره ومكانته في مجالات التعليم والصحة والعمل الثقافي والاجتماعي بمختلف أشكاله، وما زالت المساجد والمدارس والمعاهد والمستشفيات تقف شاهدة على عظمة وأهمية الوقف عبر تاريخنا المجيد.

وفي هذا السياق من العطاء والتواصل الإنساني تهدف **الإدارة العامة للأوقاف** التي أُعلن عن إنشائها بالقرار الأميري رقم (٤١) لسنة (٢٠٠٦م) إلى إدارة الأموال الوقفية واستثمارها على أُسس اقتصادية، وفق ضوابط شرعية بما يكفل نماءها وتحقيق شروط الواقفين، وتعد الأوقاف إحدى أهم مؤسسات المجتمع المدني سواء من ناحية النشأة والقِدم أو الاختصاصات المناطة بها.

وانطلاقاً من النهضة الوقفية المعاصرة تم توسيع نطاق الوقف وتنويع مصارفه من خلال إنشاء المصارف الوقفية الستة المشتملة على مختلف نواحي الحياة الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية... إلخ ، وذلك تشجيعاً لأهل الخير، وإرشاداً لهم لوقف أموالهم على المشاريع الخيرية التنموية، وتنظيماً لقنوات الصرف والإنفاق المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الحضاري.

وأما المصارف الستة فهي :

١ ـ المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسُّنَّة.

٢ ـ المصرف الوقفي لرعاية المساجد.

٣ ـ المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.

٤ ـ المصرف الوقفي للبرِّ والتقوى.

٥ ـ المصرف الوقفي للرعاية الصحية.

٦ ـ المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.

وانطلاقاً من الإيمان العميق بدور العلم الشرعي والثقافة الإسلامية بشكل خاص، والعلوم التطبيقية بشكل عام في تقدم الأمة وتطورها، جاء إنشاء «المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية» ليكون رافداً غنيّاً للعطاء الثقافي والعلمي ضمن نطاق اختصاصاته. وأبرز مثال في إطار أعمال وإنجازات هذا المصرف رحلات العمرة للمتميزين إلى جانب إقامة العديد من الدورات العلمية.

ولا ننسى الإشارة إلى الدور المهم الذي نهض به الوقف تاريخيّاً في تنشيط الحركة العلمية والثقافية، وذلك بإقامة المدارس، والمكتبات والمعاهد وغيرها، ليصنع بذلك حضارة أفادت منها الإنسانية جمعاء.

من أهدافـــه:

ـ تشجيع ودعم إقامة الأنشطة والفعاليات العلمية والثقافية.

ـ الحث على الاهتمام بالتعليم، وبيان دوره في رقي الإنسان ونمو المجتمعات.

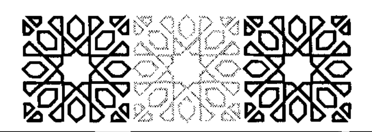
ـ نشر العلم الشرعي والثقافة الإسلامية على أوسع نطاق، والارتقاء بمستوى العاملين في هذا المجال.

من وسائلـــه:

ـ دعم إقامة المؤتمرات والندوات وحلقات الحوار والمهرجانات والمعارض والمراكز الثقافية الدائمة والموسمية.

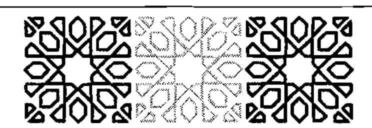
ـ دعم وإنشاء المكتبات العامة.

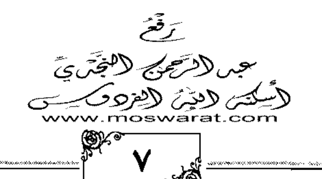
ـ دعم تنظيم الدورات التدريبية التأهيلية لتنمية المهارات والقدرات في مختلف المجالات العلمية والثقافية.



الفصل الثالث

نبوءات تتحدَّث عن الفتن





٣٩

إخبار النبي ﷺ بظهور الفتن في أمته

١ ـ عن أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما قال: (أَشْرَفَ النبيُّ ﷺ على أُطُمٍ من آطامِ المَدينةِ، فقال: **«هَلْ تَرَوْنَ ما أَرَى؟ إنِّي لأَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلَالَ بُيوتِكُمْ كَمَواقِعِ القَطْرِ!»**)[١].

٢ ـ وعن أم سَلَمة رضي الله عنها زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: (اسْتَيْقَظَ رسولُ الله ﷺ ليلةً فَزِعاً، يقول: **«سُبْحَانَ اللهِ، ماذا أَنزلَ الله من الخَزَائنِ، وماذا أُنزلَ من الفِتَنِ؟! مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُراتِ** ـ يريدُ أزواجَهُ ـ **لكي يصلِّين؟ رُبَّ كاسِيَةٍ في الدُّنيا عارِيَةٍ في الآخِرَةِ»**)[٢].

٣ ـ وعن زَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ رضي الله عنها: (أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دخلَ عليها يوماً فَزِعاً، يقول: **«لا إلهَ إلَّا الله، وَيْلٌ للعربِ من شَرٍّ قدِ اقْتَربَ! فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثْلُ هذِهِ** ـ وحَلَّقَ بإِصْبَعَيْهِ الإبهامِ والتي تليها ـ» قالت زينبُ بنتُ جحشٍ: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! أَفَنَهْلِكُ وفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قال: **«نَعَمْ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ»**).

وفي رواية عنها قالت: (اسْتَيْقَظَ النبيُّ ﷺ من النَّومِ مُحْمَرّاً وَجْهُهُ...)[٣] الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٨) وأطرافه، واللفظ له؛ ومسلم (٢٨٨٥)؛ والحميدي (٥٤٢)؛ وأحمد: ٥/ ٢٠٠، ٢٠٨؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٤؛ والداني (١٦)؛ والبغوي (٤٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٦٩) واللفظ له، و(١١٥) وفيه أطرافه؛ والترمذي (٢١٩٦)؛ وعبد الرزاق (٢٠٧٤٨)؛ وأحمد: ٦/ ٢٩٧؛ وابن حبان (٦٩١)؛ والداني (٦١)؛ والبغوي (٩٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٣٥) واللفظ له، و(٣٣٤٦) وفيه أطرافه؛ ومسلم (٢٨٨٠)؛ والترمذي =

أولاً: كلمة موجزة حول مفردات الأحاديث ومعانيها:

●● **الفتنة**: هي الاختبار، ثم أُطلقت على كل مكروه أو آيلٍ إليه؛ كالكفر، والإثم، والتحريق، والفضيحة، والفجور. وتُطلَق على الغلو في التأويل البعيد، وعلى البلية، والعذاب، والقتال، والتحوُّل من الحسن إلى القبيح، والمَيل إلى الشيء والإعجاب به، وتكون في الخير والشر، كقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والفتنة إن كانت من الله فهي على وجه الحكمة، وإن كانت من الإنسان بغير أمر الله فهي مذمومة؛ فقد ذَمَّ الله الإنسان بإيقاع الفتنة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠][(١)].

الآطام: جمع أطم، وهي الحصون التي تُبنى بالحجارة.

أشرف: أي نظر من مكان مرتفع.

مواقع: أي مواضع السقوط.

خلال: أي نواحيها.

شَبَّهَ سقوطَ الفتن وكثرتَها بالمدينة بسقوط القَطْر في الكثرة والعموم.

وهذا من علامات النبوّة، لإخباره بما سيكون، وقد ظهر مِصداقُ ذلك مِن قَتْل عثمان وهَلُمَّ جَرّاً ولاسيما يوم الحَرّة.

والرؤية المذكورة يَحتمِل أن تكون بمعنى العلم، أو رؤية العين بأن تكون الفتن مُثِّلَتْ له حتى رآها[(٢)].

= (٢١٨٧)؛ وابن ماجه (٣٩٥٣)؛ وعبد الرزاق (٢٠٧٤٩)؛ والحميدي (٣٠٨)؛ وأحمد: ٦/٤٢٨؛ والبغوي (٤٢٠١).

(١) الفتح: ٢/٤٠٢ شرح الحديث (٥٢٥)، ١٦/٢٨٧، صدر كتاب الفتن.

(٢) الفتح: ٥/٥٥٣ شرح الحديث (١٨٧٨).

وإنما اختصَّت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك.

وحَسُن التشبيهُ بالمطر لإرادة التعميم، لأنه إذا وقع في أرض معينة عَمَّها ولو وقع في بعض جهاتها، فهي تعمُّ الناس ولا تختص به طائفة. وأَخبر بوقوع الفتن خلال البيوت ليتأهَّبوا لها فلا يخوضوا فيها، ويسألوا الله الصبر والنجاة من شرها[١].

●● وقوله ﷺ: «**سبحان الله! ماذا أنزل**»: «**ما**» استفهامية متضمنة لمعنى التعجب والتعظيم، وعبَّر عن الرحمة «**بالخزائن**»، كقوله تعالى: ﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ [صٓ: ٩]، وعن العذاب «**بالفتن**» لأنها أسبابه[٢].

«**وماذا فتح من الخزائن**»: فيه أن الفتوح التي جاءت بالأموال والكنوز من خزائن فارس والروم وغيرهما؛ تنشأ عنه فتنة المال بأن يُتنافَس فيه فيقع القتال بسببه، وأن يبخل به فيمنع الحق، أو يبطر صاحبه فيسرف. فأراد ﷺ تحذيرَ أزواجه من ذلك كله، وكذا غيرهن ممن بَلَغه ذلك[٣].

ولا شك بأن المال فتنة كبيرة وخطيرة، ولكن قد سَلِم منها الكثير، فكم من نائل من تلك الخزائن سالم من الفتن، وواقع الصحابة يشهد بذلك.

●● قوله ﷺ: «**ويل للعرب...**»: وإنما خصَّ العرب بالذِّكْر لأنهم أول من دخل في الإسلام، ولأنهم كانوا حينئذٍ معظمَ من أسلم، وللإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك أسرع إليهم. ويوضح ذلك تتمة العبارة وهي قوله: «**من شر قد اقترب**»: والمراد بالشرِّ ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالت الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقَصْعة بين الأكَلة كما وقع في الحديث الآخر:

---

(١) الفتح: ١٦/ ٣٠٣ شرح الحديث (٧٠٦٠)؛ شرح صحيح مسلم، للنووي: ٩/ ٢٣٦.
(٢) الفتح: ١/ ٣٩٧ شرح الحديث (١١٥).
(٣) الفتح: ١٦/ ٣١٨ شرح الحديث (٧٠٦٩).

«**يُوشِك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»[(١)] وأن المخاطب بذلك العرب.

قال القرطبي: ويَحْتمِل أن يكون المراد بالشرِّ ما أشار إليه في حديث أم سلمة: «**ماذا أنزل الليلة من الفتن، وماذا أنزل من الخزائن**»، فأشار بذلك إلى الفتوح التي فُتحت بعده، فكثُرت الأموال في أيديهم، فوقع التنافس الذي جرَّ الفتن[(٢)].

وقوله: أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»: **والخبث**: هو ما يقابل الصلاح، من الفسق والفجور والمعاصي.

وكما يقول ابن العربي: (فيه البيانُ بأن الخيِّر يَهْلِك بهلاك الشرير إذا لم يغيِّر عليه خَبَثَه، وكذلك إذا غيَّر عليه لكن حيث لا يُجدي ذلك، ويُصِرُّ الشرير على عمله السيئ، ويفشو ذلك ويكثر حتى يَعُمَّ الفساد، فيهلِك حينئذ القليل والكثير، ثم يُحشر كل أحد على نيَّته)[(٣)].

ثانياً: إلماعة للفتن التي وقعت في زمان الصحابة فمن بعدهم إلى زماننا:

كان رسول الله ﷺ أَمَنَةً لأصحابه من الفتن، كما جاء في قوله ﷺ: «**وأنا أَمَنَةٌ لأَصْحَابي، فإذا ذهبتُ أَتى أصحابي ما يُوعَدُون**»[(٤)].

فبعد وفاته ﷺ وقعت فتنة الرِّدَّة الجائحة، ثم وقى الله الإسلامَ شرَّها، وجاءت خلافة الفاروق عمر التي انتهت باستشهاده في محرابه، وكان هو رضي الله عنه وأرضاه وقد فعل، غَلَقَ الفتنة، فكُسِر بموته بابُ الفتن، فأقبلَتْ على المسلمين تترى! وهي كثيرة تفوت الحصر، فمنها:

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود وغيره، وقد فصّلنا فيه القول في النبوءة رقم (١٠٨).

(٢) الفتح: ١٦/٤٤٩ شرح الحديث (٧١٣٥).

(٣) المرجع السابق: ١٦/٤٥٢.

(٤) طرف من حديث أخرجه مسلم (٢٥٣١)؛ وغيره، وقد تقدم مع بيان معناه: ١/ ٨٠ ـ ٨١ من هذا الكتاب.

مقتل الشهيد عثمان، ويا لَها من فتنة مروِّعة، وحروب الجَمل وصِفِّين والخوارج والحَرَّة، ومقتلُ الحسين، وفتنةُ ابن الزبير، وابن الأشعث، والإحداث في الدين، وانتشار الأهواء والبدع، وحُكْم الغلمان، وإمارة السفهاء، وتضييع الأمانة، والحرص على الإمارة، والاقتتال على الحكم، والحكم الجبري، واستحلال الزنى والخمر، وتداعي الأمم على المسلمين، ونقض عُرى الإسلام، وغربة الإسلام، واتباع سَنَن اليهود والنصارى، والاستخفاف بالدم، وظهور الجلادين، والكاسيات العاريات، والسنوات الخَدّاعات، وفتنة المال، والأحْلَاس، والدُّهَيْماء، وبيعُ الدين بعَرَض من الدنيا، وكثرةُ القتل، وفتنُ الدَّجَاجلة مدعي النبوة، وظهور الفحش والتفحش، وغير ذلك مما يَصْدُق عليه أتم الصدق الوصف النبوي الدقيق: «**كمواقع القطر**»!.

وسنتناول في هذا الكتاب الكثير من تلك الفتن.

ومن أخطر الفتن التي عمَّت في زماننا وطَمَّت: ما تروِّج له وسائل الإعلام الهابطة المقروءة والمسموعة والمنظورة والإلكترونية، والتي تبث ليلاً ونهاراً، سِرّاً وجِهاراً، وتطارد الناس في جَلَواتهم وخَلَواتهم، وتقتحم عليهم بيوتهم ومخادِعَهم، لتنشر الرذيلة وتسوِّق الفاحشة، وتحضّ عليها، وترغِّب فيها، وتسخر ممن يقاومها، وتشوِّه صورة من يتصدَّى لها، وتتهمهم بالتعصب والانغلاق!.. ويتولى نشرها ويسهر على ذيوعها أعداءُ الله في الخارج والداخل، وكثير منهم من جِلْدتنا ويتكلمون بألسنتنا، ويُنفقون عليها من أموال الأمة بلا حساب!.

يَعرضون فيها ما يُلهِب الغرائز، ويؤجِّج الشهوات ويجلدها جلداً، ويدعو للميوعة والتخنث والدِّيَاثة والخيانة والجريمة، فتُنْشَر الصور العارية أو شبه العارية، من غرف النوم والشواطئ والمنتجعات ومراكز الترفيه و...!.

في الوقت الذي يُضَيَّق فيه على الكلمة العفيفة، والمجلة البنّاءة، والصحيفة

الصادقة، والصور المحتشمة، والفتاة المتحجبة، فَيَقصّ منها قلمُ الرقيب، أو يمنعها السفيه الذي وصفه الحديث بأنه «لُكَع ابن لُكَع»!.

والذين يفعلون تلك الموبقات، ويحرسون نشر تلك المآثم؛ هم فريق من المعنيين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

يقول الشيخ محمد الغزالي عن صنف واحد من أصناف الإعلام: (في مصر وحدها تصدر عدَّة صحف يمكن أن يؤلَّف من أوراقها كتابٌ متوسط الحجم يُنشر بين الناس مطلع كل صباح.

تصوَّر أنك قرأتَ في عام واحد نيِّفاً وستين وثلاثمئة كتاب! لو كانت في الدين لكنتَ إماماً! لو كانت في الأدب لكنت بحّاثة حُجّة! لو كانت في العلم لحطَّمتَ الذرة، لو.. لو!.. لكنها في اللغو والهزل، فهي شرٌّ ذو حدَّين: حدٌّ يقطعك عن الجدّ وعن القراءة النافعة، وآخرَ يشتِّت قواك في عالم اللغو والفراغ، ويُفسد ذوقك، وينقل إليك حركات الغرائز الدنيا ومجاري الشهوات في أعماء الظلام)(١).

هذا ما تفعله الصحف، فما ظنك بالمجلات الخليعة، والقنوات الفضائية، والشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، والأقراص المرنة، وغيرها؟! تلك الوسائل التي أصبح (العهر الإعلامي) رسالة لها، وهدفاً محوريّاً تلهث لتحقيقه عبر أثير بلادنا، وعلى سمع وبصر ورضا من ولَّاهم الله (الأمانة الكبرى)، وسيسألهم عنها في يوم مهول يجعل الولدان شيباً!.

ثالثاً: لماذا كثرت الأحاديث التي تحدّثت عن الفتن؟:

●● تتنوع مصادر الفتن التي تصيب الأمة، وتختلف أسبابها ومبرراتها، وتتباين نتائجها وتبعاتها، فقد تكون بسبب الأهواء الشخصية أو الفكرية، أو

---

(١) ظلام من الغرب، ص٢١٦؛ وانظر ما كتبه رحمه الله ص ٢١١ - ٢١٧، وفي كتابه الآخر: كفاح دين، ص ١٦١ - ١٧٦.

تنجم عن ضيق العَطَن وقصور الفهم واعتساف الحقيقة، وقد تأتي من عدوٍّ ماكر في داخل الأمة أو متربِّص خارجها، أو من تجييش الحاقدين للرَّعَاع لنشر الموبقات وإثارة الأباطيل وقَلْب الحقائق، أو من التنافس على المال والجاه والسلطان، أو بسبب الظلم والتعدي على حقوق العامة والأمة ما جَلَّ منها وما دَقَّ، بدءاً من المال وحتى منابر الحكم، أو بسبب الفُرقة والاختلاف الذي يؤدي إلى امتشاق السلاح، أو غير ذلك من البواعث إلى قيام الفتن وانتشارها.

فتؤدي إلى مروج أمر الناس، وإزهاق الأنفس، وانتهاك الحرمات، واستلاب الأموال، وضياع الحقوق، واضطراب الأمور، وشيوع الوهن والفوضى، وذلّ الأمة، وضياع ممتلكاتها، وطمع أعدائها بها، وانتقاص بلادها وسيادتها، واستعباد شعوبها، من القريب والبعيد.

ولكثرة هذه الفتن التي تحيق بالأمة وتتساقط في ربوعها كمواقع القطر، وللخسائر الفادحة التي تترتب على نزولها، ولأن العقول تطيش وقتها، وتزلُّ الأقدام حِيالَها، وتَحَارُ الأفهامُ في معالجتها، ويصعب الخلاص منها على العقلاء فضلاً عن العوام ـ فإن الرسول ﷺ الرحمة المهداة، حذَّر وأَنْذَر، وبيَّن وأَوْضَح، وأَجْمَل وفَصَّل، وتحدَّث فأكثر عن الفتن، والتي ستُفتح أبوابها بعد وفاته ﷺ.

يقول حذيفةُ بن اليمان رضي الله عنهما: (قامَ فينا رسولُ الله ﷺ مَقاماً، ما ترك شيئاً يكون في مَقَامِه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدَّث به، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهِ، ونَسِيهُ مَنْ نَسِيه، قد عَلِمَهُ أصحابي هؤلاء، وإنه ليكونُ منه الشيءُ قد نَسِيتُه، فأَرَاه فأَذْكُره، كما يَذكُر الرجلُ وجْهَ الرجلِ إذا غابَ عنه ثم إذا رآه عَرَفَه)[١].

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠٤)؛ ومسلم (٢٨٩١) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٢٤٠)؛ وأحمد: ٥/ ٣٨٥، ٣٨٩، ٤٠١؛ وابن حبان (٦٦٣٦)؛ والبغوي (٤٢١٥)، وغيرهم.

●● والحِكَم من ذلك كثيرة يمكن الإشارة إلى بعضها[١]:

١ ـ يريد النبي ﷺ أن يربي الأمة على الاستعداد لمواجهة الفتن وحُسْنِ التصرف حيالها بما يُخمِد جذوتها ويُطفئ شرورها.

ففي الفتنة تضطرب الأمور، وتشتبك الأحداث، وتتشتت العقول، وتكثر الاجتهادات، وتعتاص الحلول، فيكون بيانُ الفتن ووصفُها عوناً للأمة على الخلاص منها أو تقليل فواجعها.

٢ ـ جاء في كثير من الأحاديث وصفٌ للفتن وبواعثها وأسبابها ونتائجها، وهذا يضع بين أيدي الناس كثيراً من أساليب علاجها والقضاء على شرورها.

٣ ـ كذلك فإن الرسول ﷺ قد وصف في غير ما حديث القائمين بالفتنة والساعين إليها ومؤَجِّجي جذوتها، وبهذا يَحْذَر المسلمون من أن يقعوا في تلك الأوصاف، أو يُخْدَعوا بأولئك الأشرار. كما أنه يعين العقلاء ورؤوس الناس على محاصرة أولئك الفتَّانين، وبيانِ مخاطرهم، والقيام بمجالدتهم لتجنيب الأمة ما يسعون فيه من فتن ومآثم.

٤ ـ حَذّرت الأحاديث المستفيضة من الوقوع في الفتنة أو ملابستها فَضْلاً عن السعي إليها والمشي فيها، وفي هذا درس بليغ للأمة لتخفيف وطأة الشرور التي تنطوي عليها الفتن، وفيه أيضاً دعوة للمسلمين وتحريض لهم على السلامة بدينهم ودنياهم، فلا يقعون فيها ولا يعينون عليها.

٥ ـ شخَّص النبي ﷺ الداء ووصف الدواء، وأقام للأمة ركائز تستعصم بها عند حلول الفتن، وبذلك حَدَّد لها طريق النجاة، وهذا يعين العلماء وأهل الرأي على الرشاد والإرشاد، ويحث العوام على ملازمة السُّبُل التي رسَمَتْها الأحاديث، وبَيَّنها العلماء والمسؤولون.

٦ ـ وقوعُ كثير من الفتن خلال مراحل التاريخ المتقدمة يفيد الأجيال

(١) انظر: أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص٥٨ ـ ٦٠.

اللاحقة للاسترشاد بتجارب السابقين، ليكونوا على هُدى في معالجة ما يطرأ من فتن، لتجنيب العباد والبلاد شرورها المستطيرة.

٧ ـ استعصام المسلم بالهدي الذي بَيَّنَتْهُ أحاديث الفتن، يعينه على النجاة بدينه، والسلامة في دنياه، والفوز في آخرته؛ فهو إذ يقرأ أحاديث الفتن، ويعمل بمقتضى هديها؛ يعلم أنه على هُدى من أمره، ومتابعٌ لتوجيه نبيه ﷺ، بخلاف ذاك الذي لا يعلم عنها شيئاً، فيتخبَّط في مواقفه، ولا يدري أين يوجِّه جهده، ولا أين يضع قدمه، فيَضِلّ ويُضِلّ.

لمثل هذه الحِكَم وغيرها أكثَرَ النبيُّ ﷺ من بيان الفتن والحديث عنها، رحمة بأمته، وشفقة عليها، وحرصاً على سلامتها، حتى لا تضل الطريق فتهلك، فجزاه الله خير ما جزى نبيّاً عن أمته.

●● وبعض السُّذَّجِ ـ وهم كثير ـ قد فَهِم من أحاديث الفتن أنه لا أملَ بالإصلاح، فقد ساء الزمان، وفَسَد الناس، وازدادت غربة الإسلام، وقلَّ المصلحون، وكَثُر الفتَّانون، وتكالَبَ الأعداء على الأمة، فلا قِبَلَ لجهود المخلصين والدعاة والمجدِّدين بما حَلَّ بالأمة! فتسرَّب اليأس إلى قلوب الكثيرين، وألقَوْا بأيديهم للمصير المجهول مستسلمين!.

وهذا عِوَجٌ فكري، وسَقَمٌ فقهي، وخَوَرٌ في العزائم، ونكولٌ عن الواجب، وتقصيرٌ بحق الله والدين والأمة والنفس! ومعاذَ اللهِ أن يدعو النبيُّ الأعظم ﷺ الأمة إلى ما يسبب اليأس والقنوط والاستسلام للواقع الأليم والفتن النازلة، مما يَحلُّ بها بين حين وآخر، حتى يستشري الفساد، وتعصف المنكرات والقبائح بالبلاد والعباد! حاشى وكلا.

إن الأمة المسلمة قد مرَّت بفتنٍ ماحقة، واجتاحتها كوارث جائحة، فاستيقظت من رَقْدتها، وصَمَدت لها وقارعتها وأبادت خضراءها، وعادت الأمة لتمارس دورها الحضاري من جديد.

إن رسول الله ﷺ يرشد المسلم للحركة الدؤوبة، والعمل الجاد، ويأمره

بعمارة الأرض والقيام بحق الاستخلاف حتى اللحظة الأخيرة من عمره، ولو أنه عاين الدنيا تلفظ أنفاسها وهي في النزع الأخير، فهو ﷺ يقول: «**إنْ قامتِ الساعةُ وفي يدِ أحدِكم فسيلةٌ، فإن استطاعَ أن لا تقومَ حتى يَغْرِسَها؛ فَلْيَغرِسْها**»[1]!.

فإذا كان هذا في شأن الدنيا، وفي غَرْس فَسيلة يتيقَّن زارعُها أنه لن يأكل منها لا هو ولا غيره، فما بالُكَ بالأمور الجليلة التي ترتبط بها حياة الأمة وقيام أمر الإسلام؟!.

فإخبارُ النبي ﷺ بالفتن وأشراط الساعة وغربة الإسلام وتكالب الأمم على المسلمين، وغير ذلك مما في معناه؛ يستوجب استنهاضَ الهمم، وشحذَ العزائم، والعمل الدؤوب، والاجتهادَ في عمارة الدنيا والتمكين للدين قياماً بحق الاستخلاف، واستفراغ الوسع في الأعمال الصالحة، وإصلاح الناس والمجتمعات، ما وجد المرء إلى ذلك سبيلاً.. لا كما يعتقد كثير من الجاهلين أن إصلاحَ العباد والبلاد منوطٌ بالمهدي، ومقارعةَ اليهود والسعي لإخراجهم من فلسطين لا يكون إلا عندما يأتي الجيل الذي يكلِّمه الحجر والشجر أن يهودياً وراءه كي يقتله، أو يستسلم لمكايد الأعداء في الداخل والخارج ويحتج بأحاديث لزوم البيت في الفتن!..

فمثل هذا الفهم السقيم لا سببَ له إلا خورُ العزائم، وضعفُ الإيمان، وإيثارُ السلامة! ولن ينجو أحدٌ هذا دَيْدَنه، بل إن الفتن ستطحنُه أول من تطحن، وتَذْرُوه رماداً لا قيمةَ له، وتتابع طريقها لتتحطم على صخرة عزمات العاملين الصامدين!.

هذا ما أراده رسول الله ﷺ منّا في إخبارنا عن الفتن، وهكذا فهم عنه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهم حجة الله سبحانه على العالمين.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٠٦٨)؛ وأحمد: ٣/ ١٨٤، ١٩١؛ والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩).

عن داود بن أبي داود الأنصاري قال: قال لي عبد الله بن سَلَام ﷺ: (إنْ سمعتَ بالدجال قد خَرج، وأنت على وَدِيَّة تغرسُها، فلا تعجلْ أن تُصْلِحَها، فإن للناس بعد ذلك عيشاً)[١].

رابعاً: العُدَّة في الفتن، وكيف يعرفُ المرء أصابتْهُ أم لا؟:

●● عن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لم يَبْقَ من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنةٌ**»[٢].

وأخرجه الداني وزاد فيه: «**فأَعِدُّوا للبلاءِ صَبْراً**»[٣].

وعن المِقْداد بن الأَسْود ﷺ قال: (أَيْمُ اللهِ! لقد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ السعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتنَ، إنَّ السعيدَ لَمن جُنِّبَ الفتنَ، إنَّ السعيدَ لَمن جُنِّبَ الفتنَ، ولَمَن ابتُلِيَ فَصبَر فَوَاهاً**»)[٤].

وقال الخَطّابي: «**واهاً**»: كلمةٌ معناها التلهُّف، وقد تُوضَع موضع الإعجاب بالشيء[٥].

وقال ابن الأثير وابن منظور مثلَه، وزادا: وقد تَرِدُ بمعنى التوجُّع.

وقال ابن منظور: ومن العرب من يتعجب بـ«واهاً» فيقول: واهاً لهذا، أي ما أَحْسَنَه[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٨٠)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة: ١/ ٣٩ (٩). **والودية**: النخلة الصغيرة.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٥)؛ وأحمد: ٤/ ٩٤؛ وابن المبارك في الزهد (٥٩٦)؛ وابن حبان (٦٩٠)، وغيرهم؛ وصحَّحه البوصيري في «مصباح الزجاجة»؛ والألباني في صحيح ابن ماجه.

(٣) الفتن، للداني (٣) و(٦٧) و(٧١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٦٣)؛ وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود، والصحيحة (٩٧٥).

(٥) هامش سنن أبي داود: ٤/ ٤٦٠.

(٦) النهاية: ٥/ ١٤٤ (واه)؛ لسان العرب: ١٣/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤.

نقول: كل هذا مراد، والله أعلم.

ومعناه: أن النَّبي ﷺ يتوجَّع لمن تصيبه الفتن أو تُصب عليه، ويتلهَّف ﷺ عليه لمصابه وابتلائه، وهذا من رحمته بالمسلمين وإشفاقه عليهم. ثم يطلب ممن يُبتلى أن يصبر ويتجلَّد ويقارع الفتنة ولا يستسلم لها، فإن الله تعالى سيعينه ويثبِّته، فيظفر بالحسنى، وعندئذ يستحق الإعجاب والاستحسان لمسلكه.

●● عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: (إنَّ الفتنةَ تُعْرَضُ على القُلوبِ، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نكتةٌ سوداءُ، فإنْ أَنْكَرها نُكِتَتْ فيه نكتةٌ بيضاءُ. فمن أَحبَّ منكم أن يَعْلَم أَصابَتْه الفتنةُ أم لا؛ فَلْينظرْ: فإنْ كان يَرى حراماً ما كان يراه حلالاً، أو يَرى حلالاً ما كان يراه حراماً؛ فقد أصابَتْه الفتنةُ!)[1].

فَمَن لم تُصِبْه الفتنة يبقى قلبه حياً، وفكره سليماً، وعقله واعياً، يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ولئن اجتالَتْه الفتنة وتركت على سلوكه نُدَباً وفي مسيرته زَغَلاً، وفي عمله آثاماً؛ لكنَّ بشاشةَ الإيمان في قلبه تبقى حية متوقِّدة، ولديه من اليقين ما يميز الطيب من الخبيث، ويفرق بين الحلال والحرام، فلا تختلط عليه الأمور، ولا تضطرب الموازين، وبقي على نور من ربه.

أما ذاك الذي أصابَتْه الفتنة في مقاتله، فغَشَّت بصره، وغلَّفَتْ قلبه، وعَصَفَت بفكره، وأَقلقت موازينَه؛ فقد اختلط عنده الحق بالباطل، والهدى بالضلال، وأُشْرِب قلبُهُ من هواه، فلا يَعرف معروفاً، ولا يُنْكر منكراً، ولا يميز حراماً من حلال، بل فقدَ نورَ ربِّه وبصيرةَ نفسه، فأصبح يرى المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والحرام حلالاً، والحلال حراماً، وأمسى قلبه أسودَ مُرْبَادّاً، وعملُه فاسداً، وعاقبة أمره خُسْراً.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٢٨ (٢٣٥)، الفتن، من كره الخروج في الفتنة؛ وأبو نعيم في الحلية: ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣؛ والداني (٢٦)؛ والحاكم: ٤/ ٤٦٧؛ وصحَّحه وأقره الذهبي.

٤٠

إخبار النبي ﷺ عن القتال الذي سيجري بين الصحابة

١ ـ عن واثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ رضي الله عنه يقول: خَرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**تَزْعُمُونَ أنّي مِن آخِرِكُمْ وفاةً، إنّي مِن أَوَّلِكُمْ وفاةً، وتَتْبَعُوني أَفْناداً يَضْرِبُ بَعْضُكُم رِقابَ بَعْضٍ**»[(١)].

٢ ـ وعن سَلَمة بن نُفَيْلٍ السَّكُونيّ رضي الله عنه قال: (كنّا جُلوساً عندَ النبي ﷺ وهو يُوحَى إليه، فقال: «**إني غيرُ لابِثٍ فيكم، ولَسْتُم لابِثينَ بَعْدي إلا قليلاً، وسَتأْتُوني أَفْنَاداً، يُفْنِي بعضُكم بَعْضاً! وبين يَدَيِ الساعةِ مُوْتَانٌ شديدٌ، وبعده سنواتُ الزَّلَازلِ**»)[(٢)].

❁ ❁ ❁

هذه نبوءة جليلة خطيرة يخبر فيها النبيُّ ﷺ أصحابه بما سيكون بينهم بعده من اقتتال، وهو يتضمن التحذيرَ من مَغَبَّة مُلابَسة ذلك أو السعي إليه أو المشي فيه.

ويشتمل كذلك على أمر وتوجيه وإرشاد للتعرف على أسباب ذلك القتال

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/١٠٦؛ والطبراني في الكبير: ٢٢/(١٦٦) و(١٦٧) و(١٦٨)؛ وابن حبان (٦٦٤٦) واللفظ له، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط، والألباني في الصحيحة (٨٥١).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/١٠٤؛ وابن حبان (٦٧٧٧) واللفظ له، وأخرجه ضمن حديث طويل: النسائي في الصغرى: ٦/٢١٤ ـ ٢١٥، والكبرى (٤٣٨٦)؛ والطبراني في الكبير (٦٣٥٧ ـ ٦٣٦٠)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحيح النسائي (٣٣٣٣)، والصحيحة (١٩٣٥). قوله: «أفناداً»: أي: جماعات متفرقين، قوماً بعد قومٍ، واحدُهم: فِنْد.

وبواعثه، ثم التبصر بنتائجه ومخاطره، وكل هذا مما يساعد على تجنبه والسلامة منه.

والرسول ﷺ يبيّن للصحابة ومَنْ بعدهم أن الفتن عندما تثور، تضطرب الأمور، وتختلط الحقائق، ويخفى الحق، ويعتاص على الكثيرين الإحاطة بملابسات الفتنة واكتناه حقيقتها ومعرفة آثارها ونتائجها.. فحذَّر وأنْذَرَ، ورهَّب ورغَّب، وأوصى وأرشد، فأَعْلَمَ أصحابه والناس من بعدهم أن اقتتال المسلمين كفرٌ، وأن القاتل والمقتول في النار، وأنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم، عمياء صماء بكماء، فأرشدهم إلى عدم ملابستها، وأن القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ من الماشي، والماشي خير من الساعي. وأوصاهم بأن يَكْسِروا فيها قِسِيَّهم، ويُغْمِدوا سيوفهم، ويلزموا بيوتهم.

فيخفِّف كل ذلك من غَلْواء الفتن، ونار السُّعاة فيها، ويَكبح جماحها ويبطِّئ من إسراعها، ويقلل من المواجهة بين المسلمين، ويحفظ الكثير من الأرواح، ويحقن الدماء، ويحمي الأمة من إهلاك الحرث والنسل واشتعال الفساد!.

وقد سمع الصحابة رضي الله عنهم منه ﷺ كل ذلك ووعوه، وحفظوه ورووه للناس ونشروه، وقد فاضت كتب السنَّة بالأحاديث الصحاح الكثيرة التي رواها الجم الغفير من الصحابة الكرام.

●● عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا تَرْجِعْوا بعدي كُفَّاراً يَضْرِبُ بعضُكم رقابَ بعضٍ**»[1].

وروى مثلَه أيضاً: عبد الله بن مسعود، وأبو بَكْرة، وابن عباس، وجَرير البَجَلي، وغيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٧) وأطرافه في (١٧٤٢)؛ ومسلم (٦٦)؛ والنسائي في الصغرى: ٧/ ١٢٦، وفي الكبرى (٣٥٧٧)؛ وأبو داود (٤٦٨٦)؛ وابن ماجه (٣٩٤٣)؛ وأحمد: ٢/ ٨٥، ٨٧، ١٠٤؛ وابن حبان (١٨٧).

وذكروا في معناه عشرة أقوال، **أظهرها**: لا ترجعوا بعدي فِرقاً مختلفة، يقتل بعضكم بعضاً، فتشبهون بذلك الكفار، فإن الكفار متعادُون يضرب بعضهم رقاب بعض، بخلاف المسلمين فإنهم متآخون، يَحقِن بعضهم دماء بعض ولا يقتل بعضهم بعضاً[(١)].

ـ وعن أبي بَكْرة ﷺ قال: (سمعتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: «**إذا الْتَقَى المسلمانِ بِسَيْفَيهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار**» فقلت: يا رسول الله! هذا القاتلُ، فما بالُ المقتولِ؟ قال: «**إنَّه كان حَريصاً على قتْلِ صاحبِه**»)[(٢)].

وهذا الحديث ونظائره قد تأوَّله جمهورُ الصحابة والتابعين الذين قالوا بوجوب نصر الحق وقتال الباغي؛ بحملِ الوعيد المذكور في الحديث على مَن قاتل بغير تأويل سائغ، بل بمجرد عداوة دنيوية، أو عصبية، أو طلب استعلاء[(٣)].

●● عن أبي هريرة ﷺ: ذكر النبي ﷺ أنه كان يقول: «**ويلٌ للعَربِ من شرٍّ قد اقتربَ؛ من فتنةٍ عمياءَ صَمَّاءَ بَكْماءَ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشِي، والماشِي فيها خيرٌ من السَّاعِي، ويلٌ للسَّاعِي فيها من اللهِ يومَ القيامة!**»[(٤)].

ـ وعن أبي موسى الأَشْعَريِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ بينَ يَدَي**

---

(١) الفتح: ١٦/ ٣٢٤ شرح الحديث (٧٠٧٧)؛ وشرح مسلم، للنووي: ١/ ٣٣٣ (٦٦)؛ جامع الأصول: ١٠/ ٦٩؛ سنن أبي داود: ٥/ ٦٣.

(٢) أخرجه البخاري (٣١) وطرفاه؛ ومسلم (٢٨٨٨)؛ وأبو داود (٤٢٦٨)؛ والنسائي في الصغرى: ٧/ ١٢٥، وفي الكبرى (٣٥٧٢ ـ ٣٥٧٥)؛ وابن حبان (٥٩٤٥)؛ والبغوي (٢٥٤٩)، وغيرهم.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٩/ ٢٣٩؛ الفتح: ١/ ١٨٠ ـ ١٨١ (٣١)، ١٦/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦ (٧٠٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٠١) و(٧٠٨١) و(٧٠٨٢)؛ ومسلم (٢٨٨٦)؛ وأحمد: ٢/ ٢٨٢؛ وابن حبان (٦٧٠٥) واللفظ له؛ والبغوي (٤٢٢٩)، وغيرهم.

الساعةِ لَفِتَناً كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرجلُ فيها مُؤْمناً ويُمْسِي كافراً، ويُمْسِي مُؤْمناً ويُصْبِحُ كافراً، القاعِدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشِي، والماشي خيرٌ من السَّاعي. كَسِّروا قِسِيَّكُم، وقَطِّعُوا أَوْتارَكُم، واضْرِبوا بِسُيُوفِكُم الحجارةَ، فإنْ دُخِلَ على أحدٍ بَيْتَهُ؛ فَلْيَكُنْ كخَيْرِ ابنَيْ آدَمَ»[1].

وروى مثلَ هذه الأحاديث: عبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وأبو بَكْرة الثَّقفي، ووابِصَة بن مَعْبَد الأَسَديُّ، وغيرهم.

ـ وعن أبي بُرْدَة بنِ أبي موسى الأشعريِّ قال: دخلتُ على محمدِ بن مَسْلَمَةَ فقال: (إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«إنَّها ستكونُ فِتنةٌ وفُرْقَةٌ واختلافٌ، فإذا كان كذلكَ، فَائْتِ بِسَيْفِكَ أُحُداً، فاضْرِبْهُ حتى يَنْقَطِعَ، ثم اجلِسْ في بيتِكَ حتى تأتِيَكَ يدٌ خاطِئةٌ، أو مَنِيَّةٌ قاضِيَةٌ». فقد وَقَعتْ، وفَعَلْتُ ما قالَ رسول الله ﷺ)**[2].

وعن عُدَيْسَةَ بنتِ أُهْبَانَ بنِ صَيْفِيّ قالت: (لمّا جاءَ عليُّ بن أبي طالب ههنا البصرة، دَخَلَ على أَبي، فقال: يا أبا مُسْلمٍ! أَلَا تُعِينني على هؤلاءِ القومِ؟ قال: بلى، قال: فدَعَا جاريةً له، فقال: يا جاريةُ! أخرِجي سيفي، قال: فأخرجَتْهُ، فَسَلَّ منه قَدْرَ شِبْرٍ، فإذا هو خشبٌ! فقال: إن خليلي وابنَ عمِّك ﷺ عَهِد إليَّ إذا كانت الفتنةُ بين المسلمين، فأَتَّخِذُ سيفاً من خَشَبٍ، فإنْ شئتَ خرجتُ معك. قال: لا حاجةَ لي فيك ولا في سيفِك!)[3].

●● ومع هذا التحذير النبوي من الفتن وغَوَائلها، وتوجيهِه ﷺ وإرشاده

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٩) و(٤٢٦٢)؛ والترمذي (٢٢٠٤)؛ وابن ماجه (٣٩٦١)؛ وأحمد: ٤/ ٤٠٨، ٤١٦؛ وابن حبان (٥٩٦٢)؛ والحاكم: ٤/ ٤٤٠؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحاح السنن.

(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٩٣؛ وابن ماجه (٣٩٦٢) واللفظ له؛ وصحَّحه البوصيري في مصباح الزجاجة (١٣٩٢)؛ والألباني في صحيح ابن ماجه؛ والصحيحة (١٣٨٠)؛ وأخرج الداني نحوه (١١٦).

(٣) أخرجه أحمد: ٥/ ٦٩، ٦/ ٣٩٣؛ والترمذي (٢٢٠٣)؛ وابن ماجه (٣٩٦٠) واللفظ له وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الألباني: حسن صحيح؛ وانظر: الصحيحة (١٣٨٠).

لعدم ملابستها، وأمرِه بالكَفِّ عنها وعدم القيام إليها والمشي فيها، وملازمة البيوت أو شَعَف الجبال، وكَسْر القِسِيّ والسيوف ـ نقول: مع كل هذا، فقد وقعت فتنة الاقتتال في زمن الصحابة، ولابَسَها جمهورٌ كثير منهم، واعتزلها آخرون، رضي الله عن الجميع، فما وجهُ ذلك وما تأويلُه؟!.

قال الإمام الطبري: (لو كان الواجبُ في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهربَ منه بلزوم المنازل وكَسْر السيوف؛ لَمَا أُقيم حَدٌّ، ولا أُبْطِل باطلٌ، ولوَجَد أهلُ الفسوق سبيلاً إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال وسَفْك الدماء وسَبْيِ الحريم، بأن يحاربوهم، ويكُفَّ المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا: هذه فتنة، وقد نُهينا عن القتال فيها! وهذا مخالفٌ للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء. فتعيَّن أن محلَّ الأمر بالكَفّ إذا كان القتال على الدنيا، أو لاتباع الهوى، أو عصبيةً)[١].

(وقد أخرج البزَّار في حديث: «**القاتل والمقتول في النار**» زيادةً تبين المرادَ، وهي: «**إذا اقتتلتم على الدنيا، فالقاتل والمقتول في النار**»، ويؤيده ما أخرجه مسلم بلفظ: «**لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس زمان لا يدري القاتلُ فيمَ قَتَل ولا المقتولُ فيمَ قُتِل**» **فقيل: كيف يكون ذلك؟** قال: «**الهَرْجُ، القاتل والمقتول في النار**». قال القرطبي: فبيَّن هذا الحديث أن القتال إذا كان على جهل من طلب الدنيا أو اتباع هوى؛ فهو الذي أُريد بقوله: «**القاتل والمقتول في النار**»)[٢].

قال الحافظ: (ومن ثَمّ كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصِفِّين أقلَّ عدداً من الذين قاتلوا، وكلهم متأوِّلٌ مأجورٌ إن شاء الله، بخلاف من جاء بعدهم ممن قاتل على طلب الدنيا)[٣].

---

(١) الفتح: ١٦/٣٣٦ شرح الحديث (٧٠٨٣)؛ فيض القدير: ١/٤٢٩.
(٢) الفتح: ١٦/٣٦٦، والحديث المشار إليه عند مسلم هو برقم (٢٩٠٨).
(٣) الفتح: ١٦/٣٣٦.

وحديث: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» وما في معناه، هو حجة من ترك القتال في الفتنة.

قال الحافظ: (واحتَجَّ به مَنْ لم يرَ القتال في الفتنة، وهم كل مَن ترك القتال مع علي في حروبه؛ كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عُمر ومحمد بن مَسْلَمة وأبي بَكْرة وغيرهم، وقالوا: يجب الكَفُّ حتى لو أراد أحدٌ قَتْلَه لم يدفَعْه عن نفسه. ومنهم من قال: لا يدخل في الفتنة، فإن أراد أحد قتْلَه دَفَعه عن نفسه. وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نَصْر الحق، وقتالِ الباغين، وحَمل هؤلاء الأحاديثَ الواردة في ذلك على مَن ضَعُف عن القتال، أو قَصَر نظرُه عن معرفة صاحب الحق)[١].

وذكر النووي مثلَه، وأن معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام على أنه يجب نصر المُحِقِّ في الفتن، وقال: (وهذا هو الصحيح)[٢].

●● وقد حاول بعض المعاصرين[٣] مناقشة النووي وابن حجر فيما أورداه أو مخالفتهما فيما ذكراه من أن أكثر الصحابة ناصروا عليّاً ولابَسوا الفتنة، واستشهد بقول محمد بن سيرين: (هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرات الألوف، فلم يحضرها منهم مئة، بل لم يبلغوا ثلاثين).

أقول: عندما هاجت الفتنة كان ابنُ سيرين ابنَ أربع سنين، فمن أين عرف ذلك؟! ثم قام ذلك الباحث بتأييد رأيه، فذكر الصحابةَ الكرام الذين اعتزلوا الفتنة، فلم يستطع أن يعدَّ أكثر من (٣٤) نفساً، ومع هذا ففيمن ذكره فيهم نظر:

فذكر أبا ذر الغفاري، وهو قد توفي قبل مقتل عثمان بأربع سنين. وحذيفة بن

---

(١) الفتح: ١٦/٣٣٦.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٩/٢٣٧.

(٣) انظر مثلاً: أحداث وأحاديث فتنة الهرج، للدكتور عبد العزيز صغير دخان، ص١٤٧ ـ ١٨٣؛ وذكر نحوه الدكتور حامد الخليفة في كتابه: الإنصاف فيما وقع في العصر الراشدي من الخلاف، ص٣٤٢ ـ ٣٤٤، ط. دار القلم بدمشق.

اليمان، وقد مات بعد عثمان بأربعين يوماً، وما عاش إلى حروب علي. وعامر بن ربيعة، ولم يَلْحق الفتن. وحَبِيب بن مَسْلَمة، وقد كان مع معاوية في جيشه. وعبد الله بن عَمْرو، وكان في جيش معاوية، وإن لم يقاتل. وأيمن بن خُرَيْم، وهو مختلَف في صحبته، والباحث يعدّه من (أكابر الصحابة)! والأحنف بن قيس، وليس بصحابي بل مُخضرم.

فإذا كان هؤلاء الصحابة ﷺ هم الذين اعتزلوا الفتنة فلم يكونوا مع أي من الفريقين، فأين آلافُ الصحابة؟ ولماذا لم تذكر المصادر أسماءهم مع حرصها على ذلك لأهميته وخطورته وجلالته؟! وإنما يُعَدُّ القليل، أما الكثير فَيَصْعُب إحصاؤه!.

بل إن علياً رضي الله عنه بعث إلى آحاد الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة، مثل أسامة بن زيد، وأهْبَان بن صَيْفي؛ لينصروه، ولو كان هذا الفريق كبيراً لاجتمع علي بجمهرتهم وحاجَّهم ليقوموا معه، وهم الذين بايعوه من المهاجرين والأنصار، وناصروه كذلك.

ثم إن هذا الباحث ـ وغيره ـ لم يذكر كلمة الإمام الطبري، وهي فيصل في المسألة، للقيام بنصرة الحق، والإصلاح بين المؤمنين.

والنووي وابن حجر من بحور العلم، وذوي الاطلاع الباهر، الذين لا يلقون الكلام جزافاً في مثل هذه المسألة الخطيرة!.

وقد ذكر خليفة بن خياط والذهبي وغيرهما جمهرةً من مشاهير الصحابة الذين شهدوا (صِفِّين) مع علي ومعاوية، رضي الله عنهم جميعاً[(١)].

بل روى خليفة عن عبد الرحمن بن أَبْزَى قال: (شهدنا مع علي ثمانمئة ممن

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٩٤ ـ ١٩٦؛ تاريخ الإسلام «عهد الخلفاء الراشدين»، ص٥٤٤ ـ ٥٤٧.

بايع بيعة الرضوان، قُتل منّا ثلاثة وستون، منهم عمار بن ياسر). ونقله عنه الذهبي[(١)].

وعبد الرحمن صحابي قد شهد الوقعة، فأين منه خبر محمد بن سيرين؟!.

•• ومعاذ الله أن نشجّع في هذا على ملابسة الفتنة والمشي فيها، لكن سياقها بذاك الأسلوب فيه إدانة لعامة الصحابة، وبخاصة أمير المؤمنين عليّاً ومن خرج معه من الصحابة والمخلصين، لا أولئك الفجرة المنبثين في جيشه.

وقد أكدت الأحاديث الصحيحة على صواب موقف علي في الجملة، مثل قوله ﷺ: «**ويح عمار، تقتله الفئة الباغية**»، وقوله ﷺ في قتال الخوارج: «**تقتلها أولى الطائفتين بالحق**».

فأين نذهب بمثل هذه الأحاديث؟ نعم رسول الله ﷺ لم يثنِ على القتال، ولم يزكِّ منهج من سلكه، لكن ما موقف الخليفة ومن بايعه إزاء الفتن يا ترى؟ هل يترك كل فريق وكل طائفة ليعمل بما أداه إليه اجتهاده؟!.

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية دقيقاً عندما قال: (وأكثر أكابر الصحابة لم يقاتلوا، لا من هذا الجانب ولا من هذا الجانب. واستدل التاركون للقتال بالنصوص الكثيرة عن النبيِّ ﷺ في ترك القتال في الفتنة، وبيَّنوا أن هذا قتال فتنة)[(٢)].

وفرق كبير بين قوله: (أكثر أكابر الصحابة)، وقوله غيره: (أكثر الصحابة)!.

•• ولا شك عندنا وعند كل مسلم غيور مخلص في القديم والحديث أن تَرْكَ القتال من أصله أسلمُ للأمة وأفضلُ للإسلام وأزكى عند الله.

يقول ابن تيمية: (لا يختلف أصحابنا أن تركَ عليٍّ القتالَ كان أفضلَ؛ لأن النصوص صرَّحَتْ بأن القاعدَ فيها خيرٌ من القائم، والبعدَ عنها خير من الوقوع

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٩٦؛ تاريخ الإسلام، ص٥٤٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٥٥.

فيها. قالوا: ورُجْحَان العمل يظهر برُجْحَانِ عاقبته، ومن المعلوم أنهم لم يبدؤوه بقتال، فلو لم يقاتلهم لم يقع أكثر مما وقع من خروجهم عن طاعته، لكن بالقتال زاد البلاء، وسُفكت الدماء، وتنافرت القلوب، وخرجت عليه الخوارج، وحُكِّم الحَكَمان، حتى سُمِّي منازعُه بأمير المؤمنين[١]. فظهر من المفاسد ما لم يكن قبل القتال، ولم يحصل به مصلحة راجحة، وهذا دليل على أن تركه كان أفضلَ من فعله، فإن فضائل الأعمال إنما هي بنتائجها وعواقبها)[٢].

ونختم فنقول: يجب كفكفةُ اللسان عما شَجَر بين الصحابة، وكَبْحُ جِماح الأقلام عن التعريض بهم جماعة أو فرادى، فإن ما لابسوه من الفتن كان باجتهاد ولأجل نصرة الحق، فمنهم من له أجر، ومنهم من يفوز بالأجرين.

أما مسببو الفتنة ومؤرِّثو نارها والسعاة في تأجيجها؛ فَلَهم يومٌ يُفضحون فيه على الأشهاد، وينتقم الله منهم شرَّ انتقام، لِما تسببوا فيه من إراقة الدماء، وتشويه صور رجالاتنا وتاريخنا، وتأخير مدّ الفتوحات الإسلامية رَدَحاً من الزمان.

قال الإمام النووي في شرح حديث: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار»:

(واعلَمْ أن الدماء التي جَرَتْ بين الصحابة ﵃ ليست بداخلة في هذا الوعيد، ومذهب أهل السنة والحق: إحسانُ الظن بهم، والإمساكُ عما شجر بينهم، وتأويلُ قتالهم، وأنهم مجتهدون متأوِّلون لم يقصدوا معصية ولا محضَ الدنيا، بل اعتقد كل فريق أنه المُحِقُّ، ومخالفَه باغٍ، فوجب عليه قتالُه، ليرجع إلى أمر الله. وكان بعضهم مصيباً، وبعضهم مخطئاً معذوراً في الخطأ؛ لأنه باجتهاد، والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه، وكان علي ﵁ هو المُحِق المُصيب

---

(١) يعني: معاوية ﵁، وما ذكره ابن تيمية محمول على ما آل إليه الأمر بعد ذلك، عندما بويع معاوية بالخلافة.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ٤٤١ ـ ٤٤٢.

في تلك الحروب، هذا مذهب أهل السنَّة. وكانت القضايا مشتبِهة، حتى إن جماعة من الصحابة تحيَّروا فيها، فاعتزلوا الطائفتين، ولم يقاتلوا، ولم يتيقنوا الصواب، ثم تأخّروا عن مساعدة أي منهم)[١].

وقال الحافظ: (واتفق أهل السنَّة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عُرف المُحِقُّ منهم، لأنهم لم يقاتِلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً وأن المُصِيبَ يؤجر أجرين. وحمل هؤلاء الوعيدَ المذكور في الحديث على من قاتل بغير تأويلٍ سائغٍ بل بمجرَّد طلب المُلك)[٢].

وقال نحوه شيخ الإسلام ابن تيمية[٣].

❊ ❊ ❊

(١) شرح صحيح مسلم: ٩/ ٢٣٩.
(٢) الفتح: ١٦/ ٣٣٦.
(٣) مجموع الفتاوى: ٣/ ٤٠٦.

٤١

إخبار النبي ﷺ بأن أمير المؤمنين عمر هو غَلَقُ الفتنة

عن شَقِيق بن سَلَمة: (عن حُذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: كنَّا عند عُمر، فقال: أَيُّكُم يَحفظُ حديثَ رسولِ الله ﷺ في الفِتنة كما قال؟ قال: فقلتُ: أنا، قال: إنك لَجريءٌ، وكيفَ قال؟ قال: قلت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**فِتنةُ الرجلِ في أهلِهِ ومالِه ونَفْسِه وولدِه وجارِه، يُكَفِّرُها الصيامُ والصلاةُ والصدقةُ والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر**» فقال عمر: ليس هذا أُرِيدُ، إنما أُريد التي تموجُ كموجِ البحر؟ قال: فقلت : ما لَكَ ولها يا أميرَ المؤمنين؟! إنَّ بينَك وبينها باباً مُغْلَقاً! قال: أَفَيُكْسَرُ البابُ أم يُفْتَحُ؟ قال: قلتُ: لا، بل يُكْسَر، قال: ذلك أَحْرَى أن لا يُغْلَقَ أبداً!.

قال: فقلنا لحذيفةَ: هل كان عُمر يَعلمُ مَنِ البابُ؟ قال: نعم، كما يَعلمُ أن دونَ غدٍ الليلةَ! إني حدَّثْتُه حديثاً ليس بالأَغالِيط.

قال: فَهِبْنَا أن نسألَ حذيفةَ: مَنِ البابُ؟ فقلنا لِمَسْروقٍ: سَلْهُ، فسأَلَه، فقال: عُمر)[(١)].

❁ ❁ ❁

•• يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث: أن الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه هو حِصْنٌ

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥) وأطرافه؛ ومسلم (١٤٤) بعد (٢٨٩٢) واللفظ له؛ والترمذي (٢٢٥٨)؛ والنسائي في الكبرى (٣٢٤)؛ وابن ماجه (٣٩٥٥)؛ والطيالسي (٤٠٨)؛ وأحمد: ٥/ ٤٠١ ـ ٤٠٢؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٥؛ وعبد الرزاق (٢٠٧٥٢)؛ وابن حبان (٥٩٦٦)، وغيرهم.

مَنيع وحائلٌ شامخ بين الفتن والأمة، فإذا مات اندفعت الفتن تجتاح المسلمين وبلادهم. وهكذا كان.

وعبَّر عن الفتن بأنها (**تموج كموج البحر**): أي تضطرب اضطراب البحر عند هيجانه، ويدفع بعضها بعضاً. وهي لشدة عظمها وكثرة شيوعها تشبه موج البحر، تجتاح البلاد، وتخرب الديار، لا تميّز بين كبير وصغير، ولا بين حاضر وبادٍ. وكنَّى بذلك عن شدة المخاصمة، وكثرة المنازعة، واضطراب أمر الأمة، وما ينشأ عنه من الاختلاف والفُرقة والمشاتمة والمقاتلة!.

وقال حذيفة لعمر: (**إنَّ بينك وبينها باباً مغلَقاً**): أي لا يخرج منها شيء في حياتك، وعَدَلَ حذيفة حين سأله عمر عن الإخبار بالفتنة الكبرى إلى الإخبار بالفتنة الخاصة؛ لئلا يُغَمّ ويَشتغل بالُه، ومن ثَمّ قال له: (إن بينك وبينها باباً مغلقاً)، ولم يقل له: أنت الباب، وهو يعلم أنه الباب، فعرَّض له بما فهمه ولم يصرح، وذلك من حُسن أدبه[1].

ثم إن هذا الباب (**يُكْسر كسراً**)، والمكسور لا يمكن إعادته بخلاف المفتوح، والكسر لا يكون غالباً إلا عن إكراه وغلبة وخلاف!.

وفي رواية للبخاري: أن حذيفة لَمَّا قال ذلك، قال عمر: (ذاكَ أَجْدَرُ أنْ لا يُغلقَ إلى يوم القيامة)[2]! وإنما قال عمر ذلك اعتماداً على ما عنده من النصوص الصريحة في وقوع الفتن في هذه الأمة، ووقوع البأس بينهم إلى يوم القيامة[3].

وقد كان عمر يعلم أنه هو الباب (**كما يَعْلَمُ أن دونَ غدٍ الليلةَ**) أي: إن ليلةَ غدٍ أقربُ إلى اليوم من غدٍ!.

---

(١) انظر: شرح مسلم، للنووي: ١/ ٤٥٠ شرح الحديث (١٤٤)؛ الفتح: ٨/ ٥٠٧ شرح الحديث (٣٥٨٦)، ١٦/ ٣٦٢ شرح الحديث (٧٠٩٦).

(٢) البخاري (١٨٩٥).

(٣) الفتح: ٨/ ٥٠٨ (٣٥٨٦).

ومعنى قول حذيفة: (**إني حدَّثْتُه حديثاً ليس بالأغاليط**): الأغاليطُ: جمع أُغْلُوطَة وهو ما يُغالَط به، أي حدَّثْتُه حديثاً صِدقاً محقَّقاً من حديث النبي ﷺ لا عن اجتهاد ولا رأي.

•• وقد عَلِم أمير المؤمنين عمرُ البابَ بالنصّ، فقد وافق حذيفةَ على معنى روايته هذه: أبو ذر الغفاري، وعثمان بن مظعون.

روى الطبراني: عن أبي ذَرّ: (أنه لقِي عمر بنَ الخطاب، فأخذ بيده فغَمزها، وكان عمر رجلاً شديداً، فقال: أَرْسِلْ يدي يا قُفْلَ الفتنة! فقال عمر: وما قُفْلُ الفتنة؟ قال: جئتُ رسولَ الله ﷺ ذات يوم، ورسولُ الله ﷺ جالس، وقد اجتمع عليه الناس، فجلستُ في آخرِهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُصِيبُكم فتنةٌ ما دامَ هذا فيكم**» وأشار إلى عمر)[١].

وروى الطبراني والبزّار من حديث قُدَامَة بن مَظْعُون، عن أخيه عثمانَ بن مَظْعُون: (أنه قال لعمر: يا غَلَقَ الفتنةِ، فسأله عن ذلك؟ فقال: مررتَ يوماً، ونحن جلوسٌ عند النبيِّ ﷺ فقال: «**هذا غَلَقُ الفتنة، لا يزال بينكم وبين الفتنة بابٌ شديدُ الغَلق ما عاش هذا بين ظهرانيكم**»)[٢].

(فإن قيل: إذا كان عمر عارفاً بذلك، فلِمَ شَكَّ فيه حتى سأل عنه؟ فالجواب: أن ذلك يقع مثلُه عند شدة الخوف، أو: لعلَّه خَشِي أن يكون نسي، فسأل مَن يُذكِّره، وهذا هو المعتمد)[٣].

---

(١) الفتح: ٨/٥٠٨؛ شرح مسلم، للنووي: ١/ ٤٥٢.
قال الهيثمي في (المجمع: ٩/ ٧٣): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير السري بن يحيى وهو ثقة ثبت، ولكن الحسن البصري لم يسمع من أبي ذر فيما أظن.
وذكر الحافظ طرفاً منه في (الفتح: ٨/ ٥٠٨) وقال: رواه الطبراني بإسنادٍ رجاله ثقات.

(٢) قال الهيثمي في (المجمع: ٩/ ٧٢): رواه الطبراني والبزّار، وفيه جماعة لم أعرفهم، ويحيى بن المتوكل ضعيف. وذكر الحافظ في (الفتح: ٨/ ٥٠٨) طرفاً منه، وسكت عليه.
ويشهد له حديثا حذيفة وأبي ذر.

(٣) الفتح: ٨/ ٥٠٩.

●● وكان الصحابة يعرفون ذلك أيضاً:

روى أبو وائل شَقيق بن سَلَمة، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: (ما بينكم وبين أن يُرْسَل عليكم الشرُّ فراسِخ إلا موتُ عمر)(١).

وعن عبد الله بن مسعود قال: (إن عمر كان للإسلام حِصْناً حَصيناً، يَدخل الإسلام فيه ولا يَخرج منه، فلما قُتِل عمر انْثَلَم الحِصنُ فالإسلام يَخْرُج منه ولا يَدخل فيه)(٢).

وقال الحافظ: (أخرج أحمد والطبراني بسند حسن من حديث خالد بن الوليد: أن رجلاً قال له: يا أبا سُليمان! اتقِ الله فإن الفتن قد ظهرت! فقال: أَمَّا وابنُ الخطاب حيٌّ فلا، إنما تكون بعده، فَيَنظر الرجل فيفكر هل يجد مكاناً لم يَنزل به مثلُ ما نزل بمكانه الذي هو به من الفتنة والشر؛ فلا يجد! فتلك الأيامُ التي ذَكَر رسول الله ﷺ بين يدي الساعة أيامُ الهرج)(٣).

●● وفي هذا الحديث يشبِّه النبي ﷺ الإسلامَ بحِصْنٍ مَنيع، يعيش أهله بسلام وأمان واطمئنان وبُلَهْنِيَةٍ، والدين في انتشار وبلادُه في اتساع، والشر مخذول، والفتن مقموعة، والطامعون الحاقدون لا يجرؤون على تسوُّرِ جدار ذاك الحصن أو النَّقْبَ فيه، لوجود ذلك العبقري المُلهَم الصَّليب الأَريب، الذي قمع الشر بقوته، وكسر العدو ببأسه، وعمَّ الجميعَ بإنصافه وعدله، ومَدَّ رُواقَ الإسلام في بلاد المشرق والمغرب، وبنى دولة شامخة مشيدة على أركان راسخة من الحق والعدل والرخاء والمرحمة، فلقد كان هذا السيد (أبصرَ الناس بطبائع الشعوب، وأسباب ازدهارها واندثارها، وكيف تُبنى الدول وتُصان، وتُنصر،

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (٥١)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن سعد: ٣/ ٣٧١ ـ ٣٧٢؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٤٧٩ في مناقب عمر، وإسناده صحيح.

(٣) الفتح: ١٦/ ٣٠٥ شرح الحديث (٧٠٦١)؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

وتؤدي رسالتها.. وسياستُه في المال والحكم أمارةُ وعيٍ عميقٍ بالإسلام وغاياته).

(وإذا كان المهازيلُ في عصور كثيرة يَسمنون بعد تولي المناصب، فإن عمر خرج من منصبه عارياً من أعراض الدنيا كلها، وقتلَه عِلْجٌ حاقد في بيت الله، وهو يؤمُّ الرُّكَّع السُّجود)[١].

●● وقد طالت مدة خلافة الفاروق، واتسعت دولته، وكثرت أجناس الناس وأعراقهم ممن دخل حظيرة الإسلام، فساس الجميعَ بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ أحسن ما تكون سياسة الخلفاء الراشدين المهديين، واتفق الناس على طاعته، لصفات جليلة اتصف بها، ومؤهلات حَبَاه الله إياها، ومنها:

- أن الله جعل الحق على لسانه وقلبه.

- وأن الشيطان خنس في عهده، وما رآه سالكاً فَجّاً إلا سلك فَجّاً غيره، كما في «الصحيحين» وغيرهما.

قال الحافظ: (ووقع في حديث حفصة عند الطبراني في الأوسط بلفظ: **«إن الشيطان لا يَلْقى عمرَ منذ أَسلم إلا خَرَّ لوجْهِه»**! وهذا دالٌّ على صلابته في الدين، واستمرار حاله على الجد الصِّرْف والحق المَحْض)[٢].

وقال النووي: (وهذا الحديث محمولٌ على ظاهره أن الشيطان متى رأى عمر سالكاً فَجّاً هَرب هيبةً من عمر، وفارَقَ ذلك الفَجَّ، وذهب في فَجٍّ آخَر، لشدة خوفه من بأسِ عمر أن يفعل فيه شيئاً)[٣].

---

(١) سر تأخر العرب والمسلمين، ص١٤ ـ ١٥.
(٢) الفتح: ٨/ ٦٢٥ (٣٦٨٣).
(٣) شرح صحيح مسلم: ٨/ ١٨٠ (٢٣٩٦).

ـ وأنه رضي الله عنه كما قال النبي ﷺ: «**لقد كان فيمن كان قَبْلَكم من بني إسرائيل رجالٌ يُكَلَّمُونَ من غيرِ أن يكونوا أنبياءَ، فإنْ يكُنْ في أمَّتي منهم أحدٌ فَعُمَر**»[١].

والرجل المُحَدَّث: هو الرجل الصادق الظنّ المُلْهَم، الذي يجري الصواب على لسانه من غير قصد. وكما في «فوائد الجوهري» من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: قيل: يا رسول الله! وكيف يُحَدَّثُ؟ قال: «**تتكلَّم الملائكة على لسانه**»[٢].

فكان عمر رضي الله عنه وأرضاه بهديه وخلافته كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة)[٣].

وقال عمر قبل استشهاده بأربعة أيام: (لَئِنْ سَلَّمني اللهُ لَأَدَعَنَّ أراملَ أهلِ العراقِ لا يَحْتَجنَ إلى رجلٍ بعدي أبداً!)[٤].

●● لكن العبيد يَضيقون ذَرْعاً بالسادة، والأراذلُ لا يجدون لهم مكاناً في ساحات الأشراف، والحاقدون لا يقدِّرون مكرمات ذوي الكرم، والباطل لا يستطيع السكوت على الحقّ! فالعلوجُ قد آسَفَهم رؤيةُ الإسلام يحطم الأصنام، ويطفئ النيران، فمكروا بالليل والنهار، وحاكوا المؤامرة في الظلام، وطَوَوا في أنفسهم على حقد دفين على فاروق الإسلام عمر، عازمين على قتله في الليل البهيم، فمثْلُهم لا يستطيع أن يُجابه آحادَ الرجال فضلاً عن سيد الرجال عمر! والعرب ما اعتادوا إلا القتال في ساحات مكشوفة في النهار، ولم يقدِّروا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٩)؛ ومسلم (٢٣٩٨)، وغيرهما.
(٢) انظر: الفتح: ٨/ ٦٢٩ ـ ٦٣٠ (٣٦٨٩).
(٣) أخرجه ابن سعد: ٣/ ٢٧٠؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٤٨٠؛ والطبراني؛ وانظر: الفتح: ٨/ ٦٢٦ شرح الحديث (٣٦٨٤).
(٤) طرف من حديث استشهاده الطويل الذي أخرجه البخاري (٣٧٠٠)، وأطرافه في رقم (١٣٩٢).

مؤامراتِ عدوِّهم المهزوم وإصرارَه على الثأر لنفسه، فقُتل عمر غِيلةً وهو في صلاة الفجر يؤمُّ المسلمين، قتله المجوسي الخبيث أبو لؤلؤة[١].

طُعن عمرُ رضي الله عنه وأرضاه صبيحة الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة (٢٣هـ)، ودُفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة (٢٤هـ)، وهو ابن ثلاث وستين سنة، كسنِّ النبي ﷺ وسنِّ أبي بكر، حين توفِّيا.

وكانت مدة خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحداً وعشرين يوماً[٢].

•• وباستشهاد عمر كُسِر البابُ الذي كان يحجز الفتن ويَحُول بينها وبين المسلمين، فاجتاحت الفتن أنفسهم ودولتهم كما جاء في الحديث: **(تموج كموج البحر)**، هائجة مائجة مندفعة متلاطمة، كلما انحسرت موجة تبعَتْها أخرى، وصَدَق الرسول ﷺ.

فمنذ النصف الثاني من خلافة عثمان رضي الله عنه أخذت الفتن بالظهور قوية فتاكة:

ـ وأولُها ما افتراه اليهودي الماكر عبد الله بن سبأ من زَعْم (الوصية بالخلافة لعلي رضي الله عنه)، فألقى هذه الأبطولة على الطَّغام، فاستمعوا له وأنصَتُوا، ثم صدَّقوه واستمسكوا بتلك الفِرية واتخذوها ديناً في حياتهم، وورَّثوها لمن بعدهم، حتى وصلوا إلى درجة أنهم باتوا ينتظرون المعصوم كي يخرج من السرداب ليتخذوه إماماً! وكفى بذلك فتنة!.

ـ ثم ظَهر الطعن على ولاة عثمان وأمراء الأمصار، وزُوِّرَت كُتُب، ونُشرت أكاذيب، فجاءت الأحزاب الفاجرة، وأظهر أهلها فجورهم في حَرَمِ النبي ﷺ، وحاصروا خليفته، ثم سفكوا دمه وهو يتلو كتاب الله تعالى، فذهب إلى ربه

(١) في مدينة (كاشان) الإيرانية مشهد لأبي لؤلؤة هذا على غرار مشهد الجندي المجهول، وقد كُتب عليه (بابا شجاع الدين). انظر: لله ثم للتاريخ، ص ٩٤.
(٢) أعلام الحفاظ والمحدّثين: ١/ ١٩٣.

سبحانه شهيداً سعيداً، وأمَّا هم فباؤوا بغضب من الله ﷻ، وخسران مبين يوم الدين.

ـ وجاءت خلافة أمير المؤمنين علي، فتمادت الفتن وازداد الخَطْب وكَثُر الاختلاف، فكانت وقعةُ الجمل، ثم صِفِّين، ثم قتال الخوارج، وبعده استشهاد علي رضي الله عنه.

ـ وهكذا فيما بعدُ لا تزال الفتن تموج في الأمة، والدماء تسيل من جسمها، حتى ينتهي ذلك بالفتن الكبرى كالدجال وغيره.

إنها نبوءةٌ عظيمة جليلة، ودرسٌ بليغٌ يجب على المسلم أن يتملَّاه ويتَّعِظ به، ويستفيد من مجريات الأحداث، فيكشف عن مسببات الفتن ونتائجها لينجو منها، ويُسْهِم مع غيره في إنقاذ الأمة من كوارثها وقوارعها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فالحديث عن مثل هذه الأمور ليس شيئاً من (التاريخ القصصي)، بل من باب الاعتبار لإحسان العمل وبناء الحاضر والمستقبل.



إخبار النبي ﷺ بالفتن التي ستقع في عهد عثمان وأنه على الهدى

١ ـ عن عبد الله بن شَقِيق قال: حدثني هَرَمِيُّ بن الحارث وأُسامة بن خُرَيْمٍ ـ قال: كانا يُغَازِيَان فحدَّثَاني، ولا يَشْعُر كلُّ واحدٍ منهما أن صاحبَهُ حدَّثنيه ـ عن مُرَّةَ البَهْزِيِّ قال: (بينما نحنُ مع رسول الله ﷺ في طريق من طُرق المدينة، قال: «**كيف تَصْنَعُونَ في فتنةٍ تثورُ في أقطار الأرض كأنها صَيَاصِي البقر؟**» قالوا: نصنعُ ماذا يا نبيَّ الله؟ قال: «**عَليكُمْ بهذا وأصحابِه**» قال: فأسرعتُ حتى عَطَفْتُ إلى الرجلِ، قلتُ: هذا يا نبيَّ الله؟ قال: «**هذا**» فإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله عنه)[1].

٢ ـ وعن عبد الله بن حَوَالة الأَزْدِيِّ رضي الله عنه قال: (أَتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو جالس في ظِلِّ دَوْمَةٍ، ...) الحديث، وفيه قوله ﷺ: («**يا ابنَ حَوَالة! كيف تفعلُ في فتنة تخرج في أطراف الأرض كأنها صَيَاصِي بَقر؟**» قلتُ: لا أَدري، ما خارَ الله لي ورسولُه! قال: «**وكيفَ تفعلُ في أخرى تخرج بعدَها، كأن الأولى فيها انْتِفَاجَةُ أَرْنَبٍ؟**» قلتُ: لا أدري، ما خارَ اللهُ لي ورسولُه! قال: «**اتَّبِعُوا هذا**» قال: ورجلٌ مُقَفٍّ حينئذٍ، قال: فانطلقتُ، فسَعَيْتُ وأخذتُ بِمَنْكِبَيْه، فأقبلتُ بوجههِ إلى رسول الله ﷺ، فقلتُ: هذا؟ قال: «**نعم**» قال: وإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه).

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/٣٣، ٣٥؛ وابن أبي شيبة: ٨/٥٨٣؛ وابن أبي عاصم (١٢٩٦)؛ والطبراني في الكبير: ٢٠/٣١٦ (٧٥٢)؛ وابن حبان (٦٩١٤) واللفظ له، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ وجود الألباني إسناده في الصحيحة (٣١١٨).

زاد ابن أبي عاصم في روايته: «**اتَّبِعْ هذا، فإنَّه يومئذٍ ومَنِ اتَّبَعَهُ على الحقِّ**»[١].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّكُمْ تَلْقَوْنَ بعدي فِتنةً واختلافاً**، أو قال: **اختلافاً وفِتْنَةً**» فقال له قائلٌ من الناس: فَمَنْ لنا يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**عَليكُمْ بالأمينِ وأصحابِه**» وهو يُشير إلى عثمانَ بذلك)[٢].

٤ ـ وعن جُبَيْر بن نُفَيْر قال: (كنَّا مُعَسْكِرين مع معاويةَ بعد قتلِ عثمان رضي الله عنه، فقام كعبُ بن مُرَّة البَهْزِيّ[٣] فقال: لولا شيءٌ سمعتُه من رسولِ الله ﷺ ما قمتُ هذا المقام، فلما سَمع (معاويةُ) بذِكْر رسول الله ﷺ أَجْلَسَ الناسَ، فقال: بينما نحنُ عند رسول الله ﷺ، إذ مرَّ عثمانُ بن عفان مُرَجَّلاً (مُغْدِفاً)، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لَتَخْرُجَنَّ فتنةٌ من تحت قدمَيَّ ـ أو من بين رِجْلَيَّ ـ هذا، هذا يومئذٍ ومن اتبعَهُ على الهُدَى**» قال: فقام ابنُ حَوَالَة الأَزْدِيُّ من عند المِنْبر، فقال: إنك لصاحبُ هذا؟ قال: نعم، قال: واللهِ إني لحاضِرٌ ذلك المجلسَ، ولو علمتُ أن لي في الجيشِ مُصَدِّقاً؛ كنتُ أوَّلَ من تكلَّم به)[٤].

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/١٠٩ ـ ١١٠، واللفظ له؛ وابن أبي عاصم (١٢٩٤)؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٨٨ ـ ٨٩، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح، وصحَّحه الألباني في الصحيحة: ٧/ ٣١٦ ـ ٣١٧ (٣١١٨).

(٢) أخرجه أحمد: ٢/ ٣٤٥ واللفظ له؛ والحاكم: ٤/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣١٨٨)، وقال ابن كثير في (البداية والنهاية: ٧/ ٢١٠): تفرد به أحمد وإسناده جيد حسن.

(٣) صحابي، يقال في اسمه: (كعب بن مرة) و(مرة بن كعب) وهما واحد، وهو صاحب الحديث المتقدم برقم (١).

(٤) أخرجه أحمد: ٤/ ٢٣٦؛ وابن أبي عاصم (١٢٩٣) و(١٢٩٥)؛ والطبراني في الكبير: ٢٠/ ٣١٦ (٧٥٣)؛ ومسند الشاميين: ٢/ ٣٩٤، واللفظ لأحمد، والزيادتان بين القوسين للطبراني؛ وعزاه الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٩/ ٨٩) للطبراني وحده، وقال: ورجاله وُثِّقوا؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣١١٩).

٥ ـ وعن عَوْف بن مالكٍ رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في غزوة تبوكَ، وهو في قُبَّةٍ من أَدَم، فقال: «**اعْدُدْ سِتّاً بين يدي الساعة**: ...» الحديث، وفيه: «ثم فِتْنَةٌ لا يَبْقى بيتٌ من العَربِ إلا دَخَلَتْه»[١].

٦ ـ وعن حذيفة في وصف الفتنة بعد مقتل عمر بأنها: (تموج كموج البحر)[٢].

❁ ❁ ❁

أولاً: شرح بعض الألفاظ وتوضيح مدلول النبوءة:

صَيَاصِي بقر: أي قُرونُها، واحدتها صِيصِيَة، وكلُّ شيءٍ امتُنِعَ به وتُحُصِّنَ به فهو صِيصِيَةٌ.

عَطَفْتُ إلى الرجل: ملتُ وتحوَّلْتُ إليه.

دَوْمَة: واحدة الدَّوْم، وهي ضِخَام الشجر.

انتفاجة: وَثْبَة، أي: كوَثْبَةِ أرنبٍ من مَجْثِمِه، يريدُ تقليلَ مدَّتِها.

مُرَجَّلاً: التَّرجيل: تسريحُ الشَّعَر وتنظيفُه وتحسينُه، وهو دلالة الترفُّه والتنعُّم.

مُغْدِفاً: أَغْدَفَ عليه لباسَه: أَرْسَله، والغِدْفَةُ: لِباسُ المَلِك.

تشير هذه النبوءة إلى الفتن التي ستقع في عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وشبَّهَتْها الأحاديث بأنها مثلُ صَيَاصِي البقر أي قرونها، وشبَّه الفتنةَ بها لشدَّتها وصعوبةِ الأمر فيها، وكلُّ شيء امتُنِع به وتُحُصِّن به فهو صِيصِيَةٌ، ومنه قيل للحصون: صياصي. وقيل: شَبَّه الرماحَ التي تُشرع في الفتنة وما يشْبهها من سلاح بقرون بقرٍ مجتمعة.

ويبدو أن الأمرين مقصودان!.

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وقد مرَّ بتمامه مع تخريجه: ١/ ٢٣٢ نبوءة (٢٥) في هذا الكتاب.

(٢) تقدّم: ٢/ ٢٩ نبوءة (٤١) في هذا المجلد.

وجاء وصف الفتن بأنها تثور في أطراف الأرض، وفي حديث آخر بيَّن أنه لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته؛ تنبيهاً على شمولها كثيراً من أقطار الإسلام، واضطراب عامة البيوت بشأنها. وهكذا كان!.

ثانياً: تحقق النبوءة، وذكر طرف من ملامح تلك الفتنة ومخاطرها والسعاة فيها:

●● بدأت تلك الفتن التي أخبر عنها رسول الله ﷺ تطلُّ برأسها، وتعاونت على إيجادها قوى الشرِّ والطغيان، التي تحطَّمت جَحَافلها تحت سَنَابِك خيول المجاهدين، وشدَّتْ من أَزْرِها فلولُ الفرس والروم، وكيدُ اليهود وخبثُهم.. فَائْتَمروا جميعاً على مجابهة الإسلام، وإيقاف مدِّه الزاحف، وإطفاءِ نوره الذي تفتحت له القلوب، ولكن لمَّا لم تكن لهم ـ آنذاك ـ القدرة الكافية للمجابهة؛ عملوا سرّاً، فكانت رصاصتهم الأولى التي أطلقوها في المعركة الخفية هي قتل الخليفة العادل عمر رضي الله عنه وأرضاه.

ثم قامت حركات تمرُّد وارتداد في أطراف الدولة الإسلامية، فنقضوا عهودهم والمواثيق التي كانت عليهم، وأعلنوا خروجهم وانفصالهم عن الدولة الأم! ولم يكن ذلك من قِبَل أهل تلك البلاد، الذين استبشروا بقدوم الإسلام ـ حتى الذين لم يدخلوا فيه ـ لأنه خلَّصهم من طغيان الفرس والروم؛ إنما كان من هاتيك الأوكار المختفية الشانئة المتربصة، التي أفقدَها الإسلامُ نفوذَها ومكانتها، وقد حرَّضهم على ذلك الفرس والروم، الذين لم يقصّروا بدورهم في الهجوم أحياناً على الدولة الإسلامية متى سنحت لهم الفرصة.

ورَدَفَ ذلك تحركٌ من الداخل، أَضرم نارَه رجلٌ يهودي خبيث، رحل من اليمن، ويَمَّمَ شَطْرَ المدينة المنورة في عهد عثمان، وأظهر إسلامه مدَّعياً حبَّه لهذا الدين، ورغبتَهُ بجوار المسلمين، وقام بتأدية دوره الماكر.

وقامت الجيوش الإسلامية بتأديب حركات التمرُّد، وَعَصَفَت بمحاولات الهجوم الفاشلة من قِبل الفرس والروم، فألقى هؤلاء سلاحهم صاغرين، ولجؤوا

إلى الائتمار بالدولة من الداخل، وإيقاد الفتن، وإضرامها في أطراف الدولة الإسلامية. .

ولكي يكون مخططُهم ناجحاً، وضربتُهم صائبة مؤثرة، بل مُزَلْزِلة؛ فلابد من إثارة العاصفة في وجه الخليفة القيِّم على أمر الأمة، والذي يحمي حماها بسلطان الحق والشرع والعدل! وكأنهم اغتنموا بذلك قول عثمان: (إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآنِ)؛ فعلموا ما للسلطان من دور بارز في إحقاق الحق، وإرساء قواعد الدولة، وتوطيد أركان الإسلام، فوجَّهوا حملتهم الضارية إليه[1]!.

وتجمَّعت قوى الشرّ والطغيان والفجور والحقد عازمةً على إثارة الفتن في الأمة، فتألَّفت جموعُها من جماعات مرذولة حاقدة موتورة مكونة من:

أولئك الذين شَجَّعوا على حركات التمرد والانتقاض في أطراف دولة الإسلام، وأصحاب الأهواء والنفوس المريضة من أمثال الذين افتروا على سعد بن أبي وقاص بأنه لا يحسن يصلي!

والحاقدين على الولاة لأن يد العدالة طالَتْهم بالعقوبة الرادعة.

وأولئك العبيد الذين حرَّرَهم الإسلام من رقّ فارس والروم فلم تُطِقْهم أجسامهم على العيش في ظل حرية الإسلام.

كذلك جماعات من الرَّعَاع والأجلاف الجُفاة الذين دخلوا الإسلام مع الأفواج المتزاحمة فلم يَفقهوا منه إلا أقل القليل.

يُضاف إليهم فريق الغُلَاة الذين حَصِرت صدورُهم وتحجَّرت عقولهم عن قبول سوى رأيهم!.

ومن ذاك الخليط تشكَّلَتْ جماعة الفتَّانين الذين وحَّد شَراذِمَهم عبدُ الله بن سبأ وكبارُ تلاميذه ومساعديه وحوارييه، من أمثال: الأَشْتَر النَّخَعي، وابن

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٧٦ ـ ٣٧٧.

الكَوّاءِ، ويزيد بن قَيْس الأَرْحَبيّ، وصَعْصَعة بن صُوحان، وعبد الرحمن بن عُدَيْس البَلَوي، وكِنَانة بن بِشْر التُّجِيبي، والغافِقي بن حَرْب، وحُكَيم بن جَبَلَة، وحُرْقُوص بن زهير السعدي، وعَمْرو بن الأصمّ، وغيرهم[١].

قدِمَ ابنُ سبأ المدينةَ النبوية فوجد أنه لا أَرَبَ له فيها ولا بأهلها، فانطَلَق إلى الشام فوجد أهلَها أوفياءَ لدينهم وخليفتهم وأميرِهم معاوية، فَيَمَّمَ شَطْرَ البصرة، ونزل على اللصِّ حُكَيم بن جَبَلة، وانضمَّ إليهما آخرون، وبَثَّ اليهودي عبد الله بن سبأ أراجيفه فيهم، وتتمحور حول خمسة أمور خطيرة[٢]:

١ ـ **عقيدة الرجعة**: حيث قال: (لَعَجبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذِّب بأن محمداً يرجع، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥]، ومحمد أحقُّ بالرجعة من عيسى!).

٢ ـ **الوصية**: فزعم قائلاً: (إنه كان ألفُ نبيٍّ، ولكلِّ نبيٍّ وصيٌّ، وكان عليٌّ وصيَّ محمد). و(محمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء).

٣ ـ **اغتصاب عثمان ومَن قَبْلَه الخلافةَ**: قال: (مَنْ أظلمُ ممَّن لم يُجِزْ وصية رسول الله ﷺ، ووثَبَ على وصيِّ رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة؟!).

٤ ـ **الطعن على الأمراء**: وأنهم غير أكفاء، ولا يقومون بالإنصاف، وهم من أقارب عثمان، وغيرهم أولى منهم.

٥ ـ **إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: وأنهم يسعون لصالح الأمة والعدل وإعادة الحق إلى نصابه.

وقال في وصاياه: (إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأَظْهِروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر).

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨٠.

وكل واحدة من هذه الفِرى الخمس هي فتنة كبرى!.

ـ ألقى ابن سبأ هذه المبادئ إلى السمَّاعين له في البصرة، فقبِلوا منه واستعظموه! وعَلِم به عبد الله بن عامر بن كُرَيْز، فأخرجه من البصرة، فخرج حتى أتى الكوفة، فأُخرج منها، فغادرها بعد أن صَنَع له صنائعَ وحواريين! وتوجَّه بعدها إلى مصر، واستقر بها، وجعل يُكاتب أولئك الذي خلَّفَهم في الكوفة والبصرة، ويكاتبونه، ويتردَّدُ الرجال بينهم.

وما خرج ابن سبأ من البصرة والكوفة حتى ترك فيهما مبادئه تُتلا على أتباعه، فكانت تلك المبادئ بمثابة قنابل موقوتة زَرَعها في أطراف الدولة الإسلامية، ووضع فتيلَها بيد أناسيّ أحسنَ اختيارَهم، وألقى تعاليمه إليهم؛ فأعانوه بتأجيج النار، وتحريض الناس، منتظرين اللحظة الحاسمة، وهي الانقضاض على المدينة، لقتل الخليفة، وهدم الخلافة[1].

ـ وفي الكوفة ثار جماعة من هؤلاء على واليها الوليد بن عُقْبة، ولفَّقوا له تهمة، فعزله عثمان، وجاءهم سعيد بن العاص أميراً عليهم، فأحدثوا الشَّغَب عليه، حتى ضجَّ بهم، وأرسل إلى عثمان فيهم، فأمره أن يُسَيِّرهم إلى معاوية بالشام، وعُرفوا في التاريخ بـ (المُسَيَّرين)، فأدَّبَهم معاوية وأنَّبَهم، وبَيَّن لهم مَغَبَّة ما يَسْعَون فيه من القلاقل والفتن، فأظهروا التوبة، فأمرهم بالرجوع إلى الكوفة، فعادوا أطلقَ ألسنةً وأسوأَ سيرةً، فسيَّرهم عثمان إلى حمص حيث واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقبض عليهم بمثل مخالب أبيه حتى أذلَّ آنافَهم، وأظهروا التوبة.

ـ وفي البصرة نَقَمَ أهلها على واليهم الصحابي الكبير أبي موسى الأشعري، وطلبوا إلى الخليفة عزله، وأن يولي عليهم (غَيْلان بن خَرَشَة)، فأبى عثمان أن يوليه، لأنه أحيى أمر الجاهلية، وولى عبد الله بن عامر بن كُرَيْز[2].

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧٩.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٨١ ـ ٣٨٦.

واستمروا على الطعن في الصالحين.

ـ وفي مصر حيث استقر الرأس المدبِّر هناك، فباض وفرَّخ، قام الخوارج المنحرفون بشكاية عمرو بن العاص إلى عثمان، فما زال دأبهم كذلك، ويطلبون أن يولي عليهم من هو أيسر منه، فعزل عَمْراً عن الحرب، وتركه على الصلاة، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح. ثم قاموا بالنميمة بين عمرو وابن أبي سرح، حتى تقاولا فيما بينهما، فاضطر عثمان لعزل عمرو.

وتابع ابن سبأ نشر أراجيفه وأباطيله، فسارت كالنار المستعرة، فأفسد العقول بمبادئه الباطلة، التي راجت على بعض أبناء الصحابة، مثل محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر، اللذين خرجا في معركة (ذات الصواري)، فأَظْهَرا العيبَ على عثمان، واتهماه بأنه خالف أبا بكر وعمر، وفعل وفعل، وأن دمه حلال[1]!.

•• كذلك افتَرَوا على أمير المؤمنين عثمانَ أشياءَ، واتهموه بأنه خالَفَ هَدْيَ النبي ﷺ وصاحبيه، وأشاعوا ذلك بين الناس، فناقشهم في كل ذلك، وبيَّن لهم أخطاءهم وقلَّة فهمهم وقُبْحَ نواياهم وسوءَ صنيعهم. كما قام عددٌ من الصحابة بتبصيرهم بما يختلِقونه ويفترونه، وأنهم مُبْطِلون، فمما افتروه وادَّعوه:

أنه ضَرب عمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه، وضرب ابن مسعود حتى كسر أضلاعه، ونفَى أبا ذر إلى الرَّبَذَة، وردَّ الحَكَم بن أبي العاص إلى مكة بعد أن نفاه الرسول ﷺ، وأنه ابتدع في جمع القرآن، وأنه حمىٰ الحِمى، وولَّى أقاربه، وأنه لم يشهد بدراً ولا بيعة الرضوان، وفرَّ يوم أُحد.. وغير ذلك من الأضاليل التي ذروها في المجتمع خفية، للاستيلاء على قلوب الرعاع السماعين لهم[2].

•• وكاتَبَ أهلُ مصر أشياعَهم من أهل الكوفة وأهل البصرة، وجميعَ من

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٨٧.

(٢) انظر توضيح ذلك في المرجع السابق، ص٣٥٥ ـ ٣٧٠.

أجابهم؛ أن يثوروا خِلافَ أمرائهم، واتَّعَدوا يوماً محدداً، حيث ذهب أمراؤهم إلى أمير المؤمنين، للوثوب على الولاة وخَلْعِهم، وذلك سنة (٣٤هـ)، فلم يستقم ذلك لأحد منهم، ولم ينهض إلا أهل الكوفة، حيث منعوا واليهم سعيدَ بن العاص من دخول الكوفة، فولى عثمان عليهم أبا موسى الأشعري.

واستمرت المكاتبات بين أولئك المتآمرين، وازداد أوارها، وأضرم نارها ابن سبأ، فأوحى إلى أعوانه في مصر والكوفة والبصرة بتوسيع دائرة الفتن، ليعمَّ البلاء، ويضجَّ الناس، وتصلَ أخبار ذلك إلى (عاصمة الخلافة).. فبثَّ دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار، وكاتبوه، ودَعَوا في السرِّ إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكُتُبٍ يَضَعونها في عَيبِ ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك!.

ويكتب أهلُ كل مِصْرٍ منهم إلى مِصْرٍ آخَر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غيرَ ما يُظْهِرون، ويُسِرُّون غير ما يبدون! فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتُلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس[1]!.

●● وعلى صعيد آخر كان أمير المؤمنين عثمان والصحابة الأخيار يتابعون تحركات هؤلاء الفجرة وأراجيفَهم، ويكشفون حقيقتهم، ويأخذون بالحِلْم والحكمة والعدل وعدم الكشف عن نواياهم، والحُكْم على ظواهرهم التي يدَّعون فيها الإسلامَ والرغبةَ في الإصلاح.

فأرسل عثمان محمد بن مَسْلَمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعمار بن ياسر إلى مصر، وعبد الله بن عُمر إلى الشام، وكانوا على رأس

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٨٩ ـ ٣٩١.

جماعة، فأرسلهم إلى تلك الأمصار الكبيرة، فمضوا جميعاً إلى عملهم الشاق المضني الخطير العظيم.

فكان ما جاء به هؤلاء واحداً من كل الأمصار، قالوا: أيها الناس! ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكره أعلام المسلمين، ولا عوامُّهم، وقالوا جميعاً: (الأمر أمر المسلمين، إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم، ويقومون عليهم!).

ثم انتقل عثمان إلى مدى أرفع، فكتب إلى أهل الأمصار: (أما بعد؛ فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد سَلَّطتُ الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفع عليَّ شيء، ولا على أحد من عمالي؛ إلا أَعطيتُه، وليس لي ولعيالي حقٌّ قِبلَ الرعية إلا متروكٌ لهم!.

وقد رَفَع إليَّ أهلُ المدينة أن أقواماً يُشْتَمون، وآخرون يُضْرَبون، فيا مَنْ ضُرِبَ سرّاً، وشُتِمَ سرّاً، من ادَّعَى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم، فليأخذ بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدَّقوا فإن الله يجزي المتصدقين!).

فلما قُرِئ في الأمصار أبكىٰ الناسَ، ودعوا لعثمان، وقالوا: إن الأمة لَتَمخَّض بِشَرٍّ[1]!.

●● وانقضَى موسمُ الحج، ورجع الولاة إلى أعمالهم، وعَلِم المنحرفون بما جرى، وأيقنوا أن لا سبيل لخروجهم إلى الأمصار، فكاتبوا أشياعَهم من أهل البلاد أن يتوافَوْا بالمدينة، لينظروا فيما يريدون، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف، ويسألون عثمان عن أشياء يمكن إدانتُه بها، ثم إشاعتها بين الناس، وكأنها قد لَزِمَتْ عثمانَ، فتوافوا بالمدينة.

فاختار أمير المؤمنين رجلين ممن يثق بهم أولئك الفجرة، وأرسلهما إليهم، فلما رآهما المنحرفون باثُّوهما وأخبروهما بما يريدون؛ فقالوا: (نريد أن نَذكُر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم، فنزعم أنَّا قرَّرْنَاه بها، فلم

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩١ ـ ٣٩٢.

يَخرج منها، ولم يَتُبْ، ثم نخرج كأنَّا حُجَّاجٌ، حتى نقدم فنحيط به، فنخلعه، فإن أبى قتلناه!).

فرجع الرجلان إلى عثمان بالخبر، فضحك، وقال: (اللهمَّ سلِّمْ هؤلاء، فإن لم تُسَلِّمْهم شَقُوا!).

وأشار الصحابة على أمير المؤمنين بقَتْلِهم، فقال: (بل نعفو ونقبل، ونبصِّرهم بجهدنا، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حَدّاً، أو يُبدي كفراً. إن هؤلاء قد ذَكَروا أموراً قد علموا منها مثلَ الذي علمتم، إلا أنهم زعموا أنهم يُذاكرونيها ليوجِبوها عليَّ عند من لا يعلم!).

●● وبعد أن أخفقت محاولة هؤلاء الخوارج المارقين في أول مرة سنة (٣٤هـ) في الوثوب على الولاة، ثم لم ينالوا مرادَهم في الحملة الثانية عندما ناقشوا الخليفة، احتجوا عليه بأخطاء ابتدعوها، وأمور ظَنُّوها حقّاً، وليس معها إلا الباطل ـ عندئذ قرروا إطلاقَ آخر سَهْم من كِنانتهم، وتنفيذ ضربتهم القاتلة، حيث قالوا: (ثم نَخرج كأنَّا حُجَّاجٌ، حتى نقدم فنُحيطَ به، فنخلَعَه، فإن أبى قتلناه!).

ومشوا على تلك الخطة التي رسموها، وأَوْحَوا إلى أتباعهم والسمَّاعين لهم أن عثمانَ لجَّ في تلك الأخطاء ولم يَتُبْ. وزادوا الأمرَ سوءاً فزوَّروا كُتباً على لسان الصحابة: علي وطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة؛ يدعون الناسَ فيها إلى قتال عثمان، ونَصْرِ الدين، وأنه أكبرُ الجهاد!.

ومرَّت الأحداث بسرعة، فقرروا الخروجَ وغَزْوَ المدينة النبوية عند استعداد الحجاج للتوجه إلى بيت الله الحرام، من مصر والكوفة والبصرة، فيذهب المؤمنون إلى حَجِّهم وطاعة ربهم، وينطلِقُ هؤلاء البُغاة المجرمون بغَدْرِهم وخُبْثِهم إلى المدينة المنورة، قاصدين هدمَ الخلافة وقَتْلَ الخليفة.

فخرجوا في شوال من سنة (٣٥هـ)، وهم يريدون خَلْعَ الخليفة، فإن أبى قتلوه! ولم يتفقوا على رجل معين يَخلُفُه، بل كان أهل مصر يريدون عليّاً، وأهل

البصرة يشتهون طلحة، وأهل الكوفة يطالبون باستخلاف الزبير! وقد أحكم المكر اليهودي هذه الخطة الخبيثة، إذ لربما قَبِل عثمان أن ينخلع ويَستخلف واحداً مكانه، فيبوء مخططهم بالفشل، فَهُم في الحقيقة لا يريدون أحداً بعَيْنِه، إنما قتل الخليفة والخلافة؛ لتزداد الفتنة اضطراماً، حتى بين أتباعهم الذين بَثَّ ابنُ سبأ الاختلاف بينهم على الرجل الذي سيخلُف عثمانَ، فسار الأغرار الحمقى في تنفيذ الخطة، وهم لا يدرون أبعادها[١].

●● هذه الفتن التي جَيَّشَها أولئك الخارجون المجرمون، وانطلَقوا بها من مرحلة إلى أخرى، كانت تجد من أمير المؤمنين عثمان الدواءَ الناجع لتسكينها وكفكفة جماحها، فلم يتصدَّ لها بالقسوة والبطش، إنما داواها بالحكمة والحجة الدامغة التي تفضح مقصدها وتحول بينها وبين بلوغ مأربها؛ فهو يريد أن لا يُبْقي لهم عذراً، ولا يترك لهم ذريعةَ امتشاق السلاح، وسَفْكِ الدماء؛ لأنه يعلم أن السيفَ إذا سُلَّ في الفتنة فإنه لا يُعَاد إلى غِمْدِه! فكان كلما أبرزوا له فتنة، أطفأ نارها وبدَّد جَمْعَها، يعاونه في ذلك ويسدِّده ويؤيده أخيارُ الصحابة في المدينة وأمراءُ الأمصار.

فكان ﷺ يقول: (والله إن رحَى الفتنة لدائرة، فطُوبى لعثمانَ إن مات ولم يحرِّكْها.. كَفْكِفوا الناس، وهَبُوا لهم حقوقهم، واغتفِروا لهم، وإذا تُعوطِيتْ حقوق الله فلا تُدْهِنوا فيها)[٢].

●● وقد ماجَتِ الفتن كما صوَّرها الحديث في أطراف الأرض كأنها صَيَاصِي بقر، فلم تترك بيتاً إلا دخلَتْه: فبعضُهم مفتونٌ ساعٍ فيها، وآخَر متعجِّب

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٩٥ ـ ٣٩٧. وتحدّثَتْ عامة كتب التاريخ عن هذه الفتنة، وقد هذَّبْتُها وألَّفْتُ بينها وعرضْتُها متسلسلة في كتابي هذا، ص ٣٥٥ ـ ٤٠٠، وما ذكرته هنا شذرات منه.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٣.

منها متسائل عن حقيقتها ومَن وراءها، وكثير من البيوتات وأهلها يعلمون أنها مصنوعة مكذوبة تمحض الشر للإسلام وأهله.

لقد انتشرت تلك الفتن وشاعت في مصر والعراق، ووصلت إلى بلاد الشام دون أن تُحدِث في أهلها أثراً، فكان أولئك الفتانون دهاقنتَها ومؤججي نارها، وعليهم وِزْرُها وعارُها وعقابها عند الله تعالى!.

وأما أمير المؤمنين عثمان وأصحابه ومن سار على هَدْيهم وأيَّدَهم وكان معهم؛ فكما قال النبي ﷺ: «**هذا يومئذٍ ومَن اتبعه على الهدى**»! وصدق رسول الله ﷺ.

وصَدَق ﷺ أيضاً في وَصْفِه تلك الفتن بأنها تثور في أقطار الأرض كأنها صياصي بقر، فلقد كانت فتناً كثيرة جائحة، اجتاحت مصر والعراق والشام، ثم حطَّتِ الرِّحال في عاصمة الإسلام لتقتلَ الخليفة الراشد ذا النورين! فكانت الفتنة السابقة كأنها انتفاجةُ أرنب مقارنة بالفتنة الكبرى (مقتل عثمان!).

فتنٌ كثيرة وكبيرة: القول برجعة النبي ﷺ، والقول بالوصية، واغتصاب أبي بكر وعمر وعثمان الخلافة، والطعن على الأمراء والولاة، وخلعهم، واتهام عثمان بتُهَم باطلة، وأنه أصبح حلال الدم، وتزوير الكتب على لسان الصحابة، والخروج على الخليفة، ثم إجباره على خلع نفسه من الخلافة، والانتهاء بسفك دمه!.

●● نعم! ومن الفتن المحيِّرة المُثيرة أن يحمل هؤلاء الأوغادُ نزّاعُ القبائل والمطرودون والمجلودون واللصوص والغوغاء والحاقدون والموتورون، نقول: إنها فتنة كبرى أن يَحمل هؤلاء رايةَ الإصلاح زوراً، ويدَّعُون أنهم دعاةُ حق وحَمَلةُ هداية، سبيلُهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغايتُهم إعادة الحق إلى نِصابه، وإصلاحُ البلاد والعباد! إذاً فأين دورُ الخليفة وأكابر الصحابة وذوي الألباب وأصحاب الحِجى وأهلِ الحلِّ والعقد؟ أين دور هؤلاء أيها الفجرة الأفاكون؟!.

لقد بَكَّر زمانُ الحُثالة بالظهور، وتكلَّم الرُّوَيْبِضة باسم العامة، وساد الرَّعَاعَ والدَّهْماءَ أراذلُهم وشُذَّاذُهم وأكابرُ مجرميهم، وهم يدَّعون الإصلاح! ولقد أبانت الأيام أيَّ إصلاح يريدون! يريدون إصلاحاً على منهج اليهود والمجوس، ينتهي بسفك دم الخليفة، ويفتح باب الاقتتال بين المسلمين!.

وما أشبهَ الليلةَ بالبارحة، ونحن نسمع دعاوى الكذّابين وشعارات الأفّاكين والجيوش الزاحفة ممن يدعمهم ويروِّج لهم، وهم يرفعون عقائرهم بمبادئ الحرية والعدالة والديمقراطية والإنسانية والمساواة و. . . ونرى كذلك الفتن الكثيفة تتخلل ديارنا كمواقع القطر، وتشتبك مع تلك الدعاوى بالإصلاح تحت هدف واحد، يريد اغتيالَ هويتنا، وضياعَ بلادنا!.

إنَّ ما حَدَثَ في عهد الخليفة الراشد عثمان فيه دروس بليغة لأولي الألباب، فإنَّ ابن سبأ وتلامذته قد خلّفوا وراءهم مَن يحمل الراية من بعدهم، ولهم الآن بيننا أتباع وأحفاد، يرفعون في ديارنا من جديد ما نُودي به من قديم!.



إخبار النبي ﷺ بأن عثمان سيكون خليفة وسيخرج المنافقون عليه يريدون خلعه

١ ـ عن عبد الله بن حَوَالة الأَزْدِيِّ رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ ذات يوم: **«تَهْجُمُونَ على رجلٍ مُعْتَجِرٍ بِبُرْدَةٍ من أهلِ الجنَّة يُبايعُ الناسَ»** قال: فَهَجَمْنَا على عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنه مُعْتَجِراً بُبْردَةٍ يُبايعُ الناسَ)[١].

٢ ـ وعن النعمان بن بَشير رضي الله عنهما، عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (قال رسول الله ﷺ: **«يا عثمانُ! إنَّ الله عز وجل عَسى أن يُلْبِسَكَ قَميصاً، فإنْ أرادَكَ المُنافِقونَ على خَلْعِه، فلا تَخْلَعْه حتى تَلْقَاني. يا عثمانُ! إنَّ الله عسى أن يُلْبِسَكَ قميصاً، فإنْ أرادكَ المنافقونَ على خَلْعِهُ، فلا تَخْلَعْهُ حتى تلقاني»** ثلاثاً).

وفي رواية: **«فإنْ أرادَكَ المنافِقونَ على أن تَخلعَهُ، فلا تَخْلَعْهُ لهم ولا كَرامةَ»**.

وفي رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (فلما رأيتُ عثمانَ يَبْذُلُ لهم ما سألُوه إلا خَلْعَهُ؛ علمتُ أنه من عَهْدِ رسول الله ﷺ الذي عَهِدَ إليه)[٢].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٥٠)؛ وابن أبي عاصم (١٢٩٢)؛ وابن عدي في الكامل: ٣/ ٣٩٣؛ والحاكم: ٣/ ٩٨؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣١١٨).

(٢) أخرجه أحمد: ٦/ ٧٥، ٨٥ ـ ٨٦، ١١٤، واللفظ له؛ والترمذي (٣٧٠٥)؛ وابن ماجه (١١٢)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٠؛ وابن حبان (٦٩١٥)؛ والحاكم: ٣/ ٩٩ ـ ١٠٠، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وصحَّحه الألباني في: صحيح الترمذي: ٣/ ٢١٠، وصحيح ابن ماجه: ١/ ٢٥؛ والمشكاة (٦٠٦٨)؛ وصحيح الجامع الصغير (٧٩٤٧)، وقال عبد القادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول (٦٤٨٠): إسناده صحيح.

أولاً: كلمة بين يدي النبوءة:

●● في هذين الحديثين نبوءتان جليلتان:

الأولى: أن عثمانَ بن عفان رضي الله عنه سيكون خليفةً للمسلمين، وسيزدحمون على بيعته راضين مرحِّبين.

وعبَّر عن الخلافة بالقميص، وهو من أحسن الاستعارات، تقول: قَمَّصْتُه هذا الأمرَ: أي فَوَّضْتُه إليه، وجعلتُه في عُهدته، وألبستُه إياه مثلَ القميص[(١)].

وقوله «**مُعْتَجِرٌ بِبُردة**»: الاعْتِجارُ بها هو أن يَلُفَّها على رأسِه ويَرُدَّ طَرَفَها على وجْهِه، ولا يَعمل منها شيئاً تحت ذَقَنِه.

والثانية: أن الذين سيخرجون على أمير المؤمنين عثمان منافقون! ويكون مرادهم الذي خرجوا لأجله هو خلعه من الخلافة.

وقد تحقق الخبران كما وصف النبي ﷺ.

●● **أما بيعته**[(٢)]: فقد اختاره المسلمون من بين الستة أصحاب الشورى الذين سمَّاهم الفاروق بعدما طُعن، فبايعه عبد الرحمن بن عوف، ثم كانت يمينُ علي بن أبي طالب ثانيَ يمين شدَّتْ بالبيعة على يمين أمير المؤمنين عثمان، ثم بايعه الناس: المهاجرون، والأنصار، وأمراء الأجناد، وعامة الناس، وازدحموا عليه حتى غَشَوه تحت المنبر. واستقبل بخلافته يومَ السبت غرَّة المحرم سنة (٢٤هـ)[(٣)].

وروى ابن سعد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إنا اجتمعنا أصحابَ محمدٍ، فلم نألُ عن خيرِنا ذِي فُوقٍ؛ فبايَعْنا أميرَ المؤمنين عثمانَ، فبايِعوه)[(٤)].

---

(١) النهاية: ٤/١٠٨؛ جامع الأصول: ٨/ ٦٤٤ ـ ٦٤٥.

(٢) الحديث في صحيح البخاري (٣٧٠٠) وهو طويل جدّاً.

(٣) انظر كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٠٣.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/٦٣، وإسناده حسن؛ وانظر المرجع السابق، ص٣٠٣ ـ ٣٠٤. =

ونقل ابن تيمية عن الإمام أحمد قال: (لم يتفق الناس على بيعة كما اتفقوا على بيعة عثمان: ولَّاه المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام، وهم مؤتلِفون متفقون، متحابُّون متوادُّون، معتصِمون بحبل الله جميعاً)[١].

ثانياً: مسير الخوارج السبئية المنحرفين إلى المدينة لخلع أمير المؤمنين عثمان:

تقدم في النبوءة السابقة ما أوضحناه من إثارة جمهرة من السَّبَئِيَّة الفجرة البغاة للفتن حول عثمان وولاته وخلافته، وكشفنا مقصدَهم، وأَمَطْنا اللِّثامَ عن نيَّتهم الخبيثة وحقدِهم الدفين على الإسلام وأهله. وتوقف بنا الحديث عند زحف كتائبهم إلى المدينة المنورة لتنفيذ جريمتهم الكبرى في خلع الخليفة، فإن أجاب وإلا قتلوه، وهذا ما تتحدث عنه هذه النبوءة.

●● خرج السَّبَئِيُّون ومعهم أتباعهم من الغوغاء في شوال سنة (٣٥هـ)، ونظموا أنفسهم في اثنتي عشرة فرقة: أربع فرق من مصر، وأربع من الكوفة، وأربع من البصرة، وفي كل فرقة مئة وخمسون رجلاً، أي: من كل بلد نحو ستمئة رجل، ومجموع العدد من الجهات الثلاث ألف وثمانمئة رجل.

وكان لكلِّ فرقة قائد، وللفرق الأربع من كل بلد قائد أعلى: فالقائد الأعلى للفِرق المصرية هو الغافقي بن حرب، ومعهم ابن السوداء ـ وهو ابن سبأ ـ ولم يتأمَّر إمعاناً في الكيد والمكر والتخفي، والقائد الأعلى لفِرق البصرة حُرقوص بن زهير السعدي، والرئيس الأعلى لفِرق الكوفة عَمرو[٢] بن الأصمّ.

وهكذا ترى في عملهم الإجرامي هذا: الدقة والتنظيم والترتيب والإعداد، لم يكُ عملهم عشوائيّاً، كما لم يكونوا طلابَ حق ولا دعاةَ إصلاح، بل قصدوا بخبث ومكر قتلَ الخليفة وتوهينَ أمر الإسلام والمسلمين.

= **لم نألُ**: لم نقصّر. **ذِي فُوق**: أي وَلَّيْنا أعلانا سَهْماً ذا فُوقٍ، أراد: خَيْرَنا وأكملَنا، تامّاً في الإسلام والسابقة والفضل.

(١) منهاج السنة: ٣/ ١٦٦.

(٢) وبعضهم يسميه: (عُمر). تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٩.

فأَعَدّوا أنفسهم، واستعدوا للعدوان، واتفقوا على موعد واحد للخروج من البصرة والكوفة ومصر، وكانت أعدادهم متساوية وترتيبهم موحداً وهدفهم واحداً: فاختاروا الزمانَ المناسب حيث الناس في الحج، والحماية في المدينة قليلة، والمكانَ المناسب وهو (مركز الخلافة) و(حَرَم النبي ﷺ) حيث يتحرَّج المسلمون الصادقون من القتال والإحداث في تلك البقاع الطاهرة. والهدفَ الواحد وهو خلع أمير المؤمنين أو قتله!.

وزادوا من خُبْثِهم في مخططهم أنهم اعتزموا عزلَ الخليفة، فإن أبى قتلوه، ولم يتفقوا على رجل معين يَخْلُفه، فأهل مصر يريدون علي بن أبي طالب، وأهل البصرة يشتهون طلحة بن عبيد الله، وأهل الكوفة يطالبون باستخلاف الزبير بن العوام! وهي خطة ماكرة، فلربما قَبِل عثمان اعتزالَ الخلافة وتنصيبَ أحدِ أكابر الصحابة مكانه، فيبوء مخططُهم بالفشل، فهم لا يريدون واحداً بعينه، بل قتْلَ الخليفة وتوهينَ أمر الأمة وإضرامَ نار الفتنة والاحتراب بين المسلمين.

•• فخرجوا وهم على الخروج متفقون مجتمعون، وفي الناس شتى؛ حتى لا ينكشف أمرهم، حتى توافوا حول المدينة المنورة، كما تواعدوا في كتبهم في شهر شوال. فتقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا (ذا خُشُب)، وناس من أهل الكوفة فنزلوا (الأَعْوَص) وجاءهم ناس من أهل مصر، ونزل الجمهور منهم (بذي المَرْوَة).

وقام أناس من معسكر أهل مصر بزيارة معسكري أهل البصرة والكوفة، للتنسيق فيما بينهم، ثم سار برأيهم زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم، وقالوا: لا تَعْجَلوا ولا تُعجلونا، حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد.

فدخل الرجلان، فلقيا أزواجَ النبي ﷺ وعليّاً وطلحة والزبير، وقالا: إنا نأتمُّ هذا البيت، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا، ما جئنا إلا لذلك. واستأْذَنَاهم للناس بالدخول، فكلُّهم أبى ونهى، وقال: بيضٌ ما يُفرخَنّ!.

وعاد الرجلان يجران أذيال الخيبة والخذلان، لكنهما قد استطلعا الأمر،

وعرفا كيف يدخل المنحرفون في مثل هذه الظروف. ولما رجعوا إلى معسكراتهم، تدارسوا الأمر جميعاً، فقرروا إرسال ثلاثة وفود[١].

●● فأتى المصريون عليَّ بن أبي طالب، والبصريون طلحة بنَ عبيد الله، والكوفيون الزبيرَ بن العوام، وعرَّضُوا لهم بالخلافة وخَلْع عثمان، فكان الجواب من الصحابة الثلاثة: (لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المَرْوَة وذي خُشُب والأَعْوَص ملعونون على لسان محمد ﷺ!).

فرجعوا إلى معسكراتهم.

وأظهر هؤلاء (المنافقون) المنحرفون لأهل المدينة أنهم راجعون إلى بلدانهم، فَقَوَّضُوا خيامهم، وخرجوا عن المدينة. وخرج العراقيون ـ من بصريين وكوفيين ـ في طريقهم نحو الشرق إلى الشمال، متوجهين إلى بلادهم، والمصريون في طريقهم نحو الغرب إلى الشمال، وجهةُ كل من الفريقين مختلفة، والمسافةُ بينهما تأخذ بالازدياد كلما أمعنوا في السير.

وقطع كل من الفريقين مراحلَ، ووصل المصريون إلى (البُوَيْب)[٢]، وإذا راكب يتعرَّض لهم ثم يفارقهم، مراراً! قالوا: ما لَكَ؟! قال: أنا رسولُ أمير المؤمنين إلى عامله بمصر. ففتَّشوه فإذا هم بكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامل مصر أن يصلبهم أو يقتلهم، أو يقطِّع أيديهم وأرجلَهم من خِلاف.

فرجعت قوافل (الخوارج) المصريين إلى المدينة، ومعهم محمد بن أبي بكر[٣]، ورجعتْ كذلك قوافل العراقيين، ووصل الجميع إلى المدينة في آن واحد، كأنما كانوا على ميعاد!. ولم يَرُعْ أهلَ المدينة إلا التكبير في نواحي

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٩٧ ـ ٣٩٩.

ذو خشب: واد على مسافة نحو (٣٥ كم) من المدينة. **الأعوص**: موضع شرقي المدينة على بضعة عشر ميلاً منها. **ذو المروة**: قرى واسعة من أعمال المدينة.

(٢) مدخل أهل الحجاز إلى مصر.

(٣) كان عثمان قد ولاه على مصر بطلب من المصريين، بدل عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

المدينة، وقد زحف إليها السبئيون الفجرة وأحاطوا بها، وجمهورُهم عند دار أمير المؤمنين عثمان، وقالوا للناس: مَن كَفَّ يده فهو آمن!.

وصلى عثمان بالناس أياماً، ولزم الناس بيوتهم، ولم يمنعوا أحداً من كلام، فأتاهم الناس فكلَّموهم، وفيهم علي بن أبي طالب فقال: ما رَدّكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟! فقالوا: أخذنا مع بريد كتاباً بِقَتْلِنَا! وكذلك قال البصريون لطلحة، والكوفيون للزبير. وقال البصريون والكوفيون: فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً. فقال لهم علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سِرْتُم مراحل ثم طويتم نحونا؟! هذا والله أمرٌ أُبْرِمَ بالمدينة! قالوا: فَضَعُوه على ما شئتم، لا حاجةَ لنا في هذا الرجل، لِيعتزلْنَا!.

●● وشددوا الحصار على أمير المؤمنين، وحَصَبُوه حتى صُرع عن المنبر مغشياً عليه، فاحتُمل فأُدْخِل داره! وشمَّر أناس من الناس فاستقتلوا، منهم: سعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت، والحسن بن علي، فبعث إليهم عثمان بعزمه لَمَا انصرفوا.. فانصرَفُوا.

واستنصر عثمان بالولاة، وكتب إلى أهل الأمصار بنجدته، فبعث معاويةُ حبيبَ بن مَسْلَمة الفِهْرِيَّ في جيش، وبَعث عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح معاويةَ بن حُدَيْج السَّكُوني في جيش آخر، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو في جيش ثالث.

ثم زاد أولئك الخوارج المنافقون في حَصْر أمير المؤمنين والتضييق عليه حتى منعوه ما يأتيه من طعام، ومنعوه الماءَ والخروجَ إلى المسجد، وتهدّدوه بالقتل، فقام وأشرف عليهم من الدار، فوعظهم، وتحدَّث بمناقبه وفضائله، لعلَّهم يرتدعون عن فَعْلتهم، ويَرْعَوُون عن غيِّهم[1].

---

(١) كتابي: أعلام الحفاظ والمحدّثين: ١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٧؛ وانظر تفصيل ذلك في: الخلفاء الراشدون، ص٣٩٩ ـ ٤١٠.

فلم يُفلِح فيهم كل ذلك، لأنهم ما جاؤوا يطلبون حقّاً مَطْلولاً، ولا رَفْعَ ظُلَامة أُضِيروا بها، ولا قلَّة أموال وأرزاق تُغدق عليهم، فإن أمير المؤمنين لم يترك فتقاً أرادوا فَتْقَه إلا أَغْلَقه عليهم، ولم يَدَعْ لهم حِيلة ولا ذَريعة أمام الله والتاريخ إلا عَلَا عليهم بحجَّتِه فيها، حتى لا يحتجوا بها إن كانت لهم حُجّة!.

فماذا يريدون إذاً؟!..

●● بعث أمير المؤمنين إلى الأشتر مالكِ بن الحارث النَّخَعِيِّ ـ وهو لا رعاه الله أحدُ قادة الفرق الأربع التي خرجت من الكوفة ـ فقال: (يا أشتر! ما يريد الناس مني؟ قال: ثلاثاً ليس لك من إحداهنّ بُدٌّ، قال: ما هنَّ؟ قال: يُخيِّرونَك بين أن تَخْلَعَ لهم أمرَهُم فتقول: هذا أمرُكم فاختاروا له مَنْ شِئْتُم، وبين أن تُقِصَّ من نفسك، فإن أبيتَ هاتين فإن القوم قاتلوك! فقال: أَمَا من إحداهنَّ بدٌّ؟ قال: لا، ما مِن إحداهن بُدٌّ! قال: أمَّا أن أَخلَع لهم أمرهم، فما كنتُ لأخلَعَ سِرْبالاً سَرْبَلَنِيه اللهُ ﷻ، واللهِ لَأن أُقَدَّمَ فتُضربَ عنقي أحبُّ إليَّ من أن أخلَع قميصاً قمَّصَنِيه الله، وأترك أمة محمد ﷺ يعدُو بعضُها على بعض. وأمَّا أن أُقِصَّ من نفسي؛ فوالله لقد علمتُ أن صاحبيَّ[١] بين يديَّ قد كانا يُعاقِبان، وما يقوم بدني بالقِصاص. وأمَّا أن تقتلوني، فوالله لئنْ قتلتُموني لا تتحابُّون بعدي أبداً، ولا تصلُّون جميعاً بعدي أبداً، ولا تقاتِلون بعدي عدوّاً جميعاً أبداً! قال: فقام الأشتر فانطلق)[٢].

هذا الموقف الصليب من أمير المؤمنين عثمان الذي بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة هو الموقف الصحيح؛ لأمور عدة:

أولاً: فيه الاستمساك التام بأمرِ النبي ﷺ لعثمان وعهدِه إليه أن لا يَخْلَع سربالَ الخلافة.

---

(١) يعني: أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وأرضاهما.

(٢) أخرجه ابن سعد: ٣/ ٧٢ ـ ٧٣، وخليفة بن خياط في تاريخه، ص١٧٠؛ وابن أبي شيبة في مصنفه: ٨/ ٦٧٩ ـ ٦٨٠؛ والطبري في تاريخه: ٤/ ٣٧١ ـ ٣٧٢، ورجاله ثقات.

ثانياً: فيه إثباتُ كَذِبِ هؤلاء المنافقين البُغَاة فيما يدَّعُونه ويروِّجونه حول أمير المؤمنين وولاته وسياسته، وفضحٌ لنواياهم، وتأكيدٌ لِما وصفهم به النبي ﷺ بقوله: «**فإن أرادك المنافقون**»! ولو أن عثمان استجاب لهم وتنازل عن الخلافة، لظنَّ الغوغاء ومَنْ لا عِلْمَ له ببواطن الأمور أن عند هؤلاء السبئية حقّاً وفي مسعاهم صدقاً!.

ثالثاً: ومن ناحية أخرى في موقف عثمان تبرئةٌ لساحته وتأكيد على حُسن هَدْيه في منهج الحكم وسِيَر الولاة، وأنه على السداد والرشاد. ولو استُجيب لهؤلاء المنافقين لظنَّ الرَّعاع ممن سار معهم، أو مَنْ يأتي بعدهم من المؤرِّخين والكُتّاب وعامة القراء؛ أن عثمان كان على خطأ وَجَوْرٍ في سياسته وإدارته لشؤون الخلافة والولاة والأمصار. إن أمير المؤمنين لم يَسْلم من ألسنة مرضى القلوب ولا من أقلام الموتورين، مع وقوفه ذلك الموقف الفذ، فكيف سيكون الحال لو خَلَع قميصَ الخلافة وخَضع لمطالب أعداء الله تعالى؟!.

رابعاً: فيه ردعٌ لكل أفَّاكٍ مجرم يريد بالإسلام والمسلمين شرّاً، لمجرد نزغات الشياطين، أو مخططات حاقدة تكيد المسلمين بالليل والنهار. فلو خَضَع الخليفة لكل مدَّعٍ أو ثائر أو مزوِّر للحقائق يطلب عَزْلَه أو يريد قَتْلَه؛ لاضطربت الأمة، واستخف كل ناعق بمنصب الخلافة.

وقد أيَّد الصحابة عثمان في موقفه هذا، من ذلك ما رواه نافع مولى ابن عمر قال: (دخل ابن عمر على عثمانَ وعنده المغيرة بن الأخنس، فقال: انظر ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلَعْها، ولا تقتلْ نفسك! فقال ابن عمر: إذا خلعتَها، أَمُخَلَّدٌ أنت في الدنيا؟ قال: لا، قال: فإنْ لم تخلَعْها، هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا، قال: فهل يَملِكون لك جنَّة أو ناراً؟ قال: لا، قال: فلا أرى لك أن تخلَع قميصاً قمَّصَكَهُ الله، فتكون سُنَّةً، كلما كَرِه قومٌ خليفتَهم أو إمامَهم خَلَعوه!)[1].

---

(١) أخرجه ابن سعد: ٣/٦٦؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٠؛ وخليفة في تاريخه، ص١٧٠؛ وأحمد في فضائل الصحابة؛ ١/ ٤٧٣، وإسناده صحيح.

وبقي ذو النورين إلى آخر لحظة من عمره المبارك مستعصِماً بالإسلام، مستمسكاً بوصية رسول الله ﷺ، مستسلماً لقضاء الله وقدره، صابراً على البلوىٰ التي أصابته، محتسباً لوجه الله تعالى، لتنتهي حياته في هذه الدنيا التي أتعبتْه بسنيها الطوال وأعبائها الثقال، وأتعبها هو بما حَمَّلَها من جلائل الأعمال، لِيَدْلِفَ بعدها إلى الجنة حيث النبي ﷺ وحزبه . . .

وهذا ما أخبرت به النبوءة التالية.



إخبار النبي ﷺ
عثمان بن عفان ببلوى تصيبه

عن أبي موسى الأَشْعريِّ رضي الله عنه قال: (كنتُ مع النبيِّ ﷺ في حائطٍ من حيطَانِ المدينةِ، فجاء رجلٌ فاستَفْتَحَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**افْتَحْ له وبَشِّرْهُ بالجنَّةِ**» ففتحتُ له، فإذا أبو بكر، فَبَشَّرْتُه بما قال رسولُ الله ﷺ، فحَمِدَ اللهَ. ثم جاء رجلٌ فاستَفْتَحَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**افْتَحْ له وبَشِّرْهُ بالجنَّةِ**» ففَتحتُ له، فإذا هو عمرُ، فأخبرتُه بما قال النبي ﷺ، فحمدَ اللهَ. ثم استَفْتَحَ رجلٌ، فقال لي: «**افْتَحْ له وبَشِّرْهُ بالجنَّةِ، على بَلْوَى تُصِيبُهُ**» فإذا عثمانُ، فأخبرتُه بما قالَ رسولُ الله ﷺ، فحمدَ اللهَ، ثم قال: اللهُ المستعانُ).

وفي رواية للنسائي: «**ائذَنْ له، وبَشِّرْهُ بالجنَّةِ، ومعها بلاءٌ**».

وفي رواية أخرى لعبد الرزاق وأحمد: (ثم جاء آخَرُ فسلَّمَ، فقال النبي ﷺ: «**اذْهَبْ فَأْذَنْ له، وبَشِّرْهُ بالجنَّة على بَلْوى شديدةٍ**» قال: فانطلقتُ، فإذا هو عثمانُ، فقلتُ: ادْخُلْ، وأَبْشِرْ بالجنَّة على بَلْوى شديدةٍ، قال: فجعلَ يقول: اللهمَّ صَبْراً، حتى جَلَس)(١).

❁ ❁ ❁

●● هذه الحلقة هي الثالثة في سلسلة النبوءات التي تحدَّثَتْ عن أمير

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٣) واللفظ له، و(٣٦٧٤) وفيه أطرافه؛ ومسلم (٢٤٠٣)؛ والترمذي (٣٧١٠)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٧٦، ٨٠٧٧، ٨٠٧٨)؛ وعبد الرزاق (٢٠٤٠٢)؛ وأحمد: ٤/ ٣٩٣، ٤٠٦، ٤٠٧؛ وابن حبان (٦٩١١، ٦٩١٢)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩؛ والبغوي (٣٩٠٣).

المؤمنين عثمان رضي الله عنه وعن خلافته، وعن المآل السعيد الذي سينتهي إليه صاحبُ النبي ﷺ وخَتَنُه وخليفتُه، وما سيحلُّ به من الابتلاء الشديد، وما سيفوز به من الشهادة والسعادة.

والبلوى التي يشير إليها هذا الحديث الجليل تتمثل بخروج أولئك المنافقين عليه، وحصارهم المشدَّد لداره، وحَصْبهم له وهو على المنبر حتى يخرَّ مغشيّاً عليه، ومنعهم له من الخروج للمسجد، بل منعوه الطعام والماء، ثم تسوَّروا داره كاللصوص المجرمين، غير آبهين بِحُرُماتِ البيوت ومن فيها من النساء والولدان، وقتلوه وهو صائم يتلو كتاب الله تعالى، وكل واحدة من تلك الأفعال تُعتبر بلاءً، فما بالك وقد اجتمعت عليه كلها؟!.

هذا فَضْلاً عما ذكرناه من افتراءاتهم عليه وتشويه سيرته، واتهامه بالباطل أنه خالَفَ النبيَّ ﷺ وهَدْيَ أبي بكر وعمر، وغيَّر بعضَ أحكام الدين، وأساءَ لبعض كبار الصحابة، وقدَّمَ أقاربه في الولاية مع قلة أهليتهم لها، والشَّغَب على الولاة، وتزوير الكتب، وإثارة الفوضى في أطراف الدولة، وغير ذلك مما أوضحناه، وكله من أنواع البلاء الشديد الذي ابتُلي به هذا السيد الكبير.

قال ابن بَطَّال: (إنما خُصَّ عثمانُ بذِكْر البلاء مع أن عمر قُتل أيضاً: لكون عمر لم يُمتحن بمثل ما امتُحن عثمان من تسلّط القوم الذين أرادوا منه أن ينخلع من الإمامة بسبب ما نسبوه إليه من الجَوْر والظلم، مع تنصُّله من ذلك واعتذارِه عن كل ما أوردوه عليه، ثم هجومهم عليه في داره وهتكهم سِتْر أهله، وكل ذلك زيادة على قتله).

وعقَّبَ الحافظ فقال: (وحاصِلُه أن المراد بالبلاء الذي خُصَّ به الأمور الزائدة على القتل، وهو كذلك)(١).

---

(١) الفتح: ١٦/ ٣٦٣ شرح الحديث (٧٠٩٧).

أقول: ما قدَّمناه من معاني (البلوى) يزيد الأمر وضوحاً حول المراد بذلك البلاء الذي خُصَّ به أميرُ المؤمنين عثمان رضي الله عنه وأرضاه.

•• شدَّد أولئك السَّبَئِيُّون المنافقون الحصارَ على أمير المؤمنين، لكنه بقي على صلة بالناس وأعيان الصحابة، ثم زادوا في حَصْره والتضييق عليه، حتى منعوه ما يأتيه من طعام، ومنعوه الماءَ، والخروجَ إلى المسجد، وتهدّدوه بالقتل!.

فقام وأشرفَ عليهم من الدار، فوعظهم، وتحدّث بمناقبه وفضائله، لعلّهم يرتدعون عن فعلهم، ويرعوون عن غيِّهم، فناشَدَهم بالله، والصحابةُ يسمعون، وقال: لا أُناشِد إلا الصحابة[1]!.

عن ثُمَامَةَ بنِ حَزْن القُشَيْريِّ قال: (شهدتُ الدارَ، حين أَشرف عليهم عثمانُ، فقال: ائتُوني بصاحبَيْكم اللَّذَين أَلَّبَاكُم عليَّ! قال: فجيءَ بهما كأنهما جَمَلانِ، أو كأنهما حِمَارانِ.

قال: فأَشْرَفَ عليهم عثمانُ، فقال: أَنْشُدُكُم باللهِ والإسلامِ، هل تعلمونَ أن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينةَ وليس بها ماءٌ يُسْتَعْذَبُ غير بئر رُومَة، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يَشتري بئرَ رُومَة فيجعلُ دَلْوَهُ مع دِلاء المسلمين، بخيرٍ له منها في الجنَّة؟**» فاشتريتُها من صُلْبِ مالي؟ فأنتمُ اليوم تَمنعُوني أن أَشربَ منها، حتى أشربَ من ماء البحر[2]! قالوا: اللهمَّ نعم.

فقال: أَنْشُدكم بالله والإسلام، هل تعلمونَ أن المسجدَ ضاق بأهلِهِ، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يَشتري بُقْعَةَ آلِ فلانٍ فيزيدُها في المسجد، بخيرٍ له منها في الجنة؟**» فاشتريتُها من صُلْب مالي؟ وأنتمُ اليومَ تمنعوني أن أصلِّي فيها ركعتين! قالوا: اللهمَّ نعم.

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٤٠٨.

(٢) أي: ماء البئر الذي في البيت وهو كماء البحر مالح.

قال: أَنْشُدكم بالله والإسلام، هل تعلمونَ أني جَهَّزْتُ جيشَ العُسْرة من مالي؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أَنْشُدكم بالله والإسلام، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثَبِيرِ مكّةَ، ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرَّكَ الجبلُ حتى تساقَطَتْ حجارتُه بالحَضِيضِ، قال: فَرَكَضَهُ برِجْلِه، وقال: «**اسكن ثبير، فإنما عليك نبيٌّ وصديق وشهيدان**»؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهُ أكبرُ، شَهِدوا لي وربِّ الكعبةِ أني شهيدٌ. ثلاثاً)[١].

وعن نافع، عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما: (أن عثمانَ أَشْرَفَ على أصحابِه وهو محصورٌ، فقال: عَلَامَ تقتلُوني؟! فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاثٍ: رجلٌ زنَى بعد إحْصَانِه فعليه الرَّجْمُ، أو قَتَلَ عَمْداً فعليه القَوَدُ، أو ارتدّ بعدَ إسلامِه فعليه القَتْلُ**». فواللهِ ما زنيتُ في جاهليةٍ ولا إسلام، ولا قَتلتُ أحداً فأُقِيدُ نفسي منه، ولا ارْتَدَدْتُ منذُ أسلمتُ، إنِّي أشهدُ أن لّا إلـهَ إلا اللهُ وأن محمداً عبدُه ورسولُه!)[٢].

●● واستمر الحصار لدار عثمان رضي الله عنه حتى مضَتْ أيامُ التشريق من سنة (٣٥هـ)، ورجع القليل من الناس من حجِّهم، فأَخبروا بسلامة الناس، وأُخبر أولئك المارقون الفجرة بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفُّوا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠٣) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٦٤٠٢) والصغرى: ٦/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦؛ وأحمد: ١/ ٧٤ ـ ٧٥؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥١٩)؛ والدارقطني (٤٤٣٧، ٤٤٣٨، ٤٤٣٩)، وقال الترمذي: حديث حسن، وحسنه الألباني وشعيب الأرنؤوط، وصحَّحه أحمد شاكر، وهو حديث صحيح لكثرة طرقه، وقد علق البخاري طرفاً منه (٢٧٧٨)؛ وانظر: ابن حبان (٦٩١٦، ٦٩٢٠).

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ٦٣ واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٣٥٠٦) والصغرى: ٧/ ١٠٣، وصحَّحه أحمد شاكر والألباني. وأخرجه من حديث أبي أمامة بن سهل عن عثمان: أحمد: ١/ ٦١ ، ٦٢، ٦٥، ٧٠؛ وأبو داود (٤٥٠٢)؛ والترمذي (٢١٥٨)؛ والنسائي في الكبرى (٣٤٦٨)، والصغرى: ٧/ ٩١؛ وابن ماجه (٢٥٣٣)، وغيرهم.

عن أمير المؤمنين، كذلك بَلَغهم أن ثلاثة جيوش قادمة لنصرته. فعندئذٍ صَمّموا على مُرادِهم، وانتهزوا فرصة قلة الناس في المدينة، وغيبة أكثرهم في الحج؛ فأحاطوا بالدار، وجدُّوا في الحصار، وألَحُّوا على عثمان بخَلْع نفسه، فأبى.

وترادف الأصحاب على نصرته، والقتال دونه، والحفاظ على نفسه الطاهرة ودمه الزكي[١].

(ودخل سعد بن أبي وقاص على عثمان وهو محصورٌ، ثم خرج من عنده فرأى عبدَ الرحمن بنَ عُدَيْس ومالكاً الأَشْتر وحُكَيم بن جَبَلة، فَصَفَّقَ بيديه إحداهما على الأخرى، ثم اسْتَرْجَع، ثم أَظْهرَ الكلام فقال: واللهِ إنَّ أمراً هؤلاء رُؤساؤهُ لأمرُ سَوْءٍ!)[٢].

وجاءه علي بن أبي طالب ومعه ابنه الحسن وابن عمر ونَفَر من المهاجرين، وقال له: (السلامُ عليكَ يا أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ لم يَلْحَق هذا الأمر[٣] حتى ضَرب بالمُقبل المدبر[٤]، وإني والله لا أَرى القوم إلا قاتليك! فَمُرْنا فَلْنُقاتِلْ) فقال عثمان: (أَنشُد اللهَ رجلاً رأى لله حقّاً، وأقرَّ أن لي عليه حقّاً؛ أن يُهريق في سببي مِلء مِحْجَمةٍ من دم أو يُهريق دمَهُ فيَّ). فأعاد عليٌّ عليه القولَ، فأجابه بمثل جوابه الأول، فخرج علي من الباب وهو يقول: (اللهمَّ إنكَ تعلمُ أنَّا بذلنا المجهودَ)[٥].

وأرسل إليه الزبير بن العوام أنه وقبيلة بني عَمْرو بن عوف ـ إحدى أكبر قبائل الأنصار ـ ينتظرون أمره بالنصرة والقتال[٦].

---

(١) انظر كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٤١٠ ـ ٤١٣.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٢. **استرجع**: أي قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون).
(٣) أي: لم يدرك انتصار الإسلام وقيام أمره.
(٤) **المقبل**: المطيع، **والمدبر**: العاصي.
(٥) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٤١٣.
(٦) أخرجه أحمد مطولاً في: فضائل الصحابة (٨٣٦).

كذلك جاء الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عَمْرو وسعيد بن العاص وأبو هريرة ومروان بن الحَكَم ومحمد بن طلحة السَّجَّاد، وغيرهم، كلهم يطلب إلى أمير المؤمنين أن يأذن له بالدفاع عنه والقتال دونه، وهو ينهاهم[١].

واستَقْتَل زيد بن ثابت في جماعة من الصحابة، ودخل على عثمان وقال له: (هؤلاء الأنصارُ بالباب، يقولون: إنْ شئتَ كنا أنصارَ الله مرتين! فقال: لا حاجة لي في ذلك، كُفُّوا).. وكانوا ثلاثمئة[٢].

وكان مع أمير المؤمنين يومئذٍ في الدار سبعُمئةٍ من الأبطال الصناديد، لو يَدَعُهم لضَربوا أولئك الظلمة الفجرة حتى يُخرِجوهم من أقطار المدينة!.

وكانت السيدة صفية أم المؤمنين ﵂ قد وضعت خشباً بين منزلها ومنزل عثمان تنقل إليه الطعام والشراب[٣]. كذلك كان جيرانه آل عَمْرو بن حزم يوصلون إليه الماء في الخفية ليلاً، وفي الغَفَلات عليهم الرقباء[٤].

•• ودخل عليه المُغيرة بن شُعْبة وقال له: (إنك إمامُ العامَّةِ، وقد نَزل بك ما ترى، وإني أَعْرِضُ عليك خصالاً ثلاثاً اختَرْ إحداهنَّ: إمَّا أن تَخْرُجَ فتقاتِلَهُم، فإن معك عَدداً وقوةً، وأنت على الحقِّ وهم على الباطل. وإمَّا أن نَخْرِقَ لك باباً سوى البابِ الذي هم عليه، فتقعدَ على رواحِلك فتلحقَ بمكَّةَ، فإنَّهم لن يَستحلُّوكَ وأنت بها. وإما أن تَلْحَقَ بالشام، فإنهم أهلُ الشام وفيهم معاوية. فقال عثمان: أمَّا أن أَخْرُجَ فأقاتِلَ؛ فلن أكونَ أوَّلَ مَنْ خَلَفَ رسولَ الله ﷺ في أمته بسَفْكِ الدماء. وأمَّا أنَ أخرج إلى مكَّةَ فإنهم لن يَستحلُّوني بها؛ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يُلْحِدُ رجلٌ من قريش بمكة يكونُ عليه نصفُ عذابِ**

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٤١٣ ـ ٤١٤.
(٢) تاريخ خليفة، ص١٧٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٨٢، ٦٩٢ ـ ٦٩٣؛ الثقات، لابن حبان: ٢/ ٢٦٣.
(٣) تاريخ المدينة، لعمر بن شبة: ٢/ ٣٠٤.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٧؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٨٧.

العالم»، فلن أكون أنا إياه. وأمَّا أن أَلْحَقَ بالشام فإنهم أهلُ الشام وفيهم معاويةُ؛ فلن أُفارِقَ دار هجرتي ومجاورةَ رسول الله ﷺ)[١].

وعَرض عليه نحو ذلك عبد الله بن الزبير وأسامة بن زيد ومعاوية بن أبي سفيان ﵃، وفي كل ذلك يأبى القتال، ويرفض الخروج من المدينة النبوية، ويستعصم بالصبر لأمر الله تعالى.

عن قيس بن أبي حازم: (عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: «**وَدِدْتُ أن عندي بعضَ أصحابي**» قالت: فقلنا: يا رسولَ الله! أَلَا ندعو لكَ أبا بكرٍ؟ فسكَتَ. قلنا: عمرُ؟ فسكتَ. قلنا: عليٌّ؟ فسكتَ؟ قلنا: عثمانُ؟ قال: «**نعم**». قالت: فأرسلنا إلى عثمانَ، قالت: فجعلَ النبيُّ ﷺ يكلِّمُه ووجْهُه يتغيَّرُ.

قال قيسٌ: فحدَّثني أبو سَهْلَة أن عثمانَ قال يومَ الدار: إنَّ رسول الله ﷺ عَهِدَ إليَّ عَهْداً وأنا صابِرٌ عليه. قال قيسٌ: كانوا يرون أنَّه ذلك اليوم). لفظ ابن حبان.

وفي رواية الحاكم: عن قيس عن أبي سَهْلَة[٢] مولى عثمان، عن عائشة ﵂، وفيه: (قالت: فجاء عثمانُ، فقال: «**قومي**» فجعلَ النبيُّ ﷺ يُسِرُّ إلى عثمانَ، ولونُ عثمان يتغيَّر. قال[٣]: فلما كان يومُ الدار قلنا: أَلَا تُقاتِل؟ قال: لا، إنَّ رسول الله ﷺ عهِدَ إليَّ أمراً فأنا صابرٌ نفسي عليه)[٤].

●● وكان عثمان ﵁ يقضي أيامه تلك صائماً، وباتَ من ليلته فرأى النبيَّ ﷺ في المنام، وأبا بكر وعمر، فقالوا له: (اصبِرْ فإنك تُفطر عندنا القابلة).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ١/ ٦٧؛ وفضائل الصحابة (٧٨٥)؛ وعمر بن شبة في تاريخ المدينة: ٢/ ٢٤٦؛ وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٠): رواه أحمد ورجاله ثقات، إلا أن محمد بن عبد الملك بن مروان لم أجد له سماعاً من المغيرة.

(٢) زاد في الإسناد (أبا سهلة) فهو (من المزيد في متصل الأسانيد).

(٣) أي: أبو سهلة مولى عثمان.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١١٣)؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٤٨٩؛ وابن سعد: ٣/ ٦٦ ـ ٦٧؛ وابن حبان (٦٩١٨)؛ والحاكم: ٣/ ٩٩، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه البوصيري في مصباح الزجاجة، والألباني، وشعيب الأرنؤوط.

عن مسلم أبي سعيد مولى عثمانَ بنِ عفان: (أن عثمانَ بن عفان أَعْتَقَ عشرين مملوكاً، ودعا بِسراويلَ فشدَّها عليه، ولم يَلْبِسْها في جاهليةٍ ولا إسلام، وقال: إني رأيتُ رسولَ الله ﷺ البارحةَ في المنام، ورأيتُ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وإنهم قالوا لي: اصبِرْ، فإنَّكَ تُفْطِرُ عندنا القابلةَ. ثم دَعَا بِمُصْحَفٍ فنَشَره بين يديه، فَقُتِلَ وهو بين يديه)[١].

وقال عثمان لمن عنده: (إني أُشْهِدُكم أني قد أصبحتُ صائماً، وإني أعزمُ على كل من كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَخرج من الدار سالماً مسلوماً منه) فقالوا: يا أمير المؤمنين! إن خرجنا لم نأمن منهم علينا! فأَذِنَ لهم أن يكونوا معه في بيت من الدار. ثم أمر بباب الدار فَفُتح، ودعا بالمصحف فأكبَّ عليه، وعنده امرأتاه نائلة بنت الفُرَافِصَة ورملة بنت شيبة. ولولا عزيمتُه عليهم لنصروه من أعدائه، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً.

واتخذ المجرمون قرارهم النهائي، فتسوَّروا دار عَمْرو بن حزم ـ المجاورة لدار عثمان ـ ودخلوا بغير إذنٍ كما يقول راعي الإبل النُّميري:

عَشِيَّةَ يدخلونَ بغيرِ إذْنٍ ... على متوكِّلٍ أَوْفَى وطَابَا
خليلِ محمدٍ ووزيرِ صِدْقٍ ... ورابعِ خيرِ مَنْ وَطِئَ التُّرابَا

واقتحموا عليه وقد خلا من حراسه والمدافعين عنه، وكان فيمن دخل عليه: قُتيرة السَّكوني، وسُودان بن حُمْران، والغافِقيُّ بن حَرْب، وعَمْرو بن الحَمِق، وكِنَانة بن بِشْر التُّجِيبي، ورجل اسمه (الموت الأسود)[٢]، وهجموا على عثمان، فمنهم من يَجَؤُه بنَعْل سيفه، وآخر يلكزه، والمصحف الشريف بين يديه يقرأ في

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند: ١/ ٧٢، وصحَّحه أحمد شاكر؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٢، ٩/ ٩٦ ـ ٩٧، وقال: رواه عبد الله وأبو يعلى في الكبير، ورجالهما ثقات.

(٢) الأظهر أنه عبد الله بن سبأ، فقد ثبت خروجه مع السبئيين من مصر، وكان حريصاً على أن لا يظهر فينكشف، حتى يتابع دوره الخبيث.

سورة البقرة، وهم يهابون قتله، فانقضَّ عليه (الموت الأسود) فخنقه خنقاً شديداً، وضربه الغافقي بحديدة كانت معه، ورفع أحدهم السيف فاتقاه عثمان بيده فقطعها، فقال عثمان: (أَمَا واللهِ إنها لأَوَّلُ يدٍ خَطَّتِ المُفَصَّل[(١)]!). وجاء رجل بمشاقص[(٢)] فوجأه في تَرْقُوَته، فقال عثمان: (بسم الله، توكلت على الله). وإذا الدم يسيل على لحيته يَقْطُر، والمصحف بين يديه، فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول: (سبحان الله العظيم)! وهو في ذلك يقرأ المصحف، والدم يسيل على المصحف، حتى وقف الدم على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وضربوه جميعاً ضربة واحدة، وانكبَّتْ عليه زوجُه نائِلةُ، فتعمدها أحد المجرمين بالسيف فقطع أصابع يدها، وضربوا عثمان فخرَّ لجنبه، فقتلوه.

ونادى مناديهم: أيحلُّ دم عثمان ولا يحلُّ مالُه؟! فانتهبوا كل شيء، وأخذوا ما وجدوا في الدار، وكان شيئاً عظيماً جدّاً[(٣)]، حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ كلثوم بن تُجِيب ملاءة نائلة.

ثم تنادوا في الدار: أَدْرِكوا بيتَ المال لا تُسبقوا إليه! فسمع أصحابُ بيت المال أصواتهم، فقالوا: النجاءَ، فإن القوم إنما يريدون الدنيا. فهربوا، وأتى أولئك المنافقون الفجرة بيت المال فانتهبوه، وكان فيه شيء كثير جدّاً[(٤)].

ومضى عثمان إلى ربه شهيداً سعيداً راضياً مرضياً، وصدقت نبوءة رسول الله ﷺ: «بشِّرْه بالجنة على بلوى تصيبه».

---

(١) المفصَّل: من سورة (قَ) إلى آخر المصحف الشريف.

(٢) المشقص: نصل طويل عريض.

(٣) كان لعثمان عند خازنه ثلاثون مليون درهم وخمسمئة ألف درهم، ومئة وخمسون ألف دينار، انتهبت كلها!.

(٤) اختصرته من كتابَيَّ: الخلفاء الراشدون، ص٤١٨ ـ ٤٢٣؛ وأعلام الحفاظ والمحدّثين: ١/ ٢٢٨ ـ ٢٣٠؛ وانظر تفاصيل صفة مقتله ﷺ في: تاريخ خليفة، ص١٧٣ ـ ١٧٧؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٧٢ ـ ٧٥؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٦ ـ ٣٩٦؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٨١ ـ ١٨٩.

وصدق الرسول ﷺ حيث بشَّره بالجنة والشهادة في وقت آخر؛ فيما رواه أنس رضي الله عنه: (أن النبيَّ ﷺ صَعِدَ أُحداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرَجَفَ بهم، فقال: «**اثْبُتْ أُحُدُ، فإنما عليكَ نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهِيدان**»)[١].

ذهب ذو النورين الشهيد وقد أقرَّ عينَ رسول الله ﷺ بوفائه بعهده وملازمة طاعته واتباع أمره حتى آخر زفرة خرجَتْ من فمه، فرفض خلع نفسه من الخلافة، وصبر على الفجور والإجرام والإفساد الذي حمله أولئك المنافقون، وأظمأ نهاره وهو في الحصار العاتي، وأقبل على مصحفه يتلوه ويستعصم بآياته، حتى تقاطرت دماؤه الطاهرة على صفحاته الطاهرة، لتشهد له بالشهادة يوم الدين، وتشهد على أولئك القتلة الفجرة بالخسران المبين!.



(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٥)، وغيره، وقد مرّ: ١/ ٩٨ نبوءة رقم (٦) من هذا الكتاب.

إخبار النبي ﷺ أن عثمان يُقْتل مظلوماً

عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: (ذَكَر رسولُ الله ﷺ فتنةً، فمرَّ رجلٌ، فقال: «**يُقْتَلُ فيها هذا المُقَنَّعُ يومئذٍ مَظْلُوماً**» قال: فنظرتُ، فإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله تعالى عنه)(١).

❁ ❁ ❁

●● تختِمُ هذه النبوءة المشهدَ الأخير المحزن المثير من حياة أمير المؤمنين الشهيد عثمان بن عفان، ويشهد له النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى بأنه يُقتل مظلوماً، ويمضي شهيداً، وهو في هذا وذاك على الهدى.

لقد بقي عثمان على العهد النبوي حتى اللحظة الأخيرة من حياته الحافلة بجلائل الأعمال وأكرم الأفعال وأرفع الخصال، ومَنَع جماعاتِ الصحابة وآحادَهم من أن يُهَرِيقَ أحدٌ منهم بسببه مِلء مِحْجَمةٍ من دم، لأن ذلك عهدٌ من النبي ﷺ إليه؛ قال رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ عَهِدَ إليَّ عهداً وأنا صابرٌ عليه). وأراده أولئك الخوارج الفجرة على خَلْع نفسه من الخلافة، فتأبَّىٰ عليهم، واستمسك بالأمر النبوي: «**إن الله عسىٰ أن يُلبسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خَلْعه، فلا تخلَعْه حتى تلقاني**».

ورأى شدَّة حصارهم له، وعانَى من مَنْعِه من الطعام والشراب والصلاة في

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ١١٥ واللفظ له؛ والترمذي (٣٧٠٨)، وقال: حديث حسن غريب؛ وصحَّحه الحافظ في الفتح: ٨/ ٦٠٩ شرح الحديث (٣٦٧٤).

المسجد، وحوله سيوفهم مسلولة لتسفك دمه؛ فما زاده ذلك إلا صبراً واستمساكاً بالبشارة النبوية: «**بَشِّرْهُ بالجنة على بلوى تُصيبه**»، فما زاد على أن قال: (اللهُ المستعانُ)! وتحقق لديه عندما رآهم يحيطون بداره، أن تلك البلوى قد أَزِف وقتها؛ فما زاده إلا إيماناً وتسليماً!.

●● وفعل أولئك المجرمون القتلة فَعْلَتَهم الفظيعة النكراء، وقضى عثمان شهيداً مظلوماً، ومضى إلى ربه وقد فاز بالمناقب الكثيرة والفضائل العديدة، وحسبه تلك البشريات النبوية والأحاديث الجليلة التي تشهد له بالهدى والخير والفضل والشهادة في سبيل الله.

وسيأتي ذو النورين يوم الحساب في أول فوجٍ من الناس ليقضي الله سبحانه بينه وبين قتلته! فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أولُ ما يُقْضَى بين الناس فيه يومَ القيامة في الدِّماء**»(١).

ويأتي رضي الله عنه يوم القيامة وهو آخذٌ بتلابيب أولئك السبئية الفجرة، ويُوقِفُهم بين يدي العزيز المنتقم الجبار قائلاً: يا ربّ اسألْهم فيمَ قتلوني؟!.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «**يأتي المقتولُ متعلِّقاً رأسَه بإحدى يديه، مُتَلَبِّباً قاتلَه بيدِه الأخرى، تَشْخُب أوداجُه دماً، حتى يأتي به العرشَ، فيقول المقتولُ لربِّ العالمين: هذا قتلني! فيقول الله للقاتل: تَعِسْتَ، ويُذهب به إلى النار**»(٢).

وعن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه، عن نبيِّ الله ﷺ: أنه قال: «**يَخرجُ عنقٌ من**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٣)؛ ومسلم (١٦٧٨)؛ والترمذي (١٣٩٦) و(١٣٩٧)؛ والنسائي في الكبرى (٣٤٤١)، والصغرى: ٧/ ٨٣؛ وابن ماجه (٢٦١٥) و(٢٦١٧)؛ وأحمد: ١/ ٤٤٠ ـ ٤٤١، ٤٤٢؛ وابن حبان (٧٣٤٤)، وغيرهم.

(٢) أخرجه الطبراني في معجميه الكبير والأوسط، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٦٩٧). وجاء نحوه من حديث ابن مسعود؛ انظر: السنن الكبرى، للنسائي (٣٤٤٦)، والصغرى: ٧/ ٨٤؛ والصحيحة، للألباني (٢٦٩٨).

النار يتكلَّم يقول: وكِّلْتُ اليومَ بثلاثةٍ: بكلِّ جبَّارٍ عنيد، وبمن جعلَ مع الله إلٰهاً آخَر، وبمن قَتَلَ نفساً بغير نَفْسٍ! فينطوي عليهم، فيقذفُهم في غَمَرات جهنم»(١).

●● حقّاً لقد قُتِل عثمان ظلماً، وكانت الخسارة بمقتله فادحة! فماذا فعل ذو النورين أيها المنافقون السبئية حتى تشدوا إليه الرحال، وتفسدوا في الأرض، وتنتهكوا كل الحرمات؟!.

حرمة الدماء، وحرمة المصحف الشريف، وحرمة الزمان، وحرمة المكان، وحرمة الأعراض، وحرمة البيوت، وحرمة الأموال!.

أَلَا فَبُوؤوا أيها العِدى بالإثم المبين واللعنةِ على لسان رسول رب العالمين ﷺ؛ كما روى عليٌّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**المدينةُ حَرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثورٍ، فمن أَحْدَثَ فيها حَدَثاً، أو آوَى مُحْدِثاً؛ فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ، لا يَقبلُ اللهُ منهُ يومَ القيامةِ صَرْفاً ولا عَدْلاً**»(٢).

●● ماذا فعل أمير المؤمنين عثمان الشهيد حتى يُقتل؟!:

ـ عثمان الذي كان واحداً من أبطال المسيرة الأولى، والذي أسلم والدعوة تواجه الشدة والعسرة والتضييق والمطاردة.

ـ عثمان الذي كان أولَ من هاجر بأهله بعد لوط عليه الصلاة والسلام، وكان صِهْرَ النبي ﷺ على ابنتيه، وأحدَ العشرة المشهود لهم بالجنة.

ـ عثمان الذي اشترى بئر رُومة وسَبَّله للمسلمين، وجهَّزَ جيش العُسرة، ووسَّع المسجد النبوي، وبذل ماله في سبيل الله يميناً وشمالاً، سرّاً وجهاراً.

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٠؛ وأبو يعلى: ١/ ٣١٤ ـ ٣١٥؛ والطبراني في الأوسط (٤١٣٨)؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٧٠)، وأطرافه في (١١١)؛ ومسلم (١٣٧٠)؛ وأبو داود (٢٠٣٤)؛ والترمذي (٢١٢٧)؛ والنسائي في الكبرى (٤٢٦٣)؛ وابن حبان (٣٧١٧).

ـ عثمان الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، وأجمع الصحابة على استخلافه وازدحموا على مبايعته أميراً للمؤمنين.

ـ عثمان الذي جيَّشَ الجيوش، وفتح الأقاليم، وأبلَغَ دعوةَ الله حدود الهند ومشارف الأندلس، وجمع الناس على المصحف الإمام، وكان يختم القرآن في ركعة.

ـ عثمان الذي أفاض على الناس الأعْطيات والأرزاق، وكساهم الحلل، ووزع عليهم العسل.

ـ عثمان الذي ما ترك لكم أيها المجرمون المنافقون طلباً في الحق إلا لبَّاه، ولا فَتْقاً إلا رَتَقَه، وكَفَّ عنكم لسانه ويده، ومنع أصحابه من أن يقاتلوكم.

بعد كل هذه المناقب والفضائل، والمزايا والمكارم، والسوابق الكثيرة والأعمال الجليلة، والسجايا الرفيعة؛ يُقتل ذو النورين(١)؟!.

إنه كما قال رسول الله ﷺ: «**يُقتل هذا مظلوماً**»!.

ولو كان أحدٌ أصابه مثلُ ما ابتُلِي به هذا الرجل الكريم النبيل؛ لأمر أصحابه أن يقتلوا أولئك الخوارج المفسدين، ولَأُزْهِقت آلاف الأنفس، لكن هذا (المنهج العثماني) أمسى عَلَماً على نوع من السلوك يفضِّل لقاء الله تعالى مع تحمّل الأذى والبلوى على سَفْك قطرة من دم قد تكون بغير حق، وشعاره في ذلك: (أقي المسلمين بنفسي).

●● ولقد كان وَقْعُ المصيبةِ على نفوس الصحابة عظيماً، فجلَّلهم الحُزن، وفاضَتْ مآقيهم بالدموع، ولَهِجَتْ ألسنتهم بالثناء على عثمان، والترحّم عليه، والسبِّ لقاتليه.

فلما جاء خبر استشهاده إلى عليٍّ ﷺ قال: (تَبّاً لهم آخِرَ الدهر). ثم قام

---

(١) انظر كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٤٣٢ ـ ٤٣٤.

فدخل على عثمان، فأكبَّ عليه، وجعل يبكي حتى ظن مَن هناك أنه سيلحق به. وكان يقول: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال حذيفة بن اليمان: (أولُ الفتن قتلُ عثمان، وآخرُ الفتن خروج الدجال. والذي نفسي بيده لا يموتُ رجل وفي قلبه مثقال حبة من حُبِّ قَتْلِ عثمان إلا تبع الدجال إنْ أدركه، وإن لم يُدركْه آمَنَ به في قبره!).

وخطب ابن عباس الناس فقال: (لو لم يَطلب الناس بدم عثمان؛ لَرُموا بالحجارة من السماء).

وقال سعيد بن زيد: (لو أن أُحُداً انقضَّ لِما صنعتم بعثمان؛ لكان محقوقاً أن ينقضَّ).

وعن أبي صالح قال: (كان أبو هريرة إذا ذكر ما صُنع بعثمان بكى، قال: فكأني أسمعه يقول: هاه، هاه، ينتحب).

وقالت أم المؤمنين عائشة: (قُتل مظلوماً، لَعن الله قَتَلَتَه)(١).

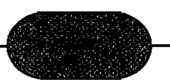
●● استشهد عثمان رضي الله عنه بالمدينة المنورة، يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة (٣٥هـ).

عاش اثنتين وثمانين سنة، وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً.

❋ ❋ ❋

---

(١) هذه الأقوال وغيرها كثير منثورة في: طبقات ابن سعد؛ وتاريخ الطبري؛ وتاريخ ابن عساكر؛ والمعجم الكبير، للطبراني، وغيره. وانظر كتابيَّ: الخلفاء الراشدون، ص٤٣٤ ـ ٤٣٧؛ أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.



إخبار النبي ﷺ بأن إحدى نسائه ستنبحها كلاب الحَوْأَبِ

عن قيس بن أبي حازم قال: (لمَّا بَلَغتْ عائشةُ بعضَ مياه بني عامر ليلاً، نَبَحَت الكِلابُ عليها، فقالت: أيُّ ماءٍ هذا؟ قالوا: ماءُ الحَوْأَبِ، فوقَفَتْ فقالت: ما أَظُنُّنِي إلا راجعةً! فقال لها طلحةُ والزبير: مَهْلاً رَحِمَكِ الله، بل تَقْدَمِين فيراكِ المسلمونَ، فَيُصْلِحُ اللهُ ذاتَ بينهم. قالت: ما أَظُنُّنِي إلا راجعةً؛ إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ قال لنا ذاتَ يومٍ: «**كيفَ بإحْداكُنَّ تَنْبَحُ عليها كِلَابُ الحَوْأَبِ**»!)[1].

❁ ❁ ❁

●● جاءت حول (وقعة الجَمَل) عدَّةُ أحاديث صحيحة، ويمثِّل هذا الحديث التنبيهَ الأول والتحذيرَ المبدئي للسير في ذلك الطريق الذي أدى إلى زيادة الاختلاف بين المسلمين وانتهى بالاقتتال فيما بينهم، فكانت أولَ فتنةٍ تقاتلَ فيها المسلمون.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٠٨ واللفظ له؛ وأحمد: ٦/ ٥٢، ٩٧؛ وأبو يعلى (٤٨٦٨)؛ والبزّار (٣٢٧٥)؛ وابن عدي في الكامل: ٤/ ٣٢٠؛ والحاكم: ٣/ ١٢٠؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٤١٠؛ وابن حبان (٦٧٣٢)؛ وصحَّحه الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨؛ وابن كثير في البداية والنهاية: ٦/ ٢١٢ حيث ساقه من رواية أحمد، وقال: هذا إسناد على شرط الصحيحين، وقال الهيثمي في (المجمع: ٧/ ٢٣٤): رواه أحمد وأبو يعلى والبزّار، ورجال أحمد رجال الصحيح؛ وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٦٩ شرح الحديث (٧٠٩٩)، وقال: سنده على شرط الصحيح؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٧٤) وأطال الكلام عليه فأحسن، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

فبعد الكارثة المروّعة التي كانت على أيدي الخوارج السَّبَئية، وما جرى فيها من بلاء شديد حاق بالمسلمين، وذهبَتْ بروح أمير المؤمنين عثمان وغيره ممن قُتل ظلماً ـ مَرِجَ أمرُ المسلمين، واضطرب نظامهم، وكادت الفوضى أن تعصف بعاصمة الإسلام المدينة المنورة، فخفَّف من وطأتها إسراعُ الصحابة إلى بيعة علي رضي الله عنه أميراً للمؤمنين، فاستلم علي مسؤوليات الخلافة وهي مثخنة بالجراح، وتطوي بين جناحيها تحديات كثيرة ومشكلات مستعصية!.

●● وما إن تمَّتِ البيعة لعليٍّ، حتى دخل عليه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة فطلبوا منه إقامةَ الحدود، والأخذَ بدم عثمان، ومعاقبةَ أولئك القتلة والتنكيل بهم، حتى تستريح الأمة منهم، لأنهم ما داموا طلقاء فسيستفحل خطرهم، ويتعاظم شرُّهم، وتزداد مصائب الأمة وتُراق الدماء بسببهم. ولم يكُ علي بالذي يجهل هذا، ولا يقلل من شأنه، لكنه كان يرى التمهُّلَ في هذا الأمر، حتى تستقر أمور الدولة، وتقوى شوكتها، وتضمحلّ قوة الثائرين، ويتفرقوا بين قبائلهم، فآنئذ يؤخذون ويُقتَّلون تقتيلاً.

وتوجَّه أمير المؤمنين علي إلى أولئك الصحابة قائلاً: (يا إخوتاه! إني لستُ أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عُبدانكم، وثابَتْ إليهم أعرابُكم، وهم خِلالكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟! قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله).

فلم يكن ثمة اختلاف بين أمير المؤمنين علي وبين الفريق الآخر من الصحابة في تطبيق أحكام الشريعة وإقامة الحدود، وإنما كان الخلاف في توقيت ذلك؛ فكان علي يرى الإرجاء، والآخرون يريدون الإسراع في القصاص.

وطلب طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من علي أن يأذَنَ لهما أن يأتيا البصرة والكوفة لإحضار قوة كبيرة من الجند، لتضرب على يد هؤلاء، وتردّ الأمور إلى نصابها، لأن البصرة والكوفة كانتا مشحونتين بالسلاح والرجال منذ

عهد عمر؛ فلم يرضَ علي بذلك خشية وقوع حرب طاحنة تُراق بسببها دماء المسلمين.

فاستأذن طلحة والزبير علياً بالعمرة، فأَذِنَ لهما، فخرجا إلى مكة.

وكان أزواج النبي ﷺ قد خرجْنَ إلى الحج في هذه السنة (٣٥ هـ)، فراراً من الفتنة، فلمَّا بلغَ الناسَ أن عثمان قد قُتل، أقمنَ بمكة ينتظرن ما يفعل الناس.

واجتمع بمكة ـ بعد الحج ـ خلائق من الصحابة، وأمهات المؤمنين، وقامت السيدة عائشة تحثُّ الناس على القيام بطلب دم عثمان والقصاص من قَتَلَتِه. واشتوروا فيما بينهم ماذا يفعلون، واستقرَّ رأيُهم على المسير إلى البصرة لجمع قوة من الرجال الذين آسَفَهم قتلُ عثمان، فتتعاون هذه القوة مع سلطة الخلافة وجيشها في القضاء على تسلُّط أولئك الخوارج السبئية، وإقامة الحدود، والقصاص من القتلة.

وسار الناس في ألف فارس صحبةَ طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة، وتلاحَقَ بهم الناس فصاروا في ثلاثة آلاف، وأمُّ المؤمنين عائشة تُحمل في هَوْدَج لها على جمل اسمه (عسكر). ومروا في مسيرهم ليلاً بماءُ يقال له: (الحَوْأَب)، فنبحَتْهم كلابٌ عنده، فلما سمعت عائشة ذلك قالت: (ما اسمُ هذا المكان؟ قالوا: (الحَوْأَب)، فضَربَتْ بإحدى يديها على الأخرى وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أَظُنُّني إلا راجعةً! قالوا: ولِمَ؟ قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنسائه: «**ليتَ شِعْري أَيَّتُكنَّ التي تنبحُها كلابُ الحَوْأَبَ**»! ثم ضَربتْ عَضُد بعيرها فأناخته، وقالت: ردُّوني، ردُّوني، أنا والله صاحبةُ ماء الحوأَب)! فقال لها الزبير: ترجعين؟! عسى الله أن يُصْلح بكِ بين الناس. فَقَبِلتْ ذلك من الزبير، واستمرت في مسيرها إلى البصرة، وتابع الناس طريقهم معها، من أجل الإصلاح.

وكان أمير المؤمنين علي قد جَهَّز جيشاً ليتجه إلى معاوية بن أبي سفيان

بالشام لأنه رفض البيعة، فلمَّا عَلِم عليٌّ بخروج جيش طلحة والزبير؛ ترك المسيرَ إلى الشام ويَمَّم شَطْر البصرة، وهو يرجو أن يُدركَهم فيحول بينهم وبين الخروج.

●● **وتحققت النبوءة النبوية**، وكادت السيدة عائشة أن ترجع أدراجها ـ ولَيْتَها فعلتْ ـ لكن طلحة والزبير اجتهدا في إقناعها، وهما باران صادقان بأنهم ما خرجوا إلا للإصلاح، فتابعوا إلى هدفهم.

واقترب جيشهم من البصرة، وكتبت السيدة عائشة إلى أميرها من قبل علي وهو عثمان بن حُنَيْف: أنهم جاؤوا للطلب بدم عثمان، لأنه قُتل مظلوماً في شهر حرام وبلد حرام، وتَلْت قولَه تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وقالت: (ننهض في الإصلاح ممن أمر الله ﷻ وأمر رسول الله ﷺ؛ الصغير والكبير، والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به، ونحضّكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه، ونحثّكم على تغييره).

فانقسم أهل البصرة إلى ثلاث فرق: واحدة انضمت إلى جيش طلحة والزبير وعائشة، وأخرى بقيت موالية لأمير البصرة، والثالثة اعتزلت الجميع.

وعزمَ أميرُ البصرة عثمان بن حنيف مَنْعَ جيش عائشة من دخول البصرة حتى يقدَم أمير المؤمنين علي، وتقابَلَ الجيشان خارج البلد، وقامت عائشة تحث على الأخذ بدم عثمان وقَتْل قتلته.

وكانت جماعة كثيرة ممن خرج على عثمان من أهل البصرة، فأدركوا خطورة الأمر عليهم، فقام حُكَيْم بن جَبَلَة ـ وكان على خيل ابن حُنيف، وممن باشر قتلَ أمير المؤمنين عثمان ـ فأَنْشَبَ القتالَ، وجعل أصحابُ أم المؤمنين يكفُّون أيديهم، ويمتنعون من القتال، وجعل حُكيم يقتحم عليهم، فاقتتلوا على فم السكة، حتى حجز بينهم الليل. فلما كان اليوم الثاني قصدوا للقتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً، إلى أن زال النهار، وقُتل خلق كثير من أصحاب أمير البصرة، وكثرت الجراح بين الفريقين، فلما عضَّتْهم الحرب تداعَوا إلى الصلح.

لكن جماعة من قوم قتلة عثمان وأنصارهم ركبوا في جيش قريب من ثلاثمئة، ومقدَّمُهم حُكَيْم بن جَبَلَة، فبارزوا وقاتلوا، فتصدى لهم جيش عائشة، فأنهكوهم قتلاً، وقُتل حُكيم، وضَعُف شأنُ جيشه، وتغلب جيش عائشة على البصرة.

ونادى منادي طلحة والزبير في القبائل: أن مَن كان فيكم ممن غزا المدينةَ أحد فليأتنا به، فجيءَ بهم فقُتلوا، فما أَفْلَتَ منهم إلا حرقوص بن زهير السعدي، فإن بني سَعْد قومَه منعوه.

واستقر أمر البصرة بيد طلحة والزبير ومن معهما من الجيش.

وكتبوا إلى أهل الشام والكوفة واليمامة والمدينة بالنهوض بمثل ما نهضوا به من الثأر لدم عثمان رضي الله عنه.

ولم تستمر الأمور على ما يشتهون، حيث إن أمير المؤمنين عليّاً وصل الكوفة في جيشه، وهو متوجه إلى البصرة لاستبراء خبر إخوانه طلحة والزبير وعائشة ماذا يريدون[1].

وهذا ما تتحدث عنه النبوءة التالية.



(١) ما كتبته هنا مختصر من كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٥٥٣ ـ ٥٦١؛ وانظر: تاريخ خليفة، ص١٨٠ ـ ١٨١؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٤٤٣ ـ ٤٧٧؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢٣٠ ـ ٢٣٤.

إخبار النبي ﷺ
بوقعة الجمل وبعض ما يحدث فيها

١ ـ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لنسائه: «**ليتَ شِعْري! أيَّتُكُنَّ صاحبةُ الجَمَل الأَدْبَب، تَخْرجُ فينبحُها كلابُ الحَوْأَب، يُقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير، ثم تَنْجُو بعدما كادَتْ؟!**»[(١)].

٢ ـ وعن أبي رافعٍ مولى رسول الله ﷺ: (أن رسول الله ﷺ قال لعليِّ بن أبي طالب: «**إنَّه سيكونُ بينكَ وبينَ عائشةَ أَمْرٌ**» قال: أنا يا رسولَ الله! قال: «**نعم**» قال: أنا! قال: «**نعمْ**» قال: فأنا أَشْقَاهُم يا رسولَ الله! قال: «**لا، ولكنْ إذا كانَ ذلكَ فَارْدُدْهَا إلى مَأْمَنِها**»!)[(٢)].

❁ ❁ ❁

أولاً: تحقق النبوة ومعركة الجمل:

هذان الحديثان معجزتان ظاهرتان لرسول الله ﷺ، وعَلَمان من أعلام نبوته

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٧١١؛ والبزّار في كشف الأستار: ٤/ ٩٤ (٣٢٧٣ ـ ٣٢٧٤)؛ وابن عبد البر في الاستيعاب: ٤/ ٣٥١، وقال: وهذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ، وعصام ابن قدامة ثقة، وسائر الإسناد أشهر من أن يحتاج لذكره، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٤): رواه البزّار ورجاله ثقات، وكذا قال الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٧٠ شرح الحديث (٧٠٩٩)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة: ١/ ٨٥٢ ـ ٨٥٣ (٤٧٤).
والأدبب: أصلها الأدبّ، وهو الكثير وبر الوجه.

(٢) أخرجه أحمد: ٦/ ٣٩٣؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٤، وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله ثقات، وعزاه الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٧٠ لأحمد والبزار، وحسّن إسناده.

الكثيرة، ومن الأدلة المتواترة المتكاثرة على صدقه ﷺ.

وهما يشيران إلى (موقعة الجمل الشهيرة)؛ فإن عائشة رضي الله عنها وأرضاها هي صاحبةُ خبر (ماء الحَوْأَب) المتقدم ذِكْره في النبوءة السابقة، وهي صاحبة الجمل الذي كانت تركبه في هَوْدَج لها، فإن واحدةً من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن لم تخرج لقتال سوى عائشة، كما أن عائشة رضي الله عنها لم تخرج لقتال إلا في تلك الوقعة، فتعيَّنَت المعركة كما تَعيَّنَت أم المؤمنين التي أشار الحديث إليها.

●● وقد كان من خبر (معركة الجمل) أنه بعد أن خرجت السيدة عائشة صحبةَ طلحة والزبير وغيرهما من الصحابة في جيش من مكة متجهين إلى البصرة، فدخلوها وخضعت لهم كما تقدّم في النبوءة السابقة.

خرج أمير المؤمنين علي بجيشه، فسأله رفاعة[1] بن رافع فقال: (يا أمير المؤمنين! أي شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟ فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إنْ قبِلوا منا وأجابونا إليه. قال: فإن لم يجيبوا إليه؟ قال: نَدَعُهم بعذرهم، ونعطيهم الحق ونصبر. قال: فإن لم يرضوا؟ قال: نَدَعُهم ما تركونا. قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم. قال: فنعم إذاً).

واتجه نحو الكوفة، وبعث إلى أهلها يستنفرهم لنصرة الحق، فقال: (إني اخترتُكم على الأمصار، وفزعتُ إليكم لِما حَدَث؛ فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وأيّدونا وانهضوا إلينا، فالإصلاح ما نريد، لتعود الأمة إخواناً).

فقام أمير الكوفة أبو موسى الأشعري ونَصَح الناسَ أن لا يشاركوا في الفتنة، وحدَّثهم بما سمعه من النبي ﷺ فيها، حيث قال: «**إنها ستكونُ فتنةٌ القاعدُ فيها خير من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي خير من الراكب**»[2].

---

(١) في تاريخ الطبري: ٤/ ٤٧٩ (ابن لرفاعة بن رافع)، والذي حضر مع علي حروبه هو رفاعة، كما ذكر ابن عبد البر في «الاستيعاب».

(٢) أخرجه من حديث أبي موسى: أبو داود (٤٢٥٩) و(٤٢٦٢)؛ والترمذي (٢٢٠٤)؛ وابن ماجه (٣٩٦١)؛ وأحمد ٤/ ٤١٦؛ وابن حبان (٥٩٦٢)؛ والحاكم: ٤/ ٤٤٠، وهو حديث صحيح.

وأمَّا رُسُل عليٍّ ومنهم ابنُه الحسن وعبد الله بن عباس وعمار بن ياسر فقد استنهضوا الناسَ لنُصرة أمير المؤمنين، وكان ممن تكلَّم القعقاع بن عَمْرو، فأيَّد رأيَ أبي موسى، لكنه استدرك عليه فقال: (إن الحق ما قال الأمير، ولكنْ لابدَّ للناس من أميرٍ يَردعُ الظالم، ويُعْدِي المظلومَ، ويَنتظم به شمل الناس. وأميرُ المؤمنين علي يَلي بما وُلِّي، وقد أنصف بالدعاء، وإنما يريد الإصلاح؛ فانْفِروا إليه).

فاستجاب الناس للنفير، وخرجوا في تسعة آلاف رجل.

ووقف علي في جيش الكوفة فقال: (قد دعوتُكم لتشهدوا معنا إخوانَنا من أهل البصرة، فإنْ يرجِعوا فذاكَ ما نريده، وإن يلجُّوا داويناهم بالرِّفق، وبايَنَّاهم حتى يبدؤونا بِظُلم، ولن نَدَعَ أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه من الفساد إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله).

ثم أَرسل أميرُ المؤمنين القائدَ العبقريَّ القعقاعَ بن عَمْرو إلى طلحة والزبير وعائشة، يَستبرئُ منهم الخبر، وما الذي أخرجهم، فبدأ بأم المؤمنين عائشة فقال لها: (أي أُمَّه! ما أشخَصَكِ، وما أقدمكِ هذه البلدة؟ قالت: أي بُنيَّ، إصلاحٌ بين الناس. قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما. فبعثَتْ إليهما فجاءا. فقال: إني سألتُ أم المؤمنين: ما أشخَصَها؟ وما أقدَمَها هذه البلاد؟ فقالت: إصلاحٌ بين الناس؛ فما تقولان أنتما، أمتابِعان أم مخالفان؟ قالا: متابِعان).

وتحاور القعقاع معهم بكلام جليل حكيم أديب كله صدق وإخلاص وإرادة الإصلاح والخير للأمة والقصاص لعثمان، وكان مما قاله:

(أقول: هذا الأمر دواؤه التسكينُ، وإذا سَكَن اختُلِجوا[1]، فإن بايعتُمونا فعلامةُ خير، وتباشيرُ رحمةٍ، ودركُ بثأر هذا الرجل[2]، وعافية وسلامة لهذه

---

(١) أي: تفرقوا، يريد قتلة عثمان ومن ناصرهم.

(٢) أي: عثمان بن عفان.

الأمة، وإن أنتم أبيتُم إلا مكابرةَ هذا الأمر واعتسافَه، كانت علامةَ شرٍّ، وذهابَ هذا الثأر، وبِعْثَة الله في هذه الأمة هزاهزَها[١]!! فآثِروا العافية تُرزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تُعرِّضونا للبلاء، ولا تَعَرَّضوا له فيصرعُنا وإياكم. وايمُ اللهِ، إني لأقول هذا وأدعوكم له، وإني لخائفٌ ألا يتمَّ حتى يأخذ الله ﷻ حاجته من هذه الأمة[٢] التي قلَّ متاعُها، ونزل بها ما نزل! فإن هذا الأمر الذي حَدَث أمرٌ ليس يُقَدَّر وليس كالأمور، ولا كقتلِ الرجلِ الرجلَ، ولا النفرِ الرجلَ، ولا القبيلةِ الرجلَ.

فقالوا: نعم، إذاً قد أحسنتَ وأصبتَ المقالة، فارجع، فإن قدِمَ عليٌّ وهو على مثلِ رأيك؛ صلح هذا الأمر.

فرجع إلى علي فأخبره، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كَرِه ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه.

وفرح أمير المؤمنين بما توصل إليه القعقاع، وبما كان عليه إخوانه طلحة والزبير وعائشة، وقال لأتباعه:

(أَلَا إني راحلٌ غداً فارتحِلوا، ألا ولا يرتحلنَّ غداً أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس، وليُغْنِ السفهاء عني أنفسهم).

وارتحل الإمام بمن معه من صحبه وجنده، وحطّوا رحالَهم قريباً من البصرة، فنزل جيش علي في مكان يُسمَّى (الزاوية)، وجيش عائشة نزل بمكان يسمى (الفُرْضة)، وتدانوا حتى تراءَوا عند قصر عبيد الله بن زياد، في يوم الخميس (١٥ جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ).

ثم بعث علي إلى طلحة والزبير يقول: (إن كنتم على ما فارقتم عليه

---

(١) هي البلايا والحروب.
(٢) أي: ينزل الله على الأمة أنواع البلايا والمحن.

القعقاع بن عمرو، فكُفّوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر). فأرسَلا في جواب رسالته: (إنا على ما فارَقْنا عليه القعقاعَ بن عمرو من الصلح بين الناس).

فاطمأنت النفوس وسكَنَتْ، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسوا بعث علي عبدَ الله بن عباس إليهم، وبعثوا إليه محمد بن طلحة السَّجَّاد، وبات الناس بخير ليلة.

وبات قتلة عثمان بشرٍّ ليلة، وباتوا يتشاورون، فاجتمع من رؤوسهم جماعة كالأشتر النخعي، وشُريح بن أَوْفَى، وعبد الله بن سبأ ـ المعروف بابن السوداء ـ وسالم بن ثعلبة، وعِلباء بن الهيثم، وغيرهم، في ألفين وخمسمئة، وليس فيهم صحابي ولله الحمد، فقالوا:

(ما الرأيُ؟! وهذا والله علي، وهو أبصَرُ الناس بكتاب الله، وأقربُ ممن يطلب قتلة عثمان، وأقربُهم إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم، غداً يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القومُ كلُّهم أنتم، فكيف بكم وعددُكم قليل في كثرتهم؟!).

وتداولوا الآراء فيما بينهم، حتى قال ابن السوداء: (يا قوم! إن عزكم في خُلْطَة الناس، فصانِعوهم، وإذا التقى الناس غداً فأَنْشِبوا القتال، ولا تُفرغوهم للنظر، فإذا مَنْ أنتم معه لا يجد بُدّاً من أن يمتنع، ويشغل الله عليّاً وطلحة والزبير ومن رأى رأيَهم عما تكرهون). فأبْصَروا الرأي، وتفرَّقوا عليه، والناس لا يشعرون!.

وهذا الرأي الخبيث الماكر الذي تفتقت عنه عقلية اليهودي الحاقد عبد الله بن سبأ هو ديدن اليهود في مسيرتهم المظلمة خلال حقب التاريخ المختلفة، لا يستطيعون المواجهة والمبارزة، بل يلجؤون إلى الدس والكيد والمؤامرات وإشعال الفتن بين الناس.

وأجمع المتآمرون من قتلة عثمان أن يثيروا الحرب من الغَلَس، فنهضوا قبل طلوع الفجر ـ وهم قريب من ألفي رجل ـ فانصرف كل فريق إلى قراباتهم

فهجموا عليهم بالسيوف، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلاح! فقال أهل البصرة: طَرَقَنا أهلُ الكوفة ليلاً، وبَيَّتُونا وغدروا بنا! وظنوا أن هذا الأمر عن ملأ من أصحاب علي، فَبَلَغ الأمر علياً فقال: ما للناس؟ فقالوا: بَيَّتَنا أهلُ البصرة وغدروا بنا! فثار كل فريق إلى سلاحه ولبسوا اللَّأْمَةَ، وركبوا الخيول، ولا يشعر أحد منهم بما وقع من المؤامرة! وقامت الحرب على ساق وقدم، وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان، فنشبت الحرب، وتواقف الفريقان، وقد اجتمع مع علي عشرون ألفاً، والتفَّ حول عائشة نحو من ثلاثين ألفاً. والسبئية لا يَفْتُرون عن القتل، ومنادي علي ينادي: أَلَا كُفُّوا، أَلَا كُفُّوا! فلا يسمع أحد.

وهناك على أرض المعركة قُتل طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه، أتاه سَهْم غَرْبٍ لا يُعرف راميه، فقَتَلَه. وتَرَكَ الزبير بن العوام القتالَ، ونزل (وادي السباع)، فاتبعه رَهْطٌ فيهم عَمْرو بن جُرموز، فغدروا به وقتلوه رضي الله عنه.

وتقدمت أم المؤمنين عائشة في هودجها، وأعطت كعبَ بن سُور مصحفاً وقالت: (ادْعُهم إليه)، فلما رآه السبئيون المجرمون رشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد فقتلوه! واستحرَّ القتل حول جمل عائشة، وأدرك الخليفة المحزون أن القتال سيستمر، وأن أم المؤمنين ستظل هدفاً للرماة الحاقدين، ما دام جملها قائماً، والناس حولها يقاتلون، فنادى: (اعقروا الجمل، فإنه إنْ عُقِر تفرقوا)، فضربه رجل فسقط، فسُمع له عجيج ما سُمع أشدّ منه، وانهزم من حوله الناس، وحُمل هودج عائشة، وإنه لكالقنفذ من السهام[1]!.

عن عبد الرحمن بن أَبْزَى قال: (انتهى عبد الله بن بُدَيْل إلى عائشة وهي في

---

(١) لخصت أخبار الوقعة من كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٥٦١ ـ ٥٧٠، وانظر تفاصيلها في: تاريخ خليفة، ص١٨٠ ـ ١٩١؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٤٤٤ ـ ٥٤٢؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢٣٠ ـ ٢٥٠؛ الفتح: ١٦/٣٦٨ ـ ٣٧٦، وقد لخصها الحافظ كما قال هو من كتاب: أخبار البصرة، لعمر بن شبة.

الهودج يوم الجمل، فقال: يا أم المؤمنين! أَنْشُدك بالله، أَتَعْلَمينَ أنِّي أتيتُك يومَ قُتل عثمان، فقلتُ: إن عثمانَ قد قُتل، فما تأْمُرينيِ؟ فقلتِ لي: الْزَمْ علياً؟! فواللهِ ما غيَّر ولا بدَّل، فَسَكتَتْ. ثم أعاد عليها ثلاث مرات، فسكتَتْ. فقال: اعقروا الجمل، فعقروه. قال: فنزلتُ أنا وأخوها محمد بن أبي بكر، واحتملنا الهودجَ حتى وضعناه بين يدي عليٍّ، فأمر به علي فأُدخل في منزل عبد الله بن بُديل)[١].

ثانياً: مواقف في وقعة الجمل:

١ ـ لمَّا بَعث أمير المؤمنين علي ابنَه الحسن وعمار بنَ ياسر ليستنفروا أهل الكوفة، قال عمار: (إن عائشة قد سارت إلى البصرة، واللهِ إنها لزوجةُ نبيِّكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكنَّ الله تبارك وتعالى ابتَلَاكم، ليعلمَ إياه تطيعون أم هي)[٢].

ومرادُ عمار رضي الله عنه بذلك أن الصواب في تلك القصة كان مع علي، وأن عائشة مع ذلك لم تخرج بذلك عن الإسلام ولا أن تكون زوجة النبي ﷺ في الجنة؛ فكان ذلك يُعَدّ من إنصافِ عمار وشدَّة ورعه وتحرِّيه قولَ الحق[٣].

قال ابن هُبيرة: (في هذا الحديث أن عماراً كان صادقَ اللهجة، وكان لا تستخفُّه الخصومة إلى أن يَنتقص خصمَه؛ فإنه شهِدَ لعائشة بالفضل التام مع ما بينهما من الحرب)[٤].

وأخرج الطبري: عن أبي يزيد المَديني قال: (قال عمار بن ياسر لعائشة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢٠؛ وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٧٣ شرح الحديث (٧١٠٠) وجوَّد إسناده.
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٧٢، ٧١٠٠، ٧١٠١).
(٣) الفتح ١٦/ ٣٧٥.
(٤) المرجع السابق نفسه.

رضي الله عنها حين فرغ القوم[١]: يا أم المؤمنين! ما أبعدَ هذا المسيرَ من العهد الذي عُهِد إليكِ[٢]! قالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قالت: والله إنك ما علمتُ قوَّالٌ بالحق. قال: الحمد لله الذي قضَى لي على لسانكِ)[٣].

٢ ـ أخرج ابن أبي شيبة وغيره من طرق عن علي رضي الله عنه؛ أنه أمر مناديه يوم الجمل فنادَى: (لا يُتْبَع مُدْبِر، ولا يُذَفَّف على جَريح، ولايُقْتَل أسِير، ومَن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن)، ولم يأخذ من متاعهم شيئاً[٤].

وأخرج الشافعي من رواية علي بن الحُسين بن علي بن أبي طالب قال: (دخلتُ على مروان بن الحَكَم، فقال: ما رأيتُ أحداً أكرمَ غلبةً من أبيك ـ يعني علياً ـ ما هو إلَّا أن وَلَّينا يوم الجَمل، فنادى مناديه: لا يُقتل مُدْبِر، ولا يُذَفَّفُ على جريح)[٥].

٣ ـ أمر علي رضي الله عنه نَفَراً أن يحملوا هودج أم المؤمنين عائشة من بين القتلى، وأمر أخاها محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر أن يضربا عليها قبَّةً، وجاء إليها أخوها محمد فسألها: هل وصل إليك شيء من الجراح؟ فقالت: لا! وسلَّم عليها عمار فقال: كيف أنتِ يا أُمَّه؟ فقالت: لستُ لكَ بأمٍّ! قال: بلى، وإن كرهتِ. وجاء إليها علي بن أبي طالب أمير المؤمنين مسلِّماً، فقال: كيف أنتِ يا أمه؟ قالت: بخير، قال: يغفر الله لكِ. وجاء وجوه الناس من الأمراء والأعيان يسلِّمون على أم المؤمنين رضي الله عنها.

---

(١) يعني: من معركة الجمل.
(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزَاب: ٣٣].
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦؛، وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٧٥، وصحَّح إسناده.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/٧١٨ حديث (٦٠)، وانظر (٢٢، ٣٣، ٣٤، ٦٩، ٧٧)؛ وذكر الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٧٣ إحدى تلك الطرق وصحَّحها.
وتَذْفِيف الجريح: الإجْهَازُ عليه وتحريرُ قَتْلِه.
(٥) الفتح: ١٦/ ٣٧٣.

فلما كان الليل دخلت أم المؤمنين البصرة، ومعها أخوها محمد بن أبي بكر، فنزلت في دار عبد الله بن خلف الخزاعي، وهي أعظم دار بالبصرة(١).

٤ ـ جهَّزَ علي أم المؤمنين عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كلَّ مَن نجا ممن خرج معها إلا من أحبَّ المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وقال: تجهَّزْ يا محمد ـ هو أخو السيدة ـ فبلِّغها.

فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه أم المؤمنين عائشة، جاءها علي حتى وقف على الباب، وحضر الناس، فخرجَتْ على الناس وقالت: (يا بَنيَّ! تَعتَّبَ بعضُنا على بعض استبطاءً واستزادة، فلا يعتدَّنَّ أحدٌ منكم على أحدٍ بشيء بَلَغه من ذلك، إنه والله ما كان بيني وبين عليٍّ في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي ـ على معتبتي ـ لَمِن الأخيار!).

وقال علي: (يا أيها الناس! صَدَقتْ والله وبَرَّتْ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجةُ نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة).

وخرجت يوم السبت لغرَّة رجب سنة (٣٦هـ)، وشيَّعَها علي أميالاً، وسَرَّح بنيه معها يوماً(٢)!.

وهكذا تحققت نبوءته ﷺ في قصة (أصحاب الجمل) في قوله: «يُقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير، ثم تنجو بعدما كادت».

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٥٦٩ ـ ٥٧٠؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤، البداية والنهاية: ٧/ ٢٤٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٤٤؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢٤٦؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٥٧٢ ـ ٥٧٣.

وتحققت نبوءته ﷺ أيضاً في قوله لعلي: «سيكون بينك وبين عائشة أمر... إذا كان ذلك فارْدُدْها إلى مأمَنِها».

فوفى أمير المؤمنين رضي الله عنه بعهده للنبيِّ ﷺ، وفعل الذي أراد وزيادة، فقد كان حريصاً على حياتها عند احتدام القتال، وأمر رجلاً بأن يَعقِر جملَها ليستنقذها من سهام السبئيين، وضَرب لها قبَّة ووقف عليها، واعتذرت إليه واعتذر إليها، وأثنى كلٌّ على الآخر بمناقبه ومنزلته، وأَكْرمَ نُزُلَها، وأوفَدَ معها أخاها وفُضْلَيات نساء البصرة، وشيَّعها بنفسه وسيَّر معها بنيه يوماً كاملاً، ورَدَّها إلى مأمنها بالمدينة النبوية معزَّزة مكرَّمة!.

إنها أخلاقُ رجالِ محمد ﷺ التي ربَّاهم عليها، والتزموا بها في أقسى الظروف من الاختلاف والاحتراب، وإنها براءة ساطعة ودلالة صادقة على سلامة صدر السيدة عائشة وأمير المؤمنين علي كل منهما على الآخر، وهو من أبرز الأدلة على كَذِب الأقاويل التي تشير إلى فساد ما بينهما، مما برَّأهما الله منه، وصَدَّقت وقائع الأيام صفاءَ ما بينهما رضي الله عنهما.

ثالثاً: ندم علي وعائشة على شهود تلك المعركة:

●● عن أبي صالح: أن علياً رضي الله عنه قال يوم الجمل حين أخذتِ السيوف مأخذَها من الرجال: (لوَدِدْتُ أني مِتُّ قبل هذا بعشرين سنة!)[١].

وعن الحسن بن علي قال: (لقد رأيتُ علياً حين اشتدَّ القتال، وهو يَلُوذُ بي ويقول: يا حسنُ! لوَدِدْتُ أنِّي مِتُّ قبل هذا بعشرين سنة!)[٢].

وإنما كان يَلُوذ بابنه الحسن ليبثُّ إليه آلامَه وأحزانَه ونَدَمه، أما الشجاعة فكان عليٌّ رجلَ الوغى ومن أفراد الأبطال!.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٧١٩ (٦٨)؛ ونعيم في الفتن (١٦٩)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢١ (٧٩)؛ ونعيم في الفتن (١٧٦)، وإسناده صحيح. وعزاه الهيثمي في المجمع: ٩/ ١٥٠ للطبراني، وقال: إسناده جيد.

وعن مجالِد، عن عامر الشعبي قال: (رأى عليٌّ بن أبي طالب طلحةَ بن عبيد الله ملقًى في بعض الأودية، فنزل فمسح الترابَ عن وجهه، ثم قال: عزيزٌ عليَّ أبا محمد أن أراك مُجَنْدلاً في الأودية وتحت نجوم السماء! ثم قال: إلى الله أَشكو عُجَرِي وبُجَرِي)..

قال الأَصْمَعيُّ: **عُجَري وبُجَري**: سرائري وأحزاني التي تموج في صدري[1].

وعن طَلْحة بن مُصَرِّف: (أن عليّاً انتهى إلى طلحة وقد مات، فنزل عن دابَّتِه، وأجلَسَه، فجعل يَمسح الغبار عن وجهه ولحيته، وهو يترحَّم عليه، ويقول: ليتني مِتُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة!)[2].

●● عن محمد بن قيس قال: (ذُكر لعائشة يومُ الجمل، قالت: والناس يقولون: يوم الجمل؟! قالوا: نعم، قالت: وَدِدْتُ أني كنتُ جلستُ كما جلس أصحابي، فكان أحبَّ إليَّ من أن أكون ولدتُ من رسول الله ﷺ بضعة عشرة كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومثل عبد الله بن الزبير!)[3].

وعن ابن أبي عَتيقِ ـ وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق ـ قال: (قالت عائشة: إذا مرَّ ابنُ عمر فأَرُونيه، فلما مرَّ ابن عمر قالوا: هذا ابن عمر، فقالت: يا أبا عبد الرحمن! ما منعكَ أن تنهاني عن مَسِيري؟

---

(١) مختصر ابن عساكر: ١١/ ٢٠٧؛ سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٦.

(٢) أخرجه الطبراني (٢٠٢)؛ والحاكم: ٣/ ٢٧٢؛ وابن عساكر ـ مختصره: ١١/ ٢٠٧؛ وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٦ ـ ٣٧؛ وابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ٢٤٨؛ والهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ١٥٠ وقال: رواه الطبراني وإسناده حسن؛ وانظر كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٥٤٤.

(٣) أخرجه الطبراني، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٨): فيه معشر أبو نجيح وهو ضعيف يكتب حديثه، وبقية رجاله ثقات، وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٧٠ وقال: في سنده أبو معشر نجيح المدني وفيه ضعف. وأخرجه بأخصر منه من طريق آخر: ابن أبي شيبة: ٨/ ٧١٦ ـ ٧١٧ (٥٥).

قال: رأيتُ رجلاً قد غَلَب عليكِ، وظننتُ أنكِ لا تُخالِفينه ـ يعني ابنَ الزبير ـ قالت: أَمَا إنكَ لو نهيتني ما خرجتُ!)[(١)].

وقال الذهبي في ترجمة أم المؤمنين عائشة: (ولا ريب أن عائشة ندمَتْ ندامةً كليَّةً على مسيرها إلى البصرة وحضورها يومَ الجمل، وما ظَنَّتْ أن الأمر يَبلُغ ما بَلَغ؛ فعن عُمارة بن عُمير، عمَّن سمع عائشة: إذا قرأتْ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] بَكَتْ حتى تَبُلَّ خِمارَها!)[(٢)].

رابعاً: دروس وعبر:

لابد للمرء وهو يطالع وقائع (معركة الجمل) وأحداثها، وكذلك الفتن التي سبقَتْها كمقتل الخليفتين عمر وعثمان، أو التي جاءت بعدها كصِفِّين وغيرها ـ من أن يستنبط الدروس والعبر فيها، فإن التاريخ يعيد نفسه كثيراً مع تغير أشخاصه وأزمنته وأمكنته. كما أن التاريخ ليس هو سرد الحوادث فقط، بل تفسيرها أيضاً وتعليلها وتقويمها وبيان عِبرها للاستفادة منها في التربية الشخصية والبناء الحضاري.

ويمكننا هنا أن نشير إلى عدة أمور:

١ ـ براءة الصحابة ﷺ جميعاً من الهوى وطلب السلطة والسعي للفرقة، فكلهم كان يريد الإصلاحَ وتحكيمَ الشرع والقصاصَ من القتلة والمفسدين في الأرض، ويظهر ذلك في كل مجريات الأحداث، ومن دعوتهم للصلح وسعيهم الحثيث إليه واتفاقهم عليه وفرحهم به ورفعهم المصاحف إبَّان القتال، ولكن اختلفت اجتهاداتهم في الأداء، وأشعلت السبئية بينهم نار القتال فكان ما كان!.

قال ابن تيمية: (فإن عائشة لم تقاتِل، ولم تخرج لقتال، وإنما خرجَتْ

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب: ٢/ ٢٩٨، ترجمة: عبد الله بن الزبير؛ وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٩٣؛ والزيلعي في نصب الراية: ٤/ ٦٩ ـ ٧٠، وعزاه لابن عبد البر.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٧٧؛ وهو في طبقات ابن سعد: ٨/ ٨١.

بقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنت أن في خروجها مصلحةً للمسلمين، ثم تبيَّن لها فيما بعد أن تَرْكَ الخروج كان أولى، فكانت إذا ذَكرت خروجَها تبكي حتى تَبُلَّ خمارها! وهكذا عامة السابقين ندِمُوا على ما دَخَلوا فيه من القتال، فنَدِم طلحة والزبير وعلي وغيرهم، ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصدٌ في القتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم)[1].

وذكر الذهبي ندمَ عائشة على مسيرها يوم الجمل، ثم قال: (على أنها ما فعلَتْ ذلك إلا متأوِّلةً قاصدةً للخير، كما اجتهد طلحةُ بن عبيد الله والزبير بنُ العوام، وجماعةٌ من الكبار، رضي الله عن الجميع)[2].

٢ ـ ما كان عليه الصحابة ﷺ من أخلاق رفيعة تمثَّلوها وفق توجيهات القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ، حتى عند اشتداد الاختلاف، وتحت بارقة السيوف، ويتجلى ذلك في مواقف كثيرة منها: شهادة عمار لعائشة بأنها زوج الرسول ﷺ في الجنة، وقولها هي له: إنك قوَّال بالحق، وبكاء علي على طلحة والزبير وغيرهما، وندمُه هو وغيره على ما جرى بعدما شاهدوا القتلى والدماء، وموقفه الجليل من أم المؤمنين عائشة ورعايتها وإكرامها.

وهكذا المسلم مهما ادلَهَمَّت عليه الخطوب، وتناوشَتْه المِحن، وطحنته الشدائد بكَلْكَلِها؛ فإنه لا يضطرب ميزانه ولا يفقد مقياسه، ولا ينفك عن الاستمساك بهدي الإسلام في وزن الأمور ومعالجة الأحداث ومعاملة الناس.

٣ ـ أهمية تنقية الصفوف، واستئصال مصادر الفتنة، والتخلص من زَغَل أصحاب الهوى وضعاف النفوس ممن لا يصطبرون على البلاء ولا يَقبلون اختلاف الآخرين معهم، فإن اندساس أمثال هؤلاء في صفوف المؤمنين من أكبر الأخطار عند اشتداد الأزمات وتغاير الاجتهادات، وهذا ما أحدثه مبتغو الفتنة ممن يدَّعُون الإصلاح وهم أحرصُ الناس على فساد.

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥/١٩٣.

٤ ـ شؤمُ الخروج على وحدة الأمة، وتفريق كلمتها، ولو كان في ذلك بعض المصلحة فيما يبدو باديَ الرأي، وإنَّ دَفْعَ أخفِّ الضررين وارتكابَ أدنى المفسدتين أَوْلى، والصلح له أبواب كثيرة، ولو كان بالتنازل عن بعض الحق.

إن خروج طائفة من الأمة ولو كانت على حق فيما تدعيه وتسعى إليه؛ هو كبترِ عضو من الجسم لا يمكن إعادته كما كان! وقد تركَتْ حركاتُ الخروج ـ مُحِقُّها ومُبْطِلُها ـ على مدار تاريخنا شروخاً في جسم الأمة لا تُرتق.

٥ ـ إن الذي يتحمل وِزْرَ إنشاب القتال وإراقة الدماء هم قتلة عثمان وأنصارهم، فقد كانوا مِسْعَر الحرب وموقدي نارها وقادحي زَنْدها، كلما خَبَتْ زادوها سعيراً! والمتتبع للأحداث يرى ذلك واضحاً لاخفاءَ فيه، بَدْءاً من قتل الشهيد عثمان، ثم وقعة الجمل، ثم صِفِّين.

٦ ـ يتوجب على العقلاء والعلماء وأهل الرأي وأصحاب منابر الحكم واتخاذ القرار وقيادات جماهير الأمة والنُّخب الفاعلة أن يُنَبِّهوا على الفتن ويُكفكفوا من جماحها، ويَحوطوا الأمة والعامة من مخاطرها، فإنها إذا اشتعلت أكلت الطالح والصالح.

عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال: (قُلنا للزبير: يا أبا عبد الله! ما جاء بكم؟! ضَيَّعتُم الخليفة حتى قُتل، ثم جئتم تطلبون بدمه! قال الزبير: إنا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، لم نكن نَحْسِب أنَّا أهلُها، حتى وقعَتْ منَّا حيث وقعَتْ)(١).

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: (أمر الله المؤمنين ألا يُقِرّوا المنكر

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٦٥، ١٦٧، واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (١١١٤٢)؛ وصحَّحه أحمد شاكر.

بين ظهرانيهم، فَيَعُمَّهم الله بالعذاب). وعلَّق ابن كثير على هذا فقال: (وهذا تفسير حسن جداً)[١].

٧ ـ بالَغَ المؤرِّخون في تضخيم عدد القتلى يوم الجمل، فذكر الطبري أنهم بلغوا عشرة آلاف[٢]! ونقل خليفة بن خياط رواية أنهم كانوا عشرين ألفاً[٣]!.

وقد كنتُ تابعتُ الطبريَّ على ذلك في كتابي «الخلفاء الراشدون»[٤]، وأنا الآن لا أرتضي هذا الكلام ولا أقبلُه، بل أرفضُه لأن فيه مبالغة شديدة ومجازفة كبيرة، يأباها الواقع التاريخي والنقد العلمي:

أما **الواقع التاريخي**: فإن المعركة استمرت عدة ساعات فقط، كما جاء عن زيد بن وَهْب ـ وهو ممن شهد مع علي مشاهده ـ قال: (فكَفَّ عليٌّ يدَه حتى بدؤوه بالقتال، فقاتَلَهم بعد صلاة الظهر، فما غَربت الشمس وحول الجمل عين تَطْرُف ممن كان يذبُّ عنه)[٥]!.

فكيف يُقتل في سويعات مثلُ هذا العدد الهائل؟! فمعركة اليرموك مثلاً لم يستشهد فيها من المسلمين سوى ثلاثة آلاف، مع اتساع وقت القتال، وشراسة الأعداء، وكثرة أعداد الجيشين!.

وأما **النقد العلمي**: فإن القوم كانوا يتقاتلون بأسلوب بدائي، بالنبال والرماح والسيوف، وكثير منهم كان يتحامَى القتالَ إلا مضطراً، سوى السَّبَئِيَّة الذين كانوا يوقدون الفتنة.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٧٤؛ ونقله عن ابن عباس أيضاً القرطبي في تفسيره: ٧/ ٣٤٣.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٣٩.
(٣) تاريخ خليفة، ص١٨٦.
(٤) الخلفاء الراشدون، ص٥٧٠.
(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢٠ (٧٧)؛ وذكر الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٧٣ طرفاً منه، وصحَّح إسناده.

وهذا العدد الكبير لا يَسقط مثلُه في الحروب الحديثة في أيام، مع استخدام المدفعية والصواريخ والطائرات، والشواهد على هذا كثيرة.

فينبغي لقارئ كتب التاريخ القديمة والحديثة أن يكون على يقظة ووعي، ويُعمل عقلَه وفكره فيما يقرأ، فقد حوت تلك الكتب الغَثَّ والسمينَ، وكَثُر حاطبو الليل ممَّن يكتب في هذا المجال الخطير!.



إخبار النبي ﷺ
بموقعة صفين وأن الطائفتين مسلمتان

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا تَقُومُ الساعةُ حتى تَقْتَتِلَ فِئَتانِ عَظِيمتَانِ، يكونُ بينَهما مَقْتَلَةٌ عَظِيمةٌ، دَعْوَتُهُما واحِدَةٌ**»[1].

٢ - وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**تَفْتَرِقُ أُمَّتِي فِرْقَتَيْنِ، يَمْرُقُ بينَهما مارِقَةٌ، تَقْتُلُهم أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بالحقِّ**» لفظ النَّسائي.

وفي رواية لمسلمٍ وأحمدَ: «**يَقْتُلُهم أَقْرَبُ الطَّائِفتَيْنِ مِن الحَقِّ**».

وفي رواية أخرى لعبد الرزاق وأحمد والبَغَوي: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ، دَعْوَاهُما واحدةٌ، تَمْرُقُ بينَهما مارِقَةٌ، يَقْتُلُها أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بالحقِّ**»[2].

❁ ❁ ❁

أولاً: لمحة عن مدلول النبوءة ومعاني الحديثين:

●● في هذين الحديثين معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ، وعِدَّة علامات من علامات نبوته، أخبر بها فوقعت كلها مثلَ فَلَق الصبح؛ منها: أنه أخبر ببقاء

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٢١) واللفظ له؛ ومسلم (١٥٧) بعد رقم (٢٨٨٨)؛ وأحمد: ٢/ ٣١٣، ٥٣٠؛ وابن حبان (٦٧٣٤)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٤١٨؛ والبغوي (٤٢٤٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٥)؛ وأبو داود (٤٦٦٧)؛ والطيالسي (٢١٦٥)؛ وعبد الرزاق (١٨٦٥٨)؛ وأحمد: ٣/ ٢٥، ٣٢، ٤٨، ٦٤، ٧٩، ٨٢، ٩٥؛ وأبو يعلى (١٢٤٦) و(١٢٧٤)؛ وابن حبان (٦٧٣٥)؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٧٠، ١٨٧، وفي الدلائل: ٥/ ١٨٨ - ١٨٩، ٦/ ٤٢٤؛ والبغوي (٢٥٥٥).

الأمة بعده ﷺ، وأن لهم شوكةً وقوةً، وأنهم يفترِقون فِرقتين عظيمتين، وتكون بينهما مقتلة عظيمة، وأن دعوتهما واحدة هي الإسلام، وأنه تخرج طائفة مارقة، وأنه يقتلُها أدنى الطائفتين إلى الحق. وكل ذلك وقع كما أخبر ﷺ.

●● قوله «**فئتان**»: المراد بهما جماعة علي وجماعة معاوية، لمَّا تحاربتا في صِفِّين.

«**دعوتهما واحدة**»: المرادُ بالدعوة: الإسلامُ على الراجح، أي: إن دينَهما واحد، لأن كلّاً منهما كان يتسمَّى بالإسلام.

أو المراد: اعتقاد كل منهما أنه على الحق[1].

فالحديث يُثبِت الإسلامَ والإيمانَ لكل من الطائفتين، وأنهما فرقتان من أمة محمد ﷺ، وكلاهما تطلب الحق، فغايتُهما واحدة، ودعوتهما واحدة، وإنْ كانت إحداهما أقربَ إلى الحق من الأخرى، كما قال في الحديث الثاني: «**تقتلها أدنى الطائفتين إلى الحق**»، وفي رواية: «**أقرب الطائفتين من الحق**».

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره عن أبي بَكْرة: أن النبيَّ ﷺ قال في الحسن بن علي: «**ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أن يُصْلِحَ به بين فئتين من المسلمين**»[2]: شهادةٌ نبويةٌ للطائفين بأنهما من المسلمين، ومن ثَمَّ كان الإمام الأجلّ سفيان بن عُيَيْنة ـ وقد روى هذا الحديث ـ يقول: (قولُه: «**فئتين من المسلمين**» يُعجبنا جدّاً)[3].

وقوله: «**يمرق بينهما مارقة**»: أي تخرج طائفة من الناس على المسلمين

---

(١) الفتح: ٨/ ٥٢٤ شرح الحديث (٣٦٠٩)، ١٦/ ٦٣ (٦٩٣٥)، ٤١٦ (٧١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٠٩)، وأطرافه في (٢٧٠٤)، وسيأتي الحديث على هذه النبوءة: ٢/ ٢٤٤، رقم (٦٤) في هذا المجلد.

(٣) المعرفة والتاريخ، للفسوي: ٣/ ٤١٢؛ ونقله الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٨٧ (٧١٠٩).

فتحاربهم، والمقصود بها الخوارج، الذين قتلهم علي رضي الله عنه، فهو أقرب إلى الحق من معاوية.

ثانياً: خلاصة عن وقعة صفِّين:

●● لما استُشهد عثمان رضي الله عنه، خرج النعمان بن بَشير ومعه قميص عثمان مخضَّب بدمه، ومعه أصابع نائلة بنت الفُرَافِصة التي أُصيبت حين حاجَفَتْ عنه بيدها، فقُطعت مع بعض الكَفّ، فَوردَ به على معاوية بالشام، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلَّق الأصابع في كُمّ القميص، ونَدَب الناسَ إلى الأخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه، وتباكى الناس حول المنبر ... وقام في الناس: معاوية وجماعة من الصحابة معه، يحرِّضون الناس على المطالبة بدم عثمان ممن قتله من أولئك الخوارج[(١)].

وعندما بايع المسلمون عليّاً بالخلافة وأضحى أمير المؤمنين، عزم على تغيير الولاة الذين كانوا في عهد عثمان، فنصحه المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس بأن يُقِرَّ نوابَه على البلاد إلى أن يتمكن، وأن يقرَّ معاوية ـ خصوصاً ـ على الشام، فأبى ذلك، وولى على الأمصار نواباً، وبعث سَهْل بن حُنيف على الشام، فخرج حتى إذا كان بتبوك لقيَتْه خيلٌ، وردُّوه من حيث أتى! ورفض أهل الشام البيعة، فعزم عليٌّ على قتالهم، وتجهز لذلك، ولم يبقَ شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصداً الشام، فعلِم بخروج طلحة والزبير وعائشة، فَصَرَف وجهه عن الشام لإدراك هؤلاء قبل أن يصلوا البصرة[(٢)]، فكانت بينهم (معركة الجمل) كما سبق بيانه.

●● بعد أن فرغ عليٌّ من (أصحاب الجمل) جدَّد العزم على إدخال أهل الشام في البيعة، فدَعَا معاويةَ بن أبي سفيان ليدخل فيها كما دخل أهل مكة

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٦٢؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢٢٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٤٢ ـ ٤٤٤، ٤٥٥ ـ ٤٥٦؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩، ٢٣٤؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٥٥٣ ـ ٥٥٤، ٥٥٥ ـ ٥٥٧.

والمدينة والعراق ومصر وغيرهم، وبعث إليه بكتاب مع جَرير بن عبد الله البجلي يدعوه فيه إلى ذلك. فجاءه الردُّ بأن معاوية ومعه أهل الشام يطلبون إقامة الحدّ على قَتَلَة عثمان، ثم هم أسرعُ الناس للدخول في البيعة والطاعة.

فقد رأى معاوية وأهل الشام أن قتلة عثمان، وعلى رأسهم الأشتر النخعي وابن سبأ، في معسكر علي ـ وهذه حقيقة لا يُماري فيها أحد ـ وقد قتلوا الخليفة بوحشية مُفْظِعة، وكانوا مِسْعَر الحرب بين علي وأصحاب الجمل، فصَعُب على معاوية ومن معه أن يروا هؤلاء الجُنَاة المجرمين أحياء، وأن يبايعوا الإمام علياً وهم في جيشه! فتمنى معاوية أن يقتلهم أمير المؤمنين علي، أو يسلّمهم إليه ـ وهو الوالي القوي ـ فينكِّل بهم.

فالذين يطالِبون بإقامة حَدِّ الله على قتلة عثمان معذورون، لأنهم يطالبون بحق، سواء أكانوا من أصحاب الجمل، أو من أهل الشام.

وعلي أيضاً له العذر في عدم التعجيل بعقوبتهم، لأنهم قد أصبحوا في العراق، بِمَعْقِل من قوَّتهم وعُنْجُهِيَّة قبائلهم، وكثرةِ مادَّتهم ومؤيديهم؛ وفَتْحُ باب القتال معهم يُنذر بشرٍّ مستطير، وتسكينُ الأمر هو الحل الأنجعُ في مثل هذه الظروف.

فخلافُهم لم يكن في أصل المسألة ـ وهي القصاص من قتلة عثمان ـ بل في الوقت والطريقة التي تُعالَج بها.

●● وقد كان علي رضي الله عنه عَزَم على المسير إلى أهل الشام ليقاتلَهم ويُدخلهم في البيعة والطاعة، فجاء إليه ابنه الحسن بن علي وقال له: (يا أبتِ! دَعْ هذا؛ فإن فيه سفكَ دماء المسلمين، ووقوعَ الاختلاف بينهم!). فلم يَقبل منه ذلك، بل صمم على القتال، لكن جاءه ما يشغله عن ذلك، فسار إلى البصرة فكانت (وقعة الجمل)[1].

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٢٣٠.

وقُبيل (وقعة صِفِّين) نَصَح غير واحد من الصحابة عليّاً ألَّا يقاتل أهل الشام:

ـ فدخل عليه الصحابي حَنْظلة بن الرَّبيع التَّميمي المعروف (بحنظلة الكاتب)، في رجال كثير من غَطَفان وبني تَميم، قال حنظلة: (يا أمير المؤمنين! إنَّا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلْها منَّا، ورأَيْنَا لكَ رأياً فلا تردَّه علينا؛ فإنَّا نظرنا لك ولمن معك: أقِمْ، وكاتِبْ هذا الرجلَ، ولا تَعجلْ إلى قتال أهل الشام)(١).

ـ وأشار عدي بن حاتم على أمير المؤمنين علي بمثل ما نصح به حنظلة الكاتب(٢).

ـ وألحَّ عبد الله بن عباس على أمير المؤمنين بالنصيحة لمسالمة معاوية، فأجابه علي: (لا أعطيه إلا السيفَ، حتى يغلبَ الحقُّ الباطل! فقال ابن عباس: أَوْ غير هذا؟! قال: كيف؟ قال: لأنه يُطاع ولا يُعْصَى، وأنت عن قليل تُعصى ولا تُطاع! قال: فلما جعل أهل العراق يختلفون على علي ﷺ، قال: لله درُّ ابن عباس، إنه لَيَنظرُ إلى الغيب من ستر رقيق!)(٣).

●● وتجهز علي في جيش كثيف وخرج باتجاه الشام، فعلم معاوية بخروج علي، فاستشار الناس فأشاروا عليه بالخروج، فخرج في جيش كبير.

وتردَّدت الرسل بين علي ومعاوية ﷺ، والناس كافُّون عن القتال، حتى انسلخ المحرم من سنة (٣٧هـ)، قام علي بعدها فنَبَذ إليهم على سواء، وعبَّى جيشه، وكذلك عبَّى معاوية جيشه، وشرعوا في القتال أول يوم من صفر، وكان يوم الأربعاء، واستمر القتال إلى يوم الجمعة العاشر منه(٤).

---

(١) وقعة صفين، ص٩٦.
(٢) انظر: وقعة صفين، ص٩٨.
(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص٥٣٨ ـ ٥٣٩.
(٤) هذا ما ذكره الطبري وابن الجوزي وابن كثير وغيرهم، وذهب خليفة بن خياط إلى أن القتال استمر (٤ أيام)، وكان الصلح يوم السبت. انظر: تاريخ خليفة، ص١٩١.

وقُتل من الفريقين عدد كبير، ويشير إلى ذلك قوله ﷺ: «يكون بينهما مقتلة عظيمة»، لكن ما يذكره المؤرِّخون عن عدد القتلى فيه مبالغات كبيرة ومجازفات!.

فيذكر بعضهم أن عدد القتلى كان (٧٠ ألفاً)! بل إن المسعودي ذكر في «تاريخه»[1]: أن معاوية خرج في جيش تعداده خمسة وثمانون ألفاً، ثم لمَّا تحدث عن عدد القتلى، ذكر أن قتلى أهل الشام كانوا تسعين ألفاً! أي: إن عدد القتلى أكثر من تعداد الجيش الأصلي!.

ثالثاً: رفع المصاحف:

ولـمَّا استحرَّ القتال، وتفانَى الناس، رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح، وقالوا: (هذا بيننا وبينكم، قد فَنِي الناس؛ فمن للثغور؟! ومَن لجهاد المشركين والكفار؟!).

وكان الذي أشار بذلك عَمرو بن العاص رضي الله عنه، وهذا يُعَدُّ من أجلِّ مناقبه، لحرصه على دماء المسلمين ومصلحة الإسلام والأمة والبلاد. ولكنَّ أصحابَ الهوى والعصبية الذين أعمى الله بصائرهم، نَفَثوا ما في صدورهم من ضغائنَ، واعتبروا ذلك خديعة منه ومكراً لتخفيف وطأة القتال على أهل الشام وقد أُدِيل عليهم وكادوا أن ينهزموا. هكذا تنقلب الموازين فتصبح المناقبُ مثالبَ عند من قلّب الله قلوبهم ونكس أفئدتهم!.

وكان ممن دعا إلى الصلح ووقف القتال؛ من سادات الشاميين: عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومن سادات العراقيين في جيش علي: الأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه.

وآسَفَ ذلك الأشترَ النخعيَّ وأمثالَه ممن لم يخرجوا لوجه الله، وما فتئوا يوقدون الفتنة، ويُسعرون القتال، ويَسْعَون لاستمرار الشقاق والخلاف في

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣٨٤، ٤٠٤.

صفوف الأمة! حتى إنه عندما أرسل إليه علي بوقف القتال، قال للرسول: (قُلْ له: ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تُزيلني فيها عن موقفي، إني قد رجوتُ أن يُفْتَح لي، فلا تُعجلني!). ثم أرسل إليه علي ثانيةً، فجعل الأشتر يتململ ويقول: (وَيْحَكَ! أَلَا ترى إلى ما نحن فيه من النصر، ولم يبقَ إلا القليل؟!).

وليتَ هذا (البطل!) وجّه هذا العنفوان إلى أعداء الله، بدل أن يبذل نفسه وجهده في قتال أولياء الله: عثمان، ثم طلحة والزبير، ثم عامة المسلمين من أهل الشام! ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقد كان على رأي الأشتر هذا جماعة كثيرة في جيش علي، فقام إليهم الصحابي الجليل سَهْل بن حُنيف يقرِّعهم ويوبِّخُهم، ويبيِّن لهم ضلالَ سعيهم وخطأً رأيهم وخطورة مخالفتهم[1].

عن أبي وائل شَقيق بن سَلَمة قال: (كنَّا بِصِفِّينَ، فلمَّا استحرَّ القتلُ بأهل الشام اعتصَمُوا بتَلٍّ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أَرْسِلْ إلى علي بمصحف وادْعُه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك. فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]! فقال عليٌّ: نعم أنا أَوْلَى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله. قال: فجاءَتْه الخوارج، ونحن ندعوهم يومئذ: القرَّاءَ، وسيوفُهم على عواتِقِهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين! ما ننتظرُ بهؤلاء القوم الذين على التلِّ ألَّا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يَحْكُمَ الله بيننا وبينهم؟! فتكلَّم سَهْل بن حُنَيْف فقال: يا أيها الناس! اتَّهِمُوا أنفسَكم، فلقد رَأَيْتُنَا يومَ الحُديبية ـ يعني

---

(١) تفاصيل موقعة صفين في: تاريخ خليفة، ص١٩١ ـ ١٩٦؛ تاريخ الطبري: ٤/ ٥٦١ ـ ٥٧٥، ٥/ ٥ ـ ٥٩؛ المنتظم، لابن الجوزي: ٥/ ٩٧ ـ ١٢٣؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢٥٣ ـ ٢٧٨؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٥٨٢ ـ ٦١٩.

الصُّلْحَ الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ـ ولو نَرى قتالاً لقاتَلْنا . . .)[١].

وقولُ سَهْلٍ ﷺ: (اتَّهِموا أنفسَكم): أي في هذا الرأي، لأن كثيراً منهم أنكروا التحكيمَ وقالوا: لا حُكْمَ إلا لله، فقال عليٌّ: كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل! وأشار عليهم كبار الصحابة بمطاوعة علي وأن لا يُخالَف ما يشير به لكونه أعلمَ بالمصلحة. وذكر لهم سَهْلُ بن حُنَيْف ما وقع لهم بالحديبية، وأنهم رأوا يومئذٍ أن يستمروا على القتال ويخالفوا ما دُعُوا إليه من الصلح، ثم ظَهر أن الأصلح هو الذي كان شَرع النبي ﷺ فيه. وقد أَعقب خيراً كثيراً، وظَهر أن رأْيَ النبي ﷺ في الصلح أتمُّ وأحمدُ من رأيهم في المناجزة[٢].

رابعاً: تنبيهات ووقفات ومواقف وعِظات:

١ ـ كان السبئية منبثِّين في جيش علي، ومتمكِّنين من إدارة الأمور وتوجيهِ الناس لما يريدون، وعددُهم كبير ولهم قوة وسطوة، وفي مقدمتهم الأشتر النخعي، الذي كان يُسرع في إفساد كل صلح بين الطرفين، ولم يَحفظ له تاريخه أي دعوة للصلح أو موافقة عليه، وكان صلب المِراس، وكان أمير المؤمنين علي يتبرَّم به كثيراً.

وهذا مما زاد معاوية ومَنْ وراءه للتمسك برأيهم بوجوب التعجيل بقتل القتلة الذين زلزلوا دولة الإسلام بقتل أمير المؤمنين عثمان! ثم كان لهم اليد الطولى في إثارة الفتن أيام البصرة وفي وقعة الجمل. ثم هاهم أولاء يَخِفُّون في الفتنة الثالثة؛ فكيف يَسْهل على أمثال معاوية ومن معه من أهل الشام مبايعةُ علي وفي جيشه هؤلاء؟!.

قال ابن تيمية: (وكان غير واحد من عسكر معاوية يقول له: لماذا تقاتل

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦، واللفظ له؛ والبخاري (٣١٨١) وأطرافه؛ ومسلم (١٧٨٥)؛ والنسائي في الكبرى (١١٤٤٠).
(٢) الفتح: ٧/ ٧٨٩ (٣١٨١)، ١٠/ ٦٦٥ (٤٨٤٤).

علياً وليس لك سابقتُه ولا فَضْلُه ولا صِهْره؟ وهو أَوْلَى بالأمر منك! فيعترف لهم معاوية بذلك. ولكنْ قاتلوا مع معاوية لظنِّهم أن عسكر علي فيه ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان رضي الله عنه، وأنهم يقاتِلون دفعاً لِصِيالهم عليهم، وقتالُ الصَّائِل جائز؛ ولهذا لم يبدؤوا هم بالقتال حتى بَدَأَهم أولئك، ولهذا قال الأشتر النخعي: إنهم يُنصرون علينا لأنَّا نحنُ بدأناهم بالقتال. وعلي رضي الله عنه كان عاجزاً عن قهر الظلمة من العسكرين، ولم يكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به، وكان يرى أن القتال يحصل به المطلوب، فما حصل به إلا ضد المطلوب! وكان عسكر معاوية يوافقونه ويقولون: نحن إذا بايَعْنا علياً ظَلَمَنا عسكرُه كما ظُلِم عثمان، وعلي لا يستطيع أن يَدفع عنّا!)[1].

٢ ـ كان أهل الشام على قلب رجل واحد ورأي واحد، مطواعين لأميرهم معاوية، ولا خلاف بينهم على الهدف وهو إقامة حكم القصاص على قتلة عثمان رضي الله عنه، أما جيش أمير المؤمنين علي فكان كثير الاختلاف عليه، ولا أَدَلَّ على ذلك من رفضِهم وقْفَ القتال عندما رُفعت المصاحف، ومواقف الأشتر، ثم القراء الذين أصبحوا فيما بعد خوارج.

٣ ـ مسألة تأجيلِ أمير المؤمنين علي القصاصَ من قتلة عثمان حتى يتمكن في دولته؛ هو أمر اجتهادي، وكذلك مسيرُه إلى البصرة لقتال (أصحاب الجمل)، ومسيره إلى صفين لإدخال معاوية ومن معه في الطاعة. كذلك فإنَّ إرجاءَ معاوية في أهل الشام الدخولَ في البيعة حتى يَقتل الخليفة قتلة عثمان؛ هو كذلك أمر اجتهادي، وفي كل من الفئتين صحابة أئمة مجتهدون.

وإلى هذا يشير قول ابن حجر بوجود (شدّة المعارضة من حجج الفريقين: إذ حُجَّة علي ومَنْ معه ما شُرع لهم من قتال أهل البغي حتى يرجعوا إلى الحق، وحجَّة معاوية ومَنْ معه ما وقع من قَتْل عثمان مظلوماً، ووجود قتلته بأعيانهم في

(١) منهاج السنة: ٤/ ٣٨٤، وانظر: ٤/ ٤٠٧.

العسكر العراقي. فعَظُمت الشُّبَه، واشتدَّ القتال وكَثُر القتل في الجانبين، إلى أن وقع التحكيم)[١].

٤ ـ رفْعُ أهلِ الشام المصاحفَ ودعوتُهم للحكم بما أنزل الله، وقبولُ علي والأخيار معه ذلك؛ دلالةٌ على حرص الصحابة على الصلح وحقنِ الدماء، وكان ذلك بركة وخيراً على الإسلام والمسلمين في توقف ذلك القتال الدامي.

ولِعَمْرو بنِ العاص المنقبةُ الجليلة والذِّكْر الجميل، ورفضُ الأشتر والقراء التحكيمَ دلالة على نفوس مريضة وعقول سقيمة، أسْلَمَتْهم إلى عملِهم السيِّئ الذي وُصِمُوا به في التاريخ باسم (الخوارج)!.

وموقف عَمْرو هذا يشبه تماماً موقف أم المؤمنين عائشة عندما أَعطت كعبَ بنَ سُور مصحفاً، وقالت: (ارفَعْه، وادْعُهم إليه)، فرشَقَتْه السبئية بالسهام حتى قتلوه! وكرَّر الأشتر مثلَ هذا الفعل القبيح يوم صفين ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١١٨].

٥ ـ قُتِل عمار بن ياسر على أرض المعركة، قتله رهْطٌ من أهل الشام، وقد جاء في الحديث: «**وَيْحَ عمّارٍ! تقتلُه الفئةُ الباغية**».

والذي قتله هو أبو الغادية الجُهَني[٢]، ويبوءُ بإثم قتله، ولا يمكن اتهامُ كل أهل الشام بذلك، فما كان معاوية وعَمْرو وابنُه عبد الله وغيرهم يشتهون ذلك ولا يقصدون إليه. ولقد كان مصابُ علي بمقتل طلحة والزبير أكبر من مصابه بمقتل عمار، ويشهد لذلك توجّعه وتألمه الشديد عليهما.

قال ابن تيمية: (ثم «**إنَّ عماراً تقتلُه الفئة الباغية**» ليس نصّاً في أن هذا اللفظ لمعاوية وأصحابه، بل يمكن أنه أُريد به تلك العصابة التي حَملَتْ عليه حتى قتلَتْه، وهي طائفة من العسكر، ومَنْ رضِي بقتل عمار كان حكمُه حكمَها، ومن

---

(١) الفتح: ١١٦/١٧ (٧٣٠٨)؛ وانظر: منهاج السنَّة: ٤/٤٠٧.

(٢) انظر تفصيل ذلك في هذا الكتاب: النبوءة (١٥): ١/١٤١.

المعلوم أنه كان في المعسكر من لم يرضَ بقتل عمار؛ كعبدِ الله بن عمرو بن العاص وغيره، بل كل الناس كانوا منكِرين لقَتْل عمار، حتى معاوية وعمرو)[١].

٦ ـ كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه هو الخليفة الحق[٢]، ولا ينازعه في ذلك أحد، وهو في ذلك القتال أقرب إلى الحق وأولى به، كما جاء في الروايات الصحيحة، وجماعة علي وجماعة أهل الشام مسلمون، ومن أهل الحق وطلابه والحريصين عليه، فهناك قريب من الحق وأقرب إليه، وقد أَثبتَ الحديثُ قربَ أهل الشام من الحق، وهم غير ملومين في حروبهم وقتالهم، لأن ذلك كان عن اجتهاد، والمخطئ له أجر والمصيب له أجران، وسُعاة الفتنة يبوؤون بالخسران.

يقول ابن تيمية: (ونَعْلَم مع ذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان أفضلَ وأقربَ من معاوية وممن قاتله معه؛ لِما ثبت في الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**تَمْرُقُ مارِقَةٌ على حين فُرقة من المسلمين، تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق**» وفي هذا الحديث دليل على أنه مع كل طائفة حق، وأن عمداً رضي الله عنه أقرب إلى الحق)[٣].

فإذا كان معاوية رضي الله عنه باغياً متأولاً ومقاتلته جائزة، فإن مقاتلة قتلة عثمان الذين قتلوا الخليفة عمداً ولا حجة لديهم ولا تأويل؛ هي أولىٰ بالجواز!.

وكما يقول ابن تيمية؛ فإن أمير المؤمنين عليّاً رضي الله عنه (بدأ بالقتال أصحابَ معاوية ولم يكونوا يقاتلونه، ولكن امتنعوا من بيعته، فإنْ جاز قتالُ مَن امتنع من بيعة الإمام الذي بايعه نصف المسلمين أو أكثرهم أو نحو ذلك، فقتالُ مَنْ قاتَلَ وقَتَلَ الإمام ـ أي: عثمان ـ الذي أجمع المسلمون على بيعته؛ أولى بالجواز)[٤].

وهذا كلام غاية في الفهم والإنصاف.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣٥/٧٦ ـ ٧٧.
(٢) انظر: المرجع السابق: ٣٥/٥١.
(٣) المرجع السابق: ٣/٤٠٧.
(٤) منهاج السنَّة: ٤/٤٥٨.

٧ ـ كان الصحابة ومن سار على هديهم من الأخيار ملتزمين بأخلاق الإسلام في قتالهم، فقد كان من وصايا عليٍّ لجيشه: (لا تُقاتِلوا القوم حتى يبدؤوكم، فأنتم بحمد الله ﷻ على حُجَّة، وتركُكُم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم؛ فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدْبِراً، ولا تُجهِزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثِّلوا بقتيل. فإذا وصلتم إلى رحال القوم، فلا تهتِكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم، إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تُهيِّجوا امرأة بأذًى، وإنْ شَتَمْنَ أعراضكم، وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضِعاف القوى والأنفس)[١].

بل كانوا إذا تحاجزوا، دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم[٢].

أما أصحاب الهوى ودعاة الفتنة فكانوا يدأبون في إشعال الحرب، بُغيةَ المزيد من الفرقة وسفك الدماء وتوهين أمر الأمة!.

قال ابن تيمية رحمه الله: (وأكثَرُ الذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين، لم يكونوا يطيعون عليّاً ولا معاوية، وكان علي ومعاوية رضي الله عنهما أطلبَ لكفِّ الدماء من أكثر المقتتلين، لكن غُلبا فيما وقع، والفتنةُ إذا ثارَتْ؛ عجز الحكماء عن إطفاء نارها!)[٣].

٨ ـ ومن أمثلة تلك الأخلاق ما رواه زياد بن الحارث قال: (كنتُ إلى جَنْب عمار بن ياسر بصفِّين، ورُكْبتي تمسّ ركبتَه، فقال رجل: كَفَر أهلُ الشام! فقال عمار: لا تقولوا ذلك؛ نبيُّنَا ونبيُّهم واحد، وقِبْلتُنا وقِبْلَتُهم واحدة، ولكنهم قوم مفتونون حادوا عن الحق، فَحَقَّ علينا أن نقاتِلهم حتى يرجعوا إليه)[٤].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٠ ـ ١١.
(٢) البداية والنهاية: ٧/ ٢٧٨.
(٣) منهاج السنَّة: ٢/ ٢٢٤.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢٢، وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/ ٤١٧ (٧١٢١).

وذكر يحيى بن سُليمان الجُعْفِيُّ ـ أحدُ شيوخ البخاري ـ في «كتاب صفِّين» من تأليفه، عن أبي مسلم الخَوْلَاني: (أنه قال لمعاوية: أنتَ تُنازِعُ عليّاً في الخلافة، أَوَ أنتَ مثلُه؟ قال: لا، وإني لَأعلمُ أنه أفضَلُ مني وأحَقُّ بالأمر، ولكنْ ألستُم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا ابنُ عمِّه ووليُّه أطلُب بدمه؟! فَأْتُوا عليّاً فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان. فأَتَوْه فكلَّموه، فقال: يدخل في البيعة ويحاكمهم إليَّ. فامتنع معاوية، فسار علي في الجيوش من العراق حتى نزل صِفِّين، وسار معاوية حتى نزل هناك)[١].

وقال ابن تيمية: (ومعاويةُ لم يَدَّعِ الخلافةَ، ولم يُبَايَعْ له بها حين قاتَلَ عليّاً، ولم يُقاتِل على أنه خليفة، ولا أنه يستحقُّ الخلافة، ويُقرُّون له بذلك، وقد كان معاوية يُقِرُّ بذلك لمن سأله عنه، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدوا عليّاً وأصحابه بالقتال)[٢].

٩ ـ مع ما جرى بين الصحابيين الجليلين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فإن عليّاً لمَّا رجع من صِفِّين، وقد رأى اختلافَ جيشه عليه، وإحكامَ معاوية لأمر جنده وطاعة أهل الشام له؛ امتدحه علي غير مبالٍ بقول كلِّ مَن خالَفَه! قال رضي الله عنه: (أيها الناس! لا تَكْرَهوا إمارة معاوية، والله لو قد فقدتموه، لقد رأيتم الرؤوس تَنْدُر عن كواهلها كالحنظل!)[٣].

ويقول ابن تيمية: إنه قد روي هذا عن علي رضي الله عنه من وجهين أو ثلاثة، وتواترت الآثار بكراهيته الأحوالَ آخر الأمر، ورؤيته اختلاف الناس وتفرقهم، وكثرة الشر الذي أوجب أنه لو استَقْبَل من أمرِه ما استدبر ما فَعَل ما فَعَل[٤].

١٠ ـ ما رواه يعقوب بن سفيان الفَسَوي، عن الزُّهْرِيِّ قال: (لمَّا بَلَغ معاوية

---

(١) الفتح: ١٦/٤١٦ ـ ٤١٧، وقال الحافظ: سنده جيد.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٥/٧٢.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/٧٢٤ (١٨). **تندر**: تسقط.

(٤) منهاج السنة: ٦/٢٠٨ ـ ٢٠٩.

غلبةُ عليٍّ على أهل الجمل، دَعَا إلى الطلب بدمِ عثمان، فأجابه أهل الشام، فسار إليه علي، فالتقيا بصفين)[١]، هو خبرٌ واهٍ وإن جَوَّد الحافظ إسنادَه، فالزهري وُلد سنة (٥٠هـ) أو بعدها، أي بعد الفتنة بثلاث عشرة سنة، فمن أين عَلِم بذلك؟! وكل حقائق التاريخ تذكر أن عليّاً غداةَ استلامه مقاليدَ الخلافة طلب البيعة من معاوية وأهل الشام، فرفض معاوية حتى يُقام الحدُّ على قتلة عثمان، فعزم أمير المؤمنين علي على إدخاله في الطاعة عَنْوَة، وجهّز جيشاً وأوشك على المسير إلى الشام، ففاجأه خبر (أصحاب الجمل)، فأسرَعَ إليهم، وبعد فراغه من شأنهم اتجه إلى أهل الشام؛ فمعاويةُ طالَبَ بدم الشهيد عثمان من أول يوم قُتل فيه رضي الله عنه، وكان بإمكان معاوية أن يشترك مع أصحاب الجمل في صف واحد للمطالبة بدم عثمان، لكنه ما فعل ذلك ولا رآه، وإن كانت مطالب الفريقين واحدة.

ثم إن في قول الزهري هذا طعناً وتشكيكاً في صدق مسعى معاوية وأهل الشام، وفيهم من الصحابة رهط كثير، وكأنهم يسعَوْن إلى الشِّقاق وإحراج أمير المؤمنين علي، واستمرار فرقة الأمة واختلافها والاحتراب فيما بينها، وهو كلام مردود بلا مراء.

١١ ـ قد تبيَّن باستعراضِ أحداث التاريخ، من لَدُن الخروج على أمير المؤمنين عثمان وقتله إلى موقعة صِفِّين التي انتهت بالتحكيم وخروج الخوارج ـ أن سياسة عثمان رضي الله عنه في التسكين والكَفِّ عن القتال، وعدمِ إراقة مِلء مِحْجَمَةٍ من دم؛ هي أحسنُ وأفضلُ وأحكمُ من سياسة علي رضي الله عنه؛ فإن فتنة عثمان انتهت بسفك دماء قليلة، أما في عهد علي فقد سالت دماء كثيرة لا يعلمها إلا علّام الغيوب.

وإلى هذا يشير قول شيخ الإسلام ابن تيمية، بعدما ذكر أحاديث القعود في

---

(١) الفتح: ٤١٦/١٦، وقال الحافظ: سنده جيد.

الفتنة وعدم المشي فيها والسعي إليها ولزوم البيوت وكسر القسي والسيوف، يقول:

(ولأجل هذه النصوص لا يختلف أصحابنا أن تَرْكَ علي القتالَ كان أفضلَ؛ لأن النصوص صرَّحَتْ بأن القاعد فيها خير من القائم، والبعدَ عنها خير من الوقوع فيها. قالوا: ورُجْحَان العمل يَظهر برُجْحَان عاقبته، ومن المعلوم أنهم إذ لم يبدؤوه بقتال، فلو لم يقاتلهم لم يقع أكثر مما وقع من خروجهم عن طاعته، لكن بالقتال زاد البلاء، وسُفكت الدماء، وتنافرت القلوب، وخرجت عليه الخوارج... فظهر من المفاسد ما لم يكن قبل القتال، ولم يحصل به مصلحة راجحة، وهذا دليل على أن تركه كان أفضل من فعله، فإن فضائل الأعمال إنما هي بنتائجها وعواقبها)[1].

ولقد كان بالإمكان اتخاذُ وسائل غير السيف لتهدئة الأحوال وجمع الكلمة، ومن ذلك ما أشار به المغيرة بن شعبة وابن عباس على عليٍّ بأن لا يعزل معاوية عن إمرة الشام، بل يُبقيه في منصبه حتى يأخذ البيعة منه ومن أهل الشام، فإذا فعل ذلك وكانت المصلحة تقتضي عَزْلَه عَزَله، فإنْ رفض الطاعة يكون حينئذ ناكثاً باغياً، أمَّا ومعاوية في أهل الشام لم يدخلوا في طاعة علي ابتداءً، فإن هذا من أقوى أدلة من يرى صوابَ موقفهم، لا سيما والثابت أن معاوية لم يُنازع عليّاً الخلافةَ، وإنما اشترط لدخوله في طاعته القصاصَ من قتلة عثمان[2].

ويؤكد ذلك ويقويه ندمُ علي رضي الله عنه على القتال بعد انتهاء (وقعة الجمل)، وتألُّمه وتوجُّعه لِما جرى فيها وقُتل من السادة كطلحة والزبير وغيرهما.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٤/ ٤٤١ ـ ٤٤٢.

(٢) انظر: ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، لسفر الحوالي، ص١٨٣ ـ ١٨٤؛ أحداث وأحاديث فتنة الهرج، لعبد العزيز صغير دخان، ص١٨٩.

بل إنه قال يوم صفين، وقد دُعي إلى التحكيم: (لو علمتُ أن الأمر يكون هكذا ما خرجتُ، اذهبْ يا أبا موسى فاحْكُمْ ولو على حَزِّ عنقي!)(١).

ونحن نقول الآن: يجب الاستفادةُ من هذه الدروس ولو كانت موجعة مريرة، والاعتبارُ بأحداث الخروج الكثيرة في تاريخنا الطويل، والتي أُزْهِقت فيها أنفس بريئة، وأُريقت دماء زكية، وازداد الاختلاف، واتسع الخَرْق، وكثرت الفتن، وتنامت الأهواء، وطمع بنا الأعداء، وتضعضع أمر الدولة، وتوقفت حركة الفتوحات، بدل أن تُبذل تلك الجهود في القيام بواجب الدعوة والبلاغ.

وفي زماننا يجب على الحركات الإسلامية الاتعاظُ بالماضي القريب والبعيد، وأن تعلمَ أن نزعاتِ الصِّدام مع الحكومات لا تأتي إلا بالشرور والخسائر الفادحة، والأمثلةُ شاخصة هنا وهناك في بلادنا العربية والإسلامية! فلقد أُضِير المسلمون كثيراً بسبب ذلك، فَقُتل أناس، وشُرِّد آخرون في المنافي، ودخل فريق ثالث غَيَاهِب السجون، وأُزْهِقت أنفس لا ذَنْب لها، وظُلم قطاع عريض من الناس بغير وجه حق، وشُوِّه وجه الإسلام، وتأخَّر مدُّ الدعوة الإسلامية، وخَلَا الجو لمن يَعرض الإسلامَ بشكل منقوص أو مشوَّه أو مريض مستكين! وينبغي الجرأةُ في قولِ الحق، ونقدِ الذات، ومداومةِ المراجعة والمحاسبة، فإن ارتجالَ القرار، واعتسافَ الطريق، واستعجالَ النصر، يأتي بالنتائج المرة! ولا يُعفَى من ذلك الاستبداد والحكم الجبري، لكن ذلك لا يبرِّر تكرار المآسي والولوغ في الخطأ.

١٢ ـ ونحن بعد كل هذا نؤكد في كل لحظة وكل كلمة نكتبها أننا نحبُّ الصحابة جميعاً، ونُجِلُّهم ونترضَّى عنهم، ونعلمُ بيقين إخلاصَهم وصدقهم، وحرصَهم على الحق، واستمساكَهم به، وسَعْيَهم إليه، وأنهم اجتهدوا في تلك الفتن العاصفة، والظروف الصعبة، وفي كثير من المواقف كاد الصلح أن يتمَّ وتُحقن الدماء، لولا دعاة الفتنة ومؤرِّثو نارها، عليهم مِنَ الله ما يستحقون.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢٤ (١٦).

ونعلَمُ كذلك أن عليّاً ﷺ أسبقُ سابقةً وأفضَلُ فضلاً من معاوية ﷺ، لكننا أيضاً نلتمس العذر لهما في اجتهادهما، ونستديم الترضي عنهما، ونبرأ إلى الله ممن يقع فيهما، أو في غيرهما من الصحابة والصالحين من أهل العراق وأهل الشام. ونستحضر دوماً ذلك الموقف الرائع من الإمام الحافظ الناقد الشهير أبي زُرْعَة الرَّازِيِّ، والذي أخرجه ابن عساكر في «ترجمة معاوية» عن أبي القاسم ابن أخي أبي زرعة قال: (جاء رجل إلى عمِّي فقال له: يا أبا زُرْعَة! أنا أُبغض معاوية، قال: لِمَ؟ قال: لأنه قاتَلَ عليَّ بن أبي طالب، فقال له عمي: إنَّ ربَّ معاوية ربٌّ رحيمٌ، وخَصْمَ معاوية خصمٌ كريمٌ، فأَيْشٍ دخولُك أنت بينهما، رضي الله عنهم أجمعين؟!)[١].

هذا كلام المؤمنين الذين كَشَف الله عن بصائرهم، ونوَّر قلوبهم بالإيمان وحُبِّ النبي ﷺ وأصحابه الكرام.

إذا علمتَ ما ذكرناه وأيقنتَ به، عرفتَ مدى افتراء ما يكتبه كثيرون من مبغضي الصحابة أو المنحرفين عن بعضهم، ومثال ذلك ما كتبه الخسَّاف المتهوِّر (البَرْزَنْجي) في كتابه (الإشاعة) من أن معاوية (كان طالباً للمُلك، وإنما جَعل طلب الدم وسيلة إلىٰ طاعة أهل الشام له . . .) إلى آخر ما قال! وذكر بعد عدة أسطر: أن يزيد وبني الحَكَم ملعونون على لسان النبي ﷺ[٢]! وفي هذا الكتاب مغامرات ومجازفات، وقد أورد فيه مؤلِّفه أوابِدَ وغرائبَ وطاماتٍ وعجائبَ، وأحاديثَ ضعيفة وتالفة وموضوعة، ومع ذلك وُضِع على غلاف كتابه (تأليف العلامة المحقق)!.

وهذا الكتاب إنما أشرتُ إليه لاغترار الكثيرين به[٣]، وهو مثالٌ لغيره كثير

---

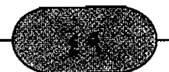
(١) مختصر ابن عساكر: ٣٩/٢٥؛ ونقله عنه الحافظ في الفتح: ١/٤١٧ ـ ٤١٨.

(٢) انظر: الإشاعة، ص٤٤ ـ ٤٥، ١١٥ ـ ١١٦.

(٣) من العجيب والمؤسف في آن واحد أن طائفة من الكتاب والمؤلفين يحيلون على هذا الكتاب، وينقلون منه، ومن يقرؤه على وجه التمحيص يعلم مقداره في ميزان العلم الصحيح!.

ممن خبط في هذا الباب. والكلمة مسؤولية كبيرة وخاصة في (الكتاب) وفي (حق الصحابة)، وكلٌّ منا سيرجع إلى الله ﷻ، وسيسأله ويحاسبه عن تحري الحق وصدق الكلمات التي قالها أو كتبها أو نشرها بين الناس!





إخبار النبي ﷺ بظهور الخوارج ووقته والطائفة التي تقاتلهم وتقتلهم

عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**تَفْتَرِقُ أُمَّتي فِرْقَتَيْنِ، يَمْرُقُ بينَهما مارِقَةٌ، تَقْتُلُهم أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بالحَقِّ**» لفظ النسائي.

وفي رواية لمسلم وأحمد: «**يَقْتُلُهم أَقْرَبُ الطَّائِفتَيْنِ من الحَقِّ**».

وفي رواية أخرى لعبد الرزاق وأحمد والبغوي: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ، دَعْوَاهُما واحدةٌ، تمرُقُ بينهما مارِقةٌ، يَقْتُلُها أَوْلَى الطائفتينِ بالحقِّ**»[(١)].



(١) أخرجه مسلم (١٠٦٥)؛ وأبو داود (٤٦٦٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٥٧) و(٨٥٠١) و(٨٥٠٢) و(٨٥٠٣) و(٨٥٠٤)؛ والطيالسي (٢١٦٥)؛ وعبد الرزاق (١٨٦٥٨)؛ وأحمد: ٣/ ٢٥، ٣٢، ٤٥، ٤٨، ٦٤، ٧٩، ٨٢، ٩٥؛ وأبو يعلى (١٢٤٦) و(١٢٧٤)؛ وابن حبان (٦٧٣٥)؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٧٠، ١٨٧؛ وفي الدلائل: ٥/ ١٨٨ ـ ١٨٩، ٦/ ٤٢٤؛ والبغوي (٢٥٥٥).

إخبار النبي ﷺ
بصفات الخوارج

١ ـ عن سُوَيْد بن غَفَلَة قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إذا حَدَّثْتُكُم عن رسولِ الله ﷺ حَديثاً، فواللهِ لأَنْ أَخِرَّ من السماءِ أَحَبُّ إليَّ من أنْ أَكْذِبَ عليه، وإذا حَدَّثْتُكُم فيما بَيْنِي وبَيْنِكُم فإنَّ الحربَ خِدْعَةٌ، وإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**سَيخرُجُ قومٌ في آخِرِ الزمانِ: أَحْدَاثُ الأَسْنانِ، سُفَهاءُ الأَحْلامِ، يَقُولونَ من خيرِ قولِ البَرِيَّةِ، لا يُجاوِزُ إيمانُهم حَنَاجِرَهُم، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ. فأَيْنَما لَقِيتُمُوهُم فَاقْتُلُوهُم؛ فإنَّ في قَتْلِهِم أَجْراً لِمن قَتَلَهُم يومَ القيامةِ**»)(١).

٢ ـ وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: (بينما نحنُ عند رسولِ الله ﷺ، وهو يَقْسِمُ قَسْماً، أتاهُ ذو الخُوَيْصِرَة، وهو رجلٌ من بني تَميمٍ، فقال: يا رسول الله! اعْدِلْ! فقال: «**وَيْلَكَ! ومَنْ يَعْدِلُ إذا لم أَعْدِلْ؟! قد خِبْتَ وخَسِرْتَ إنْ لم أَكُنْ أَعْدِلْ**». فقال عمر: يا رسولَ الله! ائْذَنْ لي فيه فأَضْرِبَ عُنُقَه، فقال: «**دَعْهُ، فإنَّ له أصحاباً: يَحْقِرُ أحدُكُم صلاتَهُ مع صلاتِهِم، وصيامَهُ مع صيامِهِم، يَقرؤونَ القرآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ؛ يُنْظَرُ إلى نَصْلِه فلا يُوجد فيه شيءٌ، ثم يُنظرُ إلى رِصَافِه فما**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣٠) واللفظ له؛ و(٣٦١١) و(٥٠٥٧)؛ ومسلم (١٠٦٦)؛ وأبو داود (٤٧٦٧)؛ والنسائي في الكبرى (٣٥٥١) و(٨٥١١)؛ والصغرى: ٧/ ١١٩؛ والطيالسي (١٦٨)؛ وأحمد: ١/ ٨١، ١١٣، ١٣١، ١٥٦؛ وأبو يعلى (٢٦١) و(٣٢٤)؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٨٧ ـ ١٨٨؛ وفي الدلائل: ٦/ ٤٣٠؛ وابن حبان (٦٧٣٩)؛ والبغوي (٢٥٥٤).

يوجدُ فيه شيءٌ، ثم يُنظرُ إلى نَضِيِّه ـ وهو قِدْحُه ـ فلا يوجدُ فيه شيءٌ، ثم يُنظر إلى قُذَذِه فلا يوجدُ فيه شيءٌ، قد سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ، آيتُهم رجلٌ أسودُ إحدى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المرأةِ، أو مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، ويَخْرُجُون على حينِ فُرْقةٍ من الناسِ».

قال أبو سعيدٍ: فأشهدُ أنِّي سمعتُ هذا الحديثَ من رسولِ الله ﷺ، وأشهدُ أن عليَّ بنَ أبي طالبٍ قاتَلَهُم وأنا معه، فأَمَر بذلكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فأُتِيَ به، حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ النبيِّ ﷺ الذي نَعَتَهُ).

وفي رواية أخرى: **«يَقرؤونَ القرآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُم، يَمْرُقُون من الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أهلَ الإسلامِ، ويَدَعُونَ أهلَ الأَوْثانِ، لَئِنْ أنا أَدركْتُهم لأَقْتُلَنَّهم قَتْلَ عادٍ»**[1].

٣ ـ وعن يُسَيْر بنِ عَمْرو قال: (قلتُ لسَهْلِ بن حُنَيْف: هل سمعتَ النبيَّ ﷺ يقولُ في الخوارجِ شيئاً؟ قال: سمعتُه يقول، وأَهْوَى بيدِه قِبَلَ العراقِ: **«يَخرجُ منه قومٌ يَقرؤون القرآنَ لا يُجاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُونَ من الإسلامِ مُروقَ السَّهْم من الرَّمِيَّة»**) لفظ البخاري.

وفي رواية لمسلم: **«يَتِيهُ قومٌ قِبَلَ المَشْرِق مُحَلَّقَةٌ رؤوسُهُم»**[2].



---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤) وفيه أطرافه، و(٣٦١٠)، واللفظ له؛ ومسلم (١٠٦٤) (١٤٨)، وأبو داود (٤٧٦٤)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٣٥) و(٨٥٠٧) و(٨٥٠٨) و(١١١٥٦)؛ وفي الصغرى: ٥/ ٨٧ ـ ٨٨؛ وابن ماجه (١٦٩)؛ وعبد الرزاق (١٨٦٤٩)؛ وأحمد: ٣/ ٦٠؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٧٣٥، ٧٤١؛ وابن حبان (٦٧٣٧) و(٦٧٤١)؛ والبغوي (٢٥٥٢) و(٢٥٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣٤)؛ ومسلم (١٠٦٨)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٣٦)؛ وأحمد: ٣/ ٤٨٦.

إخبار النبي ﷺ بصفة رجل من الخوارج يسمَّى ذا الثدية وهو المخدج

١ ـ عن سَلَمة بن كُهَيْلٍ قال: (حدَّثني زيدُ بن وَهْبٍ الجُهَنِيُّ؛ أنَّه كان في الجيشِ الذين كانوا مع عليٍّ رضي الله عنه، الذينَ ساروا إلى الخَوَارِجِ، فقال عليٌّ رضي الله عنه: أيها الناسُ! إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يَخْرجُ قومٌ من أمَّتي يَقرؤونَ القرآنَ، ليس قراءتُكم إلى قراءتِهم بشيءٍ، ولا صَلاَتُكُم إلى صَلاَتِهِم بشيءٍ، ولا صِيَامُكُم إلى صيامِهم بشيءٍ، يَقرؤونَ القرآنَ يَحْسَبُونَ أنَّه لَهُم وهو عَليهم، لا تُجاوِزُ صَلاتُهم تَراقِيَهُم، يَمْرُقونَ من الإسلامِ كما يمرق السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ. لو يَعْلَمُ الجيشُ الذين يُصِيبُونَهُم ما قُضِيَ لهم على لسانِ نَبِيِّهم ﷺ؛ لاتَّكَلُوا عنِ العملِ. وآيةُ ذلك: أنَّ فيهم رجلاً له عَضُدٌ وليس له ذِراعٌ، على رأسِ عَضُدِه مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ، عليه شَعَراتٌ بِيضٌ**» فَتَذْهَبُونَ إلى معاويةَ وأهلِ الشامِ، وتَتْرُكُون هؤلاءِ يَخْلُفُونَكُم في ذَرَارِيِّكُم وأموالِكُم؟! واللّهِ إنِّي لأَرْجُو أن يَكونوا هؤلاءِ القومَ؛ فإنَّهم قد سَفَكُوا الدَّمَ الحرامَ، وأَغارُوا في سَرْحِ الناسِ، فسِيرُوا على اسْمِ اللّهِ.

قال سَلَمة بن كُهَيْل: فَنَزَّلَني زيدُ بن وَهْبٍ مَنْزِلاً، حتى قال: مَرَرْنا على قَنْطَرةٍ، فلما الْتَقَيْنا وعلى الخوارجِ يومئذٍ عبدُ الله بن وَهْب الرَّاسِبِيُّ، فقال لهم: أَلْقُوا الرِّمَاحَ، وسُلُّوا سُيُوفَكُم من جُفُونِها، فإنِّي أَخافُ أن يُنَاشِدُوكُم كما ناشَدُوكُم يومَ حَرُوراءَ. فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِم، وسَلُّوا السيوفَ، وشَجَرَهُمُ الناسُ بِرِمَاحِهِم. قال: وقُتِلَ بعضُهم على بعضٍ، وما أُصِيبَ من الناس يومئذٍ إلا رَجُلان.

فقال علي رضي الله عنه: الْتَمِسُوا فيهمُ المُخْدَجَ. فالتَمَسُوه فلم يَجدوه. فقام علي رضي الله عنه

بنَفْسِه، حتى أَتى ناساً قد قُتِل بعضُهم على بعضٍ، قال: أَخِّرُوهُم، فوَجَدُوه ممَّا يَلي الأرضَ! فكبَّر، ثم قال: صَدَقَ الله، وبَلَّغ رسولُه! قال: فقام إليه عَبِيدَةُ السَّلْمَانيُّ فقال: يا أمير المؤمنين! أَللهِ الذي لا إلـهَ إلا هَو؛ لَسَمِعْتَ هذا الحديثَ من رسول الله ﷺ؟! فقال: إيْ واللهِ الذي لا إلَـهَ إلا هو! حتى استَحْلَفَه ثلاثاً، وهو يَحْلِفُ له).

وفي رواية عن عَبِيدَةَ السَّلْمانيِّ: (عن عليٍّ، قال: ذَكَر الخوارجَ، فقال: فيهم رجلٌ مُخْدَجُ اليدِ، أو مُودَنُ اليدِ، أو مَثْدُونُ اليدِ، لولا أن تَبْطَرُوا لحدَّثْتُكم بما وَعَدَ الله الذين يَقتُلونَهم، على لسانِ محمدٍ ﷺ. قال: قلت: آنْتَ سمِعْتَهُ من محمدٍ ﷺ؟ قال: إيْ ورَبِّ الكعبةِ، إيْ وربِّ الكعبةِ، إيْ وربِّ الكعبةِ)(١).

٢ ـ وفي حديث أبي سعيد الخدري السابق: **«آيَتُهم رجلٌ أسودُ، إحدى عَضُدَيْه مِثْلُ ثَدْيِ المرأةِ، أو مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ»**.



---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٦) (١٥٦) و(١٥٥) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٧٦٣) و(٤٧٦٨)؛ والنسائي في الكبرى (٨٥١٦) و(٨٥١٧) و(٨٥١٨) و(٨٥١٩) و(٨٥٢٠)؛ وابن ماجه (١٦٧)؛ وعبد الرزاق (١٨٦٥٠) و(١٨٦٥٢)؛ وأحمد: ١/ ٨٣، ٩٥، ١٤٤، ١٥٥؛ والطيالسي (١٦٦)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٧٣٣؛ وابن أبي عاصم (٩١٢) و(٩١٧)؛ وابن حبان (٦٩٣٨)؛ والبغوي (٢٥٥٦)، وغيرهم.

أولاً: كلمة بين يدي هذه النبوءات الثلاث:

روى حديثَ الخوارج خمسةٌ وعشرون صحابيّاً، منهم: علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عمرو، وابن عباس، وأبو ذر، وأبو سعيد الخدري، وأبو بَكْرة، وأنس بن مالك، وجابر، وحذيفة، وسعد بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وأبو بَرْزَة، وأبو هريرة. ومجموعها يفيد القطع بصحة خبرهم عن رسول الله ﷺ[(١)].

وفي حديث الخوارج جملة من معجزات رسول الله ﷺ، وعدد من أعلام نبوته ﷺ، أخبر بها، ففصَّل وأَجْمَل، وجاءت كلها تماماً كما أخبر، ومن ذلك:

١ ـ أنهم يخرجون على حين فرقة من المسلمين.

٢ ـ تقتلهم أولى الطائفتين بالحق.

٣ ـ أنهم أحداث أغرار.

٤ ـ سفهاء الأحلام والعقول.

٥ ـ يتعبدون كثيراً ويغالون مع تنطع وقلة فهم.

٦ ـ أنهم يحملون آيات الله على غير المراد منها.

٧ ـ أنهم يقتلون أهل الإسلام ويَدَعون أهل الأوثان.

٨ ـ فيهم المخدج الذي إحدى يديه مثل ثدي المرأة.

وغير ذلك مما سيتضح خلال الشرح.

ثانياً: لمحة عن الخوارج ومعتقدهم[(٢)]:

●● **الخوارج**: جمع خارجة؛ أي طائفة، وهم قوم مُبتدِعون، سُمُّوا بذلك لخروجهم عن الدين، ولخروجهم على الجماعة وعلى خيار المسلمين.

---

(١) الفتح: ١٦/ ٦٢ شرح الحديثين (٦٩٣٣، ٦٩٣٤).

(٢) ما كتبته عن الخوارج مأخوذ من: كتب السنَّة وشروحها عموماً، شرح السنَّة، للبغوي: =

وكان يُقال لهم: القرَّاء؛ لشدة اجتهادهم في التلاوة والعبادة، إلا أنهم كانوا يتأوَّلون القرآن على غير المراد منه، ويستبدُّون برأيهم، ويتنطَّعون في الزهد والخشوع وغير ذلك(١).

وكانوا في جيش أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فلما رضي بالتحكيم، أنكروا عليه ذلك، وخرجوا عليه فَسُمُّوا (الخوارجَ).

ولمَّا اتفق أهل الشام وأهل العراق على أن يجتمع الحَكَمان بعد مدة في مكان وسط بين الشام والعراق، ويرجع العسكران إلى بلادهم إلى أن يقع الحُكْم، فرجع معاوية إلى الشام، وعاد علي إلى الكوفة ـ فارقه الخوارج ونزلوا قريةً بظاهر الكوفة تسمى (حَرُورَاءَ)، فسُمُّوا (الحَرُورِيَّة).

وأول بدعة حدثت في الإسلام هي بدعة الخوارج، ظهرت في أثناء خلافة علي رضي الله عنه، بل أولهم ظهر في حياة النبي ﷺ وهو ذو الخويصرة، الذي قال لرسول الله ﷺ: (يا محمد! اعدل!)(٢).

ولبدعتهم مقدمتان:

الأولى: أن مَن خالَفَ القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه، فهو كافر.

الثانية: كفَّروا عثمان وعليّاً وأهل الجمل وصفين ومن رضي بالتحكيم(٣).

وكانوا يتأوَّلون القرآن على غير المراد منه، ويستبدُّون برأيهم، وطعنوا على عثمان رضي الله عنه، واعتقدوا كُفْره ومَن تابعه، واعتقدوا إمامة علي رضي الله عنه وكُفْر من قاتله

= ١٠/ ٢٢٤ ـ ٢٣٧؛ شرح مسلم، للنووي: ٤/ ١٧٠ ـ ١٨٧؛ الفتح: ٨/ ٥٢٦ ـ ٥٢٨ (٣٦١٠، ٣٦١١)، ١٦/ ٣٣ ـ ٦٢ (٦٩٣٠ ـ ٦٩٣٤)؛ مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٧٩، ٣٤٩ ـ ٣٥٠، ١٣/ ٣٠ ـ ٣٥، ٣٧، ٤٨ ـ ٤٩، ٢٨/ ٤٦٨ ـ ٤٧٦، ٣٥/ ٥٣ ـ ٥٧؛ تاريخ الطبري: ٥/ ٦٤ ـ ٩٢؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢٨٥ ـ ٣١٠.

(١) الفتح: ١٦/ ٣٤.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٧٩، ٣٥٠، ١٣/ ٣١ ـ ٣٢، ٢٨/ ٤٧٦.

(٣) الفرق بين الفرق، ص٧٣؛ مجموع الفتاوى: ٣/ ٣١.

من أهل الجمل، وقاتلوا مع علي أهل الشام بصفين، ولمّا رُفعت المصاحف ودُعي إلى التحكيم، ورضي علي؛ أنكروا عليه قبولَه، ثم خرجوا عليه، فراسَلَهم في الرجوع، فأصروا على الامتناع حتى يشهد على نفسه بالكفر لرضاه بالتحكيم ويتوب، ثم راسلهم أيضاً، فأرادوا قَتْلَ رسوله. ثم اجتمعوا على أن من لا يعتقد معتقدهم؛ يَكْفُر ويُباح دمه وماله وأهله. وانتقلوا إلى الفعل، فاستعرضوا الناس فقتلوا من اجتاز بهم من المسلمين[١].

ومن معتقداتهم الباطلة: إكْفَارُهم أهلَ الذنوب، وأنهم لا يتمسَّكون من السنَّة إلا بما فُسِّر مُجْمَلُها دون ما خالَفَ ظاهر القرآن عندهم[٢].

وأبطَلُوا رجمَ المُحصَن، وقطعوا يد السارق من الإبط، وأوجبوا الصلاة على الحائض في حال حيضها، وكَفَّروا مَن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان قادراً، وإن لم يكن قادراً فقد ارتكب كبيرة، وحُكْم مرتكب الكبيرة عندهم حُكم الكافر، وكَفُّوا عن أموال أهل الذمة وعن التعرض لهم مطلقاً، وفتكوا فيمن يُنسب إلى الإسلام، فالقتلُ والسبيُ والنهبُ: فمنهم من يفعل ذلك مطلَقاً بغير دعوة منهم، ومنهم من يدعو أولاً ثم يفتك[٣]!.

●● **اختلف العلماء في تكفير الخوارج[٤]، حتى قال المازَرِيُّ: (وقد كادت هذه المسألة تكون أشد إشكالاً من سائر المسائل)[٥].**

وقد قال بكفرهم جماعة من العلماء، وبذلك صرح القاضي أبو بكر بن العربي في «شرح الترمذي»، قال: (الصحيح أنهم كفار لقوله ﷺ: «**يمرقون من الإسلام**»، ولقوله: «**لأقتلنهم قتل عاد**» وفي لفظ: «**ثمود**»، وكل منهما إنما هلك

---

(١) الفتح: ١٦/ ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٠، ٣٧، ٤٨.
(٣) الفتح: ١٦/ ٣٦.
(٤) شرح مسلم، للنووي: ٤/ ١٦٧ ـ ١٧٧؛ الفتح: ١٦/ ٥٨ ـ ٦٠، فيهما تفصيل أقوال العلماء.
(٥) شرح مسلم، للنووي: ٤/ ١٧٦.

بالكفر، ولقوله: «**هم شرّ الخلق**» ولا يوصف بذلك إلا الكفار، ولقوله: «**إنهم أبغض الخلق إلى الله تعالى**»، ولحكمهم على كل من خالف معتقدهم بالكفر والتخليد في النار، فكانوا هم أحق بالاسم منهم). وممن جنح إلى ذلك من أئمة المتأخرين الشيخ تقي الدين السُّبْكي[١].

قال الحافظ: (وذَهَب أكثَرُ أهل الأصول من أهل السنَّة إلى أن الخوارج فُسَّاق، وأن حُكْم الإسلام يجري عليهم لتلفُّظِهم بالشهادتين، ومواظبتِهم على أركان الإسلام. وإنما فَسَقُوا بتكفيرهم المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد، وجرَّهم ذلك إلى استباحةِ دماء مخالفيهم وأموالهم، والشهادةِ عليهم بالكفر والشرك. وقال الخَطَّابي: أجمع علماء المسلمين على أن الخوارج مع ضلالتهم فرقة من فرق المسلمين، وأجازوا مناكحتهم وأكلَ ذبائحهم، وأنهم لا يُكَفَّرون ما داموا متمسكين بأصل الإسلام).

وقال الغزالي في «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»: (**والذي ينبغي: الاحترازُ عن التكفير ما وُجِد إليه سبيلاً، فإن استباحةَ دماءِ المصلِّين المُقِرِّين بالتوحيد خطأٌ، والخطأ في تَرْكِ ألفِ كافر في الحياة أهونُ من الخطأ في سفك دمٍ لمسلم واحد**)[٢].

ويؤيد القولَ بعدم إكفارهم ما أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن طارق بن شهاب قال: (كنت عند علي، فَسُئل عن أهل النهر[٣]: أَهُمْ مشركون؟ قال: من الشرك فَرُّوا، قيل: فمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل له: فما هم؟ قال: قومٌ بَغَوا علينا)[٤].

---

(١) الفتح: ١٦/ ٥٨.
(٢) الفتح: ١٦/ ٥٩.
(٣) يعني: الخوارج.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٤٣.

●● شرح معاني صفاتهم التي جاءت في الأحاديث:

ـ «**أحداث الأسنان**» وفي رواية: «**حدثاء الأسنان**»: شباب صغار في العمر.

ـ «**سفهاء الأحلام**»: أي عقولهم صغيرة رديئة، والسَّفَه: الخِفَّةُ في العقل والجهلُ.

ـ «**يقولون من خير قول البرية**»: هذا مقلوب، والمراد: «**من قول خير البرية**»[١]: وهو القرآن، ويَحْتَمِل أن يكون على ظاهره، والمراد: القول الحسن في الظاهر وباطنه على خلاف ذلك، كقولهم: (لا حكم إلا لله).

ـ «**لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**»: أي يؤمنون بالنطق لا بالقلب.

ـ «**يمرقون من الدِّين مروق السهم من الرَّمِيَّة**»، وفي رواية: «**يمرقون من الإسلام**»: **الرَّمِيَّة**: هي الصيد المَرمي. شبَّه مروقهم من الدين بالسهم الذي يُصيب الصيدَ فيدخل فيه ويخرج منه، ومن شدة سرعة خروجِه لقوة الرامي لا يَعلق فيه من جسد الصيد شيء.

ـ «**فإذا لقيتموهم فاقتلوهم**»، وفي رواية «**لئن أدركتُهم لأقتلنَّهم قتلَ عاد**»: وقد استشكل بعضهم هذا مع أن النبيَّ ﷺ نهى عمر وخالداً عن قتل ذي الخويصرة. وأُجيب بأنه أراد إدراكَ خروجهم واعتراضهم المسلمين بالسيف، ولم يكن ظهر ذلك في زمانه، وأول ما ظهر في زمان علي كما هو مشهور.

ـ «**لقد خِبْتُ وخَسِرْتُ**»: روي بفتح التاء وبضمِّها فيهما، ومعنى الضم ظاهر، وتقدير الفتح: خبتَ أنت أيها التابع إذا كنتُ لا أعدلُ، لكونك تابعاً ومقتدياً بمن لا يعدل. والفتح أشهر.

واختار (فتح التاء) ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم.

---

(١) جاء هكذا في رواية أحمد: في مواضع من «المسند».

ـ «**يَحْقِر أحدكم صلاته . . .**»: أي هم كثيرو الصلاة والصيام، من رآهم على ذلك يستقلُّ ويستصغر صلاته وصيامه مع صلاتهم وصيامهم.

ـ «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم**»، وفي رواية: «**لا يجاوز حناجرهم**»: أي لا تفقهه قلوبهم، ويَحملونه على غير المراد منه، ولا ينتفعون بما تلَوْا منه، ولا لهم حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق إذ بهما تقطيع الحروف.

ويَحتمِل أن يكون المراد أن قراءتهم لا يرفعها الله تعالى ولا يتقبلها.

ـ «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يُنظر في قذذه . . . نَصْله . . . رصافه . . . . نَضِيّه . . . قد سبق الفَرْثَ والدَّمَ**»: أي يخرجون من الإسلام بغتةً، كخروج السهم إذا رماه رامٍ قوي الساعد، فأصاب ما رماه، فنَفَذ منه بسرعة بحيث لا يعلق بالسهم ولا بشي منه من المرمي شيء، فإذا التمس الرامي سهمه وجده ولم يجد الذي رماه، فينظر في السهم ليعرف هل أصاب أو أخطأ، فإذا لم يره علق فيه شيء من الدم ولا غيره؛ ظن أنه لم يُصِبْه والفرض أنه أصابه، وإلى ذلك أشار بقوله: «**سبق الفرث والدم**»: أي جاوزهما ولم يتعلق فيه منهما شيء بل خرجا بعده.

نصله: هو حديدة السهم.

رصافه: هو مدخل النصل من السهم.

نَضِيّه: هو القِدْح، أي عود السهم قبل أن يُراش ويُنْصَل، سُمِّي بذلك لأنه بُرِي حتى عاد نِضْواً أي هزيلاً.

القُذَذ: جمع قُذَّة، وهي ريش السهم.

ـ «**آيتهم**»: علامتهم.

ـ «**مثل ثدي المرأة أو مثل البَضْعَة**»: أي القطعة من اللحم.

ـ «**تَدَرْدَرُ**»: أي تتحرك وتذهب وتجيء.

ـ «**لأقتلنَّهم قتلَ عاد**»: أي قتلاً فلا يبقي منهم أحداً، إشارة إلى قوله تعالى:

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]، ولم يُرِدْ أنه بقتلهم بالآلة التي قُتِلت بها عاد بعَيْنِها.

- «**يَتيه قوم قِبَلَ المشرق**»: أي يذهبون عن الصواب وعن طريق الحق.

- «**محلّقة رؤوسهم**»، وفي بعض الروايات: «**سيماهم التحليق**»: هو حلق شعر الرأس.

- «**المُخْدَج**»: ناقص اليد. «**المُودَن**»: ناقص اليد أيضاً. «**المَثْدون**»: هو صغيرُ اليد مُجْتَمِعُها كثُنْدُوَة الثدي وهي رأسُه.

- «**جفون السيوف**»: أغمادها.

- «**فَوَحَّشوا برماحهم**»: رموا بها عن بُعْد.

- «**وشَجَرَهُم الناس برماحهم**»: أي مددوها إليهم وطاعنوهم بها.

ثالثاً: مجمل صفاتهم كما جاءت بها الأحاديث الصحيحة:

كثرت الأحاديث التي تحدّثت عن الخوارج وبيَّنت صفاتِهم وشبهاتِ خروجهم ودعوتَهم وحُجَجَهم، ويمكن إيجازها فيما يلي:

١ - حُدَثاء الأسنان صغار طائشون.

٢ - سُفهاء الأحلام، عقولهم ضئيلة، وآراؤهم رديئة.

٣ - سِيماهم التحليق وإظهار الزهد.

٤ - يقولون من قول خير البرية في ظاهر أحوالهم، والحقيقةُ خلاف ذلك.

٥ - لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فلا يستمكن في قلوبهم.

٦ - يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيَهم ولا تفقهه قلوبهم.

٧ - كثيرو الصلاة والصيام، مُغالون متنطِّعون.

٨ - يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية.

٩ ـ استباحوا بجهلهم دماء المسلمين، فقاتلوا أهل الإسلام، وتركوا أهل الذمة والأوثان.

١٠ ـ شرار الخلق والخليقة.

١١ ـ يُؤَوِّلون آيات القرآن على غير المراد منها، وانطَلَقوا إلى آيات الكفار فجعلوها في المؤمنين.

١٢ ـ يخرجون على حين فُرقة من الناس، يبتغون الفتنة ويَهْوَوْن الشِّقاق.

١٣ ـ يعتقدون أنهم على الحق وغيرهم على الباطل، لتحجُّر عقولهم وضعف رأيهم وقلة فهمهم، بل وَأكْفَروا المسلمين بشططهم وضلالهم.

١٤ ـ يرون قتالَهم جهاداً وقَتْلَهم شهادة، فكانوا يتنادون: (الرَّوَاحَ الرواحَ إلى الجنة).

١٥ ـ فيهم بقايا السبئية ممن خرجوا على عثمان وقتلوه، وقاتلوا يوم الجمل وصفين باستماتة، ورفضوا الصلح لاعتقادهم كفر خصمهم!.

رابعاً: خروجهم على أمير المؤمنين علي، ومناظرة علي والصحابة لهم، وقتاله لهم ثم قتلهم:

لمَّا وقع الرضا بالتحكيم، ورجع علي إلى الكوفة، اعتزل الخوارج بِحَرُورَاءَ، وقالوا: (لا حُكْمَ إلّا للهِ)، فقال علي: كلمةُ حقٍّ أُرِيد بها باطل[1].

وجاء اثنان من رؤوسهم، وطَلَبا من علي أن يتراجع عن التحكيم، فأبى ذلك، فقال له أحدهما: (أَمَا واللهِ يا عليّ! لئن لم تَدَعْ تحكيمَ الرجال في كتاب الله ﷻ قاتلتُكَ، أطلبُ بذلك وجْهَ الله ورضوانَه! فقال له علي: بؤساً لك ما أشقاك! كأني بك قتيلاً تَسْفِي عليك الريح! قال: وَدِدْتُ أن قد كان ذلك. فقال له علي: لو كنتَ محِقّاً كان في الموت على الحق تعزية عن الدنيا، إن

(١) صحيح مسلم (١٠٦٦) (١٥٧)؛ السنن الكبرى، للنسائي (٨٥٠٩).

الشيطان قد استهواكم، فاتقوا الله ﷻ، إنه لا خير لكم في دنيا تقاتِلون عليها. فخرجا من عنده يُحَكِّمان)[١].

وكان جملة من خرج على أمير المؤمنين علي ثمانية آلاف من قراء الناس، وانضم إليهم آخرون، فبلغوا نحو اثني عشر ألفاً!.

وقد ناظرهم علي ﵁، وبعث إليهم حبر الأمة ابن عباس فناظرهم، فرجع كثير منهم إلى الحق.

عن عُبيد الله بن عياض بن عَمْرو القارِيّ قال: (جاء عبد الله بن شدَّاد فدخل على عائشة ﵂ ونحن عندها جلوس، مرجعَهُ من العراق ليالي قُتِل علي ﵁، فقالت له: يا عبد الله بن شداد! هل أنت صادِقي عمَّا أسألُكَ عنه؟ تحدِّثُني عن هؤلاء القوم الذين قَتَلهم عليٌّ ﵁؟ قال: وما لي لا أصدُقُك؟! قالت: فحدِّثْني عن قِصَّتِهم. قال: فإن عليّاً ﵁ لما كاتَبَ معاوية وحَكَم الحَكَمان، خَرج عليه ثمانيةُ آلاف من قرَّاء الناس، فنزلوا بأرضٍ يقال لها: حَرُوراءُ من جانب الكوفة، وإنهم عَتَبوا عليه فقالوا: انسلختَ من قميصٍ[٢] ألْبَسَكَه الله تعالى، واسمٍ[٣] سمَّاك الله تعالى به، ثم انطلقتَ فحكَّمْتَ في دين الله، فلا حُكْمَ إلا لله تعالى.

فلما أن بَلَغ عليّاً ما عَتَبُوا عليه وفارَقُوه عليه، فأمر مؤذِّناً فأذَّن: أن لا يَدخُلَ على أمير المؤمنين إلا رجلٌ قد حَمَل القرآن، فلما أن امتلأت الدار من قرَّاء الناس، دعا بمصحفٍ إمامٍ عظيم، فوضعه بين يديه، فجعل يَصُكُّهُ بيده ويقول: أيها المصحفُ حَدِّثِ الناسَ! فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين! ما تسألُ عنه؟ إنما هو مِدادٌ في وَرَق! ونحن نتكلَّم بما رُوِّيناه منه، فماذا تُريد؟ قال: أصحابُكم هؤلاء الذين خرجوا، بيني وبينهم كتابُ الله؛ يقول الله تعالى في كتابه في امرأةٍ ورجلٍ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٧٢؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢٨٥. **يُحكّمان**: يقولان: (لا حكم إلا لله).

(٢) يعني: الخلافة.

(٣) يعني: أمير المؤمنين.

إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، فأمةُ محمد ﷺ أعظمُ دماً وحُرْمةً من امرأة ورجل. ونَقَموا عليَّ أن كاتبتُ معاويةَ: كتَبَ عليُّ بن أبي طالب، وقد جاءنا سُهيل بن عَمْرو، ونحن مع رسول الله ﷺ بالحُدَيْبِيَة حين صالحَ قومَه قريشاً، فكتب رسول الله ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، فقال سُهيل: لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «**كيف نكتُبُ؟**» فقال: اكتُبْ باسْمِكَ اللهمَّ، فقال رسول الله ﷺ: «**فاكتُبْ محمد رسول الله**»، فقال: لو أعلمُ أنك رسولُ الله لم أُخَالِفْكَ، فكتب: هذا ما صالَح محمدُ بن عبد الله قريشاً. يقول الله تعالى في كتابه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فبعث إليهم عليٌّ عبدَ الله بن عباس رضي الله عنهما، فخرجتُ معه، حتى إذا توسَّطْنَا عسكرَهُم قام ابن الكَوَّاء يخطُب الناسَ فقال: يا حَمَلَةَ القرآنِ! إن هذا عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، فمن لم يكن يعرفهُ فأنا أُعَرِّفُهُ من كتاب الله ما يعرفُه به، هذا ممَّن نَزَل فيه وفي قومه ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، فَرُدُّوه إلى صاحِبه، ولا تُواضِعُوه كتابَ الله.

فقام خطباؤهم فقالوا: والله لَنُوَاضِعَنَّهُ كتابَ الله، فإن جاء بحقٍّ نعرفه لَنَتَّبِعَنَّه، وإنْ جاء بباطلٍ لَنُبَكِّتَنَّهُ بباطِله.

فواضَعُوا عبدَ الله الكتابَ ثلاثة أيام، فرَجَع منهم أربعةُ آلاف كلُّهم تائبٌ، فيهم ابن الكَوَّاء، حتى أَدْخَلَهم على عليٍّ الكوفةَ.

فبَعَث علي رضي الله عنه إلى بقيَّتِهم فقال: قد كان من أَمرنا وأَمر الناس ما قد رأيتُم، فَقِفُوا حيث شِئْتُم حتى تجتمعَ أمةُ محمد ﷺ، بيننا وبينكم أن لا تَسْفِكوا دماً حراماً أو تَقْطَعُوا سبيلاً أو تَظْلِمُوا ذِمّةً، فإنكم إنْ فعلتُم فقد نَبَذْنا إليكمُ الحربَ على سواءٍ إن الله لا يحبُّ الخائنين.

فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا ابنَ شداد! فقد قَتَلَهم، فقال: واللهِ ما بَعثَ إليهم حتى قَطَعُوا السبيلَ وسَفَكوا الدمَ واستحلُّوا أهلَ الذمة، فقالت: آللهِ؟ قال: آللهِ الذي لا إلٰه إلا هو لقد كان(١).

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٨٦ ـ ٨٧، واللفظ له؛ والحاكم: ٢/ ١٥٢ ـ ١٥٤؛ وصحَّحه ووافقه =

●● وبقي من بقي من الخوارج على رأيه وضلالته، حتى شتموا أمير المؤمنين وهو على المنبر، فبينما هو يخطُب ذات يوم، إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال: يا علي! أشركتَ في دين الله الرجالَ، ولا حُكْمَ إلا لله! فتنادَوا من كل جانب: لا حُكْمَ إلا لله، لا حكم إلا لله! فجعل علي يقول: (هذه كلمةُ حقّ يُرادُ بها باطلٌ). ثم قال: (إن لكم علينا أن لا نمنَعَكم فيئاً ما دامت أيديكم معنا، وأن لا نمنَعَكم مساجدَ الله، وأن لا نبدأكم بالقتال حتى تبدؤونا).

واجتمعوا في بيت عبد الله بن وَهْب الراسِبيّ، فخطَبهم خطبة بليغة، زهَّدهم فيها في الدنيا، ورغَّبهم في الآخرة والجنة، وحَثَّهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: (فاخرجوا بنا إخوانَنا من هذه القرية الظالمِ أهلُها إلى بعض كُوَرِ الجبال)[١].

واجتمع رأي هؤلاء الأشقياء المتنطِّعين في دين الله على الخروج من بين ظهراني المسلمين، وبَعثوا لكل من هو على رأيهم فاجتمعوا بالنَّهْرَوان[٢]، وصارت لهم شوكة ومَنَعَة، وفيهم شجاعة وبأس، وهم يعتقدون أنهم في كل ذلك متقرِّبون إلى الله ﷻ!.

وانتقلوا إلى الفعل فعاثُوا في الأرض فساداً، وسفكوا الدماء، وقطعوا السبيل، واستحلّوا المحارم، وقتلوا من اجتاز بهم من المسلمين، ومرَّ بهم عبد الله بن خَبَّاب بن الأرتّ ـ وكان والياً لعليٍّ على بعض تلك البلاد ـ ومعه سُرِّيَّةٌ وهي حامل، فقتلوه وبقروا بطن سُرِّيَّته عن ولد!.

= الذهبي؛ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ٢٨٠ ـ ٢٨١، وقال: تفرد به أحمد وإسناده صحيح؛ وصحَّحه أيضاً أحمد شاكر. وانظر مناظرة ابن عباس لهم في حديث طويل أخرجه النسائي في الكبرى (٨٥٢٢)؛ وعبد الرزاق (١٨٦٧٨)؛ والحاكم: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥٢؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٧٣، ٧٤؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٦٢٥.

(٢) كورة واسعة بين بغداد وواسط.

ولقي بعضهم خِنزيراً لبعض أهل الذمة، فضربه بعضُهم فشَقَّ جلده، فقال له آخر: لِم فعلتَ هذا وهو لذميٍّ؟ فذهب إلى ذلك الذمي، فاستحلَّه وأرضاه.

ومروا بنَخْلٍ فسقطت تمرة من نخلة، فأخذها أحدهم فألقاها في فمه، فقال له آخر: بغير إذنٍ ولا ثمنٍ؟! فألقاها ذاك من فمه!.

فَبَلغ عليّاً ما فعلوه من قَتْل المسلمين، فتوجَّه إليهم بجيشه، وبعث بين يديه قيس بن سعد بن عُبادة، وبعث إلى الخوارج أن ادفعوا إلينا قتلةَ إخواننا منكم حتى أقتلهم، ثم أنا تارِكُكم وذاهبٌ إلى الشام، ثم لعلَّ الله أن يُقْبِل بقلوبكم، ويردَّكم إلى خير مما أنتم عليه. فبعثوا إلى علي يقولون: كلُّنا قتلَ إخوانكم، ونحن مستحلُّون دماءهم ودماءكم. فتقدم إليهم قيس بن سعد فوعظهم فيما ارتكبوه من الأمر العظيم، والخَطْب الجسيم، فلم ينفع! ثم جاء أبو أيوب الأنصاري فأنَّبَهم وبَّخَهم، فلم يَنْجَع. وتقدم إليهم أمير المؤمنين علي، فوعظهم وخوَّفَهم، وحذَّرهم وأنذرهم وتوعَّدَهم، فلم يكن لهم جواب إلا أن تنادَوا فيما بينهم: أن لا تُخاطبوهم ولا تكلِّموهم، وتهيؤوا للقاء الله ﷻ، الرواحَ الرواحَ إلى الجنة!.

وتقدَّموا واصطفُّوا للقتال، وتأهَّبوا للنزال، ووقف علي بجيشه أمامهم، وأمر أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج، ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا. فانصرف منهم طوائف كثيرون، وكانوا في أربعة آلاف، فلم يبقَ منهم إلا ألف أو أقلّ مع عبد الله بن وَهْب الراسبيِّ. فزحفوا إلى علي، فقدَّم علي بين يديه الخيل، وقدَّم منهم الرماة، وصفَّ الرجَّالة وراء الخيَّالة، وقال لأصحابه: كُفّوا عنهم حتى يبدؤوكم. وأقبلت الخوارج يقولون: لا حُكْمَ إلا لله، الرواحَ الرواحَ إلى الجنة، فحملوا على الخيالة الذين قدَّمهم علي، ففرَّقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة وأخرى إلى الميسرة، فاستقبلَتْهم الرماة بالنبل، وعطفَتْ عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فأناموا الخوارج، فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقُتل أمراؤهم: عبد الله بن

وهب، وحُرْقوص بن زهير، وشُريح بن أوفى، ولم ينجُ منهم إلا دون العشرة، ولا قُتل ممن مع علي إلا نحو العشرة.

وكان ذلك في شعبان سنة ثمان وثلاثين للهجرة(١).

وفي حديث زيد بن وَهْب ـ المتقدم ـ عن علي رضي الله عنه قال: (لمَّا كان يومُ النَّهْروان لقي الخوارجَ، فلم يَبْرَحوا حتى شَجَروا بالرماح، فقُتِلوا جميعاً. قال علي: اطلُبوا ذا الثُّدَيَّة. فطَلَبوه، فلم يجدوه، فقال علي: ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ، اطلُبوه! فطَلَبوه، فوجدوه في وَهْدةٍ من الأرض، عليه ناسٌ من القتلى، فإذا رجلٌ على يده مِثْلُ سَبَلات السِّنَّوْر، فكبَّر عليٌّ والناس، وأعجَبَهم ذلك)(٢).

وفي رواية: (فقال علي رضي الله عنه: التَمِسُوا فيهم المُخْدَجَ، فالتَمَسُوه فلم يجدوه. فقام علي رضي الله عنه بنَفْسه، حتى أتى ناساً قد قُتل بعضُهم على بعضٍ، قال: أخِّروهم، فوجدوه مما يَلي الأرض، فكبَّر ثم قال: صَدَق الله وبَلَّغ رسولُه)(٣).

خامساً: لماذا أمر النبي ﷺ بقتلهم، بخلاف أهل الشام وأصحاب الجمل؟:

ثبت عن النبي ﷺ من وجوه أنه أَمر بقَتْل الخوارج، وبيَّن أن في قتلهم أجراً، من ذلك قوله ﷺ: «**فأينما لَقِيتُموهم فاقتُلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة**».

وقوله: «**اقتلوهم هم شرُّ البريَّـة**».

وقوله: «**لَئِن أدركتُهم لأقتلنَّهم قَتْلَ ثمود**».

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٨١ ـ ٩١؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢٨٨ ـ ٢٩٠؛ الفتح: ١٦/ ٣٦؛ كتابي: (الخلفاء الراشدون)، ص٦٢٥ ـ ٦٢٧.

(٢) السنن الكبرى، للنسائي (٨٥١٦). والسنور: حيوان من اللواحم يشبه الهر. **والسبلة**: الشارب.

(٣) صحيح مسلم (١٠٦٦) (١٥٦).

وقوله: «لئن أدركتُهم لأقتلنَّهم قَتْلَ عاد».

وعن علي قال: (لولا أن تَبْطَروا لحدَّثْتُكم بما وَعَد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ).

وإنما أَمر الرسول ﷺ بقتالهم وقتلهم لِما عَلِمَه مما سيكون منهم من الفساد الظاهر من سفك الدماء، وأخذ الأموال، والخروج بالسيف على الأمة، وقتلهم أهلَ الإسلام وتركهم أهلَ الشرك والأوثان، وإكفارهم المسلمين، وتأويلاتهم الفاسدة لآيات القرآن وحملها على غير المراد منها بجهل وتنطع، واعتقاد أنهم أهل الحق وغيرهم كفار، دماؤهم وأموالهم حلال[1].

ولذلك قاتَلَهم الصحابة مع أمير المؤمنين علي، ولم يختلفوا في قتالهم كما اختلفوا في قتال الفتنة يوم الجمل وصفين[2].

بل عبَّر أمير المؤمنين عن فرحه بقَتْلِهم وهو يقول: (ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ)، (صَدَق الله وبلَّغ رسوله)! بخلاف ما صدر منه أيام الجمل وصفين من ندم وحزن وتوجُّع.

وأما أصحاب الجمل وأهل الشام فهم من أهل الحق، وإحدى الفئتين المسلمتين كما سمَّاهم الحديث، وهم مجتهدون؛ إما مصيبون أو مخطئون، وذنوبهم مغفورة لهم، والصحابة رضوان الله عليهم جميعاً من أهل العدالة، لا يجوز أن يُحكَم عليهم بكفر ولا فسق، ومَنْ تجرأ على ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً! وأهل السنَّة الذين عصمهم الله بالدين والورع والفهم والإنصاف متفقون على عدالة الصحابة[3].

وأما الخوارج فسمَّاهم الحديث (المارقين)، وأمر النبي ﷺ بقتال الخوارج

---

(١) انظر قريباً مما ذكرناه في مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٥.
(٢) مجموع الفتاوى: ٣٠/ ٣٤٩.
(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٥٤.

ابتداءً قبل أن يقاتِلوا، بخلاف أهل الجمل وصفين؛ فأمر بالإصلاح أولاً، ثم إن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى تقاتل الباغية.

يقول ابن تيمية: (تواتر عنه ﷺ أنه أَمر بقتال الخوارج المارقين، الذين قاتلهم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنهروان بعد خروجهم عليه بحَرُوراءَ، فهؤلاء استفاضت السنن عن النبي ﷺ بالأمر بقتالهم. ولمَّا قاتَلَهم علي رضي الله عنه فَرِح بقتالهم، وروي الحديث فيهم. واتفق الصحابة على قتال هؤلاء، وكذلك أئمة أهل العلم بعدهم، لم يكن هذا القتال عندهم كقتال أهل الجمل وصفين وغيرهما، مما لم يأتِ فيه نصّ ولا إجماع، ولا حَمِدَه أفاضل الداخلين فيه، بل ندِموا عليه، ورجعوا عنه)[١].

وقال في موضع آخر: (وأما السَّلَف والأئمة فيقول أكثرهم ـ كأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم ـ: لم يُوجَد شرطُ قتال الطائفة الباغية، فإن الله لم يأمر بقتالها ابتداءً، بل أمر إذا اقتتلت طائفتان أن يُصْلَح بينهما، ثم إن بَغَت إحداهما على الأخرى قوتِلت التي تبغي)[٢].

سادساً: دروس وعبر[٣]:

١ ـ في هذه الأحاديث منقبة جليلة لأمير المؤمنين علي في قتاله الخوارج، كما في الحديث: «**فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم**».

٢ ـ وفي قصة الخوارج منقبة رفيعة لحبر الأمة عبد الله بن عباس، في مناظرته للخوارج وبراعته وقوة حجته وحسن استدلاله، فاستنقذ الله به أربعة آلاف، انتقلوا من الضلال إلى الهدى، وله بذلك أجر هدايتهم إلى الحق.

٣ ـ وفيها حرصُ الصحابة رضي الله عنهم على الناس، وحبُّ الخير لهم، وسعيُهم

---

(١) منهاج السنة: ٤/٥٣١ ـ ٥٣٢.
(٢) المرجع السابق: ٤/٣٩٠ ـ ٣٩١.
(٣) استقيت بعض هذه الفوائد مما كتبه الحافظ في الفتح: ١٦/٥٧ ـ ٦٠.

الحثيث على هدايتهم، واستنقاذهم من براثن الهوى والتأويل الفاسد، وتبصيرهم بطريق الهدى والحق.

٤ ـ الكَفُّ عن قَتْل من يعتقد الخروجَ على الإمام، ما لم يَنصبْ لذلك حرباً أو يستعد لذلك؛ لقوله: «**فإذا خرجوا فاقتلوهم**». وحكى الطبري الإجماع على ذلك في حق من لا يكفر باعتقاده.

٥ ـ لا يجوز للحاكم قتال الخوارج وقتلهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم، بدعائهم إلى الرجوع إلى الحق، والإعذار إليهم.

وقد التزم أمير المؤمنين علي بذلك إلى أبعد مدى، فقال لهم: (إنَّ لكم علينا أن لا نمنَعَكم فَيْئاً ما دامت أيديكم معنا، وأن لا نمنعكم مساجد الله، وأن لا نبدأكم بالقتال حتى تبدؤونا).

وتقدم إليهم فنصحهم، وناظرهم، ودعاهم ورغَّبهم ورهَّبهم، ثم أرسل إليهم ابن عباس، ثم قدَّم بين يديه قيس بن سعد، ثم أمر أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان لهم ويعلن أن من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، فانصرف منهم نحو ثلاثة آلاف!

٦ ـ لا يجوز أخذ أي إنسان بجريرة غيره؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩]. وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وهذا أمير المؤمنين علي يقول للخوارج بعد أن قتلوا عبد الله بن خبَّاب وأم ولده وغيرهما: (ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم حتى أقتلهم).

٧ ـ التحذير من الغلو في الدين والتنطع في العبادة وحمل النفس على أمور لم يأذن بها الشرع! فالشريعة سهلة سمحة، ودين الله متين، فيجب الإيغالُ فيه برفق، وحملُ أمور المسلمين على السلامة، وعدمُ الطعن في دينهم أو تكفيرهم والخروج عليهم بتأويل فاسد، وتفسير النصوص بغير المراد منها.

٨ ـ في ديننا مجال رحب للاجتهاد المنضبط من أهله وأصحابه، والاختلاف طبيعة البشر، وقد اختلف المسلمون قديماً وحديثاً، لكن يجب أن لا يؤدي ذلك إلى المنابذة، وشق عصا الطاعة، وتفريق كلمة المسلمين، والعبث بوحدتهم، ففي ذلك ضياع البلاد وسفك الدماء.

٩ ـ حرص الإسلام على وحدة الأمة، وحافظ على روح الجماعة، واستأصل جراثيم الفرقة، وحارب مظاهر الشذوذ، وشدَّد النكير على أصحابها، وبلغ في ذلك حدّاً يثير الدهشة، حتى في الأشياء التي تبدو بسيطة لأول وهلة!.

قال النبي ﷺ: «**أَمَا يَخْشَى أحدُكم إذا رَفَع رأسَه قبلَ الإمام أن يجعلَ اللهُ رأْسَه رأسَ حمارٍ، أو يجعلَ اللهُ صورتَهُ صورةَ حمارٍ؟!**»[1].

وهذه الحملة النبوية ليست على غلطة رجلٍ في موقفه، بل هي على بلادة رجل في تصرفه بلادة يبست فيها نفسه حتى إن روح الجماعة لم تستطع إذابتها.

بل إن الرسول ﷺ قال: «**إنَّما جُعِل الإمامُ ليُؤْتَمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا رَكَع فارْكَعُوا، وإذا قال: سمِعَ اللهُ لمِن حَمِدَه، فقولوا: ربَّنا ولكَ الحمدُ، وإذا سَجد فاسْجُدوا، وإذا صلَّى جالساً فصَلُّوا جلوساً أجمعونَ**»[2].

(فمنعاً للاختلاف أُسْقِطَ ركن القيام عن المقتدين، وهم أصحَّاء قادرون على الإتيان به؛ ذلك أن مَحْوَ شارات الفرقة أدنى إلى مرضاة الله من رعاية أوامر أخرى.. كذلك هدي رسول الله ﷺ)[3].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة: البخاري (٦٩١)؛ ومسلم (٤٢٧)؛ وأبو داود (٦٢٣)؛ والترمذي (٥٨٢)؛ والنسائي في الكبرى (٩٠٤)؛ وفي الصغرى: ٢/ ٩٦؛ وابن ماجه (٩٦١)، وغيرهم.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: البخاري (٧٣٤)؛ ومسلم (٤١٤)؛ وأبو داود (٦٠٣)؛ والنسائي في الكبرى (٩٩٥)؛ وفي الصغرى: ٢/ ١٤١ ـ ١٤٢؛ وابن ماجه (٨٤٦) و(١٢٣٩)، وغيرهم.

(٣) ظلام من الغرب، ص٢٩٤.

١٠ ـ خطورة تصدُّر الجهلةِ والأغرار والسفهاء من أصحاب العقول الصغيرة والآراء الرديئة والسَّفَه والشطط في الاجتهاد وإطلاق الأحكام على الناس والجماعات والهيئات.. وقد جرَّبت الأمة هذا النوع من سفهاء الأحلام؛ سواء ممن تولوا المسؤوليات الكبيرة والصغيرة في الحكم، أو أداروا دفة المجتمع والحركات والمنظمات، فما عادوا على الأمة إلا بالفساد والخراب وسوء الحال!.

إنه ينبغي الضَّربُ على أيدي هؤلاء وتأخيرُهم إلى الساقة، وفرضُ الوصاية عليهم حتى لا يستبدوا بالقرار، ويُدخِلوا الأمة في متاهات طالما جرَّبَتْها وتجرَّعت كؤوسَها المُرّة!.

١١ ـ على دعاة الإسلام والمصلحين وأصحاب الحركات الإسلامية المباركة، الذين يسعون جميعاً لإعزاز دين الله ورفع رايته وتحكيم شرعه؛ أن يستفيدوا من دروس التاريخ من لدن حركة الخوارج إلى العصر الحاضر، ولا يقدِّموا المبررات للطغيان أن يبطش بهم، ويحرم الأمة من الخير الذي يحملونه.. ومعاذ الله أن نشبِّه هؤلاء المستبدِّين بخلفاء الإسلام، أو نقارن بين أصحاب الدعوات العظيمة وبين الخوارج ومن على شاكلتهم! لكننا نقول: في دراسة التاريخ وسيرورته قديماً وحديثاً؛ عبرة لأولي الألباب.

❁ ❁ ❁

إخبار النبي ﷺ
بأن علياً يقاتل الخوارج على تأويل القرآن

عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: (كنَّا جُلوساً ننتظرُ رسولَ الله ﷺ، فخرج علينا مِن بعضِ بيوت نسائِه، قال: فقُمنا معه، فانقطَعَتْ نَعْلُه، فتخلَّف عليها عليٌّ يَخْصِفُها، فمضَى رسول الله ﷺ، ومضَيْنَا معه، ثم قام ينتظره وقُمنا معه، فقال: **«إنَّ منكم مَنْ يُقاتِلُ على تأويلِ هذا القرآنِ كما قاتَلْتُ على تَنْزِيلِهِ»**! فاستَشْرَفْنا، وفينا أبو بكر وعمر، فقال: **«لا، ولكنَّه خاصِفُ النَّعْلِ»** قال: فجِئنا نُبَشِّره، قال: وكأنه قد سمعه) لفظ أحمد.

وفي رواية للحاكم وغيره: (قال أبو بكر: أنا هُوَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: **«لا»** قال عمر: أنا هُو يا رسول اللهِ؟ قال: **«لا، ولكنْ خاصِفُ النَّعْلِ»**، يعني: عليّاً، فأتيناه فبشَّرناه، فلم يرفَعْ به رأْسَه، كأنَّه قد كان سَمِعَه من رسول الله ﷺ)(١).

۞ ۞ ۞

هذه معجزة لنبيِّنا محمد ﷺ، وعَلَمٌ ظاهر من أعلام نبوته، ودلالة أخرى على صدق رسالته. وفيها منقبة جليلة لأمير المؤمنين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بل في هذين الحديثين اثنان من أعلام النبوة:

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٨٢؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٨٨)؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨؛ وأبو يعلى (١٠٨٦)؛ وابن حبان (٦٩٣٧)؛ والحاكم: ٣/ ١٢٢ ـ ١٢٣؛ والبغوي (٢٥٥٧)؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٢٤٨٧).

الأول: الإخبار بأن طائفة ستخرج في هذه الأمة تنحرف في فهم القرآن الكريم وتؤوِّل آياته على غير المراد منها، وتستبدُّ برأيها، وتتنطّع في مذهبها وتقاتِل عليه.

والثاني: أن علياً رضي الله عنه سيكون إمام الأمة وقائد الجيش الذي سيتصدى لتلك الخارجة، فيبيِّن عُوارَ رأيها، ثم يقاتِلها ويكسر فقارها. وكل ذلك وقع كما أخبر به ﷺ.

●● لقد ابتعث الله خير رسله، وأنزل عليه أعظم كتبه، وأمره بالبلاغ عنه، فقام سيدنا محمد ﷺ بأعباء الرسالة على أكمل وجْهٍ وأتمِّه، ودعا الناس سرّاً وجهاراً، ليلاً ونهاراً، القريب والبعيد، والقوي والضعيف، والسادة والعبيد، فعاندته قريش طويلاً، وحادَّتْه وصدَّت عن سبيله، فصبر وصابر، لم تضعُف له عزيمة، ولم تلِنْ له قناة، ولم يهدأ له بال، حتى أوصل كلمة الله سبحانه إلى الناس، وأقام عليهم الحجة.

ولم تملّ قريش في الصدِّ عنه، ومدافعته عن غايته، وتعذيب من آمن به، وبارزته بالحرب، ورفعت السيف في وجهه، ونازلها ونازلته في وقائع كثيرة، فكانت العاقبة للحق، ونَصَر الله رسولَه ﷺ وأعلى كلمته؛ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، فألقَتْ قريشٌ السلاحَ صاغِرة، واستسلمت مُرغَمة، ثم أسلمت راغبة أو راهبة، وارتفعت راية الإسلام في ربوع الجزيرة العربية بفضل الله تعالى، ثم بجهاد رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وصدق النبي ﷺ بأنه قد قاتل على تنزيل القرآن.

●● وبعد نحو خمس وعشرين سنة من وفاته ﷺ، آلت الخلافة إلى ابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد حدثت في عهده أحداث وفتن، من أخطرها ما كان في أواخر خلافته من خروج الخوارج عليه ومقاتلتهم له، ثم هزيمتهم وتبدد جموعهم، كما تقدم في النبوءات الثلاث السابقة.

وقد وصفت هذه النبوءة قتال علي للخوارج بأنه سيكون على تأويل القرآن، وهكذا كان كما أخبر النبي ﷺ.

وظهر ذلك في صفات الخوارج وأقوالهم ومعتقداتهم وأفعالهم:

١ ـ فكانوا يتأوَّلون القرآن على غير المراد منه، ويستبدون برأيهم، فَهُم كما وصفهم الحديث: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيَهم**»، حيث لا تفقهه قلوبهم، ويحملونه على غير المراد منه[(١)].

٢ ـ وجاء وصفُهم في الحديث: «**يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم**»[(٢)].

٣ ـ ويكفِّرون مرتكبَ الكبيرة، ويقولون بخلوده في النار، ويستدلون لذلك بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١][(٣)].

٤ ـ ومن معتقداتهم ظَنُّهم أن القرآن يُوجِب تكفير أصحاب الذنوب، فإذا كان المؤمن هو البر التقي، قالوا: فمن لم يكن بَرّاً تقيّاً فهو كافرٌ وهو مخلَّد في النار[(٤)]!.

٥ ـ واعترضوا على عليٍّ في قبوله التحكيم، وأنه حَكَّم الرجالَ في أمر الله، والله تعالى يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠، ٦٧]، فكانت أول كلمة خرجوا بها قولهم: (لا حُكْمَ إلا لله)، انتزعوها من تلك الآية، وخرجوا على علي ومن معه وقاتلوه لذلك، وقد بيَّن لهم علي وابن عباس خطأهم وسوءَ فهمهم للآية الكريمة[(٥)].

---

(١) الفتح: ٨/ ٥٢٧ (٣٦١٠)، ١٦/ ٣٤ (٦٩٣٠).

(٢) صحيح مسلم (١٠٦٦) (١٥٦).

(٣) فتح القدير: ١/ ١٠٥.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٠.

(٥) الفتح: ٨/ ٥٢٨، ١٦/ ٣٥، ٥٤؛ السنن الكبرى، للنسائي (٨٥٢٢).

٦ ـ وقالوا: إن من لا يعتقد معتقدهم يَكفر ويُباح دمه وماله وأهله[١].

٧ ـ ولمَّا حَكَموا بكُفْر مَن خالَفَهم، استباحوا دماءهم، فكَفُّوا عن أهل الذمة والمشركين، وسفكوا دماء المسلمين[٢].

وكما جاء في الحديث: «**يَقتلون أهل الإسلام، ويَدَعُون أهل الأوثان**»[٣]!. . فقتلوا عبد الله بن خَبَّاب بن الأرتّ وغيره، وتحرَّجوا من ضَرْب خنزير لرجل ذميٍّ! وهو منتهى التنطّعِ وسوءِ الفهم والانحرافِ في التأويل!.

٨ ـ وأخذوا الآيات التي نزلت في الكفار وحَمَلُوها على المؤمنين، وهو شرُّ أنواع التأويل!.

عن بُكير بن عبد الله بن الأَشَجّ: (أنه سأل نافعاً: كيف كان رأيُ ابن عمر في الحَرُوريَّة؟ قال: كان يراهم شرارَ الخَلْق، انطَلَقوا إلى آيات الكفار فجعلوها في المؤمنين)[٤].

٩ ـ وأمر الإسلام بالرحمة بالمؤمنين والشدة على الكافرين، فعكس الخوارج الآيات في ذلك، لسوء فهمهم وانحرافهم في التأويل، فكانت رحمتهم ببهائم أهل الذمة، وشدتهم الحمقاء على المسلمين واستخفافهم بدمائهم!.

١٠ ـ ومن تأويلاتهم الفاسدة وآرائهم المنحرفة: أنهم أَبْطَلوا رجْمَ الزاني المُحْصَن، وقطعوا يد السارق من الإبط، وأوجبوا الصلاة على الحائض في حال حيضها، وكفَّروا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان قادراً، وإن لم يكن قادراً فقد ارتكب كبيرة[٥]!.

---

(١) الفتح: ١٦/٣٦.
(٢) الفتح: ١٦/٦٠ (٦٩٣٣).
(٣) صحيح مسلم (١٠٦٤) (١٤٣).
(٤) ذكره الحافظ في الفتح: ١٦/٣٨، وعزاه للطبري في «تهذيب الآثار»، وقال: سنده صحيح.
(٥) الفتح: ١٦/٣٦.

١١ ـ وغَلَا بعضُهم في الانحراف وتأويل آيات الكتاب العزيز تأويلات باطلة؛ بأن أنكر الصلوات الخمس، وقال: الواجب صلاة بالغَدَاة وصلاة بالعشيِّ، ومنهم من جوَّز نكاحَ بنت الابن وبنت الأخ والأخت[1].

١٢ ـ وكانوا يعتقدون أن قتالَهم أميرَ المؤمنين علياً ومن معه جهادٌ، وموتَهم في سبيل ذلك شهادةٌ، فكانوا يتنادَون: الرواحَ الرواحَ إلى الجنة!.

١٣ ـ وسَمّوا دارهم دار الهجرة، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب[2].

هذا مجملُ مظاهر الغلوّ الاعتقادي والانحراف الفكري والعملي عند الخوارج، والتأويلات الفاسدة التي ارتكبوها، وحَمْلهم آيات القرآن الكريم على غير المراد منها؛ لأنهم كما وصفهم النبي ﷺ: «**حُدَثَاء الأسنان، سُفَهاء الأحلام، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم**».

فكان قتال أمير المؤمنين علي لهم آيةَ حقٍّ وصدقٍ لتلك النبوءة التي وصف رسول الله ﷺ فيها علياً بأنه «**يُقاتِل على تأويل القرآن**»، فصلى الله وسلم وبارك على من زكاه ربه سبحانه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].



(١) الفتح: ١٦/ ٣٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٥.

إخبار النبي ﷺ علي بن أبي طالب بأنه إذا خرج إلى العراق يصيبه ذباب السيف، وإخباره بصفة مقتله

١ ـ عن أبي حَرْب بن أبي الأسود الدُّؤَلِيِّ، عن أبيه (عن عليٍّ رضي الله عنه قال: أتاني عبد الله بن سَلَام وقد وضَعْتُ رِجْلي في الغَرْزِ وأنا أُريدُ العراقَ، فقال: لا تأتِ العراقَ، فإنك إن أتيتَهُ أصابَكَ به ذُبَابُ السَّيْفِ! قال علي: وايْمُ اللهِ، لقد قالها لي رسولُ الله ﷺ قَبْلَكَ! قال أبو الأسود: فقلت في نفسي: يا للهِ! ما رأيتُ كاليوم! رجلٌ مُحارِبٌ يحدِّثُ الناسَ بمثلِ هذا)[١].

٢ ـ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أَشْقَى الأوَّلِين عاقِرُ الناقة، وأَشْقى الآخِرين الذي يَطْعَنُكَ يا عليّ**» وأشار إلى حيث يُطْعَن)[٢].

٣ ـ وعن عبد الله بن سَبُعٍ قال: (سمعتُ علياً يقول: لَتُخْضَبَنَّ هذه من هذا، فما يَنتظِرُ بي الأَشقى؟! قالوا: يا أميرَ المؤمنين! فأَخبِرْنا به نُبِيرُ عِتْرَتَه! قال: إذنْ تاللهِ تقتلون بي غيرَ قاتِلي! قالوا: فاسْتَخْلِفْ علينا، قال: لا، ولكن أترُكُكُم إلى ما تَرَكَكُم إليه رسولُ الله ﷺ، قالوا: فما تقولُ لربِّكَ إذا أتيتَهُ ـ أو: إذا لَقِيتَهُ ـ؟

---

(١) أخرجه الحميدي (٥٣)؛ وأبو يعلى (٤٩١)؛ والبزار (٢٥٧١)؛ وصحَّحه ابن حبان (٦٧٣٣)؛ والحاكم: ٣/ ١٤٠، واللفظ له؛ وذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٩/ ١٣٨) وقال: رواه أبو يعلى والبزّار بنحوه، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير إسحاق بن أبي إسرائيل وهو ثقة مأمون. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) أخرجه ابن سعد: ٣/ ٣٥؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٠٨٨) بشواهده؛ حيث جاء عن عدد من الصحابة؛ منهم: علي، وعمار بن ياسر، وصهيب، وجابر بن سمرة.

قال: أقولُ: اللهمَّ تركتَنِي فيهم ما بَدَا لكَ، ثم قَبضْتَنِي إليكَ وأنتَ فيهم، فإنْ شئتَ أَصلحتَهُم، وإنْ شئتَ أفسدْتَهم) (١).

٤ ـ وعن عمَّار بن ياسر ﵁ قال: (كنتُ أنا وعليٌّ رفيقَيْنِ في غزوة ذات العُشَيْرة ...) فذكر قصةً، ثم قال: (قال رسولُ الله ﷺ: «**أَلا أُحَدِّثُكُما بأشقَى الناسِ؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**أُحَيْمِرُ ثمودَ الذي عَقَر الناقةَ، والذي يَضْرِبُكَ يا عليُّ على هذه**» ووضع يده على قَرْنِه، «**حتى يَبُلَّ منها هذه**» وأخذ بِلحْيَتِه) (٢).

٥ ـ وعن زيد بن وَهْب قال: (جاء رأسُ الخوارج إلى عليٍّ فقال له: اتَّقِ اللّٰه فإنكَ ميِّتٌ! فقال: لا والذي فَلَقَ الحَبَّةَ وبَرَأ النَّسَمَةَ؛ ولكنِّي مقتولٌ من ضَرْبةٍ من هذه تَخْضِبُ هذه ـ وأشار بيده إلى لحيتهِ ـ عهدٌ معهودٌ، وقضاءٌ مقضيٌّ، وقد خابَ مَن افترى!) (٣).

❁ ❁ ❁

●● يخبر النبي ﷺ في هذه الأحاديث عليّاً ﵁ أنه إذا خرج إلى العراق فسيُصيبه ذُبابُ السيف أي حدُّه، ويموت قتلاً شهيداً، فيُضْرب على هامته فيسيل الدم على لحيته حتى تبتلَّ بدمه الطاهر الزكي!.

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ١٣٠، ١٥٦، واللفظ له؛ وابن سعد: ٣/ ٣٤؛ وذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٩/ ١٣٧) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن سبع وهو ثقة، ورواه البزّار بإسنادٍ حسن، وصحَّحه أحمد شاكر.

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٢٦٣؛ وفي الفضائل (١١٧٢)؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٨٥)؛ وابن هشام في السيرة: ١/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠؛ والطبري في تاريخه: ٢/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨١١)؛ والبيهقي في الدلائل: ٣/ ١٢ ـ ١٣؛ والحاكم: ٣/ ١٤٠ ـ ١٤١؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (١٧٤٣).

(٣) أخرجه الطيالسي (١٥٧) واللفظ له؛ والحاكم: ٣/ ١٤٣، وهو حديث صحيح وشواهده كثيرة.

وكان علي رضي الله عنه راسخَ اليقين بهذا الإخبار النبوي الصادق، فقد مرض ذات مرة حتى خاف عليه أصحابه، وجاؤوا يعودونه.

روى فَضَالةُ بن أبي فَضَالة الأنصاريُّ قال: (خرجتُ مع أَبي عائداً لعليٍّ بن أبي طالب من مرضٍ أصابَه ثَقُلَ منه، قال: فقال له أَبي: ما يُقِيمُك في منزلك هذا؟! لو أصابك أَجَلُكَ لم يَلِكَ إلا أعرابُ جُهَيْنَةَ! تُحمل إلى المدينة، فإن أصابَكَ أَجَلُك وَلِيَكَ أصحابُك وصلَّوْا عليك، فقال علي: إن رسول الله ﷺ عَهِدَ إليَّ أن لا أموتَ حتى أُؤَمَّر، ثم تُخْضَبَ هذه ـ يعني لحيتَهُ ـ من دمِ هذه ـ يعني هامَتَه ـ)[1].

وروى زيد بن أَسْلم، أن أبا سِنان الدُّؤَلي حدَّثه: (أنه عاد عليّاً رضي الله عنه في شكوى اشتكاها، فقلتُ له: لقد تخوَّفْنَا عليكَ يا أبا الحسن في شكواك هذه! فقال: ولكنِّي واللهِ ما تخوَّفْتُ على نفسي منه؛ لأني سمعتُ الصادقَ المصدوق ﷺ يقول: «**إنك سَتُضْرَبُ ضربةً هاهنا وضربةً هاهنا**» وأشار إلى صدغيه، «**فيسيلُ دمُها حتى تُخْضَبَ لحيتُك، ويكونَ صاحبُها أشقاها، كما كان عاقرُ الناقة أشقى ثمودَ**»)[2].

•• وكان رضي الله عنه يحدّث الناس بذلك، ويقول: (لَتُخْضَبنَّ هذه من هذه، فما يَنتظر بي الأشقى؟!).

وقد كان له أيام الخوارج حراس يحرسونه كل ليلة، يبيتون في المسجد بالسلاح، فرآهم فقال: ما يُجلِسُكم؟ قالوا: نحرسُك، فقال: أَمِنْ أهل السماء تحرسون أم من أهل الأرض؟ قالوا: بل من أهل الأرض، قال: إنه لا يكون في الأرض شيء حتى يُقضى في السماء، وليس من أحد إلا وقد وُكِّل به مَلَكان

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ١٠٢؛ وصحَّحه أحمد: شاكر، وانظر: مجمع الزوائد: ٩/ ١٣٧.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٩٢)؛ والطبراني في الكبير (١٧٣)؛ وأبو يعلى (٥٦٩)؛ والحاكم: ٣/ ١١٣، وصحَّحه، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في هامش شرح مشكل الآثار: ٢/ ٢٨٣ (٨١١).

يدفعان عنه ويَكْلآنه، حتى يجيء قَدَرُه، فإذا جاء قدرُه خلَّيَا بينه وبين قَدَرِه! وإن عليَّ من الله جُنَّةً حَصينة، فإذا جاء أجلي كُشف عني، وإنه لا يجدُ عبدٌ طعمَ الإيمان حتى يعلمَ أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ولمَّا دخل شهر رمضان جعل علي يتعشَّى ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين، وليلة عند عبد الله بن جعفر، لا يزيد على ثلاث لُقَم، ويقول: يأتي أمر الله وأنا خَمِيصٌ، وإنما هي ليلة أو ليلتان[(١)]!.

وكان يتمثل بهذين البيتين:

اشْدُدْ حَيَازِيمَكَ لِلموتِ ... فإنَّ الموتَ آتِيكا

ولا تَجزعْ من القَتْلِ ... إذا حَلَّ بِوَادِيكا[(٢)]

عن أبي مِجْلَز لاحِق بن حُميد قال: (جاء رجل من مراد إلى علي وهو يصلي في المسجد، فقال: احترِسْ، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل مَلَكين يحفظانِه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خلَّيَا بينه وبينه، وإن الأَجَلَ جُنَّةٌ حَصينة)[(٣)].

ولم يكن علي رضي الله عنه مفرِّطاً في حق نفسه، لأنه عَلِم من رسول الله ﷺ أنه سيُقتل، ولن يَحول دون قَدَر الله حراس ولا حُجَّاب، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

●● وقام ثلاثةُ نَفَرٍ من الخوارج هم: عبد الرحمن بن مُلْجَم المُرادي، والبُرَكُ بن عبد الله التَّمِيميّ، وعَمْرو بن بَكْر التَّميمي، فاجتمعوا في مكة، وتذاكَروا قَتْلَ عليٍّ إخوانَهم من أهل النَّهْرَوان، فترحَّموا عليهم، وتعاقدوا على

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٦٣٤؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٢ ـ ١٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٣٣؛ مجمع الزوائد: ٩/ ١٣٨. **والحيزوم**: هو الصدر، والكلام كناية عن التشمّر للأمر والاستعداد له.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ٣٤. **جُنَّة**: وقاية.

قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص! فقال ابن مُلْجَم: أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البُرَك: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عَمْرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. واتَّعَدوا لسبع عشرة من رمضان، أن يُبَيِّتَ كل واحد منهم صاحبه في بلده الذي هو فيه.

وسار ابن مُلْجَم إلى الكوفة لتنفيذ جريمته، وانضمَّ إليه هناك رجل من بني الرِّباب يقال له: وَرْدان، وآخَر هو شبيب بن بَجَرة الحَرُوريّ، فجاء هؤلاء الثلاثة وهم مشتمِلون على سيوفهم، فجلسوا مقابل السدَّة التي يَخرج منها أمير المؤمنين علي، فلما خرج جعل يُنْهِض الناسَ من النوم إلى الصلاة، ويقول: الصلاةَ الصلاةَ، فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع في الطاق[1]، فضربه ابنُ ملْجَم فأصاب جبهته إلى قَرْنه[2]، فسالَ دمُه على لحيته رضي الله عنه! ولمَّا ضربه ابنُ ملْجَم قال: لا حُكْمَ إلا لله، ليس لك يا علي ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ونادى علي: عليكم به. وهَرب وَرْدان، فأدركه رجلٌ من حضرموت فقتله، وذهب شبيب فنَجَا بنفسه وفاتَ الناسَ، وأُخِذ ابنُ مُلْجَم فأُدخل على عليٍّ، وقدَّم علي جَعْدة بنَ هُبيرة فصلى بالناس صلاة الفجر[3].

●● طُعن علي رضي الله عنه يوم الجمعة سَحَراً، لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة (٤٠ هـ)، فمكث يوم الجمعة وليلة السبت، وفاضت روحه إلى بارئها ليلة الأحد، لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان.

وتقدَّم إلى أبنائه وهو يرى اضطرامَ أنفسهم على المجرم عبد الرحمن بن

---

(١) **الطاق**: ما عُطِف وجُعل كالقوس من الأبنية، والمقصود أنه لم يُصِبْه.

(٢) **قَرْنه**: جانب رأسه.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ١٤٣ ـ ١٤٦؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٣٥ ـ ٣٨؛ البداية والنهاية: ٧/ ٣٢٦ ـ ٣٢٩؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٦٣٥ ـ ٦٣٨.

مُلْجَم، فقال لهم: (أَحْسِنوا نُزلَه، وأكرِموا مثواه، فإن أَعِشْ فأنا أولى بدمه قِصاصاً أو عفواً، وإن أمُتْ فألْحِقُوه بي، أخاصمه عند رب العالمين، ولا تقتلوا بي سواه، إن الله لا يحب المعتدين).

فلما فاضَتْ روحه رضي الله عنه، تقدَّم أبناؤه إلى ابنِ مُلْجَم فقتلوه، وذَهَب إلى ربه ليحاسبه على فعله الأثيم!.

وغسَّله ابناه الحسن والحسين، وعبد الله بن جعفر، وكفَّنوه في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وصلَّى عليه ابنُه الحسن وهو أكبر بنيه، ودُفن بدار الإمارة بالكوفة؛ خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا قبره.

وكان عمره يوم استشهد ثلاثاً وستين سنة، ومدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

●● وعندما بَلَغ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها خبرُ مقتله، قالت:

فألقَتْ عصاهَا واستقرَّتْ بها النَّوَى   كما قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المسافرُ

وقالت ابنته أم كلثوم: (ما لي ولصلاة الغَدَاة، قُتل زوجي عمر أميرُ المؤمنين صلاة الغداة، وقُتل أبي أميرُ المؤمنين صلاة الغداة!)[1].

وباستشهاد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه؛ طُويت صفحة الخلفاء الراشدين، الذين قضى ثلاثة منهم على طريق الشهادة، بتآمر أثيم وحقد دفين وكيد مستمر؛ من المجوس واليهود والخوارج ومن ضوى إليهم جميعاً من الأوغاد والشذاذ والرعاع والأعراب الجفاة.

وخرج الإمام علي من الدنيا ليدخل العالم الآخر من أوسع أبوابه، باب الشهداء والصدِّيقين، بعد أن تناوشَتْه الخطوب، واحتوشَتْه المحن والأعاصير، تحاول أن تُفقِده صبره وصوابه، أو تشغله عن غاياته ومبادئه السامقة، فما زاغ

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٥٠ ـ ١٥٢؛ البداية والنهاية: ٧/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠، ٨/ ١٣؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٦٣٨ ـ ٦٤٠.

وما طغى، وبقي صابراً محتسباً، حتى لقي الموت على أحسن حال وأكرم مآل، فودَّع الدنيا مع أصوات المستغفرين بالأسحار، وذهب إلى ربه صائماً ظامئاً؛ لينال هناك شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

لقد ذهب عليٌّ وأبقى لنا مبادئه في الإخلاص والتقوى، والتعبُّد والتضرُّع، والعلم والفقه، والبطولة والنخوة، لتسري حيَّة في عقول المسلمين المحبين له، القارئين لسيرته العبقة الطاهرة النيّرة[١].

ولا نجدُ وداعاً له أروعَ من قول ابنه السيد المُبَجَّل الحسن بن علي رضي الله عنهما..

قال هُبَيْرة بن يَرِيم: سمعتُ الحسنَ بن علي قام، فخطب الناسَ فقال: (يا أيها الناسُ! لقد فارَقَكُم أمسِ رجلٌ ما سَبقَه الأوَّلون، ولا يُدْرِكُه الآخِرون، لقد كان رسول الله ﷺ يَبْعَثُه المَبْعَثَ، فيُعطيهِ الرايةَ، فما يَرجِعُ حتى يفتحَ الله عليه، جبريلُ عن يمينه، وميكائيلُ عن شماله. ما تَرَك بيضاءَ ولا صفراءَ، إلا سبعَمئة درهم فَضَلَتْ من عطائِه، أراد أن يَشتري بها خادماً)[٢].



(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٦٥٢ ـ ٦٥٣.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٣٥٤)؛ وأحمد: ١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠؛ وفي الفضائل (١٠١٤)؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٤٩٩؛ وابن سعد: ٣/ ٣٨؛ والطبراني (٢٧١٧ ـ ٢٧٢٠)؛ وابن حبان (٦٩٣٦) ورجاله ثقات رجال الشيخين غير هبيرة فروى له أصحاب السنن وهو لا بأس به؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٢٤٩٦) وحسَّنه، وصحَّحه أحمد شاكر.

إخبار النبي ﷺ عن وقعة الحرّة

عن أبي ذَرٍّ الغِفَاريِّ رضي الله عنه قال: (رَكِبَ رسولُ الله ﷺ حماراً، وأَرْدَفَني خَلْفَه، ثم قال: «**يا أبا ذرٍّ! أرأيتَ إنْ أصابَ الناسَ جوعٌ شديدٌ حتى لا تستطيعَ أن تقومَ من فِراشِكَ إلى مسجدِكَ، كيفَ تصنَعُ؟**» قال: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «**تَعَفَّفْ**». قال: «**يا أبا ذرٍّ! أرأيتَ إن أصابَ الناسَ موتٌ شديدٌ حتى يكونَ البيتُ بالعَبْدِ، كيفَ تصنعُ؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**اصْبِرْ**». «**يا أبا ذر! أرأيتَ إنْ قَتَل الناسُ بعضُهم بعضاً حتى تَغْرَقَ حِجَارةُ الزَّيْتِ** ـ موضعٌ بالمدينة ـ **من الدماءِ، كيف تصنَعُ؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**اقْعُدْ في بيتِك، وأَغْلِقْ عليكَ بابَكَ**». قال: أرأيتَ إنْ لم أُتْرَكْ؟ قال: «**فائْتِ مَن أنتَ منه، فكُنْ فيهم**» قال: فآخذُ سلاحي؟ قال: «**إذاً تُشارِكُهُم فيه! ولكنْ إنْ خَشِيتَ أن يَرُوعَكَ شُعاعُ السيفِ فألْقِ طَرَفَ ردائِكَ على وَجْهِك، يبوءُ بإثمِكَ وإثمِه**»)[1].

❁ ❁ ❁

هذا عَلَمٌ من أعلام النبوّة وقع كما أخبر ﷺ، وفيه تحذيرٌ من المشاركة في الفتنة وحمل السيف فيها، وإرشادٌ إلى اجتنابها وعدم السعي إليها، وأمرٌ بملازمة

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٩٦٠) و(٦٦٨٥) واللفظ له؛ وعبد الرزاق (٢٠٧٢٩)؛ وأحمد: ٥/ ١٤٩، ١٦٣؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤؛ وأبو داود (٤٢٦١)؛ وابن ماجه (٣٩٥٨)؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٩١، ٢٦٩؛ والحاكم: ٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧، ٤/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤؛ والبغوي (٤٢٢٠)؛ وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحّحه شعيب الأرنؤوط، والألباني.

الجماعة والقعود في البيوت لتقليل أعداد من يشارك في الفتنة بين المسلمين، مما يقصر أَمَدَها ويُسرع في وَأْدِها.

أولاً: زمان ومكان وطرفا وقعة الحرة:

ووقعة الحَرَّة كانت لثلاث بقين من ذي الحجة سنة (٦٣ هـ)، والإشارة إليها في الحديث في قوله ﷺ: «**أرأيتَ إنْ قَتل الناس بعضُهم بعضاً حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء**»!.

والمكان هو (حرَّة واقِم) وهي حَرَّة المدينة الشرقية.

وكانت بين أهل المدينة النبوية وجيش من الشام على رأسه مُسْلم (مُسْرِف) بن عُقْبة المُري، في خلافة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

ثانياً: وقفة مع رواة وروايات هذه الوقعة الأليمة المفجعة:

●● أورد الطبري في حديثه عن وقعة الحَرَّة (٢٧) رواية: فيها (١٦) رواية عن أبي مِخْنَف لوط بن يحيى، و(٨) روايات عن عَوَانة بن الحَكَم، و(روايتين) عن محمد بن عُمر الواقدي، و(رواية واحدة) عن جُويرية بن أسماء عن أشياخ من أهل المدينة.

واعتمد على الطبري أغلب من جاء بعده في حديثه عن وقعة الحرَّة وتأريخه لها.

وبالنظر في رواة أخبار هذه الفاجعة يعلم الباحث الناقد والقارئ المنصف مدى الثقة والتحري فيما يُنسج ويُذاع ويُشاع عنها وحولها من أكاذيب وفِرًى!.

فأبو مِخْنَف: شيعي محترِق وأخباري تالف لا يُوثق به[١].

وعَوَانة بن الحَكَم: كان عثمانيّاً، وكان يَضَع الأخبار لبني أمية[٢].

---

(١) ميزان الاعتدال: ٣/ ٤١٩ ـ ٤٢٠؛ لسان الميزان: ٤/ ٤٩٢.

(٢) لسان الميزان: ٤/ ٣٨٦.

والواقدي: حالُه من الضعف مشهور، وهو خير من سابقَيْه بكثير، وغير متَّهم بالوضع، ويُعتمد عليه في المغازي والسير، كما قرَّر ذلك الذهبي وأنصفه في «السير»[١]. لكن ما جاء عنه في هذه الوقعة غير محوري ولا أساسي، فلا يفيد كثيراً.

وجويرية بن أسماء: ثقة، لكنه روى الخبر عن مجهولين.

●● ومن خلال هذا يجب أن نتوقف ونتثبت، ونتريَّث في تلك الروايات، ونتحقَّق من هاتيك الأخبار التي سِيقت، والمجازفات التي قِيلت، والأكاذيب التي أُشيعت؛ فالكلمة التي يقولها الإنسان أو يكتُبها أو يقرؤها ويصدِّقها أو ينشرها ويروِّجها؛ مسؤولية أمام نفسه، وأمام الأمة، وأمام التاريخ، وأمام الله رب العالمين.

لقد أُسيء كثيراً لأعلامنا وأئمتنا وحكامنا وفاتحينا ومجاهدينا وتاريخنا، والجيلُ المتعاقب إلى الآن يحمل وِزْر ذلك الكذب الذي ناء به كاهل التاريخ؛ فشُوِّهَت سِير رجال، وغُمِص الحق، وأشِيع الكذب، ورُوِّج للباطل، وضاعت بوارقُ الحقيقة بين سُجَف الظلام!.

ونقولها بصراحة ـ والحق أحقُّ أن يُقال ـ إن مؤرِّخينا القدامى قد أساؤوا قليلاً أو كثيراً عندما جمعوا كل تلك الأخبار الطائشة التالفة، ودوَّنوا تلك الروايات الواهية في (تواريخهم)، ولم يسلِّطوا عليها سِهام النقد والتحقيق والتمحيص، وقبِلوا أن يتحدث أخباري تالف غير ثقة، أو مُتَّهم بالوضع، أو غائبٌ عن ميدان الأحداث لم يشاهدها، فيذكر أخباراً تتناول أعظم رجالاتنا من جهة، وأزهى عصور تاريخنا من جهة أخرى، وأخطر الفتن التي حدثت في أمتنا من جهة ثالثة!.

وذلك لأن ما كتبوه لم يَعُدْ ملكاً لهم، بل خرج من أيديهم وأصبح تراثاً

(١) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥، ٤٦٩.

للأمة وذخيرة لها وشاهداً عليها، فوقع في براثن تلك الأخبار والروايات أصحابُ الحق المخلصون، ودعاةُ الهوى المغرِضون، واشتبك الفريقان، وليس من مخلص فالروايات ها هي ذي بين أيديهم!.

وإلا فكيف نَقبل من إمام مبجَّل مثل ابن حزم أو ابن كثير ـ وغيرهما ـ أن ينقلا أخبار فتنة الحَرَّة، فيذكرا على وجه التسليم والقبول أن خيول (جيش الشام) قد جالَتْ في (المسجد النبوي) وراثَتْ فيه في الروضة بين المنبر والقبر؟! وأن (الجيش الشامي) قد استباح المدينة ثلاثة أيام، وافتَضَّ ألف عذراء[1]؟!

وهي رواية لَقيطة قبَّح الله من افتراها، فإن أبا مِخْنَف على جَسَارته وكثرة استقصائه لم يذكرها!.

أتُرى جنودَ (جيش الشام) لصوصاً، أم رجال عصابات، أم هم قطَّاع طُرق يا ترى؟!.

إن هذا (الجيش الشامي) وغيره أيها المسلمون هم الذين ساروا في الفتوحات شرقاً وغرباً، فليستقرَّ في ذهن القارئ إذاً قيمةُ تلك الفتوحات وحقيقةُ أولئك الفاتحين!.

فإذا كانوا يفعلون بالمسلمين، بل وبالمسجد النبوي مثلَ هذا؛ إذاً فكيف ستكون سيرتهم في البلاد التي يفتحونها؟!.

إن المسلمين الفاتحين على امتداد عصورهم، حتى التي شاع فيها الاقتتال في الفتن وعلى منابر الحكم؛ لم يُعهد منهم مثلُ ذلك ولا أقلّ منه مع أعدائهم فَضْلاً عن إخوانهم في الدين! فما بالُ هذا الكذب المفترى يغزو كتب تاريخنا، وينقله الأثبات من علمائنا، ويقرؤه أبناؤنا؟! فلا نعتب بعدئذٍ على ما يكتبه

---

(١) انظر: جوامع السيرة، ص٣٥٧ ـ ٣٥٨؛ المنتظم: ٦/ ١٥؛ البداية والنهاية: ٨/ ٢٢١. وللأسف فإن الشيخ شعيباً الأرنؤوط وهو العالم الناقد نقلها مسلِّماً بها في تعليقه على صحيح ابن حبان: ١١/ ٢٧٩ (٤٩١١).

المستشرقون والمستغربون والعلمانيون وغيرهم من أعداء الأمة حول الإسلام والمسلمين والفتوح والفاتحين.

ثالثاً: كلمة موجزة حول يزيد بن معاوية رَحِمَهُ اللَّهُ:

●● تولى معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تربيةَ ابنِه يزيد على التواضع والعدل ومكارم الأخلاق، وحُسْن التعامل مع الناس، والتحبُّب إليهم، وتوثيق الصلة بينه وبينهم، وحَمَله على حياة الجدّ والاجتهاد والجهاد، وعَهِد إليه بعدد من الأعمال الكبيرة.

قال معاوية له ذات يوم: سَلْني ما بدا لك، فقال يزيد: حاجتي أن تَعْقِد لي العهد من بعدك، وتولِّيَني العام صائفة[١] المسلمين، وتأذَنَ لي في الحج إذا رجعتُ، وتولِّيني الموسم، وتزيدَ أهل الشام عشرة دنانير لكل رجل في عطائه، وتَعْرِض لأيتام بني جُمح، وأيتام بني سَهْم، وأيتام بني عَدي[٢].

ورأى معاوية يزيد يضرب غلاماً له، فقال له: اعلَمْ أن الله أقدرُ عليك منك عليه، سوءةً لك، أتضرِبُ مَن لا يستطيع أن يمتنع عليك؟! والله لقد منعَتْني القدرة من الانتقام من ذوي الإِحَن، وإنَّ أحسنَ مَنْ عفا لَمَن قدر[٣].

وبعثه سنة (٤٩هـ) على رأس جيش لفتح القُسْطَنْطِينيّة، وعمره نحو (٢٥) سنة، وكان في الجيش من الصحابة: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفاز يزيد ومن معه بالبشارة النبوية والثناء المبارك منه ﷺ على ذلك الجيش: «**أولُ جيشٍ من أمَّتي يَغزون مدينةَ قَيْصَرَ مغفورٌ لهم**»[٤].

---

(١) صائفة: جمعها صوائف؛ وهي غزوات وبعوث في البحر تكون في الصيف، وتقابلها الشواتي في الشتاء، وهو نظام ابتكره معاوية.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٧.

(٣) المرجع السابق: ٨/ ٢٢٧. الإِحَنُ: جمع الإِحْنَة، وهي الأحقاد والضغائن.

(٤) أخرجه البخاري وغيره، وانظر تخريجه في النبوءة (١٤): ١/ ١٣٧ حاشية (١) في هذا الكتاب.

وقد أبلى يزيدُ في ذلك البَعْث بلاء حسناً بما أظهره من ضروب الشجاعة والنخوة والإقدام؛ مما حمل المؤرِّخين على أن يلقّبوه بـ (فتى العرب)(١).

وحجَّ بالناس ثلاث سنين ولاءً، سنة (٥١هـ) و(٥٢هـ) و(٥٣هـ)(٢).

وعند موت معاوية أوصى ابنَه يزيد فقال: (يا يزيد! اتقِ الله فقد وطَّأتُ لك هذا الأمر، ووُلِّيتَ من ذلك ما وليت، فإن يكُ خيراً فأنا أسعد به، وإن كان غير ذلك شقيتَ به. فارفُقْ بالناس، وأغْمِض عما بَلَغك من قول تؤذَى به وتُنتقص به، وطَأْ عليه يُهنك عيشك وتصلُح لك رعيتك، وإياك والمنافسة وحمل الغضب، فإنك تهلك نفسك ورعيتك. وإياك وخيرة أهل الشرف واستهانتهم والتكبّر عليهم، ولِنْ لهم ليناً بحيث لا يروا منك ضعفاً ولا خَوَراً، وأَوْطِئْهم فراشك، وقرِّبْهم إليك وأَدْنِهم منك، فإنهم يعلموا لك حقك، ولا تُهِنْهم، ولا تستخفَّ بحقهم، فيهينوك ويستخفوا بحقك ويقعوا فيك. فإذا أردتَ أمراً فادْعُ أهل السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى، فشاورهم ولا تُخالِفْهم، وإياك والاستبدادَ برأيك، فإن الرأي ليس في صدرٍ واحدٍ . . . وشَمِّر إزارك، وتعاهَدْ جندك، وأصلِحْ نفسك . . . واحضر الصلاة . . . واعرف شرفَ أهل المدينة ومكة فإنهم أصلُك وعشيرتُك، واحفظ لأهل الشام شرفهم فإنهم أهلُ طاعتك، واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب تَعِدُهم فيه منك بالمعروف . . . ولا تسمعنَّ قولَ قاذفٍ ولا ماحلٍ فإني رأيتُهم وزراءَ سوءٍ)(٣).

وعندما مات معاوية رضي الله عنه كان يزيد غائباً عن الشام، فلما حضر جمع الناس وخطب فيهم خطبة جليلة، وكان فصيحاً ومن خطباء قريش(٤)، ومما قال فيها:

(أيها الناس! إن معاوية كان عبداً من عَبيد الله، أنعم الله عليه ثم قبضه إليه،

---

(١) انظر ما كتبناه في هذا الكتاب: ١/ ٢٨٦.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٩.

(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٤) أنساب الأشراف: ٤/ ٢٨٩؛ سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٧.

وهو خير ممن بعده ودون مَن قبله، ولا أزكِّيه على الله ﷻ فإنه أعلم به، إن عفا عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه. وقد وُلِّيت الأمر من بعده، ولست آسى على طلب، ولا أعتذر من تفريط، وإذا أراد الله شيئاً كان . . .) فافترق الناس عنه وهم لا يفضِّلون عليه أحداً[(١)].

●● ولما وَفَد عبد الله بن عباس على معاوية، وكان الحسن بن علي قد مات، أمر معاويةُ ابنَه يزيد أن يعزِّي ابنَ عباس في الحسن! (فلما دخل يزيد على ابن عباس رحَّب به وأكرمه، وجلس عنده بين يديه، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه، فأبى وقال: إنما أجلس مجلس المُعزِّي لا المُهَنّي. ثم ذكر الحسنَ فقال: رحم الله أبا محمد أوسَعَ الرحمة وأفسَحَها، وأعظَمَ الله أجرك، وأحسنَ عزاءَكَ، وعوَّضَك من مُصابك ما هو خيرٌ لك ثواباً وخيرٌ عقبى. فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباس: إذا ذَهَب بنو حرب ذهب علماء الناس! ثم أنشد متمثلاً:

مُغَاضِي عن العَوْراء لا يَنطقوا بها وأصلُ وراثاتِ الحلومِ الأوائلُ)[(٢)]

فهذه شهادة الصحابي الجليل حبر الأمة وترجمان القرآن في يزيدَ وعلمِه، وأنه كان في علمه موضع الرضا وفوق الرضا.

أما عدالتُه وتمسّكُه بالسنَّة فقد شهد له بذلك محمد بن علي بن أبي طالب المشهور بابن الحَنَفيَّة، وشهد بما رآه لا بما رواه، قال ﵀: (قد حضرتُه، وأقمتُ عنده، فرأيتُه مواظباً على الصلاة، متحرِّياً للخير، يَسأل عن الفقه، ملازماً للسُّنَّة)[(٣)].

ونقل ابن العربي عن إمام مصر وعالمها الليث بن سعد: أنه قال: (توفي أمير المؤمنين يزيد في تاريخ كذا)، ثم عقَّب ابن العربي فقال: (فسمَّاه الليث

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) المرجع السابق: ٨/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٣) المرجع السابق: ٨/ ٢٣٣.

«أمير المؤمنين» بعد ذهابِ مُلْكهم وانقراضِ دولتهم، ولولا كونه عنده كذلك ما قال إلا: «توفي يزيد»)[١].

وقال أبو بكر بن العربي أيضاً: (وهذا أحمد بن حنبل، على تقشُّفِه وعظيم منزلته في الدين وورعه، قد أَدخَلَ عن يزيد بن معاوية في «كتاب الزهد» أنه كان يقول في خطبته: «إذا مرض أحدُكم مرضاً فأَشْفَي ثم تماثَلَ، فلينظُرْ إلى أفضلِ عملٍ عنده فليلزمْهُ، ولينظر إلى أسوأ عمل عنده فليدَعْه» وهذا يدل على عظيم منزلته عنده حتى يُدخِله في جملة الزهّاد من الصحابة والتابعين الذين يُقتدى بقولهم ويُرْعَوى من وَعْظِهم)[٢].

وقال ابن كثير: (وقد كان يزيد فيه خِصالٌ محمودة من الكرم والحِلْم والفصاحة والشعر والشجاعة وحُسْن الرأي في الملك).

ثم قال: (وقد أورد ابن عساكر أحاديثَ في ذمِّ يزيد بن معاوية كلها موضوعة لا يصح شيء منها! وأجودُ ما ورد ما ذكرناه. على ضَعْف أسانيده وانقطاع بعضه. والله أعلم)[٣].

وبهذا يتبيّن لك كَذِبُ ما افتُري عليه ونُسب إليه من المجون والعربدة والتهتك وشرب الخمر وترك الصلوات وغير ذلك!.

ولقد أساء عدد كبير من المؤرِّخين وغيرهم من السابقين واللاحقين فيما ذكروه عن يزيد من ذلك السُّخْف والافتراء، ومنهم الحافظ الذهبي غفر الله له في ترجمته ليزيد من «سير أعلام النبلاء»، فكيف يترك كل ما قدمناه وغيره كثير، ثم يصدِّق رواية ساقها رجل رافضي محترق مثل أبي مخنف؟! وكذلك البَرْزَنْجي في

---

(١) العواصم من القواصم، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢) المرجع السابق، ص٢٤٥ ـ ٢٤٦.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

كتابه «الإشاعة»، فقد ذكر أكاذيب كثيرة في حق يزيد[١]، والرجل على التحقيق ليس من أهل التحقيق!.

وحسبك الحديث الصحيح في الثناء على يزيد وجيشه، وجهاده، وحجه بالناس، وشهادة مثل ابن عباس وابن الحنفية، ثم أولئك الصحابة الذين جاهدوا معه ما سمعنا خبراً عن أحدهم أنه اتهم يزيد، فمن أين جاءت تلك الأخبار الواهية التائهة؟!.

قال القاضي ابن العربي: (فأين هذا من ذِكْر المؤرِّخين له في الخمر وأنواع الفجور؟ ألا تستحيون؟! وإذا سَلَبهم الله المروءة والحياء، ألا ترعَوُون أنتم وتزدجرون، وتقتدون بالأحبار والرهبان من فضلاء الأمة، وترفضون الملحدة والمجَّان من المنتمين إلى الملة؟! ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨])[٢].

رابعاً: خلاصة عن موقعة الحرة:

●● عهد معاوية رضي الله عنه لابنه يزيد بالحكم من بعده، فنَقَمَ ذلك كثير من الصحابة والتابعين في مكة والمدينة؛ لأنهم اعتبروا ذلك انحرافاً عن منهج الخلفاء الراشدين في الخلافة والشورى، وتحويل الحكم إلى النظام الوراثي! لكن عندما مات معاوية بايع الناس يزيد، وبايع أهل الحجاز، إلا عبد الله بن الزبير والحسين بن علي فالتجآ إلى مكة[٣].

ولا شك بأن معاوية قد ترك الأفضل، وما فعله قد أصبح سنةً عند كثير من

---

(١) الإشاعة لأشراط الساعة، ص٥١ ـ ٥٨.

(٢) العواصم من القواصم، ص٢٤٦.

(٣) انظر: تاريخ خليفة، ص٢١٣ ـ ٢١٧، ٢٣١، ٢٥١ ـ ٢٥٢؛ الدولة الأموية، للصلابي، ص٤٥٢ ـ ٤٥٥، ٤٩٩ ـ ٥٠٠؛ تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص٤٣، ٥٢.

الناس فيما بعد، ممن يريد الاستئثار بالمُلك لأهله وعشيرته، والصحيحُ هو ترك الأمر شورى بين المسلمين كما فعله الخلفاء الراشدون.

وبعض الباحثين(١) يصوِّب ما فعله معاوية؛ لِما تقتضيه الظروف آنذاك من قطع الطريق على الطامعين في منابر الحكم، لإصلاح المسلمين ولَمِّ شَعَثِهم وتوحيد كلمتهم، ولِما كان يتوجس منه من الفتن والمجازر لو جعلها شورى.

وأيّاً ما كان الأمر، فقد تمت البيعة ليزيد، وانعقدت شرعاً، وبايع الناس، وأصبح النكث بها أو الخروج عليها غير جائز وفيه فتنة كبرى.

وحقيقة مهمة يجب أن نؤكدها وهي: أن فضلاء الصحابة ـ وفيهم ابن الزبير ـ الذين أشاروا على معاوية بأن يترك ولاية العهد، ليس منهم أحد طَعن في أهلية يزيد من حيثُ العدالةُ والعلمُ وإدارةُ شؤون البلاد، وإنما أرادوا فقط أن تكون شورى(٢).

●● في سنة (٦٢هـ) كان والي المدينة من قِبَل يزيد هو الوليد بن عُتْبة بن أبي سفيان، فشكاه أهلها إلى يزيد، فعزله، وبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان، فبعث هذا الوالي إلى يزيد بدمشق وفداً من أهل المدينة فيهم (عبد الله بن حَنْظَلة الغَسيلِ الأنصاري، وعبد الله بن أبي عَمْرو بن حفص بن المغيرة المخزوميّ، والمنذر بن الزبير، ورجالاً كثيراً من أشراف أهل المدينة، فقدِموا على يزيدَ بن معاوية، فأكرمهم وأحسَنَ إليهم وأعظَمَ جوائزَهم، ثم انصرفوا من عنده)(٣).

فلما قدِموا المدينةَ قاموا فيها فأظهروا شَتْمَ يزيد وقالوا: (إنا قدِمْنَا من عند رجل ليس له دِينٌ، يَشرب الخمر، ويَعزِف بالطنابير، ويَضرِب عنده القِيان،

---

(١) انظر: العواصم من القواصم، ص٢٢٨ ـ ٢٢٩؛ وتعليق محب الدين الخطيب، محاضرات الخضري «تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة الأموية»، ص٣١٨؛ الدولة الأموية، للصلابي، ص٤٦٥ ـ ٤٨٠.

(٢) العواصم من القواصم، ص٢٢٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٠.

ويلعبُ بالكلاب، ويُسامر الخُرَّاب والفتيان، وإنا نُشهدكم أنَّا قد خَلَعْنَاه. فتابَعَهم الناس)[١].

وقام أهل المدينة فبايعوا عبدَ الله بنَ حنظلة الغسيل على خَلْع يزيد، ووثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومَنْ بالمدينة من بني أمية ومواليهم ومَن رأى رأيَهم من قريش، فكانوا نحواً من ألف رجل، فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحَكَم، فحاصرهم الناس فيها حصاراً ضعيفاً[٢].

ووصل الخبر إلىٰ أمير المؤمنين يزيد بدمشق، فنَدَب مسلمَ بن عُقْبة المري ليسير إلى أهل المدينة فيُدخِلَ أهلَها في طاعة الخليفة، فسار إليهم في جيش كثيف تعداده نحو (١٢٠٠٠) رجل[٣].

فلما علِمَ أهل المدينة بمسير الجيش، شدَّدوا الحصار على بني أمية في دار مروان بن الحكم، وقالوا لهم: (والله لا نكفّ عنكم حتى نستنزلكم ونضربَ أعناقكم، أو تُعطونا عهدَ الله وميثاقه لا تَبْغُونا غائلةً، ولا تدلّوا لنا على عَوْرة، ولا تُظاهروا علينا عدوّاً، فنكفَّ عنكم ونُخرجكم عنا. فأعطَوْهم عهد الله وميثاقه: لا نَبغيكم غائلةً، ولا ندلُّ لكم على عورة. فأخرجوهم من المدينة)[٤].

قال خليفة بن خياط: (دعا أهل المدينة إلى الرضا والشورى، وأمَّروا على قريش عبدَ الله بن مُطيع العَدَويّ، وعلى الأنصار عبد الله بن حَنْظلة الغَسيل، وعلى قبائل المهاجرين مَعْقِل بن سِنَان الأَشْجَعي، وأخرجوا عثمانَ بن محمد بن أبي سفيان من المدينة ومن كان بها من بني أمية)[٥].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٠. **والخُرَّاب**: جمع الخارِب، وهو اللِّصُّ.
(٢) المرجع السابق: ٥/ ٤٨٢.
(٣) المرجع السابق: ٥/ ٤٨٣.
(٤) المرجع السابق: ٥/ ٤٨٥.
(٥) تاريخ خليفة، ص٢٣٧؛ وانظر: الفتح: ١٦/ ٣٩٣ شرح الحديث (٧١١١)؛ تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٧.

١ ـ مواقف أعيان الصحابة وأكابر آل البيت وعلماء المدينة:

أ ـ عن نافعٍ قال: (جاء عبد الله بن عُمر إلى عبد الله بن مُطِيعٍ، حين كان من أمر الحَرَّة ما كان زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطْرَحُوا لأبي عبد الرحمن وِسادةً، فقال: إني لم آتِكَ لأجلسَ، أتيتُك لِأُحَدِّثَكَ حديثاً سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُه؛ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ خَلَعَ يداً من طاعةٍ، لقِيَ اللهَ يومَ القيامةِ لا حُجَّةَ له، ومَن مات وليس في عُنُقِه بيعةٌ، مات مِيتةً جاهِلِيَّةً**») لفظ مسلم.

وفي رواية ابن حِبَّان: قال ابن عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَن نَزَعَ يداً من طاعةٍ لم تكنْ له حُجَّةٌ يومَ القيامةِ، ومن مات مُفارِقَ الجماعةِ؛ فإنه يموتُ مَوْتةً الجاهليَّةِ**»[١].

وأخرج ابن سعد من طريق العطَّاف بن خالد، عن أمية بن محمد بن عبد الله بن مطيع: (أن عبد الله بن مطيع أراد أن يفرَّ من المدينة لياليَ فتنةِ يزيد بن معاوية، فسمع بذلك عبد الله بن عمر، فخرج إليه حتى جاءه، قال: أين تريد يا ابن عمّ؟ فقال: لا أُعطيهم طاعة أبداً، فقال: يا بنَ عمّ، لا تفعلْ، فإني أَشهد أني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَن مات ولا بيعةَ عليه، مات ميتةً جاهليةً**»)[٢].

وعن نافع قال: (لمَّا خَلَع أهلُ المدينة يزيدَ بنَ معاوية، جَمَع ابنُ عمر حَشَمه ووَلَدَهُ، فقال: إني سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**يُنْصَبُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامة**» وإنَّا قد بايَعْنَا هذا الرجلَ على بيعِ الله ورسولِهِ، وإنِّي لَا أَعْلَمُ غَدْراً أعظمَ مِن أن يُبَايَعَ رجلٌ على بيعِ الله ورسوله، ثم يُنْصَبُ له القتالُ! وإنِّي لا أَعْلَمُ أحداً منكم خَلَعَه ولا بايَعَ في هذا الأمر إلا كانتِ الفَيْصَلَ بيني وبينَه)[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥١)؛ وأحمد: ٢/ ٧٠، ٨٣، ١٢٣، ١٣٣، ١٥٤؛ وابن حبان (٤٥٧٨)؛ والبيهقي في السنن: ٨/١٥٦؛ والحاكم: ١/ ٧٧، ١١٧، وغيرهم.

(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري (٧١١١) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/٤٨، ٩٦، وأخرجه بدون القصة: =

وعن محمد بن المُنْكَدِر قال: قال ابن عُمر حين بُويع يزيد: (إن كان خيراً رضينا، وإن كان شرّاً صبرنا)[١].

وعن حُميد بن عبد الرحمن قال: (دخلنا على رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ حين استُخلف يزيدُ بنُ معاوية، فقال: أتقولونَ: إن يزيدَ ليس بخيرِ أمة محمد، لا أفقهها فيها فقهاً ولا أعظمها فيها شرفاً؟ قلنا: نعم، قال: وأنا أقول ذلك، ولكنْ والله لَأَنْ تجتمع أمة محمد أحبُّ إليَّ من أن تفترِق. أرأيتُم باباً لو دَخَل فيه أمة محمد وَسِعَهم، أكانَ يَعْجِز عن رجل واحد لو دخل فيه؟! قلنا: لا، قال: أرأيتم لو أن أمة محمد قال كل رجل منهم: لا أُهَرِيقُ دمَ أخي، ولا آخذُ مالَه، أكان هذا يَسَعُهم؟ قلنا: نعم، قال: فذلك ما أقول لكم. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يأتيك من الحياء إلا خير**»)[٢].

وقد استظهر ابن العربي أن هذا الصحابي هو ابن عمر[٣]، ويؤيده ما قدمناه من مواقف ابن عمر رضي الله عنهما.

ب ـ وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وغيرهم من أعيان الصحابة رضوان الله عليهم؛ بايعوا يزيد ولم ينزعوا يداً من طاعة.

ج ـ موقف عظيم من ابن الحنفية:

قال ابن كثير في ترجمة يزيد: (لمَّا رجع أهلُ المدينة من عند يزيد، مشى عبد الله بن مُطيع وأصحابه إلى محمد ابن الحَنِفيَّة، فأرادوه على خَلْع يزيد، فأبى

= البخاري ومسلم وأحمد: والترمذي والبيهقي والبغوي وابن حبان (٧٣٤٢، ٧٣٤٣) وفيه تخريجه.

(١) العواصم من القواصم، ص٢٣١؛ تاريخ خليفة، ص٢١٧.

(٢) أخرجه خليفة بن خياط بإسناده عن عبد الرحمن بن مهدي، ص٢١٧، ونقله ابن العربي في «العواصم من القواصم»، ص٢٣١، وإسناده صحيح. والحديث المرفوع رواه الشيخان بلفظ «**الحياء لا يأتي إلا بخير**».

(٣) العواصم من القواصم، ص٢٣٢.

عليهم، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب! فقال لهم: ما رأيتُ منه ما تذكرون، وقد حضرتُه وأقمتُ عنده، فرأيتُه مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازِماً للسنَّة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنُّعاً لك، قال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يُظهِر لي الخشوعَ؟! أفأَطْلَعَكم على ما تذكُرون من شُرب الخمر؟ فلئنْ كان أَطلَعَكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإنْ لم يكن أطلعكم فما يحلُّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا! قالوا: إنه عندنا لَحَقٌّ، وإن لم نكن رأيناه! فقال لهم: أبَى الله ذلك على أهل الشهادة؛ فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ولستُ من أمركم في شيء. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمرَ غيرُك، فنحن نولِّيك أمرنا. قال: ما أستحِلُّ القتالَ على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً، قالوا: فقد قاتلتَ مع أبيك! قال: جيئوني بمثل أبي أقاتِل على مثل ما قاتَلَ عليه! فقالوا: فَمُرْ ابنَيْكَ أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا، قال: لو أَمَرتُهما قاتلتُ! قالوا: فَقُم معنا مقاماً تحضُّ الناس فيه على القتال، قال: سبحانَ الله! آمُرُ الناسَ بما لا أفعلُه ولا أرضاه؟! إذن ما نصحتُ لله في عباده! قالوا: إذن نُكْرِهك، قال: إذن آمُر الناسَ بتقوى الله، وألا يُرضوا المخلوقَ بسخطِ الخالق.. وخرج إلى مكة)[1].

د ـ وسار أهل بيت النبوة على هذا الهدي:

فاعتزل زين العابدين علي بن الحسين في أرضٍ له إلى جانب المدينة، ولم يشهد شيئاً من أمر الحَرَّة[2].

وقال أبو جعفر الباقر: لم يخرج أحد من آل أبي طالب ولا من بني عبد المطلب أيام الحرة[3].

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٢٣٣؛ واختصره الذهبي في: سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠؛ وتاريخ الإسلام «حوادث سنة ٦١ ـ ٨٠ هـ»، ص٢٧٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٥.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٢٣٣.

هـ ـ وكذلك اعتزل سعيد بن المسيِّب، وهو هو في جلالته وعلمه، ولم يدخل فيما دخل فيه أهل المدينة، ولَزِمَ مسجده وكَفَّ يده فَسَلِم[(١)].

وهكذا كان أهل المدينة فريقين: فريق خَلَع بيعة يزيد، وخرجوا عليه، وأخرجوا بني أمية من المدينة، وفي هذا الفريق بعض الصحابة مثل: عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري ومَعْقِل بن سِنَان الأَشْجَعي، وعبد الله بن حنظلة وعبد الله بن مطيع ولهما رؤية.

وفريق آخر كَفَّ يدَه ولسانَه، ونَصَح مَن نزع يده من الطاعة أن لا يفرِّق أمر الأمة، وعلى رأس هذا الفريق عبد الله بن عمر، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله.

٢ ـ المحاولة الأخيرة:

●● وقبل أن يُسيِّر يزيدُ الجيشَ إلى المدينة، أراد مداَواة الناس بالحِلْم والحكمة، فبعث إليهم الصحابيَّ الجليل النعمانَ بن بَشير؛ يدعوهم إلى الدخول فيما دخل فيه عامة المسلمين في الأمصار (فأقبل النعمان إلى المدينة فأتى قومَه، ودعا الناس إليه عامة، وأَمَرهم بالطاعة ولزوم الجماعة، وخَوَّفَهم الفتنةَ، وقال لهم: إنه لا طاقة لكم بأهل الشام. فقال عبد الله بن مطيع العدوي: ما يحملك يا نعمانُ على تفريق جماعتنا، وفسادِ ما أصلَح الله من أمرنا؟! فقال النعمان: أمَا واللهِ لكأني بك لو قد نزلَتْ تلك التي تدعو إليها، وقامت الرجال على الرُّكَب تَضرِب مفارقَ القوم وجباهَهم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين؛ قد هربتَ على بغلتك تضرِبُ جنبيها إلى مكة، وقد خلَّفتَ هؤلاء المساكين ـ يعني الأنصار ـ يُقتلون في سِكَكِهم ومساجدِهم وعلى أبواب دُورهم!. فعَصَاه الناس، وانصرف. وكان والله كما قال)[(٢)].

عندئذ أجمع الخليفة يزيد بن معاوية على أن يبعث الجيش إلى المدينة، فقام

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٣٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨١. وقد هرب عبد الله بن مطيع إلى عبد الله بن الزبير بمكة!.

إليه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الصحابي ابن الصحابي، فكلَّمه في أهل المدينة ورقَّقه عليهم، وقال: (إنما تقتل بهم نفسك! فقال له يزيد: فأنا أبعث أول جيش وآمرهم أن يمرُّوا بالمدينة إلى ابن الزبير، فإنه قد نَصَب لنا الحرب، ويجعلونها طريقاً، ولا يُقاتلهم[1]، فإن أقرَّ أهل المدينة بالسمع والطاعة تركَهم وجازَ إلى ابن الزبير، وإن أبَوْا أن يُقِرّوا قاتَلَهم. قال عبد الله بن جعفر: فرأيتُ هذا فرجاً عظيماً. فكتب إلى ثلاثة نفر من قريش: عبد الله بن مطيع وإبراهيم بن نُعيم النحَّام وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أهل المدينة قد صيَّروا أمرَهُم إلى هؤلاء، يُخبرهم بذلك ويقول: استقبِلوا ما سَلَف، واغنَموا السلامة والأمن، ولا تَعرِضوا لجنده، ودَعُوهم يَمضون عنكم. فأبَوا أن يفعلوا ذلك، وقالوا: لا يدخلها علينا أبداً!)[2].

٣ ـ نشوب القتال:

●● عن عبَّاد بن تَميم قال: (لمَّا كان يومُ الحَرَّة، والناسُ يُبايعون لعبدِ الله بن حَنْظَلة، فقال عبد الله بن زيد: عَلَامَ يُبايعُ ابنُ حنظلة الناسَ؟ قيل له: على الموت! قال: لا أُبايعُ على ذلك أحداً بعد رسولِ الله ﷺ)[3].

وسَيَّر يزيدُ جيشاً على رأسه مُسْلم (مُسْرِف) بن عُقْبة، ويَمَّم شطر المدينة، وفي وادي القرى لقيهم بنو أمية وقد أُخرجوا بأثقالهم من المدينة، ودخل الجيش من جهة (حرة واقِم) شرقي المدينة، وهناك كانت الوقعة.

ودعا مسلم بن عقبة فقال: (يا أهلَ المدينة! إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصلُ، وإني أكره هِراقةَ دمائكم، وإني أؤجِّلكم ثلاثاً، فمن ارعَوَى وراجع الحقَّ قِبلْنا منه وانصرفتُ عنكم، وإن أبيتم كنَّا قد أعذرنا إليكم)[4].

---

(١) أي: هذا الجيش.

(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٤٥.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٥٩) و(٤١٦٧)؛ ومسلم (١٨٦١).

(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٦ ـ ٤٧٨؛ البداية والنهاية: ٨/ ٢١٩.

وانتهت الأيام الثلاثة، وأبى أهل المدينة إلا الحرب، وكانوا قد جعلوا جيشهم أربعة أرباع، وعلى كل ربع أمير، وأميرُ جماعتهم عبد الله بن حَنْظلة الغَسيل، في أعظم تلك الأرباع وأكثرها عدداً.

والتقى الجيشان، واشتعل القتال، وكَرَّ كل من الفريقين على الآخر، ووجَّه مسلم بن عقبة الخيلَ نحو ابنِ الغَسيل، فحَمَل ابنُ الغسيل على الخيل في الرجال الذين معه حتى كَشَف الخيل، حتى انتهوا إلى مسلم بن عقبة، فنَهض في وجوههم بالرجال، وصاح بهم، فانصرفوا فقاتلوا قتالاً شديداً.

وركب مسلم فرساً له، وأخذ يسير في أهل الشام ويحرِّضهم على القتال، وشَدّوا على ابن الغسيل ومن معه ينضحونهم بالنَّبل، فقال ابن الغسيل لمن معه: من أراد التعجُّلَ إلى الجنة فليلزَمْ هذه الراية، فقام إليه كل مستميت، فقال: الغدوَّ على ربكم، فوالله إني لأرجو أن تكونوا عن ساعة قريري عَيْن! فنهض القوم بعضهم إلى بعض، فاقتتلوا أشدَّ قتال رُئي في ذلك الزمان ساعة من نهار، وأخذ يقدِّم بنيه أمامه واحداً واحداً حتى قُتلوا بين يديه! وقتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن شَمَّاس، وقُتل محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، في آخرين من وجوه القوم.

وانتهت المعركة بهزيمة ماحقة لأهل المدينة[1]!.

وثَمَّةَ روايةٌ أخرى ذكرها خليفة بن خياط والطبري، عن جُويرية بن أسماء، عن أشياخ من أهل المدينة: (فخرج أهلُ المدينة بجموع كثيرة وبهيئةٍ لم يُرَ مِثلُها، فلما رآهم أهلُ الشام هابوهم وكرِهوا قتالَهم، فأمر مسلمٌ بسريره فوُضِع بين الصفين، ثم أمر مناديه: قاتِلوا عني أو دَعُوا! فشدَّ الناس في قتالهم، فسمعوا التكبير خلفهم في جوف المدينة، وأَقحم عليهم بنو حارثة أهلَ الشام، وهم على الجَدّ، فانهزم الناسُ، وعبد الله بن حنظلة متسانِدٌ إلى بعض بنيه يغطُّ

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٥/٤٨٧ ـ ٤٩١؛ البداية والنهاية: ٨/٢١٨ ـ ٢٢٠.

نوماً، فنبَّهه ابنه، فلما فتح عينيه فرأى ما صنع الناسُ؛ أَمر أكبرَ بنيه فتقدَّم حتى قُتل، فلم يَزلْ يقدِّمُهم واحداً واحداً حتى أتى على آخرهم! ثم كَسَر جفن سيفه وقاتل حتى قُتل. ودخل مسلم بن عقبة المدينة ودعا الناس إلى البيعة على أنهم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية يَحكُم في أهليهم ودمائهم وأموالهم ما شاء!)[١].

عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: (جاء تأويلُ هذه الآية على رأس ستين سنة: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤]؛ قال: لأَعْطَوها، يعني إدخالَ بني حارثة أهلَ الشام على أهل المدينة)[٢].

٤ ـ عدد القتلى:

●● كان عدد القتلى فيما ذكره خليفة بن خياط (٣٠٦) رجال، من قريش والأنصار[٣].

وفي رواية عن مالك بن أنس أنهم كانوا (٧٠٠) نفس، فيهم ثلاثة من الصحابة[٤].

ونحن نرجح رواية خليفة لاهتمامه بهذا الشأن، فذكر أسماءهم وقبائلهم. ثم إن هذا العدد هو لأهل المدينة فقط، وهو عدد غير قليل إذا علمنا أن المعركة قد استغرقت بعض يوم.

أما أصحاب الهواية في المبالغات، ومحبُّو الأرقام الضخمة، فتمسكوا برواية واهية، عن المَدائني، عن شيخٍ من أهل المدينة قال: (سألتُ الزُّهْرِيَّ: كم كان القتلى يوم الحَرَّة؟ قال: سبعمئة من وجوه الناس من المهاجرين

---

(١) تاريخ خليفة، ص٢٣٨ ـ ٢٣٩؛ تاريخ الطبري: ٥/ ٤٩٥؛ الفتح: ١٦/ ٣٩٣ (٧١١١).

(٢) أخرجه الفسوي: ٣/ ٤٢٦؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤؛ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٦/ ٢٣٣، وقال: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، وتفسير الصحابي في حكم المرفوع عند كثير من العلماء؛ وصحَّحه الحافظ في الفتح: ١٦/ ٣٩٤.

(٣) تاريخ خليفة، ص٢٤٠ ـ ٢٥٠.

(٤) المعرفة والتاريخ، للفسوي: ٣/ ٤٢٤.

والأنصار، ووجوه الموالي وممن لا أعرف من حرٍّ وعَبْدٍ وغيرهم عشرةُ آلاف!)[١].

ومع وَهَاءِ هذه الرواية، نقول: مَن الذي عَدَّهم، وكم كان عددُ الجيشين حتى تُقتل بينهما هذه المَقتلةُ العظيمةُ؟! وبأيِّ أسلحة كانوا يُقاتِلون حتى سقط منهم عشرة آلاف في بعض يوم؟! إن الحروب الحديثة التي تُستخدم فيها الطائرات والصواريخ والمدفعية وسواها؛ لا يُقتل فيها مثل هذا العدد في مُدَيْدة قصيرة، إذا نظرنا إلى المتحاربين دون المدنيين.

إنها رواية من تلفيقات أصحاب الكذب السَّمْج! وقد ردَّها شيخ الإسلام ابن تيمية وأنكر صحتها[٢]، وهي جديرة بالردّ والتكذيب.

٥ ـ استباحة المدينة وانتهابها:

●● ساق الحافظ المؤرِّخ الثقة خليفة بن خياط أخبارَ وقعة الحرة، واعتنى ببيان مَن قُتل فيها، ولم يذكر استباحة المدينة البتَّة، فأَحْسَن وأجادَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فكأنه لم يَثْبُتْ عنده شيء في هذا، وهو ما نحسبه الحق والصواب، فهذا دأْبُ المسلمين في حروبهم في الفتن كالجمل وصفين وقتال الخوارج، بل مع الأعداء في الفتوحات.

أما الإمام الطبري فجرى على عادته في نقل ما تناهَى إليه من أخبار، فنقل عن لوط بن يحيى ـ لا رعاه الله ـ أن مسلم بن عقبة أباح المدينة لجندِه ثلاثة أيام، يقتلون الناس ويأخذون الأموال، وأن ذلك كان عن أمر الخليفة يزيد بن معاوية[٣].

وهذا مما لا نشك في كذبه، فما لوط عندنا بمصدَّق في هذا!.

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢١؛ مروج الذهب: ٣/ ٧٩.
(٢) منهاج السنَّة: ٤/ ٧٧٥.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٤، ٤٩١.

وقد روى المَدائني: (أن مسلم بن عقبة بعث رَوْح بن زِنْبَاع إلى يزيد ببشارة الحرة، فلما أخبره بما وقع، قال: وا قَوْمَاه! ثم دعا الضَّحاك بن قيس الفِهْرِيَّ فقال له: تَرى ما لقي أهلُ المدينة؟! فما الذي يَجْبُرهم؟ قال: الطعام والأَعْطِية. فأمر بِحَمْل الطعام إليهم، وأفاض عليهم أَعطيته).

قال ابن كثير معلِّقاً على هذا الخبر: (وهذا خلاف ما ذَكَره كَذَبَة الروافض عنه من أنه شَمِتَ بهم واشتَفَى بقَتْلِهم!)[١].

نقول: ويُكذِّب أيضاً ما ادَّعَتْه رواية أبي مِخْنَف من استباحة المدينة لجيش الشام، وأن ذلك كان عن أمر يزيد، فمن يتأوَّه لِمُصاب قومه، لا يُعقل أن يصدر منه الإذن باستباحة دمائهم وأموالهم[٢]!.

خامساً: وقفات ودروس وعبر:

١ ـ الحديث الذي صَدَّرْنا به النبوءة هو من رواية أبي ذَرٍّ الغِفاري رضي الله عنه، وهو قد عاش في المدينة المنورة، والحديث شاع فيها، فكان من الواجب أن يتهدَّى الناس به، ويعتصموا بتوجيهاته؛ حيث يأمر النبيُّ ﷺ أبا ذر إذا وقعت الفتنة أن «**اقعدْ في بيتك، وأَغْلِق عليك بابك**»، وأمره أن لا يحمل سلاحاً ولا يُخرج سيفاً من غمده، بل وأن يلقي بثوبه على وجهه ويقول لمقاتله: بُؤْ بإثمي وإثمك! وهذا فيه مزيد تأكيد على عدم إراقة الدماء، فما بالك بالبروز للفتنة والسعي في تأجيجها؟!.

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٢) استقيت أخبار هذه الوقعة من: تاريخ خليفة، ص٢٣٦ ـ ٢٥٠؛ المعرفة والتاريخ: ٣/ ٤٢٣ ـ ٤٢٧؛ تاريخ الطبري: ٥/ ٤٧٨ ـ ٤٩٥؛ البداية والنهاية: ٨/ ٢١٧ ـ ٢٢٤، ٢٢٦ ـ ٢٣٦، العواصم من القواصم، ص٢٢٨ ـ ٢٣٥، ٢٤٥ ـ ٢٤٧؛ الفتح: ١٦/ ٣٩٠ ـ ٣٩٥؛ الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٥٧٦ ـ ٥٩٤؛ تاريخ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص٤٢ ـ ٤٤، ٥٢ ـ ٥٥.

وقد عمِل الصحابي الجليل أبو سعيد الخُدْري بهدي هذا الحديث عندما أحدقت الفتنة بالمدينة.

عن أبي نَضْرة قال: (دخل أبو سعيد الخدري يوم الحَرَّة غاراً، فدخل عليه رجل ثم خرج، فقال لرجل من أهل الشام: أَدُلُّك على رجل تقتله! فلما انتهى الشامي إلى باب الغار، وقال لأبي سعيد ـ وفي عنق أبي سعيد السيف ـ: اخرج إليَّ، قال: لا، وإن تدخل عليَّ أقتلْك، فدخل الشامي، فوضع أبو سعيد السيف وقال: بُؤْ بإثمي وإثمك، وكُنْ من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين! فقال له الشامي: مَن أنت؟ قال: أبو سعيد الخدري، قال: فاستغفِرْ لي، قال: غَفَر الله لك)[1].

وهذا بلا ريب إذا كان الخصم مسلماً، والقتالُ قتالَ فتنة، أما إذا هاجمه كافر فالدفع واجب، والموت في سبيله شهادة.

ثم في هذا الخبر الصحيح تأكيدٌ لِكَذِب رواية استباحة جيش الشام للمدينة النبوية وأهلها وأموالها، فهذا الشامي مثال لرجال ذلك الجيش.

٢ ـ في موقف شيخ الصحابة الأجلِّ عبد الله بن عمر فقهٌ عظيم للحديث وللواقع، عند اشتباك الفتن واشتباه الأمور، فقد التزم ببيعته، وأَمَر كلَّ من له سلطان عليه بذلك، وكَفَّ لسانه، وأغمد سيفَه، وسعى سعياً حثيثاً للصلح والنصح، وذكَّر وأنذر وحذَّر وخوَّف ورهَّب من نزع اليد من الطاعة، وسار إلى ابن مطيع موضحاً ومذكِّراً ومناصحاً للزوم الجماعة وعدم شق صف المسلمين.

وهكذا يكون موقف العالم الناصح الذي يخاف على الأمة ودينها ووحدة كلمتها، وتخوفه من إراقة الدماء. ولقد كانت مواقف هذا السيد طيلة أيام حياته نبراساً يُقتدى به في العلم والعمل، وكان بموقفه من الفتنة إماماً حقّاً.

---

(١) تاريخ خليفة، ص٢٣٩، وإسناده صحيح؛ والفتن، لنعيم بن حماد (٤٧٦)، وهو عند الطبري من طريق أبي مخنف: ٥/ ٤٩١.

بل روى البخاري عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر: (قال أناسٌ لابن عمر: إنَّا نَدخل على سلطاننا، فنقولُ لهم بخلافِ ما نتكلَّم إذا خرجنا من عندهم، قال: كنّا نَعُدُّها نِفاقاً!)[١].

٣ ـ وفي موقف السيد الجليل محمد ابن الحنفية درسٌ بليغٌ في التحري والتثبت وعدم إطلاق اللسان في الناس، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وخاصة فيما يتعلق به أمر خطير كالخروج على الحاكم، لِما فيه من فتنة عمياء، وإراقة الدماء، وتفريق وحدة الأمة، واضطراب الدولة، فلقد قال لأولئك الذين وقعوا في يزيد بن معاوية: إنه رأى منه صلاحاً وعبادة وملازمة للسنة، فأبَوْا عليه، وتمسكوا بما افتُري عليه وأُشيع عنه، فكان ما كان.

٤ ـ إن أولئك الذين خرجوا على الدولة الإسلامية، ونَزعوا يدَهُم من الطاعة، ونكثوا البيعةَ، وخلعوا أمير المؤمنين الذي بايعَتْه الأمة، وفيها مِن خيار الصحابة مَن هم أفضلُ بكثير من أولئك الخارجين فَضْلاً، وأحسنُ رأياً، وأتقى تقوى! كان يتوجَّب عليهم ـ وإن كانوا يطلبون الشورى، ولا نشكك في صدقهم ـ أن يستشيروا أهل الخبرة والنظر، بل أن يُنصتوا لنصحهم وإرشادهم في عدم الخروج أصلاً، ويتبصَّروا بعواقبه ونتائجه! لكنهم تهوَّروا فمَضَوا لرأيهم، ففُجِعوا بأنفسهم، وفَجعوا المسلمين والتاريخ بهم.

يقول المحقق العلّامة محمد الخضري: (إنهم فَتَقوا فَتْقاً، وارتكَبوا جُرماً، فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة)[٢].

٥ ـ يتوجَّب على من يَهُمَّ بالخروج على الحاكم والدولة أن يعرف جيداً مقدار إمكانياته وطاقاته، وكذلك قوة خصمه، وأن يكون له هدف من وراء ذلك الخروج، وعنده البديل الأصلح منه.

---

(١) البخاري (٧١٧٨).

(٢) محاضرات الخضري «تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة الأموية»، ص٣٢٩.

والذين خرجوا على الدولة الأموية لم يحققوا شيئاً من ذلك، ولا كانت مبررات خروجهم مقبولة؛ فالدولة قوية شامخة راسخة قد وطّدها معاوية رضي الله عنه على مدى عشرين سنة، فلا قِبَل لهم ولا لغيرهم بها. ثم لو نجحت ثورتهم ماذا سيكون بعدها، وهل سينصِّبون أميراً للمؤمنين ثانياً؟ ومَن هو؟ ومن سيُبايعه؟ وما أهليته وخبرته وكفاءته؟ وما هو الموقف من الدولة المركزية؟!.

وبعد أن كتبتُ هذه العبرة والفائدة، وقفتُ على كلامِ عالمٍ محقق قال نحوَ ما قلتُهَ!.

يقول الشيخ الخضري: (وإن الإنسانَ ليعجبُ من هذا التهوُّر الغريب، والمظهر الذي ظَهر به أهل المدينة في قيامهم وَحْدَهم بخَلْع خليفةٍ في إمكانه أن يجرِّد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه! ولا يَدري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد؛ أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم؟ أم حَمْلَ بقية الأمة على الدخول في أمرِهم؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار، ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية؟!)[١].

٦ ـ لا يجوز الخروج على خليفة المسلمين إذا كانت المفسدةُ أكبرَ من المصلحة، أو يقع من المنكر أشدّ من الأمر الذي يسعون لإنكاره.

يقول ابن تيمية: (إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنها ترجِّح خيرَ الخيرين وشرَّ الشرين، وتحصيلَ أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفَعُ أعظمَ المفسدتين باحتمال أدناهما)[٢].

٧ ـ أكثَرُ حركاتِ الخروج في تاريخنا الإسلامي أدَّتْ إلى مفاسدَ كبيرة، وتولَّد عنها من الشر والبلاء وسَفْك الدماء أعظم من المصالح التي تراءت

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢٩.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠/٤٨.

لأولئك الخارجين على وحدة الأمة! والذين خرجوا يوم الحرة على خليفة المسلمين مثال واضح لذلك.

يقول ابن تيمية: (وقلَّ من خرج على إمام ذي سلطان، إلا كان ما تولَّد على فعله من الشرِّ أعظم مما تولَّد من الخير؛ كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة، وكابن الأشعث الذي خرج على عبد الملك بالعراق، وكابن المُهلَّب الذي خرج على أبيه[١] بخراسان . . . وأما أهل الحَرّة وابن الأشعث وابن المهلب وغيرهم فَهُزِموا وهُزم أصحابهم، فلا أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا! والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين ولا صلاح الدنيا، وإن كان فاعل ذلك من أولياء الله المتقين ومن أهل الجنة)[٢].

٨ ـ حتى لو سلَّمنا بفِسْق يزيد، فإنه لا يجوز الخروج عليه لمجرد الفسق، لِما يجرُّ ذلك من الفساد والفتن وسفك الدماء وانتهاب الأموال وضعف أمر الأمة.

قال النووي: (وأما الخروج عليهم وقتالُهم؛ فحرامٌ بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين. وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرتُه، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق)[٣].

ونقل مثلَ ذلك: ابنُ عبد البر وعياض وابن كثير وابن حجر وغيرهم[٤].

وكما قرَّر الإمام الجويني: إنه لا يجوز للمسلمين أن يثوروا على الحاكم كيفما اتفق، وإنما إذا عَظُمت جنايتُه، وكثرت عاديته، وفشا احتكامه واهتضامه،

---

(١) يعني: مروان بن الحكم والد عبد الملك.

(٢) منهاج السنة: ٤/ ٥٢٧ ـ ٥٢٩.

(٣) شرح صحيح مسلم: ٦/ ٤٧٠ شرح الأحاديث (١٨٣٤ ـ ١٨٤٠).

(٤) الاستذكار: ١٤/ ٤٠؛ شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٤٧٠ ـ ٤٧١؛ البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤؛ الفتح: ١٦/ ٣٩٥.

وبدت فضاحته، وتتابعت عثراته، وخِيف بسببه ضياعُ البَيْضة وتبدُّد دعائم الإسلام(١).

٩ ـ لا نلتمس العذر ليزيد في مقارعة أهل المدينة لإدخالهم في الطاعة والجماعة، فإن إخافتهم ذنب عظيم وموبقة كبرى، ومخالفة صريحة لوصاة النبي ﷺ بهم، وتحذيره الشديد من ترويعهم.

عن جابر بن عبد الله ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَخافَ أهلَ المدينةِ أَخافَهُ الله**»(٢).

لكنْ ما الحيلةُ وقد نَصَحهم الصحابة الكبار فلم يَقبلوا، وحذَّرهم النُّعمان بن بَشير فما استجابوا، وأَرسل إليهم عبد الله بن جعفر فصمَّموا على موقفهم، وأَعْذَر إليهم مسلم بن عقبة ثلاثاً فما وجد منهم إلا الثبات على القتال؟! رحمهم الله وغفر لهم.

ولو أن الخليفة تَركَ أهلَ المدينة يخلعونه وينزعون يدهم من الطاعة، والحسينَ يخرج إلى الكوفة ويمضي في مراده، وابنَ الزبير يستعصم بمكة ويرفض البيعة ويؤلِّب على الخليفة ـ فلن يبقى للدولة هيبة ولا سلطان، وستكون هناك دول ضمن دولة!.

فكان من نتيجة تلك الثورات والخروجات قيام الحروب الدامية، وعموم البلوى في الأمة؛ وصدق الله سبحانه إذ يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

ونحن مع العلّامة محمد الخضري فيما ذهب إليه، بعد أن تكلَّم على الفتن

(١) غياث الأمم في التياث الظلم، ص٨٨ ـ ٨٩.
(٢) أخرجه ابن حبان (٣٧٣٨) وحسَّنه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٢٣٠٤)؛ وبنحوه وبأطول منه: ابن أبي شيبة: ٧/ ٥٥١؛ وأحمد: ٣/ ٣٥٤، ٣٩٣؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

الثلاث: (مقتل الحسين، ووقعة الحرة، وحصار ابن الزبير بمكة)، قال رَحِمَهُ الله: (ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث وآثارها، لا نَرى من العدل أن يتحمَّل يزيد كلَّ تبعتها، بل إن الذي يتحمله جزء صغير منها، لأنه خليفة بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم، فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة، وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلَّده، فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل! وإنما الذي عليه: تلك الشدة التي أجرَتْها جنوده بعد أن تم لها النصر)[1].

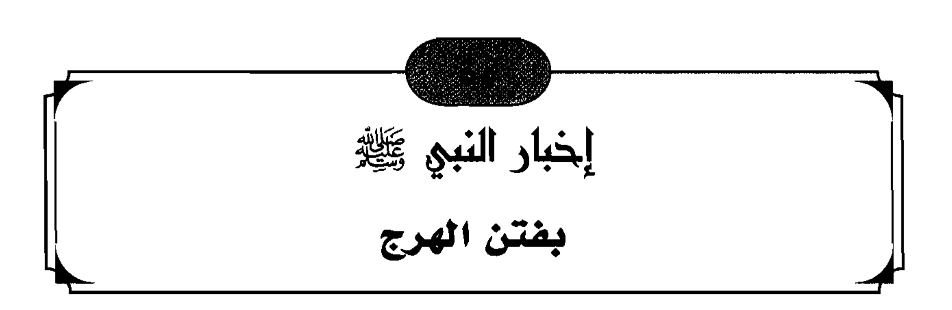
١٠ ـ كان يتوجَّب على يزيد أن يتخيَّر رجلاً أَلْيَن من مسلم بن عقبة، وأقربَ إلى الله منه، وأشدَّ خشية، وأحرصَ على دماء المسلمين ووحدة الأمة، وهذا مما يُلام عليه يزيد بلا ريب.

وكذلك لو أن (مُسْرِفاً) سلك مع أهل المدينة وحرمِ النبي ﷺ مسلكَ الحصار والإطالة فيه، لسلَّم الخارجون عن الطاعة بالأمر، وأَلْقَوا السلاح وحُقنت الدماء، ذلك أن صبر العامة على المقاومة قصير كما هو معروف من وقائع التاريخ، وبخاصة في بلدة كالمدينة المنورة، وبما فيها من أهل الخير والداعين إلى الإصلاح، وبما يجتمع عليه الفريقان أهل المدينة وأهل الشام من الدين الواحد والهدف الواحد، وإن اختلفَتْ طرق الوصول إليه.

١١ ـ يتوجَّب على الحاكم أن يسلك مع الرعية، وبخاصة من يناوئه ويخرج عليه، أسلوبَ الحكمة واللِّين والنصح والإرشاد والمعالجة والإصلاح، وأن يستعمل عليهم من الأمراء ويوجِّه إليهم من المصلحين والعلماء مَن يحبُّ ذلك ويسعى إليه ويحرص عليه، وأن لا يكون متهوِّراً متجبِّراً في الأرض، فَيُهلك العباد والبلاد، ليسلم له الجاه والسلطان، فلن يسلِّمه الله في الدنيا، ولن ينجيه من موقفه العصيب بين يديه يوم يؤوب إليه!.



(١) محاضرات الخضري «تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة الأموية»، ص٣٢٩ ـ ٣٣٠.



إخبار النبي ﷺ بفتن الهرج

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَتَقَارَبُ الزَّمانُ، ويَنْقُصُ العِلمُ، وتَظْهَرُ الفِتَنُ، ويُلْقَى الشُّحُ، ويَكْثُرُ الهَرْجُ**» قالوا: وما الهرجُ يا رسولَ الله؟ قال: «**القَتْلُ، القَتْلُ**»[1].

٢ ـ عن شَقِيق بن سَلَمة قال: (كنتُ مع عبد الله ـ بن مسعود ـ وأبي موسى ـ الأشعري ـ فقالا: قال النبي ﷺ: «**إنَّ بينَ يَدَي الساعةِ لأياماً يَنْزِلُ فيها الجهلُ، ويُرْفَعُ فيها العِلمُ، ويَكْثُر فيها الهَرْجُ**» والهَرْجُ القَتْل)[2].

٣ ـ عن أَسِيد بن المُتَشَمِّس قال: (حدَّثنا أبو موسى الأَشْعريُّ، حدَّثنا رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ بينَ يَدَي الساعةِ لَهَرْجاً**» قال: قلتُ: يا رسولَ الله! ما الهَرْجُ؟ قال: «**القَتْلُ**» فقال بعضُ المسلمين: يا رسولَ الله! إنَّا نَقْتُل الآنَ في العام الواحدِ من المشركينَ كذا وكذا! فقال رسول الله ﷺ: «**ليس بقَتْلِ المشركينَ، ولكِنْ يَقتُلُ بعضُكُم بَعْضاً، حتى يَقْتُلَ الرجلُ جارَهُ وابنَ عمِّه وذا قرابتِه**» فقال بعضُ القوم: يا رسولَ الله! ومعنا عقولُنا ذلكَ اليومَ؟! فقال رسول الله ﷺ: «**لا، تُنْزَعُ عقولُ أكثرِ ذلك الزمان، ويَخْلُفُ له هَبَاءٌ من الناس لا عُقُولَ لهم**»! ثم قال

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦١) و(٨٥) وفيه أطرافه؛ ومسلم (١٥٧) بعد (٢٦٧٢)؛ وأحمد: ٢/ ٢٣٣؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦١٧؛ وابن ماجه (٤٠٥٢)؛ وابن حبان (٦٧١١) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٦٢، ٧٠٦٣) وأطرافهما، واللفظ له؛ ومسلم (٢٦٧٢)؛ وابن ماجه (٤٠٥٠، ٤٠٥١)؛ وأحمد: ١/ ٣٨٩، ٤٠٢؛ والداني (٥٧، ٥٩، ٦٠)؛ وأخرجه الترمذي عن أبي موسى وحده (٢٢٠٠).

الأشعريُّ: وايْمُ اللهِ، إنِّي لَأَظُنُّها مُدْرِكَتي وإيَّاكُم! وايْمُ اللهِ، ما لي ولكم منها مَخْرَجٌ إنْ أدركَتْنَا فيما عَهِد إلينا نبيُّنا ﷺ، إلا أن نَخْرُجَ كما دخَلْنا فيها)[١].

❁ ❁ ❁

أولاً: كلمة بين يدي النبوءة وتوضيح وبيان لمعاني ألفاظ الأحاديث:

●● **أصل الهَرْج في اللغة**: الاختلاط، يقال: هَرَج الناس: اختلطوا واختلفوا، وهرج الناس في الحديث: إذا كثُروا وخلَّطوا[٢].

وقد جاء في الحديث أن أبا موسى الأشعري قال: (والهَرْجُ بلسان الحبشة: القَتْلُ)، أي: إن إطلاق لفظ (الهرج) على (القتل) بطريق الحقيقة إنما هو بلسان الحبشة، أما في اللغة العربية فإطلاق (الهرج) على (القتل) هو من باب المجاز.

قال الحافظ: (وأخطأ مَن قال: نسبةُ تفسيرِ الهرج بالقتل للسان الحبشة وَهَمٌ من بعض الرواة، وإلا فهي عربية صحيحة. ووَجْهُ الخطأ: أنها لا تستعمل في اللغة العربية بمعنى القتل إلا على طريق المجاز، لكون الاختلاط مع الاختلاف يُفْضِي كثيراً إلى القتل، وكثيراً ما يُسمَّى الشيء باسم ما يؤول إليه، واستعمالُها في (القتل) بطريق الحقيقة هو بلسان الحبش، وكيف يُدَّعَى على مِثل أبي موسى الأشعري الوَهَم في تفسير لفظة لغوية؟! بل الصوابُ معه، واستعمالُ العرب (الهرج) بمعنى (القتل) لا يمنع كونها لغة الحبشة، وإنْ ورد استعمالها في الاختلاط والاختلاف كحديث مَعْقِل بن يَسار رفعه: «**العبادةُ في الهَرْج كهجرة إليَّ**»[٣]).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٩) واللفظ له؛ وأحمد: ٤/ ٣٩١ ـ ٣٩٢، ٤٠٦، ٤١٤؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٣٦، والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٥٢٨؛ والداني (٢١)؛ وبأخصر منه عند ابن حبان (٦٧١٠)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٩٨)؛ والصحيحة (١٦٨٢).

(٢) لسان العرب: ٢/ ٣٨٩؛ الفتح: ١٦/ ٣١٠ ـ ٣١١، شرح الحديثين (٧٠٦٢، ٧٠٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤٨)؛ والترمذي (٢٢٠١)؛ وابن ماجه (٣٩٨٥)؛ وابن حبان (٥٩٥٧)، وغيرهم.

(وذكر ابن سيده في (المُحْكَم) للهرج معاني أخرى، ومجموعها تسعة: شدة القتل، وكثرة القتل، والاختلاط، والفتنة في آخر الزمان، وكثرة النكاح، وكثرة الكذب، وكثرة النوم، وما يُرى في النوم غير منضبط، وعدمُ الإتقان للشيء.

وقال الجوهري: أصلُ الهرجِ الكثرةُ في الشيء، يعني حتى لا يتميَّز)[1].

•• وتشير الأحاديث المتقدمة ـ وفي الباب غيرها كثير جدّاً ـ إلى وقوع القتل وكثرته في الأمة، ويلاحَظ في بعض ألفاظها: «**إن بين يدي الساعة أياماً**»، «**يكثر فيها الهرج**»، «**ليس بقتل المشركين، ولكن يقتل بعضُكم بعضاً حتى يقتل الرجل جاره وابن عمه وذا قرابته**».

فكلمة «**أيام**» تفيد أن ذلك يتكرر وقوعه في هذه الأمة، وليس هو يوماً واحداً، أو معركة واحدة، وينقضي ذلك، بل وقائع متعددة، وأيام مستكثَرة.

وعبارة «**يكثر الهرج**»: فيها دلالة على الكثرة الشديدة المخيفة في القتل، فكلمة (الهرج) نفسها تفيد الكثرة، فإذا أضيف إليها لفظ (يكثر)، دلَّ على خطورة الأمر وهيجان القتل واشتعاله.

وقوله: «**ليس بقتل المشركين، ولكن يقتل بعضُكم بعضاً**»، أوضَحَ فيه النبيُّ ﷺ للصحابة ومن بعدهم أن الهرج الذي يحذِّر منه هو ما يقع بين المسلمين، من قَتْل المسلمِ جارَهُ وابنَ عمه وذا قربته، أمَّا قتالُ المشركين والكفار فهذا لا عتب فيه ولا خوف منه.

ثانياً: تحقق النبوءة:

وهذه النبوءة على الوجه الذي أوضحناه قد وقعت في الأمة تماماً كما أَخبر به الصادق المَصْدوق ﷺ، وقد ظهرت بداياتها في عهد أمير المؤمنين علي في وقعتي (الجمل) و(صفين)، وفي أوائل عهد الأمويين، وأخذت تزداد وتضطرم حيناً، وتخمد وتنحسر حيناً آخر، واستحكمت في أواخر عهد الأمويين حيث

---

(١) الفتح: ١٦/٣١١.

سقطت دولتهم، وفي فترات متباعدة من أيام العباسيين، واستمرت هكذا فيمن بعدهم، وهي مستحكِمة في القرن المنصرم والسنين التي نعيشها الآن.

●● ومن فتن الهرج التي حدثت واضطرمت نارها في عهد الأمويين:

١ ـ وقعة كَرْبَلاء واستشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما في طائفة من أهل بيته، سنة (٦١هـ).

٢ ـ وقعة الحَرَّة في المدينة النبوية، سنة (٦٣هـ)، وقُتل فيها (٣٠٦) أنفس.

٣ ـ معركة مَرْج راهِط شرقي غوطة دمشق، بين الضَّحَّاك بن قيس ومروان بن الحَكَم، في آخر سنة (٦٤هـ)، اقتتلوا فيها على المُلْك، وقُتل مع الضحاك نحو (ثلاثة آلاف)، وانتصر مروان، وعاد المُلك لبني أمية.

٤ ـ وفي سنة (٦٥هـ) قام الشيعة برئاسة سُليمان بن صُرَد على الدولة الأموية، للثأر لدم الحسين بزعمهم، وسَمّوا جيشَهم بـ (التوابين)، والتقوا بالجيش الأموي في (عَيْن الوردة) من أرض الجزيرة ـ الواقعة بين نهري دجلة والفرات ـ إلى الغرب من صِفِّين، وخاضوا معركة ضارية انتهت بهزيمتهم واضمحلال حركتهم الطائشة، وقُتل فيها خلق!.

٥ ـ وفتنة المختار بن أبي عُبيد الثَّقَفي، الذي ادَّعَى حُبَّ آل البيت الطاهرين، وتتبَّع قتلةَ الحسين فقتلهم، وذلك سنة (٦٦هـ). واقتتل مع جيش أهل الشام بقيادة عبيد الله بن زياد وهزمهم، ثم سيَّر له عبد الله بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير، فتوجَّه إلى المختار ومن معه بالكوفة، ودارت بين الطرفين رحى معركة طاحنة، قُتل على آثارها المختار وانفضَّ جَمْعُه، وذلك سنة (٦٧هـ).

٦ ـ ولمَّا أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة، أمَّر على العراق أخاه مصعباً، فسار مصعب إلى الشام لمقاتلة عبد الملك بن مروان، فخرج إليه عبد الملك بجيش كثيف، والتقوا بدَيْر الجاثَلِيق ـ قرب بغداد في غربي دجلة ـ ووقعت بينهما ملحمة كبرى سنة (٧٢هـ)، انتهت بمقتل مصعب وفلّ جيشه.

٧ ـ وفي سنة (٧٣هـ) نازَلَ الحَجَّاجُ عبدَ الله بن الزبير بمكة وحاصَرَه، وضُرِبت الكعبة بالمِنْجَنِيق، وقُتل ابن الزبير رضي الله عنهما، وقد دامت فتنته أكثر من ثماني سنين، وصَفَت الأمور لعبد الملك سنة (٧٣هـ).

٨ ـ وحروب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث مع الدولة الأموية، خاض بمن معه نحو (٨٠) وقعة، من أشهرها معركة (دَيْر الجَمَاجِم)، وقد بلَغ جيشه أكثر من (٣٠) ألف فارس و(١٢٠) ألف راجل، وأُريقت دماء كثيرة، انتهت بمقتله وانكسار جيشه، واستمرت ثلاث سنين ما بين سنتَيْ (٨١هـ) و(٨٣هـ).

٩ ـ وفتنة يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرة، الذي خرج على الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان، وتوثَّب بالبصرة سنة (١٠٢هـ)، فجهَّز له يزيد جيشاً بقيادة أخيه مَسْلَمة، والتقى الجيشان بـ (العَقْر) من أرض بابل، ودارت معركة رهيبة استمرت ثمانية أيام، قُتل فيها خلق وفيهم يزيد بن المهلب وعدة من إخوته!.

١٠ ـ وفي سنة (١٢١هـ) زَيَّن أهلُ الكوفة لزيد بن علي بن الحُسين الخروجَ على الدولة الأموية، كما فعلوا مع جدِّه من قبل، فبايعوا زيداً، وخَرج بهم على الوالي الأموي يوسف بن عُمر الثقفي، ونشبت بين الطرفين حروب ضَروس، قُتِل فيها زيد وهُزم جيشه.

١١ ـ وخلال سِني الدولة الأموية خرج الخوارج مرات كثيرة، منهم الأَزَارقة والصُّفْرية وخوارج اليمامة، وكان سيفُ الحكم يعضّهم في كل مرة ويفلُّ جمعَهم. ومن أعظم خرجاتهم ما كان سنة (١٢٨هـ) وعليهم الضحاك بن قيس الخارجي، والتقوا بجيش الأمويين بقيادة الخليفة مروان بن محمد، وحدثت بينهما مقتلة عظيمة قُتل فيها زُهاءَ ستة آلاف معظمهم من الخوارج.

١٢ ـ وحروب أبي مسلم الخُراساني الذي وطَّأ البلادَ لحكم العباسيين، وقتل خلقاً لا يُحصون محاربة وصبراً. وجرت معركة (الزاب) قرب المَوْصل بين جيش العباسيين بقيادة عبد الله بن علي عمِّ أبي العباس السفَّاح، وجيش الأمويين بقيادة مروان بن محمد، الذي انكسر وتفلَّل جيشُه، فهرب إلى دمشق ثم إلى

الأردن ففلسطين فمصر. ونزل العباسيون دمشق وأخذوها بالسيف، وقتلوا من الأمويين وأشياعهم خلائق، فلله الأمر!.

•• وفي عهد العباسيين حدثت فتن وحروب لم تنقطع، أزهقت فيها أرواح، وسفكت دماء، وعطلت بلاد، وكثرت حركات الخروج على الدولة، وطمع بالأمة أعداؤها.

١٣ ـ ومن ذلك أن أبا العباس السفاح لما مات قام عمُّه عبد الله بن علي فدعا لنفسه بالبيعة، فبعث أبو جعفر المنصور إليه أبا مسلم الخراساني، فكان بينهما قتال مرير، وهُزم فيه عبد الله بن علي سنة (١٣٧هـ).

١٤ ـ وفي سنة (١٤٥هـ) خرج محمد بن عبد الله بن الحَسن بن الحَسن بن علي المعروف بالنفس الزكية بالمدينة، وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة، خرجا على أبي جعفر المنصور، فوجَّه إليهما عساكره، فانكَسَرا، وقُتل خلق.

١٥ ـ وفي سنة (١٦٩هـ) خرج الحُسين بن علي بن الحَسن بن الحَسن بن الحَسن بن علي بالمدينة في عدد كبير، وقاتل العساكر بالمدينة وتأهَّب للخروج إلى مكة، فأقبل عليه جيش من العراق فيه عدة أمراء من بني العباس، ونازلوه، فقُتل في مئة من أصحابه.

١٦ ـ وما بين سنتي (١٩٥هـ) و(١٩٨هـ) تنازع الأَخَوان الأمين والمأمون على الخلافة، وحدثت بينهما حروب انتهت بمقتل الأمين سنة (١٩٨هـ)، وابتدأ عهد المأمون في الحكم.

١٧ ـ وفي سنة (١٩٩هـ) كانت فتنة ابن طَبَاطَبَا محمد بن إبراهيم بن إسماعيل العلوي بالكوفة، فغَلَب عليها وكَثُر جيشه، فسار لحربه زهير بن المسيب في عشرة آلاف، فهزمه ابنُ طَبَاطَبا واستباح عسكره، ثم قُتل ابن طباطبا في اليوم التالي!.

١٨ ـ وفي سنة (٢٠١هـ) خرج أهل بغداد على المأمون، فكانت حروب شديدة في العراق.

١٩ ـ وفي سنة (٢٥٥هـ) ابتدأت فتنة الزَّنْجِ، حيث ادعى (صاحب الزَّنْج) أنه عَلَويٌّ، ودعا لنفسه، فالتفَّ عليه قطّاع طُرق والعبيد السود من غلمان أهل البصرة، وانضم إليه كل مجرم، وعُرفوا بالزَّنْج، فَقَتَلوا وبدَّعوا، واستفحل الشرُّ بهم، ووَثَب قائدهم على (الأُبُلَّة) واستباحها، وقتلوا نحو (٣٠) ألفاً! وعاثوا في البلاد فساداً وأنهكوا قوة الدولة، واستمرت فتنتُهم نحو (١٥) سنة، وقَتَلوا من المسلمين خلالها أكثر من (مليون) نفس!.

٢٠ ـ وفتنة القرامطة التي ترجع بداياتها إلى سنة (٢٦١هـ)، حيث نشأت في سَوَاد العراق، واجتاحت الشام واليمن والجزيرة العربية، وقتلوا من المسلمين خلائق، وقطعوا الطريق على الحجيج، بل في سنة (٣١٧هـ) وافَوا الحُجَّاج يوم التَّروية وقَتلوهم قتلاً ذريعاً في المسجد الحرام وفي فِجَاج مكة، وقَلَعوا بابَ الكعبة والحجرَ الأسود وأخذوه إلى (هَجَر) ـ وهي مدينة الهفوف السعودية الآن ـ وقتلوا في المسجد الحرام (١٧٠٠) نفس، ولم يَحجّ ذلك العام أحد!.

٢١ ـ وقامت على الدولة العباسية دول أخرى ضمن حدود دولة الخلافة؛ كالدولة الصَّفَّارية والعُبيدية، وغيرهما، وجَرَتْ حروب، وأُزهقت أرواح، وسالت دماء.

وكان الأمر كما أخبر النبي ﷺ: «**يكْثُر الهَرْج**» قيل: وما الهَرْجُ يا رسولَ الله؟ قال: القتلُ، القتلُ».

●● واستمرت الفتن تترى، واقتتل الناس على كرسي الحكم، وظهرت بِدعٌ وأهواء، واستحكَمَتْ فِتن الهَرْج في بلاد المسلمين أيام العباسيين، والأيوبيين، والمماليك، والعثمانيين، وهكذا إلى أيامنا.

وفي القرن المنصرم جرت أنهار من الدماء، وتساقطت الأرواح كورق الخريف اليابسة عَصَفَت بها رياح هُوج! وخاضَ الزعماء من أجل الظفر بالحُكْم أو لتحالفات شخصية مع آخرين؛ معاركَ طاحنة في الداخل والخارج.. وجرت حروب وفتن داخلية في كثير من البلاد العربية والإسلامية، أُزهقت فيها عشرات

الآلاف بل مئات الآلاف من الأرواح، بعضها جهاراً والبعض الآخر بصمت! ومن أمثلة ذلك ما جرى ويجري في لبنان والعراق ومصر وسورية وفلسطين واليمن والسودان والصومال والجزائر والمغرب وباكستان وأفغانستان، والحرب العراقية الإيرانية، وغزو العراق للكويت، وغير ذلك كثير.



إخبار النبي ﷺ
بأن الفتن تأتي من جهة المشرق

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**رأسُ الكُفْر نحوَ المَشْرِقِ، والفَخْرُ والخُيَلاءُ في أهلِ الخَيْلِ والإبلِ، والفَدّادِينَ أهلِ الوَبَر، والسَّكِينَةُ في أهلِ الغَنَم**»[1].

٢ - وعن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما: (أنَّ رسولَ الله ﷺ قال وهو مُستقبِلُ المَشْرِقِ: «**هَا إنَّ الفتنةَ هَهُنا، ها إنَّ الفتنةَ هَهُنا، ها إنَّ الفتنةَ ههُنا، من حيثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطان**»)[2].

٣ - وعن قيس بن أبي حازم، عن أبي مسعود البَدْرِيِّ رضي الله عنه، يَبْلُغُ به النبيَّ ﷺ قال: «**مِن هَهُنا جاءت الفِتنُ - نحوَ المشرقِ - والجفاءُ وغِلَظُ القلوبِ في الفَدَّادِينَ أهلِ الوَبَر، عند أصولِ أذنابِ الإبل والبَقر، في رَبِيعَةَ ومُضَرَ**»[3].

٤ - وعن نافعٍ، عن ابنِ عُمر رضي الله عنهما: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اللهمَّ بارِكْ لنا**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠١) واللفظ له؛ ومسلم (٥٢) (٨٥) و(٨٦)؛ والترمذي (٢٢٤٣)؛ ومالك: ٢/ ٩٧٠؛ وأحمد: ٢/ ٣٧٢، ٤٠٧ - ٤٠٨، ٤٥٧، ٤٨٤، وغير موضع؛ وابن حبان (٥٧٧٤) و(٧٢٩٩)؛ والبغوي (٤٠٠٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٩٢، ٧٠٩٣) و(٣١٠٤) وفيه أطرافه؛ ومسلم (٢٩٠٥) واللفظ له؛ والترمذي (٢٢٦٨)؛ ومالك: ٢/ ٩٧٥؛ وعبد الرزاق (٢١٠١٦)؛ وأحمد: ٢/ ٢٣، ٢٦، ٤٠، ٥٠، ٧٢، ١١١، وغير موضع؛ وابن حبان (٦٦٤٨) و(٦٦٤٩)؛ والبغوي (٤٠٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٩٨) واللفظ له؛ وأطرافه في رقم (٣٣٠٢)؛ ومسلم (٥١)؛ وأحمد: ٤/ ١١٨، ٥/ ٢٧٣؛ والبغوي (٤٠٠٢).

في شامِنا، اللهمَّ بارِكْ لنا في يَمَنِنا» قالوا: وفي نَجْدِنا، قال: **«اللهمَّ بارِكْ لنا في شامِنا، اللهم بارِكْ لنا في يَمننا»** قالوا: وفي نَجْدنا، قال: **«هُنالِكَ الزَّلازلُ والفِتنُ، وبها ـ** أو قال: **منها ـ يَخْرُج قَرْنُ الشَّيْطَانِ»**) لفظ ابن حِبَّان.

وفي رواية لأحمد؛ عن ابن عمر: (أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«اللهمَّ بارِكْ لنا في شامِنا ويَمَنِنَا»** مرتين، فقال رجلٌ: وفي مَشْرِقِنا يا رسولَ الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: **«مِنْ هُنالِكَ يَطْلُع قَرْنُ الشَّيطانِ، وبها تسعةُ أعشارِ الشَّرِّ»**!)[١].

٥ ـ وعن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما: (أنَّ النبيَّ ﷺ دَعَا فقال: **«اللهمَّ بارِكْ لنا في مَكَّتِنا، اللهمَّ بارِكْ لنا في مَدِينَتِنا، اللهمَّ بارِكْ لنا في شامِنا، وبارِكْ لنا في صاعِنا، وبارِك لنا في مُدِّنا»** فقال رجلٌ: يا رسولَ الله! وفي عِرَاقِنا! فأَعْرَضَ عنه. فردَّدَها ثلاثاً، كلُّ ذلك يقول الرجلُ: وفي عِراقِنا، فَيُعرِض عنه! فقال: **«بها الزَّلازِلُ والفِتَنُ، ومنها يَطْلُع قَرْنُ الشَّيطان»**)[٢].

❁ ❁ ❁

أولاً: توضيح وبيان لمعاني مفردات الأحاديث ومدلولاتها:

قوله ﷺ: **«رأسُ الكُفْر نحوَ المشرق»**: فيه إشارة إلى شدَّة كُفْر المجوس؛ لأن مملكة الفرس ومَن أطاعهم مِن العرب كانت من جهة المشرق بالنسبة إلى المدينة، وكانوا في غاية القسوة والتكبُّر والتجبُّر، حتى مزَّق ملكُهم كتابَ النبي ﷺ! واستمرت الفتن من قِبَل المشرق[٣].

والمراد بالمشرق هو العراق وما والاه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٧) و(٧٠٩٤)؛ والترمذي (٣٩٥٣)؛ وأحمد: ٢/ ٩٠، ١١٨، ١٢٦؛ وفي فضائل الصحابة (١٧٢٤)؛ وابن حبان (٧٣٠١)؛ والبغوي (٤٠٠٦).

(٢) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ»: ٢/ ٧٤٦ ـ ٧٤٨؛ وأبو نعيم في الحلية: ٦/ ١٣٣؛ والربعي في «فضائل الشام»، ص٢٣ ـ ٢٥؛ والمخلص في الفوائد: ٧/ ٢ ـ ٣، وغيرهم؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٢٤٦).

(٣) الفتح: ٨/ ١٠٩ (٣٣٠١).

«**والفَخْر**»: الإعجاب بالنفس، والافتخار وعدُّ المآثر القديمة تعظيماً.

«**والخُيَلاء**»: الكِبْر واحتقار الغير.

«**الفَدّادين**»: جمع «الفَدّاد» وهو من «الفَديد» وهو الصوت الشديد، فَهُم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحروثهم ونحو ذلك.

وإنما ذَمَّ هؤلاء لاشتغالهم بمعالجة ما هم فيه عن أمور دينهم، وذلك يُفْضي إلى قساوة القلب فلا يسرع بالاستجابة والتأثر بقوارع التذكير.

«**أهل الوبر**»: أي ليسوا أهل المَدَر، لأن العرب تعبر عن أهل الحضر بأهل المدر، وعن أهل البادية وبأهل الوبر.

«**والسكينة**»: هي الطمأنينة والسكون والوقار والتواضع، وإنما خَصَّ أهلَ الغنم بذلك لأنهم غالباً دون أهل الوبر في التوسع والكثرة، وهما من سبب الفخر والخيلاء.

«**قَرْن الشيطان**»، وفي رواية: «**قرنا الشيطان**»: أي قوة الشيطان وما يستعين به على الإضلال، والمراد: اختصاص المشرق بمزيد من تسلُّط الشيطان ومن الكفر، ويؤيده قوله في الحديث الآخر: «**رأس الكفر نحو المشرق**»، والكفر ليس له رأس، بل المقصود أن معظم الفتن ورياح الأهواء والكفر تأتي من المشرق، وهذا ما يسعى إليه الشيطان ويفرح به[١].

ولو تأملنا لوجدنا أن معظم فتن الهرج وكثرة القتل من جهة، وكذلك معظم الأهواء والبدع الضالة من جهة أخرى؛ كانت من جهة المشرق، كما سنوضحه، فلعلَّ ذلك معنى «**قرنا الشيطان**».

«**في ربيعة ومضر**»: أي في الفدادين منهم.

---

(١) انظر هذا وما قبله من معانٍ في: شرح السنَّة: ١٤/٢٠٣؛ شرح مسلم، للنووي: ١/٣١٠؛ الفتح: ٨/١٠٩ ـ ١١٠، ١٦/٣٥٦ (٧٠٩٢ ـ ٧٠٩٤)؛ النهاية في غريب الحديث.

١ ـ معنى قوله ﷺ: «وفي نجدنا» وهل في ذلك مذمة لكل أهل المشرق؟!:

•• قال الخَطَّابي: (نَجْدٌ من جهة المَشرق، ومن كان بالمدينة كان نجدُه باديةَ العراق ونواحيها وهي مشرق أهل المدينة، وأصلُ النَّجْد ما ارتفَعَ من الأرض، وهو خِلاف الغور فإنه ما انخَفَض منها، وتِهامة كلها من الغور، ومكة من تِهامة).

نقل الحافظ هذا ثم قال: (وعُرِف بهذا وَهَاءُ ما قاله الداوودي أن نَجْداً من ناحية العراق، فإنه توهَّم أن نَجْداً موضع مخصوص، وليس كذلك، بل كل شيء ارتفع بالنسبة إلى ما يليه يسمّى المرتفِع نجداً والمنخفِض غَوْراً)[1].

وليس المقصود من (نجد) الإقليم المعروف اليوم بهذا الاسم في السعودية.

ولا شك بأن (العراق) في جهة المشرق بالنسبة للمدينة المنورة، وتُعدّ (نجداً) بالنسبة لها، وهي وما والاها مقصود الحديث. وقد فَقِهَ ذلك جيداً التابعي الجليل سالم بن عبد الله بن عمر، ففي الوقت الذي بدأت الفتن تظهر فيه، وكان أهل العراق يفعلون عظائم الأمور ويسألون عن صغارها؛ واجههم سالم بهذا الحديث، ففي رواية أخرجها مسلم:

عن فُضَيْل بن غَزْوان الضَّبِّي قال: (سمعت سالمَ بن عبد الله بن عمر يقول: يا أهلَ العراق! ما أَسْأَلَكُم عن الصَّغيرة وأَرْكَبَكُم للكبيرة! سمعتُ أبي عبدَ الله بنَ عُمر يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ الفتنةَ تجيءُ من هَهُنا**»، وأَوْمَأَ بيدِهِ نحوَ المشرقِ «**من حيثُ يَطْلُعِ قَرْنَا الشيطانِ**» وأَنْتُم يَضْرِبُ بعضُكم رقابَ بعضٍ!)[2].

•• ولا يعنى ذلك مذمة ومنقصة لجميع أهل المشرق من العراق وهاتيك

---

(١) الفتح: ١٦/٣٥٦ ـ ٣٥٧؛ وانظر: فضائل الشام، للربعي، ص٢٧؛ والصحيحة، للألباني: ٥/ ٣٠٥.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٠٥) (٥٠).

النواحي، فهذا لا يقول به عاقل، فلقد زخر تاريخ العراق وبلاد المشرق بأساطين العلم في كل فن، وخرج منها الزعماء والمصلحون والقادة والفاتحون، قديماً وحديثاً، بل نزل فيها جماهير من أكابر الصحابة، وظهرت الفتن هناك في حياتهم. فليس كل من سكن المشرق مذموماً، كما أنه ليس كل من كان من أهل مكة والمدينة واليمن والشام صالحاً فاضلاً، فكم من فاسق فاجر في هذه البلاد، وكم من عالم عامل وصالح فاضل في المشرق والعراق.

وما أَرْوَعَ وأحكَمَ تلك الكلمة التي قالها سلمان الفارسي عندما كتب إليه أبو الدرداء: (أَنْ هَلُمَّ إلى الأرضِ المُقدَّسة، فكَتَب إليه سلمانُ: إنَّ الأرضَ لا تُقدِّسُ أحداً، وإنما يُقدِّسُ الإنسانَ عملُه)[1].

٢ ـ التوفيق بين قوله ﷺ: «الفتن من المشرق»، وقوله وقد أَشْرَف على أُطُم من آطَامِ المدينة: «إني لأَرى الفتنَ تقع خلال بيوتكم كوَقْعِ القَطْر»:

يقول الحافظ: (إنما اختصَّت المدينة بذلك لأن قَتْلَ عثمان ﷺ كان بها، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك، فالقتال بالجمل وصفين كان بسبب قَتْل عثمان، والقتال بالنَّهروان كان بسبب التحكيم بصفين، وكلُّ قتالٍ وقع في ذلك العصر إنما تولَّد عن شيء من ذلك أو عن شيء تولَّد عنه. ثم إن قَتْلَ عثمان كان أشدَّ أسبابه الطعنُ على أمرائه ثم عليه بتوليته لهم، وأولُ ما نشأ ذلك من العراق، وهي من جهة المشرق، فلا منافاة بين الحديثين)[2].

نقول: وزيادةً على كلام الحافظ، فإن الفتن ليس مصدرها من أهل المدينة ابتداءً، وإنما عَصَفَت رياحها العَقيم من المشرق، وتساقَطَ بلاؤها في البلاد ومنها المدينة النبوية، ويلاحظ دقةُ البيان النبوي وروعتُه في قوله ﷺ: **«إني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر»**؛ والقَطْر يأتي من عَلٍ ويسقط على

(١) موطأ مالك: ٢/ ٧٦٩؛ مجموع الفتاوى: ٢٧/ ٤٤ ـ ٤٥.
(٢) الفتح: ١٦/ ٣٠٣ (٧٠٦٠).

الأرض، أي أن الفتن تتساقط على المدينة من خارجها وليست ناشئة منها ولا نابتة في أرضها، والله أعلم.

ثانياً: نبذة عن أنواع الفتن التي هاجت من المشرق:

•• قال الحافظ: (أول الفتن كان من قِبل المشرق، فكان ذلك سبباً للفرقة بين المسلمين، وذلك مما يحبُّه الشيطان ويفرح به. وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة)[1].

١ ـ وأولُ الفتن القادمة من المشرق ـ فيما نحسب ـ كان مقتلَ الخليفة الراشد فاروق الإسلام عمر رضي الله عنه وأرضاه، فلقد كان ذلك بتدبير مجوسي يهودي، وتنفيذ المجوسي العِلْج أبي لؤلؤة، وهو من المشرق، وعمر كان (غَلَقَ الفتنة)، وبعد استشهاده توالت الفتن يزلق بعضها بعضاً.

٢ ـ ومن الفتن الكبرى مقتلُ الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، والذي تولى كِبْرَ تلك الجريمة جيشان من الكوفة والبصرة، وانضم إليهما جماعة من الطَّغَام المِصريين، ومَنْبَتُ الفتنة وتدبيرُها وعِظَمُها كان من العراق.

٣ ـ ثم ما تولَّد عن ذلك من فتنة الجمل، وصفين، وبعدهما وقعة النهروان.

٤ ـ ومقتلُ السِّبْط الشهيد الحسين بن علي، وفتنةُ مصعب بن الزبير، وحروب ابن الشعث، وخاصة معركة (دَيْر الجَمَاجِم).

٥ ـ وفتنة المختار بن أبي عُبيد الثقفي المتنبِّئ الكذَّاب.

٦ ـ وفتنة الزَّنجْ وفسادُهم العريض ومذابِحُهم المروِّعة للمسلمين.

٧ ـ والقَرامِطَة الذين ابتدأ ظهورهم في سواد الكوفة، ثم انتشرت فتنتُهم في البلاد، واكتوى بلظاها كثير من أمصار الإسلام، حتى الحجيج الذين ذُبحوا يوم التَّرْوِية.

---

(١) الفتح: ١٦/٣٥٦.

٨ ـ وكذلك ما قام به التتار القادمون من المشرق، والذين نكَبوا العالم الإسلامي والإنسانية، فسفكوا الدماء، وهدموا العمران، ودمّروا البلدان، وهتكوا الأعراض، ونهبوا الأموال، وقضوا على التراث الإسلامي فألقوا الكتب في دجلة حتى اسودَّ الماء من المداد.

٩ ـ وأيضاً من المشرق يخرج المسيح الدجال بفتنته الجائحة التي تُنسي الناسَ ما سواها من الفتن، ومخرجُه من خُراسان كما صحَّ في الحديث.

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ: **«أنَّ الدَّجَّالَ يَخرجُ من أرض بالمَشرقِ يُقال لها: خُراسان، يَتْبَعُه أقوامٌ كأنَّ وجوهَهم المَجَانُّ المُطْرَقَةُ»**[1].

●● وفي المشرق كذلك نبتت كثير من الأهواء المذهبية، والبدع الضالة، وتَشَظَّتْ شرورها في ديار الإسلام، ومن ذلك:

الخوارج، والشيعة، والرافضة، والقدرية، والجهمية، والمعتزلة، والمرجئة، والقرامطة، والبابية، والقاديانية، وغيرها.

وهكذا نرى بدراسة الأحاديث واستقراء أحداث التاريخ؛ **أن هذه النبوءة تحقق تصديقها في مرحلة مبكّرة في عهد الخلفاء الراشدين، ثم تمادت بالظهور واستحكمت فيما بعد.**

وكما أوضحنا فإن معظم الفتن والهَرْج والبدع والأهواء جاءت من المشرق، وقد عبَّر النبي ﷺ عن ذلك بقوله: **«من هنالك يَطْلُع قَرْنُ الشيطانِ، وبها تسعةُ أعشارِ الشّر»**[2].

---

(١) أخرجه أحمد: ١/٤، ٧، واللفظ له؛ والترمذي (٢٢٣٧)؛ وابن ماجه (٤٠٧٢)؛ والحاكم: ٤/٥٢٧ ـ ٥٢٨؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وصحَّحه أحمد شاكر، والألباني وهو عنده في الصحيحة (١٥٩١).

(٢) أخرجه أحمد بهذا اللفظ ٢/٩٠؛ وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٥٦٢٤)؛ وانظر الحديث رقم (٤) في صدر هذه النبوءة؛ ومجمع الزوائد: ١٠/٥٧.

فهذا يكشف عن الأخطار الهائلة والشرور الزاحفة من هاتيك الأقطار!.

ثالثاً: بركة دعوة النبي ﷺ للشام واليمن:

●● وفي الحديث دعا النبي ﷺ للشام واليمن بقوله: «**اللهم بارِكْ لنا في شامنا ويَمننا**»، وكرَّر ذلك، وأتى به بلفظ الجمع للتفخيم والتعظيم، ثم أضافه لنفسه الكريمة، لمزيد من التشريف والتكريم، والرسول ﷺ لا يضيف لنفسه إلا ما يحبّ، وفي كل هذا شرف عظيم لأهل الشام واليمن، وتنبيه واضح على الدور الخطير والأهمية الاستراتيجية لبلاد الشام وما تقوم به من أعباء حمل الرسالة وحمايتها على مدار الزمن، وفيه كذلك ما يتوجب على أهل هذه الأمصار من بَذْل المزيد من العمل والجهاد لنصرة هذا الدين ورفْعِ رايته ونشر كلمته وحماية بَيْضَته.

والدعاء بالبركة على عمومها وشمولها للإنسان والزمان والمكان والثمرات، وينعكس ذلك إيجابياً بانسياح الخيرات والبركات إلى الديار المقدسة في مكة والمدينة وما والاهما، وهذا ما حدث على مدار التاريخ، فوشائج الأخوة بين الشام والحجاز لا تنفصل عُراها، وعموم الخيرات لا ينقطع مجراها، بفضل الله تعالى ثم ببركة دعوة النبي ﷺ المباركة الحانية[١].

ولم يَدْعُ ﷺ لأهلِ المشرق، وسببُ ذلك كما يقول المُهلَّب: (إنما ترك ﷺ الدعاء لأهل المشرق ليَضْعُفوا عن الشر الذي هو موضوع في جهتهم، لاستيلاء الشيطان بالفتن)[٢].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: الأرض المقدسة، ص٤٦ ـ ٤٧.

(٢) الفتح: ١٦/٣٥٦.

إخبار النبي ﷺ بفتن كأنها الظلل ويرقِّق بعضها بعضاً وتعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً

١ ـ عن عروة بن الزبير، عن كُرْزِ بنِ عَلْقَمة الخُزَاعيِّ ﷺ قال: (قال رجلٌ: يا رسولَ الله! هَلْ للإسلامِ من مُنْتَهَى؟ قال: «**نَعم، أيُّما أهلِ بيتٍ من العَربِ أو العَجَمِ أرادَ الله بهم خَيْراً؛ أَدْخَلَ عليهمُ الإسلامَ**» قال: ثم مَهْ؟ قال: «**ثم تَقَعُ الفِتنُ كأنَّها الظُّلَلُ**» قال: كلَّا واللهِ إنْ شاءَ الله، قال: «**بَلَى والَّذي نَفْسِي بيدِه، ثم تَعُودونَ أَسَاوِدَ صُبّاً، يَضْرِبُ بعضُكُم رِقابَ بَعْضٍ**»)(١).

٢ ـ وعن عبد الرحمن بن عبد ربِّ الكعبةِ، عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّهُ لم يكنْ نبيٌّ قَبْلي إلَّا كان حقّاً عليهِ أنْ يَدُلَّ أمَّتَه على خيرِ ما يَعْلَمُه لهم، ويُنْذِرَهُم شَرَّ ما يَعْلَمُه لهم، وإنَّ أمَّتَكُم هذه جُعِلَ عافيتُها في أوَّلِها، وسَيُصِيبُ آخِرَها بلاءٌ وأمورٌ تُنْكِرونَها، وتجيءُ فتنةٌ فيُرَقِّقُ بعضُها بَعْضاً، وتجيءُ الفتنةُ فيقولُ المؤمنُ: هذهِ مُهْلِكَتِي، ثم تَنكشِفُ، وتَجيءُ الفتنةُ فيقولُ المؤمنُ: هذهِ هذهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عن**

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٧٧، واللفظ له؛ والطيالسي (١٢٩٠)؛ والحميدي (٥٧٤)؛ وعبد الرزاق (٢٠٧٤٧)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٤، والبزار (٣٣٥٣) و(٣٣٥٤)؛ وابن حبان (٥٩٥٦)؛ والبغوي (٤٢٣٥)، والداني (١٥٩)؛ والحاكم: ١/ ٣٤، ٤/ ٤٥٥؛ والطبراني في الكبير: ١٩/ ١٩٧ رقم (٤٤٢ ـ ٤٤٦)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٥٢٩؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط والألباني في الصحيحة (٣٠٩١).

النارِ ويُدْخَلَ الجنَّةَ؛ فَلْتَأْتِه مَنِيَّتُهُ وهو يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِر، ولْيَأْتِ إلى الناسِ الذي يُحِبُّ أن يُؤْتَى إليهِ. ومَنْ بايَعَ إماماً، فأَعْطاهُ صَفْقَةَ يدِهِ وثمرةَ قَلْبِه، فَلْيُطِعْه إنِ استطاعَ، فإنْ جاءَ آخَرُ يُنازِعُه؛ فاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ»(١).

٣ ـ وعن رِبْعِيِّ بنِ حِرَاشٍ، عن حُذيفةَ بن اليَمان ﷺ قال: (كنّا عند عمرَ فقال: أيُّكم سَمع رسولَ الله ﷺ يَذكُر الفِتنَ؟ فقال قومٌ: نحنُ سَمعناهُ، فقال: لعلَّكم تَعْنُونَ فتنةَ الرجلِ في أهلِه وجارِه؟ قالوا: أَجَلْ، قال: تلك تُكَفِّرُها الصلاةُ والصيامُ والصَّدقةُ، ولكنْ أيُّكم سَمِع النبيَّ ﷺ يَذكُر الفِتنَ التي تَمُوجُ مَوْجَ البحرِ؟ قال حذيفةُ: فأَسْكَتَ القومُ، فقلتُ: أنا، قال: أنتَ، للهِ أبوكَ!.

قال حذيفة: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«تُعْرَضُ الفِتنُ على القلوبِ كالحَصيرِ عُوداً عُوداً، فأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيهِ نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأيُّ قَلْبٍ أَنْكَرها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتى تَصِيرَ على قَلْبَيْنِ: على أبيضَ مثلِ الصَّفَا، فلا تَضُرُّهُ فِتنةٌ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ، والآخرُ أَسْوَدُ مُرْبَادّاً كالكُوزِ مُجَخِّياً، لا يَعْرِفُ مَعروفاً، ولا يُنْكِر مُنْكَراً، إلا ما أُشْرِبَ من هَوَاهُ»**)(٢).

❁ ❁ ❁

في هذه الأحاديث معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ، وآياتٌ من دلائل نبوته وصِدق رسالته، يُخبِر ﷺ فيها ـ بما كَشف الله سبحانه له من الغيب وأظهره عليه ـ عمّا سيقع من الفتن في أمته حتى كأنها الظُّلل، ثم إن هذه الفتن تتكاثر وتتزاحم ويدفع بعضها بعضاً، فما ينفلت الناس من فتنة إلا دَهَمَتْهم أخرى، حتى شَبَّهها

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٧٧٦٦) و(٨٦٧٦)، والصغرى: ٧/ ١٥٢؛ وابن ماجه (٣٩٥٦)؛ وأحمد: ٢/ ١٦١، ١٩١؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٠؛ وابن حبان (٥٩٦١).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٤) (٢٣١) واللفظ له؛ وأحمد: ٥/ ٣٨٦، ٤٠٥؛ والبغوي (٤٢١٨). وللحديث في بعض رواياته تتمة اتفق عليها الشيخان، مرت في النبوءة رقم (٤١).

في تقاربها وتتاليها بعيدان الحصير المتراصة المتشابكة فيما بينها، وتغزو القلوب لتفتنها! وهكذا كان كما أخبر ﷺ.

وتتضمن الأحاديث التي سُقْتُها ثلاثَ نبوءات وضَعْتُها معاً لوجود الارتباط بينها والتداخل في المدلول والتحقق والأمثلة فيها، ولأن ذلك أفضل في سياقها وبيانها وتفصيلها.

أولاً: توضيح موجز للمفردات والمعاني:

●● قوله: «**هل للإسلام من منتهى؟**»: أي هل له غاية ونهاية يَبلُغها؟ فيبيِّن النبي ﷺ للسائل أن الإسلام سيدخل على من أرادهم الله بالخير من العرب والعجم، وقد كان ذلك عندما انساحت الفتوحات في الشرق والغرب، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

ـ «**كأنها الظُّلَل**»: واحدتها ظلة، أراد كأنها الجبال أو السُّحُب.

ـ «**كلا والله إن شاء الله**»: قالها هذا السائل، وهو أعرابي كما جاء في بعض الروايات، إشفاقاً وخشية وترجِّياً لعدمِ وقوعها، ولذا قال: «إن شاء الله»، وليس فيه اعتراض على قوله ﷺ.

ـ «**أساوِد صُبّاً**»: **الأساود**: جمع الأَسْوَد، والأسود أخبث الحيات وأعظمها.

والصُّبّ: جمع صَبُوب، والأسود إذا أراد أن ينهش ارتفع ثم انصبَّ على الملدوغ!.

ويروى «**صُبَّى**»: جمع صابٍ، كغازٍ وغُزَّى، وهم الذين يَصْبُون إلى الفِتنة أي يَميلون إليها.

وواقع الحال في الفتن يشمل هذين المعنيين!

●● قوله: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقّاً عليه . . .**»: فيه بيان مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام للبشرية في قيادتها للخير والفضائل

وصلاح الدنيا والآخرة، والتحذير من مسالك الشر والضلال الذي يؤول إلىٰ الخسران والبوار.

وقد كان رسولنا ﷺ في الدرجة الأعلى من رحمته بهذه الأمة، وشفقته عليها، فلم يترك خيراً إلا بَيَّنَه للمسلمين ودلَّهم عليه، ولم يُغْفِل شرّاً أو فتنة إلا حذَّرهم منها، وأوضح لهم مغبَّة مقارفتها. ولذلك كَثُرت أحاديثه الشريفة عن الفتن وبيانها، لتكون الأمة على جادة العلم والهدى والصواب في التعامل معها، لتَصْلُح لها دنياها وتَسْلم آخرتها.

ـ قوله «**تجيء فِتن يُرَقِّقُ بَعضُها بعضاً**»: ولفظة «**يرقق**» رُويت بعدَّة أوجه:

١ ـ «**يُرَقِّق**»: أي يصير بعضها رقيقاً أي خفيفاً لِعِظَم ما بعدَه، فالفتنة المتأخّرة أعظمُ من المتقدّمة، فتصير المتقدمة عندها رقيقة.

أو «يرقق»: أي يزيِّن بعضُها بعضاً؛ قال ابن الأثير في «النهاية»: أي تُشَوِّق بتَحْسِينها وتَسْوِيلها.

٢ ـ «**يَرْفُق**»: من الرفق أي يرافق بعضها بعضاً، أو يجيء بعضها عقب بعض.

٣ ـ «**فَيَدْفُق**»: أي يَدفع ويَصبّ، والدَّفْقُ: الصبُّ.

٤ ـ «**فَيُدَقِّق**»: أي يجعل بعضُها بعضاً دقيقاً.

٥ ـ «**فَيَزْلِقُ**»: أَزلَقَتْ بعضُها بعضاً: أي دَفَع بعضُها بعضاً، كأن الثانية تَزْحَمُ الأولى لسرعةِ ورودِها عليها، ويَزْلِق بعضُها بعضاً: يعجِّلها، والإزلاق: الإعجال.

وأحسب ـ والله أعلم ـ أن واقع الفتن يشتمل على تلك المعاني كلها، كما سنوضحه إن شاء الله.

ـ قوله: «**ولْيَأْتِ إلى الناس الذي يحبُّ أن يُؤتَى إليه**»: قال النووي: (هذا

من جوامع كَلِمِه ﷺ وبديعِ حِكَمِه، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها، وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه).

- «**صفقة يمينه**»: أي عهده وميثاقه.

- «**ثمرة قلبه**»: كناية عن الإخلاص في العهد والتزامه، أي خالص عهده.

●● قوله: «**تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً**»: أي تَلصق بعَرْض القلوب؛ أي جانبها فتؤثر فيها، كما يَلصق الحصير بجَنْب النائم ويؤثر فيه.

وعوداً عوداً: أي تعاد وتكرر شيئاً بعد شيء.

- «**أُشْرِبها**»: دخلَتْ فيه دخولاً تاماً، فحَلَّت منه محلَّ الشرب، كأنه قد شَرِبها.

- «**نُكِت فيه نكتة سوداء**»: أي أثّر فيه أَثَراً أسودَ، وهو دليل السخط.

- «**أنكرها**»: ردَّها.

- «**الصَّفا**»: الحجر الأملس الذي لا يَعلق به شيء.

- «**مُرْبَادّاً**»: أي في لونه رُبْدَة، وهي بياضٌ يَسيرٌ يُخالط السواد.

- «**كالكوز مجخياً**»: المُجَخِّي هو المائل عن الاستقامة، والمقصود أنه مَنكوسٌ مقلوب.

وهذا وصفٌ آخر لذلك القلب فقد نُكس وقُلب حتى لا يَعْلَق به خير ولا حكمة، وهذا معنى قوله: «**لا يَعرف معروفاً، ولا يُنكِر منكراً**».

ثانياً: بيان موجز حول الفتن التي تقع كأنها الظلل ويزلق بعضها بعضاً:

●● انتشر الإسلام في جزيرةِ العرب، ثم في البلدان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وعَمَّ الأمصارَ كالريح الرُّخاء، وبَلَغ منتهاه كما قال النبي ﷺ؛ فأقبل عليه الناس فوجاً إثر فوج، ودخل الدور والقصور، والأكواخ والبيوت. ثم قُتل

عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، وباستشهاده كُسِر باب الفتن وأصبحت تتدافع على الناس، كلما طفئت واحدة انقضَّت عليهم أخرى.

وشَبَّهها النبي ﷺ بالأَسَاوِد وهي أخبث الحيات، التي ترتفع وتَنصِبُ صَدْرَها ثم تنصبُّ على الملدوغ! وإنما وصفها ﷺ بذلك لِما تُحدِثه الفتنة في المجتمعات من تخريب البلدان، وتدمير العمران، وسفك الدماء، واضطراب أمور الناس، وتعثُّر مسيرة البناء والحضارة وانتشار الإسلام، والعبث بالأمن والأمان.

وهذه الفتن ضخمة كبيرة تجثُم على صدور الناس، فتضيِّق عليهم أنفاسَهم وتشلُّ حِراكَهم، بشدة وطأتها وشراسة فتكها. أو هي تُظلِّلهم بسوادها الحالك وتغشِّي على بصائرهم، فيعيشون في ظلمة، يتهارشون ويَصْطَلِمون، وتختلط عليهم الأمور، وتشتبك الحقائق بالأباطيل، وتحارُ العقول، وتستخفّ النفوس، فالناس من ظلمات تلك الفتن في أمر مَريج!.

وتهبُّ هذه الفتن على القلوب، وتلفحها بسمومها، وتعاود الكَرَّة المرة بعد الأخرى، لتخترقها وتستولي عليها؛ فمن تلك القلوب: قلوب آتاها الله سبحانه البصيرة، وزوَّدَها بالصبر، وأعانها بالتوفيق، فتبدِّد تلك الهجمات الهائجة وتكسر أمواجها وتردّها خائبة حسيرة، فلا يَعلق من أدرانها بها شيء؛ فتصبح كما قال ﷺ: «مثل الصفا»، بصلابته وطهارته ونفيه لكل دَغَل حيث لا يعلق به غبار ولا غيره لملاسته.

ونمط آخر من القلوب المضطربة الرخوة المثقبة التي عبث بها الشيطان، وتلاعبت بها الأهواء، ونخرت فيها أمراض الضعف والهوان والاستخذاء والولاء لجند الشيطان، فتستسلم لتلك الفتن، فتخترقها وتملأ الفراغات التي فيها، وتغلِّف ما تبقى فيها من إيمان أو يقين أو بصيرة، وتملؤها بالأهواء والشهوات ورذائل الأخلاق ومساوئ الأعمال! فيسودُّ باطِنُ ذلك القلب وظاهره، وينقلب وضعه فيصبح عاليه سافلَه، لا يستهدي بنور حق، ولا يستضيء

بقوارع تذكير، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً! ويكون حاله كما قال حذيفة ﷺ وقد سئل: (أيُّ الفِتن أشدّ؟ قال: أن تَعْرض على قلبك الخيرَ والشر فلا تدري أيهما تركب ـ أي: تفعل ـ)[١].

●● ويفيء العقلاء، ويثبت الأصفياء، وينهض المصلحون؛ أولئك أصحاب القلوب التي وصفها الرسول ﷺ بأنها بيضاء «**مثل الصفا**» لا تضرُّها فتنة ما دامت السموات والأرض، فَيُسرِجون من قلوبهم وأعمالهم مصابيحَ الهداية، ويبدِّدون ظلمات الفتن، ويجمعون الكلمة، ويوحّدون الصفوف، وينطلقون في مسيرة الحياة والبناء، والأمن والإخاء، والخير والصلاح، ويقول: بعضهم لبعض: قد نَجَونا من تلك الفتنة، فتأتيهم موجة أخرى عاتية قد دفعتها تلك التي انحسرت من قبل، فيناوشونها من جديد، ويبذلون لها المهج والأرواح والأموال والراحة والهناء، ويستذكرون الفتنة المتصرِّمة فيستخفُّون بها قياساً مع ما هم فيه، فهي كما وصفها النبي ﷺ: «**يُرَقِّق بعضها بعضاً**»، فالثانية أقسى من الأولى وأعتى، ويَرْفُق بعضها بعضاً حيث تأتي مترافقة متتالية، ويَزْلِق بعضها بعضاً بمعنى الإسراع في الإزعاج والاستعجال في الاندفاع، ككتلة من صخر انحطّت من قمة جبل فتدفع ما يليها، وتتدافع الصخور والحجارة المتتالية بعجلة وعنف!.

●● وفي خِضَمِّ تلك الفتن هناك عقول ماكرة، وأنفس خبيثة، وقلوب مريضة، وأناسي ضعاف، وآخرون رَعَاع لا يفقهون قيلاً ولا يهتدون سبيلاً؛ فأولئك جميعاً هم الذين اسودَّت قلوبهم وأُشربت الفتن فأصبحت كما وصفها النبي ﷺ: «**كالكوز مُجَخِّياً**»! فتأتي تلك الفتن ترقق لها وتتزين وتحسِّن وجْهَهَا وتسوِّل أمرَها: من تولي حُكْمٍ، أو استغلال منصب، أو الفوز بجاه، أو مداهنة مسؤول، أو استضعاف مظلوم، أو استلاب مال، أو تنفيس حقد، أو تحقيق مكر، أو خيانة أمانة، أو إشاعة فاحشة، أو ترويج حرام، أو مناصرة ظالم، أو

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (١١٨) و(١٣٤).

التردد على أماكن العبث واللهو الحرام، أو الوشاية ببريء، أو أكلِ مال حرام، أو غير ذلك مما يعرض على القلوب من الفتن التي تزيِّن نفسَها وتحسِّن وجهها وتجمِّل أمرها، فيتلقفها الماكرون ويروِّجون لها، فيقع في أحابيلها الأغرار واللاهون، ويَقدح أولئك زَنْدَها، ويُشعِلون نارها، ويسعِّرون ما خمد منها، حتى يُطيلوا أمدَ بقائها، ويزيدوا من شدة بطشها وفتكها.

●● ومن شفقته ﷺ على أمته ورحمته بها وحبِّه الخير لها؛ تحدَّث عن تلك الفتن وأطال الحديث: فكَشَف أمرها، وبيَّنَ خطرها، ووصف أحوالها، وأبان أحياناً صفات رجالها والسُّعاة فيها، وحذَّر من ملابستها فضلاً عن المشي فيها والسعي إليها، وأمر بكفكفة جماحها، وامتدح المصلحين عند وقوعها والناجين منها، ووضع المسلمين على جلية من أمرهم، والمعصوم من عصمه الله، ولا بدَّ للفتن أن تقع ابتلاءً واختباراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

فالسعيد من يجتنب الفتن، ولا يخوض فيها، ولا يؤجج نارها، وإذا استطار عليه من شررها أو لفحته بسَمُومها؛ صَمَد لها وأطفأَ جَذْوَتها، وصَبَّ عليها من إيمانه وصبره ويقينه ما يُخمد أنفاسَها، فيخرج منها كالذهب الإبريز إذا عُرض على النار خرج أكثر صفاءً وأَلَقاً لأنه تخلص من شوائبه وأدرانه!.

ثالثاً: ومن تلك الفتن العظيمة المروعة:

مقتلُ أمير المؤمنين الفاروق عمر في محرابه، وسفكُ دم الشهيد عثمان في حرم رسول الله ﷺ، ومعركة الجمل، ووقعة صفين، وفتنة الخوارج، ومقتل الحسين بن علي، ووقعة الحرَّة بالمدينة، ومعركة مرج راهط، وفتنة المختار بن أبي عُبيد الثقفي المتنبئ الكذّاب، ومنازلة الحَجَّاج عبدَ الله بن الزبير وقتله، وضربُ الكعبة بالمِنجنيق، وحروب ابن الأشعث، وقيام العباسيين بمذابح لبني أمية وظهور دولتهم على أشلاء كثيرة، وخروج عدد من رجال آل البيت على سلطان الخلافة في أوقات متباعدة وأماكن مختلفة؛ مثل: محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وأخيه إبراهيم، وزيد بن علي بن الحسين، والحسين بن علي بن الحسن، وغيرهم، وحرب أبي جعفر المنصور

مع عمِّه عبد الله بن علي الذي دعا لنفسه بالخلافة، وفتنة الأخَوَيْن الأمين والمأمون، ووقائع الزَّنْج المروِّعة، وفتن القرامطة الملاحدة ومذابحهم للمسلمين وللحجيج، وخروج عُبيد الله الملقب بالمهدي في المغرب وانتسابه كَذِباً إلى الحسين بن علي وكان باطنيَّ الاعتقاد، وخروج آل طولون بمصر ومنهم هارون بن خمارويه على المكتفي بالله الخليفة العباسي وكانت بينهما وقائع ودماء، وفتن التتار الجائحة التي اكتسحت المشرق الإسلامي، وظهور الرافضة بقوة واستعلاء وعلى رأسهم شيخ الطائفة نصير الدين الطوسي الذي يسمِّيه ابن القيّم (نصير الشرك والكفر والإلحاد، وزير الملاحدة، وزير هولاكو)، الذي شَفَى نفس هولاكو واشتفَى هو، حيث عرض على السيف جماعة من أهل السنَّة، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدّثين، ونَصَر في كُتبه قِدَم العالم وبُطلان المعاد وإنكارَ صفات الرب ﷻ[1]!.

وغير ذلك من الفتن التي ذكرنا قسطاً وافراً منها في هذا الكتاب، وأصبحت من التاريخ الذي يجب دراسته والاعتبار به، والتي تنطبق عليها الكلمات النبوية الصادقة في وصف دقيق؛ بأنها كالجبال الكبيرة والسُّحب الداكنة، تتوالىٰ وتتدافع، ويَزْلِق بعضها بعضاً، ويُرقِّق بعضها البعض الآخر!.

ومن الفتن التي اجتاحت المسلمين منذ عهد قريب، أو التي تُظلِّل حياة الناس الآن وتجثُم على صدورهم، فتلفَحُهم بلَظَاها، وتحرقُهم بشررها المُتطاير المُستعظَم:

١ ـ عزل الشعوب العربية والإسلامية عن بعضها، وترسيخ الحواجز المادية والمعنوية بينها؛ لتقطيع وشائج الأخوة فيما بينها، وإذهاب ريحها:

فانقسم المسلمون إلى قوميات، والعرب إلى دويلات، وتعمقت أسباب الخلاف فيما بينهم في عالم الحكم والسياسة والاقتصاد والتعليم والدفاع وغيرها، فأصبحوا في شِعاب الدنيا منازعَ شتى، وتقطَّع الكيان الإسلامي

(١) انظر: إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٦٧.

الكبير، فإذا حدثت مجزرة في بيروت لا ترتاع لها دمشق، وإذا نزلت نكبة بالقاهرة لم ترتعد لها الرباط، وأصبح المسلمون لا ينصر أحدهم الآخر، وتفرد الأعداء بالقدس، وبغداد، وبيروت، والصومال، والفلبين، ونيجيريا، وأفغانستان، والشيشان، و... و...، يذيقون أهلها الحتوف، وبقية المسلمين في المدائن والقرى عاجزون أو جاهلون(١).

فلقد انفرد الإسبان بجزر (ميندناو) و(زامبوانجا) و(سولو) وغيرها مما سُمِّي فيما بعد (الفلبين)، واستمرت الحرب هنالك ثلاثة قرون، وشَنَّ (ماركوس) وغيره على المسلمين حرب إبادة، وأقام لهم المجازر والجرائم وحمامات الدم التي تسبح فيها جثث الضحايا من المؤمنين الموحّدين، ثم نزل الأمريكان هناك بعد أن دفعوا للإسبان (٢٠٠) مليون دولار (خلوّ رِجْل!) فشنُّوا الحرب البكتيرية على المسلمين ومواشيهم؛ فاجتاحت أوبئة الكوليرا والجدري والطاعون البلاد سنة (١٩٠٣م)، وبَلَغ عدد الضحايا (٢٠٠ ألف مسلم)، ومئات الآلاف من الدواب.

وشُنَّت الغارة على أرض الإسلام، وكانت من السعة بحيث شملت أغلبَ قارة آسية، ونجحت في إنزال رايات الإسلام عن بقاع كثيرة، بدءاً من شرقي الأورال إلى أودية تركستان الخصبة، إلىٰ فيافي سيبيرية، إلى أعماق الهند، وسنغافورة، وتايلاند، والملايو، وأندونيسيا(٢).

والمسلمون إما عاجزون، أو أن أغلبهم لا يعلمون! فأي فتنة أعظم من فتنة المسلم في دينه وإخراجه من إسلامه؟! ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

فهل درَّسَ العرب في مناهجهم أحوالَ إخوانهم في العقيدة في أرجاء المعمورة؟!.

---

(١) علل وأدوية، ص٢١٩ ـ ٢٢١.
(٢) المرجع السابق، ص٢٢٧ ـ ٢٣١.

فالمسلمون في أوغندا يتعرضون لحرب إبادة، ولا أحد يتحدّث عن مصابهم، وكذلك المسلمون في زنجبار، وتانجانيقا، والحبشة، وأرتيرية، والصومال، أولئك كلهم يُفْنَون في صمت! وفي قارة آسية نجد المسلمين في تايلاند تطاردهم مذابح البوذيين، ونحن لا نعرف عنهم شيئاً، وحرب الاستئصال مستمرة في الفلبين، أما مذابح المسلمين في الهند فهي أمراض متوطنة أو أمطار موسمية(١)!.

والتبشير الصليبي يأكل أندونيسيا، والغول الشيوعي أكل أفغانستان والمسلمين في روسية والصين، والصليبيون الجدد يكتسحون ديار المسلمين في مواقع شتى!.

٢ ـ ومن الفتن الكبرى سقوطُ دولة الخلافة منذ نحو قرن، وتفرُّق كلمةِ الأمة، وتكوينُ كيانات يَسهل على العدو المتربص افتراسها:

وتعاونت على إسقاطها قوى التحالف الصليبي، والأتراك الذين يتمسكون بالإسلام ظاهراً وهم من يهود (الدونمة) ومنهم أتاتورك، وتحالف معهم الزعماء العرب آنذاك طمعاً بالانعتاق مما كان القوميون يسمُّونه (الاستعمار التركي)، فسقطت الخلافة، وسقط العرب معها في أحضان الاستعمار الأوروبي الذي أذاقهم وشعوبَهم الويلات، ولا تزال الشعوب العربية والإسلامية تكتوي بنيران ذلك الاستعمار، وتتجرّع عَقابيلَه إلى يومنا هذا.

وكان من نتائج ذلك أيضاً أن قَبِلت (تركية الكمالية) شروطَ الصلح الذي عقده الحلفاء معها في (لوزان)، وهي أربعة:

أولاً: قطعُ كل صلة بالإسلام.

ثانياً: إلغاء الخلافة.

ثالثاً: إخراج أنصار الخلافة من البلاد.

---

(١) علل وأدوية، ص٢٦٣.

رابعاً: اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركية القديم[١].

٣ ـ ومن الفتن فصل الدين عن الدولة والسياسة والحكم، وقمع الإسلام وتحنيطه ليبقى في إطار التعبُّد، وليكون ديناً كهنوتيّاً:

ففي بلادنا يُرفع شعار: (لا دينَ في السياسة ولا سياسةَ في الدين)! إنه يقول ذلك للمسلمين وهو يرى أن السياسة أقامت لليهود دولة على أنقاضنا، وجعلت الانتماء لها يتجاوز الحدود الإقليمية والأوضاع الدولية.

فإذا حاول عالم أو داعية استثارة الشعور الإسلامي ضد مذابح للمسلمين هنا وهناك؛ استُنكِر كلامه واقتيد للسجن أو أُقيل من عمله!.

أما اليهودي في أمريكا فإنه يغضب لمصاب أخيه في روسيا أو إفريقية، لأن اليهودية موجودة، والولاء السياسي لها قائم، والتنادي بها مسموع[٢]!.

فإذا رأيتَ الدعارة تستعلن ويُروَّج لها فلا يحقُّ لك الاستنكار لأن هذا سياسة! وإذا صَمَّتْ أذنيك قصيدةُ (ليلنا خمر) وأخواتها كثير، فلا تقلْ: الإسلام حرَّم الخمر، لأن هذا سياسة! وإذا رأيتَ اغتصابَ الأموال العامة، وانتشارَ الربا، وشيوعَ الرذيلة، وترويجَ ثقافة الجنس الهابط، وانحرافَ التعليم، وهبوطَ وسائل الإعلام، وتشجيعَ ثقافة الانحطاط والتبعية والخنوع والذل والهوان، واستعلاءَ العمالة للغرب والشرق، وإشاعةَ التهتك ومحاربة العفّة، و... و...، فلا يحقُّ لك الكلام ولا الاستنكار؛ لأن ذلك سياسة ولا دين في السياسة!.

٤ ـ ومن الفتن زحف التيار العلماني واصطراعه مع التيار الإسلامي:

وأنصار التيار العلماني الغربي القادم من وراء البحار تؤيده القوة القاهرة والكشوف الباهرة وحاجات الأجيال المعاصرة. والمعجبون به يريدون أن يَقبلوه

---

(١) الضربات، لأنور الجندي، ص١٩٧.

(٢) علل وأدوية، ص٢٢٠.

كلّاً لا يتجزأ، وأن يذوقوا خيرَه وشرَّه وحلوَه ومرَّه، وأن ينسلخوا عن إهابهم القديم جملةً لأنه طور انقضى وذهب أوانه.

وقد استطاع هذا التيار أن يجتاح المدائن والقرى، وأن يدخل الأكواخ والقصور، وأن يترك مِيسَمَه على أنحاء المجتمع المختلفة، ما يكاد يفلت منه شيء[١].

والتيار الإسلامي يكافح ببطء ويتشبَّث ببعض القلاع المكينة ليستمر في الكفاح والذِّيادة عن شرف الأمة ودينها وعقيدتها وأخلاقها وبلادها.

والحياة في بلادنا الآن خليط هائل من الكفر والإيمان، ومن المحافظة والتحلل، من القديم والجديد، من العقل والشهوة، من الشرق والغرب.

وكلا التيارين لا يزال مزوَّداً بأسباب البقاء، ولذلك فهو يجاهد ليحيا وينتصر، وينفرد بقيادة الأمة إلى ما يبغي[٢].

ويعبِّر عن بعض توجيهات التيار العلماني مَن يُسمَّى بـ (حُجَّة الفلسفة الوجودية بمصر) وهو الدكتور عبد الرحمن بدوي الأستاذ بجامعة عين شمس، يقول:

(الوجوديُّ الحقُّ أعدى أعدائه القانون، إنه الحرية نفسها، فلا معنى للواجب في عالمها، ولا تقييدَ لمدى انطباقها وانطلاقها، إنه الفعل الدائم أيّاً كان نوعه ونتائجه، فإنَّ معاني الإثم والصواب كلها لا مفهومَ لها في هذا الباب!.

إننا معاشرَ الوجوديين لا نريد أن نساق في أحلام البراءة والبكارة والطهارة، بل نصيح ملء فينا: افعلوا! افعلوا! حتى ولو أدى ذلك إلى الخطأ...)[٣].

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) ظلام من الغرب، ص١٣١ ـ ١٣٢.

هذا كلام أستاذ جامعي وكاتب مرموق يشرف على تربية الطبقة العليا من أبناء أمتنا!.

٥ ـ وتولّد عن تلك الفتنة فتن أعتى، منها تكوينُ جيل منبتٍّ عن الإسلام يُشرِف على تثقيفه وتوجيهه علمانيون معهم كل آلات التوجيه، ويتبوّؤون منابره، وتُغدق عليهم الأعطيات والهبات والتشجيع والمكافآت بغير حساب!:

لقد ارتكب هؤلاء العلمانيون خيانة وطنية كبرى حيث خربوا الحصن المنيع للأمة، الذي كان من الواجب أن يقف شامخاً أمام زحف المستعمر المتربص والعدو الوثّاب.

وسقط السِّتار فجأة عن أفاعيل هذا التيار الغربي المأجور بما فعله بالشباب المتعلم، فإذا هو قد فَتَك بأصول الأخلاق بينهم، بعدما خرَّب أفئدتهم من حقائق الإيمان وحرمات الدين! هذا الشباب يصل إلى العشرين من عمره، ويحتلُّ مقاعده في مدرجات الجامعات، وهو لم يتلقَّ من المعارف الإسلامية شيئاً يُذكر.

ذلك أن الغزو الصليبي وضع مناهج الدراسة قديماً وهو يقصد عمداً أن يجهِّل الطلبة في دينهم ليشبُّوا غرباءَ عنه، أو قل: أعداءً له، وإذا وقع هؤلاء الضحايا في أيدٍ تزيِّنُ لهم الإلحادَ، وتفرشُ لهم مزالقَ الرجس بالأزهار، وتوهمهم أن المشاركة في الحضارة، والتطور مع الرقي؛ لا يتمّان إلا بهذا الضلال، فكيف تكون الحال[1]؟!.

٦ ـ ومن الفتن التي طوَّحت بأجيال الأمة بدعةُ ازدواج التعليم وانقسامه إلى ديني ومدني:

فالتعليم الديني يقوم على مخلَّفات بالية أو قشور من الفكر الإسلامي واللغة العربية، ويُحرم من دراسة العلوم الحديثة أو يأخذ منها أنصبة تافهة، ويُكتفى في هذا التعليم المحدود بحفظ ألفاظ القرآن كلّاً أو بعضاً، وبدراسة العلوم الشرعية

(١) ظلام من الغرب، ص١٣٠.

واللغوية على نحو سقيم، ويوزَّع خريجو هذا التعليم على نواحٍ جانبية من المجتمع الإسلامي، ريثما يتم التخلص منهم ومن قصورهم الملحوظ.

أما **التعليم المدني** فتتوفر فيه دراسة الكون والحياة، وتتسع فيه الدراسات الإنسانية المُجرَّدة، ويتخرج المهندسون والأطباء والكيميائيون والرياضيون والمحاسبون والضباط وغيرهم، دون أن يتناولوا أنصبةً محترمةً من التعليم الإسلامي، فمناهجُهم مُقفِرة من ذلك كل الإقفار، بل إن دارسي الحقوق لا يعرفون عن الشريعة الإسلامية إلا مثل ما يعرفون عن القانون الروماني البائد.

وزاد الأمر فتنة فاتجه الغزو الثقافي إلى لغة القرآن فأصابها إصابات قاتلة، إذ عزل هذه اللغة عزلاً تامّاً عن تدريس العلوم، فلا وجودَ للغة العربية في كليات الطب أو الصيدلة أو الهندسة أو العلوم أو غيرها من الكليات التي تدرس الكون والحياة، واللغة الإنجليزية هي لغة العلم في البلاد[1]!.

بل حدثت فتنةٌ أَنْسَتِ الناسَ سابقتَها حيث تراجعت اللغة العربية في بعض بلداننا، وأصبحت اللغة الإنجليزية لغةَ التخاطب في الوزارات والمؤسسات والشارع والبيت والبيع والشراء والكتابة والوثائق والعقود، ولغةُ القرآن تتوارى بل تُذبح ولا من مغيث!.

٧ ـ ومن أخطر الفتن إن لم يكن أخطرها عزل الشريعة الإسلامية عن الحكم، وإنزالها من مكان الصدارة، والإزراء بالفقه الإسلامي، واستبداله بقوانين وضعية:

لقد كانت الشريعة تحكُم في الدماء والأموال والأعراض، وتحرسُ الحقوق الخاصة والعامة، وتقرِّر الحدودَ في العلاقات المحلية والعالمية.. واستبحر الفقه الإسلامي في حضارتنا واستوعَبَ من مصالحِ الدنيا والدين ما يُبهِر ويُعجِب، وقد كتب الفقهاء المسلمون ألوفاً مؤلَّفة من المجلدات التي عمرت

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٤٤ ـ ١٤٥.

بالآراء الذكية والاجتهاد الحر، وظلَّ هذا الفقه يَحكم المسلمين وغيرهم بين المحيطين الأطلسي والهادي حكماً راشداً كافياً مُغْنِياً، حتى دخل الاستعمار الحديث فأخذ ينفِّس عن حقده على الإسلام بمكر وخبث، فأُلغيت شرائع الحدود والقصاص، وعُطِّلت المقررات الإسلامية في شتى القضايا الحساسة، وتُركت إلى حين قوانين الأسرة، وها قد بدأت في كثير من البلاد صيحاتُ العملاء لتغيير أنصبة المواريث وتنصيرِ بقية الصلات العائلية!.

والواقع أن الاحتلال القانوني الأجنبي لم يدمِّر الشريعة وحدها، وإنما دمَّر كذلك عقائد وعبادات! وماذا كَسَب المسلمون؟! بل ماذا كسب الناس كلهم من تعطيل الأحكام السماوية؟! لا شيء إلا انتشار الفوضى والمفاسد، فلقد أُبيح الزنى والربا والخمر والميسر، وظهرت الموبقات في البر والبحر والجو، واختلطت الحرية الفكرية بحرية الهوى، والقانون الوضعي وراء هذا كله[1]!.

٨ ـ ومن تلك الفتن الماحقة مهاجمة الأسرة والزواج، وإلغاء الأحكام الضابطة لها والتشريعات الحافظة لثباتها وأهميتها:

فهناك نفرٌ غير قليل يُعلِنون بصراحة أن تنصير المجتمع في العلاقات الشخصية قد آن أوانُه، ويجبُ منعُ تعدّد الزوجات، وتقييدُ الطلاق، وإلغاءُ الأحكام الإسلامية في هذا الشأن.

ومع إلحاح هذا النفر وانتهازه كلَّ فرصة للطعن في تعاليم الإسلام، والتحريض على نبذها، فإن الجبهة الإسلامية لا تزال تردُّ الضربات بقوة وصبر.

فترى رجلاً مثل: محمد زكي عبد القادر يقول: (إن الأسرة في مصر تتدهور كما هو حالها في كثير من البلاد، وإذا استمرَّ هذا التدهور بمعدَّله الحالي، فليس يعرف أحد ما سيكون مصير الزواج، ولا مصير الجنس البشري كله.

ولا يزعمُ أحدٌ أن الزواج لا يمكن أن يُلغى لأنه سُنَّةٌ من سُنن الوجود أو

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٤٦ ـ ١٤٨.

حاجةٌ ضرورية من حاجات الإنسانية! فإن التطور الخطيرَ الذي يجتازه العالم، ويكاد يُزعزِع الكثير من القيم التي نبتت آلاف السنين؛ لا يبعدُ أن يتناول الزواج أيضاً!).

ثم يقول: (ويرى البعض أن أسوأ ما في الزواج أنه استمرارٌ على حالة واحدة متكرِّرة داعية إلى السأم والضيق، في عصر يبدو كل شيء أمام الإنسان فيه، وكأنه يتطوَّر ويتغيَّر من يوم إلى يوم.

والزواجُ يستند إلى مفهوم ديني أكثر مما يستند إلى ضرورة طبيعية، وقد وُجد من الفلاسفة والمفكّرين مَن اعتبَروا الزواجَ حالة منحطَّة من حالات الإنسان!)[1].

وتجدُ الصحفَ والمجلات والمحطات الفضائية والشبكة العنكبوتية (الإنترنت) في بلداننا العربية والإسلامية تشجّع الدعارة والبِغاء والخيانة الزوجية، وتجلد الشهوات جلداً، وتُضرِمها وتزيد من عنفوانها، بما تنشره وتبثه بالصوت والصورة، بإخراج مثير وعرض فيه من الإسفاف ما تشمئز منه نفوس الشرفاء، بل مَنْ عنده بقية من حياء وغيرة على أهله وعرضه!.

ويكتب السيد إحسان عبد القدوس في مجلة مشهورة[2]، فيقول: (إنه لم يَعُدْ من حقِّ رجل الدين أن يأمر بتحريم الرقص على المرأة.. لم يعدْ من حقه أن يَدَعَ الطلاق معلَّقاً بإرادة الزوج.. لم يعد من حقه أن يحرِّم ارتداء المايوه، فالمايوه أصبح حقيقة أقوى من هيئة كبار العلماء!».

٩ ـ وثَمَّة فتن أخرى عمَّت وطمَّت، تنادى لها أصحابها وتبعهم عليها أُناس آخرون، وقد سُخِّرت لهم الوسائل، ومُهِّدت السُّبل، ووُطِّئت الأكناف، وأُغدقت الأموال، وفُتِّحت لهم الأبواب، وسُلِّموا منابرَ التأثير والتوجيه، تحت مسمّى (حرية الرأي):

فهاجموا ثوابتَ الأمة، ونادوا بالاختلاط بين الجنسين بلا ضوابط،

---

(١) كفاح دين، ص١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) روز اليوسف، العدد (١٤٠٩)، نقلاً عن: ظلام من الغرب، ص١٨٤.

وشجعوا على الإباحية والانحلال، ودأبوا على محاربة الفضائل ونشر الموبقات، وإشاعة الفواحش والرذائل، وعبثوا بقوانين الأسرة، وأقاموا لها البرامج الكثيرة لتقطيع أواصرها، ونشروا الأفكار الضالة والهدامة، وطاردوا المصلحين، وضيَّقوا الخناق على الدعاة والمجاهدين، وليس عندهم شيء ممنوع أَوْ له قداسة.

وفي خِضَمّ هذه الفتن الهائجة المائجة، التي اجتاحت المدن والقرى، وعَمَّت السهل والجبل، ولاحقت الحاضر والباد، وتزيَّنت للصغير والكبير، والغني والفقير، والذكر والأنثى، في الليل والنهار، والحضر والسفر، **تجد الناس فريقين:**

ـ فريق استعصم بكتاب الله سبحانه، واهتدى بسنَّة نبيّه ﷺ، وأصغى إلى أحاديثه عن الفتن وتوجيهاته في التعامل معها، والموقف من مختلِقيها ودعاتها وحماتها، واتعظ بالتاريخ البعيد والقريب، ووقف مع أمثاله ممن كشف الله عن بصائرهم، وأنار قلوبهم، وحمى لهم إيمانهم، وحفظ عليهم عقولهم، فاستمسكوا بالحق وثبتوا عليه، وصمدوا لتلك الفتن في معارك مستديمة في البيت والشارع والمراكز والمؤسسات والهيئات الحكومية والخاصة، فسَلِمتْ قلوبُهم بيضاءَ **(مثلَ الصفا)** لا تضرها فتنة، واستنقَذُوا مَن لاذَ بهم، فهُم الحماة لهذا الدين الذين يَنْفون عنه تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين، وهم فريق عريض ممن قال فيهم النبيُّ ﷺ: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمتي على الحق ظاهرين، لا يَضرُّهم مَن خَذَلهم ولا مَن خالَفَهم حتى يأتي أمر الله**».. فنَصروا بذلك دينَهم، ورفعوا راية أمتهم، وحَمَوا البلاد والعباد من عقاب رباني يحلُّ بالناس إذا لم يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الله، وأرضَوْا بذلك رسولَ الله ﷺ الذي وصفهم بما وصفهم به، فحقَّقوا قولَه، وأَقَرُّوا عينَه.

ـ وفريق آخر من الناس ضَعُفوا واستخذوا، فأعرضوا عن صوت الحق، وصَمُّوا آذانهم عن قوارع التذكير، وأضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات،

ورفعوا الحصانة عن قلوبهم؛ فعصفت بها الفتن، وغلَّفَها الرَّانُ، فأصبحوا في عماية من أمرهم، لا يميزون الحق من الباطل، ولا يهتدون سبيلاً.. ومنهم من وَلَغ في حمأة الباطل راغباً طائعاً، فسوَّلَت لهم الشياطين وأمْلَتْ لهم، ثم اجتالَتْهم وساقَتْهم في تيارها الجارف الذي يناوئ تيار الحق الدفّاق الدفاع.. ونادوا في الأتباع أن هذه الدنيا غنيمة باردة، فاظفروا منها بما تقدرون عليه من الشهوات والأموال والمناصب والجاه والمكاسب والمتع والملذات بلا قيود ولا حدود، متبعين دعوى عدو الإنسان الأول إبليس: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]!.. فساروا في هذا المَهْيَع لا يَلْوُون على شيء، يأكلون ويتمتعون ويلههم الأمل، كما تأكل الأنعام وترتع.

ومثل هذا الصنف من الناس كثير كثير، وعددهم في الأمة جَمٌّ غَفير، لكنهم غُثاء، لا يُباليهم الله بالةً.

● **وبعد:**

فهذا مختصر موجز لفتن كبرى تنتشر في بلاد المسلمين، أردتُ أن أنبِّه إليها وأدلَّ عليها؛ لأنها قريبة منّا زماناً ومكاناً، لنكون منها على حذر، وننأى بأنفسنا عنها، ونجنِّب أمتنا مخاطرها، ونسعى في مقاومتها وكفكفة جماحها وإخماد أنفاسها، كل بحسب طاقته وقدرته.

وهي تترجم بوضوح ما دلّت عليه تلك الأحاديث الشريفة، فهي كالظُّلل بضخامتها وشدَّتها، ويَرْلِقُ بعضها بعضاً في كثرتها وتزاحمها وتدافعها وسرعتها وعنفها، والناس فيها على قسمين: **أحدهما** قد صفَا قلبُه واستنارت بصيرته فهو على نور من ربه، **وثانيهما** قد أظلم قلبه وعميت بصيرته تتقاذفه الفتن وتتخطفه الأهواء، فهم بذلك بين ناج وهالك، وكما جاء في الحديث: «**يقول: هذه مهلكتي**»، ثم تنكشف، ثم يقول: «**هذه هذه!**».

ولله الحمد والمنة والفضل، فمهما أَجْلَب جندُ الشيطان ودعاة الباطل وأصحاب الشهوات وأرباب الأهواء ومؤججو الفتن؛ فإن حَمَلة الحق كثيرون،

وحماة الإسلام صامدون، ودعاة الهدى على الطريق المستقيم سائرون، وعلى أعدائهم منصورون، والواقع يثبت ذلك، والمستقبل لهذا الدين.

وكما يقول الحسن البصري: (اسلكْ طريقَ الحق ولا تَخَفْ من قلَّة السالكين، واحذَرْ طريقَ الباطل ولا تغترَّ بكثرة الهالكين)!.

❊ ❊ ❊

إخبار النبي ﷺ بوقوع فتن عامة وتبيانه سبيل النجاة منها

١ ـ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يُوشِكُ أنْ يكونَ خيرَ مالِ المسلمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبال ومَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بدِينِه من الفِتَنِ**»(١).

٢ ـ وعن أمِّ مالكٍ البَهْزِيَّة ﵄ قالت: (ذَكَر رسولُ الله ﷺ فتنةً فَقَرَّبَها، قالت: قلتُ: يا رسولَ الله! مَنْ خيرُ الناسِ فيها؟ قال: «**رجلٌ في ماشِيَتِه يؤدِّي حَقَّها ويعبدُ ربَّه، ورجلٌ آخِذٌ برأسِ فرسِه يُخِيفُ العدوَّ ويُخِيفُونَه**»)(٢).

٣ ـ وعن أبي بَكْرةَ الثَّقَفِيِّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: («**إنَّها ستكونُ فِتَنٌ، أَلَا ثم تكونُ فتنةٌ القاعدُ فيها خيرٌ من الماشي فيها، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي إليها. أَلَا فإذا نزلَتْ ـ أو وقَعَتْ ـ فمن كان له إبلٌ فَلْيَلْحَقْ بإبلِه، ومَن كانت له غَنَمٌ فَلْيَلحقْ بغَنَمِه، ومن كانت له أرضٌ فَلْيلحقْ بأرضِه**».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٨) واللفظ له؛ وأطرافه في رقم (١٩)؛ وأبو داود (٤٢٦٧)؛ والنسائي: ٨/ ١٢٣ ـ ١٢٤؛ وابن ماجه (٣٩٨٠)؛ ومالك: ٢/ ٩٧٠؛ والحميدي (٧٣٣)؛ وأحمد: ٣/ ٦؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٢؛ وابن حبان (٥٩٥٥) و(٥٩٥٨)؛ والداني (١٥٦)؛ والبغوي (٤٢٢٧)، وغيرهم. **يوشك**: يَقْرب. **شَعَف**: جمع شَعَفَة، وهي رؤوس الجبال. **مواقع القطر**: بطون الأودية. وخَصَّهما بالذكر لأنهما مظانُّ المرعى. **يفر بدينه**: أي بسبب دينه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٧٧) وقال: حديث حسن غريب؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي؛ وانظر: الصحيحة (٦٩٨). **فقرَّبها**: أي عَدَّها قريبة الوقوع، أو وَصَفها للصحابة وصفاً بليغاً دقيقاً كأنه يَقْرُبها.

قال: فقال رجل: يا رسولَ اللهِ! أرأيتَ مَنْ لم يكنْ له إبلٌ ولا غَنَمٌ ولا أرضٌ؟ قال: «**يَعْمِدُ إلى سَيْفِه فَيَدُقُّ على حَدِّه بحجرٍ، ثم لْيَنْجُ إنِ استطاعَ النَّجاءَ. اللهمَّ هلْ بَلَّغْتُ، اللهم هل بَلّغْتُ، اللهم هل بَلَّغْتُ!**» قال: فقال رجل: يا رسول الله! أرأيتَ إنْ أُكْرِهْتُ حتى يُنْطَلَقَ بي إلى أحدِ الصَّفَّيْنِ، أو إحدى الفِئَتَيْنِ، فَضَرَبَني رجلٌ بسيفِه، أو يَجيءُ سَهْمٌ فَيقتُلُني؟ قال: «**يَبُوءُ بإثْمِهِ وإثْمِكَ، ويكونُ من أصحابِ النارِ**»!)[1].

۞ ۞ ۞

في هذه الأحاديث عَلَمٌ من أعلام النبوة ومعجزة صادقة ونبوءة واقعة، أَخبر فيها الرسول ﷺ عن فتنٍ جائحة وأخطار مُحدِقة تنزل بالمسلمين، فيفرُّون منها، وينأَوْنَ عنها، لينجوا بدينهم ويَسْلَمَ لهم إيمانهم ودماؤهم وأخلاقهم، وقد كان ذلك.

وفيها توجيه وإرشاد منه ﷺ لمن يدرك تلك الفتن من أمته، للاستعصام بسبيل النجاة، وسلوك طريق السلامة والأمان من مخاطر تلك الفتن الماحقة.

أولاً: فتن جائحة وأخطار محدقة تنزل بالمسلمين، وكيفية التعامل معها:

•• وقد وقعت الفتن في مرحلة مبكّرة من تاريخنا:

فبعد استشهاد عمر ثم عثمان رضي الله عنهما، هاجت الفتن وكَثُر الهَرْج، وجرت أحداث دامية بدءاً من وقعة الجمل وصِفِّين، وهلمّ جَرّاً مما سبق بيانه وتفصيله.

فتمسَّك جماعة من الصحابة بظواهر الأحاديث التي تحضُّ على عدم الدخول في الفتنة أيّاً كانت، ما دام فيها سفكُ دماء بين المسلمين، ومن هذا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٧) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٢٥٦)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩١؛ وأحمد: ٥/ ٣٩ ـ ٤٠، ٤٨؛ وابن حبان (٥٩٦٥)؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٩٠؛ والحاكم: ٤/ ٤٤٠ ـ ٤٤١.

الفريق سَلَمة بن الأَكْوع وعبد الله بن عُمر ومحمد بن مَسْلَمة وسعد بن أبي وقاص وأبو بَكْرة وآخرون.

عن يزيد بن أبي عُبيد قال: (لمَّا قُتل عثمان بن عفان خرج سَلَمة بن الأَكْوَع إلى الرَّبَذَة، وتزوج هناك امرأة وولدتْ له أولاداً، فلم يزل بها حتى قبل أن يموت بليالٍ، فنزل المدينة)[١].

وكذلك تمسك أبو بكرة بالحديث الذي سُقناه عنه، وبغيره من الأحاديث في هذا الباب، وعلى هذا سار جماعة من الصحابة كما ذكرنا.

وجمهور الصحابة ممن لابَسَ تلك الفتن تأَوَّلَ تلك الأحاديث على أنه: (إذا بَغَتْ طائفة على الإمام فامتنعت من الواجب عليها ونَصبت الحرب؛ وَجَب قتالُها، وكذلك لو تحاربت طائفتان وجَبَ على كل قادر الأخذُ على يد المخطئ ونصر المصيب)[٢].

واتفق أهل السنَّة على وجوب منعِ الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عُرف المُحِقّ منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجر أجرين[٣].

والأحاديث التي ذكرناها في هذه النبوءة تتحدث عن عموم الفتن، ولا تخصُّ الاقتتالَ بين المسلمين أو الخروج على السلطان، وإن كانت هذه أعظمَها وأخطرَها، والفرار منها أولى من الفرار مما سواها.

وقد هاجت على الأمة عبر تاريخها فتنٌ جمَّة، وعَمّت كثيراً من البلدان

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٧) واللفظ له؛ ومسلم (١٨٦٢)؛ والنسائي في الكبرى (٧٧٦١)؛ والصغرى: ٧/ ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) الفتح: ١٦/ ٣٣١ (٧٠٨١)، ٣٤٩ (٧٠٨٧).
(٣) الفتح: ١٦/ ٣٣٦ (٧٠٨٣).

والأزمان، وجاءت فيها الأحاديث الصحيحة الكثيرة، فعمَّمَتْ وأَجْمَلَت، وفصَّلَتْ وبيَّنَتْ، منها:

فتنٌ كقِطَع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا، ووضْعُ السيف في الأمة والاقتتال فيما بينها، وفتنُ الحكم والصراع على السلطة والاستئثار بها والحرص عليها، وتسلُّطُ الأمة بعضها على بعض، والاستخفاف بالدم، وكثرة الهرج والقتل، ونزول الشح، وقبضُ العلم، وكثرة الأهواء والبدع، وتركُ الجهاد ولزوم الزرع والضَّرع وأذناب البقر، ونقضُ عُرى الإسلام، وبيعُ الحكم، والحكم الجبري الاستبدادي، وتضييع الأمانة وتوسيدُ الأمر إلى غير أهله، وإمرة السفهاء وسيادة اللكعات، وائتمان الخائن، وتخوين الأمين، وارتفاع التحوت الوضعاء وانخفاض الوعول السادة الأشراف، واتباع مناهج غير كتاب الله، ومنعُ الناس حقوقَهم، وانتشار الفحش والتفحش، وشيوع الزنى والربا وأكل المال الحرام، وشرب الخمور جهاراً، وظهور الشُّرَط أتباع السلطان الظالم، وكثرة الجلادين، وظهور الكاسيات العاريات، وشيوع الكذب، وظهور الدَّجَاجِلة ومُدَّعي النبوة والدعاة على أبواب جهنم، ومنعُ الزكاة، وتعطيلُ الحدود، ونقضُ العهود والمواثيق، ومطاردة أهل الإيمان، ومناصرة أولياء الشيطان، ومحاربة الفضائل ونشر الرذائل، وإشاعة المنكرات والكبائر والموبقات، وغير ذلك كثير.

وما نعيشه في هذا الزمن الصعب الذي حَفَلَ بكثير مما ذكرناه من فتنٍ، ويُضاف إليها:

إطلاق الأيدي الظاهرة والخفية لليهودية والصليبية والوثنية للتحكم بمصاير الأمة، والتلاعب بمنابر الحكم فيها، وغزوها الثقافي للمناهج ومراكز التوجيه والتعليم والإعلام والاقتصاد، والسعار المحموم للإعلام المسموع والمقروء والمنظور ومحطات البث الحي الذي لا ينقطع على مدار الساعة ولا يهدأ ويلاحق الناس في حركاتهم وسكناتهم وجلواتهم وسرّهم ونجواهم، ومراكز عملهم وشوارعهم وأسواقهم وبيوتاتهم، وما فيه من جلد للغرائز وتأجيج

للشهوات وإرخاص للمفاتن ونشر للمفاسد وتشجيع على الموبقات، وما في عالم المال والاقتصاد من غش وسرقة ونهب واحتيال وابتزاز لخيرات الأمة وعبث بمقدراتها وكنوزها وثرواتها، ودعم وتشجيع وتذليل الصعاب لكل من يسعى في هذا وفي غيره مما سبق! وتضييق الخناق على الأصوات الحرة والمساعي الصادقة وتكبيل الأيدي النزيهة وقطع الألسن الناصحة ومطاردة الآراء النبيلة، ويزيد الأمر سوءاً وجود جمهرة ممن يُسمَّون بـ (العلماء) يعيشون خارج التاريخ، قد شغلوا أنفسهم وشغلوا الدهماء بأحاديث ركيكة وموضوعات هامشية وخطب سقيمة ومحاضرات عقيمة ورؤية كليلة وخبرة ضئيلة!.

فما الحيلةُ إزاءَ ذلك كله؛ هل يستسلم المسلم للحال ويقول: قد عَمَّ البلاء وطَمّ، وكثُرت الفتن، وادلهمَّت الخطوب، واقتربت الساعة، فلا حيلةَ في إصلاح الحال؟ أم أنه ينأى بنفسه ويعتزل، أو يهرب إلى شواهق الجبال؟.

تشير الأحاديث التي صدَّرنا بها هذه النبوءة إلى وجوب الفرار من الفتن والنأي عنها واعتزالها ولو في شواهق الجبال، أو المرابطة في الثغور لجهاد الأعداء؛ ففيها:

- **«خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»**.

وفي حديث آخر: **«رجل في ماشيته يؤدي حقها ويعبد ربه، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدو ويخيفونه»**.

وفي حديث أبي بكرة: **«فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، ...»**.

وفي حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: **«أَظَلَّتكُمْ فتنٌ كقطعِ الليلِ المُظلمِ، أنجى الناسِ منها صاحبُ شاهقة يأكلُ من رِسْلِ غَنَمِه، أو رجلٌ من وراءِ الدروب آخذٌ بعِنَانِ فرسِه يأكلُ من فَيْءِ سيفه»**(١).

(١) أخرجه الحاكم: ٢/ ٩٢ ـ ٩٣، ٤/ ٥١٤؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وذكره الألباني في =

وقد تكلّم علماؤنا عن (العزلة) وقت الفتن، ومنهم الإمام الخَطّابي وله مؤلَّف مستقل في ذلك، وابن قُدامة في «مختصر منهاج القاصدين»، وابن تيمية في «مجموع الفتاوى» وغيرهِ، وابن حجر في «الفتح»، وغيرهم.

والحق أن الاختلاط بالناس ومشاركتهم في حياتهم وأعمالهم وشؤونهم أولى من العزلة؛ لِما فيه من اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام، وتكثير سواد المسلمين، وإيصال أنواع الخير لهم من إعانة وإغاثة وتعاون على البر والتقوى، وإقامة الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والحج وجهاد الكفار، وكذلك البيع والشراء والزيارات وصلة الأرحام وتوطيد علاقات الأخوة والتناصح والتناصر، وحضور مجالس العلم، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإشاعة الفضائل، ومحاربة الرذائل، وتحقيق المصالح العامة، وإقامة المعايش، وإحياء السنن والعادات الحسنة، والقيام بالواجبات الكثيرة بين الناس تجاه بعضهم بعضاً، وغير ذلك كثير مما لا تقوم الحياة ولا تستمر إلا به[(١)].

وقد نبَّه سيدنا رسول الله ﷺ على ذلك وأَرشد إليه وحضَّ عليه وأَمر به؛ فقد روى ابن عُمر عن النبي ﷺ قال: «**المؤمنُ الذي يُخالِطُ الناسَ ويَصْبِرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يُخالِطُ الناس ولا يَصبر على أذاهم**».

وفي رواية بدل «خير» قال: «**أعظمُ أجراً**»[(٢)].

= الصحيحة (١٤٧٨) و(١٩٨٨)؛ وصحيح الجامع (١٠٣٥) و(٤١٥٦).
والرِّسْل: اللَّبَن.

(١) انظر: العزلة، ص١١؛ مختصر منهاج القاصدين، ص١١٠ ـ ١١١؛ مجموع الفتاوى: ١٠/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦؛ الفتح: ١٦/ ٣٥٠ (٧٠٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)؛ وأحمد: ٢/ ٤٣؛ وابن ماجه (٤٠٣٢)؛ وأخرجه عن رجل من الصحابة: أحمد: ٥/ ٣٦٥؛ والترمذي (٢٥٠٧)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٣٩)؛ وصحيح الجامع (٦٦٥١)، وصحيح ابن ماجه.

ومسلكُ الصحابة الكرام كأبي بكرة وسعد وسلمة بن الأكوع وأمثالهم ﭬ، ليس فيه حجةٌ، إنما اعتزل هؤلاء السادة الفتنةَ التي تواجه فيها المسلمون بالسيف، وجرى بينهم القتال، فهذه حالة خاصة لا تُعَمَّم على جميع شؤون الناس والحياة.

والعزلة المقبولة بل المطلوبة تكون في الأمور التي فيها تعاون على الإثم والعدوان، وتجنُّبِ أماكن الشبهات، ومجالسِ اللهو الحرام، ومواطن الفحش والرذيلة، ومراكز الغدر بالناس والكيد لهم وتتبُّعِ عوراتهم، والإيقاع بالإسلام وأهله، ومباعدة أصحاب الهوى والشهوات، وأعداء الله والمتربصين بالإسلام، والباغين للبرآء العيب والأذى، وكل ما فيه حرب للمسلمين وتعطيل للمصالح العامة وعبث بمقدرات الأمة البشرية والمالية، وتراثها وهويتها ودينها وعقيدتها!.

فمثلُ هذا كله مما ينبغي مباعدته ومنابذته، بل التصدي له وفَضْحُه ومنازلته لدَحْرِه وإبادته.

كما ينبغي مباعدةُ ذلك النفر من الناس الذين لا هَمَّ لهم إلا الدنيا، ولا حديثَ يشغلهم غير المكاسب والمناصب والجاه والشهوات، يَسْعَون لها ويتحدثون بها ويملؤون أوقاتهم ضجيجاً في تحصيلها واللَّهَث وراءها، لا يمتلئ لهم كَفٌّ، ولا تشبعُ لهم نَفْس، ولا يقنع لهم قلبٌ، هم كما روى أبو هريرة ﭬ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إن الله يُبغِض كلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ في الأسواق، جِيفَةٍ بالليل، حمارٍ بالنهار، عالمٍ بالدنيا، جاهلٍ بالآخِرة**»[1].

وما ذكره النبي ﷺ في الأحاديث من أساليب اعتزال الفتنة في قوله: «**خير مال المسلم غَنَمٌ يتبعُ بها شَعَفَ الجبال**»، وقوله: «**من كان له إبل فليلحق بإبله، ...**» وأمثالها؛ إنما هي أمثلة لِما كان مألوفاً للمخاطَبين، وفيه تحصيلُ المراد

---

(١) صحيح الجامع الصغير (١٨٧٨). **الجَعْظَرِيّ**: الفظُّ الغليظُ المتكبِّر. **الجَوَّاظ**: الجَمُوع المَنُوع. **سَخّاب**: السخب والصخب: بمعنى الصياح.

من عدم ملابسة الفتن، وليس ذلك محمولاً على ظاهره وإطلاقه. وقد حمله على ظاهره أحدُ الأفاضل، وذَهَب يبيّن مزايا الغنم وفوائدها والحِكَم المرجوّة من رعيها[1]!.

ولو أننا أخذنا بالعزلة عن المجتمع وفق هذا الفهم، فترك الطبيب مشفاه، والمهندس شركته، والمدرس مدرسته، والصناع صناعاتهم، والحرفيون حرفهم، والتجار تجاراتهم، والمزارعون أراضيهم، وهكذا؛ لتحوَّل جمع غفير من الناس إلى رعاة للشاء، ولا يقول بهذا أحد!.

والذي نخلص إليه أنه مهما ادلهمَّت الفتن، وبرزت قرونها، ورفعت رؤوسها، لتنقضَّ على فرائسها؛ فلا بدَّ من مخالطة الناس، والصبر على أذاهم، والتصدي لتلك الفتن وكسر قرونها والطعن في صدورها وإصابتها في مقاتلها، كل بحسب طاقته وقدرته، وفي المكان الذي يعمل فيه ويؤثر في محيطه، وكل مسلم غيور على ثغرة من ثغور الإسلام، فلا يجوز له أن يُؤتى الإسلام من قِبَله.

ونحن مع المفكّر الداعية الكبير محمد الغزالي رحمه الله، حيث يقول في كتابه الفذ «ظلام من الغرب» في فصل (كيف تصان الأخلاق)، بعد أن بسط الكلام حول الجريمة المنظَّمة في نشر الرذائل ومحاربة الفضائل، يقول:

(الحق أن تكوين الخُلق العالي وضبط السلوك العام في حدود الشرف يطلبان منا أن نحسنَ الإشراف على أحوال المجتمع حتى لا يتحول الشر إلى تيارات عنيفة تصيب النفوس المجردة بأذى كبير.

إن بثَّ الإثم في المجتمع، ثم محاولة تنميته بالمقالات والروايات والإذاعات وضروب الغثاء الأخرى؛ أمرٌ لا يبقى معه دين ولا تستقر فضيلة.

---

(١) انظر: أحاديث معجزات الرسول ﷺ التي ظهرت في زماننا: ١/٢٥٨ ـ ٢٦٠، للدكتور عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي.

وأحسب أن هذا ما أشار إليه الحديث: «**يُوشِكُ أن يكون خيرُ مال المسلم غنماً يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواقعَ القَطْر؛ يفرُّ بدينه من الفتن**».

ولست أوصي بفرار، فإن الهزيمة بالحق أمام حَفْنة من الصحافيين الماجنين عار أي عار، بل **أوصي بمقاومة الفتن، وبناءِ محاضن نقية للأجيال الجديدة، وحياطة أهل الخير بسياج يحميهم من الزيغ، وجعل المساجد مثابات يلتقي الأخيار فيها ليأنس بعضهم بالبعض ويتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر.**

وفي هذا المجال لو صدقْنَا اللهَ نستطيع أن نقطف أشهى الثمرات)[1].

ثانياً: فوائد وتوجيهات:

وبعد، فلا بد لنا من وقفات أمام بعض الدروس والفوائد والعبر:

١ ـ الاعتصام بالكتاب والسنَّة والتوجيهات النبوية، وبخاصة عند التباس الأمور وانتشار الفتن وكثرة الشبهات.

٢ ـ على العلماء والمفكرين والدعاة والخطباء وأصحاب الأقلام والإعلام واجب كبير في بيان الحقائق ونشر الفضائل، وكشف الأباطيل وفضح دعاتها وأساليبها وحماتها ومموليها.

٣ ـ يتوجب على المسلم أن يستبصر بالأمور، ويحرص على سلامة قلبه وعقيدته وفكره، بحضور مجالس العلم ومنتديات الفكر وقراءة كتب الغيورين والمصلحين.

٤ ـ أهمية المساجد والمراكز والمنتديات والهيئات في توعية الأمة، ووجوب دعمها المادي والأدبي، واستقلالها عن سلطات الحكم والمال التي تريد الهيمنة عليها.

٥ ـ يقع عبء كبير على الحركات الإسلامية والتجمعات والمؤسسات في

(١) ظلام من الغرب، ص٢١٦ ـ ٢١٧.

توعية عامة الأمة وخاصتها، وإقامة المنتديات والمناشط المختلفة من ثقافية ورياضية وترفيهية وغيرها، للجنسين وبمختلف الأعمار، ضمن الضوابط الأخلاقية التي أصَّلَتْها قِيمُنا الإسلامية.

٦ ـ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة على كل قادر مستطيع، كل بحسب موقعه ومركزه ووسعه وطاقته.

٧ ـ العزلة عن المجتمع فيها مخاطر جمّة، فهي هروب من معركة الحق مع الباطل، ونكول عن واجب الاستخلاف وإعمار الأرض، وتضييع للحقوق والواجبات، وترك المجال مفتوحاً أمام قوى الباطل لتفتك بالناس وتجتالهم وتصرفهم إلى طرق الضلال.

٨ ـ في أوقات الشدة وانتشار الفتن يكون الناس بحاجة للعلماء والمفكرين والدعاة والمصلحين أكثر من حاجتهم لهم في وقت الرخاء، وقد امتدح النبي ﷺ رجال الطائفة المنصورة بكونهم على الحق ظاهرين لعدوِّهم قاهرين، وهؤلاء يجاهدون في المجتمع ويخالطون الناس ويقارعون الباطل ولا يعيشون في شَعَف الجبال.

٩ ـ في أوج المحن والفتن حيث غربة الإسلام، أثنى النبي ﷺ على الغرباء فقال: (**«فطوبى للغرباء»**، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: **«الذين يَصْلُحون إذا فسد الناس»**) وفي رواية: **«الذين يُصْلِحون ما أَفْسَد الناس»**[1]. فهم يَصْلحون في أنفسهم فيحملونها على فعل الخير والاستقامة على الهدى، وَيظهر أثَرُ صلاحهم في مجتمعهم فيُصْلِحون ما أفسد الناس، بالتصدي للفتن والمنكرات ودعوة الناس والأخذ بأيديهم للصلاح والفلاح.

١٠ ـ للمرأة دور كبير في مقارعة الفتنة وإصلاح المجتمع، وبخاصة في تربية أبنائها، ومع صويحباتها، وفي إطار عملها في المدرسة والجامع والوزارة

---

(١) انظر: النبوءة رقم (١٠٧).

والمؤسسة وغيرها، وهذه أم مالك البهزية رضي الله عنها وهي من خير الأجيال تسأل النبي ﷺ أي الناس خير في الفتنة؟.

١١ ـ تشير الأحاديث إلى أن خيرَ الناس في الفتنة صِنْفَان: مباعِدٌ لها معتزل عنها، ومجاهدٌ للعدو في الثغور، والجهاد أصناف وألوان، وجهاد السيف واحد منها، وهناك جهاد الكلمة والقلم والمال والدعوة والخطبة والأعمال الخيرية وإصلاح المجتمع وغير ذلك.

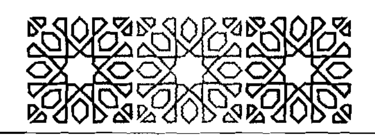
ويتجمع جهود المجاهدين والعلماء والمفكرين والدعاة والمصلحين والكتاب وأرباب الإعلام وأصحاب الأموال يمكن دَحْرُ الباطل وتقطيعُ أوصال الفتن حتى لا تجتاح جماهير المسلمين.

❋ ❋ ❋

هذا آخر ما أردتُ تناوله من نبوءات حول الفتن التي وقعت على مدار تاريخنا حتى زماننا هذا، وأُغلق بهذه الصفحة بابَها، لأفتحَ باباً آخر جديداً من نبوءاته ﷺ.

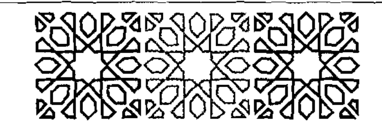






الفصل الرابع

نبوءات في الخلافة والملك والإمارة والحكم





إخبار النبي ﷺ بقيام خلافة النبوة بعده، ومدتها ويكون بعدها المُلك

١ ـ عن سعيد بن جُمْهَان، عن سَفينة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثلاثونَ سنةً، ثم يُؤتي الله المُلْكَ ـ أو مُلْكَهُ ـ مَن يَشَاءُ»**.

وفي رواية: عن سعيد بن جُمْهَان، عن سفينةَ رضي الله عنه قال: (سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«الخلافةُ ثلاثونَ عاماً، ثم يكون بعدَ ذلك المُلْكُ»** قال سفينةُ: أَمْسِكْ: خلافةَ أبي بكر رضي الله عنه سنتين، وخلافةَ عمر رضي الله عنه عشرَ سنين، وخلافةَ عثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة، وخلافةَ علي رضي الله عنه ستَّ سنين)[1].

زاد الترمذي في رواية: (قال سعيدٌ: فقلتُ له: إنَّ بني أميَّة يَزعُمونَ أن الخلافةَ فيهم! قال: كَذَبوا بنو الزَّرْقاء، بل هم ملوكٌ من شرِّ الملوك)[2].

٢ ـ وعن عبد الرحمن بن أبي بَكْرة، عن أبيهِ: أن النبيَّ ﷺ قال: **«خلافةُ نُبوَّةٍ، ثم يُؤْتي الله المُلْكَ مَن يشاءُ»**.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦) و(٤٦٤٧)؛ والترمذي (٢٢٢٦)، والنسائي في الكبرى (٨٠٩٩)؛ وأحمد: ٥/ ٢٢٠، ٢٢١؛ والطيالسي (١١٠٧)؛ والفسوي: ٣/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨، ٥٥٤؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (١١٨١) و(١١٨٥)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٤٩)؛ وابن حبان (٦٦٥٧) و(٦٩٤٣)؛ والبغوي (٣٨٦٥)، وغيرهم؛ وصحَّحه ابن حبان وابن عبد البر والحاكم وابن تيمية وغيرهم؛ وصحَّحه الألباني وأطال الكلام عليه في الصحيحة: ١/ ٨٢٠ ـ ٨٢٧ (٤٥٩).

(٢) هذه الزيادة تفرد بها حشرج بن نباتة، وهي ضعيفة، ضعَّفها الألباني في الصحيحة: ١/ ٨٢١.

زاد أحمد والفَسَوي في رواية: (فقال معاوية: رَضِينا بالمُلكِ)[١].

٣ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**تَدُور رَحَى الإسلامِ لخمسٍ وثلاثينَ، أو ستٍّ وثلاثينَ، أو سبعٍ وثلاثينَ، فإن يَهْلِكوا فَسَبيلُ مَن قد هَلَكَ، وإن يَقُمْ لهم دِينُهم يَقُمْ لهم سبعينَ عاماً**» قال: قلتُ: أمِمَّا مَضَى أَمْ ممَّا بَقِي؟ قال: «**ممَّا بَقي**»[٢].

❁ ❁ ❁

في هذه الأحاديث نبوءتان عظيمتان وعَلَمان اثنان من أعلام نبوة سيدنا رسول الله ﷺ وصِدْق رسالته:

الأولى: أنه ستقوم بعده خلافة على منهاج النبوّة وتستمر مدة ثلاثين سنة.

والثانية: تحوُّلُ نظام الحكم من الخلافة القائمة على نظام الشورى ومشاركة الأمة في اختيار الحاكم، إلى النظام الملكي القائم على الوراثة وولاية العهد.

وقد جاء الواقع بمثل ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ.

★ ★ ★

النبوءة الأولى: خلافة نبوة مدتها ثلاثون سنة

وقد جاء في الحديث تحديدها بثلاثين سنة، ثم بيَّن راويه الصحابي الجليل سفينة رضي الله عنه مدة خلافة كل خليفة، فقال لسعيد بن جُمْهان: (أَمْسِك)، أي عُدَّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٣٥)؛ وأحمد: ٥/ ٤٤، ٥٠؛ والفسوي: ٣/ ٤٥٨ وسقط منه لفظ (عن أبيه)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٤٢؛ وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٥٤)؛ والطيالسي (٣٨٣)؛ وأحمد: ١/ ٣٩٠، ٣٩٣ ـ ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٥١؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٦٠٩، ١٦١٠، ١٦١١)؛ وابن حبان (٦٦٦٤)؛ والفسوي: ٣/ ٤٥٧؛ والحاكم: ٤/ ٥٢١؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٩٣؛ والبغوي (٤٢٢٥)؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

واحسُبْ واضْبِطِ الحسابَ عاقِداً أصابِعَك، لكن ذلك التحديد كان على وجه الإجمال والاختصار وجبر الكسور.

فأبو بكر رضي الله عنه تولى الخلافة في شهر ربيع الأول سنة (١١هـ)، وتنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه في أواخر ربيع الأول من عام (٤١ هـ)، ويُسمَّى عامَ الجماعة؛ فمدَّةُ ذلك ثلاثون سنة، وتفصيلها كمايلي:

- خلافة الصديق ومدتها سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام.
- وخلافة الفاروق ومدتها عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام.
- وكانت خلافة عثمان اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً.
- وكانت خلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر وسبعة أيام.

فجملةُ ذلك تسع وعشرون سنة ونصف السنة وأيام، وتتمة الثلاثين هي مدة خلافة الحسن بن علي وكانت نحو ستة أشهر(١).

وحديث سفينة في الخلافة ثَبَّتَه جماعة من الأئمة وصحَّحوه واحتجوا به، منهم: الإمام أحمد، والترمذي، والطبري، وابن أبي عاصم، وابن حبان، وابن عبد البر، والحاكم، وابن تيمية، والذهبي، وابن حجر، وغيرهم(٢).

قال ابن تيمية: (وهو حديث مشهور من رواية حماد بن سَلَمة وعبد الوارث بن سعيد والعوام بن حَوْشَب، وغيرهم، عن سعيد بن جُمْهَان، عن سفينة مولى رسول الله ﷺ، رواه أهل «السنن»، كأبي داود وغيره، واعتمد عليه الإمام أحمد وغيره في تقرير خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة، وثبَّتَه أحمد واستدل به على مَن توقَّف في خلافة علي من أجل افتراق الناس عليه، حتى قال أحمد: «مَن لم يُربِّع بعلي في الخلافة؛ فهو أضلُّ من حمار أهله»، ونَهى عن مناكحته، وهو

---

(١) انظر: صحيح ابن حبان: ١٥/ ٣٧ - ٣٨؛ جوامع السيرة، ص٣٥٣ - ٣٥٦؛ عون المعبود: ٨/ ٤١؛ تحفة الأحوذي: ٦/ ٨٨.

(٢) انظر: السلسلة الصحيحة: ١/ ٨٢٤.

متفَقٌ عليه بين الفقهاء وعلماء السنَّة وأهل المعرفة والتصوف، وهو مذهب العامة)[(١)].

- **وكانت دولة الخلافة على منهاج النبوّة:**

فالخليفة من أفضل الرجال في إيمانه وخلقه وورعه وتقواه، ومن أكفأ رجال الأمة وأعْلَمِهم وأقدرِهم على قيادتها، ويدُه مغلولة عن المال العام، وعَلَم الشورى راسخ مرفوع فلا افتئاتَ ولا استبداد ولا استعلاء، والعملُ بالإسلام وله في الداخل والخارج كان شغله الشاغل، والناس في ذلك العهد كانوا عموماً قرَّة عينٍ للنبيِّ ﷺ وللإسلام وللخلفاء، تبَّاعين للقرآن وهدي النبوة، عاملين بالحق، مناصرين له، ناشرين لألويته، فكانوا للناس كالريح الرخاء، وكالغيث الرقيق أينما وقع نفع.

وكانت تلك الحقبة المباركة خلافةَ نبوَّة ورحمة كما وصفها النبي ﷺ، فعَمَّت تعاليم النبوة أمصار الإسلام، واستظل الناس بفيوضات الرأفة والرحمة والود والشفقة، فلا قسوةَ ولا استكبار، حتى البهائم نالت حظَّها من ذلك، وكانت كلمات الفاروق تتردد في الأصقاع: (لو ماتَ جملٌ ضَيَاعاً على شَطّ الفُرات لخشيتُ أن يسألني الله عنه!)[(٢)].

ويقول الحسن البصري عن خلافة عثمان: (شهدتُ مناديَ عثمان ينادي: أيها الناس! اغدوا على أَعطياتكم، فيغدون فيأخذونها وافية. يا أيها الناس! اغدوا على أرزاقكم، فيغدون فيأخذونها وافية. حتى ـ والله ـ سَمِعَتْه أُذناي يقول: اغدوا على كسوتكم، فيأخذون الحلل. واغدوا على السمن والعسل). قال الحسن: (أرزاق دارَّة، وخير كثير، وذات بَيْن حَسن، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً، إلا يودّه وينصره ويألفه!)[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣٥/١٨ ـ ١٩.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٣٠٥.

(٣) مجمع الزوائد: ٩/ ٩٤؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٣٤٤.

وكانت خلافة هداية ورشاد وسداد، وقد حَثَّ النبي ﷺ على الاقتداء بأولئك الخلفاء الراشدين، والاستمساك بهديهم، والاستعصام بسُنَّتهم وطريقتهم؛ فقال ﷺ: «**عَليكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشِدينَ المَهْديِّين، فتمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذ**»[١].

وفي تلك السنين الثلاثين رسخ الخلفاء الراشدون قواعد الإسلام في الجزيرة العربية، وانطلقت جيوش الفتح تجوب الأرض وتقتلع الطواغيت، وتغسل الأرض من التجبر والطغيان، وترفع عن البشرية إِصْرَها والأغلالَ التي ضُربت عليها، فحرَّروا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، كما أوضحناه في نبوءات سابقة.

فكانت أيام الخلفاء الراشدين كما وصفها رسول الله ﷺ: «خلافة نبوة ورحمة».

* * *

النبوءة الثانية: قيام الحكم الملكي

●● بعد استشهاد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بايع المسلمون السيد المبجلَ الحسنَ بن علي رضي الله عنهما، الذي تنازل عن حقه في الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عام (٤١هـ) الذي سُمِّي عامَ الجماعة؛ لاجتماع كلمة المسلمين قاطبة على معاوية، ولله الحمد والمنة.

وعاش معاوية إلى سنة (٦٠هـ)، وكان قُبيل وفاته وَلي بالخلافة من بعده لابنه يزيد، وبايع المسلمون يزيد بن معاوية.

ومنذ ذلك الوقت تحوَّلَ نظامُ الحكم من الشورى إلى الوراثة، وكان معاوية

---

(١) طرف من حديث صحيح، أخرجه عن العِرْباض بن سارية: أحمد: ٤/١٢٦ ـ ١٢٧؛ وابن ماجه (٤٢) و(٤٣)؛ والحاكم: ١/٩٦، وغيرهم؛ وانظر: السلسلة الصحيحة (٩٣٧).

أولَ من سَنَّ في المسلمين (نظام ولاية العهد)، وتوالَى على ذلك خلفاء بني أمية وبني العباس وبني عثمان وغيرهم.

وتحققت النبوءة النبوية الثانية: «**الخلافة ثلاثون سنة، ثم يكون بعد ذلك المُلْك**».

وجاء في رواية الطَّيَالِسي أن سعيد بن جُمْهَان سأل سفينةَ: (فمعاوية؟ قال: كان أول الملوك).

وفي بعض الروايات، قال معاوية: (رضينا بالمُلك).

وهو مُلْك ورحمةٌ كما ثبت في الحديث الصحيح؛ عن ابن عباس قال: قال رسول الله: «**أولُ هذا الأمرِ نبوةٌ ورحمةٌ، ثم يكونُ خلافةً ورحمةً، ثم يكونُ مُلْكاً ورحمةً، ...**»[١].

أما الرواية التي تفرد بها حَشْرَج بن نُبَاتة عند الترمذي وحده؛ أن سفينة رضي الله عنه قال: (كذبوا بنو الزرقاء[٢]، بل هم ملوك من شرِّ الملوك!)؛ فهي زيادة ضعيفة كما قال الألباني.

وحَرِيٌّ بها أن تكون ضعيفةً، فحكَّام بني أمية من خيار الملوك، وعهدُهم كان مُلْكاً ورحمةً كما ثبت في الحديث، نعم هم لا يُقارَنون بالخلفاء الراشدين الأربعة، لكنهم في الجملة أفضل ممن جاء بعدهم.

وتاج خلفاء بني أمية هو معاوية رضي الله عنه، الذي قال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعدما رجع من صِفِّين: (أيها الناس! لا تَكْرهوا إمارة معاوية، والله لو قد فقدتُموه لقد رأيتم الرؤوس تَنْدُر عن كواهِلها كالحنظل)[٣].

---

(١) السلسلة الصحيحة (٣٢٧٠)؛ وانظر كتابنا هذا: نبوءة رقم (٨٣، ٨٤).

(٢) هو من باب (أكلوني البراغيث)، والزرقاء: امرأة من أمهات بني أمية.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢٤؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٤٤؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٣١.
تندر: تسقط.

وقال ابن عباس: (ما رأيتُ رجلاً كان أَخْلَقَ للمُلْك من معاوية)(١).

وقال سعد بن أبي وقاص: (ما رأيتُ أحداً بعد عثمانَ أقضى بحقٍّ من صاحب هذا الباب ـ يعني معاوية ـ)(٢).

وقال مجاهد: (لو رأيتم معاوية لقلتُم هذا المهدي)(٣).

وقال عبد الله بن المبارك: (لَتُرابٌ في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خيرٌ وأفضَلُ من عمر بن عبد العزيز)(٤).

لقد كان في عهد بني أمية هَنَات وسقطات بلا مراء، ولكنهم يتحملون جزءاً منها، ويقع الجزء الأكبر منها على الذين نكثوا البيعة ونقضوا العهد وخرجوا على سلطان الدولة، وتسببوا في مواجهة سيف الحكم لهم، فسالت دماء وأُزهِقت أنفس، والله يغفر لكل الصالحين والصادقين من الطرفين.

وفي عهد الأمويين كانت راية الإسلام مرفوعة، وأحكامه قائمة، وحدوده مرعية، ورايات الفتح تسير شرقاً وغرباً، وفي أيامهم فُتحت أصقاع كثيرة جدّاً، وتضاعفت مساحة الدولة الإسلامية، وأُعلن التكبير في قلب أوروبة، وترَدَّدَتْ أصداؤه على تخوم الصين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً! وكل ذلك من حسنات أولئك الملوك العظام، وهو في صحائفهم يوم الدين، والله لا يضيع مثقال ذرة.

يقول العلّامة الداعية محمد الغزالي رحمه الله: (على أن التغيُّرَ في الشكل السياسي للدولة الإسلامية لا يعني تغيُّراً ما في الإسلام نفسه، عقائدِه وشرائعِه وكتابِه وسُنّتِه، بل إن الحاكم الذي احتل مقعدَ الرياسة أراد أن يُثبت جدارتَهُ به،

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٠٩٨٥)؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٥٣؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٣٥.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٥٠؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٣٣.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ١٣٥.
(٤) البداية والنهاية: ٨/ ١٣٩.

فتبنَّى جميعَ المُثل الإسلامية، واجتهد في الداخل والخارج أن يُقيم أحكامَ الإسلام ويحترمَ معالمَه كلها.

ومن هنا رأينا السيلَ الإسلاميَّ في المشارق والمغارب، وإنْ كان الخلفاء ملوكاً! ورأَيْنا الثقافةَ الإسلامية تتقدَّم حضارةً مشرقةً يكوِّنُ الإسلام لُحْمَتها وسَدَاها...

وكان الخليفة يؤمُّ الناسَ في الصلاة الجامعة، ويخطبُهم، ويحجُّ بوفودِهم، ويقود الجيوشَ لمقاتلة أعداء الإسلام.

وكانوا يبدون الغَيْرةَ على شارات الإسلام، ويوصُون بنشر العلم، ويحتفون برجالاته...

وهؤلاء الرؤساء الذين سَمّوا أنفسَهم أمراءَ المؤمنين، والذين أحبُّوا أن يُشَرِّفوها بصفة الخلافةِ عن الرسول ﷺ، كانت جمهرتُهم بين قوي في خدمة الإسلام، أو مقتصد، أو كليلِ الذهنِ واليد.

لكن يستحيلُ أن يُعَطِّل أحدُهم حدّاً أو قصاصاً، أو يجحدَ فريضة، أو يستهينَ بشَعيرة.

الإسلامُ في أيامهم دينُ الفردِ والمجتمعِ والدولة...)[١].

أفنهدم كل ذلك المجد والفضائل والأعمال الكبيرة لأولئك الخلفاء، ونصدق تلك الرواية الضعيفة: (هم ملوك من شرِّ الملوك)؟! حاشى وكلا!.

وقد افتتح الذهبي ترجمة معاوية رضي الله عنه بقوله: (أمير المؤمنين، ملك الإسلام)[٢].

وقال ابن تيمية: (ويَجوزُ تسميةُ مَن بعدَ الخلفاء الراشدين «خلفاءَ»، وإنْ

---

(١) معركة المصحف، ص٤٨ ـ ٤٩، باختصار.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٢٠.

كانوا ملوكاً ولم يكونوا خلفاءَ الأنبياء، بدليل ما رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تَسُوسُهم الأنبياءُ، كلّما هَلَكَ نبيٌّ خَلَفَه نبيٌّ، وإنه لا نَبيَّ بعدي، وستكونُ خلفاءُ فَتَكْثُرُ**»، قالوا: فما تأمُرنا؟ قال: «**فُوا ببيعةِ الأوَّلِ فالأولِ، وأَعْطُوهم حَقَّهم، فإنَّ اللهَ سائِلُهم عمَّا اسْتَرعَاهُم**».

فقوله: «**فتكثر**» دليل على مَن سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيراً.

وأيضاً قوله: «**فُوا ببيعة الأول فالأول**» دلَّ على أنهم يختلِفون، والراشدون لم يختلفوا)[1].

●● **وأما حديث ابن مسعود: «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين...»** فقد اختلف الأئمة وشرّاح الحديث في معناه، وأنا أذكر ما ترجّح لديَّ من أقوالهم:

●● معنى قوله: «**تدور رحى الإسلام**»: اختلف العلماء فيه على قولين:

الأول: أن المراد منه استقامةُ أمر الدِّين واستمراره، وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أن المراد منه الحربُ والقتال، وهذا قول الخَطَّابي والبَغَوي.

والأكثرون على أن المراد بدوران (**رحى الإسلام**): استمرارُ أمر النبوة والخلافة، واستقامة أمر الولاة، وإقامة الحدود والأحكام، من غير فتور ولا فطور، إلى سنة خمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين من الهجرة؛ بدليل قوله ﷺ في آخر الحديث: «**مما مضى**»[2].

وأراد بـ (**رحى الإسلام**) أن الإسلام يستتب أمره ويدوم على ما كان عليه المدة المذكورة في الحديث، ويؤيده ما رواه أحمد والطحاوي في بعض طرق

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٢٠، والحديث عند البخاري (٣٤٥٥)؛ ومسلم (١٨٤٢) واللفظ له.

(٢) عون المعبود: ٧/ ٣٢٠.

الحديث: (**تزول رحى الإسلام**)، وفي رواية أخرى عند الطحاوي: (**ستزول**)[١]، مكان (**تدور**)، أي: تَزُول عن ثُبوتها واستقرارها[٢].

قال ابن الأثير: (يُقال: دارتْ رحَى الحرب: إذا قامَتْ على ساقِها، وأصلُ الرَّحى: التي يُطْحَن بها. والمعنى: أن الإسلامَ يمتد قيامُ أمرِه على سَنَن الاستقامة والبُعْد من إحداثات الظَّلَمة إلى تقضِّي هذا المدة التي هي بضعٌ وثلاثون)[٣].

وقال في «جامع الأصول»: (ووَجْهُه: أن يكون قالَه وقد بقي من عمره ﷺ خمسُ سنين أو ست سنين، فإذا انضمَّت إلى مدة خلافة الخلفاء الراشدين ـ وهي ثلاثون سنة ـ كانت بالغةً ذلك المَبلغ، وإن كان أراد: سنةَ خمس وثلاثين من الهجرة، ففيها خرج أهل مصر وحصروا عثمان، وإن كانت سنة ست وثلاثين، ففيها كانت وقعةُ الجَمَل، وإن كانت سنة سبع وثلاثين، ففيها كانت وقعةُ صِفِّين)[٤].

•• قوله: «**فإن يَهْلِكوا فسبيلُ من قد هَلَك، وإنْ يَقُم لهم دينُهم يَقُم لهم سبعين عاماً**»؛ أي: فإن يَهْلِكوا بالتغيير والتبديل والتحريف، والخروج على الإمام، وبالمعاصي، والمظالم، وترك الحدود وإقامتها.

وقوله: «**فسبيل مَنْ قد هلك**»؛ أي: فسبيلُهم في الهلاك بالتغيير والتبديل والوَهن في الدين؛ سبيلُ مَن هَلَك من الأمم السالفة والقرون الماضية في الهلاك بالتغيير والتبديل والوَهْن في الدين.

---

(١) مسند أحمد: ١/ ٤٥١؛ شرح مشكل الآثار (١٦١٠) و(١٦١٢).
(٢) عون المعبود: ٧/ ٣٢٠؛ النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢١١.
(٣) النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢١١.
(٤) جامع الأصول: ١١/ ٧٨٢؛ وبنحوه في النهاية: ٢/ ٢١١؛ وانظر: عون المعبود: ٧/ ٣٤٢.

●● وقوله: «وإن يقم لهم دينهم»؛ أي: لعدمِ التغيير والتبديل والتحريف والوَهْن؛ يَقم لهم سبعين عاماً[(١)].

ففي هذا الكلام موعدان:

الأول: أنهم إن يَهْلِكوا فسبيلُهم سبيلُ من هلك.

والثاني: أنهم إن يَقُمْ لهم دينُهم يَقم لهم سبعينَ عاماً، وهذان الموعدان لا يوجدان معاً، بل إنْ وُجِد الأول لا يوجد الثاني، وإنْ وُجد الثاني لا يوجد الأول، فأيٌّ من هذين الموعدين وجد وقع.

قال القاري في «المرقاة»: قد وقع المحذور في الموعد الأول، ولم يَزَلْ ذلك كذلك إلى الآن.

وعقَّبَ العلامة شمس الحق العظيم آبادي على هذا فقال: لا شكَّ في وقوعه، فقد ظهر بعد انقضاءِ مدة الخلفاء الراشدين ما ظَهَر، وجَرى ما جَرى، فلمَّا وقع ما وقع في الموعد الأول، ارتفع الموعد الثاني، كما لا يخفى على المتأمل[(٢)].

وأما قول الإمام الخَطّابي: (يَحْتَمِل أن يكون المرادُ بالدِّين هنا: المُلْك، قال: ويُشْبه أن يكون أرادَ بهذا مدَّة مُلْكِ بني أمية وانتقاله عنهم إلى بني العباس، وكان ما بين استقرار المُلك لبني أمية إلىٰ أن ظَهرت دُعاة الدولة العباسية بخُراسان، وضَعُف أمرُ بني أمية ودخل الوَهْن فيه؛ نحواً من سبعين سنة)[(٣)].

فمعناه: أن الموعد الثاني قد وقع، وهو كلام ضعيف بل باطل، وقد تعقَّبه

(١) عون المعبود: ٧/ ٣٢١.
(٢) عون المعبود: ٧/ ٣٢١؛ وانظر: شرح مشكل الآثار: ٤/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥.
(٣) النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢١١؛ جامع الأصول: ١١/ ٧٨٢؛ الفتح: ١٦/ ٦١٦ ـ ٦١٧ (٧٢٢٢)؛ عون المعبود: ٧/ ٣٢١.

الأئمة وردُّوه[(١)]، ويكفي في ردِّه أن مدَّة خلافة بني أمية من سنة (٤١هـ) إلى سنة (١٣٢هـ) وهي إحدى وتسعون سنة تقريباً.

فالنبيُّ ﷺ لم يُرِدْ بقوله: «**وإنْ يَقم لهم دينُهم يَقْم لهم سبعين عاماً**»؛ ملكَ بني أمية دونَ غيرِهم من الأمة، بل أرادَ به استقامةَ أمر الأمة في طاعة الولاة وإقامة الحدود والأحكام، وجعل المبدأ فيه أول زمان الهجرة، وأخبرهم أنهم يلبثون على ما هم عليه خمساً وثلاثين، أو ستّاً وثلاثين، أو سبعاً وثلاثين، ثم يَشقُّون عصا الخلاف فتتفرق كلمتُهم، فإن هلكوا فسبيلُهم سبيلُ مَن قد هلك قبلهم، وإن عاد أمرُهم إلى ما كان عليه من إيثار الطاعة ونصرة الحق؛ يتمُّ لهم ذلك إلى تمام السبعين، هذا مقتضى اللفظ. ولو اقتضى اللفظ أيضاً غيرَ ذلك، لم يَستقِمْ لهم ذلك القول؛ فإن المُلكَ في أيام بعض العباسية لم يكن أقلَّ استقامةً منه في أيام الأموية[(٢)].

●● قوله: «**أَمِمَّا مَضَى أمْ ممّا بَقِي؟ قال: ممَّا بَقي**»، يعني: هل تدخلُ السبعون سنة في جملة ما مضَى، أم أنها مُستأنَفَة بعد خمسٍ وثلاثين؟ قال: «**مما بقي**»[(٣)]، أي: يقومُ لهم أمرُ دِينهم سبعينَ سنة بعد الخمس والثلاثين.

ويبيِّن هذا بوضوح روايةُ ابن عَديٍّ في «الكامل»: (قال عمر بن الخطاب: سبعينَ قبلها أو سبعين بعدَها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**سبعين بعدها**»)[(٤)].

نعم لم يبقَ الإسلام قائماً في بهائه وسموِّه ونقائه وتمامِ كلِّ أموره على مثل ما كان عليه حالُه في عهد الخلفاء الراشدين، لكنْ بقي الإسلام ولله الحمد هو روح الدولة والأمة، مهيمناً على الحكم والأمة والناس أجمعين، ينصرونه

---

(١) انظر كلام الأئمة في الكتب المشار إليها بالحاشية السابقة.

(٢) عون المعبود: ٧/ ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٣) انفرد أبو داود ـ والبغوي من طريقه ـ في روايته فقال: «مما مضى».

(٤) الكامل: ٢/ ٣٣٠ ترجمة (٤٦٣).

ويستنصرون به، والدولة قائمة به وعليه وله، مع ما كان بعد خلافة الراشدين من تغييرٍ ومظالمَ، وهَنَات وسقطات وخُروقات، وخروج على الحكام، وحروب وفتن ودماء، واقتتال على السلطان، وضَعْف ووهَنْ، مما هو معروف مشهور، وهو معنى قوله: «**فإن يَهْلِكوا فسبيلُ مَن قد هَلَك**» كما تقدّم بيانه.

وليس معنى هذا أن الإسلام سينتهي أَمْرُه وتزولُ دولتُه بعد هذه السبعين سنة، ففي رواية مَسْروق عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ رَحَى الإسلامِ ستزولُ بعد خمسٍ وثلاثينَ، فإنْ يَصْطَلِحوا فيما بينَهم على غيرِ قتالٍ يَأكُلوا الدُّنيا سبعينَ عاماً رَغَداً، وإنْ يَقْتَتِلوا يَرْكَبُوا سَنَنَ مَنْ كان قَبْلَهم**»[1].

فالذي جَرَتْ عليه أمور المسلمين أنهم لم يصطلحوا، ولم ينقطع القتال بينهم، فجرى عليهم سَنَن من كان قبلهم من الأمم، وأكلوا الدنيا بلا توقيتٍ عليهم فيه، وبقيتْ دولتهم قائمة ودينُهم محفوظاً سبعين عاماً وسبعين عاماً وزيادة على ذلك، كما هو معروف في تاريخهم الطويل، مع ما اعْتَوَرهم من ضَعْف ووَهْن وتغييرٍ ومظالم ومعاصٍ وغيرها مما يجري على الأمم الأخرى[2].



(١) شرح مشكل الآثار (١٦١٢)؛ المعجم الكبير، للطبراني (١٠٣١١)؛ وصحّحه شعيب الأرنؤوط.

(٢) شرح مشكل الآثار: ٤/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥.
وانظر اختلاف أهل العلم في بيان معنى حديث ابن مسعود هذا، في: شرح مشكل الآثار: ٤/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥؛ غريب الحديث، للخطابي: ١/ ٥٤٩ ـ ٥٥١؛ الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي: ١/ ١٠٦؛ النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢١١؛ جامع الأصول: ١١/ ٧٨٢؛ فتح الباري: ١٦/ ٦١٦، ٦١٩، ٦٢٠، شرح الحديث (٧٢٢٢)؛ مرقاة المفاتيح: ٥/ ١٥٢ ـ ١٥٣؛ عون المعبود: ٧/ ٣٢٠ ـ ٣٢٢.

إخبار النبي ﷺ بخلافة أبي بكر بعده، ثم خلافة عمر وصفة خلافتيهما وانتفاع الناس بهما

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«بَيْنَا أنا نائمٌ رأيتُني على قَلِيبٍ، وعليها دَلْوٌ، فَنَزعتُ منها ما شاءَ الله، ثم أخذَها ابنُ أبي قُحافَةَ فَنَزَعَ منها ذَنُوباً أو ذَنُوبَيْنِ، وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، والله يَغْفِرُ لَه. ثم استَحالَتْ غَرْباً فأَخذَها عمرُ بنُ الخطَّاب، فلمْ أَرَ عَبْقَرِيّاً من الناسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمر بنِ الخطاب، حتى ضَرَبَ الناسُ بِعَطَنٍ»**.

وفي رواية أخرى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«بَيْنَا أنا نائمٌ رأيتُ أنِّي على حَوْضٍ أَسْقِي الناسَ، فأَتاني أبو بكرٍ فأَخَذ الدَّلوَ من يَدِي لِيُريحَنِي، فَنَزعَ ذَنُوبَيْنِ وفي نَزْعِه ضَعْفٌ، والله يغفرُ له. فأَتى ابنُ الخطَّاب فأَخذَ منه، فلم يَزَلْ يَنْزِعُ حتى تولَّى الناسُ، والحوضُ يَتفَجَّرُ»**[1].

٢ - وعن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«بَيْنَما أنا على بِئْرٍ أَنْزِعُ منها، جاءني أبو بكرٍ وعمرُ، فأَخذ أبو بكر الدَّلْوَ فَنَزعَ ذَنُوباً أو ذَنُوبَيْنِ، وفي نَزْعِه ضَعْفٌ، والله يَغْفِرُ له. ثم أَخذها ابنُ الخَطَّاب من يدِ أبي بكرٍ،**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٢١) و(٧٠٢٢) واللفظ له، و(٣٦٦٤) وفيه أطرافه؛ ومسلم (٢٣٩٢)؛ والنسائي في الكبرى (٧٥٨٨) و(٨٠٦٢)؛ وأحمد: ٢/ ٣٦٨، ٤٥٠؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٤٧٨؛ وابن حبان (٦٨٩٨)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٣٤٤؛ والبغوي (٣٨٨١) و(٣٨٨٢)، و(٣٨٨٣).

فاسْتَحَالَتْ في يدهِ غَرْباً، فلَمْ أَرَ عَبْقَرِيّاً من الناسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، فَنَزعَ حتى ضَرَبَ الناسُ بِعَطَنٍ»(١).

❁ ❁ ❁

هذه رؤيا منام رآها رسول الله ﷺ، ورؤيا الأنبياء حق، يُخبِر فيها عمَّا سيؤولُ إليه أمر المسلمين من بعده، وأن أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه سيكون خليفته على المسلمين من بعده، ثم يليه الفاروق عمر رضي الله عنه وأرضاه.

ويبيِّن فيها قِصَر مدة حكم الصدّيق وبدايةَ الفتوحات في عهده، وطولَ مدة خلافة عمر وكثرةَ الفتوحات في زمنه واتساع دولة الإسلام ودخول الناس في دين الله.. وكل ذلك وقع مثلَ فَلَقِ الصبح.

أولاً: لمحة حول معاني المفردات:

القَلِيب: البئر التي لم تُطْوَ، أي لم تُبْنَ بالحجارةِ ونحوِها، وإنما هي حُفيرةٌ قُلِب ترابُها، فَسُمِّيَتْ قَلِيباً. يقال: طوى فلان البئر بالحجارة ونحوها: بناها.

الدلو: يذكر ويؤنث.

الذَّنوب: الدلو المملوءة.

الغَرْب: هي الدلو العظيمة المملوءة.

النزع: إخراج الماء للاستقاء.

فاستحالت: صارت وتحوَّلَت من الصِّغَر إلىٰ الكِبَر.

العبقري: هو كل شيء بَلَغ النهاية، والعبقري من الرجال: القوي الشديد الذي ليس فوقه شيء، وعبقري القوم: سيدهم وقويُّهم وكبيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٦) واللفظ له، و(٣٦٣٤) وفيه أطرافه؛ ومسلم (٢٣٩٣)؛ والنسائي في الكبرى (٧٥٨٩) والترمذي (٢٢٨٩)؛ وأحمد: ٢/ ٢٧ ـ ٢٨، ٣٩، ٨٩، ١٠٤، ١٠٧؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٤٧٨.

يَفْرِي فَرِيَّه: أي يعمل عملَه، وفَرى يَفْري: إذا قَطَع.. تقول العرب: فلان يَفْري الفَرْي، إذا عَمِل العمل وأجادَه، تعظيماً لإحسانه.

العَطَن: الموضع الذي تُناخ فيه الإبل إذا رَوِيَت، والعَطَن للإبل كالوطن للناس، لكن غَلب على مبركها حول الحوض.

والمراد بقوله: «**حتى ضَرب الناس بعطن**»: حتى رَوَوا وأَرْوَوْا إبلَهم، ثم أَوَوْهَا على عَطَنها لتستريح.

ثانياً: معنى الحديث ومدلوله:

●● هذا المنام مثال واضح لِما جرى لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما في خلافتهما، وحُسْن سيرتهما، وظهور آثارِهما، وانتفاعِ الناس بهما، وكل ذلك مأخوذ من النبي ﷺ، ومن بركته، وآثار صحبته، فكان النبي ﷺ هو صاحب الأمر، فقام به أكملَ قيام، وقرَّر قواعدَ الإسلام، ومهَّد أموره، وأوضَح أصوله وفروعه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ثم توفي ﷺ[1].

فَخَلَفه أبو بكر سنتين وأشهراً، وهو معنى قوله: «**نزع ذَنوبين**»[2] على رأي أكثر شرَّاح الحديث، وفيه نظر ـ كما يقول الحافظ ـ لأنه وَلي سنتين وبعضَ سنة، فلو كان ذلك المراد لقال: «ذنوبين أو ثلاثة»، والذي يَظهر لي أن ذلك إشارة إلى ما فُتح في زمانه من الفتوح الكبار وهي ثلاثة، ولذلك لم يتعرَّض في ذِكْر عمر إلى عدد ما نَزَعه من الدِّلاء، وإنما وَصَف نَزْعَه بالعَظَمة إشارةً إلى كثرة ما وقع في خلافته من الفتوحات، والله أعلم[3].

●● وحَصَل في خلافة الصدّيق قتالُ أهل الردة وكَسْرُهم، وفتوحٌ في العراق

---

(١) شرح مسلم، للنووي: ٨/ ١٧٨.

(٢) هذه إحدى روايات البخاري (٧٠٢٢)، وفي بعض الرايات: «**ذنوباً أو ذنوبين**»، وهو شك من الراوي، والمراد: «**ذنوبان**».

(٣) الفتح: ٨/ ٦١١ (٣٦٧٦).

وفي الشام، ثم خَلَفه عمر فكثُرت الفتوحات، ودرَّت الخيرات على المسلمين، واتسعت دولة الإسلام اتساعاً عظيماً، وتقرَّر للناس من الأحكام ما لم يقع مثلُه، وشُيِّدت دولة شامخة على أسس راسخة، وهذا معنى قوله ﷺ: «**حتى ضَرب الناس بعَطَن**»[(١)].

●● وعَبَّر بالقَلِيب عن أمر المسلمين؛ لِما فيها من الماء الذي به حياتُهم وصلاحُهم، وشَبَّه أميرهم بالمستقي لهم، وسقيه هو قيامه بمصالحهم وتدبير أمورهم[(٢)].

فكأن البئر هو الدين، وماءَهُ تعاليمُ الإسلام التي فيها حياة النفوس، وتمام أمر المعاش والمعاد، والنزع منه وإخراج الماء إشارة إلى إشاعة أمر الإسلام وإجراء أحكامه[(٣)].

فرسولُ الله ﷺ نَزع ما شاء الله له أن يَنزِع، وسقى الناسَ الذين وردوا على الحوض، وذلك بأنه أقام فيهم دين الله تعالى وعلَّمهم ورباهم وزكَّاهم حتى رسخ الإيمان في قلوبهم، ثم قبضه الله سبحانه إلى رضوانه وجنَّته.

قال: «**فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليُرِيحَني**»، وهذا إشارة إلى نيابة أبي بكر عنه، وخلافته بعده، وراحته ﷺ بوفاته من نَصَب الدنيا ومشاقها[(٤)]. فقام الصدّيق رضي الله عنه بحق الخلافة خير قيام.

قال: «**فأتى ابنُ الخطاب فأَخذ منه، فلم يزل ينزِع حتى تولى الناس، والحوض يتفجَّر**»، وفيه إشارة عظيمة إلى استخلاف عمر بعد أبي بكر، واتساع دولته، وعظمة الفتوحات، وكثرة الخيرات، وتدفق الأرزاق، حتى إن الناس

---

(١) شرح مسلم، للنووي: ٨/ ١٧٨؛ الفتح: ٨/ ٦١٢.
(٢) شرح مسلم، للنووي: ٨/ ١٧٨.
(٣) الفتح: ٨/ ٦١٢.
(٤) شرح مسلم، للنووي: ٨/ ١٧٨.

صَدَرُوا عن الحوض ولا يزال يتفجر، وهو تأكيد لمعنى «**حتى ضرب الناس بعَطَن**».

•• وقوله: «**فلم أَرَ عبقريّاً يَفْرِي فَرِيَّه**»: هو وصف دقيق جليل لإنجازات عمر في مدة خلافته، فمن مثله رضي الله عنه في جدّه واجتهاده وإتقانه وإحسانه وإجادته في كثرة أعماله وجلالة أمجاده!.

•• قوله: «**وفي نَزْعه ضعفٌ**»: قال الشافعي في «الأم»: (ومعنى قوله: «**وفي نزعه ضعف**»: قِصر مدَّته، وعجلةُ موته، وشغلُه بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والازدياد الذي بَلَغه عمر في طول مدّته)[١].

وليس فيه حَظٌّ من فضيلة أبي بكر، ولا إثباتُ فضيلة لعمر عليه[٢].

وقوله: «**والله يغفر له**»: هذا دعاء من المتكلم، ولا مفهومَ له، وقد كان المسلمون يقولون: افعل كذا والله يغفر لك.

أو: فيه إشارة إلى قُرْب وفاة أبي بكر، وهو نظيرُ قوله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾؛ فإنها إشارة إلى قرب وفاة النبي ﷺ[٣].

•• **وثمة حديث آخر في هذا الباب يوافق حديثي أبي هريرة وابن عمر:**

عن أبي الطُّفَيل: أن رسولَ الله ﷺ قال: «**بَيْنا أنا أنزِع الليلةَ، إذ وَرَدَتْ عليَّ غَنَمٌ سودٌ وعُفْر، فجاء أبو بكر فَنَزَع ذَنوباً أو ذَنوبين، وفي نَزْعِه ضعفٌ، والله يغفر له. فجاء عمر فاستحالَتْ غَرْباً، فملأ الحِياض وأروى الواردةَ، فلم أَرَ عبقريّاً أحسنَ نزعاً من عمر. فأَوَّلْتُ السودَ العربَ والعُفْرَ العجمَ**»[٤].

---

(١) الفتح: ٨/ ٦١١.

(٢) شرح مسلم، للنووي: ٨/ ١٧٨.

(٣) شرح مسلم، للنووي: ٨/ ١٧٨؛ الفتح: ٨/ ٦١١.

(٤) أخرجه البزّار والطبراني، وحسَّنه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٧١ ـ ٧٢؛ والحافظ في الفتح: ٨/ ٦١٢. **والأعفر**: الأبيض وليس بالشديد البياض، والذي تخالط بياضَه حُمرةٌ.

ومعنى تأويل رسول الله ﷺ أن العرب والعجم سيدخلون في الإسلام، ويشربون من حياضه الطاهرة، وحياضه هي تشريعاته وتعاليمه وأخلاقه وآدابه، وهكذا كان.

فهذه الأحاديث مؤداها واحد، وهي ـ كما يقول أئمتنا ـ علم من أعلام النبوة: ففيها إعلام النبي ﷺ بخلافة أبي بكر ثم عمر، وصحة ولايتهما، وبيان صفتهما، وكثرة الانتفاع بهما، فكان ذلك كله كما أخبر ﷺ[1].

وقد أورد الإمام البخاري الحديثين في «كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام».



(١) انظر: صحيح ابن حبان: ١٥/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤؛ شرح مسلم، للنووي: ٨/ ١٧٨؛ الفتح: ١٦/ ٢٣٤ (٧٠١٩).





إخبار النبي ﷺ بالصلح الذي سيكون بين الحسن ومعاوية وانتقال الخلافة إلى الشام

١ ـ عن الحسن البَصْريِّ قال: (استَقْبَلَ ـ واللهِ ـ الحسنُ بن عليٍّ معاويةَ بكتائبَ أمثال الجبالِ، فقال عَمْرو بن العاص: إنِّي لَأَرى كتائبَ لا تُوَلِّي حتى تَقْتُل أقرانَها! فقال له معاويةُ ـ وكانَ واللهِ خيرَ الرَّجُلَيْنِ ـ: أيْ عَمْرُو، إنْ قَتَلَ هؤلاءِ هؤلاءِ وهؤلاءِ هؤلاءِ، مَنْ لي بأمورِ الناسِ، مَنْ لي بِنسائِهم، مَنْ لي بِضَيْعَتِهِم؟! فَبَعثَ إليه رَجُلَينِ من قريشٍ من بني عَبْد شمسٍ ـ عبدَ الرحمن بنِ سَمُرَة وعبدَ الله بن عامر بن كُرَيْزٍ ـ فقال: اذْهَبَا إلى هذا الرجلِ، فاعْرِضَا عليه، وقولَا له، واطْلُبَا إليهِ. فأَتَيَاه، فدَخَلا عليه، فتكلَّمَا وقالَا له وطَلَبَا إليه. فقال لهما الحسنُ بن علي: إنَّا بَنُو عبدِ المُطَّلِب قد أَصَبْنَا من هذا المالِ، وإنَّ هذه الأُمَّةَ قد عاثَتْ في دمائِها. قالا: فإنه يَعْرِضُ عليكَ كذا وكذا، ويَطْلُبُ إليكَ، ويَسأَلُكَ. قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحنُ لكَ به. فما سأَلَهُما شيئاً إلا قالا: نحنُ لكَ به. فَصَالَحَهُ.

فقال الحسنُ: ولقد سمعتُ أبا بَكْرَةَ يقول: رأيتُ رسولَ الله ﷺ على المِنْبرِ، والحسنُ بن عليٍّ إلى جَنْبِه، وهو يُقْبِلُ على الناسِ مرَّةً وعليهِ أُخرى، ويقول: «**إنَّ ابْنِي هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ الله أنْ يُصْلِحَ بِهِ بينَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ من المُسلِمِينَ**»)[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) وأطرافه؛ واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (١٧٣٠) و(٨١١٠) و(١٠٠٠٩) و(١٠٠١٠)؛ وفي الصغرى: ٣/ ١٠٧؛ وأبو داود (٤٦٦٢)؛ والترمذي (٣٧٧٣)؛ وأحمد: ٥/ ٣٧ ـ ٣٨، ٤٤، ٤٩، ٥١؛ والحميدي (٧٩٣)؛ والفسوي: ٣/ ٤١١ ـ ٤١٢؛ وابن حبان (٦٩٦٤)؛ والبغوي (٣٩٣٤)، وغيرهم.

٢ ـ عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّي رأيتُ كأنَّ عَمُودَ الكِتابِ انْتُزِعَ من تحتِ وِسادَتي، فأَتْبَعْتُه بَصَرِي، فإذا هو نورٌ ساطِعٌ عُمِدَ بهِ إلى الشامِ، أَلَا وإنَّ الإيمانَ إذا وَقَعتِ الفِتَنُ بالشَّامِ**»[(١)].

٣ ـ وعن عبد الله بن حَوَالة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**بَيْنَا أنَا نائمٌ رأيتُ كتاباً اختُلِسَ من تحت وِسادَتي، فَظَننتُ أن الله تخلى عن أهل الأرض، فأَتْبَعْتُه بَصَرِي، فإذا هو نورٌ ساطِعٌ بين يديَّ، حتى وُضِعَ بالشامِ**»[(٢)].

❁ ❁ ❁

أولاً: تحقق النبوءة في عام الجماعة:

●● لمَّا استُشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بايع أهلُ العراق الحسنَ بن علي رضي الله عنهما، فكان خليفة بالعراق وما وراءها من خُراسان، وأول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة وكان على إمرة (أَذْرَبِيْجَان) وتحت يده أربعون ألف مقاتل.

واجتمع العراقيون اجتماعاً عظيماً لم يُسمع بمثله، كما يدل عليه قول الحسن البصري: (استقبل ـ والله ـ الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال)، وأرادوا الحسنَ بن علي على قتال أهل الشام، وهو كاره لذلك، فأمَّر

---

(١) أخرجه الحاكم: ٤/٥٠٩؛ وأبو نعيم في الحلية: ٥/٢٥٢؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠/٥٨، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» بأسانيد، وفي أحدها ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وقد توبع على هذا، وبقية رجاله رجال الصحيح؛ وصحَّحه الألباني في «فضائل الشام»، للربعي، ص١٣ حديث (٣).

(٢) أخرجه الطبراني وابن عساكر في تاريخه، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠/٥٨، وقال: رجاله رجال الصحيح غير صالح بن رستم وهو ثقة؛ وحسَّنه الحافظ في الفتح: ١٦/٢١٨، كتاب التعبير، باب (٢٤)؛ وذكره الربعي في فضائل الشام، ص٢٨ ـ ٢٩ حديث (٩)؛ وصحَّحه الألباني وتكلَّم عليه بكلام جيد. وجاء مثله عن ابن عمر في فضائل الشام، للربعي، ص٣٢ حديث (١٠)، وعمرو بن العاص عند أحمد: ٤/١٩٨؛ وأبي الدرداء عند أحمد: ٥/١٩٨ ـ ١٩٩.

على المقدمة قيس بن سعد في اثني عشر ألفاً بين يديه، وسار هو بالجيوش قاصداً بلاد الشام ليقاتل معاوية في أهل الشام، فلما اجتاز بالمدائن نزلها، فبينا هو مُعَسْكِر بظاهرها، إذ نادى منادٍ في عسكره: أَلَا إن قيس بن سعد قد قُتل، فشدَّ الناس على حجرة الحسن، فنهبوها حتى انتُهبت بُسُطه، وأخذوا رداءه، وطعنه رجل من بني أسد في ظهره بخنجر مسموم في أَلْيَتِه، فتحوَّل ونزل قصر كسرى الأبيض، وقال: قد علمتُ أنْ لا خيرَ فيكم، قتلتم أبي بالأمس، واليوم تفعلون بي هذا[1]!.

وكان معاوية لما بَلَغه استشهاد علي خرج في أهل الشام جهة العراق، وجاءته الأخبار بمسير الحسن إليه، فتابع بمن معه ونزل (مَسْكِن)[2].

●● وكان الحسن رضي الله عنه يكره الاقتتال بين المسلمين، ويهوى الصلح بينهم، ويحرص على حقن دمائهم منذ تفجرت الفتن في عهد أبيه، وقَوَّىٰ رأيه هذا أحداث رآها وأخرى اكتوى بلظاها.

فكان يتمنى الصلح بين المسلمين، ويسعى إليه، وتجمعت لديه مبررات كثيرة لقيامه بذلك:

١ ـ كان يُخالِف أباه رضي الله عنه في قيامه في حرب الجمل وصفِّين، وقد قال لأبيه: (يا أبت! دَعْ هذا فإن فيه سفكَ دماء المسلمين، ووقوعَ الاختلاف بينهم)، فلم يَقبل منه ذلك[3].

٢ ـ رأى حروبَ أبيه في وقعتي الجمل وصفين، وما سال فيهما من دماء، ونَدَم أكابرِ الصحابة على ذلك، ومنهم عليّ نفسه.

---

(١) مختصر ابن عساكر: ٧/ ٣٣ ـ ٣٤؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٥؛ الفتح: ١٦/ ٣٨١ ـ ٣٨٢ (٧١٠٩).

(٢) موضع بناحية الأنبار. انظر: العبر في خبر من عبر: ١/ ٣٤، أحداث سنة (٤١هـ).

(٣) البداية والنهاية: ٧/ ٢٣٠؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٤٥٦.

يقول الحسن: (لقد رأيت عليّاً حين اشتدَّ القتال وهو يَلُوذُ بي، ويقول: يا حسن! لوَدِدْتُ أني متُّ قبل هذا بعشرين سنة!)[١].

٣ ـ ما كان بين يديه من البشارة النبوية بأن الله سبحانه يُصلِح به بين فئتين من المسلمين، فلما نظر إلى الجيشين أمثال الجبال في الحديد، قال: (أَضْرِبُ هؤلاء بعضَهم ببعض في مُلْك من ملك الدنيا! لا حاجةَ لي به)[٢].

٤ ـ ما رآه في جيشه من خللٍ واضطراب، وتعلُّقِ قلوب جمهور منهم بالدنيا، وهم من قريب قد خذلوا أباه، وتقهقروا عنه، ويومئ إلى ذلك قوله فيهم:

(إنَّا والله ما ثَنَانا عن أهل الشام شكٌّ ولا ندمٌ، وإنما كنا نُقاتِل أهلَ الشام بالسلامة والصبر، فَشِيْبَتِ السلامةُ بالعداوة، والصبرُ بالجزع، وكنتم في مبتدئكم إلى صفِّين ودينُكم أمام دنياكم، فأصبحتُم اليوم ودنياكم أمام دينكم)[٣].

٥ ـ وأكد ذلك له تلك المحاولة الجادة في قتله، كما قتلوا أباه من قبله، وقد طعنوه بخنجرٍ مسموم فسلمه الله منهم، وهم لا يزالون في أوائل مسيرهم!.

قال الحسن رضي الله عنه: (يا أهلَ الكوفة! لو لم تذهل نفسي عليكم إلا لثلاث؛ لذهلَتْ: لقتلِكم أبي، وطَعْنِكم في فخذي، وانتهابِكم ثَقَلي)[٤].

٦ ـ ثم بعد ذلك ما جاءت به الرسل من عند معاوية رضي الله عنه، يَعْرِضون عليه الصلحَ ويرغِّبونه فيه لحقنِ دماء المسلمين، فكان ذلك على انتظارٍ وحُبٍّ ورغبةٍ، ولله الحمد.

●● وسعى معاوية إلى الصلح بكلِّ وسيلة، فعند عبد الرزاق في «مصنفه»

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٧٢١؛ الفتن، لنعيم بن حماد (١٧٦)، وعنده عدة روايات.
(٢) مختصر ابن عساكر: ٧/ ٢١.
(٣) مختصر ابن عساكر: ٧/ ٣٥؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٦٩.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٤٥. **الثقل**: متاع المسافر.

عن الزهري قال: (وكان قيسُ بن سعد بن عُبَادة على مقدمة الحسن بن علي، فأرسل له معاوية بسجلٍّ قد خَتم له في أسفله، فقال: اكتُبْ في هذا السجِلِّ، فما كتبتَ فهو لكَ! فقال عَمْرو لمعاوية: لا تُعْطِه هذا وقاتِلْه، فقال معاوية ـ وكان خيرَ الرجلين ـ: على رِسْلِكَ يا أبا عبد الله! فإنا لن نَخْلُصَ إلى قَتْل هؤلاء حتى يُقتل عددُهم من أهل الشام، فما خيرُ الحياة بعد ذلك؟! وإنِّي واللهِ لا أُقاتِله حتى لا أجدَ من ذلك بُدّاً)[1].

وجاء في حديث البخاري: (فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس ـ عبد الرحمن بن سَمُرَة وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز ـ فقال: اذهبا إلى هذا الرجل؛ فاعْرِضَا عليه، وقولا له، واطْلُبا إليه).

يقول معاوية: (**فاعرضا عليه**) ما شاء من المال، (**وقولا له**) أي: في حقن دماء المسلمين بالصلح، (**واطلبا إليه**) أي اطلبا منه خَلْعَه نفسَه من الخلافة وتسليمَ الأمر لمعاوية، وابذلا له في مقابلة ذلك ما شاء!.

وهذا يدل على أن معاوية كان هو الراغب في الصلح، وأنه عرض على الحسن المال ورغَّبه فيه، وحثَّه على رفع السيف، وذكَّره ما وعده به جدُّه ﷺ من سيادته في الإصلاح به[2].

فقام ذانك الرجلان بالمهمة الجليلة، ففي حديث البخاري: (فأَتَيَاه، فدخلا عليه، فتكلّما وقالا له وطَلَبا إليه. فقال لهما الحسن بن علي: إنَّا بنو عبد المطلب قد أَصَبْنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثَتْ في دمائها. قالا: فإنه يَعْرِض عليك كذا وكذا، ويطلُب إليك ويسألُكَ. قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به. فصالَحَه).

ومعناه: أن الحسن قال: (**إنَّا بنو عبد المطلب أَصَبْنا من هذا المال**) أي إنَّا

---

(١) مصنف عبد الرزاق: ٥/ ٤٦٢ (٩٧٧٠)، وهو خبر طويل جدّاً في أربع عشرة صفحة، ونقل الحافظ منه القطعة التي ذكرناها؛ انظر: الفتح: ١٦/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤ (٧١٠٩).

(٢) الفتح: ١٦/ ٣٨٤.

جُبِلنا على الكرم والتوسعة على أتباعنا من الأهل والموالي، وكنَّا نتمكن من ذلك بالخلافة، حتى صار ذلك لنا عادة.

وقوله: (**إن هذه الأمة**) أي العسكرين الشامي والعراقي، (**قد عاثت**) أي قتل بعضها بعضاً، فلا يَكُفُّون عن ذلك إلا بالصفح عما مضَى منهم والتألّف بالمال. وأراد الحسن بذلك كله تسكينَ الفتنة وتفرقةَ المال على مَن لا يرضيه إلا المال. فوافقاه على ما شرط من جميع ذلك، والتزما له من المال في كل عام والثياب والأقوات ما يحتاج إليه لكل ما ذكر.

وقوله: (**من لي بهذا**) أي من يضمن لي الوفاء من معاوية؟ فقالا: نحن نضمن؛ لأن معاوية كان فوَّض لهما ذلك. ويَحتمل أن يكون قوله: (**أصبنا من هذا المال**) أي فرَّقنا منه في حياة علي وبعده ما رأَيْنَا في ذلك صلاحاً. فنبَّه على ذلك خشيةَ أن يرجع عليه بما تصرف فيه(١).

وتمَّ الصلح، وقدِمَ هذان السفيران الجليلان على الحسن بالمدائن، فأعطياه ما أراد وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة (خمسة آلاف ألف) في أشياء اشترطها. وفي رواية: أن الحسن صالح معاوية على أن يجعل له ما في بيت مال الكوفة وأن يكون له خَراج دَرابْجِرد(٢).

•• وأعلن الحسن الصلحَ في أهل العراق وخطبَهم وحثَّهم على مبايعة معاوية وطاعته:

عن هلال بن خباب قال: (جمع الحسن رؤوس أهل العراق في هذا القصر ـ قصر المدائن ـ فقال: إنكم قد بايعتموني على أن تسالموا من سالمتُ، وتحاربوا من حاربتُ، وإني قد بايعتُ معاوية، فاسمعوا له وأطيعوا)(٣).

---

(١) الفتح: ١٦/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥.
(٢) الفتح: ١٦/ ٣٨٥؛ مختصر ابن عساكر: ٧/ ٣٤ البداية والنهاية: ٨/ ٤١.
(٣) أخرجه الفسوي: ٣/ ٤١٠؛ وابن عساكر: مختصره: ٧/ ٣٤، وإسناده صحيح.

وقال عبد الرزاق الصنعاني: (أخبرنا مَعْمَر، عن أيوب، عن ابن سيرين: أن الحسن بن علي ﵄ قال: لو نظرتمُ ما بين جابَرْس إلى جابَلْق ما وجدتم رجلاً جدُّه نبيٌّ غيري وغير أخي، وإني أرى أن تجتمعوا على معاوية، ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]. قال معمر: جابرس وجابلق: المغرب والمشرق)[(١)].

وعن أبي الغريف عبيد الله بن خليفة قال: (كنَّا في مقدمة الحسن بن علي اثني عشر ألفاً بِمَسْكِن مستميتين تقطرُ أسيافنا من الجدّ على قتال أهل الشام، وعلينا أبو العَمرَّطة، فلما جاءنا صلحُ الحسن بن علي كأنما كُسِرتْ ظهورُنا من الغيظ، فلما قدِم الحسن بن علي على الكوفة، قال له رجل منّا يقال له: أبو عامر سفيان بن ليلىٰ: السلامُ عليك يا مُذِلَّ المؤمنين! قال: فقال: لا تَقُلْ ذاك يا أبا عامر، لستُ بمذلّ المؤمنين، ولكني كرهتُ أن أَقتلهم على المُلْك)[(٢)].

●● واجتمع الفريقان في صعيد واحد، وأعلن الحسن الصلح على رؤوس الجميع، وتنازل عن حقه في الخلافة لمعاوية.

عن الشعبي قال: (لمّا صالح الحسنُ بن علي معاويةَ، قال له معاوية بالنُّخَيْلة: قُمْ فتكلَّم. فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعدُ، فإن أَكْيَسَ الكَيْس التُّقى، وإن أعجزَ العجزِ الفجورُ، أَلَا وإن هذا الأمر الذي اختَلَفتُ فيه أنا ومعاوية، حقٌّ لامرئ كان أحقَّ به مني، أو حقٌّ لي؛ تركتُه لمعاوية إرادةَ إصلاحِ المسلمين وحَقْنِ دمائهم ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١].. ثم استغفر ونزل)[(٣)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٩٨٠)؛ والفسوي: ٣/ ٤١١؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٧٣؛ والدلائل: ٦/ ٤٤٤، وإسناده أئمة.

(٢) المعرفة والتاريخ، للفسوي: ٣/ ٤١٠؛ تاريخ بغداد: ١٠/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦؛ المستدرك: ٣/ ١٧٥؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٩.

(٣) المعرفة والتاريخ: ٣/ ٤١١؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤؛ دلائل النبوة =

وروى الزهري القصة وفيها: (فخطب معاوية ثم قال: قُمْ يا حسنُ فكلِّم الناس. فقام حسن فتشهد في بديهةِ أمرٍ لم يُرَوِّ فيه، ثم قال: أما بعدُ؛ أيها الناس! إن الله هداكم بأَوَّلِنا، وحَقَنَ دماءَكم بآخِرِنا، وإن لهذا الأمر مدةً، والدنيا دُوَلٌ، وإن الله تعالى قال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩ ـ ١١١])[١].

قال الحسن البصري: (فلما وَلِي ـ يعني: الحسن بن علي رضي الله عنهما ـ ما أُهَرِيق في سببه مِحْجَمَةٌ من دمٍ)[٢].

وفي رواية الإمام أحمد لحديث الحسن البصري عن أبي بَكْرة، قال الحسن البصري: (فواللهِ واللهِ بعد أن وَلِي لم يُهَرَقْ في خلافتِه مِلْءُ مِحْجَمةٍ من دمٍ)[٣].

وسلَّم الحسن لمعاوية الأمر وبايَعَه على إقامة كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ[٤].

وكانت مدة خلافته ستة أشهر، وبعضهم يقول: سبعة أشهر، بناء على الخلاف: هل تنازل لمعاوية في شهر ربيع الأول أم في ربيع الآخر[٥].

•• وسُرَّ معاوية بالصلح، ودخل هو والحسن الكوفة راكبَيْن، وتسلَّم معاوية

= للبيهقي: ٦/ ٤٤٤؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٧١؛ مختصر ابن عساكر: ٧/ ٣٦؛ الفتح: ١٦/ ٣٨٢. **النُّخيلة**: موضع قرب الكوفة. **الكَيْس**: ضد الحمق.

(١) المعرفة والتاريخ: ٣/ ٤١٢؛ دلائل النبوة، للبيهقي: ٦/ ٤٤٤؛ مختصر ابن عساكر: ٧/ ٣٧؛ الفتح: ١٦/ ٣٨٢.

(٢) المعرفة والتاريخ: ٣/ ٤١١؛ دلائل النبوة، للبيهقي: ٦/ ٤٤٤؛ مختصر ابن عساكر: ٧/ ٢١؛ الفتح: ١٦/ ٣٨٥.

(٣) مسند أحمد: ٥/ ٤٤.

(٤) الفتح: ١٦/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٥) جوامع السيرة، ص٣٥٦؛ مختصر ابن عساكر: ٧/ ٣٥، ٤٧؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٦٠، ٢٦٣؛ البداية والنهاية: ٨/ ١٨، ٤١.

الخلافة، وبايعه الناسُ، وكان ذلك في ربيع الأول من سنة (٤١هـ)، وسُمِّي ذلك العام عامَ الجماعة؛ لاجتماعِ الكلمة على أمير واحد بعد الفرقة.

وبايع معاويةَ كلُّ مَن كان معتزلاً للقتال كابنِ عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مَسْلَمة، وأجاز معاوية الحسنَ بثلاثمئة ألف، وألف ثوب، وثلاثين عبداً، ومئة جمل، وانصرف إلى المدينة. وولى معاوية الكوفةَ المغيرةَ بن شعبة، والبصرة عبدَ الله بن عامر، ورجع إلى دمشق(١).

وكان معاوية دائمَ الصلة للحسن وآل بيته، وقد أَجرى على الحسن كلَّ سنة (ألف ألف درهم)، وعاش الحسن بعد ذلك عشر سنين(٢).

وعن عبد الله بن بُرَيْدة: أن الحسن دخل على معاوية، فقال: لأُجِيزنَّك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً قَبْلك، ولا أُجِيز بها أحداً بعدك، فأعطاه أربعمئة ألف(٣).

● تنبيه:

جاء في إحدى الروايات أن الحسن بايَعَ معاويةَ على أن يجعلَ له العهدَ بالخلافة من بعده(٤)!.

نقول: وهذا باطلٌ غير صحيح، فالحسن رضي الله عنه زَهِد بالخلافة ومعه الجيوش، وتركَها وقد جاءت إليه، وتنازَلَ عنها لله وحقناً لدماء المسلمين، وأَمَر مَنْ معه وهم عشرات الألوف بمبايعة معاوية، وحَقَّق بذلك رجاءَ النبي ﷺ في الإصلاح، فكيف يطلُبها بعد ذلك؟!.

فلو أن الحسن طلب ولاية العهد لكان قد استَبدلَ الذي هو أدنى بالذي هو

---

(١) الفتح: ١٦/ ٣٨٣.
(٢) مختصر ابن عساكر: ٧/ ٣٤؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٦٤.
(٣) مختصر ابن عساكر: ٧/ ٦؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٦٩.
(٤) مختصر ابن عساكر: ٧/ ٣٥؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٤٥؛ العبر: ١/ ٣٤، ٣٥؛ الفتح: ١٦/ ٣٨٥.

أعلى. ثم لو صَحَّ ما تزعمه تلك الرواية، لتجدَّدَ الخلافُ فيما بعد وفُتحت أبواب الفتنة والقتال من جديد، وهو الأمر الذي سعى الحسن رضي الله عنه إلى رَتْقِه وإغلاقِ بابه.

ويؤيد رأيَنا خبرٌ صحيح رواه جُبير بن نُفَير قال: (قلتُ للحسنِ بن علي: إن الناسَ يقولون: إنك تريد الخلافة! فقال: قد كانت جماجمُ العرب في يدي، يُحارِبون مَن حاربْتُ، ويُسالِمون من سالمتُ، فتركتُها ابتغاءَ وجه الله تعالى وحقن دماء أمة محمد ﷺ، ثم أَبتزُّها باتِّئاسِ أهل الحجاز؟!)[١].

ثانياً: انتقال مركز الخلافة إلى الشام:

●● وبمبايعة الأمة لمعاوية رضي الله عنه اجتمعت الكلمة، وانقطعت الحرب، واستوسقت أمصار الإسلام لمعاوية، وانتهت مدة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، وتحوَّل الحُكْم إلى النظام الملكي الوراثي كما ثبت في الحديث، وأصبحت أيامُ معاوية أولَ عهود المُلك، وهو رضي الله عنه أول ملوك الإسلام وخيارهم[٢].

وانتقل مركز الخلافة من المدينة المنورة إلى الكوفة في عهد علي رضي الله عنه، ثم انتقل إلى الشام في عام الجماعة، وأضحت دمشق عاصمة الدولة الأموية طيلة تسعين سنة.

وإلى هذا يشير الحديث الذي ذكرناه في صدر النبوءة: «**إني رأيتُ كأنَّ عمودَ الكتاب انتُزِع من تحت وِسادتي، فأَتبعْتُه بصري، فإذا هو نورٌ ساطِع عُمِد به إلى الشام**».

وقد ذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديثَ وغيرَه في الخلافة والمُلك عند كلامه عن إخبار النبي ﷺ بالصلح بين الحسن ومعاوية، وتحوُّلِ الأمر إلى

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ١٧٠؛ وأبو نعيم في الحلية: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧؛ وابن عساكر: مختصره: ٧/ ٣٨، وهو عند ابن سعد كما في البداية والنهاية: ٨/ ٤٢؛ وذكره الذهبي في السير: ٣/ ٢٧٤؛ وصحَّحه الحاكم وأقره الذهبي. قوله: (باتئاس): أي بتذليل.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ١٩.

معاوية. ثم ذكره مرة ثانية في صدر حديثه عن عهد معاوية وفي السنة الأولى من حكمه، وهي سنة (٤١هـ)[١].

●● وجاء في الحديث: «**رأيتُ كأنَّ عمودَ الكتاب**».

وفي رواية: «**رأيتُ ليلةَ أُسرِي بي عموداً أبيضَ كأنه لؤلؤٌ تحمِلُه الملائكة، قلتُ: ما تحملونَ؟ قالوا: نحملُ عمودَ الإسلام، أُمِرنا أن نضَعَه بالشام**».

وفي رواية ثالثة: «**إنِّي رأيتُ الملائكةَ في المنام أَخذوا عمودَ الكتاب فعَمَدُوا به إلى الشام**»[٢].

فقد قال في الحديث: «**عمود الكتاب**» ولم يقل: «الكتاب»، وعموده ما يعتمد عليه، فهو له بمنزلة العمود من البيت، وعِمادُ الخيمة ما تقومُ به لا الخيمة نفسها، وقد جاء في حديث معاذ مرفوعاً: «**رأسُ الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة**»[٣].

فمعنى قوله ﷺ: «**عمود الكتاب**»: الكتاب هو الإسلام، وهو قائم وموجود في كل أمصار الإسلام وبخاصة في مكة والمدينة، أما «عموده» فهو الحكم والسلطان الذي يتولى سياسة الأمة، وحماية بيضة الدين، وتطبيق الشرائع، وإقامة الحدود، وتسيير الولاة للقيام بشؤون الدين والدنيا، وتجييش جيوش الفتح، وغير ذلك من مهمات الحكم.

وهذ واقع مشاهد فإن مركز الحكم من وقت انتقل من المدينة النبوية لم يرجع إليها.

وبعد أن كتبتُ هذا، وقفتُ على كلام الحافظ وفيه ما يؤيد رأينا[٤]، وأوضح منه كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» حيث يقول: (وعمودُ الكتاب

---

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٢٢١، ٨/ ٢٠.
(٢) فضائل الشام، للربعي، ص١٤، ٢٨، ٣٢، الأحاديث (٣، ٩، ١٠)، وكلها صحيحة.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)؛ وابن ماجه (٣٩٧٣)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٤) الفتح: ٢١٨/١٦، كتاب التعبير، باب (٢٤).

والإسلام ما يَعتمد عليه، وهم حَمَلَته القائمون به)، (فكان الإسلام في الزمان الأول ظهورُه بالحجاز أعظم، ودلَّت الدلائل المذكورة على أن «ملك النبوة» بالشام). وقد ذكر طرفاً من الأحاديث التي قدمناها وغيرها[١].

وذكر في موضع آخر مناقبَ الشام والهجرة إليها، وقال: (وإليها مَسْرى نبيِّنا، ومنها معراجُه، وبها مُلْكُه وعمودُ دينِه وكتابِه، وطائفة منصورة من أمته...)[٢].

وهذا واضح في صحة ما ذهبنا إليه، فلله الحمد على توفيقه[٣].

ثالثاً: الفوائد والعبر والدروس[٤]:

١ ـ في هذا الحديث تحقق نبوءة عظيمة جليلة على يد الحسن رضي الله عنه.

٢ ـ وفيه منقبة باهرة للحسن الذي ترك المُلكَ لا لقلَّة ولا لذلَّة ولا لعلَّة، بل رغبةً فيما عند الله تعالى، وحقناً لدماء المسلمين، فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة. وهكذا يجب على كل مَنْ أقامه الله على أمر من أمور الناس، أن يحرص على مصلحتهم ودمائهم وأمنهم وخيرهم.

٣ ـ وفيه ردٌّ مفحِم على الخوارج الذين كانوا يكفِّرون عليّاً ومن معه ومعاوية ومن معه؛ لأن الحديث شهد للطائفتين بالإسلام، ولذا كان الإمام الجليل سفيان بن عُيَيْنة يقول: (قوله: «فئتين من **المسلمين**» يعجبنا جدّاً)[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٧/ ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) المرجع السابق: ٢٧/ ٥٠٧.

(٣) ذكر إبراهيم العلي في كتابه (الأرض المقدسة، ص٣٦ ـ ٣٨) كلاماً حول مدلول (عمود الكتاب)؛ فيه نظر، بل هو في رأينا غلط محض، مثل قوله: (فمن مكة كان مبعث الدين ومخرجه، وفي الشام كماله وظهوره وتمامه إلى يوم القيامة!). وقوله: (كمال ظهور الدين وتمامه وعلوه حتى يملكه المهدي عليه السلام سيكون في بلاد الشام...)!.

(٤) انظر: الفتح: ١٦/ ٣٨٧.

(٥) المعرفة والتاريخ: ٣/ ٤١٢؛ الفتح ١٦/ ٣٨٧.

٤ ـ فضيلة الإصلاح بين الناس، ولا سيما ما فيه حقنُ دماء المسلمين، والتوفيقُ بينهم ومنعُ اقتتالهم، وتوحيدُ كلمتهم.

٥ ـ ثناء النبي ﷺ على الإصلاح ورضاه به وحبُّه له وترغيبُه فيه، وهذا واضح من امتداحه للحسن فيما وقع منه من صلح وحقن دماء المسلمين، في حين أنه ﷺ لم يثنِ على قتال أبيه علي رضي الله عنه لأهل الشام، بل غاية ما وصفه به أنه «**أدنى الطائفتين إلى الحق**»، وهذا بخلاف قتال الخوارج المارقين؛ فقد أثنى عليه بالنص الواضح[1].

٦ ـ رأفة معاوية رضي الله عنه وشفقته على المسلمين ورغبته في الإصلاح، وحصافة رأيه وبُعد نظره في تدبير الملك، ونظره في عواقب الأمور.

٧ ـ جواز ولاية المفضول الخلافة مع وجود الأفضل، لأن الحسن ومعاوية ولي كل منهما الخلافة، وفي المسلمين آنذاك سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، وهما بدريان، فأفضل الصحابة الخلفاء الأربعة، ثم الستة بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر.

٨ ـ جواز خَلْعِ الخليفةِ نفسَه، إذا رأى في ذلك صلاحاً للمسلمين.

٩ ـ أهمية بلاد الشام وخطورة مركزها في العالم الإسلامي، وذلك واضح من الإشارة النبوية، ومن استعراض أحداث التاريخ القديم والحديث.

١٠ ـ وفي الحديث أيضاً منقبة رفيعة لأهل الشام، وثناء عليهم بأن الله اختارهم ليكون فيهم عمود الإسلام ونصرته والقيام بشؤونه، وهذا يوضّح المهمة الجليلة الموكلة بهم للقيام بها في العالمين.

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر كلام ابن تيمية في هذا: مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٧٠ ـ ٧١؛ وظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، لسفر الحوالي، ص١٨٣ ـ ١٨٤.



إخبار النبي ﷺ بما يكون من هلاكٍ للأمة على يدي غلمة من قريش

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يُهْلِكُ الناسَ هذا الحيُّ من قريشٍ**» قالوا: فما تأْمُرنا؟ قال: «**لو أنَّ الناسَ اعْتَزَلُوهُمْ**».

وفي رواية: عن عَمْرو بن يحيى بن سعيد بن عَمْرو بن سعيد قال: (أخبرني جَدِّي قال: كنتُ جالساً مع أبي هريرة في مسجدِ النبيِّ ﷺ بالمدينة ومَعَنا مروانُ، قال أبو هريرة: سمعتُ الصادقَ المَصْدُوقَ يقول: «**هَلَكَةُ أُمَّتي على يَدَيْ غِلْمَةٍ من قريشٍ**» فقال مروانُ: لعنةُ اللهِ عليهم غِلْمَةً. فقال أبو هريرة: لو شِئْتُ أنْ أقولَ بَني فُلانٍ وبَني فُلانٍ، لَفَعَلْتُ. فكنتُ أَخْرُجُ مع جَدِّي إلى بَني مروانَ حين مَلَكُوا بالشام، فإذا رآهُم غِلْماناً أَحْدَاثاً قال لنا: عَسَى هؤلاءِ أن يكونوا منهم! قلنا: أنتَ أعلمُ)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حدَّثني حَبيبي أبو القاسم ﷺ الصادقُ المَصْدُوقُ: «**إنَّ فسادَ أُمَّتي على يَدَيْ أُغَيْلِمَةٍ سُفَهاءَ من قريشٍ**»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٤) و(٣٦٠٥) و(٧٠٥٨) واللفظ له؛ ومسلم (٢٩١٧)؛ وأحمد: ٢/ ٢٨٨، ٣٢٤، ٣٢٨، ٥٢٠، ٥٣٦؛ وابن حبان (٦٧١٢)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥؛ والحاكم: ٤/ ٥٢٧.

(٢) أخرجه أحمد: ٢/ ٢٩٩، ٣٠٤، ٤٨٥؛ وابن حبان (٦٧١٣) واللفظ له؛ والحاكم: ٤/ ٥٢٧؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث عمّا سيقع في أمته من الهلاك والفساد وقتل الأنفس، وسفك الدماء، على أيدي رهط من الخلفاء والأمراء القرشيين الذين يقتتلون على الحكم، ولم يتبصروا بمصير الأمة وهلاكها، فكان الأمر كما أخبر ووصف ﷺ.

أولاً: موجز معاني مفردات الحديث:

قوله ﷺ: «**غِلْمة**»: جمع غلام، وفي رواية «**أُغَيْلِمَة**»: تصغير غِلْمة والواحد غُلَيِّم، والمراد بالأُغَيْلمة هنا الصبيان ولذلك صَغَّرهم.

وقد يُطلَق الصبي والغُليِّم على الضعيف العقل والتدبير والدين ولو كان محتلِماً، وهو المراد هنا؛ فإن الخلفاء من بني أمية لم يكن فيهم من استُخلِف وهو دون البلوغ وكذلك مَن أَمَّرُوه على الأعمال، إلا أن يكون المراد بالأغيلمة أولادَ بعض من استُخلف فوقع الفساد بسببهم فَنُسِب إليهم، والأَوْلى الحملُ على أعمّ من ذلك[1].

وقول سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص الأموي: (كنتُ جالساً مع أبي هريرة...)، كان ذلك في خلافة معاوية. ومروان هو ابن الحَكَم، وكان يلي لمعاوية إِمْرة المدينة أحياناً.

ومعنى «**هلكة أمتي**»: هم أهل ذلك العصر ومَن قارَبَهم، لا جميع الأمة إلى يوم القيامة.

وقوله: «**يُهْلِك الناسَ هذا الحي من قريش**»: المرادُ بعضُ قريش، وهم الأَحداث منهم لا كلّهم، والمراد أنهم يُهْلِكون الناسَ بسبب طلبهم الملكَ والقتالِ لأجله، فتَفْسد أحوال الناس ويكثُر الخَبْط بتوالي الفتن.

قوله: «**لو أن الناس اعتزلوهم**»: محذوف الجواب وتقديره: لكان أَوْلَى

(١) الفتح: ١٦/٢٩٧ شرح الحديث (٧٠٥٨).

بهم، والمراد باعتزالهم أن لا يُداخِلوهم ولا يُقاتِلوا معهم ويفرّوا بدينهم من الفتن.

قوله: «**لعنةُ الله عليهم غلمةً**»: أي: غلمة عليهم لعنة الله أو ملعونون، أو نحو ذلك[١].

ثانياً: معنى الحديث ومدلوله من حيث الواقع التاريخي:

بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، استقبل الخلافة وليُّ عهده ابنُه يزيد بن معاوية، وبايعه المسلمون وفيهم صحابة أجلاء أكابر مثل ابن عُمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وأبي بَرْزَة الأَسْلَمي وأبي شُريح الخُزَاعي وبُرَيْدة بن الحُصَيْب وابن عَمْرو وأنس بن مالك والبراء بن عازب وسَلَمة بن الأَكْوَع وأبي جُحَيْفَة السُّوَائي وزيد بن خالد الجُهَني وغيرهم كثير، ورفض البيعة الحسينُ بن علي وعبدُ الله بن الزبير.

وبعد أن طفِئَت الفتن منذ عام الجماعة (٤١هـ) إلى سنة (٦٠هـ) حيث توفي معاوية، عادت بعد سنة ستين لتشتعل نارها من جديد وتطحن الأنفس برحاها، ويقع الهلاك في أمة الإسلام كما أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث الذي بين أيدينا.

●● وابتدأ ذلك باعتصام ابن الزبير بمكة المكرمة حتى غَلَب عليها، وعاذَ بالكعبة فَسُمِّيَ (عائذَ البيت)، فأرسل يزيد إلى عامله على المدينة عَمْرو بن سعيد المعروف بالأَشْدَق يأمره بأن يبعث الجيوش إلى مكة لمقاتلة ابن الزبير، فلبَّى ذلك[٢].. وانتدب أن يكون رأس الجيش عَمْرو بن الزبير، ووصل الجيش مكة،

---

(١) الفتح: ١٦/٢٩٨.

(٢) وقد نصح الصحابيُّ أبو شُريح الخُزاعيُّ الأشدقَ هذا بأن لا يفعل، لأن النبي ﷺ حرَّم القتال بمكة، والحديث أخرجه البخاري (١٠٤)؛ ومسلم (١٣٥٤)؛ والنسائي في الكبرى (٣٨٤٥)، وغيرهم.

واقتتل جيشُ الأخَوَين عبد الله بن الزبير وعمرو بن الزبير، وتغلَّب عبد الله وسَجن أخاه عَمْراً الذي مات تحت السياط[1]!.

●● ثم بعد ذلك خَرج الحُسين بن علي رضي الله عنهما على إمرة يزيد، واتجه إلى العراق مغترّاً بكُتب أهلها إليه، ونَصَحه أكابر الصحابة بعدم الخروج، وليته أطاعهم، لكنه عزم على رأيه، وهناك خَذَله العراقيون كما خذلوا أباه من قبل وحاولوا قَتْل أخيه الحسن، وكانت النهاية أن قُتل الحسين وسالت دماء، وكانت فتنة بكى لها قلب كل مسلم.

●● وفي سنة ثلاث وستين للهجرة خَلَع أهلُ المدينة الخليفة يزيدَ، فكانت وقعة الحَرَّة.

ومات يزيد فَخَلَفه معاوية ابنُه فبقي نحو شهرين ومات، فتصارع نفرٌ على الخلافة أقواهم عبد الله بن الزبير بمكة، وقام الضَّحَّاك بن قيس بدمشق فدعا لابن الزبير أولاً ثم دعا لنفسه، واجتمع بنو أمية على مروان، الذي نازل الضحاكَ في (مَرْج راهِط) ـ شرقي غوطة دمشق ـ وكَسَر جيشه، وقُتل الضحاك.

●● وفي سنة (٦٥هـ) خرج من يطالب بدم الحسين، فتصدَّى لهم عُبيد الله بن زياد وفَلَّ جمعَهم.

ثم في سنتي (٦٦ و٦٧هـ) ظهر المختار بن أبي عُبيد الكذّاب في الكوفة واقتتل مع جيش أهل الشام، وقُتل منهم مقتلة عظيمة. فسيَّر عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً إلى العراق، فنازَلَ المختارَ وقضى على فتنته.

وفي سنة (٦٩هـ) تغلَّب عَمْرو بن سعيد الأشدقُ على دمشق، فلَايَنَه عبد الملك بن مروان ثم قَتله سنة (٧٠هـ).

●● وفي سنة (٧٢هـ) توجَّه مصعبُ بن الزبير ـ والي العراق من قِبَل أخيه

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٣٤٣ ـ ٣٤٦.

عبد الله ـ إلى الشام ليأخذها، وقصَدَه عبد الملك بن مروان ليأخذ العراق[١]، فَجَرَتْ بينهما موقعة هائلة في (دَيْر الجاثَلِيق)[٢]، ظَفِر فيها عبد الملك، وقُتل مصعب وقُتل معه ولداه، وكان مصعب من أجواد العرب وشجعان الدنيا.

●● وفي سنة (٧٣هـ) نازل الحَجَّاج عبدَ الله بنَ الزبير بمكة وضَرب الكعبة بالمِنْجَنيق وقَتل ابن الزبير، واستقر الأمر بعدها لعبد الملك بن مروان.

ثم جرت حروب أخرى وفتن من أفظعها حروب ابن الأشعث في وقائع عديدة أشهرها وقعة دير الجماجم.

وخلال ثلاثَ عشرةَ سنةً قُتل خلقٌ كثير، وسُفكت دماء ظلماً، وتعطَّلت الحياة، وخربت البلاد، وساد الخوف، ووقعت الأمة في براثن الهلاك، وتوقف مدُّ الإسلام وفتوحاته.

وحدث أمثال هذه الفتن والخروقات في السنين المتبقية من عهد بني أمية.

●● **وتجدَّد ذلك في عهد العباسيين الذين أقاموا دولتهم على جماجم بني أمية، وجَرَتْ في دولتهم حروب وصراعات على المُلك أبشع مما في عهد الأمويين، والفريقان من قريش، ويَصْدُق فيهم قوله ﷺ: «يُهلِك الناسَ هذا الحي من قريش».**

●● وقد حمل كثير من شرّاح الحديث والمؤرِّخين والباحثين هذا الحديث على بعض حكام بني أمية وأولهم يزيد بن معاوية، وذلك لقُربِ عهدهم من الخلافة الراشدة وزمن معاوية رضي الله عنه.

ولذلك كان أبو هريرة رضي الله عنه يُكْثِر أن يقول وهو يمشي في السوق: (اللهمَّ لا تدركني سنة ستين ولا إمارة الصبيان!)[٣].

---

(١) كان عبد الملك ومصعب صديقين متوادَّيْن، لكن قاتَلَ الله المُلكَ!.
(٢) يقع قرب بغداد في غربي دجلة.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦١١، ٦١٣؛ الفتح: ١٦/ ٢٩٨.

بل ثبت عن أبي هريرة: أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تَعوَّذوا بالله من رأس السبعين، وإمارة الصِّبيان**»[1].

•• ولا شك أن حديث الباب «هلاك أمتي على يدي غلمة من قريش» يشمل بعض الحكام والأمراء الأمويين؛ لبطشِهم بخصومهم، وحِرْصِهم على المُلك وقتالهم عليه أحياناً، لكن ذلك لا يقتصر عليهم وحدهم.

فممن شارك في ذلك الفساد، وأجَّجَ نار الفتن، وسعَّر الحروب، وتسبب في هلاك الأمة؛ أناس آخرون خرجوا على الطاعة والجماعة، وفرَّقوا كلمة الأمة، وضربوا بعضها ببعض؛ فقد تضافرت الأحاديث الصحيحة الكثيرة جدّاً على وجوبِ طاعة الحاكم المسلم ولو جار وظَلَم، واختيارِ أخفِّ المفسدتين وأهونِ الشرَّيْن! ولقد كان يَسَعُ الحسينَ وعبد الله بن الزبير ـ فضلاً عن غيرهما ـ ما وَسِعَ الأمةَ كلها، وفيها جمهرة من أكابر الصحابة، فلولا خروجهما لعوفيت الأمة من سفك دماء كثيرة!.

ولقد شارك في ذلك الهلاك الذي أصاب الأمة بنو الزبير: عبد الله ومصعب وعمرو وهم قرشيون، وكذلك الضحاك بن قيس الفِهري القرشي، وكذلك من قام معهم، وأيضاً بعض أمراء بني أمية كعمرو بن سعيد الأشدق وغيره.

•• كما يشمل الحديث ما جرى في عهد بني العباس، حيث كثرت الدماء لأجل المُلك في عهدهم، وخاصة ما سفكوه من دم الأمويين! وإنما يَكثُر من الناس تطبيق الحديث على بعض خلفاء الأمويين لِقُربهم ـ كما قلنا ـ من عهد الخلفاء الراشدين، وهم الذين حوَّلوا الحكم من نظام الخلافة والشورى إلى الملك والوراثة، ثم هم الحلقة الثانية في التاريخ الإسلامي، فالحديث أول ما يتناول عهدهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٦١١؛ وأحمد: ٢/ ٣٢٦، ٣٥٥، ٤٤٨؛ والبزّار (٣٣٥٨)؛ وابن عدي في الكامل: ٦/ ٨١ ترجمة (١٦١٥)؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٣١٩١).

●● وباستعراض أسماء الخلفاء والأمراء وأسنانهم، يتبيَّن صحة ما ذهب إليه ابن حجر، من أن وصف (غِلْمة) و(أُغَيْلمة) ليس المقصود به صِغر السن، وإنما السَّفَه والشطط وسوء التقدير وضعف التدبير وقلة الحكمة في مداراة الرعية وحُسن سياستها، فتصرفاتهم تشبه تصرفات الغلمان وأفعال الصبيان الأغرار ضعاف العقول، وذلك لغلبة حُبِّ الملك واستمكان قوة القهر للخصم، فوقع بسبب ذلك الفساد والهلاك.

ويشمل لفظ (غلمة) و(أُغَيْلمة) أولاد الخلفاء، وهذا ما يعبِّر عنه ما جاء في آخر الحديث، حيث يقول عَمْرو بن يحيى: (فكنت أخرج مع جَدّي)، وهو سعيد بن عمرو بن سعيد، وكان سعيد هذا مع أبيه عَمْرو الأَشْدق لمَّا غَلب على دمشق.

وقوله: **(فإذا رآهم غلماناً أحداثاً)** يريد أولاد من استُخلف منهم.

ثالثاً: وقفات وعبر:

ونتوقف مع بعض الدروس والعبر التي ينطوي عليها هذا الحديث ويوجِّه إليها:

١ ـ إن خليفة المسلمين وحاكمهم يجب أن يكون من أكفأ الناس وأقدرِهم وأبصرِهم بالأمور، يعتصم بحبل الله، ويستمسك بالشورى، ويسعى لمصلحة الدين والبلاد والعباد، ولا يُورِدُهم المهالك، فمسؤوليته كبيرة أمام الله تعالى.

٢ ـ ومن واجبات هذا الحاكم أن يتخيَّر ولاته وينتقي أمراءه من ذوي الكفاءة والدين والورع وحُسن السياسة في تدبير شؤون الأمة، وإلا هلك وهلكوا معه وأهلكوا الرعية معهم.

٣ ـ حرمة الدماء العظيمة عند الله سبحانه، وحفظها واجبُ كل فرد في الأمة، وأول من يتعيَّن عليه ذلك رأس الدولة والقائمون معه، ثم الأدنى فالأدنى.

٤ ـ يجب على الأكابر وأصحاب الكفاءات وأهل الرأي ورؤوس الناس أن يتقوا الله تعالى ويراعوا مصالح الدين والأمة والبلاد، بالتؤدة والمناصحة بالحكمة واللِّين، وعدم شق عصا الطاعة والخروج على المسلمين، ولو اعتقد

أحدهم أنه على صواب، فالصبر على ظلم الحكم وجَوْره أولى من مبارزته إذا كانت تؤدي إلى فتن وحروب وإزهاق الأنفس واضطراب أمور الدولة.

فهذا أبو هريرة رضي الله عنه أَعْلَمه النبي ﷺ أسماءَ هؤلاء الذين يتسببون في هلاك الأمة، ومع ذلك لم يأمره بالخروج عليهم، لأن الخروج أدعى إلى الهلاك وأقرب إلى الاستئصال.

٥ ـ أهمية تسكين الفتن والضرب على أيدي أصحابها، ومناصحتهم وتذكيرهم بآيات الكتاب العزيز وتوجيهات السنَّة الطاهرة، ووعظهم بحقائق التاريخ، فذلك كله رادع لهم، وواجب على العقلاء أن يقوموا به، فإن الفتنة إذا وقعت استطار شررها، واكتوت الأمة كلها بلظاها.

٦ ـ مَن هَوِيَتْ نفسه حُبَّ الزعامة والحرصَ على الإمارة، ولم ينظر إلى ما يترتب على مسعاه من فساد وهلاك للمسلمين؛ عوقِب بالحرمان منها في الدنيا، وحسابه على الله يوم الدين. وتأمل التاريخ والأمثلة التي قدمناها لك تجد أن معظم من حرص عليها لم يتمتع بها، وإن بقي فيها زمناً ما فإنها لا تصفو له من الغصص والآلام.

٧ ـ شفقة النبي ﷺ على أمته حيث يخبرها بما سيقع منها، ففي ذلك ردعٌ للسُّعاة إلى الفتنة، وكفكفةٌ لجماح الطامحين لمنابر الحكم، إذا تدبروا ما يترتب على فعلهم مما نَبَّه عليه ﷺ بقوله: «**هلاك أمتي**»! ففي هذا زجر لكل حاكم أو أمير أو مسؤول عن أن يتسبب بذلك، لِما سيلاقيه من عقوبة في الدنيا والآخرة.

٨ ـ أحاديث النبوءات ليست للثقافة وتزجية الوقت، ولا أخبر بها النبي ﷺ ليُدْخِل على قلوب الأمة الحزن والخوف واليأس، لا، بل ذلك أسلوب في التربية والتوجيه والإرشاد والبيان؛ لمعرفة أسباب الفتن وزمانها ورجالها وصفاتهم وصفاتها ومخاطرها، لتجنُّبِها وعدمِ الوقوع فيها، أو ملابستها أو السعي فيها، بل محاولة إطفائها أو التخفيف من وطأتها وأضرارها في الأمة.

❁ ❁ ❁



إخبار النبي ﷺ بأنه سيكون بعده اثنا عشر خليفة كلهم من قريش

عن جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنهما قال: (دخلتُ مع أَبي على النبيِّ ﷺ، فسمعتُه يقول: «**إنَّ هذا الأمرَ لا يَنقضي حتى يَمْضِيَ فيهم اثنا عَشَر خليفةً**» قال: ثم تكلَّمَ بكلامٍ خَفِيَ عَلَيَّ، قال: فقلتُ لأبي: ما قال؟ قال: «**كلُّهم من قُريشٍ**») لفظ مسلم.

وفي رواية أخرى: عن جابر بن سَمُرة قال: (قال رسول الله ﷺ: «**لا يزالُ هذا الدينُ عَزيزاً مَنيعاً، يُنْصَرونَ على مَن ناوَأَهُم عليه، إلى اثني عَشَر خليفةً**»، قال: ثم تكلَّم بكلمةٍ أَصَمَتَنِيها الناسُ، فقلتُ لأَبي: ما قال؟ قال: «**كلُّهُم من قريشٍ**»). لفظ ابن حبان.

وفي رواية ثالثة لأبي داود: عن جابرٍ قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا يزالُ هذا الدينُ قائماً حتى يكونَ عليكم اثنا عشر خليفةً، كلُّهم تجتمِعُ عليه الأمةُ**»، وذكر تمام الحديث.

وفي رواية له أيضاً: («**لا يزالُ هذا الدينُ عَزيزاً إلى اثني عشَر خليفةً**» قال: فكَبَّر الناسُ وضَجُّوا) الحديث[١].

وعن الأَسْوَد بن سعيد الهَمْداني قال: (سمعتُ جابرَ بن سَمُرَةَ يقول: سمعتُ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٢)؛ ومسلم (١٨٢١)؛ وأبو داود (٤٢٧٩) و(٤٢٨٠)؛ والترمذي (٢٢٢٣)؛ والطيالسي (١٢٧٨)؛ وأحمد: ٥/٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٦ ـ ١٠١، وغير موضع؛ وابن حبان (٦٦٦٢) و(٦٦٦٣)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/٥١٩ ـ ٥٢٠؛ والبغوي (٤٢٣٧)، وغيرهم.

=

رسولَ الله ﷺ يقول: «**يكونُ بَعْدي اثنا عشَرَ خليفةً، كلُّهم من قُريشٍ**» فلما رَجَع إلى منزله، أَتَتْه قريشٌ قالوا: ثم يكونُ ماذا؟ قال: «**ثمَّ يكونُ الهَرْجُ**»)(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: في هذا الحديث أعلام صادقة على نبوة سيدنا محمد ﷺ:

في هذا الحديث برواياته المتعددة بشرياتٌ جليلة، ومعجزاتٌ واضحة ودلائل ناطقة وأعلامٌ صادقة على نبوة سيدنا رسول الله ﷺ؛ ففيه إخباره باستخلاف اثني عشر إماماً من قريش يحكمون المسلمين، وأن الإسلام يكون في عهدهم عزيزاً منيعاً، وأنهم لا يَضرُّهم من ناوَأهم ولا مَن عاداهم، وأنهم تجتمع عليهم كلمةُ الأمة، وكل ذلك وقع كما أخبر به ﷺ.

●● وقد اختلفت أنظار العلماء في مدلول هذا الحديث على عدة آراء، والذي اختاره البيهقي، ومالَ إليه ابن حِبَّان، ورجَّحه الحافظ وقوَّاه وضَعَّف ما عداه، وتابعه شمس الحق العظيم آبادي والمباركفوري، وغير هؤلاء(٢):

أن يكون المراد (بالاثني عشر خليفة) أنهم كانوا في مدَّة عزَّة الخلافة وقوة الإسلام واستقامة أموره والاجتماع على من يقوم بالخلافة. ويؤيده قوله في بعض الطرق: «**كلهم تجتمع عليه الأمة**»، وهذا قد وجد فيمن اجتمع عليه الناس

= قوله (**أَصْمَتَنِيها**): أي أسكتوني عن السؤال عنها، وفي بعض الروايات (**أَصَمَّنِيها**): أي شَغَلوني عن سماعِها، فكأنهم جعلوني أَصَمّ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٨١)؛ وأحمد: ٥/ ٩٢؛ وابن حبان (٦٦٦١)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٥٢٠؛ والطبراني في الكبير (٢٠٥٩)؛ والبغوي (٤٢٣٦) وقال: هذا حديث صحيح؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط والألباني.

(٢) انظر: صحيح ابن حبان: ١٥/ ٣٧ ـ ٤١؛ دلائل النبوة، للبيهقي: ٦/ ٥١٩ ـ ٥٢٣؛ شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤؛ البداية والنهاية: ٦/ ٢٤٨ ـ ٢٥٠؛ فتح الباري: ١٦/ ٦١٥ ـ ٦١٩ شرح الحديث (٧٢٢٢)؛ عون المعبود: ٧/ ٣٤١ ـ ٣٤٥؛ تحفة الأحوذي: ٦/ ٨٣.

إلى أن اضطرب أمرُ بني أمية ووقعت بينهم الفتنة زمن الوليد بن يزيد، فاتصلت بينهم، إلى أن قامت الدولة العباسية فاستأصلوا أمرهم(١).

ويؤيد ما وقع عند أبي داود: «**كلُّهم تجتمع عليه الأمة**»(٢)، ما أخرجه أحمد والبزّار من حديث ابن مسعود ـ بسندٍ حسن ـ أن رجلاً قال له: (يا أبا عبد الرحمن، هل سألتُم رسول الله ﷺ كم يَمْلِك هذه الأمةَ من خليفةٍ؟ فقال عبد الله بن مسعود: ما سألني عنها أحدٌ منذ قَدِمتُ العراقَ قبلك، ثم قال: نعم ولقد سألْنا رسولَ الله ﷺ، فقال: «**اثنا عَشَر، كعِدَّة نُقباءِ بني إسرائيلَ**»)(٣).

وقوله: «**كلهم تجتمع عليه الأمة**»: المراد بالاجتماع انقيادهم لبيعته، والذي وقع: أنَّ الناس اجتمعوا على أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي إلى أن وقع أمر الحَكَمين في صفِّين، فسُمِّي معاوية يومئذ بالخلافة، ثم اجتمع الناس على معاوية عند صُلْح الحسن، ثم اجتمعوا على ولده يزيد، ولم ينتظم للحسين أمرٌ بل قُتل قبل ذلك، ثم لما مات يزيد وقع الاختلاف إلى أن اجتمعوا على عبد الملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير، ثم اجتمعوا على أولاده الأربعة: الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وتخلَّل بين سليمان ويزيد عمرُ بن عبد العزيز(٤).

---

(١) الفتح: ١٦/٦١٦؛ شرح مسلم، للنووي: ٦/ ٤٤٤؛ تحفة الأحوذي: ٦/ ٨٣.
(٢) هذه الجملة سكت عليها الحافظ في موضع وصحَّحها في موضع آخر من الفتح: ١٦/ ٦١٥، ٦١٨، وقال الألباني: هي منكرة! انظر: الصحيحة: ١/ ٧٢٠ (٣٧٦).
(٣) مسند أحمد: ١/٣٩٨؛ الفتح: ١٦/٦١٦.
(٤) الفتح: ١٦/٦١٨. ووقع للحافظ هنا كلام فيه نظر، قال: (فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين، والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، اجتمع الناس عليه لما مات عمّه هشام، فولي نحو أربع سنين، ثم قاموا عليه فقتلوه) انتهى. فقوله: (فهؤلاء سبعة) غلط، والصواب: ثمانية. وقوله: إن الوليد بن يزيد ولي نحو أربع سنين، غلط أيضاً، بل ولي (سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً) كما في تاريخ خليفة، ص٣٦٣ وغيره. وقد جاء كلام الحافظ على الصواب في الصفحة التالية من (الفتح)، والذي سنورده في الأسطر التالية.

فقوله ﷺ: «**يكون بعدي اثنا عشر خليفة**» يُحمل على حقيقةِ البَعْدية؛ فإن جميع من ولي الخلافة من الصدّيق إلى عمر بن عبد العزيز أربعة عشر نفساً، منهم اثنان لم تصحّ ولايتُهما ولم تَطُلْ مدتُهما وهما: معاوية بن يزيد ومروان بن الحَكَم، والباقون اثنا عشر نفساً على الولاء كما أخبر ﷺ، وكانت وفاة عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومئة، وتغيرت الأحوال بعده، وانقضى القرن الأول الذي هو خير القرون.

ولا يقدح في ذلك قوله: «**يجتمع عليه الناس**»، لأنه يُحمل على الأكثر الأغلب، لأن هذه الصفة لم تُفقد منهم إلا في الحسن بن علي وعبد الله بن الزبير مع صحة ولايتهما، والحُكْم بأن من خالَفَهما لم يَثْبت استحقاقُه إلا بعد تسليم الحسن وبعد قتل ابن الزبير.

وكانت الأمور في غالب أزمنة هؤلاء الاثني عشر منتظمة، وإنْ وُجِد في بعض مدَّتهم خلافُ ذلك، فهو بالنسبة إلى الاستقامة نادر، والله أعلم[1].

●● وبعد هشام بن عبد الملك تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فمكث سنة وثلاثة أشهر، ثم قام عليه الأمويون فقتلوه.

وانتشرت الفتن وتغيرت الأحوال من يومئذٍ، ولم يتَّفِقْ أن يجتمع الناس على خليفة بعد ذلك؛ لأن يزيد بن الوليد الذي قام على ابن عمه الوليد بن يزيد لم تَطُلْ مدَّتُه، بل ثار عليه قبل أن يموت ابنُ عم أبيه مروانُ بن محمد بن مروان، ولما مات يزيد ولي أخوه إبراهيم فغَلَبه مروان، ثم ثار على مروان بنو العباس إلى أن قُتِل.

ثم كان أولَ خلفاء بني العباس أبو العباس السفّاح، ولم تَطُلْ مدته مع كثرة من ثار عليه، ثم ولي أخوه المنصور فطالت مدته، لكن خرج عنهم المغرب

---

(١) الفتح: ١٦/٦١٩.

الأقصى باستيلاء المروانيين على الأندلس، واستمرت في أيديهم متغلِّبين عليها إلى أن تسمَّوا بالخلافة بعد ذلك.

وانفرط الأمر في جميع أقطار الأرض، إلى أن لم يبقَ من الخلافة إلا الاسم في بعض البلاد، بعد أن كانوا في أيام بني عبد الملك بن مروان يُخْطَب للخليفة في جميع أقطار الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مما غَلَب عليه المسلمون، ولا يتولى أحدٌ في بلد من البلاد كلها الإمارةَ على شيء منها إلا بأمر الخليفة، ومَن نظر في أخبارهم عَرف صحة ذلك.

فعلى هذا يكون المراد بقوله: «**ثم يكون الهَرْج**»: يعني القتل الناشئ عن الفتن وقوعاً فاشياً يفشو ويستمر ويزداد على مدى الأيام، وكذا كان، والله المستعان[(١)].

وهذا فيما نحسب أليق وأوفق بمعنى الحديث ومدلول النبوءة، والله أعلم.

●● **ومما قاله العلماء في مدلول هذه النبوءة**: إن هؤلاء الخلفاء الاثني عشر يكونون في زمن واحد، وكلهم يدَّعي الإمارة، ويَفترِق الناس عليهم، وإليه ذهب المهلَّب شارح «صحيح البخاري»، وقواه القاضي عِياض.

وقد ردَّه الحافظ، وأبلغُ ما يُردُّ به ما جاء في الحديث: «**كلُّهم تجتمع عليه الأمة**»؛ فإن في وجودهم في عصر واحد يوجد عين الافتراق[(٢)].

ويَردُّ عليه أيضاً ما جاء في الرواية الأخرى: «**لا يزال هذا الدين عزيزاً مَنيعاً**»، إذ كيف يُتَصوَّر أن تكون هناك عزَّةٌ للدين ومنعةٌ للأمة وقد توزَّع أمرُها وحَكَمها في وقت واحد اثنا عشر خليفة؟!.

وقال آخرون: يَحتمِل أن يكون هؤلاء الخلفاء بعد المهدي الذي يخرج في

---

(١) الفتح: ١٦/٦١٨ ـ ٦١٩.

(٢) الفتح: ١٦/٦١٦؛ شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/٤٤٣.

آخر الزمان. واعتمد القائلون بذلك على «كتاب دانيال» وخبرٍ واهٍ عن ابن عباس وآخر عن كعب الأحبار.

وردَّه ابن حجر أيضاً[1].

وذهب فريق ثالث من العلماء إلى أن: المراد وجود اثني عشر خليفة في جميع مدة الإسلام إلى يوم القيامة يعملون بالحق وإن لم تتوالَ أيامهم[2].. ومنهم الخلفاء الراشدون الأربعة وعمر بن عبد العزيز والمهدي الذي يأتي في آخر الزمان.

أشار إلى هذا الرأي القاضي عياض وابن الجوزي، ونصره ابن كثير في ثلاثة من كتبه[3].

وتمسكوا بأثرٍ تالفٍ مقطوع عن رجل كان ينظر في التوراة وكُتب المتقدمين! والغريب من ابن كثير وهو الإمام الحافظ أنه انتصر لهذا الخبر ورجَّحه بأن جماعة من العلماء قالوا به!.

ثانياً: تنبيهات:

١ ـ هذا الحديث «**يكون بعدي اثنا عشر خليفة**»، قد يُتَوهَّم أن ظاهره يُعارِض حديثَ سَفِينة: «**الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون بعد ذلك المُلك**»، لأن الثلاثين سنة لم يكن فيها إلا الخلفاء الراشدون الأربعة والحسن بن علي.

والجواب: أن المراد في حديث سفينة «**خلافة النبوّة**» كما جاء مصرَّحاً به في بعض الروايات: «**خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء**»،

---

(١) الفتح: ١٦/٦١٧، ٦١٩.

(٢) الفتح: ١٦/٦١٧ ـ ٦١٨.

(٣) النهاية في الفتن والملاحم: ١/٢٢ ـ ٢٤؛ البداية والنهاية: ٦/٢٤٨ ـ ٢٥٠؛ تفسير القرآن العظيم: ٢/٤٣ ـ ٤٤، تفسير الآية (١٢) من سورة المائدة.

ولم يقيِّد بذلك في حديث جابر بن سمرة، بل قال: «**اثنا عشر خليفة**»، ولم يقل في خلافتهم: إنها خلافة نبوة[١].

٢ ـ قد ولي الخلافة أكثر من اثني عشر خليفة، فهل هذا يعارض حديث هذه النبوءة؟.

والجواب: أنه لا تعارض، فالنبي ﷺ لم يقل: لا يلي إلا اثنا عشر خليفة، وإنما قال: «**يكون اثنا عشر**»، وقد ولي هذا العدد ولا يمنع ذلك الزيادة عليهم[٢].

٣ ـ ليس المرادُ بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمةَ الذين يَعتقد فيهم الاثناعشرية، لجهلهم وقلَّة عقلِهم! فإن هؤلاء الذين يزعمون لم يلِ أمور الناس منهم إلا علي بن أبي طالب وابنه الحسن[٣].

ثالثاً: كلمة أخيرة:

في هذا الحديث ثناء من رسول الله ﷺ على هؤلاء الخلفاء الاثني عشر على وجه الإجمال والعموم، ومدحة لعهدهم، وغبطة بقيامهم بأمور الإسلام، ولذلك فرح الصحابة ﷺ عندما سمعوا النبي ﷺ يحدّث به، وهو ما عبرت عنه رواية أبي داود: (فكبَّر الناس وضجوا).

ويدلّ على ذلك قولُه ﷺ في الحديث: «**لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً**»، وفي رواية: «**قائماً**»، وفي أخرى: «**صالحاً**»، وقوله: «**كلُّهم تجتمع عليه الأمة**»، وقوله: «**يُنْصَرون على من ناوأهم**»، وكلُّها ألفاظ رضا وتزكية وثناء، وذلك على وجه الإجمال والعموم، دون ما حدث في عهود بعضهم من خروقات وإساءات وفتن، يتحملون جزءاً منها، ويتحمل من ناوأهم الجزء الأكبر!.

وهذا يؤكد ما كررناه غير مرة وفي أكثر من موضع خلال حديثنا عن

---

(١) شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٤٤٣؛ الفتح: ١٦/ ٦١٥؛ عون المعبود: ٧/ ٣٤٤.
(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٤٤٣؛ الفتح: ٦/ ٦١٥.
(٣) البداية والنهاية: ٦/ ٢٤٨؛ تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٤؛ عون المعبود: ٧/ ٣٤٢ ـ ٣٤٤.

النبوءات السابقة، وذلك لأن الإسلام كان في عهودهم عزيزاً قويّاً، ودولته شامخة، وأسسه راسخة، وأعداءه في ذِلَّة وصَغَار.

ولـمَّا تضافرت عدَّة قوى على توهين عُرى الدين وأولها الحُكْم؛ نزلت بالإسلام والمسلمين الكوارث المروِّعة، واجتاحتهم الفتن الجائحة، واستُلِبُوا أراضيهم وأموالهم، وانْتُقِصوا من أطرافهم.

لقد كان انحلالُ عروة الحُكْم من قديم سببَ البلاء الكبير الذي حَلَّ بأمة الإسلام، (ومن المؤكَّد أن ولاء الحكام الأقدمين كان للإسلام، فقد كان شعارَهم المرفوعَ ومنطلَقَهم المعلَن وملاذَهُم عند المفاخرة والمنافرة.

وإذا كانوا قد تولَّوا الحكمَ بطرق غير إسلامية، فقد حرصوا على تطبيق الإسلام وإقامة معالمه وحراسة حدوده، واستمدوا وجاهتهم من بذل الجهد في ذلك المضمار.

يستوي في ذلك الملوك والأمراء ممن حكموا في ظل استبداد سياسي بَيِّن. فعبد الملك بن مروان الذي قضى بالسيف على خصوم الحزب الأموي، مهَّد لابنه الوليد حركة الفتوح التي بَلَغت الهند والصين شرقاً وفرنسا وسويسرا غرباً)(١).

ونحن عندما نذكر ما جرى من فتن في تلك العهود، وما سُفِك فيها من دماء، وما حدث من فساد؛ لا نريد الحطَّ من شأن أولئك الخلفاء ولا الطعنَ عليهم، كما يفعل أصحاب الهوى وأرباب الحقد الدفين، إنما نذكره لبيان أن الواجبَ على أولئك الخلفاء والأمراء، والمأمولَ بهم والمرتجى منهم؛ القيامُ بحق الإسلام على أكمل وجه، ومداراة الرعية باللين والتسكين والترشيد، ومعاملة المناوئين بالأناة والمداراة، ومجانبة استعمال البطش والتنكيل ما أمكنهم إلى ذلك سبيلاً، فشرُّ الرِّعَاء الحُطَمَة، وخيرُ الأمراء مَن يحبُّه الناس ويحبُّهم، ويُصلُّون عليه ويصلِّي عليهم.



(١) علل وأدوية، ص١٤٣ ـ ١٤٤؛ وانظر: معركة المصحف، ص٤٧ ـ ٥٠.

إخبار النبي ﷺ
بأن الخلافة في قريش ما أقاموا الدين
فإذا تركوه وخالفوه زالت عنهم

١ ـ عن معاويةَ بنِ أبي سُفيان رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«إنَّ هذا الأمرَ في قُريشٍ، لا يُعَاديهِم أحدٌ إلا كَبَّهُ الله في النارِ على وَجْهِه، ما أَقامُوا الدِّينَ»**[1].

٢ ـ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (قامَ رسولُ الله ﷺ على باب بيتٍ فيه نفرٌ من قريشٍ، فقام وأَخَذ بعضَادةِ الباب، ثم قال: **«هَلْ في البيتِ إلا قرشيٌّ؟»** قال: فقيل: يا رسول الله! غير فلان ابن أختنا، فقال: **«ابنُ أختِ القوم منهم»** قال: ثم قال: **«إنَّ هذا الأمرَ في قريش ما داموا إذا استُرْحِمُوا رَحِمُوا، وإذا حَكَموا عَدَلُوا، وإذا قَسَموا أقْسَطُوا، فمن لم يَفعلْ ذلك منهم فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناس أجمعين، لا يُقْبَلُ منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ»**)[2].

٣ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (بَيْنا نحنُ عند رسول الله ﷺ في قريبٍ من ثمانينَ رجلاً من قُريشٍ، ليس فيهم إلا قرشيٌّ، لا واللهِ ما رأيتُ صفيحةَ وجوهِ رجالٍ قطُّ أحسنَ من وجُوهِهِم يومئذٍ، فذَكَروا النساءَ، فتحدَّثوا فيهنَّ، فتحدَّثَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠٠) و(٧١٣٩) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٨٦٩٧)؛ وأحمد: ٤/ ٩٤؛ والدارمي (٢٥٢١)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١١٢)؛ والداني (١٩٣).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/٣٩٦؛ والبزّار (١٥٨٢)؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٢٨٥٨)؛ وصحَّحه بشواهده. ومن شواهده حديث أنس وحديث أبي هريرة، وسنذكرهما في الشرح، انظر: ٢/ ٢٧٥ حاشية (٢)، ٢/ ٢٧٦ حاشية (١) في هذا المجلد.

معهم، حتى أحببتُ أن يَسْكُتَ، قال: ثم أتيتُه، فتَشَهَّد ثم قال: «**أمَّا بعدُ؛ يا معشرَ قريشٍ! فإنَّكُم أهلُ هذا الأمرِ ما لم تَعْصُوا الله، فإذا عَصَيْتُمُوه بَعَثَ إليكم مَنْ يَلْحَاكُم كما يُلْحَى هذا القَضِيبُ**» ـ لقضيب في يدِه ـ ثم لَحَى قضيبَهُ، فإذا هو أبيضُ يَصْلِدُ)[١].

❁ ❁ ❁

يُخبِر النبي ﷺ في هذه الأحاديث بأن قريشاً ستقوم بأمر هذا الدين، ويتولى الخلفاء القرشيون نشرَ الإسلام وحمايته في الداخل والخارج، ويَسُوسون الناس بالعقائد والعبادات والتقاليد التي وضعها، والأخلاق والتعاليم والشعائر التي شرعها، فتَدِينُ لهم البلاد، ويَخضَعُ لهم العباد؛ ما داموا يَحكُمون بالعدل، ويؤدون الأمانة، وينشرون الرحمة.. فإذا غيَّروا وبَدَّلوا، وتنكَّروا وعَصَوا، وعَسَفوا وظَلَموا، واستأثروا بالحكم واقتتلوا عليه وتعصَّبوا للجنس، ونشروا الرعب في الرعية؛ فعندئذٍ يُدَالُ عليهم ويزول مُلْكُهم، ويُرسِل الله عليهم من يَثُلُّ عرشَهم، ويمحو مجدَهم.

وقد كان ذلك كما أخبر ﷺ.

أولاً: مفهوم الأحاديث ومدلولاتها، وتحقق النبوءة في الواقع التاريخي:

●● في حديث معاوية: «إن هذا الأمر في قريش، لا يُعادِيهم أحدٌ إلا كَبَّه الله في النار على وجهه»:

---

(١) أخرجه أحمد: ١/٤٥٨؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٥٥٢)، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٥/ ١٩٢): رواه أحمد: وأبو يعلى والطبراني في «الأوسط»، ورجال أحمد: رجال الصحيح، ورجال أبي يعلى ثقات. وأورده الحافظ في الفتح: ١٦/ ٤٦٤ (٧١٣٩) عن ابن مسعود وأبي مسعود الأنصاري، وذكر له علة، وساق له شاهداً من مرسل عطاء بن يسار بسندٍ صحيح، فالحديث صحيح عنده بهذا الشاهد؛ وانظر: الصحيحة (١٥٥٢)؛ والسنَّة، لابن أبي عاصم (١١١٨، ١١١٩).

الأمر هو الخلافة، أي: ما يزال الذي يليها قرشيّاً، ولا يُنازِعهم أحدٌ فيها إلا كان مقهوراً في الدنيا، معذَّباً في الآخرة.

وليس ذلك على إطلاقه، بل مقيَّد بقوله: «**ما أقاموا الدين**»، أي: مدَّة إقامتهم أمور الدين وحُكْمِهم به وتحاكمهم إليه ونُصْرتِهم له، فإذا لم يفعلوا خرجت الخلافة من أيديهم وزال مُلكُهم(١).

وقد جاءت الأحاديث في ذلك على ثلاثة أنحاء:

الأول: وعيدُهم باللعن إذا لم يحافظوا على المأمور به، وقد جاء ذلك في أحاديث كثيرة، منها:

ـ حديث أبي موسى المتقدّم: «**إن هذا الأمر في قريش ما داموا إذا استُرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قسموا أقسطوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقْبَل منه صَرْفٌ ولا عَدْل**».

والصَّرْف: التوبة، **والعَدْل**: الفِدية، أي: لا يُقبل منه توبة ولا فدية، وذلك على سبيل الترهيب.

ـ وعن أنس بن مالك ﷺ قال: (إنَّ رسول الله ﷺ قامَ على باب البيتِ ونحنُ فيه، فقال: «**الأئمةُ من قريشٍ، إنَّ لهم عليكم حقّاً، ولكم عليهم حقّاً مثلَ ذلك، ما إن استُرْحِمُوا فَرَحِمُوا، وإنْ عاهَدوا وفَوْا، وإنْ حَكَموا عَدَلُوا، فمن لم يفعلْ ذلك منهم فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين**»)(٢).

ـ وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لي على قُريشٍ حقّاً،**

---

(١) الفتح: ١٦/ ٤٦٣، ٤٦٥، شرح الحديث (٧١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ١٢٩، ١٨٣، واللفظ له؛ والطيالسي (٢١٣٣)؛ والنسائي في الكبرى (٥٩٠٥)، وغيرهم، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٥٨)؛ وتخريج فضائل الشام، ص٣٥؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنَّة: ١/ ٢٠٦؛ وسير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٠٩.

وإنَّ لقريشٍ عليكم حقّاً، ما حَكَمُوا فعَدَلوا، وائتُمِنُوا فأدَّوا، واستُرحِمُوا فَرَحِمُوا، فمن لم يفعلْ ذلك منهم فعليهِ لعنةُ الله»[1].

وليس في ذلك ما يقتضي خروج الأمر عنهم.

الثاني: وعِيدُهم بأن يُسلَّط عليهم مَن يُبالِغ في أذِيَّتهم، وهذا ما يدلُّ عليه حديث ابن مسعود: «**أما بعدُ؛ يا معشر قريشٍ! فإنكم أهلُ هذا الأمرِ ما لم تَعْصُوا الله، فإذا عصيتُموه بعث إليكم من يَلْحَاكم كما يُلْحَى هذا القضيبُ**» ـ لقضيبٍ في يده ـ ثم لَحَى قضيبَه، فإذا هو أبيضُ يَصْلِدُ.

ومعنى **لَحَا القضيبَ**: أَخذ لحاءَه وأزالَه، وهو قِشْره. يُقال: لَحَوْتُ الشَّجرة، ولَحَيْتُها والْتَحَيْتُها، إذا أَخذت لِحاءَها وهو قِشْرها.

ويَصْلِدُ: يَبْرُق ويَبِصُّ.

وفي هذا إشارة واضحة إلى أنهم إذا أخَلُّوا بشروط الاستخلاف، ونَكَلُوا عن القيام بأمر الدين، وعَصَوا الله، وظَلَموا العباد؛ بَعث الله من يُزيلهم عن سدَّة الحكم، وينظفه من أدران فسادهم، كما يقشر المرء العودَ فيزيل لحاءه حتى يَبرُق ويَلْمع ويَبِصّ!.

الثالث: الإيذان بخروج الأمر عنهم.

عن ذِي مِخْبَر الحَبَشِيِّ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**كانَ هذا الأمرُ في حِمْيَر، فنَزَعَهُ الله ﷻ منهم وجَعَلَه في قريشٍ، وسيعودُ إليهم**»[2].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٩٩٠٢) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٢٧٠؛ وابن حبان (٤٥٨١) و(٤٥٨٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٥/ ١٩٢، وقال: رواه أحمد والطبراني في «الأوسط»، ورجال أحمد رجال الصحيح، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط. وفي الباب عن أبي برزة الأسلمي، أخرجه أحمد: ٤/ ٤٢١، ٤٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير: ٣/ ٢٦٤ ترجمة (٩٠٦)؛ وأحمد: ٤/ ٢٩١؛ والطبراني: ١/ ٢٠٣ (٢)؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (١١١٥)، وقال الحافظ في (الفتح: =

قال الحافظ: (وبه يقوى أن مفهوم حديث معاوية «**ما أقاموا الدين**»: أنهم إذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عنهم. ويؤخذ من بقية الأحاديث: أن خروجه عنهم إنما يقع بعد إيقاع ما هُدِّدوا به من اللعن أولاً، وهو المُوجِب للخذلان وفسادِ التدبير، وقد وقع ذلك في صدر الدولة العباسية.

ثم التهديد بتسليط من يؤذيهم عليهم، ووُجِد ذلك في غلبة مواليهم بحيث صاروا معهم كالصبي المحجور عليه يقتنع بلذاته ويُباشِر الأمورَ غيرُه، ثم اشتدَّ الخَطْب فغَلَب عليهم الدَّيْلم فضايقوهم في كل شيء حتى لم يبقَ للخليفة إلا الخطبة، واقتسم المتغلِّبون الممالكَ في جميع الأقاليم، ثم طرأ عليهم طائفة بعد طائفة، حتى انتُزِع الأمر منهم في جميع الأقطار، ولم يبقَ للخليفة إلا مجرد الاسم في بعض الأمصار)[1].

وهكذا فإن استمرار الخلافة في قريش ليس على إطلاقه، ولا هو لمجرَّد جنسِهم وعراقةِ أصلهم وشموخِ نسبهم، بل قيامهم بالحكم واستمرارهم فيه وخلوصه لهم؛ مَنوطٌ بإقامة الدين ونصرته ونشره والتحاكم به وإليه، فإذا نَكَلوا عن ذلك، ونكثوا العهد وأخلُّوا بالشرط وجاروا في الحكم وخانوا الأمانة ولم يرحموا الرعية؛ سُلِب منهم مُلكهم ودالَتْ دولتُهم وزال عِزُّهم وطُوِي بساطُهم!.

ويكون ذلك بأن يقوم عليهم غيرهم من المسلمين فيستلبوا الخلافة منهم أو يسلِّط الله عليهم غير المسلمين، كما جاء في إحدى الروايات: «**سَلَّط الله عليكم شَرَّ خَلْقِه فالْتَحُوكم كما يُلْتَحى القَضِيبُ**»[2]!.

= ١٦/ ٤٦٤): سنده جيد، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٠٢٢)؛ وصحيح الجامع (٤٤٦٣). وذو مخبر: صحابي، وهو ابن أخي النجاشي.

(١) الفتح: ١٦/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥ (٧١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ١١٨، ٥/ ٢٧٤، ٢٧٥؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٩٥؛ والطبراني في الكبير: ١٧/ ٢٦٢ (٧٢٠ ـ ٧٢٢)؛ والداني (١٩٤)؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (١١١٩)؛ والحاكم: ٤/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣، كلهم من حديث أبي مسعود البدري، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني.

وقد وقع هذا وذاك في تاريخنا الإسلامي.

●● فعندما فَسَد حال بني أمية في أواخر عهدهم، وضَعُف شأنهم، وكَثُرت مظالمهم، واقتتلوا على المُلك، وغفلوا عن نصرة الدين وإقامة معالمه ونشره في الدنيا؛ سلَّط الله عليهم أبناء عمومتهم، فقام عليهم بنو العباس، وقاتلوهم وقتلوهم وشرَّدوا بهم في آفاق الأرض، وقامت الخلافة العباسية على أنقاضهم، وعاشت دولتهم قروناً بين مَدّ وجَزْر.

وبينا العباسيون يتهارشون على الدنيا، ويقتتلون على المناصب؛ هجم الصليبيون على بعض أمصار الخلافة، وتمكنوا سنة (٤٩٣هـ) من الاستيلاء على (بيت المقدس)، وسكتت عاصمة (الخلافة القرشية) بغداد عن ذلك، كما سكتت دمشق والقاهرة ومكة والمدينة! وذبح الصليبيون من المسلمين سبعين ألفاً، ورفعوا الصليب فوق مسرى النبي ﷺ!.

فقيَّض الله للأمة رجلاً تركيّاً هو الملك البطل المِقدام عماد الدين زَنْكي، الذي قام بتوحيد كثير من بلاد الإسلام في العراق والشام، ثم خَلَفه ابنُه الملك العادل نور الدين محمود، فتابع المهمة ونَشَر العدل في الأمة، وأنشأ جيلاً عظيماً ربَّاه على الجهاد، ونَقَل الناس إلى ما يماثل عهد الخلفاء الراشدين، فلقد كان يُشبَّه في سيرته بأبي بكر وعمر! وكان يدعو الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير[1]!.

وعزم نور الدين على فتح بيت المقدس فلم يُقدَّر له؛ حيث توفي سنة (٥٦٩هـ).

وجاء بعده البطل الهُمام صلاح الدين يوسف بن أيوب الأيوبي الكردي الأصل، وتابع طريق نور الدين، ووحّد بين بلاد الشام والمَوْصل ومصر والنوبة

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٠/١٨٩ ـ ١٩١، ٥٣١ ـ ٥٣٩.

واليمن والحجاز، وخاض مع الصليبيين وقائع كثيرة، توَّجَها بمعركة حطين سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م).

وبعد انتهاء المعركة ترجَّل هذا السيد عن صهوة جواده، وعفَّر وجهه بالتراب، وصلى ركعتين شكراً لله على نعمة النصر، واستعاد بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام بعد أن رزح تحت نير الصليبيين تسعين سنة[١].

أما (الخلفاء القرشيون) فمشغولون بأشياء أخرى!.

ومضت الأيام وحالُ الدولة العباسية يزداد سوءاً، حتى جاءت الطامة الكبرى فاجتاح التتار ديار الإسلام ومزَّقوا خلافة بني العباس في سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وقتلوا الخليفة وآل بيته، ولم يستطع أن يحمي رأسه فضلاً عن أن يحمي أمته ودولته!.

فلقد سلَّط الله على (العباسيين) شرارَ خَلْقه التتارَ، الذين تابعوا زحفهم المدمر فاجتاحوا العراق ثم بلاد الشام، فكانوا كالريح العقيم، ودمدموا على الحضارة الإسلامية فجعلوا أهلها كالرَّميم وبنيانها كالكثيب المَهيل!.

واتجهوا إلى مصر، فتصدى لهم (المماليك) بقيادة بطل الإسلام (المملوك) المظفَّر قطز، وخاض معهم معركة (عين جالوت) في (٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ)، واستغاث القائد بالله ونادى (وا إسلاماه)، فكانت الإجابةُ أسرعَ من النداء، فأنزل الله عليه نصره[٢]!.

لقد كان قطز ومن معه أشرفَ وأحسنَ وأكرمَ عند الله وعند المؤمنين وفي صحائف التاريخ؛ من كثيرٍ من خلفاء بني العباس القرشيين[٣]، لأنهم نصروا

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢) انظر ما كتبناه عن التتار وهزيمتهم على يد المماليك في: النبوءة (٣٧): ١/ ٣٧٨.

(٣) اليهود المعتدون، ص٣٠٣.

الإسلام وقت المحنة وحَمَوا المسلمين، بل حَمَوا العالمَ من ذاك الجيش المدمَّر الذي أهلك الحرث والنسل!.

وصدقت نبوءة رسول الله ﷺ في بني أمية ثم في بني العباس: «**أما بعد؛ يا معشر قريش! فإنكم أهلُ هذا الأمر ما لم تَعْصُوا الله، فإذا عصيتُموه بَعث إليكم من يَلْحاكم كما يُلْحَى هذا القضيب**»!.

وهكذا كان الحال؛ الحكامُ والأمراء يتعاركون على الدنيا، ويقتتلون على السلطة، وأجهزةُ الشورىٰ معطَّلة، والعدالة الاجتماعية مضطربة، وكثير من العلماء مشغولون بفلسفات كلامية لا تمس القلوب، أو مسائل فقهية ليس لها عند الله وزن، وأمة الإسلام تضم أجناساً شتى دخلت في دين الله، من الهنود والفرس والروم والترك والكرد والزنوج والبربر... إلخ، وكان المفروض أن تنصهر كلها في بوتقة الأخوة الإسلامية، لكن ما دام العرب يشمخون بعِرْقهم، فلماذا تسكت الأجناس الأخرى؟.

إن العالم ـ وراء دار الإسلام ـ لم يرَ في الطريقة التي تحكم دولة الخلافة ما يُعجِب، بل رأى ما ينفِّر، وقد سقط العباسيون كما سقط الأمويون، ليؤكدوا حقيقة علمية وتاريخية ثابتة، **وهي أن العرب لا يشدّ كيانَهم إلا الدين، فإذا خرجوا عليه تيقظت فيهم جاهليتهم، فهلكوا.**

سقطت الدولة الأموية في الشام، كما سقطت في الأندلس بنفس الداء، وكذلك انهارت الخلافة العباسية في بغداد، لأنهم لم يستمروا في إقامة الدين الذي هو شرط قيام دولتهم وبقاء عزِّهم، فجاء من يَلْحاهم كما يُلحى القضيب.

وبعد سقوط الخلافة العباسية بقرنٍ تقريباً، كان جنس آخر قد اعتنق الإسلام، واعتزَّ به، وأنشأ دولة تجاهد من أجله، اتجهتْ صوبَ (الأناضول) بقوة، وقاتلت الروم ببأس، وما زالت في حرب مظفَّرة معهم، حتى أخرجَتْهم عن آخرهم من آسية، وظلَّت تطاردهم في شرق أوروبة بعدما استولت على

القُسطنطينية . . . تلكم هي دولة الأتراك العثمانيين، التي تسمَّى سلاطينُها بخلفاء الإسلام[١].

واستمرت دولتهم ستة قرون، ودَبَّ إليهم داءُ الأمم، واعتَوَرهم ما حلَّ بغيرهم من قبل، فكَثُر الظلم، وانتشر الفساد، ورَكَن الكبار والصغار إلى الدنيا، وترهَّلَتْ مؤسسات الدولة، ونَبَغت البدع والمذاهب الهدامة، وتنادى الأعداء واتفقوا وأجمعت كلمتهم على البطش بدولة الخلافة، وتلوثت أيدي العرب بهذه الجريمة النكراء، ومنهم من ينتسب إلى (البيت الهاشمي)، وأسقطوها منذ نحو قرن.

ثانياً: دروس وعبر:

وفي ختام حديثنا عن هذه النبوءة نسجّل الدروس والعبر التالية:

١ ـ قيام قريش أو غيرها بالخلافة وتسلُّم سدة الحكم وقيادة الأمة؛ مرتبط بإقامة عمود الإسلام وتطبيق أحكامه ونصرته في داخل الدولة وخارجها.

٢ ـ العرب لا يُعِزُّهم إلا الإسلام، فهم جنس لا يَصْلح إلا بنبوّة، ولا يقوم إلا بدين، ولا ترقى مواهبه إلا بشرع السماء، والتنكب عن الإسلام هو انتحار لهم، وزوال ملكهم ومجدهم وهيبتهم.

٣ ـ الجَوْر في الحكم، وسياسةُ الرعية بالظلم والاستبداد والقهر وتكميم الأفواه؛ مُفْسِدٌ للأديان، ومدمِّرٌ للعمران، ومُذْهِب للجاه والسلطان، ومُطْمِع للعدو في احتلال البلدان.

٤ ـ التهارُشُ على منابر الحكم، والاقتتال على المناصب، والضربُ عُرْضَ الحائط بمصالح الدين والدولة والأمة والعباد والبلاد ـ هو خيانة لله والرسول والإسلام.

٥ ـ ليس لجنسٍ أو عِرْقٍ أو شعب أو أمة فضلٌ ومكانةٌ وتمكينٌ عند الله

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٤٤ ـ ٤٥.

سبحانه إلا بمقدار الالتزام بدين الله والقيام بواجبات الاستخلاف وشرائطه، والسنن الإلـٰهية في الكون لا تحابي أحداً، بل تثأر ممن يتجاهلها، وتواجهه بعواقب تفريطه! والقرشيون لمَّا حققوا في أنفسهم وأمتهم ركائزَ الإسلام ومعالمه دانَتْ لهم الدنيا، وعندما فرَّطوا استمكنت الأقدار من أعناقهم، وسُلِّط عليهم من يَلْحاهم ويُزيلهم عن مراكز القيادة والسيادة، فدفعوا ثمن السلوك المعوج، ولم يغنِ عنهم عِرْقُهم ولا ادعاؤهم.

٦ ـ رحمة النبي ﷺ بالمسلمين وشفقته عليهم ببيان أسباب التمكين، والتنبيه على عوامل الانهيار وأسباب ذهاب الريح والشوكة في الأمة.

٧ ـ حكمته ﷺ العالية في حديثه للصحابة وتعليمه لهم بضرب الأمثلة لبيان المقصود، ويتجلى ذلك عندما لَحَى القضيبَ الذي كان بيده، ليوضّح لهم كيف يزول المُلك كما يُزال اللِّحاء عن القضيب!.

٨ ـ في دراسة التاريخ مواقف جليلة، ومواعظ كثيرة؛ للاعتبار بالأقدمين، ومعرفة أسباب النصر والازدهار والتمكين، وعوامل الهزيمة والهلاك والبوار.

٩ ـ الأمة الإسلامية حيّة لا تموت، قد يَعْتَوِرها الضعف، وتحلُّ بها الهزيمة، وتتقهقر إلى الصفوف الخلفية بين الأمم، لكن جَذْوتها لا تنطفئ، لأنها تستمدُّ وجودها من كتابها الخالد ودينها المُهيمن على الأديان كلها، فهي لا تلبث أن تفيق من جديد عندما تجد من الرجال مَن ينفخ في رَوْعها ويُوقِظها عن غَفْوتها، فترفع الراية وتتقدم الصفوف!.

❁ ❁ ❁

إخبار النبي ﷺ بمجيء خلفاء كثيرين بعده

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيلَ تَسُوسُهُم الأنبياءُ، كلَّما هَلَكَ نبيٌّ خَلَفَهُ نَبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بَعْدِي، وسيكونُ خلفاءُ فَيَكْثُرونَ**» قالوا: فما تأمُرنَا؟ قال: «**فُوا بِبَيعةِ الأَوَّلِ فالأولِ، أَعْطُوهُم حَقَّهم، فإنَّ الله سائِلُهم عمَّا اسْتَرْعَاهُم**» لفظ البخاري.

وفي رواية ابن ماجه: («**وإنه ليسَ كائنٌ بَعْدِي نبيٌّ فِيكُم**» قالوا: فما يكونُ يا رسولَ الله؟! قال: «**تكونُ خُلَفاءُ فَيَكْثُروا**» قالوا: فكيفَ نَصْنَعُ؟ قال: «**أَوْفُوا ببيعةِ الأَوَّلِ فالأولِ، أَدُّوا الذي عليكم، فَسَيسأَلُهُم الله ﷻ عن الذي عَلَيهِم**»)[1].

❁ ❁ ❁

في هذا الحديث معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ كما يقول النووي[2]، وعَلَمٌ من أعلام نبوته، وجاء واقع الخلافة والخلفاء في الأمة الإسلامية بتصديقه ووقوعه على وفق ما أخبر به ﷺ.

أولاً: معنى الحديث:

إذا بويع لخليفة بعد خليفة، فبيعةُ الأول صحيحة يجب الوفاء بها، وبيعة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)؛ ومسلم (١٨٤٢)؛ وابن ماجه (٢٨٧١)؛ وأحمد: ٢/ ٢٩٧؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦١٥؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (١٠٧٨)؛ وابن حبان (٤٥٥٥)؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٤٤؛ وفي الدلائل: ٦/ ٣٣٨؛ والبغوي (٢٤٦٤).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٦/ ٤٧٤.

الثاني باطلة يَحْرُم الوفاء بها، ويَحرم عليه طلبُها، وسواء عقدوا للثاني عالِمين بعقد الأول أو جاهلين، وسواء كانوا في بلد واحد أو أكثر، وعلى هذا جمهور العلماء[(١)].

وفي هذا الحديث حكمُ بيعة الخليفة الأول وأنه يجب الوفاء بها، وسكت عن بيعة الثاني، وقد نصَّ عليه في حديث عَرْفَجَة بن شُرَيح الأَشْجَعِيّ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّه ستكونُ هَنَاتٌ وهَنَاتٌ، فمن أَراد أن يُفرِّقَ أمرَ هذه الأمة، وهي جميعٌ، فاضْرِبُوه بالسَّيْفِ، كائناً مَن كان**»[(٢)].

قوله ﷺ: «**تسوسهم الأنبياء**»: أي إنهم كانوا إذا ظهر فيهم فَساد، بعث الله تعالى لهم نبيّاً يُقيم لهم أمرهم ويزيل ما غيَّروا من أحكام التوراة. وفيه إشارة إلى أنه لابد للرعية من قائم بأمورها يَحملُها على الطريق الحسنة، ويُنصِف المظلوم من الظالم.

«**وإنه لا نبي بعدي**»: أي فيفعل ما كان أولئك يفعلون.

«**وسيكون خلفاء**»: أي بعده ﷺ، فيكون واجبهم القيام بسياسة الأمة كما كان أنبياء بني إسرائيل يفعلون.

«**فوا**»: فعل أمر بالوفاء.

«**أعطوهم حقهم**»: أي أطيعوهم وعاشروهم بالسمع والطاعة، وبَذْل المال الواجب بالزكاة، والنفس في الخروج إلى الجهاد.

قال الحافظ: (وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلِّب

---

(١) شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٤٧٤؛ الفتح: ٨/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٢) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٧٦٢)؛ والنسائي في الكبرى (٣٤٦٩ ـ ٣٤٧١)؛ وفي الصغرى: ٧/ ٩٢ ـ ٩٣؛ وأحمد: ٤/ ٢٦١، ٣٤١؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٣٢٤ ـ ٢٣٢٨)، وغيرهم. **والهَنَات**: جمع هَنَة، وهي الخصلة من الشر، والمراد هنا: الفتن والأمور الحادثة.

والجهادِ معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لِما في ذلك من حَقْن الدماء وتسكين الدَّهْماء . . . ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدتُه لمن قَدَر عليها)[١].

«**فإن الله سائلُهم عمّا استرعاهم**»: ويتلخَّص واجبُهم بحراسة الدين وسياسة الدنيا؛ وذلك بالقيام بحفظ الشرائع والذَّبِّ عنها، وصيانة الحقوق، وتطبيق الحدود، وإقامة العدل، وبَذْل المال العام في الأمة، وحفظ الأنفس والأعراض، ومحاربة الفساد، ومجاهدة الأعداء، وتولية الأكفاء، ومحاسبة الأمراء، وغير ذلك مما هو مَنُوط بالخليفة من مسؤوليات جِسام.

عن أنس ﵁، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنْ اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استَرْعَاه: أَحَفِظَ ذلك أم ضَيَّعَ؟ حتى يَسألَ الرجلَ عن أهلِ بيتِهِ**»[٢].

وعن مَعْقِل بن يَسَار ﵁ قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما مِن عبدٍ يَسْتَرعِيه الله رعيَّةً، يَموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لِرَعيَّتِه؛ إلَّا حَرَّمَ اللهُ عليهِ الجنّةَ**»[٣].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ثانياً: مدلول الحديث وتحققه في الواقع التاريخي:

قوله ﷺ: «**وسيكون خلفاء فيكثرون**»: ظاهره أنه سيكون بعد زمن النبي ﷺ خلفاء وملوك وحكام وأمراء كثيرون عبر أزمنة التاريخ المتوالية وخلال السنين القادمة المتطاولة، وقد يكون من معانيه وجود عدة خلفاء وحكام في زمن واحد، كلهم يدعي أنه أمير المؤمنين وخليفة المسلمين!.

---

(١) الفتح: ١٦/ ٢٩٣، شرح الحديث (٧٠٥٣).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٩١٢٩) واللفظ له؛ وابن حبان (٤٤٩٢)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط، والألباني في الصحيحة (١٦٣٦)، وصحيح الجامع (١٧٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٥٠) و(٧١٥١)؛ ومسلم (١٤٢) واللفظ له، والطيالسي (٩٢٩)؛ وأحمد: ٥/ ٢٥، ٢٧، وابن حبان (٤٤٥٩)، وغيرهم كثير.

وقد وقع في أمتنا هذا وذاك.

●● ففي وقت مبكّر من تاريخنا وفي سنة (٦٤هـ) توفي معاوية بن يزيد، فقام ثلاثة وطلبوا لأنفسهم الخلافة: عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، والضحّاك بن قيس.

وذكر القاضي عِياض أنه قد وقع في المئة الخامسة في الأندلس وحدها ستة أنفس كلّهم يتسمَّى بالخلافة، ومعهم صاحب مصر، والعباسية ببغداد، إلى مَن كان يدَّعي الخلافة في أقطار الأرض من العلوية والخوارج[1].

ومن يتتبع تاريخ المسلمين في الأندلس في عهد ما يسمَّى (ملوك الطوائف)، يرى العجب من تهارشهم على المُلك، واقتتالهم على المنصب، وعَبَثِهم بمصالح المسلمين، وتفريطهم في حق الأمة، حيث نَعَوا الخلافة الإسلامية في الشرق، وانقطعت الدعوة للخلافة، وذِكْر اسمها على المنابر، وتلقب هؤلاء بألقاب الخلافة مثل: المأمون والمتوكل والمعتصم والمنصور والرشيد والمهدي والمعتمد والمعتضد والمقتدر والمتوكل، وغيرها من الألقاب الكبيرة التي لا تدل على حقيقة المسمّى!.

وبلَغ اصطراعُهم على كرسي الحكم إلى درجة أن أحدَهم لا يكاد يستقر عليه حتى يُقتل ويعتليه غيره! بل الأقبح من ذلك أن يقوم عددٌ منهم بادّعاء الخلافة وأنه أمير المؤمنين على مساحة ضيقة في أصقاع متقاربة وفي وقت واحد!.

ويشير إلى ذلك ما يرويه ابن عِذَاري عن الإمام أبي محمد ابن حزم فيقول: (واجتمع عندنا في صُقْع الأندلس أربعةُ خلفاء، كل واحد منهم يُخطَب له بالخلافة بالموضع الذي هو فيه، كلّهم يُدْعَى بأمير المؤمنين؛ وهم: خَلَف

---

(١) الفتح: ١٦/ ٦١٥ ـ ٦١٦ (٧٢٢٢).

الحُضْري بإشبيلية على أنه المؤيد بالله، ومحمد بن القاسم الحَسني بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بمالَقَة، وإدريس بن يحيى بسَبْتة)[١].

وأشار إلى هذه الأُخْلُوقة الحافظُ الذهبي في ترجمة إدريس بن علي الحَسَني الإدريسي، فقال: (اجتمع في الوقت أربعةٌ يُدْعَون بأمير المؤمنين في رُقعةٍ من الأندلس، مقدارُ ما بينهم ثلاثون فَرْسَخاً في مثلِها!)[٢]. أي نحو (١١٦ كم)!.

وقد صوَّر الشاعر أبو علي الحَسن بن رَشِيق القَيْرواني ذلك الواقعَ بقوله:

مـمَّـا يُـزَهِّـدُنـي فـي أرضِ أنـدلـسٍ   أسـمـاءُ مُـعْـتَـضِـدٍ فـيـهـا ومُـعْـتَـمِـدِ
ألـقـابُ مـمـلـكـةٍ في غيـرِ موضِعِـهـا   كالهِرِّ يَحْكي انتفاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ[٣]

وهو في ذلك ليس بزاهد بالأندلس، ولا راغباً عن الفردوس المفقود، لكنه يحكي المرارة واللوعة التي تعتلج في صدور المسلمين، مما آل إليه أمر الخلافة والخلفاء.

وقُل مثل ذلك عن كثرة الخلفاء ومدعي الإمارة في عصر واحد، في زمن الأيوبيين والمماليك، وهكذا إلى عصرنا وحسبك به! ففيه من العجائب ما عَمَّ وطَمَّ.

●● وأما عن كثرة الخلفاء على مدار التاريخ الإسلامي:

ـ **ففي دولة بني أمية**: توالَى على حكمها ثلاثة عشر خليفة، أولُهم معاوية رضي الله عنه سنة (٤١هـ)، وآخرُهم مروان بن محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحَكَم سنة (١٣٢هـ).

---

(١) البيان المُغرب: ٣/ ٢٤٤، باختصار.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٧/ ١٤٣، ونقلها عن ابن حزم في ترجمة القاضي ابن عباد من سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٥٢٩.
(٣) ديوان ابن رشيق، ص٥٩ ـ ٦٠؛ نفح الطيب: ١/ ٢١٤، ٤/ ٢٥٥؛ سير أعلام النبلاء: ١٧/ ١٤٤.

ـ وفي الدولة العباسية:

في العصر العباسي الأول: حَكم فيه تسعة خلفاء، بدءاً بأبي العباس السفَّاح سنة (١٣٢هـ)، وانتهاء بأبي جعفر هارون الواثق سنة (٢٣٢هـ).

وفي العصر العباسي الثاني: تولَّى (١٣) خليفة، أولهم المتوكل وآخرهم المستكفي، ويمتد هذا العصر ما بين سنتي (٢٣٢هـ) و (٣٣٤هـ).

وفي العصر العباسي الثالث: قام أربعة خلفاء، هم: المطيع لله، والطائع لله، والقادر بالله، والقائم بأمر الله، ومدتهم من سنة (٣٣٤هـ) حتى (٤٦٧هـ).

وفي العصر العباسي الرابع: تولى أحد عشرة خليفة، أولهم المقتدي بالله وآخرهم المستعصم بالله، ومدتهم من سنة (٤٦٧هـ) حتى (٦٥٦هـ)، وهي سنة سقوط بغداد بيد التتار، وانتهاء الخلافة العباسية التي استمرت (٥٢٤) سنة.

ومجموع خلفاء بني العباس (٣٧) خليفة.

وتخلَّل مدة الخلافة العباسية قيامُ عدة دول، بقي بعضها تابعاً لأمير المؤمنين الخليفة العباسي ويَدْعُون له على المنابر، بينما انفَصَل بعضها الآخر عن جسم الخلافة.

ـ والخلافة العثمانية:

امتد سلطانها الزماني والمكاني، وعاشت ستمئة وخمساً وعشرين سنة، ما بين سنتي (٦٩٨ ـ ١٣٤٣هـ/ ١٢٩٩ ـ ١٩٢٤م)، تولى الحكم خلالها (٣٧) خليفة، أولهم مؤسس الدولة عثمان الأول بن أرطغرل، الذي امتد حكمه من سنة (١٢٩٩م) إلى (١٣٢٦م)، وآخرهم عبد المجيد الثاني ومدته ثلاثة أعوام (١٩٢٢ ـ ١٩٢٤م).

فهذا على وجه الإجمال ذِكْر عدد الخلفاء في دول الخلافة الكبرى من بعد عهد الراشدين: الأموية والعباسية والعثمانية، وعدتهم جميعاً (٨٧) خليفة.

هذا فضلاً عن كثيرين قامت لهم دول أو دويلات، وتسمَّوا بالخليفة أو بأمير

المؤمنين، بحق أو بباطل، على وجه التبعية للخلافة الكبرى أو الاستقلال والانفصال عنها، كما حدث في الأندلس والمغرب ومصر والشام وخراسان وغيرها، كملوك الطوائف، والمرابطين، والعُبيديين (الفاطميين كذباً)، والطاهريين، والسامانيين، والطولونيين، والأخشيديين، والأيوبيين، والمماليك، والبويهيين، والسلاجقة، وفي أمرائهم وخلفائهم كثرة كاثرة!.

وصدق رسول الله ﷺ في قوله : «سيكون خلفاء فيكثرون».

ثالثاً: دروس وعبر:

١ ـ يجب على الخلفاء والحكام أن يقوموا بوظيفة الأنبياء، ويومئ إلى هذا قوله ﷺ: **«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي»**.

والصدّيق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه سُمِّي خليفةَ رسول الله ﷺ، وعندما رفض المرتدون دفع الزكاة، تصدى لهم وقال: أَيُنْتَقَص الدين وأنا حيٌّ؟! واللهِ لأقاتِلَنَّهم ما استمسك السيف في يدي! ولمَّا أشار الصحابة عليه بأن يُرجئ تسيير (جيش أسامة)، أبى ذلك وقال: والله لا أَحلُّ لواءً عقده رسول الله ﷺ بيده.

وهكذا فواجبُ الخليفة والحاكم والأمير حراسةُ الإسلام وتطبيق شرائعه وإقامة شعائره، وكذلك سياسة الناس في الدنيا وشؤون الحياة.

٢ ـ الحرص على وحدة الأمة تحت راية واحدة وخليفة واحد، ولذلك قال ﷺ: **«فُوا ببيعة الأول»**، وقال: «**مَن أراد أن يُفرِّق أمرَ هذه الأمة، وهي جميعٌ، فاضرِبوه بالسيف كائناً من كان**».

والأمة الإسلامية عندما كَثُر حكامها، تفرَّقت كلمتُها، واختلفت شعوبها، وذَهَبت ريحها، وذَبَلَت هيبتُها، وطَمِع فيها القاصي والداني.

٣ ـ الخلافة والإمارة كبيرةً كانت أم صغيرة، منصب خطير ومسؤولية

جليلة، والذين يتهارشون عليها لم يَقْدُروها حقَّ قَدْرها، ولم يَفقهوا البتة معنى قول النبي ﷺ في هذا الحديث وغيرِه: «**فإنَّ الله سائِلُهم عمَّا استرعاهم**»!.

إنه ﷻ سوف يَسألُهم ويُحاسِبُهم عن كل شيء؛ ليس عن الدين والناس وحَسْب! بل سيسألهم عن كل شيء لهم عليه سلطان، حتى على أثير الهواء وما يُبَثّ فيه على مدار الساعة في الليل والنهار، فما بالُك بدماء الناس وأعراضهم ومنابر المسؤولية ومؤسسات الدولة وأموال الأمة وتراب الأوطان؟!.

٤ ـ حرمةُ الخروج على السلطان ونقض العهد، لِما في ذلك من سَفْك الدماء ونشر الفساد في الأرض، ما لم يكن هناك كفرٌ بَوَاح صُرَاح ويمكن مجاهدته ومقاومته لمن قدر عليه.

٥ ـ تقديمُ أمرِ الدين على أمر الدنيا؛ لأنه ﷺ أَمر بتوفية حقِّ السلطان لِما فيه من إعلاء كلمة الدين وكَفِّ الفتنة والشر. وتأخيرُ الرجل أمرَ المطالبة بحقه لا يُسقِطه، وقد وَعَده الله أنه يخلصه ويوفّيه إياه ولو في الدار الآخرة[(١)].

٦ـ حرصُ الصحابة ﷺ على صلاح الأمة، وحسنُ سؤالهم عن المشكِلات لمعرفة المخرج منها، كما يتجلّى في قولهم للنبيِّ ﷺ: فما يكون بعدك؟ وعندما أجابهم: «**خلفاء فيكثرون**» سألوه: فما تأمرنا؟ فيكف نصنع؟ وهكذا يجب على المسلم أن يستوضح من العالِم توضيح ما يُشكِل عليه فهمُه، أو ما لا يُدركه عقلُه.



(١) الفتح: ٨/ ٣٣٩، شرح الحديث (٣٤٥٥).

إخبار النبي ﷺ باستخلاف المسلمين على الروم في الشام

١ - عن عبد الله بن حَوَالة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**واللهِ لَيَفْتَحَنَّها - الشام - الله ﷻ عليكُمْ، ولَيَسْتَخْلِفَنَّكم فيها، حتى تَظلَّ العِصَابةُ منهم، البِيضُ قُمُصُهُم، المُلْحِمَةُ أَقْفَاؤُهُم؛ قياماً على الرُّوَيْجِلِ الأُسَيْوِدِ مِنكُمْ، المَحْلُوقِ، ما أَمَرهُم من شيءٍ فَعَلُوه!**»[(١)].

٢ - وعن عبد الله بن وَرَّاح[(٢)] رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يُوشِكُ أَنْ يُؤَمَّرَ عليهمُ الرُّوَيْجِلُ، فَيجتمعَ إليه قومٌ مُحَلَّقَةٌ أقفيتُهم، بِيضٌ قُمُصُهمْ، فإذا أَمَرهُم بشيءٍ حَضَرُوا**»[(٣)].

٣ - وعن عبد الله بن حَوَالة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: «**سَتُجَنِّدون أَجْناداً: جُنْداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن**».

---

(١) أخرجه الفسوي: ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٠؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١١٤)؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ١٧٩؛ والدلائل: ٦/ ٣٢٧؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق: ١/ ٧٣ - ٧٥؛ ومختصره: ١/ ٥١ - ٥٢؛ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٦/ ١٩٥؛ والهيثمي في المجمع: ٦/ ٢١١ - ٢١٢، وقال: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح غير نصر بن علقمة وهو ثقة؛ وذكر الحافظ طرفاً منه في الإصابة: ١/ ٢٣٥ (١١٤٤)، وعزاه لابن عساكر وثابت بن قاسم في الدلائل، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط، والألباني في الصحيحة: ٧/ ١٢٥٩ - ١٢٦٠ (٣٤٢٤). وهو طرف من حديث طويل سنورده في الشرح.

(٢) هكذا ضبطه الحافظ في الإصابة: ٢/ ٣٧٢ (٥٠٢٣)، وفي مصادر أخرى: (وزاج).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير؛ وأبو نعيم في معرفة الصحابة: ٢/ ٤٠ (٢)؛ وأورده الهيثمي في المجمع: ٦/ ٢١٢ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات؛ وذكره الحافظ في الإصابة: ٢/ ٣٧٢؛ وأورده الألباني في الصحيحة (٣٤٢٤) وقال: هذا إسناد شامي جيد.

قال عبد الله: فقمتُ فقلتُ: خِرْ لي يا رسولَ الله.

فقال: «**عليكم بالشام، فمن أبَى فَلْيَلْحَقْ بيَمَنِه، ولْيَسْتَقِ من غُدُرِه، فإنَّ الله ﷻ قد تكَفَّل لي بالشامِ وأَهْلِه**»(١).

❁ ❁ ❁

●● يُخْبر رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث عن أمور مستقبلية كثيرة، ويحدِّث بها أصحابه، ويبشِّرهم بفتوحات جليلة سيشهدونها، كما يخبرهم عن استخلافهم في بلدان عظيمة وشاسعة وخطيرة الشأن، وقيام دولة الإسلام فيها، وحكمهم لها، وخضوع أهالي تلك الأصقاع لهم، وائتمارهم بأمرهم ونزولهم على حكمهم!.

وقد وقع كل ذلك بعد سنوات قليلة من وفاته ﷺ، حيث فُتحت تلك الممالك وهي: الشام والعراق واليمن، كما أوضحناه في بحثنا لتلك النبوءات عنها، وشرحناه بما يوضح وجه الحق فيها، ويبرهن على صِدْق تحقق ما أَخبر به ﷺ.

والجديد في هذه النبوءة التي أفردناها هنا؛ أن فيها شيئاً زائداً عن مجرَّد فتح تلك الأمصار، ويتمثل ذلك بإخباره ﷺ عن قيام الخلافة الإسلامية فيها، وسيادة حكم الله لشعوبها وأراضيها، وأن الرجل المغمور من المسلمين الذي لا يُؤْبَه له يصبح أميراً على الفئام من الروم، فيحتفون به، ويأتمرون بأمره، ويخضعون لقوله، ويسرعون في تنفيذ مراده! وقد كان ذلك.

ولقد كان العرب قبل الإسلام ينظرون إلى الفرس والروم نظرة الفقير

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ١١٠، ٥/ ٣٣ ـ ٣٤، ٢٨٨؛ والفسوي: ٢/ ٢٨٨، ٣٠٢؛ وأبو داود (٢٤٨٣)؛ وابن حبان (٧٣٠٦)؛ والحاكم: ٤/ ٥١٠، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في تخريج فضائل الشام وقال: حديث صحيح جدّاً، ص١٣ حديث (٢).

الضعيف المغمور المقهور للقوي الغني السيد الغالب المشهور! كما أن أولئك المستكبرين المتجبِّرين كانوا يحتقرون العرب إلى درجة وصَفَهم معها النبيُّ ﷺ بقوله: «**وإنَّ بها اليومَ رجالاً لَأَنْتُم أحقَرُ في أَعْيُنِهم من القِرْدَانِ في أَعْجَازِ الإبل!**».

ولذلك لمَّا حَدَّث رسول الله ﷺ أصحابَه بأنهم سيغلِبون الرومَ، وينتزِعون منهم بلاد الشام، ويحررونها من طغيانهم، كَبُر ذلك في أنفس الصحابة، وقال ابن حَوَالة معبِّراً عن مكانة الروم في قلوب العرب قبل الإسلام، وخشيتهم من سطوتهم: (ومَنْ يستطيعُ الشامَ وبه الروم ذواتُ القُرون؟!).

•• ولْنصغِ إلى ذلك الصحابي الذي لا يَعرف اسمه عامة المسلمين وأكثر خاصتهم، وهو يحدثنا عن تلك البشارة النبوية وبعض مشاهدها.

عن أبي عَلْقمة نَصْر بن علقمة يردُّ الحديثَ إلى جُبير بن نُفَيْر قال: (قال عبد الله بن حَوَالة: كنَّا عند رسولِ الله ﷺ، فشكَونا إليه العُرْيَ والفقر وقلَّةَ الشيء، فقال رسول الله ﷺ: «**أَبْشِروا، فواللهِ لأَنَا من كثرة الشيء أخوفُني عليكم من قلَّتِه، والله لا يزالُ هذا الأمرُ فيكم حتى يَفتح الله ﷻ أرضَ فارس وأرضَ الروم وأرض حِمْيَر، وحتى تكونوا أَجْنَاداً ثلاثة: جُنْداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن، وحتى يُعطى الرجل المئةَ فيسخَطها**».

قال ابن حَوَالة: قلتُ: يا رسولَ الله! ومَنْ يَستطيعُ الشامَ وبه الرومُ ذواتُ القُرونِ؟! قال: «**والله لَيَفتحَنَّها اللهُ ﷻ عليكم، ولَيَستخلِفَنَّكُم فيها، حتى تظلَّ العصابةُ منهم، البيضُ قُمُصُهم، المُلْحِمةُ أقفاؤهُم، قياماً على الرُّوَيْجِل الأُسَيْوِدِ منكم، المَحْلُوقِ، ما أَمَرهُم من شيء فَعَلوه، وإنَّ بها اليومَ رجالاً لأنتُم أحقَرُ في أَعْيُنِهم من القِرْدانِ في أَعْجَازِ الإبل!**».

قال ابن حوالة: فقلتُ: يا رسول الله! اختَرْ لي إنْ أَدْرَكَني ذلك، قال: «**إني أَخْتَارُ لك الشامَ، فإنه صفوةُ الله ﷻ من بلادِه، وإليه يَجتبي صفوتَهُ من عباده.**

يا أهلَ اليمنِ! عليكم بالشام، فإن صفوةَ الله من أرضِه الشامُ، أَلَا فمن أَبَى فَلْيَسقِ من غُدُرِ اليمن، فإن الله ﷻ قد تكفَّل بالشام وأهلِه».

قال أبو عَلْقمة: فسمعتُ عبدَ الرحمن بن جُبَيْر يقول: يَعْرِفُ أصحابُ رسول الله ﷺ نعتَ هذا الحديث في جَزْءِ بن سُهَيلٍ السُّلَميِّ، وكان على الأعاجم في ذلك الزمان، فكان إذا راحوا إلى المسجد نظروا إليه وإليهم قياماً حولَه، فعَجِبُوا لنعتِ رسول الله ﷺ فيه وفيهم!).

وعند الطَّحَاوي وابن عساكر في آخر الحديث: (قال عبد الرحمن بن جُبير: يَعرفُ أصحابُ النبي ﷺ نعتَ هذا الحديث في جَزْءِ بنِ سُهَيْلٍ السُّلَمِيِّ، وكان وَلِـيَ الأعاجمَ، وكان أُوَيْدِماً قصيراً، فكانوا يَمرُّون وتلكَ الأعاجمُ قيامٌ لا يأمُرُهم بالشيءِ إلَّا فَعَلُوه، يَتعجَّبُون من هذا الحديثِ!)[١].

وجاء تصديقُ النبوءة من رواية أخرى عن صحابي آخر:

عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَيْر، عن أبيه قال: (كان عبد الله بن وَرَّاح قديماً له صحبة، فحدَّثَنا أن النبي ﷺ قال: **«يُوشِك أن يُؤمَّر عليهم الرُّوَيْجِل، فيجتمعَ إليه قومٌ محلَّقةٌ أقفيتُهم، بِيضٌ قُمُصُهم، فإذا أَمرهم بشيء حَضَرُوا»**. فشاء ربك أن عبد الله بن ورَّاح وَلِـيَ على بعض المدن، فاجتمع إليه قوم من الدَّهَاقين، محلَّقة أقفيتُهم، بِيضٌ قُمصهم، فكان إذا أمرهم بشيء حَضَروا، فيقول: صَدَق الله ورسوله!)[٢].

---

(١) المعرفة والتاريخ: ٢/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩؛ شرح مشكل الآثار (١١١٤)؛ مختصر ابن عساكر: ١/ ٥١. وانظر تتمة تخريجه في صدر النبوءة.
وعبد الله بن حوالة صحابي نزل الشام، وحدَّد بعضهم منزلَه بالأردن، وبها مات سنة (٥٨هـ) عن ٧٢ سنة. **ذوات القرون**: أي القوة والبأس، فالقَرْن: القوة. **المُلْحِمة أقفاؤهم**: أي كثيرة اللحم، وتوضِّحها روايةُ أخرى (المحلَّقة أقفاؤهم): أي حُلِقت فظَهر لحمُها. **والقِردان**: جمع قُرادَة، وهي دُوَيبة متطفلة تعيش على الدواب والطيور. **والغدر**: جمع الغدير، وهي حياض الماء.

(٢) انظر تخريجه: ٢/ ٢٩١، حاشية (٣) في هذا المجلد.

ولا تعارضَ بين هذه الرواية وسابقتها، بل هما حادثتان وقعتا لصحابِيَّيْن مصداقاً للخبر النبوي، وبلاد الشام واسعة ومدنها كثيرة، وأمراء المدن يقيمون شؤونها، وهم تابعون للوالي العام للديار الشامية.

●● ويلاحظ أن الحديث قد وصف أولئك الروم بأنهم «**بِيض قُمصهم، محلَّقة أقفاؤهم**» وفي رواية: «**مُلْحِمة أقفاؤهم**» أي: إنها حُلقت حتى ظَهر لحمهم المكتنز من أقفائهم.

وهذا يدل على أنهم في رَغَد من الحياة وسَعَةٍ في العيش وبَسْطة من الدنيا، لا تبدو عليهم مظاهر التعب والشقاء والجوع والذلة والمهانة، فهم يلبسون القمص البيض وشعورهم محلوقة ولحوم أجسامهم وافرة!.

وهو يبرهن أيضاً على إكرام المسلمين لهم وعدلهم فيهم، فهم لم يُذلّوهم ويتخذوهم أَقْنَاناً يعيشون في البؤس والفقر والمَسْغبة تتبدَّى عليهم أمارات الهزال والإذلال!.

فالمسلمون هم الذين علَّموا الشرق والغرب ما يُسمَّى (بالتسامح الديني)، وقد شهد لهم بذلك التاريخ في مختلِف مراحله وجميع أماكنه، ودَوَّنه الأعداء والأصدقاء! والغريب أن أخسَّ مشاعرِ الجحود تُتَدارَس الآن بين يهود العالم ونصاراه تريد اتهامَ المسلمين بالتعصب، وهم الذين علَّموا هؤلاء وأجدادَهم ما هو التسامح! ولو أراد المسلمون أَلَّا يبقى غيرهم في الشرق الأوسط ما بقيَ أحد، ولكنهم أبقَوْهم صَدَقةً للإسلام، لأن الإسلام لا يعرف الإكراه، ولا يعرف الغصب والجبروت[1].

وقارن ذلك مع ما حدث في التاريخ البعيد في (الأندلس)، وما حدث في التاريخ القريب ويَحدُث في عصرنا، في ألبانيا وهنغاريا ورومانيا والبوسنة وكوسوفو والشيشان وأفغانستان وفلسطين والعراق والصومال و... لترى الوجهَ

(١) اليهود المعتدون، ص٢٨٧.

القبيح الذي تُجاهِر به الصليبيةُ المعاصرة التي تضخ في عروقها دماءُ الصليبية القديمة!.

●● والحديث الأخير يذكرُ فيه النبي ﷺ أن المسلمين سيفتحون هذه الأمصار: العراق واليمن والشام، وسيجنِّدون فيها أجناداً ثلاثة، أي سيكون لهم ثلاثة جيوش تتولَّى حفظَ البلاد وحراسة الثغور والدفاع عن الأنفس والأعراض، وتتابع مسيرة الجهاد فيما والاها من بلاد، ويبيّن ذلك رواية أبي داود:

قال رسول الله ﷺ: «**سيصيرُ الأمرُ إلى أن تكونوا جُنوداً مجنَّدةً: جندٌ بالشام، وجندٌ باليمن، وجندٌ بالعراق**». قال ابن حَوَالة: خِرْ لي يا رسول الله إنْ أدركتُ ذلك، فقال: «**عليكَ بالشامِ**» الحديث.

وأكَّد النبي ﷺ على بلاد الشام[1] وجُنْد الشام، وحضَّ الناسَ على سُكناها والرباط فيها، وقد كَثُرت الأحاديث الصحيحة التي تبيِّن فضلَها وفضلَ أهلها وخيريَّتَها وحفظَ الله لها. ومن ذلك:

١ ـ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يا طُوبَى للشام، يا طُوبى للشام، يا طُوبى للشام!**». قالوا: يا رسولَ الله! وبمَ ذلك؟ قال: «**تلك ملائكةُ الله باسِطو أجنحتها على الشام**»[2].

٢ ـ حديث عبد الله بن حَوَالة المتقدم: «**عليكم بالشام، فمن أبَى فَلْيلحقْ بيَمَنِه، ولْيستقِ من غُدُرِه، فإن الله ﷻ قد تكفَّل لي بالشام وأهلِه**».

---

(١) بيَّن ياقوت: أن بلاد الشام تمتد طولاً من الفرات إلى العَريش المتاخم للديار المصرية، وعَرْضاً من جَبَلَيْ طيِّئ إلى بحر الروم (المتوسط).
فهي بذلك تشمل سورية ولبنان والأردن وفلسطين وجزءاً من شمال السعودية ومن العراق من غربي الفرات وجزءاً من تركية الآسيوية.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٥٤)؛ وأحمد: ٥/ ١٨٤؛ والفسوي: ٢/ ٣٠١؛ وابن حبان (٧٣٠٤)، والحاكم: ٢/ ٢٢٩، وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وذكره الربعي في فضائل الشام، ص١٢ حديث (١)؛ وصحَّحه الألباني، وشعيب الأرنؤوط.

٣ ـ عن بَهْز بن حَكيم بن مُعاوية القُشَيْري، عن أبيه، عن جدِّه قال: (قلتُ: يا رسولَ الله! أين تأمُرني؟ فقال: «**هَا هُنا**»، وأومأَ بيدِه نحو الشام. قال: «**إنكم محشورون رجالاً ورُكْباناً ومُجْرَون على وجوهكم**»)(١).

٤ ـ عن عبد الله بن عَمْرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي رأيتُ عَمود الكتابِ انتُزِع من تحت وِسادتي، فنظرتُ فإذا هو نورٌ ساطعٌ عُمِدَ به إلى الشام، أَلَا إنَّ الإيمانَ إذا وقعتِ الفتن بالشام**»(٢).

٥ ـ عن معاويةَ بنِ قُرَّة، عن أبيه قُرَّة بن إِياس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا فَسَدَ أهلُ الشام فلا خيرَ فيكم، لا تزالُ طائفةٌ من أمتي منصورين لا يَضُرُّهم مَنْ خَذَلهم، حتى تقومَ الساعةُ**»(٣).

٦ ـ عن أبي الدرداء ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «**فُسْطَاطُ المسلمين يوم المَلْحَمة بالغُوطَة، إلى جانب مدينة يُقال لها: دمشق، من خيرِ مدائن الشام**».

وفي رواية ثانية عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يوم الملحمة الكبرى فُسطاط المسلمين بأرضٍ يُقال لها: الغُوطَة، فيها مدينة يُقال لها: دمشق، خير منازل المسلمين يومئذ**»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩٢)؛ وأحمد: ٥/٣، ٥؛ والفسوي: ٢/٢٨٨، ٢٩٦؛ والحاكم: ٤/٥٦٤؛ والربعي ٣٦ (١٣)؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني.

(٢) أخرجه الحاكم: ٤/٥٠٩؛ وأبو نعيم في الحلية: ٥/٢٥٢؛ وابن عساكر: ١/٩١ ـ ٩٥؛ والربعي ١٤ (٣)؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٩٢)؛ والطيالسي (١٠٧٦)؛ وأحمد: ٣/٤٣٦، ٥/٣٥، وفي فضائل الصحابة (١٧٢٢)؛ وأخرج الطرف الأول منه: ابن أبي شيبة: ٧/٥٥٥؛ والفسوي: ٢/٢٩٥ ـ ٢٩٦؛ وابن حبان (٧٣٠٢) و(٧٣٠٣)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في فضائل الشام، للربعي، ص١٩ (٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٩٨)؛ وأحمد: ٥/١٩٧؛ والفسوي: ٢/٢٩٠؛ والحاكم: ٤/٤٨٦؛ والربعي ٣٨ (١٥)؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وقد صنَّف في ذلك الحافظ أبو الحسن الربعي كتابه «فضائل الشام ودمشق»، وخرَّج أحاديثَه المحدِّث ناصر الدين الألباني، وكَتَب شيخُ الإسلام ابن تيمية رسالة جليلة في ذلك[1]، وألحقها الألباني بالكتاب السابق، وكتب إبراهيم العلي كتابه: «الأرض المقدسة».

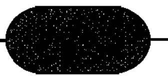
●● ومن هذه الأحاديث يتبيَّن فضلُ تلك البلاد وبركتُها، وخيريةُ أهلها، وأن الله بارك فيها وعليها، وتكفَّل بحفظها، وأرسل إليها ملائكته لتبسط أجنحتها عليها وتحفظها.

وفيها جُندٌ من خير جنود الإسلام، وفيها الطائفة المنصورة، وعلى ثراها ستكون الملحمة الكبرى، وهي أرض المحشر والمنشر، وغير ذلك من الفضائل.

كذلك تبيِّن الأحاديثُ أهميتَها وخطورتها وسببَ تكالب الأعداء عليها منذ القديم أيام الاحتلال الروماني لها، ثم الهجوم الصليبي في حملاته المتوالية المسعورة، والزحف التتري المدمِّر، ثم الاستعمار، واستمر الصراع المحتدم في قلب الأرض المقدسة حيث وُجد الكيان اليهودي المصطنع الذي دنَّس مسرى رسول الله ﷺ، ولا بدَّ من زواله، وهذا يتطلب مرابطةَ جنود أهل الشام الذين أثنى عليهم النبيّ ﷺ، ورفْعَهم رايةَ الجهاد لتحرير تلك الأرض المباركة من رجس اليهود، وها هو لواء الجهاد قد شَدَّت عليه سواعدُ المؤمنين لتحقق إن شاء الله وعْدَ الله على بني إسرائيل ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨].



(١) هي في مجموع الفتاوى: ٢٧/٥٠٥ ـ ٥١١.



إخبار النبي ﷺ
بأن الناس بعده سيحرصون على الإمارة

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: **«إنَّكُمْ سَتَحرِصُونَ على الإمارةِ، وإنَّها ستكونُ نَدامةً وحَسْرَةً يومَ القيامةِ، فَنِعْمَتِ المُرْضِعَةُ، وبِئْسَتِ الفاطِمَةُ»**(١).

❁ ❁ ❁

هذه نبوءة جليلة خطيرة تحقَّق وقوعُها في وقت مبكّر من تاريخنا الإسلامي، وتعالَتْ في الظهور في عهد بني أمية فمَنْ بعدَهم، واستَحْكَمت في العصور المتأخّرة وخاصة في زماننا.

●● لقد شبَّه النبي ﷺ الخلافة والحكم والإمارة والمنصب (بالمرضعة) التي يُقْبِل وليدها على ثديها بلهفة، ويرتضع منها بنَهَمٍ، ويرى ذلك مصدر بقائه وسبب استمرار حياته، ويبكي ويتلوى إذا تأخّر عنه الدّرّ! ويبقى هكذا غارقاً في النعيم غافلاً عن العاقبة القريبة، حتى إذا جاء وقت الفِطام، ووُضِع الصبر المرّ على حلمة الثدي، وفُصِل الفَطيم عن الرضاع وحِيلَ بينه وبين ما يشتهي؛ أيقن أن حلاوة ذلك قد آذنَتْ بالانقطاع!.

وضَرب (المرضعة) مثلاً للإمارة؛ لِما فيها من المنافع والجاه والمال، ونفاذ

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٨)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٩٦) واللفظ له؛ و(٧٧٨٨) و(٨٦٩٤)، وفي الصغرى: ٧/ ١٦٢، ٨/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦؛ وأحمد: ٢/ ٤٤٨، ٤٧٦ ـ وجاء في الموضع الأول عنده مقلوباً: **«فبئست المرضعة، ونعمت الفاطمة»**! ـ وابن حبان (٤٤٨٢)؛ والبيهقي: ٣/ ١٢٩، ١٠/ ٩٥؛ والبغوي (٢٤٦٥).

الكلمة، والتصدر في المجالس، وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها.

وضَرب (الفاطمة) مثلاً للانفصال عن الإمارة بالموت أو العزل، وما يترتب على ذلك من انقطاع كل تلك المنافع، وهدمِ جميع اللذات، مع التبعات الجسام يوم الحساب!.

وأتى بالتاء في (المرضعة) و(الفاطمة) إشارةً إلى تصوير تَيْنك الحالتين المتجددتين في الإرضاع والفطام(١).

ومفهوم الإمارة عام وشامل، يَنتظِم الإمارةَ العظمى وهي الخلافة، والصغرى وهي الولاية على مِصْرٍ أو أكثر، كذلك يشمل القضاءَ والحسبة، وإمارة الجيش وقيادة الكتائب، والولايات الصغيرة والكبيرة التي عُرفت في زماننا مثل: رؤساء المحافظات، والوزراء، ووكلاء الوزراء، ورؤساء الأقسام والإدارات، وأمناء النقابات والتجمعات والهيئات والجمعيات والمخازن والمستودعات، وغير ذلك.

●● والصحابة رضوان الله عليهم الذين تولوا الإمارات الكبرى والصغرى، كانوا قبل أن يأخذوها ويَسُوسوا أهلَها؛ قد تلقوا في مدرسة النبوة دروساً باهرة في أهميتها وخطورتها، ليحسنوا القيام بأعبائها العظام! (ومكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد ﷺ وإشرافه الدقيق، يزكِّيهم ويؤدِّبهم ويأخذُهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس وخشيةِ الله وعدمِ الاستشراف للإمارة والحرص عليها)(٢).

وبيَّن ﷺ لهم مخاطرَها ومزالقها، وأوضح لكل طامحٍ للإمارة أن مَنْ طلبها وُكِل إليها ولم يُعَنْ عليها، ومَنْ كُلِّفَ بها من غير استشراف إليها تنزلتْ عليه

(١) انظر: الفتح: ١٦/٤٧٩ شرح الحديث (٧١٤٨)؛ شرح السنَّة: ١٠/٥٨؛ جامع الأصول: ٤/٥٩ ـ ٦٠.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٢٧.

المعونة وأحاط به التوفيق. ولمّا جاءه من يطلبها أظهر الغضبَ في وجهه، وردَّ عليه طلبه، وولى آخر غيره كان معه في نفس المجلس لكونه لم يَستشرِف لها!.

عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: (قلتُ: يا رسولَ الله! أَلَا تَستعملُني؟ قال: فَضَربَ بيدِهِ على مَنْكِبي، ثم قال: «**يا أبا ذرٍّ! إنكَ ضعيفٌ! وإنها أمانةٌ، وإنها يومَ القيامةِ خِزيٌ ونَدامةٌ، إلَّا مَن أَخَذَها بحقِّها، وأدَّى الذي عليه فيها**»)[1].

وعن أبي ذر أيضاً قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذَرّ! إنّي أَراكَ ضَعيفاً، وإنِّي أُحِبُّ لكَ ما أُحِبُّه لنَفْسِي، لا تأَمَّرَنَّ على اثنينِ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيمٍ**»[2].

أي ضعيفاً عن القيام بما يتعيَّن على الأمير من مراعاة مصالح رعيته الدنيوية والدينية، ووَجْه ضعفِه عن ذلك: أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا، ومَنْ هذا حالُه لا يعتني بمصالح الدنيا وبأموالها اللذَيْن بمراعاتهما تنتظم مصالح الدين ويتم أمرُه[3].

قال النووي: (هذا الحديث أصلٌ عظيم في اجتناب الولايات، لا سيما لمن كان فيه ضعفٌ عن القيام بوظائف تلك الولاية. وأما الخزي والندامة فهو في حق مَن لم يكن أهلاً لها، أَوْ كان أهلاً ولم يَعْدِل فيها؛ فيُخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه، ويندم على ما فرّط. وأما من كان أهلاً للولاية، وعَدَل فيها؛ فله فضلٌ عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة: كحديث: «**سبعة يظلهم الله في ظله**»، وحديث: «**إن المقسطين على منابر من نور**»، وغير ذلك، وإجماع المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٥) واللفظ له؛ والطيالسي (٤٨٥)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٦)؛ وأبو داود (٢٨٦٨)؛ والنسائي في الكبرى (٦٤٦١) واللفظ له؛ وفي الصغرى: ٦/ ٢٥٥؛ وأحمد: ٥/ ١٨٠؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٦)؛ وابن حبان (٥٥٦٤)، وغيرهم.

(٣) قاله القرطبي المحدّث فيما نقله عنه السيوطي في شرحه على سنن النسائي: ٦/ ٢٥٥.

منعقد عليه، ومع هذا فلكثرة الخطر فيها حذَّر ﷺ منها، وكذا حذَّر العلماء، وامتَنَع منها خلائق من السَّلَف، وصبروا على الأذى حين امتنعوا!)(١).

وعن عبد الرحمن بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «**يا عبدَ الرحمن! لا تسألِ الإمارةَ، فإنَّكَ إنْ أُعْطِيتَها عن مسألةٍ وُكِلْتَ إليها، وإنْ أُعْطِيتَها عن غير مسألةٍ أُعِنْتَ عليها. وإذا حَلَفْتَ على يمينٍ، فرأيتَ غيرَها خيراً منها؛ فكَفِّرْ عن يمينِكَ، وائْتِ الذي هو خيرٌ**»(٢).

ومعنى وُكِل إليها: أي صُرف إليها، ومَنْ وُكِل إلى نفسه هَلَكَ، وقد كان من دعاء النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللهمَّ رحمتَكَ أرجو، فلا تَكِلْنِي إلى نَفْسي طَرْفَةَ عَيْن، وأَصْلِحْ لي شأْنِي كلَّه، لا إلـهَ إلا أنت**»(٣).

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (دخلتُ على النبيِّ ﷺ أنا ورجُلانِ من بني عمِّي، فقال أحدُ الرَّجُلين: يا رسولَ الله! أمِّرْنا على بعضِ ما ولَّاك الله ﷻ، وقال الآخر مثلَ ذلك، فقال: «**إنَّا واللهِ لا نُولِّي على هذا العملِ أحداً سألَهُ، ولا أحداً حَرَصَ عليه**»)(٤).

فمن حرص على الإمارة لا يُعان عليها، (ومن لم يكن له من الله عَوْن على عمله لا يكون فيه كفاية لذلك العمل، فلا ينبغي أن يُجاب سؤاله. ومن المعلوم

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٦/ ٤٥٠.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٦) واللفظ له؛ وأطرافه في رقم (٦٦٢٢)؛ ومسلم (١٦٥٢) وعقب الحديث (١٨٢٣)؛ وأبو داود (٢٩٢٩)؛ والترمذي (١٥٢٩)؛ والنسائي في الكبرى (٥٩٠٢) و(٨٦٩٢)؛ والصغرى: ٨/ ٢٢٥؛ وابن حبان (٤٣٤٨) و(٤٤٨٠)، وغيرهم.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)؛ والنسائي في الكبرى (١٠٤١٢)؛ وأحمد: ٥/ ٤٢؛ وابن حبان (٩٧٠)؛ والبخاري في الأدب المفرد (٧٠١)؛ وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود، وصحيح الجامع (٣٣٨٨).

(٤) أخرجه البخاري (٧١٤٩)، وأطرافه في رقم (٢٢٦١)؛ ومسلم (١٧٣٣)، ـ كتاب الإمارة، باب (٣)، واللفظ له؛ وأبو داود (٢٩٣٠) و(٤٣٥٤)؛ والنسائي في الكبرى (٨) و(٥٨٩٨ ـ ٥٩٠٠)، وفي الصغرى: ١/ ١٠؛ وابن حبان (١٠٧١) و(٤٤٨١)، وغيرهم.

أن كل ولاية لا تخلو من المشقة، فمن لم يكن له من الله إعانة؛ تورَّط فيما دخل فيه وخَسِر دنياه وعُقباه؛ فمن كان ذا عقل لم يتعرض للطلب أصلاً، بل إذا كان كافياً وأُعطيها من غير مسألة، فقد وعده الصادق ﷺ بالإعانة، ولا يخفى ما في ذلك من الفضل)(١).

●● وقد كَثُرت أحاديث رسول الله ﷺ وتوجيهاتُه للأمة ببيان أهمية الحكم والولاية على المسلمين، والتصدي لتسلم المناصب ومنابر الرئاسة والقيادة والتوجيه في الأمة، وأبانَ المسؤوليات الجسام الملقاة على كاهل كل من يلي من أمر المسلمين شيئاً، وأوضح لهم المزالق الخطرة في ذلك، والمسؤولية الجليلة أمام الله تعالى، لِما في تلك الأعمال من حفظ الإسلام وحماية شرائعه وإقامة شعائره، وأداء الحقوق إلى أصحابها، والإنصاف بين المتخاصمين، والعدل في الرضا والغضب، والسهر على مصالح العباد، وصيانة أموال الأمة وإحسان التصرف فيها، وغير ذلك كثير مما يُناط بالمسؤولين كباراً كانوا أو صغاراً.

وبمقابل هذا بشَّر الإمامَ العادل والأمراءَ الصالحين والمسؤولين المخلصين والعاملين الأمناء؛ بالجزاء الأوفى عند الله ﷻ.

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**ويلٌ للأُمراءِ، ويلٌ للعُرفَاءِ، ويلٌ للأُمَنَاءِ، لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوامٌ يومَ القيامةِ أنّ نَوَاصِيَهُمْ معلَّقةٌ بالثُّرَيَّا يَتَجلْجَلُونَ بين السماءِ والأرضِ، وأنَّهم لم يَلُوا عَملاً!**»(٢).

وعن أبي أُمَامَة الباهِليِّ، عن النبيِّ ﷺ: أنه قال: «**ما مِن رجلٍ يَلي أمرَ**

---

(١) الفتح: ١٦/٤٧٦.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٥٢٣)؛ وأحمد: ٢/٣٥٢؛ وابن حبان (٤٤٨٣)؛ والحاكم: ٤/٩١؛ والبغوي (٢٤٦٨) واللفظ له؛ وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وصحّحه شعيب الأرنؤوط؛ وأورده الألباني في الصحيحة (٣٦١) و(٢٦٢٠). **والجلجلة**: حركة مع صوت.

عَشَرةٍ فما فوقَ ذلك؛ إلا أَتى اللهَ ﷻ مغلولاً يومَ القيامة يده إلى عُنُقِه، فَكَّه بِرُّه، أو أَوْبَقَه إِثْمُه، أَوَّلُها ملامَةٌ، وأَوْسَطُها ندامةٌ، وآخِرُهَا خِزْيٌ يومَ القيامةِ!»[1].

وعن عَوْف بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنْ شِئتُم أنبأتُكم عن الإمارةِ وما هي؛ أوَّلُها ملامةٌ، وثانيها ندامةٌ، وثالثُها عذابٌ يومَ القيامة، إلا مَن عَدَل، فكيف يَعْدِلُ مع أَقربيه؟!**»[2].

●● ولقد وعى الصحابة رضوان الله عليهم عن النبيِّ ﷺ هذه التوجيهات الجليلة، وقدروا الإمارة حقَّ قَدْرها، فهرب منها قوم، وقام بها آخرون غير مستشرفين إليها ولا طالبين لها، فكانوا نِعمَ الأمراء والرعاة، وأكرِمْ بهم من ولاة وقادة تخرجوا في مدرسة النبوة، وتبعهم على هديهم السلف الصالح من التابعين ومن تبعهم بإحسان.

ومن تتبع سير الخلفاء الراشدين الأربعة، وأمراء الأمصار، وقادة الجيوش، من أمثال: عبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وأبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك، ومعاذ بن جبل، وأبي هريرة، وحذيفة بن اليمان، وعمير بن سعد، والمغيرة بن شعبة، وأبي عبيدة، وشُرَحْبيل بن حَسَنة، وعمرو بن العاص، والقعقاع بن عمرو، ومعاوية بن أبي سفيان، والنعمان بن مقرِّن، وخالد بن الوليد، وكثرة غامرة من ذلك الرعيل ـ نقول: من تتبع سيرهم عَلِم حقَّ العلم حقيقة التربية الفائقة التي سكبها النبي ﷺ في أرواحهم الطاهرة وأنفسهم الزاكية!.

ذكر المحدِّثون الثقات خبرَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع جيشه في (فتح

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٢٦٧؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٣٤٩)؛ وصحيح الجامع (٥٧١٨). وفي الباب عن أبي هريرة: أخرجه أحمد: ٢/ ٤٣١؛ والبغوي (٢٤٦٧)، وغيرهما؛ وانظر: الصحيحة (٢٦٢١).

(٢) أخرجه البزّار (١٥٩٧)؛ والطبراني في الأوسط (٦٨٩١)؛ وصحَّحه الحافظ في الفتح: ١٦/ ٤٧٨؛ وأورده الألباني في الصحيحة (١٥٦٢).

نَهَاوَنْد)، وكيف كان يتتبع أخبارهم كل لحظة، خشيةً على أرواحهم وأنفسهم التي تعلَّقَتْ مسؤوليتُها بعُنُقِه، قالوا: (وكان عُمرُ رضوان الله عليه بالمدينة يدعو الله وينتظرُ مِثْلَ صيحةِ الحُبْلى! فكَتَبَ حذيفةُ إلى عمر بالفتح مع رجل من المسلمين، فلما قدِمَ عليه، قال: أَبْشِرْ يا أميرَ المؤمنين بفَتْحٍ أعزَّ الله فيه الإسلامَ وأهلَه، وأَذَلَّ فيه الشركَ وأهلَه. قال: النُّعمان بَعَثَك؟ قال: احْتَسِبِ النعمانَ يا أمير المؤمنين، فبكى عمر واسترجَعَ، وقال: ومَنْ وَيْحَكَ؟ فقال: فلان وفلان وفلان، حتى عدَّ ناساً، ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين لا تَعْرِفُهم، فقال عمر رضوان الله عليه وهو يبكي: لا يَضُرُّهم أنْ لا يَعْرِفهم عمر، لكنَّ اللهَ يعرفُهم)[(١)].

وعن عَدِيّ بن عَمِيرة الكِنْديِّ قال: (سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنِ استَعْملنَاه منكم على عملٍ، فكَتَمَنا مِخْيَطاً فما فَوقه، كان غُلولاً يأتي به يومَ القيامةِ**». قال: فقام إليه رجلٌ أسودُ من الأنصار، كأنّي أَنظرُ إليه، فقال: يا رسولَ الله، اقْبَلْ عنِّي عَملَكَ، قال: «**وما لَكَ**»؟ قال: سمعتُكَ تقولُ كذا وكذا! قال: «**وأَنا أقولُه الآنَ، مَن استعملناهُ منكم على عملٍ، فَلْيَجِئْ بِقليلِهِ وكثيرِهِ، فما أُوتي منه أَخذ، وما نُهيَ عنه انتهى**»)[(٢)].

وروى عبد الله بن وَهْب قال: حدّثني عبد الله بن عيَّاش، عن أبيه: (أن يزيد بن المُهَلَّب لمَّا وَلي خراسانَ قال: دُلُّوني على رجل كاملٍ لخصال الخير، فَدُلَّ على أبي بُرْدة بن أبي موسى الأشعري، فلما جاءه رآه رجلاً فائقاً، فلما كلّمه رأى مَخْبَرَتَه أفضلَ من مرآتِه، قال: إنِّي ولَّيْتُك كذا وكذا من عملي، فاستعفاه، فأبى أن يُعْفِيَه، فقال: أيها الأمير! أَلَا أُخبِرك بشيء حدَّثنيه أَبي أنه سمعه من رسول الله ﷺ؟ قال: هاتِه، قال: إنه سمع النبي ﷺ يقول: «**مَن تولَّى**

---

(١) أخرجه في حديث طويل: ابن أبي شيبة: ٨/ ٢٢ ـ ٢٤؛ والطبري في تاريخه: ٤/ ١١٧ ـ ١٢٠؛ وابن حبان (٤٧٥٦)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٢٨٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣٣) واللفظ له؛ وأبو داود (٣٥٨١)؛ وأحمد: ٤/ ١٩٢.

عملاً وهو يَعْلَمُ أنه ليس لذلك العملِ بأهلٍ، فَلْيَتَبوَّأْ مقعدَهُ من النارِ»، وأنا أَشهدُ أيها الأمير أني لسْتُ بأهلٍ لِما دَعَوْتَني إليه، فقال له يزيد: ما زِدْتَ على أن حرَّضْتَنا على نفسك، ورَغَّبْتَنَا فيك، فاخرُجْ إلى عَهْدِك فإني غيرُ مُعْفِيك! فخرج. ثم أقام فيهم ما شاء الله أن يُقيم، فاستأذنه بالقُدوم عليه، فأَذِنَ له، فقال: أيها الأمير! أَلَا أُحَدِّثُك بشيء حدَّثَنيه أبي أنه سمع من رسول الله ﷺ؟ قال: هاتِه، قال: قال: **«مَلْعُونٌ من سَأَل بوَجْهِ الله، ومَلْعُونٌ من سُئِل بوجهِ الله، ثم مَنَع سائِلَهُ، ما لم يَسْأَلْه هُجْراً»**، وأنا أسأَلُكَ بوجهِ الله إلَّا ما أَعفيتني أيها الأميرُ من عَمَلِك، فأعفاه!)[1].

•• هكذا فَهِم الصحابة والسلف الصالح الإمارة على أنها مسؤولية جسيمة، وأمانة ثقيلة، وواجب ضخم، يحمله الرجل على كاهله، ويلقى الله تعالى به، ليحاسبه أَحَفِظَ أم ضَيَّع!.

ومع هذا فإن الحرصَ على الولاية يخلُب لُبَّ الرجال، وبريقَ الإمارة وحلاوتها يُطْمِع الكثيرين ممن يطمحون إلى الجلوس في أروقة السلطان، ويتصدرون المجالس، ويقومون على رؤوس الناس يأمرون وينهون! ومن استطاع منهم تحقيق العدالة والقيام بحقوق العباد وواجبات الدين؛ فقد سَلِمَ وغَنِمَ، وإلا فالموقف طويل بين يدي حَكَم عَدْل!.

وقد ظهر الحرص على الإمارة وتحققت النبوءة منذ عهدٍ مبكّر في أمتنا، بل وجدنا في زمن رسول الله ﷺ نفراً يسيراً غلَبَتْه نفسه على طلب الولاية، فزَبَرَهُ النبيّ ﷺ عنها ومنعه منها!.

وبُعَيد عهد الخلفاء الراشدين وجدنا الكثيرين ممن طلب الإمارة وسعى إليها، مثل: عبد الله بن الزبير، والحسين بن علي الشهيد، والضحاك بن قيس، ومعاوية بن أبي سفيان له ولابنه يزيد من بعده... ثم بعد ذلك كثير ممن وَلُوا

---

(١) أخرجه ابن عساكر (عاصم ـ عايذ)، ص٣٨٧ ـ ٣٨٨؛ وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤٥؛ والألباني في الصحيحة (٢٢٩٠) وحسَّن إسناده.

منابر الحكم؛ مثل: مروان بن الحكم، وابنه عبد الملك، وعَمْرو بن سعيد الأشدق، ومصعب بن الزبير، والأمثلة يطول ذِكْرها.

واستمر الحال على ذلك في بني العباس، وفي الأندلس وخاصة زمن ملوك الطوائف، وفي أيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وهكذا إلى زماننا.

والذي حدث في العقود القليلة المنصرمة من عصرنا قد أنسى الناسَ ما فعله الأقدمون من تدافع على منابر الحكم ومواقع المسؤولية جليلها وحقيرها، والحرص عليها، والسعي إليها والاستمساك بها، وعدم التفريط بأي حظ منها!.

- **وبعد:**

لقد رفع الله سبحانه من شأن رسوله ﷺ، وزكّى فؤاده وروحه وسمعه ولسانه، فلا يوجِّه الأمة إلا إلى الخير، ولا ينهاها إلا عن كل ما هو شر، وحين حذَّرها من الحرص على الإمارة؛ لعلمه الراسخ بعقابيل ذلك عند ذوي النفوس الهشّة والأطماع البائرة، وما ينعكس ذلك على الأمة ودينها وأوطانها وخيراتها وحاضرها ومستقبلها.

والعِبر في ذلك واضحة لا نطيل بذِكْرها، ونتركها للقارئ يستنبطها بألمعيته مما كتبناه.



إخبار النبي ﷺ بمجيء أمراء يستأثرون بالحكم ويمنعون الناس حقوقهم

١ ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال لنا رسول الله ﷺ: **«إنَّكُم سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرةً وأُمُوراً تُنْكِرُونَها»**، قالوا: فما تأمُرنَا يا رسولَ الله؟ قال: **«أَدُّوا إليهم حَقَّهُمْ، وسَلُوا الله حَقَّكُم»**)(١).

وفي رواية لأحمد: **«إنَّه سيكونُ عليكم أمراءُ وتَرَوْنَ أثَرةً»**.

٢ ـ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبيِّ قال: **«أتاني جبريلُ فقال: إنَّ أمَّتَكَ مُفْتَتِنةٌ بعدَكَ، فقلتُ: من أينَ؟ قال: من قِبَل أمرائهم وقرَّائهم؛ يَمنع الأمراءُ الناسَ الحقوقَ، فَيطلُبون حقوقهم فَيُفْتَنونَ، ويَتّبع القرَّاءُ هؤلاء الأمراءَ فَيُفْتَنونَ، قلتُ: فكيف يَسْلَمُ مَن سَلِمَ منهم؟ قال: بالكَفِّ والصَّبْر، إنْ أُعْطُوا الذي لهم أَخَذُوه، وإنْ مُنِعُوه تَرَكُوه»**(٢).

❁ ❁ ❁

أولاً: بين يدي النبوءة:

●● أورد الإمام البخاري الحديثَ الأول في «علامات النبوة»، وقال النَّووي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٣) و(٧٠٥٢) واللفظ له؛ ومسلم (١٨٤٣)؛ والترمذي (٢١٩٠)؛ وأحمد: ١/ ٣٨٤، ٤٢٨، ٤٣٣؛ وابن حبان (٤٥٨٧)؛ والبيهقي: ٨/ ١٥٧؛ والبغوي (٢٤٦٢).

(٢) أخرجه الإسماعيلي في مسند عمر؛ وأورده الحافظ في الفتح: ١٦/ ٢٩٢، شرح الحديث (٧٠٥٢)، وسكت عليه.

في شرح الحديث: (هذا من معجزات النبوة، وقد وقع هذا الإخبار متكرِّراً، ووُجِد مخبرُه متكرراً)[١].

والأَثَرة هنا: هي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا، أي: إنكم ستجدون بعدي أمراء يُفَضِّلُون أنفسَهم عليكم بأمور الحكم والأموال والفيء ونحوها[٢].

وقوله ﷺ: «**أَدُّوا إليهم حقهم**»: أي من السمع والطاعة وعدم مفارقة الجماعة، والحفاظ على وحدة الأمة، وبذل المال الواجب في الزكاة، والخروج معهم إلى الجهاد، وغير ذلك من حق الإمام على الرعية مما ليس فيه معصية لله تعالى.

قوله: «**وسَلُوا الله حقّكم**»: فإن استأثروا أنفسَهم وخواصَّهم بالإمارات والأموال وغيرها مما لكم فيه حق؛ فاضرعوا إلى الله بالدعاء بأن يُصلحهم ويُلْهِمهم إنصافكم أو يُبدلَكم خيراً منهم، أو يَكفَّ أذاهم ويدفعَ شرَّهم[٣].

●● وقد ضَرب رسول الله ﷺ الأسوة العليا والقدوة المثلى في إيثار الأمة بالدنيا وأموالها وحظوظها على نفسه وآله الطاهرين.

فعندما جاءته الأموال أنفقها في المسلمين ذات اليمين وذات الشمال، وأَرَّقَتْه بعض الدنانير التي باتت عنده، وآثَرَ أناساً بالعطاء الجزيل استئلافاً لقلوبهم حيث كانوا حديثي عهد بإسلام.

وهذه ابنتُه الطاهرة البَتُول فاطمة عليها السلام قد أَجهدها الطَّحْنُ بالرَّحى حتى مَجِلَتْ يداها، وصِهره وابن عمِّه علي رضوان الله عليه قد آلَمَه صَدْرُه من كثرة الاستقاء من البئر، وقد عَلِما أن النبيَّ ﷺ قد أُتي بِسَبْيٍ، فأتَتْه فاطمةُ تشكو إليه

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٦/ ٤٧٥.
(٢) جامع الأصول: ٤/ ٦٥؛ شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٤٦٩.
(٣) شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٤٦٩، ٤٧٥؛ الفتح: ١٦/ ٢٩٢.

أثر الرحى، وتسألُه خادماً، فقال ﷺ: «**واللهِ لا أُعْطِيكُما وأَدَعُ أهلَ الصُّفَّة تطْوَى بطونُهم، لا أجدُ ما أُنْفِقُ عليهم، ولكنِّي أبيعُهم وأُنْفِق عليهم أثمانَهم**»(١)!.

واقتفى الخلفاء الراشدون أثره من بعده، فهذا عمر رضي الله عنه عندما طُعن وفي ساعاته الأخيرة يستبعد أقاربه من منصب الخلافة، وينصّ على ذلك بوضوح.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (قيلَ لِعُمَر: أَلَا تَستخلِفُ؟ قال: إنْ أَسْتخلِفْ، فقد استَخْلَفَ مَن هو خيرٌ منِّي: أبو بكر، وإنْ أَتْرُكْ، فقد تَرَكَ من هو خيرٌ مني: رسولُ الله ﷺ. فأَثْنَوا عليه، فقال: راغبٌ وراهِبٌ، وَدِدْتُ أني نَجوتُ منها كَفَافاً لا لي ولا عَليَّ، لا أَتحمَّلُها حَيّاً ومَيتاً!)(٢).

وعندما سَمَّى الستة أصحابَ الشورى، أَخرج ابنَ عمِّه سعيد بن زيد، وقال: (عليكم هؤلاء الرَّهْط الذين قال رسول الله ﷺ: «**إنهم من أهل الجنة**»؛ سعيد بن زيد بن عَمْرو بن نُفَيل منهم ولستُ مُدخِلَه! ولكن الستة: علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير وطلحة، فليختاروا منهم رجلاً).

بل أخرج ابنَه الصحابيَّ الجليل العَلَم، فقال: (يَشْهَدُكُم عبدُ الله بن عمر، وليسَ له من الأمرِ شيءٌ! كهيئةِ التعزيةِ له)(٣).

ومعنى **(كهيئة التعزية له)**: أي لعبدِ الله بن عمر، لأنه لَمَّا أَخرجه من أهل الشورى في الخلافة أراد جَبْر خاطرِه بأن جعله من أهل المشاورة في ذلك(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٣) وأطرافه؛ ومسلم (٢٧٢٧)؛ وأبو داود (٥٠٦٢)؛ والنسائي في الكبرى (٩١٢٧) وغير موضع؛ والترمذي (٣٤٠٨)؛ وأحمد: ١/١٠٦ ـ ١٠٧ ومواضع أخرى، واللفظ له؛ وابن حبان (٥٥٢٤) و(٥٥٢٩)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢١٨) واللفظ له؛ ومسلم (١٨٢٣)؛ وأبو داود (٢٩٣٩)؛ والترمذي (٢٢٢٥)؛ وأحمد: ١/٤٣، ٤٦، ٤٧؛ وابن حبان (٤٤٧٨)، وغيرهم.

(٣) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري (١٣٩٢) وأطرافه؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٧٥ ـ ٥٧٧؛ وابن سعد: ٣/٣٣٧ ـ ٣٤٢؛ والطبري في تاريخه: ٤/ ٢٢٧ ـ ٢٣٤؛ وابن حبان (٦٩١٧)، وغيرهم، والرواية الأولى للطبري، والثانية للبخاري.

(٤) الفتح: ٨/ ٦٥٧، شرح الحديث (٣٧٠٠).

قال الذهبي في ترجمة سعيد بن زيد: (لم يكن سعيد متأخِّراً عن رتبة أهل الشورى في السابقة والجلالة، وإنما تركه عمر ﷺ لئلا يبقى له فيه شائبة حظ، لأنه خَتَنُه وابنُ عمه، ولو ذكره في أهل الشورى لقال الرافضيُّ: حابَى ابنَ عمه! فأخرج منها ولده وعَصَبته، فكذلك فليكن العمل لله)(١).

ولقد ولَّى عثمان وعلي ﷺ بعضَ أقاربهما، ولا ضَيْر في ذلك إذا كانوا من أصحاب الكفاءات الدينية والدنيوية، وبشرط آخر بأن تكون الفرصة متاحة لنظرائهم من رجال الأمة، فلا يُحجب الكفء عن الإمارة الكبيرة أو الصغيرة، وإلا فإنها الأَثَرة التي حذَّر منها النبي ﷺ وذَمَّها، وطلب من الأمة الصبر عليها.

•• وقد أكَّد رسول الله ﷺ على الخلفاء والأمراء وكل راعٍ في الأمة أن ينصفوا المسلمين فيما خَوَّلَهم الله من أمورهم، ويتجنبوا الحَيْف والجَوْر والاستئثار في الولايات والمناصب الكبيرة والصغيرة والوظائف والأعمال والأموال وكل ما هو حق عام للأمة.

عن أبي مريم الأَزْدِيِّ ﷺ قال: (دخلتُ على معاوية، فقال: ما أَنْعَمَنا بكَ أبا فلان ـ وهي كلمة تقولها العرب ـ! فقلت: حديثاً سمعتُه أخبرك به، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن وَلَّاهُ اللهُ ﷻ شيئاً من أمرِ المسلمين، فاحْتَجَبَ دون حاجَتِهم وخَلَّتِهم وفَقْرِهم، احتَجَبَ الله عنه دونَ حاجتِه وخَلَّتِه وفقرِه**». قال: فجعل رجلاً على حوائج الناس)(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**أربعةٌ يُبْغِضُهم الله: البَيَّاعُ الحَلَّافُ، والفقيرُ المُخْتالُ، والشيخُ الزَّاني، والإمامُ الجائِرُ**»(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/١٣٨.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٤٨) واللفظ له؛ وابن سعد: ٧/٤٣٧؛ والحاكم: ٤/٩٣ ـ ٩٤؛ والبيهقي: ١٠/١٠١، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود، والصحيحة (٦٢٩).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٢٣٦٨)، والصغرى: ٥/٨٦؛ وابن حبان (٥٥٥٨)، وصحَّحه =

وعن أبي أُمَامَة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**صِنْفَانِ من أمتي لن تنالَهما شفاعتي: إمامٌ ظَلومٌ غَشومٌ، وكلُّ غالٍ مارقٍ**»(١).

كما وجَّه النبي ﷺ المسلمين عامتهم وخاصتهم إلى أن يحرصوا على وحدة الأمة وجمع الكلمة، وعدم شق عصا الطاعة وإحداث الخلاف والفرقة وإثارة الفتنة التي تودي بالجميع إلى الهلاك، فأمر بالصبر على الأثرة والتزام المناصحة بكل طرقها ووسائلها وأساليبها، ما دام الرعاة فيهم إسلام وغيرة على حرماته وأركانه ولا يجاهرون بحربه ومعاداة أنصاره.

عن عَوْف بن مالكٍ الأَشْجَعيِّ، عن رسول الله ﷺ قال: «**خيارُ أئمتِكُم الذين تُحبُّونَهم ويُحبُّونكم، ويُصَلُّون عليكم وتُصَلُّون عليهم، وشرارُ أئمتكم الذين تُبْغِضُونهم ويُبْغِضُونكم، وتَلْعَنُونَهم ويَلْعَنُونكم**» قيل: يا رسول الله! أفلا نُنَابِذُهم بالسيف؟ فقال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة. وإذا رأيتُم من وُلَاتِكم شيئاً تَكْرَهُونه، فاكْرَهُوا عملَه، ولا تَنْزِعوا يداً من طاعة**»(٢).

وعن وائل بن حُجْرٍ قال: (سمعتُ رسولَ الله ﷺ ورجلٌ يسأله فقال: أرأيتَ إنْ كان علينا أمراءُ يَمنعونا حَقَّنا ويَسألُونا حقَّهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلُوا وعليكم ما حُمِّلْتُم**»)(٣).

ثانياً: تحقق النبوءة:

ولقد جاء مصداقُ حديث رسول الله ﷺ وتحققُ نبوءته في أزمنة كثيرة من تاريخ أمتنا وعلى مراحل متتالية، من لدن الحكم الأموي فالعباسي فالأيوبي

= شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحيح النسائي؛ والصحيحة (٣٦٣).

(١) السلسلة الصحيحة (٤٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٥) واللفظ له؛ وأحمد: ٦/ ٢٤، ٢٨؛ وابن أبي عاصم في السنة (١٠٧١)؛ وابن حبان (٤٥٨٩)، وغيرهم.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٦)؛ والترمذي (٢١٩٩) واللفظ له.

فالمملوكي والعثماني، إلى زمننا القريب وعصرنا الحاضر حيث تجلَّى ذلك الخبر الصادق على أدقّ صُوَره وأوضح أشكاله وأشمل مناحيه ومجالاته!.

إنه في سبيل الوصول إلى الحكم هلكت أخلاق وشرائع، وتقطعت أرحام وأوصال، وضاعت جماهير ورسالات! والغريب أن دورات هذا الداء تتكرر، وتتوارثها أجيال عن أخرى دون وعي ولا ادّكار!.

ذهب الأسلافُ المتجرِّدون الذين عاشوا لله سبحانه وماتوا في سبيله، ثم خَلَفَت خُلوفٌ رأت أن تُصادِر الإسلامَ والعباد والبلاد لحسابها الخاص، وأن تتولى وحدها مناصبه الإدارية العليا، وأن تحتكر لذراريها الإمارة والصدارة.

وسرعان ما استيقظت العصبيات القديمة؛ فزاحمت الأنسابُ والأحسابُ القدراتِ والمهاراتِ ومعالمَ الخلق والتقوى[1]!.

فلقد استأثرت بالحكم في أعلى مناصبه، ومن ثَمّ فروعه وتواليه وتوابعه؛ زمرة من الناس أو أسرة أو طائفة أو حزب أو تجمع سياسي له صبغة معينة وهدف مرسوم؛ واستولوا على مؤسسات الدولة، ومراكز القرار، ومنابر التوجيه، ومواقع التأثير، ووضعوا أيديهم على خيرات البلاد والمال العام، وتقاسموا مناطق النفوذ، وتداولوا السلطة فيما بينهم واحداً إثر الآخر، وتخوَّضوا في مال الله، وعَبَثوا بمصير الشعوب، وتهاونوا بمستقبل البلاد والعباد، وأدنَوا إليهم كل مدّاح، وقرَّبوا كل متزلِّف، وأغدقوا على الأقارب والأتباع والأذناب، وساد كلَّ قبيلة سفهاؤها، وتكلَّم باسم كل فئة سفلتُها، وارتفع التحوت، وانخفض الوعول، ومَرَج أمر الناس!.

وأُقْصِي المخلصون، وأُبْعِد أصحاب الكفاءات، وهُجِّر أرباب النهى، ومن بقي من هؤلاء ـ وهم كثير ـ عاشوا مستوحشين، وأُخِّروا إلى الصفوف الخلفية.

ولقد تحدَّث رسول الله ﷺ عن أولئك الطغاة الذين يستولون على الحكم

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

ومقدرات الأمة، ويتجبرون في الأرض، ويمنعون الناس حقوقهم، ولشدَّة جبروتهم يفعلون ما يشتهون فلا يجدون من يَرْدَعُهم.

عن أبي قَبِيل المَعَافِرِيِّ المِصْري قال: (خطَبَنا معاويةُ في يوم جمعة، فقال: إنما المالُ مالُنا، والفيءُ فَيْئُنا، مَنْ شئنا أعطينا، ومَنْ شئنا مَنَعْنا! فلم يَرُدَّ عليه أحدٌ! فلما كانت الجمعة الثانية قال مثل مقالته، فلم يردَّ عليه أحد! فلما كانت الجمعة الثالثة قال مثل مقالته، فقام إليه رجل ممن شهد المسجد، فقال: كلا، بل المالُ مالُنا، والفيءُ فيئُنا، من حال بيننا وبينه حاكَمْنَاهُ بأسيافنا! فلما صلَّى أَمر بالرجل فأُدْخِل عليه، فأجلسه معه على السرير، ثم أَذِنَ للناس فدخلوا عليه، ثم قال: أيها الناس! إني تكلّمتُ في أول جمعة فلم يَرُدَّ عليَّ أحد، وفي الثانية فلم يردَّ عليَّ أحد، فلما كانت الثالثة أحياني هذا، أحياه الله، سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**سيأتي قومٌ يتكلَّمون فلا يُرَدُّ عليهم، يتقاحَمُون في النار تقاحُمَ القِردة**»! فخشيتُ أن يجعلَني الله منهم، فلما رَدَّ هذا عليَّ أحياني، أحياه الله، ورجوتُ أن لا يجعلَني الله منهم).

وفي رواية أخرى للحديث: عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون أمراءُ فلا يُرَدُّ عليهم قولُهم، يتهافَتُون في النار، يَتْبَعُ بعضُهم بعضاً**»[1].

فكم في أمتنا في هذا العصر من أمثال هؤلاء؟.

●● ومن أخطر مظاهر الاستئثار بالحكم، والتي أخبر عنها النبي ﷺ في هذه النبوءة الجليلة، والتي استحكم تحققها في زماننا؛ هي الاستئثار بالمال العام والتخوض فيه .

---

(١) أخرجه أبو يعلى: ٤/١٧٧٩، ١٧٨١؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٧٩٠)؛ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: ٥/٢٣٦، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى، ورجاله ثقات.

عن خَوْلة الأنصارية ﵂ قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ رجالاً يَتَخَوَّضُونَ في مالِ الله بغيرِ حقٍّ، فَلَهُم النارُ يومَ القيامة**».

وفي رواية: «**إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوَةٌ، مَن أصابَهُ بحقِّه بُورِكَ له فيه، ورُبَّ مُتَخَوِّضٍ فيما شاءَتْ به نَفْسُه من مالِ اللهِ ورسولِهِ، ليسَ له يومَ القيامةِ إلا النارُ**»(١).

والتخوُّض في مال الله هو التصرف بأموال المسلمين بالباطل، وهي الأموال العامة التي أفاءها الله على المسلمين، كالبترول والغاز الطبيعي والثروات المعدنية ومصادر الطاقة والكنوز الظاهرة والمدفونة والواردات التي تصب في خزينة الدولة من الرسوم والضرائب ونحوها، مما زخرت بها بلاد المسلمين، وعبثت فيها أيدي العابثين!.

وهذا الحديث معجزة من معجزاته ﷺ، ويندرج تحت النبوءة التي بَوّبنا عليها، ففيه استئثار الحكام والأمراء والمسؤولين كباراً أو صغاراً بأموال الأمة، ومنع العامة من حقهم في مال الله الذي آتاهم جميعاً!.

ويمكن اعتبار هذا الحديث نبوءة مستقلة؛ لأن الوصف النبوي قد طابق واقع حال الأمة منذ زمن، وهو الآن أظهر ما يكون تحققاً!.

إن المهازيلُ في عصور كثيرة يَسمنون بعد تولي المناصب، وعمر الفاروق ـ وأمثاله كثير ـ خرج من منصبه عارياً من أعراض الدنيا كلها، وقد قدَّم لدِينه وأمته وللدنيا أعمالاً أثقل من الجبال.

وقبل أن يُطْعَن بأربعة أيام قال: (لَئِنْ سَلَّمَني اللهُ لَأَدَعَنَّ أراملَ أهلِ العراقِ لا يَحْتَجْنَ إلى رجلٍ بعدي أبداً!)(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣١١٨)؛ والترمذي (٢٣٧٤)؛ وأحمد: ٦/ ٣٦٤، ٣٧٨، ٤١٠؛ وعبد الرزاق (٦٩٦٢)؛ والحميدي (٣٥٣)؛ وابن حبان (٤٥١٢)؛ والبغوي (٢٧٣٠)، وغيرهم، والرواية الأولى للبخاري، والثانية للترمذي.

(٢) أخرجه البخاري في حديث طويل (٣٧٠٠).

وهو الذي قال فيه أنس بن مالك: (رأيتُ عمر بنَ الخطاب، وهو يومئذٍ أميرُ المؤمنينَ، وقد رَقَعَ بين كتفَيْه برُقَعٍ ثلاثٍ، لَبَّدَ بعضَها فوق بعضٍ)[1]!!



(١) أخرجه مالك في الموطأ: ٢/٩١٨؛ وهو في جامع الأصول: ٤/٧٠١ (٢٨١٤)، وقال محققه عبد القادر الأرناؤوط: إسناده صحيح.

إخبار النبي ﷺ
بمجيء أقوام من أمته يقتتلون على الملك

١ ـ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أولُ هذا الأمر نبوةٌ ورحمةٌ، ثم يكون خلافةً ورحمةً، ثم يكون مُلْكاً ورحمةً، ثم يَتكَادَمُونَ عليه تكادُمَ الحُمُر! فعليكُم بالجهادِ، وإن أفضَلَ جهادِكم الرِّباطُ، وإن أفضلَ رباطكم عسقلانُ**»[1].

٢ ـ وعن ثروان بن ملحان قال: (كنا جلوساً في المسجد، فمرَّ علينا عمَّار بنُ ياسر، فقلنا له: حَدِّثْنا ما سمعتَ من رسولِ الله ﷺ يقول في الفتنةِ، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يكونُ بَعْدِي قومٌ يأخذون المُلكَ، يَقتل عليه بعضُهم بعضاً**» قال: قلنا له: لو حَدَّثَنا غيرُك ما صَدَّقناه، قال: «**فإنه سيكون**»)[2].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والَّذِي نَفْسِي بيدِه، لا تَذْهَبُ الدُّنيا حتى يأتيَ على الناسِ يومٌ لا يَدْرِي القاتِلُ فيمَ قَتَلَ،**

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١١/٨٨ (١١١٣٨)؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٣٢٧٠) وقال: إسناده جيد. **يتكادَمُون**: الكَدْم هو العَضُّ بأدنى الفم كما يَكْدُم الحمار، **والكَدْم**: تَعرُّقُ العظمِ، **والكُدَمُ والمِكْدَم**: الشديدُ القتال، **ورجل مُكَدَّمٌ**: إذا لقِي قِتالاً فأثَّرَتْ فيه الجِراح.

(٢) أخرجه أحمد: ٤/٢٦٣، واللفظ له؛ وابن أبي شيبة: ٨/٦٠٩؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/٢٩٢ ـ ٢٩٣، وقال: رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير ثروان وهو ثقة.

ولا المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ» فقيلَ: كيفَ يكونُ ذلك؟ قال: «**الهَرْجُ، القاتِلُ والمَقْتولُ في النارِ**»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: تحقق النبوءة:

يخبر النبي ﷺ في هذه النبوءة بمجيء رجال يقتتلون على المُلك، ويبتدئ ظهورهم في المرحلة الرابعة من تاريخ الحكم في الإسلام، حيث تفتتحه مرحلة نور الرسالة ورحمة النبوة، وتليها فترة الخلافة الراشدة، ثم بعدها عهد الملك الذي يتسم بالرأفة والرحمة، ويعقبها زمن أولئك الذين عَنَاهم ﷺ بقوله: «**يتكادَمُونَ على المُلك تكادُمَ الحُمُر**»! وقد بدأ عهد هؤلاء بعد وفاته ﷺ بنحو خمسين سنة، في خلافة يزيد بن معاوية!.

وقد كان التنازع على الملكِ في أول الأمر محدوداً على أفراد قلّة وفي أزمنة قصيرة، ثم تفاقم بعد ذلك واتسع الخَرْق وكثرت الفُتوق، وازداد التعارك على منابر الحكم العليا والدنيا، وأُزهقت في سبيل ذلك أرواح، وسُفكت دماء، وتعطّلت مصالح العباد، وضَعُفَ أمرُ الأمة، وطَمع بها الأعداء، ونسي أولئك المتهارشون الواجبَ الأعلى من القيام بالحكم وحق الاستخلاف في الأرض، وشُغلوا بأحقادهم وأطماعهم الشخصية ورغباتهم الدنيّة!.

●● فبعد وفاة معاوية بن أبي سفيان، قام بالحكم ابنُه ووليُّ عهدِه يزيد بن معاوية، ورفض البيعةَ الحسينُ بن علي وعبدُ الله بن الزبير، وفي سنة (٦٤هـ) مات يزيد، فدعا عبد الله بن الزبير بمكة لنفسه بالخلافة، فأطاعه أهل الحرمين ومصر والعراق، وبايعه بادئ الأمر الضحاك بن قيس بالشام، ثم تركه ودعا هو الآخر لنفسه، وفي الأُردنّ بايع بنو أمية مروان بن الحكم، فسار مروان إلى الضحاك وقاتله بمرج راهط ـ شرقي غوطة دمشق ـ وكسره، وقتل الضحاك. ثم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٨) واللفظ له؛ والداني (٢٣) و(٢٢٠).

اقتتل مروان وشيعة ابن الزبير[1] بمرج راهط، وظفر بهم، واجتمعت لمروان الشام ومصر.

ثم قام عبد الملك بالأمر بعد وفاة أبيه مروان، وعبد الله بن الزبير لا يزال مستعصماً بمكة داعياً لنفسه بالخلافة، فنازله عبد الملك وبعث إليه الحَجَّاج فحاصره في الحرم ثم قتله، واستوسق الأمر كله لعبد الملك بن مروان[2].

وقد ثبت عن الصحابي الجليل أبي بَرْزَةَ الأَسْلَميِّ: أن هؤلاء كانوا طلابَ مُلك!.

عن أبي المِنْهال سيَّار بن سَلَامة قال: (لمَّا كان زمن أُخرج ابنُ زياد، وَثَبَ مروان بالشام حين وثب، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثبت القرَّاء بالبصرة، قال أبو المنهال: غُمَّ أَبي غمّاً شديداً - قال: وكان يُثني على أبيه خيراً - قال: قال لي أبي: أي بُني، انطلِقْ بنا إلى هذا الرجلِ من صحابة رسول الله ﷺ، فانطلقنا إلى أبي بَرْزَة الأَسْلمِيِّ في يوم حارٍّ شديدِ الحرّ، وإذا هو جالسٌ في ظِل علوٍ له من قَصَب، فأنشأ أبي يَستطعِمُه الحديثَ، فقال: يا أبا برزة! أَلَا ترى! ألا ترى! فكان أولَ شيء تكلَّم به أن قال: إني أصبحتُ ساخطاً على أحياء قريش، إنكم معشرَ العرب كنتم على الحال التي قد علمتم من قلَّتِكم وجاهليتكم، وإنَّ الله نَعَشَكم بالإسلام وبمحمدٍ ﷺ، حتى بلغ بكم ما ترون، وإن هذه الدنيا هي التي أَفْسدَتْ بينكم. إنَّ ذاكَ الذي بالشام - يعني مروانَ - واللهِ إنْ يُقاتِلُ إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة - يعني ابنَ الزبير - والله إنْ يُقاتِلُ إلا على الدنيا، وإنَّ هؤلاء الذين حولكم الذين تَدْعُونهم قُرَّاءَكم والله إنْ يُقاتِلون إلا على الدنيا! قال: فلما لم يَدَعْ أحداً، قال له أبي: يا أبا برزةَ! ما ترى؟ قال: لا أَرى اليوم

---

(١) وقع في الفتح: ١٦/٣٩٦ شرح الحديث (٧١١٢): (وشعبة بن الزبير)، وهو تحريف طريف أوجد شخصاً لا وجود له! والصواب ما أثبته كما في تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ص١٩١، ومنه نقل ابن حجر.

(٢) انظر الفتح: ١٦/ ٣٩١ - ٣٩٦، شرح الحديثين (٧١١١ - ٧١١٢).

خيراً من عِصابة ملبَّدةٍ، خِماص بطونُهم من أموالِ الناس، خِفَاف ظهورُهم من دمائِهم)[١].

وابن زياد هو عُبيد الله، أُخرِج من البصرة وكان أميرها ليزيد بن معاوية. والذي بالشام هو مروان بن الحكم، والذي بمكة هو عبد الله بن الزبير، والقراء هم الخوارج ورئيسهم نافع بن الأزرق.

يستطعمه الحديث: أي يستفتح الحديث ويطلب منه التحديث.

ونَصح أبو برزة ﷺ سامعيه ومن وراءهم بالكَفِّ عن أموال الناس، وعدم الولوغ في دمائهم، والانعزال في الفتنة، وترك الدخول في كل شيء من قتال المسلمين، ولا سيما إذا كان ذلك في طلب المُلك.

والقتال إذا كان عن اجتهاد وتأويل سائغ في قتال الفئة الباغية، أو الإصلاح بين الناس والضرب على يد مَن يبغي الفتنة في الأمة ويشقُّ عصا الطاعة؛ فمثل ذلك للمخطئ فيه أجر وللمصيب أجران.

أما القتال على الدنيا وطلبِ المُلك، فقد أخرج البزَّار في حديث: «**القاتل والمقتول في النار**»، زيادة تبين المراد؛ وهي قوله ﷺ: «**إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل والمقتول في النار**»، ويؤيده حديث مسلم الذي أثبتناه في صدر هذه النبوءة.

قال القرطبي: (فبيَّن هذا الحديث أن القتالَ إذا كان على جهل من طلب الدنيا، أو اتباع هوى؛ فهو الذي أُريد بقوله: «**القاتل والمقتول في النار**»)[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١١٢)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥، واللفظ له؛ والفسوي: ٣/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٩٣؛ وانظر: الفتح: ١٦/ ٣٩٦ ـ ٣٩٨. وذكر طرفاً منه الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٣، وقد أبعد الشيخ شعيب الأرنؤوط النجعة فعزاه لأبي نعيم في الحلية: ٢/ ٣٢.

(٢) الفتح: ١٦/ ٣٣٦، شرح الحديث (٧٠٨٣).

●● فمن القتال على الملك في عهد بني أمية: ما تقدّم من القتال بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس، وبين عبد الله بن الزبير ويزيد بن معاوية، ثم ابن الزبير وعبد الملك بن مروان، وعمرو بن سعيد الأشدق الذي وثب على دمشق وأراد الخلافة، فترضاه عبد الملك، ثم بعد ذلك قاتله وقتله. واقتتال مصعب بن الزبير ـ والي العراق لأخيه عبد الله ـ مع عبد الملك سنة (٧٢هـ)، ومقتل مصعب رَحِمَهُ اللَّهُ.

واستقر أمر الخلافة وطفِئ التنازع عليها أزيد من خمسين سنة، إلى أن وَلِي إبراهيم بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فنازَعَه مروانُ بن محمد بن عبد الملك بن مروان المعروف بمروان الحِمار لصَبْرِه في الحرب، وتغلَّب عليه، وبُويع له بالخلافة سنة (١٢٧هـ).

●● وفي عهد الدولة العباسية: افتُتحت بالقتال على الحكم، حيث جهز أبو العباس السفاح عمَّه عبد الله بن علي لحرب مروان الحمار، فحاربه وهَزَمه، ودخل عبد الله دمشقَ وقتل من الأمويين مقتلة عظيمة!.

وبعد وفاة السفاح، دعا عبد الله بن علي بالخلافة لنفسه، فسيَّر له أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخُراسانيَّ، فنازله وهزمه.

وخرج محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بالمدينة المنورة، وبايعوه بالخلافة، وكذلك خرج أخوه إبراهيم بالبصرة، فجيَّش لهما أبو جعفر المنصور جيشين، وحدثت حروب، وسُفكت دماء، وقُتل الأخوان محمد وإبراهيم.

وكان هارون الرشيد قد عقد ولاية العهد لولديه الأمين أولاً ثم المأمون، فلما استلم الأمين الخلافة أراد تقديمَ ابنه موسى، فطَلَب من المأمون أن يؤخِّر نفسه بعد موسى بن الأمين، فأبى، فبعث الأمين جيشاً إلى أخيه المأمون ليأتوا به مقيداً!.

فتصدى لهم جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحُسين بن مصعب بن رُزَيق الخُزاعي، ثم بعث الأمين جيشاً ثانياً ثم ثالثاً، وأَنفق أموالَ الدولة، فكُسِروا،

ودخل طاهر بغداد عَنْوَة، وحاصر قصر الخليفة، فهرب الأمين ليلاً وألقى بنفسه في الماء، فلحقوه وقتلوه! واستمرت الحروب ثلاث سنين (١٩٤ ـ ١٩٧هـ)، واستلم المأمون الخلافة.

وخلع ابنُ طولون[١] الموفقَ بن المتوكل على الله من ولاية العهد، ومات ابن طولون فقام بالأمر بعده ابنه خُمَارَوَيْه، فسيَّر له الموفق جيشاً كبيراً وعليه ابنه أبو العباس المعتضد، فالتقى الجمعان بفلسطين، وانهزم خُمَارَوَيْه وهرب إلى مصر.

وخرجت طائفة على المقتدر بالله ونازعوه الأمر، منهم عبد الله بن المعتز والحسين بن حمدان، وحدث اقتتال، واستقر الأمر للمقتدر، وقُتل ابن المعتز وجماعة. ثم خَلَعوا المقتدر ثانية، ثم أُعيد، ثم خَلَعوه الثالثة وقُتل!.

ونشأت ضمن دولة الخلافة العباسية دويلات، منها ما بقي تابعاً، وبعضها انفصل عن جسم الخلافة كالدولة الطاهرية والسامانية والصفارية والطولونية والإخشيدية والبويهية والفاطمية (العبيدية)، وحدثت صراعات يطول شرحها، وأُريقت دماء، ومزِّقت وحدة الأمة شرَّ ممزَّق بسبب الأطماع والأحقاد، وأوهَتْ تلك الدويلات الكيانَ الكبير، ونَشرت في جنباته الفُتوق، وفرضت وصايتها على الخلافة العظمى حتى جعلتْها شخصاً لا روح فيه.

●● ومن أصدقِ الأمثلة على تحقق النبوءة التي بين أيدينا، ما كان يحدث بين (الزعماء!) عند زحف الحملات الصليبية المتتابعة، فقد ذكر المؤرِّخون أنه عندما هاجم الصليبيون العالمَ الإسلامي في الحملة الصليبية الأولى (بدأت عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م)، واشترك فيها حوالي مئة وخمسين ألفاً يقودهم أربعة من الأمراء الأوروبيين، ووصلوا (أنطاكية)[٢]، وحدثت فيها معارك عنيفة، وأهلُها

---

(١) **أحمد بن طولون**: صاحب مصر، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٩٤، وترجمة ابنه في السير أيضاً: ١٣/ ٤٤٦.

(٢) إحدى المدن السورية شمال اللاذقية، وجنوب إسكندرونة على بعد (٥٩كم) منها، وهي =

يدافعون عنها بضراوة، ويستصرخون ويستنجدون ولا مجيب! وكانت (حلب) و(دمشق) أقربَ الحواضر إلى أنطاكية، ولكن الصراع بين الأخوين العدوَّين الألدَّين: (دُقاقِ بن تُتُش بن أَلْب أرسلان السَّلْجوقي) صاحب دمشق، و(رضوان بن تُتُش) صاحب حلب[1]؛ كان على أشدِّه، وكانت الحرب ناشبة بينهما حين وصلت قوات الفرنجة إلى أسوار أنطاكية! وسبب الحرب بينهما أن (رضوان) يطمع في دمشق ويريد انتزاعها من أخيه دقاق! أرأيتم هؤلاء الحكام ماذا يفعلون؟!.

وفي ذلك الوقت العصيب الذي كانت فيه القوات الصليبية تهدِّد الإسلام ودياره وتأكل بلاده؛ كانت الديار الشامية جملةَ ممالك وإمارات لا رباطَ بينها، بل بين أمرائها الشِّقاقُ والصراع، فهناك إمارة أنطاكية يحكمها الأمير (سيان)، وحلب على رأسها (رضوان)، ودمشق يملكها (دقاق)، وكذلك (حمص) و(حماة) و(الموصل) كل واحدة إمارة لها زعيمها، وهم فيما بينهم متشاكسون متصارعون[2]!.

ومن الأمثلة أيضاً عهد ملوك الطوائف في الأندلس: فبعد خَلْع المعتدّ بالله سنة (٤٢٢هـ) انتهت الخلافة الأموية بالأندلس، وتوزعت بين عدة ملوك أقاموا لأنفسهم دويلات، وتهارشوا على السلطة بنَهَم مسعور، والعدو النصراني المتربِّص يرمُقهم من قريب. فاستغاث الناس بالمرابطين من المغرب العربي، فعبروا إلى إخوانهم وخاضوا مع النصارى معركة الزلاقة (سنة ٤٧٩هـ). ثم عاد ملوك الطوائف إلى دَيْدَنهم، فعاد المرابطون ثانية إلى الأندلس، وقضوا على تلك الشراذم من طلاب السلطة، وضموا الأندلس إلى المغرب.

= اليوم من المدن التركية، كان الاستعمار الفرنسي قد سلخها عن سورية وضَمَّها إلى تركية!.

(١) انظر ترجمة (دقاق) في: سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٢١٠؛ و(رضوان) ١٩/ ٣١٥.

(٢) انظر: هموم داعية، ص٣٩ ـ ٤٣، ٤٩ ـ ٥١.

●● واستمر مسلسل الصراع على السلطة، وأخذ أشكالاً قبيحة في زمن الأيوبيين، وكذلك المماليك، وفي بعض فترات الحكم العثماني حيث كان يُعهد بالخلافة أحياناً إلى صِبيان لم يَبْلغوا الحُلُم ولم يجرِ عليهم القلم.

●● أما في العصر الحديث ومنذ نحو مئة سنة فحدِّث ولا حَرَجَ عن الاقتتال على الحكم، ويأتي في مقدمة الأمثلة وأقبحها منظراً وأسوئها ذِكْراً وأخطرِها نتيجة؛ ما قام به بعض زعماء العرب من تفريط في حق (قضية فلسطين).

ففي الوقت الذي اختير فيه (حاييم وايزمان) ليكون رئيساً للدولة اليهودية الأولى بعد ألفي عام، تحركت البيوت العربية النزَّاعة للشرف والسيادة تنشد مجد أربابها، وتحاول إقامة ملك عربي لها.

وسافر (وايزمان) إلى العقبة لمقابلة الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة، وكان الأمير قد أعلن الثورة في وجه الأتراك بعد أن اتصل بـ (مكماهون)[(١)] المندوب السامي البريطاني في القاهرة، وبعد أن وعده هذا المندوب أن حكومته تمنح الاستقلال للعرب الذين يقدمون مساعدات فعالة للحلفاء (كذا)!.

وأدرك شريف مكة أن فلسطين لا تدخل ضمن الأراضي التي ستُضم للدولة العربية الهاشمية، وأشار إلى أن تُترك مسألة فلسطين ذات الطابع الدولي ليتولى دراستها أصحاب الشأن.. وهكذا كان زعماء (إسرائيل) يبنون وطناً لقومهم، أما أمراؤنا الأشراف فيبنون ملكاً لأنفسهم[(٢)].

وغدرَ قادة العرب القوميون بالخلافة العثمانية، ودخل ساستنا في الحرب العالمية الثانية وقاتلوا إلى جانب جزَّاريهم، وكانوا حلفاء للغرب النصراني الذي قرَّر ذبحهم! وقبضوا المكافأة على هذا الهوان قيامَ (إسرائيل) ركيزة ضخمة

---

(١) سياسي بريطاني، عمل في الهند، ثم عُيِّن سفيراً لبريطانية في مصر، وجرت اتصالات بينه وبين الشريف حسين شريف مكة بشأن الثورة على العثمانيين!.

(٢) اليهود المعتدون، ص٢٤١، باختصار.

للاستعمار الخؤون ودوله الطامعة الجائعة، وانكشف المخبوء واتضحت الخطة بعد تنفيذها.

وقد يكون من حق العرب أن ينقموا على الترك بَطْشَهم بهم وجهالتهم عليهم، ولكن ليس من حق العرب أن يتذرّعوا بذلك إلى إهدار الوطن الإسلامي العام ووحدة المسلمين الكبرى.

وإن تصويرَ هذه الخيانة بأنها ثورات شعوب مضطهدة واتَتْها فرصةُ التحرر فتشبَّثَتْ بها؛ أمرٌ بعيد عن الحقيقة(١)!.

ثانياً: دروس وعبر:

ولا بد لنا من وقفات أمام عبر التاريخ في هذه النبوءة:

١ ـ إن أعداء الأمة كثيرون، والطامعين بها متربِّصون، ومهما باعَدَتِ الأطماع بينهم يجمعهم عداؤهم للإسلام، وإن المتهارشين من أمتنا على الحكم لأجل التسلط والطغيان ورفْعِ خَسيسة أنفسهم، يقدِّمون بذلك أفضل الفرص للانقضاض على الأمة لتقطيع أوصالها وانتهاب خيراتها وإذلال شعوبها وتدمير ثقافتها ومحو هويتها ومسخ شخصيتها.

٢ ـ مرَّت أمتنا عبر تاريخها الطويل بفترات مدٍّ وجَزْر: مدٌّ فيه الاستقرار والأمن ووحدة الصف وعلو الكلمة وانسياح الفتوحات ونشر الدعوة، وجَزْرٍ تجلَّت ملامحه في خروقات وفتوق ونزاعات وصراعات على منابر الحكم، وحروب وتطاحن وقتلى وفرقة وضَعْف وذلَّة وهوان.. وكان للحكام والأمراء دور كبير في هذا وذاك، وما تمكَّن العدو من الانقضاض على بنياننا إلا لما شُغل الكبار بالمناصب عن الواجبات، وبالترف واللهو عن الجد ومعالي الأمور، ولو بقي الحكام والولاة ومعهم الرعية على التعبئة لَمَا طمع بهم قريب أو بعيد.

٣ ـ لقد أقام الله سبحانه في كونه سُنناً تنتظم الجميع ولا تحابي أحداً من

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢١٨، ٢٤٣.

الخلق، وهي تثأر ممَّن يتجاهلها وتواجهه بعواقب تفريطه، وعندما تغفل الأمة عن قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، تنزل بساحتها النكبات وتجتاحها الخطوب! فلا يصح آنئذ أن نندب حظَّنا، ولا أن نلومَ دهرَنا، بل نلوم الصفَّ المختلَّ أمام الصفوف المتراصَّة، والعينَ النائمة وسط العيون الخائنة(١)!.

٤ ـ إن الصراع على الحكم والاقتتال عليه يسبب شروخاً عميقة في الأمة، وفرقة تنذر بشرٍّ مستطيرٍ، والفرقة وبالٌ جسيمٌ، وعندما يقع بأس الأمة بينها وتفشو الخصومات في كيانها؛ فهي أمة تنتحر قبل أن ينال منها عدوها.

والفرقة بين شعوب الأمة تترك فراغات كبيرة يتسلَّل منها الأعداء فيغزوننا في عُقْر دارنا، وهذا ما تكرَّر أكثر من مرة: في الأندلس، وأيام التتار، وزمن الحروب الصليبية قديماً، ثم في حروبهم حين جاؤونا بخَيْلهم ورَجِلِهم منذ زمن ليس بالبعيد، ودخل الجنرال (غورو) دمشقَ ووقف إلى جوار قبر (صلاح الدين)، وقال: (يا صلاح الدين... ها نحن عُدْنا!).

وقال الجنرال (اللَّنْبي) حين دخل القدس: (الآن انتهت الحروب الصليبية!)(٢).

ثم تكرر ذلك بعد سنين قريبة، ويحدث الآن عندما دخل الأعداء إلى فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال والسودان وغيرها!.

٥ ـ يلاحظ أن قيام مسؤولين أكفاء على سُدَّة الحكم، وتلاشي النزاعات على السلطة؛ يترافق مع ازدهار الدولة في شتى الأصعدة، وانسياح الإسلام

---

(١) انظر: الضربات، للجندي، ص٢٩١؛ اليهود المعتدون، ص٢٩٠؛ سرّ تأخر العرب والمسلمين، ص٣٥.

(٢) اليهود المعتدون، ص٢٨٩. وغورو: جنرال فرنسي قال كلمته تلك عندما دخل دمشق لاستعمارها سنة (١٩٢٠م). واللنبي: جنرال إنجليزي قال كلمته عندما دخل القدس سنة (١٩١٧م).

ودعوته في العالمين.. وهذا ما تمَّ في فترات كبيرة من تاريخنا مثل أيام الخلفاء الراشدين الثلاثة، وعهد معاوية، وزمن عبد الملك بن مروان وإخوانه، والنصف الأول من عهد الأمويين في الأندلس، وبعض فترات في الدولة العباسية، وشطر كبير من الخلافة العثمانية.

ومن هنا يمكننا القول باطمئنان وإنصاف: إن الدولة الأموية على قِصَر مدتها، قياساً مع الدولة العباسية، هي أحسن وأعلى وأفضل وأرحم بكثير من الدولة العباسية؛ فإن (الدعوة الإسلامية لم تستفِدْ شيئاً يُذكر خلال الحكم العباسي، بل إن سوء التطبيق لتعاليم الإسلام نال من قدرتها على الانطلاق البعيد؛ حكام يتهارشون على الدنيا، ويتقاتلون على المنصب، أجهزة الشورى صفر، العدالة الاجتماعية مضطربة، قد تُنْكَب بعض الأقطار فلا تجد الغوثَ، العلم الديني انحصر في فلسفات كلامية لا تمس القلوب، أو مسائل فقهية ليس لها عند الله وزن)[1].

ولا يغضُّ ذلك من مكانة بعض الفترات الزاهرة كأيام المنصور والرشيد وغيرهما، لكن الدولة العباسية وقد حكمت خمسة قرون لم تستطع أن تضيف شيئاً ذا بال إلى امتداد الإسلام عما وصلت إليه الدولة الأموية خلال تسعين عاماً! بل انتُقِصت الدولة العباسية كثيراً من أطرافها وبداخلها، وأوضاع الحكام وطريقة وصولهم إلى السلطة وبقاؤهم فيها سبب رئيس في ذلك.

٦ ـ لقد تبوَّأ منصبَ الحكم في الأمة أناسٌ خانوا الله ورسوله والمؤمنين، وضحّوا بمقدرات الأمة، ووَأَدُوا كرامة شعوبها، في سبيل نزوات طائشة، وأَثَرة حارقة! وتكررت أمثلتهم في التاريخ البعيد والوسيط والقريب.

وقد سجَّل قلمُ التاريخ في صفحاته أعمالَ الجميع، والعبرة لمن يقرأ ويتدبر ويَدَّكِر!.

---

(١) سرّ تأخر العرب والمسلمين، ص٤٤.

وإن أمة يستقرّ فيها اغتصابُ الحكم، وتعشش في أجوائها الخرافات والانحرافات، لا بد أن تدفع ثمن هذا السلوك المعوجّ!.

فالحكام الخونة الذين تصارعوا على إمارات صغيرة أو كبيرة، وعَضُّوا على كراسي الحكم بنواجذهم، وتكادَمُوا عليها تكادُمَ الحُمُر، وغفلوا عن جحافل الصليبيين الذين أكلوا بلاد الإسلام واحداً بعد الآخر حتى احتلوا القدس! وفريق آخر من الحكام ارتدوا بتعاونهم مع الصليبيين، وصنف ثالث قد أضعفوا الجبهة الداخلية بمظالمهم ومآثمهم! وهؤلاء وأولئك هم الذين مهَّدوا لسقوط البلاد الإسلامية بين أيدي أعدائها!.

٧ ـ إن الحاكم لا يحتلُّ مكانة في تاريخ أمته بطول مدة حكمه، ولا بالصَّخَب والضجيج الذي يرافق أعمالَه المزعومة، أو النعوت والألقاب التي يُوصَف بها من هنا وهناك، وإنما يتبوأ المنزلة العليا بمدى قدرته على أن يكون زعيماً لأمته يخوض بها الغمرات ويذلِّل الصعاب ويحقق لها الإنجازات التي توافق أمانيها وتبني حاضرها وتستشرف لمستقبلها!.

فرجلٌ مثل سيف الدين قطز الذي حكم شعبه (أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً) ظهر فجأة كالشهاب في سماء تاريخنا، وهوى فجأة كالشهاب أيضاً، فكانت ومضتُه القصيرة كافيةً لحرقِ جموع المتخاذلين من أمراء المسلمين حوله من جهة، وجموع التتار المعتدين من جهة أخرى.

واستطالت قامته التاريخية على كثير من الحكام عندما تجسدت في شخصه إرادة الأمة في معركة (عين جالوت)، فحقق في مدة حكمه القصيرة جدّاً إنجازه التاريخي العظيم، وتبوأ به المكانة السامية التي تفوق كثيراً مكانة أولئك النفر من (الحكام النكرات) قديماً وحديثاً، الذين تكالبوا على الملك وشغلوا من التاريخ ردحاً طويلاً من أيامه، لكنهم ما وجدوا في صفحاته مكاناً لهم ولو ضئيلاً[1]!.

---

(١) انظر: المظفر قطز، ص٦ ـ ٨.

ورجل آخر مثل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي حاولت معه الصهيونية العالمية أن يسمح لليهود ـ فقط مجرد السماح ـ بالهجرة إلى فلسطين مقابل أموال هائلة وطائلة، فقال لهرتزل: (إنِّي لا أستطيعُ الموافقةَ على تشريحِ أجسادِنا ونحنُ على قيد الحياة!)[١].



(١) العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٤٩١.

إخبار النبي ﷺ عن إمارة السفهاء، وبيع الحكم، والاستخفاف بالدم

١ ـ عن عابس الغِفَاريِّ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**بادِرُوا بالأعمال خِصالاً سِتّاً: إِمْرَةَ السُّفَهاءِ، وكثرةَ الشُّرَطِ، وقطيعةَ الرَّحِمِ، وبَيْعَ الحُكْم، واستخفافاً بالدمِ، ونَشْواً يتَّخِذُونَ القرآنَ مزاميرَ، يُقدِّمونَ الرجلَ (يؤمُّهم) ليسَ بأفْقَهِهم ولا أعْلَمِهم، ما يُقدِّمُونه إلا لِيُغَنِّيَهُم**»[(١)].

٢ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (أنَّ النبيَّ ﷺ قال لكعب بن عُجْرَة: «**أعاذَكَ الله يا كعبُ من إمارةِ السُّفَهاءِ**» قال: وما إمارةُ السفهاءِ يا رسولَ الله؟ قال: «**أمراءُ يكونونَ بَعْدِي، لا يَهْدُونَ بهَدْيِي، ولا يَسْتَنُّونَ بسُنَّتي، فمن صَدَّقَهم بكَذِبِهم وأَعَانَهُم على ظُلْمِهم فأولئكَ ليسوا منِّي ولستُ مِنْهم ولا يَرِدُونَ عليَّ حَوْضِي، ومَن لم يُصَدِّقْهُم بِكَذِبِهم ولم يُعِنْهُمْ على ظُلْمِهم فأولئكَ منِّي وأنا مِنْهم وسَيَرِدُونَ عليَّ حَوْضي**»)[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٩٤؛ وأبو عبيد في فضائل القرآن: ١/ ٣٥؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٩٩؛ والبزّار (١٦١٠)؛ والطبراني في الكبير: ١٨/ (٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢)؛ وأبو غرزة الحافظ في مسند عابس: ٢/ ١؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣٨٩)؛ والداني (٣٢٤) و(٤٣٦)؛ وصحّحه بطرقه وشواهده: الألباني في الصحيحة (٩٧٩)؛ وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح مشكل الآثار.. والسياق الذي أوردناه لأبي غرزة، والزيادة بين القوسين للداني.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧١٩)؛ وأحمد: ٣/ ٣٢١، ٣٩٩؛ والبزّار (١٦٠٩)؛ وابن حبان =

يشتمل هذا الحديثان على ست نبوءات أَخبر بها النبي ﷺ، وقد تحققت كلها وظهرت في الأمة على الوصف الذي بَيَّنه ﷺ، واستحكَمَتْ في العهود المتأخِّرة وخاصة في القرن المنصرم حيث استَعْلَنَتْ بأفظع صُورها.

وثلاث منها مترابطة ببعضها متداخلة فيما بينها، ولذا سنتناولها في الشرح والبيان معاً، وهي: إمرة السفهاء، وبيع الحكم، والاستخفاف بالدم.

وأما الثلاث الأخرى فسيأتي الحديث عنها، كل واحدة في موضعها المناسب لها.

★ ★ ★

٧٣ ـ إمارة السفهاء

أولاً: معنى السفه:

السَّفَه: الخِفّة والطيش والجهل وخِفّة الحِلْم.

والسفيه: الخفيف العقل، الأحمق، الجاهل، المضطرب الطائش.

ويكون السفه في الأمور الدنيوية والأخروية[١].

وقد وصف النبي ﷺ أولئك الأمراء السفهاء بأنهم لا يهتدون بهدي الإسلام، ولا يستنُّون بسنَّة الرسول ﷺ، واستعاذ ﷺ من استخلاف أمثال هؤلاء على الأمة، وهو يعني أولَ ما يعني رأسَ الحكم وأعلى رجل فيه وهو الخليفة أو أمير العامة، ولا يقتصر عليه ولا يُستثنى من ذلك من هو دونه. فإذا كان الخليفة الأعظم سفيهاً انعكس ذلك على الأمراء والولاة والقادة والوزراء ومن هو أدنى منهم مرتبة وأخف مسؤولية. ولقد بدأ السَّفَه والشطط والطيش والجهل بالظهور

= (١٧٢٣) و(٤٥١٤)؛ والحاكم: ٣/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠ مختصراً، و٤/ ٤٢٢ مطولاً بالسياق الذي أوردناه، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على ابن حبان؛ وأحمد شاكر في تعليقه على سنن الترمذي: ٢/ ٥١٥ (٦١٥).

(١) المفردات، للراغب، ص٤١٤؛ لسان العرب: ١٣/ ٤٩٧ (سفه).

قليلاً قليلاً في منابر الحكم ومؤسسات الدولة، ثم أخذ يزداد رويداً رويداً، حتى كثُر وتفاقم شرُّه!.

والمتتبع لمسيرة الحكم في أمتنا من أعلى مركز فيه إلى فروعه الكبرى والصغرى، يرى أن السفه ظهر في تاريخنا على نطاق ضيق في الأمير ومعاونيه، وفي مساحة ضيقة أيضاً من الحياة، دون أن ينحرف عن الإسلام في أصوله الكبرى وتشريعاته العامة ونظامه الذي ينتظم الناس وعلاقاتهم ببعضهم، أو الدولة وعلاقاتها الخارجية بالدول الأخرى.

ثم أخذ السفه والطيش والحمق يزداد ظهوره طولاً وعرضاً وعمقاً، حتى استشرى داؤه وطغى بلاؤه على مؤسسات الحكم كبيرها وصغيرها.

ثانياً: محاور السفه:

ويتمحور السفه في محاور خطيرة عدة، ويتجلى في أشكال كثيرة، نومئ إلى أهمها وأخطرها على الدين والأمة والبلاد والعباد:

١ ـ الاستبداد:

وهو أسوأ مظاهر السَّفَه وأخطرُها، حيث تنعدم الشورى، ويتوارى النقد، وتذبل حرية الرأي، وتُقتل الكفايات، وتَذْوي المواهب، وتضيع الجهود والإمكانات الخلَّاقة، فتصبح الكلمة للقادرين على الزُّلفى والساعين وراء مآربهم الخاصة، ويتصدَّر أصحاب الحناجر والمباخر، ويعلو السِّفْلة والإمَّعات.

إن عَقْلَ الألسنة عن الكلام في عمل الاستبداد والمستبدين ضَيَّع على أمتنا مصالح عظيمة خلال الأعصار السابقة؛ إذ طمأَنَ العجزة والمفسدين، وجعلهم يسترسلون في غيِّهم، فما يفكرون في إطِّراح كسل، ولا تَرْك منقصة! فالحريات حاجز قوي دون وقوع العبث بشؤون الأمة، أو نذير بتقصير أَجَله إذا وقع، ومؤاخذة أصحابه بغير هوادة[١].

(١) الإسلام والطاقات المعطلة، ص٥٤.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**ضافَ ضيفٌ رجلاً من بني إسرائيلَ، وفي داره كلبةٌ مُجِحٌّ، فقالت الكلبةُ: واللهِ لا أَنْبَحُ ضيفَ أهلي. قال: فعَوَى جِراؤها في بَطْنها، قال: قيلَ: ما هذا؟ قال: فأَوحى الله ﷻ إلى رجلٍ منهم: هذا مَثَلُ أمَّةٍ تكونُ من بعدِكم، يَقْهرُ سُفَهاؤها أحلامَهَا**»(١).

٢ ـ الحرص على الحكم مع التفريط بحقوق الدين والأمة والبلاد:

فالرجال الذين تتحلّب أشداقهم للزعامة، وتطمح أنفسهم للسلطة، ويَسْعَون إليها بأي وسيلة، يكون الحكم عندهم مَغْنماً لا مَغْرماً، والمناصب العليا مصيدة للحرام لا خدمة الصالح العام! فإذا ما واتتهم الفرصة، ونَزَوا على عرش الرئاسة، بذلوا في سبيل الثبات فيه كل شيء ما دام يحقق مآربهم ويروي غُلَّتهم. . فلا ضيرَ عندهم من إذلال الرعية، والبطش بالمناوئين، والتعاون مع الأعداء، والتفريط بالبلاد، وتبديد الثروات، والاستغراق في الترف واللهو والعبث والعَبّ من الشهوات، وممارسة كل ألوان السفه والطيش والشطط.

والصورة الكالحة التي لطّخت تاريخَنا في فترات متلاحقة وأماكن متعددة بأعمال هذا الصنف من الرعاة، في بعض أيام الأمويين، وملوك الطوائف، وفي عهد العباسيين والأيوبيين والمماليك وغيرهم، إبان الحملات الصليبية والزحف التتري ـ دلائل دافعة على السفه الذي ارتكبه حكام المسلمين الكبار والصغار في تلك الأعصار.

وأحوال المسلمين الآن صورة قريبة الملامح من صورتهم قبل الهجوم الصليبي الأول والتتري الماحق.

٣ ـ غمط الكفايات:

فالسفيه المستبدّ يعتقد أن كلَّ كفاية إلى جانب عبقريته صفرٌ لا تستحق تقديراً

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ١٧٠، وقال أحمد: شاكر: إسناده صحيح. قوله: «مُجَحٌّ»: أي حامل دنا وقت ولادتها.

ولا تقديماً، وإذا أكرهَتْه الظروف على الاعتراف بكفاية ما، اجتهد في بعثرة الأشواك أمامها، واستغلَّ سلطانه في إقصائها أو إطفائها.

ومن هنا يعوِّل على الأتباع الفانين فيه، يحشدهم حوله، ويرفض الاستعانة بالكفايات التي لا تدين بالولاء له، ولا يبالي بحرمان الوطن أو الدين من مهارتهم.. وتأخُّر العالم الإسلامي في القرون الأخيرة مرجعُه إلى انتشار هذا الوباء! فإن مَنْعَ الرجل القوي من القيام على الأمانات تضييعٌ له ولها، تضييع ينطق لسانه بهذه الشكاة:

لِمَ لا أُسَلُّ من القِرابِ وأُغْمَدُ ... لِمَ لا أُجَرَّدُ والسيوفُ تُجَرَّدُ؟!

أو كما قال الآخر، كاشفاً عن عواقب حرمان الأمة منه فيما ينوبها من أزمات:

أَضَاعُوني وأيَّ فتًى أضاعُوا ... ليومِ كَريهةٍ وسَدَادِ ثَغْرِ!

وطبيعة الرجل الكفء كراهية الهوان والتحقير[1].

والذي عَلِمناه من ديننا، وعَمِل به حكامنا المخلصون وأمراؤنا العادلون من المتقدمين والمتأخّرين؛ أن الإمرة تستلزم الكفاءة والنزاهة والحرص على دين الأمة وهويتها ومصلحة أبنائها.

عن أبي الطُّفَيْل عامرِ بن واثِلَة: (أن نافعَ بن عبد الحارث لقيَ عمر بنَ الخطاب بعُسْفَانَ، وكان عمر استعملَهُ على مكة، فقال له عمر بن الخطاب: مَنِ استخلفتَ على أهل الوادي؟ قال: استخلفتُ عليهم ابنَ أَبْزَى، قال: ومَن ابنُ أَبْزَى؟ قال: مولىً من موالينا، قال عمر: فاستخلفتَ عليهم مولىً! فقال: يا أميرَ المؤمنين! إنه رجلٌ قارئُ القرآنِ، عالمٌ بالفرائض، قاضٍ! فقال عمر: أَمَا إنَّ نبيَّكم ﷺ قد قال: «**إنَّ اللهَ يرفَعُ بالقرآنِ أقواماً ويَضَعُ به آخَرين**»)[2].

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة، ص٥٠، ٥١.

(٢) أخرجه مسلم (٨١٧)؛ وابن ماجه (٢١٨)؛ وعبد الرزاق (٢٠٩٤٤)؛ وأحمد: ١/ ٣٥؛ =

نعم إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً: بحفظهم له، وتمثلهم تعاليمه، والعمل به في الشأن الخاص والعام، ويخفض آخرين لإعراضهم عنه، وتنكّبهم طريقه، وتركهم تعاليمه وتوجيهاته.

٤ ـ إضعاف الدين في مؤسسات الدولة ونفوس الرعية:

وهذا من أخطر أعمال الأمراء السفهاء إن لم يكن أخطرَها.

وقد كَشفت الوثائق البريطانية عن تخوُّف القوى الكبرى في العالم من وجود أي تكتُّل إسلامي محايد لا يرتبط بالقوى الغربية، وتؤكِّد قلقَ القوى الغربية والصهيونية من عودة المسلمين لدينهم ووحدتهم(١).

وبهذا فإن إبعاد الإسلام عن حياة المسلمين ومؤسسات دولهم؛ أكبر سَفَه وخيانة لله والرسول والأمة والبلاد والعباد.

٥ ـ تشجيع العبث والفسق والفجور والرذيلة، ومحاربة الفضيلة وخنق معاقد العفة في الزواج وبناء الأسرة:

ويتجلَّى ذلك بما تنشره الصحافة ووسائل (الترفيه) والإعلام المختلفة من برامج ومفاهيم ومسرحيات ومسلسلات وقصص وأفلام كلها تحمل صور الانحلال والعبث والجنس الرخيص، و(أدب الفراش)، واستعلاء الترف الكاذب والأمن الخادع والحرية المطلقة، بهدف إدخال أبناء وطننا العربي والإسلامي في حالة من الخدر الشديد، بحيث لا يستيقظون إلا على الضربة القاضية التي تُعَدُّ لِتوجَّه إليهم(٢).

٦ ـ الجرأة على ثوابت الأمة ومقدساتها:

وقد ظهرت في أمتنا أجيال ونشأت طوائف ونزعات شتى: بعضُها غريبٌ

= والدارمي (٣٣٦٥)؛ وابن حبان (٧٧٢)؛ والبغوي (١١٨٤)، واللفظ له. **وعُسْفان**: بلد على مسافة (٨٠كم) من مكة شمالاً على طريق المدينة.

(١) الضربات، للجندي، ص٣٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠٤.

على الإسلام، وبعضُها عدوٌّ له، وبعضها يؤمِنُ بجزء من تعاليمه ويكفُر بجزء آخر.

واستشرت الجراءةُ على هذا الدين جملةً وتفصيلاً؛ فهذا يُنكر أصلَ الإيمان، وهذا يماري في حقيقة النبوّات وإمكانِ الوحي، وهذا يتساءل: لِم تُحرَّم الخمر مع فائدتها للصحة؟! ثم يقول: إن تحريمها خَطَل! وهذا يرى الوِقاع الجنسي ما دام بتراضي الطرفين لا شيءَ منه، ويستغرب تسميته زنى! وهذا يمضي فوائد الربا، ويَسخر من حَظْرها! وهذا يصف الصلوات الخمس بأنها مضيعةٌ للأوقات، ومشغلةٌ عن الواجبات! وهذا يستنكف من التذكير باليوم الآخر، ويظن الحديث عنه رجعية.

وأفلح الغزو الثقافي بالتعاون مع أمراء السَّفَه والحُمق والجهل، أو بإغضاءٍ وغَفْلَة منهم، أن يكوّن جيلاً يستحيي من الانتساب إلى الإسلام، ويَكره أن يُرى وهو يقوم بشيء من شعائره، خصوصاً بين المثقفين الكبار، والطبقات التي تُهَيّأ للحكم والنفوذ[١].

وصدق الرسول ﷺ في وصفه لهؤلاء: «**لا يهتدون بهَدْيي، ولا يَستنُّون بسُنَّتي**».

٧ ـ السفه في تبديد ثروات الأمة:

فالخيرات والثروات الظاهرة فوق سطح الأرض والمدفونة في باطنها؛ هي أصلاً ملكٌ للجماعة توزَّع بين الأفراد توزيعاً عادلاً وفق عملهم وكَسْبهم واجتهادهم، وحَسْب حاجاتهم وضروراتهم، فالثروةُ لا يجوز أن يكتسبَها الأفراد ظُلماً وعدواناً وتسلُّطاً، ولا ينفقونها في مزالق الهوى والضلال والاستغلال، بل ينفقونها في إشباع ضروراتهم وحاجاتهم، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ومسارعين إلى الخيرات.

(١) كفاح دين، ص١٢٦، ١٢٧.

ومصادر الثروة تعتبر أمانةً منحها الله للإنسان، وجعله أميناً عليها ومستخلَفاً فيها، وأول الأمناء رأس الحكم ثم من يليه من نواب ووزراء وسواهم. . ويجب أن تستثمر لأقصى حدٍّ ممكن، فلا يحق للدولة أو الجماعة أو الفرد اكتنازها أو تبديدها فيما حرم الله تعالى ورسوله ﷺ[١].

والذي يحزن أن قسطاً كبيراً من أن ثروات الأمة الإسلامية الضخمة تُعتبر في حكم الضائع، وفي أغلب الأحيان لا تُستخدم لتوفير الكفاية والعدل، وأصبح تبديد هذه الثروات في أمور غير مشروعة واضحاً جليّاً[٢].

★ ★ ★

٧٤ ـ بَيْعُ الحُكْم

●● فَسَّروا الحُكْم بأنه القضاء، وبيعَه بأخذ الرشوة عليه.

ولا شك بأن هذا صورة من صور بَيْع الحكم، لكن حَصْره فيها تضييقٌ لمفهومه، وتبسيط شديد لمدلوله، وتقييد لمطْلَقه وشموله! فالنبي ﷺ إنما تخوَّف على الأمة من (بيع الحكم)؛ لخطورته وعمومه واستغراقه مناحي الحكم كبيرها وصغيرها.

فكأن الرجل في منصبه في الحكم يتَّخذه مَغْنماً مادياً، وسلعةً للبيع والشراء، يتكسب منها السُّحت، غيرَ مبالٍ بما يجرُّه على نفسه من غضب الله، وعلى آله من مال حرام، وعلى أمته من فساد وخراب ودمار وضياع للحقوق وأكلٍ لأموال الناس بالباطل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لعنَ اللهُ الرَّاشِي والمُرتشي في الحُكْم**»[٣].

---

(١) الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٩٤، ١٩٨.

(٢) انظر: الإسلام والطاقات المعطلة، ص٢٠٥؛ الضربات، ص٣٠٤.

(٣) أخرجه أحمد: ٢/ ٣٨٧، ٣٨٧ ـ ٣٨٨؛ والترمذي (١٣٣٦)؛ وابن الجارود (٥٨٥)؛ =

وعن عبد الله بن عُمر ـ في حديث طويل ـ أن رسولَ الله ﷺ بَعث عبدَ الله بن رواحة إلى يهود خيبر، لِيَخْرُصَ عليهم نَخْلَهم (وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كلَّ عام يَخْرُصُها عليهم، ثم يضمنهم الشَّطْر. قال: فشَكَوا إلى رسول الله ﷺ شدَّة خَرْصِه، وأرادوا أن يُرْشُوه فقال: يا أعداءَ الله! أَتُطعموني السُّحْتَ؟! والله لقد جئتُكم من عند أحبِّ الناس إليَّ، ولأَنتُم أبغضُ إليَّ من عِدَّتِكم من القِردة والخَنازير، ولا يَحملُني بُغْضي إيَّاكم وحُبِّي إيَّاهُ على أنْ لا أعدلَ عليكم! فقالوا: بهذا قامتِ السموات والأرض)[1].

وعن أبي حُميد السَّاعِدِيّ قال: (استعملَ رسولُ الله ﷺ رجلاً من الأَسْدِ يُقال له: ابن اللُّتْبِيَّة، على الصدقة، فلما قدِمَ قال: هذا لكم، وهذا لي أُهدِيَ لي. قال: فقام رسول الله ﷺ على المِنْبَر، فحمدَ الله وأثنى عليه، وقال: «**ما بالُ عاملٍ أَبْعَثُه فيقول: هذا لكم، وهذا أُهدِي لي! أَفَلَا قَعَد في بيت أبيه أو في بيت أمِّه حتى ينظرَ أَيُهدَى إليه أم لا؟! والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لا يَنالُ أحدٌ منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يَحملُه على عُنُقِه؛ بعيرٌ له رُغَاءٌ، أو بقرةٌ لها خُوَارٌ، أو شاةٌ تَيْعَرُ**» ثم رَفَع يديه حتى رأينا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْه، ثم قال: «**اللهمَّ هل بلَّغتُ**» مرتين)[2].

●● ذكر المؤرِّخون أن أبا جعفر المنصور قد ألَحَّ وتحيَّل بكل ممكن على ابن عمه وولي العهد من بعده عيسى بن موسى حتى خَلَع نفسه، وعوَّضه عشرة ملايين درهم، ويكون ولي العهد من بعد المهدي بن المنصور[3]!.

= والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٦٦٢)؛ وابن حبان (٥٠٧٦)؛ والحاكم: ٤/١٠٣، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه الألباني؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط.

(١) أخرجه مطولاً: ابن حبان (٥١٩٩) واللفظ له؛ والبيهقي في السنن: ٦/ ١١٤؛ والدلائل: ٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣١؛ وأخرجه مختصراً: البخاري (٢٢٨٥)؛ ومسلم (١٥٥١)؛ وأبو داود (٣٤٠٨)، وغيرهم كثير.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٧٩) وأطرافه في (٩٢٥)؛ ومسلم (١٨٣٢) واللفظ له؛ وأبو داود (٢٩٤٦)؛ وأحمد: ٥/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤؛ والحميدي (٨٤٠)؛ وابن حبان (٤٥١٥)، وغيرهم.

(٣) العبر: ١/ ١٥٩، أحداث سنة (١٤٧هـ).

ولما آلت الخلافة إلى المهدي تحيَّل هو الآخر على عيسى بن موسى بالرغبة والرهبة في خلع نفسه، لتكون ولاية العهد لولده موسى الهادي بن المهدي، فأجاب عيسى خوفاً على نفسه، فأعطاه المهدي عشرة ملايين درهم وإقطاعات(١)!.

فهذا وذاك صورة بدائية لبيع الحكم، ولقد شاعت في بلاد العرب والمسلمين في العصور المتأخرة صورٌ لبيع الحكم ونماذج للمتاجرة بالمناصب تدعو للاستغراب، وتبعث على الاستهجان، مما آلَتْ إليه النفوس من استرخاص للأمانة التي أُنِيطت بها، والخيانة والعقوق للدين والأمة التي قام فيها نفر كبير بالسطو على منابر الحكم، وضَحَّوا بكل شيء في سبيل البقاء في مناصبهم الكبيرة أو الصغيرة.

ومن الأمثلة أيضاً ما يُنْفَق في (الانتخابات) ويُبذل من أموال طائلة لشراء الأصوات والتلاعب بصناديق الاقتراع وتزوير النتائج، للفوز بهذا المنصب أو ذاك.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما كان يبعث ولاته على البلدان كان يقول: (اللهمَّ إنِّي أُشْهِدُكَ على أمراءِ الأمْصار، وإنِّي إنَّما بعثْتُهم عليهم ليعدِلُوا عليهم، ولِيُعَلِّموا الناسَ دينَهم وسنَّةَ نبيِّهم ﷺ، ويَقْسِموا فيهم فَيْئَهم، ويَرْفَعُوا إليَّ ما أَشْكَل عليهم من أمرِهم)(٢).

وكان يحاسبهم حساباً دقيقاً، ويحصي عليهم أموالهم قبل الولاية وبعدها، ويطبّق بدقة عجيبة مبدأ (من أين لك هذا؟)، وأما الآن فنحن نقول باستغراب للكثيرين ممن وَلُوا ولاية كبيرة أو صغيرة: (بالله كيف ومتى جمعتَ هذا؟!).

وترى نماذج بيع المناصب كثيرة لا تحدها الأمثلة، في الوزارات، والمؤسسات العامة، والهيئات القائمة على موارد الدولة، والبنوك، والجمارك،

---

(١) العبر: ١/ ١٧٧، أحداث سنة (١٥٩هـ).

(٢) أخرجه مسلم (٥٦٧) واللفظ له؛ وأحمد: ١/ ١٥؛ وابن سعد: ٣/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦؛ وابن حبان (٢٠٩١).

وغيرها، فالذين يظفرون بتلك المواقع لقاء منفعة مادية أو أدبية تقدم لهذا المسؤول أو ذاك، يصبحون بعد سنين قليلة من الأثرياء.

●● ولا يصعب على اللبيب معرفة الواقع المرّ الذي نعيشه في هذا الميدان، والذي هو ترجمة حية وتصديق باهر لقوله ﷺ: «**وبَيْع الحكم**»، بمفهومه العام والشامل لأعلى منصب في الدولة وحتى آخر موظف وُكِلت إليه أمانة عامة مادية أو أدبية، هي فرع من فروع الحكم الكثيرة، وليس ذلك مقصوراً على منصب الرئاسة العليا وأروقة القضاء.

★ ★ ★

٧٥ ـ الاستخفاف بالدم

●● وهذا وقع في الأمة منذ عهد بعيد، واستمر مع مسيرة التاريخ المتلاحقة، واستحكم في المئة سنة المنصرمة.

وبتدبُّر ما كتبناه حول هلاك الأمة على يدي الأُغَيْلمة السفهاء، والاقتتال على الحكم، والحرص على الإمارة، والاستئثار بالسلطة، وما رافق ذلك من خروقات وفتوق في الأمة، فنتج عن ذلك كله تواجُهُ فرقاء متشاكسين، واصطراع جندهم المشايعين، فأُزْهِقت أرواح، وسُفكت دماء، لا ذَنْبَ لها ولا ثمن إلا مناصرة هذا المستبد بالسلطة أو ذاك المناوئ له الخارج عليه.

وكان الأمر كما أخبر الرسول ﷺ عنه من «الاستخفاف بالدم» في عهود الأمراء السفهاء الذين تطيش عقولهم وتخفُّ حلومهم ويستبدُّ بهم حُمْقُهم، فيركبون الصعب والذلول للفوز بهذا المنصب أو ذاك، ولا يشغل بالَهم عندئذ إهلاكُ الحرث والنسل، وتقديمُ أنفس الناس قرابين على مذبح الملك وعتبات السلطة!.

والمتأمل فيما جرى في بعض سني الخلافة الأموية زمن مروان بن الحكم وابنه عبد الملك وأيام مروان الحمار، وقيام دولة بني العباس على أنقاض الدولة الأموية، وفترات كثيرة من عهد العباسيين، مروراً بالأندلس وما جرى بين ملوك

الطوائف، وانفصال الدويلات عن الخلافة العباسية وقيامها عليها، والصراع في أزمان الأيوبيين والمماليك، وفترات من الخلافة العثمانية ـ المتأمل في ذلك بتفاصيله، والمتدبر لأعداد الأنفس التي أُتْلِفت في الاحتراب والصراع والخروق والخروجات، يتجلَّى له مصداق هذه النبوءة ودقة عبارتها في الدلالة على واقع الحال: «**واستخفافاً بالدم**»!.

فالدم مُصَانٌ ومكرَّم ومقدّس وله حرمة كبيرة، وقد حرص الإسلام على سلامة الأنفس بصورة عالية جداً، وجعل للنفس البشرية مكاناً عالياً ووزناً ثقيلاً، لكن في حسابات السفهاء وممارساتهم وتحقيق أطماعهم يكون الدم مسترخَصاً خفيفاً لا وزنَ له!.

●● وإذا اقتربنا من زماننا هذا، ورَجَعْنا البصرَ مئة سنة، ثم رجعناه كرتين، وأعملْنَا الفكر، فإننا نجدُ الحديث عن ذلك ذا شجون محزنة، وذكريات دامية يتفطر لها قلب كل إنسان حرّ فيه نبضٌ من حياة!.

وانظر إلى خريطة العالم العربي والإسلامي في العقود الخمسة الأخيرة، لتفجأك وتفجعك الدماء المستباحة في العالم العربي والإسلامي.

وكثير منها دماء سالت بسبب صراعات بين المتنفذين، تحصد جناها الشائك وثمنها المرّ الشعوبُ المبتلاة بالسفهاء!.

● ولكن:

لا يأس ولا قنوط، فالأمل قادم من قريب لا من بعيد، فإن الرجالَ الذين صنعوا المعجزات خرجوا من أرحام الأزمات، والمعاركَ الحاسمة في تاريخنا جاءت بعد انكسارات جامحة، والفجرَ إنما ينبلج نوره بعد أن يهزم ظلمات الليل الحالكة، والينبوعَ الدفّاق يتفجَّر من الصخور الصُّمِّ، والمولودَ لا يستهلّ صارخاً إلا بعد معاناة الحمل وآلام المخاض المُبرِّحة.

هاهو الأسد الإسلامي يتململ في عرينه، وقد تعاورت عليه الثعالب

والضباع ردحاً من الزمان، فجرحَتْه وأَدْمَتْه من هنا وهناك، لكنها لم تقضِ عليه ولن تستطيع!.

فالرسول ﷺ وَعَدنا بقوله الصادق: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يَضُرّهم من خَذَلَهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»، وقوله: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لها دينها**»[1].

وهاهو ذا أوانُ تصديق ذلك قد أَظَلَّ زمانُه، والدورة الحضارية للإسلام ولو كره الكافرون، وتشكّك القاعدون والمتقاعسون!.

فكن أيها المسلم من ذلك الركب الميمون والطائفة المنصورة التي امتدحها رسولنا العظيم ﷺ.



(١) في هذا الكتاب تفصيل وافٍ لهاتين النبوءتين، رقم (١٠٩) و(١١٠).

إخبار النبي ﷺ
بقيام الحكام المضلين على أمور المسلمين

١ ـ عن أبي ذَرٍّ الغِفَاريِّ رضي الله عنه قال: (كنتُ مُخَاصِراً النبيَّ ﷺ يوماً إلى منزله، فسمعتُه يقول: «**غيرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ على أمَّتي من الدجّال**»! فلما خشيتُ أن يدخلَ قلتُ: يا رسولَ الله! أيُّ شيءٍ أخوفُ على أمَّتِك من الدجال؟ قال: «**الأئمةَ المضلِّين**»)(١).

٢ ـ وعن ثَوْبَانَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما أخافُ على أمَّتي الأئمةَ المُضِلِّينَ**»(٢).

٣ ـ وعن شَدَّاد بن أَوْسٍ رضي الله عنه قال: قال نبيُّ الله ﷺ: «**إنِّي لا أَخَافُ على أمَّتي إلا الأئمةَ المُضِلِّينَ، وإذا وُضِعَ السَّيْفُ في أمَّتي لم يُرْفَعْ عنهم إلى يومِ القيامةِ**»(٣).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ١٤٥؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٩٨٩)؛ وصحيح الجامع (٤١٦٥). والمُخاصَرة: أن يأخذَ الرجل بيدِ رجلٍ آخَر يتماشَيَان ويدُ كلّ كل واحدٍ منهما عند خَصْر صاحبِه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٢٩) وقال: حديث حسن صحيح؛ وأخرجه في حديث طويل: أبو داود (٤٢٥٢)؛ وابن ماجه (٣٩٥٢)؛ وأحمد: ٥/ ٢٧٨، ٢٨٤؛ والحاكم: ٤/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن حبان (٤٥٧٠) واللفظ له؛ والداني (٥٤)؛ وأخرجه أحمد: بأطول مما هنا: ٤/ ١٢٣؛ وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على ابن حبان: إسناده صحيح.

وحديث الحكام المضلين: رواه أيضاً عمر، وعلي، وأبو الدرداء، وهو حديث صحيح =

أولاً: بين يدي النبوءة:

يخبر رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث عن مجيء حكام وملوك وأمراء وسلاطين، يستولون على الحكم ويقومون على رقاب الأمة، فينحرفون بها عن الطريق المستقيم، ويناصبون شرعَ الله العداءَ، ويعملون على هَدْم أركانه، وتدمير حصونه، وخَفْض أعلامه، ومحاربة حماته، ومطاردة دعاته، ويُشَرِّعون الضلال وينشرونه، ويناصرون أهل الأهواء ودعاة الانحلال وأصحاب الفسق والفجور، ليُذيبوا شخصيةَ الأمة، ويُضْعِفوا قوتها، ويسهِّلوا افتراسها على أَكَلَتها!.

وقد وقع ما أخبر النبي ﷺ به وتخوَّف على أمته منه، منذ نحو قرنين من الزمان، واستفحلَ شرُّه في العصر الذي نعيشه الآن.

والحكم في الفقه الإسلامي خلافةٌ عن النبوة في رعاية شؤون الناس الدينية والدنيوية، فكما يُقيم الحاكم جسراً على نهر ليَعْبُرَ عليه العابرون، يبني المعهدَ الذي يصقلُ النفوس، ويبيِّن الحلال والحرام، والفضيلة والرذيلة، كلا العملين جزءٌ من وظيفته.

والدولة في نظر الإسلام مكلَّفةٌ برعاية حقوق الله، وإشاعةِ تقواه، وتوطيدِ وقاره، وتقديس اسمِه.. كذلك من وظيفتها تهيئةُ الجو المُعِين على انتظام الصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وغيرها من أركان الإسلام وأعمال الخير التي أمر بها.

ولكي تكون الدولة مسلمة حقّاً، وصدى لجماهير المسلمين التي تحكُمُ باسمها؛ لا محيصَ من أن تلتزمَ معالمَ الحلالِ والحرامِ، وحدودَ الأمر والنهي، وأن تتحرَّى ما يريد الله في كتابِه لتسارعَ إليه، وما صنَعَ رسولُه ﷺ لتتأسَّى به(١).

= صححه الترمذي وابن حبان والحاكم والذهبي والألباني وشعيب الأرنؤوط، وانظر: الصحيحة: ٤/١٠٩ ـ ١١١ (١٥٨٢).

(١) انظر: معركة المصحف، ص١٠ ـ ٢١.

ثانياً: واقع الأمة وتحقق النبوءة:

●● لقد سلَخَ المسلمون من تاريخهم ثلاثةَ عشر قرناً، وهم مرتبطون قلبيّاً وفكريّاً بدينهم، يَصدرون عنه، وينطلقون منه.

ونحن نعترف بأن هذا الرباط تعرَّض لأنواع من العلم والجهل، والذكاء والغباء، والاتِّباع والابتداع، والتقليد والتجديد.. وتعرَّض كذلك لألوانٍ من الإخلاص والرياء، والشجاعة والنكوص، والإيثار والأَثَرة، والشورى والاستبداد، والعدالة والجَوْر.

ومع ذلك كلِّه فرباطُ الأمة بالإسلام قائمٌ، وانتسابُها إليه ظاهرٌ.. وأيُّ حاكمٍ في أيِّ عصرٍ، مهما بَلَغ ظلْمُه يَفْرَقُ من مفارقة الإسلام والانخلاعِ من تعاليمه[1]!.

وبالرغم مما اعتوَر الحكمَ من انحراف وخلل وتجاوزات من لَدن بني أمية وإلى أواخر عهد بني عثمان: من انتقال الحكم بالوراثة، أو الوثوب عليه والتمكن منه بالقوة والغلبة، وما جرى من اقتتال على منابر الحكم، واستئثار بالسلطة وحرصٍ عليها، والسَّفَه في الدفاع عنها.. وأيضاً بالرغم مما التاثَتْ به سيرةُ بعض الحكام في عهود مختلفة وأمصار متعددة، وما أُثر عن بعضهم من سَفَه أو فسقٍ في مسلكه الشخصي، أو تجاوز وترخُّصٍ في بعض أحكام الإسلام وشعائر الدين، وتفريط بالواجبات المناطة بالحاكم تجاه دينه وأمته، قليلاً أو كثيراً في عدد من أولئك الأمراء على مدى نحو ثلاثة عشر قرناً.

نقول: بالرغم من كل ما ذكرناه، فإن أولئك الخلفاء والأمراء والملوك والسلاطين كان ولاؤهم للإسلام، وكان شعارَهُم المرفوعَ ومنطلَقَهم المعلن وملاذَهم عند المنافرة والمفاخرة، من لدن معاوية تاج بني أمية وحتى عبد الحميد

---

(١) المرجع السابق، ص٢١.

الثاني العثماني، ولا يعكر على ذلك وجود أمراء صغار ضَعُفوا عن ذلك النهج، لكنهم بكل حال ما ابتغوا بغير الإسلام بديلاً.

نعم تولى كثير منهم الحكم بغير الطريق التي انتهجها الخلفاء الراشدون، لكنهم حرصوا على الإسلام وحمايته وتطبيق أحكامه، وإقامة معالمه، وحراسة حدوده، واستمدوا وجاهتهم من بذل الجهد في ذلك المضمار، حتى الذين حكموا في ظل استبداد سياسي واضح.

لقد طاردوا الخوارج ومزَّقوا جموعهم في حروب طويلة، ولاحقوا الزنادقة وقتلوهم تقتيلاً، وصبروا لفتنة الزَّنْج طويلاً حتى فَلُّوا جموعَهم، وابتُلوا بالقرامطة الزنادقة فما توانوا في مقاومتهم إلى أن أراح الله الأمة من شرهم، وبَطَشوا بدعاوى بابَك الخُرَّمي، والمُقنَّع مدعي الربوبية، ومحمد بن علي الشَّلْمغَاني مدعي الإلهية وإحياء الموتى، والراوندية أصحاب أبي مسلم الخراساني الذين يقولون بتناسخ الأرواح، وغير ذلك مما يطول ذكره.

فلم يأذَنْ هؤلاء الحكام بقيام ملة تضادُّ شريعةَ الإسلام، أو بانتشار أفكار تناوئه وتطعن به وتهدم أركانه، وتسخر من مبادئه، وقد برِئوا من باب أولى من نشر الضلال والزندقة والإلحاد، أو حماية هذه المفاسد ومناصرة أهلها.

(وإن الحاكِمَ الذي احتلَّ مقعدَ الرياسة، أراد أن يُثبتَ جدارته به ـ وإن جاء بطريق مفتعَلٍ ـ فتبنَّى جميعَ المُثُل الإسلامية، واجتهد في الداخل والخارج أن يقيم أحكام الإسلام ويحترم معالمه كلَّها... واجتهد عامة الحكام في أن يقوموا بواجبات الحاكم المسلم، فكان الخليفة يؤمُّ الناسَ في الصلاة الجامعة، ويخطبهم، ويحجُّ بوفودهم، ويقودُ الجيوش لمقاتلة أعداء الإسلام.

ويستحيلُ أن يعطِّل أحدهم حَدّاً أو قصاصاً، أو يجحدَ فريضة، أو يستهين بشعيرة.

الإسلام في أيامهم دينُ الفرد والمجتمع والدولة.

أولئك الحكام كلهم جعلوا السلطةَ المتاحةَ لهم وسيلةً لحماية الإسلام

وإنفاذِ شرائعه، ولو فكَّر أحدُهم في تَرْك الكتاب والسنَّة لقُتِل لساعته، واختفى اسمُه ورسْمُه.

والحكام المسلمون سواء كانوا أمويين أو عباسيين أو عثمانيين؛ كانوا على أي حال محكومين بتعاليم الإسلام التي لا ريب فيها، ومرتكبو السيئات منهم كانوا يرتكبونها فرادى أخفياء! وهيهات هيهات أن يجرؤ أحدُهم على تحليلِ محرَّمٍ أو تحريمِ حلالٍ)[١].

●● ومنذ قرن ونَيِّف من الزمان، وبعدما عاث الاستعمار الصليبي ثم الشيوعي معه في كل شبر من بلادنا العربية والإسلامية، (ورانَ على كل شأنٍ من شؤوننا، فقد تمكَّن من زحزحةِ المجتمع عن المحور الذي دارَ عليه ثلاثةَ عشر قرناً، وتمكَّن من إلقاءِ بذورِ ارتدادٍ مخيفٍ في جوانب الحياة التشريعية والتعليمية والسياسية، فأمسَتْ تعاليمُ الإسلام عند الكثيرين متعذِّرة القبول، أو متعسِّرة التنفيذ.

والغريبُ أن هذا التخلخلَ في الكيان الديني حَدَث وعنوانُ الإسلام باقٍ، باقٍ على ركامٍ من الجدّ والهزل، يَدَعُ الحليمَ حيرانَ!)[٢].

لقد دار الفَلَكُ دورته، وتقلَّبت السنون والأيام، وذَهَب خلفاء وملوك وأمراء، وجاء من بعدهم قوم آخرون؛ أضاعوا الدِّين بل حاربوه، واتبعوا المضلين وشايعوهم، ووقع المحذور الذي خَوّف منه رسول الله ﷺ.

ويلاحظ على ألفاظ الحديث النبوي استخدام أدوات الحصر: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»، «**إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين**»، بل جاء في حديث أبي ذر: أنه ﷺ يخشى على الأمة من الأئمة المضلين أشدَّ من خشيته عليها من الدجَّال!.

---

(١) معركة المصحف، ص٤٨ ـ ٥١، مقتطفات.

(٢) المرجع السابق، ص٢١.

وذلك لأن الدجال تبتلى الأمة به في مرحلة محددة، ثم إن أمره مكشوف ودجَلَه ظاهر، وكذِبَه واضح بيِّن، قد حذَّر منه ﷺ وأنذر، وفَصّل في أمره حتى لا ينطلي على أحد.

أما هؤلاء الأئمة المضِلّون فخطرهم كبير، وشرُّهم مستطير، يتولّون أمر الأمة في أصقاع عديدة، وفي أزمنة كثيرة وسنين متطاولة، وبأيديهم كل أدوات التأثير والتوجيه الظاهرة والخفية، ويُعينهم أتباعٌ في الداخل وأعوانٌ في الخارج، ثم هم يزيِّنون للدهماء ـ في كثير من الأحيان ـ أعمالَهم وأفعالهم، ويُظْهِرون التمسك ببعض شعائر الإسلام، ويُبدون الحرصَ على مصالح الأمة، وأن ما يفعلون ويغيِّرون ويبدِّلون لا يتعارض مع الدين، بل هو من رحمة الإسلام في تعدد الآراء واختلاف الاجتهاد، وحرية الرأي، وعدم الإكراه، والتجديد والتطوير، والترويح والترفيه، والتقنية والتقدم، وملاحقة ركْب الغرب السبَّاق إلى الاختراعات والكشوفات والصناعات وغير ذلك.

ثم إنهم ـ بزعمهم ـ يَسلكون طريقةَ الإسلام في اللِّين والسلام، والإخاء وحقوق غير المسلمين، ومحاربة التعنت والغلو والإرهاب الديني والفكري، إلى ما هنالك من أساليب شيطانية تجد من يروِّج لها، حتى من بعض أصحاب العمائم وخريجي المعاهد الشرعية والدراسات الإسلامية، وأرباب الفتوى والمشايخ العصريين المنفتحين الذين لا يجدُ بعضُهم غَضَاضة في إباحة الربا مثلاً!.

لذا تخوَّف رسول الله ﷺ على أمته من هؤلاء، ونبَّه على خطورتهم، وحذَّر أمته من شرورهم وأضاليلهم، ليكون المسلمون على حَذَر، فلا يُلقوا بأيديهم إليهم، فَيَضلّوا بعلمٍ أو بغير علمٍ.

●● **ففي الغزو الثقافي والاجتماعي والتشريعي الذي رمَتْنا به الصليبية، كان حرصها بادياً على ضرورة إقصاء التشريع الإسلامي وإحلال القوانين الغربية محله.**

وقد بدأ ذلك في مصر من عهد محمد علي باشا، وهو قائد تركي خان دولته واستقل بمصر لا ليُقيم عوجَ الأمور فيها بل ليجعل منها مزرعة تدرُّ عليه وعلى أولاده، ووجدت فرنسا ـ عدوة تركيا آنذاك ـ ضالّتَها فيه، فأمدَّتْه بالعون العسكري والعلمي والتشريعي.

وبدلاً من أن يستمسك محمد علي ـ وهو التركي المسلم! ـ بالشريعة الإسلامية مصدراً أصيلاً للتشريع، استقدم القانونَ الفرنسي الصادر سنة (١٨١٠م) فجعله أساساً لِما سَنَّ من تشريعات، وفَتح الطريق لنقل القوانين التي استحُدثت في عهده، ثم التي جدَّت حتى سنة (١٨٨٣م) من قانون العقوبات الفرنسي!.

وهكذا أُصيب التشريع الإسلامي بضربة موجعة منذ خمسين ومئة سنة.

وفي ظل قانون العقوبات المستورد هذا أصبح ـ مثلاً ـ الزنى عملاً لا نُكْرَ فيه، وكذلك الخمر، وتعطّل حَدّ القِصاص وغيره من الحدود، واتسع الحكام في تعطيل أحكام السماء! وانساقت كثير من البلاد العربية والإسلامية وراء هذا الضلال والتحلل من عُرى الإسلام.

وانضمَّ إلى التشريع الفرنسي كمصدر أول للتشريع، القانون البلجيكي الصادر سنة (١٨٦٧م)، والقانون الإيطالي الصادر سنة (١٨٩٩م)، والقانون الهندي الصادر سنة (١٨٦٢م)، والقانون السوداني الصادر سنة (١٨٩٩م)، والقانونان الأخيران مقتبسان من القانون الإنجليزي.

وهكذا تسوَّلَتْ أمة مسلمة مادةَ فقهها العملي من كل قطر كأنها نبتت على صعيد الدنيا بغتة فليس لها ماضٍ تستمدُّ منه، ولا تاريخٌ مشحون بالذخائر الرائعة، تاريخ لو كان لأمة أخرى لكاثرتِ الناسَ به وأغرَتْهم أن يلجؤوا إليه[1]!.

---

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص١٥٤ ـ ١٥٧.

●● وعطَّل الحكام المضلُّون عدة فرائض في الشعائر والمال والسياسة والاجتماع وغيرها.. وتتجول في كثير من عواصم ومدن البلاد العربية والإسلامية في شهر رمضان فلا تجدُ ما يشير إلى احترام شعيرة الصيام، بل ترى الفاسقين يمدّون الموائد في المطاعم وغيرها هنا وهناك تحدياً لحرمة الشهر، واستهانة بأمر الله، وبرضا وحماية من سلطة الحكام المضلين، والويل لمن ينكر هذا[1]!.

وفريضة الزكاة قد عُطِّلت وجُفِّفت مواردُها وأُميتت مصارفُها، بل إن مؤسسات العمل الخيري قد صُودِرَتْ وأُغلقت أبوابُها إلا ما ندر منها وهو تحت سيطرة الرقابة في الموارد والمصارف، لئلا تذهب إلى تمويل (الإرهاب) كما يزعمون! فتضرَّر من ذلك ملايين المسلمين من اليتامى والأرامل والفقراء والمحاويج وطلاب العلم، بل ومن يبحثون عن جرعة ماء ينتشلونها من جوف بئر كانت تموِّله أموال الزكوات والصدقات التي تتولاها تلك الجمعيات والهيئات الخيرية. في الوقت الذي تتكاثف فيه المؤسسات اليهودية والكنسية والتبشيرية لرعاية أبنائها ودعاتها بل وأبناء المسلمين في مجاهل إفريقية للسعي الحثيث في ردَّة المسلمين عن دينهم!.

وشُيِّدت مؤسسات الربا التي آذَنَها اللهُ وأهلَها بالحرب، وضُيِّق الخِناق على المصارف الإسلامية، وحِيكت ضدّها المؤامرات لإحباط مشاريعها والحدِّ من نجاحها ونشاطها.

وحُورِبت الفضيلة والعفَّة وطُورِد الحجابُ في كثير من بلاد المسلمين.

●● وإذا نظرتَ للمسألة من زاوية أخرى ترى في عهد (الحكام المضلِّين)، وفي ظلِّهم وتحت رعايتهم بل وبتشجيعهم ومعونتهم ومكافآتهم تنشط كل

(١) انظر: معركة المصحف، ص١٧.

الأحزاب والأفكار الهدامة التي تغتال هوية الأمة وتجتاح عقول أبنائها وتعبث بأفئدتهم.

وتنظر إلى الغيورين والمخلصين كأنهم غرباء في أوطانهم؛ قد غُلَّتْ أيديهم عن الإصلاح والتغيير، وبُعثرت الأشواك في طريقهم.. وأصحاب الكفاءات لا يجدون لأنفسهم ما يليق بإمكاناتهم، فينزوون في زواياهم، أو يهاجرون هائمين على وجوههم ليجدوا بلاد الغرب قد فَتَّحَتْ لهم الأبواب مرحِّبة ومكرِّمة.



إخبار النبي ﷺ
عن حكام وأمراء يميتون الصلاة ويطفئون السنَّة

١ ـ عن أبي ذَرٍّ الغِفَاريِّ رضي الله عنه قال: (قال لي رسولُ الله ﷺ: «**كيف أنتَ إذا كانت عليكَ أمراءُ يؤخِّرونَ الصلاة عن وَقْتِها، أو يُميتون الصلاة عن وقتِها؟**» قال: قلتُ: فما تأمُرني؟ قال: «**صَلِّ الصلاةَ لوقْتِها، فإنْ أَدْرَكْتَها معهم فَصَلِّ، فإنها لكَ نافِلةٌ**»).

وفي رواية: «**صَلِّ الصَّلاةَ لوقْتِها، فإنْ أَدْرَكَتْكَ الصلاةُ معهم فَصَلِّ، ولا تَقُلْ: إنِّي قد صلَّيتُ، فَلا أُصَلِّي**»[(١)].

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال لي رسول الله ﷺ: «**كيفَ بكم إذا أَتَتْ عليكم أمراءُ يُصَلُّون الصلاةَ لغيرِ ميقاتِها؟**» قلتُ: فما تأمُرني إنْ أَدْرَكني ذلك يا رسولَ الله؟ قال: «**صَلِّ الصلاةَ لميقاتِها، واجعلْ صلاتَكَ معهم سُبْحَةً**»).

وفي رواية: «**لعلّكم ستُدرِكُونَ أقواماً يُصَلُّونَ الصلاةَ لغيرِ وقتِها، فإنْ أَدركْتُموهُم فَصَلُّوا في بُيوتِكم للوقت الذي تَعْرِفونَ، ثم صَلُّوا مَعَهم واجْعَلُوها سُبْحَةً**»[(٢)].

٣ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: «**إنَّه سَيَلي**

---

(١) أخرجه مسلم (٦٤٨) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٣١)؛ والترمذي (١٧٦)؛ والنسائي في الكبرى (٨٥٦) و(٩٣٤)، والصغرى: ٢/ ٧٥؛ وابن ماجه (١٢٥٦)؛ والطيالسي (٤٥٤)؛ وعبد الرزاق (٣٧٧٩ ـ ٣٧٨٢)؛ وأحمد: ٥/ ١٦٣، ١٦٩؛ وابن حبان (١٤٨٢) و(١٧١٨) و(١٧١٩)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٢)؛ والنسائي في الكبرى (٣٢٧)، والصغرى: ٢/ ٧٥؛ وابن ماجه =

أَمْرَكُم من بَعْدِي رجالٌ يُطْفِئُونَ السُّنَّة، ويُحْدِثُون بِدْعةً، ويُؤَخِّرونَ الصلاةَ عن مَوَاقيتِها» قال ابن مسعود: يا رسولَ الله! كيفَ بي إذا أَدْرَكْتُهم؟ قال: «**ليسَ يا ابنَ أمِّ عبدٍ طاعةٌ لِمن عَصَى الله**» قالها ثلاثَ مرّات)[١].

❁ ❁ ❁

هذا خبر صادق من النبي ﷺ يُنبئ فيه عن ظهور خلفاء وملوك وحكام وأمراء في الأمة الإسلامية، تقع منهم ثلاثة أمور منكرة، ويمارسون ويناصرون ثلاث موبقات خطيرة على الأمة ودينها وكيانها، وهي: تأخير الصلاة وإماتتها، وإحداث البدعة، وإطفاء السنّة!.

وقد وقع المحذور الأول في بعض زمان بني أمية، والثاني والثالث في فترات من خلافة العباسيين، ثم استشرت تلك المنكرات الثلاث في عهود الأمة المتأخّرة وحتى زماننا.

قال النووي: (قوله ﷺ: «**إنه سيكون بعدي أمراء يميتون الصلاة**»، فيه دليل من دلائل النبوة، وقد وقع هذا في زمن بني أمية)[٢].

أولاً: تحقق النبوءة قديماً وحديثاً:

●● قال النووي: (معنى «**يميتون الصلاة**»: يؤخِّرونها، فيجعلونها كالميت الذي خرجت روحه، والمراد بتأخيرها عن وقتها، أي عن وقتها المختار لا عَنْ جميع وقتها، فإن المنقول عن الأمراء المتقدمين والمتأخرين إنما هو تأخيرها عن

= (١٢٥٥)؛ وأحمد: ١/ ٣٧٩؛ وابن حبان (١٤٨١)، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط. والرواية الأولى لأبي داود، والثانية لابن ماجه. ومعنى **سبحة**: أي نافلة.

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠، واللفظ له؛ وابن ماجه (٢٨٦٥)؛ والبيهقي في السنن: ٣/ ١٢٧؛ وفي الدلائل: ٦/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧؛ والطبراني في الكبير: ١٠/ ٢١٣ (١٠٣٦١)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه؛ وفي الصحيحة (٢٨٦٤).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٣/ ١٦١.

وقتها المختار، ولم يؤخّرها أحد منهم عن جميع وقتها، فوجب حملُ هذه الأخبار على ما هو الواقع)[١].

وقال نحوه المهلَّب شارح «البخاري»، وتبعه جماعة.

واستدرك الحافظ فقال: (قد صَحَّ أن الحَجَّاج وأميرَه الوليد ـ بن عبد الملك ـ وغيرهما كانوا يؤخِّرون الصلاة عن وقتها، والآثار في ذلك مشهورة: منها ما رواه عبد الرزاق عن ابن جُريج عن عطاء قال: أَخَّر الوليد الجمعة حتى أمسىٰ، فجئتُ فصليتُ الظهر قبل أن أجلس، ثم صليت العصر وأنا جالس إيماءً وهو يخطب. وإنما فعل ذلك عطاء خوفاً على نفسه من القتل! ومنها ما رواه أبو نُعيم شيخ البخاري في كتاب الصلاة من طريق أبي بكر بن عتبة قال: صلَّيتُ إلى جنب أبي جُحَيْفَة، فمسَّى الحَجَّاج بالصلاة، فقام أبو جُحيفة فصلى. ومن طريق ابن عُمر أنه كان يصلي مع الحجَّاج، فلما أخَّر الصلاة ترك أن يشهدها معه. ومن طريق محمد بن أبي إسماعيل قال: كنت بمنى وصُحُف تُقرأ للوليد، فأخَّروا الصلاة، فنظرتُ إلى سعيد بن جُبير وعطاء يومئان إيماء وهما قاعدان)[٢].

قلت: كل ما أورده الحافظ ليس فيه التصريح بتأخير الصلاة حتى يخرج وقتها، وإنما فيه تأخيرها عن وقتها المختار وهذا حق، إلا خبر عطاء فهو مخالف لكل الآثار في ذلك، وإن صحَّ فَيُحمل على أن ذلك وقع مرة ولم يتكرر، والله أعلم.

عن أبي العالية البَرَّاءِ قال: (أَخَّر ابنُ زياد[٣] الصلاة، فجاءني عبدُ الله بن الصامت، فألقيتُ له كرسيّاً، فجلس عليه، فذكرتُ له صنيعَ ابنِ زياد، فَعَضَّ

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٣/ ١٦٠ ـ ١٦١.
(٢) الفتح: ٢/ ٤١٠ ـ ٤١١، شرح الحديث (٥٣٠).
(٣) هكذا وقع عند مسلم وأحمد: وابن حبان، ووقع عند النسائي في الكبرى (٨٥٦) وفي الصغرى: ٢/ ٧٥: (زياد)، والصواب: (ابن زياد) وهو (عبيد الله بن زياد)، وقد جاء مصرحاً به في مسند أحمد: ٥/ ١٤٧.

على شَفَتِه وضَرب فَخِذِي، وقال: إني سألتُ أبا ذرٍّ كما سألتَني، فضَرب فخذِي كما ضَربتُ فخِذَك، وقال: إني سألتُ رسولَ الله ﷺ كما سألتني، فضَرب فخذِي كما ضربتُ فخذَكَ، وقال: «**صَلِّ الصلاةَ لِوقْتِها، فإن أَدْرَكَتْكَ الصلاةُ معهم فَصَلِّ، ولا تَقُلْ: إني قد صلَّيتُ، فلا أُصلِّي**»[(١)].

وعن الزُّهْرِيِّ قال: (دخلتُ على أنس بن مالكٍ بدمشقَ وهو يبكي، فقلتُ: ما يُبْكيكَ؟ فقال: لا أَعرفُ شيئاً مما أَدركتُ إلا هذه الصلاةَ، وهذه الصلاةُ قد ضُيِّعَتْ!).

وفي رواية: عن عثمان بن سعد قال: (سمعتُ أنسَ بن مالك يقول: ما أَعرِفُ شيئاً مما عَهِدتُ مع رسول الله ﷺ اليوم! فقال أبو رافع: يا أبا حمزةَ، ولا الصلاة؟ فقال: أَوَليس قد علمتَ ما صَنَع الحَجَّاج في الصلاة؟!)[(٢)].

وأنس رضي الله عنه دخل دمشق شاكياً على الحَجَّاج زمن الوليد بن عبد الملك.

وروى الأعمش عن مسلم قال: (كنتُ أجلس مع مسروق وأبي عُبيدة في المسجد في زمن زياد، فإذا دخل وقت الظهر قاما فصلَّيا، ثم يجلسان، حتى إذا أَذَّن المؤذِّن وخرج الإمام قاما فصليا، ويفعلانه في العصر)[(٣)].

فهذه الأحاديث والآثار الصحيحة تدلُّ على أنهم كانوا يؤخِّرون الصلاة عن وقتها ولا يُخْرِجونها عنه. ويؤيد ذلك ألفاظ الأحاديث التي صدَّرنا بها هذه النبوءة. ويؤيده كذلك أمرُ النبي ﷺ الصحابةَ إذا أدركوا ذلك أن يؤدُّوا الصلاة لوقتها، ثم يصلّوها مع الأمير وتكون لهم نافلة، فإذا كان وقتها قد خرج فلا معنى للصلاة معهم آنذاك!.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٤٨) (٢٤٢) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٨٥٦)؛ والصغرى: ٢/ ٧٥؛ وأحمد: ٥/١٤٧، ١٦٠؛ وأبو عوانة: ٢/٣٥٦؛ والبيهقي في السنن: ٢/٢٩٩، ٣٠٠؛ وابن حبان (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٠)؛ وأحمد: ٣/٢٠٨.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة: ٢/ ٢٧٤.

ثانياً: إحداث البدعة وإطفاء السنَّة:

وأما إحداث البدعة وإطفاء السنَّة:

●● فقد وقع ذلك منذ عهد بعيد، ولا يزال يستفحل خطره ويَستعِر شرُّه إلى زماننا.

ونعني هنا ما صدر عن خلفاء أو حكام أو أمراء أو متنفِّذين، وليس عامة البدع فهذه لها شأن آخر.

فمنذ أوائل العهد العباسي ابتدع أبو مسلم الخُراساني (القول بتناسُخ الأرواح)، وهو منشئ الدولة العباسية التي قامت على دماء الأمويين، وكانت دولة أعجمية خراسانية جبَّارة، فقد سفك هذا الطاغية في سنوات قليلة مئات الآلاف من الأرواح، وكان بلاء عظيماً على عرب خراسان، فإنه أبادهم بحدِّ السيف[(١)].

وبُعيد مقتل أبي مسلم هذا سنة (١٣٧هـ) ظهرت (الريوندية)، وهم قوم خُراسانيون يقولون بتناسخ الأرواح، وأن ربَّهم الذي يُطعمهم ويَسقيهم هو أبو جعفر المنصور، وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل[(٢)].

وفي سنة (٢١٢هـ) أَظهر الخليفة المأمون (القولَ بخَلْق القرآن)، وناصَرَ المعتزلةَ وآذى أهلَ السنَّة أذى شديداً، وأَكره الناس على القول بهذه البدعة المنكرة، والله يغفر له فقد كان من خلفاء العدل، محمودَ السيرة، ميمونَ النَّقيبة، فقيهَ النفس، كثير الغزو، من كبار العلماء[(٣)].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٦/ ٥٣، ٥٨.

(٢) العبر: ١/ ١٤٧، أحداث سنة (١٤١هـ). **والهيثم بن معاوية**: من ولاة الدولة العباسية، خراساني الأصل.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٧٩.

وجاء بعده أخوه المعتصم، واستمر على طريقة المأمون فامتحن الناس ببدعة (خلق القرآن)، وكتب بذلك إلى الأمصار(١).

ثم تابعه ابنه الواثق بالله بن المعتصم(٢)، وجاء بعده أخوه المتوكل على الله بن المعتصم فأظهَرَ في سنة (٢٣٤هـ) السُّنَّةَ، وزَجَر عن القول بخلق القرآن، وكَتب بذلك إلى الأمصار(٣).

ومن أخطر ما ظهر في تاريخنا القديم من إظهار البدع وإطفاء السنن؛ ما قامت به الدولة الباطنية العبيدية ـ التي تسمّى كذباً وزوراً بالفاطمية ـ والتي يسميها الإمام أبو شامة في كتابه «الروضتين»: الدولة المجوسية أو اليهودية الباطنية الملحدة!.

فلقد ادعى بعض خلفاء العُبيديين (الفاطمين) أنه (المهدي)، وأنه (رسول الله وحجة الله)، وأنه (هو الله الخالق الرازق)! وجاهَرَ بعضُهم بشَتْم الأنبياء، ولَعْنِ (عائشة وبَعْلها، والغار وما حوى)! وحَضُّوا أبا طاهر القُرمُطِي على قتل المسلمين وإحراق المصاحف والمساجد، وأَمر الحاكم بأمر الله بكَتْب سبِّ الصحابة على حيطان الجوامع والشوارع والطرقات، وهم مع ذلك يدَّعون أنهم علويون فاطميون! وكَذبوا بل هم باطنيون زنادقة(٤).

وبقي خطرهم مشتعلاً إلى أن نصر اللهُ الإسلامَ بصلاح الدين الأيوبي الذي قضى عليهم سنة (٥٦٧هـ)، وأَعلن الخطبة بمصر للخليفة العباسي، بعد أن كان يُخطب للعُبيديين أزيدَ من مئتي سنة(٥).

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٩١.
(٢) العبر: ١/ ٣٢١، ٣٢٥.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٢/ ٣٤.
(٤) انظر: الروضتين: ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢؛ سير أعلام النبلاء: ١٥/ ١٧٣ ـ ٢١٣. وامتدت دولتهم (٢٦٨) سنة، من (٢٩٩هـ) إلى (٥٦٧هـ)، وظهر فيهم (١٤ خليفة!) ثلاثة بإفريقية وأحد عشر بمصر.
(٥) العبر: ٣/ ٤٩، أحداث سنة (٥٦٧هـ).

وفي فترات من عهد العباسيين والعثمانيين والأيوبيين والمماليك وسواهم: ظهر من الأمراء مَن يتهاون بالصلاة ويؤخِّرها، ويُطْفِئ السُّنَن والواجبات؛ مثل: إلغاء الشورى، وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاقتتال على الملك والاستئثار به، والاستخفاف بالدم، وشُرب الخمر، وظُهور الفسق والفجور، وغير ذلك مما هو معروف في التاريخ.

وفي عهد الدولة العثمانية نشأت في إيران الدولةُ الصفوية الشيعية، التي ناصَبَت الخلافةَ العثمانية السُّنّية العداءَ، وحدثت بين الدولتين معارك مريرة، وفي عهد الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩م) لم يستطع في مستهل عهده الوقوفَ في وجه الدولة العثمانية، فعقد معها صلحاً، وكان من شروطه: التعهد بالكفِّ عن شَتْم الخلفاء الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) وأم المؤمنين عائشة[1].

ثالثاً: في العصر الحديث:

●● أما في القرن الفائت وحتى زماننا:

فقد تجلى مدلول النبوءة في وجود أمراء يميتون الصلاة ويُحدِثون البدعة ويُطْفِئون السنّة؛ بأقبح صوره وممارساته:

فعامة الحكام والأمراء لا يشهدون صلوات المسلمين إلا في المناسبات وأحياناً بعض الجُمَع، وبعضهم ـ وهم قلة ـ يكون له مسجد بجوار قصره، ويؤخّر الصلاة ويميتها ـ إن شهدها ـ كما ذكر الحديث!.

وأُهْمِلت ـ بوجه عام ـ شؤونُ مساجد المسلمين، وتمَّ العمل على خرابها بصور شتى: فضَعُفَت العناية بها والإنفاق عليها، وعدم احترام أئمتها وإكرامهم، ففُرضت لهم الرواتب الضئيلة حتى يزهد الناس بها، والمسجد قد يحتاج إماماً ومؤذناً وخادماً فلا يُعيَّن للقيام بشؤونه إلا رجل واحد، والذين يؤمُّون المسلمين في صلواتهم بضاعتهم من العلم مُزْجَاة، ولا يعرفون من علوم الشرع والعصر إلا

(١) انظر: العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٢٦٥.

قليلاً، وأصبحت الصلاة عندهم واجباً وظيفيّاً يؤدونه على جناح السرعة وينصرفون لأمور أخرى.

وكثيراً ما تُغلق المساجد خارج أوقات الصلاة، ومجالسُ العلم فيها معطَّلة، ويُحظر الكلام إلا على مَن أخذ إذناً من سلطان الزمان، والأحاديثُ والخطب في كثير منها لا تتجاوز بعضَ الشعائر والآداب وما يُسمَّى بالمناسبات الدينية! ونُهِبت أوقاف المساجد الطائلة، وتولى الإشرافَ عليها كبار وصغار ينقصهم الورع والأمانة في كثير من الأحيان.

وفي بلاد كثيرة طُورِد الشباب المصلون، وشُدِّدت الرقابة عليهم في عصور حالكة.

ومُنِع مفكرون ودعاة ورجال غيورون من تولي الخطابة أو التدريس في مساجد كثيرة في بلاد العرب والمسلمين، وسُمح لأصحاب الحناجر الهتَّافة بنصرة أمير الوقت، والألسن المَدَّاحة لسَدَنة الحكم الجبري!.

وهذا وذاك مما ذكرناه، وغيره مما في معناه ولم نذكره؛ بعضُ ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤].

أما الصلاة في مؤسسات أغلب دولنا، ووزاراتها، والجيوش التي يُفْتَرض فيها أن تحمي دين الأمة وتحرس قيمها وحدودها؛ فذلك يدعو للرثاء بل للبكاء: فالصلاة فيها لم تؤخَّر بل أُميتت حقيقة وعُطِّلت.

وإنما ذَكَر رسول الله ﷺ الصلاةَ وأكَّد عليها في الحديث دون سواها؛ لِما لها من الأهمية في ضمير المسلم وروحه وتربية نفسه على دوام الاتصال بالله تعالى، وهي الفريضة التي لا تسقط ولا تؤخَّر فَضْلاً عن أن تُمات، حتى في الحرب حيث شرع الإسلام صلاة الخوف، وحرص عليها المسلمون في حربهم وسِلْمِهم.. والجندي الذي تنقطع صلتُه بربِّه في الصلاة، يُقطع به حَبْل النجاة ويُحجب عنه النصر، وهذا ما كان.

إن الصلاة وغيرها من تعاليم الإسلام ليست قشرةً رقيقة تكسو أفئدةَ المسلمين، ويمكن الانسلاخُ منها مع بقاء كل شيء على وضعه الأصيل، كلا! لقد كانت هذه التعاليم جزءاً من يقظتهم العقلية وفضائلهم النفسية، بل لقد كانت الروحَ الكامن في كل نهضة، والمددَ الباعث على كل تقدّم(١).

والأمة التي أهملت قولَه تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، هي الأمة التي أهملت قوله سبحانه: ﴿ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]!.

لا فارقَ هنالك بين العبادات والعادات، بين الأدبيات والماديات، بين تخطيط المجتمع بالفضائل والتقاليد النبيلة، وبين تخطيط الأرض بروائع الهندسة والعمران(٢).

وكما تشغل الدولة بدفع العدو المُغِير، وتجنِّد ما لديها من وسائل مادية وأدبية لذلك، وكما يجبُ على الجمهور فرداً فرداً أن يقوم في صمت بواجبه النفسي والعسكري لردِّ العدوان، كذلك يجبُ على المؤمنين حكومةً وشعباً أن يَنهضوا إلى الصلاة عند ميقاتها.

ذلك هو الإسلام كما نستبين صورته في آيات المصحف، وكما نتعرَّف حدودَه من حياة النبيِّ ﷺ نفسه.

إن ما تملكُه الدولة من هَيْمنةٍ على شؤون التربية ووسائلِ الإعلام، وما يقدِّمه الحاكم نفسه من أسوةٍ حسنة بإلْفِه المساجدَ، وإمامتِه للمصلِّين، أو انتظامِه في صفوفهم، ثم ما يملكه الحاكم يقيناً من ازورارٍ عن المتكاسلين في الصلاة والمتهاونين بها، وما يملكه من عقوبة رادعة للجاحدين لها، والمستهزئين بها؛ ذلك كلُّه بعيد المدى في المحافظة على الصلوات، وإعلاء شأنها الرسمي والشعبي.

---

(١) ظلام من الغرب، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧٠.

ثم هو بلا ريب بعضُ ما يدلّ على إسلام الحكومة، وفقهها لرسالتها الدينية، واحترامها لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام.

إن الصلاة في نظر الإسلام طريقُ الفلاح، وأساسُ التمكين في هذه الحياة، ورباطُ الأخوَّةِ الوثيقة وما يترتب عليها من حقوق. تأمَّلْ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج: ٤١][(١)].

والحكام الذين يميتون الصلاة في الأمة إنما يريدون فناءها وزوالها؛ لأنهم ينزعون منها درعَها الروحي، ويَزجُّون بها في معاركها مع العدو مجرَّدة من سلاحها وحِصْنها ورباطها بربِّها وبدينها! ولمّا أَخرج العرب الإسلامَ من المعركة وحاربوا (إسرائيل) هُزموا شرَّ هزيمة في (١٩٤٨م) و(١٩٦٧م)، وعندما عادت لهم نفحات الإسلام، وخاضوا المعركة في رمضان (١٣٩٣هـ ـ ٦/ ١٠/ ١٩٧٣م) وهم صائمون، وصاح الجنود: (الله أكبر)، حطَّموا خطَّ بارليف، وكَسَروا إسرائيل وهزموها بادئ الأمر.

هذا على مستوى الصلاة.

أما إحداثُ البدع وإطفاءُ السُّنَن، فذلك ظاهرٌ مشاهَدٌ قد استشرى شرُّه بصورة خطيرة ومفزِعة.

من قيام الأحزاب والمذاهب الهدّامة التي تدمِّر حصونَ الأمة، مثلُ الأحزاب العلمانية، والوجودية، والشيوعية، والاشتراكية، والوثنية، والباطنية، والإباحية، والقاديانية، والبهائية.. والمناداة بالفرعونية والآشورية والفينيقية والتركية والفارسية والبربرية والزنجية والقوميات الصغيرة، وقيام الدعوات السرية الهدامة كالماسونية، وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر.

وانتشرت الفواحش، والشذوذ الجنسي، والزنى وبيوت الدعارة، ومراكز

(١) معركة المصحف، ص١٥ ـ ١٧، باختصار.

الخَنَا، وشُربت الخمور وأُقيمت لها المصانع برعاية الحكومات، وشُيِّدت محلات بيعها ومُنحت الرخص والإذن والتشجيع، وشاع التهتك والسفور على الأشهاد في الإعلام والشوارع والشواطئ وسواها، وعَمَّ الربا مؤسسات الأمة، وعُطِّلت الحدود، وطَمَّ البلاء، وأُضْعِف شأن الصيام، وضُربت قيود صارمة على فريضة الحج، وحُورب الحجاب والستر والعفاف، وكُبِّلَت كثير من شعائر الإسلام وشرائعه في الأسرة والمجتمع والتربية والإعلام والسياسة والاقتصاد.

فأيُّ إحداث للبدع أكبر من هذا، وأيُّ إطفاء للسنن أفظع من ذلك؟!.

قال عبد الله بن مسعود: يا رسولَ الله! إنْ أَدركْتُهم كيفَ أفعلُ؟ قال: «**تسألُني يا ابنَ أمِّ عبدٍ كيف تفعلُ؟! لا طاعةَ لمن عَصَى الله**»(١).

فعلى المرء المسلم أن يتجنب البدع، ولا يطيع أحداً فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويسعى جاهداً لإحياء السنن، وكل فرد حسب طاقته ومكانته وعلمه ومدى سلطانه؛ الرجل في أسرته، والمعلّم والإعلامي والكاتب والداعية والخطيب والمسؤول، وكل امرئ على ثغرة من ثغور الإسلام؛ «**فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته**».

وبجهود المخلصين يحدث وعيٌ عام، وعودةٌ حميدة للإسلام، ونصرةٌ حقيقية واجبة للدين، وحفظٌ لسُنَنه، وإحياءٌ لشرائعه، ونشرٌ لقيمه ومبادئه.

وقافلة الإسلام سائرة، وجندها موصولون بحبل الله المتين، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

❊ ❊ ❊

(١) لفظ ابن ماجه (٢٨٦٥)، وتقدّم تخريجه في صدر النبوءة.

إخبار النبي ﷺ بولاية أمراء يُعَرِّفون الناسَ ما يُنكِرون ويُنكِرون عليهم ما يَعرِفون

عن عُبَادة بن الصَّامِت رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**سَيَلِيكُم أُمراءُ بَعْدي، يُعَرِّفُونَكُم ما تُنْكِرُونَ، ويُنْكِرُونَ عليكم ما تَعْرِفُونَ، فَمَنْ أدركَ ذلكَ منكم، فلا طاعةَ لِمن عَصَى الله**»[1].

❁ ❁ ❁

هذا حديث عظيم ونبوءة جليلة قد تحققت بعضُ نُذُرِها منذ زمن بعيد، وظَهرت في المئة السنة الماضية في مواقع شتى من حياتنا، في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والتربوية، وفي المستويات العليا والدنيا على حدٍّ سواء.

فلقد توالى على الأمة منذ عدَّة قرون كوارث شديدة من خارجها ومن داخلها: فمن الخارج تعرَّضت الأمة العربية والإسلامية لغزوات أجنبية متعاقبة متنوعة تلحُّ عليها لإذابتها وزوال كيانها.

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ٣٥٦؛ والعقيلي في الضعفاء: ٢/ ٣١٢، ترجمة (٨٩٧)؛ والطبراني في الكبير؛ وأخرج العقيلي نحوه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: الضعفاء: ٣/ ٢١ ـ ٢٢، ترجمة (٩٧٨). وصحح الحاكم: حديث عبادة، وخالفه الذهبي فقال: تفرد به عبد الله بن واقد وهو ضعيف؛ وصحَّحه الألباني بطريقيه وشاهد له، في الصحيحة (٥٩٠)، وصحيح الجامع (٣٦٧٢).

ومن الداخل تعاقَبَ عليها أجيالٌ من الحكام والساسة المفسدين الذين كانوا يعملون على تحطيمها، وهم المسؤولون عن صلاحها!.

وأكبرُ هَمِّ المُغِيرين من الخارج والمفسدين من الداخل أن يدمِّروا أوّلَ كل شيء المواريثَ التي تحفظ كيانَ الأمة وتكفل حياتها، ويغيِّروا ركائز وحقائق وشعائر وشرائع أمضى الزمان في بنائها الروحي أربعة عشر قرناً[(١)].

أولاً: في مجال الحكم:

الذي يعرفه المسلمون أن الحكم يكون بالشورى، ويقوم بالعدل، ويَنشر الرأفة والرحمة بين العباد، ويؤمِّن الحرية والمساواة وتكافؤَ الفرص.

أما هؤلاء الحكام فيُنكِرون على الناس ما يَعْرفونه من ذلك، ويُعَرِّفونهم ما يُنْكِرون؛ فيستبدُّون بالأمر، وتتلقى الأمة منهم كيد الجبابرة والفراعنة، وترزح تحت وطأة سلطات مبيرة تُهلِك الحرث والنسل، ومن يناوئها أو يناصحها أو ينتقدها يُتَّهم بأنه يزعزع الأمن وله ارتباط بالخارج أو مطامع بالحكم، فيجدُ الذلة والهوان والتشريد!.

(في هذا الوقت الذي أَكل فيه الاستبدادُ أمتنا، تُسأل عمامةٌ كبيرة عن حكم الشورى في الإسلام، فيكون الجواب: يَحسن بالحاكم أن يستشير، وعلى أهل الرأي أن يقولوا ما عندهم، وللحاكم بعدئذٍ أن ينظر فيه! فإما قَبِله، وإما ردَّه، وله أن يَمضي علىٰ ما يرى وحده!.

هذا الكلام لو قاله أحدُ الغوغاء في قطر آخر لَضُرِب على فمه، واستُبعد من عداد أهل الرأي والثقة، ولكنه في ميدان الغش الديني والعبث بالإسلام يُقال على أنه دين!)[(٢)].

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة، ص١٥٤.

(٢) انظر: علل وأدوية، ص٢١٤ ـ ٢١٧.

ثانياً: في المؤسسات العسكرية:

ما يعرفه المسلمون من دينهم ومواريثهم الأصيلة أن المؤسسات العسكرية يجب أن تقوم على أخلاق الإسلام، وتتزكى بتعاليمه، وتعمل على حراسته، والدفاع عن الذِّمار والبلاد ومقاومة الأعداء، ويتسابق إلى مناصبها الأوفياء الأمناء، والمخلصون الغيورون الأكفياء.

أما واقع الحال فمعظمُ جيوش الأمة لا عقيدةَ سماوية تتهدَّى بها، ولا أخلاق ربانية تتربى عليها، أو تعترف بها! والشعائر فيها معطَّلة بل ربما تكون محاربة! والمؤمنون يُذادون عن المناصب العليا، فهم فيها أندر من الكبريت الأحمر، وتولى أمرها (مقاولون) حرصوا على مصالحهم، ونسوا الواجب المناط بهم، ولمَّا واجهوا اليهود هُزِموا في وقائع شتى! وأصبحت معظم مهمتهم حماية عروش السلاطين.

ثالثاً: في مجال المال والاقتصاد:

فالذي بيَّنَه الكتاب العزيز، وأوضحتْهُ وأكَّدته السنَّة الطاهرة، وطَبَّقَه خلفاءُ الإسلام الراشدون وحكامُه الصالحون؛ أن مالَ الأمة محترمٌ ومُصَانٌ وأمانةٌ في أيدي الحكام والمسؤولين صغاراً كانوا أم كباراً، وهو يُنْفَق على العباد وفي إعمار البلاد وكل ما فيه مصلحة عامة للمسلمين.. والزكاة مرعية، والصدقات موفورة، وهيئات البر والخير والأوقاف وسواها قائمة لتكمل تحقيق وظيفة المال.

لكن في عهود انقلاب الموازين واضطراب المفاهيم، يُستنكَر ذلك المعروف كله، ويُفرض على رقاب العباد ما يُنكِرونه من قيام مؤسسات الربا في كل مكان، وتروَّج سوقه، ويُجَمَّل وجهه بتغيير اسمه فيُوصَف بـ (الفوائد)، وكثُر الغش والاختلاس والسلب والنهب والسرقات (القانونية!)، واستُلب مالُ الأمة من بين يديها، وأصبح كلاً مُباحاً، وتخوَّضَ فيه الحكام والأمراء وأصولهم وفروعهم، وبدَّدُوه في وجوه أخرى، وظُلمت الشعوب في ذلك ظلماً فوق ظلم،

وإذا أُنْفِق عليها منه شيء فهو هبةٌ ومنحةٌ ومكرمةٌ من سلطان الوقت دام ظِلُّه وبُورك رِفْده!.

رابعاً: في ميدان السياسة:

لقد عَلِمَ النبي ﷺ وعَمِلَ بما عَلم؛ أنه رسول الله للأمة، ومعلِّمُها ومربِّيها، وإمامُ رَكْبها في السلم والحرب، وأمور الدنيا وشؤون الآخرة، يصلي بهم في المسجد، ويكون معهم في السوق، ويتقدَّمهم في ساحات الجهاد، ويؤمِّر الأمراء ويولِّي الولاة، ويبعث الرجال الدعاة إلى الملوك والعظماء والأمراء، ويستقبل الوفود، ويفاوض الكبار، ويُبرم الاتفاقيات والمعاهدات، ويَحكم بين المتخاصمين ويقضي بين الناس.. ولم يكن في الكتاب الذي أُنزل على قلبه الطاهر، ولا في السنَّة التي ثبَّتَها في أفئدة أصحابه، وأقامها في أيام حياته حيةً بين الناس؛ أنه ﷺ يتولى شؤونَ التربية والتزكية والإمامة في الصلاة وغيرها من الشعائر، ومعه رجل آخر يتولى شؤونَ الحكم والسياسة وإدارةَ علاقات الدولة الداخلية والخارجية.. وعلى هذا سار الخلفاء الراشدون ومن بعدهم.

هذا ما عرفه المسلمون جيلاً بعد جيل مما تنزل به كتابنا الكريم، وجاءت به سُنَّة نبيّنا ﷺ، وشهدت تطبيقَه عهودُ التاريخ المتلاحقة.

إلى أن جاء حكام غيَّروا ذلك الهدي، وأيَّدهم في ذلك قومٌ آخرون، وأرادوا جميعاً أن يُنكِروا علينا ما نعرفه، ويُعَرِّفونا ما نُنكره، فقالوا: لا دينَ في السياسة، ولا سياسة في الدين!.

إنهم يقولون ذلك وهم يرون أن السياسة أقامت لليهود دولة على أنقاضنا، وجعلت الانتماءَ لها يتجاوز الحدود الإقليمية والأوضاع الدولية.. فإذا حاول داعية استثارة الشعور الإسلامي ضد مذبحة يهودية وقعت بالمسلمين، استُنكر كلامه[1]!.

---

(١) علل وأدوية، ص٢٢٠.

إذا تكلَّمْتَ بشؤون: الربا، والسرقة، والزنى والدعارة، والحرية، والإعلام، وحفظ المال العام، وتكافؤ الفرص، وتربية النشء على الفضيلة، ومراقبة الموظفين الكبار والصغار، والشورى، والظلم، والقضاء، والأمن، وحرمة الدم، ووحدة المسلمين؛ فناصر المصري أخاه الشامي لضرٍّ نزل به، وتألَّم المغربي لآلام المشرقي، وطالَبَ العربي بحق الأفغاني أو الشيشاني، وتنادى الأندونيسي والباكستاني لنصرة الفلسطيني أو العراقي، و... و...، فكل ذلك سياسة، فما شأن الدين والمتدينين بالسياسة؟!.

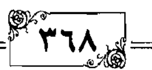
خامساً: في المجتمع والأخلاق:

ما نعرفه من ديننا، وحفظناه من مواريثنا الإسلامية؛ إشاعةُ مكارم الأخلاق، وحراسة الفضيلة، والعفة والحياء، والحفاظ على الشرف والعرض، وتهذيب الغريزة وصرفها في مساقها العَفِّ الكريم، واستمساك الأنثى بالحجاب، وعدم ترك الاختلاط حبله على غاربه، وتضييق الخِناق على الفحش والفسق والفجور والخَنا والدِّياثة.

فجاء من فِجَاح الأرض أُناس تسلَّطوا على رقاب الأمة، وتملكوا مواقع القرار والتنفيذ، فقلبوا للناس ظهر المِجَنّ، وجعلوا المعروف في إدبار والمنكر في إقبال، ونشروا في العالمين أن ما يفعلونه هو ما تعارف عليه (العقلاء!)، وما تقتضيه (المدنية)، وما تفرضه (الحضارة)، وما يعيشه الناس في عصر (العولمة).

فأشاعوا في الأمة فنون العبث والسفاهة التي تُذَرُّ على الأخلاق كما يُذرّ الغبار على الرؤوس في العاصفة الهوجاء! فتعالت الأصوات الخنثة، وتزاحمت الأغاني والمسلسلات والأفلام والمنتديات والبرامج التي تبتذل الأخلاق، وتسترخص الشرف، وتجرح الأعراض، وتعبث بالمروءة، وتستخف بالحياء، وتخنق الفضيلة، وتفاخر بالرذيلة، وتظاهر في إبراز المفاتن والزينة والنحور والنهود و... و... !.

وأغرقوا الأجيال بأمواج عاتية من الفسق والفجور والانحلال والعهر



الإعلامي المنظم المدعوم بأموال الأمة وسواعد أبنائها ثم أعدائها! وانحدر هؤلاء إلى دَرْكٍ مَهين، وأرادوا من ذلك أن يفرضوا على عقول الأمة ومبادئها وقيمها أن هذا هو المعروف، وأن ما يستمسكون به أصبح منكراً من القول وزوراً ومواريث عهود بائدة لا رجعة لها!.

وأصبح الاختلاط بين الجنسين بلا حدود ولا قيود، والمصافحة بل التقبيل والمعانقة شيئاً متعارفاً متعالماً به، وثقافةً يجتهدون في نشرها وترويجها، ومن ينكر عليهم فكلامه هو المنكر، والرسول ﷺ يقول: «**لأنْ يُطْعَنَ في رأسِ رجلٍ بِمِخْيَطٍ من حديدٍ خيرٌ له من أنْ يَمَسَّ امرأةً لا تحِلُّ له**»[1]! والنبي ﷺ وهو أزكى وأطهر وأروع وأورع وأتقى وأنبل وأعظم إنسان خلقه الله تعالى؛ لم يصافِح امرأة لا تحلّ له حتى في البيعة على الإسلام عندما جاءته صحابيات يبايعنه وقلن: (هَلُمَّ نُبايِعْكَ يا رسولَ الله)، وفي رواية: (يا رسولَ الله! أَلَا تُصافِحُنا؟) فقال ﷺ: «**إنِّي لا أُصافِحُ النساءَ، إنَّما قولي لمئةِ امرأةٍ كقولي لامرأةٍ واحدةٍ**»[2].

فما بالُكَ بالسهرات العائلية، والجلسات الودية، وحفلات السمر، والأعراس، وسوى ذلك مما ابتلي به المسلمون حتى لكأنه أمسى عند الكثيرين معروفاً غير منكر؟!.

وإن تعجب فاعجب من بعض الفتاوى ممن سمعناه يقول: إذا كانت المصافحة بنيَّة طيبة بريئة، فلا بأس بها! بل هناك من أباح تبادل القبلات بين الجنسين! نعوذ بالله من الفتن.

---

(١) رواه الروياني في مسنده: ٢/ ٢٢٧، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٢٦).

(٢) أخرجه مالك: ٢/ ٩٨٢ ـ ٩٨٣؛ وأحمد: ٦/ ٣٥٧، والحميدي (٣٤١)؛ والنسائي في الكبرى (٧٧٥٦) ومواضع أخرى، وفي الصغرى: ٧/ ١٤٩؛ والترمذي (١٥٩٧)؛ وابن ماجه (٢٨٧٤)؛ وابن حبان (٤٥٥٣)، وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٢٩)، وشعيب الأرنؤوط.

سادساً: في ميدان حرية الرأي وأنه لا إكراه في الدين:

فإنه ليس هناك دين أو مذهب مثل الإسلام قد احترم الإنسان وعقله، وفَسَح له من الحرية ما يحفظ عليه إنسانيته وكرامته واختياره، فالنص عندنا قاطع لا لُبْسَ فيه ولا نسخَ له: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وإن ضوء الحرية ليتألق في كل حرف من حروف هذه الآية الكريمة.

وللإنسان أن يقول كلمته وينتقد وينصح، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعبِّر عن رأيه، ويطالِب بحقه، ويسدِّد المسار فيما فيه مصلحة الأمة والدولة والعباد والبلاد، وضمن ثوابت الأمة وعدم المساس بمقدساتها أو مهاجمة أركانها.

لكن عصابات منظمة انحرفت بهذا المفهوم، وأنكرت على المسلمين ما تعارفوا عليه، وفرضت عليهم ما يستنكرونه ويرفضونه.

فعملوا على شَلِّ الأجهزة الداخلية في الكيان الإسلامي، وتجميد نشاطها باسم الحرية الدينية أو باسم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ . . اكذب أو اصدق، أعطِ أو ابخلْ، صلِّ أو لاتصلِّ، أنت حرٌّ لأنه لا إكراه في الدين[1].

وباسم حرية الرأي وأنه لا إكراه في الدين استشرت الجراءةُ على هذا الدين جملةً وتفصيلاً؛ فهذا ينكر أصلَ الإيمان، وهذا يُماري في حقيقة النبوات وإمكانِ الوحي، وهذا يتساءل لِم تحرَّمُ الخمر؟ ثم يقول: إن تحريمها خَطَلٌ! وهذا يرى الوِقاع الجنسي ما دام بتراضي الطرفين لا شيءَ فيه، ويستغربُ تسميته زنى! وهذا يمضي فوائد الربا، ويسخر من حظرها[2]!.

وباسم حرية الرأي تعالَت العلمانية، وانتشرت الوجودية، وشاعت الرذيلة

(١) جهاد الدعوة، ص٣٥.

(٢) كفاح دين، ص١٢٦.

والفواحش، واستعلى التهتك والعري والاستهتار بكل القيم الدينية والإنسانية!..

ومهاجمة الإسلام بمثل هذا الكلام منهج يعمل له كثير من أساتذة الجامعات وأصحاب المنابر والأقلام والدعاة على أبواب جهنم الذين تبوؤوا في الأمة مكاناً عليّاً، في ظل حكام رضوا ما يقولون وأيدوا ما يفعلون، ومن ينكر عليهم فكلامه منكر لأن ما أرادوه هو المعروف، ويتوجب على الأمة أن تراه معروفاً!.

●● **وقل مثل ذلك في ميادين التربية، ومناهج التعليم، والغزو الثقافي، وتزوير التاريخ، ورقابة الأمة على الدولة، وتوسيد الأمر إلى غير أهله**، والجهاد وحقيقته، والظلم وطغيانه، والمسجد ورسالته، وإقصاء الإسلام عن الحياة، وإبعاده عن معركتنا مع الأعداء، والاستمساك بمبادئنا ومواريثنا وهويتنا وشخصيتنا.

(إن سيطرة أوروبة الثقافية لا تزال تحتل المركز الأول في حياتنا العقلية وثقافتنا الوطنية، ومناهجِ تفكيرنا، فكيف تريدون أن تخلق تلك المدارس مواطنين صادقين يتحلون بالنزعة الوطنية الصادقة والإحساس القومي العميق؟!.

إن الوطنية الصادقة والإيمان القومي لا ينبثقان إلا من اللغة وآدابها، ومن التاريخ والتربية الوطنية، فكلما درس الناشئُ لغتَه كلما أحبَّها وآمَنَ بقدرتها على الحياة والخلود.. وكلما عَرَف تاريخَ بلاده ازداد تعلّقاً بها وإيماناً بكرامتها.. لقد دخلت البعثات الأجنبية بلادنا منذ قرن، وهي تحمل رسالة تبشيرية استعمارية، فاتخذت العلم ستاراً لها، وأصبحنا أمام مدارس إيطالية وفرنسية وإنكليزية وألمانية وروسية وأمريكية مسؤولة عن هذا التبلبل الفكري والقومي الذي نراه بيننا)(١).

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٣٤ ـ ١٣٥.

وكل العقلاء والغيورين والمخلصين ينكرون ذلك، أما دهاقنة السياسة وكثير من ولاة الأمر فيرونه شيئاً عادياً ومعروفاً، وعلى الأمة ازدراده شاءت أم أبَتْ!.

●● هذا واقع حالِ أكثر البلاد والمجتمعات والأنظمة العربية والإسلامية، فما الحيلة تجاه ذلك؟ وما الموقف منه؟ قال النبيُّ ﷺ: «لا طاعةَ لمن عصى الله».

فالواجب كبير، والعبء ثقيل، والتحديات جليلة، والمسؤولية تنتظم الجميع كلّاً بحسب طاقته ومعرفته وعلمه ومركزه، ولا يُعفَى أحد من المسؤولية أمام الله ورسوله ودينه وأمته وأهل بيته؛ الأب والأم، والمعلّمون والخطباء، والمفكّرون والعلماء، والكتّاب والقراء، والإعلاميون والمهندسون، والعمال والموظفون، والوزراء والمسؤولون، والضباط والجنود، وهيئات المجتمع المدني، والنُّخب السياسية، والأحزاب والتجمعات، والمنظمات والهيئات، ومراكز البحث والتخطيط الاستراتيجي، وغير ذلك، وكلما علا مركز المرء واتسع سلطانه عَظُمت مسؤولياته وثَخُنت واجباته.

إن علماءنا قديماً لم يخونوا دينَهم، والأئمة الكبار ومَنْ داناهم في مكانتهم، وجمهورَ المربِّين والدعاة، قاموا بواجباتهم وأَدَّوا الأمانة. ثم جاء قوم آخرون رأوا الجُبْن أنجى، فآثروا الصمت! ثم جاء خَلْفٌ آخَر يرى إرضاءَ المستبدين من الدين[1].

وعلى أهل القرآن والأحرار والغيورين وكل مَن تعنيه مصلحة الدين والأمة والوطن وكرامة البلاد والعباد؛ أن يمدُّوا أشعةَ الحق لكل عين، وأن يُصابروا الليالي وهم يشرحون ويكشفون.. وعليهم أن لا يبالوا تربُّصَ الضالين بهم ريبَ المنون وتقلبَ الزمان، وليبقوا مكافحين مناصرين للحق حتى يعلو، فالعاقبة للمتقين والمصلحين[2].

---

(١) سرّ تأخر العرب والمسلمين، ص٢٠.

(٢) انظر: جهاد الدعوة، ص٤٨.

ومعارضو الحق لا يَنقضي لهم جَدَل، ولا تنتهي مكابرة، فليجادلوا وليكابروا، فلن نفقد أدَبَنا في معاملتهم، ومحاجَّتنا لهم بالإقناع والاستدلال مع صبر ليس له آخر، فدعوةُ الحق هي صوت العقل لا سوط الإرهاب، وسعة الفكر لا ضيق العَطَن[(١)].

●● فَلْيصبر المؤمنون والدعاة والناصحون الغيورون على تكاليف الحق والتمسك به والدعوة إليه، ولْيُحسِنوا الإعلامَ بالحقائق حتى الرمق الأخير، وليستغلُّوا العسر واليسر، والسراء والضراء؛ في ردِّ الناس إلى ربهم وربطهم بخالقهم، ولْيحرِصوا على هداية الآخرين لا على عقوبتهم، وليعلموا دوماً أن الآخرة أرجح وأطول من الدنيا.

وللضلال عمرٌ مقدَّر يفنى عند بلوغه، وهذا جزء من سُنَن الاختيار الإلـٰهي يجب أن يخضع له المؤمنون، فإن استعجال الحصاد قبل أوانه لا يُنضج زرعاً ولا يقرِّب ثمراً.

وهناك مسابقة في الصبر والتربُّص بين المؤمنين وبين خصوم الحق، وأنجحُ الفريقين أطولُهما نَفَساً، وأكثرهما تحمُّلاً.

ولن تخلوَ الحياة من طوائف تحتاج أبداً إلى التأديب والتهذيب، والمداراة والمعاناة، كما لن تخلو أبداً من المرضى. . والاستراحة من المرضى بقَتْلهم جنون، والمطلوب أن ننأى من عِللهم، وأن نُعينَهم على الخلاص منها.

فالصبر على البلاغ مطلوب، وكذلك على تعليم الجهلة ومعالجة المعلولين، وهذا الصبر ليس له أمدٌ يقف عنده لأنه جزء من حكمة الوجود، وينضمُّ إليه انفرادُ المؤمن بمسلكه الراشد، ولو بقي وحده في الطريق فلا يجوز أن ينقاد لآثم أو كافر[(٢)].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٩، ٥٤، ٦٥.

(٢) جهاد الدعوة، ص٤٨، ٦٢، ٦٧، ٦٩، ٧٢، مقتطفات.

وعلينا أن نعتصِمَ بمواريثنا الإسلامية التي تحفظُ شخصيتنا وتشكِّل حياتنا وتحدِّد غايتنا، ونقيسَ بها الأمور لتمييز ما هو جميل وما هو قبيح، وما هو كريم وما هو دنيء، ولتهدينا إلى مواطن كرامتنا، وتصدّنا عن مواطن هواننا[١].

●● هناك تيار قوي من الحكام والأمراء والمتنفذين وأصحاب القرار والتوجيه والتأثير يسعون جاهدين لقلب الحقائق، وتنكيس الموازين، وتغيير الثقافة، ومسخ الشخصية، وإذابة الهوية، وجعل المعروف منكراً والمنكر معروفاً، فهل يفلحون؟!.

لقد أحدثوا في جسم الأمة شروخاً كبيرة، وأصابوا قامتها بجروحٍ غائرةٍ، ودفع المسلمون ثمناً فادحاً لمعاصيهم السياسية والاجتماعية ولإخلادهم إلى الأرض وحبِّهم للدنيا.

لكن جمهوراً عريضاً في الأمة لم يلقِ السلاح ولم يتنكَّب الكفاح ولم يَضِلَّ الطريق، ومنذ عقود يشهد العالم الإسلامي نهضة جبَّارة بَدَت بشائرها تهبُّ على الأمة وغيثُ سحائبها يصبّ هداه.

وأخذ فجر الإسلام يتعالى إلى ضحاه، والمارد الإسلامي أخذ يتململ ويداوي جراحه، ويرقأ نزيفه، ويسدّ فتوقه، وأوشك أن يستوي على سوقه قائماً على قدميه؛ ليرفع الراية ويؤدي دوره القيادي الريادي من جديد، وينشر النور والرحمة والعدل في العالمين.



(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطلة، ص١٥٣.



إخبار النبي ﷺ بظهور الجلادين والشرط الذين يعذِّبون الناس

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُوشِكُ إنْ طالَتْ بكَ مدَّةٌ، أن تَرَى قوماً في أيْدِيهم مِثْلُ أَذْنابِ البَقَرِ، يَغْدُونَ في غَضَبِ اللهِ، ويَرُوحُونَ في سَخَطِ اللهِ».**

وفي رواية: **«يَغْدُونَ في سَخَطِ اللهِ، ويَرُوحُونَ في لَعْنَتِهِ»**[1].

٢ ـ وعن أبي أُمَامَةَ الباهِليِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكونُ في هذه الأمة في آخرِ الزمان رجالٌ معهم سِياطٌ كأنها أذنابُ البَقَر، يَغْدُون في سَخَط الله، ويَرُوحونَ في غَضَبِه»**[2].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صِنْفَانِ من أهل النارِ لم أَرَهُما: قومٌ معهم سِياطٌ كأذنابِ البقرِ يَضْرِبُونَ بها الناسَ، ونساءٌ كاسِيَاتٌ عارِياتٌ، مُمِيلاتٌ مائِلاتٌ، رؤوسُهُنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الجنَّةَ ولا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ من مسيرةِ كذا وكذا»**[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٧) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/٣٠٨، ٣٢٣؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٥٣٢؛ والحاكم: ٤/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦ وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووهم في ذلك فقد أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٢٥٠؛ وابن الأعرابي في معجمه، ص٢١٣ ـ ٢١٤؛ والطبراني في الكبير: ٨/ ٣٠٨ (٨٠٠٠)؛ والحاكم: ٤/ ٤٣٦؛ والداني (٤٣٤) واللفظ له؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٨٩٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٢٨) في كتاب اللباس والزينة، وفي كتاب الجنة وصفة نعيمها، عقب الحديث (٢٨٥٦) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦، ٤٤٠؛ وابن حبان (٧٤٦١)؛ والبيهقي في السنن: ٢/ ٢٣٤؛ والبغوي (٢٥٧٨).

٤ ـ وعن عابسٍ الغِفَاريِّ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**بادِروا بالأعمال خِصالاً سِتّاً: إِمْرَةَ السُّفَهاء، وكَثْرَةَ الشُّرَطِ، ...**»[١] الحديث وقد مرَّ.

❁ ❁ ❁

أولاً: بين يدي النبوءة:

يصف النبي ﷺ في هذه الأحاديث قوماً يأتون بعده، قد نُزعت الرحمة من قلوبهم، وتحولت الرأفة عنهم، وتخلَّوا عن إنسانيتهم فأضحوا كالوحوش التي تنقضُّ على فريستها فتمزق إهابها وتنهش لحمها! وبيَّن ﷺ أنهم يَغْدون في الصباح إلى عملهم وهم في غضب الله، ويستمرون وهم في سخطه ومَقْتِه، ويؤوبون إلى بيوتهم تطاردهم لعنةُ الله ووعيدُه بالعذاب الأليم! أولئك القوم الذين سخَّرهم السلطان الجائر والحاكم الطاغية لتعذيب شعبه وضرب أَبْشار الناس وتهشيم لحومهم وتحطيم كرامتهم!.

وذكر ﷺ لوناً واحداً من العذابات التي يصبُّونها على الناس، وصنفاً واحداً من الأدوات التي يستخدمونها في التنكيل بهم، وهي: السياط والكرابيج[٢].

أولئك هم الجلَاوِزَة والجلّادون والشُّرَط والسجَّانون الذين يذيقون الناس حَرَّ العذاب الشديد!.

وقد ظهر هذا الصنف المسخوطُ عليه من الله ورسوله والمؤمنين منذ عهد بعيد في تاريخنا، لكنه كان على نطاق ضيق جدّاً، ولأناس قلَّة، وبأساليب وأدوات تعتبر بدائية قياساً بما نشهده الآن، حيث استشرى شرُّهم، وكَثُر عددهم وعديدهم في القرن المنصرم وإلى أيامنا بصورة مُفْظِعة وبأساليب وحشية، دونها قوانين شريعة الغاب!.

---

(١) أخرجه أحمد: وغيره، وهو حديث صحيح، وقد تقدم مع تخريجه في النبوءة (٧٣): ٢/ ٣٣٠، حاشية (١)، (في هذا المجلد).

(٢) جمع الكرباج: ومعناه السوط، وهو من الدخيل.

لقد جاء الإسلام ليحرر الإنسان من الظلم والاستعباد، ويحفظ إنسانيته، ويحقن دمه، ويحرِّم ظلمه، ويُعلي كرامته، ويمنع تعذيبه، وينهى أشدَّ النهي عن التنكيل بجسده والتمثيل ببدنه، لا بل حرَّم تعذيب البهائم، وتوعَّد من يعذبها بالعذاب يوم الحساب!.

ثانياً: الإسلام ينهى عن تعذيب الحيوان:

عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَعَنَ اللهُ مَن مَثَّلَ بالحيوان**»(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه مُرَّ عليهِ بحمارٍ قد كُوِيَ على وَجْهِه، أو وُسِمَ، فَلَعَن النبي ﷺ مَن فَعَل ذلك، ثم قال: «**سبحانَ اللهِ! لا تَضْرِبُوها على وُجوهِها**»(٢).

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «**دخلتِ امرأةٌ النارَ في هِرَّة رَبَطَتْها، فلا هيَ أَطْعَمَتْها ولا هيَ أَرْسَلَتْها تأكلُ من خَشاشِ الأرضِ، حتى ماتَتْ**»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال: (كنَّا مع رسولِ الله ﷺ في سفر، فانطَلَق لحاجتِه، فَرأَيْنا حُمَّرةً معها فَرْخَانِ، فأخذنا فَرْخَيْها، فجاءت الحُمَّرة فجعلَتْ تُفَرِّشُ، فجاء النبي ﷺ فقال: «**مَنْ فَجَعَ هذه بولدِها؟! رُدُّوا ولدَها إليها**».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥١٥)؛ ومسلم (١٩٥٨)؛ والنسائي في الكبرى (٤٥١٥) و(٤٥١٦)، والصغرى: ٢٣٨/٧، واللفظ له؛ وأحمد: ٤٣/٢ وغير موضع؛ وابن حبان (٥٦١٧)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (٢١١٧)؛ وأبو داود (٢٥٦٤)؛ وعبد الرزاق (٨٤٥١)؛ وأحمد: ٣٢٣/٣؛ وأبو يعلى (٢١٤٨)؛ وابن حبان (٥٦٢٠) و(٥٦٢٦) و(٥٦٢٧) و(٥٦٢٨)، واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦١٩)؛ وابن ماجه (٤٢٥٦)؛ وأحمد: ٢٦٩/٢؛ وابن حبان (٥٦٢١) واللفظ له.

ورأى قرية نَمْلٍ قد حَرَقْناها، فقال: «**مَن حَرَق هذه؟**» قلنا: نحنُ، قال: «**إنَّه لا يَنبغي أن يُعَذِّب بالنار إلا ربُّ النار**»)[١].

ثالثاً: نهي الرسول ﷺ عن ترويع الناس، ونماذج ومواقف من التعذيب ومناصرة المظلوم في عهد الصحابة:

عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم ﷺ: «**مَنْ أشارَ إلى أخيه بِحديدةٍ، فإنَّ الملائكة تَلْعَنُه حتى يَدَعَه، وإنْ كان أخاهُ لأبيهِ وأمِّه**»[٢].

قال النووي: (فيه تأكيد حرمة المسلم، والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه، والتعرض له بما قد يؤذيه. وقوله ﷺ «**وإن كان أخاه لأبيه وأمه**»: مبالغة في إيضاح عموم النهي في كل أحد، سواء مَن يُتَّهم فيه ومن لا يُتَّهم، سواء كان هذا هزلاً ولعباً أم لا؛ لأن ترويع المسلم حرام بكل حال)[٣].

وأَمَر النبيُّ ﷺ من يكون معه النَّبْل ويمرّ بمجلس المسلمين أو مسجدهم أو سوقهم أو غيرها؛ أن يأخذ بنصالها كي لا يصيب أحداً بجرح، أو يمسّه بسوء. كما أمر ﷺ من يعطي أخاه السيف أن يعطيه إياه وهو في غمده، ونهى أن يُتَعاطَى السيف مسلولاً؛ لِما فيه من إخافة وترويع.. وكل ذلك وارد في الأحاديث الصحاح[٤].

وعن جابر بن عبد الله قال: (لمَّا رجعَتْ إلى رسول الله ﷺ مهاجرةُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٧٥) واللفظ له؛ والحاكم: ٤/ ٢٣٩، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني. **والحمرة**: طائر صغير كالعصفور. **تفرِّش**: أي تَفْرش جناحَيْها وتَقْرُب من الأرض وتُرَفْرِف.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦١٦) واللفظ له؛ والترمذي (٢١٦٢)؛ والنسائي في الكبرى (١١٩٤٣)؛ وأحمد: ٢/ ٢٥٦، ٥٠٥؛ وابن حبان (٥٩٤٤) و(٥٩٤٧).

(٣) شرح صحيح مسلم: ٨/ ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٤) انظر: ابن حبان (١٦٤٧) و(١٦٤٨) و(١٦٤٩) و(٥٩٤٣) و(٥٩٤٦)، وتخريجها فيه.

البحر[(١)]، قال: «**أَلَا تحدِّثُوني بأعاجيبِ ما رأيتُم بأرضِ الحبشة؟**» قال فتيةٌ منهم: بلى يا رسول الله؛ بَيْنَا نحنُ جلوسٌ، مَرَّتْ بنا عَجوزٌ من عجَائزِ رَهَابِينهم تحمِلُ على رأْسِها قُـلَّةً من ماء، فمرَّتْ بفتى منهم، فجعلَ إحدى يديه بين كَتِفَيْها، ثم دَفَعها، فخرَّت على رُكْبَتَيْها، فانكسَرتْ قُلَّتُها! فلما ارتفعَتْ، التفتَتْ إليه فقالت: سوفَ تعلمُ يا غُدَرُ، إذا وَضَع الله الكرسيَّ، وجَمَع الأولين والآخِرين، وتكلَّمَتِ الأيدي والأرجلُ بما كانوا يَكْسِبون، فسوفَ تعلمُ كيف أَمْري وأمرُك عنده غداً! قال: يقول رسول الله ﷺ: «**صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كيف يُقدِّسُ اللهُ أمةً لا يُؤخَذُ لضَعِيفِهم من شديدِهم**»؟!)[(٢)].

وعن خالد بن حَكيم بن حِزَام قال: (تناولَ أبو عبيدة بن الجراح رجلاً من أهل الأرض بشيء، فكلَّمه فيه خالدُ بنُ الوليد، فقيلَ له: أغضبتَ الأميرَ، فقال خالد: إنِّي لم أُرِدْ أن أُغْضِبَه، ولكنْ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**أشدُّ الناسِ عذاباً عند الله يومَ القيامة أشدُّهم عذاباً للناس في الدنيا**»)[(٣)].

وعن عروة بن الزبير، عن هشام بن حَكِيم بن حِزام: (أنه مرَّ بأناسٍ من أهل الذمَّة قد أُقِيموا في الشمس بالشام، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: بقي عليهم شيءٌ من الخَرَاج، فقال: إني أَشهدُ أَني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله ﷻ يُعَذِّبُ يومَ القيامة الذين يُعذِّبون الناسَ**» قال: وأميرُ الناس يومئذ عُمير بن سعد على فِلَسْطين. قال: فدَخَل عليه فَحَدَّثَه، فخلَّى سبيلَهم!)[(٤)].

وعن أَزْهر بن عبد الله الحَرَازيِّ: (أن قوماً من الكَلَاعِيِّين سُرِق لهم متاعٌ،

---

(١) أي: مهاجرة الحبشة، وجاء مصرّحاً به عند ابن حبان.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٠) واللفظ له؛ وأبو يعلى (٢٠٠٣)؛ وابن حبان (٥٠٥٨)، وحسَّنه الألباني، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث قوي بشواهده.

(٣) أخرجه الحميدي (٥٦٢) واللفظ له؛ وأحمد: ٤/ ٩٠؛ والطبراني في الكبير: ١/ ١٩٠ (٢)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٤٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦١٣)؛ وأبو داود (٣٠٤٥)؛ والنسائي في الكبرى (٨٧١٨)؛ وأحمد: ٣/ ٤٠٣، واللفظ له؛ وابن حبان (٥٦١٣).

فاتَّهموا أناساً من الحَاكَة، فأتوا النُّعمان بن بَشير صاحبَ النبي ﷺ، فحَبَسهم أياماً ثم خَلَّى سبيلَهم، فأتوا النعمانَ فقالوا: خَلَّيْتَ سبيلَهم بغيرِ ضربٍ ولا امتحانٍ؟! فقال النعمان: ما شِئْتُم؛ إنْ شِئْتُم أن أَضْرِبَهم، فإنْ خَرج متاعُكم فذاك، وإلَّا أخذتُ من ظهورِكم مثلَ ما أخذتُ من ظهورهم! فقالوا: هذا حُكْمُكَ؟ فقال: هذا حكمُ الله وحكمُ رسوله ﷺ»[1].

قال أبو داود بعد أن أخرجه: إنما أَرْهَبَهم بهذا القول، أي: لا يجبُ الضربُ إلا بعد الاعتراف!.

وعن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ: أنه قال: «**أُمِر بعبدٍ من عباد الله أن يُضْرَبَ في قبره مئةَ جلدةٍ، فلم يَزَلْ يَسأل ويدعو حتى صارت جلدةً واحدةً، فجُلِد جلدةً واحدةً فامتلأ قبرُه عليه ناراً، فلما ارتفع عنه وأفاقَ، قال: عَلامَ جَلَدْتُموني؟ قالوا: إنكَ صلَّيْتَ صلاة بغيرِ طَهورٍ، ومَرَرْتَ على مظلومٍ فلم تَنْصُرْه!**»[2].

هذه إلماعة كاشفة للمكانة الرفيعة التي أقامها الإسلام للإنسان، وحفظ بها إنسانيته وكرامته، وصان حريته، وحرّم تعذيبه والتنكيل به، بل إنه حرّم التمثيل بالحيوان الأعجم!.

فماذا دَهَا أمتَنا؟! وماذا حَلَّ بأبنائها في عهد الظلم والطغيان؟!.

رابعاً: الجلّادون والجلاوزة والشُّرَط في القرن المنصرم وحتى زماننا:

●● إن مطاردة الأحرار وتشريد الآمنين وتعذيب المعارضين؛ يخلق في الأمة جيلاً من الأذلاء الضعفاء الذين لا تقوم بهم حياة ولا تنتصر بهم أمة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٨٢) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٧٣٢٠)، والصغرى: ٨/ ٦٦؛ وحسَّنه الألباني.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣١٨٥)؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط؛ وأورده الألباني في الصحيحة (٢٧٧٤) وقال: إسناده جيد.

ولا تُحرس بهم دولة، فمتى كان المضطهدون المستذَلّون المستعبَدون حماةَ أمة ومنافحين عن كرامتها وبناة لمجدها؟!..

(والإسلام يُنكِر أساليبَ العَسْف التي يلجأ إليها المستبدُّون في استدامة حكمهم، واستتباب الأمر لهم. إنه يحرِّم أن يُضْرَبَ إنسان ظلماً؛ أو يُسفك دمه ظلماً. فما تساوي الحياة كلها شيئاً إذا استُرخصت فيها حياة فرد، والرسول ﷺ يقول: «**لزوالُ الدنيا أهونُ عند الله من قتل رجلٍ مسلم**»[١].

فأشدُّ الجرائم نُكْراً أن يُقتل امرؤ من الناس توطيداً لعزة ملك أو سيطرة حاكم!)[٢].

وفي رسالة عظيمة أرسل بها أمير المؤمنين عمر إلى الأمصار، وفي موقف جليل فذٍّ من مواقفه أمام الولاة والأمراء والرعية؛ نقرأ هذا الخبر الجليل:

(... أَلَا وإنِّي والله ما أُرسِلُ عمَّالي إليكم لِيضربُوا أَبْشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلِّموكم دينَكم وسُنَّتكم، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفَعْه إليَّ، فوالذي نفسي بيده إذن لأُقِصَّنَّه منه. فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين! أَوَرأَيْتَ إنْ كان رجل من المسلمين على رعيةٍ فأدَّبَ بعضَ رعيَّتهِ، أئنَّك لَمُقِصَّه منه؟ قال: إي والذي نفسُ عمر بيده، إذن لأُقِصَّنَّه منه، وقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقِصُّ من نفسه! ألا لَا تضربوا المسلمين فتُذِلُّوهم، ولا تُجمِّرُوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم، ولا تُنزِلوهم الغِيَاضَ فتضيِّعوهم)[٣].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٤٣٥)، والصغرى: ٧/ ٨٢؛ والترمذي (١٣٩٥)، من حديث عبد الله بن عمر؛ وصحَّحه الألباني.

(٢) الإسلام والطاقات المعطلة، ص٤٧.

(٣) أخرجه أحمد: ١/ ٤١، واللفظ له؛ والحاكم: ٤/ ٤٣٩، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وأبو داود (٤٥٣٧) مختصراً، وحسَّنه أحمد: شاكر. قوله: «**ولا تجمروهم**»: تجمير الجيش: جمعهم في الثغور وحبسهم عن العود إلى أهليهم.

●● ولقد استعرض القرآن الحكيم في مواقف كثيرة عواقبَ الحكم الفردي والاستبداد السياسي، ومع ذلك شاع الاستبداد الحاكم في فترات من تاريخنا البعيد، وظهرت الفرعونية الحاكمة في تاريخنا القريب بأفظع صورها.

وخيَّم على بلاد العرب والمسلمين ليلُ الحكم الفردي، فاستبدَّ به رجال ادَّعَوا أنهم قد أحاطوا بكل شيء علماً، واختُصرت شخصية الأمة وإرادتها ومصيرها وإمكاناتها وعقول أبنائها في شخص الحاكم الذي اقتدى بسَلَفه السيِّئ القائل كما ذكر القرآن عنه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وإذا عارض معارض، ونصح ناصح، كان جوابه ما قال فرعون من قبل: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

●● والرسول ﷺ عندما حدَّث أصحابه الكرام عن الجلّادين وما يعذِّبون الناس به، إنما خاطبهم بمَا يألفون ويعرفون ويتصورون، وهو ﷺ يشير إلى ما يبتكره الإنسان لافتراس أخيه الإنسان في قابل الأيام! وقد شاعت في بلاد العرب والمسلمين أساليب وأدوات لتعذيب الناس ما لا يخطر على بال ويشيب له الولدان! وتنوع ذلك بين العذابات النفسية والمعنوية والأخلاقية والمادية من استخدام الأيدي والآلات والمواد الكيميائية والكهرباء وغيرها!!.

●● ومع كل هذه العذابات والآلام التي طَحَنَتْ شعوبَنا المنكوبة، وظلَّت تئِنُّ من جراحها تحت العذاب الأليم، فإن الشعوب لم تستسلم، وصَبْرُ الدعاةِ والمضطهدين لن يَنْفد، فهم يقتفون هَدْي النبي ﷺ وأصحابِه الأبرار ومَن تبعهم بإحسان، فالرسول الكريم ﷺ قد ناله من الأذى الشيء الكثير، وهو المعصوم، والعصمة لا تمنع المحنة، فتحمَّل لأْواءَ البلاغ المبين بجَلَد وثبات ورضا ويقين، وكذلك الصحابة معه ومن بعده، ومن جاء بعدهم من المؤمنين، وهكذا يفعل الكبار وأصحاب الرسالات.. ولقد كان في سجون الجلادين نُخبة الأمة ومُصَاصَتُها، فما وَهَنوا لِما أصابهم في سبيل الله، وما ضَعُفوا وما استكانوا، واحتسبوا ذلك عند الله. وهكذا طريق الحق مليء بالمشقات، مستديم

التضحيات، فالشيطان لا يَنثُر الأشواك في سبيل العصاة، بل يفرشها في طريق أصحاب الكمالات.

عن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما يُصِيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أَذًى ولا غَمٍّ، حتى الشوكةُ يُشَاكُها؛ إلا كفَّر اللهُ بها من خَطَاياهُ**»(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرجلَ لَتكُونُ له عند اللهِ المنزلةُ، فما يَبْلُغُهَا بِعَملٍ، فلا يزالُ اللهُ يَبْتَلِيه بما يَكْرهُ حتى يُبلِّغَهُ إيَّاها**»(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في جَسَدِه ومالِه ونَفْسِه، حتى يلقَى اللهَ وما عليه من خطيئةٍ**»(٣).

●● أما أولئك الذين يعذِّبون الناس، وسادتُهم الذين سلَّطوهم على رقاب العباد، فسَلَخوا جلودهم، ومزَّقوا لحومهم، وكسروا عظامهم، وحطَّموا كرامتهم، هؤلاء الكبراء وأولئك الأتباع ما مصيرهم؟.

لقد فَضَح الموتُ الحياة، فهو يسطو عليها كل دقيقة بل كل ثانية، وفي أنحاء القارات الخمس تتصل مواكب الذين يغادرون هذه الأرض لِيُخْلوا المكان لقادمين جُدد، عجباً أين يذهبون؟! إنهم يعودون إلى بارئهم كي يقدموا حساباً عن حياتهم السابقة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢) واللفظ له؛ ومسلم (٢٥٧٣)؛ والترمذي (٩٦٦)؛ وأحمد: ٢/ ٣٠٣، ٣٣٥، ٤٠٢، ٣/٤، ١٨ ـ ١٩، ٢٤، وغير موضع؛ وابن حبان (٢٩٠٥)؛ والبغوي (١٤٢١). **والنصب**: التعب. **والوصب**: المرض.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٩٠٨) واللفظ له؛ والحاكم: ١/ ٣٤٤؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٢٥٩٩)، وصحيح الجامع (١٦٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩)؛ وأحمد: ٢/ ٢٨٧، ٤٥٠؛ وابن حبان (٢٩١٣)؛ والحاكم: ١/ ٣٤٦، ٤/ ٣١٤ ـ ٣١٥؛ والبغوي (١٤٣٦)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصحَّحه الحاكم وأقره الذهبي؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٢٢٨٠).

ويفرُّ كثيرون من الإجابة عن هذا السؤال لأن سكرة الدنيا تشغلهم عنه، أو لأن خطورة المصير تُفزعهم.

هؤلاء الجلَّادون والشُّرَط وسادتُهم في أروقة الحكم المستبد، قد يستطيعون الإساءة إلى غيرهم رَدَحاً من الزمان، وقد يتطاولون في المجتمعات ويحسبون أن الجوَّ قد خَلَا لهم، غير أن القضاء الحكيم يتربص بهم إلى حين، ثم يستمكن الوَثَاق من أعناقهم(١)!.

والاستيحاش من الحق أو الاستكبار عليه ومطاردة أهله وإيذاؤهم بصنوف العذاب؛ لا يتركه قدر الله دون عقاب عاجل أو آجل، فإن حافظ السموات والأرض لا يترك أصحاب الهوى يفسدونهما كيف شاؤوا: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وحالُ أولئك الجلادين مع كبرائهم كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، ذلك بأنهم صَدُّوا عن سبيل الله تعالى، وفتنوا المؤمنين بالعذاب والتنكيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

وكثير من المستبدين وجَلَاوِزتهم قد ماتوا دون عقاب في هذه الدنيا، ولربما رحل بعضهم وهو في أعين الناس بطل قومي وتاريخي، لكن هذا لن يُنجيه من وقفته الطويلة بين يدي أحكم الحاكمين، وفي الحديث الذي رواه عبد الله بن مُغَفَّلٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الله جلَّ وعَلَا إذا أراد بعبدٍ خيراً عَجَّلَ عقوبةَ ذَنْبِهِ، وإذا أراد بعبدٍ شَرّاً أَمْسَكَ عليه ذَنْبَه حتى يُوَافِيَ يومَ القيامة كأنه عائِرٌ!**»(٢).

وعائر: جبل بالمدينة المنورة يشرِف عليها من الجنوب، شَبَّه عِظَمَ ذُنوبه به!

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص٣٧، ٤٥.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٩١١) واللفظ له؛ وأحمد: ٤/٨٧؛ والبيهقي في الأسماء والصفات، ص١٥٣ ـ ١٥٤؛ والحاكم: ١/٣٤٩، ٤/٣٧٦ ـ ٣٧٧، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (١٢٢٠)، وصحيح الجامع (٣٠٨).

إخبار النبي ﷺ

بمجيء ثلاثة أصناف من الخلفاء والأمراء من بعده:

ـ خلفاء يعملون بما يعلمون ويفعلون ما يؤمرون

ـ ويليهم آخرون يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ويعملون ما لا يعلمون

ـ وصنف ثالث يكذبون ويظلمون

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيكونُ من بعدِي خُلَفاءُ، يَعْمَلُون بما يَعْلَمون، ويَفْعَلُون ما يُؤْمَرُونَ، وسيكونُ من بعدِهم خلفاءُ يَعْمَلون ما لا يَعْلَمُون، ويَفعلون ما لا يُؤْمَرونَ، فَمَنْ أَنكر بَرِئَ، ومَن أَمْسَكَ سَلِمَ، ولكنْ مَنْ رضِيَ وتابَعَ»**(١).

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سَيكونُ أُمَراءُ من بَعْدِي يَقُولُون ما لا يَفْعَلُونَ، ويَفْعَلُونَ ما لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جاهَدَهم بيدِه فهو مؤمنٌ، ومن جاهَدَهم بِلسانِه فهو مؤمنٌ، ومن جاهَدَهم بقلبِه فهو مؤمنٌ، لا إيمانَ بَعْدَهُ»**(٢).

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٦٥٨) و(٦٦٦٠) واللفظ له؛ وأبو يعلى (٥٩٠٢)؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٥٧ ـ ١٥٨؛ وفي الدلائل: ٦/ ٥٢١؛ وصحّحه ابن القيّم في «تهذيب مختصر سنن أبي داود»: ٦/ ١٥٨؛ وصحّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٣٠٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٠)؛ وأبو عوانة في مسنده: ١/ ٣٥ و٣٦؛ والبيهقي في السنن: ١٠/ ٩١؛ وابن حبان (١٧٧) واللفظ له.

٣ ـ وعن كَعْبِ بنِ عُجْرَةَ ﵁ قال: (خَرج علينا رسول الله ﷺ ونحن تسعةٌ وبيننا وِسادةٌ من أَدَمٍ، فقال: «**إنَّها ستكون بَعْدِي أُمَراءُ يَكْذِبون ويَظْلِمونَ، فَمَنْ دَخَل عليهم فَصَدَّقَهُم بِكَذِبِهم وأَعَانَهُم على ظُلْمِهِم؛ فليسَ منِّي ولستُ منه وليس بوارِدٍ عَلَيَّ الحوضَ، ومَنْ لم يُصَدِّقْهُم بِكَذِبِهم ولم يُعِنْهُم على ظُلْمِهِم؛ فهوَ مِنِّي وأنا منه وهو واردٌ عليَّ الحوضَ**»)[١].

٤ ـ وعن عبد الله بن خَبَّاب بن الأَرَتِّ، عن أبيه خَبَّاب ﵁ قال: (كنَّا قُعوداً على باب النبي ﷺ، فخَرَجَ علينا، فقال: «**اسْمَعُوا**» قلنا: قد سَمِعْنَا، قال: «**اسمعوا**» قلنا: قد سمعنا، قال: «**اسمعوا**» قلنا: قد سمعنا، قال: «**إنه سَيَكون بَعْدِي أُمَراءُ، فلا تُصَدِّقُوهم بِكَذِبِهِم، ولا تُعِينُوهُم على ظُلْمِهِم، فإنَّه مَنْ صَدَّقَهُم بِكَذِبِهم، وأَعَانَهُم على ظُلْمِهِم، لم يَرِدْ عليَّ الحوضَ**»)[٢].

❁ ❁ ❁

في هذه الأحاديث ثلاث من معجزات رسول الله ﷺ وأعلام نبوته، حيث أخبر عن مجيء ثلاثة أصناف من الخلفاء والأمراء والحكام الذين يَلُونَ أمرَ هذه الأمة، ويُستخلَفونَ عليها طَوْعاً منها أو كَرْهاً عنها.. وبيَّنَ ﷺ أن منهم من يسلك في الرعية هديَ النبوة ومنهج الإسلام، ومنهم من يَخبط بلا هادٍ ولا نور مبين، ولا معرفة مبصرة، وفريق ثالث يَكْذِب على الأمة ويُشيع فيها الظلم.

وأوضَحَ ﷺ أن الخلفاء الصالحين الهداة المهتدين هم أول مَن يَخْلُفه في الحكم، ثم يأتي من بعدهم آخرون ممن ليسوا على هديهم.

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ٢٤٣ واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٧٧٨٢ ـ ٧٧٨٥، ٨٧٠٥) وفي الصغرى: ٧/ ١٦٠؛ والترمذي (٢٢٩٥)؛ وابن حبان (٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥)؛ والحاكم: ١/ ٧٩؛ والبيهقي: ٨/ ١٦٥؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣٤٤)، وغيرهم؛ وأخرجه الترمذي (٦١٤) بأطول مما هنا. وقال الترمذي: حديث صحيح غريب؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٨٤) واللفظ له؛ وأحمد: ٦/ ٣٩٥؛ والطبراني في الكبير (٣٦٢٧)؛ والحاكم: ١/ ٧٨، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

وقد جاءت الأيام بصدقِ ما أنبأ ﷺ به، وعلى الوجه الذي وصفه وشخَّصه وحدَّده.

وآثرتُ تناولَ هذه النبوءات الثلاث في مبحث واحد، وبيانَ التحقق التاريخي لوجود الأصناف الثلاثة وتشخيص ما جرى في أزمانهم في موضع واحد، بسبب ترابط الدورات التاريخية الثلاث لحكمهم، وتداخل الأحداث والوقائع التطبيقية لأعمالهم، وأحياناً وجود أمثلة من الصنف الأول في مراحل تاريخية متأخّرة، كما وُجِد أحياناً رجال من الصنف الثاني أو الثالث في مرحلة متقدّمة.



٨٠ ـ الصنف الأول

خلفاء يعملون بما يعلمون ويفعلون ما يؤمرون

وهم أولئك الخلفاء والأمراء والسلاطين والحكام الذين قرؤوا الكتاب الحكيم، ودرسوا السنَّة النبوية والسيرة الطاهرة، وعَلِموا بها، وعرفوا توجيهاتها، وفقهوا أوامرها، وتدبروا نواهيها، فالتزموا منهجها، واستناروا بهديها، وأقاموا شعائرها وشرائعها في أنفسهم وأهليهم وما وَلُوا، يسيرون على نور مبين، ويسلكون الصراط المستقيم، فما أمر به القرآن والسنَّة ودلَّت عليه السيرة فعلوه، وما حذّرت مغبَّتَه وزجرت عن فعله تركوه.. إذا نُبِّهوا إلى خطأ رجعوا عنه، وإذا رُشِّدوا إلى خير استرشدوا إليه، وإذا أُوقِفوا على حق وَقَفوا عنده.. عقولُهم بالحق مستنيرة، وأفعالُهم بالإسلام مستهدية، رحماءُ كرماء، أمناء أوفياء، عادلون مقسطون، علماء فاقهون.. يقرِّبون أهلَ الدين والورع وأصحاب الكفاءات وأهل الخبرات، وذوي السيرة الحسنة واليد النظيفة مهما بَعُدوا، ويؤخِّرون من كان بخلاف ذلك وإن قَرُبوا، ولا يولُّون على الناس إلا من يستحق الولاية، وتسعَدُ به الرعية، وينتصر به الحق.

فَسَعِد هؤلاء الخلفاء والسلاطين بأنفسهم، وسَعِدت بهم رعيَّتُهم، وسَعِدت بهم رسالتهم، وانتصر بهم دينهم.

وفي مقدّمة هذا الركب المبارك من حكام المسلمين يأتي الأئمة الأربعة الكبار، فخرُ الإسلام وسادة المؤمنين: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، ولا يُدانيهم أحدٌ ممن جاء بعدهم في فهمهم للإسلام، والتزامهم به، واهتدائهم بهدي النبوة، وعملهم بما يعلمون من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وفعلهم ما يؤمرون به فيهما.

ويليهم كثير من خلفاء بني أمية رحمهم الله تعالى وأجزل مثوبتهم وغفر زلَّاتهم، فقد جاء في الحديث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوَّلُ هذا الأمر نبوَّةٌ ورحمةٌ، ثم يكون خلافةً ورحمةً، ثم يكون مُلْكاً ورحمة، ثم يتكَادَمُون عليه تكادُمَ الحُمُر**»[(١)].

وكذلك جماعة من خلفاء بني العباس كأبي جعفر المنصور، وابنه المهدي، وهارون الرشيد، وسواهم.

وعدد من الخلفاء العثمانيين، وطائفة من الأمراء الأيوبيين والزنكيين وعلى رأسهم عماد الدين زنكي، ونور الدين الشهيد الذي كان يُشَبَّه بأبي بكر وعمر، وصلاح الدين الأيوبي.

وجماعة من الخلفاء الأمويين بالأندلس، ومن أمراء المرابطين والموحّدين والسلاجقة، وغير هؤلاء من الأكابر.

★ ★ ★

---

(١) انظر الحديث وتخريجه في: نبوءة (٧٢): ٢/٣١٧، حاشية (١)، (في هذا المجلد).

٨١ ـ الصنف الثاني

خلفاء وملوك وسلاطين وأمراء يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، ويعملون ما لا يعلمون

وقد ظهر هذا الصنف منذ عهود بعيدة في التاريخ الإسلامي، وابتدأ الأمر آنذاك بأمور قليلة وعلى نطاق ضيِّق ورجال مبعثرين هنا وهناك، ثم تمادى الأمر، وتنامى الجهل، واتسع الخرق، وتزايد مشايعوه وكَثُر حاملوه، حتى وصلنا إلى القرنين الفائتين فعَمَّ وطَمَّ، وبَلَغ السيل الزُّبى، واستحكم تحقق النبوءة على نطاق واسع في طول بلاد الإسلام وعرضها، وشرقها وغربها، وسطحها وعمقها.

فظهر من يعمل بما لا يعلم، ويفعل ما لا يؤمر، بل فعل خلاف ما أُمر به، كما في عهد مروان بن الحكم حيث قدَّم الخطبة على الصلاة في العيد، فأنكر الصحابة عليه ذلك؛ كما في «صحيح مسلم» وغيره[(١)].

وقرَّب الحكام في عهد بني أمية الموالين لهم على غيرهم، وحُرِم من الحقوق في الولايات مَن هم أفضل كفاءة وأحسن عملاً وأرفع عند الله منزلة.. وتوارت الشورى في الحكم وسادت الوراثة فيه، وكان ثمة مظالم ناجمة عن قصورِ فهمٍ للإسلام، وعدمِ العلم الكافي بواجبات الإمارة، فجرى لذلك من بعضهم أنهم يعملون ما لا يعلمون، ويفعلون ما لا يؤمرون.

ومن أسوأ الأمثلة على ذلك ما جرى لعدد كبير من قادة الفتوحات العظماء؛ أمثال: محمد بن القاسم الثقفي، وقُتيبة بن مسلم، وموسى بن نُصير، وطارق بن زياد، وأمثالهم ممن هُضِموا حقَّهم في السيادة والتكريم والتشريف، وكانت نهاية عدد منهم غير سارة، وذلك من سوء التطبيق لمفاهيم الإسلام العامة من قبل

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩)؛ وأبو داود (١١٤٠)؛ والترمذي (٢١٧٢)؛ وابن ماجه (١٢٧٥)؛ وابن حبان (٣٠٦)، وغيرهم. وانظر: البخاري (٩٥٦)؛ ومسلم (٨٨٩).

أولئك الولاة والأمراء الذين يعملون ما لا يعلمون، ويفعلون ما لا يؤمرون، ويقولون ما لا يفعلون.

واستفحل الأمر في عهد بني العباس، وحسبك أن دولتهم قامت على أكتاف الأعاجم الذين أبادوا خلقاً وخاصة من بني أمية، ومن فعل تلك الأفعال الشائنة لترسيخ ملكه أحق من تنطبق عليه النبوءة التي نبحث فيها، حيث إنهم غيَّروا وبدَّلوا ولم يلتفتوا إلى هدي القرآن والسنَّة في التغيير والتعامل مع المسلمين فضلاً عن غيرهم. . فتخبَّطوا في أعمالهم، وخَبَطوا في دين الله، فعملوا ما لم يعلموا، وفعلوا ما لم يؤمروا، بل ارتكبوا فعل ما نُهوا عنه.

وقل مثل ذلك في الصراع على الملك، وائتمار الأخ بأخيه وغَدْره به للوثوب على السلطة.

وما فعله المأمون ثم تابعه عليه المعتصم فالواثق من (القول بخلق القرآن)، وانتشار تلك الفتنة الكبيرة التي اكتسحت دولة الإسلام أزيدَ من عشرين سنة، فكانت ترجمةً واضحةً ومثالاً فذّاً لأولئك الذين جاء وصفهم في الحديث: «**يفعلون ما لا يؤمرون، ويعملون ما لا يعلمون**»؛ فأيُّ علم لهم بهذه المضايق التي أَدخلوا العقل فيها، فتاهوا وتاهَ من تابعهم على القول بأن (القرآن مخلوق)، تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً!.

وإذا سِرْنا مع تاريخنا وجدنا هذا الأمر آخذاً بالاستفحال والاستشراء، وخاصة في القرن المنصرم وإلى زماننا، حيث طفا على سُدَّة الحكم أناس لا علاقة لهم بالأمة وحقوقها والإسلام وحقائقه، إلا كمثل علاقة السمك الطافي بالحياة!.

فلقد عَظُم البلاء، وربح الأعداء، وغُبِن الأولياء، وترأَّس الجهلاء، وخَمَل ذِكْر العلماء، واستولى الباطل على الأحكام، وعمَّ الجهل بالمعاصي والمحرّمات والحقوق والواجبات، وتغلغل الحرام في أموال الخلق، وتحكَّم الجهال بالأبدان والأموال والأعراض بغير حق!.

بل ارتفع صوت الباطل فوق صوت الحق، وتغلّب العبيد على الأحرار من الخلق، وصار الحكم مَكْساً، والحق عكساً، لا يُوصَل إليه ولا يُقْدَر عليه إلا بشقِّ الأنفس، بدَّلوا دين الله، وغيَّروا حكمه، وتلاعبوا بفرائضه، وضيَّعوا أوامره وسُنَنَه، وناصروا البدع والضلالات والموبقات، قالوا فلم يفعلوا، وعملوا بما لم يعلموا، وفعلوا ما لم يؤمروا.. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

(فأصبح التعري تأدُّباً، والمخادعة تسامياً، والمعابثة مجاملة، والتعفف رذيلة، والتصون خرافة، ومجرد الإشارة إلى الدين جريمة اجتماعية، تقعد من أجلها الدنيا وتقوم)[١].

حقوق الإنسان، وضمانات القضاء العادل، وتوفير الحريات الأساسية، وكسر كبرياء الجبابرة، وتحريم الحبس أو الاعتقال الإداري، ومراقبة المال العام تحصيلاً وإنفاقاً... إلى آخر ما يضبط العلاقات بين الحاكم والمحكوم؛ فهذا شيء كأنه خارج عن نطاق الفقه الإسلامي!.

وأمثلةُ هذا الصنف الثاني من الحكام والأمراء والمسؤولين والمتنفذين الذين تسلّطوا على رقاب الأمة؛ واضحةٌ كثيرة منتشرة في البلاد العربية والإسلامية لا تحتاج إلى بيان لأنها تفوت العَدَّ، وذِكْر الشواهد عليها يحجِّم الحقيقة، ويعطي مسحةَ براءةٍ على من لم يُذكَر، نتركها لحصافة القارئ.

والمسلمون ـ ولله الحمد ـ أضحوا عارفين بحقائق الأمور، لا تنطلي عليهم الدعايات الرخيصة، إلا من خُتم على قلبه، أو أراد المكابرة، فليبقَ سادراً في غَيِّه!.

★ ★ ★

---

(١) كفاح دين، ص١٧٢.

٨٢ ـ الصنف الثالث

خلفاء وحكّام وسلاطين وأمراء يكذبون ويظلمون

الكذب والظلم من الكبائر والموبقات التي حذَّر الإسلام منها، وأوضح النبي ﷺ خطرها ومَغَبَّة الوقوع في حمأتها، هذا إذا كان من آحاد الناس وعامتهم، فإذا وقع ذلك من الأمير أو الوالي أو الحاكم أو الخليفة كان الجرم أعظمَ والخطر أفدحَ والفساد أعرضَ؛ لأن كذب الملوك والحكام ينتشر في الآفاق، وظلمهم يعمُّ العباد والبلاد.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهمُ اللهُ يومَ القيامةِ، ولا يُزَكِّيهِم، ولا يَنْظُرُ إليهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّابٌ، وعائِلٌ مُستكبِرٌ»**[(١)].

فجَمَعَ للأمير الكذَّاب أربعة أصناف من العذاب:

أولها: أن الله سبحانه لا يكلِّمه تكليمَ أهل الخيرات بإظهار الرضا عنه، بل بكلام أهل السخط والغضب عليه.

وثانيها: أنه سبحانه لا ينظر إليه نظرة رحمة له ورأفة ولطف به، بل يُعْرِض عنه ويَصرف عنه رحمته ولطفه، ويُحِلّ به مَقْتَه ونقمتَه.

وثالثها: لا يزكيه: بأن لا يُطهِّره من دَنَس ذَنْبه ولا يثني عليه، بل يذمّ فعله وعمله وقوله.

ورابعها: وله عذاب أليم، وهو الذي يشق على الإنسان ويخلُص وجعُه إلى

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٧) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٢٣٦٧) و(٧١٠٠)، وفي الصغرى: ٥/ ٨٦؛ وأحمد: ٢/ ٤٣٣؛ وابن حبان (٤٤١٣) و(٧٣٣٧)؛ والبغوي (٣٥٩١)، وغيرهم.

قلبه، وحسبه أن الرسول ﷺ يصفه بأنه «عذاب أليم»، هذا فوق العذابات السابقة(١)!.

وعن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكلِّ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامةِ يُرْفَعُ له بِقَدْرِ غَدْرِه، أَلَا ولا غادِرَ أعظمُ غَدْراً من أميرِ عامَّةٍ»**(٢).

ومعنى هذا ـ كما قال القاضي عِياض ورجَّحه النووي ـ: نَهيُ الإمام عن غَدْره للأمانة التي قُلِّدها لرعيته والتزم القيام بها، والمحافظ عليها، ومتى خانهم أو ترك الشفقة عليهم أو الرفق بهم؛ فقد غدر بعهده(٣)!.

وكذِبُ الحكام على الشعوب وظلمُهم للناس مما شاع في بلادنا منذ عهد بعيد، وازداد شرُّه في التاريخ القريب منذ نحو مئتي سنة وإلى أيامنا، حيث ظهر ذلك وانتشر بصورة مفظعة مفزعة، وبلا خوف ولا حياء، واستحكم تحقق هذه النبوءة كما هو ظاهر بجلاء.

لقد كذَبوا على الشعوب من قديم عندما تصارعوا على المُلك، وادعوا أمام الأشهاد أنهم يريدون مصلحة البلاد والعباد، وتقربوا للفوز بالمناصب والولايات بكل وسيلة، حتى ولو كانت بالتآمر مع الأعداء، وعندما حكموا أخلفوا الوعد ونقضوا العهد.

وكذَبوا على الأمة عندما استولوا على المال العام، وتظاهروا بأنهم ينفقونه في مؤسسات الدولة وشؤون المسلمين، في الوقت الذي ذهبت فيه أموال طائلة بلا حساب على بذخهم وتبذيرهم وإسرافهم وسفههم.

وكذَبوا على القادة والأمراء الصغار وغيرهم ليكسروا شوكتهم، حتى إذا

---

(١) شرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ٣٩٣، بتصرف وزيادة.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣٨) واللفظ له؛ وأحمد: ٣/ ٤٦. وفي الباب عن ابن عمر، وابن مسعود، وأنس.

(٣) شرح صحيح مسلم: ٦/ ٢٨٧.

استمكنوا منهم غدروا بهم، وقصص قتل واغتيال الحكام لأصدقائهم وأمرائهم وولاتهم وقادتهم مبثوث في تاريخنا القديم والحديث مع الأسف والألم المرّ!.

وكذَبوا على الأمة عندما ألزموا أنفسهم ببناء الدولة وإقامة مجدها، فنكثوا بذلك، والأمثلة على هذا وذاك كثيرة في قليل من عهد الأمويين، وبعض العباسيين، وملوك الطوائف والمماليك والأيوبيين والعثمانيين. وتفاقم الأمر في عصورنا الأخيرة وعظم الخطب بما لا يخفى على كل ذي بصيرة وقلب يقظ وعقل مستنير!.

وقامت أسر وطوائف وبيوتات حكمت بلاد المسلمين، ورفعت شعارات الدعوة للإسلام والقومية والوطنية والتقدمية وغيرها من العناوين، في المشرق والمغرب العربي والإسلامي، وأعلنت ظاهراً نصرتها للإسلام وخدمتها للأمة وعملها على صيانة حقوقها والقيام بما يسعدها!.. ولم يمهلها الزمن طويلاً حتى كشف زيفَ الدعاوى وكذبَ الشعارات، وهَوَتِ الأمة كلها من حالقٍ.

أما الظلم الذي باء بآثامه الحكام فحديثه ذو شجون، وهو قد وقع من عهود قديمة في أمتنا واستمر إلى الآن، نعم كان فيما مضى أضيقَ دائرة وأخفَّ وطأة، مع استمساك حكام الدول الإسلامية الماضية بالإسلام، وعملهم بمقتضاه، ودفاعهم عن حوزته، واستنصارهم به، وعدم مضادَّتِه بشرع سواه، لكن كان ثمة ظلم موجود، وهو في القرن الفائت أعمّ انتشاراً بكثير، وأشدّ تنكيلاً، وأسوأ قيلاً، وأضلّ سبيلاً!.

ومن المعالم الرئيسة للظلم من قبل الحكام كما أشارت إليه الأحاديث الشريفة:

١ ـ الإغارةُ على الحكم والاستبداد به، سواء كان استبدادَ فرد أو حزب أو طائفة أو أسرة.

٢ ـ تأخير الحكم الشوري، وسيادة الحكم الوراثي أو الجَبْري والانقلابات العسكرية، والزعم لصاحب السلطة بأنه مطلَق الإرادة لا تحكمه الشورى.

٣ ـ توسيد الأمر إلى غير أهله في الوزارات والجيش والقضاء والمؤسسات العامة في الدولة.

٤ ـ عدم إتاحة تكافؤ الفرص، ووأدُ الكفاءات، وتهجيرُ الأدمغة والطاقات النادرة.

٥ ـ كَبْتُ الحريات، ومحاربةُ المطالبة بالحقوق العامة والخاصة، وحرمان المعارضين والمخالفين، والإغداق على المؤيدين والأتباع والمتملِّقين.

٦ ـ تزوير الانتخابات والتلاعب بنتائج صناديق الاقتراع.

٧ ـ انتهاب المال العام وتبذيرُه وحرمانُ الشعب منه إلا من الفتات.

٨ ـ الاعتقال السياسي والمطاردة والملاحقة والنفي خارج البلاد.

٩ ـ تعذيب الناس وتسليط السفهاء عليهم من الجلادين والجَلَاوِزة والشُّرَط.

١٠ ـ التجسس على الناس وتتبع عوراتهم وعثراتهم، للإيقاع بهم وإيرادهم المهالك، مما جعل عامة شعوبنا لا يتكلمون إلا في سرِّهم ونجواهم، حيث انتشر في بلاد المسلمين جهاز ضخم من أتباع السلطان وأزلامه للحفاظ على أمنه وسلامة نظام حكمه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (صَعِدَ رسولُ الله ﷺ هذا المِنْبَر، فنادى بصوت رفيع، وقال: «**يا معشرَ مَنْ أَسْلَمَ بلسانِه ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قلْبَهُ! لا تُؤذوا المسلمين، ولا تُعَيِّروهم، ولا تَطْلُبوا عَثَراتِهم، فإنه مَن يَطْلُبْ عورةَ المُسلم، يَطْلُبِ اللهُ عَوْرَتَه، ومن يَطْلُبِ اللهُ عورتَهُ، يَفْضَحْهُ ولو في جَوْفِ بيتِه**»!)[1].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٧٦٣) واللفظ له؛ والترمذي (٢٠٣٢)؛ والبغوي (٣٥٢٦)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وقال الألباني: حسن صحيح، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

وعن هَمَّام بن الحارث قال: (كنَّا جلوساً مع حُذيفةَ في المسجد، فجاء رجلٌ حتى جلسَ إلينا، فقيلَ لحذيفةَ: إنَّ هذا يرفعُ إلى السلطان أشياءَ، فقال حذيفة إرادةَ أن يُسْمِعَهُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»!)(١).

نقول: فماذا يقول حذيفة لأمثال هذا النمَّام لو رأى ما يحدث في زماننا؟!.

وعن المُسْتَورد بن شَدَّاد رضي الله عنه؛ أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ أَكَلَ برجلٍ مسلم أَكْلَةً؛ فإنَّ الله يُطْعِمُه مثلَها من جهنَّم، ومن اكتسى برجل مسلم ثوباً؛ فإن الله يَكْسُوه مثلَه في جهنَّمَ، ومَنْ قام برجلٍ مسلمٍ مقامَ سُمْعَةٍ؛ فإنَّ الله يقومُ به مقامَ سُمْعَةٍ يومَ القيامة**»(٢).

هذه سوانح الفكر وجولات القلم في معاني هذه الأحاديث الجليلة والنبوءات الصادقة، عسى أن تكون قد كشفت بعض جوانب مدلولاتها ومقاصدها.

واجب الأمة والشعوب والأفراد:

●● يقول النبي ﷺ في الأحاديث التي أثبتناها في صدر هذه النبوءة:

«**فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكَذِبِهم وأعانَهم على ظُلْمِهم؛ فليس منِّي ولستُ منه وليس بواردٍ عليَّ الحوضَ، ومن لم يُصَدِّقْهم بكَذِبِهم ولم يُعِنْهُم على ظُلْمِهم؛ فهو منِّي وأنا منه وهو واردٌ عليَّ الحوضَ**».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)؛ ومسلم (١٠٥) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٨٧١)؛ والترمذي (٢٠٢٦)؛ والنسائي في الكبرى (١١٥٥٠)؛ وابن حبان (٥٧٦٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٤٠)؛ وأبو داود (٤٨٨١)؛ وأحمد: ٤/ ٢٢٩؛ وأبو يعلى (٦٨٥٨)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٤٨٥)؛ والحاكم: ٤/ ١٢٧ ـ ١٢٨، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٣٤)؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط.

«فلا تُصَدِّقُوهم بكَذِبِهم، ولا تُعِينُوهم على ظُلْمِهم».

«فمن جاهَدَهُم بيدِه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، لا إيمانَ بعده».

«فمن أَنْكَرَ بَرِئَ، ومن أَمْسَكَ سَلِمَ، ولكنْ مَنْ رَضِيَ وتابَعَ».

في هذه العبارات النبوية المشرقة أسس بيِّنة وركائز راسخة وشروط واضحة للعلاقة بين الناس والحكام، وفي مقدمتهم الوجهاء في المجتمع والأشراف والعلماء والوزراء وأهل البلاط والبطانة المحيطة بالزعماء والمستشارون لهم وأصحاب الأقلام ثم آحاد الناس وعامتهم.

حيث يَنهى النبي ﷺ أشدَّ النهي عن تصديقهم بكذبهم ومداهنتهم وإعانتهم على ظلمهم، ويحذِّر من يَدخل عليهم أو يقترب منهم أو يدور في فلكهم أو يعمل في دائرتهم وتحت تأثيرهم؛ من ترويج أكاذيبهم وتبرير مظالمهم!.

فما بالُكَ بمن يَقلِب الحقائق، ويزوِّر الوقائع، ويجعل الكذب صدقاً، والظلم إنصافاً، والسرقة سياسة، والخيانة أمانة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلبلة في الأمة، إلى آخر ما يقترفه أزلام الحكم وأبواق السلطان.

والمطلوب من الأمة بلا استثناء ما وجَّه إليه رسول الله ﷺ:

من استطاع أن يغيّر بيده أو لسانه أو قلمه توجَّب عليه ذلك حسب طاقته ومركزه، ومن لم يستطع فأضعف الإيمان أن ينكر الباطل بقلبه ولا يرضاه في نفسه، ويحدِّث بذلك من استطاع في مجالسه؛ لتوضيح الحقائق وكشف الزيف وتبصير من ليس بذي بصيرة.

وقد ذَمَّ الإسلام مداهنة الأمراء في الحق وإظهار ما يبطن خلافه، كالمتملِّق بالباطل مما فيه تزيين القبيح والموافقة على الباطل والإعانة على غير الحق.. وأباح المداراة وضَبَطها بأن لا يكون فيها قدح في الدين وتضييع حقوق الناس أو تهوين ظلمهم والتنكيل بهم.

وكما قال النبيّ ﷺ: «**فمن كره برئ**»[(١)]: أي من كرِه المنكر بمعناه الشمولي؛ برئ من إثمه وعقوبته، وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه، فليكرهه بقلبه، وليبرأ.

«**ومَن أَنْكَرَ سَلِم**»: أي من العُهدة أمام الله تعالى والمسلمين، ونجا من مشاركتهم في الوِزْر والوَبَال والنقمة والعذاب.

«**ولكن مَن رضِيَ وتابَعَ**»: أي من رضي بقلبه وأقرَّ ذلك ولم يستنكره، بل لجَّ وتابعهم في أعمالهم ومنكراتهم ومظالمهم، فيكون قد شاركهم بالإثم والوزر والعصيان والعقوبة.

●● **إن في مجتمعاتنا على شتى الأصعدة أخطاء كثيرة بل خطايا فاحشة تخالط أجهزة الحكم ومنابر التوجيه ومؤسسات المال والاقتصاد والاجتماع والأخلاق**، تكاد تفقد الإسلام وجاهته ومكانته.

والأيدي النظيفة والألسن الصادقة والأقلام الحرة التي تقتلع تلك الفتن من القلوب والسلوك؛ أمامها مهمة شاقة دونها موانع شامخة! فهناك إعلام كثيف وأقلام كثيرة تقدّم ما تشاء من الفتن وتبغي على العدل والاستقامة والكرامة بلا حق، بل تأخذ الأجر على خدمة البغي والإثم والعدوان، وذَنْبُها عظيم أمام الله والمسلمين والتاريخ.

عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «**مَثَلُ الذي يُعين قومَهُ على غيرِ الحق، كَمثلِ بعيرٍ تردَّى في بئرٍ، فهو يُنْزَعُ منها بِذَنَبِه**»[(٢)].

وهذا مثلٌ في ذمِّ الحميَّة والتعاون على العصبية، قال الخطَّابي: «يُنزع بذَنَبه»

---

(١) هذه رواية أخرى لمسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها (١٨٥٤) (٦٣).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٩٤٢) واللفظ له؛ والطيالسي (٣٤٤)؛ وأحمد: ١/ ٣٩٣، ٤٠١؛ وأبو داود (٥١١٧)؛ والبيهقي في السنن: ١٠/ ٢٣٤، وغيرهم، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود، والصحيحة (١٣٨٣).

معناه: أنه قد وقع في الإثم وهلك، كالبعير إذا تردَّى في بئر فصار يُنزع بذَنَبه فلا يُقْدَر على خلاصه[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أرادَ اللهُ بالأمير خيراً جَعل له وزيرَ صدقٍ: إنْ نَسي ذَكَّره، وإنْ ذَكَر أعانَهُ. وإذا أراد الله به غير ذلك، جعل له وزير سوءٍ: إنْ نَسي لم يُذَكِّره، وإنْ ذَكَر لم يُعِنْهُ»**[(٢)].

وهذا توجيهٌ وأمرٌ لكلِّ من ولَّاه الله تعالى شيئاً من أمور المسلمين؛ أن يقرِّب الأكفاء الصالحين العقلاء الناصحين ليبصِّروه ويرشدوه ويُعينوه على الوقوف على أحوال الأمة وآهات الناس وأنين المظلومين، وأن يَطردوا من مجالسهم المتملِّقين والمنتفعين والنهَّازين للفُرص الذين هم أشبه بعصابات تريد الفتك والنهب والثراء بأقل الأثمان وأسرع الأزمان!.

يروي عَمْرو بن عَلْقمة بن وقَّاص: أنه كان جالساً مع أبيه في السوق، قال: (فمرَّ به رجلٌ له شَرفٌ، فقال له علقمةُ: إنَّ لك رَحِماً، وإنَّ لك حقّاً، وإني رأيتُك تدخلُ على هؤلاء الأمراء، وتتكلّم عندهم بما شاء الله أن تتكلَّم به، وإنِّي سمعتُ بلالَ بنَ الحارث المزنيَّ صاحبَ رسول الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أحدَكم ليتكَّلم بالكلمة من رِضْوان الله، ما يَظُنُّ أن تَبْلُغ ما بَلَغتْ، فيكتبُ الله ﷻ له بها رِضْوانَه إلى يوم القيامة. وإنَّ أحدَكم ليتكلَّم بالكلمة من سُخْطِ الله، ما يَظُنُّ أن تَبْلُغَ ما بلغتْ، فيكتبُ الله ﷻ عليه بها سُخْطَه إلى يومِ يَلْقَاه»**.

قال علقمةُ: فانظُرْ وَيْحَكَ! ماذا تقولُ وماذا تكلَّمُ به، فَرُبَّ كلامٍ قد مَنَعني أن أتكلَّمَ به، ما سمعتُ من بلال بن الحارث!)[(٣)].

---

(١) عون المعبود: ٨/ ٣٩٥.

(٢) أخرجه ابن حبان (٤٤٩٤) واللفظ له؛ وأبو داود (٢٩٣٢)؛ والبيهقي في السنن: ١٠/ ١١١ ـ ١١٢؛ وبأخصر منه عند النسائي في الكبرى (٧٧٧٩)، وفي الصغرى: ٧/ ١٥٩؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٩٦٩) واللفظ له؛ والحميدي (٩١١)؛ وأحمد: ٣/ ٤٦٩؛ والترمذي =

وعن أبي الشَّعْثَاء قال: (قلتُ لعبد الله بن عُمر: إنَّا نَدخُلُ على أُمرائنا، فنقول قولاً، فإذا خرجنا من عندهم قلنا غيرَه، قال: كنَّا نَعُدُّ ذلك نِفاقاً على عهد رسول الله ﷺ)[1].

والأحاديث النبوية في هذا كثيرة، وتوجيهاتُه ﷺ عزيزة وجليلة، وتحذيراته مخيفة وخطيرة، من الدخول على السلاطين وممالأتهم والسكوت على باطلهم، فما بالُكَ بتزيين الباطل وطمس الحق وإماتة حقوق الناس وتهوين الدماء والأعراض والأموال والبلاد؟!.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**مَن سَكَن البادية جَفَا، ومن اتَّبَع الصَّيدَ غَفَل، ومن أتى أبوابَ السلطان افْتُتِن**»[2].

افتُتِن: أي وقع في الفتنة؛ فإنه إن وافق الأميرَ فيما يأتيه ويَذَره فقد خاطر على دينه، وإن خالَفَهُ فقد خاطر على دنياه.. وإن من دخل على السلطان وداهَنَه وقع في الفتنة، وأما من لم يداهِنْه ونَصَحه وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر؛ فيكون دخوله عليه أفضلَ الجهاد[3].

●● وقد رسم رسول الله ﷺ منهاجاً واضحاً لمن يقترب من الحكّام ويغشى مجالسهم ويجلس في بلاطهم، وأوضح ذلك في مواقف كثيرة ومجالس عديدة.

من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله ﷺ

= (٢٣١٩)؛ والنسائي في الكبرى (١١٧٦٩)؛ وابن حبان (٢٨٠)، و(٢٨١) و(٢٨٧)؛ والحاكم: ١/ ٤٥، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(١) أخرجه البخاري (٧١٧٨)؛ والنسائي في الكبرى (٨٧٠٦) واللفظ له؛ وابن ماجه (٣٩٧٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٥٩)؛ والترمذي (٢٢٥٦)؛ والنسائي في الكبرى (٤٨٠٢)، وفي الصغرى: ٧/ ١٩٥ ـ ١٩٦، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب؛ وصحَّحه الألباني.

(٣) تحفة الأحوذي: ٦/ ١٢٩.

خطيباً، فكان من خطبته أن قال: «**أَلَا إنِّي أُوشِكُ أن أُدْعَى فأُجِيب، فَيَليكُم عمَّالٌ من بعدي يقولون ما يعلمون ويعملون بما يعرفون، وطاعةُ أولئك طاعةٌ، فتَلْبَثون كذلك دهراً. ثم يليكم عمَّالٌ من بعدهم يقولون ما لا يعلمون ويعملون ما لا يعرفون، فمن ناصَحَهم ووازَرَهم وشدَّ على أَعْضَادِهم؛ فأولئك قد هَلكوا وأَهْلَكوا! خالِطُوهم بأجسادكم، وزايلُوهم بأعمالكم، واشْهَدوا على المُحسنِ بأنه محسنٌ، وعلى المسيءِ بأنه مسيءٌ**»[1].

فمن قَدَر على ذلك فبارك الله فيه وسَدَّد رأيه وحَمى خطاه وسلَّمه من الأذى، وإلا فإن لم يستطِعْ قولَ الحق فليسكت ولا ينطق بالباطل ويزيِّن الوجهَ الشائه لكثير من أمراء السوء المستبدين المتجبرين!.

وعن أبي سعيد الخُدْري ﷺ: (أنَّ رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: «**أَلَا لا يَمْنَعَنَّ رجلاً هيبةُ الناسِ أن يقولَ بحقٍّ إذا عَلِمَه**» قال: فبكى أبو سعيد، وقال: قد واللهِ رأَيْنَا أشياءَ، فَهِبْنَا!).

وفي رواية عن أبي سعيد ﷺ قال: (فحمَلَني ذلك على أنِّي ركبتُ إلى معاويةَ، فملأتُ أُذُنَيْه ثم رجعتُ!)[2].

يقول أبو سعيد هذا في مثل عهد معاوية ﷺ، فماذا يقول لو أدرك زماننا وما ارتكس إليه علماء السلطان من السكوت على الباطل ومحاربة الحق، بل إطلاقهم الفتاوى الرخيصة التي جرَّأتِ الحكام على العبث بالحقوق والدماء والأموال والبلاد؟! فلله الأمر.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ١/١٩٦ (٢)؛ والبيهقي في الزهد الكبير ٢٢ (١)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٧)؛ والطيالسي (٢١٥١)؛ وأحمد: ٣/٥، ٤٤، ٤٦ ـ ٤٧، ٥٠، ٥٣، ٨٤، ٩٢؛ وابن حبان (٢٧٥) و(٢٧٨)؛ والبيهقي في السنن: ١٠/٩٠، وغيرهم؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحيح ابن ماجه والصحيحة (١٦٨). والرواية الأولى لابن ماجه، والثانية لأحمد: ٣/٨٤.

بيد أن أبا سعيد وقد رأى شيئاً من التقصير في حقوق الدين والأمة؛ فلم يسكت على ذلك، بل إنه ليذهب من المدينة المنورة إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام، ليذكِّره وينصحه ويحدِّثه بما سمعه من رسول الله ﷺ من أحاديث في الحكم والحكام وواجباتهم الضخام ومسؤولياتهم العظام، فَيُسْمِعه الكثير الطيب حتى يملأ سمعه وقلبه، ثم يعود إلى بلده وقد أدى واجب النصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

إن العلماء والمفكرين والدعاة والنُّخَب السياسية وأربابَ المنابر وأصحابَ الإعلام وحَمَلَة الأقلام ممن يتبوأ وظائفَ التوجيه في المجتمع؛ عليهم واجبات كبيرة ومسؤوليات جليلة أمام الله والدين والشعوب والتاريخ.





إخبار النبي ﷺ بالدورات الحضارية والتاريخية للأمة الإسلامية وأشكال الحكم وصوره وممارساته خلال تاريخها

• حديث الخير والشر

عن أبي إدريس الخَوْلانيِّ، أنه سمعَ حذيفةَ بن اليَمان رضي الله عنه يقول: (كانَ الناسُ يَسألونَ رسولَ الله ﷺ عن الخيرِ، وكنتُ أسألُه عن الشّرِّ مخافةَ أن يُدْرِكَني، فقلتُ: يا رسولَ الله! إنَّا كنَّا في جاهليةٍ وشَرٍّ، فجاءَنا الله بهذا الخيرِ، فهلْ بعدَ هذا الخيرِ من شَرٍّ؟ قال: «**نعم**» قلتُ: وهل بعد ذلك الشرِّ من خيرٍ؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**» قلتُ: وما دَخَنُه؟ قال: «**قومٌ يَهْدُونَ بغيرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرُ**» ـ وفي رواية مسلم: «**قومٌ يَسْتَنُّونَ بغير سُنَّتي، ويَهْدُون بغيرِ هَدْيي، تعرِفُ منهم وتُنكر**» ـ قلت: فهل بعد ذلك الخير من شَرٍّ؟ قال: «**نعم، دُعَاةٌ على أبوابِ جَهنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُم إليها قَذَفُوه فيها**» قلتُ: يا رسول الله، صِفْهُم لنا، قال: «**هم من جِلْدَتِنا، ويتكلَّمونَ بألْسِنَتِنا**» قلتُ: فما تأمُرني إنْ أَدْرَكَني ذلك؟ قال: «**تَلْزَمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهُم**» قلتُ: فإنْ لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: «**فاعْتَزِلْ تلكَ الفِرَقَ كلَّها، ولو أنْ تَعَضَّ بأَصْلِ شجرةٍ، حتى يُدْرِكَكَ الموتُ وأنتَ على ذلكَ**»)[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٤) واللفظ له؛ وطرفاه (٣٦٠٦، ٣٦٠٧)؛ ومسلم (١٨٤٧) (٥١)؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٩٠؛ والدلائل: ٤/ ٤٩٠؛ والداني (٢٠٢)؛ والبغوي (٤٢٢٢)؛ واختصره ابن ماجه (٣٩٧٩).

وفي رواية ثانية: قال حذيفة بن اليمان ﷺ: (قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّا كنَّا بشَرٍّ، فجاءَ الله بخيرٍ فنحنُ فيه، فهل مِن وراءِ هذا الخيرِ شرٌّ؟ قال: «**نعم**» قلتُ: هل وراءَ ذلكَ الشرِّ خيرٌ؟ قال: «**نعم**» قلتُ: فهل وراءَ ذلكَ الخيرِ شرٌّ؟ قال: «**نعم**» قلتُ: كيفَ؟ قال: «**يكونُ بَعْدِي أئمةٌ لا يَهتدون بِهُدايَ، ولا يَستنُّونَ بسُنَّتِي، وسيقومُ فيهم رجالٌ قلوبُهم قلوبُ الشياطين في جُثْمَانِ إنسٍ**» قال: قلتُ: كيفَ أصنعُ يا رسولَ الله إنْ أدركتُ ذلك؟ قال: «**تسمعُ وتُطِيع للأميرِ، وإنْ ضَربَ ظَهْرَك وأخَذَ مالَكَ؛ فاسْمَعْ وأَطِعْ**»)[١].

وفي رواية ثالثة: قال حذيفة ﷺ: (كان الناسُ يسألونَ رسولَ الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسألُه عن الشَّرِّ، وعرفتُ أن الخيرَ لم يَسْبِقْني، فقلتُ: يا رسولَ الله! هل بعد هذا الخير من شَرٍّ؟ فقال: «**يا حذيفةُ! تَعَلَّمْ كتابَ اللهِ واتَّبِعْ ما فيه**» يقولها لي ثلاث مرات، قال: قلت: يا رسول الله، هل بعد هذا الخير من شَرٍّ؟ قال: «**فِتْنَةٌ وشَرٌّ**» قال: قلت: يا رسولَ الله، هل بعد هذا الشرِّ خيرٌ؟ قال: «**هُدْنَةٌ على دَخَنٍ**» ـ وزاد أحمد وأبو داود والنسائي: «**وجماعةٌ على أَقْذَاء**» ـ قال: قلتُ: يا رسولَ الله! هُدْنَةٌ على دَخَنٍ ما هيَ؟ قال: «**لا تَرْجِعُ قلوبُ أقوامٍ على الذي كانت عليه**» قال: قلتُ: يا رسول الله! هل بعد هذا الخيرِ شَرٌّ؟ قال: «**يا حذيفةُ! تعلَّمْ كتابَ الله واتَّبِعْ ما فيه**»، ثلاثَ مرَّاتٍ، قلتُ: يا رسول الله، هل بعد هذا الخيرِ شَرٌّ؟ قال: «**فتنةٌ عَمْيَاءُ صَمَّاءُ، عليها دعاةٌ على أبواب النار، فإن متَّ يا حذيفةُ وأنتَ عاضٌّ على جَذْرِ خشبةٍ يابسةٍ خيرٌ لك من أنْ تَتْبَعَ أحداً منهم**»)[٢].

وفي رواية رابعة: قال حذيفة: (كان الناس يسألونَ النبيَّ ﷺ عن الخيرِ، وكنتُ أسألُه عن الشرِّ، قال: قلتُ: يا رسولَ الله! أرأيتَ هذا الخيرَ الذي كنَّا فيه، هل كان قبلَه شَرٌّ، وهل كائنٌ بعده شَرٌّ؟ قال: «**نعم**» قلتُ: فما العِصْمةُ منه؟ قال:

---

(١) لفظ مسلم (١٨٤٧) (٥٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٩٦٣) واللفظ له؛ وأحمد: ٥/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧؛ وأبو داود (٤٢٤٦)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٢؛ والنسائي في الكبرى (٧٩٧٨) و(٧٩٧٩).

«**السيفُ**» قال: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! فهل بعد السيفِ من بقيَّةٍ؟ قال: «**نعم، هُدْنَةٌ**» قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! فما بعد الهُدنة؟ قال: «**دعاةُ الضَّلالة، فإن رأيتَ خليفةً فالْزَمْهُ، وإنْ نَهَكَ ظَهْرَكَ ضَرْباً، وأَخذ مالَكَ، فإنْ لم يكنْ خليفةٌ فالهَرَب، حتى يأتيكَ الموتُ وأنت عاضٌّ على شجرةٍ**» قال: قلت: يا رسول اللهِ! فما بعدَ ذلك؟ قال: «**خروجُ الدَّجَّال**» قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! فما يَجِيءُ به الدجَّال؟ قال: «**يجيءُ بنارٍ ونَهَرٍ، فمن وقع في ناره وَجَبَ أجرُه، وحُطَّ وِزْرُه، ومَن وَقَع في نهرِه حُطَّ أجرُه ووَجَب وِزْرُهُ**» قال: قلتُ: يا رسول اللهِ! فما بعدَ الدجّال؟ قال: «**لو أنَّ أحدَكم أَنْتَج فرسَه ما ركِبَ مُهْرَها حتى تقومَ الساعةُ**»)[1].

❁ ❁ ❁

● حديث النبوّة والخلافة وأشكال الحكم الأخرى

١ ـ عن النُّعمانِ بن بَشير بن سَعْد ﷺ قال: (كنَّا قُعوداً في المسجد مع رسول الله ﷺ، وكان بَشير رجلاً يَكُفُّ حديثَه، فجاء أبو ثَعْلَبة الخُشَنِيُّ، فقال: يا بشير بن سعد! أَتحفظُ حديثَ رسول الله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفةُ: أنا أحفظُ خطبتَه، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «**تكونُ النُّبوَّة فيكم ما شاءَ الله أن تكونَ، ثم يَرْفَعُها إذا شاءَ أن يرفَعَها. ثم تكون خلافةٌ على منهاجِ النبوة، فتكونُ ما شاء الله أن تكون، ثم يرفَعُها إذا شاء الله أن يرفَعَها. ثم تكون مُلْكاً عاضّاً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفَعُها إذا شاء أن يرفَعَها. ثم تكون مُلْكاً جَبْرِيَّةً، فتكونُ ما شاء الله أن تكون، ثم يرفَعُها إذا شاء أن يرفَعَها. ثم تكون خلافة على منهاجِ النبوَّة**» ثم سكت)[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩١ ـ ٥٩٢، واللفظ له؛ وأحمد: ٥/ ٤٠٣؛ وأبو داود (٤٢٤٧). وثمة روايات أخرى للحديث، وقد جمعنا أطرافها فيما أثبتناه، وانظر: مصنف عبد الرزاق (٢٠٧١١)؛ ومسند أحمد: ٥/ ٣٩١، ٤٠٣؛ وسنن أبي داود (٤٢٤٤)، وشرح السنَّة، للبغوي (٤٢١٩)، والسلسلة الصحيحة (١٧٩١) و(٢٧٣٩).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٢٧٣، واللفظ له؛ والطيالسي (٤٣٨)؛ والبزّار (١٥٨٨)، وقال: الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٥/ ١٨٩): رواه أحمد والبزّار أتم منه والطبراني ببعضه في =

٢ ـ وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أوَّلُ هذا الأمرِ نبوَّةٌ ورحمةٌ، ثم يكونُ خلافةً ورحمةً، ثم يكون مُلْكاً ورحمةً، ثم يَتكَادَمُونَ عليه تَكَادُمَ الحُمُر، فعليكُم بالجهادِ، وإنَّ أفضلَ جهادِكُم الرِّبَاطُ، وإنَّ أفضَلَ رِباطِكم عَسْقَلانُ»**[(١)].

❁ ❁ ❁

أولاً: معاني المفردات:

ـ قوله: (**في جاهلية وشَرٍّ**): يشير على ما كان قبل الإسلام من الكفر، وقَتْل بعضهم بعضاً، ونَهْب بعضهم بعضاً، وإتيان الفواحش.

ـ قوله: (**فجاءنا الله بهذا الخير**): يعني الإيمان والأمن وصلاح الحال، واجتناب الفواحش.

ـ قوله: (**فهل بعد هذا الخير من شرٍّ**): المراد بالشر الفِتن التي ابتدأت بقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، والشرور التي وقعت بين المسلمين، وقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واشتباه الأمر على كثير من الصحابة.

ـ قوله: «**وفيه دَخَنٌ**»: يشير إلى أن الخير الذي يجيء بعد الشر لا يكون خيراً خالصاً، بل فيه كدر الحال وأمور مكروهة.

ـ وفي الرواية الأخرى: «**لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه**»: والمعنى أن قلوبهم لا يصفو بعضها لبعض.

ـ قوله: «**قوم يَهْدون بغير هَدْيي، تعرِف منهم وتُنْكِر**»: هم أئمة وحكام

= الأوسط، ورجاله ثقات؛ وصحَّحه الحافظ العراقي في «محجة القرب إلى محبة العرب»؛ والألباني في الصحيحة (٥).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: ١١/ ٨٨ (١١١٣٨)؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٣٢٧٠)، وجَّود إسناده.

ومسؤولون يخلطون أعمالاً صالحة معروفة، وأخرى سيئة منكرة، وهم مثال للدَّخَن في هذه المرحلة.

ـ قوله: «**دعاة على أبواب جهنم**»: كل داعٍ إلى غير الحق من البدع والضلالات كالخوارج والزنادقة والقرامطة والزَّنْج والباطنية والعلمانية والشيوعية والإباحية، وغيرها من المِلَل والنِّحَل والمذاهب الهدّامة والأهواء الضالة.

ـ قوله: «**من جلدتنا**»: أي من قومنا ومن أهل ملَّتِنا ولساننا.

ـ قوله: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، «**ولو أن تَعَضَّ بأصلِ شجرة**»: كناية عن لزوم جماعة المسلمين وطاعة سلاطينهم ولو عَصَوا، وترك الخروج على أئمة الجَوْر. فإذا لم يكن في الأرض خليفة، فعلى المرء العزلة والصبر على تحمّل شدة الزمان، وعبَّر عن ذلك بِعَضِّ أصلِ الشجرة كناية عن مكابدة المشقة.

والمراد من الخبر ـ كما يقول الإمام الطبري ـ: (لزومُ الجماعة الذين في طاعة مَن اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعتَه خرج عن الجماعة. قال: وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمام، فافترق الناس أحزاباً، فلا يتبع أحداً في الفُرقة، ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك، خشيةً من الوقوع في الشر، وعلى ذلك يتنزَّل ما جاء في سائر الأحاديث)[١].

ـ قوله: «**ثم تكون ملكاً عاضّاً**»: الملك العاضُّ هو الذي يُصيب الناسَ فيه عَسْفٌ وظلمٌ، كأن له أنياباً تعضّ، ويمتد هذا مرحلة زمنية طويلة جداً تشمل قسماً من الخلافة الأموية، والخلافة العباسية، والخلافة العثمانية.

ـ قوله: «**ثم تكون مُلْكاً جَبْرِيَّة**»: وهو الحكم القائم على الجبروت والطغيان والقهر، ويمثِّله الحكم الاستبدادي الديكتاتوري الشمولي في عصرنا[٢].

---

(١) الفتح: ١٦/ ٣٤١، وما ذكرناه من معاني الأحاديث مقتبس من الفتح: ١٦/ ٣٣٩ ـ ٣٤١، شرح الحديث (٧٠٨٤).

(٢) انظر: المبشرات بانتصار الإسلام، ص٣٥.

ثانياً: تحقق ما قاله النبيّ ﷺ في هذه الأحاديث:

هذه الأحاديث النبوية عظيمة الشأن جليلة القدر، من أعلام نبوة رسولنا ﷺ، قد أخبر فيها بجملة أمور من الغيب فوقعت كلها، فهي من معجزاته الباهرة الظاهرة.

ويشتمل حديث حذيفة الأول وحديثه الثاني ـ وحديث ابن عباس بمعناه ـ على نبوءتين كبيرتين جليلتين، ويكمل أحدهما الآخر:

فالأول يبيّن مراحل الخير والشر في تاريخ الأمة الإسلامية.

والثاني يكشف عن أشكال الحكم عبر ذلك التاريخ الطويل.



المرحلة الأولى
الجاهلية قبل الإسلام

●● جاء وصفُ هذه المرحلة في قول حذيفة: (إنا كنا في جاهلية وشرٍّ)، (إنا كنَّا بشرٍّ)، (إنا كنا في شَرٍّ، فذَهَب اللهُ بذلك الشَّرِّ)، وهو يَسأل النبي ﷺ عن الخير والشر، فأقرَّه ﷺ على وصف تلك المرحلة السابقة للإسلام بأنها جاهلية وشرٌّ، وهو وصف بارع دقيق عميق لتلك الحقبة، حيث كان الناس يعيشون في شرود عن الحق، وعبادة الأوثان من دون الله تعالى، والإشراك به ودعوة الأنداد من دونه، وسيادة الطغيان والاحتكام للأهواء، وعموم البغي والظلم والفسوق والعصيان، وانتشار الفواحش والموبقات، واستعباد القوي للضعيف، وامتهان المرأة، وسيادة من يملك مخلباً أقوى وناباً أفتك. مع وجود أخلاق كريمة من الكرم والغيرة والشجاعة والنجدة وغيرها، مما لم يهذِّبها منهج رشيد ولا حكم سديد.

وقد جاء عن غير واحد من الصحابة وصفُ الحال التي كانوا عليها قبل الإسلام، من ذلك ما روته السيدة أم سَلَمَة رضي الله عنها في قصة مهاجرة الحبشة

وحديثهم للنجاشي، قالت: (لمَّا نزلنا أرضَ الحبشة جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ النجاشيَّ، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله، لا نُؤْذىٰ ولا نسمعُ شيئاً نكرهُه...) فذكرتْ كلاماً طويلاً، ثم قالت: (سألهم - النجاشيُّ - فقال: ما هذا الدينُ الذي فارقتُم فيه قومَكم، ولم تدخلوا في دِيني ولا في دِين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلَّمه جعفرُ بن أبي طالب، فقال له: أيها الملكُ! كنَّا قوماً أهلَ جاهلية: نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ المَيْتَةَ، ونأتي الفواحشَ، ونَقطعُ الأرحامَ، ونُسيءُ الجِوارَ، يأكلُ القويُّ منا الضعيفَ، فكنَّا على ذلك حتى بعثَ الله إلينا رسولاً منا، نعرفُ نَسَبَه وصِدْقَهُ وأمانَتَه وعفافَهُ، فدعانا إلى الله: لنوحِّدَه ونعبدَه ونخلَعَ ما كنَّا نعبدُ نحن وآباؤنا مِن دونه مِن الحجارة والأوثان، وأَمَرَنا بصِدْقِ الحديث، وأداءِ الأمانة، وصِلَةِ الرَّحِم، وحُسْنِ الجوار، والكَفِّ عن المحارِمِ والدِّماء، ونَهَانا عن الفواحش، وقولِ الزُّور، وأكلِ مالِ اليتيم، وقَذْفِ المُحْصَنَة، وأَمَرنا أن نعبدَ الله وحده ولا نُشركَ به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قال: فعدَّدَ عليه أمورَ الإسلام - فصَدَّقْناه وآمنَّا به، واتَّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نُشرِكْ به شيئاً، وحرَّمْنَا ما حَرَّم علينا، وأَحْلَلْنا ما أحلَّ لنا. فعَدَا علينا قومُنا، فعذَّبُونا وفتنونا عن دِيننا، لِيَرُدُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنا نستحِلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشَقُّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدِك، واخترناك على مَنْ سِواكَ، ورَغِبْنَا في جِوارك، ورَجَوْنا أن لا نُظْلَمَ عندك أيها الملك...)[١].

وأشارت أحاديث أخرى إلى الانحدار الأخلاقي الذي كان عليه العرب في

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٢٠١ - ٢٠٣، ٥/ ٢٩٠ - ٢٩٢، واللفظ له؛ وابن إسحاق في السيرة: ١/ ٣٣٤ - ٣٣٦؛ وأبو نعيم في الحلية: ١/ ١١٥ - ١١٧؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٦/ ٢٤ - ٢٧، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع؛ وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند: حديث (١٧٤٠). وانظر أقوالاً أخرى للصحابة في: تاريخ الطبري: ٣/ ٤٩٨ - ٥٠٠؛ البداية والنهاية: ٧/ ٤٠ - ٤٢.

الجاهلية، وسيطرة عقيدة الشرك والوثنية على المجتمع، والانحطاط الفكري والفوضى السلوكية على المستوى الشخصي والاجتماعي.

عن أبي مالكٍ الأَشعريِّ رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**أربعٌ في أمَّتي من أَمْرِ الجاهلية لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفخرُ في الأَحْسابِ، والطَّعْنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنُّجوم، والنِّيَاحةُ**»[1].

وتصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ما كان عليه أهل الجاهلية في أمر النكاح وشيوع الزنى وكثرة البِغَاء والدعوة إلى الفاحشة، في حديث رواه عروة بن الزبير: أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرتْهُ: (أنَّ النكاحَ في الجاهلية كان على أربعة أَنْحَاءٍ:

فنكاحٌ منها نكاحُ الناس اليوم، يَخْطُب الرجل إلى الرجل وليَّتَه أو ابنتَه، فَيُصْدِقُها ثم يَنْكِحُها.

ونكاحٌ آخَرُ: كان الرجلُ يقول لامرأتِه إذا طَهُرَتْ من طَمْثِها: أَرْسِلي إلى فلانٍ فاسْتَبْضِعي منه، ويعتزلُها زوجُها ولا يَمَسُّها أبداً حتى يتبيَّن حَمْلُها من ذلك الرجل الذي تَستبضعُ منه، فإذا تبيَّن حملُها أصابَها زوجُها إذا أَحَبَّ، وإنما يفعلُ ذلك رغبةً في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاحَ الاسْتِبْضَاع.

ونكاحٌ آخَرُ: يَجتمعُ الرهْطُ ما دون العشرة فَيدخُلون على المرأة، كلُّهم يُصِيبُها، فإذا حملَتْ ووَضَعَتْ، ومرَّ عليها ليالٍ بعد أن تَضَعَ حَمْلَها، أرسلَتْ إليهم، فلم يَستطِعْ رجل منهم أن يمتنعَ، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عَرفتُم الذي كان من أمرِكم، وقد وَلَدْتُ، فهو ابنُك يا فلانُ، تسمِّي من أَحَبَّتْ باسْمِه، فَيَلْحَق به ولدُها، لا يستطيعُ أن يَمتنِعَ به الرجل.

ونكاحُ الرابع: يَجتمع الناسُ الكثيرُ، فَيَدْخُلون على المرأة لا تَمنع من

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) واللفظ له؛ وأحمد: ٥/ ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤؛ وابن حبان (٣١٤٣)؛ والبيهقي في السنن: ٤/ ٦٣؛ والبغوي (١٥٣٤)، وغيرهم.

جاءها، وهُنَّ البَغَايا، كنَّ يَنْصِبْنَ على أبوابهنَّ راياتٍ تكون عَلَماً، فمن أرادهنَّ دخل عليهنَّ، فإذا حَمَلَتْ إحداهُنَّ ووَضَعَتْ حَمْلَها، جُمِعُوا لها، ودَعَوْا لهم القافَةَ، ثم أَلْحَقُوا ولدَهَا بالذي يَرَوْنَ، فالتاطَتْه به، ودُعِي ابنَهُ لا يَمتنع من ذلك.

فلما بُعِثَ محمدٌ ﷺ بالحقِّ هَدَمَ نكاحَ الجاهلية كلَّه، إلا نكاحَ الناسِ اليومَ)[1].

●● واستعرض العلّامة الكبير أبو الحسن الندوي رحمه الله في كتابه الفذ «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ما كان عليه العالم قبل مجيء الإسلام، في النواحي العقدية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية، وبرهن أن الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها كانت في مرحلة الاحتضار.

قال: (كان القرن السادس والسابع ـ لميلاد المسيح ـ من أحطِّ أدوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي، وقد زادتها الأيام سرعةً في هبوطها وشدَّةً في إسفافها. وكأن الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفَقَدَ رشده وقوة التمييز بين الخير والشرِّ والحسن والقبيح.

وقد خفتَتْ دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيحُ التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبَّت بعدهم، أو بقيت، ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلاً عن البيوت فضلاً عن البلاد. وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فراراً بدينهم من الفتن، وضَنّاً بأنفسهم، أو رغبة إلى الدَّعَة والهدوء، وفراراً من تكاليف الحياة وجدِّها، أو إخفاقاً في كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٢٧) واللفظ له؛ وأبو داود (٢٢٧٢)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٧٨٤)؛ والدارقطني (٣٥١١)؛ والبيهقي في السنن: ٧/ ١١٠، ١٩٠. **التاطته به:** استلحقته به.

اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكلِ أموال الناس بالباطل.

وأصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرفين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بُعث أصحابها الأولون لم يعرفوها! وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرحَ الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام، وعسف الحكام، وشُغلت بنفسها، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونَضَب مَعِين حياتها، لا تملك مَشْرعاً صافياً من الدين السماوي، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري)[١].

وبعد كلام طويل ونفيس قال: (وبالجملة: لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء)[٢].

وخَصَّ العربَ والمجتمعَ العربي بالبحث والدرس والفحص والوصف والبيان والتشخيص، لأن سيد الرسل ﷺ بُعث فيهم، وإليهم هبط الوحي، وشرَّفهم الله بحمل الرسالة.

قال في وصف ما كان عليه العرب قبل الإسلام:

(بُعث محمد بن عبد الله ﷺ والعالَم بناءٌ أُصيب بزلزال شديد هزَّه هزّاً عنيفاً، فإذا كل شيء فيه في غير محلِّه، فمن أساسه ومتاعه ما تكسَّر، ومنه ما التوى وانعطف، ومنه ما فارق محلَّه اللائقَ به، وشَغَل مكاناً آخر، ومنه ما تكدَّس وتكوَّم.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص٧٨.

نظر إلى العالم بعين الأنبياء **فرأى إنساناً** قد هانت عليه إنسانيتُه، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر.

رأى إنساناً معكوساً قد فسدَتْ عقليتُه، فلم تعُدْ تُسِيغ البديهيات وتعقل الجليات. وفَسَد نظامُ فِكْره، فإذا النظري عنده بديهي وبالعكس، يستريب في موضع الجزم، ويؤمن في موضع الشك! وفَسَد ذوقُه فصار يستحلي المرَّ، ويَستطيب الخبيث، ويستمرئ الوخيم! وبطل حسُّه فأصبح لا يُبغِض العدو الظالم، ولا يحبُّ الصديق الناصح!..

رأى مجتمعاً هو الصورة المصغّرة للعالَم، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله، قد أصبح فيه الذئب راعياً، والخصم الجائر قاضياً، وأصبح المجرم فيه سعيداً حَظيّاً، والصالح محروماً شقيّاً، لا أَنْكَرَ في هذا المجتمع من المعروف، ولا أَعْرَفَ من المنكر!.

ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية، وتسوقها إلى هوة الهلاك..

رأى معاقرةَ الخمر إلى حدِّ الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حدِّ الاستهتار، وتعاطي الربا إلى حدّ الاغتصاب واستلاب الأموال! ورأى الطمع وشهوة المال إلى حدِّ الجَشَع والنَّهَم، ورأى القسوة والظلم إلى حدِّ الوَأْدِ وقَتْلِ الأولاد!.

رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دُوَلاً، وعبادَ الله خَوَلاً! ورأى أحباراً ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويَصدّون عن سبيل الله.

رأى المواهب البشرية ضائعة زائغة لم يُنتفَع بها ولم توجَّه التوجيه الصحيح، فعادت وبالاً على أصحابها وعلى الإنسانية، فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية، والجود تبذيراً وإسرافاً، والأَنَفَة حميَّة جاهلية، والذكاء شطارة وخديعة، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات، والإبداع في إرضاء الشهوات.

رأى أفرادَ البشر والهيئاتِ البشرية كخامات لم تَحْظَ بصانع حاذقٍ ينتفع بها

في هيكل الحضارة، وكألواح الخشب لم تَسْعد بنجار يركِّب منها سفينة تشق بحر الحياة.

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع، والسياسة كجمل هائج حبلُه على غاربه، والسلطان كسيفٍ في يد سكران يجرح به نفسه، ويجرح به أولاده وإخوانه)[١].

●● والقرن السادس المسيحي ـ الذي ولد رسول الله ﷺ في ثلثه الأخير ـ كان من أحطِّ أدوار التاريخ تديُّناً وحضارة وعلماً وخُلقاً وسياسة، حيث انتشرت الجاهلية في أطراف الأرض، ويصوّر المؤلف الإنجليزي المعروف (هـ.ج.ولز) ذلك العصر، ويكشف عن الظروف السائدة في ظل الدولتين الكبيرتين الساسانية والبيزنطية اللتين كانتا تبسطان سيطرتهما على الجزء الأكبر من المعمورة، فيقول:

(كانت العلومُ والفلسفةُ والسياسةُ في حالة احتضار في عهد هذين النظامين المتحاربين، والمتجهين إلى الانحطاط، فقد كان الجيلُ الأخير من فلاسفة أثينة عاضّاً على المؤلفات الأدبية العتيقة بالنواجذ، بكلِّ احترامٍ وحبٍّ، ولو بدون فهم لها.

فلما انقرض هذا الجيل، لم تبقَ طبقةٌ ولا أفراد أحرار شجعان يتزعمون حرية الفكر وحرية التعبير، ولا الذين يحتفظون ـ على الأقل ـ بتراث فكرٍ حرٍّ، وبحثٍ نزيه جدّيٍّ، على دأب القدماء والسابقين لهم.

وبجانب ما كان للفوضى السياسية والاجتماعية من دور كبير في القضاء على مثل هذه الطبقة، كانت من العوامل التي ساعدت على شلل الفكر الإنساني، وتجمُّدِ القرائح البشرية.

إن هذا العصر كان عصر العصبية وعدم التسامح في ظلال الحكومتين

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٩٥ ـ ٩٦.

الإيرانية والبيزنطية، فقد كانت هاتان الحكومتان دينيتين نوعاً ما، وقد كانتا فرضتا قيوداً على العقل البشري).

ويصف التدهور الاجتماعي والخُلقي السائد في أواخر القرن السادس المسيحي، فيقول:

(كان يَسوغ لمتتبِّع - غيرِ محنَّكٍ ناضجِ الفكر - للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي؛ أن يتنبأ بسهولة وثقة بأن أوروبة وآسية ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرون قادمة، فلم تكن في أوروبة الغربية أمارات للأمن والنظام وحكم القانون. وقد كانت المملكتان البيزنطية والإيرانية مشغولتين في حرب إبادة وتدمير، بينما كانت الهند في حالة فرقة وبؤس)[1].

وبالجملة: فقد كانت الإنسانية في عصر البعثة في طريق الانتحار، وكان الإنسان قد نَسِي خالقَهُ، فنَسِي نفسَه ومصيرَه، وفَقَد رشدَه وقدرة التمييز بين الخير والشر، وأضحى حال الإنسانية كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

أولاً: خصائص رفيعة ومميزات مشرقة للعرب وسط ذلك الظلام:

رغم ذلك الفساد العريض والانحدار السحيق والظلام الكثيف الذي لَفَّ الإنسانية، كان ثَمَّة صفاتٌ نبيلة ومميزات أصيلة وبوارق كامنة تحلَّى بها العرب، تنتظر مَن يَقْدَح زنادها ويوقد جَذْوتها ويُزيل عنها أَدْرَانَها، ويهذّبها ويترقى بها إلى مدارج الكمال، ولأجلِ ذلك كان العرب محطَّ الرسالة الخاتمة والقومَ المختارين للبلاغ المبين إلى العالمين.

١ - كانت عقول العرب نظيفة وقلوبهم صافية لم يُنقش على صفحتها فلسفاتٌ راسخة ولا أفكار عميقة، ولم تَدخل في متاهات الجدل العقيم مما يصعُب محوه وإزالتُه، بل كُتب على ألواح قلوبهم وصفحات عقولهم كتاباتٌ

(١) نقلاً عن: «السيرة النبوية»، لأبي الحسن الندوي، ص٤٣ - ٤٤.

تقليدية للآباء والأجداد؛ خطتها يدُ الجهل والوثنية البدوية، ومن السهل كنسُ آثارها لتُنْقَش مكانها تعاليم الدين الجديد.

٢ ـ وكانوا على الفطرة، وأصحابَ إرادة قوية، إذا التوى عليهم فهمُ الحق حاربوه، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبُّوه واحتضنوه، واستماتوا في سبيله.

٣ ـ وكانوا واقعيين جادّين، أصحابَ صراحة وصرامة، لا يَخدعون غيرهم ولا أنفسهم، اعتادوا القول السديد، والعزم الأكيد.

وقد تجلَّى هذا الصدقُ في العزم والجدُّ في العمل وروحُ الامتثال للحق؛ في مواقف الصحابة مع رسول الله ﷺ طيلة أيام الرسالة في السراء والضراء، والسلم والحرب، والمنشط والمكره. وعلى سَنَنِهم درج التابعون ومن بعدهم.

٤ ـ وكان العرب بمعزل عن أدواء المدنيَّة والترف، التي يَصعُب علاجها، والتي تحول دون التحمس للعقيدة والتفاني في سبيلها.

٥ ـ وكانوا أصحابَ صدق وأمانة وشجاعة، ليس النفاق والمؤامرة من طبيعتهم، وكانوا مغاويرَ حرب، وأحلاسَ خيل، وأصحاب جلادةٍ وتقشّف في الحياة، وكانت الفروسية هي الخلق البارز من سجاياهم؛ وهي الخلق الذي لا بدَّ أن تتصف به أمة تضطلع بعمل جليل، لأن العصر كان عصر الحروب والمغامرات، والفتوة والبطولة.

٦ ـ وكانت قواهم العملية والفكرية ومواهبُهم الفطرية مذخورةً فيهم، لم تُستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية دقيقة، وحروب إقليمية سياسية، فكانت أمة بِكْراً، دافقة بالحياة والنشاط، والعزم والحماس[١].

---

(١) السيرة النبوية، للندوي، ص٤٥ ـ ٤٧، بتصرف.

ثانياً: الشرّ سمة غالبة لتلك المرحلة:

بيد أن هذه الخصائص الرفيعة التي امتاز بها العرب لم تغيّر من حركة التاريخ، ولم تصنع حضارة ولم تشيد للإنسانية منارة، بل كانت صُوىً وإشعاعات خفَتَ بريقها ضمن طوفان الشرّ والظلم والفساد الاجتماعي والانحدار الأخلاقي وكثرة الموبقات، مما يصدق عليهم أتم الصدق إقرار النبي ﷺ لحذيفة في وصفه ذلك العهد بقوله: (إنا كنّا في جاهلية وشر)، والذي أعقبه تعاهد رحمة الله تعالى لهذه الأمة خاصة وللإنسانية عامة بمجيء المرحلة الثانية التي عبّر عنها حذيفة بقوله مخاطباً رسول الله ﷺ: (فجاءنا الله بهذا الخير)، (وجاء الله بالخير على يديك) فما مظاهر تلك المرحلة المباركة؟.



المرحلة الثانية
البعثة النبوية

أشار النبي ﷺ في حديث (النبوّة والخلافة) إلى مرحلة بعثته بقوله ﷺ: «**تكونُ النبوَّةُ فيكم ما شاءَ الله أن تكونَ، ثم يرفَعُها إذا شاء أن يرفَعَها**».

وفي حديث آخر: «**أولُ هذا الأمر نبوةٌ ورحمةٌ**».

وأما حديث (الخير والشر) فقد أشار حذيفة فيه إلى الخير والرحمة التي شملت الدنيا ونَعِمت بها الإنسانية ببعثة رسول الله ﷺ، بعد محوِ الظلمات التي ناءت بِكَلْكَلِهَا وإِصْرِها على حياة الإنسان وضميره وفكره وروحه. وألمَحَ حذيفة بعبقريته إلى ذلك الخير العميم الذي امتنَّ الله تعالى به على البشرية برسالة محمد ﷺ.

قال حذيفة وأقرَّه النبي ﷺ على قوله ووصفه: (فجاءنا الله بهذا الخير)، (وجاءنا بالخير على يديك)، (فجاء الله بخيرٍ نحن فيه)، (أرأيتَ هذا الخير الذي كنا فيه).

أولاً: واقع حال الناس قبل البعثة يستدعي رحمة السماء بإرسال رسول يصلح الأحوال ويربط الناس بخالقهم:

أجاد العلّامة الداعية أبو الحسن الندوي في تشخيص أمراض الأمة قبل البعثة النبوية، وأبان عن الحاجة الملحَّة لابتعاث نبي يُحدِث انقلاباً في كل مناحي الحياة، مما يعجز عنه المصلحون.

قال ﷺ: (كانت الأوضاعُ الفاسدةُ، والدرجةُ التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي؛ أكبرَ من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلّمون من أفراد الناس، فلم تكن القضيةُ قضيةَ إصلاحِ عقيدةٍ من العقائد، أو إزالة عادة من العادات، أو قبول عبادة من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفيَ له المصلحون والمعلّمون الذين لم يخلُ منهم عصر ولا مِصر.

ولكن القضية كانت قضيةَ إزالةِ أنقاضٍ جاهليةٍ، ووثنيةٍ تخريبيةٍ، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودَفَنت تحتها تعاليمَ الأنبياء والمرسلين، وجهودَ المصلحين والمعلّمين، وإقامة بناء شامخ مشيَّد البنيان، واسع الأرجاء، يَسَعُ العالم كله، ويؤوي الأمم كلها.

قضيةَ إنشاءِ إنسانٍ جديد يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء، كأنه ولد من جديد، أو عاش من جديد: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾؟! [الأنعام: ١٢٢].

قضيةَ اقتلاعِ جرثومةِ الفساد، واستئصال شأفة الوثنية واجتثاثها من جذورها بحيث لا يبقى لها عينٌ ولا أَثَر، وترسيخِ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية ترسيخاً لا يُتصوَّر فوقه، وغرسِ ميلٍ إلى إرضاء الله وعبادته، وخدمةِ الإنسانية، والانتصارِ للحق، يتغلَّب على كل رغبة، ويقهرُ كل شهوة، ويجرف كل مقاومة.

وبالجملة: الأخذ بِحُجُزِ الإنسانية المنتحرة، التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة، والسلوك بها على طريق أولُها سعادة يحظَى بها العارفون المؤمنون، وآخِرُها جنة الخُلد التي وُعِد المتقون.

ولا تصويرَ أبلغُ وأصدقُ من قول الله تعالى في معرض المَنِّ ببعثة محمد ﷺ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إنه لم يُعرف في تاريخ البشرية كله عملٌ أدقُّ وأعقدُ، ومسؤوليةٌ أعظمُ وأضخمُ؛ من مسؤولية محمد ﷺ كنبيٍّ مرسَل.

كما أنه لم يُعرف غرسٌ أثمرَ مثلَ غرسِه، وسعيٌ تكلَّل بالنجاح مثل سعيه، إنها أعجوبة العجائب، ومعجزة المعجزات!)[١].

ثانياً: ملامح التغيير ومظاهر الخير والرحمة التي تحققت في ظلال النبوّة:

إن القرآن الذي تنزَّل على قلب محمد ﷺ هو الوحي كلُّه من أزَل الدنيا إلى أبدِها، وكلُّ ما خالَفَه مبتوتُ الصلة بالسماء. والإسلام نفحةٌ من رحمة الله تعالى ينبغي استقبالُها بالبشاشة التي تُستقبل بها النِّعَم، وهو المنهج الذي توارث النبيون الدعوةَ إليه واقتياد البشر فيه.. والشريعةُ هي عدلُ الله في عباده، ورحمتُه بين خلقه، وحكمتُه الدالة عليه وعلى صِدْق رسله، ومبناها وأساسُها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلُّها ورحمةٌ كلُّها ومصالحُ كلُّها.

ومحمد ﷺ الذي حمل القرآن وبلَّغ الإسلام وطَبَّق الشريعة؛ هو الإنسان الأول شرفَ سيرةٍ وصدقَ بلاغٍ، وهو أعلى قمةٍ في تاريخ الأحياء[٢].

لقد كان الأعرابي السَّاذَجُ يعترِض الرسولَ ﷺ وهو على ناقته يطلب منه أن

---

(١) السيرة النبوية، ص٥٨ ـ ٥٩.

(٢) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٤٥؛ ليس من الإسلام، ص٨.

يعلِّمه الإسلام، ويمسك بزمام الناقة حتى يسمع، ويحدِّثه الرسول الملهم ﷺ بما عنده، فيصنع منه إنساناً جديداً، عامرَ القلب بأمجاد الألوهية وأضواء الوحدانية، والرغبة الهائلة في تطويع الكون كله لمراد الله، فلا ترى هذا الأعرابيَّ بعد ذلك إلا قذيفةً تدكُّ عروش المستبدين في فارس أو الرومان، وتراه هو وإخوانَه ينطلق شرقاً صوب المحيط الهادي، وغرباً صوب الأطلسي، لهم جؤارٌ بتسبيح الله وتحميده، وتلاوة الكتاب الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور.

وإننا بحاجة إلى ثقافة تصنع نفوسنا على هذا النحو، إنها الثقافة التي صَنعتْ أمتنا أولاً، والتي تنقذها أخيراً[1].

ولم تكن مهمة الرسول ﷺ بالأمر الهيِّن، ولا كانت طريقُه مفروشة بالورود، ولم تكُ دعوته مرحَّباً بها باديَ الرأي! بل دون إبلاغ رسالته ونشر دعوته وتحقيق دولته أعمال جسام، وتضحيات عِظام، ودعوة دؤوبة، وجهاد طويل، وصبر جميل.

ثالثاً: دفاع الجاهلية عن نفسها:

وقد فهِم ملأ قريش حقيقة الرسالة الجديدة، فقاموا يدافعون عن جاهليتهم، وينافحون عن دين الآباء والأجداد، فأَجْلَبُوا على الرسول ﷺ بِخَيْلِهم ورَجِلِهم، وجاؤوا عليه وعلى أتباعه بحَدِّهم وحَديدِهم.. ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

رابعاً: تضحيات جسام:

وثبت رسول الله ﷺ على دعوته ثبوتَ الراسيات، لا يَلْفِته إغراء، ولا يَصرفه أذى، ولا يَصدُّه كيد، ومكث في مكة ثلاث عشرة حجة يَصدع بدعوته ولا يكنِّي، ويُصرِّح ولا يلوِّح، ففتح الله له قلوب الخُلَّص من شبان قريش ورجالها وضعفائها ممن هانت عليهم أنفسهم، وعزموا على اقتحام الأهوال، ومشوا إليه

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٤٩.

جادِّين ولو على حَسَك السَّعْدان! فَصُبَّت عليهم صنوفُ العذاب وألوان الاضطهاد، فما زادهم ذلك إلا ثقةً بدينهم، وتجلُّداً لدعوتهم، ومتانةً في عقيدتهم، وحميَّة لدينهم، ومَقْتاً للكفر وأهله، وإشعالاً لعاطفتهم، وتمحيصاً لنفوسهم، فأصبحوا كالتِّبْر المسبوك واللُّجَين الصافي، وخرجوا من كل محنة وبلاء خروجَ السيف بعد الجلاء(١).

وتابع الرسول ﷺ مسيرته المباركة مع جنده الميامين، ويمم شطر المدينة، فانضم إلى الركب الأنصار الأخيار، فزادت قوة الإيمان، وقامت دولته الأولى في ربوع المدينة.

خامساً: تربية نبوية:

لقد اصطفى الحكيم الخبير ذلك الإنسان العظيم محمداً ﷺ فكان خلاصة كمالات المُصْطَفَين الأخيار من الأنبياء والمرسلين، إنه الاصطفاء الذي هيأ روح محمد ﷺ لاستقبال القرآن والاصطباغ بتعاليمه، ثم تحويل هذه التعاليم إلى سيرة نابضة وسُنَّة هادية. إن الكمال البشري الذي صُبَّ في قالبه خاتم الأنبياء يجعل المرء يهتف بإعجاب: سبحان مَن أبدع محمداً ﷺ!.

ما من عظيم إلا رأيتَ في مسلكه كبوة، أو في شمائله جفوة، أو في حُسامه نَبْوَة، إلا محمداً ﷺ، فإن العصمة الإلـٰهية حصَّنَتْه فما يخبو له سنى أو يَلحق خطوَه عثارٌ.

وقد يكون الرجل عبقريَّ الذكاء شفَّاف الروحانية، وحسبه أن يحتفظ بوهجه ونقائه في الجو البارد المتعكّر، بَيْدَ أن الأمر بالنسبة إلى محمد ﷺ له صورة أخرى، إنه نفث من روحه النقي وفكره الثاقب في مَرَدَة الصحراء، وظل يصقل معادنهم بجَلَدٍ غريب، وهم يقاومون بعناد رهيب، حتى نجح آخر الأمر في إنشاء جيل كان أصلبَ عوداً وأضوأ بصيرة من حواريِّي عيسى عليه السلام.

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٠٠ ـ ١٠١. والسعدان: نبت ذو شوك.

إن أولئك الحواريين الصالحين عجزوا عن حماية التوحيد بعد وفاة نبيِّهم، فتحوَّل على مرِّ الأيام إلى ثالوث! أما رجال محمد ﷺ فقد تحولوا إلى حصون سامقة تكسرت أمواج الردَّة عند أقدامهم، ثم مَضَوا قُدُماً إلى الأمام يمنعون شعار التوحيد أن تطويه الخرافة!.

لقد أحدثَ رسول الله ﷺ في العرب تغييراً جذريّاً انطلَقُوا به ليُحْدِثوا تغييراً جذريّاً في آفاق الأرض، تغييراً ذاهباً إلى الطول والعرض والعمق، تغييراً إنْ فَتَرَتْ بواعثُه حيناً أدركها من ذاتها ما تستمرُّ به سائرة، كما تنطلق المولِّدات التي تستمد طاقتها من الشمس.

إن تربية النبي ﷺ لهذا الجيل معجزتُه الكبرى بعد القرآن الكريم، وإن المرء ليحسّ في أولئك الأصحاب ذَوْبَ نفسه عليه الصلاة والسلام، ونُبْلَ شمائله، وعمق عبادته وحبّه الجارف لذات الله تعالى واستعلائه الفذِّ على مآرب الدنيا[١].

ولقد كان هذا الانقلاب الذي صَنَعه رسول الله ﷺ في نفوس العرب وفي جزيرة العرب، والذي أشرق ضياؤه وعَمَّ خيرُه العالمين في المجتمع الإنساني كله ـ أغربَ ما في تاريخ البشر، لقد كان هذا الانقلاب غريباً في كل شيء: كان غريباً في سرعته، وكان غريباً في عمقه، وكان غريباً في سعته وشموله، وكان غريباً في وضوحه وقُرْبِه إلى الفهم، فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة، ولم يكن لغزاً من الألغاز[٢].

وعَمَّ خيرُ النبوّة جزيرة العرب، وأخذ يمدّ رُوَاقه وينشر نفعه ويغرس هديه ويرفع ألويته في أصقاع الأرض، وساد في العالمين كالريح الرخاء والغيث الرحيم حتى شمل المشارق والمغارب في عهد الخلفاء الراشدين.

(١) علل وأدوية، ص١٤٤، ١٤٦، ١٥٢ ـ ١٥٣، مقتطفات.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٠٤.

وتجلَّت ملامح الخير والبر والسعادة والمرحمة والإنسانية الرفيعة في عهد النبوّة في مجالات كثيرة، يمكننا الإشارة إلى أبرزها:

١ ـ استطاع رسول الله ﷺ قهرَ الجاهلية ومحوَ معالمها وإعفاءَ آثارها بصبر جميل، وثبات راسخ، وحجج دامغة، ودلائل ساطعة، وأساليب رفيعة، ومبادئ سامية.

٢ ـ أنشأ جيلاً عظيماً فريداً ليس له نظير في أمم الأرض في الأولين والآخرين، أقبل على الإسلام راغباً، وأسلم طائعاً، واستمسك بمنهج الله بقوة، واستعصم بحبل الله بثقة، واستبسل في الدفاع عنه بكل ما أوتي من عزمات الرجال، متمثلاً مبادئه في حركاته وسكناته وخلجات فؤاده، داعياً إلى الله بقوله وفعله.

٣ ـ محا النبيُّ ﷺ خرافات الجاهلية وأساطيرها ووثنيتها وعقائدها الباطلة، وغَسل أفئدة الناس من أدرانها، واقتلع منها جراثيمها، وغرس في نفوس أتباعه والعالمين من ورائهم عقيدةَ التوحيد لله رب العالمين، ونَفَخ فيهم من روحه وقلبه وفكره عقائدَ الإيمان والإسلام والإخلاص والاستسلام لِما تنزّل به القرآن وفاضه ﷺ عليهم من مشكاة النبوة، فتوحَّدت عقيدتُهم ووجهتهم وقبلتهم وكتابهم ونبيُّهم وهدفهم وغايتهم ومسعاهم ومحياهم ومماتهم، فكان ذلك كله لله رب العالمين.

وصهر ﷺ أتباعه الكرام من المهاجرين الأبرار والأنصار الأخيار، فكوَّن أولئك الرجال الذين بقوا أنموذجاً يُحتذَى على مرِّ الدهر، تحدَّث عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣]، فكانوا كما قصَّ القرآن: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

٤ ـ طهَّر قلوبَ المسلمين وأرواحهم وسلوكهم وأعمالهم وممارساتهم

وأقوالهم وكل مناحي حياتهم من أوضار الجاهلية ومسلكياتها الشائنة وخلائقها الوضيعة، وصاغهم خلقاً آخر في العبادة والزهادة، والشجاعة والإيثار، والصدق والوفاء، والحب والإخاء، والبذل والعطاء، والعدل والإحسان، والمساواة والمسامحة، والعفو وكظم الغيظ، وغيرها من مكارم أخلاق الإسلام، حيث أُشْرِبت قلوبهم حُبَّها، وتغلغلت في أفئدتهم، وسَرَتْ في عروقهم ومشاعرهم، وجَرَتْ منها مجرى الروح والدم.

٥ ـ أقام ﷺ دولة الإسلام الأولى وشَيَّد بنيانها على الكتاب الكريم والسنَّة الطاهرة، وشارك أصحابُه في بنيانها، وتعاونت السواعد المتوضئة في إنشائها وترسيخها وحراستها، وكانت تتسابق في حمايتها والدفاع عنها، تشملُهم روحُ الأخوة، وتسودُهم مبادئ المساواة، لا يفرِّق بينهم جنس أو لون أو مكانة اجتماعية، فأبو بكر أخو بلال، وعلي أخو صهيب، وعمر أخو سلمان، إنما يقدِّم المرءَ منهم إيمانُه وسابقته وعمله وإخلاصه.

٦ ـ وحَّد شملَ العرب وجمع بين قلوبهم بعد فرقة طويلة وتباعد بغيض، وتناحر تليد، فوحَّد دستورهم ومنهجهم وطريقهم وغايتهم بفضل الله تعالى، فكان جامعتَهم ووحدتَهم ودستورَهم القرآنُ الحكيم والسنَّة الشريفة والسيرة النبوية الطاهرة.

٧ ـ أنشأ مجتمعاً إسلاميّاً متناسقاً متماسكاً متحداً مؤتلفاً متعاوناً متعاضداً، لا تعانُدَ فيه ولا تنافر، ولا تباغضَ ولا تدابر، قوامُه التوجيه القرآني: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. . وسادَتْ في هذا المجتمع روح الأخوة والرحمة، والحب والمودة، والتضحية والفداء، والبذل والإيثار والعطاء، ومُحِيت منه رذائل التحاسد والتباغض، والتقاطع والتدابر، والتكبر والتظالم، والأَثَرة والغش والاحتكار ودعوى الجاهلية.

وأصَّلَ فيه روحَ المسؤولية في صغير الأمور وكبيرها، وقام الجميع بالمبدأ الكبير الذي يقول فيه ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**». فأضحى

الناس كلهم عالمين عاملين، يُعطون كل ذي حق حقه، يؤدُّون الواجبات قبل أن يطالبوا بالحقوق، فكنتَ ترى أحدَهم إذا اقترف ذَنْباً أسرعَ إلى النبي ﷺ يخبره عما اختانَتْه نفسه، ويطلب إليه أن يُطهِّره من آثام فعله، ولو كان في ذلك إقامة حدٍّ فيه إزهاق نفسه!.

٨ ـ أقام الحكم الإسلامي في أبهى صوره، وأعدلِ ممارساته، وأكمل أركانه، وأشمل تطبيقاته، وأرفع إنسانيته. وكان ﷺ على رأس مؤسساته التي صاغ معالمها وأرسى أركانها، وجاء بعده الخلفاء الراشدون فساروا على هديه واقتفوا سبيله.

وتجلّت معالم هذا الحكم في أمور بارزة أهمها:

أ ـ أنه قائم على الإيمان بالله ولقائه وإعلاء كلمته في كلِّ ساحة وميدان.

ب ـ إقامة السلوكين العام والخاص على الربانية والطاعة والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الشعائر والشرائع.

ج ـ سحق الجبروت السياسي، واستقذار شهوة الاستعلاء والتحكم، وبناء الدولة على الشورى والحرية والعدل والمساواة.

د ـ احترام المال العام ومطاردة غاصبيه، وضمان العدل الاجتماعي الشامل.

هـ ـ تنشئة الأجيال على الأخلاق والقيم الإسلامية، وربطها بالكتاب والسنَّة.

و ـ تهيئة كل أسباب التمكين في الأرض وما يصون رسالة الأمة ويدعم مكانتها المادية والحضارية(١).

حقّاً لقد كانت الفترة المباركة التي لبثها رسول الله ﷺ في الأمة داعياً وهادياً ومعلِّماً ومرشداً ومربياً وقائداً؛ خير مراحل التاريخ الإسلامي خصوصاً

(١) انظر: جهاد الدعوة، ص١١٢ ـ ١١٣.

والعالمي عموماً، وهي كما أخبر ﷺ بأنها «نبوة ورحمة»، وكما قال حذيفة: (جاءنا بالخير على يديك).

(لقد وضَع محمد ﷺ مفتاحَ النبوّة على قُفْل الطبيعة البشرية، فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب، وقوى ومواهب، أصابَ الجاهلية في مقتلها أو صَميمها، فأَصْمَى رمِيَّتَه، وأرغمَ العالَمَ العنيدَ بحول الله على أن ينحوَ نحواً جديداً ويفتتح عهْداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرَّة في جبين التاريخ)[1].

ويعبِّر الأديب والشاعر الفرنسي (لامارتين) عن ذلك الخير الذي جاء الله به على يد رسول الله ﷺ، فشمل العرب خاصة والعالم عامة، فيقول:

(إن الميِّزة الخالدة لهذه الأمة التي كوَّنها لنا محمد ﷺ أنها شديدةُ المَقْتِ والتقزُّزِ من الآلهة الباطلة، شديدةُ الحب لله الواحد الذي يتنزَّه عن المادة وشوائبها، وهذا هو الحبُّ الذي يدفعه إلى الثأر والانتصاف من كل إهانةٍ تُوجَّه إلى الذات الإلٰهية، وهذا الحبُّ يُعْتَبَرُ أساس سائر الفضائل عند هذه الأمة.

لقد كان إخضاعُ ثلث العالم لهذه العقيدة الجديدة من مأثرته بلا ريب، لكن الأصح أنه كان معجزة العقل لا معجزة فرد واحد..

إن الإعلان بعقيدة التوحيد في زمن كانت تئِنُّ فيه الدنيا تحت وطأة أصنام لا حصرَ لها؛ كان معجزة مستقلة بذاتها.

وما لبث محمد ﷺ أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ، حتى أقفرتِ المعابدُ القديمة من عُبَّادها، فلا داعي فيها ولا مجيب، وتكَهْرَبَ ثلثُ العالم بحرارة الإيمان)[2].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٢٤، وانظر ص١٠٠ ـ ١٢٤. **وأَصْمَى الرَّمِيَّة:** أَنْفَذَ فيها السهمَ ونحوَه.

(٢) السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ص٦٠.

المرحلة الثالثة

الخلافة الراشدة على منهاج النبوّة

أولاً: عهد الخلفاء الراشدين امتداد للخير الأول زمن النبوّة:

عهدُ الخلفاء الراشدين هو امتداد لمرحلة الخير الأول الذي جاء الله تعالى به على يد رسوله ﷺ وعاشه الناس وسعدوا به تحت قيادته ﷺ، وأخذ الراية من بعده خلفاؤه الأربعة الكرام رضي الله عنهم، فهذا العهد مشمول بقول حذيفة في حديث (الخير والشر): (فجاءنا الله بهذا الخير)، (وجاءنا بالخير على يديك)، (فجاءنا الله بخير نحن فيه).

وإليه الإشارة في حديث (النبوة والخلافة): «**ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها**».

وفي الحديث الآخر: «**ثم يكون خلافة ورحمة**».

فجاء وصفُ مدة الخلفاء الراشدين بأن عهدَهم وحكمَهم وسيرتهم؛ خلافةُ رحمة وعلى منهاج النبوة.

وقد كَثُرت آيات الكتاب العزيز التي تثني على الصحابة وترفع قدرهم وتُعلي شأنهم، وطَفَحت كتب السنَّة بالأحاديث الصحيحة في امتداح النبي ﷺ للخلفاء الراشدين وعهدهم خاصةً ولجيل الصحابة الذي بُعث ﷺ فيهم عامةً، وأطبقت كلمةُ علماء الإسلام سَلَفاً وخَلَفاً على أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هم خير أجيال الأمة الإسلامية، والقرن الذي عاشوا فيه حَظِي بالمقام الأول من الخيرية في هذه الأمة.

قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُ الناسِ قَرْني، ثم الذينَ يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم، ثم يجيءُ أقوامٌ تَسْبِقُ شهادةُ أحدِهم يمينَه، ويمينُه شهادَتَه**»(١).

وقال الإمام الشافعي في «الرسالة البغدادية»: (وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل، وسَبَق لهم على لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحدٍ بعدهم، فرحمهم الله وَهنَّأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازلِ الصديقين والشهداء والصالحين)(٢).

وقال ابن تيمية: (خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة؛ القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه. وإنهم أفضلُ من الخَلَف في كل فضيلةٍ، من علمٍ وعملٍ وإيمانٍ وعقلٍ ودينٍ وبيانٍ وعبادةٍ)(٣).

ثانياً: خلافة راشدة على منهاج النبوّة:

وقد وصف النبي ﷺ عهد الخلفاء الراشدين بأنه عهد خير ورحمة وبركة وعلى منهاج النبوّة كما تقدّم في الحديث، وأمر المسلمين بطاعتهم والاستمساك بهديهم والعمل بسُنَّتهم والاقتداء بهم؛ لأنهم على الخير والهدى والرشاد.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢) واللفظ له؛ ومسلم (٢٥٣٣)؛ والترمذي (٣٨٥٩)؛ والنسائي في الكبرى (٥٩٨٨)، وغيرهم.

(٢) إعلام الموقعين: ١/ ٨٠.

(٣) نقض المنطق، ص١٢٩ ـ ١٣٠.

عن العِرْبَاضِ بن سارِيَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُوصِيكم بتقوى الله والسمع والطاعةِ وإنْ كان عبداً حبشيّاً، فإنَّه مَنْ يَعِشْ منكم بَعْدي فسَيَرى اختلافاً كثيراً، فعليكُمْ بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّين فتمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمورِ فإنَّ كلَّ محدَثةٍ بدعةٌ وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**»[1].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنا عند النبيِّ ﷺ جلوساً، فقال: «**إني لا أدري ما قَدْر بقائي فيكم، فاقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي** ـ وأشار إلى أبي بكر وعمر ـ **وتمسَّكوا بعهدِ عمَّارٍ، وما حَدَّثكم ابنُ مسعود فَصَدِّقُوه**»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيكون من بعدي خلفاءُ يعملون بما يعلمون ويفعلون ما يؤمرون...**»[3].

والخلفاء الراشدون هم تاج هذا الصنف من خلفاء العدل والرحمة والخير.

ثالثاً: مدة الخلافة الراشدة:

استمرت مدَّةُ عهد الخلفاء الراشدين ثلاثين سنةً كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، عن سفينة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلافةُ النبوَّة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله المُلكَ من يشاء**»[4].

وابتدأت من خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة (١١هـ)، وانتهت عام

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧، واللفظ له؛ وأبو داود (٤٦٠٧)؛ والترمذي (٢٦٧٦)؛ وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (٥٤ ـ ٥٩)؛ وابن حبان (٥)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٨٥ ـ ١١٨٦)؛ والحاكم: ١/ ٩٥ ـ ٩٦، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٣٨٥، ٤٠٢، واللفظ له؛ والترمذي (٣٦٦٣)؛ وابن ماجه (٩٧)؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (١١٤٨)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٢٢٤)؛ وابن حبان (٦٩٠٢)؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٣) مرَّ مع تخريجه وشرحه: ٢/ ٣٨٤، نبوءة رقم (٨٠)، (في هذا المجلد).

(٤) سبق مع تخريجه وشرحه: ٢/ ٢٢٥، نبوءة (٦١)، (في هذا المجلد).

الجماعة في سنة (٤١هـ)، بتنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما لمعاوية رضي الله عنه، واجتمع المسلمون عليه، وبعهده بدأ الحكم المَلَكي.

رابعاً: من سمات دولة الخلافة وملامح الخيرية فيها:

●● تميَّز أصحاب رسول الله ﷺ بمزايا عديدة وجليلة، من أجلها وأبرزها أمران لم يُعرفا في تاريخ النبوات الأولى:

الأمر الأول: أنهم نقلوا الوحي السماوي كلَّه فما سقط منه حرف، ونقلوا السنَّة المحمدية كذلك، وربَّوا من الأتباع مَن عمل عملَهم، فإذا الإسلام يبقى في أصوله النظرية مصوناً من كل شائبة.

وظل هذا التواتر للقرآن الكريم كلمة كلمة، وللسنَّة في الجملة، فتوفَّرت للرسالة الخاتمة عناصر الخلود، وظلَّت وسوف تظل كلمة الله الأخيرة للخلائق أجمعين حتى انتهاء الدنيا.

أما **الأمر الآخر**: فإن الصحابة رضي الله عنهم هم الذين جعلوا عالمية الرسالة حقيقة واقعة، فإن النبيَّ عليه الصلاة والسلام لَحِق بالرفيق الأعلى ودينُه لم يتجاوز جزيرة العرب، وقد علم الأصحاب الكرام أنه مبعوث للعالم كله، فشَرَعوا ينساحون في الأرض مبشّرين ومنذرين[١].

●● وحملوا الإسلام إلى الدنيا التي فتحوها، وأنقذوا العالم من الانحطاط الشامل، ونشروا بينهم القرآن وتعاليمه التي مَنَحت الألوف المؤلفة من الناس وعياً بمدى الكمال الذي يحرزونه عندما يعرفون ربهم ويرتبطون به[٢].

ونقلوا البشرية إلى أكرم الفضائل في شتى المجالات العقدية والثقافية والسياسية والأخلاقية والحضارية والمادية.

فكانوا امتداداً لإشعاع شمس النبوّة الخاتمة، وأيقظوا القلوب الغافلة عن

(١) علل وأدوية، ص١٤٥.

(٢) من كلمة لرجاء جارودي، انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٥٢.

سُنَن الله تعالى في الأنفس والآفاق، وهَدَوا الفكر الإنساني والقلب الإنساني والواقع الإنساني في كل موقع من دنيا الناس؛ فاستحقوا من الله ورسوله ذلك الثناء بأنهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠][(١)].

●● وامتاز الخلفاء الأربعة خصوصاً والصحابة عموماً ـ وهم الذين قامت بهم دولة الخلافة ـ بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشُعَبِها ومحاسنها المتفرقة في قادة العالم. وكان يمكن لهم ـ بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية، واعتدالهم الغريب الذي قلّما اتفق للإنسان، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن، واستعدادهم المادي الكامل وعقلهم الواسع ـ أن يسيروا بالأمم الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية والخلقية والمادية.

●● وكذلك كان، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكملَ وأجملَ وأزهَرَ في جميع هذه النواحي من دور الخلافة الراشدة، فلقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل، وفي ظهور المدنية الصالحة.

كانت حكومةً من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها: تَسُود فيها المُثُل الخلقية العليا، وتحكُم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة، ويُساير الرقيُّ الروحي والخلقي اتساعَ الفتوح واحتفالَ الحضارة، فتقلّ الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة الدولة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها، وتحسّن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد. وهو دور كماليٌّ لم يحلُم الإنسان بأرقى منه، ولم يفترِض المفترِضون أزهى منه، ولم يكن إلا بسيرة الرجال الذين يتولّون الحكم ويشرفون على المدنية، وبعقيدتهم وتربيتهم وخطتهم في الحكم وسياستهم؛ فكانوا أصحابَ

(١) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٩١.

دينٍ وأخلاقٍ عالية أينما كانوا، كانوا أعفَّة أمناءَ خاشعين متواضعين، حكاماً كانوا أو رعايا أو شرطة أو جنوداً(١).

خامساً: إنجازات شامخة وأعمال خالدة:

ومن أعظم الخير الذي امتازت به حقبة الخلفاء الراشدين حركةُ الجهاد المباركة والمدُّ الإسلامي الكبير الذي عمَّ الشرق والغرب، فدُفنت حركة الردة، ومُزِّقت المجوسية شرَّ ممزَّق وبادت الكسروية، وخُضِّدت شوكة الرومان، وحُرِّرت أمصار وبلدان من الجبروت والطغيان، ونَشر الإسلام أعلامه فوق مساحات شاسعة من المعمورة.

ويمكن إجمال أبرز أعمال الخلفاء خلال عهدهم المبارك في عدة أمور كبرى:

١ ـ تلاشت الوثنية العربية في أرجاء الجزيرة على عهد النبي ﷺ، وعادت إليها صحوة الموت بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، متمثلة بحركة الردَّة، لكن الخلفاء والصحابة أخمدوا أنفاسها إلى الأبد.

٢ ـ جمعوا القرآن الكريم ونقلوا الوحي بحروفه، ونقلوا السنَّة بصفائها ورونقها؛ فحفظوا بذلك أصول الإسلام الخالدة التي لا تزال بين أيدي الناس إلى الآن، وستبقى إلى قيام الساعة.

٣ ـ انطلقت جيوش الفتح الإسلامي في المشارق والمغارب، وحررت الناس من استعباد المجوسية وطغيان الرومان، وبَسط الإسلام جناحيه على رقعة واسعة من الأرض، فأضحت (حدود الدولة الإسلامية بعد هذه الفتوحات عبارة عن حدود مصر الغربية، ثم ساحل البحر المتوسط، ثم جبال طوروس، ثم حوض الفرات الأعلى، ثم جبال القوقاز، ثم بحر الخزر (قزوين)، ثم تصل الحدود تقريباً على قريب من بحيرة آرال، حتى تصل الحدود الشرقية على حدود

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٣١ ـ ١٣٢.

إيران الشرقية القديمة إلى المحيط الهندي، ثم شواطئ إيران الجنوبية وخليج العرب حتى تصل إلى البصرة)[١].

٤ ـ إقامة دولة راسخة قوية على الشورى والعدل والمساواة، وسنُّ الكثير من القوانين والتنظيمات الإدارية في حكم الولايات والأمصار، ونظام الجيش، والسياسة المالية في الأرض المفتوحة، وإنشاء الدواوين وفرض الرواتب والأعطيات للجند وأفراد الأمة والمواليد، وتنظيم القضاء والحِسْبة وغير ذلك.

٥ ـ نشر العلم والمعرفة، وخروج أئمة الصحابة إلى الأمصار، وإبلاغ الإسلام للعالمين، وتحقيق عالمية الرسالة كما أراد الله سبحانه وطبَّقه النبي ﷺ طيلة حياته وأوصى به مَن بعده.

٦ ـ أزاحوا عن كاهل البشرية جبروت المجوس وطغيان الرومان، وحرروا شعوب العالم في البلدان المفتوحة من الأغلال التي قيَّدت عقولهم وتفكيرهم، ورفَعوا عنهم الإِصْر الذي ضُرب عليهم، ونقلوهم إلى نور الإسلام.

٧ ـ حقَّقوا في دولتهم الممتدة حضارةَ الإسلام الربانية التي أخذت طريقها صعداً إلى أعلى، وكانت الأمم قبلهم وفي زمانهم قد أَسَفَّت بالإنسانية، ولَصِقَتْ بالحضيض.

٨ ـ قدَّموا للإنسانية روائعَ الإسلام وحقائقه الكبرى في العقيدة والفكر، والسياسة والاقتصاد، والمعاملة والأخلاق، والدنيا والآخرة، في توازن حكيم لا يطغى فيه جانب على آخر.

٩ ـ فاض المال ودرَّت الأرزاق وكثرت الخيرات، فعاش الناس في سعة من الحياة ورغد من العيش، وشاع الأمن والأمان في الأمة، وأمِن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

---

(١) انظر: كتاب التاريخ للصف الحادي عشر الأدبي، بدولة الإمارات العربية، لسنة (١٩٩٢ ـ ١٩٩٣م) ص١١٤، وسنة (١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠م) ص٩٧.

فاستحق ذلك العهد المبارك ذاك الوسامَ النبوي بأنه «خلافة على منهاج النبوة» وأنه «خلافة ورحمة»، ودعوتَه ﷺ قائلاً: **«عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»**.

★ ★ ★

المرحلة الرابعة
مرحلة الفتنة والشر

إن الفتوحات التي دكَّت دولتي الفرس والروم، وفَرَّقت شمل اليهود، وكسرت شوكة الرومان، ومزَّقت المجوسية، وأقامت للإسلام دولة راسخة البنيان شاسعة الأرجاء ممتدة السلطان؛ لم تكن لتمرَّ دون أن تترك انعكاساتها على بنيان الدولة الإسلامية الظافرة، فلقد بقيت من تلك الممالك المنهارة بقايا وأوكار، طَوَتْ بين جوانحها ناراً تلظى وتتأجج على الإسلام وخلفائه وقادته وأهله، تنتظر اللحظة المواتية لتضرِم نارها. وساعدها على ذلك الخليطُ الهائل من الأجناس التي دخلت أبواب الإسلام الواسعة، وفيهم من أسلم راغباً، كما أن فيهم من دخل تَقِيَّة يطوي على حقد دفين، ليكون مِسْعَر الفتن وقادحَ زَنْدِها[1].

ووجَّه أولئك الأعداء الحاقدون المتربصون سهامهم إلى الخلفاء الراشدين، فاغتالوا ثلاثة منهم واحداً بعد الآخر، ليُحدِثوا شروخاً غائرة في جسم الأمة الإسلامية. ورافق ذلك مؤامراتٌ حيكت في الظلام، ونشرُ الأكاذيب، وترويجُ الشائعات، وتأريث الفتن، وتأجيج الخلاف بين المسلمين، فوقعت معارك مؤلمة أُريقت فيها دماء كثيرة، وأُزْهِقت أرواح بريئة، فكان من ذلك شر مستطير، يتحمَّل وِزْره أولئك المجرمون الذين استحلوا الدماء وعاثوا في الأرض فساداً، وهم يتظاهرون بأنهم يحسنون صنعاً!.

---

(١) انظر كتابنا: أعلام الحفاظ والمحدّثين: ١/ ٢١٩.

فكانت هذه الأحداث مبعثَ الشر ومصدرَ الفتنة وسببَ الاختلاف والفرقة الذي دبَّ في صفوف المسلمين زمناً غير يسير.

وقد أشار حديث (الخير والشر) الذي يرويه حذيفة إلى هذه المرحلة بعدة عبارات متقاربة تصفها وصفاً إجماليّاً:

(فهل بعد هذا الخير شرٌّ؟ قال: «نعم»)، (فهل من وراء هذا الخير شَرٌّ؟ قال: «نعم»)، «هل بعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: «**فتنةٌ وشرٌّ**»)، (فهل بعد الخير من شَرٍّ؟ قال: «نعم»، قال: ما هو؟ قال: «**فِتنٌ كقِطَعِ الليل المُظلمِ، يَتْبع بعضُها بعضاً، تأتيكم مُشْتَبِهةً كوجوه البقر، لا تدرون أيّاً من أي**»)[1].

ويمكن حصر أشكال الفتن والشر في هذه المرحلة بثلاثة محاور كبيرة:

المحور الأول: قتل الخلفاء الراشدين الثلاثة:

●● كانت الفتن مُلجَمةً في عهد الفاروق عمر، وكان أصحاب الشر منقمِعين، ورياح الفتوحات رُخاءً تنشر الإيمان والخير والأمن والسعادة في ربوع دولة الخلافة، لكن أهل الهوى والفساد من أعداء الإسلام والإنسانية حَصِرت صدورُهم من ذلك الرجل العظيم فاروق الإسلام، الذي ثَلَّ ـ مع إخوانه ـ عرشَ الفرس وهزم الروم وكسر فقار اليهود، فكانت الرصاصة الأولى التي وُجِّهت إلى الإسلام ودولته تقصد ذلك العبقري العادل، فأصابته في مقتل، ورُزِئ به المسلمون بل الإنسانية!.

وفي الحديث الصحيح الذي يرويه حذيفة في (الفتن التي تموج كموج البحر)، قال: (ما لَكَ ولها يا أميرَ المؤمنين؟! إنَّ بينَك وبينها باباً مُغْلَقاً! قال: أَفَيُكْسَر البابُ أم يُفتح؟ قال: قلت: لا بل يُكْسَر، قال: ذلك أَحْرَى أن لا يُغْلَقَ أبداً!)[2].

---

(١) مسند أحمد: ٥/ ٣٩١.

(٢) تقدَّم الحديث مع شرحه: ٢/ ٢٩، نبوءة (٤١)، (في هذا المجلد).

●● وفي خلافة أمير المؤمنين عثمان قامت حثالة السبئيِّين بقيادة عبد الله بن سبأ، وضَوَى إليه جماعة من الموتورين وطوائف من الرَّعاع، وأثار فرية (الوصية بالخلافة لعلي)، وطعنوا على الولاة، وشغبوا عليهم، ونشروا الأكاذيب في البلدان. وتمادوا في غيِّهم فاتهموا الخليفة بالحَيْف والظلم ومخالفةِ هدي النبوة، وافتجروا إفكاً كثيراً، وزوَّروا كُتباً على لسان أمير المؤمنين وصحابة آخرين، وملؤوا الأرض إشاعة، وحدثت محاولات لخَلْع الخليفة الراشد، فباءت بالفشل، واستمروا في خطتهم جادِّين إلى أن تمكنوا من إنفاذ أمرهم أضلَّ الله سعيهم! وسفكوا دم الشهيد عثمان في بلد حرام وشهر حرام!.

وقد جاءت في ذلك أحاديث كثيرة تقدّمت مع بيان مدلولاتها في هذا الكتاب، منها ما رواه عبد الله بن حَوَالة ﵁ قال: (قال رسول الله ﷺ: «**يا بنَ حَوَالة، كيف تفعلُ في فتنة تخرج في أطراف الأرض كأنها صَيَاصِي بَقَر؟**» قلت: لا أدري، ما خارَ الله لي ورسوله... قال: «**اتَّبِعوا هذا**» قال: ورجلٌ مُقَفٍّي حينئذٍ، قال: فانطلقتُ، وسعيتُ وأخذتُ بِمَنْكِبَيْه، فأقبلتُ بوجهه إلى رسول الله ﷺ، فقلت: هذا؟ قال: «**نعم**». قال: وإذا هو عثمان بن عفان)[١].

●● واستُشهِد علي ﵁ كذلك، على يد أحد الخوارج، فبعد أن قاتل عليٌّ الخوارج وهزمهم وكسر شوكتهم، ائتمر ثلاثة منهم على أن يقتلوا عليّاً ومعاوية وعمرو بن العاص.

وسار عبد الرحمن بن مُلْجَم إلى الكوفة، وغدر بأمير المؤمنين في السَّحَر وهو متجه ليصلي الفجر بالمسلمين، صبيحةَ يوم (١٧ رمضان، سنة ٤٠هـ)، ضربه بالسيف على جانب رأسه، فسال دمه الطاهر على لحيته ﵁، ولقي ربَّه شهيداً سعيداً.

وقد جاء ذلك في عدة أحاديث منها ما رواه زيد بن وَهْب قال: (جاء رأسُ

---

(١) تقدَّم الحديث بتمامه مع تخريجه وشرحه: ٣٧/٢، نبوءة (٤٢)، (في هذا المجلد).

الخوارج إلى عليٍّ، فقال له: اتَّقِ الله فإنك ميتٌ! فقال: لا والذي فَلَقَ الحَبَّة وبَرَأَ النَّسَمة، ولكنِّي مقتولٌ من ضربةٍ من هذه تَخْضِبُ هذه ـ وأشار بيدهِ إلى لحيته ـ عهدٌ معهودٌ، وقضاءٌ مقضِيٌّ، وقد خابَ من افترى!)[(١)].

المحور الثاني: الاقتتال بين المسلمين، وفتنة الخوارج وقتلهم:

والنوع الثاني من الشر يتمثل في تلك الحروب التي نشبت بين المسلمين والأرواح التي أُزهقت والدماء التي سُفكت، بسبب الفتن التي أجَّجها أولئك السبئيُّون المجرمون المارقون، وهو أعظم من الشر الأول وأقسى فتنة وأشد إيلاماً وأوسع انتشاراً.

فبعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، بايع المسلمون علي بن أبي طالب رضي الله عنه فكان رابع الخلفاء الراشدين، وكان قتلة عثمان منبثِّين في جيشه، وأراد جمعٌ غفير من المسلمين إقامة الحدِّ عليهم قصاصاً لدم الشهيد أمير المؤمنين عثمان، ورأوا تعجيلَ ذلك، وعلى رأس هذا الفريق طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وأم المؤمنين عائشة وغيرهم رضي الله عنهم.

أما أمير المؤمنين علي فإنه لم يخالفهم في وجوب القصاص وإقامة الحد، لكنه رأى تأخيرَ ذلك وتأجيلَه حتى تبرد جراح المسلمين من مقتل عثمان، وتستقر أمور الدولة، وينقلب القتلة إلى بلادهم وقبائلهم، فعندئذ يمكن تتبّعُهم والقصاصُ منهم.

فاختلف الصحابة لذلك على فريقين.

وخرج طلحة والزبير وعائشة في ركبٍ إلى البصرة ليتقووا بأهلها، ويَقْدَموا بجيش إلى المدينة يقتصّ من القتلة. فلم تستقم الأمور لهم كما أرادوا، ووقعت في البصرة (معركة الجمل) بين جيش علي وأهل الجمل، وكانت بينهم مقتلة ودماء وفتنة!.

---

(١) مرَّ الحديث مع بيان مدلوله: ٢/ ١٤٢، نبوءة (٥٣)، (في هذا المجلد).

وبَعث علي إلى معاوية بالشام يأمره بالبيعة في أهل الشام، فردَّ معاوية بأنه لن يبايع حتى يُقام الحدُّ على قتلة عثمان، فإذا اقتص أمير المؤمنين علي منهم، كان معاوية أول من يبايعه. فرفض علي الشرط، وأصرَّ على دخول معاوية في البيعة أولاً، وسار بجيشه لمقابلة أهل الشام لإدخالهم في الطاعة، فتوجَّه معاوية بجيشه لمقابلته، فالتقى الجمعان بصِفِّين، وكانت بينهم موقعة دامية ومقتلة عظيمة!.

وعند احتدام المعركة وكثرة القتلى من الفريقين، رفع أهل الشام المصاحف، وطالبوا بالاحتكام إليها، فَقَبِل أمير المؤمنين علي، وتوقَّفَ القتال، وكانت (قصة التحكيم). فرفض ذلك جماعةٌ كبيرة في جيش علي، وقالوا له: (حَكَّمتَ الرجالَ في كتاب الله)، (لا حُكْمَ إلا لله)! وخرجوا عليه؛ فَسُمُّوا الخوارج.

وتوجَّه إليهم عليٌّ وناظَرَهم، وأرسلَ إليهم عبد الله بنَ عباس فناقشهم وبَيَّن لهم فسادَ رأيهم وضَعْفَ حُجَّتهم، فرجع كثير منهم إلى الحق، وبقيتْ منهم بقية قاتلهم علي وهزمهم.

وكان ذلك من جملة الشر في هذه المرحلة من تاريخ المسلمين[١].

المحور الثالث: افتراء (الوصية لعلي) وتزوير الكتب ونشر الأكاذيب:

●● ومما ساعد على تأريث الفتن وإيقاد نيران الشر؛ ذلك الزعم الكاذب الذي افتراه عبد الله بن سبأ بقوله: (لَعَجبٌ ممن يزعمُ أن عيسى يرجع، ويكذِّب بأن محمداً يرجع، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، ومحمد أَحقُّ بالرجوع من عيسى!).

---

(١) انظر تفصيل (وقعة الجمل، ووقعة صفين، وقتال الخوارج) في هذا الكتاب: ٢/ ٨٠ ـ ١٣٦، نبوءات رقم (٤٧ ـ ٥١)؛ وكتابي: الخلفاء الراشدون، ص٥٥٧ ـ ٦٣٢.

وقال ابن سبأ: (إنه كان ألف نبي، ولكل نبيٍّ وصيٌّ، وكان عليٌّ وصيَّ محمد). و(محمد خاتم الأنبياء، وعليٌّ خاتم الأوصياء!).

ثم قال: (مَنْ أظلمُ ممن لم يُجِزْ وصية رسول الله ﷺ، ووَثَبَ على وصيِّ رسول الله ﷺ، وتناولَ أمر الأمة!)[1].

فراجَتْ هذه الأكذوبة على الرَّعاع وصدَّقوه بها وتابعوه عليها[2]، ومشوا معه مخدوعين لنصرتها، ونصرة علي ضد مغتصب الخلافة عثمان بن عفان، ومن قبله كان اغتصبها أبو بكر وعمر، فيما يزعمون!.

•• وكذلك زوَّروا الكتب على لسان عثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة، وأشاعوا في الناس الأكاذيب، واتهموا الخليفة والولاة بمخالفة هدي الإسلام، ونقلوا ـ كذباً ـ على لسان أولئك الصحابة أنهم يتهمون عثمان والولاة بالتغيير والتبديل وتَرْكِ أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ، وأنهم يطالبون عثمان بعزل ولاته وتأديبهم على مخالفاتهم وتقصيرهم، وروَّجوا تلك الأكاذيب حتى شاعت في كثير من الأمصار.

فازدادت الفتن اضطراماً والشرّ استعاراً، مما كان له أثر كبير في الخروج على الخليفة عثمان والولاة ووقوع معركتي الجمل وصِفِّين.

•• وقد اشتبهت الأمور على كثير من الناس، عندما كثرت الأراجيف، وانتشرت الافتراءات، وروَّج المغرضون للشائعات، فمَرِجَ أمرُ الناس. وكان الأمر أشدَّ اشتباهاً وأعظم إشكالاً وأكثر حيرةً عندما وقع القتال وتواجَهَ المسلمون بأسيافهم، فاشتبه الأمر حتى على جِلَّة الصحابة! فطائفة كبيرة منهم شاركوا في القتال ضد الفئة الباغية، وآخرون حاولوا التسكينَ من الفتنة، وفريق ثالث اعتزلوا الفِرق كلَّها حتى انجلت الفتنة! وهذا يدل على شدة اشتباه الأمور،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٠.

(٢) وهي عند الرافضة حقيقة لا تقبل الجدل!.

خاصة وأن السبئيين اختلطوا في جيشي الفريقين المتواجهين أيام الجمل وصفين، وقاموا بإشعال نار الفتنة وإيقاد جحيم القتال كلما كان المسلمون يقتربون من الوفاق، مما زاد الأمر شدة!.

وصدق قول النبي ﷺ في هذه المرحلة وأحداثها: هل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**فتنة وشر**»، «**فتن كقطع الليل المظلم، يتبع بعضها بعضاً، تأتيكم مشتبهة كوجوه البقر، لا تدرون أياً من أي**»!.

★ ★ ★

المرحلة الخامسة

الملك العاضّ

رغم الفتن الهوجاء التي ضربت المجتمع الإسلامي في أواخر عهد عثمان وجميع عهد علي، ورغم اشتداد الخلاف بين المسلمين آنذاك، وما جرى من حروب وأريق من دماء وحِيكَ من مؤامرات؛ فإن القرآن الكريم والسنَّة النبوية بقيا عصمة المسلمين ومحور حياتهم ومصدر حركاتهم وسكناتهم وأعمالهم في السراء والضراء.

فما إن وارى المسلمون خليفتهم الرابع الثرى، حتى بايعوا ابنه الحسن بن علي بالخلافة، فقام لها بعزمات الرجال، وسار الناس معه في حشد ضخم كأمثال الجبال!.

وكان من لطف الله تعالى ورحمته بهذه الأمة أن حقق على يدي الحسن نبوءة جدِّه رسول الله ﷺ في قوله: «**إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أن يُصلِحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[١].

فراسل الحسنُ معاويةَ بن أبي سفيان، وتعاهدا على توحيد كلمة المسلمين، وتنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة، والتأم شمل المسلمين، وبايع الناس جميعاً

---

(١) انظر هذا الحديث وبيان مدلوله وتحققه: ٢/ ٢٤٤، نبوءة (٦٤) (في هذا المجلد).

معاوية بالحكم، واجتمعت الأمة على كلمة سواء، وسُمِّي ذلك العام (سنة ٤١هـ) عامَ الجماعة.

ومكث معاوية أميراً للمؤمنين لدولة عظيمة واسعة الأرجاء عشرين سنة، وأوصى في آخر عهده بالخلافة لابنه يزيد، وبذلك تحوَّل الحكم الإسلامي من النظام الشوري إلى النظام الوراثي (الملكي)، واستمر المسلمون بعد ذلك على هذه السنة غير الحميدة في الحكم دهوراً متطاولة زادت على الألف سنة!.

وتحدثت الأحاديث النبوية عن هذه المرحلة من تاريخ المسلمين والدورة الحضارية لدولتهم، وهي بلا مراء دون عهد الخلفاء الراشدين في بهائها ورشادها وعدلها وتديُّنها وزهدها وإخلاصها وصفاتها ومَضَائها والتزامها وسياستها وحفظها للأنفس والأموال والمناصب والولايات.. وقد شابَهَا بعضُ التغيير والتقصير والدَّخَن والتفريط، والخروج عن جادة الصواب قليلاً أحياناً وكثيراً أحياناً أخرى، لكنها في الوقت نفسه مستعصمة بحبل الله، مستمسكة بالإسلام، مناصرة لمبادئه، مقارعة لأعدائه، شديدة البأس على كل من يناوئه أو يريد به وبالمسلمين سوءاً، لم تبتغِ به بديلاً، ولا أَدخلَتْ عليه ما يَشُوبه أو يَسُوءُه، ولا استعاضت عنه أو عن أجزاء منه بمبادئ أرضية أو أهواء بشرية، فضلاً عن أن تنبذه وراءها ظِهريّاً، فهذا مما لم يَحدث طيلة هذه الحقبة على امتداد زمانها.. وإن لم يخلُ ذلك العهد الطويل من حكام أو أمراء ضعاف أو منحرفين في مسلكهم الشخصي، بيد أن النظام العام للدولة قائم على الإسلام وبالإسلام، ولو اعتوره الضعف والفتور، لكنه ما اعتراه التحريف أو التبديل.

أولاً: وصف الأحاديث لهذه المرحلة:

قال حذيفة في حديثه: (فقلتُ: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَن**»، قلت: وما دَخَنُه؟ قال: «**قوم يَستنُّون بغير سُنَّتي، ويَهْدون بغير هَدْيي، تعرِفُ منهم وتُنْكِر**»).

(قلت: يا رسول الله! هل بعد هذا الشر خيرٌ؟ قال: «**هُدنةٌ على دَخَن**» قال:

قلت: يا رسول الله! هدنةٌ على دَخَن ما هيَ؟ قال: «**لا ترجِعُ قلوبُ أقوامٍ على الذي كانت عليه**»).

وفي حديث النبوة والخلافة: «**ثم تكون مُلْكاً عاضّاً، فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يَرفَعُها إذا شاء أن يرفَعَها**».

وفي حديث ابن عباس: «**ثم يكون ملكاً ورحمةً**».

ثانياً: التطبيق التاريخي والامتداد الزماني والجغرافي لهذه المرحلة:

تمثِّل هذه المرحلة أطولَ مراحل التاريخ الإسلامي زماناً، وأوسعها رقعة، وأكثرها خلفاء وملوكاً وحكاماً، وتنتظِم فترةَ الخلافة الأموية والخلافة العباسية والخلافة العثمانية، في حقبة زمنية تناهز ثلاثة عشر قرناً، من عام الجماعة سنة (٤١هـ) حيث تولى معاوية رضي الله عنه وابتدأت الخلافة الأموية، وإلى سنة (١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م) عندما سقطت الخلافة العثمانية.

وامتدت رقعة الدولة الإسلامية على مساحات شاسعة، حيث أضاف الأمويون بفتوحاتهم المظفرة بلاداً كثيرة وأقاليم واسعة تكاد تزيد مساحتها على ما كانت عليه مساحة العالم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين.. فبسط الأمويون سلطان الإسلام على دولة امتدت من حدود الصين والسِّنْد شرقاً إلى أواسط آسية شمالاً، وبحر العرب جنوباً، وشمال إفريقية ثم الأندلس غرباً، وتوغَّلوا في أراضي فرنسا إلى جنوب عاصمتها باريس بنحو خمسين كيلومتراً.

وبقيتْ هيمنةُ الدولة كذلك زمنَ العباسيين الذين لم يضيفوا إلى أعمال الأمويين كبير شيء، ثم تعاظم المدُّ الإسلامي في عهد بني عثمان، وامتد ليغطي رقعة واسعة من أوروبة، حيث وصلت فتوحاتهم إلى فيينا عاصمة النمسا، كذلك وصلت قواتهم إلى جنوب إيطاليا، واكتسحوا الدولة البيزنطية وفتحوا عاصمتها القسطنطينية وأطلقوا عليها الاسم الإسلامي (إسلامبول)، وضموا إلى سلطانهم منطقة البلقان، وسيطروا على أواسط روسيا شمالاً، وبَسط محمد الفاتح رُواقَ الإسلام ليشمل معظم أوروبة من ناحية الشرق؛ فدخل في الإسلام: المجر

ويوغسلافيا وبلغاريا وألبانيا وبعض المدن الإيطالية والجزر اليونانية، وأصبحت الدولة العثمانية تشكل سدّاً منيعاً في وجه المَدّ الأوروبي، حيث امتدت من البلقان إلى سواحل آسية الصغرى إلى سواحل بلاد الشام إلى الساحل الشمالي لإفريقية وحتى حدود إسبانية في شبه حلقة تحيط بدول أوروبة بين الشرق والجنوب.

وهذا المد الإسلامي العظيم والفتوحات المتلاحقة والهيمنة الكبرى للإسلام على أصقاع ضخمة وممرات مائية حيوية ومناطق استراتيجية كثيرة؛ أثار الأحقاد في قلوب الأعداء، وأَجَّج نارَ البغضاء في أنفس عملائهم وصنائعهم في البلدان الإسلامية، الذين أثاروا غبار الحقد الدفين على الإسلام ودولة الخلافة والخلفاء، فضخَّموا الصغائر، وروَّجوا الأكاذيب، وتسلَّلوا من الفراغات التي حَدثت بين المسلمين خلال هذا التاريخ المتطاول، ليطعنوا على الإسلام وأهله.

ثالثاً: ملامح هذه المرحلة في ضوء الوصف النبوي والواقع التاريخي:

وصف رسول الله ﷺ هذه الحقبة التاريخية والدورة الحضارية التي يمرّ بها المسلمون ودولتهم؛ بأن الحكم فيها «**ملكٌ عاضٌّ**»، كأن له أنياباً تعضُّ الناسَ، وفيه إشارة إلى القسوة والعسف والظلم وتعذيب الناس، وغياب الشورى، والتقاصر عما كان في العهدين النبوي والراشدي من هدي الإسلام في مؤسسات الحكم ومنابره.

وفي الحديث الآخر: «**فيه دخَنٌ**»، وفيه إشارة دقيقة عميقة معبِّرة عن نشوء البدع والأهواء، ومخالفة السنن النبوية قليلاً أو كثيراً، ووجود حكام وأمراء وولاة ومسؤولين في هديهم ما يُعرف وفيه ما يُنْكَر، وفريق آخر منهم يهدون بغير هدي الإسلام الصافي، وكذلك فيهم من يعملون ما لا يعلمون ويقولون ما لا يفعلون، كما جاء ذلك موضحاً في روايات مختلفة للحديث.

وهذه أمور عامة وإشارات كبيرة وإيماءات موحية، يمكن استقراؤها من خلال تتبع مسيرة الحكم والخلفاء والعلماء وعامة المسلمين في هذه المرحلة

المتطاولة زمنيّاً، الممتدة جغرافيّاً، المتنوعة في أشكال الحكم وأصناف الاتجاهات والمذاهب الفكرية والسياسية.

ونجمل ذلك بنقاط رئيسة بارزة فيما يلي:

١ ـ الطابع العام لهذه المرحلة هو الحكم الملكي الوراثي، وتعطيل مبدأ الشورى في اختيار الخلفاء والأمراء الذين يتولون أمر الأمة، والموصوف في الحديث النبوي بالملك العاض أو العضوض:

وطليعة هذه المرحلة هي عهد معاوية بن أبي سفيان ﵄، وهي دون عهد الخلفاء الراشدين، وأفضلُ من كل ما جاء بعدها، وهي فيما نحسب المعنيّة بقوله ﷺ: «**ثم يكون ملكاً ورحمة**».

وشواهد التاريخ تدل على خيرية عهد معاوية وما ساد فيه من علوٍّ أمر الإسلام، وسيادة كلمته، وانسياح الفتوحات، وانتشار الأمن والأمان، وشيوع الرحمة ووحدة الكلمة، واستقرار أمور الدولة.. وقد شهد بذلك جِلَّة الصحابة وخيار التابعين وحقائق التاريخ، بالرغم ما أُخِذ عليه من سَنِّ (ولاية العهد) والتي سار عليها من جاء بعده، مع إعذار جمهرة من الباحثين والنقاد له في سلوك ذلك الاجتهاد لضرورات قدَّرها في وقتها ومصلحةٍ راجحةٍ رآها.

٢ ـ وجود التناكر والاختلاف في صفوف الأمة، على مستوى الحكام والأمراء، وأيضاً بين فئات مختلفة من عامة المسلمين:

وهو ما يعبر عنه قوله ﷺ في الحديث: («**هدنةٌ على دَخَن**» قلتُ: يا رسول الله! هدنة على دَخَن ما هيَ؟ قال: «**لا ترجعُ قلوبُ أقوام على الذي كانت عليه**»)!.

والذي يتأمل ما جرى من مخالفةِ بعض الصحابة لمعاوية في ولاية العهد، وما حدث أثناء خلافة يزيد بن معاوية، وما جرى بين ابن الزبير وبني مروان إلى أن ظفر عبد الملك بن مروان بالأمر، وحروبَ ابن الأشعث، وقيامَ الدولة العباسية على أنقاض الأمويين حيث فُتِك بهم، وتعاركَ الحكام وأحياناً الإخوة

على كرسي الحكم وتهارشَهم على السلطة الذي استمر عبر هذه المرحلة بطولها في عهد العباسيين والعثمانيين وفي الأندلس وبين الأيوبيين والمماليك والدول الانفصالية عن الخلافة العباسية ـ من يتأمل ذلك كلَّه يعلم مدى التناكر الذي حدث بين المسلمين، حيث لم تَعُد القلوب إلى ما كانت عليه، تماماً كما وصف رسول الله ﷺ.

٣ ـ تولي خلفاء وولاة وأمراء شؤونَ المسلمين الكبرى والصغرى، ينحرفون قليلاً أو كثيراً في مسلكهم الشخصي عن تعاليم الإسلام وهدي النبوة، ولا يَستنُّون بسنَّة رسول الله ﷺ وطريقة الخلفاء الراشدين:

وقد وصفهم النبيّ ﷺ بقوله: «**يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهُداي ولا يستنُّون بسنَّتي**»، «**قوم يستنُّون بغير سُنَّتي، ويهدون بغير هديي، تَعْرِف منهم وتُنكِر**».

تعرِفُ منهم الحكمَ بالإسلام وإقامةَ شعائره وتطبيق شرائعه في الناس، ونصرته ونشره وحمايته، والضربَ على أيدي العابثين بمبادئه من الزنادقة والخوارج والباطنية وغيرهم من أعداء الأمة في الداخل، وكذلك مقارعة أعدائها في الخارج، وإقامةَ الصلوات، وجَمْعَ الزكوات وتوزيعها، وتطبيقَ الحدود، وغير ذلك مما يقوم به الإسلام ودولته.

وتُنْكِر منهم تسلّطَهم على رقاب العباد، وتضييقَ الحريات، وتولية غير الأكفاء، والتعزّزَ بالأنساب، وتقريبَ المتزلفين والموالين، والسَّفهَ في المال العام، وإضعافَ شأن العلماء، والاصطراعَ على منابر الحكم كبيرها وصغيرها، والتوسّعَ في مناعم الدنيا من الطعام والشراب، وغير ذلك مما يتوجب عليهم الترفع عنه ليكونوا قدوة صالحة في الحكم والإمارة لعامة الأمة.

٤ ـ ومن الملامح البارزة ما اتصف به بعض الخلفاء والأمراء والولاة والوزراء في هذه المرحلة من أنهم يطفئون السنَّة وينصرون البدعة، وأقوالهم أكثر من أفعالهم:

وهذا داخل في عموم قوله ﷺ: «**فيه دخن**» «**لا يهتدون بُهداي، ولا يستنون بسنتي**» «**يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**».

ويوضّح ذلك قول النبي ﷺ في حديث آخر: «**إنه سيَلِي أمرَكُم من بَعْدي رجالٌ يُطْفِئون السنَّة، ويُحْدِثون بدعةً، ويؤخّرون الصلاة عن مواقيتها**»(١).

وقوله ﷺ: «**وسيكون من بعدهم خلفاءُ يَعْمَلون ما لا يَعْلَمون، ويَفْعَلون ما لا يُؤْمَرون؛ فمن أَنْكَر بَرِئَ، ومن أَمْسَكَ سَلِمَ، ولكنْ من رَضِيَ وتابَعَ**»(٢).

وهذا الصنف من المسؤولين يقلُّون حيناً ويكْثُرون حيناً آخر، وقد كانوا في العهد الأموي قلَّة، وكثرت أعدادهم في العهود المتأخِّرة مع تراخي الاعتزاز بالإسلام ونصرة دولته، والركون إلى الدنيا والحرص على حلاوة السلطة.

ومن الأمثلة الصارخة في هذا ما حدث في بعض أزمان الأمويين من تأخير الصلاة عن مواقيتها، وتقديم الخطبة على الصلاة في العيد، وفي أيام العباسيين فتنة (القولِ بخلق القرآن) في عهد المأمون، وضَعْفُ شأن المسلمين في الأندلس في عهد ملوك الطوائف لاصطراعهم على المُلك وتآمر بعضهم مع النصارى ضد إخوانهم في الدين، والبدع التي نشرتْها الدولة العُبيدية (المشهورة بالفاطمية)، والعبث بمصالح المسلمين ودينهم ودولتهم في أوقات متعددة أيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وتزيين المساجد بالذهب الخالص مما هو مخالف لهدي الإسلام والنبي ﷺ.

وفي أزمنة غير قليلة من هذه المرحلة الممتدة طولاً تولى أمور المسلمين كبيرها وصغيرها أناسٌ لا ترشحهم خلالهم وإمكاناتهم لتلك المناصب، فظُلِمت منابر الحكم حيث وليها من يعجز عن أمانتها، وتدنَّت خلائقُهم عن مكانتها، فكَثُرت أقوالهم وقلَّتْ أفعالهم، لضعف كفاءتهم وانحطاط عزائمهم، وشَرَهِ أنفسهم لشهوة السلطة.

والمتتبع لتاريخ تلك المرحلة الطويلة سيجد الكثير من أولئك البطَّالين الذين

(١) انظر الحديث وبيان مدلوله: ٢/ ٣٥٢، نبوءة (٧٧) (في هذا المجلد).
(٢) انظر الحديث وبيان مدلوله: ٢/ ٣٨٤، نبوءة (٨١) (في هذا المجلد).

تلهَّوا بالصيد والاستجمام وملاعبة الحيوانات والإكثار من متع النساء والطعام والشراب والأبهة الفارغة، وغفلوا عن الأعمال الكبيرة والأمور العظام التي تفرضها عليهم مكانتهم وواجباتهم تجاه الأمة.

ومن (الدخن) الذي شابَ هذه المرحلة ولطّخ تاريخها بأعمال سيئة وترك فيها بصمات حالكة منكرة:

ـ الخروجات والخروقات على سلطان الدولة من قِبَل الطامحين للحكم، وما ترتَّب على ذلك من إزهاق أرواح وسفك دماء وتبديد طاقات.

ـ الوهن في الحكم الذي مهَّد للأعداء بأن يحققوا أطماعهم، ويكسروا شوكة الأمة الإسلامية، فغزاها الصليبيون والتتار.

ـ البدع والأهواء كالجهمية والمعطِّلة والمعتزلة، والراوندية التي تقول بتناسخ الأرواح وتُزري على القرآن وعلى النبوات.

ـ وقيام المذاهب والحركات الهدامة كالقرامطة والزَّنْج والإسماعيلية.

٥ ـ ضعف أمر الشورى في رأس السلطة وفروع الحكم:

وهذا طابع عام غلب على كثير من خلفاء وحكام وملوك تلك المرحلة، وهو منبثق عن طبيعة الحكم الملكي الوراثي، وانعكس ذلك على مؤسسات الحكم المختلفة في الولايات والوزارات والمناصب الكبيرة والصغيرة.. وهو مرض استحكم في أمتنا طويلاً، ويعتبر من المعاصي السياسية المهلِكة، والتي دفعت الأمة ثمنَها باهظاً في الأنفس والأموال والبلدان التي كانت تسوسها دولتها!.

وإن الزعم بأن الشورى غيرُ مُلْزِمة وأن صاحبَ السلطة لا تحكُمه الشورى شيء سخيف جدّاً، وهو من تكبير الأقزام، وخلق وثنية سياسية تراغم الدين والدنيا[١]، وأَعْمَتْ ذوي السلطان عن الآراء الحرة والنصائح المخلصة والجهود المشفِقة؛ فَهَوتِ الأمة من حالق.

---

(١) انظر: جهاد الدعوة، ص١٣٣.

وأدى ذلك إلى لون مظلم من الاستبداد السياسي حَكَم بلادنا الإسلامية في أزمنة شتى! فأحقِّيّة الرجل بالخلافة العظمى أو بما دونها من مناصب ومسؤوليات في الدولة؛ يجب أن تكون منوطةً بما حكاه القرآن على لسان ابنة الرجل الصالح: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، حيث يجمع بين القدرتين العلمية والخلقية؛ فالمنصب منوط بالخُلق السامي والكفاءة المتميزة، لا بما يجري في عروق ذاك المسؤول من دماء عربية أو وطنية أو طائفية أو حزبية أو قربى مزعومة! والانحدار الذي هوت فيه الأمة كان بسبب ما أُتيت به من هذا الباب!.

٦ ـ **الرغبة في الحكم والحرص عليه والاقتتال لأجله:**

ومن السمات البارزة في هذه المرحلة حرصُ الحكام على السلطة وتمسّكُهم بها واستمرارهم فيها، لا يصرفهم عنها سوى الموت الذي قد يأتيهم طبيعيّاً أو بمصارعة الطامحين إلى الحكم، أو قد يَفْطِمهم عنها العزل والانقلاب!.

وقد ساد ذلك في الدول الثلاث الكبرى التي حكمت تلك المدة الزمنية الطويلة، بدءاً من بني أمية ثم بني العباس ثم بني عثمان.. وشمل ذلك أيضاً الدول والحكومات والبيوتات التي ظهرت في ظلها، كملوك الأندلس، وحكام الأيوبيين والمماليك والسلاجقة وسواهم.

وتعاركت البيوتات العربية وغيرها على الإمارة والوزارة والجاه والمال، وتهارشوا على الدنيا والمنصب، فذَبَلَتْ أجهزة الشورى، واضطربت العدالة الاجتماعية، ونُكب المسلمون نكبات كبرى دينية وعلمية وسياسية واقتصادية وفكرية واجتماعية.

وهذا من (الدَّخَن) الذي ذُكر في الحديث، بل هو دخان كثيف أدى إلى انفراط عقد الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية على أشلائها، ثم موت هذه على صورة جريمة انتحار، وقامت الخلافة العثمانية وعُمِّرت طويلاً وحملت أمراض أسلافها وانتهت حياتها بنكبة كبرىٰ فتحت على المسلمين شرّاً مستطيراً.

ونحن مع الشيخ محمد الغزالي؛ حيث يقول: (وعندي أن مصرعَ الخلافة الإسلامية يجب أن يُسجَّل في التاريخ على أنه جريمة انتحار لا جريمة قَتْل، فالمسلمون هم صانعو الهزيمة التي نزلت بهم سواء في هذا القرن أو في القرون الوسطى!)[1].

٧ ـ انتشار الإسلام وهيمنته وقيام حضارة إسلامية كاملة شاهقة:

لكن مع ما سبق من (مُلْك عَضوض) و(دَخَن)، فإن حقائق التاريخ وشواهد الواقع تثبت أن المسلمين رعاة ورعية، حكاماً ومحكومين، قد نشروا الإسلام على رقعة اتسع سلطانها ليمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، وأقاموا حضارة كاملة عملاقة امتزجت فيها العناصر الإقليمية المختلفة والثقافات المتباينة؛ قادت حركة التاريخ أزيدَ من ألف عام، وكانت أجيال المسلمين فيها ـ في أغلب الأزمنة ـ قادرة على المحو والإثبات، تحترم الحقائق، وتعشق الفضائل، وتضع خريطة الدنيا أمام عينيها، وتنظر إليها كما ينظر لاعب الشطرنج في رقعته ينقل أحجارها كيف يشاء!.

وعرف المسلمون بالبداهة أن أمة العقيدة لا يحصرها مكان، وأن إخوان العقيدة لا يحدُّهم جنس، وأن «**المسلم أخو المسلم لا يَخْذُله ولا يُسْلِمُه**»، وأن المسلم إذا استُبيح دمُه على شاطئ المحيط الهادي في الفيليبين يجب أن يتحرك له أخوه على شاطئ الأطلسي في المغرب والسنغال ونيجيريا، وأن المسلمين كما قال نبيّهم ﷺ: «**تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمَّتِهم أدناهم، وهم يدٌ على مَن سواهم**».

٨ ـ قيام الدولة على الإسلام وحده، وهيبة الخلفاء في العالمين:

ومما امتازت به تلك المرحلة أن الإسلام هو محور الدولة وركنها الذي تأوي إليه، وهدفها الذي تسعى لنصرته، ومبدؤها الذي تنطلق منه وتحكم به،

(١) جهاد الدعوة، ص١٣٥.

ومصدر عزها الذي تُنافِر فيه وتجاهد لحمايته ونشره، لا ترضى به بديلاً، ولا تقبل معه شريكاً، ولا تتوانى في الذبِّ عنه ونفي الأباطيل عن نضارته.

يستوي في ذلك خلفاء الإسلام وملوكه وأمراؤه الكبار والصغار، الأقوياء والضعفاء، المتقدّمون والمتأخّرون؛ فما عَلِمَ أحدٌ ولا نقلَ مؤرِّخ أن حكام المسلمين في تلك الحقبة الطويلة داهنوا في هذه الحقيقة أو تماروا فيها أو قبلوا بالنَّيْل منها! بل إنهم طاردوا الزنادقة والخوارج والباطنية والمارقين ودعاة الانحلال والتحريف والأهواء الزائغة ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.. وساعدهم في ذلك رجال كبار، وعلماء أجلَّاء، وقضاة فضلاء، وشعوب حية غيورة.

وهذا معنى قوله ﷺ: «**خير فيه دَخَن**».

(إن أولئك الرؤساء الذين سَمّوا أنفسَهم أمراءَ المؤمنين، والذين أحبوا أن يشرِّفوها بصفة الخلافة عن الرسول ﷺ، كانت جمهرتُهم بين قوي في خدمة الإسلام، أو مقتصد، أو كليلِ الذهنِ واليدِ.. لكن يستحيلُ أن يعطِّل أحدُهم حدّاً أو قصاصاً، أو يجحدَ فريضة، أو يستهينَ بشَعيرة.

الإسلامُ في أيامهم دينُ الفرد والمجتمع والدولة.

إن أُسَرَ الخلفاء أو الملوك الذين وقعت بين أيديهم دَفَّة الحكم في العالم الإسلامي طيلةَ عشرة قرون؛ لم يفهموا الحكمَ إلا أداةً لخدمة الإسلام.. أولئك كلُّهم جعلوا السلطة المتاحة لهم وسِيلةً لحمايةِ الإسلام وإنفاذِ شرائعه)[١].

٩ ـ ضخامة المواريث الفكرية والفقهية:

وهذا أمر لا يخفى عن العيان، فإن الثروة الفقهية في الإسلام بحر متلاطم الأمواج، وكفاح الأئمة في أصول التشريع وفروعه جهد لا نظير له في الحضارات الأخرى.

وما أنتجتْه العبقرية الإسلامية في علوم الدين والدنيا موفور بين أيدي

---

(١) معركة المصحف، ص٤٩ ـ ٥٠، مقتطفات.

الناس، مذخور في ضمائرهم، مسطور في مكاتبهم العامة والخاصة المنشورة والمخطوطة، وهو شيء كبير ضخم لا يحتاج إلى إقامة برهان أو مزيد بيان.

١٠ ـ الخلافة الإسلامية هي الجامعة الكبرى للمسلمين:

كذلك يعتبر وجود الخلافة الإسلامية المتعاقبة على امتداد هذه المرحلة من الملامح الكبرى فيها، وتعتبر عقد الأمة الكبيرة على الصعيد العالمي، والجامعة التي تجمع شمل المسلمين، وتلمُّ شَعَثَهم وتربطهم ببعضهم، وتشدّهم إلى أركان وحدتهم، بالرغم مما اعتور هذا الجسمَ الكبير من أخطاء، وما أصابه من شظايا وهَنَات، وما وقع فيه بعض الخلفاء والأمراء من منكرات وخطايا صغيرة أو كبيرة على تراخي الزمان.

فكان كلما جاء عهد ضعيف يغفل فيه الخليفة عن رسالته الكبرى، سرعان ما تستفيق الأمة وتنهض من كبوتها، ويتصدى للأمر أُناس أشداء أُمناء يصحِّحون المسيرة، ويقودون الدولة ويعيدون سلطانها إلى صدر الأحداث.

وربما لم يكن بعض الخلفاء موضع احترام، لكن الخلافة نفسها شعار لا بدَّ من رفعه؛ لأنه رمز إلى دين[١].

ولقد كان القرنان الهجريان السادس والسابع مسرحاً لزلازل وبراكين هَدَّت كيان الأمة وأمكنت الصليبيين والوثنيين من إهلاك الحرث والنسل، ومن تخطاه الموت هامَ على وجهه لا يجد مأوى له.

وكان الشعور العام أن الإسلام يجب أن يزول، وأن أمته يجب أن تختفي، لكن المسلمين ثبتوا على إسلامهم ولم يرتدَّ أحدٌ عن دينه برغم قسوة الهجوم وعنفه! وقفز إلى واجهة الأحداث الزنكيون والأيوبيون والمماليك وكسروا الصليبيين وهزموا التتار الوثنيين.

ولمَّا ولَّى القرن السابع الهجري وجاء القرن الثامن، كان العنصر العربي

(١) جهاد الدعوة، ص٨٢.

يتراجع عن أماكن القيادة، وكان العثمانيون يأخذون الطريق إلى الأمام.. ورَحَّب جمهور المسلمين بدولة العثمانيين وتلقُّفِهم لراية الخلافة الساقطة، وتبعوها وهي تقتصُّ من دولة الروم الشرقية، وتستعد للزحف على أوروبة كلها[١].

والمسلمون الترك تعقَّبوا الأوروبيين في أقطارهم الأولى، حتى بلغوا أسوار (فيينا) عاصمة النمسا، ومكثوا يقاتلون الأوروبيين نحوَ خمسة قرون.

من أجل ذلك لا تنتهي ضغائن الأوروبيين على محمد ﷺ ودينه، بل هم يفقدون اعتدالهم الفكري والنزاهة النفسية عندما يتحدثون عن الإسلام[٢].

وإن جمهور الأتراك يحترم دينَه، ويخضع لسلطته عن طواعية، وقد ضَحَّى هذا الشعب المؤمن كثيراً طوال خمسة قرون في سبيل العقيدة التي ارتضاها.. غير أن تضحياته الجَمَّة ضَيَّعَها فسادُ الحكام المتأخّرين وسَفَهُهم وعوجُ السياسة التي رسموها لأنفسهم وأمتهم وتحكُّم الصدور في مقاليد الأمور؛ مما أضعف سلطان الخلافة وهزَّ أركانها وأزال هيبتها.

وكان في المقابل الأعداء والمتربصون، فتعاوَنَ الغرب الصليبي والكيد اليهودي مع جمعية الاتحاد والترقي وهُدمت الخلافة على يدي الرجل الصنم مصطفى كمال أتاتورك[٣].

وتساؤلُ بعضِ المفكّرين والساسة والقوميين: لماذا رضي العرب بالخلافة العثمانية؟ هو انسياقٌ مع التعصب العربي وليس اطِّراداً مع الفكر الإسلامي! والذي ننبِّه إليه أن الذي يقود الأمة الإسلامية يجب أن يكون مستعرِباً، أي متحدِّثاً بلغة العرب قديراً على فهم الكتاب والسنَّة.. ليكن جنس الحاكم هنديّاً

---

(١) انظر: جهاد الدعوة، ص٨١ ـ ٨٢، مقتطفات بتصرف.

(٢) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٩٣.

(٣) انظر: الضربات، للجندي، ص٢٢٢ ـ ٢٢٦: كفاح دين، ص١١٦ ـ ١٢٥.

أو زنجياً أو تركيّاً، المهم أن يكون راسخَ القدم في الثقافة الإسلامية، فالعربيةُ لغة الوحي، ولغة العبادة، ولغة القيادة بداهة[١].

وطرحُ مثلِ هذا السؤال يبرِّر قولَ الإسبان عن الفتح الإسلامي: إنه استعمار عربي، وقولَ بعض ورثة الفراعنة عن الفتح الإسلامي لمصر: إنه غزو، والعرب طارئون على مصر العروبة والإسلام! وقل مثل ذلك عن الفرس والهنود والبرابرة والأكراد وغيرهم.

لقد كانت خسارة المسلمين والعرب بسقوط الخلافة كبيرة فادحة!.

وحسبك أن العثمانيين حملوا راية الإسلام عدة قرون، وقارعوا أوروبة الصليبية وردُّوا عاديتها عن ديار المسلمين، وزرعوا الإسلام في قلبها، وأخَّروا الاستعمار الأوروبي للعالم العربي والإسلامي أربعة قرون.

وعندما سقطت الخلافة العثمانية، وخانَها بعض العربِ بالوقوف مع الحلفاء، وقعت البلاد العربية فريسة الاحتلال الأوروبي الذي تقاسمها كمناطق نفوذ[٢]!.

وبسقوط الخلافة العثمانية تنتهي المرحلة التاريخية الخامسة التي أشار الحديث إليها، مرحلة (المُلك العَضُوض).



المرحلة السادسة

الحكم الجبري

بعد سقوط الخلافة العثمانية على يد الكماليين وبمؤازرة اليهودية والصليبية؛ غربتْ شمسُ الخلافة التي كانت تمثل الوحدة الكبرى للمسلمين وتجمع شملهم، وتشكل مظلَّة وارفة لأمنهم وحمايتهم والذَّود عن دينهم وأرضهم، على ما اعتراها من خروقات، وما أصابها من خطايا ونكبات.

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٣٤.

(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٦٨ ـ ١٦٩.

وكان إسقاطها جريمة لا نظير لها، لِما أُضِير المسلمون به من ذهاب ريحهم، وضياع مُلْكهم، وتشتُّتِ شملهم، ووقوعهم فريسة للأعداء في الشرق والغرب، وكان نصيب العالم العربي من رزء المصيبة جليلاً مضنياً دامياً، حيث قَلَب الحلفاء الأوروبيون لهم ظهرَ المِجَنِّ، وكان مَثَلُهم كما قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦]، بل كان عدوهم (الحلفاء) أسوأ مثلاً من الشيطان الرجيم؛ فلقد هجمت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وسواها على الوطن العربي والإسلامي الكبير واقتسمَتْه فيما بينها غنيمة باردة! وبقيت تلك الدول فيه رَدَحاً من الزمان، فأهلكت الحرث والنسل، وانتهبت خيراته، وأذلَّت أهله، وأَنزلَتْ فيه الفقر والجوع والجهل والمَسْغَبة، وما خرجَتْ منه إلا بعد أن تركت عملاءها وصنائعها، الذين تولوا مناصب الحكم، ولَقَوا من أعداء الأمة العون والتأييد، وحكموا البلاد بالحديد والنار، وبطشوا بالمعارضين والأحرار، وحكموا بغير ما أنزل الله، وساموا قومهم سوء العذاب، وقادوهم إلى مؤخَّر ركب الأمم، ومثَّلوا في أزمنة حكمهم أردأ مراحل التراجع الحضاري للعرب والمسلمين[١].

أولاً: وصف هذه المرحلة كما جاء في الأحاديث النبوية:

جاء في حديث (الخير والشر) قول حذيفة: (قلت: فهل بعد ذلك الخير من شَرٍّ؟ قال: «**نعم، دعاةٌ على أبوابِ جهنَّم، مَنْ أجابَهُم إليها قَذَفُوه فيها**» قلت: يا رسول الله! صِفْهم لنا، قال: «**هم من جِلْدَتنا، ويتكلَّمون بأَلْسِنَتِنا**»).

وفي رواية: (فهل وراء ذلك الخيرِ شرٌّ؟ قال: «**نعم**» قلتُ: كيفَ؟ قال: «**يكونَ بَعْدي أئمةٌ لا يَهْتَدون بِهُداي، ولا يَستنّون بسُنَّتي، وسيقومُ فيهم رجالٌ قلوبُهم قلوبُ الشياطين في جُثْمانِ إنسٍ**»).

وفي رواية أخرى: (قلت: يارسولَ الله! هل بعد هذا الخيرِ شَرٌّ؟ قال: «**فتنةٌ عَمْياءُ صَمَّاءُ، عليها دعاةٌ على أبوابِ النار**»).

(١) انظر: الضربات، للجندي، ص١٩٨ ـ ٢٠١.

وفي حديث (النبوة والخلافة): «**ثم تكون مُلْكاً جَبْرِيَّة، فتكونُ ما شاءَ الله أن تكون، ثم يرفَعُها إذا شاء أن يرفَعَها**».

وفي حديث ابن عباس: «**ثم يَتَكَادَمُون عليه** ـ الحكم ـ **تكادُمَ الحُمُر**».

وخلاصة هذا البيان النبوي الجليل الدقيق المختصر تبيِّن السماتِ الكبرى لهذه المرحلة، وهي:

١ ـ الحكم الجبري الاستبدادي القائم على القهر والجبروت ووأد الحريات.

٢ ـ قيام الحكومات في الأمة العربية والإسلامية على غير هدي القرآن والسنَّة، وعملها بمذاهب لا دينية شتى.

٣ ـ اصطراع الطامحين على الحكم واقتتالهم عليه وتسلّطهم على رقاب العباد.

٤ ـ كثرة المذاهب الهدّامة والمنحرفة عن هدي الإسلام متمثلة بدعاة الإلحاد والزندقة والانحلال والفجور، وتذويب شخصية الأمة واغتيال هويتها وإلحاقها بركاب الشرق والغرب، ومناوأة كل حركة ودعوة تسعى لإعادة الأمة إلى دينها وهويتها وحضارتها، وهم المعبَّر عنهم بقوله ﷺ: «**دعاة على أبواب جهنم**».

ثانياً: السمات العامة والمميزات الرئيسة والملامح الكبرى لهذه المرحلة حسب الواقع التاريخي:

١ ـ سقوط الخلافة وغياب الإمام العام للأمة وتمزّق وحدتها وتعدد كياناتها:

إن أخطر السمات التي اتسمت بها هذه المرحلة، وأعظمَ خَطْب أُصيب به المسلمون؛ هو إسقاط الخلافة الإسلامية، فعليه ترتب كثير من الجراحات التي مزَّقت جسمَ الأمة وفتكت بكيانها وأَخَّرتْها إلى ساقة الركب.

وقد وصف أحمد شوقي ذلك الرُّزْء والنكبة الكبرى التي حلَّت بالمسلمين، بقوله يرثي الخلافة:

ضَجَّتْ عليكِ مآذِنٌ ومنابرٌ ... وبَكَتْ عليكِ ممالكٌ ونَوَاحِ
فالهندُ والهةٌ ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليكِ بمَدْمَعٍ سَحَّاحِ
والشامُ تسألُ والعراقُ وفارسٌ ... أَمَحَا من الأرضِ الخلافةَ ماحِ؟
وأتَتْ لكِ الجَمْعُ الجَلَائلُ مَأْتَماً ... فَقَعدْنَ فيه مقاعدَ الأَنْواحِ
يا لَلرِّجَالِ لحرَّةٍ مَوْءُودَةٍ ... قُتِلَتْ بغيرِ جريرةٍ وجُنَاحِ
هَتَكُوا بأيديهِمْ مُلَاءَةَ فَخْرِهِم ... مُوْشِيَّةً بمَوَاهبِ الفتّاحِ
نَزَعوا عن الأعناقِ خيرَ قِلادةٍ ... ونَضَوْا عن الأعناقِ خيرَ وِشاحِ[1]

فبعد إسقاط الخلافة العثمانية غربت عن بلاد المسلمين شمسُ وحدتهم، وانفصَمَتِ الرابطة الكبرى والجامعة الأم التي كانت تشدّ أواصرهم وتجمع قلوبهم وتوحّد صفوفهم في السراء والضراء، وتوارى الخليفة الإمام الذي كان رمزاً لوحدة المسلمين ومصدراً لقوتهم واجتماع كلمتهم واتحاد هدفهم وغايتهم وآمالهم وطموحاتهم؛ فالخلافة الكبرى ولو ضَعُفت ووهَنَتْ قواها هي شعار لابد من الاستمرار برفعه لأنه رمز كبير للإسلام.

وفي تقرير سري رفعه لورنس إلى المخابرات البريطانية ـ في كانون الثاني/ يناير (١٩١٦م) ـ يقول: (إن أهدافنا الرئيسةَ هي تفتيتُ الوحدة الإسلامية، ودحرُ الإمبراطورية العثمانية وتدميرها، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب ـ وهم الأقل وعياً للاستقرار من الأتراك ـ فسيبقون في دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك، إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحّدة ضد أي قوة خارجية)[2].

---

(١) انظر: ديوان شوقي.

(٢) الضربات، للجندي، ص٢٠٢.

وتمخَّض عن هدم الخلافة تمزقُ كيان الدولة الكبرى والأمة الواحدة، وسقطت سورية ولبنان والجزائر والمغرب في منطقة النفوذ الفرنسي، وسقطت مصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين في قبضة النفوذ البريطاني، وبعد أن نالت تلك الدول (الاستقلال)، نشأت منها دويلات متفرقة متنازعة، ورسخت فيما بينها حدود مصطنعة زادت من هوة الخلاف والفرقة! وأقيمت لتلك الدويلات حكومات ضعيفة تعددت ولاءاتها للأجنبي، وهيمنت عليها نظم سياسية غربية أو مستوحاة من الغرب، ورفعت أسماء مختلفة كالجمهورية والملكية والإمارة والسلطنة، وتعمقت الخلافات فيما بينها فازداد تناكرها وتنافرها، فانعكس كل ذلك على الشعوب العربية والإسلامية، وتنامى بينها الانتماء والولاء للأرض أو الجنس أو الرئيس أو العشيرة أو التبعية للمعسكر الغربي أو الشرقي!.

(وتمَّ تقسيمُ المسلمين إلى شعوب شتى، ينتمي كل منها إلى أرضه وجنسه، ويكون ولاؤه لقوميته الجديدة، وبهذا تنتهي الأخوة الإسلامية الجامعة، ويحيا كل قبيل داخل الحدود السياسية التي رُسمت له، ويشتغل بتاريخه ومصالحه عن تاريخ الإسلام ورسالاته العليا، ويحلُّ نداء: أيها المواطنون، مكانَ النداء القديم: أيها المسلمون!)(١).

٢ ـ نشأت حكومات استبدادية دكتاتورية:

وهذه الحكومات سيطرت على مقاليد الحكم بالحديد والنار، وألغَتْ حرية شعوبها، وكبحت إراداتهم، وأَوصدت منابر التعبير الحرة في وجوههم، وفَرضت مذاهبها ومبادئها واتجاهاتها بالسوط والعصا والرصاصة والدبابة، وجيَّشت جيوشاً من (رجال الأمن) للسهر على حمايتها وإيقاع الأذى بكل من يخالف نهجها أو يثور ضدها.

فزاد ذلك من وهن الأمة ووهاءِ قواها وسوءِ حالها وتقهقرِها الحضاري

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٠٩ ـ ١١٠.

والأدبي والخلقي والعلمي، حيث ترعرعت في هذه البيئة الوبيئة أجيالٌ من ضعاف النفوس ومرضى القلوب وخِفاف العقول والمنافقين أتباع كل ناعق علا صوتُه وقوي نابُه واشتدّ مخلبُه، وعَمَّ ذلك البلاءُ بلادَ العرب والمسلمين في المشارق والمغارب.

وأعان على تكريس هذا الواقع العدو الخارجي المتربص، فتنوعت وسائله بين الرغبة والرهبة، فقد تُفتح الكنوز لبعض الخونة، وقد يُساق الموت سوقاً إلى بعض الباقين على عقائدهم، وكثيراً ما وقعت بين الشعوب مجازر هائلة وراء أسوار من الصمت المُطبِق!.

وأمثلة الصَّلَف المستكبر، والاستبداد الغشوم، والبطش الظلوم؛ أوضح من أن تشرح، وهي بارزة معروفة في المشرق والمغرب الإسلاميَّيْن.

٣ ـ تداعي الأمم على المسلمين وبلادهم وخيراتهم:

ونجم عن العاملَيْن السابقَيْن أن ضَعُفت الأمة وخارت قواها، وانكفأت الشعوب على أنفسها، ورجعت القهقرى على صعيد الدنيا والآخرة، فرضيت بالزرع والضَّرع، ولجأت إلى الزوايا والتكايا، وغزا قلوبَ أبنائها فكرُ الهزيمة، وقعدت عن البناء والجهاد والصناعة واختراق الآفاق في الأنفس والأرض والسماء، وأمست عالةً على غيرها حتى في لقمة عيشها وآلات البناء التي ترفع فيها بنيان مساجدها أو الجهاز الذي تنادي به لأداء صلواتها، هذا فضلاً عن مناهج التربية والتعليم والإعلام والصحة وسُبُل التجارة والتسليح وبناء الجيوش التي تنافح عن دينها وعرضها وأرضها، وارتهنت مصيرها بأيدي حكامها الضعاف وأعدائها الأقوياء!.

فتداعت الأمم عليها، واجتاحت ديارها، وقطَّعت أوصالها، وبَتَرت أجزاء عزيزة منها، وكان من بواكير تلك الأفاعيل اغتصاب فلسطين، ثم أراضي شاسعة من سورية والأردن ومصر، هذا فضلاً عما حدث للمسلمين في إفريقية، وشبه القارة الهندية، والجمهوريات الإسلامية في (الاتحاد السوفييتي سابقاً)، ومنطقة

البلقان، ثم الآن في العراق وما جرى له أبشع من محنة فلسطين، والمخطط جادّ بحقدٍ دفين لإتمام أهدافه في السودان والصومال وأفغانستان والشيشان وكشمير وغيرها من بلاد المسلمين.

ووقع ما قاله ﷺ: «**يوشِك الأممُ أن تَدَاعى عليكم كما تداعى الأَكَلةُ إلى قصعتها**»[1].

٤ ـ قيام حكومات من جلدتنا انسلخت عن ضمير الأمة وخدمت أعداءها:

فقد نشأ في المئة السنة المنصرفة صِنفٌ من الحكام جاحدٌ للإسلام، ناقمٌ على أصوله وفروعه، ضائقٌ بالداعين إليه، كارهٌ للشرائع والشعائر التي يقوم عليها ويدعو إليها!.

وهذا الصنف من الحكام امتدادٌ داخلي للاستعمار الخارجي، وهو شاء أو لم يشأ منفِّذ بالغُ السوء لأهداف الصهيونية والصليبية، وإن زعم أنه يخدم العروبة ويجدِّد حياتها، فالواقع أنه صانع أكفانها وهادم كيانها.. والعالم الإسلامي بين المحيطَيْن مبتلى بأمثال هؤلاء!.

وإذا كنَّا لا نستغرب وجودَ هؤلاء في القديم والحديث، فإننا نستغرب إظهار هؤلاء للإسلام، ومكرهم بأمته، وانخداع الغافلين بهم، حتى أوقعوا الدواهي بيومه وغده[2].

إنهم كما قال ﷺ: «**دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها... هم مِنْ جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**».

٥ ـ أُصيبت أجهزة الحكم بأمراض قاتلة عُضَال أَقْصَتِ الإسلامَ عن إدارته:

ونتيجة هيمنة ذلك الصنف من الحكام على منابر الحكم، وهم لا يتصفون بالخصائص الدينية والأخلاقية والعلمية والأدبية التي تكافئ مواقعهم الخطيرة؛

---

(١) انظر تفصيل هذه النبوءة: ٣/ ٣٢٤، رقم (١٠٨) في هذا الكتاب.

(٢) جهاد الدعوة، ص١١٤.

تصدَّعَ البنيان السياسي في الأمة، وأُصيبت أجهزة الحكم بزلزال مدمِّر نشر العيوب القاتلة في مساراته العامة ومفاصله الحيوية.

فقلّما يوجد في منصب كبير رجل يناسبه، وإن أوصافاً مادية ونفسية معينة هي التي تجعل أقزاماً يحرّكون الجماهير ويمثّلونهم محليّاً وعالميّاً. ويغلب أن يظفر أصحاب الشهوات المنتصرة بهذه القيادات، أما المبدأ الإسلامي الذي أعلنه النبيُّ ﷺ: «**إنَّا واللهِ لا نُولِّي على هذا العمل أحداً سأَلَه، ولا أحداً حَرَص عليه**»[(١)]؛ فقد تلاشى واختفى، وتولى الأمورَ مَنْ يُشبع بها نَهْمَتَه ويدعم بها سطوَتَه.

وفشتِ الرشوة وضروبُ الاستغلال الآثم، وأمسى التطلع إلى زيادات فوق الرواتب المقررة خُلُقاً عاماً! وكثرت الوظائف وصار لجهازها ضجيجٌ هائل، وقلَّ نتاجها، حتى ضعفت الثقة بها في كل ميدان، وصار العمل الحكومي مضربَ المثل في الاسترخاء والفوضى.

والذي ينصُّ عليه القرآن ويطلبه المسلمون أن يرتبط المجتمع كلّه بالإسلام من قمَّتِه إلى سَفْحِه، وأن يتحاكم إليه فيما دَقَّ وجلَّ من أمره! والمسلم يرفض رفضاً قاطعاً ذاك الانتماء إلى الإسلام بالأسماء والمواطن، والخروج عليه بالأفعال والوجهة... إن الرجل الذي جعل ولاءه للشيطان لا ينبغي أن ينتسب إلى السماء.

٦ ـ تهوين أمر الشعائر وتعطيل الشرائع:

وفي ظل حكومات علمانية لا دينية تستبدُّ بحكم قطاع عريض من الأمة العربية والإسلامية، عملت في صخب شديد، ودعاية لا تفتر بالليل والنهار، وسعيٍ حثيثٍ من أتباعها في الداخل وأعوانها في الخارج؛ على ترويج مبادئها وفرضِ مناهجها، وإضعاف روح الإسلام في الشعوب، ودأبت على تهوين أمر

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٩) وغيره، وانظر الحديث وتخريجه ومدلوله: ٢/٢٩٩، نبوءة (٧٠) (في هذا المجلد).

العبادات وعلى رأسها الصلاة، بل إن حكومات غير قليلة اعتبرت من يلازم الصلوات الخمس في المساجد موضع شبهة ومصدر خطر، حتى أصبحت بيوت الله تعالى تحت الرقابة في الليل والنهار، مما أدى للصدِّ عنها، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

وهوَّنَتْ كثير من الدول والحكومات من شأن فريضة الصيام، وتركت الفاسقين يمدُّون الموائد للغداء هنا وهناك تحدياً لحرمة الشهر الكريم، واستهانة بأمر الله!.

وشأنُ الزكاة في الإسلام معروف، ونحن نعلم كيف نهضت دولة الخلافة أيام أبي بكر الصديق إلى مقاتلة مانعي الزكاة، وكيف سيّرت الجيوش لمقاتلتهم جنباً إلى جنب مع المرتدين عن الإسلام[(١)].

وأما في عصرنا وفي بلادنا فأمرُ الزكاة منسيٌّ بل موضع شبهة وريبة وتهمة، والهيئات الخيرية التي تجمع الزكوات والصدقات أصبحت مصدر خطر ورافداً للإرهاب، فتمَّتْ ملاحقتُها ومصادرتُها وتوقيف أنشطتها!.

ناهيك عن تطبيق الحدود ورَدْع المجرمين واللصوص وقطاع الطرق ومرويجي الآثام والفواحش، فهؤلاء لا تطالهم يد السلطان.

٧ ـ تهميش العلم الديني والثقافة الإسلامية وترويج الثقافات المستوردة:

كانت ثقافتنا في العصور الأولى تصنع أجيالاً عارمة قادرة على المحوِ والإثبات، تحترم الحقائق وتعشق الفضائل، بَيْدَ أن الثقافة التي آلَتْ إلينا في القرون الأخيرة كانت ضحلة آسِنةً لا في مجال المعرفة الدينية وحدها، بل في المجالات العلمية والأدبية والسياسية وسواها، وأضحت تلك الثقافة أعجز من أن تصنع أمة تنهض برسالتها وتخدم كتاب ربها وسنَّة نبيِّها[(٢)].

---

(١) انظر: معركة المصحف، ص١٥ ـ ١٧.

(٢) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٤٦.

وساد في القرنين الأخيرين في الوطن الإسلامي الكبير اتجاه خطير يسعى حثيثاً إلى إضعاف علوم الإسلام وثقافته ومفاهيمه وآفاقه وشموليته، وتولى ذلك ثلة من الحكام والمسؤولين وكبار المثقفين الذين تربوا على مناهج أوروبية وأمريكية؛ غَرست في قلوبهم وعقولهم أن عقيدة الإسلام وعلومه وتعاليمه وثقافته يجب إبعادها عن المدارس والمعاهد والجامعات ووسائل الإعلام ونحوِها من مؤسسات التوجيه في المجتمع، وأن سلوك فتيان الأمة وشبابها من الذكور والإناث يجب إطلاقه ليبرأ من الكَبْت والعُقد النفسية والتزمُّت في التزام علوم الآباء والأجداد وأفكارهم ومناهجهم! وقُدِّمت علوم الإسلام وعقيدته وثقافته بصورة باهتة هامدة لا حراك فيها لتحيا على هامش المجتمع، وحُوصِرت بين جدران الجامعة والمعهد والمدرسة، وأُوصِدت في وجهها أبوابُ الحياة في المجتمعات والمؤسسات ومنابر التأثير ومراكز التوجيه! وتنكَّرت المؤسسات الرسمية لكليات الشريعة ومعاهدها ومدارسها ومساجدها وخريجيها، وصَدَّت في وجوههم الأبواب، وحِيل بينهم وبين الوظائف في كثير من الأحيان، وفُتِّحت كبراها وصغراها لأبناء التعليم المدني.

وإذا انتقلتَ إلى الناحية الشعبية، رأيتَ الهوة عميقة بينها وبين تلك الثقافة والعلوم، وأضحى أغلبُ القادرين والواجدين وكثيرٌ من العامة يترفعون عن الزجِّ بأبنائهم في تلك الكليات والمعاهد، وأصبح (التعليم الديني) منتجعَ الطبقات الفقيرة أو مَنْ لا يجد فرعاً علميّاً أو إنسانيّاً أو اختصاصاً ما يلتحق به، فينتسب إلى كليات الشريعة!.

كذلك أُضْعِفت المادة العلمية التي تُقدَّم إلى أبنائنا في (حصص التربية الإسلامية)، واقتصرت على محاور معينة لا تعبر عن شمولية الإسلام ومقاصده الكبرى.

وبهذا وذاك تمَّتْ دحرجةُ قداسةِ تلك العلوم إلى قعر الهاوية، وتأخيرُ المتخصصين فيها إلى منازل دراسية أدنى مما يستحقون، بل ربما أُحِيلوا إلى وزارات ومؤسسات أخرى لا علاقة لها بالتعليم البتة!.

وزادتِ الهجمةُ شراسةً على هذا الجانب المهم من ديننا بعد الغزو الأمريكي للمنطقة العربية والإسلامية، وفُرِض علينا تغييرُ المناهج وتجفيف المنابع.

وبناء على ذلك تمَّ حذفُ آيات الجهاد من مناهج الدراسة، وكذلك معارك النبي ﷺ مع اليهود، ودراسة أحوال المسلمين والأقليات الإسلامية المضطهدة في العالم، ومعالم الإسلام الكبرى في الحكم والمال والاقتصاد، ونحو ذلك مما يبني الشخصية الإسلامية المستقلة.. وثمَّة تفكيرٌ جادٌّ لتغيير اسم (مادة التربية الإسلامية) إلى (مادة الأخلاق)!.

هذا في وزارت التربية، أما في منابر أخرى فالأمر أشدّ مرارة: فمساجدنا لا تسمع في خطب الجمعة فيها غالباً إلا كلاماً ميتاً، وتوجيهاً سقيماً، ومواضيعَ تبعث في السامعين روح الاستكانة والرضا بالهوان!.

وفتحت المنابر والمؤسسات والمعاهد والجامعات والمراكز أبوابَها على مصاريعها للعلمانيين والوجوديين والشيوعيين والإباحيين وأصحاب الأهواء ودعاة الانحلال والتحلل من القيم واللحاق بركب الشرق أو الغرب، من مفكرين وكتاب وصحفيين وأساتذة جامعيين ومدرسين ومتكلمين وفنانين وباحثين في شتى وسائل البلاغ والبيان، وخَفَتَ صوتُ الكلام الجيد والتوجيه الحق وخَرِس أو أُخْرِس رجالُه.

٨ ـ الترخيص للكفر والإلحاد والزندقة، والترويج للفسق والفجور والعهر والموبقات، على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري والأخلاقي:

وتوالت على الأمة العربية والإسلامية كوارث شديدة، وعصفت بها أحداث خطيرة، من خارجها ومن داخلها.

فمن خارجها الحملات الدؤوبة والمساعي الحثيثة من الصليبيين الجدد والشيوعيين الحمر، لمحوِ هذه الأمة والبطش بكيانها وإماتة حضارتها.

ومن داخلها تعرضت الأمة لأجيالٍ من الحكام والسادة المفسدين الذين كانوا يعملون على تحطيمها، وهم المسؤولون عن صلاحها.

وكان أكبرُ هَمٍّ للمغيرين من الخارج، وللمفسدين من الداخل، أن يدمِّروا أوّلَ كلِّ شيءٍ المواريثَ التي تحفظ كيان الأمة وتكفل حياتها[١].

وعملوا على ترويج الأفكار الهدّامة، والدعوات الكافرة، ومكَّنوا للأحزاب اللادينية وأقاموا لها المؤسسات والمراكز، وجنَّدوا لها الأجناد، ووطَّؤوا لها المنابر، وأطلَقُوا يدها في أجيال الأمة ومقدراتها، فَغَزتْ ديارَ الإسلام الشيوعيةُ والماركسية والوثنية والعلمانية والفرويدية والإباحية، وأُقْصِي الإسلام وأهلُه ودعاته وأنصاره عن مراكز القرار ومواقع التأثير ومنابر التوجيه.

وفي ظل الحكم الجبري وُطِّئت الأكناف ويُسِّرت كل السُّبُل لترويج العهر والفسق والفجور، وأُعطيت التراخيص لبيوت البغاء وحانات الخمر وصالات الليالي الحمراء والكابريهات، وسعى المفتشون ورجال شرطة الآداب لمنع ما قد يحدث فيها من مخالفة للآداب العامة!.

٩ ـ العدوان على المال العام وتبديده والتخوض فيه:

ومن الملامح الخطيرة لهذه المرحلة من تاريخ أمتنا، انتهابُ القائمين على أمر الأمة لأموالها، واستنزافُهم لخيراتها، وعبثُهم بثرواتها، وتبديدُهم لكنوزها.

ففي الوقت الذي تفجرت فيه ذخائر بلاد العرب والمسلمين، وسالت كنوزها المدفونة، من النفط والغاز الطبيعي والذهب والفوسفات والحديد، وسواها من ثروات هائلة مدخرة في أرضهم، قد منحهم الله إياها وأكرمهم بها وائتمنهم عليها ـ في الوقت نفسه ترى العدوانَ السافر والنكبة الكبرى تحلُّ بهذه الأموال وهاتيك الخيرات وتلك الثروات، وكان يجب إنفاقها في كل وجوه الخير والاستثمار والبناء وتشييد الصناعات والمشاريع الكبرى والبنى التحتية الراسخة التي تكفل لكل من يعيش على هذه الأرض الحياة الكريمة، وتبني له حاضره، وتؤمن للأجيال القادمة مستقبلها.

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة، ص١٥٤.

١٠ ـ تخلّف مادي وحضاري جعل الأمة العربية والإسلامية ساقة ركب الأمم:

وهذه السمة تدمغ كل بلادنا العربية، ولا تفلت من سيئاتها دولة واحدة، وتصنيفُ العرب مع الدول النامية هو من باب التفاؤل، وواقع الحال يدعو للرثاء والبكاء!.

فترى التخلف الحضاري والمادي في جميع المجالات وعلى كافة المستويات، في الصناعة والتجارة والزراعة، والتعليم والثقافة والابتكار والاكتشاف والدراسات العلمية والبحث الأكاديمي والاستراتيجي، ومجالات الخدمات والرفاهية للإنسان، والصحة والغذاء والأمن الاجتماعي والصحي، وعلى مستوى التنظيم الإداري والعمراني والتخطيط للحاضر والمستقبل، وفي مجال بناء الجيوش والتسليح وحماية البلدان والأوطان، وخطط التنمية البشرية والعلمية والفكرية والاجتماعية ومحاربة الأمية والفقر والمرض.

بل إن الأمة العربية التي تزخر بالأراضي الخصبة والمسطحات المائية والثروات الظاهرة والخفية؛ تعتمد على الغرب والشرق في لقمة العيش ورغيف الخبز، وإنه لمن العار أن تجد ظاهرة الأمن الغذائي في وطننا العربي في تراجع مستمر، وحاجتنا لواردات القمح مثلاً تزداد مع مرِّ السنين، وفشلت الحكومات على مدى نصف قرن حتى في تأمين الغذاء للشعوب.

فكيف ينتظر من أمة جائعة أن تبني مجداً وتشيد حضارة؟!.

وثمة ملامح بارزة وسمات عامة لهذه المرحلة، يدركها القارئ الألمعي والمطلع المثقف والباحث النزيه، وكل غيور على أمته ودينه، وحسبي أن أشرت إلى أجلِّها وأخطرها فيما أرى، وأختم بالمعلمة الحادية عشرة المميزة لهذه الحقبة، والتي تضيف أبعاداً جديدة لملامح هذه الدورة الحضارية لأمتنا.

١١ ـ دعاة على أبواب جهنم:

وهؤلاء جاء ذِكرهم في حديث (الخير والشر): «**دعاةٌ على أبواب جهنَّم**،

مَن أجابهم إليها قذفوه فيها»، قال حذيفة: يا رسول الله! صِفْهم لنا، قال: «**هم من جِلْدَتِنا، ويتكلّمون بألسنَتِنا**».

وفي رواية أخرى: «**يكون بعدي أئمة لا يَهْتَدون بِهُداي ولا يَستنُّون بِسُنَّتي، وسيقوم فيهم رجالٌ قلوبُهم قلوبُ الشياطين في جُثْمَانِ إنسٍ!**».

ووصفَتْهم رواية أخرى بأنهم: «**دعاة الضلالة**».

وقوله ﷺ: «**من جِلْدتنا**» تفيد شدة القُرب والالتصاق والملازمة، وقد يكون الواحد منهم أباً أو ابناً أو أخاً أو جاراً أو صديقاً، فهم معنا يجالسوننا ويؤاكلوننا ويعيشون بيننا، ولا يفارقوننا في ليل ولا نهار، ولا في سفر أو حضر، كما لا يفارق الإنسانَ جلدُه! إنهم من أبناء الأمة ويتكلّمون بلُغَتِها، ويعيشون بين ظهرانيها.

غير أن عقولهم قد تغرَّبت ودانَتْ لأعداء الأمة والغزاة المتربصين بها، وقلوبهم متعلقة بالشرق أو الغرب، قد تنكَّروا لدينهم وقرآنهم ونبيِّهم وحضارتهم وثقافتهم وتاريخهم، وصاروا معاولَ هدمٍ بيد الأعداء، فقلوبهم ـ كما وصفهم النبي ﷺ ـ قلوبُ الشياطين في جُثْمَانِ إنس! منبثّون بيننا في مواقع شتى، قد ذُلِّلت لهم الصعاب، ومُهِّدت أمامهم السبل، وفُتحت لهم الأبواب، واستقبلَتْهم منابرُ التوجيه، وجاهروا بدعوتهم ولم يتناجَوْا بها، وقاموا في كل سبيل: في السياسة والتربية والإعلام والمدارس والجامعات والمراكز والمؤسسات والمنتديات والهيئات وأفواه الطرق؛ يُحْيُون دعوة الشيطان.. ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وأَجْلَبوا على المؤمنين بخَيْلِهم ورَجِلِهم، ومكروا بالليل والنهار، وأعانهم مسؤولون كبار وصغار، وأُغدقت عليهم الأموال، وتلَقَّوا الدعمَ المادي والأدبي، وأصبحتَ تسمع أصواتهم وترى صورهم وتقرأ لهم في كل صفحة وعلى كل شاشة ومن فوق كل منبر! قد احتشدت جيوشهم ليصدوا عن سبيل

الله، ويروِّجوا سُبُلَ الشيطان التي تقود السماعين لهم والواقعين في شباكهم إلى طرق الغواية ومناهل الضلالة التي توصل إلى جهنم، ومن أجابهم إليها قذفوه فيها.

والحديث عنهم غزير المادة واسع المدى متعدد الألوان، ويمكننا الإيماء إلى أصناف منهم:

أ ـ دعاة تفريغ قلوب الأمة من الإيمان وعقولهم من الفكر الإسلامي، وإضعاف الوازع الديني لديهم:

فالغزو الثقافي الأوروبي والدعاة إليه من أبناء أمتنا من أصحاب الفكر والقلم، بذلوا جهودهم حتى يوجدوا شباباً لا إيمانَ له، شباباً لا يعرف الله تعالى فضلاً عن أن يخشاه أو يطلب رضاه.

ويركِّز الغزاةُ وتلامذتُهم من بني جلدتنا ضغطَهم كلَّه على القلوب أولاً، حتى تُفرَّغ من العقيدة، ويخرِّبون كلَّ ما أودع الإسلام في القلوب من تقوى ورعاية.. ويستميتون في تكوين أجيال تضيِّع الصلاة وتتَّبع الشهوات، ويستميتون في تكوين أمة تستثيرها الغرائز الدنيا، وتذهَلُ عن معالي الأمور، وتتّبع سفاسفها.. وعندما يحققون تلك الأمنية يعلمون أنهم قضَوا القضاءَ المُبْرَمَ على الأمة الإسلامية، فما قيمةُ ثقافةٍ لا تعتمد على إيمان، ولا يحصِّنُها خُلُقٌ، ولا يشدُّها مثلٌ أعلى؟!.

والشاب الذي لا عقيدة له يمكن أن يُدفع بالأيدي إلى الأمام، بَيْدَ أنَّه لن يندفع من تلقاءِ نفسه، وهيهاتَ أن يقطع شوطاً أو يَبلغ هدفاً، ومن هنا نرى ألوف التلامذة من المسلمين كُسالى، وكذلك ألوفَ الموظفين، وألوفاً أخرى من هنا وهناك.. إن الاستعمار وصنائعه من دعاة الضلالة قد أحدثوا ثقوباً شتى في صدور الشعوب الإسلامية، تسرَّب منها اليقين، وتسرَّب معه النشاط والإقدام.

إن إضعافَ الوازع الديني في قلوب المسلمين بلاءٌ ذريعُ الفتك بكل ما نحرص على بقائه وصيانته، بل هو أقصر الطرق إلى إفناء أمتنا ماديّاً وأدبيّاً.

إن هؤلاء (الدعاة على أبواب جهنم) يريدون أن يحظروا علينا أن نستمسك بديننا وأن نأخذ أولادنا به، إنهم يعلمون أن المسلم لن يرتدَّ إلى اليهودية ولن يرتد إلى النصرانية، فليترك الإسلام وكفى! وليكن وجوديّاً أو إباحيّاً أو شيوعيّاً أو ما شاء من النِّحَل.. والنتيجة أننا لن نستطيعَ أبداً بناء أمتنا وبعثَ الحياة فيها؛ لأن أسلوب نهضتنا لا بد له من مبدأ قائم وسناد روحي واضح[١].

اقرأ وتدبر ما كتبه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، يقول: (إن الدين الإسلامي يجب أن يُعَلَّم فقط كجزء من التاريخ القومي لا كدين إلٰهي نزل يبيِّن الشرائع للبشر، فالقوانين الدينية لم تعدْ تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام، ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام في صميم الحياة السياسية، أو يُتخذ كمنطلق لتجديد الأمة، فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين!».

وظاهر أن الدكتور طه حسين[٢] كان ترجماناً أميناً لأهداف لم تعد خافية على أحد عندما طالب بإقصاء الإسلام وأخلاقه وأحكامه، وعدم قبوله أساساً تنطلق الأمة منه وتحيا وفق شرائعه وشعائره.

ب ـ دعاة التغريب وتوجيه الأجيال لاستلهام فكر الغرب ومذاهبه ومناهجه وحياته، ونفض الأيدي من دين الأمة وتراثها:

ويشكل هؤلاء فريقاً تنامى دهاقِنتُه وكثر عديدهم وازدادت عدتهم وتنوعت منابرهم، ينظرون إلى ما حققه الغرب في حاضره من تفوق مادي وعلمي وحضاري، ويزيِّنونه لأبناء الأمة، ويدعونهم إلى احتذائه والسير على خطاه، ويدفعونهم إليه دفعاً لا رفق فيه ولا هوادة، ويشجعونهم على الثورة على ماضيهم وتراثهم.. وجدُّوا واجتهدوا ونشطوا لصرف الناس عن دينهم، وإقامة حضارة جديدة تتجاهل تاريخ أربعة عشر قرناً مرت على البلاد الإسلامية!.

---

(١) كفاح دين، ص١٣٢ ـ ١٣٥، مقتطفات.

(٢) انظر كتاب: طه حسين في ميزان الإسلام، للمفكّر المسلم أنور الجندي، لتقف على حقيقة الدور الذي قام به عميد الأدب العربي!.

وهذا التيار التغريبي الناقم على الإسلام ليس ذوباناً فقط في أهواء (الفاتحين!) بل لقد تبيّن أنه ينطوي على خيانات وطنية فزع لها الرجال القوميون أنفسهم فاستيقظوا أخيراً ليُعْلِنوا مقاومتها ويحذِّروا من مغَبَّتها.

أجل فإن الإلحاد ليس كفراً بالله يُرجَأ حسابه إلى ما بعد هذه الحياة، ومن ثم فلا خطر منه على دنيا الناس! كلا، إنه انطلاق جامح عربيد يجب أن يُراقب وأن تُتَّقى أخطاره العاجلة.

وقد مرت سنوات طوال ـ منذ سقط الشرق الإسلامي فريسة الاستعمار الحديث ـ وهذا التيار يقوى ولا يضعف، ويقدِم ولا يُحجِم، ففَدَحت ضراوته وزادت شراهته.

وسقط الستار فجأة عن أفاعيله بالشباب المتعلّم فإذا هو قد فتك بأصول الأخلاق بينهم بعدما خرَّب أفئدتهم من حقائق الإيمان وحرمات الدين.

لقد خرج الاستعمار من بلادنا وترك فيها من صنائعه مَن يقوم بتحقيق أهدافه على أكمل وجه يريده، وإن مما يهوِّن كارثة الجلاء على الإنجليز والفرنسيين وأشباهِهم أنهم يخرجون بأشخاصهم ويتركون خلفهم أولئك الهُجَناء المائلين إليهم والمعجبين أبداً بهم.

ولقد اشتدت وطأة الغزو الثقافي، وأخذت آثاره المرَّة تبدو في الأجيال الجديدة، ورأَيْنا الألوفَ يشبُّون وهم غرباء على البيئة التي نبتوا فيها! إن هذه الناشئة تنكِر دينَها وتاريخها وتقاليدها الفاضلة، وتتجهَّم إذا قيل: إن الإسلام أوصى بكذا وصدَّ عن كذا.

وحَمَلَة الأقلام الملوثة من (الدعاة على أبواب جهنم) يَحْدُون الرَّكْب ليذهبوا به بعيداً.. بعيداً عن الله[1].

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٢٩ ـ ١٣٥، ١٨٩، مقتطفات.

واستمع إلى (السيد فكري أباظة) وهو يعقِّب على مقترحات (مجلس الأمة بمصر) لإقرار مشروع لتحريم الخمر وآخر لفرض الزكاة، يقول:

(الإسلام يجبُ إبعاده عن الدولة، الخمرُ حلال، الزواج نافلة، الزكاة لا تُفرض)!.

ومع ذلك فالسيد (فكري أباظة) مسلم مشهور[١]!.

والدكتور طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة) يخيِّل إليك أن حضارة مصر جزء من حضارة البحر المتوسط، وأن صلتها بالإغريق واللاتين أدنى من صلتها بعرب الجزيرة أو عرب السودان، ثم هو يذهب مع الخديوي (إسماعيل) إلى ضرورة جعل مصر قطعة من أوروبة[٢].

ومثل هؤلاء لا يُؤمَنون على توجيه، ولا يوثَقُ بهم في لونٍ ثقافي، ولا يجوزُ أن نتركَ الأجيالَ المقبلةَ وديعةً بين أيديهم[٣].

ج ـ دعاة العلمانية وإلغاء الشريعة من حياة المسلمين:

يهاجم العلمانيون التطرف الديني في مجتمعاتنا، وحقيقةُ أمرهم أنهم يقصدون الإغارةَ على الدين نفسه، فهجومُهم لم يكن على خطأ فكري لبعض المسلمين، بل كان على الفكر الإسلامي كله أصوله وفروعه، وبتعبير أحدهم:

(لا بد من ضَربِ المرتكزات الأساسية التي تنطلق منها الاتجاهات الدينية، وأهمُّ هذه المرتكزات هو قولُهم: إن هناك نصوصاً ثابتة صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان!).

---

(١) كفاح دين، ص١٦٤.

(٢) ظلام من الغرب، ص٢٣٥.

(٣) كفاح دين، ص١٥ ـ ١٦. وانظر ما كتبناه في هذه الفقرة: الضربات، للجندي، ص٢٤٦ ـ ٢٤٩، ٢٥٤ ـ ٢٥٥؛ حصوننا مهددة من داخلها، ص١٤١ ـ ١٤٥؛ ظلام من الغرب، ص١٢٧ ـ ١٣٠، ١٣٤ ـ ١٣٦، ١٥١، ١٨٩ ـ ١٩٠.

فالحرب المعلَنة إذن هي على ركائز الدين ونصوصه، أي: على الوحي في جميع توجيهاته.

وينفي العلمانيون تهمة الإلحاد عنهم ويقولون: نحن مؤمنون، والإيمان لا يعدو أن يكون علاقة بين الإنسان وربه، تستقرُّ في الضمير وتظهر في الأخلاق.. أما أن تكون للإيمان ظلال في ميدان القانون أو الفنون أو آفاق الحياة المتجددة؛ فذاك ما نُنكِره، إن للدين مجاله الخاص الذي يعمل داخله، ولا ينبغي أن يتجاوزه.

إن طيَّ أعلام الإسلام في ميدان التشريع تمهيدٌ حاسمٌ لطيِّه في ميدان الاعتقاد، وغارات العلمانيين ـ ومن ورائهم سادتهم وراء البحار ـ تُشَنُّ بانتظام على القرآن والسنَّة، على وحدانيةِ الله وشخصِ رسوله ﷺ، على الصلاة والصيام، على شُعَب الإيمان من أدناها إلى أعلاها، على التاريخ الإسلامي طولاً وعرضاً، على اللغة العربية شعراً ونثراً، على كل ما يمتُّ إلى الإسلام من قُرب أو بُعد[(١)].

وفريق آخر من العلمانيين يلتفُّون على ضَرْب الإسلام من جهة أخرى، ويُخادِعون لنَقْل بلادنا إلى الغرب، أو نقل الغرب إلى بلادنا؛ فهل العلمانيون مخلِصون ولو للعروبة؟!.

إن الدكتور طه حسين تحدّث في الإذاعة عن ضرورة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية! وتبعه في (صحيفة الأخبار) الخواجة سلامة موسى الذي أخذ يستهزئ ببعض قواعد التصريف في لغتنا، ويصفُ اللغةَ اللاتينية بأنها لغة العلوم والفنون[(٢)].

د ـ دعاة فصل الدين عن الدولة والحياة:

إن تأمينَ الحريات الإنسانية، وفي مقدمتها الحرية الدينية، لا يتأتّى بفَصْل

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٢١ ـ ١٢٣؛ هموم داعية، ص٩٢ ـ ٩٣.

(٢) ظلام من الغرب، ص٩٢.

الدين عن الدولة على النسق الذي عرفناه في دول الغرب صُغراها وكُبراها، فإن هذا الفصلَ المزعومَ كان أكذوبةً كبرى، وترويجُه في أقطار الشرق الإسلامي خدعةٌ رديئةٌ، لا تغيب دلالتُها عن بصير، وإن اشتغلت بذلك صحفٌ ومجلاتٌ، واحتشد أدباء وكتاب ومفكرون مغرورون أو مأجورون.

إن الإسلامَ أرحبُ الأديان حضارةً، وألينُها عريكةً، وأرحمُها معاملةً، وأَحْنَاها على مخالفٍ وجاهلٍ[١].

ومن الرواد في هذا المَهْيَع الخؤون (مصطفى كمال أتاتورك) الذي كان رأس حربة بيد الصليبية واليهودية ويهود الدونمة في الطعن بالخلافة العثمانية والتآمر القذر على إسقاطها، وإعلان فصل الدين عن الدولة.

إنه ورث تركيا ـ وإن هُزِمت ـ دولةً عظيمةً، يعدُّها العالم في مصافِّ دوله الأولى، فصيَّرها دويلة من التوابع التي تحيا على تسوّل الإعانات وعلى خدمة أغراض القراصنة والمستعمرين[٢]! وهذا ثمنُ الخيانة الكبرى التي سعى إليها بما يُعرف بالعلمانية وفصل الدين عن الدولة.

وكان هذا الوثن قدوة سيئة لفريق عريض انتشر في جسم أمتنا وتناثر في أراضيها كالريح العقيم، وتناصروا على إنفاذ دعوتهم في مختلِف بلادنا العربية والإسلامية، فلم تخلُ منهم دولة ولا مدينة، ويسعَون بكل ما أُتيح لهم من وسائل مادية وأدبية إلى: فصل الدين عن مناهج الدراسة كلها، وفصله عن تقاليد المجتمع، وفصله عن آفاق الحياة النابضة، ثم تركه يَذْوي بعيداً حتى تخمد أنفاسه بين الوحشة والضياع[٣].

والهمُّ الأول لأصحاب هذا التيار: إبعادُ الإسلام عن الحياة العامة،

---

(١) كفاح دين، ص٣٠.
(٢) ظلام من الغرب، ص٧٩.
(٣) المصدر السابق، ص١١٨.

وتجريدُه من سلطة الأمر والنهي، واتهامُه بعدم الصلاحية للبتِّ في شؤون الناس.

وفصلُ الدين عن الدولة خرافةٌ كَنَسية، أما في ديننا فإن أركان الدولة جزءٌ من تعاليم الإسلام، كما يعلمُ ذلك أيُّ دارس للقرآن الكريم والسنَّة المطهرة، وتكليفُ الإسلام أن يتفق مع النصرانية على حذف الدولة من رسالته خيانةٌ لله ورسوله ودينه وأمته.

وإذا كان لأحدٍ أن يعضَّ بَنانَ الندمِ ألفَ مرة على ما صنع بنفسه، فنحن المسلمين الذين نلعق مرارة الحسرة لأنَّا سمحنا للدين أن ينفصل عن الدولة، أو بتعبير أصرح: سمحنا للاستعمار أن يغزونا في عُقْرِ دارنا، فكانت تلك المآسي السود في ديار الإسلام التي لا تزال محتلَّة بالأجانب، أو في الديار التي جَلَوا عنها وبقيتْ آثارهم فيها تحتاج إلى تطهير مُمِضٍّ طويل[1].

إن مسيرة ثلاثة عشر قرناً في أمتنا تهتف بأن الحكم والدولة والإسلام أعضاء متكاملة في جهاز واحد، وتعطيل أحدها يعني تدمير ذلك الجهاز المحكم الدقيق كله.

وفي الوقت الذي تتكاثر فيه وتتنامى جراثيمُ هذا الاتجاه في كياننا الإسلامي، نرى قادة العالم الكبار والمفكرين والمنظِّرين يحرصون على دمج الدين بالحكم، بل اعتباره أسَّ قيامه، فهذا (رونالد ريغان) لمَّا خاضَ حملته الانتخابية في أمريكة رفع الإنجيل قائلاً بالحرف: (إنَّ في هذا الكتاب حلَّ مشاكل البشرية!)، ويستتلي مستر (ريغان) معلِّقاً على مبدأ فَصْل الدين عن الدولة قائلاً: (إنه آنَ الأوان لإلغاء هذا الفصل، وإعادة الدين إلى الدولة)[2].

وفي منطق بني جلدتنا من دعاة العلمانية والحداثة والتطور والحضارة وفصل

---

(١) كفاح دين، ص٣٦ ـ ٣٧.

(٢) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٥٠.

الدين عن الدولة؛ أنه من حقِّ عابد العجل في الهند أن يعلن ديانته ويقيم دولته، ومن حق تابع التوراة في (إسرائيل) أن يقدِّس كتابه وتلمودَه، ومن حق ريغان وبوش وغيرهما أن يَستعصِما بالإنجيل ويَدْعُوَا إلى إلغاء فصل الدين عن الدولة.. أما الإسلام برأي (الدعاة على أبواب جهنم)، فيجب أن تفرَّغ النفوس من توقيره ورعاية حرماته وخضوع أحكام الدولة له!.

هـ ـ دعاة الضلال والزندقة كالوجودية والماركسية والإلحاد والماسونية والقاديانية والبهائية وما والاها:

وهؤلاء يشغلون حيِّزاً كبيراً في حياتنا الفكرية والعلمية والاجتماعية، في الجامعات والمعاهد والمدارس والكتب والصحف والمجلات والندوات ومراكز البحوث والدراسات، وهم أسوةُ من سبق الحديث عنهم، قد أُغدقت عليهم الأموال ويُسِّرت لهم السُّبُل لينفثوا سمومهم في الأمة.

ولنصغِ إلى الرجل الذي يعتبر حُجَّةَ الوجودية في مصر وهو الدكتور (عبد الرحمن بدوي) الأستاذ بجامعة عين شمس، يقول: (الوجودي الحقُّ أعدى أعدائه القانون، إنه الحرية نفسها، فلا معنى للواجب في عالمها، ولا تقييد لمدى انطباقها وانطلاقها، إنه الفعل الدائم أيّاً كان نوعه ونتائجه، فإن معاني الإثم والصواب كلها لا مفهوم لها في هذا الباب.

إننا معاشر الوجوديين لا نريد أن ننساق في أحلام البراءة والبكارة والطهارة، بل نصيح ملء فينا: افعلوا، افعلوا، حتى ولو أدى ذلك إلى الخطأ!)[١].

وأفرز التصورُ اليهودي (الماركسيةَ) التي أَعلنت أنه لا إلـٰه والحياة مادة، ووضعت لذلك نظرية ضخمة شرحت أصولها وحددت أركانها وسارت لبلوغ

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٣١ ـ ١٣٢.

أهدافها، وقامت عليها دول ضخمة، ونشرت سمومها في عالمنا العربي والإسلامي، وأنشأت لها أحزاباً، وقام بأعبائها رجال.

ونشأت فرقة (البهائية) تحت رعاية الاستعمار الروسي والبريطاني واليهودية العالمية، بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين.. ومعظم أفراد هذه الطائفة ينتشرون بإيران، وشراذم منها في العراق وسورية ولبنان وفلسطين.

وكذلك حركة (القاديانية) التي نشأت بتخطيط وعناية الاستعمار البريطاني في شبه القارة الهندية، ومن عقائدها أن الله يصوم ويصلي وينام ويصحو، والنبوة لم تختم بمحمد ﷺ، وكتابهم منزل واسمه (الكتاب المبين)، ويقولون بإلغاء الجهاد والطاعة العمياء للحكومة الإنجليزية.. وينتشرون بالهند وباكستان وقليل منهم في (إسرائيل).

وتنتشر الماسونية (البناؤون الأحرار) في العالم العربي والإسلامي وكل العالم، وجُلُّ أعضائها من الشخصيات المرموقة! وهي منظمة يهودية سرية تهدف إلى سيطرة اليهود على العالم، وتدعو للإلحاد والإباحية والفساد، وتكفر بالله والكتب والرسل وكلّ الغيبيات[١].

وكل هذه الفرق والتيارات والمذاهب التي ذكرناها ينطبق عليها قول النبي ﷺ: «**دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**».

و ـ دعاة حرية العلم والحرية الشخصية والتحرر والحضارة والتقدم والحداثة:

وهي كلمات كبيرة براقة وبريئة، لكن أُسِيء فهمُها وأسيء كذلك استخدامها

---

(١) انظر التعريف بهذه الدعوات الضالة في كتاب: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة.

عن عمد، بقصدِ هدم قلاع الإسلام وتدمير أخلاق الشباب، وتوطئة البلاد للغزو الأجنبي والرذيلة والفسق والفجور والانحلال والضلال.

وهذه العصابة تعلن باسم حرية الرأي أن من حق كل مخلوق أن يَنقض أركان الإسلام، وأن يجادل في البديهيات، وأن يخطئ دون حرج، وألا يَدَع مقرراً جاء من عند الله تعالى إلا ألقى عليه ظلالاً من الريبة كيف شاء.

وباسم حرية العلم والرأي والتقدم تمتلئ صفحات كتبنا وصحفنا ومجلاتنا وغيرها من وسائل الإعلام بالدعوة إلى الخلاعة بل إلى الفسق، كأن حرية الرأي مرادف جديد لحرية الزنى ونشر الانحلال والدياثة والفاحشة.

وباسم الحرية الشخصية أصبح العري تأدُّباً، والمخادعة تسامياً، والمعابثة مجاملة، والتعفف رذيلةً، والتصوُّن خرافة، والخيانة الزوجية صداقة، والطعن على ثوابت الأمة وأخلاقها عقلانية.

كذلك يُبحث باسم التحرر والحداثة: قضية الحجاب وسَتْر الصدر والنحر، والاختلاط، والأدب المكشوف، وزواج المسلمة من غير المسلم، وتشريع المواريث، والعقوبات، والحدود، وغير ذلك من مُحْكَمات الدين.

ويريد أصحاب هذه الدعوة أن تدوخَ الأمة معهم، وأن تنحدر إلى هاويتهم، ثم لا بأس من تسمية هذه الاستجابة الكاملة للصليبية الغربية تحرراً وارتقاءً[1]!.

ويُشْرَع سلاح (حرية الرأي) في وجه الإسلام وحده، دون غيره من الأديان والمذاهب، وضراوةُ هؤلاء بتعاليم القرآن والسنّة تتحوَّل نعومةً وزُلفى عند المساس بغيرها من شرائع الأرض والسماء!.

ز ـ دعاة الاختلاط والانحلال والتهتك وترويج الرذيلة، ومحترفو الفن الهابط والأدب المكشوف:

وهؤلاء فريق كبير من بني جلدتنا وممن يتكلَّمون بألسنتنا، وهم حربٌ على

(١) كفاح دين، ص١٧٢، ٢٥١.

الإسلام وقيمه ومبادئه، وخطر ماحِقٌ على الطهر والعفة والفضيلة، ودعاةٌ على أبواب جهنم يقذفون فيها أتباعهم والسمَّاعين لهم ممن يسقط في حمأة الرذيلة والفسق والمجون والخَنَا والعهر والفن الرديء.

وهم متواجدون في مواقع كثيرة، ولهم أصوات عالية مسموعة، وأقلام سيَّالة، وحناجر لا تملّ، وعمل لا يكلّ في النهار والليل، تسوق الرَّعَاع سوقاً إلى حتفها.

وفي طول بلادنا وعرضها يوجد لفيفٌ من عملاء الشيطان كرَّسوا أوقاتهم لمطاردة العفاف والتقوى، وتوطينِ المجون والهوى، يعبثون بغرائز الشباب، ويعملون على بقائها متوترة مضطربة، كلما انصرفتْ إلى جِدٍّ أزالوها عنه، وكلما وقعَتْ على لهو زيَّنوه لها، وكلما ملَّتْ متعةً عرضوا فنوناً تنفي السآمة وتُغري بالمزيد من العيب والسخف.

والغريبُ أن هؤلاء أعلى صوتاً من دعاة الطهر والأدب! بل إن نصائح الواعظين إلى جانب الضجيج الهائل الذي يُحْدِثُه في المجتمع أولئك المنحلُّون السفهاء، تشبِهُ وَقْعَ العصا في معركة تدمدم فيها المدافع والطائرات!.

ورسالة الصحافة والإذاعة والتلفاز والمسرح والسينما والإنترنت وكثير من الوسائل الإلكترونية الحديثة؛ هي تغذيةُ ذلك الفساد وتنميته حتى يطمَّ ويعمَّ، وحتى لا تفلتَ من خَبَثِهِ قرية ولا مدينة، ولا ينجو من غائلته وليدٌ ولا مُعَمَّر.

لحساب من ذلك الانطلاق الحيواني الشارد المارد؟ إنه ـ بداهة ـ ليس لحساب دين من الأديان[1]!.

وفي ميدان الاختلاط بين الجنسين ترى الحملة المسعورة للزجِّ ببنات المسلمين في أتون المجتمع بلا ضوابط ولا حدود ولا قيود، ما دام ذلك هو ما يدعو إليه إبليس وجنده من الدعاة على أبواب جهنم.

(١) كفاح دين، ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.

ومواضع الاختلاط: في المدرسة والجامعة والمؤسسات والوزارات ومراكز العمل والأسواق وأماكن الترفيه، والأندية الرياضية والمراكز الاجتماعية وحفلات السمر ورحلات الترفيه...

يقول الدكتور طه حسين في مقال له يندِّد فيه بمشروع إنشاء جامعات للفتيات:

(إن هذا رجعية ومسخرة؛ لأن التقدم والحرية يوجِبان خلطَ البنين بالبنات في طور الشباب، إن هذا الاختلاط الحرَّ ليس مباحاً فقط، بل هو واجب!)[1].

لقد نبت في بلادنا فريق عريض من الكتاب والأدباء والصحفيين و(المفكرين) والموجهين يسخِّرون عقولهم وأقلامهم في ترويج الباطل وإهاجة الشهوات، بالكتابات الدنسة والأدب المفضوح وتملّق نزوات الشباب وتأجيجها مما يزيدها وهجاً ويملؤها ضراماً.

والنتيجة انحلالُ أمة، وفسادُ دينٍ، وضيعةُ مستقبل، ومحو تاريخ! ذلك ما تستهدفه عصابة ضخمةٌ من حملةِ الأقلام وأصحاب الكتابات السافلة!.

إن ألدَّ أعداء الأمة، وأخطرَ الناس على نهضتها، أولئك الذين يزيِّنون الرذائلَ للشبان، ويهيِّجون بدمائهم حبَّ الجريمة، ويصوِّرون الحياة لهم على أنها غرائز يجب إشباعُها، وفرص يجب انتهازُها، وحرية ليس عليها قيد، وانطلاق لا يهدأ عند حد.

فمن للمشقات بعدئذ يحملها، ومن للتضحيات يقدِّمها، ومن للمروءات يصنَعُها، ومن للبطولات يقوم بها؟ وهل تنهض أمة إلا بهذا كله! إن الله سبحانه يقول لداود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦][2].

---

(١) انظر الكلام والرد عليه مطولاً في: ظلام من الغرب، ص١٩٠ ـ ١٩٢.

(٢) كفاح دين، ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

وفي سماء وطننا العربي تبث (٤٠٠) قناة فضائية عربية ـ دع عنك الأجنبية وما أكثرها وما أقذرها ـ من بينها (٥٨) قناة متخصصة بالغناء والرقص فقط، والتي تلاحق غرائز الجنسين بالتأجيج والتهييج في كل لحظة وفي كل مكان وبلا استئذان ولا حسيب ولا رقيب، وكل من يمتُّ إليها بصلةٍ مشمول بالدعوة إلى الرذيلة ومطاردة الفضيلة.

ح ـ دعاة الوطنية والقومية وإذكاء الطائفية وتهييج الأقليات على الإسلام:

كان للنفوذ الأجنبي في كل قطر عربي وإسلامي نظام مختلف، وذلك حتى لا تتوحد هذه الأقطار، وفُرِضَ عليها وضعُ تاريخ إقليمي ضيِّق منفصل، كي تتلاشى فكرة الوحدة الإسلامية.

وأعلى من شأن الوطنيات والإقليميات والدعوات القديمة السابقة للإسلام؛ فظهرت الفرعونية والبابلية والفينيقية والزنجية والبربرية، وحاول أن يجعل لهذه الدعوات المنهارة لغة وتاريخاً وثقافة للقضاء على الإسلام ووحدته[1].

واتجهت جهود الاستعمار إلى تفكيك الأمة الإسلامية إلى عشرات من الدول الصغيرة، وجعل القومية الخاصة شعارَ كل دولة من هذه الدول المصنوعة، ومنع ـ في صراحة حيناً وفي التواء حيناً آخر ـ أن يكون الإسلام روحاً للدولة أو دعامة لنظمها[2].

والهدف الخطير هو إضعاف العصبية الدينية وتمزيق أوصال المسلمين، فالمصريون أحفاد الفراعنة، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين، والعراقيون أحفاد الآشوريين، والحجازيون أحفاد العرب وأحق الناس بالقيام على خلافة الإسلام.

---

(١) الضربات، للجندي، ص٢٤٩، وانظر: ص٢٩٩.

(٢) كفاح دين، ص٩٤ ـ ٩٥.

وفي هذا إغراء لكل قومية بالتعصب على غيرها والانتفاض على الدولة التي ترعاها، مما يثير فوضى عارمة، ويؤجج الصراعات، ويبدد الطاقات(١).

فهي دعوات على أبواب جهنم تودي بأتباعها في الهلاك والخسران.

وثمة أصناف أخرى ينطبق عليهم الوصف النبوي بأنهم (دعاة على أبواب جهنم)، قد ظهر أمرهم واشتد خطرهم في مرحلة الحكم الجبري، نشير إليهم على وجه الاختصار:

ط ـ دعاة تجديد الفكر الديني والخطاب الديني وتغيير المناهج، وذلك بعرض الإسلام على أنه دين سلام ومحبة وتعايش، وتقديمه بصورة دين كهنوتي، وإسدال الستار على الفكر الجهادي المقاوم، وحذف معركتنا مع اليهودية والصليبية، ونشر فكر التطبيع والتطويع.

ي ـ دعاة تحريف التراث، وتشويه صورة الإسلام ورجالاته، والتلاعب بحقائق التاريخ، وفصل الأجيال عن سلفها وقطعها عن ماضيها.

ك ـ دعاة إضعاف اللغة العربية ودحرجتها لتكون لغة ثانية أو ثالثة، أو إماتتها وتحقير أدبها العالي وشعرها الرصين، مما يخلق جيلاً مبتوت الصلة بالقرآن والسنَّة حيث لا يستطيع فهمهما! ولنعلم إن إقرار الأخطاء اللغوية كإقرار المعاصي الدينية سواء بسواء.

ل ـ معاهد وجامعات ومدارس ومراكز بحث ودور نشر ومؤسسات وتجمعات وأحزاب وهيئات، تنفق الأموال وتبذل الهبات وتقدم الخبرات؛ لإنجاح أهدافها وشيوعها في غزو أفكار النشء ونشر ثقافة التغريب والتخريب.

ثالثاً: واجب المسلم في هذا المعترك المضطرب خلال هذه المرحلة الصعبة:

من خلال الاستقراء لملامح هذه المرحلة ومظاهرها ومخاطرها، والذي أوضحناه وأسهبنا فيه بعض الشيء؛ تستبين لنا ضخامةُ التحديات التي تواجه

---

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص١٢٠.

المسلمين، وجلالةُ الرُّزْء الذي أصابهم، وثِقَلُ المصائب التي نزلت بهم، وعمقُ الجراح التي تناوشتهم، وذلك جزاء الأخطاء الفادحة التي ارتكبوها في مرحلة الملك العاضّ، والخطايا التي اقترفها بعض ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم، والتقصير الكبير الذي وقع من المسلمين خاصتهم وعامتهم في نصرة دينهم، والوهن الذي اجتاح أمصارهم وشعوبهم في الشرق والغرب، فأَسْلَمَتْهم السُّنن الربانية الصارمة التي لا تحابي أحداً خرج عن هديها إلى مصيرِهم وجزائهم بما كسبت أيديهم.. فنالهم ما نراه في مرحلة الحكم الجبري!.

والمرحلة التي نعيشها ـ نحن المسلمين ـ أصبحت الجراح مَعْلَماً بارزاً لها، والتي يعبر عنها الشاعر محمود غنيم نَضَّر الله وجهه بقوله:

إنِّي تَذكَّرْتُ والذِّكْرى مُؤَرِّقةٌ ... مَجْداً تَلِيداً بأَيْدِينا أَضَعْناهُ
أَنَّى اتَّجَهْتَ إلى الإسلامِ في بلدٍ ... تَجِدْهُ كالطَّيرِ مَقْصُوصاً جَنَاحاهُ
وَيْحَ العُروبةِ كان الكونُ مَسْرَحَها ... فأَصْبَحَتْ تَتَوارى في زَوَاياهُ
كَمْ صَرَّفَتْنَا يَدٌ كُنَّا نُصَرِّفُهَا ... وباتَ يَمْلِكُنَا شَعْبٌ مَلَكْنَاهُ
كَمْ بالعراقِ وكَمْ بالهِنْدِ ذُو شَجَنٍ ... شكا فَرَدَّدَتِ الأَهْرامُ شَكْواهُ
بَني العُمُومَةِ إنَّ القَرْحَ مَسَّكُمُو ... ومَسَّنَا، نحنُ في الآلامِ أَشْبَاهُ[1]

ولكَ أن تنظرَ في خريطة العالم وما فيه من أحداثٍ جسامٍ، فإن البحث لن يُعييك أن تجدَ بيسر وسهولة أن معظم الجراح النازفة إسلامية! وغالب الظلم قد توطن ديار المسلمين، والتنكيل والتشريد وانتقاص الحقوق، وانتهاب الأموال، وتكالب الأعداء، أغلب ذلك يقع على الأرض العربية والإسلامية، فالمسلمون أينما تحركوا وكيفما اتجهوا تناوشتهم الحراب من كل جانب!.

وتكالَبَتْ عليهم قوى الأعداء في الخارج، وأفاعيلُ صنائعهم وأعوانهم من الأحزاب العلمانية والفرق الضالة والدعوات الهدامة والطوائف المارقة والدعاة

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٣١ ـ ١٣٢، والقصيدة فيه بتمامها في (٥٣) بيتاً.

على أبواب جهنم في الداخل، والمسلمون بين شقي الرحى تطحنهم وتحاول محوَ معالمهم وإنهاءَ وجودهم.

ولكن ذلك ليس بِدْعاً، فقد مرَّت الأمة الإسلامية بمحن شتى لا تقلُّ ضراوةً عما يصيبها الآن، ولسوف تكون تلك الحراب والجراح والدماء والآلام عواملَ تطهير وتزكية، كما أنها صرخاتٌ مدوِّية لتصحو الأمة من غفوتها وتنهض من كبوتها، فتنفض عنها ركام الذلة والهوان والاستضعاف؛ وتقف على قدميها وتنتصب قامتها ثانية وترفع الراية في طور جديد.

إن واجب المسلم في هذه المرحلة القاسية المضنية قد حدَّده وأوضحه النبيُّ ﷺ لحذيفة وللأمة من بعده:

(قلتُ: يا رسولَ الله! فما تأمُرني إنْ أدركني ذلك؟ قال: «**تلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم**»، قلت: فإنْ لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: «**فاعتزِلْ تلك الفِرقَ كلَّها، ولو أن تعضَّ بأصلِ شجرةٍ، حتى يُدركك الموتُ وأنت على ذلك**»).

(قلت: يا رسول الله! فما بعدَ الهُدْنة؟ قال: «**دعاةُ الضَّلالة، فإنْ رأيتَ خليفةً فالزَمْه، وإن نَهَكَ ظَهْرَك ضرباً، وأخذَ مالَكَ، فإن لم يكن خليفةٌ فالهَرَب، حتى يأتيك الموت وأنت عاضٌّ على شجرة**»).

(قلتُ: يا رسول الله! هل بعد هذا الخيرِ شرٌّ؟ قال: «**يا حذيفةُ! تعلَّمْ كتابَ الله واتبعْ ما فيه**» ثلاث مرات).

فواجبُ المسلم ذو شِقَّين: أحدُهما: اعتزالُ فِرق الضلال كلها، والثاني: البحث عن الإمام المسلم أو الجماعة الراشدة التي يعتصم معها بحبل الله تعالى واتّباع كتابه، الموصل إلى إقامة الخلافة.

والموقف الأول المتمثل باعتزال فرق الضلال: إنما هو عزلة شعورية وفكرية واعتقادية وعملية، وليس انزواءً على النفس وانطواءً على الذات وهروباً من المجتمع واللجوء إلى البراري والقفار وقمم الجبال، بل من المتوجب على

المسلم أن ينخرط في الأمة ويثبت قدميه على أصول الإسلام الراسخة ومبادئه الواضحة ويستعصم بها، وينعزل عن المذاهب الهدامة، والفرق الضالة، والأحزاب اللادينية، والهيئات العلمانية، والتجمعات التي تدعو إلى غير سبيل الله، مهما كان لونها وولاؤها ولغتها وأهدافها، فلا ينتسب إليها، ولا ينضوي تحت راياتها أو شعاراتها، ولا يناصرها بالقول أو بالفعل، ولا يؤيدها بلسان أو قلم، بل يحذِّر منها، ويكشف مخططاتها، ويفضح أهدافها، ويسعى لعرقلة مسيرها وإحباط مسعاها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، وإن مسَّته بسياطها أو آذَتْه بسلطانها، فالحياة كَرٌّ وفَرّ، والحربُ سِجال، والأيامُ دُوَل، والعاقبة للتقوى.

إنه لا يجوز لمسلم التذرُّعُ بمداراة السلطان، ومجاراة الزمان، والسير حسبما تهب الريح، والقول بعدم السباحة ضد التيار؛ ليبرِّر انخراطَه وعمله في هذا الحزب العلماني أو تلك الدعوة الهدّامة، فلقد أخذ الله العهد على المسلمين بأن يعتصموا بدينه ولا يبتغوا بغيره منهجاً، ولا يتبعوا السبل فتفرَّق بهم عن سبيله، وقد أمر النبي ﷺ باجتناب كل فرق الضلالة: «**فاعتزل تلك الفرق كلها**»، وهي في زماننا كثيرة قد ألمعنا إلى أبرز أنواعها وأخطر أشكالها، فليحذر المسلم ذلك حتى لا يهلك مع الهالكين.

والموقف الثاني: البحث عن الجماعة المؤمنة والطائفة المنصورة التي لا يخلو منها زمان ولا مكان، فيعطيها ولاءه ويمنحها ثقته، ويُعينها بثمرة جهده وخالصِ عمله، ولا خيار له في ذلك فالرسول ﷺ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**».

وليس معنى ذلك أن على كل مسلم أن ينخرط في سلك واحدة من الجماعات الإسلامية، ويصبح عضواً فيها وداعياً إليها، فإن ذلك مما لا يستطيعه كثير من الناس، وإنما المطلوب منه مناصرتها ومعاضدتها والدعوة للإسلام الذي يعمل جميع المسلمين الدعاة لأجله.

ولا يَضير تعدد تلك الجماعات في هذه المرحلة، فكلٌّ إلى خير إن شاء الله، ولكل منها اجتهاده، ما دام أمرها منضبطاً بالكتاب والسنَّة ومصلحة الإسلام والأمة وفقه الواقع وتقديم الأولويات وعدم اعتساف الطريق واستعجال النتائج.

رابعاً: بوارق الأمل وقوارب النجاة في مرحلة الحكم الجبري:

برغم تلك الجراح والآلام والمصائب التي نزلت بالمسلمين في هذه المرحلة، ومع تكاتف قوى الشرِّ في الداخل والخارج وتعاضُدِها؛ لمحوِ هذه الأمة وإطفاءِ جذوة دينها وتذويب شخصيتها، ومع ما يتناوشها من سهام دعاة جهنم وجنودهم الكثيرين من بني جلدتنا الذين يقاتلون على جبهات متعددة، فإن هذا الليل الجاثم بكلكله على صدر أمتنا لن يدوم طويلاً، ومن سُنَّة الله في خلقه أن النهار ينسخ الليل، والحق ينازل الباطل فيدمغه ويشدخ رأسه ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

إنه لم تمضِ سنوات كثيرة على إسقاطِ الخلافة العثمانية وضياعِ الرابطة الروحية ـ على ضعفها ـ والجامعة للمسلمين؛ حتى هبَّ رجالٌ ادَّخرهم القدر الأعلى لإيقاظ الأمة وقيادتها للنهضة من جديد، وهم: المجددون الذين أخبر عنهم الصادق المصدوق ﷺ، والطائفة المنصورة التي لا يخلو منها زمان.

فقامت جماعات إسلامية في مشارق ومغارب البلاد العربية والإسلامية، وتضوَّع عبيرُها مع الريح الرُّخاء، وبعد سنين ليست طويلة في حساب التاريخ ارتفعت في سماء الأمة الإسلامية رايات الحق تحملها سواعد الشباب والشابات في شتى المجالات وعلى جميع المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والخيرية والدعوية، في المنتديات والمدارس والمعاهد والجامعات والمراكز والمؤسسات والنقابات والوزارات والشوارع وغيرها من مواقع المجتمع، حتى فوجئ بذلك الأعداء قبل الأصدقاء.

يقول الشيخ محمد الغزالي: (ومآسي الأمة المهزومة في المشارق

والمغارب لا تُحصى! ومع فداحة المغارم فقد أبى ورثةُ الإسلام ورجال العقيدة أن يَهِنوا أو يستكينوا، واشتعلت نار المقاومة، وبقي الرجال الثابتون على الحق يتنادون في كل مكان بالثبات، حتى تكونت لهم جبهة صلبة، وأخذوا يستعيدون أجزاء من خسائرهم ويتحركون نحو غدٍ أفضل.

وبدأ التفكير الجادُّ فيما وقع، لِمَ وقع؟ ما سِرُّ تخلُّفنا؟ كيف تأخّرنا وكنا متقدمين؟ لماذا سبق غيرنا وما سِرُّ صعوده؟ ما هي عِللنا الداخلية بدقة ومصارحة؟)[١].

ويصف الأستاذ محمد فريد أبو حديد تلك اليقظة والنهضة بكلام رائع رائق فيقول:

(الأمة العربية في عصرنا هذا تستقبلُ نهضةً لا شك فيها، نهضة كموجة المدِّ تعلو في أناة، ولكنها تمتد ولا يمكن إنكارُها أو وقفها.

إنها إفاقة جبَّارة بعد غفوةٍ طالت بهذه الأمة... هذه الأمة تنبضُ بالحركة في كل مكان من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن شمالها إلى جنوبها.

بل من الحق أن نقول: إن حركتها تعدَّتْ حدودَها، وسَرَتْ هزَّتُها إلى قارات أخرى تحيط بها.

هذه النهضة متعددة الجوانب والمظاهر، وبقدر ما تنطوي عليه من قوة وحياة، وبقدر تعدد جوانبها ومظاهرها، تتعدد فرص التدافع والتصادم بينها وبين النظم القديمة، التي أصبحت اليوم غير صالحة لأن تكون تطبيقاً سليماً لمواريثنا)[٢].

وهذه بشائر ومنائر على طريق الدعاة والسالكين معهم طريقَ الإسلام، تبشِّرهم بقرب انتهاء مرحلة الظلم والتعدي والحكم الجبري. وللقارئ أن يتأمل

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٠٩.

(٢) الإسلام والطاقات المعطلة، ص١٥٥.

بوارق الأمل على الساحة العربية والإسلامية وغير الإسلامية، وما يشهده العالم من مدٍّ إسلامي باهر في جميع المواقع وبين الجنسين رجالاً ونساء، شباباً وشابات، فتياناً وفتيات، في مصر والمغرب العربي، وبلاد الشام والرافدين وفي أرض الرباط بفلسطين، وفي شبه القارة الهندية، وعلى ضفاف الهادي في إندونيسيا وماليزيا، وفي البلقان والشيشان، بل وفي أوروبة وأمريكة وما فيها من نشاط إسلامي رغم المقاومة الضارية والتشويه الكبير، فالإسلامُ قادمٌ، والمرحلة الحالية تؤذِن بانصرام إن شاء الله.

* * *

المرحلة السابعة
خلافة على منهاج النبوّة

بيَّن رسول الله ﷺ المرحلة الأخيرة من الدورات الحضارية لتاريخ المسلمين الطويل بقوله: «**ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**»، ثم سكت.

فبعد مرحلة طويلة من (الملك العاضّ) الذي استغرق من تاريخنا نحو ثلاثة عشر قرناً، أتَتْ مرحلةُ الحكم الجبري التي مضى عليها نحو مئة سنة، ولا يزال المسلمون يرزحون تحت وطأتها، حيث أُفرِغ الحكم في أغلب مؤسساته من روح الإسلام، وسعى جاهداً إلى فرض مذاهبه وأفكاره في حياة المسلمين، ومؤازرةِ دعاة الضلالة القائمين على أبواب جهنم بكل ألوان العون المادية والأدبية، وكبتِ الأصوات المقاومة والجبهات المنافحة عن مواريث الإسلام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. ولكن رجال الإسلام لم يلقوا السلاح ولا أخافتهم الجراح، فتنادَوْا من قريب ومن بعيد، وتعالَوْا على مصائبهم، وسَعَوا في لَمِّ شَعَثِهم، وتوحيد كلمتهم، ورصِّ صفوفهم، وتصدَّوا للعدوان الداخلي والخارجي على جبهات شتى، فنِيلَ منهم كثيراً، ونالوا من أعدائهم كذلك، والنصر صبر ساعة، ووعدُ الله نافذٌ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

إن دولة الخلافة التي ترنَّحت تحت ضربات قاسية على مدى سنين طويلة حتى سقطت رايتها نتيجة أخطاء كثيرة وتفريط كبير، لا يمكن إعادتها إلا بتجنب الأخطاء، ومعالجة التفريط، وتعرف أسباب الهزيمة، وعوامل النصر، والعمل الدؤوب على هدى وبصيرة، مع الصبر والثبات مهما غَلَت التضحيات، لإعادة راية الإسلام خفاقة من جديد على صعيد حياة الشعوب وفي أروقة الحكم ورأس السلطة، والوعد النبوي قائم، فلقد تحقق من هذه النبوءة جميع المراحل السابقة والحالية، وبقيت المرحلة القادمة الخاتمة (خلافة على منهاج النبوة)، والهناء والسعادة لكل من سعى في إعادتها وتحقيقها.

قواعد وأصول ووسائل إعادة الخلافة الإسلامية والقيادة العالمية:

١ ـ الاعتصام بالقرآن الكريم وسنَّة الرسول ﷺ وسيرته التي هي ترجمان حي للإسلام بمبادئه وأركانه وركائزه ومفاهيمه الكبرى.

٢ ـ الاهتداء بمنهج الخلافة الراشدة، وطريقة أولئك الرجال الكبار في تطبيق الإسلام ونشره والتمكين له، وإقامة العدل، ونشر الحرية، ومقاومة الاستبداد، وإحلال مبدأ الشورى في الحكم، وحماية حقوق الرعية.

٣ ـ إشعال جذوة الإيمان في قلوب أفراد الأمة، وتقليص مظاهر الدعة والكسل والاسترخاء والإخلاد إلى الأرض، ومطاردة الفساد بشتى ألوانه وصوره وممارساته.

٤ ـ محاربة الاستبداد ومظاهر الحكم الجبري، وتحقيق أمانة الاستخلاف في الأرض، وتمكين مبدأ تكافؤ الفرص في جميع الأصعدة والمستويات حسب المواهب والكفاءات بما فيه مصلحة الأمة عامة.

٥ ـ حفظ المال العام وصيانة حرمته وتحقيق قداسته، وتوجيهه في مصارفه الصحيحة في بناء الدولة وبسط الرخاء للشعوب.

٦ ـ إعادة رسالة المسجد إلى موقعها الطبيعي في الأمة، في كونه مصدراً روحيّاً تربويّاً عالياً وجامعة إيمانية، أسوة بعمل النبي ﷺ في مدينته الطيبة عندما شرع في تأسيس دولة النبوة.

٧ ـ الاستعداد والإعداد الصناعي والحربي الكفيلين باستقلالية العالم العربي والإسلامي، والتحرر من هيمنة الغرب والشرق عليه في العلم والصناعة وشؤون الحرب.

٨ ـ تحقيق الوعي في الأمة لتمييز الأصيل من الدخيل، والصالح من الطالح، والعدو من الصديق، والتبصر التام بما يُحاك لها من مؤامرات، ويَحيق بها من أخطار ويتربَّص بها من أعداء في الداخل والخارج، وتدريس ذلك في مختلف قطاعات الشعب بشتى الوسائل وفي جميع الأوقات.

٩ ـ السعي الدؤوب والعمل الجاد على استقلالية الأمة العربية والإسلامية في سياستها واقتصادها، وتجارتها وصناعتها، وإدارتها ومناهجها وإعلامها، ومناشطها في السلم والحرب، والجد والترفيه، وغير ذلك.

١٠ ـ إعادة كتابة وصياغة مواريثنا الفقهية الجبارة بما يحقق الأصالة والمعاصرة، ويحفظ للأمة انتماءها، ويحمي وجودها، ويضمن استقلالها واستمرارها.

١١ ـ العناية التامة بمناهج التعليم والإعلام لتربية جيل صالح يجمع بين الصرامة والكرامة، والدنيا والآخرة، وبين تاريخه الأصيل ومستقبله الواعد، ويكفل صياغة فكره وتشكيل عقله؛ بما يناسب اضطلاعه بنصرة دينه واستقلال شخصيته ومنهجه وهدفه.

١٢ ـ التحرر من رق الفكر الدخيل والتغريب للعقول والأرواح والنفوس، بمطاردة صنائع الاستعمار وأنصاره من الدعاة على أبواب جهنم الذين غَصَّت بهم مرحلة الحكم الجبري.

١٣ ـ التركيز على العالم العربي الذي يُعتبر قلبَ العالم الإسلامي ومخه ونخاعه وقطب الرحى في حركته التاريخية، وإعادة دوره القيادي للأمة الإسلامية.

(فالإسلامُ هو قوميةُ العالم العربي، ومحمدٌ ﷺ هو روحُ العالم العربي وإمامه وقائده، والإيمانُ هو قوة العالم العربي التي حارب بها العالم البشري كله فانتصر عليه، وهو قوَّتُه وسلاحه اليوم كما كان بالأمس، به يقهر أعداءه، ويحفظ كيانه، ويؤدي رسالته)[1].

هذه خطوط عريضة للمرحلة المقبلة نسجّلها استكمالاً لتوضيح جوانب هذه النبوءة الجليلة، والأمر أوسع مما كتبناه، وحسبنا الإشارة إلى ذلك[2].

جدول توضيحي:

ونختم الحديث عن هذه النبوءة بوضع جدول توضيحي للمقارنة بين حديثي (الخير والشر) و (النبوة والخلافة)، والتطبيق التاريخي لهما.



(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٨٧.

(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٧٢ ـ ٣٠٢؛ جهاد الدعوة، ص١٧٥ ـ ١٨١.

جدول توضيحي للمقارنة بين الحديثين والتطبيق التاريخي لهما

المرحلة	حديث الخير والشر	حديث النبوة والخلافة وأشكال الحكم	التطبيق التاريخي
(١)	- إنا كنا في جاهلية وشر. - إنا كنا بِشَر. - إنا كنا في شر فذهب الله بذلك الشر.	-	الجاهلية قبل الإسلام
(٢) الخير الأول نبوة ورحمة	- فجاءنا الله بهذا الخير. - وجاءنا بالخير على يديك. - فجاء الله بخير نحن فيه. - أرأيت هذا الخير الذي كنا فيه.	- تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. - أول هذا الأمر نبوة ورحمة.	مرحلة النبوة واستمرت (٢٣) سنة
(٣) استمرار الخير الأول خلافة راشدة على منهاج النبوة.	-	- ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. - ثم يكون خلافة ورحمة.	مرحلة الخلافة الراشدة بداية من عهد أبي بكر وانتهاء بخلافة الحسن بن علي ومدها (٣٠) سنة.

(٤) الشر الأول فتنة وشر	- فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: نعم. - هل بعد هذا الخير من شر؟ قال: فتنة وشر. - فهل بعد الخير من شر؟. قال: نعم، قال: ما هو؟ قال: فتن كقطع الليل المظلم، يتبع بعضها بعضاً، تأتيكم مشتبهة كوجوه البقر، لا تدرون أياً من أي.	-	- قتل الخلفاء الراشدين الثلاثة عمر وعثمان وعلي. - القتال بين المسلمين في (الجمل) و(صفين). - فتنة الخوارج. - ترويج فكرة الرجعة، ودعوى الوصية لعلي، وتزوير الكتب على لسان الصحابة، ونشر الأكاذيب واضطراب أمر الناس في الأمصار.
(٥) الخير الثاني خير فيه دخن،	- هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. - قلت: يا رسول الله، هل بعد هذا الشر خير؟ قال: هدنة على دخن، قال: قلت: يا رسول الله، هدنة على دخن ما	ثم تكون ملكاً عاضاً، فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. - ثم يكون ملكاً ورحمة.	- ابتدأت من عام الجماعة (سنة ٤١هـ) باجتماع كلمة المسلمين على معاوية. وتحول فيها شكل الحكم من الشورى على هدي النبوة إلى ملكي وراثي. واستوعبت هذه المرحلة حقبة تاريخية طويلة جدّاً شملت عهود: الخلافة الأموية، والعباسية، والعثمانية. وبسقوط

	هي؟ قال: لا ترجع قلوب أقوام على الذي كان عليه.		الأخيرة سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) انتهت هذه المرحلة. واستغرقت (١٣) قرناً ما بين سنة (٤١هـ) إلى (١٣٤٣هـ).
(٦) -أ- سقوط الخلافة والحكم الجبري ودعاة الضلالة	- قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟. قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال: نعم. قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. - قلت: يا رسول الله،	- ثم تكون ملكاً جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. - ثم يتكادمون عليه- الحكم- تكادم الحمر.	- ابتدأت من سنة (١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م) ولا تزال مستمرة إلى الآن. مرحلة سقوط الخلافة وغياب الإمام العام وتمزق وحدة الأمة. - وقيام حكومات استبدادية ديكتاتورية. - إقصاء الإسلام عن الحكم وتعطيل الشرائع والحكم بغير ما أنزل الله. - سيطرة أحزاب لادينية على الحكم وتهميش الإسلام في الحياة. - تداعي الأمم على الأمة الإسلامية. - كثرة دعاة الضلالة (دعاة على أبواب

	هل بعد هذا الخير شر؟ قال: فتنة عمياء صماء، عليها دعاة على أبواب النار.		جهنم). كدعاة التغريب، وإفراغ قلوب الأمة من الإيمان، وتحقير الإسلام ومهاجمة ثوابته، ودعاة العلمانية وفصل الدين عن الدولة والحياة، وإلغاء الشريعة، ودعاة الوجودية والماركسية والإلحاد، والتشدق بالحرية للانفلات من كل القيم، ودعاة الانحلال والتهتك وترويج الرذيلة والفن الهابط، وإحياء القوميات وإذكاء الطائفية وتهييج الأقليات على الإسلام.
-ب- العمل لإعادة الإسلام إلى واقع حياة المسلمين والحكم الإسلامي	- قلت: يا رسول الله فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى	-	وهذا العمل مصاحب لمرحلة انعدام الخلافة الإسلامية وقيام الحكم الجبري، وتتجلى بتجنب فرق الضلال كلها، وعدم الانخراط فيها أو مناصرتها، والعمل على مقاومتها وفضح طرقها وأهدافها، وملازمة

	يدركك الموت وأنت على ذلك. - فإن رأيت خليفة فالزمه، وإن نهك ظهرك ضرباً وأخذ مالك، فإن لم يكن خليفة فاهرب، حتى يأتيك الموت وأنت عاض على شجرة. - قلت يا رسول الله، هل بعد هذا الخير شر؟ قال: يا حذيفة تعلم كتاب الله واتبع ما فيه. ثلاث مرات.		ومناصرة الجماعة المؤمنة الراشدة الداعية إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإعادة الإسلام إلى واقع حياة المسلمين. وبوارق الأمل تنتشر في كل بلاد المسلمين بتنامي عودة الإسلام للحياة، وتراجع دعاة الضلال، وقرب نهاية هذه المرحلة.
(٧) الخلافة على منهاج النبوة		ثم تكون خلافة على منهاج النبوة	وهي المرحلة التي يسعى المسلمون الآن لتحقيقها، وتتضافر الجهود المتنوعة المتنامية لإقامتها، وهي تعني إنهاء المرحلة التي نعيشها الآن (الحكم الجبري).



فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

نبوءات تتحدَّث عن الفتن

الفَصْلُ الرَّابعُ

نبوءات في الخلافة والملك والإمارة والحكم



تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١









نبوءات الرسول ﷺ

دروس وعبر



الجزء الثالث

بقلم
عبد الستار الشيخ

إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نبوءات الرسول ﷺ

دروس وعبر



١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

طبعة خاصة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤






نبوءات الرسول ﷺ

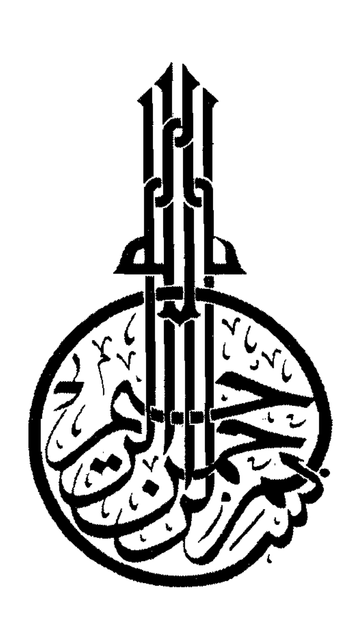
دروس وعبر

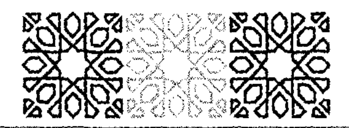
بقلم

عبد الستار الشيخ

الجزء الثالث

إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر

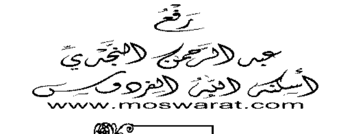




الفصل الخامس

نبوءات في أحوال الإسلام والمسلمين





٨٥

إخبار النبي ﷺ بأن الناس يكثرون والأنصار يقلُّون وتكون عليهم أثرة

١ ـ عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما قال: (خَرج رسول الله ﷺ في مرضِه الذي ماتَ فيه بِمِلْحَفَةٍ، قد عَصَّبَ بعصابةٍ دَسْمَاءَ، حتى جَلَس على المنبر، فحَمِدَ الله وأَثْنَى عليه، ثم قال: «**أمَّا بعدُ، فإنَّ الناسَ يَكْثُرونَ ويَقِلُّ الأنصارُ، حتى يَكونوا في الناس بمنزلةِ المِلْحِ في الطَّعامِ، فَمَنْ وَلِيَ منكم شيئاً يَضُرُّ فيه قوماً ويَنْفَعُ فيه آخَرِينَ، فلْيَقْبَلْ من مُحْسِنِهم ويَتَجاوَزْ عن مُسِيئِهم**» فكان آخرَ مجلسٍ جَلَس فيه النبيُّ ﷺ)(١).

٢ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الأنصارَ كَرِشِي وعَيْبَتِي، وإنَّ الناسَ سيَكْثُرون، ويَقِلُّون، فاقْبَلُوا من مُحْسِنِهم، وتجاوَزُوا عن مُسِيئِهم**»(٢).

٣ ـ وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، عن أُسَيْد بنِ حُضَيْرٍ رضي الله عنه: (أنَّ رجلاً من الأنصار قال: يا رسولَ الله! أَلَا تَستعمِلُني كما استعملتَ فلاناً؟ قال: «**ستَلْقَوْن بَعْدِي أَثَرةً، فاصْبِروا حتى تَلْقَوني على الحَوْضِ**»)(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٩٢٧) و(٣٦٢٨) و(٣٨٠٠)، وقد تفرد به.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٠١)؛ ومسلم (٢٥١٠)؛ والترمذي (٣٩٠٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨٢٦٧) واللفظ له؛ وأحمد: ٣/ ١٧٦، ٢٧٢؛ وابن حبان (٧٢٦٥)؛ والبغوي (٣٩٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٩٢) و(٧٠٥٧) واللفظ له؛ ومسلم (١٨٤٥)؛ والترمذي (٢١٨٩)؛ والنسائي في الكبرى (٥٩٠١) و(٨٢٨٦)، والصغرى: ٨/ ٢٢٤؛ وأحمد: ٤/ ٣٥١، ٣٥٢، والداني (١١).

٤ ـ وعن أُسَيْد بنِ حُضَيْرٍ ـ في حديث فيه قصة ـ عن رسول الله ﷺ قال: «وأَنْتُم معشرَ الأنصارِ فَجَزاكُم الله أطيبَ الجزاءِ، فإنَّكُم ما علمتُ أَعِفَّةٌ صُبُرٌ، وسَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرةً في الأَمْرِ والقَسْمِ، فاصْبِروا حتى تَلْقَوْني على الحَوْضِ»(١).

❁ ❁ ❁

تتضمن هذه الأحاديث نبوءتين جليلتين لرسول الله ﷺ، أخبر بهما، فوقع الأمر كما قال ﷺ:

الأولى: أن الناس سيكثرون والأنصار يَقِلُّون.

والثانية: أن الأنصار سيُستأثَر عليهم في الأموال والعطاء والحكم وغير ذلك.

قال الحافظ: (قوله: «**سترون بعدي أَثَرةً**»: أشار ﷺ بذلك إلى ما وقع من استئثار الملوك من قريش عن الأنصار بالأموال والتفضيل في العطاء وغير ذلك، فهو من أعلام نبوته ﷺ)(٢).

وقال في موضع آخر: (قوله: «**ستلقون بعدي أثرة**»: أشار بذلك إلى أن الأمر يصير في غيرهم فيختصون دونهم بالأموال، وكان الأمر كما وصف ﷺ، وهو معدود فيما أخبر به من الأمور الآتية، فوقع ما قال)(٣).

أولاً: نبذة حول معاني الأحاديث:

قوله: (خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه بِمِلْحَفَةٍ، قد عَصَّبَ

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٢٨٧) واللفظ له؛ وابن حبان (٧٢٧٧)؛ والحاكم: ٤/ ٧٩، وصححه ووافقه الذهبي؛ وأخرجه المزي في تهذيب الكمال: ١٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤؛ وصحّحه الألباني في الصحيحة: ٧/ ٢٥٤ (٣٠٩٦).

(٢) الفتح: ٦/ ٤٨٠؛ شرح الحديث (٢٣٧٦).

(٣) الفتح: ٨/ ٧٣٨ (٣٧٩٢).

بعصابةٍ دسماءَ)، وفي رواية: (خرج رسول الله ﷺ وعليه مِلْحَفَةٌ مُتَعَطِّفاً بها على منكبيه، وعليه عصابة دسماء).

متعطِّفاً بها: أي متوشِّحاً مرتدياً، والعِطاف الرداء، سُمي بذلك لوضعه على العِطْفين وهما ناحيتا العنق.

دَسْماء: أي لونها كلون الدسم وهو الدهن، وقيل: المراد أنها سوداء ولكن ليست خالصة السواد.

(حتى جلس على المنبر): وكان ذلك في مرض موته، وكان آخر مجلس جلسه ﷺ.

«وإن الناس سيكثرون ويقلُّ الأنصار»: فيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام وهم أضعاف أضعاف الأنصار، فمهما فُرِض في الأنصار من الكثرة كالتناسل فُرِض في كل طائفة من أولئك، فَهُم أبداً بالنسبة إلى غيرهم قليلٌ.

ويَحتمِل أن يكون ﷺ اطَّلع على أنهم يقِلُّون مطلَقاً، فأَخبر بذلك، فكان كما أخبر، لأن الموجودين الآن[1] من ذرية علي بن أبي طالب ممن يتحقق نسبُه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممن يتحقق نسبه، وقِسْ على ذلك.

«حتى يكونوا في الناس بمنزلة الملح في الطعام»: أي في القِلَّة، لأنه جعل غاية قلَّتِهم الانتهاء إلى ذلك، والملح بالنسبة إلى جملة الطعام جزء يسير منه والمراد بذلك المعتدل.

«كَرِشي وعَيْبَتي»: أي بطانتي وخاصتي، قال القزَّاز: ضَرَب المثلَ بالكَرِش لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون فيه نماؤه. والعَيْبة: ما يُحرِز فيه الرجل

---

(١) الكلام للحافظ ابن حجر، أي: في زمنه في القرن التاسع الهجري.

نفيسَ ما عنده، يريد أنهم موضِعُ سِرِّه وأمانَتِه. قال ابن دريد: هذا من كلامه ﷺ الموجز الذي لم يُسبق إليه[١].

ثانياً: شذرة حول الأنصار وفضائلهم وجلائل أعمالهم:

الأنصار ﷺ هم أولئك الصحابة العظام الذين كوَّنوا مع إخوانهم المهاجرين أفضلَ جيلٍ من أتباع الأنبياء على وجه الدهر، وأقاموا مجتمعاً لم يعرف له التاريخ نظيراً في الإيمان والصفاء، والحب والإخاء، والطهر والعفة، والشجاعة والنجدة، والكرم والإيثار، وكل مكارم الأخلاق وفضائل الكَمَلَة من الرجال.

هم أولئك المؤمنون الذين جعلوا بلدهم (المدينة) قلعةَ الإسلام الحصينة، وحصنَه القوي الذي يأوي إلى كَنَفِه المؤمنون المضطهَدون، ليجدوا فيه عند إخوانهم أنصار الله المحبةَ والأَثَرة والإخاءَ المواسي، والمواساةَ المُؤْثِرة، والحمايةَ القوية، والقوةَ القاهرة للأعداء[٢].

هم ذلك الرَّعيل الذين قدَّموا أرواحهم وفلذاتِ أكبادهم فداءً لرسول الله ﷺ ولأصحابه الذين هاجروا إليهم، وعانقوا السيوف دفاعاً عن الدعوة إلى الله وتبليغِ رسالاته إلى الناس، وأحبُّوا الموت استشهاداً في سبيل إعلاء كلمة الله، كلمة الحق والتوحيد.

وقد أحبَّهم رسول الله ﷺ، وأثنى عليهم، ونوَّه بفضلهم على الناس، وأنزلَهم من نفسه منزلة الحِبِّ من الحَبيب، فكانوا منه ﷺ كما قال في تصوير قربهم من نفسه: «**الأنصار شِعارٌ والناس دِثارٌ**»[٣]، وكما قال ﷺ: «**الأنصار كَرِشي وعَيْبَتي**»، وكان معهم كما قال: «**أنا سِلْمٌ لمن سالَمَهم، وحَرْبٌ لمن حارَبَهم**».

---

(١) انظر: الفتح: ٨/ ٧٤٤ ـ ٧٤٥ (٣٧٩٩ ـ ٣٨٠١)؛ شرح السنة: ١٤/ ١٧٢.

(٢) محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ٢/ ٣٩٢.

(٣) **الشعار**: الثوب الذي يلي الجسد، **والدثار**: الثوب الذي يكون فوقه. أي: هم البطانة والخاصة والأصفياء وألصق بي من سائر الناس.

لهذا كان حبُّهم إيماناً، وكان بغضُهم نفاقاً وكفراناً[١].

وآياتُ الكتاب العزيز كثيرة، وكتبُ السنَّة المطهرة طافحة بالأحاديث الصحاح؛ التي تبيِّن فضائلَ الأنصار ومكارمَهم وسوابقهم وعلوَّ منزلتهم عند الله ورسوله والمؤمنين.

وقد أوصى النبيُّ ﷺ الخلفاءَ والمسؤولين وعامة المسلمين من بعده بالأنصار خيراً، وأشار إلى ما سيقع عليهم من حَيْف لا يستحقونه، بل هم جديرون بكل إكرام وإجلال وتبجيل وثناء وفداء، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

ثالثاً: قصص ومواقف من التاريخ:

وقعت لأُسَيْد بن حُضير في الحديث الذي قدمناه في صدر النبوءة[٢] قصةٌ في خلافة أمير المؤمنين عمر؛ قال أسيد:

(فلما كان عمرُ بنُ الخطاب ﷺ، قَسَمَ حُلَلاً بين الناس، فبَعَث إليَّ منها بحُلَّةٍ، فاستصغرتُها، فأعطيتُها أَبي، فبينا أنا أُصلِّي إذ مرَّ بي شابٌّ من قريش عليه حُلَّةٌ من تلك الحُلَل يجرُّها، فذكرتُ قولَ رسول الله ﷺ: «**إنكم ستلقون بعدي أَثَرة**»، فقلتُ: صَدَق اللهُ ورسولُه. فانطَلَق رجلٌ إلى عمر، فأخبَره، فجاء وأنا أصلِّي، فقال: يا أُسيدُ! فلما قضيتُ صلاتي قال: كيف قلتَ؟ فأخبرتُه، قال: تلك حُلَّةٌ بعثتُ بها إلى فلان بن فلان، وهو بَدْريٌّ أُحُديٌّ عَقَبيٌّ، فأتاه هذا الفتى فابتاعَها منه فلَبِسَها، أَفَظننتَ أن يكون ذلك في زماني؟! قلتُ: قد واللهِ يا أمير المؤمنين ظننتُ أن ذاكَ لا يكونُ في زمانِك!)[٣].

وعن ثابت البُنَانيِّ، عن أنسِ بن مالك قال: (خرجتُ مع جرير بن عبد الله

---

(١) المرجع السابق: ٢/٥٤٩ ـ ٥٥٠.
(٢) ٣/٨ حاشية (١) (في هذا المجلد).
(٣) أخرجه ابن حبان (٧٢٧٩)، واللفظ له؛ وأبو يعلى (٩٤٥)؛ والطبراني (٥٦٨).

البَجَليِّ في سَفَر، فكان يَخْدُمني، فقلتُ له: لا تفعلْ، فقال: إنِّي قد رأيتُ الأنصارَ تصنعُ برسول الله ﷺ شيئاً، آلَيْتُ أن لا أصحبَ أحداً منهم إلا خَدَمْتُه!). وكان جريرٌ أكبرَ من أنس[١].

وعن قُدامة بن إبراهيم قال: (رأيتُ الحَجَّاجَ يضرِبُ عبَّاس بن سَهْل في إمْرةِ ابن الزبير، فأتاه سَهْل[٢] بن سعد وهو شيخٌ كبير، له ضَفيرتان، وعليه ثوبان: إزار ورداء، فوقف بين السِّمَاطَيْنِ، فقال: يا حَجَّاج! أَلَا تحفظُ فينا وصيةَ رسول الله ﷺ؟! قال: وما أوصى به رسولُ الله ﷺ فيكم؟ قال: أَوْصَى أن يُحْسَنَ إلى محسنِ الأنصار، ويُعْفَى عن مسيئِهم. فأَرْسَلَه)[٣].

وعن علي بن زيد بن جُدْعَان قال: (بَلَغَ مصعبَ بنَ الزبير عن عريفٍ من الأنصار شيءٌ، فَهَمَّ به، فدخل عليه أنسُ بن مالك فقال له: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**استَوْصُوا بالأنصار خيراً ـ أو قال: معروفاً ـ اقبَلُوا من مُحسِنهم، وتجاوزوا عن مُسيئِهم**».

فألقى مصعبٌ نفسَه عن سريره، وأَلْزَقَ خدَّه بالبِساط، وقال: أَمْرُ رسولِ الله ﷺ على الرأس والعين! فتركه)[٤].

هكذا فليكن البلاغ عن النبيِّ ﷺ، وهكذا فلتكن طاعة أوامره وتنفيذ وصاياه، فأين الآن مثل عمر وجرير، بل أين مثل مصعب والحجّاج، في الوقوف عند قول النبيِّ ﷺ إذا ذُكِّر به أحدُهم؟! بالرغم مما افْتُرِي على الحجاج من قصص الحانقين أعداء بني أمية من الرافضة والشعوبيين وغيرهم!.

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٨)؛ ومسلم (٢٥١٣) واللفظ له.

(٢) صحابي أنصاري خزرجي، وهو والد عباس بن سهل.

(٣) أخرجه ابن حبان (٧٢٨٧) واللفظ له؛ والطبراني (٦٠٢٨)، ولفظة (فأرسله) زيادة من عنده؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط .**والسماطان**: الصفان من الناس والجنود.

(٤) أخرجه أحمد: ٣/ ٢٤١؛ وذكره الألباني في الصحيحة: ٢/ ٥٨٧، ٧/ ١٤٦٣ (٣٥٠٩) وجَوَّده بشواهده.

٨٦

إخبار النبي ﷺ بأن الله لا يُهلك المسلمين بجوائح عامة تستأصلهم ولا يسلِّط عليهم عدوّاً من غيرهم يستبيح بيضتهم

١ ـ عن ثَوْبَانَ رضي الله عنه، مولى النبي ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله زَوَى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، فإنَّ أمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زَوَى لي منها، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْن: الأحمرَ والأبيضَ؛ فإنِّي سألتُ ربِّي لأمَّتي أنْ لا يُهْلِكَها بِسَنَةٍ عامَّةٍ، وأنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسِهم فَيَستبِيحَ بَيْضَتَهم؛ فإنَّ ربي قال: يا محمدُ! إنِّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإني أُعْطِيك لأمَّتِك أنْ لا أُهْلِكَهم بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأنْ لا أُسَلِّطَ عليهم عدوّاً من سِوى أنفسهم فيستبيحَ بَيْضَتَهم، ولو اجتَمَع عليهم من أقطارَها، أو قال: من بين أقطارِها، حتى يكونَ بعضُهم يُهْلِك بعضاً ويَسْبِي بعضُهم بعضاً**».

قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما أخافُ على أمتي الأئمةَ المُضِلِّينَ، وإذا وُضِعَ السيفُ في أمتي لم يُرْفَعْ عنها إلى يوم القيامةِ**» لفظ ابن حبان.

وفي رواية ابن ماجه: «**إنّي سألتُ الله ﷻ ثلاثاً: أنْ لا يُسَلِّطَ على أمَّتي جُوعاً فَيُهْلِكَهُم به عامَّةً، وأنْ لا يَلْبِسَهُم شِيَعاً، ويُذِيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩)؛ وأبو داود (٤٢٥٢)؛ والترمذي (٢١٧٦)؛ وابن ماجه (٣٩٥٢)؛ وأحمد: ٥/ ٢٧٨، ٢٨٤؛ وابن حبان (٦٧١٤) و(٧٢٣٨)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧؛ والبغوي (٤٠١٥)؛ وأخرجه أحمد: ٤/ ١٢٣، عن شداد بن أوس؛ وعند ابن =

٢ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (أَقبلنا مع رسولِ الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني مُعاوِيةَ، فدَخَل فصلَّى ركعتين وصلَّيْنا معه، وناجَى ربَّه عز وجل طويلاً، قال: «**سألتُ ربِّي عز وجل ثلاثاً: سألتُه أنْ لا يُهْلِكَ أمتي بالغَرَقِ؛ فأَعْطَانِيها، وسألتُه أن لا يُهْلِكَ أمتي بالسَّنَة؛ فأَعْطَانِيها، وسألتُه أن لا يجعلَ بأْسَهم بينهم؛ فَمَنَعنِيها**»)[1].

٣ ـ وعن خبَّاب بن الأَرَتّ رضي الله عنه: (أنه راقَبَ رسولَ الله ﷺ في ليلة صلَّاها رسول الله ﷺ كلَّها حتى كان مع الفجر، فلما سلَّمَ رسول الله ﷺ من صلاته، جاءه خبَّابٌ، فقال: يا رسولَ الله! بأبي أنت وأمي، لقد صَلَّيْتَ اليومَ صلاةً ما رأيتُك صلَّيتَ نحوَها! قال رسول الله ﷺ: «**أَجَلْ، إنَّها صلاةُ رَغَبٍ ورَهَبٍ، سألتُ ربي فيها ثلاثَ خِصالٍ، فأعطاني اثنتين، ومَنَعني واحدة: سألتُ ربي أنْ لا يُهْلِكَنا بما أَهْلَكَ به الأممَ قَبْلَنا؛ فأَعْطانِيها؛ وسألتُ ربي أنْ لا يُظْهِرَ علينا عدوّاً من غيرِنا؛ فأَعطانيها، وسألتُ ربي أنْ لا يَلْبِسَنا شِيَعاً؛ فَمَنَعَنِيها**»)[2].

٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**سألتُ ربي لأمتي أربعَ خِلالٍ، فمَنَعني واحدة وأعطاني ثلاثاً: سألتُه أن لا تَكْفُر أمَّتي صفقةً واحدة؛ فأعطانيها، وسأَلتُه أن لا يُسلِّط عليهم عدوّاً من غيرهم؛ فأعطانيها، وسألتُه**

= حبان (٤٥٧٠) فصل منه؛ وذكره ابن كثير في تفسيره: ٢/ ١٨١، تفسير الآية (٦٥) من سورة الأنعام، وقال: إسناده جيد قوي.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٠)؛ وأحمد: ١/ ١٧٥، ١٨١ ـ ١٨٢، واللفظ له؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٨١، كتاب الدعاء، ٤٢١، أول كتاب الجهاد؛ وابن حبان (٧٢٣٧)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٥٢٦؛ والبغوي (٤٠١٤)، وغيرهم؛ وبنحوه عن معاذ بن جبل؛ أخرجه: أحمد: ٥/ ٢٤٠؛ وابن ماجه (٣٩٥١)؛ وابن خزيمة (١٢١٨)؛ وذكره الألباني في الصحيحة (١٧٢٤).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١٣٣٤) و(١٣٣٥) واللفظ له؛ وفي الصغرى: ٣/ ٢١٦ ـ ٢١٧؛ والترمذي (٢١٧٥)؛ وأحمد: ٥/ ١٠٨ ـ ١٠٩؛ والطبراني (٣٦٢١ ـ ٣٦٢٦)؛ وابن حبان (٧٢٣٦)؛ والمزي في تهذيب الكمال: ١٤/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

أن لا يُعَذِّبَهم بما عذَّبَ به الأممَ قبلَهم؛ فأعطانيها، وسألتُه أن لا يَجْعَلَ بأْسَهم بينَهم؛ فمَنَعَنِيها»[١].

٥ ـ وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: **«دعوتُ الله أن يرفَعَ عن أمتي أربعاً، فرَفَعَ عنهم اثنتين وأبَى أن يرفع عنهم اثنتين: دعوتُ الله أنْ يرفَعَ عنهم الرَّجْمَ من السماء، والخَسْفَ من الأرض، وأن لا يَلْبِسَهم شِيَعاً، وأنْ لا يُذِيقَ بعضَهم بأسَ بعض، فرَفَعَ الله عنهم الخسفَ والرجمَ، وأبى أن يَرْفَعَ عنهم الأخريين»**[٢].

❁ ❁ ❁

هذه نبوءة عظيمة من أعلام نبوة رسولنا ﷺ وشواهدِ صدق رسالته، قد تحقَّقَ وقوعُها على مرِّ الدهر، ولا تزال قائمةً متحققةً إلى أيامنا هذه، وتشتمل على أمرين اثنين ومحورين كبيرين:

الأول: أن الله سبحانه لا يَبتلي الأمة الإسلامية بجوائحَ كونيةٍ عامة تُهْلِك المسلمين أجمعين.

والثاني: أنه سبحانه لا يُسلِّط على المسلمين عدوّاً من غيرهم يستأصِلُ بَيْضَتَهم ويُفني جمعَهم.

وسنتناول هذه النبوءة من خلال شرح هذين المحورين في حياة المسلمين عبر تاريخهم الطويل.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/ ٢٢٢، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات؛ ورواه البزّار إلا أنه قال: «**سألت ربي ثلاثاً**»، وذكره الحافظ في الفتح: ١٠/ ٢١٦، شرح الحديث (٤٦٢٨)، وعزاه لابن أبي حاتم، وسكت عليه؛ وهو في الأوسط للطبراني (١٨٦٢)؛ وتفسير ابن أبي حاتم (٧٤١٥).

(٢) أخرجه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره: ٢/ ١٨٢، تفسير الآية (٦٥) من سورة الأنعام؛ والحافظ في الفتح: ١٠/ ٢١٤، شرح الحديث (٤٦٢٨) وسكت عليه، فهو على قاعدته حديث حسن.

المحور الأول: أن الله سبحانه لا يُهلك المسلمين بجوائح كونية شاملة عامة:

وَصَفَ الله تعالى نبيَّه ﷺ بشدَّة حرصِه على المؤمنين، ورأفتِه بهم، ورحمتِه لهم، وسعيه الحثيث على وصول النفع الدنيوي والأخروي إليهم، وتجنيبهم كل عَنَتٍ وأمرٍ يشقُّ عليهم، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

والمتتبِّع لسنَّتِه الشريفة وسيرته العطرة يجد ذَوْبَ فؤاده ﷺ وانشغالَ بالِه وديمومةَ عمله وتواصلَ دعوته واستمرارَ دعائه الحاني لأمته ـ الصحابة ومن بعدهم إلى يوم الدين ـ والرأفةَ بها، وإرادةَ الخير لها، ورفْعَ الإِصْر عنها، وصَرْفَ المشاق التي حلَّت بالأمم قبلها عنها، ومن مظاهر ذلك وأمثلته ما جاء في هذه النبوءة التي نتناول الحديث عنها.

عن عَمْرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (لمَّا نزلت هذه الآيةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾؛ قال رسولُ الله ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِك**»، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «**أعُوذُ بوجْهِك**»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال رسول الله ﷺ: «**هذا أهونُ**، أو: **هذا أيْسَرُ**»)[١].

والمراد بقوله: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح.

وبقوله: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: الخسف والرجفة[٢].

وعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: (أن النبيَّ ﷺ تلا قولَ الله تعالى في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٨) واللفظ له؛ والترمذي (٣٠٦٥)؛ والنسائي في الكبرى (٧٦٨٤) و(١١٠٩٩) و(١١١٠٠)؛ والحميدي (١٢٥٩)؛ وأحمد: ٣/٣٠٩؛ وابن أبي عاصم في السنة (٣٠٠)؛ وابن حبان (٧٢٢٠)، وغيرهم.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/١٢؛ وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ١٧٨ ـ ١٧٩؛ والفتح: ١٠/٢١٤، شرح الحديث (٤٦٢٨).

عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرَفَعَ يديه فقال: «اللهمَّ أُمَّتي أُمَّتي» وبكى ﷺ، فقال الله: يا جبريلُ! اذهَبْ إلى محمدٍ ـ وربُّك أعلمُ ـ فاسأَلْه ما يُبكيه؟ فأتاه جبريلُ، فسأَلَه، فأَخْبَره رسولُ الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلمُ ـ فقال الله: يا جبريلُ! اذْهَبْ إلى محمدٍ فقلْ له: إنَّا سَنُرضِيكَ في أمَّتِكَ، ولا نَسُوؤكَ)[1].

فكان النبي ﷺ يدعو ربه تضرُّعاً وخُفْيَة، سِرّاً وجهراً، ويُكثر من الدعاء ويلحُّ فيه، ويصلي ويطيل صلاته رَغَباً ورَهَباً ويدعو مبتهِلاً إلى الله سبحانه، سائلاً وَجْهَه الكريمَ أن يَصْرِف عن أمته الكوارثَ الجائحة والعذابات المستأصِلة، كما روى ذلك عنه جمعٌ جَمٌّ من الصحابة؛ منهم: علي بن أبي طالب، وجابر بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وحذيفة، وابن عباس، وثوبان، ومعاذ بن جبل، وأنس، وأبو هريرة، وخباب بن الأرت، وشداد بن أَوْس، وغيرهم.

وقد ذكر جملةً طيبةً من تلك الأحاديث: الإمامُ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ...﴾، والحافظ ابن حجر في «الفتح» عند شرحه الحديث المتقدّم عن جابر، فأطالَ في الكلام عليه وأطابَ في بيان الخِصال التي سأل النبي ﷺ ربَّه أن يجنِّبَها الأمة الإسلامية ويَصْرِفها عنها.

وجملة تلك الخصال المُستعاذ منها إحدى عشرة خصلة:

١ ـ أن يرفع الله سبحانه عن المسلمين الرجم من السماء.

٢ ـ وأن يجنِّبهم الخَسْف من الأرض.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢)؛ والنسائي في الكبرى (١١٢٠٥) واللفظ له؛ وابن منده في الإيمان (٩٢٤)؛ والبيهقي في الأسماء والصفات: ٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٢؛ وابن حبان (٧٢٣٤) و(٧٢٣٥)؛ والبغوي (٤٣٣٧).

٣ ـ وأن يَدفع عنهم الغرق.

٤ ـ وأن لا يَهْلِكوا جوعاً.

٥ ـ وأن لا يُهْلِكَهم بسَنَة عامة.

٦ ـ وأن لا يُعَذِّبَهم بما عُذِّبَتْ به الأممُ قبلهم.

٧ ـ وأن لا يُظْهِر عليهم عدوّاً من غيرهم فيستأصِلَهم.

٨ ـ وأن لا تَكْفُر الأمة جملةً.

٩ ـ وأن لا يَجْمَعَهم على ضلالة.

١٠ ـ وأن لا يَلْبِسَهم شِيَعاً.

١١ ـ وأن لا يُذِيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ[١].

وقد استجاب الله ﷻ لنبيِّه ﷺ دعاءه في الخصال التسع الأولى، ومنعه الخصلتين الأخيرتين؛ ابتلاءً لهذه الأمة، وامتحاناً لها، وصهراً لمعدنها، وتطهيراً لها، ورفعاً لدرجتها بين الأمم ولمنازل أهلها في الجنة.

وفي الحديث المتقدّم: «**قال الله: يا جبريل! اذهَبْ إلى محمد فقُلْ له: إنا سنُرضيك في أمَّتك، ولا نسوؤك**».

●● فقد رفع الله سبحانه عن الأمة الإسلامية تلك المِحن القاسية والابتلاءات المُبْهِظة والعذابات المُهْلِكة فضلاً منه وكرماً، ثم ببركة دعوة رسولنا الكريم ﷺ الذي وصفه ربه في كتابه بأنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فلله الحمد ثم لله الحمد، وصلى الله وسلّم وبارك على نبيِّنا محمد ﷺ أزكى صلاة

---

(١) انظر: الفتح: ١٠/ ٢١٤ ـ ٢١٦ (٤٦٢٨)، والخصال (١ ـ ٦) هي موضوع المحور الأول، والخصلة (٧) موضوع المحور الثاني، والخصلتان (٨) و(٩) موضوعهما نبوءة مستقلة ستأتي برقم (١٠٦)، والخصلتان (١٠) و(١١) هما موضوع النبوءة التالية رقم (٨٧).

وأطيب سلام، وجزاه عن المسلمين خير ما جزى نبيّاً عن أمته ورسولاً عن أتباعه.

وهذه الخصال التي لم تُعذَّب بها الأمة الإسلامية، إنما يكون صرفها عنها على وجه الشمول والعموم، فالمحن والعذابات الست الأولى قد حَلَّ بعضها في الأمة، وهي مبتلاة ببعضها الآن، وسينزل بها بعض آخر في المستقبل، لكن ذلك يقع لطائفة من المسلمين دون عامتهم، وفي بعض بلدانهم ودولهم دون سائر البلاد الإسلامية، وهذا واقع مشاهد ومعروف في تاريخ الأمة قديماً وحديثاً.

•• وثبت في الأحاديث الصحيحة أنه سيكون في آخر هذه الأمة قذف وخسف ومسخ.

عن عمران بن حُصَيْن: (أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**في هذه الأمة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ**» فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله! ومتى ذاك؟ قال: «**إذا ظَهَرتِ القِيَانُ والمَعَازِفُ وشُرِبَتِ الخُمورُ**»)(١).

وعن سَهْل بن سَعْد؛ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «**يكونُ في آخِرِ أمتي خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ**»(٢).

وقد وقع بركان هائل في أرض الحجاز، وسال واد ضخم من الحمم الملتهبة، وحمى الله الأمة من شره(٣)، كذلك وقعت في بلاد المسلمين زلازل كثيرة خاصة في القرن الفائت(٤)، لكن ذلك لم يَعُمَّ جميعَ المسلمين.

•• وابتُلِي المسلمون في أزمنة متفرقة وبلدان متعددة بالغرق والفيضانات، ونزل ببعض بلادهم في السنين القريبة فيضانات كثيرة خطيرة، أهلكت الأنفس

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢١٢)؛ وصحَّحه الألباني.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٦٠)؛ وصحَّحه الألباني. والأحاديث في هذا كثيرة.
(٣) انظر: النبوءة رقم (١٦٠).
(٤) انظر: النبوءة رقم (١٦٢).

والمواشي، ودمرت القرى والمزروعات، لكن ذلك لم يكن جائحة عامة ولا كارثة شملت بلدان المسلمين فأهلكتهم.

●● كذلك حلَّ بالمسلمين الجَدْبُ والقَحْط والجوع على مرِّ التاريخ، ومن أشهر ذلك قديماً (عام الرَّمَادة) في خلافة الفاروق عمر ﷺ، فكانت مجاعة اقتصرت على بلاد الحجاز.. وما جرى منذ سنين ويحدث الآن في بلاد إسلامية معروفة كالسودان والصومال وغيرهما في إفريقية وسواها.

●● وقد عُوفي المسلمون بفضل الله تعالى من النِّقَم والابتلاءات التي استؤصِلت بها كثير من الأمم التي سبقتهم فلم يبقَ لهم من باقية! وذلك مصداق قوله ﷺ: «**أن لا يُعَذِّبَهم بما عَذَّبَ به الأممَ قبلهم**».

ويدخل في ذلك: الغرق، كقوم نوح وفرعون.

والهلاك بالريح، كعاد.

والخسف، كقوم لوط، وقارون.

والصيحة، كثمود وأصحاب مدين.

والرجم، كأصحاب الفيل.

وغير ذلك مما عُذِّبت به الأمم السالفة عذاباً عاماً، وصُرِف ذلك عن المسلمين[١].

المحور الثاني: لن يسلط الله ﷻ على المسلمين عدوّاً من غيرهم يستأصلهم:

جاء في حديث ثوبان: أن الله سبحانه قال لنبيِّه ﷺ: «**وإني أعطيك لأمتك أن لا أُهْلِكَهم بسَنَةٍ عامة، وأنْ لا أُسَلِّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيحَ بَيْضَتَهم، ولو اجتَمَعَ عليهم من أقطارها، أو قال: من بين أقطارها**».

---

(١) انظر: الفتح: ١٠/٢١٦.

وبَيْضَةُ الناس: مجتمعهم ومعظمهم، **وبيضَةُ البلد**: وسطه ومعظمه. **واستباحهم**: جعلهم مُبَاحاً، يأخذهم أسراً وقتلاً، ويتصرَّف فيهم كيف شاء[(١)].

وهذا وعدٌ إلٰهي نافذ، وفضلٌ رباني متحقق، وخبرٌ نبوي صادق، قد تجلّى مصداقُه على مدى أربعة عشر قرناً من عمر الأمة الإسلامية، وأعداؤها لا ينقطع لهم رجاء ولا يفتُر لهم تدبير ولا يهدأ لهم هجوم لتدميرها واستئصالها عقديّاً وفكريّاً وسياسيّاً وعسكريّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً وأخلاقيّاً!.

قد تعرَّضَتْ أمتنا لهجمات مدمّرة، وضربات عنيفة، وزحوف كثيرة متنوعة، ومؤامرات مستمرة، وحشود من أعداء كثيرين من الشرق والغرب؛ تلحُّ على دفن حضارة المسلمين، واستئصال وجودهم، وإذابة شخصيتهم، ومحوِ معالمهم، وابتلاع دولهم.. وكانت المنازلة بين الأمة الإسلامية وبين أعدائها سِجَالاً، يُدال لها وعليها، وتكسب الجولة تارة وتخسرها أخرى، وتعلو حيناً وتنخفض حيناً آخر، ويُصيبها القَرْح كما يُصيب أعداءها، وتألَمُ كما يألمون، لكنها ترجو من الله ما لا يرجون، مستعصمة بدينها، متشبثة بثوابتها، منافحة عن أرضها.

فكان تاريخُها بين مدٍّ وجَزْرٍ، ونَصْرٍ وهزيمة، ورفعة وضَعَة، كما تشهد الحقائق والوقائع، بَيْدَ أن عدوَّها لم ولن يستمكن من إفنائها واستئصال حياتها، فضلاً من الله ومنّةً على هذه الأمة وتحقيقاً لوعده الصادق الذي لا يتخلف، ولأنها الأمة صاحبة الكتاب المهيمن والرسالة الخاتمة.

وقد حاول الداعية المفكّر المسلم أنور الجندي في كتابه القيّم (الضربات التي وُجِّهت للانقضاض على الأمة الإسلامية) تلخيصَ زحوف الأعداء وهجوماتهم ومؤامراتهم وكيدهم المتواصل لمحو معالم الإسلام واستئصال وجود المسلمين ودفن حضارتهم، على مدى (ألف وأربعمئة سنة)، وبيانَ الحقد

---

(١) جامع الأصول: ١١/٣١٨ ـ ٣١٩ (٨٨٧٩).

المستأصل والتعاون المتكامل بين أعداء المسلمين جميعاً ووقوفهم صفّاً واحداً ضد الإسلام، رغم تباين أديانهم واختلاف مشاربهم وتنوع أهدافهم! وقد وُفِّق في بحثه ذاك إلى حدٍّ كبير، ويعتبر كتابه هذا استعراضاً تاريخيّاً وتطبيقاً واقعيّاً لهذا المحور الذي نضيء جوانبه في هذه النبوءة.

وباستقراء التاريخ القديم والوسيط والحديث، وتقليب صفحات ما كُتب على كثرته، والوقوف الطويل المتأني، والدراسة الفاحصة المنصفة، والبحث في المقدمات والنتائج، والأهداف والبواعث؛ يصل الباحث المنصف إلى القول بأن الإسلام والمسلمين قد استعصوا على كل محاولات الإفناء والاغتيال والتذويب، رغم شراستها وكثرتها واستمراريتها وتكاتف أصحابها!.

ويشمل ذلك الحملاتِ الصليبية المتلاحقة، والخرابَ الكبير الذي أحدثوه في الشرق الإسلامي، وما أزهقوه من الأنفس وأهلكوه من الأموال والثمرات.. والحروب الدامية الحاقدة على أهل الأندلس المسلمين، وما أقاموه لهم في محاكم التفتيش.. واحتلالهم لأصقاع كثيرة من بلاد المسلمين وبخاصة (بيت المقدس) الذي أقاموا على ثراه الطاهر مذابحَ تحدَّث عنها لسان التاريخ الصادق، حيث خاضَتْ خيولهم بدماء المسلمين حقيقة لا مجازاً!.

ثم بعد ذلك انقلبوا إلى بلادهم صاغرين يجرُّون أذيالَ الهزيمة، وعلى جبينهم عارُ الدمار وسفك الدماء!.

والزحوف التترية التي كانت كالريح العقيم، حيث اجتاحت ديار المسلمين وأسقطت الخلافة، ودَمْدَمَتْ على الحضارة وعَبَثَتْ بدورِ العلم وتراث المسلمين، فاسودَّت الأمواه من مداد كتبهم، واحمرَّ ترابُ الأرض من دماء أبنائهم! لكنهم لم يمكثوا طويلاً، فتصدى لهم المماليك وكسروهم، وعادوا من حيث جاؤوا! بل حدث أغرب من ذلك، فقد (استيقظَتْ أسبابُ المناعة في الأمة الجريح، وتحرَّكت طوائفُ الدعاة هنا وهناك، ووقع حدث من أعجب الأحداث

في تاريخ الدنيا، فقد أسلم التتار!)[١]، ودخل الكثير منهم في الإسلام، وأضحوا من حَمَلَة رسالته.

والكيد الشيوعي الأحمر الذي أَزْهَق من أرواح المسلمين في (الثورة البلشفية) ما يربو على (٢٥ مليوناً) من المسلمين، في البلاد التي كانت تسمّى الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي البائد.

والعدوان الهندوسي على المسلمين في (شبه القارة الهندية) بالتعاون مع الصليبية العالمية، وتجزيء تلك البلاد إلى الهند وباكستان، ثم تقطيع باكستان إلى شرقية وغربية، وما أُرِيق جراء ذلك من دماء.

وما فعله الاستعمار في القرن الفائت قُبيل سقوط الخلافة العثمانية وبعده، والفظائع التي ارتكبها في بلاد العرب والمسلمين في آسية وإفريقية يشيب لها الولدان، ويخجل منها التاريخ.

وحسبك أن الفرنسيين الصليبيين قد احتلوا الجزائر (١٣٠ عاماً)، استُشهد خلالها من أرواح الجزائريين الطاهرة (مليون ونصف المليون)! وفي مدينة (اصطيف) وحدها قتل الصليبيون (٤٥) خمسة وأربعين ألف نفس من الجزائريين، مما يسوِّد وجه فرنسا (داعية الحرية!) أبدَ الدهر.

والعدوان الحاقد الذي مارسه الصليبيون في (الفيلبين) و(إندونيسيا) و(الحبشة) و(تنزانيا) وغيرها، في محاولة لاستئصال الوجود الإسلامي هناك.

وفي السنين الخمسين الماضية وإلى الآن تتعرض البلاد العربية والإسلامية إلى عدوانات كثيرة شديدة الوطأة، في محاولات صليبية يهودية لإفناء الإسلام والمسلمين، ومن أبرز الأمثلة على ذلك الحركة اليهودية الصهيونية وقيام ما يسمّى (دولة إسرائيل) على تراب فلسطين، بدعم شرقي وغربي صليبي وشيوعي، وتآمر من عملائهم العرب والقيادات المتصهينة في بلاد المسلمين.

---

(١) علل وأدوية، ص٢٣٧؛ وانظر: جهاد الدعوة، ص٨١.

وكذلك حروب الإبادة في دول البَلْقَان، وأَذْرَبِيجان والشيشان وأفغانستان وكشمير، والعراق والصومال والسودان، وغيرها من الجراح الكثيرة النازفة في بلادنا العربية والإسلامية.

كل ذلك يؤكد وجود ذلك العدوان القديم الجديد المتواصل، في محاولة حاقدة لاستئصالنا ومحوِ اسْمِنا ورسْمِنا، ولن يتحقق لهم ذلك، والحرب بين المسلمين وبينهم سِجَال، والدورة الحضارية القادمة للإسلام بإذن الله، وهي قادمة لا محالة، وقريبة إن شاء الله.

ولولا أن الله ﷻ كتب البقاء لهذا الدين لأمسى هو وأهله رفاتاً تحت الثرى لشدة ما يلقاه من كيد وحرب وعدوان.

يقول العلّامة الداعية محمد الغزالي رحمه الله: (ولو أنَّ إحصاءً دقيقاً نُشر عن الخسائر الإسلامية بدءاً من (مصطفى كامل) إلى (أنور السادات)؛ لكانت الحقائق مفزِعة، والغريب أن الإسلام لا يزال حيّاً برغم ما كابد ويكابد من إهانات وجراحات، وبرغم ما قدَّم ويقدِّم من ضحايا وشهداء)[(١)].

ويقول في خاتمة كتابه «كفاح دين»: (إن سياسةَ تمويتِ الإسلام سوف تفشل برغم ما حُشِدَ لإنجاحها من وسائل عظيمة، ولن يكونَ حظّ الصليبية الجديدة أسعدَ من حظ زميلتها القديمة، وإن طال المدى.

ولو عَقَلَ الأوروبيون والأمريكيون لراجعوا أنفسهم، وتراجعوا عن مظالمهم، وانسحبوا ـ في هدوء وأدب ـ من بلادنا التي يحتلُّونها الآن، ويغمرونها بأفكارهم الخاطئة، وسلوكهم الشائن)[(٢)].

ورغم كل تلك الخسائر التي مُنِي بها المسلمون في العصر الحاضر، فإنهم

---

(١) علل وأدوية، ص٢١٣. توفي مصطفى كامل سنة (١٩٠٨م)، وقتل السادات سنة (١٩٨١م).
(٢) كفاح دين، ص٢٧٢.

لم يلقوا السلاح، ولا تخلَّوا عن دينهم، ولا استسلموا لعدوِّهم، مع ضآلة الإمكانات وقلة الحلفاء وكثرة الأعداء، وها هم أولاء يجهرون بالإسلام بأصواتهم العالية، وأيديهم على الزناد، وأكفُّهم ترفع القرآن، وألسنتُهم تلهج باسم القدوة العظمى رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وأنهم على طريقهم سائرون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

● دروس وعبر:

من خلال تبيان مدلولات هذه النبوءة والعرض التاريخي لتحققها؛ تتجلَّى لنا وقفات كثيرة وعِبَر جليلة ودروسٌ نافعة، نشير إلى أبرزها:

١ ـ رحمة الله سبحانه بهذه الأمة، وتكرُّمه باستجابة دعوة نبيِّه ﷺ في حفظ الأمة الإسلامية من النِّقَم الجائحة والعذابات المستأصِلة.

٢ ـ كرامة نبيِّنا محمد ﷺ على ربِّه، وعلوُّ منزلته عنده، باستجابته دعواته، وإرسال جبريل سفيراً له ليخبره بأنه لن يسوءَه في أمته.

٣ ـ شفقةُ رسول الله ﷺ على أمته، وحرصُه على صلاحها وفلاحها، وحبُّه لها وسعيُه الدؤوب في تجنيبها كل أسباب الهلاك والفناء والضلال.

٤ ـ فضلُ الأمة الإسلامية وكرامتُها على ربها سبحانه، كما يتجلى ذلك في استجابة دعاء النبي ﷺ في وقايتها من ألوان نِقَم الاستئصال، وما يقع يكون محدوداً للاختبار والاعتبار وتصحيح المسار.

٥ ـ خلودُ الإسلام وبقاؤه إلى قيام الساعة، وهذا يقتضي خلودَ الأمة التي تحمل رسالته الخالدة الخاتمة.

٦ ـ الأمة الإسلامية أمة عزيزة منصورة، وما يعتورها من هزائم ونكبات عبر تاريخها فبسبب ضَعْف أهلها وتقصيرِهم في القيام بواجباتهم تجاه دينهم، لكن العاقبة لهم بالنصر والتمكين.

٧ ـ التحذير من الاختلاف والمعاصي والذنوب التي تستجلب السنن الكونية

من أصناف المحن والبلاء في القحط والجَدْب والجوع والغرق والخَسْف وغيرها.

٨ ـ أهميةُ الدعاء ووجوبُه في اللجوء الدائم إلى قيوم السموات والأرض في رفع البلاء ودفع العذاب والنقمة، واستجلاب الرحمة والرشاد والنصرة منه سبحانه.

٩ ـ الثباتُ على هذا الدين، والثقةُ بانتصاره واستمرار دعوته مهما ادلهمَّت الخُطوب والمحن، وبثُّ روح الأمل في الأمة، والاعتبارُ بالتاريخ وحوادثه بأن النصر والبقاء في النهاية للإسلام وأهله.



٨٧

إخبار النبي ﷺ بأنه إذا وضع السيف على هذه الأمة لم يرفع عنها إلى يوم القيامة وأن بأس المسلمين بينهم

١ ـ عن ثَوْبَانَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إذا وُضِعَ السَّيفُ في أمَّتي لم يُرْفَعْ عنها إلى يومِ القيامةِ»**[١].

٢ ـ وعن ثوبانَ رضي الله عنه ـ في حديث طويل ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّما أَخافُ على أمَّتي الأئمةَ المُضِلِّينَ، وإذا وُضِعَ السَّيفُ في أمَّتي لم يُرْفَعْ عنها إلى يومِ القيامةِ»**[٢].

٣ ـ وعن شدَّاد بنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قال: قال نبيُّ الله ﷺ: **«إنِّي لا أَخافُ على أمَّتي إلا الأئمةَ المُضِلِّينَ، وإذا وُضِعَ السَّيفُ في أمَّتي لم يُرْفَعْ عنهم إلى يومِ القيامةِ»**[٣].

٤ ـ وعن خَبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سألتُ ربِّي أنْ لا يُهْلِكَنا بما أَهْلَكَ بهِ الأُمَمَ قَبْلَنا؛ فأَعْطانِيها، وسألتُ ربي أنْ لا يُظْهِرَ علينا عدوّاً من غيرِنا؛ فأَعْطانِيها، وسألتُ ربِّي أنْ لا يَلْبِسَنا شِيَعاً؛ فمَنَعَنِيها»**[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٠٢) وقال: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩)؛ وابن حبان (٧٢٣٨) واللفظ له؛ وانظر تتمة تخريجه: ٣/ ١٣ حاشية (١) (في هذا المجلد).

(٣) أخرجه ابن حبان (٤٥٧٠) واللفظ له؛ والداني (٥٤)؛ وأخرجه أحمد بأطول مما هنا: ٤/ ١٢٣؛ وذكره ابن كثير في تفسيره: ٢/ ١٨١، تفسير الآية (٦٥) من سورة الأنعام، وقال: إسناده جيد قوي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٤) أخرجه النسائي وغيره؛ وانظر تتمة تخريجه: ٣/ ١٤ حاشية (٢) (في هذا المجلد).

٥ ـ وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: (رأيتُ رسولَ الله ﷺ في سفرٍ صلَّى سُبْحَةَ الضُّحى ثمانيَ ركعاتٍ، فلما انْصَرفَ قال: «**إنِّي صلَّيتُ صلاةَ رغبةٍ ورَهْبةٍ، فسألتُ ربِّي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدة: سألتُه أنْ لا يَقْتُلَ أمَّتي بالسِّنِينَ؛ فَفَعَلَ، وسألتُه أنْ لا يُظْهِرَ عليهم عدوّاً؛ ففعلَ، وسألتُه أنْ لا يَلْبِسَهُم شِيَعاً، فأبَى عليَّ**»)[١].

وروى نحوَ حديثِ أنسٍ جماعةٌ آخرون من الصحابة، وفي حديثهم الفصلُ الأخير: «**وسألت ربي أن لا يَلْبِسَهم شِيعاً**»، «**وأن لا يُذِيق بعضَهم بأسَ بعض**».. منهم: سعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وابن عباس، ومعاذ بن جبل[٢]، وأبو بَصْرَة الغِفَاري[٣]، وخالد الخُزَاعِي[٤].

❁ ❁ ❁

أولاً: بين يدي النبوءة:

كان رسول الله ﷺ رحيماً بأمته، مشفِقاً عليها، حريصاً على سلامتها وعافيتها وتجنيبِها كلَّ ما يُعْنِتها أو يؤذيها، فحَرَص على الإكثار من الدعاء لها، ورجاءِ ربِّه سبحانه أن يتلطَّف بها، فكان يدعو الله رغَباً ورَهَباً في صلاته ومختلِف أحواله، وأخبر أمتَه بما رفعه الله سبحانه عنها من أنواع المحن والنِّقم، وأعلمَ المسلمين بما لم يُستجبْ له من ذلك، ليحذروه ويجتنبوه ويجتهدوا في أن لا يقعوا في مَغَبَّته، وتجري عليهم السُّنَن الكونية التي لا تحابي أحداً.

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ١٤٦، ١٥٦؛ والنسائي في الكبرى (٤٨٩)؛ وأبو نعيم في الحلية: ٨/ ٣٢٦؛ والحاكم: ١/ ٣١٤، واللفظ له؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) انظر النبوءة السابقة: ٣/ ١٣ ـ ١٥ مع الحواشي.

(٣) أخرجه أحمد: ٦/ ٣٩٦؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند: ٤٥/ ٢٠٠.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٤١١٢ ـ ٤١١٤)؛ وأبو يعلى في آخر المفاريد (١١٣)؛ والحسن بن سفيان؛ والطبري في تفسيره؛ وقال الحافظ في الإصابة: ١/ ٤١٥ ـ ٤١٦ (٢٢٠٩): رجاله ثقات.

وتبيِّن الأحاديث التي قدّمناها أن المسلمين إذا اختلفوا وتدابروا وصاروا شِيعاً وفِرَقاً، وتنازعوا وتناكروا وتناحروا ورفعوا السيف في وجوه بعضهم بعضاً، حلَّ بهم البأسُ والشدة وإزهاقُ الأرواح، وبقي السيف مسلولاً من غمده إلى يوم القيامة.

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «لمَّا نزلَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِك**»، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «**أَعُوذُ بِوَجْهِك**»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال رسول الله ﷺ: «**هذا أَهْونُ**، أو: **هذا أَيْسَرُ**»»[1].

ومعنى ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ كما جاء في التنزيل الحكيم، واستعاذ منه النبي ﷺ في الحديث الصحيح: أي: يجعلكم فِرقاً يُقاتل بعضكم بعضاً، وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي بالحرب والقتل في الفتنة[2].

وقال الطِّيبي: (أي: يجعل كلَّ فرقةٍ منكم متابعةً لإمام، وينشب القتال بينكم، وتختلطوا وتشتبكوا في ملاحم القتال، يَضرب بعضُكم رقابَ بعض، ويُذيق بعضَكم بأسَ بعض)[3].

ثانياً: تحقق النبوءة في الواقع التاريخي:

●● ابتدأ تحقق وقوع هذه النبوءة بعد وفاة النبيّ ﷺ بنحو خمس وعشرين سنة، ولا تزال واقعة في الأمة إلى أيامنا هذه، كما نَطقت بذلك تلك الأحاديث الصحاح.

---

(١) البخاري (٤٦٢٨)؛ وانظر تتمة تخريجه: ٣/ ١٦ حاشية (١) (في هذا المجلد).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١٢؛ وانظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ١٧٨، ١٨٣.

(٣) تحفة الأحوذي: ٦/ ٢٦.

وكانت البداية في أواخر عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، عندما تألَّبَتْ عليه قوى الشر والعدوان التي قاد جحافِلَها السبئيُّون المجرمون، وسَفكوا دمَه الحرام في البلد الحرام والشهر الحرام، فسَنُّوا بذلك سُنةً سيئةً في تجريد السيف من غِمده وتسليطِه على رقاب المسلمين، فعليهم وِزرُ تلك الكبيرة ووزرُ مَن عمل بها إلى يوم القيامة!.

ومنذ ذلك اليوم وُضِع السيفُ على رقاب الأمة، ولا يزال مُصْلَتاً إلى هذه الأيام، وسيبقى كذلك إلى قيام الساعة، كما أخبر النبي ﷺ، يُشْهَر أحياناً ويُغمد أحياناً أخرى، حسب حالات المد والجزر في تاريخ المسلمين واستعصامهم بدينهم وتمسكهم بمنهج الكَفِّ عن الدماء وتضييقِ الخِناق على الخلافات، أو بُعْدِهم عن هدي الإسلام وولوغِهم في شِعَاب الخِلاف واسترخاص الأنفس والأرواح.

قال حذيفة بن اليَمَان رضي الله عنه: (أولُ الفِتن قتلُ عثمان، وآخِرُ الفتنِ خروجُ الدجال).

وقال عبد الله بن سَلَام رضي الله عنه: (لقد فتح الناس على أنفسِهم بقتلِ عثمانَ بابَ فتنةٍ لا ينغلقُ عنهم إلى قيام الساعة)[1].

وباستشهاده مَرِجَ أمرُ المسلمين واضطربت كلمتُهم وتفرَّق صفُّهم وتصدَّعت وحدتهم، فخرج جماعة من الصحابة منهم الزبير بن العوام وطلحة بن عُبيد الله وأم المؤمنين عائشة إلى البصرة ليتقوَّوا بأهلها ويَنضموا إلى أمير المؤمنين علي ليبطش بقوة بقتلة عثمان، فحرَّك أهلُ الشر الفتنةَ وسعَّروا الخلاف؛ فكانت (وقعة الجمل) وجرت فيها أُولى الدماء النازفة بعد استشهاد عثمان، وظَهر مِصداقُ قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، وقوله ﷺ: «**وسألتُ ربِّي أنْ**

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٤٣٤ ـ ٤٣٥.

لا يجعلَ بأسَهم بينهم فمَنَعَنِيها»[(١)]، وقوله: «**وسألتُ ربِّي أنْ لا يَلْبِسَنا شِيَعاً، فمَنَعَنِيها**»[(٢)].

عن مُطَرِّف بنِ عبد الله بن الشِّخِّير قال: (قلنا للزبير رضي الله عنه: يا أبا عبد الله! ما جاءَ بكم؟ ضَيَّعْتُم الخليفةَ حتى قُتل، ثم جِئتُم تَطْلُبون بدمِه! قال الزبير رضي الله عنه: إنَّا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، لم نكنْ نَحْسِب أنَّا أهلُها، حتى وَقَعَتْ منَّا حيثُ وَقَعَتْ)[(٣)].

ثم كانت (وقعة صفين) بين علي في أهل العراق ومعاوية في أهل الشام، وبعدُ حرب علي للخوارج وإخماد نار فتنتهم، وأعقبها استشهاد علي على يد أحد الخوارج.

●● والتأَمَ صفُّ المسلمين سنة (٤١هـ) في عام الجماعة، وبدأت الدولة الأموية بمعاوية إلى سنة (٦٠هـ)، وفي أوائل عهد يزيد بن معاوية سُلَّ السيفُ من جديد، وحدثت خُروق وفُتوق، ونَزفت دماء، فكان مقتل الحسين بن علي، ووقعة الحَرَّة بالمدينة المنورة.

وفي عهد الأمويين كان اقتتال مروان بن الحَكَم مع الضحَّاك بن قيس وظفرُهُ به، وانقسامُ المسلمين إلى (مروانية) يبايعون مروان، و(زُبيرية) يتبعون عبد الله بن الزبير، حتى كانت خلافة عبد الملك بن مروان الذي جرَّد لابن الزبير سيفَ الحجاج فحاصره بمكة وقتله! وكذلك وقعت حروب ابن الأشعث الدامية.

●● وجاءت سنة (١٣٢هـ) حيث أَفَلَتْ شمسُ الدولة الأموية على يد

---

(١) مسلم (٢٨٩٠)، وقد مرّ: ٣/ ١٤.

(٢) النسائي في الكبرى (١٣٣٤)، وقد تقدم: ٣/ ١٤.

(٣) أخرجه أحمد: ١/ ١٦٥، ١٦٧، واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (١١١٤٢)، وصحَّحه أحمد شاكر؛ وانظر ما أورده ابن كثير في تفسيره للآية المذكورة: ٢/ ٣٧٤.

العباسيين الذين أقاموا مجزرة رهيبة لبني أمية في دمشق، وطاردوا الخليفة إلى أن قتلوه بمصر.

ووُضِع السيف على رقاب الأمة في أحداث كثيرة، وتغايرت الأنفس، وأصبح بأسُ المسلمين بينهم، وذاقَ بعضُهم بأسَ بعضٍ، ومن أمثلة ذلك: خروج محمد النفس الزكية بالمدينة وأخيه إبراهيم بالبصرة، فتصدَّى لهما أبو جعفر المنصور، وجرت وقائع انتهت بمقتلهما وهزيمة جيشيهما.. وتصارع الأخوان الأمين والمأمون على السلطة على مدى ثلاث سنوات، سُفِكت فيها دماء، وانتهت باستقرار الأمر للمأمون.

ونشأت ضمن جسم الخلافة دويلات كالطاهرية والسامانية والصفارية والطولونية والإخشيدية والبويهية، وجَرَتْ أحداث وفتوق، وأصبح الناس شِيَعاً، والتبس أمر الأمة، وأُهرِقت دماء وأُزهِقت أنفس أَحدثت في جسم الدولة الأم خروقاً غائرة.

●● ومن أبرز الأمثلة على انقسامِ الأمة إلى شِيَع وفِرق، وتنافرِ المسلمين وتناكُرِ قلوبهم، وانقلابِ بأسِهم بينهم؛ ما حَدث في (الأندلس) من خلافات وصراعات بين ملوك الطوائف المتهارشين على كرسي الحكم، وما أعقب ذلك من دماء نازفة وهوان المسلمين وذهابِ ريحهم!.

وقُلْ مثلَ ذلك في الصراعات والصدامات الكبيرة والصغيرة في عهد الأيوبيين والمماليك، وبعض فترات الحكم العثماني حيث كان يتولى الحكم أحياناً بعض الصبيان، وانقلاب جيش الانكشارية على السلاطين في أحايين كثيرة، وما جرى خلال ذلك من قَتْل ذريع.. هذا فضلاً عن الصراع المرير بين الدولة العثمانية والدولة الإيرانية الصفوية التي قامت في مواجهة الخلافة العثمانية والحدِّ من سلطانها الذي بلغ إلى قلب أوروبة.

يقول أحمد الخولي في كتابه «الدولة الصفوية»: (وقد قُوبِلت طموحاتُ الصفويين بارتياحٍ بالغٍ من جانب الأوروبيين، الذين توسَّموا خيراً في تنامي

قوَّتهم، وقدَّروا أن الطموحَ الصفوي كفيلٌ بإرباك العثمانيين وتشتيتِ قوتهم، وهم الذين باتوا يشكِّلون خطراً يهدِّد أوروبة، بعدما زَحفت الجيوش العثمانية باتجاهها).

حتى قال أحدُ السفراء الغربيين لدى البلاط العثماني واسمه (بوسيك): (إن الإيرانيين وحدَهم هم الفاصل بيننا وبين الهلاك!).

ويصف أحمد الخولي الدورَ الخطير الذي لعبَتْه الدولة الصفوية في محاربة العثمانيين، فيقول: (إنها الدولة التي ساعدت على أن يعرف الأوروبيون طريقهم إلى الخليج بخاصة، والشرق الأوسط بعامة، ففَتَحت بذلك الباب أمام عصر جديد هو عصر الاستعمار)[١].

●● وقد فَنِي من المسلمين خلال ذلك الزمان المتطاول آلاف كثيرة من الأنفس، نتيجة التطاحن على الملك أو الخلافات المذهبية أو الخروج على السلطان أو نشوء الفِرق الضالة أو العصبيات للجنس أو العائلة، فأساء أولئك جميعاً لدينهم وأمتهم وأنفسهم، بما تسبَّبوا به من وَضْعِ السيف في الأمة وإهلاكِ الحَرْث والنسل.

وصَدَق فيهم ما رواه سَلَمة بن نُفَيْل ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**إنِّي غيرُ لابثٍ فيكم، ولَسْتُم لابِثينَ بَعْدي إلا قليلاً، وستأتُوني أَفْنَاداً، يُفْنِي بعضُكم بعضاً!**»[٢].

وحديث ثوبان: «**حتى يكونَ بعضُهم يُهْلِك بعضاً، ويَسْبِي بعضُهم بعضاً**»[٣].

●● وبعد سقوط الخلافة العثمانية وقع العرب والمسلمون تحت سيطرة

---

(١) نقلاً عن كتاب: «الضربات»، للجندي، ص٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٧٧٧)، وغيره، وهو حديث صحيح؛ انظر تخريجه وشرحه في النبوءة (٤٠).

(٣) تقدّم: ٣/ ١٣ حاشية (١).

الغرب الصليبي، الذي أذلَّ الشعوبَ وسفك الدماء ونهب الخيرات وخرَّب البلاد، لكنه عجز عن استئصال الإسلام ومحوِ وجوده وإزالةِ كيانه؛ مصداقاً لوعدِ الله ﷻ لنبيِّه ﷺ: «**وإني أُعطيك لأمَّتِك أنْ لا أُهْلِكَهم بسَنَةٍ عامة، وأنْ لا أُسَلِّطَ عليهم عدوّاً من سِوى أنفسِهم فيستبيحَ بَيْضَتَهم**»[١].

وهذا من فضل الله تعالى على هذه الأمة ورحمته بها أن لا يجمع عليها ابتلاءين كبيرين؛ إبقاء على أصلها، ليقوم أهلها بحركة إحياء وحياة ونهضة من جديد.

وفي الحديث الصحيح عن عَوْف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**لنْ يَجْمَعَ الله على هذه الأمَّةِ سيفَيْنِ: سيفاً منها، وسيفاً من عدوِّها**»[٢].

واستمرت المِحن وازداد البلاء في عهد المُلْك الجبري والحكم الاستبدادي، حيث تقاتل الناس على الحكم وتكادَمُوا عليه تكادُمَ الحُمُر، ونشأت فِرق ومذاهب ومِلَل ونِحَلٌ وبِدَعٌ وأهواء، وتفرَّقت الأمة شِيَعاً متنافرة متناحرة، في بلدان كثيرة من أرض الإسلام.

والمتأمل لتاريخ المسلمين في القرن المنصرم يدرك قسوةَ السيف الذي ضُرِب على رقاب الأمة الإسلامية، وكثرةَ الأرواح التي أُزهقت، والجراح التي تنزف من جسم الأمة المثقلة بالآلام المُبْهِظة، والبأس الشديد بين شعوب المسلمين الذي أذاقه بعضُهم بعضاً، أو تجرَّعَتْه الشعوب من طغاة الحكم الجبري بسبب خلافاتهم فيما بينهم أو مع شعوبهم.

ولن يُضْنِيَ القارئَ البحثُ عن الأمثلة والشواهد الشاخصة في هذا، فمن ذلك:

الحرب العراقية الإيرانية، والحرب العراقية الكويتية، والقتال في الجزائر،

---

(١) هذا طرف من حديث ثوبان المتقدّم: ٣/ ١٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠١)؛ وأحمد: ٦/ ٢٦، وصحَّحه الألباني.

وفي السودان في دارفور، وفي الصومال بين الحكومة والمعارضة الإسلامية والوطنية، وفي أفغانستان بين المجاهدين والحكومة العميلة، وفي فلسطين وما يجري من قتال بين الفصائل المختلفة، وفي الباكستان، واليمن، والعراق، و. . . وغير ذلك من الخلاف والشقاق والتناحر الذي أَزهق من الأرواح ما لا يعلم عددَه إلا الله!.

ثالثاً: دروس وعبر:

١ ـ إنَّ تعارُكَ الكثيرين على السلطة واقتتالَهم على الحكم بصورة وَصَفَهم النبي ﷺ معها بأنهم: «**يَتَكادَمُون عليه تَكَادُمَ الحُمُر**»[1]؛ قد أحدث في جسم الأمة جروحاً غائرة لا ترقأ، وأساء في إضعاف كيانها، وتسبَّب في تسليطِ السيوف على عنقها وسيلانِ دماء غزيرة بريئة على مدى مسيرتها التاريخية الطويلة. . وأصابعُ الاتهام توجَّه إلى الحكام والأمراء والمسؤولين والنُّخَب السياسية وقيادات الجماعات والهيئات؛ بما أوصلوا الأمة إليه في واقعها الجريح ومصيرها الكابي الذي هي عليه.

٢ ـ كان من نتائج التطاحن على الملك والتنازعِ في الإمارة وكيدِ المسلمين بعضهم بعضاً؛ أن خُضِّدت شوكتُهم وتمزَّق صفُّهم وذهبتْ رِيحُهم واعتلَّت دولتهم، فاجترفتهم الحملات الصليبية المتلاحقة، وغارات التتار الماحقة، وسقطت دولة الخلافة مرة تلو الأخرى، وغربَتْ شمسُهم عن الأندلس وفي أوروبة الشرقية وشبه القارة الهندية وسواها، مع ما رافق ذلك من تشريد وتطريد وإهلاك الحرث والنسل ومحوِ معالم الحضارة.

٣ ـ الاختلاف والفُرقة وتوزُّع أمر الأمة وتحوُّلُها إلى شِيَع يشتد بأسُها بينها، وإثارة القومية والوطنية والإقليمية والطائفية، والعنصرية والعصبية للعرب أو الترك أو الفرس أو البربر، وإذكاء روح الفِرق الضالة والحركات الهدّامة كالقرامطة والبهائية والقاديانية والعلمانية والوجودية والحداثة وأمثالها؛ كل ذلك مما يشجّع

---

(١) انظر الحديث وشرحه في النبوءة (٧٢).

أعداء الأمة المتربصين في الغرب والشرق والداخل والخارج على تقطيع أوصال الأمة، وتفتيتها إلى شعوب وأمم شتى يتمسك كل منها بأرضه وجنسه وعرقه وقوميته، ويسهِّل افتراسَها على العدو الغازي.

٤ ـ يجبُ إعظامُ أمر الدماء ووحدة الأمة واجتماع كلمتها والتئام شملها، من قبل أي قائد أو حزب أو جماعة أو هيئة، ومراعاة كل ذلك والحرص عليه ووضعه في قائمة الثوابت والأولويات التي لا يجوز انتهاكها، وأي خلل في ذلك يزيد من استمرار وَضْعِ السيف على رقاب الشعوب وتوزُّعِها شِيعاً وجعلَ بأسها بينها.

٥ ـ من المتوجِّب على قيادات الأمة والعمل الإسلامي والوطني من الحُرَّاص على إحياء الأمة وإعادتها إلى أمجادها التالدة وقيامها في صفوف الريادة، الحفاظ على الكليات وتقديمُ الأولويات والإعذارُ في الجزئيات والاجتهاديات، وعدمُ التهارشِ حولها، وتضييعِ الجهود والأوقات والأجيال في الاحتراب عليها، سعياً إلى توحيد الكلمة والعمل في جهود متعاونة متكاملة لا متفرقة متناكرة.

٦ ـ يجب الاعتبار بأحداث التاريخِ وإعادة النظر في رسالتنا الكبرى، لا لتغيير شيء من أصولها، فمعاذَ اللهِ أن يجريَ على خواطرنا هذا الإفك، وإنما لنغيِّر من أسلوبنا في تطبيق بعض التعاليم، على ضوء ما وعينا من تجارب وما جَدَّ في الحياة من أحداث كبار.

إننا في مدى أربعة عشر قرناً أَصبنا كثيراً من الأرباح وكثيراً من الخسائر، وجديرٌ بنا أن نتعرف سِرَّ ربحنا وخسارتنا، ومقدارَ ما بقي لنا أو علينا، وهل أحسنَّا أو أسأنا في عَرْض الدعوة التي ناطَتْها الأقدار بنا[1]؟!.

٧ ـ الإسلام بحقائقه الكبرى وثوابته الراسخة قائم في الأمة، وقد تكفَّل الله

---

(١) ظلام من الغرب، ص٣٠٥.

بحفظه، وأقام في الأمة الطائفةَ المنصورة والمجدِّدين لاستمرار حمايته وإحيائه. والمسلمون يَضْعُفون ويتراجعون، لكنهم لن يموتوا ويزولَ أثرهم، وحوادث التاريخ الجسام أثبتت ذلك. ومع فداحةِ الخطوب وجلالةِ المصائب الجائحة؛ تُخرِج الأمة من أحشائها من يرفع رايتها.

فمع توالي الحملات الصليبية على أمتنا، وتوزعها إلى دويلات، خرج من فجر تاريخها أمثال عماد الدين زنكي وابنه نور الدين الشهيد ثم صلاح الدين، فطَردوا العدو الغازي بعد أن كسروه، وأعادوا مجد الأمة ورفعوا رايتها خفّاقة شامخة.

ومع زحوف التتار الوحشية قيَّضَ الله للأمة رجلاً مملوكاً انتقل من إسار الرقِّ إلى عرش السلطة، وخرج من صفوف العبيد المعروضين في سوق النَّخَاسة ليقودَ صفوف المقاتلين ضد التتار ويُلحق بهم هزيمة منكرة فاخرَ بها التاريخُ، إنه المُظَفَّر قطز!.

والآن مع الزحوف الوحشية من الغرب الصليبي والإلحاد الشيوعي والكيد اليهودي؛ ينبثق ضياءُ صحوة مباركة قد عَمَّ نورُها العالمَ الإسلامي، والأملُ معقود عليها بأن تحمل الراية وتعيد أمجادنا من جديد.





إخبار النبي ﷺ بتضييع الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (بَيْنَما النبيُّ ﷺ في مجلسٍ يحدِّثُ القومَ، جاءَهُ أَعْرابيٌّ، فقال: متى الساعةُ؟ فمضَى رسولُ الله ﷺ يحدِّثُ، فقال بعضُ القومِ: سَمِعَ ما قالَ فَكَرِهَ ما قالَ، وقال بعضُهم: بَلْ لم يَسْمَعْ. حتى إذا قضَى حديثَهُ قال: «**أينَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عنِ الساعةِ؟**» قال: هَا أَنا يا رسولَ الله، قال: «**فإذا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فانْتَظِرِ السَّاعةَ**» قال: كيفَ إِضاعَتُها؟ قال: «**إذا وُسِّدَ الأَمْرُ إلى غيرِ أَهْلِهِ فانْتَظِرِ الساعةَ**»)[1].

❁ ❁ ❁

أولاً: نبذة حول معاني الحديث ومدلولاته وآفاقه:

●● قوله: «**إذا وُسِّد**»: أي أُسْنِد، وأصلُه من الوِسادة، وكان من شأن الأمير عندهم إذا جلس أن تُثنى تحته وسادة.

والمراد من «**الأمر**» جنسُ الأمور التي تتعلق بالدين كالخلافة والإمارة والقضاء والإفتاء وغير ذلك.

ومعنى «**إذا أُسْنِد[2] الأمر إلى غير أهله**»: أن الأئمة (الحكام) قد ائتمنَهم الله

(١) أخرجه البخاري (٥٩) و(٦٤٩٦) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٣٦١؛ وابن حبان (١٠٤)؛ والبيهقي في السنن: ١٠/ ١١٨؛ والداني (٣٨١)؛ والبغوي (٤٢٣٢).

(٢) هذه رواية ثانية للبخاري.

تعالى على عباده وفَرَضَ عليهم النصيحةَ لهم، فينبغي لهم توليةُ أهل الدين، فإذا قلَّدوا غيرَ أهل الدين فقد ضَيَّعوا الأمانة التي قلَّدهم الله تعالى إياها[١].

وقال المُنَاوِيُّ: (وإنما دَلَّ على دنوِّ الساعة لإفضائِه إلى: اختلالِ الأمر والنهي، ووهنِ الدين، وضعفِ الإسلام، وغلبةِ الجهل، ورفْعِ العلم، وعجزِ أهلِ الحق عن القيام به ونصرتِه)[٢].

•• وتولِّي الصلحاءِ الأمناءِ الأقوياء ذوي الكفاءات العالية والخبرات الطويلة والحرصِ على مصالح الأمة، وقيادتها نحو العزِّ والمجد والكرامة، والحفاظ على هويتها والدفاع عن ثوابتها؛ من أهم الأركان التي تقوم عليها دولة الإسلام ويَسعد بها الناس وترتفع كلمتهم ويعلو سلطانهم.

كما أن السطْوَ على منابر الحكم ومعاقدِ المسؤولية ومؤسسات البناء والتوجيه في الأمة من قِبل الصغار الوضعاء ذوي العزائم الهابطة والغايات الساقطة والسِّيَر الرديئة والأهواء الجامحة؛ هو الداء العُضَال والوباء الفتّاك الذي يصيب جسمَ الأمة في مقاتلها ويُفْسِد عليها أمور الدين والدنيا، ويدمِّر ماضيها وحاضرها ويهدِّد مستقبلها بالخسار والبوار، ويصبح الأمر كما قال الشاعر:

أَيَا دهرُ أَعْمَلْتَ فِينا أَذَاكا ... وَوَلَّيْتَنا بعدَ وجهٍ قَفَاكا
قَلَبْتَ الشِّرارَ عَلَيْنا رُؤوساً ... وأَجْلَسْتَ سِفْلَتَنا مُسْتَواكا
فَيَا دهرُ إنْ كنتَ عادَيْتَنَا ... فَهَا قَدْ صَنَعْتَ بِنَا مَا كَفَاكَا[٣]!

•• وحفظُ الأماناتِ دِقِّها وجِلِّها، كبيرِها وصغيرِها، مغنمٌ كبير للعباد والبلاد، وفوزٌ عظيم في المبدأ والمعاد.

عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسولَ الله ﷺ قال: «**أربعٌ إذا كُنَّ**

---

(١) الفتح: ١/ ٢٧٧، ١٤/ ٥١٣ (٦٤٩٦).
(٢) فيض القدير: ١/ ٤٥١.
(٣) التذكرة، للقرطبي، ص٥٨٥.

فِيكَ فلا عليكَ ما فاتَكَ من الدنيا: حِفْظُ أمانةٍ، وصِدْقُ حديثٍ، وحُسْنُ خَليقةٍ، وعِفَّةُ طُعْمَةٍ»(١).

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الخازنَ المسلمَ الأمينَ الذي يُنْفِذُ** ـ وربما قال: **يُعْطِي** ـ **ما أُمِرَ به، فيُعْطِيهِ كاملاً مُوَفَّراً، طيِّبةً به نَفْسُه، فَيَدْفَعُه إلى الذي أُمِرَ له بِهِ؛ أحدُ المُتَصَدِّقَيْنِ**»(٢).

والخازنُ يشمل كلَّ مَن وَلِي أمانة في أموال الأمة، من أكبر رأس فيها إلى أصغر موظف، ويَنتظم ذلك سلطانَ البلاد ووزراءَ المالية والتجارة والصناعة والدفاع والزراعة وما يُجبى من أموالِ وزارات العمل والكهرباء والمواصلات والبلديات ونحوها.. وكل ذلك مما استُؤْمِن عليه أولئك الرجال القائمون في تلك المناصب، وسيُسأل كلٌّ منهم عمّا استرعاه الله واستأمنَتْه الأمة عليه.

●● ومن أخطر تلك الأمانات (المال العام) الذي يتقاطر إلى خزائن دول المسلمين من البترول والغاز والخامات المعدنية والكنوز الأرضية الفياضة، والتي حصل عليها عدوان عريض منظَّم وإفسادٌ كبير من أولئك الذين عَبَثوا بها، وسيَسألهم الله ﷻ عن النَّقير والقِطْمير، ولن يُفلِت أحدٌ من عدالته، ولا يَظلم ربك أحداً.

وكلما ارتفع منصب الرجل واتسع سلطانُه على العباد والبلاد؛ كلما كانت أمانته أخطرَ ومسؤوليته أعظمَ ووقفتُه بين يدي الله أطولَ، ولأجلِ ذلك جعل الله سبحانه الحاكم العادل مع السبعة الذين يُظلّهم في ظِلّه يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه.

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/١٧٧، واللفظ له؛ وابن وهب في الجامع (٨٤)؛ والخرائطي في مكارم الأخلاق، ص٦، ٢٧، ٥٢؛ والحاكم: ٤/٣١٤؛ وصحّحه الألباني في الصحيحة (٧٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٨)؛ ومسلم (١٠٢٣) واللفظ له؛ وأبو داود (١٦٨٤)؛ والنسائي في الكبرى (٢٣٥٢)؛ والصغرى: ٥/٧٩ ـ ٨٠؛ وأحمد: ٤/٣٩٤، ٤٠٤ ـ ٤٠٥؛ وابن حبان (٣٣٥٩).

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلّكُم راعٍ وكلُّكُم مسؤولٌ عن رعيَّتِه: فالإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّتِه، والرجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عن أهلِه، ...**»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استَرْعَاهُ: أَحَفِظَ ذلك أَمْ ضَيَّعَ؟! حتى يَسألَ الرجلَ عن أهلِ بيتِه**»[(٢)].

ومن أكبر الأمانات التي تُناط بالدولة ورجالِها والقائمين عليها حفظُ الشعائر وحمايةُ الشرائع، فالدولة المسلمة مسؤولة عن تقديس الصلاة والصيام والزكاة وغيرها، كما أنها مكلَّفةٌ برعاية حقوق الله وإشاعة تقواه وتوطيد وقاره وتقديس اسمه... وتقصيرُها في أي شيء من ذلك هو خيانة للأمانة! ونحن نعرف كيف نهضَتْ دولةُ الخلافة أيام أبي بكر إلى مقاتلة مانعي الزكاة، وسَيَّرت الجيوشَ لمقاتلتهم جنباً إلى جنب مع المرتدين عن الإسلام!.

●● وقد عرف سلفُنا من لَدُن الخلفاء الراشدين فَمَن بعدَهم من حكام صالحين وملوك عادلين وأمراء مؤتَمَنين؛ ما للأمانة من قداسة وجلالة، كما عرفوا شمولَ مفهومها لكل ما يؤتمن المرء عليه من منصب أو وظيفة أو مسؤولية تَهمُّ المسلمين ودينَهم ودعوتهم ودولتهم وشؤون دنياهم وآخرتهم، والقصص في ذلك كثيرة.

منها: ما رواه عبد الله بن وَهْب قال: حدَّثني عبد الله بن عيَّاش، عن أبيه: (أن يزيد بن المُهَلَّب لمَّا وَلي خراسانَ قال: دُلُّوني على رجلٍ كاملٍ لخصالِ الخير، فَدُلَّ على أبي بُرْدَة بن أبي موسى الأشعريِّ، فلما جاءه رآه رجلاً فائِقاً، فلما كلَّمه رأى مَخْبَرَتَه أفضلَ من مرآتِه، قال: إنِّي ولَّيْتُكَ كذا وكذا من عملي، فاستعفاه، فأبَى أن يُعْفِيَه...)[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)؛ ومسلم (١٨٢٩)؛ وابن حبان (٤٤٩٠) واللفظ له؛ وغيرهم.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٩١٢٩) واللفظ له؛ وابن حبان (٤٤٩٢)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٣) مرَّت القصة بتمامها: ٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

وفي بلادنا العربية والإسلامية وخلال أزمنة متعددة وفي مواقعَ مختلفة؛ نجدُ الأمانة قد ضُيِّعَتْ وانتُهِكت حرماتُها من أعلى مستوياتها في مؤسسات الدولة وحتى أدناها، وخاصة في القرن الفائت، فقد مَرِجَ أمرُ الناس واجتاحَتْهم السنوات الخَدَّاعات، وهَلَك الوُعول، وارتفع التُّحوتُ، وائْتُمِن الخائن، وخُوِّنَ الأمين، وتكلَّم الرُّوَيْبِضَة، وأَقبلَتْ سعادةُ الدنيا على (الألاكع)، وتحقق ما قاله النبي ﷺ من ضياع الأمانة!.

ثانياً: وقفات وإضاءات حول التصديق التاريخي لهذه النبوءة:

والمستقرِئ لتاريخ أمتنا الطويل يجدُ تحقق النبوءة قد تجلَّت ملامحُه بصورة ضئيلة جدّاً وعلى مستويات محدودة ومواقع محاصَرة ضيِّقة في العهد الأموي، ثم استفحل في العصر العباسي، ويَظهر ذلك في الحكم الوراثي وإهالة التراب على نظام الشورى في رؤوس الحكم، وحَصْرِ كثير من مواقع الإدارة وسياسة البلاد والعباد في أسرة واحدة، وكأن الدم الذي يجري في عروقها يمتاز بالأصالة عمّا سواه من دماء العالمين!.

وتفاقَمَ تضييعُ الأمانة في عهد بني العباس بقيام صغار الأنفس ببعض شؤون الأمة، وتولية غير الأكفياء في تديُّنهم وورعِهم وخصائصهم وملكاتهم في مواقع شتى من مفاصل الحكم والإمارة والإدارة والسياسة والمال والدفاع والدعوة ونشر الرسالة.. فضَعُف الحكم، وخَفَتَ صوتُ منابر الدعوة إلى الله، وذَبَلَ سلطان الإسلام على أطراف الدولة، حتى اجتاحتهم عاصفة التتار فعَبَثْ بالدين والخلافة والملك والحضارة والأنفس والثمرات والعمران.

واستفحَلَ ضياعُ الأمانة في عهد ملوك الطوائف بالأندلس، وفترات كثيرة من أيام الأيوبيين والمماليك، والدول الانفصالية التي قامت ضمن جسم الدولة العباسية الأم، وكذلك في حِقَبٍ مختلفة من تاريخ الدولة العثمانية، حتى رَكَن معظم سلاطينهم المتأخرين للدنيا، وضيَّعوا الأمانة، فأضاعوا الأمة، وفرَّطوا بحق الإسلام، فكان العقاب أليماً، حيث سُلِّط عليهم بذنوبهم مَن هدم الخلافة ومزَّق شملَهم شَذَرَ مَذَرَ.

حتى وصلنا إلى العهد القريب، والمسلمون يعيشون فيه أسوأَ الأحوال من ضياع الأمانة الكبرى والصغرى في شتى الميادين.. واستحكَم تحقق النبوءة النبوية في المئة السنة الفائتة في مختلِف بلادنا العربية والإسلامية، ولم ينجُ من بطشها وغوائلها كبير أو صغير، وأمسى واقعنا مثالاً صارخاً لتوسيد الأمور إلى غير أهلها في شتى أركان الدولة ومؤسساتها وركائز حياتها ونهضتها، ونَخَرت فيها عواملُ الهدم والانهيار والضياع ملحَّةً عليها بالسقوط، وهي تتأبَّى على ذلك بما رَكَز الله تعالى في قلبها من جذوة ديمومة الحياة التي تستعصي على الانطفاء والفناء.

ولكي لا نكرر الكلام في التوضيح وضرب الأمثلة؛ نحيل القارئ إلى ما كتبناه في النبوءة (٨٣ ـ ٨٤) ـ مرحلة (الحكم الجبري) في الجزء الثاني من هذا الكتاب (٢/ ٤٥٣)، ففيه بيان شاف لمواضع (ضياع الأمانة) في المفاصل الكبرى للدولة والأمة، وخاصة الفقرة (١١) (٢/ ٤٦٥) ـ دعاة على أبواب جهنم.

ثالثاً: وقفات نختم بها حديثنا عن هذه النبوءة:

١ ـ يجب أن نصارح أمتنا بما هي عليه من تضييع الأمانة على المستويين الأعلى والأدنى، وما بنا من عشقٍ للإزراء على أمة نحن منها، يزيِّننا ما يزيِّنُها، ويَشِيننا ما يَشينها، إنما هي رغبتُنا في الإصلاح، وفي علاج الأدواء الدفينة، تجعلنا نصيح محذِّرين أو نَلْكُزُ النِّيام موقظين، وخصوصاً إذا كان العليل مخدوعاً في نفسه لا يجهل علَّته فحسب، بل يحسَبُها بعضَ ما أُوتِي من قِوَى[1]!.

٢ ـ إن التهارش على الإمارة والاقتتال على السلطة يعني عدمَ معرفة مقدار الأمانة المنوطة بمن يتولى تسيير شؤون الدولة في شتى مراتبها، أو قلّةَ الاكتراث بها، وهذا يعني في الحالتين تضييعَه لتلك الأمانة العظيمة، مما يُودِي بمصير الأمة إلى الضياع والبوار.

٣ ـ كان من نتائج توسيد الأمر إلى غير أهله، وخاصة في رأس الحكم

(١) اليهود المعتدون، ص٢٤٦.

وقمته، أن عبث الحكام بالبلاد ومصالح الأمة، وخَسِروا معارك كثيرة أمام اليهود والأمريكان وغيرهم.

٤ ـ تنصيب المنافقين والموالين والمدّاحين والسائرين في هوى الحكام؛ دمَّر على أمتنا مجدَها وحاضرها، وعَبَث بدينها وقِيَمِها، وأخَّرها إلى ساقَةِ الأمم.

٥ ـ إن عدم اعتبار الكفاءات العلمية والأدبية والخلقية في تولية المناصب والمسؤوليات، أضَرَّ بالأمة ومصالح الشعوب من ناحيتين: خسارتها بسبب قلة كفاءة مَن تولَّوا أمورها وتضييعهم للأمانة التي تعدَّوا عليها، وتأخيرُ ودفْنُ كفاءات أصحاب العقول والمؤهِّلات النادرة أو هجرتهم من بلادنا إلى أوروبة وأمريكة، فَحُرِمت البلاد منهم واستفاد عدونا من طاقاتهم.. والمسؤول الأول عن ذلك هو الاستبداد السياسي وحكام الجبرية الذين ضيَّعوا الأمانة أقبح تضييع.

٦ ـ نريد لأمتنا مجتمعاً يتسم بالصرامة والصراحة، وتزدهر فيه أخلاق الإيمان وشمائل الرجولة؛ مجتمعاً يُحِقُّ الحقَّ ويُبْطِلُ الباطل، وينصرُ الفضيلة بقوة ويخذُل الرذيلة بقوة، ولا يُداري في تقبيح الفسوق، ولا يَنْكُص في تجبيه العابثين.. ويستحيل تكوين هذا المجتمع إلا من معالم الإسلام الذي يكبِتُ الأهواء ويعرِف المعروف ويُنكِر المنكر[1].

نريد عودة حميدة إلى تعاليم ديننا ومنهج كتابنا وهَدْي نبيِّنا ﷺ في حفظِ الأمانات وتقدير الكفاءات وإعطاءِ كل ذي حقّ حقَّه وإنزالِ الناس منازلَهم؛ لنبني مجدنا من جديد ونعود إلى سدَّة القيادة كما كنا من قبل، وإلا فستبقى الأمة غارقة في ظلمات الاستعباد والاستبداد، والظلم والاضطهاد، والجهل والضلالة، والخمول والبطالة والتراجع الحضاري[2].

(١) كفاح دين، ص٢٧١.

(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

٧ ـ إن تضييعَ الأمانة أدى إلى خسائر فادحة في الأمة، وحَدَثَتْ فيها خياناتٌ لو سُلِّطت على بناء شامخ لسوَّتْه بالحَضيض!.

فالغيرةُ على المصلحة العامة مفقودة بين عدد ضخم من الموظفين والعمال الكبار والصغار، في كافة المستويات وجميع القطاعات، الحكومية والمدنية والعسكرية، كما فُقِدَ الإحساس بحقٍّ الجماعة على الفرد مما هَبَط بالإنتاج والعطاء إلى درجة مُزْرِية.

ويمكننا القول: بأن العدد الكثيف من الموظفين والعمال الذي يعمل في الجهاز الحكومي يستطيع لو نَبَتَ شعورُ الأمانة في قلبه أن يؤدي للدولة والأمة عشرة أضعاف ما ينتجه الآن، وأن يمنع من الخسائر مثلَ هذه النسبة! ولكن الأمانة ترتكز على اليقين، وأين تجدُه وسط العواصف والزلازل التي تهز الإسلام بعنف وتخلع عُراه من الأفئدة[1]؟!.



(١) الإسلام والطاقات المعطلة، ص١٢٦.

٨٩، ٩٠، ٩١

إخبار النبي ﷺ برفع الأشرار ووضع الأخيار وإظهار القول وترك العمل واتباع مناهج غير كتاب الله

١ ـ روى الأَوْزاعِيُّ، عن عَمْرو بن قَيْس السَّكُونيِّ قال: (خرجتُ مع أَبي في الوفد إلى معاوية، فسمعتُ رجلاً يحدِّثُ الناسَ يقول: «**إنَّ مِن أشراطِ الساعةِ أن تُرفَعَ الأشرارُ وتُوضَعَ الأخيارُ، وأن يُخْزَنَ الفعلُ والعملُ ويَظهر القولُ، وأن يُقرأ بالمَثْنَاة في القوم ليس فيهم من يُغَيِّرها أو يَنكِرها**»! فقيل: وما المَثْنَاةُ؟ قال: «**ما اكْتُتِبَ سوى كتابِ الله** ﷻ» قال: فحدَّثْتُ بهذا الحديث قوماً، وفيهم إسماعيل بن عُبيد الله، فقال: أنا معك في ذلك المجلس، تدري مَن الرجلُ؟ قلتُ: لا، قال: عبد الله بن عَمْرو)[1].

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «**والَّذِي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ، لا تقومُ الساعةُ حتى يَظْهَرَ الفحشُ والبُخْلُ، ويُخَوَّنَ الأمينُ، ويُؤْتَمَنَ الخائنُ، ويَهْلِكَ الوُعُولُ، وتظهرَ التُّحُوتُ**» قالوا: يا رسولَ الله! وما الوعولُ وما

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٦٣؛ والداني (٤٠٠)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٩٩)؛ والطبراني؛ والحاكم: ٤/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥، واللفظ له؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وأورده الهيثمي في المجمع: ٧/ ٣٢٦، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح؛ والألباني في الصحيحة (٢٨٢١). وقد جاء عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف في حكم المرفوع لأن مثله لا يقال بالرأي.

التُّحُوتُ؟ قال: «**الوُعُولُ: وجوهُ الناسِ وأَشْرافُهم، والتُّحُوتُ: الذين كانوا تحتَ أقدامِ الناسِ لا يُعْلَمُ بهم!**».

وفي رواية: (قُلنا: وما التُّحُوتُ؟ قال: «**فُسُولُ الرِّجال وأهلُ البيوت الغامضة، يُرْفَعُونَ فوقَ صالحِيهم**» قلنا: وما الوُعولُ؟ قال: «**أهلُ البيوتِ الصالحة**»)[1].

۞ ۞ ۞

اشتمل هذان الحديثان على خمس نبوءات أخبر بها رسول الله ﷺ، وقد تحققت كلها واستحكم تحققها في زماننا هذا، وهي:

١ ـ رَفْعُ الأشرار ووضْعُ الأخيار.

٢ ـ كثرةُ الأقوال وتضاؤلُ الأعمال والأفعال.

٣ ـ ظهور مناهج ومذاهب وأفكار وعقائد تضادُّ دينَ الله تعالى، وهو ما عبَّر عنه الحديث بـ «المَثْنَاة».

٤ ـ ظهور الفحش والبخل.

٥ ـ تخوين الأمين وائتمان الخائن.

وسنتناول هنا بالبحث والبيان النبوءاتِ الثلاثَ الأولى، وأما النبوءة الرابعة فسيأتي الحديث عنها في النبوءتين (١٢٠) و(١٤٣)، والنبوءة الخامسة هي من مظاهر رفع الأشرار ووضع الأخيار، وسنفصِّل القولَ فيها في نبوءة (السنوات الخَدَّاعات) رقم (٩٧).

★ ★ ★

(١) أخرجه ابن حبان (٦٨٤٤)؛ والحاكم: ٤/٥٤٧؛ والطبراني في الأوسط: ١/٢٢٠/١/٣٩٢٠؛ وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/٣٠٦، شرح الحديث (٧٠٦١) وسكت عليه؛ والألباني في الصحيحة (٣٢١١) وصحَّحه بطريقيه؛ والرواية الأولى لابن حبان، والثانية للطبراني.

٨٩ ـ رفع الأشرار ووضع الأخيار

●● أوضَح الله سبحانه في كتابه العزيز صفات الرجال الذين يقودون الناس ويتولون أمورهم ويقيمون شؤون حياتهم، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال على لسان ابنة الرجل الصالح: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال لبني إسرائيل في بيان سبب اصطفاء طالوت عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال على لسان يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

وطَبَّق رسول الله ﷺ ذلك في حياته وسيرته الطيبة، وتخيَّر من أصحابه ـ وكلُّهم خيارٌ ـ الأكفأ والأعلمَ والأحلمَ والأحكمَ:

عن حذيفة: (أن رسول الله ﷺ قال لأهل نَجْرَانَ: «**لَأَبْعَثَنَّ عليكم أميناً حَقَّ أَمينٍ**»، فاستَشْرَفَ لها الناسُ، فَبَعثَ أبا عبيدة بن الجرَّاح)(١).

وحذَّر أصحابه وعامةَ الناس من بعدهم من الطمع في الإمارة والسعي إليها، فقال لعبد الرحمن بن سَمُرة: «**يا عبدَ الرحمن! لا تسأَلِ الإمارةَ، فإنَّكَ إنْ أتتك عن مسألَةٍ وُكِلْتَ إليها، وإنْ أَتَتْكَ من غيرِ مسألةٍ أُعِنْتَ عليها**»(٢).

ولمَّا جاءه مَن يَطلُب الإمارة والولاية أنَّبه، وقال: «**إنَّا واللهِ لا نُولِّي على هذا العملِ أحداً سألَهَ، ولا أحداً حَرَصَ عليه**»(٣).

وعلى هَدْي النبي ﷺ سار الخلفاء الراشدون ومَن بعدهم من خلفاء الإسلام وملوكه العظام وحكامه العادلين.

●● **وحقل الإمارة والمسؤولية وولاية شؤون الناس أوسعُ من المفهوم**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٥)؛ ومسلم (٢٤٢٠)؛ وابن حبان (٦٩٩٩)، وتتمة التخريج فيه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)؛ ومسلم (١٦٥٢)؛ وابن حبان (٤٣٤٨)، وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري (٧١٤٩)؛ ومسلم (١٧٣٣) قبل الحديث (١٨٢٥)؛ وابن حبان (٤٤٨١)، وغيرهم.

الضيّق الذي يحصره البعض بشؤون رئاسة الدولة والولايات العامة والوزارات، فكلُّ من وَلي مِن أمر الناس شيئاً فقد أُنيطت به أمانته وأصبح مسؤولاً عنه أمام الله تعالى والأمة، وهو إن نجا من الحساب في الدنيا فلن يفرِّط به القِسطاس المستقيم يوم الحساب!.

وأكَّد رسول الله ﷺ على أهمية ذلك وخطورته، فقال: «**ما مِن عبدٍ يَسترعِيه اللهُ رعيَّةً، يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لِرَعِيَّتِه؛ إلَّا حَرَّمَ اللهُ عليهِ الجنَّةَ**»[١].

فالإمامُ ورئيس الدولة يختار نوابَه ووزراءه، والوزير يتخيَّر وكلاءه، والوكلاء ينتقون أعوانهم، ورؤساء الأقسام ونحوُهم يبحثون عن مساعديهم، وكلُّ مسؤولٍ كبير أو صغير، جميع هؤلاء يتوجَّب عليهم النصحُ لله وللدين والعباد والبلاد، كل بحسب مسؤوليته.

ووَضْعُ منزلة الأخيار وخفضُهم وتقليلُ شأنهم ودحرجتُهم إلى الصفوف الخلفية وإسدالُ ستار النسيان والهوان عليهم، وانتشالُ الأشرار من القاع وإبرازُ الأسافل وإعلاؤهم عن منازلهم التي قَعَدت بهم ورفْعُهم فوق رؤوس الناس وإسنادُ الأمور إليهم ـ كل ذلك اعتبره النبي ﷺ من اضطراب القِيَم واختلالِ الموازين وانعكاسِ الحقائق وتغيُّرِ الأحوال؛ مما يُنذِر باقتراب الساعة التي تَطِيح بهؤلاء الوضعاء لتردَّهم إلى منازلهم الحقيقية صاغرين!.

●● وهؤلاء الذين يَنْزُون على كراسي المسؤولية، ويتبوَّؤون المناصبَ، ويَسْطُون على منابر التوجيه، ويستلمون مراكز التأثير، وتُوضَع في أيديهم أمور الحلّ والعقد صغيرها وكبيرها، دون أن يؤهِّلَهم لذلك خُلُق، أو يرفَعَهم إليه عِلم، أو يُرشّحهم إليه شرف أو دين، بل وُسِّد الأمر إليهم لأنهم على دين الحاكم أو من جلدته وحزبه، أو لتزلُّفِهم إليه وإغضائهم عن أفاعليه بل ومشاركته في مآثمه، أو تنفيذهم لأغراض العدو الخارجي أو الخائن الداخلي ـ هؤلاء هم

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٠)؛ ومسلم (١٤٢)؛ وابن حبان (٤٤٩٥)، وغيرهم.

المعنيون بقوله ﷺ في وَصْفِ سِنِي الخِداع: «**وينْطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ**»، قيلَ: وما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قال: «**الرجلُ التافِهُ يتكلَّم في أمرِ العامَّةِ**»[١]!.

ووصَفَهم ﷺ في الحديث الآخر الذين صدَّرنا به هذه النبوءة، فقال: «**ويَهْلِك الوُعولُ، وتَظهر التُّحوت**»، قالوا: يا رسول الله! وما الوعول وما التحوت؟ قال: «**الوعول: وجوه الناس وأشرافُهم، والتحوت: الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يُعْلَم بهم**».

وفي الرواية الأخرى: (قلنا: وما التُّحوت؟ قال: «**فُسُولُ الرجال وأهلُ البيوت الغامضة، يُرْفَعون فوق صالحيهم**» قلنا: وما الوعول؟ قال: «**أهلُ البيوت الصالحة**»).

والفُسُولُ: جمع الفَسْل، وهو الرَّذْلُ النَّذْلُ الذي لا مُروءةَ له ولا جَلَد[٢].

وقد جاء في أحاديثَ عن ابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة ـ في أسانيدها ضعفٌ لكن تشهد لها الأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا الباب ـ أنَّ من علامات الساعة: أن يكون زعيمُ القوم أرذلَهم، ويَسُود القبيلةَ منافقوها، ويَفِيض اللئام فَيْضاً، ويَغِيض الكِرام غَيْضاً!.

وفي حديث ابن مسعود ـ موقوفاً وله حكم الرفع، فمثله لا يُقال بالرأي ـ قال: «**كيفَ أنتم إذا لَبِسَتْكم فتنةٌ يَهْرَم فيها الكبير ويَرْبُو فيها الصغير**»[٣]!.

وهذا وما قبله حق وصدق وواقع؛ فقد ذِيد الشرفاء الرفعاء ووجوه الناس وأفاضلهم عن مكان الصدارة في كثير من المناصب والمنابر والمواقع والمسؤوليات وأماكن صنع القرار والتوجيه، وأُخِّروا إلى الخلف، وأُوصِدت في وجوههم الأبواب، وسُدَّت أمامهم السُّبُل، ووُضِعت في طريقهم العقبات!

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٣٦٥٠)؛ وانظر: النبوءة رقم (٩٧): ٣/ ١١٥، حاشية (١) (في هذا المجلد).

(٢) لسان العرب: ١١/ ٥١٩ (فسل).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٩؛ والداني (٢٨١)؛ وأبو نعيم في الحلية: ١/ ١٣٦؛ والحاكم: ٤/ ٥١٤، وصحَّحه الذهبي.

وقُذِف بالذين كانوا تحت أقدام الناس ممن لا يُعرف لهم سَبْقٌ، ولا يعلو بهم نَسَب، ولا تتصل بهم مكرمة، ولا اشتُهروا بمأثرة ـ فَوُطِّئت لهم الأكناف، ومُهِّدت أمامهم السُّبل، وفُتحت لهم الأبواب، وأُغدِقت عليهم الأموال؛ فَنَزَوا على المنابر، واقتعدوا سُدَّة المسؤولية، وتكلَّموا باسم العامة!.

فتفاقمت المحنة، ورَبَا الابتلاء، وطَمَا الخَطْب، وعمَّ الفساد، وتقهقرت الأمة متدحرجة في الدين والدنيا وإلى مؤخرة الركب!.

أولاً: صور ونماذج للنبوءة ومخاطرها:

وهذه النبوءة التي نطق بها رسول الله ﷺ قد تحققت بعضُ ملامحها على نطاق محدود في بعض فترات تاريخنا الماضي، وتحقق وقوعُها واستحكَمَتْ آثارُها وأشكالها الخطيرة بكل أبعادها منذ نحو قرنين، ولا تزال على أشدِّها في هذه السنين التي تعاني الأمة عامة من عقابيلها وتكتوي بلظاها وترزَحُ تحت وطأة شرِّها وضُرِّها!.

والذي يستعرض التاريخ القريب ويجيل الفكر في ممارسات كثير من الأسر والأحزاب المتسلطة والتجمعات المتنفذة في أمتنا العربية والإسلامية؛ يجد الآلام المبرحة التي تتجرَّع الأمة كؤوس مرارتها من هؤلاء المفسدين الذين يرفعون الأشرار، ويدفعون في صدور الرفعاء الأطهار.

وللإسلام والمسلمين ماضٍ طويلٌ وحاضر قائمٌ مشحونان بالآلام من الحكام المستبدين والأسر والعوائل المتسلطة، في التنكُّر لهَدْي السماء ورَفْع الوُضَعَاء ووَضْع الرُّفعاء!.

•• ومن أخطر النماذج التي تحدثت عنهم هذه النبوءة؛ أولئك الذين رُفِعوا إلى أعلى مواقع المسؤولية والسلطة، وأخذوا يزوِّرون الحقائق ويَكذبون على التاريخ ويَسلخون الأمة عن دينها ومصدر عزِّها، ويقودون الدَّهماء مع أعوانهم من الأشرار إلى مذاهب ومبادئ تضادُّ حُكمَ الله وكتابَه.

ولن يَثبت حكم هؤلاء إلا بتقريب أصحاب الحناجر والمباخر من الوضعاء

والمغمورين والسِّفْلة، ممن رضعوا لَبَانَ الخِسَّة والضَّعَة والسَّفَه، وذوي الفراغ العقلي والنفسي الذين لا تشغلهم أمانة، ولا تقِفُهم حدود، ولا تُرهِبهم مسؤولية، ولا يعبؤون بأمانة أو خلق أو قِيم؛ فيسهُل قيادُهم ثم قيامهم بما يُملى عليهم! فيَسُود الأشرار ويعلو شأنهم، ويُطارَد أهل العلم والحِجا، وذوو الدُّرْبة والتجربة، ويُهال على الرفعاء التراب، ويُسدل عليهم ستار الظلام.

(ومن الخيانات الثِّقال التي تقع في الأمة الإسلامية تكبيرُ الصغار وإسنادُ المناصب الخطيرة إليهم، وتصغيرُ الكبار ورميُهم في مؤخّرة الصفوف! فإن الجاهل إذا ملك سلطةً ما، عَبَث بأولي الألباب الواقعين تحت يده كما يعبثُ الصبية بما بين أيديهم من لعب! ولعلّه يجد في ذلك لذة تُرضي ضَعَة نفسه، ولا عليه من مصلحة أمته! ويا لله كم يَحرمها ذلك من خير أجلِّ الكفايات، ويَنْكُبها بشرٍّ أتفهها!)[1].

●● ومن أخطر الأمثلة على علوِّ أمر الأشرار وتبوُّئِهم مواقعَ التوجيه والتأثير؛ دعاة الغزو الفكري وضحايا التغريب الذين تنكَّروا لدينهم وتاريخهم وقيمهم وتقاليدهم الفاضلة، وتجهَّموا للإسلام وكتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ، وانتشروا في كل مكان يحملون معهم جراثيم التحلل والشك، وأخذوا يَحْدُون ركب الأجيال بعيداً بعيداً عن الله.

فَمُدَّ بصرك لتجد أقواماً خَرِست بينهم أحاديث الفرائض، فهم لا يحترمون فريضة ولا يقيمون عبادة، وعَلَتْ عندهم أصوات المنكر فهم طلاب لهو وأحلاس فسق. ومثل هذه النابتة الملعونة هي أمل الشيطان، وهي مثارُ الفزع الذي يخشاه كل مخلص غيور.

واقرأ كلاماً للدكتور طه حسين وغيره كثير ممن جاء بعده من الذين سُخِّرت لهم المنابر، وهم بيننا أشد خطراً من الأوبئة الفتاكة، يقول مندِّداً بمشروع إنشاء

---

(١) الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٢٧.

جامعة للفتيات: (إن هذا رجعية ومسخرة؛ لأن التقدم والحرية يُوجِبان خلط البنين بالبنات في طور الشباب. إن هذا الاختلاط الحر ليس مباحاً فقط بل هو واجب!).

ويقول صحفي آخر فُتحت له الأبواب في (صحافتنا الحرة!): (لا تصدِّقوا أن الحفلات الراقصة تعطي الفرص للمؤامرات، الحفلات الراقصة للشباب الأعزب تنفِّس عن الكَبْت، وتهبط بحرارة الجنس، وتعطي الفرصة للاختلاط على أسس رياضية روحية!.

أما رقصُ الزوجات مع غير أزواجهن فهو يعطي فرصة الخيانة في بعض الأحيان!)[١].

•• وفي طولِ بلادنا وعرضها وعُمقها استُبيح حمى التربية والتوجيه والتثقيف والإصلاح؛ فتُركت لكل من هَبَّ ودبَّ ليخوض في آفاقها بجرأة وَقاح، ويَلطم وجوهَ المصلحين بآراء فاسدة، وأقوال فاسقة. لقد ساد في مجتمعاتنا كتَّاب الروايات الغرامية، وصُنَّاع المشكِلات الجنسية، ومروِّجو الأفكار الأجنبية، وانتشر زنادقة من كتاب وإعلاميين كالسيل الجارف يحطم أجيالنا حطماً، مهمتهم الكبرى وحرفتهم الوحيدة حُداء غرائز السوء في بيداء الحياة، يقوونها إذا ضَعُفت، وينشّطونها إذا كَسِلت، فهل هؤلاء أمناء التربية في بلادنا؟!.

والمتتبع لما يُكتب وينشر ويذاع ويشاهد ضد الإسلام، يستغرب كيف جُنِّدت هذه الأقلام والجهود والأعمال لمناوشة هذا الدين وإسقاط رايته!.

•• وفي مؤسسات دولنا المختلفة وعلى شتى الأصعدة، انتشر موظفون كبار وصغار فارغو القلب من الإيمان، لا تشغلهم مصلحة قومية عليا، ولا تحرِّكهم عاطفة إسلامية، ناشرون للإثم، مذيعون للبغي، نهَّازون للفُرص،

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٩٠، ١٩٥.

أكَّالون للسُّحت، مضيعون للحقوق، مفرِّطون في الواجبات، ثم هم بعد ذلك (أمناء) يحرسون مستقبل أمتنا العزيزة.

والذي يتأمل عملَ السفهاء الوضعاء بأموال الأمة وكيف تُهدر وتُبدَّد، يجد مصداقَ قوله ﷺ في بيان أشراط الساعة: «**أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار**» و«**يهلك الوعول وتظهر التحوت**».

•• ولم تَسْلم من العدوان ما سُمِّيت بـ (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)، التي قفز عليها أناس كثيرون غيرُ أمناء عليها، ففرَّطوا بأوقافها وتعدَّوا على ثرواتها وزعزعوا ركائزها، وعُطِّلت صلوات ومساجد، وأُهمل كثير منها، حتى زهد بمهامِّها الجليلة من إمامة المسلمين ورعاية مساجدهم عامة الناس وخاصتهم، لانحطاط رتبتهم وقلّة دُخولِهم ورواتبهم، فأصبحتْ مأوى لكثير ممن لا يجدون عملاً غيرها!.

ولو أن ما أَرصده المسلمون من أوقاف جزيلة احتُرمت وحُرست وصِينت واستُثْمِرت على وجهها، لاستغنى كل من يقوم على هذه الوزارة ومساجدها وأعمالها، ولكن زمن الأشرار والتحوت قد عَبَث بذلك كله.

•• كلُّ ما سَبَق يحدُث في دنيا العرب والمسلمين، وفي شتى المواقع والمنابر التي غزاها الأشرار والوضعاء والتحوت، في الوقت الذي حُظِر كثير منها على الأخيار والأشراف والرفعاء والوعول المصلحين، وغُلِّقت الأبواب في وجوههم، بل حدث عدوان أفظَعُ عليهم فتمَّ تسريحُ جماعات وفئام منهم من وظائفهم وأعمالهم في التربية والتعليم، والجامعات، والإعلام، والخطابة، والقضاء، والتدريس العام، والجيش، وطوردوا وشرِّدوا وسُجنوا وأوذوا في سبيل الله، وتمتْ إحالتُهم إلى أعمال لا صلة لهم بها، وإذا سُمح لهم بالكلام وأُذِن لهم أن يتحدّثوا إلى العامة؛ وُضِعت عليهم القيود، وجرى على كلامهم مقص الرقيب!.

وأصبح الناس يرددون بمرارة قول الشاعر:

إذا وَصَفَ الطائيَّ بالبُخْلِ مادِرٌ ... وعَيَّر قسّاً بالفَهَاهَةِ باقِلُ[1]

وقال السُّهَا للشمس: أنتِ ضئيلةٌ ... وقال الدُّجَى للصُّبْح: لونُكَ حائِلُ[2]

وطاوَلَتِ الأرضُ السماءَ سَفَاهةً ... وفاخَرَتِ الشُّهْبَ الحَصَى والجَنَادِلُ

فيا موتُ زُرْ، إنَّ الحياةَ ذَميمةٌ ... ويا نفسي جُدِّي، إنَّ دهْرَكِ هازِلُ!

وحُقَّ للقاضي عبد الوهاب المالكي أن يَصرخ في الأمة التي هذه حالها فيقول:

متى يصلُ العِطاشُ إلى ارتواءٍ ... إذا استَقَتِ البحار من الرَّكايا

ومَن يَثْنِي الأصاغِرَ عن مُرادٍ ... وقد جَلَس الأكابرُ في الزَّوايا

وإنَّ ترفُّعَ الوُضَعَاءِ يوماً ... على الرُّفَعاءِ من إحدى الرَّزَايا

إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي ... فقد طابَتْ مُنادَمةُ المَنايا!

بَيْدَ أن الأحرار لن يخضعوا للأشرار، ولن تَلِن لهم قناة، ولن يَفْتُر لهم سعيٌ، ولن يستسلموا في الميدان، وسيبقون على العهد ماضين، وعلى هدي دينهم سائرين، لا يضرُّهم مَن خَذَلهم حتى يأتيهم وعدُ الله وهم كذلك، ويردِّدون قول الشاعر:

الدهرُ يزعُمُ أنه سَيَرُوعني ... بجيوشِه ويزيدُ من أَتْراحي

لم يدرِ دهري أنني متجلِّدٌ ... لخُطوبه، فليخشَ هولَ كِفاحي

والصبرُ دِرعي والقناعةُ جُنَّتِي ... والذِّكْر حِصْني والدعاءُ سلاحي

وليعلمِ الأشرار والوضعاء ومن يؤيدهم ويشدّ من أَزْرِهم، أنهم إذا تمكنوا

---

(١) **الطائي**: هو حاتم المشهور بالكرم. **مادر**: رجل من هلال بن عامر بن صعصعة، مشهور بالبخل. انظر: اللسان: ٥/ ١٦٣ (مدر). **قس**: هو ابن ساعدة الإيادي، من كبار خطباء العرب في الجاهلية. **باقل الإيادي**: جاهلي، يضرب بعيِّهِ المثل.

(٢) **السها**: كوكب صغير خفي الضوء. **حائل**: أسود متغير.

من الطفو على وجه الحياة مُدَيْدة من الزمان، وأَسِنَتْ بهم مؤسسات الدولة ومرافقها، وتطاولوا في المجتمعات وهم يحسبون أن الجو قد خَلَا لهم؛ فإن القضاء الحكيم يتربَّص بهم إلى حين، ثم يستمكن الوَثاق من أعناقهم.

ثانياً: عبرة ودرس:

ونحب أن نشير في ختام هذه النبوءة إلى أن المسلمين وصلوا منذ أكثر من قرنين إلى دَرْكٍ سحيق، إذ استفحلت العلل التي أصابت كيانهم، وما زالت تلحُّ عليهم حتى رجَعَتْهم عن الطليعة التي بلغوها قديماً عن جدارة، فتأخَّروا إلى الصف التالي، ثم تأخّروا إلى صف وراءه، ثم ظلوا يتقهقرون حتى بلغوا الآن منزلة ليس وراءها هوان.

ولئن كان الأسلاف الكبار قد تصدَّروا عن جدارة، فإن الأخلاف الصغار قد تراجعوا وذَلّوا عن جدارة كذلك!.

ولقد كان الأسلاف الكبار طليعة مرموقة بالإجلال والإعزاز في دينهم ودنياهم معاً، وكانت نظافتهم البدنية والروحية ومدنيّتُهم التي تجاور فيها معاشُهم ومعادُهم؛ مثلاً يُحتذى أو نسقاً يَحتفي به المؤمن والكافر.

وعندما اختلَّت الموازين واضطربت القيم وساد الأمةَ أشرارُها، نزلت بالمسلمين السنن الإلٰهية التي لا تحابي فأدَّبَتْهم وأخَّرتهم إلى ساقة الأمم، وأصبحوا كَلَأً مُباحاً لكل طامع وغاز[١]!.

وإنَّ ما لَحِقَ بنا من هزائم نكراء خَدَشَتْ كرامتنا وحَطَّتْ منزلتَنا، إنما كان بما كسبت أيدينا، حيث فرَّطْنا في ديننا وحقوقنا واغتررنا بالأماني وانشغلنا بالداني عن العالي[٢].

---

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص٢٦٥، ٢٧٠ ـ ٢٧١، مقتطفات.

(٢) انظر: كفاح دين، ص٢٧٢.

ولكي ننهض من جديد لا بدَّ من إعادة الاحترام إلى الإسلام الذي يتسلى أي وغد باللَّغَط عليه والنيل منه. ومن الواجب الذي لا محيصَ عنه وزنُ الأشخاص بميزان لا يَحيف، وتوسيدُ الأمر إلى أهله ومستحقيه، ودحرجةُ الوضعاء والتحوت إلى وراء وراء مع الدهماء، والضرب على أيديهم حتى لا يكونوا رعاة ولا أمراء!.

والمسؤولون الكبار والصغار، والعلماء وأصحاب الفكر والقلم، وأرباب التوجيه وقادة الجماهير، والنُّخب السياسية والنقابية والاجتماعية والدعوية والخيرية، وعامة شرائح المجتمع، كل أولئك مسؤولون بالشهادة بالحق لذوي الفضل والكفاءة، ورفعهم إلى المكان اللائق بهم، ليقودوا الأمة إلى العزة والمجد والكرامة.

(إن الإنسان المسلم يجب أن يكون مستعدّاً دائماً لأداء الشهادة على وجهها، ليُحِقَّ الحق، ويُبْطِل الباطل، ويدعم العدالة.

والقيام بالشهادة يتطلب صراحة لا تخاف في الله لومة لائم، ذلك أن الحق يختنق في هذه الدنيا وسط دخان الشهوات المتصاعد من هنا ومن هناك.

والمجتمع الإسلامي يسقط مع اختفاء الذين هم بشهاداتهم قائمون، لأن هؤلاء المؤمنين ـ كما يزعمون ـ ليسوا بشهاداتهم قائمين، ربما سكتوا أو قالوا فلم يعدلوا.

وكم رأينا من أناس قُدِّموا وحقُّهم التأخير، أو أُخِّروا وحقُّهم التقديم!.

ولقد عرفت لماذا سبقت بعض المجتمعات سبقاً بعيداً عندما قرأت أن زوج الملكة في هولندا عُزِل وجُرِّد من أوسمته لمّا كُشفت صلته بقضية رشوة، وأن رئيس وزراء اليابان عُزِل ورُمي به في السجن للتهمة نفسها!.

إن القيام بالشهادة يعني ألا نترك صاحب حق مستوحشاً في هذه الدنيا لا صديقَ له ولا ظهير.

والشهادة بداهة ليست ما يقال أمام المحاكم فقط، بل ما يقال في كل خلاف أو مشورة أو اختيار أو انتخاب أو أي شأن ذي بال.

والقائم بالشهادة رجل أسلَمَ لله وجهه وقرَّرَ أن يحيا للحق وحده)[(١)].

★ ★ ★

٩٠ ـ إظهار القول وكثرته وقلة العمل وتركه:

لقد نعى الله ﷻ على قَبِيل من الناس يقولون ما لا يفعلون، وأعمالُهم لا تصدق أقوالَهم؛ فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

وأعطى الإسلام للكلمة قيمتها ووجاهتها، واعتبر التزامها من أمارات الإيمان وشِيَم الإسلام، وأخبر النبي ﷺ عن عقوبة من يخالف فعلُه قولَه في أحاديث كثيرة، منها ما رواه أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَتيتُ ليلةَ أُسْرِي بي على قوم تُقرض شفاهُهم بمقاريضَ من نار، كلَّما قُرِضَتْ وفَتْ، فقلت: يا جبريلُ، مَنْ هؤلاء؟ قال: خطباءُ أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به»**[(٢)].

وتقدم قوله ﷺ: **«سيكون أمراءُ من بَعْدِي يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، . . .»**[(٣)].

---

(١) علل وأدوية، ص٢٣ ـ ٢٤.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ٢/ ٣٨٦؛ والخطيب في اقتضاء العلم العمل (١١١)؛ والبيهقي في الشعب؛ وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٩). وبنحوه عند أحمد: ٣/ ١٢٠، ١٨٠، ٢٣١، ٢٣٩؛ وأبي نعيم في الحلية: ٦/ ٢٤٩، ٨/ ٤٣ ـ ٤٤؛ وابن حبان (٥٣)، وغيرهم.
معنى (وَفَتْ): رجعت كما كانت بعد قصِّها وقطعها.

(٣) انظر: النبوءة (٨١): ٢/ ٣٨٤، حاشية (٢) (في هذا الكتاب).

وفي هذه النبوءة يخبر رسول الله ﷺ أنه سيأتي على الأمة زمان تكثر فيه الأقوال وتنتشر الدعاوى، وتتوارى الأعمال وتقلّ الأفعال، ويَحدُث في حياة الناس انفصامٌ نَكِدٌ بين ما يُقال ويذاع ويشاع وينشر، وبين حقائق السلوك والتطبيق والتنفيذ وتحقيق الأعمال صدقَ الأقوال.

وقد وقع هذا في أمتنا منذ عهد بعيد، وهو في القرن الحالي على أشدِّه وفي ذُروته، وعَمَّ بلاؤه وطَمَّ حتى شمل الرئيس والمرؤوس، والكبير والصغير، والغني والفقير، والذكر والأنثى، والعالم والجاهل، والرفيع والوضيع، والصانع والحرفي! فقلَّتِ الثقة بالأشخاص، ووَهَن الاطمئنان للأقوال، واستُخِفَّ بالوعود والمواثيق، ومَرِج أمر الناس واضطربت مسيرتهم، فحارَ الدليل وعزَّ الدواء على الأُساة، واستَغْلَقَ العلاج على المصلحين، وصَعُب الحل على الناصحين.

●● ففي قمة هرم السلطة وأروقة الحكم تسمعُ الكلام المعسول والوعود الكبيرة والأقوال الضخمة التي تملأ الأفواه بضجيجها؛ بالتقدّم العلمي وتطور الصناعة وازدهار الزراعة وتوسّع التجارة.

وتُطالِعُ في صُحف القوم وتسمع من إذاعاتهم وتلفازاتهم ونشراتهم حول الخطط الخمسية والعشرية للنهضة الشاملة الاقتصادية والعسكرية والطبية والتعليمية والزراعية و...و...، ثم تنتظر كما انتظرت الأجيال من قبلك، للوقوف على الوعود والأماني بإقامة الدولة الحديثة والمؤسسات العملاقة... فتجد الأمر سراباً بِقِيعة يَحْسَبُه الظمآن ماء! وتتجرَّع المرارة مع غيرك حيث تعصف بك حقيقة الحال من تأخّر الركب إلى الوراء، بينما الأمم الأخرى تسعى قُدُماً لتغزو الفضاء وتغوص في طبقات الأرض برّاً وبحراً.

ويتحدّثون لك عن الإصلاح السياسي، ومحاربة الفساد، والحفاظ على أموال الأمة وذخائرها، والضرب على أيدي العابثين، فلا تلقى لكل ما يقال وجهاً واحداً من الحقيقة، وكأن الأمر قد قُضي بليل، والقوم مصرُّون على أن

يتمثلوا قولَ النبي ﷺ في هذه النبوءة: «**وأن يُخْزَنَ الفعلُ والعمل، ويَظهر القول**».

●● واجتماعات رجال (البرلمانات العربية)، تكثُر فيها الأقوال وتقلُّ الأفعال والأعمال، وتسمع أهدافاً كبيرة وآمالاً عريضة ووعوداً كثيرة، فإذا تقلَّب الليل والنهار طَوى ذلك كله وآلت الحال إلى سرابٍ وخيبة أمل.

وقُلْ مثلَ ذلك في عامة الوزارات والقطاعات العامة وأنت تنحدر من أعلى مراتب المسؤولية متدرجاً إلى أدناها، وأنت تتجول في أروقة هذه الوزارة أو تلك، وفي منحنيات هذا المرفق العام أو ذاك، وفي متاهات هذا القسم وتلك المؤسسة؛ لترى أقوالاً كثيرة ووعوداً براقة وكلمات جميلة ودعاوى عريضة، فإذا تحققت انكشف الغطاء عن أمر عظيم من تعفن الأفعال وتعطل مصالح العباد، ولجوء الكثيرين إلى أساليب خسيسة وطرق ملتوية، لإنجاز مهمة أو الفوز بعمل أو الظفر بغنيمة باردة!.

●● وقامت في بلاد العرب والمسلمين منذ أكثر من ستين سنة أحزاب وطنية وأخرى قومية وثالثة علمانية لا دينية، ورَفعت شعارات، وسنَّت القوانين وأصدرت الكتب وصنفت النشرات وأذاعت البيانات، وملؤوا بضجيجها أسماع الدنيا، وبُحَّ صوت المنادين بها والهتّافين لها، وانتظر الناس وطال رجاؤهم وظنوا بما سمعوا الحسنى، ومَضَتْ سنوات طوال، وذهب جيل وجاء آخر، وبقي الكلام هو الكلام والشعار هو الشعار، وتبخرت الآمال وتخلفت الوعود، والأمة تتراجع القهقرى.

●● ولننظرْ في بعض جراح المسلمين والمواقف العملية من المنظمات الكبرى في بلادنا والتي يتوجَّب عليها أن تداوي تلك الجراح وتنصر أصحابها بالقول والفعل، فلا نجد سوى الخُطب والقصائد والبيانات والاستنكارات والاحتجاجات والشكاوى التي ترفع إلى مجلس الأمن أو هيئة الأمم!.

ولنسلِّطِ الضوء على ساحة بعيدة عن الرؤية لدى كثير من العرب

والمسلمين، والمثال هو ما حدث للمسلمين في الحبشة من عمليات اضطهاد وإبادة وإذابة للشخصية الإسلامية، وما قامت به فرنسا من القضاء على اللغة العربية والحروف العربية، فأوعزت إلى إمبراطور الحبشة بفتح باب الهجرة الإجبارية للمسيحيين من جهة، واستعملت نفوذها من جهة أخرى في التقليل من مكاتب القرآن، في الوقت الذي فتحت فيه مكاتب تبشيرية ومستشفيات ومدارس، ونشرت دعايات باللغة الحبشية في الكتب والمنشورات وغيرها.

وقام الإمبراطور في أثناء مدِّ الخط الحديدي بتشريد الآلاف من الناس، وأُحرقت قرى، وأُبيد الذين أَبَوا أن يجلوا من أراضيهم دون تعويض أو حماية لحقوقهم، ولم يسمع أحد عن هذه المجازر الرهيبة، وكانت تشبه مجازر الأمريكيين في الهنود الحمر تماماً.

وفي سجن إحدى الولايات الحبشية وهي (هرر) خرج من سجنها وحده أكثر من سبعة آلاف شخص، ظلَّ بعضهم مقيَّدَ الرِّجْلين واليدين على شكل قوس لمدة أكثر من عشرة، وخمسة عشر عاماً! فلما أُفرج عنهم لم يعودوا إلى حالتهم الطبيعية، إذ تشكَّل العمود الفقري بذلك الشكل القوسي...

وقدِم وفدُ مسلمي (هرر) إلى القاهرة، ليعرضوا شكواهم على العالم الإسلامي، فلم يجدوا سنداً ولا نصيراً، ولم يقدِّم لهم العالم الإسلامي شيئاً بالرغم من أن الوفد عرض أمره على حكومة الحجاز واليمن، وقدَّم مذكرات إلى الكثير من سفارات الدول الإسلامية وغير الإسلامية.

ومن يومها اعتُبِرت (هرر) منطقةً مفتوحة لكل أنواع التبشير للتعجيل بتنصيرها، وعُيِّن لها حاكم عسكري هو نفسه الذي كان يتولى التعذيب والتحقيق والاستجواب للمسلمين. وفي (هرر) الآن البعثات البروتستانتية والكاثوليكية والأرثوذكسية وغيرها.

وعرضت مشكلتهم على منظمة المؤتمر الإسلامي والأزهر، فلم يلقوا في ذلك ترحيباً ولا عوناً ولا نصيراً[(١)].

فأين الأفعال والأعمال حيال جراحات العرب والمسلمين في المشارق والمغارب؟!.

●● وتضاءلت أعمال القائمين على منابر التوجيه والتأثير في مجالات التربية والجامعات والبعثات والإعلام وسواها؛ لأن كثيراً منهم يفتقر للعقيدة التي توقد نشاطهم، والغاية التي يكدحون لبلوغها، والعزاء الذي يصبِّرهم على لأواء الحياة، فقد جفَّت تلك المعاني من ضمائرهم وأعمالهم.

إن مصيرَ معركتنا في الحياة مع التحديات الداخلية والخارجية مُرْتَهَنٌ بالرجال الذين يهيمنون على مواقع القرار ومنابر التوجيه التي يملؤونها في مؤسساتنا الصغرى والكبرى، إنهم معلَّق بوثاقة إيمانهم، ورباطة جأشهم، وطولِ صَبْرهم، وبشاشة رجائهم، إن ذلك هو اللبنة الأولى في النصر[(٢)].

وثَمَّةَ تضاؤلٌ أيضاً في أعمال الدعاة والمصلحين والعلماء الذين يقودون زمَامَ الأمة الروحيَّ، ويعقدون في حيواتها أواصرَ الفضائل وعُرى الأخلاق، والمطلوب منهم جهود كبرى ونهضة عظمى لغرس العقائد الصحيحة، ومقاومة تحالف الشر المتمثل في التبشير والاستعمار وأعوانهما من دعاة الغزو الفكري.

●● وإذا نظرنا إلى مَن يتخرَّج من أبناء أمتنا في جامعات أوروبة وأمريكة، وكذلك من تخرج منهم في جامعات بلادنا؛ نجد كثرتهم الكبرى لا يؤدُّون عُشْر ما يؤديه نظراؤهم المتخرجون معهم في تلك الجامعات في بلادهم.

والغذاء الروحي والعلمي والعملي الذي تلقاه كثير من أبنائنا في البيت والمدرسة والجامعة؛ جعل منهم أقواماً تُحسِن الوجاهة والمظاهر، ولا تحسن

---

(١) انظر: كفاح دين، ص٥٦ ـ ٧٣، وهو فصل مطوّل بعنوان (ذئاب الحبشة تنهش الإسلام).

(٢) المرجع السابق، ص١٣١.

العمل والحركة، وتُعنى بمطالب الحياة المادية التافهة، ولا يَشغلها مثلٌ أعلى أو جهاز رفيع.

ولا بد من أن تعود للإسلام مكانته الجليلة في نفوس أتباعه، لتتحول الأقوال إلى أفعال وأعمال(١).

•• ولنتناول النبوءةَ من جانب آخر، ولننظر إلى أعدائنا القريبين الجاثمين على أرضنا من اليهود الذين تجمعوا من آفاق الأرض، فنجد أعمالَهم تفوق أقوالهم بكثير، وقد قدَّموا لقضيتهم الأنفس والأموال والعلم والجاه والسلطان.

ومن الأمثلة المحزنة أنهم لم يبخلوا بالمال لإنجاح قضيتهم، فعندما نهض زعيم الصهيونية الكبير (هرتزل) لينشر دعايته في ربوع العالم، التقى بالبارون (دي هيرش) الذي أسس جمعية الاستعمار اليهودي، وغرضها إسكان مشرَّدي إسرائيل في بعض أقطار أمريكة، وكان قد رصد لذلك عشرة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص!.

رجل يهودي واحد ينخلِع من كل هذه القناطير المقنطرة في سبيل عشيرته، في الوقت الذي يضنُّ فيه كثير من أصحاب الثراء الواسع عندنا عن بَذْل عشر معشار ذلك في سبيل ربهم وأمتهم(٢)!.

وإذا بذل أحدُ كبرائنا مالاً في تشييد مؤسسة أو إقامة مساكن أو شحنة غذاء أو عمارة مسجد؛ أقام الإعلام عرساً يستمر عدة أيام لبيان مناقب ذلك الوجيه والثناء على أياديه البيض، وقد يكون ذلك العطاء مختلَساً من مال الأمة!.

لقد تعاونت القدرة المادية والكفاية الأدبية والأعمال الدؤوبة على إنهاض الاقتصاد اليهودي وجعلِه أداة طيِّعة في أيدي بُناة (إسرائيل).

أما عندنا فالمال كثير لكن الشهوات أكثر، والخيرات والبركات التي أفاءها

---

(١) انظر: كفاح دين، ص١٣٥.
(٢) اليهود المعتدون، ص٢٣٨.

الله على بلادنا يبدِّدها التبذيرُ المهلِك في فنون اللهو والعبث، فتذهبُ سدىً كما تذهب أمواه الفيضان في أعماق البحر أو المحيط، بدلاً من أن تتحوَّل إلى أعمال في الإنشاء والتعمير وبناء اقتصاد قوي كبير(١)!.

تلكم هي أقوالُ أعدائنا وأعمالُهم، وها هي ذي أقوال الكبار والمسؤولين والأثرياء وأعمالهم من أبناء أمتنا!.

فهل انطبق علينا قول نبينا ﷺ: «**ويُخْزَن الفعل والعمل، ويَظهر القول**»؟!.

● **درس وعبرة:**

الأمم تحيا وتقوى وتستمر بالأعمال لا بالأقوال، ورسولُنا ﷺ تلقَّى الوحي وهو تكريم إلـٰهي صادَفَ مكانَه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، لكن هذا التلقي صَحِبَه عملٌ آخر له وزنُه الضخم، فغيَّر بهذا الوحي أمة كبيرة، وأخرجها من الظلمات إلى النور، وجعل الوحي وقوداً لانطلاقة كبيرة قفزت بها الأمة إلى الأمام؛ فنَفَى رذائلَ وأثبتَ فضائل، وغيَّر طباع أمةٍ مَرَدَتْ على المفاخرات والمنافرات والمشاجرات، وجعل منها أمة متآخية تخشع في المحاريب وتتراصّ في ميادين البلاغ والجهاد، وأضحت أمة زاحمَتْ غيرها على صعيد الأرض، أمةً لم تغلِبْ وتسبِقْ دون مؤهِّلات، ولا تقدَّمَتِ الأمم بالكلمات الرنانة والأماني الجوفاء، بل بالعلم والعمل والفكر والخلق والنشاط والإنتاج والنظافة الظاهرة والباطنة. واستطاع النبي ﷺ أن يصبَّ العربَ في قالبهم الجديد الذي أقام حضارتهم الباذخة، وقهر بهم إمبراطوريات رَسَخَتْ على الثرى دهراً وامتد بها الباطل طولاً وعرضاً(٢).

ولكي تنهض أمتنا في حاضرها من كبوتها وتصحو من غيبوبتها وتعود إلى مجدِها وعزِّها؛ يجب أن تغلب أعمالُها أقوالَها، ويُبرهِن هدْيُها وسلوكها على صِدق دعواها، ويعود إلى أفئدتها الغذاء العلمي والروحي، وتعود للإسلام

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٧.

(٢) انظر: جهاد الدعوة، ص٧.

مكانته ووجاهته في قلوب أبنائها الكبار والصغار، في جميع الأصعدة وسائر الأحوال المادية والاجتماعية.

يجب تضييقُ الخِناق على تلك الظاهرة المتفشية في أمتنا من كثرة الأقوال وتضاؤل الأعمال، فإنها من أخلاق الهزيمة التي غزَتْ صفوفَنا واستنزفت قوانا، ولو صَدَقْنا اللهَ لصَدَقَنا اللهُ.

ومن واجب العلماء والدعاة والمربين والموجهين والقائمين على التوعية والتأثير أن يَحْدُوا الرَّكْبَ بالأعمال الصالحة والأفعال النافعة والهدي المستقيم والسلوك القويم، ويَعْرِضوا على الناس وجوهَ الخير ويُغْروهم بها ويتقدَّموهم في الالتزام بها.

يجب عليهم أن يقوموا على أفواه الطرق وينادوا الحائرين أنْ هَلمُّوا إلينا، ويرغِّبوهم بالأمل الحلو والوعد الحسن والأسوة الصالحة الصادقة.



٩١ ـ اتباع مناهج غير كتاب الله

جاء في حديث عبد الله بن عمرو: أن من أشراط الساعة: «**أن يُقرأ بالمَثْنَاة في القوم ليس فيهم من يغيِّرها أو يُنكِرها**» فقيل: وما المَثْنَاةُ؟ قال: «**ما اكتُتِبَ سوى كتابِ الله ﷻ**».

وليس معنى الحديث أن كلَّ ما كُتِب ودُوِّنَ ونُشر سوى القرآن الكريم فهو من (المَثْنَاة)، فقد دوَّن المسلمون وكَتبوا ونشروا وأصَّلُوا وفرَّعوا في علوم جمَّة ضخمة، وأمسى لديهم تراث عظيم ليس لأمة من الأمم مثله، فدوَّنوا كُتب السنّة المطهرة، وكتبوا في علوم القرآن والتفسير والفقه وأصوله، والسِّيَر والرجال والتاريخ، والعقائد، والفكر الإسلامي، واللغة وعلومها، وغير ذلك.. فكلُّ ما كان تحت هيمنة الكتاب العزيز وفي خدمته وضمن هدايته وتوجيهاته؛ فهو محمود مرغوب فيه مأجور فاعله.

والمعنيُّ بـ (المثناة) في هذه النبوءة الجليلة كل ما يُضَادّ كتابَ الله تعالى ويصدُّ عن سبيله ويعانِد هدايته ويخالف توجيهاته ويحرِّف مبادئه وينحرف بالناس عن صراطه المستقيم، ويشمل ذلك كلَّ المِلل والنِّحَل والمذاهب والأفكار والمناهج والأحزاب الفكرية والدعوات الباطنية والهدامة، التي اجتالَتْ عقولَ الناس وقلوبَهم وأرواحهم بعيداً عن كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ.

وقد ظهر مَن يدعو (للمثناة) في تاريخ الإسلام قديماً منذ أيام الدولة العباسية من أمثال (الراوندية)، ودعوة المُقنّع، وفتنة الزَّنْج، ودعوة القرامطة، والدعوة العُبيدية (الفاطمية)، والزَّنَادقة، وغيرهم.. لكن خطر هؤلاء كان محدوداً، لأن كلمةَ الإسلام هي العليا، وسلطةَ الخلافة مهيمنة، ويدَ الحاكم كانت تطال بالبطش كل دعوة هدامة تنال من الإسلام وقداسته، أو تنشر الفساد والفسق وتشجّع عليه وتسعى إليه.

بَيْدَ أن هذه النبوءة قد تجلَّى تحققُ وقوعها في القرنين الفائتين بصورة خطيرة، وبخاصة في المئة السنة الماضية، فاستشرى وباء دعاة (المَثْنَاة) وعمَّ بلاؤهم بلاد الإسلام كلها، وأَحدث في جسم الأمة شروخاً هائلة، وأنزل راية الإسلام من مواقع شتى، وخسر المسلمون المعركة في بلدان كثيرة وعلى أصعدة متنوعة.

●● فقويت شوكة دعاة إحياء الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية والصابئة والقرامطة والطورانية والكمالية والقومية العربية المنبتة عن الإسلام، ورفع هؤلاء أصواتهم عالية وأسمعوها للعالمين، وناوؤوا الإسلام وهاجموا كتابه وحاربوا ركائزه وأركانه، ودعوا إلى نبذِه وإعادة ما كان عليه الآباء والأجداد، واعتبروا الإسلام والمسلمين غزاة محتلين لتلك البلاد التي ينتمون هم إليها.

وأصبح لكثير منهم صوت مسموع وصحف ينشرون فيها أفكارهم، وإذاعات وقنوات فضائية وكتب ونشرات تروِّج مذاهبهم وتناصِر توجُّهاتِهم.

وابتُدِعَت في ديار المسلمين (مذاهب دينية) ادَّعَتْ أنها من الإسلام، وواقعها وحقيقتها أنها قد انسلخت عنه وفرَّطت بأركانه وحرَّفت فرائضه وثوابته وواجباته، مثل: (الأحمدية) و(البهائية) و(القاديانية) و(البريلوية)، وتنامى وجودها، وكَثُر أتباعها، وانتشرت دعايتها ودعوتها، وصار لها مناهجها وكتبها التي تضادّ كتاب الله.

●● ومما يندرج تحت هذه النبوءة انتشارُ أفكار ومبادئ ومذاهب وإيديولوجيات وفلسفات ونظريات علمانية لادينية في بلاد العرب والمسلمين؛ مثل الرأسمالية والشيوعية والوجودية والإباحية والماسونية والفرويدية وفصل الدين عن الدولة.

واشتَعَلَت هذه الأفكار والمذاهب والدعوات والمناهج في بلادنا اشتعالَ النار في يابسِ الحطب، والهدفُ من ذلك تغييبُ عقائد الإسلام ومبادئه وقِيمه وأخلاقه، وتفريغُ التصور العربي الإسلامي من مفهوم الإسلام الشامل للدنيا والآخرة، والجامع بين الروح والمادة، والعقل والقلب، والمسجد وشؤون الحياة كلها، وتُغرس مكانها قيمُ الكفر والزندقة وإنكار عالم الغيب والآخرة والألوهية والنبوات والوحي وما ينبثق عنها من مبادئ وتوجيهات والتزامات.

ويتبع ذلك قيامُ دعاة التبشير والاستشراق والتغريب والغزو الفكري، بما لديهم من إمكانيات هائلة، وبرامج ضخمة، وانتشار عريض؛ بغزوهم بلادنا، ونشرهم لمبادئهم عن طريق المعاهد والجامعات والمؤسسات ودور النشر ومختلِف وسائل الإعلام ومنابر التوجيه، والتشجيع لهم من الخارج ومن بني جلدتنا، والسكوت عليهم من جهة المسؤولين وقادة الأمة وصُنَّاع القرار فيها.

●● راجَتْ بضاعةُ كتَّاب ومفكرين وصحفيين وأدباء وإعلاميين وموجهين وأصحاب رأي وساسة ونحوهم، في نشر كل ما يحملونه ويَدْعون إليه من (المَثْنَاة) التي اكتُتبت للصدِّ عن سبيل الله، واغتيال هوية الأمة وإذابة شخصيتها والعبث بعقول أبنائها.

وأعمال طه حسين وسلامة موسى وإحسان عبد القدوس وجورجي زيدان وعبد الرحمن الشرقاوي وعبد الرحمن بدوي وفؤاد زكريا ونصر أبي زيد، وأمثالهم كثير؛ هي بعض الشواهد الكثيرة لمعنى قول النبي ﷺ، في كتابة ونشر ما يعانِد كتاب الله سبحانه، ولا يوجد من يغيِّر أو ينكِر ممن له السلطان والأمر والنهي، وإنْ كان الدعاة والمخلصون والغيورون والمفكرون الإسلاميون يقاومون هذا التيار بجرأة وأصالة، لكن الصولةَ ليست لهم، ومفاتيحَ الحل والعقد والتغيير والتبديل ليست إليهم، بل الريح لأولئك الذين يُعْمِلُون السيفَ في جسم الأمة الجريح!.

●● كذلك الدعوةُ إلى مناهجَ غيرِ إسلامية والتشجيع عليها وفَرْضها على جمهور المسلمين، ومحاربةُ مبادئ الإسلام وتشويهُ تشريعاته وقوانينه وقيمه وأخلاقه، وإفراغُ القلوب والعقول منها؛ لتذبلَ عناصر الإيمان بالله والانصياع لأوامره والأخذ بكتابه، وجعل الأمة تتسوَّل التشريعَ والقوانين من هنا وهناك، كأنها نبتت بغتةً على صعيد الحياة ليس لها ماضٍ تستمدّ منه ولا تراث مشحون بالذخائر تعتمد عليه!.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك محاربة الزكاة وموارد بيت المال وتجفيف منابعها، وتشجيع الربا ومؤسساته والضرائب بأشكالها، كذلك محاربة التشريع الجنائي الإسلامي، وقانون العقوبات، وقوانين الأسرة والميراث! وحماية المحرمات والكبائر كالعري والتهتك والإباحية والزنى وتوابعه، والخمر، والخنزير، وغير ذلك مما أصبح وجوده في ديار المسلمين حقائق لا تقبل المساس، وتشريعات يحميها القانون!.

واستبدل ساستنا قانونَ العقوبات الفرنسي والبلجيكي والسويدي وسواها بمبادئ الإسلام، وأصبحت هي (المَثْنَاة) التي يتم التحاكمُ إليها من دون الإسلام! وبُذِلت الأموال الطائلة من خزائن الأمة لنشرها وتطبيقها وحمايتها.

●● هذه بعض سوانح الفكر في تجلية معنى (المَثْنَاة) التي جاء بها الحديث

الشريف، والتي نرى أمثلتها الكثيرة وآثارها الخطيرة في أيامنا هذه في مواقع شتى من بلاد العرب والمسلمين.

لكن العلّامة المحدّث ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله وغفر له ـ كبا فكره وجنح قلمه في تفسير (المثناة)، فقال:

(فكأن المقصودَ بـ «المثناة» الكتبُ المذهبية المفروضة على المقلِّدين! التي صرفَتْهم مع تطاول الزمن عن كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، كما هو مشاهد اليوم مع الأسف من جماهير المتمذهبين، وفيهم كثير من الدكاترة والمتخرجين من كليات الشريعة، فإنهم جميعاً يتديَّنون بالتمذهب، ويوجبونه على الناس حتى العلماء منهم)(١).

وهذا جنوح وشطط وجرأة على أئمة الإسلام وتراث الأمة الفقهي، ولئن وُجِد في علماء المذاهب الفقهية الأربعة بعض المتعصبين والجامدين من متأخري الفقهاء، فهذا لا يسوِّد وجهَ الحقيقة في ذلك الاستبحار الفقهي الذي تفخر به أمة الإسلام، وقد أنتجته قرائح أئمة عظام اتخذوا كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ أصلين أصيلين لاجتهاداتهم وآرائهم.

وصرفُ مفهومِ (المثناة) وحصرُه بما قاله العلّامة الألباني، تضييقٌ لواسع، وغفلةٌ شديدة عن التيارات والمذاهب والملل والنِّحل والدعوات والأفكار والمناهج المضادة لكتاب الله تعالى، والتي ألمعنا إلى خطوطها العريضة، ولم ينبّه الشيخ المحدّث على واحدٍ منها في هذا الباب!.

● **وفي الختام نقول:**

إن المسلمين ودينَهم وبلادهم تُضرب ببأس، والجلادين طمَّاعون في إخماد أنفاسهم، ودفْنِ تراثهم، وإسقاطِ رايتهم، وتجفيفِ منابع حياتهم وحضارتهم. وكل القوى العاملة على إخراج الإسلام من قلوب المسلمين إنما يُسْدُون يداً

---

(١) السلسلة الصحيحة: ٦/ ٧٧٥ ـ ٧٧٦ (٢٨٢١).

طُولى لليهود والصليبيين وغيرهم من أعداء الأمة. وكل الأفكار المستغرِبة والدعوات الهدامة والأحزاب اللادينية ومروجي الغزو الفكري، كلهم أدوات هدم تلحُّ على الأمة لإبقائها في مؤخّرة ركب الأمم.. ولا عزَّ لنا ولا سيادة ولا حضارة إلا بالرجوع إلى كتاب ربنا، وسنّة نبينا محمد ﷺ، وترك كل (مَثْناةٍ) من دونه.





إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان يكون أسعد الناس فيه لكع بن لكع

١ ـ عن حذيفةَ بنِ اليَمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يكونَ أسعدَ الناسِ بالدُّنيا لُكَعُ بنُ لُكَعٍ**»(١).

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تذهبُ الدنيا حتى تَصِيرَ لِلُكَعِ بنِ لُكَعٍ**»(٢).

٣ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَنْقَضِي الدنيا حتى تكونَ عندَ لُكَعِ بنِ لُكَعٍ**»(٣).

وروى مثله: عمر بن الخطاب، وأبو ذر، وأبو بُرْدة بن نِيَار، وأم سلمة(٤).



أولاً: توضيح معنى الأحاديث:

أورد أئمة اللغة وشرَّاح الحديث معاني متعددة للمقصود باللُّكع، وكلها

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٠٩) واللفظ له؛ وأحمد: ٥/٣٨٩؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/٣٩٢؛ والداني (٤٠٧)؛ والضياء في المختارة، وقال الترمذي: حديث حسن غريب؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي: ٢/٢٤٢؛ وصحيح الجامع (٧٤٣١).

(٢) أخرجه أحمد: ٢/٣٢٦، ٣٥٨؛ وذكره ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم: ١/٢٣٥، وقال: إسناده جيد قوي؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٧٢).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٣٢)؛ وابن حبان (٦٧٢١) واللفظ له؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٤) انظر: مجمع الزوائد: ٧/٣٢٥ ـ ٣٢٦؛ هامش صحيح ابن حبان: ١٥/١١٦ (٦٧٢١).

تَؤُول إلى اتصافه بالخُبث واللؤم والخِسّة والحُمق والضَّعَة في النسب وقلَّة الغَنَاء في الفعل.

فاللُّكَعُ: هو اللئيم، الوَسِخ، الأحمق، الحديثُ السنّ، الصغيرُ العلم والعقل، العَييُّ الذي لا يتّجه لمنطق ولا غيره، الضيقُ الصدر، القليلُ الغَنَاء، الذي يؤخِّره الرجال عن أمورهم فلا يكون له موقع، الخبيثُ الفِعال، الشحيحُ، القليلُ الخير، الرديءُ النَّسب، الدنيءُ الحَسب، الذي لا يُعرف له أصلٌ، ولا يُحْمَد له فعلٌ(١)!.

وجاء في اللفظ في الحديث «**لكع بن لكع**»: وحَذف ألف (ابن) لإجراء اللفظين مجرى عَلَمَيْن لشخصين خسيسَيْن لئيمَيْن(٢).

ووَصَف النبيُّ ﷺ حالَ هؤلاء عندما تضطرب الموازين وتختلُّ القِيم وتفتك بالأمة الأمراض المزمنة والتراجع الحضاري، بأن أحدَهم يكون «**أسعدَ الناس بالدنيا**»، وفي لفظ آخر: أن الدنيا «**تصير للكع بن لكع**»! فهو المقدَّم في المناصب، الذي يُسمع لقوله في المجالس، المُسَوَّد في قومه، الناطقُ بلسانهم، والقائمُ بأمرهم!.

ثانياً: الواقع التطبيقي لهذه النبوءة:

ظهر مصداق هذه النبوءة النبوية منذ عهد بعيد، كما يتضح ذلك لمن يستقرئ التاريخ الإسلامي، ومن أمثلته ما ظهر في عهد ملوك الطوائف في الأندلس وقيام بعض السفهاء بأمور الحكم وشؤون المسلمين، وانشغالهم بزخارف الملك وولوغهم في حمأة الملذات! ويتجلّى أيضاً في زعماء الحركات الهدّامة والدعوات الباطنية، واندفاع جمهرة كبيرة من الدَّهْماء تحت إِمْرة (الألاكع)، كدعاة القرامطة وقادتهم وثوارهم، وأمراء فتنة الزَّنْج، ومدَّعي المهدية، وحكام الدولة الباطنية العُبيدية التي اشتهرت بالفاطمية، وعدد من رجال الأيوبيين

(١) النهاية: ٤/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩؛ لسان العرب: ٨/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣؛ تحفة الأحوذي: ٦/ ٦٨.
(٢) تحفة الأحوذي: ٦/ ٦٨.

والمماليك وأمرائهم وولاتهم.. وما تلا ذلك من بعض ولاة الدولة العثمانية وأمرائها وقادة الانكشارية، وآخرين من المتنفذين في الدول الصغيرة التي نهشت جسم الخلافتين العباسية والعثمانية.

ولا يزال أمر (اللكعات) يتفاقم شره ويزداد خطره وتتسع دائرته، حتى اجتاح البلاد والعباد في شتى السبل وجميع المؤسسات من أعلاها إلى أدناها، ومن أقصى بلادنا إلى أقصاها.

•• فإذا أمعنتَ النظر وأعملتَ الفكر في أخطر مناصب الدول العربية والإسلامية، ترى أناساً كثيرين قد قُذف بهم إلى منابر التأثير والتوجيه، لا يُعرف لهم أصل شريف عريق يتصلون به، ولا ماض مشرِق يفاخرون به، ولا وراثات كريمة يعتزون بها!.

ويَكْمن خطر (اللكع) الذي يتبوأ السيادة والقيادة والزعامة والإدارة والمسؤولية في الأمة، ويتسلط على الأخيار، ويغلب عليهم وعلى مصاير البلاد، فيحوز المنصب والجاه والدنيا والأمر والنهي، فيقضي بالأمور بما يُملي عليه أصلُه اللئيم وخبثُه وحقدُه، فيكون الأمر كما قال النبي ﷺ: «**يُوشِكُ أن يَغْلِبَ على الدنيا لُكَعُ بنُ لكعٍ، وأفضلُ الناسِ مؤمنٌ بين كَرِيمَيْن**»[1].

•• وفي ميدان الفكر والقلم، والصحافة والإعلام، والتربية والتوجيه، تجدُ الأمر على أصدقِ وجهٍ للنبوءة كما أخبر ﷺ: «**لا تذهَبُ الدنيا حتى تصيرَ لِلُكَعِ بنِ لُكَع**»!.

ففي واقعنا المرّ حدث (تطورٌ إلى الوراء)[2]، حيث علا صوت حَمَلة الأقلام الملوثة، والدعوة إلى المنكرات، وطلاب اللهو وأحلاسُ الفسق، ودعاة الرذيلة، ومروِّجي الفاحشة، وناشري العري والتهتك والمجون والخلاعة

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٤٣٠؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٠٥١)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (١٥٠٥).

(٢) هذا عنوان طريف لفصل قيم من كتاب: ظلام من الغرب، ص١٨٩ ـ ٢٠٤.

والأدب المكشوف، حتى سُوِّد وجهُ الحق والفضيلة والعفاف والحياء، وأصبحت المناكر والرذائل والفضائح أشياء مألوفة للعامة، لا تتمعَّر الأوجه باستنكارها، ولا تضطرب القلوب لإسفافها، فضلاً عن تحرُّك الألسنة والأيدي بتغييرها!.

لقد فُتحت الأبواب على مصاريعها لكلِّ لكع بن لكع، وسِيْقَت له الدنيا، وسَعِد بالجاه والسلطان وأروقة الصحافة ومنابر الإعلام، ومناصب التربية، ومواقع التوجيه.. وتصدَّر المحاضرات والندوات والمؤتمرات أناسيّ من مشوَّهي الفكر والقلب والقلم واللسان، والذين صنَعَتْهم آلاتُ التوجيه الغربي والإباحية الماجنة والسَّفَه والشطط الغارق في بحار الانطلاق من كل قيد وقيمة وفضيلة والتزام.

وتدفَّق هؤلاء (الألاكع) جميعاً على أجيال المسلمين كالريح العقيم والسيل الجارف والبحر الهائج، ليخوضوا معركتهم مع الشباب الذي تاه في منعرجات الحب والغرام، والكتابات الدنسة، والصور النجسة، والشهوات المضطرمة، والظمأ الجنسي، والنزوات الوثّابة... يجلدون هؤلاء الشباب ويسوقونهم بعيداً بعيداً عن الحق والنُّبل والكرامة والرجولة والحياة الجادة والأهداف العالية والكفاح الصبور.

لك أن تشاهدَ آلافَ التمثيليات والمسرحيات والأفلام والمسلسلات والبرامج والمنتديات والندوات والحفلات والمهرجانات والصحف والمجلات والكتب والدعايات، وما تضج به وتضخه القنوات الفضائية على مدار الساعة ـ لتجد طغيان أولئك (اللكعات) وصورَهم وأصواتهم وانحناءاتهم وانثناءاتهم وضحكاتهم ورقصاتهم ومُجونَهم و... و... كلٌّ يهدم بمعول لا يرحم، ويضرب ببأس لا يلين، ويشمِّر بهمَّةٍ لا تفتُر؛ لأن وراءه تأييداً ودعماً وتشجيعاً وإشادة وتحفيزاً ومكافأة، لا ينقطع رِفْده ولا يَنْضُب مَدَدُه!.

في الوقت الذي يُضَيَّق فيه على الشرفاء والمخلصين والغيورين والصادقين والناصحين، ويُشدَّد الخِناق على الفكر الجاد، والأدب الملتزم، والخُطَب

النافعة، والمحاضرات البنّاءة، والصحف الحرة الصادقة، والمجلات الوطنية الملتزمة بقضايا الأمة المصيرية، ويُمنع نشر كثير من ذلك، أو يُسلَّط عليه مقصّ الرقيب!.

وتعاضدت جهود أولئك الموصوفين في الحديث بـ «**لكع بن لكع**» لِطَمْسِ تقاليد النُّبْل والفضل والشرف والعفة، وتلويث منابع الخير، وتصديع أركان الأمة، وإضعاف الروح الإنساني المخنوق، وترويج أمراض الرجولة، ونشر جراثيم العفن الخلقي، وسَلْق الإسلام بألسنة حِداد، لِخَلْق أمة تلين في يد الأعداء، وتخلو من أصحاب الأخلاق القوية والسير القويمة والهمم البعيدة(١).

•• ولو نظرتَ في وزاراتنا ومؤسساتنا الكبرى ومرافقنا العامة، ثم رَجَعْتَ البصر كَرَّة أخرى؛ لرأيتَ من انتشار «**لكع بن لكع**» فيها ما يهولك! ولتحقَّقَ عندك أيَّما تحققٍ ذلك الوصف النبوي الدقيق الرائع من أن هذا الصنف الوضيع من بني آدم قد أضحى أسعدَ الناس في هذا الزمان، فسِيقَتْ له الدنيا، وتصدَّر المجالس والمحافل، وتبوأ المناصب، وقادَ العامة، وتكلَّم باسمها، وتولى أمرها، وعَبَث بشؤونها! وانكفأ الأكفاء على أعقابهم القهقرى، وانعقَدتْ ألسنتُهم عن النطق بالحق وإصلاح الخلل؛ لأن الفساد قد نَخِر في هياكل الدولة ومؤسساتها، وسُلِّط سفهاؤها على حلمائها، وأشرارها على أخيارها، وعَبيدها على سادتها، وتدحرجت الكفاءات والخبرات والمكارم إلى السفح، وطفا الزبدُ وعلا وجْهَ الحياة.

ففي مثل هذا الجو الخانق الكئيب يَسُود «**لكع بن لكع**»، ويُسمع لقوله!.

•• وأكثر ما تجدُ ذلك الصنفَ الأحمق العيي الرديء الخبيثَ الفِعال؛ في ميدان المال والثروات الظاهرة والخفية، ولن يُضْنِيك البحثُ ولن يَستغلق عليك الشرح والإيضاح لاستبيان ذلك في هذا الميدان!.

---

(١) انظر: كفاح دين، ص٢٢٥، ٢٢٧، ٢٤٥.

إن الله سبحانه قد وضع في بلاد العرب والمسلمين من البركة وأفاءَ على أهلها من الأموال والكنوز ما يجعلهم أملأ أهل الأرض، لكن التبذير المهلِك في فنون اللهو والحرام يبدِّد تلك النِّعم في مواطن العبث بدلاً من أن تتحول للإنشاء والتعمير. لقد تحوَّل المال في أيدي (اللكعات) إلى لعنةٍ شاملة، حيث ضَنُّوا بما عندهم في وجوه الخير، و(كَبُّوه) في وجوه الشر، فعليهم وِزْرُ ما ضيَّعوا من مصالح الأمة، ثم وزرُ ما جَرُّوا عليها من معاطب! فبينما تعتمد عشرات الجامعات والمستشفيات ومعاهد التبشير ومصادر البرّ على مِنَح وصدقات أهل اليسار من اليهود والنصارى والوثنيين، تجد كثيراً من أغنياء بلادنا صيادي لذائذ، وروّادَ آثام(١)!.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة يعرفها القاصي والداني، ومنها خبر استوقفني أُذيع من عهد قريب، فقد أُقيم في دولة عربية مزاد علني (لبيع الحَمَام)، وصل ثمنُ الحمامة الواحدة إلى (٥٠ ألف دولار أمريكي) ـ هكذا الرقم تأكد منه حتى لا تزل قدمك ـ! وفي اتصال هاتفي مع أحد الهواة ذَكَر أن (هذا الحمام المقدس!) يمتاز عن غيره بقيامه عند الطيران بحركات بهلوانية، ويأتي من سلالة معينة يهتم بالعناية بها الهواة من مربي الحمام(٢)!.

ولو أن مَن ينفِق مثلَ هذه الأموال في هذا (المزاد) قد تعِب ونَصِب في تحصيله؛ لَما بدَّدَه بمثل هذا السَّفَه، ولو أنك نقَّبتَ عن أمثال هؤلاء لوجدتهم خِفاف العقول سفهاءَ الأحلام يعقِد العِيُّ ألسنتَهم ولا يفيدون أمتهم بشيء.

يحدث هذا ـ وغيره كثير جدّاً ـ في وقت لا تجد فيه أسرٌ مسلمة كثيرة كسراتِ الخبز لتسدَّ بها جَوْعة أطفالها، أو جرعة الدواء تعالج بها مرضاها، أو كرسي الدراسة لتعلّم أبناءها!.

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطلة، ص١٢٥؛ كفاح دين، ص٢٦٠؛ اليهود المعتدون، ص٢٥٧.

(٢) نقلاً عن: قناة العربية ـ برنامج بانوراما، الأحد ٢/ ٤/ ٢٠٠٦م.

ويخيَّل إليَّ أن الشافعي كان يتأوَّه وهو يرى المال قد فقدَ وظيفته الاجتماعية عند بعض الناس، فهو يقول ضائقاً محزوناً:

وأَنْطَقتِ الدارهمُ بعدَ صَمْتٍ أُناساً طالَما كانوا سُكُوتا
فما عَطَفُوا على أحدٍ بفَضْلٍ ولا عَرفوا لِمَكْرُمةٍ بُيوتا
كَذاكَ المالُ يُنْطِقُ كلَّ عَيٍّ وَيتْرِكُ كلَّ ذِي حَسَبٍ صَمُوتا[1]

●● ومن نماذج (اللكعات) ما نراه في الميادين الرياضية، فتجد أحدهم عَيياً جهولاً لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً، لا يفيد أمته بقليل أو كثير، بيد أن له (قدماً ذهبية) تُحسِن اللعب بالكرة، فتجرّ عليه الأموال الطائلة والهدايا الجزيلة والمكافآت الضخمة، وتُلاحِقُه (كاميرات) التصوير، ويتصدَّر اسمُه الصفحات الأولى في الصحف والإعلام، ويتحدث الناس بأعماله وبطولاته، وتُساق له الدنيا سوقاً، ويمسي كما قال النبي ﷺ: «**أسعدَ الناس بالدنيا**»! بينما تجدُ جمهرة عريضة من العلماء والخبراء وأصحاب الكفاءات في شتى الاختصاصات، لا يعلم بهم عامة الناس، ولا يَلتفت إليهم الإعلام، ولا يُلقي لهم بالاً أي مسؤول، ويعيشون حياة هادئة صامتة يغلب عليها الكفاف، ويموتون ولا يدري بهم كثير من الناس!.

●● ولم يَسلم ميدان الأدب والشعر من غزو (الألاكع) له، فتجد (الأدب الذي يردُّ للعرب رشْدَهم، ويبصِّرهم برسالتهم، ويَحْدُوهم إلى أدائها؛ لا يجوز أن يحيا! والأدبُ المطلوب هو أدبُ التسالي والمجون، أدب الضياع والإدمان! الموضوع الأثير الجذّاب هو الجنس، الجريمة، الضحك، الدعاية للمجتمعات الأوروبية والأمريكية، كل ما يَفْصِلنا عن ماضينا الإسلامي وتاريخنا العريق)[2]! فمِثلُ من يرتاد هذه المستنقعات ويكتب فيها، يشار إليه بالبنان، ويُشاد بأدبه، وتفتح له الأبواب، وتساق له الدنيا!.

---

(١) ديوان الشافعي، ص٥٨.

(٢) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٣٤.

٩٣

إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان يغربل الناس فيه وتبرز حثالة قد مرجت عهودهم وأماناتهم

١ - عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: (أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**كيفَ بكم وبِزَمانٍ** - أو: **يُوشِكُ أن يأتيَ زمانٌ - يُغَرْبَلُ الناس فيه غَرْبلةً، تَبْقى حُثَالَةٌ من الناسِ قَد مَرِجَتْ عهودُهم وأماناتُهم، واختَلَفوا فكانوا هكذا**» وشَبَّك بين أصابعه.. فقالوا: كيف بنا يا رسولَ الله؟ قال: «**تَأْخُذُونَ ما تَعْرِفون، وتَذَرُونَ ما تُنكِرونَ، وتُقْبِلُون على أمرِ خاصَّتِكم، وتَذَرُونَ أمرَ عامَّتِكُم**»)[1].

٢ - وعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: (بينما نحنُ حولَ رسول الله ﷺ، إذ ذَكَر الفتنةَ، فقال: «**إذا رأيتُم الناسَ قد مَرِجَت عُهُودُهم، وخَفَّتْ أماناتُهم، وكانوا هكذا**» وشَبَّكَ بين أصابعه، قال: فقمتُ إليه فقلتُ: كيفَ أفعلُ عند ذلك جعلَني الله فِداكَ؟ قال: «**الْزَمْ بيتَكَ، وامْلِكْ عليكَ لسانَكَ، وخُذْ بما تَعْرِفُ، ودَعْ ما تُنْكِرُ، وعليكَ بأمرِ خاصَّةِ نَفْسِكَ، ودَعْ عنكَ أمرَ العامَّةِ**»)[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٢) واللفظ له؛ وابن ماجه (٣٩٥٧)؛ وأحمد: ٢/ ٢٢٠، ٢٢١؛ والداني (٢٥٣)؛ والحاكم: ٤/ ٤٣٥؛ وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وصحَّحه الألباني. وعلّقه من حديث ابن عمر: البخاري (٤٨٠)، ووصله إبراهيم الحربي في غريب الحديث؛ وحنبل بن إسحاق في الفتن؛ وأبو يعلى في المسند؛ انظر: الفتح: ١٦/ ٣٤٤ شرح الحديث (٧٠٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤٣) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٩٩٦٢)؛ وأحمد: ٢/ ١٦٢، ٢١٢؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٨١)؛ والحاكم: ٤/ ٢٨٢ - ٢٨٣، ٥٢٥؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود؛ وفي الصحيحة (٢٠٥).

٣ ـ وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتَ يا عبدَ الله بنَ عمرو إذا بَقِيتَ في حُثالَةٍ من الناس؟**» قال: وذاكَ ما هُمْ يا رسولَ الله؟ قال: «**ذاكَ إذا مَرِجَتْ أماناتُهم وعُهُودهم، وصاروا هكذا**» وشَبَّكَ بين أصابِعِه، قال: فكيف بي يا رسولَ الله؟ قال: «**تعملُ ما تَعْرِفُ، وتَدَعُ ما تُنْكِرُ، وتعملُ بخاصَّةِ نَفْسِك، وتَدَعُ عَوَامَّ الناسِ**»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: إضاءة على معاني الأحاديث ودلالاتها:

يبيّن النبي ﷺ في أحاديث هذه النبوءة ما يأتي على الناس بعده من التباس الحق عليهم، وفسادِ أحوالهم، واضطراب أمورهم، واختلالِ موازينهم، وغَرْبَلة الناس، فترتفع حُثالاتهم وتطغَى على أخيارهم.

وقوله: «**يُغَرْبَل الناس**»: يشبِّه أحوالهم بما يفعله المرء عندما يضع القمح ونحوه في الغِرْبَال، فيُغربل ليعْزِل البُرَّ الذي يتساقط، ويبقى في الغِربال التِّبْن وما شاكَلَه مما يمثل الحُثَالة. وكالذي يَنْخُل الدقيق بالمُنْخُل لِيَعْزِل لُبَابَه عن نُخَالتِه، حيث تبقى النُّخالة في المُنْخُل وهي الحُثالة.

والحُثَالَة: الرديءُ من كل شيء، وما لا خيرَ فيه، وهي القُشارة من الحنطة والشعير والأَرُزّ والتمر وما أشبهها، وكلِّ ذي قشارة إذا نُقِّي. **وحُثَالة الدُّهْن**: ثُفْله. **وحثالة الناس**: رُذَالتهم وشرارُهم. **والحُثَال**: السَّفَل.

و«**مَرِجَتْ أماناتُهم**»: مَرِج الأمر مَرَجاً فهو مارِج ومَرِيج: الْتَبَس واخْتَلَط.

أي التَبَست عليهم أمور الدين واختَلَطت، فهم في أمر مختلِف وضلالٍ ملتبِس، قد اضطربت عهودهم وقلَّ الوفاء بها، واختَلَطت أماناتهم فخانوها،

(١) أخرجه ابن حبان (٥٩٥٠) و(٥٩٥١) و(٦٧٣٠) واللفظ له؛ والدولابي في الكنى: ٢/ ٣٥؛ والطبراني في الأوسط (٢٧٩٧)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٨٢)؛ والداني (٢٥٥)؛ وصحّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٢٠٦).

وعاشوا في أمر مَرِيج قد التبس عليهم المخرج منه[١].

ومثَّل النبي ﷺ لاختلاطِ أمورهم وفسادِ ذِممهم واضطرابِ عهودهم ومروجِ أماناتهم؛ بالتشبيك بين الأصابع، حتى أصبحوا لا يَعرفون معروفاً ولا يُنْكِرون منكراً، بما لُبِّس عليهم من أهوائهم الجامحة ونفوسهم المريضة وقلوبهم الزائغة وعقولهم المَؤُوفة!.

فواجبُ المسلم آنذاك أن يتجنَّب أعمالهم ومجالسهم، ويستمسك بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ وهدي الصالحين. ويترك ما يُنكَر، ببصيرته المستنيرة بالحق، ويُمسك لسانه عن الخوض بمشتبهات الأمور، وينأى بنفسه عن أعمال أهل الزَّيغ والهوى من الحثالات، ويستمسك بما لديه من مواريث الهدى والحق، ويعيش بين الناس نجماً هادياً، وداعياً مرشداً، وناصحاً أميناً، متحصناً بالخُلُق القويم والهدي المستقيم. فيكون مَثَلُه ومَثَل أولئك كما جاء في حديث مِرْدَاسٍ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**يَذهبُ الصالحون الأوّلُ فالأولُ، ويَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعير أو التَّمر، لا يُبَالِيهِمُ اللهُ بالَةً**»[٢].

أي: لا يَرْفَع لهم قَدْراً، ولا يُقيم لهم وزناً. وحُفَالة وحُثَالة بمعنى واحد.

ثانياً: النبوءة في الواقع التاريخي:

المتأمل لهذا الوصف النبوي لأحوال الناس، والتشخيصِ الدقيق للأمراض العُضَال التي تجتاحهم؛ يرى التصديقَ التام لهذه النبوءة في زماننا هذا ومنذ سنين طويلة خلَتْ، حيث طغَى حثالات الناس، وبَغَوا في الأرض، وتسلَّطوا على رقاب الأمة في مختلِف ميادينها وشتى مؤسساتها ومنابرها، وأنشبوا فيها أظفارهم، ونشروا في جنباتها أمراضهم الفتاكة! حتى مَرِجَت الحياة بهم،

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٣٩ (حثل)؛ لسان العرب: ٢/ ٣٦٥ (مرج)، ١١/ ١٤٢ (حثل)، ٤٩١ (غربل)، ٦٥١ (نخل).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٤) واللفظ له؛ وأحمد: ٤/ ١٩٣، وابن حبان (٦٨٥٢)؛ والبيهقي في السنن: ١٠/ ١٢٢؛ والبغوي (٤١٩٧).

واضطربت الأرض بالأمة من شدة وطأتهم، وسوَّدوا وجه التاريخ القريب والمعاصر بجرائمهم وآثامهم. وزادوا ذلك بإهالة التراب على أعمال الكبار والمخلصين الغيورين، ونثروا في طريقهم الأشواك كي لا يصلوا إلى المواقع المؤثِّرة التي تكشف عجزهم وزيفَهم، وتُميط اللِّثام عن سَفَالاتهم، وتلقي بالحُثَالة والنُّخالة حيث يجدُر بها تحت الأقدام.

●● والأمانات والعهود التي جاء ذِكرها في هذه الأحاديث؛ ذات معنى رحيب ومفهوم عميم.. والحثالات التي أشارت إليها النبوءة متنوعة الأشكال متعددة الأساليب كثيرة التفرعات والتشعبات.

ونعني بالأمانات والعهود أولَ ما نعني قيامَ كلِّ إنسانٍ بما كُلِّف به، وإنجازَه ما تعاقد مع الدولة والجماعة على إتمامه.

يا غَوْثَاه من الخيانات الفاشية في هذا الميدان! إنها خياناتٌ لو سُلِّطت على بناء شامخ لسوَّتْه بالحَضيض.

لقد خفَّت الأمانات ومَرِجت العهود، فالغيرة على المصلحة العامة مفقودة بين عدد ضخم من المسؤولين والموظفين والعمال، بل إن الإحساسَ بحقِّ الجماعة على الفرد إحساساً يصل بالإنتاج إلى مستوى معقول لا يكاد يوجد، فأنَّى ننتظر الإجادة والتفوق.

ونستطيع القسمَ بأن العدد الكثيف من المسؤولين والموظفين والعمال الذي يعمل في الجهاز الحكومي والقطاع العام؛ يستطيع لو نَبَت شعورُ الأمانة الحقيقية في قلبه أن يؤدي للدولة والجماعة عشرةَ أضعاف ما ينتجه الآن، وأن يمنع من الخسائر مثل هذه النسبة.

ولكن الأمانة والعهد يرتكزان على الإيمان واليقين والمراقبة الداخلية، وأين تجدها وسط العواصف والزلازل التي تهزُّ الإسلام بعنف، وتخلع عُراه من الأفئدة[1]؟!.

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطلة، ص١٢٦.

●● الوزراء والضباط والجنود والمهندسون والمحامون والأطباء والمدرسون والصحافيون والمذيعون والموجهون والخطباء وعلماء الدين. . . وكل إنسان تستعمله الدولة والأمة والجماعة في منصب جَلَّ أو هانَ ـ كل أولئك أمناء قد أُنِيطت بهم مسؤوليات وأَخذت الأمة عليهم العهود.

لكن كثيراً منهم قد نقضوا عهودهم وخانوا أماناتهم، واضطربت بهم حياة الأمة والجماعة والدولة في أصقاع الإسلام الممتدة.

تجدُهم وأنت تتنقل في الإدارات المتعطلة، والدواوين الراكدة، والمصالح المترنحة، التي لا يتم لك فيها أمر ولا تنقضي معاملة إلا بطرق ملتوية ورشاوى ومتاهات أتقنَ السيرَ فيها أولئك الحثالاتُ الذين مَرِجَت بهم البلاد، وقد أَقْفَرَتْ حياتهم الذهنية والنفسية والعملية من النفع والخير والإخلاص، فهم دائبون على تلويث منابع الخير وتصديع أركان الأمة.

فنشأ عن ذلك عواصف عاتية غَرْبَلَتِ الناسَ غربلةً جائرةً، فتضعضع أهلُ الإيمان والأمانة والحافظون للعهود والمواثيق، وأُبعدوا من الطريق، وعَلَتِ النُّخالة والحُثالة من رُذَالة الناس وشرارِهم، فضاعت الأمانات واضطربت العهود!.

وأَبْرَحَ أولئك الأشرار ببناء أمتنا ودينها وحضارتها في التاريخ القريب والمعاصر، وأوجدوا فيها عللاً معقدة، وأحدثوا بكيانها شروخاً غائرة، وجعلوا دولَنا ذيلاً للشرق والغرب، وأطفَؤُوا شعلةَ الإسلام ودحرجوه سياسيّاً وثقافيّاً، وأعاقوا العمران، وخَدَّروا النشاطَ الإنساني في ربوعنا. . ومنذ قرون والدمار الحضاري يجتاح العالم العربي والإسلامي على أيديهم[(١)].

فهؤلاء من أخطر الحثالات الذين مَرجت عهودُهم وذَوَتْ أماناتُهم!.

●● ومن خيانات أولئك الحثالات ونُكْثِهم بعهودهم وتفريطهم بأماناتهم

(١) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٢٨؛ علل وأدوية، ص٢١٢.

التي استَوجَبَتْ عليهم بقيادتهم للأمة وتعهدهم بالوفاء بها: تضييعُ الحقائق الكبرى والركائز العامة التي تحيا بها الشعوب وتنهض بها الأمم وتزدهر بها الحضارة، وعلى رأسها:

حقوق الإنسان، وضمانات القضاء العادل، وتوفير الحريات الأساسية، وكسر كبرياء الجبابرة، وتحريم الحبس أو الاعتقال الإداري، ومراقبة المال العام تحصيلاً وإنفاقاً... إلى آخر ما يَضْبِط العلاقات بين الحاكم والمحكوم.

وكذلك حراسةُ عقائد الأمة وأخلاقها وقيمها من العبث والمجون والأفكار الهدّامة والدعوات المتزندقة، حيث تجد جنود إبليس ينشطون في كل سبيل ويدمِّرون على الأمة مواريثها ومعاقد وجودها وحضارتها، أولئك الذين يزيِّنون الرذائل لأبنائنا، ويهيجون بدمائهم حبَّ الجريمة، ويصوِّرون الحياة لهم على أنها غرائز يجب إشباعها، وفُرص يجب انتهازها، وحرية ليس عليها قيد، وانطلاق لا يهدأ عند حدّ.

•• ولا يقلُّ عمَّن سبق خطراً وفتكاً حثالاتُ التسوّلِ الجنسي ونشرِ الإباحية وترويج الرذيلة والاستخفاف بِقيَم الشرف والعِرْض والحياء، وما أكثرهم!.

انظر ذلك الغثاءَ الذي يطفو على سطح حياتنا اليومية، ويُلاحِقك صباحاً ومساءً، سرّاً وجهراً، ممن يدعو ويشجّع على اختلاط الذكور بالإناث في حمامات السباحة، ونشرِ الميوعة والخلاعة، وحراسةِ أماني الشيطان في أن يَعمَّ ديارنا الإثمُ والفسوق والعصيان، والرذائل الخلقية، والنظرات الجائعة، والألفاظ الخادشة، والعُرْيُ والتهتك واللباس الفاضح.

•• ومن أخطر حثالات المجتمع الذين خانوا دينهم وأمتهم وعروبتهم وتراثهم؛ أنصارُ الغزو الفكري ودعاتُه من صنائع الاستشراق والتبشير والتغريب، وأصحاب (الإيديولوجيات) والمذاهب العلمانية والأفكار الهدّامة الوافدة إلى بلادنا، أولئك الذين تجرؤوا على الإسلام جملة وتفصيلاً، فهاجموا ثوابته،

وهزئوا بأصوله، وعبثوا بفروعه، واشتدت وطأتُهم على الأجيال المتلاحقة، تستهدف رسالة الإسلام وحَطْمَه والإتيانَ على بنيانه من القواعد.

●● وحثالات أصحاب الأموال والثروات، وقد ذكرنا أوصافهم وخطاياهم في مواضع من كتابنا هذا تطبيقاً لما جاء في الأحاديث الصحاح، ونومئ هنا إلى ما يناسب المقام من أنهم خانوا عهودهم وفرَّطوا بأماناتهم التي وضعها الله في أيديهم، فَعَبثوا بالأموال التي بسطها الله لهم واستخلفهم فيها، فما رَعَوْها حقَّ رعايتها.

لقد ملكوا المال فاستغلوه في خراب الذمم، وشراء الشهوات، واقتناص الملذات، وتحقير المآثر، ودفن آيات الوحي.. إن التبذير المهلك في فنون اللهو وألوان الآثام ومواطن العبث، هو أكبر خيانة للأمانة وتفريط بوظائف المال التي تُناط به وبأصحابه من عمارة الدنيا والآخرة.

●● وغير ذلك كثير من الحثالات التي عمَّت بلادنا وطَمّت مجتمعاتنا ونخرت في بنيانها كالسوس الذي يأكل الخشب الصلد! وهم قد ارتقوا مناصب، وتبوؤوا مسؤوليات، وأقبلت الدنيا عليهم، وخُدع بهم المغفلون، وأثنى عليهم الأفّاكون.

وكثير من هؤلاء الحثالات أصحاب ضمائر زائغة، يستحلون محرمات شتى، ولا يرون غَضاضة من اقترافها، لأنهم ـ وهم المقطوعون عن هدي السماء ـ لا يعترفون بما فيها من قذر! فأصبحوا وكأنهم المَعنيُّون بما رواه حذيفة عن رسول الله ﷺ قال: «**ويُقال للرجل: ما أَعْقَلَه وما أَظْرَفَه وما أَجْلَدَه! وما في قلبه مثقالُ حبَّةِ خَرْدَلٍ من إيمان**»(١).

ثالثاً: دروس وعبر:

١ ـ إن الذين يَستجمعون أخلاقَ النصر سوف ينتصرون، والذين يستجمعون

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)؛ ومسلم (١٤٣)؛ والترمذي (٢١٧٩)؛ وابن ماجه (٤٠٥٣)؛ وأحمد: ٥/ ٣٨٣؛ وابن حبان (٦٧٦٢)، وغيرهم.

أخلاق الهزيمة سوف ينهزمون، ومن ظَنَّ أن الله سبحانه يُحابي أمة ما فيرفَعُها وهي تُسِفُّ؛ فسوف يدفع ضريبة هذا الخطأ من دمه ومكانته، ووحيُ الله وتاريخ الناس شهود على ذلك[١].

وطغيانُ الحثالات من أكبر عوامل الهزيمة التي مُنِيت بها أمتنا في العقود الأخيرة.

٢ ـ حرفةُ الحثالات وعملُهم الدؤوب نشرُ الهزائم في ربوعنا، وإماتة الحياة في قلوب أبنائنا، وإضاعةُ الشباب والمال والأخلاق وأركان الحضارة وأسس العمران، وحُداء غرائز السوء في بيداء الحياة، وتحطيم العزائم تحت ضغط الشهوات والرذائل المستباحة، وتلويث العقول بالأفكار الكافرة.

إنه لا بد من العودة إلى مواريثنا وفضائلنا نَحزِم بها أمورنا ونوثِّق بها شؤوننا قبل فوات الأوان.

٣ ـ إذا كنَّا الآن في فترة بناء لتاريخنا الحديث وعهدنا الجديد، فيجب أن نسدَّ الأبواب أمام هذه الخِلال المُبيدة، وأن نصدَّ أصحابها عن المضيِّ في غوايتهم، حتى نحتفظَ بحياتنا، ونصونَ مستقبلنا.

لقد كان من خُلُق العرب الأولين أن يَطووا بطونهم، ويَكْظِموا على رغباتهم، إذا واجهوا عدوّاً، أو خاضوا حرباً، ومن ثَمَّ يقول قائلهم:

قومٌ إذا حَارَبُوا شَدُّوا مآزِرَهُم ... عن النساءِ ولو باتَتْ بأَطْهارِ[٢]

فكيف نترك الحثالات يعبثون في البلاد والعباد والقيم والأخلاق والشرائع والشعائر، ويسعَوْن إلى إفناء أمتنا ماديّاً وأدبيّاً؟!.

٤ ـ لا بد من صيحة (الله أكبر) تقود الجماهير الغفيرة وتعود بها إلى الله

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢٧٥.

(٢) كفاح دين، ص٢٥٢، ٢٥٤.

سبحانه، وتتقدم صفوفَ المجاهدين والغيورين والبنائين؛ لإعادة الإسلام إلى الحياة، وإنزاله بمكانته الجليلة ومكانه الحق في نفوس أتباعه.

وليعلم الجيل الحالي والجيل الذي يليه أن راية الإسلام وحدها هي التي تجمع الشمل، وأن أية راية غيرها لا تنطلق بنا إلا وراء سراب خادع وأمل كاذب(١).

وأن إخراج الإسلام من الحياة كل الحياة هو طريق العار والانتحار والنار.

لا بد من الاعتماد على الإسلام في شؤون التربية وسواها، وتوفير القداسة لنصوصه وتعاليمه التي يتفانى الحثالات في تهوينها وتذويبها، كي يخلقوا أمة معتلَّة لا جهدَ لها ولا أمل.

٥ ـ لقد أوصى الرسول ﷺ أصحابه وأمته من بعده، وهو يبيّن لهم صفات الحثالات وخطرهم، فقال: «**تأخذون ما تَعرِفون، وتَذَرُون ما تُنْكِرون، وتُقْبِلُون على أمرِ خاصَّتِكم، وتَذَرُون أمرَ عامَّتِكم**».

إنه لم يوصِ بالفِرار من المواجهة والانزواء في الزوايا والتكايا والعزلة عن المجتمع، فإن الهزيمة بالحق أمام حفنات الحثالات عار أي عار! بل لا بد من مقاومةِ الفتن، وبناءِ محاضنَ نقية للأجيال الجديدة، وحياطةِ أهل الخير بسياج يحميهم من الزيغ، وجعلِ المساجد مثاباتٍ يلتقي الأخيار فيها ليأنس بعضهم بالبعض ويتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر.

وفي هذا المجال لوصَدَقْنا اللهَ نستطيع أن نقطف أشهى الثمرات.



(١) اليهود المعتدون، ص٢٩١.

إخبار النبي ﷺ بمَرَجِ الدِّين واحتراقِ الكعبة

عن أمِّ المؤمنين مَيْمُونَةَ بنتِ الحارثِ ﵂ قالت: قال رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم: «**كيفَ أنتُم إذا مَرِجَ الدِّين، وسُفِكَ الدَّمُ، وظَهرتِ الزِّينَةُ، وشَرُفَ البُنْيَانُ، وظَهرتِ الرَّغْبَةُ، واختَلَفتِ الإخوانُ، وحُرِّقَ البيتُ العَتيقُ؟!**»[١].

۞ ۞ ۞

هذا حديث عظيم جليل جامع لسبع نبوءات أَخبر بها النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وهي من الغيب الذي كشفه له ربه سبحانه، وقد وقع كل ما أخبر به ﷺ، فهو معدود في أعلام نبوته ودلائل صدق رسالته.

ـ **وسفك الدم الحرام وكثرة القتل وانتشار الهَرْج**: قد جاءت به الأحاديث الصحيحة الكثيرة، وتناولنا بيانها مفصلة[٢].

ـ «**شَرُفَ البنيانُ**»: أي ارتفع، وسيأتي الحديث عن علوِّ البنيان والتسابقِ إلى التطاول فيه في نبوءة مستقلة[٣].

ـ **وظهور الزينة والرغبة**: سيأتي الحديث عنهما كذلك[٤].

---

(١) أخرجه أحمد: ٦/ ٣٣٣؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٠٩؛ والطبراني في الكبير: ٢٤/ (١٤) و (٦٧)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧٤٤).

(٢) انظر مثلاً: النبوءة (٥٥) و (٨٧).

(٣) انظر: النبوءة (١٣٨).

(٤) انظر: النبوءة (١٣٤).

ـ **واختلاف الإخوان**: يأتي بيانه بعد قليل[(١)].

ونتناول هنا بشيء من البيان والتفصيل المقصودَ بالنبوءتين الباقيتين.

★ ★ ★

٩٤ ـ مَرَجُ الدِّين

مَرِجَ الدِّين مَرَجاً: اضْطَرَبَ والْتَبَس المخرجُ فيه، وفَسَد واختَلَطتْ مفاهيمُه وقَلِقَتْ أسبابُه[(٢)]، وشُوِّهَتْ حقائقُه ومبادِئُه.

وباستقراءِ حال الأمة العربية والإسلامية في شتى بلاد المسلمين في أيامهم الحالية وتاريخهم القريب ومنذ نحو قرنين؛ نَرى الإسلام قد مَرِج أمرُه، وقَلِقَتْ أسبابه، وشوِّهت مبادئه، وكَثُرت أعداؤه، وهُوجمت عقائده وبلاده في أصعدة كثيرة ومواقع عديدة ظاهرة وخفية.

●● فقد مَرِج أمر الإسلام في شؤون الحكم والريادة والسيادة، ونُحِّيَ عن قيادة الأمة وسياسة الجماهير ورعاية شؤونهم وتدبير أمورهم وتنظيم حيواتهم.

واستولى حكام على معاقد الخلافة والرئاسة والإمارة بطرق ملتوية، فأعلن فريق منهم بصراحة علمانيةَ الدولة وانسلاخَها من الدين! وفريقٌ آخَر أبقى على هياكلَ باهتة للإسلام وحنَّطَه في مواقع راكدة في المساجد والخطب و(المناسبات الدينية)، وهَمَّشَ دوره في مؤسسات الدولة ومرافق الحياة وشؤون العالمين.. وأحيا رجالُ هذا الفريق النزعات القومية والوطنية وجرَّدوها من الإسلام، وقرَّبوا إليهم من يتكلم باسم الإسلام و(يمثلون المسلمين) وسَمَّوْهم (رجالَ الدين!)، ليعرِضوا دينَ الله وشرعَه بصورة باهتة باردة مشوهة ناقصة، لا ترشد ضالّاً ولا تشدُّ أَزْرَ غيور ولا تَعْضُد مساعيَ ناصح ولا تبني أمة.. وعلى أيدي أمثال هؤلاء دخلت على الإسلام الشوائب الدخيلة، فأَقلقت أسبابَ حياته وقيامه،

(١) انظر: النبوءة (٩٦) في هذا المجلد.

(٢) النهاية في غريب الحديث: ٤/٣١٤؛ لسان العرب: ٢/٣٦٥ (مرج).

ولبَّسَتْ على الناس حقائقَه، وأَضعفت أتباعه، وأَوْدَتْ بدولته، وارتكبوا جريمة انتحار للخلافة الإسلامية، وأوصلوا المسلمين إلى ما هم فيه من أمرٍ مَريجٍ!.

●● واضطربت حقائق الإسلام واختلطت مبادئه وشوِّهت تعاليمه ولُبِّست محكماته وزِيدَ في المُشتبِهات فيه؛ على أيدي الأحزاب والجماعات والتجمعات والدعوات ومَرِج أمرُه عندهم مَرَجاً منكراً.

فأعلن بعضهم الانسلاخ عن شرائع الدين وشرائعه جملة وتفصيلاً، وقدَّموا للأجيال مناهجَ وضعية شرقية وغربية عاندوا بها دِين الله الخالد، وخلّطوا على الناس معاشهم ومعادهم.

وفريق آخر تستَّر بقشور من الإسلام لا تبني جيلاً ولا تشيد مجداً، وتحامَى الإعلانَ عن حقيقته، وتلاعب بالنصوص والمبادئ، وزوَّر المفاهيم والحقائقَ، وفرَّط بالأركان والواجبات، وتساهل في المحرمات والمنهيات، وأصبحت خيانة الأمة ودينها عنده وجهة نظر!.

وثمَّةَ صنف ثالث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، لم يفهم الإسلام حق الفهم، ولا استوعب تيارات العصر وما يموج به من أفكار، فما استطاع الجمع بين الدين والدنيا، والعقل والروح، والأصالة والمعاصرة، والعلوم التي تكوِّن هوية الأمة، والعلم العام الذي لا دين له ولا جنس ولا لون؛ فمرِج عليه الحال واضطرب المقال وضلَّ السبيل وضاق عليه المخرج.

والخلطُ بين تعاليم الإسلام وتقاليد الآباء والأجداد والأعراف واعتبارها جزءاً من الدين لا ينبغي الفكاك عنه، كتقاليد الزواج والأعياد والأحزان وشؤون المرأة والعادات الشخصية ـ هذا الخلط معضِلة يجب حلُّها، وتمييزُ هدي الله تعالى من لغو الناس وعاداتهم أمرٌ متوجب ليزول ذلك الهَرْج والمَرْج والتلبيس.

●● والجماعات الإسلامية والأحزاب الدينية والهيئات والدعاة، الذين جنَّدوا أنفسهم لنشر الإسلام ورفْع رايته والذِّياد عن حياضه وإعادته إلى دور

الريادة والسيادة؛ لم ينجُ هؤلاء كذلك من المَرَج والاضطراب في التنظير والفهم والتطبيق العملي، سواء كان ذلك قليلاً أو كثيراً.

ففريق منهم غلّب الفكر السياسي حتى طغى على منهجه وممارساته، وتضاءل عنده ما سواه من حقائق الإسلام الكبرى. وفريق ثانٍ تجهَّم للسياسة وحذَّر من (ساسَ يَسوس سياسة)، واعتبرها من نافلة القول، بل اعتبر أن الكلام في شؤون الحكم والمال العام وإدارة شؤون العباد هو مما يتفرَّد به السلطان، وأقام الأَيْمان المغلَّظة دون أن يُقسِم على أن لا يتدخل في السياسة. وآخرون عكفوا على تزكية الأنفس وأخذوا بجانب واحد من بناء الإسلام العظيم، وتركوا ما سواه يعربد فيه الباطل! وثمَّةَ من يقول بالخروج على الحاكم دون الاعتبار بالعواقب والنظر في الموازين والتوازنات الدولية والإقليمية والمحلية، وما يترتب على الخروج من كوارث تحلّ بالبلاد والعباد.

كما تجدُ من اشتطَّ في مفهوم الجهاد وبالَغَ في تطبيقه، فتوسَّع بناءً على ذلك في الدماء وغَلَا في التكفير، فكَثُر الهَرْج وسُفكت دماء كثيرة بغير حق!.

وغير هذه الأصناف ممن تعجّ بهم ديار الإسلام من جماعات وأحزاب وهيئات ودعوات وتنظيمات، حتى مَرِج أمر الدين.

ولا بدّ من أسس كبرى ومعالم عامة جامعة موحِّدة، تقرِّب البعيد، وتَرْدِم الهوَّة بين تلك التوجهات؛ لتصونَ جهودها، وتوحِّد كلمتها، وتجمع سواعدها، وترشِّد مسيرتها، حتى لا يستمر هذا المَرَج الذي لا تُحمد عقباه.

•• **ومَرِج أمرُ الدين كذلك في صفوف الباحثين والكتاب والمؤلفين والمفكرين** وسواهم من أرباب الفكر وأصحاب القلم، وعَبَثت كثير من المؤسسات والهيئات ومراكز البحث بحقائق الإسلام ومفاهيمه الأصيلة، فميدانُ الدين مَشاع لكل أحد، لغياب مَن يحمي بَيْضَته ويحرس أصوله ويُنافح عن وجوده ويدافع عن مبادئه ويَكبح جماح جنود الشيطان المنبثين في كل موقع من حياتنا.

لقد قدَّموا صوراً شائهة عن هَدي الإسلام في مجالات شتى: كتفسير القرآن العظيم، والجهاد، والمرأة، والحجاب، والشورى، والاختلاط، والتربية، والتدين العام، وعلاقة المسلم بالآخر، والخطاب الديني، وطاعة الله ورسوله وولي الأمر، والحلال والحرام، واللباس، والجنس، والأسرة، و... و...

•• **ومَرِج أمر الإسلام وكَثُر التلبيس والإفساد بحقه في مناهج التربية والتعليم، والإعلام، ومنابر التوجيه العام، والمساجد والخطب والندوات،** وما يجري في هذا الميدان الرحيب.. وأُطلِق العنان للفتَّانين الذين اجتالوا الأجيال عن طريق الحق فضيَّقوه عليها، وشَرَّعوا لهم سُبُل الضلال على مصاريعها، وشوّهوا صورة الإسلام في العقول والقلوب والسلوك، حتى بردت حرارته، وذَوَت جَذْوتُه، فنشأت أجيال فارغة الروح مريضة القلب زائغة الفكر، وعاشوا في أمر مختلِف، وأمست العواطف فاترة والأنفاس باردة، لا تحمي حقّاً، ولا تصون شرفاً، حيث حشا الباطل جنوده بالأوهام، ودفعهم ببأس شديد إلى اقتحام كل زحام[(١)].

•• وفي ميدان الإعلام والفن والتمثيل والغناء وكل ما يمتُّ إليه بصِلَة ترى الهَرْج والمَرْجَ على أشدِّه وأعتى صوره، فَنُكِست المفاهيم وقُلبت الحقائق، وارتفع الوضيع ووُضِع الرفيع، وعَلَا صوت الرذيلة واختنقت الفضيلة، وأصبح التهتك والعُري ونشرُ المفاتن وتسويق الأعراض حرية شخصية! وتسمع ممثلة تُفتي، ومغنِّية تحمد الله أن وفَّقها لإنتاج العدد كذا من (الفيديو كليب) وغيره من أغاني المجون، وثالثة تترأس مجلة شهيرة ترفع صوتها بإنكار وجوب الحجاب والخمار على المرأة، وتزعمُ أن الله سبحانه إنما فرضه على نساء النبي ﷺ خاصة، وأما غيرهن من المسلمات فالقرآن إنما قدَّم لهن (النصيحة) بالتزامه لا على وجه الوجوب والإلزام! ويتبجَّح أحدُهم بأنه يجب إطلاق الحرية للبنات

---

(١) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٨٠ ـ ٨١.

في وسائل الإعلام وسواها يفعلن ما يشأن مع إزالة كل الخطوط الحمراء من طريقهن، ويضرب المثال بابنته في هذا المجال... وغير ذلك كثير.

وفي قناة فضائية شهيرة[١] تُطرح قضية (تعدد الزوجات) للاستفتاء وأخذ الأصوات، ومَن يُفتي فيها جمهور كبير من حُدثَاء الأسنان من الفتيان والفتيات، وتكون النتيجة: (٢٠٪) عشرون بالمئة من الإناث توافق على التعدد، و(٥٨٪) ثمانية وخمسون بالمئة من الذكور توافق على التعدد!.

وحول موضوع (الزواج السياحي)[٢] في دولة عربية، يتم التصويت عليه ومدى قبوله أو رفضه فتأتي النتائج كما يلي: (٦٠٪) ستون بالمئة يرفضونه، و(٤٠٪) أربعون بالمئة يقبلونه! والأمر يتعلق بقضية شرعية حساسة خطيرة، يُستدعى لها أولو الأحلام والفقه، بَيْدَ أن (إعلامَنا الحرّ الموقَّر!) يطرح أمثال هذه القضايا على الغلمان ليقولوا فيها رأيهم!.

فأيُّ مَرَجٍ للدين أفظَعُ من هذا؟! وأي إفسادٍ أعظَمُ خطراً منه؟!.

●● **ولم تنجُ الفتوى من المَرَج**، فقد تسوَّر بنيانها وخبط فيها الصغار والأغرار وطلبة العلم المبتدئون وأصحاب الجمود الفقهي والتحجر العقلي وفقهاء السلطان.. وأصبح أحدهم يُطلِق الرأي الأحادي في قناة فضائية ليسمعه الملايين بتحريم كذا، وحَظْر كذا، ومَنْع كذا، وإباحة كذا، برأي أحادي دون اعتبار الاختلافات الفقهية وتنوع الاجتهاد، والرجل لم يؤتَ من العلم الشرعي إلا النزر اليسير.

أما أصحاب الأسماء الشهيرة والعمائم الكبيرة، فلا تستغربنَّ من أحدهم أن

---

(١) هي قناة (MBC) برنامج آدم وحواء.

(٢) **الزواج السياحي**: زواج مؤقّت تسمّى فيه البنت أو التي تكون زوجة بكراً كانت أو متزوجة من قبل، وتُحدَّد مدة الزواج (١٥ يوماً، شهر، سنة، أو أقل أو أكثر)، ويُحدَّد المبلغ الواجب دفعه.. بعد ذلك يترك الزوج تلك (الزوجة) دون أي التزام بنَسَب لو حدث إنجاب، أو مهر أو ما يترتب على الطلاق!.

يُبِيح بعض أنواع الربا، أو الاختلاط، أو تحريم الجهاد إلا بإذن (ولي الأمر)، أو يسوِّغ الاستسلام الذليل والصلح مع (إسرائيل)، أو يشدَّ من عَضُد زعيمٍ فتح بلاده لجيوش الصليبيين التي ربضت في بلاد المسلمين وأقامت فيها القواعد العسكرية.

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «**كيف أنتم إذا مَرِج أمر الدين؟!**».

●● **ومَرِج أمرُ الدين في شؤون المرأة العامة والخاصة**، وفي مال الأمة حتى انتُهكت حرماته وبُدِّدت منابعُه، وفي ميدان الأدب والعلوم العامة، وفي الحلال والحرام والمباح، وفي حياة عامة المسلمين الذين انغمسوا في حمأة الدنيا سحابةَ حياتهم، ولم ينتبهوا إلى دينهم وعقيدتهم إلا لِماماً، سوى طائفة من الأمة ستبقى مرابطة على الحق مناصرة له.

●● **ومَرِجَتْ تعاليم الدين الحنيف وتوجيهاتُه في العلاقة مع الآخرين من غير المسلمين، وفي شؤون مختلفة**: كعلاقتنا مع اليهود واحتلالهم لفلسطين وغيرها، وحقيقة السلم معهم، والموقف من الغرب الصليبي وبخاصة المؤيد لإسرائيل، والمناصر للأعداء الذين يفتكون بالمسلمين في بلاد إسلامية كثيرة، ومفهوم حوار الحضارات، والتقريب بين الأديان بل (أخوة الأديان) كما يزعم البعض! والاستعانة بالكفار.

●● **كذلك مَرِج أمر الإسلام في (الأمانات والعهود)**، فحدَثَ عدوان كبير عليها، وذلك بتوسيد الأمر إلى غير أهله، ورَفْع الأشرار، وسيادة (اللكعات)، وعلوّ الرُّوَيْبِضَة، وتسلُّم الحُثالات منابرَ المسؤولية، وقيام زعماء على رقاب العباد يُميتون الصلاة ويُطْفِئون السنَّة وينصرون البدعة، ويُعَرِّفون الناس ما يُنكِرون وينكرون عليهم ما يَعرفون، ويقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون ويكذبون ويظلمون، وسُلِّط السيف على رقاب الأمة، وجُعل بأسُها بينها.

ولا عاصمَ للمسلمين من هذا المَرَج إلا بعودتهم الصادقة الكاملة إلى ربهم، واستعصامهم بكتابهم، وقيامهم بسنَّة نبيِّهم ﷺ.

٩٥ ـ احتراق الكعبة

الكعبة المشرفة قِبلة المسلمين، ومهوى أفئدة المؤمنين، وأحدُ الرموز الكبيرة والراسخة التي تجسِّد وحدتهم واتحاد وجهتهم في صلواتهم لربهم سبحانه، لها في أنفسهم المكان الأسمى من الحب الغامر، يتنافسون في الدفاع عنها والذِّياد عن قداستها وطهرها، ويبذلون المُهَج والأرواح دونها؛ لتشريف الله لها، ووصاة النبي ﷺ بتعظيمها وتشريفها، ودعائه لكل من شرَّفها وعظَّمها وكرَّمها.

لذا كان من المستغرَب بل المستعظَم أن يسمع المؤمنون بامتهانِ أحدٍ للبيت العتيق، وقد أتمَّ الله على المسلمين النعمة وفتح عليهم مكة، وطهروها بقيادة رسول الله ﷺ من أرجاس الشرك ودنس الأصنام، وأقاموا حولها كل ما يليق بها من إجلال وتكريم وتشريف وتعظيم.

وهذا ما جعل رسولَ الله ﷺ يخبرهم عن أمر مُستنكَر فظيع سيقع، فيقول: «**كيف أنتم إذا مَرِج الدين، وسُفك الدم، . . . وحُرِّق البيتُ العتيق؟!**».

وقد تحققت هذه النبوءة سنة (٦٤هـ) بعد وفاة النبي ﷺ بنحو ثلاث وخمسين سنة.

●● وجاءت إشارة إلى احتراقها في (صحيح مسلم)، وأورد المؤرِّخون الذين كتبوا في (تاريخ مكة وبيت الله الحرام) روايات شتى، فصَّلوا فيها القولَ في ذلك الحريق وفاعليه وأسبابه ونتائجه.

عن عطاء بن أبي رباح قال: (لمَّا احترَقَ البيتُ زمنَ يزيدَ بنِ معاوية، حين غَزاها أهلُ الشام، فكان من أمرِه ما كان، تركَهُ ابنُ الزبير حتى قدِمَ الناس الموسمَ، يريد أن يُجَرِّئَهُم ـ أو: يُحَرِّبَهُم ـ على أهل الشام. فلما صَدَرَ الناسُ، قال: يا أيها الناسُ أشِيروا عليَّ في الكعبةِ: أَنْقُضُها ثم أَبني بناءَها، أو أُصْلِحُ ما وَهَى منها؟ قال ابنُ عباس: فإنِّي قد فُرِقَ لي رأيٌ فيها، أَرى أن تُصْلِح ما وَهَى منها، وتَدَعَ بيتاً أسلَمَ الناسُ عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها وبُعث

عليها النبي ﷺ. فقال ابنُ الزبير: لو كان أحدُكم احترقَ بيتُه ما رَضِيَ حتى يُجِدَّهُ، فكيف بيتُ ربِّكم؟! إني مستخيرٌ ربي ثلاثاً، ثم عازِمٌ على أمري.

فلما مضى الثلاثُ أَجْمَعَ رأْيَهُ على أن يَنْقُضَها! فتَحامَاهُ الناسُ أن يَنْزِل بأولِ الناس يَصْعَدُ فيه أمرٌ من السماء! حتى صَعِدَه رجلٌ فألقى منه حجارةً، فلما لم يَرَهُ الناس أصابَهُ شيءٌ، تتابعوا فنَقَضُوه حتى بَلَغُوا به الأرضَ، فجَعَل ابن الزبير أعمدةً، فسَتَر عليها السُّتورَ، حتى ارتفَع بناؤه.

وقال ابن الزبير: إني سمعتُ عائشةَ تقول: إن النبي ﷺ قال: «**لولا أن الناسَ حديثٌ عهدُهم بكُفْرٍ، وليسَ عندي من النَّفَقةِ ما يُقَوِّي على بنائه، لكنتُ أدخلتُ فيه من الحِجْرِ خمسَ أَذْرُعٍ، ولجعلتُ لها باباً يَدخل الناس منه، وباباً يَخرجون منه**».

قال: فأنا اليومَ أجدُ ما أُنْفِقُ، ولستُ أخافُ الناسَ.

قال: فزادَ فيه خمسَ أذرعٍ من الحِجْرِ، حتى أبدى أُسّاً نَظَر الناس إليه، فبَنَى عليه البناءَ. وكان طولُ الكعبةِ ثماني عشرةَ ذراعاً، فلما زاد فيه، استقصره، فزادَ في طوله عشرَ أذرعٍ، وجَعل له بابين: أحدُهما يُدْخَلُ منه، والآخرُ يُخْرَجُ منه.

فلما قُتِل ابنُ الزبير، كَتَب الحَجَّاجُ إلى عبد الملك بن مروان يُخْبِرُه بذلك، ويُخبره أن ابن الزبير قد وَضَع البناء على أسٍّ نظر إليه العُدولُ من أهل مكة، فكَتَب إليه عبد الملك: إنَّا لَسْنا من تَلْطيخ ابنِ الزبير في شيءٍ، أمَّا ما زاد في طُوله فأَقِرَّهُ، وأما ما زاد فيه من الحِجْرِ فَرُدَّهُ إلى بنائِه، وسُدَّ البابَ الذي فَتَحه. فنَقَضَه، وأعادَهُ إلى بنائِه).

وفي رواية: (أنِ عبدَ الملك بن مروان بينما هو يَطوفُ بالبيت، إذ قال: قاتلَ اللهُ ابنَ الزبير! حيث يَكْذِبُ على أمِّ المؤمنين، يقول: سمعتُها تقول: قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشةُ، لولا حِدْثانُ قومِكِ بالكُفرِ، لنَقَضْتُ البيتَ حتى أَزِيدَ فيه من الحِجْرِ، فإنَّ قومَكِ قصَّروا في البناء**».

فقال الحارث بن عبد الله بن أبي رَبيعة: لا تَقُلْ هذا يا أميرَ المؤمنين! فأنا سمعتُ أمَّ المؤمنين تُحدِّثُ بهذا.

قال: لو كنتُ سمعتُه قبلَ أن أَهْدِمَهُ، لَتَرَكْتُه على ما بَنَى ابنُ الزبير)[١].

●● وخلاصة ما ذكره المؤرِّخون من احتراق الكعبة في عهد بني أمية:

قال الواقِديُّ: حدثني عبد الله بن زيد، قال: حدثني عروة بن أُذَيْنة، قال: (قدِمتُ مكة مع أمي يومَ احترقتِ الكعبة قد خَلَصتْ إليها النار، ورأيتُها مجرَّدة من الحرير، ورأيتُ الركن قد اسودَّ وانصدَعَ في ثلاثة أمكنة، فقلت: ما أصاب الكعبةَ؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب عبد الله بن الزبير، قالوا: هذا احترقَتْ بسببه، أخذ قبَساً في رأس رُمْحٍ له فطيَّرت الريحُ به، فضَربَتْ أستارَ الكعبة ما بين الركن اليماني والأسود)[٢].

وروى ابن سعد في «الطبقات» من طريق أبي الحارث بن زَمْعة قال: (ارتحلَ الحُصين بن نُمير ـ يعني الأمير الذي كان يقاتِل ابنَ الزبير من قِبل يزيد بن معاوية ـ لمَّا أتاهم موتُ يزيد بن معاوية في ربيع الآخر سنة أربع وستين، قال: فأمر ابن الزبير بالخِصَاص[٣] التي كانت حول الكعبة فهُدِمت، فإذا الكعبة تنفضّ ـ أي تتحرك ـ متوهِّنةً ترتجّ من أعلاها إلى أسفلها، فيها أمثالُ جيوب النساء من حجارة المِنْجَنيق).

وللفاكهي من طريق عثمان بن ساج قال: (بَلَغني أنه لمَّا قدِم جيشُ الحُصين بن نُمير، أَحرق بعضُ أهل الشام على باب بني جُمَح، وفي المسجد

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٦) وأطرافه في رقم (١٢٦)؛ ومسلم (١٣٣٣) (٤٠٢) (٤٠٤)، واللفظ له.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٤٩٨ ـ ٤٩٩، أحداث سنة (٦٤هـ).

(٣) **الخص**: بيت من شجر أو قصب.

يومئذٍ خيام، فمشَى الحريق حتى أخذ في البيت، فظنَّ الفريقان أنهم هالكون! وضَعُف بناءُ البيت حتى إن الطير ليقع عليه فتتناثر حجارته!)[١].

وثَمَّة رواياتٌ أخرى تقارِب في المعنى ما ذكرناه، والروايتان اللتان أوردناهما واحدة منهما تُلقي باللائمة في احتراق الكعبة على جيش الشام، والثانية تشير إلى أن السبب من جيش عبد الله بن الزبير.

وكل من الروايتين تبيّن أن احتراق الكعبة المشرفة لم يكن مقصوداً، ولا استخفافاً بها أو تهويناً من شأنها، وإنما كان بسبب خطأ بشري، فحملتِ الرياح الهائجة الشررَ المتطاير فألقَتْ به على كسوة الكعبة فحرقَتْه حتى خَلَصت النار إلى السَّاج.

●● ثم إن عبد الله بن الزبير نَقض البيتَ حتى سوّاه بالأرض، ووصل إلى القواعد التي وضعها إبراهيم ﷺ، وكَشَف عنها وأشهدَ الناسَ على رؤيتها، ثم شاد البيت المعظم عليها، وزاد في طوله عشرَ أذرع، وأدخَلَ حِجْر إسماعيل فيه، وجعل له بابين.

فلما آلَ الأمرُ إلى عبد الملك بن مروان، ولم يكن اتصَلَ بعلمه حديثُ أم المؤمنين عائشة المتقدّم؛ أَمر بإعادة البيت إلى ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ، وعندما عَلِم بحديث عائشة وثبوتِه عنها، نَدِم وقال: (لو كنتُ سمعتُه قبل أن أَهْدِمه، لتركتُه على ما بنى ابن الزبير).

وهذا من عبد الملك في غاية الالتزام بوصاة النبي ﷺ ورغبته في تعظيم البيت، لكنه كَرِه العودةَ إلى ما فعله عبد الله بن الزبير خشية أن يصبح البيت ألعوبة. فهو إلى الآن على ما بناه عبد الملك وكما كان في عهد النبي ﷺ.

وحكى ابن عبد البر وتبعه القاضي عِياض وغيره عن هارون الرشيد أو

---

(١) الفتح: ٥/ ١١٢ ـ ١١٣، شرح الحديث (١٥٨٦).

المهدي أنه أراد أن يعيد الكعبةَ على ما فعله ابن الزبير، فناشَده الإمام مالك في ذلك وقال: أخشى أن يصير ملعبة للملوك! فتركَه.

قال الحافظ: (وهذا بعينِه خشيَهُ جدُّهم الأعلى عبد الله بن عباس ﵄، فأشار على ابن الزبير لمَّا أراد أن يَهْدِم الكعبة ويجدِّد بناءها، بأن يَرُمَّ ما وَهَى منها ولا يتعرَّض لها بزيادة ولا نقص، وقال له: (لا آمَنُ أن يجيءَ من بعدك أميرٌ فيغيِّر الذي صنعتَ)! أخرجه الفاكهي من طريق عطاء عنه.

وذكر الأَزْرَقيُّ أن سُليمان بن عبد الملك هَمَّ بنقضِ ما فعله الحَجَّاج، ثم ترك ذلك لمَّا ظهر له أنه فعله بأمرِ أبيه عبد الملك.

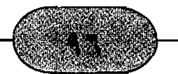
ولم أقف في شيء من التواريخ على أن أحداً من الخلفاء ولا مَنْ دونهم غيَّر من الكعبة شيئاً مما صنعه الحجاج إلى الآن)[١].

عن عيَّاش بن أبي رَبيعة المخزوميِّ، عن النبي ﷺ قال: «**لا تزالُ هذه الأمةُ بخيرٍ ما عَظَّموا هذه الحُرْمَةَ حقَّ تعظيمها، فإذا تركُوها وضَيَّعُوها هَلَكوا**»[٢].



(١) الفتح: ٥/١١٧، شرح الأحاديث (١٥٨٣ ـ ١٥٨٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣١١٠)؛ وأحمد: ٤/٣٤٧؛ وعمر بن شبة في «كتاب مكة»؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٥/١١٨ وقال: سنده حسن. **والحرمة**: الكعبة. وانظر التفاصيل في: تاريخ الطبري: ٥/٤٩٨، ٥٨٢، ٦٢٢؛ شرح صحيح مسلم: ٥/٩٨ ـ ١٠٧؛ الفتح: ٥/ ١٠٢ ـ ١١٨ (١٥٨٣ ـ ١٥٨٦)؛ التاريخ القويم: ٣/٥٨ ـ ٨٢.



إخبار النبي ﷺ بأنه سيكون بين المسلمين اختلاف كثير

١ ـ عن العِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ رضي الله عنه قال: (صلَّى بنا رسولُ اللّه ﷺ الصُّبحَ ذاتَ يومٍ، ثم أَقبَلَ علينا، فوَعَظَنا موعظةً بليغةً، ذَرَفَتْ منها العيونُ، ووَجِلَتْ منها القلوبُ، فقال قائلٌ: يا رسولَ الله، كأنَّ هذه موعظةُ مُوَدِّعٍ، فماذا تَعْهَدُ إلينا؟ فقال: «**أُوصِيكم بتَقْوى الله، والسَّمْعِ والطاعةِ وإنْ كان عَبْداً حبشيّاً، فإنَّه مَن يَعِشْ منكم بَعْدي فَسَيَرى اختلافاً كثيراً، فعَلَيكُم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّينَ، فتمسَّكُوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمورِ، فإنَّ كلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعةٌ، وكلَّ بِدعةٍ ضلالةٌ**» لفظ أحمد.

وفي رواية: «**وسَتَرَوْنَ من بَعْدِي اختلافاً شَديداً**»[(١)] لفظ ابن ماجه.

٢ ـ وعن أم المؤمنين مَيْمُونةَ بنتِ الحارث رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ ذات يوم: «**كيفَ أنتم إذا مَرِجَ الدِّين، وسُفِك الدَّمُ، وظَهرتِ الزِّينةُ، وشَرُفَ البنيانُ، وظَهرت الرغبةُ، واختلَفَتِ الإخوانُ، وحُرِّقَ البيتُ العتيقُ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)؛ والترمذي (٢٦٧٦)؛ وابن ماجه (٤٢) و(٤٣)؛ وأحمد: ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧؛ وابن أبي عاصم (٢٦ ـ ٣٣) و(٥٤ ـ ٥٧) و (٥٩)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٨٥ ـ ١١٨٧)؛ وابن حبان (٥)؛ والبيهقي في السنن: ٦/ ٥٤١؛ والحاكم: ١/ ٩٥ ـ ٩٧؛ والداني (١٢٣، ١٢٤)؛ والبغوي (١٠٢)، وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني، وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أحمد وغيره، وهو حديث صحيح، انظر تخريجه: ٣/ ٨٧ حاشية (١) (في هذا المجلد).

أولاً: إضاءة حول معنى الحديث:

هذا حديث عظيم جليل اشتمل على قواعد مهمة في حياة الفرد والجماعة والأمة والدين والدولة، شخَّص فيه النبي ﷺ بعضَ الأمراض التي تعتور المسلمين، ونَبَّه على أخطر مسبِّباتها، ودلَّهم على مصادر الشفاء، ونَصَب لهم أمثلة من يَطِبُّون لهم أدواءهم، وأمَرَهُم بالاقتداء بهم والاستمساك بهديهم.

فبيَّن ﷺ أن من أخطر ما يصيب الأمة ويمزّق أوصالها ويوهن قواها ويُضعِف أمرها: اختلاف المسلمين، وتناكر قلوبهم، وتوزُّع توجهاتهم، وتعارض أفكارهم، واشتجار اجتهاداتهم، وتنافر أنشطتهم وأعمالهم، ووهن وحدتهم، وانتشار المحدثات، وتكاثر البدع، وكثرة الفِرق والجماعات، وتعاند مناهجها وبرامجها، وتنطُّع مؤسسيها وكبارها، وتهاتر زعمائها وقادتها ـ فتزداد الفُرقة، وتتباعد الشقة، ويستعصي العلاج على الأُساة.

والعصمة والشفاء في الدواء الذي وصفه النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى: «**عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين**» و «**إيّاكم ومحدثاتِ الأمور**».

فالنجاة والنجاح والفوز إنما يكون بالاستعصام بسنَّة رسول الله ﷺ، والاستمساك بسِيَر الخلفاء الراشدين الذين التزموا بهدي النبي ﷺ واتبعوا طريقته، وأقاموا شعائر الدين ومهّدوا السبيل لشرائعه، فكان عملهم قبساً من وحي الرسالة وامتداداً لمنهج النبوة، وعبَّر ﷺ عن شدة التمسك بهذه السيرة والهدي بقوله: «**عَضُّوا عليها بالنواجذ**»، **والنواجذ**: الأضراس التي بعد الناب، وهذا مَثَلٌ في شدة الاستمساك بالأمر، لأن العضَّ بالنواجذ عضٌّ بمعظم الأسنان التي قبلها والتي بعدها[1].

ثانياً: تحقق النبوءة ودلالاتها عبر التاريخ:

والمتمعّن لكلام رسول الله ﷺ وتخويفِه وتحذيرِه من وقوع الاختلاف بين

(١) جامع الأصول: ١/ ٢٨٠ (٦٧).

المسلمين وبيانِ مخاطره، يلاحظ أنه وَصَف ذاك الاختلاف بصفتين: «**اختلافاً كثيراً**» و«**اختلافاً شديداً**»، وكل منهما قد وقع في تاريخنا القديم والوسيط والحديث، فالاختلاف في الأمة كثير كثير، وقد أخذ في أزمنة عديدة وحِقَب متلاحقة ومواقعَ شتى؛ أعتى أنواع الاختلاف وأشدَّها وطأةً وأنكاها ألماً وأعظمَها خطراً وأفظَعَها ضرراً وأعمَقَها أثراً!.

وقوله ﷺ: «**فإنه من يَعِشْ منكم**»: إيماءةٌ معجِزة إلى أن من يمتدُّ به العمر من الصحابة سيدرك أوائل ذلك الاختلاف.

وقوله: «**فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين**»: فيه إلماعةٌ أخرى إلى أن بوادرَ الاختلاف ستقع في زمن الخلفاء الراشدين، لذا حضَّ على الاستمساكِ بهديهم، ونبذِ سبيل من يخرج عليهم ويَذُرّ في الأمة قَرْنَ الخلاف والاختلاف المذموم.

وكل ذلك وقع!.

وقَرَنَ النبي ﷺ في موعظته الجليلة وبيانه الحاني بين الاختلاف وبين الإحداث في الدين والابتداع فيه، وهي لفتة بارعة معبِّرة على أن من أخطر أسباب الاختلاف تشويهَ صورة الإسلام وتلويثَ مبادئه ومعاندةَ أصوله، بابتداعِ مناهج وأفكار وعادات وممارسات وأعمال وأقوال وغير ذلك مما يخالف هَدْيَه ويضادّ شعائره ويعارض شرائعه، بالمخالفة أو الزيادة أو النقصان.

١ ـ ما حدث في أواخر خلافة أمير المؤمنين عثمان يمثّل طليعة الاختلاف الذي وقع في الأمة:

وكان ذلك من قِبل السبئيِّين المجرمين الفسقة الذين خرجوا عليه من مصر والعراق، وشقُّوا عصا الطاعة، وفرَّقوا وحدة الجماعة، وزرعوا في أمة الإسلام أسوأَ بذور الاختلاف، وسَنُّوا في الإسلام سنَّةً سيئةً عليهم وِزْرها ووِزْرُ من عمل بها إلى يوم القيامة! تلك الفتنة الجائحة التي عصفت بوحدة المسلمين وفرَّقت كلمتهم وأطاحت بروح الخليفة البار، حتى مَرِج أمر الناس واضطرب نظام

الدولة وفُتحت أبواب الفتن على المسلمين. وقد تقدّم في عدة نبوءات أن النبي ﷺ أمر المسلمين بالاعتصام بما عليه أمير المؤمنين عثمان لأنه على الهدى[١]، وهذا تأييد للحديث الذي نشرحه الآن وبخاصة قوله ﷺ: «**فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين**». وقد لَزِم الصحابة والأخيار ذلك التوجيه، وخالفه أولئك الفجرة مثيرو الشقاق والاختلاف بين المسلمين.

وتلا ذلك الاختلافُ في عهد أمير المؤمنين علي، وما حدث في وقعتي الجمل وصِفِّين، وخروج الخوارج عليه ثم قتالُه لهم ووأدُه فتنتَهم التي انتهت باستشهاده هو الآخر رضي الله عنه وأرضاه.

ومع مسيرة السنين في تاريخنا القديم نرى الاختلاف في عهد بني أمية، ويتجلى ذلك في صور كثيرة؛ منها: خروج الحسين بن علي رضي الله عنهما ثم استشهاده، وخروج أهل المدينة على الأمويين ووقعة الحَرَّة، ثم الاختلاف بين عبد الله بن الزبير ومن والاه وبين عبد الملك بن مروان على رأس الأمويين، وما انتهى إليه الأمر من مقتل ابن الزبير واستقرار الأمر لعبد الملك، ثم الاختلاف الكبير الشديد الذي أثاره عبد الرحمن بن الأشعث والمختار بن أبي عُبيد الثقفي، وغير ذلك كثير مما مرَّت دراسته في هذا الكتاب.

وقُلْ مثلَ ذلك فيما حدث من الاختلاف الشديد الذي سُفكت فيه دماء كثيرة بريئة عند قيام الدولة العباسية على جثة الدولة الأموية! وبعد أن بسط بنو العباس سلطانهم على الدولة الإسلامية، حَدث في أيام حكمهم الطويلة اختلافٌ كثير وشديد: بعضه من جماعات من الرعية؛ كخروج النفس الزكية محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي وأخيه إبراهيم، وفتنة البرامكة، وغير ذلك... وبعضُه الآخر وقع بين الحكام في تهارشهم على الحكم، وكذلك البدع والمستحدَثات كمحنة خلق القرآن وسواها.

مما جرَّ ذلك كله خسائر كبيرة على الدين والدولة والأمة والبلاد والعباد.

---

(١) انظر: النبوءات: (٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥).

٢ ـ ومن الاختلاف الكثير والشديد الذي اجتاح المسلمين دولاً وشعوباً وجماعات وجاء بأعظم الأضرار وأفدح الخسائر: قيام الدول الانفصالية والدويلات والإمارات الكثيرة:

وكل حاكم أو أمير يعتبر نفسه خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، وأصبحوا كما قال الشاعر:

وتفرَّقوا شِيَعاً فكلُّ مدينةٍ   فيها أميرُ المؤمنين ومِنْبَرُ!

فإذا رجعتَ البصر في تاريخنا المنصرم وطوَّفت بالأندلس؛ رأيتَ دول الطوائف وملوكها وأمراءها، الذين تنطبق النبوءة عليهم بكل معانيها وأبعادها.

ثم مُدَّ الطَّرْف في الدولة العباسية وما قام في ظلها من دويلات تنتمي إليها أو تناوئها، وقلِّبِ النظر في أحوال الأيوبيين والمماليك وسواهم، تجد الاختلاف الكثير والتناكر الشديد، الذي أوهَنَ شأنَ الإسلام وأضَرَّ بالمسلمين أضراراً بالغة وجرَّ عليهم جراحات نازفة.

ثم سِرْ مع الزمن وتأمَّل ما جرى في بعض أزمنة دولة بني عثمان وبخاصة في عهودها الأخيرة، وما وقع من الشِّقاق المرير بينها وبين حكام البلاد العربية الذين تآمروا عليها وتحالفوا مع الحلفاء الصليبيين ضدها، وأَعْمَلُوا معاولَ الهدم في بنيانها المتصدع، ثم وقعوا في أحضان الذين أَوْحَوْا إليهم زُخْرُفَ القول غروراً، فخسروا الدنيا والآخرة!.

فإذا ما وصلتَ إلى تاريخنا القريب والحاضر، فواقع الحال يفيض بالمرارة ويعجُّ بالآلام المُبَرِّحةِ، بسبب الاختلاف الشديد، وبخاصة في دولنا العربية وحكامها وأنظمتها، ويتجلى الاختلاف بينها في تعدد الولاءات، وطرائق الحكم، والتربية، والتنمية، والسياسة، والثقافة، والاجتماع و... و... فلا تكاد تجدُ دولتين بينهما وئام وانسجام عام كما ينبغي..

ثم استشرت الاختلافات إلى الشعوب والمنظمات والهيئات، وساءت

الأحوال واضطربت الآمال، وعزَّ الإصلاح على الغيورين، وسُرَّ بذلك الأعداء، وإنْ كنتَ ترى في الاجتماعات تكاتُفَ الأيدي وتبادُلَ العناق والقبلات!.

٣ ـ ومن صور الاختلاف الكثير والشديد اضطراب المفاهيم واختلال الموازين واعتلال القيم وتشويه المصطلحات الكبرى:

ـ فالتمسكُ بمبادئ الإسلام والمطالبة بتحكيمه في شؤون الحياة رجعيةٌ وعصبية، وتهديد للوحدة الوطنية، أما التحللُ منه والانفكاك عن أصوله وفروعه وتوجيهاته فتقدُّمٌ وتحرّرٌ وحداثةٌ، وحفاظٌ على وحدة الأمة بمختلِف طوائفها وأحزابها وعقائدها ومرجعياتها.

ـ والدعوة للستر والعفة والفضيلة تعصُّبٌ وانكفاء على الذات، وعيش في الزمن الماضي، أما التهتكُ والتكشف الفاضح المزري ومواقعةُ الرذيلة فحريةٌ ومعاصرة وتحرر وانفتاح.

ـ ومطاردة الزنى والخَنَا وشربِ الخمور وغيرها من الموبقات هو لونٌ من الكبت والعدوان على الحرية الشخصية، والصحيح هو الانفلات البهيمي الذي لا يقف دونه حاجز.

ـ ومهاجمة عقائد الأمة وثوابتها والعدوان على تراثها وتاريخها وقيمها من متطلبات حرية الفكر والبحث العلمي.

ـ ونشر الأفكار الهدّامة والعلمانية والدعوات المتزندقة والمناهج الإباحية من متطلبات العولمة والتعايش الدولي.

ـ وتصديقُ الكاذب، وتكذيب الصادق، وائتمان الخائن، وتخوين الأمين، وسيادة الأشرار، وخفض الأخيار، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، وتحكُّمُ الرُّوَيْبِضة بالأشراف والسادة، وسعادةُ الألاكع بني الألاكع، وبروزُ الحُثَالات، ومَرَجُ أمر الدين والأمانات، وغير ذلك كثير.

كل ذلك مما أوقع الأمةَ في اختلاف كثير وشرٍّ مستطير!.

والتلاعبُ بمفاهيمَ كبرى ومعانٍ أصيلة ومصطلحات راسخة، والسعي الدؤوب لإثارة الغبار عليها وتلويث قداستها وتشويه مدلولاتها والعبث بصفائها، مثل: الحرية، العدالة، المساواة، الأمن، الوحدة الوطنية، الشرعية، الشورى، حقوق المرأة، الجهاد، الإرهاب، الأصولية، التقدمية، الرجعية، حقوق الشعوب، طاعة ولي الأمر، الفن، المسؤولية والأمانة، السلام، حرية الفكر... وغير ذلك من قِيم ومفاهيم ومصطلحات، أصبحت مضطربة المدلولات، مختلَّة الموازين، مشكِلة الفهم، مشوهة الذِّكر والاستخدام!.

وذلك عن قصد خبيث من هواة الاختلاف ودعاة الفرقة وإثارة الشقاق في فكر الأمة وتراثها وحضارتها.

٤ ـ وامتد الاختلاف ليشمل مساحات واسعة في الأمة ويَعمَّ قطاعات كبيرة ومؤسسات متنفذة:

فاستغرق الموظفين والعمال، والنُّخَب والجمهور، والوزارات ومنابر التوجيه، ومؤسسات الإعلام والتربية وغيرها.. وأُثيرت فوضى عارمة وأُجِّجتِ الخلافات بين العاملين في مواقع شتى تؤزُّهم أَزّاً، فتراشَقَ الصحافيون والإعلاميون بالكلام، وتنابز أصحاب الأقلام وتبادلوا التُّهم، وتصارعت برامج التثقيف والتوجيه، واضطرم التهويش والتشويش بين أصحاب الحناجر والمنابر والمسؤولين، وارتفعت الأصوات واختلطت حول أخلاق الأمة وعاداتها وتقاليدها وثوابتها وخصائصها، من الحكم إلى التربية إلى الجندية إلى العلاقات الداخلية والدولية، مروراً بقوانين الأسرة وحقوق المرأة والميراث والقضاء.

وأطلق كل أفَّاك أثيم قلمَه ورفَع عقيرته، ودَأَب جمهور عريض ممن أقفرت حياتهم الذهنية والروحية والنفسية فأثاروا الشبهات ونشروا الأراجيف.. وقام الغيورون بالتصدي لهم، وبُحَّتْ أصواتهم في الدفاع والمنافحة في وجه من يبغون للأمة الوهن وللبرآء العيب.

٥ ـ وفي ميدان العمل الإسلامي والدعوة إلى الله تعالى تجد صوراً محزنة من الاختلاف الشديد والشقاق البعيد والتنافر المنكور:

فترى اجتهادات العمل للإسلام والدعوة إليه مختلفة الطرق والأساليب متخالفة المناهج والتطبيق:

ـ فبعضهم حصر نفسه وجهده بالتربية وتزكية النفس، وكأنه يقول: دَعْ ما لقيصر لقيصر وما لله لله!.

ـ وبعضٌ آخر واكَبَ الحكام على جَوْرهم، متذرِّعاً بوجوب طاعة ولي الأمر، وإن نَهَكَ ظهورَ الرعية وأكلَ الأموال العامة ووالى أعداء الله.

ـ وآخرون تصدوا للعمل السياسي، وبالغوا فيه حتى انزوت حقائق إسلامية كثيرة في الظلال.

ـ وجماعة شدَّتْ سواعدَها وامتشَقَت السلاح وأعلنت ما سمته جهاداً، وأنه السبيل الوحيد والمخلِّص الفذ مما عليه الأمة.

ـ وجماعة أخرى حاولت التوسط بين حقائق الدين وأركان قيامه، وأعلنت أن دعوتها دين ودولة، سيف ومصحف، جهاد وتربية، مسجد ومجتمع.

ـ وطائفة ساحَ أصحابُها في الأرض مبلِّغين للإسلام، على مبدأ: (قل كلمتك وانصرف).

وغير ذلك مما يموج به ميدان العمل الإسلامي.

ولا تَعْدَم الاختلافَ في القول بين تلك الجماعات، والتنابزَ والتناحر، وتبادلَ الاتهامات أحياناً، والتخطئةَ سرّاً وعلانية، والأنكى أن بعضهم قد يسعى للوشاية بالبعض الآخر للإيقاع به، لا يَصدُّه عن ذلك رادع، وهو يحسب أنه يحسن بذلك صنعاً!.

وفريق من العلماء والدعاة قد غيَّبوا حقائق كبرى من الإسلام فزعموا بأن الشورى غير ملزمة، وأن للحاكم أن يَمضي لأمره، فخدموا بذلك الاستبداد

السياسي، ورأوا الجبن أنجى، فآثَروا الصمت، ثم جاء خَلْف آخَر يرى إرضاء المستبدين من الدين[١]!.

وآخرون عاشوا في كنف الثراء وإغداق الأموال من ذوي الأمر والسلطان، غير مبالين من أين يكسبون وفيمَ ينفقون.

وطائفة أخرى من الدعاة والعاملين في الحقل الإسلامي رأوا الخروج على الحاكم ومنابذته بالقوة لإزاحته عن سدة الحكم.

في حين بالغ آخرون من العلماء وسواهم فجعلوا الصبر على جور الحاكم من شُعب الإيمان! وأخذُه على إطلاقه كان ذريعة لتنويم الشعوب على ما ينزل بها من ضَيْم!.

وفي الميدان أيضاً أناس بالغوا في البحوث العلمية وتوظيف آيات القرآن وأحاديث السنَّة في دعمها، وفي مقابل هؤلاء تجد آخرين ينكرون هذه المنهج، حتى ألَّف بعضُهم في إنكار دوران الأرض حول الشمس.

ونشأتْ ناشئة عَلِموا شيئاً من الكتاب والسنَّة، فادَّعَوا الاجتهاد، وغلَّطوا أبا حنيفة والشافعي، وبعضهم يخطئ في قواعد النحو، ويجهل أساليب البلاغة والبيان، ثم تراه يقول عن الأئمة المتبوعين: هم رجال ونحن رجال!.

وأثار هؤلاء في الأمة خلافات مريرة، وأحدثوا فيها انقسامات شديدة، فأوقدوا حرباً بين الصوفية والسلفية، وبين المذهبية واللامذهبية، وأجَّجوا اشتباكات بين الأشاعرة والسلفية.

وأُلِّفَتْ في ذلك كتبٌ، وعُقدت ندوات، وأُلقيت خطب، وبُذلت جهود، فَبُدِّدَت طاقات الأمة، وازدادت خلافاتها، وتباعدت جماعاتها، وتعمَّقت هوَّة الخلاف بينها، فتنافرت القلوب، وآل الأمر إلى ما يَسُرُّ العدو، ويَحْزُن الصديق.

---

(١) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٢٠.

وذلك ناجم من جفاف الشعور، وضيق العَطَن، والتعلق الشديد بالمراسم، والصَّلَفِ بمعرفة الحق، والميلِ إلى سوء الظن، ومعاملة المخالفين في الاجتهاد أو المخطئين فيه بجبروت لا يليق بدعاة الحق وحملة الرسالة.

٦ ـ ومن صور الخلاف والاختلاف القصور عن الفهم الشمولي للإسلام وعالمية الرسالة وترتيب الأولويات، والأخذ بالمحكمات وترك المتشابهات:

إن عالمية الإسلام ليست في سعة الدائرة التي يعمل فيها فقط، وإنما هي في طبيعة توجيهاته وصياغة آياته، فالكتاب والسنَّة يخاطبان الإنسانَ حيث كان، دون انحصار في زمان أو مكان، إنهما ارتباط بالفطرة وحوار مع العقل البشري تحت أي سماء وإلى آخر الدهر.

ومن ثَمَّ ففهمُ الإسلام أو تدريسُه على أنه نهضة عربية أو يقظة محلية؛ أكذوبة كبرى!.

وحدث انحرافٌ في تاريخنا فانفصل الحكم عن العلم والدين عن الدولة، وحدثت فجوة أو جفوة بين الحكام والعلماء، كما حدث انفصال آخر وقع في ميدان العلم نفسه، بين رجال الشريعة ورجال التربية، انتهى بجعل الأخلاق علماً نظريّاً أو أدباً ثانويّاً، وجعل العبادات والمعاملات عاداتٍ موروثة وتقاليدَ متَّبَعَةً! وبذلك تقطَّعت الصِّلات بين الأمة والدولة، ثم بين الأمة بعضها مع البعض الآخر، وابتعد الجميع عن روح الإسلام.

وقد ظهر ناس يَتَسَمَّوْنَ أهلَ الحديث، لا يعلمون عن القرآن كبيرَ شيء، وبضاعتُهم في فقه السنَّة مُزْجَاة، فيهم شَبَهٌ من فكر الظاهرية، وفيهم جمودٌ يغطُّونه بدعوى الاتِّباع، وفيهم جرأةٌ على أئمة الفقه الكبار، وفيهم اعتداد بأنفسهم، وكأنهم المتكلِّمون باسم الله ورسوله ﷺ، وفيهم سوءُ ظن بالآخرين، واشتهاء للنَّيْل منهم والوقيعة فيهم... وقد كثُر هؤلاء في هذه الأيام العِجَاف[1]!.

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١١١، ١١٧، ١٤٨ مقتطفات.

وتصدَّى نفرٌ من الناس إلى إثارة البحث في آيات الصفات والآيات المتشابهات، ووضعوا على بساط النقاش: حديث الساق، والوجه، والنزول، والمعية، وكلام الرب سبحانه، وعلوّه على خلقه، وعرشه تعالى، وغير ذلك من هذه الآيات وأشباهها، وأَحْيَوا المعارك القديمة حولها، وجدَّدوا معارك جديدة وشغلوا المسلمين بما يضرهم ويفيد عدوهم.

إن الآيات المحكماتِ هنَّ أمُّ الكتاب، فما الذي يصرف هؤلاء عن فقهها والعمل بها، والدخول في متاهات لا معنى لها[١]؟!.

وقوم آخرون ساووا بين المندوبات والسنن والواجبات والأركان، وتعسَّفوا في البيان والبلاغ، ورسولُ الله ﷺ يقول: «**الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ شُعبةً، أَعْلَاها شهادةُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأَذَى عن الطريقِ**»[٢]، فجعل من هذه الشعب ما هو أعلى ومنها ما هو أدنى، ولكن فريقاً ممن تيبَّست أفهامُهم جعلوا الشُّعَب كلها سواء، ولم يكن عندهم ترتيب للأولويات، فساوَوْا ـ مثلاً ـ بين الأخوة الإسلامية وواجب النصرة وبين إطلاق اللحية! فكانوا من أسباب الاختلاف والتنافر في صفوف الأمة.

٧ ـ وزاد من شقة الخلاف وكثرة الاختلاف ما وقع في الأمة من محدثات وبدع ضالة على مدار تاريخ الأمة، وشمل ذلك ميادين شتى[٣]:

والبدعة: (طريقة في الدين مختَرَعَة تُضاهي الشرعيةَ، يُقصد بالسلوك عليها ما يُقصد بالطريقة الشرعية، أو يُقصد بالسلوك عليها المبالغةُ في التعبد لله)[٤].

وقد كان أئمة الإسلام الأولون حِرَاصاً على تتبُّع البدع ومصادرتها، حِرصَ

---

(١) انظر: هموم داعية، ص٩ ـ ١٣؛ سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١١٩ ـ ١٢٠.
(٢) أخرجه البخاري (٩)؛ ومسلم (٣٥)؛ وابن حبان (١٦٦) و(١٩١) واللفظ له؛ وغيرهم.
(٣) انظر: ليس من الإسلام، ص٧٧ ـ ١٣٣.
(٤) ليس من الإسلام، ص٨٨.

الحكومات المعاصرة على إتلاف النقد المزيَّف، وعقابِ المجرمين الذين يصنعونه وينشرونه.

وسِنادُهم في هذا قولُ رسول الله ﷺ: **«مَن أَحْدَثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منه فهوَ رَدٌّ»**، وقوله كذلك: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلاً ليسَ عليهِ أَمْرُنَا فهوَ رَدٌّ»**(١).

وكلا الحديثين حربٌ على البدع: الأول على اختراعها، والآخر على إقرارها ومتابعتها.

والاختراع في قسم العادات ـ إذا لم يكن مُضاهياً للدين ولا متَّخِذاً سنَّتَه وغايته ـ فليس من قَبيل البدع، بل يُنظر إليه في ضوء الشريعة التي وُضعت للمصالح العامة موازين دقيقة.

ومعنى هذا أن التجديد والابتكار مقرَّران في ميدان العادات، داخل النطاق الذي رسمنا.

أما في ميدان العبادات، فإن الاتباع المَحْضَ هو الأصلُ، والاختراعَ الذي هو جرثومة الابتداع؛ جَوْرٌ وضلال(٢).

وقد نشأت في الأمة بِدع وفيرة في العقائد: مثل وحدة الوجود، والوسطاء، وعلم الكلام، والرقى والتمائم، وإفراغ الإيمان من القلوب وملؤها بالنزعة الوطنية والقومية. . .

وبِدع العبادات، وذِكْر الله، وزخرفة المساجد، وتشييد القبور والأضرحة، والجنائز، والأفراح، والأحزان، والأعياد، والمناسبات الدينية، وسواها.

وقام حول كل بدعة مدافعون ومناوئون، وتراشَقَ الفريقان بألوان القدح

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)؛ ومسلم (١٧١٨) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٦٠٦)؛ وابن ماجه (١٤)؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (٥٢)؛ وابن حبان (٢٦) و(٢٧)، وغيرهم.

(٢) ليس من الإسلام، ص٨٩، ٩١.

والتسفيه والتخطئة والتجريح، وبُدِّدَتْ في سبيل ذلك جهود وأوقات وأموال، لم تجنِ الأمة منها سوى تفاقم الاختلاف وتنافرِ القلوب وتباعد المختلفين.

٨ ـ وتشير النبوءة كذلك إلى ما نشأ في الأمة من فرق ومذاهب وطوائف كثيرة أشار إليها قوله ﷺ في الحديث الآخر بأن أمته «تفترق على ثلاث وسبعين فرقة»[١]:

فظهرت في الأمة الإسلامية فِرقٌ كثيرة كان قسم منها على صواب كبير في الجملة، وقسم آخر عريض انطوى على انحراف جزئي أو كلي عن الإسلام، وأحياناً ردَّة كاملة عن أصوله وفروعه!.

وماجَتْ في الأمة فِرق ومذاهب وعقائد وطوائف شتى، وامتدت في التاريخ قديماً وحديثاً، وعمَّتِ البلادَ طولاً وعرضاً وعمقاً، مثل: المعتزلة بأقسامها، والجَبْريَّة، والمجسِّمة، والمُعَطِّلة، والأَشْعرية والماتُرِيدية، والخوارج بطوائفها، والمُرْجِئة، والشيعة الإمامية، والزَّيْدية، والسَّبَئِيَّة، والخَطَّابية، . . . وغير ذلك مما يموج به عصرنا.

وازدادت حدة الاختلاف، فاكتوت عامة الأمة بناره وأوضاره!.

٩ ـ وامتد طغيان الاختلاف حتى استغرق مختلِفَ شؤون حياة المسلمين المعاصرة:

فترى الاختلاف الشديد في الشارع، والسوق، والمصنع، والمدرسة، والجامعة، والمؤسسات، والمنتديات، والوزارات، والهيئات، والنقابات، والتنظيمات، والأحزاب، والمساجد، والمنابر المختلفة، بل وفي الأسرة الواحدة تجد الإخوة فرقاءَ متشاكسين، فمنهم الملتزم بدينه أو المناصر للشيوعية أو الداعية للعلمانية أو من لا وجهة له.

---

(١) انظر شرح الحديث مفصلاً في النبوءة رقم (١٠٥).

واختلف الأب مع ابنه، والأم مع أولادها، والزوج مع زوجته، في الفكر أو السلوك أو فيهما.

وذلك نتاج طبيعي لِما يموج به المجتمع من عوامل التفرق ودواعي الاختلاف وأسباب الشقاق البعيد!.

ثالثاً: دروس وعبر:

١ ـ إن مأساتنا في قضية الاختلاف مأساةٌ خُلُقيةٌ، وبخاصة عند العاملين في الحقل الإسلامي، فينبغي لرجاله أن يتواضعوا لله، ويُصلحوا نيَّتَهم معه، ويتطامنوا لإخوانهم المؤمنين، ويُحسِنوا الظن بالمسلمين، ويدركوا الخسائر الكبرى التي يجرُّها الاختلاف والتناكر على الدين والعباد والبلاد.

ولنعلمْ أن أعداء الإسلام مَهَرةٌ في إطفاء صحوته الجديدة، وهم مجتهدون في إبراز الجماعات المتطرفة والتغاضي عن نشاطها، لأنها وجه دميم للإسلام، ودعاية حقيقية ضده، وهدم للوحدة، وتأريث للفرقة[1].

٢ ـ إن المتأمل في تاريخنا الطويل يلحظ بيُسْرٍ وسهولةٍ ما يأتي به الاختلاف من ثورات طائشةَ، وخروقات هائجة، وبعثرة للجهود، وتبديد للطاقات، وهَدْر للإمكانيات، وزيادة في العلل الناشبة في جسم الأمة، مما يَشغل المسلمين بعضهم ببعض، ويَصرفهم عن التفرغ لرسالتهم الكبرى، ويوقف المدَّ الإسلامي ويُخمد جذوتَه.

والمطلوب من الغيورين والدعاة الراشدين أن يدركوا الأمة من الداخل ويوقفوا حركة التمزيق الفكري والروحي التي يؤجِّجها من لا يرجون لله وقاراً[2].

٣ ـ الاختلاف الذي يقع على مستوى الحكام والخلفاء والأمراء، أو بين

---

(١) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٦٢، ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) انظر: ليس من الإسلام، ص٤٢؛ هموم داعية، ص١٦.

الشعوب والحكام، أو بين فئات المجتمع، أو بين الفرق والمذاهب وجماعات العمل الإسلامي، كل ذلك يوهِن شأنَ الدولة، ويمزِّق كيان الأمة، ويَذهب بهيبتها، ويجعلها لقمة سائغة للأعداء، وواقع الحال أوضح مثال.

٤ ـ إن عبثَ مروِّجي الخلاف وموقدي الفتنة بين أفراد الأمة وجماعاتها، وتلاعُبَ جمهرة عريضة بالثوابت والمفاهيم والمصطلحات وإثارة الخلاف حولها، وإدارة المعارك من وراء وراء، يقود إلى فساد عريض في البلاد، ويدمِّر قِيم الأمة والحصون التي تحتمي بها وتحفظ عليها كيانها ووجودها.

٥ ـ لقد جرَّت الاختلافات الكثيرة على أمتنا في أمسها ويومها حروباً وكوارث وجوائح، عصفَتْ بأرواح بريئة وأسالَتْ دماء كثيرة، وخلَّفَتْ في جسمها جروحاً غائرة.

وذلك يفرض علينا إحياءَ الإخاء الإسلامي، وتنشيطَ عواطف الحب في الله، واختصارَ المسافات أو ردم الفجوات التي تفصل بين المنتسبين للإسلام.

٦ ـ يجب على العلماء والمفكرين والدعاة والعقلاء والنُّخَب الفاعلة الغيورة في بلادنا أن تتناسى الخلافات، وتتعاون على الأصول والكليات، ويَعذر بعضها بعضاً في الجزئيات، ويعمل الجميع لما فيه رضا الله تعالى ومصلحة الأمة وحماية دينها وحفظ وجودها.

وآكَدُ ما يكون هذا الواجب على العاملين في ميدان الدعوة إلى الله وحَمَلَة الكتاب والسنة، فخطؤهم بحقِّ أمتهم كبير، ولا يُعْذَرون في تقديم الأصاغر إلى الصفوف الأمامية لقيادة الجماهير.

٧ ـ إن التبصّر الواعي بهدي رسول الله ﷺ في الخلاف، يوسِّع الصدور ولا يجعلها ضيِّقة حَرِجة، ويجعل المجال رحباً مقبولاً لا احترابَ فيه، فقد حَكَم ﷺ بأن للمجتهد أجرين إذا أصاب، وأجراً واحداً إذا أخطأ.

فإذا كان من يُخالفنا في الرأي مأجوراً فلِمَ نسبُّه ونُحرِجه ونضيِّق عليه الخناق؟!.

إن الوعي الصادق لهذه الحقيقة والالتزامَ بهديها يخفِّف من غَلْواء الاختلاف ويُضْعِف شِرَّتَه!.

٨ ـ لسنا نقصد من تفصيل القول في هذه النبوءة ومثيلاتها جلدَ الذات ولا تثبيطَ العزائم ولا إدخالَ القنوط إلى النفوس، بل نهدف إلى تشخيص الداء وبيان مكامن الخطر، والدلالة على عوامل الوهن، والكشف عن أسباب الضعف، وإبراز أسس التمكين وشروط النصر ومتطلبات السيادة والريادة.

نفعل هذا لنداوي جراحنا، ونأسو مرضانا، ونُقصِي عواملَ فرقتنا واختلافنا، ونأخذ بأسباب ائتلافنا، ونستعصم بشرائط نهضتنا، لتعود لنا عزّتنا من جديد.



٩٧

إخبار النبي ﷺ عن سني الخداع وظهور الرويبضة

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيَأْتي على الناسِ سَنَواتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذِبُ، ويُكَذَّبُ فيها الصَّادِقُ، ويُؤْتَمَنُ فيها الخائِنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، وينطِق فيها الرُّوَيْبِضَةُ**» قيل: وما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قال: «**الرجلُ التافِهُ يتكلَّم في أمرِ العامَّةِ**».

وفي رواية: (قيل: وما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قال: «**السَّفِيهُ يتكَّلم في أمرِ العامّةِ**»)(١).

٢ ـ وعن عَوْف بنِ مالكٍ الأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ بينَ يديِ الساعةِ سنينَ خَدَّاعةً، يُصَدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكَذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤْتَمَنُ فيها الخائِنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، ويَنْطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ**» قيل: وما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قال: «**المرءُ التافِهُ يتكلَّمُ في أمرِ العامَّةِ**».

وفي رواية: (قيل: وما الرُّوَيْبِضَةُ يا رسولَ الله؟ قال: «**مَنْ لا يُؤْبَهُ لَهُ**»)(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٦)؛ وأحمد: ٢/ ٢٩١، ٣٣٨؛ والخرائطي في مكارم الأخلاق، ص٣٠؛ والحاكم: ٤/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦، ٥١٢؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وأورد ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم: ١/ ٢٣٥ ـ رواية أحمد وقال: هذا إسناد جيد، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٧٨٩٩): إسناده حسن ومتنه صحيح؛ وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه: ٢/ ٣٧٤؛ وصحيح الجامع (٣٦٥٠)؛ وذكره في الصحيحة (١٨٨٧) وحسَّنه بمجموع طريقيه.

(٢) أخرجه البزّار (٣٣٧٣)؛ والطبراني في الكبير: ١٨/ ٦٧ ـ ٦٨ رقم (١٢٣، ١٢٤، ١٢٥)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٦٤)؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/ ٢٨٤، وقال: رواه البزّار، وقد صرّح ابن إسحاق بالسماع من عبد الله بن دينار، وبقية رجاله =

٣ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أمامَ الدَّجَّالِ سنينَ خدَّاعةً، يُكَذَّبُ فيها الصادقُ، ويُصَدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، ويُؤْتَمنُ فيها الخائنُ، ويتكلَّمُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ**» قيل: وما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قال: «**الفُوَيْسِقُ يتكلَّمُ في أمرِ العامَّةِ**»(١)

❁ ❁ ❁

أولاً: كلمة موجزة حول ألفاظ الأحاديث ومعانيها:

●● قوله ﷺ: «**سنوات خداعات**» و«**سنوات خداعة**» وفي رواية «**خوادع**»: في كتب اللغة معان كثيرة لكلمة (الخِداع).

الخَدْعُ: إظهار خلاف ما يبطن ويخفي، ومنع الحق، والمخاتلة وإرادة المكروه بالغير، والتضليل والإخفاء وعدم الوضوح، والحيلة والمراوغة، والاختفاء والتواري وعدم الظهور، والفساد والكساد، والنقص والقلة، والتلون وعدم الثبات على رأي.

ورجلٌ خُدَعَة: يَخْدَع الناسَ كثيراً، وخَدّاع وخَدِعٌ وخَيْدَعٌ: كثيرُ الخِداع. **والخَيْدَعُ**: الذي لا يُوثَق بمودَّته(٢).

قوله ﷺ «**الرويبضة**»: جاء تفسيره في الحديث بأنه: الرجل التافِه، والسَّفيه، والذي لا يُؤْبَه له، والفُوَيْسِق، الذي يتكلم في أمر العامة.

والرُّوَيْبِضَة في اللغة: تصغير الرابضة، وهو العاجز الذي رَبَضَ عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها، وزيادة الهاء للمبالغة في وصفه، والتافه الخسيس الحقير الخامل من الناس، والغالب أنه قيل للتافه من الناس: رابضة ورويبضة؛

= ثقات؛ وأورده الألباني في الصحيحة (٢٢٥٣)، وصحَّحه بشواهده.

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٢٢٠؛ وأبو يعلى (٣٧١٥)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٦٥) و(٤٦٦)؛ وذكر ابن كثير في النهاية: ١/ ١٠٣، رواية أحمد وجوَّد إسنادها؛ وكذا جوَّد إسناده الحافظ في الفتح: ١٦/ ٤١٥ (٧١٢١)؛ وانظر: الصحيحة (٢٢٥٣).

(٢) لسان العرب: ٨/ ٦٣ ـ ٦٦ (خدع).

لربوضِه في بيته وقلَّة انبعاثه في الأمور الجسيمة، ومنه يُقال: رجلٌ رُبُضٌ عن الحاجات والأَسْفار إذا كان لا يَنْهَضُ فيها[١].

●● وهذه الأحاديث الصحيحة الجليلة تصِفُ مرحلةً خطيرة وسنواتٍ عِجَافاً تمرُّ بها الأمة الإسلامية، وتحدِّد الخلل فيها، وتكشف عن القيم والموازين والأفكار التي تحتكم إليها وتسير عليها، وتُميط اللِّثام عن صفات جمهور كبير وفئات عريضة ممن يديرون شؤون الناس فيها، ويتبوَّؤون مواقعَ القرار ومنابرَ التوجيه والتأثير في مصاير الأمة!.

ويَخْلَع البيان النبوي العالي على تلك الحقبة الزمنية صيغةَ المبالغة على كثير من عناصرها الفاعلة وركائزها الموجهة والمنفذة، فيصفُ تلك السنين بأنها: «**خدَّاعة**» و«**خدَّاعات**»، فإنه لاضطراب الأمور واختلال الموازين وانعكاس الحقائق؛ يصبح الزمن نفسه خداعاً مراوغاً مُخاتِلاً متلوِّناً، لأنه يموج بقيم منكوسة، وأخلاق معكوسة، ومفاهيمَ مقلوبة، وموازينَ مضطربة، وأفكارٍ مشوشة، وتصورات مشوَّهة، وممارسات بائرة، قد دبَّر خطَّتَها أناسيُّ لا يمتُّون بصِلة إلى دين الأمة وحضارتها وقيمها ومواريثها وتاريخها ومبادئها وأهدافها وغاياتها.

لقد وُسِّد الأمر إلى غير أهله، ورُفِع الأسافل ووُضِع الرُّفَعاء، وقُدِّم الأشرار وأُخِّر الأخيار، وكُذِّب الصادق وصُدِّق الكاذب، واؤْتُمِن الخؤون وخُوِّنَ الأمين، وأُسْكِت المخلصون الغيورون ونَطق الغدّارون الانتهازيون، ووُطِّئت السُّبُل لكل أفّاك أثيم، وبُعْثِرت الأشواك وأُقيمت الحواجز أمام كل مصلح كريم، وذِيدَ الأشراف عن مواقع الصدارة، ودُفِعَ بالرُّوَيْبِضة فتكلَّموا باسم العامة، وسادَ كلَّ فئام من الناس سفهاؤها، وكثُرت (الرويبضات) في الأمة، وعاش الناس في أمر مَرِيج، فأصبحت السنوات كما قال النبي ﷺ: «**خداعات**» و«**خوادع**»!.

---

(١) الفائق: ١/ ٤٤٨؛ النهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٨٥؛ لسان العرب: ٧/ ١٥٣.

وألمَحَ الحديث في إحدى رواياته إلى أن ذلك يكون بين يدي (خروج الدجال)، وفي هذا إيماءة فذّة إلى إقامة وجه الشبه بين أولئك (الرويبضة) وزمانهم ودَجَلهم وأكاذيبهم، وبين (الدجال) وزمنه وما يجيء به فيه من خِداع وكَذِب ودَجَل حتى يَبهر صغارَ العقول وزائغي القلوب وضعفاءَ الإيمان! كما أن فيه تنبيهاً بارعاً للمؤمنين بأن لا ينخدعوا بالرويبضات وترفُّعِهم الكاذب في هذا الزمان الخدَّاع، تماماً كما يتوجَّب على من يدرك الدجال أن لا تنطلي عليه أكاذيبه وأحابيله وتدجيلاته!.

ثانياً: التصديق التاريخي لهذه النبوءة:

إن الدارس لتاريخ الأمة الإسلامية، والباحث في مسيرتها الطويلة، والمتأمل لمراحل المدِّ والجَزْر التي مرت بها، وعوامل الازدهار والانهيار التي تناوبت عليها، وأسباب القوة والضعف التي رفعتْها وخفضَتْها ـ يجدُ أن حالها في القرن الفائت وإلى ساعتنا هذه هي أصدق ما تنطبق عليه هذه النبوءة النبوية الجليلة الصادقة، حيث تعيش أمتنا سنوات خداعات بكل صفاتها وصورها وأشكالها وعناصرها وممارساتها على مختلِف الأصعدة، وتنساب في شعوبها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ظاهراً وباطناً، سطحاً وعمقاً.

ويمكن تلمُّس ذلك على مستوى الأفراد والجماعات، والهيئات والأحزاب، والوزارات والمؤسسات، ومنابر الحكم ومراكز التوجيه، وفي مجالات الفكر والثقافة والاجتماع والاقتصاد والتجارة، والمال والجاه والسلطان، عند العالم والجاهل، في البيت والأسرة والشارع والسوق، والمدرسة والجامعة، وأماكن الترفيه، و. . .

وتعاضَدَ على إيقاع الأمة في هذه الهوَّة السحيقة من الخداع: الشيطان وأتباعه من الإنس ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، وأعداء الأمة من أهل الكتاب وسواهم، والذين نَبَّه الله سبحانه على عدائهم وخطرهم وحَنَقِهم على الإسلام وأهله؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، الذين يَسْعَون جادِّين دائبين لزحزحة هذه الأمة عن دور القيادة، وتشكيكها بكتابها ومنهجها، وتزيين البدائل لها. والمتربِّصون في الداخل من أتباع الشيطان وتلامذة المشركين، ممن ينخرون في جسم الأمة، وينتسبون لها زوراً؛ فيزيِّنون للناس مناهج غير منهجهم، وقيماً غير قيمهم، وقيادات غير قيادتهم. والأصنام الكثيرة المنبثة في ديار الإسلام، من الكبراء والأحزاب وأصحاب الثراء والجاه والشهوات المتنوعة، والله سبحانه يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ويقول: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وصدق ما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لو تعلمونَ ما أعلمُ، لضَحِكْتُم قليلاً، ولبكيتُم كثيراً! يَظهرُ النفاقُ، وتُرفَعُ الأمانةُ، وتُقبَضُ الرحمةُ، ويُتَّهَمُ الأَمينُ، ويُؤْتَمَنُ غيرُ الأمينِ، أناخَ بكم الشُّرْفُ الجُونُ**»، قالوا: وما الشُّرْف الجُونُ يا رسولَ الله؟ قال: «**فِتَنٌ كَقِطَعِ اللّيلِ المُظْلِمِ**»[١].

وكذلك الحديث الآخر عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لا تقومُ الساعة حتى يَظهرَ الفحشُ والبخلُ، ويُخوَّن الأمينُ، ويُؤتمنُ الخائنُ، ويَهْلِكَ الوُعولُ، وتظهرَ التُّحوتُ**»، قالوا: يا رسول الله! وما الوعولُ وما التُّحوتُ؟ قال: «**الوعولُ: وجوهُ الناس وأشرافُهم، والتحوتُ: الذين كانوا تحت أقدامِ الناس لا يُعْلَمُ بهم!**»[٢].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٧٠٦)؛ والحاكم: ٤/ ٥٧٩، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وذكره الألباني في الصحيحة: ٧/ ٥٩٠ ـ ٥٩١ (٣١٩٤) وحسَّنه بشواهده. **والشرف**: جمع شارف وهي الناقة المسِنَّة. **والجُون**: جمع جَوْن وهو الأسود. قال ابن الأثير: شبَّه الفِتن في اتصالها وامتدادِ أوقاتها بالنوق المسنّة السُّود.

(٢) أخرجه ابن حبان وغيره، وهو حديث صحيح، وقد سبق مع تخريجه: ٣/ ٤٦ ـ ٤٧ (في هذا المجلد).

فلننظر في مظاهر ذلك الخداع وصوره وأشكاله.

ثالثاً: مظاهر سني الخداع وصورها وأشكالها في واقع الأمة في ماضيها القريب وزمانها المعاصر:

١ ـ في الحكم والسياسة والولايات الكبرى والصغرى:

برزت في مواقع شتى صور من الخداع والتضليل والمراوغة وتسلط فريق ممن لا تؤهلهم صفاتهم على رقاب الناس، وفي سبيل وصولهم إلى الحكم هلكت أخلاق وشرائع، وتقطَّعت أرحام وأوصال، وضاعت جماهير ورسالات! والغريب أن دورات هذا الداء تتكرر، وتتوارثها أجيال عن أخرى دون وعي: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٨]...

ذهب الأخيار المتجرِّدون، وغُيِّب الذين عاشوا لله سبحانه وماتوا في سبيله، ثم خَلَفت خلوف رأت أن تُصادر الإسلامَ والأمة والبلاد لحسابها الخاص، وأن تتولى وحدها المناصب الإدارية العليا، وأن تحتكر لذراريها ومن يلوذ بها الإمارة والصدارة(١).

وكثر في المسلمين من خانوا الله ورسوله ورسالة الأمة، وضَحَّوا بميراثها وأرضها وكرامتها وحضارتها، وسقطوا في أحضان العدو في الشرق والغرب، وخادعوا الناسَ بألقاب وأسماء وأنساب لا تغني من الحق شيئاً، وادَّعَوا الوطنية والقومية والدفاع عن مصالح الأمة، وواقع حالهم أنهم مزَّقوا وحدتها، وغدروا برسالتها.

يقول لورنس: (كنتُ أومنُ بالحركة العربية ـ حركةِ الشريف حسين ـ إيماناً عميقاً، وكنتُ واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزِّق تركية شَذَر مذَر)(٢). ويعني بتركية: الخلافة العثمانية.

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٢٨، ١٢٩، بتصرّف.

(٢) الضربات، للجندي، ص٢٠٣.

وفي حديث جبريل عندما سأل النبيَّ ﷺ عن أَمارات الساعة، فقال ﷺ: «**ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ، ولكنْ سأُحَدِّثك عن أَشْراطِها: إذا وَلَدتِ الأَمَةُ ربَّتها فذاكَ من أشراطها، وإذا كانتِ الحُفَاةُ العُراةُ رؤوسَ الناسِ فذاكَ من أَشْراطِها**»[١].

وفي الحديث الذي رواه البخاري وغيره؛ أن النبي ﷺ قال: «**إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانْتَظِرِ الساعة**» قال: كيفَ إضاعتُها؟ قال: «**إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانْتَظِرِ الساعةَ**»[٢].

قال ابن رجب الحنبلي: (ومضمون ما ذُكر من أشراطٍ في هذا الحديث، يرجع إلى أن الأمور توسَّد إلى غير أهلها، كما قال النبي ﷺ لمن سأله عن الساعة: «**إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهلِه فانتظرِ الساعة**»، فإنه إذا صار الحفاةُ العراةُ رعاءُ الشاء ـ وهم أهلُ الجهل والجَفاء ـ رؤوسَ الناس، وأصحابَ الثروة والأموال، حتى يتطاولوا في البنيان، فإنه يَفسد بذلك نظامُ الدين والدنيا... وإذا كان مع هذا جاهلاً جافياً، فَسَد بذلك الدين، لأنه لا يكون له هِمَّةٌ في إصلاح دين الناس، ولا تعليمهم، بل همَّتُه في جباية المال واكتنازه، ولا يبالي بما فَسَد من دين الناس ولا بمَن ضاع مِن أهل حاجاتهم.

وإذا صار ملوك الناس ورؤوسهم على هذه الحال، انعكست سائر الأحوال، فَصُدِّقَ الكاذبُ، وكُذِّبَ الصادقُ، واؤْتُمِنَ الخائِنُ، وخُوِّنُ الأمينُ، وتكلَّم الجاهل، وسكَتَ العالم، أو عُدِم بالكلية...

وهذا كله من انقلاب الحقائق في آخر الزمان وانعكاس الأمور)[٣].

وينشأ عن ذلك فساد آخر حيث يستبد هؤلاء بالأمر، ويتجبرون في الحكم،

---

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما، وانظر الحديث وتخريجه وشرحه في كتابنا هذا ص ١٠٥٨ حاشية (٣).

(٢) انظر شرح الحديث مفصلاً في النبوءة (٨٨) ص ٥٤٠.

(٣) جامع العلوم والحكم: ١/١٣٩ ـ ١٤٠.

ويقربون إليهم الأعوان، ويكممون أفواه الأحرار والنقاد والمصلحين من ذوي الكفاءات والخبرات، حتى لا يقضوا مضاجعهم، ولا يعكروا عليهم صفو حياتهم! وفي الحديث الذي رواه معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيأتي قومٌ يتكلّمون فلا يُرَدُّ عليهم، يتقاحَمُون في النار تقاحُمَ القِردة**»(١).

ويترتب على ذلك خِداع أتباعهم من القادة والوزراء ورجال البرلمانات والخطباء والعلماء والحاشية المقرَّبين، ممن يُخادِع الناس، ويزيِّنون الباطل، ويغيِّرون وجه الحق، ويقلبون الحقائق، ويتلاعبون بالألفاظ، فيرفعون الوضيع ويَضَعون الرفيع، ويشكلون جَوْقَة تصمُّ الآذان بالشعارات والأهداف، ويملؤون الجو بضجيج أفواههم!.

أولئك الذين جاء وَصْفُهم في الحديث الذي رواه كَعْب بن عُجْرَة، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**إنها سيكونُ بعدي أمراءُ يَكْذِبون ويَظْلِمون، فمن دَخل عليهم فَصَدَّقَهم بكَذِبهم وأَعانهم على ظُلْمِهم؛ فليس منِّي ولستُ منه وليس بواردٍ عليَّ الحوضَ، ومَن لم يُصَدِّقْهم بِكَذِبهم ولم يُعِنْهُم على ظُلْمِهِم؛ فهو منِّي وأنا منه وهو وارِدٌ عليَّ الحوضَ**»(٢).

والمداهنة في الحق رذيلة يقترفها أصحاب الأخلاق الضعيفة، وكثيراً ما يرجع انهزام العقائد والأمم إلى مسالك المداهنين وممالأتهم لأعداء الله.

٢ ـ في التربية والتعليم والثقافة والإعلام ومؤسسات التوجيه العام:

وإذا قلَّبتَ الفكر ودققت النظر واستقرأتَ واقع المسلمين في التربية والتعليم؛ وجدتَ انقلاب الأمور وتنكُّسَ الحقائق وكثرةَ الخداع في السنوات الخدَّاعات! فقد حدث عدوان سافر على هذه المؤسسة الكبرى التي تمثل إحدى

---

(١) أخرجه أبو يعلى وغيره، وهو حديث حسن، وفيه قصة أوردناها تامة في هذا الكتاب: ٢/ ٣١٤، نبوءة (٧١).

(٢) انظر الحديث وشرحه في هذا الكتاب: ٢/ ٣٨٤ وما بعدها، نبوءة (٨٠، ٨١، ٨٢).

دعائم قيام الدولة وبناء شخصية الأمة وتشييد حضارتها. . وتجلَّى ذلك بمدافعة الأمناء والأنقياء الحِراص على دين الأمة وقيمها وعقيدتها وتراثها عن مواقع التوجيه، ووُضِعَتْ مناهج ضخَّمت الأمور الصغيرة، وحقَّرتِ الحقائق الكبيرة، وعملَتْ بهدوء وخُبث في تشويه ماضي الأمة وسِيَر أسلافها، لِبَتْر الصِّلة بين حاضرنا وماضينا، وأشادت بحركات هدامة، وأَبرزتْ زعامات صغيرة، ودَفنت قيادات شامخة، فلوَّثتْ أفكار الجيل، وأساءت لعامة المسلمين.

ففي شؤون الفلسفة والاجتماع والاقتصاد لوثت أفكار الشباب بمناهج مستوردة ونظريات وافدة، مع تشويه لمقاصد الإسلام ومبادئه وقيمه ونظرياته في هذه الميادين.

ودرس أبناؤنا مادة التاريخ في مراحل متعاقبة، ونالوا قسطاً زهيداً عن مسيرة حضارتنا والرجال الذين أشادوا بنيانها، مع عبثٍ كبير بمحطَّات كبيرة ومفاصلَ خطيرة في تاريخنا. . وعرفوا الكثير عن الدول الكبرى وبخاصة الاستعمارية منها، وعن (زعامات) الأمة في العصر الحاضر.

ولو سُئل جمهور عريض من المسلمين عن بعض غزوات النبي ﷺ، وفتوحات الخلفاء الراشدين، وأسماء العشرة المبشرين بالجنة، وكبار الفاتحين والقادة على مدى ألف سنة ـ لَمَا أحاط بذلك علماً إلا بالنَّزْر اليسير، وفي شريحة صغيرة في الأمة.

في حين لو سُئل عن زعامات معاصرة، لَعَلِمَ عن أعمالها الشيء الكثير، ويمكنه أن يحدثك عن بسمارك وموسوليني ولينين وماركس وداروين وسارتر وفرويد، وقاسم أمين وطه حسين وسلامة موسى وإحسان عبد القدوس وجورجي زيدان. . . أكثر بكثير مما يعرفه عن عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو، والمثنى بن حارثة الشيباني، ومحمد بن القاسم، وعبد الملك بن مروان، وهارون الرشيد، ومحمد الفاتح، ونور الدين الشهيد، وعماد الدين زنكي، وعبد القادر الجزائري، وعمر المختار.

وإذا أعملتَ الفكر في (مادة التربية الإسلامية) التي يدرسها أبناؤنا، دخلك من الألم المُمِضّ ما يُفَطِّر الفؤاد! فلقد أصبحتْ مادة عقيمة المضامين ضعيفة التوجهات باهتة التأثير! وأُقيم على تدريسها في أكثر البلاد العربية رجال اتخذوها حرفة، ولم يحملوها رسالة!.

والعمل جادّ وفي وتيرة عالية لحذف آيات الجهاد والربا وسياسة المال وشؤون الحكم وحقوق الرعية ووحدة المسلمين ومناصرة الأقليات المسلمة التي تتعرض للاستئصال، والانفتاح على الآخر دون الاستعصام بثوابت راسخة، والتهوين من قيم العفاف ومحاربة الرذائل، وتقديم الإسلام على أنه دين سلام ورحمة وعطف ولين وتعبد وأخلاقيات شخصية، وهي كلمات حق أُريد بها باطل! والقيِّمون على ذلك يُخادِعون الله والذين آمنوا، ويتسترون بالدين ويحرِّفون الكَلِم عن مواضعه، ويقدِّمون أنفسَهم على أنهم حماتُه والمنافحون عن محارمه والذائدون عنه تحريف الغالين وتنطُّع المتزمتين!.

وفي الوقت نفسه حدث عدوان على (السلك التدريسي) في المدارس والمعاهد والجامعات، حيث أُقيل آلاف المدرسين والدكاترة والعلماء الأكفاء من مواقعهم، بسبب توجهاتهم الإسلامية، وتمَّ تحويلُهم إلى وزارات ومواقع لا علاقة لاختصاصهم بها، كالصحة والكهرباء والبلدية والمتاحف والآثار وغير ذلك! ونُصِّبَ على رؤوس أبنائنا بدلاً منهم نشءٌ غضّ طريّ لا هدفَ له ولا غاية، لا يحمل رسالة ولا ينافح عن مبدأ، بل قصارى اهتمامه ملء المكان الشاغر، وأداء الواجب المترتب عليه، وتقديم الولاء لولي نعمته! فمات دورُ المدرّس، وذَوَتْ فعاليةُ المادة الدراسية، وتخرَّجتْ أجيالٌ تحمل شهادات، خفيفةُ العقل، خاويةُ الفؤاد، لا يربطها بدينها وأمتها وشؤون إخوانها من شعوب المسلمين في أرجاء المعمورة رابط، ولا تشدها إليهم وشيجة.

وتسلَّلتْ أيدي الخِداع وائتمان الخائن وتصديق الكاذب إلى المعاهد الدينية والمدارس الإسلامية ومراكز التثقيف العام والتوجيه الجماهيري!.

ويُخَادَع الجمهور العريض عن الحقائق الكبرى والغايات الجليلة والقيم الفذة وركائز النهضة الحقيقية ومقومات الحضارة والسيادة والقيادة، وتُطوى من صحائف حياتها مواريثُ الأمة ومفاخرها وسِيَر نبيِّها ﷺ وأسلافها العظام ورجالاتها المعاصرين الكبار وكوادرها الكُثُر من ذوي الكفاءات، ويَكثُر الخداع والتزوير والمراوغة والتدجيل، ويعيش الناس في عالَم مضطرب من التضليل، ويشتط بهم السبيل عن الصراط المستقيم، في زمن ارتفع فيه الرُّوَيْبضة من الخونة والسِّفْلة والكذّابين والمراوغين، وصُفِّدَتْ طاقاتُ الأمناء الأكابر والصادقين الناصحين!.

٣ ـ في ميادين العلم والعبادة:

ومن معاني الخِداع ومظاهره: النقص والفساد والقِلّة والكساد والتحايل والمراوغة ومَنْع الحق!.

●● **فلننظر في ميدان العلم على وجه العموم**، لنتلمس النقص والقلة والفساد الذي اعتَوَره وشوَّه وجهه البهي المنير.

في الحديث الصحيح: عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العلمَ انتزاعاً يَنْتَزِعُه من العِبَاد، ولكنْ يَقبِضُ العلمَ بقبضِ العلماءِ، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتَّخَذَ الناسُ رؤوساً جُهَّالاً، فَسُئِلوا، فأَفْتَوا بغيرِ علمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا**»[١].

وفي الحديث الآخر عن أبي أُميَّة الجُمَحِيِّ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من أشراطِ الساعةِ أن يُلْتَمَسَ العلمُ عند الأَصَاغِر**»[٢].

●● والمتأمل في واقعنا المعاصر يجد العجب: فأغلب العلماء الكبار، والفقهاء المتبحرين وأساطين الفكر، وجهابذة التحقيق والبحث، ورادَة الكتابة

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وانظر الحديث وشرحه في النبوءة رقم (١٥٦).

(٢) انظر تخريج الحديث وشرحه في النبوءة رقم (١٥٣).

والقلم؛ قد ذِيدوا عن الساحة، وأُسدل الستار دون ظهورهم، وأُوصِدت الأبواب في وجوههم، ومُنعوا من الكلام في المنابر المختلفة، وفُرض عليهم لون من الإرهاب الفكري والإقامة الجبرية!.

وأُبرز على الشاشات وصفحات المجلات والصحف وما تضخُّه دور الطباعة والنشر؛ كثيرٌ من الأشخاص والمتكلّمين والخطباء والمفتين والكتَّاب ممن يَصْدق فيهم قوله ﷺ: «**يُلْتَمس العلم عند الأصاغر**».

والواقع المرُّ يشهد بأن المهتمين والمثقفين والمتابعين للحركة العلمية بشتى أطيافها، والأدبية بمختلف ألوانها؛ لا يعلمون إلا النَّزْر اليسير عن علماء وأطباء ومحدّثين وفقهاء ومفسّرين ومفكّرين ومؤرِّخين ومحققين وأكاديميين وباحثين وشعراء وأدباء من الراسخين في كل التخصصات، بينما جمهور الأمة يعرف الكثير ويسمع أكثر من طائفة من المتحدّثين بضاعتُهم من العلم مُزْجَاة، أصبحوا (نجومَ) الشاشة الصغيرة، و(أبطالَ) الصحافة، والأكثر سماعاً وانتشاراً عن طريق الأدوات الإلكترونية الحديثة المتنوعة! هذا فضلاً عن الأقلام الملوَّثة والأصوات الخبيثة التي تنشر في الأمة الموبقات!.

إننا فقراء إلى سماع أصوات وقراءة كتابات علماء من طراز رفيع، فإن القحط الثقافي الذي يُمارَسُ بساحتنا منذ دهر قد أتاح للأعداء أن يصنعوا بنا الدواهي، فالجهل العام آخذ بخناقنا في علوم الدين وفي علوم الدنيا على سواء[1].

لقد هُجِّرت كفاءات علمية عالية كثيرة جدّاً، وضُيِّق على آخرين في بلادهم فسكتوا وهم يمضغون المرارة، ولم يعلم بهم أحد، لأن سِنِي الخداع قد وَضَعت مكانهم من لا يُصلح دنيا ولا يَهدي لدين!.

---

(١) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٩٦.

وفي آفاق العلوم الإسلامية قُبض عدد كبير من العلماء وأكابر المفكّرين والفقهاء والهداة في ميادين علوم الإسلام المختلفة.

وكذلك في علوم الطب والفلك والذرة والكيمياء والاقتصاد والاجتماع والسياسة والقانون والأدب وسواها، وطُوردوا وشُرِّدوا وهُجِّروا وقُتلوا.

فلم يعلم بهؤلاء وأولئك إلا القليل من الناس!.

بينما يَهْلِك فنَّان أو ممثِّل أو شاعر مدَّاح أو أديب هدّام أو مفكر علماني، فَتُدق له طبول الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، وتُخَصَّص له ندوات وبرامج ولقاءات للتعريف بشخصه وإنتاجه وآثاره وأثره.

هكذا اضطراب الموازين وانقلاب الأمور في زمن الخداع.

•• وفي مجالات التدين والعبادة:

ترى انقلاب الموازين واضطراب الحقائق في مواقع شتى، فقد اعتنى المسلمون كثيراً بزخرفة المساجد وأسرفوا في ذلك، وقد صحَّ عن النبي ﷺ: أنه قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يتباهَى الناسُ في المساجد**»[١].

وأصبحت الصلاة عند كثير من الناس حركات وطقوساً وعبادة تؤدي لإسقاط الفريضة، ففَقَدت في حياتهم كثيراً من مضامينها وأهدافها في التربية والتزكية والسلوك القويم، ورُفِع منها الخشوع، مصداقاً لِما ثبت في الحديث: «**يُوشِكُ أن تدخلَ مسجدَ الجماعةِ فلا ترى فيه خاشِعاً**»[٢]!.

وتلاوة القرآن أضحت عند طائفة من القراء مجالاً للتفاخر بالأصوات وإتقان مخارج الحروف، وإنما أُنزل الكتاب العزيز لإقامة حدوده وتدبُّرِ آياته والخشوع عند تلاوته والتزام أوامره وتطبيق هديه.

---

(١) انظر الحديث وشرحه في النبوءة رقم (١٤٤): ٤/ ٣٦٢ (في هذا الكتاب).
(٢) انظر الحديث وشرحه في النبوءة رقم (١٥٧): ٤/ ٤٩٠ (في هذا الكتاب).

وكثرت بين الناس البدع والتزيدات والخرافات حتى أُلصقت عند البعض بالدين، وأصبح الخروج عنها كأنه ترك للواجبات، وتجد ذلك في الأذان والصلاة والصيام والأذكار والأفراح والجنائز وغير ذلك.

٤ ـ في الحقوق والمعاملات والمال والصحافة وشؤون الحياة العامة والخاصة:

وشاع بين الناس في السنين الخدَّاعات ترويجُ الكذب وائتمانُ الخائن وتواري الأمين وبؤسُ الصادقين وتأخيرُ الناصحين.

•• **ففي عالم التجارة:** تشيع ألوان من التلاعب والتزوير والغش والمراوغة والفساد والمخاتلة في صناعة المنتجات ومَهْرِها بـ (العلامات العالمية)، وتسويقها وتزيينها وإخفاء عيوبها وإظهار محاسنها والتلاعب بأسعارها، وغير ذلك مما يجري في هذا الميدان الرحيب الذي يدهش العقول ويحيِّر الألباب، ويُوقِع المَهَرة في أحابيله الملتوية وألاعيبه الخدَّاعة، وقَلَّ من ينجو بصدقه واستقامته في أَتُون هذا الصراع الرهيب في التجارة الدولية والعالمية والمحلية.

•• **وتجد ذلك عند السماسرة ومندوبي الشركات ومسؤولي التسويق والمبيعات والمشتريات ونحوِهم**، وما يمتازون به من قدرات فائقة على اللف والدوران والكذب والمخاتلة، حيث يَرغب بهذه (الكفاءات!) رجالُ الأعمال وملّاك العقارات وأصحاب الشركات والاستثمارات، مما يجعل الصدق والصادقين والأمانة والأمناء في مؤخرة الركب.

فأي خداع أقبح من هذا؟!.

•• **والمال العام والخاص في أمر مَريجٍ**، قد سُلِّط عليه سَدَنةٌ ممن خَفّت أماناتهم وضَعُفت فضائلهم وتوارت كفاءاتهم، فأهلكهم في الفسق والفجور، وأهلكوه في الربا والميسر والفساد وشراء الذمم وتزيين الرذيلة ودعم الفساق والبذل للأعداء! فأَكَلَتْ جزءاً هائلاً منه بنوكُ أوروبة وأمريكة، والتهمت البورصةُ مبالغَ تعجز عنها لغةُ الأرقام!.

وقسم آخر يضيع في صفقات أسلحة لا تحمي حدوداً ولا تنفع صديقاً! وبُذل منه شيء كثير في مشاريع استهلاكية لا تشيد صناعة ولا تحمي مستقبلاً.

ولو أنصت المتنفذون لنصائح الصادقين الأمناء الأكفياء لَمَا بُدِّدت كل تلك الأموال في المهالك، ولكن سيادة الرويبضة وتقريب الغَشَشَة والكذّابين أوقع الأمة في البلايا والرزايا.

●● **وظهر في حياتنا مَن حرفتُه الكلام مِن حَفَظَة القوانين المحلية والدولية وحقوق الإنسان**، ممن يعمل في ميدان القضاء والمحاماة، وهِمَّةُ الكثير منهم الدفاعُ عن موكِّله، فَيَحتالُ له باستخدام القانون وليِّ عُنقِه وتخريج موادِّه على النسق الذي يدافع عنه ويبتغي تحقيقه، ولا عليه بعد هذا أن يبرِّئ المجرم، ويُخلِّص الجاني، ويَسلب أموالَ الآخرين، ويبتَّ في الحقوق والأموال والدماء والأعراض، فتضيع في تلك الدهاليز والمنعرجات معالمُ الصدق وأمارات الأمانة، وبالتالي تُهدر دماء وتُنتهك حرمات وتُبدَّد أموال وتُقطع أرحام؛ بسبب الكذب والخداع والمراوغة.. وكم شهدنا وسمعنا وقرأنا عن وقائع مفجعة في هذا الميدان الخطير!.

●● ووصل الضرر والخداع إلى ميادين أخرى ومواقع متنوعة، فتجده في مؤسسات الضرائب، والجمارك، والأوراق الثبوتية والشهادات، والبحوث العلمية، وشؤون القضاة،... ومَرِج أمر الناس، وعَمَّ الكذب والتزوير والمخادعة، فَتُبرم الأمور وتُعتمد الأقوال، ويُصدَّق الكاذب، ويَتفشى البلاء في العالمين.

●● وقُلْ مثلَ ذلك في (برلمانات) دولنا، وما يجري بين النُّخَب السياسية، ومؤسسات الإعلام والصحافة والأدب والفنون ونحوها، مما كَثُر فيه الخداع والكذب والمراوغة، وارتفاع الأشرار والمفسدين والأفاكين، وانخفاض شأن الأخيار المصلحين الصادقين، وواقع الحال يشهد لما نقول.

لقد كُبِّر في زماننا هذا أُناس صغار، وأصبح الواحد منهم يظن أن العبقرية

الفذة هي التي وصلت به إلى منصبه الخطير، فمنهم من كان كاتباً صغيراً لا تُحسِن أناملُه تحريكَ مفاتيح آلة الكتابة، ومنهم من كان ساعياً يحمل الأوراق من غرفة إلى أخرى، ومنهم من لا يجيد علماً ولا ثقافة، فأصبح هذا وذاك بين عشية أو ضحاها رجلاً خطيراً تُرجى شفاعته.

وفي هذه الأيام يوجد لفيفٌ من عملاء الشيطان كرَّسوا أوقاتهم لمطاردة العفاف والتقوى، وتوطين المجون والهوى، يعبثون بغرائز الشباب، ويزيِّنون لهم الفسق والآثام.. والغريب أن هؤلاء أعلى صوتاً من دعاة الطهر والأدب والعفة!.

٥ ـ في المبادئ والمصطلحات والشعارات:

وسرى داء الخداع والكذب والتضليل والمراوغة إلى المبادئ الكبرى والحقائق العامة والمصطلحات الهامة، وحَدَث تدليسٌ كثير ومخادعات جمَّة، تولى كِبْرَهَا زعامات ورموز ومنظمات وهيئات ونُخَب وجماعات وأحزاب وصحفيون وأدباء ومفكرون وكتَّاب، فأَفقدتْ تلك المبادئَ قيمتها، وأَنزلَت المصطلحات عن مكانتها، وعَبَثَتْ بالحقائق حتى التَبَست بالأباطيل والأوهام، وأصبح يُتْقِن فن الشعارات والادعاءات الكبيرُ والصغير.

وفي السنوات الخدّاعات قُلِبت المفاهيم ونُكِّسَتِ القيم وزُوِّرَت المصطلحات، وسُمِّيت الأشياء بغير مسمَّياتها، واشْتَهَرت المنكرات بأضدادها!.

إنك تسمع وتقرأ وترى في السنين الخَدَّاعة ما يحيِّر العقول ويَذهب بالأبصار:

ـ فالقتل والسجن والنفي والتشريد يوصَّف على أنه حِفاظ على وحدة الكلمة واجتماع الأمة وتحرير البلاد ممن يُقلِق استقرارها.

ـ ومصادرة الحريات ومنعُ تشكيل الأحزاب وإقامة التنظيمات والهيئات: ديمقراطية وحفاظ على الوحدة الوطنية.

ـ والاستسلام للعدو والتفريط بالأوطان: سلام وتعايش مع الآخر.

ـ والجهاد والمقاومة وحركات التحرير: إرهاب.

ـ والتعدي على عقائد الأمة وثوابتها ورجالاتها وتاريخها: حرية رأي وفكر.

ـ وفقدانُ هوية الأمة وذوبانُ شخصيتها: عَوْلَمة وإنسانية.

ـ وقبولُ الظلم والضَّيم والعدوان وتقطيع أوصال الأمة: تسامح وتآخي.

ـ وفَصْل الدين عن الدولة وتحييدُه عن شؤون الحياة: علمانية ومدنية.

ـ والرجوع إلى معاقد الإسلام ومبادئ الشريعة: رجعية وتخلُّف وبدائية.

ـ وتنظيم مسار الغريزة الجنسية وتشجيع الزواج ومَنْعُ العُهر والاختلاط الماجن: كَبْت.

ـ وتهييج الغريزة وإثارة الظمأ الجنسي: حرية شخصية وانفتاح وتقدم.

ـ وتمرُّدُ المرأة على الشرع وهَدْيه: تحرير المرأة.

ـ والستر والعفاف والحجاب: تزمّت ونكوص للوراء.

ـ وزحفُ المفسدين ومروجي الرذيلة والتبرج إلى بلادنا: سياحة.

ـ ومروِّجو الرقص والغناء الماجن والتمثيل الوضيع: نجوم.

ـ والربا ومؤسساته: فوائد.

ـ والخمور السامة: مشروبات روحية.

ـ والغش والتزوير وانتهاب الأموال بطرق فاسدة: حِنكة و(شطارة).

وغير ذلك مما تعجُّ به أيامنا من قَلْب للحقائق وتزوير للمفاهيم ومخادعة في المصطلحات.

رابعاً: الرويبضة في بلاد المسلمين وأمثلة صارخة على صورهم ونماذجهم ومواقعهم:

واكتظَّ زماننا بالرويبضة الذين ملؤوا السهل والجبل، وضاقت بهم ذَرْعاً منابر القرار، وإدارات المؤسسات والوزارات، وصفحات الإعلام المرئي والمقروء والمسموع، واقتحمتهم الأعين في كل مكان، ومَرِجت بهم البلاد في كل ميدان، وظهرت لهم أنواع وأشكال وصور وألوان، واختنق صوت الأشراف والأحرار والمخلصين وذوي الكفاءات وأولي الألباب، وتهدَّجت صدورهم بالزفرات، وكَثُر تقلُّب الوجوه في السماء ورفْعُ الأيدي بالدعاء إلى الله بأن ينفِّس الكرب ويُفرج الهمّ ويُذهب الغَمَّ، فقد طغى زمن الرويبضة وعَمّ!.

لقد انطلق الرويبضة في كل سبيل كالريح العقيم، وتصدروا المجالس في كل قَبيل، وخاضوا المعامع في مختلِف الميادين، وقادوا جحافل الدهماء، وجَرفوا بسيلهم العارم جهودَ المخلصين الغيورين والحكماء العقلاء والحلماء الفاقهين!.

و(الرويبضة) كما بيَّن اللفظ النبوي وفسَّره أئمة الحديث واللغة، شخص انطوى على صفات رديئة وخِلال وضيعة وأعمال خسيسة، لا ينهض بمكرمة، ولا يرتفع بفضيلة، ولا يشتهر بمجد، وضيعٌ بين الرجال، لا يُؤْبَه له في ميدان السباق للمكرمات، ولا يتصل بميراثٍ أَثيل ولا ماضٍ تَليد ولا شرف عريق!.

بيد أنه في سِني الخداع وزمن الغش والتضليل وانقلاب الحقائق وانعكاس الأمور؛ قُذِف به من وَهْدته إلى مكان شاهق، فعَلَا أعناقَ الرجال، وتقدَّم في المجالس بالرأي والتوجيه، وتحدث باسم الجمهور، ومثَّلَهم في المحافل والمنتديات والمؤتمرات، وانْتُخِب أو عُيِّن ليعبِّر عن قطاع عريض من الناس، وأضحى من أصحاب الشورى وأهل الحل والعقد، وممن يشار إليه بالبنان في كل ميدان!.

١ ـ ومن أخطر تلك النماذج رويبضة الفتوى:

أولئك الذين اعتدوا على حرمات الإسلام وأركان الدين وحقائقه الكبرى وقضاياه العظمى، ونطقوا بالهُجْر من القول، وأشاعوا فتاوى جائرة وآراء بائرة وأفكاراً بالية واجتهادات رديئة.

(ففي الوقت الذي أَكل فيه الاستبدادُ أمتنا، تُسأل عمامة كبيرة عن حكم الشورى في الإسلام، فيكون الجواب: يَحْسُن بالحاكم أن يستشير، وعلى أهل الرأي أن يقولوا ما عندهم، وللحاكم بعدئذ أن ينظر فيه، فإما قبِله وإما ردَّه، وله أن يَمضي على ما يرى وحده!.

هذا الكلام لو قاله أحد الغوغاء في قُطر آخر لَضُرِب على فمه، واستُبعد من عداد أهل الرأي والثقة، ولكنه في ميدان الغش الديني والعبث بالإسلام يُقال على أنه دين)[١].

وإليك مثلاً آخر لتزوير الفتوى والاختلاق على الإسلام من قِبل الرويبضة:

فقد نشرت (روز اليوسف) مقالاً زعم فيه صاحبه أن المسلمة يجوز لها أن تتزوج يهودياً أو نصرانياً، لأن القرآن نصَّ على تحريم اقترانها بالمشرك فقط.

ثم أسفر الكاتب عن خَبيئة نفسه فقال: (لا يوجد بيننا مشركون ولا كفار، وإنما يوجد مسلمون ويهود ونصارى)[٢].

وهذا عالم آخر يرى بعضَ الأدباء الماجنين وقد ضاق ذَرْعاً بشريعة الصيام، لأنه ضَيِّق الصدر بشرائع الإسلام كلها! فيخرج على الناس بفتوى تجعل الصيام هواية تتبع المزاج المرهف؛ فمن كان شغوفاً بالجوع والعطش صام، وإلا فليفطر جهاراً نهاراً ولا تحرّج ولا ملام.

---

(١) علل وأدوية، ص٢١٥.

(٢) ظلام من الغرب، ص١٦٨.

فتخرج الصحف وقد طَبّلت (للفتوى الجليلة!) وسلكت صاحبها في عداد الأئمة الثائرين أو الخلفاء الراشدين!.

واقتحم الدكتور طه حسين غبار المعركة بمقال عنوانه (حق الخطأ)، قصد به إلى حماية التزوير على الإسلام.

وزاد في مقاله السَّمْج أن لهم ـ أعني: لهؤلاء المُفتين المزوِّرين ـ أجرَ الخطأ فيما قالوا بعيداً عن الصواب(١)!.

لقد ابتُذِلت الفتوى وأصبح كل من هَبَّ ودَبَّ يقول في دين الله ما ليس له به علم!.

وفي قناة فضائية(٢) تُطرح قضايا فقهية كبرى معاصرة، تستوجب حضورَ الراسخين الأتقياء من أهل العلم ليقولوا فيها رأي الإسلام الحق، لكن الواقع أنه يحضرها بعض المتفقهين والممثلين ونساء متبرجات وجمهور من الفتيان والفتيات الذين لا يعرفون شرائط وجوب الصلاة أو شرائط صحتها، فيُستفتون في قضايا اجتماعية خطيرة، وتؤخذ أصواتهم عليها تأييداً أو معارضة.

من ذلك ما سُمِّي بـ (الزواج السياحي)(٣)، وله مؤيدون وسماسرة، وانتشر بصورة تُنذِر بالخطر، ويَتِمُّ التصويت على هذه القضية، وتأتي النتيجة هكذا: (٦٠٪) من المشاركين يرفضونه ويعتبرونه دعارة منظمة، و(٤٠٪) يَقبلونه ويعدُّونه حلّاً لمشكلة!.

هكذا تصبح الفتوى بيد (الرويبضة)، ويسمعهم ملايين الناس، فمن يوقف هذا العبث؟!.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٧ ـ ٢٠٨. والشيخ المفتي المُفْتَئِت هو عبد الحميد بخيت المدرس بكلية أصول الدين!.

(٢) قناة (M.B.C)، برنامج (آدم وحواء)، يوم الخميس ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٣) سبق التعريف به في هذا المجلد: ٣/ ٩٢ حاشية (٢).

والأمثلة في هذا الميدان كثيرة.

٢ ـ رويبضة الفكر والقلم:

وهؤلاء ما أكثَرَهم في هذا الزمن الصعب، لقد ضاقت بهم المكتبات ودور النشر ومراكز البحوث ومؤسسات الدراسات الاستراتيجية وسواها، وقذفت بإنتاجهم إلى الأسواق وفي كل اتجاه، وأرَّقوا بسُمومِهم وأخطائهم وخطاياهم مضاجعَ العقلاء والغيورين.

إنه ليس في بلادنا رقيب ولا حسيب على أمثال أولئك، بل إنهم لَيَجدون التشجيعَ الأدبي والمادي، أما مقصُّ الرقيب وقلمُ المنع فلا يعمل إلا على الكلمة الحرة والكتاب البنَّاء والدراسة الناقدة الهادفة إلى إيقاظ الأمة من سُباتها وبيان عللها وعلاجاتها.

وكتاباتُ دعاة الفكر التغريبي، ومروِّجي العلمانية، وحَمَلة الأقلام الملوثة في مجالات الأدب المكشوف والانحلال الخلقي والتضليل الفكري والثقافي، والدعاة على أبواب جهنم، والذين يشوِّهون حقائق الإسلام وتاريخه وحضارته ومواريثه؛ عددهم كثير، وقوافلهم متلاحقة منذ نحو قرن وإلى الآن، ولا نطيل بذكر أمثلة لأسمائهم وبعض كتاباتهم، فأمرهم مشهور[(١)].

ولا يغرَّنَّكَ أنهم حَمَلةُ ألقاب علمية، ويقتعدون في المجتمع أماكنَ عليَّة، وتُخلع عليهم هالات الفكر والأدب والإبداع، فصفةُ (الرويبضة) تشملهم لسَفَهِهم وشططِهم وفسقِهم وخسَّة أعمالهم وخداعِهم ومكرهم وفسادِهم وإفسادهم وسوءِ صنيعهم بهذه الأمة ودينها وماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وينتظم في هذا السبيل أولئك المعتدون على تراث الأمة العلمي بالتحقيق والطباعة والنشر، فقد عَدَا (رويبضةُ التحقيق) على كنوز أمتنا، وعَبَثوا بها، وشوَّهوا نصوصها ومتونها، ثم نشروها بين الناس، وقد اشتملت على تحريف

(١) انظر ما كتبناه في النبوءة (٨٣ ـ ٨٤): ٢/ ٤٦٥ ـ ٤٨٠ (في هذا الكتاب).

وتصحيف وسقط كثير، مع تعليقات سقيمة وشروح غَثَّة.. وادعى هؤلاء (المحققون!) أنهم بذلوا جهوداً مضنية، وعرَّفوا بأنفسهم أنهم حملةُ (الدكتوراه) وأعضاءُ مجامع كذا وكذا، ليروِّجوا بضاعتهم المزجاة! ويَعلم الراسخون والمحققون الأصلاء الوزنَ العلمي لأولئك (المحققين العصريين)، والقيمةَ العلمية لأعمالهم الرديئة، والإفسادَ الذي ألحقوه بتراثنا.

٣ ـ رويبضة الأدب:

وهذا الصنف خصصناه من سابقه لخطورته من جهة، وكثرة جيوشه من جهة أخرى، وتعدُّدِ وسائله وكثرة مشجعيه وداعميه من جهة ثالثة.

فتجد في الماضي القريب والزمن الحاضر أسماء لامعة قد نالت أوسمة وجوائز محلية وعربية ودولية، وأُشيد بأعمالها وأمجادها لِما قدموه من خدمات جليلة للأمة!.

ويعلم الصادقون والنقاد المنصفون والغيورون أنهم ما نالوا ذلك الثناء العريض إلا لهجومهم على حقائق الدين وهدمهم في أخلاق المسلمين وقيمهم وثوابتهم.

وفي الوقت الذي يُشاد فيه بألوان من الأدب الماجن الفاسق والشعر التافه والروايات الساقطة والمسرحيات الفارغة، تُطوى أعمالٌ عِظام، ويُسدل الستار على أدباء كبار وشعراء فحول وروائيين جادين، لأن هؤلاء يعملون لصالح الأمة وبناء حاضرها وحماية مستقبلها، وأولئك الرويبضة يهدمون أركانها ويتكلمون باسم الدهماء ويؤججون غرائز الرَّعَاع ويُرضون أطماعهم القريبة الوضيعة.

لقد كَسَدتْ سوق الأدب الرفيع والقراءة العالية والأغراض النبيلة، وقامت مكانها سوقٌ للكتابات الدَّنِسة والأدب المفضوح، وصُرف الشبابُ صرفاً عن ميادين التربية الجادة والتعاليم الصارمة، ليفتحَ عينيه وأذنيه على ضَرْب من الكلام يتملَّق نزواته ويدفعها دفعاً إلى مغامرة بعد أخرى... وتبقى تلك الأقلام

الرَّقيعة سابحة في بحرها الرحب العميق، بحرِ الحبِّ والغرامِ، وما يحويه هذا البحر من عُري وانطلاق[١].

٤ ـ رويبضة الحرية الشخصية وحرية الرأي والقول والفعل:

وهؤلاء يمثلون جيشاً كثيفاً وينتشرون في كل سبيل، وقد أَقَضُّوا مضاجع الأمة وأحدثوا فيها جراحاً غائرة، وادَّعَوا الدفاع عن مصالح الأجيال والمنافحة عن الإنسان وكفالة الحرية في كل ميدان.

وعصابةُ حرية الرأي تستهدف الاستهانة بثوابت الإسلام ومقدساته، والانفلاتَ من ضوابطه وقيوده، والشغبَ على أركانه وفرائضه، لتزيد جراحات الأمة عُمقاً.

ويدعي هؤلاء الرويبضة أنهم يمارسون حقوقهم الطبيعية والحرية التي كفلها لهم الإسلام وسائر الشرائع والأديان والقوانين والأعراف.

فيُطْلِقون للمرء أن يفعل ما يشاء، وللّسانِ أن يقول ما يريد، ولْتُترك الرذيلة والخلاعة والخَنَا والمجون والإسفاف تسعى في كل صعيد، ولْتُنشر على الملأ أمراض الغريزة والعُري والتكشف، ولْيُهَيَّج الحيوان الرابض في الدماء، ولْتُمرَّغ القيم بالوحل، ولْيُوَبَّخ أصحاب الأخلاق القويمة والسِّيَر المستقيمة والهمم العالية، وليفعل الفتيان والفتيات ما يشاؤون، ولنُحارب الكَبْت والتزمُّتَ و... و...

فَيَهِيم هؤلاء الرويبضة مع الناطقين باسمهم من الرَّعاع في أودية الضياع، ولتذهب قيمُ الأمة ومُثُلها إلى متاحف التاريخ، فالإنسان ولد حرّاً فليعش حرّاً.

فهل ثمَّة فسقٌ وسَفَه وخسَّة وضلال وضياع وخِداع وتدجيل أكثر مما في هذا السبيل؟!.

---

(١) انظر: كفاح دين، ص٢٣١.

٥ ـ رويبضة الدعوات الضيقة والأحزاب المارقة:

وهؤلاء أمثلتهم كثيرة شاخصة في تاريخ الأمة، وهم في زماننا قد ربا جمعُهم وعلا صوتهم واشتدت وطأتهم، وانتشروا في مواقع عديدة، وقادوا الجماهير الغفيرة إلى سُبل متفرقة، فبدَّدوا طاقاتها وبعثروا إمكاناتها وعبثوا بآمالها، وأوصلوا عامة الأمة إلى هوة سحيقة تتطلب سواعد صبارة وجهوداً جبارة وأعمالاً متواصلة؛ لاستنقاذها مما عَرَاها من وهن وهوان وفرقة وذلة واستضعاف.

إن العناية بوطننا القريب، والعناية بوطننا الكبير في أرض العروبة كلها، والعناية بوطننا الأكبر في الدائرة الفسيحة التي تضم المسلمين جميعاً، تلك أصول نتقيد بها ونحن نفكر بعقولنا أو نحس بأفئدتنا. وهي مصادر لا يمكن الغَضُّ من شأنها في تكوين الناشئة الحديثة، وأي تثقيف يتجه لواحد منها فهو خليقٌ بأن يُتوجَّس منه[1].

ودعواتُ الفرعونية والآشورية والكلدانية والفينيقية والبابلية والبربرية والقوميات الكردية والطورانية والعربية والفارسية وما إليها من القوميات الضيقة، ودعاة العلمانية والأحزاب اللادينية والليبرالية والإيديولوجيات الوافدة والبدع المارقة والمذاهب الهدّامة، ومن يقوم على رأس تلك الدعوات والتجمعات والأحزاب والهيئات، وما يمارسونه من خداع وتضليل للعامة، يشكل عقبات كَأْداء في وجه نهضة الأمة وبناء حضارتها.

خامساً: دروس وعبر:

١ ـ إن من أخطر الدروس التي يجبُ وعيُها والوقوفُ عندها في هذه النبوءة؛ ما تنطوي عليه السنوات الخدَّاعة من آثار مدمِّرة على الأمة، يمكن إيجازها بنقاط كبيرة:

ـ إنها تتجاوز الكفايات وتُهمِل الخبرات وتطوي الفضائلَ والمكرمات

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص٢٣٤.

الخلقية والعلمية والأدبية، وتدفع بالعقول الكبيرة إلى الهجرة جهة الغرب أو الشرق، فتسبب للأمة خسائر فادحة في هذا الميدان.

ـ كما تتسبب في تعويق النشاط الإنساني وبناء الحضارة والعمران.

ـ وتعبث بالحريات، وتروِّج الجبروت والكبرياء، وتذبح العدالة، وتعصف بالمساواة وتكافؤ الفرص، وتُوطِّئ النفوسَ للنفاق والأكاذيب والخيانة والتضليل المنظم.

ـ وتدمر الفضائل من صدقٍ وأمانةٍ ونزاهة وعفّة وفضيلة ورجولة وجرأة وشجاعة وإقدام وعزّة وإباء، وتقتلع الأخلاق الشريفة والتقاليد النبيلة، حيث يعلو الفسقة والسِّفْلة والإمَّعَات.

ـ خسائر علمية وأدبية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وإدارية وقيادية، بسبب علو الرويبضة والسفهاء وسِفْلة القوم.

ـ غياب فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورقابة الأمة على تصرفات الحكام والولاة والمسؤولين صغاراً وكباراً.

ـ إقصاء الإسلام عن الحكم والسياسة والحياة، وفي ذلك هدم لأركان الحضارة وحياة الأمة، وتمكين لأعدائها لإصابتها في مقاتلها.

٢ ـ إن ما يَعْتَوِر أمتَنا في سِني الخداع مما وصفه الحديث النبوي، وشرحنا أبعاده في هذه الصفحات، قد عَرَا الأممَ قبلنا اليهودَ والنصارى وغيرهم، فوقع عليهم قدر الله، وسَرَتْ فيهم السُّنَنُ الكونية، وإذا وقعت أمتنا في تلك الرذائل فإن سنن الله تعالى لا تحابي أحداً، وواقع حالنا يشهد بذلك.

٣ ـ لا بد من إعادة الأمور إلى نصابها، وإقامة الميزان بالقسط، برفع منار الحق، وتصديق الصادق وائتمان الأمين، وفضح الكَذَبة وتأخير الخونة، وإسكات الرويبضة، وإعلاء كلمة ذوي الفضائل والكفاءات، ليقودوا مسيرة الأمة نحو معاقد العزة وأسباب التمكين.

٤ ـ عز الأمة وانتصارها ومجدها وسيادتها برجوعها إلى هدي الكتاب والسنة وسيرة السلف الأخيار على مدى تاريخها الحفيل بالأمجاد. . والإسلام في امتداده القديم وفتوحه الأولى اعتمد على أعداد لا حصر لها من المخلصين الذين أثمر جهادهم قياماً للحق وازدهاراً للإيمان، وإدباراً للباطل وانهداماً للطواغيت.

٥ ـ يجب الضربُ على أيدي الرويبضة والسِّفْلة ممن تسلَّلوا إلى الأماكن الرفيعة، وهم جهلة في إهاب عقلاء، والذين يتواجدون في منابر كثيرة ومناصب جليلة ومؤسسات خطيرة، ولا بد من غسلها من أدرانهم، واستئناف القيام بشؤون الأمة دون عوج أو انحراف.

٦ ـ يتوجَّب على الدعاة والعلماء والمفكرين وحملة الأقلام وكل مسؤول في موقع قيادي وتوجيهي في أمتنا أن يرقبَ الله في عمله، ويُخلِصَ لدينه، وينصحَ لشعبه، ويعمل جادّاً للمشاركة في استنقاذ الأمة من كبوتها، وتنقيتها من عقابيل أمراضها، ويكون كما جاء في الحديث الشريف:

«**لا تقومُ الساعةُ حتى يَظهر الفُحْشُ، وقطيعةُ الرَّحِمِ، وسوءُ الجِوار، ويُؤْتَمنُ الخائنُ، ويُخَوَّنُ الأمينُ**». قيل: يا رسولَ الله! فكيفَ المؤمنُ يومئذٍ؟ قال: «**كالنَّحْلَةِ وَقَعَتْ فلم تَكْسِرْ، وأَكلَتْ فلم تُفْسِدْ، ووَضَعَتْ طَيِّباً. أو كقِطَعٍ من ذَهَب، أُدْخِلَتِ النارَ، فأُخْرِجَتْ، فلم تَزْدَدْ إلا خيراً**».

وفي لفظ آخر قال ﷺ: «**والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، إنَّ مَثَلَ المؤمنِ لَكَمَثَلِ القطعةِ من الذَّهَب، نَفَخَ عليها صاحبُها فلم تَغَيَّرْ ولم تَنْقُصْ. والذي نفسُ محمدٍ بيده، إن مَثَلَ المؤمن لَكَمَثَلِ النَّحْلَةِ أكلَتْ طَيِّباً، ووَضَعَتْ طيِّباً، ووقَعَتْ فلم تَكْسِرْ ولم تُفْسِدْ**»[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ١٩٩، وعبد الرزاق (٢٠٨٥٢)؛ والبزَّار (٣٤٠٩، ٣٤١٠) في الكشف، ومختصر زوائد البزَّار (١٦٥٦)؛ والبيهقي في البعث (١٧٢)؛ والحاكم: ١/ ٧٥ ـ ٧٦، ٤/ ٥١٣، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وحسَّنه ابن حجر؛ وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٦٥١٤)؛ والألباني في الصحيحة (٢٢٨٨) و (٢٢٥٣).

إخبار النبي ﷺ عن أُناس يتقلَّبون بين الإيمان والكفر ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**بادِرُوا بالأَعْمالِ فِتَناً كقِطَعِ الليلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرجلُ مُؤْمناً ويُمْسِي كافِراً، ويُمْسِي مؤمناً ويُصْبِح كافراً، يَبِيعُ دينَهُ بِعَرَضٍ من الدنيا قليلٍ**»[١].

٢ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**تكونُ بينَ يَدَيِ الساعةِ فِتَنٌ كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلمِ، يُصْبِحُ الرجلُ فيها مؤمناً ويُمسي كافراً، ويُمْسِي مؤمناً ويُصْبِح كافراً، يَبِيعُ أقوامٌ دِينَهم بعَرَضٍ من الدنيا**»[٢].

٣ ـ وعن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيَغْشَيَنَّ أُمَّتي مِن بَعْدِي فِتَنٌ كقِطَعِ الليلِ المُظْلمِ، يُصبح الرجلُ فيها مؤمناً ويُمسِي كافراً، ويُمسِي مؤمناً ويُصبح كافراً، يَبيع أقوامٌ دينَهم بعَرَضٍ من الدنيا قليلٍ**»[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨)، والترمذي (٢١٩٥)؛ وأحمد: ٢/ ٣٠٤، ٣٧٢، ٥٢٣، واللفظ له؛ وأبو يعلى (٦٥١٥)؛ وابن حبان (٦٧٠٤)؛ والداني (٤٧) و(٤٩)؛ والبغوي (٤٢٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٩٧) واللفظ له؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٠٨؛ والحاكم: ٤/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩؛ والداني (٤٨)؛ والفريابي في صفة المنافق (١٠٤)، وقال الألباني في صحيح الترمذي ٢/ ٢٤٠ (١٧٨٨): حسن صحيح، وذكره في الصحيحة (٨١٠).

(٣) أخرجه الحاكم: ٤/ ٤٣٨؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الصحيحة (١٢٦٧): وهو كما قالا.

أولاً: توضيح وبيان لألفاظ الأحاديث ومعانيها:

يخبر النبي ﷺ عن أزمنة قاسية يمرُّ بها المسلمون، وأحوال مزلزِلة تجتاحهم، وفتن مظلمة تتخلل حياتهم ومعاشهم، وظروف شديدة تُدمدِم عليهم، ومخاطر شائكة تعترض مسيرتهم، وأهواء ومِحَن وابتلاءات تتقلب عليهم في الليل والنهار!.

ويوجِّه المؤمنين أن يبادروا ويسارعوا في الاشتغال بالأعمال الصالحة، ويسابقوا تلك الفتن والمحن قبل أن تقع فَتَعُوق مسيرتهم عن الاستمرار.

وشَبَّه ﷺ تلك الفتن والرزايا بـ «**قِطع الليل المظلم**»، فكل فتنة منها كقطعة من الليل البهيم في شدتها وظُلمتها والتباسها، وعدم تبيُّنِ أمرها، وصعوبة تمييز الصلاح والفساد فيها، وفظاعتها وشيوعها واستمرارها، واستغلاقها على الفكر والقلب، فلا يعرف طريق الخلاص منها.

وهي شاملة عامة كما أوضحت إحدى الروايات: «**لَيَغْشَيَنَّ أمتي من بعدي فِتنٌ**»، فهي تشمل عموم الناس، مثلما يجثم الليل عليهم بِكَلْكَلِه ويلفُّهم بسرباله الأسود، فهي متراكمة كتراكم ظلام الليل المُظْلِم لا المُقْمِر، فلا يَستبين السبيلَ إلا من كان عنده نور يبدِّد له الظلمات وينير له الطريق، فكذا الناس في هذه الفتن تجتاحهم وتجتالهم وهم فيها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ووصفَ النبي ﷺ نوعاً من شدائد تلك الفتن بأنها تتقلَّب في الناس، وتقلِّب معها أبصارهم وبصائرهم وأفئدتهم وأفكارهم، فتضطرب أقوالهم، وتموج أعمالهم، وتتقلب عقائدهم؛ ففريق من الناس يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، وفريق آخر يمسي مؤمناً ويصبح كافراً!.

والمرادُ بالإصباح والإمساءِ: تقلُّبُ الناس فيها وقتاً دون وقت، لا بخصوصِ الزمانَيْن، فكأنه كناية عن تردُّدِ أحوالهم، وتذبذب أقوالهم، وتنوُّعِ

أفعالهم؛ من عهدٍ ونقضٍ، وأمانةٍ وخيانةٍ، ومعروفٍ ومنكرٍ، وسُنَّة وبِدْعة، وإيمان وكفر[(١)].

وقوله ﷺ: «**يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً**»: يصبح مؤمناً: أي موصوفاً بأصل الإيمان، أو بكماله. ويصبح كافراً: أي حقيقة، أو مجازاً بمعنى أنه كافر للنعمة، أو مشابه للكفرة، أو عامل عمل الكافر.

قال الحسن البصري: (يُصْبِح الرجلُ مُحرِّماً لدم أخيه وعِرْضِه ومالِه ويُمْسِي مُسْتحِلّاً له، ويُمْسِي محرِّماً لدمِ أخيهِ وعِرْضِه ومالِه ويُصْبِح مُسْتحِلّاً له)[(٢)].

والذي يتأمل تحقق النبوءة يجد أن الواقع يشمل ذلك كله.

وقوله ﷺ: «**يَبيع دينَه بعَرَضٍ من الدنيا قليلٍ**»، وفي رواية: «**يبيع أقوام خَلَاقهم بعَرَض من الدنيا يسيرٍ**»: والعَرَض: متاع الدنيا وحُطامها. والخَلَاق: الدِّين، والحظ والنصيب.

وهؤلاء الذين تَطيش الفتن بعقولهم وتَذهب بألبابهم وتَعبث بقلوبهم وتُقلِّب عقائدهم؛ يَرْخُص لديهم دينُهم، وتَهون عليهم قِيمُهم، ويَستخفُّون بأخلاقهم ومبادئهم، فتتقاذفهم الفتن والأهواء، وتغشى على بصائرهم وأفئدتهم، فيفرطون بكل شيء للحصول على عَرَض قريب وكَسْب دنيء، فيبيعون دينهم بثمن بَخْس وحطام ضئيل ومتاع قليل[(٣)]!.

وهذه الأحاديث تشتمل على نبوءتين خطيرتين:

الأولى: تقلّبُ الناسِ بين الإيمان والكفر في الصباح والمساء.

والثانية: استهانتُهم بدينهم واسترخاصُهم لمبادئه وقيمه، فيبيعونه بثمن

---

(١) تحفة الأحوذي: ٦/ ٥٩.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٩٨)؛ وصحَّحه الألباني.

(٣) انظر: شرح مسلم، للنووي: ١/ ٤١٠؛ تحفة الأحوذي: ٦/ ٥٦ ـ ٩٥؛ النهاية في غريب الحديث والأثر؛ لسان العرب.

زهيد، ويشترون الضلالة بالهدى، فيضلُّ سعيُهم وتخسر تجارتهم، فيهلِكون وتهلِك معهم أمتهم.

وقد تحقق ما قاله ﷺ في هذا الزمان على أوجه عدة وصور شتى.

ثانياً: أسباب التقلُّب بين الإيمان والكفر ودواعيه ومظاهره:

١ ـ شوائب ودغل على العقيدة قديماً وحديثاً[١]:

إنه من المؤسف أن المسلمين أصابهم مَسٌّ من داء الأمم السابقة، فظَلَموا رسالتهم الجليلة بما شابوا به عقيدة التوحيد وبما أقحموه عليها من بِدع وخرافات؛ فقد اشتغلوا قديماً بعلوم ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلٰهية التي تلقوها من ترجمة علوم اليونان، واعتنوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ووحدة الوجود، وتحليل وتجزئة في مسائل ذات الله تعالى وصفاته، وضَيَّعوا ذكاءهم في مباحث فلسفية وكلامية لا تجدي نفعاً ولا تأتي بنتيجة وليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة.

وفي العهود الأخيرة والأزمنة المعاصرة أدخلوا على ديار المسلمين ومناهجهم وأفكارهم وحياتهم الفكرية والأدبية والاقتصادية والاجتماعية مقولات الماركسية والاشتراكية والمادية والداروينية والوجودية والعلمانية والإباحية وغيرها، مما شَوَّه وجه الحق وأحدث في عقول أبناء الأمة وأفئدتهم ثقوباً غائرة واضطرابات بليغة، أدَّتْ إلى تقلب الناس بين الإيمان والكفر الاعتقادي والعملي، والتفريط بالدين وبيعه بثمن بخس!.

فخرافةُ (وحدة الوجود) التي شَطَح بها أصحابها الذين اشتهروا في التصوف القديم، وتاه في منزلقاتها كثير من أتباعهم.

وبدعة الوسطاء التي وقع فيها جمهور عريض من العوام في الاتجاه إلى

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٤٨ ـ ١٥٠؛ ليس من الإسلام، ص١٧٠ ـ ١٨٩.

قبور بعض الصالحين يطلبون من أصحابها ما لا يُطلب إلا من الله ﷻ، (وسقط التفكير الإسلامي في هذه الوَهْدة الشائنة من أمدٍ بعيد، فدارَتْ حول الولاية والأولياء خرافات شتى).

وادِّعاءُ أنَّ من الدين الاعترافَ بحق «أناسٍ ما» في التوسُّط بين الله وخلقه، والاعترافَ بقدرة هؤلاء على اختراقِ نواميس الطبيعة وصُنْعِ الخوارق الباهرة؛ إنما هو تخليط سَمْجٌ، واللجاجة فيه نزعة جاهلية.

ولن تَعْدَم دَعِيّاً في الإسلام يخاصِمُ عن هذه الأوهام، ويحاول تعكيرَ التوحيد الخالص ـ وهو روح الإسلام ومادته ـ بلَغَط، لا عقل فيه ولا إخلاص، زاعماً أن اتخاذَ الوسطاء لا ينافي تعاليم الدين! ولا غرابةَ فإن النصارى يرون التثليث توحيداً ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وآخرون فتحوا على الإسلام أبواب الشرِّ من الترف العقلي بعد أن تُرجمت مسائل الفلسفة الإغريقية، ولقيتْ من المسلمين حظّاً كبيراً! فإن لفيفاً من المفكرين لم يجدْ حَرَجاً في خَلْط أصول الإسلام بمناهج التفكير اليوناني في (الإلـٰهيات)، وبذلك اتسع ميدانُ الجدل، وطالَ وعَرُضَ، وأمسى العلم الذي يتعرض لموضوعات العقيدة يُسمّى (علم الكلام).

والذي يعلِّق وَدَعة، أو يحتفظ بتَمِيمةٍ، ظانّاً أن هذه المواد تنفع في دَفْع مرض أو جَلْب رزق أو إطالة أَجَلٍ؛ إنما هو وثنيٌّ يجاري بتفكيره العفِن تفكيرَ عَبَدةِ الأصنام والعُجول! فإن للاستشفاء مواداً أخرى حدَّدَتْها علوم صحيحة[1].

وهناك جهود تُبذل لإحلال النزعة الوطنية مكان العقيدة الدينية في الميدان الاجتماعي والسياسي، بل في الميدان النفسي والتربوي، وتزداد هذه الجهود قوة كلما كان المراد منها إقصاءَ الإسلام عن مكانته العامة في التوجيه، ويصرُّ البعض على إفراغ الإيمان بالله من القلوب لتمتلئ بشيء آخر بدلاً عنه.

(١) ليس من الإسلام، ص١٧٤ ـ ١٧٩، مقتطفات.

٢ ـ أجهزة ومؤسسات، ووزارات ومنظمات، وأحزاب ودعوات، تعمل لتجفيف المنابع وتخريب العقول وتدمير الثوابت؛ ليتقلّب الناس بين الإيمان والكفر:

وقد مرَّ في تضاعيف حديثنا المفصل عن نبوءات كثيرة بيانٌ واضح عن خطورة هذا السبب الثاني الذي أبرزناه، ويمكن الإشارة الإجمالية إليه هنا، فنقول:

إن الأمة تفتقر قبل كل شيء إلى العقيدة التي توقد نشاطها، والغاية التي تكدح لبلوغها، والحُداء الذي يهوِّن عليها مصاعبَ الطريق، والعَزاء الذي يصبِّرها على لَأْواء الحياة؛ فإذا جفَّت هذه المعاني في أمة لم يغنِ عنها شيء ما، وهي صائرة حتماً إلى إدبار.

والغزو الأجنبي لبلادنا ـ بشتى صُوَره ـ قد نجح في تخدير أعصاب الأمة، وإماتة ضمائرها، واستلال اليقين من أفئدتها.

والدعاة على أبواب جهنم الذين عَلَا صوتهم وامتدَّ سلطانُهم في الوزارات والأحزاب والمؤسسات ومنابر التوجيه العام والخاص؛ قد ركّزوا ضغطهم على القلوب أولاً حتى تُفرغ من العقيدة، واستبدَّ بهم الحَنَقُ لتخريبِ كل ما أودعه الإسلام في الصدور من تقوى وهداية، وتهوينِ قداسة أصوله وتعاليمه، لتكوين أجيال تضيع الصلوات، وتتبع الشهوات، وتَذْهَل عن معالي الأمور، ويتسرب اليقين منها، وتتخلّى في حياتها عن صِلتها بدينها، وتولِّي له ظهرها، ليَسهل البطش بها، فتترنح تحت الضربات المتتابعة، فلا تنهض لها غاية، ولا ترتفع لها راية.

وأفاعيلُ الصليبية والتبشير، وجهودُ الشيوعية، وأنشطةُ العلمانية، وأعمال الغزو الفكري، والأقلام الملوثة، وأساتذة الإلحاد، وجحافل المجون والخلاعة ـ قد أَوْهَنوا جميعاً قوى الإسلام والمسلمين، وأحدثوا بتكالُبِهم الحقود علينا وتداعيهم على عقيدتنا وأبنائنا؛ أمواجاً متلاحقة من تمرد الشباب وخلاعة النساء، واطِّراح الفرائض، ونبذ الصلاة والزكاة، والجراءة على الله وحدوده.

إن المرارة التي لا تنقطع غُصَّتُها من حلوقنا، سوف تبقى ما بقيَ ذاك القطيعُ المُهجَّن الذي صنعه الاستعمار الأجنبي والغزو الثقافي.. إن ذلك القطيع النكِد يُؤْثِرُ الإلحادَ على الإيمان، يُؤْثِر الفحشَ على العفاف، يؤثر السُّكْرَ على الصَّحو، يُؤثِرُ المجونَ على الجِد[١].

٣ ـ الخواء الروحي والفكري والسلوكي، ونشوء أجيال ميتة القلوب جافة الفكر رديئة السلوك هائمة على وجهها[٢]:

إذا أفلحتْ جهودُ القوى المناوئة للإسلام في توهين العقيدة الإسلامية في نفوس أبنائنا، وخَلْق جيلٍ منبتِّ الصلة بدينه، في تفكيره وسلوكه وأمور حياته، فستكون النتيجة أن ينشأ هذا الجيل ممسوخَ الشخصية، منفلتَ القِياد، مضطربَ الخطو، مبعثرَ الطاقات، ضائعَ الجهود، سهلَ الدفع والتوجيه لأي هدف ضار رخيص.

وذلك ما تريده منا الصليبية واليهودية والوثنية، إنها ـ جميعها ـ تعلم أن المسلم لن يرتد إلى اليهودية ولن يرتد إلى النصرانية، فليترك الإسلام وكفى! ليكن (وجوديّاً) أو (إباحيّاً) أو (شيوعيّاً) أو ما شاء من النِّحَل.

ترى كثيرين قد ذَوَتْ في أنفسهم تعاليمُ الدين الحنيف، وخرجوا في سلوكهم عن هديه القويم سرّاً وجهراً، وضَمَرت في ضمائرهم آدابه الخاصة والعامة، والإيمانُ عندهم لا سِنادَ له ولا أشواق، والعبادة لا روحَ فيها، والسلوك لا قوام له ولا معالم، ليس هناك تقوى ولا ليالٍ مؤرِّقة، ولا دموع إيمان، ولا أنين توبة.. قد خاص بحر الحياة بحثاً عن الصيد السمين، من مال كثير أو جاه عريض أو منصب رفيع أو شهرة ذائعة أو متعة مجنونة.

والحياة حوله في طول البلاد وعرضها خليط هائل من الكفر والإيمان، من

---

(١) كفاح دين، ص٢٤٩، ٢٧٣.

(٢) انظر: كفاح دين، ص١٣٥ ـ ١٣٩؛ ظلام من الغرب، ص١٢٥، ١٢٧.

المحافظة والتحلل، من القديم والجديد، من العقل والشهوة، من الشرق والغرب.

وفريق كبير من أبنائنا خاوي الروح، فارغ البال، ضعيف الفكر، عاطل اليد، ضئيل المعرفة، فاقد الهدف من غاية وجوده وما يُناط به، لا يستطيع أن يمخر في خِضمّ ذاك المحيط المتلاطم حوله من الحق والباطل، فتتقاذفه الأمواج العاتية، ويتقلب بين حلوِها ومرِّها، وصِدْقِها وكذبها، فلا تثبتُ له قدمٌ، ولا يستقرّ له رأي!.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ أنه ذكر الفتنة فقال: (إن الرجل ليخرجُ من بيته ومعه دِينُه، فيرجعُ وما معه شيء منه! يأتي الرجلَ لا يَملك له ولا لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، فيُقْسِم له بالله إنك لَذَيْتَ وذَيْتَ، فيرجع ما خَلَى من حاجته بشيء، وقد أسخطَ اللهَ عليه!)(١).

وأمتنا لا تَعْدَم المفكرين الراسخين والدعاة الغيورين والناصحين الصادقين والحُدَاة المؤتَمَنين، الذين يرصدون الداء ويشخّصون الأمراض ويكشفون عن أسباب العلل، ثم يَصِفُون الدواءَ الشافي، ويُمسكون بأيدي الجماهير المنكوبة إلى رحاب ربِّها ومعاقد نجاتها وعزِّها. ومن أبرز الأمثلة في هذا الميدان: ما كتبه العلامة الداعية محمد الغزالي في كتبه الكثيرة الجليلة، وما سطَّره قلمُ الأديب الغيور الدكتور محمد محمد حسين في كتابَيْه: «حُصوننا مهدَّدة من داخلها» و«الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، الذي أرَّخَ فيه للاتجاهات الفكرية في بلاد المسلمين، وصوَّر النزاعَ بين الإسلام المدافع عن كيانه وبين الغرب الزاحف بأطماعه وماضيه وثاراتِه، بين المستمسكين ببقايا الإيمان ووصايا الكتاب في بيوتهم وأعمالهم، وبين المفتونين ببريق الحضارة المنتصرة وإيحائها المتحرر في الشؤون الخاصة والعامة. والدراسة الاستقرائية القيِّمة التي قدَّمها

---

(١) أخرجه الحاكم: ٤/ ٤٣٧؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي. ذَيتَ وذَيْتَ: هي مثل: كَيْت وكَيْتَ، وهو من ألفاظ الكِنايات.

الأستاذ أنور الجندي في كتابه «الضربات التي وُجِّهت للانقضاض على الأمة الإسلامية». وغير هؤلاء الأفاضل كثير.

٤ ـ طغيان النظرة المادية في حياة الناس(١):

اتجه الغرب النصراني إلى المادية في سُعارٍ محموم، والكتلة الشرقية الشيوعية صَنَعت المادية الجدلية وأَلَّهَتِ الآلةَ والإنتاج، وكل من الفريقين المجاورين للبلاد العربية والإسلامية انصرف إلى المادية بكل معانيها، وبكل ما تتضمَّنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع، وعلم وأدب وسياسة وحكم، وكان ذلك تدريجيّاً، وكان أولاً ببطء وعلى مَهْل، ولكن بقوة وعزيمة. . فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في الكون نظراً مؤسَّساً على أنه لا خالقَ ولا مدبِّر ولا آمرَ، وليس هناك قوة وراء الطبيعة، والمادة تتصرف في هذا العالم وتحكم عليه وتدبّر شؤونه! وصاروا يفسِّرون هذا العالمَ الطبيعي، ويعلِّلون ظواهرَه وآثاره بطريق ميكانيكي بَحْتٍ، وسَمَّوا هذا نظراً علميّاً مجرَّداً، وسمَّوا كلَّ بحثٍ وفكر يعتقد بوجود إلٰه ويؤمن به طريقاً تقليديّاً لا يقوم عندهم على أساس العلم والحكمة، واستهزؤوا به واتخذوه سِخْريّاً! ثم انتهى بهم طريقُهم الذي اختاروه وبحثُهم ونظرهم إلى أنهم جَحدوا كل شيء وراء الحركة والمادة، وأبَوا الإيمانَ بكل ما لا يأتي تحت الحس والاختبار، ولا يَدخل تحت الوزن والعدِّ والمساحة، فأصبح ـ بحكم الطبيعة وبطريق اللزوم ـ الإيمانُ بالله وبما وراء الطبيعة؛ من قبيل المفروضات التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم!.

ونهض الكتَّاب والمؤلفون والأدباء والمعلمون والاجتماعيون والسياسيون في كل ناحية من نواحي أوروبة ينفخون صورَ المادية، ويَنفثون بأقلامهم سمومَها في عقل الجمهور وقلبه(٢).

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٩٢ ـ ٢٠٤؛ كفاح دين، ص١٣٦ ـ ١٣٩.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٩٢ ـ ١٩٣.

وهذه الموجة العاتية التي اكتسحت العالم لم تستثنِ ديار الإسلام التي لم تكن في مأمنٍ من خطرها الداهم، بل كان بطشُها أشدّ وسريانُها أسرعَ لسببين رئيسين:

أولهما: خضوع بلادنا للاستعمارين الصليبي والشيوعي.

وثانيهما: ينبثق عن سابقه، وهو يتمثَّل بصنائع الاستعمار الذين زُرعوا في جسم الأمة وسُلِّطوا على رقابها، فأكملوا مهمةَ العدو الغاصب على أسوأ وجهٍ يسوِّد حياةَ الأمة وحضارتها وتاريخها ورسالتها.

إننا نعتقد أن هذا الجو المادي الذي اكتَنَف حياةَ الإنسان في هذا العصر هو المسؤول أساساً عن تهيئة البيئة لعوامل الانحراف النفسي والسلوكي والاعتقادي.

ربما لا يكون هذا الجو المادي في بلادنا ملبَّداً إلى الحدِّ الذي تعرفه بلاد أخرى، ولكن العالم اليوم قد جعلَتْه سرعةُ المواصلات وتشابكُ العلاقات عالماً واحداً، ولم يَعُدْ في الإمكان أن تنكمش حضارةٌ وتنطوي على نفسها إلى مدى طويل.

ولما كانت الحضارة المادية هي القابضة على زمام الطبيعة، عن طريق التقدم العلمي والفني، فإن هذه الحضارة هي التي تزحف اليوم على كل البقاع لتنشر فيها رسالتها عن قصد أو عن غيرِ قصد.

والماديةُ تهدف إلى تحطيم المعاني والمثاليات والعقائد، وإلى تجريد الأشياء من كل قيمة عدا قيمتها التي تقدَّر بالمال، بل وصل الأمر إلى تقدير الإنسان بالمال! أصبحنا نسمع عن إنسان يساوي مليوناً أو أكثر، وابتسامة تساوي مئة ألف! أصبح الكسبُ المادي مسوِّغاً للإقدام، والخسارة مسوِّغاً للإحجام[1].

---

(١) كفاح دين، ص١٣٧.

فضَلَّتْ جماهير من شعوبنا الطريقَ، وتاهَتْ عن رسالتها التي شُوِّهت معالمها، وتقلَّب الناس بين الكفر والإيمان، ورُفِعت راياتُ الشيوعية والماركسية والماوية والعلمانية والليبرالية والوجودية والإباحية والحركات الهدّامة والأحزاب الملحدة.. وازدادت خسائر الأمة على كل صعيد، وعاش الناس في أمر مَريجٍ لا نزال نرى كثيراً من عقابيله على الدين والحياة والبلاد والأخلاق والقيم والمبادئ والاقتصاد والاجتماع في الليل والنهار.

روى الحسن البصري عن النعمان بن بَشير قال: (صَحِبنا النبيَّ ﷺ وسمعناه يقول: «**إنَّ بينَ يديِ الساعة فِتناً كقِطَعِ الليل المظلم، يُصبح الرجل فيها مؤمناً ثم يُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً ثم يصبح كافراً، يبيع أقوام خَلَاقَهم بعَرَضٍ من الدنيا يَسيرٍ**».

قال الحسن: والله لقد رأيناهم صُوراً ولا عقول، أجساماً ولا أحلام، فراشَ نار وذُبَّانَ طمعٍ، يَغْدُون بدرهمين، ويروحون بدرهمين، يبيع أحدُهم دِينَه بثمنِ العَنْزِ!)[١].

فإذا كان هذا في زمن الحسن البصري في مطالع القرن الثاني الهجري، فماذا نقول نحن في زماننا، حيث أصبح المجتمع في كثير من أحواله لا يقدِّر إلا الغنيَّ الظريف، متناسياً كلَّ ما فيه من رذيلةٍ ولؤمِ أصلٍ وسوءِ خُلق، ويتجنَّى على الإنسان الذي لا يترجح في ميزانه مهما كثُرت مواهبه وطاب عنصره وسَمَا جوهره[٢]!.

فضاق الإنسان ذَرْعاً بما حوله، ولجأ إلى طرق غير شريفة ولا نظيفة لتحصيل المال، وهانَ عليه التفريطُ بذمَّتِه وأخلاقه وقيمه، واستسهَلَ تضييعَ

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣؛ ونعيم بن حماد في الفتن (٦٥)؛ والحاكم: ٣/ ٥٣١؛ وأبو نعيم في الحلية: ١٠/ ١٧١؛ والداني (٥٠)، وهو حديث حسن بشواهده الكثيرة التي ذكرناها في صدر هذه النبوءة.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٥٢، وانظر: ص٢٥١ ـ ٢٥٤.

الواجبات والفرائض والأركان، وأَلِف الولوغَ في المنهيات والمحرّمات، وأمسى كما قال ﷺ: «**يبيع دينَه بعَرَضٍ من الدنيا قليلٍ**»!.

٥ ـ التنادي بالقوميات والجنسيات والاعتزاز بالآباء والأجداد المُنبتِّين عن الإسلام:

وفي عصر القوميات الذي نشأ في أوروبة واستطار شررُه إلى بلاد المسلمين، فُتن كثيرٌ من الناس بأعمال الاستعمار وأفكار الغزو الثقافي والفكري الذي ألغى الدين وجعل مكانه الوطنيات والقوميات، فَشتَّتت شملَ الأمة وأبدلَتْها بدينها آراءً شتى، ومزَّقتْها شرَّ ممزَّق.

إن العرب فَتَنَهم الغزو الثقافي وحَسِبوا أن الوطنيات أو القوميات الحديثة تخلَّتْ عن عقائدها الأولى، فتزحزحوا عن قواعدِهم وفرَّطوا في دينهم، على حين بقي خصومُهم بمشاعر القرون الأولى.

إنَّ إبعادَ العرب عن الإسلام خيانةٌ وطنية، إلى جانب أنها رِدَّةٌ دينيةٌ، والذين يَمضون في هذا الطريق يخدمون الصهيونية والصليبية والشيوعية، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

٦ ـ كثرة الفتن وتنوعها:

واجتاحت الأمةَ العربية والإسلامية فتنٌ كثيفة، وتساقَطَتْ خلال بيوتهم كمواقع القَطْر، وأَتَتْهم من الشرق ومن الغرب ومن أنفسهم، وملأت حياتهم العامة والخاصة، وشملت الكبير والصغير، والرعية والمسؤولين، وغشيَتْهم في الليل والنهار، وسارت في شوارعهم وأسواقهم، ومراكزهم وأنديتهم، ووزاراتهم ومؤسساتهم، وتجمعاتهم ونقاباتهم، وتنظيماتهم وأحزابهم، وضَرَبتْ وجوهَهم، ودَفَعَتْ في أقفائهم، وأَزَّتْ جمهورَهم أزّاً، وجاءَتْهم كالظُّلل يُرَقِّق بعضُها بعض، وعُرِضَتْ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فاقتتلوا على الملك، وحرصوا على الإمارة ومَنَعوا الناسَ حقوقهم، وتسلَّط حكام الجبرية

المستبدّون، وتأمَّر السفهاء، وعَلَا المُضِلُّون، ووُسِّدتِ الأمور إلى غير أهلها، وأماتوا الصلاة، وأطفؤوا السنّة، ونشروا البدعة، وضَيَّعوا الأمانة، واتبعوا مناهجَ غير كتاب الله، وأظهروا القول وتركوا العمل، ومَرِجت عهودهم، وكثُر كَذِبُهم على شعوبهم، ونشروا الظلم والاستبداد، وعَمَّ الهَرْج، واستُخِفَّ بالدم واستحرَّ القتل في الأنفس، واستشرى إهلاك الأموال وتبديدُ الثروات، وانتشرت البدع والحركات الهدّامة والأفكار الملحدة. . .

وألقى ذلك كلُّه بكاهِلِه على صدور الشعوب، وفَتَك بعزائم الجماهير، وفَلَّ صَبْرَهم، وأَحْدَث في عقولهم تشتتاً، وفي قلوبهم هزائمَ، وفي أنفسهم خسائرَ مروِّعة، ونَزلَ بهم ما جاء في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**لو تَعْلَمونَ ما أَعلمُ، لضَحِكْتُم قليلاً، ولبَكَيْتُم كثيراً! يَظهرُ النفاقُ، وتُرْفَع الأمانةُ، وتُقبضُ الرحمةُ، ويُتَّهَمُ الأمينُ، ويُؤْتَمَن غيرُ الأمينِ، أناخَ بكم الشُّرْفُ الجُونُ**» قالوا: وما الشُّرْفُ الجُون يا رسولَ الله؟ قال: «**فِتَنٌ كقِطَعِ الليلِ المُظْلم**»[(١)].

فاضطربت الأمور، وانقَلَبت الموازين، واختَلَط الحق بالباطل، والْتَبَسَ الخير بالشرِّ، وكثُرت الشُّبهات والمُشْتبِهات وشُوِّه وجه الحقيقة، وأضحى الأمر كما جاء عن حذيفة رضي الله عنه: (أنه قيل له: أيُّ الفتن أشدُّ؟ قال: أن تَعْرِضَ على قلبك الخيرَ والشرَّ فلا تدري أيَّهما تركَبُ!)[(٢)].

كل ما ذكرناه فَعَل بالأمة فعلاً منكراً، وتقلب فئام كبير من الناس بين الإيمان والكفر: فأنكروا ركائز الإسلام، وسَخِروا بحقائقه، وعبثوا بأصوله، وفرَّطوا بفروعه، وتجهَّموا لكثير من أوامره، وجاهروا بعصيانه، وعملوا على عزله عن الحياة وتحنيطه في شعائر وتعبُّدات على مِثال الكهنوت، ولَعَنوا سلفَ الأمة، وطعنوا في حَمَلة الرسالة الأُوَل، وجاؤوا شيئاً إدّاً! وقادوا مع قَبِيلهم من الأعداء في الخارج والداخل جيوشاً من السمَّاعين لهم والمغترين بدعوتهم،

---

(١) أخرجه ابن حبان وغيره، وهو حديث حسن، وقد سبق ذكره: ص١٣٩ حاشية (١).

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (١١٨)، وإسناده حسن.

فحرفوا جموعاً غفيرة عن دين الله، وألحقوا بالأمة خسائرَ هائلة، وأوصلوها إلى ذيل الركب ومؤخّرة الأمم في أمور الدين وشؤون الدنيا.

ثالثاً: نماذج وأمثلة وصور وأشكال لمن يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل:

١ ـ على مستوى الحكم والتشريع:

فمنذ نحو مئة وخمسين سنة وبعد الحروب الصليبية المتلاحقة على ديار الإسلام، التي انتهت بالفشل في هزيمة الإسلام؛ استدار الصليبيون على المسلمين وأعادوا الكَرَّة على الشرق من باب آخر، وبعد فشلهم عسكريّاً عزموا على أن لا يفشلوا سياسيّاً وثقافيّاً، وكان على رأسهم بريطانيا وفرنسا، فساندوا محمد علي باشا ومهّدوا طريق الإلحاد أمامه، وأمدُّوه بالعون العسكري والعلمي والتشريعي لتغليب كفته على دولة الخلافة العثمانية، ولم يكن الرجل على نصيب من التقوى يعصمه من هذا الشِّراك فما لبث أن انزلق.

ففتح الطريق لنقل القانون الفرنسي وجعله أساساً لِما سَنَّ من تشريعات.

وساندوا جمعية الاتحاد والترقي، وأسقطوا الخلافة.

واجتاحت الأمة قوانينُ ومبادئ الشرق والغرب البريطاني والفرنسي والإيطالي والبلجيكي والشيوعي وغيرها، وهكذا تسوَّلت أمة مسلمة مادة فقهها العملي من كل قطر، كأنها نبتت على صعيد الدنيا بغتة فليس لها ماضٍ تستمدُّ منه ولا تاريخٌ مشحون بالذخائر الرائعة(١)!.

ودخلتْ ديارنا عقائدُ المادية والوجودية والعلمانية والماركسية وغيرها، فكان ذلك أسوأَ صورِ بيعِ الدين بعَرَض من الدنيا، وعنه انبثق معظمُ أشكال التفريط بالإسلام وشراءُ الضلالة بالهدى والذي أدنى بالذي هو خير.

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٥٥، وانظر: ص١٥٤ ـ ١٥٩.

٢ ـ دعاة التطوير وتغيير الشرائع وسنِّ القوانين التي تبيح الحرام وتحرّم الحلال[١]:

وهؤلاء يكملون دور الفريق السابق في تهديم حصون الأمة وتوهين أركانها من الداخل، ويَشْرَعون المعاولَ في تفتيت بنيانها، والعبثِ بأصولها وثوابتها.. ومن أمثلتهم أولئك العابثون بقوانين العقوبات والساعون في إبطال العمل بالحدود التي شرعها الإسلام ووَصْمِها بالقسوة والهمجية حيث شَرعت رجمَ الزاني المُحصَن وقطعَ يد السارق وجلدَ المخمور وحدَّ الحِرابة وسواها.. وآخرون يدَّعون تحرير المرأة، ويقصدون انفلاتها من عِقال الحياء وآداب العفة.. وفريق ثالث يهاجم قوانين الأسرة، ويسميها (الأحوال الشخصية).. وطائفة يهزؤون بالنظام الإسلامي في الاقتصاد.. وأخرى تستخف بفرائض الشعائر كالصلاة والصيام والحج وغيرها.

ويجتمع ملأُ هؤلاء وأولئك على نشر مبادئ الشيطان بين المسلمين، وتلويث منابع الخير وتصديع أركان الأمة، ويصوِّرون الحياة على أنها غرائز يجب إشباعها، وفُرص يجب انتهازها، وحرية ليس عليها قيد، وانطلاق لا يهدأ عند حدّ.

ويشجّعون على نشر بيوت الدعارة المقنَّنة وأشكال الخلاعة المنظَّمة! وزلزلة قيم الإيمان والعفة والفضيلة، وإشاعة الزنى والربا والغش والاحتيال والسلب والنهب والرشوة والسرقة، وإباحة الخليلات والعشيقات بدل تعدد الزوجات، والرأفة بالسارق والزاني والسكِّير والعِربيد...

فهذا لون آخر من أبناء الأمة الذين ينخرون في بنيانها، وهم جديرون بأن يُقال فيهم كما جاء في الحديث: «**يَبيعون دينَهم بعَرَض من الدنيا**» و«**يبيع أقوام خَلَاقَهم بعرض من الدنيا يسير**».

---

(١) انظر: كفاح دين، ص١٧٨ ـ ١٧٩، ١٨٤، ٢٤١ ـ ٢٤٥، ٢٥٢.

٣ ـ موظفون ومسؤولون على شؤون المسلمين يبيعون دينهم بعَرَض المنصب والجاه والوظيفة والمعاش:

وثَمَّة لونٌ آخر من الناس كثُر جمعه واستفحل خطره، قد هان عليه دينُه ورَخُصت قِيمُه ومبادئه وموروثاته، فضحَّى بها في سبيل عَرَض حاضِر ونعيم زائل، فسعى للمنصب والمسؤولية والجاه بكل حيلة، وسلك إليها كل وسيلة، وعضَّ عليها بالنواجذ.

فهذا في وزارته حريصٌ على كرسيه ووجاهته ونفاذ كلمته، لاهثٌ وراء المكاسب التي يحتلبُها من موقعه وما يدرّه عليه من مال وطاعة ومداهنة من الآخرين، غير عابئ بما يُجبى إليه من حِلّ أو حرام، ولا مكترثٍ بما تؤول إليه الأمور التي أُنيطت به، بما في ذلك مصلحة الأمة والدولة، ولا بقيامه بواجبات الأمانة التي تستلزمها منزلته، ومتابعته لمن ولي أمرهم من موظفين تحت سلطانه، المهم أنه يتأكل بمنصبه، ولا يَهمُّه بعد ذلك أمر دينه وأمته!.

وذاك في مؤسسته يَسلب ويَنهب، ويختلِس ويرتشي، جموعٌ مَنوعٌ، أكول غير قنوع، يتخبَّط في دنياه ويبيع دينه وأخراه، في سبيل تحصيل المال، أو قيادة دُفَّة الإدارة فيما يُرضي نَزوته ويرفَع خَسيسته، حيث يُشار إليه بالبنان، ويصبح من ذوي المال والسلطان.

وآخر في صحيفته أو إذاعته أو موقعه الإعلامي البارز، ينشر الإفك، ويهيج الغرائز، ويشيع الخلاعة، ويشجّع الرذيلة، ويقاوم الفضيلة، ويكبِّل العفة، ويُمضي سَحابةَ عمرِه في هذا المسعى الرخيص، أما دينُه ومبادئه وقيمُه فقد باعها في سوق النِّخَاسة بثمنٍ بَخْس!.

وأصناف أخرى في مؤسسات الدولة الكبرى والصغرى قد فرَّطوا بالأمانة وخانوا العهد، وجَرَوْا وراءَ أطماع شخصية ومآرب وضيعة، وتمسكوا بالألقاب والهالات والمدائح والثناءات، وأكلوا بمناصبهم الأموالَ الحرام، ونَهَبوا المال الخاص والعام، وأقاموا من مناصبهم ووظائفهم (شركات مقاولات!)،

وتقاسموا تركةَ الأمة عياناً جهاراً نهاراً، باسم الدولة وبحماية القانون الذي يُفترض فيهم حمايته فكانوا السبَّاقين لخيانته! فخَسِرت بهم أمَّتُهم، وخَسِروا هم آخرتهم.

وهؤلاء المحسوبون على الأمة والدين هم تجارُ أموال يدّخرونه لعاجلتهم ويَذهلون عن آجلتهم، فحقَّ فيهم قوله ﷺ: «**يَبيع أقوام خَلَاقهم بعرَضَ من الدنيا يسير**».

٤ ـ الدعاة على أبواب جهنم من أخطر النماذج التي تبيع دينها بعَرَض من الدنيا قليل:

وهذا الصنف يمثل شرائح عريضة في الأمة، وهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، كما جاء تفصيل ذلك في نبوءة قد أشبعنا الكلام فيها[1].

٥ ـ قوم فرّطوا بأبنائهم فأسلموهم لأيدٍ غير أمينة:

ومن أقرب الأمثلة على ذلك انخداعُ فريق عريض من المسلمين بثقافة الغرب الوافدة إلى بلادنا، والمناهج التي يَفرضونها علينا في جامعات ومعاهد ومدارس يديرونها ويشرفون عليها أو يقومون على أمورها جملة وتفصيلاً.

وكثير من هذه المؤسسات التربوية الخطيرة تتبع مناهجَ لا دينية منبثقة من فكر الغرب وقيمه ومبادئه وغاياته، فيعمد جمهور واسع من المسلمين إلى إلقاء فلذات أكبادهم في تلك المحاضن المخالفة لديننا وقيمنا، مغترّين (بالمناهج الأمريكية والإنجليزية العالية) فيها، ويتركون الحبل على غاربه، ولا يتابعون ما يتلقاه أبناؤهم في أمور الدين والاجتماع والتاريخ والأخلاق والسلوك! ناهيك عن آخرين قد قصدوا عمداً تنشئة بَنِيهم على قيم الغرب، لأنهم مصابون بعقدة (الغالب) وتفوقه على (المغلوب).

وآخرون من المسلمين ساقَتْهم الأقدار إلى ديار الغرب والشرق، فانخرطوا

---

(١) انظر: ٢/ ٤٦٥ ـ ٤٨٠ (في هذا الكتاب).

في مؤسسات مجتمعاتهم، ولم يُحصِّنوا أبناءهم بالزاد اللازم لحماية عقيدتهم وقيمهم وآدابهم، فضلاً عن آخرين لم يَخْطُر ذلك ببالهم أصلاً!.

فنبَتَتْ أجيالٌ من أبناء المسلمين غريبة عن الإسلام، لا تعرف منه إلا اسمه ورسمه، ولا تعي من حقائقه شيئاً، ناهيك بفريق كبير قد سُمِّمت أفكاره بكل ما يَشين وجه الإسلام وحقائقه.

لقد حرص الآباء والأبناء على تحصيل الشهادات ونَيْل المراكز والألقاب، وغَفَلوا عن مَعْقِد فلاحهم ونجاحهم وهويتهم وانتمائهم لأمتهم.

ولسنا ضد تعليم أبنائنا علومَ الغرب، والنَّهَل من التقدم العلمي الذي سَبَقَنا في ميدانه بمسافات شاسعة، لكننا حريصون على تحصينهم من مخاطر التفريط بديننا ومواريثنا وحضارتنا.. ونطالب بعدم الزجِّ بأبنائنا في ديارنا في المدارس التبشيرية التكفيرية وإن لَبِست لنا مُسوحَ العلم والحضارة والانفتاح، ففي مساربها السموم الناقعة التي تعصِفُ بعقول أبنائنا وقلوبهم ودينهم، فالقوم جادُّون في نشر رسالتهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.. وقد لمسنا ذلك كما لاحظه الغيورون، في مواقع شتى من ديار المسلمين.

إنه لَثَمنٌ بخسٌ جدّاً وعَرَض يَسير أن يحصل أبناؤنا على الدرجات العلمية، ويخسرون دينهم وقيمهم وانتماءهم لأمتهم!.

٦ ـ ضحايا التبشير والتنصير:

وهذا الصنف من المسلمين الذي تقلَّبوا بين الإيمان والكفر، هو من الأمثلة المحزنة والمخيفة في الوقت نفسه، فعلى مدى قرنين من الزمان زَحَف دعاة التنصير على أراضٍ إسلامية شاسعة، وعملوا جادِّين، ومَكَروا في الليل والنهار، في مناطق الفقر والجوع والقحط والكوارث، وقدَّموا للبُسطاء الغذاء والدواء والكساء، ومعه الإنجيل والتثليث، وشعارهم: (انْزِعْ عنكَ الإسلامَ نَنزِعْ عنك الجوعَ والمرضَ!).

واجتاحت رياحُ التنصير القارة السوداء والفيلبين وإندونيسيا وبنغلاديش

وغيرها، ونجح الرهبان والقساوسة في زحزحة عددٍ كثيف من المسلمين الذين فرَّطوا بدينهم لجهلهم الشديد به وحاجتِهم الماسة إلى ما يُقيم الأَوَد، وتقصيرِ إخوان العقيدة في بلاد الإسلام المختلفة، والذين يحملون وِزْراً كبيراً من ارتداد أولئك المسلمين البسطاء عن دينهم!.

٧ ـ بيع الأعراض في المزاد:

وهذا بلاء آخر قد شاع في بلاد المسلمين، واستطار شَرَرُه في المدائن والقرى، واستغرق الليلَ والنهارَ، واجتاح البلاد طولاً وعرضاً وعمقاً.

فبِيعت أعراضُ النساء في سوق النِّخاسة، وظهرت الكاسيات العاريات، وطاردن بفِسْقهنّ وإغرائهنَّ الناسَ في بيوتهم وأنديتهم وأسواقهم ومراكزهم وكل مكان يتواجدون فيه، ولو دخلوا السراديب والأماكن المظلمة لوجدوا فتنتهن موفورة ميسورة!.

وانتشرت في الأمة بدع هائلة في هذا الميدان الخطير، مثل: ملكات الجمال، وعارضات الأزياء، ولحوم البحار والشواطئ وأماكن الترفيه، ووسائل ترويج البضائع والسلع وغيرها، وعُرضت الأجساد عارية وشبه عارية على صفحات الصحف والمجلات وشاشات التلفاز والإنترنت والملابس ومواد التجميل وغيرها مما لا يَحسن ذكره! وسُمِّي أولئك بالنجوم والأبطال!.

والغاية من وراء ذلك: هدمُ القيم وترويج الحرام وتدمير الأخلاق، والثمن: شهرة ذائعة، وأموال طائلة، والنتيجة: خراب ودمار وضياع وهلاك للجيل الشاب في هذه الأمة، لتضيع رسالتها وتذوب شخصيتها، ويسهل استعمارها.

تلك بعض الإلماحات لمعنى قوله ﷺ: «**يبيع دينه بعَرَض من الدنيا**».

رابعاً: دروس وعبر:

وقد تخلل حديثنا عن هذه النبوء دروسٌ بليغة وعبرٌ جليلة، يقف عليها

القارئ الألمعي والمتمعن الذكي، ولا بأس من إيجاز أبرزها وتحديد معالم أهمها:

١ ـ حذَّر النبي ﷺ من هذه الفتن لأن فيها تقطيعَ أوصال الأمة، وتحطيمَ أواصرها، واضطرابَ قِيمها، واختلالَ موازينها، وذهابَ ريحها، واستباحةَ بيضتها، وذوبانَ شخصيتها، وتفتيتَ شعوبها.

والإسلام يريد من أتباعه مجتمعاً يُحِقُّ الحقَّ، ويُبطِلُ الباطلَ، ويَنصر الفضيلة بقوة، ويَخْذُل الرذيلة بقوة، ولا يُداري في تقبيح الفسوق، ولا يَنْكُص في تجبيه العابثين[١].

٢ ـ لا بد للأمة كي تستقيمَ حياتُها وتنهضَ حضارتها وتعلو كلمتُها؛ من أن تُشيع في الجماهير أخلاقَ الجندية وتقاليدَ الخشونة، وأن يتعلموا أخذَ الحياة من جوانبها الصارمة ونواحيها الجادة، وأن يبتروا من المجتمع مظاهر الاسترخاء والتخنُّث، وأن يمنعوا استرسالَ النفوس مع أسباب اللهو والعبث، وأن يستأصلوا أخلاق التزلُّف والوصولية والنفاق الرخيص والتلون حسب ما تقتضيه الظروف، ويَنبذوا مزالق الرجس وأهواء النفوس الجامحة وسقوطَ الهمة ومحاقر الأمور وانتهابَ اللذائذ بأنواعها[٢].

٣ ـ في زمن الفتن وتقلُّب الأحوال بالناس واضطراب شؤونهم وتبدُّل مشاربهم غدوّاً وعشيّاً، يتوجب التمسك بالأصول وتشييد الثوابت والتأصيل الإسلامي لكل المقومات والقيم الحضارية المبنية على النظرية الإسلامية، وبناء قاعدة التغيير التي تحقق تمكينَ المسلمين من امتلاك إرادتهم، وتثبت وجودهم، وتحررهم من عِقال التبعية، وتكسِر الحصار وتردّ الهجوم الذي تقوده جحافل الأعداء بمختلِف أطيافهم وانتماءاتهم[٣].

---

(١) كفاح دين، ص٢٧١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٣) الضربات، ص٢٦٩.

٤ ـ يجب على الأحرار والغيورين والناصحين للأمة والحِراص على دينها وتراثها وأبنائها، أن يتصدوا لحركات الهدم المتمثلة بالفتن المتعددة، وفَضْحُ أشكالها، وكشفُ أساليبها، وبيان مخاطرها.. وبمقابل ذلك تأمينُ المحاضِن الطاهرة والبيئات النبيلة والأيدي الأمينة الحانية؛ لحفظِ البراعم النابتة من أبنائنا، وتعاهُدِ الناشئة الصاعدة بالرعاية والتوجيه نحو القيم العالية والهمم البانية.

٥ ـ إن من أوائل عوامل اليقظة في حياتنا، والخطوات الأولى في طريق بعثنا وتوحيد كلمتنا، اعترافَنا بالخطأ الوبيل الذي ارتكبناه عندما أَوْهَينا رباطَ العقيدة بين شعوب أمتنا وأحيينا فتنة القوميات التي قطّعت أوصالنا.

لا بدَّ لنا من إعادة ذلك الحبل الوثيق الذي يشدُّ جموعنا ويَحزِم جهودنا ويجمع طاقاتنا، لنقفَ كالبنيان المَنيع في وجه الفتن الداهمة، فلن نستطيع هزيمتها إلا بوحدة الكلمة ورصّ الصفوف لبلوغ الغاية العليا المرجوة.

٦ ـ لقد حذَّر العلّامة الفيلسوف (شوايتزر) بني عصره من طغيان الارتقاء المادي على الجوانب الروحية في الحياة، فقال بحق: (إن المدنية التي لا تُعنى بغير جوانبها المادية كسفينةٍ مكسورة الدَّفَّة تَشقّ طريقها إلى الكارثة).

إن في العالم اليوم جفافاً روحيّاً يحرق حضارته، ويجعل شياطين الذهول والفجور هي التي تجوب رحابه شرقاً وغرباً[١].

لذلك يجب التأكيدُ في زمن الفتن الشديدة التي تتوالى علينا كقِطَع الليل المظلم؛ على إحياء القلوب بالإيمان وإعمارِ الأرواح بقيم السماء وربطِ الأنفس بالدار الآخرة، وإيقادِ جذوة الإحسان والمراقبة الدؤوبة لأعمالنا وما يُناط بها من حساب وعقاب، ففي ذلك زاد روحي وثيق لخوض غمرات تلك الفتن وتبديد ظلماتها.

---

(١) كفاح دين، ص١٣٨، ١٤٠. **والدفة من السفينة**: آلة في مؤخّرتها تحركها يميناً أو يساراً.

٧ ـ وفي زمن اشتداد الفتن وتكالُب المِحن لا بدَّ للمؤمنين من التقوى والصبر والاستمساك بمعاقد الإيمان والوثوق بنصر الله وتأييده؛ ففي سورة يوسف، وفي أطواء فصول مثيرة من الغربة والسجن، والإغرار والظلم؛ يبرز قانونان جليلان:

الأول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

والآخر: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

الأول: نهج خلقي صارم في جدوى الاستقامة.

والثاني: الاستناد إلى الله في ارتقاب مستقبل أفضل، مهما أظلمت الآفاق في مرأى العين.

والفتنُ الماحقة، والتقلّبُ بين الإيمان والكفر، وبيعُ الدين بعَرَض قليل من الدنيا؛ كل ذلك مصحوب بشؤم النهاية، فإن الفتَّانين والكفار مهما بَلَغ ذكاؤهم وكيدُهم، لا بد أن يُحْرَموا بركاتِ الله، ويواجهوا الفشل والدمار، والتعويلَ إنما يكون على الإيمان والإصلاح(١).

٨ ـ إنه مهما ادْلَهَمَّت الخطوب، وتكاثر الأعداء، واضطرب الشكاكون، وطُورد المؤمنون، وضُيِّق على الناصحين، وبُعثرت الأشواك في طريق الدعاة والغيورين ـ فإن معالمَ الخير في الأمة ستبقى بارزة، وجذوةَ مشاعل الإيمان ستظل متقدة، وحَمَلةَ الراية يتقدمون الركب يرفعون الراية، والعلماء والدعاة والمفكرين يَحْدُون الركْب، والمجاهدين يحرسون الأمة وينافحون عن دينها وشخصيتها وحضارتها.

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١١، ١٢.

وقد جاء ذلك في كتاب الله تعالى في آيات كثيرة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وفي صِحاح الأحاديث بعثُ المجددين وبقاءُ الطائفة المنصورة، وحقائق التاريخ تؤكد ذلك وتزكيه[١].



(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٥٠ ـ ١٥٤.

إخبار النبي ﷺ بأن المسلمين سيبتلون حتى يخاف المسلم أن يجهر بصلاته

١ ـ عن شَقِيق بن سَلَمة، عن حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنهما قال: (كنَّا مع رسولِ الله ﷺ فقال: «**أَحْصُوا لي كم يَلْفُظُ الإسلامَ**» قال: فقلنا: يا رسولَ الله، أتخافُ علينا ونحن ما بين السِّتمئةِ إلى السَّبْعمئةِ؟ قال: «**إنّكم لا تَدْرونَ، لَعَلّكُم أن تُبْتَلَوا**» قال: فابتُلِينا، حتى جعلَ الرجلُ منَّا لا يُصَلِّي إلا سِرّاً!)(١).

٢ ـ وعن حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنهما قال: (قال النبي ﷺ: «**اكْتُبوا لي مَن تَلَفَّظَ بالإسلامِ مِن الناس**» فكَتَبْنَا له ألفاً وخمسَمئةِ رجلٍ، فقلنا: نخافُ ونحن ألفٌ وخمسُمئةٍ؟! فلقد رَأَيْتُنَا ابتُلِينا، حتى إنَّ الرجلَ لَيُصلِّي وحدَه وهو خائفٌ)(٢).

❁ ❁ ❁

أولاً: كلمة حول معنى الحديث ودلالته:

لمَّا أكرمَ الله تعالى هذه الأمة ببعثة النبيِّ ﷺ، وقام يبلِّغ رسالة ربه سبحانه إلى الناس، فأخذ يتابعه الرجل بعد الرجل والرَّهْط إثر الرهط، وكانوا في بداية

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٩) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٨٨٢٤)؛ وابن ماجه (٤٠٢٩)؛ وأحمد: ٥/ ٣٨٤؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦١٩؛ وأبو عوانة: ١/ ١٠٢؛ وابن حبان (٦٢٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٠) واللفظ له؛ وابن منده في الإيمان (٤٥٢)؛ والبيهقي في السنن: ٦/ ٣٦٣؛ والبغوي (٢٧٤٤).

أمرهم يخافون بطش قريش، فيستسرُّون بدعوتهم، ويختفون عند تعبدهم، إلى أن جاء دور الجهر بالدعوة، وقويت شوكة المسلمين وعلا أمرهم.

ثم أتمَّ الله عليهم النعمة فهاجروا إلى المدينة النبوية وأقاموا فيها دولة الإسلام، وأذهَبَ عنهم الخوفَ والاضطهاد والمضايقة والتشريد والتعذيب، وتقاطَرَ الناسُ للدخول في دوحة الإيمان.

وفي واحد من مجالس رسول الله ﷺ، أمر أصحابه أن يُحصوا له عددَ المسلمين، فبلغوا نحوَ سبعمئة نفس، وفي رواية البخاري وغيره بلغوا ألفاً وخمسمئة، ويُجمع بين العددين بأن المراد بالسبعمئة أهل المدينة، وبالألف وخمسمئة أهل المدينة ومن حولهم من المسلمين من أهل القرى والبوادي[١].

ويُشْبه أن يكون هذا في بداية قيام دولة الإسلام في المدينة، ولهذا تعجَّبَ الصحابة من قول النبي ﷺ: «**أَحْصُوا لي كم يَلفظ الإسلام**»، فقالوا: يا رسول الله، أتخاف علينا؟! وهو استفهام تعجُّبٍ، حيث رأوا مَنَعة الإسلام وقيامَ دولته واجتماع سواعد المهاجرين والأنصار وتوحّدَ صفِّهم على قلب واحد، بعيداً عن بطش الوثنية القرشية بمكة.

فَلَفَتَ النبي ﷺ نظرهم إلى استشراف المستقبل، ومدَّ فكرَهم إلى ما يُخبئه القدر من ألوان الابتلاء وصنوف الاختبار، فقال: «**إنكم لا تدرون لعلَّكم أن تُبتلوا**»! فكما أن الخائف قد يأمَنُ، فكذلك المطمئن الآمن قد يطرأُ عليه الخوف والفزع والشدة والضيق والاضطهاد!.

وهو لون رفيع من التربية النبوية يُعدّ بها أصحابه لتحمل مشقات الرسالة وأعباء الدعوة.. كما أن فيه درساً للأجيال القادمة للاتعاظ بعِبَرِ التاريخ وتجارب السابقين؛ فذاكم جيلُ الصحابة ومعهم رسول الله ﷺ والقرآن ينزل عليهم، قد ابتُلوا بالخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات! فليس بِدْعاً أن

---

(١) شرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ٤٥٧؛ الفتح: ٧/ ٦٢٨ شرح الحديث (٣٠٦٠).

تُبتلى الأجيال اللاحقة ويُصهر مَعْدِنها لينفي عنها الخبثَ ويبقى ما ينفع الناس ذهباً لامعاً لا تُصْدِئه عوادي الفتن ومزلزِلات الخوف والتنكيل.

كما أن فيه دليلاً جديداً على صدق نبوته ﷺ، شهد بذلك أصحابه، وتجدد تصديق حديثه هذا في فترات متعددة من التاريخ وبخاصة في زماننا هذا.

يقول حذيفة راوي الحديث وهو يعبر عن حال أصحابه معه: (فلقد رأيتُنا ابتُلينا، حتى إن الرجل ليصلِّي وحدَه وهو خائفٌ)، وفي الرواية الأخرى: (فابتُلينا، حتى جعلَ الرجل منا لا يصلِّي إلا سِرّاً)!.

وقد قيل في تفسير الخوف الذي عناه حذيفة عدة أقوال، أَوْلَاها ـ فيما نحسب ـ أن ذلك وقع إبَّان الفتنة الكبرى التي أشاطَتْ بدم الشهيد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، حيث سعى السبئيُّون الفَسَقة الفجرة عليه وحاصروه في المدينة النبوية، وشدَّدوا الحصار، وبالغوا في الأمر حتى حَصَبوه وهو على المنبر فسقط مغشياً عليه واحتُمل إلى داره، وانقطع عن المسجد بالكلية، ولزِم أكثر المسلمين بيوتهم، وصلّوا فيها على خوف وهَلَع مما يعتزم عليه أولئك المجرمون! وكان يَؤمُّ الناسَ أحدُ كبار مجرمي السبئيَّة الغافِقيّ بن حَرْب.. واستمر الحصار زُهاء عشرين يوماً، حتى إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه دخل المسجد وحضرت الصلاة، فقالوا له: (يا أبا الحسن، تقدَّم فصلِّ بالناس، فقال: لا أُصلي بكم والإمام محصور، ولكن أصلي وحدي).. فصلى وحده وانصرف إلى منزله[1].

وصدق قول حذيفة: (فلقد رأيتُنا ابتُلينا، حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف). نعم حذيفة توفي في (المدائن) بالعراق بعد استشهاد عثمان بأربعين يوماً، ولم يكن بالمدينة، ويُحمل قوله على ما أَلَمَّ بالمسلمين من فتنة عامة اكتوى بلظاها أهل المدينة واستطار شرُّها في الآفاق.

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٤١٣. قوله: **(الإمام محصور)** يعني: أمير المؤمنين عثمان.

ثانياً: تحقق النبوءة وواقعها التاريخي:

عندما تنزَّل الوحي الأمين بالقرآن على قلب رسول الله ﷺ، وأُمر ﷺ بأن يَصدع بإبلاغ كلمة الله، قام سَدَنة الجاهلية والوثنية يدافعون عن دين الآباء والأجداد، ويضيِّقون على المؤمنين بالدين الجديد، ويسدُّون عليهم السُّبل، ويروِّعونهم في الحرم الآمن، ويُرغمونهم على النزوح هنا وهناك. وكان مَن يتابع الرسول ﷺ ويعلن إسلامه؛ يسلك طريقاً شاقّاً عسيراً تحتفُّه الأخطار وتتناثر فيه المشاق والآلام والتضحيات، ويعيش المؤمنون في غربة واضطهاد.. فاستسهل النبي ﷺ وأتباعه كل صعب، واستمسكوا بحبل الله، ومَضَوا لا يَلوون على المخاطر، ولا يعبؤون بالآلام واللأواء والهجرة وبَذْل المهج والأرواح والأموال، وقدَّموا مطالب الإسلام على رغائبهم، وتمثّلوا مبادئه وحملوا شارته ورفعوا رايته، وانطلقوا في بحر الجاهلية يَكسرون أمواجها، وفي بيداء الوثنية يَهْدون الضالين ويُضيئون الطريق ويتقدّمون الصفوف، بأفئدةٍ قد امتزجت بنور القرآن، وأعمالٍ تستهدي بالأسوة العظمى، وعزيمةٍ تقتبس مَضاءَها من عزمات سيد أولي العزم من المرسلين!.

فتنزلت عليهم مع آيات الوحي مكافأةٌ سخية لم تخطر لهم على بال، فأنالَتْهم الأقدار النصر والتمكين والسيادة، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

لقد تحققوا بنداءات الرحمن في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقوله أيضاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وأخيراً في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

فكان من تلك الاستجابة ذلك الانقلاب العظيم، حيث هُزمت الجاهلية وانحسر صوت الوثنية، واضمحلَّت أسباب الخوف والاضطهاد، وزالت عوامل الاستيحاش من سلوك طريق الإسلام، وارتفعت الفتنة وكان الدين كله لله.. فأصبح سبيل الإسلام سهلاً مسلوكاً، والدعوة إليه ميسورة، والدخول إلى دوحته آمناً، وأصحابه يجهرون به، ويُعالنون بالأمر بالمعروف في كل سبيل، ويَصدحون به في كل ناد، والناس يدخلون فيه أفواجاً إثر أفواج[1].

وعندما يَهِي اعتصام المسلمين بدينهم، ويتقاعسون عن نصرة رسالتهم، ويفرِّطون بمصدر قوَّتهم ومَعْقِد عزِّهم، ويتهاونون بتلك النداءات الربانية الخالدة، ويَخْلُدون إلى الأرض، ويتهارشون على المنصب والجاه والمال، ويغفُلون عن الأعداء المتربصين في الشرق والغرب ليلاً ونهاراً ـ يُسلَّط عليهم بذنوبهم عدو من أنفسهم ومن غيرهم، فيعيشون في غربة، ويعتورهم الخوف، ويتناوشهم الفزع، ولا سبيل لهم من الانفكاك عن ذلك إلا بما صَلَح به أمر سلفهم في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ومن بعدهم ممن سار على هديهم.

وتعبير الصحابي عن وقوع الابتلاء والخوف بالصلاة سرّاً؛ على وجه التمثيل لا الحصر، حيث إنها أجلُّ أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأكثَرُ الشعائر وضوحاً وملازمة وتكراراً في حياة المسلم، وإلا فالأمر يشمل الاستخفاءَ بإظهار كل شعائر الإسلام، والخوفَ من الجهر بها والتمسك بها والحض على ملازمتها.

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٣٧؛ علل وأدوية، ص٤٥ ـ ٤٧.

والمستقرئ لتاريخ المسلمين القديم والوسيط والحديث، يرى مصداق النبوءة النبوية في أزمنة كثيرة ومواقع شتى حتى زماننا الحاضر.

١ ـ ومن أقرب الأمثلة للذهن وأشدّها ألماً، ما حدَث للمسلمين في الأندلس:

ويتجلى ذلك فيما وقع عليهم من اضطهاد وتنكيل ومحوٍ للهوية والوجود الإسلامي بالكلية، حيث صَبَّت الصليبية جامَ حقدها على المسلمين فيما عُرف في التاريخ بـ (محاكم التفتيش)!.

والحق المرُّ الذي يجب التصريح به أن المسلمين هناك قد فرَّطوا بدينهم وخالفوا هدي كتابهم؛ فمشت عليهم السُّنن الكونية العادلة! ويعبر عن ذلك سائح مسلم في ديار الأندلس، فيقول: (إن الدليل الذي قادني بين آثار الحمراء تناول المسلمين بالكلمة الحاسمة: لقد قامت لهم دولة هنا لمَّا كانوا لله خلائف، ثم طُردوا من هذه الديار لمَّا أصبحوا على ثَراها طوائف).

العبارة لاذعة بَيْدَ أنها تصوِّر الحق المجرد؛ يوم قادهم الإيمان قامت لهم دولة ترعى الخير والشرف، وتصدِّر للآخرين العقائد والقيم، فلما أسلموا زمامهم لشهواتهم، ومزَّق وحدتَهم الترفُ وحبُّ الدنيا، لم يبقَ لوجودهم معنى، فعادوا من حيث جاؤوا[(١)].

وقد نزل بالمسلمين من الخوف والهلع والاستخفاء بدينهم وعبادتهم وممارسة مختلِف شعائرهم؛ ما يدعو للحزن والأسى والمرارة، من اشتعال الضِّغْن المستأصِل في قلوب الصليبيين، (فقامت حملةُ إكراه للمسلمين المقيمين في الأندلس على التنصُّر بأبشع الوسائل وأفظعِها، وحرمانهم من التخاطب بالعربية، والتسمي بالأسماء العربية، ولبس الثياب العربية، ومن سائر تقاليدهم القديمة، فضلاً عما أصابهم من التعذيب والتحريق على يد محاكم التفتيش الشهيرة، التي أُنشئت للعمل على إبادة بقايا الأمة الأندلسية. ولم يمضِ على

---

(١) علل وأدوية، ص٤٠ ـ ٤١.

سقوط غَرْناطة زُهاء خمسين عاماً حتى استحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طائفة من الموريسكيين المتنصِّرة.. والموريسكيُّون هم بقايا المسلمين الذين بقوا بالأندلس بعد زوال الدولة الإسلامية، وتعرَّضوا للاضطهاد، وحافَظَ قسم كبير منهم على دينه وعقيدته)[١].

٢ ـ وفي قارة إفريقية كان الإسلام الدين السماوي الأول في أصقاعها:

واستطاع بضيائه أن ينسخ ظلمات الوثنية في ربوعها، غير أن الأوروبيين في القرنين الفائتين اجتاحوها بجيوشهم، وشَرَعوا في تنفيذ برامجهم الاستعمارية والتبشيرية، فحوَّلوا المستعمرات إلى دول حديثة وأقاموا عليها (الحكومات المستقلة!)، وراعوا في تكوينها تقطيعَ الأواصر الإسلامية، وتشتيتَ أجزائها، وجَعْلَ السلطة بيد خريجي المدارس التبشيرية وحدهم، وجعل الكثرة المسلمة تقِلّ وتَذِلّ على مرِّ الأيام، بل لقد وُضعت خطة عامة لتقويض الإسلام في إفريقية كلها مع نهاية القرن العشرين[٢].

وبجهود الحكام المرتدين عن دينهم والموالين لأسيادهم الذين صنعوهم ونصَّبوهم على رقاب شعوبهم؛ طُورد الإسلام في مغانيها ومرابعها، وصُبَّ على عباد الله أصناف العذاب الأليم، وخُصص قسم وافر من التنكيل والاضطهاد والتشريد للدعاة والمفكّرين والمصلحين والغيورين، وزُرع الخوف في قلوب الناس حتى أصبح الواحد منهم حاله كما وصف الحديث: (لا يصلي إلا سرّاً)، ولا يتعبد إلا وهو خائف خشية أن ينكشف سرُّه فَيُنكَّل به!.

ومن يقرأ ما فعل ذئاب الحبشة[٣] ـ مثلاً ـ بالإسلام والمسلمين، ويتلو صحائف القصص المروِّعة التي وصفت العذابات التي تُصبّ على المسلمين صَبّاً، وتزرع الخوف في قلوبهم، فيستَخْفُون بدينهم ـ يدرك حجمَ الفاجعة

---

(١) الضربات، ص١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٣٩.

(٣) انظر مقال: «ذئاب الحبشة تنهش الإسلام» في كتاب: كفاح دين، ص٥٦ ـ ٧٣.

الكبرى التي حلَّت بالمسلمين هناك، ويتحقق من وقوع النبوءة على أجلى صورها.

٣ ـ وحدث مثل ذلك وأقسى منه في أصقاع كثيرة من ديار الإسلام في شرق آسيا:

مثل الفيلبين وسنغافورة وفطاني وسواها، وفي الهند والصين، مما لا يعلمه كثير من خاصة المسلمين في عصرنا فضلاً عن عوامهم، وهو من التقصير والتفريط الذي لا نُعذر به تجاه إخوان العقيدة في هاتيك الديار النائية عن مركز الإسلام.

٤ ـ وفي الجزء الشمالي الشرقي من المعمور وعلى امتداد مساحات شاسعة من أرض الإسلام التي عُرفت فيما بعد بـ (الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي):

عاش المسلمون أسوأ محنةٍ عَرضت لهم في تاريخهم، حيث أقبلتْ أفواج الذئاب عليهم من كل ناحية لتعيثَ فساداً في قطيع لا راعيَ له! ووَجَد (الروس) الفرصةَ سانحة كي يضمّوا أراضي إسلامية إلى أرض (الاتحاد السوفييتي) التي تكوَّن أغلبها من دار الإسلام المستباحة[١].

فاكتسحت الثورة الشيوعية الحمراء ديار المسلمين، وخاض (ستالين) وسواه مجازر رهيبة أَنْسَتِ البشريةَ أفعالَ الحملات الصليبية وهمجيةَ التتار، حيث فَتَك الشيوعيون بالجسم الإسلامي هناك، وسفكوا دماء زُهاء (٢٥) مليوناً من المسلمين، وأقاموا في كل بيت مأتماً وفي كل ميدان مذبحة وفي كل صُقْع مجزرة!.

وعَمَّ الخوفُ كلَّ نفس، وتوارى الإسلام بصُوَرِه ومراسِمه وأشكالِه ومظاهره ومآذنه، واختَفَتْ من البيوت فضلاً عن الشوارع والمؤسسات مظاهرُ التمسك

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

بالإسلام، ولُوحِق المسلمون واضطهِدوا وشُرِّدوا وسُجنوا وقُتّلوا تقتيلاً! وأصبح الآباء ينقلون تعاليمَ دينهم لأبنائهم سِرّاً شِفاهاً، فلا يسمع الناس بكلمة (لا إلـٰه إلا الله) إلا همساً! وتوارت المصاحف عن الأنظار، فكان المصحف الواحد تتداوله عشرات الأيدي وتتناقله البيوت بسرية تامة.

واستمر ذلك عدة عقود، وظَنَّ الكفار أن بمقدورهم أن يمحوا كلمة الله من الصدور، لكن يأبى الله إلا أن يُنفذ وعدَه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]. . فنبَتَ في الصخر جيلٌ يتداول فتيانُه وفتياتُه القرآنَ والسنَّةَ، بل وكُتُب الفكر الإسلامي التي سطرها عدد من رجالات النهضة الإسلامية والصحوة المباركة.

وما إن سقطتِ الشيوعية وذهبَتْ غير مأسوفٍ عليها؛ حتى هبَّ المسلمون هناك يطالبون باستقلال بلادهم عن حكومة موسكو، ويتنادون للحكم بالإسلام لكن الجهود المحلية والدولية تَحُول دونَ تحقيقهم ذلك، وما يجري على أرض (الشيشان) ـ مثلاً ـ أكبر دليل وأوضح برهان على ذلك.

والذي حدث في (روسيا) وقع مثلُه في دول أوروبة الشرقية الشيوعية، مثل (ألبانية) و(هنغارية) و(رومانية)، حيث حرص الشيوعيون يدعمهم الصليبيون على استئصال الإسلام من النفوس ومحوِ معالمه من الوجود، حتى مُنِع المسلمون من التسمِّي بالأسماء العربية الإسلامية، فضلاً عن منع مظاهر العبادة من المساجد وسواها، أما الجهر بها في المراكز والمنتديات والمؤسسات؛ فمما لا يخطر ببال.

٥ ـ وإذا سرنا مع التاريخ إلى زماننا الحاضر، واستصحبنا معه الخريطةَ الجغرافيةَ، لنُلقي نظرةً فاحصة على بلادنا العربية والإسلامية:

فإننا نجد الخططَ المرسومة لهذه البلاد تسعى لمحوِ الإسلام ومحوِ أمته فيها، وتسير بتُؤَدَةٍ ودهاءٍ وخُبْث، ويتعاون في تدبيرها وإحكامها وتنفيذها أعداءُ الإسلام في الخارج وصنائعُهُم في الداخل.

وقد وجد في عصرنا مَنْ يخشى عقابيلَ الاستمساك بدينه، ومخاطر الجهر بشعائره وشرائعه، فيؤمن بقلبه ويتعبد متوارياً بإسلامه ومبادئه، ولا يجرؤ على المجاهرة، وبخاصة من كان في منصب رفيع أو يتبوأ مسؤولية مرموقة أو يتولى مصلحة عامة للدولة، فيخشى على نفسه وأهله ومنصبه ومصدر رزقه، فيداري ويتوارى بعبادته ويخشى أن يظهر على حقيقته حتى لا يوصف بأنه متدين!.

ولقد كان بعضهم يُضطر إلى الجمع بين الصلاتين حتى لا يظهر أمام الناس بأنه محافظ على صلاته، وهو في ثكنته بالجيش أو وزارته أو مدرسته أو مؤسسته أو موقعه!.

ولو أنك استقرأتَ واقع كثير من المسلمين في جيوشنا ووزاراتنا وجامعاتنا ومؤسساتنا في المشرق العربي والمغرب العربي وباكستان وتركية وسواها؛ لأحصيتَ من هؤلاء عدداً غفيراً!.

أفليس هذا أكبر تصديق لقول النبي ﷺ: «**إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا**»، ولقول الصحابي راوي الحديث: (حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرّاً)؟!.



١٠٦

إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان يكون فيه المتمسك بدينه كالقابض على الجمر

١ ـ عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأْتِي على الناسِ زمانٌ الصابِرُ فيهم على دِينِه كالقابِضِ على الجَمْرِ**»(١).

٢ ـ وعن أبي ثَعْلَبَةَ الخُشَنيِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ مِن وَرَائِكُم أياماً، الصَّبْرُ فيهنَّ مثلُ القَبْضِ على الجَمْرِ، للعامِلِ فيهنَّ مِثْلُ أجرِ خمسينَ رجلاً يعملون مثلَ عَمَلِكُم**» قيلَ: يا رسولَ اللهِ! أجرُ خمسينَ منَّا أو مِنْهم؟ قال: «**بَلْ أَجْرُ خمسينَ مِنْكُم**»(٢).

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦٠) واللفظ له؛ وابن عدي في الكامل: ٥/ ٥٥ ترجمة (١٢٢٩)؛ وابن بطة في الإبانة: ١/ ١٧٣/ ٢؛ وصحَّحه الألباني بشواهده في الصحيحة (٩٥٧)؛ وفي صحيح الترمذي: ٢/ ٢٥٦ (١٨٤٤)؛ وصحيح الجامع (٨٠٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)؛ والترمذي (٣٠٥٨) واللفظ له؛ وابن ماجه (٤٠١٤)؛ وابن حبان (٣٨٥)؛ والبيهقي في السنن: ١٠/ ٩١ ـ ٩٢؛ والبغوي (٤١٥٦)، والحديث فيه قصة اختصرتها. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وصحَّحه ابن حبان، والحديث فيه ضعف، لكن يشهد له حديث أنس المتقدّم وأحاديث أخرى، فهو صحيح بشواهده، انظر: الصحيحة (٤٩٤) و(٩٥٧)؛ وهامش ابن حبان: ٢/ ١٠٩ ـ ١١٠؛ وشرح السنَّة: ١٤/ ٣٤٨، وهامش سنن أبي داود بتعليق شعيب الأرنؤوط: ٦/ ٣٩٦ ـ ٣٩٨.

أولاً: كلمة موجزة حول معاني الحديثين:

يخبر النبيّ ﷺ أصحابه ﭫ والأجيال القادمة من بعدهم، بأنه سيأتي على المسلمين زمان صعب يُبتلون فيه بأنواع من المِحن، وأصناف من الابتلاءات، وألوان من الفتن، يصبح فيه المؤمن المستمسك بعُرى دِينه والحريص على إظهار شعائره وتطبيق شرائعه والدعوة إليه ـ في معاناة وشدَّة ومشقَّة ومكابدة، كذاك الذي يصبر في السير على جَمْر الغَضَى أو القبض على الجمر! (فكما أنه لا يمكن القبضُ على الجَمْرة إلا بصبرٍ شديد وتحمُّل غَلَبَةِ المشقَّة، كذلك في ذلك الزمان لا يُتَصوَّر حفظُ دِينه ونور إيمانه إلا بصبر عظيم)[١].

وفي هذا الوصف النبوي الرفيع تشبيهُ المعقول بالمحسوس؛ أي: إن الصابر على أحكام الكتاب والسنَّة يقاسي بما ينالُه من الشدة والمشقة من أهل البدع والضلال مثلَ ما يُقاسيه مَن يأخذ النار بيده ويقبض عليها، بل ربما كان أشد[٢].

ويكون ذلك بسبب كثرةِ الأهواء والمذاهب الهدامة والبدع والضلالات، والمفاسد والمنكرات، والمجون والانحلال، وكثرة الصوارف عن دين الله، وسُعارِ الصادِّين عن سبيله، وتكالُبِ الأعداء وشدة مكرهم وكثرة كيدهم، ومطاردةِ السلطات المستبدَّة لعباد الله وتشريدهم في المنافي أو إلقائهم في السجون، والتضييق عليهم في جنبات الأرض[٣].

كل ذلك يشكِّل عقباتٍ كأداءَ أمام المؤمنين المستمسكين بدينهم والغيورين على كتابهم وسنَّة نبيِّهم ﷺ، والحريصين على ظهور الإسلام على العقائد والمذاهب الوافدة؛ مما يجعل عمَلهم هذا كالقابض على الجمر لا بد أن يَلْفَحه بوَقْدَته وحرِّه وشدته ولظَاه! وهم مع ذلك صَبَّارون على الحق، قائمون عليه، معتصمون به، داعون إليه، لا يَضُرُّهم ما يُصيبهم من لَأْواء.

---

(١) تحفة الأحوذي: ٦/ ١٣٤.

(٢) فيض القدير: ٦/٤٥٦.

(٣) انظر: المبشّرات، ص١٢٣.

ومما يحضُّهم على الاعتصام بمنهجهم هذا، ويحثُّهم على ملازمته، ويرغِّبهم فيه؛ ما علموه من الأجر العظيم الذي جاء على لسان الصادق المصدوق محمد ﷺ، حيث يقول: «**للعامل فيهنَّ مِثْلُ أجرِ خمسين رجلاً يعملون مثلَ عملِكم**» قيل: يا رسول الله! أجرُ خمسينَ منَّا أو منهم؟ قال: «**بَلْ أجرُ خمسينَ منكم**».

وليس في هذا تفضيلٌ لهم على الصحابة، لأن مجرَّد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوتَ الأفضلية المُطْلَقة، وأيضاً فالأجرُ إنما يقع تفاضُله بالنسبة إلى ما يُماثِله في ذلك العمل، فأما ما فاز به مَنْ شاهدَ النبيَّ ﷺ من زيادةِ فضيلةِ المشاهدة فلا يَعْدِلُه فيها أحد.

والذي ذهب إليه الجمهور أن فضيلةَ الصحبةِ لا يَعْدِلُها عملٌ لمشاهدة رسول الله ﷺ، وأما مَن اتَّفَقَ له الذَّبُّ عنه والسبقُ إليه بالهجرة أو النصرة وضبطُ الشرع المُتلقَّى عنه وتبليغُه لمن بعده؛ فإنه لا يَعْدِلُه أحدٌ ممن يأتي بعده، لأنه ما مِن خصلة من الخصال المذكورة إلا وللذي سَبَق بها مثلُ أجرِ مَن عمل بها من بعده، فظَهر فَضْلُهم(١).

فهذا الوعد النبوي الصادق يفتح باب الأمل واسعاً لأجيال المسلمين للحاق بآبائهم الكرام من الصحابة العِظام الذين نصروا الدين، ورسَّخوا أركانه، ونشروا هداه في العالمين، فنالوا من الأجر ما لا يحدُّه الوصف ولا يعلمه إلا الله.

فليكن ذلك نِبْراساً لهم وقدوة ومشعلَ هداية يصبِّرهم على ما هم فيه، فالابتلاء سنَّة ربانية يتصدَّر ركبَها الأنبياءُ والخُلَّص من الأصفياء كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

---

(١) الفتح: ٨/ ٥٦٣ شرح الحديث (٣٦٥٠)؛ وانظر: شرح مشكل الآثار: ٦/ ٢٦٢ ـ ٢٦٨.
والصحابة أفضل من التابعين وسواهم ممن جاء بعدهم، لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟ محل بحث، وقد حرَّر ذلك وأجاد في تقريرِه الحافظُ في الفتح: ٨/ ٥٦١ ـ ٥٦٣.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله! أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياءُ ثم الأَمْثَلُ فالأمثلُ، يُبْتَلى الرجلُ على حَسَبِ دِينه، فإنْ كان دِينُه صُلْباً اشتدَّ بلاؤه، وإنْ كان في دِينه رِقَّةٌ ابتُلي علىٰ حَسَب دِينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يَتْرُكه يَمشي على الأرضِ وما عليه خطيئةٌ**»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البَلاءِ، وإنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ قوماً ابتَلَاهُم، فمَنْ رَضِيَ فلَهُ الرِّضَا، ومن سَخِطَ فلَهُ السُّخْطُ**»[٢].

فائدة: حديث الترمذي عن أنس الذي صدَّرنا به النبوءةَ (حديثٌ ثلاثيّ)، بين الترمذي وبين رسول الله ﷺ فيه ثلاثةُ أنفس، وليس في (سنن الترمذي) حديث ثلاثي سواه[٣].

ثانياً: بيان المدلولاتِ الواسعة للنبوءة وعمومِها وشمولِها، والتصديقُ التاريخيُّ لها:

●● الابتلاء سنَّة ربانية ومنهج رفيع لتربية النفوس وصقل العزائم وإعلاء الملكات وترسيخ المبادئ وتثبيت الأقدام، واجتلاب ذوي الكفاءات والخُلَّص من المؤمنين، ونفي الخبث والدخيل والهش من ذوي الأخلاق الرديئة والعزائم الخائرة والجزع المستحكم والأطماع الرخيصة والأهداف الوضيعة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)؛ وابن ماجه (٤٠٢٣)؛ وأحمد: ١/ ١٧٢، ١٧٣ ـ ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥؛ وابن حبان (٢٩٠١)؛ والحاكم: ١/ ٤٠ ـ ٤١؛ والبغوي (١٤٣٤)، وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٣)، وصحيح الجامع (٩٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)؛ وابن ماجه (٤٠٣١)؛ والبغوي (١٤٣٥)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٤٦)، وصحيحي الترمذي، وابن ماجه؛ وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنَّة.

(٣) تحفة الأحوذي: ٦/ ١٣٣.

وطريق الإسلام رادَهُ الأنبياءُ والمرسلون ولاقوا فيه صنوف البلاء وأنواع المحن، فكسروا بصبرهم العالي أسوار الطغيان، وكفكفوا جماح الجبروت، ودَمْدَمُوا على الباطل فأزهقوه بعزمات صبَّارة ومَدَدٍ إلٰهي دائم.

إنه الطريق الذي تعِب فيه آدم، وناحَ فيه، وأُلقي في النار إبراهيم، وتعرَّض للذبح إسماعيل، ونُشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى، وتنوعت الابتلاءات فيه لسيد ولد آدم محمد ﷺ وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين أجمعين.

وهو الطريق الذي جاء وصفه في الحديث الذي رواه خبَّاب بن الأرت عن النبي ﷺ قال: «**كانَ الرَّجُلُ فِيمن قَبْلَكُم يُحْفَرُ له في الأرضِ فَيُجْعَلُ فيهِ، فَيُجاءُ بالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ على رأْسِهِ فَيُشَقُّ باثنتَيْنِ، وما يَصُدُّه ذلكَ عن دِينه! ويُمْشَطُ بأمْشَاطِ الحَديد ما دُونَ لَحْمِه من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلكَ عن دِينه!**»[١].

ومن أمثلته العجيبة في الأمم قَبلنا ما حدث لِماشِطَةِ بنتِ فرعون المؤمنة التي تحدَّتْ جبروتَ الطاغية في قصره وأعلنَتْ إيمانَها بالله، (**فأَحْمَى لها نُقْرةً من نُحاسٍ**، وقالت له: إنَّ لي إليكَ حاجةً، قال: وما حاجَتُكِ؟ قالت: حاجتي أن تَجْمَعَ بين عِظامي وبين عظامِ ولدي، قال: ذلكَ لكِ لِمَا لَكِ علينا من الحقِّ. فأَلْقَى ولدَها في النُّقْرة واحداً فواحداً، وكان آخِرَهُم صبيٌّ، فقال: **يا أُمَّتاهُ! فإنَّكِ على الحق**)[٢].

وفي هذا المَهْيَع الرحيب سار سيد المرسلين ﷺ، وناله من الأذىٰ ما هو متعالَم مشهور في سيرته الزكية، ومن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢)؛ وأبو داود (٢٦٤٩)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٦٢)؛ وأحمد: ٥/١٠٩، ١١٠، ١١١؛ وابن حبان (٢٨٩٧)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أحمد: ١/٣٠٩ ـ ٣١٠؛ والبزّار (٥٤)؛ والبيهقي في الدلائل: ٢/٣٨٩؛ وابن حبان (٢٩٠٣، ٢٩٠٤) واللفظ له؛ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي. **والنقرة**: قِدْرٌ يُسخَّن فيها الماء وغيره.

ﷺ: «**لقد أُخِفْتُ في الله وما يُخَافُ أحدٌ، ولقد أُوذِيتُ في الله وما يُؤْذى أحدٌ، ولقد أتتْ عليَّ ثلاثونَ من بينِ يومٍ وليلةٍ و ما لِي ولبلالٍ طعامٌ يأكُله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يُوارِيه إِبْطُ بلال**»(١).

واقتدى الصحابة رضي الله عنهم بالأُسوة العظمى، فصبروا على العذابات، وصابروا الأعداء، وهجروا الأوطان، وقدَّموا المُهج والأرواح، وسطَّروا بأعمالهم الجليلة أروعَ ملاحم الصبر والفداء والتضحيات التي أمسَتْ أنموذجاً فريداً تفخر به البشرية.. وكُتُب الصحابة والتاريخ والسِّيَر ملأى بالمواقف الرائعة والأفعال المجيدة لذلك الجيل العظيم الذي غيَّر وجه التاريخ، والذي تلمح فيه ذَوْبَ نفسِ النبي ﷺ ونُبْلَ شمائله وعمقَ عبادته وتفرُّدَ صبره، واستعلاءَهُ الفَذّ على مآرب الدنيا ومطالب النفس.

(وفي الأيام الأولى من جهاد الدعوة وتألُّبِ المشركين يقول الله تعالى لنبيِّه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٨ ـ ١٠]. وأهل الحق يبدؤون نُصرته فرادى مستوحشين وسط مجتمعات تضيق بهم، بل تضنُّ عليهم بحق الحياة. وإذا كان لهم في المستقبل أمل فهو بالاستناد إلى الله والاستمداد منه).

والرسول ﷺ كان بين أصحابه يَضرب لهم من نفسه المثلَ الأعلى في الصبر والمصابرة على كل المشاق والمصاعب والمِحن والفتن والابتلاءات، ليكوِّن منهم ذلك البنيان المتماسك أمام العداوات المرة التي وُوجِهوا بها في كل مكان، كأن شياطِين الإنس والجن تقاسَمَتْ ألَّا يرتفع للإسلام عَلَم، وألا ينتظم له صف(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٧٢) واللفظ له؛ وابن ماجه (١٥١)؛ وأحمد: ٣/ ١٢٠، ٢٨٦؛ وأبو يعلى (٣٤٢٣)؛ وابن حبان (٦٥٦٠)؛ والبغوي (٤٠٨٠)؛ وصحَّحه الألباني، وشعيب الأرنؤوط.

(٢) علل وأدوية، ص٨٥، ١٦١ ـ ١٦٢.

ويبيِّن ﷺ لأمته من بعده أن في الحياة عسراً ويسراً، وحلواً ومرّاً، ويَصِفُ لهم عقبات طريق الحق ومصاعبَه، ويوضّح لهم معالمه، ويستشرف لهم آفاقه، ويربطهم بسَلَفهم وما قدَّموه من تضحيات، ويستعلي بقلوبهم وأرواحهم عن قيود الأرض وضَنْك الحياة ولأوائها، ليعلِّقهم بالسماء حيث يتنزل منها النصر والفلاح معقوداً به الثواب الجميل والأجر الجزيل.

●● فبيَّن ﷺ وهو الناصح الأمين والمشفق الرحيم أن سبيلَ الحق محتفٌّ بالابتلاء، وطريقَ الهداية تعترضه صعوبات وآلام؛ فعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لم يبقَ من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنة، فأعِدُّوا للبلاء صبراً**»(١).

وأن الصبر نعمة كبرى يَمُنُّ الله بها على عباده، فمن أُوتِيه فقد أُوتي خيراً كثيراً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «**ما رُزِقَ عبدٌ خيراً له ولا أوسَعَ من الصبر**»(٢).

ومن أرفع مظاهر هذه النعمة وأجلها مغفرة الخطايا وتكفير الذنوب، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**»(٣).

وعلى المرء المسلم أن يتجمَّل بالصبر، ويَحمل نفسه على المعالي، ويقتدي

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٥)؛ وأحمد: ٤/ ٩٤؛ وابن حبان (٦٩٠) و(٢٨٩٩)؛ والداني (٣) واللفظ له؛ وغيرهم، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على ابن حبان: إسناده قوي.

(٢) أخرجه الحاكم: ٢/ ٤١٤؛ وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٤٤٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٤٥٠؛ وابن حبان (٢٩١٣) و(٢٩٢٤)؛ والحاكم: ١/ ٣٤٦، ٤/ ٣١٤؛ والبغوي (١٤٣٦)، وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وهو في الصحيحة (٢٢٨٠).

بهدي النبوة والسلف الصالح، ويُعِدَّ للبلاء عدَّته، ويُكابد مشقات الليالي والأيام، ويصابر أعداء الله والصادِّين عن سبيله، حتى يبلغ الهدف ويحقق الغاية، ويفوز بالأجر.

إنه ذاك الصبر الذي يَحمل صاحبه على الاشتباك مع السرّاء والضراء، والخير والشر، والحلو والمر، فيصارع الموج الطامي، والابتلاء العاتي، والموت الزاحف، وهو (يَحُسّ أن لله ما أَخذ، ولله ما أعطى، وأن حقَّ العبودية التحمّلُ دون تململ وضجر، فإذا حُرِم المرء ما يُحبّ، أو كُلِّف ما يَكْره؛ نظر إلى ربه في تسليم، واستقبل قضاءه دون سَخَط)[١].. ويَمضي متوكلاً على الله، راكناً إليه، معتقداً أن النتائج المرتَقَبة لكل سعي مرهونةٌ بمشيئته وحده سبحانه.

وسيجني المؤمن ثمرة الصبر والمكابدة والثبات على الحق: الرضا والسعادة في الدنيا، وثواب الله وجنته في الآخرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ خافَ أَدْلَجَ، ومَن أَدْلَجَ بَلَغ المنزلَ، أَلَا إنَّ سلعةَ الله غاليةٌ، أَلَا إنَّ سلعةَ اللهِ الجنَّةُ**»[٢].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَن كانتِ الدنيا هَمَّه، فَرَّقَ اللهُ عليه أَمْرَهُ، وجَعَل فقره بينَ عَيْنَيْه، ولم يأتِه من الدنيا إلَّا ما كُتِبَ له. ومَن كانتِ الآخرةُ نيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ له أَمْرَهُ، وجَعَل غِنَاه في قَلْبِه، وأَتَتْهُ الدنيا وهي راغِمَةٌ**»[٣].

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٧٨.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) واللفظ؛ والحاكم: ٤/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨؛ والبغوي (٤١٧٣)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وفي قولهم تساهل؛ وصحَّحه الألباني بشاهدٍ له في الصحيحة (٢٣٣٥)، وصحيح الترمذي.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥) واللفظ له؛ وبأطول منه عند أحمد: ٥/ ١٨٣؛ والدارمي (٢٢٩)؛ وابن حبان (٦٨٠)؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ٤٦؛ وصحَّحه البوصيري؛ وشعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحيح ابن ماجه، والصحيحة (٤٠٤).

وعندما ينزِل البلاء بالمؤمن، وتتوالى عليه سياط البأساء والضراء، فلا ملجأ له إلا إلى الله سبحانه، وعليه أن يقف موقف التسليم والصبر والانتظار دون تبرُّم.

وفي أدبنا العربي القديم تحدَّث أولو الألباب عن الشدائد التي عَرضت لهم، ويفخرون بأنها لم تُلجِئهم إلى الإسفاف أو الصَّغَار، لا الغِنى أطغاهم، ولا الفقرُ أذلَّهم، ولا المظاهر الخداعة اجتالَتْهم، ولا عاتياتُ الفتن زلزلتهم، وشاعرهم يقول:

فإنْ تكنِ الأيامُ فينا تبدَّلَتْ ... بِبُؤْسى ونُعمى والحوادثُ تفعلُ
فما لَيَّنَتْ منَّا قناةً صَليبةً ... ولا ذَلَّلَتْنا للتي ليس تَجْمُلُ
ولكنْ رَحَلْناها نفوساً كريمةً ... تَحَمَّلُ ما لا يُستطاع، فَتحمِلُ
وَقَيْنَا بِحُسْنِ الصبرِ منَّا نفوسَنا ... فصَحَّتْ لنا الأعراضُ والناسُ هُزَّلُ

والأمم إنما تعلو أو تهبط وفق رصيدها الخلقي لا المالي، كذلك قال كتابنا العزيز، وسجل أدبنا العربي[1].

وفي القرن الغابر ومطالع القرن الجديد الحادي والعشرين صُبَّتْ على المسلمين ألوانٌ من العذابات، وصنوفٌ من الابتلاءات، وأنواعٌ من المِحن والشدائد والفتن؛ ما لو نزلت بالجبال الراسيات لأَهَاضَتْها، وتجلَّت النبوءة التي بين أيدينا في أبرز أوجه تصديقها وتحققها، ومن ذلك:

١ ـ شدة وطأة الاستبداد السياسي:

لقد وقعت الشعوب المسلمة فريسةَ الاستبداد السياسي منذ أمدٍ بعيد، وظلَّتْ إلى اليوم وهي ترسُفُ في قيوده، وبَطَشتْ مخالبُ الاستبداد ببلادنا، وصبغتْ وجوهنا بالسواد، لأن الإسلام خُولِفَ عن تعمُّد وإصرار، وطُرحت أرضاً البدهيات الأولى من تعاليمه.

---

(١) علل وأدوية، ص٥٣ ـ ٥٤.

والمخالفات التي وقعت للإسلام في بلاده من شتى الحكومات لا تفتقِرُ إلى ذكاء حادّ لإحصائها وإثباتها، والفاسقون عن أمر الله من ولاة الأمر لمَّا استبدوا بالحكم واستعبدوا الشعوب، عَرفت الرعية عنهم الكثير من المنكرات، ثم ابتلعَتْ ما عَرفت، أو تناجَتْ به في خُفوت!.

وجمهورٌ عريض من الناس يقبضون على أحرّ من الجمر، ويُنازِلون أولئك المتجبرين، والكلمة الأخيرة للحق بلا مراء.

٢ ـ الصبر على ترؤُّس اللكعات وبروز الحثالات وقيام الرُّوَيْبِضَة بأمر العامة:

حيث يرى المسلم مطاردةَ الكفاءات، والتفريطَ بحقوق الله والدين والعباد والبلاد، والحكمَ بالجبت والطاغوت، وقيامَ مناهج غير كتاب الله، وانتشار المذاهب الهدّامة والأفكار المناوئة للإسلام من علمانية ووجودية وشيوعية وإباحية وغيرها، وإطفاءَ السُّننَ وإحياء البدع، وكثرةَ الجلادين والجلاوزة والمتسلطين، وهَدْرَ أموال الأمة، وشيوعَ الشرور والموبقات والتشجيع عليها، ومحاربة الفضائل والتضييق عليها وعلى أصحابها والدعاة إليها، وتوسيدَ الأمر إلى غير أهله، ورَفْعَ الأشرار، ووَضْعَ الأخيار، وبروزَ حثالات الناس على ساداتهم، وقيامَ الرويبضة واللكعات على رقاب الناس واستلابهم المناصب ومراكز القرار والتأثير والتوجيه، ومَرَجَ أمرِ الدين والعهود والأمانات، وكثرةَ الخداع، وتقلُّبَ الناس بين الإيمان والكفر، وبَيْعَ الدين بعَرَضٍ من الدنيا يسيرٍ، والتفريط بأركان الإسلام وفرائضه وواجباته.

والمرء المسلم الغيور المستمسك بدينه، المعتصم بكتاب ربه وسنَّة نبيِّه ﷺ، الساعي إلى عودة الأمة إلى مصدر حياتها وعزِّها وبقائها، يرى كل ذلك ويكتوي بناره، ويعاني من عقابيله، فهو كالقابض على الجمر لا يرى بدّاً من الإمساك به مع ما يلاقيه من بلاء وشدة ولأواء.

٣ ـ الصبر أمام الآثام المقننة والرذائل المحمية وألوان الذنوب والفجور:

لقد مُهِّدت الطرق ويسَّرت السُّبُل لانتشار ألوان المآثم وبيوت الدعارة

ومواقع ممارسة المناكر والمحرمات، فانتشرت الحانات في قرى الأرياف وأحياء المدن، وأُبيح البِغاء والوِقاع الجنسي الحيواني، واحمرَّت الليالي أكثر العام بالسهر النجس وألوان الإثم التي يفتنُّ بها الفارغون.. وسَبَق ذلك طمسُ معالم الدين الحق، وتُرك الناس يموج بعضهم في بعض.

وسُلِّط السماسرة والزبانية وتجار الأعراض ومروِّجو الآثام لدفع الشعوب في تلك الغياهب، وصَرْفِهم عن غاياتهم الكبار وأهدافهم العِراض، وحالَفَ في هذه السبيل الكتّابُ والصحفيون والممثلون وأمثالهم، كي يصوغوا أفكار النشء على العبث واللهو واصطياد الشهوات وإهاجة الغرائز، ونشر أمراض الرجولة، وإسقاطِ الغيرة، وإضعاف الروح الإنساني المخنوق، وتوطين المجون والهوى، ومطاردة العفاف والفضيلة والتقوى[١].

وإذا سِرْتَ في الشوارع والأسواق، وتجوَّلْتَ في المراكز والمرافق العامة، دَعْ عنك المُتَنَزَّهاتِ والشواطئ، و... و... وجدتَ اللحومَ الحرام المبذولة، والنّحورَ والشعور[٢] والأذرع والسيقان المكشوفة تُبارِز الله تعالى بالمعصية، وتؤجِّج الغرائز وتُلهِب السُّعار الجنسي.

أضفْ إلى ذلك ما تبثّه وتنشره كل مصادر الإعلام من صحف ومجلات ومحطات فضائية وشبكات (إنترنت) على مدار الساعة؛ من الغناء الفاحش الرقيع والرقص الشرقي والغربي، وحركات الفتيات على الشاشات الصغيرة وبَذْلهنّ مفاتنهنَّ، مما يَفتن العُبَّاد ممن هم فوق طبقة (جُرَيْج الراهب)!.

كل ذلك يُلاحِق أنفاسَ الأحرار والأبرياء والأعِفّاء[٣]، ولو أن امرأً في

---

(١) مرّ في ثنايا هذا الكتاب كثير من التفصيل لهذه الأمور.
(٢) **الشَّعْر**: يُجمع على الشعور والأشعار.
(٣) جمع العفيف.

سوق أو مركز أو مُتنزَّه أو جامعة أو مرفق عام ما أراد أن يَحمي سمعه وبصره ويصرفه عن النظر الحرام المفاجئ؛ فما عليه إلَّا أن يُغمض عينيه ليصطدم بأقرب حاجز أو إنسان يصادفه!.

إن الصبر عن المعاصي في مثل تلك الآثام المبعثرة في كل مكان لا يعبِّر عنه بدقة تامة إلا قول النبي ﷺ: «**كالقابض على الجمر**»!.

(يجب أن نوفِّر في حياتنا الأسبابَ التي تُعين على إنهاض الخُلُق القويم وإنضاجه، فإن مزالق الأخلاق كثيرة. **ومهما قوَّيْنا الخلقَ الشخصيَّ فيجبُ أن نُقصِي عن الطريق صنوفَ المغريات التي تناوشه وتعرِّضه بين الحين والحين للسقوط**.

إن مما يحفظ مروءتك ويُصلح سريرتك أن تحيا في مجتمع تحتشم فيه النساء وتختفي منه المثيرات؛ فذلك أَصْوَنُ للعرض وأعونُ على الطهارة.

أما أن يُكَلَّف هذا الخلق بأن يَقضي العمر كلَّه في صراع مع الإثم الهاجم عليه ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، وأن ينتصر عليه في الصباح، فلا يكاد الضحى يُقْبل حتى يدخل مع الشيطان في تجربة أشق... وهكذا دواليك! فهذا مما تفشل فيه جماهير العامة، ولا يصبر على لأوائه إلا الأقلون ممن عَصَم الله)(١).

ومما يزيد الأمر قساوةً والصبر مرارةً أن أحداً لا يستطيع أن يمنع ذاك العبثَ بالكلمة فضلاً عن اليد، وليس له من خيار إلا سلوك أضعف الإيمان، فينكر بقلبه، ويحترق صدره في هذا اللهيب الذي تشتعل به أرض معركة الغرائز والجنس والعري والمجون والخلاعة والسُّكْر والعربدة والدعارة وما إليها من موبقات.

هل يجرؤ أحدٌ أن يتكلم بمَنْع الترخيص لحانات الخمور في مدننا العربية والإسلامية؟ أو هل يستطيع أحد أن يُطالِب في خطبة أو محاضرة بإقفال بيوت

---

(١) ظلام من الغرب، ص٢١١ ـ ٢١٢، باختصار.

البِغاء في بلده لتستريح الأمة من شرورها! وهل صدر في بلد عربي أو مسلم قانون بالتزام الحِشْمة يحضُّ النساء على التزام الذوق العام فضلاً عن هدي الإسلام في الحجاب؟! وهل يستطيع أحد أن يَحْجُرَ على السفهاء في كثير من القنوات الفضائية التي تبث الآثام والفضائح في الليل والنهار؟!.

مَن يحمي (القابضين على الجمر) في هذا الأَتُون الملتهب؟!.

ثم زاد الأمرَ ضراوةً والصبرَ شدَّة أن لفيفاً من المسؤولين والمتنفذين في ديار المسلمين يقومون بمطاردة الحجاب والتضييق على الفضيلة والعفة في المدارس والجامعات ومؤسسات الدولة الكبرى!.

إنها معركة هائجة مائجة حامية الوطيس، يقودها جند إبليس من بني جلدتنا، ويشد على أيديهم من الخارج أعداء أمتنا، ويحرسون بقاءهم في مناصبهم العتيدة[١]، ليؤدّوا المهمة على وجهها في إماتة الشعوب، وإخراجها عن دينها، وصرفها عن رسالتها، ليسهلَ افتراسُها واستعمارها وانتهاب خيراتها ووأدُ دينها وقيمها وحضارتها.

فاصبر أيها المسلم أمام هذه التحديات الكبار، وصابر الأيام العجاف، وعضَّ على دينك بالنواجذ، وتمسّك بالفضيلة والعفة والنُّبْل والحلال، واسلُكْ طريق النجاة وإن خَفَتَ صوتُ الحادي وقلَّ السالكون، ولا تغترنَّ بطرق الغواية وإن أَجْلَب الشيطان ومن معه بخَيْلِهم ورَجِلِهم وتعالَتْ أصواتهم وكَثُر في سُبُلهم الهالكون؛ فإن رسولنا ﷺ وعَدَ الصابرين المتمسكين بدينهم في هذا الزمان: بأن لهم من الأجر مثل أجر خمسين من صحابته الكرام، فضلاً من الله وكرماً، وإلحاقاً للآخِرين بالسلف الأولين.

٤ ـ الصبر عن الحرام الذي تمارسه وتحميه مؤسسات كبرى في بلاد المسلمين:

وثَمَّة لونٌ آخر من الصبر يجب على المسلم أن يعتصم به حِيال أصنافٍ من

---

(١) انظر: حصوننا مهددة من داخلها، ص١١.

المحرمات التي تمارسها وزارات ومؤسسات وهيئات في ربوع بلادنا، كان من المتوجب عليها أن تكون منابرَ لإشاعة الفضائل، وركناً لتشييد الحلال والمباح، ومُتَنفَّساً للأخيار يلجؤون إليه من سياط الإثم التي تكوي قلوبهم وأرواحهم في معاملاتهم الدنيوية المتنوعة.

فوزارة الإعلام قد أُنيطت بها رسالة ضخمة في تثقيف الأجيال، وصياغة عقولهم، وصقل مواهبهم، وحماية قلوبهم وأفكارهم، وترشيد غرائزهم، ورَفْع مَلَكاتهم، وإعلاء أهدافهم، وتقديم اللهو المباح لهم.. لكن ما هو الواقع؟.

لقد انحرفت تلك المؤسسة العملاقة عن هدفها الرفيع وانزلقت في منعرجات سُبل الشيطان، وهذا ما يلمسه العالم والجاهل والقارئ والأمي والكبير والصغير، في البيت والمدرسة والجامعة، والشارع والمواصلات العامة، والأسواق الجامعية، والمنتديات والمؤسسات والتجمعات وسواها، في الليل والنهار، مما تنشره وتروِّج له وتحضُّ عليه من مآثم ومباذِل ومحرَّمات.

وإن الأغلب الأعم في مؤسسات هذه الوزارة أن تتصدَّر نساء كاسيات عاريات أُقِمْنَ أُنموذجاً لبنات المسلمين ليقتدين بهن، فكيف يُسمح لامرأة محجبة أن تذكِّر فتيات الإسلام بخديجة وعائشة وفاطمة؟! هذا مما لا يَحلُّ في هذا الزمن الصعب.

وفي ميدان الاقتصاد تجد غالبيةَ البلاد العربية والإسلامية قد شُيِّد اقتصادها على الربا والبنوك الربوية، وحُوربت التجربة الإسلامية في الاقتصاد، ومُنع تشييد البنوك الإسلامية في كثير من الدول، وأُقيمت في مواقع أخرى، والحرب عليها لا تهدأ لإجهاضها من العدو المتربص والصديق الجاهل!.

فأين يذهب المسلم بأمواله؟ وكيف يتعامل بها ويستثمرها؟ وغالبية المعاملات لا يمكن الاستغناء معها عن المصارف والبنوك، والربا يحاصره من كل اتجاه، وعليه اتقاء الشبهات جهدَ الوسع، فليصبر على هذا وليقبض على دينه كمثل القابض على الجمر.

وعلى صعيد التجارة والقضاء والمعاملات المالية وسواها في مختلِف المؤسسات الحكومية والخاصة، تجد السرقاتِ والنهبَ والاختلاسَ والرشاوى وأكلَ المال العام وارتخاصَ الحرام في كل ذلك، ومن أراد أن يَسلك سبيل الحلال وينأى عن الشبهة، فستُوصَد في وجهه أكثر الأبواب، ويتجهَّم له الكبير والصغير، والغريب والقريب، وسيدخل في دوامة يطول خروجه منها، وتبقى (أوراقه، أو معاملته، أو وظيفته) حبيسةَ الأدراج، حتى يتدخل وسيط متنفِّذ، أو يدفع (المعلوم!) لآكلي السُّحْت على ملأ من الناس وبلا حياء.

ومن يتولى المناصب في تلكم الوزارات والمؤسسات تواجهه تحديات جَمَّة إن عزم على اجتناب الحرام وتَرْكِ الرِّشا، وإذا قويتْ عزيمتُه على ذلك فإن جيوش الإثم المنتفعين من حوله سيثيرون في وجهه النَّقْع، ويضعون أمامه العراقيل، ويطوِّحون به إلى غير رجعة! فإنْ قبِل التحدي فقد فاز، والفائزون قلة، وإن لانَ واسترخى هَلَكَ مع الهالكين وكثيرٌ ما هم!.

ولا يملك المرء المؤمن إلا الاعتصام بدينه، والاستمساك بقيمه، والمحافظة على مبادئه، وتحري الحلال، والصبر على ذلك، للخروج من هذا المعترك بأحسن النتائج وأقل الخسائر.

٥ ـ التضييق في ممارسة الشعائر وإقامة الشرائع وإنفاذ حقوق الإسلام في البلاد والعباد:

وعلى جانب آخر من المأساة الجائحة تكتنِفُ المسلمَ المستمسك بعُرى دينه أنماط أخرى من الابتلاء والتضييق والمقاومة والمطاردة، التي لا فِكاكَ له معها من التصدي لها والصمود في وجهها، وإرساءِ قدميه في خطوط المواجهة والتشبث بأصول دينه وأركانه وثوابته وحقائقه، لا يفرِّط بها حتى يؤدي الأمانة وهو حامل الراية، مرفوع الهامة، لا يستسلم ولا يلين.

فالحدود معطَّلة، والمطالبة بإقامتها أو إنفاذِ بعضها يواجَه بالرفض والتهمة والسخرية، ووصمها بالقسوة والفظاظة والبعد عن الرحمة والإنسانية، كقطع

السارق ورجم الزاني المحصن والقصاص من القاتل والجاني ومعاقبة الخائن والجاسوس.

والقضاء قد اسودَّ وجهه، وعَلَتِ القَتَرة مُحيَّاه، فضُيِّعَت الأمانات، وأُهدرت الحقوق.

وإقامة شعيرة الصلاة وفريضة الجمعة لا تسودُها روح الجماعة، وخطبُ الجمعة في الأعمِّ الأغلب ممسوخة الهدف مكررة الموضوعات قد ملَّها السامعون، لأنها تنأى بالمسلمين عن واقعهم ومشكلاتهم، فتذهب بهم بعيداً في مواضيع هامشية وهم يعيشون في ظروف قاسية، حيث يُتَخَطَّف المسلمون من أرضهم، وتُسْفك دماؤهم، وتُهدر كرامتهم، وتُسلب بلادهم، وتُنتهب خيراتهم، فيأتون إلى المسجد فإذا بخطيب الجمعة يحدّثهم عن برِّ الوالدين، وتَرْكِ الاستغاثة بالأولياء والصالحين، وتزكية النفس بالذِّكر، والاقتصاد في الماء، والرفق بالحيوان، وتشريح أحكام الطهارة والوضوء، والعقيقة والأضحية، وإخراج زكاة الفطر عَيْناً....

هذا فضلاً عن التضييق على روَّاد المساجد في كثير من البلاد العربية والإسلامية، وتتبُّع خطوات الشباب المؤمن الملازم لصلاة الجماعة ودروس العلم، وتسجيل غدواتهم وروحاتهم.

وفي مؤسسات كبرى في بلاد المسلمين لا تقام الصلاة لا عمليّاً ولا نظريّاً!.

وإذا تحرك المسلمون بين الحين والآخر، هنا وهناك، ليستنقذوا ما يمكن استنقاذه من دينهم، وُصِموا بالطائفية والعنصرية والأصولية والتطرف والرجعية... فيُضطر كثير من المهزومين نفسيّاً كهذا السياسي أو المسؤول أو المفتي أو العالم أو الموظف إلى أن يَنفوا عن أنفسهم تهمة التعصّب!.

إنه محظور على أولئك الدعاة إلى الله، وتلك الجمعية الخيرية، وهاتيك الصحيفة الأصيلة، والمجلة المستقلة البنّاءة، والقناة الفضائية ذات المصداقية والقيم النبيلة، والخطيب الناصح المستنير، والمفكّر الحر، والكاتب الناقد،

وأمثالهم من دعاة الإسلام والأحرار والنبلاء وبُنَاة أمجاد الأمة؛ هؤلاء محظور عليهم مناصرة الإسلام والدفاع عن مبادئه وقيمه وحقوقه، ومُضَيَّق عليهم الخِناق، أما سواهم من الناعقين والهدّامين فمباح لهم كل شيء!.

حرامٌ على بَلَابِله الدَّوْحُ حلالٌ للطير من كلِّ جِنسِ

المسلمون الصبّارون في مواقعهم المختلفة يَلْفَحهم لهيبُ المعركة، ويقبِضون على الجمر، ويسيرون على جمر الغَضَى، ويتناوشهم حَسَك السَّعْدان، لا يردُّهم عن هدفهم إلا بلوغه وظهوره، أو أَجَلُهم الذي يأتيهم فيلقون وجهَ الله وقد رضي عنهم ورضوا عنه.

ثالثاً: دروس وعبر:

في أحاديث النبوءات دروس جليلة وعِبر بليغة، والنبي ﷺ أخبر أمته بتلك الأنباء التي تأتي بتصديقها الأيام؛ ليشحذَ هِمَمَ المسلمين بالاستعداد لها ومواجهتها ومغالبتها، وهذا نوع من أنواع النصح والتوجيه، وأنموذج من نماذج التربية والإعداد.

وقد أخبر أصحابه كذلك بما لاقَتْه الأمم من قبلهم من ألوان الابتلاء وأصناف المحن؛ ليخفِّف عنهم وطأةَ ما هم فيه من شدة وضَنْك وتضييق وعذاب تصبُّه عليهم الوثنية المستحكمة في جزيرة العرب.

وتتجلَّى في النبوءة التي استعرضناها عِبرٌ كثيرة، منها:

١ ـ يجب على المسلم أن يصبر على البلاء ويتصدَّى للمحن ويتماسك في وجه عاتيات الفتن، ويعتصم بالحق الذي أكرمه الله به، كذاك القابض على الجمر لا يخشى وَقْدتَه ولا يَهِنُ أمام لَظَاه.

فالإسلام يحرِّم الاستخذاء على أمته، ويَحْظُر على المسلمين قبولَ الدنيَّة والإقامة على الضيم، فمن سَهُل عليه الهوان، ولَانَ ظهرُه للأوزار، فهو بذلك يرشّح نفسه للانجراف أمام سيل الإثم والخسران في معركة الحق والباطل.

٢ ـ على المستأخِرين أن يَفيدوا من التجارب الماضية، وعلى الدعاة والمصلحين خصوصاً الثباتُ في مواقفهم وإن تجهَّمَت الدنيا لهم وغاب النصر عنهم، فإن المستقبل لمبادئهم على أيّة حال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢١ ـ ١٢٣].

ويُعينهم على ذلك سِيرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة الأبرار ﵃، ويرافق ذلك ولا يُفارقه ذِكْر الله تعالى؛ فإن حُماة العقائد المضطهدة والمبادئ المستضعفة تمرُّ بهم أوقات مزعجة وأزمات شِداد لا يحميهم فيها إلا ذكر الله والاعتماد عليه؛ ففي الأيام الأولى من جهاد الدعوة وتألُّبِ المشركين على المسلمين يتنزل قول الله تعالى على نبيِّه ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٨ ـ ١٠][(١)].

والمسلم الصَّبور في هذه الأيام يقتدي بالنبي ﷺ وصحبه الكرام، ويعتصم بالحق الذي معه، ويصبر على مرارة الابتلاء، ويردِّد بحزم وعزم مع ذلك الرجل صاحب الهمة الشامخة حيث يقول[(٢)]:

الدَّهرُ يَزعُم أنه سَيَرُوعُني ... بجيوشِه ويزيدُ في أَتْراحي
لم يَدْرِ دهْري أنَّني مُتجلِّدٌ ... لِخُطوبِه فَلْيَخْشَ هولَ كِفاحي
والصَّبرُ دِرْعي والقناعةُ جُنَّتي ... والذِّكرُ حِصْني والدعاءُ سِلاحي

وفي تاريخنا الكثير من المعالم البارزة التي نقتدي بها، ونفتخر بذكرها، ونسير على خطاها، لا يصدُّنا عنها لأواء ولا ابتلاء.

---

(١) علل وأدوية، ص٣٥ ـ ٣٦، ٨٥.
(٢) هو الإمام المهدي العباس بن المنصور اليماني المتوفى سنة (١١٨٩هـ). انظر: البدر الطالع: ١/ ٣١٣، هامش.

٣ ـ الصبر عاقبته الظَّفَر، وذلك قانون مطَّرِد وسنَّة إلٰهية سائرة في الأولين والآخرين، والذي علمناه يقيناً من السيرة النبوية التي نُقلت إلينا بصدقٍ لا يعتريه ريب، أن الرسول ﷺ وأصحابه بعد أن تحملوا العَنَت بمكة، وصابروا الليالي الكوالح وهم يساندون الحق، ويأملون في الغد القريب، أو في الدار الآخرة إن فاتهم النصر في هذه الدنيا ـ قد جاءهم النصر المبين بعد مدة حدَّدها القدر الأعلى في غزوة بدر الكبرى التي قَصَمت ظهر الوثنية، وذاع صِيتُها في جزيرة العرب، وأصبح للمسلمين دولة وقوة مرهوبة الجانب.

لقد كان العرب أفراداً مبعثرين لا يجمعهم شيء، وكان تركيبهم النفسي يستعصي على كل رباط، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فاستطاع خاتم الأنبياء ﷺ بصبره الجميل وحكمته الرفيعة ودعوته المستديمة واستمساكه بالحق الذي أكرمه الله به وثباته عليه؛ أن يحوِّل الجزيرة الفوضوية إلى مستودع رتيب تخرج منه الجيوش موحدة الهوى والهدف، وتنساق إلى غاياتها مرصوصة الصفوف، تحني أصلابها في الصلاة على تكبير واحد، وتتسابق إلى لقاء الله بيقين واحد[١].

٤ ـ باستقراء التاريخ البعيد والوسيط والقريب نعلمُ أنه باشتداد الأزمات واستحكام الابتلاءات وإحداق المحن وتكاثر الجراح؛ يأتي الفَرَج ويتنفّس الصبح وينبجس الضياء ويتنزّل النصر.

هذه سُنّة الله في عباده، وهكذا رأَيْنا في حياة النبي ﷺ وسيرته بمكة، وأيام بدر والأحزاب وحُنين، وأثناء الحروب الصليبية، وغزو التتار، واجتياح الشيوعية لأرض الإسلام، والاستعمار الجديد لبلاد المسلمين.

فرغمَ كل الحملات الماحقة، والزحوف المتلاحقة، والابتلاءات المتتابعة،

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص٤٣ ـ ٤٤، ١٦٥ ـ ١٦٦.

والضغوط الخانقة على المسلمين وبلدانهم ودعاتهم وجماعاتهم، التي تستهدف محوَ آثار الإسلام واستئصالَ وجوده، لكنَّ الله سبحانه يأبى إلا أن يُتمَّ نورَه، ويُعلي كلمته: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

فانظر إلى ما حدث في الجمهوريات التي انفكّت عن (الاتحاد السوفييتي)، وإلى تركيا التي مضى على حكم العلمانية فيها زُهاء مئة سنة، والباكستان، والبلاد العربية، وغيرها من أرض الإسلام ـ تجد الإقبالَ على دين الله يربو ويعلو، وأتباعه يُعلِنون التحدي في صبر مجيد دونه صبر القابض على الجمر!.

(إن آية الآيات في هذا الدين وأثره في أمته، وصبر المسلمين على الاستمساك بشعائره وشرائعه؛ أنه أشدُّ ما يكون قوةً وأعظمُ ما يكون رسوخاً وشموخاً، حين تنزل بساحته الأزمات، وتُحدِق به الأخطار، ويشتد على أهله الكرب، وتضِيق بهم المسالك، ويَقِلُّ المساعد والنصير.

حينئذٍ يحقق هذا الإسلام معجزته، فتنبعث الحياة في الجثمان الهامد، ويتدفق دم القوة في عروق الأمة، وينطلق جنود الحق انطلاقة المارد من القُمقم، فإذا النائم يصحو، والجبان يتشجَّع، والضعيف يقوى، والشارد يعود، والشتيت يتجمع. وإذا هذه القطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك، تكوِّن سيلاً عارماً لا يقف دونه حاجز ولا سدٌّ من السدود)[١].

٥ ـ إن المِحن الشِّداد، والابتلاءات العِظام، والفتن الغِلاظ، والآلام المُبَرِّحة، والضربات العاتية، التي تُصبُّ على الصابرين المستمسكين بدينهم، وتشرِّدهم وتطوِّح بهم في السجون والمنافي ـ لن تَفُتَّ في عَضُدهم، ولن تغلب صبرَهم وثباتهم. ويجب أن يعلموا هم والمراقبون من حولهم، والمتشككون بمصيرهم، والمتوجسون خِيفةً من مصيرهم؛ أن كل ذلك علامةُ صدقهم، وأمارةُ إخلاصهم، ومبشراتٌ بنصرهم.

---

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، ص٨١ ـ ٨٢.

(إن هذه المِحن ليست علامة ضعف أو موت لدعاة الإسلام، بل هي دليل حياة وحركة وقوة، فإن الميت الهامد لا يُضرَب ولا يُؤْذَى، إنما يُضرب ويؤذى الحي المتحرك المقاوم.

إن الدعوة التي لا يُضْطهد أصحابها، ولا يُؤذى دعاتها؛ دعوة تافهة أو ميتة، أو دعاتها ـ على الأقل ـ تافهون ميتون.

ثم إن هذه المحن والاضطهادات برهان على حيوية المبدأ نفسه، مبدأ الإسلام، فهو يقدِّم كل حين شهداءَ في معاركه، يروون شجرته بدمائهم، ويَبْنون صرح مجده بأشلائهم)[(١)].

٦ ـ إن الصبر على المحن والابتلاءات ليس سلوكاً سلبيّاً يحمل على الانسحاب من أرض المعركة والانزواء في الزوايا والتكايا، بل يستوجب الانخراطَ في المجتمع والانتماءَ إلى المصلحين، وإضافةَ الجهد إلى جهود الدعاة والعلماء والغيورين الصادقين.

عن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمنُ الذي يُخَالِطُ الناسَ ويَصْبِرُ على أَذاهُم، أفضلُ مِن المؤمنِ الذي لا يُخَالِطُ الناسَ ولا يَصْبِرُ على أَذاهُم**».

وفي رواية: «**أعظمُ أجراً**» بدل: «**أفضلُ**»[(٢)].

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: («**دعاةٌ على أبوابِ جهنَّم، مَن أجابهم إليها قَذَفوه**

---

(١) المرجع السابق، ص٨٢.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٥٤٥)؛ وابن ماجه (٤٠٣٢)؛ وحسَّنه الحافظ في الفتح: ١٣/ ٦٢٣ شرح الحديث (٦٠٩٩)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحيح ابن ماجه، والصحيحة (٩٣٩).
وأخرج الحديث عن صحابي لم يُسَمَّ: الترمذي (٢٥٠٧)؛ وأحمد: ٥/ ٣٦٥؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٥٤٣)، وغيرهم؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٩٣٩).

فيها» قلتُ: يا رسول الله! صِفْهم لنا، قال: «**هُمْ من جِلدتنا، ويتكلَّمون بألسِنَتِنا**» قلتُ: فما تأمُرني إنْ أدركَني ذلك؟ قال: «**تلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم**»[1].

فالمسلم ضعيفٌ بنفسه قوي بإخوانه، وإنما يأكلُ الذئب من الغنم القاصيةَ، ويدُ الله على الجماعة، وبخاصة في هذا الزمان الذي تلجأ فيه الدول الصغيرة إلى تكتلات كبرى، والجماعات الصغيرة إلى الاتحاد، فَحَرِيٌّ بالمسلمين أن يكونوا كذلك، ففيه عون على الصبر والثبات والنصر.

ولسنا نوصي بالفرار أو الانكفاء، بل نوصي بمقاومةِ الفتن، والصبرِ على البلاء، وبناءِ محاضن نقية للأجيال الجديدة، وحياطةِ أهل الخير بسياج يحميهم من الزيغ، وجعلِ المساجد مثابات يلتقي فيها الأخيار ليأنس بعضهم بالبعض، ويتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر.



(١) أخرجه البخاري وغيره، وانظر تخريجه وشرحه في النبوءة (٨٣).

١٤٢

إخبار النبي ﷺ بنقض عرى الإسلام عروة عروة

١ ـ عن أبي أُمَامَة صُدَيِّ بنِ عَجْلانَ الباهِليِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عروةً، فكلَّما انْتَقَضَتْ عروةٌ تَشَبَّثَ الناسُ بالتي تَلِيها، فأَوَّلُهُنَّ نَقْضاً: الحُكْمُ، وآخِرُهُنَّ: الصلاةُ**»(١).

٢ ـ وعن فَيْروز الدَّيْلَمِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيُنْقَضَنَّ الإسلامُ عُرْوَةً عُروةً، كما يُنْقَضُ الحبلُ قوَّةً قوَّةً**»(٢).

۞ ۞ ۞

أولاً: تمهيد وتوطئة:

إن الإسلام كلٌّ لا يتجزَّأ، ونسيجٌ عريضٌ من التعاليم المتشابكة لا يمكن قصُّه ولا تمزيقه، وإن الأخذ بهذه التعاليم كلِّها في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات؛ هو لبُّ الإيمان وشرطُ بقائه، وإنه لا يُؤذَن لأحدٍ أبداً باعتناقِ ما يهوى، واجتنابِ ما يكره.

وإن الإسلام روحٌ وجسدٌ، إيمانٌ ونظامٌ، عقيدةٌ باطنة تشبه الوقود الذي

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٢٥١؛ والطبراني (٧٤٨٦)؛ وابن حبان (٦٧١٥) واللفظ له؛ والحاكم: ٤/ ٩٢؛ وأورده الهيثمي في المجمع: ٧/ ٢٨١، وعزاه إلى أحمد والطبراني، وقال: رجالهما رجال الصحيح؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٥)؛ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٢٣٢؛ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي. قوله: «**قوة قوة**»: القوة: الطاقة من طاقات الحَبْل.

يحرك الآلات، ثم مجموعةُ الوصايا والأوامر والنواهي والحدود والشعائر التي تسيِّر الحياة إلى وجهة معينة ووفق أسلوب خاص.

هذا الكيان كله هو الإسلام، فاستعارةُ أجزاءٍ منه، لا تجعلُ المستعيرَ مسلماً، والأمة الدخيلة فيه يجب أن تستبطِن الروحَ الدافعَ، وأن تستعلِنَ بعدُ في كل ما حَفَل به هذا الإسلام من شرائعَ وشعائر... تصطبغ بصبغته، وتستظلُّ برايته، وتحتكم إلى شِرعته، وتربط كرامتها المادية والمعنوية بمدى الوفاء له والدفاع عنه[1].

وفي محكم التنزيل يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويأمر سبحانه المؤمنين بالاستمساك بالإسلامَ والاستعصام بشرائعه وشعائره.

وفي هذه النبوءة يشبِّه رسول الله ﷺ الإسلامَ بالحبل الذي عُقدت فيه عُرًى كثيرة، والمسلمون متشبِّثون بها، ولا يُقبل من مسلم أن يستمسك ببعض هذا الحبل دون بعض. ويخبر ﷺ أنه بتطاول الزمان سيتعرض حبل الإسلام إلى جوائح وفتن وحروب وعدوان؛ تستهدف فَكَّ عُراه واحدة تلو الأخرى وتوهيتَهُ وتمزيقَهُ، والمسلمون يتشبثون به ويناضلون دونه ويستبسلون في الاعتصام به والذِّيادة عنه.

وقد وقع الأمر كما أخبر ﷺ وعلى الهيئة التي وَصَف تماماً.

فلقد تعرض الإسلام والمسلمون وبلادهم عبر القرون الفائتة إلى غاراتٍ شاملة وحروبٍ ساحقة وفتنٍ ماحقة وضرباتٍ متلاحقة ومؤامراتٍ دائبة وكيدٍ بالليل والنهار، مما أَلْحَقَ بالإسلام وأهله خسائرَ كبرى في شتى الميادين، والغايةُ المرجوة حَلُّ عُرى هذا الدين وصرفُ القلوب والعقول عنه، وإنشاءُ أجيال تتجهَّم لتعاليمه، وتتجاهل مطالبه أو تجهلها كل الجهل، في محاولات

(١) معركة المصحف، ص١٠٧.

مستمرة ضَروس لإبعادِ الإسلام عن أن يكون رباطاً عامّاً بين أبنائه في مشارق الأرض ومغاربها، وفَصْلِه عن الحكم ومناهج التعليم كلها، وإقصائِه عن تقاليد المجتمع وآفاق الحياة النابضة، ثم تركه يَذْوي بعيداً حتى تَخْمُدَ أنفاسه بين الوحشة والضياع(١)!.

وأضحى المسلمون بعيدي الصلة بالقرآن، واتَّخَذوه مهجوراً، وأقاموا في حياتهم حجاباً كثيفاً بين تعاليمه وبين ما يدعون وما يشتهون، فمصيرُ أكثرِ الشرائع القرآنية معطَّلٌ، بل إن العمل بأكثرها يُعَدُّ ـ في نظر الأجيال التي خلَّفها الاستعمار ـ نكسةً إنسانية، ورجعةً إلى الخلف!.

ونحن نرى الآن أن القرآن الحكيم كتابٌ مزهودُ التوجيه، معطَّلُ الأحكام في بلاد الإسلام، ولو جَدَّ المسلمون معه لكان لهم شأن آخر(٢).

ثانياً: تحقق النبوءة وبيان تصديقها في تاريخ الإسلام والمسلمين:

١ ـ أول عرى الإسلام نقضاً الحكم:

إن الحكم هو أول ما انحلَّ من عُرى الإسلام، وقد بدأ الانحراف صغيراً ثم تفاقم مع مرور السنين واستغلظ فأضحى الانحراف قاسياً وكبيراً إلى أن حُلَّت هذه العروة العظيمة؛ حيث تمَّ بَتْرُ الإسلام نهائياً من الحكم منذ نحو قرن من الزمان.

لقد تغيَّر شكلُ الدولة أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فاختفى النظام الشوري وحلَّ مكانه ما يشبه النظمَ الملكية المعروفة في أقطار الأرض الأخرى، وجمهورُ المسلمين متفق على تخطئةِ معاوية فيما صنع، وجمهورُهم يرى الخلافة بيعةً حرة يُختار لها أكفأُ المسلمين لمنصب الرياسة.

على أن التغير في الشكل السياسي للدولة الإسلامية لا يعني تغيُّراً ما في

---

(١) ظلام من الغرب، ص١١٧ ـ ١١٨.

(٢) الإسلام والطاقات المعطلة، ص٦٤ ـ ٦٥.

الإسلام نفسه، عقائدِه وشرائعِه وكتابه وسُنَّتِه، بل إن الحاكم الذي احتل معقدَ الرياسة أراد أن يُثبت جدارته به ـ وإن جاء بطريق مفتعَل ـ فتبنَّى جميعَ المُثل الإسلامية، واجتهد في الداخل والخارج أن يُقيمَ أحكامَ الإسلام ويحترم معالمه كلَّها.

ومن هنا رأينا السيلَ الإسلامي في المشارق والمغارب، وإن كان الخلفاء ملوكاً! ورأينا الثقافةَ الإسلامية تتقدم حضارةً مشرقةً يكوِّن الإسلام لُحْمَتَها وسَدَاها.

ومن الحق أن نُثبِت كراهيةَ هؤلاء الرؤساء وَصْفَهم بأنهم ملوكٌ! لقد كانوا يَعدُّون أنفسَهم خلفاءَ عن صاحب الرسالة ﷺ في إبلاغِ الدعوة، وسياسةِ الناس بالإسلام، وتوجيهِ مصالح الدنيا إلى هذه الغاية.

ومع أن أخلافَهُم في الحكم كانوا يجيئون بطريق ولاية العهد، فإن هؤلاء الخلفاء كانوا يحرِصون على تصحيح (الشكل الدستوري) بتوفير بيعةٍ للخليفة الجديد، تجعل وجودَه نابعاً من إرادة الأمة. واجتهد عامَّتُهم في أن يقوموا بواجبات الحاكم المسلم، فكان الخليفة يؤمُّ الناس في الصلاة الجامعة، ويَخطبُهم، ويحجُّ بوفودِهم، ويقود الجيوش لمقاتلة أعداء الإسلام.

ويستحيلُ أن يعطِّل أحدهم حدّاً أو قصاصاً، أو يجحدَ فريضة، أو يستهين بشَعيرة.. الإسلام في أيامهم دينُ الفرد والمجتمع والدولة.

وإن أُسَرَ الخلفاء أو الملوك الذين وقعت بين أيديهم دَفَّةُ الحكم في العالم الإسلامي طيلة نحو ثلاثة عشر قرناً؛ لم يفهموا الحكمَ إلا أداةً لخدمةِ الإسلام؛ فالمعتصم العباسي في عمورية، وصلاح الدين الأيوبي في بيت المقدس، وقطز المملوك في عين جالوت، والسلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار في حفاظِه على فلسطين ضد أطماع اليهود، وعشرات غيرهم من الذين حكموا بعدما ملكوا... أولئك كلهم جعلوا السلطة المتاحة لهم وسيلةً لحماية

الإسلام وإنفاذِ شرائعه، ولو فكَّر أحدُهم في تركِ الكتاب والسنَّة لقُتل لساعته، واختفى اسمه ورسمه.

والحكام المسلمون، سواء كانوا أمويين أو عباسيين أم عثمانيين، كانوا على أي حال محكومين بتعاليم الإسلام التي لا ريب فيها، ومرتكبو السيئات منهم كانوا يرتكبونها فرادى أخفياء، وهيهات هيهات أن يَجرؤ أحدُهم على تحليل محرَّم أو تحريم حلال[١]!.

لكن الحكم الإسلامي ومنذ قرن مضى قد اغتيل بقسوة، وطُويت أعلامه من مراكز السيادة والتوجيه، وسَطَا على منابره في العالم الإسلامي المنكوب الثائرون والطائشون والعجزة المستبدون ممن ظنوا الدين والدنيا مواريثَ اختصَّتْهم بها الأقدار، لمزية في معدنهم، تنتقل في أفراد أسرهم المختارة.

كان منهم من يقتل أباه ليرثَ المُلك، وكان منهم من يقتل إخوته حتى لا ينازَع فيه، وقلَّما يقترب منهم إلا المتملِّقون، ممن يؤجِّرون خبرتهم لكل دافع ثمن، أو علماء السوء الذين يطلبون بالدين عرض الدنيا.

وكثيراً ما وقع النزاع بين أعضاء هذه الأسرة أو ذاك الحزب، وليس وراء نزاعهم إلا التنافس على الاستئثار بالسلطة وحُطَام الدنيا، أما الدين فهم أبعد ما يكون عن ذلك الميدان[٢].

والحق المرُّ أن الأجهزة العليا للدولة الإسلامية لَحِقها عطبٌ مبكِّر، وأمسى الحكم في كثير من أجزاء أمتنا المترامية الأطراف جسداً بلا روح، لأن ولاءَ الشعوب للإسلام، واتجاهَ كثير من الحكومات إلى قبلة أخرى، وهذا في ميدان الحياة الخاصة والعامة معناه الموت.

---

(١) معركة المصحف، ص٤٧ ـ ٥١، مقتطفات.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٦ ـ ١٦٧.

وانتشرت فوضى الحكم في أمتنا الكبيرة وهي تترنَّح تحت وطأة الضربات المتتابعة، حيث انحلَّت عروة الحكم انحلالاً تامّاً ذَريعاً!.

٢ ـ سقوط الخلافة:

ومن أهم العُرى التي حُلَّت من حبل الإسلام العظيم: الخلافةُ، متمثِّلة بالخلافة العثمانية التي أُسقطت في أوائل القرن العشرين، فقد كانت الدولة العثمانية ـ برغم ما بُليت به من انحلال في عهدها الأخير ـ قوةً روحية عظيمة، كما كانت قادرةً على جمع كلمة الشعوب باسم الدين ضد بريطانيا وشقيقاتها من دول الاستعمار الأخرى[١].

وقد قرَّر المؤرِّخ الإنكليزي المنصِف (توينبي) بأن الحكم العثماني قد أدى خدمة كبيرة للعرب، حيث كان بمثابة الدرع الواقي للعالم الإسلامي من العدوان الخارجي، وأجَّلَ احتلال المغرب ـ مثلاً ـ (٣٠٠) سنة[٢].

وتمكن الإنكليز من خديعة العرب الذين وقفوا إلى جانبهم ضد الدولة العثمانية؛ ففي الحرب العالمية الأولى انضمت (الثورة العربية الكبرى) إلى الإنكليز، وقاتلت الأتراك، وتسببت في هزيمتهم، فماذا جنَى العرب؟ أعطى الإنكليز فلسطين وطناً لليهود، وسقطت الخلافة! وانقطعت العروة التي كان يهفو إليها المسلمون في المشارق والمغارب[٣]، وأتمَّ مصطفى كمال فصولَ المأساة فأعلن كُفْرَ الدولة بالإسلام والعرب.

ومضى أتاتورك في تحقيق تغريب الدولة من خلال عدة أعمال:

١ ـ جعلُ روح القومية التركية مستقلةً عن الإسلام.

٢ ـ جعلُ التركي علمانيّاً أولاً، ومسلماً ثانياً.

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٢٠.

(٢) معركة المصحف، ص١٦٤.

(٣) هموم داعية، ص٣٦، ٩١.

٣ ـ تحريرُ اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية.

وكان أخطر ما قام به أتاتورك أنه حاول رسم منهج العلمانية للعالم الإسلامي كله، وقد سار على خطاه حكام كثيرون(١).

واتجهت جهود الاستعمار بعد ذلك إلى تفكيك الأمة الإسلامية حتى يتلاشى كيانها المادي والأدبي، فقسَّمها إلى عشرات من الدول الصغيرة، وأقام بين كل دولة وأخرى حدوداً لا تَعْدُوها.

٣ ـ انحلال عروة الحكم بما أنزل الله:

وأخذت أمواج الشر تتدافع على المسلمين، كلما تلاشَتْ بينهم موجة هجمت بعدها أخرى، وقد نجح الغرب والشرق وأذنابهما وصنائعهما من بني جِلْدتنا ممن سَطَوا على السلطة؛ في أن يجعلوا الحكم بغير ما أنزل الله قوانين مقرَّرة في المجالات الجنائية والدولية، وبقي أن يجتاح كذلك ميدان الأحوال الشخصية.

وظهرت طلائعُ ذلك منذ أزيد من قرن ونصف على يدي (محمد علي باشا) القائد التركي الذي خان دولته ودينَه.. ووَجدتْ فرنسا ـ عدو تركيا يومئذ ـ أن مصالحها تقضي عليها بمساعدة الوالي الثائر بتغليب كفَّتِه على دولة الخلافة، توسيعاً لفتوقٍ في كيانها، فأمدَّتْ محمد علي باشا بالعون العسكري والعلمي والتشريعي أيضاً.

فلجأ إلى القانون الفرنسي الصادر سنة (١٨١٠م)، فجعله أساساً لِما سَنَّ من تشريعات، وفتح الطريق لنقل القوانين التي استُحْدِثَتْ في عهده، ثم التي جدَّتْ حتى سنة (١٨٨٣م) من قانون العقوبات الفرنسي.

واتسع الخَرْق بعد ذلك، فأخذ العرب والمسلمون (التشريع الفرنسي)

---

(١) الضربات، ص١٩٨.

كمصدر أول للتشريع، وضَمُّوا إليه القانونَ البلجيكي والقانون الإيطالي، والقانون الهندي والقانون السوداني، والأخيران مقتبسان من القانون الإنجليزي.

وتتابعت الحملات على قوانين الأسرة أو ما يُسمَّى (قوانين الأحوال الشخصية)، محاولةً زعزعةَ ما بقي سليماً من تراثنا الإسلامي في ميدان التشريع(١)، وأحدثوا فيها عطباً كبيراً.

وتمَّ قَسْمُ الإسلام قسمين: عقيدة وشريعة، فَوُضِعَ لمحوِ العقيدة سياسة بعيدة المدى، إذ لا يمكن غير هذا.

أما الشريعة فقد محا الاستعمار وجودَها بجرَّة قلم، وجعل القانونَ الغربي أساس الحكم والتقاضي، ونَفَّذ ذلك لفوره. واستبقى ـ مؤقتاً ـ قوانين الأسرة، حتى استطاع أن يكوِّن من المسلمين أنفسِهم من يغيرها كلّاً أو بعضاً.

وقد كتبت امرأة تحمل اسماً إسلاميّاً: إن تغيير شرائع الزواج والطلاق والحضانة هو تمهيد لتغيير شرائع الميراث نفسها ليتساوى الرجال والنساء في أنصبتهم، وبذلك تُمحى معالم الإسلام كله في عالم القانون(٢).

٤ ـ حل عروة هيمنة الشريعة على الحكم والحياة، وفصل الدين عن الدولة والمجتمع:

ونتيجة لِما سبق تمَّ نقضُ عروة كبيرة محكَمة كانت تُهيمن على حياة المسلمين وتشدُّهم إلى دينهم وتراثهم، وتحمي شخصيتَهم وهويتَهم وحضارتهم، حيث تم:

ـ حَظْرُ الاحتكام إلى قوانين الإسلام في الشرائع المدنية، والجنائية، والتجارية، وما إليها.

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٥٤، ١٥٧، ١٧٠، مقتطفات.

(٢) هموم داعية، ص٩٢.

ـ فصلُ الدين عن التعليم العام، ليخلقَ أجيالاً مبتوتة الصلة بالإسلام، أجيالاً تتردَّد بين الجهل به والجحود له.

ـ فصلُ الإسلام عن تقاليد المجتمع في البيت والشارع والأماكن العامة والخاصة، حتى ينظر إلى الإسلام وكأنه من الآثار القديمة التي يجب اطِّراحها، أو يمكن الاستغناء عنها[1].

والإسلام دين شمولي عام يصبغ الحياة كلها بصبغته الربانية: فالعقائد جزء من الدين، والعبادات جزء من الدين، والجهاد الاجتماعي لإقرار المعروف وتغيير المنكر؛ جزء من الدين، والتنظيم الاجتماعي لإقامة العدل وإقصاءِ الجَوْر؛ جزء من الدين، والجهاد العسكري لحماية الإسلام وتقرير الحريات الأساسية للعقل والضمير ومقاومة البغي والإلحاد؛ جزء من الدين، وحراسة الأمن في الداخل وإقامة المحاكم لإنهاء المنازعات وحراسة حدود الله؛ جزء من الدين، وبناء المساجد والمدارس للتربية الروحية والفكرية؛ جزء من الدين.

وأخيراً ـ ودون استقصاء ـ السلطةُ المشرِفةُ على هذا كله؛ جزء من الدين.

وقد ظلَّ الإسلام محورَ الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية زُهاءَ اثني عشر قرناً، بيد أن هناك أخطاءً شابتِ الحياةَ الإسلامية في بعض نواحيها، ولكن هذه الأخطاء لا يجوزُ الزعمُ بأنها عطَّلت الإسلامَ نفسه، أو باعدَتْ بين حقائقه وسيرِ التاريخ.

لذلك كانت الهجمات الشرسة من الاستعمار بكل أطيافه وأتباعه وصنائعه على ديننا، فتدرَّجت كل القوى المعادية للإسلام في حربها له كي تتمكن من إزهاق روحه على مراحل؛ فاتجهت الجهود أولاً إلى فصل الدين عن الدولة، ثم إلى فصل المجتمع عن الدين، ثم فصل الاقتصاد عن الدين، ثم إلى فصل

(١) كفاح دين، ص٩٥.

الأخلاق عن الدين، وبقيت العبادات والعقائد، فتعلَّمت الطبقات (المثقفة!) أن تُحجم عن العبادات وتتركها للعامة وأمثالهم.

أما العقائد فقد يبست وذَوَى عودُها، وأمسَتْ إيماناً موروثاً يستبطنه بعضُ الناس في قلبه، ولا صلةَ له بالحياة العامة[١].

إن الكفر كما يكون رفضاً للعقيدة يكون رفضاً للشريعة، والذي يأبى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١]، مثل الذي يأبى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

٥ ـ حل عرى العقائد:

وشُنَّت غارات منتظِمة على القرآن والسنَّة، وعلى وحدانية الله تعالى وشخص النبي الكريم ﷺ وشُعب الإيمان وأركان الإسلام، واجتاحت الأمةَ حملاتٌ هائلة من التشكيك ونشر الإلحاد وتدريسه في المدارس والجامعات، وترويج أفكار ماركس ولينين وإنجلز وداروين وسارتر وفرويد وغيرهم.. وانتشرت في كثير من البلاد العربية والإسلامية أفكار العلمانية والشيوعية والوجودية، وغزتِ المدارسَ والجامعات ووسائل الإعلام، واجتالَتْ عقولَ جمهور عريض من الناس في محاولة لمحوِ العقيدة من النفوس، وقد أفلحتْ في اعتناقِ عدد غير قليل من أبناء الأمة مذاهبَ الإلحاد والمادية واللادينية والوجودية ونحوها.

(وفي عصرنا الحاضر توجد أنواع من الإعلام تخدم بذكاءٍ ودهاءٍ ألواناً شتى من الإلحاد والانحراف، والأجهزة الخادمة للشيوعية والصهيونية والصليبية بلغت من النجاح حدّاً كاد يقلب الحق باطلاً، ويجعل النهار ليلاً)[٢].

---

(١) معركة المصحف، ص٤٧، ١٤٩.

(٢) هموم داعية، ص١٤٧؛ وانظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٩٩ ـ ١٠٨؛ حصوننا مهددة من داخلها، ص٢٤ ـ ٢٥.

٦ ـ نقض عرى الحدود:

وبعد انهيارِ الحكم الإسلامي وسقوط الخلافة، وفَصْلِ الدين عن الدولة والمجتمع والحياة، وطيِّ أعلام الإسلام في ميدان التشريع؛ تمَّ تعطيل الأحكام السماوية من حياة المسلمين، فانتشرت الفوضى وشاعت المفاسد، حيث أُبيح الزنى وأقيمت له الدور المرخصة، وشُيِّدت مؤسسات الربا، وأُبيح بيعُ الخمور، وأقيمت صالات الميسر، وراجت تجارة الأعراض والإعلان عن مفاتن النساء في سوق النِّخَاسة، وعُطِّلت الحدود التي تضرب على أيدي السارقين، وتكبح جماحَ جرائم الزنى والسُّكْر والقتل والتجسس ومحاربة الله ورسوله والفساد في الأرض وغيرها!.

وثَمَّة شبهةٌ تلوكُها الأفواه لردِّ أحكام الله كلها، تزعُم أن الإسلام يقسو على المجرمين، وأن صرامة حدوده وأقضيته بحاجة إلى كثير من الملطِّفات والمُخَفِّفات في عصر ارتقتْ فيه الحضارات، وتطوَّر الإنسان إلى أعلى[(١)].

وهؤلاء صنائعُ الاستعمار الثقافي الذي جعل بعضَ المسلمين المعاصرين يستحيي من شرائع الحدود والقصاص ويريد أن تكون دار الإسلام مرتعاً عامّاً تنمو فيه الدنايا، أو مسرحاً يجدُ فيه المتوحشون فرصاً شتى للاغتيال والاعتداء والنهب والعدوان.

بل قامت في بلادنا قوانين تحمي تلك الجرائم والموبقات الاجتماعية، وتؤصِّل وجودها، وتؤدِّب مَن يُنكرها أو يعتدي على (حرماتها!).

وتعالت أصواتُ دعاة الفتنة من الكتّاب والصحفيين والمفكرين المستغربين والمسؤولين في المنافحة عن حرية انتهاك تلك المحرمات، واعتبار من يقول بتحريم الزنى والخمر والخنزير وسواها، ممن يعادون الحرية ويَضُرُّون بالاقتصاد الوطني.

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٧١.

وفي مناطق محدودة من بلاد المسلمين تطبيق لبعض الحدود، لكنه مشوَّه، ويَطال الضعاف دون الأشراف على طريقة بني إسرائيل!.

٧ ـ حل عرى الفضيلة[١]:

لقد كَثُر في الدنيا من يدعو إلى تعرية الأجسام والأرواح من لباس التقوى والفضيلة باسم أن ذلك عَوْدٌ إلى الطبيعة وتمشٍّ مع الفطرة!!.

والحقّ أن دَوْر هؤلاء بين الناس هو دور الجراثيم والفطريات في إعطاب الثمار وإمراض الأبدان، أي: إنهم خطرٌ على الطبيعة الصحيحة والفطرة السليمة[٢].

في مجتمعاتنا العربية والإسلامية سيلٌ جارف من الحروب الفتّاكة على الشرف والحياء والحشمة والحجاب، ومكارم الأخلاق، وفضائل الشِّيَم، وإعلاء القِيَم، والآداب العالية، وتهذيب الغرائز ـ يقود جحافلَها الجرَّارة شركاءُ متساندون من الإذاعات والقنوات الفضائية ومراكز البغاء والحفلات الراقصة والليالي الحمراء، والكتاب والصحفيين والروائيين والمسرحيين والمبشرين بفكر الغرب والانحلال، والدُّعَّار المولَعين بالإثم والعصيان.

تعمل تلك الجيوش دائبة بلا كَلَلٍ ولا مَلَلٍ، ليلاً ونهاراً؛ لإسقاط مستوى الرجولة، ونشر أمراضها، وهَتْكِ أردية العفة والفضيلة، وإهاجة الغرائز السافلة، وأَزِّ الحيوان الرابض في الدماء أزّاً، وإذكاءِ الظمأ الجنسي، وسرقة الأعراض، وإضعافِ الروح الإنساني المخنوق، والهزءِ بتعاليم السماء، والحضِّ على إلقاء القدر الأكبر من الثياب، والإغراء باللحاق بركب (حضارة الإثم والبغي)، والعمل الدؤوب على الاختلاط الماجن المُطلَق بلا حدود ولا قيود، في

---

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص١٩٢ ـ ١٩٥، ٢١١ ـ ٢١٢، ٢١٧؛ كفاح دين، ص٢٢٧ ـ ٢٣٤، ٢٥٣ ـ ٢٥٨؛ حصوننا مهددة من داخلها، ص٨٥ ـ ٨٦، ١١١.

(٢) جدد حياتك، ص٧.

المدرسة والجامعة والأندية الرياضية والثقافية والمراكز الاجتماعية وحفلات السَّمَر ورحلات الترفيه.

وكل ذلك يَضِجُّ بالمآسي والمناكر، وما يَظهر أقلّ مما يخفى، ولو تكشفت الأستار لتلطخت آلاف الوجوه بالعار.

وأضحت القنوات الفضائية تنشر الإثم والعري والتهتك، ولم تبقِ غَشَاوةً من حياء، وتبثّ على أبنائنا صغاراً وكباراً ما يجري في غرف النوم، ويقوم فريق المعتوهين من (المشايخ العصريين) الذين يتكلمون باسم الدين، ويخوضون في مواضيع يسمُّونها (التربية الجنسية)، ويتكلمون على الملأ بكلام لا يتجاسَرُ على التفوُّهِ به الرجل مع زوجته، ولا يَستبيح سماعَهُ امرؤ مع أبنائه وبناته، إلا إذا استعلَتِ الدِّيَاثةُ، وانعدمَ الشرف والحياء! ولا تستغربنَّ أن تجري الحوار امرأة تحمل شهادة عليا مع رجل وتسأله تلك الأسئلة الجنسية بلا حدود، فيا غوثاه بالله!!.

٨ ـ نقض عروة الجهاد في سبيل الله:

الجهاد ذُِروة سَنَام الإسلام، ولا تزال طوائف من الأمة الإسلامية تحمل رايته وتنافح به عن الدين والبلاد والعباد، لا يَضُرُّها مَن خَذَلها ولا مَن خالفها، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، فهذا لا تنحلُّ عروتُه، ولا تنطفِئ جَذْوتُه.

والجهاد الإسلامي الذي حُلَّتْ عروتُه هو الجهاد الذي تؤسسه الدولة وتقوم به وتحميه وتدافع عنه وتمدُّه وتؤيده، فهذا قد انطفأ منذ دهر طويل.

فقد وُجِد مَن يستنكر حركات التحرر من الاستعمار، ويقف في صف الأعداء ضد المجاهدين النبلاء، ويوجد الآن من يستنكر الجهاد الأفغاني ضد الاحتلال الصليبي الأمريكي البريطاني، مع ترحيبه بالغارة الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي، ويزعم أنه مسلم، وأن المجاهدين الشرفاء إرهابيون ومتمردون!.

ويوجد من ينظر إلى كفاح مسلمي الفيلبين للظَّفَر بالبقاء على أنه قضية

لا تعنيه، ومَن ينظر إلى محنة المسلمين في بلغاريا وألبانيا وغيرهما، ثم يهز رأسه باستخفاف[(١)]!

وكذلك تقف غالبيةُ الدول العربية والإسلامية مواقفَ شائنة خائبة خائنة كنوداً من الجهاد العظيم لأبطال الشيشان والبلقان وكشمير والصومال والسودان والعراق وغيرها! ومن الخيانة تلك (الفتاوى) التي مَنَعت الجهادَ ضد الأمريكان الذين استباحوا العراق ودمَّروه وأعادوه إلى حقبة ما قبل التاريخ!.

بل إن من العرب الأشاوس من يتآمر على مجاهدي فلسطين، ويشارك في حصارهم وخَنْقِهم ماديّاً ومعنويّاً!.

فهل ثَمَّة أقبحُ من حلِّ عروة الجهاد من هذه الطريقة الدنيئة؟! دَعْ عنك حملاتِ التشويه الرقيعة باتهام المجاهدين والمقاومين للاحتلال بكل أشكاله وأنواعه؛ بالإرهاب والعنف والتطرف والعمالة وعدم معرفة الموازنات الدولية وتقدير قوة الأعداء!.

٩ ـ تمزيق الوحدة الإسلامية وتفتيت الأخوَّة الدينية:

قُبيل سقوط الخلافة العثمانية وبعده كانت الأعمال جادة والحملات دائبة لإلغاء الوحدة الجامعة للمسلمين، وتقطيعِ أوصال الأخوَّة التي أسسها القرآن وشيَّدها النبي ﷺ، واستمرت الأمة عليها قروناً متطاولة، مع ما كان يعتريها من أمراض لم تستطع القضاء عليها.

لكن بعد أن تفتَّتَ الكيان الكبير بسقوط دولة بني عثمان؛ مُزِّقت الوحدةُ الإسلامية شرَّ ممزَّق مع القوميات الضيقة المتعددة التي جعلت المسلمين سبعين شعباً، لكل شعبٍ منها رايتُه وفكرتُه ومصالحه وتاريخه[(٢)]!.

واتجهت جهود الاستعمار بعد ذلك إلى تفكيك الأمة الإسلامية حتى

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٠٠، وانظر: ظلام من الغرب، ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) معركة المصحف، ص١٤٤.

يتلاشى كيانها المادي والأدبي، فقسمها إلى عشرات من الدول الصغيرة، وأقام بين كل دولة وأخرى حدوداً لا تَعْدُوها.

وقد عرف المسلمون عبر تاريخهم الطويل بالبداهة أن أمة العقيدة لا يَحصُرها مكان، وأن إخوان العقيدة لا يحدُّهم جنس، وأن «**المسلم أخو المسلم لا يَظْلِمُه ولا يَخْذُلُه ولا يَحْقِرُه**»[١]، و«**المسلم أخو المسلم لا يَظْلِمُه ولا يُسْلِمُه**»[٢]، وأن المسلم إذا استُبِيح دمُه على شاطئ المحيط الهادي في (الفيلبين) يجب أن يتحرك له أخوه على شاطئ الأطلسي في المغرب والسنغال ونيجيريا، وأن المسلمين كما قال نبيُّهم ﷺ: «**تتكافأُ دِماؤهم، ويَسْعَى بذِمَّتهم أَدْناهُم، ويجير عليهم أقصاهم، وهمْ يدٌ على مَنْ سِوَاهم**»[٣].

لكن يبدو أن التقوقع العقلي والنفسي ضَرب صَفْحاً عن هذه المعاني البيِّنات، فإذا الأمة الكبرى يُغارُ عليها من هاهنا وهاهنا، وتُنتقص أطرافها، والاتجاه الآن ماضٍ إلى قلبها، ولا يزال النيامُ يَغِطُّون[٤]!.

ونَشِطت الدعوات المنكَرة لإحياء القوميات والوطنيات، والهدفُ هو إبعاد الإسلام عن أن يكون رباطاً عامّاً بين بنيه في مشارق الأرض ومغاربها.

ونتيجة لهذا العمل الماكر الخؤون: أصبحت قضية فلسطين عربية، بل فلسطينية، واحتلال الشيوعيين ثم الصليبيين لأفغانستان أمراً لا يعنينا، وأضحت قضية كشمير شأناً داخليّاً، وذئاب الحبشة يأكلون المسلمين في الحبشة والصومال ويفتكون بمصيرهم والمسلمون لا يفعلون شيئاً، وتمَّ تدمير العراق

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة: مسلم (٢٥٦٤)؛ وأحمد: ٢/ ٣١١؛ والبغوي (٣٥٤٩).

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر: البخاري (٢٤٤٢)؛ ومسلم (٢٥٨٠)، وغيرهما.

(٣) أخرجه عن ابن عمرو: أحمد: ٢/ ١٩٢؛ وأبو داود (٢٧٥١)؛ وابن ماجه (٢٦٨٥)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

على أعين المسلمين أو بتواطؤ بعضهم! وضاعت الفيلبين بصَمْتٍ مطبِق، والمخاطر تتهدد إندونيسيا، وفُصِلت سنغافورة عن ماليزيا المسلمة! أما قضايا الشيشان وإرتيريا وجنوب السودان وداكار ولاجوس وغيرها؛ فمما لا يعرِف عامة العرب والمسلمين عنه شيئاً ولا يكترثون به!.

١٠ ـ حل عروة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمناصحة للأمة، بدءاً من رأس السلطة وإلى أصغر رجل من الرعية؛ كان هذا من معالم الإسلام ومفاخر الحضارة الإسلامية.

وقد أخذت هذه الفريضة تبهتُ ويخفُّ وزنُها حتى تلاشت منذ عقود، وتحولت في كثير من الحالات إلى ألوان من المداهنة والدَّجَل السياسي والدعوي فيما يرضي أهواء أصحاب النفوذ.

(والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشكَّل في المدنية الحديثة بحرية الصحف في النقد، وحرية الأفراد والجماعات في التأليف، وإبداء الآراء في صراحة، يستحسنون ما يرون، ويستنكرون ما يرون، ويخطبون كما يشاؤون، فلا أحدَ معصومٌ، ولا الحكومة معصومةٌ، ولا الوالي معصومٌ.

وإنما الذي يقوِّمهم ويُخيفهم ويُلزمهم الجادَّة يقظةُ الرأي العام وحريته في النقد.

وهذا هو ما سُمِّي في القرآن: بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر)[1].

أما في بلادنا العربية والإسلامية فالحال يدعو للأسى والمرارة التي تحتبس في الصدر!.

١١ ـ ومن العرى التي نقضت وتشير إليها هذه النبوءة:

ـ ربطُ حاضر الأمة بماضيها وأسلافها وتراثها وحضارتها.

---

(١) معركة المصحف، ص١٥٧ ـ ١٥٨.

فثَمَّة كتّاب ومفكرون يريدون قطعنا عن تراثنا الفكري والعاطفي، بل عن الحروف التي نكتب بها لغتنا، فاصطنعوا لوناً من الأدب الصحفي التافه فقيراً كل الفقر من المعاني الحية(١).

ـ الزكاة المفروضة لا توجد دولة تحرسها وتسعى في تحصيل حقها من الأغنياء، ويتوقف إخراجها على نشاط الهيئات الخيرية والرغبات الفردية.

ـ إماتةُ الواجبات وإحياء المحرمات.

ـ ضعفُ الوازع الديني والغيرة العامة على حرمات الدين.

ـ موالاة المسلمين ضد الكافرين هو ما يفرضه الإسلام ويؤصِّله في النفوس، وقد انعكس الحال في مواقع كثيرة وعلى مستويات شتى.

ـ العلم الشرعي الأصيل ذَوَى وكاد أن يتلاشى في مدارسنا وأغلب جامعاتنا، وأصبح الغزو الثقافي يتهدَّد أمتنا، فهو أخطر وأنكى من الغزو العسكري، واحتلالُ العقول أقسى من احتلال الأراضي.

ـ اللغة العربية تتعرض لحرب ضروس لتنشئة جيل تغلِبُ العُجمةُ على لسانه، فينفصل بقلبه وعقله عن قرآنه وسنَّة نبيِّه وتراث أجداده! وبَلَغ الأمر في بعض الدول العربية مستوى كارثيّاً حيث أمستِ العربية في الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة من حيثُ الاستخدامُ في الحياة والمؤسسات والوزارات!.

ـ المال العام أصبح كَلأً مُباحاً للصوص الكبار والصغار الذين ينتهبونه بطُرق مقنَّنة!!.

ـ الأحكام الإسلامية في الزواج والطلاق والميراث أصبحت مثارَ استهجانٍ وريبة بل وتُشَنّ عليها حرب ظاهرة وخفية.

ـ التلاعبُ بتاريخ الأمة وتحقير وتسفيه علماء الإسلام سَلَفاً وخَلَفاً، وترويج

---

(١) جدد حياتك، ص١٣.

الشبهات عنهم وكأنها حقائق، والسكوت المطلَق عن رجال الأديان والمذاهب الأخرى[(١)].

ـ إبعاد الدين عن المعركة مع الأعداء، وعن ميدان المال، والآداب والفنون والعلوم الإنسانية والتقاليد الاجتماعية.

١٢ ـ حل عروة الصلاة:

هذه العروة العظمى هي آخر ما ينحلُّ من حبل الإسلام المتين، وقد وَهَتْ عند كثيرين في كثير من حقائقها، فالصلاة الواجبة تحدث عنها القرآن بقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

فالصلاة الحقيقية واجب كبير يحتاج إلى الرجال ذوي القلوب الحاضرة والنفوس المتسامية، ومن ثَمَّ كان أثرها عميقاً في الأخلاق والأعمال.

أما صلاة الوقوف والانحناء والذهول والانصراف فهي آخر ما ينحلُّ من عُرى الدين، ولو بقيتْ ما أَجْدَتْ شيئاً، إن الشكل لا يغني عن الموضوع.

فهذا الركن العظيم قد ضَعُف أثره في حياة جمهور كبير من المسلمين، كما أن جَمّاً غَفيراً من المسلمين قد تخفَّفوا من عِبْء الصلاة المكتوبة وعطَّلوها بالكلية!.

والدولة المسلمة مسؤولة عن تقديس هذه الشعيرة، وقيامُها ورواجها جزءٌ من وظيفتها.

وإنك إذا صوَّبتَ النظر إلى مؤسساتنا الرسمية لوجدتَ أمراً مذهِلاً، حيث تمنع الصلاة نظريّاً أو عمليّاً في دول عربية كثيرة وكبيرة في المحافل الرسمية والوزارات، بل ويُضَيَّق على مَن يؤديها، وربما أصبح موضعَ قلق ومثارَ خطر!.

---

(١) انظر: معركة المصحف، ص١٤٩.

ثالثاً: وقفـة تأمُّـل واعتبـار:

إن المهاجمين في الخارج والداخل مصِرُّون على الحِنْث العظيم، وماضُون في طريق العدوان، وأمتنا تواجِه حَلَّ عُرى حبلها المتين، وتواجه حربَ الاستئصال، وحربَ الخيانة، وحربَ الخَتْل، واشترك في ضربها الشيوعيون والصليبيون واليهود والوثنيون والأحزاب العلمانية والأفكار الهدامة والدعاة على أبواب جهنم من بني جلدتنا.

وميدانُ المعركة من الرَّحَابة بحيث لا يمكن إحصاءُ الخسائر في المبادئ والقيم والأخلاق والنفوس والأموال والأعراض، فالحرب لسحقِ الإسلام وتمزيق عُراه تدور رحاها من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، والحرب تهدأ لتندلع، والبلاء موصول، بأشكال متنوعة، وأساليب متعددة، وأسلحة مختلفة مادية ومعنوية وأدبية وعقائدية وأخلاقية...

ومع ذلك فقد أبى المسلمون نسيانَ ربهم ونبيّهم ﷺ، ولا تزال بين الأنقاض والآلام جماعات غفيرة تعلن بقاءها على الإسلام واستمساكها بكتابه وسنَّته ولغته وقيمه[1].

إن المدافعين عن الإسلام لم ولن يستكينوا، وعناصر المقاومة اشتبكت مع الأعداء وفي جميع الجبهات، وحَمَتْ بَيْضةَ الإسلام أن تُجتاح، وأمَّتَه أن تذوب.

والأمة الإسلامية والشعوب المسلمة تحني الهامة للجنود المجهولين من العلماء والدعاة والساسة الذين قَدَرُوا بأسلحتهم الكليلة على الصمود أمام عِدَاتِهم الباطشين، والذين أبقوا الإسلام برَّاق السَّنَا، وإنْ عفَّره ترابُ الهزيمة، والذين حفِظَ الله بهم هذا المصحف الشريف والسنَّة النبوية المطهرة، واستدامَ

---

(١) انظر: هموم داعية، ص٩٣.

بهم صيحاتِ المؤذِّنين في المشارق والمغارب، تشقُّ أجوازَ الفضاء بأن الله واحد وأن محمداً ﷺ رسوله.

إن هذا الجيش من الدعاة الموقنين، والفقهاء أولي الغَيْرة، والرجال الذين ثبتوا حيث هم لا يتزحزحون قِيدَ أُنملة عن العمل لله ورسوله ﷺ، والشباب المجاهد، والفتيات المؤمنات، والأمهات صانعات الرجال والأبطال أحفاد عمر وخالد ـ هذا الجيش الأعزل خيَّبَ رجاءَ المُغيرين، وأخَّر النتائج التي ارتقبوها بلهفة.

وبقي على العلماء والمفكرين والكتاب والنُّخب وقادة الرأي أن يَسدُّوا على الأعداء أفواهَ الطرق، ويُضيِّقوا عليهم وجوهَ الأرض حتى يَردُّوا العدو الخارجي من حيث جاء، ويَقمعوا صنائعهم في بلادنا في جحورهم صاغرين، وحتى تبوءَ الحملات الصليبية الأخيرة وما جرى مجراها بما باءت به زميلاتها في العصر الماضي، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله[١].

والأحاديث الصحيحة ـ التي سنشرح بعضها في نبوءات تالية ـ تبشِّر بذلك وتثبِّت قلوبَ المؤمنين، فالمجدِّدون لا يخلو منهم زمان، والطائفة المنصورة ظاهرة على الحق إلى قيام الساعة، والحركات الإسلامية، والجماعات الدعوية، والمفكرون والدعاة، والكتاب والصحفيون والإعلاميون، لا يزالون جميعاً يرفعون أصواتهم، ويحملون الراية بأيمانهم، وهم صَبَّارون على اللأواء، رغم ما يتعرَّضون له من مِحَنٍ وبلاء، (ولسوف ينجحون في المحافظة على أمر الله، وستبقى رايات الإسلام خفاقة بجهودهم، مهما تفاحَشَتِ العوائق والصعاب أمامهم، فإن الحق لن يَبيد، والهزائم العارضة دورة من دورات الحياة يعقبها النصر الذي لا بد منه)[٢].



(١) معركة المصحف، ص١٥١.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٣.



إخبار النبي ﷺ
بإصابة الأمة بداء الأمم السابقة

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**سَيُصِيبُ أمتي داءُ الأُمَمِ**» فقالوا: يا رسولَ اللهِ! وما داءُ الأُمَمِ؟ قال: «**الأَشَرُ، والبَطَرُ، والتكاثرُ، والتناجُشُ في الدنيا، والتباغُضُ، والتحاسُدُ، حتى يكونَ البَغْيُ**»[(١)].

٢ ـ وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**دَبَّ إليكُمْ داءُ الأُمَمِ قبلكم: الحسدُ والبَغْضَاءُ، هي الحالِقَةُ، لا أقولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ ولكنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**»[(٢)].

❁ ❁ ❁

أولاً: معاني الحديثين:

الأَشَر: أشدُّ البَطَر.

البَطَر: الطُّغيان عند النِّعمة وطُول الغِنى، وأَبْطَرَه المالُ وبَطِرَ بالأمر: ثَقُلَ به

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ٢/ ٢٧٥ (٩١٧٣)؛ والحاكم: ٤/ ١٦٨، واللفظ له؛ وصحَّحه وأقره الذهبي، وجوَّد إسناده العراقي، ووافقه الزَّبيدي؛ وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٥٨)، وأورده في الصحيحة (٦٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٠)، واللفظ له؛ وأحمد: ١/ ١٦٤ ـ ١٦٥؛ والضياء في المختارة؛ وذكره المنذري في الترغيب والترهيب: ٣/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥ وعزاه للبزار وجوَّد إسناده؛ والهيثمي في المجمع: ٨/ ٣٠ وعزاه للبزَّار وجوَّد إسناده أيضاً؛ وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي: ٢/ ٣٠٧، وذكره في صحيح الجامع (٣٣٦١)؛ وحسَّنه بشواهده أيضاً عبد القادر الأرنؤوط في تعليقه على جامع الأصول: ٣/ ٦٢٦ (١٩٦٤).

ودَهِشَ فلم يَدْرِ ما يُقدِّم ولا ما يؤخِّر، وبَطِر النِّعمة: لم يَشكُرْها، وبَطَرُ الحقِّ: أن يَطْغَى عند الحق، أي يتكبَّر فلا يقبله.

التكاثر: المُكَاثَرة والتَّكَاثُر: التَّبارِي والتفاخُر في كَثْرة المال والعَدد والعِزّ، قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

التَّنَاجُش: النَّجْشُ: استِثارةُ الشيء، نَجَشَ الحديثَ: أذاعَهُ، ونَجَشَ الصيدَ وكلَّ شيءٍ مستورٍ: استَثَارَهُ واستخرَجَه. والرجُل المِنْجَشُ والمِنْجَاشُ: الوَقَّاعُ في الناس[1].

التباغُضُ: ضدّ التحابّ.

الحَسَد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنَّى أن تزول عنه، وتكون له دونه.

البَغْيُ: التعدي، والظلم، والفساد، والاستطالة على الناس.

الحالقة: الخصلة التي من شأنها أن تَحْلِق، أي تُهْلِك وتَسْتَأصِل الدِّين، كما تَسْتَأصِل المُوسَى الشَّعَرَ. والحالِقة: قطيعةُ الرَّحِم والتظالُمُ والقولُ السيِّئ.

ثانياً: تحقق النبوءة وواقعها في حياة الأمة الإسلامية:

حذَّر النبي الكريم والمربي الحكيم محمد ﷺ في هذه النبوءة من جملة الأدواء الفردية والاجتماعية، ونبَّه الأمة على مخاطرها الوبيلة وعقابيلها الخطيرة وآثارها الماحقة التي تجتاح الأفراد والجماعات، وتُعطِب أخلاقهم، وتُذهِب ريحَهم، وتُسقِط حضارتهم، وبيَّن لهم بيانَ المشفِق عليهم مَغَبَّةَ الوقوع في تلك الأمراض العُضَال، وأخبرهم بأن ذلك سيظهر فيهم تباعاً.

وهو ﷺ في ذلك يشخِّص لهم الداء، ويصف الدواء، ويَشحذُ الهمم ويُوقظ القلوب كي تستعد للبلاء وتعالج الداء، وتستشفي بالبلسم الرباني الذي تركه لهم

---

(١) جاء في أحاديث أخرى النهي عن التناجش في البيع، وهو أن يزيد في ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها، ليقع غيره فيها، وليس مقصوداً في حديثنا هنا.

في آيات الكتاب ومَعين السنَّة وهدي النبوة وأعمال الصحابة الذي تربوا على عينه ﷺ.

ويوضّح الحديث كيف تبدأ نشأة تلك الأدواء ويتوالى ظهورها ويستطير شررها ويتنامى خطرها؛ فتبدأ بالأَشَر والبطَر، الذي يَحمل على التفاخر والتكاثر، وهذا يؤزُّ صاحبَه على المشاحنة والعداوة والتناجش مع آحاد المسلمين، فيقع بينهم التحاسد ثم البغضاء التي تحلِق أخلاقهم وتستأصل دينهم وتقطّع أواصرهم وتُنسيهم أرحامهم، فيكون بعدها البغيُ والجَوْر والظلم الذي يؤدي إلى العاقبة الوخيمة من انكسار شوكتهم وذهاب ريحهم.

وقد تحققت هذه النبوءة منذ عهد بعيد في تاريخ المسلمين بعد العصر الراشدي، وفي بلاد كثيرة ودول عديدة، واستمرت في الظهور بين مدٍّ وجَزْر، حسب أحوال المسلمين علوّاً وانخفاضاً، واستمساكهم بدينهم شدة واسترخاءً، وكانت أعظمَ ظهوراً وأعتى فتكاً في الفترات التي انتهت بها الدول الإسلامية ودول الخلافة، وهي من الأسباب الكبرى التي أَوْدَتْ بحياة دولة المسلمين، كما يتضح لمن يستقرئ التاريخ وعواملَ الازدهار والانهيار، وأسبابَ النهوض والسقوط.

ومظاهر تحقق النبوءة في زماننا ومنذ أكثر من قرن على أشدها في استحكامها وفتكها.

ثالثاً: أخلاق الجيل الذي تربَّى على مائدة النبوة:

إن الدارس المحايد يرى آثار النبوة في شمائل أولئك الرجال الكبار الذين رباهم رسول الله ﷺ. والجهد الهائل الذي قام به أمير الأنبياء محمد ﷺ هو صنعُ أمة راجحة الكِفَّة في كل ميدان؛ فالله سبحانه أنزل عليه الوحي وشرَّفه بهذا القرآن، ثم كلَّفه أن يفتح بهذا القرآن أقفالاً وأن يُنير به آفاقاً قد أفسدَتْها شياطين الإنس والجن.

لقد تحوَّل الإسلام بالعرب من جاهلية غليظة جِلْفة، وبَداءة صَلْدة شائكة،

إلى حياة مُخْصِبة بأرقِّ العواطف، وأنبلِ الأحاسيس، حتى لكأنَّ رجل الجاهلية التي عاش بها عمراً طويلاً قد خَلَقه الإسلام خَلْقاً آخَر في شهور أو سنوات عاشها في الإسلام.

ما ترك الإسلام شيئاً يتجمَّل به الإنسان ويَبلغ به مراتب الكمال في عقله وخلقه إلا كان ذلك من صميم دعوته ونهج تعاليمه.

أولئك الصحابة الكرام الذين شهد لهم بنُبْلِ أخلاقهم كبارُ أعدائهم، فلقد انهزم الروم أمامهم في مواقع عدة، وعندما سأل هِرَقْل جندَه عن صفات ذلك الجيل الناشئ الجديد، قال له شيخ من عظمائهم: (إنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم)[١].

وسَرَتْ روحُهم وأخلاقهم في الأمة جيلاً بعد جيل، وتكونت بأعمالهم وشمائلهم مدنية فاضلة قوية البنيان محكَمة الأساس، يسودُ فيها روح التقوى والعفاف والأمانة، وتُقدَّر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه، والروح فوق المظاهر الجوفاء، يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى، ويهتمُّ الناس بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة والقلوب خاشعة، ويَقِلُّ التنافسُ في أسباب هذه الحياة والتكالبُ على حطام الدنيا، ويقِلُّ التباغض والتشاحن[٢].

رابعاً: التحلي بالفضائل والاستمساك بالأخلاق أساس قيام الدول واستمرارها، والتفلت منها سبب انهيارها:

إن العقائد السليمة والقيم العليا والأخلاق الرفيعة والشمائل الكريمة هي التي تحصِّن الأمة وتكفل الحضارة، والجرثومة الأولى في التدين هي جفاف

---

(١) البداية والنهاية: ٧/٥٣؛ المد والجزر، ص٥٩ ـ ٦٠؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٣٢؛ كفاح دين، ١٣٠.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٣٦.

الشعور، وضيق التفكير، وقسوة القلب، والانسلاخ العام من الفطرة، والتعلق الشديد بالمظاهر، والصَّلَف بمعرفة الحق، والميل إلى سوء الظن[١].

ومع تطاول الزمن وانفتاح الدنيا وكثرة متاعها ومغرياتها وزخارفها؛ بَهِت أمرُ الإسلام في أفئدة كثير من الناس، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وجفت مشاعرهم، فاستهانوا بكل ما وجب عليهم من خلق وجهاد وإصلاح وعدالة والتزام بمكارم أخلاق الإسلام، وفرطوا في الأعمال الصالحة، وقعدوا عن الواجبات، وانطلقوا وراء مآربهم المادية انطلاق الإبل الهيم، (فلو بحثت في أفئدة هؤلاء لوجدتها خراباً من الإيمان، كما أن صحائفهم صفر من شمائل المؤمنين)[٢].

والأمم من قَبْلنا، اليهود وغيرهم، قد عابَ عليهم القرآن أموراً كبيرة: فقد وَصَفَ تخوُّفَهم من الناس وحَذَرَهم من الخَلْق مع جرأتهم على الله بالمعصية، ووصف تقطُّعَ أواصِرِهم بالهوى واختلافَ قلوبهم بالضَّغَائن، ووصف طمعَهم في أموال الناس وحِرْصَهم على أكلها سُحْتاً فلا يَردُّونها إليهم إلا عن إلحاحٍ ويقظة، ووصفَ غُرورَهم وأَمَلَهم في نَيْل النعيم المُقيم دون عملٍ خطير وبَذْلٍ جَسيم، ووصف تحاسُدَهم وغمْطَهم لصاحبِ الكفاية، وتحجُّرَ طبائعهم ونضوبَ الرحمة من قلوبهم[٣]!.

وهذه الرذائل قد تفشَّت في أمتنا الإسلامية، فنالَتْها الأقدار التي لا تحابي كما فَعلتْ بغيرهم، ولقد لُوحِظ من استقراء التاريخ أن الحضارات الكبرى لم يَقتلْها إلا الترف، وأن الأمم العظيمة لم يُهلِكْها إلا البَطَر، وأن تَرْكَ الناس يرتعون في الشهوات رتْعَ السوائم لن يجرَّ في أعقابه إلا البوار العاجل[٤]؛ قال

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١١١.

(٢) الإسلام والطاقات المعطلة، ص١٢٢.

(٣) انظر: اليهود المعتدون، ص٢٥١.

(٤) كفاح دين، ص٢٥٢.

تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

والحقيقة أن الدول الكبيرة لا تضمُر ولا تَذْوِي ولا تنكمش، ولكنها تنهار كما ينهار عمود الخشب الضخم الذي نَخِر السوس لُبَّه! كذلك انتهت كل الدول الكبرى من قبلُ، في أثينا وفي روما وفي بغداد وفي الأندلس وفي الأستانة.. انتهت حين كانت ضخامتها ومظاهر الترف فيها تخدع الناظر عن السوس الذي ينخر عظامَها[1].

خامساً: التمرّدُ على القِيم وجراثيمُ الأخلاق السيئة طوتْ أعلامَ أمتنا:

إن مما يُحزِن كلَّ عاقل وغيور أن نرى في بلادنا أمواجاً متلاحقة من التمرد على القيم والجراءة على الأخلاق، وأن العرب والمسلمين قد نَسَوا مَعْقِد شرفهم وعروة مجدهم، وظنُّوا أنهم بغير الإسلام يمكن أن يكونوا شيئاً، وقويَ هذا الشعور أو ضَعُف حسب انكماش الإيمان وامتداده.

والعكوفُ على اللذائذ، ومطاوعةُ الأهواء وإجابة الرغبات الدنيا، والتسابقُ إلى جمع المال واكتنازِه والسفهُ في تبديده، والتشاحنُ والبغضاء: كل ذلك أمراض تُصيب الأممَ في عصور الانحلالِ، وتعرِّضها للهَلَكة، فهي نُذُر الفناء ودلائل إدبار السيادة.

وقد أصاب أمتنا شيءٌ كبير من ذلك في مراحل كثيرة ودول عديدة، كما يتضح لمن يستقرئ تاريخنا في الأندلس ودولة بني العباس وعهود المماليك والأيوبيين وشطر كبير من أخريات العهد العثماني، وكذلك حال أمتنا منذ نحو قرن ونصف وهي من أسوأ الفترات حالاً حيث أَسَفَّت الأمة ولَصِقَتْ بالحضيض!.

والأمة الإسلامية بكيانها الكبير تغالِبُ جراثيمَ الإفناء، وتتماسك تحت

(١) حصوننا مهددة من داخلها، ص٢٠.

وطأتها، وتحاول أن تعالجها وتهزمها، لكن الأدواء الفاتكة تسرح في جسدها كلِّه، وتَهُدُّ قواها هَدّاً[١].

ومصابيحُ الإسلام التي أضاءها الرسولُ ﷺ، وغَذَاها الصحابة من جِذا[٢] قلوبهم، وحملها مَن بعدَهم جيلاً إثر جيل؛ تلك المصابيح قد ضَعُفت ذُبَالَتُها وخَفَتَ ضياؤها في أيدي الأخلاف، وتحلَّل المسلمون من كثير من أخلاقهم، وأمسَوْا يسيرون بلا خطّة، ويَحكمون بلا شِرْعة، ويفكِّرون بلا عقل، ولو قِسْتَ ما بينهم وبين هَدْي رسالتهم التي آلَتْ إليهم لوجدتَ المسافة شاسعة!.

سادساً: إضاءات كاشفة لعلل وأدواء دَبَّتْ إلى الأمة الإسلامية وأُصيبت بها كالأمم السالفة:

١ ـ الأشر والبطر:

في سورة القصص بيان عالٍ وشرح شافٍ لعواقب الطغيان المادي والاغترار بالمال العريض، أوجزه المولى تبارك اسمه في هذه الخلاصة: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

فهل أَجْدَتْ هذه الآية ومثيلاتُها في محاربة (القارونية) الكانزة المستكبرة في تاريخنا القريب والبعيد؟!.

تأمَّل التسابق في اكتساب المال من كل وجه، واللَّهَث في انتهابه واكتنازه، والسَّفَه في تبديده، والسَّرَف في إنفاقه؛ من خلال ما بُني من قصور في الأندلس واستانبول، وما بُذِل من أموال على الشعراء والمداحين!.

ثم ارجِعِ البصرَ كَرَّةً بعد كَرّة في ملوك وأمراء وشاهات الذهب، والأثرياء ورجال الأعمال وكبار الضباط ودهاقنة السياسة، في بلادنا العربية والإسلامية

(١) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٨ ـ ٩.
(٢) جمع جَذْوة، وهي الجمرة، والقَبَسة من النار.

طولاً وعرضاً وعمقاً، وما شيَّدوه من قصور في داخل البلاد وخارجها في أوروبة وأمريكة وآسية، وما يبدِّدونه من أموال في وجوه الحرام، وصالات القمار، والليالي الحمراء، وتحت أقدام الراقصات، وفي حانات الخمور، والسفر والسياحة والزيارات الخاصة لدول الاستجمام... ولو قرأتَ بعض الإحصائيات لَهالَكَ الأمرُ، ولعلمتَ يقيناً أن صاحب (ألف ليلة وليلة) و(السندباد البحري) لم يستطيعا تخيُّلَ هذا! ولعلمتَ أن ما تُنفِقه بعضُ الأسر المالكة الحاكمة في عام واحد وفي سبيل العار؛ كافٍ لتمويل مشاريع عملاقة، بل كافٍ لإعادة الأمة العربية أعزّ مادياً مما كانت عليه أيام عمر بن الخطاب!.

اذهَبْ إلى (المدينة المقدسة لندن) عاصمة التيجان، ومزرعة الجلالات والسيادة والسعادة وبقية الألقاب، لتشاهد تبذيرَ أموال المسلمين التي سطا عليها الذين لا يرجون لله وقاراً.

ما تعمل الأمة الإسلامية بأناسٍ يعيشون للبَطَر والأَشَر والكبر والرفاهية والشذوذ وسوء الخلق!.

وماذا تكسب الحضارة الإنسانية من عرب ومسلمين إذا ملكوا المال استغلوه في خراب الذمم، وشراء الشهوات، واقتناص الملذات، وارتكاب المحرمات، وتحقير المآثر، ودفن آيات الوحي؟!.

ما يفعل الله بهم؟ لا بد أن يدفنهم في أنقاضهم!.

الآن في كثير من بلادنا ومدننا وقُرانا خلفاء الحسن البصري وخلفاء إبليس!.

فيها منازل لا يدخلها الفأر بسبب النعمة، ومنازل لا يدخلها الفأر بسبب الجوع.

ناس يموتون من الظمأ، وناس يموتون من الشراب.

خدود تجرحها خطرات النسيم، ووجوه تعجز عن لفحها النيران[(١)].

---

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص١٢٥ ـ ١٢٧، كفاح دين، ص٢٦٠.

في مدينة واحدة تجدُ حيّاً كأن الأنهار تجري من تحت ساكنيه، وآخرَ قد اجتاحته المَسْغَبة فأَقْفَرَ كل ما فيه! فيه بيت يَضِجُّ بالأطعمة الفاخرة التي يُلقى ما فَضَل منها في حاويات القمامة، وآخَر على وجوه بَنيه وصغاره آياتُ المَتْرَبة!.

إن الأشر والبطر وطغيانهما قد أنسَيَا كثيراً من أصحاب المال والأملاك والجاه والسلطان واجباتهم تجاه إخوانهم الأقارب والأباعد، فغفلوا عن أحزان المنكوبين من أهل الإسلام الذين قتل الجوع والمرض آلافاً من صغارهم وكبارهم وأنعامهم!.

فهل قام المسلمون أصحاب الجِدَة بواجب الغوث والنصرة للفقراء في الصومال والسودان وفلسطين وبنغلاديش وأفغانستان وغيرها؟!.

إن المال في بلاد العرب والمسلمين كثيرٌ لكنّ الشهوات أكثر، ومن ثَمَّ تُبدَّد في مواطن العبث واللهو الحرام! ويَذهب الأشر والبطر بتلك الأموال والثروات سُدًى كما تذهب أمواه الفيضان في أعماق البحر.

٢ ـ التكاثر في المال والترف والشره في اقتناص اللذائذ:

للإسلام تعاليم طيبة في موقف الإنسان من دنياه، إنه يتجه ابتداءً إلى القلب، فيغرِسُ فيه العفاف والترفُّع، ويُكرِّه إليه الجشع والشراهة والتطلُّع.

وإن من حق الدنيا علينا أن نعملَ فيها، وأن ننال من ضروراتها ومرفِّهاتها ما يحفظ حياتنا ويسعدُها، وقد يكلِّفنا هذا العمل جهداً شاقّاً يتصبَّبُ منه العرق ويطول فيه العَناء، ولكن هذا الحق المقرَّر وهذا الجهد المبذول لبلوغه، لا يجوز أن يميلا بنا عن الجادَّة، أو يَزيغا بنا عن الرشاد.

والمالُ إذا طلبناه فَلِكَي ننفقَه لا لِكَي نختزنَه، وإذا أحببناه وحصَّلناه فَلِنَبْذِلَه فيما يحقق مصالحنا ويصون حياتنا.

ومن الحماقة أن يتحول المال إلى هدف مقصود لذاته، تذوب في جمعه المُهج، وتُرتَخَصُ العافيةُ، وتتكاثر الهموم، وتُجتذَبُ الأمراض.

وتعاليم ديننا دائبة في كَفْكَفَةِ الجهود المجنونة في معركة الخبز، وضبطِ عواطف البشر وراء مطالب الحياة، فلا يكون زحامُهم وسباقُهم ذريعةً إلى غرس الأضغان، ونسيانِ الفضائل، وحرقِ الصداقات، وردِّ الإنسان المهذّب الرقيق حيواناً محدودَ الظُّفْر والناب، يحوِّل مناكبَ الأرض على مَسْبَعَةْ متهارشة[١].

وقد شهدتْ مجتمعاتنا الإسلامية في بعض مراحل تاريخنا الغابر، وفي العقود القريبة وإلى زماننا؛ تسابقاً أرعنَ لا خِطام له ولا زِمام في الشَّرَه لجمع المال من مختلِف السبل وبشتى الوسائل، واستجلاب اللذاذات، واقتناء العمارات، وعشق الدنيا، والتنافس عليها، والتباهي والتكاثر بها، في سَوْرَةٍ من الشهوات النَّزِقة، وغفلةٍ داهية عن الأهداف العِظام التي شادها الإسلام من تحصيل الأموال، والقنوات النظيفة التي يُتسابق فيها للبناء النظيف والاستمتاع الشريف والنفقة المتزنة.

وهؤلاء المتسابقون في جمع المال والمكاثرة فيه واقتناص الشهوات به؛ تسيطر عليهم الأَثَرة والجَشَع والأنانيةُ الضيّقة والتباهي الأحمق، فتنقلِب النعمةُ في أيديهم إلى نِقمة عليهم وعلى مجتمعهم، فيَشْقَون بما عندهم وتشقى أمتهم بهم!.

وقد جرَّ ذلك على الإسلام والأمة بلاءاتٍ قاتلة، حيث غرق المسلمون في لذاتهم، وشُغِلوا بالترف وزينة الدنيا، وتفاخروا بالأموال والأولاد والممتلكات والمناصب والجاه، وانغمسوا في العيش الرخيّ والقعُود الليِّن عن الكفاح المرِّ، فكان أن ضَرَبهم الله بالذلّ، وسلَّط عليهم الأعداء.

فاجتاحتهم الصليبية مراراً، وغزاهم التتار في زحفٍ مدمّرٍ مرير، وتمكَّن المهاجمون من أن يَنفذوا إلى أحشاء الإسلام وصميم بلاده، وطردوا المسلمين من بلاد شتى، وأزالوا وجودَهم من مواقع عدَّة.

---

(١) جدد حياتك، ص٣٩ ـ ٤٠. مَسْبَعَة: أرض كثيرة السِّبَاع.

ونحن منذ قرن تدور علينا رحى حربٍ ضَروس، يقودها أعداء الإسلام في الداخل ومن الشرق والغرب والشمال والجنوب، والمسلمون مطالَبون بأعبائها الثِّقال، ولن يستطيعها المُختالون في أزيائهم من الشبان الناعمين، ولا المشغولون بلذاذاتهم من أشباه الرجال(١).

والعاقل الأريب إذا طَرقت النعماءُ بابه، لم يَطِشْ لها لبُّه، أو يتملكه الغرور، فيحسَب أنها جاءت إلى صاحبها الجدير بها! كلا، إن اختبارَ الناس بالسراء أصعبُ من اختبارهم بالضراء، والساقطين في امتحانات الرخاء أضعاف الساقطين في الميدان الآخر(٢).

٣ ـ التناجش في الدنيا والتباغض والتحاسد:

وهذه الأدواء اجتاحت الأمم من قبلنا فأهلكَتْها واستأصلَتْ خضراءها وبدَّدت جمعها وأزالت معالمها، وقد حذَّرَنا النبي ﷺ من مغَبَّتِها، وأخبرنا بأن تلك الأمراض ستدبُّ في أمتنا وتفعل بنا كما فعلَتْ بالسابقين من قبل، وهذا ما كان، فهل وعى المسلمون الدرس وأدركوا العِبر من تلك الأحاديث والأخبار؟!.

إن أدواء التشاحن والإيقاع بالناس والتباغض والتحاسد قد سَرَتْ في الأمة قديماً وحديثاً على مستويات عديدة:

بين الدول، والجماعات، والمؤسسات، والعلماء، والأفراد، بين الشعوب المتجاورة، وبين فئات الشعب الواحد، وفي الدولة الواحدة بين أنسجتها المختلفة وشرائحها المتعددة.

مما يحدو بالعقلاء أن يصرخوا ويجاهروا بالتحذير والتنبيه على مصادر

---

(١) انظر: كفاح دين، ص٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٠.
(٢) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٧٨.

الخطر والبلاء، والتخويف من عقابيل النتائج التي تجنيها الدول والشعوب والأفراد.

إنك ترى التشاحن والتباغض والتحاسد في أمور كثيرة:

- تراه بين الحكام والزعماء والأشراف في تهارُشِهم على السلطة واقتتالهم على منابر الحكم، وتقاطعهم وتدابرهم في سبيل ذلك.

- وبين طلاب المال وتناجُشِهم على الدنيا وتنافسهم في أَتُونها بلا ضوابط ولا أخلاق.

- وبين العلماء في تصدُّر المجالس، والتقرب من المسؤولين، وإرضاء هذا الحزب أو تلك الجهة، أو السير في أهواء العامة.

- وبين فقهاء الفروع وتنازعهم فيما بينهم، ومطاردتهم بعضهم بعضاً، وهو أمر قديم لا يزال يتجدد.

- وبين الجماعات والحركات الإسلامية، وتراشُق مفكريها وكتابها وزعمائها بالتُّهم والمنابزة بالسيِّئ من القول، مما يزيد هوة الخلاف بينها.

- وبين الأحزاب والتجمعات السياسية، وهذا أمر قد بَلَغ فيه التناجش والتباغض حدَّ السَّرَف والسَّفَه والشَّطَط.

- وبين الدول المتجاورة لخلاف حدودي أو عقائدي أو سياسي، أو بسبب الثروات، أو اختلاف الولاءات، وواقع الدول العربية والإسلامية في هذا يدعو للأسى والمرارة.

- وبين الشعوب وما اعْتَوَرها من نزعات عرقية والاعتداد بالجنسيات والثروات وغيرها، مما زاد الهوَّة وضاعَفَ الشُّقَّة.

- وبين فئات الشعب الواحد وبخاصة إذا كانت الدولة تضم أكثر من عرق أو طائفة.

- وفي الحي الواحد، بل الأسرة الواحدة!.

وصَدَق فينا في هذه السنين أيَّما صدقٍ قولُ النبي ﷺ: «**دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء**» و«**التناجش في الدنيا، والتباغض والتحاسد**».

إن هذه الغرائز المائجة والأدواء المشبوبة التي تضطرم بها ساحتنا العربية والإسلامية تقتل كل ما في الإنسانية من فضائل ومكارم، وينبغي كفكفةُ جماحها وترطيبُ سُعارها في محاريب القرآن وهدي نبي الإسلام وسير أصحابه الكرام.

فاشتغال المسلمين بالخلاف والتباغض والتحاسد جريمة كبرى في معركة وجودنا، لأنه يُضْعِف جبهتنا الداخلية، ويمكِّن فيها للآثام، ويمهِّد لسقوط المزيد من البلاد والشعوب في قبضة الأعداء؛ ففي الوقت الذي نتجافَى فيه ونتشاكسُ ونتباغض ونتحاسدُ، يتوحَّد أعداؤنا في خبث ودهاء ويتساندون ضدنا ويتصالحون على تمويتنا(١).

والأمر يحتاج إلى مَرَانٍ طويل كي نتخلَّص من الشوائب الكثيرة التي تُشتِّت شملَنا.

٤ ـ البغي:

وهذا الداء الوبيل الماحِق هو أسوأُ الأدواء السابقة، وهو الثمرة الفاسدة لها مجتمعة، وقد فشا في الأمة قديماً، واستحكم وطَغَا في العقود القريبة وإلى الآن.

والبغي هو الظلم والتعدي والفساد والإفساد بمدلولاتها العامة ومفهوماتها الشاملة وأبعادها المديدة وآثارها المريرة.

وهو متعدد الجوانب والمجالات والمستويات، نشير إليها بإيجاز:

ـ بغي الحكام على منابر السلطة، حيث جعلوا الحكم مَغْنماً لا مَغْرماً، وتشريفاً لا تكليفاً، فاتخذوا المناصب العليا مصيدةً للحرام لا خدمةً للصالح العام.

---

(١) انظر: جدد حياتك، ص١٨٤، ٢٠٢ ـ ٢٠٣؛ سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٢٢.

- بغي الرعاة والكبار على الرعية والعامة بالعَسْف والظلم والتجبر ومصادرة الحريات والعبث بالكرامة الإنسانية.

- بغي الحكام والمسؤولين على كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ باتخاذهما ظِهْرِيّاً، واستجلاب شرائع وقوانين من الشرق والغرب، والحكم بالهوى وأمور الجاهلية.

- بغي الساسة ورؤوس النُّخب الفاعلة وحَيْفُهم على الجمهور العريض بخياناتهم للأمانة التي اضْطَلَعوا بها وأُنِيطت بهم، ونكثِهم في تنفيذ برامجهم التي شرطوها على أنفسهم بما يحقق آمال الناس.

- بغي العلماء والمفكّرين وأصحاب الرأي على الإسلام والمسلمين بتقصيرهم عن القيام بالأمانة التي حملوها، ونكوصهم أو مداراتهم في حراسة حقائق الدين.

- بغي الكتاب والباحثين والمحققين على تراث الأمة وتاريخها، بالتحريف والتزوير والتلاعب وقلة العناية لإخراج تلك الكنوز على الوجه الصحيح واللائق بها.

- بغي الأغنياء على الفقراء بمنْعِهم حقوقَهم، وعلى الزكاةِ والصدقة في التفريط بهما، وعدم القيام بحقهما.

- بغي القضاة في عملهم، لجَوْرِهم في الحكم، وتزوير الحقائق، وهَدْر حقوق الناس.

- بغي الرجل على المرأة في حقوقها أو ميراثها.

- بغي الوجهاء والأشراف والأقوياء على العامة والضعاف، وبخاصة مَنْ لا سنَدَ له يحتمي به أو ركن يعتمد عليه.

- بغي الجيران بعضهم على بعض.

- بغي الدول بعضها على بعض.

ـ بغي العاملين والموظفين ونحوهم في أعمالهم وما أُنيط بهم من واجبات.

ـ بغي جمهور الأمة على دينها وتراثها وسلفها.

وغير ذلك كثير من صنوف البغي، وما ذكرناه أمثلة عامة لبيان المعنى الشمولي الذي قصده النبي ﷺ في هذه الكلمة الجليلة الجامعة.

والواجب علينا إحياءُ معاني الإخاء الإسلامي، وتنشيطُ عواطف الحب في الله، واختصارُ المسافات وردمُ الفجوات التي تفصل بين المنتسبين للإسلام، بدءاً من رأس السلطة وانتهاء بأصغر فرد في الأمة وأقل الناس شأناً.

سابعاً: وقفات وعبر:

١ ـ هذه الأدواء والأمراض والمطامع والأهواء أحدثَتْ في أمتنا خروقاً غائرة وفراغات شاسعة، وجرَّتْ عليها هزائمَ منكَرة وخسائر فادحة، وجَرَّأَتْ عليها الأعداءَ الذين هاجموها وانتقصوها من أطرافها وأعماقها.

٢ ـ إنه لا يجوز اللُّهَاث وراء الترف والأَشَر والبطر، والانشغال بالتكاثر والتباهي، والوقوع في حمأة التناجش والتباغض، في وقت أرضُنا فيه مستباحة، ومئاتُ الآلاف بل الملايين مطرودون من دورهم، ومشرَّدون من أوطانهم، ومفجوعون في يومهم وغدِهم.

إن أحزان المنكوبين من أهل الإسلام تعترض مباهج الأعياد كما تعترض ظلماتُ الخسوف والكسوف أشعةَ الشمس والقمر.

وهي إن أوحَتْ بشيء فبالعزوفِ عن اللهو واللعب، والتمرُّس بحياة الكفاح والمصابرة، والصيام الطويل عما يستمرِئه الفارغون وخالو البال.

أَلَا ما أحقرَ السرورَ يجيء وليدَ غفلةٍ عن الحقوق المقدسة، أو ذهولٍ عن الواجبات الكبار.

وليتَ شعري كيف تهنأ الأيام، بَلْهَ أن يَلِجَّ البطَّالون في الترف والأشر

والبطر، بينما صوتُ الباطل يحاول طمسَ قضايانا، وصريخُ المجاهدين يذهب في الفضاء، ولا من مجيب؟!.

وصدق القائل:

صِيَاماً إلى أن يَقْطُرَ السيفُ بالدَّمِ ... وصَمْتاً إلى أنْ يَصْدَحَ الحقُّ يا فَمِي
أَفِطْرٌ، وأحرارُ الحِمَى في مَجَاعةٍ ... وعِيْدٌ، وأبطالُ الجهادِ بِمَأْتَمِ[١]؟!

٣ ـ يجب أن تَشِيعَ في الأمة أخلاقُ الجندية، وتقاليدُ الخشونة، وأخذُ الحياة من جوانبها الصارمة ونواحيها الجادَّة، وبَتْرُ مظاهر الأشر والبطر والترف، وخصال الطراوة والاسترخاء، كما يجب سدُّ الأبواب أمام الخِلال المُبيدة، والتعالي على صنوف من المُتَع ولو كانت من الحلال؛ لبناءِ جيل يتحمَّل المشقات، وينهض للبطولات، فالأمة التي تألَفُ البذخَ والترف والبِطْنة والتّخمة، وتجزع من الجدِّ والاخشيشان؛ هي أمة لن تجدَ لها مكاناً بين الأحياء.

٤ ـ في تعاليم ديننا أدويةٌ ناجعة تشفي تطلُّعَ النفوس إلى الشهوات الحرام، وحصاناتٌ تمنعها من التردي في مهاوي الأَثَرة والأشر والبطر والظلم والعدوان، وبَلْسمٌ شافٍ من معاصي القلوب كالحسد والتباغض والافتخار والتكاثر بالنفس والنسب والمال، وحُبِّ الخلاف وحبّ الظهور وحبّ السمعة، والرغبةِ في التسلط وهضم أولي الكفايات.

إن الإسلام عافية سابغة من أنواع العلل التي تستهلك النفوس والمجتمعات، وهو يحارب صنوف المعاصي ويُحصِّن أبناءه ضدها[٢].

٥ ـ يجب علينا أن نستلهِم التاريخ ونستقرئ أحداثَه، وعواملَ النصر والتمكين، وأسبابَ السقوط والانهيار، وأن نتذكرها ونتدبَّرها، ونتعرف مصادرَ

---

(١) كفاح دين، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٢) انظر: كفاح دين، ص١٤١، ٢٥٢ ـ ٢٥٣؛ هموم داعية، ص٧٦ ـ ٧٧.

الخطر ومكامنَ الضرر، فإن من الخطأ الفادح أن نترك المآسي النازلة بنا دون نكير ودون تذكير، والضربات التي وُجِّهت إلينا ـ بما كسبتْ أيدينا من ترف وبطر وتباغض وبغي ـ في الأندلس والمشرق العربي وآسية الوسطى وجنوب شرق آسية وإفريقية؛ شواهد على الأمراض التي اعتورت الأمة وطَوَتْ أعلامَها.

فالمسلمون يوم قادهم الإيمان قامت لهم دولة ترعى الشرف والخير وتصدر للآخرين العقائد والقيم، فلما أسلموا زمامهم للشهوات، ومزَّق وحدتهم الترفُ والتباغض والبغي وحب الدنيا؛ لم يبقَ لوجودِهم معنى، فتراجعوا وتقهقروا وعادوا من حيث جاؤوا[1]!.

٦ ـ إن أمتنا تعيش الآن مرحلة مُزرية من الانكسار والهزائم المتلاحقة، والأمراض قد نخرت بنيانها من الداخل، وأسبابُ الهزيمة التي مُنِيت بها واضحة المعالم معروفة المواقع، وعواملُ النهوض وشروط النصر بارزة مستبينة كذلك! إنه يجب على ولاة الأمر والمسؤولين والعلماء وأصحاب الرأي أن يفعلوا كما فعل الغيورون والمصلحون المخلصون من قبل حينما استنهضوا الأمة من حضيضها واستنقذوها من غفلتها؛ مثلما فعل عماد الدين زنكي وابنه نور الدين وصلاح الدين الأيوبي مثلاً، حيث جنَّدوا العلماء لتدريس العقائد بين الجماهير، وبدؤوا البناء من الداخل، وجمعوا العامة على معاقد الأخلاق ومكارم الشِّيَم، وأَحْيَوا فيهم روحَ الجندية والجهاد والبذل والاستمساك بالدين، فحققوا نصراً تاريخيّاً على الأعداء تحدث به الزمان.

٧ ـ لقد تكالبت الأمم علينا مراراً في القديم، وهي الآن أشدّ تكالباً وأعظم كيداً وأحقد قلباً وأفتك ناباً وأبطش يداً، وقد أحاطوا بنا وتخلَّلوا بيننا، وما تسلَّلوا إلينا واقتحموا حمانا إلا من الفراغات الكبيرة بيننا، والتي خَلَّفَتْها مساوئ الأخلاق من الأشر والبطر والتحاسد والتنافر والتناجش والتباغض والبغي وفساد ذات البين، وانقسام شعوبنا انقسامات مرة!.

---

(١) انظر: الضربات، ص٢٩١؛ علل وأدوية، ص٤١.

خلال تلك الفراغات تسلَّل الأمريكان والأوروبيون وعبَّاد البقر والأوثان من أطراف المحيطات الأطلسي والهندي والهادي، مثلما تسلَّل الإنجليز والفرنسيون وغيرهم من قبل.

ونحن ندفع الثمن باهظاً، فالقدر لا يحابي أحداً ولا يترك الجرائم دون قصاص، فالذين يستجمعون أخلاقَ الهزيمة سوف ينهزمون، ومن ظن أن الله يحابي أمة ما فيرفعها وهي تُسِفُّ، فسوف يدفع ضريبة هذا الخطأ من دمه ومكانته، ووحيُ الله تعالى وتاريخ الناس شهود على ذلك[1].

٨ ـ إن الأمة الإسلامية أحسَّتْ بالخطر المحدِق وهبَّتْ لتحيا، وعلائمُ الصحو تنتشر بسرعة، وهي تردِّد مع الشاعر:

قريباً نُريكَ الحقَّ كيف نَصونُه ... بعزمٍ خبيرٍ في الشدائد أيِّدِ

فقد أشرقَتْ شمسُ الحقيقةِ بيننا ... كما عادَ للدنيا تراثُ محمَّدِ

نَهَضْنا فلم نقعدْ وسِرْنا فلم نقفْ ... وبِتْنا ذوي بأسٍ على كل معتدِ[2]

وإنا لنؤمِّل الخير من وراء هذا الصحو الشامل، بيد أننا نحذِّر من الأمراض القديمة: من فساد السياسة بالفرقة، وفساد الثقافة بالجهل والهوى، وفساد ذات البين بالاختلاف والاقتتال على أمور ثانوية وثالثية! إننا نريد ثقافة تجمع ولا تفرّق، وترحم المخطئ ولا تتربص به المهالك، وتقصد إلى الموضوع ولا تتهاوش على الشكل[3].

إنه من المتوجب على كل الجماعات والهيئات والأحزاب والعاملين في حركة الإحياء والعودة بالأمة إلى دينها ومصدر عزها ـ أن يتجنبوا التشاحن والتباغض والتحاسد، ويتعاونوا في المتفق عليه، ويتسامحوا في المختلَف فيه،

---

(١) انظر: اليهود المعتدون، ص٢٧٥، ٢٨٩.

(٢) ديوان وليد الأعظمي، ص٤٣.

(٣) انظر: هموم داعية، ص١٥، ٤٧.

ويتساندوا صفّاً واحداً في مواجهة الهجمة الجديدة الشرسة العنيدة على ديننا وأرضنا وقيمنا وثرواتنا، حتى ترتد على أعقابها خائبة حسيرة.

وقديماً قال بشار بن برد:

إذا أنتَ لم تَشربْ مِراراً على القَذَى ... ظَمِئْتَ، وأيُّ الناسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

ومَن ذا الذي تُرْضَى سَجَاياهُ كلُّها ... كفَى المرءَ نُبْلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ



إخبار النبي ﷺ باتباع أمته سنن اليهود والنصارى والفرس

١ ـ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكم شِبْراً بِشِبْرٍ، وذِراعاً بِذراعٍ، حتى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُموهُ**» قُلنا: يا رسولَ اللهِ! اليهودُ والنَّصارى؟ قال: «**فَمَنْ؟!**»(1).

٢ ـ وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتى تأخذَ أمَّتي بأَخْذِ القُرونِ قَبْلَها شِبْراً بشِبْرٍ، وذراعاً بِذِراعٍ**»، فقيلَ: يا رسولَ اللهِ! كفارسَ والرومِ؟ فقال: «**ومَنِ الناسُ إلَّا أُولئك؟**»(2).

٣ ـ وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن كانَ قَبْلَكُم شِبْراً بِشِبْرٍ، وذِراعاً بذراعٍ، وباعاً بباعٍ، حتى لو أنَّ أحدَهُم دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ دخلتُم، وحتى لو أنَّ أحدَهُم ضاجَعَ أمَّه بالطريق لَفَعَلْتُم!**»(3).

---

(1) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) و(٧٣٢٠) واللفظ له؛ ومسلم (٢٦٦٩)؛ والطيالسي (٢١٧٨)؛ وأحمد: ٣/ ٨٤، ٨٩؛ وابن عاصم في السنَّة (٧٤)؛ والبغوي (٤١٩٦)؛ وابن حبان (٦٧٠٣). وأخرجه من حديث أبي هريرة: ابن ماجه (٣٩٩٤)؛ وأحمد: ٢/ ٤٥٠، ٥٢٧؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (٧٢)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٣٤؛ والداني (٢٢٦)؛ وصحَّحه البوصيري، والألباني.

(2) أخرجه البخاري (٧٣١٩) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٣٢٥، ٣٣٦؛ والآجري في الشريعة، ص١٨؛ والداني (٢٢٧).

(3) أخرجه الدولابي في الكنى: ٢/ ٣٠؛ والحاكم: ٤/ ٤٥٥؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٣٤٨)؛ وصحيح الجامع (٥٠٦٧). ووقع في المستدرك وصحيح الجامع: «امرأته» بدل «أمه»، وهو خطأ، وقد نبَّه الألباني على ذلك في الصحيحة: ٣/ ٣٣٥.

٤ ـ وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ على أمَّتي ما أَتَى على بني إسرائيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ، حتى إنْ كانَ منهم مَنْ أَتَى أمَّهُ علانيةً لكانَ في أمَّتي مَنْ يَصْنَعُ ذلكَ**»(١).

٥ ـ وعن شَدَّاد بن أَوْس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «**لَيَحْمِلَنَّ شِرارُ هذه الأمة على سَنَنِ الذين خَلَوا من قَبْلِهِم، أهلِ الكتاب، حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ**»(٢).

٦ ـ وعن المُسْتَوْرِد بن شَدَّاد رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتركُ هذه الأمةُ شيئاً من سَنَنِ الأَوَّلِين حتى تأتيَهُ**»(٣).

وفي الباب أحاديث أخرى عن: أبي واقد اللَّيْثي، وسَهْل بن سَعْد، وعَمْرو بن عَوْف، وعبد الله بن مسعود.

❁ ❁ ❁

أولاً: مجمل معاني الأحاديث(٤):

ـ «لَتتبعُنَّ»: اللام فيه موطِّئة للقسم، والتقدير: والله لتتبعنَّ، وأكَّد الكلام بنون التوكيد في آخر الفعل؛ فـ «تتبعُنَّ» أصلها «تتبعون» ثم أضيفت نون التوكيد فصارت «تتبعونن»، ثم حذفت واو الجماعة والنون الأولى فصارت «تتبعُنَّ».

ـ «سَنَن»: أي طريق، وسَنَنُ الطريق وسُنَنه: مَحَجَّتُهُ ونَهْجه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)؛ وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي: ٢/ ٣٣٤؛ وصحيح الجامع (٥٣٤٣). وللحديث تتمة لا علاقة لها بهذه النبوءة.

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ١٢٥، واللفظ له؛ والطبراني في الكبير: ٧/ ٣٣٨ (٧١٤٠)؛ وابن عدي في الكامل: ٤/ ٤٠ ترجمة (٨٩٨)؛ وحسَّنه الألباني بشواهده في الصحيحة (٣٣١٢).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، وقال الهيثمي في (المجمع: ٧/ ٢٦١): رجاله ثقات؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٧٢١٩).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر؛ لسان العرب؛ شرح صحيح مسلم، للنووي: ٨/ ٤٧٢؛ فتح الباري: ٨/ ٣٣٩ (٣٤٥٦)، ١٧/ ١٣٤ ـ ١٣٦ (٧٣١٩، ٧٣٢٠)؛ جامع الأصول: ١٠/ ٣٤ ـ ٣٥؛ تحفة الأحوذي: ٧/ ٥٤ ـ ٥٥.

ـ «شِبْراً بِشبْرٍ، وذِراعاً بذارعٍ»: الشبر والذراع والطريق ودخول الجُحْر تمثيلٌ للاقتداء بهم في كل شيء مما نَهى الشرع عنه وذَمَّه.

ـ «لو سلكوا جُحْر ضَبّ»: الجُحْر: حفرة تأوي إليها الهوامُّ وصغار الحيوان. والضَّبُّ: حيوان معروف من الزواحف، ينتشر في جزيرة العرب، وكانوا يأكلونه، وقد يكبر فيصِلُ طوله إلى نحو نصف المتر، ووزنه نحو (٣ كغ). ويُضرب به المَثَل في العقوق، فيُقال: أعَقُّ من ضَبّ، والعرب تُشَبِّه كفَّ البخيلِ إذا قصَّر عن العطاء بكَفّ الضبِّ، وهو من أطول الحيوان نَفَساً وأصبرِها على الجوع.

وإنما خَصَّ النبيُّ ﷺ جُحْر الضب بالذِّكْر لشدَّة ضِيقه ورَداءتِه، ومع ذلك فإنهم لاقتفائهم آثارَهُم واتباعِهم طرائقَهم، لو دخلوا في مِثل هذا الضيق الرديء لَتَبِعُوهم!.

ـ «تأخذ أمتي بأخذ القرون»: الأَخْذ هو السيرة، يُقال: أَخذ فلانٌ بأَخْذِ فلان: أي سار بسيرته، وما أَخَذ أَخْذَه: أي ما فعل فِعْلَه، ولا قَصَد قَصْدَه. والقُرون: جمع القَرْن وهو الأمة من الناس، والمقصود الأمم الأخرى غير الأمة الإسلامية.

ـ «حَذْوَ النَّعْل بالنَّعْل»: استعارة في التساوي، وكلُّ مَن عَمِل عملاً مثلَ عملِ رجل آخر من غير زيادة ولا نقصان؛ قيل: عَمِل فلانٌ حَذْوَ النعل بالنعل. والحَذْوُ: التقديرُ والقَطْعُ، يقال: حَذَوْتُ النعلَ بالنعلِ إذا قدَّرْتُ كلَّ واحدة من طاقاتها على صاحبتها لتكونا على السواء، ونَصَبه على المصدر أي: يَحْذُونهم حَذْواً مثلَ حذوِ النعل بالنعل، أي: تلك المماثلة المذكورة في غاية المطابقة والموافقة كمطابقة النعل بالنعل.

ـ «حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة»: والقُذَّة: ريشةُ السَّهم، وجمعُها قُذَذ، وتكون أيضاً متساوية الأقدار؛ أي: كما تُقدَّر كلُّ واحدة منهما على قَدْر صاحبتها وتُقْطَع، يُضرب مثلاً للشيئين يَسْتويان ولا يتفاوتان.

ـ «**قيل: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!**»: هو استفهام إنكاري، أي: ليس المراد غيرهم.

وفي الرواية الأخرى: «**كفارس والروم**»: يعني الأمَّتَيْن المشهورتين في ذلك الوقت، وهم الفرس في مَلِكهم كسرى، والروم في مِلِكهم قيصر.

ـ «**ومَنِ الناسُ إلا أولئك؟!**»: أي فارس والروم، لكونهم كانوا إذ ذاك أكبرَ ملوك الأرض وأكثرَهُم رعيةً وأوسَعَهم بلاداً.

ويُلاحَظ أن الجواب كان مرة بقوله: «**اليهود والنصارى**»، ومرة: «**الفرس والروم**»، ويُجمع بينهما بأن يكون الجواب اختَلَف بحسب المقام: فحيث قال: «**اليهود والنصارى**» كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها، وحيث قال: «**فارس والروم**» كان هناك قرينة تتعلق بالحكم بين الناس وسياسة الرعية.

ولـمَّا بُعث رسول الله ﷺ كان الفرس والروم أكبرَ ملوك الأرض وأكثَرَهم رعية وأوسعهم بلاداً، وكذلك كانت الديانتان اليهودية والنصرانية أشهرَ الأديان معرفة من قِبل المُخاطَبين.

والمقصود من هذه الأحاديث أن جمهرة كبيرة من الأمة الإسلامية ستتبع مسالك الأمم الأخرى من اليهود والنصارى والفرس وغيرهم ممن سيأتي بعدهم.

وقد أَعلم النبي ﷺ أن أمته ستتبع المُحْدَثات من الأمور والبدع والأهواء، كما وقع للأمم قبلهم، وستقلِّدهم وتوافقهم وتتبع سيرتهم وطريقهم في المعاصي والمخالفات، بل وفي الكفر أحياناً كما سنبين ذلك!.

ويشير قوله ﷺ: «**شبراً بشبر، وذراعاً بذراع**»، «**حذو النعل بالنعل**»، «**حذو القذة بالقذة**» إلى تمام المتابعة والتقليد والتشبّه في النهج والطريقة والسلوك، كما تتماثل الأشياء التي تُقاس بمقياس واحد: الشبر والذراع والنعل والسهم!.

وقد وقعت هذه النبوءة العظيمة كما وصف النبي ﷺ منذ عهد بعيد، فالنووي رحمه الله يقول: (وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ)(١).

والإمام النووي قد مضى على وفاته أزيد من سبعة قرون ونصف.

وقال ابن حجر: (وقد وقع معظمُ ما أنذر به ﷺ، وسيقع بقية ذلك)(٢).

وقال نحوه العيني(٣).

أما في زماننا هذا فقد استَحْكَم تحققُ النبوءة بصورة مفزِعة وعلى مستويات شتى.

ثانياً: بيان تحقق النبوءة:

١ ـ الإسلام دين كامل صاغ شخصية أتباعه وأمرهم بالاستقلالية وعدم التقليد للأمم الأخرى:

•• لقد امتنَّ الله على المسلمين بأن أكمل لهم الدينَ فقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وتكفَّل تعالى بحفظِ دينه إلى آخر الدهر فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأَمَر بالاستمساك به فقال: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٤].

ونَهَى عن اتباع غيره من الأديان والمذاهب والعقائد والمِلل والنِّحل فقال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٨/ ٤٧٢.
(٢) الفتح: ١٧/ ١٣٥.
(٣) عمدة القاري: ٢٥/ ٥٣.

لقد اكتمل الدين، وتمَّت النعمة، وارتضى الله لنا الإسلام ديناً، فأصبح صبغتَنا الثابتة، ووظيفتنا العالمية، فمن جحد هذا القدر، وارتخص هذه النعمة، فكأنما خرَّ من السماء فتَخْطَفَه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق.

والحق ﷻ قصَّ علينا في كتابه الكريم من أخبار أهل الكتاب والأمم السابقة البائدة ما تقوم به الحجة وتتحقق منه العبرة، فأوضَحَتِ الآيات الكريمة ضلالَهم وتحريفَهم لكُتبهم، ومضادَّتَهم لربهم ورسلهم، وولوغَهم في الضلال والانحراف، ووقوعَهم في غضب الله وسخطه؛ ليغرسَ في قلوب المسلمين منافرةَ طريقهم وبُغْضَ سبيلهم، وقَطْعَ الصلة بعقائدهم وأقوالهم وأفعالهم.

وربَّى الإسلام أتباعه على موادَّة المؤمنين وموالاتهم ومناصرتهم واتباع سبيلهم، ونَهى أشدَّ النهي عن موالاة غير المسلمين من اليهود والنصارى وغيرهم، فقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عباس قال: (يا معشرَ المسلمين! كيفَ تَسألُونَ أهلَ الكتاب عن شيء، وكتابُكُم الذي أَنزل اللهُ على نبيِّكم ﷺ أَحْدَثُ الأخبارِ بالله مَحْضاً لم يُشَبْ، وقد حَدَّثكم الله أن أهلَ الكتاب قد بَدَّلوا من كُتب الله وغَيَّروا، فكَتَبُوا بأيديهم، وقالوا: هو من عند الله، لِيَشْتَروا بذلك ثمناً قليلاً؟! أَوَلا يَنْهاكُم ما جاءَكُم من العِلْم عن مسألَتِهم! فلا واللهِ ما رَأَيْنا رجلاً منهم يَسْأَلُكم عن الذي أُنْزِل عليكم)(١).

●● فكتابُ ربنا قد نُقل إلينا تامّاً محفوظاً ما بين دَفَّتَيْه لا يُدانيه ريبٌ، وسُنَّة نبيِّنا ﷺ قد شهد القاصي والداني بحفظ نصوصها، وقد نَقَدها صيارفة الحديث

---

(١) البخاري (٧٥٢٣) و (٢٦٨٥) وأطرافه.

وخبراء النقول نقداً ميَّز الصحيحَ والضعيف، والمقطوعَ به والمظنون، ومنهجُهم العلمي في هذا المجال يستحق الاحترام كله، وسيرتُه ﷺ الطاهرة الرفيعة وهديُ أصحابه الكرام قد نُقل إلينا بصدقٍ تاريخي وثيق.

فكيف نترك هذا التراث العظيم ونتَّبع مَن حرَّفوا وغيَّروا وبدَّلوا وزادوا ونقصوا وكذبوا على الله ورسله؟! بل كيف نتَّبع ونقلِّدَ من لم يتصل بالسماء أصلاً، ولا عنده ميراث سوى قوانين البشر؟!.

إن ابن عباس رضي الله عنهما يستهجن أن نَسأل أهلَ الكتاب عن خبرٍ جاء في القرآن أو قصة أو تفسير آية أو سبب نزول، فما ظَنُّك بمن يستورد مناهجهم وعقائدهم وأفكارهم ونظرياتهم...؟!.

لقد نَهى الإسلام عن اتباع سَنَن اليهود والنصارى والوثنيين واللادينيين وغيرهم من الأمم الأخرى السابقة واللاحقة، في الأخلاق والاجتماع والعادات والتقاليد وطرائق الحياة ومناهج التربية والتفكير والإعلام ونحو ذلك مما يبني شخصية الأمة ويَصوغ فكرها وحياتها وغاياتها وموازينها وقيمها.

وقد تظاهرتْ آياتُ الكتاب العزيز والأحاديث الصحيحة على تبيان ذلك وتأكيده، حتى في كيفية السلام، ولون الثياب، وإعفاءِ اللحية وقصِّ الشارب وصَبْغ الشيب، وطريقة الذبح، وإتيانِ الرجل أهلَه، والانقطاع للعبادة والتبتُّل، والصيام وتناول السَّحور، وزخرفة المساجد، واتخاذ القبور مساجد، وأعمال الجنائز وكيفية دفن الميت...

وغير ذلك مما يؤصِّل لبناء شخصية إسلامية مستقلة.

٢ ـ أمتنا بين الأخذ الواعي الناقد النافع والتقليد الأعمى الغبي المدمِّر:

إن رسول الله ﷺ بما كَشَف الله تعالى له من عِلْم الغيب، ونوَّر بصيرته، وآتاه الحكمة وعلَّمه ما لم يكن يعلم؛ كان خبيراً بطبائع الأمم وأسرار المجتمعات، فاخترق حُجُبَ المستقبل وتصوَّر أن أمته قد يَعتريها ما اعْتَرى غيرها، فقال منبِّهاً ومنفِّراً ومحذِّراً: «**لتتبعُنَّ سَنَن من كان قبلكم**...».

ولما قامت دولة الإسلام واندفع المسلمون كالريح الرُّخَاء، يبلِّغون دعوتهم ويفتحون القلوب والعقول لها، فتدخلها وتُشيع فيها الأمان والرشاد والهدى والعلم والنور.. وانداحت دعوة الإسلام في أصقاع المعمور، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وتمازجت تحت ظل دوحة الإسلام الوارفة الأعراقُ والأجناس والأعراف والموروثات.

واستطاع المسلمون صَهْرَها في بوتقة الإيمان الناصع، فكانوا سادة قادة معلِّمين موجِّهين مؤثِّرين.

(لقد اتصل أسلافُنا بثقافة الفرس والإغريق والهنود... فكان اتصالُهم بها كاتصال الأستاذ النقّادة بمعارف الآخَرين، يُقِرُّ منها ما يعرفُه ويضمُّه إلى ثروته، ويُنكِر منها ما يَستهجن ويَحْذَرُ من الأخذ به)[1].

وكان لهم من الاعتداد بأنفسهم والاعتزاز بما لديهم ما يَمنعُهم من الانزلاق وما يجعلُهم مُغالين بقيمهم وأخلاقهم وعلومهم.

(ونحن أمة ذات رسالةٍ يعرفُها العالم جيداً، وسَمَوْنا بها حيناً من الدهر، وقد كان إخلاصنا لرسالتنا قديماً مصدرَ عاطفةٍ ملتهبة، وفكرٍ يَقِظ، وإنتاجٍ كثير، وجهادٍ موصول، وتضحيةٍ غالية)[2].

وقد امتنَّ الله تعالى على الأمة العربية والإسلامية بابتعاثِ النبي الخاتم محمد ﷺ منهم، وجَعَلَ الكتابَ الأخير المهيمن على ما سبقه بِلُغَتِهم، والكعبةَ المبنية في أرضهم قبلةَ الجنس البشري كله عندما يصلي لربه، فهل ثمَّة أخسُّ وأحقرُ وأغدرُ ممن يتنكَّر لكل ذلك ويتبع سَنَن الأولين والآخرين من غير المسلمين؟!.

لكن الأمة الإسلامية أصابها ما أصاب القرون الأولى؛ فطَالَ عليها الأمد،

(١) الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٢٠.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢٤.

وبدأت معالم الرسالة تضمحلُّ في نفوس أبنائها، وذَوَتْ جذوتها في قلوبهم، وذَبلَت أزاهيرها في حيواتهم، وحاول الغدَّارون أن يَحْرِفوها عن السبيل، ويجعلوا لها رسالة غير رسالتها، فعاشَتْ في تيهٍ وتخبُّط حيناً من الدهر، واتصلت بحضارات الشرق والغرب تعبُّ منها في تقليد أعمى لا رُشْدَ فيه ولا تميُّز، تبحث عن نظرية قاصرة، أو فكرة جديدة وافدة، أو متعة عاجلة، أو لذاذة آفِلة، أو مركبة فارهة، أو عمارة شاهقة، أو آخِر (الكشوف!) في عالم الفن والأزياء والمَسَاخِر، وتحسب ذلك تقدُّماً، وما هو إلا مرض فوق مرض.

وهكذا الأمم الضعيفة تبحث عما يُشْبِع صَغارَها، ويوافق مزاجَها الوضيع، وقد كان ذلك للأسف ديدَنَنا!.

٣ ـ كيف نقلدِّهم ونتَّبع سَنَنهم، وهم مأمورون باتباعنا، وتاريخُهم مشحون بالبغضاء لنا والعدوانِ علينا وانتقاضِ أطرافنا؟!:

أمر القرآن الكريم وحثَّ أهلَ الكتاب خصوصاً والعالمين عموماً على اتباع الرسول الخاتم محمد ﷺ والتنزيلِ الحكيم الأخير للبشرية، وأكَّد ذلك النبي ﷺ في سنَّته العملية بدعوته ورسلِه وكُتبِه التي وجَّهها إلى الملوك والرؤساء في ذلك الزمان، وعلى هديه مشى خلفاؤه وأصحَابه ومن جاء بعدهم في البلاغ المبين للعالمين.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به، إلا كان من أصحاب النار**»[1].

وهؤلاء الذين حذَّرنا رسولُنا محمد ﷺ من تقليدهم واتباع سَنَنهم واستيرادِ مناهجهم وموالاتهم والسيرِ في ركابهم والخضوع لهيمنتهم؛ تاريخُهم الطويل مع

(١) أخرجه مسلم (١٥٣)؛ وأبو عوانة: ١/ ١٠٤؛ وابن منده في التوحيد: ١/٤٤؛ والبغوي (٥٦)؛ وانظر: السلسلة الصحيحة (١٥٧)، وانظر حديثاً آخر فيها: (٣٠٩٣).

المسلمين مشحونٌ بالبغضاء والحقد والتآمر والكيد، ومليءٌ بالقتلى ومفروش بالدماء، فبأي عقل ومنطق نقلّدهم ونتبع سنَنَهم؟!.

إن صناعات الموت، ووسائلَ الفتك، وأسبابَ المحن والرزايا، ما تجود الآن في مكان مثل ما تجود في أقطار الغرب الصليبي.

واستخراج الرأفة والرحمة من قلوب الصليبيين واليهود الآن يشبه استخراج المياه من الصحراوات القاحلة.

ونحن حين نستقرئ أخبار المستعمرين الأوروبيين والأمريكيين نزداد يقيناً بأن القوم لا علاقةَ لهم بعيسى عليه السلام ولا بكتابه، إن البَوْنَ بعيدٌ بين وحي الله وما في أيدي القوم الآن من تراثٍ روحيٍّ مضطرب.

والصهيونية لا تكيدُ كيدَها اليوم إلا وهي في حماية دول أوروبة وأمريكا، أو على الأصح بتحريضها السافر.

وأحقاد الفريقين ومن تابعهم واضحة، ونيَّاتهم لائحة، وخططهم لم يغيِّرها إلا فارقٌ من الزمن فحسب.

ولا بدَّ من أن نراجعَ أنفسنا وأحوالنا، وأن نحصي مغارمنا ومغانمنا، وأن نتفرَّسَ في ملامح خصومنا، ونتغلغل في طواياهم؛ حتى نبني دفاعنا المستقبل على ركائز قويمة[١].

واليوم تتعاون الشيوعية والصهيونية والصليبية والوثنية على خِذْلان قضايانا وعلى ضربنا في كل ميدان. وكراهيةُ رسول الله ﷺ ودِينه بلغَتْ عند هؤلاء حدَّ الهَوَس، وأفقدَتْهم رشدَهم، وقد تسابقت دول أوروبة كلها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ومعهم أمريكا والوثنيون واللادينيون وسواهم على محاربة الإسلام.

وانظر جراحَ المسلمين وآلامهم ودماءهم وجُثَثهم وخيراتهم كيف يُدَمْدِم

---

(١) كفاح دين، ص٧٥، ٩٦.

عليها هؤلاء، وهم متساندون في مواقع كثيرة من وطننا الإسلامي، في فلسطين والعراق والصومال والسودان وأفغانستان وكشمير والهند والشيشان والبوسنة والفلبين وأندونيسيا وإفريقية وعواصم أوروبة!.

فهل غابَتْ ذاكرتُنا التاريخية والحالية عن كل ذلك حتى نقلِّدهم ونتَّبع سَنَنهم، أم طالَ علينا الأَمَد فقَسَتْ قلوبنا وغَفَلنا عن الحق الأبلج الذي بين أيدينا؟!.

هل نذكر تحذيرَ القرآن الكريم لنا ونقف عنده طويلاً حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]؟!.

٤ ـ ميادين الاتباع والتقليد والتشبّه المذموم وصوره وأشكاله وأمثلته ومخاطره وعقابيله:

أ ـ في الحكم:

عاش المسلمون طيلة ثلاثة عشر قرناً يحكُمهم خليفة أو أمير للمؤمنين أو ملك أو رئيس، وكان جمهرة هؤلاء الحكام بين قويٍّ في خدمة الإسلام، أو مقتصدٍ، أو كَليلِ الذهنِ واليد.

أما في القرن الأخير وبعدما عاثَ الاستعمار الصليبيُّ والشيوعيُّ في كل شبر من أرضنا، ورانَ على كل شأن من شؤوننا، فقد تمكَّن من زحزحةِ المجتمع عن المحور الذي دار عليه ثلاثة عشر قرناً، وتمكَّن من إلقاء بذورِ ارتدادٍ مُخيفٍ في جوانبِ الحياة التشريعية والتعليمية والسياسية، فأمسَتْ تعاليمُ الإسلام عند الكثيرين متعذّرةَ القبولِ أو متعسِّرةَ التنفيذ(١).

وقام رهط في بلد المسلمين فقلدوا في حكمهم الغربَ الصليبي أو الشرق

(١) معركة المصحف، ص٢١.

الشيوعي، وحكموا البلاد بالفكر العلماني اللاديني، وقهروا أهلها وحكموا فيهم بغير ما أنزل الله، متابعةً لسنَن الأمم الأخرى حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة.

ب ـ الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض:

لقد نعى القرآن على أهل الكتاب فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠]؛ فما وافق هواهم أخذوه، وما خالف مصالحهم رموه وضربوا به عرض الحائط.

وفي العرب والمسلمين اليوم جمهرة كبيرة على ديدن أهل الكتاب في هذا!.

ففي الوقت الذي تجدُ فيه دولاً عربية وإسلامية تجاهِر بعلمانيتها، تجدُ دولاً أخرى منها تأخذ من الإسلام بعضَ العقائد والشرائع وأحكام الأسرة، وتنبذُه في السياسة والاقتصاد والإعلام ومناهج التعليم والأخلاق والاجتماع و...!.

إن استقدامَ الشيوعية لحلِّ بعض المشكِلات الاجتماعية، واستقدامَ الرأسمالية لمعالجة المشكلات الاقتصادية؛ سيفتح الطريقَ حتماً لاجتثاثِ العقيدة وزلزلةِ الثقة بقيمةِ الدين في الميدان العام.

وإنَّ الكفر بالآيات المتعلِّقة بالمال والحُكْم مساوٍ للكفر بالآيات المتعلِّقة بالعبادات المَحْضَة، وإنَّ العمل بآيات المواريث مساوٍ للعمل بآيات التوحيد، والخروجَ على هذه خروجٌ على تلك.

إن العقائد والعبادات والجهاد الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي والجهاد العسكري وحراسة الأمن الداخلي وسياسة المال ومناهج التعليم وأحكام الأسرة وبناء المساجد والمدارس للتربية الروحية والفكرية ثم السلطة المشرفة على هذا كله؛ هي الدين الحق، ولا يمكن تجزئتُه وأخذُ بعضه دون بعض،

كما يفعل المسلمون الآن متابعةً لسَنَن مَن قبلهم مِن الهالكين المنحرفين الضالين[١].

ج ـ فصل الدين عن الدولة والشريعة عن الحياة[٢]:

يستطيع أيُّ قارئٍ للقرآن الكريم، وأيُّ متأمِّل لسنَّة النبي ﷺ وسيرته الطاهرة، من أي قارّةٍ على ظهر الأرض ـ أن يستيقنَ من أن الإسلام ينتظمُ الحياةَ العامة والخاصة، وأنه يتناول النفسَ الإنسانية في أعمق أغوارها، والمجتمعَ البشري في أوسع دوائره.

لا انفصالَ في الإسلام بين الحياة الفردية، والكيان الاجتماعي العام. وإن النبيَّ ﷺ لَيَعِدُ بالجنَّة العينَ التي باتَتْ ساهرةً في ميدان القتال، كما يَعِدُ بالجزاء نفسِه العينَ التي غَضَّت عن محاسنِ امرأة لا تحلُّ للإنسان.

وفَصْلُ الدين عن الدولة نغمةٌ وُلِدتْ في الغرب للخلاص من القيود الكَنَسيَّة على حرية العقل والضمير، ثم نُقلت إلى الشرق كي تمهِّد العقبات أمام الزحف الاستعماري، وتهدِمَ قلاعَ المقاومة الهائلة التي ثارت في وجهه.

أي: إنها كلمةٌ قِيلتْ هناك للحدِّ من طغيان رجال الدين الكنسي، وتُقال هنا لهدمِ دينٍ كامل، والإتيانِ على بنيانه من القواعد.

وجهودُ أعداء الإسلام والأمة قائمة داخل بلادنا وخارجها لفَصْل الدين عن التعليم العام؛ ليخلُقوا أجيالاً مبتوتةَ الأصل بالإسلام، أجيالاً تتردَّد بين الجهل به والجحود له.

وفصل الإسلام أيضاً عن تقاليد المجتمع في البيت والشارع والأماكن العامة

---

(١) معركة المصحف، ص٢٦، ٤٧.

(٢) انظر: كفاح دين، ص٢٩، ٣٥، ٩٥، ١١٨؛ ظلام من الغرب، ص٢٩ ـ ٣١، ٨٠؛ معركة المصحف، ص١٣ ـ ١٤؛ الضربات، ص٢٤٢ ـ ٢٤٣، ٢٩٦ ـ ٢٩٩.

والخاصة، حتى يُنظَرَ إلى الإسلام وكأنه من الآثار القديمة التي يجب اطِّراحُها، أو يمكن الاستغناء عنها.

والمقصود إبعاد الإسلام عن الحياة العامة، وتجريده من سلطة الأمر والنهي، وبالتالي تجريده من سلطان الدولة ومن كل سِناد حكومي، ليسهل محو آثاره وطَيّ أعلامه!.

وقد ساعد على نشر هذه الفكر الخبيثة في ديارنا طائفة من الكتّاب الذين قذف بهم إلى السطح كما يقذف البحر زبده، لا يدخلون تحت الحصر نسمع أصواتهم هنا وهناك[١].

د ـ اجتلاب المناهج الشرقية والغربية:

ويظهر ذلك واضحاً في السيطرة على المناهج التربوية والتعليمية والثقافية في الفكر والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وإزالة روح الإسلام منها، وفَرْض النموذج الغربي أو الشرقي، متمثِّلة في العلمانية والليبرالية والماركسية والاشتراكية والقومية، القائمة على المادية والوثنية والإباحية والتحلل من كل القيم، والاستعلاء على البعد الرباني والبعد الأخلاقي، وتذويب خصائص الفكر الإسلامي وتزييف قيمه وخصائصه، لخلق أجيال مبتوتة الصلة بدينها وحضارتها وتراثها وتاريخها وسَلَفها.

هـ ـ الغزو الثقافي وتقليد الثقافات والترويج لها:

إن الثقافة الذاتية للأمة هي التي تصنع (شخصية الأمة) وتُبرِز معالمها، وتحدِّد خصائصها، وتقرِّر تقاليدها وقوانينها، وتكوِّن مزاجَها العام وآدابها، ثم تخطُّ لها مجراها الخاص في الحياة الإنسانية.

ونحن المسلمين لنا ثقافتنا الذاتية: وهي جملةُ العقائد والعبادات والقوانين والأخلاق والحدود والحقوق والقِيم والمُثُل التي حَوَتْها رسالة نبيِّنا محمد ﷺ.

---

(١) انظر: الضربات، ص١٩٢، ٢٤٢، ٢٧٠، ٣١٠ ـ ٣١١.

وهي كذلك جملةُ الآداب والصور الفنية التي أُثِرت عن العرب؛ لأن اللغة العربية هي لغةُ الوحي الإلٰهي الباقي.

إن ثقافتنا الذاتية: هي دينُنا ودنيانا، وماضينا ومستقبلنا، هي أصلُنا الذي انبثقنا منه وفرعُنا الذي نمتد معه، ونحن نتزوَّد بجميع ألوان المعرفة الإنسانية كي نُحسِن الحفاظَ على ثقافتنا الذاتية والعيشَ بها وتقديمها للآخرين نموذجاً حيّاً لطريقتنا الأثيرة في الحياة وفق ما أراد الله لنا وطلب منا[1].

وقد هُوجِمت ديارنا عسكريّاً من قِبل الغرب والشرق، فكَسَبتْ تلك الزحوف وخَسِرتْ ثم انحسرت وتراجعت خائبةً إلى ديارها. ثم جدَّدتْ زحوفَها بعد أن تعلَّمت من تجاربها، فغيَّرت الوسائل وهجمت علينا بالغزو الفكري والثقافي، وخضعت الأقطار العربية والإسلامية للقوى التي احتلَّتْها ولثقافتها، فاستعلتِ الثقافة الفرنسية في الجزائر وتونس والمغرب ولبنان، والإنجليزية في مصر والسودان والعراق وبعض دول شرق آسية، واتسع نطاق اللغتين الإنجليزية والفرنسية بحيث حَجَبَتا اللغةَ العربية في التعليم والثقافة. وفي كل قطر إسلامي عمد النفوذ الأجنبي إلى حَجْب اللغة العربية (لغة القرآن)، وإعلاء لغته هو، وإعلاء العاميات، وذلك ضمن خطة الحرب على الإسلام[2].

ونشهد في العقد الأخير من القرن المنصرم ومطالع القرن الحالي غزواً ثقافيّاً خطيراً في مجالات عديدة وبخاصة في التربية والإعلام والأخلاق، مع طغيان مخيفٍ للغات الأجنبية على اللغة العربية، حيث ينذر واقع (لغة القرآن) بخطر كبير!.

واجترأ كثيرون من ذوي النفوذ والأحزاب والكتّاب والأدباء والصحفيين والإعلاميين على الترويج للأفكار الوافدة والتمكين لها من منابرنا ومؤسساتنا وجامعاتنا ومدارسنا وإعلامنا، فكان هذا الزحف المدمِّر أكبرَ خيانةٍ للأمة

(١) ظلام من الغرب، ص١٤٢.
(٢) الضربات، ص٢٤٩.

ولدِينها، وأبشَعَ صورِ التقليد والتبعية واتباع سَنَن اليهود والنصارى والشيوعيين والوثنيين وسواهم.

ونتيجة لذلك التقليد الخبيث للغزو الثقافي الماكر، والترويج له على أيدي صنائع الغرب والشرق في ديارنا؛ نشأت أجيال من الشباب والشابات غرباءَ عن دينهم بل أعداء له!.

و ـ في ميدان تطبيق الحدود:

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما أَهْلَكَ الذينَ قَبْلَكم؛ أنَّهم إذا سَرَقَ فيهمُ الشريفُ تَرَكُوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ**»[1].

إن اليهود والنصارىٰ وَهَى إيمانهم، واستمرؤوا المعاصي في بيوتهم ومجتمعاتهم، وتراخوا في إنفاذ شرائع الله بينهم، ثم تدرَّجوا من ذلك إلى تعطيلها والإتيان بأحكام تدلِّل الغرائزَ المريضة، وتُهادِن المسالك المعوجّة، وتحمي اللصوصَ وقطاعَ الطرق والقتلة والزناة والمخمورين، وتترفّق في مواجهة الإثم، فكان منهم التلاعبُ بالحدود وإنفاذُها حسب الهوى!.

وعامة البلاد العربية والإسلامية اتبعت سَنَن اليهود والنصارى وعَطَّلت الحدود عامة، واستبدلت بها قوانين العقوبات الوضعية من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وغيرها. وفي بلاد قليلة تطبق على الضعيف دون الشريف كما وصف النبي ﷺ!.

ز ـ تحريف الكلم عن مواضعه:

وهذا مرضٌ ابْتُلي به اليهود وغيرهم في القديم، وقد نَعَى القرآن الكريم عليهم هذا الخُلقَ الشائنَ في ثلاثة مواضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٨) وأطرافه في (٢٦٤٨)؛ ومسلم (١٦٨٨)؛ وأبو داود (٤٣٧٣) و(٤٣٧٤)؛ والترمذي (١٤٣٠)؛ والنسائي في الكبرى (٧٣٤١) والصغرى: ٨/ ٧٢ ـ ٧٣؛ وابن ماجه (٢٥٤٧)، وغيرهم.

هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦][١]؛ فكانوا يفسِّرون كلام الله تعالى بغير مراده منه، ويحرِّفون أحكامه ويغيِّرونها بغيرها، ويَكتمون أخرى ظلماً وبغياً وفساداً في الأرض.

وقد نشأ في أمتنا نشءٌ ساروا على ديدنهم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، فحرَّفوا معاني في الكتاب والسنَّة، وأخرجوها عن مرادها ومقصودها، فتلاعبوا بمفهوم الحكم بما أنزل الله، والشورى، والجهاد، وحجاب المرأة المسلمة، والسلام مع الأعداء، وموالاة الكافرين، والحرية، والمناصحة للحكام وقول الحق، والفتوى الرخيصة، وغير ذلك كثير مما تضِجُّ به الساحة الفكرية والأدبية والإعلامية والفنية والسياسية في بلاد المسلمين، مما يحار فيه العقلاء!.

ح ـ في العقائد والأهواء والمِلل والنِّحَل:

من الآيات الجليلة التي حذَّرت المسلمين من اتباع سَنَن الأمم الأخرى الماضية والقادمة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١ ـ ٣٢].

وفي الحديث الصحيح أن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتنا على ثلاث وسبعين فرقة[٢].

وقد نشأت في أمتنا في القديم مذاهب هدّامة وأهواء وفرق ضالَّة، سارت على سَنَن اليهود والنصارى والفرس، كالقرامطة والزنادقة والريوندية والزَّنْج والمجسِّمة والمعطِّلة، والباطنية. . .

أما في القرن المنصرم وإلى أيامنا فهي أكثر عدداً وأشدُّ ضلالاً وأخطر فتكاً، ومن أمثلتها المنتشرة في طول بلادنا وعرضها وعمقها: العلمانية، والليبرالية، والشيوعية، والوجودية، والإباحية، والفرعونية، والقومية اللادينية،

---

(١) وكذلك في سورة المائدة: الآيتان (١٣) و(٤١).

(٢) انظر الحديث وتخريجه وشرحه في النبوءة (١٠٥).

والبهائية، والقاديانية، والماسونية، وغيرها مما تموج به جنبات البلاد وأفكار العباد، تقتفي سَنَن أهل الضلال في الشرق والغرب والشمال والجنوب.

ط ـ ترويج الخلاعة والميوعة والمجون واللهو الآثم والأدب الإباحي والفن المكشوف:

وهذا مما رمتنا به الأمم الأخرى جميعها عن قوس واحدة، وقام فينا ومن جلدتنا من يروِّج لها ويدعو إليها ويحضُّ عليها، ويقنِّنها ويحميها، ويُخرِس كلَّ الألسنة الطاهرة والأصوات الغيورة التي تعارضها، ويكبِّل الأيدي النظيفة ويحجب الكتابات الناصحة التي تبيّن مخاطر تلك المآثم على الدين والأمة والبلاد والعباد والثروات والحضارات والأخلاق!.

وقام في بلادنا أقوام وبرزَتْ عصابات تحمي الرذيلة والمجون والخلاعة والانحلال، يقلِّدون الغرب والشرق من يهود ونصارى ووثنيين ولا دينيين وسواهم، في الانحلال والإباحية والمجون فحسب!.

ونشروا في الكتب والصحف ومن خلال الإذاعات والتلفاز والقنوات الفضائية والفيديو والفيديو كليب والأقراص المدمجة وشبكات الإنترنت عناوين: إباحة العلاقات الجنسية بين تلاميذ المدارس، ونجوم الرقص الشرقي والغربي، وملكات الجمال، وعارضات الأزياء، وعري النساء على الشواطئ وغيرها، وارتداء النساء مايوه السباحة، وقصص الحب الآثم والغرام الفاجر، والخيانات الزوجية، والزواج السياحي، والفوضى الخلقية، والرقص العمودي والأفقي... ويَعْرِضون على الأسماع والأبصار والأفئدة: الأغاني الماجنة، والرقصات المنحطة، ومخاصرة الرجال والنساء، وما يجري في غرف النوم، ويُغْرِقون الناس باللهو الأثيم، والإسفاف الحيواني، والأخلاق المريضة، والحركات الخَنِثة، والأدب الإباحي، وأدب الفراش... واحمرَّت الليالي أكثر العام بالسهر النجس و(حفلات الكوكتيل) وألوان الإثم التي يفتنُّ بها التافهون، وكَثُر عبيد الشهوات وقنّاصو الدنايا، وتمرَّغت هاماتهم بوَحَل الغرائز السافلة..

وانظر ما تعجُّ به أسواقنا ومراكزنا ومؤسساتنا وشوارعنا وشواطئنا ومهرجاناتنا وإعلامنا من الانحلال والمجون والغناء والرقص والعبث و. . . تجد أننا قد سِرْنا على سَنَن اليهود والنصارى حَذْوَ النعل بالنعل.

ي ـ تحلل المرأة وعريّها وتهتكها، وتشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال:

المرأة في الإسلام رفيعة القَدْر عالية المنزلة موفورة الكرامة، وتعاليمُ ديننا وتوجيهاته وأوامره ونواهيه وآدابه قد حفظَتِ المرأة وأَعْلَتْ إنسانيتها، إذا خرجت من بيتها خرجت بعفَّة، وإذا دخلت دخلت بحفظ وصَوْن، وإذا اختلطت بالمجتمع كان ذلك ضمن آداب جليلة كريمة، وإن عملَتْ ففي أشياء توافق طبيعتها وتصون أنوثتها وتحفظ شرفها.

وفي كل ذلك تحفُّها عناية ربانية حانية فاضلة في الأدب والاحتشام والعفة والكرامة، بعيداً عن الميوعة والمجون والتهتك والخلاعة والسفور والابتذال والتكسر وإبراز المفاتن واصطياد الشهوات وذوي النفوس المريضة.

ولقد بقيتْ نساؤنا على هذا الهدي العالي قروناً متطاولة وإلى عهد قريب، حيث غَزَتْنا الحضاراتُ المختلفة بسمومها الفكرية والأدبية والإعلامية والأخلاقية، ووُجِد في أبنائنا من يرحِّب بها ويروِّج لها، من أصحاب الأفكار المرتدة والقلوب المريضة والأنفس الخبيثة والأعمال الرديئة والأقلام الرقيعة، فاقتادوا المرأة إلى مستنقعات السفور والعُري والتهتك والخلاعة والمجون والانحطاط الوضيع، الذي عَبَث بدينها ودمَّر أخلاقها وهتك حشمتها ومزَّق عِفَّتها وأهدر كرامتها وارتَخَص شرفها. . . فأصبحت كثيرات من نساء المسلمات يخرجن من بيوتهن كاسيات عاريات مائلات مُمِيلات، قد ملأن الشوارع والأسواق والمراكز والمنتديات والمؤسسات والمهرجانات والحدائق والمتنزهاتِ والشواطئَ والمسابحَ وأماكن اللهو ودورَ الخَنَا ومواخيرَ المجون ومسارح العبث الأخلاقي الحيواني التي تجلد غرائز الجنسين وتَؤُزّ شهواتهما أَزّاً!.

وأصبحتَ ترى في بلاد العرب والمسلمين أعداداً غفيرة من نسائنا وبناتنا يقلِّدن الكوافر والمشركات في كل شيء، حتى في العري الذي لم يترك على الجسم من اللباس شيئاً ذا بال: فاقتحمنَ مجال الرياضة بلا حدود بدءاً من كرة القدم وانتهاء بالسباحة! وعَمِلن عارضات أزياء، ومروِّجات للسلع، وخُضْنَ ما يُسمَّى بمسابقات ملكات الجمال التي فيها من الإسفاف ما لم يُبقِ عند أبيها أو أخيها أو زوجها ذرّةً من مروءة أو شرف دَعْ عنك الدينَ والخُلق والحياءَ!.

وتشبَّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، في اللباس والمِشْية والكلام وقصّ الشعر والزينة، ونشأ فينا جيل من (المُخَنَّثين) ممن يسمَّى (الجنس الثالث) من الشباب الذي يُزيل علامات الرجولة من وجهه، ويُطيل شعره، ويصبغه بألوان متنوعة، ويضع عليه ما تضعه الأنثى على شعرها، ويضع على صدره مثلَ ما تضعه الأنثى على ثدييها، ويحضر حفلات الأعراس مع النساء، ومن يراه لا يكاد يميزه عنهن!.

ألم يَصْدُق في أمثال هؤلاء وأولئك قول المصطفى محمد ﷺ: «**حتى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُموه**»؟!.

ك - في الاختلاط:

وهذا ميدان آخر رحيب وقعتْ أمتنا في حَمْأَتِه، واستنَّت فيه بسَنَن اليهود والنصارى والمشركين والوثنيين، وأُصيب كثير من البلاد العربية والإسلامية بأمراضه العُضَال وخسائره الوبيلة! لقد تُرك الحَبْل على الغارِب واختَلَط الذكور بالإناث، والرجال بالنساء، والفتيان بالفتيات، بلا ضوابط ولا حدود، بل أحياناً بلا حاجة ولا مبررات.

وساد الاختلاط الأهوج مجتمعاتنا في المدارس والجامعات والمستشفيات والشركات والأندية الرياضية والمراكز الاجتماعية وأماكن الترفيه وحفلات السمر والرحلات الترفيهية، دع عنك المؤسسات والوزارات والشواطئ والمهرجانات ودور السينما ووسائل الإعلام، حيث يموج الناس بعضهم في بعض.

ويروِّج كثير من الناس الذين خانوا دينَهم وبلادَهم وأمتهم للاختلاط بحجَّة إزالة الحواجز بين الجنسين، ومحاربة الكَبْت، وإذكاء روح التنافس، والتعارف والتعاون وإقامة علاقة اجتماعية، وعدم التمييز بين الرجل والمرأة... حتى صِرْتَ تسمع عن (الرحلات المختلطة البريئة)، فترى صوراً لمجموعة من الشباب والشابات، ظهر فيها فتى وفتاة وقد أسند كلٌّ منهما ظهره إلى ظهر الآخر، بعد أن مدَّ ساقه إلى الأمام أرخى ظهره إلى الخلف بعض الشيء! وفيها ظهرتْ بنتٌ أخرى متمدِّدة أمام فتى آخر يبادلها مختلِف الأحاديث، وثالثة، ورابعة... إلخ[1].

وهذا يُعتبر شيئاً سهلاً أمام ما يحدث مما لم نَرَه ولم نسمعْ به.

إن الحملة المجنونة لترويج الاختلاط بدعوى محاربة الكبت أوجدتْ شباباً طريّاً ورجولة زائفة لا صبرَ لها على شيء، وأوجدتْ منطقاً يَستبيح كلَّ شيء بحجة الحاجة فحسب!.

وليتَ شِعري لماذا نحرِّم على الإنسان سرقةَ بدلةٍ يشتهيها، ولا نحرِّم عليه سرقة عِرْض يَلِغُ فيه بالباطل[2]؟!.

ل ـ في مجال الموبقات والمحرمات:

ونتيجةً لأعمال الاستعمار الغربي والشرقي في بلادنا، وبسببٍ من الغزو الثقافي والاقتصادي لديارنا، وبوجودِ صنائع الأعداء في أمتنا ـ تمَّ فتحُ الأبواب والقلوب والعقول لاستجلاب موبقات جميع الأمم إلينا. وسادتْ في بلادنا وانتشرت آثامٌ كبرى وكبائر عديدة ومحرّمات كثيرة، كانت مجتمعاتنا محميّةً ـ بدينها ـ منها، ومعافاةً من غوائلها. وفُتحت في البلاد العربية والإسلامية ثغراتٌ واسعة تُبيح الربا والزنى واللواط والخمور والمخدّرات وبيع لحوم

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص١٣٣.
(٢) كفاح دين، ص٢٦٦.

الخنزير. . وواجهتْ مجتمعاتُنا تحدياتٍ جمَّة وأزماتٍ فاتكة، حطَّمتْ كلَّ القيود، ودَكَّتْ أكثَرَ الحصون.

لقد شُيِّد الاقتصاد عندنا على المؤسسات الربوية، واشتعلت هذه الموبقة الكبرى في شتى ديارنا كالنار في يابس الحطب، ولم يَسْلَمْ من غائلتها إلا القليل.

وانتشرت أماكن البِغاء وارتخاص الأعراض، وتكاثرت مواخيرُ الخنا، وحانات الخمر، وسراديب الأفعال الشائنة العابثة بأعراض الإناث والذكران، بل ووُضِعت لها القوانين وأُصْدِرت التراخيص.

أفرأيتَ أمة تهجُر كتابَ ربها الذي كرَّمها به، وتحرسُ الحرام الذي يُغضِب الله ليل نهار؟! بل أَمَا سمعتَ المغني يشدو على أسماع أبنائنا وبناتنا ويَصْدَحُ بصوته الملعون (ليلنا خمر)؟! في وقتٍ تُستباح فيه دماؤنا وأعراضنا وديننا وثرواتنا وكرامتنا!.

فهل ثمَّةَ تقليدٌ واتباعٌ لسَنَن الهالكين أبشعُ وأسوأ من هذا؟!.

م ـ في الأسرة وقوانينها:

والأسرة في الإسلام كيان عظيم وحِصن ضخم وركن شديد لإقامةِ المجتمع الإسلامي الطاهر، وصيانةِ النشء وتربيته على الفضائل، وهو منبتُ العفة، وموئل الشرف، ومصنع الأخلاق والبطولة والكرامة، وله في ديننا قداسته وقوانينه.

لكنه لم يَسلمْ من هجمات الأعداء في الداخل والخارج سواء بسواء، والجهود مكثفة لدكِّ حصونه وتفكيكِه والخروجِ به إلى مزالق التبعية والتقليد لِسَنَن الأمم الأخرى، وقد حدثَتْ فيه خروق وشروخ، لكنه مستعصٍ على التحلل والانهيار.

فهناك حملات متواترة على تعدد الزوجات، والقبول بواحدة مع وجود

الخليلات والعشيقات، وهجوم آخر على قوانين الميراث والمطالبة بالمساواة بين الذكر والأنثى فيه، وكذلك يطالب فئامٌ من الرجال والنساء بإلغاء بيت الطاعة، وقوامة الرجل على المرأة والأسرة، واستبدال القوانين الوضعية بقوانين الإسلام في شؤون الأسرة، وقد حدثت استجابات كثيرة أو قليلة في هذا البلد أو ذاك.

هذا، ومراسيمُ الزواج ومقدّماته ومؤخّراته وحفلاته وما يجري فيها؛ قد تتبَّع فيها الكثيرون سَنَن الأمم الأخرى. فلله الأمر!.

ن ـ وثمة مجالات أخرى للاتباع والتقليد والتشبه بالأمم الأخرى، نومئ إليها إيماءً:

ـ في الأعياد والمناسبات الخاصة بهم.

ـ في اللباس ومظاهر الزينة التي يتميزون بها كلباس الرهبان والقبعات وشجرة عيد الميلاد وقصة الشعر وغيرها.

ـ في زخرفة المساجد، واتخاذ القبور مساجد، ودفن الصالحين والمشاهير فيها.

ـ التنافس على الدنيا دون تورع عن الحرام والشبهات.

ـ الأشر والبطر والحسد والبغضاء والبغي.

٥ ـ أمور كِبارٌ حِسانٌ عند القوم لم نتَّبِع سَنَنهم فيها ولا قلَّدناهم فيها:

إن عند أولئك القوم حسناتٍ جليلة وأعمالاً كباراً تستحق الذكر والإشادة، كان ينبغي على (المتعلمين) والرَّعَاع ودعاة تقليد الغرب والشرق في كل شيء أن يقلِّدوهم فيها، ويسيروا على طريقتهم بأدائها والاحتفاءِ بها، ولكن هِممَ الوضعاء عندنا تقعد دون الوصول إلى فعل هاتيك الأعمال الضخام!.

إن أولئك القوم:

ـ قد كشفوا كثيراً من أسرار العلم وأظهروا غوامضه وفتحوا مغاليقه.

ـ وخاضوا مسارب الطب وشخَّصوا الأدواء وصنعوا الأدوية.

ـ واكتشفوا الكهرباء.

ـ وركبوا أجواز الفضاء.

ـ وفجَّروا الذرة وصنعوا أضخم الآلات.

ـ واستخرجوا البترول والخامات من باطن الأرض.

ـ وصنعوا وسيَّروا شبكة هائلة من المواصلات في البر والبحر والجو.

ـ ومَحَوا الأميَّةَ في شعوبهم وأدخلوا (الكمبيوتر والإنترنت) إلى بيوتهم.

ـ وبَذَل أغنياؤهم المال لدعم المشاريع ومحاربة الفقر.

ـ وشيَّدوا نظاماً صحيّاً يُفتخر به.

ـ وأقاموا مؤسسات الرقابة على الحكام.

ـ وأعطوا الأمة حق تنصيب الحاكم وعزله.

ـ وحَمَوا الحريات الشخصية وكرامة الإنسان.

ـ وأقاموا أجهزة الأمن لحماية البلاد والعباد لا لحراسة الكراسي والزعماء.

ـ وشيَّدوا مؤسسات العدل والمحاسبة واستقلال القضاء في ربوع دولهم.

ـ واحترموا المال العام وراقبوا مداخله ومخارجه ووضعوا قوانين المحاسبة عليه للكبار والصغار.

ـ وتفوقوا في مجال الزراعة والاقتصاد والتجارة والصناعة وشؤون الحرب.

ـ واستمسكوا بدينهم المحرَّف ودافعوا عنه.

ـ وجيَّشوا فرقاءَ منظَّمين من المبشِّرين المنصِّرين وبَثُّوهم في بلاد العرب والمسلمين وأغدقوا عليهم الأموال لنجاح مهمتهم.

وفعلوا... وفعلوا...

فهل رَفَع أحدٌ من دعاة التقليد عندنا رأسه بشيء من ذلك؟ أو هل صاح بأعلى صوته أو كتب بقلمه لاستنهاضِ الأمة لتقليدهم ومجاراتهم واتباع سَنَنهم في هذا؟.

لا، لا!.

إن (بني الضِّبَاب[1]) عندنا غَضُّوا الطَّرْف عن هذا، واستفزّوا الأمة على التقليد الأعمى للغَثّ دون السَّمين! ولو نظرتَ إلى أقوالهم وأعمالهم ولَهَثِهم في اتباع سَنَن الأولين والآخرين؛ لعرفتَ الأدواء التي خامرتْ قلوبَهم وعقولَهم، ولَمَا اقترحتَ علاجاً لهم إلا الضربَ على أفواههم والحَجْرَ عليهم كما يُحْجَر على السفهاء.

ثالثاً: وفي ختام هذه النبوءة نقول:

إن المسلمين لا يزالون أوفياء لدينهم وكتابهم وسنَّة نبيِّهم ﷺ ومنهج الصحابة ومن سار على هديهم، وهم يأبون بصرامةٍ وغضب أن يُصرفوا عن هذا الدين العظيم، وفي نفوسهم رغبات جيَّاشة في الانقياد لتعاليمه والاصطباغ بها ظاهراً وباطناً.

نعم إن مآسي الأمة في المشارق والمغارب لا تُحصى، لكن مع فداحة المغارِم أبى ورثةُ الإسلام ورجال العقيدة أن يَهِنوا أو يستكينوا، واشتعلتْ نار المقاومة، وبقي الرجال الثابتون على الحق يتنادون في كل مكان بالثبات حتى تكونت لهم جبهة صلبة، وأخذوا يستعيدون أجزاء من خسائرهم ويتحركون نحو غدٍ أفضل.

والأمة العربية والإسلامية في عصرنا هذا تستقبلُ نهضةً لا شك فيها، نهضةً كموجة المدِّ تعلو في أَناةٍ، ولكنها تمتد ولا يمكن إنكارها أو وقفها.

هذه الأمة تنبض بالحركة في كل مكان من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب

---

(١) جمع الضَّبّ.

ومن شمالها إلى جنوبها. . بل من الحق أن نقول: إن حركتها تعدَّتْ حدودَها، وسَرَتْ هِزّتها إلى قارات أخرى تحيط بها.

هذه النهضة متعددة الجوانب والمظاهر، وبقَدْر ما تنطوي علَيه من قوة وحياة، وبقَدْر تعدد جوانبها ومظاهرها، تتعدد فرص التدافع والتصادم بينها وبين ذوي الأيدي غير المتوضئة والقلوب الخالية من الله سبحانه والمتنكِّرة لدينه ولنبيِّه ﷺ، والتي تتمثل في التيار المستغرِب الذائب في عادات أهل الكتاب وسواهم، المروِّج لتقاليدهم ومناهجهم وأفكارهم وآدابهم وأساليب حياتهم ومعاشهم[١].

وهذه القوى الشريرة التبّاعة للغرب والشرق تُعاكِس رغبةَ الأمة والجماهير المسلمة الغَفيرة، وتحاوِلُ بوسائل الإكراه المادي والأدبي أن تَلوِي زِمامَ تلك الجماهير عن الوجهة التي تريد، وتضغط عليها كي ترتدَّ عن دينها كُلّاً أو جزءاً، على قَدْرِ ما تبلغ أدوات هذا الضغط الباطنة والظاهرة[٢].

هذه القوى ومن يتبعها من الغثاء ومَن يشدُّ من أَزْرِها من المتنفِّذين؛ هم المعنيون بقوله ﷺ: «**لَيَحْمِلَنَّ شرارُ هذه الأمة على سَنَن الذين خَلَوا من قَبْلهم، أهلِ الكتاب، حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة**».

أما المستمسكون بدينهم، والمرابطون على الثغور حتى لا تنفذ منها جراثيم العدوان، والقابضون على الجمر، فيمثلون المفهوم الشامل لقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**»[٣]. والنصر في نهاية المطاف لهم.

يقول (عصمت إينونو) ـ الزعيم التركي وخليفة أتاتورك ـ في تصريح خطير له: (إنني لا أكادُ أصدِّق ما أَرى، لقد بَذَلْنا كل ما نستطيع لانتزاعِ الإسلام من

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٥٥؛ ظلام من الغرب، ص١١٧ ـ ١٣٩؛ حصوننا مهددة من داخلها، ص٢٢.

(٢) معركة المصحف، ص١١.

(٣) انظر الحديث وشرحه في النبوءة (١١٠).

نفوس الأتراك وغرسِ مبادئ الحضارة الغربية مكانه، فإذا بنا نُفَاجَأ بما لم نكن نتوقعه، فقد غَرَسْنا العلمانية فأثمرت الإسلام!)[١].



(١) الضربات، ص٢٣٦.



١٠٥

إخبار النبي ﷺ باقتراق أمته إلى ثلاث وسبعين فرقة

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**افترقتِ اليهودُ على إحدى وسبعينَ فِرْقةً، وافترقتِ النصارى على اثنتينِ وسبعينَ فِرْقةً، وتفترِقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعينَ فِرْقةً**»(١).

٢ ـ وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: أنه قام فقال: أَلَا إنَّ رسولَ الله ﷺ قام فينا فقال: «**أَلَا إنَّ مَنْ قَبْلَكم من أهلِ الكتابِ افتَرَقوا على ثِنْتينِ وسبعين مِلَّةً، وإن هذه المِلَّة ستفترِقُ على ثلاثٍ وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة. وإنه سيخرجُ من أمتي أقوامٌ تَجَارَى بهم تلك الأهواءُ كما يَتَجَارَى الكَلَبُ لصاحبِه، لا يَبْقى منه عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دَخَلَه**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)؛ والترمذي (٢٦٤٠)؛ وابن ماجه (٣٩٩١)؛ وأبو يعلى (٥٩٧٨) و(٦١١٧)؛ وأحمد: ٢/ ٣٣٢؛ وابن حبان (٦٢٤٧) و(٦٧٣١) واللفظ له؛ والحاكم: ١/ ١٢٨؛ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه ابن حبان، والحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في صحاح السنن؛ وصحيح الجامع (١٠٨٣)؛ والصحيحة (٢٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) واللفظ له؛ وأحمد: ٤/ ١٠٢؛ والدارمي (٢٥١٨)؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (٢) و(٦٥)؛ والحاكم: ١/ ١٢٨، وغيرهم، وقال الحاكم: : هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث، ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الشاطبي في الاعتصام: ٣/ ٣٨؛ وحسَّنه ابن كثير في النهاية: ١/ ٣٥ ـ ٣٦؛ والحافظ في تخريج الكشاف ص٦٣؛ وصحَّحه ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٤٥؛ والألباني في الصحيحة (٢٠٤)، وصحيح الجامع (٢٦٤١) وغيرهما؛ وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على =

٣ ـ وعن أنس بن مالكٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ بني إسرائيلَ افترقَتْ على إحدى وسبعينَ فِرْقةً، وإنَّ أمَّتي سَتَفترِقُ على ثِنْتَيْنِ وسبعينَ فِرْقةً، كلُّها في النارِ إلا واحدةً، وهي الجماعةُ»**[1].

٤ ـ وعن عبد الله بن عَمْرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «... **إنَّ بني إسرائيلَ تفرَّقَتْ على ثنتينِ وسبعينَ مِلَّةً، وتفترِقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النار إلا مِلَّةً واحدةً**» قال: مَن هي يا رسولَ الله؟ قال: «**ما أَنا عليهِ وأصْحَابي**»[2].

❁ ❁ ❁

أولاً: معاني الأحاديث:

ـ «**تفترِق أمتي**»: المراد أمة الإجابة، وهم أهل القبلة، فإنَّ اسمَ الأمة مضافاً إليه ﷺ يتبادر منه أمة الإجابة. والمراد: تفرُّقُهم في الأصول والعقائد، لا الفروع والعمليات[3].

ـ «**المِلَّة**»: الدين والشريعة والسنَّة والطريقة.

= شرح السنَّة: ١/ ٢١٣؛ وعبد القادر الأرنؤوط في تعليقه على جامع الأصول: ١٠/ ٣٢.

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣) واللفظ له؛ وأحمد: ٣/ ١٢٠، ١٤٥؛ والآجري في الشريعة، ص١٧؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (٦٤)؛ وابن بطة في الإبانة: ٢/١١٨/٢، وغيرهم، وقد ذكر له الألباني سبع طرق وصحَّحه في الصحيحة: ١/ ٤٠٥ ـ ٤٠٧؛ وفي صحيح ابن ماجه، والسنَّة لابن أبي عاصم؛ وصحَّحه البوصيري في مصباح الزجاجة؛ وقال ابن كثير في (النهاية: ١/ ٣٥): إسناده جيد قوي على شرط الصحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)؛ وذكره البغوي في شرح السنَّة: ١/ ٢١٣؛ وقال الترمذي: حديث حسن غريب؛ وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي؛ وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنَّة. والطرف الأول للحديث تقدّم في النبوءة السابقة: ٣/ ٢٣٦ رقم (٤). وفي الباب عن عوف بن مالك وأبي أمامة وسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وغيرهم.

(٣) تحفة الأحوذي: ٧/ ٥٣؛ سنن ابن ماجه (٣٩٩١) هامش.

وهي في الأصل ما شَرع الله لعباده على ألسنة أنبيائه، ليتوصَّلوا به إلى القُرب منه سبحانه، ويُقيموا به حياتهم ومعاشهم.

ثم إنها اتَّسَعَتْ فاستُعملت في المِلل الباطلة، لأنهم لمَّا عَظُم تفرّقُهم وتديَّنتْ كل فِرقة منهم بخلاف ما تدين به غيرها، كانت طريقة كل منهم كالمِلَّة الحقيقية في التدين، فسُمّيت باسمها مجازاً[(١)].

ـ ومعنى «**تفترق أمتي على ثلاث وسبعين مِلَّة**»: أنهم يفترِقون فِرقاً تتديَّن كل واحدة منها بخلاف ما تتدين به الأخرى.

ـ «**الجماعة**»: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الجماعةُ واللهِ مجامَعَةُ أهلِ الحق وإن قَلُّوا، والفُرْقة مجامعةُ أهلِ الباطل وإن كَثُروا.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى.

وقال أيضاً: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك[(٢)].

وقال أبو شامة: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة؛ فالمراد به لزومُ الحق واتباعُه، وإن كان المتمسكُ بالحق قليلاً والمخالفُ له كثيراً، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا نظر لكثرة أهل الباطل بعدهم[(٣)].

ـ وقد وصف رسول الله ﷺ الفِرقة التي على الحق بأنها الجماعة.

وفي رواية فيها ضعف: «**كلها على الضلالة إلا السواد الأعظم**»، قالوا: يا رسول الله! ما السواد الأعظم؟ قال: «**من كان على ما أنا عليه وأصحابي**»[(٤)].

---

(١) المفردات، ص٧٧٣؛ لسان العرب: ١١/ ٦٣١؛ تحفة الأحوذي: ٧/ ٥٥.

(٢) إتحاف الجماعة: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥؛ مشكاة المصابيح: ١/ ٦١، هامش.

(٣) الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص٢٢.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير: ٨/ ١٧٨ (٧٦٥٩)؛ وانظر: مجمع الزوائد: ٧/ ٢٥٨؛ إتحاف الجماعة: ١/ ٢٦٤.

وفي رواية صحيحة ذكرناها في صدر النبوءة: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

وهذه الصفة تبيّن المرادَ من الصفتين السابقتين، وتدلُّ على أن أهل الحق هم مَن كان على هَدْي النبي ﷺ وأصحابِه، وهم الجماعة وهم السواد الأعظم، من كانوا وأين كانوا.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الفِرقة الناجية: أهلُ السنَّة والجماعة، وهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم)(١).

- «**الأهواء**»: البدع والضلالات والشُّبَه التي تعكِّر بهاء العقائد ونقاءَ الشرائع.

- «**الكَلَب**»: داءٌ يَعْرِض للإنسان من عضِّ الكَلْب الكَلِب، وسببُه فيروس يُصيب الكلبَ، وهو مرضٌ معدٍ ينتقل للإنسان إذا عضَّه الكلب المصاب(٢).

وهذا التشبيه من النبيِّ ﷺ في غاية الدقة والروعة؛ فكما أن (مرضَ الكَلَب) معدٍ ينتقل من الكلب إلى الإنسان، فكذلك الأهواء تنتقل من مبتدعِها ومنشئِها والداعية إليها إلى مقلِّديه، وتسري في دمائهم، وتتخلَّل مفاصِلَهم، وتستولي على لُبِّهم وقلبهم، فتعميهم عن الحق والدواء الشافي!.

ثانياً: شذرة عن أسباب نشوء الفرق ومقالاتها وبيان أصولها وتعيين عددها:

الصراط المستقيم الذي ندعو ربنا في كل صلاة أن يهدينا إليه هو طريق حقيقي يرسمه من الناحية العلمية القرآن الحكيم، ومن الناحية العملية الرسول ﷺ الذي حمل الوحي وطبَّقه وربَّى جيلاً من الناس على عقائده وشرائعه.

وقد شهد التاريخ الإنساني بقوة ووضوح أن سَلَفنا قد لزموا ذاك الصراط صافياً نقيّاً، ورفضوا ما يَشُوبه من بِدع أو أهواء أو تجسيد أو تعطيل أو تأويل، وهم المَثَل الأعلى عند وقوع الاختلاف أو نشوء الانحراف(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٤٥.

(٢) انظر النبوءة (١١١).

(٣) انظر: هموم داعية، ص١٢٥ ـ ١٢٧.

أولئك الذين زكَّاهم القرآن العظيم في آياته الجليلة، وأثنى عليهم النبي ﷺ في أحاديثه الصحيحة الكثيرة، ووجه للاقتداء بهم، فقال: «**إنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين، فتمسَّكُوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذ**»[1].

ووصفهم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: (مَن كان منكم متأسِّياً فليتأسَّ بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلَّها تكلُّفاً، وأقومَها هدياً، وأحسنَها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبةِ نبيِّه ﷺ وإقامةِ دينه، فاعرِفوا لهم فَضْلَهم، واتَّبِعوهم في آثارِهم، فإنهم كانوا على الهَدْي المستقيم)[2].

ولقد استطاع الرسول ﷺ بما أَنزل الله عليه من الكتاب وآتاه من الحكمة وأسبغ عليه من التوفيق وأيَّده بالعصمة والسداد وفَكَّ له مغاليقَ القلوب ـ أن يُنشئ جيلاً ضخماً على العقائد الصافية السامية والشرائع الكريمة والآداب الجليلة والسير الرفيعة، فيشدّ بها جميعاً أوصالَ المجتمع ويحرس كيانه[3].

وهذه القوة الدافعة التي مَخَرتْ عُباب الحياة، ونَشرت روحها في البشر الداخلين في دين الله أفواجاً، وضَمَّت إلى بحرها المتدفق روافدَ الأجيال من أجناس شتى وبيئات متنوعة ومواريث موَّارة وعقليات متنائية ـ استطاعت أن تَصْبغها بصبغتها العامة وتطبعها بطابعها الرباني الأعلى، وتُهيمن على طاقاتها وملكاتها وقواها، وتقودها إلى حين من الدهر.

لكن بمرورِ الزمن وتراخي الروح الوثّابة في الأمة، وتيقُّظِ رواسبٍ في أنفس الأجيال التالية الذين غمرهم الإسلام بهديه الرفيع، وتغايرِ العقول وتخالف القلوب وتباعدِ العهد، وبروزِ أهواء النفوس ونزغاتِ شياطين الإنس، وتربُّصِ

(١) تقدّم الحديث مع شرحه في النبوءة (٩٦).
(٢) جامع بيان العلم: ٢/ ١١٩؛ شرح السنَّة: ١/ ٢١٤؛ مشكاة المصابيح (١٩٣).
(٣) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٨٥ ـ ٨٦.

أهل الهوى والشنآن وأصحاب الأطماع والأحقاد ـ ولَّد كل ذلك نُدباً ظَهرتْ على الجسم الإسلامي الظافر، وأخذتْ تلك النُّدب تتنامى وتُحدِث في الدين آثارها المُرَّة.

وميلادُ الانحراف عَقديّاً كان أو خلقيّاً أو اجتماعيّاً يبدأ من نقطة ثم يسير مشكِّلاً مع الخط المستقيم زاويةً حادة، فإذا قِسْتَ المسافةَ بين خط الزيغ والخط المستقيم وجدتَها قَدْرَ أُصبع، ثم تمتدّ فتصير قَدْر شبر، ولا يزال الزمانُ يُطيل المسافة بين الخطَّين حتى تصير قَدْر ميلٍ أو أميال، ويكون البُعد عن الحق شاسعاً[١].

وأسباب الانحراف عن جادة العقيدة الصحيحة التي أدت إلى ظهور الفِرق والمِلل والنِّحل كثيرة يمكن إجمالها فيما يلي:

الغلو في الدين، والجهل وسوءُ الفهم والتأويلات الخاطئة، والتنطُّع في فهم النصوص وإنزالها منازلها الصحيحة، والتعالم والغرور، والطعن على المخالِف والشدة عليه وسوءُ الظن به، والاستبدادُ بالرأي وضِيق العَطَن، واتباع الهوى والشهوات، والحروب والمِحن، والذين دخلوا في الإسلام على ضِغْن من اليهود والمجوس وسواهم، ودهاةُ أهل الأديان الأخرى ممن سَلَبهم الإسلام ملكَهم ومكانتهم، وتقديسُ الأشخاص وادعاءُ العصمة لهم، والتقليدُ البليد الأعمى، واختلاطُ ثقافتنا بالثقافة اليونانية والفارسية والهندية، وإطلاقُ العنان للعقل والفكر للبحث فيما وراء المادة والتهورُ في ذلك، والغزو الفكري والهزيمة الحضارية التي تمكِّن لفكر الغازي، وضعفُ الإيمان وذبول جذوته في القلوب.

ونتيجة لتلك العوامل وسواها متفرقة أو مجتمعة بدأتْ تظهر منذ عهد الصحابة بعضُ الأهواء والبدع والمقالات الرديئة التي قاومها المجتمع المسلم بقوة، وحاول إخمادَ جَذْوتها وإطفاءَ شِرَّتها، لكن بتطاولِ الزمن وبُعْدِ العهد أخذ

---

(١) هموم داعية، ص١٢٧.

الخرقُ بالازدياد والأهواء بالاطراد، واستمر الأمر هكذا مع مسيرة التاريخ مدّاً وجَزْراً، ولا يزال هكذا حتى الآن.

ونشأت مقالات عديدة وبرزت مِلل كثيرة وتكونت فِرق شتى، وأصبحتْ كل مِلَّة أو فرقة أو بدعة أصلاً تتفرع منه شُعب كثيرة أو قليلة حسب اتفاق أو اختلاف مبتدعيها وحامليها ودعاتها.

وقد وضع بعض من صنَّف في (الفِرق والمِلل والنِّحل) أصولاً وقواعد لتعيين وتعديد الفرق الإسلامية، وهي:

القاعدة الأولى: الصفات والتوحيد فيها، وتشتمل على مسائل: الصفات الأزلية، إثباتاً عند جماعة، ونفياً عند جماعة، وبيان صفات الذات، وصفات الفعل، وما يجب لله تعالى، وما يجوز عليه، وما يستحيل.

القاعدة الثانية: القَدَر والعدلُ فيه، وهي تشتمل على مسائل: القضاء والقدر، والجَبْر والكَسْب، وإرادة الخير والشر، والمقدور، والمعلوم؛ إثباتاً عند جماعة، ونفياً عند جماعة.

القاعدة الثالثة: الوعد والوعيد والأسماء والأحكام، وهي تشتمل على مسائل: الإيمان، والتوبة، والوعيد، والإرجاء، والتكفير، والتضليل؛ إثباتاً على وجه عند جماعة، ونفياً عند جماعة.

القاعدة الرابعة: السمع والعقل والرسالة والإمامة، وهي تشتمل على مسائل: التحسين، والتقبيح، والصلاح والأصلح، واللطف، والعصمة في النبوة، وشرائط الإمامة نصّاً عند جماعة، وكيفية انتقالها على مذهب من قال بالنص، وكيفية إثباتها على مذهب من قال بالإجماع[1].

---

(١) الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٢٠ ـ ٢١؛ وانظر: الفَرق بين الفِرق، للبغدادي، ص١٠ ـ ١١.

وكبار الفِرق الإسلامية: الصفاتية، المعتزلة، الجبرية، الخوارج، المُرْجِئة، الشيعة.

ومن كل واحدة من هذا الفرق الكبرى تفرَّعت فِرقٌ متعددة تخالَفَتْ فيما بينها مذاهبَ شتى، واختلف المصنِّفون في بيانها ذِكْراً وعَدّاً.

ثالثاً: الواقع التاريخي للحديث الذي يبيّن أن الأمة افترقت على (ثلاث وسبعين فرقة):

●● اعتمد أحاديثَ الباب التي قدمنا عددٌ من الأئمة والمصنّفين في (الفِرق) وحاولوا حَصْرَ الفِرق التي ظهرت تحت ظلال الإسلام في ثلاث وسبعين فرقة إحداهن ناجية وهي أهل السنَّة الجماعة، وعلى رأسهم الإمام المتكلِّم النظّار الأصولي الحجة أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الذي بنى كتابه الفذ «الفَرْق بين الفِرَق» على الحديث المذكور، وتابعه الإمام الحجة أبو المظفَّر الإِسْفَراييني في كتابه «التبصير في الدين»، وكذلك فعل أبو المعالي محمد الحسيني العلوي في كتابه «بيان الأديان»، والقاضي عضد الدين الإيجي في «العقائد العضدية»، والشهرستاني في «الملل والنحل»، وغيرهم[١].

والحق أن أصول الفِرق لا يصل إلى (ثلاث وسبعين فرقة)، بل إنه لا يبلغ نِصفه ولا رُبُعَه، وأن فروع الفرق يختلف العلماء في تفريعها.

وهي عند البغدادي كما جاء في تفاصيل كتابه: عشرون روافض، وعشرون خوارج، وثماني عشرة معتزلة قدرية، وست مُرجئة، وثلاث نجّارية، والجَهْميَّة، والبكرية، والضرارية، والكَرَّامية، والمُشَبِّهة؛ فهذه ثنتان وسبعون فرقة، والثالثة والسبعون أهل السنَّة الجماعة[٢].

وأحاديث الباب تتنزل على الفِرق المذمومة، فرقِ أصحاب الأهواء الضالة

---

(١) من مقدمة محمد محيي الدين عبد الحميد لكتاب: الفرق بين الفرق، ص٦ ـ ٧.
(٢) انظر: الفرق بين الفرق، ص٢١ ـ ٢٦.

الذين خالفوا الفرقة الناجية، وتلك الفرق متفاوتةٌ في بِدعتها وضلالها، وكثير منها مُشتَمَلٌ بمسمَّى الإسلام، وبعضُها خارج عن ملَّة الإسلام.

●● واسمُ مِلَّة الإسلام واقع على كلِّ مَن أقَرَّ بحدوث العالم، وتوحيدِ صانعِه، وقِدَمِه، وأنه عادل حكيم، مع نفي التشبيه والتعطيل عنه، وأقرَّ ـ مع ذلك ـ بنبوَّة جميع أنبيائه، وبصحة نبوة محمد ﷺ ورسالته إلى الكافة، وبتأييد شريعته، وبأن كل ما جاء به حق، وبأن القرآن مَنْبَعُ أحكام شريعته، وبوجوب الصلوات الخمس إلى الكعبة، وبوجوب الزكاة وصوم رمضان وحج البيت على الجملة؛ فكل من أقرَّ بذلك فهو داخل في أهل ملة الإسلام، ويُنظر فيه بعد ذلك، فإن لم يُخالِط إيمانَه ببدعة شنعاء تؤدي إلى الكفر فهو الموحِّد السُّنِّيّ[1] . . .

وإنْ ضَمَّ إلى الأقوال بما ذكرناه بدعةً شَنْعاء نُظِر:

فإن كان على بدعة الباطنية، أو البَيَانية، أو المُغيرية، أو الخَطَّابية الذين يعتقدون إلٰهيةَ الأئمة أو إلٰهية بعض الأئمة، أو كان على مذاهب الحُلول، أو على بعض مذاهب أهل التناسخ، أو على مذهب المَيْمونية من الخوارج الذين أباحوا نكاح بنات البنات وبنات البنين، أو على مذهب اليزيدية من الإباضية في قولها بأن شريعة الإسلام تُنْسَخ في آخر الزمان، أو أباح ما نصَّ القرآن على تحريمه، أو حَرَّم ما أباحه القرآن نصّاً ولا يَحْتمِل التأويلَ ـ فليس هو من أمة الإسلام ولا كرامةَ له.

وإن كانت بدعتُه من جنس بِدَعِ المعتزلة، أو الخوارج، أو الرافضة الإمامية، أو الزيدية، أو من بِدع النجَّارية، أو الجَهْمِيَّة، أو الضِّرارية، أو المجسِّمة ـ فهو من الأمة في بعض الأحكام دون بعضها الآخر[2].

---

(١) الفرق بين الفرق، ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) الفرق بين الفرق، ص١٣ ـ ١٤، وانظر: ٢٣٢.

وقد ذكر عبد القاهر البغدادي عشرين فرقة انتسبت للإسلام وليست منه[١].

●● **والذي يجب أن نقرره أن حصر عدد الفرق الثلاث والسبعين في أهل القرون الأربعة الأولى التي جاء في أعقابها أولئك المصنفون؛ هو قصور وتقصير وتحجير للنص وتضييق لشموله وعمومه، فإن النبي ﷺ قال: «تفترق أمتي»،** وأمته ﷺ مستمرة إلى يوم الدين[٢]، وفي كل عصر تنشأ بدع وتظهر ضلالات وأهواء، وينحرف أناس فيُنشئون فرقاً تبتدع في الدين قليلاً أو كثيراً، فتبقى منتظِمة ضمن مسمَّى الإسلام أو تَخْلَع رِبْقَتَه من عنقها؛ فيجب والأمر كذلك أن تُحشر هذه الفِرق والمِلل والبدع ضمن الفرق المذمومة التي أخبر المعصوم ﷺ بضلالها.

وعلى هذا يدخل في مفهوم هذه النبوءة: البابية، والبهائية، والقاديانية، والعلمانية، والوجودية، والاشتراكية التي تنبتها جماعات وأحزاب في بلاد المسلمين وجانبوا ملة الإسلام بل حاربوها! وأنواع القوميات التي ظهرت في البلاد العربية والإسلامية والتي انسلخت عن الدين واتخذت مناهج سواه وأنكرَتْه وحاربت أهلَه..

●● كذلك فإن أغلب تلك الفرق والمِلل التي فَصَّلتْ أقوالَها كتبُ الفرق قد بادَتْ وانقطع أثرها واندثرتْ بِدعتُها وأصبحت من التاريخ، وأمسى الاشتغال بالحديث عنها وإثارة المعارك حولها نوعاً من الترف الفكري، بل العبث الذي يأكل الأوقات ويزيد هوَّة الخلاف والشقاق، وإحياءُ المعارك بين المعتزلة والأشاعرة، والمُثْبِتة والنُّفاة والمجسِّمة؛ لا يخدم الإسلام والمسلمين، ولا يردّ الكيد الزاحف عليهم، والذي يغزو عقائدهم ويدمر بلادهم ويعصف بمقدراتهم ويمزق كيانهم.

ويجب على المسلمين من سَلَف وخَلَف أن يَلزموا أسلوب القرآن الكريم في

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٢) انظر: مقدمة الفرق بين الفرق، لمحققه محمد محيي الدين عبد الحميد، ص٧.

عرض المعتقدات، وأن يَشغلوا أنفسهم بتقديم حلول إسلامية للمشكِلات المحدَثة والأزمات المادية والأدبية الطارئة.

إن ذلك ما فعله السلف الأول، فأعانه على فتح المشارق والمغارب، أما المشتغلون اليوم بإعلان حرب على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فإنهم قد يُحرِزون نصراً في ميدان لا عدوَّ فيه، إنه نصرٌ على الأشباح ولا يَغنم إلا الوهم.

رابعاً: وقفة مع أحاديث الباب والأحاديث الواردة في أن المسلمين نصف أهل الجنة:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كنَّا مع النبي ﷺ في قُبَّةٍ، فقال: «**أَتَرضونَ أن تكونوا رُبُعَ أهلِ الجنة؟**» قلنا: نعم، قال: «**أترضونَ أن تكونوا ثُلثَ أهلِ الجنة؟**» قلنا: نعم، قال: «**أترضونَ أن تكونوا شَطْرَ أهلِ الجنة؟**» قلنا: نعم، قال: «**والذي نفسُ محمد بيده، إنِّي لَأَرجو أن تكونوا نِصْفَ أهلِ الجنة، وذلك أن الجنة لا يَدْخُلُها إلا نفسٌ مسلمةٌ، وما أنتم في أهل الشِّرْك إلا كالشعرةِ البيضاء في جِلْد الثَّور الأَسْودِ، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر**»)[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً نحوه[2].

فكيف يتفق هذا مع حديث افتراق الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة؟.

يقول العلّامة صالح المَقْبَلي اليَمانيُّ في كتابه «العَلَم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ»:

(حديثُ افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، رواياته كثيرة يشدُّ بعضها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٨) واللفظ له؛ ومسلم (٢٢١)؛ والترمذي (٢٥٤٧)؛ وابن ماجه (٤٢٨٣)؛ وأحمد: ١/٣٨٦، ٤٣٧ ـ ٤٣٨، ٤٤٥؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٦٠) و(٣٦١) و(٣٦٣) و(٣٦٤)؛ وابن حبان (٧٢٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)؛ ومسلم (٢٢٢).

بعضاً بحيث لا يبقى ريبة في حاصل معناها. والإشكال في قوله: «**كلها في النار إلا ملة**»، فمن المعلوم أنهم خيرُ الأمم، وأن المرجوَّ أن يكونوا نصفَ أهل الجنة، مع أنهم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود حسبما صرَّحتْ به الأحاديث، فكيف يتمشى هذا؟ فبعض الناس تكلَّم في ضعف هذه الجملة، وقال: هي زيادة غير ثابتة. وبعضهم تأول الكلام.

ومن المعلوم أن ليس المراد من الفرقة الناجية أن لا يقع منها أدنى اختلاف، فإن ذلك قد كان في فضلاء الصحابة، إنما الكلام في مخالفةٍ تصيِّر صاحبها فرقةً مستقلة ابتدعها. وإذا حققتَ ذلك، فهذه البدع الواقعة في مهمات المسائل، وفيما يترتب عليه عظائم المفاسد؛ لا تكاد تنحصر، ولكنها لم تَخُصَّ معيَّناً من هذه الفِرق التي قد تحزَّبَتْ والتأمَ بعضُهم إلى قوم وخالَفَ آخرون بحسب مسائل عديدة).

ثم أجاب عن الإشكال بما خلاصته:

(إن الناس عامة وخاصة، فالعامة آخرهم كأوَّلِهم، كالنساء والعبيد والفلاحين والسُّوقة ونحوِهم ممن ليس من أمر الخاصة في شيء، فلا شك في براءة آخرِهم من الابتداع كأولهم.

وأما الخاصة: فمنهم متبدِعٌ[1] اخترَعَ البدعةَ وجعلها نُصْبَ عينيه، وبَلَغ في تقويتها كلَّ مبلغ، وجعلها أصلاً يَردُّ إليها صرائحَ الكتاب والسنَّة. ثم تبِعَه أقوام من نمطه في الفقه والتعصب، وربما جدَّدوا بدعته وفرَّعوا عليها وحَمَّلوه ما لم يتحملْه، ولكنه إمامهم المقدَّم، وهؤلاء هم المبتدعة حقّاً، وهو شيء كبير ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٩٠]؛ كنَفْيِ حكمة الله تعالى، ونَفْيِ إقدارِه المكلَّفَ، وككونه يكلِّف ما لا يُطاق، ويَفعل سائر القبائح ولا تقبح منه، وأخواتهن! ومنها ما هو دون ذلك، وحقائقها

(١) هذا هو القسم الأول من الخاصة.

جميعاً عند الله تعالى، ولا ندري بأيها يصير صاحبها من إحدى الثلاث والسبعين فرقة.

ومن الناس[١] من تَبِع هؤلاء وناصَرَهم وقوَّى سوادَهم بالتدريس والتصنيف، ولكنه عند نفسه راجع إلى الحق، وقد دسَّ في تلك الأبحاث نقوضَها في مواضع، لكن على وجه خفيٍّ، ولعلَّه تخيَّل مصلحة دنيئة، أو عَظُم عليه انحطاطُ نفسه وإيذاؤهم له في عِرْضه، وربما بَلَغتِ الأذية إلى نفسه. وعلى الجملة فالرجل قد عرف الحق من الباطل، وتخبَّط في تصرفاته، وحسابُه على الله تعالى، إما أن يحشره مع مَن أحبَّ بظاهر حاله، أو يَقبل عذرَه. وما تكاد تجد أحداً من هؤلاء النظَّار إلا قد فعل ذلك، لكن شرَّهم والله كثير، فلربما لم يقع خبرهم بمكان، وذلك لأنه لا يَفْطن لتلك اللمحة الخفيَّة التي دسُّوها إلا الأذكياءُ المحيطون بالبحث، وقد أغناهم الله بعلمهم عن تلك اللمحة، وليس بكبير فائدة أن يعلموا أن الرجل كان يَعلم الحق ويُخفيه. والله المستعان.

ومن الناس[٢] من ليس من أهل التحقيق، ولا هُيِّئ للهجوم على الحقائق، وقد تدرَّب في كلام الناس، وعرف أوائل الأبحاث، وحفظ كثيراً من غُثاءِ ما حَصَّلوه، ولكن أرواح الأبحاث بينه وبينها حائل! وقد يكون ذلك لقصورِ الهمَّة والاكتفاء والرضا عن السلف لوقْعِهم في النفوس، وهؤلاء هم الأكثرون عدداً، والأرذلون قَدْراً، فإنهم لم يَحْظَوا بخَصِيصَةِ الخاصة، ولا أدركوا سلامةَ العامة!.

فالقسم الأول من الخاصة: مبتدعة قطعاً، والثاني: ظاهره الابتداع، والثالث: له حكم الابتداع.

ومن الخاصة قسم رابع؛ ثُلَّة من الأولين وقليلٌ من الآخِرين، أقبلوا على الكتاب والسنَّة، وساروا بسيرها، وسكتوا عما سكتا عنه، وأقدَمُوا وأحجَمُوا

---

(١) هذا هو القسم الثاني من الخاصة.

(٢) هؤلاء هم القسم الثالث من الخاصة.

بهما، وتركوا تكلُّفَ ما لا يعنيهم، وكان تهمُّهم السلامة، وحياة السنَّة آثَرُ عندهم من حياة نفوسهم، وقُرَّةُ عينِ أحدِهم تلاوةُ كتاب الله تعالى، وفهمُ معانيه على السليقة العربية والتفسيرات المروية، ومعرفةُ ثبوت حديث نبوي لفظاً وحكماً، فهؤلاء هم السنّة حقّاً، وهم الفرقة الناجية، وإليهم العامة بأَسْرِهم، ومَنْ شاء ربك من أقسام الخاصة الثلاثة المذكورين، بحسب علمه بقدر بدعتهم ونياتهم.

إذا حققتَ جميعَ ما ذكرنا لك؛ لم يَلزمْك السؤال المحذور، وهو الهلاكُ على معظم الأمة، لأن الأكثر عدداً هم العامة قديماً وحديثاً، وكذلك الخاصة في الأعصار المتقدمة. ولعلَّ القسمين الأوسطَيْن، وكذا مَن خفَّت بدعتُه من الأول، تُنقِذهم رحمةُ ربك من النظام في سِلك الابتداع بحسب المجازاة الأخروية، ورحمةُ ربك أوسعُ لكل مسلم، لكنا تكلَّمْنَا على مقتضى الحديث ومصداقه، وأن أفراد الفرق المبتدعة وإن كَثُرت الفِرق فلعلَّه لا يكون مجموعُ أفرادهم جزءاً من ألف جزء من سائر المسلمين.

فتأمَّلْ هذا تسلَمْ من اعتقاد مناقضةِ الحديث لأحاديث فضائل الأمة المرحومة)[١].

وهذا كلام متين نفيسٌ نَخْتِم به الكلامَ في هذه النبوءة، فكثيرٌ من أتباع أصحاب البدع والفرق الضالة والأحزاب اللادينية؛ هم عوام لا فَهْمَ له ولا دراية، والحكم عليهم بالنار والخسران والبوار فيه مجازفة، وأمرُهم إلى الله تعالى، والوِزرُ الأكبر يقع على مخترِعي البدع ومؤسِّسي الفرق والمنظِّرين لها والمصنِّفين في نُصْرتها والحراس لها والدعاة إليها.



(١) العلم الشامخ، ص٤١٤ فما بعدها، نقلاً عن: السلسلة الصحيحة: ١/ ٤١١ ـ ٤١٣.



إخبار النبي ﷺ بأن الأمة الإسلامية لا تجتمع على ضلالة

١ ـ عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ الله لا يَجْمَعُ أُمَّتي ـ** أو قال: **أمَّةَ محمدٍ ﷺ ـ على ضلالةٍ، ويدُ اللهِ على الجماعةِ، ومَنْ شَذَّ شذَّ إلى النار**»(١).

٢ ـ وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَجْمَعُ الله أمَّتي على ضلالةٍ أبداً، ويدُ اللهِ على الجَماعة**»(٢).

٣ ـ وعن كَعْب بن عاصم الأَشْعري(٣) رضي الله عنه: سَمِع النبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ الله تعالى قد أَجارَ أمَّتي مِن أنْ تجتمعَ على ضلالةٍ**»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) واللفظ له؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (٨٠)؛ والطبراني في الكبير: ١٢/ ٤٤٧ (١٣٦٢٤)؛ والحاكم: ١/ ١١٥ ـ ١١٦؛ والبيهقي في الأسماء والصفات: ٢/ ٥٥؛ وأبو نعيم في الحلية: ٣/ ٣٧؛ والداني (٣٦٨)؛ وذكره البغوي في شرح السنَّة: ١/ ٢١٥؛ وصحَّحه الألباني دون قوله: «ومن شذ...»؛ وانظر: صحيح الترمذي: ٢/ ٢٣٢؛ صحيح الجامع (١٨٤٨)؛ وصححه شعيب الأرنؤوط بطرقه وشواهده.

(٢) أخرجه الحاكم: ١/ ١١٦؛ وأخرج الترمذي الفصل الثاني منه، وقال: حديث حسن غريب (٢١٦٦)؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي: ٢/ ٢٣٢؛ والمشكاة (١٧٣) هامش؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنَّة: ١/ ٢١٥ حاشية (٢).

(٣) هو غير الصحابي أبي مالك الأشعري، انظر: تهذيب الكمال: ٢٤/ ١٧٧ (٤٩٧٣).

(٤) أخرجه ابن عاصم في السنَّة (٨٢) و(٩٢)؛ وحسَّنه الألباني بطرقه وشواهده، في الصحيحة (١٣٣١)؛ وتخريج السنَّة، لابن أبي عاصم.

٤ ـ وعن أنسِ بن مالك رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ كان يقول: «**إنَّ الله قد أَجارَ أمَّتي أن تجتمعَ على ضلالةٍ**»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: كلمة مجملة لبيان مدلول الأحاديث:

هذه النبوءة من المبشِّرات الجليلة التي أَخبر بها النبي ﷺ، واستمر تحقُّقُ وقوعها على مدار التاريخ الإسلامي في مختلِف حِقَبِه، مما يُقِرُّ عينَ رسول الله ﷺ ويبعث الطمأنينة في نفوس المسلمين للاستمساك بدينهم، ويُبقي بابَ الأمل مفتوحاً أمام الأمة بأنها لا تزال معتصمة بإسلامها، مهما ادلَهمَّتْ عليها الظلمات وتناوشَتْها الخطوب وتألَّب عليها الأعداء، فوعدُ الله باقٍ وبشارةُ النبي ﷺ متحققة.

وباستقراء تاريخنا الطويل حتى أيامنا هذه نجدُ مصداقَ هذه البشرى حقيقة راسخة ثابتة، يتعاورها الامتداد والانحسار، والقوة والضعف، والشدة والفتور، بَيْدَ أنها لا تَذْوي ولا تذوب ولا تضمحلُّ.

والمراد بالأمة أمةُ الإجابة، والجماعة هي ما وافق كتابَ الله تعالى وسنَّةَ رسوله ﷺ، والاستمساكُ بالحق وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

أخرج ابن أبي شيبة عن يُسَيْر بن عَمْرو قال: (شَيَّعْنَا أبا(٢) مسعود حين خرج ـ أي: من الكوفة ـ فنزل في طريق القادسية، فدخل بستاناً فقضَى حاجته، ثم توضأ ومَسَح على جوربَيْه، ثم خرج وإنَّ لحيتَه لَيقطُرُ منها الماء، فقلنا له: اعْهِدْ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٨٣)؛ وحسَّنه الألباني بشواهده؛ وفي الباب: عن أبي مالك الأشعري، أخرجه أبو داود (٤٢٥٣). وعن أبي ذر الغفاري، أخرجه أحمد: ٥/ ١٤٥. وعن أبي بصرة الغفاري، أخرجه أحمد: ٦/ ٣٩٦، وغيره. وانظر: التلخيص الحبير: ٣/ ١٤١؛ المقاصد الحسنة ٧١٦ (١٢٨٨).

(٢) في بعض المصادر: (ابن)، وهو تحريف، فعبد الله بن مسعود توفي سنة (٣٢هـ) قبل وقوع الفتن.

إلينا، فإن الناس قد وقعوا في الفتن، ولا ندري هل نلقاك أم لا؟ قال: اتَّقُوا الله واصبروا حتى يَستريح برٌّ أو يُستراح من فاجرٍ، وعليكم بالجماعة؛ فإن الله لا يَجمع أمةَ محمدٍ على ضلالة)[1].

وقد سئل الإمام الجليل عبد الله بن المبارك عن الجماعة، فقال: أبو بكر وعمر[2]!.

وصدق ابن المبارك، فإن أيام خلافتهما رضي الله عنهما وأرضاهما كانت أبركَ أيام الإسلام والمسلمين وأنضَرها بعد النبوة. ولا شك بأن ابن المبارك أراد ما كان في عهديهما من قيامٍ تام بأمور الإسلام كلها، وتطبيقٍ فذّ لهديه، قام به الصحابة والتابعون في ذلك الزمان الأرشد.

والأمة الإسلامية لا تجتمع على ضلالة عَقَدية أو فكرية أو عبادية أو أخلاقية، فلا يقع من الأمة مجتمعة أن تتبع متنبئاً كذَّاباً، أو مبتدعاً ضالّاً، أو صاحبَ فكر لاديني، أو تفرِّط في عبادة من العبادات، أو ترتكب واحدة من المحرمات، أو تقع في مآثم التهتك والانحلال، أو تسكت عن المظالم، أو تُقِرّ حكماً كافراً، أو تتهاون في احتلال بقعة من أرضها، أو انتهاك مقدساتها، أو العدوان على دينها وثوابتها، أو ترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو رفع راية الجهاد، أو الرضا بالتلاعب بآيات الكتاب العزيز، أو الهجوم على السنن والتهوين من شأنها، أو الحط على صحابة النبي ﷺ، أو غير ذلك مما هو من حقائق الإسلام وأركان الدين وشعائر الملة ومعالم الرسالة.

نعم قد يقع هذا الأمر أو ذاك مما ذكرناه في حِقْبة من الحِقَب، أو بلد من البلدان، أو رقعة كبيرة أو صغيرة من أرض الإسلام، أو جيل من الأجيال، لكن

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٦٠٤؛ وذكره الحافظ في التلخيص الحبير: ٣/ ١٤١، وقال: إسناده صحيح، ومثله لا يقال من قبل الرأي؛ ونقله عنه صاحب تحفة الأحوذي: ٦/ ١٧ ـ ١٨.

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٤٦٧.

هذا لا يكون عامّاً شاملاً للأمة عامة وللمسلمين جميعاً ولبلادهم كلها، وهذا ما شهد به التاريخ، وهذا ما تشير إليه هذه النبوءة.

ثانياً: استقراء تاريخي لتحقق النبوءة:

لقد ظل الإسلام محور الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية طيلة مسيرة التاريخ الإسلامي، بيد أن هناك أخطاءً وشوائبَ شابتِ الحياة الإسلامية في بعض نواحيها، لكن هذه الأخطاء لا يجوزُ الزعمُ بأنها عطَّلتِ الإسلامَ نفسَه، أو باعَدَتْ بين حقائقه وسيرِ التاريخ؛ فالمسلمون قد سَلَخوا من تاريخهم أربعةَ عشر قرناً وهم مرتبطون قلبيّاً وفكريّاً بدينهم، يَصدرون عنه، ويَنطلقون منه. ولقد اعْتَوَرَ تاريخَنا قانونُ المد والجزر، ولكن جمهورَ المسلمين مُصِرُّون على الاستمساك بالدين كلِّه، وراغبون أن ينالوا حريةَ العمل به والاحتكامَ إليه، رغم ما لَحِق بهم من متاعبَ ونالهم من آلام[1]!.

والهجومات التي زحفت على الأمة، والضربات التي وُجِّهت إليها، والخسائر التي مُنِيت بها، والآلام التي صُبَّت عليها؛ لم تُزحزحْها عن التشبُّث بدينها، بل كانت في كل مرة تَصْقُل معادنَ رجالها، وتُنقِّيهم مما أزرى بهم، ليكسبوا المعركة في النهاية! وفي ذلك تصديق لهذه الأحاديث النبوية الشريفة، وتحقيق لقيام الأمة بواجب الاستخلاف والبلاغ وحمل الرسالة الخاتمة.

فلو أن الأمة اجتمعت على الضلالة، لانطفأ نور الإسلام، وانقطَع استمرارُ الرسالة، وتخلَّف الوعدُ الحق بحفظِ الإسلام وكتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ، وهذا مُحال!.

يقول الإمام الغزالي: (تظاهرت الرواية عن رسول الله ﷺ بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى في عصمة هذه الأمة من الخطأ)[2].

---

(١) معركة المصحف، ص١١، ٢١، ٤٧، مقتطفات.

(٢) أحاديث معجزات الرسول: ٢/ ٢٤١.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإذا أجمع أهل العلم على شيء، فسائرُ الأمة تَبَعٌ لهم، فإجماعُهم معصومٌ لا يجوز أن يُجمِعوا على خطأ).

ويقول في موضع آخر: (وأما إجماعُ الأمة فهو حقٌّ، لا تجتمعُ الأمة ـ ولله الحمد ـ على ضلالةٍ، كما وصفها الله بذلك في الكتاب والسنة)(١).

وهذا من خصائص هذه الأمة المباركة، فهي لم ولن تتواطأ على التفريط بنص من الكتاب أو السنة، أو تحريفهما، أو تغييرهما، أو تبديلهما، أو كتمانهما، أو تكذيبهما، هذا مما عصمها الله منه، وأخبرنا بذلك رسوله ﷺ!.

وهو من أقوى الأدلة على افتراء الرافضة وكَذِبهم على الله ورسوله، وافترائهم على الصحابة رضي الله عنهم، بأنهم كَتَمُوا نصَّ وصية النبي ﷺ باستخلاف علي رضي الله عنه الوصيّ.. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

ثالثاً: من المعالم الكبرى والخطوط العريضة لتحقق النبوءة:

١ ـ الخلافة والحكم:

قام رسول الله ﷺ ببناء الدولة الإسلامية، وشيَّد تعاليمَ الإسلام دِقَّها وجِلَّها، على نحو ليس له نظير، ثم خَلَفه الراشدون الأربعة فساروا على هداه، وانتهت تلك الحِقْبة، واستلمت الرايةَ الدولةُ الأموية، وجاءت بعدها الدولة العباسية، ثم ذَوَتْ هذه واضمحلَّت، فبرزت على مسرح الأحداث دولةُ بني عثمان، فتابعتِ الحكمَ بالإسلام وتثبيت شرائعه وحراسة شعائره.

وجميعُ الخلفاء والملوك والحكام والأمراء كانوا محكومين بتعاليم الإسلام، مع وجود هَنَات وأخطاءَ عند بعضهم، إلى أن سقطت راية الخلافة سنة (١٩٢٤م).. فتصدَّى المسلمون للأمر، وبدؤوا الكفاح لإعادة الحكم الإسلامي بما أنزل الله تعالى.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/١٧، ١٩/١٧٦.

لا ريب أن ثمَّة جمهوراً عريضاً لم يَعبأ بانهيار الخلافة، بل إن هناك من يسعى جاهداً لفَصْل الدين عن الحكم، بيد أن الأمة لم تجتمع على تلك الضلالة، فولدت من رحمها المُنجب النجيب حركاتٌ إسلامية وجماعات وأحزاب وتجمعات ودعوات، تناضل لإعادة الإسلام إلى الحكم، وتجاهد في سبيل ذلك، وتكتب وتناظر، وتبذل الغالي والنفيس، وتسعى جاهدة لتصحيح المسار، وتصويب الأفكار، وتنوير العقول، وحشد الطاقات، وتحفيز الجماهير. وترادفت إليها جهودُ العلماء، وكتابات المفكرين، وجهود المخلصين، وتكوَّن من جميع ذلك تيارٌ عريض شمل مختلِف شرائح المجتمعات، وعَبَر الحدودَ إلى كافة البلدان الإسلامية، فانتشر في المشرق والمغرب الإسلامِيَّيْنِ، ولسوف يصل إلى هدفه ولو بعد حين.

٢ ـ الحركات الجهادية ضد الأعداء:

وتضعف الدولة الإسلامية الكبرى، وتتمزق وحدتها، وتتآكل مؤسساتها، وتخور قواها، فتدبُّ فيها عوامل الانهيار والسقوط، وتهاجمها قوى الأعداء المتربصين، كما حدث في تاريخنا خلال الحروب الصليبية، والزحوف التتارية، والاستعمار الأوروبي والشيوعي، فتُهزم الدولة وتنحسر قوى الأمة، وتُستباح مبادئها وأرضها وأهلها! لكن هذه الضلالات لا تجتمع عليها الأمة، بل تنهض فيها القوى الكامنة في دمائها والحميَّةُ الفوَّارة في قلوبها، فتنهد القوى الإسلامية لتنازل الأعداء وتستعيد الكرامة وتحمي الذِّمار والديار، وتبذل المُهَج والأرواح رخيصة لنصرة مبادئ الإسلام.

وهذا ما شهد به التاريخ في أعمال المرابطين والموحِّدين في المغرب والأندلس، والسلاجقة والمماليك والأيوبيين في المشرق على أيدي الكبار من أمثال عماد الدين زنكي ونور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي وقطز وسواهم.

وهكذا كان في حركات التحرير التي شهدها القرن الفائت، على أيدي أبطال كبار من أمثال عبد القادر الجزائري وعمر المختار وعز الدين القسام

وعبد الكريم الخطابي وإبراهيم هنانو، ومن سار على هديهم من حركات جهادية تصاول الصليبيين واليهود والشيوعيين إلى الآن، في حروب مستمرة، لتطهير أرض الإسلام من الضلال والفتنة المنتشرة على أيدي الفتانين الفاتكين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

٣ ـ الطائفة المنصورة:

ونتيجةً لتلك الهجومات المتلاحقة على الدولة الإسلامية، نجدُ عبر تاريخنا الطويل أن أناساً كثيرين من المسلمين يَستكينون، ويَخفضون راية الجهاد، ويركنون إلى الدنيا والدَّعَة، ويَرْضَون بالزرع والضَّرع، ويأخذون بأذناب البقر كما جاء في الحديث[١].

لكن راية الجهاد لم تسقط في جميع بقاع الإسلام، ولا اجتمعت الأمة على إلقائها، وبقيتْ عصاباتٌ مؤمنة وجماعات راشدة صادقة حمَّالة لذلك الشرف، تُنازِل العدو هنا وهناك، كلما سمعتْ هَيْعَةً طارت إليها، وكلما أرادها عدو بخَسْفٍ تصدَّت له ونازَلَتْه، فنالت منه ونال منها.

وأيامُ تاريخنا القديم والوسيط والحديث شاهدة بذلك، ففي تاريخنا المعاصر انظر في أرض العروبة والإسلام والمجاهدين فيها، لتراهم في فلسطين والعراق والصومال والسودان وأفغانستان والشيشان وكشمير والبوسنة والفيلبين وغيرها.

إنَّ تركَ الجهاد وإلقاءَ السلاح والعدو يَنتقِص أطرافنا ضلالةٌ أي ضلالة! والأمة لم تجتمع عليها، وهذا حقٌّ واقعٌ ومصدِّقٌ لهذه النبوءة ولقولِه ﷺ في الطائفة المنصورة: «**لا تزالُ عصابةٌ من أمتي يُقاتِلون على أمر الله، قاهرين لعدوِّهم، لا يَضرُّهم مَن خَالَفَهم**»[٢].

---

(١) انظر: النبوءة رقم (١٥٠).

(٢) انظر: النبوءة رقم (١١٠).

٤ ـ الهجوم التبشيري التنصيري الاستشراقي وما فيه من ضلال:

ومع الحملات العسكرية على الإسلام والمسلمين وديارهم؛ جاءت جيوشٌ من المبشِّرين المنصِّرين وفئام من المستشرقين، لصرفِ المسلمين عن عقائدهم وحضارتهم، وتشويهِ تراثهم وتاريخهم وفكرهم وثقافتهم، وبُذِلت في سبيل ذلك جهود جبَّارة مضنية، استمرت عقوداً، ودأبت في عملها ليلاً ونهاراً، وسقط في أَتُونها كثير من المسلمين، وخسِرنا بلا شك شيئاً كثيراً.

لكن الأمة لم تَقبلْ بذلك الضلالِ، ولا استسلمَتْ للإفك والافتراء، ولا سكتَتْ عن التزوير والتحريف والتبديل، وفَهِم المسلمون حقيقة دينهم ورسالته ومهمته، (وأزاحوا ذلك المفهومَ المغلوط المضلِّل الذي أمضى المستشرقون أكثر من قرن من الزمان يَخدعون المسلمين به عن الحق، سواء بقدرتهم في مجال السيطرة السياسية، بِحَجْبه عن المدرسة والمصرف والمحكمة «التعليم والاقتصاد والقانون»، أو بمغالطاتهم ومؤامراتهم عن طريق المناهج التعليمية والثقافة والصحافة وأدوات الترفيه والإعلام)[(١)].

وتصدَّى رهطٌ من المخلِصين من العلماء والمفكّرين والكتّاب لفَضْح مخاطر وضلالات التبشير والاستشراق، وصدرت كتب قيّمة جادة لحماية المسلمين من أوضار تلك الضلالات التي خُدِع بها كثيرون ممن لا بصر لهم ولا بصيرة عندهم.

٥ ـ ضلالات البدع والأهواء والأحزاب اللادينية والتيارات الهدامة والغزو الفكري:

منذ عهود الإسلام الأولى وإلى الآن تجتاح ديارنا بِدعٌ كبرى وصغرى، وأهواءٌ ومِلَلٌ ونِحَلٌ؛ تحاول تشويهَ الإسلام أو تدجينَه أو تهجينَه أو طردَه من

---

(١) الضربات، ص٣١٤.

الأنفس لتحلّ محلَّه! وانتشرت تلك الضلالات في ديارنا، وغَزَتْ عقولَ أبنائنا، وأحدثَتْ شروخاً سطحية أو غائرة.

لكن جمهور المسلمين لم يَقبل بها، ولا أَصْفَقَتْ أيمانُه على الرضا بأضاليلها.

فمنذ القديم نبغت فينا بِدعُ الخوارج والقَدَريَّة والجَبْريّة والمُجسِّمة والمُعَطِّلة والنُّفاة والقول بخَلْق القرآن، وحركات الزندقة والقرامطة والباطنية وسواها.

واستمرت إلى الآن فتجسَّدت بالوجودية والعلمانية واللادينية والماركسية والفرويدية وغيرها، وتبنَّتْها أحزاب، وناضَلَتْ دونها جماعات، وأخذت بها حكومات، ومارسها آخرون بالحديد والنار، وحاولوا إماتة كل من يناوئها، لكنها كلها باءت بالفشل، وانحسرت تمضغ الحسرة.

تقول جريدة الصنداي تلغراف البريطانية: (الإسلام قادر على تغيير أي نظام ديكتاتوري مهما بَلَغَتْ قوَّتُه، وإنه لأول مرة تتجه الدولة الإسلامية إلى الشريعة بعد فشل الاشتراكية والديمقراطية والقومية أيضاً).

ويقول بشير العوف: (إنه بعد انهيار الشيوعية الدولية، فإن الحقد الصليبي التاريخي سيتفرَّغ لمحاربة الإسلام، فكيف سنجابه حربَ عدلٍ وأمنٍ وسلام ومحبَّة؟!)[١].

والمرء في بلاد العروبة والإسلام يعيش في أزمة شكٍّ، فالمذاهبُ الاجتماعية والسياسية والفكرية تغزوه، وتترك في عقله أقلَّ ما تترك تشويشاً ونَصَباً، والوجهاتُ السياسية المختلفة وما تجنِّده كلُّ وجهةٍ من وسائل الدعاية لذاتِها، والهدمِ في سواها؛ تحرمه نعمةَ الثقة والاطمئنان[٢].

---

(١) الضربات، ص٣١٤.

(٢) معركة المصحف، ص٤٣.

وهذا من الضلال المبين والأوضار المُهلِكة التي جَلَبَتْها إلى ديارنا دعاة التغريب والعلمانية ومن يحميهم من الساسة في أرضنا وفيما وراء البحار!.

لكن تيار الصحوة الإسلامية الدفَّاع وما أنجبه من مفكرين وكتّاب ودعاة وغيورين، وما أنتجه من كتابات نيِّرة مشرِقة قذفت بالحق على الفكر الوافد فدَمَغَتْه، وهي ماضية في طريقها لتجفيف المستنقعاتِ الفكرية الحَمِئة التي خلَّفها الغزو الاستعماري، سواء في الشرق الأوسط أو في أطراف القارات التي بَلَغها دينُ الله.

وإن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة، وثبت أن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يَهْلِك دونه!.

٦ ـ في الفرائض والأركان:

وعلى صعيد أركان الإسلام وفرائضه وواجباته، وعلى رأسها الصلاةُ والصيام والزكاة والاعتناء بالقرآن الكريم قراءةً وإقراءً وحفظاً وتلاوة ـ نرى تفريط جمهور غفير من المسلمين فيها!.

فهناك عابثون صغار إذا انطلقت أصوات المؤذِّنين بتكبير الله وتوحيده، تغافلوا عنها وتثاقلوا عن أدائها، وربما تغامزوا وتضاحكوا وسَخِروا بالركّع السُّجود! وقوم آخرون يعقدون جلسة جادة أو هازلة ليسمُروا في نادٍ أو ليستريحوا في مقهى.. وغيرهم يتصايحون في الأسواق والمراكز والمتاجر غافلين عن ذكر الله.

وكثير من الدول لا تقدِّس هذه الشعيرة العظيمة! دَعْ عنك الذين يَهجُرون الجماعات ولا يعرفون اتجاه القبلة إلا يوم الجمعة، وآخرين تركوها البتة، والبعض جَحَدها عمليّاً.

وقُلْ مثلَ ذلك في شعيرة الصيام، ففي كثير من بلادنا العربية والإسلامية تشيع جريمة الإفطار العمد والعصيان السافر لله تعالى وإيذاء المسلمين في

شعورهم إزاء هذا الركن الرفيع! بل إن بعض الدول تَدَعُ الفاسقين يمدّون الموائدَ للغداء هنا وهناك تحدياً للشهر الحرام!.

وفريق عريض من المسلمين نسي أن فريضة المال هي الزكاة، فلا يَعير لها بالاً، ولا يرفع بها رأساً، وتنكَّر كثير منهم لهذه الشعيرة الجليلة التي كانت أولَ فريضة تنكّر لها بعض ضعاف الإيمان بُعيد وفاة النبي ﷺ، فتصدَّت لهم سلطةُ الدولة وجيَّش أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيوشه لهم وراغَمَهم على الرجوع إلى الحق وأخذ منهم زكاة أموالهم.

والقرآن الكريم قد اتُّخِذ مهجوراً في منابر الحكم ومؤسسات الدول الكبرى والصغرى، وأقفرتْ بيوت كثيرة منه، ولربما وُضِع في بعضها على الرفّ للتبرك أو لتلاوته من الجمعة إلى الجمعة، وأما أخلاقه وآدابه وتوجيهاته وأوامره ونواهيه فمعطَّلة في أحايين كثيرة هنا وهناك.

بَيْدَ أن كلَّ هذه الضلالات وسواها لم تجتمع الأمة عليها، والتهاونَ فيها يوجد في هذا البلد أو ذاك قليلاً أو كثيراً، لكن تلك الشعائر العظيمة كلها قائمة في عموم الأمة مع الاحترام والتبجيل والتعظيم.

فترى كذلك جماهير غفيرة من المسلمين حراصاً على الصلاة في دورهم وأسواقهم ومتاجرهم وسَفَرهم وحَضَرهم، يؤدُّونها ويَحملون أهليهم عليها، ويَدْعون إليها ويحضّون على إقامتها. والمساجدُ في كثير من البلدان والمدن والحواضر والقرى عامرة بالمصلين، وتقام صلاة الجماعة في بعض الدول العربية والإسلامية في المؤسسات والوزارات والمدارس والجامعات والنوادي والنقابات ونحوها. وهي شعيرة لن يستطيع أحد أن يمحو معالمها، نعم قد يُطارَدُ أصحابُها هنا وهناك، لكنهم مستمسكون بها، لا يصدهم عنها ضلال المفرطين فيها.

وقُلْ مثلَ ذلك في الصيام والزكاة حيث يحرص كثير من المسلمين على أداء

هاتين الفريضتين والاحتفاء بهما، وإخراج أموال الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس ودون رقابة سلطان الدولة عليهم.

والقرآن الكريم لا يزال وسيبقى يُراغِم أعداءه وشانئيه بما يبذله المسلمون في سبيله بإقامة مراكز تحفيظ القرآن وتخريج حفظة كتاب الله، وتخصيص إذاعات تبث القرآن المرتل والمجود والمعلِّم ساعات طويلة من النهار والليل.

ولئن وقعتْ جماعات وفئات من المسلمين في ضلالة التفريط بتلك الأركان والفرائض، فعامةُ الأمة مقيمةٌ لها معتصمةٌ بِعُراها، لا تجتمع مع المفرّطين بها على تلك الضلالات!.

٧ ـ في الموبقات والمحرمات:

وتفشَّتْ في مجتمعاتنا كثير من الموبقات التي حرَّمَها الإسلام وحاربها، وسعى حثيثاً لإقامة مجتمع طاهر نظيف من أوضارها، وهي الآن تهاجم المجتمعات بعنف وقسوة، من مثل الربا الذي تنتشر مؤسساته في طول البلاد وعرضها لا تستثني دولة! وكذلك الزنى وبيوت الدعارة والخَنَا، والخمور التي أُقيمت مصانعها في بلادنا وانتشرت حاناتها في حواضرنا ومدننا، وقُدِّمت سموماً في فنادقنا وعلى متون طائراتنا، وجُوهِر بها في مواقع شتى! وكثرت أساليب اكتساب المال الحرام بالسرقة والنهب والاختلاس والتحايل والغش والرشوة وطرق التحايل المختلفة على الحلال وأكل أموال الناس بالباطل!.

لكننا نؤكد ثانية وثالثة أن الأمة لم تجتمع على ذلك.

فهناك فريق عريض من المسلمين يتورَّع عن مقاربة الربا والتعامل به وإدخاله إلى ماله أو جوف عياله. ونهضت فئات من الغيورين في بعض البلدان فأقامت البنوك الإسلامية، وهي تجربة جبارة في خِضمّ عالَم يقوم على الربا ويموج به في كل مكان، والفتَّانون يقاومون بصرامةٍ نجاحَ فكرة الاقتصاد الإسلامي، ويحاولون إجهاضَها بطرق شتى، والمسلمون مستمسكون بها.

وهكذا ينأى الجمهور الأكبر في الأمة عن مقارفة الخمور أو مقاربة

مجالسها، كما يحرص الجم الغفير على اكتساب المال الحلال والتورّع في تحصيله وإنفاقه في المآكل والمشارب.

وعامة المسلمين يتمسكون بالطهر في الزواج، ويقاطعون كل ما يمتُّ إلى جريمة الزنى بصلةٍ، ويشيرون بأصابع الاتهام إلى من يقارفها أو يقاربها.

وتجدُ أغلبَ المسلمين لا يُصاهرون ولا يشاركون مَن يقع في حمأة تلك الموبقات وسواها، وهذا بحمد الله تعالى شعور جليل وتأكيد وتصديق للنبوءة التي نشرحها.

٨ ـ في ميدان المرأة والانحلال الخلقي:

وانتشرت في بلادنا موبقة كبرى تتعلق بالمرأة وأخلاق الأمة، وقد سَعَتْ عصابات من أعداء أمتنا لإخراج المرأة عن عفَّتِها وطهرِها، فزَيَّنتْ لها طريق الباطل، وخدعَتْها بشعارات الحرية والمساواة والحداثة والانعتاق من الماضي وتقاليده وقيوده، حتى خَلعت حجابها وهَتكت ثيابها وتعرَّت أمام الذئاب العاوية، وسرى العريُ والتهتكُ في مجتمعاتنا كالنار في الهشيم، وحَملتْ راياتِه السودَ أبواقُ الإعلام المختلفة وفي مقدمتها القنوات الفضائية التي تبث العري والعهر والمجون والخلاعة صباحاً ومساءً.

وهُوجمتْ أخلاق الشباب لصرفهم عن العمل البناء والجد والاجتهاد وإحياء الأمجاد، وسَرَتْ في أبنائنا أمراض عضال من الميوعة والرَّقاعة والتخنُّثِ وتشبُّهِ كل جنس بالجنس الآخر، وفراغ القلب والنفس والعقل من كل أمر جاد!.

لكن عوامل البقاء في الأمة ردَّتْ على هذا التيار بصرامة وأصالة، وتحدَّت المرأةُ المسلمة كلَّ ألوان الإغراء والخلاعة والمجون والتهتك، واستمسكت بعفافها وطهرها وجلبابها، بل ونقابها! ولو نظرتَ في مدارسنا وجامعاتنا ومؤسساتنا وأسواقنا؛ لرأيتَ الحجاب الإسلامي يزيِّن هامات نسائنا وبناتنا،

وتراهنَّ يُفاخِرن به، ويترفعن على المغريات، ويتحدَّين الأراجيفَ والمضايقات!.

وترى مثلَ ذلك في مجال الأخلاق، فالأمة ولله الحمد منجبة ولَّادة، ففي ربوع مجتمعاتنا نبتت أزاهير من الشباب الغضّ الذي تعلَّق قلبُه بالسماء، وارتقى بأخلاقه عن وضاعة الأرض التي تسفَّل إليها الوضعاءُ، وازدانت بهذا الجيل المبارك من الشباب والشابات المجتمعاتُ والمنتديات والمساجد والمدارس والجامعات والمراكز والنقابات والمؤسسات...

إن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة أبداً.

٩ ـ في مجال العلم:

ترى في هذا الميدان الرحيب ضلالاً كبيراً وسوءاً كثيراً، فمنذ قرون وإلى الآن ظهر في أمتنا مَن كذَّب بالسنَّة النبوية، ومَن وَضَع الأحاديثَ المكذوبة ليضلِّل بها الناس، وصنفٌ آخر حرَّفَ الكَلِمَ عن مواضعه، وتلاعَبَ بآيات الكتاب ومعانيها ومدلولاتها وأحكامها، وآخرون استمرؤوا الفتوى واسترخصوها، وآذوا الأمة بفتاوى ضالة رخيصة تميِّع الأحكام وتحلِّل الحرام وتدجِّن الإسلام وتهوِّن من شؤون الواجبات، وهي في زماننا كثيرة منتشرة في غير صقع من ديار الإسلام.

ومن العلماء من يَظلم الإسلامَ بسوء الفهم، ويرونه في سياسة الحكم والمال ظهيراً للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب! وأشدُّ ما تُصاب به الأمة في علمائها وأهل الرأي فيها، هو التحايل للخروج من تبعات الكتمان بالتأويل والتضليل(١).

لكن المسلمين في المشارق والمغارب مهيؤون دائماً ليقظة عامة تحمي كيانهم وتستبقي إسلامهم، فالوعدُ الصادق قائم بأن الأمة لا تجتمع على ضلالة،

---

(١) انظر: هموم داعية، ص٥٦؛ ظلام من الغرب، ص١٢٤.

والعلماء الذين يَنفون عن الدين تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين لا يزالون موجودين في كل عصر ومصر قوّامين بالحق، يتصدَّون لتلك الضلالات كلها، يبيِّنون زيفَها ويكشفون زَغَلَها.. والجمهور العام للمسلمين تبَّاع لهم، مُعرِض عن ضلالات المضلين.

رابعاً: وقفات وعبر:

تلك بعض المعاني والدلالات والإضاءات التي تشتملها الأحاديث الصحيحة المتقدّمة في صدد هذه النبوءة الجليلة، ونشير في الختام إلى بعض الفوائد والعبر، فمنها:

١ ـ في هذه الأحاديث طمأنينةٌ للمسلم بأن دين الإسلام باقٍ على صفائه ونقائه كما كان في عهد النبوة، وزادٌ له للاستمساك بدينه مهما حاولت الصوارف الضالة أن تجتالَه عنه، وبَلْسَمٌ لآلامه التي تعتوره، لأنه على الحق المبين.

٢ ـ الإسلام بمبادئه وأركانه وشرائعه وشعائره وحقائقه وهديه وتعاليمه ثابتٌ مستمر قائم لا تزلزله الأعاصير، فالأمة معصومة من الاجتماع على الضلالة.

٣ ـ رسولنا ﷺ مبشِّر ومنذِر، فكما حذَّرَنَا وأنذرنا الفتنَ والموبقات حتى لا نقع في مخاطرها وأوزارها، كذلك فإنه أضاءَ لنا مصابيحَ كاشفة لا تنفدُ ذُبَالتُها بأن ديننا محفوظٌ بحفظِ الله له وللأمةِ التي تحمله بعصمتها من الإجماع على الضلال.

٤ ـ الأمر بملازمة الجماعة والاستمساك بها، لأن في ذلك الصلاحَ في الدنيا والفلاحَ في الآخرة، حيث إن الجماعة على الحق بعيدة من الاجتماع على ضلالة، سائرة على دين الله القويم الذي لا تزيغ به الأهواء.

٥ ـ التمسك بهوية الأمة ودينها والحفاظ على شخصيتها وتميزها وأخلاقها وقيمها، وعدم الاغترار بزحوف الضلال وكثرة الغزاة والصادِّين عن منهج الله القويم.. ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

٦ ـ الأمة الإسلامية ثابتة على دينها مستعصمة به قوّامة عليه، والجماهير المسلمة لم تستسلم لحركات التشويه والتضليل والإفناء المبيَّت، بل هي حريصة على دينها أكثر من حرصها على أرواحها وأموالها. والعالم الإسلامي لا يبيعُ دينه ويؤثرُ أن يَهْلِكَ دونه، وشواهد التاريخ برهان ساطع على ذلك.

٧ ـ شموخ الإسلام والمسلمين واستعصاؤهم على الانحلال والذوبان والزوال، فرغم كل الهجومات المتواترة العنيفة المتنوعة والغزو الفكري المتعدد، نجد الإسلام بأصوله وأركانه وفروعه محفوظاً، وأعداد المسلمين في ازدياد.

٨ ـ يجب العودة إلى التاريخ لاستقراء الحوادث واستنطاق المواقف واستكناه العبر واستخلاص الفوائد؛ لبهرجة الضلال، والاعتصام بالحق واستجماع القوى وتوحيد الجهود وإعادة رونق الشرائع والشعائر التي شُوِّهت والأطراف التي انتُقِصت من بنيان أمتنا.

٩ ـ ينبغي أن نعلم جيداً أننا ما هُزِمنا أمام أعدائنا لقوَّتِهم، وإنما فرَّطَ جمهور كبير منّا فعوقبت أمتنا جميعاً. وينبغي أن نتجلَّد للمصائب ونتعلّم منها أن خسائرنا بسبب تفريطنا، وبقاءَ جذوة الأمة كفيلٌ باستنهاض الهمم لاستعادة الأمجاد.

١٠ ـ إن سياسةَ تمويت الإسلام التي يتعاون جميع الأعداء فيها ضد أمتنا ستبوء بالفشل في نهاية المطاف، ولن يكون حظُّ الصليبيين الجدد والشيوعيين وأذنابهم وصنائعهم في بلادنا أسعدَ من حظِّ أسلافهم من أعداء أمتنا مهما طال المدى! فالمسلمون بحمد الله تعالى لا يجتمعون على ضلالة كبرى أو صغرى، ودينهم باقٍ بفضل الله وأمره ووعد رسوله ﷺ.

❀ ❀ ❀



إخبار النبي ﷺ بأن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بَدَأَ الإسلامُ غَريباً، وسيعودُ كما بدأَ غَريباً، فَطُوبَى لِلغُربَاءِ**»[١].

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإسلامَ بدأَ غَريباً، وسيعودُ غَريباً كما بَدأَ، فَطُوبَى للغُرَبَاءِ**» قيلَ: مَنْ هُم يا رسولَ الله؟ قال: «**الذينَ يَصْلُحونَ إذا فَسَدَ الناسُ**»[٢].

وفي رواية عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإسلامَ بَدأَ غَريباً، وسيعودُ كما بَدأَ، فَطُوبَى للغُربَاءِ**» فقيلَ: مَنْ هُمْ يا رسولَ الله؟ قال: «**النُّزَّاعُ من القَبَائِلِ**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) واللفظ له؛ وابن ماجه (٣٩٨٦)؛ وأحمد: ٢/ ٣٨٩؛ وأبو عوانة ١/ ١٠١ ـ ١٠٢؛ والآجري في الغرباء (٤)؛ واللالكائي في السنَّة (١٧٤)؛ والبيهقي في الزهد (٢٠٤)؛ والخطيب في شرف أصحاب الحديث (٣٧)؛ وفي تاريخه: ١١/ ٣٠٧؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٩١).

(٢) أخرجه الداني (٢٨٨) واللفظ له؛ والآجري في الغرباء: ١/ ٢ والترمذي (٢٦٢٩) دون السؤال، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي: ٢/ ٣٣١، والصحيحة (١٢٧٣) وذكر له هنا شواهد كثيرة.

(٣) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٨٦) واللفظ له؛ وأحمد: ١/ ٣٩٨؛ والدارمي (٢٧٥٥)؛ وابن ماجه (٣٩٨٨)؛ والبيهقي في الزهد (٢٠٨)؛ والبغوي (٦٤)، وغيرهم. وقال البغوي: حديث صحيح غريب من حديث ابن مسعود؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح مشكل الآثار؛ وعلى سنن ابن ماجه وصحَّحه الألباني في الصحيحة: ٣/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠، ثم توقف في تصحيحه لأن أبا إسحاق السَّبِيعي اختَلَط! والصواب =

٣ ـ وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإسلامَ بَدأ غَريباً، وإنَّهُ سيعودُ كما بَدأَ، فَطُوبَى للغُرباءِ**» قالوا: ومَنْ هُمْ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**الذين يَصْلُحون حين يَفْسُدُ الناسُ**»[١].

٤ ـ وعن سَعْد بن أبي وقَّاصٍ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إن الإيمانَ بَدأَ غَريباً، وسيعودُ غَريباً كما بدأ، فَطُوبَى يومئذٍ للغُربَاءِ؛ وهم الذين يَصْلُحون إذا فَسَد الناسُ. والذي نفسُ أبي القاسمِ بيدِه لَيَأْرِزَنَّ الإيمانُ بينَ هذينِ المَسْجِدَيْنِ كَما تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِها**»[٢].

٥ ـ وعن عبد الله بن عَمْرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**طُوبَى للغُربَاءِ، طُوبَى للغُربَاءِ، طُوبَى للغُربَاءِ**» فقيلَ: مَنِ الغُربَاءُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ناسٌ صالحونَ في ناسِ سوءٍ كثيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِم أكثَرُ ممَّن يُطِيعُهم**»[٣].

وفي الباب عن: عبد الله بن عمر[٤]، وأنس بن مالك[٥].

= تصحيحه لأن أبا إسحاق شاخ ولم يَختلِطْ كما قال الذهبي في «ميزان الاعتدال».

(١) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٨٩) واللفظ له؛ واللالكائي في السنَّة (١٧٣)؛ والبيهقي في الزهد (٢٠٠)؛ والهروي في ذم الكلام: ١/١٤٦؛ وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره؛ وانظر الصحيحة: ٣/٢٦٨.

(٢) أخرجه الداني (٢٩٠) واللفظ له؛ وأحمد: ١/١٨٤؛ وأبو يعلى (٧٥٦)؛ والبزَّار كما في كشف الأستار (٣٢٨٦)؛ وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند؛ والألباني في الصحيحة: ٣/٢٦٨؛ وجوَّد إسناده شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح مشكل الآثار: ٢/١٧١.

(٣) أخرجه أحمد: ٢/١٧٧، ٢٢٢، واللفظ له؛ وابن المبارك في الزهد (٧٧٥)؛ والفسوي: ٢/٥١٧؛ والآجري في الغرباء (٦)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦١٩)؛ وصحيح الجامع (٣٩٢١)؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح مشكل الآثار: ٢/١٧١.

(٤) أخرجه مسلم (١٤٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٧)؛ والطبراني في الأوسط (١٩٤٦)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٩٠)، وحسَّنه البوصيري، وشعيب الأرنؤوط؛ وقال الألباني في (صحيح ابن ماجه: ٢/٣٦٣): حسن صحيح.

أولاً: معاني ألفاظ الأحاديث:

ـ «**بدأ**»: ابتدأ.

ـ «**غريباً**»: الغُربة والتغرُّب والاغتراب: النُّزوح عن الوطن والبُعْد عنه.

وللغربة سببان: غربة الوطن: وهي لمن ترك أهلَه ووطنَه ونزل موطناً آخر. وغربة الحال: وهي لمن تلبَّس بحالٍ أو صفةٍ أو دينٍ يُخالف ما عليه الكثيرون.

ومعنى «**بدأ الإسلام غريباً**»: لأنه دين جديد غريب في عقائده وشرائعه وشعائره وهديه ومنهاجه، يُغاير ما كان عليه الناس في جزيرة العرب وسواها.

ـ «**الغرباء**»: أراد أنهم قلَّة غرباء بدينهم وعقيدتهم وهديهم وأخلاقهم، يُجانِبون قومَهم وما هم عليه من عبادة الأوثان والإشراك بالله، فَهُم لذلك غرباءُ في تلك الكثرة الغامرة.

وأراد أيضاً المهاجرين الذين هَجَروا أوطانَهم في الله ﷻ، وصبروا على مشاق الغربة.

ـ «**طُوبى**»: وزن فُعْلى من الطِّيب، أي فرحٌ لهم وقرّةُ عينٍ، وحسنى وخير وغِبْطَة، ثم الجنة وكرامة.

ـ «**وسيعود غريباً**»: أي سيقلّ المستمسكون به تمامَ الاستمساك، والقائمون به حقَّ القيام، ومن يُعين عليه ويناصره، فيكون هؤلاء قلَّة ضمن أهله الكثيرين.

وتغدو عقيدتُه وشريعته غريبةً كذلك، لقلّة المعتصِمين بها بشموليتها ضمن أمواج من المِلل والنِّحَل والأهواء والدعوات، فهو غريبٌ وأهلُه غرباء.

ـ «**يَصْلحون إذا فَسَد الناس**»: أي يحافظون على عقيدتهم وأخلاقهم وصلاحهم من الدَّغَل وشوائب المعاصي والفساد.

وهو معنى رواية أخرى: «**ناسٌ صالحون في ناسِ سوءٍ كثيرٍ**».

- «**النُّزَّاع من القبائل**»: جمع نازِع ونَزِيع، وهو الغريبُ الذي نَزَع عن أهله وعشيرته، أي بَعُدَ وغابَ.

والنَّزِيع: الشريفُ من القوم الذي نَزَع إلى عِرْقٍ كريم.

- «**يَأْرِز**»: أي ينضمُّ إليها، ويجتمعُ بعضُه إلى بعضٍ فيها. ومعنى «**إن الإيمان ليأرز**»: أي أهل الإيمان.

- «**المسجدين**»: هما مسجدا مكة والمدينة.

ثانياً: تحقق النبوءة:

تشتمل هذه الأحاديث على أمور ثلاثة:

١ - غربة الإسلام وأهله، وينتظم ذلك في أربع مراحل:

الأولى: في بداية عصر الرسالة.

الثانية: خلال التاريخ الإسلامي الطويل حتى مئة سنة قبل الآن، وهي غربة نسبية جزئية في بلد دون آخر، وقوم دون سواهم، وأمور سوى أمور.

الثالثة: غربة ظاهرة شديدة متفشية بدأت منذ نحو قرن، ونحن نعيش الآن كثيراً من أسبابها ومظاهرها.

الرابعة: لمَّا تأتِ بعدُ، وستكون في نهاية الزمان قُبيل قيام الساعة.

وبذلك يتحقق قوله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً**».

٢ - وجود طائفة مستمسكة بالإسلام، معتصِمة بهديه، منافحة عنه، داعية إليه، ناشرة لمبادئه وتعاليمه، لا تفرِّط بركن منه ولا فرض ولا واجب ولا مندوب.

ورجال هذه الطائفة متبعون لا مبتدعون، وهم موجودون على مرِّ التاريخ، وهم المشار إليهم بقوله ﷺ: «**الذين يَصْلحون إذا فَسَد الناس**»، «**النُّزَّاع من القبائل**»، «**ناسٌ صالحونَ في ناسِ سوءٍ كثير**».

٣ ـ سعادة أولئك الغرباء، وقرَّة أعينهم، وسكينة أنفسهم، واطمئنانهم إلى دينهم ومسلكهم، وحفظ الله لهم ورضاه عنهم، مع ما ينتظرهم من الأجر الجزيل والنعيم المقيم. وهذا ما يشير إليه قوله ﷺ: «**فطوبى للغرباء**».

ثالثاً: الغربة الأولى:

١ ـ وصفها ومجالاتها:

بدأ الإسلام غريباً، وبدأ أهله غرباء.

فالإسلام دينُ التوحيدِ والعبوديةِ الخالصة لله، جاء إلى الناس وهم يموجون في بحار متلاطمة من الشرك والكفر والوثنية، فكان غريباً مُستغرَباً، حيث بعث الله سبحانه رسولَه ﷺ بالرسالة الخاتمة، وأهل الأرض على أديان مختلفة: بين عَبَدة أوثان، وعبَّاد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة ودهريين، ومجوس يعبدون النار، ومؤلِّهين للنجوم والكواكب والشمس والقمر، وغير ذلك.

فكان الإسلام في بداية ظهوره في خِضمٍّ هذه الأديان والأهواء غريباً حَقَّ غريب.

وأهل الإسلام كانوا غرباء أيضاً:

ـ كانوا في بداية الأمر نُزَّاعاً من البيوتات والقبائل، دَلَفوا إلى روضة الإسلام، الرجل بعد الرجل، والرَّهْطُ تلوَ الرهْط، وتغرَّبوا عن قبائلهم وعشائرهم وأهليهم.

ـ وكانوا غُرباءَ في عقيدتهم الجديدة وعبادتهم اللهَ وحده ونبذِهم الأصنامَ ودينَ الآباء والأجداد.

وكانوا غرباءَ في أخلاقهم وهديهم، وحبِّهم وبُغْضِهم، وتمسكهم بكل فضيلة وتجنُّبِهم كل رذيلة.

ـ وكانوا غرباء في إظهار عقيدتهم والدعوة إليها وممارسة عبادتهم سرّاً حتى لا يشعر بهم أحد ممن ليس على الإسلام.

ـ وكانوا غرباء في تحركاتهم ولقاءاتهم مع النبي ﷺ ومع بعضهم بعضاً ليتعاونوا ويتناصروا ويثبِّت بعضهم البعض الآخر، ويأوون مستسرِّين إلى دار الأرقم.

ـ وكانوا غرباء في قلَّة أعدادِهم وعدمِ مناصرة قبائلهم لهم عندما صُبَّت عليهم صنوفُ العذاب وألوانُ الاضطهاد.

ـ وكانوا غرباء في الحصار الظالم من قِبل قريش والمقاطعة لهم اجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً.

ـ وكانوا غرباء في تشريدهم في الأرض وسياحتهم في الآفاق مهاجرين إلى الله ورسوله ثلاث هجرات، إلى الحبشة مرتين والثالثة إلى المدينة النبوية.

نعم كانوا غرباء حقّاً في كل ذلك، لكنهم أعزَّاء في جَنْب الله، كرماء عليه، مستأنسون في كَنَفِه، سعداء في استجابتهم لدعوة الرسول العظيم ﷺ، فرحون بقُرْبه، مطمئنون إلى صدقه، مُغتبِطون باتّباعه، مخلِصون في الاستجابة له، متفانون في مناصرته والقيام بما بُعث به ويدعو إليه[1].

٢ ـ أسبابها ودواعيها:

عاش الإسلام في أوائل بزوغ شمس هدايته في غُربةٍ بين الأديان، وغربةٍ في التصديق والاتباع والمناصرة. وكذلك عاش أهلُه الأولون ومعتنقوه السابقون في غربة في دينهم ومعتقدهم وهديهم، وبين أهلهم وعشيرتهم وقومهم وبلادهم؛ لأسباب عديدة، منها:

١ ـ جهلُ العرب بالرسالات السماوية السابقة، وانقطاعُهم عن وحي السماء، وعدمُ إدراكهم لطبيعة الرسالة ومعاني النبوة، حتى ظنُّوها مُلْكاً وجاهاً وسلطاناً.

---

(١) انظر: المبشّرات بانتصار الإسلام، ص١٢٠ ـ ١٢١؛ أحاديث معجزات الرسول: ١/ ٧٤ ـ ٧٥، ٧٩.

٢ ـ طبيعةُ العرب في التعصُّب لدينِ الآباء والأجداد، والتقليد الأعمى لِما ورثوه من عادات وتقاليد ينافحون عنها ويناصرون عليها دونما هوادة.

٣ ـ العصبيةُ للقبيلة والولاءُ لها، والمنافرةُ والتحاسد والتباغض بين القبائل العربية؛ جعل كثيراً منها يتأخَّر زمناً طويلاً في اتباع نبي من غير قبيلتهم.

٤ ـ الحقد والحسد والبغضاء والعداء من قيادات الجاهلية العربية للنبي ﷺ، وما ظَنُّوه من أنه جاء لِيسلبَهم جاهَهم ومُلْكَهم وسُلطانَهم(١).

٥ ـ الدعاية الإعلامية المضلِّلة التي كانت تصِفُ الرسولَ ﷺ بالكِهَانة والسِّحْر والشعر وطلبِ المُلْك والجنونِ وغير ذلك، وأنَّ دينَه يُغاير دينَ الآباء والأجداد، وأتباعه ضعفاء الناس وعبدانهم وأراذلهم! مما صَدَّ الكثيرين باديَ الرأي عن الإسلام، حتى إن أحدَهم كان يسدُّ أُذنَيْه بالقطن حتى لا يرشح إلى قلبه شيء من القرآن فيسحره ويغير رأيه!.

٦ ـ سلطان الجاهلية العاتي واحتشاد قواها الباطشة في الصدِّ عن الإسلام، وما كانت توقعه من العذاب والاضطهاد والتشريد لكل من يفارق دينها إلى الدين الجديد، مما جعل كثيراً من الأفراد والقبائل العربية يتربّص ما تُسْفِر عنه معركةُ الإسلام مع خصومه.

٧ ـ عَداءُ الديانات الأخرى للإسلام وبخاصة اليهودية والنصرانية والمجوسية، وما كانوا يزرعونه من عقبات في وجه انتشار الدعوة الإسلامية، ويُمالِئون العربَ على حرب الرسول ﷺ وأتباعه.

٨ ـ تحريفُ الأديان السماوية السابقة، وبُعْدُ أصحابها عن روحها ومعناها وصفائها، وإدخالُ الأهواء والأباطيل فيها، ومَن اتَّصَلَ بها من العرب لم يَعرفوا منها الحقيقة التي تُعينهم على الترحيب بالدين الجديد الخاتم.

٩ ـ أكاذيبُ أهل الكتاب على الإسلام ونبيِّه ﷺ، وأنه ليس بالنبيِّ المُبَشَّر

---

(١) انظر: أحاديث معجزات الرسول: ١/ ٨٠.

به، بل وزَعْمُهم لقريش أن دينَهم خيرٌ من دين محمد ﷺ وهم أولى بالحق منه، وظاهروهم على ذلك، حسداً من عند أنفسهم.

١٠ ـ انحراف البشرية العام في محيط الجزيرة العربية وما وراءها، وبُعْدُها عن الدين الحق، وسيطرةُ الأهواء والنزوات، وجبروت الحكام والزعامات، وسيادة الشهوات وعبادة الدنيا والمال، وانتشارُ الأخلاق الرديئة والخصال الوضيعة التي شوَّهتْ إنسانية الإنسان، كل هذا مما يدافِع عنه أصحابُ الزعامات ويبالغون في حراسته، ويحاربون الدين الجديد الذي جاء ليصلح الأحوال ويقيم الميزان بالقِسْط، فكان ذلك حجرَ عَثْرةٍ أمامَ الإسلام في بداية انتشاره وتحقق غربته.

عن المِقْداد بن عمرو رضي الله عنه قال: (واللهِ لقد بَعث اللهُ النبيَّ ﷺ على أشدِّ حالٍ بُعِث عليها فيه نبيٌّ من الأنبياء، في فترةٍ وجاهليةٍ؛ ما يَرون أن دِيناً أفضلُ من عبادةِ الأوثانِ، فجاءَ بفُرْقانٍ فَرَّق به بين الحقِّ والباطلِ، وفَرَّق بين الوالدِ وولدِه)[١].

٣ ـ صفات الغرباء[٢]:

أبانت الأحاديث صفات الغرباء ومعالم هديهم ومزايا منهجهم، وتجلَّى ذلك على أبرز صُوره وأكملِ معالمه وأرسخِ أصوله في الجيل الفذّ الذي صَنَعه النبي الخاتم محمد ﷺ، فأزال غربةَ الإسلام الأولى وآنسَ وحشته ونشرَ في العالمين رسالته.

ويمكن إبراز صفاتهم ومزاياهم فيما يلي:

١ ـ متمسِّكون بالإسلام، معتصمون بهديه، جملةً وتفصيلاً فرائضَ وسنناً

---

(١) أخرجه أحمد في حديث طويل: ٦/٢ ـ ٣؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٢٣).

(٢) انظر: المبشّرات بانتصار الإسلام، ص١١٣، ١٢٠ ـ ١٢٤؛ أحاديث معجزات الرسول: ١/١٠٥ ـ ١١١.

ومندوبات، مهما كَثُر الغُثاء المباعِدُ لأوامر الله تعالى المتقاعِسُ عن الاستجابة له.

٢ ـ متَّبِعون لهدي القرآن العظيم، تبّاعون لسنَّة النبيّ ﷺ، لا يَبتدعون في دينهم ولا يأبهون بابتداع الناس وفسادِ أحوالهم واضطراب سلوكهم.

٣ ـ هم أصحابُ رأيٍ حرٍّ وفكرٍ مستنير، ومبادئَ قائمةٍ على الحجة الظاهرة، ومنهجٍ مبنيٍّ على البرهان المنير، هم رؤوسٌ قادة سادة، وليسوا مقلِّدين تبَّاعين ولا إمَّعات مستسلمين، راسخون لا تهزُّهم أعاصيرُ الفساد الطامي بكثرة جيوشه وانتشار ضلاله وارتفاع أعلامه وبنوده.

٤ ـ هم صالحون مُصْلِحون، فكما أنهم لا يقعون في حَمْأَة الضلال والفساد والرذائل والأهواء التي تجتاح المجتمع، كذلك فإنهم يَسْعَون بجدٍّ ودَأْب في إصلاح ما أفسدَ الناس، يَدْعونهم للخير ويستنقذونهم من مستنقع الضلال والفساد.

٥ ـ هم بنَّاؤون إيجابيون، غير منكفِئين على أنفسهم ولا منعزلين عن مجتمعهم، بل يعيشون مع الناس في أعمالهم الدنيوية، وينأون عنهم بعقائدهم وأخلاقهم وشعورهم وشعائرهم، ولا يلجؤون إلى الزوايا والتكايا، بل هم في المجتمع بأخلاقهم ومُثُلِهم يدعون إليها بلسان حالهم ومقالهم، يُرشِدون الضالّ، وينبِّهون الغافل، ويناقشون المجادل بحجة وبصيرة.

٦ ـ هم قلَّةٌ في المجتمع، وطائفةٌ ضمن طوائف مستكثَرة، ولا يَضير التِّبْرَ كثرةُ التراب، ولا يَشين الحقَّ كثرةُ الباطل، إنهم قلَّة و ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فهم أقوياء بتأييد الله، أعزاء باعتصامهم بدينه، منصورون على مَن خالَفَهم وناوأهم بنصره. وهم بعد هذه القِلّة إلى ازديادٍ ونَماءٍ وعزَّة وتمكين، وكذلك الإيمان عندما تُخالِط بشاشتُه القلوب، وهكذا كان أتباع الأنبياء والرسل من قبل.

٧ ـ هم صَبَّارون على اللأواء، صامدون في وجه الابتلاء، إنهم القابضون

على الجمر في زمان الغربة، لا يَضرُّهم ذلك ولا يَضيرهم ولا يُزيلهم عن مبادئهم، ولا يزيدهم إلا صفاء ونقاء واعتصاماً، والعاقبة للمتقين.

٨ ـ مَن يعصيهم أكثر ممن يطيعهم؛ هم أنظفُ فئاتِ الأمة يداً، وأذكاها عقولاً، وأطهرها قلوباً، وأصدقها عزائم، وأذكاها أخلاقاً، وأقومها أعمالاً، وأكثرها بذلاً وتضحية، وأعظمها ابتلاء واضطهاداً، وأبعدها عن الموبقات والمهلكات بل الصغائر والشبهات.

٤ ـ زوال الغربة الأولى وعناصر القوة في الإسلام وعزَّته وانتشاره:

نزل القرآن الحكيم على رسول الله ﷺ في تلك البلاد التي يموج فيها وفيما حولها ألوان من الشرك والوثنية والأهواء والضلال والانحطاط بعقل الإنسان وكرامته وأخلاقه.

واتجهتْ جهودُ الرسول الخاتَم ﷺ بما تنزَّل عليه من وحي وبما يَفيض قلبه من مَعين الحكمة إلى قلوب العرب، ليصيغَ منهم أمة تُزيل غربةَ الدين الجديد وتحمل أنوار هدايته للعالمين شرقاً وغرباً.

وكانت متاعب النبوة وأعباؤها جليلة ضخمة كي يرتفعَ بالناس إلى مستوى الوحي، ويُعيد تشكيل الأمة وفق التوجيه الإلـٰهي، ويُبيد عقائد وتقاليد وأفكاراً، ليغرسَ مكانها عقيدة وتقاليد وأفكاراً أعلى وأرشد. . ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

ومطلوب من صاحب الرسالة الخاتمة ﷺ أن يَصوغ من العرب أمة ذات رسالة، فلقد شرَّفه الله بهذا القرآن، ثم كلَّفه أن يَفتح به أقفالَ القلوب، وأن يُنير آفاقاً قد أفسدَتْها شياطينُ الإنس والجن، ليصنعَ أمة قائدة رائدة تملك من سناء الفكرة وزكاة الضمير والقدرة على الحياة وإيتاء الأسوة الحسنة ما يجعلها خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس، وعليها تطويعُ ما بين الأرض والسماء لبلوغ هذا الهدف[١].

(١) جهاد الدعوة، ص١٧٦ ـ ١٧٧.

وقد كان ذلك بفضل الله تعالى.

لقد نفث رسول الله ﷺ من روحه النقي وفكره الثاقب في مَرَدَةِ الصحراء، وظلَّ يَصْقُل معادنهم بجَلَد غريب، وهم يقاومون بعناد رهيب، حتى نجح آخر الأمر في إنشاء جيل كان أصلبَ عوداً وأضوأ بصيرة من حواريي عيسى عليه السلام.

تأمَّلْ كيف بدأت الأمة الإسلامية ضعيفةَ العود كالنبتة الخضراء الطريَّة، ثم كيف نما هذا الزرع، وتحوَّلت الساق الغضّ إلى شجرة باسقة، وانضمَّ إليها غيرها، فإذا الحقل المتموج يتحول إلى غابة من الأشجار الباسقة، لو صعد الرجال على أغصانها لحملَتْهم.

هكذا كنّا وهكذا صرنا ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

في صحراء الجزيرة المنقطعة عن الحضارات كلها صنع سيدنا محمد ﷺ أمة عَجَباً، قال العدو في وصف مقاتليها: إنهم رهبانٌ بالليل فرسانٌ بالنهار!.

هذه الكلمة تشير إلى طبيعة البناء الذي قامت عليه أمتنا؛ إنه من الداخل تعاون على البر والتقوى وتآخٍ في السرّاء والضرّاء، ومن الخارج رباط مستديم لمؤازرة الخير ومدافعة الشر(١).

وحدَث الانقلاب الهائل في جزيرة العرب على يدي خاتم الأنبياء محمد ﷺ وأصحابه، وكان تأثير هذا الانقلاب عظيماً جليلاً:

فكان الطريق إلى الله من قبلُ في دولة الجاهلية وغربة الإسلام شاقّاً عسيراً محفوفاً بالأخطار، فأصبح الآن سهلاً يسيراً آمناً مسلوكاً.

وكان يصعب على الإنسان في الوسط الجاهلي أن يطيع الله، فَصَعُب عليه في الوسط الإسلامي أن يعصي الله.

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص١٤٩ ـ ١٥٠، ١٥٢ ـ ١٥٣.

وكانت الدعوة إلى النار بالأمس ظاهرة منصورة، فأصبحت اليوم خافتة مخذولة.

وكانت أسباب سَخَط الله وعصيانه مكشوفة موفورة، فعادت نادرة مستورة.

وكانت الدعوة إلى الله في أرض الله جريمة ترتكب سرّاً وخِفية، فأصبحت جهراً وعلانية وحرة آمنة لا تلقى معارضة ذات بال، ولا يخاف أصحابها اضطهاداً في سبيل العقيدة وأذى في سبيل الدين الجديد: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وأصبح أصحابها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيارهم، وصارت أرض الجاهلية تُنْتَقَص من أطرافها، وكلمةُ الإسلام تعلو وظلُّه يمتد، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله(١).

وخلال زمن قصير في عمر الإنسانية غَمر الإسلام جزيرةَ العرب بعقيدته وشريعته، ثم حمل الراية الصحابة العظام وفتحوا القلوب والأمصار، وزرعوا راية القرآن في مشارق الأرض ومغاربها، وأحدثوا في العالم انقلاباً خيِّراً هائلاً بكل المقاييس تعجَّبَ له الدارسون والباحثون.

ويعود ذلك إلى عدة أسباب نجملها باختصار:

أ ـ عناصر القوة الذاتية في الإسلام:

وتتمثَّل هذه العناصر في سلامة عقائده، ويُسْر تعاليمه، وتلاقيه مع فطرة الله في الأنفس والآفاق، وإعلائه للعقل، واحتفاله بأشواق الروح والقلب، ومواءمته بين الدنيا والآخرة، فما ترك الإسلام شيئاً يتجمَّل به الإنسان ويبلُغ به درجة الكمال في عقله وخُلُقه إلا كان ذلك من صميم دعوته ونهج تعاليمه.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٣٧.

لقد تحوَّل الإسلام بالعرب من جاهلية غليظة جلفة، وبداءة صَلْدة شائكة، إلى حياة مُخصِبة بأرقِّ العواطف، وأنبلِ الأحاسيس، حتى لكأنَّ رجلَ الجاهلية التي عاش بها عمراً طويلاً قد خلقه الإسلام خلقاً آخر في شهور أو سنوات عاشها في الإسلام(١).

وهذه القوى الكامنة في هذا الدين العظيم كانت عاملَ جذبٍ خارقٍ للناس، فآواهم إلى كَنَفِه وقويَ بهم واعتزُّوا به، فزالت غربتُه وغربتُهم.

ب ـ عالمية الإسلام وشموليته:

ويمتاز الإسلام بأنه الحلقة المتمِّمة للديانات الكبرى، فهو لا يفرِّقُ بين جنسٍ وجنس، ولا بين طبقةٍ وطبقة، بل تتركز دعوتُه العليا على أسس إنسانية شاملة لا تفرِّق في الرعاية بين حقوقٍ للمجتمع وحقوقٍ للفرد، وليس فيها فصلٌ بين ما على الحاكم أو على المحكوم من واجبات، بل هو دين ينظِّم حياة الإنسان من جانبيها الفردي والاجتماعي.

ج ـ تأييد الله سبحانه للإسلام وأهله:

فالغرباء الأوَّلون كانت آياتُ الوحي وأحاديثُ النبوة تتعاهَدُهم بالتربية والتسلية والوعد الصادق بالنصر والتمكين والعزة في الدنيا، والفوز الكبير والأجر الجزيل في الآخرة، فكان ذلك من أكبر العوامل في ثباتهم واستمرارهم ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

د ـ حملة أقوياء أوفياء واعون مخلصون:

ذلكم هم الصحابة الكرام الذين ربَّاهم رسول الله ﷺ، فترى آثار النبوة في

---

(١) كفاح دين، ص١٣٠؛ سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٤٠؛ أحاديث معجزات الرسول: ١/٩٦ ـ ٩٨.

شمائل أولئك الرجال الشجعان، وقد مات النبي ﷺ غير أن روحَه بقيتْ يتحرَّك بها أصحابه، مما غرسه في دمائهم لم يذهب سُدًى.

لقد أُشْرِبوا منه حبَّ الله، وطلبَ رضاه، والتمهيدَ للقائه، والشوقَ إلى جنته، فأقدرَتْهم هذه العواطف الجيَّاشة على تهديم أسوار الباطل وكانت عالية، وتلاشت امبراطوريات استعصَتْ على الفناء قروناً متطاولة.

كانوا جيلاً قادراً على المحو والإثبات، يحترم الحقائق ويعشق الفضائل، فاندكَّت أمامهم صروحُ الباطل، وتلاشَتْ أوهامٌ وخرافات طالَما حقَّرتِ الإنسانية وأَزْرَتْ بها، ونشأت حضارةٌ إسلامية أَسْهَم فيها العرب وغيرهم في ظل إخاء عام وفطرة سليمة(١).

رابعاً: الغربة الثانية:

وبَسَط الإسلام جناحيه ومدَّ رُواقه على أصقاع شاسعة من المعمورة، وبقي كذلك دهراً طويلاً، لكن بعد عصره الزاهر ومنذ القرن الثاني الهجري وحتى القرن الثالث عشر الهجري، جرى على الإسلام والمسلمين ما يجري على غيرهم من السُّنَن الإلٰهية، وعَرضت لهم موجات من القوة والضعف، والازدهار والانهيار، والتوسع والانكماش، والأنس والغربة، وفق سنن الله التي لا تتبدل!.

واعْتَوَر الإسلامَ والمسلمين خلال هذا الزمن المتطاول فتراتٌ من الغربة والوحشة تطول وتقصر، تشتدَّ وتضعف، لكنها لا تستمر طويلاً، ولا تعمّ بلاد الإسلام كلها، وسرعان ما تفيء الأمة إلى دينها وتثوب إلى رشدها، وينهض فيها حكام عظام ورجال كبار، يزيلون غربتها ويعيدون عزتها وينشرون حضارتها.

●● فحدث انحراف خطير في مجال الحكم والسياسة، ودخلت عليه

---

(١) علل وأدوية، ص١٤٤ ـ ١٤٥، ٢٦٥؛ سر تأخر العرب والمسلمين، ص١٤٦؛ وانظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٤٣ ـ ١٤٦.

القيصرية والكسروية، وأمسى في كثير من الأحيان مُلْكاً عَضوضاً، وتولى في أوقات متفرقة ومواقع متعددة مَن لا يصلح للخلافة ولا تؤهِّله خصالُه الإيمانية ولا مَلَكاته المادية لها، وتربَّص الابن بأبيه واعتدى الأخ على أخيه، وعاش الحكم في غربة في فترات متعددة طويلة أو قصيرة.

•• وانعكس ذلك على واقع المسلمين ووجودهم الإسلامي والأدبي والمادي والحضاري، حتى إن الأندلس التي كانت دولة واحدة تابعة للخلافة العظمى، أصبحت في عهد ملوك الطوائف خمس عشرة مملكة متناحرة! وفي بلاد الشام التي كانت مِصراً واحداً من أمصار الخلافة، أضحت: دمشق وحمص وحماة وحلب والموصل وأنطاكية وغيرها كل واحدة منها إمارة لها حاكم وشارة، وهم متناحرون فيما بينهم، والحملات الصليبية تقتحم حدودهم وتقرع أبوابهم، ولربما تحالَفَ بعضُهم مع الصليبيين ضد أخيه ليبقى على كرسي الحكم!.

•• ونشأت بدع وأفكار وأهواء شوَّهت رُواءَ عقيدة التوحيد الخالص، بل وُجدت دول كبرى وحركات جائحة دانت بالمذاهب المنحرفة وهاجمت الإسلام والمسلمين، كالدولة العبيدية (الفاطمية) والقرامطة والزَّنْج والخُرَّميَّة وسواها.

•• واشتغل المسلمون حيناً من الدهر بعلوم ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلٰهية التي تلقوها من اليونان، وشُغِلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود، ونشأت بدع الاعتزال والتجسيم والتعطيل والجبر وغيرها.

وبذل المسلمون فيها قسطاً كبيراً من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم، ولَوَّثوا صفاء العقيدة التي نزلت على قلب النبي الخاتم ﷺ، وكادت تحجبُ توحيدَ الإسلام النقي حجبٌ من الهوى والجهل والضلال!.

•• وأخلد عدد كبير من الناس ـ على اختلاف مستوياتهم ـ إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب، وانغمسوا في الملذات والشهوات، واستهتروا استهتاراً.

وقلَّ احتفالهم بالعلوم الشرعية والطبيعية والتجريبية والكونية، ففرطوا في أمور دينهم ودنياهم(١).

وتجمع من هذا وذاك غربةٌ للإسلام الحق وأهلِه الذين حملوه ونشروه كما جاء غَضّاً طريّاً نقيّاً فأزالوا غربته الأولى وحققوا رسالته، فكان نتيجة ذلك غربةٌ ثانية أشدّ اجتاحت العالم الإسلامي في فترات متعددة متلاحقة.

●● لقد هجم الصليبيون في مطالع القرن الخامس الهجري على ديار الإسلام، وقطعوا مراحلَ حتى وصلوا إلى بيت المقدس، وارتكبوا مذبحة دامية سجَّلها التاريخ بحروف سوداء، دلالة على حِقدهم وهمجيَّتِهم، فذبحوا سبعين ألف مسلم، وخاضَتْ خيولهم في دماء المسلمين، ورفَعُوا الصليبَ على ثرى القدس الطاهر! وسكتت العواصم العربية الكبرى: مكة والمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة!.

وكانت غربة للإسلام طال مداها، ثم أُزيلت الغُمَّة.. ولكن الحروب الصليبية لم تفتأ تتكرر وتُحدِث في جسم الأمة خروقاً وفي واقع المسلمين غربة.

●● وأغار التتار على العالم الإسلامي، وأسقطوا الخلافة العباسية، ودمّروا المدائن والقرى، ولَفَظت الخلافة العباسية أنفاسَها حيث استهلكها الترف، وأَخْملَتْها المآرب الدنيا، فكانت العقبى أن استمكن منهم الأعداء ومزَّقوهم شرَّ ممزَّق!.

فلقد كانت ريح الدعوة الإسلامية راكدة، وسوق التقوى كاسدة، وكانت الخلافات الداخلية تُوهِي الكيانَ الكبير، وتنشر في جنباته الفتوق(٢).

---

(١) انظر ما تقدّم في: المبشِّرات بانتصار الإسلام، ص١١١ ـ ١١٢؛ هموم داعية، ص٤٩ ـ ٥٢؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٤٦ ـ ١٥٦.

(٢) انظر: جهاد الدعوة، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

وكانت غربة شديدة لأهل الإسلام وبلادهم، سرعانَ ما أُزيلت غُمّتُها بجهود المماليك ووقفة البطل المظفَّر قطز في معركة «عين جالوت».

هذه بعض ملامح الغربة الثانية للإسلام والمسلمين، وهي نسبية جزئية، في زمن دون زمن، وبلاد دون أخرى، وجيل دون جيل، وأمور من الإسلام دون أمور، فليست هي بالغربة الشاملة التامة، كما أنها لا تستمر طويلاً، فسرعان ما يفيء المسلمون والحكام ويهبُّون لنجدة الإسلام وإعادة الحق إلى نِصابه.

خامساً: الغربة الثالثة التي نعيشها الآن:

ومنذ نحو مئة وخمسين سنة هاجمَ الاستعمار الغربي أطرافَ العالم الإسلامي وقلْبَه، ورَدَفه الغزو الشيوعي، وعاضَدَهما المكرُ اليهودي، فشَنُّوا على المسلمين هجومات ساحقة، وأسقطوا الخلافة الإسلامية العثمانية، ومزَّقوا شملَ الأمة، وبدّدوا جمعها، في محاولات حاقدة تستجمع حَنَقَ القرون الأولى كلها؛ لإماتةِ الإسلام ودفنِ المسلمين ووأدِ حضارتهم، وإحداث غربة للإسلام وأهله أعتى من التي كانت أيام الجاهلية الأولى، لكن هذا الدين استعصى على الأُفول ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]!.

وقام المسلمون وقد أصابهم القَرْح والجراح تنزف من أطرافهم، وكافحوا كفاحاً مريراً، لإثبات وجودهم في معركة التحدي.

لكن والحق يقال والواقع يشهد أن الإسلام والمسلمين يعيشون خلال تلك المدة وإلى الآن غربة قاسية، يمكن الإشارة إلى أبرز أسبابها وأظهر معالمها فيما يلي:

١ ـ فصلُ الدين عن الدولة، والشريعة عن الحياة:

وقيامُ حكومات علمانية مضادّة للإسلام في الحكم والتطبيق والمبادئ، وتعطيلُها الحدودَ، وعدمُ حمايتها لمبادئ الإسلام وأركانه وعباداته، بل الاستخفافُ بها والمعالَنَة بالتنكُّر لها، وتشجيعُها للمجاهرة لمن يُحادُّون الله

ورسوله، وملاحقةُ من يتصدى لهم أو يسعى لإرشاد الناس إلى حقائق الإسلام الكبرى ويبيِّن لهم واجبات مؤسسات الحكم في الإسلام!.

إن الإسلامَ المهشَّم المشطورَ المبعثَرَ هنا وهناك ليس هو صورة المصحف الشريف، ولا امتدادَ النبوّةِ المكرَّمةِ(١).

٢ ـ المفهوم الشائه للإسلام:

ولقد أشاع الأفّاكون والمستغرِبون والمغرِضون والمتخاذلون من ضحايا الاستشراق والتغريب والتجهيل والغزو الفكري؛ أن الإسلام دينٌ كهنوتيٌّ تعبديٌّ يَهمُّ المرءَ في مصلاه ومتعبَّده، أما في شؤون الحكم والحياة فلا سلطانَ له على ذلك ولا شأنَ له به.

وهذا كذبٌ على الإسلام وتزويرٌ لحقائقه وإلغاءٌ لرسالته، فإن الله سبحانه نَظَّم للناس شؤونَهم الخُلقية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وأرادَ أن يحترموا ما شَرَع لهم، لا داخلَ جدران المعابد وحدَها، بل في مُتقلَّبِهم آناءَ الليل وأطرافَ النهار، في أنحاءِ البر والبحر.

وشرائعُ الإسلام للوصايةِ على الضمير، مثلُ شرائعِه في تنظيم البيت، مثلُ شرائعه في إقامةِ العدلِ السياسي والاجتماعي عند بناء الدولة، هذه وتلك تنبجسُ من ينبوعٍ واحد، وتنساقُ إلى غاية واحدة، وأي شللٍ يُصيب بعضَها فهو ممتد اليوم أو غداً إلى البعض الآخر، ثم هو نذيرٌ بفَناءِ الجميع بعد حين.

وفي غربة الإسلام في هذا الزمان انقسم المصحف الشريف إلى أشياء لا بأس من فعلها وأشياء لا يَسوغ إنفاذُها، والحق أن قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، مثل قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ومثل قوله ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]،

(١) مرّ كلام طويل ومفصَّل لهذه المعاني في نبوءات سابقة.

ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

والصورة الكاملة للإسلام إنما تتمُّ على النحو السّلَفي الأول في عصر الرسالة وزمن الخلفاء الراشدين ومن سار على هديهم(١).

٣ ـ هجمات عنيفة لقطع الصلة بيننا وبين ديننا وتراثنا وتاريخنا:

فلقد توالت على الأمة العربية والإسلامية كوارث شديدة، وعصفت بها حوادث خطيرة من خارجها ومن داخلها.

وكان أكبرُ هَمٍّ للمغيرين من الخارج وللمفسدين من الداخل؛ أن يدمِّروا أولَ كلِّ شيءٍ، المواريثَ التي تحفظ كيانَ الأمة وتكفُل حياتها.

ولو نجحت تلك الهجمات لأدَّت إلى فناء الأمة نفسها باعتبار تلك المواريث أهم عامل في بناء حضارتها، لكنها بحمد الله لم تنجح، وإنْ أفلحتْ في إحداث غربة الإسلام بين أهله وغربة المسلمين في ديارهم!.

٤ ـ تشويه صورة الإسلام وأنه سبب ضعفنا وتأخّرنا:

وكان من خداع المستعمرين الغزاة وصنائعهم وأبواقهم في بلاد الإسلام أن صَوَّروا لنا الدين في صورة العدو الذي دخل علينا بهذا الضعف والهوان، وكان السبب في هذا التأخّر الذي صِرنا إليه.

ولقد عمل الاستعمار جاهداً على أن يمكِّن لهذا الضلال من نفوسنا، بما أذاع فينا بأساليبه وصنائعه من مفترياتٍ على الدين، وتهجُّم عليه، وازدراءٍ بأهله واستخفاف بمنازلهم في الحياة، وحرمانهم من كل مكان كريم فيها.

وخطباءُ الفتنة منتشرون الآن في كل نادٍ وسبيل يروِّجون لهذا الإفك؛ لصرفِ الأجيال عن دينهم، وتوسيع دائرة الغربة للإسلام والمسلمين في ديارهم.

---

(١) انظر: معركة المصحف، ص٦، ١٤، ١٨ ـ ٢٢؛ سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٤٧.

٥ ـ الاضطهاد والاستبداد:

ويتجلَّى ذلك في الازورار عن توجيهات الإسلام الحاسمة في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومقاومة كل مَن يريد للأمة أن تعود إلى طريق الله، ومكافحة (الغرباء) المتحصِّنين بقلاع الإسلام والمنافحين عنه والداعين لإعادة تعاليمه جملة وتفصيلاً إلى حياة الناس، والتضييق على هؤلاء بالسجن والطرد والتنكيل والتشريد والنفي والعزل عن منابر التأثير والتوجيه، وإسكات كل رأيٍ حرٍّ ناقد نزيه.

إن الاستبداد السياسي الباطش من أسوأ الأسباب التي أدَّتْ إلى غربة الإسلام وأهله في هذا الزمن الصعب!.

٦ ـ تجفيف المنابع وبُعد التعليم عن الدين:

ويتضح ذلك بغزو مناهج التربية والتعليم في المدارس والمعاهد والجامعات والمؤسسات والإعلام والمساجد والمنتديات، وإفراغها من روح الإسلام وتعاليمه وتوجيهاته، وصرف الناس عن الكتاب والسنَّة والسيرة النبوية ومنهج السلف الصالح وسير الصحابة وأئمة الإسلام وأبطاله وتاريخه المشرق.

وإحلال المناهج الغربية والشرقية والتفكير الأوروبي اللاديني، وتمزيق التواصل الروحي والفكري والتاريخي لأجيالنا مع ماضيهم؛ لتنشأ أجيال منبتَّة لا تعرف عن الإسلام إلا معلومات هامشية ومشوَّهة، ولا تُجيد العربية حيث تزاحمها اللغات الأخرى.

فتنبتُّ صلةُ أبنائنا بالكتاب والسنَّة والموروث الإسلامي الضخم، وينقطع مَعين الينبوع الفيَّاض الذي استمر تدفُّقُه أربعة عشر قرناً، لتُفْرَض عليهم مناهج الليبرالية والماركسية والعلمانية القائمة على المادية والإباحية والوثنية والتحلل من كل القيم، والاستعلاء على البعد الرباني والبعد الأخلاقي لحضارتنا(١).

---

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص١٢٩ ـ ١٣٠؛ الضربات، ص٣١٠ ـ ٣١١.

ومن المخططات الخطيرة لتجفيف المنابع ما يحدث الآن في كثير من الدول العربية والإسلامية ـ وبضغط صليبي أوروبي أمريكي ـ من إلغاء المدارس الشرعية الإسلامية في المرحلتين الإعدادية والثانوية، وكذلك إلغاء المعاهد الإسلامية، ومدارس تحفيظ القرآن والسنَّة، والجمعيات الخيرية.

ويأتي ذلك ضمن الهجمة الصليبية الشرسة الحقود على الإسلام وأهله، والتي تقود جحافلَها أمريكا الصليبية المتصهينة ومَن يدور في فلكها من الدول الغربية والشرقية، وينفِّذ إملاءاتها كثير من العرب والمسلمين.

٧ ـ الغزو الفكري ونشر الإلحاد والإباحية:

واجتاحتْ ديارَنا سمومٌ فتّاكة حملها الغزو الفكري والثقافي من الغرب الصليبي والشرق الشيوعي، فطَحنت أجيالَنا برحاها المدمِّرة، وغَذَاها الاستعمار، فكانت ثقيلة أشدّ الثقل، ورسالتُها الكبرى حَطْمُ الإسلام والإتيان على بنيانه من القواعد.

فهاجمتِ العقائدَ والأركان، والفرائض والواجبات والمندوبات، والحلال والحرام، والحدود، والعلاقات الاجتماعية والدولية، والسلوك والأخلاق، والأسرة، ومهَّدت لنشر الإباحية والمجون والاستهتار بكل قيمة.

وتوسعت دائرةُ غربةِ الإسلام وأهله في ديارنا، وتمَّت زحزحة المجتمع الإسلامي عن المحور الذي دار عليه ثلاثة عشر قرناً[١].

٨ ـ الولاء الشكلي للإسلام والجراءة في معاداته:

ومن مظاهر الغربة الخطيرة في ديارنا الولاءُ الشكلي للإسلام في ميادين الحكم ومؤسسات المجتمع من قمته إلى سفحه، والانتماءُ إليه في الأسماء والمراسم والشارات والألقاب والشعارات، والخروجُ عليه بالأفعال والوجهة وشؤون الحياة العامة والخاصة.

---

(١) انظر ما كتبناه في النبوءات ٨٣، ٨٤، ٩٧ ـ ٩٩، ١٠٢، ١٠٣.

فترى الدعايات الكبيرة بالارتباط بالإسلام وتشييد المساجد وحضور المواسم الدينية! في الوقت الذي تتجه فيه القلوب للارتباط الروحي والعضوي بالصليبية أو الماركسية أو العلمانية.

ويُباح لكل الملاحدة والمشككين والإباحيين وأضرابهم من القول والفعل ما لا يباح لسواهم، وتُوَطَّأ لهم الأَكْناف وتُذلَّل العقبات، وتُغدق عليهم الهبات والمعونات الأدبية والمادية.

في حين يُكَبَّل العلماء المخلصون، والدعاة الصادقون، وأصحاب الرأي الحر، الحراص على دين الأمة وحضارتها وهويتها وشخصيتها! إنهم غرباء حقّاً!.

٩ ـ انخفاض صوت الإسلام وشارته ورايته، وارتفاع أصوات مناوئيه وراياتهم وشعاراتهم ومبادئهم:

الإسلام ومنهجه الشامل غريبٌ الآن في ديارنا، والانتماءُ إليه خفيضُ الصوت، وانتظامُه شؤون الناس ذليلُ الجانب.. وتتقدَّمُه وترجَحُ عليه دعواتٌ وطنية ونزعات قومية وانتماءات عرقية ومذاهب باطنية وأفكار لادينية، وزعامات وثنية!.

والانتماءُ إلى الإسلام أمسى رجعيةً وتخلُّفاً وتمسُّكاً بتراث بالٍ عند كثير من ساستنا! ولا زالت نظرةُ جمهور عريض ـ وبخاصة المتنفِّذين في أمتنا ـ للدين والمتدينين باردة فاترة، ويخافون صحبته في انطلاقهم مع شؤون الحياة.

ذلك أنه توجد قوى شاذة تعاكس رغبة العالم الإسلامي، وتحاول بكل وسائل الترغيب والترهيب صرفَه عن منهاج كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ(١).

لا يزال الناس اليوم عاكفينَ على أصنامٍ لهم ـ من أوثان منحوتة ومنجورة

---

(١) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٤٥، ١٥١؛ كفاح دين، ص١٢٩ ـ ١٣٠؛ معركة المصحف، ص١١.

ومقبورة ومنصوبة ـ ولا تزال عبادةُ الله وحده مغلوبةً غريبة، ولا تزال الفتنة قائمةً على قدم وساق، ولا يزال إلـهُ الهوى يُعبد، ولا يزال الأحبار والرهبان والملوك والسلاطين وأصحابُ القوة والثروة والزعماءُ والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله، تُقرَّب لها القرابين وينصب لها الجبين(١).

١٠ ـ غربة في الإعلام:

ومن أقسى أنواع الغربة للإسلام والمسلمين وأخطرها ما تعيشه أمتنا في ميدان الإعلام، ذلك الجانب الخطير في حياة الناس، وما يتجلَّى فيه من مروقٍ على حقائق الإسلام، وجرأةٍ على قِيمه، واستهتار بمبادئه وتعاليمه، وخروجٍ على أوامره ونواهيه، وانخلاعٍ من رِبْقَةِ المروءة والحياء والشرف والانتماء إلى عقيدة الأمة وتراثها وتقاليدها، ووقوعٍ في حمأة الرذيلة والتهتك والمجون والخلاعة، وارتكابِ شتى أنواع الموبقات على ملأ من الناس، وتحت سمع وبصر الكبار والصغار، والرجال والنساء، وبرعاية وتشجيع من بعض الكبراء الذين زادوا من غربة الإسلام والمسلمين في المجتمع والسوق والمركز والمؤسسة والمدرسة والمسجد، بل وفي البيت أيضاً.

١١ ـ خيانة الأمانات وتهجير العقول وأصحاب الكفايات ومطاردة الدعاة والمصلحين:

حيث وسِّد الأمرُ إلى غير أهله، وتقدَّم الوُضَعاءُ والسفهاء، وأُخِّر الشرفاءُ والحُكماء، وسكت العلماء، وتكلَّم الرُّوَيْبضَةُ، وهُجِّرت العقول والخبرات والكفايات والمتخصصون في أنواع العلوم المختلفة، وأُسْكِت العلماء والمفكّرون وأصحاب العقول وقُذِف إلى الواجهة بأصاغر العلم، وطُورد الدعاة والمرشدون والغيورون والمصلحون، ومُنعوا من المنابر المختلفة أو شُرِّدوا في المنافي، وأصبحت كلمة الحق خافتة، وغَلَبت المداهنة والمراءاة والمجاراة لأهواء المتسلِّطين.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٧٥.

١٢ ـ التدهور الأخلاقي:

ومما زاد في غربةِ الإسلام وأهله تدهورُ أخلاق الناس، وانتشارُ المحرّمات والموبقات، وعُطِّلت الحدود والعقوبات الرادعة؛ مما أَجَّجَ انتشارَ الزنى والربا والخنا والشذوذ والخمور والسرقة والغش والاحتيال وأكل أموال الناس بالباطل والظلم والرقص الخليع والعهر الفاضح(١)...

وسُنَّتِ القوانين الجائرة لحمايةِ هذه الجرائم وأهلها، وعقوبةِ مَن يُعكِّر سيرورتها في دماء المجتمع، وأصبح مَن يستنكر تلك الآثام ويستغربها، فَضْلاً عمَّن يحاربها ويُنكرها بالقول والفعل؛ غريباً مستغرَباً مطارداً مضطهداً!.

١٣ ـ غربة شديدة في بعض البلاد العربية والإسلامية أقسى وأعنف مما هي عليه في بلدان أخرى:

ومن ذلك ما هو عليه الحال في قارة إفريقية، حيث كان الإسلام الدين السماوي الأول في هذه القارة، غير أن الهجمة الصليبية الجديدة المعاصرة والحملات التبشيرية المتتابعة المستمرة؛ نَفَذت برامجَ تكفيرية بإخراج المسلمين عن ملَّتِهم، وقطَّعوا الأواصر الإسلامية هناك، وأنشؤوا عشرات (الحكومات المستقلة!) وجعلوا أمر البلاد في يدي خريجي المدارس التبشيرية وحدَهم، وقوَّضُوا الوجودَ الإسلامي في نهاية القرن العشرين، ونشروا النصرانية والوثنية هناك(٢)!.

ففي (روانده) إحدى جمهوريات تلك القارة لم يكن بها نصارىٰ سنة (١٩٠٠م)، والآن يبلغون نحو نصف السكان!.

وفي (الحبشة) مزَّق ذئابها الصليبيون والشيوعيون أجسادَ المسلمين،

---

(١) انظر مثلاً: كفاح دين، ص١٦٤، ١٨٨، ٢٤١؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٥٤ ـ ٢٥٦.

(٢) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٣٩ ـ ١٤٠؛ وانظر: صيحة تحذير من دعاة التنصير.

وأعملوا فيهم التشريد والسجن والتنكيل والتقتيل وإلغاء المناهج والشعائر والأحكام الإسلامية، وحاولوا جادِّين استئصال الإسلام من هناك[١].

وعلى ضفاف المحيط الهادي يعيش المسلمون في محنة كبرى في (الفيلبين) و(تايلاند) و(إندونيسيا) وغيرها، وحسبكَ أن تعلمَ أن (الفلبين) تضيعُ منا في صمتٍ رهيبٍ، فلقد كانت تلك الجزر إسلامية مئة في المئة، ثم أخذ الغزو النصراني يُلحُّ عليها ويتغلغل فيها قرناً بعد قرن، حتى وَضَع عليها اسمَ (فيليب الثاني) ملك إسبانية فأصبحت (الفيلبين)! ومضى التنصير فيها في طريقه الدامي، ومنذ قرن كان المسلمون نصفَ السكان، وهم الآن خمس السكان، والمراد الإجهازُ عليهم واستئصالُ بقيتهم!.

وفي (روسية) حيث نجد ما يُسمَّى (الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي)، يتعرَّض المسلمون فيها لمحوِ الهوية الإسلامية وتذويبِ الشخصية المستقلة، بألوان من الاستعمار الفكري أو العسكري.

ولا ننسى إخوان العقيدة في (ألبانيا) و(رومانيا) و(هنغاريا) و(البوسنة والهرسك) وسواها، حيث يعاني المسلمون في تَلك الدول أعتى أنواع الغربة وأقساها.

١٤ ـ وثمة أمور أخرى يراها كل مسلم عاقل غيور:

فقد فشا في الأمة حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت، وطغيانُ المادة والمعدة، والسعي الحثيث وراء الشهوات واللذائذ، والتقليد الأعمى للشرق والغرب بسفاسف الأمور ومُحَقَّرات الأعمال، وانتشارُ البدع والخرافات، والبعدُ عن مفهوم الجهاد ورفع رايته لرد الكرامة لهذه الأمة، وإضعافُ الوازع الديني في قلوب الجماهير، وغربة الإسلام في الوزارات والمؤسسات والتجمعات والهيئات والنقابات والوظائف الكبرى والصغرى.

---

(١) انظر مقال: (ذئاب الحبشة تنهش الإسلام)، في كتاب: كفاح دين، ص٥٦ ـ ٧٣.

سادساً: الغربة الرابعة في آخر الزمان:

ويبيِّنها ما جاء في لفظ حديث ابن عمر: «**إن الإسلامَ بدأَ غَريباً، وسيعودُ غَريباً كما بدأَ، وهو يَأْرِزُ بين المسجدَيْن كما تأْرِزُ الحيَّةُ في جُحْرِها**»[(١)].

ويكون ذلك في آخر الزمان حيث تنتشر الفتن الكبرى ويخرج الدجال، فيفرّ أهل الإسلام بإسلامهم إلى مكة والمدينة وقايةً بهما عليه، وينضمُّون إليهما ويجتمعون فيهما، كما تنضم الحية إلى جُحرها وترجع إليه إذا راعَها شيء[(٢)].

حيث يكون الإسلام موقَّراً مأموناً من فتنة المسيح الدجال ورُعْبه في هاتين المدينتين المقدَّستين[(٣)]، كما جاء في «الصحيحين» وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليسَ من بلدٍ إلَّا سَيَطَؤُه الدجَّالُ، إلا مكةَ والمدينةَ، ليس نَقْبٌ من أنقابها إلا عليه الملائكةُ صافِّينَ يَحْرُسُونَها...**»[(٤)].

سابعاً: دروس وعبر (آلام وآمال)[(٥)]:

وبعد هذا الاستعراض الموجز لمعاني الأحاديث في هذه النبوءة وآفاق مدلولاتها وبيان واقعها التاريخي؛ نقف وقفة تأمّلٍ لاستخلاص العبر والدروس التي نلخصها فيما يلي:

١ ـ معركة الحق والباطل مستمرة، وأعداء الدين الحق لا ينقطعون،

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٦).

(٢) الفتح: ٥/ ٥٥١ شرح الحديث (١٨٧٦).

(٣) تحفة الأحوذي: ٧/ ٤١؛ فتح الملهم: ٢/ ١١٥.

(٤) أخرجه البخاري (١٨٨١)؛ ومسلم (٢٩٤٣)؛ والنسائي في الكبرى (٤٢٦٠)؛ وابن حبان (٦٨٠٣) وغيرهم.

(٥) استفدت في هذه الفقرة من الكتب التالية: مجموع الفتاوى: ١٨/ ٢٩٢ ـ ٢٩٩؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٧٨؛ الضربات، ص٣١١، ٣١٣؛ المبشّرات بانتصار الإسلام، ص١٢٢ ـ ١٢٣؛ أحاديث معجزات الرسول: ١/ ٨٢ ـ ٨٤، ١٠٩ ـ ١١٣، ١١٨ ـ ١١٩؛ جهاد الدعوة، ص١٥٣ ـ ١٥٥؛ كفاح دين، ص١٢٩، ١٦٤، ١٧٠.

وكيدهم له لا ينتهي، وأهل الكفر والشرك والوثنية يبغضون هذا الدين ويحاربونه ويضيِّقون الخناق على أهله، والمعركة سِجَال، والأيام دُوَل، والمستقبل للإسلام.

٢ ـ دين الإسلام محفوظ، وقرآننا باقٍ، وسنّة نبيِّنا محفوفة بالعناية، ولقد غَبَرت أربعة عشر قرناً من محاربة الباطل للإسلام وأهله ومحاولة تغريبهم بشتى الوسائل، فلا الإسلام مات ولا قرآنه باد ولا أمته هلكت.

٣ ـ غربة المسلمين وضعفُهم، وعزتهم وقوتهم؛ مرتبطة بمدىٰ تمسُّكهم بدينهم، فإذا وَهَتْ روابطُهم بالإسلام ازدادت غربتُهم وذهبتْ ريحُهم! فينبغي أن يكونوا دائماً على التعبئة والاعتصام بروح الإسلام والجهاد واليقظة، والتحرر من رِبْقة المطامع والأهواء والترف والانحلال، والتيقظ الدائم للتحديات والمخاطر والمكايد التي تُدبَّر لهم بتقلّب الليل والنهار. وإزالةُ غربة الإسلام والمسلمين تكون بتمسكهم بدينهم الذي هو مَعْقِد شرفهم وعروةُ مجدِهم.

٤ ـ الغربة يجب أن تزيدنا استمساكاً بديننا وثباتاً عليه؛ عملاً ببُشْرى النبي ﷺ للغرباء وتزكيتهِ لهم، واعتباراً بأحداث التاريخ وما مرَّ به الإسلام والمسلمون من غربةٍ ثم نصرٍ وتمكين.

وسيرةُ النبي ﷺ وأصحابه الكرام قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي جذوةَ الحماسة والإيمان، وتوقظان الأمة المتقاعسة الناعسة، ولا تستسلم للخطأ، ولا تتهاوى في حفر الفناء.

(والمواريث التي حَفِظَتْ علينا حياتَنا وشخصيتَنا وحريتنا عبر القرون الماضية؛ هي الكفيلةُ بحمايتنا وحفظِ حرياتنا وحقوقنا في مستقبل أيامنا)[١].

٥ ـ قلَّةُ الغرباء لا تجعلنا نغتمُّ ونحزنُ لقلَّتِنا، ولا نَجزع لكثرةِ عدوِّنا،

---

(١) الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٥٤ ـ ١٥٥.

ولا نشكُّ في صحةِ ديننا وصدقِ مسيرتنا، وإنْ كانت المعركة غير متكافئة، فالعاقبة للمؤمنين المتقين، وشواهد التاريخ دليل ناطق يصدِّق ذلك.

لقد انحسرت الموجات الصليبية المتتابعة، وانكسر التتار على صخرة الإسلام، بل انقلبوا حملةً لرايته، وهُزم الاستعمار الحديث، وسَيُهزم أعداءُ اليوم لتزول غربة الإسلام من جديد.

٦ ـ يَحضُّ الحديثُ المسلمَ على أن يكون من أهل الثبات والصلاح وإصلاح ما يُفْسِد الناس وإرشادهم، والانضمام للقلّة المؤمنة الغريبة، لأن النبيَّ ﷺ مدحهم بقوله: «**طوبى للغرباء... الذين يَصْلُحون إذا فَسَد الناس**».

٧ ـ الغرباء صَمَدوا عبر القرون وتحدَّوا عواملَ الإماتة والإفناء، مع إلحاحِ الأعداء وانتهازِ كل الفُرص للطعن على الإسلام والتحريض على نَبْذ مناهجه ومحاولات تقطيع أوصاله، وبقيت الجبهة الإسلامية تردّ الضربات بقوة وصبر، والرجال الغرباء الذين غُذُوا بِلِبان الإسلام، وتطلّعوا إلى ما عند الله، واستبسلوا في تطهير البلاد من أدران المستعمرين بمختلِف ألوانهم، وغَسَلوا الديار من أوضار الزحوف الصليبية والتترية والاستعمارية والاستشراقية والتبشيرية والوثنية والبدعية وغيرها.

والبلاءُ موصولٌ على الإسلام وأهله، ومع ذلك كله فقد أَبَى المسلمون نسيانَ ربهم ونبيِّهم ودينهم، ولا تزال بين الأنقاض والآلام جماعاتٌ غَفيرة تُعلن بقاءَها على الإسلام واستمساكَها بكتابه وسنَّته ولغته وقيمه[1]، وهم يرددون مع الشادي:

يا هذهِ الدنيا أَصِيخي واشْهَدِي ... إنّا بغيرِ محمدٍ لا نَقْتدِي
لا نستعيضُ عن الشريعةِ مِنهجاً ... وَضَعَتْه فكرة مستغلٍّ ملحدِ

---

(١) هموم داعية، ص٩٣.

وَسَطاً نعيشُ كما يريدُ إلٰهُنا ... لا نستعيرُ مبادئاً لا نَجْتدِي
قرآنُ ربِّك يا محمدُ عِزُّنا ... ونظامُنا الداعي لعيشٍ أرغدِ(١)

٨ ـ الغربة لا تعني انعزالاً عن الحياة وانقطاعاً عن الناس وهجراناً للمباحات وانكفاءً على الذات وقصوراً في فهم الدنيا وأسرار الكون، كما أنها لا تعني تركاً للناس يتقلَّبون في دنياهم وللمجتمعات ترتَعُ في شهواتها وأهوائها!.

إنه لا يجوزُ الفرارُ من وجه التحديات، بل يجبُ الصمودُ لها والتصدي لمشاريعها، وبناءُ محاضنَ نقية للأجيال الجديدة، وحياطةُ أهل الخير بسياجٍ يحميهم من الزيغ، وضمُّ الجهود بعضها إلى بعض، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

فالرسول ﷺ وصفَ الغرباء بأنهم «**ناسٌ صالحون في ناسِ سوءٍ كثير، من يَعصيهم أكثر ممن يُطيعهم**».. وهذا يدل على دَأَبِهم في الدعوة والإصلاح والمقاومة والصمود.

٩ ـ الإسلام يتطلب ذوي النفوس الكبار؛ فهؤلاء هم الذين نصروا الإسلام في أيام غربته الأولى، ثم الثانية، وهم الذين يؤدون هذا الواجب الضخم في غربته الحالية.. لقد وطَّنوا أنفسهم على تحمُّل الأعباء الجسام والتضحيات الكبار، وصبروا على لأواء الطريق وابتلاءات الحياة، ومقاومة أهل البدع والزيغ، وطعن الجهال والسفهاء عليهم وتنفير الناس عنهم، وتحملوا التشريد والتنكيل والنقص في الأموال والأنفس والثمرات والأهل والأولاد!.

إنهم كما وصف الشاعر المسلم وليد الأعظمي:

تلاميذُ عمَّارٍ وأحفادُ خالدٍ ... وأبناءُ سلمانٍ وجندُ قُتَيبةِ

---

(١) ديوان وليد الأعظمي، ص١٤٤ ـ ١٤٥.

جـنـودٌ مـغـاويـرٌ أسـودٌ أشـاوسٌ إذا ما رحَى الأيامِ بالحربِ دارتِ
وإنَّـا لَـشُـبَّـانٌ نـذوبُ حـمـاسـةً بـأرواحِـنـا نـارُ الـحـمـاسـةِ شَبَّـتِ(١)

ومصير المعركة مع الباطل معلّق بالرجال الذين يملؤونها، ووثاقة إيمانهم، ورباطة جأشهم، وطول صبرهم، وبشاشة رجائهم...... إن ذلك هو اللبنة الأولى في النصر(٢).

١٠ ـ الغرباء يمتلكون مشروعَ نهضةِ الأمة، وهم الآن في يقظة عارمة.

وليتأمل الغرباء واقع المسلمين ولا يحزنوا، وليؤمِّلوا خيراً في هذه الأمة فإنها وفية لدينها وقرآنها! (إن الأمة العربية والإسلامية في عصرنا هذا تستقبل نهضةً لا شكَّ فيها؛ نهضة كموجة المدّ تعلو في أَناة، ولكنها تمتدُّ ولا يمكن إنكارها أو وقفها. إنها إفاقة جبَّارة بعد غفوةٍ طالت بهذه الأمة نحو قرنين أو تزيد كثيراً أو قليلاً بحسب ظروف الأماكن والحوادث. هذه الأمة تنبض بالحركة في كل مكان من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن شمالها إلى جنوبها)(٣).

وجُند الإسلام الغرباء الآن من الدعاة والعلماء والمفكّرين والكتّاب والخطباء والشعراء والأدباء وذوي الكفاءات الرفيعة في مختلِف التخصصات... هؤلاء جميعاً قد ساروا خطوات كبيرة في الطريق الصحيح، والحاجة ماسة إلى تجميع الجهود وترشيد الأعمال ليزيلوا الغربة من جديد.

إنه لا يجوز أبداً في حديثنا عن الغربة أن نُقنِّط الناسَ أو أن نُدخِل على أفئدتهم اليأسَ من إمكانية تغيير أحوالنا وعلاج تراجعنا الحضاري، بسبب كثرةِ التحديات وتألّبِ الأعداء وضعفِ قوانا وقلّةِ حيلتنا!.

كلا، فمعنا الحقُّ، وديننُا دينُ الحق، ويؤيِّدنا الإلهُ الحق الذي نزَّل الكتاب

---

(١) ديوان الأعظمي، ص١٠٣.
(٢) كفاح دين، ص١٣١.
(٣) الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٥٥.

وهو يتولى المؤمنين، وفي الحديث الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قالَ الرجلُ: هَلَكَ الناسُ، فهو أَهْلَكُهُم**»(١)!!

١١ ـ وأخيراً: سلوة الغرباء في الأجر الجزيل والوعد الصادق بالنصر.

وهذا من الدروس العظيمة والعِبر الجليلة، ففيه الزاد الذي لا ينفدُ في طريق الغربة؛ لأنه يُضيء ظلمتَها ويُزيل وحشتها ويُخفِّف أعباءها ويُثبِّت أقدامَ أصحابها، لأنهم مرتبطون بالسماء متطلِّعون لرضا الله سبحانه وإقرارِ عين رسوله ﷺ وتصديقِه في قوله وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.

فهؤلاء الغرباء طُوبى لهم وجناتٌ عرضها السموات والأرض، وقرّةُ عينٍ في الدنيا والآخرة، وسعادةٌ تملأ قلوبهم، وطمأنينةٌ تغمر نفوسَهم، وثوابٌ عظيم وأجرٌ جزيل تَهُون دونه كلّ التضحيات وتتضاءَل أمامه جميعُ الأوصاب والآلام.

فَهُم حزبُ الله وحزبُ الله هم المفلحون، وهم جندُ الله وجنده سبحانه هم الغالبون، وهم أتباع الرسول ﷺ ورسول الله والذين آمنوا معه واتبعوه هم المنصورون، وهم مؤمنون أتقياء ومن يتَّقِ الله يجعل له فُرْقاناً، وهم صالحون مصلِحون والله يتولى الصالحين، و﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وحَسْبُكَ من الأجر ما جاءَ في الحديث من قول النبي ﷺ: «**إنَّ من ورائِكم أيَّاماً، الصبرُ فيهنَّ مثلُ القبضِ على الجَمْرِ، للعامل فيهنَّ مثلُ أجرِ خمسينَ رجلاً يَعملون مثلَ عَمَلِكم**» قيلَ: يا رسولَ الله! أجرُ خمسينَ منَّا أو مِنْهم؟ قال: «**بلْ أجرُ خمسينَ منكم**»(٢)!.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٣)؛ وأبو داود (٤٩٨٣)؛ ومالك: ٢/ ٩٨٤؛ وأحمد: ٢/ ٤٦٥، ٥١٧؛ وابن حبان (٥٧٦٢)؛ والبغوي (٣٥٦٤)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود وغيره، وهو حديث صحيح بشواهده، وقد تقدّم مع تخريجه في هذا المجلد: ٣/ ١٧٤، حاشية (٢).

وكفاهم بُشرى ما رواه أبو شُرَيْح الخُزَاعيُّ قال: (خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ فقال: «**أَبْشِروا وأَبْشِروا، أليسَ تشهدونَ أنْ لا إلـهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رسولُ الله؟**» **قالوا: نعم، قال: «فإنَّ هذا القرآنَ سَبَبٌ طَرفُهُ بيدِ الله، وطَرَفُه بأَيْديكُم، فتمسَّكُوا به، فإنكم لن تَضِلُّوا ولَنْ تَهْلِكُوا بعدَه أبداً»)**[1].

وأما مَن نالَه التشريدُ والاضطهاد والطرد والإبعاد، وبقي ثابتاً على دينه مستعصماً بِعُراه، ثم مات غريباً عن أهله ووطنه؛ فطُوبَى له ثم طُوبى له ذلك الأجر الذي وُعِد به علىٰ لسان سيدنا رسول الله ﷺ.

عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: (توفِّي رجلٌ بالمدينة، فصلَّى عليه النبي ﷺ، فقال: «**يا لَيْتَهُ ماتَ في غيرِ مَوْلِدِه**» فقال رجلٌ من الناس: لِمَ يا رسولَ الله؟ قال: «**إنَّ الرجلَ إذا ماتَ في غيرِ مولِدِه، قِيسَ له من مولِدِه إلى مُنْقَطَعِ أثَرِه في الجنَّة**»!)[2].



(١) أخرجه ابن حبان (١٢٢) واللفظ له؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ١٦٤؛ وعبد بن حميد في المنتخب من المسند: ١/ ٨٥؛ ومحمد بن نصر في قيام الليل، ص٧٤؛ والطبراني في الكبير: ٢٢/ ١٨٨ (٤٩١)؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧١٣).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٩٣٤) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (١٩٧١) والصغرى: ٤/ ٧ ـ ٨؛ وابن ماجه (١٦١٤)؛ وأحمد: ٢/ ١٧٧؛ وحسَّنه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

١٠٨

إخبار النبي ﷺ بتداعي الأمم على المسلمين

عن ثوبانَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أنْ تَدَاعَى عَليكُم كما تداعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها**» فقال قائلٌ: ومِن قِلّةٍ نحنُ يومئذٍ؟ قال: «**بَلْ أنتُم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، ولَيَنْزِعَنَّ الله من صُدورِ عدوِّكُم المَهَابةَ منكم، ولَيَقْذِفَنَّ الله في قُلُوبِكُم الوَهْنَ**» فقال قائلٌ: يا رسولَ اللّهِ، وما الوَهْنُ؟ قال: «**حُبُّ الدُّنْيا وكراهيةُ المَوْتِ**».

وفي رواية: «**يُوشِكُ أن تَدَاعَى عليكمُ الأممُ من كلِّ أُفُقٍ**»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: معنى الحديث:

«**يوشك**»: يَقْرُب. وأمرٌ وشيكٌ: سريع.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)؛ والروياني في مسنده: ٢/ ١٣٤ (٢٥)؛ وأحمد: ٥/ ٢٧٨؛ وابن أبي الدنيا في العقوبات: ١/ ٦٢؛ والطبراني في الكبير: ٢/ ١٠١ (١٤٥٢)؛ وأبو نعيم في الحلية: ٢/ ١٨٢؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦١٣؛ والطيالسي (٩٩٢)؛ والبغوي (٤٢٢٤)؛ وصحَّحه الألباني بمجموع طريقيه في الصحيحة (٩٥٨)، وصحيح الجامع (٨١٨٣)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنَّة: ١٥/ ١٦. والرواية الأولى لأبي داود، والثانية لأحمد وأبي نعيم. والحديث أخرجه أحمد: ٢/ ٣٥٩، من رواية أبي هريرة، وفيه راوٍ مجهول هو حبيب بن عبد الله، لكن يشهد له حديث ثوبان الصحيح.

«**الأمم**»: جمع أمة، والمراد فِرقُ الكفر وأممُ الضلالة من اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين والوثنيين.

«**تَدَاعَى**»: بحذف إحدى التاءين أي تتداعى، بأن يدعو بعضُهم بعضاً ليتجمعوا عليكم، يريدون مقاتلتكم وكَسْرَ شوكتكم وغلبتَكم وسَلْبَ ما في أيديكم من الديار والأموال.

«**كما تداعى الأَكَلةُ إلى قصعتها**»: جمعُ آكلٍ، أي كما يدعو أكلةُ الطعام بعضَهم بعضاً إلىٰ قصعة طعامهم يتناولون منها بلا مانع ولا مُنازع، فيأكلونها عفواً وصفواً، فكذلك الأمم يتنادون من كل فَجٍّ لغزوِكم، فيأخذون ما في أيديكم بلا تعبٍ ينالُهم أو ضررٍ يَلحقهم أو بأسٍ منكم يَصُدُّهم.

(**ومن قلَّةٍ نحن يومئذ**): أي هل ذلك التداعي لأجلِ قلّةٍ نحن عليها يومئذ؟!.

«**ولكنكم غُثاءٌ كغثاءِ السَّيْل**»: والغُثاء ما يجيء فوق السيل مما يحمله من ورق الشجر والبزورات والزَّبَد والوسخ وغيره.

أي كما أنَّ غثاءَ السيل لا قيمةَ له ولا يَملك لنفسه شيئاً فهو لضَعْفِه يحملُه السيلُ ويجرُفه في مساره غير آبهٍ به، فكذلك أنتم آنذاك لِضَعْفِكم وتفرُّقِ كلمتِكم وهوانِكم على عدوِّكم.

«**لينزعنّ**»: لَيُخْرِجنَّ.

«**المهابة**»: الإجلال والخوف والرعب. فالمهابةُ منكم والخشيةُ لجانبكم والرعبُ من قوتكم كل ذلك مغروسٌ في قلوب أعدائكم، لكنْ عندما تصبحون على تلك الحال من الغُثائية تُنزع المهابةُ منكم من صدورِ أعدائكم.

«**ولَيَقذفنَّ**»: ولَيَرمِينَّ.

«**الوَهْن**»: الضعف والفتور والجُبْن.

ولم يكن السائل جاهلاً بالمعنى اللغوي للكلمة، وإنما سأل عن سبب الوَهْن ومظاهره، فقال: وما الوهن؟ فكان الجواب:

«**حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت**»: وهما أمران متلازمان، وحُبُّ الدنيا: هو التعلُّقُ بها والانشغالُ بالأموال والشهوات والنزوات ونزغات النفس والغفلة عن الآخرة ومعالي الأمور والتضحية في سبيل هذا الدين؛ مما يولِّد الخَوَر والجُبْنَ وكراهيةَ الموت والضّنَّ بالنفس عن الجهاد والشهادة في سبيل الله، وهذا معنى رواية أحمد عن أبي هريرة في هذا الحديث: «**حُبُّكم الدنيا وكراهيتُكم القِتالَ**».

ثانياً: كلمة موجزة عن النبوءة وعرض شامل موجز لمدلولها وآفاقها:

●● الأمم كالأفراد في مصايرها؛ قد تبقى حتى تثيرَ الأرض وتَعْمرها وتترك فوقها آثار حضارات زاخرة، وقد تنتحر بمسلك طائش ينكِّس رايتها فجأة وتَدْرُس إلى يوم النشور. وقد تواتيها قوى الشباب فتملأ الحياة عراماً واضطراماً ومجداً وبناء، فلا تلبث أن تعتلَّ فيضطرب مسيرها بعد استقامة وتحيا شيخوخة واهنة تطبع عملَها العام بالعجز والاسترخاء، لكنها لا تهلِك بل تتجدد على نحو من الأنحاء[1].

وهكذا كان حال الأمة العربية والإسلامية.

فالعالم الإسلامي المترامي الأطراف مرَّ في مسيرته الطويلة خلال أربعةَ عشر قرناً في حالات من المَدّ والجَزْر، قوة وانتصاراً وامتداداً، وضعفاً وهزيمة وانحساراً، حيث توجد قوى هائلة شاذةٌ تعاكِسُ رغبتَه، وتحاول بوسائل الإكراه المادي والأدبي أن تلوي زمامَه عن الوجهة التي يريد، وتضغطُ عليه كي يرتدَّ عن ديانته كُلّاً أو جزءاً، على قَدْر ما تبلُغ أدوات هذا الضغط الباطنة والظاهرة! ولعلَّها تكتفي منه مؤقتاً أن يتركَ بعضَ ما أُوحي إليه، على أمل أن يتركَ الوحيَ كلَّه مستقبلاً.

---

(١) ظلام من الغرب، ص٢٢٥.

ولكن هذا العالم الإسلامي المُتْعَب مُصِرٌّ على الاستمساك بالدين كلِّه، وراغبٌ أن ينالَ حريةَ العمل به والاحتكام إليه.. وهو مبلبلُ الفكر لطول ما يُكابِد من مساومات ومؤامرات، ولطولِ ما ترادَفَ عليه من محنٍ وأزماتٍ[1].

ولقد حَفَلت وقائع التاريخ الإسلامي بالمؤامرات التي وُجِّهت إلى الأمة العربية والإسلامية، وكان المعتدي دائماً هو الغرب الصليبي والشرق الوثني أو الشيوعي، وكلٌّ قد دفع بقواته على دولة الإسلام:

- فكان **الانقضاض الأول** من دول أوروبة الصليبية على ديارنا، فاحتلوا مدينة القدس.

- ثم كان **الانقضاض الثاني** بالاشتراك مع التتار وإسقاط الخلافة العباسية.

- ثم جاء **الانقضاض الثالث** بحملات صليبية متعددة على عامة الوطن العربي والإسلامي مصر وليبيا والجزائر والمغرب، والخليج العربي وبلاد الشام والعراق، والقارة الهندية وأطراف المحيط الهادي، بقيادة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا البرتغال وإسبانية وغيرها.

- وجاء **الانقضاض الرابع** منذ نحو قرنين ممثَّلاً في الحملات الاستعمارية بقيادة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها.. وتلاها الزحف الشيوعي على الجمهوريات الإسلامية في شمال شرق آسية وبعض البلاد العربية، حيث حملت راية الاشتراكية ردحاً من الزمان.

- ثم جاء **الانقضاض الخامس** ممثَّلاً في الحملة الصهيونية الصليبية على أرض فلسطين، بمطمع السيطرة على ما بين الفرات والنيل، وامتدت الحملة العنيفة لتلتهم العراق وأفغانستان ومنطقة الجزيرة العربية مع الهيمنة على سياسات

---

(١) معركة المصحف، ص١١.

وقرارات أكثر الدول العربية والإسلامية، وهو ما نعيشه الآن في القرن الخامس عشر الهجري ـ مطالع القرن الحادي والعشرين الميلادي[1].

والتاريخ لا يزال يُعيد نفسَه ويكرِّر مشاهده وأحداثَه، والهجومُ على الأرض الإسلامية يتجدَّد في هذا العصر، فالمطلوب منّا طال الزمان أو قَصُر أن نرتدّ عن ديننا وأن نتنازل عن بلادنا.

وأحوال المسلمين صورة قريبة الملامح من صورتهم قبل الهجوم الصليبي الأول، والفجوات الواقعة بين شتى الحكومات هي هي، وكذلك البعدُ عن تعاليم الدين، واتخاذ القرآن مهجوراً، ونسيان النبي محمد ﷺ وسيرته وسنَّته[2].

والمسلمون في هذا العصر يواجهون حقيقة مرَّة هي أن خلافتَهم غاربة، ووحدتَهم الكبرى معتلَّة، وشرائعَهم معطَّلة، وأخوَّتهم العامة منكورة، ومنابعهم الفكرية كدِرة، وأخطاءهم القديمة باقية، وأمانيهم في المستقبل مشوَّشة، والقوى التي هزمَتْهم من الخارج لا تزال مكشِّرة الأنياب، والجراثيم التي هدَّتْهم من الداخل لا تزال تسرح في كيانهم دون وَجَل[3].

●● والأمة الإسلامية قد سَلَخت أكثَرَ من أربعة عشر قرناً وهي تحمل رسالة كبيرة، وتمتد على رقعة مترامية، وتضمُّ أجناساً متنوعة، ولها أعداء متربِّصون كثيرون، فلا بدَّ أن تكون لها سلبيات وإيجابيات، وهزائم وانتصارات، ومدّ وجَزْر، لكنها تستعصي على الذوبان وتتحدى الإفناء، لما فيها من عوامل الثبات والديمومة.

كما أن مظاهر الانهيار والانحسار والتراجع فيها تكون بطيئة، بخلاف الإمبراطوريات الكبرى التي غبرت في التاريخ كما حدث للإمبراطورية الرومانية

---

(١) انظر: الضربات، ص٢٨٦، والكتاب كله يتناول دراسة الهجومات والتداعي على الأمة العربية والإسلامية على مدار تاريخها.

(٢) هموم داعية، ص٥٢.

(٣) علل وأدوية، ص٢٥٠.

ـ مثلاً ـ التي انهارت بصورة تامة على يد الهون والقوط خلال قرن واحد، ولم يبقَ منها سوى بضعة معالم من الأدب والبناء[(١)]. والإمبراطورية الفارسية التي تهاوت أمام المد الإسلامي خلال عَقْد واحد من السنين!.

والصليبية وغيرها من قوى الكفر قد قرَّرتْ الإجهازَ على هذا الدين والخلاصَ منه بأي ثمن، وقد مَضَت القرون وهي تحاول، ونحن نقاوم!.

والذي يدعو للغرابة أن الضربات لا تفتُر، وأن الكيان لا يسقط! تُرى كم سيبقى؟ إن الأعداء ماضون في الهجوم وقد أصابهم في الأيام الأخيرة لونٌ من الهَوَس لأنه خُيِّل إليهم أن الدين الضحيةَ غالَبَ آلامَه وعاودَتْه العافية، ولذلك فإن العدوان زاد.

ولا يزال الدين الجَلْد صامداً، بل بدا كأنه يتأهّب لأمرٍ ما[(٢)]!..

فالمقاومة الإسلامية صَمَدت بنجاح، بل إنها استعادت بعضَ المراكز التي فَقَدتْها، وهي ماضية إلى غايتها بعزم شديد.

والمدهش بقاءُ الإسلام إلى اليوم مع الحروب المتصلة المُبيدة، الجليِّ منها والخَفِيِّ، التي تعرَّض لها هذا الدين... هذه الحروب التي سَخَّرتْ كلَّ أداة للنَّيل منه، والتزهيد فيه، والشغب عليه[(٣)]!..

•• والذي نعتقده جازمين أن تلك الزحوف المتلاحقة على الإسلام وأهله ودياره قد تنال منه وتُحدِث فيه جروحاً غائرة وخسارات كبيرة وصغيرة، لكنها لن تُفلح في استئصاله وإفنائه؛ لِما ركزه الله فيه من عوامل الثبات والبقاء، وتحقيقاً لموعود الله لنبيِّه ﷺ بأنه لن يُسلِّط على أمته عدوّاً من غيرهم يَستبيح بَيْضَتهم[(٤)].

---

(١) انظر: الضربات، ص٢١.
(٢) هموم داعية، ص٨٤، ٨٥.
(٣) علل وأدوية، ص٢٥٢؛ الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٥٩.
(٤) انظر: النبوءة (٨٦): ٣/١٣ (في هذا المجلد).

ثالثاً: أسباب التداعي على أمتنا ودوافعه:

وتداعي الأمم على الإسلام والمسلمين وديارهم ومقدَّساتهم وخيراتهم له أسباب كثيرة ودوافع جَمَّة، بعضُها نابع من تلك الأمم وأديانها وقيمها وأطماعها، وبعضها الآخر ناجم عن أعمال المسلمين وأحوالهم وبما كسبت أيديهم، ونُجمل ذلك على وجه الإيجاز والإشارة في الأمور التالية:

١ ـ كره الإسلام وشنآن أهله:

فأهل الكتاب من يهود ونصارى لا يكتمون سخطَهم على الإسلام، وتبرُّمَهم بعقائده، وسعيَهم في تخريب مساجده، ولقد رأيناهم إلى يوم الناس هذا تربدُّ وجوههم عند سماع الأذان، وتضيقُ بهم الأرض.

وضغائن الكتابيين والوثنيين على الإسلام وأهله متوارَثةٌ جيلاً إثر جيل.

وقد سجَّلَ القرآن الكريم مشاعرَ القوم، ونبَّهَنا إلى ما يجب بإزائها عندما قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وأما الكافرون وراء دائرة الكتابيين ففي ضلال وسُعُر، لا يُهادِنون الإسلام، ولا تبردُ لهم خصومة، هم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وأحقادُ أوروبة على الإسلام لم تهدأ في قرن من القرون القديمة أو الحديثة، وعاطفتُها ضد ديننا قد تَرجمت عنها فيما شَرعت من قوانين، لا لتعاقبَ بها المسلمين كأفراد، بل لتنكرَ وجودَهم الإنساني كجماعات ودول!.

إن هذه هي الحقيقة الكالحة(١).

---

(١) علل وأدوية، ص١٦٢؛ كفاح دين، ص٩٣.

ورجال المسيحية يأبَوْن على الإسلام أن يحيا، ويرفضون في بغضاءَ عميقةٍ أن يرتفع له لواء. وخُبْثُهم الاستعماري في هذا العصر تجديدٌ لسيرتهم الأولى أيام الرسول ﷺ وصحابته، لم تتغير فيه إلا الوسائل، أما الغايات والنيّات فهي حَذْوَكَ النعلَ بالنعلِ.

وضغائنهم علينا تُعيي العقول! إنهم أَوْهَنوا قوى الإسلام، حتى تأكَّد لنا أن انتشارَ الشيوعية في الأرض أحبُّ إليهم من بقاء الإسلام معافًى، ومن بقاء أمته موفورة! إنهم يكرهون الإسلام أكثر مما يكرهون الشيوعية، ويتمنّون الخَبَال والذلَّ لأمته أكثر من أي شيء آخر[1].

والعالم الصليبيُّ ضائقٌ بالإسلام منذ ظَهر، وقد اشتبك معه في حروب طويلة، اشتركتْ فيها شعوب أوروبة جمعاء، وترادفت حملاتُها حيناً من الدهر. وإذا كانت هذه الحروب لم تقضِ على الإسلام، فإنَّ مخلَّفاتِها الدامية رَسَبتْ في نفوس الصليبيين والتصَقَتْ بأفئدتهم، وأمستْ ذكريات متَّقدة في السرائر.

وتلاقى الحقد اليهودي مع الحقد الصليبي في الهجوم على الإسلام وتشويهِ سمعتِه وتحريف قضاياه كلها.

وكرهُ الملاحدةِ للإسلام معروفُ البواعث، فإنَّ الحديث عن الله وحقوقه لم يقوَ في مكان مثل ما قوي في الإسلام، وقد أمكن صرفُ أممٍ شتى عن مواريثها الروحية وتلقينُها الفكر المادي وحده[2].

وما تزال المعركة بين الإسلام والغرب ـ بعناصره السياسية والدينية ـ مستمرة لم تتوقف منذ اليوم الأول حتى اليوم الأخير، على النحو الذي وصفها به جمال

---

(١) كفاح دين، ص٢٠، ٢٧٣.

(٢) هموم داعية، ص٨٥، ٨٦.

الدين الأفغاني، وبما صوَّره كثير من كتَّاب الغرب الذين أشاروا إلى أنهم أُرضِعوا كراهيةَ الإسلام مع لِبان أمهاتهم.

يقول جمال الدين الأفغاني: (إن الروحَ الصليبيةَ لم تَبْرَحْ كامنةً في صدور النصارى كمونَ النار في الرماد، وروحَ التعصُّب لم تنفكَّ حيةً مُعْتَلِجةً في قلوبهم حتى اليوم، كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل، فالنصرانية لم يَزَل التعصب مستقرّاً في عناصرها، وهي أبداً ناظرةٌ إلى الإسلام نظرةَ العداء والحقد والتعصب الديني الممقوت)[1].

٢ ـ جبروت الأمم في الأرض وطغيانها فيها، وردُّها على الإسلام الذي غسل الأرض من أدرانها:

فاليهود والنصارى والفرس والوثنيون وسواهم قد طَغَوا في البلاد وأكثَروا فيها الفساد، ونشروا الظلم والطغيان والاستعباد، فجاء الإسلام فَخَضَد شوكتَهم وهَزم جندهم وطهَّر الأرض من رِجْسهم وأدرانهم، وأَجْلَاهم عن كثير من الممالك التي استعمروها، فتأَجَّجتْ في نفوسهم نيران البغضاء للإسلام ونبيِّه ﷺ وأتباعه، ولا تزال مَشْبُوبة إلى الآن وستبقى أبدَ الدهر.

فالفرس والروم قديماً، والفِرنجة والشيوعية حديثاً، وأجناس أخرى تدعي المسيحية... أولئك كلهم يكرهون الإسلام؛ لأنه الدين الذي ردَّ هجومَهم، وأوقفَ طمعَهم؛ فالمسلمون العرب قَصّوا أجنحةَ المجوس الذين تقهقر مُلْكُهم وانحصر في رقعة صغيرة من بلاد فارس، وطهَّروا الشمالَ الإفريقي وآسية الصغرى من الاستعمار الروماني القديم بعد أن ظل نحو ستة قرون.

والمسلمون الأتراك تعقَّبوا الأوروبيين في أقطارهم الأولى، حتى بَلَغوا أسوار (فيينّا) عاصمة النمسا، ومَكَثوا يقاتلون الأوروبيين نحو خمسة قرون.

من أجلِ ذلك لا تنتهي ضغائنُ الفرس والصليبيين وأشياعِهم على رسول الله

---

(١) الضربات، ص١٢، ١٨٣.

ﷺ ودينه وأتباعه، بل هم يَفقِدون اعتدالَهم الفكري والنزاهةَ النفسية عندما يتحدثون عن الإسلام وأهله.

لقد ظلَّ الفُرس يحكمون رقعة شاسعة بجبروت وطغيان، كذلك ظَلّ الرومان بضعة قرون ملوكَ البحر الأبيض المتوسط وحكَّامَ شواطئه، ما أَخرج هؤلاء وأولئك منها إلا الإسلام، وما ردَّ الحريات إلى شعوبها المأسورة إلا دين الله بعدما حمله العرب.

فلا غَرْوَ إذا تنامَى حقدُ الفرس والأوروبيين عموماً ومن شايعهم وجاء بعدهم على دينٍ غَسَل الأرض من جبروتهم، وسوَّاهم بغيرهم من عباد الله! وقد شرعوا يتلمسون العيوبَ للإسلام، ويفترون الأكاذيبَ ليشفوا صدورهم.

ولقد تردَّدتْ كلماتُ كتّاب الغرب بما يُفهم منها أن الحرب الصليبية التاسعة هي بمثابة ثأر من المسلمين ومن الدولة العثمانية؛ يقول بيرس سميث في كتابه عن سيرة المسيح: (إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حرباً صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها).

ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في كلمات جلاد ستون رئيس وزراء بريطانيا، وقد أَمسك المصحفَ الشريف بيده من فوق منبر مجلس العموم البريطاني، وقال: (ما دامَ هذا الكتابُ باقياً في الأرض فلا أملَ لنا في السيطرة على المسلمين، بل نحن على خطر منه في وجودنا نفسه)[١].

٣ ـ فوضى الحكم في بلاد المسلمين وعيوبُه، وضعفُ الحكام وتفريطهم بواجباته:

فالحكم في بلادنا من أوائل ما اعتُدي عليه، وشُوِّهت صورتُه، وعُبِث بقداسته، فانقلب إلى مُلْك عَضُوض، ثم انحدر إلى تسلّط حكام الجَبْريَّة، وأضحى في كثير من فترات التاريخ والعديد من الدول والبلدان هو الحلقة

(١) الضربات، ص٢٣٥؛ وانظر ص٢٢٥، ٣٢٤، سر تأخر العرب والمسلمين ٥٥، ٩٣.

الأضعف في بنيان أمتنا، وسادت فوضى سياسية جعلتْ مناصبَ الحكم بعيدةً عن كل موازين الكفاية والإخلاص والحرص على شؤون الدين والأمة والبلاد، وأمسى العمل السياسي سوقاً لاصطياد المغانم والأسلاب، واختفى منه تقريباً الوفاء بحقوق الله والناس والسهر على مصالح الأمة الدينية والمدنية.

وظهر في أزمنة متقدّمة من تاريخ الدولة العباسية، وفي الأندلس أيام ملوك الطوائف، وهَلُمَّ جُرّاً من بعدهم إلى الآن؛ نَهَمٌ مسعورٌ إلى السلطة، وتعاركٌ وحشي على الإمارة، والخلاف الشديد بين الإخوة والأشقاء على كرسي الحكم، وبين الزعامات المتجاورة.

وانحدر بهم الأمر إلى دَرْكٍ سحيقٍ؛ فاستعان بعضُهم بالعدو الصليبي أو غيره على أخيه ليستأثر بالسلطة، وقامت بينهم صراعات عنيفة، في الوقت الذي كان فيه جندُ الإسبان يجتاحون بلاد الأندلس ويطردون المسلمين منها، ثم الحملات الصليبية تزحف على بلاد الشام وتحتلُّ بيتَ المقدس، وبعدها قام التتار والصليبيون بهجمات ماحقة من الشرق والغرب فدمَّروا بلاد المسلمين ومزَّقوا حضارتهم.

واطَّرد الأمر وتكرر كثيراً في تاريخنا القديم والوسيط والحديث والمعاصر الذي أربَى على كل ما تقدّم، وما نشهده الآن من تهارُشٍ على الحكم واستئثارٍ به؛ برهان واضح على فوضى الحكم وضعف مؤسساته، والتفريط بواجباته!.

والحكم في كثير من أجزاء أمتنا المترامية الأطراف جسدٌ بلا روح، لأن ولاء الشعوب للإسلام واتجاهَ أغلب الحكومات إلى قبلة أخرى! وأصبح الحكم سوقاً للمغانم والبطش والجبروت.. وضَعُفت الشورى في مراحل كثيرة من تاريخ الحكم في بلادنا، بل تلاشَتْ في هذه الأزمنة، وحكَمَ الناسَ فرعونُ وهامان وقارون، بالحديد والنار تارة، وبالغش والتزوير طوراً، ومع هذا إذا استُفتي الناسُ في اختياره حصل على «التسعات» الأربع أو الخمس (٩٩,٩٩٩٪) التي أمسَتْ مثارَ سخرية العالم!.

وإذا كان الإسلام قد تأذَّى في الماضي من كَبْت الحريات، فهو لم تُنتقَص أطرافُه في الحاضر القريب إلا تحت وطأة الاستبداد. إن الاستبداد غولُ الأفراد والجماعات، غولُ الذمم والكرامات، وهو ـ لا شك ـ سيبرز لك وحده، وستبدو جرثومته الخبيثة عندما تبحث عن السرِّ في تأخّر المسلمين وتداعي الأعداء عليهم، وتخلُّف قافلتهم منذ عدة قرون(١).

إن أمراض الحكم وآفات الحكام أدواءٌ عُضَال بُليت بها الأمة منذ زمن بعيد، وهي في القرن الفائت والحالي أشدّ فتكاً وأخطر أثراً في استدامة التداعي على أمتنا.

٤ ـ كثرة الظلم وشيوعه في بلادنا:

والظلم والاستبداد والطغيان الفردي من العوامل التي فتكت بالأمة، وأوهنَتْ قواها، وأذهبَتْ ريحها، وجعلَتْها نُهْبة للطامعين، وكَلأً مُباحاً للأعداء الغازين والمتربصين الحاقدين.

والظلم من جراثيم الإفناء التي تنخر في هذه الأمة ولا تزال تسري في أوصالها وتلحُّ على تقريب أجلها، والحق سبحانه يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].. وفي سورة القصص وسواها شرح مستفيض لعواقب الظلم.

وقد أوجز المولى تبارك اسمه عواقبَ الحكم الطاغي والاستبداد السياسي بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

(وكَثُر الظلم في العالم الإسلامي: ظلم الحكام المحكومين، وظلم الأغنياء الفقراء، وظلم الأقوياء الضعفاء، وظلم أرباب العمل العمال، وظلم الرجال النساء، والظلم لا تقوم عليه دولة، ولا تنهض به أمة)(٢).

---

(١) المبشرات بانتصار الإسلام، ص٥٩، كفاح دين، ص١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) المبشّرات بانتصار الإسلام، ص٥٩.

ولو تأملتَ تاريخنا قديماً لرأيتَ ظلماً كثيراً ومظالم فظيعة، أما في تاريخنا القريب والمعاصر فالواقع مُفزِع والنتائج مروِّعة، وكأن الظلم رحل من بلاد الدنيا وتقاطر إلى ديارنا!.

(والإسلام والاستبداد ضِدَّان لا يلتقيان، فتعاليمُ الدين تنتهي بالناس إلى عبادة ربهم وحدَه، أما مراسيمُ الاستبداد فترتدُّ بهم إلى وثنيةٍ سياسية عمياء)[١].

٥ ـ تغييب دور العلماء والدعاة والمفكّرين وتقويض سلطانهم، وتخاذل فريق منهم واستخذاؤه:

والمرء لا يَسَعه إلا الحزن لمصاير قادة الفكر الإسلامي والدعاة المخلصين والعلماء العاملين والوطنيين الأحرار، الذين قُتلوا أو أُهينوا أو شُرِّدوا، أو زُجَّ بهم في غياهِب السجون، أو كُمِّمت أفواهُهم وكُبِّلت أيديهم وحُطِّمت أقلامهم، وحِيل بينهم وبين نفع الجماهير والنهضة بالأمة.

وفي الغارات القديمة والمعاصرة من الصليبية والتترية والشيوعية واليهودية والوثنية على هذه الأمة، وبالتعاون الخؤون مع قيادات غادرة في بلادنا، ـ تمَّ تقويضُ سلطان العلماء والمفكرين وتهجيرُ الكفاءات، وإسكاتُ الغيورين والناصحين، وتجفيفُ الينابيع النقية الفيّاضة التي تُصلح عملَ المفسدين! وإفساحُ المجال للأصاغر ممن يلبسون مُسُوحَ العلماء، ويمشون في هوىٰ السلطان، ويداهنون في الباطل، ويَصمتون عن الحقائق، ويتلاعبون بالنصوص، ويقدِّمون العلمَ المغشوش؛ مما أوقع جماهير غفيرة في شَرَك العدو المتربص وأكاذيب رُوَيْبِضة الحكم، وأَحدث خلخلة كبرى وثغراتٍ خطيرة في صفوف الأمة، نَفَذ من خلالها الأعداء وتقاطروا علينا غازين من كل حَدَب وصَوْب.

والعلماء الأحرار يَرْسُفون في الأصفاد، مما فَتَّ في بنيان الجبهة الداخلية للأمة، وأضاف عاملاً آخر من عوامل التداعي عليها.

---

(١) الإسلام والاستبداد السياسي، ص٢٠.

وثمَّة فرقاء من العلماء تعامَوا عن الحقائق الكبرى والمخاطر الماحقة التي تجتاح الأمة وتمزِّق أوصالها، فداهنوا هذا الحاكم أو ذاك، وشَغَلوا الجماهير بقضايا صغرى يُبدِئون فيها ويُعيدون، غير عابئين بما يتهدَّد كياننا من الداخل والخارج، ويُطيل أمدَ تداعي الأمم علينا وسقوط بلادنا في أيدي القاصي والداني من الغزاة[١].

٦ ـ تفرُّق المسلمين وتشرذمهم وتمزُّق صفوفهم وغياب وحدتهم:

وتفرق المسلمين حكومات ودولاً وشعوباً من أهم الأسباب التي أطمعتْ أممَ الغرب والشرق في التداعي علينا وغزوِ بلادنا وانتهابِ خيراتنا وهدمِ حضارتنا!.

وتوجيهات القرآن الكريم وتعاليم السنَّة النبوية والسيرة الطاهرة وأحداث تاريخنا؛ كلها تؤكد هذه الحقيقةَ وأهميةَ وحدة الكلمة ورصِّ الصفوف والتئام الشمل وعدم الاحتراب الداخلي والتفرق النظري والعملي.

وبكلمة حصيفة واعية قال سائح مسلم في (ديار الأندلس) مبيِّناً سبب تداعي الإسبان وسواهم عليها حتى طردوا المسلمين منها، قال: (لقد قامت للمسلمين دولة هنا لمَّا كانوا لله خلائف، ثم طُردوا من هذه الديار لمَّا صاروا على ثراها طوائف!).

ويقرر كثير من الباحثين أن السبب الرئيس في وقوع الغزو الصليبي هو: تفرّق المسلمين، والمنازعات التي كانت قائمة بين المسيطرين على دولهم، والفوضى المحزنة التي عمّت بلاد الشام نتيجة لهذه الخلافات والمنازعات[٢].

وعندما هجم الصليبيون على العالم الإسلامي كانت الفرقة غائرة بين دوله:

فالدولة العبيدية (الفاطمية) في الشمال الإفريقي ومصر تغير على الدولة

---

(١) انظر: الضربات، ص٢٤٢، ٢٥٤ ـ ٢٥٦؛ علل وأدوية، ص١٩٧.

(٢) الضربات، ص٧٤.

العباسية في العراق والشام والحجاز! والدولة الأموية في الأندلس تتمنى البوار للفريقين، كي يؤول إليها الميراث الدسم! والفرقاء المتشاكسون محصورون في أحقادهم، لا يحسون الزحف الصليبي القادم من الغرب، ولا الزحف التتاري القادم من الشرق.

يقول الأستاذ أحمد الشقيري: (كانت ديار الشام مهيَّئةً للهزيمة؛ إذ كانت جملة ممالك وإمارات لا رباط بينها: إمارة (أنطاكية) يحكمها الأمير سيان، ومملكة (حلب) على رأسها الملك رضوان، ومملكة (دمشق) وعلى رأسها الملك دُقَاق، وإمارة (حمص) يحكمها شمس الدولة جناح بن ملاعب، وإمارة (الموصل) يحكمها الأمير كربوغا، وإمارة (حماة) يحكمها الأمير سلمان. ثم هناك الدولة الفاطمية في القاهرة، والدولة العباسية في بغداد.

وكانت الجماهير الغاضبة تذهب جموعاً جموعاً إلى عاصمتي الخلافتين المتنازعتين على الرياسة دون جدوى، ما فكرت إحداهما في عمل شيء يعين المدافعين أو يعرقل المهاجمين).

والعرب والمسلمون في تفرقهم الشائن أيام الحملة الصليبية الأولى هو الذي فتح الطريق إلى القدس، وجعل الجثث أكواماً في البلد المحروب، وهم اليوم يكررون الخطأ القديم[1].

وأحوال الحكومات والدول والشعوب المسلمة هي الآن قريبة الملامح من صورتهم قبل الهجوم الصليبي الأول، بل إن الفجوات أكبر والفرقة أعمق، وتقسيم الأمة العربية والإسلامية إلى أجزاء شتى وإقامة حدود يدافع عنها الحكام والشعوب والأعداء؛ جعل أمتنا أوزاعاً وحكامنا متشاكسين، مما وطَّأ للأعداء ومهَّد لهم ظاهر الأرض وباطنها.

والذي نشهده الآن من حال أمتنا يدعو للأسى ويقطِّع نِياط القلوب، فلقد

(١) انظر ما كتبناه في النبوءة (٧٢).

أمسينا غنائمَ باردة لكل من هَبّ ودبَّ! وشملت الفرقة والخلاف جميع قطاعات الأمة وشرائح المجتمع، من الساسة والحكام والنُّخَب والعلماء والدعاة والجماعات والهيئات وغيرها.

٧ ـ أهمية العالم العربي والعالم الإسلامي:

تمتد دول المسلمين في قارتي آسية وإفريقية مشكِّلة كتلة جغرافية على درجة هائلة من الأهمية الاستراتيجية، وتخترِق أراضيها مجموعةُ بحار تمثِّل خطوطَ الملاحة العالمية، فالعالم الإسلامي نقطة التقاء ووصل بين الشرق والغرب، ومن ثَمّ فهو مركز رئيس في حركة المواصلات العالمية، بكل ما يعني ذلك من انعكاسات خطيرة اقتصاديّاً واستراتيجيّاً، حيث يضم أهم مجموعة مضايق في العالم: ١ ـ مضيق جبل طارق، ٢ ـ مضيق باب المندب، ٣ ـ مضيق البسفور والدردنيل، ٤ ـ مضيق ملقا، ٥ ـ مضيق هرمز.

وتقع بين ظهراني الكتلة الإسلامية مجموعة من المسطحات المائية الخطيرة الأثر، التي تشكل بمجموعها المحاور الاستراتيجية العالمية للتحكم في الممرات المائية وطرق التجارة العالمية والأمن الدولي العام، وهي: البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، والخليج العربي[١].

هذا فضلاً عن الخيرات والمنتجات المتنوعة والمتعددة ذات العوائد الاقتصادية الضخمة، والتي زخرت بها بلاد المسلمين، ناهيك عمّا تفجر من باطن الأرض من كنوز النفط والغاز الطبيعي والخامات المعدنية الثمينة، مما أطمعَ فيها القريبَ والبعيدَ.

زدْ على ذلك أن العالم العربي والإسلامي كان مهدَ النبوات ومهبطَ الوحي ومركز الإشعاع للنور الهابط من السماء؛ فعلى ثَراه كانت دعوات جميع الأنبياء والمرسلين.

---

(١) الضربات، ص٢٥ ـ ٢٦، باختصار.

فلا غَرْوَ أن تتصارع القوى على امتلاك زمام هذه البلدان التي تمتاز بكل ما ذكرناه من خصائص ومميزات.

٨ ـ تشويه العلم الديني والتقصير في علوم الدنيا:

فالتعليم الأصلي في صدر الإسلام لبَّى حاجات الأمة التربوية والتشريعية والأدبية، وقَدَرَ قدرةً تامة على تكوين أجيال ناضجة، وجعل المسلمين ـ عالميّاً ـ أمة تعطي أكثرَ مما تأخذ، بل جعلها تدفع ولا تندفع، وتغزو ولا تُغزى.. نعم كان المسلمون بازدهارهم العلمي الأمة الأولى في العالم.

ومع تراخي الزمن وتطاول الأمد، حَدَث تشويهٌ كبير للعلم الديني: فتمَّ تحجير قضايا كبرى، وضُيِّقَ الخِناق على علوم مهمة وحقائق خطيرة تقرِّر مصير الأمة، وأُثيرت قضايا جزئية وضُخِّمت مساحتُها الأدبية والزمانية والعقلية.

فالحديث عن الحلال والحرام والمعروف والمنكر؛ مرفوض. وتدريس حق الأمة في المال العام، ومحاربة الفواحش والموبقات، وطرق الغش والسلب والنهب، وانتشار الربا، وأهمية الشورى وحرية الرأي والنقد... وأمثال هذا مما يَهمُّ ويَعُمُّ جمهورَ المسلمين؛ هو أمر محظور الحديث فيه على الملأ.

وهناك حديث آخر يمكن التوسع فيه والحماس له وشغل العامة بقضاياه؛ مثل: الصلاة بالنعل أفضل أم مع الحفاء؟ الحج مع التمتُّع أفضل أم مع الإفراد أو القِران؟ مسُّ إحدى السوءتين ينقض الوضوء أم لا ينقضه؟ التراويح ثماني ركعات أم عشرون؟ القنوت في الفجر بدعة أم سنّة؟ زكاة الفطر تُخرج عَيْناً أم نقداً؟ ... إلخ.

ومع الاستبحار في هذه القضايا، هناك قضايا أخرى يجب الانتهاء فيها إلى رأي زائغ: الحاكم لا تقيده الشورى، الحاكم المغتصب للسلطة لا يُقاوَم، الانحراف عن الحاكم فتنة، اعتزال الفتن إيمان، تطليق الدنيا أساس التقوى[1]!.

---

(١) علل وأدوية، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

وأُضْعِف التوحيد الأصيل ـ الذي هو جوهر الإسلام وروحُ الوجود الإسلامي كله ـ بين خرافات العرَّافين، وأباطيل الدجَّالين، بين شِرْك العوام الذين يكادون يعبدون قبور الأموات، وشِرْك الخواص الذين يكادون يعبدون قصور الأحياء[١]!.

وظهر التصوف المنحرف، والتصوف المحترف، وقلَّ التصوف الحقيقي المعبِّر عن روحانية الإسلام ووسطيته[٢]، وغَلَبَتْ (رسومُ) التصوف على حقائقِه، من ذِكْر باللسان ـ من نَوْع ما قالت رابعة العدوية: استغفار يحتاج إلى استغفار منه! ـ ومن أورادٍ موضوعة، وحركاتٍ مصنوعة، لا ترقِّق القلبَ، ولا تذكِّر بالرب، ولا بالدار الآخرة[٣].

كذلك فإن الجهاد مكتوب على المؤمنين لحماية الدين والبلاد والعباد، وهو لا يمكن أن يتم ولا أن ينجح بعيداً عن التفوق المدني والحضاري. والأمة الإسلامية كي تكون على مستوى دينها، وكي تنجح في المحافظة عليه، وكي تستطيع إفهامه للآخرين؛ لا بد أن تكون راسخة القدمين في شؤون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سبَّاقة في شتى الميادين، مسموعة الكلمة في آفاق العلم برّاً وبحراً وجوّاً. وكل علم يطوي تخلُّفَنا الحضاري والمادي هو من ضروريات قيام الدين وفرائض العبادات العينية والكفائية، وهو أولى من نوافل العبادة ومسائل الخلاف التي برع بها الفارغون[٤].

ففي وقت استطاع أعداؤنا مع امتداد عصر الإحياء أن يجتازوا البارود إلى البخار، وأن يتهيؤوا للكهرباء والذرة، على حين جثم المسلمون على مكانتهم

---

(١) المبشّرات بانتصار الإسلام، ص٥٦.

(٢) كتب الدكتور يوسف القرضاوي سلسلة عن «التصوف الملتزم» أو: «فقه السلوك في ضوء القرآن والسنَّة».

(٣) المبشّرات بانتصار الإسلام، ص٥٦ ـ ٥٧.

(٤) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٨٨ ـ ٩٠، مقتطفات.

يبذرون الحب، ويرجون الثمار من الرب، ولا يدرون شيئاً قَلَّ أو كَثُر عن الكون الذي يعيشون فيه.

فتملَّك أعداؤنا أساليبَ القوة والحرب والغزو، مع عدَّة ذلك وأدواته وآلاته، فاكتسحوا بلادنا التي كانت عزلاءَ من كثير من أدوات الدفاع، بَلْهَ الهجومَ!.

وبهذا العجز العلمي والعقائدي غُزيت ديار الإسلام في أزمنة متعددة ومواقع كثيرة، واستقبل المسلمون الاستعمار الحديث منذ نحو قرنين وإلى الآن، فكانوا يُصابون بهزيمة تلوَ أخرى، وتسقط بلادهم بلداً بعد بلد، وبعضهم لا يعرف شيئاً عن الآخر ولا عمّا يلاقيه[1].

٩ ـ التفريط في ديننا وعدم الوفاء برسالته، وإقصاؤه عن الحياة:

ونسيَ العرب والمسلمون مَعْقِد شرفهم وعروةَ مجدِهم ومصدر ثباتهم، وظنّوا أنهم بغير هدي الإسلام المتكامل يمكن أن يكونوا شيئاً، وقويَ هذا الشعور أو ضَعُف حسب انكماش الإيمان وامتداده.

ففرَّطوا في شؤون الحكم والعقائد والجهاد والعبادات وشؤون الدعوة والتربية والآداب والتمسك بما كان عليه السلف، وساءت علاقتهم مع ربهم وفيما بينهم، فقويَ عليهم الأعداء وتداعوا إلى غزوِهم في ديارهم، وبَطَشوا بهم في الشرق والغرب والشمال والجنوب، من الأندلس إلى بغداد إلى جاكرتا.

لقد استجمع المسلمون في فترات متعددة أخلاق الهزيمة، فشاقُّوا الله ورسوله، وغَفَلوا عن دينهم، وضَعُف استعصامهم بمبادئه، وركنوا إلى الدنيا واشتغلوا بالسفاسف، فحَقَّ عليهم ما أصاب الأمم من قبلهم.

وزاد الأمر سوءاً في القرن المنصرم وإلى الآن حيث أُقصِي الإسلام عن الحكم وشؤون الحياة، وحُصِر في زوايا ضيِّقة، وأُبْعِد وحيُه عن انتظام أعمال

---

(١) علل وأدوية، ص١٠٥، ٢٣٣.

الناس، وتجهَّم الكثيرون لهديه ومبادئه، وفُرض على الحياة في بلاد الإسلام أن تتخلى عن صلتها بدينها وأن تولي ظهرها له!.

في الوقت الذي استظهر فيه النصارى بالكنيسة، والشيوعيون بعقيدتهم المادية، واليهود بتوراتهم يقدّسون يوم السبت ويلبسون القلنسوة للصلاة في أي عاصمة وجدوا بها، ويمضون إلى معابدهم شامخين ينادون بإحياء دولة إسرائيل وبناء حائط المبكى، بل المدرسة عندهم ثكنة عسكرية، والثكنة معبد ديني، والتوراة دين ودولة!.

أما نحن المسلمين فيُحظر علينا وحدنا أن نستمسك بديننا، وأن نأخذ أولادنا به(١).

وسيبقى التداعي علينا يأكل أطرافنا، حتى نستعيد أخلاق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويوسف بن تاشفين وعماد الدين زنكي وابنه نور الدين وصلاح الدين الأيوبي وقطز ومحمد الفاتح ومن في هذا السبيل!.

١٠ ـ ضعف العقل الإسلامي وذبول العقيدة:

فالعقل الإسلامي أُصِيب بأمراض خطيرة منذ زمن بعيد، فلم يَعُدْ يفكِّر ويبتكر، ويُضيف الجديد إلى الحضارة، ويعدِّل القديم منها، بل غدا عالةً على غيره، سواء كان الغير (المقدَّسين في التراث) أم كان (المقدَّسين في الغرب).. وطغَى الجمود والتحجُّر على جنبات الحياة، فغاب النظر في العقيدة، والاجتهاد في الفقه، والإبداع في الأدب، والابتكار في الصناعة، وذاعَتْ كلمتان خطيرتان كان لهما تأثيرهما في الحياة العقلية الإسلامية؛ **الأولى**: ما ترك الأول للآخر شيئاً، **والثانية**: ليس في الإمكان أبدع مما كان!.

وانتشرت دَعْوى إغلاق باب الاجتهاد! ولا يُدرى: مَن أغلقه؟! ومن يملك إغلاقَ باب فتحه الله تعالى ورسوله ﷺ!.

---

(١) تقدم كلام كثير في هذا الباب، في النبوءات: (٩٧، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٧، وغيرها).

ومن هنا تأخّرت الأمة الإسلامية التي كانت الأمة الأولى ما يقارب الألف عام[١].

وذَوَت العقيدة الجيَّاشة في صدور كثير من الناس، فلم تَضبط لهم سلوكاً، ولم توجِّه لهم عملاً، ولم تدفعهم إلى إنتاج. وكثُرت في ديارنا البدع والضلالات قديماً وحديثاً، والتي عكرت صفاء العقيدة ولوَّثت أفكار جمهور من الناس، وكثُرت الأحزاب المخاصمة لعقيدة الإسلام وازدادت عداوتها لها.

وأفلح الاستعمار وأعوانه في توهين العقيدة الإسلامية في النفوس، مع الإبقاء على العقائد الأخرى، فدوَّخ الأمة وأخَّر نهضتها.

١١ ـ ضعف الجانب الرباني والوازع الديني، وغياب كثير من شُعب الإيمان، وانتشار مساوئ الأخلاق:

وحدثت في الأمة خسائر روحية ونكبات أحدثت شروخاً في القلوب والسلوك، ونشأت أجيال أضاعت الصلوات واتبعت الشهوات وأطلقت للغرائز العِنَان، ووقعت في مَغَبَّة الأخلاق الرديئة التي نَعَى القرآن على الأمم السابقة عندما ارتكبوها؛ من الجرأة على المعصية واتباعِ الهوى والطمع في حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل، وتحجُّرِ القلوب والطبائع ونضوبها من الرحمة.. وانتشرت علل النفوس ومعاصي القلوب من الكبر، والحسد، والافتخار بالنفس والنسب والمال والجاه والسلطان، والرياء وحبّ السمعة والظهور.

وضعفت الآداب الإسلامية في حياتنا الاجتماعية، (وشاعت أخلاق النفاق التي ذمها رسول الله ﷺ، فوجدنا من «**إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**».

وانتشر الترفُ المدمِّر في طبقة عاطلة يُسِّر لها كل شيء، والبؤسُ القاتل في طبقات كادحة تتعب وتلهث ولا تكاد تجد شيئاً. وانقلبت القيم الاجتماعية

---

(١) المبشِّرات بانتصار الإسلام، ص٥٧ ـ ٥٨.

الإسلامية بظهور الغنى بغير جهد، وظهور ملوك البترول، ولصوص الانفتاح، وأصبحت الصورة (الكاريكاتورية) للمسلم: عربي في خيمة، وبجواره بئر بترول وفتاة جميلة!)[١].

وظهر قديماً التبذير المُهلِك على نطاق ضيِّق وفي أوقات محدودة، بيد أنه في السنوات القليلة الماضية والحالية استعلى واستعلن وشاع بشكل فاحش، فأُتلِفت الأموال الضخمة في فنون اللهو ومواطن العبث، وضاعت الكنوز السيالة وبُدِّدت رخيصة بأيدي السفهاء، كما تذهب أمواه الفيضان في أعماق البحار.

وذَبَل الوازع الديني والأخلاقي في نفوس جمهور عريض، وأصابنا بلاء ذَريعٌ فَتَك بوجودنا، وقصَّر الطريق إلى إضعاف الأمة ماديّاً وأدبيّاً.

١٢ ـ البطالة العلمية والعملية وتعطيل الطاقات وإرخاص الفضائل وإشاعة الرذائل:

ومما أُصِيبت به الأمة وخاصة في القرنين الأخيرين الدمارُ الكبير في الجوانب العلمية في مختلِف المجالات: الكونية والطبيعية والإنسانية والاجتماعية والفكرية، فرصيدُنا ضَحْلٌ في ميادين التجريب والإبداع والابتكار والاختراع، وسُرقت كفاءاتنا العلمية الرفيعة بسبب جَوْر السلطان وخُبث الأعداء وكيد الأقرباء، وتدهورت مكانة العلم والعلماء فأصبحت منازل الحرفيين فوق منازل العلماء والتربويين والمدرسين، فضلاً عن علو منزلة التجار وأصحاب الأموال ونحوهم على العلماء! ناهيكَ بما نحن عليه الآن من تسفُّلٍ وتدهورٍ بإعلاء ثمن (قدم الرياضي) على (عقل العالم والمفكّر)، و(نغمة الصوت وحركة الخصر) على (نتاج العقل وجهود الفكر)!.

فالأمة المريضة الآن رفعت لاعبي الكرة وأمثالهم فوق كثير من خلق الله،

---

(١) المبشِّرات بانتصار الإسلام، ص٥٨ ـ ٥٩.

وثمنُ لاعبٍ ومكافآتُه تربو على (دخول ومكافآت) جمهرة من العلماء وذويهم إلى يوم النشور!.

وملأتْ صحفَنا وإذاعاتِنا وقنواتنا الفضائية أصواتٌ خَنِثة وحركات فاجرة من (الغناء والرقص والتمثيل، وأشهرُ نجوم المجتمع فيها ليسوا العلماء ولا الأدباء ولا المفكرين، بل هم المطربون والمطربات، والراقصون والراقصات، والممثِّلون والممثِّلات، الأحياء منهم والأموات!.

وأمتنا الآن متوسطُ عمل الفرد فيها نحو نصف ساعة في اليوم، في حين يَعرق الناس في العالم المتقدّم طوال اليوم، ويكدّ ويكدح حتى يعود إلى بيته آخر النهار مكدوداً مهدوداً، يَخْلد بسرعة إلى الراحة، ليواصل عملَه مبكراً في غده)[1].

وثَمَّة جيوشٌ من دعاة الرذائل والموبقات تدأَبُ جاهدةً ليل نهار، تَؤُزّ الناس أَزّاً للانخلاع من كل القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة والشمائل الأصيلة، حتى اختنقت الفضائل في البيوت ناهيك عن الشوارع والمراكز وأروقة الإعلام والفن والمنتديات والمتنزهات ومثيلاتها!.

فكَثُرت الأجيالُ الغثاءُ التي تجرفها سيولُ الطمع والجشع والغرائز والشهوات واللامبالاة والتعلق بنزوة عارضة أو شهوة عارمة أو مال وفير أو مركب وثير أو منصب رفيع، لا يعرف أحدهم له هدفاً ولا يؤسِّس لمجد، حيران تتناوشه الشياطين من كل جانب، هائم على وجهه، منطلِق وراء رغباته الجامحة يتخبط في الظلمات.

وأَحْرِ بحالة مثل هذه تكون عليها الأمة أن تكون محطَّ أنظار الطامعين، وقصعةً لتداعي الآكلين!.

---

(١) المبشِّرات بانتصار الإسلام، ص١٠٢.

١٣ ـ الأشر والبطر والركون إلى نعيم الدنيا وزخارفها:

في كتاب أرسله الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى جُند المسلمين في أطراف بلاد الإسلام؛ بَيَّن لهم فيه واحداً من عوامل انتصارهم وأسبابِ عزِّهم واستمرارِ رفعتهم، يرويه أبو عثمانِ النَّهْدِيُّ، فيقول:

(أتانا كتابُ عمر ونحن بأَذْرَبِيجَانَ مع عُتْبَة بن فَرْقدٍ: أما بعدُ، فاتَّزِروا وارْتَدُوا، وانْتَعِلُوا وارمُوا بالخِفَاف، واقطَعُوا السَّرَاويلات، وعليكم بلباسِ أبيكم إسماعيلَ، وإيَّاكُم والتّنَعُّمَ وزِيَّ العَجَم، وعليكُم بالشمسِ فإنها حَمّامُ العرب، واخْشَوْشِنُوا واخْلَوْلِقُوا، وارمُوا الأَغْراضَ، وانْزُوا نَزْواً، والنبيُّ ﷺ نهانا عن الحرير إلا هكذا: أصْبُعَيْهِ الوسْطَى والسَّبَّابة. قال: فما عَلِمْنَا أنه يَعني إلا الأعلامَ)[1].

ولقد أصاب أمتَنا ألوانٌ من المآسي في تاريخها الطويل، كان السّفَه في تصريف الأموال والعَبُّ من زخارف الدنيا والتلهي بها واحداً من العوامل الخطيرة التي أضعفَتْ كياننا وتركتنا نُهْبَة للطامعين.

ويوم استهلك الترفُ أمتنا حكومات وشعوباً وأذهلها عن رسالتها الكبرى، خارت قوانا، وذَهَبتْ ريحُنا، فتداعَى علينا الأعداء فسلبونا ما في أيدينا، فما رَعَيْنا ديننا ولا كَسَبْنا دنيانا!.

ومن يتأمل بعضَ حِقَب تاريخنا ويتوقف عند القصور التي شَيّدها المسلمون في الأندلس وتركية، وكثير مما ابتدعه حكام المسلمين وأثرياؤهم الآن في

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٤٥٤) واللفظ له؛ ومسلم (٢٠٦٩) (١٢)؛ وأحمد: ١/٤٣؛ والبغوي في الجعديات (١٠٣٠) و(١٠٣١)؛ والبيهقي في السنن: ١٠/١٤؛ وأخرجه أبو يعلى بنحوه (٢١٣).

اخلولقوا: البَسوا الخَلَق من الثياب وهو البالي. **ارموا الأغراض**: الغرض: الهدف الذي يرمى إليه، يحثّهم على الاستمرار في التدرب على الرمي. **انزوا نزواً**: أي ثبوا على الخيل وثباً، لما في ذلك من القوة والنشاط. الأعلام: ما يكون في الثياب من التطريز.

بلادهم وخارجها ـ يعلم مقدار الأشَر والبَطَر والاستغراق في المتاع والشهوات والزخارف وتبديد الأموال والإخلاد للدنيا والانشغال بصغائر الأمور، فضُربت عليهم الذِّلَّة، وسُلبت منهم السيادة، فضاعوا وأضاعوا!.

إن المال في بلادنا كثير لكن الشهوات أكثر، ومن ثَم يُبدَّد في مواطن العبث بدلاً من أن يتحول أرصدة للإنشاء والتعمير وحفظ حاضر الأمة ومستقبلها.

١٤ ـ البلادة أمام دروس التاريخ وعدم الاكتراث بأحوال إخوان العقيدة في الأمصار:

وهذا من أفتكِ الأمراض التي حاقت بالأمة، وتكرر ـ للأسف ـ مراراً مع مسيرة التاريخ، فإذا ما اجتاحَتْ جحافلُ الغازين طرفاً من بلاد الإسلام، فإن أطرافاً أخرى لا تدري بذلك، أو تدري ولا تفعل شيئاً ولا تسرع لنجدة إخوان الدين والعقيدة واللغة والتاريخ والمصير، بل ولا تستعدّ لمقارعة الخطر القادم أو الداهم!.

يقول ابن الجوزي عن أولى الحملات الصليبية سنة (٤٩٢هـ): (وردت الأخبار بأن الإفرنج ملكوا أنطاكية، ثم جاؤوا معرَّة النُّعمان فحاصروها، وقتلوا ونهبوا.. وقيل: إنهم قتلوا ببيت المقدس سبعين ألف نفس، وكانوا قد خرجوا في ألف ألف...).

ونقف عند عبارة ابن الجوزي: (قيل: إنهم قتلوا سبعين ألفاً)! الأمر عنده وعند سكان بغداد وفي مركز الخلافة الإسلامية لا يعدو أن يكون إشاعة!.

ويتحدث الأستاذ أحمد الشقيري عن الحملة الصليبية الأولى، ويصور الهجوم على أنطاكية، فيقول: (امتدت المعركة شهوراً مضنية، كان القتال خلالها يدور داخل المدينة وخارجها، وعلى أبراجها وأسوارها، وبين شوارعها وساحاتها، والحامية الشجاعة تستصرخ وتستنجد ولا مجيب!).

وكانت حلب ودمشق أقربَ الحواضر إلى أنطاكية، ولكن الصراع بين الأخوين العدوين الألدَّين، (رضوان) ملك حلب و(دُقاق) ملك دمشق كان على

أشدِّه، وكانت الحرب ناشبة بينهما حين وصلت قوات الفرنجة إلى أسوار أنطاكية!).

ومضى الصليبيون في طريقهم إلى بيت المقدس وما تحركت دولة إسلامية لنجدة البلد المحروب، بل تُرِكَ وحده ليواجه مصيره، ويذكر ابن العبري المالطي فيقول: (لبث الإفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون المسلمين، فقُتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً).

ولم تلبث دولة الخلافة العباسية غيرَ قليل حتى دفعت ثمن بلادتها، فاجتاحها التتار وجعلوها خبراً كان، ولم تغنِ عنها الألقاب الخادعة من (مسترشدٍ بالله) و(مقتفٍ لأمر الله) و(مستنجدٍ بالله) و(ناصرٍ لدين الله)... إلخ[١].

وكانت كل مدينة وكل دويلة تنتظر مصيرها في الزحفين المهلِكَيْن الصليبي والتتاري، ولسان حال كل منها يقول: (**أُكِلْتُ يومَ أُكِل الثورُ الأبيض!**).

وتكررت تلك الخطيئة الكبرى غير مرة، فالمسلمون في المشرق لا يدرون ما يجري على إخوانهم في المغرب، وهؤلاء وأولئك لا يعلمون بما يتعرَّض له إخوانهم في أطراف المحيط الهادي وشرق آسية، وبُترت أطراف كثيرة من دولة الإسلام الكبرى، والحكام والشعوب قد أُصيبوا جميعاً ببلادة قاتلة دونها ما حدث للخليفة ببغداد أيام التتار.

فالجرح النازف في فلسطين كان نتيجة تفريط كبير من المسلمين. وهكذا حدث في أفغانستان، والبَلْقان، والشيشان، والفيلبين، والصومال، والسودان، وأصقاع كثيرة في إفريقية.

وفي أرض الرافدين الآن جرح غائر ونكبة كبرى تكاد تمحو شيئاً اسمه (العراق)! ويتعاون في إنفاذها قوى الصليبية واليهودية والشيوعية والوثنية، وتظاهِرهم على ذلك أيدٍ عربية خِفية وجهاراً، ويَغفلون عن دروس التاريخ البعيدة

(١) هموم داعية، ص٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥١، مقتطفات.

والقريبة، وكأنهم يظنون أنفسهم بمنأًى ومنجاةٍ من بطش وغَدْر العدو الصليبي القديم المتجدد!!

١٥ ـ سقوط الخلافة الإسلامية:

وهذه كانت أمَّ الدواهي، ولقد تآزَرَتْ كل قوى الصليبية، وشَدَّت من عَضُدها اليهودية والوثنية؛ لدكِّ هذا الحصن الشامخ للإسلام والرابطة الجامعة للمسلمين، على ما اعتورها من أمراض في مراحلها الأخيرة.

وظلَّتِ المؤامرات مع الحروب تتضافر ضدها، مع عوامل الفناء والسقوط التي نَخرت في بنيانها من الداخل، وبتآمر زعامات العرب مع الحلفاء ضدها، فذُبحت الخلافة وتوارت الخلافة العثمانية الإسلامية منذ نحو قرن من الزمان، وقد تركت فراغاً لم يُملأ.

وكان التداعي ـ بعد سقوطها ـ على ديار العرب والمسلمين من كل حَدَب وصَوْب؛ فقَصَّ الأجنحةَ وضَرب القلبَ ضربة قاتلة، فسقطت فلسطين في أيدي اليهود، واقتسم الاستعمار بلادنا، وتكونت دويلات هزيلة وحكومات ضعيفة تحكم الشعوب الممزقة.

وكانت نهاية الخلافة العثمانية أكبر انتصار بحقّ للصليبية الأوروبية واليهودية العالمية[(١)].

وثمة أسباب أخرى للتداعي على الأمة العربية والإسلامية، ونحسب أن ما قدَّمناه يستوعب عامَّتَها وأهمَّها، هذا مع ملاحظة أن كثيراً مما ذكرناه كلٌّ منها مركَّب من عدة أمور يمكن تفريعُها، وإنما أردنا الإجمال والاختصار.

---

(١) انظر: الضربات، ص٣٢٤؛ هموم داعية، ص٩٢ ـ ٩٣؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٦٨ ـ ١٦٩.

رابعاً: أشكال التداعي وصوره وأساليبه ومناهجه:

١ ـ تكاتف الأعداء للعدوان على المسلمين، وتعاون مختلف الأديان والمذاهب ضدهم، وتواطؤهم على إماتة الإسلام والمسلمين وانتهاب خيراتهم:

المتأمل لحركة التاريخ وأمواج الهجومات المتلاحقة التي زحفت على العالم الإسلامي ودمدمت على دينه وحضارته ووجوده؛ يرى بوضوح تآزرَ قوى الصليبية واليهودية والتتارية والوثنية والشيوعية والهندوكية وغيرها، في تحالفات حاقدة على المسلمين تريد مَحْقَهم ومحوَ آثارهم، ولن يُضنيه البحثُ لإقامة الأدلة الواضحة والأمثلة الكثيرة على ذلك.

●● يقول الأستاذ علي الغتيت في كتابه «الغرب والشرق»[١]:

(دعا لويس التاسع بعضَ رجال أمير المغول إلى فرنسا، حيث فاوضهم في عقد اتفاق عسكري ينص على قيام الطرفين بأعمال حربية واسعة ضد العرب والمسلمين، ويكون دور المغول غزوَ العراق وتدميرَ بغداد والقضاءَ على الخلافة الإسلامية، ويكون دور الصليبيين تعويقَ الجيش المصري عن مساعدة إخوانه المسلمين، أي عزل الجيش المصري عزلاً تامّاً عن سائر البلاد العربية.

ومضى لويس في سعيه لاستمالة المغول وتسخيرِ قواهم المدمّرة لضرب الإسلام؛ ففي (٢٧/ ١/ ١٢٤٩م) أرسل إلى أمير المغول هدايا فاخرة حملها إليه وفد يرأسه الراهب الدومنيكي «أندريه دي لونجيمو» وكان بين هذه الهدايا قطعة من الصليب المقدّس وصور للعذراء ونماذج صغيرة لمجموعة من الكنائس)[٢].

ويقول الأسقف (دي سيسل) في كتابه عن الكنيسة والحملات الصليبية:

(إنه عندما هاجم التتار دمشق ـ بعد بغداد ـ فقد استقبل نصارى الشام ولبنان جنكيزخان خارج مدينة دمشق، وقدَّموا له الهدايا، وكان معهم صليبٌ يحملونه

(١) اعتمد الباحث على المراجع الفرنسية وحدها.
(٢) جهاد الدعوة، ص٧٩.

على رؤوس الناس، ومن حاشية جنكيزخان عدد كبير من المسيحيين، ومن بينهم قائده (كتبغا). وأيد المسيحيون في أوروبة حملة التتار لأن زوجة هولاكو مسيحية، وكان هذا مقدمة للحلف الذي عقده ملوك أوروبة مع التتار لتدمير البلاد العربية والإسلامية)[١].

ويقول (دي سيسل) أيضاً: (لقد كانت الحملة التتارية على الإسلام والعرب حملةً صليبيةً بالمعنى الكامل لها، فقد هلَّل لها الغرب وارتقب الخلاصَ على يد هولاكو وقائده المسيحي (كتبغا)، الذي تعلَّق أملُ الغرب عليه لتحقيق القضاء على المسلمين، وهو الهدف الذي أخفقتْ في تحقيقه الجيوش الصليبية، ولم يَعُدْ للغرب أملٌ في بلوغه إلا على أيدي التتار خصوم المسلمين)[٢].

وكان من أهداف أوروبة الصليبية في هذا التحالف بالإضافة للهيمنة على العالم الإسلامي، صرفُ قوى المغول الوثنيين عن الاتجاه نحو أوروبة، وقد كان لهم ذلك.

●● ولقد تحولت النصرانية إلى استعمار همجي لا ضميرَ له، كذلك تحوَّلت اليهودية إلى صهيونية آثمة، وانضمَّت قوى الفريقين في تحالف غير مقدس ضدنا.

فالتعاون الصليبي اليهودي المتنامي في القرن الفائت والقرن الحالي ضد المسلمين وقضاياهم ومقدساتهم؛ أمرٌ لا يحتاج إلى أدلة وبيان، فالصليبية وعلى رأسها بريطانيا هي صانعة (إسرائيل) في قلب الأمة العربية والإسلامية، والعدوان اليهودي المدعوم بقوى الصليبية العالمية له غاية مرسومة معلومة هي: إبادةُ أمة وإزالةُ دين، هي الإجهازُ على الأمة العربية التي حملت الإسلام أربعة عشر قرناً.

---

(١) الضربات، ص٩٨.

(٢) الضربات، ص٤٨، ٩٨؛ جهاد الدعوة، ص٨٠. وانظر: الضربات، ص٤٦ ـ ٤٨، ٨١ ـ ٨٢، ٩٥ ـ ٩٨؛ جهاد الدعوة، ص٧٩ ـ ٨٤.

إن النصرانية تؤيد قيام (إسرائيل)، وترى عودة اليهود إلى فلسطين معجزة للكتاب المقدّس وآيةً تشهد بصدقه، وقد نبَّه (وايزمان)[1] في مذكراته إلى هذا، وقال: إن (لورد بلفور) وغيره من الوزراء الإنكليز كانوا يعبدون الله حين أصدروا إعلانَ الوطن القومي، وكانوا يمثلون الإيمان المسيحي[2]!.

وقد عالَنَ ساسةُ الغرب بمشاعرهم، وبارزوا العرب والمسلمين بالعدوان! وانطلق رؤساء الكنائس يكسبون عطفَ اليهود، ويخطبون ودَّهم بالكلمات والهدايا والمعونات الثَّرَّة!. وأسرعَ بعض العرب للمشاركة في هذه المظاهرة والاعتراف بإسرائيل!.

وشرحتِ الأيامُ قولَه تعالى في الصهاينة والصليبيين وحلفائهم: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢][3].

والآن تحمل لواءَ الصليبية كل من أمريكا وبريطانيا، وتَحالُفُهما مع اليهود قد أظهرَ ما في الصدور من أحقاد دفينة على دين محمد ﷺ وأتباعه وبلاد المسلمين ومقدّساتهم وثرواتهم[4].

●● كذلك تداعَتْ قوى الغرب الصليبية واليهودية العالمية والماركسية الشيوعية مجتمعةً يَحْدُوها هدفٌ واحد، فزحفت على العالم الإسلامي من الجهات الأربع وغزتْ بلاد المسلمين، ولا يزال الجزء الأكبر من الشعوب المسلمة يرزح تحت وطأة تلك الزحوف المدمرة على شتى الأصعدة وفي مختلف الميادين.

---

(١) هو خليفة هرتزل، وعندما قامت (إسرائيل) كان أول رئيس لها.

(٢) هموم داعية، ص٣٤ ـ ٣٥.

(٣) جهاد الدعوة، ص١٤٦.

(٤) انظر: كفاح دين، ص٢٢ ـ ٢٣، ٧٥؛ الضربات، ص١٠ ـ ١١.

وهؤلاء الأعداء على تباين أديانهم وتضارب مصالحهم، إلا أنهم يد واحدة علينا، ولا يكتمون الناس حديثاً في إرادتهم توجيه ضربة قاتلة للإسلام وأهله وأوطانه.

إن المشاعر الساخطةَ التي أوحَتْ إلى الأوروبيين أن يتعاونوا مع التتار على إسقاط الخلافة الإسلامية في بغداد ظلَّت مشتعلةً، ولا تزال الرغبات كامنةً لإزالة الإسلام وإذلال أمته. وذلك التحالف الذي قام قبل إسقاط بغداد عام (٦٥٦هـ) ما زال يتجدَّد الآن ـ وبعد أزيد من سبعة قرون ـ في صُور جديدة، وما زال قوامه الغرب واليهود، وما زال مسرحه العالم الإسلامي والأمة الإسلامية.

●● بل إن أهل الكتاب صادقوا عبدةَ الأصنام بمكة عند فجر الدعوة الإسلامية، وخاصموا أتباعَ الإسلام، وكوَّن الجميع جبهةً مشتركة للقضاء على الدين الجديد، وتمزيق أمته.

والغريب أن القدامى والمحدَثين كانوا سواء في هذه الخطة، فالاستعمار العالمي ظاهَرَ البوذية والهندوكية ضد الإسلام، وانضمَّ إلى كل نِحْلة بغية القضاء علينا[1].

ومظاهرة الصليبيين للهنادك في الهند، والبوذية في الصين والوثنية في جنوب السودان، والشيوعية في الحبشة، وغير ذلك؛ كل ذلك يؤكد تحالفَ جميع قوى الشر ضد الإسلام، يريدون إطفاءَه، ويأبى الله إلا أن يُتمّ نورَه!.

٢ ـ تعاون الطوائف الزائغة والأقليات مع الأعداء في التداعي على أمتنا:

عندما دخلت القوات الصليبية سنة (١٠٩٩م) في الحملة الأولى إلى سواحل الشام ولبنان، رحَّبَتْ بها المارونية، وتعاونت معها للقضاء على الإسلام وتدمير القدس وفلسطين، ويقول النص التاريخي:

---

(١) جهاد الدعوة، ص٩٦، ٩٩؛ الضربات، ص٣١٢.

(حتى إذا أَطلَّتْ طلائع الصليبيين على لبنان، أمكن الموارنة من أن يُمدُّوهم بثلاثين ألف نَبَّال، أجمع الفِرنجة على الإعجاب بشجاعتهم ومهارتهم)[(١)].

ولمّا قاد ملكُ فرنسا لويس التاسع (الحملةَ الصليبية التاسعة) على ديار المسلمين سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) قاصداً الاستيلاء على بيت المقدس، تحالَفَ مع طائفة الحشاشين، التي عملت مع الصليبيين ضد المسلمين! ولم يُمهلْهم القدر طويلاً، فقد نالوا جزاءَ خيانتهم تلك على يد المغول، حيث دخل هولاكو بقواته أرض فارس سنة (٦٥٤هـ)، وقضَى في طريقه على قلاع الحشاشين، وأخذ يمهِّد للقضاء على الخلافة العباسية[(٢)].

وتشير كثير من المصادر[(٣)] إلى تعاون (الوزير الرافضي مؤيَّد الدين ابن العَلْقَمي) ـ وزير الخليفة العباسي السابع والثلاثين المستعصم بالله ـ مع هولاكو، حيث كاتَبَه وجَسَّرَهُ وقوَّى عزمَه على قَصْد العراق، فكان ما تناقَلَتْه الرُّكْبان؛ حيث ذُبح الخليفة العباسي في سبعين من آله وأهل الحل والعقد، وسقطت بغداد عاصمة الخلافة سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

وقد أثبتت بعض الوثائق أن روسيا اتفقت مع بريطانيا في مهاجمة الدولة العثمانية؛ فأثارت الأكرادَ والأرمنَ والدروز ضدها، بل كان لها ضلع كبير في ثورة النصارى بسورية ولبنان[(٤)].

ويجري الآن في العراق شبيه لذلك!.

---

(١) الضربات، ص٧٢.
(٢) الضربات، ص٦٠، ٦٢؛ المظفر قطز، ص١٠٣.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٣٦١ ـ ٣٦٢؛ الدولة العباسية، لطقوش، ص٢٥٤؛ الضربات، ص٩٦؛ المظفر قطز، ص١٠٣ ـ ١٠٤.
(٤) الضربات، ص٢١١.

٣ ـ شمول التداعي على بلاد المسلمين واستمراره:

وهذا الشمول ذو شِقين: فهو شامل لأعداء الأمة الإسلامية بمختلِف أديانهم ومذاهبهم، وهو شامل أيضاً لبلاد المسلمين في تداعي الأمم عليها.

●● والحملات الصليبية واليهودية والوثنية وغيرها مُستعِرَة على دين الله لا يُدركُها فتور، وقد تحسَبُها هدأتْ حيناً فتحسن الظن! والحق أنها هدأت ظاهراً لتتخذَ مساربَ أدقَّ في الكيد للإسلام والنَّيل منه.

والسَّخائم المتوارثة بين قادة الغرب وساسته وباباواته، ودهاقنة الوثنية، وزعماء اليهودية، ضد الإسلام وأمته، كما قال الله سبحانه: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].. والغرب الصليبي لا يزال ينظر إلى الشرق الإسلامي بعين (بطرس الناسك)[١] وسريرته السوداء[٢].

وفي الحروب الصليبية كان شعار الكنيسة الغربية: اضربوا المسلمين حيث تعثرون عليهم؛ في الأندلس، في صِقِلِّيَّة، في جزر البحر المتوسط، في شمال إفريقية، في الشام ومصر، في إقليم الجزيرة وآسية الصغرى[٣]!.

والحملات الصليبية بقيت مستعِرَة لا تهدأ، متلاحقة لا تنقطع، منذ القرن الخامس الهجري إلى الآن، فعندما دخل (الجنرال اللنبي) مدينة القدس عام (١٩١٧م) قال: (الآن انتهت الحروب الصليبية)! وحين دخل الفرنسيون سورية سنة (١٩٢٠م) وقف (الجنرال غورو) أمام قبر (صلاح الدين) وقال في تبجُّحٍ: (ها.. قد عُدنا يا صلاح الدين)[٤].

وتلك الكلمة قالها ذانك الصليبيّان في زمنهما، والحق أن الحروب الصليبية

---

(١) هو الذي جيَّش الجيوش وألهب النفوس لغزو العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري، والتي سمّاها الأوروبيون: الحروب الصليبية.
(٢) انظر: ظلام من الغرب، ص٢٠٤؛ كفاح دين، ص٥.
(٣) الضربات، ص٩٢.
(٤) اليهود المعتدون، ص٢٨٩؛ الضربات، ص٢٣٤.

لم تنتهِ ولن تنتهي، وإنما هي الأيام مدٌّ وجَزرٌ، فها هي ذي الدول النصرانية ـ كبراها وصغراها ـ تتآمر على طرد العرب من ديارهم وأموالهم، وتتفق ـ في صفاقةٍ نادرة ـ على توريث اليهود أرضَ الأحياء المقهورين، ثم تنتصب أعظمُ الأمم المسيحية على ظهر الأرض ـ وهي أمريكا وإنكلترا وفرنسا ـ لإقرار ذلك الجَوْر بقوة السلاح، وإعلان الاستمساك به وحمايته.

وبعد تسع سنين من اغتصاب فلسطين، تستأنف إنكلترا وفرنسا ومعهما اليهود الهجومَ على مصر نفسها لإذلالها وإخماد أنفاسها في العدوان الثلاثي سنة (١٩٥٦م).

وحقدُ أوروبة وأمريكا على الإسلام وأتباعه لم ينقصْ، بل إنه يزداد في هذه الأيام، بقَدْر ما يلقى الاستعمارُ في الدنيا من كفاحٍ ومقاومة.

●● والحروب الصليبية قد جدَّدها حديثاً الرئيسُ الأمريكي (جورج بوش الابن) ـ ومن ورائه زعيمةُ الصليبية التاريخية بريطانيا ـ فأعلنَ على الملأ أن حملته على العراق ـ والجزيرة العربية ضمناً ـ هي حربٌ صليبية!.

ـ ثم قال الإعلام: إنها فلتةُ لسان! ونحن نجدِّد تلاوة قول الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وتتضافرُ قوى الأمريكان والإنكليز والفرنسيين ومَنْ وراءهم، وهم يستميتون في سحق الإسلام وتدويخِ أهله. إنهم هم هم، بغضاؤهم للإسلام لن تنقص بل ظلَّت في نماء، وسُخطهم على أهله لا تزيده الليالي إلا ضِراماً.. والإنكليز احتلَّوا مساحات من أقطار الأرض الفسيحة تزيد على سبعين ضعفاً من بلادهم.

ويقول رئيس وزراء فرنسا: (إننا نعتبر الجزائر كالأندلس، ونعدُّ عربَها فرنسيين، ونقاتل دون هذا)[١].

---

(١) كفاح دين، ص ٢٢، ٣٣ ـ ٣٥، ٩٧، مقتطفات.

وقل الآن مثلَ هذا في أمريكا ومن وراءها من الدول الصليبية واليهود والوثنيين وغيرهم.

●● إن الضربات التي وُجِّهت للمسلمين للانقضاضِ على وجودهم وكيانهم وعقيدتهم قد تواصلتْ خلال القرون الأربعة عشر ولم تتوقف، وقد قاومها المسلمون في مواقع فاصلة، قدَّموا فيها أرواحَهم خالصة في سبيل الله.

وأعداءُ الإسلام المتربصون لا يَغْفُلون أبداً، وهم ما يلبثون حين يرون المسلمين وقد ضَعفوا أو تخاذلوا وغلَبتهم الدنيا أن يتجمعوا ليوجِّهوا إليهم ضربة جديدة[(١)].

والزحوف القديمة التي اجتاحت ديار الإسلام لا تزال تتجدَّد، وتزداد الآن ضِراماً وتتميز غَيظاً، وقد فتح الأعداء على أمتنا جبهات عدة كلها تريد اهتبالَ الفرصة واقتطاعَ جزء ما من الكيان الإسلامي الأعزل، يقع ذلك جنوب شرق آسية، كما يقع في الشرق الأوسط، كما يقع في وسط إفريقية، كما يقع في جنوب أوروبة[(٢)]، كما يقع في الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي المقبور!.

٤ ـ التداعي على بلاد المسلمين ديني أولاً نفعي ثانياً:

●● لا مِراءَ في أن من الأهداف الكبرى لأطماع الغرب والشرق في بلاد المسلمين هو ما لديهم من خيرات وكنوز وثروات ظاهرة وباطنة ومواقع استراتيجية هامة مفصلية تتحكم بركائز اقتصايات العالم، بَيْدَ أن هذا السبب يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة للغزو الصليبي خصوصاً والعالمي عموماً.

واسْتِكْناهُ أحداث التاريخ ووقائع الأيام يؤكِّد ذلك، ويزيده تأكيداً ووضوحاً تصريحات سافرة وكتابات مستفيضة منشورة عبر السنين لأكابر المتحكِّمين

---

(١) الضربات، ص٢٩١.

(٢) هموم داعية، ص٩٨.

بالقرارت المصيرية لأعداء أمتنا المتظاهرين علينا والمتنادين لأكل أطرافنا ونهْب ثرواتنا.

فالبابا (أوريان الثاني) أعلن في خطبته التي ألقاها ذات يوم في خريف سنة (١٠٩٥م)، قال: (اذهبوا دفاعاً عن المسيح، حاربوا الكفار، تحرَّكوا نحوَ القبر المقدَّس، انتزعوا تلك الأرض من سلطان الجنس الملعون، واحتفظوا بها لأنفسكم. وفي تلك الأرض يعْتصَرَ اللبن والعسل، فأورشليم أرض الله من أخصب الأراضي، وسوف تنتزعون من عدوكم ثروات أعظم وأضخم).

وهكذا استطاع البابا أن يوجِّه شعوبَ الغرب الأوروبي نحو غاية واحدة، رغم اختلاف الشعوب جنساً ولغة وعادات واهتمامات، جمعهم تحت راية الصليب.

وفيما قبل الحروب الصليبية بثلاثين عاماً منح البابا (إسكندر الثاني) المحاربين الكاثوليك الذين يقاتلون مسلمي الأندلس غفراناً، وأعفاهم من التوبة، واعتبر قتالهم المسلمين تكفيراً عن خطاياهم[١].

●● أما العداء بين التتار والمسلمين فلم يكن في جوهره عقائديّاً بقدر ما كان توسُّعياً استغلاليّاً، رغم جهود القوى المسيحية في شدِّ التتار إلى دائرة المسيحية واستثارتهم ضد الإسلام وأهله، وتحويل هجماتهم على بلاد الإسلام إلى هجمات صليبية[٢].

وقد تقدَّم قول اللورد اللنبي والجنرال غورو والرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، في أن تلك الزحوف على بلاد المسلمين إنما هي حروب صليبية.

والذي يقرأ عن سفر (كارتر) الرئيس الأمريكي الأسبق إلى السودان، يعرف أنه ذهب إلى القطر المرهق بأزماته، ولاجئيه كي يوهنَ شوكة الإسلاميين الذين

---

(١) الضربات، ص٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص٩٢.

استطاعوا فرض جزء من الشريعة الإسلامية على الحكومة السابقة، وكي يدعم جانب التمرد التنصيري في الجنوب المغصوب!.

ومع الرئيس (كارتر) قوى عربية رافضة للإسلام، تُعين عليه كلَّ قادم من الشرق أو الغرب، يحدث ذلك في ظل علمانية معلنة وإنسانية لا تنتمي إلى دين، فكيف بأيام (بطرس الناسك) والصرخات المسعورة لحرب المسلمين(١)؟!.

وما يشهده الآن قلبُ العالم الإسلامي وأطرافه من هجومات حاقدة على الإسلام وأهله، وما نراه من أن معظم الدماء النازفة في العالم هي دماء عربية وإسلامية ـ يؤكد صِدْقَ القول بأن التداعي ديني قبل أن يكون نفعيّاً.

ومن يعتبر أن الحروب الصليبية السابقة واللاحقة كانت انطلاقاً نفعيّاً، قبل أن تكون حماساً دينيّاً(٢)، فحكمُه هذا يخالف الواقعَ القديم والجديد.

يقول (المونيسنيور كولي) في كتابه «البحث عن الدين الحق»: (برز في الشرق عدوٌّ جديد هو الإسلام الذي أُسِّس على القوة، وقام على أشدِّ أنواع التعصب، ولقد وَضَع محمد السيفَ في أيدي الذين تبعوه وتساهَلَ في أقدسِ قوانين الأخلاق.

ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة، وبعد قليل أصبحت آسية الصغرى وإفريقية وإسبانيا فريسة له، حتى إيطاليا هدَّدها الخطر، وتناول الاجتياح نصف فرنسا...

ولكن انظر، هاهي النصرانية تضع بسيف (شارل مارتل) سدّاً في وجه سير الإسلام المنتصر عند (بواتييه ـ ٧٣٢م)(٣)، ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ ـ ١٢٥٤م) في سبيل الدين، فتدجِّج أوروبة بالسلاح، وتنجي النصرانية.

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) من هؤلاء: محمد حسنين هيكل، انظر: جهاد الدعوة، ص١٣٥.

(٣) تسمِّيها مصادرنا الإسلامية: (معركة بلاط الشهداء)، انظر: نبوءة (٣٤) من هذا الكتاب: ١/ ٣٣٢.

وهكذا تقهقرت قوةُ الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الإنجيلُ على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة!).

وجاء في كتاب «تقدم التبشير العالمي» الذي ألفه الدكتور (غلوور) ونشره في نيويورك سنة (١٩٦٠م)، في نهاية الباب الرابع: (إنَّ سيفَ محمد والقرآن أشدُّ عدوٍّ وأكبرُ معاندٍ للحضارة والحرية والحق، ومن بين العوامل الهدّامة التي اطلع عليها العالم إلى الآن)!.

●● ويعقِّب الشيخ محمد الغزالي على هذه الأحقاد فيقول: (أَوَعَيْتَ أيها القارئ هذه النقولَ، وأبعادَها النفسية والسياسية؟ إنها باطنُ الاستعمار القديم والحديث على سواء! إلا أن الاستعمار الحديث مع طبيعته الدينية الناقمة على الإسلام؛ غلَّف وجْهَه بقشرة رقيقة من الإنسانية المتسامحة المستعلية على النعرات الجنسية والدينية.

بَيْدَ أن هذه القشرة أخذت تتساقط يوماً بعد يوم، ثم انكشفت كل الانكشاف في قضية فلسطين، وفي تأليب بعض الأقليات الدينية لدعم العدوان الصهيوني ومساندة التنصير العالمي)[1].

وتأمَّلْ تأليبَ قوى الصليبية واليهودية والشيوعية والوثنية بمختلف أطيافها، ضدَّ كل ما هو إسلامي في بلادنا: من حرب وإبادة، وتشريد وتطريد، وحصار وغزو، وتنكيل بالحركات الإسلامية، وبكل من يطالب باحترام الإسلام أو رفع رايته أو تحكيم شرعه أو نصرة مبادئه! يحدُث ذلك في أقصى الشمال في البلقان، وفي أقصى الشرق الأقصى في الفليبين وإندونيسيا، وعُمِّم ذلك على بلاد المسلمين طولاً وعرضاً وعمقاً: من المغرب والجزائر إلى مصر فالسودان والصومال، إلى فلسطين والجزيرة العربية والعراق ولبنان، وكذا في الباكستان وأفغانستان وكشمير، وغيرها من أرض الإسلام.

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٣٧ ـ ١٣٩.

٥ ـ تطويق العالم الإسلامي واحتواؤه:

•• من خلال دراسة الحروب الصليبية، وتداعي المسيحية مع الوثنية والشيوعية واليهودية على بلاد الإسلام؛ يمكن القول بأنها مجتمعة تقوم على أربعة عوامل متشابكة هي:

١ ـ **عامل ديني:** وهو الاختلاف بين الإسلام وغيره من الأديان والمذاهب.

٢ ـ **عامل اقتصادي:** هدفه الثروات والخيرات والموقع الاستراتيجي.

٣ ـ **عامل سياسي:** غايته التوسع الاستعماري.

٤ ـ **عامل عنصري:** ويكمن في الاستعلاء بالعنصر الأبيض صاحب السيادة.

وهذه العناصر في مجموعها تعطي الإيحاء بأن المعركة كلها كانت ترمي إلى احتواء العالم الإسلامي والسيطرة عليه، ثم التبشير لإدخاله في دين الغرب، وهي المحاولة التي ما زالت مستمرة إلى اليوم[(١)].

•• وبعد موجات من الحروب الصليبية وغيرها على ديار الإسلام رُدَّتْ خاسئةً تمضغ مرارة الهزيمة، كان لابدَّ من مخطط جديد يهدف إلى تطويق العالم الإسلامي من أطرافه، ثم الضغط على القلب ليسقط مترنِّحاً تحت ضربات موجعة من جهات متعددة.

(اتجه الأعداء إلى الأطراف والأجنحة، وسقطت الأندلس، وبدأتْ محاولة البحث عن الطريق البحري الطويل إلى الشرق، وكانت إسبانيا والبرتغال في المقدمة؛ لأن المحاولات الصليبية من شمالي ووسط القارة ـ فرنسا وإنجلترا وألمانيا ـ أرهقت واستنزفت نفسها في محاولات النفاذ من القلب (فلسطين).

وأرسلت كل من أسبانيا والبرتغال بعثات استكشافية بحرية.

---

(١) الضربات، ص٥٠ ـ ٥١، بتصرف.

خرج (كريستوفر كولومبس) إلى بحر الظلمات ـ المحيط الأطلسي ـ قاصداً الشرق، وإذا به يصل أمريكة.

وخرج (فاسكو داجاما) إلى بحر الظلمات أيضاً، ووصل إلى الشرق فعلاً.

وسقطت دولة المغول المسلمة في شبه القارة الهندية بالطريقة نفسها التي سقطت بها دولة العرب المسلمة الأندلسية في شبه الجزيرة الإيبيرية.

سقط الجناحان في العالم الإسلامي وبدأت عملية الزحف نحو القلب: زَحْفٌ من الشرق من الهند إلى الخليج العربي إلى عدن، وزحفٌ آخر من الغرب خَلَع جذورَ الإسلام من إسبانيا.

سقط الجناحان في العالم الإسلامي، وبدأت عملية الضغط على القلب العربي، والمحزن أن أحداً في هذا القلب لم يتنبَّه ولم يتحرَّك!.

جرى التهامُ دولة الإسلام في الأندلس قطعةً بعد قطعة، ولم يتنبه أو يتحرك أحدٌ لِما يجري في الغرب، وجرى التهامُ دولة الإسلام المغولية في الهند بالطريقة نفسها، ولم يتنبَّه أو يتحرَّك أحد لما جرى في الشرق!.

وراح الغزاة الجدد الذين سيطروا على الجناحين يضغطون على القلب العربي.

إسبانيا تعبر مضيق جبل طارق وتحصل من المغرب العربي على نقط ارتكاز تكون قواعدَ لزحف جديد، والبرتغال تفعل الشيء نفسه في المشرق وتتقدم حامياتها البحرية لتقيمَ المواقع والحصون ممتدة إلى شطآن الخليج العربي، ثم تبدأ في التعرض للملاحة العربية في البحر الأحمر. . .)(١).

●● ولم تتمكن الجهود الجبارة تلك من تطويق العالم الإسلامي على النحو الذي رسَمَتْه وخَطّطتْ له، حيث قامت الدولة العثمانية وبَسطت جناحَ الإسلام

---

(١) من كلام لمحمد حسنين هيكل، لخَّصه العلامة محمد الغزالي في كتابه: جهاد الدعوة، ص١٣٠ ـ ١٣١.

على رقعة كبيرة من المعمورة، وتصدَّت للمشروع الغربي الصليبي، وأخَّرتِ الاستعمارَ لهذه البلاد أربعةَ قرون، بل زَحفتْ إلى أوروبة وغَزَتْها في عُقْر دارها، وجرى بينها وبين أعدائها جولات وصولات اعتورها مدٌّ وجَزْرٌ للطرفين.

وعندما شاخت الدولة العثمانية ونَشِبَتْ فيها أمراض الضعف الداخلي والتآمر الخارجي، وسقطت منذ نحو قرن، نهضت الدول الصليبية لتجدِّد مشروعَ تطويق العالم الإسلامي من جديد.

(فأكملت بريطانيا ما بدأَتْه البرتغال ووصلت حتى عدن، وأكملت فرنسا ما بدأَتْه إسبانيا في شمالي إفريقية، بل حاول (نابليون) أن يبدأ مباشرة من مصر)[1].

وتداعتْ دول الغرب على الأمة الإسلامية من جديد، ودخلت بلادَنا إيطاليا وهولندا وإسبانيا والبرتغال وغيرها، ثم برزت أمريكا على مسرح الأحداث ونافست الجميع، وكذلك الشيوعية في أوروبة الشرقية وآسية فأكلت كثيراً من بلاد المسلمين.

●● وتمَّ غزوُ العالم الإسلامي من الجبهات الأربع: من قلب أوروبة في البلقان وغيره، إلى آسية شمالاً ووسطاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، إلى إفريقية من جنوبها إلى شمالها، إلى قلب العالم الإسلامي وهو الوطن العربي وقطب الرحى في فلسطين.

وحَدَث التداعي الكامل على الأطراف والأجنحة والقلب، واشتركت كلُّ أمم الأرض في الزحف على بلاد المسلمين، وضمَّ ذلك: الصليبية واليهودية والشيوعية والوثنية والهندوكية والبوذية، وتمَّ تطويقُ العالم الإسلامي بما لم يَحدثْ له مثيلٌ من قبل، من حيث: تنوعُ الأعداء، وتعددُ الأساليب والأدوات، والشمولُ، والعنفُ، والقسوةُ، وكثرةُ الخسائر!.

---

(١) جهاد الدعوة، ص١٣٢.

٦ ـ تمويت الإسلام وتمزيق أمته إلى أمم وتفتيت دولته إلى دويلات:

●● إن حَمَلَةَ المسيحية من الصليبيين القدماء والجدد يرفضون وجود التوحيد بجوارهم، وكذلك اليهودية والوثنية والشيوعية وغيرها من مِلل الكفر والزندقة.. ولقد ضَنَّت المسيحية على بعضها بالحرية الدينية، وذكرى المذابح التي نصبها الكاثوليك لخصومهم لا تزال باقية، فكيف يظفر المسلمون بالأمان من عدوانهم؟!.

ومنذ القرن الخامس الهجري هبَّت العواصف العاتية على العالم الإسلامي تريد اجتياح الإسلام والإتيان عليه من القواعد، وتوالت الزحوف من جبهات شتى وتحت رايات متنوعة؛ والهدف واحد هو إماتة الإسلام وجعل المسلمين أمماً مقطعة محسورة، تجهل كل قطعة منبتها ومصيرها، وتفقد القدرة على الحركة الذاتية، فلا يبقى أمامها إلا أن تلتحق بقطار آخر يجري ذات اليمين أو ذات الشمال، لا يستقر أبداً على الصراط المستقيم.

والخُطط قد وُضِعت من قديم وتستمر إلى الآن مع بعض التعديلات في الاستراتيجية تقتضيها الظروف الزمانية والمكانية والفكرية والسياسية، والإطار العام لها أنه يجب أولاً إبعادُ الإسلام عن أن يكون رباطاً عامّاً بين بنيه في مشارق الأرض ومغاربها، فعن طريق إحياء النزعات الوطنية في كل إقليم مستعمَر تموت الجامعة الإسلامية من تلقاء نفسها[1].

واستمر على هذه الخطط الاستعمارُ القديمُ والحديث، وأساسُ منهجه هو تمزيقُ الرقعة العربية والإسلامية، وجعلُ كل مِزْقة كياناً ماديّاً ومعنويّاً لا صلة له بالآخر في ميدان السياسة الداخلية أو الخارجية.

ولما كانت روابط الدين واللغة والتاريخ والمصلحة توحي بالتجمع ذياداً عن

(١) ظلام من الغرب، ص١١٨؛ علل وأدوية، ص١٧٧، ٢٨٩.

الحياة الصحيحة لأمتنا؛ فإن الاستعمار أوْهَنَ هذه الروابط جميعاً، واجتهد إما في إماتتها أو تأخير مرتبتها.

ونشأ عن هذا المسلك أن العربيَّ في فلسطين أو سورية أو العراق أو الجزيرة أصبحتْ له جنسية خاصة، تجعله غريباً عن أخيه في مصر أو السودان أو الجزائر أو المغرب الذي أصبح هو الآخر له جنسية خاصة[1]!.

•• ومن النصوص الاستعمارية السرية التي نشرت أخيراً، ما ورد في تقرير وزير المستعمرات البريطانية (أورمسي غو) لرئيس حكومته في (٩/ ١/ ١٩٣٨م)، ومما جاء في تلك الوثيقة:

(إن الحربَ علَّمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه!.

وليست إنجلترا وحدها هي التي تلتزم بذلك، بل فرنسا أيضاً.

ومن دواعي فرحنا أن الخلافة الإسلامية زالَتْ، لقد ذهبتْ، ونتمنّى أن يكون ذلك إلى غير رجعة.

إن سياستنا تهدف دائماً وأبداً إلى منع الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك.

إننا في السودان ونيجيريا ومصر ودول إسلامية أخرى شَجَّعْنا ـ وكنَّا على صواب ـ نموَّ القوميات المحلية، فهي أقلُّ خطراً من الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي!..)[2].

أي: إن الوحدة اليهودية حلال، والوحدة النصرانية حلال، والوحدة الشيوعية حلال، وكذا الوحدة الهندوكية، والبوذية، والوثنية،... أما الحرام فهو الوحدة الإسلامية!.

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢١٨.

(٢) هموم داعية، ص٨٧ ـ ٨٨.

●● ومن قرون وَضَع الاستعمار هذه الخُطط لتقطيع أوصال الإسلام وأمته:

تقسيم المسلمين إلى شعوب شتّى، ينتمي كل منها إلى أرضه وجنسه، ويكون ولاؤه لقوميته الجديدة، وتنتهي الأخوة الإسلامية الجامعة، ويحيا كل قَبيل داخل الحدود السياسية التي رُسمت له، ويشتغل بتاريخه ومصالحه عن تاريخ الإسلام ورسالاته العليا، ويَحِلُّ نداءُ (أيها المواطنون) مكان النداء القديم (أيها المسلمون).

وفي تقرير سريٍّ رفعه (لورنس) إلى المخابرات البريطانية في (كانون الثاني ١٩١٦م) يقول: (إن أهدافَنا الرئيسة هي تفتيتُ الوحدة الإسلامية، ودَحْرُ الإمبراطورية العثمانية وتدميرها، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، وهم الأقل وعياً للاستقرار من الأتراك، فسيبقون في دوَّامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك، إلا إنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أي قوة خارجية)[١].

ولو نظرتَ إلى إفريقية ـ والإسلام هو الدين الأول في أقطارها ـ فالوضع بالغُ الأسى والمرارة، فقد أُنشئت فيها الآن خمسون دولة، وُزِّع المسلمون عليها بخطَّة بالغة الخُبث كي يذوبوا على عَجَل أو على مُكْثٍ! المهم أن يذوبوا على مرِّ الأيام[٢].

وقد تكشَّفَتْ مشروعاتُ تمزيقِ الأمة الإسلامية والوطن العربي إلى (كانتونات) على النحو الذي عُرف في السنوات الأخيرة، ففي الجزيرة العربية: دولة الأحساء، ودولة نجد، ودولة الحجاز. وفي العراق: دولة سُنيّة، ودولة شيعية، ودولة كردية. وفي لبنان: دولة سنية ودولة مسيحية ودولة شيعية ودولة درزية. وفي إيران: دولة كردستان، ودولة تركستان، ودولة بلوخستان. وفي السودان: دولة في الشمال، ودولة في الجنوب ... إلخ[٣].

---

(١) الضربات، ص٢٠٢.

(٢) علل وأدوية، ص١٩٩.

(٣) جريدة الأهرام: ٧/ ٨/ ١٩٨٧م، نقلاً عن الضربات، ص٢٨٣.

وقد بدأَتْ بواكيرُ هذا المشروع الحاقد الخطير بالظهور في السنوات القليلة الماضية، وهو مستمر إلى الآن، كما نشهد ذلك في العراق والسودان!.

•• إن الأخوَّة الدينية جَمَعَتْ بين الأستراليين والأمريكيين لدعم (إسرائيل)، وكذلك جَمعتْ هذه الأخوَّة بين شرق أوروبة وغربها، وبين اليهود العرب في إفريقية وآسية، وعُدَّ أولئك كلُّهم أولادَ الأنبياء ونسلَ يعقوب المبارك!.

والعالَم المتحضِّر لا يرى في هذا الرباط شيئاً يُنكَر، الشيء الذي يُنَكر حقّاً هو الإخاء الديني بين المسلمين وحدهم، وتحوُّلُ هذا الإخاء إلى سياج يحمي دينهم وعقيدتهم ومقدساتهم(١).

والصليبيون ومن تداعى معهم من الأحلاف عبر التاريخ مُصِرُّون على قتل الإسلام وتمزيق دولته وتدويخ أهله!.

٧ ـ تشويه صورة الإسلام وكتابه ونبيِّه ﷺ:

وهذا باب واسع فُتح منذ عهد بعيد واتسع مَداهُ وكثُر والِجُوه، وتآزرت قوى الأعداء على ترسيخه ونشره في العالمين وتنشئة أجيالها عليه.

ويذكر المفكّر الشهير رجاء جارودي أن الأوروبيين يرمون التراثَ الإسلامي بنقيصتين:

أ ـ أنه مجرَّد ناقلٍ لثقافاتٍ وأديانٍ قديمة، وربما ضَمَّ إلى النقل بعضَ التفسير والتعليق.

ب ـ يمثِّل هذا التراث فترةً سلبيةً منعزلة، ويمكن للمؤرِّخين أن يدرسوها ليحيطوا بها علماً، إذا شاؤوا!.

ثم يعقّب جارودي على هذا فيقول: (ومن خلال هذا المنظار الداكن الجائر

---

(١) هموم داعية، ص٥٧.

وصفَ الأوروبيون الإسلام بأنه لا يمكن أن يأتي بجديد، وأنه لا يحتوي على شيء حيوي، إنه جزءٌ من تاريخ مضى لا جدوى من التأمل فيه، أو ارتقاب خير منه)(١).

ويذكر الشيخ عبد الله كَنّون في كتابه: «جولات في الفكر الإسلامي»: أنه في إحدى زياراته لإسبانيا قرأ في صحيفة تسمَّى «صحيفة الإثنين» في ملحق صغير للأطفال مقالاً رئيساً بعنوان: (محمد النبي المزيَّف)، كُتب بلغةٍ سهلةٍ مبسّطة، ولكنها مليئة بالسخرية!.

وقد بُني المقال على فكرة أن القرآن مُقتبسٌ من التوراة والإنجيل اقتباساً مشوَّهاً، لأن صاحبه ـ على حدّ تعبيرِ الكاتب ـ كان أميّاً لا يعرف قراءة ولا كتابة، وإنما تلقَّفَ ما ضَمَّنَه كتابه من أفواه اليهود الذين كانوا يسكنون جزيرة العرب، ومن بعض الرهبان الذين لقيهم في أثناء رحلته إلى الشام(٢).

وهذه أمثلة لِفَيْضٍ لا ينقطع من الكتب والصحف والمقالات والمحاضرات والأفلام والمواقع الإلكترونية على صفحات (الإنترنت)، التي تصبّ في هذا المجال.

●● وفي الشهر الأول من سنة (٢٠٠٦م) نشرت صحيفة دانمركية (١٢ صورة كاريكاتيرية) تهزأ بسيدنا رسول الله ﷺ وتُسيء إلى مكانته الرفيعة، وتصفه بأنه رجلُ نساء ورجل دماء!.

فهبَّت الشعوب المسلمة والعلماء والخطباء والأحرار، وتنادوا إلى إجبار الصحيفة الصليبية على الاعتذار، ودَعَوا إلى مقاطعة البضائع الدانمركية.

فرفضت الصحيفةُ الاعتذارَ، ورَفضتْ كذلك حكومةُ الدانمارك، واعتبروا ذلك حرية رأي، وهَبَّت لنُصرتها دولةُ النرويج فأعادت نشر الصور، وبعد نحو

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٥٤ ـ ٥٥.
(٢) علل وأدوية، ص٨٩ ـ ٩٠.

أسبوع كررت عدةُ دولٍ نصرانية نشرَ الصور في تحدٍّ سافر وعداء واضح للإسلام، وهي: فرنسا، وألمانيا، وهولندا، وإسبانيا.

بل دعا الاتحاد الأوروبي ـ في اجتماع له يوم الأربعاء (١٥/ ٢/ ٢٠٠٦م) ـ إلى التحالف مع الدانمارك، وطالَبَ الرئيسُ الأمريكي (جورج بوش الابن) حكومةَ السعودية باستخدام نفوذها لوقف ما سمَّاه بالعنفِ في التعدي على مصالح الدانمارك، كإحراق سفارتها وسفارة النرويج بدمشق، وكذا سفارة الدانمارك في لبنان!.

وهذا لون جديد من التداعي على أمتنا ومقدسَّاتها وأصولها.

أما الحكومات العربية فلم تحرّك ساكناً، إلا ما كان من احتجاج بارد من بعضها!.

٨ ـ محو الإسلام في أوروبة قديماً وحديثاً:

ومما يُذكر في هذا المجال أن إسبانية والبرتغال حرصتا بعد غياب شمس الأندلس الإسلامية على محوِ كل آثارها من مساجد ومدارس، كما حوَّلت جامع قرطبة إلى كنيسة[١].

والمذابح التي تعرّض لها المسلمون هناك ومحاكم التفتيش الشهيرة، مما يُلطِّخ وجهَ أوروبة الصليبية بالعار أبد الدهر.

والغول الشيوعي يأكل المسلمين وبلادَهم في أوروبة الشرقية، فنرى مسلمي ألبانيا يهلكون دون ضجَّة أو صريخ، وعلى غِرارهم ضاع المسلمون في دول البلقان، وذُبحوا كقطعان غنم لا رعاة لها.

وما حدث للمسلمين في رومانيا وهنغاريا وبلغاريا هو لونٌ من محوِ وجودهم وطمسِ هويتهم، ورغبةٌ جامحة من الشيوعية وحليفتها الصليبية في إفنائهم.

---

(١) الضربات، ص١٥٦.

واطَّردَتِ الأحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في البلقان منذ نحو عقدين من السنين، وما جرى في البوسنة والهرسك وكوسوفا نمط جديد من الوحشية الصليبية والتتارية الماحقة.

وفي لقاء معه في (قناة الجزيرة) صرَّح المجاهد الدكتور حارث سيلاجيتش رئيس الوزراء البوسني الأسبق، في حديثه عن (مذبحة سربنيتسا) في البوسنة، بأنه ذُبح من المسلمين أكثر من (٨١٠٦) أنفس، في (١١/ ٧/ ١٩٩٥م)، قتلهم الصِّرب الصليبيون على عين (الأمم المتحدة!) والقوات الهولندية المرابطة بجوارهم! ودُفنوا في مقابر جماعية هناك!.

وأضاف سيلاجيتش أن الصرب دمَّروا (١٢٠٠) مسجد، في حين أن مسلمي البوسنة قد حافظوا على كنائس النصارى ومعابد اليهود.

ما أشبَهَ الليلةَ بالبارحة، فإن التاريخ يعيد نفسه.

والمراد من وراء ذلك محوُ الذاكرة التاريخية الإسلامية في البوسنة، وموت المسلمين بصمت دون أي كلام.

وقد ترادفت وكالات الأنباء على أن (صربيا) مدعومة من الصليبية الدولية قد قتلت خلال الحرب مع البوسنة ما يزيد على (٢٠٠,٠٠٠) مئتي ألف مسلم!.

٩ ـ حملات عسكرية متلاحقة ومذابح وحشية مروعة:

●● منذ قامت دولة الإسلام واتجه المسلمون نحو الفتوحات، فكنسوا الرومان عن البلدان التي احتلوها في الشام ومصر، وردُّوهم نحو الشمال إلى بلادهم، كذلك أسقط الفاتحون المسلمون راية الأكاسرة وأطفؤوا نار المجوسية..

نقول: منذ ذلك الحين أبى الأعداء التسليم بالهزيمة.

فالأوروبيون الذين رأوا الدولة الرومانية قد أُنزِلت أعلامها عن إفريقية وآسية، انتهزوا فرصة من غفوة المسلمين واسترخائهم، فشَنُّوا حرباً صليبية طويلة

الآماد، هجمت فيها ألوف مؤلّفة من المتعصبين القساة، كلما انتهى زحف تبعه آخر في حركات متشنجة مشبوبة الحقد ميتة الضمير، وظلَّت كذلك مئتي عام دون جدوى، فإن المسلمين الذين انهزموا أولاً واحتُلَّت أرضهم توارثوا المقاومة المستميتة، فأمكنهم بعد بلاء شديد أن يَصدُّوا العدوان ويغسلوا كل ما خلف[١].

وشُنَّت على العالم الإسلامي تسعُ حملات صليبية، بدأت الأولى عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م)، وكانت التاسعة سنة (١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م) عند دخول بريطانيا إلى القدس، وحين أعلن اللورد اللنبي قائلاً: (الآن انتهت الحروب الصليبية)[٢].

واستمرت الحملات الصليبية على العالم الإسلامي قروناً متطاولة لم تتوقف خلالها المعارك والحشود التي جاءت من أوروبة لتسيطر على أرض الإسلام.

●● كانت الصورة بالغةَ القسوة: بينما الحملات الصليبية تزحف على موانئ عكا ودمياط، كان الزحف المغولي يتحرك من الشرق إلى قلب آسية في اتجاه بغداد في حملة عاصفة دمرت كل شيء، وقتلت الخليفة العباسي، وواصلت مسيرتها لتقضي على الشام ومصر، غير أن المسلمين استطاعوا أن يوقفوها في (عين جالوت) على نحوٍ حمى الحضارة والعالم وأوروبة من شرها.

وفي نفس الوقت كانت الأندلس تواجه امتحاناً قاسياً منذ استولى عليها المسلمون، غير أنها لم تسقط إلا بعد قرنين من نهاية الحروب الصليبية، ولم يمضِ على سقوط آخر معاقل الأندلس ـ وهي غرناطة ـ أكثر من خمسين عاماً؛ حتى فُتحت (القُسطنطينية)[٣]، ووصل الإسلام إلى أوروبة من المعبر الأول: معبر بيزنطة القديم.

حدث هذا خلال أربعة قرون منذ عام (٤٩٢هـ)؛ حيث بدأت أولى

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٤٣.

(٢) الضربات، ص٣٢٤.

(٣) انظر: ما كتبناه حول: فتح القسطنطينية، في النبوءة (٣٥).

الحملات الصليبية، إلى عام (٨٥٧هـ) حيث فتحت القسطنطينية وانتهت (بيزنطة).

خلال هذه الفترة وجِّهت الضربات الكبرى إلى العالم الإسلامي.

ومنذ سيطرت الدولة العثمانية على الأفق الإسلامي تزايدت خطط المؤامرة، غير أن الدولة العثمانية استطاعت أن تسيطر منذ سنة (١٥١٧م) إلى (١٩١٧م) حين تمزقت مع الحرب العالمية الأولى، وبدأت مرحلة جديدة قال عنها اللورد اللنبي عندما دخل القدس: الآن انتهت الحروب الصليبية[١].

نعم! لقد انتهت الحروب الصليبية بهزيمة قوى الغرب سنة (١٢٩١م)[٢] وانسحابهم إلى بلادهم مدحورين.

لكن أوروبة ظلت تحمل في أعماقها ذلك الحقد الأسود والتعصّب المقيت ضد الإسلام (٦٢٦) عاماً ـ ستة قرون ونيفاً ـ حتى انتقمت منه بالسيطرة على بيت المقدس سنة (١٩١٧م)، الذي تلقفه اليهود من بعد[٣].

●● واستغل الغرب تفوُّقَه السياسي والعسكري، وسقوطَ أغلب الأقطار الإسلامية في قبضته، ليمحوَ من النفوس والأذهان كلَّ إعزازٍ لهذا الدين أو إحياءٍ لتعاليمه، ورسَمَ خطة شاملة واعية للقضاء عليه نظريّاً وعمليّاً، واجتثاث جذوره عنواناً وموضوعاً، وتوهين روابطه في الأفراد والجماعات، وإثارة فوضى عامة في كيانه المادي والأدبي تنتهي ـ حتماً ـ بزواله، وإن استغرق زمناً طويلاً أو قصيراً.

ومنذ قرنين والزحف الصليبي يتدفَّق على بلاد الإسلام، وهو بادي القوة

---

(١) الضربات، ص٤٢ ـ ٤٣.
(٢) عندما حرَّر السلطان الأشرف (عكا) من بقايا الصليبيين.
(٣) الضربات، ص٢٣٤.

حادّ الأظفار، والمسلمون يتراجعون أمام امتداده في كفاح مُرِّ المذاقِ كالحِ العُقبى.

حقّاً.. إنهم ما تركوا شبراً إلا وعليه من ضحاياهم ركام[1].

وما فعلته الصليبية والشيوعية والوثنية ولواحقها بالمسلمين شيء يندى له جبين الإنسانية حيالَ دينٍ وأمة وشعب وحضارة نَقلت أوروبة والعالم من غياهب الظلمات إلى فردوس العلم والنور والمدنية والعدالة والكرامة الإنسانية.

إن الجراح تَنْكَأُ الجراحَ، ومآسي اليوم تُذَكِّر بمآسي الأمس، وهذه وتلك سوف يُقدَّم الحساب عنها يوماً.

قال حافظ إبراهيم يصف ما فعله الطليان بالمسلمين في(طرابلس):

كَبَّلُوهم، قَتَّلُوهم، مَثَّلوا بذوات الخِدْر، طاحُوا باليتامَى!
ذَبَّحُوا الأشياخَ والزَّمْنَى ولم يرحَموا طفلاً، ولم يُبقوا غُلاما!
أَحْرَقوا الدُّورَ، اسْتَحَلُّوا كلَّ ما حَرَّمَتْ «لاهايُ» في العهدِ احتراما!
بارَكَ المُطرانُ في أعمالِهم فَسَلوه: بارَكَ القومَ عَلامَا؟
أَبهذا جاءَهُم إنْجِيلُهم آمراً يُلقي على الأرض سلاما؟

وقال أحمد شوقي يصف جيوش الاستعمار:

تمشي المناكرُ بين أيدي خَيْلِهِ أنَّى مشَى، والبَغْيُ والإجرامُ
ويحثُّه باسمِ الكتاب أقِسَّةٌ نَشطوا لما هو في الكتابِ حرامُ
خَلَطوا صَلِيبَكَ بالخناجرِ والمُدى كلٌّ أداةٌ للأذى وحِمَامُ

●● وخلال ذلك الزمن المتطاول قدَّم المسلمون الملايين من الضحايا والأنفس البريئة الطاهرة، سَفكَها جزَّارو (الحضارة الغربية والشرقية والوثنية والشيوعية!).

---

(١) كفاح دين، ص١٢٦، ١٣٦.

فالحملة الصليبية الأولى حَصَدت في بيت المقدس أرواح (٧٠) ألفاً من المسلمين.

وقَتَل التتارُ من المسلمين زُهاءَ (مليونين) من الصغار والكبار والنساء والرجال.

وأراق الغولُ الشيوعي الروسي والصيني دماء (الملايين).

وضَمُّ جزيرة (زنجبار) إلى (تنجانيقا) لتكوين ما سُمِّي بعد (تنزانيا) جَرَفَ في طريقه نحوَ ثلاثين ألفَ جثَّة من المسلمين الذين لم يبكهم أحد[1].

والاستعمار الحديث أَزْهَقَ (مئاتِ الآلاف) من أرواح المسلمين خلال استعماره لأقطار الوطن العربي.

بل إن الجزائر المسلمة قدَّمَتْ (مليون ونصف المليون) من الشهداء الذين روَّتْ دماؤهم ترابَ أرضها، للتخلص من الاستعمار الفرنسي البغيض.

وما يجري منذ خمسين سنة وإلى الآن في العالم الإسلامي من مذابح وإراقة دماء ومقابر جماعية، يَشيب له الولدان! من الشيشان إلى أفغانستان وفلسطين والسودان والصومال وكشمير، وأخيراً العراق الذي هو مأساة العصر ونكبة المسلمين الكبرى في مطالع القرن الحادي والعشرين.

وتذكر الأخبار والتقارير والإحصاءات (أرقاماً هائلة ومفزعة) عن الخسائر البشرية التي حدثت وتحدث الآن في العراق، نتيجة الحرب الأمريكية الصليبية التي بدأت بتاريخ (٢٠/ ٣/ ٢٠٠٣م):

- «مليون ومئتا ألف» قتيل من العراقيين.

- «أربعة ملايين» مُهَجَّر في البلاد العربية وغيرها، ثلثهم في سورية.

---

(١) حدث هذا في أوائل الستينيات من القرن العشرين. انظر: جهاد الدعوة، ص١٠٨.

ـ «أربعة ملايين» مهجَّر داخل العراق، في أسوأ عملية تهجير في العالم في الزمان والمكان.

ـ «خمسة ملايين» من الجرحى والمعوَّقين.

ـ «ثمانية ملايين» أرملة عراقية(١)!.

١٠ ـ تشويه صورة الجهاد والمجاهدين واليقظة الإسلامية والحركات الإسلامية وضرب معاقلهم:

●● وهذا أمر كبير بارز قد تواضعَ عليه أعداءُ الإسلام وأعوانُهم في بلادنا منذ زمن، واستمر اشتعالُه إلى الآن مع زيادة حِدَّته واضطرام سَعيرِه وتنوُّع أساليبه وبطشه.

يقول (تشرشل) في كتاب «حرب النهر»: (لقد عرفنا مدى اهتمام المسلمين بكتابهم القرآن على نحوٍ من الصعب صرفُهم عن ذلك، لذلك فإن علينا العمل على تغيير ذلك؛ باحتضانِ أمثالِ غلام الدين القادياني ودعوتِه إلى إلغاءِ الجهاد)(٢).

وقد أدرك (اللورد كرومر) ما تنطوي عليه تعاليمُ الإسلام من حثٍّ على الجهاد، ودعوةٍ إلى الأخذ بأسباب القوة، ومن إعلاءٍ لمرتبة المجاهدين وحطٍّ من شأن القاعدين.

فاتخذ من ذلك مادةً للطعن على الإسلام وتشويهِ مقاصده؛ فقال في كتابه «مصر الحديثة»: (إن المسلمين أنصافُ هَمَج! محبُّونَ للحروب، بُعَداءُ عن التسامح! وإن دينَهم يجعل عاطفة الانتقام أساس العلاقة العامة بين الإنسان وأخيه الإنسان).

واستشهد لكلامه هذا بدعاءِ أئمة المساجد على الكفار يوم الجمعة، وبالآية

---

(١) نقلاً عن قناة الحوار ـ مساء الخميس: ٢٠/٣/٢٠٠٨م، وقناة الجزيرة، وغيرها.

(٢) الضربات، ص٢٥٨. **وتشرشل**: هو رئيس وزراء بريطانيا المشهور.

المعروفة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

ومن شدة الصَّفاقة وقلّةِ الحياء أن يتحدَّث الإنجليز عن العدوان، وأن يتَّهموا غيرهم به، وبلادُهم وَكْرٌ لأضخم عصابة عرفَتْها الدنيا في السلب والنهب[١].

●● ومنذ أكثر من عَقْدين من السنين تنامتْ وتيرةُ الحقد على الإسلام وتعاليمه وبخاصة الجهاد، ومع تنامي الحركة الجهادية في العالم الإسلامي وتكاثر السواعد التي ترفع رايته، فَجُيِّشَتْ آلة الإعلام الضخمة وجُنِّدَت أصولها وفروعها من كتب وصحف ومجلات وندوات ومؤتمرات وقنوات فضائية وإذاعات وإنترنت وغيرها، وسُخِّرت جميُعها لجيشٍ منظَّم من الإعلاميين في أمريكا والغرب ومَن تابعهم من الأحلاف المتداعية ضد الإسلام وأهله.

وتداعوا جميعاً علينا، وأَطلَقوا على كل حركة مناهضة لهم أو لمشاريعهم، أو حركة تحرير وطنية أو إسلامية، ، أو جماعة جهادية، بل كل من يقول: (لا) لمشروعهم الماحق.. نقول: وَصَمُوا كلَّ هؤلاء بالأصولية، أو التكفيرية، أو أعداء الحرية والديمقراطية والتسامح والتعايش المشترك، أو .. أو ... ثم أخيراً وَصَمُوهم بالإرهاب والإرهابيين، دون تحديد للمصطلح وماهيته، ليكون عَدوّاً غيرَ محدد الصفة والمنهج والحدود.

وبناءً على هذا شَنُّوا حروباً استئصالية ومعاركَ إبادةٍ، كما حدث ويحدث في فلسطين والجزائر والصومال والعراق والشيشان وأفغانستان وكشمير والفيلبين وغيرها من أرض الإسلام.

يريدون من كل ذلك وَأْدَ كل مقاومة شريفة وطنية أو إسلامية، لتقع البلاد بين مخالبهم غنيمةً باردةً.

●● ومن بواكير هذا النوع من التداعي حروبُ محمد علي باشا لحركة

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٢٠ ـ ١٢١.

التوحيد التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في أرض الجزيرة العربية، وكان ذلك بتأييد ودعم فرنسي!.

ونقول بصراحة: إن الاستعمار يُخاصِم بعنفٍ كلَّ عمل له صبغة إسلامية، ويشتدُّ غضبُه إذا رأى الثقافة الإسلامية تملك زمامَ التوجيه، أو رأى الأزهر والقرويين والزيتونة والجامعات والمعاهد الإسلامية تُخرّج علماءَ أوفياء لدينهم، مشرَّبين روحه، متابعين فتوحَه العقلية والأدبية(١).

ولمَّا ظَهرت اليقظةُ الإسلامية، وعَملت على تصحيح المفاهيم والعودة إلى المنابع التي ضَربَتْها الأنظمة العسكرية، ونشأت أحزابٌ معارضة تعاونت مع القوى الكبرى والصهيونية، وقد بدأت أعمال كثيرة في إطار الإسلام، غير أن النفوذ الغربي استطاع احتواءها وإزاحتها عن وجه الأحداث، أو تكبيل أيديها بوسائل متزنة أحياناً وباطشة في أكثر الأحيان(٢).

وما تشهده الساحة العربية والإسلامية بل والدولية من مقاومة ضارية للحركات الإسلامية السلمية، والتي تطالب بعودة الحكم إلى الإسلام، وحكم المسلمين بقرآنهم؛ هو استمرار لذلك التداعي الكبير العميم، يتآزر عليه المتسلِّطون من حكام المسلمين، ويشد على أيديهم ويدعمهم عمليّاً وأدبيّاً قوى الكفر في الشرق والغرب والشمال والجنوب.

١١ ـ التبشير والتنصير:

●● عُقِدت مؤتمرات عالمية كبيرة وكثيرة في حِقْبة طويلة من التاريخ القديم والحديث؛ أَجمعتْ فيها كلمةُ المؤتمِرين على وجوب الزحف على البلاد العربية والإسلامية؛ لنشر النصرانية وعقيدة التثليث بين أهلها وإخراجهم عن دينهم.

ووُضعت لتنفيذ ذلك البرامجُ والخُطط والأساليب والأنشطة، وُرصِدت لها

---

(١) علل وأدوية، ص١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) الضربات، ص٢٥٠.

الأموال الطائلة من الحكومات الصليبية والكنائس والشركات والأثرياء والجمعيات والمنتديات.

ومن ذلك كتاب في (٩٠٠) صفحة مطبوعة بحروف صغيرة، لو طُبع بالحروف المعتادة لبلَغَ ثلاثة مجلدات كبيرة، هو سِجلٌّ للمُدارسات والمحاورات والمقترحات والآراء والنتائج التي انتهى إليها آخر المؤتمرات التبشيرية في الولايات المتحدة.

وقد تخصَّصَ هذا المؤتمر في بحث قضية واحدة؛ هي: أمثلُ الطرق لتنصير المسلمين، والقضاء على دينهم، وقد جُمع لهذه الغاية (ألف مليون دولار)، لعلَّها الخطوة الأولى في مشوارٍ طويل[١].

وفي كلمة رائعة يقول (برناردشو): (لقد طَبَعَ رجالُ الكنيسة في القرون الوسطى دينَ الإسلام بطابع أسود حالك، إما جهلاً وإما تعصُّباً، إنهم في الحقيقة كانوا مسوقين بإحساس واحد، هو بغضُ محمدٍ ودينه، هم يقولون: إن محمداً عدوٌّ للمسيح! ولقد درستُ سيرةَ محمد، الرجل العجيب، وفي رأيي أنه بعيدٌ جدّاً عن أن يكون عدوّاً للمسيح، وإنما ينبغي أن يُدعى منقذَ البشرية!)[٢].

ومن الحقائق التاريخية الثابتة، والتي هي أثبتُ وأوضَحُ ما تكون في هذه السنين، ما يعبِّر عنه العلّامة الداعية محمد الغزالي بقوله: (ما أحسبُ غرائزَ السوء انطلقتْ في عصر انطلاقها في هذه الأيام النَّحِسَات الكارهة للوحي، الناقمة على مواريث السماء... إن كُهَّان أوروبة وأمريكا يتعامَوْن عن هذا الواقع الحافل بالنُّذُر، ويكرِّسون أوقاتهم لشيء واحد، هو حرب محمد ﷺ وأمته، حرب التوحيد الخالص، ونصرة عقيدة التثليث!.

(١) صيحة تحذير، ص١٩.
(٢) المرجع السابق، ص٢٠.

ونحو هذه الغاية يتسامحون مع الهنادك واليهود، وكل ذي نِحْلَةٍ شاردة، المهم هو القضاء على الإسلام وحده!)[١].

●● ولقد سَخّرت النصرانية رجالَها (في المدارس والجامعات والأندية والمستشفيات ودور الصحف والإذاعة والمسرح.. ونَظَّمت برامجَ التبشير في المدائن الزاهرة، والمجاهل الطامسة، وأخرست الإسلام وأهله، حتى لا يُسمع لهم صوت، بل حتى يبدو هذا الدين وأتباعه في إطار البِلَى يدعو للسخرية)[٢].

وفي بعض الأقطار العربية والإسلامية ظروف اجتماعية واقتصادية معقدة، أمكنتِ التبشير أن يتوغَّل فيها ويستفيد منها، بل إنه رَتَع فيها كما يرتَعُ الداء في جسم لا مناعةَ له ولا تماسكَ به! وهو يستغلُّ المال الكثير المبذول كي يربِّي اللُّقطاء ويكفل اليتامى، ويزيغ بهم جميعاً عن الصراط المستقيم.

ويتوسَّل الاستعمار التبشيري بالخدمات الاجتماعية والتعليمية، كي ييسِّر الارتداد على أبناء المسلمين! والغزو الثقافي هنا كما يبرز في ملجأ أو مستشفى، يبرز في مدرسة حضانة، أو دار نشر، أو معهد فني، أو رواية تمثيلية.

وانساحت جيوش التبشير في مجاهل إفريقية، وأصقاع آسية حتى بلَغَت أبعدَ البلاد فيها على أطراف إندونيسيا والفيلبين، وبذلوا جهوداً جبارة في حمل المسلمين للارتداد عن دينهم ودخولهم في النصرانية.

●● والشواهد على ذلك تفوق الحصر، وقد صُنِّفت فيها كتب عديدة، ومن ذلك أن راهبة في الهند تدعى (تريستا) قد نالت (جائزة نوبل العالمية)، وقد مُنِحت لها لأنها نجحت نجاحاً تامّاً في أداء رسالتها التبشيرية.

قالت صحيفة (الرائد) التي تصدر في الهند عن أعمال تلك الراهبة: (إنها من مركز عملها في (كلكتا) منذ سنة (١٩٤٧م)، كانت تقوم بخدمات عظيمة في

---

(١) صيحة تحذير، ص٢٢ ـ ٢٣.

(٢) كفاح دين، ص١٣٦.

إغاثة المنكوبين ورعاية المرضى، وتقدَّر قيمة الجائزة التي نالَتْها بمليون ونصف روبية. وكان (السيناتور كيندي) قد رشَّح الراهبة عندما زار الهند في أثناء أزمة (بنجلاديش) واطَّلع على الجهود التي بذلَتْها لإسكان لاجئي باكستان الشرقية، وقد شاهد بنفسه نشاطَ الراهبة التي تعمل لنشر الدين المسيحي بين شتى الطبقات وبين البؤساء والمساكين والمضطهدين، وذلك عن طريق فتح شبكات (كذا)! المدارس والمستشفيات والملاجئ، ودور رعاية اللُّقطاء والأطفال المهجورين.

ويُعرف مدى نشاط هذه الراهبة واتساع الرقعة التي تعمل فيها إذا ذكرنا أن (٢٥٠) راهبة يعملنَ تحت إشرافها في دائرة (كلكتا) وحدها، ويبلغ عدد الراهبات التابع لمركزها (١٨٠٠) راهبة في عشرين بلداً منها بلاد عربية! وتدير منظمتُها الخيرية (٨٧) داراً للأيتام في الهند، و(٤٠) داراً خارجها، و(٢١٣) مستشفى للعلاج بالمجان، و(٥٤) مستشفى للمجذومين، و(٦٠) مدرسة للتعليم، ومستشفى من (مئة سرير) للمرضى اليائسين الذين ينتظرون الموت!)[(١)].

وفي (الفيلبين) استمرت الحملات الصليبية ضد مسلميها حتى وصل الإسبان إليها سنة (١٥٢٠م) بقيادة ماجلان، وأصبحت (مانيلا) سنة (١٥٧٠م) مركزَ الحملات الصليبية ضدَّ مختلف سلاطين الجُزر المسلمين[(٢)].

وغزا الإسبان جزيرةَ (سولو) وسائرَ الجزر الإسلامية المجاورة، ونشروا فيها النصرانية بالسيف، وأطلقوا عليها اسمَ (الفيليبين) نسبةً إلى ملكهم (فيليب)، أحد الذين أطاحوا بالوجود الإسلامي في الأندلس.

وقد بدأ غزو هذه البلاد في القرن السادس عشر، وإبرازاً للغاية المنشودة منه فقد رُصَّتْ جُثث المقاومين الشجعان على نحو هيئة صليب، وذلك سنة (١٥٧٦م).

---

(١) هموم داعية، ص١٤٣.

(٢) الضربات، ص١٦٢.

واستمرت الحملات الصليبية والتبشيرية في تلك الديار النائية من بلاد المسلمين ثلاثة قرون، وفي مطالع القرن العشرين هبط عدد السكان المسلمين إلى الثلث في تلك الجُزر التي غلبتْ عليها التسميةُ الجديدة: (الفيليبين)(١).

ونجح الصليبيون في تنصير أربعة أخماس (الفيلبين)، ثم اتجهوا إلى جُزر (إندونيسيا) يحملون الخطة ذاتها، وقد مَحَوا المعالم الإسلامية من (سنغافورة)، وهم الآن يبعثرون طلائعهم في شرق وجنوب آسية.

●● والنشاط الكاثوليكي يكتسح إفريقية ويؤكد على ضرورة إزالة الإسلام منها مع نهاية القرن العشرين، وبابا الفاتيكان ينتقل بين أقطار شتى ليطمئن إلى نجاح الخطة المرسومة ويزيدها ضراوة!(٢).

فالتبشير يجتاح وسطَ قارة إفريقية وجنوبها وغربها وشرقها.

من ذلك مثلاً تلاحقُ الحملاتِ التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية من إنجليزية وفرنسية وإيطالية ثم أمريكية؛ على الصومال لتنصيرِ شعبه الذي اعتنقَ الإسلام وحمل رايته منذ أكثر من ألف سنة.

وكل بعثات التبشير، والشركات والهيئات الأمريكية التي تعمل في الصومال تخضع لإشراف ورياسة سفير الولايات المتحدة في (أديس أبابا) عاصمة الحبشة، تلك العاصمة التي تُعتبر الآن نقطةَ الارتكاز الأولى لأمريكا في قلب إفريقية، وسفير الولايات المتحدة في (أديس أبابا) كان في الأصل قسيساً من رجال التبشير.

ويحكي أحدُ المبشِّرين قصة ذلك الإفريقي الذي تحدَّث عن أحوال قومه بصراحة تامة قائلاً: (عندما جاء الأوروبيون كانوا يملكون (الإنجيل)، وكنا نحن نملك الأرض.. أما الآن فقد أعطونا الإنجيل وأخذوا منّا الأرض!).

---

(١) علل وأدوية، ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٢) هموم داعية، ص٤٦ ـ ٤٧؛ وانظر: الضربات، ص٢٩٥ ـ ٢٩٦.

نعم.. هذا هو العوض العادل الذي ارتضاه الفاتحون المتدينون![١].

●● وفي العَقْدين الماضيين من السنوات العِجَاف التي اجتاحت ديار المسلمين في البَلْقان وأفغانستان وغيرها، جرى اختطافُ آلاف الأطفال المسلمين وذُهِب بهم إلى أوروبة ليعيشوا في محاضنَ نصرانية، ويرضعوا من لبانها، ثم يعودوا إلى بلادهم مبشِّرين وقادة!.

ولم يتوقف الخطر عند ذلك، فقد دخلت القوات الصليبية بقيادة أمريكا إلى العراق وأرض الجزيرة العربية، وحَملتْ معها جيشاً من المبشِّرين انبثُّوا في دول عديدة، وثمَّة حقائق لا تقبلُ الجدال عن تشييد عشرات الكنائس في هذه الأرض الطاهرة، ناهيك بالنشاط التنصيري فيها، فقد سمعنا أن بعض المسلمين أخذ يتسمَّى بأسماء نصرانية!.

١٢ ـ الغزو الفكري والثقافي[٢]:

●● ليست الحملات العسكرية وما ألحقَتْه ببلاد المسلمين هي أكبر الخسائر التي حاقَتْ بأمتنا، بل أفدح منها ما أعقَبَها من سياسات بعيدة المدى رسمها الأقوياء القاهرون وشرعوا في تنفيذها على مَهْل.. والغاية المرجوَّة منها: حلُّ عُرى هذا الدين، وصرفُ النفوس والأفكار عنه، وإنشاءُ أجيال تتجهَّم لتعاليمه وتتجاهلُ مطالبه أو تجهلها كل الجهل!.

والحق أن الغزو الفكري والثقافي الذي ابتدأ منذ نحو قرنين، وانسابت جيوشه في بلاد الإسلام مَطْلِعَ القرن الرابع عشر الهجري؛ أرخَصَ كلَّ شيء في سبيل ترسيخ أقدامه.

والغريب أن الخسائر التي أصابت المسلمين في مقاومته بعدما احتلَّ

---

(١) كفاح دين، ص٥٢ ـ ٥٥ مقتطفات.

(٢) تحدثنا عن هذا في مواضع عديدة من هذا الجزء.

ديارهم؛ أخطرُ مما رُزِئُوا به إبَّان الحملات الصليبية والتتارية والوثنية على بلادهم.

والحملة الفرنسية الصليبية التي قادها «نابليون» على مصر واصطَحَبَ معه فيها ثُلَّة من المستشرقين والمبشّرين؛ لم تكن عاملَ نهضةٍ وتجديدٍ كما يدَّعي السُّذَّج، بل هي التي فتحت الباب واسعاً أمام الغزوِ الفكري، واحتواءِ اليقظة الإسلامية، والقضاءِ على نفوذ (الأزهر) الذي كان يحمل لواء هذه اليقظة، وهو ما حدث بعد ذلك في عصر (محمد علي باشا)؛ الذي كان امتداداً للنفوذ الغربي والفرنسي بالذات، من حيثُ تحقيقُ كل الأهداف التي جاء من أجلها(١).

وأوروبة في علاقاتها بالعالم الإسلامي سارت على خُطَّة علمية مدروسة لا مرتجلة، تغزو بالسيف والقلم، وتجمع بين اللطف والعنف، تعرف هدفها وتسير إليه في ثبات ودهاء.

ومنذ نحو قرن ونصف اقتحم الغرب ديارنا من جديد، ومشى الغزو العسكري بين طلائع من الغزو الفكري، وأحْكَم المغيرون خطَّتَهم هذه المرة فإذا الغارة الجديدة تفتك بالإسلام فتكاً ذَريعاً، وتحقِّق في القرن العشرين ما لم تحققه في حروبها من عشرة قرون! فقد وقع شيء جديد في أساليب القتال، استغلَّه الأوروبيون على نطاق واسع، فأجدى عليهم أكثرَ من أسراب الطائرات، ومن فرق الدبابات! هو لونٌ من الغزو الثقافي البالغ الخبث(٢).

أ ـ أدوات الغزو الفكري:

ولكي يتغلغل الغزو الفكري في المفاصل الحيوية الخطيرة في أمتنا وشعوبنا وبلادنا، ويُنشِب أظفارَه في ركائز حياتنا وعوامل استمرارنا وأركان نهضتنا ـ فقد

---

(١) الضربات، ص٢٥٤.

(٢) ظلام من الغرب، ص١٤٤؛ جهاد الدعوة، ص٩٩.

استخدم وسائل وأدوات خارجية وداخلية، تمكِّنه من إحكام هيمنته وإنفاذِ برامجه، ويمكن الإشارة إلى أهمها:

١ ـ جنَّد ـ ساسة أوروبة ـ عدداً من الدكاترة وأساتذة الجامعات والباحثين، وعدداً آخر من الساسة الكارهين لله ورسوله، ووُضِعت تحت أيدي الجميع وسائل مادية وأدبية فعّالة[١].

حتى وُجِد من بني جلدتنا في أرض الجزيرة العربية من يقول[٢]: (لو خُيِّرتُ بين أسوأَ مجلس برلماني وأحسن مجلس شورى، لاخترتُ أسوأ برلمان ديمقراطي!).

٢ ـ أقام منذ دهر طويل رجالاً خَلَع عليهم اسم (**رموز الإصلاح**)، وهم الذين طعنوا الأمة في مقاتلها، من أمثال: (رفاعة الطهطاوي) الذي تتلمذ على المستشرق الفرنسي (جومار)، والذي كان له دور كبير في التغريب بمصر! حيث كلَّف الخديوي إسماعيل رفاعةَ الطهطاوي بترجمة القانون الفرنسي الوضعي عام (١٨٦٣م) للعمل به في المحاكم بعد إلغاء العمل بالشريعة الإسلامية! ومن هنا يكون (إسماعيل) قد سبق (مصطفى كمال أتاتورك) في إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية[٣].

وقد تمَّ مشروع (محمد علي باشا) في البعثات العلمية تحت إشراف المستشرق (جومار)، وتوالت البعثات من الشباب ليضَعَهم (جومار) تحت أيدي المستشرقين يوجِّهونهم ويعلّمونهم، وكان رفاعة الطهطاوي بمثابة صيد ثمين، ليبقى في باريس ثلاث سنوات، يعود بعدها حاملاً راية النهضة الحديثة[٤].

---

(١) جهاد الدعوة، ص٩٩.
(٢) هو الدكتور أحمد: البغدادي الكويتي في مقابلة معه في (قناة العربية) ـ برنامج إضاءات.
(٣) الضربات، ص٢٤٣، وانظر: ص٢٤٢.
(٤) المرجع السابق، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

فأحدث رفاعة هذا ـ وأمثاله ممن يُسَمَّون رجالَ الإصلاح ـ صدعاً مبيناً في ثقافة الأمة[(١)].

٣ ـ **المعاهد والجامعات والمدارس الأجنبية من أمريكية وإيطالية وفرنسية وألمانية وإنجليزية**، وهي المسؤولة عن التبلبل الفكري والقومي الذي نراه بيننا، وعن الترويج للفكر الأجنبي الجارف والثقافة اللادينية والمادية.

٤ ـ البعثات الخارجية، حيث تُختار من أفراد الأمة مجموعاتٌ تنتقيها السلطات الحاكمة، ويتمُّ ابتعاثُهم إلى أوروبة وأمريكا، لتصنع عقولهم هناك، ثم يعودون إلى بلادهم حاملين معهم رسالة السيد المتحكم ببلاد المسلمين، مباشرة أو غير مباشرة.. وهؤلاء يستحيون من الانتساب إلى الإسلام، ويكرهون أن يُرَوا وهم يقومون بشيء من شعائره، خصوصاً بين المثقفين الكبار، والطبقات التي تهيأ للحكم والنفوذ، فالواحد منهم يحبُّ أن يراه الناس خارجاً من حانة، ولا يحبُّ أن يَرَوه خارجاً من مسجد[(٢)]!.

٥ ـ **التمكين لتلك الأجيال من التحكّم بمواقع القرار والتوجيه**: فمنذ أيام حملة نابليون كانت الخُطّة محكمةً والهدف بارزاً بجلاء، فقد كَشَفَ نابليون برسالته إلى خَلَفه (مينو) ما يوحي بالهدف الذي كان يطمع في تحقيقه، وهو إرسال شباب مسلم إلى فرنسا، ليكون ركيزة النفوذ الفرنسي في مصر بعد عودته، مما يغيِّر تقاليد البلاد[(٣)].

٦ ـ **مناصرة أحزاب وجماعات تدعو وتعمل للانسلاخ عن الإسلام**: وقد بدا هذا واضحاً في الخمسين السنة الماضية، والأمثلة لا تخفى على ذي بصيرة.

٧ ـ **الإعلام**: وهو الآلة الضخمة الجبّارة التي أَجْلَبَتْ على الناس بجيوشها الكثيفة، وأدواتها العملاقة، وبرامجها المتنوعة، وأساليبها الفتّاكة، وشمولها

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٢) انظر: الضربات، ص٢٥٦؛ كفاح دين، ص١٢٧.
(٣) الضربات، ص٢٥٤، وانظر: ص٢٥٣.

العَميم الذي دخل المدائنَ الزاهرة والصحارى المُقْفِرة والجبالَ الوعرة والمجاهلَ الطامسة، ويحاول بجَلَد وثباتٍ صياغةَ العقول والأفكار، والعادات والتقاليد، والأقوال والأفعال، بما يرسمه القوي الغالب ويفرضه على المغلوب المفتون!.

٨ ـ **إسكات الأصوات الأصلية المخلصة**: ويتمثل ذلك بمحاربة ومَنْع وتشويه الأقلام المؤمنة، والألسنة الصادقة، والصحيفة الناصحة، والكتاب الجاد! وتتآلب على كل ذلك قوى كثيرة في معركة غير متكافئة.

٩ ـ **الاستشراق**: فالمستشرقون لهم دور كبير في تشويه أصول الإسلام وعقائده، وتزوير التاريخ وتحريف حقائقه.. وهناك نفر من الباحثين والأدباء الذين اتصلوا بهم وتلقوا عنهم، شاركوا في خدمة الاستعمار الثقافي وهدم الكيان الإسلامي.

ب ـ مناهج الغزو الفكري وأهدافه وأعماله:

وسَعَتْ جيوشُ الغزو الفكري إلى أهداف كثيرة وتحقيق أعمال متعددة، نشير إلى أبرزها، وأخطرها[1]:

١ ـ نقلُ أفكار ماركس وفرويد ولينين.

٢ ـ نشرُ الإلحاد والمادية باسم التنوير والتجديد.

٣ ـ تحقيق أهداف الماسونية (حرية ـ إخاء ـ مساواة).

٤ ـ تشجيع الفكر العلماني اللاديني والتمكينُ لدعاته وأتباعه.

٥ ـ التشكيك بالإسلام ومبادئه والقرآن وحقائقه وإضعاف شأنها في القلوب.

---

(١) انظر: الضربات، ص٢٤٢، ٢٧٧؛ ظلام، ص٧٣، ١٤، ٢٣٥، ١٥٤.

٦ ـ الخواء الروحي في الشعوب المسلمة للتمكن من سَكْب أي فكر جديد غريب.

٧ ـ إقصاء التشريع الإسلامي، وإحلالُ القوانين الغربية محلّه.

٨ ـ حصرُ الدين في العبادة والمسجد وإقصاؤه عن النفوس والحياة والسياسة والحكم.

٩ ـ الانخلاع من الإسلام وإسقاط لوائه للانطلاق وراء الغرب والشرق والذوبان فيهما.

١٠ ـ تشويه صورة الجهاد والمجاهدين، لصناعة أجيال تستنكر المقاومة ولو للاستعمار.

١١ ـ إبراز رجال في أمتنا على أنهم مجدِّدون وأصحاب فكر مستنير، وتخليدُ ذِكْرهم وإعلاءُ شأنهم وإضفاءُ الهالات عليهم، وإغداق الجوائز العالمية عليهم، ووصفهم بالألقاب الكبيرة، وإسدالُ السِّتار على نظرائهم بل مَن يفوقهم ممن يحرص على دين الأمة وهويتها.

١٢ ـ فرضُ تدريس تاريخهم وآدابهم على أبنائنا وفي بلادنا، والترويج للحضارة الغربية، والاستعانة بصنائعهم في تشويه تاريخنا ورجالاتنا، والسعي لسلخ بلادنا وشعوبنا للسير في قافلة الغرب والاندماج فيه.

١٣ ـ تلويث عقول أبناء أمتنا وخاصة المثقفين والقائمين على منابر التوجيه، بدعايات التسامح والإنسانية ونبذ العصبية؛ لقتل كل عناصر المناعة والمقاومة في الأمة، فترحل جيوش الاحتلال عن أرضنا وتبقى المعاهد والمدارس الأجنبية مسيطرة على أفكارنا وأرواحنا.

١٤ ـ غزو المؤسسات التعليمية الكبرى والصغرى ومناهجها، والحرص على محو التعليم الديني الأصيل، وتقديم خلاصات ميتة منه لذَرِّ الرماد في العيون، والتركيز على التعليم المدني المنبتّ عن عقيدة الأمة ودينها.

١٥ ـ إغلاق المعاهد الدينية والمدارس الإسلامية ومدارس تحفيظ القرآن والعناية بالسنَّة، وتقليص نفوذها، وتسريح الرجال أصحاب الفكر الإسلامي والمستمسكين بتراث الأمة من أعمالهم وتكبيل أيديهم وإسكات أصواتهم.. وهذه الحملة قد اشتدَّ الآن أوارها في العالم الإسلامي، وهو أمر خطير يُنذِر بشرٍّ مستطير!.

١٣ ـ إقامة الحكومات العلمانية أو المدجَّنة والتمكين لها:

ومنذ وقتٍ مبكِّرٍ يَقْرُبُ من مئتي سنة حَرَصت القوى المناوئة للإسلام وأهله على إنشاء حكومات لادينية، وتوطئة السُّبل لها، ودعمِها بشتى الوسائل المادية والأدبية، لتسهل عليها الهيمنة على العالم الإسلامي.

فلذا حَرَصت فرنسا ـ مثلاً ـ على تأييد (محمد علي باشا) وإمدادِه بالسلاح والخبراء العسكريين، ودعمه في تحقيق برنامجه في ضرب التشريع الإسلامي والقضاء على سلطان (الأزهر) وعلمائه، وإقامة نظام تعليم علماني، وترجمة القانون الفرنسي المدني والجنائي، ثم إعانته عسكريّاً في غزو الجزيرة العربية والقضاء على دعوة (محمد بن عبد الوهاب)[١].. فكان مشروع محمد علي امتداداً لمشروع نابليون ومبادئه العلمانية، ففي عهده أُصيب التشريع الإسلامي بضربة موجعة منذ أكثر من قرنين[٢].

وتذكر وثيقة بريطانية سرية ما جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطانية لرئيس حكومته في (٩/ ١/ ١٩٣٨م)؛ أهمية الحكومات في توطيد سلطان الاستعمار، ومما جاء فيها:

(ومن أسباب سعادتنا أن «كمال أتاتورك» لم يَضَعْ تركية في مسار قومي علماني فقط، بل أدَخَل «إصلاحات!» بعيدةَ الأثر أدَّتْ إلى نقضِ المعالم الإسلامية لتركية)[٣].

---

(١) بدأت حملات محمد علي باشا على الجزيرة العربية سنة (١٨١١م).

(٢) انظر: الضربات، ص٢٤٢ ـ ٢٤٣؛ ظلام من الغرب، ص١٥٤ ـ ١٥٥.

(٣) هموم داعية، ص٨٨.

والدارس بإنصاف ووعي يدرك أن أوروبة تحارب بالسيف وبالمال وبالعلم والقلم كل زعيمٍ شرقيٍّ تشمُّ في قيادته رائحة يقظة إسلامية.

ونظام أتاتورك الذي تعاضدت على صناعته ومناصرته كل القوى التي تحالفت لإسقاط دولة الخلافة العثمانية؛ هو الأنموذج اللاديني الذي صنعه الغرب للعالم الإسلامي ليحذو حذوه!.

ولا نُجافي الحقيقة ولا نُغالي إذا قلنا: إن الحكومات الجَبْرية وغير الوطنية في بلادنا قد مكَّنت للقوى التي تداعَتْ علينا من تحقيق معظم الأهداف التي رَسَمَتْها ودأبت جاهدةً لتحقيقها.

١٤ ـ تشويه تاريخنا وتضييق دائرته ومحو ذاكرتنا التاريخية:

●● إن هناك كمّاً هائلاً من الكتابات القديمة والحديثة العربية وغير العربية حول تاريخنا الإسلامي بمختلف مراحله ومظاهره في المدِّ والجَزْر؛ يهدف إلى إبراز المساوئ وتضخيم الأخطاء، ودفن الحسنات وتشويه جلائل الأعمال.

ويدأَبُ كثير من الأعداء خارج بلادنا وفي داخلها ممن يتكلَّم بألسنتنا؛ على نشر مساوئ بني أمية وبني العباس، ومهاجمة المماليك والأيوبيين والعثمانيين الذين حَمَوا الإسلام ودياره، وحطَّموا أحلامَ القوى الغازية والأحلاف المتداعية، وترى وتسمع كثيراً من مثقفينا ومدرسي التاريخ وأصحاب الأقلام ممن يَصِمُ الخلافة العثمانية بالاستعمار!.

ومن مظاهر التشويه ومحوِ الذاكرة التاريخية: محاولةُ حذفِ معركتنا مع الصهيونية من المقررات التاريخية، وإحلالُ خرائط توضع فيها كلمة (إسرائيل) بدلاً من (فلسطين)، وحَجْبُ الجانب التاريخي من معركة الرسول ﷺ مع اليهود في المدينة المنورة[1].

●● كذلك تَضْييقُ المساحاتِ التي تتحدَّث عن الحروب الصليبية والزحف

---

(١) الضربات، ص٣٠٥.

الشيوعي وحروب الوثنيين والهنادك والبوذيين للمسلمين، وأحوال الأقليات بل والأكثريات المسلمة في الأطراف النائية من بلاد المسلمين!.

فجمهورُ المسلمين لم يدرسْ حرفاً عن إخوانهم في الدين في جنوب شرق آسية وجنوب آسية نفسها، وشمال إفريقية وغربها في العصر الحديث.

وعامَّتُنا لم يعرفْ حرفاً عن الاستعمار الهولندي لجزر (إندونيسيا)، ولا الإسباني لجزر (سولو) و(مندناو) وسائر الجزر التي سُمِّيت بعدُ (الفيلبين)! ولم نعرف كيف استعمر الفرنسيون (الهند الصينية)، ولا ما حدث للمسلمين في (فطاني) و(الملايو) و(سنغافورة)... إلخ.

وما يُقال عن هؤلاء يقال مِثلُه عن جهلنا المُطبِق بمسلمي (التُّركستان الصينية والروسية)[1]، وبقية الشعوب الإسلامية التي ابتلعها التنِّين الروسي! أما القارة السوداء (إفريقية) ـ والإسلام هو الدين الأول في أقطارها ـ فالوضع أدهى وأمرّ.

لقد تبيَّن لنا أن دراستَنا للتاريخ الإسلامي ضحلةٌ، وأن دراستنا للتاريخ الإنساني فوق الصفر بقليل.

والحق أنَّ المشرفين على التعليم الأصلي من أمدٍ طويل فرَّطوا في حقوق الأخوَّة الإسلامية حين فرَّطوا في دراسة الأجناس التي اعتنقت الإسلام، وعَمُوا عن قضاياهم المصيرية، ونَسَوها على هذا النحو الشائن[2].

●● والأخطرُ من ذلك سياسةُ التجهيل الخطيرة في مناهج التعليم وبرامج الإعلام، حول معرفة أبنائنا بتاريخ الصَّدْر الأول من سيرة نبيِّنا محمد ﷺ وتاريخ الصحابة ﷺ والفتوحات المباركة للمشارق والمغارب!.

---

(١) ما يقع منها تحت الاحتلال الصيني يسمّى (تركستان الشرقية)، وتسمّى الآن (سينكيانج) أي الأرض الجديدة، وأعظم مدنها (كاشغر). وما يقع تحت الاحتلال الروسي يسمى (تركستان الغربية)، وهي خمس جمهوريات منها: أوزبكستان وكازاخستان.

(٢) علل وأدوية، ص١٩٨ ـ ١٩٩.

ونتيجةً لتلك السياسة نشأتْ أجيال من أبناء المسلمين لا تعرف إلا النَّزْرَ اليسير من حياة خاتم الأنبياء محمد ﷺ وسيرته وشمائله الكريمة، وكما تجهل القسمَ الأكبر من حياة أصحابة وجلائل أعمالهم؛ فكثيرٌ من أبنائنا لا يعرف أسماء أولاد رسول الله ﷺ، وأمهات المؤمنين، والعشرة المبشَّرين بالجنة، وغزوات الرسول ﷺ، والخطوط العريضة للفتوحات الإسلامية، وأبرز قادة المسلمين فيها!.

وهي ظاهرة خطيرة نفَّذَتْها عن عمدٍ ودراسة جادَّة عقولٌ حاقدة من أعداء الأمة، وأعمال أبنائها من المنبتِّين عن تاريخنا وحضارتنا، فنشأت بين أجيال المسلمين وسَلفَهم تلك الهوةُ المفزِعة، ومحوُ الذاكرة التاريخية!.

●● في الوقت الذي يدرس فيه أبناؤنا الشيءَ الكثير عن أوروبة وأمريكة وسواها، وعن الصادرات والواردات، والقادة والغزاة والعلماء والأدباء.

بينما يجهلون كلَّ الجهل تاريخَ وأعمالَ وأمجادَ عماد الدين الزنكي، ونور الدين محمود، والسلطان محمد الفاتح، والسلطان عبد الحميد الثاني، وأكابر زعماء حركات التحرير في القرن العشرين، ورواد الإصلاح فيه، وغير هؤلاء كثير.

إنه تشويه متعمَّد وتجهيلٌ مقصودٌ بتاريخنا القديم والوسيط والحديث، لتقطيع أواصر الصلة بين أجيال المسلمين المتلاحقة، مما يستدعي التنبُّهَ له والسعيَ الجادّ لإصلاح ما أفسده الأعداء وأعوانهم من بني جِلْدتنا.

١٥ ـ تصدير ألوان الانحلال والرذيلة إلينا، وتشجيع انتشارها في بلادنا، وخنق الفضيلة ومطاردتها:

وهو أمرٌ تحدَّثنا عنه طويلاً ومرَّ في ثنايا كتابنا هذا كثيراً، وأوضحنا أشكالَه وصُوَرَه وأدواته ودعاته، وأساليبه ومناهجه، وأضرارَه ومخاطره.. وقد شاع في العقود الأخيرة وخاصة السنين القريبة الماضية بصورة مُفْظِعة، واكتسحَتْ جحافِلُه الحواضر والبوادي، ودخلت الدور والجحور، وأوْدَتْ بأخلاق الشباب والكبار

والصغار، وأنشأت جمهوراً من المائعين والماجنين والتائهين والغثائيين، ممن لا هدف له ولا غاية، تتقاذفه رياح الخلاعة والخَنَا والرقص والجنس، كما تتقاذف أمواج السيول الزَّبد الطافي! واختنقت الفضيلة في مواقع شتى، وجأرت العفَّة إلى الله بالشكوى.

ونتج عن ذلك أجيال من الضحايا، تقرُّ بهم أعينُ الأعداء والمستعمرين، ويتعاون على ذبح أخلاقهم جزّارون مَهَرة، لهم إخوانٌ يَمُدُّونهم في الغَيّ ثم لا يُقْصِرون.

١٦ ـ الامتيازات والقواعد العسكرية والسفارات:

●● ومن الأشكال الخطيرة لتداعي الأمم على العالم الإسلامي ودينه وقيمه وأهله وثرواته؛ الامتيازاتُ التي تُؤخذ طوعاً أو كرهاً لدول أخرى أو جنسيات معينة أو هيئات أو شركات.

ويعلم كثير من الدارسين أن من أسباب وهاء الدولة العثمانية ومن ثَمَّ تدهورها وسقوطها؛ مَنْحَ دولة الخلافة امتيازات للدول الأجنبية تحت اسم التسامح الإسلامي والإيمان بالمساواة، مما مكَّن القومياتِ البلقانية من النمو والتطور، إلى حدِّ امتشاق السلاح والانفصال بمعونة الكنيسة الروسية وجيوش وأموال القيصر. بينما استطاع الاستعمار الروسي أن يَقْصِم ظهرَ (الولايات الإسلامية) ويمتص منها كل حيوية، وهي أعرقُ ثقافة وأكثر تحضراً من شعوب البلقان.

وقد مكَّن ذلك للنصارى من الضغط على أصحاب القرار في الدولة العثمانية، وفوجئ الشعب المسلم بإصلاحات في القضاء، وفي أجهزة الدولة المالية، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل واصَلَ تقدُّمَه فحصل (لبنان) على نظام جديد منح المسيحيين امتيازات جعلَتْ كِفَّتَهم راجحة على كِفَّة غيرهم.

واستطاع اليهود الأرمن الوصولَ إلى بعض المناصب عن طريق الامتيازات

الأجنبية، مما مكَّنَهم من إقامة المنظمات السرية وهدفها الأساسي تخريبُ الدولة الإسلامية على أيدي الأتراك أنفسهم.

وكانت (الدونمة) وهي مجموعة اليهود المقيمين في سالونيك هم الذين أقاموا (المحافل الماسونية)، واستدعوا إليها تحت اسم الإصلاح بعضَ الشباب التركي، الذين شكلوا خلايا جمعية (الاتحاد والترقي)، وقد حملوا لواء الدعوة إلى الطورانية القديمة في مواجهة الجامعة الإسلامية.

كذلك استغلَّ المبشِّرون المسيحيون فرصة الامتيازات الأجنبية التي عقدتها تركية مع الدول الكبرى، فأرسلوا أعداداً ضخمة إلى عواصم الدولة العثمانية، وأنشؤوا الإرساليات في بيروت والقاهرة والقسطنطينية[١].

ولقد تطورت الامتيازات إلى أخطر صورها وأشكالها في بلاد العرب والمسلمين في العقود العِجاف المنصرمة وإلى الآن، وما نشهده يُنذِر بمخاطر مروِّعة مما تحظى به الدول الكبرى والصغرى والشركات العملاقة والشركات متعددة الجنسيات وشركات ما وراء البحار من امتيازات لا حدود لها، في النواحي الاقتصادية والعمرانية والصناعية، بل والعسكرية والتعليمية، كما يظهر للعيان في مواقع كثير من بلاد العرب والمسلمين.

●● وأما القواعد العسكرية فقد نقل الأستاذ المفكّر الغيور أنور الجندي في كتابه القيّم «الضربات التي وُجِّهت للانقضاض على الأمة الإسلامية»، فقال: (إن هناك كتاباتٍ غريبة متعددة تقول: إن الخطر القادم سيأتي من الإسلام! إنَّ خوفَهم من مستقبل الإسلام على نفوذهم في العالم يدفَعُهم الآن إلى خطوات عصبية، وفي مقدمتها السيطرة على منابع النفط، وإقامة قواعد عسكرية في الجزيرة العربية والخليج)[٢].

---

(١) الضربات، ص١٧٨ ـ ١٨١، مقتطفات.

(٢) الضربات، ص٣١٤.

والذي نَجزِم به أن هذه ليست دراسات وتوقعات، بل هي خطط وبرامج قد أُعِدَّت منذ زمن وبهدوء، واستراتيجيات علمية محكَمة يتم تنفيذها على مراحل.

وقد شهدنا ذلك ورأيناه في السنوات الخمس المنصرمة إثر الهجوم الصليبي على أفغانستان والعراق، واستعمارهما بصورة وحشية، وتأييد دولي مشين، ودعم أو سكوت عربي محزن!.

وأُنْشِئت عشراتُ القواعد العسكرية في بلاد عربية وإسلامية وكل قاعدة منها هي جيش ثابت حرُّ الحركة في قلب أمتنا، ويدير دَفَّة الأمور عن قرب أو عن بُعد، محقِّقاً تداعياً خطيراً على مصايرنا لم يسبق له مثيل.

●● ثم لا يخفَى الدور الخطير الذي تقوم به السفارات الأجنبية في ديارنا: فالسفارات الأمريكية خصوصاً والأوروبية عموماً، فيها أقسام إعلامية لأغراض النشر والدعاية والمراقبة والرصد، وأقسام استخباراتية لتتبُّعِ أنشطة الأحزاب والجماعات والهيئات والكتب والصحف وسواها، وأقسام دبلوماسية للعلاقات المحلية والدولية وغير ذلك.

ويَدْهَش المرءُ حين يجد السفارات الأمريكية تشكّل قلاعاً حصينة تمتد على مساحات كبيرة وتضم جمهرة كبيرة من الاختصاصيين وأصحاب الكفايات العليا، وحسبك أن تعلم أن السفارة الأمريكية في العراق والتي أنشئت حديثاً بعد الاحتلال الأمريكي لها، تضم (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف عنصر، وهو جيش صغير في لبوس دبلوماسي!.

١٧ ـ التداعي المعاصر على العالم العربي والإسلامي:

منذ أكثر من قرن تداعَتْ علينا قوى الأرض جميعاً بمختلِف أديانها ومذاهبها، وتوحدت جميعاً ـ بشكل قوي أو ضعيف ـ لإماتةِ ديننا وطمسِ حضارتنا وتشتيتِ قوانا وانتهاب خيراتنا.

وشمل التداعي كلَّ الأشكال والألوان والأساليب والمناهج التي أشرنا إليها، وقد أتقن الأعداء الاستفادة من تجاربهم السابقة، فجمعوا كل أساليبهم

وأدواتهم الماضية وطوّروها وأضافوا إليها ما أنتجتْه عبقرياتُ دهاقنتِهم من ساسة ومنظِّرين وعسكريين، وضَمُّوا إليها كل ما تقتضيه الظروف والأحوال والخصوصيات لكل بلد وشعب وما فيه من فاعليات وخيرات، وجمعوا في ممارستهم بين اللطف والعنف، والترغيب والترهيب، والفتك والممالأة.

وتلاقَتْ على مصارعتنا الصليبيةُ واليهوديةُ والشيوعيةُ والهندوكية والبوذية والوثنية في تحالفٍ خطير مُبير! وكان الهجوم في كثير من حالاته شرساً مدمِّراً، فأنسى الناسَ ما فعله الصليبيون القدامى والتتار المتوحّشون.

والمتتبع لِما فعله الصِّرْب بتأييد صليبيٍّ بالمسلمين في البوسنة، وما فعلَتْه وتفعلُه أمريكا بالعراق وأفغانستان، وروسيا في الشيشان، و(إسرائيل): بفلسطين، والحبشة بالمسلمين فيها وفي الصومال، والهنادك في كشمير، . . . يعلم مدى العنف الرهيب الذي يُباد به المسلمون.

وظهر التداعي المعاصر على المسلمين منذ نحو قرن عندما تجمَّعتْ كل القوى الصليبية واليهودية وغيرها من الأحلاف؛ لمجابهة الدولة العثمانية فأسقطوا الخلافة الإسلامية، وفرَّقوا ميراثها إلى دويلات، وتقاسم المهاجمون تركَتَها كمناطق نفوذ، وسقط الوطن العربي في قبضة الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي والإسباني والهولندي وغيرهم، وأُقيمت كيانات هزيلة بينها حدود مصطنعة تدافع عنها حكومات ضعيفة متشاكسة متنافرة.

واليهود الذين لم يفكِّروا في مناوشة المسلمين منذ أن كَسَر الصحابةُ شوكتَهم قبل (١٤) قرناً، استطاعوا منذ مدة أن يحصلوا على وطن لهم في قلب العالم العربي، وأن يدخلوا مع العرب في عدة حروب، وأن يعقدوا مع بعض زعاماتهم معاهدات حُسن جوار، تتمكن من خلالها دولة (إسرائيل) من الاستقرار وبَسْط النفوذ والهيمنة والتدخل في شؤون البلاد العربية القريبة والبعيدة.

وشمل التداعي قلب العالم الإسلامي وأجنحته وأطرافه:

في الوطن العربي، وأوروبة الشرقية والبلقان، والجمهوريات الإسلامية

هيمن عليها قديماً الاتحاد السوفييتي، ولا تزال ترزح تحت وطأة التآمر والإضعاف، وشبه القارة الهندية التي قامت فيها مملكة إسلامية نحو ثلاثمئة سنة قُسِّمت على مراحل وأصبحت تشمل الهند وباكستان وبنجلاديش وكشمير، وإفريقية يأكلها الاستعمار والتنصير وبخاصة إفريقية الشرقية (الصومال وإرتيريا والحبشة)، وهكذا حدث في شرق آسية وجنوب شرق آسية حتى حدود تايلاند والفيلبين وإندونيسيا.

والتداعي لا يزال على أشدِّه، والمؤامرات على بلادنا لا تنتهي، تُحاك وتُنفَّذ في الليل والنهار، وقد اتجه الأعداء الآن إلى مرحلة أبعد وأخطر، فانتقلوا من مرحلة (التفريق) بين البلاد العربية والإسلامية وجعلها دولاً ودويلات، إلى مرحلة (التفتيت) بجعل الدولة الواحدة كيانات ممزقة، كما ظهرت ملامح ذلك في العراق، والمخططات مرسومة لفعل الشيء نفسه في السودان، وهلم جرّاً.

خامساً: نتائج التداعي وأضراره:

وهذا التداعي الشامل المتطاول والمستمر على العالم الإسلامي قد أدى إلى نتائج مُرَّة وتركَ أضراراً جمَّة؛ نُجملها فيما يلي:

١ ـ تقطيع المسلمين إلى أمم ممزَّقة محسورة، تجهل كل قطعة منبتها ومصيرها، وتفقد القدرة على الحركة الذاتية، فلا تملك إلا أن تلتحق بقطار آخر يجري ذات اليمين أو ذات الشمال.

٢ ـ تدميرُ واندثار ذخائر علمية وفكرية جادَتْ بها قرائحُ المسلمين، وطمسُ معالم الرقي والتقدّم، كما حدث ذلك بعد سقوط بغداد والأندلس، وجدَّدَه الشيوعيون، ثم الصليبيون الجدد في مواقع شتى وبخاصة في العراق المنكوب.

٣ ـ محو معالم حضارة الإسلام من المناطق التي انسحب منها أو أُبيد أهله فيها، كما جرى في الأندلس وبغداد وشبه القارة الهندية وأوروبة الشرقية والبلقان.

٤ ـ تدمير كثير من المدن والحواضر والقرى، وأمثلة ذلك كثيرة في التاريخ

القديم، وأما الآن فحسبك بما جرى في البوسنة وكوسوفا والشيشان والصومال والعراق وأفغانستان.

٥ ـ إزالة أو خنق معالم الإسلام وهديه ومبادئه في الحكم والحياة والمدرسة والمحكمة والبيت والنادي والقرية والمدينة وميادين الجد وميادين اللهو، حتى كاد الإسلام أن يمسي أثراً بعدَ عين.

٦ ـ خسارة بلدان كثيرة وعواصم ومقدَّسات.

٧ ـ إزهاق أعداد هائلة من الأرواح الطاهرة: وقد ذكرنا في ثنايا شرح هذه النبوءة أمثلة كثيرة، وكلها أرقام مرعبة ومُفْزِعة!.

٨ ـ انتهاب الخيرات الطبيعية والثروات والأموال.

٩ ـ إيقاع البلاد تحت نِير الفقر والمَسْغَبة والحاجة المستمرة للمحتل.

١٠ ـ انتشار الغزو الفكري والتنصير والتكفير وإخراج المسلمين عن دينهم.

١١ ـ ضربُ حركات التحرير والمقاومة والحركات الإسلامية.

١٢ ـ هدرُ ما يتبقى من خيرات وأموال في نفقات الحروب وتمويل العملاء.

١٣ ـ تثبيتُ قواعد عسكرية طويلة الأمد تبقى رادعاً لكل مقاومة.

وغير ذلك كثير.

سادساً: عوامل صمود الأمة وثباتها ونهوضها في وجه القوى المتداعية عليها:

نؤكد بدايةً أن سياسة تمويتِ الإسلام عبر الحملات المتتابعة بشتى أشكالها وتنوُّع أساليبها واختلاف أدواتها؛ قد فشلَتْ قديماً وسوف تفشل مستقبلاً برغم ما حُشدَ لإنجاحها من وسائل عظيمة، ولن يكون حظُّ الصليبية الجديدة أسعدَ من حظ زميلتها القديمة، وإن طال المدى.

فأعداء الإسلام جميعاً قد غَبَر عليهم أربعةَ عشر قرناً، وهم يفترون على

الإسلام الكذب، ويضعون أمام دعاته السدود، ويُعمِلون في رقاب أهله السيفَ إذا أسعفَتْهم القوة، وينسجون لهم الدسائس إذا أعجزهم الضعف.

فماذا جَنَوا بعد هذا كله؟.

لا الإسلامُ مات، ولا قرآنُه بادَ، ولا أمته هلكَتْ[١].

والأمة الإسلامية قد صمدت أمام العواصف الهوج التي حاولت استئصالها، وتصدَّتْ لعوامل المحوِ والإفناء، وتعالَتْ على النكبات المروِّعة والمجازر الفتاكة، واستعصَتْ على الانحلال والذوبان في حضارات الأمم قديماً وحديثاً.

وهي قد يصيبها الخَوَر والهوان، ويعتريها الضعف والفتور والاستكانة، ويحلّ بها التقهقر والفوضى، كذلك تسري عليها السُّنَن الكونية في المدِّ والجزر.

بيد أنها أمة باقية لا تبيد ولا تموت فتمسي كالأمم البائدة، لأنها الأمة التي حملت الرسالة الخالدة الخاتمة، والتي قضى الله سبحانه لها البقاء إلى قيام الساعة.

وللأمة الإسلامية عوامل تحافظ على ثباتها وبقائها وصمودها واستمرارها، منها ما هو قضاءٌ إلٰهي ومنحةٌ ربانية وتفضُّل أعلى، ومنها ما هو ذاتيٌّ فيها كامِن في طبيعتها، ومنها اكتسابي اجتهادي من أهلها وحَمَلتِها، ونشير إلى ذلك على وجه الإجمال والإيجاز:

١ ـ الكتاب الكريم والسنَّة الشريفة، هما أصل حياة هذه الأمة ودرعُها الحصينة التي تأوي إليها في السراء والضراء، وقد تكفَّل الله ﷻ بحفظ كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ، وهما ـ ولله الحمد ـ لا يزالان بين أيدي الناس غضَّين كما جاءا في عهد الرسالة العظمى.

---

(١) كفاح دين، ص٢٧٢.

٢ ـ أصالة مبادئ الإسلام وشرائعه وشعائره وقيمه وأخلاقه وآدابه.

ولولا هذه الأصالةُ لكانت الأمة الإسلامية الكبيرة قد تلاشت من الحياة إثر ما حَلَّ بها من كوارث، وأخذتْ طريق البائدين الدارسين من أهل القرون الأولى(١).

٣ ـ رجال الأمة المجدِّدون الذين امتنَّ الله تعالى على الأمة بهم، حيث يقومون بحركات الإحياء والتجديد ونفيِ الدَّغَل عن هذا الدين، ويقودون الجموع بالحق على الصراط المستقيم.

٤ ـ الطائفة المنصورة التي بَشَّر النبي ﷺ بوجودها وبقائها إلى قيام الساعة، تستمسك بدينها، وتجاهد عدوها، وتحمي الإسلام وأهله ودياره، لا يضرُّ رجالَها مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

٥ ـ المجاهدون ورجال المقاومة وحركات التحرير الذين لا تخلو منهم أرض إسلامية، ولا يُقْفِر منهم عهد، ولا يَنْضُب لهم وجود، ولا ينفد لهم مددٌ في كل زمن وجيل؛ أولئك ورثة الإسلام الثابتون على الحق، يتنادون في كل مكان بالثبات، وتتكون لهم جبهة صلبة، ثم يستعيدون ما سُلب منهم، ويتحركون نحو غدٍ أفضل.

ومصيرُ المعركة معلَّق بالرجال الذين يملؤونها، ووثاقة إيمانهم، ورباطة جأشهم، وطول صبرهم، وبشاشة رجائهم(٢) . . .

٦ ـ الصحوة الإسلامية العامة الكامنة في ضمير الأمة، والتي تظهر عقب كل فترة كالحة أو هزيمة ساحقة أو خسائر فادحة.

٧ ـ العودة إلى المنهج بعد دراسة التجارب اللاذعة، عودة تزكِّي السرائر

(١) ظلام من الغرب، ص١١٧.
(٢) انظر: جهاد الدعوة، ص١٠٩؛ كفاح دين، ص١٣١.

وتبني الأخلاق وتُشْعِر الشعوبَ بشرف الانتماء إلى رسول الله محمد ﷺ ودينه وضرورة العمل الجاد برسالته.

٨ ـ دراسة التاريخ واستبانة السلبيات والإيجابيات، والهزائم والانتصارات، وتعرّف الخطأ ومكامن الخطر، ومحاسبة النفس على التقصير، والاعتبار بمسالك الكبار الذين صَدّوا العدوان وأعادوا للأمة مكانتها، والتخلص من الأمراض التي أضعفت أمتنا وأهلكت الأقدمين.

٩ ـ إحياء الإخاء الإسلامي، وردمُ الفجوات التي تفصل بين المسلمين، وكفكفةُ جماح الخلاف والتنافر، والتعاون في المُتفَق عليه، والتسامح في المختلَف فيه، والتساند صفّاً واحداً في مواجهة الهجمة الجديدة على ديننا وأرضنا.

١٠ ـ المعاقل الأصيلة في الأمة التي تحمي عقيدتها وقيمتها وأخلاقها، والتي لعبت دوراً رائداً على مرِّ التاريخ واستنقذت الأمة من الذلة والهوان، ويتمثَّل ذلك بالمساجد والمعاهد والمدارس والجامعات وحلقات العلم ومحاضن التربية والجهاد.

١١ ـ إصلاح الركائز الكبرى التي تنهض بالأمة وتحمي رسالتها وتحفظ أبناءها، ويشمل ذلك الجوانب العقدية والعقلية والفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والتعليمية ونحوها.

١٢ ـ العمل الجاد والجهد الدؤوب للتغيير والبناء، وعدم الاستسلام لوقوع المعجزات وتحقق النبوءات المستقبلية؛ كانتظار المهدي المنقِذ، أو نُطْقِ الحجر والشجر في الحرب مع اليهود؛ فالرجال الذين استنقذوا أمتنا من براثن الزحوف الماحقة؛ وُلِدوا من رحمِ الظروف القاسية، وحققوا انتصارات باهرة، وأمثلتهم في تاريخنا كثيرة.

سابعاً: دروس وعبر:

هذه النبوءة التي امتدَّ تحقُّقُها مع تاريخ الأمة الإسلامية الطويل، قد احتوت

دروساً جَمَّة، وبرزت فيها عِبر كثيرة، ينبغي الادِّكار بها، والاتعاظُ بما حَمَلَتْه من مغانم ومغارم، وما اعتور مسيرتها من أفراح وجراح، وما قدَّمَتْه من حسنات وسيئات، وما ظهر منها من خطأ وصواب.

والكلام في هذا غزير المادة واسع المدى، نومئ إليه بإشارات معبِّرة وكلمات موجزة:

١ ـ الإسلام هو الذي حمى الأمةَ عبر تاريخها الطويل، وهو الذي استنقذها من عوامل المحو والإفناء التي سعى إليها كل من تداعى علينا، وستبقى راية الإسلام هي التي تجمع الشمل وتحقق النصر، وأية راية غيرها لا تنطلق بنا إلا وراء سراب خادع وأمل كاذب.

٢ ـ العقيدة والقيم والأخلاق هي الركيزة الأولى والعمود الأساس لصمود الأمة في وجه الأعداء، وكَسْر تداعيهم، وبناءِ الأمجاد من جديد.

٣ ـ دولة الخلافة والحكم الإسلامي ـ مع ما أصابه من انحرافات ومثالب ـ حصن متين ورباط وثيق يجمع المسلمين ويوحِّد جهودَهم ويرصُّ صفوفهم، ويحمي الإسلام وينفذ شرائعه، لذا حَرَصت كل قوى الأعداء المتداعية علينا على تهشيمه، وتآزرت على إسقاطه.

٤ ـ الوحدة العربية والإسلامية من ركائز الصمود والثبات في وجه الأعداء، والتفرق والاختلاف خنجر مسموم يَرْكُزه المتداعون علينا في كياننا.

٥ ـ السُّنَن لا تحابي أحداً، والذين يَستجمعون أخلاق النصر سوف ينتصرون، والذين يستجمعون أخلاق الهزيمة سوف ينهزمون، والأقدار التي تنزِل بصعود هذا أو هبوط ذاك؛ ليست حركات عابثة، إنها أقدارٌ تَزِنُ بدقة هائلة مسالكَ الأفراد والجماعات.

٦ ـ لا بد من العمل الجاد والجهد الدؤوب، والتضحية والجهاد والثبات في المواقع، وإحياء روح المقاومة ونصرة الدين وتحرير الشعوب والبلدان؛ فالصحابة ﭫ قد تنزلت عليهم البشريات وآمنوا بها إيماناً وثيقاً، لكن ذلك لم

يُقْعِدْهم عن العملِ الجاهد، وعن الجهاد المرّ، وعن البذلِ الدائم، حتى يتحقق وعد الله، فإنما يتحقق في الأرض وعدُ الله بهم لا بغيرهم، فهم أدواتُ القَدَر في تحقيق الوعد الإلـٰهي، بل هم القدر الموعود!.

٧ ـ يجب بناء الجيل الذي يستجمع أخلاق التضحية والفداء ونصرة الإسلام، ويتحلَّى بالربانية والإخلاص، ويتقن إدارة الصراع في المعركة، كما فعل يوسف بن تاشفين وعماد الدين زنكي وابنه نور الدين مثلاً.

٨ ـ العلماء والمفكّرون والدعاة والمصلحون لهم دور خطير في قيادة الجماهير وإصلاح الأمة وردِّ جَوْر الحكام، وتبصيرِ السواد الأعظم بعوامل النصر والهزيمة، مع التجرد في كل ذلك من حظوظ النفس والرغبة في الدنيا.

٩ ـ الثغرات التي ينفذ منها الأعداء في تداعيهم علينا كثيرة: حكام، طوائف، أحزاب، تربية، إعلام، نساء، غزو فكري... إلخ.

١٠ ـ أضعف نقطة في الكيان الإسلامي الكبير هي الحكومات، وهي الثغرة الكبرى التي نفذ منها الغزو الصليبي والتتاري قديماً، والصليبي واليهودي والشيوعي حديثاً.

١١ ـ الذين يخونون الأمة من حكام وأحزاب وطوائف ومفكّرين وساسة و... يذكّرهم التاريخ بالذم والتحقير، أما الصادقون المخلصون من حكام وقادة وعلماء وجماعات وهيئات.. فهم صفحات مشرقة مسطورة تضيء على مرِّ الزمان.

١٢ ـ تداعي الأمم علينا وغَلَبُهم لنا ليس صدفة عارضة أو معجزة خارقة أو قَدَراً قاهراً، كلا، بل جاء نتيجة متَّسِقةً مع مقدماتها كما يجيء حاصل الجمع أو باقي الطرح صحيحاً في حساب الأرقام.

١٣ ـ عند وَهْنِ الأمة وضَعْفها وإخلادها للدنيا وكراهيتها للتضحية والجهاد والفداء؛ تُعاقَب من جنس عملها، فَيُسلَّط عليها الأعداء، ويَسلبونها كثيراً مما في أيديها، من أنفس وثمرات وخيرات وأمان وعمران.

١٤ ـ قوى الصليبية المختلفة والمذاهب المتنافرة تتوحَّد ضدنا تحت راية المشروع الصليبي، وتتآزر ـ كذلك ـ مع اليهودية والوثنية وغيرهما ضد الإسلام وأهله.

١٥ ـ معركتنا مع الصليبية واليهودية والوثنية معركة وجود، ومعركة مصحف، قبل أن تكون معركة خيرات وثروات ومواقع استراتيجية.

١٦ ـ الأعداء التاريخيون لم يتغيَّروا، وإن اختلفت الأسماء وتغيَّرت الأساليب، فَقَلْبُ (بطرس الناسك) الذي كان يَنْبِض في تأجيج الحروب الصليبية القديمة، لا يزال يَخْفِق بين جوانح الصليبيين الجُدُد.

١٧ ـ كراهية الصليبيين واليهود والمشركين وغيرهم للمسلمين لا تزال تتقد جذوتها، وأحقادهم مستمرة عبر القرون والأجيال.

١٨ ـ يجب أن نعرف عدونا ونستقرئ أخباره ونستبطن أهدافه ومناهجه؛ لإعداد العدَّة المناسبة في المواجهة المحتومة.

١٩ ـ إن جلاء الأعداء بجيوشهم عن ديارنا لا يعني زوال خطرهم علينا، فهم قد خلَّفوا في بلادنا صنائعهم من بني جِلْدتنا، ينوبون عنهم في تنفيذ مشروعاتهم بصورة أنكى على الأمة وأخطر على دينها ومستقبلها.

٢٠ ـ مواقف الغرب القذرة من أمتنا يُفتضح أمرها بالتعاون سرّاً مع حكام متسلطين في بلادنا، وتظاهرهم في غيبة الحرية وسطوة القهر وشيوع الاستبداد.

٢١ ـ الأعداء ينحسرون عن بلادنا ويرتدُّون إلى بلادهم لا ليستريحوا، بل ليتأهَّبوا في كَرَّة جديدة تحت عناوين أخرى وأساليب مغايرة، والهدف هو تمويت الإسلام وانتهاب خيراته.

٢٢ ـ يدَّعي الأعداء في كثير من الأحيان أنهم يحملون إلى بلادنا الحرية والديمقراطية والعدالة، وجاؤوا ليحموا حقوق الإنسان، ويقضوا على الاستبداد، وينشروا الأمن في البلاد، ووقائع التاريخ تكذبهم في كل ذلك.

٢٣ ـ من أكبر أهداف تداعي الأمم علينا قديماً وحديثاً وأدُ الصحوة الشعبية

واليقظة الإسلامية، والقضاءُ على عوامل الثبات والبقاء والحياة في الأمة، ليسهل افتراسها.

٢٤ ـ الإسلام لا يزال وسيبقى حيّاً برغم ما كابد ويكابد من إهانات وجراحات، وبرغم ما قدَّم ويقدِّم من ضحايا وشهداء.

٢٥ ـ الحملات المتلاحقة والزحوف الفتّاكة والقتل الذريع، وما يحمله كل ذلك من آلام تنزل بالمسلمين؛ تَصْقُل معادنَهم مما أَزْرَى بهم، وتجعلهم أهلاً لكسب المعركة في كل مرحلة من مراحل التداعي، كما يشهد التاريخ بذلك. . والمسلمون الآن يُغالبون جراحهم الغائرة، ويستعيدون العافية، ويقاومون بِجَلد، ويتهيؤون لأداء رسالتهم الخالدة مرة أخرى، وسيكسبون المعركة الأخيرة إن شاء الله.

٢٦ ـ في كل مرة يحدث فيها تداعي الأمم علينا يُقيِّض الله للأمة من يجدِّد أمرها، ويجمع صفوفها، ويوحِّد كلمتها، ويقودها للنصر والانتصاف من أعدائها.

٢٧ ـ يجب دراسة عوامل النصر والهزيمة في تاريخنا، ولابد من أن نراجع أنفسنا وأحوالنا، وأن نحصي مغارمنا ومغانمنا، وأن نتفرَّس في ملامح خصومنا، ونتغلغل في طواياهم، حتى نبني دفاعنا المستقبل على ركائز قويمة. والأخطاء التي ارتكبها أسلافنا فسقطوا لا يجوز أن نقع فيها، والحِيل التي جرَّبها أعداؤنا فظفروا لا يجوز أن ننخدع بها.

٢٨ ـ في تاريخنا الطويل عبرٌ جليلة وموقِظات كبرى ينبغي التوقف عندها ودراستها، ويتوجب علينا أن ندرِّسها لأبنائنا، ونُدخِلها في مناهجنا الدراسية؛ لبناء جيلٍ يعلم ماضيه ويتبصِّر حاضره ويبني لمستقبله.

٢٩ ـ يبقى الشرق شرقاً إسلاميّاً مهما تكالب الأعداء عليه، ولقد تكسرت على صخرته العنيدة كل أمواج الأمم المتداعية عليه وهي تلحّ في إفنائه، فارتدَّتْ خاسئة كموجة البحر التي تلطم صخرة المحيط.

سيبقى الشرق شرقاً، ومن الشرق تشرق الشمس لتمدَّ الكون والناس بالحياة والعافية.

٩٠٩

إخبار النبي ﷺ بظهور المجدِّدين في كلِّ قرن

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يَبْعَثُ لهذهِ الأُمَّةِ على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَها دِينَها**»[(١)].

۞ ۞ ۞

أولاً: معاني ألفاظ الحديث:

«**إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة**»: أي أمة الإجابة.

«**على رأس كل مئة سنة**»: أي عند انتهاء مئة سنة، ويؤيده حديثُ ابن عمر عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**أَرَأَيْتَكُم لَيْلَتَكُم هذهِ؛ فإنَّ على رأسِ مئةِ سنةٍ منها لا يَبْقَى ممَّن هوَ على ظَهْرِ الأرض أحدٌ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)؛ والداني (٣٦٤)؛ وابن عدي في الكامل: ١/ ١١٤؛ والحاكم: ٤/ ٥٢٢؛ والخطيب في تاريخ بغداد: ٢/ ٦١ ـ ٦٢؛ والبيهقي في معرفة السنن والآثار، ص٥٢؛ والهروي في ذم الكلام (ق ١١١/ ٢). وصحَّحه الحافظ العراقي؛ وقال ابن حجر في (توالي التأسيس: ص٤٩): سنده قوي لثقة رجاله، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة، ص٢٠٣ حديث (٢٣٨): سنده صحيح؛ وصحَّحه الحاكم؛ وصحَّحه البيهقي في المدخل؛ وقال السيوطي: اتفق الحفاظ على تصحيحه؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على سنن أبي داود: ٦/ ٣٤٩؛ والألباني في عدة كتب: انظر: الصحيحة (٥٩٩)، وصحيح الجامع (١٨٧٤)؛ وعون المعبود: ٧/ ٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري (١١٦) وأطرافه؛ ومسلم (٢٥٣٧)؛ وأبو داود (٤٣٤٨)؛ والترمذي (٢٢٥١)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٤٠)، وغيرهم.

فالمرادُ من رأس كل مئة سنة آخرُ كل مئة.

وقال بعض العلماء: إنَّ قَيْدَ «**رأس كل مئة**» اتفاقي، وإن المراد أن الله تعالى يبعث في كل مئة، سواء كان في أول المئة أو وسطها أو آخرها؛ لأنه قد يكون في وسط المئة من المجدِّدين الأكابر مَن هو أفضل ممن اعتُبِر مجدِّداً على رأس المئة.

نقول: وهذا القول هو الأَوْلى بالصواب، والقول الأول تضييقٌ للنص وتحجيرٌ له، واختزالٌ للتجديد في الأمة بأعمال شخص واحد، أو عدد قليل من المجددين يكونون على رأس مئة سنة، وقد لا يكون لهم عشر معشار ما لغيرهم ممن توفي في أثناء المئة[١].

ولسوف يقف القارئ على برهان ذلك ناصعاً من خلال أسماء مَن سنذكرهم وننوِّه بأعمالهم، فلقد وجدنا بالاستقراء كثيراً من أكابر المجددين قد ماتوا في الربع الأول من المئة أو في وسطها؛ كالإمام أحمد بن حنبل وأبي الحسن الأشعري والغزالي وعماد الدين زنكي وابنه نور الدين وصلاح الدين الأيوبي وابن تيمية، وغيرهم كثير جدّاً، وهم أرفعُ ذِكراً وأعظمُ أثراً وأجلُّ أعمالاً بكثير من غيرهم الذين ذُكروا على رأس مئة سنة وأنهم مجددون!.

«**مَن يجدِّد**»: و«مَنْ» تشمل المفردَ والجماعةَ، وحصرُ المراد بالواحد بعد الواحد هو تحجير للنص، والأَولى حملُ الحديث على الجماعة القائمين بتجديد أمور الدين، فأمة لا يكون فيها إلا شخص مجدِّد واحد كل مئة سنة هي أمة ميتة[٢]!.

---

(١) انظر: عون المعبود: ٧/٣٥٦ ـ ٣٥٨؛ المجددون في الإسلام، ص٩.

(٢) انظر: توالي التأسيس، ص٤٩؛ إتحاف الجماعة: ١/٣٣٦؛ المبشِّرات بانتصار الإسلام، ص٣٨.

ثانياً: كلمة إجمالية حول معنى الحديث ومدلولاته:

•• حقائق الإسلام ومسيرة التاريخ والدورات الحضارية وأحوال الأمة وعوامل المَدّ والجَزْر وخصائص المجتمعات وكثرة التحديات وأسس الازدهار وأسباب الانهيار وتصارع الأفكار وامتداد رقعة الدولة، وغير ذلك من مقومات تماسك الأمة الإسلامية وارتفاعها أو تحلل عُراها وتقهقرها؛ لا يمكن لآحادِ المجدِّدين أن يتصفوا بجميع خصال الخير التي تؤهِّلهم أن يتملّكوا مفاتحَ الإصلاح ويهيمنوا على العوامل الكبرى والصغرى ويحيطوا بمجمل أركان التجديد، مهما أوتي ذلك الرجل الفَذُّ من القدرات والقوى، ولا يكون ذلك إلا للنبيين والمرسلين!.

والأمة التي اختيرت لتبليغ الرسالة السماوية الخاتمة إلى أهل الأرض، وكُتب لها الخلود والانتشار في الآفاق؛ (من الطبيعي أن تمرَّ في رحلتها الطويلة الواسعة بمراحل عصيبة ومواقف دقيقة لا عهدَ للتاريخ بها، وتُبتلى بعصورٍ وأجيالٍ لم تعرفها أمة قبلها، وأن تواجه صراعاً في ميدان العقول والعلم والحضارة والاجتماع والتشريع؛ لم تواجهها أمة في التاريخ).

والفترة التي عاشتها الأمة الإسلامية (هي أكثر الفترات التاريخية تقلُّباً وتطوُّراً، وأكثرها تنوعاً واختلافاً، ينشأ فيها من المشكلات والمسائل الدقيقة ما لم يَخْطُر من أمة على بال، ولم يحلم به جيل من الأجيال، ويُمتحن الذكاء وقوة التشريع، والثبات على المبدأ، والمحافظة على الروح، والصلاحية للحياة)[1].

فالسياسة المستبدَّة، والحكم الجائر، والترف المسرف، والأوضاع الفاسدة، والمجتمع الزائغ، والأخلاق المنحلَّة، والاستنامةُ إلى مَحقَّرات الأخلاق ودنايا الاهتمامات، والركون إلى الحياة الدنيا[2]، والتخلُّف عن ركب

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٩٠.

(٢) انظر: رجال الفكر والدعوة: ١/ ٩١.

التقدم، والخنوعُ الذليل للمستبدِّ الداخلي أو العدو الخارجي، والاستسلامُ إلى وقائع الأحوال، وغير ذلك من المفاسد التي تستلزم مِبْضَع المجدِّد العبقري؛ كل هذا لا يمكن للواحد بعد الواحد أن يُقِيمَ عِوَجَها، ويُصْلح فاسدَها، ويُرشِد ضالَّها، ويوقظَ نائمها، ليقودَ ركْبَ الأمة إلى معالي المجد والسيادة!.

ومن العبث أن نتحدَّث عن أن فرداً يصنع تاريخ الجماعة، أو حتى يغيّر مسار حركة التاريخ، ففي تصورنا أن الإنسان الفرد لا يمكن أن يصنع تاريخ أمة ما، أو أن يغير من اتجاه حركة التاريخ، مهما أوتي من مواهبَ عبقرية، أو خصالٍ قيادية، أو ميزات وسجايا غير عادية.

والعملية التاريخية والتغيير والتجديد هي عبارة عن مجموعة لا متناهية من الأفعال الجزئية لأعداد لا تُحْصَى من البشر في اتجاه واحد، لذا لا نستطيع أن نوافق على الرأي القائل بأن الإنسان الفرد يصنع التاريخ، ولكننا نزعم أن الإنسان بالمعنى الكلي والاجتماعي هو الذي يصنع أحداث التاريخ(١).

إن المجدِّد الفردَ الفذَّ يجدد في جانب واحد أو عدة جوانب، وهناك آخرون يكملون هذا التجديد في مجالات أخرى، ومواقع متممة.. ولسنا في هذا نلغي فكرة المجدد الفرد ولا نقلِّل من شأنها، بل نضعها في نِصابها، ونُصِرُّ على عدم تحجير مفهوم الحديث وتضييقه وحصرِ المراد به على فرد واحد في مئة سنة.

●● وكلمة «**مَن يجدِّد لها دينها**» هي للاستغراق والعموم لا لفرد واحد، أو فئة معينة، أو جماعة محددة، أو فريق فذ!.

والذي ذهب إليه طائفة من أئمتنا من أن مراد الحديث على عمومه(٢)، هو الصواب الذي لا يدانيه ريب، وقد عبَّر عن ذلك الحافظ الكبير ابن حجر بجملة

---

(١) المظفر قطز، ص١٦٢، ١٦٣.

(٢) من هؤلاء الأئمة: ابن الأثير في جامع الأصول: ١١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١؛ وابن كثير في البداية والنهاية: ٦/ ٢٥٦؛ والنهاية في الفتن والملاحم: ١/ ٣٩؛ وابن حجر في الفتح: ١٧/ ١٢٧؛ وتوالي التأسيس، ص٤٩.

مختصرة فقال: (لا يَلزمُ أن يكون في رأس كل مئة سنة واحدٌ فقط، فإن اجتماعَ الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يُدَّعَى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المئة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدّمه فيها، ومن ثمَّ أَطْلَق أحمد أنهم كانوا يَحملون الحديثَ عليه، وأما مَنْ جاء بعده فالشافعي وإنْ كان متصفاً بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائمَ بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المئة هو المراد سواء تعدَّد أم لا)[1].

والتجديد في كل مئة سنة يقوم به أفرادٌ أكابر وجماعاتٌ وفئاتٌ وطوائف من أصناف شتى وتخصصات متنوعة، وفي مقدمتهم ولاةُ الأمر الذين يكْثُر النفع بهم وَيعمُّ التجديدُ الأمةَ جميعَها، ويَنتظمُ كذلك الساسةَ وأعوان الحاكم أو الخليفة، وقادةَ الفتوحات، ورؤوسَ المجاهدين، وأعيانَ المحدِّثين والمفسِّرين والفقهاء واللغويين، وأكابر الزهَّاد والمصلحين الربانيين، وطوائفَ المفكّرين والدعاة والكتّاب والإعلاميين، وغيرَ هؤلاء ممن زخرتْ بهم أمتنا على مدار تاريخها، والذين حملوا لواء التجديد وشرفوا بالفوز بتحقيق تلك النبوءة الجليلة، ليؤدي كلٌّ دورَه في المجال الذي برز فيه، فينفون عن هذا الدين تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطِلين وتأويلَ الجاهلين.

●● والإسلام دينٌ حيٌّ، ورسالةٌ خالدةٌ، إنه حيٌّ كالحياة نفسها، وخالدٌ كخلودِ الحقائق الطبيعية ونواميس الحياة، إنه تقدير العزيز العليم، وصنعُ الله الذي أتقن كل شيء، وقد ظَهر في شكله النهائي وطوره الكامل، وأُعلن يوم عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. . فهو يجمع بين الكمال الذي لا انتظارَ بعده لدين آخر، ولا حاجةَ معه إلى رسالة جديدة، وبين الحيوية التي لا نفادَ لها، والنشاط الذي لا آخرَ

---

(١) الفتح: ١٧/ ١٢٧ شرح الحديثين (٧٣١١ ـ ٧٣١٢).

له.. ولذلك استطاع أن يُساير الحياة ويراقبها في وقت واحد، ويتابعها في صلاحها واستقامتها، ويُنكِر عليها في انحرافها وزَيْفها، فلا هو مسايرٌ مائع ككثير من الأديان المحرَّفة، ولا هو مراقبٌ جامدٌ ككثير من الفلسفاتِ النظرية، وذلك مَثَلُ الدين الكامل ومَثَل الدين الحي للإنسان الحي، الذي يَشعر بشعوره، ويَعترف بحاجاته، ويُرشِدُه في مشكلاته، ويُعارِضه في اتجاهاته الفاسدة[١].

إن هذه الأمة لم تَعْدَم في عصر من عصورها مجدِّدين في الدين، وأئمةً في العلم، وعماليقَ في الفكر، وأبطالاً في الجهاد، وأعلاماً في الإصلاح، لا يوجد نظيرهم في أمة من الأمم... إنها طبيعةُ هذا الدين وقدرتُه العجيبة على الإنتاج والتوليد، وطبيعة هذه الأمة وصلاحيتها للبعث الجديد. وهو لطفُ الله بهذه الأمة، بل بالإنسانية؛ إذ لو ضاعت هذه الأمة لضاعت أمانةُ السماء: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩][٢].

●● ومن الحقائق التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتجديد متَّصلٌ في الإسلام، والمتقصِّي لهذا التاريخ لا يرى ثَغرةً ولا ثُلْمةً في جهود الإصلاح والتجديد، ولا فترةً لم يظهر فيها مَنْ يُعارضُ التيارَ المنحرفَ، ويكافحُ الفسادَ الشاملَ، ويرفع صوتَ الحقِّ، ويتحدَّى القوى الظالمة، أو عناصر الفساد، ويفتح نوافذَ جديدة في التفكير.

والدارسُ لهذا التاريخ والمتتبِّع لحوادثه وشخصياته، لا يَعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي، وخَبَتْ مصابيحُ الإصلاح، وخَفَتَتْ أصواتُ الحق، ومات الضمير الإسلامي، وتبلَّدَ الشعور، وأضربَ الفكر الإسلامي عن العمل[٣]!.

والمجدِّد سواء كان فرداً أو جماعة أو طائفة أو هيئة أو مؤسسة أو حزباً؛ قد

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٩٢، بتصرف.

(٣) المرجع السابق: ١/١٠١.

ينحصر تجديدُه في جانب واحد من مناحي التجديد أو أكثر، ولربما وُجد في قُطر صغير أو كبير، أو يَعمّ تجديده أقطاراً عدة، ويشمل رقعة واسعة من ديار الإسلام.. وثَمَّة مجدِّدون جمعوا بين أنواع كثيرة من التجديد، كما حصل من عمر بن عبد العزيز، ونور الدين الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، وأمثالهم من منارات الهدى وأكابر المجددين الذين تجلَّى فيهم مفهوم (حديث التجديد) في أبهى صوره وأكثر ملامحه.

ثالثاً: صفات المجدد وأسس وصفه بالتجديد:

المجددون المصلحون هم خلفاءُ النبي ﷺ في الإصلاح والبيان والبلاغ والدعوة وسياسة أمور الدين والدنيا، إذ إنَّ مهمة الهداية والإرشاد الجليلة التي قام بها خاتَمُ النبيين محمد ﷺ على أتمِّ وجه وأكملِه؛ قد أُلقيت على عاتق أمته عموماً وعلى كاهل المجددين خصوصاً، أولئك الرَّهْط الكريم الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان(١).

ورجالٌ بهذه المكانة والواجب الذي أُنيط بهم حقيقون بأن يكونوا متجمِّلين بأكرم الخصال وأرفعِ الخِلَال وأعظمِ الأعمال. ولا شك بأن (الزمان والبيئة عاملان هامان في حياة الرجال، فلكلِّ عصر مشكلات ومسائل، وملابسات وعوائق، قد تحدِّد نطاقَ العمل، وقد تفرض منهجاً دون منهج، وأسلوباً دون أسلوب، والغاية واحدة)(٢).

ويمكننا باستقراء مسيرة تاريخنا الطويل، وبالتأمل في سِير أولئك الرجال الذين تناغَمتْ أعمالُهم وجهودهم الجبّارة في الحفاظ على بنيان الإسلام وكيان الأمة والتجديد لها ـ أن نَسْتَكْنِه جملةً وافرة من الصفاتِ التي تتجلى في حياة أولئك السادة، بتفاوتٍ بين هذا وذاك في الاتصاف بها، وبمقدار تكاملها في أحدهم يكون نصيبُه في التجديد أعلى واسمُه في التاريخ أشهرَ وأثره فيه أكبر.

---

(١) انظر: رجال الفكر والدعوة: ١/ ٩٤.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٠٤.

١ ـ صلاح الباطن وعلو الهمة:

فَهُم عبادٌ أنار الله تعالى قلوبهم وأضاء بصائرهم، وصفهم في قرآنه بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

إنهم يضيؤون جوانبَ ليلهم بالعبادة والتهجد، مقتدين بإمام العابدين ﷺ، ساهرين على صلاح أنفسهم، فمن لم تزكُ نفسه إلى مدارج الكمال لن يستطيع أن يصلح أهله فضلاً عن أمته.

إن العاملين لله سبحانه يبدؤون الطريق من إصلاح أنفسهم وما حولهم، فإذا أصبح الإصلاح مَلَكةً فيهم وسجيَّة لا تنفصل؛ مكَّنَ الله لهم، فأصلحوا الأرض لأنهم لا يستطيعون إلا هذا الإصلاح الذي عاشوا به وعاشوا له[(١)].

٢ ـ الصبر والثبات والثقة بما هو عليه:

فعلى المجددين الثباتُ في مواقفهم وإن تجهَّمَتْ لهم الدنيا وغاب عنهم النصر باديَ الأمر، والصبرُ على لأواء الطريق ومصاعب الكفاح، والثقةُ بأن المستقبل لمبادئهم على أية حال؛ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

وابن تيمية لمَّا حرَّض السلطانَ محمد بن قلاوون على القتال في المعركة الحاسمة مع التتار في (٢ رمضان عام ٧٠٢هـ)، وبشَّره بالنصر، جعلَ يحلِفُ بالله الذي لا إلـٰه إلا هو أن المسلمين منصورون على التتار في هذه الكَرَّةَ! ولمَّا قال له الأمراء: قل: (إن شاء الله)! أجابهم: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً! ونحن مظلومون والمظلوم منصور، ومن ﴿بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الحج: ٦٠]، ولذلك فإن النصر مؤكد، والفتح قريب، وإن وعد الله كان مفعولاً[(٢)].

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص٥٤؛ جهاد الدعوة، ص١١٨.

(٢) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٤٠.

٣ ـ عزة النفس وحُسن التوكل على الله:

فالسموُّ الخُلُقي وعزة النفس وشموخُ الأنف والتوكلُ على الله سبحانه، من أهم صفات المجدد المصلح، والتأبّي على الانكسار والاسترخاء والضعف النفسي أمام أي قوة، سواء كان سلطاناً أم هيئة كبرى أم عدوّاً خارجيّاً أو داخليّاً! فمحالٌ على مَن يكون مهزوماً في نفسه أن يَثبت في وجه الأعاصير والتحديات، أو يُصلح المفاسد، ويغيِّر المنكرات، ويجدِّد الحياة في الغافلين والأموات.

٤ ـ الشجاعة والإقدام مع حُسن التدبير:

والناظر في النواحي التجديدية عند الجم الغَفير من المجددين يلحظ تمثُّلَ هؤلاء بالشجاعة الباهرة، والجرأة الأدبية، والإقدام بلا تهيُّب، وحسنِ ريادة العقبات، والإحسان في تفكيك المعتاص من المشكِلات.

ولقد وصف المؤرِّخون السلطانَ المظفر سيف الدين قطز ـ وهو مثال لكثيرين في تاريخنا ـ بأنه كان (بطلاً شجاعاً، مقداماً حازماً، حسنَ التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار)[1].

٥ ـ التجرد عن مطامع الدنيا والاستغناء عن عطاء ذوي الجاه والسلطان:

وهذا خلقٌ عالٍ من أخلاق الإسلام يجب على كل مجدد أن يترسَّم خطاه فعلاً لا قولاً، وحقيقةً لا ادِّعاءً، فالاصطراعُ على حطام الدنيا، والركونُ إلى هِبات الحكام، والجلوسُ على موائد السلطان؛ يَعصفُ بهيبة الرجال، ويَكسر نفوسهم عن معالجة الخطايا والطغيان، ومَن حام حول هذه المُهْلِكة وقع في شِراكها، وخَمَشته أظفارُها، وقَعَدتْ به عن معالي الأمور.

٦ ـ أخلاق عالية جاذبة:

وهي الأخلاق التي تمثَّلها رسول الله ﷺ، وصَنَع بها أصحابه العظام،

---

(١) المظفرّ قطز، ص١٦٥.

وشَدَّهم إليه بجاذبية معنوية باهرة، كتلك الجاذبية المادية التي تربط الشمس بكواكبها[(١)]!.

فالمجدد ينبغي أن يتجمَّل ظاهراً وباطناً بالرأفة والرحمة والتواضع والبِشْر واليُسْر والأناة والحِلْم وغيرها من مكارم الأخلاق؛ ليكون أُنْموذجاً جذاباً يدعو إلى مبادئه بلسانه وهَدْيه، وقوله وفعله، ومَنْطقه وسَمْتِه.

٧ ـ العلم التام بحقائق الإسلام وركائزه وعوامل القوة فيه والاستمداد منه:

فهذا الدين هو أقوى العوامل في إيجاد وتكوين هؤلاء المجددين في كل عصر ومِصْر؛ لأنه يُثير في أتباعه ودارسيه كوامنَ القوة، ويبعثُ فيهم الثورة والتمرُّد على الأوضاع الفاسدة، والأخلاق المنحلَّة، والسياسة المستبدَّة.. ويَهَبُهم كذلك الأصولَ والنصوصَ المتينة الحكيمة، التي يحلُّون في ضوئها المشكلاتِ الطريفة والمسائل المعقدة[(٢)].

٨ ـ المعرفة التامة بتاريخ الأمة والعالم من حوله، والاعتبار بتقلبات الأمم والجماعات والرجال:

وهذه المعرفة الشمولية لها أثر عميق في صَوْغ العقل ونَفْعِه بتجارب لا حصرَ لها، فالحاضر هو امتدادٌ لماضٍ بعيد ومِهاد للمستقبل المرتقَب، وعلى المجددين المصلحين أن يلتمسوا العبرة مما مضى ليصونوا يَومهم وغَدَهم.. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

فالذي لا يعرف الروحَ الصليبية التي تجري في دماء المستعمرين الغربيين القدامى ويستمر تدفّقُها في أفئدة أحفادهم؛ سوف يخطئ كثيراً في ترتيب الأدوية الناجعة للأمراض المنتشرة في الأمة!.

(١) انظر: علل وأدوية، ص١٤٣.
(٢) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٩١، بتصرف.

ومن لا يعرف أخطاءنا وخطايانا، لن يستطيع أن يمحو صفحات مظلمة ليسطِّر مكانها صفحات مضيئة.

إنه لا بدَّ للمجدِّد من أن يستقرئ التاريخ ويُحصي مغارمنا ومغانمنا، وأن يتفرَّس في ملامح خصومنا ويتغلغل في طواياهم، حتى يبني دفاعه المستقبل على ركائز قويمة[١].

٩ ـ الفهم العميق والشمولي المتوازن للإسلام والبراعة في عرضه والدعوة إليه وترتيب الأولويات:

فمن الأهمية بمكان أن يحيط الداعية المجدد بدينه، ويمتلك بصيرة نافذة في أعماق مبادئه وأسسه وكلياته، ويرتِّب الأولويات الكبرى، ويُتقن فهمَ سياسة الحكم والمال، ولا يَشغل الناسَ بقضايا نظرية عَفَى عليها الزمن، أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزِّق الأهل[٢].

إن المجددين أناسٌ اختارهم قدر الله، لهم قرائح يفهمون بها كلمات الله تعالىٰ وتتلاقى بصائرهم مع أشعة الوحي، فيفهمون الأمور على وجهها الصحيح، وينقلون الأمة الإسلامية من المنحدر الذي هوت إليه إلى القمة التي أنزلت عنها طوعاً أو كرهاً[٣].

١٠ ـ وضوح الهدف والغاية وبراعة استغلال الفرص وتوظيف الطاقات:

فالمجدد الألمعي قد وضع هدفه بين عينيه، وحدَّد غاياته من دعوته، وسعى بدأبٍ لا يَعرف الفُتور، واجتهادٍ لا يَعتوره كَلالٌ، يَهتبلُ أي سانحة ويقتنصُ كل فرصة، ويَسبُر طاقات من حوله ويؤلِّف بينها ويَشحذها من قواه العقلية والروحية، ويجيِّشُها لتتلاحم قواها مع جذوة فؤاده، لتنتشر كالريح الرُّخاء يسوق الغيث فيُنبت الخير في العباد والبلاد.

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص٥٠، ١١٢، ٢٨٩؛ كفاح دين، ص٩٦.

(٢) هموم داعية، ص٥٦.

(٣) جهاد الدعوة، ص١٧٩.

١١ ـ الوعي اليقظ والبصيرة النافذة للظروف الداخلية والمحيطة وما يحيق بالإسلام وأهله:

فالأمة التي تحتاج إلى جهود المجددين فيها أمراض وأخطاء ومثالبُ وانحرافات وتيارات واتجاهات، ويتربَّص بها أعداء أشداء يحيكون الخُطط ويُبرمون المؤامرات، ويعدُّون العُدد المادية والأدبية. . . وكل ذلك يَفرِض على المجددين العلمَ التامَّ والبصيرة النافذة لوضعِ البرامج المُصْلِحة والخُطط المُنقذة والعلاجات الناجعة والدفاعات المطلوبة.

١٢ ـ الجمع بين علوم الدين والدنيا، وحاضر الأمة وما يراد منها ولها:

إن الإحاطة بالعلوم الإسلامية الأصيلة واجبٌ إسلامي أول، على المجددين الاضطلاعُ به وإتقانُه، كما أن دراسة العلوم الحديثة واجبٌ إسلامي ثانٍ، وإنَّ أي عقلٍ نظيفٍ يدرك أن هذه الدراسة امتدادٌ محتوم لحديث القرآن الكريم عن الكون، وأن نتائج الجهود العقلية الذكية دعمٌ للإيمان الصحيح، ودَفْعٌ للإلحاد.

ودراسة هذه العلوم أولى وأوجبُ من الخوض في تفاصيل وخلافات فقهية وبحوث لاهوتية وجَدَل كلامي، لو خاض فيه سلفُنا الأول ما قامت لهم دولة ولا شمخت لهم حضارة[١].

١٣ ـ الاستجابة لتحديات العصر:

ومن مزايا التجديد والإصلاح الاستجابةُ للتحديات ومقارعةُ الحجة بالحجة الظاهرة والبرهان الدامغ، يستوي في ذلك التحديات الخارجية في عصر الثورة العقلية أو العلمية أو (العولمة)، لردِّ جوائح الثقافة الوافدة من أوروبة وسواها، واستنقاذِ من يمشي في رِكابها، وكذلك التحديات الداخلية من فِكَر ونظريات وبدَع وشبهات، وكفكفة جماح الاضطراب الفكري والعقائدي والسلوكي الذي يصاحب ذلك كله[٢].

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص١١٣.

(٢) انظر: رجال الفكر والدعوة: ١/٤٧، ٦٩.

١٤ ـ المعايشة التامة المستمرة لهموم الدين والأمة:

فالإسلام وأمة المسلمين وبلادهم كلها يجب أن تكون في قلب المجدد وروحه وعقله وحواسه وخطرات نفسه؛ وهي شغله الشاغل حيث ولى وجهه في آسية أو إفريقية أو أوروبة وسواها من بلاد الدنيا، فتكاد نفسه تتساقط وهو يعمل ويجد ويجتهد ويكافح الذل والجهل والذهول والتفرق وغيرها من العلل التي تأكل كيان الأمة؛ لاستعادة الحضارة الغاربة وإنعاش الأمة المسكينة.

كان الشيخ محمد رشيد رضا إذا أصبح مكتئبَ النفس مقطِّبَ الجبين، قالت له أمه: ما لي أراك حزيناً؟! هل حدث شيء لمسلم في الصين؟!.

لقد كان الرجل مهموماً بأمور المسلمين كلهم[١].

ويذكر الشيخ محمد الغزالي أنه عانَقَ الإمامَ الشهيد حسن البنا يوماً، فإذا به يُعانِق هيكلاً عظميّاً قد قام به إنسان فذٌّ! فلقد أذابتْ همومُ أمته لحمه وشحمه!.

١٥ ـ الوفاء لرسالة الإسلام:

فمهما لاقى المجدد المصلح من مخاطر وعقبات ومحن وابتلاءات، ومهما قدَّم من تضحيات دونها العافية والمال وراحة البال، والصدّ والتخذيل والتشويه والتنكيل ـ يبقى ثابتاً على دعوته وفيّاً لدينه منافحاً لإعزاز رسالته واستنقاذ أمته من براثن جميع الأعداء الذين يبغون لها الهوان والأُفول.

فهو مع التجهُّم الذي يُقابَل به من السلطان وذويه والرَّعَاع، والمكايد التي تدبَّر له من الحاقدين والحَسَدة، يبقى على وفائه لدينه وانتصافِه لأمته، وجراءته على العِدَى وتحمُّلِه للآلام:

كذا أنا يا دنيا، فإنْ شئتِ فاذْهَبي ... ويا نفسُ زيدي في كَرائهِها قُدْما
فلا عَبَرَتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني ... ولا صَحِبَتْني مُهجةٌ تقبلُ الظُّلْما[٢]

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص١٠٤، ٢٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٨.

١٦ ـ الإصلاح من المنبع وعدم الخروج على الأصول:

فالمصلحون الكبار يترفعون عمَّا يشغل العامة وأشباهَهم من قضايا، وهم يتجهون إلى الإصلاح من المنبع لا من المصب!.

إنهم ينظرون في أحوال المسلمين على اختلاف العصور، فيعرفون الداءَ ويُشخِّصون الدواء ويبدؤون العمل، الذي يقوم أساسه وأركانه على منهج القرآن الكريم، والانطلاق من الكتاب والسنَّة ومنهج الصحابة ومن سار على هديهم من الصالحين.

يَحْدُوهم في ذلك كمالُ الاتباع للسنَّة، والحب العميق لصاحب الرسالة ﷺ، والزاد الروحي، والطاقة الإيمانية الجياشة(١).

ومن الخطأ الفادح ما يرتكبه البعض من ليِّ أعناقِ النصوص والانحرافِ في فَهْم (التجديد)، الذي يؤدي إلى تعطيل بعض الأحكام أو إخراجها عن المقاصد الشرعية، بدعوى تغيُّر الأزمان أو عدمِ مناسبتها لروح العصر! فهذا ليس بتجديد بل تمزيق!.

١٧ ـ الحرص على الوحدة الجامعة ووحدة الكلمة:

فالمجدد العبقري يجمع بين القلوب، ويؤلِّف بين الجهود، ويرصُّ الصفوف، ويوحِّد بين الاتجاهات والنشاطات التي تريد خدمة الإسلام، ويزيل الوحشة وما يثير الخلاف ويبدِّد الطاقات ويُنافِر بين الأرواح.

ويزرع في العقول والأفئدة روحَ التسامح والإعذار والتعالي عن الخلافات والتشرذم، ويؤلِّف من الجميع صفّاً واحداً متسانداً لتقوية الأمة واستنقاذها من مخاطر الشِّقاق، للصمود في وجه التحديات.

إن على المجددين الإسراعَ في جمع القوى وسدّ الثغرات، وحشد كل شيء لاستنقاذ وجود الأمة ودينها وبلادها.

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص١١١؛ رجال الفكر والدعوة: ١/ ٤٣.

١٨ ـ رحابة الصدر وسعة الأفق:

ثم إنَّ الحرص على وحدةِ الكلمة ورصِّ الصفوف تقتضي من المجدد صدراً رحباً للإنصات إلى مختلف الآراء ووجهات النظر، واستيعابَ جميع الاجتهادات الصادقة، وصَهْرَها في بوتقة من الانسجام العام الذي تترقرق ذراتُه في مجرى واحد لتحقيق الغاية المطلوبة.

وينبغي أن يؤصِّل ذلك في أعوانه وحوارييه، وعقول الخاصة وقلوب العامة؛ لتستمكنَ في أفئدة الجميع آدابُ الاختلاف التي تهدف إلى إخصاب التجارب وتلاقح العقولِ، لا إلى تناكُر الألباب وتنافرِ القلوب، فلطالما كان التعصّبُ وضيقُ العَطَن مزلقاً خطراً هوى فيه الكثيرون في القديم والحديث!.

١٩ ـ الشمول في دعوة التجديد:

إن عالمية الإسلام تفرِض على المجدِّد أن ينساحَ بين الناس ويغشَى مجامعَهم الشعبية والرسمية، وأنْ يوصِل الإسلامَ إلى الحكام ويُسدي النصح لهم، ويعرِّفهم أنهم أُجَراء للشعوب ومُلزَمون بالشورى. كما يحاول جاهداً استحياءَ الأمة الهامدة، وتبديدَ الخمول العلمي والخُلقي الذي رانَ عليها، وألغى وجودَها الأدبي والعلمي في السباق العالمي.

كما يجب عليه أن ينظر إلى العالم الإسلامي كله على أنه وحدة، ودعوته تشمل المشرقي والمغربي، كما تنتظِم العربي والأعجمي.

وأن يبثَّ العزة الإسلامية على أساس العقيدة الدينية الصحيحة، ويجتهد في توثيقِ الصِّلات بين الشعوب الإسلامية كلها لتتعاون على دَفْع الأجنبي عنها، والتخلُّصِ من المستبدِّين الظالمين من أهلها، وتأسيس الحياة الاجتماعية والسياسية على أصول الإسلام الأولى: من إعداد للسلاح، ومقابلة القوة بالقوة، وطرح العقائد الدخيلة التي تدعو إلى الاستسلام؛ مثل رمي العبء كله على القضاء والقدَر[1]!.

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص١١٢، ١٢١؛ معركة المصحف، ص١٢.

٢٠ ـ الرفق واللِّين والترفع عن حظوظ النفس:

وإيقاظُ الأمة من غفلتها، وإحياءُ ما مات فيها، وتجديدُ ما بَلِيَ من أمورها، واستحياءُ حضارتها؛ يتطلَّب إماماً حكيماً يُؤْنِس الناسَ بالله ويعدُّهم للقائه، ويُلقي على أفئدتهم رُواءً طهوراً يَغسِل أدرانَهم ويَصقُل قلوبهم.

ذلكمُ المجدِّد الذي يفتح أقفالَ القلوب، وينقذُ التائهين الحيارى، ويعالج الأخطاء بالرفق، ويَلقى الأحقاد بالعفو، ويحبِّب الناس في الإسلام، وتقرّ عينه برؤيتهم يدخلون فيه وينصرونه أفراداً أو أفواجاً[١].

إنه رحمةٌ مهداةٌ، وطبيبٌ آسٍ، وأبٌ حنون، يَنفح الناس من ضياء فكره ونبضات قلبه وإشراقات روحه، لا قاضياً يوزِّع الاتهام ويُبرم الأحكام، ولا محارباً في ميدان يقول للناس: صبَّحَكُم ومسَّاكم!.

٢١ ـ الحكمة في الدعوة والبلاغ:

والمجدِّد داعٍ حكيم، وهادٍ خِرِّيت، ورائد لبيب، والرائد لا يَخُون أهلَه! يُصلح بحكمة، وينقذ بعفَّة، ويوجِّه بأدب، وينبِّه على الأخطاء والخطايا بالعموم، فلا يَخصُّ ولا يُجرِّح، ولا يُشنِّع ولا يُعنِّف! يستألِفُ القلوب، ويستهدي النفوس، ويُقْنِع العقول بحجة رفيعة وأدبٍ جَمٍّ، (قد استدرج النبوَّة بين جنبيه؛ ففي فمه شعاعٌ ينطق بالحكمة، وفي ضميره روح يُلهم الصواب)[٢].

والله ﷻ خاطب نبيَّه ﷺ، مظهِراً لنعمته عليه ومُشيداً بتمثُّله ﷺ بها، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وسيرتُه ﷺ ترجمة تامة لهذا المعنى الجليل.

وعلى هديه سار المصلحون المجددون الذين تركوا في الأمة آثاراً لا يمحوها تعاقب الليل والنهار.

---

(١) انظر: اليهود المعتدون، ص٢٣٢؛ علل وأدوية، ص١٤١.

(٢) اليهود المعتدون، ص٢٣٢.

٢٢ ـ المقدرة على تقديم الإسلام الصحيح المتكامل للعامة والخاصة:

فالإسلام جاء للعالمين، ولصياغة أنفس الخاصة والعامة، والمتعلم والأميِّ والمستبحرِ من العلم والمُقِلِّ منه، فلا يَصحّ أن تقلَّ حظوظُ الجمهور من المعارف الإسلامية العميقة التي تتجدَّد بها أمور الأمة.

والمجدد البارع هو الذي يوسع آفاق الثقافة والعلوم؛ ويزيل من أمامها العوائق وييسِّرها للجميع، ويقرِّب من جماهير المسلمين ألواناً من العلم حُرموا منها، وينبغي أن تكون بينهم شائعة متداولة، فالتعليم الرَّحبُ الممدود أفضلُ طريق لخدمة الإسلام وإعزاز أمته[١].

هذه جملة أمور وصفات اجتهدنا في تأصيلها وتعدادها، ينبغي للمجدد ـ فيما نحسب ـ أن يتحلَّى بها ويسعى لتحقيقها؛ ليكون بحقٍّ من هذه الفئة المباركة في الأمة، التي نالت تزكية رسول الله ﷺ، مع ما ينتظرها من جميل الثواب عند الله رب العالمين.

وقد يَكثُر نصيبُ المجدِّد من هذه الصفات أو يَقلّ، فالمُقِلّ منها يكون مجدداً محليّاً محدوداً، والمستكثِر أو الشمولي يرتقي إلى منزلة المجدد العالمي العام.. والله سبحانه يؤتي فضله من يشاء.

رابعاً: ميادين التجديد ومجالاته:

١ ـ الانتماء النظري والعملي للإسلام:

الانتماء النظري للإسلام لا يكفي، ولابدّ من الارتقاء إلى مستوى الدين في جميع المجالات العلمية والعملية، وأن يعود الولاء للإسلام ويَستعلن الانتماء إليه في كيان الدولة وروح الشعوب، وعدم الالتحاق بأي جهة أخرى في الشرق أو الغرب، أو الارتباط روحيّاً ومنهجيّاً بالاشتراكية أو الماركسية أو الصليبية...

(١) ليس من الإسلام، ص٦.

ويجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرنا وشرائعنا، والاحتكام إلى قوانين الإسلام الكبرى والصغرى.

والانحراف عن ذلك والتفريط فيه قليلاً أو كثيراً يتطلَّب جهودَ المجددين لتعيد الأمور إلى مواضعها الصحيحة.

٢ ـ إعادة الاحترام للإسلام الذي يتسلّى الأَوغاد باللَّغَط عليه والنَّيْل منه:

يجب ردُّ الاعتبار إلى هذا الدين الذي يُهان في فترات عدة ومواقع شتى، والاعتمادُ عليه في شؤون الحياة العامة، وتوفير القداسة لنصوصه وتعاليمه، وعودة المكانة الجليَّة له في نفوس أتباعه، وهيمنته على تقاليد المجتمع في البيت والمدرسة والشارع والحياة الخاصة والمؤسسات العامة.

٣ ـ عودة الإسلام إلى المعركة مع الأعداء:

وفي مواجهة الأمة للتحديات وكيدِ الأعداء والحملات المتلاحقة على الإسلام وأهله وخيراته وبلاده، يعمد الاستعمار وصنائعه إلى عزل الإسلام عن المعركة، وإنشاء أنظمة في البلاد العربية والإسلامية تتنكَّر لكتاب الله تعالى وسنَّة رسول الله ﷺ، وترفَعُ شعارات أخرى، وتخوضُ معاركَ خاسرة مع حملة التوراة والإنجيل وغيرهم من أصحاب العقائد الأخرى.

٤ ـ إصلاح أُطرُ النظام الإسلامي:

وأمتنا الإسلامية قد مرَّت بها عهود من التخلف الحضاري، وفقدت أسباب التمكين، فأصبحت نَهْباً للأمراض الداخلية والأطماع الخارجية، وتهاوت تحت ضربات المُغيرين الذين كبَّلوها بالقيود وأرهقوها بالإذلال، وهي في هذا العصر على أردأ حال، ويقتضي ذلك التجديدَ على أصعدة شتى: في الإطار السياسي، والاقتصادي، والتربوي، والاجتماعي، والقضائي، والعسكري، والتضامن الإسلامي[١].

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة ١٩٦ ـ ٢٠١؛ هموم داعية، ص١٣٤ ـ ١٦١؛ مفهوم التجديد، ص٣٠ ـ ٣١.

٥ ـ اقتران وتمازج الحكم والدولة بالشعب والأمة على أساس إسلامي:

فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، والدولة والشعب، قد اعتورها كثير من الخلل والشطط عن هدي الإسلام وتعاليمه في فترات عديدة من تاريخنا الطويل وبخاصة في هذا العصر.

وعلى المجددين تكريسُ الجهود من أجل تطبيق مبادئ الإسلام وفرض أحكام الشريعة التي تنتظم الجميع، وتنظم العلاقة بين الراعي والرعية.

فالحكومةُ جسمٌ روحه الشعب، وفي أقطار الدنيا ترى الروح والجسم مقترنَيْن في كيان الدولة وكأنهما قلب وقالب.. أما في كثير من أجزاء أمتنا المترامية الأطراف، فالحكم جسدٌ بلا روح، لأن ولاء الشعب للإسلام واتجاه بعض الحكومات إلى قبلة أخرى.

والتجديد في هذا المجال شاق وصعب، يقتضي إقامةَ قيادة إسلامية واعية ليست قائمة عن طريق القهر والإكراه، بل قيادة تجتمع عليها قلوبُ المسلمين، وتطمئن إليها، وتثق بها، وهذه القيادة الرشيدة والملتزمة قولاً وعملاً بمبادئ الإسلام تُعتبر مسؤولةً مسؤوليةً كاملة أمام الله والأمة جميعاً[(١)].

٦ ـ الاستبداد والظلم:

ولقد أُصيب الإسلام والمسلمون في مقاتل من استبداد الحاكمين باسم الإسلام والأمة والشعوب! وحَكمتْ بلادَنا الوثنيةُ السياسية التي كانت حرباً على الله وحرباً على الناس، والخلاصُ منها شيء لا مفرَّ منه لصلاح الدنيا والآخرة.

والحكم الاستبدادي والظلم الذي استشرى في بلاد المسلمين من أعلى المستويات إلى أدناها، وفي الشؤون العامة والخاصة، هذا الاستبداد والظلم هو تهديمٌ للدين، وتخريبٌ للدنيا، وبلاءٌ يصيب الإيمان والعمران جميعاً.

---

(١) هموم داعية، ص٩٨؛ الإسلام والطاقات المعطّلة، ص٢٠٦.

والإصلاح والتجديد في هذا الميدان يجب أن تترادف عليه قوى المجددين، وتتعاون جهودهم، لهتك ظلماته السود وعقابيله المروِّعة!.

٧ ـ نكسات عقائدية وفكرية:

وطرأتْ على أمتنا مع بدايات عصر الترجمة في القرن الثاني الهجري لوثاتٌ عقائدية أُقحِمت على الحياة الإسلامية، وعكَّرت صفوَ العقائد بالفكر الأجنبي وبضروبِ الجدل التي أزْجَى بها المتبطِّلون أوقات الفراغ.

ودخلت علينا الفلسفة والمنطق اليونانيان ونشأ علمُ الكلام، وخاض المسلمون في جدال طويل مظلم، وبحثوا في الإلٰهيات والصفات والذات، فكان ذلك حقنةً مسمومة لتراثنا العقائدي الإسلامي النظيف، واعتلَّت العقائد الإسلامية حيناً، وغامَ وجهها، وتحوَّلت كُتُبها إلى صور ذهنية، ومهاجمات كلامية عنيفة، إثر ذلك الاختلاط بالفلسفات الأجنبية.

وتوالت الهجومات على عقائدنا وأفكارنا، واجتاحت ديارَنا وغَزَتْ عقولَ أمتنا الأفكارُ الغربية والفلسفات المادية وفتنُ الإشراق الصوفي والباطنية، وحاولت النَّيْلَ من عظمة النبوة والرسالة المحمدية.

ولولا ما في عقائدنا من أصالةٍ ومَنَعة لَذَوَتْ وانقضَتْ كما تلاشَتْ ديانات سابقة، فأكرم الله الأمة بالمجددين الذين نَفَوا عن العقيدة تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين[١].

٨ ـ مظاهر الشرك وتقاليد الجاهلية:

ويوجد ذلك في فترات قليلة ومواقع متعددة من بلادنا الإسلامية، حيث تسودُ مظاهرُ الشرك والتقاليد والطقوس الجاهلية، والاستغاثة بالأولياء والأموات، والاعتقادُ المشوَّه بالصالحين والطواف حول قبورهم وتقديمُ القرابين

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة، ص٨٣؛ رجال الفكر والدعوة: ١/ ٤٥ ـ ٤٦، ٥١.

هناك، وإضفاءُ هالات القداسة على بعض (الأئمة)، وتقديسُ (المراقد) و(المقامات)!.

ويقتضي ذلك كلُّه نفيَ الأوضار عن عقيدة التوحيد، وإنارةَ العقول والقلوب بالعقائد الصافية النقية من كل شائبة.

٩ ـ الأهواء والبدع والمحدثات:

وهذا مما ابتُليت به الأمة الإسلامية منذ فترة مبكرة من تاريخها، ولا تزال نيرانه تشتعل هنا وهناك، وتلفَحُ المسلمين بسمومها وشرورها.

ويتجلَّى ذلك في بِدع الخوارج والجَهْميّة والمُعطِّلة والجَبْرية والقَدَرية والمعتزلة والمُرجئة والرافضة ومن في هذه السبل...

ولقد كانت (الطوائف المنحرفة) بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطراً على روح الإسلام النقية، وعقائده الصافية الواضحة، وتتهدَّد وضع الإسلام الحقيقي[1].

وقامت دول على بِدع حَكَمتْ رَدَحاً من تاريخنا على أصقاع شتى من أرض الإسلام، كما في الدولة العُبيدية (الفاطمية كذباً!)، والدولة الصفوية الشيعية، والتي يتم إحياؤها الآن.

ومنذ أكثر من قرنين وإلى الآن راجَتْ (الدعوة إلى التشيُّع) وانتشرت، في شبه القارة الهندية وإيران والبلدان المجاورة، وتأثَّرت طبائع العامة بشبهاتهم التي أوردوها تأثُّراً عميقاً، ونشأت في قلوب معظم أهل تلك البلاد شكوك وشبهات كثيرة في موضوع ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين.

وكما يقول الإمام ولي الله الدهلوي: (إنَّ كلَّ مَن يحاولُ هَدْمَ هذا الأصل ـ ثبوت الخلافة الراشدة وصحتها ـ وينكرُ هذا الأصلَ من الدين؛ إنما يحاوِلُ هَدْمَ جميع الشعب الدينية).

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٩٢.

ولاحظ الدهلوي أن الشيعة قد ضارعوا بنظرية (الإمامة) عندهم (النبوَّةَ والرسالةَ)! وهو الأمر الذي مكَّنهم من إعادة صياغة الإسلام على النحو المرغوب!.

وإنَّ عملَ المجدِّدين ودفاعَهم عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ من أولويات واجباتهم وأعظمها، لأن ذلك ليس فقط دفاعاً عن هؤلاء السادة، ولكنه قبل ذلك وبعده: دفاع عن النبوة، وعن محمد ﷺ، وعن القرآن الكريم(١).

١٠ ـ معارك فقهية فكرية ثقافية:

كذلك مما ابتُليت به الأمة قديماً وحديثاً التعاركُ حول خلافات فقهية، وأَعلن بعض فقهاء الفروع في هذا المذهب أو ذاك حرباً على الآخرين المخالفين لهم، واضطهد كل فريق منهم الآخر إذا تمكَّن من ناصية السلطة، وتبادَلَ الفُرقاء التُّهم بمخالفة السنَّة وآذى بعضهم بعضاً.

وتجدد الأمر في العهد القريب والحالي، وادعى قوم (السلفية)، ودعا آخرون إلى (اللامذهبية)، وتشدَّد نظراؤهم بإلزام الناس بمذهب معيَّن جملة وتفصيلاً، فقسّموا الأمة وزادوها فرقة!.

وقلْ مثلَ ذلك في الاختلافات الفكرية والثقافية، وتعصُّبِ الناس لهذه المدرسة الفكرية أو تلك، أو لهذا الكاتب الكبير الشهير أو ذاكَ، ونَعْيِ بعضهم على بعض، وتشبُّثِ كل فريق بما رآه وذهب إليه.

وقد علم هؤلاء جميعاً أن الخلاف موجود من لدن الصحابة ﷺ، لكنه لم يعكِّر صفوَ حياتهم، ولا أَوْهَى روابط أخوَّتهم! وكذلك فعل الكبار من فقهاء الأمة واردَةُ الفكر والثقافة الإسلامية.

والأمة بحاجة في هذا إلى تجديد وتوحيد في الأطر العامة، يجمع الشمل

---

(١) انظر: رجال الفكر والدعوة: ١/ ٦٩ ـ ٧٠.

ويوحِّد الكلمة، ويسير الجميع على هَدْي ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

١١ ـ الجمود والتخلُّف والخمول الروحي والعلمي والأدبي:

واعتورت الأمةَ في مراحل عدة وأزمنة متعددة ـ ولا تزال ـ مظاهرُ الضعف العقلي والعجز العلمي والذبول الروحي والخمول الأدبي والجَزْر النفسي، ورانَ ذلك على الشعوب وألغى وجودَهم الأدبي والمادي في السباق العالمي، فتقهقروا إلى الصفوف الخلفية.

وإنه لابدَّ من بَعْث للفكر النَّضير المبدِع، وتجديد الاجتهاد المنضبط، وإيقاد الطاقات الروحية والفكرية والأدبية بين العامة والخاصة.

وهذا يؤكِّد ـ وخاصة في هذا العصر ـ الحاجةَ إلى مجددين عباقرة وعلماء بحور، بحور في جميع المعارف الإنسانية، لا فارقَ بين معقول ومنقول، ولا بين ماديات وأدبيات، ولا بين غيبيات ومحسوسات! يتتبَّعون أعراضَ تلك الأمراض وجراثيمها ومساربها، ويستقصون أسبابَ العافية، ويجاهدون لإبراء الأمة منها[(١)].

١٢ ـ التعليم:

لبى التعليم في صدر الإسلام حاجات الأمة التربوية والتشريعية والأدبية، وقدر على تكوين أجيال ناضجة، جعل المسلمين أمة تعطي أكثر مما تأخذ، وتدفع ولا تندفع، وهي الأمة الأولى في العالم.

وحدثت نكسات للعلم في مختلف تخصصاته وألوانه، في العقيدة والتشريع والفقه وأصوله واللغة وآدابها والتاريخ وعلوم الحياة والكون!.

وفي بعض البلاد الإسلامية ـ في بعض فترات تاريخنا ـ (كانت جَنَبات

---

(١) انظر: علل وأدوية، ص١٠٦، ١٢٢؛ سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٩٥؛ كفاح دين، ص٩٦؛ رجال الفكر والدعوة: ١/ ٣٠.

المدارس ترتجُّ بأصداءِ الفلسفة والمنطق، وكان التقيُّدُ بالنصوص الفقهية والالتزام الحرفي في الفقه والفتاوى شعارَ كل فقيهٍ ومفتٍ، وكان التحقيقُ والبحثُ في المسائل الفقهية جريمةً كبرى بحق الدين! وكانت الخاصَّةُ فضلاً عن العامة جاهلةً بمعاني القرآن الحكيم ومطالبه، وأحكامِ الأحاديث النبوية وإرشاداتها، وأسرارِ الفقه ومصالحه!)[١].

وأمسى عامة المسلمين لا يعرفون شيئاً عن أصول الفقه، وفي العقائد يحفظون متوناً أَلْهَتْهم عن بَهاء الكتاب العزيز والسنَّة الشريفة، والفقهُ الإسلامي لا يُستفتى في الشؤون العمالية أو الدستورية أو الدولية، وطلابُ المدارس والجامعات يقتصرون على دراسة هذا المذهب أو ذاك، وحُصِرتْ أمة ضخمة في تفكير إمام مجتهد واحد قد يخطئ وقد يصيب، وتعصَّبوا له، وأضْفَوا عليه قداسة ورهبة! والتاريخُ الإسلامي يجهِّل أبناءَنا بأحوال عامة المسلمين في القارات الخمس، واللغةُ العربية وعلومها ـ منذ نحو قرن ـ قد تواطَأَت جهودٌ جبَّارةٌ على تنظيم حرب مستمرة ضد بقائها، وهي تبغي سلخَ المسلمين عن دينهم وتاريخهم ومقوماتهم المعنوية بأَسْرها، عن طريق تجهيلهم في لغتهم، وتزهيدهم في قواعدها، وتحقير حروفها وإملائها[٢]!.

إنه لابدَّ من المجددين المقتدرين المخلصين الذين يخوضون هذه الغَمَرات، ليعيدوا للتعليم بكل فروعه ومراحله وأبعاده مكانته وأهدافه وطرائقه وغاياته، لتكوين الأجيال التي تستعيد الدور الريادي لأمتنا من جديد.

١٣ ـ فساد التصوُّف وشيوع الخرافات والانحرافات:

لا شك بأن التصوف ـ وخاصة في القرون الأولى ـ كان على جانب كبير من

---

(١) من كلام نفيس للعلّامة السيد سليمان الندوي، نقلاً عن: رجال الفكر والدعوة: ١/ ٦٠ ـ ٦١.

(٢) انظر: علل وأدوية، ص١٩٨ ـ ٢٠٢، ٢٠٥؛ الإسلام والطاقات المعطّلة، ص٥٨، ٧٣؛ كفاح دين، ص٢١٥ ـ ٢١٦.

الصفاء، وقد احتَضَنَ كثيراً من العواطف الإسلامية الشريفة، ونَمَت في مباحثه فنونٌ شتى للتربية والأخلاق، ونَجح رجالُه في الانفراد بمقاود العامة، واستطاع فريق منهم أن ينشر الإسلام في الأقطار النائية.

لكنه فيما بعد تطرَّق إليه فساد كبير، ونشأَتْ عنه مناكر وهزائم شنعاء، ودخل في موضوعات غيبية لا علاقة له بها، وتعلَّق بأفكار أجنبية يُنكرها الإسلام، واشتطَّ في أحكامه على الأمور، فَزَلَّ عن الصراط المستقيم[١].

وشاعت بين المسلمين ـ ولا تزال ـ أفكار (وحدة الوجود، ووحدة الشهود، والكشف، والإشراق الروحي)، وانتشرت أفكار ابن سَبْعِين والحَلّاج وكُتب ابن عربي!.

و(تَغَلغلَ التصوُّفُ في أحشاءِ المجتمع الإسلامي، وامتزَج بلحمِه ودمِه).

وكان يُقال في الزوايا عَلَناً وجِهاراً: (إن الطريقة في وادٍ، والشريعة في وادٍ، لكلٍّ منهما طريقه وتقاليده وأصوله، أما طالب الحق الذي يريد معرفته فيسأل المشايخ عن الدليل الشرعي، فيكون جوابه: هذا وادٍ ليس زادُ المسافر فيه إلا التقليد والانقياد المطلَق للشيخ الحكيم!)[٢].

ومَن قرأ كُتب القوم، وما ادَّعاه كثير منهم من كرامات جَرَتْ لهم وعلى أيديهم؛ عَلِمَ ما وَصَل إليه حالُ المسلمين من انحطاط يحتاج إلى تجديد جذري يمحو الخطايا ويرفع عن الناس الآصار والرزايا.

١٤ ـ ضعف الوازع الديني وخمود عاطفة التدين:

ومرَّت بالأمة فترات كالحة نشأت فيها أجيال خائرة، وهي الآن كذلك في قطاع عريض من الشبان والفتيان، قد ذَوَت العقيدة في أنفسهم، وتخدَّرت أعصابهم، وماتت ضمائرهم، واستُلَّ اليقين من أفئدتهم، وجفَّت المعاني الكبرى

---

(١) الإسلام والطاقات المعطّلة، ص٢٤، ٢٥.

(٢) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٥٤ ـ ٥٥.

من حياتهم، وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات واستثارتهم الغرائز، وتتبَّعُوا سفاسفَ الأمور، وذَهِلُوا عن المعالي، وسُرق الإيمان من قلوبهم، وأضحوا غُثاءً لا وزنَ له!.

ولقد عمل الاستعمار وأعوانه في بلادنا على إنشاء هذه الأجيال المعتلَّة التي لا جهدَ لها ولا أمل، ولا رجاءَ فيها ولا معوَّلَ عليها، وتحطَّمت أهدافها فانطلقت وراء رغباتها تتخبط في الظلام.

إنَّ إضعافَ الوازع الديني بلاءٌ ذريعُ الفتكِ بكلِّ ما نحرص على بقائه وصيانته، بل هو أقصر الطرق إلى إفناء أمتنا ماديّاً وأدبيّاً[1].

١٥ ـ ركود فريضة الجهاد وتشويهها:

الجهاد في الإسلام للدفع عن المسلمين ودينهم ومقدّساتهم وأرضهم وخيراتهم، كما أنه مصاحبٌ للدعوة إلى الله وتبليغ دينه لإزالةِ العوائق من وجهه التي تَحُول دونَ إبلاغِ رسالته للعالمين بلا إكراه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وقد نال الجهادَ ومفهومَه خلال التاريخ عوارضُ الخمول والركود، كما شابَهُ التشويهُ والتزويرُ، بالمبالغة في استعماله حيناً وبتفريغه من محتواه في أحايين كثيرة.

فتوقفت حركة الجهاد والفتوحات المباركة في أزمنة متعددة من تاريخنا، منذ أواخر عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما قامت الفتنة التي أشاطَتْ بروحه الطاهرة، وطيلة خلافة علي، وشطراً من عهد عبد الملك بن مروان، وفترات من تاريخ دولة العباسيين وخاصة في آخرها، وكذلك في بعض عهود المسلمين في الأندلس والأيوبيين والمماليك وأواخر عُمُر الخلافة العثمانية، ثم زمان الاستعمار الذي جَثَم على بلادنا العربية والإسلامية.

---

(١) انظر: فصلاً قيماً في هذا في كتاب: كفاح دين، ص١٣١ ـ ١٤١.

وقد أدَّتْ عدةُ عوامل إلى خمود جذوته، وتراجعِ انسياحه، من أخطرها: الفتنُ الداخلية، والصراعُ على السلطة، وركونُ المسلمين إلى متاع الدنيا، وضعفُ الإيمان وذبول جذوته في قلوبهم، ودعاوى طوائف تتظاهر بالإسلام وتنادي بإسقاط الجهاد، وأفكارٌ مسمومة وأقلام مأجورة تتهم الإسلام بأنه انتشر بالسيف، والتنادي إلى توقيفه وحذفه من مناهج التعليم، ودعاوى البعض أنه لا يَصحُّ إلا مع ولي الأمر، وغير ذلك مما لا مجال لبَسْطِه هنا.

وفي كل مرة كان المجددون يَنفضون عن وجه الجهاد ذلك الغبار والرماد، ويُوقِدون جذوتَهُ في القلوب من جديد، لتهبَّ الأمة إلى استعادة عزّتها وكرامتها.

١٦ ـ خيانة الأمانات:

ومن المجالات الخطيرة التي تستدعي التجديدَ والإصلاحَ باستمرار؛ القيامُ بحقِّ الأمانة، التي وَهَتْ عُراها واستُهين بقداستها قليلاً أو كثيراً على مرِّ الزمان!.

ونعني بالأمانة قيامَ كل إنسان بما كلَّفه به الشرع، أو تعاقَدَ مع الدولة والجماعة والأمة على إتمامه وإنجازه.

ومن ذلك: قيامُ ربِّ الأسرة بشؤون من يَعُول، والموظف، والعامل، والجندي، والمهندس، والمدرس، والطبيب.. وكل مسؤول صغيراً كان أم كبيراً.

وقد وقعت في هذه الجوانب خيانات كثيرة آتت ثماراً مُرَّة!.

ومن الخيانات الثِّقَال: العدوانُ السافر على المال العام وتبديده، ووأدُ الكفاءات، ومطاردةُ العقول، وتكبيرُ الصغار، وإسنادُ المناصب الخطيرة إليهم، وتصغيرُ الكبار، ورميهم في مؤخِّرة الصفوف! والتفريطُ في حماية الدين، والبلاد، والخيانة في القضاء، وشؤون الحكم...

إن أمتنا قد اجتاحها هذا الداءُ الوبيلُ في فترات عديدة من تاريخنا، ولكنها

في القرن الحالي وصلَتْ في هذا الميدان إلى الحضيض، وابتُليت بخيانات كبرى أدَّت إلى التفريط بالدين والقيم والبلاد والعباد والمقدّسات! والأَدْهَى مِن ذلك أن مَنْ يتبوَّأ رؤوسَ الأمانات يتبجَّح بأنه يحافظ على مصالح الأمة ويريد لها الخير!.

١٧ ـ الاختلاف والفرقة وتوزع الكلمة:

وهذا من الداءات التي أذهبتْ ريحَ الأمة وأضعفَتْ كيانها وأخَّرتها عن مكانتها في السيادة والقيادة، وقد بُليت به في المشرق والمغرب، وفي مراحل متلاحقة عبر تاريخنا، وتوجَّهتْ جهودُ المجددين المخلصين لإصلاح هذا العطب الكبير.

وقد عملت على تمزيق الأمة: الفوارق الإقليمية والقومية والجغرافية، والخلافات العقائدية، والتعصب المذهبي، وكثرة الطوائف والمذاهب الفكرية والجماعات والبدع، والتجمعات والأحزاب، والولاءات، والتهارش على المناصب، والأيدي الخبيثة الموالية لأعداء الأمة، وغير ذلك...

مما يستدعي جهوداً جبَّارة مخلصة لرَهْط من المجددين العباقرة المخلصين.

خامساً: دعاوى للتجديد هي في حقيقتها تهديم وتبديد:

مما تقدَّم يستبين لنا أن المراد بالتجديد هو العودة للإسلام والمسلمين إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته ومَن تبعهم بإحسان، في ضوء الفهم الصحيح للكتاب والسنَّة، وإطار الشمول والتوازن بين الأصالة والمعاصرة والدنيا والآخرة، وأن يكون الإصلاح والتجديد لجعل حياة المسلمين على مثالِ السيرة النبوية وعملِ الصحابة وسلوكِ السلف الصالح.

إنه إحياءٌ لما اندرس من معالم القرآن والسنَّة، وتقويمُ الانحراف الذي حدث هنا وهناك، وتصحيحُ الاعوجاج الذي أصاب حياةَ المسلمين العقدية والمنهجية والسلوكية والدنيوية والمادية، وقمعُ البدع، ومقاومةُ الانحرافات، وإزالةُ الشبهات، وفضحُ التزوير لحقائق الإسلام ومبادئه، وإحياءُ القلوب

والنفوس بربانية الإسلام، وإنهاضُ الأمة من كبواتها والانطلاق بها إلى سدّة الريادة والسيادة والقوامة والتوجيه للعالمين مما أُنيط بها باعتبارها حاملةً للرسالة الخاتمة.

لكن مفهوم التجديد لم يَسْلَم ـ كغيره من المفاهيم الكبرى ـ من التشويه والتحريف والتزوير والتزييف، ونومئ في هذه الصفحات بإيجاز إلى أربعة محاور منها:

١ ـ تطويع الإسلام وأصوله وليُّ أعناق نصوصه وثوابته:

لتماشي هذه النظم والثوابت النظمَ الغربية الوضعية، وتوافقَ أهواءَ الحكام في إطار الزعم بالتجديد باسم الدين.

ومن ثَمَّ فالحركة التجديدية من هذا المنطلق ترى:

أ ـ عدم معاقبة المرتدّ عن دين الإسلام، وأنه ليس في الرِّدة شيء.

ب ـ عدم رجم الزاني المُحْصَن.

ج ـ ليس على شارب الخمر حدٌّ معيَّن، وإنما عليه تعزير يعود لرأي الإمام.

د ـ يجوز للمرأة المسلمة أن تتزوج باليهودي والنصراني[(١)].

ومن الرواد في هذه الأمور الدكتور حسن الترابي!.

هـ ـ إباحة الربا مع الدولة.

و ـ الاستسلام لحكام الجبرية المستبدين والخضوع لهم، بدعوى أمر النصوص بطاعة ولي الأمر.

ز ـ التعايش السلمي مع الغاصب المحتل.

---

(١) انظر: مفهوم التجديد، ص٢٩، ٣١، ٣٣.

٢ ـ الدعوة إلى المعاصرة والحداثة وما يسمّى بالإسلام الحضاري والمدني وتفريغه من محتواه باسم التجديد:

وقيام تيار تجديدي يعود بالمسلمين ـ فيما يزعم ـ إلى ما كان عليه المسلمون في عصر النبوة وخلافة أبي بكر وعمر، وطيّ تاريخ المسلمين التشريعي والعلمي والحضاري طيلةَ أربعة عشر قرناً؛ بدعوى أن الإسلام لم تَقُمْ له دولة على امتداد ذلك التاريخ الطويل! وما شُيِّد فيه إنما هو اجتهاداتُ رجال ونتاجاتُ أفكار تخطئ وتصيب، ولسنا ملزَمين بها!.

وأصحاب هذا التيار نَسَفُوا كلَّ ما أصَّله علماء الأمة؛ من علوم التفسير وأصوله، والحديث ومصطلحه، والفقه وأصوله، واعتبروا أن كل الكبار في أمتنا لم يفهموا الإسلام حقَّ الفهم، وإن فهموه فبما يُناسب زمانَهم وظروفهم.

وبناء على هذا (التجديد الجديد!) يُفرغ الإسلام من كل معانيه وأركانه وثوابته وحقائقه، ولا يتبقىٰ هناك احترام أو اعتبار لفرائض وأحكام وقيم وواجبات، وتحل محلها (المفاهيم العلمانية) للدين!.

وهذه الدعوة أخطرُ من سابقتها وأشملُ، ومن السبَّاقين فيها والمشاهير: جمال البنا، وقد تلقَّفت المؤسساتُ الغربية والأمريكية هذا الفريق، وروَّجت لأفكار حَمَلتِه، وفتحت لهم الأبواب، ووطَّأت لهم السُّبُل.

٣ ـ وصفُ بعضِ رجال التاريخ بالتجديد، مع انحرافِهم الشديد عن الإسلام، بل وهَدْمِ بعضهم له، وقيامِ دعوتهم ومنهجهم على الفلسفة أو الباطنية:

فهناك من اعتَبر (المُرجئة، والمعتزلة، والخوارج، والشيعة الرافضة) حركات إصلاحية تجديدية! بل اعتبر آخرون (القرامطة) حركة ثورية إصلاحية!.

واعتبروا الفلسفة والدين أخوين، والفلاسفة مجدِّدين، فقدَّموا: ابن سينا، والفارابي، والكندي، وابن رشد، وإخوان الصفا، والفخر الرازي (باعتباره فيلسوفاً) والنصير الطُّوسي، والشاه عباس الصفوي، ومحمد علي باشا، كل هؤلاء اعتبروهم مجددين مصلحين.

وأحدُ دعاة هذا (التيار التجديدي) يعتذر للفلاسفة، ولتآمرِ الطُّوسي مع التتار، بل ويقدِّمه في التجديد على ابن تيمية، كما يؤخِّر عن التجديد أمثالَ الإمام أحمد بن حنبل ويقدِّم عليه الخليفةَ الواثق الداعيَ إلى الاعتزال!.

ومن رجال هذا الاتجاه عبد المتعال الصعيدي في كتابه (المجددون في الإسلام)، وقد أورد فيه من الخَبْط والتزوير والغفلة والغُثائية ما لا يصبر على قراءته إلا القلة.

٤ ـ تجديد الفكر الديني والخطاب الديني:

وظهرت هذه الشِّنْشِنَة من نحو عقدين من السنين، واشتدَّ أُوارها في هذه الأيام، وتولَّى ترويجَها (الواعظُ الأمريكي)! ومشى في مساربها ومنحنياتها الكبار والصغار والمشاهير والأغمار في أمتنا، وهي دعوة تشبه قولَ الخوارج (لا حكم إلا لله)، فهي كلمة حق أُريد بها باطل!.

فالإسلام هو الذي سنَّ التجديد، وزكَّى المجددين الذين مارسوه عبر القرون، لكن ليس على الطريقة الأمريكية الصليبية واليهودية، التي تريد إفراغَ المناهج التعليمية على شتى الأصعدة من محتواها الإسلامي الأصيل الناصع، وإقصاءَ الإسلام أو تدجينَه في وسائل الإعلام ومنابر التوجيه ومؤسسات الحكم وكافة الهيئات التي تحفظ كياننا وشخصيتنا وهويتنا.

إنها دعوة للتجديد تسعى إلى توجيهِ العقول وإضعافِ القلوب واستلابِ الوازع الديني والفكر الأصيل، واغتيالِ الشخصية والثبات على الهوية! إنها تريد ذوبانَ الأمة بمفاهيمها وقيمها وأجيالها في بوتقة (العولمة) التي هي في حقيقتها (الهيمنة الأمريكية الغربية) على العالم!.

لذلك تدعو إلى (هكذا تجديد).

إنها تسعى إلى مَسْخ المناهج، واستبدال مادة (التربية الإسلامية) بمسمّى (مادة الأخلاق)، ويتمُّ حذفُ آيات الجهاد من المناهج الدراسية، وإلغاءُ فكرة الصراع مع اليهود والعداء لهم، وحذفُ الآيات التي تفضح عقائد اليهود

والنصارى وتحريفهم، وتمريرُ فكرة قبول المحتلّ الذي جاء (كذباً) لنصرة الشعوب وإقامة الديمقراطية! وتعمل جاهدةً على إلغاء المدارس الإسلامية التي تنشر علوم الدين وتغرس حفظ القرآن الكريم في قلوب الأجيال الغَضَّة، وما تبقى منها فيخضع لهيمنة الحكام والعملاء.

ومن أهداف دعوة (تجديد الخطاب الديني) تقويضُ مؤسسة الزكاة ومواردها، وإغلاقُ جمعيات العمل الخيري، بحجة أنها تمدّ الإرهاب بالمال، وتغذّي تيارَ عدم التعايش (مع الآخر).

كذلك يتم الترويجُ للمؤسسات الربوية، وحذفُ مقرَّرات (الأقليات الإسلامية) من كتب التاريخ ودراسة أحوالهم وحقوقهم في أطراف المعمورة.

ويروَّج للإباحيةِ باسم الحرية والتطور، وللزندقةِ وتهديمِ أركان الإسلام باسم حرية الرأي والتعبير، وتُمنع الدعوة للإسلام وقيام الحركات الإسلامية التربوية والجهادية بحجة مقاومة الإرهاب.

ويُلْجَم الخطباء عن توضيح حقائق الإسلام الكبرى في رقابة الأمة للحاكم والمال العام، وحماية مبادئ الإسلام، ومحاربة الموبقات، وخُطط الأعداء وأخطارهم في الداخل والخارج.

ويُؤْذَن للخطباء أن يتحدّثوا بأمورٍ هامشية، ويُمنعون من تلاوة وشرح معاني الآيات التي تتحدث عن عقائد اليهود والنصارى وعدائهم لهذا الدين وأهله.

وفي (الخطاب الديني الجديد) تُزَيَّن فكرةُ طاعة «ولي الأمر» العمياء للحفاظ على لُحمة الأمة، وقبول الغازي المحتل لأنه جاء باستدعاء هذا السلطان أو ذاك . . .

وغير ذلك من تزوير الحقائق ومسخ المفاهيم، وكلها ضمن دعوى (تجديد الفكر الديني والخطاب الإسلامي وقبول الآخر).

ونبادِرُ إلى القول: بأن الأمة مهما حِيكَت المؤامرات ضدها، ولُبِّس عليها، وتشابكت الأيدي لحربها وصَرْفِها عن دينها الصحيح القويم، فإن ذلك كله سيبوءُ بالفشل، لأن عامة جماهير الأمة قد غَرس الله تعالى في قلوبها (بوصلةً) دقيقة تميّز بها الحقَّ من الباطل، والنافعَ من الزَّبَد!.

فالأمة تعلَمُ أن دعاوى التجديد هذه، وخاصة الأخيرة، هي أكذوبة كبرى، وأغلوطة مكشوفة! والجماهير تلتفُّ حولَ المجددين الصادقين المخلصين، لتُسْقِطَ الأقنعة المزيَّفة، وتجرف هذا الهُراء.

وقد سقطت كثير من (دعاوى التجديد)، ومات كثير منها في موطنها، كما جرى للدعوات الثلاث الأولى التي ذكرناها.. وأما الرابعة ففي الأمة رجال كبار ومؤسسات وجماعات ومفكّرون وإعلاميون وخطباء ودعاة يتولّون كفاحَها ويفضحون عُوارها.

سادساً: ملامح التجديد ووقائعه وحقائقه الواقعة والقائمون به عبر تاريخ أمتنا:

يصعبُ على الباحث تفصيلُ القول في أُطر الإصلاح والتجديد التي مرَّت عبر تاريخ أمتنا الطويل، وعَمِلتْ على الإبقاءِ على وجودها وحضارتها وأصولها وثوابتها، وحافظتْ على ذاتيتها، وحَمَتْ هويتها وشخصيتها.

نقول: يصعبُ علينا تبيانُ ذلك مفصَّلاً في عدد قليل من الصفحات التي تتناول هذه النبوءة ضمن هذا الكتاب، ويحتاج ذلك إلى كتاب مستقل، بيد أننا نومئ بإلماعات موجزة دالَّة ومعبِّرة عن المحاور الكبرى في هذا المَهْيَع الرحيب.

وأبادِرُ إلى القول بأن ما استعرضناه وبَيَّنّاه من صفات المجدِّدين، والمعالم الرئيسة التي يتمحور التجديد حولها ويتناولها بالتقويم والإصلاح والبعث والإنهاض من جديد، لمتابعة مسيرة البناء والنهضة والبلاغ والقيادة ـ هي أكبر بكثير من أن يقوم بها فردٌ فذٌّ مهما أُوتي من مَلَكات العبقرية ويُسِّرت له السُّبُل

ووُطِّئت له الأكناف وتعاضَدتْ لنصرته الظروف! إنها مهمة جليلة تنوءُ بالعُصبْة من الرجال.

والذي نذهبُ إليه، ويؤكِّده قول كثير من علمائنا ومفكرينا، وتؤيِّده حقائق التاريخ ومسيرة الأمة الطويلة خلاله؛ أن عِبْءَ التجديد قد قام به: رجال كبار تنوعت مَلَكاتهم وتعدَّدت مجالات أعمالهم، وجماعات، ومؤسسات، ومدارس، وهيئات، وأحزاب، وتيارات؛ تنوعت أعمالها وتعدَّدت اجتهاداتها وتباعدت أو تقاربت مواقعها، لكنها تناغَمتْ جميعُها وتلاقت أهدافها، لتصبَّ في بوتقة واحدة غايتها استنهاضُ الأمة وبَعْثُها وتوعيتها وإنقاذُها مما عَرَاها من عوامل السقوط، وغرسُ أسباب النهضة والازدهار والعودة ـ في كل مرة ـ إلى الصراط المستقيم من جديد.

١ ـ القرن الأول الهجري:

●● يأتي في مقدمة المجدِّدين ـ برأينا ـ في هذا القرن السِّبْطُ الكريم **الحَسن بن علي** رضي الله عنهما، الذي قاد جحافلَ أتباعه ومبايعيه على الخلافة، وكانوا كأمثال الجبال كثرةً، ومشى إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وتنازل له عن الخلافة، واجتمعتْ كلمةُ المسلمين عام (٤١هـ)، فَسُمِّي عامَ الجماعة، وهذا العمل الجليل من الحسن كان فيه من الخير على الإسلام وأهله ما ليس بخافٍ على أحد.

●● وتجدَّدت حركةُ الجهاد والفتوحات المباركة على يدي **معاوية**، وسار المسلمون فاتحين في المشرق والمغرب، وتنامت مملكة الإسلام.

ثم ركدت تلك الفتوح مدة بسبب الخلاف بين الدولة الأموية ومن ناوأها كالحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

ثم انساحت الفتوحات في عهد **الوليد بن عبد الملك**، فهو من المجددين في هذا بلا ريب، حيث بَلغتْ كلمةُ التوحيد إلى أقاصي المشرق على يدي الفتى القائد محمد بن القاسم الثقفي فاتح السِّنْد وما والاها، وقُتيبة بن مسلم الباهلي،

ومَسْلَمَة بن عبد الملك، وغيرهم.. وإلى أقاصي المغرب حتى الأندلس على يدي جمهرة من الفاتحين أشهرهم موسى بن نُصير وطارق بن زياد.

●● كذلك حدث تجديدٌ جليل في ميدان الفقه والحديث وتدوينه، على أيدي أئمة كبار أجلُّهم الفقهاء السبعة وعلى رأسهم **سعيد بن المُسيِّب**، وجَمَعَ الحديثَ ودوَّنَه محدّثُ الإسلام الكبير **محمد بن شهاب الزُّهري**، عن أمر الخليفة **عمر بن عبد العزيز**.

●● وعلى صعيد بناء الدولة وتشييد الحضارة الإسلامية، كان **لعبد الملك بن مروان** دورٌ رائدٌ فذٌّ حفظه له التاريخ الصادق، فهو المؤسس الثاني ـ بعد معاوية ـ للدولة الأموية العملاقة، حيث قام بحركة تعريب النقود فحقَّقَ للدولة الإسلامية الاستقلالَ الاقتصادي عن الدولة البيزنطية والأنظمة النقدية الفارسية.

ثم قام بتعريب الدواوين فحقَّقَ لدولة الإسلام الاستقلالَ الإداري، وتمَّ تحريرُ النظم الإدارية المالية من رِبْقة الخضوع للسيطرة العنصرية أو الشعوبية المحلية، مما يؤكد سيادة الدولة سياسيّاً على البلاد المفتوحة.

وارتفع مركز اللغة العربية وأصبحت لساناً حضاريّاً للأمة الإسلامية والعربية، وانتشرت انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي، وأصبحت لغة الفكر والحضارة في الدولة العربية الإسلامية، وأقبلَتْ عامّةُ الشعوب على تعلّمها وإتقانها[1].

●● وفي مجال التربية والسلوك وتقويم النفوس وتهذيب الأخلاق وكفكفة جماح الأنفس عن الانصراف إلى الدنيا والركون إليها؛ كان هناك رهط من الربانيين وفي مقدمتهم **الإمامان الجليلان الحسن البصري ومحمد بن سيرين**.

●● وعلى مستوى إصلاح الحكم والخلافة، كان المجدد الكبير الشهير

(١) انظر: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٣٤ ـ ٣٥، ٥٧ ـ ٥٨.

عمر بن عبد العزيز الذي قام بإصلاحات جليلة وردَّ المظالم[(١)]، وأعاد حياة الناس إلى قريبٍ مما كانوا عليه في عهد جدِّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

ويشارك عمرَ بنَ عبد العزيز في هذا التجديد ـ برأينا ـ **سليمانُ بن عبد الملك**، الذي كان له الفضلُ في إلغاء (ولاية العهد) ونقلِ الحكم من بيت عبد الملك بن مروان إلى عمر!.

٢ ـ القرن الثاني الهجري:

●● في الخلفاء والأمراء يأتي في مقدمتهم **أمير المؤمنين هارون الرشيد**، وكان من أنبلِ الخلفاء، وأحشمِ الملوك، ذا حَجٍّ وجهادٍ، وغزوٍ وشجاعةٍ، ورأيٍ، وفصاحة وعلم، وبصرٍ بأعباء الخلافة، وله نظر جيد في الأدب والفقه.

وكان يصلي في خلافته في كل يوم مئة ركعة إلى أن مات، ويتصدّق بألف، ويحب العلماء ويُدْنيهم ويستشيرهم، ويُعظِّم حُرمات الدين، ويُبغض الجدالَ والكلام، ويبكي على نفسه وذنوبه[(٢)].

ـ وابنه **المأمون عبد الله بن هارون الرشيد**، وكان من رجال بني العباس حَزْماً وعَزْماً ورأياً وعقلاً وهيبةً وحلماً، ومحاسنه كثيرة في الجملة.

تلا في رمضان ثلاثاً وثلاثين خَتْمة.

وكان أمَّاراً بالعدل، محمودَ السيرة، ميمونَ النَّقيبة، فقيهَ النفس، يُعَدّ من كبار العلماء، على جانب عظيم من الحِلْم حتى قال يحيى بن أَكْثم: كان المأمون يحلُم حتى يُغِيظَنا[(٣)]!.

---

(١) انظر في هذا ما كتبه العلّامة أبو الحسن الندوي في: رجال الفكر والدعوة: ١/١١٩ ـ ١٣٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٩/٢٨٧.

(٣) المرجع السابق: ١٠/٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٩.

وكانت الدولة في عهده عزيزةَ الجانب مبسوطة السلطان، وتمَّت على يديه حركةٌ تعريب للعلوم ضخمة.. لكنه شابَ خلافتَهُ بالدعوة إلى (خلق القرآن)، ولولا ذلك لكان آية بين الخلفاء، وليس من العدل أن نهدم تاريخه بغلطة غَلِطها، والله يغفر له.

ـ ومن بقايا بني أمية كان **عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك**، المشهور (بالداخل)، ولقَّبه الخليفةُ المنصور بـ **(صقر قريش)**.

فلقد فرَّ من سطوة بني العباس عندما أسقطوا الخلافة الأموية، وهرب إلى الأندلس، وجدَّد دولة الإسلام هناك حيث دخلها سنة (١٣٨هـ)، وكان الإسلام في عهده بالأندلس عزيزاً منيعاً.

وعَظُم سلطانه هناك، وامتدَّت أيامه فحكم (**٣٣** سنة) إلى أن توفي سنة (١٧٢هـ)، وبقي الملك عَقِبه إلى سنة (٤٠٠ هـ)[(١)].

●● ومن المجددين في علوم الإسلام: جمهرة من الكبار الذين حفظوا السنَّة النبوية، ونَفَوا عنها الأحاديث الموضوعة، وهَتكوا أستارَ الكذَّابين. وآخرون اجتهدوا في الفقه، وقَعَّدوا قواعده، وأصَّلوا أصولَه، وحلُّوا مسائله.

وعلى رأس أولئك الأكابر:

شُعبة بن الحَجَّاج وسفيان الثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الله بن المبارك وابن جُريج ووكيع بن الجراح وعبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد القطان وسفيان بن عُيينة.

والإمام أبو حنيفة ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى والأوزاعي والليث بن سعد والإمام مالك والإمام الشافعي.

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٤٤ ـ ٢٥٣.

٣ ـ القرن الثالث الهجري:

●● من الخلفاء المجددين في هذا القرن **المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد**، وحَسْبُه من التجديد أنه أظهرَ السنَّةَ وقَمَع البدعة، وزَجَر عن (القول بخلق القرآن).

قال قاضي البصرة إبراهيم بن محمد التيمي: (الخلفاءُ ثلاثة: أبو بكر يومَ الرِّدَّة، وعمر بن عبد العزيز في ردِّ المظالم من بني أمية، والمتوكل في مَحْوِ البدع وإظهارِ السنَّة)[١].

ـ **والخليفة المهتدي بالله محمد بن الواثق بن المعتصم بن الرشيد**، كان ورِعاً عادلاً، صالحاً متعبِّداً، بطلاً شجاعاً، قويّاً في أمر الله، خليقاً للإمارة، لكنه لم يجد مُعيناً ولا ناصراً، والوقت قابل للإدبار.

وسعى في دولته إلى أن يَحمل الناس على سيرة عمر بن عبد العزيز[٢].

●● وفي ميدان نصرة القرآن والسنَّة والمحافظة عليهما كما كانا في عصر الرسالة، نجد فارسَ المحنة الكبرى **الإمام المجدِّد العظيمَ أحمد بن حنبل** نَضَّر الله وجهه، الذي حمل راية السنَّة ووقف وقفةَ الجبال الراسيات، وناضل ضد بدعة (القول بخلق القرآن)، وصَبَر على المحنة وصابر حتى نصره الله تعالى، وكُشِفت الغُمَّة.

●● وفي مجال العقيدة يَبرز المجدِّد الكبير والإمامُ الشهير **أبو الحسن الأشعري**[٣]، حيث كانت تعلو سطوةُ المعتزلةِ وعلمُ الكلام، (وكان الإسلام يؤمئذٍ في حاجةٍ: إلى شخصية قوية تفوقُ المعتزلةَ في مواهبها العقلية، وفي مستواها العلمي. إلى رجلٍ لم يلمَّ بالعلوم العقلية إلماماً فحسب، بل نزل في

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٢/ ٣٢.

(٢) المرجع السابق: ١٢/ ٥٣٦ ـ ٥٣٩.

(٣) انظر: فصلاً نفيساً عنه في كتاب: رجال الفكر والدعوة: ١/ ٢٢١ ـ ٢٣١.

أحشائها، ورَسَب في أعماقها. كان الإسلام في حاجة إلى عملاقٍ في العلم والعقل، يتضاءل أمامه حَمَلَةُ راية العلم والعقل في عصره، كما يتضاءل الأقزام، وكما يتضاءل التلاميذ الصغار أمام أستاذٍ نابغة وإمامٍ كبير. ولقد كان الإسلام في حاجة مُلِحَّةٍ إلى هذه الشخصية الرفيعة القوية، ووُجدت هذه الشخصية المطلوبة في شخص أبي الحسن الأشعري).

(ونهض أبو الحسن يدعو إلى عقيدة أهل السنَّة، ويدافع عنها في حماسة وإيمان، ويردُّ على المعتزلة، ويتبعهم في مجالسهم ومراكزهم، يحاول إقناعَهم بما اقتنع به أخيراً من عقائد أهل السنَّة، ومذاهب السلف).

وإنَّ سرَّ عظمتِه وعبقريته في أنه اتخذ طريقاً وسطاً بين المعتزلة والمحدِّثين، فلم يذهب كما ذَهب المعتزلةُ إلى تمجيدِ العقل، والإيمانِ بأنَّ له سلطةً لا تُحَدُّ، وأن له الحكمَ على ما يتصل بالذات والصفات وما وراء الطبعيات. ولم يرَ كذلك أن الانتصارَ للدين والدفاعَ عن العقيدة الإسلامية يستلزمان إنكار العقل وقوته، وأن السكوتَ عن مباحثِ علم الكلام والمباحثِ التي يُثيرها المعتزلة وأضرابُهم أفضلُ وأسلمُ.

(وقد سار الأشعري في طريقه مجاهداً، ومناضلاً منتجاً، معرِضاً عن سخط الطائفتين: الحنابلة والمعتزلة، لا يعبأ بما يُقال فيه، مؤمناً بأنه هو الطريق الذي ينفع الدين في عصره، ويردّ إلى الشريعة الإسلامية مهابتها وكرامتها، ويحرس للناشئة دينها وعقيدتها، حتى استطاع بعمله المتواصل، وشخصيته القوية، وعقله الكبير، وإخلاصه النادر، أن يردَّ سيلَ الاعتزال والتفلسف الجارف الذي كان يتهدَّد الدين)[١].

●● وفي علوم الإسلام برز أساطينُ كبار جدَّدوا للأمة أمرَ دينها، فحفِظوا السُّنَن الشريفة، وشيَّدوا في بنيان الفقه الإسلامي الزاخر.

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٩، مقتطفات.

ففي السنَّة النبوية تألق رهْطٌ كريم مبارك ممن نافَحَ عن الآثار الشريفة وحَفِظها ودَوَّنها ونَفَى عنها الكذب والتحريف، فحفظ الله بهم المصدر الثاني للإسلام، وفي مقدمة هؤلاء: **يحيى بن مَعين، وعلي بن المَدنيي، وأحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابن ماجه، وعبد الرزاق الصَّنْعاني، وأبو بكر بن أبي شيبة، وعبد الله بن عبد الرحمن الدَّارِمي، وعَبْد بن حُميد، وإسحاق بن راهَوَيْه، وغيرهم.**

وفي الفقه: الإمام الكبير أبو جعفر أحمد بن محمد الطَّحاوي، والإمام شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عُمر بن سُرَيْج، والإمام الحافظ الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الخَلّال.

٤ ـ القرن الرابع الهجري:

●● فمن أولي الأمر **الخليفة العباسي القادر بالله**، وكان ديِّناً عالماً متعبِّداً وقوراً من جِلَّة الخلفاء وأَمْثَلِهم، يُديم التهجد، ويُكثر الصدقات.

وكان رحمه الله تعالى رافعاً لأعلام السنَّة ومناصراً لأهلها، وقَمَعَ الرافضة والمعتزلة والإسماعيلية والقرامطة والمُشبِّهة والجَهْميّة، وقاوم (العُبيدية) وأَمَر بفَضْح نَسبِهم ومذاهبهم الفاسدة.

وناصَرَ الفاتحَ العظيمَ محمود بن سُبُكْتِكِين[1].

ـ وفي الجزء الشرقي من دولة الإسلام قام **السلطان الكبير محمود بن سُبُكْتِكِين الغَزْنَوي**[2]، وأعادَ إلى الهند لواءَ الإسلام مرة ثانية في هذا القرن، فخرج من (غَزْنة) إلى الجنوب من (كابُل) ـ عاصمة أفغانستان ـ واخترق (ممرَّ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٥/ ١٢٧ ـ ١٣٧.

(٢) انظر: ترجمته في: وفيات الأعيان: ٥/ ١٧٥ ـ ١٨٢؛ البداية والنهاية: ١٢/ ٢٩ ـ ٣١؛ سير أعلام النبلاء: ١٥/ ١٣٢ ـ ١٣٦، ١٧/ ٤٨٣ ـ ٤٩٤، وفي هامشه قائمة بمصادر ترجمته؛ رجال من التاريخ، ص٢٢٩ ـ ٢٣١.

خيبر) ودخل الهند، وقاد جيوشاً جرَّارة، وخاض عشرات من المعامع، وقَلَع أزيدَ من ألف صنم ووثن، ومزَّق جيوش الهنادك الوثنية، ومضى حتى جاب (البنجاب)، واستجابت له هاتيك البلاد، فأقام فيها حكم الله، وأذاق أهلها عدالة الإسلام.

وامتدَّ سلطانُه من الهند إلى نَيْسابور.

وكان سُنِّيّاً جليلاً، مناصراً للخليفة العباسي وفي طاعته، معادياً للبدع وأهلها، وردَ إليه الداعي من الحاكم العبيدي (الفاطمي!) يدعوه إلى طاعته، فخرَّق كتابه، وبَصَق عليه!.

وقد شَيَّد ـ طيَّب الله ثَرَاه ـ دولةً سُنّيّةً، وبَثَّ السنَّة بممالكه، وتهدَّد بقتل الرافضة والإسماعيلية والقرامطة، والمشبِّهة والمعتزلة والجَهْميَّة.

●● ومن المجدِّدين في نُصرة العقيدة: الإمام العلّامة المتكلِّم الأصولي **أبو بكر محمد بن الطيب ابن الباقِلّانيّ**، المُلقَّب بسيفِ السنَّة ولسانِ الأمة، المتكلمُ على لسانِ أهل الحديث، وطريقِ أبي الحسن الأشعري.

وكان ثقةً إماماً بارعاً، صنَّف في الرِّد على الرافضة والمعتزلة، والخوارج والجهمية والكَرَّامِيَّة[1].

●● **ومن أعيان الفقهاء المجددين شيخُ الإسلام أبو حامد أحمد بن محمد الإِسْفَرايِيني.**

قال الإمام أبو عَمْرو بن الصَّلَاح: (وعلى الشيخ أبي حامد تأوَّلَ بعضُ العلماء حديثَ: «**إنَّ اللهَ يبعثُ لهذه الأمة على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يُجدِّد لها دِينهَا**» فكان الشافعي على رأس المئتين، وابنُ سُريج على رأس الثلاث مئة، وأبو حامد على رأس الأربعمئة)[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٧/ ١٩٠ ـ ١٩٣.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٠؛ سير أعلام النبلاء: ١٧/ ١٩٥.

٥ ـ القرن الخامس الهجري:

●● من ولاة الأمر المجددين: الخليفة العباسي أمير المؤمنين **المُسْتَظْهِر بالله**، كان ـ رحمه الله تعالى ـ موصوفاً بالسخاء والجود، ومحبَّةِ العلماء وأهلِ الدين، والتفقُّد للمساكين، مع الفَضْل والنُّبل والبلاغة، وعلوِّ الهمة، وحُسْن السيرة، وكان رضيَّ الأفعال، سديدَ الأقوال، ليِّنَ الجانب، كريمَ الأخلاق، مشكورَ المساعي.

وكان مظهراً للسنَّة، محبّاً لأهلها ومناصراً لهم، قامعاً للبدع، محارباً للباطنية من العبيدين وأضرابهم، معاضداً للأمراء والوزراء والقادة الذين يحاربون الباطنية وينصرون السنَّة(١).

ـ وفي بلاد المغرب العربي الإسلامي قام المجدِّد الكبير **يوسف بن تاشفين** الذي قاد (المُرابطين) من الصحراء وسار بهم إلى المُدن، إلى فاس حاضرة المغرب وكبرى مدنه، فافتتحها وأقام عليها أميراً يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله. ثم توجّه إلى طنجة فافتتحها وأقام عليها أميراً. ومازال يفتح المدن، مدينة بعد مدينة، حتى فتح مدن المغرب الأقصى كلها. ثم مَلَك الجزائر، ثم توجه إلى تونس فغَلَب عليها. وكان في كل بلدة أمير يظلم الناس، وحكومة تعيث في الأرض فساداً، فجعلها كلها حكومة واحدة، ووحَّد المغربَ كلَّه من تونس إلى المحيط الأطلسي. وأقام (دولة المرابطين) التي ظَلَّلت رايتُها المغرب كله والأندلس.

وكان ابن تاشفين رجلاً من الطراز الأول، بطلاً شجاعاً، مقداماً حازماً، جواداً كريماً، عادلاً متورِّعاً، سائساً للأمور، متقشِّفاً زاهداً، عزيز النفس، كثير الخوف من الله تعالى.

وقد أسس دولة من أكبر دول الإسلام، وبنى مدينة (مَرَّاكُش) وهي من أجل

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٩/٣٩٦ ـ ٤١١.

المدائن، ورضي بأن يكون تابعاً للإمامة العظمى، لأنه كان يرى رأيَ الإسلام، وهو أنه لا يجوز أن يكون المسلمون إلا دولة واحدة، وكتب إلى الخليفة العباسي يستمدُّ منه الإمارة، فأرسل إليه بمرسوم الولاية على المغرب، وسمَّى نفسَه (أمير المسلمين)، وأعلن أنه تابع للخليفة في بغداد!.

ومن أجلِّ الأعمال التي قام بها وجدَّد للمسلمين دينَهم ودولتهم ووجودَهم؛ أنه أنقذ الأندلس من الصليبيين، فلقد كانت الخلافات بين ملوك الطوائف تمزِّق كيان المسلمين هناك، وأخذ الإسبان يأكلون أطراف دولتهم، فاستنجد المسلمون بإخوانهم (المرابطين)، فلبَّى ابنُ تاشفين واجبَ الأخوّة، وعَبَر إلى الأندلس، وخاض بجنده مع الصليبيين موقعة من أعظم المواقع الحربية في تاريخ الشرق والغرب، وهي (معركة الزلّاقة ـ سنة ٤٧٩هـ)، حيث كَسَر جموعَ الصليبيين، ودخل الأندلس فاتحاً، وعادت لها وحدتها تحت الراية الإسلامية الكبرى، وكانت على وشك السقوط فأخَّرت هذه المعركة سقوطها (أربعمئة سنة)(١)!.

ـ وفي المشرق الإسلامي لَمَع نجمُ **أَلبْ أرْسَلان السَّلْجُوقيّ**، السلطان الكبير، الملك العادل، المجاهد البطل.

رفع رايةَ الجهاد، وقاد الجيوش الجرارة، وجدَّد عهد الفتوحات العظمى، وغزا بلاد الروم، وافتتح بلاداً وقلاعاً، ووسَّع رقعة دولة الإسلام، ونازَلَ الدولة البيزنطية في الوقعة الشهيرة (ملاذكرد ـ سنة ٤٦٣هـ) التي سُمِّيت بالملحمة الكبرى، وانتصر فيها، وكانت أكبر نكسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وضَمَّ السلاجقة إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على (٤٠٠ ألف كم٢) عَمَّها الإسلامُ ومدَّ فيها رُوَاقه.

ومن الأعمال العظيمة لهذا السلطان وقوفه في وجه الباطنية وحربه للدولة العبيدية (الفاطمية)، واستطاع أن يكسر التحالفَ بين بيزنطة والفاطميين.

---

(١) رجال من التاريخ، ص٢٧٥ ـ ٢٨١؛ سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤، وفي هامشه مصادر ترجمته.

وقد عَظُم أمرُه، وخُطِب له على منابر العراق والعجم وخراسان، ودانَتْ له الأمم، وأحَبَّتْه الرعايا(١).

ـ **ونظام المُلك الحَسن بن علي الطُّوسي**(٢)، الوزير الكبير، العالم العادل، وَزَر للسلطان أَلَبْ أرْسَلان، ثم لابنه مَلِكْشَاه، فدبَّر ممالِكَه على أتمِّ ما ينبغي، وخفَّفَ المظالمَ، ورَفَقَ بالرعايا، وبنَى الوقوفَ، وهاجرت الكبارُ إلى جَنابه، وازدادت رفعتُه، واستمرَّ عشرين سنة.

رَفَع لواءَ الإسلام، وحَمل راية الجهاد، ونَشر العدل، وقَعَد لردِّ المظالم، وفَعَلَ أصنافَ المعروف، بَهرتْ سيرتُه العقولَ جوداً، وكرماً، وعدلاً، وإحياءً لمعالم الدين، بنى المدارس، ووَقَف الوُقوفَ، ونَعَش العلمَ وأهلَه، وفتح طريق الحج وعَمَره، وعَمَر الحرمين، وابتاعَ الكُتب بأوفر الأثمان، وعَمَر دور الكتب، وكانت سوقُ العلم في أيامه قائمة، والنِّعم على أهله دارَّة، مع التواضع النادر، والشفقة على الفقراء والمغمورين، والصدقات الجزيلة، والهبات الطائلة.

●● ومن رؤوس المجددين في هذا القرن: **الإمام حجَّة الإسلام أبو حامد الغزالي**، الذي وصفه الفقيه الأديب علي الطنطاوي بأنه: (أحدُ العشرة الكبار جدّاً من رجال الفكر الإسلامي، وأحدُ العشرة الكبار جدّاً من أرباب القلم، وهو أقدرُ مَن لخَّصَ الفلسفةَ اليونانية، وأقدرُ من رَدَّ عليها، أيَّدها وقوَّاها، ثم ضربها ضربةً لم تقم لها بعده قائمة أبداً)(٣).

وأثنى عليه جدّاً المفكّر الدكتور عدنان زرزور، وقال: (إن الغزاليَّ كان باستجابته للتحديات التي شهدها عصره رجلَ القرن الخامس الهجري، وبمنزلته التي انفردَ بها في تاريخ الفكر الإنساني رجلَ الألفية الثانية الميلادية)(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٤١٤ ـ ٤١٨؛ دولة السلاجقة، ص٧٨ ـ ٩٣.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٩٤ ـ ٩٦؛ طبقات السبكي: ٤/ ٣٠٩ ـ ٣٢٨.
(٣) رجال من التاريخ، ص٢١٩.
(٤) شخصيات وأفكار، ص٤٩، ٥٤.

لقد اجتمع للإمام الغزالي العقلُ المقتدِر والروح القوية والنفس المنزهة، كما عرفت حياته صلاحَ المتصوف الزاهد وعبادة التقي البصير، ومزيةُ المزايا فيه هي استجابتُه لتحديات العصر، وعلى نحوٍ يتصف بالإحاطة والنفاذ والبراعة في تشخيص الداء ووصف الدواء.

وكان عصره يموج بالمذاهب والعقائد والفلسفات، واشتهر من ذلك كله بشيوع مذاهب الباطنية والقرامطة، والقدرية والجهمية والمعتزلة والكَرَّامية والخوارج والروافض، وفشوّ شُبَه الملحدين وغوائل الجاحدين، وما منهم إلا مَنْ نَظَر في الفلسفة وسَلَك من طُرقها ما وقع عليها اختياره.

ولم يخفَ على الغزالي هذا النظرُ في الفلسفة والتأثُّر بها أو التعويلُ عليها، فتجرَّد لها وعرَّف بها وبوجوهها وآراء أصحابها، وذلك في كتابه «مقاصد الفلاسفة»، ثم عاد عليها بالنقد العلمي في كتابه «تهافت الفلاسفة».

كذلك لم تخفَ على الإمام ألاعيبُ الباطنية الذين وَسَموا العصر بسِمَتِهم، حيث قامت «فلسفتُهم» على محاولة إفراغ القرآن من مضامينه ومعانيه تحت ستار الظاهر والباطن وتحت شعار «التأويل» الذي يقضي بأن هذه المعاني مستترةٌ وراء ألفاظٍ لا تدلُّ بالظاهر أو بحسب الوضع اللغوي عليها، وجعلوا الكشفَ عن هذه المعاني من حق إمام الزمان!.

وهذه المحاولات من الباطنية والقرامطة كانت من أجلِ الانتصاف من دولة الإسلام القائمة، وفي سبيل القضاء عليها وعلى سلطان العرب والمسلمين.

فتجرَّد الإمام الغزالي لهذا فكتب كتابه المشهور «فضائح الباطنية»، ووضع رسالته «قانون التأويل» وعَرَض لهذا في كثير من كتبه ورسائله الأخرى.

وقال في الباطنية: (ظاهِرُهم الرفضُ وباطنُهم الكفرُ المَحْضُ).

ثم هو قبل هذا وذاك وَضَع مناهجَ المعرفة الصحيحة ورَسَم طُرق التفكير القويم، فكتب: الاقتصاد في الاعتقاد، ومعيار العلم، والقِسطاس المستقيم، ومحكّ النظر، وميزان العمل، وإلجام العوام... إلخ، في الوقت الذي وقف

بحزم وموضوعية في مواجهة موجة الغلو في التكفير التي انتشرت في ذلك الوسط الذي كان يموج بالفِرق والمذاهب والفلسفات، وبالصراعات والفتن المذهبية العقدية والفقهية[١].

والتجديد الذي قام به حجة الإسلام متنوع، ويمكن إجماله في أربعة أمور كبرى[٢]:

الأول: نقدُه للفلسفة ونصرته للعقيدة الإسلامية:

فقد هاجم الفلسفة، وتناولها بالفحص والنقد، وهجم عليها هجوماً عنيفاً مبنيّاً على الدراسة والبحث العلمي، وعلى حُجَّة مثلِ حجة الفلاسفةَ، وعقلٍ مثلِ عقل الفلاسفة الكبار ومدوِّني الفلسفة، وألجأ الفلسفة إلى أن تقف موقف المتَّهَم، وألجأ ممثليها إلى أن يقفوا موقف المدافعين؛ فكان تطوُّراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الإسلامية، عادت به الثقةُ إلى نفوس أتباعها والمؤمنين بها، وزالَتْ عنهم مهابةُ الفلسفة وسيطرتها العلمية.

فألَّف أولاً كتابه «مقاصد الفلاسفة»، ذكر فيه المصطلحات الفلسفية والمباحث الفلسفية من غير تعليقٍ ونقدٍ، وعَرض الفلسفة كأحسن ما يعرضها رجال الفلسفة.

وبعد أن انتهى من هذا العمل، شرع في عمله الثاني الذي استحق به أن يُلَقَّب (حُجَّة الإسلام)، وهو نقدُ الفلسفة والهجوم عليها، في كتابه الفذ «تهافت الفلاسفة».

---

(١) من الكلام النفيس الذي كتبه الدكتور عدنان زرزور في كتابه: شخصيات وأفكار، ص٤٩ ـ ٥٧.

(٢) كتب أبو الحسن الندوي فصلاً قيماً عن الغزالي في كتابه: رجال الفكر والدعوة: ١/ ٢٥٧ ـ ٣١٥، وما كتبته في هذه الفقرة منه.

الثاني: ردُّه على الباطنية التي تذرَّعت بالفلسفة، وظَهرتْ في مظهرٍ دينيّ وسياسيّ، فكانت أشدَّ خطراً على الإسلام من الفلسفة:

فلقد كانت الباطنية تتسرَّب إلى المجتمع، وتنفُثُ سُمومَها فيه، وكانت لها الإغراءات المادية القوية.

ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحدٌ أجدر بالردِّ عليها، والكشف عن أسرارها، ونقضِ ما تُبنى عليه دعوتُها؛ من الغزالي؛ لجمعِه بين التضلُّعِ من الفلسفة، والوقوفِ على لُبِّ التصوف وعلمِ الباطن، ولاتِّصافِه بالغوص في حقائق الأشياء، والتعمق في العلوم، وتلك بضاعة الباطنية التي تتبجَّح بها!.

وقد سبق أن أَلَّف ـ وهو مدرس في المدرسة النظامية ـ كتاباً في الردِّ على الباطنية، باقتراحٍ من الخليفة المُسْتَظْهِر بالله أسماه «المُسْتَظهِري» وهو المعروف بـ «فضائح الباطنية». . وألّف أيضاً ثلاثة كُتب في الردِّ عليهم، هي: «حجة الحق»، و«مفصل الخلاف»، و«قاصم الباطنية».

الثالث: في الفقه وأصوله:

فلقد كان الغزالي إمامَ الشافعية في زمانه، فألَّف في أصول الفقه كتابه: «المستصفى»، وفي الفقه الشافعي: «الوجيز» و«الوسيط» و«البسيط»، وهي من أمهات كتب فقه الشافعية من أيامه وإلى الآن.

الرابع: الإصلاح الاجتماعي:

وتوجّه بذلك إلىٰ الملوك والأمراء والعلماء والعامة، وأشاع ذلك في دروسه ورسائله وكتبه.

وكتابه «إحياء علوم الدين»، على ما فيه من أحاديث موضوعة وضعيفة وأشياء من كلام الصوفية المُمعِنة في الغلو ـ وقد تعقَّبه فيها علماء الإسلام كابن الجوزي وابن تيمية والعراقي، مع اعترافهم بفضل الكتاب ـ فإنه في مقدمة

الكتب الإسلامية التي انتفع بها خلائق لا تُحصى في كل عصر وجيل، وأثَّرتْ في النفوس تأثيراً لا يُعرف إلا عن كتب معدودة.

٦ ـ القرن السادس الهجري:

●● يبرز في هذا القرن في العراق والشام ومصر ثلاثةُ رجال كبار يَدين لهم المسلمون من زمنهم وإلى الآن وإلى قيام الساعة؛ بالأعمال المجيدة الخالدة والتجديد الشمولي الذي قدَّموه للإسلام والمسلمين والتاريخ، وهم: **عماد الدين زَنْكي** (المتوفى سنة ٥٤١هـ)، وابنه **نور الدين محمد الشهيد** (المتوفى سنة ٥٦٩هـ)، **وصلاح الدين الأيوبي** (المتوفى سنة ٥٨٩هـ).

الذين وحَّدوا بلادَ الإسلام بعد فرقة وتناحر، وجمعوا المسلمين من شتات وضياع، وقَضَوا على الخرافات والبدع، وأسسوا دولة عظيمة وقفت في وجه الصليبيين وكسَرَتْهم.

ـ بدأ **عماد الدين** بتوحيد الإمارات الإسلامية (حلب والمَوْصل والرُّها وحماة وحِمْص ودمشق وغيرها)، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً، عظيمَ الهيبة، مليحَ الصورة، أسمرَ جميلاً، يُضْرَب بشجاعته المَثَل، لا يَقرُّ ولا ينام، فيه غَيرةٌ حتى على نساء جُنْده، عَمَر البلاد ودانَتْ له[١].

ـ وخَلَفه ابنُه **الملك العادل نور الدين محمود الشهيد** ليثُ الإسلام، فأكمل ما بدأه أبوه، وأمضى (٣٠ سنة) من الجهاد المتواصل من أطراف العراق إلى مصر، وسار في الناس على هَدْي الخليفتين العظيمين أبي بكر وعمر!.

بنى المدارسَ والجوامع والمساجد، وعَمّر الخَوانِق والرُّبُط والجسور والخانات، بحلب وحمص ودمشق وبعلبكّ وتَدْمُر والرقة ومَنْبِج وغيرها من أطراف الدولة، وأنشأ المارستان (المستشفى) ودار الحديث، وبنى دار العدل، وأنصف الرعية، ووقف على الضعفاء والأيتام والمجاورين، وأمر بتكميلِ سور

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ١٩٠.

المدينة النبوية، واستخراجِ العين بأُحُد، وفتحَ دربَ الحجاز، ووقف كتباً كثيرة مثمنة، وأبطل المُكُوس.

وكان بطلاً شجاعاً، وافرَ الهيبة، حسنَ الرمي، ذا تعبُّد وخوفٍ وورعٍ، وكان يتعرَّض للشهادة، سمعَه كاتبُه أبو اليسر يسألُ الله أن يحشُرَه من بُطونِ السِّباعِ وحواصلِ الطير!.

خاض مع الفِرَنج معاركَ كثيرة، وكَسَرهم مرَّات، ودوَّخهم وأذلَّهم.

وأرسل جيشاً لَجِباً مع نائبه أسدِ الدين شِيركُوه، فافتتح مصرَ، وقهَرَ دولتَها العُبيدية (الفاطمية!)، وهربت منه الفِرَنج، وصَفَتِ الديار المصرية لشيركوه نائبِ نور الدين، ثم لصلاح الدين، فأباد العُبيديين واستأصَلَهم، وأقام الدعوة العباسية[1].

ـ ثم أكملَ المسيرةَ **السلطانُ الكبيرُ الملكُ الناصر صلاحُ الدين الأيوبي**، وكان من حسنات نور الدين الشهيد، وسيرتُه الطيبة وأعماله المجيدة قد سارت بها الرُّكْبان، وكُتب فيها الكثير، وأجلّ أعمالِه التي تُذكر في ميدان خدمة الأمة وتجديد دينها؛ عملان ضخمان؛ **الأول**: هزيمة الصليبيين في حطين سنة (٥٨٣هـ) وتحرير المسجد الأقصى. **والثاني**: القضاء على الدولة الباطنية العبيدية (الفاطمية) بمصر[2].

ونشأت في زمن هؤلاء السادة الثلاثة (مدرستان) جليلتان، كان لهما الأثر الكبير في تربية وتخريج أجيال من المسلمين الذين كانوا جنوداً في جيوش الإصلاح والتجديد والجهاد والفتح:

ـ **مدرسة الأشاعرة**: التي تربت على كتب الإمام الغزالي وأفكاره

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٥٣١ ـ ٥٣٩. وللدكتور عماد الدين خليل كتاب قيِّم في سيرته وأعماله المجيدة.

(٢) سقطت هذه الدولة عام (٥٦٨هـ).

التجديدية، التي سبق ذِكْرها، وفي محاضِنها نشأ البيت الزنكي، وتربى عماد الدين وابنه نور الدين.

ـ **والمدرسة القادرية**: التي أسَّسها الإمام العالم الزاهد القدوة عبد القادر الجيلاني إمام الحنابلة وشيخهم في عصره(١)، والتي ركّزت على نصرة العامة والفقراء من جهة، وعلى التعليم من جهة أخرى، وخَصَّت أبناءَ الهاربين أمام الغزو الصليبي بعنايتها، فكانت تعلِّمهم وتعدُّهم إعداداً إسلاميّاً، ثم تُعيدهم إلى مناطق المواجهة(٢).

●● وفي المغرب الإسلامي كان السلطان الكبير **يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن المَرَّاكُشي المُوحِّدي**، على رأس (دولة المُوحِّدين)، كان فارساً شجاعاً، خبيراً بالأمور، خَليقاً للإمارة، ينطوي على دينٍ وخيرٍ، وتألُّهٍ ورزانةٍ، يُقصد لعَدْله ولفَضْله ولبذله وحسنِ معتقده، وكانت مجالسه مزيَّنةً بحضور العلماء والفضلاء، تُفتتح بالتلاوة ثم بالحديث، وكان يجيد حفظَ القرآن، ويحفظُ الحديث ويتكلم في الفقه، وعليه جلالةُ الملوك...

له دور تجديدي كبير في الإصلاح والجهاد وعظمة الفتوحات في المغرب، ونُصرة المسلمين في الأندلس، وخوضِه معاركَ كثيرة ضد جيوش الصليبية وخاصة (معركة الأرك ـ سنة ٥٩١هـ) حيث هزم جيوشَ إسبانيا ومكَّن للمسلمين في الأندلس.

ذكروا أن الأَذْفُنْش ملك قَشْتالة كتب إليه يُهدِّده ويعنِّفُه ويطلب منه بعضَ البلاد، فلما قرأ الكتاب تنمَّر وغضب ومزَّقه وكتب على رقعة: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا...﴾ [النمل: ٣٧]، الجوابُ ما ترى لا ما تسمع:

ولا كُتْبَ إلا المَشْرَفِيَّةُ عِندنا ... ولا رُسْلَ إلا للخميسِ العَرَمْرَمِ

---

(١) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: ٢٠/٤٣٩ ـ ٤٥١.

(٢) الضربات، ص٦٦.

ثم استَنْفَر الناس، وحشَدَ وجمع، حتى احتوى ديوان جيشه على مئتي ألف، وعدَّى إلى الأندلس، فتمَّت الملحمة الكبرى، ونَزل النصر والظفر[١].

●● وفي شبه القارة الهندية يبرز من المجددين الأَخَوَان: **غياثُ الدين الغُورِيّ وشهاب الدين الغُوري**، اللذان تابَعَا فتوحات محمود بن سُبُكْتِكِين الغَزْنَوِيِّ، ونشر الإسلام في تلك البلاد، وقامت في الهند حكومة إسلامية قرارتها (دهلي)[٢].

٧ ـ القرن السابع الهجري:

غَربتْ دولةُ الخلافة العباسية في منتصف هذا القرن على يد الزحف التتري المدمِّر، الذي اجتاح عاصمةَ الخلافة (بغداد) سنة (٦٥٦هـ)، وبلادَ الشام، ونشر الرعب في قلوب عامة المسلمين.

لكن الله سبحانه استنقذ هذه الأمة، وتحقق من جديد (حديث التجديد) في الوعد النبوي الصادق: «**إنَّ اللهَ يبعثُ لهذهِ الأمة على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يجدِّد لها دينَها**»!.

●● فبعد سنتين فقط من (سقوط بغداد) تألَّق نجمٌ وهَّاج شكَّل منعطفاً تاريخياً في تاريخ المسلمين، بل والتاريخ الإنساني، وجَدَّد الله به الدينَ وحَفِظ الأمة وأعاد للمسلمين وجودهم ودولتهم؛ إنه البطل المجاهد الشهيد المظفّر **سيف الدين قطز**.

ذلكم الرجل الذي سَلَكه التاريخُ في العِقْد الفريد الذي ضَمَّ قبله خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعَمْرو بن العاص وعُقبة بن نافع وموسى بن نُصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم، وغيرهم كثير.

(قطز رجلٌ سطَعَ في سماء تاريخ المسلمين لفترة قصيرة زمنيّاً، ولكن

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣١١ ـ ٣١٩؛ الضربات، ص١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٢٠ ـ ٣٢٣؛ رجال من التاريخ، ص٢٣٠.

سطوعَه كان باهراً، بحيث ترك تأثيراً بقي على مرِّ القرون قويّاً مؤثِّراً، يُنبئ عن الشجاعة الأخلاقية، وإنكار الذات، والإيمان بحق الحياة وحق الدفاع عن هذه الحياة.

فالسلطان المظفَّر سيف الدين قطز دخل إلى رحاب التاريخ من باب الرقّ والعبودية الضيق، وسرعان ما فُتحت أمامه أبوابُ تاريخ المسلمين الواسعة مرحِّبةً، عندما كرَّس مواهبه العسكرية والسياسية لخدمة الدفاع عن المقدسات.

وطالَتْ قامتُه التاريخية على كثيرين من الحكام عندما تجسَّدت في شخصه إرادةُ أمة الإسلام في معركة عين جالوت، التي كَسَرت الموجة المغولية الطاغية، والتي كانت بداية سلسلة من التغيّرات، كان أهمها تحوّل المغول إلى الدين الإسلامي، بحيث صاروا قوة فاعلة في بناء حضارته)[١].

ـ ومن أكابر المجددين من ولاة الأمر **الملك الظاهر بَيْبَرْس البندقداري** (المتوفى سنة ٦٧٦هـ)[٢]، يُقرن في المكارم والبطولات والفتوحات وجلائل الأعمال مع نور الدين وصلاح الدين.

جاء بعد المظفر قطز، وقد وَلي والبلادُ مضطربة مقسَّمة، والحكومات فاسدة، والموظفون فاسدون مرتشون، والمظالم مستمرة، والأعداء في الداخل والخارج؛ في داخل البلاد أمراء يَطمعون بالمُلك من دونه، فَهُم يتربَّصون به، ويُعدُّون العدد للانتفاض عليه، وفي خارجها أقوى عدوَّين عرفهما التاريخ الإسلامي كله: التتار والصليبيون.

فتوجَّه للإصلاح وأصدر سلسلة من المراسيم المتتابعة، أَبطل فيها المكوس، ورَفَع المظالم، وجعل للضرائب قانوناً عادلاً معروفاً، وأصلح أسلوبَ القضاء، ونصب أربعة قضاة للمذاهب الأربعة، وأعاد افتتاح (الأزهر)،

---

(١) المظفر قطز، ص٦.

(٢) فوات الوفيات: ١/ ٢٣٥ ـ ٢٤٧؛ رجال من التاريخ، ص١٩٩ ـ ٢٠٤، ومنه اقتطفنا ما كتبناه.

وعمل على نشر التعليم، ففتح المدارس وأقام لها المدرسين، وأقرَّ العدالة الاجتماعية، فأحصى الفقراء، وضمن لهم ما يعيشون منه، وأَصْلَح الطرق والترع والجسور، ثم التفت إلى الجيش فأعاد تنظيمه، وحرَّم على الجند النهبَ وإتلافَ المزروعات، وأَخَذَهم بالطاعةِ والتدريب، وتركِ الخمر والفحش.

ثم وجَّه نظره إلى السياسة الخارجية، فعقد المحالفات مع الدول المجاورة، خشيةَ اتفاقها عليه وتأييد أعدائه، مع بيزنطة وسلاجقة الروم، والمغول، ومملكة صقلية.

وكوَّنَ دولة من أكبر دول الإسلام، تشمل سورية ومصر والنوبة والحجاز وأطراف العراق، تحكمها حكومة واحدة قوية، وقفتْ في وجه الشرق والغرب، وحاربت التتار والصليبيين معاً، وكان لها الظفر عليهما جميعاً.

رَفَع راية الجهاد وخاضَ سلسلة من المعارك العظيمة، وكان يكون في مقدمة الكتائب، واستمرت حروبه عشر سنين، حارب فيها مرة المغول والصليبيين في وقت واحد، ولم يُغْلَب قط، ولم يَمتنع عليه حصن، وكان في شجاعته وثبات عزمه أعجوبة، وكان أبداً على رأس الجيش، وكان يتفقد الجرحى، ويواسي أهل القتلى، ويرتِّب لهم الرواتب.

إنه مجدِّد شمولي في مجال بناء الدولة، والإصلاح الديني، والإصلاح الاجتماعي، والجهاد في سبيل الله تعالى.

●● ومن أعلام المجددين العلماء: **الإمام الفقيه المجتهد عز الدين بن عبد السلام**، الذي كان يطيعه الشعب، وتهابه الملوك، ويذلّ أمامه الجبارون.

دأبَ على التربية والإصلاح في الشام، وقمعِ البدع وإنكار المنكرات، وحملِ الأمراء على ذلك.

وانتقل إلى مصر فكان له دورٌ باهر في إيقاظ المصريين وشَحْذِ هممهم، والوقوف أمام أمراء المماليك وسلاطينهم، وبعثِ الحمية وبثِّ روح الجهاد في أفئدتهم.

وقُبيل معركة (عين جالوت) بَذَل الأمراء وعامة المسلمين أموالهم في سبيل المعركة الكبرى، وخرجوا لملاقاة التتار، وكان للإمام العز بن عبد السلام دور العالم الرباني في تثبيت القلوب واستنزال النصر، كما كان للقائد دور المجاهد البطل في هزيمة التتار[١].

●● وفي قمة المجددين المصلحين يتوهَّج النجمُ الساطع الذي لا يزال ضياؤه ينير دربَ السالكين والعاملين والمجددين إلى الآن؛ ذلكم هو **شيخ الإسلام ابن تيمية**، الرجل الذي زاحَمَ بمنكبه أكابرَ رجالات الأمة الإسلامية علماً وعملاً وجهاداً ونُبلاً وإخلاصاً.

وأجودُ ما كُتب عنه من زاوية (التجديد والإصلاح) ما سطَّره العلّامة الداعية الكبير أبو الحسن الندوي في كتابه الفذ «رجال الفكر والدعوة»، ولخّص المهمة الإصلاحية التجديدية في الأركان الأربعة التالية:

١ ـ تجديد عقيدة التوحيد، وإبطال العقائد والتقاليد الشركية.

٢ ـ نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وترجيح منهج الكتاب والسنَّة وأسلوبهما على كل منهج وأسلوب.

٣ ـ الرد على الفِرق والمِلل، ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها.

٤ ـ تجديد العلوم الشرعية، وبعث الفكر الإسلامي[٢].

وقد كان لابن تيمية ـ فوق هذه الجوانب الرئيسة ـ جوانب علمية وعملية أخرى كثيرة، ليس أقلّها قيامه بالجهاد بالنفس، وتغييره المنكر بيده... على المعهود من سيرته وحياته الحافلة.

---

(١) انظر: رجال من التاريخ، ص٢٤٥ ـ ٢٥٤؛ العز بن عبد السلام، للدكتور محمد الزحيلي.
(٢) رجال الفكر والدعوة: ٢/ ١٧١ ـ ٢٩٩.

ويمكننا وصفُ ابن تيمية رحمه الله بأنه كان رائدَ (التجديد والإصلاح) و(النهضة السلفية) و(إعادة البناء) بعد سقوط دولة الخلافة(١).

•• ومن مظاهر التجديد البارزة في هذا القرن: تأسيسُ دور القرآن والحديث، ومدارس المذاهب الفقهية السنية الأربعة، التي عرفتها دمشق بهذه الكثرة العجيبة بعد سقوط الخلافة العباسية! ومعلوم أن دمشق والقاهرة ورثتا بغداد، وقامتا مقامها في رعاية الثقافة الإسلامية وحضارة الإسلام، وأن حظَّ دمشق من هذه الوراثة ـ وبخاصة في باب رعاية علوم الكتاب والسنَّة ـ كان راجحاً بحكم قُرْبها الجغرافي من ناحية، وبحكم عدم انقطاع مثل هذه الرعاية، أو عدم مناقضتها بعد زوال حكم بني أمية (عام ١٣٢هـ) من ناحية أخرى، على خلاف ما كانت عليه مصر في ظل الحكم الباطني (الفاطمي)، الذي لم يكن قد مضى على زواله قرنٌ واحد عندما اجتاح هولاكو بغداد(٢).

٨ ـ القرن الثامن الهجري:

•• في الوقت الذي سقطت فيه الخلافة العباسية، كان هناك على المسرح السياسي العالمي نشوءُ قوة إسلامية جديدة ترفع راية الإسلام وتؤسِّس دولة على أصوله وأركانه، وتدافع عنه وتجدِّده وتنشره في العالمين، تلكم هي الخلافة العثمانية.

ولدت الدولة العثمانية سنة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م)، وتكامل بنيان هذه الدولة الإسلامية في هذه القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي.

ويبرز في ولاة الأمر ثلاثة رجال يُعتبرون مجدِّدين من حيث تأسيسُ الدولة، وتوحيدُ المسلمين تحت راية الإسلام، ونشرُ دعوته، وهم:

---

(١) مقدمة رجال الفكر والدعوة: ١/ ٣٨.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٩.

١ ـ **أورخان بن عثمان**[١]: الذي أَرسى أولَ تنظيم للدولة، وبنىَ (الجيش الانكشاري) وهو أول جيش دائم ومنظم عرفه التاريخ، وأوصل الإسلام إلى (البلقان) فاستقر وجوده هناك[٢].

وكان عثمان أوصى ابنَه أورخان بأن ينشرَ الإسلام هداية للناس، وأن حمايةَ أعراض المسلمين وأموالهم أمانةٌ في عنقه يسأله الله تعالى عنها يوم القيامة[٣].

٢ ـ **مراد الأول بن أورخان**: الذي مدَّ حدودَ الدولة العثمانية الإسلامية إلى شواطئ نهر الدانوب وجهات (البوسنة) في عمق أوروبة الشرقية، وتوسعت الدولة في عهده إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه من قبل[٤].

٣ ـ **بايزيد الأول بن مراد**: تابع الجهادَ والفتوحات ونشرَ الإسلام، وانتصر في معارك عديدة على أوروبة والدولة البيزنطية، واكتمل في عهده بناء الدولة العثمانية.

وكان لانتصاراته صدىً عميق لدى السلطان المملوكي في مصر، والخليفة العباسي الذي كان يقيم في القاهرة منذ سقوط بغداد، ولهذا مَنح الخليفةُ بايزيدَ الأولَ لقبَ (سلطان) مكافأةً له على الجهود الكبرى من أجلِ الإسلام والمسلمين، فأسبَغَ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعيّاً ورسميّاً[٥].

●● ومن مظاهر التجديد: النهضةُ العلمية الواسعة في الشام ومصر، ونشوء

---

(١) أبوه عثمان الأول بن أرطغرل، اعتنق الإسلام وتبعه الأتراك العثمانيون، وهو مؤسس الدولة العثمانية، وإليه تُنسب، ومدة حكمه ما بين (٦٩٨ ـ ٧٢٦هـ/ ١٢٩٩ ـ ١٣٢٦م). انظر: العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٢٠ ـ ٢٣.

(٢) العثمانيون، لطقوش، ص٢٤ ـ ٣٧.

(٣) الضربات، ص١٧١.

(٤) العثمانيون، لطقوش، ص٣٨ ـ ٤٦.

(٥) المرجع السابق، ص٥٣.

مدارس علمية شهيرة ـ هي بمثابة جامعات متخصصة الآن ـ برز فيها أساطين العلماء مما يُضاهي ما كان عليه المسلمون في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

وشمل ذلك مختلِف العلوم: علوم القرآن والتفسير والقراءات، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، واللغة العربية وعلومها وآدابها، والتاريخ، والجغرافية، والطبيعة، والحساب، والفلك، والاجتماع، وغيرها.

وهذا بلا ريب تجديد له خطره، يوازي بناءَ الدولة وانسياح الفتوحات.

وقد ذكر بعضهم من المجددين في هذا القرن: **ابن خلدون**، **وابن القيّم**، **والشاطبي**، **والبلقيني**، وهذا ـ برأينا ـ فيه هضم كبير لعشرات من أمثالهم ممن برزوا في هذا القرن.. لكن يتميَّز اثنان من هؤلاء بتجديد محدود:

الأول: هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، واضعُ (علم الاجتماع) ومبتكرُه، وكتابه (المقدمة) يشهد له بالتجديد والسبق[١].

الثاني: الإمام الشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللَّخْمي الغَرْنَاطي، الحافظ الجليل المجتهد، كان أصوليّاً مفسِّراً، فقيهاً محدِّثاً، لغويّاً بيانيّاً، نظَّاراً ثَبْتاً، زاهداً سُنيّاً، بارعاً في العلوم، من أفراد العلماء المحققين الأثبات.

وكتابه «الاعتصام» لم يُسبق إلى مثلِه، ويُعتبر مبدأً نهضةٍ جديدة لإحياء السنَّة، وإصلاح شؤون الأخلاق والاجتماع.

وكتابه الآخر «الموافقات» لا ندَّ له في بابه (أصول الفقه وحِكم الشريعة وأسرارها)، ولم يُسبق إلى مثله أيضاً.

فهو بهذين الكتابين يُعتبر من المجددين في الإسلام[٢].

---

(١) صدرت عن ابن خلدون ومقدمته عدة كتب ودراسات، منها ما كتبه محمد الخضر حسين، وساطع الحصري، وعمر فروخ، وغيرهم.

(٢) من مقدمة كتبها محمد رشيد رضا للتعريف بكتاب «الاعتصام» ومؤلفه: ١/٣ ـ ١١.

٩ ـ القرن التاسع الهجري:

●● المجدد الذي يَسُود اسمُه صفحاتِ هذا القرن هو **الخليفةُ العثماني الشهير محمد الثاني بن مراد، المشهور بـ (محمد الفاتح).**

وتميز نَضَّر الله وجهه بالشمول في التجديد، وعلى رأس أعماله وأجلِّها أنه فتح القُسْطنطينية، وجعلَها عاصمة الخلافة الإسلامية، وأَطلق عليها اسم (إستانبول) أو (إسلام بول) ومعناها (دار الإسلام).

وأصبحت الدولة في عهده قوة إسلامية كبرى هَزمت (بيزنطة) وفَرضت هيبتَها على العالَمَيْن الإسلامي والأوروبي، وتقبَّل العالمُ الإسلامي الزعامةَ التركية العثمانية الإسلامية.

وتحققت على يديه النبوءة النبوية في (فتح القسطنطينية)[1]، وتحوَّل الملايين في شرق أوروبة إلى الإسلام.

وأصبحت المسالك التجارية العالمية في أيدي العثمانيين، وقضى على كثير من الجيوب المناوئة التي كانت تطعن في خاصرة الدولة، واستمر الجهاد، وتراحبت الفتوحات، ودبّ الرعب في قلوب عواصم أوروبة الغربية.

وعني بالتشريع والقانون، والأعمال العمرانية، ودور الصناعة، وتنظيم الأوضاع الحكومية، والتنظيم المدني، والقضاء، والجيش، وأنشأ المساجد والمكاتب والخانات والمستشفيات والأسواق والحدائق العامة.

ونشر الثقافة الإسلامية ومختلف العلوم، وكان هو يجيد خمس لغات؛ منها: العربية، وبارعاً في الأدب والرياضيات والهندسة وغيرها، هذا مع التسامح والرحمة والتواضع والعدل[2].

---

(١) انظر: ما كتبناه عن فتح القسطنطينية في النبوءة (٣٥) من هذا الكتاب.

(٢) العثمانيون، لطقوش، ص٩٥ ـ ٩٨، ١١٦ ـ ١١٩؛ وكتاب: السلطان محمد الفاتح، لعبد السلام عبد العزيز فهمي.

قال في وصيته لابنه: (ها أنَذَا أموتُ، ولكنني غير آسفٍ لأني تارك خَلَفاً مثلك، كن عادلاً ورحيماً بالناس، ولا تستخدم من لا يهتمون بالدين، وأَوْسِع رقعةَ البلاد بالجهاد، واضمن للمعوِزين قُوْتَهم، ولا تُبعِد أهلَ الشريعة عن بابك، فإن الدين غايتُنا والشريعةَ منهجُنا. حضرتُ إلى هذا البلد كنملة صغيرة، فأعطاني الله هذا، اعملْ على تقريرِ الدين المحمدي، وانشرِ الدعوة المحمدية، فإن هذا هو أوجبُ واجباتِ الملوك اليوم!)(١).

●● واستمرت مظاهرُ التجديد في (**النهضة العلمية**) التي ظهرت في القرنين الماضيين، وأخذت أبعاداً جديدة في هذا القرن، وبخاصة في الشام ومصر، وأُلِّفت كتب ضخمة موسوعية كثيرة متنوعة، وبرز أئمة كبار مثل: **ابن ناصر الدين الدمشقي، وابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، والسَّخَاوي، والسُّيوطي، وزكريا الأنصاري، والكمال ابن الهُمَام، وابن تَغْري بَرْدي، وشهاب الدين البُوصِيري**، وغيرهم كثير جدّاً، ومن يطالع كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للحافظ السخاوي، يعرف حجم النهضة العلمية في هذا القرن.

١٠ ـ القرن العاشر الهجري:

●● **يُعتبر الخليفة العثماني العظيم سُليمان بن سليم الأول المشهور بـ (سليمان القانوني)**(٢) أبرزَ شخصية إسلامية في هذا القرن، ويتحقق فيه التجديد الشمولي، حيث ترك آثارَ أعمالِه على دولته وشعبه وعامة المسلمين، وسجَّل له التاريخ مآثر جَمَّةً لا تجتمع إلا للقلة من الخلفاء الكبار.

ـ ففي مجال الجهاد والفتوحات: وسَّع رقعةَ الدولة ومدَّ سلطان الخلافة، ففتح بلاداً جديدة في أوروبة وأدخل الإسلامَ إليها، ومنها المجر.

ـ وقمعَ حركةَ تمرُّدٍ قام بها بعضُ المماليك لاسترداد مُلْكِهم الغارب،

---

(١) الضربات، ص١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) ما كتبناه هنا عن هذا السلطان مختصر مما كتبه الدكتور محمد سهيل طقوش في كتابه: العثمانيون، ص١٦٥ ـ ٢٢٤.

فخانوا دينَهم واستعانوا بالنصارى ضد السلطان القانوني، فبَطَش بهم وخيَّب سعْيَهم.

ـ وكَسَر شوكةَ (الدولة الصّفَويّة)، حيث استعان الصفويون بالمجريين والبرتغاليين ضد الدولة العثمانية السنّيّة! وهدَّدوا بغدادَ ودخلوها، لكن السلطان العثماني تغلَّب عليهم في النهاية، ورحَّب به أهلُ بغداد وغيرها من المدن العراقية، وانضم العراق إلى دولة الخلافة.

ـ ومدَّ يدَ العون للمسلمين في المغرب العربي وسيَّر لهم الجيوشَ، حيث كانت تتهددهم القوى الصليبية الطامعة وخاصة الإسبانية. وعلى آثار ذلك انضمت المغرب وتونس وليبيا إلى دولة الخلافة وانضوت تحت رايتها، وأنهتْ بذلك الأطماعَ الصليبية هناك.

وضَمَّ اليمن، وبذلك تأمَّنَ للعثمانيين طريقُهم الاقتصادي ومكانتهم التجارية ونفوذهم السياسي في المحيط الهندي.

وتؤكِّد دراسات أكثرِ المؤرِّخين العالميين إنصافاً واعتدالاً أن انضمامَ العرب لدولة الخلافة العثمانية الإسلامية؛ قد أخَّر سقوطَ البلاد العربية في قبضة الاستعمار أربعة قرون[(١)]!.

ـ وكان للسلطان القانوني الدورُ الرائد في: تدوينِ وتنظيم القانون العثماني وتطبيقه بعدالة، وتقدمِ النظام السياسي الداخلي والحربي، وتنظيمِ الجيش، وقوانين ملكية الأرض، والقضاء، إضافة إلى تقدم الدولة في الميدان الثقافي والأدبي والعمارة المتميزة.

ـ هذا فضلاً عن أن هذا الخليفة كان ورعاً مُقْبلاً على القرآن، قد نسخ بيده ثماني نسخ من المصحف الشريف! متمسِّكاً بأهداب السنَّة، أديباً شاعراً وله ديوان، ويتقن اللغات الشرقية ومنها العربية، مُنكَبّاً على القراءة والمطالعة، وهو

(١) الضربات، ص١٧٠.

يمثِّل بحقٍّ حاكماً نموذجيّاً فذّاً لا يَقبل القياس إلا مع شخصيات قليلة نادرة، وليس بِدْعاً أن أطلق الغربُ عليه لقبَ (العظيم)! أما شعبه والمسلمون فيسمُّونه بـ (القانوني) بسبب مساهمته في تدوين القانون العثماني وتطبيقه. واستمرت خلافته زُهاءَ سبعٍ وأربعين سنة (٩٢٦ ـ ٩٧٣هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م).

●● وفي ميدان العلم والدعوة والإصلاح، والذَّوْدِ عن الشريعة، ونَفْي ما يطرأ عليها من تحريف وتشويه وتزوير، وتجديدِ روح الإسلام في قلوب الأمة ـ يبرز **الإمام المجدد الكبير أحمد بن عبد الأحد السرهنديّ**، الذي استطاع وهو إنسان أعزل لا يملك حَوْلاً ولا طَوْلاً أن يغيِّر مجرى التاريخ في شبه القارة الهندية، ويحوِّل وجهة الإمبراطورية المغولية!.

لقد استطاع الإمام السرهندي أن يحوِّل الوضعَ المنذِرَ بالقضاء على الإسلام أيامَ الإمبراطور المغولي جلال الدين أكبر إلى وضعٍ سليم قويم، بحيث اعتلى العرش ملكٌ مسلم ملتزم غيور هو (أورانك زيب عالمكير) الذي عُدَّ سادسَ الخلفاء الراشدين!.

وشهدت الهند فتنةَ الفلسفة والعلوم العقلية من جانب، وفتنة الإشراق والباطنية التي حاولتِ النَّيْلَ من عظمة النبوَّة والرسالة المحمدية من جانب آخر.. وإن كان كلٌّ من الفلسفة والإشراق ـ في الحقيقة ـ يتجهان اتجاهاً واحداً، وتسيطر عليهما روحٌ واحدةٌ، فكلاهما يحاول الوصولَ إلى الحقيقة بغير وساطة الأنبياء والمرسلين، وغايتهما واحدة وإن تعدَّدت الطرق! فالفلسفة تريد التوصُّلَ إلى الغاية مشياً على الأرض، أما الإشراق والروح فتريد التوصل عن طريق التحليق في الجو، أو عن طريقٍ خفيٍّ في سرداب!.

والإمام السرهندي كان على علم عميقٍ ودرايةٍ كاملة بكلٍّ من الفلسفة والروحانية، كما كان ـ من جانب آخر ـ من ورثة علوم الأنبياء والمرسلين، العارفين البصيرين بمكانة الوحي والرسالة، فكان نقدُه للفلاسفة والإشراقيين نقداً علميّاً موضوعيّاً يدلُّ على جامعيَّتِه ورسوخه في العلم.

ونجح هذا الإمام نجاحاً باهراً في إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية بخلود الرسالة المحمدية، وحاجة الناس إليها في مواجهة الفتن التي شهدتها الهند، والتي لم تقتصر على الفلسفة والإشراق، بل تعدَّتْها إلى بعض الحركات الإلحادية والشعوبية والتناسخية وعقيدة الإمامة ووحدة الوجود.

إن الإمام السرهندي يستحقُّ وصفَ (المجدِّد) لأنه (استعادَ الهند إلى راية الإسلام، وحَفِظَها من الارتماء في حضن البرهمية وفلسفة وحدة الأديان، ووجَّهَها إلى لواء محمد ﷺ، وسلَّمها لوصايةِ الإسلام وحمايته)[١].

●● وخَلَفَ الإمام السرهنديَّ وقام بتوسيع نطاق عمله التجديدي وتكميله؛ رهطٌ مبارك من الرجال الكبار في شبه القارة الهندية، وقد ذكر أبو الحسن الندوي منهم (واحداً وثلاثين) إماماً ومصلحاً[٢].

١١ ـ القرن الحادي عشر الهجري:

ظهر في هذا القرن رجلٌ جَمع خصالَ الخير وأطرافَ المكارم واستحقَّ وصْفَ (المجدد) عن جدارة، وكان ظهوره في الإمبراطورية المغولية الإسلامية في شبه القارة الهندية؛ ذلكم هو المجدِّد الكبير **السلطان عالمكير أورانك زيب بن شاهجان بن جهانكير بن الإمبراطور أكبر حفيد تيمورلنك**[٣].

حكَمَ الهند كلها خمسين سنة، فأقام فيها العدل، ونشر الأمن، وأعزَّ

(١) صنَّف أبو الحسن الندوي كتاباً مستقلاً عن الإمام السرهندي وأعماله العظيمة، وهو ضمن كتابه: رجال الفكر والدعوة: ٣/ ١٣٩ ـ ٣٣٣، ومنه اقتطفنا هذه السطور؛ وانظر: مقدمة رجال الفكر والدعوة: ١/ ٥٠ ـ ٥٢.

(٢) رجال الفكر والدعوة: ٣/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٣) كتب عنه: علي الطنطاوي في: رجال من التاريخ، ص٢٢٧ ـ ٢٣٧؛ وأبو الحسن الندوي في: رجال الفكر والدعوة: ٣/ ٣٢٢ ـ ٣٣٣، ومنهما أخذنا ما كتبناه عنه. ومعنى **(عالمكير)**: زمام العالم أو قائد العالم. **(زيب)**: زينة الملك.

الصالحين، وقهر الطغاة الجبّارين، وترك آثاراً على الأرض، وآثاراً في الحكم، وآثاراً في العقول. ملأ الهند مساجدَ ومشافي ومارستانات، وملاجئ للعاجزين، ومدارس للمتعلمين، وسنَّ في أساليب الحكم سنن الخير، فنظَّم القضاء، وأصلح قوانين الضرائب، وترك للعلماء كتاباً من أجل كتب الفقه الإسلامي وأشهر كتب الأحكام وأجودها ترتيباً وتصنيفاً، وهو كتاب «الفتاوى العالمكيرية» واشتهر «بالفتاوى الهندية».

وكان عالماً فقيهاً بارعاً في الفقه الحنفي، فأدنى العلماء ولازَمَهم، وجعلهم خاصته ومستشاريه، وبنى لهم المدارس، وجعل لهم الرواتب.

يؤلّف الكتب، ويكتب الرسائل، وكان يكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لِما زهد بأموال المسلمين وترك الأخذ منها، وحفظ القرآن بعد أن ولي الملك، وكان شاعراً.

يصلي الفرائض في وقتها مع الجماعة، ويصوم النوافل، ويقرأ الأوراد، ويتلو القرآن، ويحيي الليل بالتراويح وقليلاً ما يهجع وينام، ويعتكف العشر الأخير من رمضان.

وكان آية في الحزم والعزم، والبراعة في فنون الحرب، وفي التنظيم الإداري.

لقد استطاع هذا السلطان المجدد أن يجمع أطراف الخير وعوامل الصلاح والإصلاح: يتعبّد عبادة الصالحين الأوَّابين، ويقضي بين الناس، ويؤلف في العلم، ويكتب المصاحف، ويحفظ القرآن، وينشر العدل، ويدير دفة الحكم في هذه القارة الهائلة، ويخوض المعارك الكثيرة.

كان أعظم ملوك الدنيا في عصره، وكانت بيده مفاتيح الكنوز، وكان يمرُّ عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معدودة من خبز الشعير، من كسب يمينه من كتابة المصحف لا من أموال الدولة، هذا هو الملك المجدد الذي كان بقية الخلفاء الراشدين.

قَمَع البدع، ومَحَا الخرافات، ونَهى عن المخالفات الشرعية، وأقام رايات الشريعة، ونشر العدل في القارة الهندية، ولقَّبه الناس لذلك (محيي الدين).

ونقل أبو الحسن الندوي عن محمد إقبال قوله: إنه لولا وجودُ الإمام السرهندي وولي الله الدهلوي والسلطان أورانك زيب، ولولا جهودُهم الموفّقة؛ لذابَ الإسلام في الديانة الهندوكية وحضارتها[١].

١٢ ـ القرن الثاني عشر الهجري:

أبرز المجددين في هذا القرن رجلان: كان الأول في الجزيرة العربية وهو **الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، وظهر الثاني في القارة الهندية وهو **الشيخ ولي الله الدهلوي**.

•• **الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب التَّميمي الحنبلي**، من علماء نجد الممتازين، وأحد المصلحين العظام والمجددين البارزين وأصحاب الدعوة والعزيمة في هذا القرن.

عُرفت دعوته في الحجاز، وكُتب لها التأثير والنفوذ والانتشار والتمكين بسبب تشجيع (آل سعود) لها وتبنِّيهم لمنهجها وقيام حكومتهم على أساسها.

وقد كانت دعوة الشيخ وجهاده وجهوده العظيمة تدور حول الدعوة إلى التوحيد الخالص، والردّ على مظاهر الشرك، واستئصال التقاليد والطقوس الجاهلية، التي كان لبعض مظاهرها وشعائرها الظهور والانتشار لبُعْدِ العهد عن زمان النبوة، والجهل العام، وغفلة العلماء في بعض القبائل والأماكن في الجزيرة العربية.

وتدور الدعوة أيضاً حول توضيح الفرق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وشرح حقيقة التوحيد الذي طلبه الله تعالى من عباده، ودعا القرآن الكريم إليه دعوة صريحة واضحة، وتنقيحها.

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ٣/ ٣٣٢.

ولقد قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدور مصلح مجدِّد عظيم، وما حصل له في هذا الصدد من النجاح لا يوجد له نظيرٌ في الدعاة والمصلحين في العهود الماضية(١).

وكانت حروب محمد علي باشا ـ بدعم فرنسا وغيرها ـ لحركة التوحيد التي قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب، تحقيقاً للتخطيط الذي رسمه المستشرق الكونت فولتي(٢)، ومحاولة لإطفاء شعلة الإصلاح والتجديد والنهضة الإسلامية.

ويأبى الله تعالى إلا نصرة أوليائه، فاستمرت هذه الدعوة وانتشرت أفكارها خارج الجزيرة العربية، وتأثّر بها مسلمون كثيرون، وآثارها باقية إلى الآن.

وكانت هذه الدعوة شعلةً لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي: تأثَّر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، فظَهر **الآلُوسي الكبير** في بغداد، **وجمال الدين الأفغاني** بأفغانستان، **ومحمد عبده** بمصر، **وجمال الدين القاسمي** بالشام، **وخير الدين التونسي** بتونس، **وصدِّيق حسن خان** في بهوبال، **وأمير علي** في كلكتة، وآخرون(٣).

●● والمجدد الثاني هو **الإمام حكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي**(٤).

كانت دائرة أعماله الإصلاحية والتجديدية أوسعَ وأشملَ وأعمقَ بكثير من أعمال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتقارن بأعمال وإصلاحات شيخ الإسلام ابن تيمية!.

إنه يظهر بينه وبين ابن تيمية الكثيرُ من وجوه التشابه: في تبحُّرِهما العلمي،

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ٤/ ٣٥٠.
(٢) الضربات، ص٢٥٥.
(٣) الأعلام، للزركلي: ٦/ ٢٥٧.
(٤) كتب العلامة أبو الحسن الندوي كتاباً حافلاً في: سيرة هذا الإمام وأعماله التجديدية، وهو ضمن كتابه: رجال الفكر والدعوة: ٤/ ٨٣ ـ ٣٤٣، ومنه اقتبسنا ما كتبناه هنا.

وبلوغهما درجةَ الإمامة والاجتهاد في علوم الكتاب والسنَّة، وسعةِ النظر، وعمقِ التفكير، وتنوّعِ الأعمال الإصلاحية والتجديدية، وعظمةِ الشخصية، وعبقريتهما[(١)].

ودائرةُ أعمال الإمام الدهلوي الإصلاحية والتجديدية تضمُّ بين جوانبها:

إحياء العلوم الإسلامية، وتجديد الفكر الإسلامي، والكشف عن أسرار الشريعة ومقاصدها، والمَأْثُرة العلمية لعَرْض التعاليم الدينية والشريعة الإسلامية في صورة متناسقة شاملة، ومقاومة الجمود والتحجُّر العلمي، والعصبية الشديدة للمذاهب الفقهية، والعمل الاجتهادي للتطبيق بين العقل والنقل، والتوفيق بين المذاهب الفقهية الأربعة، والمحاولات الجادة للحفاظ على السلطة الإسلامية في الهند، والدراسة العميقة للأحاديث النبوية الشريفة، والجهود التجديدية لنشرها وتعميمها، والدعوة إليها، والدعوة إلى تزكية النفوس، وإصلاح القلوب، والوصول إلى درجة الإحسان، وتعليم طرقها ومناهجها، وتربية الرجال الأكفاء.

ومع كل ذلك يتميَّز الإمام الدهلوي برقَّة وحنان، وقوة عاطفة كانت ـ على حدِّ تعبير محمد إقبال الشعري ـ كوجودِ ماءِ زمزمَ الرقيق الفيَّاض في أرض الحجاز الصلبة الحجرية، وبذلك يَجمع بين صلابة عقيدة التوحيد وحنان القلب، وهو أثرٌ من آثار بيئة الإمام الدهلوي وتربيته الروحية الخاصة[(٢)].

وقد صنَّف الأستاذ الكبير أبو الحسن الندوي المآثرَ التجديدية للإمام الدهلوي، ثم بحث فيها وأشبعَ الكلام ببيان كنوزها، ونحن نذكر عناوينها، وهي:

١ ـ إصلاح العقائد، والدعوة إلى القرآن الكريم.

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ٤/ ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٢) رجال الفكر والدعوة: ٤/ ٣٥١.

٢ ـ القيام بنشر الحديث الشريف وترويجه، والجهود الموفّقة للتطبيق بين الفقه والحديث.

٣ ـ عرض الشريعة الإسلامية في صورة متناسقة مدعّمة بالأدلة والبراهين، والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحِكَمها.

٤ ـ بيان مكانة الخلافة ووظيفتها في الإسلام، وشرح خصائص الخلافة الراشدة ومميزاتها وإثباتها بالأدلة، والرد على الروافض.

٥ ـ عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي، واحتضار الدولة المغولية.

٦ ـ الحِسْبة على مختلِف طبقات الأمة، ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير.

٧ ـ القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح، وتخريجهم حتى يقوموا ـ بعده ـ بهذا العمل التجديدي من الإصلاح ونشر الدين الصحيح، وينقلوه إلى الأجيال القادمة[١].

ومن جلائل أعماله ومآثره العلمية: كتابه «حجة الله البالغة»[٢]، وكتابه الآخر «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء».

فالأول يتحدث عن مبادئ الإسلام العظيمة، والثاني عن التطبيق الفذ لتلك المبادئ في حياة الخلفاء الراشدين الأربعة ﭫ.

١٣ ـ القرن الثالث عشر الهجري:

●● في ميدان ولاة الأمر يمكن اعتبار **السلطان عبد الحميد الثاني** مجدداً في هذا القرن، فبالرغم من الصعوبات الجمة والتحديات الكثيرة التي عصفت بدولة الخلافة العثمانية في عهده، وبالرغم من التشويه الكبير لسيرة هذا الخليفة

---

(١) مقدمة رجال الفكر والدعوة: ١/ ٦٢، وانظر: الجزء الرابع منه مع فهرسه.

(٢) وضع له الدكتور عدنان زرزور عنواناً آخر هو: (أسرار الشريعة وفلسفة نظام الإسلام). انظر: مقدمته لكتاب: رجال الفكر والدعوة: ١/ ٦٦.

العظيم، فإن أمارات التجديد الكبرى قد ظهرت في أيامه وسعى إلى تحقيقها، فأفلح في جوانب وأخفق في أخرى!.

فالاضطرابُ الذي اجتاح دولةَ الخلافة في دول البلقان، والحرب الروسية العثمانية، والمعاهدات القاسية التي فُرضت عليها بسبب تكاتف وتكالب قوى الصليبية العالمية عليها، واحتلال بريطانيا لقبرص ومصر، وفرنسا لتونس، وضمُّ الروملِّي إلى بلغارية، والمشكلة اليونانية، والأزمة الأرمنية، والحركة الصهيونية العالمية التي سعت جاهدة وبتأييد عالمي للهجرة إلى فلسطين والحصول على وطن لليهود هناك، وغير ذلك من التحديات؛ كافية بأن تُفقِد الرجالَ الأشداءَ صوابَهم وتُطيح بهم، لكن السلطان عبد الحميد صمد في وجه ذلك كله.

وصفه أحدُ سفراء الغرب في (الآستانة) فقال: (إنَّ السلطان عبد الحميد هو من طراز السلطان محمد الفاتح الذي سَبَق له أن طَرَق بجيوشِه أبوابَ أوروبة، وإن عبد الحميد يهدف إلى إعادة عظمة الدولة وإعادة مجد المسلمين)[١].

حمل عبد الحميد لواءَ المقاومة لمخططات أوروبة، وأطماع اليهود وكيدهم، وتآمر (الاتحاديين) معهم، ووقف كالجبل الأشم ضد التفريط بشبرٍ من أرض فلسطين، حيث أغروه بالأموال الطائلة ليسمح بإقامة وطن قومي لليهود بها، وقال: (إنكم لو دفعتم ملءَ الدنيا ذهباً فلن أقبلَ تكليفكم، لقد خدمتُ الملَّة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فكيف أُسَوِّدُ صحائفَ المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين؟!)[٢].

وتقبَّلَ حركة (الجامعة الإسلامية) وتبنَّاها، وسعى لإرساء قواعدها، واتصل بداعيتها الكبير جمال الدين الأفغاني، وقرَّبه إليه وأدناه منه، وأَطْلَق يده في الإصلاح الذي يدعو إليه، لكن الأعداء أفسدوا بين الرجلين!.

---

(١) الضربات، ص١٩٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢٢٨.

وأيقظَ فكرةَ إحياء الوحدة الإسلامية، واهتمَّ بالعنصر العربي، واختار نخبة من الجماعات العربية كوَّن منها فِرقاً عسكرية، بل عمد إلى مصاهرة العرب، واتجه إلى إحياء الخلافة الإسلامية التي يلتف حولها المسلمون، وأحاط نفسه بالعلماء، واهتم بالشعائر الدينية، وأصلح أحوال المساجد، وأنشأ خط سكة الحديد فربط بين (إستانبول) و(المدينة النبوية)، وشَجَّع فتحَ المراكز التجارية، والزراعة.

واعتنى بالنواحي الثقافية والفكرية، وقام بتعزيز القوات العسكرية المرابطة في فلسطين والحجاز واليمن لربط أطراف الدولة ببعضها وبالمركز، واعتنى بإصلاح الدستور.

لكن الأمور الدولية تكاتفت ضده، وتآمر مع الأعداء وآزرهم في تنفيذ مآربهم حزبُ (الاتحاد والترقي)، الذي قام بالانقلاب على السلطان عبد الحميد وأطاح به من السلطة، بعد أن حكم أربعاً وثلاثين سنة (١٢٩٣ ـ ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م)، ودخلت الدولة بعده مرحلة الاحتضار[١].

●● وأما المجددون في ميادين الفكر والثقافة والدعوة والتربية والجهاد وإيقاظ الأمة وبَعْثِها وحَمْلها على التمسك بأصول الإسلام وشعائره وشرائعه ـ فيمكن الإشارة إلى عدد من الأعلام، وأبرزهم:

١ ـ **أمير الجهاد عبد القادر بن محيي الدين الجزائري** (المتوفى سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)، الذي أحيى فريضة الجهاد في الجزائر، ودافع عن بلاده (خمسة عشر عاماً) من الكفاح المتواصل ضد المستعمر الفرنسي، وكان يتقدَّم الجيش ببسالة عجيبة، وأنشأ مصانع للأسلحة والأدوات الحربية وملابس الجند.. وكان من العلماء الشعراء رحمه الله[٢].

---

(١) انظر: العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٤٣٤ ـ ٥٤٩؛ الضربات للجندي، ص١٩٠ ـ ١٩٣، ٢٢٦، ٢٢٨ ـ ٢٣٠، ٣٢٣؛ السلطان عبد الحميد الثاني، للدكتور محمد حرب.

(٢) الأعلام، للزركلي: ٤/ ٤٥ ـ ٤٦.

٢ ـ محمد بن صفدر[١] **الحسيني المشهور بجمال الدين الأفغاني** (المتوفى سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) فيلسوف الإسلام في عصره، وأحد الرجال الأفذاذ الذين قامت على سواعدهم نهضة الشرق الحاضرة.

طاف كثيراً من البلاد العربية والإسلامية، وكان أثره واضحاً بمصر حيث حمل أفكاره تلميذه الشيخ محمد عبده.

كان عارفاً باللغات العربية والأفغانية والفارسية والسنسكريتية والتركية، وتعلَّم الفرنسية والإنجليزية والروسية، وإذا تكلّم بالعربية فلغته الفصحى، واسع الاطلاع على العلوم القديمة والحديثة، كريم الأخلاق، كبير العقل[٢].

ولم يكتفِ بالتضلُّعِ في علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول، وعلوم اللغة والمنطق والكلام والفلسفة حتى المعاصرة منها، حتى أضافَ إليها دراسةَ علم التاريخ وعلم الاجتماع وآداب الأمم وفلسفة أخلاقها، ودرس كذلك أبرز العلوم كالرياضيات والفلك والطب.

أما خبرته العملية ومعرفته الواسعة بأحوال العالم الإسلامي في جميع بقاعه، فيشهد لها المناصب السياسية التي تقلَّب فيها في كثير من بلدان العالم الإسلامي، إلى جانب تطوافه في هذه البلاد ينوِّر العقول ويفتح البصائر، ويحرِّض الشعوب على الثورة ضد الاستبداد السياسي من جهة، وضد الاستعمار الأوروبي ـ وبخاصة البريطاني ـ الذي نازَلَه بشدَّة من جهة أخرى[٣].

ودعوة الأفغاني كانت في فحواها حركة إصلاحية فكرية شاملة، قاعدتُها وأساسُها الإسلام والقرآن، ووسيلتُها إلى فهمه والتعامل معه: العقلانيةُ التي تمقت التقليد وتُزري بالفرقة والانقسام، والتي لا تعطي المسلمَ القدرة على فَهْم

---

(١) صفدر: كلمة فارسية معناها مخترق الصفوف.

(٢) الأعلام: ٦/ ١٦٩.

(٣) شخصيات وأفكار، ص٨٣ ـ ٨٤.

جديد أو متجدِّد للقرآن فحسب، بل تمنحه كذلك الوعيَ والقدرة على اختيار النافع والمناسب من حضارة الغرب.

كما كان من أبرز نقاط المشروع النهضوي الذي بشَّر به ودعا إليه: محاربةُ الاستبداد السياسي، وجعلُ العقيدة قائمة على الإقناع لا على التقليد، والمفاضلة على أساس العقل والكفاءة، ودعوتُه إلى الجامعة الإسلامية؛ والذي أراده منها المحافظةُ على (الخلافة العثمانية) وعلى الرابط الإسلامي الذي كان يشدُّ المسلمين إلى السلطان العثماني، مع العمل الدائب على تجديد شباب هذه الدولة من خلال الدعوة إلى اللامركزية وإلى التعريب، وإلى أخذِ ما عند الغرب من حضارة ومدنية وعلم ... وعلى أساس أن يكون ذلك في تلاؤم مع الإسلام أو لأن الإسلام يدعو إليه[1].

ومضى الرجل العبقري يهدر في كل بلد نزل به، ويصرخ بعد عقود من الصمت لم تشهد هذا الصنف من الدعاة الروَّاد، وفي كل قطر تيمَّمه كان الرقود يصحون، ولم يكن جمال الدين يخشى إلا الله، وما شغله قطّ مالٌ أو جاه، ولا عناه إلا تكسير القيود التي أذلَّت جماهير المسلمين[2].

وكان هدفه الأعلىٰ قيام حكومة إسلامية واحدة، تلتزم بأحكام الشريعة الإسلامية، ويتمُّ ذلك بتحرير البلاد الإسلامية من السيطرة الأجنبية تمهيداً لنهضتها الروحية والفكرية، ثم تتحد في ظل خليفة واحد تُجمع الأمة على الاعتراف به، كما كان الأمر في العصر الذهبي للإسلام. فكانت وحدة المسلمين هي السبيل في رأيه لتحقيق فكرة الجامعة الإسلامية.

وتنوَّعت أنشطته الإصلاحية في المجال الثقافي والديني والاجتماعي،

---

(١) شخصيات وأفكار، ص٨٥ ـ ٩١، مقتطفات.

(٢) علل وأدوية، ص١٠٧.

واتخذ من أجلِ نشر أفكاره عدَّة وسائل: كالخطابة، والكتابة، ومقابلة الحكام، وتكوين الأحزاب والجمعيات[١].

وكان يرفض بعنفٍ شديدٍ الفصل بين الإسلام والعقل، وبين الشورى والحكم، وبين الإنسان والحرية.. وكان حاسماً في ربطه بين العبادات وزكاة الروح، والتوكل على الله والزهد في أعراض الدنيا وصحبة الكبراء[٢].

وقد مثَّلت دعوةُ الأفغاني حجرَ الزاوية في نهضة العرب والمسلمين في تاريخهم الحديث، وامتدَّ أثرُ هذه الدعوة ليشملَ جميعَ جوانب الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية وبما يوازي شمولَ الإسلام من جهة، وليغطي الرقعة الجغرافية التي شملها العالم الإسلامي، وبخاصة الرقعة المترامية الأطراف التي شملت معظم شعوب هذا العالم التي كانت منضوية تحت الراية العثمانية من جهة أخرى.

وفي وسعنا أن نلحظَ أن الأفغاني كان أولَ المصلحين ورائدَهم، في الوقت الذي كان منهجه في الإصلاح يمهّد لظهور (المدارس الإصلاحية) أو يؤسس لظهورها؛ لأنه لم يقف عند حدود التفكير والتنظير أو الكتابة والتأليف، بل كان يقترح الحلولَ الواقعية وطُرقَ التطبيق والتنفيذ، بالإضافة إلى تأسيسه لأول حزب سياسي في مصر وهو (الحزب الوطني الحر)، وهو الحزب الذي خرَّج قادةَ الثورة العرابية وثورة (١٩١٩م)، واتصاله المباشر بالشعوب الإسلامية وبزعماء المسلمين وقادتهم في الشرق والغرب..

كما يمكن القول: إن تلامذته ومريديه في هذه الشعوب ـ وتلامذتهم كذلك ـ هم الذين وقع على عاتقهم تشكيلُ (الجماعات) و(الأحزاب) أو الاتساع بها في جميع الاتجاهات الدينية والوطنية في وقت لاحق[٣].

---

(١) العثمانيون، لمحمد سهيل طقوش، ص٤٩٨ ـ ٤٩٩.
(٢) علل وأدوية، ص١٠٨.
(٣) شخصيات وأفكار، ص٨٤ ـ ٨٥.

ولا ريب أن مدرسة المنار في مصر، ومدرسة ابن باديس في الجزائر، ومدرسة القاسمي والكواكبي في الشام، ومدارس كثيرة في العالم الإسلامي؛ كانت أثراً مباشراً لهذه الثورة الفكرية والتربوية التي بدأها جمال الدين[(١)].

٣ ـ الشيخ الإمام محمد عبده (المتوفى ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م): أشهر تلاميذ الأفغاني، مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام.

قال أحد مَن كتبوا عنه: تتلخَّص رسالة حياته في أمرين: الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة[(٢)].

وقال الإمام محمد عبده مبيِّناً أهميةَ هذا الركن في دعوته: نعم كنت فيمن دعا الأمةَ المصرية إلى معرفة حقِّها على حاكمها، دعَونا إلى الاعتقاد بأن الحاكم هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يَردُّه عن خطئه ولا يُوقِف طغيانَ شهوته إلا نصحُ الأمة له بالقول والفعل. ثم يقول: جَهَرنا بهذا القول والاستبدادُ في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويدُ الظالم من حديد، والناسُ كلهم عبيد له أي عبيد[(٣)]!.

كان الرجل صاحبَ فكر متميِّز ومقولة مدعومة في المجامع العلمية، فما غَرَّه بريق، ولا هَالَتْه كثرة. وكان بصيراً بعلل الضعف التي انتابت الأمة، ومداخل الشيطان في حياتها. وكان عميقَ الشوق إلى إحياء العقل الإسلامي والعودة به إلى نقاء السَّلَف الأول.

روى تلميذه الإمام محمد رشيد رضا أن الأستاذ الإمام محمد عبده طالع خمسة وعشرين تفسيراً ليستريح إلى معنى آية من آيات الأحكام، اضطربت فيها الأقوال!.

---

(١) علل وأدوية، ص١٠٨.
(٢) الأعلام: ٦/ ٢٥٢.
(٣) شخصيات وأفكار، ص٨٧.

ولما اتَّجَهَ إلى إصلاح الأزهر وجد مقاومة هائلة من شيوخه الذين يرون إدخالَ العلوم الحديثة كفراً، ويرون استبقاءَ الحُصُر القديمة؛ لأن أقدامَ الشيوخ المباركين وقفتْ عليها!.

وكانت عدة جماعات تُقام للصلاة الواحدة بأعداد المذاهب الفقهية، وكان الفكر الإسلامي في غيبوبة لا تشبهها إلا غيبوبة الأدب العربي.

ولقد استمات الشيخ المصلح في عمل شيء للإسلام، فتحايَلَ على سطوة الإنجليز، وعلى جمود الشيوخ، وعلى خصومة القصر، وعندما مرض مرضه الأخير ترجم عن آلامه النفسية بقوله:

ولستُ أُبالي أن يُقالَ محمدٌ أَبَلَّ، أم التفَّتْ عليه المآتمُ
ولكنَّ دِيناً قد أردتُ صلاحَهُ أُحاذِرُ أن تَقضي عليه العمائمُ[(١)]

وقد ترافقت دعوة محمد عبده مع اشتداد وطأة الفكر الأوروبي والانبهار بالغرب، فاستطاع أن يحقِّق أفضلَ صور (الصمود الإيجابي)، حيث أكَّد على أن كل مزايا الحضارة الغربية موجود في الإسلام! ولكنه اتَّسَعَ في نطاق التأويل لتحقيق المواءمة والتوفيق[(٢)]!.

وقد تركت دعوته آثارَها الواضحةَ في المدارس الإصلاحية والفكر الإسلامي والمدّ الأدبي العظيم، الذي جاء كله في مرحلة لاحقة[(٣)].

٤ ـ ٥ ـ زعيما الحركة السَّنُوسية:

ـ محمد بن علي السَّنُوسي الإدريسي (المتوفى سنة **١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م**): زعيم الحركة السنوسية الأول ومؤسسها.

جال في الصحراء إلى الجنوب من الجزائر يَعِظ الناس، ثم زار تونس

---

(١) علل وأدوية، ص١٢٣، ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) شخصيات وأفكار، ص١٠٤.
(٣) انظر: علل وأدوية، ص١٢٦؛ شخصيات وأفكار، ص١٠٣.

وطرابلس وبرقة ومصر ومكة، وفي هذه تصوَّف، وبنى زاوية في جبل أبي قُبيس، ثم رحل إلى برقة سنة (١٢٥٥هـ) وأقام في الجبل الأخضر فبنى (الزاوية البيضاء)، وكثُر تلاميذه وانتشرتْ طريقته[1].

ـ **وابنه محمد بن محمد بن علي السَّنُوسي** (المتوفى سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م).

زعيم السنوسية الثاني، خَلَف أباه بعد موته، واشتَهر بالصلاح، وقويت الطريقة في أيامه حتى انتشرت (زواياها) من المغرب الأقصى إلى الهند، ومن وداي إلى الآستانة، وأكثرها في الصحراء الكبرى وشمال إفريقية.. وكان في كل زاوية خليفة يدير شؤونها ويعلّم أولاد الناس، ويقتني الماشية ويشتغل بالزراعة، يساعده المريدون وينفق على الزاوية[2].

وتُعتبر الحركة السنوسية إحدى الحركات الإسلامية الكبرى التي عرفها العالم الإسلامي، وأساسُ دعوتها العودةُ إلى الإسلام الصحيح بعد إزالة ما علق به من خرافات وأوهام العوام والجاهلين، وكانت (الزاوية) نقطة الانطلاق للتعاليم الإسلامية الإصلاحية[3].

٦ ـ **أحمد بن عرفان الشهيد** (المتوفى سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م):

كان في شبه القارة الهندية، وهو من خلفاء ولي الله الدهلوي وحَمَلة رسالته التجديدية.

قاد في تلك البلاد الحركةَ الإسلامية العظيمة، التي لا يوجد لها نظيرٌ في شمولها وقوة تأثيرها ومشابهتها للدعوة الإسلامية الأولى والمنهج النبوي الكريم، لا في القرن الثالث عشر الهجري فحسب، الذي هو عهدها، بل لا نعثر

---

(١) الأعلام: ٦/ ٢٩٩.
(٢) الأعلام: ٧/ ٧٦.
(٣) حاضر العالم الإسلامي، ص١٠١.

في عدة قرون ماضية على مثل هذه الحركة الإيمانية، والجماعة القوية المنظمة للرجال المخلصين الصادقين، وأن ذلك النشاط الذي قام به في مجال تصحيح العقائد، وتربية الرجال، والدعوة، والتذكير والتضحية والجهاد الطويل العريض، لم يقتصر تأثيره على ساحة حربه ونضاله والجيل المعاصر له، بل ترك آثاراً بارزة عميقة خالدة على الأجيال القادمة، والرَّكْب القادم لدعاة الحق والصدق، ورجال الفكر والجهاد، وقادة الحركة الإسلامية، والخدمة لهذا الدين الحنيف.

وقد أَثَّرت هذه الحركة على الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي واللغة والأسلوب المتداول أيضاً، وقامت بأعمال عظيمة جبَّارة في إصلاح المجتمع، والقضاء على التقاليد الجاهلية، وإزالة الآثار الهندوكية، والعودة إلى الحياة الإسلامية الصحيحة من جديد.

ولقد أسلم على يدي السيد أحمد بن عرفان الشهيد أكثر من أربعين ألفاً من الهنادك وغيرهم من الكفار، وبايَعَ على يديه ثلاثة ملايين من المسلمين. وأما ما يجري من سلسلة المبايعة على أيدي خلفاء خلفائه على وجه الأرض كلها؛ فإنه يدخل عن طريقها في بيعته مئات الآلاف من الناس.

ولأجلِ هذه المآثر الإصلاحية والتجديدية العظيمة؛ يعتبره معظمُ أصحاب الفكر والبصيرة المنصفين (مجدّدَ القرن الثالث عشر الهجري)[1].

١٤ ـ القرن الرابع عشر الهجري:

انهارت الخلافة العثمانية الإسلامية في هذا القرن (**١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م**)، وأصبح المسلمون لا رباطَ لهم يجمعهم، ودخلت الدول الاستعمارية فاحتلَّت بلادهم وعاثت فيها فساداً، وصَنَعت لها الأتباع والأعوان والأذناب.

لكن الأمة الإسلامية لم تستسلم، وكعادتها هبَّتْ فيها رياحُ الإيمان، ونهض فيها المجددون يعيدون الحق إلى نصابه، وينفخون في الشعوب روح الإسلام،

(١) رجال الفكر والدعوة: ٤/ ٣٣١ ـ ٣٣٢، ٣٣٤.

وانتشرت حركات الإحياء والإصلاح والتجديد في مواقع شتى من أرض العروبة والإسلام، وقام رجال كبار، ومؤسسات إصلاح، ومدارس فكرية وعلمية وتربوية، وحركات وجماعات وأحزاب إسلامية تربوية وفكرية وسياسية وجهادية، ورغم اختلاف اجتهاداتها وطرقها ووسائلها وأساليبها؛ فإنها تجمع ـ في الجملة ـ على وجوب إيقاظ الأمة واستنهاض الشعوب وحملِ الحكومات على العودة إلى الإسلام ورفع رايته ونصرته والحكم به.

ونستطيع القول: إن الثورة الفكرية والتربوية التي بدأها جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده في القرن الفائت؛ قد تركت آثارها على كثير من المدارس الإصلاحية ومناهج الأحزاب والجماعات ونتاجات المفكرين والدعاة والمصلحين في هذا القرن.

وتناغَمتْ تلك الروافد مجتمعة فأثمرت ما عُرف في عصرنا بـ **(الصحوة الإسلامية)** التي تنعقد عليها الآمال الكبار في عودة الشعوب والحكومات إلى الإسلام، لتأخذ الأمة دورها القيادي والريادي من جديد.

ونومئ بإلماعات سريعة إلى مظاهر التجديد ورموزه بأنواعها وأطيافها ومجالاتها المختلفة في بلاد المسلمين(١).

●● **ففي مصر**: **(مدرسة الأزهر)** التي لا تزال تمدّ العالم العربي والإسلامي بالعلم والعلماء والدعاة، على ما أصابها من عطب وخلل.

و**(مدرسة المنار)** التي يتزعمها **الإمام محمد رشيد رضا** تلميذ الإمام محمد عبده، وأحدُ رجال الإصلاح والتجديد الكبار؛ كان كاتباً عالماً بالحديث والتفسير والتاريخ والأدب، وقد ترك آثاره البيضاء بمصر خصوصاً وفي العالم العربي والإسلامي عموماً.

---

(١) انظر: الفصل القيّم بعنوان (ظهور حركات التجديد والإحياء الإسلامي)، ص٦٥ ـ ٧٦، في كتاب: أمتنا بين قرنين، للدكتور يوسف القرضاوي.

ـ **ثم الإمام الشهيد المجدد الفذّ حسن البنا**، الذي تكاد تُجمع كلمة المنصفين على أنه أعظمُ المجددين في هذا القرن، وسيرتُه وأعماله قد بَهرت العالمين، وهي تذكِّر بسير السلف الصالح من الصحابة والتابعين، أَسَّس (جماعة الإخوان المسلمين) في مصر عام (١٩٢٨م)، وعَمَّ خيره ونفعه مصر كلها، ثم تضوَّع عبيرُ تجديده في العالَمَيْن العربي والإسلامي، وامتدت أجنحة جماعته فَبَسطت رُواقَها في كثير من البلاد العربية والإسلامية.

ـ ولمع من رجال هذه الجماعة مفكرون وكتَّاب من الطراز الأول، منهم **الأستاذ المفكّر المجدد سيد قطب**، وكتاباته الفريدة، **وأخوه محمد قطب**، **والشيخ محمد الغزالي** ومدرسته الفكرية، **والعلّامة الفقيه الداعية الشهير الدكتور يوسف القرضاوي** صاحب المدرسة الوسطية في الفقه والدعوة، وكُتب هؤلاء وغيرِهم أَثْرتِ المكتبة العربية الإسلامية المعاصرة، وأثَّرت في الفكر والعقل والروح، ولها الأثر الكبير في جمهور عريض من المسلمين.

ـ وحازَ **سيد قطب** قَصَبَ السَّبْق وغَلَب على أعماله في تفسيره **(في ظلال القرآن)** وغيره الوعيُ الحركي. لقد فتح عيونَ الأجيال على الضوء في آخر النفق المظلم، وأرى الناسَ مصارعَ الطغيان وسقوطَ الشعارات؛ من خلال بصيرته الإيمانية التي توهّجت في ظلال القرآن، والنور ووضوح الرؤية الذي مَنَحَتْه إياه آياتُه البيِّنات... لقد كُسِر سيد قطب في وقفته الإيمانية العنيدة والشُّجاعة والنادرة، نعم ولكنه كَسَر معه السدودَ والحدود والقيود والأغلال... لقد تخطَّى تفسير الظلال كلَّ ما يُعيق وصولَ معاني القرآن القريبة والفاعلة إلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، على اختلاف مذاهبهم وآرائهم وانتماءاتهم التاريخية، حتى جاء أشبَهَ ما يكون بالجدول المنساب المترقرِق الذي يأخذُ طريقَه إلى الحقول والمزارع وديعاً ساكناً مطمئناً، ليخرج نباتها الطيب بإذن ربها، ولتنبت أجيال القرآن نباتاً حسناً تُعيد سيرةَ أجيال القرون الأولى إن شاء الله)[1].

(١) شخصيات وأفكار، ص٣٦، وانظر: ص٣٤، ٣٨، ٣٩.

ـ ويبرز كذلك **العلّامة المعلِّم الداعية مفسِّر القرآن الشيخ محمد متولي شعراوي**، فلقد كان محاضراً جماهيريّاً بارعاً ومعلماً من طراز فذ، قادراً على مخاطبة جمهور المسجد على اختلاف حظِّه من الثقافتين اللغوية والشرعية اللتين كان الشيخ يغوص فيهما بعمق وأصالة وتأصيل، نظراً لمقدرته الفائقة على تقريب المعاني وشرحها وبيانها بمختلف الصيغ والعبارات، وبغاية الدقة والبيان.. وقد نجح نجاحاً باهراً في نقل منابر الجامعات إلى رحاب المسجد، في حين فشلَتْ معظمُ أقسام الدعوة في الجامعات في نقل روح منابر المساجد إلى أروقة الجامعات.

ونجح الشيخ في تعميم الوعي الثقافي بالإسلام نجاحاً يفوق نجاح الحركات الإسلامية التي تابعت عملَها أو استأنفَتْه في العقود الثلاثة الأخيرة، وإليه يُنسب جزءٌ كبير من اتساع ما يُسمَّى (الظاهرة الأصولية) في الشارع العربي والإسلامي.. لقد بَذَر الشيخ في نفوس الملايين معاني القرآن الحية الفاعلة، وقد قدَّر بعضُ الخبراء الإعلاميين من الغربيين أن عدد الذين كانوا يتابعون برنامجه الأسبوعي في التلفزيون بعد صلاة الجمعة بنحوِ عشرين مليوناً في مصر وحدها[١]!.

●● **وفي الجزائر: مدرسة الإمام عبد الحميد بن باديس**، العالم الرباني، والزعيم السياسي، والمصلح الاجتماعي، والمربي الفذ.

والأستاذ المفكر المبدع مالك بن نبي ومدرسته الفكرية، وكُتبه قيمة نادرة، وبعضها لم يُسبق إلى مثله، مثل «شروط النهضة» الذي عَرض فيه على نحو غير مسبوق شروط نهضة العالم الإسلامي، وعودة هذا العالم إلى رحاب التاريخ بعد أن ظل خارجه دهراً طويلاً[٢].

---

(١) شخصيات وأفكار، ص٢٩ ـ ٤٠، مقتطفات. وقد عقد صاحب هذا الكتاب الدكتور عدنان زرزور مقارنة بين الشيخ الشعراوي وسيد قطب، رحم الله الرجلين الكبيرين.

(٢) شخصيات وأفكار، ص٤٥.

وامتداداً لهم جاءت الحركات الإسلامية الناهضة الفاعلة.

●● **وفي الشام: الإمام الأكبر بدر الدين الحَسَني**[١] أعجوبة العصر ونادرة الزمان، الذي كان مرجعاً في كل فن: اللغة والصرف والنحو، وفقه المذاهب المدونة وغير المدونة، والحديث روايةً ودرايةً، والكلام والفلسفة، والأخبار.. تخرَّج به خلائق، وهو على جانب عظيم من الدين والورع والزهد مع الغنى.. وهو الأبُ الحقيقي للثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي، حيث جال الشيخ في مُدن سورية من دمشق في الجنوب إلى حلب في الشمال، وألْهَب روحَ الجهاد في قلوب الناس، وبعد عودته من حلب بدأت الثورة.

ـ ومن تلاميذ الإمام بدر الدين: **الشيخُ علي الدَّقْر**، وهو في زمانه عَلَمٌ من أعلام الشام، أسَّس (مدرسة تربوية) فاحَ عبيرُها في دمشق وما والاها، وكان من أكابر تلامذته: **الشيخ العلَّامة حسن حَبَنّكة والدُ المفكِّر الإسلامي عبد الرحمن حبنكة، والمربي الجليل عبدُ الكريم الرفاعي**.

فالشيخ **حسن حبنكة** له معهد ضخم يبثُّ فيه العلم، وينشر روح الإسلام.

والشيخ **عبد الكريم الرفاعي** وعنده مئات ومئات من الطلاب، وهو قائد من أفضل قواد الجبهات الإسلامية، إخلاصاً وعلماً وعملاً، وعفةَ يدٍ، ونزاهةَ نفس، وحسنَ خلق[٢].

ـ وجاء بعدهم **مصطفى السِّبَاعي**[٣]، الرجل الذي لا يجود التاريخ بأمثاله إلا بالواحد بعد الواحد، نقل تعاليمَ ومنهج ودعوة حسن البنا إلى سورية، وأحدث في الشام دويّاً تناقَلتْه الرُّكْبان.

---

(١) رجال من التاريخ، ص٣٨١ ـ ٣٨٥؛ ذكريات الطنطاوي: ١/ ٢١٧ ـ ٢١٩.
(٢) رجال من التاريخ، ص٣٩٤.
(٣) لتلميذه الدكتور عدنان زرزور كتاب ضخم في حياته وأعماله المجيدة، وكَتَب عنه كثيرون أيضاً.

وقد تعددت آثاره وإصلاحاته وأعماله التجديدية في مجالات شتى، فلقد كان فقيهاً مفكراً داعية خطيباً كاتباً سياسيّاً مجاهداً مناظراً، آتاه الله سبحانه من المواهب ما توزَّع في رَهْط من أفذاذ الرجال.

وتنوَّعت مظاهرُ تجديده في المجال التربوي والدعوي والكتابة والتأليف ومناظرة المستشرقين والإصلاح السياسي والاجتماعي وتكوين جماعة الإخوان المسلمين، وتأسيس كلية الشريعة، وحمل راية الجهاد في فلسطين، فقاد كتائب الإخوان هناك.

كل هذا وقد مات عن تسع وأربعين سنة!.

ـ **والعلّامة الكبير محدِّث العصر محمد ناصر الدين الألْباني**، الذي له من الفضل في عودة المسلمين إلى السنَّة الصحيحة ما لا يَخفى، وآثارُ دعوته وكُتُبه المباركة يعرفها العلماء والدعاة وطلاب العلم.

●● وفي تركية قلعة الخلافة الغاربة: قامت نهضةٌ إسلامية كبرى تتحدَّى المشروعَ العلماني الإلحادي، وتلحُّ بالعودة إلى الإسلام من جديد.

لقد ماتت (الكمالية) وتحوَّلت إلى (طوطم مقدس)، كذلك فإن (العلمانية) انتهت، ودخل العالم في مرحلة ما بعد العلمانية.

والبديل الذي يبرز بقوة هو (التيار الإسلامي)، وأبرز شخصياته: **نجم الدين أربكان** الذي يمثّل القوى الإسلامية، وقد رتَّب أهدافه على النحو التالي: المجتمع أولاً، والدولة ثانياً، والسلطة ثالثاً، وقد وصل إلى مقعده في البرلمان ورئاسة الحكومة بعد رحلة طويلة من العمل السياسي المدني بلغت أربعين عاماً.

لكنَّ حُكمَ العسكر وحماة العلمانية والأتاتوركية حَلّوا (حزب الرفاه) وأخرجوا «أربكان» من الحكم، فقبِل نجمُ الدين ذلك حتى لا يريق الدماء، وكان موقفه هذا يشبه ما حدث للسلطان عبد الحميد الثاني عندما تنازل عن العرش سنة (١٩٠٩م)، لكن السلطان عبد الحميد فَعَل ذلك والزمان مُدبِر، أما أربكان فيفعلُه اليوم والزمان مُقبِل، وإن غداً لناظره قريب.

إن (نجم الدين) الذي عاد يسطع في سماء تركية لن يخبوَ مرة أخرى، بل سيزداد تألقاً. . وإن (أربكان) الذي أرْبَك جهاتٍ كثيرة قد ترك مقعده في الحكم ليحتلَّ مكانه في التاريخ[١].

●● **وفي الهند (ندوة العلماء بلكنهؤ)** وما تخرَّج فيها من جهابذة المحدثين والعلماء الربانيين والدعاة الكبار، والذين لا يستطيع بحثنا هنا الإشارة إليهم لكثرتهم وشهرتهم، ومن أجلِّهم **المفكّر العلّامة والداعية الحكيم والمربي الجليل أبو الحسن الندوي** الذي يمثل (روح شبه القارة الهندية والباكستانية).

●● **وفي الباكستان تبرز مدرسة العلّامة المجدد أبو الأعلى المودودي وجماعته (الجماعة الإسلامية)**، وآثاره وأعمال خلفائه بارزة مشهورة، وهو يمثل (عقل شبه القارة الهندية والباكستانية)[٢].

●● حركات الجهاد المباركة في مقارعة الأعداء وتحرير البلدان، في فلسطين والعراق والصومال والشيشان وأفغانستان وكشمير وغيرها من بلاد الإسلام.

إنه برغم مآسي أمتنا التي لا تُحصى في المشارق والمغارب، فقد أبى ورثةُ الإسلام ورجال العقيدة أن يَهِنوا أو يَستكينوا، واشتعلت نار المقاومة، وبقي الرجال الثابتون على الحق يتنادون في كل مكان بالثبات، حتى تكونت لهم جبهة صلبة، وأخذوا يستعيدون أجزاء من خسائرهم ويتحركون نحو غدٍ أفضل[٣].

ولسنا نُدغدِغ العواطف، بل نقول بما نعلم ونشاهد، فإن كثيراً من البُشريات تعمُّ عالمنا العربي والإسلامي، رغم كثرةِ الغُثاء وتكالبِ الأعداء.

المسلمون في عصرنا هذا يستقبلون نهضة جبَّارة لا شك فيها، نهضة كموجة

---

(١) من مقالة عن نجم الدين أربكان في كتاب: شخصيات وأفكار، ص١٦٥ ـ ١٧١.
(٢) شخصيات وأفكار، ص٤٢.
(٣) جهاد الدعوة، ص١٠٩.

المَدِّ تعلو في أناة، ولكنها تمتدّ ولا يمكن إنكارُها أو وقْفُها.. إن هذه الأمة تنبض بالحركة في كل مكان من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن شمالها إلى جنوبها، وهي نهضة متعددة الجوانب والمظاهر.

وتلك الجهود الضخمة التي أشرنا إليها في القرن الرابع عشر الهجري، في الإيقاظ والإصلاح والتجديد والجهاد؛ قد آتت ثماراً طيبة فيما سُمِّي (الصحوة الإسلامية)، والتي يمكن إجمال آثارها فيما يلي:

• أيقظتْ هذه الصحوة المباركة العقولَ بالوعي، وملأت القلوب بالإيمان والحماس، ودفعت الإرادات إلى الالتزام والعمل، وأثَّرت على النساء كما أثَّرت على الرجال، وغيَّرت من مفاهيم الأجيال الجديدة، فنقَلَتْها من التفكير العلماني إلى التفكير الإسلامي، ومن الولاء للغرب إلى الولاء لله ولرسوله، ومن التبعية إلى التحرُّر، فنشأ جيل مسلم ملتزم بالإسلام: عقيدةً وشريعةً، وفكراً وسلوكاً، ورسالة وحضارة، رَجَوْنا أن يكون (جيل النصر المنشود).

• أثبتتْ هذه الصحوة وجودَها على الصعيد الفكري بما احتوته المكتبة الإسلامية المعاصرة من شتى الدراسات في الجوانب الإسلامية المتعددة، وكان الكتاب الإسلامي هو الأول في سوق التوزيع، وسُجِّلت مئات (الأطروحات) للماجستير والدكتوراه في مختلِف جوانب الثقافة الإسلامية: في الاقتصاد والسياسة والقانون والتربية والتاريخ وشتى العلوم الإنسانية والاجتماعية.

• وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السلوكي، فامتلأت المساجد بالمصلّين والمصلّيات، وخصوصاً من الشبان، وازدحمت بهم كذلك مواسم الحج والعمرة، وعادت المرأة المتبرجة إلى الحجاب طَوْعاً.

• وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الاقتصادي، فنشأت البنوك الإسلامية والمؤسسات المالية الإسلامية، وتوسعت في أقطار كثيرة من العالم الإسلامي.

• وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السياسي، فأصبح هناك تيار شعبي

هائل ينادي بالعودة إلى الإسلام وتطبيق شريعة الإسلام، ودخل الإسلامُ البرلمانات وأروقة الوزارات والحكومات ومواقع إصدار القرارات.

• وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الجهادي والمقاومة الإسلامية، كما يتجلى ذلك في أفغانستان، والشيشان، والبوسنة والهرسك، والصومال، والعراق، وكشمير، وفلسطين حيث زلزلتْ كتائبُ المجاهدين الكيانَ الصهيوني والجيش المزعوم بأنه لا يُقهر(١)!.

سابعاً: دروس وعبر ـ آمال وبُشريات:

من خلال استعراض صفحات هذه النبوءة يمكن الوقوف على دروس جليلة، وعِبر كثيرة، تحمل البُشريات، وتبعث الآمال، بالمستقبل الزاهر للإسلام، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

١ ـ الإسلام تنزِل بساحته الأزمات، وتُحدِق به الأخطار، ويشتدّ على أهله الكَرْب، وتَضيق بهم المسالك، ويعزُّ النصير، فتخلِّصه من أدرانه، وتنفي عن أهله الخنوعَ والهوان، فينبعث المجددون هنا وهناك، وتدبُّ الحياة في الجثمان الهامد، وتتدفق القوة في عروق الأمة، وينطلق جنود الحق يتصدَّرون للأهوال والمخاطر، ويحققون الإنجازات الكبرىٰ التربوية والفكرية والعسكرية والسياسية، وتتجدد لهم أمور دينهم.

٢ ـ المسلمون في كل زمان ومكان وعلى مدى أربعة عشر قرناً قادرون على صنع النصر من رماد الهزيمة، وبناء الحضارة في خرائب العدوان، وزرع حدائق العلم والنور في ظلمات العدوان؛ إذا وجدوا مَن يُحسن قيادتهم، ويَضرب لهم المَثَل والقدوة ويتميَّز بالتضحية والشجاعة وإنكار الذات(٢).

---

(١) المبشِّرات بانتصار الإسلام، ص٦٩ ـ ٧٠، بتصرف يسير.

(٢) المظفر قطز، ص١٦٧.

٣ ـ الإسلام رسالة خالدة وأمَّتُه لا تموت، قد تضعُف وتخبو جَذوتُها فتتجدَّد باستمرار، واستطاع ذلك بقوتين:

الأولى: هي الحيوية الكامنة في وضع الإسلام نفسه، وصلاحيته للحياة والإرشاد في كل بيئة، وفي كل محيط، وفي كل عهد من عهود التاريخ.

الثانية: هي أن الله قد تكفَّل بأن يَمنح هذه الأمة التي قَضى ببقائها وخلودِها رجالاً أحياء أقوياء في كل عصر، ينقلون التعاليم الإسلامية إلى الحياة، ويُعيدون إلى هذه الأمة الشباب والنشاط(١).

٤ ـ من لُطْف الله سبحانه بالأمة الإسلامية، بل وبالإنسانية، بقاءُ الإسلام وصلاحيةُ أمته للبعث والتجديد، إذ لو ضاعَتْ هذه الأمة لضاعَتْ أمانةُ السماء، ولضاعت أمانةُ الإنسانية، وإنما هي حراستُه الكريمة وخِفَارتُه القوية لهذا الدين، الذي فرض عليه أن يرافِقَ الحياةَ إلى آخرِ مرحلةٍ من مراحلها.. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩](٢).

٥ ـ عنايةُ الله تعالى تتداركُنا قبل أن ينتهي دينُنا وننتهي نحن معه، وقد لحقَتْنا هذه العناية والمعركة بين المُغيرين والمدافعين تنتقل من طور إلى طور، وسنَّةُ التدافع تستمرُّ، ورعايةُ الله دائبة تكلَؤُنا وتأخذ صوراً شتى(٣).

ويتجلَّى ذلك بأولئك المجدِّدين الذين قاموا في كل عهد وفي كل ناحيةٍ من نواحي العالم الإسلامي، ففَضَحوا المحرِّفين والمتآمرين، ورفعوا اللِّثام عن وجه الإسلام، ونَفَضوا عنه غُبار الجهل والضلالات، وأنكروا على البدع والخرافات، ودافعوا عن السنَّة دفاعاً قويّاً، وردُّوا على العقائد الباطلة، وشَنُّوا الحرب على الجاهلية وأعمالها وتقاليدها، وحاربوا المادية والترف بكل قوة،

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٩١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٩٢.

(٣) انظر: كفاح دين، ص٩٥.

وجهروا بالحق في وجوه السلاطين الجائرين والملوك المستبدِّين، وحَدُّوا من سلطان العقل الذي قد طغى وتخطَّى الحدود، ونفخوا في الإسلام روحاً جديدة، وخلقوا في المسلمين إيماناً جديداً وثقة جديدة(١).

٦ ـ الأقدارُ طويلة الأنفاس، والصراعُ بين الحق والباطل لا تتكشَّف عُقباه في سنة أو سنتين، ولا في جولة أو جولتين، إنه قد يستمر عشرات السنين، ثم يَنبجِس الغيب عن سواعد المجددين الذين يحملون الراية ويعيدون الناس إلى دينهم من جديد.

٧ ـ إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويُؤْثِر أن يَهْلِك دونه، ولا يغضُّ من موقفه نفرٌ شُذَّاذ من الخَونة والجُبناء، فَقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة وبأي ثمن! والمسلمون في المشارق والمغارب مهيَّؤون ـ في كل مرحلة ـ ليقظةٍ عامة تحمي كيانهم وتستبقي إسلامهم(٢).

ويمكننا القولُ: إن العودةَ إلى الكتاب والسنَّة، وعدمَ الخروج عن دلالتهما الصحيحة؛ كانت سُنّةَ العالم الإسلامي أمام التحديات الخطيرة التي كانت تعصف به في الداخل والخارج عبر تاريخه الطويل، وبخاصة حين تصِل مثلُ هذه التحديات إلى الحدّ الفاصل بين البقاء والفناء، أو بين أن يكون أو لا يكون! كما حصل غداةَ سقوط الخلافة العباسية، وسقوط الخلافة العثمانية في منتصف القرن الرابع عشر الهجري تقريباً(٣)!.

٨ ـ يجب على المجددين سواء كانوا رجالاً أفذاذاً أو قادة أو جماعات أو مدارسَ فكرية تربوية؛ أن يستفيدوا من التجارب الماضية كما يستفيد أي شخص من عِظات الأمس القريب أو البعيد.

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٩٣.

(٢) هموم داعية، ص٥٥، ٥٦.

(٣) مقدمة رجال الفكر والدعوة: ١/ ٣٩.

وعليهم الثباتُ في مواقفهم وإن تجهَّمت الدنيا لهم وغاب النصر عنهم، فإن المستقبل لمبادئهم على أية حال؛ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

٩ ـ البُشرى ببعثِ المجددين وقيامِهم بقيادة الأمة وتجديد أمور دينها؛ يستوجب على الأمة جميعاً وبخاصة كبارها وعقولها ونُخَبها السياسية والفكرية والاجتماعية... مواصلةَ العمل والسعي للإصلاح، وتكاتف القوى، لا الركون إلى المجدد حتى ولو كان (المهدي)، فالمجدد لا يقوم بنفسه بالمعجزات، بل بالسواعد التي تناضل وتجاهد معه وتكافح وتصلح وتجدد وتربي وتبني.

١٠ ـ يجب أن تقوم حركات التجديد على الأصول الراسخة التي تعود إلى الكتاب والسنَّة وعمل الصالحين من سَلَف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بالإحسان.

فيكون ذلك هو المحور الأصلي الأصيل لحركات الإصلاح والتجديد، والمصدر الحي لحياة المسلمين اليومية السلوكية وثقافتهم وتوجهاتهم، وحماية الأمة من فوضى العقائد والمذاهب والأفكار الوافدة أو المنحرفة الزائغة.

١١ ـ على المجددين والمصلحين الاستفادةُ من حوادث التاريخ العام ووقائعه، لِما في ذلك من أثر عميق في صَوْغ العقل ونَفْعه بتجارب لا حصرَ لها، والتماس العبرة ليصونوا يومَهم وغَدَهم، والنظر في السلبيات والإيجابيات، والهزائم والانتصارات، واكتناه أسبابها ونتائجها، والانتفاع بما وقع منَّا من أخطاء وخطايا وصفحات مظلمة، لكتابة صفحات مضيئة.

١٢ ـ القيادات التاريخية والرجال الكبار والمجددون العظام لهم دور ضخم في بعثِ الأمة واستنهاضِها ونفخِ الروح في جسمها، لكن لا ينبغي اختصارُ عهد كامل وجيل كبير عبر عقود من السنين في شخص هذا المجدد الذي يُعزى إليه العمل الأسطوري في تغيير مجرى التاريخ وصُنع الأحداث الجسيمة، فالأعمال التاريخية الكبيرة والتغيرات الجذرية هي نتاج تجمع أعمال جزئية لأعداد كبيرة من البشر تشارك فيها الأمة بمجموعها لتصنع التاريخ وتحقق المعجزة!.

ولذلك قلنا: إن التجديد في كل قرن يَنتظم أكثر من واحد، وربما شاركت فيه جماعات ومدارس وهيئات وأحزاب ومؤسسات، حيث تجدُ الأمة أكثرَ من رئة تتنفس بها حضاريّاً، في دمشق وبغداد والقاهرة والحرمين وبُخارى وأَصْبهان وغَزْنة والبصرة والكوفة والمَوْصل وحلب والقَيْروان ومَرَّاكُش وغرْناطة وإشْبِيلية ودِهلي ولَكهنؤ، وغيرها من مراكز الحضارة.

١٣ ـ إن السِّيَر والتراجم جزءٌ من التاريخ وتكادُ تكوّنَه أو تلخِّص أحداثه، ولها دور عظيم جليل في البعث والتجديد، فخيرُ وسيلةٍ لإشعال المواهب، وإثارة الروح، وتقويم الأخلاق، والعزم على مكافحة البيئة الموبوءة، والمجتمع الفاسد، والتسامي لمعالي الأمور ـ هي سِيَرُ عظماء الرجال، وزعماء الإصلاح والتجديد، والربانيين والصديقين[١].. فلا تزال سيرهم مشاعل هداية للسائرين في هذا الطريق الرحيب.

١٤ ـ لا يصح أن نُضْفي على عمل المجددين السابقين وأفكارهم (الصفةَ التاريخية) والعمومَ الشامل لسيرورة التاريخ، وإنما تكون الإفادة من تلك الجهود والأفكار بأن تُوضَع في سياقها التاريخي، أي في الظروف التي أنجبَتْها، وكانت الباعث عليها[٢].

فلكلِّ عصرٍ آفاتُه وأمراضه وانحرافاته، ولكلِّ مصلحٍ أسلوبُه وطريقته وإمكاناته والظروف التي تكتنف حركته ونشاطه، وينبغي للمجدِّد أن يجمع بين الأصالة والمعاصرة، والشريعة والمصلحة، والأحكام والمقاصد الكبرى.

مع التأكيد على أن حلقات الإصلاح والتجديد لا تنقطع سلسلتها خلال العصور.

١٥ ـ ينبغي لكل متحدِّث باسم الإسلام أن يَبثَّ في الأمة روحَ الأمل،

---

(١) رجال الفكر والدعوة: ١/ ٨١.

(٢) مقدمة رجال الفكر والدعوة: ١/ ٣٦.

ويَنشر أحاديث البُشريات، ويُذيع في الملأ شواهد التاريخ على المَدّ والجَزْر في تاريخ الإسلام، ودور المجددين في العصور السالفة، وهم الآن كذلك في عصرنا، والمستقبل لهذا الدين بلا ريب.



١١٠

إخبار النبي ﷺ عن الطائفة المنصورة

١ - عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي يُقاتِلونَ على الحقِّ ظاهرينَ إلى يومِ القيامةِ. قال: فَيَنزلُ عيسى بنُ مريمَ ﷺ، فيقولُ أميرُهم: تعالَ صَلِّ لنا، فيقولُ: لا، إنَّ بعضَكُم على بعضٍ أُمَراءُ. تَكْرِمةَ اللهِ هذهِ الأُمَّةَ**»[١].

٢ - وعن عبد الرحمن بن شِمَاسَة المَهْرِيِّ قال: (كُنتُ عندَ مَسْلَمَةَ بنِ مُخَلَّدٍ، وعنده عبدُ الله بن عَمرو بن العاص، فقال عبدُ الله: لا تقومُ الساعةُ إلا على شِرار الخَلْقِ، هم شَرٌّ من أهلِ الجاهليَّة، لا يَدْعُونَ اللهَ بشيءٍ إلَّا رَدَّهُ عَلَيهم. فبينَما هُمْ على ذلك أَقْبَلَ عقبةُ بنُ عامرٍ، فقالَ له مَسْلَمَةُ: يا عقبةُ، اسْمَعْ ما يقولُ عبدُ الله! فقال عقبةُ: هوَ أعلمُ، وأمَّا أنَا فسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا تزالُ عِصَابةٌ من أُمَّتي يُقاتِلُونَ على أمرِ اللهِ، قاهرينَ لِعَدوِّهِم، لا يَضُرُّهُم مَن خَالَفَهُم، حتى تأتِيَهُمُ الساعةُ وهُمْ على ذلكَ**».

فقال عبدُ الله: أجَلْ، ثمَّ يَبعثُ الله رِيحاً كريحِ المِسْكِ، مَسُّها مَسُّ الحَرير، فلا تتركُ نَفْساً في قَلْبِه مثقالُ حَبَّةٍ من الإيمان إلا قبَضَتْهُ، ثم يَبْقى شِرارُ الناسِ، عليهم تقومُ الساعةُ)[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٦) واللفظ له؛ وأحمد: ٣/ ٣٤٥، ٣٨٤؛ وابن حبان (٦٨١٩)؛ وأخرجه مسلم بأخصر منه (١٩٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٢٤) واللفظ له؛ وابن حبان (٦٨٣٦).

٣ ـ وعن ثَوْبَانَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تَزَالُ طائفةٌ من أمَّتي ظاهرينَ على الحقِّ لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم، حتى يأتيَ أمرُ اللهِ وهُمْ كذلكَ**»(١).

٤ ـ وعن المُغيرةِ بنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لَنْ يزالَ قومٌ من أمَّتي ظاهِرينَ على النَّاسِ، حتى يأتِيَهُم أمرُ اللهِ وهم ظَاهِرونَ**»(٢).

٥ ـ وعن عُمير بن هانئ: (أنَّه سمعَ معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهما يقول: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**لا يزالُ من أمَّتي أمَّةٌ قائمةٌ بأمرِ الله، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم ولا مَنْ خالَفَهُم، حتى يأتيهُم أمرُ اللهِ وهُمْ على ذلكَ**» قال عُمير: فقال مالكُ بن يُخَامِرَ: قال معاذٌ: «**وهُمْ بالشَّامِ**» فقال معاويةُ: هذا مالكٌ يزعُمُ أنَّه سمعَ مُعاذاً يقول: «**وهُمْ بالشَّام**»)(٣).

٦ ـ وعن سَعْدِ بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا يزالُ أهلُ الغَرْبِ ظاهرينَ على الحقِّ حتى تقومَ الساعةُ**»(٤).

٧ ـ وعن أبي أُمَامَةَ الباهِليِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي على الدِّين ظاهِرينَ، لِعَدوِّهِم قاهِرينَ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خِالَفَهُم، إلَّا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠) واللفظ له؛ والترمذي (٢٢٢٩)؛ وابن ماجه (١٠)؛ وأحمد: ٥/ ٢٧٩؛ والبيهقي في دلائل النبوة: ٦/ ٥٢٧؛ والداني (٣٦٠) و(٣٦١).
وأخرجه عن ثوبان في حديث طويل: أبو داود (٤٢٥٢)؛ وابن ماجه (٣٩٥٢)؛ وأحمد: ٥/ ٢٧٨؛ وابن حبان (٦٧١٤)، و(٧٢٣٨)، وتتمة تخريجه فيه.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٢١) واللفظ له؛ والبخاري (٣٦٤٠)، (٧٣١١) و(٧٤٥٩)؛ وأحمد: ٤/ ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٢؛ والطبراني في الكبير: ٢٠/(٩٥٩ ـ ٩٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤١) واللفظ له؛ وأطرافه في رقم (٧١)؛ ومسلم (١٠٣٧) في كتاب الإمارة عقب الحديث (١٩٢٣)؛ وأحمد: ٤/ ١٠١؛ والفسوي: ٢/ ٢٩٧؛ والطبراني: ١٩/(٧٥٥) ومواضع أخر؛ وابن ماجه بأخصر منه (٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٥) واللفظ له؛ وأبو يعلى (٧٨٣)؛ والداني (٣٦٢)؛ وابن الأعرابي في معجمه (١١٥٦)؛ وأبو نعيم في الحلية: ٣/ ٩٥ ـ ٩٦، وغيرهم، انظر: الصحيحة، للألباني (٩٦٥).

ما أَصَابَهُم من لأْوَاءٍ، حتى يأتِيَهُم أمرُ اللهِ وهم كذلك قالوا: يا رسولَ الله، وأينَ هُم؟ قال: «**ببيتِ المَقْدِسِ، وأكْنَافِ بيتِ المَقْدِس**»[(١)].

٨ ـ وعن أبي هريرةَ وشُرَحْبِيل بن السِّمْط: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تزالُ من أمَّتي عصابةٌ قوَّامةٌ على أمرِ الله ﷻ، لا يَضُرُّها مَن خالَفَها، تُقاتِلُ أعداءَها، كلما ذَهَبَ حربٌ نَشِبَ حربُ قومٍ آخَرين، يُزِيغُ الله قلوبَ قومٍ لِيرزُقَهم منه، حتى تأتِيَهُم الساعةُ كأنها قِطعُ الليلِ المُظْلِم، فيفْزَعُون لذلك، حتى يَلْبسُوا له أبدانَ الدُّروع**». وقال رسول الله ﷺ: «**هُمْ أهلُ الشامِ**»، ونَكَتَ رسولُ الله ﷺ بإصْبَعِهِ، يُومِئُ بها إلى الشام، حتى أَوْجَعَها)[(٢)].

●● وروى حديث الطائفة المنصورة أيضاً: عمر بن الخطاب، وعمران بن حُصَين، وأبو هريرة، وجابر بن سَمُرة، ومُرَّة بن إياس، وأبو أُمَامة، وسَلَمة بن نُفَيل، رضي الله عنهم أجمعين[(٣)].

❁ ❁ ❁

أولاً: كلمة موجزة لبيان معاني الأحاديث[(٤)]:

ـ «**لا تزال طائفة**»، وفي رواية: «**أمة**»، وفي أخرى: «**عصابة**»، وفي أخرى: «**قوم**»: ومعانيها متقاربة، وهي تعني الجماعة من الناس.

(١) رواه عبد الله بن أحمد: وِجَادةً عن خطّ أبيه: ٥/ ٢٦٩؛ والطبراني؛ وقال الهيثمي في (المجمع: ٧/ ٢٨٨): رجاله ثقات؛ وضعَّفه الألباني من جهة أحد رجاله، ثم ذكر له شاهداً عن مرَّة البَهْزِيِّ عند الطبراني: ٢٠/ (٧٥٤). انظر: الصحيحة: ٤/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠ (١٩٥٧). **نقول**: وأخرج هذا الشاهد عن مرة البهزي: الفَسَوي: ٢/ ٢٩٨، وتشهد له الأحاديث السابقة، خاصة حديث معاوية والحديث التالي فيقوى بها.

(٢) أخرجه الفسوي: ٢/ ٢٩٧، واللفظ له؛ والبخاري مختصراً في التاريخ الكبير: ٤/ ٢٤٨؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٤٢٥).

(٣) انظر: صحيح مسلم (١٩٢٢)؛ وصحيح ابن حبان (٦١) و(٦٨٣٤) و(٦٨٣٥) و(٦٨٣٦) و(٦٨٣٧) مع تخريجها، والسلسلة الصحيحة (٢٧٠) و(٩٦٣) و(١٩٣٥) و(١٩٥٦) و(١٩٥٩) و(١٩٦١) و(١٩٦٢).

(٤) أخذتها من: شرح صحيح مسلم؛ وفتح الباري؛ وفتح الملهم وتكملته.

ـ «**يقاتِلون على الحق**»: أي على ظهور الحق، أو حالَ كونهم على الحق.

ـ «**ظاهرين**»: أي غالبين على أعدائهم، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ـ «**أميرهم**»: هو إمام المسلمين المهدي الموعود.

ـ «**تكرمةَ الله هذه الأمة**»: أي إكراماً منه ﷻ لهذه الجماعة المكرمة.

ـ «**ظاهرين على الحق**»: أي غالبين على مَنْ خالَفَهم حاملين الحق، وغلبتُهم إما بالقوة أو بالحجة.

ـ «**ظاهرين على مَنْ ناوأهم**»: أي عاداهم وناهَضَهم للقتال.

ـ «**ظاهرين على مَنْ خالفهم**»: المراد علوّهم عليهم بالغَلَبة.

ـ «**لا يزال أهل الغَرْب**»، وفي بعض طرق الحديث: «**أهل المَغْرب**»: قال الإمام أحمد: أهل المغرب هم أهل الشام. وأَيَّده ابن تيمية فقال: (وهو كما قال؛ فإنَّ هذه لغةُ أهل المدينة النبوية في ذاك الزمان، كانوا يسمُّون أهلَ نَجْد والعراق أهلَ المشرق، ويسمُّون أهلَ الشام أهلَ المغرب، لأن التغريبَ والتشريقَ من الأمور النسبية، فكلُّ مكان له غرب وشرق، فالنبيُّ ﷺ تكلَّم بذلك في المدينة النبوية، فما يغرب عنها فهو غربُه، وما يشرق عنها فهو شرقُه).

وقال في موضع آخر: (إن لغة النبي ﷺ وأهل مدينته في «**أهل المغرب**» هم أهل الشام، ومن يغرب عنهم)[1].

وذلك لأن أهل الشام يقعون في الجهة الغربية الشمالية بالنسبة للمدينة المنورة.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٧/ ٤١ ـ ٤٢، ٥٠٨؛ وانظر: ٢٨/ ٥٣١ ـ ٥٣٢؛ وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٧/ ٧٧ حديث (١٩٢٥)؛ والفتح: ١٧/ ١٢٦ شرح الحديثين (٧٣١١، ٧٣١٢).

ويؤيده ما جاء في الحديثين اللذين أوردناهما هنا برقم (٥) و(٨): «**وهم بالشام**»، و «**هم أهل الشام**».

ـ «**حتى تقوم الساعة**»، وفي رواية: «**إلى يوم القيامة**»، وفي أخرى: «**حتى يأتي أمر الله**»: المراد: دنوُّ الساعةِ المتناهي في القرب وتظاهرُ أشراطِها الكبار؛ أي: إن هذه الطائفة المباركة لا تزال ظاهرةً حتى يبعثَ الله ريحاً كريح المِسْك، لا تترك نَفْساً في قلبه مثقالُ حَبَّة من إيمان إلا قبضَتْه، ثم يبقى شِرارُ الناس عليهم تقوم الساعة.

فالمراد بأمر الله تعالى في هذه الأحاديث هبوبُ تلك الريح، ووقوعُ الآيات العِظام التي يَعْقُبها قيامُ الساعة ولا يتخلَّف عنها إلا شيئاً يسيراً، ويؤيده حديثُ عمران بن حصين رفعه: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم الدجال**»[(١)]، فإن الذين يُقاتلون الدجالَ يكونون بعد قتله مع عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم يُرسَل عليهم الريح الطيبة، فلا يَبقى بعدهم إلا الشِّرار.

ويؤيده المناظرة التي جرت بين عبد الله بن عمرو وعقبة بن عامر، قال عبد الله: (ثم يبعثُ الله ريحاً كريح المِسْكِ، مسُّها مسُّ الحَرير، فلا تتركُ نَفْساً في قلْبِه مثقالُ حبَّة من الإيمان إلا قبضَتْه، ثم يبقى شِرارُ الناسِ عليهم تقومُ الساعة)[(٢)].

فأهل هذه الطائفة يبقون ظاهرين أقوياء إلى وقت مجيء الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين، وقد انتهت فترة إقامة الحجة لله على خلقه، وانتهى زمن التوبة.

---

(١) انظر: الحديث في: السلسلة الصحيحة (١٩٥٩).

(٢) الفتح: ١٦/٤٠٣ ـ ٤٠٤ شرح الحديثين (٧١١٦، ٧١١٧).

ثانياً: بيان المقصود بهذه الطائفة:

١ ـ أصحاب الحديث:

قال الإمام أحمد: (إنْ لم تكن هذه الطائفةُ المنصورة أصحابَ الحديث فلا أدري مَن هم!)(١).

وكذا قال عبد الله بن المبارك، وعلي بن المَدِيني، والإمام البخاري(٢).

٢ ـ أهل العلم وأصحاب الحديث:

قال البخاري في ترجمة (باب قول النبي ﷺ: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق**»): (وهم أهلُ العلم)(٣).

وهو أعمُّ من الأول.

وقال أحمد بن سِنَان الحافظ: (هم أهل العلم وأصحاب الآثار)(٤).

٣ ـ المجاهدون:

وهم من أَوْلى طوائفِ المسلمين فوزاً بصفة الطائفة المنصورة؛ لأن أكثر ألفاظ الحديث جاءت بقوله ﷺ: «**يُقاتِلون على الحق**»، «**يقاتِلون على أمرِ الله قاهرين لعدوِّهم**»، «**لن يَبرح هذا الدين قائماً يُقاتِل عليه عصابةٌ من المسلمين**»، «**لا تزال من أمتي عصابة... تقاتل أعداءها، كلما ذهَبَ حربٌ نَشِب حربُ قوم آخرين**»، «**حتى يقاتل آخِرُهم الدجالَ**».

فهم الذين شَدّوا سواعدهم لنصرة الإسلام، وبَذَلوا مُهجهم وأرواحهم في

---

(١) معرفة علوم الحديث، للحاكم، ص٢؛ وقال الحافظ: سنده صحيح؛ الفتح: ١٧/ ١٢٤ شرح الحديثين (٧٣١١، ٧٣١٢).
(٢) السلسلة الصحيحة: ١/ ٥٤١ ـ ٥٤٢.
(٣) الفتح: ١٧/ ١٢٣.
(٤) السلسلة الصحيحة: ١/ ٥٤٢.

سبيل قيامه والتمكين له، وهم الطائفة التي اختارها الله سبحانه على سواها كما قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٤ ـ جماعات متعددة من أنواع المؤمنين:

قال الإمام النووي: (يَحتمِل أن هذه الطائفة مفرَّقة بين أنواع المؤمنين: منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدِّثون، ومنهم زهَّاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهلُ أنواع أخرى من الخير، ولا يَلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض)(١).

ونقله الحافظ وأيَّده، وزاد عليه فقال: (ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعضٍ منه دون بعض، ويجوز إخلاءُ الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله)(٢).

وهذا الذي قاله النووي ونصره ابن حجر هو الصحيح الذي لا ينبغي سواه، ونظيره ما جاء في تفسير حديث (المجددين).

وحَجَّر العلّامة المحدّث ناصر الدين الألباني وآخرون المقصود بالطائفة المنصورة على (أهل الحديث)، فضيَّقوا واسعاً!.

والصحيح أن (الطائفة المنصورة) لا تنحصر بفئة معينة، إذ إن الصفات المحتاج إليها في إبلاغ الإسلام والدعوة إليه، وتبيان مبادئه، وتعليم أصوله وشرائعه وشعائره، وحمايته والدفاع عنه ونصرته ـ لا يمكن لفئة واحدة بعينها أن تقوم بذلك جميعاً، مهما أوتيت من إمكانيات وخصال الخير.

٥ ـ العلماء والمفكّرون وأصحاب الأقلام الصادقون المخلصون:

أولئك الأحرار الأخيار الذين يشكّلون عقلَ الأمة الواعي، وفكرها

(١) شرح صحيح مسلم: ٧/ ٧٧.
(٢) الفتح: ١٧/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

المستنير، وقلبَها النابض، ولسانَها الناطق، ورؤيتها البصيرة، وبصيرتها النافذة، وحماسَها الدفَّاع، وصبرها الدائم، وإخلاصها المتوقد . . . أولئك الذين يَذبُّون عن الإسلام وعقائده وشرائعه وأفكاره ومبادئه وقيمه، يَنْفُون عنه تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين، يُبطلون البدع، ويُزيِّفون الأباطيل، ويتصدّون للاستشراق والاستغراب و(الأَوْرَبة) و(الأَمْرَكة)، ويَفضحون الأساليب الرخيصة والأفكار المتسللة الهدامة، ويقفون بالمرصاد لألسنة الإلحاد وأقلام الزندقة وكُتب الخنَا وصحف المجون وإعلام التهتك الرخيص، ويخوضون مع كل أولئك حروباً على جبهات عدة.

وتشكِّل جهودُ هؤلاء الرجال في تاريخنا مَعْلماً بارزاً وصفحةً مشرقة، من أيام وفدت إلينا فلسفةُ اليونان وأفكار الهند والفرس فشوَّهت رُواءَ عقيدتنا، إلى أن غَزَتْنا فلسفةُ التصوف الإشراقي ووحدة الوجود، حتى وقتنا الحاضر حيث تنوعت الأفكار و(الإيديولوجيات) الخطيرة التي لوَّثَتْ أفكارَ المسلمين من ماركسية ووجودية وإباحية وفرويدية ووثنية وعلمانية وغيرها . . . فكَثُرت كتابات علماء الإسلام ومفكريه، التي تبيِّن حقائقه وتخلِّصُه من الأدران التي لصقتْ به، لتعرضه نقيّاً صافياً، ثم تتصدى لذلك الغزو الفكري والثقافي بالمجادلة العلمية، وتزييفه بالمنطق والبرهان.

وهؤلاء الرجال جمهور كبير، لا نَذكر أسماء بعضهم حتى لا يُظَنّ التقليل من شأن مَن لم نذكره، وهم ماضُون على الطريق بإخلاص وصدق وثبات، منهم مَن قضى نحبه ومنهم مَن ينتظر، ما فَرَّطوا ولا بدّلوا . .

إنهم بلا ريب من رجال هذه الطائفة المباركة المنصورة الممدوحة.

٦ ـ مدارس تربوية علمية فكرية خرَّجت المجددين والرجال الفاتحين:

وهي مؤسسات شعبية نبتت في ضمير الأمة، ولعبتْ دوراً جليلاً في نصرة الإسلام ومقارعة المخالفين والمتخاذلين والأعداء المتربصين. وتخرَّجَتْ منها أجيال من الأكابر وجماهير من الدعاة والإصلاحيين الذين حَمَوا بَيْضَة الدين

وذَبّوا عن ديار المسلمين، وشكَّلتْ في كثير من الأحيان عقلَ الأمة، ووجَّهت السياسة والحكم والأمة في المجتمع الإسلامي، واستنهضَتْه من السفح إلى القمة، وأعادَتْ من جديد أمجاد الإسلام في مواقع كثيرة من وطننا الإسلامي الكبير، وعلى فترات متطاولة من تاريخنا.

ومن أجلّ تلك المدارس: مدارس الحديث ومدارس الفقه الكثيرة، ومدرسة أبي الحسن الأشعري، والغزالي، وعبد القادر الجيلاني، وابن تيمية، والمرابطين، والموحِّدين، والزَّنْكيين، والإمام السرهندي، وولي الله الدهلوي، وأحمد بن عرفان الشهيد، ومحمد بن عبد الوهاب، والسنوسي، وابن باديس، ومحمد رشيد رضا، ومدارس الحركات الإسلامية الكثيرة.

جميع هذه المدارس خرَّجت المفكّرين والدعاة والمصلحين والتربويين والمجاهدين والمنافحين عن الإسلام، بكل ما أمكَنَتْهم الأساليب والوسائل والظروف والطاقات.

٧ ـ الأغنياء وأصحاب الأموال الذين ينفقونها في سبيل الله:

وهذا الفريق من المسلمين لا يقلُّ أهميةً عمَّن سبقه، فالمال الصالح الوافر ركيزة أساسية راسخة تُشاد عليها أعمال عِظام ومشاريع كبار وجهود ضخام لا ينقطع معينها، وفي القرآن الكريم اقترن الجهاد بالنفس والجهاد بالمال في مواطن كثيرة، بل قدَّم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس!.

والمال كذلك رئةٌ نقية يتنفَّس من خلالها العاملون للإسلام والمجاهدون في سبيله في شتى المجالات، بفضل هؤلاء الرجال الأخيار الذين يبذلون أموالَهم بسخاء خالصةً لوجه الله تعالى في سبيل نصرة دينه، والدفاع عنه، وتمويل أعمال الدعوة والبلاغ والجهاد وكفالة الدعاة، ورعاية الفقراء واليتامى حتى لا يقعوا فريسة التبشير والتكفير! ويُنفقون أموالَهم لبناء المؤسسات الخيرية، والمرافق العامة من مدارس ومستشفيات وغيرها، ويُوطِّئون السبيلَ لتعليم المسلمين، ويمدُّونهم بما يحتاجونه في حياتهم اليومية، ويَحفظ عليهم كرامتهم ودينهم. . .

كل هذه الأعمال جديرة بأن تجعل مَن وراءها وسببَ استمرارها، ممَّن يبذل أمواله في سبيلها، من أكابر رجال الطائفة المنصورة، فالإسلام يُحفظ ويُحمى ويَنتصر وينتشر؛ بالعلم والعمل والمال والجاه والسلطان والإصلاح والتربية والجهاد، ولا يغني واحد من هذه الأعمال الضخمة عن الآخر.

ثالثاً: مكان وجود الطائفة المنصورة:

●● جاء في حديث معاذ عند البخاري: «**وهم بالشام**».

وفي حديث أبي هريرة وابن السِّمْط عند الفَسَوي: (قال ﷺ: «**هم أهل الشام**»، ونكت رسول الله ﷺ بإصبعه، يومئ بها إلى الشام، حتى أوجعها).

وفي حديث أبي أمامة عند أحمد: (قالوا: يا رسول الله! وأين هم؟ قال: «**ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس**»).

وفي حديث أبي هريرة عند الطبراني في الأوسط: «**يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله**».

و(بيت المقدس) و(دمشق) من الشام، فرجع الأمر إلى الأول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أما الطائفة بالشام ومصر ونحوهما، فَهُم في هذا الوقت المقاتلون عن دين الإسلام، وهم من أحقِّ الناس دخولاً في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي ﷺ بقوله في الأحاديث الصحيحة المستفيضة عنه: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق...**»)(١).

وفضائل الشام وأهله قد جاءت فيها أحاديث صحاح كثيرة.

ووجود الطائفة المنصورة في تلك البلاد المباركة مما لا ريب فيه، فهي من قلاع الإسلام العظيمة، وعلى أرضها تمحورَ الصراعُ الطويل بين الحق والباطل في أحقاب كثيرة من التاريخ، وظهورُ الإسلام وأعوانه فيها بالقلب واليد واللسان

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٣١.

أقوى منه في غيرها، وفيها من ظهورِ الإيمان وقمعِ الكفر والنفاق ما لا يوجد في غيرها[١]، وفيها الملاحمُ الكبرى، وعُقْرُ دار المؤمنين.

لذلك نَبَّه رسول الله ﷺ وأصحابه على أهمية هذه البلاد، ومكانة أهلها، ودورهم التاريخي في قيام دولة الإسلام وحمايته ونصرة أهله. فذِكْرها في هذه الأحاديث الطيبة هو من باب مزيدِ الاهتمام وبيان الأهمية الكبرى لها في سيرورة التاريخ.

●● وليس في ذلك حَصْرٌ ولا قَصْر لوجود الطائفة المنصورة على بلاد الشام، إذ القولُ بوجودها في الشام دون سواه يأباه واقعُ الحال وحقائقُ التاريخ الإسلامي وعمومُ خيرية الأمة الإسلامية، فأمة ضخمة تمتد على بلاد مترامية الأطراف، لا يوجد فيها من يقوم بأمور الإسلام وحمايته ونصرته إلا طائفة في صُقْع واحد ـ هي أمة ضعيفة ميتة!.

إن هذه الطائفة المنصورة المباركة قد وُجدت على مدار تاريخنا في بلاد الشام والعراق والحجاز ومصر والمغرب والأندلس، والمشرق الإسلامي حتى الهند والسِّنْد وإندونيسيا والفلبين وما والاها.

هذا هو اللائق بأمة عظيمة أناطَ الله بها حملَ الرسالةِ الخاتمة لتكون شاهدة على العالمين.

رابعاً: خصائص الطائفة المنصورة وأهلها:

بالتأمل في ألفاظ الأحاديث المختلفة يمكن استخلاص خصائص هذه الطائفة كما وصفها النبي ﷺ بها، وهي تمثِّل طبيعتها ومنهجها وأسلوبها وواقعها وعاقبة أمرها.

فهي طائفة قائمةٌ بأمر الله، قوَّامة على أمر الله، وأهلُها يقاتِلون على الحق،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٧/ ٤٩.

ظاهرون على الحق، ظاهرون على مَن ناوأهم، قاهرون لعدوِّهم، لا يَضرُّهم مَن خذلهم ولا من خالفهم ولا من كذَّبهم.

١ ـ قائمة بأمر الله:

منهجها هو المنهج النبوي وما كان عليه الرعيل الأول والسلف الصالح من هذه الأمة، تستجيب لنداءات القرآن الكريم لصيانة مسلكها واستدامة صلاحيتها في حمل الرسالة وبلاغها.

إنها مُصِيخةٌ مستجيبةٌ لقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وأهلها يترسَّمون خُطا القرآن والسنَّة، يتعلّمونهما ويفهمونهما الفهم الصحيح، ويعملون بهديهما وفق خطط واعية وتطبيق سليم وفقه بصير وخبرة بأحوال الأمم وتقلبات الزمان.

٢ ـ قوامة على أمر الله:

وأهل هذه الطائفة مسلمون إيجابيون، وحَمَلةُ رسالة حاضرون، ودعاة غيورون، يبدؤون الطريقَ من إصلاح أنفسهم وما حولهم، فإذا أصبح الإصلاح مَلَكةً فيهم وسجيَّة لا تنفصل، مكَّنَ الله لهم، فأصلَحوا الأرض لأنهم لا يستطيعون إلا هذا الإصلاح الذي عاشوا به وعاشوا له(١).

فهؤلاء الرجال الدعاة المخلصون المجاهدون صالحونَ مُصلِحون، لا يكتفون بصلاح أنفسهم وصحة منهجهم، بل يُشِيعون الخيرَ في الأمة،

(١) جهاد الدعوة، ص١١٨.

ويحرسون مسيرتها، ويُصلحون أخطاءها، ويُعالجون أمراضها، ويقوِّمون عوجَ مسلكها.

يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بحكمة وكِياسة وأسلوب حسن ورحمة غامرة، إذا رأوا انحرافاً عن الحق بَيَّنوا حُكمه وعالجوا أسبابه، وإذا انتُهكت المحارم أو خُولِفت الشرائع أو انتُقصت الأحكام أو عُبِث بالشعائر أو اعتُدي على أي أصل أو فرع من الشرع ـ تمعّرتْ وجوهُهم لله، وبادروا إلى الإصلاح.

إنهم بحق قوَّامون على أمر الله، قوّامون بشرعه، قيامَ واجب لا تسلّط، وأداءَ رسالة لا إبرامَ أحكام.

إنهم أطبّاء أُساة لا جرَّاحون جُفاة!.

٣ ـ أهلها يقاتلون على الحق:

إنهم حُماة الإسلام في السرّاء والضَّرَّاء والسِّلم والحرب، في ميادين المجتمعات وساحات الوغى، يقفون في وجه من أراد الإسلامَ وأهلَه وأمته ودياره بسوء، سواء أكان في الداخل أم في الخارج، قد نَذَروا حياتهم لذلك فاستحقوا التكريمَ من الله الكريم، والثناءَ والمديح من الرسول العظيم ﷺ، والذِّكْرَ الحميد واللسان الصادق في الأولين والآخرين.

إنهم يقاتلون دونَ الإسلام ويحمونه وينصرونه بكل وسائل الحماية والنصر:

ينصرونه بجهودهم وأعمالهم ودعوتهم وبلاغهم وردِّ الأباطيل عنه ودَحْضِ الافتراءات وفَضْحِ الأكاذيب.

وينصرونه بأموالهم ونفقاتهم سرّاً وجهراً، في كل أعمال الخير التي تقوي مكانةَ الإسلام وتدعمُ وجودَه، وتُعلي كلمتَه، وتنشر رسالته، وتُعِزّ أهلَه، وتكفُل دعاته، وترفِدُ أنصاره والمجاهدين في سبيله.

وينصرونه بالمُهَج والأرواح في ميادين الجهاد، فيبذلون أنفسهم رخيصةً في سبيله، ويقفون سدّاً منيعاً في وجوه الأعداء المستكبرين من الكفار والمشركين

وأتباعهم، لا يتخلَّفون عن موقعة، ولا يُفرِّطون في أرض، ولا تفتقدُهم ساحةٌ فيها مواجهة ودفاع عن هذا الدين الحق.

٤ ـ ظاهرون على الحق:

وهم حاملون للحق ظاهرون به غالبون على مَنْ خالفهم؛ إما بالقوة في ميادين الجهاد وساحات النِّزال، أو بالحجة والبرهان في مواجهات الجِدال والمناظرة ومقارعة الحجة بالحجة.

قد نَصَروا الحقَّ فانتصروا به، وجعلوه منهجاً وغاية فظَهروا به، وعَلَتْ كلمتُهم وارتفع ذِكْرُهُم، وسَمَا منهجهم.

لا تستطيع قوة أن تُطفئ نور الحق الذي يحملونه، أو تُنزل رايته، أو تُخمِد جَذْوتَه.. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

٥ ـ ظاهرون على مَنْ ناوأهم، قاهرون لعدوِّهم:

وهذا وعدٌ وبُشرى لأهل الطائفة المنصورة؛ فهم (ظاهرون على من ناوأهم إلى يوم القيامة)، إنهم على الدين ظاهرون، لأعدائهم قاهرون، وعليهم منصورون.

وقد تظاهرت الآيات الكريمة على تأييد هذا الوعد الصادق؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

وهذا أمر مشهودٌ مشاهَدٌ عبر تاريخنا الطويل، فإن الإسلام لم تنطفئ جذوته، ولم تسقط رايته، ولم تَمُت كلمتُه، قد يَخسر المسلمون المعركة هنا لكنهم يربحونها هناك، ويَنزل اللواء في هذا البلد فيرتفع في بلد آخر، وتتهاوى طائفة في مكان فتعلو بالإسلام عصابة أو أكثر في أصقاع أخرى ـ لتظلَّ أعلامُ الإسلام مرفوعة، وكلمتُه العليا، والطائفةُ المنصورة ظاهرةً على الحق قاهرةً

لعدوِّها منصورةً على من ناوأها. وهذا من مستلزمات قيام هذا الدين واستمرار رسالته إلى يوم الدين.

ومن أهم أسباب انتصار هذه الطائفة: أنها تملك رصيداً ضخماً من الجماهير الغفيرة المؤمنة بربِّها وقرآنها ونبيِّها، المتطلِّعة إلى مَنْ يقودها باسم الله، ويَضَع يدها في يد رسول الله ﷺ، وعندئذ تبذل المالَ عن رضا واغتباط، والروحَ عن طواعية وارتياح؛ لأن هذه الأمة متديِّنة بفطرتها وبتاريخها، والدين هو مفتاح شخصيتها، وصَقْل مواهبها، وصانعُ بطولاتها، وسرُّ انتصاراتها الكبرى[1].

وقد أثبتت وقائعُ التاريخ هذه الحقيقةَ الكبرى في أيام فاصلة ومواقع خالدة، وأعمال وجهود الطائفة المنصورة بمختلِف أشكالها وأنواعها؛ كما سيتضح من العرض التاريخي الذي سنبيِّنُه بعد قليل.

٦ ـ لا يضرهم مَنْ خالفهم ولا مَنْ خذلهم ولا مَنْ كذّبهم:

وهؤلاء الصفوة الأخيار من أبناء الأمة قد عَرفوا الطريق فلزِموه، وفهموا المنهج فالتزموه ونصروه، وخَبَروا التضحيات فشمَّروا لها، وفَقِهوا العقبات فاستعدُّوا لها، واستقرؤوا التاريخ والواقع فاستَلْهموا تجاربَ الجماعات البشرية واستفادوا من صوابها وتجنَّبوا عثراتها... فانطلقوا في طريق الحق بعزمة وثبات وصبر، يَصحبُهم العمل ويَحدُوهم الأمل، لم يَفُتَّ في عَضُدهم مخالفةُ المخالفين، ولم يَكْسِر من حماسهم تخذيلُ المتخاذلين، ولم يصدَّهم عن سبيلهم تكذيبُ الصادين المكذِّبين.

●● أما المخالفون في الأمة: فَهُم ذلك الفريق الذي آثَر أن يأخذ من الإسلام ما يَسْهل عليه تطبيقُه والتزامه من عبادات وشعائر وذِكْر وأمور تتناول حياة الفرد.

---

(١) المبشِّرات بانتصار الإسلام، ص٧٢.

أو ذلك الصنف من العلماء والمفكّرين وأضرابهم ممن ارتمى في أحضان الحكومات أو المؤسسات، وآثر السلامة، واكتفَى من الإسلام بعرضه على أنه دين رحمة وسلام ومؤاخاة، مع ما تحمله هذه الكلمات من معاني الاسترخاء والاستسلام وترك الجهاد ومقاومة العدوان.

أو جماعات وتجمعات وهيئات وأحزاب أخذت جانباً من الإسلام يعتني بتهذيب الأخلاق وتربية النفس وتزكيتها، ونأَتْ جانباً عن القيام بأمور الإسلام الكبرى من حكم وجهاد وسياسة وشؤون المجتمع في التربية والاقتصاد والإعلام والقضاء والمعاملات وغيرها مما يقوم به الإسلام وأهله ودولته، وتركَتْ ـ كما يُقال! ـ ما لقيصر لقيصر وما لله لله! وابتعدَتْ ـ في عملها الدعوي ـ عن معترك الحياة وصراع الأفكار ومقاومة العدوان المادي والأدبي على شعائر الإسلام وشرائعه. لقد صَعُب على رجال هذا الفريق التصدي لحمل الرسالة الكبرى بمفهومها المتكامل، وشَقَّ عليهم تقديمُ التضحيات بالنفس والمال، وتحمُّلِ لَأْواءِ التشريد والتنكيل.

وهؤلاء المخالفون ـ بتنوُّعِ نماذجهم ـ يخالِفون في طريقتهم المفهومَ الشمولي للإسلام والمنهج المتكامل الذي تقوم به وعليه الطائفة المنصورة؛ لكن ذلك لا يَفتّ في عضدها، ولا يصدّها عن سبيلها، بل هي ترى في فريق المخالفين أنه بعد إصلاح فهمه وتفكيره وتقويم منهجه سيكون يوماً ما رديفاً لها في إقامة دولة الإسلام.

●● وفريقٌ ثانٍ في الأمة، غلَبَتْهم أنفسُهم وسيطرت عليهم شهواتهم، وغرقوا في ملذّاتهم وربما معاصيهم، ونَسوا دينَهم وهمومَ أمتهم، وأخلدوا إلى الأرض، لم يرفعوا رأساً لمكرمة، ولا تجشَّموا الصعاب في التزام الإسلام فضلاً عن حمله ونصرته، فهم أناس مستضعَفون خوَّارون، هالكون متهالكون، ساهون لاهون، لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً، قد هانت عليهم أنفسهم وجلسوا في سفح الجبل، لا همَّة لهم تحملهم إلى صعود المعالي.

ولم يكتفوا بذلك بل وقفوا عقبةً في وجه تيار الإسلام الصاعد الذي يقود سفينَه رجالُ الطائفة المنصورة، وعابوا عليهم، وتخاذلوا عن متابعتهم فَضْلاً عن مناصرتهم، ولربما سلكوا في مواقفَ كثيرة سُبُل التخذيل والصدّ عن سبيلهم، وقادوا جماعات من الرَّعَاع السمَّاعين لهم، ونَعَوا على أولئك الأخيار بأنهم مغامرون ومتعنِّتون ويحاولون ـ عَبَثاً ـ الوقوفَ في وجه التيار الطاغي الجارف الذي يكتسح الحياة، ويُدعم ـ ماديّاً وأدبيّاً ـ من دول كبرى ومؤسسات ضخمة وجيوش جرارة! ويرجُمونهم بألقاب وتسميات تحطُّ من شأنهم، وتعرقل من مسيرتهم، وتصدُّ الناس عنهم، بأنهم لا قِبَل لهم بعدوِّهم، والعينُ لا تقاوم الرصاصة، والإمكانيات المتواضعة لا تقفُ أمام الزحوف الجبّارة، والموازنات الدولية لا تسمحُ بوجودهم واستمرار عملهم!..

إن رجال هذا الفريق منهزمون في أنفسهم، ويبثّون ضعفَهم النفسي في الأمة، فهم متخاذلون مخذِّلون، خوَّارون غُثائيون يشكّلون عقبات على الطريق...

لكن إيمان رجال الطائفة المنصورة وصبرهم، ويقينهم وثباتهم، وفقههم للواقع وتجارب التاريخ؛ يجعل ذلك التخذيل المتخاذل هباءً منثوراً.

●● وأما الفريق الثالث فإنه أعظمُ أذًى وأشدُّ خطراً على الطائفة المنصورة من سابقَيْه، فهو يزيد عليهما أنه حَمل على عاتقه لواءَ الصدِّ عن سبيل الله، والتكذيب للدعاة إليه، والمناوأة والمعاداة لرجال الطائفة المنصورة.

ويشتمل ذلك على فرقاء كثيرين:

من سَدَنة الحكم ورجال السياسة، إلى رؤساء الأحزاب والنخب السياسية، والتجمعات والمؤسسات، ومراكز البحث والكتّاب والإعلاميين، وأصحاب اللسان والأموال، والدعاة على أبواب جهنم، ومن يتحدث باسم الإسلام ويفهمه بعقول المستشرقين والمستغربين.

كل هؤلاء متواجدون على الساحة العربية والإسلامية داخل بلادنا

وخارجها، ويشكِّلون عقبة كأداء في وجه رجال الطائفة المنصورة، ويَصدُّون عن سبيلهم ويحاربونهم بشتى أساليب العصر الظاهرة والخفية، والتي تقود من ورائها جيوشاً ضخمة من الساسة والمنظِّرين والكتَّاب والإعلاميين وأصحاب الأموال العملاقة.

ويُنازِلون رجال الطائفة المنصورة في حرب معلَنة مادية وأدبية، بالتنكيل والتشريد والتعذيب، أو التشويه والتزوير والاتهام، أو الإقصاء والاستئصال، أو الإبعاد عن مراكز التأثير والتوجيه ومواقع إبرام القرارات وقيادة المجتمعات والتجمعات. أو بتجميل صورة آخرين من الرجال المُدجَّنين ليتكلموا باسم الإسلام. أو بالدبابة والقنبلة والطائرة إذا لزم الأمر في مواقع أخرى!.

فلكلِّ زمان ما يناسِبُه، ولكلِّ بلد ما يوافقُه، ولكلِّ طائفة ما يلائمها، ولكلِّ مجتمع وجيل ما يُطفِئ ثورته ويُخمِد جَذْوته... والمحصلة في النهاية إسكات تلك الطائفة أو إقصاؤها أو استئصالها.

لكن أولئك الأبرار الذين خَبَروا الطريق وعرفوا المنهج واستعدوا لتقديم التضحيات؛ يعلمون تماماً معنى قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، وقوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، ويوقنون بالعاقبة التي بشَّرهم الله بها بقوله سبحانه: ﴿وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١]، ويتجمَّلون بما قاله القرآن على لسان الصحابة رضي الله عنهم، وهو منهج ممدود إلى قيام الساعة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

لقد أَعدُّوا للأحداث أقرانَها، ووطَّنوا أنفسَهم على تحمُّل مشقات الطريق، وعلموا أن المِحنَ تنقلِبُ بفضل الله إلى مِنح، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً.

إنهم كما وصفهم رسول الله ﷺ: «**لا يَضُرُّهم ما أصابهم من لَأْوَاءٍ**» والعاقبة لهم كما جاء في الوعد الصادق: «**على الحق ظاهرون، لعدوِّهم قاهرون**».

خامساً: جولة مع التاريخ لبيان وجود الطائفة المنصورة:

١ ـ وجود هذه الطائفة حقيقة تاريخية وضرورة دينية:

قد جاءت الأحاديث الصحيحة الكثيرة عن طائفة من الصحابة بأن هذه الطائفة المباركة موجودة في كل زمان، قائمة بالحق ولا تزال عليه مناصرة له إلى يوم القيامة، وهذا يتفق مع منطوق قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وفي هذا المعنى ما رواه الصحابي أبو عِنَبَةَ الخَوْلانيُّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا يزالُ اللهُ يَغْرِسُ في هذا الدين غَرْساً، يَسْتَعْمِلُهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة**»[(١)].

وهي قائمة بارزة على مدار التاريخ في الأقطار العربية والإسلامية المختلفة، من الأندلس إلى المغرب إلى الشرق الأوسط والأدنى والأقصى، تمثِّل حركات ناجحة وفصائلَ متماسكة وجماعات عاملة، وتشكِّل زحفَ الأحرار الذين يحملون الراية ويأخذون طريقهم إلى الإمام، تحمي الدين، وتدافع المعتدين، وتثبِّت المؤمنين، وتنير السبيل للسالكين.

يقول (روبرت بين) في مقدمة كتابه «السيف المقدَّس»: (علينا أن ندرسَ العرب ونَسْبرُ أفكارهم، لأنهم حكموا العالم سابقاً، وربَّما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، والشعلةُ التي أضاءها محمد ـ ﷺ ـ لا تزال مشتعلةً بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ!)[(٢)].

وهذه الطائفة تستمد قوتها واستمرارها من الشعوب المسلمة التي تأبى أن تبيع دينها، وتؤثر أن تهلك دونه، وستبقى حاملة الراية تتحدى كل أساليب الفتك

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٨)؛ وأحمد: ٤/ ٢٠٠؛ والبخاري في التاريخ الكبير «الكنى»، ص٦١؛ وابن حبان (٣٢٦)؛ وابن عدي في الكامل: ٢/ ١٦٢ ترجمة (٣٥١)، وغيرهم؛ وحسنه الألباني، انظر: الصحيحة (٢٤٤٢)؛ وصحيح الجامع (٧٦٩٢).

(٢) نقلاً عن: المبشِّرات بانتصار الإسلام، ص٧٩.

والإفناء والتشويه والتزوير والكبت والتشريد، التي تحيكها أحزاب وأعداء متربصون في الداخل والخارج:

اللهُ أكبرُ في الجزائرِ ثورةٌ قامَتْ على الآمال والآلامِ
وهناكَ في مصر العزيزةِ مثلُها تدعو لطردِ الغاصبِ الظلَّامِ
والرافدان مع الشآم تعانَقا بتآلُفِ الأرواحِ والأجسامِ

وستظل تلك العصابة المبرورة والطائفة المنصورة يَحدُوها صوت الشادي:

فقد أَشرقَتْ شمسُ الحقيقةِ بيننا كما عادَ للدنيا تراثُ محمدِ
نَهَضْنا فلم نقعدْ وسِرْنا فلم نقفْ وبِتْنا ذَوِي بأسٍ على كلّ معتدِ[(١)]

ولقد استطاعت فئات الطائفة المنصورة أن تقودَ النشاطات الشعبية في ميادين كثيرة، وتمكّنت في فترات عديدة عصيبة أن تسدَّ الثغرات التي أحدثها تخلخلُ الحكم في التاريخ الإسلامي المديد، أو تَرْتُق الفُتوق الرهيبة التي وقَعتْ.

وقام خلال ذلك رجال كثيرون، بعضُهم ذَكَرهم التاريخ وعَرفهم الناس، وآخرون ربانيون مخلصون عرفوا الحق واستشعروا السعادة في نصرته، لكنهم جنودٌ مجهولون في هذه الدنيا، بَيْدَ أنهم ـ غداً ـ أعلامٌ شامخة في رُبَى الخُلد[(٢)]!.

وحسبُ رجال هذه الطائفة شَرَفاً وكرامةً وعزّاً أنهم قومٌ اختارهم الله لحملِ دينه وإبلاغ رسالته والذَّود عن شريعته، وحمايةِ الأمة والعباد والبلاد.

إنه شَرَفٌ باذِخ عَمَّم القَدَرُ به هاماتِ رجالها!.

فرجالُ هذه الطائفة القائمون هنا وهناك، من فجر الدعوة إلى زماننا وحتى

---

(١) ديوان وليد الأعظمي، ص٣٩، ٤٣.
(٢) انظر: علل وأدوية، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

يأتي أمر الله؛ قد حَفِظوا الدين من التحريف والتزوير والتغيير والتبديل، وحَمَوا الأمة من الهلاك والفناء والذوبان في الأمم الأخرى، وحرسوا مقدساتها، وذادوا عن أرضها وخيراتها.

لاشك أنه قد وقعتْ خسائر كثيرة أو قليلة في هذا البلد أو ذاك، وفي هذه الحقبة أو تلك، لكن أولئك الحرَّاس الأمناء لم يُلقوا الراية، ولم يفرِّطوا بالأمانة، ومَضَوا على السبيل سائرين حتى يَبْلُغ الكتابُ أجلَه.

٢ ـ نماذج وأمثلة عن الطائفة المنصورة عبر التاريخ:

لو قُمنا بعملية استقراءٍ متأنية فاحصة منقِّبة ومستوعِبة لتاريخنا الإسلامي على مدى أربعة عشر قرناً؛ لوجدنا أبطال تلك الطائفة قائمين بالحق في أصقاع مختلفة من بلاد الإسلام الشاسعة، لم تخلُ منهم أرض، ولا انقطع وجودهم في زمان، ولا خَلَا منهم جيل من الأجيال.

والاستبحار في ذاك الزمن الممتد يمدُّنا بالكثير من الأمثلة والمعلومات الغزيرة، وحسبنا أن نومئ إلى إشارات معبِّرة ورموز كبيرة، لتأكيد تحقق هذه النبوءة الجليلة:

أ ـ القرن الأول الهجري:

في مطلع هذا القرن وبُعيد وفاة النبي ﷺ حدثت ظاهرة الردَّة، فتصدى لها **الخليفة العظيم أبو بكر الصديق وإخوانه الصحابة الكرام** رضي الله عنهم أجمعين، وانطلقت جيوش الإسلام تحت أحدَ عشر لواءً، وجابَتْ أطرافَ الجزيرة العربية وهزمت فلولَ المرتدين، وثبَّتت الدين في جميع البلدان.

ثم انطلقت جيوش الفتح والتحرير في عهد الخلفاء الراشدين إلى الشام والعراق وفارس ومصر، وبرزت شخصيات ضخمة في هذا الميدان قد سجَّل التاريخ أسماءها وأعمالها بأحرف من نور. . وامتدت الفتوحات وتراحبت في عهد الأمويين وانساحت شرقاً وغرباً، على أيدي قادة الكتائب الكبار؛ أمثال: **عُقبة بن نافع وطارق بن زياد وموسى بن نُصَير وقُتيبة بن مسلم ومَسْلَمة بن**

عبد الملك والمهلَّب بن أبي صُفْرة ومحمد بن القاسم الثقفي... وغيرهم، أولئك الذين دحروا قوى الكفر والطغيان وحرَّروا الشعوب ووطَّدوا دولة الإسلام وحملوا رايته ونشروا هديه في العالمين.

فهؤلاء وأولئك من رؤوس المقصودين بصفة الطائفة المنصورة.

ب ـ القرن الثاني الهجري:

تتمثَّل الطائفة المنصورة في هذا القرن **بجمهرة من الفقهاء الكبار** الذين حفظوا نصوص الشرع وفرَّعوا وأصَّلوا، وأسّسوا مدارسَ فقهية شهيرة قام عليها بنيان الفقه الإسلامي المستبحر عبر الزمن، وقدَّموا للمسلمين وللإنسانية اجتهادات باهرة حفظَتْ على الناس دينَهم وشرعهم.

وكذلك **أئمة الحديث وجهابذته ونقّاد الأسانيد والأخبار وعلماء الرجال**، أولئك الذين وَعَوا السنَّة وغربلوها ونَفَوا عنها الواهي والمكذوب، فحفظ الله بهم ذلك التراث النبوي العالي الغالي من الدَّغَل والشوائب.

فكان عمل المحدِّثين مع جهود الفقهاء نصراً كبيراً للإسلام وأصوله وقيام دولته واستمساك أهله به.

وكذلك تجديد وتشييد دولة الإسلام في الأندلس على يدي **عبد الرحمن الداخل**، الذي نصر الله به المسلمين هناك ومكَّن لهم دينَهم في تلك البلاد البعيدة.

ج ـ القرن الثالث الهجري:

•• من أبرز نماذج الطائفة المنصورة أولئك الأخيار الأبرار الذين وقفوا في وجه (بدعة خلق القرآن)، ومنهم: **أبو مُسْهِر عبد الأعلى بن مُسْهِر الدِّمَشقي، ومحمد بن نوح العِجْلي، وأبو نُعيم الفَضْل بن دُكَيْن الكوفي، وعفَّان بن مُسْلم البصري، ونُعيم بن حماد الخُزَاعي، وأحمد بن نَصْر الخُزاعي، والبُوَيْطي يوسف بن يحيى المِصْري** صاحبُ الإمام الشافعي، **ومحمود بن غَيْلان العَدَويّ المَرْوَزيّ، والإمام شيخُ الإسلام ناصر السنَّة أحمد بن حنبل زعيم هذه الطائفة،**

التي ناضلت وقاومت البدعة، فنصرها الله **بالخليفة المتوكل** الذي أطفأ نار هذه البدعة وقمع المعتزلة ونصر السنَّة وأهلَها وأعزَّ مكانتهم، وأنهى فتنة (القول بخلق القرآن)، فهو مع رجال الطائفة المنصورة.

●● **ومدرسة الإمام النظَّار لسان أهل السنَّة أبي الحسن الأشعري**، الذي قام هو وتلامذته من بعده بنصرة عقيدة أهل السنَّة والجماعة، وأَبْطَلوا بِدع القدرية والانحرافات التي دخلت على العقيدة من أفكار اليونان.

●● **وطائفة فرسان الحديث وجهابذته**، حيث سطعت نجوم جمهرة من أركان الحديث وصيارفته، الذين حفظوا السنن وأدّوها للأمة ودوَّنوها في دواوين كثيرة مشهورة حفظتْ أصلَ الإسلام الثاني، الذي بقي هكذا إلى يومنا هذا، بفضل جهودهم المباركة، وعلى رأسهم **أصحاب الكتب الستة: البخاري ومسلم والنَّسائي وأبو داود والتِّرمذي وابن ماجه، وعَبْد بن حُميد، وعبد الرزاق الصَّنْعاني، وأبو داود الطَّيَالِسي، وأبو بكر بن أبي شَيْبة، وعبد الله بن عبد الرحمن الدَّارمي، وإسحاق بن رَاهَوَيْه**، وجمهور كبير.

د ـ القرن الرابع الهجري:

●● جرى على الإسلام في المئة الرابعة بلاءٌ شديد من عدَّة جهات: الدولة العُبيدية (الفاطمية) في المغرب، والدولة البُوَيْهية في المشرق، والأعراب القرامطة، وحركة (إخوان الصفا) التي قامت على مذهب الإسماعيلية.

وتعاون هؤلاء جميعاً على نشر أفكار وعقائد باطلة، ومحاربة السنَّة باللسان والسِّنان.

احتل البويهيون قسماً كبيراً من الجزء الشرقي من بلدان الخلافة العباسية بما فيها العراق والعاصمة بغداد، وأضعفوا هيبةَ الخلافة، ووثَّقوا صِلاتهم بالقرامطة وأمدُّوهم بالسلاح والعدة، واتصلوا كذلك بالعُبيديين والتمسوا منهم الرضا و(شهادة حسن سلوك) في مقاومة المذهب السُّنّي!.

وأنشؤوا مراكز متخصصة ودور علم وشجّعوا العلماء على تصنيف الكتب

ونشر المذهب الشيعي وما فيه من مقالات ومطاعن على السلف من الصحابة والتابعين وعامة الفقهاء المجتهدين. ووجدت تلك المراكز في بغداد والكَرْخ والكوفة والنجف وكربلاء والكاظمية والبصرة والحِلَّة وغيرها(١).

●● وفي أقصى المشرق الإسلامي قام **(الغَزْنَويّون)** بدور الطائفة المنصورة، **وعلى رأسهم السلطان المجاهد محمود بن سُبُكْتِكِين الغَزْنَويّ**، فأقاموا دولة في بلاد الأفغان، وقاموا بفتوحات عظيمة في بلاد الهند، وامتدَّ سلطانهم من الهند إلى نَيْسابور، وخاضوا معامعَ كباراً، ونشروا الإسلام في هاتيك الأصقاع، وحطَّموا أوثانَ الهنادك وكسروهم في عشرات المعارك.

وناصر الغزنويون الخليفةَ العباسي القادر بالله، و حملوا إليه قناطير الذهب، وخضعوا لأمر الخلافة الإسلامية.

ومن أجلِّ أعمالهم أنهم تصدَّوا بشجاعة وبأس للحركات الباطنية من القرامطة والإسماعيلية وقهروهم، ونَفَوا المعتزلة إلى خُراسان، وأحرقوا كُتب الفلاسفة التي شوَّهَتْ رُواءَ العقيدة.

كذلك وقفوا ضد الدولة العُبيدية، فلما وَفَدت رسُلُهم وهداياهم إلى محمود بن سُبُكْتِكين، أَحرق التحف والهدايا، وقطَّع كتبهم، وخرَّق حُلَلَهم، وقتل التَّاهَرْتيَّ كبيرَ دُعاتهم.

وكان يُخطب في كل ممالكه للخليفة العباسي(٢).

هـ ـ القرن الخامس الهجري:

استمر في هذا القرن تهديدُ دولة الخلافة العباسية من قِبل الدولة العُبيدية في

---

(١) انظر: دولة السلاجقة، للصلابي، ص٤٢ ـ ٤٤.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٤٨٣ ـ ٤٩٤؛ البداية والنهاية: ١٢/ ٢٩ ـ ٣١؛ دولة السلاجقة، ص٢٨ ـ ٣٠.

المغرب، والدولة البُوَيْهيَّة في المشرق، والقرامطة وإخوان الصَّفا ومراكز نشر الفكر الباطني في (الجامع الأزهر) وفي العراق.

وضَعُفَ أمرُ الخلافة والمذهب السني الذي يمثِّل السوادَ الأعظم في البلاد العربية والإسلامية، لكن الله تعالى أيَّده ونَصَره بالطائفة المنصورة في المشرق والمغرب.

●● ففي المشرق الإسلامي: قام السَّلاجِقة الأتراك بأدوار عظيمة جليلة؛ كل واحد منها يستحقُّ أن يُفرد بالبحث والدراسة واستنتاج العِبر، ثم الثناء والإطراء! ونجملها فيما يلي:

١ ـ التصدي لدولة (بني بُويه) الفارسية والرافضية الغُلاة، الذين كانوا يُعالِنون في المساجد بلَعْن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، ومعاوية، ﵃! واستطاع السلاجقة أن يُزيلوا مُلْكَهم ويريحوا المسلمين من شرِّهم، حيث قبض السلطان طُغْرُلْ بك السلجوقي على آخر حاكم منهم سنة (٤٤٧هـ)، وأنهى وجودهم بحمد الله تعالى.

٢ ـ قضوا على (الدولة المرداسية) بحلب.

٣ ـ قاوموا (الدعوة النزارية) الإسماعيلية، التي كان من أبرز رموزها الحسن بن الصَّبَّاح المشهور، ويُعرف أتباعه بفرقة (الحشَّاشين)[1].

٤ ـ تصدَّوا للدولة العُبيدية (الفاطمية) في المغرب.

٥ ـ رفعوا راية الجهاد وخاضوا مع البيزنطيين معارك كبيرة وانتصروا عليهم، ومن أجلِّ تلك المعارك (ملاذكرد) التي تُعتبر أكبرَ نكسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية حيث أصبحت أراضيها تحت رحمة السلاجقة، وبهذا يكون السلاجقة قد تابعوا الجهاد الذي قام به المسلمون ضد الروم، وأصبح البيزنطيون عاجزين عن حماية العالم الصليبي في الجبهة الشرقية.

---

(١) انظر: التعريف بها: في الموسوعة الميسرة للأديان، ص٢٠٣ ـ ٢٠٨.

٦ ـ فتحوا بلاداً كثيرة؛ فشمل ذلك خُراسان وأَذْرَبِيجان وكَرْمان وهَمَذَان وجُرْجَان، وانتشر السلاجقة في آسية الصغرى، وضموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على (٤٠٠ ألف كم٢)، وعَمَّ الإسلام تلك الجهات منذ ذلك الوقت ولم يكن دخلها أبداً من قبل، فقد كانت هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي مرحلة امتداد وتوسُّع، لا مرحلةَ جمود كما يظن كثير ممن يقرأ تاريخنا على عجالة.

٧ ـ نصروا المذهبَ السُّنِّي بإقامة (المدارس النِّظامية) التي أقامها الوزير الكبيرِ نِظام المُلْك[1] ـ وإليه نسبتُها ـ وهي بمثابة جامعات متخصصة شُيِّدت في كبرى المدن الإسلامية مثل: بغداد، والمَوْصل، والبصرة، وأَصْبهان، ونَيْسابور، ومَرْو، وبَلْخ، وهَرَاة، وآمُل طَبَرِسْتان.

ومن أكابر الأئمة الذين تولوا التدريس في (المدارس النظامية): أبو إسحاق الشِّيرازي، وإمام الحَرَمين أبوالمعالي الجُويني، والإمام أبو حامد الغزالي حجة الإسلام.

وكان يدرَّس فيها علوم العقيدة على مذهب أبي الحسن الأشعري، والفقه، والحديث، والنحو واللغة والأدب، فضارعت ما كان ينشره أصحاب المذهب الباطني من عُبيدين وبُويهيين.

ومن أكابر رجال السلاجقة العظام: السلطان أَلْب أَرْسَلان، وابنُه مَلِكْشاه، ووزيرهما الشهير نِظام المُلْك.

لقد أحسنَ السلاجقة للإسلام والمسلمين ولدولة الخلافة العباسية في مقاومة التغلغل الباطني في المشرق والمغرب، وكذلك الزحف الصليبي، واستنقذوا دولة الخلافة من الانهيار، وكانوا جديرين بلقب (الطائفة المنصورة).

إن السلاجقة بأعمالهم الكبيرة قد وحَّدوا الأقاليم الممتدة من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند تحت زعامة واحدة، وإنْ كان لفترة محدودة،

---

(١) انظر: ما كتبناه في هذا الجزء: ٣/ ٤٤٩.

وردّوا الصليبيين والبيزنطيين، ومَدُّوا في حياة الخلافة العباسية التي ظلَّت قائمةً حتى تخريب المغول لبغداد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)[١].

●● **وفي المغرب الإسلامي: قام (المرابطون) بدور الطائفة المنصورة**، فأسسوا دولة قوية هناك، ثم مدُّوا يدَ العون إلى المسلمين في الأندلس، وأنقذوهم من التحدي الصليبي الإسباني ومن وراءه.

وحَمَوا أطرافَ الدولة العباسية البعيدة، وأعلنوا وعلى رأسهم **قائدهم (العظيم) يوسف بن تاشفين** الولاءَ للخليفة العباسي والانضواءَ تحت راية الخلافة، ورفضوا (خلافة العبيديين)، وأرسلوا للخليفة العباسي المستظهر بالله بأعمالهم وانتصاراتهم، فسُرَّ بذلك، وعقد ليوسف بن تاشفين الإمارة على هاتيك البلاد وسماه (أمير المسلمين وناصر الدين)[٢].

و ـ القرن السادس الهجري:

في هذا القرن كان يتهدَّد الإسلامَ ودولتَه أعداءٌ كثيرون من جهات عدة، وأخطرهم: الصليبيون في المشرق والمغرب، والدولة العُبيدية في مصر وما والاها، التي تسعى حثيثاً لنشر المذهب الإسماعيلي.

●● فالصليبيون كانوا يسيطرون على أصقاع من الجزيرة الفُراتية وبلاد الشام، والمسجد الأقصى في قبضتهم.

فقيَّض الله للأمة الإسلامية **الطائفة المنصورة التي تمثَّلت في (الزَّنْكيين) و(الأيوبيين)، حيث سطع نجم عماد الدين زَنْكي وابنه نور الدين محمود الشهيد**، فبدأ الأول تأسيس دولة إسلامية، ووحد الإمارات المتفرقة وجمع

---

(١) انظر: ما كتبناه عن السلاجقة في: دولة السلاجقة، للصلابي، ص٣٥ ـ ٤٥ ـ ٧٩ ـ ٩٢، ٣١٦، ٣٢٨؛ الدولة العباسية، لطقوش، ص٢٣٧ ـ ٢٤٦؛ الضربات، للجندي، ص٧٥ ـ ٧٦.

(٢) انظر: ما كتبناه هنا: ٣/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨؛ دولة السلاجقة، ص١٦٥ ـ ١٦٦.

شملها، وقاد معارك كثيرة مظفَّرة ضد الوجود الصليبي.. وتابع ابنه الملك العادل نور الدين أعمال أبيه ووسَّع نطاق الدولة حتى امتدت من حدود بلاد فارس حتى صحراء ليبيا، ومن جبال الأناضول حتى النُّوْبَة - في شمال السودان - واليمن، وحقَّق سلسلةً من الانتصارات العسكرية والسياسية، ورسخ قواعد الإسلام، ونشر السنَّة، وقاوم البدع والخرافات، وبذل العدل للناس، ومهَّدَّ للهزيمة الماحقة للصليبيين.

وجاء بعده صلاح الدين الأيوبي على رأس (الدولة الأيوبية)، وقاد حملات الجهاد ضد الصليبيين، فنصر الله به الملة (المحمدية)، وحقق على يديه نصرين عظيمين:

الأول: انتصاره الساحق على الصليبيين في حطين سنة (٥٨٣هـ)، واستنقاذ المسجد الأقصى وتحريره بعد واحد وتسعين عاماً من الاحتلال الصليبي له.

الثاني: قضاؤه المبرم على (الدولة العبيدية) بمصر، فطهَّر بلاد الإسلام من ضلالها وخطرها.

•• وفي المغرب الإسلامي رفع رايةَ الطائفة المنصورة المجاهدون المعروفون (بالموحِّدين)، الذين قاموا بإصلاحات كبيرة وجهاد مشكور في بلاد المغرب، وكذلك نصرتهم لإخوانهم في بلاد الأندلس ووقوفهم ضد الزحف الصليبي الإسباني ومن معه، وتمكينهم للإسلام والمسلمين في تلك البلاد.

•• وفي شبه القارة الهندية تابع (الغَزْنَويّون) أعمالَهم وجهادهم وفتوحاتهم، وتابع ملوك غَزْنة ما بدأه الغزنويون، وكان على رأسهم السلطان **غياث الدين الغُوري وأخوه شهاب الدين الغُوريّ، والقائد المجاهد قطب الدين أَيْبَك**؛ ففتحوا هناك بلاداً شاسعة، ونشروا الإسلام، وأقاموا العدل، وبنوا المساجد والرُّبُط والمدارس والخانات... وكان معهم من الدعاة والمربِّين من

يفتح القلوب للإسلام، فدخلوا فيه أفواجاً، وشيدوا دولة هناك عاصمتها (دهلي)[١].

ز ـ القرن السابع الهجري:

تألَّبَتْ في هذا القرن على الإسلام وأهلِه قوتان هائلتان شرستان: الصليبيون من المغرب، والتتار من المشرق.

فبينما كان المشروع الصليبي يحاول تنفيذَ مراحله الأولى بالهجوم على مصر في الحملة التي قادها (لويس التاسع) وعرَّفها المؤرِّخون (بالحملة الصليبية السابعة)، كانت هجمات التتار تطوي بلدانَ الشرق الإسلامي حتى وصلت إلى حدود مصر، وكانوا كالريح العقيم، فدمَّروا البلدان وخرّبوا العمران وجاسُوا خلال الديار وأحرقوا كتب العلم وأشاعوا الرعب في العالمين، وطبّقوا الأرض وأكثروا فيها الفساد، وأسقطوا دولة الخلافة ببغداد.

●● وجاء الفرج من السماء على يد (الطائفة المنصورة) في بلاد الشام ومصر، حيث كانت **قوة المماليك الصاعدة** قد وُلدت من رحم تلك الأحداث الجسام، وكَتبتْ لها الأقدارُ الحكيمة ذاكَ الشرفَ الباذخ في استنقاذ الإسلام وأهله ودياره من هذا الخطر الماحق، فنجحوا في توحيد المنطقة العربية في مواجهة الخطرين الصليبي والتتري، فوحَّدوا مصر وبلاد الشام تحت سلطانهم لمدة (٢٧٠) سنة.

وقام المماليك بدورهم التاريخي على نحو فذ، فتمكنوا من كَسْر (الحملة الصليبية السابعة)، وأَسَروا (الملكَ لويس التاسع) قائد الحملة نفسه، فتبدَّد فرسانُ جيشه وجنودُه ما بين قتيل وأسير، عقب الهزيمة المخزية التي أوقعها به الجيش المصري في (المنصورة)، وبرز فُرسان المماليك البحرية من أمثال (**فارس الدين**

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٢٠؛ رجال من التاريخ، ص٢٣٠؛ الأعلام: ٦/ ١٣٥.

أقطاي) و(عز الدين أيبك) و(ركن الدين بيبرس البندقداري). . . وغيرهم، خلال المعارك ضد الحملة الصليبية السابعة، وأظهروا شجاعة وقدرة عسكرية فائقة.

وأما مواجهتُهم للزحف التتري الماحق فكان (معجزة تاريخية خالدة)، **قاد جيش المماليك فيها السلطان المظفَّر سيف الدين قطز**، ولما التقى الجمعان واصطدم الجيشان، ألقى قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته (وا إسلاماه)، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيَّده الله بنصره.

وتصافَّ الفريقان مُصَافّاً آخرَ أعظمَ من الأول قربَ (بَيْسان)، حتى تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخةً عظيمة، سمعه معظمُ العسكر وهو يقول: (وا إسلاماه) ثلاث مرات، (يا الله، انصر عبدك قطز على التتار)!.

فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه، ومرَّغ وجْهَه على الأرض وقبَّلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى[1]!.

يقول ابن تيمية: (أما الطائفة بالشام ومصر ونحوِهما، فهم في هذا الوقت المقاتلون عن دين الإسلام، وهم من أحقِّ الناس دخولاً في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي ﷺ بقوله في الأحاديث الصحيحة المستفيضة. . .).

ثم يقول: (إن هذه العصابة التي بالشام ومصر في هذا الوقت هم كتيبةُ الإسلام، وعزُّهم عزُّ الإسلام، وذلُّهم ذلُّ الإسلام، فلو استولى عليهم التتار لم يبقَ للإسلام عزٌّ، ولا كلمةٌ عالية، ولا طائفةٌ ظاهرةٌ غالبةٌ يخافها أهل الأرض تقاتل عنه)[2].

●● كذلك ممن قام بوظائف **الطائفة المنصورة مدارسُ القرآن والحديث والمذاهب الفقهية السنِّيَّة الأربعة**، التي عرفَتْها دمشق والقاهرة بعد سقوط بغداد، والتي رسَّخت العودة إلى الكتاب والسنَّة وبناء عقيدة المسلمين وأفكارهم

(١) انظر: المظفر قطز، ص٢٠ ـ ٢٢، ١٣٠ ـ ١٣٢؛ الضربات، ص١٠١ ـ ١١٣.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٣١، ٥٣٤.

وسلوكهم ومنهجهم على هذين الأصلين العظيمين، ومقاومة محاولات الإفناء التي تعرض لها المسلمون.

ومن أبرز من يحمل لواء الطائفة المنصورة مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية، تلك المدرسة التي تخرَّج بها أعيان العلماء والمجتهدين والمجاهدين، وتولّت نُصرةَ الإسلام في ميادين الجهاد والدفاع عن عقيدة أهل السنَّة والجماعة، ونشر الفكر السلفي، ومحاربة البدع والخرافات، ومقارعة الباطنية، والفلاسفة، وتصنيف الكتب الماتعة، ومواقف ابن تيمية وكتبه شاهدة على ذلك.

ولا تزال آثار هذه المدرسة مستمرة إلى الآن، ومن منهجها يستقي كثير من العلماء والمفكّرين والكتّاب والحركات والجماعات الإسلامية.

ح ـ القرن الثامن الهجري:

•• يبرز في هذا القرن **صنف جديد من نماذج الطائفة المنصورة، ويتمثَّل في (بني عثمان)** الذين أسسوا دولة قائمة على أصول الإسلام، فحملوا رايته، ونشروا دعوته، وبَسَطوا سلطانه على رقعة كبيرة وصلت إلى قلب أوروبة، ودخلت شعوب كثيرة في الدين الحنيف.

فالعثمانيون جديرون بلقب الطائفة المنصورة في عدة قرون[١].

لقد نشأت (الدولة العثمانية) إسلاميةَ المنطلَق والراية والهدف، وأوصى مؤسِّسُها عثمان بن أرطغرل ابنَه أورخان بأن ينشر الإسلام هداية للناس، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم في عنقه أمانة يسأله الله تعالى عنها يوم القيامة[٢].

•• **وعلى الصعيد العلمي ونشرِ علوم الإسلام، نهضَتْ بهذا الشرف مدارس كبرى في الشام ومصر**، وبرز عدد جَمّ من أساطين العلماء الذين صنَّفوا في علوم

(١) انظر: ما كتبناه في النبوءة السابقة: ٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦٢، ٤٧٢ ـ ٤٧٤.
(٢) الضربات، ص١٧١.

القرآن والحديث والفقه وأصوله واللغة وآدابها والتاريخ والرجال والجغرافية والفلك والطبيعة والحساب والاجتماع وغير ذلك.

فتوازى امتداد الإسلام وانتشاره مع نشر علومه وترسيخها.

ط ـ القرن التاسع الهجري:

تابع العثمانيون في هذا القرن حملَ راية الطائفة المنصورة، وعلى رأسهم السلطان الكبير محمد الفاتح، الذي قهر دولة بيزنطة وفتح عاصمتها (القُسْطَنْطِينية) وجعلها عاصمة الخلافة العثمانية الإسلامية وسمَّاها (إستانبول)، وغَربت على يديه شمس الإمبراطورية البيزنطية التي استعصت على المهاجمين أكثر من عشرة قرون!.

كذلك وسَّع رقعة الدولة الإسلامية، ودخلت شعوب من شرق أوروبة في الإسلام أفواجاً.. وتراحبت الفتوحات وتقهقر الأعداء أمام زحف المجاهدين، واستمرت راية الإسلام خفَّاقة عالية.

ي ـ القرن العاشر الهجري:

●● استمر العثمانيون في حملِ راية الإسلام وترسيخِ أركانه ونشرِ رسالته والدفاع عن أهله وبلاده، وامتدّت رقعةُ الدولة الإسلامية، وبَسَطت جناحيها شرقاً وغرباً لتصل إلى أبواب (فيينّا) عاصمة النمسا، رافعة راية الإسلام على ما يعرف الآن بدول أوروبة الشرقية، واليونان، وجزر البحر المتوسط، وأجزاء من إيطاليا والنمسا، كذلك امتدت إلى شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الإفريقية وحدود المغرب الأقصى غرباً، كما أنها وصلَتْ شرقاً إلى بلاد فارس وجبال كردستان.

واستطاع الأتراك أن يصدُّوا الخطر عن العالم الإسلامي، وأخَّروا احتلاله زُهاءَ أربعة قرون[١].

---

(١) الضربات، ص١٧٠ ـ ١٧١.

ومدُّوا يد العون إلى المسلمين في المغرب العربي، وأعانوهم بجيوش تمكَّنت من كَسْر شوكة الزحف الصليبي الإسباني، وانضمت على آثار ذلك دول المغرب إلى الخلافة العثمانية.

كما قاوم العثمانيون (المدّ الباطني الصفوي) وخَضَدوا شوكتَه، ونصروا المذهب السنّي الذي قامت عليه الدولة العثمانية.

وكل واحد من هذه الأعمال كافٍ في أن يجعل (العثمانيين) أبرز أصناف الطائفة المنصورة.

•• في ميادين العلم والدعوة ونشر علوم الكتاب والسنَّة والذَّوْد عنها، ومقاومة الإلحاد والزندقة والحركات الشعوبية والباطينة والتناسخية ـ **يحمل لواء الطائفة المنصورة الإمامُ الكبير أحمد بن عبد الأحد السرهندي ومدرستُه في القارة الهندية**، التي نبغ فيها كبار جهابذة علماء الإسلام، ونتج عن أعمالهم تحويل مجرى التاريخ إلى قريب ما كان عليه الناس في عهد الخلفاء الراشدين[(١)].

ك ـ القرن الحادي عشر الهجري:

ممَّن يمكن وصفُهم بالطائفة المنصورة في هذا القرن رجالُ الإمبراطورية المغولية الإسلامية في القارة الهندية، من مجاهدين وعلماء ومربين، **وفي مقدمتهم الملك العادل المجاهد (أورانك زيب)** أعظم ملوك الدنيا في عصره.

أولئك الرجال الذين جمعوا بين قوة الإيمان وقوة الدولة، وبين هيبة الإسلام وهيبة السلطان، وبين العبادة والتطوع مع الجهاد وإشادة العدل ورفع الظلم، وبين ترسيخ أركان الإسلام وبَسْط سلطانه من (سفوح هيمالايا) إلى (سِيف البحر في جنوب الهند).

وأصلحوا الداخل، ونظروا في شؤون الرعية، ورفعوا المكوس والضرائب

---

(١) انظر ما كتبناه في هذا الجزء: ٣/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

الظالمة، وأَطْلَقوا يدَ القضاة بالعدل، وألْغَوا امتيازات الإمبراطور والمسؤولين والكبار، وشيَّدوا المارستانات للمجانين والمستشفيات للمرضى ودور العجزة للمسنِّين، ومدارس العلم، وعَمَروا المساجد بالبناء والطاعة، ودوّنوا الأحكام الشرعية، وأقاموا دولة إسلامية رائعة مشت على هَدْي الخلفاء الراشدين(١).

ل ـ القرن الثاني عشر الهجري:

قام بدور الطائفة المنصورة في هذا القرن عدة جماعات، يمكن اعتبارُ اثنتين منها أبرزَها أثراً وأجلَّها منهجاً وعملاً، حتى امتدت آثارهما إلى عصرنا هذا، هما: **الدعوة السَّلَفية في قلب الجزيرة العربية، ومدرسة ولي الله الدهلوي في القارة الهندية.**

●● فالأولى كانت بدايتها وتأسُيسها على يدي **الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب**، والتي نصر الله بها دعوةَ التوحيد وعقيدةَ السلف، فقامت بمحاربة الشرك والبدع والتقرب إلى الأولياء في قبورهم، ونَفَت الخرافاتِ والانحرافات والعادات والتقاليد المضادة للإسلام، وأعادت للدين صفاءه ونقاءه، ولا تزال هذه الدعوة وآثارها إلى الآن مع امتدادها في البلدان المجاورة.

●● والثانية كانت في القارة الهندية ويحمل رايتها الإمام المجدد العظيم وليُّ الله الدهلوي، ومدرستُه التي تخرّج فيها أكابر الأئمة وفحول العلم من محدِّثين وفقهاء ودعاة ومجاهدين، وكانت هذه الدعوة أشملَ من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأعمقَ غَوْراً وأبعدَ أثراً في منهج الإصلاح والتجديد وتصنيف الكتب وتخريج حملة الرسالة، فهي تشبه تلك المدرسة التي صنعها شيخ الإسلام ابن تيمية(٢).

---

(١) انظر: رجال من التاريخ، ص٢٢٧ ـ ٢٣٧؛ رجال الفكر والدعوة: ٣/ ٣٢٢ ـ ٣٣٣، وما كتبناه هنا: ٣/ ٤٦٧ ـ ٤٦٩.

(٢) انظر: ما كتبناه في هذا الجزء: ٣/ ٤٦٩ ـ ٤٧٢.

م ـ القرن الثالث عشر الهجري:

●● من أبرز مَن يحمل راية الإسلام والطائفة المنصورة **(العثمانيون) وعلى رأسهم السلطان الكبير عبد الحميد الثاني**، وحَسْبُهم في نصرة الإسلام وقوفهم سدّاً منيعاً في وجوه الزحوف المتكاثرة من الشرق والغرب، وتكاثف الصليبيين ضدهم، والدولة العثمانية تترنَّح تحت وطأة الضربات والمؤامرات من الداخل والخارج، لكنهم صمدوا كالجبال أمام الأعداء الذين حاولوا انتزاعَ (فلسطين) من قلب العالم الإسلامي ومَنْحَ اليهود حقّاً في إقامة وطن قومي لهم فيها، وعُزل السلطان عبد الحميد عن الحكم وهو مستمسك بالراية، فما خانَ دينَه وأمته، ولا فَرَّط بوطنه ومقدساته!.

●● كذلك ممَّن يحمل راية الطائفة المنصورة في هذا القرن، أولئك الرجال الذين قضَوا حياتهم منافحين باللسان والسِّنَان عن كيان الإسلام وأهله ودولته وأرضه:

وفي مقدمتهم **مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والحركة الجهادية في الجزائر بزعامة الأمير عبد القادر الجزائري، والحركة السنوسية والدعوة الجهادية الإصلاحية في المغرب العربي، وخلفاء الإمام ولي الله الدهلوي وأجلُّهم أحمد بن عرفان الشهيد في القارة الهندية.**

فهذه مجموعة من الطوائف وُجدت في أماكن شتى من بلاد المسلمين، من أقصى المغرب إلى بلاد الهند في المشرق.

●● والحركات الجهادية العظيمة في أصقاع كثيرة من ديار المسلمين، مثل: جهاد المسلمين في (تُرْكُستان) ضد حكم قياصرة روسية، فقد استمات المسلمون في صدِّ الجيوش الزاحفة، وأَذْهَلَتْ بسالتُهم المهاجمين، ولم يتخلَّوا عن شِبْر من الأرض إلا بعدما تركوا عليه أثراً من دمائهم الطاهرة[١].

(١) الضربات، ص٢١٠.

وثورة المجاهد الكبير الشيخ شامل الجهادية في مواجهة هجوم روسية على (القرم والقفقاس)، وبقي مع طائفة من المجاهدين يدافعون عن بلادهم ويقاتلون الروس زُهاءَ خمسٍ وثلاثين سنة.. ثم جاء بعده مجاهدون آخرون كبار(١).

وجهاد المسلمين في (الفليبين) ضدَّ الحرب الصليبية التي استمرت ثلاثة قرون، ولا يزال المسلمون في تلك البلاد النائية يجاهدون إلى الآن، ولكن انخفض عددهم هناك إلى الثلث، وقد قدَّموا من أرواحهم الطاهرة ما لا يعلمه إلا الله.

وكذلك المجاهدون في فيافي سيبيريا، إلى أعماق الهند، وسنغافورا، وتايلاند، والملايو، وإندونيسيا...

ومن مئات السنين ونيران المقاومة تشتعل، ومع تلاحق الهزائم فإن الجماعات المجاهدة لم يَلحقْها يأسٌ، ولم تُلْقِ السلاح(٢).

ن ـ القرن الرابع عشر الهجري:

في القرون المنصرمة كانت الدولة الإسلامية تضطلع بنصرة الإسلام والذَّود عنه والدفاع عن أهله وأرضه، مع تفاوت في القوة والضعف بين دولة إسلامية وأخرى، وبين حاكم وآخر، وحِقْبة وأخرى، بَيْدَ أن الصورة الإجمالية أن دولة الإسلام قائمة ومِظَلَّة الخلافة تجمع عامة المسلمين.

لكنْ في هذا القرن سقطتِ الخلافةُ العثمانية، وأصبح المسلمون أوزاعاً مشتتين توزعوا في دول متعددة متنافرة، يَكثُر بينها التناحر ويقلُّ الوئام أو الاجتماع على كلمة سواء.

وفي مثل هذه البيئة تعددت أصناف الطائفة المنصورة، وتنوعت مناهجها وطرائقها وأساليبها في سبيل نصرة الإسلام، ويمكن الإشارة إلى أبرز تلك

---

(١) الضربات، ص٢١٠ ـ ٢١١؛ حاضر العالم الإسلامي، ص١٦٣ ـ ١٦٦.
(٢) انظر: علل وأدوية، ص٢٢٧ ـ ٢٣١.

الجماعات والأحزاب والهيئات والمؤسسات، التي يمكن اعتبارها متصفة بصفات الطائفة المنصورة، قليلاً أو كثيراً، قائمة بمهماتها سائرة على خُطاها.

● **حركات التحرر من الاستعمار:**

وقد انتشرت في الوطن العربي من مشرِقه إلى مغربِه، وكثيرٌ منها كانت إسلامية النزعة أو وطنية تسعى إلى تحرير البلاد من الغاصبين، وامتلاك أهلها نواصي الأمور. وانطلقت تلك الثورات والحركات من المساجد ومدارس جهادية وتجمعات شعبية، قادها رجال كبار ورموز كرام تدين لهم الأمة بالفضل، من أمثال: **عبد الكريم الخطابي في المغرب، ورجال جبهة التحرير الوطنية في الجزائر، والحركة السنوسية وعمر المختار في طرابلس الغرب، ومصطفى كامل باشا ومحمد فريد وعبد العزيز بن خليل جاويش في مصر، وإبراهيم هنانو في سورية، وعز الدين القسَّام بفلسطين، والمهدي في السودان، وعبد العزيز بن إبراهيم الثعالبي بتونس**.. وغيرهم، فكان لهؤلاء دور رائد في تحرير البلاد وخروج الاستعمار منها.

● **المدارس العلمية الفكرية التربوية:**

وهي كثيرة ومتنوعة؛ **منها في الجزائر: مدرسة الإمام عبد الحميد بن باديس، ومدرسة مالك** بن نبي **وكتبه الفكرية.**

وفي مصر: مدرسة المنار وعلى رأسها الإمام محمد رشيد رضا، ومدرسة محب الدين الخطيب ودوره الرائد في مجلتَيْه: (الزهراء) و(الفتح) و(جمعية الشبان المسلمين)، **ومدرسة الإخوان المسلمين.**

وفي الشام: مدرسة الإمام بدر الدين الحسني، ومدرسة علي الدَّقْر التي تخرَّج بها خلق، ومدرسة الإخوان المسلمين وعلى رأسهم الدكتور مصطفى السباعي.

وفي الجزيرة العربية: المدرسة السلفية وقد امتد خيرها إلى مصر والشام وغيرهما.

وفي الهند: دار العلوم، وندوة العلماء بلكهنؤ.

وفي الباكستان: مدرسة أبي الأعلى المودودي وجماعته (الجماعة الإسلامية).

وفي تركية: مدرسة حزب الرفاه الإسلامي.

وقد شيَّدت هذه المدارس مئات المحاضن التربوية، وأنجبت أكابر العلماء والدعاة والمفكّرين والكتّاب والمنافحين عن الإسلام، الذين صنَّفوا الكتب وأصدروا الصحف والدوريات، لبيان حقائق الإسلام والدفاع عنه، ومقاومة الغزو الفكري والاستشراق والكيد اليهودي، وكتبهم مشهورة منشورة.

- **المدارس الحديثية:**

ولها دور عظيم ورائد في استنهاضِ الأمة وعودتها إلى السنَّة الصحيحة والعمل بها، ونبذِ الأحاديث الواهية والموضوعة والخرافات التي سيطرت على عقول القصّاص والخطباء والمدرّسين وغيرهم رَدَحاً من الزمان.

ويتجلّى أعظمُ أعمالها في تحقيق التراث وكتبه الأصيلة ونشرها، وتصنيف الكثير من الكتب الجليلة المفيدة، التي نرى آثار بركتها في المكتبات ودور العلم، وإقبال الخاصة والعامة عليها.

وقد نبغ في هذا الميدان الرحب جماهير غفيرة من أساطين الحديث وعلومه، **وكانت جمهرتهم في الهند وباكستان**، من أمثال: **محمد عبد الحي اللَّكْنوي، ومحمد أنور شاه الكشميري، وظَفَر أحمد العُثماني التَّهانوي، ومحمد زكريا الكاندهلوي، وأشرف علي التهانوي، وشبِّير أحمد العثماني، ومحمد عبد الرشيد النعماني**، وخلق.

وفي المغرب: محمد عبد الحي الكَتَّاني، ومحمد بن جعفر الكَتَّاني، وعبد الله بن الصِّدِّيق الغُماري، وأحمد بن الصِّدِّيق الغُماري.

وفي مصر: محمد زاهد الكَوْثري، وأحمد محمد شاكر.

وفي الشام: محمد راغب الطَّبَّاخ، ومحمد جمال الدين القاسمي، ومحدّث العصر محمد ناصر الدين الألْباني، وشُعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، وعبد الفتاح أبو غدَّة.

وفي اليمن: عبد الرحمن المُعَلِّمي اليَماني.

وفي موريتانيا: محمد الخضر الجكني الشِّنْقِيطي.. وغير هؤلاء كثير.

● **الجماعات والحركات والأحزاب الإسلامية:**

وهي كثيرة جدّاً، وجمهرتها تعمل في الحقل الدعوي والتربوي والسياسي والفكري والاجتماعي والدفاع عن الإسلام في شتى الميادين.

● **الحركات والجماعات الجهادية:**

ونعني بها تلك الجماعات التي حملَتْ على عاتقها مقاومةَ الاحتلال وتحريرَ البلاد من الغاصبين والمستعمرين بأي لون من ألوان الاغتصاب أو الاحتلال.

وهذه الأصناف الخمسة ينطبق عليها جميعِها وصفُ الطائفة المنصورة، فكلٌّ منها على ثَغرة من ثغور الإسلام، ينصره وينافح عنه ويحمي أهله وبلاده بطريقة يختارها ويتبنَّاها. . ومن مجموع جهودها تبقى أمةُ الإسلام محفوظة من الذوبان، ورسالتُه مصونة من التحريف والتبديل.

سادساً: دروس وعبـــر:

١ ـ الإسلام الدين الخاتَم والرسالة الخالدة، قد تكفَّل الله سبحانه بحفظه وبقائه، فهو يتأبَّى على كل محاولات الإماتة والإفناء، بما يهيِّئُ له من أصناف الطائفة المنصورة في كل عصرٍ وجيل، يتمسكون به، ويحافظون على سلامته ونقائه، وينافحون عنه.

٢ ـ الخير مستمر في الأمة الإسلامية، فلا يخلو عصر ولا زمان من قائمين لله بالحجة، مستمسكين بالحق، مناصرين له، منافحين عن أهله وبلاده، ثابتين على ذلك حتى يأتي أمر الله، صابرين على ما يصيبهم من بلاء ولأْوَاء:

وَرِثوا الشجاعةَ عن (صلا ... حِ الدين) أو (ابن الوليدْ)
وبأعينٍ ترنُو إلى ... فجرِ التحرُّرِ من بعيدْ [(١)]

٣ ـ الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة لا يُوقِفُه حكمٌ جائر ولا عدوٌّ غاصب، ولا تَشْوِيْهُ آلات الإعلام وأبواق الاستخذاء والارتماء في أحضان الاستسلام الذليل. وبنودُه مرفوعة بأيدي أبطال أماجد أعلَنوا الكفاح ضد كل غزو أو اغتصاب أو احتلال، لا يضرُّهم مَن خَذَلهم، وهم لعدوِّهم قاهرون، وعليه منصورون.

٤ ـ الطائفة المنصورة تحمل رسالة البلاغ المبين وتدعو إليها وتسعى إلى التمكين لها، وحشد الناس حولها، ولا تلتفت إلى المخذِّلين والمعوِّقين والمناوئين.

٥ ـ طريقُ رجال الطائفة المنصورة مفروشٌ بالعقبات، من أذىً واضطهاد وتشريد وتنكيل وخذلان وتشويه واتهامات، لكن ذلك لا يُثْنيهم عن هدفهم الأسمى، فلقد درسوا سير الأنبياء وحياة الدعاة، وخَبَروا ما لاقوه على امتداد مسيرة الإنسانية وخاصة في عهد الأمة الإسلامية، وفَقِهوا جيداً معاني قول النبي ﷺ: «**لا يضرهم مَنْ خذلهم ولا مَنْ ناوأهم**»، فاعتبَروا بذلك وادَّكَروا به، وأخذوا منه العدة للصبر والمصابرة حتى بلوغ الغاية.

٦ ـ أهل الطائفة المنصورة يملكون الحماسةَ للحق والحرارة في الدفاع عنه، فالله سبحانه أمرهم بأن يكونوا ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: ٨]، والقوَّام بالشيء غير القائم به، إذ هو مبالغةٌ في القيام تقتضي القوة في الاستمساك والتشبُّث، وذلك كله ينافي التراخي عن الحق والمساهلة فيه.

ويبذلون في سبيل ذلك مُهَجَهم وأوقاتهم وأموالهم وراحتهم وساعات

(١) ديوان وليد الأعظمي، ص٤٩.

نومهم، حتى يَبلُغوا آخر الطريق، والراية في أيديهم خفَّاقة عالية مضيئة تشكِّل منارات هدى ومنابر أُسوة للمسلمين.

٧ ـ هذه الجماعات والطوائف المباركة تأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ، وتعتمد على مَن بيده الأمرُ كله، وتطمئنّ إلى عَوْنه ووعدهِ ونصرِه. يبدؤون المسيرة بنفر يسير وزاد قليل وعدّة ضئيلة، فلا يَلبث ذلك أن ينمو ويتضاعف. فثقتُهم في أنفسهم لا تنبع من يومهم الواهن، وإنما تنبع من غدٍ يسوقه الله لهم حافلاً بالنصر، ولذلك فهم يذكرون ربَّهم ليمضوا في طريقهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].. ولـمَّا كانت الحياة عسراً ويسراً، وحلواً ومرّاً، فإنهم لا يستغنون إبَّان متاعبهم عن هذا الذِّكْر الذي يُعينهم على اجتياز المضايق برجاء وقدرة[١].

٨ ـ الاستمساك بالحق وعدمُ المُداهَنة فيه والمواربة عنه أو تقديم التنازلات عن الواجبات والحقائق والمبادئ، فالرسول ﷺ قد وصفَ رجالَ هذه الطائفة بأنهم «**قوّامين بأمر الله**»، و«**قائمين على أمر الله**»، فهم مأمورون بأن يكونوا أقوياء في الحق، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ويتمثلون قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وهي صيغة مختارة للتعبير عن معنى القوة في الأخذ[٢].

٩ ـ المعركة بين الحق والباطل طويلةُ الأَمد، ممتدة في الزمان والمكان، والجبهة مع أعداء الإسلام عريضة متنوعة في الداخل والخارج، وعلى أفراد الطائفة المنصورة أن يكونوا الحرَّاس الأقوياء الواعين لذلك، وأن تتنوع لديهم أساليب الثبات والدفاع والمقاومة، لذلك فإن نصرة الإسلام التامة تكون بتكامل جهود أصناف الطائفة المنصورة جميعاً.

١٠ ـ الأعداء يحاربون الأمة الإسلامية عن قوس واحدة، ويقاتلوننا

(١) انظر: علل وأدوية، ص٨٥.

(٢) ظلام من الغرب، ص١٢٣.

مجتمعين متساندين، فيجب على العاملين للإسلام أن يدافعوا عنه بجميع جماعاتهم وطوائفهم، مما يستوجبُ الائتلافَ لا الاختلاف، والتقاربَ لا التباعد، والتآلفَ لا التناكر.

إنه من أهم الواجبات على الدعاة والمفكّرين والجماعات الإسلامية بمختلِف أطيافها؛ تقريبُ وجهات النظر والاجتهادات، والإعذار فيما بينها، وعدم تضخيم الاختلافات أو زيادة هوّة الشِّقاق.. وعلى أهل المسؤولية الإسراعُ في جَمْعِ القوىٰ، وسدِّ الثغرات وحشدِ كل شيء لاستنقاذ وجودنا المهدَّد.

١١ ـ يجب عدمُ الاستطالةِ في أعراض الكبار والجماعات والمنافحين عن الإسلام، وينبغي غضُّ الطَّرْف وضبطُ اللسان عن تضخيم الصغائر والنفخ في أتُون الخلافات وإطلاق التُّهم لهذا الرجل أو تلك الجماعة أو هذه الهيئة والمؤسسة!. فالنَّقيق العالي الذي يُصْدره بعضُهم ممَّن يدَّعي العملَ للإسلام، فيتَّهم هذه الطائفة أو تلك الجماعة بِتُهم ويروِّج لها؛ لا يخدم بذلك إلا أعداء الإسلام.

١٢ ـ يتوجَّب على كل مسلم أن ينصرَ دينه وأمته ويدافع عنهما بما استطاع إلى ذلك سبيلاً، بالكلمة والموعظة، والتعليم، ودفع الشبهات، والخطابة، والكتابة، والدلالة على الخير، وبذل المال أو الوقت أو النفس، وغير ذلك، فلعله ـ بهذا ـ يدخل في طائفة حماة الإسلام.

١٣ ـ ينبغي على المتحمِّسين للإسلام والمدافعين عنه من قادة الحركات والجماعات الإسلامية أن لا يستعجلوا النتائج و(يَحرقوا المراحل)، وأن يتَّعظوا بتجارب السابقين واللاحقين، ويتأملوا التاريخ طويلاً، وينتفعوا بالأخطاء الكثيرة والثمار المُرَّة التي جَنَاها المستعجلون والمتهوِّرون! (أولئك الذين يُسرِعون في تحدِّي الحكومات والقوى السياسية، ويُعلنون الحرب عليها من غير هوادة، ومن

غير استعداد وتريُّث، ويجرُّون **حركاتهم وتنظيماتهم** إلى جبهة المعارضة في بداية المرحلة وأول الطريق!)[(١)].

إنهم بذلك يسيئون للإسلام والمسلمين والأمة عامة!.

١٤ ـ وجود الطائفة المنصورة من البُشريات على الطريق الصعب الذي تخوضه الأمة، لذا من الواجب بَثُّ أخبار هؤلاء الرجال الميامين وكشفُ واقعهم وأماكن وجودهم وبرامجهم وأنشطتهم ومآسيهم والتحديات التي تواجههم؛ لإعلام جمهور الأمة الإسلامية بهم لمناصرتهم وتثبيتهم.

إن من الخيانة الكبرى أن لا يَعلم جماهيرُ العرب شيئاً عن أخبار إخوانهم المسلمين ممن يحمل راية الطائفة المنصورة، في أودية تُرْكُستان، وفيافي سيبيريا، وأعماق الهند، وجزر الفليبين وإندونيسيا، وتايلاند، وسينكيانغ (تركستان الشرقية)، وكشمير، والشيشان، ونيجيريا، وغيرها.

إن تاريخ هؤلاء لا يُدرَّس في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، ولا يتطرَّق إليه إلا قلّة القلة من العالِمين به، وهذا جَوْرٌ كبير لإخوان لنا تربطنا بهم وشائجُ الإسلام والأخوَّة في الله.. يجب على الكتّاب والمفكّرين والدعاة والخطباء والصحفيين والإعلاميين وكل مَنْ له صوت أو لسان أو قلم يُسمع أن يبث أخبار هؤلاء.



(١) رجال الفكر والدعوة: ٣/ ١٩.



فهرس الموضوعات

الفصل الخامس

نبوءات في أحوال الإسلام والمسلمين


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١









نبوءات الرسول ﷺ

دروس وعبر



الجزء الرابع

بقلم
عبد الستار الشيخ

إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر


نبوءات الرسول ﷺ
دروس وعبر



١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

طبعة خاصة
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
دولة قطر

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤









دروس وعبر

بقلم

عبد الستار الشيخ

الجزء الرابع

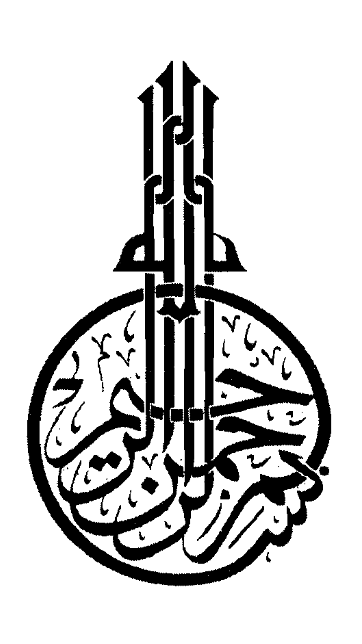
إصدارات

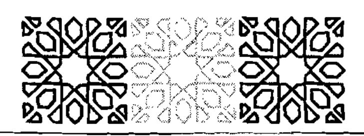
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بتمويل الإدارة العامة للأوقاف

إدارة الشؤون الإسلامية

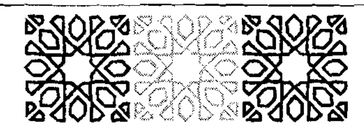
دولة قطر


بسم الله الرحمن الرحيم



الفصل السادس

نبوءات في الأهواء والكذب وانتشار الضلال والفساد





١١١

إخبار النبي ﷺ بظهور الأهواء وانتشارها

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: أنه قام فقال: أَلَا إنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ فينا فقال: «**أَلَا إنَّ مَنْ قَبْلَكم من أهلِ الكتاب افْتَرَقُوا على ثِنْتينِ وسبعينَ مِلَّةً، وإن هذه المِلَّةَ ستفترِقُ على ثلاث وسبعين: ثنتانِ وسبعونَ في النار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعةُ. وإنَّه سَيَخرُجُ من أمَّتي أقوامٌ تَجَارَى بهم تلكَ الأهواءُ كما يَتَجَارَى الكَلَبُ بِصَاحبِه، لا يبقى منه عِرَقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دَخَله**»[1].



أولاً: معاني الحديث:

«**سيخرج من أمتي**»: هي أمة الإجابة.

«**أقوام**»: طوائف وفِرَق وجماعات.

«**تجارى**»: تفاعلٌ من الجري، وهو تشبيه بجري الفَرس.

«**الأهواء**»: البدع والضلالات والمِلل والنِّحل والمذاهب الفاسدة.

«**كما يتجارى الكَلَب**»: (الكَلَب) مرضٌ فيروسي معدٍ، وينتقل داءُ الكَلَب

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) واللفظ له؛ وأحمد: ٤/ ١٠٢؛ والدارمي (٢٥١٨)؛ وابن أبي عاصم في السنة (٢) و(٦٥)؛ والحاكم: ١/ ١٢٨، وغيرهم. قال الحاكم: هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث، ووافقه الذهبي، وحسَّنه ابن كثير وابن حجر، وصحَّحه الشاطبي وابن تيمية والألباني وشعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط. انظر: النبوءة (١٠٥): ٣/ ٢٦٢ (في هذا الكتاب).

عبر عضّة من حيوان مصاب ـ كالكَلْب وغيره ـ يَحمل الفيروس في لعابه، وعندما يصاب الإنسان ينتقل الفيروس من الجرح إلى الجهاز العصبي المركزي (الدماغ والحبل الشوكي)، وتشتمل عوارضُ داءِ الكَلَب على الحمى والصداع وتقلصات في الحلق والشلل وفقدان الوعي. . وداء الكلَب مميتٌ إلى درجة أن قلة من الناس بقيتْ على قيد الحياة بعد معاناتها من آثاره(١).

وهذا الجزء من الحديث من روائع الكَلِم النبوي؛ في علوِّ البيان وفصاحةِ العبارة وجمال التصوير وبراعة التمثيل ودقة الوصف وبيان الآثار المترتبة والنتائج الحاصلة، مما يشهد بأنه من الوحي الأعلى جَرىَ على لسان الصادق المَصْدوق الذي لا ينطق عن الهوى والذي ينهل من معين الحكمة العليا.

إن أصحاب الأهواء والبدع والضلالات والنِّحل الفاسدة يتواقعون في أَتُونها، ويتدافعون في حَلْبتها، ويتسابقون في ميدانها، كالفَرس التي تجري في مضمارها، يُنشِئون تلك الأهواء ويولِّدون هذه البدع ويخترعون هاتيك المِلل، ويؤصِّلونها ويفرِّعون عنها، ويدافعون عنها وينشرون مبادئها، بعد أن هَيمنتْ على قلوبهم واستولَتْ على عقولهم وغَلَبتْ على أفكارهم وتشرَّبَتْها أنفسهم وتغلغلَتْ في عروقهم ومفاصِلهم ومجرى دمائهم، كداءِ الكَلَب الفتَّاك ذاك المرض الذي يجري في الدم وينتقل في أجهزة الجسم حتى يُهلكها ويُودِي بها إلى الموت.

وروعة التشبيه في أن هذا المرض يَسْري في الجسم ويُهيمن عليه وينتقل إلى الآخرين بالعدوى، فكذلك تلك الأهواء تستولي على العقل والقلب والروح، وتنتقل خطاياها وأخطارها إلى الآخرين حتى توقعهم في الضلال وتعميهم عن الحق فيبقون في غيِّهم سادرين!.

ثانياً: مجتمع بريء من الأهواء:

كان صحابة رسول الله ﷺ أفضل الأمة إيماناً وإسلاماً واستسلاماً وفهماً

---

(١) كتاب الأحياء، للصف الحادي عشر العلمي: ١/ ٦٧ ـ بدولة الإمارات العربية المتحدة.

وإدراكاً والتزاماً وتطبيقاً، تلقوا القرآن والسنَّة بالإيمان والتصديق والعمل والتطبيق. وكان فيما نزل إليهم الإخبار عن الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله، والأمور الغيبية التي لا عمل للعقل فيها إلا التصديق، فما سألوا ولا جادلوا ولا فسَّروا ولا أوَّلوا، وإنما توجهت سؤالاتهم واجتهاداتهم إلى الأحكام ومسائل التشريع وتطبيق مبادئ الإسلام في حياتهم ودعوتهم ونشرهم للرسالة، ورفضوا ما سبق الإسلام من شرك وتثليث وتعطيل وتحريف وتأويل[١].

يقول ابن القيِّم: (إنَّ أهلَ الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولا يَخرجون بذلك عن الإيمان، وقد تنازَعَ الصحابة في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلّهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنَّة كلمةً واحدة، من أولهم إلى آخرهم، لم يَسُوموها تأويلاً، ولم يُحَرِّفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يُبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يَدْفَعُوا في صدروها وأعجازها، ولم يقلْ أحد منهم يجبُ صَرْفُها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تَلَقَّوْها بالقَبُول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً، وأَجْرَوْها على سَنَن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهلُ الأهواء والبِدع حيث جعلوها عِضينَ، وأقرُّوا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فُرْقان مبين)[٢].

ثالثاً: نظرة تاريخية لنشوء الأهواء وانتشارها:

●● وبعد قيام دولة الإسلام وانسياحِ الفتوحات واتساع رقعة بلاد الإسلام ودخول الناس أفواجاً في دين الله، وكثرةِ الأجناس وتباينِ العادات والتقاليد، وما يحمله كل جنس من رواسب دين الآباء والأجداد، ممَّن لم تنصهِرْ أنفسُهم في جَذْوة الإسلام ونور الإيمان، ثم الامتداد الفكري والعلمي الذي قام به

(١) انظر: مراحل ظهور البدع، ص٩ ـ ١٠.

(٢) إعلام الموقعين: ١/ ٤٩.

المسلمون، والانفتاح على الحضارات والأديان والأفكار الأخرى، وترجمة علومها وآدابها وتراثها، وتأثُّر عدد من المسلمين كباراً وصغاراً بتلك العلوم والآداب وإعجابهم بها وترويجهم لها، وكذلك تحرك المندسِّين في جسم الأمة الداخلين في دينها ظاهراً لا باطناً، الذين يُضْمِرون لها الشنآن ويَطْوون على الحقد عليها ويَبغون لها الشرور ويروِّجون للأفكار الضالة والأهواء المنحرفة، وقيام الدعاة إلى ذلك واستغلال عقول الرَّعَاع والعوام، أو السيطرة على عقول بعض المسؤولين أو الحكام... تجمَّع من كل ذلك شرورٌ مستطيرة طار شَررُها في الأمة شرقاً وغرباً، وولَّدت مِللاً ونِحَلاً وأهواءً وبدعاً وانحرافات خطيرة، قاصدةً تشويهَ صورة العقيدة وأركان الإيمان وحقائق الإسلام الكبرى، فتَركَتْ ـ بدون شك ـ آثاراً سلبية سيئة في تاريخنا العلمي والفكري والعقدي، كما أضلَّت فِرقاً كثيرة انحرفت عن سواء السبيل قليلاً أو كثيراً.

وأخطر ما تكون الأهواء إذا كانت في الحكام والمسؤولين والمتنفِّذين وأصحاب القرار والقائمين على توجيه الأمة وقيادة الجماهير، ويعبِّر عن ذلك التابعي الجليل أبو حازم سَلَمَة بن دينار فيقول: (**لا يزالُ الناس بخير ما لم تقع الأهواء في السلطان؛ لأنه إذا كان في غيرهم فَهُم الذين يَنْهون عنه، فإذا وقع فيهم فمن يَنْهاهم عنه؟!**)[1].

●● وأول تلك الأهواء المنحرفة الضالَّة التي طرأتْ على المجتمع الإسلامي: الكذبُ على الله سبحانه والافتراءُ عليه وادِّعاءُ مجيء الوحي: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، كما فعل مُسَيْلِمَة الكذَّاب والأَسْوَد العَنْسيّ وطُلَيْحة بن خُويلد الأَسَدي[2]. وارتداد قبائل الأعراب بُعيد وفاة رسول الله ﷺ، فأطفأ الصحابة ﵃ نار فتنتهم إلى الأبد.

---

(١) أخرجه الداني في الفتن (٢٨٦).

(٢) طليحة تاب وأناب وحَسُن إسلامه ﵁.

تلا ذلك في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ نشوءُ فرقة الخوارج، الذين أَكْفَروا عليّاً ومَن قَبِل بالتحكيم يوم صفِّين، وكفَّروا المسلمين مستندين إلى التأويل الفاسد، وجَرَّهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفيهم وأموالهم، والشهادة عليهم بالكفر والشرك.

وظهور فكرة التشيُّع والقول بالوصيَّة لعلي بن أبي طالب التي افتراها عبد الله بن سبأ وتبعه خَلْق عُرفوا (بالسَّبَئِيَّة)، ثم تطوَّر الفكر الشيعي حتى غَلَا ووصل إلى الرَّفْض، وأحدث في الإسلام وجسم الأمة خروقاً غائرة لا تزال تضطرم نارها إلى الآن، واخترعوا أصولاً وأقوالاً خالَفُوا فيها الوحيَ الأعلى والسنّةَ النبوية وهديَ الصحابة، بل كفَّروا عامةَ الصحابة!.

وفي مقابل ذلك نشأت فِرقة النَّواصِب الذين يُناصِبون عليّاً وآلَ البيتِ العداءَ، وهؤلاء شِرذمة قليلة انقرضَتْ لا يوجد منها الآن أحد، وما تدَّعيه الرافضة من أنَّ أهلَ الشام نواصب هو كذبٌ صُرَاح، فليس في الأرض مسلم يكره آل البيت.

وظهرتْ فِرقة القَدَرِّية، الذين يزعمون (أنْ لا قَدَرَ، وأنَّ الأمرَ أُنُفٌ) أي مستأنَف، لم يَسبق به قدرٌ ولا علمٌ من الله تعالى وإنما يعلمُه بعد وقوعه[1]!.

وطائفة أخرى قالت بالإرجاء، ومذهب المُرْجِئة هو قولهم: إن الإيمان هو التصديق فقط، وإنه لا تضرُّ مع الإيمان معصية[2].

●● وخاض الناس في التأويل وصوَّبوا آراءهم الفاسدة إلى القرآن الكريم ففسَّروا آياته وأوَّلُوها تأويلاً باطنيّاً، مثل قولهم في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]؛ بأن عائشة بنت

---

(١) انظر: صحيح مسلم، حديث (٨)، والنبوءة (١١٤).

(٢) الفتح: ١/ ٢٢٢؛ كتاب الإيمان، باب (٣٦)، وانظر: النبوءة (١١٤).

أبي بكر وحفصة بنت عمر أمَّي المؤمنين رضي الله عنهما هما المرأتان اللتان عَنَتْهما الآية الكريمة، وأن الله أشار إلى حال المرأتين وعاقبتهما عندما قال في آخر السورة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠][١].

ومحاولةُ الباطنية إفراغَ القرآن من محتواه ومعانيه تحت ستار (الظاهر والباطن) والتفسير والتأويل؛ من أخطر الأهواء التي ظهرت من نحو عشرة قرون! ويتمُّ الآن بعثُ هذه التأويلات التي تُبطِل أحكامَ القرآن وتتلاعبُ بنصوصه القطعية الثبوت والدلالة معاً، والتي وصلَتْ إلى حدّ أمر المرأة بالتعري، إلا من ورقة التوت أو أقل، باسم الاجتهاد الجديد والقراءة المعاصرة للقرآن! كما في الكتاب الذي سُمّي «الكتابُ والقرآن: قراءة معاصرة» ووضع عليه اسم (د. محمد شحرور)، بغضّ النظر عن مصادره وصانعيه وأغراضه جميعاً، والذي تمَّ الترويجُ له من قِبل بعض الجهات وبعض الكبراء[٢]!.

وقد ردَّ العلماء والباحثون على هذا الكتاب وزيّفوا منهجَه وأسقطوه من الاعتبار، منهم المفكّر العلامة عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه «التحريف المعاصر»، والعالم اللغوي الثَّبْت يوسف الصيداوي في كتابه «بيضة الديك» وآخرون.

●● ومن الأهواء والبدع ظهورُ فرقة تُنكر حُجيَّةَ السنّة المطهرة، وتدَّعي عَرْضَها على القرآن الكريم، فكل ما جاء فيها مما ليس في القرآن طُرح وتُرك! وهي نابتةٌ نشأت في وقت مبكّر، وممّن تصدّى لبيان ضلالها الإمام الشافعي، وقد أشار النبي ﷺ إلى ظهور أصحاب هذه البدعة بعده[٣].

---

(١) علل وأدوية، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٢) شخصيات وأفكار، ص٥٥ ـ ٥٦.

(٣) انظر: ما كتبناه عنها في: النبوءة (١١٥).

●● وثَمَّة فريقٌ كبير أطلَقوا لعقلهم العِنَان فخاضوا في ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله! وهو نوع من الغرور البشري الذي زيَّن لنفسه أن يخوض في هذا الميدان الذي لا يمتلك شيئاً من وسائله ولا أدواته، فتاهَ وضَلَّ السبيلَ!.

فجماعة أَوْغَلوا في التنزيه حتى وصلوا إلى التعطيل فسُمّوا (المُعَطِّلة)، وآخرون بالَغُوا في الإثبات حتى قادهم إلى التجسيد والتجسيم فسُمُّوا (المجسِّمة)! والقرآن الكريم بعيدٌ عن المسلكَيْن، ونحن لا نَقبُل إلا منهاجه، ولا نأخذ عقائدنا إلا من توجيهه الحق، ننطلق أو نتوقف وفق ما يريد.

وقد داخَ العقل الإسلامي في هذا المَهْيَع وكادَ أنْ يَهْلِك، والذين اشتغلوا بالتأويل سبحوا طويلاً في البحر، ثم لمَّا أحسُّوا الغَرق عرَّجوا على أقرب شاطئ فنجوا بأنفسهم[1]!.

●● وحدث خطأٌ علميٌّ حضاري في تاريخنا في عهد العباسيين ـ خاصة أيام المأمون ـ فبدل أن يترجموا الإسلامَ وعلومه ورسالته وقِيَمَه للناس في كل قطر وبِلُغَاتهم، ترجموا للمسلمين تراثَ اليونان والهند وغيرهم من الأمم.

ولسنا ضد الاستفادة مما توصَّل إليه الذكاءُ البشري، ولكن يجبُ أن لا نؤخِّر ما لدينا ونستقبلَ الوافد الجديد بحفاوةٍ تُنسينا الأصلَ الذي عندنا، أو تشوِّهُه.

لقد تعكَّر صفوُ عقائدنا بالفكر الأجنبي الذي أُقحم على الحياة الإسلامية، وبضروب الجدل التي أزجَى بها المتبطِّلون أوقات الفراغ. والفلسفة اليونانية وما أشبهها من تخمينٍ عقلي في الإلٰهيات كان حقنةً مسمومة لتراثنا الديني النظيف، ولولا ما في هذا التراث من أصالة ومَنَعَة لذَوَى وانقضى، كما تلاشَتْ ديانات سابقة في دوّامة التخريف البشري القديم.

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٦٧، ٧١.

لكنَّ العقائد الإسلامية اعتلَّتْ حيناً، وغامَ وجهُها، وتحوَّلت كُتبها إلى صور ذهنية ومهاجمات كلامية عنيفة، إثر ذلك الاختلاط بالفلسفات الأجنبية.

ولاشكَّ أنَّ عظمة الجانب العقلي في الإسلام رجَّحت جانبه في كل اشتباك، وأَغْرَتْ علماءَ المسلمين بصياغة علوم العقيدة صياغة منطقية صناعية، لا تنقصها الدقة ولا يبعد عنها النصر.

والأعداء والأصدقاء يعلمون أن الإسلام لا يُغْلَب في ميدان الفكر الحر، وأن عقائده تقوم على أعمدة عقلية لا يهزّها زلزال أبداً، بَيْدَ أن تحوُّلَ العقيدة إلى نقاشٍ وأخذٍ وردٍّ؛ أوهى صِلتَها بالقلب وبالخُلق، مما جعل الأئمة الأولين يسارعون إلى العودة بها نحو قواعدها الأولى، أي يرجعونها إلى ما امتازت به من صفاء وجمال[1].

ولم تنجُ آثار الفكر الإسلامي الأصيل، وهي: التفسير، والفقه، وأصول الفقه، وعلم الكلام؛ من التأثر بتلك العلوم المترجَمة والمستحدَثة بعد نقلها إلى اللغة العربية.

فتفسير (الكشاف) للزَّمَخْشَري، وهو معتزليٌّ ـ تأثَّر بمنهج الاعتزال وبالفكرة الاعتزالية.

ومدرسة الاعتزال في تطورها ـ وبالأخص في قضية (التوحيد) ومشكلة الصفات الإلـٰهية ـ تأثرت بالفكر الأرسطي الأفلاطوني الحديث.

وتفسير محيي الدين بن عربي تأثر بمذهب البراهمة في وحدة الوجود، وبفكرة الحلول عند المسيحيين.

هذا فضلاً عن تفسيرات ابن سينا، أو إخوان الصَّفَا، أو غيرهم من الغُلاة ممن وقعوا تحت تأثير الفكر الأجنبي.

---

(١) الإسلام والطاقات المعطّلة، ص٨٣.

والفقه الإسلامي نافَسَه (التصوف الإسلامي)، بعد ترجمة التنسُّك، والصوفية الشرقية[١]!.

إنَّ ظهورَ بدعة (القول بخلق القرآن)، وقيامَ المعتزلة بمناصرتها مع بدع أخرى ظاهرتْهم عليها دولةُ الخلافة العباسية، وتصدّي أهل السنّة لها برئاسة الإمام أحمد بن حنبل، ثم أبي الحسن الأشعري وغيره ـ وإن كان قد انتهى بانطفاءِ تلك الفتنة وانتصارِ العقيدة السنيّة الصحيحة؛ لكنه ترك آثاراً سيئة على فكرنا وحضارتنا وتاريخنا، ولقد كانت البطالة النفسية والتطاول الرديء وراء الترف العقلي في علم الكلام.

وعلم العقيدة لمَّا اتَّسَم بالجدل، وأَضْفَتْ عليه فلسفةُ اليونان الأخذَ والردَّ والبحثَ والنظرَ؛ تحوَّل إلى علم جافٍّ عقيم، وأمسى قدرةَ عقلٍ على الاستدلال، لا قدرةَ قلبٍ على تذوق حلاوة الإيمان، ويجب أن نعود إلى مصادرنا الأصيلة[٢].

●● ومع مسيرة التاريخ تمدَّدت تلك الأهواء والبدع والانحرافات، وتشعَّبت أصولُها وتعدَّدت فروعها، واستشرى فيها الداء ـ كما جاء في الحديث ـ فلم يترك عِرْقاً ولا مَفْصِلاً إلا اخترقه!.

والذي يُجيل الفكر ويقلِّب النظر في (كُتب المِلل والنِّحَل) يرى تشعُّبَ الفِرق الكبرى إلى طوائف ومقالات وأشتات كثيرة، كما حدث في الروافض والخوارج والقدرية والمعتزلة والمُرْجِئة وغيرها.

وتطوَّر الانحراف عند كثير من الفِرق، وزادت شِرَّة الأهواء عند فرق أخرى، وغَلَا هؤلاء وأولئك، فكان من ذلك طوائف خطيرة ودعوات مُبِيرة كانت لها سطوة وشوكة وقامت لها راية ودولة، وعلى رأس تلك الأهواء الضالة

(١) ليس من الإسلام، ص١٤٩.
(٢) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٧١، ٨١.

الخطيرة: الباطنية التي ظهرت من وقت مبكر، لكن نَمَا أصلها وتشعَّبت فروعها وكثُر دعاتها وتنوَّعت طوائفها؛ كالإسماعيلية والقرامطة والعُبيديين (الفاطميين!) والبُوَيْهيين والصَّفَويّين.. وهؤلاء قامت لهم دول امتدت في المغرب والمشرق الإسلاميَيْن ونافستْ دولة الخلافة الإسلامية السنّيّة، ونشرت المذهبَ الباطني، وتآمرت مع أعداء الإسلام ضد أهل السنَّة، فتآمرت مع التتار، ومع الصليبيين!.

●● وغَلَا بعضهم في مذهبهم حتى قام على الاعتقاد بالتثليث: الله، ومحمد ﷺ، والإمام علي، وأن الإمام حلَّتْ فيه روحُ الله، فهو معصومٌ عن الخطأ في قوله وعمله، وقولُه حجّةٌ في التشريع لا تقلُّ عن حجيَّة القرآن، بل قد تَفوقُه أحياناً، إذ بقوله تُنسخ بعضُ أحكام القرآن أو تُوقَف! وفقهُ الغُلاة قام على قول الإمام أكثر من قيامه على نصوص القرآن!.

والتصوف القائم على الطاعة والإيمان، وعلى المجاهدة ومحاسبة النفس، تحوَّل تحت تأثير الفِكَر الدخيلة إلى ما صار إليه اتجاه الغُلاة من الشيعة، فهم يقولون بالتثليث أيضاً، ثالوثهم: الله، ومحمد ﷺ، والقُطْب.

وفي (القطب) حلَّت روحُ الله، فهو معصومٌ، ساقطةٌ عنه التكاليف، واجبٌ التوسل به، لأنه مركز إنقاذ البشرية.

وزاد التصوف في التأثر بالفِكَر الدخيلة، بأن اعتقد بعض المتصوفة المتأخرين بالوحدة الشاملة، وبالتجلّي! على معنى أن هذه الكائنات هي عينُ الله والتعبيرُ عنه: (كنتُ كنزاً مخفيّاً فأحببتُ أن أُعرف فخلقتُ الخلقَ ليعرفوني).

ونشأت فكرةُ (وحدة الوجود) وهي أنَّ ما في الكون ـ مع كثرته ـ تجلٍّ لشيء واحد، وتفصيلٌ لموجودٍ واحد، هو العلّة والأصل، أو المعبودُ المقدَّس. فهذا المعبودُ المقدَّس جوهرُ الوجود وحالٌّ في هذه الكثرة اللانهائية من الكائنات المشاهَدة[1]!.

(١) ليس من الإسلام، ١٥٥ ـ ١٥٦.

وهذا ضلال بعيد دونه أهواء المجسِّمة والمعطِّلة والقدرية.

وهكذا ظهرت الأهواء والبدع ظهوراً فاشياً، وأَطلق أهلها ألسنتهم ورفعوا رؤوسهم، ونشروا ضلالاتهم، ووقع مصداقُ ما قاله النبي ﷺ: «**وإنَّه سيخرجُ في أمتي أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصاحبه**».

رابعاً: بيان مجمل للأهواء وأنواعها في العهود الماضية القريبة وإلى عصرنا:

الأهواء والبدع والضلالات والانحرافات والتحريفات التي طرأت على المسلمين منذ نحو مئتي سنة وإلى الآن، واجتاحَتْ مجتمعاتهم وشعوبهم، وسَعَتْ جاهدةً لتشويه حقائق الإسلام ومبادئه وأصوله وأركانه وفروعه وأحكامه ومفاهيمه وقيمه، أو لتُقصِيه وتحلّ محلَّه ـ هي كثيرة كثيرة، متنوعة متعددة متشعبة، وهي تعمل متساندة متعاضدة في مشروع خطير يهدف ـ عَبَثاً ـ إلى إبعاد هذا الدين عن حياة المسلمين وسَلْخهم عنه!.

ونشير إشارات موجزة إلى كبريات المحاور التي تسرح فيها تلك الأهواء، والميادين التي تركز عليها وتعمل فيها:

١ ـ أهواء الدعاة والسعاة المروِّجين لإلغاء التشريع الإسلامي:

وظهرت بواكير تلك الضلالة الفاجرة من أيام الخديوي إسماعيل الذي كلّف رفاعة الطهطاوي بترجمة القانون الفرنسي الوضعي عام (١٨٦٣م) للعمل به في المحاكم المصرية بعد إلغاء العمل بالشريعة الإسلامية. ومن هنا يكون الخديوي إسماعيل قد سَبق مصطفى كمال أتاتورك في إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية[(١)].

وكذلك فعل محمد علي باشا بدعم مادي وأدبي من الفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين الصليبيين[(٢)]، ثم تفاقم الأمر بعد ذلك في عامة البلاد العربية والإسلامية كما نرى.

---

(١) الضربات، ص٢٤٣.

(٢) انظر: ظلام من الغرب، فصل (في ميدان التشريع)، ص١٥٣ ـ ١٧٨.

٢ ـ ادعاء قسوة أحكام الإسلام ووحشيتها وجمودها، ودعوة استبدالها بغيرها من القوانين الوضعية:

كالعقوبات، والحدود، والربا، ونشر الشبهات التي تلوكها الألسنة لردِّ أحكام الله كلها، والزعم بأن الإسلام يقسو على المجرمين، وأنَّ صرامة حدوده وأقضيته بحاجة إلى كثير من المُلطِّفات والمُخفِّفات في عصر ارتقتْ فيه الحضارات وتطوَّر الإنسان إلى أعلى!.

٣ ـ تشويه الإسلام بزعم أنه دين لاهوتي:

ومعنى دين لاهوتي أنه له سلطان على الروح والقلب، ولا علاقة له بالحياة والحكم، لتحلّ محلّه الأفكار البشرية والقوانين الوضعية، وإخراجه من حركة التاريخ وبناء الحضارة ومعركة التحدي ضد الاستعمار بأشكاله المتنوعة، وتقليص وجوده في حياة الناس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية[١].

٤ ـ دعاة الإلحاد ومروِّجوه:

يعمل هؤلاء في غزو عقول أبنائنا ومجتمعاتنا ومناهجنا التربوية، وقد شكَّل هؤلاء (تياراً) قويّاً له أدواته وإمكانياته الكبيرة ودعائمه ومحفِّزاته في الداخل والخارج، وقد عَمَّ مُصَابُه وانتشر بلاؤه في أمتنا.

٥ ـ أهواء الأفكار الضالة والمذاهب البشرية والإيديولوجيات المعاصرة:

مثل: العلمانية، والوجودية، والماركسية، والوثنية، والماسونية... التي تسعى لضرب مرتكزات الإسلام، للنفاذ إلى صميمه والإتيان عليه من القواعد.

٦ ـ قيام الفِرق الضالة والمذاهب المنحرفة والنِّحل الهدامة:

التي تستظلُّ بمِظَلّة الدين، أو تختفي وراءه، أو تدَّعي شعارات التقدمية والتحرير والتجديد والمعاصرة، وبعضها له جذور تاريخية ممتدة، والبعض

(١) انظر: الضربات، ص٢٩٦؛ اليهود المعتدون، ص٢٦٨ ـ ٢٦٩.

الآخر نَبَت في بيئاتٍ وبيئةٍ رعاها الاستعمار واحتضَنَها ونَمَّاها وروَّج لها ثم مكَّن لها، مثل: القرامطة، والإسماعيلية، والبابية، والبهائية، والقاديانية، والبريلوية.

٧ ـ الأحزاب العلمانية اللادينية:

التي انتشرت وتحكَّمت وأصبحت لها الكلمة العليا في بعض بلاد العرب والمسلمين، ورفَعَتْ شعارات تضادُّ الإسلامَ الكامل الشامل الذي يهيمن على شؤون الدولة والحياة العامة والخاصة، ونادَتْ بشعارات (القومية العلمانية) المنبتَّة عن الدين، أو الشيوعية، أو التغريب المرتبط بقطار الغرب الصليبي.. وقاومت الإسلام بمفهومه الشمولي وحَجَّمَتْه في زوايا محددة، وأَقْصَتْه عن ميادين الحكم والحياة العامة والجهاد وقيادة حركة الناس في معاشهم ومعادهم.

٨ ـ إحياء النزعات الطائفية والقومية والوطنية والإقليمية:

وبثّ أهوائها في الأمة؛ لعزل الإسلام عن حياتها، وتفتيت وحدتها، وتهديم وجودها، وطيّ حضارتها، وتنكيس أعلامها! مثل دعوات: الفرعونية، والفينيقية، والبابلية، والآشورية، والقوميات: العربية والطورانية والكردية والزنجية والبربرية... وغيرها[1].

٩ ـ تجريد العروبة من الإسلام وإبراز القومية والوطنية بلباس علماني لاديني، والزعم بأن الولاء للتراب الوطني والدم والجنس:

لا شك بأننا نحبُّ أوطاننا وندافع عنها، كما نحبُّ قومنا وجنسنا، لكنَّ ولاءنا لربنا وديننا أعلى وأقوى وأوثق بل هو المهيمن على ما سواه.

(إن العروبة التي تَعُدُّ محمداً ﷺ بطلاً قومياً وتستبعده رسولاً عالمياً، وتقدِّمُ العلمانيةَ على شريعته المنزلة، هذه العروبة لا تَعْدو أن تكون نزعةً عنصريةً كالنازية والفاشية والصهيونية، ولو وصفنا محمداً ﷺ بكل أمجاد الأرض،

(١) انظر: الضربات، ص١٩١ ـ ١٩٢، ٢٩٩؛ ليس من الإسلام، ص١٨٨ ـ ١٩٤.

وجحدنا رسالته التي اختاره الله لها؛ فما نقص كفرنا ذرّةً! وما نؤمنُ بمحمد ﷺ إلا يومَ تكون تعاليمه أساسَ الفرد والمجتمع والدولة)[١].

وإنَّ وَضْعَ مسألتي القومية والدين، أو العروبة والإسلام، موضع المقابلة والتضاد ليس صحيحاً البتَّة، لا من الناحية العلمية ولا من الناحية الواقعية.. وفصلُ الدين عن القومية وتكريس علمانيتها، واستبعادُ العامل الديني الرئيس على الأقل في نطاق العلاقة الخاصة بين العروبة والإسلام؛ غير مبرَّر وغير منطقي.

وبعد رحلة التغريب الطويلة للعروبة وفصلها عن الإسلام، فالذي انتهينا إليه اليوم هو ضرورة وحتمية اللقاء بين العروبة والإسلام أو القومية والدين، والذي يتأمَّل حركةَ التاريخ القريب في البلاد العربية وحوض البلقان ـ مثلاً ـ يستنتج مجموعة العوامل التي تؤكد على ضرورة العودة بالعروبة والقومية إلى حضن الإسلام والثقافة العربية الإسلامية[٢].

وهناك جهود تُبذل لإحلال النزعة الوطنية مكان العقيدة الدينية في الميدان الاجتماعي والسياسي، بل في الميدان النفسي والتربوي. وتزداد هذه الجهود قوة كلما كان المراد منها (إقصاء الإسلام) عن مكانته العامة في التوجيه[٣].

١٠ ـ أهواء مروجي الغزو الفكري والتبشيري الاستشراقي:

تلك الأهواء التي اكتسحت بلادَنا، وغَزَتْ عقولُ شعوبنا، وتغلغلت في الإعلام والتعليم والثقافة، ومختلِف منابر التوجيه ومراكز صنع القرار، والتأليف والترجمة والنشر، في محاولات جادَّة وحادَّة لإفراغِ العقل العربي المسلم من

---

(١) اليهود المعتدون، ص٢٧٦.

(٢) انظر: ما كتبه الدكتور عدنان زرزور في كتابه: شخصيات وأفكار، ص١١٩ ـ ١٢٥، في معرض ردِّه على ساطع الحصري شيخ القومية العربية، وإصراره على فصل الدين عن العروبة.

(٣) ليس من الإسلام، ص١٨٨.

أصوله وثوابته وفكره وحضارته وتراثه وتاريخه، وإعادةِ تشكيله على الطريقة الغربية القائمة على الفلسفات المادية والإباحية والوثنية، وإلحاقه بالغرب تابعاً ذائباً لا كيان له ولا هوية ولا شخصية.

١١ ـ أهواء المفكرين والمنظرين والكتّاب وحَمَلة الأقلام:

وذلك في العبث بالأصول الكبرى للإسلام والحقائق العامة له وتزوير التاريخ الإسلامي، وعرضها من زاوية الفلسفة المادية والفكر اليساري والتفسير الذاتي.

وتجلى ذلك في الجراءة على أصول الإيمان، والممارة في حقيقة النبوَّات والوحي، والمحرمات، والعبادات، والواجبات، والمنهيات، والانسلاخ من تاريخنا العريق.

١٢ ـ دعاة الرذيلة وإطلاق جماح الشهوات والاختلاط:

والعبث الأخلاقي، والانحلال من عُرى القِيم والفضائل والحشمة والعفَّة، ومروِّجو العُهْر والعُري والتهتك والفسق والفجور على مستوى المجتمع عامة والمرأة بخاصة، وارتخاص شرفها وعرضها وكرامتها.

ويتولى ذلك جمهور عريض على أصعدة شتى، قد أَقْفَرتْ حياتهم الذهنية والنفسية من كل خير يَشْرُف به الإنسان، فَهُم دائبون على تلويث منابع الخير وتصديع أركان الأمة.

يَسْعَون جاهدين للفَتْك بكلِّ أثر للإيمان والتقوى والشرف والمروءة والتحفظ والنَّخوة، ويدأبون لإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، ويزيِّنون كل منكر ورذيلة، ويُشِيعونها بالليل والنهار؛ لإنشاء جيل خاوي الروح فارغ القلب مهزوم النفس مشتَّت الفكر خائر العزيمة معطوب الإرادة.

١٣ ـ إطلاق مفهوم الحرية بلا ضوابط ولا قيود:

فباسم الحرية تنطلق الألسنة والأقلام لتنال من الإسلام ومبادئه وقيمه بالازدراء والتنقيص والاستهجان والتشنيع والاتهام.

وتحت عنوان محاربة الكبت تنطلق الطبائع الحيوانية لتعربدَ كيف تشاءُ، وتُرتكب الموبقات، ويُعبث بالشرف والمروءة والأعراض.

وبالتفسير الجائر المريض لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] يتمُّ العدوان على حدود الله وفرائضه، ويُباح الزنى واللواط والربا والخمر والقمار... ويُستَخفّ بالعبادات والشعائر، ويُحارب الجهاد، ويُضَيَّق على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وتنطلق الألسنة وتضجُّ الأصوات لفتح الأبواب أمام كل فكر ودعوة ومذهب وحزب يضادُّ اللهَ في حكمه ويناقضُ دينَ الأمة ومبادئها وثوابتها.

وتساءلَ كاتب ماجن في صحيفة: (لماذا لا تتزوج المرأة أكثر من رجل؟!).

لقد حَفَلت أرضُ الإسلام بكثير من هؤلاء العُصاة الذين قَضَوا شَطْر أعمارهم أو أغلبَها في ظلام الإثم، وما تطهَّروا لله يوماً، لا أَدَّوا له صلاةً، ولا خافوا له لقاءً، ولا أقاموا له حدّاً، ولا احترموا له حقّاً!.

١٤ ـ أصحاب الفتاوى الضالة ومجاراة أهواء الحكام والمسؤولين:

وهؤلاء قد مرَّ في تاريخنا نفرٌ يسيرٌ منهم، لكنهم في هذا الزمن كثرة، وتوجد أمثلتهم في بلدان شتى، شوَّهوا صورة العلم بمثَلِهم السيِّئ، وحرَّفوا الكلم عن مواضعه، فقالوا بإباحة بعض أنواع الربا، وجوَّزوا الفطر في رمضان لأنه يقلل الإنتاج، وأفتوا بإغلاق الجمعيات الخيرية بدعوى تمويلها للإرهاب، واتهموا الحركات الجهادية بالخروج عن طاعة ولي الأمر، وأصَّلوا لفكرة الاستسلام للعدو الغاصب اليهودي أو الصليبي باسم السلام!.

١٥ ـ هذه أبرز الأهواء وأعظمها خطراً على الإسلام والمسلمين في هذا العصر، وثمة أهواء أخرى، منها:

أهواء القائمين على التعليم والمناهج، وأهواء الصحفيين، والحقوقيين فيما يتعلق بشؤون الأسرة وما يسمَّى بقانون الأحوال الشخصية، والطعن على الصحابة والسلف الصالح، وإقامة رموز للأمة هم بالحقيقة أعداء لها عملاء

للشرق أو الغرب، وفي المقابل طمس تاريخ الرجال الكبار، ومحاربة اللغة العربية وإضعاف شأنها لإيجاد هوّة بين أبنائنا وتراثنا، والتقاليد التي تُحسب على الدين وهي ليست منه بل تضادُّه وتعانده، وأهواء العامة في الجَبْر والتوكل والرجاء المغلوط... وغير ذلك.

وصدق الشاعر محمود غنيم نضَّر الله وجهه؛ حيث يقول في ختام قصيدته (وقفة على طَلل):

لاهُمَّ قد أصبحتْ أهواؤنا شِيَعاً فَامْنُنْ علينا براعٍ أنتَ تَرْضَاهُ
راعٍ يُعِيدُ إلى الإسلامِ سيرتَهُ يَرْعَى بَنِيهِ وعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهُ[1]

خامساً: دروس وعبر:

ينبغي التوقف أمام هذا الحديث النبوي والنبوءة الجليلة التي بيَّنها رسول الله ﷺ للمسلمين، نصيحةً لهم، وشفقةً عليهم، وشَحْذاً لهِمَمِهم وحضّاً لكبارهم وساداتهم، من أجل تجنُّب الأهواء وجَمْع الأمة على كلمة سواء.

كما ينبغي أخذُ العبر والدروس من خلال ذلك الاستعراض الذي بسطناه في بيان مدلول هذه النبوءة وآفاقها:

١ ـ كثرة الأهواء وانتشارها يعطِّل مسيرة الدعوة ونشر الرسالة، ويقف حجر عثرة أمام المدِّ الإسلامي الواجب وصولُه للعالمين. وقد أدَّت في مراحل متعددة إلى تأخّر الأمة عن مقام الطليعة إلى الصف التالي ثم إلى صف وراءه، والآن في مؤخّرة الركب.

٢ ـ الأهواء عِللٌ مهلِكة عكَّرت صفوَ العقيدة، وشوَّهت الفكر، وشلَّت العقل، وأوقفت تياره الدفَّاع عن العطاء، وأصابت المسلمين بالبطالة العقلية والفكرية والنفسية في أزمنة متعددة خاصة في عصرنا.

٣ ـ عُبَّاد الأهواء على اختلاف مشاربهم وتنوُّعِ نشاطاتهم خطرٌ مَخُوفٌ على

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٣٣.

دين الأمة وحاضرها ومستقبلها، لذا يجب أن نتيقظ لدسِّهم، وأن نحتاط لعوجهم، وإلا تعرَّض جهادُ المصلحين للبوار، وكيانُ الجيل الجديد للدمار.

٤ ـ الأعداء من يهود وصليبيين ووثنيين وغيرهم احتضنوا ـ قديماً وحديثاً ـ أصحابَ الأهواء والطوائف والأقليات، بل كثيراً ما عملوا على إنشائها وتوليدها والتمكين لها.

٥ ـ إنَّ ضِغْنَ بعض الطوائف على الإسلام لا ينتهي، وتربُّصَ كثيرٍ من أصحاب الأهواء والضلال والانحراف مستمر، مما يستوجب أن نكون دائماً على حذَر ويقظة، لردِّ العدوان وفَضْح المكايد واستنقاذ الأمة من براثن كيد هؤلاء وهؤلاء.

٦ ـ من أجلِ المُضيِّ في مشروعنا الحضاري وبناءِ الجيل الذي يُعيد لأمتنا أمجادها ومكانتها؛ يجب الوقوفُ بحزم وسَدُّ الأبواب أمام تلك الأهواء المُبيدة، وأن نصدَّ أصحابها عن المُضيِّ في غوايتهم، حتى نحتفظَ بحياتنا، ونصونَ مستقبلَنا.

٧ ـ يجب تضييق هوَّة الخلاف، وتوحيد الجبهات العاملة للإسلام، وعدم تبديد الجهود في إثارة خلافات قديمة والدفاع عن أهواء مضت أو إدانتها.

(وعلى الدعاة المسلمين من سَلَف وخَلَف أن يَلزموا أسلوبَ القرآن الكريم في عرض المعتقدات، وأن يشغلوا أنفسهم بتقديم حلول إسلامية للمشكِلات المحدَثة والأزمات المادية والأدبية الطارئة.

إن ذلك ما فعله السلف الأوَّل، فأعانه على فتح المشارق والمغارب، وأما المشتغلون اليوم بإعلان حرب على الجَهْمية والمعتزلة والأشاعرة فإنهم قد يُحرزون نصراً في ميدان لا عدوَّ فيه، إنه نصر على الأشباح ولا يغنم إلا الوهم!).

(إننا نريد ثقافة تجمع ولا تفرِّق، وترحم المخطئ ولا تتربَّص به المهالك، وتَقْصِد إلى الموضوع ولا تتهارش على الشكل)[١].

٨ ـ لا يجوز التنطُّعُ في تكفير المبتدعة باجتهاد خاطئ، ولا يُقبل من أحدٍ أن يدَّعي احتكارَ الحق عليه وحده، وما دام في الأمر مندوحة للإعذار فيجب سلوك أوفق الطريقين لتقريب الاجتهادات ما دامت البدعة غير مكفِّرة.

٩ ـ من الواجب على القيادات الفكرية والدعوية والإصلاحية أن تتمرَّسَ بعلاج المواقف أمام أصحاب الأهواء والفِرق الضالة وأنصارها، وتستمكنَ من أساليب الدفاع والحوار والعلاج، فدعاةُ الإسلام والمنافحون عنه والمبلِّغون رسالته ليسوا حكاماً عسكريين يعالجون بالعصا نواصي الخاطئين، بل معلِّمون يحاربون الجهل، ومذكِّرون يُطارِدون الغفلات، وأُسَاةٌ يعالجون الانحراف، ومعهم كتاب كريم دارسٌ لعللِ القلوب، خبيرٌ بمساربها ومهاربها.

١٠ ـ يجب على كل مسلم غيور أن يقاومَ الأهواء ويفضحَ الانحراف، ولا يسكت على مدِّ آثامها وضلالاتها في تشويه الإسلام وتقويض نظامه وتحريف الكلم عن مواضعه، كلٌّ يقوم بدوره في الميدان الذي يمكنه ويحسنه.

١١ ـ على الرغم من كثرة الأهواء وتعدد الفرق الضالة، وامتدادِ نشاطها على مرِّ السنين، ومكرِها بالليل والنهار، فإنها تنحسر وتتلاشى في النهاية، بسبب القوة الكامنة في هذا الدين وكتابه وسنَّة رسوله ﷺ، وبجهود المخلصين الذين لم يخلُ منهم زمان، ولا افتقدهم بلد ولا جيل عبر تاريخنا الطويل.

إنه ما من عصر ولا مصر إلا وقد وُجِد فيه قائم لله بحجة؛ تعقَّب الانحراف عندما نجم، وقاوَمَه بعدما نما، وخاصَمَه بعنف وحِدَّة حتى ردَّ للحق مكانته وأعلى رايته.

وفي مقدّمة هذا الركب المبارك الميمون أولئك المجدِّدون الذين يبعثهم الله فيجددون للأمة أمر دينها، ورجالُ الطائفة المنصورة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين لعدوِّهم، قاهرين حتى يأتي أمر الله وتقوم الساعة.

---

(١) هموم داعية، ص١٥، ١٢٩.

١١٢

إخبار النبي ﷺ بخروج الكذَّابَيْن من بعده: الأسود العنسي ومسيلمة

١ ـ عن عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: (قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الكذَّابُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ [المدينةَ]، فجعلَ يقولُ: إنْ جَعَلَ لِي محمدٌ الأمرَ من بعدِهِ تَبِعْتُهُ. وقَدِمَهَا في بَشَرٍ كثيرٍ من قومِهِ، فأَقْبَلَ إليه رسولُ الله ﷺ ومعهُ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ ـ وفي يدِ رسولِ اللهِ ﷺ قِطْعةُ جَريدٍ ـ حتى وَقَفَ على مُسَيْلِمَةَ في أصحابه، فقال: «**لو سَأَلْتَنِي هذهِ القِطْعةَ ما أعْطَيْتُكَهَا، ولنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللهِ فيكَ، ولَئِنْ أدْبَرْتَ لَيَعْقِرنَّكَ الله، وإنِّي لأُرَاكَ الذي أُرِيتُ فيهِ ما رأَيْتُ، وهذا ثابتٌ يُجِيبُكَ عنِّي**» ثم انصرفَ عنهُ).

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: (فسألتُ عن قولِ رسول الله ﷺ: «**إنَّكَ أُرى الذي أُرِيتُ فيهِ ما رأَيْتُ**» فأخبرَني أبو هريرةَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**بَيْنَا أنا نائمٌ، رأيتُ في يَدَيَّ سِوَارَيْنِ من ذَهَبٍ، فأَهَمَّنِي شَأْنُهُما، فَأُوحِيَ إليَّ في المنامِ أنِ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهما فطَارا، فأَوَّلْتُهُما كذَّابَيْنِ يَخْرُجانِ بَعْدِي: أحَدُهُما العَنْسِيُّ، والآخرُ مُسَيْلِمَةُ**»)[١].

٢ ـ وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بَيْنَا أنا نائمٌ أُتِيتُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٣ ـ ٤٣٧٤)، وأطرافه في (٣٦٢٠)، واللفظ له؛ وزيادة لفظة [المدينة] من مسلم؛ ومسلم (٢٢٧٣ ـ ٢٢٧٤)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٨٤٣)؛ وابن حبان (٦٦٥٤)؛ والبيهقي في الدلائل: ٥/ ٣٣٤؛ وأخرج الترمذي (٢٢٩٢) والنسائي في الكبرى (٧٦٠٢) قصة الرؤيا دون قصة مسيلمة.

بخزائنِ الأرضِ، فَوُضِعَ في كَفِّي سِوَارانِ من ذَهَبٍ، فَكَبُرَا عَلَيَّ، فأُوحِيَ إليَّ أنِ انْفُخْهُما، فَنَفَخْتُهُما فَذَهَبَا، فأَوَّلْتُهما الكَذَّابَيْنَ اللَّذَيْنِ أنا بَيْنَهما: صاحِبَ صَنْعاءَ، وصاحبَ اليَمَامةِ».

وفي رواية: «**فَوُضِعَ في يَدَيَّ سِوَاران من ذَهَبٍ، فَكَبُرا عَلَيَّ وأَهَمَّانِي، فأُوحِيَ إليَّ أنِ انْفُخْهُما، فَنَفَخْتُهما فطارَا،...**»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: بيان موجز لمعاني الحديثين:

- (**إن جعل لي محمد الأمر من بعده**): أي الخلافة.

- (**في بشر كثير**): ذكر أصحاب السير أن عدد من كان مع مُسَيْلِمة من قومه سبعة عشر نفساً.

- (**قطعة جَريد**): جمع جَريدة، كشعير وشعيرة، والجَريدة: السَّعَفَة التي تُقشر من خُوصها، والجريدة للنخلة كالقضيب للشجرة.

- «**لن تعدوَ أمرَ الله فيك**»: لن تتجاوزَ حُكم الله في خيبتِك فيما أمَّلْتَه من النبوَّة، وهلاكك دون ذلك.

- «**ولئن أدبرتَ ليعقرنَّك الله**»: لئن أدبرتَ: أي إنْ أدبرتَ عن طاعتي وخالفتَ الحق. ليعقرنّك: أي يُهلكك، والعَقرْ: القتل.

- «**وإني لأُرَاك الذي أُرِيت فيما رأيتُ**»: إني لأظنك الشخص الذي أراني الله في الرؤيا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٥) واللفظ له؛ وأطرافه في (٣٦٢١)؛ ومسلم (٢٢٧٤) (٢٢)؛ وابن ماجه (٣٩٢٢)؛ وابن أبي شيبة: ٧/ ٢٣٤؛ وأحمد: ٢/ ٣١٩، ٣٣٨، ٣٤٤؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٧٥؛ وفي الدلائل: ٥/ ٣٣٥؛ وابن حبان (٦٦٥٣)؛ والبغوي (٣٢٩٧)، وهو في صحيفة همام بن منبه (١٣٥).

ـ **«وهذا ثابت يُجيبك عني»**: كان ثابت بن قيس رضي الله عنه خطيبَ رسول الله ﷺ يجاوبُ الوفودَ عن خُطَبهم وتشدُّقِهم.

والمرادُ هنا: أن النبي ﷺ قد أُعْطِي جوامعَ الكَلِم، فاكتفَى بما قاله لمسيلمة، وأَعْلَمه أنه إن كان يريد الإسهاب في الخِطاب فهذا الخطيب يقوم عني في ذلك.

ـ **«فأَهَمَّني شأنُهما»**، وفي رواية: **«فكَبُرا عليَّ»**، وفي أخرى: **«فَفُظِعْتُهُما وكَرِهْتُهما»**: أي خِفْتُهما وعَظُم عليَّ أمرهما واشتدَّ. وإنما عَظُم عليه ﷺ ذلك لكونِ الذهب من حِلية النساء ومما حُرِّمَ على الرجال.

ويؤخذ منه أن السِّوار وسائر آلات أنواع الحُلِيِّ اللائقة بالنساء تُعْبَر للرجال بما يَسوءُهم ولا يسرُّهم.

ـ **«فأوحِيَ إليَّ أن انفخهما، فنفختُهما فطارا»**: فأوحي إليَّ: هذا الوحي يَحْتمِل أن يكون من وحي الإلهام، أو على لسان المَلَك.

فنفختُهما فطارا: في ذلك إشارةٌ إلى حقارةِ أمرهما، لأن شأنَ الذي يُنفخ فيذهب بالنفخ أن يكون في غاية الحقارة. وردَّه الإمام أبو بكر بن العربي بأن أمرهما كان في غاية الشدَّة ولم يَنزل بالمسلمين قبله مثله.

قال الحافظ: وهو كذلك، لكن الإشارة إنما هي للحقارة المعنوية لا الحسية.

ونَفْخُه ﷺ إياهما فطارا دليلٌ لانمحاقِهما واضمحلالِ أمرهما، وكان كذلك، وهو من المعجزات.

ـ **«فأوَّلْتُهما كذَّابَيْن يخرجان بعدي»**: إنما أَوَّلَ النبي ﷺ السِّوارين بالكذَّابَيْن، لأن الكذبَ وضعُ الشيء في غير موضعه، فلما رأى في ذراعيه سِوارين من ذهب وليسا من لِبْسه لأنهما من حِلْية النساء؛ عَرف أنه سيظهر من يدَّعي ما ليس له، وأيضاً ففي كونهما من ذهبٍ، والذهبُ منهيٌّ عن لِبْسه، دليل

على الكذب. وأيضاً فالذهب مشتق من الذهاب، فعَلِم أنه شيء يَذهب عنه، وتأكّد ذلك بالإذن له في نفخهما فطارا، فعرف أنه لا يَثْبت لهما أمرٌ، وأن كلامه بالوحي الذي جاء به يُزيلهما عن موضعهما.

- «**اللذين أنا بينهما**»: ظاهرٌ في أنهما كانا حين قصّ الرؤيا موجودَيْن، وهو كذلك، لكن وقع في رواية ابن عباس: «**يَخرجان بعدي**»، والجمع بينهما أن المرادَ بخروجهما بعده ظهورُ شوكتِهما ومحاربتهما ودعواهما النبوة.

نقله النووي عن العلماء، وتعقَّبه الحافظ فقال: وفيه نظر، لأن ذلك كله ظهر للأسود بصنعاء في حياته ﷺ، فادَّعى النبوة وعَظُمت شوكتُه وحارب المسلمين وفَتَك فيهم وغَلَب على البلد وآلَ أمرُه إلى أن قُتِل في حياة النبي ﷺ.

وأما مسيلمة فكان ادَّعى النبوّةَ في حياة النبي ﷺ، لكن لم تعظُم شوكته ولم تقع محاربته إلا في عهد أبي بكر، فإمَّا أن يُحمل ذلك على التغليب، وإما أن يكون المراد بقوله: «بعدي» أي: بعد نبوَّتي[1].

ثانياً: التحقق التاريخي للنبوءة:

هذه النبوءة من أسرع النبوءات تحقُّقاً، وفيها ذِكْر اثنين من الكذَّابين افتريا على الله وادَّعَيَا النبوة، فأخذهما الله ولم يُمهلْهما: أحدهما الأَسْوَد العَنْسيُّ الذي ادعى النبوة بصنعاء، وقد قُتل قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة، وجاء الخبر بذلك صبيحة دُفن رسول الله ﷺ. والآخر مُسَيْلِمة، ادعى النبوة في بني حَنيفة حتى قُتل في خلافة أبي بكر.

وفي الحديث ثلاث معجزات:

---

(١) هذه المعاني أخذتها وجمعتها ورتبتها من: الفتح: ٩/ ٧٠٣ ـ ٧٠٨ شرح الأحاديث (٤٣٧٣، ٤٣٧٤، ٤٣٧٥، ٤٣٧٨، ٤٣٧٩)، ١٦/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦، ٢٥٠ ـ ٢٥١ شرح الحديثين (٧٠٣٤، ٧٠٣٥)؛ وشرح مسلم، للنووي: ٨/ ٣٨ ـ ٣٩؛ وتكملة فتح الملهم، لمحمد تقي العثماني: ٤/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧.

الأولى: خروج الكذَّابَيْن.

الثانية: قوله ﷺ لمسيلمة: «**لَيعقِرنَّك الله**».

الثالثة: قوله ﷺ: «**فنفختُهما فطارا**»، كناية عن انمحاقهما واضمحلال أمرهما.

وكل ذلك وقع كما أخبر ﷺ(١).

ثالثاً: الأسود العنسي:

اسمه عَبْهَلَة بن كعب بن غوث بن صعب بن مالك بن عَنْس العَنْسي المَذْحِجي المتنبِّئ الكذّاب.

●● كانت اليمن حين بُعِث النبي ﷺ تابعةً لكسرى، ولمَّا كَتب رسول الله ﷺ الكتب إلى الملوك والرؤساء، بَعث بكتاب إلى كِسْرى، فمزَّقه وأَمر عاملَه على اليمن واسمه (باذام) ـ وبعضهم يقول: (باذان) ـ أن يُرسِل رجلين إلى المدينة ليأخذا النبي ﷺ مقيَّداً ويبعثه إلى كسرى! هكذا بغطرسته الحمقاء وكبريائه! لكن (باذام) كان أميراً عاقلاً، فسيَّر رجلين وأمرهما أن يَنظرا في أمر رسول الله ﷺ، فلما وفدا إليه وجدا من هَدْيه ما سَلَب لُبَّهما، فعادا إلى باذام بالخبر.

فوقع الإسلام في قلب باذام، وقُتل كسرى، وقام بالأمر بعده ابنُه شِيرويه، وكَتَب إلى باذام أنْ خُذْ لي البيعةَ ممن قِبَلك، واعْمِد إلى ذلك الرجل ـ يعني النبي ﷺ ـ فلا تُهِنْه وأكرِمْه.

فدخل الإسلام في قلب باذام وذريته من أبناء فارس ممن باليمن(٢)، وبَعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، فبعث إليه رسول الله ﷺ بنيابة اليمن بكمالها، فلم

---

(١) شرح مسلم، للنووي: ٨/٣٩.

(٢) انظر: أخباره في: تاريخ الطبري: ٣/٢٢٧ ـ ٢٤٠؛ تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص١٤ ـ ١٩؛ البداية والنهاية: ٦/٣٠٥ ـ ٣١٠.

يعزلْه عنها حتى مات، فلما مات استناب ابنَه شهر بن باذام على صنعاء وبعض مخاليف اليمن، وبعث طائفةً من أصحابه نواباً على مَخَاليف أخر[١].

ومن أولئك الصحابة: أبو موسى الأشعري، ويعلى بن أمية، والطاهر بن أبي هالة، وخالد بن سعيد بن العاص، ومعاذ بن جبل وكان معلِّماً لأهل اليمن وحضرموت.

●● فبينما هم كذلك نَجَم هذا اللعين الأسود العَنْسي وادّعى النبوّة في بلد يُقال له: (كَهْف خُبَّان)، وتهدَّد المسلمين قائلاً: أيها المتورِّدون علينا، أَمْسِكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفِّروا ما جمعتم، فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه[٢].

وراسله نصارى نَجْران وناصروه، فركب إليهم فأخذ نَجْرانَ، ثم قصد إلى صنعاء في (سبعمئة فارس) سوى الرُّكبان، فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا، فغلبه الأسود وقتله وتزوَّج امرأته، وكَسَر جيشه من الأبناء[٣]، واحتل صنعاء، وجعل أمره يستطير ويستغلظ حتى استوسَقَتْ له بلاد كثيرة وامتدَّ سلطانه حتى غلب على ما بين مَفَازة حضرموت إلى الطائف إلى الأحساء إلى عدن[٤]!.

واشتدَّ مُلْكُه واستغلَظ أمره، وارتدَّ خلق من أهل اليمن، وعامَلَه المسلمون الذين هناك بالتَّقِيّة، وكان خليفته على مَذْحج عَمْرو بن مَعْدي كَرب، وأسند أمر الجُنْد إلى قَيْس بن عبد يغوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الدَّيْلَمي وداذَوَيْه،

---

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٧. **والمخاليف**: جمع المخلاف، وهو الكورة، كالمديرية أو المحافظة الآن.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٩؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٧.

(٣) هم الفرس الذين أسلموا وهم باليمن.

(٤) انظر: تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

وتزوَّج بامرأة شهر بن باذام، وهي ابنة عمٍّ فيروز الديلمي، وكانت امرأة حسناء جميلة، وهي مؤمنة بالله ورسوله ﷺ ومن الصالحات[١].

●● وحين بَلَغ خبرُه رسولَ الله ﷺ بعث كتاباً إلى الصحابة يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة الأسود العَنْسي ومصاولته، فقام معاذ بن جبل بهذا الكتاب أتمَّ القيام، وكان تزوَّج امرأة من (السَّكُون) فحَدَبُوا عليه وناصروه وقاموا معه في ذلك، وبلَّغوا هذا الكتاب إلى عمَّال النبي ﷺ ومَن قدروا عليه من الناس. واتفق اجتماعُهم بقيس بن عبد يغوث أمير الجُنْد ـ وكان قد غَضِب عليه الأسود، واستخفَّ به، وهمَّ بقتله ـ وكذلك كان أمر فيروز الديلمي قد ضَعُف عنده أيضاً، وكذا داذَوَيْه، فتوافقوا جميعاً على الفتك بالأسود وتعاقدوا عليه[٢].

واتفق الرَّهْط قيس بن مَكْشُوح وفيروز وداذويه مع امرأة الأسود المسلمة الصالحة على قتله، ومالَأَتْهم هذه المرأة ووطّأتْ لهم السبيل لتحقيقه.

فاجتمعوا بها، والحرس محيطون بالقصر يحفظون الأسود، فَدَلَّتْهم على باب ليدخلوا منه ويَنْقُبوا عليه، وهيَّأت له سراجاً، فجاؤوه بالليل وقد نام وله غَطيط شديد، فعاجلَهَ فيروز الديلمي وأخذ برأسه ودَقَّ عنقَه ووضع ركبتيه في ظهره حتى قتله، وأراد أن يحتزَّ رأسه فحرَّكه الشيطان، فجلس اثنان على صدره، وأمرَّ الشَّفْرة على حَلْقه فخار كالثور، فابتدر الحرس البابَ وهم حول المقصورة، فقالوا: ما هذا؟! ما هذا؟! فقالت المرأة: النبي يُوحى إليه! فخمد.

وفي الصباح نادى قيسٌ بشعارِهم، فاجتمع المسلمون والكافرون، ثم نادى بالأذان وقال: أشهد أن محمداً رسول الله، وأن عَبْهلة كذّاب، وألقى إليهم رأسه!.

فانهزم أصحابه، وتبعهم الناس يأخذونهم ويَرصدونهم في كل طريق

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٣٠؛ البداية والنهاية: ٦/٣٠٨. وقيس بن عبد يغوث: هو المعروف بقيس بن مَكْشُوح.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣٢؛ البداية والنهاية: ٦/٣٠٨.

يأسِرونهم، وظَهر الإسلام وأهلُه، وتراجَعَ نوَّاب رسول الله ﷺ إلى أعمالهم، واتفقوا على معاذ بن جبل يصلي بالناس، وكتبوا بالخبر إلى رسول الله ﷺ.

ووصلَ الرسولُ بالكتاب على المدينة النبوية وقد قُبِض النبي ﷺ صبيحة تلك الليلة.

وكانت مدة مُلْك هذا الخبيث وفتنته منذ ظهر إلى أن قُتل أربعة أشهر(١).

رابعاً: مسيلمة الكذَّاب(٢):

●● هو مُسَيْلِمَة بن ثُمامَة بن كَبير بن حَبيب بن الحارث، من بني حَنيفة، يُكنى أبا ثُمامة.

ادّعى النبوة سنة عشرة للهجرة، وكان يُقال له: رحمان اليَمامَة!.

وُلد ونشأ في اليمامة، في القرية المسماة اليوم بالجبيلة بقرب (العُيينة) بوادي حَنيفة في نجد، وبها قُتل.

وحَنيفة هو ابن لُجَيْم بن صَعْب بن علي بن بَكْر بن وائل، وهي قبيلة شهيرة ينزلون اليمامة، وكان وفد بني حنيفة في سنة تسع، وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلمة(٣).

نزل وفدُهم دارَ رملة بنت الحارث بن ثعلبة الأنصارية النجارية الصحابية، وكانت زوج معاذ بن عَفْراء الصحابي المشهور، وكانت دارها معدَّة لنزول الوفود(٤).

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٦، ٢٤٠؛ البداية والنهاية: ٦/٣٠٨ ـ ٣١٠.
(٢) انظر: أخباره في: تاريخ خليفة، ص١٠٧ ـ ١١١؛ تاريخ الطبري: ٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨، ١٤٦ ـ ١٤٧، ٢٨١ ـ ٣٠٠؛ تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص٣٨ ـ ٤١، ٥٣؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧.
(٣) الفتح: ٩/ ٧٠٠ شرح الأحاديث (٤٣٧٣ ـ ٤٣٧٥).
(٤) الفتح: ٩/ ٧٠٧.

●● ولمَّا رجع الوفد إلى اليمامة ارتدَّ عدوُّ الله مسيلمة وادعى النبوة، وقال: إني أُشْرِكتُ في الأمر مع محمد!.

وتابعه قومه بنو حنيفة.

وكَتَب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ: (من مسيلمة رسولِ الله إلى محمدٍ رسولِ الله، سلامٌ عليك، فإني قد أُشْرِكْتُ في الأمرِ معك، وإنَّ لنا نصفَ الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكنَّ قريشاً قومٌ يعتدون)(١).

وجاء رسولا مُسَيْلِمة إلى النبي ﷺ بكتاب مسيلمة؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قد جاء ابن النوَّاحة وابن أُثَال رسولَيْن لمسيلمة إلى رسول الله ﷺ، فقال لهما رسول الله ﷺ: «**تشهدانِ أنِّي رسولُ الله؟**» فقالا: نشهدُ أن مسيلمةَ رسولُ الله، فقال رسول الله ﷺ: «**آمنتُ بالله ورسلِه، لو كنتُ قاتلاً رسولاً لَقتلتُكما**». قال عبد الله: فمضَتِ السّنَّةُ بأن الرسل لا تُقتل، فأما ابنُ أُثَالٍ فكفاناه الله، وأما ابن النواحة فلم يَزَلْ في نفسي منه، حتى أَمكنني الله منه)(٢).

ثم كتب النبيُّ ﷺ إلى مسيلمة: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلامُ على مَن اتَّبَع الهدى، أما بعدُ: فإنَّ الأرضَ لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين**». وكان ذلك في آخر سنة عشر(٣).

وما فعله نصارى نَجْران في تأييد الأسود العَنْسي، فعل مثلَه نصارى تَغْلِب في تأييد مسيلمة الكذّاب حين ادعى هو الآخر أنه نبي(٤)!.

●● ولمّا توفِّي رسول الله ﷺ ولَحِق بالرفيق الأعلى، ارتدَّت أحياء كثيرة من

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ١٤٦.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٥١) واللفظ له؛ وأحمد: ١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١ وذكره الهيثمي في المجمع: ٥/ ٣٢٤، وعزاه لأحمد والبزار وأبي يعلى، وقال: إسنادهم حسن.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ١٤٦؛ السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠١.

(٤) فقه السيرة، للغزالي، ص٤٣٠.

الأعراب، وانحاز إلى مسيلمة الكذّاب بنو حنيفة وخلقٌ كثير باليمامة. وتصدَّى لهم أبو بكر وسيَّر لهم جيوشاً ليؤدِّبوهم ويُعيدوهم إلى جادة الحق والصواب.

وكان بنو حنيفة في نحو (أربعين ألف مقاتل)، فبعث إليهم أبو بكر عِكْرمة بن أبي جهل على رأس جيش، وأَتْبعه بآخر عليه شُرَحْبِيل بن حَسَنة، فعجَّل عِكْرمة قبل مجيء شُرَحْبِيل وصادَمَ بني حنيفة وناجزهم، فنكَبوه!.

وكتب أبو بكر إلى شُرَحْبيل يأمرُه بالمقام حتى يأتيه أمره، وسيَّر إليهم خالد بن الوليد، لكنَّ شُرحبيل عجَّلَ وفَعَل فِعْلَ عكرمة، وبادر خالداً بقتال مسيلمة قبل قدوم خالدٍ عليه، فَنُكِب! فلما قدِمَ عليه خالد لامَهُ[1].

فلما سمع مسيلمة بقدوم خالد عَسْكَر بمكان يقال له: (عَقْرباء) في طرف اليمامة والريفُ وراء ظهورهم، ونَدب الناس وحثَّهم.

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كَثيب يُشرف على اليمامة فضرب به عسكره، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شَمَّاس، والعرب على راياتها، واصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة[2]، وانهزمتِ الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمةَ خالد بن الوليد، ثم تَذَامَر[3] الصحابة بينهم، وقال ثابت بن قيس: بئس ما عوَّدتم أقرانكم، وقال خالد: أيها الناس امتازوا، لنعلمَ بلاءَ كل حيّ، ولنعلم من أين نُؤتى!

وحمي البراء بن مالك ـ أخو أنس ـ وثار كما يثور الأسد، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يُعهد مثله، وجعل الصحابة يتواصَوْن بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بَطَل السحر اليوم! وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنَّط وتكفَّن، فلم يزل ثابتاً حتى قضى شهيداً!..

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٢) **جال القوم في الحرب جولة**: فروا ثم كروا.

(٣) أي: تلاوموا.

وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نُؤتى من قِبلك؟ فقال: بئسَ حاملُ القرآن أنا إذاً!..

وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس، عَضّوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قُدُماً، وقال: والله لا أتكلّم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، فقُتل شهيداً!.

وقال أبو حذيفة: يا أهلَ القرآن، زيِّنوا القرآن بالفِعال، وحَمل على الأعداء حتى استُشهد.

وحمل خالد بن الوليد واخترق العدو، وسار لحيال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصفَّيْن ودعا إلى البراز، ونادى بشعار المسلمين ـ وكان شعارهم يومئذ: يا محمداه ـ وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله!.

ودارت رحى المسلمين[1]، ثم اقترب خالد من مسيلمة فَعَرَض عليه الرجوعَ إلى الحق، فجعل شيطان مسيلمة يلوي عنقه، وكلما أراد مسيلمة أن يقارب الأمر صرفه عنه شيطانه، فانصرف عنه خالد، وقد ميَّز القبائلَ على راياتها حتى يُعرف الناس من أين يُؤتَون.

وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يُعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، وولى الكفار الأدبار، واتبعوهم يقتلون في أقفائهم حتى ألجؤوهم إلى (حديقة الموت) فدخلوها وفيها مسيلمة، وأَغلقتْ بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، وقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين أَلْقوني عليهم في الحديقة! فاحتملوه فوق تروسٍ من جلد ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه!.. ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من

---

(١) أي: النصر.

المرتدة من أهل اليمامة، حتى خَلَصُوا إلى مسيلمة، وإذا هو واقف في ثُلْمة جدارٍ كأنه جمل أَوْرَق[١]، وهو مُزْبِدٌ متساندٌ لا يَعقل من الغَيْظ، فتقدَّم إليه وحشي بن حرب فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دُجَانة فضربه بالسيف فسقط، وأُبِير مَن في الحديقة.

فكان جملة من قتل المسلمون في الحديقة وفي المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل، واسُتشهد من المسلمين نحو خمسمئة فيهم زُهاء خمسين نفساً من حفظة القرآن رضي الله عن الجميع وأرضاهم[٢].

•• وفي حديث البخاري مطولاً عن وَحْشيّ بن حَرْب قال: (فلما قُبض رسولُ الله ﷺ، فخرج مُسَيْلِمَةُ الكذّاب، قلتُ: لأخرجنَّ إلى مسيلِمة لعلِّي أقتلُه فأكافِئَ به حمزةَ. قال: فخرجتُ مع الناس، فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجلٌ قائم في ثُلْمةِ جدارٍ كأنه جملٌ أَوْرَقُ ثائر الرأس، قال: فرميتُه بحربتي، فأضَعُها بين ثَدْيَيه حتى خرجتْ من بين كتفَيْه. قال: ووثبَ إليه رجلٌ من الأنصار فَضَربه بالسيف على هامَتِه)[٣].

وبذلك وُئِدت فتنةٌ من أكبر الفتن بمقتلِ مسيلمة وانطفاءِ كذِبه إلى الأبد، وتحقق قولُ النبي ﷺ له: «**ولئنْ أدبرتَ لَيعقِرنَّكَ الله**».

ومما ذكره المؤرِّخون من (أسْجاع مسيلمة) التي يُقال لها: (قرآن مسيلمة)، قوله: (يا ضِفدع بنت الضّفْدَعين، نُقِّي ما تَنقِّين، أعلاكِ في الماء وأسفلكِ في الطين، لا الشاربَ تمنعين، ولا الماءَ تكدِّرين).

(والمُبذِرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثَرْداً، واللاقمات لقماً، إهالةً وسمناً، لقد

---

(١) **الأَوْرَق من الإبل**: ما في لونه بياضٌ إلى سواد. **والأورق من الناس**: الأسمر.
(٢) باختصار من: البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٣/ ٢٨٦ ـ ٢٩٧.
(٣) الفتح: (٤٠٧٢).

فُضِّلتم على أهل الوَبَر، وما سبقكم أهل المَدَر، رفيقكم فامنعوه، والمعترّ فآووه، والناعي فواسوه)[١]!.

خامساً: وبعد:

فإن أعداداً كبيرة من أصحاب رسول الله ﷺ ذهبوا شهداء في معارك الجهاد ضد الوثنيين والكتابيين والمرتدين، وقتلوا الكذَّابين المَفْلوكين من المتنبِّئين وأتباعهم من الرَّعَاع، ووَأَدوا الفتنة وغَسَلوا الجزيرة العربية غسلاً من كل تلك الأقذار.

(ولم يكن الطريق سهلاً، فإن رَعَاع العرب داخل الجزيرة حاولوا إعادةَ الليل المدبر وإحياءَ الجاهلية المسحوقة، كما أن مجوسَ فارس وصليبيِّ الرومان اعترضوا بالعنف مسار الدعوة.

غير أن الجيل الذي ربَّاه محمد ﷺ كان صلبَ المعدن، شديد البأس، جمع بين الصرامة والكرامة، فلم تَلِنْ قناتُه، ولم يَضْرَعْ أمام قوى الباطل، إنه نازلها كلَّها حتى كَسَر شوكتها وأسقطَ دولتها)[٢].

واليوم أمام (جيل الصحوة) مهمة عظمىٰ في البلاغ والدعوة والجهاد لمنازلة حركات الردة بمختلف ألوانها وراياتها، وإعادة أمجاد صحابة رسول الله ﷺ من جديد.



(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٨٤؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٦.

(٢) علل وأدوية، فصل (المعالم الأولى في عظمة محمد ﷺ)، ص١٤٤ ـ ١٤٥.



إخبار النبي ﷺ بخروج رجلين من ثقيف: كذَّاب ومبير

١ ـ عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ في ثَقِيفٍ كذَّاباً ومُبِيراً**»[١].

٢ ـ وعن أسماءَ بنتِ أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: أنها قالت للحَجَّاج: (أَمَا إنَّ رسولَ الله ﷺ حدَّثَنا: «**أنَّ في ثَقِيفٍ كذَّاباً ومُبِيراً**» فأمَّا الكذَّابُ فقد رأَيْنَاه، وأَمَّا المُبِيرُ فلا إِخَالُكَ إلَّا إيَّاهُ)[٢].

❁ ❁ ❁

أولاً: تحديد اسْمَي الرَّجُلَيْن المَعْنِيَّيْنِ بهذه النبوءة:

اتفقتْ كلمةُ شرَّاح الحديث والمؤرِّخين على أن المرادَ بالكذَّاب هو: المختار بن أبي عُبيد الثَّقَفيّ، وأما المُبير المُهْلِك كثير القتل فهو الحَجَّاج بن يوسف الثقفي كما أوضحتْ ذلك الصحابية العظيمة أسماء بنت أبي بكر، وتفسيرُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٢٠)، (٣٩٤٤)؛ والطيالسي (١٩٢٥)؛ وأحمد: ٢/ ٢٦، ٨٧، ٩١، ٩٢؛ والدولابي في الكنى: ٢/ ٣٦؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٤٨٢؛ والبغوي (٣٧٢٧)، وقال الترمذي: حسن غريب؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) أخرجه الطيالسي (١٦٤١) واللفظ له؛ والحميدي (٣٢٦)؛ وأحمد: ٦/ ٣٥١ ـ ٣٥٢؛ وابن سعد: ٨/ ٢٥٤؛ وأبو نعيم في الحلية: ٢/ ٥٧؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٤٨١؛ وأخرجه مطولاً: مسلم (٢٥٤٥)؛ والحاكم: ٣/ ٥٥٣؛ والطبراني في الكبير: ٢٤/ ١٠٢ (٢٧٤، ٢٧٥).

الصحابي مقدَّم على ما سواه، وإلى رأيها ذهبَ عامةُ شرّاح الحديث والمؤرِّخين والمحققين.

ثانياً: المختار بن أبي عبيد الثقفي[1]:

●● هو المختار بن أبي عُبيد بن مسعود بن عَمْرو الثَّقَفي المتنبِّئ الكذَّاب.

وأبوه أبو عُبيد ذكره بعضهم في الصحابة، وقد شارك في فتوحات العراق في عهد أمير المؤمنين عمر، واستُشهد في العراق سنة (١٣هـ) في الوقعة التي نُسبت إليه (وقعة جِسر[2] أبي عُبيد).

أما المختار هذا فكان من كُبَراء ثَقيف وذوي الرأي والفصاحة والدَّهَاء والشجاعة، لكنه قليلُ الدين، كَذَب على الله وعلى المؤمنين؛ فادَّعى أن الوحي يأتيه وأنه يعلمُ الغيب! وهو كذَّاب أَشِر.

عن رِفَاعةَ بن شَدَّاد قال: (كنتُ أقومُ على رأسِ المُختار، فلمَّا تَبَيَّنَتْ لي كِذابتُه، هممتُ واللهِ أن أَسُلَّ سيفي فأضربَ به عنقَه، حتى ذكرتُ حديثاً حدَّثنيه عَمْرو بن الحَمِق قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**مَنْ آمَنَ رجلاً على نَفْسِه، فقَتَلَهُ، أُعْطِيَ لواءَ غَدْرٍ يومَ القيامةِ**»).

وفي رواية: عن إسماعيل السُّدِّي، عن رِفَاعةَ بنِ شَدَّاد الفِتْيَانيِّ قال: (دخلتُ على المختار، فإذا وِسَادَتانِ مَطْروحَتَانِ، فقال: يا جارية هَلُمِّي لفلانٍ وسادةً، فقلتُ: ما بالُ هاتين؟ فقال: قامَ عن إحداهما جبريلُ، وعن الأخرى ميكائيلُ! وما مَنَعَني أن أقتلَه إلا حديثٌ حدَّثني عَمْرو بن الحَمِق، قلتُ: وما

---

(١) انظر: أخباره في: تاريخ خليفة، ص٢٦٤؛ تاريخ الطبري: ٥/ ٥٦٩ ـ ٥٨٢، ٦/ ٣٨ ـ ٧٥، ٨٢ ـ ٨٥، ٩٣ ـ ١١٦؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٣٨ ـ ٥٤٤؛ البداية والنهاية: ٨/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢؛ الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٦٤٨ ـ ٦٥٦؛ الدولة الأموية، لمحمد سهيل طقوش، ص٧٣ ـ ٧٩.

(٢) هو جسر كان على نهر الفرات. انظر: معجم البلدان: ٢/ ١٤٠؛ تاريخ خليفة، ص١٢٤.

حَدَّثَكَ؟ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «**مَنِ اؤْتَمَنَه رجلٌ على دمِهِ، فقتَلَهُ، فأنَا منه بريء، وإنْ كان المقتولُ كافراً**»(١).

ومن أضاليله وافتراءاته: أنه (كان قد وُضِع له كرسيٌّ يُعظَّم، ويحفُّ به الرجال، ويُستر بالحرير، ويُحمل على البِغال، وكان يُضاهِي به تابوتَ بني إسرائيل المذكور في القرآن!)(٢).

●● وكان المختار كثيرَ التقلُّب متعدِّد الأهواء متقلِّب الولاءات، وأقبحُ أحواله وأسوأُ آرائه كذبُه على الله وادعاؤه النبوَّةَ وأن الوحي يأتيه، وكانت بداية توثُّبه في الكوفة سنة (٦٤هـ)، ونهاية أمره القتلُ في البصرة سنة (٦٧هـ)(٣).

ـ كان أول أمره ناصبيّاً خبيثاً يبغض علي بن أبي طالب رضي الله عنه بغضاً شديداً، ولمَّا دخل الحسن بن علي رضي الله عنهما المدائنَ، وكان واليها سعد بن مسعود عمُّ المختار، أشار المختار على عمه بالقبض على الحسن وتسليمه إلى معاوية رضي الله عنه(٤).

ـ ثم أَظهر مناصرةَ الحُسين بن علي رضي الله عنهما، فقبض عليه عُبيد الله بن زياد وضربه مئة جلدة وحبسه، حتى شَفَع له عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ وكان صهرَه زوجَ صفية أخت المختار ـ فأطلقه عبيد الله، وسيَّره إلى الطائف في عباءة.

---

(١) أخرجه من طرق: أحمد: ٥/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٤٣٦؛ والطيالسي (١٢٨٥) و(١٢٨٦)؛ والنسائي في الكبرى (٨٦٨٦، ٨٦٨٧، ٨٦٨٨)؛ وابن ماجه (٢٦٨٨)؛ والفسوي: ٣/ ١٩٢ ـ ١٩٣؛ واالطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣)، واللفظ له؛ وابن حبان (٥٩٨٢)، وغيرهم. وصحَّحه البوصيري؛ والألباني في صحيح ابن ماجه والصحيحة (٤٤٠)؛ وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح مشكل الآثار.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٢٩٢؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٦/ ٨٢ ـ ٨٥؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٤١ ـ ٥٤٢.

(٣) العبر في خبر من عبر: ١/ ٥٤، ٥٥، أحداث سنة (٦٦، ٦٧).

(٤) البداية والنهاية: ٨/ ٢٩٠.

ـ ولما عاذَ عبد الله بن الزبير بالبيت، خرج المختار إليه وناصره ضد بني أمية[١].

ـ وطلب من عبد الله بن الزبير أن يسيِّره إلى الكوفة ويوصي به نائبه عليها عبد الله بن مُطيع، ففعل، فسار إليها، فكان يُظهر مدحَ ابن الزبير سرّاً ويَسبُّه علانية، ويمدح محمد بن علي المعروف بابن الحَنَفيَّة.

وأعلَنَ في الناس أن (ابن الحنفيَّة) هو (المهدي ابن الوصي)! وأنه أَرسله إليهم أميناً ووزيراً لقتال الملحدين والطلب بدماء أهل البيت والدفاع عن الضعفاء[٢]. وهو في كل ذلك يكذب على محمد ابن الحَنفيَّة.

ـ واستمر في الكوفة على ذلك يُظهِر الأخذَ بثأر الحسين ليستقطب الشيعة، فما زال هكذا حتى التفَّتْ عليه جماعات كثيرة من الشيعة، واستحوذ على الكوفة، وأَخرج عاملَ ابن الزبير منها، واستقرَّ ملكُ المختار بها.

ـ وتتبَّع قَتَلَة الحسين وقتل منهم خلقاً، وظفر برؤوس كبار؛ منهم: عمر بن سعد بن أبي وقاص. ثم تصدَّى لعُبيد الله بن زياد وسيَّر له جيشاً على رأسه إبراهيم بن الأشتر، والتقوا بجيش عبيد الله وهزموه واحتزوا رأسه وأرسلوه على المختار ففرح به[٣].

ـ واستفحلَ أمرُ المختار وبسط نفوذه على شمال العراق والجزيرة، وأخذ يعدُّ العدَّة للزحف نحو الجنوب ليستولي على البصرة وينتزعها من مصعب بن الزبير واليها لأخيه عبد الله. وتبيَّن لعبد الله بن الزبير خطرُ المختار وخداعُه ومكره وسوءُ مذهبه، فانتدب أخاه مصعباً لحربه. فسار مصعب في جيش كثيف إلى الكوفة، وحاصر المختار وضَيَّق عليه حتى أمكن الله منه، فقتله واحتزَّ رأسه،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٤٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٢٩٠.

وأمر بصَلْب كفِّه على باب المسجد، وبَعث مصعب برأس المختار مع رجل من الشُّرَط على البريد إلى أخيه عبد الله بن الزبير بمكة(١).

•• وهكذا انطفأت فتنة المختار وزالت سطوته التي كانت قائمة على الافتراء على الله تعالى، وعلى الكذب والخداع والمكر والتقلُّب حسب الأهواء وحبّ السلطة ومنازعة الخليفة الأمرَ، فأراحَ الله المسلمين من شرّه، وتحققت فيه تلك النبوءة النبوية.

قيل لعبد الله بن عمر: إنَّ المختار يَزعُم أن الوحي يأتيه! فقال: صَدَق؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١](٢)!.

ثالثاً: الحجَّاج بن يوسف الثقفي:

هو الحَجَّاج بن يُوسف بن الحَكَم بن أبي عَقيل بن مسعود الثقفي أبو محمد، ولد سنة (٤١هـ) وتوفي سنة (٩٥هـ)، ولي إمرة الحجاز، ثم ولي العراق عشرين سنة، وكان من مشاهير ولاة بني أمية.

•• وتاريخ بني أمية كُتب في العهد العباسي، وقد تعرَّض للتشويه والتزوير على أيدي صنائع العباسيين والشعوبيين والشانئين للأمويين وفتوحاتهم الجليلة الواسعة.

وروى الشطرَ الأكبر من تاريخهم وأخبار دولتهم العظيمة الضعفاء والهَلْكى والمتروكون والكذّابون، من أمثال: أبي مِخْنَف لوط بن يحيى، ومحمد بن السائب الكَلْبي، وعَوَانة بن الحَكَم، والهيثم بن عَديّ، وأبي جَنَاب يحيى بن حيَّة الكَلْبي، ومحمد بن عُمر الواقِديّ. زِدْ على هذا أن قِسطاً وافراً من الأخبار مُعْضَلات ومقطوعات ومرسَلات وفيها مجهول أو مجاهيل!.

وتناقَلَ الناس والكتّاب والمؤرِّخون خَلَفاً عن سَلَف تلك الأخبارَ دونما نقد

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.
(٢) المرجع السابق: ٦/ ٢٣٧، ٨/ ٢٩١.

أو تمحيص في أغلب الأحيان، حتى غَدَتْ كأنها حقائق صادقة ومسلَّمات قاطعة، وأصبحت الصورة المرسومة لبني أمية ودولتهم مظلمةً كالحةً، تحتوي على فترات مضيئة قليلة، كبعض عهد معاوية بن أبي سفيان، وحفيده معاوية بن يزيد، وعمر بن عبد العزيز.

بل إن كثيراً من الناس المتعلّمين والمثقفين ـ دَعْ عنك العامة ـ لا يعرفون لبني أمية خيراً إلا في عهد عمر بن عبد العزيز، الذي ضُخِّم عهده كثيراً ـ عن عمد فيما نحسب ـ ونسوا فضائل بني أمية وفتوحاتهم ونشرهم للإسلام وحمايتهم لدولته العربية الإسلامية.

وفي الوقت نفسه تضاءَلَتْ في الكتابات والأذهان الحركات والمؤامرات الطائشة أو الهدامة التي أقلَقَتْ استقرارَ الدولة، ونازَعَتْ أولياءَ الأمر سلطانَهم وحكمهم، وتسبَّبَتْ في إراقة كثير من الدماء وإيقاف مدِّ حركة الفتوحات ونشر الإسلام، وانعكست تلك المساوئ ـ عن قصدٍ أو غفلةٍ ـ على صورة الدولة الأموية في العقول والصدور والسطور!.

ولم تصدر حتى الآن ـ فيما اطَّلعتُ وقرأتُ ـ دراسة جادَّة مدقِّقة ناقِدة محقِّقة منصِفة للعهد الأموي وخلفائه وولاته وأعمالهم ودولتهم؛ ترجع إلى كتب السنَّة وتستخرجُ ما فيها من كنوز حديثية عن أخبار الخلفاء والأمراء الأمويين ومواقفهم، وتستوعبُ كُتب التواريخ المتقدّمة وبخاصة ما كان قريبَ العهد بزمان الأمويين، وتُغربل أخبارها، وتدرس ذلك بحيدة وإنصاف، في ضوء الأحداث التي جَرَتْ في تلك الأيام، وما احتفَّ بها من ملابسات ومؤامرات وخروقات وطَيْش وعوامل مؤثّرة خارجية وداخلية.

وما كُتب غالبه تكرار للمدوَّنات التاريخية بأسلوب جديد وتبويب واستنتاج عبر ودروس، وقد يكون مبنيّاً عن نظرة مسبقة عن الأمويين!.

●● نقول هذا بين يدي الكلام على أحد مشاهير أمراء العهد الأموي، الذي

أُلصِقتْ به كل مساوئ الأمراء والقادة، حتى إنهم إذا أرادوا تقبيحَ أفعال أحد طغاة عصرنا؛ شَبَّهوه بالحَجَّاج!.

ولستُ في معرض الدفاع عن الحجاج أو تزكيته، ولا غرضَ لي في ذلك، فَضْلاً عن أنه ليس بالأمر الهيِّن أو الممكن في هذه العُجالة؛ فهو موضوع ضخم يستدعي بحثاً وتنقيباً واستفاضةً في تتبُّع الأحداث والأخبار والمرويات، وعَرْضَها على ميزان الإنصاف في القبول والردّ.

وأيضاً فإن مَن يحاولُ الدفاعَ عنه يقع في دائرة الاتهام من الخاص والعام، وكأنه خالَفَ سيرورةَ التاريخ وحقائقَهُ الراسخة!.

والمتأمِّلُ لِما ساقه الذهبي[١] ـ مثلاً في تاريخه ـ يجد أخباراً متناقضة ذات اليمين وذات الشمال: فبعضُها يصفه بالإنصاف، والحرص على سماع النصيحة، والوقوف عند حدود الله إذا ذُكِّر بآياته، والعدل والصَّفْح عن الصادقين. في حين تجد أخباراً أخرى تُخرِجه من دائرة الإيمان! وقد سكتَ الذهبي ـ وهو الإمام النقاد ـ عن هذه الأخبار، وفي أسانيدها المتروك والكذّاب والضعيف والهالك! لا أدري لماذا؟!.

والذهبي نفسه قد أورد في «سير أعلام النبلاء» ترجمة الحجَّاج في أقل من صفحة، ولم يستطع أن يُنكِر صفاته الجميلة، بل إنك لتجد التناقضَ في كلامه خلال ثلاثة أسطر متوالية، قال رحمه الله تعالى: (كان ظَلوماً، جبَّاراً، ناصِبيّاً خَبيثاً، سفَّاكاً للدماء. وكان ذا شجاعةٍ وإقدامٍ، ومَكْرٍ ودهاءٍ، وفصاحةٍ وبلاغةٍ، وتعظيمٍ للقرآن!)[٢].

---

(١) إنما ذكرت الإمام الذهبيَّ؛ لأنه من صفوة المؤرخين وأكابر حفاظ الحديث وجهابذة النقاد، أما المؤرخون الذين يُورِدون الطامَّات أَوْ لا يدرون ما يَسْطُرون في كتبهم، فليس لنا معهم حديث هنا!.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/٣٤٣.

وللمرء أن يتساءل: كيف يكون معظِّماً للقرآن، وهو في الوقت نفسه ظَلومٌ جبَّار سفّاك للدماء؟! فأيُّ تعظيمٍ للقرآن يَلتئم مع تلك الصفات المُهلِكة؟!.

●● ولسنا نشكُّ ولا نرتابُ في أن الحجاج كان فيه عَسْف وظُلم، كما أن في سيفه رَهَقاً، وفي أمره عجلةً!.

لكننا كذلك لا يصحّ منّا في شِرْعةِ الإنصاف وميزانِ النقد للروايات والأحداث؛ أن نُحمِّلَه كلَّ أوزارِ تلك الحروب التي نشبت، والدماء التي سُفكت، والأرواح التي أُزْهِقت.

ومن أخطائه الكبيرة التي سوَّدتْ تاريخه ولوَّثَتْ سيرته؛ جرأتُه على بيت الله الحرام وضربُه الكعبةَ المعظَّمة ـ زادَها الله تشريفاً وتعظيماً ـ بالمِنْجنيق، فهذا مما لا يرضاه مسلم بحال، والحجَّاج اجتهدَ في ذلك لِيُنهي مناوأةَ عبد الله بن الزبير للأمويين، وأمره في ذلك متروك إلى الله.

١ ـ الحجاج وعبد الله بن الزبير:

●● عبد الله بن الزبير بن العوام[(١)]، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم جميعاً.

ولد سنة (١هـ)، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة المنورة.

صحابي جليل من صغار الصحابة، ومن أكابر العلماء مع الشرف والجهاد والعبادة. كان صوَّاماً قوَّاماً من أحسن الناس صلاة، كان إذا قام إلى الصلاة كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك، وإذا سجد وقعتِ العصافير على ظهرِه تصعد وتنزل لا تراه إلا جِذْمَ حائط[(٢)]! ولقد رُئي يوم حاصَرَه الحجاج والمِنْجَنيق يصبّ أحجاره، وهو يصلي ولا يلتفت!.

●● بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان بايع المسلمون ابنَه يزيد بن معاوية،

---

(١) انظر: ترجمته في: سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٦٣ ـ ٣٨٠، وفي هامشه مصادر ترجمته:

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٣٣٣، وجِذْم الحائط: بَقيَّتُه.

وبايعه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعامة الصحابة، ورفض عبد الله بن الزبير البيعة، فنصحه ابن عمر بعدم مخالفة المسلمين، وحاول إقناعه ببيعة يزيد، ونهاه عن إثارة الفتنة والخروج على خلافة يزيد، فأبى ذلك.

وليتَ ابن الزبير أطاع ابن عمر؛ فلقد كان ناصحاً أميناً بعيد النظر.

وكان ابن الزبير بعد موت معاوية قد نزل مكة وعاذَ بالبيت الحرام، ولمَّا امتنع من البيعة ليزيد، جهَّز يزيدُ إليه الجيوش مرة بعد أخرى، ومات يزيد وجيوشه محاصرون ابنَ الزبير.

وعند موت يزيد دعا ابن الزبير لنفسه، ودعا ابنَ عباس وابنَ الحنَفيَّة إلى بيعته، فامتنعا وقالا: حتى يجتمع لك الناس، فداراهما سنتين ثم أَغْلَظ لهما ودعاهما، فأبَيَا[١].

وكذلك طلب من ابن عمر أن يبايع له، فرفض ابن عمر البيعة وقال: لا أعطي صفقةَ يميني في فُرقة ولا أَمنعُها في جماعة[٢].

وبايَعَه الناس بالخلافة، وحَكَم على الحجاز ومصر والعراق وخُراسان وبعض الشام، ولم يَسْتَوسِق له الأمر، ومن ثَمَّ لم يَعُدَّه كثير من العلماء ـ وحَسْبك ابن عمر وابن عباس وابن الحنفيَّة ـ في أمراء المؤمنين، وعَدُّوا دولتَه زمنَ فُرقةٍ، فإن مروان بن الحَكَم غَلب على الشام ثم مصر، وقام عند مصرعه ابنُه عبد الملك بن مروان، وحارب ابنَ الزبير، وقُتل ابنُ الزبير رحمه الله، فاستقلَّ بالخلافة عبد الملك وآلُه، واسْتَوسَقَ لهم الأمر[٣].

●● لم يبقَ مع ابن الزبير إلا الحجاز واليمن، فجهَّز عبدُ الملك الحجَّاجَ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٧٢.
(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٣٥٢؛ الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٦٢٦.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٦٤.

لحرب ابن الزبير، فسار الحجاج إلى مكة وحاصره في سنة اثنتين وسبعين إلى أن قَتل عبدَ الله بن الزبير في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين[١].

عن المنذر بن جَهْم قال: (رأيتُ ابنَ الزبير يوم قُتل وقد خَذَلَه مَنْ كان معه خِذْلاناً شديداً، وجعلوا يتسلَّلون إلى الحَجَّاج، وجعل الحجَّاج يصيحُ: أيها الناس! علامَ تَقْتُلون أنفسَكم؟! مَن خرج إلينا فهو آمِن، لكُم عهدُ الله وميثاقُه وربِّ هذه البَنِيَّة، لا أَغْدِرُ بكم، ولا لنا حاجةٌ في دمائكم!.

قال: فتسلَّل إليه نحوٌ من عشرة آلاف، فلقد رأيتُ ابنَ الزبير وما معه أحد!)[٢].

وما زال أهلُ مكة يخرجون إلى الحجَّاج بالأَمَان ويتركون ابنَ الزبير، وقلَّ أصحابهُ جدّاً، حتى خرج إلى الحجاج حمزةُ وخُبيب ابنا عبد الله بن الزبير، فأخذا لأنفسِهما أماناً من الحجاج، فأمَّنَهما[٣]!.

ونَصَب الحجاج المِنْجَنيق على (جبل أبي قُبَيْس)[٤] ليرمي به الكعبة، وقد عاذَ بها ابنُ الزبير، وأَمَّن الناس وقال: إنَّا لم نأتِ لقتال أحد سوى ابن الزبير. وخيَّر ابنَ الزبير بين ثلاث: إما أن يذهب في الأرض حيث شاء، أو يبعثه إلى الشام مقيداً بالحديد، أو يقاتل.. فاختار القتال[٥].

وبدأ الحجاج بضربِ الحرم بالمِنجنيق، وتوسَّط بعضُ أعيان مكة وعلى رأسهم عبد الله بن عمر لدى الحجاج طالبين إليه أن يَكفَّ عن استعمال المنجنيق، فأجابهم: والله إني لكارهٌ لِما ترون، ولكنْ ماذا أصنَعُ وقد لجأ هذا إلى البيت؟!.

---

(١) الفتح: ١٦/ ٥٨٩، كتاب الأحكام، (٤٣ ـ باب كيفَ يُبايع الإمامُ الناسَ).
(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٧٧. ورب هذه البنية: أي ورب الكعبة.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٣٣٠.
(٤) هو الجبل المشرف على الكعبة المشرفة من مطلع الشمس، وهو اليوم مكسو بالبنيان.
(٥) البداية والنهاية: ٨/ ٣٤١.

وتوقّف ضربُ المنجنيق حتى قضى الناس حَجَّهم، وحاول كثير ممن كانوا مع ابن الزبير إقناعه بقبول أمان الحجاج، فلم يفلحوا!.

ثم استؤنف القتال، ووقعت شُرْفة من شُرُفات المسجد على رأس عبد الله فصرعَتْه، وتعاونوا عليه وقتلوه رضي الله عنه(١).

وقد ابتدأ حصار ابن الزبير ليلةَ هلال ذي الحجة سنة (٧٢هـ)، وقُتل لسبع عشرة ليلة خَلَتْ من جمادى الأولى سنة (٧٣هـ)، فكان حصرُ الحجاج له خمسةَ أشهر وسبعَ عشرة ليلة(٢).

●● عن أبي الصِّدِّيق النَّاجِيّ: (أنَّ الحَجَّاج بنَ يوسف دخلَ على أسماءَ بنتِ أبي بكر، بعدما قَتَل ابنَها عبد الله بن الزبير، فقال: إنَّ ابنكِ أَلْحَدَ في هذا البيت، وإنَّ الله ﷻ أذاقَهُ من عذابٍ أليم، وفَعَل به ما فَعَل! فقالت: كَذَبْتَ، كان برّاً بالوالدين، صوَّاماً، قوَّاماً، واللهِ لقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنه سيخرجُ من ثَقيفٍ كذّابان الآخَر منهما شرٌّ من الأوَّل، وهو مُبِير)(٣).

وفي رواية عن أسماء: أنها قالت: (أمَا إنَّ رسول الله ﷺ حدَّثَنا: «**أنَّ في ثَقيفٍ كذَّاباً ومُبِيراً**»، فأمّا الكذَّاب فرأَيْنَاه، وأمَّا المُبِيرُ فلا إخالُكَ إلَّا إيَّاه! فقامَ عنها ولم يراجِعْها)(٤).

●● ولقد أخطأ ابن الزبير في خروجه على الدولة الأموية واعتصامه بمكة ولجوئه إلى البيت، ويقع عليه تبعةُ قسم كبير مما حدث في حصار مكة(٥)! وقد كان كبار الصحابة ينهونه عن خروجه ولجوئه إلى البيت.

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٣٧٦؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٧٧؛ الدولة الأموية، للصلابي: ١/ ٦٦٩ ـ ٦٧٠.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٣٢٩؛ وانظر: طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٥٥.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد: ٦/ ٣٥١؛ وابن سعد ٨/ ٢٥٤؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة: ٧/ ١٤٩٠ (٣٥٣٨)؛ وانظر: تتمة تخريجه في صدر هذه النبوءة، حاشية (٢).

(٤) صحيح مسلم (٢٥٤٥).

(٥) انظر: الدولة الأموية، للخضري بك، ص٣٢٩.

عن أبي نَوْفَل بن أبي عَقْرب البَكْري قال: (رأيتُ عبدَ الله بن الزبير على عَقَبَةِ المدينة[1]، فجعلتْ قريشٌ تمرُّ عليه والناسُ، حتى مرَّ عليه عبد الله بن عُمر، فوقفَ عليه [عبد الله] فقال: السلامُ عليكَ أبا خُبيبٍ، السلام عليك أبا خُبيب، السلام عليك أبا خُبيب! أَمَا واللهِ لقد كنتُ أَنْهَاكَ عن هذا، أمَا واللهِ لقد كنتُ أنهاكَ عن هذا، أَمَا والله لقد كنتُ أنهاكَ عن هذا! أَمَا واللهِ إنْ كنتَ ما علمتُ: صوَّاماً قوَّاماً وَصُولاً للرَّحِم!)[2].

وعن إسحاق بن سعيد، عن سعيد بن عَمْرو قال: (أَتى عبدُ الله بن عَمْرو ابنَ الزبير وهو جالسٌ في الحِجْر، فقال: يا ابنَ الزبير إيَّاك والإلحادَ في حَرَمِ الله؛ فإنِّي أَشهد لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يُحِلُّها ويَحِلُّ به رجلٌ من قريشٍ، لو وُزِنَتْ ذُنوبُه بذنوب الثَّقَلَيْن لَوَزَنَتْها**»! قال: فانظرْ أن لا تكون هوَ يا ابنَ عَمْرو؛ فإنكَ قد قرأتَ الكُتب وصحبتَ الرسولَ ﷺ! قال: فإنِّي أُشْهِدُك أنَّ هذا وجهِي إلى الشام مجاهداً)[3].

والذهبيُّ رحمه الله، مع شدَّته على عبد الملك والحجاج، يقول في تعليقه على مقتل ابن الزبير: (فليتَه كَفَّ عن القتال لمَّا رأى الغَلَبَة، بل ليتَه لا التجأ إلى البيت!)[4].

٢ ـ الحجّاج وفتنة ابن الأشعث:

في سنة (٨٠هـ) بعث الحجاجُ عبدَ الرحمن بن محمد بن الأَشْعث بن قَيْس الكِنْدي إلى (سِجِسْتانَ) في جيش كثيف؛ لتأديب ملكها (رُتْبيل) الذي كان يُقلِق

---

(١) هي عقبة بمكة، رأى فيها ابن الزبير مصلوباً على خشبة.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٤٥).

(٣) أخرجه أحمد: ٢/ ١٣٦، ١٩٦، ٢١٩؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٢٦؛ وصحَّحه الألباني على شرط الشيخين في الصحيحة (٢٤٦٢) و (٣١٠٨)؛ وذكره الذهبي في السير: ٣/ ٣٧٦؛ وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٧٧.

أمنَ الدولة الأموية. وبعد أن تمَّ لابن الأشعث ما أُرسل إليه، وراسَلَ الحجاجَ بالفتوح وبيان رأيه في التوغل في أراضي رُتْبيل على مراحل، فاختَلَف مع الحجاج في ذلك، وخرج عليه وخَلَعه !ثم توجَّه بجيشه إلى العراق لخلع الحجاج، وانضمَّ إليه وهو في طريقه إلى العراق خلق كثير، وأصبح يهدد استقرار الدولة.

ونَصحه المُهَلَّب بن أبي صُفرة ونهاه عن خروجه فأبى، ثم تمادى به الأمر فخلع أمير المؤمنين عبد الملك، فتصدى له الحجاج في معارك كثيرة، انتصر ابن الأشعث في أكثرها حتى دخل البصرة، وانضمت إليه جموع من أهلها.. وتمكَّنت فِرقة من فِرق الحجاج من إلحاق الهزيمة بإحدى فرق ابن الأشعث، فاستغلَّ الحجاج الفرصة وكثَّفَ الهجوم، فتراجع ابن الأشعث إلى الكوفة تاركاً البصرة.

وكثُرت الوقائع بين الطرفين، وكانت خاتمتها في(دير الجماجم) حيث حلَّت الهزيمة بابن الأشعث في جمادى الآخرة سنة (٨٣هـ)، وهُزم وولى هارباً إلى سِجِسْتان واصطلح مع رُتْبيل ملك الترك!.

وسعى الحجاج إلى القبض على ابن الأشعث، وهدَّد رُتْبيلَ إن لم يسلمه إليه، فأُخذ ابن الأشعث، فلما أحسَّ أنه سيُسلَّم إلى الحجاج ألقى بنفسه من فوق القصر الذي كان ينزل فيه، فمات سنة (٨٤هـ)!.

وقُتل في هذه الفتنة خلق كثير من الطرفين، منهم جماعة من العلماء من أشهرهم سعيد بن جُبير الذي قتله الحجاج، وكان قد عَفَا عنه، لكنه لمَّا سأله عن خروجه مع ابن الأشعث، قال سعيد: بيعةٌ له في عنقي! فاغتاظَ الحجاج لذلك وأَنكَر عليه قولَه ونَكْثَه ببيعته لأمير المؤمنين عبد الملك وخروجَه على سلطان الخلافة، فقتله رَحِمَهُ اللهُ[(١)].

---

(١) انظر: أخبار فتنة ابن الأشعث في: تاريخ خليفة، ص٢٨٠ ـ ٢٨٩؛ تاريخ الطبري: ٦/ ٣٣٤ ـ ٣٩٣.

٣ ـ الحجّاج مع الخوارج:

وكَثُرت فِرق الخوارج الذين أقلَقُوا استقرار الدولة الأموية، وكان من جملتهم الخوارج (الصُّفْرِية) الذين ابتدأت فتنتهم من المَوْصل وامتدت إلى الكوفة، واستفحل أمرهم، وحاولوا قتلَ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان في موسم الحج، فباءت محاولتهم بالفشل.

وقد تصدى لهم الحجاج وضَيَّق عليهم، وجرتْ بينه وبينهم عدة وقائع، قاد الحجاج بعضها بنفسه، وفي النهاية هزمهم وقضى على فتنتهم.

●● **هذه أكبر الأحداث وأشهر الفتن التي واجه الحجاج فيها خصوم الدولة الأموية، وقد أسرف الإخباريون في تضخيم عدد الأنفس التي أزهقت في تلك المواجهات.** ووضعوا الوِزْر على الحجاج وحده، وألقوا الكلام جزافاً بلا خِطام ولا زِمام، ووَصَمُوه بفعل القبائح والمناكر والتعدي على حرمات الله تعالى!.

فذكروا أنه قتل (مئة وعشرين ألف نفس صبراً)، وأنه مات وفي سجنه (ثمانون ألفاً منهم ثلاثون ألف امرأة)، وأنه ما بقيتْ لله حُرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج[1]! إلى غير ذلك من مثل هذا الكلام القائم القاعد.

نقول: عندما حاصر الحجاج عبدَ الله بن الزبير، خرج إليه أهل مكة في زُهاء عشرة آلاف فعفا عنهم، بل إن ولدَي ابن الزبير ـ خصمه الذي يحاربه ـ خرجا إليه، فصفح عنهما! فأين سيفُ الحجاج السفَّاك للدماء وهو يعفو عن خصومه في أتُون المعركة، ولِمَ لَمْ يقتلهم؟! لقد قال: ما فعلتُ ذلك إلا مُكْرَهاً، ولا نريد إلا ابن الزبير، بل إنه قد أعطاه الأمان لو أنه ترك القتال.

ثم إن الحجاج توقف عن القتال في أيام الحج حتى قضَى الناس مناسكهم،

---

(١) سنن الترمذي، عقب الحديث (٢٢٢٠)؛ تاريخ الطبري: ٦/ ٣٨١ ـ ٣٨٢؛ تاريخ الإسلام «حوادث سنة ٨١ ـ ١٠٠هـ»، ص٣٢٣ ـ ٣٢٤؛ البداية والنهاية: ٦/ ٢٣٨.

فهو في ذلك يعظِّم حُرمات الله، ويعظِّم الدماء، فكيف يُقبل قول ذاك القائل بأن الحجاج ما ترك حُرمة لله إلا انتهكها؟!.

وهؤلاء الذين خرجوا على سلطان الخلافة كابن الأشعث وأتباعه، ما الحيلةُ معهم؟! أفَيُترك الحَبْل على الغارب لكل طائش أو صاحب نَزْوة ليهزَّ سيفه ويهدِّد أمن الأمة ويخرج على خليفة المسلمين الذي بايعه خيار الصحابة! ثم تراه بعد أن هُزم وفُلَّ جمعُه يلجأ إلى (رُتْبيل) ملك الترك!.

والخوارج الذين أساؤوا للإسلام وللأمة من يوم خروجهم على أمير المؤمنين علي، وقد أمر النبي ﷺ بقتالهم وقَتْلهم ووصَفَهم بأنهم كلابُ النار - قد حاربهم كثيرون ممَّن كان قبل الحجاج، فلماذا يُلام هو وحده على قتالهم وقتلهم؟!.

وبكلِّ حال فإن الأنفُسَ التي قتلها الحجاج بحقّ وبغيرِ حق لا يبلغ عُشْر مِعشار ما ذكره ضعفاء الإخباريين.

وإن هذا التضخيمَ لعدد القتلى، واتهامَ الحجَّاج بذاك المسلك الشائن في انتهاك حرمات الله، فلا يترك منها حُرمة إلا انتهكها، ليس المقصود منه الإساءة للحجَّاج وحده، بل الإساءة للإسلام والمسلمين والخلفاء ودولة الإسلام!.

إنها تنقل صورة عن خلفاء المسلمين وأمرائهم بأنهم سفّاكون للدماء، قامعون للحريات، منتهكون للحرمات، عابثون بشعائر الإسلام ومصاير المسلمين! وهذه الدولة العظيمة (الدولة الأموية) التي حَمَت الإسلام ورفعتْ رايته ونشرت رسالته وأوصلَتْ دعوة الله إلى المشارق والمغارب - كانت قائمةً على أمثالِ هذا (الحجاج)!.

وأكرِّر ما ذكرتُه من قبلُ أنه لايَعنيني الدفاعُ عن الحجاج، ولا تهمُّني مناصرة هذا الرجل أو ذاك، لكنني لا أَقبل الاستسلام لكل ما يُروى؛ بل أعرضه على ميزان البحث والنقد والعقل والواقع، وأُقايسه بالمسيرة الإجمالية للخلفاء والدولة، وأقابله بأغراض الثائرين والخارجين، وأهواء الكاتبين، ووَزْن الرواة

الناقلين؛ لأخرجَ من ذلك كله بصورة هي أقرب ـ فيما أحسب ـ للحق والإنصاف.

والحجَّاج مع ما كان فيه من عَسْف، وما في سيفه من استعجال، فإنه لا يتحمل وحده وِزْر كل تلك المآسي، كما أنه لا يَبوءُ بإثم كل تلك الدماء النازفة، وإنما يتحمل خصومُ (دولة الخلافة) القسمَ الأكبر من تبعة هذا وذاك.

رابعاً: وقفات وعبر:

وألمح في النهاية إلى إلماعات موجزة ومعبِّرة عن بعض دروس وفوائد هذه النبوءة:

١ ـ وحدة الكلمة خير، والجماعة قوة، وفيهما الخير والبركة والعزّ والتمكين للإسلام والمسلمين. والخلاف شر، والفُرقة بلاء؛ يولِّدان المآسي والنكبات، ويتسبَّبان في إزهاق الأنفس، وإضعاف الدولة، وطمع الأعداء، وتوقف حركة الفتوحات، ونشر رسالة الإسلام.

٢ ـ ينبغي الإصغاءُ لرأي الأكابر والناصحين المخلصين، من ذوي التجربة الطويلة والرأي السديد والإخلاص في النصح والغَيْرة على مصالح الدين والعباد والبلاد.

٣ ـ يجب التغلُّب على حظوظ النفس وتعاهدُها المستمر بالتهذيب والتأديب، والنظرُ إلى المصالح العامة الكبرى للإسلام والمسلمين، وإيقاظُ النفس اللوامة، واستحضارُ العقل النقاد للتبصر بعواقب الأمور والنتائج المحتملة للأعمال.

٤ ـ الادِّكار بتجارب السابقين، والنظر المتفحص للتاريخ وحركات المعارضة والثائرين، وأهدافها وبرامجها، ثم ما جرَّتْه على الأمة من ويلات وشرور.

٥ ـ التروّي والتفحص لِما نقرأ ونسمع ونشاهد، وعدمُ الاستسلام لكل ما يقال أو يُقرأ أو يُسمع، وبخاصة عند الفتن واشتباك الأحداث، وتضارب

الأهواء والروايات، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٦ ـ وَضْعُ ميزانٍ دقيق منصِف نَزِنُ به الأشخاص والأفكار والأحداث والأعمال، لا يَدفعنا الهوى، ولا يُعمينا الحب، ولا يَجْتالُنا البُغض عن قول الحق وإنصاف الخصم، وعدم الانسياق وراء العواطف والشهوات، حتى لا يضطرب الميزان.

إن الأكابر لهم فضائلهم وكراماتهم وجلالتهم، لكن لا يجوز لنا أن نَجْبُن عن الصدع بكلمة الحق فيهم إذا زَلُّوا أو أخطؤوا أو أساؤوا، فإذا فعلنا فقد أسأنا إلى الحقيقة وظلمناها، وإنما يُعرف الرجال بالحق.

٧ ـ يجب على كل امرئٍ أن لا يُسْلِم قيادَه لكل مدَّعٍ، وأن لا يَنساق وراء الهالات والشعارات والعناوين الكبيرة البراقة، حتى يَبْلُوها ويَسْبُر غَورها، ففي نهاية المطاف المسؤولية أمام الله تعالى فردية ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

٨ ـ يجب على كل مَن يكتب ـ وبخاصة في التاريخ ـ أن يتفطن للغُثاء الكثير في مدوَّناتنا التاريخية، وإلى الكيد الذي لا ينقطع في عصرنا، فالهجوم كبير وشرسٌ وحانقٌ على دول الخلافة الإسلامية، فإنه لم يَسْلم منذ عصر الخلفاء الراشدين، فكيف بتاريخ عبد الملك بن مروان والحجَّاج؟!.

٩ ـ حركات الخروج والتمرُّد والثورات والخروقات في تاريخنا الممتد، سواء من كان منها مخلِصاً صادقاً ذا هدف نبيل، أو خبيثاً حاقداً ـ أَضَرَّت بالأمة الإسلامية، وأحدثت فيها جروحاً كثيرة غائرة، وأسالت دماء غزيرة.

فينبغي الاتعاظ بذلك في كل لحظة وكل خطوة، وتوجيه الطاقات وحشدها متحدة نحو العدو الخارجي.. أما في الداخل فبالنصح والإصلاح، والتربية والإعداد، والحجة والبيان والبرهان، والله يتولى الصالحين.

❊ ❊ ❊

إخبار النبي ﷺ
بظهور القدَرية والمرجئة

١ ـ عن نافع قال: (كان لابنِ عُمر صديقٌ من أهل الشام يُكاتبه، فكَتَب إليه عبد الله بن عمر: إنَّه بلغني أنَّك تكلَّمْتَ في شيءٍ من القدَر، فإيَّاكَ أن تكتبَ إليَّ، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّه سيكونُ في أمتي أقوامٌ يُكَذِّبونَ بالقَدَر**»)(١).

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُخِّرَ الكلامُ في القَدَرِ لشِرارِ أُمَّتي في آخرِ الزَّمانِ**»(٢).

٣ ـ وعن أبي أُمَامَة الباهِليِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أخوفَ ما أخافُ على أمتي في آخرِ زمانِها: النُّجومُ، وتكذيبٌ بالقَدَرِ، وحَيْفُ السُّلطان**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١٣) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٩٠؛ والحاكم: ١/ ٨٤؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود وحسَّنه في صحيح الجامع (٣٦٦٩).
وأخرجه بنحوه: الترمذي (٢١٥٢) وقال: حسن صحيح غريب؛ وابن ماجه (٤٠٦١)؛ وأحمد: ٢/ ١٠٨، ١٣٦ ـ ١٣٧؛ والبغوي (٨٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣٥٠)؛ وابن الأعرابي في المعجم: ١/ ٣، ٢/ ٣٧؛ والدولابي في الكنى: ٢/ ٣٨؛ والعقيلي في الضعفاء: ٣/ ٣٦٦ ترجمة (١٤٠٣)؛ والحاكم: ٢/ ٤٧٣، وغيرهم؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٦) والصحيحة (١١٢٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة؛ وأخرجه الداني (٢٨٢) عن طلحة بن مُصَرِّف ولم يذكر الصحابي؛ وصحَّحه الألباني بشواهده من حديث أنس وأبي الدرداء وأبي مِحْجَن، انظر: الصحيحة (١١٢٧)، وصحيح الجامع (١٥٥٣).

٤ ـ وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يزالُ أمرُ هذه الأمةِ مُوائِماً ـ أو مقارِباً ـ ما لَمْ يَتَكَلَّمُوا في الوِلْدان والقَدَرِ»**(١).

٥ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صِنْفان من أمَّتي لايَرِدانِ عَلَيَّ الحوضَ ولا يَدْخُلانِ الجَنَّة: القَدَرِيَّةُ والمُرْجِئَةُ»**.

رواه أيضاً: عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه أبي ليلى الأنصاري رضي الله عنه مرفوعاً(٢).

❁ ❁ ❁

أولاً: تبيان وتوضيح للأحاديث والمقصود بالطائفتين:

١ ـ القدَر والقدرية:

●● **القَدَرُ**: معناه: أن الله تبارك وتعالى قدَّر الأشياء في القِدَم، وعَلِم سبحانه أنها ستقع في أوقاتٍ معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفاتٍ مخصوصةٍ، فهي تقع على حسب ما قدَّرَها سبحانه وتعالى(٣).

فكلُّ مُحْدَث صادرٌ عن علمه وقدرته وإرادته، وكلُّ شيء لا يَقع في الوجود إلا وقد سَبَق به علمُ الله ومشيئتُه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

---

(١) أخرجه البزار (٢١٨٠)؛ والطبراني في الكبير (١٢٧٦٤)؛ وابن حبان (٦٧٢٤)؛ والحاكم: ١/ ٣٣؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على ابن حبان؛ والألباني في الصحيحة (١٥١٥) و (١٦٧٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ١/ ٢٥٣/ ١ عن أنس؛ وأخرجه عن أبي ليلى الأنصاري: ابن أبي عاصم في السنة (٩٤٩)؛ والطبري في تهذيب الآثار: ٢/ ١٨٠ (١٤٧٢)؛ واللالكائي في شرح السنة: ٤/ ١٤٢ (١١٥٧)؛ والعقيلي في الضعفاء: ٢/ ١٢٣ ترجمة (٦٠٢). والحديث كان الألباني ضعفه فذكره في الضعيفة (٣٧٨٥) وضعيف الجامع (٣٤٩٧)، ثم تراجع وصحَّحه في الصحيحة (٢٧٤٨)؛ والسنة، لابن عاصم (٩٤٩)، قال الهيثمي في (المجمع: ٧/ ٢٠٧): رجاله رجال الصحيح.

(٣) شرح مسلم، للنووي: ١/ ١٩٠، فاتحة كتاب الإيمان.

هذا هو المعلومُ من الدين بالبراهين القطعية، وعليه كان السَّلف من الصحابة وخيار التابعين.

والإيمانُ بالقَدرَ من أركان الإيمان، ومذهبُ السلف قاطبةً أن الأمور كلَّها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١][١].

●● وفي العهد النبوي وقع اختصامٌ بين الصحابة في شيءٍ من القدر، فنَهاهم النبي ﷺ عن ذلك أشدَّ النهي؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ ونحنُ نَتنازَعُ في القَدَر، فَغَضِب حتى احمرَّ وجْهُه، كأنَّما فُقِئَ في وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فقال: «**أَبِهذا أُمِرْتُم، أمْ بهذا أُرْسِلْت إليكم؟! إنّما هَلَكَ مَن كان قَبْلَكم حين تنازَعُوا في هذا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَليكم عزمتُ عليكم ألَّا تَتنازَعُوا فيه**»)[٢].

ذلك لأن سبيلَ معرفةِ هذا الباب التوقيفُ من الكتاب والسنَّة، دونَ مَحْضِ القياس والعقل، فمن عَدَل عن التوقيف فيه ضَلَّ وتاهَ في بحار الحَيْرة[٣].

وقد ربَّى النبي ﷺ أصحابه على التسليم لأمر الله والوحي الأعلى، وحذَّرَهم من الدخول فيما لا مجالَ للعقل فيه؛ حفظاً له وَصَوْناً لطاقته لتعملَ في ميادينها دون الخوض في متاهات التخمين والتخرُّص والرَّجْم بالظن.

وأكَّد ﷺ ذلك بالنصح لهم وللأمة؛ فأخبرهم بمجيء طائفة من الناس يتخوَّضُون في أمر القدَر حتى يتمادى بهم الحال إلى نَفْيه والتكذيب به، فوصَفَهم بأنهم من شرار الأمة، بل شبَّهَهم بالمجوس تقبيحاً لفعلهم وتنفيراً للمؤمنين من مسلكهم وبدعتهم!.

---

(١) الفتح: ١/ ٢٣٧ شرح الحديث (٥٠)، ١٥/ ٦ ـ ٧، أول كتاب القدر.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٣٣) وحسَّنه الألباني. وأخرجه من حديث عبد الله بن عَمْرو: أحمد: ٢/ ١٧٨، ١٩٥ ـ ١٩٦؛ وابن ماجه (٨٥) وقال الألباني في صحيحها: حسن صحيح.

(٣) الفتح: ١٥/ ٦.

فقال ﷺ: «**أُخِّرَ الكلامُ في القَدَر لشرارِ أمَّتي في آخرِ الزمان**».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**القَدَرِيَّةُ مجوسُ هذه الأمة، إنْ مَرِضُوا فلا تَعُودُوهم، وإنْ ماتوا فلا تَشْهَدُوهم**»[1].

●● والقدريَّة يزعمون أن الله سبحانه لم يقدِّر الأشياء في القِدَم، ولم يتقدَّمْ علمُه تعالى بها، وأنها مُسْتَأْنَفَةُ العلمِ، أي إنما يَعلمُها سبحانه بعد وقوعها، وكَذَبوا على الله تعالى وجلَّ عن أقوالهم الباطلة علوّاً كبيراً، وسُمِّيتْ هذه الفِرقة (قدَرية) لإنكارِهم القَدَر.

قال أصحاب المقالات من المتكلِّمين: وقد انقرضَت القدريةُ القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبقَ أحدٌ من أهل القِبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخِّرة تعتقدُ إثباتَ القدر، ولكنْ يقولون: الخيرُ من الله والشر من غيره. تعالى الله عن قولهم[2].

فهم يقولون: الخيرُ من الله، والشرُّ من الإنسان، وإنَّ الله لا يريد أفعالَ العُصاة. وسُمُّوا بذلك لأنهم أَثْبَتوا للعبد قدرةً توجِد الفعلَ بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى[3].

وجاء وصفُهم في الحديث بأنهم «**مجوسُ هذه الأمة**»، وذلك لمشابهتهم المجوسَ في مذهبهم وقولِهم بالأصلَيْن وهما: النُّور والظُّلْمة، فإن المجوس يَزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظُّلْمة، فصاروا بذلك (ثَنَوِيَّة)،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٨٦، ١٢٥؛ والحاكم: ١/ ٨٥؛ والآجري في الشريعة، ص١٩٠؛ وحسَّنه الألباني بطرقه في صحيح أبي دواد: ٣/ ٨٨٧؛ والمشكاة (١٠٧)؛ وصحيح الجامع (٤٤٤٢). وأخرجه من حديث جابر: ابن ماجه (٩٢)؛ وابن أبي عاصم في السنة (٣٢٨)، وحسَّنه الألباني، وهو شاهد لحديث ابن عمر.

(٢) شرح مسلم، للنووي: ١/ ١٩٠.

(٣) جامع الأصول: ١٠/ ١٢٨.

وكذلك القدرية لمَّا أضافوا الخيرَ إلى الله، والشرَّ إلى العبيد؛ أَثْبَتوا قادِرَيْنِ خالِقَيْنِ للأفعال، كما أثبتَ المجوس، فأَشْبَهُوهم.

ومذهبُ أهلِ الحق: أن الله تعالى خالقُ الخير والشر، لا يكون شيءٌ منهما إلا بخَلْقِه ومشيئته، فالأمران معاً مضافانِ إليه خَلْقاً وإيجاداً، وإلى الفاعِلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً[(١)].

عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**كَتَبَ اللهُ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يَخْلُقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ. قال: وعَرْشُه على الماء**»[(٢)].

●● **وقد ظهرت بدعة (القدرية)**[(٣)] في أواخر عهد الصحابة رضي الله عنهم.

عن يحيى بن يَعْمَر قال: (كان أوَّلَ من قال في القَدَر بالبصرة مَعْبَدٌ الجُهَنِيُّ، فانطلقتُ أنا وحُميد بن عبد الرحمن الحِمْيَريُّ حاجَّيْنِ ـ أو مُعتمِرَيْن ـ فقُلنا: لو لَقِينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عمَّا يقول هؤلاء في القدَر. فَوُفِّقَ لنا عبدُ الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجدَ، فاكْتَنَفْتُه أنا وصاحبي، أحدُنا عن يمينه والآخَرُ عن شماله، فظننتُ أن صاحبي سَيَكِلُ الكلامَ إليَّ، فقلتُ: أبا عبد الرحمن، إنَّه قد ظَهر قِبلَنا ناس يقرؤون القرآن ويَتَقَفَّرُون العلمَ ـ وذكر من شأنهم ـ وأنَّهم يَزْعُمون أنْ لا قَدَرَ، وأنَّ الأمرَ أُنُفٌ؟! قال: فإذا لَقِيتَ أولئكَ فأَخْبِرْهُم أنِّي بريء منهم، وأنّهم بُرآءُ منِّي...) الحديث[(٤)].

(١) هامش سنن أبي داود: ٣/٦٦ (٤٦٩١)؛ وجامع الأصول: ١٠/١٢٨، وهو من كلام الخَطَّابي.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) واللفظ له؛ والترمذي (٢١٥٦)؛ وأحمد: ٢/١٦٩؛ والبغوي (٦٧).
(٣) انظر: عن القدرية: الفَرق بين الفِرق، ص١٨ ـ ١٩، ١١٤ ـ ٢٠١، وغيره من كتب الفِرق والمِلل والنِّحَل.
(٤) أخرجه مسلم (٨) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٦٩٥)؛ والترمذي (٢٦١٠)؛ وابن خزيمة (١)؛ وابن حبان (١٦٨)، و(١٧٣)؛ والبغوي (٢)، وغيرهم. ومعنى (**يتقفرون العلم**): أي يطلبونه ويتتبعونه.

وتحقق قولُ النبي ﷺ في هذه النبوءة، وتبرّأ منهم المتأخِّرون من الصحابة الذين أدركوهم؛ كعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعبد الله بن أبي أَوْفَى، وعُقْبة بن عامر الجُهني وأقرانهم رضي الله عنهم[1].

وتقدَّم عن ابنِ عُمر: أنه كان له صديقٌ من أهل الشام يُكاتبه، وأنَّه تكلَّم في شيء من القدر، فجاء ابنَ عمر رجلٌ (فقال: إنَّ فلاناً يَقرأ عليكَ السلامَ، فقال له: إنه بَلَغني أنَّه قد أَحْدَثَ، فإن كان قد أحدثَ فلا تُقرِئْه منِّي السلامَ!)[2].

عن عبد الله بن فَيْروز الدَّيْلَمِيِّ قال: (أتيتُ أُبَيَّ بن كَعْب، فقلتُ له: وقعَ في نَفْسي شيءٌ من القَدَر، فحدِّثني بشيء، لعلَّ الله أن يُذهِبَه من قلبي. فقال: لو أنَّ الله عذَّبَ أهلَ سمواتِه وأهلَ أرضِه، عذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رَحِمَهُم كانت رحمتُه خيراً لهم من أعمالهم. ولو أنفقتَ مثلَ أُحدٍ ذَهَباً في سبيل الله، ما قَبِلَه الله منك حتى تؤمنَ بالقدر، وتعلمَ: أنَّ ما أصابَكَ لم يكنْ لِيُخْطِئَكَ، وأنَّ ما أخطأَكَ لم يكنْ لِيُصِيبَكَ، ولو مُتَّ على غيرِ هذا لدخلتَ النار.

قال: ثم أتيتُ عبدَ الله بن مسعود، فقال مثلَ ذلك. قال: ثم أتيتُ حذيفةَ بن اليمان، فقال مثلَ ذلك. قال: ثم أتيتُ زيدَ بن ثابت، فحدَّثني عن النبيِّ ﷺ مثلَ ذلك)[3].

٢ ـ المُرْجِئَة:

●● هم طائفة من فِرق المسلمين، يقولون: إنَّه لا يَضُرُّ مع الإيمان معصيةٌ، كما أنه لا يَنفع مع الكفر طاعةٌ.

---

(١) الفَرق بين الفِرق، ص١٩.

(٢) هذا لفظ الترمذي (٢١٥٢)، وتقدم تخريجه: ٤/ ٥٦ حاشية (١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩) واللفظ له؛ وابن ماجه (٧٧)؛ وأحمد: ٥/ ١٨٢ ـ ١٨٣، ١٨٩؛ وابن أبي عاصم في السنة (٢٤٥)؛ والآجري في الشريعة، ص١٨٧؛ والطبراني في الكبير (٤٩٤٠)؛ وابن حبان (٧٢٧)، وغيرهم؛ وصحَّحه الألباني؛ قال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

وهذا مذهبٌ سوءٍ، أمَّا في جانب الكفر: فصحيحٌ أنه لا ينفعه معه طاعة، وأما في جانب الإيمان: فكيف لا يَضرُّ؟! والقائل بهذا يفتح بابَ الإباحة، فإن الإنسان إذا عَلِم أنه لا تضرّ المعاصي مع إيمانه؛ ارتكَبَ كلَّ ما تحدِّثه به نفسه منها، علماً أنها لا تضره.

وهؤلاء هم أضدادُ القدرية، فإنَّ مذهَبَهم: أن الكبيرة إذا لم يُتَبْ منها يُخَلَّد صاحبُها في النار، وإنْ كان مؤمناً.

وأهلُ الحق أَثْبَتوا لمرتكبِ المعاصي جزاءً، ونَفَوا الخلودَ في النار عليها الذي هو جزاءُ الكافرين[1].

●● **وجملةُ التفرقة بين اعتقاد أهل السنَّة وبين اعتقاد المرجئة**[2]:

أن المُرجِئةَ: يكتفون في الإيمان بمعرفة الله ونحوِه، ويجعلون ما سوى الإيمان من الطاعات وما سوى الكفر من المعاصي: غيرَ مُضِرَّة ولا نافعة، ويتشبَّثون بظاهر حديث: «**من قال: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة**».

وأهل السنَّة: يقولون: لا تكفي في الإيمان المعرفةُ، بل لابدَّ من التصديق الاختياري مع الإقرار اللِّساني، وإنَّ الطاعات مفيدة، والمعاصيَ مضِرَّة مع الإيمان تُوصِل صاحَبها إلى دار الخسران[3].

فهذه الطائفة من المرجئة هي المبتدعة الضالَّة التي جاء ذمها في الحديث، وقد ذكر المصنِّفون في (الملل والنحل) أصناف هذه الطائفة، وأمثلة من أسماء القائلين بها.

---

(١) جامع الأصول: ١٠/ ١٣٠ ـ ١٣١.
(٢) انظر: في (الإرجاء): الفرق بين الفرق، ص٢٥، ٢٠٢ ـ ٢٠٦، وكتب الفِرق الكثيرة؛ وأيضاً: الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، للإمام اللكنوي، ص٨١ ـ ٨٣، ٣٥٢ ـ ٣٧٣، فهو نفيس جدّاً.
(٣) الرفع والتكميل، ص٣٦٠.

وهناك إرجاء الفقهاء والمحدِّثين: وهؤلاء بُرآءُ من تلك البدعة الضالة، ولا يجوزُ القول بكونهم خارجينَ من أهل السنَّة والجماعة، داخلين في فِرَق الضلالة، مجروحين بالبِدعة الاعتقادية، معدودين من الفِرق المُرجئة الضالَّة[١].

وقد ردَّ الحافظُ الذهبي على الحافظِ أحمد بن علي بن عَمْرو السُّلَيْماني البُخاري حيث طَعَن على هذا الصنف من المرجئة، فقال الذهبي في ترجمة (مِسْعَر بن كِدَام): (مِسْعر بن كدام حجَّةٌ إمامٌ، ولا عبرةَ بقول السُّلَيماني: كان من المرجئةِ: مِسْعَرٌ، وحمادُ بن أبي سُليمان، والنعمانُ ـ أبو حنيفة ـ، وعَمْرو بن مرَّة، وعبد العزيز بن أبي رَوَّاد، وأبو معاوية، وعُمر بن ذَرّ، ... وسردَ جماعةً.

قلت: الإرجاءُ مذهبٌ لعدَّة من أجلَّةِ العُلماء، لا يَنبغي التحاملُ على قائله)[٢].

وهؤلاء يقولون بأن الأعمالَ ليست بداخلةٍ في الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ومن المُرْجِئة مَن يقول: نُرجئ أمرَ المؤمنين ـ لو فُسَّاقاً ـ إلى الله، فلا نُنزِلُهم جنَّةً ولا ناراً، ولا نَتبرَّأُ منهم، ونتولَّاهم في الدين. وهؤلاء على السنة[٣].

وأول من تكلَّم بهذا النوع من الإرجاء السني غير البدعي هو الحسن بن محمد بن علي المعروف أبوه بابن الحنفية، فكان يقول:

(نُوالي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ونُجاهد فيهما، لأنهما لم تَقْتَتِل عليهما الأمة، ولم تَشُكَّ في أمرهما، ونُرجئ مَن بعدَهما ممَّن دَخَل في الفتنة، فَنَكِلُ أمرهم إلى الله).

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥٢.

(٢) ميزان الاعتدال: ٤/ ٩٩؛ الرفع والتكميل، ص٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) الرفع والتكميل، ص٣٦٣.

قال الحافظ ـ بعد أن نقل هذا الكلام عنه في ترجمته ـ: (فمعنى الذي تكلَّم فيه الحسنُ: أنه كان يَرى عدَم القطْع على إحدى الطائفتين المقتتِلتين في الفتنة بكونه مخطئاً أو مصيباً، وكان يَرى أنه يُرْجَأُ الأمرُ فيهما. وأما الإرجاءُ الذي يتعلّقُ بالإيمان، فلم يُعَرِّج عليه، فلا يَلحَقُه بذلك عابٌ، والله أعلم)[1].

وتوفي الحسن نحو سنة (١٠٠هـ)، في خلافة عمر بن عبد العزيز.

ثانياً: تنبيه:

قول النبي ﷺ: «**لَا يرِدَان عليَّ الحوضَ ولا يَدْخُلان الجنة**».

معناه: أنهم لا يدخلون الجنة دون مجازاة على أعمالهم وبدعتهم التي خالفوا فيها سبيل الحق والهدى، فَيَدخلون النار ويُعَذَّبون على قدر ذنوبهم، كما تقتضيه العدالة الإلٰهية، وقد يتكرَّم الله سبحانه عليهم بأن لا يُجازيهم بذنوبهم.

أو أنهم لا يدخلون الجنة مع المؤمنين أول وهلة، وإنما يدخلون بعد الجزاء والعقاب.

وليس معناه عدمَ دخول الجنة البتَّة والتخليدَ في النار، إذ لابد أن يَدخل كلُّ الموحِّدين الجنة، إمَّا أولاً، وإمَّا ثانياً بعد تعذيب أصحاب المعاصي والكبائر[2].

وعلى هذا المعنى تُحمل نظائرُ هذا الحديث؛ مثلُ قوله ﷺ: «**لا يَدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبْر**».

وقوله: «**لا يدخل الجنة قَتَّات**»، أي: نَمَّام.

وقوله: «**لا يدخل الجنة قاطِع**»، أي: قاطع رحم.

❋ ❋ ❋

---

(١) تهذيب التهذيب: ٢/ ٢٧٧، ونقله العلامة عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على: الرفع والتكميل، ص٣٥٦.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ٣٦٩، ٣٩١ شرح الحديثين (٩١) و(١٠٥).

(١٠)

إخبار النبي ﷺ
بمجيء قوم يعرضون عن الأخذ بالسنَّة

١ ـ عن المِقْدَام بن مَعْدِي كَرِب قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«ألَا هَلْ عَسَى رجلٌ يَبْلُغُه الحديثُ عنِّي، وهو مُتَّكِئٌ على أرِيكَتِهِ، فيقولُ: بَيْنَنَا وبَيْنَكم كتابُ اللهِ، فما وَجَدْنَا فيهِ حَلَالاً اسْتَحْلَلْنَاهُ، وما وَجَدْنَا فيهِ حَراماً حَرَّمْنَاهُ! وإنَّ ما حَرَّمَ** رسولُ الله ﷺ **كَما حَرَّمَ الله»** لفظ الترمذي.

وفي رواية أبي داود: **«ألَا إنِّي أُوتِيتُ الكتابَ ومِثْلَه مَعَه، ألَا يُوشِكُ رجلٌ شبعانُ على أرِيكَتِه يقول: عليكم بهذا القرآنِ؛ فما وَجَدْتُم فيه من حلالٍ فأَحِلُّوه، وما وَجَدْتُم فيه من حرامٍ فحرِّمُوه! ألا لا يَحِلُّ لكم لحمُ الحمارِ الأهليِّ، ولا كلُّ ذي نابٍ من السَّبُعِ، ولا لُقَطَةُ مُعَاهَدٍ إلا أن يَستغنِيَ عنها صاحبُها، ومَن نَزَلَ بقومٍ فعَلَيْهِم أن يَقْرُوهُ، فإنْ لم يَقْرُوه فلَهُ أنْ يُعْقِبَهم**[١] **بمثْلِ قِرَاهُ»**.

وفي رواية لأحمد: عن المِقْدام قال: حرَّم رسولُ الله ﷺ يوم خيبرَ أشياء، ثم قال: **«يُوشِكُ أحدُكم أن يُكَذِّبَني، وهو مُتَّكِئٌ على أريكَتِه، يُحَدَّثُ بحديثي، فيقول: بيننا وبينكم كتابُ الله، فما وجدنا فيه من حلال استحلَلْنَاهُ، وما وجدنا فيه من حرامٍ حرَّمْنَاهُ، ألَا وإنَّ ما حرَّمَ رسول الله ﷺ مثلُ ما حَرَّم الله»**[٢].

---

(١) أي يأخذ منهم عِوَضاً عما حَرَمُوه من القِرى. وهذا في المضْطَر الذي لا يجدُ طعاماً ويخاف على نفسه التَّلَف. يقال: عَقَّبهم، مشدَّداً ومخففاً.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)؛ والترمذي (٢٦٦)؛ وابن ماجه (١٢)؛ والدارمي (٥٨٦)؛ وأحمد: ٤/ ١٣١، ١٣٢؛ والطبراني في الكبير: ٢٠/(٦٦٩) و(٦٧٠)؛ وابن حبان (١٢)؛ =

٢ ـ وعن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُم مُتَّكِئاً على أَرِيكَتِهِ، يأتيهِ الأمرُ من أَمْرِي ممَّا أَمَرْتُ به أَو نَهَيْتُ عنه، فيقول: لا نَدْرِي، ما وَجَدْنَا في كتابِ الله اتَّبَعْنَاهُ**»[1].

❁ ❁ ❁

أولاً: معاني الألفاظ:

ـ «**أَلَا هل عسى**»: ألا: حرف تنبيه، وعسى: قَرُب.

ـ «**متكئ**»: هو كل مَنِ استوى قاعداً على وِطاء متمكِّناً. والعامة لا تَعرف المتكئ إلا مَن مَال في قعوده معتمداً على أحد شِقَّيْه.

ـ «**أريكته**»: سريره المزيَّن بالحُلَل والأثواب في قُبَّة أو بيت كما للعروس.

ـ «**أُوتيت الكتابَ ومثلَه معه**»: أي إنه ﷺ أُوتي من الوحي غير المتلوِّ والسننِ التي لم ينطقِ القرآنُ بنصِّها مثلَ ما أوتى من المتلوِّ؛ قال الله ﷻ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فالكتابُ: هو القرآن، والحكمة: هي السُّنَّة.

ـ «**يوشِك**»: مضارع أَوْشَك، إذا أَسرع وقَرُب، وهو أحد أفعال المقارَبة.

ـ «**رجل شبعان**»: كناية عن البلادة وسوءِ الفهم الناشئ عن الشِّبَع، أو عن الحماقة اللازمة للتنعُّم والغرور بالمال والجاه.

= والبيهقي في السنن: ٧/ ٧٦، ٩/ ٣٣١، ٣٣٢؛ والدلائل: ٦/ ٥٤٩؛ والدارقطني في السنن (٤٧٦٧) و(٤٧٦٨)؛ والحاكم: ١/ ١٠٩؛ وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على سنن الدارقطني؛ والألباني في صحاح السنن، والصحيحة (٢٨٧٠)، وصحيح الجامع (٢٦٤٣) و(٢٦٥٧) و(٨١٨٦).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥) واللفظ له؛ والترمذي (٢٦٦٣)؛ وابن ماجه (١٣)؛ والحميدي (٥٥١)؛ وأحمد: ٦/ ٨؛ والشافعي في الرسالة (٢٩٥)؛ وابن حبان (١٣)؛ والحاكم: ١/ ١٠٨ ـ ١٠٩؛ والبغوي (١٠١)، وغيرهم. قال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه أحمد شاكر والألباني وشعيب الأرنؤوط.

ـ «**اللُّقَطة**»: ما وجدْتَه مرمياً في الأرض لا تعرف له صاحباً.

ـ «**معاهداً**»: الذي بينك وبينه عهدٌ وموادَعَة، فلا يجوز أن تُتَملَّك لُقطتُه لأنه معصوم المال.

ـ «**يَقْرُوه**»: **يُضَيِّفُوه، والقِرى ما يُعدّ للضَّيف النازل من النُّزُل.**

ـ «**يُعَقِّبهم، ويُعْقِبهم**»: يأخذ منهم ويَغنم من أموالهم بقَدْر قِراه.

ـ «**لا أُلْفِيَنَّ**»: **من ألفَيتُ الشيءَ، وجدتُه، وظاهره نهيُ النبي ﷺ نفسَه عن أن يجدَهم على هذه الحالة، والمراد: نهيهم عن أن يكونوا على هذه الحالة.**

ـ «**لا أدري**»: أي لا أعلم غير القرآن ولا أتبع غيره، أو لا أدري قول الرسول.

ـ «**ما حرَّم رسول الله كما حرَّم الله**»: **أي ما حرَّم وأحَلَّ رسول الله ﷺ كما حرَّم وأحلَّ الله ﷻ.**

واقتصر في الحديث على التحريم من غير ذِكْر التحليل إشارةً إلى أن الأصل في الأشياء الإباحة، أو اكتفى بأحد المتقابلَيْن عن الآخر(١).

ثانياً: كلمة مجملة فيها توضيح وبيان لمدلول الأحاديث ومعاني النبوءة ومقصدها:

القرآن الكريم يَنْبوع الهداية الأول ولبابُ الحق الذي لا يرقى إليه زيغ ولا تلتبس به شبهة، وقد أُمِر النبيُّ ﷺ أن يتلوه بلسانه، وأن يُشغل بدراسته، ويزكو ببيناته، ويُخْرج الناسَ به من الظلمات إلى النور.

والسنَّة الشريفة أثر هذا الهَدْي المستقيم، منه تنبجس، وفي وجهته تنطلق.

---

(١) أخذت هذه المعاني من: عون المعبود، تحفة الأحوذي، شرح السنة، جامع الأصول، النهاية في غريب الحديث، لسان العرب.

وصاحبها المعصوم ﷺ يستحيل أن ينطِق بباطل، أو يفعل شيئاً لهوىً يَعْرِض أو شهوةٍ تغلِب؛ فهو من جهاته كلها محفوظٌ بأعين الله.

ولمَّا كان القرآن الكريم متواتراً حرفاً حرفاً، فهو جملةً وتفصيلاً قطعيُّ الثبوت، أما السنَّة ففيها الكثير المتواتر لفظاً أو معنى، وفيها أخبار آحادٍ بَذَل العلماء والنقاد جهوداً هائلة في ضبطها، لم يُعرف لها نظير في تراثِ عظيمٍ من العظماء.

ولا عجبَ؛ فما التفَّتْ قلوبٌ حول بشر كما التفَّ المسلمون حول نبيّهم ﷺ، وما ظَفِر أحد بإعزازٍ وحبٍّ كما ظَفِر بذلك صاحبُ الرسالة الخاتمة.

ولو استمعنا إلى مَنْ يرى تجاوزَ السنَّة لوَجَبَ أن ترتفع الثقةُ بتاريخ البشر كلهم؛ فإن الروايات التي ثَبَت بها التاريخ أخفُّ وزناً من الروايات التي ثبتت بها السنَّة المحمدية.

وقد سمعنا إلى مَغْموصِين أنكروا السنة كلها، فما وجدنا في سيرتهم أو منطقهم ما يستحقُّ الاحترام، ولو ادَّعوا الإسلام وكانوا من الحكام(١)!.

وكما يقول الإمام ابن حزم: (لمَّا بيَّنَّا أن القرآن هو الأصل المرجوعُ إليه في الشرائع، نظرنا فيه فوجدنا فيه إيجابَ طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ، ووجدناه ﷻ يقول فيه واصفاً لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]؛ فَصَحَّ لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ على قسمين:

أحدهما: وحيٌّ متلوٌّ مؤلَّف تأليفاً مُعجِزَ النِّظام وهو القرآن.

والثاني: وحي مرويٌّ منقولٌ غير مؤلَّف ولا مُعجِزُ النظام ولا متلوٌّ لكنه مقروءٌ، وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ، وهو المبيِّن عن الله ﷻ مرادَه منا، قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

---

(١) هموم داعية، ص١٠١ ـ ١٠٢.

ووجدناه تعالى قد أوجَبَ طاعةَ هذا القسم الثاني كما أوجبَ طاعةَ القسم الأول الذي هو القرآن، ولا فَرْق، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. . .

فلم يَسَعْ مسلماً يُقرّ بالتوحيد أن يَرجِع عند التنازع إلى غيرِ القرآن والخبرِ عن رسول الله ﷺ، ولا يأبى عمَّا وجد فيهما)(١).

وقال في موضع آخر: (ولو أنَّ امرأً قال: لا نأخذُ إلا ما وجدنا في القرآن، لكان كافراً بإجماع الأمة)(٢).

ويقول العلّامة الشيخ محمد الغزالي: (إنَّ الذين يَرفضون السنَّة النبوية مصدراً للتشريع بعد القرآن الكريم أقربُ إلى الكفر منهم إلى الإيمان، وإذا كان رفْضُهم للمتواتر والآحاد جميعاً فهم كافرون يقيناً)(٣).

وقد أخبر النبي ﷺ بما أَعلمه الله تعالى وأَطلعه عليه بأنه ستخرج في أمته نابتةُ سوءٍ، تتجرأ على دين الله وتتنكَّر لسنَّة نبيّه ﷺ، وتدَّعي أنها تتمسك بالقرآن وحده، وذكر من صفاتهم وأقوالهم ما جاء التاريخ بتصديقه على وجهه.

فَهُم أناس قد أثقلَتْهم مَعِدُهم الملأى، وقعدَتْ بهم بطونهم المتخمة، فأورثَتْهم البلادة وسوءَ الفهم، وغَلَبت عليهم حياة الترف والدَّعة والرفاهية فأخْلَدوا إلى الجلوس على الأرائك الوثيرة والفُرش الناعمة، فاجتالَتْ قلوبهم وحملَتْهم على الكِبْر والإعجاب بالرأي، فاكتفوا ـ بزعمهم ـ بكتاب الله، وافترَوا على رسوله ﷺ بأنهم لا يأخذون سنَّته وهَدْيه وبيانَه، وهو الذي وعى هذا القرآن وبلَّغه للعالمين بدعوته وسنَّته القولية والعملية.

---

(١) إحكام الأحكام: ١/٩٦.

(٢) المرجع السابق: ٢/٨٠.

(٣) علل وأدوية، ص٩٧.

● **وأسباب هذا الإنكار عديدة يمكن إجمالها فيما يلي:**

١ ـ الجهل بكتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ.

٢ ـ الكبر وغفلة العقل وقسوة القلب.

٣ ـ ادِّعاء أن القرآن وحده يكفي، فقد جاء تبياناً لكل شيء، وفيه تفصيل كل شيء.

٤ ـ إن القرآن محفوظ تكفَّل الله تعالى بحفظه، بخلاف السنَّة.

٥ ـ إن السنة لو كانت حُجَّة لأَمَر النبي ﷺ بكتابتها، ولَعَمِل الصحابة من بعده على جمعها وتدوينها.

٦ ـ رُوِيَتْ أحاديث تدلّ على عدم حجيَّة السنَّة، مثل: «إن الحديث سيفشو عنِّي، فما أتاكم يوافق القرآنَ فهو عني، وما أتاكم عني يُخالِف القرآنَ فليس مني»[1].

وكلها حجج ضعيفة واعتراضات واهية لا يتسع البحث هنا لبيان وَهَائِها، وقد بيَّنَ علماؤنا بطلانَها، وممَّن تصدى لذلك في القديم الإمام الشافعي في كتابه الفريد «الرسالة»، وفي العصر الحالي: العلّامة الدكتور عبد الغني عبد الخالق في كتابه: «حجية السنَّة» وذكر خلاصة قيّمة في كتابه عن «الإمام البخاري وصحيحه»[2]، والعلّامة الدكتور مصطفى السباعي في كتابه الفذِّ «السنَّة ومكانتها في التشريع».

● **والسنَّة النبوية مع القرآن الكريم على ثلاثة أقسام:**

الأول: ما كان مؤيِّداً لأحكام القرآن موافِقاً له من حيثُ الإجمالُ والتفصيلُ، وذلك مثل الأحاديث التي تُفيد وجوبَ الصلاة والزكاة والحج

---

(١) هذا الحديث وأمثاله مما في هذا الباب هي أحاديث باطلة: موضوعة أو واهية أو شديدة الضعف، كما بَيَّن الأئمة النقَّاد. انظر: في الرد على تلك الشبهات: السنة ومكانتها في التشريع، ص١٥١ ـ ١٦٦.

(٢) انظر: ص ٢٠ ـ ١٠٩، من الكتاب المذكور.

والصوم، من غير تعرُّضٍ لشرائطها وأركانها، فإنها موافقة للآيات التي وردتْ في ذلك؛ كحديث: «**بُني الإسلام على خمس**».

الثاني: ما كان مُبَيِّناً لأحكام القرآن؛ من تقييدِ مُطْلَق، أو تفصيلِ مُجْمَل، أو تخصيصِ عامّ، كالأحاديث التي فَصَّلت أحكامَ الصلاة والصيام والحج والزكاة والبيوع والمعاملات التي وردت مجملةً في القرآن.

وهذا القسمُ هو أغلبُ ما في السنَّة، وأكثرها وروداً.

الثالث: ما دلَّ على حكم سكتَ عنه القرآن، فلم يُوجِبْه ولم يَنْفِه، كالأحاديث التي أَثبتتْ حرمةَ الجمع بين المرأة وعمَّتها أو خالتها، وأحكام الشُّفْعة، وبيان ميراث الجدة، والحكم بشاهد ويمين، ووجوب رجم الزاني المحصَن، ووجوب الكفَّارة على من انتهك حرمة صوم رمضان، وغير ذلك[١].

●● والحق الذي ليس وراءه إلا الباطل أن حياة سيدنا رسول الله ﷺ هي تفسير كتاب الله تعالى، وأن سيرته العملية وسنَّته القولية بيان تطبيقي للقرآن الحكيم. والحق أنه لا قرآن بلا سنَّة ولا سنَّة بلا قرآن، وأن فصل أحدهما عن الآخر زيغ وضلال[٢].

وقُصارى القول: أن إنكار حجيَّة السنَّة والادِّعاءَ بأن الإسلام هو القرآن وحده؛ لا يقول به مسلم يعرف دين الله وأحكام شريعته تمام المعرفة، وهو يصادم الواقع، فإن أحكام الشريعة إنما ثبت أكثرها بالسنَّة، وما في القرآن من أحكام إنما هي مجمَلة وقواعد كلية في الغالب[٣].

وفي ردِّه على منكِر حجيَّة السنَّة يقول الإمام المجتهد ابن حزم: (ونسألُ

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع، ص٣٧٩ ـ ٣٨٠؛ البخاري وصحيحه، لعبد الغني عبد الخالق، ص٢٤ ـ ٣١.

(٢) انظر: علل وأدوية، ص٥٧.

(٣) السنة ومكانتها في التشريع، ص١٦٥.

قائلَ هذا القول الفاسد: في أي قرآن وَجد أن الظهر أربع ركعات، وأن المغرب ثلاث ركعات، وأن الركوع على صفة كذا، والسجود على صفة كذا، وصفة القراءة فيها والسلام، وبيان ما يجتنب في الصوم، وبيان كيفية زكاة الذهب والفضة، والغنم والإبل والبقر، ومقدار الأعداد المأخوذة منها في الزكاة، ومقدار الزكاة المأخوذة، وبيان أعمال الحج من وقت الوقوف بعرفة، وصفة الصلاة بها وبمزدلفة، ورمي الجمار، وصفة الإحرام وما يجتنب فيه، وقطع السارق، وصفة الرضاع المحرِّم، وما يَحرم من المآكل، وصفتا الذبائح والضحايا، وأحكام الحدود، وصفة وقوع الطلاق، وأحكام البيوع، وبيان الربا، والأقضية والتداعي، والأيمان، والأحباس، والعُمْرى، والصدقات، وسائر أنواع الفقه؟! وإنما في القرآن جُمَلٌ لو تُركنا وإياها لم ندرِ كيف نعمل فيها، وإنما المرجوع إليه في كل ذلك النقل عن النبي ﷺ»[1].

ثالثاً: تحقق النبوءة:

وقع مِصداق ما أَخبر به رسول الله ﷺ منذ وقت مبكِّر من تاريخنا الإسلامي، ثم في أزمنة متلاحقة وإلى زماننا هذا.

●● وأول ما ظهرتْ ضلالةُ رفضِ السنَّة النبوية كان في القرن الثاني الهجري: حيث نَجم فيه مَنْ يُنكر حُجيَّة السنَّة باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، ومَنْ يُنكِر حجية غير المتواتر منها مما يأتي عن طريق الآحاد، ومَنْ يُنكِر حجية السنَّة التي لا ترِدُ بياناً لِما في القرآن أو مؤكِّدة له، بل تأتي بحكم مستقل.

وأول من تعرَّض لهذه المذاهب ـ فيما نعلم ـ **الإمام الشافعي** رحمه الله، فقد جاء في كتاب «جماع العلم من كتاب الأم» فصلٌ خاص ذكر فيه الشافعي مناظرة بينه

(١) الإحكام في أصول الأحكام: ٢/ ٧٩ ـ ٨٠.

وبين من يُنسب إلى العلم بمذهب أصحابه ممن يرون ردَّ الأخبار كلها، كما عقد ﷺ فصلاً طويلاً في «الرسالة» لحجيَّة خبر الآحاد[١].

وقد ناظرهم الشافعي بحجة باهرة ودلائل ساطعة وبيان عالٍ، لكن لم يتبيَّن لنا من هي تلك الطائفة التي ردَّت الأخبار كلَّها، ولا مَن هو الشخص الذي ناظره في ذلك، وقد استظهر الشيخ الخضري[٢] أنه يعني بذلك المعتزلة.

وقوّى العلَّامة مصطفى السباعي وجهة نظره هذه[٣].

•• وأيضاً غلاة الرافضة قد صَدَروا عن هذه العين الحَمِئَة، فقد قال الحافظ السيوطي في «مفتاح الجنة»: (إن من غالية الرافضة مَن ذَهَبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنَّة والاقتصار بالقرآن، لأنهم يعتقدون أن النبوة لعليٍّ، وأن جبريل أخطأ في نزوله إلى سيد المرسلين ﷺ)[٤].

•• كذلك أنكرت طوائف مرذولة حجيَّة خبر الآحاد، والذي عليه جمهور الأمة ومن يُعتدُّ به وهو الحق: أن أخبار الآحاد حجّة يجبُ العمل بها وإن أفادت الظن.

وقد أنكرت الرافضة وبعض المعتزلة قبولَ أحاديث الآحاد، وهم مشمولون بذلك الخبر النبوي في هذه النبوءة، ومرذولون مقبوحون بما يَردُّون من خبر الصادق المصدوق ﷺ الذي تلَقَّته أمة الإسلام بالقبول خَلَفاً عن سَلَف، وتناقلوه كابراً عن كابر بالإعزاز والتكريم والعمل والتطبيق.

وقد أطنب الإمام أبو عبد الله الشافعي وأجاد وأفاد وبلغ المراد في تثبيت خبر الواحد، ببيان جزل وكلام فصل وأدلة دامغة من الكتاب والسنَّة وعمل

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع، ص١٤٣.
(٢) في كتابه: تاريخ التشريع الإسلامي، ص١٩٧.
(٣) السنة ومكانتها في التشريع، ص١٤٨ ـ ١٤٩.
(٤) مفتاح الجنة، ص٣.

الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وفقهاء المسلمين، ووجوب العمل بخبر الواحد والأخذ به[١].

●● وفي عصرنا هذا نَبَغ فِئَام من مدَّعي العلم ومنتحلي الفكر الإسلامي، يتشدقون بالغيرة على الإسلام، فيَدْعون إلى الاستمساك بالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويثيرون العواصف في وجه السنَّة النبوية المطهَّرة، وسَمَّوا أنفسهم (بالقرآنيين)، واشتهروا بين الناس بذلك! والقرآن براء ممن يتنكر لسنَّة رسول الله ﷺ.

- من هؤلاء **الدكتور محمد توفيق صدقي** الذي نَشر في «مجلة المنار»[٢] للعلَّامة محمد رشيد رضا مقالين خطيرين بعنوان (الإسلام هو القرآن وحده)، متأثِّراً بِشُبَه إلحادية زائفة، وزعم أن (السنَّة ليست حجَّة فَضْلاً عن سائر الأدلة الشرعية)، وأورد عدة شُبه توصَّل منها إلى إنكار ثبوت السنَّة وإنكار حجيتها.

وقد تصدَّى للردِّ عليه والدفاع عن السنَّة النبوية المطهرة بكلام علمي رفيع وحجة قوية العلَّامة المحقق البليغ **الدكتور عبد الغني عبد الخالق** في كتابه «حجية السنَّة»[٣]؛ حيث فنَّد شُبَه الدكتور صدقي وزَيَّفَها وأَظهر عُوارها وبطلانها، وفي كتابه عن «الإمام البخاري وصحيحه»[٤] أيضاً.

كذلك **الدكتور العلاَّمة مصطفى السِّباعي** في كتابه الشهير «السنَّة ومكانتها في التشريع»[٥] حيث لخَّص الشُّبَه ثم ردَّ عليها.

- ونشر أحدُ الملاحدة في مصر وهو **إسماعيل أدهم**؛ رسالة في عام

---

(١) انظر: الرسالة، ص٣٦٩ - ٤٦٠؛ وقد نقل السباعي ذلك في كتابه السنة ومكانتها في التشريع، ص١٧١ - ١٨٦.

(٢) في السنة التاسعة: العدد (٧)، ص٥١٥، والعدد (١٢)، ص٩١٣ - ٩٤٠.

(٣) انظره: ص ٣٩٧ - ٥٠٨.

(٤) انظره: ص ٤٦ - ١٠٨.

(٥) انظره: ص ١٥٣ - ١٦٥.

(١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م) عن تاريخ السنَّة؛ أَعلن فيها أن هذه الثروة الغالية من الحديث الموجودة بين أيدينا، والتي تضمَّنتْها كُتب الصحاح، ليست ثابتةَ الأصول والدعائم، بل هي مشكوك فيها ويغلِب عليها صفةُ الوضع!.

وقد قوبلت هذه الرسالة بنقمةٍ في الأوساط الإسلامية، حتى اضْطُرَّت الحكومة المصرية بناءً على طلب (مشيخة الأزهر) إلى مصادرة الرسالة من الأيدي.

وقد اضْطُرَّ صاحب الرسالة إلى أن يدافع عن نفسه في كتاب أرسله إلى إحدى المجلات الإسلامية(١)؛ زعم فيه أن ما ذَهَبَ إليه من الشك في صحة السنة لم يَنفردْ به، بل قد وافقه عليه جماعة من كبار الأدباء والعلماء، وذكر منهم **الأستاذ أحمد أمين** بكتاب أرسله إليه.

وانتظر العلماء والغيورون أن يكذِّب أحمد أمين هذا الزعمَ، فلم يفعل!.. بل كَتَب في «مجلة الرسالة» ما يُفيد تألُّمَهُ مما حَصَل لصاحبه، واعتبار ذلك محاربة لحرية الرأي، وحجر عثرة في سبيل البحوث العلمية!.

ـ ولمَّا ثارَ النقاش في (الأزهر) حول الإمام الزهري عام (١٣٦٠هـ)، قال **الأستاذ أحمد أمين للدكتور علي حسن عبد القادر** ـ وهو الذي أُثِيرت الضجَّة حوله ـ: (إن الأزهر لا يَقبل الآراءَ العلمية الحرَّة، فخيرُ طريقةٍ لبثِّ ما تراه مناسباً من أقوال المستشرقين ألَّا تنسبَها إليهم بصراحة، ولكن ادفَعْها إلى الأزهريين على أنها بحث منك، وألبسها ثوباً رقيقاً لا يُزعجهم مسُّها، كما فعلتُ أنا في «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»(٢)!.

ـ **وأحمد أمين** قد بَثَّ في كتابه الشهير **«فجر الإسلام»** سُموماً ناقعة قلَّد فيها

---

(١) مجلة الفتح: العدد (٤٩٤)، ص١٢.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

المستشرقين ـ وقد تقدَّم النقلُ عنه شخصياً في هذا ـ فمَزَج السَّمَّ بالدسم، وخَلَط الباطل بالحق:

فهو قد شَكَّك بالسنَّة وهوَّن من شأنها، وادَّعى أن وَضْع الحديث بدأ في العهد النبوي؛ وهي فرية كبيرة، وشكَّكَ في عدالة الصحابة، وطَعن في راوية الإسلام الأكبر أبي هريرة وحمل عليه حملة منكرة وزَعَم أن في حديثه الكثير (أحاديثَ موضوعةً لا تُعدّ)، وكذَّب عدَّة أحاديث من «صحيح البخاري»، وغير ذلك مما أساء فيه إلى السنَّة!.

وقد تولى الردَّ عليه وتزييفَ ما أورده من أباطيل **الدكتور مصطفى السباعي** رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام والسنَّة والصحابة خير الجزاء[1].

ومما ذكره أحمد أمين: أن علماء الحديث قسموه إلى قسمين: (متواتر)، وهو يُفيد العلم، ولكنه (لم يوجد)، وبعضهم قال بوجود حديث واحد، وبعضهم أَوْصَل المتواتر إلى سبعة! و(آحاد): وهو يُفيد الظنَّ، و(يجوزُ) العمل به عند ترجيح الصدق . . . إلخ[2].

وهذا افتراءٌ على السنَّة، وكذبٌ على الحقيقة، وتجنٍّ على العلماء الذين حفظوا السنن، فالأحاديث المتواترة لفظاً أو معنى (كثيرة)، وأحاديث الآحاد أطبق الجمهور ومن يُعتدّ به على (وجوب) العمل بها، فماذا يريد أحمد أمين من هذا التشكيك؟!.

(فإنه إذا كان المتواتر «غير موجود»، والآحاد «يجوز» العمل بها، فماذا بقي من السنَّة؟ وأين مكانها إذاً من مصادر التشريع؟ وما حاجة المسلمين إليها؟.

فَكِّر في هذه النتيجة، ثم احكُمْ بعد ذلك على هذا العالم الأمين؟)[3].

---

(١) انظر: فصلاً مطولاً من كتابه: السنة ومكانتها في التشريع، ص٢٣٦ ـ ٣١٩.

(٢) فجر الإسلام، ص٢٦٧.

(٣) السنة ومكانتها في التشريع، ص٢٩٠.

●● وللأسف الممتزج بالمرارة أن **الدكتور محمد رجب البيومي** في كتابه عن «أحمد أمين»[(١)] اعتبر ما أشرنا إليه من (خطايا) أحمد أمين من باب (الاجتهاد والخطأ والصواب)، ونفى عنه التأثّر بالمستشرقين، ونَعَى على من وصفه بذلك بأنهم (كتبوا في مذكراتهم الجامعية التي لا تتجاوز سلَّم الكلية)! واجتزأ الموضوع الضخم بذِكر بعض (الأخطاء) التي وقع فيها هذا الرجل[(٢)].

وكان من حق العلم، بل من حق رسول الله ﷺ وسنَّته وصحابته الكرام عليه؛ أن يفنِّد تلك (الخطايا) التي انزلق فيها أحمد أمين. ونحن نُحيل القارئَ على الفصل النفيس الذي كتبه مصطفى السباعي في ذلك.

رابعاً: وقفات وعبر:

١ ـ ظهور أمثال هؤلاء المَغْموصين أعداء السنَّة دليل على صدق النبي ﷺ، حيث صدَّقتْ وقائع التاريخ ما أَخبر به، وحبلُ باطلهم لا ينقطع، وشيطانهم يمدُّهم في الغَيّ والهوى، ويترصَّد طريقهم وينطق على ألسنتهم بمثل تلك الفِرَى على السنَّة النبوية الشريفة.

٢ ـ المنكرون لحجيَّة السنَّة والمُعْرِضون عنها شِرذمة قليلة وطائفة مرذولة في الأمة، وغثاءٌ كغثاءِ السيل ظهر في تاريخنا، ولم تلبث فِريتُهم أن انمحقت ودَرَسَتْ، وطوتْها الأمة الإسلامية كما طَوَتْ غيرها من البدع والأضاليل، ويبقى أهل الحق الأبلج يَمخرون عباب الزمن مطمئنين مستمسكين مهتدين بكتاب ربهم وسنَّة نبيِّهم ﷺ.

٣ ـ الأمة الإسلامية وفيَّةٌ لدينها تذود عنه وتحميه، والمسلمون يعضُّون بالنواجذ على قرآنهم وسنَّة نبيِّهم ﷺ ينافحون عنها ويردُّون كيد أعدائها في

---

(١) ضمن سلسلة (علماء ومفكرون معاصرون)، دار القلم، دمشق.

(٢) انظر: ص٦٠ ـ ٦٦، من الكتاب المذكور.

نحورهم، وهم الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «**ما مِن نبيٍّ بَعثه الله في أمَّة قَبْلي إلا كان له من أمته حَوَاريُّون وأصحابٌ يأخذون بِسُنَّتِه ويقتدون بأَمْرِه**»[1].

ولا يزال أتباع هذا الدين من لدن الصحابة وإلى زماننا وإلى قيام الساعة أوفياء حُرَصَاءَ على السنَّة النبوية، وقد شهدتْ حياة الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان قصصاً رائعة ومواقف جليلة تعبِّر عن استمساكهم بالسنَّة والتشنيع على كل من يخالف للنبيِّ ﷺ أمراً، أو يهوِّن من آدابه، أو يتهاون بتوجيه من توجيهاته[2].

٤ ـ لقد بذل المسلمون من لدن الصحابة وإلى أيامنا جهوداً جبّارة لا يوجد لأمة من أمم الأرض في السابقين واللاحقين مثلُها ولا قريبٌ منها؛ في حفظ السنَّة النبوية وحياطتها وصيانتها ووضْع القوانين الضابطة لتلقيها وقبولها، ثم تدوينها ونشرها.

فلماذا يشكِّك المشكِّكون إنْ لم يكن الهوى والكِبْر والبغضاء للسنَّة المطهّرة ولصاحبها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام؟!.

٥ ـ في الأمة الإسلامية وفي كل عصر رجال عظماء، وعلماء أجلاء، ومنافحون أصلاء، وحُماة مخلصون؛ يبذلون كل غالٍ ونفيس في الدفاع عن السنَّة، والرد على المشككين وفضح ضلالاتهم، وكشف زيفهم، وبهرجة شُبَهِهم؛ أولئك الروَّاد الذين يَنفون عن السنَّة تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين.

٦ ـ الإعراضُ عن السنَّة النبوية مثلُ الإعراض عن القرآن الكريم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

ويقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٠).

(٢) انظر: مثلاً: سنن الدارمي، الأحاديث (٤٣٧ ـ ٤٤٦).

ويقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ويقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

والآيات في هذا كثيرة جليلة صارمة.

٧ ـ لا حاجة بالسنَّة النبوية الصحيحة الثابتة أن تُعرض على القرآن الكريم، ومهما ثبت الحديث عن النبي ﷺ كان حجَّة بنفسه، وما يُروى عنه ﷺ أنه قال: «إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه، وإن خالفه فدَعُوه»؛ فإنه حديث باطل لا أصل له.

وسيبقى كتاب ربنا سبحانه وسنَّة نبيِّنا ﷺ أصلَيْن خالدَين مكرَّمَين مبجَّلَيْن على الرأس والعين في الأمة على مرِّ الدهور، ويبوء أعداؤهما بالخسران المبين.





إخبار النبي ﷺ بظهور أناس يكذبون في الأحاديث والأخبار والعقائد والأفكار وغيرها فيحدثون بما لم يعهده المسلمون

١ ـ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: أنه قال: «**سَيَكونُ في آخِرِ الزمان ناسٌ من أمَّتي يُحَدِّثُونَكُم ما لم تَسْمَعُوا به أنتُم ولا آباؤكُم، فإيَّاكُم وإيَّاهُم**»[1].

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكونُ في آخرِ الزَّمَان دَجَّالُونَ كذَّابُونَ، يَأتونَكُم من الأحاديثِ بما لم تَسْمَعُوا أَنْتُم ولا آباؤكُم، فإيَّاكُم وإيَّاهُم، لا يُضِلُّونَكُم ولا يَفْتِنُونَكُم**».

وفي رواية: «**سيكونُ في أمَّتي دجَّالُونَ كذَّابونَ يُحدِّثُونكم بِبِدَعٍ من الحديثِ بما لم تَسْمَعُوا أَنْتُم ولا آباؤكُم، فإيَّاكُم وإيَّاهُم، لا يَفْتِنُونَكُم**»[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم (٦)؛ وأحمد: ٢/ ٣٢١، واللفظ له؛ وابن حبان (٦٧٦٦)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٥٥٠؛ والحاكم: ١/ ١٠٣؛ والبغوي (١٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧)؛ وأحمد: ٢/ ٣٤٩؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٥٤)، والرواية الأولى لمسلم والثانية لأحمد.

أولاً: مدلول الأحاديث وشمول مفهومها وتحقق النبوءة عبر التاريخ:

ذهب عامَّةُ مَن كتبَ في (أشراط الساعة) إلى حمل هذه الأحاديث على أنها إخبارٌ بنشوءِ (حركة الوَضْع) وظهور الوضَّاعين في الحديث.

ولا ريب أن هذه النبوءة تشمل هذا الجانب، بل هو أبرز ما تدلُّ عليه، لكنّ الذي نفهمه ونذهب إليه ونرجِّحه عمومُ مدلولات هذه الأحاديث، وشمول معانيها لآفاق بعيدة وأمور عديدة ومجالات شتى، جاء بها الناس عبر تقلُّبِ الليل والنهار، مما لم يسمع به المسلمون من قبل ولا يعرفونه من بعد، مما هو مخالف لعقائد الإسلام ومبادئه الكبرى وكلياته وحقائقه وهديه.

ويؤيد ذلك بعض نصوص الحديث ورواياته وألفاظه:

فقوله ﷺ: «**سيكون في آخر الزمان ناس من أمتي يحدثونكم ما لم تسمعوا به**»، فأطلق القول ولم يذكر لفظة (الأحاديث).

وقوله ﷺ في رواية أحمد: «**يحدثونكم بِبِدع من الحديث**» أي بأشياءَ مُبتدَعَة وأفكار منحرفة ومذاهب ضالة.

وقوله ﷺ: «**لا يضلونكم ولا يفتنونكم**» فليس بالحديث المكذوب وحده يكون الإضلال وتكون الفتنة، بل بالابتداع في الدين، وتحريف الكَلِم عن مواضعه، وتحكيم الهوى في النصوص، وإدخال مذاهب ضالة، واستجلاب أفكار منحرفة، وغير ذلك.

ثم إن كلمة (الحديث) و(الأحاديث) الواردة في البيان النبوي هنا لا تدلُّ على المعنى الاصطلاحي الذي وضعه علماء الإسلام وهو: (ما أُضيف إلى النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو وصفٍ خِلْقي أو خُلُقي)، فهذا شيء عرَّفه به علماء الحديث.

بل معناها هنا مطلَق الأخبار التي يتناقلها الناس، وتشمل حديث رسول الله ﷺ وغيره من الأخبار والأفكار والمذاهب والمِلل وسواها.

والمذموم في ذلك ما يأتي به الكذَّابون، والدَّجَاجِلة مما يضادُّ الإسلام ويعانِد مبادئه ويشوِّه شرائعه ويَعبث بِقيَمه وهديه، بالزيادة أو النقصان أو التحريف والتزوير أو التغيير والتبديل، وهو ما يشير إليه قوله ﷺ: «**فإياكم وإياهم**»: أي إياكم أن تُصْغوا إليهم وتركنوا إليهم وتتابعوهم على انحرافهم وضلالهم، وإياهم: أي فليحذروا مَغَبَّة الكذب على الله ورسوله والابتداع والتحريف والتغيير والإغواء والإضلال.

ويؤكد ذلك قوله ﷺ عَقِبه: «**لا يضلونكم ولا يفتنونكم**»: فنتيجةُ أعمالهم هي الضلالُ والغواية والانحراف والفتنة والبعد عن جادة الحق، والاستماعُ إليهم ومتابعتُهم فيه تنكُّبٌ لهدي الإسلام ووقوعٌ في حمأة الزَّيغ والهلاك.

وقد بدأت أمارات تحقق هذه النبوءة منذ عهد الصحابة، واستمرت فيمن بعدهم، ولا تزال تتحقق عبر مراحل التاريخ وإلى زماننا، وستبقى إلى ما بعده، فهي من النبوءات التي يستمر تحققها عبر الزمان، ولا تنحصر في فترة من التاريخ ولا في جيل من الأجيال.

●● والوضع في الحديث النبوي، والكذب على رسول الله ﷺ، مما تشتمل عليه هذه النبوءة:

وقد ظهر في مرحلة مبكّرة من تاريخنا، (والكذبُ على دين الله من أقبح المنكرات، وأولُ ذلك نسبةُ شيء إلى الله أو إلى رسوله ﷺ لم يقلْه. وهذا الضرب من الافتراء فاحشٌ في حقيقته، وخيمٌ في نتيجته)[١].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

ويقول سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

---

(١) خلق المسلم، ص٣٦.

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ كَذِباً عَلَيَّ ليسَ كَكَذِبٍ على أحدٍ، فَمَن كَذَبَ عليَّ مُتَعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعدَه من النارِ**»(١).

وتُعْرَف الأحاديث الموضوعة بأمور كليَّة، منها(٢):

١ ـ اشتمال الحديث الموضوع على المجازفات التي لا يقول مثلَها النبي ﷺ.

٢ ـ وتكذيبُ الحسّ له.

٣ ـ وسماجَتُه وكونُه مما يُسْخَر منه.

٤ ـ ومخالفته صريحَ القرآن.

٥ ـ ومناقضته لِما جاءت به السنَّة النبوية الصحيحة الصريحة.

٦ ـ وأن يُدَّعَى أن رسول الله ﷺ فعل أمراً ظاهراً بمحضر الصحابة وأنهم اتفقوا على كتمانه ولم ينقلوه.

٧ ـ وأن يكون الحديث مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه.

٨ ـ وركاكة ألفاظه وسماجتُها.

وبداية الوضع والكذب في الحديث النبوي كانت على وجه التقريب بعد سنة (٤٠هـ)، بعد فتنة مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ثم فتنة (الجمل) و(صفين) واستشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على يدي الخوارج.

وتنوَّعت البواعث التي أدَّت إلى الوضع، ويمكن إجمالها فيما يلي(٣):

---

(١) أخرجه من حديث المغيرة: البخاري (١٢٩١)؛ ومسلم (٤)؛ وغيرهما. وهو حديث متواتر.

(٢) انظر: مثلاً: المنار المنيف، لابن القيم، ص٥٠ ـ ١٠٢؛ السنة ومكانتها في التشريع، ص٩٨ ـ ١٠٢.

(٣) انظر: مثلاً: السنة ومكانتها في التشريع، ص٧٨ ـ ٨٨؛ منهج النقد في علوم الحديث، ص١٠٢ ـ ١٠٧.

١ ـ الخلافات السياسية.

٢ ـ الزَّندقة؛ وهي كراهية الإسلام ديناً ودولة.

٣ ـ العصبية للجنس والقبيلة واللغة والبلد والإمام.

٤ ـ القصص والوعظ.

٥ ـ الخلافات الفقهية والكلامية.

٦ ـ الجهل بالدين مع الرغبة في الخير كما يصنع الزهَّاد والمتصوِّفة.

٧ ـ التزلُّف للملوك والأمراء بما يوافق هواهم.

وقد بذل فرسان الرواية وجهابِذة المحدِّثين ونقَّاد الأخبار وعلماء الرجال جهوداً خارقة لحماية السنَّة وصيانتها ونفي الأكاذيب والأباطيل عنها، فصنَّفوا في أسماء الوضَّاعين والضعفاء والمتروكين، والأحاديث الضعيفة والواهية والموضوعة، فحفظ الله تعالى بهم السنَّة، وامتاز الحق من الباطل، والصحيح من الواهي والمكذوب.

ومع كل ذلك فإن الأحاديث الواهية والموضوعة كانت ولا تزال تشيع على ألسنة العامة، والقُصّاص والوعاظ والخطباء، بل والكتاب ومن يتصدَّى للمحاضرات والتحدّث في القنوات الفضائية وغيرها من وسائل الإعلام! والخَطْب في هذا كبير، والضرر عظيم، لأنه يطير في الآفاق، وأمثال هؤلاء يُخاف عليهم أن يَشملهم قولُ النبي ﷺ: **«مَنْ حَدَّثَ عنِّي بحديثٍ يُرَى أنَّه كَذِبٌ؛ فهو أحدُ الكاذِبِيْن»**(١)، وقوله ﷺ: **«إيَّاكُم وكثرةَ الحديثِ عنِّي، فَمَن قال عَلَيَّ فليقلْ حقّاً أو صِدْقاً، ومن تَقَوَّلَ عَلَيَّ ما لم أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ معقدَهُ من النارِ»**(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة، ص٩، باب (١)؛ والترمذي (٢٦٦٢)؛ وابن ماجه في المقدمة (٣٩)؛ وأحمد: ٥/ ٢٠؛ وابن حبان (٢٩).

(٢) أخرجه عن أبي قتادة: ابن ماجه (٣٥)؛ وأحمد: ٥/ ٢٩٧؛ والطحاوي في شرح المشكل =

قال ابن حبان: (وإني خائفٌ على مَن روى ما سمع من الصحيح والسَّقيم أن يَدخل في جُملة الكَذَبة على رسول الله ﷺ، إذا كان عالماً بما يروي)[١].

وسأل الترمذيُّ شيخَه عبد الله بن عبد الرحمن الدارِمِيَّ عن معنى حديث «**مَن حدَّث عني بحديث وهو يرىٰ أنه كذبٌ...**»، فقال الإمام الدارمي: (معنى هذا الحديث: إذا روىٰ الرجلُ حديثاً، ولا يُعْرَفُ لذلك الحديث عن النبي ﷺ أصلٌ، فَحَدَّثَ به، فَأخافُ أن يكون قد دَخَل في هذا الحديث)[٢]!.

ومما أدخله الدجَّالون والكذَّابون على الدين مما ليس منه، ولم يسمعه الناس من الصحابة والسلف الصالح، ولا يعرفه المسلمون مما جاء به الدين الحق:

●● **ما يزعمه الرافضة**: من (الوصية) لعلي بن أبي طالب وأن الصحابة كَتَمُوا النصّ، وأنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ غير نفر يسير.

وأن عليّاً اختصَّه رسول الله ﷺ بعلوم من غيره من الصحابة، وأنه كان عنده علم باطن امتاز به عن أبي بكر وعمر وغيرهما.

وأن عندهم علوماً وأسراراً وحقائق ورثوها عن آل البيت[٣].

وضاهَأهُم في ذلك الكذبِ المدعو (محمد عيسى داود) الذي زَعم أن عليّاً تلقَّى العلوم الظاهرة والباطنة من النبي ﷺ، وكذا الأسرار الغيبيةَ المتعلِّقة بكل ما يحدُث في العالم حتى يوم القيامة، ثم إن عليّاً (لَغَّزَ) هذه العلوم بالرموز والحروف المقطَّعة والأشكال الخاصة، وادَّعى أن ذلك لا يطَّلع عليه إلا ورثة علم سيدنا علي من آل البيت الشريف[٤].

= (٤١٣) و(٤١٤)؛ والحاكم: ١/ ١١١؛ وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٧٥٣)؛ وقواه شعيب الأرنؤوط.

(١) كتاب المجروحين: ١/ ١٦.

(٢) سنن الترمذي، عقب الحديث (٢٦٦٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٤/ ٧٧، ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٤) كتابه: المفاجأة، ص٥٨ ـ ٥٩؛ وانظر: فقه أشراط الساعة، ص١٢٣.

●● **وما ادعاه القائلون بالقدَر** من أن الأمر أُنُفٌ، وأن الله سبحانه لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها.

وما زعمتْه **المرجئة** من أنه لا يضرُّ مع الإيمان معصية.

وما جاء به **المعطِّلة والمجسِّمة** مما خالفوا فيه أهل السنَّة في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى.

وما افتراه **منكرو حجية السنَّة**، وأن السنَّة غير ثابتة، وأن الإسلام هو القرآن وحده.

وأيضاً ما طرأ على العقيدة الإسلامية من مذاهب **المعتزلة** وزعمهم بأن **(القرآن مخلوق)**، وغير ذلك من بدعهم.

ثم ما التاثَ به الفكر الإسلامي بسبب دخول **الفلسفة والمنطق اليونانيين ونشوء علم الكلام**، وما خاضَ الناس فيه من جدال طويل مظلم، وبحثوا في الإلٰهيات والذات والصفات، مما لم يكن في عهد الصحابة وسلف الأمة ولم يسمعوا به، مما ينافي هدي الدين الحنيف.

وما دخل علينا من أعمال **التصوف وفلسفة الإشراق الروحي**، ودعاوى الكشف ووحدة الشهود ووحدة الوجود.

●● **وكذلك الذين يدَّعون معرفة المُغَيَّبات مستدلِّين عليها باستخدام حروف أبي جاد:**

وأربابُ هذه الطريقة يزعمون أن لهذه الحروف علاقةً ورابطةً قوية بحياة الإنسان ومستقبله، وبالكون وما يحدُث فيه من الحوادث، ويزعمون أنهم يعرفون حوادث هذا العالم من هذه الحروف، وطريقتُهم في ذلك: أنَّهم يكتبون حروفَ أبي جاد، ويجعلون لكل حرف منها قَدْراً من العَدد معلوماً عندهم، ويُجْرون على ذلك أسماءَ الآدميين، والأزمنة، والأمكنة، وغيرها، ثم يُجْرون على هذه الأعداد عمليةً حسابية من جمع وطرح بطريقة ما، ويُنسب العدد الباقي من هذه

العملية إلى الأبراج الاثني عشر، ثم يَقضُون بالسُّعود والنُّحوس، وبأوقاتِ الحوادث والملاحم، وبِمُدَد المُلك وأعمارِ الناس، إلى آخر ذلك من أمور الغيب[١].

قال ابن تيمية: (فلهذا تجد عامة مَنْ في دينه فساد يَدخل في الأكاذيب الكونية، مثل أهل الاتحاد، فابن عربي ـ في كتاب «عنقاء مُغْرِب» وغيرِه ـ أخبر بمستقبلات كثيرة عامَّتها كذِب، وكذلك ابن سَبْعِين، وكذلك الذين استخرجوا مدة بقاء هذه الأمة من حساب الجُمَّل من حروف المعجم الذي ورثوه من اليهود، ومن حركات الكواكب الذي ورثوه من الصابئة، كما فعل أبو نَصْر الكِنْدي وغيره من الفلاسفة، وكما فعل بعض من تكلَّم في تفسير القرآن من أصحاب الرازي)[٢].

ومن الأكاذيب التي لم يعرفها المسلمون من هدي كتابهم ولا من سنَّة نبيِّهم ﷺ؛ ما يسمِّيه الرافضة (**علم أسرار الحروف**)، وأهم مؤلَّف فيه عندهم (**كتاب الجَفْر**) المنسوب كَذِباً إلى جعفر الصادق، ونسبته إليه كَذِبٌ عليه باتفاق أهل العلم.

والجَفْر من أولاد الماعِز: ما بَلَغ أربعة أشهر، والمرادُ هنا جِلْد المعز الذي كُتب فيه، وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفر الصادق ﷺ كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوباً عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه هارون بن سَعْد العِجْلي ـ وهو من غُلاة الرافضة ـ وسمَّاه (الجَفْر) باسم الجلد الذي كُتب فيه[٣].

---

(١) انظر: فقه أشراط الساعة، ص١٤٨؛ التنجيم والمنجمون، للدكتور عبد المجيد سالم المشعبي، ص٣١١ ـ ٣١٨.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ٨١ ـ ٨٢.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٤/ ٧٨ ـ ٧٩؛ الفتاوى الكبرى: ١/ ٣٣٢؛ وأبجد العلوم: ٢/ ٢١٤ ـ ٢١٦ ولقطة العجلان، كلاهما لصديق حسن خان؛ ومجلة المنار: ٤/ ٦٠، للسيد رشيد رضا.

ويتشبَّثون بما رواه الكُلَيْني عن أبي عبد الله جعفر الصادق أنه قال: (وإنَّ عندنا الجَفْرَ، وما يُدريهم ما الجَفْر؟ فقيل له: ما الجَفرُ؟ قال: وعاءٌ من أَدَم فيه علمُ النبيِّين والوَصِيِّين، وعلمُ العلماء الذين مَضَوا من بني إسرائيل)[(١)].

وهذا من أكاذيب الرافضة وافتراءاتهم على آل بيت رسول الله ﷺ.

●● وقل مثل ذلك فيما حَفَل به تاريخنا من فرق وأهواء ودعوات ومذاهب ومِلَل ونِحل كثر عندها الكذب والتدجيل والتحريف والتزوير والافتراء على دين الله، مما لا يرتاب عاقل بانضوائهم تحت عموم قوله ﷺ: «**سيكون في أمتي دجّالون كذّابون يحدثونكم ببدع من الحديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم**».

●● ويتضح مصداق النبوءة في عصرنا في ميادين عديدة ومجالات كثيرة:

١ ـ التيارات الفكرية والمذهبية والعقائد الهدّامة، التي تسعى لاجتيال المسلمين واغتيال هويتهم وإبعادهم عن دينهم وتلويث عقولهم وقلوبهم وسلوكهم بما لم يسمعوه هم ولا آباؤهم ولا أسلافهم. . .

٢ ـ وتيارات الانحلال الخُلقي ونشر الرذيلة والأدب المفضوح تحت اسم الحرية ومحاربة الكَبْت.

٣ ـ ودعوة فصل الدين عن الدولة، وأنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين.

٤ ـ وتطويع الإسلام ومبادئه وأحكامه والتلاعب بنصوصه؛ لتتواءم مع الأفكار الغربية والشرقية والنظم الوضعية، في إطارٍ مزعومٍ من التجديد وحيوية الإسلام وقدرته على مسايرة روح العصر والحداثة، والهدفُ تفريغُ الإسلام من محتواه.

(١) الأصول من الكافي: ١/ ١٨٦.

٥ ـ تجديد الفكر الديني والخِطاب الإسلامي لقبول أفكار الاستعمار الحديث والعولمة وإلغاء الجهاد وذوبان الشخصية للتوافق مع الآخر.

٦ ـ الفتاوى الضالة من ذوي القلوب المريضة والعقول الملتاثة.

٧ ـ استحلال المحرّمات وتزيين المنكرات وتسمية الأشياء بغير مسمياتها: فالخمر: مشروبات روحية، والربا: فائدة، والعري: تطور وحرية شخصية، ومروِّجات الفن الهابط: نجوم.

٨ ـ (الكَهَنَة الجُدُد)، وهم أولئك المشعوِذون الدجَّالون الذين يدَّعون علمَ الغيب، فيقرؤون (الأبراج) ويُخْبرون الناس بالسعود والنحوس والغنى والفقر والأفراح والأتراح وغير ذلك، وقد فُتحت لهم ـ للأسف ـ أبواب القنوات الفضائية لينشروا في الآفاق بين السُّذَّج والعوام والبطّالين السحرَ والكفرَ، حتى إني سمعت أحدهم يقول لسامعيه وسائليه: إني أعلم (Total) ـ أي: مجموع ومجمل ـ ما في السنة القادمة! وكذب والله في ذلك.

كل ماسبق وما يجري مجراه هو من الدجل والأضاليل والأكاذيب، التي يسوقها مروِّجوها وينشرونها بين المسلمين، مما لا يعرفونه من دينهم، ولم يسمعوه في الخبر الصادق عن أسلافهم وصحابة نبيِّهم ﷺ.

●● ومما يدخل في هذا الباب تحت هذه النبوءة ما اقترفَتْه أقلام بعض (الكتّاب!) الذين صنَّفوا في (أشراط الساعة)[1]:

فتلاعبوا بنصوصها، وعبثوا بمدلولاتها، ونشروا في (كتبهم) من الأغلوطات

---

(١) تتبَّع الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم كثيراً من كتب هؤلاء، وصَبَر نفسَه على قراءتها، ثم بيَّن أكاذيبهم وأضاليلهم في كتابه النافع «فقه أشراط الساعة». والحق أنني غبطتُ هذا الرجل على جَلَده واصطباره في قراءة ما كتبوه، فلقد قرأتُ بعضَ كتبهم فضقتُ بها وبهم ذَرْعاً؛ لأن عقلي وقلبي لم يطيقا الاستمرار في متابعة قراءة الهرطقة والكذب والدجل الذي بثُّوه فيها، والذي هانت أمامه الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة!.

والأضاليل والأكاذيب ما يستحقون عليه الحَجْر؛ استصلاحاً للديانة، ودَرْءاً لِما يفسدونه من عقول القراء والعامة، وما يفترونه على الله ورسوله ودينه! فإن ما ذكروه في كتبهم فاقَ (الإسرائيليات) التي انتشرت في كتب التفسير والتاريخ والسير، وزادت عليها جرأة وتألّياً على الحقيقة!.

●● **فمحمد عيسى داود** في كتابه «احذروا المسيخ الدجال»[١] يزعم أن (النطفة التي تخلّق منها المسيخ الدجال شاركَ فيها الشيطانُ، فهو مُهَجَّن، أو خليط بين الإنس والشيطان، فهو من مواليد الحيض، وأبوه أتى أمه في الحيض، وحدث الحمل الشيطاني، ويَحتمِل جدّاً أن يكون أباه[٢] ابن أمه، فهو في النهاية مولَّد عن زنىً خطير)[٣].

وأمَّا عُمُر الدجّال وميلادُه، فيُخْبرنا الكاتب بذلك فيقول: (وربما ـ والله أعلم ـ يكون عمره يزيد على ١٥٠٠ سنة، فهو الشبيه البشري بإبليس، أو هو النسخة البشرية من إبليس، ولو شبَّهنا إبليس بمادة، فالمسيخ الدجال هو القنينة، فما هو إلا جسد يؤدي مهمة المسيخ، وإن كنتُ أرجِّح أنه من مواليد القرن السابع عشر الميلادي، وعلى أقصى تقدير السادس عشر، والله تعالى أعلم)[٤].

ويضيف: (وربما ـ والله أعلم ـ يكون من مواليد سورية، لكنني أرجِّح أنه يمني المولد)[٥].

ثم غيَّر اجتهاده فقال في كتاب آخر له: (كذلك هداني الله ﷻ إلى أنه من مواليد الشام، وبالذات من السامرة بفلسطين)[٦].

---

(١) الصواب (المسيح)، ومن قال: (المسيخ) فقد صَحَّف كما نبَّه على ذلك الحافظ في الفتح: ٣/٣٠٦ شرح الحديث (٨٣٢)، ١٦/٤٢٩ شرح الحديث (٧١٢٥).
(٢) هكذا أثبتها الكاتب، وتلامذة المرحلة الابتدائية يعرفون أن الصواب (أبوه)!.
(٣) احذروا المسيخ الدجال، ص١٦.
(٤) المرجع السابق، ص٢١.
(٥) المرجع السابق، ص٢٣.
(٦) ما قبل الدمار، ص١٩٤.

ويَسبح الكاتب بقرَّائه في (عالم الدجل) عن (الدّجال)، فيقول: (والمسيخ الدّجال رجلٌ تعلَّم في مصر الفراعنة، وبَرَع في علوم الكهانة، والنجوم، والسحر، والهندسة بكل فروعها، والطب بكل فروعه، حتى علوم النبات، والحيوان، والمعادن، والفيزياء، والكيمياء، والرسم...)[١].

لكنه خالَفَ نفسه في كتابه الآخر فذكر أن الدجال تعلَّم تلك العلوم وبَرَع فيها في إنجلترا[٢].

ويدَّعي أن الريح أخذت الدجال إلى بلاد الإنجليز والإيرلنديين والاسكتلنديين، ثم بلاد الفرنسيين، ولم يطب له المقام فيها، فعاد إلى أمريكة الجنوبية، ورسا هذه المرة على شاطئ بورتريكو[٣].

ثم يدَّعي أن المسيح الدجال (رجل سيظهر في ثوب حاكم، أو رئيس دولة، وغالباً ستكون الولايات المتحدة الأمريكية)[٤].

ويتابع اكتشافاتِه عن الدجال فيذكر أنه (تحالَفَ مع إبليس، ووقَّعاً عقداً كتابيّاً بينهما، واتفقا على إنشاء قصر مركزي لإبليس قرب برمودا، على أن يكون مقرّاً مؤقّتاً للدجال، يُدير منه شؤونَ الكرة الأرضية)[٥].

وبإشارةٍ من إبليس بنى (قاعدة رهيبة، عبارة عن قلعة هائلة منيعة في مثلث برمودا، واستوحى التصميمَ المعماري لها من الهرم الأكبر والنجمة السداسية الإسرائيلية. وهذه القلعة الرهيبة يتواصل اتساعُها وتمدُّدُها، وبناء جدرانها: أجزاء من الفولاذ وأخرى من الزجاج غير قابل للكسر ولا للتحطيم)[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٩.
(٢) احذوا المسيخ الدجال، ص٢٩.
(٣) الخيوط الخفية، ص٧٧.
(٤) احذوا المسيخ الدجال، ص٣٣.
(٥) الخيوط الخفية، ص٨٩ ـ ٩٠.
(٦) احذروا المسيخ الدجال، ص٤٨ ـ ٤٩.

وجَنحتْ به تخيُّلاتُه وتخرُّصاتُه، فادَّعَى أن المسيح الدجال قد (تحكَّم في سرعة الرياح بأجهزة إشعاعية، وتحكم في الذبذبات، واخترع أجهزة إشعاعية تلوِّن الهواء باللون الذي يريد، بل أجهزة أخرى تصنع حوائط هلامية في الهواء؛ كألواح من زجاج.

واخترع طواحين هوائية ذات أجهزة شافطة وجاذبة، لدرجة إمكانية جذب عدة طائرات أو سفن ضخمة للاستيلاء عليها.

وللرجل بقلعته الهائلة إدارات، ومعامل، ومصالح، حتى الجوازات، وعنده أجهزة إرسال، وتشويش، وبثّ، وشلّ، فلو أراد أن يوقِف الإرسال في تلفزيونات الأرض كلها لأوقفها!)(١).

ويُقْسم بالله غيرَ حانثٍ أن (الأطباق الطائرة) من اختراع الدجال، وفيها رجاله(٢).

إن هذا الرجل قد ذكر كثيراً جدّاً من التفصيلات عن الدجال مما لم يقلْه النبي ﷺ ولا عَلمه عنه أصحابُه الكرام، فهل هذا (الكاتب) أعلم بالدجال من رسول الله ﷺ؟!.

سبحانك هذا بهتان عظيم!.

●● ويذهب **هشام كمال** إلى أن (الحمار الذي سيمتطيه الدجال ما هو إلا طبق طائر صنعَتْه له الشياطين).

ويقول في موضع آخر: (تفاصيل ما كشفت عنه الشياطين في جلسات تحضير الأرواح عن مجيء المسيح الدجال على طبق طائر)(٣).

●● وهذا كاتب آخر هو **فهد سالم** يجزِم بأن الدجال يزعم أنه مسلم، وأنه

---

(١) المرجع السابق، ص٥١.

(٢) المرجع السابق، ص٥٩.

(٣) اقترب خروج المسيح الدجال، ص١٥٦، ١٥٩.

يُعطَى الرئاسة في إيران قبل ظهور المهدي، بل يلمِّح ثم يصرِّح بأنه (محمد خاتمي) ويسميه (آية الله جورباتشوف)[١].

ثم يحدِّد بدقة موعدَ خروج المسيح الدجال فيقول: (في ١٥ شعبان ١٤٢٠هـ، الموافق ٢٣ نوفمبر ١٩٩٩م، يخرج المسيح الدجال بفتنته الكبرى؛ حيث يدَّعي الألوهية، ويُظهر المعجزات لفتنة الناس)[٢].

ما هذا التَأَلِّي على الله تعالى والافتراء على رسوله ﷺ والاستخفاف بعقول القرّاء؟!.

●● ويدعي **سعيد أيوب** أن المهدي المنتظر هو: الرئيس العراقي صدام حسين![٣].

والدكتور **أحمد حجازي السقا** في في كتابه «هرمجدون» يقطع بأن صدام حسين هو (السُّفْيَاني)[٤].

●● ويقول **الدكتور فاروق الدسوقي** في كتابه «البيان النبوي»: (السُّفياني سينتصر على كل مَنْ يحاربه، ويملك بعد دخول فلسطين وتحرير القدس مثلَ مُلْك بُخْتَنصّر ملكِ بابل القديم، الذي حكم المنطقة كلها).

ثم يقول: (فهل هذا هو مُلك الرئيس العراقي صدام حسين، جابر قلوب الأمة الإسلامية المنكسرة، الأزهر، سليل الفاتحين، محرِّر القدس في زمان الإفسادة الأخيرة، المبعوث من شاطئ دجلة (تكريت) ليطهِّر بمائه القدسَ من رجاسات اليهود؟!.

حماك الله يا صدام حتى تشفي صدور المؤمنين...)[٥].

---

(١) أسرار الساعة وهجوم الغرب، ص٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٦.

(٣) فقه أشراط الساعة، ص٦١.

(٤) هرمجدون حقيقة أم خيال، ص١٩.

(٥) البيان النبوي، ص٨٤.

•• وفي كتاب «الحرب العالمية الثالثة بين الإسلام والغرب» وهو منسوب للدكتور **عبد الناصر مدبولي الخضري**، يزعم فيه: (أن المهدي المنتظر سيخرج في صيف (١٩٩١م)/ (١٤١١ ـ ١٤١٢هـ)، وأن بداية الحرب القادمة بين اليهود والعالم الإسلامي ستقوم في نهاية (١٩٩٣م)، وفيها سُيباد ثلثا اليهود، وأن المسلمين سيحررون فلسطين قبل نهاية القرن القادم (٢٠٠٠م)، وأن الدجال سيخرج سنة (٢٠٠٠م)، وأن موعد قيام الساعة لن يتجاوز سنة (٢٠٣٠م) بحالٍ من الأحوال!)[١].

هذه أمثلة قليلة جدّاً من ذلك الغثاء الكثير الذي جادت به (قرائح) أولئك (الكتّاب) من الكذب والدجل، والقول بغير علم، والرجم بالغيب، والتألي على الله سبحانه والافتراء على دينه ونبيِّه ﷺ والاستخفاف بعقول الأمة.

وهؤلاء وأمثالهم وما كتبوه من أظهر الأدلة على مصداق النبوءة التي نتحدث عنها، أولئك الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «**يكون في آخر الزمان دجّالون كذّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم**».

وما كتبتُه عنهم وأشرتُ به إليهم في هذه النبوءة ما أردتُ أشخاصَهم، وإنما قصدتُ النصيحةَ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (**الاستدلالُ بما لا تُعلم صحته لا يجوز بالاتفاق؛ فإنه قول بلا علم، وهو حرام بالكتاب والسنَّة والإجماع**)[٢].

ثانياً: دروس وعبر:

١ ـ لا يجوز للمسلمين عامة ولأصحاب الأقلام خاصة أن يقولوا بغير علم، فالكلمة أمانة، ورسول الله ﷺ رأى رؤيا فيها أشياء عجيبة، ومنها أنه أتى على

---

(١) فقه أشراط الساعة، ص٦٧.

(٢) منهاج السنة النبوية: ٧/ ٦٧ ـ ٦٨.

(رجلٍ مُسْتَلقٍ لقفاهُ، وإذا آخَر قائمٌ عليه بكَلُّوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أحدَ شِقَّيْ وجههِ فَيُشرشِرُ شِدْقَه إلى قفاهُ، ومَنْخَره إلى قفاه، وعينَه إلى قفاه. ثم يتحوَّل إلى الجانب الآخر فيفعلُ به مثلَ ما فعلَ بالجانب الأول، فما يَفْرُغ من ذلك الجانب، حتى يَصِحَّ ذلك الجانب كما كان، ثم يعودُ عليه فيفعلُ مثلَ ما فعل المرة الأولى)، يصنع به ذلك إلى يوم القيامة، وجاء تفسير هذا بأنه (كذَّاب يُحدِّث بالكَذْبةِ فتُحَمَلُ عنه حتى تبلُغَ الآفاقَ)[١].

٢ ـ مسؤولية الذين ينشرون هذه الأكاذيب كبيرة وعظيمة أمام الله تعالى وأمام الأمة؛ سواء أكانت دورَ نشرٍ، أو صحفاً ومجلاتٍ، أو محطاتٍ إذاعيةً، أو قنوات فضائية... فمخترِعُ الأكاذيب وناشرها ومروِّجها في الضرر سواء.

٣ ـ يتوجّب على المسلم أن يكون متيقِّظَ القلب ذكيَّ الفؤاد حصيفَ العقل، يميز السمين من الغَثّ، والحقَّ من الباطل، والصدقَ من الكذب، فلا تَرُوج عليه مثل تلك الافتراءات والأكاذيب السَّمِجَة، ويحفظُ عليه عقله ودينه، فهو مسؤول كذلك أمام الله وأمام دينه وأمته، ولا يجوز له أن يُسْلِم قيادَه لكل ما يقرأ، بل يتأمل وينظر ويفكّر وينقد، ويتخيَّر كُتب الصادقين العقلاء، ويطلب النصيحة من أهل الذكر، فالرسول ﷺ قد ذمَّ أقماعَ القول والإمَّعات!.

٤ ـ على العلماء العاملين، والكتّاب الغيورين، والدعاة المخلصين، والمفكّرين الناقدين؛ أن ينشروا الحق الصافي، ويربُّوا الأمة على هدي السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم، ويَفضحوا الأكاذيب ويكشفوا الأباطيل، ويُميطوا اللثام عن أوجه الدجّالين في كل ميدان، نصيحةً للأمة ووقايةً لها من أوضار الكذب والافتراء.

٥ ـ هديُ رسول الله ﷺ وصحابته ومن سار على نهجهم؛ فيه الصلاح

(١) أخرجه البخاري وغيره، انظر: تخريجه في هذا الجزء: ٤/ ١١١ حاشية (٣).

والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة. والأضرار المُهلِكة والفتن الماحقة جاءت من الانحراف عن ذلك الهدي والكذب عليه وتحريفه وتشويهه.

٦ ـ الكذب على رسول الله ﷺ موبقة كبرى وجناية عظمى، يتوجب إزاءها على كل متكلم باسم الإسلام ومناصحة الأمة أن يحتاطَ ويتورَّع ويفتِّش وينقِّب ولا يروي عن النبي ﷺ إلا ما صحَّ به النقل، ولا يكون حاطبَ ليل يصدِّق كل ما يقرأ، ويحدّث بكل ما سمع.

والمسؤوليةُ المناطة بالمتحدِّثين والخطباء والمدرِّسين والوعّاظ والمفتين ومن في سبيلهم كبيرةٌ وجليلة، فعليهم الاحتياط والتوقي حتى لا يقعوا في دائرة الكذب على رسول الله ﷺ برواية الأحاديث الواهية والباطلة والموضوعة.



(١٠)

إخبار النبي ﷺ بظهور ثلاثين دجَّالاً كلهم يزعم أنه نبي

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كذَّابُونَ قريبٌ من ثلاثينَ كلُّهُم يَزعُم أنَّه رسولُ الله**» لفظ البخاري ومسلم.

وفي رواية أبي داود وابن حبان: «**حتى يخرجَ ثلاثونَ دجَّالون كلُّهم يَزعمُ أنه رسول الله**».

وفي رواية لأحمد: «**حتى يَظْهرَ ثلاثون دجَّالون**».

وفي رواية للترمذي وأحمد: «**حتى يَنْبَعِثَ دجَّالونَ كذَّابون قريبٌ من ثلاثين**»[(١)].

٢ ـ عن ثَوْبَانَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّه سيكونُ في أمَّتي كذَّابُونَ ثلاثونَ، كلُّهم يَزْعُم أنَّه نبيٌّ، وأنا خاتَمُ النَّبيينَ لا نَبيَّ بَعْدي**».

وفي رواية ابن ماجه: «**إنَّ بين يديِ الساعةِ دجَّالينَ كذَّابينَ قريباً من ثلاثين**».

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٩) و(٧١٢١) في حديث طويل؛ ومسلم (١٥٧) ـ كتاب الفتن بعد الحديث (٢٩٢٣)؛ وأبو داود (٤٣٣٣)؛ والترمذي (٢٢١٨)؛ وأحمد: ٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، ٣١٣، ٤٥٧، ٥٣٠؛ وابن حبان (٦٦٥١)؛ والداني (٤٤١)؛ والبغوي (٤٢٤٤)، وغيرهم.

وفي رواية لابن حبان: «**وإنه سيخرُج من أمَّتي كذَّابون دجَّالون قريباً من ثلاثين**»[١].

٣ ـ وعن قتادةَ، عن أبي مَعْشَرٍ، عن إبراهيم النَّخَعيِّ، عن همَّام بن الحارث النَّخَعي، عن حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنهما؛ أن نبيَّ الله ﷺ قال: «**في أمَّتي كذَّابون دجَّالونَ سبعةٌ وعشرون، فيهم أربعُ نسوةٍ، وإنِّي خاتَمُ النَّبيِّين لا نَبِيَّ بعدِي**»[٢].

٤ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**بين يدي الساعة كذَّابون: منهم صاحبُ اليَمَامةِ، ومنهم صاحبُ صَنْعاء العَنْسيُّ، ومنهم صاحب حِمْيَر، ومنهم الدجَّال وهو أعظمُهم فتنةً**» قال جابر: وبعضُ أصحابي يقول: «**قريبٌ من ثلاثين كذّاباً**»[٣].

---

(١) أخرجه في حديث طويل: أبو داود (٤٢٥٢)؛ وابن ماجه (٣٩٥٢)؛ وأحمد: ٥/ ٢٧٨؛ وابن حبان (٦٧١٤) و(٧٢٣٨)، وأخرجه مختصراً: الترمذي (٢٢١٩)؛ والداني (٤٤٤)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٣٩٦؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٥٣)؛ والطبراني في الكبير (٣٠٢٦) والأوسط (٥٥٨٢)؛ والضياء في المختارة؛ وقال الهيثمي في (المجمع: ٧/ ٣٣٢): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح؛ وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/ ٤١٨ شرح الحديث (٧١٢١)، وقال: سنده جيد، وقال الألباني في الصحيحة (١٩٩٩): صحيح على شرط مسلم؛ وأما الشيخ شعيب في تعليقه على «شرح مشكل الآثار» فضعَّفه بأبي مَعْشر نَجِيح بن عبد الرحمن السِّنْدي! وأخطأ في ذلك غفر الله له، فأبو معشر في السند هنا ليس بالسندي، بل هو زياد بن كليب الكوفي كما بينه الألباني، وهو المعروف بالرواية عن إبراهيم النخعي، ويروي عنه قتادة وهو من أقرانه، ولا تُعرف لنَجيح رواية عن النخعي.

(٣) أخرجه أحمد: ٣/ ٣٤٥؛ والبزار (٣٣٥٧)؛ وابن حبان (٦٦٥٠)، وقال الهيثمي في (المجمع: ٧/ ٣٣٢): رواه أحمد والبزار، وفي إسناد البزار عبد الرحمن بن مغراء وثقه جماعة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح، وفي إسناد أحمد ابن لهيعة وهو لين، وصحَّحه ابن حبان، وقال شعيب: إسناده قوي.

أولاً: بين يدي هذه الأحاديث:

- «**حتى يُبعث**»: أي يَخرج ويَظهر، وليس المراد بالبعث معنى الإرسال المقارِن للنبوة، بل هو كقوله تعالى: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣].

وفي رواية الترمذي: «**ينبعث**»: أي يخرج.

- «**دجّالون كذّابون**»: الدَّجَل: التغطية والتمويه، والدجَّال مبالغة منه فهو من يُكْثِر الدجل. ويُطلَق على الكذب أيضاً، فعلى هذا «**كذّابون**» تأكيد.

- **عدد هؤلاء الكذابين:**

جاء في عدة أحاديث: «**كذّابون ثلاثون**» بالجزم.

وفي حديث جابر بن عبد الله: «**بين يدي الساعة كذّابون**».

وكذا في حديث جابر بن سَمُرَة عند مسلم: «**إن بين يدي الساعة كذّابين**»(١).

وفي حديث أبي هريرة: «**قريب من ثلاثين**».

وفي حديث حذيفة: «**سبعة وعشرون منهم أربعُ نسوة**»(٢).

وحديث حذيفة هذا فيه تحرير العدد، وهو المعتمد في بيان عدد الدجّالين الكذّابين الذين يدَّعون النبوة، ورواية الثلاثين بالجزم هي على طريق جَبْر الكسر، ويؤيد ذلك ما جاء في الرواية الأخرى: «**قريب من ثلاثين**»(٣).

- **وفي بعض الأحاديث جاء العدد أكثر من هذا:**

ففي رواية عبد الله بن عَمْرو عند الطبراني: «**لا تقوم الساعة حتى يَخْرُج سبعون كذّاباً**» وسندها ضعيف.

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٢٣).
(٢) انظر: الفتح: ١٦/ ٤١٨ شرح الحديث (٧١٢١).
(٣) الفتح: ١٦/ ٤١٨؛ ونقله عنه في تحفة الأحوذي: ٦/ ٧٧ ـ ٧٨.

وعند أبي يعلى من حديث أنس نحوه وسنده ضعيف أيضاً[١].

ـ **«كلهم يزعم أنه نبي»، «كلهم يزعم أنه رسول الله»**: وهذا ظاهرٌ في أن كلّاً منهم يدَّعي النبوَّة، وهذا هو السرُّ في قوله في آخر الحديث: **«وإني خاتَمُ النبيين»**.

ويَحتمِل أن يكون الذين يدَّعون النبوة منهم ما ذكر من الثلاثين أو نحوها، وأنَّ من زاد على العدد المذكور يكون كذّاباً فقط لكن يدعو إلى الضلالة، كغُلاة الرافضة والباطنية وأهل وحدة الوجود والحلولية وسائر الفِرق الدعاة إلى ما يُعْلَم بالضرورة أنه خلاف ما جاء به محمد رسول الله ﷺ. ويؤيده أن في حديث علي عند أحمد: (فقال علي لعبدِ الله بن الكَوَّاء: وإنك لمنهم)، وابن الكَوَّاء لم يَدَّعِ النبوة وإنما كان يغلو في الرفض[٢].

وليس المرادُ بالحديث مَن ادَّعى النبوة مطلَقاً، فإنهم لا يُحْصَون كثرةً، لكون غالبهم ينشأُ لهم ذلك عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكةٌ وبدتْ له شبهة، وقد أهلكَ الله تعالى من وقع له ذلك منهم، وبقي منهم من يُلحقه بأصحابه وآخرهم الدجّال الأكبر[٣].

ثانياً: ثلاثة أنواع للدجّالين بعضهم شرّ من بعض:

الدجّالون الكذابون في هذه الأمة والذين ظهروا على مسرح حياتها في تاريخها الممتد؛ عددهم كثير، وأكاذيبهم متنوعة، ومخاطرهم متفاوتة، بيد أن أقبَحَهُم قولاً، وأسوأهم فعلاً، وأضلَّهم سبيلاً، ثلاثة أصناف بعضهم شرٌّ من بعض: فمنهم مَن ادَّعى المهدوية، وآخرون ادَّعوا النبوة، وفريق ثالث ادَّعَوا الإلٰهية!.

---

(١) الفتح: ١٦/٤١٨. وحديث ابن عمرو: ذكره الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٥٨). وحديث أنس أخرجه أبو يعلى (٤٠٥٥)؛ والداني (٤٤٥).

(٢) الفتح: ١٦/٤١٨ ـ ٤١٩.

(٣) الفتح: ٨/٥٢٥ شرح الحديث (٣٦٠٩).

١ ـ بعض من ادعى الألوهية والربوبية:

أ ـ عطاء المُقَنَّع الخُراساني: قُتل سنة (١٦٣هـ)[١].

ب ـ محمد بن علي الشَّلْمَغَانيّ: نسبةً إلى (شَلْمَغَان) قرية من نواحي واسط، قُتِل سنة (٣٢٢هـ)[٢].

ج ـ الحاكم بأمر الله: قال الذهبي في ترجمته: (صاحبُ مِصر الحاكم بأمر الله، أبو علي منصورُ بن العزيز نزار بن المُعزِّ مَعَدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي، العُبيديُّ المِصريُّ الرافِضيُّ، بل الإسماعيليُّ الزِّنْديق المدَّعي الربوبية)[٣].

مولده في سنة (٣٧٥هـ)، وقُتلِ سنة (٤١٥هـ).

٢ ـ بعض من ادعى أنه المهدي:

أ ـ عُبيد الله والد الخلفاء الباطنية العُبيدية (الفاطمية كذباً): وهم كما يقول القاضي الباقلّاني: (قومٌ يُظْهِرون الرَّفْضَ، و يُبْطِنون الكُفرَ المَحْضَ).

توفي سنة (٣٢٢هـ)[٤].

ب ـ محمد بن عبد الله بن تُومَرْتَ: توفي سنة (٥٢٤هـ).

له ترجمة طويلة جدّاً في كتب التراجم[٥].

---

(١) وفيات الأعيان: ٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٥؛ تاريخ الإسلام ـ حوادث (١٦١ ـ ١٧٠هـ)، ص٣٥٨ ـ ٢٦٠؛ العبر: ١/ ١٨٤؛ الأعلام: ٤/ ٢٣٥.

(٢) وفيات الأعيان: ٢/ ١٥٥ ـ ١٥٦؛ اللباب: ٢/ ٢٠٦؛ تاريخ الإسلام ـ حوادث (٣٢١ ـ ٣٣٠هـ)، ص٢٤؛ العبر: ٢/ ١٤؛ الأعلام: ٦/ ٢٧٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٥/ ١٧٣.

(٤) وفيات الأعيان: ٣/ ١١٧ ـ ١١٩؛ تاريخ الإسلام ـ حوادث (٣٢١ ـ ٣٣٠هـ)، ص٢٢ ـ ٢٤؛ العبر: ٢/ ١٦؛ البداية والنهاية: ١١/ ١٧٩ ـ ١٨٠؛ الأعلام: ٤/ ١٩٧.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٥٣٩ ـ ٥٥٢، وفي الهامش مصادر ترجمته.

ج ـ **محمد بن يوسف الحسيني الجونبوري**: ادعى المهدوية في الهند (٩٠٥هـ)، وتوفي سنة (٩١٠هـ)[1].

د ـ **محمد بن عبد الله القَحْطَانيّ**: صاحب الفتنة المشهورة بالحرم المكي، حيث قاد مجموعة مسلحة استولت على الحرم الشريف في مستهل عام (١٤٠٠هـ)، وادَّعى أنه المهديّ، وبايعه أتباعُه بين الركن والمقام، وانتهت فتنتُه بمقتله، وقد عُطِّلت الصلاة في المسجد الحرام من ظهر الثلاثاء (١ محرم ١٤٠٠هـ) حتى عصر الخميس (١٧محرم ١٤٠٠هـ)، فمجموع أوقات الصلاة التي عُطّلت (٨٢) وقت صلاة[2].

وقد ذكر الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدَّم في كتابه «المهدي» عدداً آخر من مشاهير من ادَّعَى المهدية أو ادُّعِيت له.

٣ ـ الذين ادعوا النبوّة:

وهؤلاء هم مقصود حديثنا في هذه النبوءة.

ثالثاً: تحقق النبوءة:

ظهر مصداقُ هذه النبوءة في آخر زمن رسول الله ﷺ، فخرج الأسود العَنْسيُّ باليمن وقويتْ شوكته، وادَّعَى مُسَيْلِمة النبوة في حياة النبي ﷺ وقويت شوكته في أول خلافة أبي بكر. . وتوالى الكذَّابون مدّعو النبوة بعدهما، ولا يزالون يظهر منهم الواحد بعد الآخر حتى زماننا هذا.

فهذه من النبوءات التي تحققت على تراخي الزمن، وتستمر إلى قيام الساعة.

أما البَرْزَنْجي المتوفى سنة (١١٠٣هـ) فقد ذكر في كتابه «الإشاعة» عدداً

---

(١) الإذاعة، ص١٠٤؛ المهدي، للدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، ص٤٢٨ ـ ٤٣٠.

(٢) المهدي، للدكتور المقدم، ص٥٥٧ ـ ٥٦٥.

ممن ادّعى النبوة، ثم قال: (والحاصل أن عددَهم سبعةً وعشرين قد تمَّ أو كادَ يتمّ)[١].

وهذا غير صحيح، فقد ظهر بعد وفاة البَرْزَنْجي غير واحد من هؤلاء الدجاجلة، ويؤيد ذلك حديث سَمُرَةَ بن جُنْدُب: «**وإنَّه واللهِ لا تقومُ الساعةُ حتى يَخْرُجَ ثلاثون كذاباً آخِرُهم الأعورُ الدجَّالُ**»[٢].

ولهذا قال الحافظ: (وقد أَهْلَكَ الله تعالى من وقع له ذلك منهم، وبقيَ منهم من يُلحقه بأصحابه، وآخرُهم الدجَّال الأكبر)[٣].

١ ـ مُسَيْلِمة الكَذَّاب:

ادَّعى أنه شريكٌ في النبوة مع سيدنا رسول الله ﷺ، وعظُم أمرُه بعد وفاة النبي ﷺ، وأَطْبَق عليه أهلُ اليمامة وانضاف إليهم بشر كثير من أهل الردَّة.

وتصدى له المسلمون وقاتلوه تحت قيادة سيف الله خالد بن الوليد، وفَلُّوا جمعَه، وأطفؤوا فتنته[٤].

٢ ـ الأَسْوَد العَنسِيُّ:

عَبْهَلَة بن كعب بن غَوْث العَنْسي المَذْحِجي.. ارتدَّ عن الإسلام وادَّعَى النبوة، وغَلَب على صنعاء اليمن وغيرها، واستطار شرُّه، وقتَلَتْه عصابة من المسلمين منهم فيروز الدَّيْلُمي، وأعانهم على ذلك تدبيرُ امرأة الأسود، وكانت مؤمنة صالحة[٥].

---

(١) الإشاعة، ص٨٦.

(٢) أخرجه مطولاً: أحمد: ٥/ ١٦؛ والطبراني في الكبير (٦٧٩٨)؛ وابن حبان (٢٨٥٦)؛ والحاكم: ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وصحَّحه الحافظ في الإصابة: ٤/ ٢٧ ترجمة (أبي تِحْيَى)، وانظر: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، ص١٦٥ ـ ١٧٠.

(٣) الفتح: ٨/ ٥٢٥.

(٤) انظر: تفصيل خبره في: النبوءة (١١٢).

(٥) انظر: تفصيل خبره في: النبوءة (١١٢).

٣ ـ طُلَيْحَة بن خُوَيْلِد الأَسَديّ:

صحابيّ بطلٌ كرَّار يُضرب المَثل بشجاعته، وكان يُعَدُّ بألف فارس، أسلَم سنة تسع، ثم ظَلم نفسَه فارتدَّ وادعى النبوة بنَجْد، وتمَّتْ له حروب مع المسلمين، ثم انهزم وخُذِل، ولَحِق بآل جَفْنَة الغسَّانيين بالشام، ثم ارعوى وأسلم وحَسُن إسلامه لمَّا توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم شهد الفتوح زمن عمر، فشهد القادسية، ونهاوند وأبلى فيها بلاء عظيماً واستشهد يومها رضي الله عنه وسامحه(١).

٤ ـ سَجَاح بنت الحارث التَّمِيميّة:

ادَّعت النبوة زمن الردَّة في عهد أبي بكر، وكانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار، رفيعةَ الشأن في قومها، وكانت في بني تغلِب بالجزيرة ـ بين دجلة والفرات ـ ولمَّا تنبأت تبعها جمعٌ من عشيرتها بينهم بعض كبار تميم، وأقبلت بهم من الجزيرة تريد غزو أبي بكر، فنزلت اليمامة، وتزوَّجت مسيلِمة، وأقامت معه قليلاً ثم رجعت إلى بلادها. ثم بَلَغها مقتلُ مسيلمة، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها نحو سنة (٥٥هـ)(٢).

٥ ـ المختار بن أبي عبيد الثقفي:

خرج في الكوفة وتغلَّب عليها، وأظهر محبَّة آل البيت، ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فتتبَّعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فأحبَّه الناس. ثم إنه زَيَّن له الشيطان أن ادَّعَى النبوة، وزعم أن جبريل يأتيه!.

أخرج أبو داود في (حديث خروج ثلاثين كذّاباً دجالاً) عن إبراهيم النَّخَعيِّ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/٣١٦ ـ ٣١٧؛ الفتح: ٨/٥٢٥؛ الإصابة: ٢/٢٢٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/٢٦٧ ـ ٢٧٥؛ البداية والنهاية: ٦/٣١٩ ـ ٣٢١؛ الإصابة: ٤/٣٣١؛ الأعلام: ٣/٧٨، وقد أورد المؤرخون في قصتها مجوناً وكلاماً غثّاً!.

قال: قلت لعَبِيدَةَ السَّلْماني: أَتَرى هذا منهم، يعني المختار؟ فقال عَبِيدة: أَمَا إنَّه مِنَ الرؤوس[١]!.

واستفحل أمره، فتصدَّى له مصعب بن الزبير، وكَسَر جيشه ثم قتله واحتزَّ رأسه وبعث به إلى أخيه عبد الله بن الزبير بمكة، وكان ذلك سنة (٦٧هـ)[٢].

٦ ـ الحارث بن سعيد الكذّاب:

متنبِّئ من أهل دمشق، يُعرف أتباعه بالحارثية، نشأ متعبداً زاهداً، ثم ادعى النبوة، فكان يجيءُ أهلَ المسجد رجلاً رجلاً فيأخذ عليهم الميثاق إذا رأوا ما يُرضِيهم قبِلوا وإلا كَتَموا أمره ثم يُريهم الأعاجيب: يأتي إلى رخامة فينقرها بيده فتسبحٌ، ويُطْعِمهم فاكهة الصيف في الشتاء، ويُظهر لهم خيالات يقول: إنها الملائكة.

تبعه خلق كثير، ووصل خبره إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، فبعث في طلبه فلم يقدر عليه، فخرج عبد الملك وعجز عنه، ثم عَلم أنه اختفى في بيت المقدس، فأرسل إليه من احتال عليه حتى تمكن من الإتيان به، فصَلَبَه وقتله. وكان ذلك في سنة (٦٩هـ)[٣].

٧ ـ الصَّنَاديقيُّ:

خرج سنة (٢٠٧هـ) باليمن واستولَى عليها، وادَّعَى النبوة، وتبِعه خلق وارتدُّوا عن الإسلام، وقَتَل النساء والولدان، وسَبَى، ثم أهلكه الله بالطاعون[٤].

---

(١) سنن أبي داود (٤٣٣٥).

(٢) انظر: تفصيل خبره في: النبوءة (١١٣).

(٣) تاريخ الإسلام ـ حوادث (٦١ ـ ٨٠هـ)، ص٣٨٦ ـ ٣٩٠؛ مختصر ابن عساكر: ٦/ ١٥١ ـ ١٥٤؛ لسان الميزان: ٢/ ١٥١ ـ ١٥٢؛ الأعلام: ٢/ ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٤) تاريخ الإسلام ـ حوادث (٢٠١ ـ ٢١٠هـ)، ص٢٣؛ سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٨٥.

٨ ـ صاحب حمير:

جاء ذكره في الحديث، ولم أقف على اسمه أو تفصيل خبره.

٩ ـ المُتَنَبِّي الشاعر الشهير:

ادَّعَى النبوَّة في بادية السَّماوة ـ بين الكوفة والشام ـ فتبِعه خلقٌ كثير من بني كَلْب وغيرهم، فخرج إليه (لؤلؤ) أميرُ حمص ونائب الإخشيد، فأَسَره، وتفرَّق أصحابه، وحَبَسه طويلاً، ثم استتابه، فتابَ ورجع عن دعواه، فأطلقه.

وأورد الخطيب في ترجمته من «تاريخ بغداد» بعضَ ما زَعَم أنه (قرآن!) أُنزل عليه[1].

●● وخرج جماعة في خلافة بني العباس، لم يكن لهم كبيرُ خطرٍ، وماتوا وذهبتْ أكاذيبهم معهم[2]:

ففي خلافة المستظهر بالله في سنة (٤٩٩هـ) ظهر رجل بنواحي (نَهَاوَنْد) فادعى النبوة، وتبعه خلقٌ وباعوا أملاكهم ودفعوها إليه، وكان ساحراً صاحب مَخَاريق، وأُخِذ وقُتل بنهاوند[3].

وخرج جماعة آخرون ببلاد المغرب وغيرها من الرجال والنساء؛ فمنهم رجل يُسمَّى (لا)، وحرَّف الحديث المشهور: «**لا نبي بعدي**».

ومنهم امرأة ادَّعَت النبوة، فذكروا لها الحديث، فقالت: إنما قال: «**لا نبيَّ**»، ولم يَقُلْ: «**لا نبيَّة**»[4]!.

---

(١) تاريخ بغداد: ٤/ ١٠٢ ـ ١٠٥؛ وفيات الأعيان: ١/ ١٢٠ ـ ١٢٥؛ سير أعلام النبلاء: ١٦/ ١٩٩ ـ ٢٠١، وفي هامشه مصادر ترجمته.

(٢) انظر: الإشاعة، ص٨٥ ـ ٨٦؛ الإذاعة، ص١٠٤.

(٣) المنتظم: ١٧/ ٩٥؛ العبر: ٢/ ٣٧٨.

(٤) الإذاعة، ص١٠٤.

١٠ ـ حسين علي نوري بن عباس (توفي ١٣٠٩ هـ/١٨٩٢م):

أسس الميرزا علي محمد رضا الشيرازي (١٨١٩ ـ ١٨٤٩م) مذهب (البابية)، وأعلن نفسه (الباب)، لأن الطريق إلى الله ـ بزعمه ـ يحتاج إلى واسطة؛ وهو هذه الواسطة، ففي كل عصر يجب أن يكون هناك (علي) يأخذ دور (الباب)؛ تطبيقاً لحديث «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابُها»[١].

ولما مات قام بالأمر من بعده (الميرزا حسين علي نوري) الملقّب (بالبهاء) أو (بهاء الله) وأسس الحركة (البهائية)، وله كتاب سمّاه (الأقدس)! توفي سنة (١٨٩٢م).

يعتقد البهائيون أن (الباب) هو الذي خلق كل شيء بكلمته، ويقولون بالحلول والاتحاد وتناسخ الأرواح، وأن الثواب والعقاب للأرواح فقط، ويقدّسون العدد (١٩).

ويقولون بنبوة بوذا وكونفوشيوس وبراهما وزرادشت وأمثالهم.

ويوافقون اليهود والنصارى في القول بصلب المسيح.

وينكرون معجزات الأنبياء، والجنة والنار.

ويحرِّمون الحجاب على المرأة ويُحِلّون شيوعية النساء والأموال.

ويؤوِّلون القيامة بظهور (البهاء).

وقِبلتُهم البيت الذي ولد فيه (الباب).

ويقولون بأن دين (الباب) ناسخ لشريعة محمد ﷺ.

وينكرون أن يكون محمد ﷺ خاتم النبيين، ويدَّعون استمرار الوحي[٢].

---

(١) حديث موضوع، ضعيف الجامع (١٣٢٢).

(٢) الموسوعة الميسرة، ص٦٣ ـ ٦٤؛ البهائية والقاديانية، للدكتور أسعد السحمراني؛ الأعلام: ٢/٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٥/١٧.

١١ ـ ميرزا غلام أحمد القادياني (١٨٣٩هـ/١٩٠٨م):

أحد الدجاجلة الكبار في العصر القريب، نشأ في عهد الاستعمار البريطاني للهند وفي رعايته، وادعى أنه المهدي المنتظر، ثم أنه عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم ادعى النبوة أخيراً، وأسس حركة خطيرة جدّاً هي (القاديانية).

وأهم الأفكار والمعتقدات عند القاديانية:

يعتقدون بأن الله سبحانه يصوم ويصلي وينام ويصحو ويكتب ويخطئ ويجامع!.. تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

يعتقدون بأن النبوة لم تُختم بمحمد ﷺ، بل هي جارية، ...وأن غلام أحمد أفضل الأنبياء.

ويعتقدون أن جبريل عليه السلام ينزل على غلام أحمد ويوحي إليه.

ويعتقدون بأن كتابهم منزل واسمه (الكتاب المبين) وهو غير القرآن الكريم.

ويعتقدون بأن (قاديان) كالمدينة المنورة ومكة المكرمة بل أفضل منهما، وأرضها حرم وهي قِبلتُهم وإليها حجُّهم.

ويقولون بإلغاء الجهاد، والطاعة العمياء للحكومة الإنجليزية.

وكل مسلم عندهم كافر حتى يدخل القاديانية.

ويبيحون الخمر والأفيون والمخدّرات والمسكرات.

وللقاديانية علاقة وطيدة مع (إسرائيل)، وقد مكّنَتْهم من إصدار مجلة تنطق باسمهم، كما فتحت لهم المراكز والمدارس.

يعيش معظمهم الآن في الهند وباكستان، وقليل منهم في (إسرائيل) والعالم العربي[1].

(١) الموسوعة الميسرة، ص٣٨٩ ـ ٣٩١؛ البهائية والقاديانية، للدكتور أسعد السحمراني.

١٢ ـ محمود محمد طه السوداني (١٩٨٥م):

نَبَغ في السودان، وادَّعى النبوة، وأضلَّ كثيراً من الناس بكتاباته ومقالاته.

وقد تصدَّت له الحكومة السودانية وأعدمَتْه في طليعة عام (١٩٨٥م)، بسبب كفره وردَّته[(١)].



(١) القيامة الصغرى، ص١٧٠.

إخبار النبي ﷺ بأن الكذب سيكثر ويفشو في الأمة

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تظهرَ الفِتنُ، ويَكْثُرَ الكَذِبُ، وتتقاربَ الأسواقُ، ويتقاربَ الزمانُ، ويَكْثُرَ الهَرْجُ**» قيلَ: وما الهَرْجُ؟ قال: «**القَتْلُ**»(١).

٢ ـ وعن جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: (خَطَب عمرُ الناسَ بالجَابِيَة، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قامَ في مِثْلِ مَقَامي هذا، ثم قال: «**أحْسِنوا إلى أصحابي، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونهم، ثم يَفْشُو الكذبُ، حتى إنَّ الرجلَ لَيَحْلِفُ عن اليمينِ قبل أن يُسْتحلَفَ عليها، ويشهدُ على الشهادة قبل أن يُسْتَشْهدَ عليها! فمن أرادَ منكم أن ينالَ بُحْبُوحةَ الجنَّة، فلْيَلْزمِ الجماعةَ، فإن الشيطانَ مع الواحدِ وهو من الاثنين أبْعَدُ. ألا لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بامرأة، فإن ثالثَهما الشيطانُ. ألا ومَن كان منكم تَسُوؤُهُ سيِّئتُه، وتَسُرُّه حسنتُه، فهو مؤمنٌ**»(٢)).

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ٥١٩، واللفظ له؛ وابن حبان (٦٧١٨)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان؛ والألباني في الصحيحة (٢٧٧٢).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٩١٧٥) واللفظ له؛ ومن طرق أخرى (٩١٧٦ ـ ٩١٨٢)؛ والترمذي (٢١٦٥)؛ وابن ماجه (٢٣٦٣)، والطيالسي، ص٧؛ وأحمد: ١/ ١٨، ٢٦؛ والحميدي (٣٢)؛ وابن حبان (٤٥٧٦) و(٥٥٨٦) و(٦٧٢٨)؛ والحاكم: ١/ ١١٤ ـ ١١٥، وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند، وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على ابن حبان، والألباني في الصحيحة (٤٣٠) و(١١١٦).

٣ ـ وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه قال: (كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى صلاة أقبلَ علينا بوجْهِه فقال: «**مَنْ رأى منكم الليلة رُؤيا؟**» قال: فإنْ رأى أحدٌ قصَّها فيقول ما شاءَ الله. فسأَلَنا يوماً فقال: «**هل رأَى أحدٌ منكم رؤيا؟**» قلنا: لا، قال: «**لكنِّي رأيتُ الليلةَ رجُلَيْن أتَيَاني، فأخذا بِيَدِي فأَخْرَجَاني إلى الأرض المُقَدَّسة، فإذا رجلٌ جالسٌ، ورجلٌ قائمٌ بيده كَلّوبٌ من حديدٍ يُدْخِلُه في شِدْقِه حتى يَبْلُغَ قفَاهُ، ثم يَفعلُ بشِدْقِه الآخَرِ مثلَ ذلك، ويَلْتئِمُ شِدْقُه هذا، فيعودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَه. قلتُ: ما هذا؟ قالا: انْطَلِقْ...**» فذكر حديثاً طويلاً فيه رؤى نبوية جليلة.

ثم قال النبي ﷺ: «**قلتُ طَوَّفْتُماني الليلةَ، فأَخْبِراني عمَّا رأيتُ، قالا: نَعَمْ؛ أمَّا الذي رأيتَهُ يُشَقُّ شِدْقُه فكذَّابٌ يُحدِّثُ بالكَذْبَةِ فَتُحملُ عنه حتى تَبْلُغَ الآفاقَ، فيُصْنَعُ بهِ ما رأيتَ إلى يومِ القيامةِ**»[(١)].

۞ ۞ ۞

أولاً: بيان تحقق النبوءة، وتبيان أنواع الكذب ومجالاته ومخاطره:

اشتملت هذه الأحاديث على عدة نبوءات صادقة جليلة، وقد تحدَّثنا عن كل منها في بابها الذي ينتظمها ومكانها المناسب لها.

والذي يعنينا هنا هو الحديثُ عن انتشار الكذب وفشوِّه في الأمة بصورة مُستقبَحة مستنكَرة، حتى عَمَّ وطَمَّ، واستطارتْ مساوئُه وتعالَتْ أضراره، وغَشي المجالسَ والنوادي، وابتُلي به الخاصة والعامة، حتى لكأنه أصبح شيئاً مألوفاً، وتوجَّب على المرء أن يتفحَّص كل ما يسمع ويقرأ للوقوف على صدقه وحقيقته! وهذا من البلاء العظيم الذي سقطت فيه الأمة، حيث تضاءل الصدق في منحنيات الحياة ومطاوي الأقوال وبواطن الأفعال.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦) واللفظ له؛ وأطرافه في رقم (٨٤٥)؛ وأحمد: ٥/٨ ـ ٩، ١٤ ـ ١٥؛ والطبراني في الكبير (٦٩٨٤) و(٦٩٨٥) و(٦٩٨٦) و(٦٩٩٠)؛ وابن حبان (٦٥٥)؛ والبغوي (٢٠٥٣)، وأخرجه مختصراً طائفة من الأئمة، انظر هامش ابن حبان.

ونرصدُ في حديثنا عن هذه النبوءة جملةً من الميادين الخطيرة التي استشرى فيها الكذب، ونسلّط الضوء على المحاور العامة في حياة الأمة والمجتمع، والتي تغلغل فيها الكذب وعَبَث بمصداقيتها وكرامتها؛ لنبرهنَ على صِدق تحقق النبوءة من جهة، وننبِّه من جهة أخرى على المخاطر الجَمَّة والأَرْزاء الكبيرة التي تترتب على فشوِّ هذه المُوبِقة الكبرى في مجتمعاتنا، وهو من باب تشخيصِ الداء، وإبرازِ أسبابه وأعراضه، وتبيانِ مخاطره؛ للاستعجال في أخذ البلسم الشافي والدواء الناجع.

١ ـ كذب الحكّام والمسؤولين على شعوبهم:

وهو داء عُضَال استشرى في دول الأرض عموماً والبلاد العربية والإسلامية خصوصاً، ويتجلَّى في الوعود الكاذبة، والشعارات الطنَّانة، وقلْب الحقائق، وتزوير الواقع، وتصوير حال الدولة والأمة على أنها في مصافِّ الدول المتقدمة أو على طريقها، وتوزيع التُّهم على البُرآء، وتبرئة المتَّهمين والمَغْمُوصِين، وتسويق الأهواء والرغبات والطموحات الشخصية على أنها لاستنهاض الأمة ومصلحة الشعوب، وإخضاع آلة الإعلام الرهيبة لتزيين كل رغباتهم وغاياتهم على أنها للصالح العام، وتكذيب كل ناقد ومصلح ومرشد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزكِّيهم ولا يَنظُرُ إليهم ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّابٌ، وعائلٌ مستكبِرٌ**»(١).

٢ ـ كذب النُّخب السياسية والناطقين باسم هذا الحزب أو ذاك التجمُّع أو تلك الجماعة والهيئة:

وهو أمرٌ (معلومٌ من الواقع بالضرورة!)، مشهودٌ في الأمم عامة وأمتنا

(١) أخرجه مسلم (١٠٧) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٢٣٦٧) و(٧١٠٠)، وفي الصغرى: ٥/ ٨٦؛ وأحمد: ٢/ ٤٣٣؛ وابن حبان (٤٤١٣) و(٧٣٣٧)؛ والبغوي (٣٥٩١) وغيرهم.

بخاصة، فيما نسمعه ونقرؤه ونشاهده من رموز التكتلات السياسية وأروقة البرلمانات وقادة الأحزاب ورؤساء التجمعات والنقابات والطامحين إلى كراسي المجالس النيابية والوطنية والبلدية... من منابر المسؤولية الكبرى والصغرى، والوعود المعسولة التي ينادُون بها وتُزخرِفها آلات الدعاية لهم، وتعليق آمال الشعوب المسكينة على برامجهم وخططهم ومساعيهم في الحرية والديمقراطية والمكاسب الاجتماعية ونصرة قضايا المرأة والعمال والفلاحين وعامة الشعب، فإذا وصلوا إلى مآربهم وقبضوا على مناصبهم، فاز الناس بالسراب!.

وكذلك كَذِبُ كثير من الأحزاب والجماعات والتجمعات في الشعارات التي يرفعونها، والأهداف الضخمة التي ينادون بها، مما تضجُّ به الساحة العربية والإسلامية على مدى نحو قرن، ولم تجنِ الأمة إلا الخسار والبوار!.

٣ ـ الكذب في الإعلام:

وهذا ميدان لا يُدرَك اتساعه ولا يُبلَغ شأوه، وروَّاده قد فاقوا في كذِبهم الأولين والآخرين، وتضاءل افتراءُ الجميع أمام افتراءاتهم وأكاذيبهم في الليل والنهار، والتي تنتشر في الآفاق ويسمعها عشرات الملايين!..

ويشمل ذلك ما يَفيض من الكذب في الصحف والمجلات والكتب والإذاعة والقنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية (الإنترنيت)، والكذبُ فيها لا يعلم مداه إلا الله تعالى، وقد تاه فيه العقلاء والحُصَفاءُ فضلاً عن العامة والسذَّج والبسطاء!.

لقد أصبح الحق باطلاً، والصدق كذباً، والكذب صدقاً، والفضيلة رذيلة، والرذيلة مفخرة، والغدر حِنكة، والخيانة وجهةَ نظر، والعريُ والتهتك والإلحاد والزندقة والسحر والشعوذة والعبث بالأخلاق وتحطيمُ القيم وتجاوزُ كل الحدود والمحرمات؛ من مقتضيات العصر ومستلزمات العولمة!.

وقد وَلَغ في مباءَة الكذب في هذا (الإعلام الكوني) الكبيرُ والصغير، والعالم والجاهل، والمسلم والزنديق، والرجل والمرأة، وأُتيح لكل أحد أن

يقول ما يشاء حبلُه على غارِبه بلا ضابط ولا رقيب بدءاً من الكبار وانتهاء بالصعاليك.

فَوَاهاً ثم واهاً للحق والصدق ماذا جرى لهما في منعرجات هذا الميدان العملاق الذي يسمّى (الإعلام)!.

٤ ـ الكذب في الفن:

ويتولى كِبْرَه فريق ضخم من الكتّاب والمؤلفين والنقّاد والممثلين والمطربين والمخرِجين والفنيين والمموِّلين وسواهم ممن ينتظمهم الفن بمفهومه الأعم الأشمل.

ويتجلى ذلك في نواح كثيرة: منها ترويج الرذيلة بدعوى الترويح عن النفس، وعرض مسلسلات وأفلام ومسرحيات تعالج قضايا تاريخية أو اجتماعية أو سياسية وتوجيهها لهدف معيَّن، والتلاعب بالحقائق الدينية والعلمية والتاريخية والأخلاقية، ونشر (برامج ومفاهيم ومسرحيات ومسلسلات وقصص كلها تحمل صُوَر الانحلال والعبث والجنس وأدب الفراش، واستعلاء الترف الكاذب والأمن الخادع؛ بهدف إدخال أبناء الأمة في حالة من الخَدَر الشديد، بحيث لا يستيقظون إلا على الضربة القاضية!)[(١)].

حتى المسرحيات الاجتماعية الناقدة والمسلسلات (السياسية) تجدُها للتنفيس عن حالة الاحتباس والاحتقان الذي تعانيه الأمة والشعوب المكبوتة!.

٥ ـ الكذب على الإسلام والافتراء عليه:

وذلك منتشر في الكتب والصحف والمجلات والإعلام بمختلِف مجالاته وميادينه، وغيرها من منابر الدعاية والبلاغ؛ كالقول بأنه دين لاهُوتي غَيْبي، روحي، وعقائده مزيج من اليهودية والنصرانية والديانات الأخرى، وجاء لفترة تاريخية محددة، وهو مرحلة من مراحل تطور الأفكار قد تجاوزه الزمن، وأنه

---

(١) الضربات، ص٣٠٤.

همجيٌّ في انتشاره القائمِ على الجهاد والسيف، قاسٍ في حدوده كالزنى والسرقة والحِرَابة، ظالم في أحكَامه كالمواريث، متجانِفٌ للإثم في هضم المرأة حقوقها وعدم مساواتها بالرجل، متخلِّفٌ عن ربط الإنسان بالعلم والاستنهاض بالحياة وعمارة الأرض...

٦ ـ الكذب في التاريخ وعليه:

وقد ظهر ذلك في فترة مبكّرة من تاريخنا، وشاعَ الكذبُ والافتراء على الدولة الإسلامية وتاريخها ومؤسساتها ورجالاتها، وانتشر الكذب على ألسنة الوضّاعين والهلكى والمتروكين وأصحاب الأهواء من أمثال: أبي مِخْنَف لوط بن يحيى، ومحمد بن السائب الكَلْبيّ، وعَوَانة بن الحَكَم، والهيثم بن عَديّ... وكثرت الأخبار المكذوبة والمُرسَلة والمُعْضَلَة والمقطوعة، وافتُري على تاريخنا كثيراً، منذ بدء الفتنة والاقتتال بين الصحابة، مروراً بالدولة الأموية، وهلمَّ جرّاً...

وشاع الأمر وذاع في تشويه تواريخ الدول الإسلامية المتلاحقة، وقُلبت الحقائق ووزِّعت التُّهم أو صكوكُ البراءة؛ فتمَّ بالكذب والافتراء تشويهُ صورة الخلافة الأموية والعباسية والأندلسية والعثمانية، وبعكس ذلك تحسينُ وتزيين سمعة العُبيديين والقرامطة والبُوَيْهيّين والصَّفَويين وغيرهم ...

واستمر الكذب إلى عصرنا وشاع في كتابات كثيرة كما يتجلى ذلك فيما كتبه جورجي زيدان وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم، فضلاً عما كتبه أسلافهم وأساتذتهم من المستشرقين؛ أمثال: (أندرسون) و(شاخت) و(جولد تسيهر) و(بلاشير) و(ماسينيون) و(بروكلمان)... وأصبحت كتابات هؤلاء وأولئك أصولاً ومرتكزات بُنيت عليها مناهج (التاريخ) الذي يُدرَّس لأبنائنا في المدارس والمعاهد والجامعات حتى الآن!.

وتمَّ بالكذب والافتراء والتزوير تخريجُ أجيال ملوَّثة التفكير مشوّشة العقل تائهة الانتماء، وتمَّت الإساءة إلىٰ تواريخ دولنا، كما شُوِّهت سِير حركات

التحرر الوطنية والإسلامية، في حركة تزوير كبرى للتاريخ، قبيحة المنظر كريهة المَخبر، قائمة على الكذب المبين!.

٧ ـ الكذب في تجميل الصور المظلمة للحركات الهدَّامة والدعوات المتزندقة:

وهو لون خبيث من الكذب المفضوح، وتزوير للحقائق وعبث بالتاريخ وافتراء على الحق، كما جرى ذلك لبعض الدعوات والحركات قديماً كالإسماعيلية والقرامطة والزَّنْج والبُوَيْهيِّين وأمثالهم،ويجري حديثاً لحركات مشابهة كالبابية والبهائية والقاديانية والبهرة والأحزاب العلمانية والحركات الخارجة على الإسلام، في خطة خطيرة للتزييف التاريخي والادِّعاء بأنها حركات إصلاح وتغيير وتحرر ومطالبة بالعدل والمساواة والحرية.

٨ ـ الكذب في تشويه صور الخلفاء والحكّام والقادة والفاتحين، وتمجيد أعداء الإسلام والثناء عليهم:

والشواهد على ذلك كثيرة قديماً وحديثاً في كتابات القدامى والمعاصرين، كما يجري في سِير رجالاتٍ كبار؛ مثل: معاوية بن أبي سفيان وعَمْرو بن العاص وهارون الرشيد ومحمد الفاتح وصلاح الدين الأيوبي وعبد الحميد الثاني وغيرهم كثير...

وفي مقابل ذلك تجدُ الثناء والمديح لرجال كانوا معاولَ هدمٍ في تاريخنا القديم والمعاصر؛ كأبي طاهر سُليمان بن الحَسن الجَنَّابي القِرْمِطي، والحاكم بأمر الله العُبيدي الذي كان يُدعى بالخلافة وبأمير المؤمنين، وأمثاله ممن هم على نِحْلته، ومحمد علي باشا، والشريف حسين الذي وقع في أحضان (الحُلفاء) ضد الدولة العثمانية، ومصطفى كمال أتاتورك الذي يعتبره البعض أعظمَ رجل في التاريخ الحديث في تركيا المسلمة! وحكّام الجبرية والدكتاتوريات المعاصرة...

والكلام في هذا الميدان طويل وغزير، وإنما نشير إشارات توضّح المقصود.

٩ ـ الكذب في المصطلحات والتلاعب في مفاهيمها:

وقد شاع هذا النوع من الكذب في عصرنا، وذاعَ وتمَّ تداوله وانتشاره في الآفاق على ألسنة الزعماء والساسة والمفكّرين والكتَّاب والإعلاميين ومن جرى مجراهم، وتمَّ تزييفُ معاني ومدلولات كثير من المصطلحات وتوجيهها حسب الهوى، والتلاعبُ بها وفق المصلحة والغاية، وبعضٌ منها تُرك عائماً غير محدد الصفات والقسمات ليُصَار إلى تفسيره وتوجيهه حسبما يقتضيه الحال.

حدث ذلك في مفاهيم: السلام، وحقوق الإنسان، وتحرير المرأة، والحرية، والترفيه، والكبت، والديمقراطية، والدكتاتورية، وإنقاذ الشعوب المضطهدة، والسياسة، والدين، والجريمة، وجرائم الحرب، وسيادة الدولة، والعلمانية، والعولمة، والكشوف الجغرافية، والاستعمار، والوحدة الوطنية، والولاء، والبراء، والجهاد، والمقاومة . . . وغير ذلك مما حدث فيه الكثير من التلاعب والكذب والتزييف والتزوير، حسب أهواء المستعمِر، أو القوي، أو الحزب، أو الحاكم. . .

١٠ ـ الكذب في البيوع والمعاملات:

وهو داءٌ استشرى في الأمة واستفحلَ شرُّه بصورة مُفْظِعة، وفَشَا الكذب في البيوع والتجارات، والتلاعبُ في جودةِ السِّلع ومصادر صناعتها ومنشئها، وعرضِ أصنافها وأثمانها، وكثر التزييفُ والغِش والخداع والنَّجْشُ والجشع والطمع والأَثَرة التي تسودُ حركات التبادل في الأسواق والمتاجر، واستغلالُ سذاجة كثير من الجماهير والعامة الذين لا يميّزون الغَثّ من السمين.

وقد نهى الإسلام عن ذلك واعتبر اليمينَ الكاذبة في البيع ممحقة للبركة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اليمينُ الكاذبةُ مَنْفَقَةٌ للسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٧)؛ ومسلم (١٦٠٦)؛ وابن حبان (٤٩٠٦) واللفظ له؛ وغيرهم.

لذا رهَّبَ التجارَ من الكذب في أعمالهم، ووَصَم من يُواقِع هذه الخصلةَ القبيحةَ بالإثم والفجور؛ فعن عبد الرحمن بن شِبْل الأنصاريِّ أحدِ النُّقَباء قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ التُّجَّار همُ الفُجّارُ**»! قيلَ: يا رسول الله، أَوَ لَيْس قد أحلَّ اللهُ البيعَ؟ قال: «**بَلَى، ولكنَّهم يُحدِّثونَ فَيَكْذِبُون، ويَحْلِفُونَ فَيأثَمون**»(١)!.

١١ ـ الكذب في أرباب المِهَن والحِرَف والصناعات:

فالإخلاف بالمواعيد وتزويقُ الكلام والكذبُ فيه، أصبح عادةً مأثورة عند كثير من المسلمين ممن يُزاول الحِرف والصناعات والمهن المتنوعة التي لا يخلو منها بلد ولا حيّ، وكم ضَيَّع الكذب من هؤلاء من أموال الناس وأوقاتهم، وعبث بمصالحهم وأمور معاشهم ودينهم! مع أن دينَهم جعل الوعود الكاذبة أَمارة النفاق، وأوجبَ تقديس الكلمة واحترامها، واعتبرها من علامات الإيمان وسِمات الرجولة(٢).

والأمر في هذا لا يحتاج إلى مزيد بيان، فإن عامة المسلمين في مختلِف ديارهم يعانون من شيوع هذه الخَلّة المرذولة في تلك الميادين التي لا يستغنى عن اللجوء إليها والتعامل معها أحد من المسلمين.

١٢ ـ الكذب في المجالس العامة والخاصة بالأضاحيك:

وهو لون من الكذب الذي حذَّر منه النبيّ ﷺ، وتوعَّد فاعليه بالويل والخسران؛ فعن معاوية بن حَيْدَة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ويلٌ للذي يُحدِّث فيكذبُ؛ لِيُضْحِكَ به القومَ، ويلٌ له، ويلٌ له!**»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/٤٢٨، واللفظ له؛ والطبري في تهذيب الآثار (٩٩) و(١٠٠)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٠٧٧) و(٢٠٧٨)؛ والحاكم: ٢/٦ ـ ٧، وغيرهم؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح المشكل؛ والألباني في الصحيحة (٣٦٦).

(٢) انظر: خلق المسلم، ص٤٠.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٩٠)؛ والترمذي (٢٣١٥)؛ والنسائي في الكبرى (١١٠٦١) =

وأرشد النبيُّ ﷺ المسلمَ إلى الصدق في كل أحواله ولو كان مازحاً، فقال ﷺ: «**أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنَّة لمن تركَ المِرَاء وإن كان مُحِقّاً، وببيتٍ في وسَط الجنة لمن ترك الكذبَ وإن كان مازحاً، وببيتٍ في أعلى الجنَّة لمن حسَّنَ خُلُقَه**»[(١)].

والمشاهَد أن الناس يُطْلِقون العِنَان لأخيلتهم في تلفيق الأضاحيك، ولا يحسُّون حرجاً في إدارة أحاديث مفتراة على ألسنة خصومهم أو أصدقائهم، ليتندَّروا بها أو يَسخروا منهم، وقد حرَّم الدين هذا المسلك تحريماً تامّاً، إذ الحقُّ أن اللهو بالكذب كثيراً ما ينتهي إلى أحزان وعداوات[(٢)].

وهذا النوع من الكذب قد استطارَ شررُه حتى أصبح يُذاع على شاشات التلفاز، ويتناقله الناس في الآفاق وينتشر بين الملايين، وهو شيء خطير يعود على مخترِعه بالإثم العظيم، وعلى الأمة بالعطالة والبطالة وتزجية الوقت بالممنوع والمحرَّم.

١٣ ـ الكذب في الشهادات وقول الزور:

والحَيْف في الشهادة من أشنعِ الكذب، فالمسلم لا يبالي ـ إذا قام بشهادة ما ـ أن يقرِّر الحق، ولو على أدنى الناس منه، وأحبِّهم إليه، ولا تميلُ به قرابة ولا عصبية، ولا تزيغه رغبة أو رهبة.

وتزكيةُ المرشَّحين لمجالس الشورى، أو المناصب العامة، نوعٌ من الشهادة، فمن انتخب المغموطَ في أمانته وكفايته فقد كَذَب، وزوَّر، ولم يَقُمْ بالقِسْط.

= و(١١٥٩١)؛ وأحمد: ٣/٥، ٥، ٧؛ والحاكم: ١/٤٦، وقال الترمذي: حديث حسن، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٧١٣٦).

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)؛ والبيهقي في السنن: ١٠/٢٤٩؛ والضياء في المختارة، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٧٣)، وصحيح الجامع (١٤٦٤).

(٢) خلق المسلم، ص٣٧.

إنَّ التزوير كذبٌ كثيفُ الظلمات، إنه لا يَكتم الحقَّ فحسب، بل يَمحقه ليُثْبِت مكانه الباطلَ، وخطرُه على الأفراد في القضايا الخاصة، وخطره على الأمم في القضايا العامة؛ شديد مُبيد.

ومن ثَمَّ خوَّف الرسول ﷺ منه على هذا النحو الصارخ، فاعتبره من أكبر الكبائر(١).

عن أبي بَكْرَةَ قال: (قال النبيُّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ**» ـ ثلاثاً ـ؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «**الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدَين**»، وجَلَس، وكان مُتَّكِئاً، فقال: «**أَلَا وقولُ الزُّورِ**»، قال: فما زالَ يُكَرِّرُها حتى قلنا: ليتَهُ سكَتَ!)(٢).

والذي يتأمل أحوالَ المسلمين يرىَ انتشار هذا اللون الفظيع من الكذب، وبخاصة في(دور العدل) و(المحاكم) وما يقوم به كثير من (المحامين) من قلْب الحقائق والتلاعب بالقوانين لنصرة موكِّليهم وكسبِ قضاياهم لينالوا المبالغ المترتبة على أعمالهم، وهو من السُّحْت الذي لا يتورَّع عنه أولئك الظالمون لأنفسهم.

١٤ ـ كذب الشعراء:

الشعر كلام حسنُه حسن وقبيحُه قبيح، وإنَّ من الشعر لحكمةً وإن من البيان لَسِحراً، لكن الشعر في أغلب أحواله مَدْرَجَةٌ للكذب، والشعراء كثيراً ما يسرعون إلى الوقوف بين طرفي النقيضين، ويَجنحون إلى المبالغة في تضخيم المحامد وطيِّ المَثالب، وهؤلاء قد جاء ذمُّهم في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٦].

---

(١) خلق المسلم، ص٣٩ ـ ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)؛ ومسلم (٨٧)، وغيرهما.

فهذا الفريق من الكَذَبة قد امتلأ بهم تاريخُنا القديم والحديث، وشكَّلوا صورة شائهة من الافتراء والتملُّق حيث اتخذوا المدائحَ الفارغة بضاعةً يتملَّقون بها الكبار، ويَصوغون من الشعر القصائد المطوَّلة، ويَكيلون الثناءَ جزافاً، أو القدح افتراءً، ويَهْرِفون بما لا يَعرِفون، ويقولون ما لا يعلمون، ولربما وَصَفوا بالعدالة الحكَّام الجائرين، ووصفوا بالشجاعة الأغبياء الخَوَّارين، ابتغاءَ عَرَضٍ من الدنيا عند هؤلاء وأولئك[1].

١٥ ـ كذب المدَّاحين:

وهؤلاء قد كَثُر وجودهم في بلاط الحكام والأمراء، وفي مجالس الكبراء وعِلْية القوم، وانتشر كلامهم المزوَّر بين الناس وعلى صفحات الصحف والكتب ووسائل الإعلام المقروءة والمسموعة، وكثرت أصنافهم وتنوعت مستوياتهم بدءاً من العلماء وانتهاء بالعامة والسُّوقة.

اتخذوا من المديح الكاذب سلعةً رخيصة للارتزاق، وبَسَطوا ألسنتهم في اختلاق الفضائل وإخفاء المساوئ، وصاغوا القصائد المزورة والخُطب المرسَلة، وأضفَوْا على الممدوح كل صفات الجلال والجمال ومحاسن الأفعال، ابتغاء لَعَاعَة من الدنيا أو الفوز بمنصب ضئيل!.

ومهما كان الممدوح أهلاً للثناء وجديراً به، فإن المبالغة في إطرائه ضربٌ من الكَذب المحرَّم، وقد قال النبي ﷺ ـ وهو أهل لكل ثناء عاطر ـ لمادحيه وهم صادقون معتدلون محفوظون من المجازفة: «**لا تُطْروني كما أَطْرتِ النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه**»[2].

وفي الأمة فريق من الناس اتخذوا من الكذب في المدح والثناء صنعةً وارتزاقاً، وهذا الصنف من الأذناب الكَذَبة، أوصى رسولُ الله ﷺ بمطاردتهم حتى يرجعوا من تزويرهم بوجوه عفَّرها الخِزي والحرمان.

---

(١) انظر: خلق المسلم، ص٣٨.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

عن المقداد بن عَمرو قال: (أَمَرنا رسولُ الله ﷺ أن نَحْثِي في وُجوهِ المَدَّاحينَ التُّرابَ)(١).

والمَعنيُّون هنا هم أولئك الذين اتخذوا مدحَ الناس عادة يستأكلون به الممدوحَ، فأما مَن مَدَح على الأمر الحسن والفعل المحمود ترغيباً في أمثاله، وتحريضاً للناس على الاقتداء به؛ فليس بمدَّاحٍ(٢).

١٦ ـ كذب الآباء على أبنائهم:

وهذا الصنف من الكذب استهان المسلمون فيه، ووقع الكثير في مَغَبَّتِه، وقد أوصى الإسلام أن تُغْرَس فضيلةُ الصدق في نفوس الأطفال حتى يَشِبُّوا عليها وقد أَلِفُوها في أقوالهم وأحوالهم كلها.

وحرص النبي ﷺ على تعليم الآباء والأمهات أن يُنَشِّئوا أولادَهم تنشئةً يقدِّسون فيها الصدق، ويتنزهون عن الكذب(٣).

عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: (دَعَتْني أمِّي يوماً، ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ في بيتنا، فقالت: ها تَعَال أُعْطِيك، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**وما أردتِ أن تُعطيه؟**» قالت: أُعْطيه تمراً، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أَمَا إنَّكِ لو لم تُعْطِيهِ شيئاً كُتِبَتْ عليكِ كِذْبَةٌ**»)(٤).

ثانياً: ختاماً نقول:

هكذا مَشَت الصَّرامة في تحرّي الحق وقولِ الصدق حتى تناولت الشؤون الكبيرة والصغيرة، وكما أن الصدق مَحْمَدَةٌ جليلة ومنقبةٌ رفيعة، وقد ذكرها الله

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٢)؛ والترمذي (٢٣٩٣)؛ وابن ماجه (٣٩٤٢)، وغيرهم. وقد روى الحديث جماعة من الصحابة، انظر: صحيح ابن حبان (٥٧٦٩، ٥٧٧٠) مع التخريج.

(٢) خلق المسلم، ص٣٨.

(٣) المرجع السابق، ص٣٦ ـ ٣٧.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٩١)؛ وأحمد: ٣/٤٤٧؛ والضياء في المختارة؛ وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود، والصحيحة (٧٤٨).

سبحانه في مناقب النبوة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥]؛ فكذلك الكذب رذيلةٌ مَحْضَة تُنبئ عن تغلغل الفساد في نفس صاحبها، وعن سلوك ينشئ الشر إنشاء، ويندفع إلى الإثم من غير ضرورة مزعجة أو طبيعة قاهرة.

والإسلام قد حارب الكذب في شتى صوره ومختلِف أشكاله وتعدد مساربه وتنوع مستوياته؛ ليُقيمَ مجتمعاً صافياً صادقاً بعيداً عن التزييف والتزوير والتهريج والأباطيل، فإن الصدق يهدي إلى البِرّ، والبرُّ الذي هَدى إليه الصدق هو قمة الخير التي لا يَرقى إليها إلا أولو العزم من الرجال، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور الذي هَدى إليه إدمانُ الكذب هو المرحلة الأخيرة لِضَعَةِ النفس وضياع الإيمان[١]!.

ولو أن العالم أجمع أحصى ما يشغل فراغه من لغو في القول والعمل؛ لَرَاعَهُ أن يجد أكثر القصص المنشورة، والصحف المشهورة، والخُطب والإذاعات و... لغواً مطَّرِداً، تعلَّقُ به الأعين، وتميلُ إليه الآذان، ولا ترجع بطائل.

وقد كَرِه الإسلام اللغو، لأنه يَكره التفاهات وسفاسف الأمور، وبقدر تنزُّه المسلم عن اللغو، تكون درجتُه عند الله سبحانه[٢].

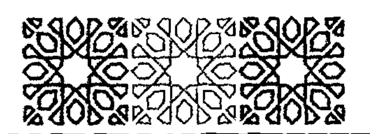
وإن أخطرَ أنواع الكذب وأقبحَه وأعظمَه ضرراً وأشدَّه فتكاً؛ هو ذاك الذي يصدر من الكبار، وتتناقله الألسنة، وتتلقفه الأسماع ويطير في الآفاق، ليقع في شَرَكِه الملايين، وتُخدع به الجماهير الغفيرة الساذجة في المشارق والمغارب! لذلك اشتد غضبُ الله تعالى على مقترفيه، وتوعَّدهم بالعذاب الأليم على لسان نبيِّه ﷺ، حيث تُشقّ أشداقُهم بكلاليب من حديد ويُشرشر منها الدم، لأنهم كانوا يتشدَّقون بها بالكذب على خلق الله سبحانه، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) انظر: خلق المسلم، ص٣٤، ٤٢.

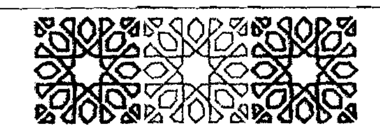
(٢) خلق المسلم، ص٧٧.





الفصل السابع

نبوءات في مقارفة الكبائر وانتهاك المحرَّمات





١١٩

إخبار النبي ﷺ بظهور قوم يتخذون من ألسنتهم مطية للاكتساب والمنصب والجاه وغيرها

١ ـ عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**سيكونُ قومٌ يأكلونَ بأَلْسِنَتِهم كما تأكلُ البقرةُ من الأرضِ**».

وفي رواية عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يَخْرُجَ قومٌ يأكلونَ بألسنتِهم كما تأكلُ البقرُ بأَلْسِنَتها**»[(١)].

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**ليَأْتِينَّ على الناسِ زمانٌ يأكلونَ فيه بألسنتِهم كما تأكلُ البقرةُ من الأرضِ**»[(٢)].

٣ ـ وعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله عز وجل يُبْغِضُ البليغَ من الرِّجَالِ الذي يَتَخلَّلُ بلسانِه تَخلُّلَ الباقِرَةِ بلسانِها**»[(٣)].

وهــذا الحديث ليس صريحاً في بيان النبوءة، لكن أوردته شاهداً لحديثيها.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ١٧٥ ـ ١٧٦، ١٨٤، واللفظ له؛ وهناد في الزهد: ٢/ ٥٥٦ (١١٥٤)؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ٤/ ٢٥٢ (٤٩٧٦)؛ والبزار (١١٩٣) و(١٢١٢)؛ والداني (٤٣٠)؛ والضياء في المختارة (٩٥٠) و(١٠٢٤)؛ والبغوي (٣٣٩٧)؛ وصحَّحه الألباني بطرقه وشواهده في الصحيحة (٤١٩)، وصحيح الجامع (٣٦٧٠).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ٤/ ٢٥٢ (٤٩٧٧)؛ وقال الألباني في الصحيحة: ١/ ٩٤٧، استدراك (١٦) على الحديث (٤١٩): إسناده صحيح، وهو موقوف في حكم المرفوع؛ لأنه من أمور الغيب التي لا تقال بالرأي.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥)؛ والترمذي (٢٨٥٣)؛ وابن أبي شيبة: ٦/ ٢١١؛ وأحمد: =

أولاً: كلمة بين يدي الأحاديث ومعانيها:

يُخبر رسول الله ﷺ في هـذه الأحاديث عن ظهور قوم من بعده في أمته يتَّخذون من ألسنتهم مَطيَّة للاكتساب والارتزاق، بما أُوتوه من فصاحة في البيان وطلاقة في اللسان وزخرفة في الكلام، فيتزلَّفون إلى الحكام والأمراء والكبراء والوجهاء بالمديح والثناء، أو النمِيمة والإفساد بين الناس، أو الوِشاية والتجسس وتتبُّعِ العورات، أو القيامِ بألوان من الدعاية والإعلام لتأييد هـذا الأمير أو ذاك الوجيه، والذمِّ والتقبيح لمعارضيه ومناوئيه، أو تزيينِ ما عليه المتنفِّذون وإضفاءِ لَبُوس الحق عليهم، ووصفِ حال الأمة بالرخاء والنَّعيم وسداد الحال وحسن العيش... ونحو ذلك مما فيه تزييفُ الحقائق، وتعطيلُ المصالح، وقلْبُ الأمور، وهدْر الحقوق، وتقوية الظَّلَمة، وحجبُ جُؤَار المظلومين، وإخفاءُ المَثَالب والمعايب والمظالم المنتشرة في الأمة، وذلك بأساليب من التلاعب والتدليس والتشدُّق بالكلام والتفاصح في البيان، وتصدُّرِ المجالس والقفز إلى منصات المنابر لِيصْدَحَ بعبارات المديح والثناء والتبجيل بأسلوب بارع وكلام خادع!.

وهـذا الصنف من الناس في الأمة تراهم فصحاءَ بُلَغاء مناطقة واصلين، تُيَسَّر لهم السُّبل، وتوطَّأ الأكناف، وتُمهَّد المجالس، وتُسْبَغ عليهم النِّعم، وتتسابق وسائل الإعلام لنقل كلامهم وإسماعه للعالمين.

وقد صوَّر النبي ﷺ حالهم أروعَ تصوير، وعبَّر عنه بأرفع البيان؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يَصْدُر إلا عن ميراث حكمة، فقال: «**يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها**»، ويوضّح ذلك الرواية الأخرى: «**يتخلَّل بلسانه تخلُّلَ الباقِرة بلسانها**»!.

إنهم يتشدَّقون في الكلام ويُفَخِّمون به ألسنَتهم، ويَلُفُّونها كما تَلُفُّ البقرةُ الكَلأَ بلسانها لَفّاً! وخصَّ البقرة لأن جميع البهائم تأخذ النبات بأسنانها، أما

= ٢/ ١٦٥، ١٨٧؛ وقال الترمذي: حديث حسن غريب؛ وصحَّحه الألباني في صحيحي أبي داود والترمذي، وفي الصحيحة (٨٨٠)، وصحيح الجامع (١٨٧٥).

البقرة فتجمع بلسانها[1] . . وفي تشبيههم بالبقر تقريعٌ لهم وتوبيخ؛ لأنهم نكسوا فطرتهم وخالفوا طبيعة الصدق التي فُطروا عليها، فضَلُّوا بذلك ضلالاً كبيراً، فهم كالأنعام أو أضلّ سبيلاً.

ومَن أفسدَ لسانه بالكذب والتلفيق والتزوير وكتمان الحق والسكوت على الباطل، ومداهنة الكبراء والوجهاء، وتزيين الرذيلة وترويج الفساد ـ فقد أفسدَ قلبه وإنسانيته وكرامته. ومن امتطَى لسانَه للارتزاق الحرام وأكل السُّحْت مهما كانت السبل الموصلة للمال والمنصب والجاه ـ فقد أفسدَ على الناس مصالحهم، وأضَرَّ بدنياه وآخرته.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتى يستقيمَ لسانُه**»[2].

وإذا حَرَصَ المرء على المال والجاه والشهرة والشرف، وتصدُّرِ المجالس، وارتقاءِ المناصب، والتقرب إلى ذوي السلطان والأعيان، وسَلَكَ في سبيل ذلك كل طريق، وركب لنواله كلَّ صَعْب وذَلُول، ولم يبالِ بقِيم ولا بمبادئ، وضَرب بمصالح العباد والفضيلة والاستقامة عُرْضَ الحائط ـ فقد أفسدَ دينه، وخَسِر آخرته، وهـذا ما يعبِّر عنه ذلك الحديث النبوي الرفيع الرائع، فيما رواه كعب بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ذِئْبَان جائِعَانِ أُرْسِلَا في غَنَمٍ بأَفْسدَ لها من حِرْصِ الرَّجلِ على المالِ والشَّرفِ لدينهِ**»[3].

ثانياً: تحقق النبوءة، وأمثلة ذلك في واقع حال الأمة:

وقد وُجِد في أمتنا على مدى تاريخها أصناف كثيرة ممن يأكلون بألسنتهم،

(١) النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٧٣؛ عون المعبود: ٨/ ٣٢٠؛ تحفة الأحوذي: ٧/ ٢٦٨.
(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ١٩٨؛ وابن أبي الدنيا في الصمت (٩)؛ والخرائطي في مكارم الأخلاق (٤٤٢)؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٨٤١).
(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٨١)؛ وأحمد: ٣/ ٤٥٦، ٤٦٠؛ والترمذي (٢٣٧٦)؛ وابن حبان (٣٢٢٨)؛ والبغوي (٤٠٥٤)، وغيرهم؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط والألباني.

ويبيعون دينهم وأخلاقهم ومروءتهم، ويضحُّون بمصير الأمة والشعوب، ابتغاء عرضٍ من الدنيا قليل..

١ ـ منهم بطانة الحكّام والمسؤولين:

ومن يدخلون عليهم ويجلسون في بلاطهم ويتقرّبون إليهم، فيتزلّفونهم ويتملّقونهم، يزيِّنون باطلاً، أو يسكتون عن واجب، أو يتغاضون عن مظلمة، أو يمدحون ويكذبون.. إلى ما هنالك من أساليب خسيسة يلفِّقونها بكلام فصيح ولحن في القول، يَلُفّون به ألسنَتَهم كآكلةِ الخَضِر عندما تلُفُّه بلسانها فَيُصيبها الحَبَطُ أو يُلِمُّ[(١)].

وفي أمثال هؤلاء جاء الحديث النبوي الشريف الذي رواه محمد بن عَمْرو بن عَلْقمة، عن أبيه، عن جدّه عَلْقمة بن وقّاص، قال: (كنا معه جلوساً في السُّوق، فمرَّ به رجلٌ من أهل المدينة له شَرَفٌ، فقال له: يا ابنَ أخي، إنَّ لك حقّاً، وإنكَ لَتدخلُ على هؤلاء الأمراء، وتَكَلَّمُ عندَهم، وإني سمعتُ بلالَ بن الحارث صاحبَ رسول الله ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ العبدَ ليتكَلَّمُ بالكلمةِ ولا يُرَاهَا بَلَغَتْ حيثُ بَلَغَتْ، فيكتبُ الله له بها رضاهُ إلى يوم القيامة. وإنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمة لا يُرَاها بَلَغَت حيث بلَغَتْ، يكتب الله له بها سَخَطَهُ إلى يوم يَلْقَاهُ**»! فانظُرْ يا ابنَ أخي ما تقولُ وما تَكَلَّمُ، فَرُبَّ كلامٍ كثيرٍ قد مَنَعَني ما سمعتُ من بلال بن الحارث»[(٢)].

---

(١) **الحبط**: التخمة. **يُلِمّ**: يقارب الإهلاك. انظر: الحديث في البخاري (٦٤٢٧)؛ ومسلم (١٠٥٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٦٩)؛ والطبراني في الكبير (١١٢٩ ـ ١١٣٦)؛ وابن حبان (٢٨٠) و(٢٨٧) واللفظ له؛ والحاكم: ١/ ٤٥ ـ ٤٦؛ والبغوي (٤١٢٤) و(٤١٢٥) وغيرهم، وأخرجه جماعة بدون القصة، وتتمة تخريجه في هامش ابن حبان، والصحيحة. وصحَّحه الحاكم، وأقره الذهبي؛ وصحَّحه البغوي؛ وشعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٨٨٨)، وصحيح ابن ماجه، وغيره.

والأمة الإسلامية كانت مستيقظةً في مراحل حياتها المتعاقبة، وكانت لا تخلو من ناطقين بالحق في كل زمان، ولا يوجد صُقْع إلا وفيه مَن يحمل راية البيان والصدق والمناصحة، ولا يوجد أمير ولا حاكم إلا وفي الأمة من يُكَفْكِف جماحَ نفسه ويُنقذه من كبوته إذا حادَ عن جادة الصواب.

يروي أبو قَبيل المَعَافِريُّ رَحِمَهُ اللهُ فيقول: (خَطَبنا معاوية في يوم جمعة فقال: إنما المال مالُنا، والفيءُ فيئُنا، مَنْ شئنا أعطينا، ومَنْ شئنا مَنَعْنا، فلم يردَّ عليه أحد. فلما كانت الجمعة الثانية قال مثل مقالته، فلم يردَّ عليه أحد. فلما كانت الجمعة الثالثة قال مثل مقالته، فقام إليه رجل ممن شهدَ المسجد فقال: كلا، بل المالُ مالُنا، والفيءُ فيئنا، مَن حالَ بيننا وبينه حاكَمْنَاهُ بأسيافِنا! فلما صلَّى أَمر بالرجل فأُدْخِل عليه، فأجلسه معه على السرير، ثم أَذِن للناس فدخلوا عليه، ثم قال: أيها الناس، إني تكلَّمتُ في أول جمعة فلم يردَّ عليَّ أحدٌ، وفي الثانية فلم يردَّ عليَّ أحد، فلما كانت الثالثة أحياني هـذا أحياه الله؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**سيأتي قوم يتكلَّمون فلا يُرَدُّ عليهم، يتقاحَمُون في النار تقاحُمَ القِردة**» فخشيتُ أن يجعلَني الله منهم، فلما ردَّ هـذا عليَّ أحياني، أحياه الله، ورجوتُ أن لا يجعلَني الله منهم)[١].

وفي هـذين الحديثين أمثلة واضحة للمقارنة بين ما كانت عليه الأمة وما عليه المسلمون الآن، فانظر إلى بلاط الحكّام والأمراء لتجد المدّاحين الذين يأكلون بألسنتهم ويكيلون الثناء جزافاً لمن فعلوا في البلاد والعباد والأموال والخيرات ما فعلوا، ولا يجدون إلا الثناء من أولئك الذين «**يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقرة من الأرض**».

---

(١) أخرجه أبو يعلى وغيره؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٧٩٠)؛ وانظر: النبوءة (٧١)، ٣٠٨/٢ (في هذا الكتاب).

٢ ـ طوائف من الصحفيين والإعلاميين:

ممن أصبحوا أبواقاً لحاكم أو مسؤول أو جماعة أو حزب، يزخرفون القول، ويبالغون في إبراز الحسنات، ويَغُضُّون الطَّرْف عن المساوئ والمظالم وتبديد الأموال وتدمير الأخلاق والعبثِ بمقومات الأمة، وذلك تمشياً مع أهواء السادة وأرباب الفضل على أمثالهم، ليبقوا في وظائفهم ومناصبهم ومراكزهم، وليستمروا في التِّيه والإضلال.

٣ ـ الذين يبثّون الإثم في المجتمع ويروّجون للرذيلة:

ويحاربون الفضيلة، بألسنة حِداد وأقلام شِداد، على صفحات الصحف والمجلات والكتب وشاشات التلفاز وغيرها، حتى وصل بهم الانحطاط إلى أخذ الأصوات على الفضيلة والرذيلة، فيستمعون إلى رأي الجمهور حول أسئلة مثل: هل الدار الآخرة حق؟ وما الرأي في (اللواط) هل يُسمح أم يُمنع؟ من يفضِّل لباس الحجاب والالتزام به؟ هل يصح التقبيل بين الجنسين في الطريق العام أم في الحارة لا في الشارع؟ هل يُوضع للفتاة قيود أم يجب أن لا يوضع أمامها أي خط أحمر؟.. وهكذا تؤخذ نِسب مئوية من الحاضرين والمشاهدين على هذه القضايا ومثيلاتها.

أليس وراء هذه الجهود سَدَنة الفسق والفجور والبغي والزندقة، تسوّل لهم وتُملي عليهم وتموّل برامجهم؟ أليس هؤلاء جميعاً ممن ينطبق عليهم قوله ﷺ: «**يأكلون بألسنتهم**»؟!.

٤ ـ أصحاب الفن الهابط والغناء الماجن:

وهو أمرٌ مخيفٌ قد طغى سيلُه وبَلَغ الزُّبَى[1]، وليس يخفَى على أحد، يؤرِّق مضاجع المؤمنين في الليل والنهار، لا تخفّ حِدَّتُه، ولا تخمد شِرَّتُه، يحمل ألويةَ

---

(١) **الزُّبَى**: جمع الزُّبيَة، وهي الرَّابِيَة لا يعلوها الماء. وفي المثل: بَلَغ السيلُ الزُّبَى، يُضرب للأمر إذا اشتدَّ حتى جاوز الحدَّ.

ناره جيشٌ من (المطربين والمطربات) قد أُرسلت عليهم الشياطين تؤزّهم أزّاً، ومعهم مؤلفو تلك (الأغاني الساقطة)، وكذلك الذين شرَّعوا لهم أبوابَ القنوات الفضائية المتخصصة للغناء والتي زاد عددها في البلاد العربية على (٦٠) قناة!.

يَنظم شاعر مشهور قصيدة يقول فيها: (إنِّي خيرتكِ فاختاري.. ما بين الموت على صدري أو فوق دفاتر أشعاري.. اختاري فجبنٌ أن لا تختاري.. لا توجدُ منطقة وسطى ما بين الجنة والنار... إلخ).

ثم يقوم أحدُ نجوم الغناء ليصدحَ بها بصوته في الجموع الهائجة المختلِطة المتمايلة على بعضها من الشبان والفتيات و...! وتسمع الملايين هـذا الإفك لتعيش في غيبوبة الحب واللاوعي.

أو ليس هـذا من أقبح أنواع الأكل بالألسنة؟!.

٥ ـ الشعراء الذين يجلسون في عتبات السلاطين والكبراء:

ويختلِقون لهم بألسنتهم من الخِلال ما لم يتصف به إلا الكَمَلَة من الرجال، حتى إنَّ بعضَهم ليُجازِف ويُضْفي على بعض الشخصيات من الصفات ما يُضارِع شمائلَ الخلفاء الراشدين! لينالوا بعد ذلك الهبات والأَعطيات والدور والسيارات ونحوها مما كسبوه بألسنتهم! وأمثال هؤلاء كثير في الماضي والحاضر.

٦ ـ خطباء الفتنة:

وما أكثرهم في تاريخنا وبخاصة في هـذا الزمان، من مفكّرين وعلماء وخطباء وأساتذة جامعات ومحاضرين وممثلين ومسرحيين وروّاد قنوات فضائية ومُفتين ضالِّين وخُطباء منابر ورادَة نوادٍ ومؤتمرات وندوات؛ ينافقون ويدلِّسون ويغطّون الحقائق ويزيِّنون الأباطيل والإلحاد، ويبثّون السموم ويروِّجون للفساد، ويَزْدَرون بتاريخنا وتراثنا وقيمنا ورجالاتنا، ويمهِّدون ببرامجهم وخطبهم وتنظيراتهم ومسرحياتهم طُرقَ الفساد والإفساد، ويعزلون عن عقول أبنائنا أمثالَ عُمر وخالد وهارون الرشيد وصلاح الدين ومحمد الفاتح وقطز وبيبرس..

ويشحنون أفئدتهم بتاريخ الغرب والشرق وأمجاد نابليون وواشنطن ومونتغمري وماركس ولينين وبسمارك وأمثالهم.. وينالون على ذلك التقديم والتبجيل والمديح والمال الجزيل!.

٧ ـ المحامون المُبطِلون:

وهم الذين تزدحمُ بهم أروقةُ المحاكم ودور العدل، يحملون قضايا الناس ويناضلون دونها لنصرتها والفوز على الخصم بها، ولا يتورّعون عن التلاعب بالقوانين واهتبال منافذ الضعف وبَذْل الرِّشَا في سبيل نجاح عملِهم، ويجادلون بألسنتهم ويَلُفُّونها كما جاء في الحديث النبوي الشريف، ويُدْلون بالأدلة ليكسبوا القضية بغضِّ النظر عن كونها حقّاً أم باطلاً، بل ربما علموا أنها عينُ الباطل ويبقون يجادلون عنه، فهؤلاء وِزْرهم كبير وذَنْبهم عظيم، وما يأكلونه هو السُّحْت.

أما الذين يناصرون الحق وينتصِفون للمظلوم ويردّون الحقوق إلى أصحابها، فهؤلاء لهم أجرهم الحلال الطيِّب، وثوابُهم الجزيل عند الله سبحانه.

٨ ـ شهود الزور:

وما أكثر هؤلاء في هـذا الزمان، وهم من أوائل من تنطبق عليهم هـذه النبوءة، وفريقٌ منهم يزيدون في ثمنِ (شهادة الزور) كلما كان حجمُ القضية أكبر، فيأكلون حقوق الناس بألسنتِهم الكاذبة وشهادتِهم الباطلة، وإنما يُدْخِلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً.

● **وبعد:**

هـذه معالم عامة ومحاور كبرى وخطوط رئيسة لمدلولات هـذه النبوءة الجليلة المخيفة، تبيِّن أنواعَ الكسب الحرام من عمل اللسان، وما ذكرناه كله واقع في زماننا، والقارئ الحصيف يضيف أشياء أخرى لِما أثبتناه، ويعرف أمثلة عديدة لما بيَّناه.

نسأل الله تعالى العصمة من الوقوع في شَرَك اللسان والقول بما يغضب الله سبحانه ويطمس حقوق الناس.

إخبار النبي ﷺ بظهور الفحش والتفحُّش

١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِن أَشْراطِ الساعةِ الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ، وقطيعةَ الأرحامِ، وائْتِمَانَ الخائنِ ـ أَحْسِبُه قال ـ وتَخْوِينَ الأمين**»(١).

٢ ـ وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يَظْهَر الفُحْشُ والتَّفَاحُشُ، وقطيعةُ الرَّحمِ، وسوءُ المُجَاوَرةِ**»(٢).

وفي رواية للبزَّار نحوه، وزاد: (قيلَ: يا رسول الله، فكيفَ المؤمنُ يومئذٍ؟ قال: «**كالنَّحْلَةِ وَقَعَتْ فلم تُفْسِدْ، وأَكَلَتْ فلم تَكْسِرْ، ووَضَعَتْ طَيّباً، وكَقِطْعَةِ الذَّهَبِ دخلتِ النارَ فأُخْرِجَتْ فلم تَزْدَدْ إلا جُوداً**»(٣).

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لا تقومُ الساعةُ حتى يَظْهَرَ الفحشُ والبُخْلُ**»(٤).

---

(١) أخرجه البزار؛ والطبراني في الأوسط؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٢٣٨)، وصحيح الجامع (٥٨٩٤)؛ وانظر: مجمع الزوائد: ٧/ ٢٨٤، ٣٢٧.

(٢) أخرجه في حديث طويل: أحمد: ٢/ ١٦٢؛ والحاكم: ١/ ٧٥ ـ ٧٦؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند: ١٠/ ٢٦ ـ ٣١.

(٣) أخرجه البزار (٩٤٠٩)؛ وحسَّنه الحافظ في زوائد البزار، ص٢٣٨؛ وقال الهيثمي في (المجمع: ٧/ ٣٢٧): رواه البزار، وفيه عبد الرحمن بن مغرا، وثقه أبو زرعة وجماعة، وضعفه ابن المديني، وبقية رجاله رجال الصحيح. وانظر: الصحيحة: ٥/ ٣٢٣ (٢٢٥٣).

(٤) هـذا طرف من حديث أخرجه ابن حبان وغيره، وهو حديث صحيح تقدم بتمامه مع تخريجه في النبوءة (٨٩ ـ ٩١): ٣/ ٤٦، حاشية (٢).

أولاً: تحقق النبوءة:

في هـذه الأحاديث عدة نبوءات تحقَّقتْ جميعُها، وقد مرَّ البحث في بعضها، ويأتي الحديث عن بعضها الآخر، والذي نتناوله هنا بالتفصيل هو ظهور الفحش والتفحش في الأمة.

فهـذه الخصلة الرديئة والظاهرة الذميمة قد ظهرت في أمتنا منذ زمن بعيد لكن في نطاق محدود جدّاً ومحصور ومطارَد ومنكور على مستوى العامة والخاصة، فكانت كلمة الإسلام العالية تطاردها، وأعمال الحكّام والسلاطين تُطفئ شرورها، وألسنة العلماء العاملين تُنكِرها وتفضح مصادرها ومواردها، وعامة المسلمين في عافية منها، إلا من استتر وراء جدار بيته أو تلفَّع بظُلْمة الليل عن أعين الناس، وهو في ذلك مستنكَرُ السلوك مذمومُ الفعل، يتوارى من القوم من سوء فَعْلتِه وقُبح مسلكه.. فالأمة بكل حال على السلامة عموماً من شرورها الوبيلة وأخطارها المستطيرة.

أما حال الأمة في السنين القريبة الفائتة وبخاصة في زماننا هـذا؛ فواقعنا يُنْذِر بخطر داهم وشرٍّ عارِم، لطغيان الفاحشة وعمومها وشمولها وتظاهرها واستعلائها بين العامة والخاصة، في الشؤون الكبرى والصغرى، على مستوى المجتمع والأسرة والفرد، والذكر والأنثى، والكبير والصغير، والغني والفقير، والراعي والرعية، وعلى مدار الزمن لا تفتر ساعةً من ليل أو نهار، تطارِدُ الناسَ في خلواتهم وجلواتهم، وسرِّهم وعلانيتهم، وناديهم وبيتهم، وحياتهم العامة وشؤونهم الخاصة، ومن نأى عنها أصابه من شررها، ومن هرب منها لاحقَتْه تريد الفتك به، فهي مستعرَة مسعورة، لا تفتأُ تتوقد وتتوهج ألسنة نارها؛ لأن من ورائها قوىً جبّارةً تُسعِّر جحيمَها وتُلهِب أُوارها وتنشر شرورها وتشجع كل من يسعى فيها، وتُغدق الأموال العملاقة لترويجها في العالمين.

١ ـ ومن ألوان الفحش والتفحش تلك الأصناف من اللباس التي ترتديها النساء، وتخرج بها إلى الشارع والعمل والسوق والحديقة والسهرة والزيارة..

وغيرها، وفيها القصير الفاضح والضيِّق جدّاً والمُزركَش والملوَّن والشفّاف مما هو معدود من لباس الشُّهرة؛ لتلفتَ إليها الأنظار، وتؤجج الغرائز، وتنشر الإثم، وتروِّج الفاحشة.

عن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَبِسَ ثوبَ شُهْرةٍ أَلْبَسهُ الله يومَ القيامةِ ثوبَ مَذَلَّةٍ**».

وفي رواية: «**مَن لَبِس ثوبَ شهرةٍ في الدنيا، أَلْبَسه الله ثوبَ مَذَلَّةٍ يومَ القيامةِ، ثم أَلْهَب فيه ناراً**»[١].

وتضيف المرأة إلى ذلك الأصباغ والألوان على وجهها وشفتيها، والذهب وما والاه على صدرها وفي يديها، وتنثر العطور الفوّاحة على جسمها وثيابها، وتبرز للناس بصورة مثيرة تبتغي بذلك حظوظ النفس وتلبية نزغات الشيطان.

وفي الحديث عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ويلٌ للنِّساءِ من الأحْمَريْن: الذهبِ والمُعَصْفَرِ**»[٢].

والنساء إن حلَّ لهن الحرير والذهب فليس يَسُوغ لهنَّ أن يجعلنَ التزيُّنَ والإغراء شغلهنَّ الشاغل الذي يستغرق الأوقات ويستهلك الثروات[٣].

٢ ـ وعُري المرأة وخروجُها سافرة الرأس كاشفة الذراعين والساقين والصدر والنحر وغير ذلك؛ هو من أقبح أنواع الفحش والتفحش.

وكثيراً ما تسيرُ في الطرق العامة والشوارع والأسواق وأروقة المؤسسات

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٩)؛ والنسائي في الكبرى (٩٤٨٧)؛ وابن ماجه (٣٦٠٦) و(٣٦٠٧) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٩٢، ١٣٩؛ والبغوي (٣١١٦)، وحسَّنه المنذري والألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٩٦٨)؛ والبيهقي في شعب الإيمان؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٣٣٩)، وصحيح الجامع (٧١٣٨)؛ وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على ابن حبان.

(٣) انظر: خلق المسلم، ص١٤٥، ١٤٧.

والمنتديات والمتنزهات والمرافق العامة.. فترى ما يُقْذي عيونَ الأشراف والأطهار، ويملأُ بالكآبةِ والحسرة نَفْسَ كُلِّ غيورٍ على مستقبل هـذه البلاد!.

ولمن كل هـذا التبرُّج؟ إنه ليس للزوج أبداً، إنْ كانت هـذه المرأة متزوجة فملابس البيت مجرّدة تماماً من كل هـذا الإغراء اللعين، إنه للعيون النّهِمة، والذئاب المتربِّصة، ودافعي الثمن المطلوب.. نعم لهؤلاء وحدَهم تعريةُ الظهور والصدور والنحور، ولفُّ الأرْداف حتى تتراقص في أثناء المسير، وتثير الفتنة، وتحرِّك الغرائز! أجسامٌ شبهُ عارية ملتهبة، عارمةُ الأنوثة، وعيون متكسِّرة فاترة، وحركات تهزّ الليّن من أجزاء الجسم البَضِّ.. هـذه الأنثى لو أنها سكَتَتْ لأثارَتْ، ولو أنها قالت حِكماً وأمثالاً لهزَّت مشاعر الناظرين والسامعين[1].

٣ ـ **واستغلال المرأة وأنوثتها للإعلان والتسويق**، ونشر صُوَرها، وعرض تفاصيل جسدها وحركات جسمها بصورة تُثير العبّاد والناسكين، لترويج هـذه البضاعة أو تلك الصناعة أو ذاك الفيلم أو هاتيك السهرة أو البرنامج أو اللقاء، أو.. أو..

إنك تراها عارضةَ أزياء، ومروِّجة عطورات ومواد تجميل، ومسوّقة مواد غذائية، ومُنَفّقة ملابس ومجوهرات، ومجلات، ومباريات، ومهرجانات.. فلا تكاد تجد مكاناً إلا وصورُ النساء العاريات تواجهك وتدعوك، في الشوارع والأسواق والمراكز، وعلى صفحات وسائل الإعلام بكل أنواعه، حتى على الجدران والسيارات الخاصة والعامة، بصورة مسِفَّة وأوضاع مُخْجِلة تخدِش المروءة والحياء بل تُذهبهما من الرجال والنساء على حدٍّ سواء!.

وتريد هـذه الحملات المسعورة من وراء ذلك زَرْعَ قيمِ الشيطان في أنفس أبنائنا وبناتنا، ونَزْعَ قيمِ الفضيلة والعفة والحياء والغيرة. إنها تريد أن تقول لهم: إن هـذه الصور والمناظر التي ترون هي واقع حال المرأة والشابة والفتاة

---

(١) انظر: كفاح دين، ص٢٤٠ ـ ٢٤١، ٢٤٨.

العصرية؛ سافرة عارية متخنثة متكسّرة متبرّجة.. إلى آخر ما هنالك من القيم الهابطة والدعوة السافرة للفحش والتفحش.

٤ ـ ومن صور الفحش والتفحش ما يجري في بلاد المسلمين في الأفراح: فالذي يشاهد أو يحضر الأحفالَ التي يُقيمها كثيرون لمناسبات شتى، ابتهاجاً بمولود، أو استقبالاً لكبير، أو احتفاءً بصديق، أو فرحاً بزواج[1]، أو الاحتفال بأعياد الزواج وأعياد الميلاد ـ يرى ألواناً من الفحش وأصنافاً من التفحش، في الاختلاط الماجن، والغناء الآثم، والملابس الفاضحة والمسرِفة في الثمن، مع ما يُرافِق ذلك من الرقص الحرام، وشربِ الخمور، وإطلاق الحيوان الرابض في النفس، والتبذُّل والترخُّص بكل قيمِ المروءة، مع السَّرَف الفاحش في أصناف الطعام وألوان الشراب!.

ومن سمع أو شاهد أو قرأ عما يجري في حفلات الأعراس التي يقيمها الأثرياء والمترفون في الفنادق؛ هالَهُ الأمرُ وظنَّ أننا في أفراح أُناس من أهل الكتاب، بل نقول: لقد سبقهم بعض المسلمين في هـذه المباءة الرديئة من الفحش والتفحش.

٥ ـ ومن ألوان الفحش والتفحش فتحُ باب الاختلاط على مصراعيه دون ضوابط وبلا حسيب ولا رقيب، وتركُ النساء يختلطن بالرجالِ، والشباب بالفتيات، ووضْعُ الحبل على الغارب بحجّة الحرية الشخصية وعدمِ الكَبْت وإشاعةِ جوٍّ من الودّ والصداقة البريئة!.

والذين يمشون في هـذا السبيل جمهورٌ عريضٌ، ومن ورائهم حكومات ومؤسسات وصحفيون وكتّاب.

(إن الحملة المجنونةَ على الكَبْت أوجدتْ شباباً طريّاً، ورجولةً زائفةً لا صبرَ لها على شيء، وأوجدتْ منطقاً يَستبيحُ كل شيء بحجّة الحاجة فحسب.

---

(١) انظر: ليس من الإسلام، ص٢٤٠ ـ ٢٤١.

وفي ميدان الغريزة الجنسية رأيْنا تعمُّدَ خلطِ الرجال بالنساء في ظروف مُريبةٍ وملابساتٍ سيئة.. لماذا؟ منعاً لأضرار الكَبْت!.

وليتَ شعري لماذا نُحرِّم على الإنسان سرقةَ بدلةٍ يشتهيها، ولا نحرِّمُ عليه سرقةَ عِرْض يَلِغُ فيه بالباطل؟!)[1].

٦ ـ ومن أصناف الفحش والتفحش الشعر الماجن والغزل المنحطّ وإنتاجات أهل الفن التي ملأت الحواضر والبوادي والسهل والجبل ودخلت كل بيت! والتي تثير أنواعَ الآهات، وتنشر النظرات الجائعة، والألفاظ الخادشة، والأنّات المائعة، على أبنائنا وبناتنا في الصباح والمساء والغدوات والروحات.

وهـذا الصنف من المُخنَّثين هم ثمرةُ الأقلام التي لا ينقطع لها توجيه فاسد في أغلب وسائل الإعلام في ديارنا، ولعمرُ الحق إنَّ حَمَلتَها شرٌّ على البلاد من باعة (الحشيش) وبقية المخدّرات.

٧ ـ وفحشُ كثير من الكتّاب والروائيين والقصّاصين والصحفيين ومن سار في حَلْبتهم أمثلةٌ صارخةٌ على نشر الفحش والتفحش، حيث كسدت سوقُ الأدب الرفيع، والقراءة العالية، والأغراض النبيلة، وقامت مكانها سوقٌ للكتابات الدَّنِسة، والأدب المفضوح، وصُرف الشباب صرفاً عن ميادين التربية الجادة والتعاليم الصارمة، ليفتحَ عينيه وأذنيه على ضَرْب من الكلام يتملَّق نزواته ويدفعها دفعاً إلى مغامرة بعد أخرى، كأنما أقلام هؤلاء الكتَّاب والمُحْدَثين أهويةٌ تمسُّ الشهوات الدنيا فتزيدها وهجاً وتملؤها ضِراماً.

ومن أشهر من ارتاد هـذا الميدان الآسن إحسان عبد القدوس وكتاباته، يقول في أحد كتبه:

(وكانت شفتاها تترنّحان، وتركتْ نفسَها له.. وتركَتْه يُلصق خدَّها بخدّه،

---

(١) كفاح دين، ص٢٦٦.

يَصهرُ جِيدَها بأنفاسه، ويزحفُ بشفتيه ليلقي بقبلاتٍ صامتةٍ في أذنيها، ويضغطها إلى صدره حتى لم يعدْ يفصِلُ بينهما سوى خيط أرقّ من الشعرة)!.

(. . . وتركَتْه يتكلّم دون أن تستمعَ له، ثم لفَّتْ ذراعيْها حول عُنقه، وهوتْ على شفتيه بشفتيها! وحاول أن يقاوم نفسه ولكنه لم يستطع، فشرب من شفتيها حتى ارتوى، ثم طاف بوجهها وعُنقها وصَدْرها وذراعيها يقبِّل كلَّ قطعة فيها، ويملأ أنفَه بعبير أنوثتها، ويفرِّجُ عن الكَبْت العنيف الذي عرفه منذ عرفها!)[1].

أيُّ فحش وتفاحش أقبحُ من هـذا الذي يروِّجه أمثال هـذا الكاتب، ويشيعون الفاحشة في الذين آمنوا؟!.

٨ ـ ومن أفظع صور الفحش والتفاحش وأكثرها انتشاراً وأشدّها خطراً وأعظمها ضرراً ما يقوم به الإعلام في ديار المسلمين، فلقد أُنشئت كثير جدّاً من الصحف والمجلات والقنوات الفضائية التي لا مهمة لها سوى نشر الفواحش والمآثم في مجتمعاتنا، وأُغدقت عليها الأموال بلا حساب، وكثيرٌ منها يموَّل بأموال أناس يدَّعون الإسلام!

تحملُ للناس على صفحاتها وتروِّج لهم المسلسلات والمسرحيات والقصص والأفلام والبرامج التي تهدم في الأخلاق على مدار الساعة، وتنشر صور العبث والانحلال والجنس الرخيص وأدب الفراش في صور تنحطّ إلى دركات البهيمية[2]!.. وتبثُّ على صفحاتها وشاشاتها الفواحشَ من العُري والتهتك والعهر والرقص والغناء الفاحش والخَنَا والفسوق والفجور والاختلاط الأثيم، والأجساد البَضَّة التي لا يكاد يسترها شيء، والساتر والمستور أكثر إثارة من المكشوف!.

واقتحمت هـذه الفواحش المستعلية والمستعلِنة كلَّ بيت طوعاً أو كرهاً،

---

(١) من كتاب: بائع الحب، نقلاً عن كتاب: كفاح دين، ص٢٣١ ـ ٢٣٤.

(٢) انظر: الضربات، ص٣٠٤.

فمن البيوت ما فَتَح لها الأبواب والنوافذ والسُّطوح ولم يَحُلْ بينها وبين أهله بشيء! ومنها ما يُدافِعها قدر الطاقة ويسدُّ مختلِف النوافذ والثقوب وهي تأبى إلا أن تدخل حتى ولو من خلال نشرات الأخبار و(البرامج الهادفة!).

ورسالة الصحافة والإذاعة والمسرح والسينما والتلفاز والإنترنت ـ في كثير من الحالات ـ هي تغذية ذلك الفساد والفحش، وتنميتُه حتى يَطمَّ ويعمَّ، وحتى لا تُفلتَ من خبثه قريةٌ ولا مدينةٌ، ولا ينجو من غائِلَتِهِ وليدٌ ولا مُعَمَّر!.

ووراء كل ذلك لفيفٌ من عملاء الشيطان، كرَّسوا أوقاتهم لمطاردة العفاف والتقوى، وتوطين المجون والهوى، يَعبثون بغرائز الشباب، ويعملون على بقائها متوترة مضطربة، كلما انصرفت إلى جدٍّ أزالوها عنه، وكلما وقعتْ في لهوٍ زيّنوه لها، وكلّما ملَّتْ متعةً عَرَضوا فنوناً تنفي السآمة، وتُغري بالمزيد من الفحش والسخف.

وأعمالُ هؤلاء الماجنين أعلى صوتاً وأوسعُ مجالاً وأكثر أموالاً وأدومُ رِفْداً مما أُتيح لأضدادهم من دعاة الطهر والأدب والفضيلة! بل إن جهود هؤلاء الواعظين الناصحين إلى جانب الضجيج الهائل الذي يُحدِثُه في المجتمع أولئك المنحلُّون السفهاء؛ تُشبِهُ وقْعَ العصا في معركة تُدمدِم فيها المدافع والطائرات[1]!.

٩ ـ والترويحُ عن النفس ومحاربة الكبت والحريةُ الشخصية المزعومة من منافذ الشيطان التي تسلَّل منها مروِّجو الفاحشة ودعاةُ التفحش، ممن سُمّوا بأهل الفن، والذين قَصَروا أحاديثَ (العاطفة) و(الحب) و(الترفيه) على العاطفة الجنسية وإيقاظ الحيوان الرابض في النفس وإطلاق العنان للغزل الهابط والشهوات الوضيعة، والتقلب في حمأتها ورذالتها.

إن الآداب والفنون من أجلِّ وجوه النشاط الإنساني، وإن المشتغلين فيها

(١) انظر: كفاح دين، ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.

والفاقهين في شؤون العاطفة الإنسانية، والخبراء بتحريكها وتطمينها؛ ليسوا أناساً عاديين، إنما هم رجالٌ في قمَّة البشرية، رجال لهم قلوب أرقُّ حسّاً، وأزكى معدناً، وأنبلُ اتجاهاً، وأبينُ إيثاراً من سائر الخلق.

أما دائرة الفن عندنا فتكاد تكون مغلقةً على ذلك الصنف الذي يجهل ربَّه، لأن أصل الإيمان مبتوت من فؤاده، فهو لا يعرف إليه طريقاً من عبادة أو بر، وهو يشرب الخمر كما يشرب الماء، وهو ينظر إلى النساء نظرة السوائم إلى الكلأ المباح، وبتلك المشاعر يغنّي، ويتأوَّه، ويسلّي الجماهير، وهو يرقق عاطفتها باسم (الفن)(١).

١٠ ـ وهناك لون آخر من الفحش والتفاحش قد يكون بعيداً عن العامة، لكنه ميسَّر السُّبُل ممهَّد الأكناف، يروَّج له بين الخاصة والعامة، ذلك هو ما يجري في (الصالات) و(الكابريهات) وحمامات السباحة الخاصة والعامة في الفنادق وسواها، وعلى شواطئ البحار، مما لا يَشيع فيها سوى أفحش أنواع الفحش والتفحش والخطايا، والتي لا تترك معها ذرّةً لشرف أو مروءة أو كرامة أو رجولة أو أنوثة أو قيم فاضلة، بل كلها خطايا قد أحاطَتْ بأصحابها، وأَغلقَتْ عليهم كلَّ منافذ الهدى والشرف والحياء!.

١١ ـ ومن أصناف الفحش والتفحش انتشارُ المحرّمات التي نهى الله تعالى عنها، ومقارفةُ الكبائر التي تهدّد الله ورسولُه ﷺ مرتكبيها، ودَعَا الإسلام إلى محاربتها وتطهير المجتمعات من غوائلها.

ويتجلَّى ذلك في شيوع فواحش (الزنى) و(اللِّواط) و(السِّحاق) و(شُرب الخمر)، حيث تُبنى (دور البِغاء) و(حانات الخمور) بتراخيص من الدولة وبحماية القانون، ويَحرم المساس بها أو استنكارها ومحاربتها حتى بالكلام والمواعظ، لأنها خاضعة لسياسة الدولة ومشرَّعة بالقانون.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٨.

وتقدّم الخمور بأنواعها وأسمائها الجذّابة في الحانات المنتشرة في البلاد العربية والإسلامية، وفي الفنادق، وبعض الصالات والمطاعم، وفي المطارات وعلى متون الطائرات.

بل عُرض فيلم سينمائي، ومارست الممثلة فيه (السّحاق)، ودافَعَتْ عن عملها هـذا عندما سُئلت بأن ذلك موجود في المجتمع، فهي تعكس صورة اجتماعية، وتريد تنبيهَ الأسر لتجتنبه! ودافع عن هـذا الفعل الأثيم مخرجُ الفيلم والنقَّاد والسينمائيون وغيرهم ممن يهدم في أخلاق الأمة ويشيعون فيها الفاحشة.

ولمّا اعترض بعضُ علماء المسلمين على ذلك وأنه يجب منعه ومحاكمة الفاعلة، استنفر الأفّاكون وقالوا: ليس هـذا من شأن الفقهاء ولا علماء الدين[(١)].

لقد أصبحت الفاحشة محمية بالقانون، والفضيلة والنهي عن المنكر ممنوع بالقانون، في زمن انقلاب الموازين وتنكيس المفاهيم!.

١٢ ـ مهاجمةُ الأسرة وتعدد الزوجات والطلاق، وإباحةُ الخليلات والعشيقات، وتشجيعُ الخيانة الزوجية، ووضعُ العراقيل أمام الزواج لتأخير الشباب والفتيات عنه للانزلاق إلى الفواحش؛ هو لون آخر من إذاعة الفاحشة ونشر التفحش.

اسمع إلى الأستاذ محمد زكي عبد القادر؛ وهو يقول: (ويرى البعض أن أسوأَ ما في الزواج أنه استمرارٌ على حالة واحدة متكرِّرة داعية إلى السأم والضِّيق، في عصر يبدو كلُّ شيء أمام الإنسان فيه، وكأنه يتطوّر ويتغيَّر من يوم إلى يوم.

والزواجُ يستند إلى مفهوم ديني أكثر مما يستند إلى ضرورة طبيعية، وقد

(١) ملخص مما نشرته (قناة العربية)، يوم الأحد ١٣/ ١/ ٢٠٠٨م.

وُجِد من الفلاسفة والمفكّرين من اعتبروا الزواجَ حالةً منحطّة من حالات الإنسان).

(ومن الوسائل التي يلجأ إليها بعضُ المتزوجين في أوروبة وأمريكة حتى يقطعوا رتابةَ الزواج ومَلَله؛ أن يُعطي الزوجان أحدُهما الآخر إجازة تَطولُ وتقصُر حسب الظروف، حتى يتجدَّد الحنينُ إلى البيت والأولاد)[1].

وتحت عنوان «بيت الطاعة وأركانه المنهارة» يقول إحسان عبد القدوس: (يا رجالَ التشريع، إن بيت الطاعة نظامٌ فاسدٍ لا يتفق وملابساتِ حياتنا الاجتماعية الجديدة، فلنستبدلْ به نظاماً آخر أكثر اتفاقاً وملاءمةً لهـذه الحياة، وإلا فَلْتُمنح المرأة هـذا الحقَّ الذي يتمتع به الرجل وحده، وليجرِّب الرجال كيف يعيشون تحت سقف واحد مع امرأة لا يحبُّونها، عندما تُجبرهم الشريعة على الدخول في بيت الطاعة.

لا، إنه نظام عقيم، ما أحوجنا إلى تغييره)[2].

إن هـذه أمثلة قليلة لذلك الغُثاء العريض في محاربة الزواج المشروع، وتشجيع الخَنا والدعارة، ونشر الفواحش الظاهرة والباطنة.

لقد أخذت التقاليد الإسلامية في الزواج تتراجع أمام الجاهلية الحديثة الوافدة مع التسوُّل الجنسي والتحلل الخلقي وسائر ما ترمينا به (الحضارة الغربية).

واللومُ الشديد يوجَّه إلى هؤلاء الساعين لنشر الفاحشة وترويج المنكر، أما اللوم الأشدُّ فيوجَّه لمن مكَّن لهم واحتفَى بهم، وهيَّأ الفُرص أمامهم كي ينشروا في الأرض الفساد!.

١٣ ـ التفحش في الكلام والتفاخر بارتكاب المعاصي والآثام؛ فترى كثرة

---

(١) كفاح دين، ص١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) روز اليوسف، العدد (١٤٠٩) نقلاً عن كتاب: ظلام من الغرب، ص١٨٤.

غامرة من الناس يَقضُون سحابةَ نهارهم لا ينقطع لهم كلام، ولا تهدأ لألسنتهم حركة، قد هيمنَ عليها الشيطان فَجَرتْ بالفاحش من القول كالسبِّ، والشتم، واللعن، والطَّعْن في الأنساب، وقذفِ الناس واتهامِهم بالباطل، لا يَحجزه عن المَبَاذِلِ دين، ولا تصدُّه عن الإقذاع مكرمة! وفي الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله يُبْغِضُ الفاحشَ المُتفحِّش**»[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أثقلَ ما وُضِعَ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامة خلقٌ حسنٌ، وإنَّ الله يُبْغِضُ الفاحشَ البذيءَ**»[2].

وثَمَّةَ أناسٌ يرتكبون المعاصي في الليل بعيداً عن أعينِ الناس، ويُضيفون إليها معصيةً أخرى في النهار حيث يُجاهرون بما اقترفوه من آثام ـ وقد سترهم الله ـ فيَفْضَحُون أنفسَهم بها، وكأنَّهم يُفاخرون بالمعصية، فهم بذلك مرتكبون للكبيرة داعونَ إليها، فعليهم وِزْران!.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**كلُّ أمتي مُعَافىً إلا المُجاهِرينَ، وإنَّ من المجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً، ثم يُصبح وقد سَتَرَهُ الله، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحةَ كذا وكذا. وقد باتَ يستُره ربُّه، ويُصبح يَكشِفُ سِتْرَ الله عنه!**»[3].

بل إنَّ من الفُحْش الذي يُؤاخَذُ به المسلم أن ينشرَ ما يجري بينه وبين زوجته، فعن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أشرِّ**

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/٢٠٢؛ والطبراني في الكبير (٣٩٩) و(٤٠٤) و(٤٠٥)، والأوسط (٣٣٠)؛ وابن حبان (٥٦٩٤)؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٨٧٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٦٩٣)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط. وانظر: الصحيحة (٨٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) واللفظ له؛ ومسلم (٢٩٩٠).

الناس عند الله منزلةً يومَ القيامةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إلى امرأتِهِ وتُفْضي إليه، ثم يَنْشُرُ سِرَّها»(١).

واعتَبَرَ الإسلامُ من يفعل ذلك مِثْلَ شيطانٍ لقي شيطانةً في طريق فغَشِيَها والناس ينظرون!.

عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: (أنها كانت عندَ رسول الله ﷺ، والرجالُ والنساءُ قعودٌ عنده، فقال: «**لعلَّ رجُلاً يقولُ ما يَفعل بأهلِه، ولعلَّ امرأةً تُخْبِر بما فَعَلتْ مع زوجها**»! فأَرَمَّ القومُ، فقلت: إي واللهِ يا رسول الله، إنهنَّ لَيَقُلْنَ وإنَّهم لَيَفْعَلون. قال: «**فلا تَفْعَلُوا، فإنَّما ذلك مِثْل الشيطانِ لَقِي شيطانةً في طريقٍ، فغَشِيهَا والناسُ يَنْظرونَ**»!)(٢).

ثانياً: دروس وعبر:

١ ـ إن إشاعة الفاحشة والترويجَ لها والتشجيعَ عليها ينشئ جيلاً حائراً خوَّاراً مُضَلَّلاً تائهاً، موغِلاً في حمأَةِ الشهوات والميوعة الخلقية، يُتقن حبَّ الدنيا والعبَّ من الملذات وتتبُّعَ الملهيات وإضاعةَ الأموال والأوقات، ويَكره الموت والتضحية والفداءَ، فلا يَنصر ديناً ولا يحمي عِرْضاً، ولا يَذُود عن أرض ولا يقف في وجه عدوّ، همُّه شهواته ونزواتُه كالسوائم التائهة والأنعام الراتعة.

٢ ـ لقد حَرَصتْ تعاليم الإسلام وتوجيهاتُ أولي النُّهى من المصلحين على أن تشيع في الجماهير أخلاقُ الجندية وتقاليد الخشونة، وأن يتعلَّموا أخذَ الحياة من جوانبها الصارمة ونواحيها الجادة. كما اجتهدوا أن يَبتروا من المجتمع مظاهرَ الاسترخاء والتخنُّث، وأن يمنعوا استرسالَ النفوس مع أسباب اللهو والعبث..

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٧) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٨٧٠)؛ وأحمد: ٣/ ٦٩.

(٢) أخرجه أحمد: ٦/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٤/ ٢٩٤، وقال: رواه أحمد والطبراني، وفيه شهر بن حوشب وحديثه حسن وفيه ضعف. **أَرَمَّ القوم**: أي سكتوا وخافوا.

فإذا نشأ في الأمة ذلك الجيل من الشباب الرخو الطريّ الذين تستعبدهم الشهوة ولا تستهويهم أحاديثُ المجد والكفاح وضبط النفس وفِطامها عن الفحش والتفحش ـ فمن للمشقات بعدئذ يحملُها؟ ومَن للتضحيات يقدِّمها؟ ومن للمروءات يصنَعُها؟ ومن للبطولات يقوم بها؟ وهل تنهضُ أمة إلا بهـذا كله(١)! إن الله سبحانه يقول لداود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [صٓ: ٢٦].

وأمَّتنا الآن وقد استُبِيحت أرضها وثرواتها، واستُهدف دينها وحضارتها، إنما كان من الأسباب الكبرى لذلك انتشارُ الفواحش، واستمراءُ مزالق الرجس والشهوات الحرام.

٣ ـ إنَّ ظهورَ الفحش والآثام كان سببَ ذهابِ ريح الأمم من قبلنا وزوال مُلْكها، فإذا أخذتْ أمتُنا أخذَ القرون قبلها نزل بها مِثلُ ما أصابهم، وهـذا ما قاله أحد حكماء الروم لهِرَقْلَ عندما سأله عن أسباب هزيمتهم أمام المسلمين، قال:

(من أجلِ أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويُوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصَفُون بينهم. ومن أجلِ أنَّا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بما يُسخط الله، وننهى عما يرضي الله ﷻ، ونُفسد في الأرض!)(٢).

وهـذا واقع حال أمتنا الآن يصدِّق قول هـذا الحكيم!.

٤ ـ وظهور الفاحشة وانتشار التفحش في الأقوال والأفعال يذهب العقول، ويُضني النفوس، ويخرِّب القلوب، ويَعبث بالأرواح، ويدمِّر الأوقات، ويَمحق الخير والبركة، ويُشيع البغضاء والضغينة والآفات المهلكة للحرث والنسل.

٥ ـ كذلك فإن التشجيع على الفاحشة والتفحش يأكل أموال المسلمين بما

---

(١) انظر: كفاح دين، ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ١٥؛ وانظر: المد والجزر، ص٥٨ ـ ٦٢.

يبددونه ويتسافهون في إنفاقه يميناً وشمالاً، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى صيانة الأموال العامة والخاصة؛ لاستنهاض الأمة وبناء الدولة وتشييد المؤسسات والمشاريع البنّاءة، وإعالة المحتاجين واستنقاذ الجياع والمعوزين والمرضى، وتعليم الجاهلين حتى لا يقعوا في براثن الهلاك والتنصير والتكفير.

٦ ـ وفي شيوع الفاحشة تدميرٌ للأُسر وتحطيمٌ للروابط الوثيقة بين الزوجين والأولاد، وتشجيع على الخيانة الزوجية من الطرفين، وإغراءٌ للجنسين بالاستخفاف بالزواج والإقلاع عنه ومواقعة الإثم، وبالتالي الانجراف بالمجتمع نحو الرذيلة والفساد.

٧ ـ والمُعَالَنة بالفاحشة وإغراءُ الناس بها وترويجها في كل مكان مع تقلُّب الليل والنهار؛ يؤدي إلى ذيوعها وإيقاع البعيدين عنها في مباءتها، واكتواء الغافلين عنها بلظاها.

٨ ـ الذين يُذيعون الفاحشة ويشجِّعون عليها ويحضُّون على مقارفتها هم نفرٌ من الناس أَقفرتْ قلوبهم وأرواحهم وأنفسهم من كل خير يَشْرُف به الإنسان، فهم دائبون على تلويثِ منابع الخير وتصديعِ أركان الأمة... وقانونهم: إذا عجزنا عن معالجة الاستقامة والتزام فروضها، فلنحقِّرْ هذه الحياة، ولْنجرَّ أصحابها جرّاً إلى مزالق الإثم والجريمة، حتى يستويَ الكلُّ في المجون والخَنا.

والشخص القذر يرضيه أن تكون الدنيا كلها على غراره، ويُغضِبه أن يترفَّع الناس عن مآثمه وعاره[١].

٩ ـ وهؤلاء يشكِّلون جيشاً كثيفاً في الأمة، وعصابات فتّاكة في بنيانها، يأتمرون بها في الليل والنهار، وهم يخدمون أعداء الأمة ويُشبعون أحقاد الاستعمار على الإسلام وأهله، إذ هم يجتهدون في تحويل المجتمع إلى طوائف من مرتكبي الفاحشة والعري والعهر والدعارة والعربدة.

(١) كفاح دين، ص٢٤٥ ـ ٢٤٦.

وأعداء الإسلام لا يفرحون لشيء فرحَهم لتفكك الإسلام وأهله في هذه الميادين.

١٠ ـ والذين يناضِلون لإذاعةِ الفواحش والمحرَّمات، وابتذالِ الشرف واسترخاص الأعراض، ويروِّجون للعري والعهر والمجون، ويقفون في وجه الفضائل والعفة والمروءة والرجولة وكل مَنْ ينادي بها أو يسعى لحمايتها بالكلمة والقانون.. إن هذا القطيع النكد هم عبَّاد الهوى وتلامذة الشيطان، تحكُمهم غرائز السوء، وتحرِّكهم ضغائن دفينة على الإسلام وأهله وحضارته ودياره، وما تنضبط لهم غرائز ولا يقف لهم سعي إلا بمسِّ العصا ووقع السَّوط، ولكن من يفعل بهم ذلك والريح لهم، والعدو المتربّص في الداخل والخارج يبارك مسعاهم؟!.

١١ ـ الإسلام لا يحبُّ أن يشهدَ الناس المعصية والفاحشة التي وقعت ليتسلّوا بمرآها، أو ليقرؤوا وصفها إذا غابوا عنها. والخطيئة نفسها حين تقع يَضرب الإسلام حولها أسواراً من الكتمان، ويعالجها في صمت، فما يَكشف عن أطرافها إلا إذا فاحَتْ ريحُها وعزّ سترها[1].

فكيف بمن يروِّج لها وينشرها على العالمين ليشاهدها ملايين البشر وكأنهم شهدوها؟! إن هؤلاء ممَّن عَنَاهم الحق تبارك وتعالى في قوله الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].



(١) انظر: ظلام من الغرب، ص٢١٥ ـ ٢١٦.

١٢٦

إخبار النبي ﷺ عن أُناس يشربون الخمر ويسمُّونها بغير اسمها

١ ـ عن مالكِ بن أبي مريمَ قال: (دخلَ علينا عبدُ الرحمن بن غَنْم، فَتَذَاكَرْنَا الطِّلاءَ، فقال: حَدَّثَني أبو مالك الأَشْعَريُّ: أنه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: «**لَيَشْرَبَنَّ ناسٌ من أمَّتي الخمر، يُسَمُّونَها بغيرِ اسْمِها**»)[1].

٢ ـ وعن أبي أُمَامَةَ الباهِليِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَذْهَبُ اللَّيالي والأَيَّامُ حتى تَشْرَبَ فيها طائفةٌ من أمَّتي الخمرَ، يُسَمُّونَها بغير اسْمِهَا**»[2].

٣ ـ وعن عبد الله بن مُحَيْرِيز، عن ثابت بن السِّمْط، عن عُبَادة بن الصّامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيَسْتَحِلَّنَّ طائفةٌ من أمَّتي الخمرَ باسْمٍ يُسَمُّونَها إيَّاهُ**»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٨٨) واللفظ له؛ وبأطول منه: ابن ماجه (٤٠٢٠)؛ وأحمد: ٥/ ٣٤٢؛ والبخاري في التاريخ الكبير: ١/ ٣٠٥؛ والطبراني في الكبير (٣٤١٩)؛ وابن حبان (٦٧٥٨)؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ٢٩٥، ١٠/ ٢٣١؛ وصحَّحه الألباني في صحيحي أبي داود وابن ماجه، والصحيحة (٩٠)، وصحيح الجامع (٥٤٥٣) و(٥٤٥٤)؛ وصحَّحه عبد القادر الأرنؤوط في تعليقه على جامع الأصول: ٥/ ١٤٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣٨٤)؛ وأبو نعيم في الحلية: ٦/ ٩٧، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه، وصحيح الجامع (٧٢٧٣)، وانظر: الصحيحة (٩٠).

(٣) أخرجه أحمد: ٥/ ٣١٨، واللفظ له؛ وابن ماجه (٣٣٨٥)؛ وابن أبي الدنيا في ذم المسكر؛ وقال الحافظ في الفتح: ١٢/ ٥٨٩ شرح الحديث (٥٥٩٠): سنده جيد؛ وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه، والصحيحة (٩٠)، وصحيح الجامع (٨٠٩١).

٤ ـ وعن عبد الله بن مُحيريزٍ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**يَشْرَبُ ناسٌ من أمَّتي الخمرَ، يُسَمُّونَها بغيرِ اسْمِها**»[(١)].

٥ ـ وعن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أوَّل ما يُكْفَأُ** ـ يعني الإسلامَ ـ **كما يُكْفَأُ الإناءُ** ـ يعني الخمر ـ» فقيل: كيفَ يا رسولَ الله، وقد بَيَّنَ الله فيها ما بَيَّنَ؟ قال رسول الله ﷺ: «**يُسَمُّونَها بغيرِ اسْمِها، فَيَسْتَحِلُّونها**»[(٢)].

❁ ❁ ❁

أولاً: معاني الألفاظ:

(الطِّلَاء): الشراب المطبوخ من عصير العنب وهو الرُّبُّ.

«**أول ما يُكْفَأُ الإسلامُ**»: تقول: كفأتُ الإناءَ وأكفأتُه إذا كَبَبْتَه وإذا أَمَلْتَه وقَلَبْتَه. والإكفاءُ: المُخَالَفة والتغيُّر، ووقوعُ الشيءِ على غير وجْهِهِ. والإكفاءُ في الشِّعْر: الفسادُ في آخرِ البيت والمخالفة بين حركات الرَّوِيّ[(٣)].

فمعنى «**أول ما يُكفأ الإسلام**»: أي يقع التبديلُ فيه، وتغييرُ مقاصده، وقلبُ حقائقه، وإفساد شرائعه، ومخالفة أوامره، والتلاعب بنصوصه وحملها على غير وجهها.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥١٤٨)، وفي الصغرى: ٨/ ٣١٢، واللفظ له؛ والطيالسي (٥٨٦)؛ وأحمد: ٤/ ٢٣٧؛ وصحَّحه الألباني في صحيح النسائي: ٣/ ١١٤٥ (٥٢٢٩)، والصحيحة (٩٠) (٤١٤)، وصحيح الجامع (٨٠٩٢)؛ وعبد القادر الأرنؤوط في تعليقه على جامع الأصول: ٥/ ١١٧. وجهالةُ اسم الصحابي لا تضرّ، فكلّهم عدلٌ رِضاً رضي الله عنهم جميعاً.

(٢) أخرجه الدارمي (٢١٠٠) واللفظ له؛ وبنحوه أبو يعلى في مسنده: ١/ ٢٢٥؛ وابن عدي في الكامل: ٦/ ٢٥ ترجمة (١٥٧١)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٨٩). ولحديث عائشة رواية أخرى عند الحاكم: ٤/ ١٤٧؛ والبيهقي: ٧/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث: ٣/ ١٣٧، ٤/ ١٨٢؛ لسان العرب (كفأ).

قال ابن الأثير: (قوله ﷺ: «**إنَّ أوَّلَ ما يُكْفَأُ الإسلامُ كما يُكْفَأُ الإناءُ في شرابٍ يُقال: الطِّلَاء**»، هذا نحو الحديث الآخر: «**سيشربُ ناسٌ من أمتي الخمر يسمُّونها بغير اسمها**» يريدُ أنهم يشربونَ النّبيذَ المُسْكِرَ المطبوخَ ويسمُّونه طِلاءً؛ تحرُّجاً من أن يُسَمُّوه خمراً)[1].

ثانياً: التحايل على التشريعات والتلاعب بأسماء المحرَّمات؛ وتغيير الأسماء؛ لا يغيّر من الأحكام شيئاً:

•• التحايل على شرع الله سبحانه، والتلاعب بالنصوص، وتحريف الكَلِم عن مواضعِهِ، وتغيير الألفاظ والمسميات، وتشويه الحقائق وتزيين المحرَّمات ـ هو دأبُ مرضى القلوب والمفسدين والفسقة ذوي الأهواء المنحرفة والنفوس المعتلَّة والعقول الصغيرة.. وقد نبتَتْ نابتَتُهم السيئة في الأمم قبلنا، وكذلك ظهروا في أمتنا، تصديقاً لقول النبي ﷺ.

وكل ذلك لا يغيِّر من حقيقة الأمر شيئاً، فالحق حق مهما تناوبَتْه صُروف التشويه والتزوير والتحريف والتغيير، والباطل باطل مهما تعاونت شياطين الإنس والجن على تزيينه وتجميله وتحسين صورته وترويجه، والحلال بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ، ومن حامَ حول الحمى يوشِك أن يقع فيه.

وقد نَعَى القرآن الحكيم على أهل الكتاب ذلك الخُلق الذميمَ والطبع الوضيع فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ومن تحايُلِهم ما قصَّه الله تعالى علينا في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ٣/ ١٣٧.

شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

فقد نُهوا عن الاصطياد يومَ السبت، فكانت الأسماك تأتيهم كثيرة ظاهرة على وجه الماء، ابتلاءً واختباراً، فاتخذوا لها الحِياض، وكانوا يسوقونها إليها يوم الجمعة، فتبقى فيها لا يمكنها الخروج، فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها(١)!.

ومن ذلك أن الله سبحانه حرَّم عليهم شحومَ الميتة، فأذابوها ثم باعوها وأكلوا أثمانها(٢).

وقد كَثُر في أمتنا مَن يتلاعب بالمسمَّيات، ويزوِّر مقاصد المصطلحات، ويشوِّه الحقائق، ويحرِّف الفضائل، ويجمِّل الأباطيل، ويزيِّن مسميات المحرَّمات والموبقات؛ فتراهم يُسَمُّون الربا: فائدة، والجهاد: إرهاباً، والرّشوة: هدية، والرقص والمجون والخلاعة: فنّاً ونجومية، والانفلات من كل القيم والقيود: حرية شخصية، وضبط الغريزة الجنسية وترشيدها في المسار الصحيح: كبْتاً، وأحكام الأسرة: أحوالاً شخصية، والمطالبة بتحكيم الإسلام: تدخلاً في السياسة، والاستبداد ومصادرة الحريات: حفاظاً على الأمن...

وفي هذا السبيل تغييرُ اسم الخمور، وتسميتُها بأسماء مختلفة تزييناً لها، وإبعاداً لمضمون اسمها عن الذهن والحس العام، فلا يجدُ غَضَاضةً بها وفي ذِكْر مسمياتها (العصرية!).

فاللفظ الأصلي (الخمر) يعني ما خامرَ العقلَ وأزالَه، وهذا لا تحملُه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩؛ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤؛ صفوة التفاسير، للصابوني: ١/ ٤٧٨.

(٢) انظر: الحديث في: الفتح: ٦/ ٢٨٨ (٢٢٣٦)؛ وشرح مسلم، للنووي: ٦/ ٨ ـ ٩ (١٥٨١).

الأسماء الأخرى ولا توحي به، فيستهتر القلب بحرمتها، وينجرف المرء إلى مقارفتها.

●● لكن ذلك لا يغيّر من طبيعتها، كما أنه لا يَصرف عن القول الجازم بحرمتها: فتحريمُ الخمر يدخلُ فيه تحريمُ كل مُسْكِر، مائعاً كان أو جامداً، عصيراً أو مطبوخاً، فيدخل فيه عَصيرُ العِنَب، وخمرُ الزبيب، والتمر، والذُّرَة، والشَّعير، والعَسَل، والحِنْطة، فإن هـذا كله خمر بنصِّ رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مَطْعَنَ في سنده، ولا إجمالَ في متنه؛ إذ صحَّ عنه فيما رواه عبد الله بن عمر ﭫ: أن النبي ﷺ قال: «**كلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وكلُّ مسكرٍ حَرامٌ**»(١).

وصَحَّ عن أصحابه ﭫ، وهم أعلمُ الأمة بخطابه ﷺ ومراده: أنَّ الخمْرَ ما خامَرَ العقلَ.

عن عبد الله بن عُمر ﭫ قال: سمعتُ عمر ﭬ على منبر النبيِّ ﷺ يقول: (أمَّا بعدُ، أيها الناسُ؛ إنَّه نزلَ تحريمُ الخمرِ وهي من خمسةٍ: من العِنَب، والتّمر، والعَسَل، والحِنْطَة، والشّعير. والخمر ما خامر العقل)(٢).

وقليل الخمر وكثيره حرام كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة:

عن جابر بن عبد الله ﭫ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أَسْكَرَ كثيرُه فقليلُه حرامٌ**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٣)؛ وأبو داود (٣٦٧٩)؛ والترمذي (١٨٦١)؛ والنسائي في الكبرى (٥٠٧٢) وأطرافه؛ وفي الصغرى: ٨/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧؛ وابن ماجه (٣٣٩٠)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦١٩) وأطرافه؛ واللفظ له؛ ومسلم (٣٠٣٢)؛ وأبو داود (٣٦٦٩)؛ والنسائي في الكبرى (٥٠٦٨) وأطرافه؛ والصغرى: ٨/ ٢٩٥، وغيرهم.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٨١)؛ والترمذي (١٨٦٥)؛ وابن حبان (٥٣٨٢)، وفيه تتمة التخريج.

وعن أم المؤمنين عائشةَ ﵂: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «**كلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ، وما أَسْكَرَ الفَرَقُ منه، فملءُ الكَفِّ منه حرامٌ**»(١).

والفَرَق: مكيال يعادل (١٠ كيلو غرام)!.

وقد اشتدَّ نكيرُ الإسلام على هـذه المُوبِقة، وطاردَ كلَّ مَن له علاقة بها، وحسبك ما رواه عبد الله بن عباس ﵄ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**أَتاني جبريلُ فقال: يا محمدُ، إنَّ اللهَ ﷻ لَعَنَ الخمر، وعاصِرَها، ومُعْتَصِرَها، وشاربَها، وحاملَها، والمحمولَة إليه، وبائِعَها، ومُبْتاعَهَا، وساقِيَها، ومُسْتَقِيَها**»(٢).

ثالثاً: تحقق النبوءة:

●● سميت الخمر قديماً بعدَّة أسماء اشتهرت بين الناس، وأطلق عليها أقوام في عصرنا مسميات كثيرة لا يوحي ظاهرها بحقيقتها.

فمن الأسماء القديمة(٣):

١ ـ **الطِّلَاء**: الشراب المَطبوخ من عصير العنب وهو الرُّبُّ.

٢ ـ **النّبيذ**: شَرابٌ مسكِر يُعمل من العنب والتَّمر وغيرِهما، يُؤخَذ العِنب ـ مثلاً ـ ويُترك عليهِ الماء حتى يختمرَ ويصيرَ نبيذاً.

٣ ـ **السَّكَر**: وهو نَقيعُ التمر إذا غَلَى بغير طبخ.

٤ ـ **الجِعَة**: وهو نبيذ الشعير.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٨٧)؛ والترمذي (١٨٦٦)؛ وابن حبان (٥٣٨٣)، وفيه تتمة التخريج.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ٣١٦؛ والطبراني في الكبير (١٢٩٧٦)؛ وابن حبان (٥٣٥٦)؛ والحاكم: ٤/ ١٤٥؛ وصحّحه الحاكم وأقره الذهبي؛ وصحّحه الزيلعي في نصب الراية: ٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤؛ وأحمد شاكر في تعليقه على المسند: ٤/ ٣٢١ (٢٨٩٩)؛ والألباني في الصحيحة (٨٣٩)، وغيرهم.

(٣) جمعت ألفاظها ومعانيها من: النهاية في غريب الحديث؛ وجامع الأصول: ٥/ ٩٢ ـ ٩٨.

٥ ـ **السُّكُرْكَة**: وهو خمر يُتَّخَذ من الذُّرة، وهو خَمر الحَبَشة. يقال: إنها الغبيراء.

٦ ـ **الغبيراء**: شرابٌ تتخذُه الحبشة من الذُّرَة يُسكِر.

٧ ـ **البِتْع**: نَبيذ العَسَل، وهو خمرُ أهل اليمن.

٨ ـ **المُزَّة والمُزَّاء**: وهي الخمر التي فيها حُموضة. قيل: هي من خَلْط البُسْر والتَّمر.

٩ ـ **المِزْر**: نَبيذ يُصنع من الشَّعير أو الذُّرة في اليمن.

١٠ ـ **البَاذِق**: هو اسم الخمر بالفارسية، معرَّب أصله (باذه) أي باقٍ.

قال الإمام أبو عُبيد بعد أن ذكر بعض هذه الأسماء: (وهذه الأشربةُ المسماة كلُّها عندي كناية عن الخمر، وهي داخلةٌ في قوله ﷺ: «**يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها**»، ويؤيد ذلك قول عمر: الخمر ما خامر العقل)[(١)].

وأما في أيامنا وزماننا: فقد سمَّاها مرضى القلوب أسماء عديدة، منها: الويسكي، والشمبانيا، والكونياك، والبيرة، والفودكا، وغيرها.. بل سمَّوها (المشروبات الروحية)! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، فهذه الأشربة الخبيثة مدمِّرة للروح، مذهبة للعقل، فتّاكة بالجسم، ممحقة للمال، مقطّعة للأرحام.

وصَدقتْ في هؤلاء وفي أسلافهم نبوءة النبي ﷺ، ولهم في الدنيا خزي، وفي الآخرة عذاب عظيم.

●● وهذا التلاعب بالنصوص، وتحريف الكَلِم عن مواضعه، وإعطاء المحرّمات غير مسمياتها لإضفاء الإباحة عليها؛ هو من اللَّغَط على الإسلام والنيل منه والعَبث بقداسته ونصوصه وتعاليمه، ناجمٌ عن ضعف الوازع الديني،

---

(١) الفتح: ١٢/٥٨٩ شرح الحديث (٥٥٩٠).

الذي يؤدي إلى إفناء أمتنا ماديّاً وأدبيّاً، حيث تُفرغ القلوب من الإيمان وإعظام شعائر الله، وتستبدُّ بها الغرائز والشهوات، وتذهَلُ عن معالي الأمور وتتبع سفاسفها، كما يغتال العقولَ ويُزيلها عن التفكر في الكون والحياة، ويعطّلها عن وظائفها الكبرى، وإذا فسدَ القلب فسد كل شيء، وإذا انفصل المجتمع عن العقل المؤمن هلك.

ومن واجبات الجماعة المسلمة أن تتعاونَ على البر والتقوى، وتنهى عن الإثم والعدوان، وتحاربَ هـذه المُوبِقة الخبيثة بالنصح والقول والفعل، لكن الحكومات في بلاد المسلمين وراء الإهمال المتعمَّد لجمهرة النصوص القرآنية، وإضعافِ الإعزاز لها وإبرامِ أوامرها في المجتمعات الإسلامية!.

فالله سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، بينما نجد أنه يتقرَّر بجراءة وصَفَاقة هدمُ هـذه الأوامر الإلـهيّة!.

وعندئذ لن يتحمَّس المجتمع لتقوى الله وسداد القول، إذا كان قد قرَّر فَتْحَ حانات الخمور، وأشرفَ على تسعير أصنافها، وميَّزَ الأنواع الفاخرة من الأنواع الرديئة، حتى لا يغشَّ السُّكارى[١]!.

•• ومقارفة الخمور علاوة على ما تسبِّبه من أمراض وعَطَب للجهاز (العصبي) و(الدوري) و(الهضمي) و(التناسلي) و(الغُدّي)، وتخرب ذلك النظام البديع في الجسم الذي أتقنَ صُنْعَه العليم الخبير ـ فإن هؤلاء العاصين المتمردين التائهين هم نغمةٌ شاذة في كونٍ يسبِّح بحمد ربه: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

كم من فرقٍ بين هـذا السكران النشوان الذي عطَّل عقلَه وخرَّب قلبه ومشى

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة، ص٦٥؛ سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٨٦ ـ ٨٧؛ كفاح دين، ص١٣٢ ـ ١٣٣.

مُكِبّاً على وجهه يترنح هنا وهناك، ويَهذي ويقول ويفعل فعل المجانين.. كم الفرقُ بينه وبين ذلك الإنسان السوي المستقيم الذي يمشي على نور من ربه، ويرفع صوته ويناجيه مقرراً أشرفَ حقيقة في الوجود (حقيقة التوحيد)، ويتجاوب مع الملكوت الساجد لله طوعاً وكَرْهاً؟!..



١٤٢

إخبار النبي ﷺ عن قوم يستحلّون الزنى والحرير والخمر والمعازف

عن عبد الرحمن بن غَنْمٍ الأَشْعَريِّ قال: حدَّثني أبو عامر ـ أو أبو مالكٍ ـ الأَشْعريُّ، واللهِ ما كَذَبَني، سمع النبيَّ ﷺ يقول: «**لَيَكُونَنَّ مِن أمّتي أقوامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ والحَرِيرَ والخمرَ والمعازِفَ، ولَيَنْزِلَنَّ أقوامٌ إلى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عليهم بِسارحةٍ لهم، يأتيهم ـ** يعني: الفقيرَ ـ **لحاجةٍ فيقولون: ارجِعْ إلينا غداً، فَيُبَيِّتُهمُ الله، ويَضَعُ العَلَمَ، ويَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدةً وخَنازِيرَ إلى يومِ القيامةِ**»[1].

---

(١) علَّقه البخاري بصيغة الجزم عن شيخه هشام بن عمار (٥٥٩٠)؛ ووصله الإسماعيلي وأبو نعيم في (مستخرجَيْهما) على البخاري كما بينه الحافظ؛ ووصله ابن حبان (٦٧٥٤)؛ والطبراني في الكبير (٣٤١٧)؛ والبيهقي في السنن: ٣/ ٢٧٢، ١٠/ ٢٢١؛ والحافظ في تغليق التعليق: ٥/ ١٨ ـ ١٩، وغيرهم؛ وأخرجه أبو داود (٤٠٣٩) مختصراً، وعنده «**الخز**» بدل «**الحر**».

وأعلَّه الإمام ابنُ حزم بالانقطاع بين البخاري وشيخه هشام بن عمار، وأخطأ ابن حزم في ذلك، والحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح، لا علة له ولا مطعن فيه. وقد ردَّ الأئمة على ابن حزم دعواه تلك، منهم: الحافظ ابن الصلاح في علوم الحديث، النوع الحادي عشر، ص٦٧ ـ ٦٨؛ وصيانة صحيح مسلم، ص٨٢ ـ ٨٣، ردَّه من ثلاثة أوجه؛ والحافظ ابن القيم ردَّه من ستة وجوه في تهذيب سنن أبي داود: ٥/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢؛ والحافظ ابن حجر في الفتح: ١٢/ ٥٩٠ ـ ٥٩٢ (٥٥٩٠)؛ وتغليق التعليق: ٥/ ١٧ ـ ٢٢. وكلام ابن حزم هو في المحلى: ٩/ ٥٩، كتاب البيوع ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

أولاً: معاني ألفاظ الحديث(١):

ـ «**يستحلّون**»: أي هي محرَّمة فيستحلُّها أولئك القوم. قال ابن العربي: يَحتمِل أن يكون المعنى: يعتقدون ذلك حلالاً، ويحتمل أن يكون ذلك مجازاً على الاسترسال، أي يسترسِلون في شربها كالاسترسال في الحلال، وقد سمعنا ورأَيْنا من يفعل ذلك.

ـ «**الحِرَ**»: الفَرْج، والمعنى يستحلُّون الزنى. وأصله: حِرْحٌ، والجمع أَحْرَاحٌ.

ـ «**الخَزّ**»: هكذا وقع في رواية أبي داود، وهو تصحيف، والخز: ثيابٌ تُنسج من صوف وإِبْرَيْسَم ـ والإِبْرَيْسَم: من أحسن الحرير ـ وهي مباحة، وقد لبسها الصحابة والتابعون.

قال ابن العربي: الخَزُّ مختلَف فيه، والأقوى حِلُّه، وليس فيه وعيدٌ ولا عقوبة بإجماعٍ.

ـ «**الحرير**»: معروف، وهو محرَّم على رجال هـذه الأمة مباح لنسائها.

ـ «**الخمر**»: هو ما خامَرَ العقلَ أي غطّاه أو خالَطَه فلم يتركْه على حاله، وهو من مجاز التشبيه. والعقل: هو آلة التمييز، فلذلك حرَّم ما غطَّاه أو غيَّره، لأن بذلك يزول الإدراك الذي طلبه الله من عباده ليقوموا بحقوقه(٢).

وشربه حرام على كل مسلم ومسلمة، بمختلف أشكاله وأصنافه وأسمائه، وسواء في ذلك كثيره أو قليله.

ـ «**المعازف**»: جمع مِعْزَفة، وهي آلات الملاهي.

ـ «**عَلَم**»: هو الجبل العالي.

---

(١) أخذتها من الفتح: ١٢/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥؛ والنهاية في غريب الحديث.

(٢) الفتح: ١٢/ ٥٨٢، شرح حديث عمر (٥٥٨٨).

ـ «**يَرُوحُ عليهم**»: بحذف الفاعل، وهو الراعي.

ـ «**بسارحة**»: هي الماشية التي تسرح بالغَداة إلى رعيها، و «**تروح**»: أي ترجع بالعشي إلى مألَفها.

ـ «**يأتيهم لحاجةٍ**»: بحذف الفاعل أيضاً، وبيَّنَتْه رواية الإسماعيلي في «المستخرَج»: «**يأتيهم طالب حاجة**».

ـ «**فَيبيِّتهم الله**»: أي يُهْلِكُهم ليلاً، والبيات: هجوم العدو ليلاً.

ـ «**ويَضَع العَلَم**»: أي يوقعه عليهم. قال ابن بَطَّال: إن كان العَلَم جبلاً فَيُدَكْدِكُه عليهم، وإن كان بناءً فيهدِمُه، ونحو ذلك.

ـ «**ويمسخ آخَرين قردة وخنازير**»: يريد مَن لم يَهلِك في البيات المذكور، ويؤيده رواية الإسماعيلي: «**ويمسخ منهم آخرين**».

قال ابن العربي: يحتمِل الحقيقة كما وقع للأمم السالفة، ويَحتمل أن يكون كناية عن تبدل أخلاقهم، وعقَّب الحافظ فقال: والأول أليقُ بالسياق.

وهـذا ـ والله أعلم ـ لمَّا يحدثْ بعدُ، ولسوفَ يقع لا محالةَ تصديقاً للأحاديث الكثيرة الصحيحة الصريحة في ذلك؛ منها:

«**سيكونُ في آخرِ الزمان خَسْفٌ وقذفٌ ومَسْخٌ، إذا ظهرت المعازفُ والقَيْناتُ، واستُحِلّتِ الخمرُ**».

«**في هـذه الأمة خَسْفٌ ومسخٌ وقذفٌ، إذا ظهرت القِيانُ والمعازفُ، وشُربت الخمورُ**».

«**ليشربَنَّ أناسٌ من أمتي الخمرَ يُسَمُّونها بغير اسْمِها، ويُضْرَب على رؤوسهم بالمَعَازف والقَيْناتِ، يَخسِفُ الله بهمُ الأرضَ، ويَجعلُ منهم قردةً وخنازيرَ**»[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٣٦٦٥)، (٤٢٧٣)، (٥٤٥٤)، على الترتيب.

ثانياً: كلمات وإضاءات حول الحديث ومدلولاته ومقاصده:

●● يُخبر النبيّ ﷺ في هـذا الحديث عن مجيء أقوام من أمته يستحلُّون بعض المحرَّمات التي أمر الله تعالى باجتنابها، ونهى رسوله ﷺ عن مقارفتها والوقوع في مآثمها. وكل واحدة من مفردات هـذا الحديث قد جاءت أحاديث أُخَر تبيِّن حرمتها وتنهى عن مواقعتها وتتوعَّد مرتكبيها بالعقاب الأليم.

وهؤلاء الأقوام الغافلون الضالون الساهون اللاهون العابثون يستحلون ارتكاب هـذه المُوبِقات، فيعتقدون أنها مباحةٌ حلال لا إثمَ فيها ولا حرجَ بفعلها.

وثَمَّة فريقٌ منهم قد غلَّفتِ المعاصي قلوبَهم وأذهلتْ عقولَهم وأماتت أرواحَهم، فاسترسلوا في مقارفة الزنى ولبس الحرير واحتساء الخمور واستماع القينات والتلهي بالمعازف وآلات الطرب والغناء المختلفة، وسَدِروا في غَيِّهم يستمتعون بكل ذلك، غير عابئين بأمر رباني أو توجيه نبوي، كالذي يستمتع بالأشياء الحلال!.

وهؤلاء وأولئك في هـذا المسلك على خطر عظيم وفي ضلال كبير.

واستحلال هـذه المحرَّمات لا يقتصر على مَنْ يرتكبها ويرتكس في حَمْأتِها، بل يتناول مفهومُ الحديث كلَّ مَن له يد في نشر هـذه الكبائر وترويجها والتشجيع عليها والسماح بها وحمايتها، فيشمل أولياء الأمور القادرين على منع انتشار هـذه الخبائث، وكذلك مَن يعصِر الخمر ويحملُها ويسوِّقها ويروِّجها ويَفتح لها الحانات والبارات، وأصحابُ بيوت الدعارة والملاهي الليلية وصالات الإثم ومسارح الغناء والرقص واختلاط اللحوم العارية مع الآهات والأنَّات، وأصحابُ الإعلام المقروء والمسموع والمنظور الذين يروِّجون للإثم والبغي وأصنافِ الخمور وحفلات الغناء ومهرجاناته، وكذلك أصحابُ القنوات الفضائية الآثمة التي تنشر الإباحية وكلَّ ما يُغضِب اللهَ ورسولَه والمؤمنين في كل وقت وحين، وكل مَن يأذن ويشجِّع على إقامة تلك القلاع الفاسدة المفسِدة التي

تملأ الأرض والسماء بالآثام.. كل أولئك مشمولون باستباحة هـذه المحرَّمات، على اختلاف في درجات الإثم بينهم.

●● وهـذه الموبقات جاء تحريمها في الكتاب الكريم والسنَّة النبوية الشريفة، وذلك مشهور معلوم لا يجهله مسلم.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يَشربُ الخمرَ حين يشربُ وهو مؤمنٌ...**»(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ أخذَ حريراً فجعلَه في يمينه، وذَهباً فجعلَه في شماله، ثم رفع بهما يديه وقال: «**هـذانِ حرامٌ على ذكورِ أمَّتي**»(٢).

والجمهور على أنه يجوز للرجال لبسُ ما خالطَه الحريرُ إذا كان غيرُ الحرير الأغلبَ.

---

(١) أخرج البخاري (٢٤٧٥) وأطرافه؛ ومسلم (٥٧)؛ وأبو داود (٤٦٨٩)؛ والنسائي في الكبرى (٥١٤٩) و(٥١٥٠) وأطرافه، وفي الصغرى ٨/ ٦٤ ـ ٦٥، ٣١٣؛ وابن ماجه (٣٩٣٦)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٥٧)؛ والنسائي في الكبرى (٩٣٨٢) وأطرافه؛ وفي الصغرى: ٨/ ١٦٠؛ وابن ماجه (٣٥٩٥)؛ وابن حبان (٥٤٣٤)، وغيرهم؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

قال أبو داود: وعشرون نفساً من أصحاب رسول الله ﷺ أو أكثر لبسوا الخَزَّ، منهم أنس والبراء بن عازب[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (علمتُ: أنَّ رسول الله ﷺ كان يصومُ، فَتَحيَّنْتُ فِطْرَه بنبيذٍ صنعتُه له في دُبَّاءٍ، فجئتُه به، فقال: «أَدْنِه» فأدنيتُه منه، فإذا هو يَنِشُّ، فقال: **«اضْرِبْ بهذا الحائطَ، فإنَّ هذا شرابُ مَن لا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر»**)[٢].

وعن عبد الله بن عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«منْ شربَ الخمرَ فَسَكِرَ، لم تُقبلْ له صلاةٌ أربعينَ صباحاً، فإنْ ماتَ دخلَ النارَ، فإنْ تابَ تابَ اللهُ عليه. فإنْ عادَ فشربَ فسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعين صباحاً، فإنْ مات دخلَ النار، فإنْ تابَ تابَ الله عليه. فإن عاد فشرب فسكِرَ، لم تُقبل له صلاةٌ أربعين صباحاً، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه. فإنْ عادَ الرابعة، كان حَقّاً على الله أن يَسْقِيهُ من طينة الخبَال يومَ القيامة»** قالوا: يا رسول الله، وما طينةُ الخَبَال؟ قال: **«عُصَارةُ أهلِ النار»**[٣]!.

وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«الخمرُ أمُّ الخَبَائث، ومن شَربها لم يقبلِ الله منه صلاةً أربعين يوماً، فإنْ مات وهي في بطْنه مات مِيتةً جاهلية»**[٤].

---

(١) سنن أبي داود: ٣/ ٣١٩، عقب الحديث (٤٠٣٩). وانظر: النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧١٦)؛ والنسائي في الكبرى (٥١٠٠) و(٥١٩٤)، وفي الصغرى: ٨/ ٣٠١، ٣٢٥ ـ ٣٢٦؛ وابن ماجه (٣٤٠٩)؛ وصحَّحه الألباني. ينش: أي يغلي.

(٣) أخرجه ابن حبان (٥٣٥٧) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٥١٦٠)، وفي الصغرى: ٨/ ٣١٧؛ وابن ماجه (٣٣٧٧)؛ والحاكم: ٤/ ١٤٦، وغيرهم؛ وصحَّحه الحاكم وأقره الذهبي؛ وصحَّحه الألباني؛ وشعيب الأرنؤوط.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨١٠)؛ والواحدي في الوسيط: ١/ ٢٢٤؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٨٥٤)، وصحيح الجامع (٣٣٤٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لمّا أُنزلت الآياتُ من سورة البقرة في الربا، خرج النبي ﷺ إلى المسجد فقرأهنَّ على الناس، ثم حَرَّمَ تجارةَ الخمر)(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيبيتَنَّ قومٌ من هـذه الأمة على طعامٍ وشرابٍ ولهوٍ، فيصبحوا قد مُسِخوا قردة وخنازير**».

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، عن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسُ محمد بيده، لَيبيتنَّ ناسٌ من أمتي على أَشَرٍ وبَطَرٍ، ولعبٍ ولهوٍ، فيصبحوا قردةً وخنازير، باستحلالِهِمُ المحارم والقَيْنات، وشُرْبِهم الخمرَ، وأكلِهِمُ الرِّبا، ولُبْسِهِمُ الحريرَ**»(٢).

وعن عبد الله بن عمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله حرَّمَ على أمتي: الخمرَ، والميسرَ، والمِزْرَ، والكُوبَة، والقِنّين، وزادني صلاة الوتر**»(٣).

و«**الكُوبَةُ**»: الطَّبْل الصغير المخصَّر ذو الرأسين.

و«**القِنِّين**»: البَرابِط، ومفرده بَربَط: وهو العُود، من آلات الموسيقى.

وقيل: هو الطُّنْبُور، والطنبور: آلة من آلات اللهو واللعب والطرب.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ليكُونَنَّ في هـذه الأمة خسفٌ وقذفٌ ومسخٌ، وذلك إذا شَرِبوا الخمور، واتَّخذوا القَيْنات، وضَربوا بالمعَازفِ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٩) وأطرافه؛ ومسلم (١٥٨٠)؛ وأبو داود (٣٤٩٠)؛ والنسائي في الكبرى (٦٢١٦)، وفي الصغرى: ٨/ ٣٠٧؛ وابن ماجه (٣٣٨٢)؛ وابن حبان (٤٩٤٣)، وغيرهم.

(٢) أخرج الرواية الأولى أبو نعيم في أخبار أصبهان: ٢/ ١٢٦؛ وأخرج الثانية عبد الله بن أحمد في زوائد المسند: ٥/ ٣٢٩؛ وحسَّنه الألباني بشواهده في الصحيحة (١٦٠٤).

(٣) أخرجه أحمد في مواضع من مسنده؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٧٠٨).

(٤) أخرجه أحمد والترمذي وابن أبي الدنيا عن جماعة من الصحابة؛ وصحَّحه الألباني بطرقه في الصحيحة (٢٢٠٣)، وصحيح الجامع (٥٤٦٧).

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**صوتَان ملعونان في الدنيا والآخرة: مِزمارٌ عند نِعْمةٍ، ورَنَّةٌ عند مُصيبةٍ**»(١).

وعن نافع قال: (سمعَ ابنُ عُمر صوتَ زُمَّارة راعي، قال: فجعلَ إصْبَعَيْهِ في أُذُنَيْهِ وعَدَلَ عن الطريق، وجعلَ يقول: يا نافعُ! أتسمع؟ فأقول: نعم، فلما قلتُ: لا، راجَعَ الطريقَ، ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ يفعلُه)(٢).

ثالثاً: تحقق النبوءة:

صدق رسول الله ﷺ وتحقَّق ما أخبر به منذ عهد بعيد، فالإمام أبو بكر ابن العربي المتوفى سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) عندما شرح كلمة «**يستحلون**»، قال: (وقد سمعنا ورأَيْنا منْ يفعل ذلك)، يقول هذا منذ نحو تسعة قرون! فكيف لو رأى زماننا وما نحن فيه؟! لقد عمَّ الخَطْب، وشاعت الفاحشة، واستعلنت الكبائر، وتجرأ الناس على ارتكاب المحرَّمات، وجاهروا بالمُوبِقات، فما نراه ونقرؤه ونسمعه فيه أتمُّ التصديق لهذه النبوءة النبوية الجليلة.

•• فاللذائذ الحرام والشهوات الفاجرة والمسالك الآثمة التي حَظِي بها بعضُ الملوك والأمراء والأعيان قديماً وإلى قريب من نحو ستة عقود، وانفردتْ بها قصورُهم ومجتمعاتهم الضيقة؛ قد دخلت الآن أغلبَ البيوت، (والعامل بأجر يومي يمكنه أن يدخل صالات الرقص ليخاصِر النساء، ويسمع الموسيقى والغناء، ويسكر ويضحك دون مبالاة)(٣).

وأصبحنا في كل يوم يمرُّ نشهد ازديادَ مقادير الشهوات المحرَّمة، والموبقات الآثمة، والأفعال الشائنة، والممارسات المنكَرة، والجؤار النابي

---

(١) أخرجه البزار والضياء في المختارة؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٤٢٧)، وصحيح الجامع (٣٨٠١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٢٤)؛ وأحمد ٢/ ٨، ٣٨؛ وابن حبان (٦٩٣) واللفظ له؛ وصحَّحه الألباني.

(٣) ظلام من الغرب، ص١٥.

الذي ينشر كل فاحشة ويروِّج لكل رذيلة ويسهِّل السُّبل أمام القاصي والداني، مما ترمينا به (مصادر التوجيه!) من صحافة وإذاعة ومسرح وقنوات فضائية وإنترنت، وتُشيعه في العالمين بلا حسيب ولا رقيب، في الوقت الذي تقلُّ فيه أسباب المناعة العلمية والدينية والأدبية.

فأقِيمت المسارح وصالات الرقص والكابريهات والملاهي الليلية وحمامات السباحة والشواطئ والفنادق، وبيوت البغاء، ومصانع الخمور، وحانات بيعها، في مواقع كثيرة ومعلومة في ديار المسلمين! وجُنِّدت حملات مجنونة (هادفة) في ميدان الغرائز، وتُعُمِّدَ خلطُ الرجال بالنساء في ظروف مزرية مريبة، وقيل للأنثى: أبرزي محاسنك، وانثري شعركِ، واكشفي عن ساقيك وذراعيك وجيدكِ وصدرك بل وعن...! واضطربت اللحوم من الجنسين ببعضها، ودار الساقي بكؤوس المُدَام[1]، ولعبت الخمرة بالعقول، وعزفت الموسيقى، وصدحت القيان بالغناء الساقط، وألهبت الغريزة الجنسية، وتعالت الأنَّات، وعاش الكل في هَرْجٍ ومَرْجٍ، ولم يصحُ أحد إلا بعد أن يكون قد قضى من تلك الكبائر ما أراد!.

وتمَّ دفنُ الحياء والمروءة والكرامة والشرف والعِرض!.

فهل وراء هـذه الاستباحة من استباحة، وهل بعد هـذا الاسترسال ما هو أفظع منه؟! لقد استحلُّوا الحِرَ والحرير والخمر والمعازف والقيان، واستحقوا بذلك غضب الله ولعنته!.

●● وأُطلق العَنَان للكتب والصحف والمجلات ووسائل الترفيه والإعلام في فرض برامج ومفاهيم ومسرحيات ومسلسلات وقصص وأفلام كلها تحمل صور الانحلال والعبث والجنس وأدب الفراش، ونشر الجرائم المختلفة وسرد تفاصيلها بدقة، وإطلاق الخيال بعد ذلك يكمل ما عجزت الوقائع عن سبكه!

---

(١) **المُدام والمُدامة**: الخمر.

ومن ثم يطالع الناس ويشاهدون كل ساعة أنباء الانحراف والفاحشة وقصص الخيانة والرذيلة والشذوذ، وحوادث الغصب والعربدة والليالي الماجنة وارتكاب أفظع المنكرات، ومن لم يشهدها عاش في ظلماتها واكتوى بنيرانها[١].

وهَبَّ جيل من دعاة الرذيلة وأنصار الفاحشة وأحلاس المعصية وأعداء الأمة؛ يرمون أبناءنا عن قوس واحدة بضراوة وبغضاء، لإشاعةِ تلك المحرمات وتذليلها وتهوينِ أمرها واعتبارها شيئاً طبيعيّاً، ليسترسلَ الأغرار وضعافُ النفوس في مواقعتها والعَبِّ من آثامها، بدعوى حرية الرأي وإشباع الرغبة وتلبية نداء الفطرة ومحاربة الكَبْت، فإن (التطور) قد غيَّر النظرة إلى الفواحش وأن ارتكابها داخل في دائرة (الحرية الشخصية).

وساعد على ذلك خُطَطٌ ماكرة من أعداء الإسلام في الخارج وصنائعهم في الداخل في وضع مناهج للتربية والتعليم تحت رقابة دقيقة حتى يتم إنشاء أجيال لا تكترث للعبادات الفردية أو الاجتماعية، ولا لمعالم الحلال والحرام، ونقل الأخلاق والتقاليد والفنون الأجنبية وغرسها في التربة الإسلامية، وتهيئة المناخ لها كي تنمو وتزدهر وتغلب مثيلاتها الإسلامية[٢].

فارتفعت الأصوات التي تقر إباحة الزنى وانتشار الخلاعة والمجون والرقص وإقامة مصانع الخمور، وتعاضد الكثيرون لاستحلال تلك المحرمات في ديار المسلمين.

●● أما الأغاني والمعازف وآلات اللهو والطرب فشأنها عجيب، حيث إنها في انحدار شديد نحو وادٍ سحيق من حيث المبنى والمعنى والأداءُ والإثارةُ، حتى إنها لم تقفْ عند حدٍّ من الانحطاط والسقوط والتبذّل والتسفُّل والتهتّك! فمؤلفو الأغاني يكونون في حالة غيبوبة عقلية وتخديرٍ جنسي حين يكتبون

---

(١) انظر: الضربات، ص٣٠٤؛ ظلام من الغرب، ص٢١٣؛ كفاح دين، ص٢٢٩، ٢٦٦.

(٢) انظر: جهاد الدعوة، ص١١٠؛ كفاح دين، ص١٨٨.

أغنياتهم لتتوافق مع حركات جسمية وصوتية معيَّنة، تقوم بها النساء المغنِّيات، لتأجيج النشوة الجنسية في السامعين والمشاهدين.

ويقول الأستاذ عبد المنعم شميس مديرُ المطبوعات في مصر منذ عهد بعيد: (إن مؤلّفاً معروفاً أقسمَ بالطلاق أنه لن يغيِّر لفظةً رأى الملحِّن أنها تبعثُ في الدماء قَدْراً أكبرَ مما يُراد من النزوات، وأصرَّ المؤلف على رأيه، وأُعجبت المغنية باللفظ المثير الثائر، فاصطنعت للأغنية كلِّها ما أراد المؤلف لها من ميوعةٍ محترقةٍ والهة.

إن أنجحَ المؤلفين هم القادرون على بعثِ أكبر قَدْر من التخدير في ألفاظهم، وأكثرَ الملحِّنين عبقرية أقدرُهم على توفيق الأنغام المتسقة مع هذا التخدير.

أما المغنيات فهنَّ مُسَيّرات لا مخيَّرات، لأنهن ـ في الغالب ـ يسيطر عليهن رجالٌ يرون أن تتمايعَ المغنية، وتتأوَّه، وتتخاذَلَ، حتى تصلَ إلى درجةٍ من فقدان الحس، تنسى بعدها أن الجماهير تتخيّلها معها في صورة معينة!)[(١)].

فماذا سيقول الأستاذ لو سمع وشاهد حال الأغاني الآن؟!.

إن الذي يتأمل ما وصلَتْ إليه (الأغنية) في أيامنا من التسفُّل والحَقَارة، يجد أن أغنية (ليلنا خمر) و(هل رأى الحب سكارى مثلنا) و(وحشاني عينيه) و(بكتب اسمك يا حبيبي على الحور العتيق) ومثيلاتها؛ تعتبر متحفِّظة محتشِمة أمام ذلك الغُثَاء العفِن الذي تضجُّ به (القنوات الفضائية العاهرة!)، التي يسيطر عليها الجو الصارخ الصاخب المليءُ بأكوام اللحوم النسائية، أجسام شبه عارية ملتهبة عارمة الأنوثة، وعيون متكسّرة جائعة، وحركات تهز الليِّن من الجسم البَضّ، ويَحْفِل الجمعُ بالراقصات المتفنّنات في التثنّي، البارعات في إظهار نهودهن وسوقهن وأفخاذهن وأردافهن وبطونهن، والمشاركات من الفتيات الجميلات اللاتي

---

(١) كفاح دين، ص٢٣٩.

يَظهرنَ في أوضاع شتى لإبراز فتنتهنَّ، وكل ما في تلك المواخير ينبضُ بالإغراء والآثام[١]!.

•• والأدهى من ذلك أن هناك سعياً حَثيثاً لإبعاد الإسلام عن الحياة العامة وتجريده من سلطة الأمر والنهي واتهامه بعدم الصلاحية للبتِّ في شؤون الناس، وتمزيق الضمير الديني عند المسلم، وإلغاء التشريع الإسلامي، وتعطيل الأحكام السماوية[٢].

مما أدى إلى انتشار الفوضى والمفاسد؛ فأُبيح الزنى والربا والخمر والقمار والمجون والخلاعة، وحلَّ القانون الوضعي محل التشريع الإسلامي، فحمى تلك الجرائم ورخَّص لها وعمل على نموِّها واطّرادها، فقال القانون: (مَن واقَعَ أنثى بغيرِ رضائها يُعَاقَبُ بالأشغالِ الشاقَّة المؤبَّدة أو المؤقَّتة)، وقال أيضاً: (كلّ مَنْ هَتَكَ عِرْضَ إنسانٍ بالقوة أو بالتهديد أو شرعَ في ذلك؛ يُعاقَب بالأشغال الشاقة من ثلاث إلى سبع..).

وجاء فيه: (لا يَجوز محاكمةُ الزانية إلا بناء على دعوى زوجها).

وفي مكافحة الدعارة يقول: (يُعتبر مَحَلّاً للدعارة أو الفجور كلُّ مكانٍ يُستعمل عادةً لممارسة دعارة الغير أو فجوره).

أما الذي يُستعمل لممارسة الدعارة الشخصية أو فجور الإنسان نفسه بمن يشاء، فذلك ليس محلّاً للدعارة!.

ومن جملة هذه المواد يُعرف أن الاتصالَ الجنسي مباحٌ أصلاً بحكم القانون، وأن العقوبة تعرِضُ له إذا كان عن إكراه أو مخادعة أو ما أشبه[٣].

وقل مثل ذلك في الخمور والملاهي والنوادي الليلية..

---

(١) كفاح دين، ص٢٤٠.
(٢) ظلام من الغرب، ص١٤٧.
(٣) كفاح دين، ص١٧٧ ـ ١٧٩.

في الوقت الذي يُحْظَر فيه على الغيورين والناصحين أن يتكلَّموا على تجريم هـذه الأفعال وكشفِ اللِّثام عمَّن وراءها!.

لقد تجاوز الأمرُ (استحلالَ الحرام)، ووصلَ إلى تقنينِه وحمايتِه ومَنْع استنكاره.

•• وترتَّبَ على ذلك كلِّه علوُّ صوتِ التحلل والمعصية والفاحشة، حتى طال إلْفُها واستطالَ أصحابُها، وقام مجتمع يألَفُ شُرْبَ الخمر مع كل طعام، ويسهِّل اختلاط الجنسين بالليل والنهار، والقانون الذي صنعه الناس لأنفسهم يُقِرُّ هـذه الفوضى إقراراً مطلَقاً، ومطلوب من الجميع أن يستريح إليه، وأن لا يشغب عليه(١).

ونبتَتْ نابتةُ سوء لا تتورَّع عن منكر ولا تتحرَّج من إثم، ففريق يتساءل: لِمَ تحرم الخمر، ثم يقول: إن تحريمها خطل! وآخر يرى أن الوقاع الجنسي لا شيءَ فيه ما دام بتراضي الطرفين، ويستغرب تسميته زنى! وفريق ثالث يصف الخلاعة والمجون ومخاصرة النساء بأنه ترفيهٌ وتنفيسٌ عن متاعب الحياة... إلخ.

وعلى هـذه المائدة الطافحة بالسموم الخلقية نشأت أجيال أضاعت الفرائض والصلوات، ولَهَثَتْ وراء الشهوات، وأماتَت الليل بالغفلات عن المعالي وأحْيَتْه بالمعاصي، في حين أن كتابنا الكريم وصفَ فريقاً من ذوي الألباب الرفعاء فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وكُرْهُ المعصية مع إمكاناتِ فعلها نقاءٌ خلقي رائع، وفي سيرة يوسف الصدّيق عليه الصلاة والسلام ما يستدعي الإعجابَ والأُسوة، وهو يقول لمن طلب منه السقوط: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص١٦٢.

وإنه لشيءٌ رفيع حقّاً أن يؤثرَ الإنسان السجنَ على الفاحشة[1]!.

رابعاً: دروس وعبر:

١ ـ هؤلاء الأقوام الذين يستحلُّون المحرّمات ويستبيحون الموبقات، خطر داهمٌ على الدين والعباد والبلاد، وبذور شرور ونابتة سوء وعوامل فتك في بنيان الأمة، تسعى بها إلى الإدبار والفناء.

٢ ـ انتشار هـذه الآثام وشيوعها أنشأ جيلاً تائهاً خوّاراً جباناً، مشلول الحركة، معطّل الإرادة، منحط الفكر، لا هدف له ولا غاية ولا حركة ولا سعي إلا اغتراف الملذات والعبِّ من الشهوات، عطّال بطّال، أو يَكدح في النهار ليبدِّد كسْبَه في ظلمات الليل، لا تهمُّه أمته ولا بلاده، وعند أي اصطدام مع الأعداء يرفع اليدين والساقين في أول لقاء!.

٣ ـ واجَهَ المجتمع المسلم أزماتٍ كبرى حيالَ شيوع تلك الفواحش، فتخلخل نظام الزوجية، وتحطَّمت كثير من الأسر، وضاع جَمٌّ غفير من الأبناء، ولحقوا بركْب التائهين، فزادت المصيبة، وغَلُظ الخَطْب.

٤ ـ إن أصناف الإعلام الرخيص التي تروّج للخلاعة والمجون والخنا والخمور والغناء المتفاحش ونحوها من الآثام؛ عليها مسؤولية كبرى، ويتحمل أصحابها الوِزْر الأكبر، ويجب على من ولّاهم الله أمر الأمة أن يَكبحوا جماحَهم، فالمسؤولية عظيمة أمام الله تعالى والمسلمين والتاريخ.

٥ ـ تعطيلُ أحكام الله وشريعته، وإلغاءُ الحدود، ومنعُ الغيورين والناصحين من القيام بواجباتهم؛ أدى إلى فوضى عارمة مكَّنت للهوى أن يَعيث فساداً في أقطار الأرض، وتضرر به الحاضر والباد، والصالح والطالح.

٦ ـ نشرُ هـذه الرذائل وترويجها والتشجيع عليها ليس أمراً شخصيّاً ولا حرية شخصية، لأنها تعني الأمة كلها، وفي الوقت الذي يبيح فيه القانون الوضعي

---

(١) علل وأدوية، ص٨١.

الأرعن الزنى إذا كان بتراضي الطرفين، نجد التشريعَ الإسلامي الحكيم يتدخل لمجرد وجود شِقاق بين الزوجين قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

إن الشقاق رذيلة يخشاها الإسلام على الأسرة والمجتمع، فيتدخل لإعادة الوئام بين الزوجين.

٧ ـ الكسبُ الذي يَجنيه المتاجرون بهذه الموبقات هو سُحتٌ، يستوي في ذلك بيوت البغاء وحانات الخمور ومسارح الرقص والملاهي الليلية.. وأيما جسم نبت من سُحت فالنار أولى به.

٨ ـ نتج عن مقارفة الناس لتلك المحرّمات أضرار كثيرة هي بمثابة عقوبات معجلة في الدنيا، فانتشرت الأمراض الجنسية كالزهري والسيلان والقوباء التناسلية والإيدز، وأمراض الجهاز الهضمي والكبد.. وضاعت الأنساب، وكَثُر اللُّقطاء في المجتمع فتلَقَّفَتْهم أيدي الإثم والجريمة، لينمو جيلُ الضياع كالسرطان في جسم الأمة.

٩ ـ كذلك أدى شيوع تلك الكبائر إلى زوال النِّعَم، وأُخِذ الناس بالقحط والسِّنين ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات، وضَعُف سلطان الأمة، وأدبرتْ سعادتها، وضُربت عليها المسكنة، واستُبيحت أرضها وأموالها، ومُنِعت من العزة والتمكين، ولا يظلم ربك أحداً.

١٠ ـ انقلبت الموازين في الأمة، فخَفَتَ صوتُ المصلحين وأُخِّروا إلى الصفوف الخلفية، ومُنعوا من الإرشاد والتوجيه والإصلاح، وأُسدل على أكابرهم ذيلُ النسيان، وارتفع أولئك الفجرة من مرتكبي الفواحش ومروِّجي المعاصي، وعَلَتْ أصواتهم، ومُهِّدت لهم السبل، ولمعت أسماؤهم، وتسابقت الأقلام والكاميرات والقنوات الفضائية لعقد اللقاءات معهم وإذاعة بطولاتهم ونشر أعمالهم؛ فهم (أبطال) و(نجوم) و(ملوك الفن) و... وأصبح الأمر كما قال القاضي عبد الوهاب المالكي:

وإنَّ تـرفُّـعَ الـوُضَـعـاءِ يـومـاً ... عـلـى الـرُّفَـعـاءِ من إحـدى الـرَّزَايـا
إذا اسـتـوتِ الأَسَـافَـلُ والأعـالـي ... فـقـد طـابـتْ مـنـادمـةُ الـمَـنَـايـا

ورحم الله القاضي فليسوا سواء، بل الأسافل أضحت أعلى من الأعالي!..

١١ ـ إن إشاعةَ هـذه الفواحش، وإهاجة الغرائز السافلة، ونشْرَ أمراض الرجولة، وإضعافَ الروح الإنساني المخنوق؛ كل ذلك يصنع أمة تلين في يد الاستعمار، وتفتح الأبواب مشرعة مرحّبة به وبمبادئه و(أخلاقه وقيمه!)، ليستنزف خيراتنا، ويعبث بديننا، ويدمّر حضارتنا، وواقع الحال يغني عن إطالة المقال!.

١٢ ـ لا بدَّ من إعادة الاحترام للإسلام، والاعتماد عليه في شؤون التربية والإعلام، وتوفير القداسة لنصوصه وتعاليمه، ورفع وتيرة أصوات المصلحين والغيورين لإصلاح ما أفسد المفسدون.. والمسؤولية كبيرة على دعاة الحق وحَمَلَة رسالة الإصلاح، وعليهم الصمود والثبات حتى نهاية المطاف، وأملُ الأمة معقود عليهم، وما إخالهم إلا أوفياء لهـذا الدين.





إخبار النبي ﷺ بظهور النساء الكاسيات العاريات

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**صِنْفان من أهلِ النَّار لم أَرَهُما: قومٌ معهم سياط كأذناب البَقَر يَضْربونَ بها الناسَ. ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الجنَّة ولا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإنَّ رِيْحَها ليُوجَدُ من مسيرةِ كَذَا وكذا**».

وفي رواية: «**صِنْفانِ من أمَّتي من أهلِ النار لم أَرَهُمَ بعدُ**»[(١)].

٢ ـ وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**سيكونُ في آخرِ أمَّتي رجالٌ يركبون على سُروجٍ كأشباه الرِّحَال، ينزِلون على أبواب المساجِدِ، نساؤهم كاسياتٌ عارياتٌ، على رؤوسهنَّ كأسنمةِ البُخْتِ العِجَافِ، الْعَنُوهُنَّ فإنهنَّ ملعوناتٌ، لو كانت وراءَكم أمةٌ من الأممِ لَخدمَهُنَّ نساؤكم كما خدمكم نساءُ الأمم قَبْلَكم**»[(٢)].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «**إنَّ من أشراطِ الساعة أن يظهرَ الشُّحُ والفحشُ، ويُؤْتَمنُ الخائنُ، ويُخَوّنَ الأمينُ، وتظهرَ ثيابٌ تلبَسُها نساءٌ كاسياتٌ**

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٨)، ـ كتاب اللباس والزينة، باب الكاسيات العاريات، وكتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، عقب الحديث (٢٨٥٦)؛ وأحمد: ٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦، ٤٤٠؛ وأبو يعلى (٦٦٩٠)؛ والبيهقي في السنن: ٢/ ٢٣٤، وفي الدلائل: ٦/ ٥٣٢؛ وابن حبان (٧٤٦١)؛ والبغوي (٢٥٧٨)؛ والرواية الأولى لمسلم، والثانية لأحمد.

(٢) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم، وهو حديث صحيح صححه غير واحد من الأئمة، وانظر: تخريجه والكلام عليه في النبوءة (١٤٦).

عارياتٌ، ويَعلو التحوتُ الوُعُولَ» أَكَذلك يا عبدَ الله بن مسعود! سَمِعْتَهُ من حِبِّي؟ قال: نعم وربِّ الكعبةِ[(١)].

❁ ❁ ❁

أولاً: بين يدي الأحاديث: شرح مفرداتها وتبيين مدلولاتها[(٢)]:

يصف رسول الله ﷺ في هـذه الأحاديث صنفاً من النساء لم يكن في زمانه الخيِّر المبارك، بل سيأتي فيما بعد، تمزِّق فيه المرأة لباس التقوى، وتخلَع جلباب الحياء، وتهتك الستر الذي جَمَّلَها به الإسلام، وتكشف الحرام الذي أمر بإخفائه القرآن، وتخرج من بيتها تَبتذِل حجابها، وتعرِض مفاتنها، وتُشيع الرذيلة والفاحشة في المجتمع بلباسها وزينتها وحركاتها وكلامها وعطورها ونظراتها، فتتلقَّفُها الشياطين، ويروِّج لها لصوص الأعراض وأحلاسُ الشهوات؛ ممَّن فرغت نفوسهم من القيم وتأَجَّجَتْ غرائزهم بالشهوة الحرام، وتباروا في إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

●● فأولى صفات هؤلاء النسوة: أنهن «كاسيات عاريات»:

ـ فالواحدة منهن تسترُ بعض بدنها وتكشِف بعضه كالشعر والصدر والنَّحْر والذراعين والساقين، إظهاراً لجمالها.

ـ أو تلبَس ثياباً رِقاقاً تصِف ما تحتها من بدنها، فلا تؤدِّ وظيفة السّتْر لرقَّتها وشُفُوفها، بل إنها تزيد المرأة جمالاً وأنوثة، وتصبح أكثر إثارة وجذباً لمن ينظر إليها.

---

(١) أخرجه بهـذا اللفظ الطبراني في الأوسط: ١/ ٤٢٠ (٧٥٢)؛ وقال الهيثمي في (المجمع: ٧/ ٣٢٧): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث بن سفيان، وهو ثقة. وللحديث طرق وألفاظ أخرى، ذكرناها مع تخريجها وشرحها في النبوءات (٨٩، ٩٠، ٩١).

(٢) أخذتُ معاني الألفاظ من: شرح مسلم، للنووي: ٧/ ٣٦٣، ٩/ ٢٠٨؛ جامع الأصول: ١١/ ٧٨٩؛ النهاية: ١/ ١٠١، ٢/ ٤٠٩، ٤/ ١٧٥، ٣٨٢؛ الحلال والحرام، ص٨٣ ـ ٨٤، ثم جمعتُ بينها وهذّبتُها ونسَّقْتُها.

ـ أو تلبَس الثيابَ الضيِّقة فكأنها أُدْخِلَت فيها إدخالاً يُظهِر منها تفاصيلَ جسمها من صدرها ويديها وعَجيزتها وأردافها، وقد فُصِّلت هـذه الثياب لشرح العورات وإشاعة الفتنة واستفزاز الغرائز الساكنة، فلا هنَّ عاريات ولا هنَّ لابسات، بل كما قال ﷺ كاسيات في ظاهر الأمر عاريات في الحقيقة.

ـ أو تلبس ثياب الشُّهْرَة المُزرْكَشَة والملوَّنة والتي زُيِّنت بأنواع الخَرز البرَّاق والمجمِّلات المتنوعة، ثم فُصِّلت بطرق مدهِشة في الجمال والروعة والإثارة، فإذا ما لبستْها المرأة وخرجت، شدَّت أنظار السائرين، ولو كان هـذا اللباس سابغاً على الجسم ويجرُّ على الأرض.

إنه لباسُ فتنةٍ وإثارة وإشاعة للفاحشة وليس لباسَ سترٍ واحتشام، فهي كاسية لأنها تلبس هـذه الملابس، لكنها عارية لأن اللباس لم يؤدِّ وظيفته ولم يحقق رسالته.

إنهنَّ كاسياتٌ من الثياب أو بعض الثياب لكنهنَّ عارياتٌ من الستر والفضيلة والخير والطاعة والعمل للآخرة، والالتزام بأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ في ارتداء الحجاب الإسلامي، وملازمة الحياء والحشمة.

●● والصفة الثانية لهنَّ: أنهنَّ «مميلات مائلات»:

ـ إنهن **مائلاتٌ**: زائغات عن طاعة الله تعالى وما يَلزمهنَّ من سَتْر الأجسام وحفظ الفروج.

مُميلات: أي يُعلِّمن غيرهنَّ من النساء والفتيات، ويشجعنهنَّ على الاقتداء بهن في فعلهن الشائن ولباسهن الفاضح.

ـ وإنهن مائلات مُتبخترات متكسِّرات في مِشيتهن وحركاتهن.

ومُميلات لأكتافهنَّ ورؤوسهنَّ وأعطافهن وأردافِهن في الوقوف والمشي والحركة والسكون.

ـ وإنهن مائلات إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي والخَنا والفاحشة ودواعيها.

ومميلات لغيرهنَّ بمواقعة الذنوب وارتكاب المعاصي والدعوة للخنا والفاحشة؛ بما يؤجِّجْنَه من النظر إليهن والافتتان بهن والتقرب إليهن.

ـ وإنهن مائلات في تمشيط شعرهنَّ وتصفيفِه وتجميلِه، فَيَمْتَشِطْنَ المِشْطَةَ المَيْلاء وهي مِشْطَة البَغَايا والساقطات.

ومُميلات يَمْشُطن غيرهن المِشْطة الميلاء، كما هو معروف في (صالونات النساء والتجميل والكوافير)، ويُزينَّ البنات والنساء بتصفيف شعورهن بطرائق مثيرة.

ـ وإنهن مائلات بما يَلبسنَه من ثياب قد فُصِّلَتْ بطريقة مائلة فيكون أحدُ شِقَّي الثوب طويلاً والآخر قصيراً، أو أحدهما يَستر الكتف والآخر يُظهره ويعريه، فهي مائلة بلباسها المائل، وفيه ما فيه من فتنة وإغراء.

ومميلاتٌ في إعانةِ تلك النسوة اللاتي يلبسنَ الثياب المائلة الفاضحة ويخرجنَ بها ليشتهرنَ ويَنشرن الآثام.

ـ وهنَّ بأنفسهن وعقولهن ورغباتهن مائلات منحرفات ضالّات.

ومُميلات لغيرهن في الانحراف والضلال واتباع سُبل الشيطان.

ـ وإنهن مائلات إلى الرجال يتحبَّبْنَ إليهم ويتزيَنَّ لهم في الشوارع والأسواق لاقتناصِ الغرائز الجامحة.

ومُميلات لقلوب الشباب والرجال إليهنَّ ليقعوا في الفتنة والإثم، بما يُبرِزْنَه من زينة وما يَعرِضْنَه من متاع حرام.

ويلاحظ أنه قدَّم (مميلات) إشارةً إلى أنَّ قصدَهُنَّ من صنيعِهن الإثارةُ والفتنة والإضلالُ، وللتنبيه على أن فعلهنَّ ليس قاصراً على انحرافهن وضلالهن، فلو

كان كذلك لكان الخَطْب أهونَ، لكن شرَّهُنَّ يجتاح المجتمع، فينتشر الفسق فيه انتشار النار في يابسِ الحَطَب!.

●● **والصفة الثالثة لهن: أنهن «على رؤوسهن كأسنمة البخت»:**

الأسْنِمة: جمع سَنَام وهو أعلى ظهر البعير، وسنام كل شيء أعلاه.

والبُخْت: جمع بُخْتِيّ، وهي جمال طِوَال الأعناق.

والمعنى: أنهنّ يعظِّمْنَ رؤوسهنَّ ويُكَبِّرنها بلفِّ خِمار أو عمامة أو عصابة أو نحوها، حتى تشبه أسنمة الإبل البُخْت.

وتقوم الواحدة منهن بضَفْر غدائرها وشدِّها إلى فوق وجمعِها في وسط الرأس فتكثر وتعلو وتصير كأسنمة البخت.

والبعض منهن يصففن شعورهن فوق رؤوسهن ويُمِلْنَه إلى ناحية من جوانب الرأس كما يميل السنام، وينطبق عليهن الوصف النبوي: «**مميلات مائلات على رؤوسهن كأسنمة البخت**».

وأخريات يُكَبّرن رؤوسهن بوَصْلِ الشعر بشعر مستعار، أو وضع ريش أو أربطة من أقمشة زاهية أو ورد صناعي أو نحوه!.. وقد تلبَس (الباروكة) والقُبّعة و(البرنيطة)، فيزيدها في الزينة والفتنة، ويؤجج الانتباه والإثارة.. ومما زاد الأمرَ انحرافاً والإثارةَ اضطراماً أنه أصبح في عصرنا أماكن لتصفيف شعور النساء وتجميلها وتنويع أشكالها في محلات تسمَّى (كوافير)، يُشرف عليها غالباً رجال يتقاضَوْن أعلى الأجور!.. وليس ذلك فحسب، فكثيرٌ من النساء لا يكتفين بما وهبهنَّ الله من شعر طبيعي، فيلجأْنَ إلى شراء شعر صناعي، تصِلُه المرأة بشعرها، ليبدو أكثر نعومةً ولمعاناً وجمالاً؛ لتجذبَ إليها الرجال[1].

وكل تلك الأوصاف التي جاء بها الحديث النبوي قد ظهرتْ بجلاء، ووقع

---

(١) انظر: الحلال والحرام، ص٨٤.

ما أخبر به النبي ﷺ على أتمِّ وجه وأكملِه، وبصورة فظيعة فاضحة، وكأنه ﷺ جالس بيننا يَصِف ما تموج به شوارعنا وأسواقنا ومراكزنا ومنتدياتنا وجامعاتنا وحدائقنا وشواطئنا... وصدق الله العظيم القائل مزكياً لنبيِّه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

والمتأمِّل فيما تنتجه محلات الأزياء العالمية والمحلية، وما أكثرها في بلادنا من المشرق إلى المغرب، **وما تتنافس النساء فيه** من شراء الملابس الفاضحة بكل أشكالها وأصنافها وألوانها ومقاساتها، وما يتفنَّنَّ به من خروج وهنّ كاسيات عاريات، وما يتجمَّلن به من زينة وعطور، وما يبتكرنَ من قصات للشعر وتصفيف له ـ من يتأمل ذلك يجد أن كل الصفات التي ذكرتْها النبوءة قد تحققت في زماننا هـذا واستَحْكَمت أشدَّ الاستحكام.

قوله ﷺ: «**لم أرهما**»: أي صنف الرجال الظَّلَمة الذين يجلدون الناس ويعذِّبونهم[١]، وصنف النساء الكاسيات العاريات؛ لا يوجدان في عصر النبي ﷺ، وإنما سيظهران في أمته فيما بعد.

وقوله: «**لا يدخلنَ الجنة**»: هو محمولٌ على مَنْ استحلَّت هـذا الفعل الحرام مع علمها بتحريمه، فتكون مخلَّدة في النار لا تدخل الجنة أبداً. أو يُحمل على أنها لا تدخل الجنة أول الأمر مع الفائزين[٢].

فالمرادُ بهـذا النفي «**لا يدخلنَ الجنة**» وإنْ كان عامّاً التخصيصُ بزمانٍ ما لِمَا تعاضَدَتِ الأدلة العقلية والنقلية أن من مات مسلماً ولو كان من أهل الكبائر فهو محكومٌ بإسلامه غيرُ مخلَّد في النار ومآلُه إلى الجنة ولو عُذِّب قبل ذلك[٣].

قوله: «**لا يجدنَ ريحها**»: أي: لا يَشممن ريحها.

---

(١) سبق الحديث عن هـذا الصنف في النبوءة (٧٩): ٢/ ٣٧٤ (في هذا الكتاب).
(٢) شرح مسلم، للنووي: ٩/ ٢٠٩.
(٣) الفتح: ١٥/ ٦١١، شرح الحديث (٦٩١٤).

قوله: «**مِنْ مسيرة كذا وكذا**»: أَطْلَق هنا ولم يقيِّده بمسافة، وهو كناية عن المسافات البعيدة الشاسعة.

وقد جاء تحديدها وتقييدها في أحاديث أخرى «**بأربعين سنة**»، أو «**مئة سنة**»، أو «**خمسمئة سنة**»، أو «**ألف سنة**».

- عن عبد الله بن عَمْرو ، رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مَن قَتَلَ مُعاهَداً لم يَرَحْ رائحةَ الجنَّة، وإنَّ ريحَها تُوجَدُ من مسيرةِ أربعينَ عاماً**»[1].

- وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَن قَتَلَ رجلاً من أهل الذِّمَّة، لم يجدْ ريحَ الجنة، وإنْ ريحَها ليُوجَدُ من مسيرة سبعينَ عاماً**»[2].

ومثله عن أبي هريرة[3].

- وعن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن قَتَلَ نفساً معاهَدَةً بغير حقِّها، لم يَرَحْ رائحةَ الجنَّةِ، وإنَّ ريحَ الجنة ليُوجَدُ مِن مسيرةِ مئة عامٍ**»[4].

- وعن أبي بَكْرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قتلَ معاهَداً في عَهْدِه، لم يَرَحْ رائحةَ الجنَّةِ، وإنَّ ريحَها ليُوجَدُ من مسيرةِ خمسِمئةِ عام**»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٦٩٢٦) و(٨٦٨٩)، وفي الصغرى: ٨/ ٢٥؛ وابن حبان (٢٦٨٦).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦٩٢٥)، وفي الصغرى: ٨/ ٢٥؛ وأحمد: ٤/ ٢٣٧، ٥/ ٣٦٩؛ وصحَّحه الألباني في: صحيح النسائي، وصحيح الجامع (٦٤٤٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٤٠٣) وقال: حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه (٢٦٨٧)؛ والحاكم: ٢/ ١٢٧؛ وصحَّحه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد: ٥/ ٤٦، ٥١؛ وابن حبان (٧٣٨٢)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٦٩١)؛ وأحمد: ٥/ ٥٠؛ وابن حبان (٧٣٨٣)؛ والحاكم: ١/ ٤٤؛ وصحَّحه وأقره الذهبي، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

- وفي حديث لجابر ذكره صاحبُ «الفردوس»: «**إنَّ ريحَ الجنة يُدْرَكُ من مسيرة ألف عام**»[١].

وهـذا الاختلاف بين الأحاديث هو اختلافُ تنوُّع لا اختلافَ تعارضٍ وتناقض، فإن ريحَ الجنة وعبيرَها فوَّاح في الآفاق، وإنما يشَمُّ الناس ريحها حسب درجاتهم وكثرة أعمال البر والصالحات والتقوى، ومنازلهم في الإخلاص واليقين، فمن ثَخُنَ يقينُه ورسخَ إيمانُه وخلص إخلاصه وتنامى برُّه وخيره وصالحاته، فهـذا يجدُ ريحها من مسيرة ألف عام وهي أرفَعُ الدرجات، ومَن بعده من يجدُ ريحها من مسيرة خمسمئة عام، وهكذا.. وأما هؤلاء النسوة فيُحرمن ريحها وعبيرها ودخولها، والمحروم من حُرم!.

وقد نقل الحافظ عن العلماء أوجهاً في الجمع بين هـذه الأحاديث، أحسنها ما قاله هو، والذي ذكرناه هو فحواه ومُصَاصته، قال ﷺ: (والذي يَظهر لي في الجمع أن يقال: إن الأربعين أقلُّ زمن يدرِك به ريحَ الجنة مَن في الموقف، والسبعين فوق ذلك أو ذُكرت للمبالغة، والخمسمئة ثم الألف أكثر من ذلك، ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص والأعمال، فمن أدركه من المسافة البُعْدى أفضل ممن أدركه من المسافة القُربى وبين ذلك)[٢].

ثانياً: تحقق النبوءة منذ زمن واستحكامها في عصرنا:

قال الإمام النووي شارحاً رواية مسلم: (هـذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع هـذا الصنفان، وهما موجودان)[٣].

قلت: يقول النووي هـذا منذ أكثر من سبعة قرون، ولا شكَّ أنه كان في زمانه على نطاق ضيّق في ميادين الظلم وعَسْف الجلّادين والجَلاوِزة، وكذلك في ميدان المرأة وسفورها كان بصورة مبسَّطة وعلى صعيد محدود وبأشكال

---

(١) الفتح: ١٥/ ٦١١، شرح الحديث (٦٩١٤).

(٢) المرجع السابق: ١٥/ ٦١٢.

(٣) شرح صحيح مسلم: ٧/ ٣٦٣، ٩/ ٢٠٧.

ساذجة إذا ما قيست بما حدث في زماننا هـذا، حيث استحكَمت النبوءة وعَمَّت وطَمَّت وظهر بلاؤها فاجتاحت المدائنَ والقرى والبر والبحر والجو والسهل والجبل والآكام وبطونَ الأودية!.

ثالثاً: الحجاب الشرعي وثمراته:

صاغ الإسلام مجتمعاً طاهراً عفيفاً نقيّاً نظيفاً، تُصان فيه الأعراض، وتستر فيه الأجساد، وتُرشَّد فيه الغرائز، وتُحمى فيه الأخلاق، فأيقظَ الضمائر وأحيى الأرواح ورشَّد الأبصار وطارد الأخلاق الدَّنسة والأصوات الخَنِثة، ففرض على النساء الحجاب، ونهاهنَّ عن الزينة عند الخروج من البيت، وأمر الرجال بغضِّ الأبصار، وشَرع الزواج، وحرَّم كل أساليب الاتصال الأخرى والاختلاط الماجن وابتذال الحرمات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

والحجاب كما أمر به الإسلام يجب أن يتَّصِفَ بعدة صفات(١):

١ ـ أن يكون ساتراً لجميع البدن.

٢ ـ أن يكون فَضفاضاً غير ضيِّق فيصِف شيئاً من جسم المرأة.

٣ ـ أن لا يكون الحجاب زينة في نفسه.

٤ ـ أن يكون ثخيناً صَفيقاً لا يشِفّ ولا يصف ما تحته.

---

(١) وقائع ندوة: الاحتشام والسلوك العام، ص٦٤ ـ ٦٦، ٨٢ ـ ٨٤.

٥ ـ أن لا يكون مبخَّراً ولا معطَّراً.

٦ ـ أن لا يكون لباس الرجال.

٧ ـ أن لا يكون لباس الكفار الخاص بهم بحيث لو رُئيت المرأة فيه ظُنَّ أنها من الكفار، كلباس الراهبات مثلاً.

٨ ـ أن لا يكون لباس شُهرة.

وبهـذا يحقق الحجاب ثمرات طيِّبة وفوائد جليلة للمرأة والرجل والمجتمع(١):

١ ـ فيه درءُ الفتنة وعدم تهييج الغرائز المركوزة في الإنسان.

٢ ـ الحفاظ على كرامة المرأة واحترامها وتقديرها، وعدم ابتذالها كأنها سلعة رخيصة يتاجر بها أصحاب النفوس الدنيئة والأهواء المريضة.

٣ ـ ترسيخ العفاف والفضيلة والذوق السليم والآداب الرفيعة في الشارع والسوق والمرافق العامة والمؤسسات وغيرها.

٤ ـ صيانة المرأة من الأذى بالنظر إليها أو الكلام معها أو التربص بها لاصطياد الشهوات وتحقيق النزوات.

٥ ـ الوقاية من الفواحش والمفاسد التي تترتب على التبرج والسفور.

٦ ـ الاستقرار النفسي عند الرجل والمرأة، وتهذيب النفوس، وترشيد الغرائز وتصريفها في الوجوه المشروعة.

٧ ـ التوافق مع سنن الله تعالى في خلق الإنسان والفطرة التي فطر الناس عليها من الأدب والحياء والاحتشام وصيانة الشرف والعِرض.

٨ ـ الارتقاء بالإنسان إلى مدارج الكمال وإنقاذه من وَهْدة البهيمية

---

(١) المرجع السابق، ص٩٨ ـ ١٠٨.

والحيوانية والجاهلية التي تهبط بالمرأة فتسلخها من حجابها وتردّها إلى عادات الجاهلية الأولى أو الجاهلية المعاصرة.

٩ ـ فيه تطهير للمجتمع من مظاهر التهتك والإسفاف والانحطاط، ووقاية له من استثارة الشهوات وتهييج الغرائز وإشعال السُّعار الحيواني المتربِّص بأنفس الجنسين كل منهما تجاه الآخر.

١٠ ـ فيه طهارة القلب وسكينة النفس وطمأنينة الروح وراحة العين، فلا يرى المرء إلا العفة، وحيثما سار يرى الاحتشام والستر والطهر، ولا يَلقى ما يخطف بصره ويَشغل قلبه ويُقلق نفسه.

١١ ـ وفيه حفظ للمرأة والرجل من ظن السوء، والبعد عن مسببات الريب والشبهات، وصيانة لسمعة الأهل والأسرة والأب والزوج، فلا يظن فيهم إلا خيراً، حيث تتصف بناتهم بالحياء والستر والعفاف.

رابعاً: التبرج ومفاسده وثقافة العري ودهاقنتها:

التبرج وهتكُ الستر وكشفُ العورات موجود منذ القِدم، وكان في الجاهلية الأولى قبل الإسلام، وقد نهى القرآن الحكيم نساءَ المسلمات في عصر النبوة عن التبرج فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وتقوم الجاهلية الحديثة بإحياء تلك الأخلاق الهدَّامة، فتنشر في مجتمعاتنا كل أشكال السفور والتهتك والتعري واللباس الفاضح.

●● انظر إلى الشارع فسترى الرجال يغطّون أجسامهم تقريباً، أما النساء فإن (حضارة الغرب!) ـ وهي في المنظور القرآني جاهلية حديثة ـ جعلت المرأة مسرحاً للعيون النَّهِمة، فلم تجعل منها عضواً نافعاً في الجماعة الإنسانية، بل عضواً يسرِّي الهموم عن الجنس الخشن بأسلوب الحرام لا بأسلوب الحلال(١).

لقد أصبح المرء يرى في كل مكان تتواجد فيه المرأة: الشعورَ المكشوفة

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٠٩ ـ ١١١.

مسبَلَة على الظهر والكتفين، أو مصفَّفة كأسنمة البخت، أو تزيِّنها عصابة أو رباط أو قبَّعة ونحوها، وصدوراً مكشوفة، ونحوراً بارزة، ونهوداً معراة، وأذرعاً وسيقاناً وأعطافاً وأردافاً كلها مبذولة للذئاب الجائعة، وتكسُّراً وتمايلاً، وتغنّجاً وتمايُعاً.. وأَفْلَت زمامُ الغريزة، ودَرَسَتْ حدود الحلال والحرام، وتعاون المجتمع كله على الإثم والعدوان!.

ترى ذلك وأنت تمشي في الطريق وتدهش لافتتان الجاهلية الحديثة في التهتك وإبراز العورات، وفي استفزازها الغرائز الهاجعة كي تعربد، ثم تفتك بكل أثر للإيمان والتحفظ والتقوى.

وترى ذلك في الشوارع والأسواق والمراكز التجارية والمدارس والجامعات والحدائق والمتنزهات والمؤسسات العامة والخاصة والحافلات والسيارات والمقاهي والمطاعم وصالات الرياضة وأماكن السياحة.. أما شواطئ البحار فالأمر هناك لا تصوِّره الكلمات، وتعجز العبارات عن وصف العري الذي سَلَخ عن الأجسام كل ستر ولم يبقِ عليها إلا مثلَ ورقة التوت! ولقد عبَّر عن تلك الفواحش أديبُ العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي في كتابه الفريد «وحي القلم» وكتب عن (لحوم البحر) وقال: يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار[(١)]!.

•• لقد برزت النساء في تلك الأماكن كلها بصور مختلفة، ينطبق عليها تماماً الوصف النبوي: «كاسيات عاريات مميلات مائلات...».

لقد خرجنَ بأنواع كثيرة وأوضاع شتى من اللباس والزينة والإثارة: فترى النساء والفتيات يلبسنَ القصير، أو الضيِّق، أو الطويل المشقوق من أمام أو من خلف، أو المزيّن المزركش، أو الذي يَكشف الظهر والبطن، أو الذي يشفّ عما تحته، أو المائل الفتَّان، أو المزعفر والمعصفَر والمعطر والمبخَّر، أو لباس

(١) انظر: وحي القلم: ١/ ٣٤٥، طبعة دار القلم ـ دمشق، ٢٠٠٩م.

الرجال كالبنطال ونحوه.. وكل ذلك يُبرز الأنوثة العارمة، ويُظهر المفاتن الظاهرة والمخبوءة، بكافة الطرق الممكنة بالتكسُّر والتمايل والتثنّي والخضوع بالقول والفعل، وإبداء المكشوف والموصوف والمجسَّم، وما بقي مستوراً يثير أكثر مما لو كان مكشوفاً، فتتأجَّج الغرائز، وتستيقظ الرغبات الجنسية القذرة، ويلتهب الحيوان الرابض في جسم الذكران والإناث، وتدور الأعين، وتضطرب القلوب، وتهِيم الأنفس في عالم الخيال والواقع والنزوات.. حتى لَيُخَيَّل إلينا أنه قد حان الحين لكي تتحرك شرطة الآداب (إنْ وُجِدت) أو النيابة العامة لتعمل على حماية المجتمع من هـذه الكوارث!.

إنك لترى اللحوم المكشوفة تسير في الشوارع والطرقات وكل مكان، وتزحم عليك المداخل والمخارج، وما عليك إذا أردت أن تحفظ قلبك من السهام المسمومة المنبثة في كل حَدَب وصَوْب، إلا أن تُغمض عينيك فلا تدري آنئذٍ أين تقع أو بماذا تصطدم بإنسان أم بسيارة أم بجدار!.

•• وزاد الأمر سوءاً والفاحشة انتشاراً والتهتك عرامةً؛ أن المرأة قد استُخدمت في إبراز مفاتنها لترويج أنواع الفنّ الهابط والدعاية في الإعلام وتسويق أنواع التجارات والبضائع، فابتذلت أنوثتها، وهُتِك حجابها، وانحطَّت كرامتُها، ولا يمكن لها ولا يُقبل منها أن تقوم بتلك الأعمال إلا إذا كانت كاسية عارية مميلة مائلة!.

وصار في البلاد العربية والإسلامية أندية لعارضات الأزياء، بل وملكات الجمال، اللائي لم يبقَ منهن شيء إلا ظهر وانكشف! ومما يَعتصر القلب مرارةً أن بعض الكبراء يستقدمون هؤلاء الساقطات، وتُقام لهن الأحفال واللقاءات مع الحفاوة البالغة والتكريم، وتُبذل لهن الأموال الطائلة، وتُعرض صورهن في القنوات الفضائية ليُشِعنَ الرذائل والآثام.

•• وإن هـذا التهتك، وكشفَ العورات، وإظهارَ المفاتن، ونشرَ المجون والخلاعة، وابتذال الشرف والعرض، وقتلَ الغيرة، وإضرام نار الشهوات

والغرائز ـ ليس عَبثاً ولا اعتباطاً، بل وراءه دهاقنةُ ثقافة العُري والفاحشة، لإنشاء أجيال لا يهمها إلا بطونها وفروجها ومُتَعُها وشهواتُها.

ومن ورائه جيشٌ من شياطين الإنس الذين تعرَّوا وبَدَت سوءاتُهم في التصورات الفكرية والإرادات النفسية والممارسات الجسدية، لأنهم يعلمون تماماً ما تؤدي إليه مظاهر التبرج والسفور والانحلال وكشف العورات، من أمراضَ وبيلةٍ ونتائج وخيمة في النفس والمجتمع والدولة والحضارة.

وهناك فريق كبير من الذين يدَّعون العلم والفقه في كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ، ويروِّجون للسفور ويزعمون أن الحجاب ليس بواجب على المرأة المسلمة، يُقال هـذا ويُكتَب ويُنشر في المؤتمرات والندوات والقنوات الفضائية والكتب والمجلات والصحف وغيرها.

ففي ندوة بثَّتْها إحدى القنوات الفضائية[١] حول موضوع (حجاب الفنانات والإعلاميات والسعي للشهرة)، حَمَلَتْ السيدة (إقبال بركة) ـ رئيسة تحرير مجلة (حواء) المصرية ـ على الحجاب والمتحجبات حملة شعواء، ووصفتْهن بالساعيات وراء الشهرة، وزَعمتْ أن الحجاب ليس فريضة، وليس في القرآن ما يدل على فرضيته، وأن (آية الحجاب) هي (نصيحة) يقدمها الله سبحانه للمسلمات.

وادَّعَتْ بأن الحجاب هو نتيجة ضغط الرجل والمجتمع الذكوري في بلادنا، وأن حجاب المرأة دون الرجل ليس فيه مساواة؛ فكأن الإسلام فرض على الرجل خمسة فروض وعلى المرأة ستة، والعدالة والمساواة تقتضي تحجُّبَ الرجال.

---

(١) قناة (L.B.C)، برنامج: أنت والحدث، يوم الأحد ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٦م. الضيوف: إقبال بركة، خديجة بن قنة المذيعة في قناة الجزيرة، منى عبد الغني فنانة التزمت الحجاب، ومداخلة من الفنانة التي تحجبت أخيراً حنان الترك، ومداخلة من الدكتور محمد النجمي، عضو مجمع الفقه الإسلامي، رد على مزاعم إقبال بركة.

وذَكرتْ أن الحجاب فيه تفرقة عنصرية بين المحجبات والسافرات، وأن ذلك فيه اتهاماً لغير المحجبات بترك الفرض، وأن المحجبات ملتزمات بالشرع وأكثر تديناً وتقوى.

وافتخرت بكتاب لها حول الحجاب طُبع ثلاث مرات، تدافِع عن مثل هـذه الآراء، وقالت باعتزاز: إنها خريجة قسم اللغة العربية، وأنها تفهم الإسلام كما يفهمه علماء الأزهر وغيرهم، وليس ذلك الفهم حَكْراً على أحد، ولا يحقُّ للمُفتين أن يتسلَّطوا بالفتوى على النساء، فذلك زمان قد ولَّى أوانه!.

ـ وبثَّتْ وسائل الإعلام تصريحاً لوزير الثقافة في (دولة عربية) يصفُ فيه تحجُّبَ النساء في بلاده بالنزعة الانكفائية.

ـ والدكتور نادر فرجاني المؤلف الرئيسي (لتقرير التنمية الإنسانية العربية حول نهوض المرأة) الصادر عن الأمم المتحدة، ذكر في تقريره هـذا أن (الحجاب مطروح للنقاش في الوطن العربي والموافقة عليه!).

وقال: الحجاب عليه خلاف، وليس هو من أركان الإسلام(١).

ـ وفي برنامج (البيّنة)(٢) حول موضوع (الإعلام والحجاب) قال الضيف الأستاذ فهمي هويدي:

الحجاب في (دولة عربية) مشكلة، والنقاب جريمة!.

وفي (دولة أخرى): يُمنع أن تكون المحجبة مذيعة في التلفاز، أو عاملة في وزارة الخارجية، أو مضيفة في طائرة.

وهـذا الإعلام لا يقدّم لأبنائنا إلا مذيعة سافرة لتكون قدوة!.

●● وهـذه الألوان من التعرِّي الفاضح والتهتُّك الدنيء، وسَوْقُ الناس لمثل

---

(١) قناة الجزيرة، برنامج بلا حدود، ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) قناة اقرأ، يوم ١/ ٥/ ٢٠٠٨م.

هـذه الحياة القذرة، الموغِلة في الإجرام وعصيان الله سبحانه ـ تجتهد عصابات من المؤلفين والروائيين والممثلين والمغنّين والمنحلّين وأشباههم في صبغ بلادنا بها.

وإنَّ ضمانَ العافية للأمة والمجتمع والأخلاق لن يتمَّ إلا إذا خرست الأصوات الخَبِثة، وانكسرت الأقلام التي تُدغدِغ الشهوات[1].

•• وتبرُّج المرأة وسفورُها وتهتُّكها وعَرْضُها مفاتنها؛ خطرٌ على نفسها وزوجها وأسرتها وأهلها ومجتمعها ودينها:

١ ـ إنها بذلك تقتل أنوثتها، وتئِد حياءها، وتدمِّر جَمالها، حيث تعرِضه رخيصاً لكل عين خائنة.

٢ ـ وهي بذلك ليست أهلاً لتكون كَهْفاً للأمومة الفاضلة الواعية، ومدرسة للحضانة الراشدة، ومربِّية للرجال الذين يبنون الدولة ويَذودون عن الأمة.

٣ ـ وهي امرأة قد فَرِغ قلبها من حبِّ الله ومراقبته وتعظيمه والتزام أوامره واجتناب نواهيه، فلا تورِّث لأبنائها سوى الفراغ الروحي والخواء الفكري.

٤ ـ وهي مبذِّدة للأموال، مسرفة في الإنفاق، تضيِّع كسبَها وكسب زوجها في ملاحقة (الموضات) وتقليد الفاسقات.

٥ ـ وهي امرأة ساذَجة مقلِّدة إمّعة ضعيفةُ التفكير، مشغولة القلب والعقل في اتباع كل جديد من صاحبات الهوى ومروِّجات العري والتكشّف الفاضح.

٦ ـ وهي سببٌ في قتل الغَيْرة عند أبيها وأخيها وزوجها الذين لا يغارون عليها، ولا يَكبحون من جماحها وانطلاقها كاسية عارية مميلة مائلة.

٧ ـ وإنها بذلك تنشر في الأرض الفساد، وتشجِّع مثيلاتها على التبرج وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١١٣؛ ظلام من الغرب، ص٢١٢.

٨ ـ وسلوكها الشائن هـذا من أكبر الأسباب في إضعاف الوازع الديني ونشر الجريمة والعدوان على الأنفس والأعراض.

٩ ـ وهي بذلك من أسباب تحطيم الأُسر، حيث يرى الرجال جَمالاً منثوراً رخيصاً هنا وهناك، فينغِّص عليهم حياتهم الزوجية، وقد يَسْعون إلى نَفْض أيديهم من الرباط الأسري، فينهون الأمر بالطلاق، وضياع الأولاد.

١٠ ـ وهي سبب في ارتخاص الأعراض وضياع الشرف والعفاف، الذي يحرِص عليه كل مسلم، بل كل رجل حرّ غيور.

١١ ـ وهي بعد ذلك سبب في العدوان على حرمات الله سبحانه والاستخفاف بشرعه وأوامره ونواهيه.

خامساً: وفي الختام نقول:

●● إن هـذا الصنف من النساء ملعونٌ على لسان رسول الله ﷺ حيث يقول: «**الْعَنُوهنّ فإنهنَّ ملعوناتٌ**»!.

وكفى به إثماً مبيناً أن تحِلَّ اللعنة عليهنَّ من الله ورسوله والمؤمنين، ويُطرْدنَ من رحمة الله ويرجِعْنَ بغضبه ومَقْته، مع ما ينتظرهن من عذاب أليم وعدم استرواحِهنَّ رائحة الجنة التي يفوح عبيرُها ليُشَم من مسيرة ألف عام!.

بل إن هؤلاء البائسات المحرومات شَرُّ نساء المسلمين، كما في الحديث الصحيح عن أبي أُذينة الصَّدَفي ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «**خيرُ نسائِكم الوَدودُ الولودُ، المُواتية، المواسية، إذا اتَّقينَ الله. وشَرُّ نسائكم المُتبرِّجات المُتخيِّلات، وهنّ المنافقاتُ، لا يدخلُ الجنةَ منهن إلا مِثلُ الغرابِ الأَعْصَم**»[١].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن: ٧/ ٨٢؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٨٤٩)، وصحيح الجامع (٣٣٣٠). والغراب الأعصم: هو الأبيضُ الجناحين، وقيل: الأبيض الرِّجلين، وهـذا الوصف في الغِرْبان عزيز قليل.. وهو مَثَل يُضرب لكلِّ شيء يَعِزُّ وجودُه.

●● والرجال، آباءً كانوا أو أزواجاً، بما أعطاهم الله من القِوامة على النساء؛ مسؤولون كل المسؤولية أمام الله ورسوله والمؤمنين والمجتمع في حفظ أعراضهم وسَتْرِ نسائهم ورعاية شرفهم، وكفكفةِ جماح من يشذّ، والضرب على أيدي من يتعدى بتكشُّفٍ أو تبرُّجٍ أو تهتُّكٍ؛ فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته.

فإن تهاونوا وفَرَّطوا وتركوا لنسائهم وبناتهم حَبْلَهنَّ على غارِبِهنَّ؛ فقد باؤوا بغضب الله ومَقْته في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد!.

عن عبد الله بن عُمر ﵄، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القِيامة: العاقُّ لوالدَيْه، والمرأةُ المُتَرجِّلَةُ، والدَّيُّوثُ. وثلاثةٌ لا يَدخلون الجنةَ: العاقُّ لوالديه، والمُدْمِنُ الخمرَ، والمَنَّان بما أَعطى**»[1].

وعن عمار بن ياسر ﵄، عن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثةٌ لا يَدخلون الجنَّةَ أبداً: الدَّيُّوثُ، والرَّجُلَةُ من النساء، ومدمنُ الخمرِ**»[2].

«**المترجِّلة والرجُلة**»: هي المرأة التي تتشبَّه بالرجال في زِيِّهم وهَيْئَتِهم.

و«**الديوث**»: الذي لا يغار على أهله ولا يخجل.

وما أكثر هؤلاء وهؤلاء في هـذا الزمان!.



(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢٣٥٤)، وفي الصغرى: ٥/ ٨٠ ـ ٨١، واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ١٣٤؛ والبزار (١٨٧٥)؛ وبنحوه ابن حبان (٧٣٤٠)؛ والحاكم: ١/ ٧٢، ٤/ ١٤٦ ـ ١٤٧، وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٧٤) و(١٣٩٧) و(٣٠٩٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦٢).



إخبار النبي ﷺ عن فشو الربا والزنى في الأمة

١ ـ عن الحسن البَصْريِّ، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيأْتينَّ على الناس زمانٌ لا يَبْقَى فيهِ أحدٌ إلَّا أَكلَ الرِّبَا، فإنْ لم يأكُلْهُ أَصابَهُ من غُبَارِهِ**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٣١)؛ والنسائي في الكبرى (٥٩٩٩)، وفي الصغرى: ٧/ ٢٤٣؛ وابن ماجه (٢٢٧٨)؛ وأحمد: ٢/ ٤٩٤؛ والبيهقي في السنن: ٥/ ٢٧٥، ٢٧٦؛ والداني (٢٤٠)؛ والبغوي (٢٠٥٥)؛ والحاكم: ٢/ ١١، وقال: وقد اختَلَف أئمتُنا في سماع الحسن من أبي هريرة، فإنْ صحَّ سماعُه منه فهـذا حديث صحيح. وعقَّب الذهبي فقال: سماعُ الحسن من أبي هريرة بهـذا صحيح.

وحكم جماعة من الأئمة المتقدمين، وتابعهم بعض المحدِّثين المعاصرين كالألباني وشعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ـ بضَعْف هـذا الحديث، واحتجوا بأن الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

والصحيح أنه سمع منه كما قرره الذهبي هنا، وكـذا الحافظ في ترجمة الحسن من «تهذيب التهذيب»، وإليه ذهب أحمد شاكر في تعليقه على «مسند أحمد»، وظفر أحمد العثماني التهانوي، وعبد الله الغُماري ـ انظر: قواعد في علوم الحديث، ص٣٥٨ ـ ٣٦٠، والألباني في الصحيحة (٦٣٢)، وقد أوضحتُ ذلك في ترجمة الحسن من كتابي «أعلام الحفاظ والمحدثين».

وفي سنن النسائي الكبرى (٥٦٢٦)، والصغرى ٦/ ١٦٨، في حديث «المُخْتَلَعات» قال الحسن: (لم أسمعه من أحد غير أبي هريرة)، وصحَّحه الألباني، وقد تحرفت العبارة في «تهذيب التهذيب».

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**بينَ يَدَيِ السَّاعةِ يَظهرُ الرِّبَا، والزِّنَى، والخَمْرُ**»[(١)].

٣ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أَلَا أُحَدِّثُكم حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يُحدثُكم به أحدٌ بعدي، سمعتُه منه: «**إنَّ من أشراطِ الساعةِ أن يُرفَعَ العِلمُ، ويَظْهرَ الجهلُ، ويفشوَ الزِّنى، ويُشربَ الخمرُ، ويَذْهَبَ الرجالُ، ويَبْقَى النساءُ حتى يكونَ لخمسينَ امرأةً قيِّمٌ واحدٌ**»[(٢)].

❁ ❁ ❁

أولاً: كلمة مضيئة حول جريمتي الزنى والربا:

ذكرت هـذه الأحاديث عدة نبوءات، قد سبق الحديث عن استباحة الزنى وشرب الخمر، ويأتي البحث في نبوءة قَبْض العلم وكثرة الجهل، ونتناول بالكلام هنا ظهورَ الزنى والربا وانتشارَهما وفشوَّ أمرهما في الأمة.

ومقارفة الزنى والتعامل بالربا من الكبائر والموبقات التي نهى الله تعالى عنها أشدَّ النهي، وحذَّر النبي ﷺ من مَغَبَّة السقوط في حَمأتها.

١ ـ أما الزنى:

فقد تقدَّم ذِكْر بعض الآيات والأحاديث التي بيَّنت حرمتها وعِظَم جُرمِ ارتكابها[(٣)]، ومن ذلك أيضاً:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ**

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ٨/ ٣٤٠ (٧٦٩١)، وقال المنذري في (الترغيب والترهيب: ٣/ ٩): رواته رواة الصحيح؛ وكـذا قال الهيثمي في المجمع: ٤/ ١١٨، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٤١٥/ ٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨٠) وأطرافه؛ ومسلم (٢٦٧١)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٧٤) و(٥٨٧٥)؛ والترمذي (٢٢٠٥)؛ وابن ماجه (٤٠٤٥) واللفظ له؛ وعبد الرزاق (٢٠٨٠١)؛ وأحمد: ٣/ ١٥١، وغير موضع؛ وابن حبان (٦٧٦٨)، وغيرهم.

(٣) انظر: ٤/ ١٦٤ (في هذا المجلد).

مسلم، يشهد أن لا إلـه إلا اللهُ وأنّي رسولُ الله، إلا بإحدى ثلاث: **الثَّيِّب الزاني، والنفسُ بالنفسِ، والتاركُ لدِينه المفارقُ للجماعة»**(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا ينظرُ الله إليهم يومَ القيامة؛ ولا يُزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: الشيخُ الزاني، والإمامُ الكذَّاب، والعائلُ المُختال**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (سألتُ النبي ﷺ: أيُّ الذنْبِ أعظمُ عند الله؟ قال: «**أن تجعلَ لله نِدّاً وهو خَلَقك**» قلت: إنّ ذلك لعظيمٌ! قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**وأن تقتلَ ولدَك تخافُ أن يَطْعَمَ معك**» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تُزاني حَليلة جارك**»)(٣).

وغير ذلك كثير جدّاً.

٢ ـ وأما الربا:

فلقد شَنَّ الإسلام حملة شَعْواء على آكليه وكلٌّ من له علاقة به، وحسبك تلك الآية الفاذَّة المرعِبة التي يقول الله ﷻ فيها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**اجتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقات**» قالوا: يا رسولَ الله! وما هنَّ؟ قال: «**الشِّركُ بالله، والسِّحرُ، وقتلُ النفس التي حَرَّم الله**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)؛ ومسلم (١٦٧٦)؛ وأبو داود (٤٣٥٢)؛ والترمذي (١٤٠٢)؛ والنسائي في الكبرى (٣٤٦٥)، وفي الصغرى: ٧/ ٩٠؛ وابن ماجه (٢٥٣٤)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٧)؛ والنسائي في الكبرى (٢٣٧٦) و(٧١٠٠)، وفي الصغرى: ٥/ ٨٦؛ وأحمد: ٢/ ٤٣٣؛ وابن حبان (٤٤١٣)؛ والبغوي (٣٥٩١)، وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٧) وأطرافه؛ ومسلم (٨٦)؛ والنسائي في الكبرى (٣٤٦٢)، وغيرهم.

إلا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتولِّي يومَ الزَّحْفِ، وقذفُ المُحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ»[١].

وعن جابر عبد الله رضي الله عنه، قال: (لَعَنَ رسول الله ﷺ آكلَ الرِّبا، ومُوكِلَه، وكاتبَهُ، وشاهِدَيْه، وقال: هُم سواءٌ)[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما ظَهَرَ في قومٍ الزِّنى والرِّبا إلا أَحَلُّوا بأنْفُسِهم عقابَ اللهِ جلَّ وعلا»[٣].

وعن عبد الله بن حَنْظَلة غسيلِ الملائكة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «دِرْهَمُ رِباً يأْكُلُه الرجلُ وهو يعلمُ أشدُّ عند اللهِ من سِتٍّ وثلاثينَ زَنْيَةً!»[٤].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّبا اثنانِ وسبعونَ باباً؛ أَدْناها مِثْلُ إِتيان الرجُلِ أمَّه! وإنَّ أربَى الربا استطالةُ الرجلِ في عِرْضِ أخيه»[٥].

فانظر إلى هـذه المرهبات والقوارع والعقوبات لآكل الربا: فمن وقع فيه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦) وطرفاه؛ ومسلم (٨٩)؛ وأبو داود (٢٨٧٤)؛ وابن حبان (٥٥٦١)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٩٨)؛ والبغوي (٢٠٥٤)؛ وأخرجه عن ابن مسعود: مسلم (١٥٩٧)، وغيره.

(٣) أخرجه أحمد: ١/ ٤٠٢؛ وابن حبان (٤٤١٠)، وحسَّنه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحيح الجامع (٥٦٣٤). وجاء عن ابن عباس مرفوعاً مثله، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرك: ٢/ ٣٧؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٩).

(٤) أخرجه أحمد: ٥/ ٢٢٥؛ والطبراني في الأوسط: ١/ ١٤٢ ـ ١٤٣؛ والدارقطني (٢٨٤٣)؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٤/ ١١٧ وقال: رجال أحمد رجال الصحيح؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٠٣٣)، وصحيح الجامع (٣٣٧٥)، وغاية المرام (١٧٢).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط: ١/ ١٤٣؛ وصحَّحه الألباني بطرقه في الصحيحة (١٨٧١)، وصحيح الجامع (٣٥٣٧).

وولغ في مَبَاءته وسقط في مستنقعه؛ فليستعدّ لحرب الله ورسوله، ومن يقدر على هـذا؟! لقد خاب وخسر وتعس وانتكس وضلَّ سعيُه وخاب عملُه!.

والحرب التي أعلنها الله على آكلي الربا مُطْلَقة بشتى ألوانها: في المال، والولد، والرزق، والصحة، والسعادة، والزوجة، والتوفيق والسداد، والولوج في المعصية، والختم على القلب، وارتفاع الأسعار، والربح والخسارة، والبركة، وجور السلطان، وانتقاص الأنفس والثمرات، وغزو العدو للبلاد، والقحط والجَدْب، وعقوق الأولاد، وسوء الخاتمة.. إنها حرب مفتوحة لا حدود لها ولا انتهاء، إلا بتركِ هـذه الموبقة الكبرى.. ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ثم لفظاعةِ هـذه الجريمة قَرَنَها النبي ﷺ بالشِّرك بالله والسحر، ولَعَنَ آكلَ الربا، وتوعَّده بعذاب الله وعقابه الأليم، وأنَّ درهماً من هـذا الكسب الحرام أقبحُ من ستٍّ وثلاثين زَنْية، بل إن أيسرَ باب من أبواب الربا كمن يَنكح أمَّه!.. فأيُّ امرئ فيه ذَرَّة من دين أو مَسْكة من عقل أو بَقيَّة من حياء أو قليل من الخوف من الله؛ يرضى بكل هـذه القوارع فيستسهلها ثم يمشي سادراً في غَيِّه لا يَلوي على شيء، ويَسبح في بحر الربا المتلاطم، ليلاقي في جملة ما يُعذَّب به ذلك الوَعيدَ النبويَّ الذي جاء في حديث طويل لرؤيا النبي ﷺ، ورؤياه ﷺ حق:

قال ﷺ: «**فانْطَلَقنا فأتينا على نَهْرٍ أحمرَ مثلِ الدَّمِ، وإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يَسْبَحُ، وإذا على شَطِّ النهر رجلٌ قد جمع عنده حجارةً كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يَسْبَحُ ما يَسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فَيَفْغَر له فاه فَيُلْقِمُهُ حَجراً، فينطلِقُ يَسبح ثم يَرجِع إليه، كلَّما رجع إليه فَغَرَ له فاه فألْقَمه حجراً!**»... وجاء تفسير هـذا في آخر الحديث: «**وأمَّا الرجلُ الذي أتيتَ عليه يَسبح في النهر ويُلْقَم الحجرُ فإنه آكلُ الرِّبا**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧)، وغيره، وقد ذكرت طرفاً آخر منه مع تخريجه في صدر النبوءة (١١٨): ٤/ ١١١. **يفغر له فاه**: أي يفتحه.

ثانياً: تحقق النبوءة:

١ ـ الزنى:

تقدَّم بعضُ الكلام عن (استباحة الزنى)[1] من قبل أقوام في هـذه الأمة، ونشير هنا إلى نوع آخر في النبوءة وهو قول النبي ﷺ: «**يَظهر الزنى**» و«**يَفشو الزنى**».

واللفظان يفيدان الانتشار والشيوع والكثرة والظهور والاستعلان والاستعلاء، وكأنَّ مقترفي هـذه الفاحشة يستعلنون بمواقعتها، ويتفاخرون بارتكابها، ويعلو صوتهم بمقارفتها، ويُروَّج لفعلهم الأثيم، فتكون الكلمة والعلو والظهور لهـذه الكبيرة النكراء!.

وهـذا كله واقع ـ للأسف ـ في الأمة العربية والإسلامية، فانتشرت محلات البِغاء والدَّعَارة، واستعلَنَتْ واستعلَتْ، وعَرضت الإناث أعراضهنَّ في سوق النِّخَاسة في الفنادق والملاهي الليلية والشقق المفروشة والأماكن المخصصة للفاحشة، وغير ذلك.

وتشهد كثير من العواصم والمدن في البلاد العربية والإسلامية تفشِّياً مخيفاً لبائعات الهوى ومسوِّقات الأعراض.

واستُرخِصت الأعراض وانتُهك الشرف، وأصبح بمقدور العامل العادي أن ينال حظه من هـذه الفاحشة إذا أراد، ويُسِّرت لذلك السبل وأُزيلت العقبات، تحت عين الدولة وحراسة القانون، ولن يَجرؤ أحد أن يتناول هـذه الجريمة بالحديث في إذاعة أو تلفاز أو منبر أو أي وسيلة إعلامية، لأن هـذا (تدخّل في سياسة الدولة)، وهو (حرية شخصية)، فالمساجد مفتوحة لمن يشاء، وتلك الأماكن كذلك مفتوحة لمن يهوى!.

ولقد سمعنا عن ممارسات وأساليب غاية في الزِّرَاية والانحطاط، في عَرْض

---

(١) انظر: النبوءة (١٢٢).

البنات أنفسهن على الشباب بأبخس الأثمان، عبر الهاتف أو الرسائل النصية أو البريد الإلكتروني، بل حتى في الشوارع في ساعات الليل المتأخرة! أما في المواخير وصناديق الليل والفنادق فحدِّثْ ولا حَرَج!.. وثَمَّة أمرٌ خطير يشيع في بعض البيوت التي يتواجد فيها الخدم من الجنسين، فقد انتشرت فيها الفاحشة، وهو أمر قد سُدل عليه السِّتار!.

ومن دواعي تيسيرِ الزنى وظهورِه وفشوِّه واستعلائه؛ ما تفتَّقَتْ عنه عبقرية (الإنسان المتحضر!) من صناعة أساليب مَنْع الحمل التي يتعاطاها الرجل أو تتناولها الأنثى، حتى لا ينكشف الأمر، أو للاستمرار في هـذه الشهوة الحيوانية الحرام! زِدْ على ذلك (المنشّطات) و(المقوّيات) للجنسين، فقد ذكرت بعضُ الإحصائيات أن الوطن العربي يُنفِق (٩ مليارات دولار) سنويّاً على المنشّطات الجنسية، وذكرت الإحصائية أن شركة تصنيع (الفياجرا) تبيع (تسع حبات) فياجرا كل ثانية[١]!.

٢ ـ **الرِّبا:**

وظهورُ هـذه الكبيرة وانتشارها وشيوعها ظاهرٌ لكل ذي عينين، ولا يخفَى على أحد، لكننا نشير هنا إلى أمور:

●● لقد انتشر الربا في البلاد العربية والإسلامية، وعَمَّ بلاؤه السهلَ والجبلَ، ولم يَسْلم من آثامه إلا القليل، وقامت بنوك ربوية وشركات استثمار وتمويل وتأمين، وشُيِّدت لها مراكز وافتُتحت لها فروع في أطراف الأرض، تيسِّر هـذه التعاملات وتمهِّد السبل إليها، وعاونتها آلة الإعلام الضخمة للتشجيع عليها والاستفادة من عروضها وتسهيلاتها، فأقبل الناس عليها بشَرَهٍ عجيبٍ، المضطر إليها وغيره.

وقامت على القروض البنكية اقتصاديات البلاد، وشُيِّدت على الربا

(١) نقلاً عن: قناة (MBC)، الجمعة ٢٤/٢/٢٠٠٦م.. وذكرت تفصيلات عن بعض البلاد العربية.

المشاريع الكبرى والصغرى، العامة والخاصة، بدءاً من الدولة ورؤوسها الكبار، وانتهاء بالتجار والمقاولين وأصحاب رؤوس الأموال الصغيرة.. ووصل البلاء بالبعض أنه إذا أراد الزواج هُرِع إلى البنك ليأخذ قرضاً بالربا، يُستَردّ من مرتَّبه أو دخله بأقساط مريحة، وينفِق هو ذلك السُّحْت في تجهيز (الشقة) وشراء السيارة وربما نفقات ليلة الزفاف في الفندق ونحوه!.

فاستمرأ الناس هـذه الجريمة الكبرى، واختَلَقوا لها المعاذير، وسوَّغوا لها الأسباب.

•• ويزيد الأمرَ قبحاً وجراءةً على الله وعدمَ اكتراثٍ بتهديده وحربه لمن وقع في هـذه الكبيرة: أن اقتصاد البلاد قائم على الربا، وكبرى البنوك والشركات العملاقة الربوية محمية بالقانون، بل هي القانون، فأولو الأمر لهم النصيب الأوفر من رأسمالها، وقاموا على رؤوس الأشهاد يرابون رباً مجمعاً على تحريمه، وصَحِبوا جماعات من المتعاملين بالربا، وسلّطوهم على الأمة، فتحكموا بتجارتها وصناعتها، وأسواقها وبيعها وشرائها، وطعامها وشرابها!.

•• وفضلاً عن أهل الربا وحرَّاسِه وحُماتِه، فإن له أنصاراً كثيرين، من دعايات وإعلام بأصنافه المختلفة التي تصل إلى كل بيت، والأسوأ من ذلك وجود مُفتين مُفْتَئِتين على دين الله، فهم بدلَ أن يَفيئوا إلى أمر الله وينصحوا للأمة ويرشدوها ويبيِّنوا مخاطر الربا وآثامه، فإنهم مع أولئك الأنصار الكثيرين حاولوا أن يؤوِّلوا نصوصَ الكتاب والسنَّة، وأن يُحرِّفوا الكَلِم عن مواضعه[١].

•• وبالنظر إلى ما أوضحناه يستبينُ تحققُ قول النبي ﷺ: «**يظهر الربا**»، وقوله: «**لا يبقى فيه أحد إلا أكل الربا، فإن لم يأكْله أصابه من غُبارِه**».

أما آكلو الربا فأمرهم واضح ظاهر.

وأما الذين ينالهم بخارُه ويصيبهم من غبارِه، فأولئك المتورِّعون الذين

---

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص١٥٩.

اعتصموا بحبل الله، ونأَوا بأنفسهم عن تلك المُوبقة واحتاطوا لدينهم في تحري الحلال وتركِ الشبهات، لكن أصابهم شررٌ متطاير من الربا ولا إثم عليهم في ذلك لأنهم لم يطلبوه ولا قبِلوه.

ويمكن ضربُ الأمثال على هـذا بأولئك الذين يعيشون في بلاد عربية وإسلامية وغيرها، ولا توجد (بنوك ومؤسسات إسلامية) تُجري التعاملات المالية والاقتصادية التي لم يَعُدْ يستغني عنها أحد، فالمرء مضطر للتعامل معها بتحويل راتبه عليها، أو تحويل أموال عن طريقها، أو إجراء صفقات من البيوع والتجارات في الأسواق المحلية والعالمية يجري تصريفُ الأموال وتقلُّبها فيها عن طريق تلك البنوك الربوية، ونحو ذلك مما لا يخفى.

أو أنه يتعامل مع تجار ورجال أعمالٍ كلُّ أعمالهم وأموالهم أو جُلّها قائم على الربا، وإجراء المعاملات المالية يتم غالبها عن طريق البنوك الربوية.

أو أن البنوك الإسلامية التي يَستثمر الرجل فيها أمواله، لا بدَّ لها من التعامل مع المصارف الأخرى في حركة رؤوس الأموال، وكل ذلك مما يُصيبه غبار الربا.. أو أن الرجل يُجري (عقدَ تأمين السيارة) في شركات التأمين وهي ربوية، وأغلب الناس مضطر إلى هـذا، ووجود شركة تأمين إسلامية أندر من الغراب الأَعْصم! وأولئك العاملون في البنوك الربوية ولا يمارسون عقودَ الربا، كالخدم والحراس والمراسلين وفنِّيي الطباعة وخبراء الكمبيوتر.. وهؤلاء جميعاً يصيبهم غبار كثيف من غبار الربا.

بل إن المرتبات التي يتقاضاها عامة الناس تكون مستثمرةً أو مودَعةً في بنوك ربوية قبل أن تصل إلى أيدي أصحابها، وهم إن لم يكونوا معنيين بذلك بَيْدَ أن غبار الربا قد أصاب أموالَهم تلك.. والأمثلة في هـذا الباب كثيرة جدّاً.

●● ويجب أن نقرِّر حقيقةً، وهي (أن المسلمين كانوا وما زالوا يرون الربا من أخبثِ المعاصي، والضمير الديني عندنا ـ برغم ما أصابنا من هزائم ـ باقٍ على رفضه للربا قَلَّ أو كثُر.

لكن الموقف السلبي في عالم متحرك لا يجدي فتيلاً، وسيقع الناس في الحرام إن لم نيسِّر لهم الحلال، وندفعهم في طريقه دفعاً.

وقد كان حقّاً على المسلمين أن يقدِّموا المعاملات البديلة عن الربويات، ويقيموا لها مؤسسات شامخة، وأيّاً ما كان الأمر، فقد استفاقوا متأخرين، وبدأت مصارف إسلامية تعمل عملها هنا وهناك.

وبعض الناس يتصور أن التجربة سوف تولد عملاقة، وهذا خطأ، فبين النظرية والتطبيق مسافة لا يطويها إلا الزمن)[١].

نعم هناك في هذه (التجربة الجريئة الرائدة) هَنَات وثغرات وتعاملات فيها أخذٌ وردٌّ وترجيحٌ لهذا المذهب أو ذاك، وهذا أمر طبيعي في معترك التعاملات المالية العملاقة التي تطرح في كل يوم جديداً، بل كل معاملة ربما كان لها حالات وأوجه، فليس من السهل ـ إن لم نقل: ليس من الممكن ـ البتُّ في كل ذلك بقول واحد تُجمِع عليه كل الاجتهادات، فهذا لم يحدث في إطار المذاهب الفقهية على طول مسيرتها الزمنية، فينبغي على المتربِّصين والناقمين لأمور صغيرة أن يتقوا الله في حق هذه التجربة المالية الإسلامية الناشئة، وأن يدعموها حتى تنجح وترسخ وتؤتي ثمارها النظيفة وتتصدى (لإمبراطورية الربا) التي يقوم عليها اقتصاد العالم!.

ثالثاً: وقفة وعبرة:

١ ـ يجب على المسلم الابتعادُ عن الربا في شتى أشكاله، وسدُّ المنافذ عليه حتى لا يقتحم عليه بيته، وأن يحتاط في كسبه ومعاشه وما يُدخِله على أهله، كي تطيبَ لقمتُه ويهنأ عيشه وتَسْلَم له آخرته.

٢ ـ ينبغي عدم الاغترار بكثرة المال الربوي والانسياق وراء الإغراء في المكاسب وتعظيم الثروة من واردات الربا، فإن عاقبة ذلك إلى القلة والمَحْق،

---

(١) هموم داعية، ص٦٤.

كما قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**الرِّبا وإنْ كَثُر فإنَّ عاقبتَهُ تصيرُ إلى قُلٍّ**»(١).

٣ ـ كثرةُ المال وخيره ونفعُه في البركةِ فيه واكتسابه من وجوه الحلال وما أكثرها، والبركةُ لا تقف عند ظاهر العدد والكَمّ، بل بما يبارك الله في المال بحفظه وإنفاقه في وجوه الخير الكثيرة، والإنعام على صاحبه بالقناعة والرضا والعافية والسداد والتوفيق له ولمن يَعُول، وصرف عوارض الزمن وأنواع الشرور والبلاءات الكثيرة، وتيسير الأعمال والمعاش والرعاية، وغير ذلك مما يلمسه آكل الحلال ومتحرِّيه.. هذا فضلاً عن الأجر الجزيل في كل ما يُنْفِقه من مال على نفسه وأهله والمسلمين، وفي كل خطوة يخطوها وسعي يسعاه لاكتساب الحلال وتحريه.

٤ ـ الربا يُورِث الطمع وينمِّي الجشع ويُغذِّي الغريزة الحيوانية في انتهاب كل ما وصلت إليه الأيدي، ويولِّد في المجتمع البغضاء والأحقاد، ويورِّث الإحَن والعداوات، ويقطِّع الأواصر ويُوهي علاقات الحب والتآخي والمرحمة، حيث يقوم كل شيء في المجتمع والتعاملات على مفهوم الربح والخسارة وكسب المال والشَّرَه في الزيادة منه.

٥ ـ ينبغي تدريسُ الاقتصاد الإسلامي في المدارس والجامعات، والعنايةُ الجادة بالتجارب الإسلامية الرائدة في ميدان (البنوك الإسلامية) وروافدها. وكذلك تشجيع الكتابات الأصيلة في هذه الميادين من بحوث ومقالات ورسائل دكتوراه ومجلات اقتصادية ونحو ذلك، لإبراز الجانب المالي المشرق في الإسلام كبديل عن الربا.

٦ ـ الربا خطر على الأفراد والأسر والجماعات والأمم والدول، وما نشهده

---

(١) أخرجه الحاكم: ٢/٣٧، وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٤٢).

في عالمنا اليوم خير دليل على ذلك، وإن بدا في الظاهر خلاف ذلك باديَ الرأي، فالمستفيد الأول هو المؤسسات الكبرى والشركات العملاقة وأرباب المال، في حين ترزَحُ كثير من الدول والشعوب تحت وطأة الربا الذي يسمونه (الفوائد)، وكم من الدول ركَعَتْ أمام سطوة (الدول القارضة)، فأدى ذلك إلى إذلالها والتحكُّم في اقتصادها ولقمة عيش أهلها، وهو ضَرْبٌ من الاستعمار الخبيث غير المباشر لها، واستنزاف خيراتها، وتبعيتها، وإبقاء شعوبها تحت خط الفقر.

٧ ـ المرابي في حالة حرب مع الله ورسوله، وذلك له أشكال وألوان وحالات، تتجلَّى بمحق البركة، والابتلاء بالمرض وفقدِ الأحباب، والشَّرَه في جمع المال مما يصرفه عن القيام بالفرائض وأداء الواجبات، وعدم الراحة النفسية، والقلق الذي لا يتوقف في الليل والنهار لملاحقة الحسابات والتأكد من الربح والخسارة في الصفقات، وانتزاع الرحمة والرقة من القلوب التي غشَّاها حبُّ المال.. هذا فضلاً عن السُّحْت الذي يُدخِله في جوفه، والإثم الذي يطارده في مسعاه لاقتناص الحرام، مع ما ينتظره من العقاب الأليم يوم يلقى ربه، ولا بدَّ أنه لاقِيه!.

فأي سعادة بل أية (فائدة) في الحرص على هذه الموبقة التي تُدخل صاحبَها في غضب الله وتقودُه إلى ساحة الحرب معه تعالى؟!.



[illegible]

إخبار النبي ﷺ بخمس خصال تبتلى بهنَّ الأمة الإسلامية

١ ـ عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما، قال: أقبلَ علينا رسول الله ﷺ فقال: **«يا معشرَ المُهاجرين، خَمسُ خِصَالٍ إذا ابتُليتُم بهنَّ وأعوذُ باللهِ أن تُدْرِكُوهُنَّ:**

ـ لم تظهرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ، حتى يُعْلِنُوا بها، إلا فَشَا فيهمُ الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تكنْ مَضَتْ في أسلافِهم الذين مَضَوْا.

ـ ولم ينقصوا المكيال والميزانَ، إلا أُخذُوا بالسنين وشدَّة المَؤُونةِ وجَوْرِ السلطانِ عليهم.

ـ ولم يَمنعوا زكاةَ أموالِهم، إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السماءِ، ولولا البهائمُ لم يُمْطَروا.

ـ ولم يَنقُضُوا عهدَ الله وعهدَ رسولهِ، إلا سلَّطَ الله عليهم عَدوّاً من غيرِهم، فأَخَذُوا بعضَ ما في أيدِيهم.

ـ وما لم تَحْكُمْ أئمَّتُهم بكتَابِ اللهِ، ويَتَخَيَّروا ممَّا أنزَلَ الله، إلا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُم بَيْنَهم»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)؛ وابن إسحاق في السيرة النبوية: ٢/ ٦٣١؛ والطبراني في الأوسط: ١/ ٢٨٧؛ وفي مسند الشاميين، ص٣١٠ ـ ٣١١؛ وأبو نعيم في الحلية: ٨/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤؛ والحاكم: ٤/ ٥٤٠؛ والداني (٣٢٧)؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ٥/ ٢٢ رقم (٣٠٤٢) و(٣٠٤٣)؛ والبزار؛ والروياني في مسنده؛ وابن أبي الدنيا في العقوبات، وهذا لفظ ابن ماجه، وكلمة «**خصال**» زيادة من الحلية وشعب الإيمان. والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في الصحيحة (١٠٦) وقال في إسناد الحاكم: حسن الإسناد، وصحَّحه في صحيح الجامع (٧٩٧٨) لطرقه وشواهده.

٢ ـ وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خمسٌ بخمسٍ**» قيلَ: يا رسولَ الله! وما خمسٌ بخمسٍ؟ قال: «**ما نَقَضَ قومٌ العهدَ، إلا سُلِّط عليهم عدوُّهُم. وما حَكَموا بغيرِ ما أنزل الله، إلا فَشَا فيهم الفقرُ. ولا ظَهَرتْ فيهم الفاحشةُ، إلا فَشَا فيهم الموتُ. ولا طَفَّفُوا المِكْيالَ إلا مُنِعُوا النباتَ وأُخِذُوا بالسِّنِينَ. ولا مَنَعُوا الزكاةَ، إلا حُبِسَ عنهم القَطْرُ**»[1].

۞ ۞ ۞

● تحقق النبوءات وظهور مصداقها:

●● تضمن هـذان الحديثان الجليلان خمسَ نبوءات عظيمة خطيرة مخيفة، قد تحقق بعضها منذ زمن بعيد وبصورة محدودة وعلى نطاق ضيِّق بين المسلمين في دولهم المتعاقبة، لكنها تحققت كلها في أجلى صورها وأفظعِ أشكالها واستحكَم تحققُها منذ عقود وإلى أيامنا هـذه.

ثم إن النبوءة الواحدة ذات شِقَّيْن:

الأول: يَذكر النقصَ الذي يدخل على الأمة الإسلامية، والمعصيةَ التي تظهر فيها، والإثمَ الذي ينتشر في ربوعها.

والثاني: يبيِّن العقوبةَ الإلـٰهية والجزاءَ العادل الذي ينزِل بالأمة ليكبح جماحها، ويُكفكِف من غُلَوائها ويردَّها إلى سبيلها وهدي نبيِّها.

فكأن النبوءة الواحدة في هـذا نبوءتان.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٩٩٢)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب: ١/ ٥٤٤، وقال: سنده قريب من الحسن وله شواهد؛ وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٤٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (٧٦٣).
وفي الباب أحاديث أخرى، انظر: الفتح: ١٣/ ٩٧، شرح الحديث (٥٧٣٤)؛ والصحيحة (١٠٧).

●● وقد جاء في صدر الحديث قوله ﷺ: «**يا معشرَ المهاجرين! خمسٌ إذا ابتُليتُم بهنَّ، وأعوذُ بالله أن تُدرِكوهنَّ**».

ورسول الله ﷺ يخاطب أصحابه المهاجرين، كما بيَّنت بعض الروايات أن عبد الله بن عمر كان عاشِرَ عشرةِ رهْط من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجده، فعَدَّهم، وذَكَرَ منهم (أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي بن أبي طالب، . . .)[1].

والمقصود في الخِطاب والتوجيه الأمة كلها، نُصحاً لها، وتحذيراً من مَغَبَّة فعل هـذه الكبائر ومواقعتها.

ـ وقوله ﷺ: «**خمسٌ**»: أي: خمسُ خِصال، وقد جاء مصرَّحاً به في رواية البيهقي في «شعب الإيمان»، وأبي نعيم في «الحلية»، وابن إسحاق في «السيرة».

ـ قوله: «**ابتُليتم**»: أي: امتُحِنْتم واختُبرتم ووقعتْ منكم هـذه المعاصي. والابتلاءُ يكون في الخير والشر معاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، والجزاء محذوف، وتقديره: خمسُ معاصٍ إذا فعلتموها وظهرت فيكم؛ حَلَّ بكم من أنواع العذاب الذي يُذكر بعده.

ومثله في الحديث الآخر: «**خمسٌ بخمسٍ**»: أي: خمسُ معاصٍ تقع منكم بخمسِ عقوبات تحلُّ بكم.

قوله: «**أعوذ بالله أن تُدرِكوهنَّ**»: أي: ألجأ إلى الله وأستجير به وأسأله أن يقيكم شرَّها، ويُنجيكم من مَغَبَّتِها

وهـذا من تمام شفقته ﷺ على أصحابه، وبرِّه بهم، ورحمتِه لهم، وهمُ الذين آمنوا به وعزَّروه ونَصَروه وحملوا الراية معه ونشروا الدين بعده.

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن إسحاق: ٢/ ٦٣١؛ الحلية: ٨/ ٣٣٣؛ المستدرك: ٤/ ٤٥٠، مجمع الزوائد: ٥/ ١٢٠.

وقد حقق الله رجاءه وأعاذ المهاجرين من تلك الموبقات، فمَضَوا إلى الله سبحانه على أحسن حال.

ولنتناول هـذه النبوءات واحدة تلو الأخرى بشيء من البيان.

★ ★ ★

١٢٥ ـ النبوءة الأولى

«لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ، حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مَضَت في أسلافهم الذين مَضَوا».

وفي الحديث الآخر: «ولا ظهرت فيهم الفاحشة، إلا فشا فيهم الموت».

ـ قوله ﷺ: **«لم تظهر الفاحشة»**: الفُحْش: هو كل ما يشتدّ قُبْحه من الذنوب والمعاصي، وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنى، وكل خَصْلة قبيحة فهي فاحشة، من الأقوال والأفعال(١).

والمراد بها هنا (الزنى) وأضرابه من اللِّواط والسحاق وإتيان المرأة في الدُّبر، وكلها محرّمات وفواحش نهى الإسلام عنها أشدَّ النهي، وقد سبق بيان ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ويؤيّده قوله ﷺ: **«إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع»**، وهـذه الأمراض تظهر بارتكاب فاحشة الزنى وأشباهها، لا بغيرها من الكبائر والمعاصي.

ـ قوله: **«تظهر» و«يُعلنوا بها»**: أي: تكثر وتنتشر وتفشو وتعلو، ويَستعلن مرتكبوها بها، ويُجاهرون بلا خوف من الله، ولا حياء من الناس، ولا خشية من إيقاع عقوبة أو سطوة قانون أو ملامِ مجتمع!.

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤١٥.

إنهم كالأنعام السائبة ترتَعُ في الشهوات الحرام، وتَفْجر في العَلَن، فلا قلب حي يَكبح، ولا ضمير يقِظٌ يؤنِّب، ولا سلطان يرهب ويعاقب.

●● وقد ظهر الزنى وأضرابُه كاللواط في عصرنا هـذا، واستعلَنَ واستعلى، وعمَّ بلاؤه، وانتشرت هـذه الفاحشة في العواصم والمدن العربية والإسلامية، وأُقيمت لها بيوتات البِغاءِ، ولا يستطيع أحد أن يمسَّها بما يَسوؤها! وأصبحت لها أماكن مشهورة، ومناطق معلومة، من يَقصدها أو يسير في منعرجاتها تحوم حوله الشبهة!.

وظهر أناس يستحلُّون هـذه الفواحش، ولا يرون معرَّة في اقترافها، وشاع الحديث عنها بين أبنائها الذين يَغْشَون مواخيرَها.

وانساقت المجتمعات الإسلامية وراء ما يسمّى (بالعالم الحر)، حيث تشيع نظرة معينة إلى الخطيئة، وأنها نداء الطبيعة الذي لا بد منه، بل إن المصارحة بهـذه الخطايا لا يجوز استغرابها ولا اعتراضها! فتعالتْ صيحات التحلل وطال إلْفُها واستطال أصحابها، وقام مجتمع يألَفُ شُرب الخمر، واختلاطَ اللحوم بين الجنسين، ومقارفة الزنى، مع قانون جاهلي يُقِرُّ هـذه الفوضى إقراراً مطلَقاً!.

ومنذ عقود وأمتنا قد ابتُليت بنابتة خبيثة تريد نقلَ (قيم أوروبة وأمريكة) إلى مدننا وقُرانا وأحيائنا وبيوتنا!.

(إن الإجماعَ انعقدَ على أن أوروبة وأمريكة فرغتا من دفنِ مبدأ تقديس العِرْض، ومنحتا الرجالَ والنساء حرية الجسد، وانكمشت حرمةُ الزنى، واستُبيحت مقدماته، وأصبح العري والتبرج والاستمتاع شيئاً ميسوراً)[١].

ويريد جماعة من المخنَّثين والدَّيُّوثين من بني جِلْدتنا أن تنساق مجتمعاتنا وراء ذاك العَبث والخَبث، حيث نرى الجراءة في إعلان الفسوق والحضِّ عليه، ودفع العامة والخاصة إليه، وتفشي قيم الجاهلية الحديثة في الطرقات، بظهور

(١) معركة المصحف، ص٢٤١.

التهتك وإبراز العورات وكل مقدمات استفراز الغرائز الهاجعة كي تعربد وتواقع الفواحش.

لقد أصبحت الفتنة تمشي في الشوارع عاريةَ السيقان والصدر والظَّهر، وعُرضت صور النساء على أوضاع يندى لها الجبين عند من بقي في ضمائرهم حياء وإيمان، وكلها مقدمات مؤجِّجة للانسياق بعنف في طريق الفاحشة الكبرى (الزنى).

●● وسعى في هذا السبيل ما يُسمَّى بأصحاب الأدب المفضوح وأدب الفِراش والكتابات الدَّنِسة والأقلام الرقيعة، يَنفُثون سمومهم وينشرون مباذلهم ويروِّجون للمفاتن والمفاسد في الليل والنهار، عبر كلِّ ألوان الإعلان والإعلام، فيما يُلهب الشهوات ويزيدها وهجاً ويملؤها ضِراماً.

وثَمّةَ صنفٌ آخر يعمل على نشر قصص مبتذَلة تقوم على الترويج للخيانة الزوجية والدفاع عنها لإفساد المجتمع وبذر بذور التحلل والإباحية بين الأُسر.

وهذه امرأة أخرى من حَمَلة شهادة الدكتوراه، ومن الذين يحبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، تقدِّم على إحدى القنوات الفضائية الشهيرة برنامج (بنات الليل)، تغرِّر فيه ببنات المسلمين لقاءَ مالٍ زهيد، فيحكين (تجارب الهوى والفاحشة) الواقعة والمُلَفَّقة، لنشر الفاحشة وترويجها.

وكل هذا الفسوق والفحش والتفاحش من العوامل الخطيرة التي تروِّج لفاحشة الزنى، وتؤزُّ الجماهيرَ التائهة أَزّاً للوقوع في أَتُونها!.

●● وهناك في بعض البلاد العربية ما يُعرف باسم (الجنس الثالث)، وقد رأينا بعضَ أفراده، شباباً طريّاً يتشبَّه بالإناث في إزالة الشعر من الوجه، ونَمْصِ الحاجبين، ووضع الأحمر والأصفر (الماكياج)، وإطالة شعر الرأس وربطه بمثل ما تربط الأنثى به شعرها، ويضع على صدره مثلَ ما تضعه الأنثى فوق ثدييها، ويلبس ملابس النساء، ويشهد حفلات الأعراس معهن ويرقص بينهن، وأصدقاؤه من الذكور يتبادلون صوره وأعماله على هواتفهم المتحركة...

●● والقرآن العظيم تهدِّد هؤلاء جميعاً بالعقوبة الرادعة والعذاب الأليم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

كما أوجب عقوبة شديدة على مرتكبي هذه الفاحشة وهي الجلد أو الرجم، لخطر هذه الجريمة وشؤمها على المجتمع، بل قال ﷻ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، في حين أن الله ﷻ أوصى وليّ المقتول أن يعفو عن القاتل ويأخذ الدِّيَة، لأن العدوانَ على النفس البشرية بالقتل يقع بالنُّدْرَة في المجتمع، أما الفاحشة فينتشر إثمها ومخاطرها كالنار في الهشيم.

● **تحقق وقوع العقوبة بسبب انتشار الفاحشة:**

●● وبغيابِ سلطان الشريعة، وقيامِ القانون الوضعي بحراسة الفاحشة، يتوجب على المسلمين إنكارُ المنكر وتغييره كلٌّ حسب طاقته باليد أو اللسان أو القلب، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خَرْدل! فإذا انتشرت هذه الموبقة واستعلنت حَلَّ العذاب بالأمة.

عن جرير بن عبد الله البَجَليِّ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِن قومٍ يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي، هم أكثَرُ وأعزُّ ممَّن يَعملُ بها، ثم لا يغيِّرونه، إلا يُوشِكُ أن يَعُمَّهم الله بعقابٍ**»[1].

وعن أم المؤمنين ميمونة ﷺ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تزالُ أمتي بخيرٍ ما لم يفشُ فيهم ولدُ الزنى، فإذا فَشَا فيهم ولدُ الزنى فيوشِك أن يَعُمَّهم الله ﷻ بعقابٍ**»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٩)؛ وابن ماجه (٤٠٠٩)؛ وعبد الرزاق (٢٠٧٢٣)؛ وأحمد: ٤/ ٣٦٤، ٣٦٦؛ والطحاوي في شرح المشكل (١١٧٤)؛ وابن حبان (٣٠٠) و(٣٠٢)، وغيرهم، وحسَّنه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة (٣٣٥٣)، وصحيح أبي داود، وابن ماجه.

(٢) أخرجه أحمد: ٦/ ٣٣٣؛ وأبو يعلى (٧٠٩١)، والطبراني في الكبير ٢٤/ ٥٥، وقال

وهذا العقاب هو ما بينَتْه أحاديث هذه النبوءة: **«إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»**، **«إلا فشا فيهم الموت»**.

وفي حديث بُرَيْدة بن الحُصَيْب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ولا ظَهرتِ الفاحشة في قوم قطُّ، إلا سلَّط الله عليهم الموت»**(١).

●● والطَّاعون داءٌ وبائيّ فتَّاك سببه (ميكروب) يصيب الفئرانَ وينتقل إلى الإنسان عن طريق عضّ الحشرات وأهمها البراغيث.

ويُطلَق (الطاعون) على المرض العام والوباء الذي يجتاح الكثير من البشر لعموم مُصَابه وسرعة فَتْكِه.

ـ **«الأوجاع التي لم تكن مَضَت في أسلافهم»**: أي الأوبئة التي لم تعرفها الأجيال السابقة، ولا ظهرت فيهم، ولم يُبتلوا بها.

ـ **«الموت»**: عبَّر هنا بالموت للدلالة على ما تَؤُول إليه تلك الأمراض عندما تجتاح البشر، فتؤدي بهم إلى هلاكهم وموتهم.

●● وقد تحقق ما أخبر به النبي ﷺ، ونزلت العقوبة الربانية على أولئك الذين تعدَّوا على حدود الله تعالى، وانتهكوا المحرمات، و فعلوا الفواحش، وارتكبوا الموبقات، فحلَّت بهم نقمة الله، واجتاحَتْهم الأمراض العُضال والأوبئة الفتاكة والأوجاع المبرحة، التي انتهت بهم إلى الفضيحة في الدنيا ثم الهلاك في النهاية، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

= الهيثمي في (المجمع: ٦/ ٢٥٧): الحديث صحيح أو حسن، وذكره الحافظ في الفتح: ١٣/ ٩٧ (٥٧٣٤) وقال: سنده حسن، لكنه ذكر (عائشة) بدل (ميمونة)، وهو سهو.

(١) أخرجه البزار (٣٢٩٩)؛ والبيهقي في السنن: ٣/ ٣٤٦؛ والحاكم: ٢/ ١٢٦، وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وذكره الحافظ في الفتح: ١٣/ ٩٧، وقال: سنده جيد؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٠٧).

وانتشرت في بلادنا الأمراض الجنسية المُعْدِية الخطيرة، مثل: (الزهري) و(السيلان) و(القوباء التناسلية) و(الإيدز) طاعون العصر.

وقد صدر تقرير عن (اليونيسيف) وفيه أن (١٥) مليون طفل في إفريقية جنوب الصحراء سيفقدون أحدَ الوالدين بسبب الإصابة بمرض الإيدز[١].

وفي دراسة وتحقيق أذاعته قناة الجزيرة ذكرتْ أن عددَ المصابين بهذا الوباء وصل إلى (٣٢) مليون شخص، ويموت كل يوم (٥٠٠٠) شخص بسببه على مستوى العالم[٢]!.

ونَصيبُ البلاد العربية والإسلامية من هذا المرض ليس باليسير، لكن القائمين على الأمر يجعلونه طيَّ الكتمان!.

والمتتبع للأحداث يرى (الغزو الجنسي) يكتسح ديارنا لإشاعة الفاحشة وتدمير الأخلاق ونشر الأمراض.

هذا فضلاً عن الأمراض الأخرى الكثيرة التي ابتُلي بها الناس عقاباً ربانيّاً لارتكابهم الفواحش، ولم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ومنها: سارس، والجمرة الخبيثة، وأنفلونزا الطيور، والسرطان بأنواعه الكثيرة، وأمراض القلب، والرئة، والكبد، والفشل الكلوي، والجلطة الدماغية، والسكتة القلبية، والأمراض العصبية، والنفسية... والبقية تأتي، وما ربك بظلّام للعبيد.



١٢٦ ـ النبوءة الثانية

«ولم يَنقصوا المكيال والميزان، إلا أُخذوا بالسِّنِين وشدة المؤونة، وجَوْر السلطان عليهم».

---

(١) نقلاً عن قناة الجزيرة، بتاريخ ١٥/٨/٢٠٠٦م.

(٢) بتاريخ ٣/٨/٢٠٠٨م.

وفي الحديث الآخر: «**ولا طَفَّفوا المكيال، إلا مُنعوا النبات وأُخذوا بالسنين**».

●● إقامة الميزان والعدلُ فيه والوزنُ بالقِسطاس المستقيم، وحفظُ أموال الناس والتنزه عن أكلها بالباطل، وعدمُ بَخْسهم حقوقهم وأشياءهم؛ كلها أمور جليلة عظيمة حفظها الإسلام ورَفَع من شأنها وأمر الناس برعايتها وصيانتها، وتهدَّد المفرِّطين فيها أو المتلاعبين بها.

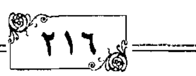
وقد نزلت في القرآن الحكيم سورة كاملة لترسيخ ذلك هي (سورة المطففين)، كما قصَّ الله سبحانه علينا مواقفَ عديدة للرسل مع أممهم في تأكيد هذه الفريضة المحكمة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: البَخْس: النقص، وهو يكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيُّد في الكيل والنقصان منه، وكل ذلك من أكلِ المال بالباطل، وذلك منهيٌّ عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم[(١)].

بل إن الله تباركَتْ أسماؤه قَرَنَ بين بناء السماء ورفْعِها وبين الميزان، فقال في صدر سورة الرحمن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]، فبالقِسْط والعدل قامت السموات والأرض، وكذلك الأمر يوم القيامة كل شيء فيه بالعدل:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٢٢.



﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهكذا فعلى الناس أن يُقيموا الوزنَ بالقسط فيما بينهم، ولا يظلم أحد أحداً، فلا بَخْس ولا تطفيف، ولا حَيْف ولا نقصان، ولا تلاعب ولا أكل لأموال الناس بالباطل، ومن يفعل ذلك عُوقب في الدنيا، وأُخذ منه ما اختَلَسه من حرام يوم القيامة ولو كان مثقالَ حبة من خَرْدَل!.

وأكَّد القرآن جلالة هذه الشَّعيرة وخطورتها فقرنها بالإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

واعتبر الإسلام العدلَ في الوزن والقسطَ في الكيل وإيفاءَ الناس حقوقهم والإتمام لهم فيها؛ حقّاً واجباً وفرضاً قائماً، والقيامَ بذلك على وجهه علامةَ خير وصلاح وفلاح ونجاح، وكسباً حلالاً طيباً مباركاً فيه.

وبالمقابل فإن الطغيانَ في الوزن والتطفيفَ في الكيل وبَخْسَ الناس أشياءهم ونقصانهم حقوقهم؛ هو سُحْتٌ وأكلٌ لأموالهم بالباطل، وعلامةُ خسران وخسار وبوار وفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

فالخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض[١].

ولذلك توعَّد الله سبحانه من يرتكب هذه الموبقة بالعذاب الأليم، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٩/ ٧٤.

و ﴿وَيْلٌ﴾: أي شدة عذاب في الآخرة، وقال ابن عباس: إنه وادٍ في جهنم يَسيل فيه صديد أهل النار.

والتطفيف: نقصُ المكيال؛ وهو أن لا يملأه إلى جوانبه. **والمُطفِّف**: هو الذي يُخْسِر في الكيل والوزن ولا يوفيهما.

فهؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل إذا اكتالوا من الناس أو وزنوا منهم استوفوا عليهم تماماً، وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم فهم يُخْسِرون في المكيال ويطفِّفون في الميزان ويَنقصون فيهما[(١)].

ولقد شَنَّع القرآن عليهم فعلَهم الآثم هذا، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤]، وفيه إنكار وتعجيب عظيم من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخْطِرون التطفيفَ ببالهم، ولا يُخَمِّنون تخميناً ﴿أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ فمسؤولون عما يفعلون! والظنُّ هنا بمعنى اليقين، أي: ألا يُوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن[(٢)].

●● ونقصان المكيال والميزان لا يتوقف عند الصور المبسّطة الساذجة، من التلاعب بالصنجات ونحوها من الأوزان وأنواع الموازين، أو المكاييل التي تختلف بالأحجام قليلاً أو كثيراً، أو المقاييس التي تزيد أو تنقص بضعة سنتيمترات، إنما هذا مثل لحالة كانت سائدة في المجتمعات قديماً ولا تزال إلى الآن في بعض البلدان.

لكن المراد من الحديث في (نقصان المكيال والميزان) هو كل ما ينتظم تعاملات الناس المادية في البيوع والتجارات، ووجوب أخذ الحق وأدائه بالعدل والقسطاس المستقيم، ضمن قيود وضوابط تحفظ حقوق الجميع سواء منهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٩/٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) المرجع السابق: ١٩/٢٢٢.

العباقرة أو المغفّلين، لا وكس ولا شطط، ولا بخس ولا نقص، ولا غش ولا خداع، ولا تلاعب ولا تغرير.

ومن أمثلة وصور وأصناف نقصان المكيال والميزان وأكل أموال الناس بالباطل:

١ ـ الكذب والكتمان للعيوب في البيع والشراء.

والنَّجْش، وهو الزيادة في ثمن السلعة ممَّن لا يريد شراءَها، ليقعَ غيرُه فيها! وهو نوع من الخداع والتغرير[١].

٢ ـ ادِّعاءُ البائع أنه اشترى سلعة أو أرضاً، أو نحو ذلك، بأكثر مما اشتراها، ليغرَّ المشتري وينفِّقها[٢].

٣ ـ بيعُ المُحَفَّلَة، وهي الشاة أو البقرة أو الناقة لا يَحْلُبُها صاحبها أياماً حتى يَجتمِع لَبَنُها في ضَرْعِها، فإذا احتَلَبها المشتري حَسِبها غزيرة، فزادَ في ثمنِها، ثم يَظهرُ له بعد ذلك نقصُ لبنِها عن أيام تَحْفِيلها.

سُمِّيت مُحفَّلةً لأن اللَّبَنَ حُفِّل في ضَرْعها: أي جُمِع[٣].

٤ ـ ومثله الذي يضع السُّكّر في غذاء النحل.

والذي يضع الملح في عَلَف الأنعام لتشربَ كثيراً فيزداد وزنُها، فيدفع المشتري ثمن الماء مثل ثمن اللحم!.

٥ ـ إيهام صاحب البضائع والسِّلع أن أسعارها بَخْسة وسوقها كاسدة، فيشتريها بأقل من ثمنها، وهذا فيه غَبْن وخداع.

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢١؛ الفتح: ٦/ ١٧٦، شرح الحديث (٢١٤٢).
(٢) الفتح: ٦/ ١٧٦.
(٣) النهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

٦ ـ بيعُ صاحب الذهبِ الذهبَ على أنه عيار (٢٢) مثلاً، وهو في حقيقته عيار (٢١).

وقُل مثل ذلك في التلاعب بأصناف المجوهرات المختلفة في أثمانها وجودتها وصناعتها.

٧ ـ وضع علامات تجارية عالمية شهيرة على البضائع وهي ليست كذلك، لأخذ الأثمان المرتفعة وهي لا تستحقها.

٨ ـ بيع عَقَار أو بناءٍ أو نحوه لإنسان لا يَعرف بواطن الأمور، في حين أن البائع يعلم أن هذا العقار سيَؤُول للتقسيم وذلك البناء سيُهدم في وقت قريب، بناءً على مخططات البلدية.

٩ ـ التلاعب بمواصفات السلع والبضائع؛ حيث إن المشتري يدفع الثمن لمواصفات عالية، فيخدعه البائع فيها.

١٠ ـ ما يقوم به المقاوِلون والمهندسون من غشٍّ منظَّم لأصحاب الأبنية التجارية والسكنية، حيث يكون الشرط على وضْع كميات معلومة من الإسمنت والحديد مثلاً، ثم تجهيز البناء بالألمنيوم والخشب والزجاج والأصباغ والتمديدات الصحية والكهربائيات ونحوها، بمواصفات ممتازة، فيتمُّ الخداع في ذلك والتلاعب فيه.

إلى غير ذلك ممَّا يعرفه كثير من الناس، والأمثلة في هذا لا تنتهي، وما ذكرناه نماذج لتوضيح معنى الحديث وتوسيع دائرته وشمول أحكامه، ليعلمها الناس وينتفعوا بها، حتى لا يقعوا في الحرام.

- **تحقق وقوع العقوبة التي أخبر عنها الحديث:**

إن ما أخبر به رسول الله ﷺ من ارتكابِ كثيرٍ من الناس هذه الكبيرة، ووقوعهم في مآثم نقصان المكيال والميزان، وأكلِهم بذلك أموالَ الناس بغير حق ـ قد تحقق مصداقُه في زماننا كما يتجلى ذلك بوضوح.

وكذلك حاقَ بالأمة العقابُ الأليم الذي يترتَّب على ارتكاب تلك المعصية، فأُخِذ الناس بالسِّنِين وشدَّة المَؤونة وجَوْرِ السلطان.

«**والسُّنون**»: جمع السَّنَة وهي الجَدْب والقَحْط[١].

«**والمَؤُونة**»: القوت، والتعب والشدة[٢].

«**وجَوْر السلطان**»: حَيْفُه وظُلمه.

فقد مرت على بلاد العرب والمسلمين سنوات مُمحِلات قاحلات، وأعوامٌ من القحط والجَدْب وشحِّ الغيث وقلَّة المياه، واتسع نطاق الضَّنْك في المعيشة وظَلَافةُ الحياة وخشونة المعاش، وأصبح الماء غَوْراً، والمطر نزراً، ويبست الأشجار وماتت النباتات، وزحفت الصحراء، وضاقت على الناس حياتهم، وضاقت بهم بلادهم، وهم متذرِّعون بالصبر على اللأواء والأمل في تفريج الكروب.

أمَّا جَوْر السلطان فحدِّث ولا حَرَج، فلقد عمَّ الخطب واشتدَّ الزمان، واكتوى بنار الظلم الصالح والطالح، والكبير والصغير، والسهل والجبل... وقد مرَّ في كتابنا هذا تبيان الكثير من ذلك.

ولقد وقع العدل الإلٰهي على الأمة، ونزلت بها السُّنَن التي لا تحابي أحداً حاد عن منهج الله تعالى.

فتأمَّل المعاصي وتدبَّر العقوبات، لتجد أن الناس فعلوا ثلاثَ معاصٍ فعُوقبوا بثلاث عقوبات من جنسها:

١ ـ نقصوا المكيال والميزان، فابتُلوا بالقحط والجدب، وهما نقص.

٢ ـ وظَلموا الناسَ وأكلوا أموالهم بالباطل، فأُخذوا بجَوْر السلطان.

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤١٣.
(٢) لسان العرب: ١٣/ ٣٩٦.

٣ ـ وكانت غايتهم من نقصان المكيال والميزان الزيادةَ في الكسب والمال، فعُوقبوا بقلَّة المؤونة وشَظَف الحياة.

والجزاء من جنس العمل!.

★ ★ ★

١٢٧ ـ النبوءة الثالثة

«ولم يَمنعوا زكاة أموالهم، إلا مُنِعوا القَطْر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا».

وفي الحديث الآخر: **«ولا مَنَعوا الزكاة، إلا حُبِس عنهم القَطْر»**.

●● الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق، ويضيع على الشح والإمساك، ولذلك حبَّب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية، وأكفُّهم ندِيَّة، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم لا يَنفكُّون عنه في صباح أو مساء: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وفرضَ في أموال الأغنياء حقّاً معلوماً للفقراء وغيرهم، وعدَّه أحدَ أركان الإسلام الكبرى، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٥]، وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

ودعوةُ الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطَّردة، وحربُه على الكَزازة والبخل موصولة متَّقِدة.. وعملَ باستمرار على مقاومة نزعات البخل الخسيسة، وقاومَ دسائسها، وبيَّن أن الفوز بخيري الدنيا والآخرة لا يُحرزه إلا من نجح في قمع دوافع البخل في نفسه، حتى عوَّدَها البذل والسخاء: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ

﴿وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

●● والزكاة هي رأسُ النفقات وأفضلُ البذل وأوجبُه، وهي الإنفاق الذي فرضه الله تعالى، وما وراءها فهو صدقة وزيادة في البر، وهي تزكي المال وتنميه وتباركه وتحميه، وتستدرُّ استمرارَ العطاء والإنعام الإلٰهي.

إن البذل القليل اليوم سيرجع غداً أو بعد غد بالكثير، وقد اعتبر الله سبحانه العطاء الجميل قرضاً حسناً، لا يَردُّه لصاحبه مِثلاً أو مِثلَيْن بل يردُّه أضعافاً مضاعفة، وأغرى العبدَ بالإنفاق، فكَشَف له أن نفقته على غيره وسيلةٌ جُلَّى ليتولَّى الله الإغداقَ عليه من خزائنه التي لا يَلحقها نَفاد.

عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: يا بنَ آدمَ، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ**».

وقال: «**يمينُ اللهِ مَلأَى سَحَّاءُ، لا يَغِيضُها شيءٌ الليلَ والنهارَ**»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وعن أبي كَبْشَة الأَنْمارِيّ رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاثةٌ أُقْسِم عليهنَّ، وأحدِّثُكم حديثاً فاحْفَظُوه، قال: ما نَقَصَ مالُ عبدٍ من صدقةٍ، ولا ظُلِم عبدٌ مَظْلَمة فَصَبر عليها إلا زادَه الله عِزّاً، ولا فَتَح عبدٌ بابَ مسألةٍ إلا فَتَح الله عليه بابَ فقرٍ**» الحديث[2].

هذا فضلاً عن أنها تكفِّر الخطايا، وتغسِل الذنوب، وتمحو الآثام، وتستجلب الرضا والغفران؛ قال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤) وأطرافه؛ ومسلم (٩٩٣)، وغيرهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)؛ وأحمد: ٤/ ٢٣١؛ والبغوي (٤٠٩٧)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

وما من شيءٍ أشقُّ على الشيطان، وأبطَلُ لكيده، وأقتلُ لوساوسه؛ من إخراج الصدقات والزكوات، ولذلك يقذِف في النفوس الوهن حتى يثبِّطها عن البذل، ويعلِّقها بالحطام الفاني: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

●● والذين يَكنزون الأموال ويُضاعفون الثروات، ثم تنقبِض أنفسهم عن أداء حق الله فيها، وتُغَلُّ أيديهم عن إخراج زكاتها وتطهيرها؛ قد ارتكبوا ذنباً عظيماً واقترفوا كبيرة غليظة، وشَردتْ أنفسُهم عن الهدى، وخلَعوا إنسانيتهم من إهابها، واستحالوا وحوشاً جمَّاعين كنَّازين، منّاعين للخير معتدين آثمين.

إن هؤلاء حين يرون الفقر والمَسْغَبة والفاقة تلفُّ جماعات من المسلمين، وترهقهم الحاجة والمَتْربة.. أو يرون أناساً مشقوقي الثياب تكاد فتوقها تكشف سوءاتهم، أو حفاةَ الأقدام أبلَى أديمُ الأرض كعوبَهم وأصابعهم.. أو جياعاً يَمدُّون أعينهم إلى شتّى الأطعمة، فيردُّهم الحرمان محسورين.. أو يَمدُّون أيديَهم يتكفَّفُون المعونات من هيئات التبشير ومؤسسات التنصير (التكفير)... إلى غير ذلك من الصور المُفظِعة التي كثُر انتشارها هنا وهناك في ديار المسلمين.

إن الأغنياء والأثرياء الذين يرون تلك الصور الفاحشة ثم يضنُّون حتى بزكاة أموالهم، ولا يكترثون بما يرون ويسمعون؛ إنهم ليسوا بشراً وليسوا مؤمنين، فبين البشر عامةً رحِمٌ يجبُ أن تُوصَل وألّا تمزّقها الفاقة، وقضية الإيمان أن يرهَب المرءُ ربَّه في أمثال أولئك البائسين.

والرحمة المهداة النبيّ الأعظم ﷺ ضَرب أروعَ الأمثلة العملية عندما رأى أحد المناظر المشابهة لِما ذكرناه، فشَقَّ عليه مرآها، وهو الذي زكّاه ربه سبحانه وأثنى عليه بقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فجمع المسلمين، ثم خطبهم، فذكَّرهم بحق الإنسان على الإنسان، وخوَّفهم بالله واليوم الآخر، ومازال بهم حتى جمعوا ما أغنى وستر.

عن جرير بن عبد الله البَجَليِّ رضي الله عنه، قال: (كنَّا عند رسول الله ﷺ في صَدْر النهار، قال: فجاءه قومٌ حُفاةٌ عراةٌ مُجْتابِي النِّمَار أو العَبَاء، متقلِّدي السيوفِ، عامَّتُهم من مُضَر، بل كلُّهم من مُضَر، فتَمَعَّر وجهُ رسول الله ﷺ لِمَا رأى بهم من الفاقةِ، فدَخل ثم خَرج، فأَمَر بلالاً فأذَّن وأقام، فصلَّى، ثم خَطب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، والآية التي في الحشر: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]، «**تَصَدَّقَ رجلٌ من دينارِه، من دِرْهَمِه، من ثوبِه، من صاعِ بُرِّهِ، من صاعِ تَمْرِهِ**»، حتى قال: «**ولو بِشِقّ تمرةٍ**».

قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرَّةٍ كادَتْ كفُّه تعجِزُ عنها، بل قد عَجَزَتْ. قال: ثم تتابَعَ الناسُ، حتى رأيتُ كَوْمَيْن من طعامٍ وثيابٍ. حتى رأيتُ وجْهَ رسولِ الله ﷺ يَتَهلَّلُ كأنَّه مُذْهَبَةٌ.

فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً، فله أجرُها وأجرُ مَن عملَ بها بعده، من غيرِ أن يَنْقُصَ من أجورِهم شيءٌ. ومن سنَّ في الإسلام سنَّةً سيئةً، كان عليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عملَ بها من بعدِه، من غيرِ أن يَنْقُصَ من أوزارِهم شيءٌ**»)[1].

هذا في الصدقة ونفقة التطوع، فما بالك بالزكاة المفروضة التي هي مناطة بعنق المسلم لا فكاك له من أدائها تامة غير منقوصة، فإنْ قصَّر فالوِزر عليه والعقوبة تحلُّ به في الدنيا والآخرة!.

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٢٣٤٦)، وفي الصغرى: ٥/ ٧٥ ـ ٧٧؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٣)؛ وابن حبان (٣٣٠٨)، وغيرهم.
مجتابي النمار: أي لابسيها خارقين أوساطها، وهي ثياب صوف. **تمعَّر**: تغير. **مذهبة**: أي فضة مذهبة، وهو أبلغ في حسن الوجه وإشراقه.

●● والزكاة حقُّ الفقراء والمحاويج ونحوِهم، أوجَبَه الله سبحانه في أموال الأغنياء، لا منَّة لهم في ذلك ولا مَنَاص من الأداء، فمن فرَّط فيها يكون قد هدم واحداً من أركان دينه!.

وفيها خيرٌ كثير للغني بتطهير نفسه، وتزكية ماله، والبركة فيه، وأمانه من غوائل حقد الفقراء، والبغضاء من المجتمع.. وكذلك فيها نفعٌ للفقير واستلالٌ لسَخَائم قلبه، وانتزاع الحسد والحقد والعدوان من نفسه.. ثم فيها فوائد جُلَّى للمجتمع، حيث تنمو فيه أواصر البذل والعطاء والجود والتآلف والتكافل والمرحمة.

وإلا فإنَّ مَنْعَ الزكاة، والكزازة في النفقة، وانقباضَ الأيدي عن العطاء؛ سيقطع الأرحام، ويولّد الجرائم والآثام.

عن عبد الله بن عَمْرو ﭬ، قال: خَطب رسول الله ﷺ فقال: «**إيَّاكم والشُّحَّ، فإنَّما هَلَك مَن كان قبْلكم بالشحّ، أَمَرهُم بالبُخْلِ فَبَخِلوا، وأمرهم بالقَطِيعة فقَطَعوا، وأَمَرهُم بالفُجورِ فَفَجروا**»[1].

●● والذي يزكي أمواله ويُنفق على السراء والضراء، هو بعين الله وكَنَفِه، تصلي عليه الملائكة، ويحبُّه أهل السماء والأرض، ويرتقب المزيد.. أمَّا مانعُ الزكاة الكنّاز الجموع المنوع، فلا يُتوقع له إلا الضياع! ثم هل يَخلد مع المال، أم يخلد المال معه؟! إن المال عارية، وكل ما يتعلق به هذا الكنود من حطام الدنيا، سيدَعُه لوارثِ السموات والأرض، ويأتيه يوم القيامة فرداً عارياً من المال والجاه، وسيُطَوَّق ما بَخِل به يوم القيامة!..

فلا غرو إذا نقم الملأ الأعلى على مَنْ ينسى تلك الحقائق والواجبات كلها، وينطلق في ربوع الأرض، لا هَمَّ له إلا جمع ما يضره، ونسيان ما يفيده.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٩٨) واللفظ له؛ وبأطول منه: النسائي في الكبرى (١١٥١٩)؛ وأحمد: (٦٤٨٧)؛ وابن حبان (٥١٧٦)؛ والحاكم: ١/ ١١، وغيرهم؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**ما من يوم يُصبِح العبادُ فيه إلا مَلَكان يَنزِلان، فيقول أحدُهما: اللهم أعطِ مُنفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخَر: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**»(١).

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالعقوبة أشد وأنكى، وأقسى وأخزى!.

إن الأموال المستخفية في الخزائن، المختبِئ فيها حقُّ المسكين والبائس، شرٌّ جسيمٌ على صاحبها في ذلك اليوم، إنها أشبهُ شيءٍ بالثعابين الكامنة في جحورها، كأنها رصيدُ الأذى للناس، بل إن الإسلام أبانَ أنها تتحوَّل فعلاً إلى حيَّات قد امَّرَقَتْ واحتدَّت أنيابُها، تطارد صاحبها لتقضِم يدَه التي غلَّها الشح(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من صاحبِ ذَهَبٍ ولا فضَّة لا يؤدِّي منها حقَّها، إلا إذا كان يومُ القيامة، صُفِّحَتْ له صَفَائحُ من نارٍ، فأُحْمِي عليها في نار جهنم، فَيُكْوَى بها جَنْبُه وجبينُه وظهرُه، كلَّما بَرَدَتْ أُعِيدت له، في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنة، حتى يُقضَى بين العباد، فيَرى سبيلَه إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار**» الحديث ـ لفظ مسلم.

وفي رواية البخاري: «**مَن آتاهُ اللهُ مالاً فلم يؤدِّ زكاتَه، مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ له زَبِيبَتان، يُطَوَّقُه يومَ القيامة، ثم يأخذُ بِلهْزِمَتَيْهِ ـ يعني شِدْقَيْه ـ ثم يقول: أنا مالُكَ، أنا كَنْزُكَ!**» ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٢)؛ ومسلم (١٠١٠)؛ والنسائي في الكبرى (٩١٣٤)؛ وابن حبان (٣٣٣٣) وغيرهم.

(٢) خلق المسلم، ص١٢١، واقتطفت في هذا الفصل مقتطفات منه: ص ١١٩ ـ ١٢٥. **امَّرَقت**: أي: سقط شعر رأسها، لكثرةِ سَمّها وطولِ عُمرها.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٠٣) وأطرافه؛ ومسلم (٩٨٧)؛ والنسائي في الكبرى (١١١٥٢)؛ وأبو داود (١٦٥٨)؛ وابن ماجه (١٧٨٦) وغيرهم. **الشجاع**: الحية. **الأقرع**: الذي لا شعر =

والأحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة.

● **تحقق النبوءة ووقوع العقوبة:**

●● كانت الدول الإسلامية المتعاقبة تتولى إقامة هذا الركن العظيم (الزكاة) من أركان الإسلام، وتصرف وارداته في وجوهها، مع ما اعتَوَر ذلك من بعض المخالفات والتقصير، بَيْدَ أن المسلمين عامة كانوا يؤدون هذه الفريضة ويحرصون على حياتها.

لكنْ منذ سقطت الخلافة من نحو مئة سنة وإلى أيامنا، أصبحت هذه الشعيرة مرتبطة بإيمان الأفراد وضمائرهم ويقينهم وتورُّعِهم في إحصاء الأموال بدقة وإخراج ما فيها من حقوق ووضعها في مصارفها الشرعية، لا سلطان يُجبِرهم على أدائها ولا هيئة تنظِّم شؤون أموالهم فيها، فبرَدَتْ حرارةُ هذه الفريضة في القلوب، وخَبَتْ جذوتها في الضمائر، وعَصفت بها وساوسُ الشيطان وأماني النفس وغوائلُ البخل، وضعف الإيمان، فأُسقطت مهابتُها من كثير من النفوس، وتقهقرت قدسيَّتُها في المجتمع، وذَبلَت فرضيَّتُها في حياة جماهير غفيرة، فتهاونت فيها وتغافلت عنها حتى نسيتها وفرَّطَتْ بها مثلما فرَّطت في كثير من فرائض الإسلام وشرائعه وشعائره.

إن هناك كثرة غامرة من المسلمين حريصون على هذه الشعيرة ويؤدونها بدقة وورع، كذلك هناك كثيرون يُخرِجون قسماً منها على سبيل القيام بالواجب دون إحصاء صحيح ولا احتياط واجب ولا حساب منضبط بموازين الحق والشرع، وكأنهم يخرجونها من باب التورع، وهذا لا يعفيهم من المسؤولية الدقيقة أمام الله وأمام المسلمين المستحقين الذين هُضِمت حقوقهم بسبب ذلك الاسترخاء واللامبالاة في ضبط الأموال والحسابات بصرامة. وثمَّةَ فريق ثالث عريض مَنَع

= على رأسه لكثرة سمّه. زبيبتان: هما الزَّبَدَتان في الشِّدقين. **يطوِّقه**: يصير له ذلك الثعبان طوقاً!.

حق الله في أمواله، وضنَّ بإخراج الزكاة منها، فارتكبَ جريمة كبرى في المجتمع وهدمَ ركناً عظيماً من أركان الإسلام.

وفي العالم العربي والإسلامي اليوم من الأغنياء والأثرياء وأصحاب رؤوس الأموال الضخمة ما تبلغ ثرواتهم (المليارات)، سواء كانوا رجالاً عاديين أو رجال أعمال أو مسؤولين كباراً، نقول: في أموال هؤلاء **مبالغ ضخمة وحقوق متراكمة عظيمة تصل إلى (أرقام فلكية) هي زكاة مستوجبة عليهم، لم يخرجوها سنين عدداً، وضَنُّوا بها ومَنَعوها أهلَها ومستحقيها!** وإثمهم في ذلك عظيم عند الله تعالى.

ولو أنَّ تلك الأموال أُحصيت بدقة، وأُخرجت الحقوق منها على وجهها، وأنفقت في مصارفها؛ لَما بقي في بلاد المسلمين فقير ولا محتاج، ولعاش الناس جميعاً في رغد وسلام واطمئنان، وصحة وعافية، ولقامت في ديارنا مشاريع عملاقة تعود بالنفع والخير والبركة على الأغنياء والفقراء على حدٍّ سواء.

●● ونتيجة التفريط بهذه الفريضة حلَّت بالأمة عامَّةً العقوبةُ الربانية المترتبة على مَنْع الناس زكاة أموالهم؛ فضَنَّت السماء عليهم بالخير والبركة عندما ضَنّوا بالمال، وشَحَّت عليهم بالعطاء عندما غَلَبهم الشحُّ فانقبضت أيديهم عن البذل، وقلَّ المطر وازداد الجدب وكثُر القحط، وعمَّتْ شرور ذلك البلادَ والعباد! وانخفض منسوب المياه الجوفية، وغار الماء، وغاضت الآبار، وجفت الأنهار، عندما جفَّت معاني الرحمة من قلوب الأغنياء، وماتت الأشجار، ويبست النباتات، وتضاءلت المساحات المزروعة، وازداد التصحُّر، وزَحَفت المساحات الجرداء فأكلت الخضراء!..

ومن يستقرئ التاريخَ القريب خلال أربعة عقود يجد مصداقَ ذلك في مختلفِ البلاد العربية والإسلامية، فكم من بساتين يبست، ومزارع بادت، وأشجار ماتت وأصبحت حطباً، ونخيل أصبحت أعجازاً خاوية، وعيون وآبار وأنهار غاضَ مَعِينُها وجفَّ ماؤها! وأبناءُ الأربعين والخمسين ـ دَعْ أبناء الستين

والسبعين ـ يدركون كم الفرقُ بين ما نحن فيه الآن وما كنا عليه قبل عقود قريبة من الخضرة والنضرة والبساتين الغنَّاء والمزارع الوارفة والماء الفيَّاض!..

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

«ولم يَمنعوا زكاة أموالهم، إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»!.

* * *

١٢٨ ـ النبوءة الرابعة

«ولم يَنقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سَلَّط الله عليهم عدوّاً من غيرهم فأَخذوا بعضَ ما في أيديهم».

وفي الحديث الآخر: **«ما نقضَ قومٌ العهدَ، إلا سُلِّط عليهم عدوُّهم».**

الإسلام الذي لا يمكن لأحد أن يعترف بغيره هو الإسلام المستمد من القرآن الكريم حرفاً حرفاً، والذي وَعَت الحياة إخراجاً عمليّاً له في السنَّة المطهّرة، وتطبيقاً تامّاً في مدة عصر النبوة والسيرة الزاكية، وبقَدْر الاقتراب من هذا القرآن والرسول ﷺ الذي بلَّغه وطبَّقَه يكون الدين، وبقدر الابتعاد يكون الشرودُ والزيغ ونقضُ عهد الله سبحانه وعهد رسوله ﷺ[1].

والحق أن المسلمين فيما بعد عصر النبوة وعهد الخلافة الراشدة، قد اعتوَر مسيرتهم وتاريخَهم وحياتهم ومناشطهم؛ مخالفاتٌ وحَيْدَةٌ عن منهج الإسلام الفذ، ووقع منهم شرود ونقض لعهد الله وعهد رسوله، وتقصير وتفريط في حق هذا الدين.. وهذه المخالفات والشرود والنقض والتفريط تفاوتت حِدَّتُها واختلفَتْ أهميتها، بين حِقْبة وحقبة، ودولة وأخرى، فتارة تكون خفيفة قليلة في أمور صغيرة وأحكام فرعية، وتارة تكون كبيرة خطيرة في فرائض جليلة وواجبات

---

(١) انظر: معركة المصحف، ص٢٧.

بارزة وأحكام رئيسة ومبادئ مصيرية، وأسوأ أحوالها ما اعترى الأمة منذ نحو قرن ونصف وإلى الآن، حيث وصلت إلى الارتداد عن الدين في بعض الحالات والمواقع والأقوام والفئات!.

ويمكن الإشارة إلى خطوط عريضة، وحقائق ضخمة، وركائز رئيسة، ومبادئ عامة، اعْتَرَتْ حياةَ المسلمين، وحادَتْ بهم وحادوا بها عن الصراط المستقيم، عبر تاريخهم الطويل، وفي مختلفِ بلدانهم، وتنوُّع ممارساتهم:

١ ـ الشَّرَهُ في طلب اللذائذ، والرغبةُ في الراحة دون عمل، ونَيْل المَغْنم القريب من غير مَغْرم يُبذل، وقعودُ الهمم عن الآمال العِراض والمطامح العظام، مع إدمان غريب للشهوات الدنيا وأنواع المُتَع والعَبَث، وحب الدنيا وكراهية الموت.

٢ ـ مَرَجُ أمرِ الدين، وسفكُ الدماء، والاختلاف الكثير في الأمة، ونشوءُ الطوائف وشيوع البدع والأهواء، والتقاتل على الملك وقيام الدويلات الهزيلة وتصدّع بنيان الدولة.

٣ ـ اجتياحُ السنوات الخَدَّاعات، وخيانة الأمانات، وتصديق الكاذب، وتكذيب الصادق، وائتمان الخائن، وتخوين الأمين، وتملُّك الرُّوَيْبضات والسفهاء واللكعات.

٤ ـ فتنٌ كقطع الليل المظلم غَشيت الأمة، واضطرابُ أمور أقوام بين الكفر والإيمان، وبيعُهم دينَهم بعَرَض من الدنيا، واضطهاد المؤمنين حتى يخاف المرء على نفسه ولا يجرؤ على الجهر بصلاته، واشتداد الحال حتى أصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر.

٥ ـ نقضُ عُرى الإسلام عروة عروة، بدءاً من الحكم، فالحدود، والفضائل، والجهاد، ووحدة الأمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإماتة الواجبات، واستنهاض المحرّمات، وموالاة الكافرين، وضَعْف الوازع الديني، واضمحلال العلم الشرعي، وتمزيق عُرى الزكاة والصيام والصلاة.

٦ ـ إقصاءُ الدين عن الحياة السياسية والاقتصادية والتربوية والعسكرية، وزحفُ العلمانية وسواها.

٧ ـ الأَشَر والبطر والتحاسد والتباغض والتشاحن، والتكاثر بالأموال والأولاد، وتوزُّعُ الكلمة، واقتتالُ الإخوة، والبغيُ، والاستعانة بالعدو على الأخ، والتناصر بالكفار على المسلمين.

٨ ـ اتباعُ سَنَن اليهود والنصارى شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وتقليدهم في شتى الميادين بدءاً من الحكم وفَصْل الدين عن الدولة، إلى الخلاعة والمجون واللهو والإثم والتحلل والإباحية وانتشار الموبقات.

٩ ـ ظهورُ الأهواء والبدع والانحرافات، وخروجُ الكذّابين مدَّعي النبوة، ومن يُعرض عن الأخذ بالسنَّة، وكثرةُ الكذب وفشوُّه في الأمة، وكثرة من يكذب في الأحاديث والأخبار والعقائد والأفكار.

١٠ ـ ظهور أقوام يتخذون من ألسنتهم مطيَّة للاكتساب والمنصب والجاه، ومن يشرب الخمر ويسمِّيها بغير اسمها، ومن يستحلُّ الزنى والخمر والمعازف والقَيْنَات.

١١ ـ انتشار الفحش والتفحش، وارتكاب المحرّمات، وفعل الموبقات، وشيوع الكبائر من عقوق وربا وسحر وسفك الدماء والتولي يوم الزحف.

١٢ ـ ترويجُ الرذيلة، ونشر الخلاعة والمجون والتهتك والعري، وابتذالُ القيم والأخلاق والأعراض والشرف، وإقامة بيوت الدعارة، وحانات الخمور، بدعوى الحرية الشخصية.

١٣ ـ الهزءُ بتعاليم الإسلام وأركانه وفرائضه وثوابته وسُنَنه، والهجومُ على مبادئه والتهوين من قِيمه وما أحلَّ وما حرَّم، وتسابقُ أصحاب الأقلام الملوّثة والعقول المريضة والقلوب الحاقدة وتواطُؤُها للفتك بأصول الاعتقاد ونقضِ عُرى الإسلام وتجاهل حرمة النصوص.

١٤ ـ التمكين للارتداد والإلحاد والعلمانية والزندقة، ورفع أصحابها ودعاتها وإعلاء منازلهم، والانقضاضُ على ما أوجب الله تعالى على الناس ليُميتوه، والسعي إلى ما حرّم عليهم فيُحيوه، وفرضُ مفاهيم الحضارة الغربية والفكر الغربي القائمة على الفلسفات المادية والإباحية والوثنية.

١٥ ـ حربٌ ضروس على الإسلام من الجاهلين به والكائدين له، من أمته المفرِّطة وأعدائه الحاقدين الطامعين، وتدافعُ أمواجِ الشر لاقتلاع ما تبقى من معالم الإسلام هنا وهناك.

١٦ ـ ذَبَلَت في نفوس الكبراء والمسؤولين أشدَّ الذبول عناصرُ الإيمان بالله والانصياع لأوامره والأخذ عن كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ.

هذه صورة إجمالية وأمثلة كبيرة وخطوط عريضة لمسيرة المسلمين مع دينهم عبر تاريخهم الممتد إلى زماننا هذا، أشرنا فيها إلى أبرز المعالم في تحقق هذه النبوءة التي تشير إلى نقضِ المسلمين عهدَ الله وعهد رسوله، في التزام الإسلام والعمل بشريعته، وتقصيرهم في ذلك قليلاً أو كثيراً، حسب الدورات التاريخية وقيام الدول وقوتها أو ضَعْفها وانحطاطها، وهذه الصورة أوضحتْ تصديق تلك النبوءة وتحققها وخاصة في عصرنا هذا.

● **نزول العقوبة بالمسلمين «سلَّط الله عليهم عدوّاً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم»:**

وهذا أيضاً حق وصدق وواقع مؤكَّدٍ، بما رواه التاريخ الصادق عن الأزمنة المنصرمة، وما يشهده جيلنا في هذا القرن عِياناً لا لُبْس فيه ولا غموض.

والصورة الإجمالية التي قدّمناها ورسمناها لمسيرة المسلمين عبر تاريخهم، والأخطاء والخطايا التي وقعت من ملوكهم وحكّامهم وأغنيائهم وعلمائهم ومفكّريهم وعامتهم، والطباع المستكبرة والرذائل المتمكنة؛ جعلَتْهم (يَهونون على الله مع أسمائهم الإسلامية، ورغم وجود الصالحين فيهم، وظهور بعض الشعائر الدينية، والواجبات الشرعية في بلادهم.. وهانوا على الناس رغم

مملكتهم الواسعة وجيوشهم الكثيفة، وخزائنهم العامرة، ورغم تقدُّمِهم في الحضارة ومظاهرها الكثيرة، فقلَّ إكرامُ الناس لهم وهيبتهم إياهم، وتجاسَروا عليهم)(١).

ومَضَتْ سُنن الله تحصد المجرمين وتؤدِّب العاتين.. ومن ظن أن الله سبحانه يُحابي أمة ما، فيرفَعُها وهي تُسِفُّ، فسوف يدفع ضريبة هذا الخطأ من دمه ومكانته، ووحي الله وتاريخ الناس شهود على ذلك.

•• فتسلَّط عليهم الإسبان ومَن وراءهم من الصليبيين، وأخرجوهم من الأندلس، وسلبوهم مُلكَها، وأعملوا فيهم السيف والقتل الذريع، ومن أُفلت من حرِّه هام على وجهه شريداً طريداً.

•• وزحف عليهم التتار كالسيل العاتي، فوضعوا فيهم السيف، وأَجْرَوا سيولاً من دمائهم، ودمَّروا حضارتهم، وخرَّبوا مدائنهم وقراهم، ونشروا الرعب في أفئدتهم، فتمكن من قلوبهم الوهن والجبن، حتى أمسوا لا يصدِّقون بهزيمة التتار!.

•• وتداعَتْ عليهم الأمم وتوالت الزحوف الصليبية قروناً متطاولة، ورَمَوْهم عن قوس واحدة، وسلبوهم بيت المقدس، وسيطروا على أراضيهم وامتلكوا خيراتهم وانتهبوا ثرواتهم، وساموهم سوء العذاب حتى خاضَتْ خيولهم بدماء المسلمين.

•• وفي القرنين الأخيرين اكتسح الاستعمار الغربي الأوروبي ديار المسلمين، وأسقطوا الخلافة العثمانية، وتقاسموا البلاد العربية والإسلامية كما يقتسم الورثةُ تركةَ أبيهم، وانساحوا في بلادنا من أقصى المغرب العربي إلى أقصى المشرق الإسلامي في أندونيسية، لا يرون كيداً ولا يخشون صدّاً، وظَفِر

---

(١) المد والجزر، ص٦٥.

كل طرف بنصيب حسب قوته وسطوته: الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والإيطالي والهولندي والبرتغالي والإسباني... وغيرهم.

●● واجتاح الزحف الشيوعي أصقاعاً كثيرة وواسعة من بلاد المسلمين في آسية.. وكذلك الهنادك في شبه القارة الهندية.

وفي العقود الأخيرة قامت دولة اليهود (إسرائيل) ومن ورائها الصليبية العالمية والهيمنة الأمريكية وتابعت الجرائم واستلاب المسلمين ما في أيديهم.

فماذا جنى العرب والمسلمون من نقضِ عهد الله وعهد رسوله والتنكّرِ لدينه وشراءِ الشهوات واقتناصِ الملذات وتحقيرِ الفضائل والمآثر ودفنِ آيات الوحي؟..

لقد خسروا أشياء كثيرة!..

لقد أخذ العدو كثيراً مما في أيدينا: خسرنا الأندلس، وسقطت دولة الخلافة ببغداد وإستنبول وغيرهما، وانتُقِصَت أطرافنا في الفلبين وتايلاند وسنغافورة وما هنالك من بلاد المسلمين، والجمهوريات الإسلامية التي رزحت تحت الحكم الشيوعي السوفييتي ثم عَتَقَتْ منه لكنها بقيت خارجة عن سيطرة الإسلام، والبلاد التي تئنُّ تحت سيطرة الشيوعية الوثنية الصينية، واستُلبنا كثيراً من البلاد الإسلامية في البلقان وما جاورها، وخسرنا فلسطين، ثم خسرنا العراق نكبة القرن الحادي والعشرين على المسلمين! وقُلْ مثلَ ذلك في أرتيرية والصومال والسودان وغيرها من ممالك الإسلام.

وانتُهِبت خيراتنا واستُلبت ثرواتنا من بترول وغاز ومعادن، وثروات زراعية، ومياه وموانئ ومرافق حيوية دولية، كلها ليس للمسلمين عليها من سبيل إلا في الظاهر، ولا ينالون منها إلا الفتات، وجُلُّ عائداتها تتدفق إلى خزائن الأعداء.

هذا فضلاً عن الثروات العقلية والفكرية والعلمية والكفاءات والخبرات التي سَلَبنا العدو إياها بظلم من أنفسنا.

وصدق النبيُّ ﷺ القائل: «**سلَّط الله عليهم عدوّاً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم**».

★ ★ ★

١٢٩ ـ النبوءة الخامسة

«**وما لم تحكُمْ أئمتُهم بكتاب الله، ويتخيَّروا ممَّا أَنزل الله، إلا جَعل الله بأْسَهم بينهم**».

وفي الحديث الآخر: «**وما حَكموا بغيرِ ما أَنزل الله، إلا فَشَا فيهم الفقر**».

●● واجب الدولة في الإسلام العمل بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، وتطبيق الشرائع والأحكام، وتقديس الشعائر، وحماية العبادات، وحراسة القيم والأخلاق، وتطبيق الحدود، وحفظ الأمن، والضرب على أيدي العابثين والمجرمين الفَسَقة والمنحلِّين.

والدولة التي تُلغي الحدود، وتفرِّط في الفرائض، وترى العبادات كالصيام والحج مضيعة للوقت والإنتاج، وتستبدل بشرائع الإسلام قوانينَ وضعية، هي دولة لا تحكم بكتاب الله تعالى.

والإسلام ليس شكلَ دولةٍ وبرنامجَ حكمٍ وحسب، إنه دينٌ متعدِّد التعاليم، متَّسع الميادين: العقائد جزءٌ من الدين.. والعبادات جزء من الدين.. والجهادُ الاجتماعي لإقرار المعروف وتغيير المنكر جزءٌ من الدين.. والتنظيم الاجتماعي لإقامة العدل وإقصاء الجَوْر جزء من الدين.. والجهاد العسكري لحماية الإسلام وتقرير الحريات الأساسية للعقل والضمير ومقاومة البغي والإلحاد، جزء من الدين.. وحراسة الأمن في الداخل، وإقامة المحاكم لإنهاء المنازعات وحراسةِ حدود الله، جزءٌ من الدين.. وبناء المساجد والمدارس للتربية الروحية والفكرية، جزء من الدين(١).

---

(١) انظر: معركة المصحف، ص١٤ ـ ٢٠، ٤٧.

•• وقد ظلَّ الإسلام زُهاءَ ثلاثة عشر قرناً محورَ الحياةِ الفردية والاجتماعية والسياسية، بَيْدَ أن هناك أخطاءً شابَتِ الحياةَ الإسلامية في بعض نواحيها، ولكنَّ هذه الأخطاء لا يجوز الزعمُ بأنها عطَّلتِ الإسلامَ نفسه، أو باعَدَتْ بين حقائقه وسيرِ التاريخ.

والدولة الإسلامية طوال تلك المدة كانت تقوم على الإسلام وبه، والحكام المسلمون ـ سواء كانوا أُمويين أو عباسيين أم عثمانيين ـ كانوا على أي حال محكومينَ بتعاليم الإسلام التي لا ريب فيها، ومرتكبو السيئات منهم كانوا يرتكبونها فُرادى أخفياء، وهيهاتَ هيهات أن يجرؤ أحدُهم على تحليلِ محرَّمٍ أو تحريمِ حلالٍ.

ولقد أَظهروا في الجملة عزماً مبيناً على الحكم بالإسلام في كل دقيقةٍ وجليلةٍ من الشؤون العامة والخاصة، وقد حملوا الراية بالفعل، وجعلوا شرفَهم ومناطَ اللواء لهم بمدى بلائهم في خدمة الإسلام، واستبسالهم في نصرته.

وهؤلاء الرؤساء الذين سَمَّوا أنفسهم أمراءَ المؤمنين، والذين أحبُّوا أن يُشَرِّفوها بصفة الخلافة عن الرسول ﷺ، كانت جمهرتُهم بين قويٍّ في خدمة الإسلام، أو مقتصدٍ، أو كليلِ الذهن واليد.

لكنْ يستحيلُ أن يعطِّل أحدُهم حدّاً أو قصاصاً، أو يجحدَ فريضةً، أو يستهينَ بشَعِيرة.

الإسلامُ في أيامهم دينُ الفرد والمجتمع والدولة[1].

•• ومنذ نحو قرنين بدأتْ تحدث خروقٌ في الحكم الإسلامي، والتحاكم إلى الجِبْت والطاغوت، وكان ذلك على يدي بعض القيادات التي خرجتْ على سلطان الخلافة العثمانية، مما أغرى الغربَ الصليبي بتأييدها، وكان لمحمد علي باشا الطالع السيئ في ابتداع هذه السنّة السيئة في الأمة، حيث لجأ إلى القانون

---

(١) معركة المصحف، ص٤٦ ـ ٥١.

الفرنسي الصادر سنة (١٨١٠م) وجَعَلَه أساساً لِما سَنَّ من تشريعات، وفَتح الطريقَ لنقلِ القوانين التي استُحدِثت في عهده، ثم التي جدَّتْ حتى سنة (١٨٨٣م) من قانون العقوبات الفرنسي!.

وبدأ الخَرْق يتسع، وفي سنة (١٨٨٣م) اعتمدت المحاكم الأهلية بمصرَ في تطبيق قوانين العقوبات على التشريع الفرنسي الذي سبق أن استمدَّ عنه محمد علي باشا.

وتُرِك للمحاكم الشرعية يومئذ أن تحكم في الأحوال الشخصية والحسية وشؤون الوقف وما شابَهَ ذلك.

ثم عُدِّلت قوانين العقوبات سنة (١٩٠٤م) تعديلاً شاملاً، وانضمَّ إلى التشريع الفرنسي كمصدر أول للتشريع: القانونُ البلجيكي الصادر سنة (١٨٦٧م)، والقانون الإيطالي الصادر سنة (١٨٩٩م)، والقانون الهندي الصادر سنة (١٨٦٢م)، والقانون السوداني الصادر سنة (١٨٩٩)، والأخيران مُقتَبَسان من القانون الإنجليزي[١].

وامتدَّ هذا الارتداد عن أحكام الإسلام إلى دول عربية وإسلامية كثيرة في المشرق والمغرب، وأُخِّر الوحي الإلٰهي ليحلَّ محلَّه في القداسة والإنفاذ كلامُ المشرِّع الفرنسي وغيره من القوانين الوضعية.

فكان ذلك بداية الحكم بغير ما أنزل الله، وتخيُّر أحكام أخرى من الإسلام كقوانين الأسرة والوقف وغيرها.

●● وتمادى المسلمون في هذا وأصبح احتكامُهم إلى مَن يقضي بينهم بغير ما أنزل الله شائعاً، دونَ حياءٍ أو إنكار أو تحرُّج.

وعُطِّلت الحدود في البلاد الإسلامية، سوى صور باهتة هنا وهناك.

---

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص١٥٣ ـ ١٧٨.

بل ثَمَّة من يُنافح عن تعطيل الحدود، ويرى الغَضَاضة والوحشية في تطبيق حدِّ السرقة والخمر والحِرابة والقِصاص ورجم الزاني المُحصَن! وهؤلاء من بني جِلْدتنا ويتكلمون بألسنتنا!

وأُهْدِر قولُ الإسلام وحكمُه في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والقضائية والإعلامية... واستُبدل به غيره من تشريعات الأرض.

والمسلم بعد أن يعتنقَ الإسلام ليس مخيَّراً في ترك الشريعة، وليس له أن ينطلق بدوافع هواه مُثيراً للفوضى ومعتدياً الحدود، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولن يحتفظ المسلم بإسلامه إذا رضي بشريعة غير شريعة الله، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥][1].

●● وتدافَعَتْ أمواج الشرّ، كلما انساحَتْ بيننا موجة هجمت بعدها أخرى، وقد نجح الغرب وأعوانه في بلاد المسلمين في أن يجعل الحكم بغير ما أنزل الله قوانينَ مقررة في المجالات الجنائية والدولية، وبقي أن يجتاح كذلك ميدان الأحوال الشخصية، فإذا استكانَ له هذا الميدان الآخر فعلى الإسلام كله العَفَاء:

ويا موت زُرْ إن الحياة ذميمةٌ ... ويا نفسُ جُدِّي إن دهركِ هازلُ

والاستعمار الأوروبي عندما اجتاحَ أرضَ الإسلام وجَّه أقصى تصرفاته إلى الشريعة الإسلامية، وعمل ظاهراً وباطناً على تجريحها وإقصائها، وإحلالِ قوانينه الخاصة محلَّها، قاصداً بذلك إلى أمور:

١ ـ محُو الطابع الرسمي للإسلام، وتقطيعُ الأحزمة الدينية التي تشدُّ أوصالَ المجتمع.

---

(١) انظر: مغالطات، ص٤٢؛ جهاد الدعوة، ص٣٥.

٢ ـ التذرُّعُ بتعطيلِ أمر الله في ناحية مهمة إلى تعطيل أوامر الله في سائر النواحي الأخرى، وبذلك يتمُّ سلخُ المسلمين عن دينهم.

٣ ـ تركُ الجراثيمِ الخلقية تسرحُ في هذا الجسم المتداعي، ما دام السُّكْر والزنى والربا والفسق يقع بلا عقاب.

٤ ـ فرضُ الطابع الأجنبيِّ (للأمة الفاتحة)، والتوسُّلُ بهذا إلى تغليب ثقافتها ولغتها وتقاليدها، ومن ثَمَّ تتلاشى حقائقُ العروبة والإسلام.

ومن المستحيل الزعمُ بأن الأمم الإسلامية تحرَّرت لمجرد أنها تخلَّصَتْ من الاحتلال العسكري، ستبقى فيها العبودية ما بقي القانونُ الفرنسي أو الإنجليزي يحكم هؤلاء المسلمين، وما بقيتْ جهودُ بعضِ المفتونين متصلةً لنقلِ القوانين الغربية في الأحوال الشخصية كي تحلَّ محلَّ أحكام الإسلام في الزواج والطلاق.

إن العودة إلى الإسلام تقتضي نبذَ كلّ مظاهر الارتداد عنه، والحرية الكاملة تقتضي تنظيفَ البلاد من بقايا الاستعمار القانوني، ومسحَ الصبغة الأجنبية التي تقذي العيون في أكثر من مكان.. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥][1].

●● وعلى امتداد نحو قرنٍ من الزمان تمكَّنت كثيرٌ من الحكومات في البلاد الإسلامية من زحزحةِ المجتمع عن المحور الذي دار عليه طيلة ثلاثة عشر قرناً، وأَلْقَتْ بذورَ ارتدادٍ مخيفٍ في جوانب الحياة التشريعية والتعليمية والسياسية... فأمسَتْ تعاليمُ الإسلام عند الكثيرين متعذِّرة القبولِ، أو متعسِّرة التنفيذ[2].

وأصبح التشريع الإسلامي كنوزاً مدفونةً في الثَّرى ووُري في مكان قَصيّ،

(١) معركة المصحف، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.
(٢) انظر: جهاد الدعوة، ص١١٨؛ معركة المصحف، ص٢١، ٣٥.

ورُفعت رايات تواضَعَتْ عليها أهواء البشر، وحكمت القومية المجردة من الدين، والليبرالية، والعلمانية، والديمقراطية، والشيوعية..

وهناك الآن تيار جامح وأصوات مرتفعة ومساع حثيثة لنبذِ الإسلام كله وإبعاده عن شؤون الحياة، لتحلّ محلَّه العلمانية، ويتمّ تدميرُ هوية الأمة وذوبان شخصيتها في أَتُون (العولمة) التي يطبِّل لها المستغرِبون من أبنائنا، في الوقت الذي يرفضها من صدّرها إلى بلادنا وبخاصة الدول الأوروبية الكبرى مثل فرنسا وإنجلترا.

●● **وهاهي ذِه كل التجارب التي قادت الأمة في صحراء التيه نحوَ قرن من الزمان، وخاصَمَتْ دينَ الله ونَحَّتْه جانباً، قد باءتْ بالفشل، وتبيَّن للأمة عُوَارُها، وثَبت ضررُها**، ولم تقدّم للمسلمين إلا البعد عن دينهم، والفقر والشقاء، والعطالة والبطالة، والتراجع الحضاري والتخلف المادي والعلمي، والظلم والاستبداد، والفساد والإفساد، وخسران الدنيا والآخرة.

ولا بد للجميع ـ حكّاماً ومحكومين ـ من توبة صادقة وإقلاع عن الأهواء الجامحة، وعودة حميدة إلى الإسلام من جديد.

وقوع عقوبة الحكم بغير ما أنزل الله: «جعل الله بأسهم بينهم» «فشا فيهم الفقر»:

وهكذا وقع في الأمة ما أخبر به رسول الله ﷺ من الحكم بغير ما أنزل الله، والتنكُّر لشرعه، وإبعاده عن سياسة الدين والدنيا، فكان لا بدَّ من أن يتحقق الشطر الثاني من النبوءة، وتحلّ العقوبة، مثلما ترتب النتيجة على المقدمة.

●● فأصبح العرب والمسلمون يُغرِّبون ويشرِّقون، فمنهم من يتبنى القومية، وآخرون يتغنون بالوطنية، وفريق ثالث يهوى الاشتراكية، ورابع نادى بالشيوعية، وخامس رفع شعار الديمقراطية، وسادس نَهَجَ العلمانية.. إلى آخر تلك القائمة من المذاهب والأهواء والشعارات، فأصبحوا أوزاعاً مشتتين كل حزب بما لديهم فرحون، فتنافرت ولاءاتُهم، واختلَفَتْ سياساتهم، وتعارضتْ مصالحهم،

وتباينت أهدافهم، فدبت الفرقة بينهم، ووقع الخلاف، ونشب النزاع، واندسَّت أيدي الكيد والمكر وأجَّجت الشِّقاق، فكان التنازع والتدابر، والتباغض والتشاحن، ثم التقاتل والتناحر، وأصبح بأسُهم بينهم، فتمزّقتْ كلمتُهم وضَعُف شأنهم وذهبتْ ريحُهم، ووقع ما أخبر به النبي ﷺ، وعاش المسلمون ويعيشون الآن حِقبة من أسوأ حِقَب تاريخهم، والتاريخُ البعيد والقريب يشهد أن العرب بعيداً عن الإسلام يأكل بعضهم بعضاً، ويُفني بعضهم بعضاً.

انظر إلى الخريطة العربية الإسلامية منذ قرن وإلى الآن لترى التقاطع والتدابر، والتناحر والتقاتل، والخلافات والمنازعات، والحراب والأنياب!..

وصدق نزار قباني في وصف حال الأمة؛ حيث قال:

يتقاتلون على بقايا تمرةٍ ... فخناجرٌ مرفوعةٌ وحرابُ
قُبُلاتُهم عربيةٌ.. مَن ذا رأى ... فيما رأى قُبلاً لها أنيابُ
وخريطةُ الوطنِ الكبيرِ فضيحةٌ ... فحواجزٌ.. ومخافرٌ.. وكلابُ
والعالَمُ العربيُّ إمَّا نعجةٌ ... مذبوحةٌ أو حاكمٌ قصَّابُ

خلافٌ وتنازعٌ، وتشاحنٌ وتدابرٌ، وتقاطعٌ وتقاتلٌ ودماءٌ.. ضمن الدولة الواحدة بين الأحزاب والتجمعات والأعراق والانتماءات، وبين الراعي والرعية، ولا توجد دولة عربية أو إسلامية نَجَتْ من هذا الداء وتلك العقوبة.. ثم بين الدولة المتجاورة أو المتباعدة توتر ونزاع وخلاف... مما هو ظاهر لكل ذي بصيرة.

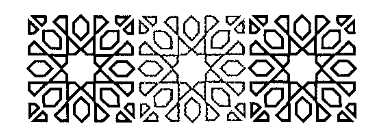
هذا ما نراه الآن في أمتنا، والأمثلة من التاريخ القريب كثيرة جدّاً، وليس هناك من نجاة إلا على يدي خلفاء رسول الله ﷺ، ليُخرِجوا أمتهم من الظلمات إلى النور.

●● وأشار الحديث في روايته الثانية إلى نوع آخر من العقوبة وهو انتشار الفقر في الأمة!.

ونزولُ ذلك العقاب في الأمة أمرٌ واضح لا يحتاج إلى بيان، لكنَّ المرارةَ التي تعتصر الفؤاد: أن البلاد العربية من أغنى بلاد الدنيا في خيراتها وثرواتها الظاهرة والباطنة، ومع ذلك فهي في عداد الدول الفقيرة، ولقد تدنى دخل الفردُ العربي إلى مستويات دنيا، وانتشرت البطالة، واجتاح الفقر المُدقِع الملايين من العرب والمسلمين، والتقارير الإقليمية والدولية تؤكِّد بأن أكثر من شطر العرب فقراء، وقرابة ثلثهم يعيشون تحت خط الفقر، ونحو (٩٠٪) من الثروة تتركز بأيدي (٥٪) من الناس، وهناك نسبة ضئيلة تعيش حياة جيدة!.

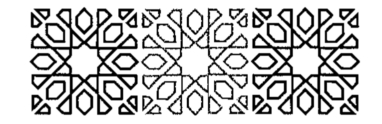
وفي هـذه النبوءات الخمس عِبر كثيرة ودروس جليلة، لا نريد الإطالة بذكْرها أكثر مما أوضحناه، ففي ثنايا البحث ومطاوي الكلام إشارات ودلالات وصُوىً ومنارات، يستطيع القارئ الحصيف استنباطها والاعتبار بها.





الفصل الثامن

نبوءات في فتن الدنيا والمال





إخبار النبي ﷺ
بأن الدنيا ستبسط على المسلمين فيتنافسوا فيها

١ ـ عن عَمْرو بن عوف الأنصاريِّ رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله ﷺ بَعث أبا عُبيدة بن الجَرَّاح إلى البَحرينِ يأتي بجزْيَتِها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأَمَّر عليهم العَلَاء بن الحَضْرَميِّ. فقَدِم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فسمعتِ الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة، فَوافَوْا صلاةَ الفجر مع رسول الله ﷺ، فلمّا صلَّى رسول الله ﷺ انصرفَ، فتعرَّضُوا له، فتبسَّمَ رسول الله ﷺ حين رآهُم، ثم قال: «**أَظُنّكُم سَمِعتُم أن أبا عبيدة قَدِمَ بشيءٍ من البحرينِ؟**» فقالوا: أجَلْ يا رسولَ الله، قال: «**فَأَبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُم، فوالله ما الفقرَ أخشَى عليكُم، ولكنِّي أخْشَى عليكم أن تُبْسَطَ الدنيا عَليكم كما بُسِطَتْ على مَن كان قَبْلَكُم، فَتَنافَسُوهَا كما تنافَسُوها، وتُهْلِكَكُم كما أَهْلَكَتْهُم**»).

وفي رواية: «**وتُلْهِيَكُم كمَا أَلْهَتْهُم**»[1]. هذا لفظ مسلم.

٢ ـ وعن عُقْبَة بن عامرٍ رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله ﷺ خَرَجَ يوماً فصلَّى على أهلِ أُحُدٍ صلاتَهُ على الميِّت، ثم انصرفَ إلى المِنْبر، فقال: «**إنِّي فَرَطٌ لكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإنِّي والله لأنظرُ إلى حَوْضِي الآن، وإني قد أُعْطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض ـ أو مفاتيحَ الأرضِ ـ وإنِّي والله ما أخافُ عَليكُم أن تُشْرِكوا بَعْدِي، ولكنْ أخافُ عليكم أن تتنافسوا فيها**»).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨) وطرفاه؛ ومسلم (٢٩٦١)؛ والنسائي في الكبرى (٨٧١٣) و(٨٧١٤)؛ والترمذي (٢٤٦٢)؛ وابن ماجه (٣٩٩٧)؛ وأحمد: ٤/١٣٧، ٣٢٧؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٠٢٧) و(٢٠٢٨)، وغيرهم.

وفي رواية: («**إنِّي لستُ أخشى عليكم أنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، ولكنِّي أَخْشَى عليكُمُ الدنيا أن تَنَافَسُوا فيها وتَقْتَتِلوا، فَتَهْلِكوا، كما هَلَك من كان قبْلَكُم**». قال عقبة: فكانتْ آخِرَ ما رأيتُ رسول الله ﷺ على المنبر). هــذا لفظ مسلم.

وفي رواية لابن حِبَّان: (ثم دَخَلَ، فلم يَخرجْ من بيتِهِ حتى قَبَضَه الله جلَّ وعَلَا)(١).

۞ ۞ ۞

أولاً: كلمة بين يدي النبوءة:

•• كان رسول الله ﷺ رفيقاً بأمته، مشفقاً عليها، رحيماً بها، حريصاً على صلاحها وفلاحها ونجاحها في الدنيا والآخرة، وهو ﷺ للمسلمين كالأب الرحيم والأم الحانية بل أجلّ، وقد وصفه ربه سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وكان يرى ما عليه أصحابه من الفقر والفاقة وقلة ذات اليد وشظف العيش وخشونة الحياة، فيرقُّ لهم ويُشفِق لحالهم، وينظر للمستقبل القريب فيرى ـ بما أعلمه الله تعالى وكشف له من غيبه ـ أن الدنيا ستُقبل على أصحابه وأمته من بعده، فيخشى عليهم انبساط الدنيا عليهم وصبَّ المال بين أيديهم، فيحذِّر وينبِّه، ويعلِّم ويرشِد.

لذلك عندما جاء أبو عبيدة رضي الله عنه بمالٍ جزيلٍ من البحرين(٢)، وتعرَّضت له

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٦)، و(١٣٤٤) وفيه أطرافه؛ ومسلم (٢٢٩٦)؛ وأحمد: ٤/ ١٤٩، ١٥٣ ـ ١٥٤؛ وابن حبان (٣١٩٨) و(٣١٩٩) و(٣٢٢٤)؛ والبغوي (٣٨٢٢) و(٣٨٢٣)؛ وأخرجه مختصراً: أبو داود (٣٢٢٣) و(٣٢٢٤)؛ والنسائي في الكبرى (٢٠٩٢)، وفي الصغرى: ٤/ ٦١ ـ ٦٢؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٩٠٧)، وغيرهم.

(٢) مقدار المال هو مئة ألف. انظر: الفتح: ٢/ ٢٦٠، شرح الحديث (٤٢١). **والبحرين**: هو =

الأنصار، وعرف مقصدهم، بَشَّرهم ببذل المال لهم بما يسرُّهم، وقدَّم بين يدي ذلك نصيحة وإرشاداً وتعليماً وتوجيهاً، شأن المربي الرحيم والمعلّم الحكيم، فقال: «**والله ما الفقر أخشى عليكم..**»، وليس في هـذا مدح للفقر ولا تزكية له ولا قبول به، بل أوضح النبي ﷺ أنه يخشى عليهم إقبال الدنيا، وأن تفتح أبواب خزائنها فيصبّ المال عليهم صبّاً، وليس هـذا لذاته إنما لِما يؤول إليه عند بعض مَن تُقبل عليهم الدنيا فيُفْتَنوا بها، فقال ﷺ: «**ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**».

فأظهر النبي ﷺ السبب وأوضحَ العلَّة، وهي التنافس على الدنيا، واللهث وراء المال، والاقتتال على تأثُّلِه، وعدم الانضباط بحدود الشرع في تحصيله، فتسودُ في الأمة أسبابُ اللهو وأخلاق الطراوة ومظاهر الاسترخاء، واسترسال النفوس في نَيْل مختلِف أنواع المُتَع والشهوات، والانصراف عن أخلاق الجندية وتقاليد الخشونة وأخذ الحياة من جوانبها الصارمة ونواحيها الجادة، فيقع ما حذَّر منه ﷺ: «**فتُلهِيَكم كما أَلْهَتْهم**»، وتكون النتيجة ما ذكرتْه الرواية الأخرى: «**فتهلككم كما أهلكتهم**»!.

ولخطورة ذلك على الأمة أكّد النبي ﷺ النصيحة والإرشاد والتوجيه في الأيام الأخيرة من عمره المبارك؛ ففي حديث عقبة بن عامر: «**إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا، فتهلكوا، كما هلك من كان قبلكم**»، قال عقبة: (فكانت آخِرَ ما رأيتُ رسول الله ﷺ على المنبر)، وفي رواية: (ثم دخل، فلم يَخرج من بيته حتى قبضه الله جلَّ وعلا).

●● وتكاثرت الأحاديث النبوية الصحيحة الصريحة التي تحذِّر وتنذِر،

= الإقليم المعروف الآن باسم «الأحساء» شرقي الجزيرة العربية، وقصبته «هجر» وهي (الهفوف) اليوم.

وتخوُّف وترهب، من فتنة المال، والاسترسال في جمعه، والانسياقِ وراء زهرة الحياة الدنيا، بما يُفْضِي إلى التلهي عن الآخرة، وتعدِّي الحقوق، وإهمال الواجبات، والتقصير في حق النفس والأهل والأقارب وعامة المسلمين ومصالحهم، وشؤونِ الإسلام ونصرته والتمكينِ له، فتكونُ شهوة المال لِلعَبِّ منه، وتركِ النفس تجمحُ في تلبية رغباتها ومُتَعِها وشهواتها.

في هذا السياق يجبُ وضْعُ الأحاديث التي جاءت بالتحذير من زهرة الدنيا وجمعِ المال والاستكثار منه.

عن كعب بن عياض الأشعري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ لكلِّ أمةٍ فتنةً، وإنَّ فتنةَ أمتي المالُ**»[1].

وعن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أكثر ما أخافُ عليكم ما يُخْرج الله لكم من بَركاتِ الأرض**»، قيل: وما بركات الأرض؟ قال: «**زهرةُ الدنيا**»... الحديث.

وفي آخره: «**وإنَّ هذا المالَ نِعْمَ صاحبُ المسلم لمن أَخذه بحقِّه، فأَعْطَى منه اليتيمَ والمسكينَ والسائلَ، ومَن أَخذه بغيرِ حقَّه، كان كالذي يأكلُ ولا يَشبعُ، ثم يكونُ عليه شهيداً يومَ القيامة**»[2].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ذِئبَان جائعانِ أُرْسِلَا في غَنمٍ بِأَفْسَدَ لها من حِرْصِ الرجل على المالِ والشرفِ لدينه**»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٦)؛ والنسائي في الكبرى (١١٧٩٥)؛ وابن حبان (٣٢٢٣)؛ والحاكم: ٣١٨/٤، وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٧)؛ ومسلم (١٠٥٢)؛ والنسائي: ٩٠/٥؛ وأحمد: ٩١/٣؛ وعبد الرزاق (٢٠٠٢٨)، وابن حبان (٣٢٢٥) و(٣٢٢٧)، وغيرهم. وأول الحديث للبخاري، وآخره لابن حبان.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٨١)؛ وأحمد: ٤٥٦/٣، ٤٦٠؛ والترمذي (٢٣٧٦)؛ =

وعن أبي ذر ﷺ، قال: بينما النبي ﷺ يخطبُ، إذ قام إليه أعرابيٌّ فيه جَفَاءٌ، فقال: يا رسول الله! أكَلَتْنَا الضَّبُعُ، فقال النبي ﷺ: **«غيرُ ذلكَ أخوفُ لي عليكم، حينَ تُصَبُّ عليكمُ الدنيا صَبّاً، فيا ليتَ أمتي لا يَتحلَّونَ بالذَّهَب»**[١].

وعن عبد الله بن عَمْرو ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: **«إذا فُتِحتْ عليكم خزائنُ فارسَ والرومِ، أيُّ قومٍ أنتم؟» قال عبد الرحمن بن عوف: نكونُ كما أَمَرنا اللهُ ﷻ، قال رسول الله ﷺ: «تتنافَسُون، ثم تتحاسَدُون، ثم تَدابرُون، ثم تتباغَضُون، ثم تنطلِقُون إلى مساكينِ المهاجرينَ، فتَحْمِلُون بعضَهم على رقابِ بعضٍ»**[٢].

وهـذه الخصال الأربع قد وقعتْ في الأمة، وكل واحدة منها مسبَّبة عن التي قبلها[٣]، وهـذا ما كان يخافُه النبي ﷺ على أمته، ولهـذا كان يحذِّر ويرشد وينبِّه المسلمين كي يَضَعوا المال وزهرة الدنيا في المسار الصحيح، وليس ثمّة ذم للغنى أو ثناء على الفقر.

١ ـ النظرة الصحيحة للغنى والفقر والدنيا وزهرتها، وأن الغنى ـ بضوابطه ـ محمود، بل مطلوب وهو أفضل من الفقر:

●● الله ﷻ لم يَكره من قارون أَنْ كان صاحبَ ثروة تُعجز العادِّين، إنما كره منه أن يؤتى هـذا الثراء الوافر، فإن قيل له: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾

= والدارمي (٢٧٣٠)؛ وابن حبان (٣٢٢٨)؛ والبغوي (٤٠٥٤)، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط والألباني.

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ١٥٢ ـ ١٥٣، ١٥٤ ـ ١٥٥، ١٧٨؛ والبزار؛ والطبراني في الأوسط؛ وذكره المنذري في الترغيب والترهيب: ٤/ ١٨٣، وقال: رواة أحمد رواة الصحيح؛ وقال مثله الهيثمي في المجمع: ٥/ ١٤٧؛ وأخرجه البغوي من حديث أبي الدرداء (٤٠٥٣). **والضبع**: السنة المجدبة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٢)؛ وابن ماجه (٣٩٩٦)؛ والفسوي: ٢/ ٥١٤؛ وابن حبان (٦٦٨٨) واللفظ له.

(٣) انظر: الفتح: ٧/ ٧٥٩ شرح الحديث (٣١٥٨).

[القصص: ٧٧]، قال: ذاك الغنى ثمرةُ قوتي وذكائي، فليس لأحد حق قِبَلي ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨].

أين هـذا الجواب الفاجر من قول سليمان عليه الصلاة والسلام ـ وقد شهدَ سعةَ السطوة والثروة اللتين تفرَّد بهما ـ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

والتحذير من فتنة المال وغوائل الأكل والبِطنة ليس معناه أن يُتَّخذ الجوعُ ديناً والتضوُّرُ صراطاً مستقيماً، فالرسول ﷺ عندما بشَّر الأنصار بتوزيع ما جاء به أبو عبيدة من البحرين من مال وافر، قال: «**أخشى عليكم أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسِطت على من كان قبلكم، فتنافَسُوها كما تنافَسوها، وتُهلِككم كما أهلكَتْهم**»؛ فهو ﷺ مرشِد حصيفٌ يلفِتُ أتباعَه إلى شرور المكاثرة والتحاسد، وأضرار النَّهم والتعادي! فهل يُعتبر بهـذه النصيحة الغالية داعياً إلى المسكنةِ والعجز، وهجر الحياة وترك الدنيا؟ لا، بداهة[١].

وفي سُنَّته ﷺ وهَدْيه وأحاديثه مواقف رائعة، وتوجيهات جليلة، وإرشادات رفيعة، وتربية حكيمة؛ للحضِّ على كسب المال الوافر الحلال، وتثميره ووضعه في مواضعه، بل حارب الذلَّةَ والمسكنَةَ والفقرَ قولاً وفعلاً، وعلَّم أمته كيف تكسِبُ المال وتقيم الدنيا وتكدح في الحياة وتقيم الأمجاد، كما استعاذَ من الفقر وقَرَنه بالكُفر، وحثَّ أتباعه أن يقتدوا به في كل ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنَّ فقراءَ المهاجرين أتَوْا رسول الله ﷺ فقالوا: ذَهَبَ أهلُ الدُّثُورِ بالدرجات العُلى والنعيمِ المُقيم، فقال: «**وما ذاكَ؟**» قالوا: يُصلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نَصومُ، ويَتصدَّقون ولا نتصدَّقُ، ويُعْتِقُون ولا نُعْتِق ـ في رواية البخاري: ولهم فضلٌ من أموالٍ يَحجُّون بها ويعتمِرون ويجاهدون ويتصدَّقون ـ فقال رسول الله ﷺ: «**أَفلا أعلِّمكُم شيئاً تُدرِكون به من سَبَقكُم،**

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة، ص٢٠ ـ ٢١.

وتَسبِقُون به من بعدَكم، ولا يكونُ أحدٌ أفضل منكم إلا من صَنَع مثل ما صنعتُم؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**تسبِّحون وتكبِّرون وتحمَدُون دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين مرة**». فرجَع فقراءُ المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سَمِعَ إخوانُنا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثلَه! فقال رسول الله ﷺ: «**ذلكَ فضلُ الله يؤتِيه من يشاءُ**»)[1] لفظ مسلم.

٢ ـ **فذكر هـذا الحديث للأثرياء من الفضائل**: الدرجات العلى، والنعيم المقيم، وفضل الله لأنهم بأموالهم يحجون ويعتمرون ويعتقون ويتصدقون ويجاهدون.. هـذا فضلاً عن الفرائض من صلاة وصيام، ونوافل ساووا بها الفقراء من تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل.

●● والذي ذهب إليه كثيرٌ من العلماء أن الغِنى أفضلُ من الفقر، وهـذا هو الحق. وذهب جمهورُ الصوفية إلى ترجيح الفقير الصابر على الغنيِّ الشاكر، وهـذا مرجوح، بل قال الإمام المُهلَّب شارح «صحيح البخاري» في كلامه على حديث أبي هريرة المتقدّم: (في هـذا الحديث فضلُ الغنيِّ نصّاً لا تأويلاً، إذا استوت أعمالُ الغني والفقير فيما افترض الله عليهما، فللغنيِّ حينئذ فضلُ عمل البر من الصدقة ونحوها مما لا سبيلَ للفقير إليه)[2].

وعن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال وهو على المِنْبر ـ وذكرَ الصدقة والتَّعَفُّفَ والمسألةَ ـ: «**اليدُ العليا خيرٌ من اليد السُّفْلى، فاليدُ العليا هي المنْفِقَةُ، والسُّفْلى هي السائلةُ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣) و(٦٣٢٩)؛ ومسلم (٥٩٥)؛ والنسائي في الكبرى (٩٨٩٨)؛ وابن حبان (٢٠١٤)؛ وابن خزيمة (٧٤٩)؛ والبغوي (٧١٧) و(٧٢٠)، وغيرهم. **والدثور**: جمع دَثْر: وهو المال الكثير.

(٢) الفتح: ٣/ ٣٢٥.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٩) واللفظ له؛ ومسلم (١٠٣٣)؛ وأبو داود (١٦٤٨)؛ والنسائي في الكبرى (٢٣٢٤)؛ والصغرى: ٥/ ٦١؛ وابن حبان (٣٣٦٤)، وغيرهم.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عمرو! نعم المال الصالح مع الرجل الصالح**»(١).

وقال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «**إنَّكَ أنْ تَدَعَ وَرَثَتَك أغنياءَ خيرٌ من أَنْ تَدَعَهُم عالةً يتكَفَّفُونَ الناسَ في أيديهم**»(٢).

وثبت أنه ﷺ استعاذ بالله من الفقر، بل وقرنه بالكفر!.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهمَّ إنِّي أَعوذُ بك من العَجْزِ والكَسَل، والجُبْن والبُخل، والهَرم والقسوة، والغَفْلة والعَيْلَة، والذِلّة والمَسْكَنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر، والفُسوق والشِّقاق والنِّفاق، والسُّمعَة والرِّياء، وأعوذ بك من الصَّمَم، والبَكَم، والجُنون، والجُذَام، والبَرَص، وسيِّئ الأسقام**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهمَّ إني أعوذُ بك من الفقرِ والقِلَّة والذِّلّة، وأعوذُ بك من أنْ أَظْلِم أو أُظْلَم**»(٤).

بل ثبت في الحديث الصحيح عن أبي بَكْرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ١٩٧، ٢٠٢؛ والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)؛ وابن حبان (٣٢١٠)؛ والحاكم: ٢/ ٢، ٢٣٦؛ والبغوي (٢٤٩٥)، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٤٢) وأطرافه في رقم (٥٦)؛ ومسلم (١٦٢٨)؛ وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم، انظر: السنن الكبرى، للنسائي (٦٢٨٥)؛ وابن حبان (٤٢٤٩)، ففيهما تخريجه.

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير: ١/ ١١٤؛ وابن حبان (١٠٢٣)؛ والحاكم: ١/ ٥٣٠، واللفظ له؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحيح الجامع (١٢٨٥).

(٤) أخرجه أبو داود (١٥٤٤) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٧٨٤٤) وأطرافه؛ والصغرى: ٨/ ٢٦١؛ وابن ماجه (٣٨٤٢)؛ وابن حبان (١٠٣٠)؛ والحاكم: ١/ ٥٣١، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

كان يَدْعو دُبُرَ كلِّ صلاة: «**اللهمَّ إني أعوذ بك من الكُفْر والفَقْر، وعذاب القبر**»[١].

والأحاديث في هـذا كثيرة جدّاً.

وسفيان الثوري كان أحدَ الأئمة الفقهاء المجتهدين، والعلماء العاملين، وكان حافظاً للحديث، مفسِّراً، من أئمة الزهد والتنسُّك، وكان يقول:

(لأنْ أُخلِّف عشرة آلاف درهم يُحاسِبُني الله عليها أحبُّ إليَّ من أن أحتاجَ إلى الناس).

ويقول: (كان المال فيما مضَى يُكره، فأما اليوم فهو تُرْس المؤمن).

ونظر إليه رجل، وفي يده دنانير، فقال: يا أبا عبد الله! تُمسِكُ هـذه الدنانير؟! فقال: (اسكتْ، فلولا هـذه الدنانيرُ لَتَمَنْدَلَ بنا هؤلاء الملوك)[٢].

●● والمشيُ في مَنَاكب الأرض ابتغاءَ رزق الله من شتى موارده، كفيلٌ بتوفير الغنى للفرد، والرفعة للمجموع، والعمران للدنيا.

ورجلُ الأعمال الذي يدير شركاته وينكبُّ على عمله ويؤديه بقوة، ويحاول ترقيته وتنميته، ويحلمُ في منامه بطُرق استثماره، ويكرِّس صحوَه لحراسته، وهو في هـذا كله يرمي إلى دعم الاقتصاد الإسلامي، ومطاردة الغزو الأجنبي، ورفْع مستوى الأمة التي وقف على ثغرة خطيرة فيها ـ فليس يشكُّ أحدٌ من علماء الإسلام أن هـذا الرجل مجاهد في سبيل الله! وأن تفانيه في هـذا المجال ـ بعد استكمال الفرائض المكتوبة ـ يجعله من أولياء الله الصالحين[٣] الذين عناهم الحديث الشريف الذي رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال:

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١٢٧١)، والصغرى: ٣/ ٧٣؛ والترمذي (٣٥٠٣)؛ وابن حبان (١٠٢٨) وغيرهم.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٤١؛ تهذيب الكمال: ١١/ ١٦٨. **تمندل بنا الملوك**: أي جعلونا كالمنْدِيل الذي يتمسح به من أثر الوضوء ونحوه. انظر: لسان العرب، (ندل).

(٣) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٤٣، ١٤٧.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ مثل المؤمنِ كمثلِ القطعة من الذَّهب، نَفَخَ فيها صاحبُها فلم تَغَيَّرْ ولم تنْقُصْ. والذي نفسُ محمدٍ بيده، إنَّ مَثَلَ المؤمنِ كمَثَلِ النَّحْلةِ؛ أكَلَتْ طَيِّباً، ووَضَعَتْ طيِّباً، ووقعتْ فلم تكْسِر ولم تُفْسِد**»[١].

والمال قوام الحياة، وأساس الدولة، وكافل المؤسسات المدنية والعسكرية، وباني الاقتصاد، وعصب التفوق الصناعي وحركة التجارات، والمتحكم بالسياسات وقوت الشعوب وحريتها أو استعبادها، كما أنه عماد الجهاد والدفاع عن بيضة الدين وحوزة بلاد المسلمين وكرامتهم، وركن شديد في مجدهم وعزّهم، إذا صرف في وجوهه الصحيحة، فالله سبحانه وضع في بلاد المسلمين من البركة وأفاء على أهلها من الأموال ما يجعلهم أملأ أهل الأرض إذا لم يتسافهوا في تبديدها[٢].

●● والإسلام طلب من أتباعه تجويدَ علوم الدنيا لأمور ثلاثة:

أولها: أن تعميرَ الأرض جزءٌ من رسالة الإنسان على ظهرها، جزءٌ من العبادة التي خُلق لأجلها، جزءٌ من الكدح الذي يصون به نفسه وأهله وشرفه.

والثاني: أن الله لم يخلق الإنسان ليشقى ويجوعَ ويعرَى، بل خلقه مكرَّماً يحمله ما في البر والبحر، وأحلَّ له الطيبات، ويسَّر له الزينة والجمال، بما فوقه من نجوم وبما بين يديه من زرع وضَرْع.

والثالث: أن الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتمَّ ولا أن ينجح بعيداً عن التفوُّق المدني والحضاري[٣].

والعمل للحياتين: الدنيا والأخرى، قد وَصَل الإسلامُ أطرافَه وربط بعضَه

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أحمد: ٢/١٩٩، وغيره؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٨)،و صحيح الجامع (٥٨٤٦).

(٢) انظر: هموم داعية، ص٤٤ ـ ٤٥؛ اليهود المعتدون، ص٢٥٧.

(٣) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٨٨.

ببعض، ويجب أن نعلم أن الفشلَ في كَسْب الدنيا يستتبعُ الفشلَ في نُصرة الدين، وأن الواجِد الذي ينزل عما عنده خيرٌ من المفلِس الذي لا ينزل عن شيء لأنه لا يملك أي شيء.

إن السلبية لا تخلُق بطولة، لأن البطولة عطاء واسع ومعاناة أشد. وإن الكثرة قد تُعِين على إنجاح العقائد ومساندة أصحابها، والقلّة ربما خَذَلَت الحق وجرَّأَتْ عليه.. ومن هنا يسعى أهل الإيمان إلى دعم أنفسهم ومبادئهم بالمال الكثير والتمكين في الأرض[1].

•• والخلل يأتي من سوء الفهم والعوج في التطبيق، من تحصيل الأموال من غير أوجهها الحلال، واستثمارها في العبث والشهوات النزقة وخدمة أعداء الله.

فبينما تعتمد عشرات الجامعات والمستشفيات ومعاهد التبشير ومصادر البر؛ على مِنَح وصدقات أهل اليسار من اليهود والنصارى، تجد أغلبَ أغنيائنا في أكثر الأقطار صيادي لذائذ وروادَ آثام، ومعظمهم ينتسب للإسلام زوراً، وباطنه خرِبٌ لا أثر فيه لدين.

وجديرٌ بالمسلم إذا طرقت النَّعماء بابه، أن لا يَطيش لها لبُّه، وأن لا يتملكه الغرور، فيحسَب أنها جاءت إلى صاحبها الجدير بها! كلا، إن اختبار الناس بالسراء أصعبُ من اختبارهم بالضراء، والساقطون في امتحانات الرخاء أضعاف الساقطين في الميدان الآخر[2].

•• أما القصور في فَهْم الدنيا، والغُربة على سطح الأرض، والعجز عن امتلاك زمام الحياة؛ فهذا كله لا يدلُّ على تقوى، بل يدل على طفولة فكرية يُضار بها الدين، وتنكس بها ألويته، وتتقهقر بها تعاليمه.

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة، ص٢٢؛ علل وأدوية، ص٢٤٦، ٢٤٩.

(٢) انظر: الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٢٥؛ سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٧٨.

والأحاديث التي جاءت عن الفقر وأجرِ الفقراء ودخولهم الجنة قبل الأغنياء؛ جاءت للمواساة والبُشرى، ولا تعني أبداً أن الغِنى عيبٌ، وأن الثراء يؤخِّر المنزلة، وأن الدين عدوُّ الدنيا، وأن أحداً لا يَبلغ حقيقة التقوى إلا إذا عاش وهو يعاني كآبةَ المنظر في الأهل والمال!.

وإنها جاءت لإعلاء أنفس الفقراء واستمساكِهم، وتنمية ملكات الاستعفاف في أفئدتهم، وما أكثرَ الذين حُرموا فتماسكوا وانتصَبَتْ قاماتهم وعاشوا كراماً.

إن الفقر والصَّعْلكَة والفاقة لا تؤسِّس دولة، ولا تشيد اقتصاداً، ولا تقيم جهازاً للجهاد، ولا تبني جامعة للمعرفة، ولا مستشفى لرعاية الصحة... إنما ينشئ ذلك كلَّه كثرةٌ لا تلهي، وغِنى لا يُطغي، ودنيا يسخِّرها مالكُها لخدمة الدين[١].

ثانياً: واقع حال المسلمين وتحقق النبوءة:

أشار الحديثان اللذان صدَّرْنا بهما هـذه النبوءة إلى أربعة أشياء، أخبر بها النبي ﷺ، فوقعت جميعها كما وصف ﷺ وبيَّن[٢]:

الأول: أن الدنيا ستُفتح على المسلمين وتُبسط لهم الخيرات وتتدفق الأموال.

الثاني: أن الصحابة لا يشركون بعده ﷺ.

الثالث: أن المسلمين سيتنافسون على الدنيا ويتقاتلون عليها ويتباغضون ويتدابرون.

الرابع: أن الدنيا وزهرتها ستلهيهم وتهلكهم.

وقد جاء مصداق ذلك كله سواء بسواء، وهـذا من أعلام نبوته وصدق رسالته ﷺ.

---

(١) علل وأدوية، ص٢٤٦، ٢٦٧ ـ ٢٦٩، مقتطفات بتصرف.

(٢) الفتح: ٧/ ٧٥٩ (٣١٥٨)، ٨/ ٥٢٠ (٣٥٩٦)، ١٤/ ٣٧٦ (٦٤٢٥).

ويمكن حصر الكلام عن تحقق النبوءة وتصديقها في ثلاثة محاور كبرى:

١ ـ المحور الأول: انبساط الدنيا وفيض المال وصبّه على المسلمين صبّاً:

بعد وفاة رسول الله ﷺ بسنين قلائل فُتحت البلاد والأمصار، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وفُتحت خزائن كسرى وقيصر وصُبَّت بين أيدي المسلمين صبّاً، وأُنفِقت كنوزُهما في سبيل الله، ولم يمضِ على المسلمين قرن إلا وأصبح الناس كلهم في غِنى، حتى لم يوجد بينهم من يقبل المال.

وانبسطت الدنيا وتدفقت الخيرات وكثرت الأموال أيام الدولة الأموية والأندلسية والعباسية والعثمانية، وهو أمر مشهور معلوم لا يحتاج إلى مزيد بيان، وقد مرَّ كثير من مظاهره ودلائله وأصنافه في كتابنا هـذا عند حديثنا عن الفتوحات[1].

وفي القرن المنصرم وإلى أيامنا أُغدقت الخيرات والأرزاق والأموال على المسلمين من وجوه كثيرة، وسالت بين أيديهم الكنوز وضاقت بها خزائنهم، فتفجَّرت أراضيهم بالخيرات الكامنة وقاءَتْ أفلاذَ أكبادها، من البترول والغاز الطبيعي والخامات المتنوعة من الذهب والحديد والفوسفات والنحاس والبوكسيت والمنغنيز والنيكل واليورانيوم... إلخ، أضف إليها الثروة الزراعية والحيوانية والمائية، والموانئ التجارية العالمية، وغير ذلك.. وكله يدرُّ على المسلمين أموالاً تقدَّر بمئات المليارات سنويّاً.

٢ ـ المحور الثاني: التنافس على الدنيا والمال، والسفه والشطط في تبديده وتبذيره:

وكان من حق الله تعالى على المسلمين، ومن أكبر واجباتهم تجاه دينهم وإخوانهم وبلادهم؛ أن يقدِّروا هـذه النعماء حق قدرها، ويشكروا الله عليها، ويعملوا بمرضاته فيها؛ فهل فعلوا ذلك؟.

---

(١) وانظر: النبوءة التالية، رقم (١٣١).

في دول متلاحقة، وبلاد شتى، وحِقَب متوالية، طال على كثير من المسلمين الأمدُ فقَسَتْ قلوبهم، وأقبلوا على الدنيا واغتروا بزهرتها، وتنافسوا على ملكها ومناصبها وسلطانها وجاهها وأموالها ومتاعها، وتخبَّطوا في نعم الله، وتخوضوا في الأموال، وسطَوْا عليها من أي وجه، وبدَّدوها في كل سبيل، ونَسُوا أوامر الله تعالى وتوجيهات نبيِّه ﷺ، وغفلوا عن رسالتهم التي اختارهم الله لأدائها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لقد أصبح كثير من المسلمين يقلِّدون الأممَ الجاهلية التي جاؤوا لإخراجها من الظلمات إلى النور، فانتكسوا وقلَّدوها في مدنيتها واجتماعها وأخلاقها ومناهج حياتها! لقد أصبحوا لا همَّ لهم ولا شغل إلا الأكل والشرب والتناسل، وأمسَوْا كالرَّعَاع ليس لهم فرقان ولا نور يمشون به بين الناس، وأشبهتْ ملوكُهم وأمراؤهم قياصِرتَها وأكاسرتَها وفراعنَتها، وأغنياؤهم مترفيها وأكابرَ مجرميها.. وكاد يسبق فجَّارُهم فجَّارَها: تحاسدٌ وبغضاء، ومنافسة في السلطان، وتكالبٌ على حطام الدنيا، وإخلادٌ إلى الترف والنعيم، وإعراضٌ عن الآخرة، وسفكٌ للدماء، وهتك للأعراض، وهضمٌ للحقوق، وغدرٌ بالذمم والعهود، وتعدٍّ على حدود الله، وإعانة للظالم، وجَنَفٌ في الحكومات والمظالم، وتبذير لأموال الله، وعموم الفواحش والمنكرات، وابتداع للجرائم، وإبداع في الخيانة[1]!.

تأمَّلْ ماذا فعل المترفون من المسلمين في الأندلس، وما أنفقوه من أموال في بناء القصور وزخرفة المساجد، وما بدَّدوه على المآكل والمشارب والزينة والتفاخر والتكاثر والتهالك على اللذائذ وتلبية الرغبات، ثم ارجع البصر إلى المسلمين في أواخر الخلافة العباسية التي استهلكها الترف، وأخملَتْها المآرب الدنيا.. فكانت العقبى أن سُلب المسلمون الأندلس وأُخرجوا منها، واستمكَن الأعداء من الخلافة العباسية المتهالكة ومزقوها شرَّ ممزَّق.

---

(١) المد والجزر، ص٦٣ ـ ٦٥.

ثم ارجع البصر كرة أخرى وقِفْ مشدوهاً أمام ما جرى للمسلمين في أخريات الدولة العثمانية من السرف والتبذير في أكوام الذهب التي طُليت بها جدران بعض القصور، وتفكَّر بالجهود الضخمة والأموال الهائلة التي أُنفقت لتشييدها وبناء قاعاتها وأروقتها، وما كان يتوَّج به الخليفة.. في الوقت الذي كانت المؤامرات الكبرى تُحاك في الداخل والخارج لإسقاط الخلافة، مع ما تنوءُ به خزانتها من ديون مُبْهِظة!.

ومُدَّ بصَرَك وأمسِكْ عليك عقلَك وانظر إلى عصرنا وما نحن فيه، فماذا تجد؟.

إن السفه في تبديد الأموال وتبذيرها وبعثرتها يميناً وشمالاً ومن أمام ومن خلف، والتخبُّط في اصطيادها وإنفاقها؛ قد جرَّ ذيلَ النسيان على كلِّ السَّفَه والتبذير الذي اقترفه من سبقنا.

لقد أصبحنا نرى ما يحيِّر الحليم، ويَغيظ الغيور، ويقضُّ مضاجع المصلحين! لقد تحوَّل المال في أيدي أربابه من سدنة الحكم وأصحاب الشركات والبنوك والعقارات والتجارات والصناعات ـ إلى لعنةٍ شاملة بدلَ أن يكون بركةً ينتفعون بها وينفعون، إنهم اختنقوا في ثرواتهم كما يختنق الغريق في لجة البحر[١]!.

عن خَوْلة بنتِ قَيْس رضي الله عنها، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوَةٌ، مَن أصابَهُ بحقِّه بُورِكَ له فيه، ورُبَّ مُتَخَوِّضٍ فيما شاءَتْ به نفسُه من مالِ اللهِ ورسولِهِ، ليسَ له يومَ القيامةِ إلا النارُ»**[٢].

---

(١) الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٢٥.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٤) واللفظ له؛ وعبد الرزاق (٦٩٦٢)؛ وأحمد: ٦/ ٣٦٤، ٣٧٨، ٤١٠؛ والحميدي (٣٥٣)؛ وابن حبان (٤٥١٢)،و غيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصحّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط؛ وأخرجه البخاري (٣١١٨) عن خولة الأنصارية.

لقد تفنَّنوا في اقتناص المال من كل وجه دون تمييز بين حلال وحرام، فانتهبوه من المال العام: من أثمان البترول والغاز والخامات وغيرها من موارد الدولة، ومن عوائد الربا، والسلب والنهب والغَصْب، والغش والسرقة والاختلاس، والاستغلال والاحتكار والقمار، والرِّشا والتجارة بالمحرّمات والشهوات والأعراض.. وغير ذلك مما يطول ذِكره.

وبدَّدوه وأفسدوا فيه وبَغَوا في الأرض، فكَبُّوه في وجوه الشر، واستغَلُّوه في خراب الذِّمم، وشراء الشهوات، واقتناص الملذات، وتحقير المآثر، ودفن آيات الوحي.. وبعثروه ذات اليمين وذات الشمال تنفيساً عن شهواتهم الدنسة، وطوفان اللذة الحيوانية في الخَنَا والخلاعة والمجون، ورَمَوه رخيصاً في ملاهي أوروبة وعلى شواطئها، وكدَّسوه في بنوك القوم الذين يستثمرونه في تصنيع الأسلحة التي يقتلوننا بها ويستعمرون بلادنا ويستنزفون خيراتنا.

ترى الواحدَ منهم حافيَ القدمين، صِفْر العقل، لا همَّة له من الدنيا إلا أن يَستجلب من اللذاذات ويقتني من العمارات، ما لم يحلم به العباقرة الذين أنهكتهم الأفكار والأشغال، ويريد أن يوفر لنفسه من ألوان النعيم وصنوف المشتهيات ما لا نظيرَ له في نيويورك، وما لم يطلبه لأنفسهم الرجال الذين فجَّروا الذرَّة[1]!.

لسنا نبالغ في هـذا، بل ما أشرنا إليه هو غيض من فيض، وصورة مصغَّرة جدّاً عما يعيش به وله كثير من أثرياء المسلمين وكبرائهم ومن يلوذ بهم.

٣ ـ المحور الثالث: الهلاك لمن يسلك هـذا السبيل:

وهـذا ما خشيَهُ رسول الله ﷺ على أمته وحذَّر منه، لكنها وقعتْ فيه.

فالذين تنافسوا على الدنيا وتباغضوا من أجلها وتقاتلوا عليها، وأسرفوا في

(١) كفاح دين، ص٢٢٦ ـ ٢٢٧.

الكسب والإنفاق، وبدَّدوا وبذَّروا، وركنوا إلى المُتع والشهوات ـ حَصَرتهم الأقدار، وسلَّط الله عليهم مَن أَذْهَب ريحَهم واستنزف أرزاقهم.

ولقد لوحظ من استقراء التاريخ أن الحضارات الكبرى لم يقتلْها إلا الترف، وأن الأمم العظيمة لم يُهلكها إلا البطر، وأنَّ تركَ الناس يرتعون في الشهوات رتع السوائم لن يجرَّ في أعقابه إلا البوار العاجل؛ قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

والتاريخ يشهد أن الأمم قد تداعت علينا عبر مراحل عدة، واستولت على بلادنا وأرخَصَتْ أرواحنا، عندما سيطر على المسلمين حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت.

ولقد دفع المسلمون ثمناً فادحاً لإخلادِهم إلى الأرض وحبِّهم الدنيا، فاجتاحتهم الأقدار بزلازل مروِّعة هدَّت كيانَهم، وأمكنت الصليبيين والتتار الوثنيين منهم، فأهلكوا الحرث والنسل، ومن تخطَّاه الموت هامَ على وجهه لا يجد مأوى له.

فالمسلمون في الأندلس والدولة العباسية والدولة العثمانية سقطوا جميعاً لما استهلكهم الترف وأفسدتهم المآرب الدنيا.

وفي تاريخنا الحديث تأمل الذلَّ والهوانَ الذي نزل بساحة العرب والمسلمين، حتى استضعفهم أحقر أمم الأرض، واستطاعت دويلة (إسرائيل) أن تهزم العرب في أكثر من معركة!

وبلادنا الآن مُستباحَة لكل نبَّاح ماكر، وواقعنا في فلسطين والعراق والصومال والسودان وأفغانستان والبلقان وغيرها؛ يشهد على ذلك.

وهـذا الثمن المرُّ يدفعه المسلمون لأنهم أخلدوا إلى الأرض، وتنافسوا على الدنيا، وشغَلَتْهم أموالهم وأهلوهم وشهواتهم عن الغاية الكبرى، فكانت النازلة الكبرى!.

ثالثاً: دروس وعبر:

من خلال ما أوضحناه في هـذه النبوءة يتجلَّى للقارئ بالتأمل عِبر وعظات كبيرة وجليلة كثيرة، ونومئ في النهاية إلى إلماعات وإشارات نافعة رئيسة:

١ ـ خشيةُ رسول الله ﷺ على أمته وإشفاقُه عليها من بسط الدنيا؛ فيه الحرصُ على صلاح هـذه الأمة، والتحذير لها من التخبط في المال كسباً وإنفاقاً، وركوب الشهوات والترف المُهلِك.

٢ ـ مخاطر الانشغال بالدنيا والتنافس عليها يجرُّ إلى الهلاك في الدين والدنيا، فلا تصح للمسلمين حياة ولا حرية، ولا تَسْلم لهم كرامة أو عزة.

٣ ـ بسط الدنيا على كثيرين أضاع منهم آخرتهم، لأنهم لم يفقهوا فلسفة المال ووظيفته والهدف من إغداقه عليهم، فتخبَّطوا فيه فهلكوا.

٤ ـ يجب على المسلم فهمُ هـذه النبوءة في ضوء الواقع، واستخدام المال فيما فيه خيره ونفع المسلمين في عمارة دنياهم وحفظ آخرتهم.

٥ ـ ينبغي الاتعاظ بسير الأمم والدول والأجيال التي سبقَتْنا، والاستفادة مما نبَّهت عليه الأحاديث في تاريخنا البعيد والقريب، وملاحظة السنن الإلٰهية فيه.

٦ ـ الغنى ابتلاء والفقر ابتلاء أيضاً، ومن الخطأ تصوُّر أن الإغناء تكريم والإفقار إهانة، بل العبرة بالنتائج، فالذي يستعف في فقره أرجح عند الله من الذي يطغى بغناه. والغني الذي يبذل ماله للفقير والمسكين ونفع أمته هو السابق في الميدان.

٧ ـ المال أمانة، وله وظيفة وغاية، إذا ضلَّ صاحبه عنها، أصبح نقمة عليه في الدنيا ووزْراً في الآخرة.

٨ ـ الأمة تدفع ثمن معاصيها في حبِّها للدنيا وإخلادها إلى الأرض.

٩ ـ أخطر أنواع الغنى الذي يأتي إلى غير رجاله من الرُّوَيْبضة والسفهاء،

حيث يقتنصونه من وجوه غير مشروعة، ويتخوَّضون فيه في عَبَثِهم وشراء ذِمم من يَلوذ بهم.

١٠ ـ المال عصب الحياة، وعماد قيام الأمم والحضارات، فيجب تثميره في بناء الدولة، وإنفاقه في مصالح الناس، والفقر لا يبني دولة ولا يحمي ديناً.

١١ ـ تكديس الثروات بأيدي بعض الأفراد والأعيان، واستغلال الناس البسطاء وامتصاص دمائهم، ولَّد شروراً مستطيرة من الأحقاد والتدابر، وانفجرت معه عواصف الإلحاد والشيوعية.

١٢ ـ الدين أوقد جذوة الأخلاق النبيلة، وحَصَّن الأنفس من الأَثَرَة والظلم، وأشاع بين الناس العطف والأخوة والمرحمة.



(٢٣١)

إخبار النبي ﷺ باستفاضة المال واستغناء الناس عنه

١ ـ عن حارثة بن وَهْبٍ الخُزَاعي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**تَصَدَّقُوا، فإنَّه يأتي عليكُم زمانٌ يَمشي الرجلُ بصَدَقتِه فلا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُها، يقولُ الرجلُ: لو جِئْتَ بها بالأمسِ لَقَبِلْتُها، فأمَّا اليومَ فلا حاجةَ لي بها**»[(١)].

٢ ـ وعن عَديِّ بن حاتم رضي الله عنه قال: (بَيْنَا أنا عند النبي ﷺ، إذ أتاهُ رجلٌ فَشَكا إليه الفاقةَ، ثم أتاهُ آخَرُ فَشَكا إليه قَطْعَ السَّبيل...) الحديث بطوله، وفيه: فقال النبي ﷺ: «**يا عديُّ... ولَئِنْ طالَتْ بكَ حياةٌ، لَتَرَينَّ الرجلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّه من ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَن يَقْبَلُه منه، فلا يجدُ أحداً يَقْبَلُه منه**»[(٢)].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتى يَكْثُرَ فيكُمُ المالُ، فَيَفِيضَ، حتى يُهِمَّ ربَّ المالِ مَنْ يَقْبَلُه منه صَدقةً، ويُدْعَى إليهِ الرجلُ، فيقولُ: لا أَرَبَ لي فيهِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١١) و(١٤٢٤) و(٧١٢٠)، واللفظ له؛ ومسلم (١٠١١)؛ والنسائي في الكبرى (٢٣٤٧)؛ وفي الصغرى: ٥/ ٧٧؛ وأحمد: ٤/ ٣٠٦؛ وابن أبي شيبة: ٣/ ٥؛ وابن حبان (٦٦٧٨)؛ والداني (٢٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٩٥)، وغيره؛ وانظر: الحديث بتمامه مع تخريجه في النبوءة (٢٧): ١/ ٢٥٩ (في هذا الكتاب).

(٣) أخرجه البخاري (١٤١٢)، وأطرافه في رقم (٨٥)؛ ومسلم (١٥٧) في كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، بعد الحديث (١٠١٢)؛ وأحمد: ٢/ ٣١٣، ٥٣٠؛ وابن حبان (٦٦٨٠)؛ والبغوي (٤٢٤٤)؛ وهذا لفظ مسلم.

أولاً: معاني الألفاظ:

ـ «**لا يجد من يقبلها**»: أي لعدم الفقراء في ذلك الزمان.

ـ «**يقول الرجل**»: أي الذي يريد المتصدق أن يعطيه إياها.

ـ «**الفاقة**»: الحاجة والفقر.

ـ «**يهم**»: ضبطوه بوجهين؛ الأول وهو الأجود والأشهر «**يُهِمّ**»: بِضَمِّ الياء وكسر الهاء، فيكون «**ربَّ المال**» منصوباً مفعولاً، والفاعل «**مَن يقبله**»، والمعنى: يحزنه. والثاني «**يَهُمّ**»: بفتح الياء وضَمّ الهاء، ويكون «**ربُّ المال**» مرفوعاً فاعلاً، أي: يقصد.

ـ «**لا أرب**»: لا حاجة لي به لاستغنائي عنه.

ثانياً: تحقق النبوءة:

●● يتبيَّن للباحث المدقق في الأحاديث الشريفة، والجمع بين أطرافها، ومقارنة ألفاظها ومقابلتها ببعضها، ثم في استقراء التاريخ ورَصْد الحِقب الزمنية التي أُغدقت فيها الأموال على المسلمين، وفُتحت الكنوز عليهم، وسالت بين أيديهم، وشاع بينهم العدل وحسن التوزيع وتجويد الاستثمار، نقول: يَستبين من خلال ذلك أن استفاضة المال وقعتْ أكثر من مرة وفي أكثر من زمان، وستقع في المستقبل أيضاً.

وقد تردَّد الحافظ في بداية الأمر ـ في أوائل «فتح الباري»[(١)] ـ في تنزيل هـذه الأحاديث على التاريخ، ثم استقرّ رأيُه في أواخر الكتاب على تقسيم دقيق، نحن نرجِّحه ونميلُ إليه، قال نَضَّر الله وجهه وأعلى مقامه:

(قوله ـ في حديث أبي هريرة ـ: «**حتى يكثر فيكم المال فيفيض**»: التقييد بقوله: «**فيكم**» يُشْعِر بأنه محمول على زمن الصحابة، فيكون إشارةً إلى ما وقع

(١) الفتح: ٤/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦، شرح الأحاديث (١٤١١ ـ ١٤١٣).

من الفتوح واقتسامِهم أموالَ الفرس والروم، ويكون قوله: «**فيفيض حتى يهم رب المال**» إشارة إلى ما وقع في زمن عمر بن عبد العزيز، فقد وقع في زمنه أن الرجل كان يَعرض مالَه للصدقة فلا يجدُ من يَقبل صدقته، ويكون قوله: «**وحتى يَعرضه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أَرَب لي به**» إشارة إلى ما سيقع في زمن عيسى ابن مريم.

فيكون في هـذا الحديث إشارة إلى ثلاث أحوال:

الأولى: إلى كثرة المال فقط، وقد كان ذلك في زمن الصحابة، ومن ثَمَّ قيل فيه: «**يكثر فيكم**».

الثانية: الإشارة إلى فَيْضه من الكثرة بحيث أن يحصل استغناءُ كل أحدٍ عن أخذِ مال غيره، وكان ذلك في آخر عصر الصحابة وأول عصر مَنْ بعدهم، ومن ثم قيل: «**يهم رب المال**»، وذلك ينطبق على ما وقع في زمن عمر بن عبد العزيز.

الثالثة: فيه الإشارة إلى فيضه وحصول الاستغناء لكل أحد حتى يهتمَّ صاحبُ المال بكونه لا يجدُ من يَقبل صدقته، ويزداد بأن يَعرضه على غيره ولو كان ممن لا يستحق الصدقة، فيأبى أخذه فيقول: لا حاجة لي فيه، وهـذا في زمن عيسى عليه السلام.

ويَحتمل أن يكون هـذا الأخير عند خروج النار واشتغال الناس بأمر الحشر، فلا يَلتفت أحد حينئذٍ إلى المال، بل يَقصد أن يتخفَّف ما استطاع[(١)].

وقد تحقق مصداق هـذه النبوءة في خلافة عمر بن عبد العزيز، وثبت ذلك عمن عاش في عهده وشهد تصديق ما أخبر به النبي ﷺ، وجزم به الإمام الكبير أبو بكر البيهقي، ورجَّحه الحافظ في «الفتح» فقال:

---

(١) الفتح: ١٦/٤١٩، شرح الحديثين (٧١٢٠، ٧١٢١).

(قوله في الحديث: «**فلا يجد أحداً يَقبله منه**»: تقدَّم في «الزكاة»[(١)] قولُ من قال: إن ذلك عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويَحتمِل أن يكون ذلك إشارة إلى ما وقع في زمن عمر بن عبد العزيز، وبذلك جزم البيهقي وأخرج في «الدلائل» من طريق يعقوب بن سفيان[(٢)] بسنده إلى عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: إنما وَلِي عمر بنُ عبد العزيز سنتين ونصفاً ثلاثين شهراً، لا والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعلَ الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هـذا حيث ترون من الفقراء، فما يَبْرَح حتى يرجعَ بمالِه، يتذكَّر مَن يَضَعُه فيهم فلا يجدُه، فيرجع بماله! قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس).

قال البيهقي: فيه تصديقُ ما روينا في حديث عَدي بن حاتم.

وعقَّب الحافظ على هـذا فقال: ولا شكَّ في رُجْحان هـذا الاحتمال على الأول؛ لقوله في الحديث: «**ولئن طالت بك حياة**»[(٣)].

•• والسببُ في عدم قبول الصدقة في عهد عمر بن عبد العزيز هو فيضُ المال، وبسطُه العدل، وإيصال الحقوق لأهلها حتى استغنوا[(٤)].

وأما عدمُ قبول الصدقة الذي سيقع في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام؛ فسببه: كثرةُ الأموال، ونزول البركات، وظهورُ كنوز الأرض، وتوالي الخيرات، وقلة الآمال عند الناس، وعدم ادخارهم المال، وقلة الرغبات في اقتنائه لاستشعارهم بقيام الساعة[(٥)].

•• ونقول الآن:

---

(١) الفتح: ٤/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦.
(٢) الخبر في تاريخ يعقوب بن سفيان الفسوي: ١/ ٥٩٩، وقد نقلت النص منه بحروفه.
(٣) الفتح: ٨/ ٥١٩، شرح حديث عدي (٣٥٩٥)، وقال مثله في الفتح: ١٦/ ٤١٢، وقال في حديث يعقوب بن سفيان: سنده جيد.
(٤) الفتح: ١٦/ ٤١٢.
(٥) الفتح: ٨/ ٣٣٠ (٣٤٤٨)، ١٦/ ٤١٣؛ شرح صحيح مسلم: ٤/ ١٠٥.

لو كان هناك في البلاد العربية والإسلامية أيدٍ أمينةٌ مخلصة تحفظ المال العام وتحميه، وتستثمره وتزكيه، وتنتهج العدالة في التوزيع، وتحارب الفساد بجدٍّ ويقظة، وتضرب ببأس على أيدي مختلسي أموال الأمة والدولة، ثم تكون هناك مؤسسات أمينة حرَّة تجمع الزكوات على وجهها وتضعُها في مستحقيها ـ لعاش الناس في رغد من الحياة وفَيْض المال مثل أولئك الذين كانوا في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعمر بن عبد العزيز، بل أكثر رغداً وسعةٍ!.

إن الأموال التي تتدفق على خزائننا تبلغ أرقاماً هائلة، لكن الفساد الذي استشرى والتبذير المهلِك قد أضرَّ بالأمة عامة، ففي تقرير نشرتْه منظمةُ (برلمانيون عرب ضد الفساد)(١)، والذي وضع مؤشراً للفساد يتراوح ما بين (١٨٠) و(١٠)، كانت الدول العربية تحتل الأرقام الأكبر، وتراوح المؤشر فيها ما بين (١٧٩) في الصومال و(١٧٨) في العراق، وأدناها (٣٢) في قطر! بينما في (إسرائيل) وصل المؤشر إلى (٣٠)، وفي الولايات المتحدة الأمريكية (٢٠)!.

●● إن عمر بن عبد العزيز بحث في أرض الإسلام الواسعة عن فقير يأخذ الزكاة فلم يجد، فاضطر إلى أن يشتري بها عبيداً، ويحرّرهم، وهذا من مصارف الزكاة.

فأين مدَّعو العلمانية والليبرالية والديمقراطية و... المتشدِّقون بشعارات العدالة وحقوق العمال والفلاحين، ومحاربو الإقطاع، ومشرِّعو التأميم والإصلاح الزراعي وسواها من الأعمال البائسة التي لم تجرَّ على الأمة سوى المزيد من الفقر، واتساع الفجوة بين طبقات الشعوب، حيث لم يبقَ هناك ثلاث طبقات: أغنياء ومتوسطو الحال وفقراء، بل ثلاث طبقات من نوع آخر: أثرياء ثراء فاحشاً، وفقراء، وآخرون تحت خط الفقر، والطبقة الوسطى ضئيلة تكاد تتلاشى!.

---

(١) نقلاً عن: قناة الجزيرة، حصاد اليوم، ٢٩/٧/٢٠٠٨م.

إخبار النبي ﷺ عن أقوام يحبون الدنيا ويرون الجهاد ضرراً والزكاة مغرماً

عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليَأْتِيَنَّ على الناس زمانٌ قلوبُهم قلوبُ الأعاجم**»، قيل: وما قلوبُ الأعاجم؟ قال: «**حبُّ الدنيا، سُنَّتُهم سنَّةُ الأعراب، ما أتاهم من رزقٍ جَعَلُوه في الحيوان، يَرون الجهاد ضَرراً، والزكاة مَغْرَماً**»(١).

۞ ۞ ۞

●● يصف النبي ﷺ أقواماً من أمته سيأتون في قابل الأيام، ويشبِّههم بصنفين من الناس هم الأعاجم والأعراب، ويبيّن ﷺ أوجه الشبه بينهم وبين هـذين القبيلين الكبيرين من البشر: فقلوبُهم تشبه قلوبَ الأعاجم في حبِّ الحياة، وعقولُهم وتفكيرهم ونمط حياتهم ورغباتهم على سنَّة الأعراب يرضون بالزرع والضَّرْع!.

وقد اشتهر في أيام الصحابة ما كان عليه الأعاجم الفرس من تعلّق بالحياة، لما هم فيه من بسطة في المعاش ورغد في الأرزاق وكثرة الزينة والأموال

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: ١٣/ ٣٦ (٨٢)؛ وأبو يعلى؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٣/ ٦٥، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه بقية بن الوليد وهو ثقة ولكنه مدلِّس، وبقية رجاله موثقون. وذكره الألباني في الصحيحة (٣٣٥٧) وجوَّد إسناده، وبقية صرح بالتحديث عند الطبراني.

والإخلاد إلى اللذائذ والشهوات، وبخاصة في أكاسرتهم ومَرازِبتهم وعِلْية القوم منهم..

ويتضح ذلك من خلال مواقف كثيرة لهم مع المسلمين أيام الفتوحات الإسلامية، وهـذا ما تعبر عنه رسالة سيف الله خالد بن الوليد التي وجهها إلى قائد الفرس هُرْمز، حيث يقول فيها: (أمَّا بعدُ، فأَسْلِمْ تَسْلَم، أو اعتقِدْ لنفسك وقومك الذمَّة وإقرارَ الجزية، وإلا فلا تلومنَّ إلا نفسَك، فقد جئتُك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة).

وأوضَحَ أن هـذه الخَصْلة مزروعةٌ في قلوب عامتهم، فكتب في رسالة أخرى يقول فيها: (من خالد بن الوليد إلى مَرَازِبة أهل فارس..) فذكر كلاماً فيه حمدُ الله تعالى، ودعوتُهم إلى الإسلام أو الجزية، ثم قال: (وإلَّا واللهِ الذي لا إلـٰه إلا هو لأسيرنَّ إليكم بقوم يحبّون الموت كما تحبون الحياة، ويَرْغَبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا)(١).

فهؤلاء القوم من المسلمين يُشْبهون الأعاجم في هـذه الخَصْلة.

كذلك هم على طريقة الأعراب في الإخلاد إلى الأرض وما تدرّ، والحيوانات وما تنتج، وهـذا لا يقيم اقتصاداً ولا يبني دولة ولا يحمي أنفساً ولا ديناً ولا أرضاً! فهم لا يرفعون رأساً للعلوم والصناعات والتجارات وسياسة المال وإدارة الدولة وحماية أركانها وحدودها.

وربطَ الحديثُ حبَّهم للحياة بأمرين؛ فهم يرون الجهاد ضرراً والزكاة مَغْرماً. والجهاد فيه كفاح ونضال وتضحية ومشاق وتعرُّضٌ للأهوال، فهو مَظِنَّة إزهاق الأرواح بالشهادة في سبيل الله، فهم لذلك يرونه ضرراً حيث يَذهب بأنفسهم ويُفقدهم تلك الحياة التي يتشبَّثون بها.

والزكاة فيها إنفاقُ المال وإخراجُ حظٍّ معلوم منه في أوجه معروفة، وهـذا

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٣٤٦ ـ ٣٤٨؛ خالد بن الوليد، للصادق عرجون، ص٢١٠، ٢٢٥.

في ظاهره ـ عندهم ـ فيه نقصان من المال، فيشكّل غُرْماً لهم وتضييعاً لجزء من ثروتهم التي فيها استمرار حياتهم وبقائهم.

فحبُّهم للحياة والبقاء يستدعي كراهيتهم للجهاد وإنفاق المال، ذَيْنك الركنين اللذين تقوم عليهما وتستمر بهما حياتهم الهابطة تلك!.

●● والإسلام أيقظَ في الأمة العربية خصائص الطبيعة الفيَّاضة بالقوى الروحية التي لا تقيم وزناً للمخاطر، ولا تركنُ إلى المتاع الزائل، فتستجيب إلى داعي السماء غير عابئة بصوت الأرض، فالجهاد بالنفس والجود بالمال فيهما حماية الدين والبلاد والكرامة والشرف.

والإسلام لا يحتقر الدنيا، ولا يرغب بنَفْض الأيدي منها، ولا يُلغي الغرائز المركوزة في النفس البشرية، ولا ينبغي أن يُظَنَّ هـذا بتعاليمه، وكتابُه الكريم يـقـول: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧]..

ولكن الإسلام يريد من المرء أن يملك نفسه لا أن تملكه نفسه، وأن يكون إنساناً سيّداً يحكمُ رغباته لا إنساناً تافهاً تحكُمه رغباته. يريد من المسلم أن يكون راشداً مرشداً، صالحاً مصلحاً، يحرص على غرس أعواد التقوى في المجتمع ويرعاها حتى تزهر وتثمر. يدخل معترك المعاش وضجيج الحياة، ويجنِّد لها مواهبَه ويَبذل طاقاته في مختلف مرافق الحياة وحيثما وُجد في اختصاصه، سواء كان وزيراً أو مديراً أو طبيباً أو مدرّساً أو مهندساً أو موظفاً أو صانعاً أو مزارعاً أو حرفيّاً، يتقن عملَه، ويُخلِص نيته، ويربط قلبه بربِّه، ويعمل لنفسه ولأمته، فهذا عملُه عبادة، تحركه مبرور، وسعيه مشكور، وجهده مأجور.

أما الذي ذَمَّه الإسلام وجاء هـذا الحديث يبيّن نمطاً منه، فهو ذلك الصنف من الناس الذي أَخْلَدَ إلى الأرض، ودخل معترك الحياة وكَدَح وتَعِبَ ونَصِب وجمَع الأموال وعَبَّ من الشهوات وغَرِق في اللذائذ وتشبث بالرغبات وتلهّى بها عن واجباته تجاه دينه وأمته وآخرته، جموع مَنُوع من أحرص الناس على حياة،

يضنُّ بالمال أن ينفقه؛ يرى الصدقات خسارة والزكاة غرامة، والجهاد ضرراً بالنفس وقطعاً للشهوات والملذات، فهو كما قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يُبغِضُ كلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ في الأسواق، جِيفَةٍ بالليل، حمارٍ بالنهار، عالم بالدنيا، جاهل بالآخرة**»(١).

●● **وهؤلاء القوم وجدت نابتتهم في تاريخنا الإسلامي قديماً وحديثاً، وهم الآن أعلى صوتاً وأغلظ وجوداً وأكثر نفيراً**، وامتدادُ وجودِهم شكّل مصدر خطر على حياة الأمة ودينها وأرضها وثرواتها في كل زمان ومكان، وهم في هـذا العصر أعظم بلاءً وأكثر ضرراً وأشدّ فتكاً.

لقد ذَوَتْ جذوة العقيدة في قلوبهم وذَبَل توقُّدها، وغابت الغاية السامية التي يكدحون لبلوغها، وخَفَتَ صوتُ الحَدَّاء الذي يهوّن عليهم مصاعب الطريق ولأواءَ الحياة، وجَفَّتِ المعاني الرفيعة من أرواحهم، فتخدَّرت أعصابهم، واستُلَّ اليقين من ضمائرهم؛ فشَبُّوا على الشهوة الحاضرة واللذة القريبة والهدف الدني، والتصقوا بالأرض وأصغَوْا إلى داعي الجسم والبطن والفرج وسفاسف الأمور، والشَّرَه في الشهوات الدنيا من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومركب، وذَهَلَت أفئدتهم وطاشتْ أحلامهم عن داعي السماء والارتفاع المتسامي عن التراب، واغتيلت من قلوبهم معاني التضحية والفداء والإيثار والبذل والعطاء، والآمال العِراض والمطامح العظام؛ فعَمِيت القلوب التي في الصدور، وتوارت النفس اللوامة، وضَعُف الوازع الديني الذي أدى بهم إلى فنائهم ماديّاً وأدبيّاً، فبرزت حظوظ النفس ونشطت نوازع الهوى، وأصبح أمرهم فُرطاً وأشواقهم سائبة جامحة، فالجهاد بالنفس عندهم مضَرَّة نازلة ومَهلكة محققة، والجهاد بالمال مغرم ومَتْلَفة، فهذا وذاك يهددان حياتهم، وينهيان بقاءهم، فلا غَرْوَ أن يشعروا بالضرر في الجهاد، وبالخسران في الإنفاق!.

---

(١) أخرجه ابن حبان؛ والبيهقي في السنن؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٨٧٨).
والجَعْظَري: الفَظّ الغليظ المتكبِّر. **الجَوَّاظ**: الجَمُوع المَنُوع. **سَخّاب**: السّخَب والصَّخَب بمعنى الصِّياح.

فأطلقوا لأهوائهم العِنَان في تلبية مطامع النفس وشهوات البطن بلا رقيب ولا حسيب، ولا حدود ولا قيود، بدعوى إطلاق الحرية الشخصية، ومَنْع الكبت، ومقاومة الحرمان، وتخفيف المعاناة اليومية في الكدح والتعب وما يترامى إليهم من أخبار عما يدور حولهم من أصناف القتل والتشريد.

ولَاحَقَتْهم في تأجيج ذلك كله آلاتُ الإعلام الضخمة في الليل والنهار، والسر والجهر، تؤزُّهم فيما يرتعون فيه أزّاً، فنشأ منهم جيل شَبَّ على النعماء والاسترخاء، وصَلُب عوده على الليونة والطراوة، فلم يعبأ بنصرة دين، ولا بحقوق إخوته من المسلمين القريب منهم والبعيد.

(أَلَا ما أحقرَ السرورَ يجيءُ وليدَ غفلةٍ عن الحقوق المقدَّسة، أو ذهولٍ عن الواجبات الكبار!.

وليتَ شعري كيف تهنأُ الأيام، وصوتُ الباطل يحاول طمسَ قضايانا، وصريخُ المجاهدين يذهب في الفضاء ولا من مجيب؟! وصدق القائل:

صياماً إلى أن يَفْطُرَ السيف بالدَّمِ ... وصَمْتاً إلى أن يَصْدَحَ الحقُّ يا فَمِي!

أَفِطْرٌ وأحرارُ الحِمى في مجاعةٍ ... وعِيدٌ وأبطالُ الجهادِ بِمَأْتمِ؟!)[1]

والحق أن أقواماً تستهويهم الشهوة وتُلهيهم البِطْنة وتأسِرُهم اللذائذ، ولا تستهويهم أحاديث المجد ونداءات التضحية والبذل؛ هم قوم لا خيرَ فيهم، ولا معوَّل عليهم!. وإن أمة يكثرُ فيها أمثال هؤلاء، ستقذف بها أمواج المُجِدِّين والأيقاظ إلى مؤخّرة الركب، ولن تجد لها بين الأحياء مكاناً.

●● وهؤلاء الذين أَلِفوا طراوة العيش، وغرِقوا في تلبية المُتَع والشهوات، وتشبثوا بالحياة؛ حريٌّ بهم أن يهربوا من الجهاد ويخافوه ويعتبروه ضرراً! فمثلهم يمكن أن يُدفعوا بالأيدي إلى الأمام، بيد أنهم لن يندفعوا من تلقاء أنفسهم، وهيهات أن يقطعوا شوطاً أو يبلغوا هدفاً.

---

(١) كفاح دين، ص٢٥٥.

وآنذاك ينزل بهم وعدُ الله وسُنّته:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وهذا التاريخ شاهد على المسلمين في كل مرة يَكِعُّون عن الجهاد والاستبسال والتضحية، ويضنُّون بالنفس عن تقديمها لنصرة الدين وحماية البلاد والدفاع عن الأهل والمال والولد؛ تحصُدُهم الأقدار، ويأتي الله بجنده المجاهدين ليجدِّدوا أمر الدين ويحموا بلاد المسلمين ويحرروها من المعتدين الغاصبين.

فانظر ما جرى في الأندلس، وفي سقوط الخلافة العباسية والعثمانية، واعتبِرْ بالجهاد العظيم الذي قام به المُرابطون والموحِّدون والسَّلاجقة والمماليك وآل زَنْكي وصلاح الدين وحركات التحرر من الاستعمار الحديث..

إن الأجناس التي دخلت في الإسلام نجدت العربَ في فلسطين، وحرَّرتْ بيتَ المقدس يومَ غَرِق العرب في خلافاتهم، وأحاطت بهم مآربهم وخطاياهم، ومكَّنوا الصليبيين الأوائل من اجتياح البلاد والعباد، وأجروا مذابح تقشعر منها الجلود(١).

وتنظيفُ الأوطان العربية والإسلامية من الاستعمار الأجنبي كان العاملَ الأكبرَ فيه هو الجهادُ الإسلامي الذي اندفعت بحرارته جماهيرُ الثائرين. والإنكليز والفرنسيون والطليان والهولنديون لم تتزلزلْ أقدامُهم في البلاد التي احتلوها، ولم يُكْرَهوا آخرَ الأمر على الجلاء منها إلا تحت تأثير هذا الجهاد الموصول(٢).

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٤١.

(٢) معركة المصحف، ص٤٠.

وما يقوم به المجاهدون الآن هو حلقة موصولة بالركب الميمون على مدار تاريخنا بما فيه من آمال وآلام، وكَرٍّ وفَرٍّ.. ها هي ذِه كتائبهم تقارع الطغيان والجبروت الصليبي والوثني واليهودي في البلقان والشيشان وأفغانستان وكشمير والفلبين والصومال والعراق وفلسطين.

مع وجود فريق ضخم من الذين وصفهم الحديث في هذه النبوءة ممَّن يرون الجهاد ضرراً، ويسمُّونه (عُنفاً) أو (إرهاباً) أو (حرباً بالوكالة)!..

إن هناك جيوشاً مجندة للتنفير من الجهاد واعتباره خطأ استراتيجيّاً لا يُفلح في مجابهة ترسانة الحرب الضخمة لدى الأعداء، وجنود هؤلاء الكارهين للجهاد المنفِّرين منه تتمثل في كتَّاب وصحفيين ومفكّرين ومنظّرين وخطباء ومفتين وساسة وعملاء ومتخاذلين ودعاة استسلام وتطبيع وقبول بالاحتلال، ومن سار في فلكهم.

وجهودهم مجتمعة لن تقِف تيارَ الجهاد فهو ماضٍ إلى يوم القيامة.

●● أما التهرب من الزكاة واعتبارها خسارة ومَغْرماً:

فهذا الركن العظيم من أركان الإسلام تسهر الدولة الإسلامية على حمايته وتسعى في أدائه، وتضرب على أيدي المقصِّرين فيه والمتقاعسين عنه، لأنه حق المسلمين في أموال الأغنياء، ولا خيار لهم في إرجائه أو إلغائه.

(ونحن نعرف كيف نهضَتْ دولةُ الخلافة أيامَ رئيسِها الأول أبي بكر ﵁ إلى مقاتلةِ مانِعي الزكاة، وكيف سيَّرت الجيوشَ لمقاتلتهم جنباً إلى جنب مع المرتدين عن الإسلام، وكيف قال أبو بكر ﵁ في عزم: «واللهِ لو مَنَعُوني عِقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه!» وكيف ظاهَرَه على عزمه هذا سائرُ الصحابة ﵃، وجمهورُ المسلمين)[1].

وبقي المسلمون أوفياءَ لهذه الفريضة على ما عَرَا دولَهم من هَنَات واعترى

(١) المرجع السابق، ص١٧.

مسيرتهم من ضعف، إلى أن سَقطت الخلافة وانفرط العِقد الجامع والحزام الذي يربط جموع المسلمين ويحرس شعائرهم وشرائعهم، وتسلّلت أمراض الجشع والطمع وحب الدنيا والضنّ بالمال، فنشأ فريق من الناس تقاعَسَ عن أداء الزكاة، وبمرور الزمن وتطاولِ الأمد وَضَعْف الرقيب وفقدان الحسيب؛ كثرت جموعُ هـذا الصنف من الناس وأصبحوا يرون إخراجَ حق الله وحق المسلمين في أموالهم ضَرْباً من الغرامة وسبيلاً إلى النقص، فتهربوا من أدائها وأسقطوا حقوق المسلمين فيها.

وثمّةَ مَن يتهاون فيها ويُخرج جزءاً من ماله على سبيل الصدقة والتبرع لا على أنها فريضة لازمة محدَّدة الكمية معروفة المصارف، فلا يُتعِب نفسه في إحصاء ثرواته، ولا يُجَشِّم المحاسبين في تقدير أمواله بدقة، فيجود بمبالغ لا تكافئ الزكاة المفروضة، لأنه لم يرتفع في إيمانه إلى معرفة أن الزكاة حق معلوم مثلما أن الصلاة كتاب موقوت! فكما أنه لا تصح الصلاة إذا نقصتْ شرائطُها أو أركانها أو عددُ ركعاتها، فكذلك الزكاة لا تُجزئ إذا فَرَّط في أدائها كاملة غير منقوصة ولو دراهم معدودة.

وهـذا الفريق وذاك إنما يُدخِلون في أموالهم المال الحرام، ويأكلون مع أولادهم ومن يَعُولون السُّحْتَ، وهو أحدُ أنواع أكل أموال الناس بالباطل، فالزكاة المفروضة في ثرواتهم هي أموال المسلمين لا أموالهم هم.

وهؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، تراهم يبدِّدون الأموال، ويبذِّرون في الإنفاق هنا وهناك، ويتسافهون في إلقائه بوجوه الحرام، وهم في ذلك خونةٌ لأنفسهم ودينهم وأمتهم، لما في عملهم ذاك من الحرمان لليتامى والأرامل والفقراء والمساكين والجياع والمحرومين والمرضى والذين لا يجدون ما يسد جَوْعَتهم أو ما يَستر عورتهم.

أَلَا ترى أن أولئك المفرِّطين بأداء زكوات أموالهم هم من الأسباب التي

توقع جماهيرَ من المسلمين في الهلاك والموت والمرض، أو في براثن التبشير والتكفير؟!.

●● وهناك جندٌ كثيفٌ من جنود الشيطان يساعدون ذلك الفريق من المتهاونين في أداء الزكاة والهاربين من حقها، حيث يُطارِدون في بلاد الإسلام من يؤدي الزكوات والصدقات، ومن يسعى عليها ويؤديها إلى مستحقيها.

والحملات الفاجرة على (المؤسسات الخيرية) واضحة معلومة لكل ذي لبٍّ غيور على الإسلام مُشفِق على أهله! لقد أُغلِقت مئات من تلك المؤسسات المباركة بدعوى أنها تموِّل الإرهاب وتعين المتمردين على جيوش الاحتلال هنا وهناك من أرض الإسلام! في الوقت الذي لم تُمسّ فيه مئاتُ الألوف من المؤسسات اليهودية والصليبية التي ترفد أتباعَها بالمال الوافر وتجنِّده في الصدِّ عن الإسلام.

ودموعُ الفقراء، وصرخات اليتامى، وآهاتُ الأرامل، وجؤارُ الجياع، تملأ الأسماع والأبصار، وتضجُّ صاعدةً إلى السماء، ولن ينجو من حرَمَهم حقوقهم أو سعى في ذلك من نقمة الله في الدنيا وعذابِه الأليم في الآخرة.



١٣٣

إخبار النبي ﷺ بمجيء زمانٍ لا يبالي المرءُ فيه من حيثُ كَسَبَ المالَ

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زَمَانٌ لا يُبَالي المرءُ بِمَا أَخَذَ المالَ أَمِنَ الحَلالِ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟!**»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: توطئة بين يدي النبوءة:

المال في الأصل: ما يُملك من الذهب والفضة، ثم أُطلِق على كل ما يُقتنى وما يُملك من الأعيان، فهو يشمل النقود والأراضي والسلع والأبنية والثروة الحيوانية والزراعية وغيرها.

والإنسان بطبعه يحبُّ المال ويحرص على جمعه وتكثيره، وقد وصف الله سبحانه الناس في القرآن بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وزُيِّن لهم ذلك والاستزادة منه ولو بَلَغ القناطير كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٩) و(٢٠٨٣) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٥٩٩٨)، وفي الصغرى: ٧/ ٢٤٣؛ وأحمد: ٢/ ٤٥٢؛ وابن حبان (٦٧٢٦)؛ والبيهقي في السنن: ٥/ ٢٦٤؛ وفي دلائل النبوة: ٦/ ٥٣٥؛ والبغوي (٢٠٣٣).

وقد نَبَّه القرآن الحكيم على أن المال فتنة وابتلاء واختبار، فقال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وأكدت ذلك السنَّة النبوية، فعن كَعْب بن عِياض الأشعريِّ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ لكلِّ أمةٍ فتنةً، وإنَّ فتنةَ أمتي المالُ**»[1].

ويَحْسَب بعض الغافلين أن كثرة المال والغَدق في الرزق والسعة في العطاء؛ هو مكرمةٌ لشخصه وتفضيلٌ له، بينما يظنُّ آخرون أن قلّةَ ذات اليد والتضييقَ في الرزق؛ هو إهانةٌ وضَعَةٌ في المنزلة!.

وهـذا وذاك خطأ نبَّه القرآن عليه بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦].

وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧][2].

لهـذا يجب على العاقل أن ينظر إلى المال نظرة حَصيفة عاقلة، يعيش فيه يومه ويبني لآخرته، يجدّ ويكدّ ويسعى ويدأب في تحصيله من وجوهه المشروعة، ويصرفه في مسالكه الخيِّرة، ولا يَلهث في اقتناصه من أي وجه غير عابئ بحلال أو حرام، فيكون وبالاً عليه في الدنيا، ونقمة وعذاباً في الآخرة.

وفي هـذا السياق يأتي الإرشاد النبوي الكريم في هـذه النبوءة، فيحضُّ على تحري الحلال في الكسب، والبعدِ عن الشبهات، ومجانبة كل سبيل يؤدي إلى أخذ المال الحرام قليلاً كان أم كثيراً. وحذَّر النبي ﷺ وأنذر من مَغبة ذلك،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٦)؛ والنسائي في الكبرى (١١٧٩٥)؛ وابن حبان (٣٢٢٣)؛ والحاكم: ٤/ ٣١٨، وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وصحَّحه الحاكم وأقره الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي، والصحيحة (٥٩٢)، وصحيح الجامع (٢١٤٨).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٤٧ ـ ٤٨؛ تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦٠٤.

وأخبر بأنه سيأتي زمان يَضِلُّ فيه أقوام سبيل الحق في اكتساب الأموال، فيتخبَّطون تائهين وراء أهوائهم وشهواتهم الجموح، فيخطَفون الأموال من أي وجه أتت، غير مبالين بحلال أو حرام.

وصدَّقتِ الأيام قوله ﷺ، وما كان لها إلا أن تصدقه وهو الذي لا ينطق عن الهوى، وكَثُر في زماننا الصعب هذا أولئك الذين جمعوا المال من حِلِّه ومن غير حلِّه!.

ثانياً: دعوة الإسلام للكسب الحلال و تحريه، وذمه للكسب الحرام وتنفيره منه:

●● وقد حض الإسلام على الكسب، ودعا إلى الضرب في مناكب الأرض ابتغاء الرزق، لكنه أكد على أن يكون ذلك من الحلال الطيب.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النحل: ١٤].

وقال ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

بل إن الإسلام دعا إلى العمل والكسب والارتزاق بعد أداء صلاة الجمعة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

كذلك رفع عن الناس الحرج من التجارة في أيام الحج ما دامت لا تخلُّ بالقيام بتلك الفريضة الجليلة، مع أن المسلم قد لا يؤديها إلا مرة في عمره، وفي هذا يقول الحق سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن

رَبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وعن المِقْدام بن مَعْدِي كَرِب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ما أكَلَ أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يدِه، وإن نبيَّ الله داودَ عليه السلام كان يأكلُ من عملِ يدِه**»(١).

والمال محبوب للإنسان، وربما غَلَب حبُّه فكسبه صاحبه من أي وجه، فبيَّن الإسلام مخاطر ذلك وأن الله لا يقبل إلا الطيب، وهذا سبيل المرسلين ومن سار على هديهم من المؤمنين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس! إن الله طيِّبٌ لا يَقبلُ إلا طَيِّباً، وإن الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. **ثم ذَكَر الرجلَ يُطيل السفَر، أشعثَ أغبرَ، يَمُدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ! ومَطْعَمُه حرامٌ، ومَشْرَبُه حرامٌ، ومَلْبَسُه حرامٌ، وغُذِي بالحرام، فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!**»(٢).

وفريق من الناس لشدة حرصه على المال ورغبته في تأثُّلِه يهيم على وجهه في تكثيره يومه وليله، ويخلُب عقلَه، ويسلُب لبَّه، فيقع في الآثام والحرام لذلك.

فيأتي التوجيه النبوي ليُكَفْكِف جماحَه ويرفعه إلى الأعلى ويعلِّق قلبه بالسماء، ويَرْكُز في فؤاده أن طلبَ الحلال واليقين بما عند الله تعالى يَجمع شمله ويزيد رزقه ويُبارك له فيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢)؛ وأحمد: ٤/ ١٣١، ١٣٢؛ والبغوي (٢٠٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥)؛ والترمذي (٢٩٨٩)؛ والدارمي (٢٧١٧)؛ وأحمد: ٤/ ٣٢٨؛ والبغوي (٢٠٢٨).

عن أنس بن مالك ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَن كانت نيتُه طلبَ الآخرة، جَعل الله غِنَاهُ في قلبه، وجَمَع له شَمْلَه، وأتته الدنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت نيتُه طلبَ الدنيا، جَعل الله الفقر بين عينيه، وشَتَّتَ عليه أَمْره، ولا يأتيه منها إلا ما كُتِب له**»(١).

●● والذي يوسوس له الشيطان، وتزيِّن له نفسه أن يكتسب المال من أي طريق تيسَّر له، ولا يبالي في معاملته للآخرين أن يخدعهم أو يغشهم، فيأكل أموالهم بالباطل، فهـذا يسيء بذلك إلى نفسه وأمته ودينه أبلغَ إساءة.

والإسلام حرَّم أخذ أموال الناس بغير حق مهما كان ضئيلاً، وضَيَّق على المسلم هـذا السبيل حتى لا يقع في الشَّرَه والتكالب على الدنيا.

عن أبي حُمَيدٍ الساعديِّ ﷺ: (أن النبيَّ ﷺ قال: «**لا يَحِلُّ لامرئٍ أن يأخذَ عَصَا أخيه بغير طيبِ نفس منه**». قال: وذلك لشدَّة ما حَرَّمَ الله ﷻ على المسلم من مال المسلم)(٢).

وربما اغتر المرء بما لديه مع أنه قد خَلَط الحرام بالحلال، ولم يتَّقِ الشبهات، وهو سادرٌ في سبيل المعصية، ورأى من أمثاله جَمّاً غفيراً من الناس الذين تكثر أموالهم على ما هم عليه من فسق وعصيان وكسب حرام.

وهؤلاء على خطر عظيم أشار إليه القرآن الكريم وأكدته السنَّة المطهرة.

عن عقبة بن عامر ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ من الدنيا على معاصيه ما يحبُّ؛ فإنما هو استدراجٌ**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥)؛ والبغوي (٤١٤٢)؛ وصحَّحه الألباني بشاهده، في صحيح الترمذي، والصحيحة (٩٤٩). وشاهده عن زيد بن ثابت بإسناد صحيح، انظر: الصحيحة (٩٥٠)؛ وهامش شرح السنة، للبغوي: ١٤/ ٣٣١.

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٤٢٥؛ والبزار (١٣٧٣)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٨٢٢)؛ وابن حبان (٥٩٧٨)؛ والبيهقي في السنن: ٦/ ١٠٠، ٩/ ٣٥٨؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤][1].

ثالثاً: صور ونماذج من أكل المال الحرام، مما تفشى في هــذا الزمان أمره وربا خطره:

١ ـ **الربا**: وهو من الموبقات الكبرى التي وقع في شرِّها كثير من الناس، وأصاب غبارها الجماهير، وتقوم عليها بنوك ومؤسسات ومصانع ومشاريع وشركات وسواها، مما عمَّ إثمه واستطار خطره.

٢ ـ **الرَّشوة**: وقد شاعت في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وهي لا تقتصر على رشا الصغار والعمال والموظفين الذين يرضون بالقليل من هـذا السُّحْت، بل توجد على مستوى كبار القوم والقائمين على مؤسسات الدولة في الداخل والخارج، وتبلغ مقاديرها الملايين وأحياناً المليارات، كما يحدث في صفقات بيع وشراء النفط والأسلحة ومواد البناء والصحة ونحوها، وتتمُّ بطرق قانونية وأوراق ثبوتية حتى لا يُدان فاعلُها، كما تدلُّ على ذلك دراسات عالمية موثقة، وأنَّى لفاعل ذلك أن يفلت من عقاب الله تعالى والفضيحة الكبرى يوم العرض!.

٣ ـ **الغش**: وهو نمطٌ من أكل المال الحرام شاع قديماً، وانتشر حديثاً بصورة مرعبة، وعلى مستويات دنيا وعليا.

والغش في كل شيء طبيعةُ الأمم المنحطَّة، وربما وَقَرَ في الأذهان أن الغش لا يعدو خداعَ المشترين بإيقاعهم في سلعة خفيَّة العيوب لقاءَ ثمنٍ كامل، وهـذا غلط، فإن الغش يتجاوز هـذا النطاق إلى كل عملٍ خَلَا من الكمال، وكان يجب أن يؤدَّى على خير وجه ما دام صاحبه قد تناول ثمنه كاملاً.

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ١٤٥؛ والطبراني في الكبير: ١٧/ (٩١٣)؛ والطبري في تفسيره (١٣٢٤٠) و(١٣٢٤١)؛ والبيهقي في الأسماء والصفات، ص٤٨٨؛ وحسَّنه العراقي في تخريج الإحياء: ٤/ ١١٥؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤١٣)، وصحيح الجامع (٥٦١).

فالمقاول الذي يغش في مواد البناء أو مقاديرها يكسب مقداراً من المال قلَّ أو كثُر، ثم بعد أن يسكن الناس في المبنى يتعرَّضون للأخطار التي تعكِّر صفوَهم، أو تخترم آجالهم.

والمصانع التي تشوبُ الطعام أو الدواء بما ليس منه، وتعرضه في الأسواق على أنه سلعة كاملة الخصائص، نقية الأوصاف، تعرِّض الصحة العامة لبلاءٍ بعيد المدى، وتصيب الجمهورَ المسترسل الخالي الذهن بمتاعب شتى.

وقِسْ على هـذا أصنافاً كثيرة من الغش ترعرعت في تعاملات الناس الرديئة.

وهـذا هو السر في أن النبيَّ ﷺ نفَى الغاشِّين من المجتمع الإسلامي، وعَدَّهم خونةً له، وخارجين عليه، وجَمَعَهم مع المارقين في سلك واحد[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حَمل علينا السلاح فليس مِنَّا، ومَن غشَّنا فليس منَّا**»[2].

٤ ـ **السرقة**: وهي نوع مشهور من موارد المال الحرام، ولها أشكال وألوان، ولا تقتصر على اختلاس المال ونهبه من الآخرين، فالعامل الذي يتوجَّب عليه أن يعمل ثمانيَ ساعات فيضيِّع بعضَها هو سارق للوقت، وبالتالي سارق للمال! والموظف الذي يتأخّر عن عمله أو يتلهى بقراءة الصحف ـ مثلاً ـ ويعطّل مصالح الناس، يكون في راتبه مال حرام أخذه مقابل الوقت الذي أهدره! وقلْ مثلَ ذلك في الصانع، والأجير، والطبيب، والمدرّس، والمدير، والوزير..

وأفظع أنواع السرقة انتهابُ المال العام من واردات الدولة وأثمان ثرواتها

---

(١) الإسلام والطاقات المعطّلة، ص١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١)؛ وأحمد: ٢/ ٤١٧.

النفطية والزراعية والحيوانية والتجارية والمعدنية والصناعية، وميزانيات الوزارات والأوقاف وسواها.. وما أكثرها!.

وما أرخصَ هذا المالَ في عيون ذوي الذمم الرخيصة في بلاد المسلمين، ومن يطَّلع على المخبوء يُصعق فؤادُه لِما يُنْتَهب من أموال الشعوب التي تعيش في ضَنْك ومَسْغبة!.

٥ ـ **الميسر**: وقد اتسع مفهومه وتعددت مجالاته جدّاً في زماننا، وانتشرت أشكال اليانصيب الوطني والخيري وألعاب القمار في الأندية والفنادق والدور، وكثرت المسابقات التي ظاهرها المسابقة وباطنها القمار في الصحف ووسائل الإعلام والمحال التجارية وغيرها[(١)].

٦ ـ **الغصب**: وهو أمر شائع منتشر، وبخاصة عند ذوي الجاه والسلطان الذين سُلِّطوا على رقاب الناس والبسطاء، واغتصبوا أموالهم وعقاراتهم ومصادر رزقهم، وربما شاركوهم فيها رغماً عنهم.

٧ ـ **التطفيف في المكاييل والموازين**: ولهذا أشكال كثيرة تؤكل فيها أموال الناس بالباطل، وقد فصَّلنا القول في هذا في نبوءة سابقة[(٢)].

٨ ـ **أكل أموال اليتامى**: وهو من أقبح أنواع المال الحرام الذي يكسبه بعض الناس، وقد تهدَّدهم الحق تبارك وتعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

٩ ـ **التجارة بالمحرَّمات**: مثل: الخمور، والمخدرات، ولحم الخنزير، وصناعة التماثيل وبيعها.

١٠ ـ **العمل في ترويج المواد الإعلامية الفاسدة المفسدة**: من خلاعة ومجون وغناء ساقط ورقص وصور عارية ونحو ذلك.

---

(١) الميسر والقمار، ص١٧٧، للدكتور رفيق المصري. والكتاب قيِّم في بابه.

(٢) انظر: النبوءة رقم (١٢٦): ٤/ ٢١٤ من هذا الجزء.

١١ ـ الكسب من العمل في مؤسسات قائمة على الحرام أو تنشره وتروِّج له.

١٢ ـ التكسّب من الكتابات الهابطة التي تسوِّق الفسق وتروِّج الفجور وتنشر الفواحش، وتحارب الإسلام وقيمه وأهله.

١٣ ـ ما يأتي من أجرة الكهانة والسحر والشعوذة وقراءة الأبراج والكذب على الناس بادِّعاءِ معرفة ما يخبُؤُه الغيب من مستقبلهم.

١٤ ـ الأموال الضخمة التي تدرّ السحت على أصحاب النوادي الليلية وبيوت الخنا والرذيلة والدعارة.

١٥ ـ استغلال المنصب والجاه في ابتزاز الناس وأكل أموالهم بالباطل.

١٦ ـ تغيير منار الأرض: وهو أن يرفع العلامة التي جُعلت على حدِّ الأرض بينه وبين الجار، ليقتطعَ به شيئاً من أرض الجار[١].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدَّثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات، وأنا وهو في البيت، فقال: «**لَعَنَ اللهُ مَن لَعَنَ والدَه، ولعنَ اللهُ من ذَبَح لغيرِ الله، ولعنَ الله من آوَى مُحْدِثاً، ولعنَ اللهُ من غيَّرَ منارَ الأَرْضِ**»[٢].

●● **وليت الأمر توقف عند استخفاف أقوام من المسلمين بتحرِّي الحلال في مكاسبهم، وعدم اكتراثهم فيما يكسبون أَمِن حلالٍ هو أم من حرام**، فهؤلاء قد رانَ على قلوبهم ما كسبوه من الحرام والسُّحْت، وفقدوا نورَ البصيرة التي تفرق بين الحلال والحرام والشبهة، وماتت فيهم النفس اللوَّامة!.

نقول: لم يقف الأمر عند هـذا، بل إنَّ أكلَ المال الحرام في أيامنا له دولٌ تحميه، وسلطان يؤويه، ومؤسسات ترعاه، وأبواق تروِّج له، وشياطين من

---

(١) شرح السنة: ١١/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧٨)؛ والنسائي في الكبرى (٤٤٩٦)؛ وفي الصغرى: ٧/ ٢٣٢، وأحمد: ١/ ١١٨، ١٥٢؛ وابن حبان (٥٨٩٦) و(٦٦٠٤)؛ والبغوي (٢٧٨٨)، وغيرهم.

الإنس تكبِّل أيدي المصلحين، وتُسْكِت ألسنةَ المُنكِرين، لتبقى لهم مواردهم الآثمة، ويستغرقوا في نهب أموال الأمة وأقوات المساكين!.

وهـذا هو الخطر الماحِق والداءُ العُضال، حيث هيمنت على مشاعر كثيرة تلك المقولة الكاذبة الآثمة: (الحلال ما حَلَّ باليد)! وسيطرت المادية التي حطَّمت المعاني والمُثل، وجرَّدت الأشياء من كل قيمة عدا قيمتها التي تُقدَّر بالمال، بل وصل الأمر إلى تقدير الإنسان بالمال.

●● ومع اتساع دائرة المال الحرام وتعدُّدِ طرقِ اهتبالِه، وكثرة الهالكين في انتهابه واكتنازه، فإن المالَ الحلال أوسعُ دائرة، وأعلى شأناً، وأكثر بركة، وأجَلُّ أنصاراً.

فلله الحمد قد فتح من أبواب كرمه وجودِه من مصادر المال الحلال ما يكفي العالمين، وأقام لهم من المنارات ما يدلّهم على الرزق الحلال، وأيْقظَ فيهم من البصيرة ما يميّزون بها الطيّب من الخبيث، ويسَّر لهم من السُّبُل ما يحصلون منها المال الواسع الطاهر، والثراء العريض الزكي.

والحديث الذي رُوي عن حذيفةَ بن اليَمان رضي الله عنه مرفوعاً: «**سيأْتي عليكُم زمانٌ لا يكونُ فيه شيءٌ أعزَّ من ثلاثةٍ: درهمٍ حلالٍ، أو أخٍ يُستأنَسُ به، أو سُنَّةٍ يُعمل بها**»[١].

هو حديث ضعيف، فالحلال كثير وأبوابه عريضة ومصادره وفيرة، ولله الحمد والمِنَّة والفضل.



(١) السلسلة الضعيفة: ٨/ ١٩٢ (٣٧١٣)؛ وضعيف الجامع الصغير (٣٢٩٦).

١٣٤

إخبار النبي ﷺ بظهور الزينة والرغبة

عن أمِّ المؤمنين مَيْمُونةَ بنتِ الحارث ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ ذاتَ يوم: «**كيفَ أنتم إذا مَرِجَ الدِّينُ، وسُفِكَ الدَّمُ، وظَهَرتِ الزِّينةُ، وشَرُفَ البُنْيَانُ، وظَهَرَتِ الرَّغْبَةُ، واخْتَلَفتِ الإخْوانُ، وحُرِّقَ البيتُ العَتِيقُ؟!**»[1].

❁ ❁ ❁

أولاً: بين يدي النبوءة:

يشتمل هـذا الحديث العظيم على سبع نبوءات وقعتْ كلُّها، وقد تحدَّثنا عن ست منها كل في الموضع اللائق به، ونفرد الكلام هنا على قوله ﷺ: «**وظهرت الزينة، وظهرت الرغبة**».

●● لقد طلب الإسلام من أتباعه تعميرَ الأرض، واعتبر ذلك جزءاً من رسالة الإنسان على ظهرها، وجزءاً من العبادة التي خُلق من أجلها. وكرَّمه ربه سبحانه فحمله في البر والبحر، وأحلَّ له الطيبات ويسَّر له الزينة والجمال، وزُيِّنت له الرغبة في ذلك وحبه له وحرصه عليه[2].

وفي الوقت نفسه كان من أهداف الإسلام إصلاحُ النفس وإيجادُ الضمير المهذَّب الذي يحمِل على تقوى الله في السرِّ والعلانية، ويحميه من الهوى

---

(١) أخرجه أحمد: ٦/٣٣٣؛ وابن أبي شيبة: ٨/٦٠٩؛ والطبراني في الكبير: ٢٤/(١٤) و(٦٧)؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧٤٤). وانظر: النبوءة (٩٤ ـ ٩٥).

(٢) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٨٨.

الكامن في الأعماق، ويَضبط سلوكه من العبث، ويحفظ قلبَهُ من الغفلة، لأنه يستحيلُ قيامُ حضارةٍ صحيحة على قلوب عليلة، وأنه ما لم تستقم الضمائر وتَصْفُ النيّات فلن يكبح جماح البشر شيء.

وفي طباع الناس ركامٌ هائلٌ من شهوات النفس والبدن، وهي ـ لو غلغلتَ النظر ـ وقودُ السعي اللاغِب المشتعل على ظهر هـذه الأرض:

وإنَّمـا أنفسُ الأناسِ سباعٌ يتفارسْنَ جهرةً واغتيالا

وما أكثر ما تجن هـذه الشهوات، فتنضح على الحياة من طيشها وغلوِّها ما تستحق به الاستئصالَ قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

فلا غَرْوَ أن يتضمَّن الإسلام جملةً طائلةً من العقائد والعبادات والأحكام والآداب، تَخْضِدُ هـذا الشر وتحوِّل عُرَامَه إلى ما هو أجدى(١).

ومن أهداف الإسلام الأولى تهذيب الأَثَرة والرغبة التي يُولَد الإنسان بها، وجعلُ نظرته أرحبَ من ضيقها، وسيرته أرقى من شحِّها، وإفهامه أن الحياة لم توجد له وحده كما أنه لم يوجد في الحياة وحده.

وشعور الإنسان بحقوق الآخرين عندما يحسُّ بحق نفسه هو العاصم النبيل من لوثات الجشع والتطاول، وحماقات الغرور والادِّعاء.

والناس تُسْكِرهم النِّعمُ المُتاحةُ والرغبات المُجابة والأموال الدافقة، فينسون حق الله فيما أعطى، ونصيبَ عباده مما أوتوا، وتأبى عليهم أَثَرتُهم السكْرى إلا أن يُفسدوا في الأرض ويقطِّعوا أرحامهم.

وقد حذَّر رسول الله ﷺ من هـذا المرتع الوبيء، وقال: «**إنَّ أكثرَ ما أخافُ**

(١) ليس من الإسلام، ص١١. **تخضد الشر**: تكسر حِدَّته. **عرامه**: شراسته.

عليكم ما يُخْرِجُ الله لكم من بركاتِ الأرض» قيل: وما بركات الأرض؟ قال: **«زهرةُ الدنيا»**[١].

وكم من أناسٍ أعجبتْهم زهرة الدنيا فَسَبَتْ أعينَهم وأفئدتهم، وامتدت لها أيديهم، وتفتحت شهيتُهم، فما زالوا يتناولون منها حتى اكتظوا، وما زالت رغبتُهم وأَثَرتهم تلحُّ عليهم بالمزيد حتى لحِقوا بالدواب النافقة فهلكوا.

إن التشبُّع من الدنيا على هـذا النحو الأحمق خسران مبين، واختزان الأموال عند ذويها كإمساك الأطعمة في الجوف[٢].

●● ورسول الله ﷺ في هـذه النبوءة يحذّر من مَغَبَّة تلهي الأمة بزينة الحياة الدنيا، والولوغِ في حمأتها، والانشغال بالرغبات الجامحة والمطامع الوثابة، عن الأهداف الكبرى والغاية التي خُلق الإنسان من أجلها واستُخلف في الأرض لأدائها، واعتَبَر ذلك من عوامل الانهيار وأسباب الهلاك، فقال ﷺ مستنكراً ومحذِّراً: **«كيف أنتم إذا مَرِج الدين، وسُفك الدم، وظَهرتِ الزينة، وظهرت الرغبة؟!»**.

فقَرَنَها بهـذه الأمور العظيمة لبيان فداحة الخسائر التي تجرُّها على الأمة إذا انحدرت إلى ذلك المهوى السحيق من الانشغال بالزينة والمظاهر الخادعة، والانصياع للرغبات التي لا تنتهي، والتقاعس عن معالي الأمور ومكارم الأفعال وجلائل الأعمال.

وفي القرآن الكريم والسنة الشريفة مئاتُ التوجيهات إلى تلك الغاية النبيلة التي قصدها الإسلام في ترقية فضائل الإنسان وقيامه بمهامه الكبار، وعدم ركونه إلى زينة الحياة الدنيا وأشواق النفس ورغبات الجسم، وأخذه منها بنصيب معتدل يكفل له استمرار حضارته وتلبية حاجاته.

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وانظر تتمة تخريجه في هذا الجزء: ٢٤٨/٤ حاشية (٢).

(٢) ليس من الإسلام، ص٢٣ ـ ٢٤.

●● فنهى الإسلام عن الخُيلاء والتبختر والتفاخر في المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وحرَّم على الرجال لبسَ الحرير والذهب، وعلى جميع الأمة افتراشَ الحرير والأكلَ والشربَ في آنية الذهب والفضة، ومَنَع النساء من إبراز المفاتن من تفليج الأسنان ووصل الشعر وترقيق الحواجب ووضع الأصباغ وإظهار الزينة.. كما نهى عن تزيين الجدران بالستائر التي رُسم عليها ذوات الأرواح، وحرَّم صناعة التماثيل واقتناءَها وتجميل المجالس بها.

ووجّه عامة الأمة إلى عدم التسابق في البنيان والتطاول فيه، وأعلن النبيّ ﷺ أن النفقةَ الحلال يُؤْجَر المرء في كل وجوهها ما عدا البنيان، إذا كان فوق الحاجة، وكان باعثه التفاخر والاستطالة على الناس.

عن خَبَّاب بن الأَرَتّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يُؤْجَر الرجل في نفقتِه كلها إلا في التراب**» أو قال: «**في البناء**».

وفي رواية: «**كلُّ نفقة يُنفِقُها العبدُ يؤجَر فيها إلا البُنْيَانَ**»[1].

وأوضح النبيُّ ﷺ أن من أكثر ما يخشاه على أمته أن تُفتح عليهم الدنيا، فيتهارشون على زينتها، ويتسابقون في تحصيل مُتَعها، ويغرقون في تحقيق رغباتهم منها، فيتقاعسون عن القيام بكثير من الواجبات، ويحومون حول الشبهات، ثم يقعون في المحظورات، ويُمسوا عبيداً للشهوات.

عن عَمْرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**أَبْشِروا وأمِّلوا ما يسُرُّكم، فواللهِ ما الفقرَ أخشَى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تُبسطَ الدنيا عليكم كما بُسطتْ على مَن كان قَبْلَكم، فتنافَسُوها كما تنافَسوها، وتُهلكَكم كما أهلكَتْهم**»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٣)؛ وابن ماجه (٤١٦٣)؛ والطبراني في الكبير؛ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه الألباني في صحيحي الترمذي وابن ماجه، وصحيح الجامع (١٦٧٧) و(٤٥٦٦) و(٨٠٠٧).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، وانظر: الحديث بتمامه مع تخريجه: النبوءة (١٣٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**تَعِسَ عبدُ الدينار وعبدُ الدرهم وعبد الخَميصة؛ إن أُعْطِي رَضِيَ، وإنْ لم يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانتكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ**»[1].

وعندما خالفت الأمة أوامر ربها وتنكَّبت هدي نبيِّها، ووقعتْ فيما نُهيت عنه، ورتَعَتْ فيما حُذِّرت منه؛ خطَّت بأيديها عوامل ضعفها، وكتبت سطور انهيار حضارتها، ففرَّطت بالأمانة التي أُنيطت بها، فعوقبت بما كسبت أيديها، ولا يظلم ربك أحداً.

ثانياً: تحقق النبوءة:

والمستقرِئ لتاريخنا القديم والحديث يتحقق لديه صدقُ ما أخبر به النبي ﷺ في هـذه النبوءة الجليلة، ويرى عمومَ السنن الإلـٰهية على الأمة الإسلامية، تماماً مثلما جَرَتْ على مَنْ سواها من الأمم البائدة، لكن رحمة الله تعالى قد تولت هـذه الأمة فلا تفنى: لأنها حاملة الرسالة الخاتمة من جهة، ولأن فيها طائفةً لا تزال على الحق مستعصمةً به ناصرةً له تبقى القلبَ النابضَ في الأمة تضخ في عروقها دماء الحياة والرفعة كلما وَهَنت عزماتُها وأخلدت إلى الأرض.

●● ففي الخلافة الأموية وبعد الفتوحات الواسعة، تأثّر المسلمون بالفن البيزنطي، ثم تأثّروا في العهد العباسي بالفن الفارسي.. كما جاءت عهود أخرى بِطُرُزٍ جديدة من الفنون المعمارية والزخارف والنقوش، فرأَيْنا الطرازَ الفاطمي في مصر والشام، ثم الطراز الأيوبي فالمملوكي.. وبهيمنةِ العثمانيين على الوطن العربي دخل الفن مرحلة جديدة هي مرحلة الفن العثماني.

وشُيِّدت المساجد الضخمة الرائعة، وبُذلت عليها الأموال الطائلة، ومن أمثلة ذلك ما نجده في المسجد الأموي، والمسجد الأقصى، ومسجد قبة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) و(٢٨٨٧) و(٦٤٣٥)؛ وابن ماجه (٤١٣٥)؛ وابن حبان (٣٢١٨)؛ والبغوي (٤٠٥٩)، وغيرهم.

الصخرة، ومسجد قرطبة، والجامع الأزهر، والقرويين، ومساجد آل عثمان، وسواها.

كذلك بُنيت القصور الكثيرة التي تشهد على المسلمين ببذخهم وانشغالهم بالزينة ومبالغتهم في الرغبة، في بعض فترات تاريخهم الممتد، كما في قصر الحيرة العربي الذي بناه هشام بن عبد الملك في تدمر، وقصر هشام في أريحا، وقصر الخلد في بغداد والذي بناه المنصور، وقصور سامراء في عهدي المعتصم والمتوكل، وقصر الحمراء في غَرْناطة، وأجمل أثر عمراني على وجه الأرض وهو تاج محل في الهند، وقصور خلفاء بني عثمان المتأخّرين في إستانبول.

وامتاز الفن الإسلامي بكثرة الزخرفة وتعدُّد الأشكال، ولم يَقُمْ هذا الفن على مبدأ البساطة، فظهر على الجدران والمنابر والسقوف والمنسوجات وجلود الكتب كثيرٌ من الزخارف، وأكثر هذه الزخارف كانت زخارف هندسية أو نباتية أو خطية.

وأصبح من أبرز ملامح ومميّزات البناء العربي وخصائصه: استعمال الأعمدة والأقواس المستديرة والقِباب والمُقَرْنَصَات أو الدّلايات وهي زخارف معمارية تشبه خلايا النحل نجدها بارزة ومدلاة في طبقات على واجهات الأبنية أو تيجان الأعمدة.

ونجد في بعض القصور بعضَ التماثيل التي اتخذت للزينة من الحجر أو الذهب، وتمثل معظمها أنواعاً حيوانية كأسود قصر الحمراء في غَرْنَاطة[1].

وجلبت لتلك المساجد والقصور قطع الرخام والمرمر والفُسَيْفِسَاء، وأغدقت الأموال في غير وجهها مما كان يجب أن تصرف في أهداف أعلى.

والذي يزور قصر الحمراء أو قصور سامراء أو تاج محل أو قصور متأخري

(١) كتاب التاريخ للصف الحادي عشر الأدبي، دولة الإمارات العربية، طبعة ١٩٩٣م، ص٢٣٨ ـ ٢٤٠، طبعة ٢٠٠٠م، ص١٧٠ ـ ١٧٥.

الخلفاء العثمانيين، ويرى الذهب الذي طُليت به الجدران وغيرها، أو ما يلبسه الخليفة العثماني من تاجه إلى حذائه؛ يدركُ حقَّ الإدراك أحدَ العوامل الكبرى في انهيار تلك الممالك الغاربة، والتحققَ التام لقول النبي ﷺ: «**وظهرت الزينة، وظهرت الرغبة**»، في هـذه المظاهر التي بُولِغ فيها.

بَيْدَ أن الإنصافَ يقتضينا القولَ: إن الخلفاء والملوك العظام كانوا في الجملة قد نصروا الإسلام، وشيَّدوا دولته، وأقاموا حضارته، ونشروا دعوته، وحَمَوا بيضته، وحرسوا مبادئه، وأَعْلَوا مُثُلَه وقيمه، مع ما بدر من بعضهم من ذلك البذخ والإسراف!.

●● **وإذا سرنا مع الزمن إلى تاريخنا القريب والمعاصر** نرى السفه والشطط والإسراف والإسفاف في السقوط في رِدَاغ الزينة ووحول الرغبة، والحرص على جميع أشكالها، والجشع في تحصيل مختلِف ألوانها، والولوغ في كافة أنواعها. ووقع في شَرَكها الخاصة والعامة، والكبير والصغير، والذكر والأنثى، وشملت عامة أنشطة الحياة في أمتنا!.

ودَبَّ إلينا داءُ الأمم من قبلنا، فلَهَث الكثيرون وراء الزينة والرغبة، وغَرِقُوا في الملذات، وشُغلوا بالدنايا، ويعلمُ أولو النهى أن العكوفَ على اللذائذ ومطاوعةَ الأهواء وإجابة الرغبات الدنيا: أمراضٌ تصيب الأمم في عصور الانحلال، وتعرِّضها للهلكة، فهي نُذُر الفناء ودلائلُ إدبار السيادة.

ولقد لوحِظَ من استقراء التاريخ أن الحضارات الكبرى لم يقتلْها إلا الترف، وأن الأمم العظيمة لم يُهلِكْها إلا البطر، وأن تركَ الناس يرتعون في الزينة والرغبات والشهوات رتعَ السوائم لن يجرَّ في أعقابه إلا البوار العاجل[1].

فانظرْ إلى عالَم كثير من الزعماء والأمراء وأبنائهم وحاشيتهم ومن يَلوذُ بهم، وكذلك الأثرياء ورجال الأعمال والوجهاء والكبراء.. وتأمَّلْ دُورَهم

---

(١) انظر: كفاح دين، ص٢٥٢.

وقصورَهم، واقرأ عن استغراقهم في زينة الدنيا ورغبات النفس والبدن، واسمع عن الشَّرَه في تحقيق رغباتهم الجامحة، وارجع البصر فيما يُنشر ويُذاع عن غدواتهم وروحاتهم واستجمامِهم، فإن الحيرة ستأخذ بعقلك وتَطيش بِلُبِّك، فلا تدري ماذا تقول وماذا تكتب، بل هل تصدِّق أم تكذِّب، فالأمرُ قد تجاوز حدَّ الخيال وما يُقَصُّ في الأَسْمار وفصول (ألف ليلة وليلة)!.

وترى بعضَهم له في كل مدينة قصر، بخَدَمه وحَشَمه وخَيْله ورجله، وإذا يَمَّمَ شَطْر (بلاد النور) من أوروبة وسواها، فالقصور هناك مفتّحةُ الأبواب على مدار أيام السنة وفيها من الزينة والخَدَمات ما يَخلبُ الألباب، وتُنفق هنا وهناك الأموال التي تعجز عن الإحاطة بها الأرقام المألوفة! وزينةٌ فوق زينة، ورغبةٌ تعلوها رغبة، وسَرَف يتلوه سرف، وتبذيرٌ يصغِّره تبذير أكبر منه.. وعامة الأمة تعيش حياة البؤس والمَسْغبة والفقر والمَتْربة!.

وإذا قُدِّر لك أن تتجول في بعض قصور الأعيان والكبراء والأثرياء، وتقضي بعض الوقت في مجالسها وغرفها وأروقتها وأبهائها، وترى ما نُثِر فيها من أنواع الزينة من السجاد والستائر والثريات والنقوش والرسوم والتحف والأرائك والتماثيل واللوحات.. وتذكَّرْتَ آياتِ الكتاب العزيز وتوجيهاتِ النبيَّ الكريم ﷺ؛ فلَنْ تملِكَ إلا أن تقول: «**اللهمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة**»، وإذا أفقتَ من ذهولك لا بدَّ أن تسأل نفسك: فكيف بنعيم الجنة؟!.

وتنافَسَ الكبار والصغار من أصحاب الأموال الطائلة في البنيان والزينة واللباس، وركوب أفخر السيارات، واستئجار أفخم الفنادق والمساكن، ونَثَروا في جنباتها كل ما يؤجِّج الرغبات المتلاحقة من الفُرش والزَّرابي والستائر والأرائك والتماثيل وأدوات الزينة مما يعجز عنه الوصف، فضلاً عن الشهوات الحرام.

في الوقت الذي ترى فيه عند كثيرين من هؤلاء كزازةَ اليد وقسوة القلب

وشحَّ النفس عن البذل والعطاء والنفقة في أوجه الخير ومجالات النفع وميادين البناء في الأمة.

●● واندفعَ جمهورٌ عريض من الأمة في سباق محموم على التنافس في الزينة المباحة والمحرَّمة، وأسرفوا إسرافاً مُبيناً في المسكن والملبس والمركب والمأكل والمشرب، وتفاخروا فيما لا مفخرَ فيه، وتسابقوا فيما لا سَبْقَ فيه، فأصبحتَ تسمع عن إنفاق المبالغ الباهظة في شراء عباءة أو قميص أو بنطال أو فُستان أو حذاء أو حقيبة يد أو عِقد من الجوهر أو رقم سيارة!.

واتَّسعتْ حَلْبةُ السباق في الزينة بين النساء المسلمات، فبالَغْنَ في السَّرَف والسفه والشطط، وملاحقة آخر (الموضات)، وخرجنَ عن هدي الإسلام في إبراز الزينة والمحاسن على اللباس والمعاصم والرأس والوجه، ولم تَسْلم من ذلك طائفة من المحجبات اللائي يبرزن إلى الشارع والسوق والعمل بالكحل والخِضاب وأحمر الشفاه وأخضر الجفون وروائح العطور والبَخُور.

أما أنصاف المحجبات فمن دونهن فحديث الزينة عندهن ذو شجون!..

●● ومن منكرات الزينة التي قارفها كثير من المسلمين: شراءُ التماثيل، ووضعها في بيوتهم ومجالسهم ومكاتبهم، وتزيين أركانها بها فيما يزعمون! وتشتمل على تماثيل بعض الكبراء أو الآباء أو الفنانين أو العباقرة أو الحيوانات.. يُضاهِئون في ذلك فعلَ النصارى الذين يزينون بيوتهم وغيرها بتماثيل السيدة البتول مريم عليها السلام، وفعلَ الوثنيين الذين يحتفون بتمثال بوذا وغيره.

واشتطَّ المسلمون في عصرنا كما اشتطَّ بعضُ أسلافهم في تزيين بيوت الله تعالى، وبالغوا جداً في النفقة على بنيانها وتضخيم أركانها، وتجميلها بأنواع الرخام والزخارف والنقوش على أعمدتها وجدرانها وسُقوفها، وفرش أرضها بأفخم أنواع السجاد، وتشييد عدة مآذن وقِباب للمسجد الواحد.. فأُنفقت الملايين في بناء مسجد واحد، وكان الأجدرُ أن تُبنى بهذه الملايين عدة

مساجد، أو يوفَّر قسم كبير منها ليجعل وقفاً على المسجد والقائمين عليه، أو يُنفق في وجوه الخير الكثيرة التي تعود على الأمة بالنفع، والله سبحانه قال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩].

وبيوتُ الله تَعْمُرها القلوب المؤمنة لا ألواحُ المرمر الفاخرة والنقوش الرائعة والمآذن الشاهقة!.

●● ومجالات الزينة والرغبة وظهورها في بلاد المسلمين وحياتهم كثيرة متنوعة، لا يخلو منها بلد، ولا يَعْدَمها شعب، وهي من دلائل العجز وأمارات الضعف وعوامل السقوط الحضاري.

ولا شك بأن من ألدِّ أعدائنا وأخطرِ الناس على نهضتنا أولئك الذين يصوِّرون الحياة على أنها زينةٌ وتكاثرٌ وتفاخر وفرصة يجب انتهازها! فمَن للمشقات بعدئذٍ يَحملُها، ومَن للتضحيات يقدِّمها، ومن للمروءات يصنَعُها، ومن للبطولات يقوم بها؟!.

هل تنهض أمة غَرِق زعماؤها وكبراؤها ووجهاؤها في زينة الحياة الدنيا وشهواتها المنثورة في القصور والدور، وحيثما وُجدوا في الحضر والسفر؟ وهل تقوم لها حضارة على أنفس تعلَّقتْ جُلُّ رغباتها بزخارف البنيان والاستباق في لذائذ الملابس والمآكل والمشارب والمراكب وجمع المال من حِلِّه ومن غير حِلّه؟ وهل تحيا أمة شُغِفَتْ قلوبُ كثير من نسائها بأصناف الملابس وألوانها وأثمانها، وأنواع الجواهر والعطور ومظاهر الزينة المتنوعة؟!.

لا بدَّ من عودة حميدة إلى هدي الإسلام وسيرة السلف الصالح الذين جمعوا بين الدنيا والآخرة، وامتازوا بالصرامة والكرامة، ولم تستعبدهم الزينة والرغبة، وأعطوها ما تستحق من اهتمام، ولم يكن أمرهم فُرُطاً.

❊ ❊ ❊



إخبار النبي ﷺ عن إقبال الدنيا على أمته وتدفّق الأموال ودعة العيش والترف

١ ـ عن أبي جُحَيْفَةَ السُّوَائيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّها سَتُفْتَحُ عليكُم الدُّنيا حتى تُنجِّدُوا بيوتَكُم كما تُنَجَّدُ الكعبةُ**» قلنا: ونحنُ على ديننا اليوم؟ قال: «**وأنتم على دينكُم اليومَ**» قلنا: فنحنُ يومئذٍ خيرٌ، أم ذلك اليوم؟ قال: «**بل أنتمُ اليومَ خيرٌ**»(١).

٢ ـ وعن عبد الله بن يزيد الخَطْمِيِّ ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أنتُم اليومَ خيرٌ أم إذا غَدَتْ على أحدِكم صُحَيْفَةٌ وراحَتْ أُخرى، وغدا في حُلَّةٍ وراحَ في أخرى، وتَكْسُون بُيوتَكُم كما تُكْسَى الكعبةُ؟**» فقال رجلٌ: نحنُ يومئذٍ خيرٌ؟ قال: «**بل أنتمُ اليومَ خيرٌ**»(٢).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ بأطول منه(٣).

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (٣٦٧١)؛ وقال الحافظ في (زوائده، ص٣٣٠): خبر غريب صحيح؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ١٠/ ٣٢٣، وقال: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الجبار بن العباس الشِّبامي وهو ثقة؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٤٨٦) و(١٨٨٤).

(٢) أخرجه الطبراني؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ١٠/ ٣٢٣، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير أبي جعفر الخطمي وهو ثقة؛ وأقره الألباني في الصحيحة: ٥/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩ (٢٤٨٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٧٦)، وفيه التابعي لم يُسَمَّ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن؛ وعقب الألباني في الصحيحة: ٥/ ٦٣٩ (٢٤٨٦) على قول الترمذي، فقال: فلعله حسنه =

٣ ـ وعن أبي الدَّرْداءَ رضي الله عنه قال: (خَرجَ عَلينا رسولُ الله ﷺ ونحنُ نَذكُرُ الفقرَ ونَتَخوَّفُه، فقال: «آلفقرَ تَخافُونَ؟ والذي نَفْسِي بيدِه لَتُصَبَّنَّ عليكمُ الدنيا صَبّاً، حتى لا يُزِيغَ قلبَ أحدِكُمْ إزاغةً إلَّا هِيَهْ. وايْمُ اللهِ لقد تَرَكْتُكُم على مِثْلِ البيضاءِ، لَيْلُها ونهارُها سَواءٌ»)[١].

❁ ❁ ❁

أولاً: معاني ألفاظ الأحاديث[٢]:

ـ «**تُنجِّدوا بيوتكم**»: التَّنْجيد: التَّزيين، يقال: بيتٌ مُنَجَّد، ونُجُودُه: سُتُوره التي تُعلَّق على حيطانه يُزَيَّن بها. والأَنْجاد: جمع نَجَد، وهو متاعُ البيتِ من فُرُش ونَمَارق وسُتُور.

ـ «**صُحَيْفَة**»: وفي رواية: «**صَحْفَة**»، وفي أخرى: «**جَفْنَة**»، وفي رابعة: «**قَصْعَة**»: كلها أسماء لأوان يوضع فيها الطعام، والصَّحْفَة تُشبِع الخمسةَ ونحوهم، والصُّحَيْفَة أقلّ منها وهي تُشْبعُ الرجلَ.

قال الكِسَائيُّ: أعظم القِصاع الجَفْنَة، ثم القَصْعة تليها تُشْبع العشرة، ثم الصَّحْفَة تُشبع الخمسةَ ونحوهم، ثم المِئْكَلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصُّحَيفة تشبع الرجل.

ـ «**غَدَتْ على أحدكم صُحيفة وراحت أخرى**»: معناه كما جاء في رواية علي: «ووُضِعت بين يديه صَحْفة ورُفعت أخرى».

ـ «**غدا في حُلَّة وراح في أخرى**»: الحُلَّة: ثوبان من جنس واحد. قال

= لشواهده، بل هو بها صحيح. **قلت**: وهذا القول من الألباني رحمه الله هو الصواب، وقد ذهل عن التنبيه على خطئه حيث أورد هذا الحديث نفسه في ضعيف الترمذي، وضعيف الجامع (٤٢٩٣).

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٥)؛ وأخرج ابن أبي عاصم في السنة (٤٧) الفصل الأخير منه؛ وحسَّنه الألباني في صحيح ابن ماجه، والصحيحة (٦٨٨).

(٢) أخذتها من: النهاية في غريب الحديث؛ ولسان العرب.

الخَطَّابي: الحلّة ثوبان إزار ورداء، ولا تكون حُلَّة إلا وهي جديدة، تُحَلُّ من طَيِّها فَتُلبس!.

غدا وراح: الغُدوّ: الذهاب أول النهار، والرَّوَاح: الذهاب آخره.

ـ «**نتخوَّفه**»: نُظهِر الخوف منه.

ـ «**لَتُصَبنّ عليكم الدنيا**»: الصَّبُّ يعني: الإراقةَ والإفراغَ والسَّكْب والدفعَ، والمعنى: تدفُّقُ خيراتِ الدنيا وسيلانها عليكم.

ـ «**لا يُزيغ**»: لا يُميل، يقال: زاغ عن الطريق يَزيغ إذا عَدَل عنه.

ـ «**إلا هِيَهْ**»: هي: ضمير الدنيا، والهاء في آخره للسكت؛ أي: لا يُميل قلبَ أحدكم إلا الدنيا.

ـ «**على مِثل البيضاء**»: هي ملَّته ﷺ، سبيلها واضح ومنهجها مستبين، ليلها ونهارها مشرقان لا لُبْسٌ فيهما ولا غموضٌ ولا زيغٌ.

أو: تركتكم على قلوب بيضاء نقية عن الميل إلى الباطل، لا يُميلها عن الإقبال على الله تعالى السراء والضراء.

والحق أنه ﷺ تركهم على الأمرين جميعاً: ملة مستقيمة وقلوب منيرة عامرة بالإيمان واليقين.

ثانياً: كيف كان عيش النبيّ ﷺ وأصحابه ﷺ:

كانت الحياة في جزيرة العرب يغلب عليها شظف العيش وخشونة الحياة وقلّة ذات اليد، وقليل من الناس من كان ذا ثراء وبحبوحة العيش في المطعم والملبس.. وعلى هـذا الحال كان عيش رسول الله ﷺ وعامة أصحابه في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

●● عن عروة بن الزبير، (عن عائشةَ ﷺ: أنها قالت: إنْ كنّا لَننظرُ إلى الهلال، ثم الهلالِ، ثم الهلالِ، ثلاثة أهلَّةٍ في شهرين، وما أُوقدتْ في بيوت رسول الله ﷺ نارٌ! قلتُ: يا خالةُ! فيما كان يُعَيِّشُكم؟ قالت: الأَسْودانِ: التَّمرُ

والماءُ، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار، نِعْمَ الجيرانُ، كانت لهم مَنَائحُ، فكانوا يَمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها، فكان يَستقينا منه)[١].

وعن عائشة ﵂ قالت: (ما شَبِعَ آلُ محمد ﷺ منذُ قدِمَ المدينةَ من طعام بُرٍّ ثلاثَ ليالٍ تِباعاً حتى قُبِضَ)[٢].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: (جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي مجهودٌ، فأَرْسَلَ إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ، ثم أَرسل إلى أخرى، فقالت مثلَ ذلك، حتى قُلْنَ كلُّهن مثلَ ذلك: لا، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ! فقال: «**مَنْ يُضِيفُ هذا الليلةَ رحمه الله**»)[٣] الحديث.

وعن قتادة قال: (كنَّا نأتي أنسَ بن مالك وخبَّازُه قائمٌ، فقال: كُلوا، فما أَعلمُ رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مُرَقَّقاً ولا شاةً سَمِيطةً بعينِه حتى لَحِقَ بالله!)[٤].

وقالت عائشة ﵂: (كان فِراشُ رسول الله ﷺ من أَدَمٍ وحَشْوه من لِيفٍ»[٥].

والأحاديث في هذا كثيرة جدّاً، ومع ذلك فقد كان ﷺ إذا جاءه المال

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٧) و(٦٤٥٩)؛ ومسلم (٢٩٧٢) (٢٨)؛ وابن حبان (٦٣٤٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤١٦) و(٦٤٥٤)؛ ومسلم (٢٩٧٠)؛ والنسائي في الكبرى (٦٦٠٣)؛ وابن ماجه (٣٣٤٤)؛ وأحمد: ٦/ ١٥٦، ٢٧٧.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٩٨) و(٤٨٨٩)؛ ومسلم (٢٠٥٤)؛ وابن حبان (٥٢٨٦) و(٧٢٦٤)؛ والبيهقي في السنن: ٤/ ١٨٥.

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٨٥) وطرفاه؛ وابن ماجه (٣٣٠٩) و(٣٣٣٩)؛ وابن حبان (٦٣٥٥)؛ والبغوي (٢٨٤٤)، وغيرهم. **سميطة**: مشوية.

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٥٦)؛ وأبو داود (٤١٤٦) و(٤١٤٧)؛ والترمذي (١٧٦١) و(٢٤٦٩)؛ وابن ماجه (٤١٥١)؛ وأحمد: ٦/ ٤٨، ٥٦، ٢٠٧، ٢١٢؛ وابن حبان (٦٣٦١)، وغيرهم.

أنفقه هكذا وهكذا، وقال: «**لو كان لي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً، ما يَسُرُّني أنْ لا يمرَّ عليَّ ثلاثٌ وعندي منه شيءٌ، إلا شيءٌ أَرْصُدُه لدَيْنٍ**»(١).

•• وكان أغلب الصحابة على مثل هذه الحال، ومن الصور التي تصف حياتهم:

ما رواه أبو حَرْب بن أبي الأَسْود الدُّؤَلي: أن طَلْحة بن عَمْرو رضي الله عنه ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ـ حدَّثه قال: (أتيتُ المدينةَ وليس لي بها معرفة، فنزلتُ في الصُّفَّة مع رجل، فكان بيني وبينَه كل يوم مُدٌّ من تمر ـ وفي رواية ابن حبان: فكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كلَّ يوم مدٌّ من تمر بين رجلين ـ فصلى رسول الله ﷺ ذاتَ يوم، فلما انصرفَ قال رجل من أصحاب الصُّفَّة: يا رسولَ الله، أَحْرَقَ بطونَنا التمرُ، وتَخرَّقَتْ عنا الخُنُفُ! فصعد رسول الله ﷺ فَخَطَب، ثم قال: «**واللهِ لو وجدتُ خبزاً أو لحماً لأطْعمتُكُموه، أما إنكم تُوشِكون أن تُدْرِكوا، ومن أدرك ذلك منكم أنْ يُرَاح عليكم بالجِفَان، وتَلْبَسون مثلَ أَسْتارِ الكعبة**» قال: فمكثتُ أنا وصاحبي ثمانية عشر يوماً وليلة ما لنا طعامٌ إلا البَريرُ، حتى جئنا إلى إخواننا من الأنصار فَوَاسَوْنا، وكان خير ما أصابنا هذا التمر)(٢). لفظ أحمد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (رأيتُ سبعينَ من أهل الصُّفَّة، ما منهم رجلٌ عليه رداءٌ، إما إزارٌ وإما كِساءٌ، قد رَبَطوا في أعناقِهم، فمنها ما يَبْلُغ نصفَ الساقين، ومنها ما يَبْلُغ الكَعْبَيْن، فَيجمعُه بيدِه كراهيةَ أن تُرى عورتُه!)(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٨٩) وطرفاه؛ ومسلم (٩٩١)؛ وابن ماجه (٤١٣٢)؛ وابن حبان (٣٢١٤) و(٦٣٥٠)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٨٧؛ والطبراني (٨١٦٠) و(٨١٦١)؛ والبزار (٣٦٧٣)؛ وابن حبان (٦٦٨٤)، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في الصحيحة: ٥/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨ (٢٤٨٦). **الخنف**: جمع خَنِيف، وهو نوعٌ غليظٌ من أردأ الكَتَّان. **البَرير**: ثَمرُ الأراك.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٢)؛ وابن حبان (٦٨٢)؛ والبيهقي في السنن: ٢/ ٢٤١؛ والبغوي (٤٠٨١).

وعن أبي الزُّبير، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: (بَعَثنا رسول الله ﷺ وأمّر علينا أبا عبيدة نتلقّى عِيراً لقريش، وزَوَّدنا جِرَاباً من تَمْر لم يجدْ لنا غيرَه، فكان أبو عبيدة يُعطينا تمرةً تمرةً، قال: فقلتُ: كيفَ كنتم تصنعونَ بها؟! قال: نَمَصُّها كما يَمَصُّ الصبيُّ، ثم نَشربُ عليها من الماء، فَتَكْفينا يومَنَا إلى الليل. وكنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنا الخَبَطَ، ثم نَبُلُّه بالماءِ، فنأكُلُه)، الحديث بطوله[1].

وعن عُتْبة بن غَزوان ﷺ قال: (لقد رأيتُني سابعَ سبعةٍ مع رسول الله ﷺ، ما لَنَا طعامٌ إلَّا ورقُ الشَّجَر، حتى قَرِحَتْ أَشْداقُنا، فالْتَقطتُ بُرْدةً فشقَقْتُها بيني وبينَ سعد بن مالك، فاتَّزَرْتُ بِنِصْفَها واتَّزَر سعدٌ بِنِصْفِها، فما أصبحَ اليومَ منَّا أحدٌ إلا أصبحَ أميراً على مِصْرٍ من الأمصار!)[2].

ولمَّا أقبلت الدنيا عليهم، وفاضت خيراتها، وسالت بين أيديهم كنوزُها؛ كانوا هم الرجال! لأنهم صنعة النبوة، فساروا على هدي معلِّمهم الأعظم في الضراء والسراء، ما أضجرتْهم خشونة العيش وظَلَفُ الحياة، ولا أبطَرَتْهم النعمة وليونةُ المطعم والملبس، وبتلك الأخلاق عاشوا، وبها سادوا الدنيا وفتحوا البلاد والقلوب، فكانوا خيراً من كل مَن جاء بعدهم.

هـذا الفاروق عمر ﷺ قد جاشَتِ الكنوز في خزائن دولته، فوزَّعها في رعيته وعاش كأدناهم، وقال ذات يوم: (لو شئتُ لكنتُ أطيبَكم طعاماً، وأرفَهكم عيشاً، ولَنحنُ أعلمُ بطيب الطعام من كثير من آكليه، ولكنا نَدَعُه ليوم تَذْهَلُ فيه كل مرضعة عمّا أرضعت، وتضع كل ذات حَمْل حَمْلَها. وإني لأستبقي

(١) أخرجه البخاري (٢٤٨٣) وأطرافه؛ ومسلم (١٩٣٥)؛ وأبو داود (٣٨٤٠)؛ والنسائي في الكبرى (٤٨٤٤) وأطرافه؛ وفي الصغرى: ٧/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩؛ وابن حبان (٥٢٥٩) و(٥٢٦٠). **الخبط**: ورق الشجر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٧)؛ والنسائي في الكبرى (١١٧٩٠)؛ وأحمد: ٤/ ١٧٤؛ وابن حبان (٧١٢١)، وغيرهم.

طيباتي؛ لأني سمعت الله تعالى يقول عن أقوام: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠])[1].

وسُئِل الحسن البصري عن القائلين في المسجد، فقال: (رأيتُ عثمانَ بن عفان يَقيل في المسجد، وهو يومئذ خليفةٌ، ويقوم وأثر الحصى بجنبه! فنقول: هـذا أمير المؤمنين، هـذا أمير المؤمنين).

وعن موسى بن طلحة قال: (كان عثمان يوم الجمعة يتوكأ على عصا، وكان أجملَ الناس، وعليه ثوبان أصفران: إزار ورداء، حتى يأتي المنبر فيجلس عليه)[2].

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: (أنَّ عبد الرحمن بن عوف أُتِي بطعام، وكان صائماً، فقال: قُتل مُصعب بن عُمير ـ وهو خيرٌ منِّي ـ كُفِّنَ في بُرْدَةٍ إِنْ غُطِّي رأسُه بَدَتْ رِجْلاه، وإنْ غُطِّي رِجْلاه بَدا رأسُه. وأُراه قال: وقُتل حمزة ـ وهو خيرٌ مني ـ ثم بُسِط لنا من الدنيا ما بُسِط ـ أو قال: أُعْطِينا من الدنيا ما أعطينا ـ وقد خَشِينا أن تكون حسناتُنا عُجِّلَتْ لنا. ثم جَعل يبكي حتى تَرك الطعام!)[3].

وعن سعيد المَقْبُري: (عن أبي هريرة: أنه مرَّ بقوم بين أيديهم شاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فدَعَوه، فأَبَى أن يأكل، قال: خَرَج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يَشبع من الخبز الشعير)[4].

ثالثاً: الذي خافه رسول الله ﷺ وخشيه على الأمة:

●● والرسول ﷺ كان يربي الشخصية المتكاملة المتَّسِقة المتزنة التي تَثبت

---

(١) كتابي: الخلفاء الراشدون، ص١٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص٣١٢، ٣١٣. **القائلين**: النائمين نصف النهار، من القيلولة.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٧٤) و(١٢٧٥) و(٤٠٤٥)؛ وابن حبان (٧٠١٨)؛ والبيهقي في الدلائل: ٣/ ٢٩٩.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤١٤)؛ وأخرجه مسلم وغيره بدون قصة أبي هريرة. **مصلية**: مشوية.

في السراء كما تثبت في الضراء، إذا افتقرتْ عَفَّت وترفَّعت، وإذا استغنت جادَتْ وتواضَعَتْ، لا تفزع من المَسْغَبة، ولا ترتعُ في الدَّعَة والرَّغَد، صبَّارة راضية عند الضَّنْك والحاجة، رحيمة شاكرة عند اليسر والسعة؛ لذا كان يتعاهَدُ أصحابه بين الفَيْنة والأخرى بمثل هـذه الأحاديث، ليهذِّب طباعَهم، ويَصْقُل خصالَهم، ويُعلي فضائلهم، ويُنمي مكارمهم، ويؤلِّف بينهم، ويجعل منهم رجالاً كباراً كيفما تقلَّبت بهم الأحوال، وحيثما اختبرتْهم الأقدار.

عن أبي أُمَامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا بنَ آدمَ، إنَّك أَنْ تَبْذُلَ الفَضْلَ خيرٌ لك، وأَنْ تُمْسِكَه شرٌّ لك، ولا تُلَامُ على كَفَافٍ، وابدأْ بمن تَعُول، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى**»[1].

وعن أبي ذَرٍّ الغِفَاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الأكثرينَ همُ المُقِلُّونَ يومَ القيامة، إلَّا من قال هكذا وهكذا وهكذا، عن يَمينِهِ، وعن شماله، ومن خلفه، وقليلٌ ما هُمْ**»[2].

وعن معاذ بن أنس الجُهَني رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن تركَ اللِّباس تواضعاً لله وهو يَقْدِرُ عليه؛ دَعَاه اللهُ يومَ القيامةِ على رؤوسِ الخلائقِ، حتى يُخَيِّرَه من أيِّ حُلَلِ الإيمان شاءَ يَلْبَسُها**»[3].

و «**حُلَل الإيمان**»: ما يُعطى أهل الإيمان من حُلَلِ الجنّة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لا حَسَدَ إلا في اثنتينِ: رجلٌ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٣٦)؛ والترمذي (٢٣٤٣)؛ وأحمد: ٥/ ٢٦٢.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٨٨) و(٦٢٦٨) و(٦٤٤٤)؛ ومسلم (٩٤) بعد رقم (٩٩١)؛ وابن حبان (٣٣٢٦)، وغيرهم.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٨١)؛ وأحمد: ٣/ ٤٣٩؛ والفسوي: ١/ ٣٣٩ و٢/ ٥١١؛ والحاكم: ١/ ٦١ و٤/ ١٨٣ ـ ١٨٤، وغيرهم؛ وحسَّنه الترمذي؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٥)، والصحيحة (٧١٨).

آتاهُ اللهُ مالاً فَسَلَّطَه على هَلَكَتِه في الحقِّ، ورجلٌ آتاهُ الله حكمةً فهو يَقضي بها ويُعَلِّمُها»(١).

●● وهكذا فالنبيُّ ﷺ لم يذمَّ الدنيا لذاتِها، ولا خوَّف من طعامها وشرابها ولباسها للتزهيد فيها والتنفير منها، ولا دعا أصحابه إلى الرضا بالفقر والمَتْربة، بل كان حديثه سلوةً للمساكين، وتطييباً لقلوب مَن غَلبت عليهم ظلافة العيش، وكفكفةً لجماح الأغنياء، وإثارة لقلوبهم كي لا تركن إلى هـذا النعيم، ولجماً لشهوات الأنفس الوثّابة، وكبحاً للحِراص على العَبِّ من اللذائذ والتلهي بها، وعدم الغفلة عن المهمات الكبرى والأهداف السامية التي سِيقت لأجْلِها النعم لهؤلاء وحُجبت عن أولئك.

إنه لا عيبَ في التنعُّم بمتاع الدنيا، والأخذ من زينتها والتلذذ بطيباتها الحلال، لكن المذموم هو سوء تسخيرها، والتلهي بموائدها ومطاعمها ومراكبها ورياشها، واللهث وراءها، وقضاء جُلّ العمر في تحصيلها وازدرادها، ممَّا يؤدي إلى الغفلة عن عمارة الأرض بالعلم والصناعة وتشييد الحضارة، ونسيان الله والدار الآخرة.. وإن مَن يَغرق في شهوات المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب وما والاها، لا يرفع رأساً لمكرمة، ولا ترتفع له همة لمجد، وهـذا ما حذَّر منه رسول الله ﷺ.

إن من يقضي عامة وقته في المطاردة وراء الدنيا، ثم يتوجه بما تبقى من يومه إلى التهام أنواع الطعام، والتقلب بين أصناف اللباس والرياش، والتنافس في اقتناء أفخم الأثاث وأبهظ أثمان الفُرش والزينة، وبثّها في أركان البيوت ـ من تكون هـذه حاله متى يفيق من سكرته، وماذا سيقدّم لوطنه وأمته ودينه، بل لأسرته وذوي رحمه؟!.

فالخطر المخوف هو الإخلاد إلى هـذه الزخارف، والاستغراق في العَبِّ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣) وأطرافه؛ ومسلم (٨١٦)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٠٩)؛ وابن حبان (٩٠)، وغيرهم.

منها، لأنه يخلق جيلاً طريّاً غضّاً يألَف المُتع ودوامَ ما يشتهي، ويَجزع لقلَّتِها فضلاً عن زوالها، ويستثقل مطالبَ المجد ومواجهةَ الصعاب وبذْل التضحيات، فلا يَسْلم له دين ولا تبقى له دنيا.

هـذا ما خافه رسول الله ﷺ على أمته وحذَّرها منه، ووعظ أصحابه به، وهو من تمام رحمته بهـذه الأمة، وشفقته عليها، وحبّه لها، ورغبته في سلامتها من معافسة المتع واللذاذات.

ولا ينبغي بَتَّةً أن يُفهم من هـذه الأحاديث وما على شاكلتها التزهّدُ الصوفي بالدنيا وإدارة الظهر لها، فلقد كان عدد من أكابر الصحابة من أثرياء الدنيا في عهده ﷺ وبعد عهده، وبقوا على العهد ما غيّروا ولا بدَّلوا. وهو ﷺ الذي قال لعثمان بن عفان عندما تصدّق بصدقته العريضة: «**ما ضَرَّ عثمانَ ما فعل بعد اليوم**»! وامتدح عبد الرحمن بن عوف حيث قال ﷺ وهو يخاطب أمهات المؤمنين: «**إنما يَحْنُو عليكنّ بعدي الصادقُ البارُّ**»، والذي كان يحنو عليهن هو ابن عوف، الذي تصدَّق في إحدى المرات وفي مجلس واحد بما يعادل (٢٤ كغ) من الذهب، ولما مات ترك من الذهب ما قُطِّع بالفؤوس!.

رابعاً: شذرة عن إقبال الدنيا على المسلمين ودعة العيش والترف، وتحقق مصداق النبوءة:

بالتأمل في تاريخنا القديم والحديث نجدُ تحقق كل ما قاله النبي ﷺ في هـذه النبوءة:

- صُبَّ المال على المسلمين صَبّاً.

- وأقبلت الدنيا عليهم، فاتسعوا في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمركب.

- وزاغت الدنيا بقلوب فريق منهم.

- وهم في العهد الأول أفضل منهم فيما بعد.

●● لقد فتح الله سبحانه أبواب خزائنه على المسلمين في وقت مبكِّر من عُمُر دولتهم، ففي عهد أمير المؤمنين عمر انساح الإسلام شرقاً وغرباً، ودخلت في دين الله مدائن وقرى، وأخرجت الحواضر والقصور كنوزها، فتدفقت كنوز كسرى وقيصر واليمن على خزينة الدولة الإسلامية، وأقبلت الدنيا على المسلمين، وفاضت الأموال بين أيديهم، وصُبَّت عليهم صبّاً كما قال الحديث، وكثرت الأرزاق، ولانَ العيش.. واستمر الأمر كذلك في عهد عثمان، ثم في عهد الأمويين، وبَلَغ أوْجَه في عهد عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز.

ومن أمثلة ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ: «**هل لكم أَنْمَاط؟**» قلتُ: وأنَّى تكونُ لنا أَنماط؟ قال: «**أَمَا إنها ستكونُ لكم أَنْماط**». قال: فأنا أقول لامرأتي: أَخِّري عنِّي أنماطَكِ، فتقولُ: أَلَم يَقُل النبي ﷺ: «**إنَّها ستكونُ لكم أنماط**»؟ قال: فأَدَعُها)[1].

وعن محمد بن كعب القُرَظيِّ قال: (دُعي عبد الله بن يزيد إلى طعام، فلما جاء رأى البيت منجَّداً، فقعد خارجاً وبكى، قال: فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: كان رسول الله ﷺ إذا شيَّعَ جيشاً فبَلَغَ عَقَبةَ الوَداع، قال: «**أَستودِعُ الله دينَكم، وأماناتِكم، وخواتيمَ أعمالكم**». قال: فرأى رجلاً ذات يوم قد رقَّع بُرْدَة له بقطعة، قال: فاستقبل مطلع الشمس، وقال هكذا ـ ومدَّ عفان يديه ـ وقال: «**تطالعتْ عليكم الدنيا**» ثلاث مرات، ـ أي: أقبلت ـ حتى ظَنّنا أن يقع علينا. ثم قال: «**أنتمُ اليومَ خيرٌ، أم إذا غَدَت عليكم قصعةٌ وراحَتْ أخرى، ويَغْدو أحدُكم في حُلَّة ويَروح في أخرى، وتَسْتُرون بيوتكم كما تُستر الكعبةُ؟!**» فقال عبد الله بن يزيد: أفلا أبكي وقد بقيتُ حتى تسترون بيوتكم كما تُستر الكعبة؟!)[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٧٤)، وغيره؛ وقد سبق مع تخريجه وشرحه في النبوءة (١٣).
والأنْماط: جمع نَمَط، وهو بِساط له خَمْل رقيق، ويعرف في زماننا باسم (المخمل).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن: ٧/ ٢٧٢؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة: ٥/ ٤٩٩ (٢٣٨٤).

ومرَّ ما ذكرناه عن عهد عمر بن عبد العزيز؛ حيث فاضَ المال في أيام خلافته، وأن الرجل كان يخرج بصدقة ماله فلا يجد من يَقبلها[(١)].

والأمثلة في هـذا تفوت الحصر، وقد مرَّ في ثنايا كتابنا هـذا صور ونماذج كثيرة من ذلك.

●● واستمر الرخاء ورغد العيش في الدولة العباسية وفي الأطراف الغربية للدولة الإسلامية في الأندلس، وأحاديث الرفاه وليونة المعاش وتنوع المطاعم والمشارب والملابس ومظاهر الزينة المتنوعة قد سارت بها الرُّكْبان، والكلام عنها ذو شجون، وانتهت بالإسراف والتبذير وزَوَغان القلوب، وهـذا ما خشيه النبي ﷺ على الأمة وخوَّف منه، فكان منها ما كان، وجَرَتْ عليها السُّنَن الإلٰهية التي لا تحابي أحداً!.

وصدق فيهم قوله ﷺ: «**لَتُصبنَّ عليكم الدنيا صَبّاً، حتى لا يُزيغ قلبَ أحدِكم إزاغةً إلا هِيَهْ**»، أي: زينة الدنيا، فكان الأمر كما أخبر: في مقدماته بالبذخ والترف والسرف والتلهي بها والانصراف إليها، وفي نتيجته بزَيْغ القلوب وميلها عن هدي الإسلام ثم الهلاك وذهاب الريح وزوال الدولة والسلطان!.

وما جرى على المسلمين الأسلاف من قبلُ، انسحب على الأخلاف من بعدهم، فتأمل في الدولة العثمانية التي بَسَطت أجنحة الإسلام على رقعة هائلة من المعمورة، وعاشت دهراً مديداً، فلما ركن بنوها وحُماتها إلى الدنيا، وانصرفوا إلى لهوِها، وشُغلوا بمتاعها، وغرِقوا في زخارفها، حتى أَسَفُّوا في آخر أمرهم ووَلَغوا في حمأتها، عوقبوا بفقدان ما حرصوا عليه، فزال النعيم وتهاوى السلطان وتمزقت الدولة وانكمشَتْ رقعتها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

●● وإذا سرنا مع تاريخنا إلى زماننا القريب ومنذ نحو نصف قرن نرى

---

(١) انظر: النبوءة (١٣١): ٤/ ٢٦٤ من هذا الجزء.

العجب العجاب، فلقد أفاء الله على العرب والمسلمين من خيرات السماء وبركات الأرض ما يُدهِش الألباب، وتعجز أرقام الحساب عن الإحاطة به ووصف كثرته! ففاضت الكنوز من باطن الأرض من بترول وغاز طبيعي وذهب وحديد وفوسفات ونحاس ومنغنيز ونيكل ويورانيوم.. مع وجود ثروات ضخمة مائية وزراعية وحيوانية وبشرية وغيرها، وصُبّت الأموال على الناس صَبّاً، لكنهم أساؤوا فيها ما لم يُسِئْه أحدٌ من العالمين قبلهم!.

لقد استغنَى فريق صغير غنًى فاحشاً واستعلَى وطغى وبغى وأفسد وأهلَكَ الحَرْث والنَّسْل، وافتقرتْ جماهير عريضة من الناس ولَصقتْ أيديهم بالتراب وعاشوا حياة الضّنْك والجوع والحرمان. وأضحت الأمة منذ عهد قريب فئتين: ثرية مترفة، وفقيرة فقراً مُدْقِعاً، وتبخَّرت الطبقة الوسطى أو كادت في كثير من بلاد المسلمين، فإمَّا غني يتجشأ من التُّخمة، وإما فقير يَكدح نهاره ليعيش الكَفاف أو يبقى دون مستوى الفقر!.

الفريق الأول وقع عليه ما حذَّر منه النبيّ ﷺ، فهو يعيش في كنَف حياة باذخة مترفة، مسرِفة مبذِّرة، يغدو بحُلَّة ويروح بأخرى، ويسكن القصور التي فُرشت بأفخر أنواع السجاد، وزُيِّنت بأغلى أصناف الستائر، وعُلِّقت في سقوفها الثريات التي تبهر الأبصار، وبُثَّت في جنباتها الأرائك والتحف ومختلِف أنواع الزينة، ومُدَّت أرضها بالرخام والمرمر، حتى صنابير المياه عند بعضهم قد صِيغَت من الذهب الخالص! والجِفَان والقِصَاع لا تكاد تُرفع من على موائدهم إلا لاستبدال الفارغ بالملآن بصنوف الطعام.. أما ما يتحلى به هو وزوجه وأهله من مجوهرات وذهب فشيء يفوق الوصف، ولكل فرد سيارة أو أكثر، وثياب للصباح وأخرى للخروج وثالثة للمساء ورابعة للسهرة وخامسة للنوم... ولو قُدِّر لأديب وصَّاف أن يتحدّث عن ذلك النعيم لَقَصُرتْ به العبارات والإنشاءات الأدبية والقصصية عن أمثال (ألف ليلة وليلة)!.

والقسم الأكبر من عامة المسلمين يعيشون الكفاف في المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب، وقسمٌ منهم يبقى حياته يحلُم ببيت ملك يده يؤويه

مع أسرته فيموت في بيت الأجرة، وفريق آخر يسكن الرجل مع أسرته كاملة في غرفة أو غرفتين، وآخرون يسكنون في بيوت تشبه الأكواخ.. هـذا، ودَعْ عنك التعليمَ والصحةَ ووسائل النقل وآمالَ الأطفال في اللهو واللعب المباح، فَضْلاً عن الكساء الذي يُشعِرهم بإنسانيتهم ويُسعِد طفولتهم، وأدنى الكماليات التي لا يحلُمون بها!.

●● إن النبي ﷺ عندما خوَّف وحذَّر وأنذَر، كان يقصد أن لا ينحطَّ المسلمون إلى هـذا الدَّرك الهابط من التلهِّي بالدنيا، ونسيان حقوق المسلمين وإخوان الدين والدم والنسب، لأنه يخشى التنافسَ على الدنيا بين الكبار، والتحاسد والتدابرَ والتقاطعَ بين فئات المجتمع، وللأسف هـذا الذي وقع.

إن أقلَّ واجبات أولئك الأثرياء أن يتقوا الله في مكاسبهم فيتحروا الحلال، ويعتدلوا في الإنفاق والبذخ، وأن يؤدوا الشكر على تلك النعم والمناعم، ويتمثَّلوا ذلك بأداء واجباتهم تجاه الأمة في إقامة شركات ومصانع وبنية تحتية لتشغيل الأيدي العاملة ومحاربة البطالة دونما استغلال لحاجات البسطاء وسرقة لجهودهم، وكذلك تشييد المؤسسات التعليمية اللا ربحية التي تمحو الأمية في صفوف الفقراء والمساكين، وبناء المشاريع الخيرية بمختلف أصنافها لحماية اليتامى والأرامل والمقعدين والزمنى وغيرهم من الضياع، وتشييد المستشفيات والوحدات الصحية هنا وهناك من البلاد، حتى لا يفتك المرض بالصغير والكبير الذي لا يجد العلاج ولا الدواء!.

إن واجبَ هؤلاء الأثرياء كبيرٌ، وحقَّ الأمة عليهم عظيمٌ، وهم أجدرُ بالقيام بهـذه المهمات الجسام ـ وهم قادرون عليها ـ بدلاً من أن تستغِلَّ ذلك مؤسسات التبشير والتنصير المنبثَّة في العالم الإسلامي وتأكل أطرافنا هنا وهناك، بسبب تقصيرنا وتفريط الأثرياء منا.

ولا ريب أن في الأمة خيراً كثيراً من أعمال جمهرة من الأغنياء والأثرياء، وقد رأَيْنا وسمعنا عن رجال أخيار بارك الله فيهم ولهم وفي أعمالهم، بما شيَّدوه

من جامعات ومدارس للتعليم، ومراكز للبحث العلمي، ومؤسسات أهلية لرعاية اليتامى والأرامل والمحتاجين، ووحدات صحية وأطباء وصيادلة متبرعين لحماية المرضى الذين لا يجدون أدنى حقوق الرعاية الصحية، ومراكز لتحفيظ القرآن والسنَّة، وأموال تبذل في كفالة المجاهدين وأُسَر الأسرى والشهداء، ومحطات فضائية لبثِّ الإعلام النظيف البنَّاء، وغير ذلك من طرق الخير.

لكنِ الواجبات أكبر من جهود هذا الفريق المبارك، والمقصِّرون بل المفرِّطون من أغنياء المسلمين أكثر، وإنْ لم يتدارك هؤلاء أنفسَهم، خَسِروا الدنيا والآخرة، وخسرت الأمة معهم.

خامساً: وقفة أخيرة مع قول النبيِّ ﷺ: «أنتم اليوم خير»:

وتتجلَّى الخيرية في الرعيل الأول في عدة أمور فازوا بها وهم لها أهل:

١ ـ شرفُ الصحبة، وهذا لا منازِع فيه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وفي الحديث الصحيح: «**خيرُ الناس قَرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم**»(١).

٢ ـ تحرَّوا الحلال الطيِّبَ في الكسب والإنفاق، وبلَغوا في ذلك درجة سامقة، لم ينلْها ممن جاء بعدهم إلا القليل.

٣ ـ كانوا في جملتهم على مستوى عالٍ من الإنفاق في مختلف وجوه الخير، أنفسُهم سخِيَّة وأكفُّهم نديَّة، وعطاؤهم منقطع النظير.

٤ ـ عدم الاتساع في الدنيا والبذخ فيها والعَبِّ من متاعها، فأخذوا منها برفق، ولم يقعوا في رَدْغَة السَّرَف والتبذير والسفَه التي سقط فيها كثير ممن بعدهم.

---

(١) أخرجه من حديث ابن مسعود: البخاري (٢٦٥٢)؛ ومسلم (٢٥٣٣)، وغيرهما. ورواه غير واحد من الصحابة.

٥ ـ كانت الدنيا في أيديهم ولم تأسِرْ قلوبَهم ولا خَلَبت ألبابهم، فلم يتسابقوا على زخارفها، ولم يتفاخروا بمتاعها.

٦ ـ لم يتقاتلوا على الدنيا، ولا تنافسوا فيها، لذا لم تُلْهِهم عن معالي الأمور.

٧ ـ استخدموا تلك الأرزاق والخيرات والأموال في نصرة الإسلام، واستمروا في طريقهم حاملين لواء الإسلام، مجاهدين في سبيله، ناشرين لدعوته، مترفعين عن الترف وزهرة الدنيا، وهذا شأن ذوي النفوس الكبار.

٨ ـ بقيتْ أخلاقُهم في رفعتها وأَلَقها وسموِّها، لم يَحملْهم النصر على البغي، ولا كثرة الأموال على الأَشَر والبَطر، بل حافظوا على العهد الذي رباهم عليه النبي ﷺ من التواضع والرحمة والعدل والتعلّق بالآخرة.

٩ ـ كانوا قوماً عاملين، التزموا بمبادئ دينهم وحملوها للعالمين، فعلَّموهم مبادئ الحق والعدل والحرية والمساواة والإنسانية الرفيعة، ثم العلوم الأخرى فيما بعد.

لهذا ولغيره كانوا خيراً ممن جاء بعده، ولا يلحق بهم إلا من سار على نهجهم، وفعل مثل فعلهم.





١٣٦، ١٣٧، ١٣٨

إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان تَلِد فيه الأَمَةُ ربَّتَها ويكون الحُفاة العُراة ملوكاً على الناس ويتطاولون في البنيان

١ ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (بَينما نحنُ عندَ رسول الله ﷺ ذاتَ يوم، إذْ طَلَعَ علينا رجلٌ شديد بياض الثياب شديدُ سواد الشَّعر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفرِ، ولا يَعْرِفهُ منَّا أحدٌ، حتى جلسَ إلى النبيِّ ﷺ، فأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتيه، ووَضَعَ كفَّيْهِ على فَخِذَيْهِ، وقال: يا محمدُ! أَخْبِرْني عن الإسلام...) الحديث، وفي آخره: (قال: فأخبرْني عن الساعة، قال: «**ما المَسؤولُ عنها بأعلمَ من السَّائل**» قال: فأَخْبِرْني عن أَمَارَتِها، قال: «**أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها، وأنْ تَرَى الحُفَاةَ العُراةَ العالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ في البُنْيَان**»[١]. لفظ مسلم.

وفي رواية لابن حِبَّان: «**إذا رأيتَ العَالَةَ الحُفَاةَ العُراةَ يَتطَاوَلُون في البِنَاء، وكانوا مُلُوكاً**» قال: ما العالةُ الحُفَاةُ العُراةُ؟ قال: «**العُرَيْبُ**» قال: «**وإذا رأيتَ الأَمَةَ تَلِدُ ربَّتَها فذلكَ من أشراط الساعةِ**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٨)؛ وأبو داود (٤٦٩٥)؛ والترمذي (٢٦١٠)؛ وابن ماجه في المقدمة (٦٣)؛ والنسائي: ٨/ ٩٧ ـ ١٠١؛ وابن منده في الإيمان (١ ـ ١٤)؛ وأحمد: ١/ ٢٧، ٥١ ـ ٥٢؛ وابن حبان (١٦٨) و(١٧٣)؛ والبيهقي في الدلائل: ٧/ ٦٩ ـ ٧٠؛ والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣٦٣ ـ ٣٦٧)؛ والبغوي (٢)؛ وأبو يعلى (٢٤٢).

(٢) ابن حبان (١٧٣).

فزاد أمَارة ثالثة وهي: «**وكانوا ملوكاً**»، وبيَّنَ المقصود من الحفاة العراة أنهم: «**العُريب**».

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث جبريلَ أيضاً: (قال: يا رسولَ الله! متى الساعةُ؟ قال: «**ما المَسؤولُ عنها بأعلمَ من السائل، ولكنْ سأُحَدِّثُكَ عن أَشْراطِها: إذا وَلَدتِ الأَمَةُ ربَّها فذاكَ من أَشْراطِها، وإذا كانت العُراةُ الحُفَاةُ رؤوسَ الناسِ فذاكَ من أَشْراطِها، وإذا تَطَاوَلَ رِعَاءُ البَهْمِ في البُنْيانِ فذاكَ من أشْراطِها**» لفظ مسلم.

وفي رواية للبخاري: «**وإذا تطاولَ رعاةُ الإبلِ البُهْمِ**».

وفي رواية ابن ماجه: «**وإذا تطاولَ رِعاءُ الغَنم**»[1].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً في حديث جبريل: «**إذا رأيتَ المرأةَ تلِدُ ربَّها فذاكَ من أشراطها، وإذا رأيتَ الحُفَاةَ العُراةَ الصُمَّ البُكْمَ ملوكَ الأرض فذاكَ من أشْراطِها، وإذا رأيتَ رِعَاءَ البَهْمِ يَتَطاوَلُونَ في البُنْيَان فذاكَ من أشراطِها**»[2].

٤ ـ وعن أبي هريرة وأبي ذَرٍّ في حديث جبريل أيضاً: «**إذا رأيتَ الرِّعاءَ البُهُمَ يَتَطَاوَلُونَ في البُنْيَانِ، ورأيتَ الحُفَاةَ العُراةَ ملوكَ الأرضِ، ورأيتَ المرأةَ تَلِدُ رَبَّها**»[3].

٥ ـ وعن عبد الله بن عباس في الحديث نفسه: «**إذا رأيتَ الأَمَةَ وَلَدَتْ ربَّتَها أو ربَّها، ورأيتَ أصحابَ الشَّاءِ تطاوَلُوا بالبُنْيَان، ورأيتَ الحُفَاةَ الجِياعَ العَالَةَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) و(٤٧٧٧)؛ ومسلم (٩)؛ وابن ماجه (٦٤) و(٤٠٤٤)؛ وابن منده في الإيمان (١٥)؛ وابن حبان (١٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٠)؛ وبنحوه من حديث عمر عند المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣٦٧).

(٣) أخرجه النسائي: ٨/ ١٠١ ـ ١٠٣؛ وصحّحه الألباني في صحيحها: ٣/ ١٠٢٥ ـ ١٠٢٧ (٤٦١٨).

كانوا رؤوس الناس؛ فذلك من معالمِ الساعةِ وأَشْراطِها» قال: يا رسول الله، ومَن أصحابُ الشاءِ والحفاةُ الجياعُ العالَةُ؟ قال: «**العَربُ**»(١).

❁ ❁ ❁

• اشتملت هـذه الأحاديث على ثلاث نبوءات تحققت جميعها:

يتّضح بتأمل هـذه الأحاديث أن رسول الله ﷺ قد أخبر فيها بثلاثة أمور لم تكن في عهده المبارك، وجاءت الأيام بتصديق ما أخبر به، وهي على النحو التالي:

١ ـ أن تلد الأمة ربتها أو ربَّها: وهـذه تحقق وقوعها في عهد مبكّر من تاريخنا، وشهدها الصحابة رضي الله عنهم.

٢ ـ وأن الحفاة العراة الفقراء الجياع سيكونون رؤوس الناس وملوكهم وسادتهم.

٣ ـ وأن الحفاة العراة البهم رعاء الشاء والإبل سيتطاولون في البنيان.

وهاتان النبوءتان قد ظهرتا في زماننا أيّما ظهور، واستحكم تحققهما على الوصف النبوي كأنما هو بيننا يصفه بجملة موجزة.

ونتناول كلّاً من هـذه النبوءات بشيء من البيان والتفصيل كلّاً على حدة.

★ ★ ★

١٣٦ ـ أن تلد الأمة ربَّتها أو ربَّها

«**أن تلِدَ الأَمَة ربّتَها**»، وفي رواية أخرى: «**ربَّها**» على التذكير:

الربُّ يُطلق في اللغة على المالِك والصاحب والسيِّد والمُدبِّر والمربِّي والقيِّم

(١) أخرجه أحمد: ٣١٩/١؛ وصحّحه أحمد شاكر؛ والألباني في الصحيحة (١٣٤٥)، وصحيح الجامع (٥٦٠).

والمُنْعِم والمولى، والمراد به في الحديث: السيد والمولى، يعني أن الأمة تلِدُ لسيِّدها، فيكون ابنُها مولًى لها، وكذلك ابنتُها؛ لأنهما في الحَسَب كأبيهما.

والمراد: أن السّبْيَ يكثُر والنعمة تفشو في الناس وتَظهر، فتكثُر السَّرَاري[1].

وقد ذكر العلماء في معنى هذه الأمارة والنبوءة عدّة أقوال، من أشهرها:

١ ـ اتساعُ دولة الإسلام واستيلاءُ أهله على بلاد الشرك وسبيُ ذراريهم، فإذا مَلَك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربِّها، لأنه ولدُ سيدها.

فهو إخبار عن كثرة السَّراري وأولادهنّ فإنّ ولدَها من سيّدها بمنزلة سيِّدها، لأن مالَ الإنسان صائرٌ إلى ولده، وقد يتصرَّف فيه في الحال تصرفَ المالكين، إما بتصريح أبيه له بالإذن، وإما بما يُعْلمه بقرينة الحال أو عرف الاستعمال.

وهذا قول أكثر العلماء وهو الأظهر كما قال النووي، وتوقف فيه الحافظ وأبدى فيه نظراً[2].

٢ ـ الإماء يَلِدْنَ الملوك فتكون أمُّه من جملة رعيته وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته.

وهذا اختيار إبراهيم الحربي، وقرَّبه بأن الرؤساء في الصدر الأول كانوا يستنكفون غالباً من وطء الإماء ويتنافسون في الحرائر، ثم انعكس الأمر ولا سيما في أثناء دولة بني العباس[3].

وهذا المعنى والذي قبله قد وقعا في تاريخنا الإسلامي، فقد كَثُر تسرِّي الأحرار من الإماء بملك اليمين، ومن المعلوم شرعاً أن الأبناء الذين يأتون من

---

(١) جامع الأصول: ١/ ٢١٢ ـ ٢١٣؛ النهاية: ١/ ١٧٩.
(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ١٩٤؛ الفتح: ١/ ٢٤٢، شرح الحديث (٥٠).
(٣) الفتح: ١/ ٢٤٣.

السراري يكونون أحراراً، وبذلك ولدتِ الأمَةُ ربَّها وربَّتَها، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الملك[١].

ومنهم: المأمون الخليفة الشهير، أمُّه أمَة تسمَّى «مرَاجل». والخليفة المعتصم، أمه أمَة اسمها «ماردة». والخليفة الواثق بالله، أمه «قراطيس» أمة كذلك. والخليفة المتوكل على الله، أمه أمَة تسمَّى «شُجاع». . . وغيرهم[٢].

٣ ـ أن تبيع السادة أمهات أولادهم ويكثر ذلك، فيتداول الملاك المستولدة، حتى يشتريها ولدها ولا يشعر بذلك[٣].

٤ ـ أن يكثر العقوقُ في الأولاد فيعاملُ الولدُ أمَّه معاملةَ السيد أمَتَه من الإهانة بالسبِّ والضربِ والاستخدام، فأَطْلَق عليه «ربَّها» مجازاً لذلك، أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة.

قال الحافظ: وهذا أوجَهُ الأَوْجُهِ عندي لعمومه[٤].

نقول: واختيار الحافظ هذا فيه نظر، فالعقوق موجود على مرِّ العصور، والذي يَعُقُّ أمَّه بالضرب والسبِّ والاستخدام لا يكون ربّاً ولا سيداً، لا حقيقة ولا مجازاً. والرسول ﷺ إنما عَدَّ هذا من أشراط الساعة لكونه على نمط خارج على وجه الاستغراب، أو على وجه دالّ على فساد أحوال الناس، وليس ما ذكره الحافظ من هذا القبيل[٥].

والراجح أن المقصود هو ما قدمناه في المعنيين الأولين، والله تعالى أعلم.

* * *

---

(١) انظر: القيامة الصغرى، ص١٩١.
(٢) المعارف، لابن قتيبة، ص٣٨٧، ٣٩٢، ٣٩٣.
(٣) شرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ١٩٤؛ الفتح: ١/ ٢٤٣.
(٤) الفتح: ١/ ٢٤٣.
(٥) انظر: عمدة القاري، للعيني: ١/ ٢٨٩.

١٣٧ ـ الحفاة العراة العالة رؤوس الناس وملوكهم

وقد جاء وصفهم في الأحاديث بعدّة صفات[(١)]: الحُفَاة، العُراة، العالة، الصُّمُّ، البُكْم، الجِياع، العَرب، العُريب، رؤوس الناس وملوكهم.

ـ «**الحفاة**»: جمع الحافي، وهو من لا نعل له.

ـ «**العراة**»: جمع العاري، ويَصدق على من يكون بعض بدنه مكشوفاً مما يحسُن وينبغي أن يكون ملبوساً.

ـ «**العالة**»: الفقراء، والعائل: الفقير، والعَيْلة: الفقر، وعالَ الرجل يَعِيل عَيْلةً، إذا افتَقَر.

ـ «**الصُّم**»: جمع الأَصمّ، وهو الذي لا يسمع شيئاً، وأراد به الذي لا يهتدي ولا يَقْبل الحق من صَمَمِ العقل لا صممِ الأذن.

ـ «**البُكْم**»: جمع الأبكم، وهو الذي خُلِقَ أخرسَ لا يتكلم.

قال ابن الأثير وابن حجر وغيرهما: أراد بهم الرَّعَاع والجهَّال، لأنهم لا ينتفعون بالسمع ولا بالنطق كبيرَ منفعة في شيء من أمور دينهم، فكأنهم سُلِبوا هـذه الحواس وإن كانت سليمة.

ـ «**الجياع**»: جمع الجائع، وهو الذي لا يجدُ ما يملأ معدته.

ـ «**العرب**»: اسم لهـذا الجيل المعروف من الناس، ولا واحدَ له من لفظه.

وفي رواية: «**العُريب**» على التصغير، والمراد بهم أهل البادية.

ـ «**رؤوس الناس**»: أراد: مقدَّميهم وسادَتَهم وملوكَهم.

●● **ومجمل صفات هؤلاء القوم تدل على أنهم** فئامُ من العرب، من أهل

---

(١) أخذت هـذه المعاني وهذَّبتُها من: النهاية في غريب الحديث؛ جامع الأصول: ١/٢١٦؛ شرح مسلم، للنووي: ١/١٩٤؛ الفتح: ١/٢٤٢ ـ ٢٤٥؛ عون المعبود: ٨/٨١.

البوادي والجبال، رعاة للشاء والإبل، فقراء الحال، جياع لا يجدون ما يسدُّ الرَّمَقَ، قد حَفِيتْ أقدامُهم من النعال، كما انكشفتْ أجسامهم من قلة اللباس وضِيق الحال. ثم هم جَهَلة سُذَّج بسطاء، أحلامُهم ضعيفة، وأفهامهم كليلة، وأبصارهم حسيرة، وعلومهم ضئيلة، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وقد جاء وصفُهم في إحدى الروايات: «**وأنْ ترى الصُّمَّ البُكْمَ العُمْيَ الحُفاةَ رعاءَ الشاء، يتطاولون في البنيان، ملوكَ الناس**»، فقُلنا: يا رسول الله! من هؤلاء الذين نَعَتَّ؟ قال: «**همُ العربُ**»(١).

وهـذه الخِلال تقعدُ بأصحابها عن نوال أدنى المراتب في الأمة، وأقلّ الوظائف في أي دولة، وغايةُ أمرِهم أن يكونوا من عامة الرعية ينتظرون من يأخذ بأيديهم ويَسُوسهم ويتولى شؤونهم، لكن الأمر الذي لا ينقضي منه العجب أن رسول الله ﷺ يخبرنا بأن هؤلاء سيكونون رؤوسَ الناس وملوكَ الأرض!.

إن هناكَ أُسَراً وبيوتات وأكابر وأشرافاً؛ هم أوفَرُ أموالاً، وأكثر عدداً، وأعزُّ نفراً، وأعرقُ أصلاً، وأكرمُ محتِداً، وأرفَعُ جاهاً، وأكملُ عقلاً، وأرحبُ فهماً.. لكنهم أُخِّروا إلى الصفوف الخلفية، ووَثَب هؤلاء الحفاة العراة الصم البكم إلى منابر الجاه وسدَّة الملك ومقاعدِ السلطان، فلما وصلوها، فتدنَّتْ إليهم ثم تدلَّت أمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذَ، ثم توارثوها جيلاً إثر جيل.

وهـذا من فساد الحال وانقلاب الموازين واضطراب القِيم، وقد كان ما قاله النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن رجب: (فإذا صار الحفاةُ العراةُ رعاءُ الشاء ـ وهم أهل الجهل والجفاء ـ رؤوسَ الناس، وأصحابَ الثروة والأموال، حتى يتطاولوا في البنيان؛ فإنه يَفسد بذلك نظامُ الدين والدنيا)(٢).

---

(١) تعظيم قدر الصلاة، للمروزي (٣٦٧).

(٢) جامع العلوم والحكم، ص٣٩.

وقال القرطبي: (المقصود الإخبار عن تبدلِ الحال، بأن يستولي أهلُ البادية على الأمر ويتملّكوا البلادَ بالقهر، فتكثُرَ أموالُهم، وتنصرف هِمَمُهم إلى تشييد البنيان والتفاخرِ به، وقد شاهدنا ذلك في هـذه الأزمان!)[1].

والقرطبي توفي منذ أكثر من سبعمئة سنة، فماذا يقول لو رأى زماننا؟!.

●● **فمنذ عدَّة عقود من السنين، وفي كثير من بلادنا العربية، قد وُجد هؤلاء الذين وصَفتْهم الأحاديث النبوية، وبالخلال التي وُصِموا بها، وتحققتْ فيهم النبوءة على أبرز وأعلى وأصدقِ أشكال التحقق**، فصاروا رؤوس الناس؛ من مسؤولين صغار في قاعدة هرم السلطة إلى رؤوس كبار في قمة هرم الحكم والملك!.

لقد أَمْسَوا هم المدراء والوزراء والملوك والرؤساء، ولكلٍّ منزلته ومكانته التي تليق به، لكنهم في جملتهم «**رؤوس الناس**» كما وصف النبي ﷺ!.

إنهم ملوك فيما تشمله هـذه العبارة من معنيين كبيرين:

الأول: حياتُهم حياة القياصرة، وعيشُهم عيش الأكاسرة، من أموال لا يحصيها العادّ، وكنوز مدفونة في باطن الأرض أو مكدَّسة في البنوك المحلية والدولية، وبَذْخ وترف وسَفَه وَسَرف، وتبذير للأموال، وتبديد للثروات، واستمتاع بشتى أنواع اللذائذ والشهوات، وتلبية كافة الرغبات، والشغفِ باللهو، والعَبِّ من كل الملذات.. حياةٌ ناعمة، وملكٌ عريض، وأموالٌ سيَّالة، وخيرات فيَّاضة من الأرض ومن أيدي الناس، فكل ما في البلاد مُلْكُ أيمانهم لا يحجزهم عنه شيء.

الثاني: سلطانُهم سلطان الملوك المتوَّجين، إذا قالوا يُسمع لقولهم، وإذا أَمَروا نُفِّذت أوامرهم، وإذا أشاروا هَبَّ سَرَعانُ الناس لنَيْلِ رضاهُم وتلبية رغائبهم، لا يُعْصَى لهم أمر، ولا يُناقش لهم قول، ولا يتقدَّم بين أيديهم أحد،

(١) الفتح: ١/ ٢٤٥.

قد مَلَكوا الأرض وما فيها ومن عليها، ووَرِثوا ذلك عن آبائهم، وأورثوه أبناءَهم وهؤلاء للأحفاد من بعدهم، لا يَنتهي لهم مُلك، ولا يَنقطع لهم عطاء، مولودهم يُحفظ نصيبُه في البنوك منذ أن يَستهِلَّ صارخاً، فما إن يُراهِق الحُلُمَ حتى يجد نفسه ملكاً في الجاه والسلطان والمال والثراء، مثلَ أبيه، ورثوها كابراً عن كابر كما يرث الأبناء من أبيهم ماله وداره ومزرعته وشاءه!.

●● والعَيْلة والحاجَة والجوع والعري ليس عيباً ولا معرة، فالعائل قد يستغني والمحتاج قد يكتفي والجائع يشبع والعاري يكتسي والحافي ينتعل، لكنهم تكون لهم ملكات يَستنفِذونها في مناشط العلم والعمل والبناء والجد والنفع لهم وللدين والأمة والعباد والبلاد، فترتفع منزلتهم، وتسمو مكانتهم، ويصبحون عن جدارة رؤوسَ الناس، فهـذا مما لا يُذَمّ ولا يُعاب، بل يُزكّى ويُمدح.

أمَّا أن يكون المرء صِفْرَ العقل، ضعيفَ العزم، خائرَ الهمة، ساهياً لاهياً مسترخياً، لا يهمّه إلا أصناف الطعام وألوان الشراب وأنواع المراكب ومختلِف الملذات والمشتهيات.. ثم هو مسؤول خطير، أو أمير كبير، يأمر وينهى، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، فهـذا مما توجَّه إليه الذم في هـذه الأحاديث.

●● إنَّ ذاكَ الصنف من المسؤولين والرؤوس والأمراء والملوك، قد فرَّطوا بحقوق دينهم وأمتهم وبلادهم، ووَرِثوا رسوماً باهتة من التدين المغشوش، وانحرفوا بالإسلام عن صراطه المستقيم، واتخذوا مالَ الله دُوَلاً وعبادَه خَوَلاً، وتركوا كنوز البلاد وخيراتها للغزاة والطامعين يستنبطونها ويستثمرونها وينتهبون جُلّها، وعجزوا هم عن استثمار الأموال الطائلة في إنشاء الكوادر القديرة على التحكم بثروات الأمة، وتلهَّوا بالمتاع الزائل، فانتُهِبت الثروات، وضاعت الأجيال! فترى كثيراً من شعوب تلك البلدان تعيش حالة من الفقر أو قريباً منه، مع انتشار الجهل والأمية الدينية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعلمية.. لأن الحُفَاة العُراة الصمَّ البُكْمَ رؤوس الناس قد غرِقوا في ملذات أنفسهم من حُبّ المال والجاه والسلطان والحرص عليها جميعاً، فلا يستطيعون فِكاكاً عن التبذير

والتبديد حيث يعيشون في دائرة من ذهب ضَرَبَها عليهم الذين يستنزفون كنوز البلاد، ويوجِّهون سفينتها إلى حيث الضياع والهلاك.

★ ★ ★

١٣٨ ـ الحُفَاة العُراة الرِّعاء يتطاولون في البنيان

●● وهؤلاء قد وصفهم رسول الله ﷺ بصفات قريبة من صفات الصنف السابق؛ فهم[1]:

الحُفاة، العُراة، العالَة، رِعاءُ الشاء ورعاءُ البَهْم ورعاةُ الإبل البُهْم، وأصحابُ الشاء، والرِّعَاء البهم، ويتطاولون في البنيان.

وهم يشتركون في بعض الخصال مع أولئك الذين أضحوا ملوك الأرض: الحفاة، العراة، العالة، رعاء الشاء، ويزيدون صفات أخرى.

ـ «**رِعاءُ الشَّاء**»: الرِّعَاء: جمعُ راعِي الغَنَم، وقد يُجمع على رُعاة.

والشاءُ: جمع شاة.

ـ «**رِعاءُ البَهْم**»: البَهْم: جمع بَهْمَة وهي ولد الضأن الذكر والأنثى، وجمع البَهْم بِهَام، وأولاد المَعز سِخَال، فإذا اجتمعتا أُطْلِق عليهما البَهْم والبِهَام.

ـ «**رعاةُ الإبلِ البُهْمِ**»: أي: الإبل السوداء، وهي شرُّ الألوان عندهم، وخيرُها الحُمر كما جاء في الحديث: «**خيرٌ من حُمْر النَّعَم**».

ـ «**الرِّعَاءَ البُهُمَ**»: وفي رواية للبخاري: «**رعاةُ الإبل البُهْمُ**»: والبهم هنا صفة للرعاة، والبُهم: السود الألوان، أو: البُهم جمع البَهِيم وهو المجهول الذي لا يُعرف.

ووَصَفَ الرعاةَ بالبُهم: إما لأنهم مجهولو الأنساب، ومنه «أبهم الأمر» فهو

---

(١) أخذت معاني الألفاظ من: النهاية في غريب الحديث؛ وشرح مسلم، للنووي؛ وفتح الباري.

مُبْهَم إذا لم تُعْرف حقيقته، أو لأنهم لا شيءَ لهم، كقوله ﷺ: «**يُحشَر الناس حُفاةً عراةً بُهْماً**».

ولا يُقال: (قد نَسَب لهم الإبل، فكيف يُقال: لا شيءَ لهم؟)، لأنه يُحمل على أنها إضافةُ اختصاص لا مِلْك، وهـذا هو الغالب أن الراعي يرعى لغيره بالأجرة، وأما المالك فقَلَّ أن يباشِر الرعيَ بنفسه[1].

فهؤلاء رعاةٌ لبَهْم الغير وإبله بالأجرة وليس لهم من ملكها شيء.

ـ «**أصحاب الشاء**»: أي الذين يملكونها، فقد يباشرون رعيها بأنفسهم، والأغلب أن يستأجروا من يرعاها.

والحديث يشمل هؤلاء وأولئك.

ـ «**يتطاولون في البنيان**»: فيه معنى التفاعل، أي: يتسابقون ويتبارون ويتغالبون ويتفاخرون في تطويل البناء ويتكاثرون به، فكلٌّ منهم يريد أن يكون ارتفاعُ بنائه أعلى من ارتفاع الآخر، ويتباهى في تضخيمه وتفخيمه وزخرفته وتزيينه[2].

●● قال أئمتنا من شُرَّاح الحديث كالخَطّابي وابن الأثير والنَّووي وابن كثير وابن حجر:

إن الأعرابَ وأصحابَ البوادي وأشباهَهم من أهل الحاجة والفاقة الذين يَنْتَجِعون مواقعَ الغيث ولا تستقِرُّ بهم الدار؛ تُفتح لهم البلاد، وتُبسط لهم الدنيا، وتكثر أموالهم، وتمتدّ وجاهتُهم، فيَعمرون المدائن، ويتباهون في البنيان، ويتطاولون فيه، ليس لهم دأب ولا هِمَّة إلا التطاول في البناء، والتفاخر في تشييده[3].

---

(١) الفتح: ١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(٢) الفتح: ١/ ٢٤٤ شرح الحديث (٥٠)، ١٦/ ٤٢٠ شرح الحديث (٧١٢١).
(٣) النهاية في غريب الحديث: ١/ ١٦٨؛ شرح صحيح مسلم: ١/ ١٩٤؛ النهاية في الفتن والملاحم: ١/ ٢٣١؛ الفتح: ١/ ٢٤٥.

قال القُرطبي: (المقصودُ الإخبارُ عن تبدّل الحال بأن يستولي أهل البادية على الأمر، ويتملكوا البلاد بالقهر، فتكثُرَ أموالهم، وتنصرف همَمُهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به، وقد شاهدنا ذلك في هذه الأزمان. ومنه الحديث الآخر: «**لا تقوم الساعة حتى يكونَ أسعدَ الناس بالدنيا لُكَعُ بن لكع**»، ومنه: «**إذا وُسِّد الأمرُ إلى غيرِ أهله فانتظروا الساعة**»، وكلاهما في الصحيح)(١).

وقال الحافظ: (ومعنى التطاول في البنيان أن كلّاً ممن كان يبني بيتاً يريد أن يكون ارتفاعه أعلى من ارتفاع الآخر، ويَحتمِل أن يكون المراد المباهاة به في الزينة والزخرفة، أو أعم من ذلك. وقد وُجِد الكثير من ذلك، وهو في ازدياد)(٢).

قلت: رحم الله القرطبي وابن حجر، فماذا يقولان لو شاهدا كثيراً من المدائن العربية الآن؟! وابن حجر آخرهما وفاة توفي سنة (**٨٥٢ هـ**)، منذ (**٥٧٧** سنة)!.

•• وهـذه النبوءة قد ظهرت مباديها منذ عدة قرون كما تقدَّم عن علمائنا، ولكن بصورة مبسطة إذا قارنّاها بما حدث في بلادنا من عقود قريبة وإلى أيامنا هـذه، حيث استحكم تحقق النبوءة بشكل تام وبصورة جلية.

ومرة أخرى نقول: إن تشييدَ العمران وتطويلَ البنيان وإعمارَ المدائن الزاهرة وإقامةَ الشوارع الفاخرة؛ لا يتوجَّه إليه الذمُّ والتبكيتُ إذا كان من وجوهه المباحة، وأُقيم لترفيه الإنسان عامة وتليين معاشه، وقام عليه أناسٌ أمناء، وحرسَتْه أيدٍ نظيفة، وتعهَّدَتْه قلوب رحيمة، ورافقَتْه نهضة علمية وتجارية وصناعية واجتماعية ودينية وبنيوية حقيقية متينة، وعاشت فيه القيمُ النبيلة،

---

(١) الفتح: ١/ ٢٤٥. والحديثان قد فصلنا القول فيهما في النبوءة (٨٨)، والنبوءة (٩٢). وحديث «لكع بن لكع» صحيح لكنه ليس في أحد الصحيحين.

(٢) الفتح: ١٦/ ٤٢٠.

وانتعشتْ في أروقته الأنشطةُ المشروعة، وسادَته العدالة والمساواة والمرحمة والخوف من الله تعالى والحساب للدار الآخرة!.

لكن أين هـذا مما هو كائن؟!.

إن الذي ينظر ما عليه الحال من تشييد العمران والتطاول في البنيان في كثير من العواصم والمدائن العربية في جزيرة العرب والشام ومصر والمغرب وغيرها، يجد أن الناس قد دخلوا في (حَلْبة السِّباق) الذي لا ينتهي من التطاول في البنيان والتفاخر فيه، حتى وصلَتْ بعض الأبراج أو ما يسمّى (بناطحات السحاب) إلى أكثر من مئة طابق!

وقسم كبير من تلك الأموال التي تُضَخّ لرفع تلك الكتل الإسمنتية الشاهقة، هي أموال ربوية، والذي يعرف أقلَّ المعرفة يدرك أن نحو (٩٠٪) من تلك الأبنية تديرها وتموِّلها بنوك ربوية عملاقة، والله تعالى يقول: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ثم من الذي يقطنها ويستمتع بها؟! أَهمُ المؤمنون المسلمون البسطاء الذين كان من أدنى حقوقهم كأبناء لهـذا البلد أو ذاك أن يتمتعوا بنعيم أرضهم وخيرات بلادهم، لا أن ينعم بها شُذَّاذ الآفاق من صليبيين ووثنيين وهنادك وأمثالهم؟!.

إن كثيراً من المسلمين غرباء في أوطانهم عن تلك النعماء والخير الممدود، وكثير من المغلوبين والمسحوقين تطاردهم يدُ المالك في آخر الشهر ليدفعوا الأجرة، وهم لا يحلُمون بسكنى تلك (الأبراج)، فليذهبوا إلى هناك بعيداً حيث يجدون مأوى يواري أجسامهم ويحميهم من الحر والقَرّ!.

ناهيكَ بما يَظهر في كثير من تلك الأبنية المتطاولة من موبقات كالعري والتهتك والمجون والعربدة وغير ذلك.

ألهـذا فاضتِ الأموال على الأمة ليدخل الناس في معترك التسابق على تشييد البنيان، أم اعترى أولئك (الحفاة العراة) أنهم يحسبون أن ما هم فيه من

نعيم وما يمتلكون من أموال قد جاءتهم اتفاقاً من غير مبررات أكسبَتْها ولا مقدمات ساقتها، أو نالوها بمحاباة من الأقدار واختصاص لهم؟!.

إن هذا الظن يجتثُّ أصولَ الخير، ويستعجلُ نِقْمةَ المَلِك الأعلى.

إن من أوليات العقل والحصافة أن يَستديم هؤلاء الشكرَ لله تعالى ويتقوه فيما حَبَاهم، لينجحوا في الاختبار، وإلا فالعاقبة وخيمة، ورب العالمين يختبر عباده بالعُسْر واليُسر، ويبعث بالرخاء بعد الشدة، لا ليخرج المروَّعون من اللُّجَج المخوفة ويسيروا على شاطئ الأمان مرحين معربدين، كلا! بل ليعتبروا بماضيهم ومستقبلهم معاً، وإلا فالأمر كما ذكر الله تعالى في كتابه: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١](١).

●● إن غيرنا من دول الغرب والشرق قد تطاولوا في البنيان، ورفعوا (ناطحات السحاب)، نعم، لكنهم بَنَوا معها اقتصاداً جبَّاراً، وأقاموا حضارة علمية وصناعية لم يَسبق للبشرية أن حَلَمت بها، وعاش عامةُ بَنيها في بحبوحةٍ ورغدٍ وأمان، وكَفَلت لهم دولُهم ما يُقيم حياتهم ويحفظ كرامتهم.

فماذا فَعَل (الذين جاء نَعْتُهم في الأحاديث)؛ أولئك الذين أفاءَ الله عليهم الأموال والأرزاق، وماذا قدَّموا لشعوبهم في حاضرهم، وماذا أسَّسوا لهم في مستقبلهم؟.

إن الزراعة والصناعة والتجارة والعلم والاقتصاد ومحاربة الأمية والبطالة وتوفير الرعاية الصحية وتأسيس البنية التحتية وتأمين المعاش للأجيال القادمة و... و... في كثير من بلادنا يُشعرنا بالحزن والأسى والإشفاق على الأمة في السنين القادمة!.

ما قيمةُ تشييد البنيان ورَفْعُ العمارات الشاهقة إذا كانت أكثر شعوبنا تعتمد

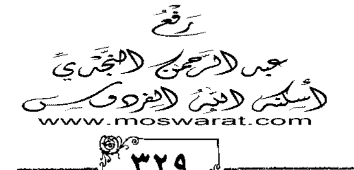
---

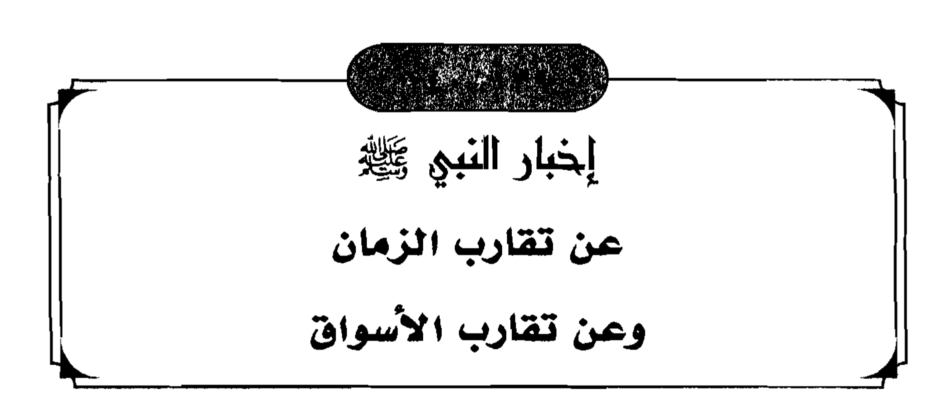
(١) اليهود المعتدون، ص٢٣٠ ـ ٢٣١.

على أمريكا وكندا وغيرهما في رغيف الخبز الذي تأكله؟! وماذا تُجدي على أمتنا تلك الأبنية المشيدة و(الأبراج) السامقة، في الوقت الذي تسيطر فيه الشركات الأجنبية على معظم ثرواتنا، حتى النفط والغاز والخامات الأخرى، يستخرجها ويصنعها ويستثمرها ويسوِّقها ويهيمن على كل تقنياتها أيدي غير عربية وغير إسلامية؟!.

●● **ومن هنا نقول**: إن تحقُّق النبوءة معجزةٌ نبوية ودليل جديد على صدق رسولنا ﷺ، وما أكثر تلك الأدلة! لكننا نضيف أن الأعجبَ منها تلك الصفات التي وُصِم بها هؤلاء القوم، لأنهم يبدِّدون الأموال فيما لا يعود نفعه إلا على قلة قليلة من المسلمين، ومعظم العائدات تظفر بها الشركات العملاقة، وأمَّا عامة المسلمين فيبقون في المَسْغَبة والحاجة والعطالة والبطالة والتزاحم على اكتساب لقمة العيش والكساء الذي يستر الجسم والمسكن الذي يؤوي الأهل.







إخبار النبي ﷺ عن تقارب الزمان وعن تقارب الأسواق

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتى يَتَقارَبَ الزَّمَانُ؛ فتكونُ السَّنَةُ كالشَّهْرِ، ويكونُ الشهرُ كالجُمُعَةِ، وتكونُ الجُمعةَ كاليوم، ويكونُ اليوم كالساعةِ، وتكونُ الساعةُ كاحتراقِ السَّعَفَةِ، أو الخُوصَةِ**»[1].

٢ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يتقاربَ الزَّمَان؛ فتكونُ السَّنَةُ كالشهرِ، والشهرُ كالجمعةِ، وتكونُ الجمعةُ كاليومِ، ويكونُ اليومُ كالساعةِ، وتكونُ الساعةُ كالضَّرَمَةِ بالنارِ**»[2].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يَتَقاربُ الزَّمَانُ، ويَنْقُصُ العملُ، ويُلْقَى الشُّحُ، وتَظهَرُ الفِتَنُ، ويَكْثُر الهَرْجُ**» قالوا: يا رسول الله! أيُّما هُوَ؟ قال: «**القَتلُ، القتلُ**»[3].

٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**يوشِكُ أنْ لا تقوم**

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٨٦)؛ وابن حبان (٦٨٤٢) واللفظ له؛ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣٢) وقال: هذا حديث غريب؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٠١)، وصحيح الجامع (٧٤٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٦١) واللفظ له، وأطرافه في رقم (٨٥)؛ ومسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (١٥٧) (١١) بعد الحديث (٢٦٧٢)؛ وأبو داود (٤٢٥٥)؛ وابن ماجه (٤٠٥٢)، وأحمد: ٢/ ٢٣٣، وابن حبان (٦٧١١) و(٦٧١٧).

السَّاعةُ حتى يُقْبَضَ العِلمُ، وتظهرَ الفِتَنُ، ويَكْثُرَ الكذبُ، ويتقاربَ الزَّمانُ، وتتقاربَ الأسواقُ، ويكْثُرَ الهَرْجُ» قيل: وما الهَرْجُ؟ قال: **«القَتْلُ»**(١).

۞ ۞ ۞

● **شرح معاني الألفاظ:**

ـ **«السَّعَفَة»**: واحدة السَّعَف، وهي أغصان النخيل.

ـ **«الخُوصَة»**: واحدة الخُوص، وهو ورقُ النخيل.

ـ **«الساعة»**: المرادُ بها الساعة اللغوية، وهي أدنى ما يُطلق عليه اسمُ الزمان من اللَّمحة واللَّحظة والطَّرْفَة(٢).

ـ **«الضَّرْمَة»**: الشعلة الواحدة من النار.

★ ★ ★

١٣٩ ـ تقارب الزمان

اختلفت أنظار العلماء في معنى «تقارب الزمان» في هـذه الأحاديث، وبالتالي متى ظهرتْ مبادي هـذه النبوءة، وهل استحكَمَ تحقُّقُها أم لا، ومن أشهر الأقوال في هـذا:

١ ـ تقاربُ أحوال الناس في قلَّة الدين وغَلَبةِ الفسوق:

قال ابن بطَّال: معنى **«يتقارب الزمان»**: تتقاربُ أحوال أهله في قلَّة الدين حتى لا يكون فيهم مَن يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، لغلبة الفِسق وظهور أهله.

٢ ـ تقاربُ الناس في تَرْك طلبِ العلم وغلبةِ الجهل:

قال الطَّحَاوي: قد يكون معناه في ترك طلب العلم خاصة والرضا بالجهل،

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ٥١٩؛ وابن حبان (٦٧١٨) واللفظ له؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧٧٢) وعزاه لأحمد فقط.

(٢) تحفة الأحوذي: ٦/ ٢٠٤.

وذلك لأن الناس لا يتساوون في العلم؛ لأن دَرَج العلم تتفاوت، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وإنما يتساوون إذا كانوا جُهَّالاً[(١)].

وتعقّبه الحافظ بأنه لا يناسب ما ذُكر معه من بقية الأشراط والنبوءات الواردة في حديث أبي هريرة المذكور أخيراً هنا.

٣ ـ استقصارُ أيام الرَّخاء بسبب لذة العيش:

وإليه جَنَح الخَطَّابي، وملخص رأيه أن تقارب الزمان يعني استلذاذَ العيش عند خروج المهدي وعيسى عليه الصلاة والسلام، ووقوع الأَمَنَةِ في الأرض وغلبةِ العدل فيها، فيُستلَذُّ العيشُ عند ذلك وتُسْتَقْصَر مدَّتُه، وما زال الناس يَستقصِرون مدَّة أيام الرخاء، وإنْ طالَتْ، ويَستطيلون مدَّة المكروه وإنْ قَصُرَت.

وتعقَّبه الكِرْمَانيُّ في هـذا الرأي بأنه لا يُنَاسِب أخواته من ظهور الفتن وكثرة الهَرْج وغيرهما.

قال الحافظ: إنما احتاج الخطَّابي إلى تأويله بما ذَكَرَ لأنه لم يقع النقصُ في زمانه، وإلا فالذي تضمَّنَه الحديث قد وُجِد في زماننا هـذا، فإننا نجدُ من سرعة مرِّ الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هـذا، وإنْ لم يكن هناك عيشٌ مُسْتَلَذّ[(٢)].

٤ ـ نزعُ البركة من كل شيء حتى من الزمان:

قال ابن أبي جَمْرَة: (يَحتمِل أن يكون المراد بتقارب الزمان: قِصَرُه؛ على ما وقع في حديث: «لا تقوم الساعة حتى تكون السنة كالشهر» وعلى هـذا فالقِصر يحتمل أن يكون حسيّاً، ويحتمل أن يكون معنويّاً: أما الحِسيُّ: فلم يَظهر بعدُ، ولعلَّه من الأمور التي تكون قُرْبَ قيام الساعة. وأما المعنوي: فله مدَّة

---

(١) الفتح: ١٦/٣٠٦ ـ ٣٠٧، شرح الحديث (٧٠٦١).

(٢) المرجع السابق: ١٦/٣٠٧ ـ ٣٠٨.

منذ ظهر، يَعرف ذلك أهل العلم الديني ومَن له فِطنة من أهل السبب الدنيوي، فإنهم يجدون أنفسهم لا يقدِر أحدُهم أن يَبلغ من العمل قَدْر ما كانوا يعملونه قبل ذلك، ويَشْكُون ذلك ولا يدرون العلة فيه، ولعلَّ ذلك بسبب ما وقع من ضعف الإيمان؛ لظهور الأمور المخالفة للشرع من عدة أوجه، وأشدُّ ذلك الأقوات؛ ففيها من الحرام المحْض ومن الشُّبَه ما لا يخفى، حتى إن كثيراً من الناس لا يتوقَّف في شيء، ومهما قَدَر على تحصيل شيء هجم عليه ولا يبالي.

والواقع أن البركة في الزمان وفي الرزق وفي النَّبْت إنما تكون من طريق قوة الإيمان، واتباع الأمر واجتناب النهي، والشاهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦](١).

وإليه ذهب القاضي عِياض والنَّووي وغيرهما، قالوا: المراد بقِصَرِه عدمُ البركة فيه، وأنَّ اليوم مثلاً يَصير الانتفاع به بَقَدْر الانتفاع بالساعة الواحدة. قالوا: وهذا أظهر وأكثر فائدة، وأوفق لبقية الأحاديث.

ورجَّحه الحافظ فقال: والحق أن المراد نزعُ البركة من كل شيء حتى من الزمان، وذلك من علامات قُرب الساعة(٢).

قلت: يقول علماؤنا هذا منذ سبعمئة سنة، فماذا يقولون لو رأوا حياة الناس في زماننا؟! إنَّ الأمر في ازدياد خطير؛ فقد تشابكت الشبهات، وكَثُر أكلُ المال الحرام من وجوه متنوعة، وتغلغَل الرِّبا في معاش الناس وكثير من معاملاتهم، وانتشر الغش والخِداع والاختلاس والانتهاب والرِّشوة وأصنافُ أكل أموال الناس بالباطل، وتبارى الكثيرون في تحصيل الشهوات، وغفلوا عن كثير من الواجبات؛ فُنزع كثير من البركة من الأقوات والأرزاق والأموال والأولاد والأوقات والأعمار والأعمال، ولا حول ولا قوة إلا بالله!.

---

(١) الفتح: ١٦/٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٢) الفتح: ١٦/٣٠٨.

وهـذا الرأي له وجاهتُه، ولكنْ في كونه المقصود من الحديث نظرٌ، فقوله: «**يتقارب الزمان**» يعني تفاعلاً بين شيئين، ونزعُ البركة من الزمان وغيره لا يفيد ذلك.

٥ ـ تقاربُ أهل الزمان وطيُّ المسافات الفاصلة بين الناس بسبب وسائل المواصلات والاتصال المختلفة:

وممن ذهب إلى هـذا العلّامة الشيخ محمد رشيد رضا حيث قال: بأن المراد من «**تقارب الزمان**» ما هو حاصل من تقارب المواصلات وقطع المسافات البعيدة في الزمن القصير برّاً وبحراً وجوّاً. ووصف هـذا المعنى بأنه أظهرُ من كل ما قدَّمناه عن الأئمة السابقين، وأليقُ بكونه إخباراً عن غيب لا مجالَ للرأي فيه، وقال: إنَّ بعضَ ما يُعمل الآن في ساعة واحدة لم يكن يمكن عملُه في يوم، وما يُعمل في يوم واحد كان يُحتاج فيه إلى أسبوع... إلى آخر ما قال[١].

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ توفي سنة (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) منذ خمس وسبعين سنة، ولو رأى ما عليه الناس اليوم لقال أكثر مما قاله.

وزاد الشيخ حمود التويجري المتوفى سنة (١٤١٣هـ) الأمرَ توضيحاً فقال:

(والظاهر ـ والله أعلم بمراد رسوله ﷺ ـ: أنَّ ذلك إشارةٌ إلى ما حدث في زماننا من المراكب الأرضية والجوية والآلات الكهربائية التي قرَّبَتْ كلَّ بعيد، والمعنى على هـذا: يتقاربُ أهلُ الزمان، كقوله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف أنهم قالوا لأبيهم: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]؛ يعني: واسألْ أهلَ القرية وأصحابَ العِير، وكقوله ﷺ: «**أَيُّما قريةٍ عَصَتِ اللهَ ورسولَه، فإن خُمُسَها لله ولرسوله**»[٢].. ونظائرُ ذلك كثيرة جدّاً في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ولغة العرب.

---

(١) انظر: تفسير المنار: ٩/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٥٦)؛ وأبو داود (٣٠٣٦)؛ وأحمد: ٢/ ٣١٧؛ وابن حبان (٤٨٢٦)، وغيرهم.

وأحاديث هـذه النبوءة تنطبق على سيرِ المراكب الأرضية في هـذه الأزمان، فإنها تقطعُ مسافةَ السنة في شهر فأقلَّ، ومسافةَ الشهر في جمعةٍ فأقلّ، ومسافةَ الجمعة في يومٍ فأقل، ومسافةَ اليوم في ساعة فأقل، ومسافة الساعة في مثلِ احتراق السّعَفة، وبعضُها أسرع من ذلك بكثير.

وأعظمُ من ذلك المراكبُ الجوية، فإنها هي التي قَرَّبَتِ البعيدَ غاية التقريب، بحيث صارت مسافة السنة تُقطع في يوم وليلة أو أقل من ذلك.

وأعظمُ من ذلك الآلات الكهربائية التي تنقل الأصوات، كالإذاعات والتليفونات الهوائية، فإنها قد بَهَرتِ العقولَ في تقريب الأبعاد، بحيث كان الذي في أقصى المشرق يُخاطِب مَن في أقصى المغرب كما يخاطب الرجلُ جليسَه، وبحيث كان الجالس عند الراديو يَسمع كلامَ مَنْ في أقصى المشرق ومن في أقصى المغرب ومن في أقصى الجنوب ومن في أقصى الشمال وغير ذلك من أرجاء الأرض في دقيقة واحدة، كأنَّ الجميعَ حاضرون عنده في مجلسه.

فالمراكبُ الأرضية والجوية قرَّبتِ الأبعادَ من ناحية السير، والآلاتُ الكهربائية قرَّبتِ الأبعادَ من ناحية التخاطبِ وسماع الأصوات، فسبحانَ من علَّم الإنسان ما لم يعلم!)[1].

ونحن نذهب إلى ما ذهب إليه الشيخان محمد رشيد رضا وحمود التويجري، وحمل الحديث على هـذا يوضح تماماً معنى قوله ﷺ: «**يتقارب الزمان**» أي: «يتقارب أهل الزمان»، وتقدير المحذوف أمر شائع معروف في الكتاب والسنَّة وكلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، أي: على ألسنة رسلك، وقوله سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] أي: عن أهل القرية[2].

---

(١) إتحاف الجماعة: ٢/ ١٩٥، بتصرف يسير.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٤/ ٣٠٨، ٧/ ٢٦٨.

و«**يتقارب**» هنا متحققة تماماً وتعني التفاعل بين طرفين، فالناس يتقاربون في طي المسافات والاتصال والتخاطب والمشاهدة، فعن طريق أجهزة الاتصال والكمبيوتر وآلات التصوير أصبح الرجل يخاطب الآخر ويكاتبه ويراسله ويشاهده كأنهما في مجلس واحد مع تنائي بلديهما في المشرق والمغرب والشمال والجنوب، وأضحى سكان الأرض الآن وكأنهم في قرية واحدة، والله تعالى أعلم.

★ ★ ★

١٤٠ ـ تقارب الأسواق

وهذه النبوءة من لطائف معجزات نبيِّنا ﷺ ودلائل صدقه المتكاثرة، ودقة بيانه، وروعة تناسق العبارات والنبوءات وترابطها في الحديث الواحد، فكثير من الأحاديث التي تشتمل على عدة نبوءات تجدُ الوشائجَ بين كل النبوءات أو معظمها.

فتقاربُ الأسواق ذو صلةٍ بتقارب الزمان في ضوء المعنى الذي اخترناه ورجّحناه، وكذلك بين «**تقارب الأسواق**» و«**كثرة الكذب**» علاقة حميمةٌ، ففي الأسواق يكثُر الكذب والغش والتغرير والتدليس والأَيْمان الكاذبة والدعايات الكثيرة والضخمة لترويج البضائع وتزيينها في أعين الناس، وكثير منها ينطوي على كذب مبطَّن، زِدْ على ذلك الكذبَ في العلامات التجارية ومصادر تصنيع المواد المعروضة حيث يجري فيها أيضاً كذب كثير.

أما معنى «تقارب الأسواق» فأمرُه واضحٌ جدّاً في زماننا، وواقعٌ محقَّق مشاهَدٌ في المدينة الواحدة، وبين مدن دولة ما، وبين الدول المتقاربة والمتباعدة.

وبيان ذلك أننا نشهد ونعيش (التقارب في الأسواق) في مدائننا العربية والإسلامية، ناهيك عن المدن في خارج العالم الإسلامي فالأمر فيها أكبر وأكثر؛ فتجد في المدينة الواحدة الصغيرة أو الكبيرة الأسواق المتقاربة جدّاً،

والتي تتنوع فيها أصناف البضائع والمواد ومستلزمات الإنسان الضرورية والكمالية والترفيهية، للصغير والكبير، والذكر والأنثى، والغني والفقير.. وفي كثير من الحالات لا يحتاج المرء للتنقل من سوق إلى آخر إلى كبير عناء أو ركوب السيارة بل الأمر ميسور للماشي على قدميه لقُرب الأسواق من بعضها..

بل زاد التقارب أكثر من ذلك حيث أُنشئت في العَقْدين الأخيرين في كثير من المدن ما يُعرف بمراكز التسوق الكبرى والأسواق التجارية العملاقة، ووُضعت لها أسماء متعددة يغلب عليها (الأسماء غير العربية)! وتجد في هذه المراكز أسواقاً عديدة جدّاً، ليست متقاربة فحسب بل متلاصقة أو متراكبة، والمرء يتنقل من سوق لآخر تحت سقف واحد، أو من طابق إلى آخر دونما شعور بأي معاناة! والرسول ﷺ قال: «**تتقارب الأسواق**» لتحتمِلُه عقولُ المخاطبين، ويرى من يأتي بعدهم مصداقه عبر تطاولِ السنين.

فهذه الأسواق المتقاربة أو المتلاصقة قد يَبلغ عددها (مئة) سوق، تُعرض فيها كل متطلبات الإنسان وحاجاته بدءاً من أساسيات الأكل والشرب وانتهاء بالأثاث والمفروشات وأدوات البناء والكماليات من مجوهرات وغيرها.

هذا في المدينة الواحدة.

ولو صَعّدنا النظرَ وأَجَلْنَا الفكرَ ليطوِّف في بيان معنى «**تقارب الأسواق**» في مجال أرحب وأوسع، لرأَيْنَا التقاربَ بين الأسواق في مدائن الدولة الواحدة، ثم بين أسواق الدول المتعددة، حيث يسَّرت ذلك وسائلُ المواصلات البرية والجوية وطرقُ الاتصال المسموعة والمقروءة والمكتوبة؛ فباستطاعة المرء والتاجر وكلِّ أحد أن يَجُوبَ أسواق دولته، وكذلك أسواق دول العالم عن طريق السيارات والطائرات والقطارات والبواخر في اليوم الواحد أو الأسبوع أو أقل أو أكثر، بل تحدثُ المبايعات والتبادلات التجارية بين الأسواق الدولية والعالمية عن طريق الاتصالات بالهاتف والفاكس والإنترنت، بحيث أصبحت

أسواقُ العالم بمختلِف منتجاتها متقاربةً بل متلاصقة على صفحات الكمبيوتر بين يدي أي شخص يريد البيعَ والشراءَ والتجارة وشحنَ البضائع عبر القارات.

كذلك تقاربت الأسواق من حيث الأسعارُ العالمية للمواد والبضائع والمنتجات المختلفة، ومعرفة الناس بها كذلك، ويمكن متابعتها ساعة بعد ساعة للوقوف على أسعارها الراهنة من زيادة ونقصان.

ويمكن الإشارة إلى تقارب الأسواق من أربعة أوجه:

١ ـ التقارب الحقيقي؛ حيث توجد الأسواق المتعددة قريبة من بعضها جدّاً، وأحياناً متلاصقة ومتجمعة في مراكز ضخمة كما أسلفنا.

٢ ـ تقارب الأسواق من حيث سرعةُ العلمِ بمعرفة الأسعار العالمية من زيادة أو نقصان.

٣ ـ سرعة التنقل بين الأسواق ولو كانت متباعدة، حيث قَرَّبت بينها وسائلُ المواصلات والاتصال المتنوعة.

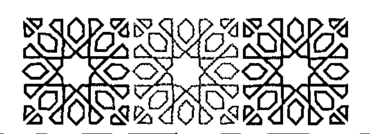
٤ ـ تقارب الأسواق في الأسعار، واقتداءُ أهلها بعضهم ببعض في الزيادة والنقصان[1].

وهذه النبوءة اللطيفة «**تقارب الأسواق**» أَخبر فيها النبي ﷺ بكلمتين عمَّا سيحدثُ في المستقبل، وهو الذي أُوتي جوامعَ الكَلِم، وقد أوضحنا ما تنطوي عليه هاتان الكلمتان من معنى واسع رحيب، فصلّى الله وسلّم وبارك على الذي لا ينطق عن الهوى.



(١) الثلاثة الأخيرة أشار إليها حمود التويجري، مع تصرف بكلامه، انظر: إتحاف الجماعة: ٢/١٩٦.

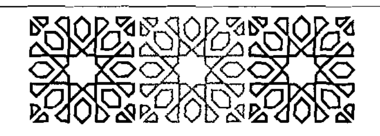




الفصل التاسع

نبوءات في

الأخلاق والعبادات والآداب والمعاملات



إخبار النبي ﷺ عن «تسليم الخاصة» وأن السلام سيكون على المعرفة

١ ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ من أَشْراط السَّاعةِ أنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ على الرجلِ لا يُسَلِّمُ عليه إلَّا للمعرفةِ»**(١).

٢ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ من أشراطِ الساعةِ إذا كانتِ التحيَّةُ على المعرفة»**(٢).

٣ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: **«إنَّ بينَ يَدَيِ السَّاعةِ تسليمَ الخاصَّةِ»**(٣).

٤ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: **«من أشراط السَّاعةِ أن يمرَّ**

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٤٠٦؛ وقال أحمد شاكر في تعليقه على (المسند: ٥/ ٣٢٦): إسناده صحيح؛ وقال الألباني في الصحيحة: ٢/ ٢٤٩ (٦٤٨): إسناده جيد في الشواهد والمتابعات.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ٣٨٧؛ والطبراني في الكبير (٩٤٩١)؛ و صححه الألباني في الصحيحة (٦٤٨)؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط بشواهده في تعليقه على شرح مشكل الآثار (١٥٩٠). والحديث فيه قصة سنذكرها في الشرح.

(٣) أخرجه أحمد: ١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨؛ والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤٩)؛ والبزار (٣٤٠٧)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥٩٠)؛ والحاكم: ٤/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦، وسكت عليه هو والذهبي؛ وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند: ٥/ ٣٣٣؛ والألباني في الصحيحة (٦٤٧)؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط، وانظر: تعليقه على الحديث في شرح مشكل الآثار. وما أوردته طرف من حديث وفيه قصة.

الرَّجلُ في المسجدِ لا يصلِّي فيه رَكعتين، وأنْ لا يُسلِّمَ الرجلُ إلَّا على مَنْ يَعْرِفُ»(١).

۞ ۞ ۞

أولاً: بين يدي النبوءة:

دعا الإسلام إلى مكارم الأخلاق، وأَمر أتباعه بالتزامها وتشييدها، وحَرَص النبي ﷺ على توكيدها وغَرْسِها في النفوس، ومن أرفع تلك الأخلاق الفاضلة إفشاءُ السلام وإشاعتُه بين المسلمين، فالمسلم مكلَّف بأن يَلقى الناسَ بفضائل لا ترقى إليها شبهة، وأن يُسهِم في بناء مجتمع متكافل تسودُه المحبة، ويمتدّ به الأمان على ظهر الأرض، والله سبحانه ردَّ أنسابَ الناس وأجناسَهم إلى أبوين اثنين ليجعلَ من هذه الرحم الماسَّةِ ملتقًى تتشابَكُ عنده الصِّلات وتستوثق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالتعارفُ لا التنافر أساسُ العلائق بين البشر، وكل رابطة توطِّد هذا التعارف وتُزيح من طريقه العوائق؛ فهي رابطة يجب تدعيمها والانتفاع بخصائصها(٢).

وإلقاء الرجل السلامَ على أخِيه يعني: أنه يَبذل له الأمانَ والاطمئنان والحبَّ والمودَّة والسلامة من غوائل الكُره والبغضاء، والكَيْد والغَدْر، ويُشيع في المجتمع التآلف والتوادَّ والتراحمَ والمحبة.

ولأهمية السلام وما يحمله من معانٍ جليلة حضَّ الإسلام عليه، وقام النبي

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٤٨٨ ـ ٩٤٩٠)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥٩١) و(١٥٩٢)، وغيرهما؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٩٦)؛ وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات. وانظر: النبوءة رقم (١٤٥).

(٢) انظر: خلق المسلم، ص١٧٠.

ﷺ يغرِسُه في نفوس المسلمين، وأمر أتباعَه بإلقاء السلام في المجالس والطرق، لأن السلام تحية المسلمين على امتداد الزمان والمكان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَدْخُلونَ الجنَّة حتى تُؤمنوا، ولا تُؤمنوا حتى تحابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكم على شيءٍ إذا فعلتُموه تحابَبْتُم؟ أَفْشُوا السلامَ بينكم**»[1].

وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما؛ أنَّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: «**تُطْعِمُ الطعامَ، وتقرأُ السلامَ على مَنْ عَرَفْتَ ومَن لم تَعْرِفْ**»[2].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ثانياً: تحقق النبوءة:

وقد أخبر النبي ﷺ بأن أمته ستفرِّط بهذا الخلق الكريم، وتتهاون بتلك الشَّعيرة النبيلة، وأنه سيأتي أقوام من المسلمين يَحرمون أنفسَهم من الأجر العظيم المناط بإشاعة السلام، ويَبخلون على الناس بإفشائه بينهم، ويضيِّقون مجالَه الرحيب فيخصُّونه بأناس يعرفونهم، فيمرُّون بالجماعة من الناس لا يُلْقون لهم بالاً، ويَسيرون في الطرقات ويَغْشَوْنَ الأسواقَ وأماكن التجمع، بل والمساجد فلا يَجُودون بالسلام على مَن يَلْقون إلا على الرجل بعد الرجل ممن يعرفونهم أو تربطهم بهم صحبة أو جوار أو قرابة، وهذا كله مُنَافٍ لشعائر الإسلام وتوجيهات النبي ﷺ.

وقد ظهرتْ بواكير تحقق هذه النبوءة في عهد الصحابة على نطاق ضيِّق، فأنكروا هذا الصنيع، وأَعلموا الناسَ بما أخبر به رسول الله ﷺ، وأن ذلك من

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤)؛ وأبو داود (٥١٩٣)؛ والترمذي (٢٦٨٨)؛ وابن ماجه (٦٨) و(٣٦٩٢)؛ وأحمد: ٢/ ٣٩١، ٤٤٢؛ وابن حبان (٢٣٦)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (١٢) وطرفاه؛ ومسلم (٣٩)؛ وأبو داود (٥١٩٤)؛ والنسائي: ٨/ ١٠٧؛ وابن ماجه (٣٢٥٣)؛ وابن حبان (٥٠٥)، وغيرهم.

علامات الساعة التي يجب عدم مقارفتها أو الوقوع في مغَبّتها، لمخالفتها هديَ النبوة.

عن طارق بن شِهاب قال: (كنا عند عبد الله[1] جلوساً، فجاء رجلٌ فقال: قد أُقيمتِ الصلاةُ، فقامَ وقُمنا معه، فلما دخلنا المسجدَ رَأَيْنا الناسَ رُكُوعاً في مقدَّم المسجدِ، فكَبَّر ورَكَع وركَعْنَا، ثم مشَيْنَا وصَنَعْنا مِثْلَ الذي صَنَع، فمرَّ رجلٌ يُسرِعُ فقال: عليكَ السلامُ يا أبا عبد الرحمن، فقال: صدقَ اللهُ ورسولُه! فلمَّا صَلَّينا ورَجَعْنا، دخلَ إلى أهلِهِ، جَلَسنا فقال بعضُنا لبعضٍ: أَمَا سَمِعْتُم ردَّهُ على الرجُلِ: صَدَقَ اللهُ وبَلَّغَتْ رُسُلُه؟ أيُّكم يسأَلُه؟ فقال طارقٌ: أَنَا أسأَلُه. فسأَلَه حين خَرج، فذَكر عن النبي ﷺ: «**إنَّ بينَ يَدَي الساعةِ تَسْليمَ الخاصَّةِ، وفُشُوَّ التجارة حتى تُعِينَ المرأةُ زوجَها على التجارة، وقطعَ الأرحامِ، وشهادةَ الزُّورِ، وكِتْمانَ شهادةِ الحقّ، وظهورَ القَلَمِ**».

وفي رواية من طريق الأَسْود بن يزيد: (فلمَّا انصرَفَ سأَله بعضُ القوم: لِمَ قلتَ حينَ سَلَّم عليكَ الرجلُ: صَدَقَ اللهُ ورسوله؟ قال: إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ من أشراطِ الساعةِ إذا كانتِ التحيَّةُ على المَعْرِفةِ**»)[2].

وأما في زماننا فقد وقع مصداق ما أخبر به رسول الله ﷺ على نطاق عريض، وتفشَّى هـذا المسلك المغشوش بين فِئام كبير من الناس، فترى الكثيرين يسيرون في الطرقات ويمشون في الأسواق ويرتادون أماكن تجمُّع الناس من مدارس وجامعات ومؤسسات ووزارات وغيرها، فلا يُسلِّم الواحد منهم إلا على أترابه وأخصَّائه ومعارفه، ويَحْرِم عامةَ الناس من أُنْسه ولُطفه ومودَّته، حتى ضاعت هـذه الشَّعيرة الجليلة في كثير من بلاد المسلمين، وأصبح إفشاؤها ضيقاً محدوداً، ناهيك بما استبدَلَه جمهورٌ كبير بأنواع التحية العربية أو الغربية مما لا ترقى إلى تحية الإسلام بسبيل!.

---

(١) هو: ابن مسعود، ويكنى أبا عبد الرحمن، وبها خاطبه الرجل الذي سلَّم عليه.

(٢) أخرجه أحمد: وغيره، وانظر تخريجه في صدر هذه النبوءة.

إخبار النبي ﷺ بانتشار قطيعة الرحم

١ ـ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِن أَشْرَاطِ السَّاعةِ الفُحْشَ والتَّفَحُشَ، وقطيعةَ الأرحامِ، وائتِمانَ الخائِنِ ـ أَحْسِبُهُ قال: ـ وتخوينَ الأَمينِ**»(١).

٢ ـ وعن عبد الله بن عَمْرو ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتى يَظْهَرَ الفُحْشُ والتفاحشُ، وقطيعةُ الرَّحمِ، وسوءُ المُجَاوَرةِ**»(٢).

٣ ـ وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ بينَ يَدَي السَّاعةِ تسليمَ الخاصَّةِ، وفُشُوَّ التجارة حتى تُعِينَ المرأةُ زوجَها على التجارةِ، وقَطْعَ الأرحامِ، وشهادةَ الزُّورِ، وكتمانَ شهادةِ الحقِّ، وظهورَ القلمِ**»(٣).

٤ ـ وعن عابس الغِفَارِيِّ ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**بادِرُوا بالأعمال خِصالاً سِتّاً: إِمْرةَ السُّفَهاءِ، وكثرةَ الشُّرَطِ، وقطيعةَ الرَّحمِ، وبَيْعَ الحُكْمِ، واستخفافاً بالدمِ، ونَشْواً يتَّخذونَ القرآنَ مزاميرَ، يُقدِّمون الرجلَ يؤمُّهم ليس بأَفْقَهِهِم ولا أَعْلَمِهِم، ما يُقَدِّمُونَه إلَّا لِيُغَنِّيَهُم**»(٤).

---

(١) أخرجه البزار وغيره، وهو حديث صحيح، وقد تقدم تخريجه في النبوءة (١٢٠): ٤/ ١٣٥، حاشية (١).

(٢) أخرجه أحمد، والحاكم؛ وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وقد تقدم تخريجه في النبوءة (١٢٠): ٤/ ١٣٥، حاشية (٢).

(٣) أخرجه أحمد؛ والبخاري في الأدب المفرد؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار؛ وهو حديث صحيح، وانظر تخريجه في: النبوءة (١٤١): ٤/ ٣٤١، حاشية (٣).

(٤) أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار وغيرهم، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، =

أولاً: توضيح وبيان لأهمية صلة الرحم ومخاطر قطعها[١]:

●● لفظ (الرَّحِم) يُطلق على الأقارب؛ وهم مَن بينه وبين الآخر نَسَبٌ، سواء كان يرثه أم لا، وسواء كان ذا مَحْرمٍ أم لا.

ولجلالة الرحم وأهميتها أَمر الإسلام بوَصْلها والحَدَب عليها، بل إن الله سبحانه شَقَّ لها اسماً من اسمه؛ فعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: أنَا الرحمنُ، خَلقتُ الرَّحِمَ، وشَقَقْتُ لها اسْماً من اسْمي، فَمَن وَصَلَها وَصَلْتُه، ومَن قَطعَها بَتَتُّه**»[٢].

وأَوْلَى الأرحام بالصِّلة والعناية والود: الوالدان، ثم الأولاد، ثم الإخوة، ثم الأقرب فالأقرب.

ووجوه الصِّلة كثيرة متنوعة؛ من أَجَلِّها وأرفعِها: الإنفاقُ والطاعة، وتفقدُ الأحوال، والتغافل عن الزلات، والبِرّ والإحسان، والزيارة والمواساة، وبذلُ الودّ والمحبة، والعدل، والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، والعونُ على قضاء الحاجات ودفعُ الأضرار، وطلاقةُ الوجه، والدعاء لهم، والسلام عليهم.

وقطيعة الأرحام بهجرانها وإيذائها، ومجافاتها وإبعادها، وقطعِ مبراتها، والإعراض عن زيارتها، وعدم الإحسان إليها.

●● وقد أَمر الرسول ﷺ بصِلة الأرحام وموادّتها والقيامِ بحقوقها، وأقام

= وانظر تخريجه في: النبوءات (٧٣، ٧٤، ٧٥): ٢/ ٣٣٠ (في هذا الكتاب).

(١) أخذت كثيراً من الكلام في هـذه الفقرة من: شرح السنة، للبغوي: ١٣/ ١٨ ـ ٣٠؛ وفتح الباري: ١٣/ ٤٥٦ ـ ٤٧١ شرح الأحاديث (٥٩٨٢ ـ ٥٩٩١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٣٤)؛ والحميدي (٦٥)؛ والبخاري في الأدب المفرد (٥٣)؛ وأبو داود (١٦٩٤)؛ والترمذي (١٩٠٧)؛ وأحمد: ١/ ١٩٤؛ وابن حبان (٤٤٣)، وغيرهم؛ وقال الترمذي: حديث صحيح؛ وصحَّحه أحمد شاكر، وشعيب الأرنؤوط، والألباني في الصحيحة (٥٢٠).

من نفسه الشريفة أروعَ الأمثلة في هـذا الميدان النبيل، فهو أَوْصَلُ الخَلْق للرحم، وأكرمُهم معاملة لكل من يمتُّ إليه بصلة قرابة حتى عشيرته.

عن أبي هريرة ﷺ قال: (لمَّا أُنزلتْ هـذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فَعَمَّ وخَصَّ، فقال: «**يا بني كَعْب بنِ لؤيّ، أَنْقِذوا أنفسَكم من النار. يا بني مُرَّة بن كعب، أنقِذوا أنفسَكم من النار. يا بني عبد شمس، أنقِذوا أنفسَكم من النار. يا بني عبدِ مَنَافٍ، أنقذوا أنفسَكم من النار. يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد المُطَّلب، أنقِذوا أنفسكم من النار. يا فاطمةُ، أنقِذي نفسَكِ من النار، فإنِّي لا أَمْلِكُ لكُم مِن الله شيئاً، غيرَ أنَّ لكم رَحِماً سَأَبُلُّها بِبِلالِها**»[1].

وقوله: «**سأبلها ببلالها**»: قال الخطابي: بَلَلْتُ الرَّحِم بَلّاً وبَلَلاً وبِلالاً؛ أي: ندَّيتُها بالصِّلَة. وقد أَطلقوا على الإعطاء: النَّدى، وقالوا في البخيل: ما تندَّى كفُّه بخير. فشُبِّهتْ قطيعةُ الرحم بالحرارة، ووصْلُها بالماء الذي يُطفئ ببردِه الحرارةَ.

وقال الطِّيْبي وغيره: شبَّه الرَّحم بالأرض التي إذا وقع عليها الماء وسقاها حقَّ سقيها أَزهرتْ ورُئيت فيها النَّضارة، فأثمرتِ المحبة والصفاءَ، وإذا تُرِكَتْ بغير سقيٍ يَبِست وبَطَلت منفعتها، فلا تثمر إلا البغضاءَ والجفاء[2].

وبقي النبيُّ ﷺ يوصي بالرحم ويحضُّ على صِلتها والإحسان إليها حتى لقِيَ وجه ربه سبحانه؛ فعن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال في مرضِه: «**أَرْحَامَكُم، أَرْحَامَكُم**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤)؛ والترمذي (٣١٨٥)؛ والنسائي في الكبرى (٦٤٣٨) و(١١٣١٣)، وفي الصغرى: ٦/ ٢٤٨؛ والبخاري في الأدب المفرد (٤٨)؛ وابن حبان (٦٤٦)، وغيرهم.

(٢) الفتح: ١٣/ ٤٧٠ شرح الحديث (٥٩٩٠).

(٣) أخرجه ابن حبان (٤٣٦)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط، والألباني في الصحيحة (١٥٣٨)، وصحيح الجامع (٨٩٤).

وأَمر المسلمين أن لا يُجافوا أرحامهم إذا جافوهم، وأن يَصِلوهم إذا قَطَعوهم، حتى تبقى أواصرهم متصلة، وصفوفهم متراصة، ومجتمعاتهم متآلفة، وأنفسهم صافية، ورتَّبَ على ذلك الثواب العظيم.

عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«الرَّحِمُ مُعَلَّقةٌ بالعَرْشِ، وليسَ الواصلُ بالمُكافِئِ، ولكنَّ الواصلَ الذي إذا انقطعتْ رَحِمُه وَصَلَها»**(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنَّ رجُلاً قال: يا رسولَ الله، إنَّ لي قرابةً أَصِلُهُم، ويَقْطَعُوني، وأُحْسِنُ إليهم ويُسيئونَ إليَّ، وأَحْلُمُ عنهم ويَجْهَلُونَ عَليَّ، فقال النبي ﷺ: **«لئِنْ كنتَ كما قلتَ، فكأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ، ولا يزالُ معكَ من اللهِ ظهيرٌ عليهم، ما دُمْتَ على ذلك»**(٢).

بل إن النبي ﷺ أمر المسلمين أن يتعلَّموا أنسابهم ويحفظوها، ليعرفوا أقاربهم وأرحامهم فيتعاهدوها بالصلة والبر والمرحمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«تَعَلَّموا من أَنْسَابكم ما تَصِلُون به أرحامَكُم، فإن صِلةَ الرَّحِمِ محبَّةٌ في الأهل، مَثْراةٌ في المال، مَنْسَأَةٌ في الأَثَر»**(٣).

وعن إسحاق بن سعيد بن عَمْرو بن سعيد بن العاص قال: حدَّثني أَبي قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩١)؛ وأبو داود (١٦٩٧)؛ والترمذي (١٩٠٨)؛ وابن حبان (٤٤٥) واللفظ له؛ وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٨)؛ وأحمد: ٢/ ٣٠٠؛ وابن حبان (٤٥٠) و(٤٥١)؛ والبغوي (٣٤٣٦)؛ والبخاري في الأدب المفرد (٥٢). **المَلّ**: الرماد الحار.

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٧٩)؛ وأحمد: ٢/ ٣٧٤؛ والحاكم: ٤/ ١٦١؛ والبغوي (٣٤٣٠)؛ وصحَّحه الحاكم وأقره الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي، والصحيحة (٢٧٦)، وصحيح الجامع (٢٩٦٥)، وحسَّنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنة. **منسأة في الأثر**: زيادة في العمر.

(كنتُ عند ابن عباس، فأتاه رجلٌ، فسألَهُ: مَن أنتَ؟ قال: فَمَتّ له بِرحمٍ بعيدةٍ، فألَانَ له القولَ، فقال: قال رسول الله ﷺ: **«اعْرِفوا أنسابَكم تَصِلوا أرحامَكُم، فإنه لا قُرْبَ بالرَّحمِ إذا قُطِعَتْ وإنْ كانت قريبةً، ولا بُعْدَ بها إذا وُصِلَتْ وإنْ كانت بعيدةً»**)[1].

●● ولصلةِ الرحم ثمراتٌ طيِّبة وفوائد جَمَّة وآثار حسنة في الدنيا والآخرة؛ فهي من أسباب محبَّة المرء في أهله وذوي رحمه، ومَثْراةٌ في المال ونماءٌ فيه، ومَنْسَأةٌ في الأَجَل وزيادة في العُمُر وبركة فيه، وبها تُعمر الديار، وتنزل رحمات الله، وتُدفع مِيتَةُ السوء، ويُعَجَّل ثوابُها في الدنيا، مع ما يُدَّخَر للمسلم في الآخرة بدخول الجنة بسببها.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ أنْ يُنْسَأَ لهُ في أَجَلِه، ويُبْسَطَ له في رِزْقه؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»**[2].

وعن أبي بَكْرةَ ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«إنَّ أَعجَلَ الطاعةِ ثواباً صلةُ الرَّحم، حتى إنَّ أهلَ البيتِ ليكونون فَجَرةً، فتنمو أموالُهم ويَكْثُرُ عددُهم إذا تواصَلُوا، وما مِن أهلِ بيتٍ يتواصَلُون فَيحتاجون»**[3].

وعن عائشة ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال لها: **«إنَّه مَن أُعطِيَ حظَّهُ من الرِّفْقِ فقد أُعْطِي حظَّه من خيرِ الدنيا والآخرة. وصلةُ الرَّحِم، وحسنُ الخُلق وحسن الجِوار، يَعْمُرانِ الدِّيار، ويَزِيدان في الأعْمار»**.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٧٥٧)؛ والحاكم: ٤/ ١٦١، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧٧)؛ وشعيب الأرنؤوط في هامش شرح السنة: ١٣/ ٢٠.

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٦٧) و(٥٩٨٦)؛ ومسلم (٢٥٥٧)؛ والنسائي في الكبرى (١١٣٦٥)؛ وابن حبان (٤٣٨) و(٤٣٩)، وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن حبان (٤٤٠)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط بشواهده.

وفي رواية البيهقي في «شعب الإيمان»: «**يَعْمُرنَ الديار، ويَزِدْنَ في الأعمار**»[١].

•• كذلك فإن قطيعةَ الأرحام ومجافاتها والإساءةَ إليها؛ تستجلِبُ مخاطر جَمَّة وآثاراً مُوبِقة! فهذا الفعل المرذولُ المنكورُ سببٌ لقطع رحماتِ الله تعالى عن مرتكبيه، بل وعن القوم الذين فيهم قاطع رحم، وتُحجب دونَ القاطع أبوابُ السماءَ وتُوصَد دون قَضاء حاجاته واستجابة دعائه، ويؤخَّر قبول عمله، وتُعجَّل عقوبته في الدنيا، وهو من الكبائر لورودِ الوعيد الشديد فيه، ومن أسباب دخول النار والتأخير عن دخول الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**الرَّحِمُ شُجْنَةٌ من الرحمن، مُعَلَّقةٌ بالعَرْشِ، تقول: يا ربِّ! إنِّي قُطِعْتُ، إني أُسِيءَ إليَّ، فَيُجِيبُها ربُّها: أَمَا تَرضَيْنَ أنْ أَقْطَعَ من قَطعكِ، وأَصِلَ مَنْ وَصَلكِ**»[٢].

وعن جُبير بن مُطْعِم رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَدخلُ الجنَّةَ قاطِعُ رَحِمٍ**»[٣].

وعن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أن يُعجِّلَ اللهُ تعالى لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرةِ، من البَغْيِ وقطيعةِ الرَّحِمِ**»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد: ٦/١٥٩؛ وأبو يعلى (٤٥٣٠)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٦٩)؛ وقال الحافظ في الفتح: ١٣/٤٥٨ ـ ٤٥٩ (٥٩٨٥): رجاله ثقات؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥١٩)؛ وشعيب الأرنؤوط في هامش شرح السنة: ١٣/ ٧٤ (٣٤٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٨)؛ وأحمد: ٢/ ٢٩٥، ٣٨٣؛ وابن حبان (٤٤٢) و(٤٤٤)؛ والبغوي (٣٤٣٤)، واللفظ لابن حبان.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)؛ ومسلم (٢٥٥٦)؛ وأبو داود (١٦٩٦)؛ والترمذي (١٩٠٩)؛ وابن حبان (٤٥٤)؛ والبغوي (٣٤٣٧)، وغيرهم.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٧)؛ وأبو داود (٤٩٠٢)؛ والترمذي (٢٥١١)؛ وابن ماجه (٤٢١١)؛ والطيالسي (٨٨٠)؛ وأحمد: ٥/ ٣٦، ٣٨؛ وابن حبان (٤٥٥) و(٤٥٦)؛ =

ثانياً: تحقق النبوءة:

وفي غمرة الدنيا والإقبال عليها، وذُبول معاني التراحم والتوادّ، وضَعْف الإيمان، وجفافِ الروح، وقلَّة الفقه في الدين، والبعدِ عن منهجِ الإسلام الحق، وتوقُّدِ نزغات النفس، وعَرَامَة الجشع والطمع، وتراجعِ أخلاق الصفح والعفو والحنو والتسامح ـ في هـذا المعترك المضطرب الطائش زحفتِ المادية إلى قلوب الناس، وبَطَشتْ بكثير من المعاني السامية والأخلاق النبيلة، وجَفَّفت ينابيعَ الحُبّ والرحمة، وقطَّعَت الأواصر المتينة بين الأرحام، ومزَّقت وشائجَ القُربى وصِلات الدم والنسب والدين، ووقع ما حذَّر منه الرسول الرحيم ﷺ من قطيعةِ الأرحام وتدابر الإخوان وتناكرِ الخُلَّان.

وشاع بين المسلمين بصورة منكَرة مُستَفْظَعة تقاطعُ الأرحام وتدابُر ذوي المحارم القريبة والبعيدة، فكثيراً ما نجدُ الرجلَ يهجر أباه وأمه ويَعقُّهما، ويدير ظهره لهما، ويقطع رِفْدَه عنهما، ويَحرِمُهما من حقهما في الطاعة والبر وخفض الجناح والصلة والنفقة عليهما، ولربما كَبِرا وطَعَنا في السنِّ وأقعدَتْهما السنون لعجزهما، فيذهبُ بهما إلى (دار المسنين) لتؤويهما، والله تعالى يقول: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، عندك أيها الظالم لنفسه وفي بيتك وحضنك ورعايتك وعطفك، لا في دار العجزة والمسنين! فهـذا من أقبح ألوان قطيعة الرحم؛ ومن أكبر كبائر الذنوب التي تستوجبُ غضبَ الرب سبحانه، وسوءَ الخاتمة في الدنيا، والنقمةَ في الآخرة.

كذلك انتشر بين المسلمين تقاطعُ الأرحام من إخوة وأخوات، وأخوال وخالات، وأعمام وعمَّات، وأبناء هؤلاء وأولئك، وحصل التدابر والتشاحن، وحلَّتِ الإِحَنُ والتباغض، فهـذا يقاطع أخاه، وتلك مُدْبِرة عن أختها، وهـذا عن

= والحاكم: ٢/ ٣٥٦ و٤/ ١٦٢ ـ ١٦٣، وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط والألباني.

أخيه وأخته أو عمّه وخاله وأولادهم، وذاك عن أولاده وغيرهم من المحارم والأقارب الأدنين والأبعدين.. وتمرُّ الشهور وربما السنون ولا يحدُث بينهم وِصال، ولا يتواصلون بزيارة، ولا يلتقون في عيد، ولا يجتمعون تحت سقف واحد، ولا يتبادلون السلام إذا جمعهم لقاء طارئ أو طريق عابر!.

وكَثُرت هـذه المناكر بين المسلمين، واختلف ذوو الأرحام على الدنيا والدرهم والدينار والأرض والعَقَار والدار، فتقطَّعت أواصِرهم، ووَهَتْ وشائجهم، وتدابَرَتْ أنفسُهم، وحَلَّ بهم غضب الله، ونزلَتْ عقوبته، ومُنِعت عنهم رحماته، وَحَقَّتْ عليهم العقوبة المُعجَّلة من ضِيق الحال وقلَّة الرزق، أو المصائب والنكبات، أو الأمراض ونكد الحياة، ولا يظلم ربك أحداً.

(إنه لا يجوزُ للمسلم أن يُوصِدَ قلبَه وبيتَه دونَ أقاربه، وأن يَبُتَّ علائقَهم، فيحيا بعيداً عنهم، لا يواسيهم في ألَم، ولا يُسدي إليهم عوناً، إن هـذه القطيعة تَحرِمُ الإنسانَ من بركة الله وتعرِّضه لسَخَطِه)[1].

وهـذا ملاحَظ مشهودٌ إذا عددنا خسائرنا الروحية والقيمية التي رُزِئْنا بها بسبب ارتكابنا هـذه الكبيرة التي نهانا عنها كتابنا العزيز، وحذَّرنا منها نبيّنا ﷺ في هـذه النبوءة الجليلة.



(١) خلق المسلم، ص٢١٤.



إخبار النبي ﷺ بوقوع الشح الكثير والشح المطاع

١ ـ عن أبي ثَعْلَبَة الخُشَنيّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**بلِ ائْتَمِرُوا بالمعروف، وتناهَوْا عن المُنْكرِ، حتى إذا رأيتَ شُحّاً مُطَاعاً، وهَوًى مُتَّبَعاً، ودُنْيا مُؤْثَرةً، وإعجابَ كلِّ ذِي رأيٍ برأيهِ؛ فعليكَ بخاصَّةِ نَفْسِك، ودَعِ العَوامَّ، فإنَّ من ورائِكم أياماً الصَّبرُ فيهنَّ مِثْلُ القبضِ على الجَمْرِ، للعاملِ فيهنَّ مثلُ أجرِ خمسينَ رجلاً يَعملونَ مِثْلَ عَمَلِكُم**»(١).

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يَتَقاربُ الزمانُ، ويَنْقُصُ العملُ، ويُلْقَى الشُّحُ، وتظهرُ الفتنُ، ويَكْثُر الهَرْجُ**» قالوا: يا رسول الله! أيُّما هوَ؟ قال: «**القتلُ، القتلُ**»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)؛ والترمذي (٣٠٥٨) واللفظ له؛ وابن ماجه (٤٠١٤)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٧١)؛ وابن حبان (٣٨٥)؛ والداني (٢٩٣) و(٢٩٤)؛ والبيهقي في السنن: ١٠/ ٩٢؛ والحاكم: ٤/ ٣٢٢؛ والبغوي (٤١٥٦). وقال الترمذي: حديث حسن غريب؛ وصحَّحه ابن حبان؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح المشكل: له شواهد تشهد لِجُلِّه؛ وحسَّنه في تعليقه على سنن أبي داود والترمذي، وأطال في ذكر شواهده، وقال عبد القادر الأرنؤوط في تعليقه على (جامع الأصول: : ١٠/ ٣ ـ ٤): له شواهد يرتقي بها. أما الألباني فضعفه في السنن الثلاث، وذكره في الضعيفة (١٠٢٥).

(٢) أخرجه البخاري وغيره، وانظر تمام تخريجه في: النبوءة (١٣٩): ٤/ ٣٢٩، حاشية (٣) (في هذا المجلد).

أولاً: توضيح وبيان لمعاني بعض الألفاظ(١):

ـ «**الشحّ**»: حِرْصُ النفس على ما ملكتْ وبخلُها به.

قال الخطابي: الشحُّ أبلغُ في المنع من البُخْل، وإنما الشح بمنزلة الجنس، والبخل بمنزلة النوع، وأكثر ما يُقال في البخل إنما هو في أَفراد الأمور وخواص الأشياء، والشح عام وهو كالوصف اللازم للإنسان من قِبل الطبع والجِبِلَّة.

وقال بعضهم: البخلُ أن يَضَنَّ بمالِهِ، والشحُّ أن يبخلَ بمالِه وبمعروفِه.

فالشحُّ أعمُّ من البخل.

والشَّحيح شرعاً هو من يَمنع ما وَجَبَ عليه.

ـ «**والشحُّ المُطاعُ**»: هو أن يُطيعَه صاحبُه في مَنْع الحقوق التي أوجبها الله عليه.

ـ «**إذا رأيتَ**»: الخطاب عام لكل مسلم، والمعنى: إذا علمتَ الغالبَ على الناس.

ـ «**يُلْقَى الشحُّ**»: المراد إلقاؤه في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم، حتى يَبخل العالم بعلمه فيترك التعليم والفتوى، ويبخل الصانع بصنعته حتى يترك تعليم غيره، ويبخل الغني بماله حتى يهلك الفقير.

ثانياً: مطاردة الإسلام للشح وتنفيره منه بشتى صوره وأشكاله:

للشح صور وأشكال: أقبحها منعُ الزكاة المفروضة، والضنُّ بإخراجها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وابن السبيل وغيرهم ممن فرض الله لهم حقّاً في أموال الأغنياء.

ومنها: الشحُّ الذي يرتكبه فِئامٌ من الناس الذين يجنحون إلى السَّرَف خارج

---

(١) انظر: شرح السنة: ١٤/٣٤٨؛ الفتح: ١٦/٣٠٨ ـ ٣٠٩ (٧٠٦١)؛ عون المعبود: ٧/ ٤٢٠؛ تحفة الأحوذي: ٧/ ٤٨٨.

بيوتهم وبين أصدقائهم أو الغرباء عنهم، فإذا خَلَوا إلى أهلهم كانوا أمثلة سيئة للبخل والتقتير.

وانقباضُ اليد وكزازةُ النفس عن بذل الأموال المكدَّسة في الخزائن في ذوي القربى والأرحام ومن يَمُتُّ للمرء بصِلَة الدم والنسب.

وإمساكُ المال عن إنفاقه في الصدقات على الأرامل، وذوي المَسْغَبة، والمتعفِّفين الذين يعيشون الكفاف ولا يسألون الناس إلحافاً، والمحرومين من كثير من لذاذات الحياة وأطايب الطعام.

والبخلُ على النفس والتضييق عليها، والولوغ في الرغبة الجامحة لجمع المال واكتنازه وتخزينه وسدِّ كل أبواب النفقة أمامه.

والمتأمل في آيات الكتاب الكريم وسنَّة رسول الله ﷺ وأوامره وسيرته العملية المباركة؛ يجدُ نَسَقاً رائعاً وتوجيهات رفيعة وعملاً دؤوباً، لمطاردةِ الشح وانتزاعِ البخل من النفوس، وتجييش العواطف وإقناع العقول، لبذل المال وإنفاقه بسخاء في شتى وجوه الخير ومختلِف مناشط الحياة وجميع مرافق الدولة.

فالإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق، ويَضيع على الشح والإمساك، ولذلك حَبَّب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخيَّة، وأكفُّهم ندِيَّة، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم، لا ينفكون عنه في صباح أو مساء: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

ودعوةُ الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطَّردة، وحربُه على الكَزازة والبخل موصولة متّقِدة؛ تحمِل المسلم على أن يجعل في ثروته متسعاً يُسعِف به المنكوبين، ويَمسح بيدٍ حانية على رؤوس اليتامى والمساكين.

فالبخل والأَثَرة وقبضُ اليد عن النفقة من النزعات الخسيسة التي يجب أن تُخاصَم بعنف، وأن تقاوَمَ دسائسُها بيقظة ودأب ونشاط.

ويشارك الشيطان بوساوسه حيث يقذِف في النفوس الوَهْن حتى يثبِّطَها عن البذل، ويعلِّقها بالحطام الفاني؛ قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨](١).

وبَلَغ من تنفيرِ النبي ﷺ من الشح وذَمِّه له أنه قرنه بالفجور والظلم، وكشَفَ النقاب عن مصير الأشحَّاء ممَّن كان قبلنا بأنهم قطعوا الأرحام وسفكوا الدم الحرام!.

عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: خَطَبَ رسول الله ﷺ فقال: «**إيَّاكم والشحَّ؛ فإنما هَلَكَ من كان قبْلكم بالشُّحِّ: أَمَرهم بالبخل فَبَخِلوا، وأَمَرهم بالقَطِيعة فقَطَعوا، وأَمرهم بالفُجُور فَفَجروا**».

زاد أحمد والنَّسائي في رواية: «**أَمَرهم بالظلم فظلَموا**»(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**اتَّقُوا الظّلمَ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلماتٌ يومَ القيامةِ، واتَّقوا الشحَّ؛ فإنَّ الشحَّ أَهْلَكَ مَن كان قَبْلَكم، حَمَلَهُم على أن سَفَكُوا دماءَهم، واستحلُّوا محارِمَهُم**»(٣).

ثالثاً: ثمرات الجود والنفقة وشؤم البخل ومخاطره:

●● الجود بالمال وبسطُ اليد بالإنفاق وصنائعُ المعروف؛ تورثُ في أنفس الباذلين الأمانَ والاطمئنان وانشراحَ الصدر، وتقِيهم زلازلَ الأحقاد والأثرة

---

(١) انظر: خلق المسلم، ص١١٧ ـ ١٢٣.

(٢) خرجه أبو داود (١٦٩٨) واللفظ له؛ وبأطول منه: النسائي في الكبرى (١١٥١٩)؛ والطيالسي (٢٢٧٢)؛ وأحمد: ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠، ١٩١ ـ ١٩٥؛ وابن حبان (٥١٧٦)؛ والحاكم: ١/ ١١؛ وصحَّحه الألباني، وشعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٨)؛ والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٣)؛ وأحمد: ٣/ ٣٢٣؛ والبغوي (٤١٦١).

العمياء. ومن تعوَّد التكرم والسخاء، وقمَعَ دوافع البخل؛ فقد وُقي شحَّ نفسه وكان من المفلحين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وبالبذل تزكو النفوس، وتَنْبُل الطِّباع، ويتآلف أفراد المجتمع، وتسودُ المحبة والتعاطف، وتزول مظاهر الكبرياء والاستعلاء والذلة والاستخذاء.

والعطاء السمح الواسع في إخلاص ورحمة يَغسل الذنوب ويمحو الخطايا، ويطهِّر النفس ويُعيد إليها صفاءها ونقاءها، ويلفُّها في ستار الغفران والرضا: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

كذلك فالنفقة والجود والصدقات المتوالية تقي مصارعَ السوء، وتدافع الأمراض، وتحمي الأنفس والأموال والثمرات.

وفوق هـذا وذاك لا ينقص المال بسببها، بل يربو ويزكو ويُعوَّض بأفضل منه، ويكون وسيلة جُلّى ليتولى الله عبده بالإغداق عليه من خزائنه التي لا يلحقها نفاد(١).

عن النبيِّ ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: يا ابنَ آدم، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ**».

وقال: «**يَمينُ اللهِ ملأى سحَّاءُ، لا يَغِيضُها شيءٌ الليل والنهارَ**»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**ما مِنْ يوم يُصبِحُ العِبادُ فيه إلا ملَكان يَنْزِلان، فيقول أحدُهما: اللهمَّ أعطِ مُنفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**»(٣).

---

(١) انظر: خلق المسلم، ص١١٩ ـ ١٢٥.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٤) وأطرافه؛ ومسلم (٩٩٣)؛ والبغوي (١٦٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٤٢)؛ ومسلم (١٠١٠)؛ والنسائي في الكبرى (٩١٣٤)؛ وابن حبان (٣٣٣٣) وغيرهم.

●● أما الشح بالمال واكتنازُه في الخزائن والبخلُ به عن المسلمين وفي وجوه الخير الواسعة؛ فأعمالُ مآثِمُها كثيرة ومغارمُها فادحة!.

فهي تهبط بالفقراء والمحتاجين وذوي المَسْغبة والمَتْربة دون المكانة التي تليق بالبشر، وإنها لتوشك أن تحرِمَهم الكرامة التي فضَّل الله بها الإنسان على سائر الخلق، وتؤجِّج في أنفسهم الإِحَن ونارَ الكراهية والبغضاء للأثرياء الذين ضَنُّوا عليهم بفُضُول أموالهم، وهم يرونهم يَبْذُخون فيما يَحلّ ويَحْرُم، أمَّا هم فمع العَوَز والحاجة فلا يجدون ما يسدُّ الرَّمَق!.

كذلك فإن من عواقب الشح والحرص على المال مخاصمةَ الأرحام وقطْعَ وشائج القربى، وربما حدث الخِصامُ والشقاق وسفكُ الدم الحرام، كما في الحديث: «**حَملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم**».

ثم إن الشح شرٌّ جسيم على الكانز الذي مَنَع عباد الله حقَّهم في ماله من الزكوات والصدقات، حيث يُطَوَّق ما بَخِل به يوم القيامة ويُكوَى به جَنْبُه وجبهتُه وظهره، ويُمثَّل له كنزه ثعباناً يطارده فاغراً فاه ليلتهمه!.

والبخيل يَضَنُّ بمالِه ويشقى بجمعه ولا يستمتع به، ثم يُخلِّفه لورثته فيستمتعون به، ويقف هو يوم الحساب وقوفاً طويلاً ليُسأل عنه من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّكم مالُ وارِثه أَحَبُّ إليه من مالِهِ**»؟ قالوا: يا رسولَ الله، ما منَّا من أحدٍ إلا مالُه أحبُّ إليه من مالِ وارِثه، فقال رسول الله ﷺ: «**اعْلَمُوا أنَّه ليس منكُم من أحدٍ إلا مالُ وارِثه أحبُّ إليه من مالِهِ، مالُكَ ما قَدَّمْتَ، ومالُ وارِثِكَ ما أَخَّرْتَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٢)؛ والنسائي في الكبرى (٦٤٠٦)، وفي الصغرى: ٦/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨، واللفظ له؛ وأحمد: ١/ ٣٨٢؛ وابن حبان (٣٣٣٠)؛ والبغوي (٤٠٥٧)، وغيرهم.

والمال الذي لا يُزكّى ولا يُطهَّر بالصدقات معرَّض للآفات، مدعوٌّ عليه بالتَّلَف ومحقِ البركة، كما جاء في الحديث: «**اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**»!.

رابعاً: تحقق النبوءة:

●● المتأمِّل في الحديثين الشريفين اللذين صَدَّرنا بهما النبوءة يجدُ تحقق مصداقهما في عصرنا على أجلى صورة، ضمن فئة عريضة من المسلمين، والعبارات التي جاءت في الحديثين تستدعي الوقوف عندها وتدبُّر معناها والغوص على مدلولها:

فقوله ﷺ: «**يُلقَى الشح**»: أي إلقاؤه في القلوب، وهيمنته عليها وتوجيهه لها حسبما يريد ويشتهي، فإذا استمكن منها وصل درجة الشح المطاع.

«**فإذا رأيت شحّاً مطاعاً**»: أي: يمسي الشح حاكماً وآمراً ومسيطراً وموجِّهاً لصاحبه، يأتمر بأمره، وينتهي بنهيه، فيمتنع من أداء الحقوق الواجبة عليه تجاه المسلمين؛ طاعة والتزاماً بما يمليه عليه (الشح)! فهذه درجة الشح المطاع التي تهلك صاحبها وترديه.

●● ولو نظرنا في واقع حال المسلمين اليوم لوجدنا جمهوراً كبيراً منهم، وخاصة الأثرياء أصحاب مئات الملايين، قد فرَّطوا تفريطاً شديداً بركن الإسلام العظيم: (الزكاة)، ومَنَعوا حقَّ الله وحق المسلمين في أموالهم، وارتكبوا بذلك مُوبِقة كبرى بحق أنفسهم وحق إخوانهم الفقراء والمساكين والمعوزين، وأغضبوا ربهم وخالفوا رسولهم ﷺ، وكان لعملهم الشائن هذا دور فظيع في خلخلة المجتمع الإسلامي، وهدم ركن التكافل فيه، وتعريض فريق كبير من المحاويج للذلة والهوان، بما ينوؤون به من أثقال المَسْغَبة، ناهيك بما يجتاح فقراءَ المسلمين في القارات الخمس من الحاجة والضياع؛ مما يوقعهم فرائسَ سائغة للتنصير والارتداد عن دين الله الحق!.

وتفريطُ أصحاب الأموال بزكاة أموالهم هو أردأُ ألوان الشح الذي ذمه الله

ورسوله ﷺ، هـذا فضلاً عن تركهم للصدقات والنفقات والعطايا والهبات، فمن فرَّط بالفريضة استهان بالنافلة.

•• كذلك في المسلمين طائفة كبيرة ممن يمتلكون الأموال الطائلة، لكنهم يُخرِجون فُضولَ أموالهم دونما إحصاء دقيق للمتوجِّب عليهم فيها، وكأنهم يبذلون ذلك تفضُّلاً وتكرُّماً، وهـذا خطأ كبير، فالزكاة حق معلوم محدَّد المقادير مثلُ عدد ركعات الفجر والظهر، وإخراج جزء من الزكاة لا يكافئ المتوجب في ذمة صاحب المال لا يُبرئه من العهدة، ولا يُخرجه من دائرة الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله.

وترى الكثيرين من هؤلاء يُدْعَون إلى البذل والعطاء في وجوه الخير المتنوعة في المجتمع من جمعيات خيرية وإنفاق على الطلبة ومساعدة المرضى ورِفادة المنكوبين وإغاثة الأرامل واليتامى وسواهم ـ فتنقبض أيديهم في هـذه الميادين المباركة، بينما يَبْسُطون أكفَّهم إلى درجة السَّرَف والسَّفَه والتبديد في حفلات متنوعة يغيب عنها دعاة الإحسان ويَغْشَاها جند الشيطان!.

وهو لونٌ من الشح والبخل يعرفه المسلمون في هـذا العصر، وهو من الآثام التي يستهين بها الكثيرون ويحسبون أنهم قاموا بواجباتهم وأنفقوا من أموالهم ما يبرئ ذمتهم!.

•• ومن أنواع البخل المنتشرة بين المسلمين والشح المطاع فيهم، ما نراه من الضَّنِّ بالنفقة والبذل على الأرحام والأقارب، بل ربما على الأهل الأدنين من زوج وأولاد، وأحياناً يبخل المرء على نفسه، حيث استمكن منه البخل حتى أصبح جمعُ المال عنده هدفاً، وإكثاره واكتنازه منهجاً ومسلكاً، وهـذا خسران مبين في الدنيا والآخرة.

إن أقبح أشكال الشح التي تسود مجتمعاتنا بصورة واضحة تعطيل ركن الزكاة والصدقات لدى كثير من المسلمين، ممَّا ترتب عليه آفات خطيرة تغشى حياتنا، من تقطيع الأرحام وتمزيق الوشائج وكثرة الإحن وانتشار الحقد والحسد

والضغينة والكراهية والكيد، والائتمار بالشرور، فضلاً عن الفقر والجوع والضياع، وهي آفات اجتاحت حياتنا، وتنذر بأخطار مستطيرة، وتبرهن بوضوح على وقوع النبوءة النبوية وآثارها المفجعة، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.





إخبار النبي ﷺ عن تباهي الناس في المساجد

١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقومُ السَّاعةُ حتى يَتباهَى الناسُ في المساجدِ»**.

وفي رواية: **«إنَّ من أَشْراطِ السَّاعةِ أنْ يَتَبَاهَى الناسُ في المساجدِ»**(١).

٢ ـ وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«سَيَأْتي على أمَّتي زمانٌ يَتَباهُونَ في المساجدِ، ولا يَعْمُرونَها إلا قليلاً»**(٢).



أولاً: كلمة حول أهمية المسجد في الإسلام ووظائفه الرائدة:

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، لم يكدْ يطأ أرضها بقدمه الشريفة ويتنفس أنفاس الراحة من أعباء ذلك السفر الشاق الطويل؛ حتى بدأ يفكّر ويعمل منذ اللحظة الأولى في بناء مسجده الأعظم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٩)؛ والنسائي في الكبرى (٧٧٠)، وفي الصغرى: ٢/ ٣٢؛ وابن ماجه (٧٣٩)؛ والدارمي (١٤٠٨)؛ وأحمد: ٣/ ١٣٤، ١٤٥، ١٥٢، ٢٣٠، ٢٨٣؛ وابن حبان (١٦١٤) و(٦٧٦٠)؛ وأبو يعلى (٢٧٩٨)؛ والداني (٤١٣)؛ والبغوي (٤٦٤) و(٤٦٥)؛ وابن خزيمة (١٣٢٢) و(١٣٢٣)؛ وصحَّحه الألباني، وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١٣٢١)؛ والبغوي (٤٦٦)؛ وعلقه البخاري بنحوه بصيغة الجزم من قول أنس (الفتح: ٢/ ٢٩٧، كتاب الصلاة، باب بنيان المساجد)؛ وذكره الحافظ في الفتح وسكت عليه، ورجاله ثقات غير صالح بن رستم فصدوق كثير الخطأ، ويشهد له الحديث السابق، فهو به حسن.

ولم تكن عنايته ﷺ الفائقة ببناء المسجد وتقديمه على أي عمل من الأعمال التأسيسية في مستقره ودار هجرته، لمجرد أن يكون المسجد مصلًّى تُقام فيه الجماعة والجمعة، لأن الإسلام في سماحته وسموِّ مقاصده وعموم دعوته ويُسْر شرائعه لا يَعرف التصومع للعبادة، فالأرض حاضرُها وباديها ومشارقُها ومغاربُها قد جعلت لهـذه الأمة مسجداً وطَهوراً.

فالمسجد في الإسلام له رسالة عظمى وأهداف كبرى وغايات جُلَّى، نومئ إليها إيماءة سريعة:

ـ فهو أولاً موئل المسلمين، يتردَّدون إليه في اليوم خمسَ مرات، يؤدون شَعيرة الصلاة العظمى، ويلتقون على البر والتقوى والصِّلة والتعارف والتواصل والتوادّ والتراحم.

ـ ثم هو منبر عام للدعوة إلى الله ونشر هدايات الإسلام.

ـ كذلك هو مكان عام يُدرس فيه العلم بأوسع وأعمِّ معانيه، ليشمل العقيدة والعبادة، ونظام الحياة في المعاملات، وسياسة الأمة وعلاقاتها مع بعضها أفراداً وجماعات، أو مع غيرها شعوباً وحكومات.

ـ وفيه يلتقي أمير المؤمنين والحاكم والأمير بالأمة ويتواصلون، وتقدَّم التوجيهات، وتُبذل النصيحة والشورى، وتُرفع الشكايات.

ـ ومنه ينطلق الدعاة والفاتحون مبشّرين بهـذا الدين[١].

ـ والمسجد ليس مَرْفِقاً خاصّاً لطائفة معينة، إنه مؤسسة اجتماعية منوعة الأهداف، رحيبة الغايات، ترتبط بازدهارها أخلاقٌ لا تقوم أمتنا إلا بها[٢].

وقد قامت المساجد بأدوارها الرائدة في ربوع ديار الإسلام، وعلى رأسها مسجد رسول الله ﷺ، ولا يزال الحَرَمان الشريفان يقومان بمهمات جليلة مما

---

(١) انظر: محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ٣/٢٦ ـ ٥٠، ففيه كلام نفيس.

(٢) كفاح دين، ص١٤٩.

قدمناه، وقُلْ مثلَ ذلك في مسجد عَمْرو بن العاص والجامع الأزهر والجامع الأُموي وجامع الزيتونة ومساجد الأندلس وغيرها من منارات العبادة والعلم والجهاد على مدار التاريخ.

وفي القرن الماضي كان للمساجد دور بارز وخطير في استنهاض الأمة وقيام حركات التحرير وانطلاقها من المساجد لطرد الاستعمار من ديار الإسلام.

ثم تراجعتْ تلك الأدوار الجليلة بصورة مخيفة منذ عهد قريب وإلى الآن، بتفريطٍ من الحكام وكيدٍ من أعداء الأمة وتهاونٍ من الشعوب وانشغالٍ بالزخرفة والتشييد والتزويق والتباهي بذلك، وهو الذي حذَّر منه النبي ﷺ وخاف على أمته أن تقع فيه.

ثانياً: نهي الرسول ﷺ عن تشييد المساجد وزخرفتها، وهديُ الرعيلُ الأول في ذلك:

عن نافع: أن عبد الله بن عُمر ﷺ أخبره: (أن المسجدَ كان على عَهد رسول الله ﷺ مَبنيّاً باللَّبِن، وسَقْفُه الجَريدُ، وعَمَدُهُ خَشبُ النَّخْل، فلم يَزِدْ فيه أبو بكر شيئاً، وزادَ فيه عُمر وبَنَاه على بُنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللَّبِن والجريدِ، وأعادَ عَمَدَهُ خَشباً. ثم غَيَّره عثمانُ فزادَ فيه زيادةً كثيرةً، وبَنَى جدارَه بالحِجَارةِ المَنقُوشةِ والقَصَّةِ، وجَعَلَ عَمَدَهُ من حِجَارةٍ مَنْقُوشةٍ، وسَقَفَهُ بالسَّاج)[١].

وأَمَر عمرُ ببناءِ المسجدِ، وقال: (أَكِنَّ الناسَ منَ المطرِ، وإيَّاكَ أن تُحَمِّرَ أو تُصفِّرَ، فَتَفْتِنَ الناسَ)[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٥١)؛ وأحمد: ٢/ ١٣٠؛ وابن خزيمة (١٣٢٤)؛ وابن حبان (١٦٠١)؛ والبيهقي في السنن: ٢/ ٤٣٨؛ والدلائل: ٢/ ٥٤١.
الجريد: ورق النخيل. **القصَّة**: هي الجِصّ بلغة أهل الحجاز، ويسميها أهل الشام: كلْساً، وأهل مصر: جيراً. **السَّاج**: نوع جيد من الخشب يؤتى به من الهند.

(٢) علقه البخاري: الفتح: ٢/ ٢٩٧، كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد. **تحمِّر أو تصفِّر**: احذر طليَ المسجد بالأحمر أو الأصفر.

وعن يزيد بن الأَصَمّ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أُمِرْتُ بتَشْيِيدِ المساجِدِ**». قال ابنُ عباسٍ: (لَتُزَخْرِفُنَّها كما زَخْرَفتِ اليهودُ والنصارى)[١].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: (يَتَبَاهَوْنَ بها، ثُمّ لا يَعْمُرونَها إلا قليلاً)[٢].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (إذا زَخرفْتُم مساجدَكم، وحلَّيْتُم مصاحِفَكم، فالدَّمار عليكم)[٣].

فهذا أمرُ النبي ﷺ وهَدْيه في بناء مسجده الأعظم وغيرِه من مساجد الإسلام، وذلكم منهج عِلْية الصحابة وتحذيراتُ علمائهم من زخرفة المساجد والانشغال بتزويقها، وتلكم هي سنة الخلفاء الراشدين في رعاية المسجد النبوي.

قال ابن بطَّال وغيرُه في شرح حديث ابن عُمر في بناء المسجد النبوي وتجديد الخلفاء له: (هـذا يدل على أنَّ السنّةَ في بنيان المسجد القصدُ وتركُ الغلوِّ في تحسينه، فقد كان عمر مع كثرة الفتوح في أيامه وسعةِ المال عنده لم يغيِّر المسجد عمّا كان عليه، وإنما احتاج إلى تجديده لأن جَريد النخلِ كان قد نَخِرَ في أيامه، ثم كان عثمان والمال في زمانه أكثر فحسَّنَه بما لا يقتضي الزخرفة، ومع ذلك فقد أنكر بعض الصحابة عليه!.

وأولُ مَن زخرف المساجد: الوليد بن عبد الملك بن مروان، وذلك في

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٨)؛ والبغوي (٤٦٣)؛ وصحَّحه الألباني، وشعيب الأرنؤوط، وعلق البخاري قول ابن عباس: الفتح: ٢/ ٢٩٧.

(٢) علقه البخاري: الفتح: ٢/ ٢٩٧.

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» و«الأكياس والمغترين»؛ وابن المبارك في الزهد (٧٩٧)؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٣٥١)، وصحيح الجامع (٥٨٥). وهو موقوف له حكم الرفع، فمثله لا يقال بالرأي.

أواخر عصر الصحابة، وسكت كثير من أهل العلم عن إنكار ذلك خوفاً من الفتنة.

ورخَّص في ذلك بعضهم، وهو قولُ أبي حنيفة، إذا وقع على سبيل التعظيم للمساجد، ولم يقع الصرف على ذلك من بيت المال.

وقال ابن المُنَيِّر: لمَّا شيَّد الناس بيوتهم وزخرفوها، ناسَبَ أن يُصنع ذلك بالمساجد، صَوْناً لها عن الاستهانة.

وتُعقِّب بأن المنع: إنْ كان للحثِّ على اتباع السلف في ترك الرفاهية؛ فهو كما قال، وإنْ كان لخشية شغلِ بال المصلي بالزخرفة؛ فلا، لبقاء العلَّة)[١].

ثالثاً: معاني الزخرفة والتشييد والتباهي:

قال ابن عباس: لَتُزَخرِفُنَّها كما زَخرفتِ اليهود والنصارى.

الزخرفة: الزينة، وأصل الزُّخْرُف الذهب، ثم استُعمل في كل ما يُتزيَّن به[٢].

وقال الخَطَّابي: معنى قوله: (**لَتُزخرِفُنَّها**): لَتُزيِّنُنَّها، وأصلُ الزُّخْرف الذهب، يريد: تمويهَ المساجد بالذهب ونحوه.. والمعنى: أن اليهود والنصارى إنما زَخرفوا المساجدَ عندما حرَّفوا وبدَّلوا وتركوا العمل بما في كتبهم، يقول: فأنتم تصيرون إلى مِثل حالِهم إذا طلبتم الدنيا بالدين، وتركتم الإخلاصَ في العمل، وصار أمرُكم إلى المراءاةِ بالمساجد والمباهاةِ بتشييدها وتزيينها[٣].

والتشييدُ: رفْعُ البناء وتطويلُه، ومنه قوله ﷻ: ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨][٤].

---

(١) الفتح: ٢/ ٣٠٠.

(٢) الفتح: ٢/ ٢٩٩.

(٣) معالم السنن: ١/ ٢٥٥؛ وهامش سنن أبي داود: ١/ ٣١٠ (٤٤٨).

(٤) شرح السنة: ٢/ ٣٤٩.

وقوله في الحديث: «**يتباهَى الناس في المساجد**»: أي: يتفاخرون في شأنها أو بنائها، يعني يتفاخر كلُّ أحدٍ بمسجده، ويقول: مسجدي أرفَعُ أو أَزينُ أو أَوسعُ أو أحسنُ، رياءً وسمعةً واجتلاباً للمِدْحَة(١).

قال المُنَاوي: (فزخرفةُ المساجد وتحليةُ المصاحف منهيٌّ عنها، لأن ذلك يشغَلُ القلبَ، ويُلهي عن الخشوع والتدبُّر والحضور مع الله تعالى. والذي عليه الشافعية أن تزويقَ المسجد ـ ولو الكعبة ـ بذَهَب أو فضَّة: حرامٌ مطلَقاً، وبغيرِهما مكروهٌ)(٢).

رابعاً: تحقق النبوءة ووقوع ما حذَّر منه النبي ﷺ:

•• إخبار النبي ﷺ بما سيقع من أمته بشأن المساجد وزخرفتِها والتباهي بتشييدها، والتلهي بذلك عن هدفها السامي الرفيع في بناء النفوس وتنوير العقول وتنمية الأفكار وتخريج العلماء وتسيير الدعاة ورفْع منارة الدعوة إلى الله ـ قد تحقق مصداقُه في الأمة منذ عهد بعيد، وعلى وَفْقِ ما وَصَف ﷺ.

قال الحافظ: (وفي حديث أنس عَلَمٌ من أعلام النبوة، لإخبارِه ﷺ بما سيقع، فوَقَع كما قال)(٣)!.

وظهرت مبادي ذلك في أواخر القرن الأول الهجري في عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان عندما شيَّد الجامع الأموي الشهير بدمشق حاضرة الخلافة الأموية.

ومع مرور الأيام وتراخي الزمان تفاقم الأمر وازدادت شِرَّتُه، وظهرت في ديار المسلمين مظاهر السَّرَف والترف والبذخ والمغالاة في تشييد المساجد وتزويقها وزخرفتها وتزيينها والتباهي بها، والمفاخرة والمكاثرة ببذل الأموال

(١) عون المعبود: ١/ ٤٣٥.
(٢) فيض القدير: ١/ ٣٦٧.
(٣) الفتح: ٢/ ٣٠٠.

الطائلة، والمراءاة في ذلك، ووقع المسلمون فيما نُهوا عنه من اتباع سَنَن اليهود والنصارى الذين زخرفوا صوامعَهم وبِيَعَهم وكنائسَهم، بعد أن حرَّفوا كتبهم وبدَّلوا أمر دينهم.

ورضي الله عن الخليفة عمر الفاروق الذي أمر البنَّاء عند تجديد المسجد النبوي، فقال: (أَكِنَّ الناسَ من المطرِ، وإيَّاكَ أن تحمِّر أو تصفِّر، فتَفْتِنَ الناس).

أي: احذر طليَ المسجد بالأحمر أو الأصفر، فتفتن المصلِّين وتُفسِد عليهم صلاتهم، وتوقعهم في الإثم، لانشغال قلوبهم وخواطرهم عن الخشوع في الصلاة!.

●● فماذا نقول عن المسلمين وما فعلوه في تشييد مساجدهم بعد قرن الصحابة؟!.

فالذي يتأمَّل المساجدَ الكبرى التي شُيِّدت في ديار الإسلام منذ عهد بعيد وإلى الآن، وما بناه المسلمون من الحكام والأثرياء والأعيان في عهود الأمويين والعباسيين والمماليك والعثمانيين وسواهم حتى عصرنا، وينظر إلى كبريات المساجد في الأندلس وبلاد المغرب ومصر والشام وتركيا والجزيرة العربية والعراق وإيران ـ يذهل للأموال الهائلة التي أُنفقت في بنائها والتباهي بزخرفتها ونقوشها وتزيينها، بما في ذلك من رسومات وزخارف، وتعالٍ في نضد الحجارة المنحوتة المزركشة، ونصب العُمُد الرخامية الضخمة ذات التكاليف الباهظة المجلوبة من خارج بلاد الإسلام، ونقوش الفُسَيْفِسَاء، وكتابة الآيات أو الأشعار بماء الذهب والفضة، مضاهاةً لأبنية الكنائس والبِيَع والصوامع! إضافة إلى إقامة المآذن الشاهقة المتعددة، والقِبَاب الكثيرة في المسجد الواحد، وغيرها من المراسم والتزيينات من كل ما خرج بالمساجد عن أهدافها والمقصود منها!.

ولا يكاد بلد إسلامي يخلو من ذلك الطيش في التعالي والتفاخر في بناء

المساجد، والبُعد بها عن نهج الإسلام في بساطة الفطرة وتحقيق هدف التعبُّد ودراسة العلوم والمعارف.

ولا يفهمنَّ أحدٌ من كلامنا أننا نقصد أن نجعل من بناء المساجد صورة نرجع بها إلى نوعٍ من السَّذَاجة والبساطة المادية تحطُّ من قَدْرها، وتنزل بها عن مكانتها التي أَذِن الله بها من الإعظام والتشريف، ولكننا نقصد إلى الإهابة بالمسلمين في شتى أوطانهم أن يعودوا إلى فطرة الإسلام في بناء المساجد، فيجعلوا منها بيوتاً للعبادة ودراسة العلوم والمعارف، لا صَيَاصِيَّ وقلاعاً أشبهَ بحصون المحاربين القدامى من اليهود وغيرهم! ونقصد أن ندعوَهم حكومات وأفراداً وجماعات إلى الاقتصاد في نفقات التغالي والتعالي والمبالغة المبذِّرة في بناء المساجد، لتبقى لها قدسيَّتُها الروحية التي لا تُضاهَى، ولا تحاكي أبنيةَ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولتبقى لها في النفوس مكانتها التعبدية الإسلامية التي تحفظ لها وشائجها التاريخية بأول وأعظم مسجد أسسه وبناه سيد المرسلين في دار هجرته ومستقره[1].

●● **إن عمارة المساجد وإحياءَها والتنافسَ في خدمتها، لا يكون بزخرفتها وفرش البُسُط الوثيرة في أرضها وتعليق الثريات في قِبابها، بل بتعلُّقِ القلب بها وارتيادها في الصلوات الخمس، وتزيينها بالعبادة والعلم، وتخريج العلماء وحَفَظة القرآن والدعاة إلى الله تعالى**، وهـذا ما أشار إليه حديث أنس: **«لا يَعْمُرونها إلا قليلاً»**.

●● وثَمَّة مرافق كثيرة يجبُ التنافس في ميادينها، وتوفير الأموال الطائلة التي تُصرف في تزيين المساجد وزخرفتها والتغالي في تشييدها، مما يغلب عليه السرف والمباهاة والمفاخرة والرياء، ومن أبرز تلك المرافق والوجوه:

١ ـ بناء المدارس والمعاهد والجامعات ومدن الإسكان لطلاب العلم ورواد

---

(١) انظر: محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ٣/ ٤٢ ـ ٤٤.

المعرفة، وافدين وغير وافدين، وإعداد بيوت للأساتذة والمعلّمين من أهل الدرس والبحث.

٢ ـ إنشاء المشافي والوحدات الصحية في حنايا الوطن المسلم، في كل بلد وقرية وحي ومحلّة وضاحية ومدينة، لنشر الوقاية من الأمراض، وعلاج ما يقع منها، وحماية الأمة من انتشار الأوبئة.

٣ ـ إقامة المكتبات العامة في مدن الإسلام وعواصم أوطانه، وقَصَبات[١] حواضره وبواديه وقُراه، وكل مكان يكون مأهولاً بمن يتأهَّل للاطلاع والقراءة.

٤ ـ إقامة دور كفالة اليتامى الذين فقدوا حنان الأبوَّة بفَقْدهم من يقوم على إعالتهم وإحسان تربيتهم، ويوجِّههم توجيهاً صالحاً يعدُّهم ليكونوا لبناتٍ قوية في مجتمعهم المسلم.

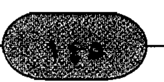
٥ ـ بناء الملاجئ لإيواء المشرَّدين من أبناء الأمة، وتعليمهم ما يعتمدون عليه في حياتهم من عمل بدني أو فكري، وكشف ما عسى أن يكون قد وُهِبوه من خصائص مخبوءة في طباعهم لم تُتح لها فرصة الظهور[٢].

إن التنافس الخيِّر في هـذه الميادين الكثيرة من أعمال البر والعمل الصالح؛ هي أرضى لله، وأحبُّ لرسول الله ﷺ، وأقرُّ لأعين أتباعه، وأنفعُ لأمته من ذلك التغالي والإسراف في تزيين المساجد، مما حذر منه ونهى عنه الرسول ﷺ، رحمةً بأمته وإشفاقاً عليها وحرصاً على صلاحها وفلاحها ونجاحها.



(١) قَصَبة البلاد: مدينتها.

(٢) محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ٣/ ٣٩ ـ ٤١.



إخبار النبي ﷺ بأن الناس سيتخذون المساجد طرقاً ولا يصلّون فيها

١ ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو يقول: «**إنَّ مِن أشراطِ الساعة أن يمرَّ الرجلُ بالمسجدِ، لا يصلّي فيه ركعتين**».

وفي رواية: «**أن يجتازَ الرجلُ بالمسجدِ، فلا يصلّي فيه**»(١).

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ أَشْراطِ الساعةِ أنْ لا يُسَلِّمَ الرجلُ على الرجلِ إلا لمعرفةٍ أو من معرفةٍ، وأنْ يَمُرَّ بالمسجدِ عَرْضِه وطُولِه، ثم لا يصلِّي فيه ركعتين**»(٢).

وفي رواية للحاكم: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تُتَّخَذَ المساجدُ طُرُقاً**»(٣).

٣ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**من اقترابِ الساعةِ أن**

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١٣٢٦)؛ والبزار (٣٤٠٧)؛ والرواية الأولى لابن خزيمة، والثانية للبزار؛ وصحَّحه الألباني بطرقه وشواهده في الصحيحة (٦٤٩)، وصحيح الجامع (٥٨٩٦)؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٧/ ٣٢٩، وقال: رجال البزار رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار في حديث طويل (١٥٩٢)؛ وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات. وانظر: النبوءة (١٤١): ٤/ ٣٤١ ـ ٣٤٢، حاشية (١).

(٣) أخرجه الحاكم: ٤/ ٤٤٦، وصحَّحه، وتعقبه الذهبي بأنه موقوف، وردَّ الألباني قولَ الذهبي، وذكر أنه مرفوع، ثم قال: وهذا لا يَحتمِل الصحة إنما الحسن فقط. وأورد طرقه وشواهده في الصحيحة: ٥/ ٣٦٩ (٢٢٩٢)، ٢/ ٢٤٩ (٦٤٩).

يُرى الهلالُ قَبْلاً فيُقال: لِلَيلَتَيْنِ، وأنْ تُتَّخَذَ المساجدُ طُرُقاً، وأن يَظهر موتُ الفجأةِ»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: منزلة المساجد وحرمتها، ونهي النبي ﷺ عن اتخاذها طُرقاً:

المساجد بيوت الله سبحانه في أرضه، ومهبِط رحماته، ومُتنزَّل سكينته، ومنابع النور والهداية والعبادة والعلم، وموئل الصالحين ومهوى قلوب المؤمنين، وأماكن نزول الملائكة إلى الأرض وعروجها إلى السماء تحمل معها أعمال المسلمين.

وهي أطهر أماكن الأرض التي شهد الله تعالى ـ وكفى به شهيداً ـ أن روَّادها مؤمنون، والمتعبِّدين فيها رجال صالحون مهتدون؛ فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وتعظيمُ المساجد وإجلالُها هو من تعظيم شعائر الله سبحانه، ومن أمارات الإيمان والتقوى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. **وشعائر الله**(٢): واحدتُها شَعيرة، وهي كل شيء جُعل عَلَماً من أعلام طاعته تعالى. ولا ريب أن المساجد من أبرز هذه الأعلام، وإنَّ اتخاذَها طُرقاً واجتيازها للفَرْجَة(٣) هو تفريطٌ بحقِّها واستخفاف بمنزلتها، وغفلةٌ باردة من قلب ساهٍ لاهٍ لا يعظِّم شعائر الله.

والنبيّ المربي الحكيم محمد ﷺ أعرفُ الناس بمنزلة المساجد وحرمتها

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٣٧٦)، والصغير (١١٣٤)؛ والضياء في (المختارة)؛ وحسَّنَه الألباني بطرقه وشواهده في الصحيحة (٢٢٩٢)، وصحيح الجامع (٥٨٩٩).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة، ص٣٢؛ لسان العرب: ٤/ ٤١٤.

(٣) **الفَرْجَة**: الراحة من حُزن، أو التَّفَصِّي من الهَمِّ. **والفُرْجة**: فُرجة الحائط وما أَشْبهه. الفَرجة في الأمر، والفُرجة في الجدار والباب. لسان العرب (فرج).

وجلالتها ومكانتها في الإسلام، لذا لم يَقبل من أتباعه الذين يدخلون المسجد، فيجدون الخطيب قائماً أو الواعظ يلقي موعظته أو الفقيه يبين أحكام الشرع أو نحو ذلك من مناشط المسجد؛ لم يرضَ ﷺ ممن يدخله والحالة هذه أن يجلس حتى يركع ركعتين.

عن أبي قتادة الأنصاريِّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إذا دخَلَ أحدُكم المسجدَ فلا يجلسْ حتى يصلِّي ركعتين**»[١].

ونهى أشدَّ النهي عن التهاون بمنزلة المساجد واتخاذها طُرقاً ومعابرَ يجتازها الجائي والرايح!.

عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَتَّخِذوا المساجدَ طُرُقاً، إلا لذِكْرٍ أو صلاةٍ**»[٢].

ثانياً: تحقق النبوءة:

●● وحذَّر الرسول ﷺ أمته من مجيء زمان بين يدي الساعة ينشأ فيه نَشْوٌ من المسلمين، قد ضَعُف إيمانهم، وذَبَل يقينهم، وفَرغت أرواحهم، وذَوَتْ مشاعرهم، وتحجَّرت قلوبهم، فلا يعظِّمون شعائر الله، ولا يقيمون لبيوت الله شأناً، ولا للبقاع الطاهرة وزناً، فيتعاملون مع المساجد كغيرها من المحلات التجارية ومراكز التسوق وأروقة السياحة والتنزه، فيمرون ببيوت الله تعالى وهم عن شعائرها غافلون ولحقِّها مضيِّعون وبمنزلتها مستخِفُّون! يَذْرَعونها طولاً وعرضاً، ويجتازونها صباحاً ومساء جيئة وذهاباً، لا يركعون لله فيها ركعة، ولا يمكثون فيها لعبادة أو ذِكْر أو حلقة علم أو سماع موعظة، لاهية قلوبهم فهم في لهوِهم وغفلتهم سادرون.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤) و(١١٦٧)؛ ومسلم (٧١٤)؛ وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم؛ وابن حبان (٢٤٩٥)، وفيه تمام تخريجه.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط، وغيرُه؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٠٠١)، وصحيح الجامع (٧٢١٥).

وقد وقع في زماننا هذا تصديقٌ مبينٌ لكلام رسولنا ﷺ، فنحن نشهد في كثير من بلاد المسلمين وجودَ عدد كبير من مشاهير المساجد العريقة قد اتخذها الناس للفَرْجَة والسياحة، واعتبروها ضرباً من (الآثار الإسلامية) واللوحات الفنية التي تشيد بعبقرية الفن المعماري العربي الإسلامي كما يزعمون! وشواهد ذلك حاضرة في تركيا وبلاد الشام ومصر والمغرب وما يسمّى (بالمشاهد المقدّسة) في العراق وإيران.

بل حدَث ما هو أدهى من ذلك وأمرّ؛ حيث استولت (مصلحة الآثار) على بعض تلك المساجد وجعلَتْها «آثاراً» للفَرْجَة والعبث وتنزّه الوافدين من الفِرنجة، ونظّمت رحلات للسائحين من غير المسلمين، ويدخلون المساجد الإسلامية صحبةَ فريق عمل من المسلمين كدليل سياحي لتعريفهم بتلك (الآثار!)، بحجة معرفة الفن الإسلامي في أبنية مساجده(١).

●● وتنتظِمُ هذه النبوءة ـ سوى ما قدَّمنا ـ أنواعاً أخرى من الناس يدخلون المساجد ويجتازونها ويتخذونها طُرقاً ولا يركعون لله فيها ركعة:

ـ منهم مَن يجاورون المساجد من أهل الأسواق والمحلات ونحوهم، حيث يدخلون المساجد للراحة، أو النوم، أو السقيا، ويخرجون منها دونما تعبُّد لله فيها.

ـ ومنهم رجال الأمن والحراس الذين يرافقون السلاطين والأمراء لحمايتهم والحفاظ على حيواتهم، ولا تنحني جباههم خضوعاً لله تعالى.

ـ ومنهم رجال الإعلام وأصحاب الكاميرات من المصوّرين وغيرهم ممن يدخلون المساجد لتغطية احتفال ديني، أو نقل شَعيرة الصلاة وبثّها بثّاً مباشراً، أو زيارة أحد الكبراء، ومن ثَمْ تسويق الأخبار... فتراهم يدخلون ويخرجون ولا يركعون ولا يسجدون.

---

(١) انظر: محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ٣/ ٤٤.

وهؤلاء وأولئك ممن تحققت فيهم هذه النبوءة، وقد حُرموا خيراً كثيراً، ولا يَلومون إلا أنفسَهم، وستبقى مساجد الإسلام على مكانتها وجلالتها في نفوس المؤمنين، ولن يَضيرها ما عَلِق بها من أدران أعمال بعض الناس عبر التاريخ، وإن ربك لبالمرصاد.



إخبار النبي ﷺ
عن رجال يأتون المساجد راكبين (السيارات) ونساؤهم كاسيات عاريات

عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**سيكونُ في آخِر أمَّتي رجالٌ يَرْكَبُونَ على سُروجٍ كأشباهِ الرِّحَالِ، يَنزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسياتٌ عارياتٌ، على رؤوسهنَّ كأسنمةِ البُخْتِ العِجَافِ، الْعَنُوهُنَّ فإنهنَّ ملعوناتٌ، لو كانت وراءَكم أمةٌ من الأُمم لَخَدَمَهُنَّ نساؤكم، كما خَدَمكم نساءُ الأممِ قَبْلَكم**» لفظ المُخَلِّص.

وفي رواية الطبراني في أوله: «**سيكونُ في أمتي رجال يُرْكِبُونَ نساءَهُم على سُروجٍ كأشباهِ الرِّحَال**».

وفي رواية الحاكم: «**سيكونُ في آخِر هذه الأمة رجالٌ يَرْكَبون على المَيَاثِر حتى يأتوا أبوابَ مساجدهم**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ٢٢٣؛ والمخلص في (بعض الجزء الخامس من الفوائد والغرائب المنتقاة) (ق٢٦٤/ ١)؛ والطبراني في الأوسط (٩٣٢٧)، والصغير: ٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨؛ وابن حبان (٥٧٥٣)؛ والحاكم: ٤/ ٤٣٦.
وصحَّحه ابن حبان، والحاكم وخالفه الذهبي، وقال الهيثمي في (المجمع: ٥/ ١٣٧): رجال أحمد رجال الصحيح؛ وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند: ١٢/ ٣٨ رقم (٧٠٨٣)؛ وذكره الألباني في الصحيحة (٢٦٨٣)، وأخطأ شعيب الأرنؤوط فضعَّفه في تعليقه على ابن حبان، وقد ردَّ الألباني على شعيب تضعيفَه هذا الحديث؛ وكلام الألباني قوي متين. انظر: الصحيحة: ٦/ ٤١٦ ـ ٤١٧.

أولاً: معاني المفردات[1]:

- «**سُروج**»: جمع سَرْج، وهو رَحْل الدابة.

- «**الرِّحَال**»: جمع رَحْل، وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب. والرَّحْل: منزل الرجل ومسكنه وبيته.

- «**كاسِيَاتٌ عارياتٌ**»: أي كاسياتٌ في الظاهر عارياتٌ في الحقيقة، لأنهنَّ يَلبسن الثيابَ الرقيقة الشفافة المزخرفة الملونة أو الضيِّقة الملاصِقة لأجسادهنَّ، فلا تؤدِّي وظيفةَ الستر والاحتشام[2].

- «**البُخْت**»: الإبل الخُراسانية، وهي جِمال طِوَالُ الأعناق. واللفظة معرَّبة.

- «**العِجَاف**»: المهزولة من الإبل وغيرها.

- «**المَيَاثِر**»: جمع المِيثَرة، وهي وِطاءٌ محشوٌّ يجعلُها الراكب تحته على الرِّحَال فوق الجِمال، وهي مأخوذةٌ من الوَثَارة، يُقال: وَثُر وَثارةً فهو وَثِير: أي وَطِيءٌ لَيِّنٌ.

وهي من مراكب العجم، تُعمل من حرير أو ديباج.

ثانياً: توضيح وبيان لمعاني النبوءة ومدلولها، وتحقق وقوعها منذ زمان واستحكامها في عصرنا:

يتضمن هذا الخبر النبوي الصادق نبوءتين:

الأولى: ظهور رجال في آخر الزمان يأتون المساجد راكبين وسائلَ نقل فاخرة، وتظهر عليهم أَمارات الدَّعَة والرَّخاء في مراكبهم تلك.

الثانية: نساء أولئك الرجال قد انخلعنَ من آداب الإسلام، وفرَّطْنَ في

(١) مأخوذة من: النهاية في غريب الحديث؛ ولسان العرب.

(٢) سبق مزيد بيان لهذا الصنف من النساء في: النبوءة (١٢٣).

فريضة جليلة من فرائضه، فخرجن متبرِّجات كاسيات عاريات، يبارزن الله تعالى بالمعاصي.

وهذه النبوءة الثانية جاءت فيها أحاديث أخرى عامة في نساء المسلمين، وقد تقدَّم الحديث عنها مفصَّلاً[(١)]، ونتناول هنا بالبحث والبيان النبوءة الأولى.

●● فالرسول الحكيم ﷺ يُخبرنا عن صنف من المسلمين قد أنعم الله عليهم فبَسَط لهم من الخيرات والأرزاق، وفتح لهم أبواب المُتع والرفاه، وأَغدق عليهم من فضله وجُودِه، فلم يحسنوا استخدام ذلك كله، ولم يشكروا الله عليه!.

لقد غَرَّتْهم الدنيا وأَغْرَتْهم بمتاعها وزينتها، وأَلْهَتْهم بملذاتها، ولعِبت بعقولهم، وخَطِفت أبصارهم، وأَعْمَت قلوبَهم، وشغلت أرواحَهم، ففرَّطوا في فرائض الدين، ولم ينتفعوا بأركانه الكبرى وما تحضُّ عليه وتأمر به وتهدي إليه.

وهذا الفريق من المسلمين يخبرنا النبيُّ ﷺ بأنهم يأتون إلى بيوت الله تعالى «**يَركبون على سروج كأشباه الرحال**»، و«**يُركِبون نساءَهم على سروج كأشباه الرحال**»، و«**يَركبون على المَيَاثِر حتى يأتوا أبواب مساجدهم**».

وفي هذه العبارات النبوية وصف لطيف دقيق وإشارة واضحة قوية إلى السيارات[(٢)] وما فيها من الفُرش الوثيرة، وأجهزة التكييف، والمعدّات الحديثة وأساليب الراحة والسياحة والاتصال المختلفة، حتى إن بعضها ليحتوي على حمام ومطبخ ومجالس وأرائك فاخرة وأجهزة التلفاز، ويوضع على زجاج نوافذها المواد المظلِّلة التي تجعل مَن بداخلها يرى الناس في الشارع ولا يرونه،

---

(١) انظر: النبوءة (١٢٣).

(٢) ممن ذهب إلى هذا المعنى المقصود من الحديث: الألباني في (الصحيحة): ٦/ ٤١٥؛ وحمود التويجري في (إتحاف الجماعة): ٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩؛ ويوسف الوابل في (أشراط الساعة)، ص١٨٤ ـ ١٨٥؛ ومحمد تقي العثماني في (تكملة فتح الملهم): ٤/ ١١٩.

وتسير السيارة بمن فيها وكأنها بيتٌ يَستر من بداخله ويتحرك! فهي ينطبق عليها كل ما في الرَّحْل من معنى: المركب والمنزل والبيت!.

•• وهؤلاء الأناسي يأتون المساجد بمراكبهم الفاخرة الفارهة تلك، ويقفونها على أبوابها وساحاتها المُعدَّة مواقفَ للسيارات، وهذا أمر مشهور معروف في كل بلاد المسلمين. وترى كثيراً من بيوت الله تعالى تزدحم السيارات على أبوابها وفي ساحاتها في صلوات الجماعة والجمعة والتراويح والأعياد، حتى لتكاد الساحات والطرق تغصُّ بالسيارات، بل إنها لتضيق بها حقيقة في كثير من المساجد، وبخاصة في رمضان والأعياد.

•• ولو كان الأمر مقتصراً على ركوب تلك السيارات الفاخرة ذات الفرش الوثيرة والمركب اللَّيِّن الوطيء، والغدوِّ بها إلى بيوت الله؛ لَما كان في ذلك ذمٌّ ولا قَدْح، بل هي من نِعم الله وفضله التي يُباح الاستمتاع بها ويتوجب الشكر عليها.

لكن الذمَّ توجَّه إلى أولئك المسلمين الذين يأتون أبواب المساجد بمراكبهم تلك، ويُركِبون معهم نساءهم وبناتهم وهنَّ متهتكات متبرِّجات سافرات كاسيات عاريات! لهنَّ ملابس فُصِّلَتْ لشرح العورات، وإشاعة الفتنة، واستفزاز الغرائز الساكنة، فلا هنَّ عاريات ولا هنَّ لابسات! على رؤوسهن عصائب فارهة تزيد حِدَّة التبرج وسَوْرة الإغراء[1]! وبَلَغْن من الشطط ومواقعة المآثم والمعاصي أن أَذِن النبي ﷺ بلعنهن، فقال: «**الْعَنُوهُنّ فإنهنّ ملعوناتٌ**»!..

والرجال القيِّمون على هؤلاء النسوة قد استحقوا غضبَ الله تعالى وعذابه، وبُغْضَ رسوله ﷺ لهم، وذمَّ المسلمين لهم وتشنيعَهم عليهم، لأنهم دَيُّوثُون قد ماتت الغَيْرة في أنفسهم، واستمكن الشيطان من قلوبهم، فَرَضُوا بهذا المنكر العظيم الذي يرونه في أهليهم.

(١) انظر: ظلام من الغرب، ص٢٢٩.

إنهم مأمورون بالقيام على أمور نسائهم وبناتهم، وإلزامهنّ بالحجاب الشرعي السابغ الساتر، كما أنهم مطالَبون بإبعاد كل من يَلونَ أمرَهُ عن النار وما يقرِّب إليها من أعمال، استجابةً لأمر الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

لقد كان من الواجب على هؤلاء الرجال لو كانوا مسلمين حقّاً أن يُركبوا نساءهم في سياراتهم، فينزلن معهم إلى المساجد محتشمات، يحضرن الجماعة كما كانت نساء الرعيل الأول ومن سار على هُداهم، يشهدنَ الصلوات الخمس من الفجر إلى العشاء، متلفِّعات بمروطهن طاهرات عفيفات.

لكن هؤلاء المسلمين المفرِّطين قد أَلِفُوا الحياة في أُبَّهتِها وزُخرفها وزينتها، وعاشوا في الدَّعَة والاسترخاء، فلا يحسنون إلا التبختر والاستراحة على القطيفة اللينة والفراش الوثير، فهم عشّاق مظاهر وعبَّاد ظهور، لا يدخلون بيوت الله ليَعْمُروها بالذكر والتسبيح والخشوع والخضوع والإنابة والتقوى، بل يؤدون الصلاة فيها كواحدة من العادات التي نشؤوا عليها ورأَوْا آباءهم يقومون بها، فهي خامدة الأثر في قلوبهم وسلوكهم، لا تنهاهم عن معصية ولا تزجرهم عن منكر!.

إنهم يقفون في الصلاة ويقرؤون ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥]، لكنهم لا ينتفعون بما يتلونه، فالصراط المستقيم ليس وقوفَ فرد في المحراب لعبادة الله وكفى، إنه جهاد عام لإقامة إنسانية توقِّر الله وتمشي في القارات كلها وفق هداه(١).. كما أنهم لم يمتثلوا معاني الصلاة، ولا استفادوا من ثمراتها التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].



---

(١) هموم داعية، ص١٢٥.



إخبار النبي ﷺ
عن أقوام يستهينون بأمر الشهادة واليمين
ولا يتورَّعون فيهما

١ ـ عن عِمْرانَ بن حُصَيْنٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيرُ أُمَّتي قَرْني، ثمَّ الذينَ يَلُونَهُم، ثمَّ الذينَ يَلُونَهم** ـ قال عمرانُ: فلا أدري أَذَكَر بعدَ قَرْنه قرنينِ أو ثلاثاً ـ **ثمَّ إنَّ بعدَكُم قوماً يَشْهَدونَ ولا يُسْتَشْهَدونَ، ويَخُونُونَ ولا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُوْنَ ولا يَفُونَ، ويَظْهَرُ فيهمُ السِّمَنُ**» لفظ البخاري(١).

زاد مسلم في رواية: «**ويَحْلِفُونَ ولا يُسْتَحْلَفُونَ**»(٢).

وفي رواية للترمذي والطَّحَاوي: «**ثم يَجِيءُ قومٌ من بعدهم يَتَسمَّنُونَ ويُحبُّونَ السِّمَنَ، يُعْطُونَ الشهادةَ قبلَ أنْ يُسْأَلُوها**»(٣).

٢ ـ وعن منصور بن المُعْتَمِر، عن إبراهيم النَّخَعِيِّ، عن عَبِيدة السَّلْمَانيِّ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**خيرُ الناس قَرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونَهم، ثم يجيءُ قومٌ تَسْبِقُ شهادةُ أحدِهم يَمِينَه، ويمينُهُ**

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٠)، وأطرافه في (٢٦٥١)؛ ومسلم (٢٥٣٥)؛ وأبو داود (٤٦٥٧)؛ والترمذي (٢٢٢٢)؛ والنسائي في الكبرى (٤٧٣٢)، وفي الصغرى: ٧/ ١٧ ـ ١٨؛ والطيالسي (٨٥٢)؛ وأحمد: ٤/ ٤٢٧، ٤٣٦، ٤٤٠؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٦٣)؛ وابن حبان (٦٧٢٩)؛ والبغوي (٣٨٥٧) و(٣٨٥٨)، وغيرهم.

(٢) مسلم (٢٥٣٥) (٢١٥).

(٣) الترمذي (٢٢٢١) و(٢٣٠٢)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٦٥)؛ وأحمد: ٤/ ٤٢٦، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط والألباني.

شهادَتَهُ» قال: (قال إبراهيمُ: وكانوا يَضْرِبُونَنا على الشهادةِ والعَهْد ونحنُ صغارٌ). لفظ البخاري[١].

وفي رواية لمسلم والنسائي: «**ثم يَتَخلَّفُ من بعدِهم خَلْفٌ تَسْبِقُ شهادةُ أحدِهم يمينَه، ويَمِينُه شهادَتَهُ**»[٢].

٣ - وعن جابر بن سَمُرَة ﷺ قال: (خَطَب عمرُ الناسَ بالجَابِيَةِ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قامَ في مِثْلِ مَقَامِي هذا، ثم قال: «**أَحْسِنُوا إلى أصحابي، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم، ثم يَفشُو الكذبُ، حتى إنَّ الرجلَ لَيحلِفُ على اليَمينِ قبلَ أن يُسْتَحْلَفَ عليها، ويَشْهَدُ على الشهادة قبل أن يُسْتَشْهَد عليها...**») الحديث[٣].

وفي رواية: «**ثم يَنْشَأُ أقوامٌ يَفشُو فيهم السِّمَنُ، يَشهدُون ولا يُستشهَدون، ولهم لَغَطٌ في أسواقِهم**»[٤].

٤ - وعن بُرَيْدَة بنِ الحُصَيْب الأَسْلَمِيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيرُ أمتي قَرْني مَن هم، ثم الذين يَلُونَهم** - قال: ولا أَدري أَذَكَر الثالثَ أم لا - **ثم تَخْلُفُ أقوامٌ يَظهرُ فيهم السِّمَنُ، يُهَرِيقُونَ الشهادةَ ولا يُسْأَلُونَها**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥١)، وأطرافه في (٢٦٥٢)؛ ومسلم (٢٥٣٣)؛ والترمذي (٣٨٥٩)؛ والنسائي في الكبرى (٥٩٨٧) و(٥٩٨٨)؛ وابن ماجه (٢٣٦٢)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٦٢)؛ وابن حبان (٤٣٢٨) و(٧٢٢٢) و(٧٢٢٣) و(٧٢٢٧) و(٧٢٢٨) وغيرهم.

(٢) مسلم (٢٥٣٣) (٢١٢)؛ والكبرى، للنسائي (٥٩٨٨) (١).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٩١٧٥) و(٩١٧٦) و(٩١٧٧)؛ وابن ماجه (٢٣٦٣)؛ وأحمد: ١/ ٢٦؛ والطيالسي، ص٧؛ وأبو يعلى (١٤٣)؛ وابن حبان (٤٥٧٦) و(٥٥٨٦) و(٦٧٢٨)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٦١)؛ وصحَّحه أحمد شاكر والألباني وشعيب الأرنؤوط. ورواه عن عمر: ابنه عبد الله، وعبد الله بن الزبير، وغيرهما.

(٤) أخرجه الطيالسي، ص٨؛ والبزار في (البحر الزخار): ١/ ٣٧٠ (٢٤٨)، وذكره الألباني في الصحيحة (٣٤٣١)، وجوَّد إسنادَه.

(٥) أخرجه أحمد: ٥/ ٣٥٠؛ وابن أبي عاصم في السنة (١٤٧٦)؛ والطحاوي في شرح مشكل =

وجاء الحديث أيضاً عن الصحابة: أبي هريرة[١]، والنعمان بن بشير[٢]، وسعد بن تميم الأشعري[٣]، رضي الله عنهم.

۞ ۞ ۞

أولاً: مجمل صفات هؤلاء القوم حسبما جاءت بها الأحاديث:

جاء الوصف النبوي يبيِّن أخلاق هؤلاء الظاهرةَ وأعمالَهم الواضحة، ويكشف بواطنَهم، وما تنطوي عليه جوانحُهم، وحاصَرَتْهم الأحاديث الجليلة وأماطَتِ اللِّثام عن شمائلهم الوضيعة وطبائعهم المريضة وممارساتهم القبيحة ومسالكهم الرديئة، ويمكن تلخيصُ ذلك بثماني صفاتٍ لهم:

١ ـ يَشهدون ولا يُستشهدون.

ويُعطون الشهادة قبل أن يُستشهدوا عليها.

ويُعطونها قبل أن يُسألوها.

بل إنهم يُهَرِيقون الشهادةَ ولا يُسْأَلونها.

٢ ـ يَحلِفون ولا يُستحلفون.

ويحلِف أحدهم على اليمين قبل أن يُستحلف عليها.

٣ ـ وتسبِقُ شهادةُ أحدِهم يمينَه ويمينُه شهادتَه.

٤ ـ لهم لَغَطٌ في أسواقهم.

= الآثار (٢٤٦٦)؛ وذكره الألباني في الصحيحة (١٨٤١)، وقال هو وشعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣٤)؛ وأحمد: ٢/٢٢٨، ٤١٠، ٤٧٩؛ والطيالسي (٢٥٥٠)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٦٨).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/٢٦٧، ٢٧٦؛ والبزار (٢٧٦٧)؛ وابن حبان (٦٧٢٧)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٦٧)، وحسَّنه شعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٦٩)؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

٥ ـ يَظهر فيهم الكَذِب ويفشو.

٦ ـ يَخونون ولا يُؤتمنون.

٧ ـ يَنْذِرون ولا يَفُون.

٨ ـ يَظهر فيهم السِّمَنُ ويفشو.

ويتسمَّنون ويحبُّون السِّمَن.

•• **إنهم يشهدون ولا يستشهدون**: فيؤدون الشهادة قبل أن يُسألوها، ويعطونها قبل أن يطلبها صاحبُ الحق، استهانةً بها واستخفافاً بشأنها، وهدراً لجلالتها! بل جاء في إحدى الروايات أنهم «**يُهَريقون الشهادة**»، وهو وصف مشعِر بإكثارهم منها، ودأبهم عليها، وبَذْلهم لها دون أن يُلقوا لها بالاً، كذاك الذي يُهَريق الماءَ المستعمل ليتخلص منه، فتطؤه الأقدام أو يجد مسلكاً في مسارب الأرض، فتراهم يشهدون بالباطل ويستمرئون شهادة الزور.

قال الترمذي: (ومعنى هذا الحديث عند بعض أهل العلم «**يُعْطُون الشهادةَ قبلَ أن يُسْأَلوها**»: إنما يعني شهادةَ الزور، يقول: يَشهدُ أحدُهم من غير أن يُستشهد)[١].

ويُكْثِرون الأَيْمانَ في كل شيء حتى يصيرَ لهم عادة، فيحلف أحدهم حيث لا يُراد منه اليمين ومن قبل أن يُستحلف[٢]. ويَهْذِرون بها دون أن يُسألوها، فلقد فَرَغت قلوبهم من هيبتها وغَفَلت عن جلالتها، وخالفوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، فأطلَقوا ألسنتهم بها، واستهانوا بِمَغَبَّة كذبهم فيها!.

فاستحقوا ذمَّ الحق سبحانه للمستكثِرين من الأَيْمان المستخفِّين بها، حيث

(١) سنن الترمذي: ٤/٥٤٩ حديث (٢٣٠٢).

(٢) الفتح: ١٥/١٠٦ شرح الحديث (٦٦٥٨).

يقول: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]. بل إن العرب تمتدح بقلَّة الأيمان، حتى قال قائلهم:

قليلُ الألَايا حافظٌ لِيَمينِه   وإنْ سَبَقَتْ منه الألِيَّةُ بَرَّتِ[١]

وذَمَّهم النبيُّ ﷺ لأنهم يستهينون بالشهادة واليمين ولا يتورَّعون فيهما، فيُقْدِمون عليهما من غير توقُّفٍ ولا تحقيق، ويَجمعون بينهما فتارة تسبِق هذه وتارة تسبق هذه، ويتسرعون إليهما ويحرِصون على ذلك حتى لا يدرون بأيهما يبدؤون لقلَّة مبالاتهم[٢].

ونتيجة لذلك يَكثر لَغَطُهم في الأسواق وفي بَيعِهم وشرائهم وصفقاتهم وتجاراتهم، ومجالسهم وندواتهم، ويَظهر فيهم الكذب ويفشو ويعلو، فإنْ مَن يستخف بالشهادة ويستهين باليمين، ولا يتورَّع عن إطلاق العِنَان للسانه أن يَهْذِر بهما؛ يستمرئ المعصية ويَهون عليه الكذب ويعتاده ويألفه، حتى يصيرَ عنده من مكمِّلات سيرته ومُنَفِّقاً لتجارته وسلعته!.

●● ومَن بَلَغ الأمرُ به إلى هذا الدَّرْك، ضَعُف إيمانه وذَبَلَت أمانته وذَوَى إخلاصه في عمله، وخفَّتْ عنايتُه بتجويده وتحسينه وإتقانه، وتسرَّبت الخيانة إلى نفسه، فغَفَل عن السهر على حقوق الناس وضاعت بين يديه، وفرَّط في حق الجماعة والأمة، واستشرى الفساد في أمثاله إلى حياة الناس وحركة المجتمع، وانتشرت خيانة الواجبات بين الجمهور العريض من المسلمين، فأصبح الناس لا يَثِقون بهذا الصنف وأضرابه ولا يعتقدونهم أمناء، لأن خيانتهم أصبحت ظاهرة ومستشرية.

وهذا الفريق من الناس «**يَظهر فيهم السِّمَن**» و«**يتسمَّنون**» و«**يحبُّون السَّمَانَةَ**»: إنهم يظهر فيهم السِّمَن: لانهماكهم في الملاذّ والشهوات، وتوسُّعِهم في المآكل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣/ ٩٤؛ لسان العرب: ١٤/ ٤٠. **الألايا**: جمع الأليَّة، وهي اليمين.

(٢) شرح مسلم، للنووي: ٨/٣٢٨؛ الفتح: ١٥/ ١٠٦؛ تكملة فتح الملهم: ٥/ ١٥٣ ـ ١٥٤.

والمشارب، وإكثارهم للأكل، وكثرة حضور الولائم والحفلات والدعوات هنا وهناك، مما هو من أسباب السِّمَن.

ويحبُّون السَّمَانةَ ويتسمَّنون: فيفتِّشون عن الأطعمة الدَّسِمة التي تُربي الجسمَ وتزيده في الطول والعرض، ويريدون الاستكثارَ من الأموال، ويَدّعون ما ليس لهم من الشَّرف، ويَفخرون بما ليس فيهم من الخير، كأنه استعارَ السِّمَنَ إلى الأحوال عن السِّمن في الأبدان[١].

وفي هذا مذمَّة واضحة، لِما فيه من قلَّة الوَرَع وضَعْف الوازع الديني وعدمِ الاكتراث بما هو حلال وحرام، ثم لأن السمين غالباً بليدُ الفهم ثقيلٌ عن العبادة كما هو مشهور[٢].

●● أما القرون الفاضلة من سَلَف هذه الأمة، وكذلك الصالحون ممن جاء بعدهم وتبعهم بإحسان؛ فهم كما قال إبراهيم النَّخَعي: (كانوا يَنْهَوْنَنا، ونحن غِلْمانٌ عن العَهْد والشهادات)، وفي رواية: (وكانوا يَضْرِبُونَنا على الشهادة والعهد ونحن صِغارٌ).

يعني: أن أكابرَنا كانوا يُوصوننا في طفوليتنا بأن لا نستعملَ كلمة العهد أو الشهادة لتأكيد أمرٍ، وذلك لِما فيهما من الخطورة، فإن الإنسان إذا أخطأ في كلامه بعد استعمال هاتين الكلمتين يُخشى عليه وبالُ شهادة الزور أو اليمين الكاذبة[٣].

وقال أبو عمر بن عبد البر: معناه عندهم النهيُ عن مبادرة الرجل بقوله: (أشهدُ بالله، وعليَّ عهدُ الله، لقد كان كذا وكذا) ونحو ذلك. وإنما كانوا

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٠٥؛ جامع الأصول: ٨/ ٥٤٩؛ شرح مسلم، للنووي: ٨/ ٣٢٨؛ الفتح: ٧/ ١٠٥ (٢٦٥١، ٢٦٥٢)؛ تكملة فتح الملهم: ٥/ ١٥٤.

(٢) الفتح: ٧/ ١٠٦.

(٣) تكملة فتح الملهم: ٥/ ١٥٤.

يَضربونهم على ذلك حتى لا يصيرَ لهم به عادة، فيحلِفوا في كل ما يَصْلُح وما لا يَصلح.

وعقَّب الحافظ فقال: ويَحتمِل أن يكون الأمر في الشهادة على ما قال، ويَحتمل أن يكون المرادُ النهيَ عن تعاطي الشهادات والتصدي لها، لِما في تحمُّلها من الحرج، ولا سيما عند أدائها، لأن الإنسان معرَّض للنسيان والسهو[١].

●● **وقد جاء حديث صحيح يُثني فيه رسول الله ﷺ على مَن يؤدي الشهادة قبل أن يُسْأَلها، وظاهره يعارض ما قدّمناه:**

عن زيد بن خالد الجُهَنِيِّ رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**أَلَا أُخْبِرُكم بخيرِ الشُّهداءِ؟ الذي يَأتي بشهادتِهِ قبل أنْ يُسْأَلَها**»[٢].

والمراد بهذا الحديث كما قال أئمتنا: مَن عنده شهادةٌ لإنسانٍ بحقّ لا يَعلم بها صاحبُها، فيأتي إليه فيخبره بها، أو يموت صاحبها العالمُ بها ويخلِّف ورثة، فيأتي الشاهدُ إليهم أو إلى من يتحدَّث عنهم فيُعْلِمُهم بذلك. وهذا أحسن الأجوبة، كما قال الحافظ[٣].

ثانياً: واقع حال المسلمين وتحقق النبوءة:

●● والمتأمل في أحوال المسلمين في زماننا هذا يجدُ أقواماً كثيرين قد فرَّطوا بأوامر ربهم وتوجيهات نبيِّهم ﷺ وآداب دينهم، ووقعوا في مباءة تلك الأعمال القبيحة، وتقلَّبوا فيها ظهراً لبطن آناء الليل وأطراف النهار، فانتشر فيهم

---

(١) الفتح: ٧/١٠٦.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٩)؛ وأبو داود (٣٥٩٦)؛ والترمذي (٢٢٩٥) و(٢٢٩٦) و(٢٢٩٧)؛ والنسائي في الكبرى (٥٩٨٥)؛ وابن ماجه (٢٣٦٤)؛ وابن حبان (٥٠٧٩)؛ والبغوي (٢٥١٣)، وغيرهم.

(٣) الفتح: ٧/١٠٤ (٢٦٥١، ٢٦٥٢)؛ وانظر: شرح السنة: ١٠/١٣٨ ـ ١٤٠؛ شرح مسلم، للنووي: ٦/٢٥٨، ٨/٣٢٨ ـ ٣٢٩.

التسابقُ للشهادة بالحق وبالباطل، وتهافتوا على إعطائها قبل أن يُسألوها، واسترخصوا قيمتها وبَذَلوها قبل أن يُطلبوا إليها.

وهانَتْ عليهم الأَيْمان فانسابت على ألسنتهم الخفيفةُ منها والمُغَلَّظةُ، وحَلَفوا ولم يُستحلفوا، وقدَّموها تأكيداً لشهاداتهم، وبين يدي بيوعهم وشرائهم، وفي مجالسهم ومحافلهم، وسهراتهم وندواتهم، وجدّهم وهَزْلهم، وأقسموا الأَيمانَ الفاجرة ليقتطعوا بها حقوقَ المسلمين وأموالَهم ليأكلوها بينهم بالباطل.

ونتيجة لذلك ظَهر فيهم الكذبُ، وفَشَا شرُّه، وعلا صوته، وكثُر مرتكبوه!.

وانظر نظرةً عَجْلَى ثم متأنِّية ثم فاحصة معتبِرة في مجتمعاتنا: في المحاكم، و(دور العدل)، ومجالس القضاء، ومكاتب المحاماة، ومراكز الشرطة، ومنتديات فضّ الخصومات، والإصلاح بين الناس، والأسواق، والمراكز التجارية، ومحلات البيع والشراء صغيرها وكبيرها، قديمها وحديثها، وميادين التجارة والصناعة والحِرَف المختلفة.. تأمَّل هاتيك الأماكن والبقاع ونحوَها لتجد بَيْعَ الشهادات وإنفاقَ الأيمان بسخاءٍ، وإعطاءَ الأصوات لهذا وذاك، تشهد له بالنزاهة والعدالة والإخلاص والجدّ والاجتهاد للقيام على مصلحة الأمة وشؤون الدولة وتسيير أعمال العباد! أو تشهد على آخر ـ زوراً ـ بعكس ذلك!.

وقِفْ طويلاً أمام أبواب ما يُسمَّى (بالقصر العدلي) في ديار المسلمين، فلسوف يدهشُك ما تراه من الشهادات الرخيصة، وشهادات الزور، والاستخفاف بخطورة الشهادة، وأشباه الرجال الذين ينتظرون مَن يطلب إليهم الشهادة ليُعْطُوها وهم لا يعرفون شيئاً عن ملابسات التنازع والخصومة، ولا عَنْ أشخاصها وأطرافها والمتنازعين فيها.

وسِرْ في شوارعنا، واجلس في منتدياتنا، وأَلْقِ السمع للتجار ورجال المال والأعمال والحرفيين والصنَّاع، وأَصْغِ للباعة والمشترين.. لتسمع ما يَصُكُّ الأسماعَ، ويطيش بالألباب، ويعصف بالأفئدة؛ من كثرة الحَلِف بالله تعالى، وشيوع الأيمان الكاذبة بأبخس الأثمان!.

•• لقد انتشرت هذه الأخلاق المُبِيرة في مجتمعاتنا، ورَبَا خطرها، وعلا شأنها، وتكاثر فاعلوها ومروِّجوها، حتى غَزَت أماكن شتى في الوزارات والمؤسسات ووسائل الإعلام، وأمست ظاهرة إعلامية واجتماعية وشعبية خطيرة، تشير إلى تدهور ذريع وانحطاط مخيف في قيم الناس وعادات المجتمع. . حتى إنك إذا أردتَ شاهداً عادلاً قائماً لله بالشهادة مقيماً لها بالقِسط؛ فتَّشتَ عنه طويلاً، وليس من السهل عليك أن تصدِّق كثيرين ممن يحلِفون بالله تعالى وتجري الأيمان على ألسنتهم بكرة وعشيّاً.

وترى فريقاً من هؤلاء قد يجيدون أداءَ صور العبادات، لكنهم لم يَشربوا روحها، أو يحسنون إقامة الرسوم والأشكال دونما نفاذٍ إلى الجوهر واللب في تعاليم الإسلام وفروض الإيمان، فَهُم في حكم الدين عصاة، وأمام الله تعالى مفرِّطون، وما يقع في سلوكهم وأعمالهم من تهافتٍ على الشهادة وظلمٍ فيها، وأيمانٍ كثيرة كاذبة؛ هم مسؤولون عنها ومؤاخذون بها.

وأمثال هؤلاء من أدعياء الدين والمتظاهرين بلباس التقوى، الذين يجعلون الصلوات والتعبدات شِباكاً لاصطياد المنافع وبلوغ المآرب، هؤلاء لا يَخْفَون على الله، ولا يغترّ بهم عباده الصالحون، وقيمتُهم في أنفسهم وعند العارفين بهم وضيعة منحطَّة، لأنهم كَذَبة غَشَشة متاجِرون بالدين والقيم، مفرِّطون بشُعَب الإيمان وأخلاق الاستقامة والرجولة.

والشهادة الصادقة، والقيام فيها بالقِسْط، وحفظ اللسان واحترام الأيمان؛ لا يستطيعها الرجال المهازيل، بل لا بد للقيام بها من رجال أمناء صادقين صبَّارين، يتحملون لَأْوَاءَ عواقبها ومرارةَ نتائجها، احتساباً منهم وقياماً بحقها أمام الله تعالى وأمام الناس، وانتظاراً للأجر في الآخرة، والإكرام الرفيع في الدنيا.

•• إن هؤلاء الأقوام الذين عاثوا في المجتمع فساداً، واسترخَصُوا الشهادات والأَيْمان، وهانَتْ عليهم واجباتُ الدين وفرائض الإسلام، وخَفَّ

ورعُهم، وضَعُف إيمانهم، وقلَّتْ أمانتُهم، ويتهافتون على الشهادات، ويستكثرون من الأيمان ويقعون في مَغَبَّة الكذِب فيها ـ إنما يتطلبون بذلك الدنيا العاجلة والمتاع الرخيص، فيتخبَّطون في الاكتساب، ولا يميزون الحلال من الحرام، ويتسمَّنُون ويطلبون السَّمَانةَ، ويتتبعون الموائدَ المفروشة، ويقصدون المطاعم الشهيرة، ويتواعدون على حفلات الغداء والعشاء وما يُبْسَط فيها من أطايب الطعام والشراب، وتَبَضُّ بالدَّسَم ودواعي السِّمَن! تماماً كما جاء وصفهم في البيان النبوي البليغ الدقيق.

يلهثُون وراء كل ما لذَّ وطابَ ليزدردوه مثلَ آكلةِ الخَضِر، أنفسُهم تَلْقَفُ كل ما قُدِّم إليها، وتسعى إلى تحصيل ما أُخِّر عنها، فتكثُر أموالهم بالباطل، وتَسْمَن أجسامُهم من السُّحْت، وترتفع أصواتهم بين الناس بالكذب والبهتان والتزوير، وتعلو مكانتهم فيما يبدو للناس!.

فأشكالُهم وسيمة، وجسومهم سمينة، وذِكْرهم عند أشباههم ملء السمع والبصر، وأيديهم طويلة، وكلماتهم مسموعة، وطلباتهم مقضيَّة، لا يردُّهم مسؤول، ولا يقِفُ لهم قاضٍ، ولا يستغني عنهم محام، ولا يخلو منهم متجر ولا سوق، صَخَّابون في الأسواق، ولهم لَغَطٌ في المجالس، وعملُهم ذائعٌ بين الناس... لكنهم في نهاية الأمر وعند أصحاب العقول والمستمسكين بالأمانة، والعارفين بحقوق الأيمان والشهادة، لا قيمة لهم ولا وزن ولا احترام ولا كرامة!.

وهم معروفون بدناءة أنفسهم، وقلَّة أمانتهم، وكَذِب حديثهم، وجَوْر شهادتهم، والنكث في أيمانهم، لا يُباليهم الله بالَةً، ولا تَنطلي أحوالهم على عباد الله الذين أقامهم لترسيخ المبادئ العليا والأخلاق الرفيعة مع الصبر عليها.

وفي عاقبة الأمور في الدنيا: فإنَّ ذلك الفريق من الكَذَبة في الأيمان والمُسترخِصين للشهادة؛ مرذولون محتقَرون. وفي الآخرة: لهم عذاب شديد في يوم تُبلى فيه السرائر، ويُحصَّل ما في الصدور، ويُعْلَن على الأشهاد كذِبُ أولئك الأشهاد!.



إخبار النبي ﷺ بظهور شهادة الزور وكتمان شهادة الحق

عن طارق بن شِهاب قال: كنَّا عند ابنِ مسعود رضي الله عنه فقال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ بينَ يَدَيِ السَّاعةِ: تَسْلِيمَ الخاصَّةِ، وفُشُوَّ التجارةِ حتى تُعِينَ المرأةُ زوجَها على التجارةِ، وقَطْعَ الأرحامِ، وظهورَ شهادةِ الزُّورِ، وكتمانَ شهادةِ الحقِّ**»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: توضيح وبيان لمعاني النبوءة ومخاطر شهادة الزور وكتمان الشهادة:

●● قال الطبري: أصلُ الزُّور تحسينُ الشيء ووصفُه بخلاف صفته، حتى يُخيَّل لمن سمعه أنه بخلاف ما هو به(٢).

وقال القُرطبي في «المُفهِم»: (شهادة الزور هي الشهادة بالكذب ليتوصَّل بها إلى الباطل من إتلافِ نفس، أو أخذِ مالٍ، أو تحليلِ حرام، أو تحريم حلالٍ، فلا شيء من الكبائر أعظم ضرراً منها، ولا أكثر فساداً بعد الشرك بالله)(٣).

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨؛ والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤٩)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٥٩٠)؛ والحاكم: ٤/ ٩٨، واللفظ له؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٣٨٧٠) و(٣٩٨٠)؛ والألباني في الصحيحة (٦٤٧) و٦/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤ (٢٧٦٧)؛ وحسَّنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح مشكل الآثار. وقد مرَّ في: النبوءة (١٤١): ٤/ ٣٤١ حاشية (٣)، و٣٤٤ حاشية (٢).

(٢) الفتح: ٧/ ١٠٧، كتاب الشهادات، باب (١٠)؛ فتح الملهم: ٢/ ٥١.

(٣) المفهم بتلخيص مسلم: ١/ ٢٨٢؛ وانظر: الفتح: ١٣/ ٤٥٢ (٥٩٧٦)؛ وفتح الملهم: ٢/ ٥١.

ولعِظَم شأن شهادة الزور وكثرة أضرارها، وتعدُّدِ مخاطرها، وما يترتب عليها من المفاسد، حذَّر منها القرآن الكريم وقبَّحها أعظمَ التقبيح، وذمَّها النبي ﷺ ونهى عنها أشدَّ النهي، قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، فنَظَمَها مع الإشراك بالله وكفى به إثماً مبيناً.

وأكَّد هذا المعنى رسول الله ﷺ، فعن أبي بَكْرة الثَّقفي ﷺ قال: (قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكم بأكبر الكبائر**»؟ قلنا: بلَى يا رسول الله، قال: «**الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدَيْن**»، وكان متكئاً فجلس، فقال: «**أَلَا وقولُ الزُّورِ وشهادةُ الزُّور، أَلَا وقولُ الزُّورِ وشهادةُ الزُّور**»، فما زالَ يقُولُها حتى قلتُ: لا يَسْكُتُ!)(١).

فالنبيُّ ﷺ يبتدئ الحديثَ ويقول لأصحابه: «**أَلَا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» وفي ابتدائه بالحديث دليلٌ على عِظم الأمر الذي يريد أن يخبرهم به وينبّههم على مخاطره، ثم يكرِّر هذا السؤال ثلاث مرات، لينبّه السامعَ على إحضار قلبه وفهمه للخبر الذي يذكره. ويؤكّد اهتمامه بهذا الأمر أنه (كان متكئاً فجلس)، وهذا يفيد تأكيد تحريمه وعِظَمَ قُبحه، ثم زاد الأمر توكيداً أو تنبيهاً على شناعته وخطره، فكرّره مراراً (فما زال يكررها حتى قلنا: ليتَه سكت!)، وهذا من الصحابة ﷺ شفقة على رسول الله ﷺ وكراهية لِما يزعجه(٢).

ففي حديث النبي ﷺ تأكيد ثم تأكيد على هذه الكبيرة القبيحة والمُوبقة المُرْدِية، وهو أسلوب تربوي فذّ في التعليم والتنبيه والتحذير والتقبيح والتنفير من هذا الفعل الأثيم؛ لِيُوقِع في قلوب أصحابه وأفئدة السامعين والقارئين لحديثه والمتلقّين لأوامره وتوجيهاته من بعدهم: النفورَ الشديد والكرهَ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) وأطرافه؛ واللفظ له؛ ومسلم (٨٧)؛ والترمذي (١٩٠١) و(٢٣٠١) و(٣٠١٩)؛ وأحمد: ٥/٣٦ ـ ٣٧، ٣٨؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨٩٢)؛ والبغوي (٤٣)، وغيرهم.

(٢) الفتح: ٧/١٠٩، ١١٠، شرح الحديث (٢٦٥٤)، ١٣/٤٤٨ (٥٩٧٦).

التام لهذه الخَصْلة الرديئة. وهو منه ﷺ شفقة على المسلمين وحرصٌ على قيام مجتمع فاضل يقوم على الحق وتسودُه الفضيلة، وتحرسه الكلمة الصادقة والقيام للناس بالقسط.

ويلاحَظ أن رسول الله ﷺ قد اهتمَّ بالتنبيه على «شهادة الزور» أكثر من التنفير عن «الإشراك بالله» وغيره من الكبائر، (وسببُ الاهتمام بذلك كون قول الزور أو شهادة الزور أسهلَ وقوعاً على الناس، والتهاون بها أكثر، فإن الإشراك يَنْبو عنه قلبُ المسلم، والعقوق يَصرف عنه الطبعُ، وأما الزور فالحواملُ عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرهما، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه. وليس ذلك لعِظَمِها بالنسبة إلى ما ذُكِر معها من الإشراك قطعاً، بل لكون مفسدة الزور متعدِّيةً إلى غير الشاهد، بخلاف الشرك فإن مفسدته قاصرة غالباً)[١].

وقد كان عمر الفاروق يَجلِد شاهدَ الزور أربعين جلدة، ويُسَخِّم وجهه، ويحلِق رأسه، ويطوف به في السوق[٢]!.

●● وفي هذه النبوءة يُخبر النبيّ ﷺ أن من علامات الساعة كتمان شهادة الحق، وهو عمل آثم نهى عنه الحق تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فالله سبحانه نَهى الشاهدَ عن أن يَضرَّ بكتمان الشهادة، وهو نهيٌ على الوجوب بعدَّة قرائن؛ منها الوعيد[٣].

فتلبيةُ الدعوة للشهادة فريضة وليست تطوُّعاً، لأنها وسيلة لإقامة العدل وإحقاق الحق، والله هو الذي يفرضها كي يلبِّيها الشهداء عن طواعية تلبيةً وجدانية بدون تضرر أو تلكؤ أو تفضُّل كذلك[٤].

---

(١) الفتح: ٧/ ١٠٩ ـ ١١٠، وبنحوه في: ١٣/ ٤٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ٧٩. يُسَخِّم: يُسَوِّد.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٩٤.
(٤) في ظلال القرآن: ١/ ٣٣٦.

ونبَّه القرآن الكريم على إثمِ مَن يكتم الشهادة فقال: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾.

قال السيوطي ـ نقلاً عن «الكشاف» بتصرف ـ: (أَسند الإثمَ إلى القلب ـ ولو قال: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ﴾ لكان أوجزَ مع أداء المعنى ـ لأنه أبلغُ، حيث أَسند الإثمَ إلى الجارحة التي تعلَّق بها العمل، وهو القلب؛ لأن كتمان الشهادة هو إضمارها في القلب فلا يتكلّم بها. ولأن القلب هو رئيسُ الأعضاء، وإذا فَسَد فَسد الجسدُ كله، فكأنه قيل: فقد تمكَّن الإثم في أصل نفسه، ومَلَك أشرفَ مكان منه. ولئلا يُظَنّ أن كتمانَ الشهادة من الآثام المتعلّقة باللسان فقط. وليُعْلَم أن القلب أصلُ مُتَعَلَّقه، ومعدنُ اقترافه، واللسان ترجمان عنه. ولأن أفعال القلوب أعظمُ من أفعال سائر الجوارح، وهي لها كالأصول التي تتشعب منها، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب، فقد شهد له بأنه من عظائم الذنوب)[(١)].

والتعبير القرآني يتكئ هنا على القلب فينسب الإثم للقلب تنسيقاً بين الإضمار للإثم والكتمان للشهادة، فكلاهما عمل يتم في أعماق القلب.. ويعقب عليه بتهديد ملفوف، فليس هناك خافٍ على الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وهو يجزي عليه بمقتضى علمه الذي يكشف الإثم الكامن في القلوب[(٢)].

ويَلفِت القرآن إلى ما يمكن أن يقع من الضرر على من يشهد بالحق، فيقول: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فلا يجوز أن يقع ضَررٌ على من يقوم بالشهادة بالحق لأنه يؤدي واجبه الذي فرضه الله عليه، وإذا وقع ذلك يكون خروجاً من الناس عن شريعة الله. إن

(١) قطف الأزهار: ١/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨؛ وانظر: الكشاف: ١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠.
(٢) في ظلال القرآن: ١/ ٣٣٨.

الشهداء معرَّضون لسَخَط أحد الفريقين المتعاقدين في أحيان كثيرة، فلا بدَّ من تمتُّعِهم بالضمانات التي تطمئنهم على أنفسهم، وتشجِّعُهم على أداء واجبهم بالذمة والأمانة والنشاط في أداء الواجبات والحَيْدة في جميع الأحوال(١).

●● وشهادة الزور وكتمانُ شهادة الحق لهما أضرار كثيرة ومخاطر وبيلة:

- فهما سببٌ لإبطال الحقوق وضياعها في الأنفس والأموال والأعراض.

- غَمْط الكفايات، وتأخيرُ مَن حقُّه التقديم، وتقديمُ مَن حقُّه التأخير، وخفضُ الرُّفَعاء، ورَفْعُ الوُضَعَاء فوق رقاب الناس.

- أكلُ أموال الناس بالباطل.

- انتشار الإِحَن والبغضاء بين الناس، والتقاطع والتدابر.

- ضياع الأمانة وضعف الثقة بين الناس.

- انتشار الكذب والأخلاق الوضيعة.

- تفشِّي أكل المال الحرام المترتّب على تقاضي شاهد الزور المالَ.

وغير ذلك كثير.

ثانياً: واقع حال المسلمين وتحقق النبوءة:

والمتأمِّل الأريب لقول النبيِّ ﷺ: «**وظهور شهادة الزور، وكتمان شهادة الحق**»، مع النظر في أحوال المسلمين في مجتمعاتنا منذ بضعة عقود وإلى زماننا؛ يجد مصداقَ هذه النبوءة وتحققَ وقوعها بصورة مخيفة خطيرة.

●● ولا يجد المرء عَنَتاً في مشاهدة شهداء الزور وكاتمي شهادة الحق، في المحاكم ومجالس القضاء ودور المحاماة ومراكز البيع والشراء والصفقات الكبرى، ومواضع الخصومات والخلافات وقضايا الإرث والزواج والطلاق، ومواقع العمل المختلفة والتنافس على الوظائف والشفاعات.

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٣٣٧.

وإنك لتجدُ أناسيَّ لا خَلَاقَ لهم قد اتخذوا من ذلك حرفة لهم ومصدراً للكسب وأكلِ السُّحْتِ، فهم (جاهزون للطلب)! متربّصون بكل قضية تتطلب شهادة، لَتلفَيَنَّهُم يُهْرَعون إليك ويشهدون على ما لا يعرفونه ولا يدرون ماهيته، لقاءَ دريهمات قليلة، أو ثناءٍ من قريب أو غني، أو تزلُّفٍ لمسؤول كبير أو صغير! يبيعون دينهم بعَرَضٍ من الدنيا، من مال أو منصب أو جاه، فيكتمون الشهادة هنا، ويشهدون الزور هناك.

و(دور العدل) و(أروقة المحاكم والقضاء) تعجُّ بهذا الصنف الخبيث من الناس الذين يشهدون الزور على الصكوك، والبيع والشراء، والزواج والطلاق، والبراءة والاتهام، والدَّين والقَبْض، وغير ذلك من أصناف المعاملات المالية والأسرية والاجتماعية وسواها.

●● ولم يقف أمرُ شهادة الزور وكتمان شهادة الحق عند تلك الصور المعهودة منذ القديم، بل تطور الأمر فيهما بصورة مدهشة «ليناسب عصر التطور والسرعة»؛ فتزاحَمَ الناس بالمناكب على شهادة الزور للرؤساء والملوك والأمراء والوزراء والمدراء والوجهاء... بنزاهتهم، وطيب أصلهم، وتفوُّقِ خصائصهم، وعراقة أَرومتهم، وصدق نيّاتهم، وشدّة تفانيهم في خدمة الوطن والمواطن والقيام بشؤون المسؤولية والدفاع عن القضايا الكبرى وشرف الأمة والأرض والدين!.

وتعاركت في هذا المَهْيَع النُّخب السياسية وأبواقُ الإعلام وجماهير الرعية، تحت ضغط إعلامي رهيب تمكنت آلاته العملاقة من تجييش الرَّعَاع وذوي الرأي وأصحاب الأقلام والمنابر والحناجر ومراكز البحث والدراسات ومن في هذه الحَلْبة ـ من إطلاق الشهادات لهذا المسؤول أو ذاك الوزير، وشهدوا له جميعاً أو أشتاتاً شهادة يتحملون مسؤوليتها أمام الله تعالى ثم أمام الأمة والتاريخ.

بمثل هذه (التقنية المتقدّمة) انتشرت شهادات الزور لهذا، أو كُتمت شهادة الحق لذاك، في أمتنا واخترقتْها طولاً وعرضاً وعمقاً! وزُوِّرَت نتائجُ

الانتخابات، واشتُرِيت الأصوات! وبسبب هذا الفعل الأثيم ارتفع الوضعاء، وغُيِّب الأكفياء، واستُبيحت المناصب، وانتُهبت الخيرات، وضاعت الحقوق، ورَخُصت الذمم، وتكلم الرُّوَيْبِضة بأمر العامة.

ولم تَسْلَم من غائلة هذه المفسدة الكبرى تلك الدول التي تتشدَّق بالديمقراطية والعدالة والإنصاف وتكافؤ الفرص وحرية النقد.

•• وفي الوقت الذي أُطْلِق فيه العِنان لشهادة الزور بالعلو والانتشار، أُصيبت الشهادة بالحق في مقاتلها، وقلَّ القائمون بها لفداحة المغارم التي تنزل بهم والأضرار التي تُبْهِظُهم ولا يطيقون لها حملاً! فشاعت بين الناس ظاهرة كتمان شهادة الحق، وهؤلاء فريقان:

أحدهما: راغبٌ طائع مختار مريد لِما يفعله، فهذا يَبوء بإثمه.

وثانيهما: مضطر مغلوب يُرجى له العذر عند الله سبحانه.. والاضطرار يُقدَّر بقَدْره ولا يؤخذ على إطلاقه.

إن المتأمل لانتشار (شهادة الزور) انتشاراً ذريعاً وبصورة مُفْظِعة في مجتمعاتنا؛ ليدرك دقة العبارة النبوية: «**ظهور شهادة الزور**»، فكلمة «**ظهور**» لها دلالتها وإيحاؤها، فالأمر ليس ضئيلاً ولا قليلاً ولا محدوداً يحتاج إلى بحث وتنقيب، أو يدخل تحت الحصر والعدّ، لا، بل هو ظاهر متفشٍّ منتشر واضح للعيان، لا يخفى على البسطاء، ولا يحصيه العادُّ. ثم هو أمرٌ ظاهرٌ عالٍ مستعلٍ ليس متوارياً ولا مستخفياً، كأنه يُفاخِر بوجوده وظهوره وعلوِّ أمره!.

نسأل الله تعالى السلامة.

❋ ❋ ❋

إخبار النبي ﷺ
بفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها فيها

١ ـ عن عَمْرو بن تَغْلِب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أشراطِ الساعة: أن يَفِيضَ المالُ، ويكثُرَ الجهلُ، وتظهرَ الفتنُ، وتفشوَ التجارةُ**» لفظ الحاكم.

وفي رواية النَّسائي: «**إنَّ من أشراطِ الساعة: أنْ يَفْشُوَ المالُ ويَكْثُرَ، وتفشوَ التجارةُ، ويَظْهَرَ الجهلُ**[١]**، ويبيعَ الرجلُ البيعَ فيقول: لا حتى أَسْتَأْمِرَ تاجرَ بني فلانٍ، ويُلتَمَسَ في الحيِّ العظيمِ الكاتبُ فلا يوجدُ**»[٢].

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينَ يَدَيِ الساعة: تسليمُ الخاصَّةِ، وتَفْشُو التجارةُ حتى تُعِينَ المرأةُ زوجَها على التجارة، وتُقْطَعُ الأرحامُ**»[٣].

٣ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ**

---

(١) في نسخ النسائي المطبوعة: «**ويظهر العلم**»، وجاء كما أثبتناه في نسخ النسائي المخطوطة بدار الكتب الظاهرية، ونسخ «**جامع الأصول**» المخطوطة، انظر: جامع الأصول: ١٠/ ٤١٥ (٧٩٣٥)، وعليها شرح السندي في سنن النسائي الصغرى: ٧/ ٢٤٤. وهو متفق مع الفصل الأخير من الحديث: «**ويلتمس في الحي العظيم الكاتب، فلا يوجد**».

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦٠٠٥)، وفي الصغرى: ٧/ ٢٤٤؛ والحاكم: ٢/ ٧؛ وابن منده في المعرفة: ٢/ ٥٩ (٢)، وغيرهم؛ وصحَّحه الحاكم وأقره الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في صحيح النسائي: ٣/ ٩٢٩ (٤١٥٠)، والصحيحة (٢٧٦٧).

(٣) أخرجه أحمد: ١/ ٤١٩ ـ ٤٢٠، وغيره، وهو حديث صحيح، وانظر: تتمة تخريجه: ٤/ ٣٩١، حاشية (١) (في هذا المجلد).

حتى تُتَّخَذَ المساجدُ طُرُقاً، وحتى يُسلِّمَ الرجلُ على الرجلِ بالمعرفةِ، وحتى تَتَّجِرَ المرأةُ وزوجُها، وحتى تغلوَ الخيلُ والنساءُ، ثم تَرْخُص فلا تغلو إلى يوم القيامةِ»(١).

❁ ❁ ❁

● **تحقق النبوءة:**

في هذه الأحاديث جملة من أشراط الساعة التي أَخبر بها النبي ﷺ، وقد وقعت كما قال، فهي من أعلام نبوته وصدقِ رسالته ﷺ.

ونتناول هنا بالبيان قوله ﷺ: «**وتفشو التجارة حتى تعين المرأةُ زوجَها على التجارة**».

●● وقد تحقق مصداق ذلك بجلاء منذ نحو قرن، وهو في زماننا أظهر وأجلى وأعلى، وينطبق عليه تماماً لفظ: «**تفشو التجارة**»، فلقد كانت التجارة فيما مضى محصورة معروفة برجال معدودين مشهورين، ومحدودة بأسواق ومراكز تجارية وبضائع مشهورة، وحركات تجارية ومبادلات في الأسواق الشهيرة، مما لا ينطبق عليه وصفُ الانتشار الكبير والظهور الواسع الذي يدلُّ عليه قوله ﷺ: «**تفشو التجارة**».

أما في هذا العصر فقد تفشَّت التجارة في المدن والحواضر والقرى والبوادي، وكَثُرت الأسواق الكبرى والمحلات التجارية ومراكز التسوق العملاقة، وماجَتِ البلاد العربية والإسلامية وغيرها بحركات تجارية ضخمة، وضَربت المواصلات البرية والبحرية والجوية في مناكب الأرض، تحمل مختلِفَ البضائع وأصنافَ الصناعات وألوانَ الابتكارات وأنواعَ المنتوجات التي فَجَّرتْها عبقرية الإنسان ويدُه الصَّنَاع وذكاؤه الوقاد وخبرتُه المتنامية.

---

(١) أخرجه الحاكم: ٤/٤٤٦، وصحَّحه؛ وحسَّنه الألباني؛ وانظر تتمة الكلام عليه في: النبوءة (١٤٥): ٤/ ٣٧١، حاشية (٣).

وتنقَّلت أنواع التجارات بين الأقطار، وازدحمت أسواق البلدان بمختلف البضائع من الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكَثُر التجار وأصبح عددهم يفوت الحصر في العواصم والمدائن والقرى.

ولَمعتْ في سماء التجارة أسماءُ رجال كبار من أصحاب رؤوس الأموال الهائلة والتجارات الضخمة، وشركات الاتجار العملاقة ما وراء القارات، والتي تمتلك من صنوف التجارات ورؤوس الأموال ما يفوق التصور ويَفوت الإحصاءَ ويُعجِز العادّ.

وشملَتْ أصنافُ التجارة كلَّ مناشط الحياة ومتطلَّبات الإنسان، من مآكل ومشارب وملابس وزينة وزخارف ودواء وبناء وصحة وسلاح وغيرها... وتيسَّرت سُبل تنقلها في البر والبحر والجو، وأصبح بمقدور التاجر أن يطوف الأرض في أيام، بل يمكنه أن يَعقد الصفقات ويبيع ويشتري ويصدِّر ويستورد وهو جالس في بيته أو مكتبه، باستخدام وسائل الاتصال السريعة والذكية من هاتف وفاكس وإنترنت وسواها.

وكل هذا الظهور والتنوع والانتشار والعلو في أمر التجارة ينتظمه اللفظ النبوي الرفيع الدقيق المعبِّر: «**وتفشو التجارة**».

●● ودخلت المرأة هذا المعترك، وأصبحتْ تشارك زوجَها في تجارته وبيعه وشرائه، وتنوبُ عنه أحياناً، وربما تستقلُّ عنه في تجارة ما! وأصبحنا نرى من المألوف في بلادنا العربية والإسلامية أن المرأة تعمل في المحلات التجارية، ومراكز التسوق، والبيع والشراء، وعقد الصفقات، وتسيير التجارات.

بل مشى الأمرُ خطوةً أكبرَ إلى الأمام، فأصبحتِ المرأةُ تنافِس الرجلَ في ميدان (رجال الأعمال)، وحَملت النسوة اسمَ (سيدات الأعمال)، فتجدُ كثيراً منهنَّ يمتلكنَ تجارات كبيرة وأموالاً ضخمة وأرصدة عملاقة في البنوك، ويعمل تحت أيديهن موظفون وإداريون وقائمون بالأعمال، يديرون بإشرافهن حركة التجارة ورؤوس الأموال.

وبرز منهنَّ كثيرات في الشام ومصر والسعودية ودول الخليج العربي وغيرها.

وهذا تصديقٌ للشطر الثاني من هذه النبوءة: «**وتفشو التجارة حتى تعين المرأةُ زوجَها على التجارة**» و«**حتى تتَّجِر المرأة وزوجها**».

فصلّى الله وسلّم وبارك على الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.



١٥

إخبار النبي ﷺ بمجيء زمان يتبايع الناس فيه بالعينة ويرضون بالزرع ويتركون الجهاد

١ ـ عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تَبَايَعْتُم بالعِينَة، وأخذتُم أذنابَ البَقَر، ورَضِيتُم بالزَّرْعِ، وتَرَكْتُمُ الجِهادَ؛ سَلَّطَ الله عَليكُم ذُلّاً لا يَنْزِعُهُ حتى تَرْجِعُوا إلى دِينِكُم**»[١].

وفي رواية أخرى عن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضَنَّ الناسُ بالدِّينار والدِّرهمِ، وتَبَايُعوا بالعِينَةِ، وتبِعُوا أذنابَ البَقَر، وتَرَكُوا الجهادَ في سبيلِ الله؛ أَدخَلَ الله تعالى عليهم ذُلّاً، لا يَرفَعُه عنهم حتى يُراجِعُوا دينَهُمْ**»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) واللفظ له؛ والدولابي في الكنى: ٢/ ٦٥؛ وابن عدي في الكامل: ٥/ ٣٦١ ترجمة (١٥٢١)؛ والبيهقي في السنن: ٥/ ٣١٦؛ والطبراني في مسند الشاميين، ص٤٦٤. وصحَّحه الألباني بمجموع طرقه في صحيح أبي داود، والصحيحة (١١)، وصحيح الجامع (٤٢٣)؛ وصحَّحه عبد القادر الأرنؤوط في تعليقه على جامع الأصول: ١١/ ٧٦٥.

(٢) أخرجه أحمد: ٢/ ٢٨؛ والطبراني في الكبير: ٣/ ٢٠٧ (١)؛ وأبو أمية الطرسوسي في مسند ابن عمر: ٢٠٢/ ١، وغيرهم؛ وله طريق أخرى عند أحمد: ٢/ ٤٢. وله شاهد عن جابر بن عبد الله عند ابن عدي في الكامل: ٢/ ٢٢ ترجمة (٢٥٩).
قال ابن القطان: حديث صحيح ورجاله ثقات، نصب الراية: ٤/ ١٧ (٦٢٨٥). وجوَّد إسناده ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ٢٩/ ٣٠؛ وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند؛ والألباني في صحيح الجامع (٦٧٥)، وصحَّحه غيرهم، انظر: الصحيحة: ١/ ٤٣ ـ ٤٥.

٢ ـ وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تَرَكَ قومٌ الجهادَ إلَّا عَمَّهُمُ الله بالعذابِ**»(١).

❁ ❁ ❁

أولاً: توضيح معاني المفردات:

ـ «**بيعُ العِينة**»: هو أن يَبيعَ الرجل سِلْعةً من غيره بثَمنٍ معلومٍ إلى أجلٍ مسمًّى ويسلّمها إلى المشتري، ثم يَشتريها منه بثمنٍ أقلَّ من الثَّمن الذي باعَها به ويَنْقُدُه الثمن.

وسُمِّيَتْ عِينَةً لحصولِ النقدِ لصاحبِ العِينة، لأنَّ اشتقاقَها من العَيْن وهو النقد الحاضِر.

وهي من الحيل المحرّمة الباطلة يتحيَّل بها الناس على الربا، وجمهور الأئمة على تحريمها، قال بحرمتها أبو حنيفة ومالك وأحمد(٢).

عن ابن عباس: أنه سُئِل عن رجلٍ باعَ من رجلٍ حريرةً بمئة، ثم اشتراها بخمسين؟ فقال: دراهم بدراهم متفاضِلة دخلتْ بينهما حريرة!.

وفي رواية عنه: أنه قال: اتقوا هذه العِينَةَ، لا تَبيعوا دراهمَ بدراهمَ بينهما حريرة.

وفي رواية أخرى عنه: أنه سُئِل عن العِينة، يعني بيعَ الحريرة؟ فقال: إن الله لا يُخْدَع، هذا ممَّا حرَّم الله ورسوله.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ٢/٢٢٨؛ وحسَّنه المنذري في الترغيب والترهيب: ٢/ ٣٣١؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٦٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٩/ ٣٠؛ إعلام الموقعين: ٣/ ٣٣٥؛ عون المعبود: ٦/٣١٨ ـ ٣٢٢؛ فقه السنة: ٣/١٤٢ ـ ١٤٣؛ جامع الأصول: ١١/٧٦٥ ـ ٧٦٦؛ النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

وجاء مثله عن أنس بن مالك[١].

وعن الإمام محمد بن الحسن ـ صاحبِ أبي حنيفة ـ أنه عنده أثقلُ من الجبال، اخترعه أكَلةُ الربا[٢].

ـ «**أَخذتم أذنابَ البقر**»، وفي رواية: «**ولزِموا أذنابَ البقر**»، وفي أخرى: «**وتبعوا أذناب البقر**»: أي اعتمدوا على البقر في الحرث والسقي والزراعة، ولزموا ذلك وداوموا عليه وأخلَدوا إليه.

ـ «**ورضِيتُم بالزرع**»: يعني: قَنِعْتُم بالزراعة وشُغلتم بها، وأمضيتم فيها عمركم ووقتكم، ولم تلتفتوا إلى غيرها من وسائل المعاش كالصناعة والتجارة وغيرهما.

ـ «**وتركتم الجهاد**»: سواء فيه الجهاد العَيْني أو الكِفائي، مما فيه حراسةُ الدين وحمايةُ البَيْضة ودفعُ الظلم وإقامة العدل والحفاظُ على الأعراض والأنفس والبلاد والثروات.

ـ «**سَلَّط الله عليكم ذُلّاً**»، وفي رواية: «**لَيُلْزِمنَّكُم الله مَذَلَّةً في رقابِكم، لا تنفكُّ عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجِعُوا على ما كنتم عليه**»، وفي رواية ثالثة: «**أَنزل الله بهم بلاء**»، وفي رابعة: «**سَلَّط الله عليهم بلاء**»: أي يُسلِّط عليكم مَن يَسُومُكم البلاءَ والذلّ والصَّغَار والمَسْكَنة والإهانة وسلْبَ العزة والكرامة.

ـ «**لا يَنزِعه حتى ترجِعوا إلى دينكم**»: أي لا ينفكُّ عنكم ذلك البلاء والصغار والذلّة والهوان حتى ترجعوا إلى هَدْي دينكم وسنّة نبيِّكم في رَفْع راية الجهاد، وحملِ لواء الإسلام، والذَّود عن الدين والدنيا والعباد والبلاد والأرض والعِرض والحاضر والمستقبل وتاريخ الأمة وشخصيتها.

---

(١) عون المعبود: ٦/٣١٨، وانظر: حديث العالية زوج أبي إسحاق السَّبِيعي عن أم المؤمنين عائشة في: سنن الدارقطني (٣٠٠٢) و(٣٠٠٣)؛ وعون المعبود: ٦/٣١٨.
(٢) فتاوى محمد أبو زهرة، ص٣٣٠.

ثانياً: كلمات مضيئة في الجهاد (منزلته في الإسلام، والحضّ عليه، وثمراته في الدنيا والآخرة):

●● تواترت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة في الحَضِّ على الجهاد في سبيل الله تعالى، والحثِّ على ملازمته ورفْع رايته، وأشادَتْ بمنزلته، وأَناطَتْ به الأجر العظيم والثوابَ الجزيل والخيرَ العميم في الدنيا والآخرة.

عن ابن عُمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيلُ معقودٌ في نَواصِيها الخيرُ إلى يومِ القيامة**»[1].

وحَضَّ الإسلام على تعلُّم الرَّمي وفنونِ الحرب؛ فعن سَلَمة بن الأَكْوَع ﷺ قال: (مَرَّ النبي ﷺ على نَفَرٍ من أَسْلَمَ يَنْتَضِلُون، فقال النبي ﷺ: «**ارْمُوا بَني إسماعيلَ، فإنَّ أباكم كان رامياً، ارْمُوا وأنا مع بني فُلان**» قال: فأَمْسَكَ أحدُ الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «**ما لَكُم لا تَرْمُونَ؟**» قالوا: كيفَ نرمي وأنتَ معهم؟! فقال النبي ﷺ: «**ارْمُوا فأنا مَعَكُم كُلِّكُم**»)[2].

بل وَجَّه النبيُّ ﷺ المسلمين إلى ملازمة الرِّباط والجهادِ والاستعداد حتى بعد فتحِ البلاد، وأمنِ كيد الأعداء.

عن عُقبة بن عامر ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**سَتُفْتَحُ عليكم أَرَضُونَ، ويَكْفِيكُمُ الله، فلا يَعْجِزُ أحدُكم أن يلهوَ بأسْهُمِه**»[3].

●● والجهاد[4] في سبيل الله ذِروة سَنَام الإسلام ورهبانيَّتُه، وهو من أحب

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٩) و(٣٦٤٤)؛ ومسلم (١٨٧١)؛ والنسائي في الكبرى (٤٣٩٩)، وفي الصغرى: ٦/ ٢٢١ ـ ٢٢٢؛ وابن ماجه (٢٧٨٧)؛ وابن حبان (٤٦٦٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٩) و(٣٣٧٣) و(٣٥٠٧)؛ وأحمد: ٤/ ٥٠؛ وابن حبان (٤٦٩٣)؛ والبغوي (٢٦٤٠)، وغيرهم. **ينتضلون**: يترامون، **والتناضل**: الترامي للسبق.

(٣) أخرجه مسلم (١٩١٨)؛ وأحمد: ٤/ ١٥٧؛ وابن حبان (٤٦٩٧)، وغيرهم.

(٤) هذه الفقرة كل جملها مأخوذة من أحاديث صحيحة، صغتها طالباً للاختصار. انظر: على الترتيب: الصحيحة (٥٥٥)؛ ابن حبان (١٤٧٦) و(٤٥٩٧) و(٤٥٩٨) و(٤٦٠٣)، (٤٦٢١) =

الأعمال إلى الله تعالى وأفضلها عنده، ولساعةٌ يقِفها المرءُ في ثَغْر من الثغور مرابطاً وحارساً للمسلمين وديارهم خيرٌ من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود.

ومَثَلُ المجاهد عند الله سبحانه كمثل الصائم القائم الذي لا يَفْتُر من صيام وصلاة، بل رباطُ يوم أو ليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، ولَغَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحةٌ خير من الدنيا وما فيها، والجهاد يُذْهِب عن صاحبه الهمَّ والغَمَّ.

وهو يشمل الجهادَ بالنفس، وهو أعلاها وأرفعها، وبالمال واللسان والقلم وغير ذلك.

وتصدُّقُ الرجلِ بالناقة في سبيل الله يجدُ جزاءها عنده سبحانه سبعَمئة ناقة مَخْطُومة يوم القيامة.

والذي يُجرَح في سبيل الله يأتي يوم القيامة وجُرْحُه يَثْعَبُ دماً، اللون لونُ الدم، والريح ريحُ المسك.

أما الشهيد فلعلوِّ منزلته عند ربه فإنه يتمنَّى أن يَرجع إلى الدنيا فيُقتل عشرَ مرات لِما يرى من كرامته على ربه!.

وللمجاهد من الخير والجزاء والعطاء والإكرام عند الله ما لا يُحدّ ولا يُوصف كثرة وجلالة وبركة ونماءً: فمن اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمَهما الله على النار، ومن بات وعينُه تحرس المسلمين حرَّم الله عينَه على النار، ومَن قاتل فُوَاقَ ناقة وَجَبتْ له الجنة، ومن مات مرابطاً في سبيل الله أُومِنَ من عذاب القبر، ونَمَا له أجرُه إلى يوم القيامة.

= و(٤٦٢٣) و(٤٦٠٢)؛ الصحيحة (١٩٤١) و(١٩٤٢)؛ ابن حبان (٤٦٤٩) و(٤٦٥٢) و(٤٦٦٢) و(٤٦٠٥)؛ صحيح الجامع (٤١١٣)؛ ابن حبان (٤٦١٨) و(٤٦٢٥)؛ صحيح الترمذي (١٣٥٨)؛ وصحيح ابن ماجه (٢٢٥٧)؛ وصحيح الجامع (٥١٨٢)؛ ابن حبان (٤٦١٢).

وللشهيد عند الله ست خِصال، وله في الجنة المنزلة العليا فيرفعه الله ﷻ مئةَ درجةٍ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض!.

ثالثاً: واقع حال الأمة الإسلامية وتحقق النبوءة:

●● تلقى رسول الله ﷺ رسالة الله سبحانه، وبلّغها للعالمين على أكملِ وجه وأتمِّه، وما لقِي وجهَ ربه إلا وقد وضَع الناسَ على المحجَّة البيضاء، وأَسرج مصابيح حضارة مادية وأدبية لا نظير لها، وحمل راية الدعوة والبلاغ والقرآن والجهاد باللسان والسِّنان.

ومشتْ قافلة الإسلام بخصائصها الرفيعة متغلبةً على أنواع الحصار التي فُرضت عليها، ومجتذِبةً بعظمة قائدها ﷺ كلَّ مَن في قلبه بقيَّة من خير أو شرف، ومتخطِّيةً أحقادَ الأعداء، فما وَضَعت السيفَ إلا حيث لا يُجدي النَّدى ولا ينجع وئام[1].

والسيف إنما يُشهر في وجه المتجبِّرين الطغاة الذين يستعبدون الناس ويفسدون في الأرض، ويَحُولون دون وصول دعوة الله للعالمين، فأيدي المجاهدين هي وحدها التي تجتزُّ النواصي الكاذبة الخاطئة:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتبِ   في حدِّه الحدُّ بين الجِدّ واللعبِ

إن المغالِطين المكابرين لا يردُّهم إلى الصواب شيء إلا ما يُفْرِي الأعناق، ويُرغم على الإقرار بالحق[2].

والإسلام وشعائره ودولته وأهله لا بدَّ لهم من قوة تحميهم، لأن القوة هي أكبر ضمان لتحقيق السلام ونشر شرائع الإسلام ورفع منارته والمحافظة عليه، فإعداد القوة التي تُرهِب العدوَّ واجبٌ مستمر في السلم والحرب على حدٍّ سواء[3].

---

(١) علل وأدوية، ص١٦٢.

(٢) ظلام من الغرب، ص١١٥ ـ ١١٦.

(٣) الضربات، ص٣٠٨.

وصَيْرُورة التاريخ وحقائقُه ووقائعه تُثبت أن من أُولى واجبات المسلمين أن يستثمروا قواتهم وثرواتهم في إحباط مخططات أعداء الإسلام، فأعداء الإسلام لا يتوقفون اليوم عن المؤامرة، ولا بدَّ من حشدٍ تحت اسم (فريضة الجهاد) والرباط في الثغور، لمواجهة العدو والقدرة على رَدْعه وعدم تمكينه[1].

والمسلمون أبداً في حاجة إلى التعرف على مصدر الخطر الكامن في أنفسهم وما تسوِّله من تقاعسٍ، ومن أعدائهم وما يتربَّصون به من الدوائر على الإسلام وأهله، حيث لا يَدَعون فرصة تمرُّ دون بسط اليد بأي أذى يمكن إلحاقه بنا وبديننا.

ولو أنَّ المسلمين عاشوا على التعبئة، وعَرفوا أن دورَهم هو المرابطةُ في الثغور، والإعدادُ في سبيل امتلاك القدرة على الردع ـ لَمَا انتاشَتْهم هذه الأزمات. ولو ذكروا كيف وَصَفَهم رسول الله ﷺ بأنهم: «**خيرُ أجناد الأرض**»، وأنهم «**في رباط إلى يوم القيامة**»؛ لعرفوا حقيقة مهمتهم، ولو أنهم تأملوا جيداً آيات الكتاب العزيز، واعتبروا بأحداث التاريخ؛ لَعلِمُوا مصادرَ الخطر وعواملَ النصر والثبات كما رسمها القرآن الكريم لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢][2].

●● ومنذ أن أَوقد الرسول ﷺ جَذْوة الجهاد في سبيل الله، وضَرب من نفسه المثلَ الأعلى في الغزو والفتح والثبات تحت بارقة السيوف، وأقام من سيرته الطاهرة التطبيقَ الحي لتعاليم الدين في سبل الجهاد وأساليبه وغاياته وضوابطه وثمراته، وغرس ذلك في أنفس أصحابه فكانوا المُثُلَ الرفيعة على تبيان أهداف الإسلام وغاياته من الجهاد والفتوح ـ منذ ذلك الوقت وحتى يومنا

---

(١) الضربات، ص٣٠٣.

(٢) الضربات، ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

وإلى قيام الساعة، ستبقى ألوية الجهاد مرفوعة بأيدي المجاهدين الأماجد، لحفظِ الإسلام ونشرِ مبادئه وحماية أهله والذِّياد عن دياره وكيانه.

وقد تشرَّف بحمل رايته في بداية الطريق أكرمُ أجيال البشرية وهم صحابة النبي ﷺ، وسار على نهجهم التابعون ومن تبعهم بإحسان. وفي ذلك المَهْيَع مشى خلفاء بني أمية العظام، ثم العباسيون، والمرابطون، والموحِّدون، والسلاجقة، والزنكيون، والأيوبيون، والمماليك، والعثمانيون، وحركات التحرير من الاستعمار الحديث، وحركات الجهاد في هذا الزمان.

وبفضل ذلك الجهاد المتواصل انتشر الإسلام في أصقاع الأرض، ووصلت أنواره إلى الشرق والغرب، وامتدت دولته من الصين شرقاً، إلى فرنسا وجبال البرانس وحدود سويسرا غرباً.

وفي كل مرة يأخذ فيها المسلمون بعُرى الإسلام، ويستمسكون بهدي النبي ﷺ ويستعصمون بالجهاد ويطلبون الشهادة ويبقون على التعبئة ـ يَعِزّ دينُهم، وتعلو كلمتهم، وينقمع عدوُّهم. فإذا ما تطاول عليهم الأمدُ، وأَلْهَتْهم الدنيا، وأخلدوا إلى الأرض، ورضُوا بالزرع والضَّرْع وأخذوا بأذناب البقر ـ سَلَّط الله عليهم عدوّاً فأخذ بعض ما في أيديهم من أرض وخيرات وثروات، وانتقصهم في الأنفس والثمرات، ونزل بهم البلاء، وحَلَّت بهم الذِّلَّة والصَّغَار.

والتاريخ يعيد نفسه، وقوانينه صارمة، والسنن الإلٰهية لا تحابي أحداً، فالنصر والتمكين والعزة مع الجهاد والنضال والمرابطة، والذلة والهوان والمَسْكنة مع الإخلاد إلى الأرض والدَّعَة والتخوُّفِ على النفس والضَّنِّ بها عن الجهاد والفداء.

وحقائق التاريخ خير شاهد على ذلك، كما يتجلَّى ذلك فيما حدث للمسلمين في الأندلس، وإبَّان الحملات الصليبية المتوالية على الشرق الإسلامي، والزحف التتري الذي اجتاح الدولة العباسية كالريح العقيم، وما نزل بالدولة الإسلامية في القارة الهندية، وما حَلَّ بالمسلمين في أواخر الخلافة

العثمانية وتقاسم تركة (الرجل المريض)، ووقوع العالم العربي والإسلامي تحت وطأة الاستعمار الصليبي الأوروبي، وما يعانيه المسلمون الآن في المشرق والمغرب: في فلسطين والصومال والسودان والعراق وأفغانستان والشيشان والبلقان، وغير ذلك.

لقد تداعى الأعداء علينا كما تتداعى الأَكَلة إلى قصعتها، وتمكَّن المهاجمون من أن يَنْفُذوا إلى أحشاء الإسلام وصميم بلاده، لأن المسلمين شُغِلوا بالعيش الرخيّ والقعود الليِّن عن مغارم الكفاح، فكان أن ضَربَهم الله بالذل وسلَّط عليهم الأعداء(١).

وهذا ما حذَّرَ منه رسول الله ﷺ في هذه النبوءة وفي أحاديث آخر.

•• عن أبي أُمامَةَ الباهِليِّ ﵁ قال ـ ورأى سِكَّةً وشيئاً من آلةِ الحَرْث فقال ـ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا يَدْخُلُ هذا بيتَ قومٍ إلا أَدْخَلَهُ اللهُ الذّلَّ**»(٢)!.

وليس هذا ذَمّاً للزراعة وانتقاصاً ممن يعمل بها، ولا تقبيحاً لاستثمار الأرض وزراعتها، فإن معاشَ الإنسان مما تنتجه الأرض، وعن طريق رغيف الخبز تتحكم الدول الكبرى بأقوات كثير من الشعوب الإسلامية وسياساتِها الداخلية!.

بل قد صحَّتْ عدَّة أحاديث في الحَضِّ على الزراعة واستصلاح الأرض وغرسِ الأشجار.

عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ مسلم يَغْرِسُ غَرْساً أو يزرع زَرْعاً، فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بَهيمةٌ، إلَّا كانَ له به صدقةٌ**»(٣).

---

(١) كفاح دين، ص٢٣٠.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٢١)؛ والبغوي (٤٠٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٢٠)؛ ومسلم (١٥٥٣)؛ والترمذي (١٣٨٢).

وقد أَبدع البخاري بدقة فهمه وبراعة فقهه؛ فترجم لحديث أبي أمامة فقال: (باب ما يُحْذَرُ مِن عواقبِ الاشتغالِ بآلَةِ الزَّرْعِ أو مجاوزةِ الحدِّ الذي أُمِرَ به)، وهو بذلك يجمع بين حديثي أنس وأبي أُمامة، فالمذمومُ: هو انشغالُ الإنسان بالحرث والزرع، وإخلادُه للأرض، وتقصيرُه بالواجبات، وتضييعُه لِما أُمِر بحفظه والقيام به من شؤون الحياة وشعائر الإسلام الكبرى وعلى رأسها الجهاد في سبيل الله؛ فإنَّ مَن استمسك بأرضه، وأَخذ بأذناب البقر، واشتغل بآلات الحرث والزراعة؛ يَغلِب عليه التكالبُ على الدنيا، واللهثُ وراء تثميرها وتكثيرها، ونسيانُ واجبات الإسلام العظمى وفي مقدمتها الجهاد.. هذا فضلاً عما يؤدي به الانشغال بالزراعة وحدَها من إهمال التصنيع وإعداد آلات الجهاد الكبرى للدفاع عن الدين والأمة والبلاد.

ويؤكد ذلك حديثُ أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فيما رواه أَسْلَم أبو عمران التُّجِيبيُّ قال: (كنّا بالقُسْطَنطِينية، وعلى أهل مصر عُقبة بن عامر، وعلى أهل الشام فَضَالة بن عُبيد، فخَرج من المدينة صفٌّ عظيم من الروم، وصَفَفْنَا لهم صَفّاً عظيماً من المسلمين، فَحَمَلَ رجلٌ من المسلمين على صفِّ الروم حتى دخل بهم، ثم خرج إلينا مُقْبِلاً، فصاحَ الناس فقالوا: سبحانَ الله! الفتى أَلقى بيدِه إلى التَّهْلُكَة! فقال أبو أيوب صاحبُ رسول الله ﷺ: يا أيُّها الناسُ، إنكم تتأوَّلون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما أُنزِلت هذه الآية فينا معشرَ الأنصار، لمَّا أعزَّ الله دينَه، وكثَّر ناصريه، قلنا بيننا بعضُنا لبعضٍ سِرّاً من رسول الله ﷺ: إنَّ أموالَنا قد ضاعَتْ، فلو أَنَّا أَقمنا فيها، وأَصْلَحنا ما ضاعَ منها، فأنزل الله تبارك وتعالى في كتابه يَرُدُّ علينا ما هَممنا به، قال: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التَّهْلُكةُ الإقامةَ التي أردنا أن نُقيم في أموالنا فَنُصلِحَها، فأُمرنا بالغزو. فما زال أبو أيوب غازياً في سبيل الله حتى قُبِض)[١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٢)؛ والترمذي (٢٩٧٢)؛ والنسائي في الكبرى (١٠٩٦٢) واللفظ =

•• الاشتغالُ بالزراعة والإخلادُ إلى رغد الحياة ولِينِها، والحيلُ الباطلة، والتفريطُ بالتقدمِ العلمي والصناعي والتفوقِ الحضاري:

والمتأمل في تاريخنا يرى تحقُّقَ ما أخبر به النبي ﷺ، وتصديقَ ما حذَّر منه وخوَّف أمته من الوقوع في بَرَاثنه.

ويَصْدق ذلك على ما حدث للمسلمين في الأندلس، وأيام شيخوخة الخلافة العباسية، وفترات متعددة من عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين.

وتجلَّى ذلك بأوضح صوره فيما تعيشه أمتنا العربية والإسلامية منذ نحو قرن وإلى الآن: من الانشغال بصغائر الأمور، ومستسهلات المشاغل، وإفناء الأعمار والأوقات والمواهب والطاقات والأموال والثروات؛ في الزرع والضَّرْع، وكثرة التحايل على الشرع والتلاعب بأحكامه، وسعي فريق في الأمة لأكل أموال الناس بالباطل عن طريق الربا المحرم باتباع الحِيل المحرمة كالتبايع بالعِينَة، والاستغراق في رَغَد العيش ولِين الحياة والبذخ والترف والعَبِّ من خيرات البلاد التي فتحها المجاهدون، وبذلوا في سبيل توطيد أمر الإسلام فيها أنفسَ الأرواح وأثمنَ التضحيات!.

فَخَلَفَتْ من بعدهم خُلوف ورِثوا البلاد وغَرِقوا في الملذات وعاشوا حياة المترفين، وأعجبتْهم الأرض بزُخْرفها وزينتها وزروعها وكرومها ومياهها وأنهارها وبساتينها ودورها وقصورها، وأَغْرَاهم المال الذي اكتسبوه من حِلِّه ومن غير حِلِّه بارتكاب الحرام والحيل الباطلة، فأخلَدوا إلى الأرض ولم يرفعوا للسماء رأساً. وجهِلوا شؤون الحياة وإقامة الحضارة، وضَعُفوا عن إنشاء أجيال تجيد فنون العلوم الكونية والتجريبية، وتُسابق إلى ميادين التصنيع وابتكار آلات الحرب، وتبني الكوادر القديرة على تشييد المصانع، وتدرِّب الأبناء على فنون

= له؛ والطيالسي (٥٩٩)؛ وابن حبان (٤٧١١)؛ والحاكم: ٢/ ٢٧٥، وغيرهم. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب؛ وصحَّحه الحاكم وأقرَّه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

الحرب بما يلائم روح العصر.. وغَفَلوا عن المعاني العظيمة التي تحثّ عليها آيات الكتاب الكريم من النظر في السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وما تدلّ عليه من وجوب إقامة الإسلام على أسس راسخة، وحماية دولته وشعائره بكل ما يمكن للعقل المبتكر واليد الصَّنَاع الوصولَ إليه، من مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ولو نظرتَ الآن في طول البلاد العربية وكثير من الدول الإسلامية وعرضها، لوجدتها دولاً تعتمد على الزراعة وشيء قليل من التجارة والصناعات الخفيفة التي لا تُقيم دولة ولا تبني حضارة ولا تحمي أرضاً ولا تدفع عدوّاً! بل إن الزراعة نفسها في بلادنا متخلِّفة تقليدية لا تسدّ حاجات الشعوب الأساسية في كثير من الحالات، حتى إنها لتستورد لقمة العيش من الشرق والغرب!.

وقَصَرتْ أفهام المسلمين في العصور المتأخرة والمعاصرة عن إدراك أن دراسة العلوم الحديثة واجبٌ إسلامي أول، وأن أيَّ عقل نظيف يدرك أن هذه الدراسة امتداد محتوم لحديث القرآن الكريم عن الكون، وأن نتائج الجهود العقلية الذكية دعم للإيمان الصحيح، ودمغ للإلحاد، وأن جهاز الجهاد الإسلامي سوف يتوقف كل التوقف بالجهل في هذه الميادين، بل إن العقل الإسلامي نفسه سوف يُضَار من هذا القصور[1]. وهذا ما حدَث!..

إن الجهاد الإسلامي المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتمَّ ولا أن ينجح بعيداً عن التفوق الصناعي والمدني والحضاري.

والمسلمون الأوائل حملوا الإسلام باقتدار وأحسنوا تبليغه للعالمين، وعندما جرَّب الفُرس سلاحاً لا تعرفه العرب هو الفِيَلة، سرعانَ ما احتال المسلمون على الإيقاع بها، ففرَّت مذعورةً ترمي مَن فوق ظهرها.

(١) علل وأدوية، ص١١٣.

أما اليوم فلا تستطيعُ الموازنةَ بين التقدم المدني والعسكري عندنا وعند غيرنا!..

إن كلَّ علم يطوي مسافة هذا التخلف هو من أركان الدين، وفرائض العبادات العينية والكفائية(١).

وهذا ما عَجَز عنه المسلمون في مراحل الضعف والتردي والتراجع الحضاري، والانشغال بالزراعة، والعجز عن التفوق العلمي والصناعي؛ اللذين هما أهم الأركان في قيام فريضة الجهاد على سوقها، وتمكُّن المجاهدين من مقارعة السلاح بالسلاح، والعلم بالعلم، أو مقاربة ذلك مما هو عند الأعداء.

إنه لا يجوز أن يبقى المسلمون في مؤخرة الرَّكْب في مجالات علوم الفلك والفيزياء والكيمياء والأحياء وغيرها من الدراسات الكونية والعلمية، والرضا بما تنتجه الأرض وما تدرُّه من خيرات قد اكتشفها وفجَّرها وصنَّعها غيرنا!.

إننا بسبب تقصيرنا المَشين في علوم الدنيا بقيتْ شواطئ الخليج وأرض الجزيرة والعراق والشام ومصر وليبيا وغيرها مزارعَ للكسالى ومراعي للأغنام، حتى جاء غيرنا فاستخرج منها النفط وغيره، وأفاض منها الخير ونهب الثروات، ونثر لنا الفُتات، وهذا الفتات لم نُحسن أيضاً استخدامه في بناء دول صناعية متطورة.

رابعاً: فريضة الجهاد بين التعطيل والتفعيل:

●● والأمة الإسلامية قد عزَّ جانبُها وعَلَت كلمتُها وارتفعت رايتُها وانتشر سلطانها، لمَّا استمسكت بعوامل النصر، وعاشَتْ حياة الجد والاجتهاد والعلم والعمل، ومكَّنت لفريضة الجهاد من قلوب أبنائها جيلاً بعد جيل.

وعندما أَخَلَّت بالسُّنَن، وفرَّطت بشروط النصر؛ نزلَتْ بها العقوبة الإلـٰهية، لأن الله سبحانه لا يَسوق النصر جُزافاً، ولا يجعل النتائج السليمة تخرج من

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٨٨، ٩٠.

مقدمات مختلِفة، بل لا بدَّ من تنظيم المقدمات حتى تعطي نتائج صحيحة. فلله تعالى سُننٌ في الكون وسننٌ في المجتمعات، فإذا كانت الحقيقة الرياضية تقول: إن مجموع زوايا المثلث تساوي قائمتين، فكذلك الأمة التي تجمع بين التقوى والصبر لا بدَّ أن تنتصر، فإنْ فَقدت التقوى، وسادها الجَزَعُ والشرّ وطلبُ اللهو؛ فإنه لا بدَّ أن تنهزم، وهذه القوانين تساوي في قوتها القوانينَ الرياضية، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وعلى المسلمين أن يتحرَّروا من خطر الانحلال والتَّرف، فقد كان هو مصدر الهزيمة في تاريخ المسلمين كله، ولا بدَّ من قيام الأمة في مرحلة الخطر بالعزائم والاخشيشان، والحذر من خطر الغزو، والمرابطة في الثغور، والقدرة على الردع، وتقديم النفوس والأرواح والأموال رخيصةً في سبيل الدفاع عن وجود الأمة الإسلامية وحماية عقيدتها(١).

فالمسلمون عندما غابت في بلدانهم فريضة الجهاد، وعَطَّلوا المرابطة في الثغور، وأَلْقَوا السلاح، ورَكَنوا إلى الدنيا، استأسَدَ عليهم العدو القريب والبعيد، وسلبهم كثيراً من أرضهم وأموالهم، وسامَهُم سوءَ العذاب، وضَرب عليهم الذلة والصغار والهوان. وخسائرُنا في الأندلس وأيام الحملات الصليبية وزحف التتار، وتكالب أوروبة على الدولة العثمانية، ثم زحوف الصليبية الجديدة مع اليهودية العالمية على عالمنا الإسلامي منذ نحو قرن؛ دليل واضح على ذلك.. ومآسينا لم تنتهِ في حروب (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧م)، واحتلال فلسطين والعراق والصومال والشيشان وأفغانستان والبلقان، وغيرها من أمصار الإسلام؛ **بسبب معاصينا الدينية والسياسية والعلمية والعملية**.

●● وفي كل مرة يُضرَب المسلمون في أحشائهم يستيقظون على النازلة،

---

(١) من كلام للشيخ محمد الغزالي، نقلاً عن: الضربات، للجندي، ص٣١٥ ـ ٣١٦.

وتهبُّ فيهم حميَّة الإيمان، ويوقِدُ جذوتَها الرجالُ الكبار والمجاهدون العظام، وتسير الأمة خلفهم، ينفضون عنهم غبار الانكسار والذلة والهوان.

حدث ذلك كثيراً في تاريخنا: أيام يوسف بن تاشفين، وآل زنكي وصلاح الدين، وقطز وبيبرس، ومحمد الفاتح، وإلى العهد القريب على أيدي زعماء التحرير من أمثال: عمر المختار، وعبد القادر الجزائري، وعز الدين القسام، وإبراهيم هنانو، ومصطفى كامل باشا، وعبد العزيز خليل جاويش، وعبد الكريم الخطابي، وعبد العزيز بن إبراهيم الثعالبي، والمهدي السوداني...

وعلى دربهم تسير قوافل المجاهدين لاستنقاذ الأمة من وَهْدتها، وتحرير البلاد من مستعمريها، في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان والصومال وكشمير وغيرها من بلاد الإسلام.

وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «**وتركتم الجهاد، سَلَّط الله عليكم ذُلّاً لا يَنزِعُه حتى ترجعوا إلى دينكم**».

وفي هذا الكلام النبوي لفتة جليلة في قوله: «**حتى ترجعوا إلى دينكم**»، فكأن الدين هو الجهاد، لأن الإسلام بدون الجهاد يتراجع في دياره، ويتقهقر في سلطانه، وتخبو جذوتُه، وتضعُف كلمتُه، ويُستضعف أهلُه! والجهاد يحميه من كل ذلك، فإذا عاد المسلمون إلى الجهاد فقد عادوا إلى الإسلام وأعادوا الإسلام إليهم.

فلا بد حتى تعود للإسلام صدارتُه، وللمسلمين مكانتُهم وهيبتهم؛ من أن يستعصموا بعُرى الجهاد، ويثابروا في الميدان، ويَذرعوا الطريق إلى نهايته، ويستمر العراك بين الأبطال والأنذال، ويكتب المجاهدون بدمائهم سطور حرياتهم، ويعيدوا أمجاد تاريخهم، ويبنوا حاضرهم، لينعموا مع مَن يعقبهم في مستقبلهم بالأمن والأمان والعزة والرفعة وسيادة الكلمة.

•• وثَمَّةَ فتنةٌ أخرى تسعى جاهدةً للاستمرار في تعطيل فريضة الجهاد،

وتَحُول دون إحيائها في أنفس المسلمين، وتتآمر عليها قوى الغرب والشرق وأذنابهم في بلاد المسلمين.

ويتضح ذلك في تزيينِ الألفاظ، والتلاعب بالمصطلحات، وفرضِ مفاهيم ضاغطة على أذهان الجماهير؛ في أن الإسلام دينُ السلام والتعايش مع الآخر، ويرفض العنف والإرهاب وقتلَ البُرآء، بغيةَ النفاذ إلى عقول جمهور عريض من الناس، لربط الجهاد بمفهوم القتل والإرهاب والترويع وزَرْع الفوضى في طول البلاد وعرضها، واتهام المجاهدين بأنهم إرهابيون قتلة تكفيريون متمردون خارجون عن طاعة ولي الأمر، منبوذون في الأمة التي تطلب السلامة والأمان ووحدة الصف واجتماع الكلمة.

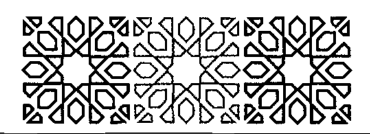
ويجيِّشون آلاتهم الإعلامية الضخمة لإعادة تشكيل عقول المسلمين، ويرافق ذلك تغييرُ المناهج التربوية، وزَرْعُ الكوادر المناسبة التي تنفّذ تلك الخطط الخبيثة، واستبعادُ كل مَن يعارض ذلك في كل مجالات الإعلام ومنابر التوجيه ومواقع التأثير، وحرفُ المسجد عن رسالته، وتكبيلُ خطبة الجمعة عن أداء مهمتها الأصلية، وفرضُ الهيمنة على (وزارة المساجد) لتسير في نفس الاتجاه...

يَحدُث كل هذا لتدجينِ الأمة وقبولها بما يُملَى عليها من (مُخرِجي السياسة الفتاكة)، حتى تلينَ لهم، وتستسلم لمخططاتهم.

ولئن أفلحوا في ذلك فإلى حين، والله غالب على أمره، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، لا يُبطله حكمٌ جائر ولا عدوٌّ غادر.

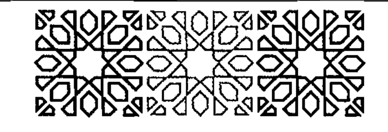
❋ ❋ ❋





الفصل العاشر

نبوءات في العلم





إخبار النبي ﷺ عن الرحلة في طلب العلم

١ ـ قال محمد بن الحارث بن راشد المِصْرِيُّ: (حدثنا الحَكم بن عَبْدة، عن أبي هارون العَبْديِّ، عن أبي سعيد الخُدْريِّ ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**سَيَأتِيكم أقوامٌ يَطْلُبونَ العِلْمَ، فإذا رأَيْتُموهُم فقولوا لهم: مَرْحَباً مَرْحَباً بوصيَّةِ رسول الله ﷺ، واقْنُوهُم**» قلتُ لِلحَكَم: ما «اقْنُوهُمْ»؟ قال: عَلِّمُوهُم)(١).

٢ ـ وعن أبي سعيد الخُدْريِّ ﷺ: (أنَّه كانَ إذا رأى الشبابَ قال: مَرْحباً بوصيَّةِ رسول الله ﷺ، أُمِرنا أن نُحفِّظَكُم الحديثَ، ونَوَسِّعَ لكم في المجالس)(٢).

٣ ـ وعن أبي هارون العَبْدِيِّ وشَهْر بن حَوْشَب قالا: (كنَّا إذا أَتينا أبا سعيد الخُدْرِيَّ، يقول: مَرْحباً بوصيَّةِ رسولِ الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**ستُفتح لكم الأرض، ويأتيكم قوم ـ أو قال: غِلْمان ـ حديثةٌ أَسنانُهم، يَطلُبون العلم، ويَتفقهُونَ في الدين، ويتعلَّمون منكم، فإذا جاؤوكم فَعَلِّمُوهم، وأَلْطِفُوهم، ووسِّعوا لهم في المجلس، وأَفْهِمُوهم الحديثَ**» فكان أبو سعيد يقول لنا: مَرْحباً بوصيَّةِ رسول الله ﷺ، أَمَرنا رسولُ الله ﷺ أن نوسِّعَ لكم في المجالس، وأنْ نُفَهِّمَكُم الحديثَ)(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٧)؛ وحسَّنه الألباني في صحيحها، وصحيح الجامع (٣٦٥١).

(٢) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٢٠)، واللفظ له؛ وتمام في «الفوائد»؛ والعلائي في «بغية الملتمس»؛ والحاكم: ١/٨٨، وصحَّحه وأقره الذهبي؛ وذكره الألباني في الصحيحة: ١/ ٥٦٥ ـ ٥٦٧ (٢٨٠)، وحسَّنه بطرقه وشواهده.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم): ١/١٧٦، طبعة محققة: ١/٥٧٨ رقم (٩٩١)، وقال محققه: حديث حسن. نقول: هو حسن بطرقه وشواهده. =

وفي رواية: «**وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطار الأَرَضِين، يتفقَّهون في الدين**».

وفي رواية أخرى: «**يأتيكم رجال من قِبَل المشرق، يتعلّمون**»(١).

۞ ۞ ۞

أولاً: كلمة حول الأحاديث ومعانيها ومدلولاتها:

●● يُخبر النبي ﷺ أن أقواماً من أمته في الأزمنة القادمة سيشدُّون الرِّحال، ويضربون أعناقَ المَطِيِّ إلى مدائن الإسلام العامرة بالعلم، وعلى رأسها مكة والمدينة؛ يطلبون حديثَ رسول الله ﷺ، ويَسْعَون للتفقُّه في الدين. فيُوصي ﷺ بهم خيراً، ويأمر العلماءَ وأولي الأمر أن ييسِّروا لهم السُّبل، ويوطِّئوا لهم الأكناف ويَخْفِضوا لهم الجَناح، ويوسِّعوا لهم في المجالس، ويُحسِنوا وِفادتهم، ويُؤْنِسوا غُربَتهم، ويُكرموا منازلهم، ويُغدِقوا من الخير عليهم، ويبذلوا لهم من العلم الذي آتاهم الله ولا يكتموه، ويبشِّروهم بما جاء على لسان النبيِّ ﷺ من أنه بَشَّر بقدومهم وأوصى بإكرامهم والإحسان إليهم.

وبالجمع بين ألفاظ الأحاديث المتعددة نجد أنها تبشِّر بالفتوحات الكثيرة في الشرق والغرب، واتساعِ رقعة الإسلام وانتشار دعوته، ودخول الناس أفواجاً في رحابه. وأن أجيالاً تعقُبها أجيال سوف تَسيح في حواضر العالَم الإسلامي، وتأتي من أقطار الأرض، وتطوف على مجالس العلم ومراكز الحديث والفقه والتفسير وغيرها من علوم الدين، لسماعها وتدوينها وحفظها على الأمة.

●● وبإمعان النظر فيما تومئ إليه ألفاظ الحديث ورواياته المتعددة نلاحظ أنها:

= وأخرجه بنحوه: الترمذي (٢٦٥٠) و(٢٦٥١)؛ وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل: ٢/ ١٢.

(١) انظر: الترمذي (٢٦٥٠) و(٢٦٥١).

١ ـ تشير إلى الاجتهاد في طلب العلم والضرب في الأرض لتحصيله، كما في قوله ﷺ: «**من أقطار الأَرَضِين**»، «**من قِبَل المشرق**».

٢ ـ ويتطلب ذلك ترويضَ النفس على تجشُّم الصعاب، وتحمُّل اللّأْواء، والصبر على مشاقّ السفر للمسافات البعيدة التي يقطعها طالب العلم وهو يفتش عن العلماء، قادماً من البلاد المفتوحة ومشارق الأرض.

٣ ـ وفي الأحاديث أيضاً إلماعة دقيقة إلى التبكير في الطلب، واغتنام هِمَّات الفتيان وطاقات الشباب وحدَّة عقولهم وفراغ بالهم من مسؤوليات الحياة ومتطلبات الأهل والأولاد، وهذا ما يتضمنه قوله ﷺ: «**غِلمان**» و«**حديثةٌ أسنانهم**»، وقول أبي نَضْرة أن أبا سعيد (كان إذا رأى الشباب).

٤ ـ كذلك تنطوي هذه الأحاديث على حثِّ طلاب العلم على طلب العلو في الإسناد وأخذه مشافهةً من رأس العين ومنابعه الأصيلة، فقوله: «**من أقطار الأرضين**» و«**من قِبل المشرق**»؛ يفيد أن هؤلاء لم يكتفوا بعلوم بلادهم والسماع من أشياخهم، بل يرحلون للسماع ممن سمع منهم شيوخُهم، فتعلو أسانيدهم، ويقتربون من رسول الله ﷺ في إسناد الرواية، ويتثبَّتون من صحة ما عندهم.

٥ ـ وفيها أيضاً أخذُ العلم من أفواه الشيوخ وحفّاظ الحديث وفقهاء الآثار، ومشافهتُهم بعلوم الإسلام، وعدمُ الاكتفاء بقراءة الكتب، حيث قد تزلّ في الأخذ عنها الأقدام من سوء فهم أو تصحيف، وهذا ما يشير إليه قوله ﷺ: «**فإذا جاؤوكم فعلِّمُوهم، وأَفْهموهم**».

٦ ـ وتدلُّ هذه الأحاديث على أهمية طلب الحديث والفقه، والاعتناء بهما، والرحلة في سبيل تحصيلهما، وهذا مدلول قوله ﷺ: «**يطلبون العلم ويتفقهون في الدين**»، وقول أبي سعيد: (أُمِرنا أن نحفِّظَكم الحديث).

٧ ـ لطلاب العلم كرامة جليلة ومنزلة رفيعة عند الله سبحانه وعند رسوله ﷺ، فزيادة على الأجر الجزيل الممدود الذي ينالونه من السعي في الرحلة

وطلب العلم، أوصى النبي ﷺ أصحابه والعلماء من بعدهم بطلبة العلم خيراً، فقال: «**قولوا لهم: مرحباً، مرحباً بوصية رسول الله ﷺ**».

٨ ـ وزاد الأمر تأكيداً فأوجَبَ لهم الإكرامَ والاحترام والتبجيل والتوسعة في المجلس، وإغداقَ الهبات والأَعْطية والأَلْطاف عليهم، حتى لا يشعروا بالغربة، ويزدادوا رغبةً في العلم وتحصيله وخدمته ونشره، فقال: «**أَلْطِفوهم، ووسِّعوا لهم في المجلس**».

ثانياً: تحقق النبوءة عبر التاريخ:

بدأ تحقق ما أخبر به النبي ﷺ في هذه النبوءة بُعيد وفاته، وبدأت الرحلة في طلب الحديث والفقه والتفسير في زمن الصحابة، ثم تفشَّت وتنامت أيام التابعين وأتباعهم وهلم جَرّاً.

وكانت القرون الثلاثة (الثاني والثالث والرابع) أخصبَ عهود التاريخ الإسلامي في الرحلة في طلب الحديث والفقه والتفسير واللغة وعلومها والتاريخ، وغيرها من العلوم الإسلامية.. وفي هذه السنين المباركة اسْتَحْكَم تحقّقُ النبوءة على أيدي جماهير غَفيرة من أئمة الإسلام، وأساطين العلم، ورؤوس المحدِّثين والفقهاء والمفسِّرين والمؤرِّخين واللغويين وسواهم.

وتوالت الرحلات الواسعة في القرون التالية وحتى عصرنا، مع ركود أو فتور في بعض المراحل، خاصة في القرنين الفائتين، لكنها لم تتوقف.

●● ففي عهد الصحابة رحل أبو أيوب الأنصاري من المدينة المنورة إلى عُقْبة بن عامر وهو بمصر، يسألُه عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، لم يبقَ أحدٌ سمعه من رسول الله ﷺ غيره وغير عقبة[1].

---

(١) الرحلة في طلب الحديث، ص١١٨ (٣٤)؛ أعلام الحفاظ والمحدثين: ٢/ ٣٩.

ورحل جابر بن عبد الله، وشَدَّ على بعير وسار شهراً كاملاً، من المدينة إلى الشام، ليسمع حديثاً واحداً من عبد الله بن أُنَيْس[(١)].

•• قال سعيد بن المسيِّب: (إنْ كنتُ لأسيرُ الأيامَ والليالي في طلب الحديث الواحد).

وقال أبو العالية الرِّياحِيُّ: (كنَّا نسمعُ الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ، فلم نرضَ حتى ركبنا إلى المدينة، فسمعناها من أفواههم).

وقال أبو عثمان النَّهْدِيّ: (بَلَغني عن أبي هريرة حديثٌ أنه قال: «**إنَّ الله لَيَكْتُبُ لِعبدِه المؤمن بالحسنةِ الواحدة ألفَ ألفِ حسنة**»، فحججتُ ذلك العامَ، ولم أكنْ أريدَ الحجَّ إلا للقائه في هذا الحديث، فأتيتُ أبا هريرة فقلتُ: يا أبا هريرة، بَلَغني عنك حديثٌ، فحججت العامَ ولم أكن أريدُ الحجَّ إلا لألقاك، قال: فما هو؟ . . .) الحديث.

وقال أحمد بن حنبل: (لقد كان عَلْقمة والأَسود يَبْلُغهما الحديثُ عن عمر رضي الله عنه، فلا يقنعهما حتى يَخْرُجا إلى عمر فيسمعانِه منه)[(٢)].

وقال الحسن البصري: (رحلتُ إلى كَعْب بن عُجْرة من البصرة إلى الكوفة، فقلتُ: ما كان فداؤك حين أصابك الأذى؟ قال: شاة)[(٣)].

وقال بُسْر بن عُبيد الله الحَضْرمي: (إنْ كنتُ لأركبُ إلى المِصْر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعَه)[(٤)].

•• ورَحَل شُعبة بن الحَجَّاج من البصرة إلى مكة ثم إلى المدينة ثم إلى

---

(١) الرحلة في طلب الحديث، ص١١٠ ـ ١١١ (٣١)؛ أعلام الحفاظ والمحدثين: ٣/ ١٣٧.

(٢) أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ٣٠ ـ ٣١، وفيه تخريج هذه الآثار. **وعلقمة**: هو ابن قيس، **والأسود**: هو ابن يزيد، من أئمة التابعين علماً وعملاً.

(٣) الرحلة في طلب الحديث، ص١٤٣ (٥٢).

(٤) المرجع السابق، ص١٤٧ ـ ١٤٨ (٥٧).

البصرة في تتبُّع سَنَدِ حديث، فتبيَّن له عدمُ صحة إسناده، فقال بعد هذه الرحلة المضنية: (لو صَحَّ مثلُ هذا عن رسول الله ﷺ، كان أحبَّ إليَّ من أهلي ومالي والناس أجمعين!)(١).

ورحل الأئمة الكبار: كالزُّهْري، والأوزاعي، ومَعْمَر بن راشد، وسفيان الثوري، وسفيان بن عُيينة، وحماد بن زيد، وحماد بن سَلَمة، وعبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح، ويحيى بن سعيد القطَّان، وغيرهم من علماء القرن الثاني الهجري.

ثم رحل أكابر أعلام القرن الثالث الهجري، ومنهم: الإمام الشافعي وعبد الرزاق الصَّنْعاني، ويحيى بن مَعين، وعلي بن المَدِيني، وأحمد بن حنبل، وأبو حاتم، وابنه عبد الرحمن بن أبي حاتم، والبخاري، ومسلم، والنَّسائي، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، والطبري، وأضرابهم.

●● ثم رحل العلماء في القرن الرابع الهجري، وفي القرن الخامس، ... وهَلُمَّ جَرّاً.

قال الحافظ الجَوَّال أبو بكر ابن المُقرِئ الأَصبهاني: طفتُ الشرقَ والغربَ أربعَ مرات(٢).

وبقي الحافظ الجوَّال أبو طاهر أحمد بن محمد الأَصبهاني المعروف بالسِّلَفِيِّ في الرحلة ثمانية عشر عاماً، يكتبُ الحديثَ والفِقْهَ والأدب والشعر(٣).

والإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن مَنْدَة بقي في الرحلة نحواً من أربعين

---

(١) الرحلة في طلب الحديث، ص١٤٨ ـ ١٥٣ (٥٩)، وفيه القصة بتمامها.
(٢) المرجع السابق، ص٢١٠ (١١١)؛ سير أعلام النبلاء: ١٦/ ٤٠٠، وفيه ترجمته، توفي (٣٨١هـ).
(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ١٦، وفيه ترجمته؛ أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ٣١.

سنة، وعاد إلى وطنه بأصبهان شيخاً مسنّاً! وكان يقول: طفتُ الشرقَ والغربَ مرتين[١].

وهذا باب واسع، والكلام فيه طويل الذيل، وتشهد بجلالته حوادث التاريخ الصادقة، وقد صنَّف الحافظ الخطيب البغدادي كتاباً طريفاً سماه «الرحلة في طلب الحديث»، وموضوعه: الرحلة في طلب الحديث الواحد، أما لو صَنَّف في طلب الحديث جملةً لبَلَغ الكتاب مجلدات ضخمة كثيرة.

●● وقد تبارى الخلفاء والأمراء والأغنياء والوجهاء في بناء المدارس والزوايا والرباطات والجوامع، ووَقَفُوا لها الوقوفَ الكثيرة الجزيلة للنفقة على خدمتها، واستمرار أداء رسالتها، وأقاموا الأساتيذَ الذين يدرِّسون فيها، ويسَّروا السُّبُل للطلاب الذين يَفِدون إليها ويُقيمون فيها، لينهلوا من علومها.

وقد سطَّرت حضارة الإسلام في هذا الجانب العلمي الباهر أروعَ الأمثلة للأمم الحية الرفيعة في إشاعة العلم ونشره والتشجيع عليه وخدمته وتذليل الطرق لسالكيه.

وأُقيمت في أمصار الإسلام (المدارس) الشهيرة، والتي كل واحدة منها بمثابة جامعة أو أعظم مما يشهد عصرنا الحاضر، فكان منها مدارس للقرآن الكريم وعلومه، وأخرى للحديث الشريف، وثالثة للقرآن والحديث معاً، ومدارس لفقه المذاهب الأربعة المشهورة، وأخرى يدرَّس فيها اللغة العربية وآدابها، والحساب والفلك والطب والتاريخ والجغرافية وغيرها.

كذلك أنشؤوا خزائنَ الكتب العامة في المدارس والجوامع، والمكتبات الخاصة، وعيَّنوا لها من يقوم بشؤونها، وأَجْرَوا عليها الأوقاف الطائلة.

وأصبحت تلك المنارات كعبةً للعلوم يرحَلُ إليها الطالبون من أقطار الأرض، وانتشرت في الشام ومصر والمغرب والأندلس. . وقد أَطنب العلماء

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٣/ ١٠٣١؛ ميزان الاعتدال: ٣/ ٤٧٩؛ سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٢٨.

في وصفها وبيانِ منزلتها وما تدرَّس من علوم والقائمين عليها وأساتذتها وطلابها[(١)].

●● ولا تزال الرحلة حتى زماننا مستمرة إلى مراكز العلم ومناراته، والجامعات الإسلامية والجوامع الكبيرة العريقة التي لها في التاريخ منزلة جليلة، وآثارها الطيبة مشهودة في الأمة.. فلا يزال طلاب العلم والدراسات العليا بمختلِف العلوم الإسلامية والحديثة يَقصِدون ينابيع العلم في الأزهر والزيتونة والجامعات في الشام والعراق ومصر والمغرب والسعودية والسودان وباكستان والهند وغيرها من مراكز العلوم والمعرفة.

ثالثاً: فوائد الرحلة في طلب العلم[(٢)]:

١ ـ أخذُ العلمِ الصحيح الأبعدِ عن السهو والخطأ والتصحيف:

فالعلماء المشاهير في الأمصار يكونون قد بلغوا في العلم شأواً رفيعاً، وقد حققوا العلم، وفتَّشوا عن الآراء، وقلَّبوا وجوه الرأي في المسائل، فعلومُهم ناضجة، ومعارفهم عالية، يأخذها الطالب الراحل سليمةً محققةً منقحةً بعيدةً عن الخطأ والتصحيف والتحريف.

٢ ـ التمكُّن من الجوانب العلمية:

فإذا رحل المرء إلى بيئة أخرى ألفَى مشكَلات جديدة تُبحث، أو آراء أخرى في مسائل قد سبق له أن درسها؛ فيتسع أُفُقُه واجتهادُه بدراسة الطريف من المسائل أو الجديد من الآراء. وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى تغيير في آرائه واجتهاداته بعد أن كان سار عليها زمناً لا يَحيد عنها.

---

(١) صنَّف العلماء في تاريخ تلك المدارس، ومن أجلِّ تلك الكتب: الدارس في تاريخ المدارس، لعبد القادر بن محمد النُّعَيمي الدمشقي، المتوفى سنة (٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، في مجلدين.

(٢) انظر: ما كتبه الدكتور نور الدين عتر في تقدمته لكتاب: الرحلة في طلب الحديث، ص٢٤ ـ ٢٨.

٣ ـ اتساع الثقافة العامة:

فبالرحلة إلى البلدان تتلاقح أفهام العلماء وطلبة العلم، ويتعرَّف الواحد منهم على الجديد عند الناس في الأصقاع المختلفة وما لديهم من عادات وثقافة، وحِكَم وأمثال ونوادر، وطرق وأساليب ومناهج بحث وتفكير ودراسة وتحقيق وسواها.

٤ ـ نشر العلم الذي حصَّله العالم:

فقد يَنبغ عالم في بيئة لا تتوافر فيها الكفاءات، ويغلِب عليها قِلةُ الاهتمام بهذا الفن من العلوم أو ذاك التخصص، فإذا رحل إلى الحواضر الكبيرة والعواصم الشهيرة انتشر علمه في الخافقين.

يذكر الإمام عز الدين بن عبد السلام أنه عندما خرج من الشام مرَّ بالكَرَك[١]، فتلقاه صاحبها وسأله الإقامة عنده، فقال له الشيخ: (بلدك صغير عن علمي)، وتوجه إلى القاهرة.

٥ ـ تنمية الفضائل والأخلاق الحميدة والكمالات في النفس:

فطالبُ العلم في الرحلة تتغير مألوفاته، ويتعرَّض للمشاقّ، ويتنامى فيه الصبر والثبات، ويكتسب من الآخرين ويُكسِبهم حسنَ المعاملة والتوادّ والتآزر أمام الصعاب، والتواضع وحبّ الخير لأصحابه وأساتيذه ومن ينزل فيهم. كما أنه يجد كثيراً من رموز العلم على درجة عالية من الورع والتقوى والنُّبل والفضل، فيقتبس منهم تلك الشمائل الرفيعة.

٦ ـ كسب صداقات جديدة والتعرف على طبائع الشعوب وعاداتهم وأساليب حياتهم:

فالمرء برحلته يأنَس إلى مَن يُجالسه في حلقات الشيوخ، أو يُزامِلُه في ميادين البحث، أو يسكنُ معه في البلد الجديد، فيتعرف على أصدقاء جُدد،

(١) بلدة في الأردن إلى الجنوب من عَمّان.

ويستفيد منهم ويستفيدون منه، وتمتزج العادات والتقاليد والطبائع والأعراف وأساليب الحياة، وتنتقل هذه الأمور من المشرقي إلى المغربي، ومن المغربي إلى المشرقي، ومن الشامي إلى المصري، ومن المصري إلى الشامي، ومن العربي إلى الأعجمي وبالعكس.

وهكذا كانت الأمة الإسلامية في كثير من عهودها الزاهرة، فيشعر المرء بالوحدة الإسلامية والانتماء الواسع الواحد للدين والعقيدة والقبلة والهدف والغاية.

رابعاً: عبر ودروس:

في هذه النبوءة دروس جليلة وعِبر رفيعة وفوائد جَمَّة؛ نومئ إلى أبرزها:

١ ـ الإسلام دين العلم:

دَعَتْ إليه آيات كتابه الكريم من أول لقاء بين السماء والأرض، وأكَّده النبي ﷺ في أحاديثه الطيبة وسيرته الطاهرة، وشَيَّد المسلمون ذلك بناءً شامخاً وواقعاً مشهوداً في أغلب عهود تاريخهم الممدود.

٢ ـ العلم لا يقتصر على بلد دون آخر ولا حاضرة دون سواها:

فعواصمُ الإسلام وحواضره ومدائنه وقُراه قد بُثَّ فيها العلم، وبخاصة علوم الشرع؛ فعلى المرء أن يجدّ ويجتهد في طلب العلوم من مَظَانِّها، والرحلةُ وسيلة كبرى لتحقيق ذلك.

٣ ـ العلم الصحيح يمتاز بالشمولية:

فلا يزعمُ أهل بلد أو مذهب أو علم من علوم الإسلام أنهم يجب الاقتصار عليهم دون سواهم، أو أنهم الأصل وغيرهم الفرع؛ فعلى العلماء وطلبة العلم أن يرحلوا إلى الأقطار ويأخذوا مختلِفَ العلوم من حديث وفقه وتفسير ولغة...

٤ ـ لا يخلو الزمان من منابر العلم:

وهذا ما يشير إليه الحديث: «**سيأتيكم أقوامٌ يطلبون العلم**»، وهو ما شهد به

تاريخنا على مرِّ العصور، مع تفاوت في العطاء والتجديد، أو عند التراجع والانحسار.

٥ ـ وجوب العناية بالسنَّة والفقه:

فالسنَّة شارحة للكتاب العزيز وموضِّحة ومفسِّرة، وبالفقه تُستنبط الأحكام ويتعبَّد الناس على بصيرة، ولذا أكَّدت ألفاظ الحديث على هذين الجانبين: «**أَفْهِموهم الحديث**»، «**يتفقهون في الدين**»، «**أُمِرنا أن نحفِّظكم الحديث**».

٦ ـ الرحلة تكون في مقتبل العمر ووقت الشباب:

ففي الشباب وحداثة السنّ فورة الطاقات، وتوقد الذكاء، وخلوُّ البال من الأشغال، وقلَّةُ المسؤوليات، فكل ذلك عونٌ كبير على تحقيق المطلوب.

٧ ـ لا يجوز كتمان العلم:

وقد نطقتْ بذلك الأحاديث الكثيرة الصحيحة، ويشير إلى ذلك في أحاديث هذه النبوءة قوله ﷺ: «**فعلِّمُوهم**»، «**وأَفْهِموهم الحديث**»، وقول أبي سعيد: «**أُمِرنا أن نحفِّظكم الحديث**».

٨ ـ فضل العلم وطالبيه:

وأدلة ذلك واضحة كثيرة في الكتاب والسنة، وفيما بين أيدينا من أحاديث هذه النبوءة يكفي وصيةُ رسول الله ﷺ بطلاب العلم وأمرُه الصحابةَ بإكرامهم وتوسعةِ المجالس لهم، وتلقي الأصحاب لهذه الوصية بالإجلال والإنفاذ.

٩ ـ للرحلة فوائد جليلة:

قد أشرنا إليها، ويكفي أنها من عوامل حفظِ السنَّة ونشر الحديث في بلدان المسلمين عامة.

١٠ ـ في هذه النبوءة شاهدٌ آخر على صدق رسولنا ﷺ:

وآيات صدقه ﷺ أكثر من أن تُعدَّ وتُحصى.

❋ ❋ ❋

إخبار النبي ﷺ
بظهور القلم وانتشار العلم

١ ـ عن طارق بن شِهاب، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ بينَ يَدَي الساعةِ: تسليمَ الخاصَّة، وفَشُوَّ التجارةِ حتى تُعينَ المرأةُ زوجَها على التجارةِ، وقَطْعَ الأرْحام، وشهادةَ الزُّورِ، وكتمانَ شهادةِ الحقّ، وظهورَ القَلَمِ**» لفظ أحمد.

وفي رواية البخاري في الأدب المفرد: «**بين يَدَي الساعةِ: تسليمُ الخاصَّة، وفُشُوُّ التجارة... وفُشُوُّ العِلْمِ**»[1].

٢ ـ وعن عَمْرو بن تَغْلِب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أشراطِ الساعة أن يَفْشُوَ المالُ ويَكْثُرَ، وتَفْشُوَ التجارةُ، ويَظْهَرَ القَلَمُ...**» لفظ النسائي في «السنن الكبرى».

وفي «السنن الصغرى»: «**ويظهرَ العِلْمُ**».

وعند أبي داود الطَّيَالِسي: «**إنَّ من أشراطِ الساعة أن يَكْثُر التجار، ويظهرَ القَلَمُ**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨؛ والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤٩)، وغيرهما؛ وصحَّحه الألباني وغيره، انظر: النبوءة (١٤٨).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦٠٠٥)، وفي الصغرى: ٧/ ٢٤٤؛ والطيالسي (١١٧١)، وغيرهما؛ وصحَّحه الألباني في صحيح النسائي: ٣/ ٩٢٩ (٤١٥٠)، والصحيحة (٢٧٦٧). وما أثبتناه من سنن النسائي المطبوعة، وعليه مشى الألباني، وجاء في النسخ المخطوطة: «**ويظهر الجهل**»، بدل «**القلم**» و«**العلم**»، ولكل وجه ووقت للظهور، وانظر: النبوءة (١٤٩): ٤/ ٣٩٨، حاشية (١)، والنبوءة (١٥٦).

● **تحقق النبوءة:**

●● في هذين الحديثين عَلَمٌ من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، ودليلٌ آخرَ على صدق رسالته وأنه لا ينطق عن الهوى.

لقد بُعث النبيّ ﷺ في أمة أمية، قال الله تعالى فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، ففي المجتمع العربي لم يكن سوى آحاد الناس هم الذين يعرفون الكتابة ويجيدون القراءة، أما جماهير العرب فأُميّون يحفظون الأنساب، ويتلقون الأشعار شفاهاً ويودعونها صدورهم، فتمسك بها حافظتهم القوية ونفوسهم الصافية، ولا تكاد تجد في الحي قارئاً أو كاتباً.

في هذه الأمة وهذا المجتمع ينزل القرآن بأول آياته يأمر النبيَّ ﷺ والأمة من بعده بقوله سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ﴾، ويُعلن الرسول ﷺ على الأشهاد أنه سيأتي على أمته زمان يَظهر القلم فيه ويعلو شأنه، وتفشو الكتابة ويربو أمرُها، وتنتشر الكتب في أجيال المسلمين وفي مختلف بلدانهم، ويفشو العلم بين الناس.

ويلاحَظ أن الحديث قَرَنَ بين ثلاثة أشياء؛ فقال: «**يَفشو المال ويكثُر**»، «**تفشو التجارة**»، «**يظهر القلم** ـ وفي رواية: **العلم**»، وهذه الأمور الثلاثة بينها تلازم واضح؛ فكثرة المال ضرورية لطباعة ما تنتجه الأقلام، كما أن التجارة لازمة لتسويق الكتب ومنتجات العلم وثمرات القلم.

●● وهذا البيان النبوي والخبر الصادق قد وجدنا مصداقَه على مرِّ الزمان منذ القرن الثاني الهجري وإلى الآن، وهو باطّراد مستمر، وقد بَلَغ في زماننا شأواً بعيداً. . والذي يتتبّع ما تجودُ به الأقلام وما تنتجه المطابع في البلاد العربية والإسلامية، من كتابات وكتب وصحف ومجلات ودوريات وموسوعات ونحوها، وما تغصُّ به المكتبات العامة والخاصة في ديار المسلمين، وما تَضِجُّ به (معارض الكتب) في بلادنا ـ نقول: من يتتبع ذلك يدهش لذاك الكَمّ الهائل من فشو العلم وظهور القلم، كما وصف النبي ﷺ.

وتتبارى الحكومات ممثَّلة بوزارات التربية والإعلام والأوقاف والثقافة في

نشر العلم، وطباعة الكتب، وإشاعة الثقافة، وإنشاء المدارس بمختلِف مراحلها، ومحاربة الأمية بين أبنائها.. كل ذلك يؤدي إلى ظهور القلم، وانتشار الكتابة، وفشو العلم.

ولقد تحقق مصداقُ هذه النبوءة على يدي علماء الأمة وكتّابها ومفكِّريها ومؤلِّفيها، وما أنتجتْه قرائحُهم وخَطَّتْهم أناملُهم من كتب ضخمة وإنتاج غزير في مختلف فروع العلم الشرعية والعلمية والإنسانية، والمكتبة الإسلامية شاهدة على ذلك عبر تاريخنا الطويل من الهند والسند في الشرق، إلى الأندلس في الغرب، وحسبك من ذلك خزائن الكتب والمخطوطات والمكتبات العامة والخاصة، والكتب التي تمَّ تحقيقها ونشرها، وتلك التي تنتظر مَن يُخرِجها إلى النور، ناهيك بما فُقِد منها وما اعتُدِي عليه من قِبل التتار والإسبان وغيرهم بالتحريق والإتلاف.

●● وما جاء في هذه النبوءة لا يُعارِض ما في الأحاديث الأخرى التي تنصُّ على قبضِ العلم وظهور الجهل، فإن المعنيَّ بهذا هو العلوم الإسلامية وبخاصة علوم الكتاب والسنَّة، وليس ظهورَ الكتابة ومحوَ الأمية.

ونحن نشهدُ مع ظهورِ القلم وفشوِّ العلم وأمواجِ المطبوعات جهلاً كبيراً بعلوم الشرع، حتى في صفوف عِلْيَة القوم وحَمَلَة الشهادات العليا، فَضْلاً عن العامة والأميين والجهلة من الناس[1]!..



(١) انظر: النبوءة (١٥٦).

١٥٣

إخبار النبي ﷺ بالتماس العلم عند الأصاغر

عن أَبي أُميَّة الجُمَحِيِّ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ مِنْ أشراطِ الساعةِ أَنْ يُلْتَمَسَ العِلْمُ عندَ الأَصَاغِرِ**»(١).

۞ ۞ ۞

أولاً: توضيح وبيان معنى «الأَصاغر»، وما جاء في ذلك من الآثار:

●● **الأكابرُ**: هم رؤوس الأمة من الراسخين في العلم والدين، الذين آتاهم الله تعالى العلم والحِكمة والورع والتقوى والفقه والفهم.. هم سادة الأمة القائمون لله بالقِسْط، والشهداءُ على الناس، والداعون إلى الله على بصيرة، والراشدون المرشدون لكلِّ خير، والذين جمعوا بين العلم والعمل، والفهم والحكمة، والصدق والثبات، والنصح والإرشاد، والصرامة والرحمة، وعفَّة اللسان والاعتراف بالفضل لذوي الفضل.

وعلى رأس هؤلاء صحابةُ النبي ﷺ، وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين، ولا يضير أحداً منهم حَدَاثةُ سنِّه أو قلّة عشيرته أو تواضُعُ أَرومتِه.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦١)؛ والطبراني في الكبير: ٢٢/ ٣٦١ (٩٠٨)؛ والداني (٤٣٥)؛ وأبو نعيم في المعرفة: ٢/ ٢٥١/١ ؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ١٩٠ ـ ١٩١؛ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/ ٨٥ (١٠٢)؛ والخطيب في الفقيه والمتفقه: ٢/ ٧٩؛ والحافظ عبد الغني المقدسي في العلم (ق ١٦/ب)؛ والهروي في ذم الكلام (ق ١٣٧/ب)؛ وقال الحافظ عبد الغني: إسناده حسن، وقال الألباني في الصحيحة (٦٩٥): إسناده جيد، وصحَّحه في صحيح الجامع (٢٢٠٧).

و«**الأصاغر**»: هم أولئك الذين أُوتوا قليلاً من العلم، وشيئاً من الدين، ونَزْراً من الفهم والفقه، وحُرموا من كثير من التقوى والورع والحكمة والبصيرة، قد علِموا من الدين والحياة أشياء وجَهِلوا أكثر، فهم مغرورون متنطِّعون، صخَّابون متسرِّعون، فِقهُهم قليل، وبصرُهم كَليلٌ، وحكمتُهم ضعيفة، ورحمتهم عليلة، يتكلمون بغير تدبُّر بالأمور واستيعاب لها وروية بها، ويتلاعبون بالمصطلحات، ويَلوُون أعناق النصوص، ويحطّون على الأئمة، ويُكثِرون التجريح، ويَهْوَون الخِلاف، ويَسْعَون للظهور، ويتعنَّتون بالرأي، ويتخاشنون على مَن خالفهم، قد قَذفتْ بهم الأقدار فقاموا على رؤوس الناس بالتدريس والفتوى والتحدّث باسم الإسلام والأمة.

قال علماؤنا: (الصغير) المذكور في الأحاديث إنما يُراد به الذي يُستفتى ولا علمَ عنده، والكبيرُ: هو العالم في أي سِنّ كان.

وقالوا: الجاهل صغير وإنْ كان شيخاً، والعالم كبير وإنْ كان حَدَثاً[١].

وقيل لابن المبارك: مَن الأصاغِرُ؟ قال: الذين يقولون برأيهم، فأما صغيرٌ يروي عن كبيرٍ فليس بصغير.

وقال أبو عُبيد: والذي أَرى أنا في الأصاغر أن يُؤخَذ العلمُ عمَّن كان بعد أصحاب رسول الله ﷺ، ويُقدَّم ذلك على رأي أصحاب رسول الله ﷺ وعلمِهم، فذاكَ أخذُ العلم عن الأصاغر[٢].

●● عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**البَرَكَةُ مع أكابِرِكُم**»[٣].

---

(١) جامع بيان العلم: ١/ ١٩٣.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٩١.

(٣) أخرجه ابن حبان (٥٥٩)؛ والقضاعي في مسند الشهاب (٣٦)؛ والخطيب في تاريخ بغداد: ١١/ ١٦٥؛ وأبو نعيم في الحلية: ٨/ ١٧١ ـ ١٧٢؛ والحاكم: ١/ ٦٢، وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط، والألباني في صحيح الجامع (٢٨٨٤).

وقال عمر رضي الله عنه: (فسادُ الدِّين إذا جاءَ العلمُ من قِبَل الصغير، استعصَى عليه الكبير، وصلاحُ الناسِ إذا جاء العلم من قِبل الكبير، تابَعَه عليه الصغير)[1].

وقال عمر أيضاً: (أَلَا إنَّ الناسَ لن يزالوا بخيرٍ ما أَتاهم العلمُ عن أكابِرهم)[2].

وقال ابن مسعود: (لا يزالُ الناس بخير ما أَخذوا العلم عن أكابِرهم، فإذا أخذوه من أصاغِرهم وشرارِهم؛ هلكوا).

وفي رواية عنه قال: (لا يزالُ الناسُ بخير ما أتاهم العلمُ من أصحاب محمد ﷺ ومن أكابِرهم، فإذا أتاهُم العلمُ من قِبل أصاغِرهم، وتفرَّقت أهواؤهم؛ هلكوا)[3].

وقال ابن مسعود أيضاً: (إنكم لن تزالوا بخيرٍ ما دام العلمُ في كباركم، فإذا كان العلمُ في صغاركم؛ سَفَّه الصغيرُ الكبيرَ!)[4].

ثانياً: تحقق النبوءة وظهور الأصاغر بكثرة وبأنماط متعددة:

قال الإمام مالك: (أخبرني رجلٌ أنه دخل على ربيعةَ فوجده يبكي، فقال: ما يُبكيك؟ أمصيبةٌ دخلتْ عليك؟ وارتاعَ لبكائه، فقال: لا، ولكن استُفتي مَنْ لا علمَ له، وظَهر في الإسلام أمرٌ عظيم! قال ربيعةُ: ولَبَعضُ مَن يُفتي هَهُنا أحقُّ بالحبسِ من السُّرَّاق!)[5].

---

(١) أخرجه قاسم بن أصبغ في (مصنفه)؛ وصحَّحه الحافظ في الفتح: ١٧/ ١٣٦ شرح الحديث (٧٣٢٠)؛ وبنحوه في جامع بيان العلم: ١/ ١٩١.

(٢) جامع بيان العلم: ١/ ١٩١.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨١٥)؛ وعبد الرزاق (٢٠٤٤٦)؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ١٩٢؛ والطبراني في الكبير (٨٥٨٩ ـ ٨٥٩٢)، والأوسط، وقال الهيثمي في (المجمع: ١/ ١٣٥): رجاله موثقون؛ وقال الألباني: إسناده صحيح، انظر: الصحيحة: ٢/ ٣١٠ (٦٩٥).

(٤) جامع بيان العلم: ١/ ١٩٢.

(٥) المرجع السابق، طبعة محققة، رقم (٢٤١٠).

فإذا كان ربيعةُ الرأي الإمام المجتهدُ الكبير يقول هذا في عصره الذهبي، حيث انتشار العلم الشرعي الغَضِّ الصحيح، وسيادة العلماء، وعلوّ كلمتهم، فماذا نقول نحن الآن؟!.

ففي عصرنا يوجد متحدِّثون عن الإسلام يتمنَّى المرء لو سكتوا فما قالوا حرفاً، إنَّ فقرهم مُدْقِع في الكتاب والسنَّة، والقليل الذي عرفوه لم يفهموه على وجهه الصحيح، وإدراكهم لتراث الأئمة المتبوعين في الفقه وغيره ضعيف، وإدراكهم للكون الذي يعيشون فيه والإنسانية التي تعمره أضعف... ولا ندري كيف أُتيح لهؤلاء التحدّث عن الإسلام، وهم دون ذلك المستوى، إن حديثهم عنه يكاد يكون ضرباً من الصدِّ عن سبيل الله[١]!.

ولا يَخدعنَّك هذا الجَمُّ الغَفير من حَمَلة الشهادات الدينية العالية، فإنَّ جمهورهم ما نال درجته العلمية إلا على محصول من المعرفة قليلِ الغَنَاء والجدوى؛ فكثيرٌ ممن يُوصَف بأنه (عالم) بالإسلام، لا يَحفظ كتاب الله أساسَ الوحي ودستورَ الإسلام، ولا يدرس سنَّة رسول الله ﷺ وهي معالم الهدى ومنار الطريق، ولا يَعرف أدبَ العرب، وهو عدَّة البيان العالي والتعبير البليغ[٢].

إنك ترى شباباً غضّاً غرورُهُم أكبر من تفكيرهم، قد تلقَّوا بعض الأحاديث يُشعلون بها خلافات مخوفةَ العُقبى.

وعلى الجهة المقابلة هناك جهود مبذولة لمطاردة الدعاة الصادقين من العلماء الأصلاء، والفقهاء الحكماء، للقضاء عليهم، وتركِ المجال للبوم والغِرْبان من الأميين والجَهَلة والسطحيين، يتصدَّون للدعوة ويتحدَّثون باسم الإسلام[٣].

---

(١) ظلام من الغرب، ص١٥١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٥.

(٣) هموم داعية، ص١٤٩ ـ ١٥٠؛ وانظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٤٧، ٥١.

وأمثلة الأصاغر الذين وثبوا على المنابر وتصدروا المجالس وتحدَّثوا للأمة باسم الإسلام؛ كثيرة متعددة الجوانب متنوعة المجالات مُرَّة الثمار، فمن ذلك:

١ ـ أهل البدع وأصحابُ الأهواء التي استشرَتْ في قلوبهم، وتجارَتْ بهم كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، وما أكثرهم في زماننا.

٢ ـ ناشئة صغار غِلمان في ميدان المعرفة، استخَفّوا بأئمة الأمة، واستطالوا في أعراض المجتهدين الكبار، وسَمُّوا أنفسَهم بـ(أهل الحديث) و(السَّلَف)، وادَّعَوا رفضَ التقليد، وأنهم يأخذون من السنَّة مباشرة، وبضاعتُهم في فقه السنَّة مُزجاة، فيهم جمودٌ يغطُّونه بدعوى الاتِّباع، وفيهم جرأةٌ على أئمة الفقه الكبار، وفيهم اعتدادٌ بأنفسهم وكأنهم المتكلّمون باسم الله ورسوله ﷺ، وفيهم سوءُ ظن بالآخرين، واشتهاءٌ للنَّيْل منهم والوقيعة فيهم... وقد كثُر هؤلاء في هذه الأيام العِجاف[١].

يتربَّصون بمخالِفهم، ويلتمسون للبُرآء العيب، ويَصِمُون هذا الإمام أو ذاك بأنه (جَهْمي، مُؤَوِّل، ضالّ، مبتدعٌ...)، وربما تجاوز بعضُهم الحدَّ فوَصَمَ بعضَ كبار الأمة بالكفر!.

وبعض (طلبة العلم) الذين لا يُحسنون إعرابَ جملة يقولون عن الأئمة المتبوعين: هم رجال ونحن رجال!.

إن المأساة عند هؤلاء خُلُقية لا علمية، وأولى بهم أن يتواضعوا لله، ويصلحوا نيَّتهم معه.

٣ ـ جَهَلةٌ يتكلّمون بغيرِ فقه في الكتاب الكريم والسنَّة المطهرة، فيَضِلُّون ويُضِلُّون كما جاء في الحديث: «**إنَّ اللهَ لا يَقبِضُ العلمَ انتزاعاً يَنتزِعُه من العباد، ولكنْ يقبضُ العلمَ بقبضِ العُلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتخذَ الناسُ رؤوساً جُهَّالاً، فَسُئِلوا، فأَفْتَوا بغيرِ علمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا**»[٢].

---

(١) انظر: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١١٧.

(٢) أخرجه البخاري وغيره؛ وانظر: تخريجه والكلام عليه في: النبوءة (١٥٦).

فهذا رجل يؤلِّف رسالة أسماها: «اللباب في فرضية النِّقاب»، فعارَضَه آخر فيما سمَّاه: «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب»! والحق بينهما وهو الاستحباب[1].

وأمثلة هذين في عصرنا كثيرة!.

٤ ـ **طائفة أغرار صغار تعدَّوا على السنّة الصحيحة وعلوم الحديث بجهل بالغ**، فأخذوا يُصحِّحون الأحاديثَ ويضعِّفونها دون أن يمتلكوا آلات هذا العلم العظيم: فأحدُهم ألَّف في تضعيف قوله ﷺ: «**عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين**»، وفي حديث تحريم المعازف، المجمع على صحتهما عند المحدِّثين.

وآخر يتعدَّى على كتاب «رياض الصالحين»، ويُضعِّف أحاديثَ كثيرة منه، قد صححها أئمة الحديث الراسخون. وأَقْدَمَ على تضعيف مئات الأحاديث الصحيحة في هذا الكتاب وغيره، في تعليقاته الجائرة على كتب الأئمة.

وثالث يقوّي الأحاديث الواهيةَ ليُثْبِت رأياً يتبنَّاه، ويردّ على مخالِفه!.

ورابع يؤلف كتاباً عنوانه: «استحالةُ دخولِ الجانّ بدنَ الإنسان» ويسمِّي نفسه هكذا: (أبو عبد الرحمن إيهاب بن حسين الأَثَري) ـ كذا (الأثري) موضة العصر ـ! ويتكلَّم في هذا الموضوع الخطير بجهل وضلال وانحراف، ولا يُقيم وزناً لأئمة السلف الذين قالوا بخلاف عنوانه؛ كالإمام أحمد والطبري والقرطبي وابن تيمية وابن كثير وابن القيّم وغيرهم، ويرميهم بالتقليد[2]!.

٥ ـ **وفريق آخر ماهرٌ في ليِّ أعناق النصوص**، وقلب الأحاديث النبوية، وتحريف الكلم عن مواضعه.

كذاك النَّفَر من الناس الذين يريدون أن يَحْجُروا على المرأة أيَّ نشاط

(١) السلسلة الصحيحة: ٢/ ٣١٠ (٦٩٥).
(٢) المرجع السابق: ٦/ ١٠٠٢ ـ ١٠٠٤ (٢٩١٨)، ١٢٠٥ (٢٩٨٣).

إسلامي، أو دعوي، أو اجتماعي، أو في ميادين الأمر والنهي والنصح للعامة والخاصة، حتى حضور الجماعة في المساجد! ويستمسكون بأخبار واهية واجتهادات ضعيفة، وأن المرأة لا تخرج من بيتها إلا مرتين: الأولى إلى بيت زوجها، والثانية إلى قبرها! ويدَّعون الغيرة ويقولون: المرأة لا ترى أحداً ولا يراها أحد.

وجمهرةٌ من علماء الدين وَضَعتْ صعوبات رهيبة أمام تعليم المرأة في شتى المراحل، ولم تستسلم إلا كارهة! بل إن جماهير من المتدينين كانت تستنكِر تعليمَ المرأة في أي مرحلة، وتعدُّ تجهيلَها من الإيمان!.

ونتيجةً لآراء هؤلاء «**الأصاغر**» فَتكَتْ بالنساء أُميَّةٌ طامِسةٌ، وأمسينَ أجساداً تُلَفُّ بالثياب، وتربَّى وراء الأبواب، فلا عِلْم ولا عمل، ولا رأي ولا نصح، ولا عبادة ولا جهاد[١]! وليس ذلك من الإسلام، بل من التقاليد التي تعنّت الناس بها حتى اعتبروها من تعاليم الدين الحنيف!.

٦ ـ **وآخرون متنطِّعون منفِّرون**، قراءاتُهم الدينية مبتورة لا تميز غَثّاً من سمين، ولا تعرف أصيلاً من دخيل، وقد اقتحموا الدعوة والفتوى وأحدثوا فوضى شديدة.

فهذا مفسِّر للقرآن يقول: إن آية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] منسوخة!.

وهذا متحدّث في السنَّة يقول: إن حديث: «**أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلٰه إلا الله**»[٢] على ظاهره! وهو جاهلٌ، ولم يقلْ أحدٌ من العلماء إن هذا الحديث على ظاهره، بل قالوا: هذا عمومٌ أُريد به خصوصٌ، وكلمةُ «الناس» تعني قوماً معينين، شرحَتْهم أوائل سورة براءة[٣].

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٢٧، ٣٠، ٣٣، علل وأدوية، ص٩٢، ٢٠٦.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: البخاري (٢٩٤٦)؛ ومسلم (٢١)؛ وابن حبان (١٧٤)، وغيرهم، وتتمة تخريجه في هامش ابن حبان.

(٣) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٩٦.

وهذا (داعية!) يدخل مسجداً، فينظر إلى المِنبر ثم يقول: بدعة! لماذا؟ لأنه من سبع درجات، ويرى أن يقف على الثالثة لا يَعْدوها.. ثم يرى المحراب فيقول أيضاً: بدعة! لماذا؟ لأنه مجوَّف في الجدار.. ثم ينظر إلى الساعة ويقول: بدعة! لماذا؟ لأنها تدق كالجرس.

وقال أحدهم ـ وهو يشتغل بالفقه ـ: يجوزُ للقُرشي أن يتزوج من يشاء من العرب أو العجم، أما القُرشية فلا بُدَّ من مراعاة الكفاءة في النسب!.

ونقول له: إن البيوت مغلقة على عوانس بائسات محرومات من الزواج، فهل هذا الكلام يحلُّ مشكلاتهنَّ[1]؟!.

٧ ـ وهناك من يتكلَّمون باسم الإسلام لا يُحسنون التوازن بين شُعب الإيمان وتنسيقها في سلَّم يكشف أعلاها وأدناها، ولا يعرفون القطعيّات والظنيَّات، ولا يُلقون بالاً لفقه الأولويات.

فترى مطَّلِعاً على جملة من علوم الدين، بيد أن إدراكه للبيئة من حوله قاصرٌ، وإدراكَه للكون والحياة أشدُّ قصوراً، ومن ثَمَّ يُصْدِر أحكاماً وفتاوى تصيب الدين في مقاتله[2].

ومنهم من يَعرض الإسلام على أنه دينُ الزُّهد والمسكنة، ويدعو للضعف والخمول، ويحبِّب للناس الفقر، ويروون في ذلك أحاديثَ فيضعونها في غير مواضعها.

٨ ـ وهناك نفر من «الأصاغر» يتملَّقون الظَّلَمة بالفتاوى الضالة، ويُداهنون فيبيعون دينَهم بعَرَض من الدنيا، ويسوِّغون الهزيمةَ قبولاً للأمر الواقع، ويستشهدون لآرائهم البائرة بآيات وأحاديث ووقائع لإرضاء السلطان.

٩ ـ ومنهم مَن لم يُؤْتَ من العلم الشرعي إلا النَّزْر اليسير، خاصة ما كان

---

(١) هموم داعية، ص٢٦، ١٣٠.

(٢) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٥٠.

متعلِّقاً بالأصول الفقهية والقواعد العلمية المستقاة من الكتاب والسنَّة وكليات الإسلام، وما كان عليه السلف الصالح من هذه الأمة، اغتروا بعلمهم فراحوا يُبدِّعون كبارَ الأئمة وأساطين العلماء وصالحي العلماء ورؤوس المصلحين الدعاة، وربما كفَّروهم بسوء فهم أو زلّة بَدَرتْ منهم[١].

فهذا يكفِّر أبا حنيفة والغزالي، وذاك يَحكم بضلال الأَشعري والأشاعرة، وآخر يتَّهم ابن تيمية، ورابع يَشتم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، وطائفة يبدِّعون جماعة التبليغ، وآخرون يَقعون في الإخوان المسلمين وسيد قطب... وهكذا.

فهذا النفر من «**الأصاغر**» يحبُّ الهجاءَ أكثر مما يحبُّ الثناء، ويُسارع إلى الخطأ ليفضَحَه أكثرَ مما يسارع إلى جميل ليمدَحَه! هذا الصنف من الناس مستهترٌ بتجريح الكبار وغَمْط فضْلِهم[٢].

إن المسارعة إلى التكفير والتبديع والتضليل دأبُ الرَّعَاع والحمقى، ويستحيلُ أن يهدي إلى الحق مَن يُحرم أخلاق الإيمان، أعني من هِمَّتُه البحث عن العيوب ورَجْم الناس بها.

والمتديِّنون المصابون بهذه الآفات لا تنجح لهم حركة، ولا تتنزَّل عليهم رحمة، لأنه لا كرامة إلا لمن أتى الله بقلب سليم[٣].

يقول ابن تيمية: (لا يجوز تكفيرُ كل مَن خالَفَ السنَّة، فليس كل مخطئ كافراً، لا سيما في المسائل الدقيقة التي كَثُر فيها نزاعُ الأمة)[٤].

يشير إلى مثلِ: مسألة كلام الله تعالى وأنه غيرُ مخلوق، ورؤية الله في

---

(١) انظر: السلسلة الصحيحة: ٧/ ١١٤ (٣٠٤٨).
(٢) علل وأدوية، ص١١٥.
(٣) المرجع السابق، ص١١٧، ١٢٤.
(٤) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٤٣٤.

الآخرة، واستواء الله على عرشه، وعلوّه على خلقِه؛ فإن الإيمانَ بذلك واجبٌ، وجَحْدَها كفرٌ، ولكن لا يجوز تكفيرُ مَن تأوَّلَها من المعتزلة والخوارج والأشاعرة بشبهة وقعتْ لهم(١).

١٠ ـ وآخرون من «الأصاغر» يتكلَّمون باسم الإسلام ويعرضونه بصورة عليلة، ويشتغلون بالخلافيات والجزئيات:

فهذا يقول: الشورى لا تقيِّد الحكمَ الفردي، والحاكم المغتصِب للسلطة لا يُقاوَم، والانحراف عن الحاكم فتنة، واعتزال الفتن إيمان، وتطليق الدنيا أساس التقوى.

وهذا يقول: العقل أعمى والتعويل على الشرع، أو الدنيا ضرَّة الآخرة ولا يمكن الجمع بينهما، أو الحديث الضعيف مقدَّم على القياس.

وهذا يقول: المرأة لا تخرج من البيت إلا إلى الزوج أو القبر، ولا يَصحّ أن تلي منصباً ما.

ومنهم مَن لا يعي شيئاً عن المال العام، والحقوق العامة للشعوب، والحديث عن الحلال والحرام والمعروف والمنكر عنده مرفوض أو لا يَخْطِر له ببال، وهناك حديثٌ آخَر يمكن التوسّعُ فيه والحماسُ له وشغلُ العامة به مثل: الصلاة بالنعل أفضل أم مع الحفاء؟ الحج مع التمتع أفضل أم مع الإفراد أو القِران؟ التراويح ثماني ركعات أم عشرون؟ القنوت في الفجر بدعة أم سنة(٢)؟.

١١ ـ وترى في ميدان الدعوة في (زمن الأصاغر) أناساً يغشون المجامع ويخاطبون العامة والجماهير بأحاديث الصفات والمتشابهات والمشكلات، ويتركون المحكمات والواضحات والكليات.

---

(١) السلسلة الصحيحة: ٧/ ١١٤.

(٢) علل وأدوية، ص٢٣٢.

فتراهم يتحدَّثون ويُناقِشون ويخاصِمون بمسائل (الفوقية، الوجه، القَدَم، النزول، دنوّ الجبار من النبي ﷺ ليلة المعراج، المعيّة، الاستواء...).

ويحدِّثون العامة بحديث غَمْس الذباب إذا وقع في الإناء، وقصة موسى مع ملك الموت عندما ضربه ففقأ عينَه، وسِحْرُ النبي ﷺ، وموقفه ﷺ من العُرَنيِّين عندما سَمَل أعينَهم . . .

قال علي بن أبي طالب: (حَدِّثُوا الناسَ بما يَعْرِفون، أَتُحِبُّون أنْ يُكَذَّبَ الله ورسولُه؟!)[1].

وقال عبد الله بن مسعود: (ما أنتَ بمحدِّثٍ قوماً حديثاً لا تَبْلُغُه عقولُهم، إلَّا كان لبعضِهم فتنةً)[2].

إن الآيات المُحكَمات هنَّ أمُّ الكتاب، فما الذي يَصرفكم عن فقهها والعمل بها، والدخول في متاهات لا معنى لها[3]؟..

١٢ ـ وهناك القُصَّاص والوعّاظ وأصحاب الأخبار والغرائب والعجائب التي يغلب عليها التهويل والكذب، يشدُّون بها أسماعَ العوام، ويأخذون بقلوبهم، فَيحقِنون عقولهم وأفئدتهم بِحُقنٍ مسمومة من الخرافات والأباطيل.

وفي زمن اليقظة الواعية والحيوية الدفَّاعة والمعرفة السليمة؛ كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقظاً إلى حدِّ الغَيرة نحو كل ما يمسُّ العقيدة والسلوك، وكان يوصي أمراءَ الجيوش بجمع الناس على كتاب الله، والإقلال من الأحاديث النبوية.

والسبب في ذلك أمران:

أولُهما: خوفه من رواية الواهيات والتُّرَّهات.

---

(١) علقه البخاري في ترجمة باب ثم ساق إسناده، رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة، (٣) باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

(٣) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٢٠.

والآخر: خوفه من عدم فهم الحديث على وجهه، واختلاف الأنظار مع اختلاف المرويات.

وقد رأينا ـ كذلك ـ أمير المؤمنين عليّاً رضي الله عنه يَرقُبُ المساجِدَ، ويتسمَّع إلى ما يُلقى بها من دروس، وقد أَمر بطردِ أعداد من القُصَّاص المتحدِّثين إلى العامة، واستبقى الحسن البصري وحده.

إن الميدان الديني مرتَعٌ خِصْب للمشعوِذين والخُرافيين، ولا يجوز أن يستخفي أولئك في لباس الوعظ والفقه، ليفسدوا الأفكار، وينحرفوا بالناشئة[1]!.

١٣ ـ ومن أعاجيب «الأصاغر» الذين شانوا التفكير الديني والدعوة إلى الله، أنهم لا يدرون قليلاً ولا كثيراً عن دساتير الحكم، وأساليب الشورى، وتداول المال، وتظالم الطبقات، ومشكِلات الشباب، ومتاعب الأسرة، وتربية الأخلاق... ثم هم لا يدرون قليلاً ولا كثيراً عن تطويع الحياة المدنية وأطوار العمران لخدمة المُثل الرفيعة والأهداف الكبرى التي جاء بها الإسلام[2].

وبعضُهم يدَّعي أنه يحبّ السَّلَف، وهو ماضٍ في سبيلهم، لكنك لو سألتَه: ماذا تعرف عن سياسة الحكم عند السلف؟ وسياسة المال؟ وسياسة الدعوة؟ وسياسة المجتمع؟ وسياسة الحرب والسلام؟ لم يأتِ بطائل!..

وهذه القضايا الخمس كانت واضحة الدلالة في نفوس أسلافنا، كانوا يُعْرَفون بها في أرجاء الدنيا[3].

•• هذه أمثلة للأصاغر الذين غزوا ساحات العمل الإسلامي، فتحدَّثوا باسم الإسلام.

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٤٧.

(٢) هموم داعية، ص٢٥.

(٣) جهاد الدعوة، ص١٨٠.

وكل نوع منهم قد يتفرع عنه أنماط ونماذج، وهم في الجملة تصديق واضح لقول النبيِّ ﷺ، وحُقَّ للقاضي عبد الوهاب المالكي أن يتوجَّع وهو يراهم عاليةً شاراتُهم مسموعةً أصواتُهم؛ فيقول:

متى يَصِلُ العِطاشُ إلى ارتواءٍ إذا اسْتَقَتِ البحارُ من الرَّكايا
ومَن يَثْنِي «الأصاغِرَ» عن مُرادٍ وقد جَلَسَ «الأكابرُ» في الزَّوايا
وإنَّ ترفُّعَ الوُضَعاءِ يوماً على الرُّفَعَاء من إحدى الرَّزَايا
إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي فقد طابَتْ مُنَادَمةُ المَنَايا

وسطوع أسماء هؤلاء ليس لعُقمٍ في أرحام الأمة أن تنجب الأكابر، ولا لتخاذلٍ من الأكابر الذين يُركَن لرأيهم ويُسمع لقولهم، فالعلماء الراسخون كثيرون في تاريخنا الممدود القديم والمعاصر، لكنَّ فسادَ الحكم وائتمارَ الحاقدين وكثرة المفسدين والمتملِّقين؛ قد طَوى أسماءَ أولئك الجهابذة، وأهانَ تراثهم، وكَتَم أصواتهم، وحَجَب ظهورهم، وقدَّم عليهم مَن لا يساوي قُلَامة أظفارهم، فسهَّل لهم سُبل الخطابة والمحاضرة والندوة والكتابة والفتوى، في مختلِف المنتديات والمنابر والصحف ووسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمنظورة، حتى أصبحوا «نجومَ الشاشة» المتحدِّثين باسم الإسلام!.

ثالثاً: وبعد:

إننا بحاجة إلى دعاة باسم الإسلام ومتحدِّثين عنه، ينشرون هَدْيه بين الناس على طريقة النبيِّ ﷺ الذي أَنْعَش بسنَّته جماهيرَ كانت في غيبوبة، وأطلَقها تسعى بعدما أضاءها من الداخل فعرفت المنهج والغاية..

إننا بحاجة إلى شعاع على مسار الدعوة وحقيقة السنَّة، فكم ظُلم الإسلام ممن يتشدّقون به[1].

بحاجةٍ إلى رجال يتصدَّرون المجالس راسخي الإيمان، واسعي الفقه،

(١) هموم داعية، ص٢٧.

شديدي الثقة بدينهم وأمتهم وأنفسهم، يُحسِنون الدفاعَ عن رسالتنا وأمتنا، ويجيدون عرضَ مبادئ ديننا العظيم.

بحاجة إلى رجال يعرفون تماماً فقهَ الأولويات، والتنسيقَ بين شُعَب الإيمان، فإن النِّسب في عناصر الغذاء المادي لا بدَّ من رعايتها، وكما أنَّ إهمالَ عنصر ما أو استبعادَه مرفوضٌ، فإنَّ شُعَبَ الإيمان كالعقاقير التي يتكون منها الدواء، لا يتمُّ الشفاء إلا بتجميعها كلها[1].

بحاجة إلى متحدِّثين باسم الإسلام يكون راسخاً في قلوبهم، وواضحاً في أساليب بلاغهم؛ أن الفقه في الدين يعني فهمَ العبادات والمعاملات والأخلاق والسياسات وشرائع الله في الدنيا وما بعد الدنيا.. كما يتطلَّب حِذْقاً في فهم الحياة، فإن الجهل بالحياة يَحُول يقيناً دون تطبيق أحكام الله عليها.

بحاجة إلى متحدِّثين بالإسلام عندهم عقلٌ يغلِب الهوى، ويقينٌ يهزِم الإلحاد، وإدراكٌ يضمُّ إلى فقهِ الآخرة فقهَ الدنيا، بل يعلمُ أن الآخرة لا تُنال إلا بوسائل صحيحة، هذه الوسائل الصحيحة لا يستجمعها جهولٌ بالحياة والأحياء[2].

ونريد من هؤلاء المتحدِّثين باسم الإسلام إشاعةَ ثقافة تجمِّع ولا تفرِّق، وتوحِّد ولا تشتِّت، وترحمُ المخطئَ ولا تتربَّص به المهالك، وتقصِد إلى الموضوع ولا تتهارش على الشكل.

ونريد «إلجامَ الرَّعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومُشْكِل الآثار»[3]، لمنعِ الصِّغار عن مناوشة الكبار، وإشغالِهم بما يَصلحون له من أعمال تناسب مستوياتِهم، وتنفع أمتهم بهم.

---

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٤٩.

(٢) ظلام من الغرب، ص٢٣٧، ٢٧٣.

(٣) عنوان كتاب تمنَّى الشيخ محمد الغزالي تأليفه، محاكاة لكتاب الإمام حجة الإسلام الغزالي: «إلجام العوام عن علم الكلام».

وإنه لا بدَّ من محوِ الفوضى الفكرية والفقهية والدعوية، وإعادة الرشد إلى حياتنا الثقافية، وتمكين أولي الألباب من عَرْض الإسلام دون تحريف ولا مغالاة، ودون قصور ولا فوضى.

ولا بدَّ من إبعاد العقول المُلتاثة عن علم الكتاب والسنَّة، ولا بدَّ من تنقية منابعنا الثقافية، حتى تروج أقوالُ الأئمة العباقرة، وأهل الذكر، والراسخين في العلم، وتستخفي أقوال المعلولين، والأصاغر، وأذناب السلطات، وأشباه العوام[١]!.



(١) علل وأدوية، ص٩٤، ٢٣٥، ٢٥٥.



إخبار النبي ﷺ

عن زمان يكون فيه:

ـ قلّة الفقهاء والمعطين والأمناء

ـ وكثرة الخطباء والسُّؤَّال والأمراء والقرَّاء

ـ والتفقه لغير الدين

ـ والتماس الدنيا بعمل الآخرة

ـ والعلم خير من العمل

عن زيد بن وَهْب قال: سمعتُ عبدَ الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: (إنَّكُم في زمانٍ كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ خطباؤه، قليلٌ سُؤَّالُه، كثيرٌ مُعْطُوه، العملُ فيه قائدٌ للهوى. وسيأتي من بعدِكم زمانٌ قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ خطباؤه، كثيرٌ سُؤَّالُه، قليلٌ مُعْطُوه، الهوى فيه قائدٌ للعمل. اعلَمُوا أنَّ حُسْنَ الهَدْي في آخرِ الزمان خيرٌ من بعضِ العمل)[1].

وعن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كيفَ أنتُم إذا لَبِسَتْكُم فتنةٌ يَهْرَمُ فيها الكبيرُ، ويَرْبو فيها الصغيرُ، ويتخذُها الناس سنَّةً، فإذا غُيِّرتْ قالوا: غُيِّرتِ السُّنَّة! قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكم، وقَلَّتْ فقهاؤُكم، وكَثُرتْ أُمراؤكم، وقَلَّتْ أُمناؤكم، والتُمِسَتِ الدنيا بعملِ الآخرة).

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٩)؛ وقال الألباني: إسناده جيد. انظر: الصحيحة: ٧/ ٥٧٦ حديث (٣١٨٩)، والحاشية التالية.

وفي رواية: (إذا ذَهَبَتْ عُلَماؤكم، وكَثُرَتْ جُهَلاؤكُم، وكَثُرتْ قرّاؤكم، وقَلَّتْ فقهاؤكم، وكَثُرَتْ أُمراؤكم، وقلَّتْ أمناؤكم، والْتُمِسَتِ الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّهَ لغيرِ الدين).

وفي رواية ثالثة: (وتُفُقِّهَ لغيرِ الله)، وفي رابعة: (وتُفُقِّهَ لغيرِ العمل)[1].

❁ ❁ ❁

أولاً: بين يدي النبوءة:

هذه أحاديث جليلة عظيمة يخبر فيها النبي ﷺ بوقوع أمور خطيرة في أمته، منبِّهاً عليها ومحذِّراً منها، وآمِراً وموجِّهاً إلى معالجتها والخروج بالأمة من عقابيل انتشارها، وتشتمل على ستة عشر أمراً، وهي:

١ ـ قلَّة الفقهاء.

٢ ـ ذهاب العلماء.

٣ ـ كثرة الجُهلاء.

---

(١) أخرجه مالك: ١/ ١٧٣؛ وعبد الرزاق (٢٠٧٤٢)؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٩٩؛ والدارمي (١٨٥) و(١٨٦)؛ ونعيم بن حماد في الفتن (٥٠) و(٦٨)؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ٢٣١؛ والداني (٢٨١) و(٣١٧)؛ والحاكم: ٤/ ٥١٤ ـ ٥١٥؛ وابن وضاح في البدع، ص٨٩؛ واللالكائي في أصول الاعتقاد (١٢٣)؛ واختصره أبو خيثمة زهير بن حرب في كتاب العلم (١٠٩)، كلهم أخرجوه موقوفاً على ابن مسعود؛ وأخرجه أبو نعيم في الحلية: ١/ ١٣٦ مرفوعاً، وقال: والمشهور من قول عبد الله موقوف.
والروايتان الأولى والثانية للدارمي، والثالثة لابن عبد البر، والرابعة لأبي نعيم. والحديث بمجموع طرقه صحيح، وقد صححه الذهبي في تعليقه على المستدرك على شرط الشيخين؛ وصحَّحه الحافظ في الفتح: ١٣/ ٦٢٠ شرح الحديث (٦٠٩٧)؛ والألباني في الصحيحة (٣١٨٩)، وصحيح الترغيب: ١/ ٤٧ (١٠٦)، والعلم لأبي خيثمة. وهو حديث موقوف، قال الحافظ: (سنده صحيح، ومثلُه لا يُقال من قِبل الرأي). فلهُ حكمُ الرفع، لأنه ليس من الأمور الاجتهادية، بل فيه إخبار بأمور غيبية ستقع، وقد وقعت كما جاء في الحديث.

٤ ـ كثرة الخُطباء.

٥ ـ كثرة القُرَّاء.

٦ ـ كثرة الأمراء.

٧ ـ قلة الأمناء.

٨ ـ كثرة السُّؤَّال.

٩ ـ قلة المُعطين.

١٠ ـ الهوى قائد للعمل.

١١ ـ حسن الهدي خير من بعض العمل.

١٢ ـ الفتنة والبدعة تصبح سنَّة.

١٣ ـ الفقه لغير العمل.

١٤ ـ الفقه لغير الله.

١٥ ـ التُمست الدنيا بعمل الآخرة.

١٦ ـ يَرْبو الصغير ويَهْرَم الكبير.

وقد وقع ذلك كله في زماننا، وتحقق مصداقُه بصورة مخوفة، وواقع حال المسلمين برهان واضح لصدقِ ما أَخبر به رسول الله ﷺ في هذه النبوءة العظيمة.

ـ **والفتنة**: ابتلاء واختبار وشدة ومحنة واضطراب في الموازين واختلال بالقيم، تصهرُ الناسَ وتبلو أعمالَهم، وتميز الغَثَّ من السمين والخبيثَ من الطيب، ليَهْلِك مَن هَلَكَ عن بَيِّنة، ويحيا من حَيِّ عن بيِّنة.

ـ **يربو الصغير**: أي يرتفع مقداره، وتعلو كلمته، وتوسَّد الأمور إليه.

ـ **يَهْرَم الكبير**: أي تضعُف منزلته، وتَذْبُل مكانته، وتتوارى كلمته، ويتراجع إلى الصفوف الخلفية القهقرى.

ـ **ويَتَّخِذَها الناسُ سنّةً**: أي الفِتنة واختلال الموازين والبدعة تصبح طريقاً بارزاً عالي الكلمة، يَنهجه الجمهور ويتبعه الجَمُّ الغَفير مع مخالفته للشرع؛ فإذا غُيِّرت ووَضَح الحقُّ فيها، وقيَّض الله لها مَن يُزيلها؛ أجاب الناسُ: إن هذا منكر! مع أنهم في ضلال وباطل، والعدل تغييرها ليرضى الله ورسوله.

ـ **وتُفُقِّه لغيرِ الدين**: أي أصبح تعليمُ الفقه لغير وجه الله، ولغير العمل به، بل يُتَّخَذ سخريةً وجدالاً، ويُطلب للوظائف، ويكون المتصفون بالعلم أسبقَ الناس إلى هدم مبادئه، وأسرعَ الناس إلى المعاصي، وهناك تزول الثقةُ بين العالم ومن يريد أن يتعلّم، وتتصف القيادة بالضعف والخمول والشك.

ـ والتُمِسَت الدنيا بعمل الآخرة: أي يتزيَّن طالبو الدنيا بالصلاح والتقوى، ويُنادُون بالإرشاد إلى العمل الصالح؛ رجاءَ كسبِ المال من وجوه الخِداع والمكر والغش[١].

ثانياً: واقع حال الأمة الآن وتحقق مصداق كل ما جاءت به هذه النبوءة:

١ ـ ٢ ـ قلّة الفقهاء وذهاب العلماء:

فالعلماء العاملون والفقهاء الراسخون هم الذين يؤصِّلون الأفكار السليمة، ويبنون النفوس القويمة على المناهج الصحيحة، ويستجيشون العواطف ويحركون القلوب، وينشرون ثقافة تصنع أجيالاً قادرة على المحو والإثبات، وتحترم الحقائق، وتعشق الفضائل، وتصيغ عقولاً موَّارة بالعطاء، ترتفع إلى مستوى الشمول في القرآن الكريم، وتتواءم مع عالمية الإسلام وانتظامه لكل ميادين الحياة.

---

(١) انظر: تعليق مصطفى محمد عمارة على الترغيب والترهيب: ١/١١٧ ـ ١١٨.

فأين أمثالُ فقهاء الصحابة العظام، والتابعين الكبار، وأئمة المذاهب المتبوعين، وتلاميذهم الأفذاذ؟..

وأين نظراء الليث بن سعد والأوزاعي وسفيان الثوري وزُفَر ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الله بن شُبْرُمَة، ومن سار في هذا الميدان؟..

وأين أندادُ أبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي ومحمد أبو زهرة وناصر الدين الألباني وأحمد شاكر وعلي الطنطاوي ومصطفى الزرقا والطاهر بن عاشور وعلي الخفيف ومحمد الغزالي وعبد العزيز بن باز وعبد الفتاح أبو غدة، وطائفة قليلة من أمثال هؤلاء الأكابر ممن قُبضوا؟.. إنَّ نظراءَهم قليل!..

(ويؤلمنا أن هناك أزمةً مخيفة في علماء الدين واللغة، وأن بقاياهم تنقرض دون عوض ظاهر! وقد كان أولئك العلماء كثرة في العصور المتقدمة، وما ضَرَّهم أن الحكومات تنكّرتْ لهم، بل كان ذلك في نظر الجماهير شرفَهم الباذخ، ثم بدؤوا يقلُّون كَمّاً وكيفاً).

لقد جاء دور أنصاف العلماء، بل شبه العلماء، وكثير منهم اغترَّ بحمل ألقاب الشهادات العليا (الدكتوراه)، لهم في كتب الدين قراءات مبتورة، لا تميز غَثّاً من سمين، ولا تعرف أصيلاً من دخيل، واقتحموا ميادين عديدة وأحدثوا فوضى شديدة[١].

إن كثيراً ممن يُقَدَّمون للأمة على أنهم علماء، هم في أرفع ما يمكن أن نَصِفَهم به أنهم (طلبة علم)، فهم ليسوا من أولئك العلماء الراسخين الموسوعيين، فترى أحدهم ماهراً في الأحاديث وقبولها وردِّها، لكن بصره بالقرآن عَليلٌ وبالعربية كليلٌ، وبعلوم أخرى لا يدري عنها شيئاً! وترى مفسِّراً يجيد إعرابَ الجمل واستنباطَ بعض الأحكام، مع غفلة شديدة عما صحَّ من سُنن في القضايا التي يعالجها! وقد ترى مطّلعاً على جملة من علوم الدين، بيد أن

(١) سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص٩٥، ٩٦.

إدراكه للبيئة من حوله قاصر، وإدراكه للكون والحياة أشدّ قصوراً، ومن ثَمَّ يُصدِر أحكاماً وفتاوى تسيء للدين وللمسلمين.

أما في ميادين التقدّم العلمي والحضاري، فالشكاة إلى الله في أمرهم، لأنهم في منأى عنها وجهل مُطْبِق بها.

وفي مجالات الدعوة يَنقصُهم فقه كبير في قيادة الجماهير، والأخذ بأيديهم إلى الله، وتبصيرهم بالصراط المستقيم، وهدايتهم إلى الدين الحق بالحسنى والصبر والثبات ومعاونتهم على الرشاد.

إن هؤلاء العلماء معلِّمون ومذكِّرون، ونجاحُهم الأكبر أن يُعْطِفوا قلباً على الله، ويردُّوا شارداً إلى مولاه، وواجبٌ عليهم غرسُ تعاليم الإسلام وآدابه في أوقات العمل والفراغ، وفي العلاقات الخاصة والعامة[1].

والعلماء الفقهاء الدعاة الذين يتصفون بهذا قلَّة في هذا الزمان.

٣ ـ كثرة الجهلاء:

وهذا ظاهرٌ متفشٍّ في مجتمعاتنا، وترى ذلك في جميع قطاعات المجتمع وشرائح الناس، فجمهرةٌ عريضةٌ من المتعلّمين والمثقفين وحتى حَمَلَة الشهادات العليا من غير الدارسين للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية ـ يجهلون الكثيرَ من أمور دينهم وشؤون العبادات وآداب الإسلام وأحكامه ومبادئه وتفصيلاته.

والجَمُّ الغَفير من عامة المسلمين على جهل محزن بدينهم وأوامره ونواهيه وفرائضه وواجباته وأحكامه وآدابه وتوجيهاته! وكثرةٌ غامرة في الأمة لا يتحقق عندها الأنصبة الضرورية من معارف الإسلام وما تقوم به حياتهم وأعمالهم وفقاً لهديه ومنهجه! وترى الجهلَ المتفشي حين تدخلُ مساجدَ المسلمين وتراقب صلواتهم، أو تتطوف بينهم وتُنصت إليهم وتراهم وهم يؤدون فريضة الحج، أما غيرها من شعائر الإسلام وعباداته ومعاملاته فأمر المسلمين فيها ذو شجون!.

---

(١) جهاد الدعوة، ص٦٦؛ كفاح دين، ص١٩٤.

وأما الأمية وعدم معرفة القراءة والكتابة وتوابع ذلك، فأمتُنا ـ للأسف ـ تحظى بأرقام قياسية في هذا الميدان من بين أمم الأرض، ترى هذا في أمة أول كلمة خُطَّت في رسالتها هي كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾، ومعجزتُها الكبرى الدائمة هي «القرآن»!..

٤ ـ كثرة الخطباء:

ويشتمل ذلك ـ فيما أَحْسِب ـ كلَّ الذين يرتادون المنابر المتنوعة، وتصل أصواتهم عبرها للجماهير بحق أو بباطل.

والحق أن هؤلاء كثيرون كثرة تفوت الحصر، ويبلِّغون رسالاتهم عبر منابر المساجد والإذاعات والتلفاز والإنترنت والندوات والمحاضرات، و(أشرطة التسجيل) و(الأقراص المضغوطة)، والصحف والمجلات والكتب.

وهم ينتظمون في فريقين كبيرين: خطباء هداية، وخطباء فتنة.

أما خطباء الفتنة: فأصنافُهم عديدة، ونماذجهم كثيرة، وميادينهم متنوعة، وهم الدعاة على أبواب جهنم، وقد تحدّثنا عنهم وذكرنا أمثلَتَهم في نبوءة سابقة[1].

وأما خطباء الهداية: فكثيرون أيضاً، وجمهرةٌ عريضة منهم يفتقرون للأساليب الجذَّابة، والكلمة الواعية، والبرامج الهادفة، والمناهج البناءة، والعلم الشمولي الراسخ، والحكمة الحاضرة، واللغة المتينة. ويغلِب على طائفة منهم الارتجال والمجازفات، والأحاديث المكررة، والوعي القاصر، وعدم الإحاطة بظروف الناس وتقلّبات الأمم والأزمان.

وخطبةُ الجمعة تدعو ـ في الأغلب ـ للرِّثاء، فقد خضعت لهيمنةِ السلطان ورقابته، والكثيرُ منها يُقرأ على المسلمين من أوراق مرَّ عليها قلم الرقيب،

---

(١) انظر: النبوءة (٨٣ ـ ٨٤).

ومحتواها يعرفه غالباً عامة السامعين من كثرة تكراره، وفي أحايين كثيرة تعالج مواضيعَ لا تمتُّ لواقع الناس بصِلَةٍ!

فكثرة خطباء الهداية أمر طيِّب ومطلوب لو كان في المسار الصحيح الذي يرضي الله ورسوله، ويرشدالأمة، ويبني الأجيال.

٥ ـ كثرة القرّاء:

وهذا أمر مشهود معروف منتشر في كل بلاد الإسلام، لكن كثيراً منهم يُقيمون حروفه ويجيدون تلاوته، بَيْدَ أنهم لا يفقهون أحكامه ولا يعملون به.. بل إن منهم من يتأكَّل بتلاوته، ويتقدَّم للناس ليغنِّيَهم ويسلبَ لُبَّهم بنداوةِ صوته وإتقان تجويده، ويستدرّ من ورائه الأموالَ والأرزاق والهبات والثناء والتصدُّر في المجالس والحفلات وسواها.

وقد جاء الوصف هنا (كثرة القرّاء) في موضع الذَّمِّ والتحذير، فبوَّب له الدارمي: (باب تغيُّر الزمان وما يحدُث فيه)، وابن عبد البر: (باب ذَمّ الفاجر من العلماء، وذمّ طلب العلم للمباهاة والدنيا)، والمُنذِري: (الترهيب مِن تعلّم العلم لغير وجه الله تعالى)[1].

وذكره عبد الرزاق وابن أبي شيبة في «الفِتن» من «مصنَّفَيْهما»، والداني في كتابه «السنن الواردة في الفتن وغَوَائلها»، والحاكم في «الفتن والملاحم» من «المستدرك».

ولو كانت الكثرة مع العلم والفهم والعمل والإخلاص، لكان ذلك مفخرة أي مفخرة[2]!.

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ٧٥ (١٨٥، ١٨٦)؛ جامع بيان العلم: ١/ ٢٢٩ ـ ٢٣١؛ الترغيب والترهيب: ١/ ١١٥ ـ ١١٨.

(٢) انظر: التفصيل في: النبوءة التالية رقم (١٥٥).

٦ ـ كثرة الأمراء:

وهذا في واقع أمتنا لا يحتاج إلى شرح وبيان، يعرفه العالم والجاهل، ويدركه الكبير والصغير... فما أكثَر الرؤساء والملوك والزعماء والأمراء في بلادنا!.

لقد أعادوا التاريخَ الحالك لملوك الطوائف، وصَدَق فيهم ما قاله الشاعر في أسلافهم:

وتفرَّقوا شِيَعاً فكلُّ مدينةٍ   فيها أميرُ المؤمنينَ ومنبرُ

وقد مرَّ في كتابنا هذا شيء كثير من التفصيل حول ذلك في «الفصل الرابع»[(١)].

٧ ـ قلّة الأمناء:

والأمانة في ديننا رَحْبة الأرجاء، واسعة المعاني، متعددة المجالات، شاملة لكثير من شؤون الحياة ومناشط الإنسان وليست قاصرة على «الودائع» كما يفهمه العامة ويسعى البعض إلى ترسيخ هذا المفهوم الضيِّق المحدود.

فكلُّ إنسانٍ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيته: فالعمل والوظيفة والحرفة والصنعة أمانة يجب تجويدها، والتقصير فيها خيانة. والحواس والمواهب أمانة، والأموال العامة والخاصة أمانة، والأولاد أمانة، والمجالس وحُرمتها أمانة، والكلمة والعلم والقلم والكتابة أمانة، والدين أمانة، والبلاد أمانة، والأعراض، والودائع، والدماء والأنفس، وثروات الأمة؛ أمانة. والمنصب الكبير والصغير أمانة.. كل ذلك وما في معناه أمانة، ومَن يقصِّر فيه، أو يُخاتِل أو يراوغ؛ فهو خؤون يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة.

ولو نظرتَ متأمِّلاً حالَ أمتنا ترى ضياعَ كثير من الأمانات الخاصة والعامة، والتفريط الكبير بما حمله الإنسان من أمانة، فلقد انتشر الخونةُ وعَمَّ بلاؤهم

---

(١) (نبوءات في الخلافة والملك)؛ وانظر: بخاصة النبوءة (٦٨).

السهلَ والجبل، بدءاً من المستويات الصغيرة الدنيا في الشركات والمؤسسات والبلديات حتى رأس الهرم في الوزارات وما فوقها.

ومَن يسمع ويبحث ويتدبَّر ما ابتُليت به أمتُنا من أنواع الخيانات في انتهاب الثروات والأموال، والتفريط بحقوق الأمة ـ يجد ما يَشيب له الصبيان! حتى إن الأمين الصدوق في موقع من المسؤولية الصغيرة أو الكبيرة هو كالقابض على الجمر وسط غابة من منتهكي حرمة الأمة، المفسدين في الأرض.

حقّاً إن أحوال أمتنا كما أخبر النبيُّ ﷺ في قوله: «**وقَلَّ أمناؤكم**».

٨ ـ كثرة السُّؤَّال:

وقد انتشر المتسوِّلون الذين يتكفَّفُون الناسَ ويسألونهم الصدقةَ والعطاءَ في العالم العربي، وهؤلاء صِنْفان:

أحدُهم: أحوَجَتْه الظروف القاهرة والملمَّات التي نَزلتْ به أن يَستعطف الناس ويَستجديهم، نتيجة كوارث حَلَّتْ به وبقومه، بيد أنه لا تحِلُّ له المسألة ما دام قادراً على العمل ولو أن يَحتطِب حملاً من الحطب فيبيعه ويتعفَّف بثمنه عن ذُلِّ المسألة.

والصنف الثاني: قد اتخذوا من التسوُّل مهنةً رابحة، فذَلَّتْ أنفسهم لها واعتادوا عليها، وجنَّدوا لها النساء والولدان! وهؤلاء يجب مطاردتُهم في المجتمع، وحلُّ مشكلاتهم بطرق قويمة.

وقد نَفَّرَ الإسلام من هذا المسلك الشائن؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سألَ الناسَ وله ما يُغْنِيه، جاءَ يومَ القيامةِ ومسألتُه في وجْهِه خُموشٌ أو خُدوشٌ أو كُدوحٌ**» قيل: يا رسول الله، وما يُغْنِيه؟ قال: «**خمسونَ درهماً أو قيمتُها من الذهب**»[1].

(١) أخرجه أبو داود (١٦٢٦)؛ والترمذي (٦٥٠)؛ والنسائي في الكبرى (٢٣٨٤)، وفي الصغرى: ٥/ ٩٧؛ وابن ماجه (١٨٤٠)؛ وأحمد: ١/ ٣٨٨، ٤٤١؛ والحاكم: ١/ ٤٠٧، وقال الترمذي: حديث حسن؛ وصحَّحه الألباني في صحاح السنن، والصحيحة (٤٩٩).

وأما ما رُوي: «**للسائلِ حقٌّ وإنْ جاءَ على فرسٍ**»؛ فحديث ضعيف[1].

٩ ـ قلّة المُعطين:

وهذا واضح منتشر في زماننا لا يحتاج إلى مزيد بيان، فمعَ كثرة الأخيار والمُنفِقين سِرّاً وجهراً، ومع وجود الجَمِّ الغَفير من أصحاب العطاء المستمر ذوي الأكفّ النَّدِيّة المبسوطة بالعطاء والبذل ومَسْحِ ذلِّ الحاجة عن وجوه المحتاجين وذوي المَسْغَبَة، إلا أن هناك قَبيلاً كبيراً من المسلمين قد شحَّتْ أنفسُهم وانقبضَتْ أيديهم وغُلَّت إلى أعناقهم، وبخاصة من ذوي الغنى والثراء العريض، فلا تبذل معروفاً ولا تُنفِق درهماً ولا تَلِجُ واحداً من ميادين الخير والإنفاق، وهم أكثر من المُنفقين المتصدقين، بحيث يبدو هؤلاء قلة أمام أولئك الأَشحَّة على الخير!.

ولو أنَّ أغنياء المسلمين بَسَطوا أيمانَهم بإخراج الزكوات المفروضة، وسابقوا إلى الصدقات المندوبة؛ لَمَا وجدنا في الأمة محتاجاً ولا مسكيناً ولا فقيراً، ولعاشَ الجميع في سَعَةٍ من العيش وتواؤمٍ وتراحمٍ، ولاختفَى في مجتمعاتنا ذلك الفريق من السُّؤَّال.

لكن كثُر في زماننا الكَنَّازون، وقلَّ المُعطون، وللكانزين الأَشحَّاء موقفٌ مرهوب في مشهد يوم عظيم، حيث تُسلَّط عليهم أموالُهم وكنوزُهم فَيُحمى عليها في نار جهنم فيُكْوَوْنَ بها، وتطارِدُهم في عَرَصات القيامة على هيئة ثعابين فتّاكة، فتقضِم أيديهم التي شَحَّت بالعطاء والنفقة، والجزاء من جنس العمل.

١٠ ـ الهوى قائد للعمل:

هذا الصنف من الناس منتشر في حياتنا الاجتماعية والسياسية، وفي المعاملات المادية والبيوع والشراء والعلاقات بين الناس، من نفاق في المظهَر، وخُبْثٍ في المخبَر، ومعسول الكلام والمداهنة والتلاعب والكذب والغش

---

(١) ضعيف الجامع (٤٧٤٦)؛ والضعيفة (١٣٧٨).

والخداع والتزلُّف والمراوغة والتلوُّن بألوان مختلفة حسب مقتضى الحال؛ ليفوز بمنصب، أو يقتنص مالاً، أو يحقق رغبة، أو يصل إلى غاية، أو يتحاشى خسارة، أو يسطو على غنيمة!.

وما أكثرَ أهواءَ النفوس وأمراض القلوب ووساوس الأنفس، التي توجِّه أصحابها في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم لتحقيق ما يرغبون، دونما إخلاص وصدق وتجرُّد ونُصْح في جميع أحوالهم، وهذا ما أفسدَ عليهم دينَهم ومعاشهم وأَضَرَّ بهم وبالناس أجمعين.

١١ ـ حسن الهدي خير من العمل:

وهذه الصفة قد تنطبق على كثير من الأصناف التي تقدَّمتْ، من الجُهلاء والقرَّاء والأمراء والخونة والسُّؤَّال وأصحاب الأهواء.

يتظاهرون بالهدي الحسن، والعمل الصالح، والمظهر الجميل، والهيئة الحسنة، التي تطغى على بواطنهم وتُخفي وراءها سوءَ أعمالهم.

إن في مجتمعاتنا مرضاً عُضالاً غشَّى على أعين الكثيرين وغطَّى على بصائرهم، فاغتروا بالمظاهر الحسنة والأبَّهة الفارغة والهالات البراقة التي يحيط الكثيرون أنفسهم بها.. أما الأعمال فضعيفة، والإنجازات ضئيلة، بل كثيراً ما يدمِّر هؤلاء الأشغال والأعمال والوظائف والتبعات التي أُنيطت بهم.

١٢ ـ البدعة أصبحت سنَّة:

ومن البلاء الذي مُنِي به المسلمون في هذه الأعصار تغيُّرُ الزمان وفسادُ الأحوال، وأن الفتن لَبستِ الناسَ واجتالَتْهم، فارتفع الصغير وانخفض الكبير، واستُحدِثت أمور وسادت فتن، انقلَبتْ فيها الموازين واضطربت المقاييس، حتى أصبح المعروف منكراً والبدعة سنَّة!.

فإذا وَضَح الحق واستبانَ السبيل وقيَّض الله من عباده مَن يَقمع البدعة ويُزيل المنكر؛ ثار عامة الناس في وجهه وأنكروا فعله، وادَّعَوا أنه يريد تغيير السنَّة التي درجوا عليها، مع أنهم على خطأ أو في ضلال وباطل!.

وقد انتشرت في زماننا البدع وأَلِفَها الناس حتى أصبحت كأنها سُنن، وتفشَّت المنكرات وأضحت معروفة مألوفة بيننا، تجدُ ذلك في حياتنا السياسية والاجتماعية والآداب والمعاملات والشعائر والتعبُّدات والأعراس والأحفال. . .

فلو أن مسلماً أَنكر على المؤذِّن الجهرَ (بالصلاة على النبي ﷺ) موصولة بالأذان، لقامَ عليه عامة الناس وظنوا به أنه لا يحب رسول الله ﷺ ويكره الصلاة عليه.

ولو قلتَ للناس: إن الجلوسَ عند رأس الميت بعد أن يُرمس في قبره وقراءةَ سورة «يس» عليه وتلقينَه بعض العبارات ـ لم يَرِدْ ذلك في السنَّة، لغاضَبَك عامة الناس واستهجَنوا قولك.

ولو أن رجلاً مات أبوه أو أمه أو غيرهما ممن يَمُتُّ له بقرابة قريبة، ولم يقدِّم للناس الطعام، أو تَرَكَ شعائر (الأربعينية)، لأنكر كثيرون عليه ذلك وظنوا أنه ترك السنَّة.

ولو قلتَ للنساء: لا يجوزُ خروجكنَّ بملابس الرجال كالبنطال ونحوه؛ لَهَبَّ المجتمع في وجهك، وكأنك تريد تغيير السنَّة، أو قالوا لك: قولك هذا منكر!.

وإذا نصحتَ بعض (علماء السلطان) وذكَّرْتَهم بأنه ليس من هدي سلفنا الصالح مداهنة الحكام والركون إليهم والسكوت عن مجابهتهم أو مناصحتهم ـ لَعَدُّوكَ من الأغرار، ووصفوا مسلكهم بأنه سياسة شرعية ورفق بالسلطان.

ولو أنك أنكرتَ الرِّشوة، وابتزازَ المسؤولين لمناصبهم، والاختلاط في المدارس والجامعات والأعراس والحفلات. . . ولو فعلتَ كذا. . . وقلت كذا. . . لقالوا: إنك تفعل وتقول المنكر، وتريد تغيير السُّنَن.

لقد وقع ما أَخبر به ﷺ سواء بسواء، والأمثلة في حياتنا كثيرة جدّاً.

١٣ ـ ١٤ ـ الفقه لغير العمل والفقه لغير الله:

وقد ظهر هذا الصنف من الناس منذ عهود قريبة، وتفاقم شَرُّه في هذا العصر: فتجدُ من المحسوبين على الدين أقواماً لا ترشِّحهم معادنهم العاطفية ولا الفكرية لأداء رسالته وحمل أمانته! وترى كثيرين من المُعتنين بالفقه والدراسات الإسلامية والدارسين لها والباحثين والمصنّفين فيها؛ لا يبتغون بها وجه الله تعالى، ولا يقصدون خيرَ الإسلام وأهله، فيبحثون ويؤلِّفون ويتعلَّمون ويتفقَّهون لمجرد العلم والبحث والدرس، لا للالتزام والعمل والتطبيق، وتجد بَوْناً شاسعاً بين علومهم وواقع حياتهم ومسلكياتهم! بل قد دخل في العلوم الإسلامية فئات من الدارسين ليس عندهم أي التزام بقواعد الدين وأركان الإسلام، إنما دخلوا في مدارسهم ومعاهدهم وكلياتهم وتخصصاتهم لنَيْل الشهادات وملء الفراغ. والأَدْهى من ذلك أن تجدَ من الدارسين من يبحث في علوم الإسلام من فقه وحديث وتفسير وغيرها للتشكيك والنَّيْل من الإسلام والصدّ عن سبيله، أو لنَيْل الشهادات العليا واستلامِ المناصب والهيمنة على منابر التوجيه والتأثير... وكل ذلك من تغيُّر الزمانِ وفساد الأحوال واضطراب الموازين.

١٥ ـ والتُمست الدنيا بعمل الآخرة:

وهناك أيضاً في بلاد الإسلام في هذا الزمان أُناس محسوبون على الدين يتَّجِرون به، ويصطادون المال ويدخرونه لعاجلتهم ويذهلون عن آخرتهم، يتزيَّنون بالصلاح والتقوى، ويرتدون ملابس العلم والمشيخة، وينادون بالإرشاد إلى العمل الصالح، ويتقرَّبون من هذا السلطان أو ذاك الأمير أو أولئك الوجهاء، فيُداهنون ويراؤون، ويسكتون عن حق، ويَغَضُّون الطَّرْف عن باطل، رجاء أن ينالوا مالاً أو منصباً أو جاهاً أو مكرمة... قد اتخذوا الدين حرفة والعلم مطية لرفع خسيستهم وتحقيق مآربهم! فهؤلاء من شرار الخلق، لا يرفع الله سبحانه لهم عنده ذِكراً، ولا بين الناس منزلة، ولا يُباليهم بالةً.

١٦ ـ يربو الصغير ويهرم الكبير:

وهذا من تمام الفتنة وكبريات الدواهي التي شاعَتْ في الأمة وتفشَّت حتى أضحت داءً عُضالاً!.

لقد ارتفع الوُضَعاء، وعلا ذِكْر الصغار، وذُلِّلت لهم الأكناف ووُطِّئتْ السُّبُل، ودُفِع بهم إلى الصفوف الأمامية، فتصدَّروا المجالس، وتبوؤوا المناصب، ولانَتْ لهم المنابر، وأُلْقِيت لهم الأسماع، وتحدَّثوا باسم العامة!.

وأُهيل التراب على الكبار، وأُسْدِل السِّتار على تاريخهم وكفاءاتهم، ودُفِعوا في أقفائهم، وأُخِّروا إلى الصفوف الخلفية، فشاخَتْ منزلتُهم، وضَعُف صوتهم، وخَمَل ذِكْرهم، في زمن الرويبضة واللكعات!.

ثالثاً: وقفة تدبّر وعبرة:

إن رسول الله ﷺ الذي أرسله الله نوراً للناس، وهدايةً لهم ورحمةً بهم، ومرشداً للخيرات، ومحذِّراً من المُوبقات ـ قد أرسى قواعدَ مجتمع فذّ، وأنشأ جيلاً عظيماً فريداً، وبنَى أمة سامقة صنعتْ حضارة وقادت العالم للحق والهدى والخير.

إنه ﷺ يريد لهذه الأمة أن تبقى على نفس المنهج الذي ربَّاها عليه، وحمى خُطاها للاستمرار فيه؛ فرَسَم لها المعالم الكبرى في شتى الميادين، فأَبَانَ لها الحقَّ وركائزه ومعالمه، وحَضَّها على الاعتصام به، وفَضَح الباطل ودعائمه ومعالمه، وحذَّرها مَغَبَّتَه، وأنذرها عقابيلَ مواقعته، ومنها هذه الخصال الست عشرة التي سيقع في مَبَاءتِها جمهورٌ كبير من الأخلاف الهالكين، في ميادين: العلم والفقه، والإمارة والحكم، والآداب والسلوكيات، والأموال والمعاملات، والإخلاص والإتقان.

فمن سَلَك الطريق القويم المستقيم نجا، ومَن ارتادَ السبيلَ المعوجَّ ضلَّ وهوى.

❋ ❋ ❋

إخبار النبي ﷺ عن صنف من قرّاء القرآن يجيدون أداءه ويتخذونه مزامير ويلتمسون به المال والرفعة وعرض الدنيا

١ ـ عن سَهْل بن سَعْد السَّاعِديّ رضي الله عنهما قال: خَرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ يوماً، ونحنُ نَقْتَرِئُ، فقال: «**الحمدُ لله، كتابُ الله واحدٌ، وفيكمُ الأحمرُ وفيكمُ الأبيضُ وفيكمُ الأسودُ، اقْرَؤُوهُ قبلَ أنْ يَقْرَأَهُ أقوامٌ يُقيمُونَه كما يُقَوَّمُ السَّهْمُ، يتعجَّلُ أجْرَهُ ولا يَتَأَجَّلُه**»(١).

٢ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: دخلَ النبيُّ ﷺ المسجدَ، فإذا فيه قومٌ يقرؤونَ القرآنَ، قال: «**اقْرَؤُوا القرآنَ وابْتَغُوا به الله عز وجل، من قَبْلِ أنْ يأتيَ قومٌ يُقِيمُونَهُ إقامةَ القِدْحِ، يَتَعَجَّلُونَهُ ولا يَتَأَجَّلُونَه**».

وفي رواية: «**اقرؤوا فكلٌّ حسن**»(٢).

٣ ـ وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: (بينَما نحنُ نقرأُ، فينَا العربيُّ والعَجَميُّ، والأسودُ والأبيضُ، إذ خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ فقال: «**أنتم في خير، تقرؤونَ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٣١) واللفظ له؛ وأحمد: ٥/٣٣٨؛ والطبراني في الكبير (٦٠٢٤)؛ وابن حبان (٧٦٠) و(٦٧٢٥)؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أحمد: ٣/٣٥٧، ٣٩٧، واللفظ له؛ وأبو داود (٨٣٠)؛ والبغوي (٦٠٩)، وغيرهم، وصحَّحه الألباني؛ وشعيب الأرنؤوط وانظر تعليقه على سنن أبي داود.

كتابَ الله وفيكُمْ رسولُ الله ﷺ، وسَيَأْتي على الناسِ زمانٌ يُثَقِّفُوْنَهُ كمَا يُثَقِّفُونَ القِدْحَ، يَتَعَجَّلُونَ أُجُورَهُم ولا يَتَأَجَّلُونَها»)(١).

٤ ـ وعن عابس الغِفَاريِّ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**بادِرُوا بالأعمالِ خِصَالاً سِتّاً: إِمْرَةَ السُّفَهاءِ، وكثرةَ الشُّرَطِ، وقطيعةَ الرَّحمِ، وبَيْعَ الحُكْمِ، واستخفافاً بالدمِ، ونَشْواً يَتَّخِذُونَ القرآنَ مزاميرَ، يُقَدِّمُونَ الرجلَ يَؤُمُّهم ليسَ بأَفْقَهِهم ولا أَعْلَمِهم، ما يُقَدِّمُونَهُ إلَّا لِيُغَنِّيَهُم**»(٢).

٥ ـ وعن عِمْرانَ بن حُصَيْن رضي الله عنهما: (أنَّه مرَّ على قارئٍ يقرأُ، ثم سألَ، فاسْتَرْجَعَ، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَن قرأَ القرآنَ فَلْيَسْأَلِ الله به، فإنَّه سَيَجِيءُ أقوامٌ يَقرؤونَ القرآنَ يَسْأَلونَ بهِ الناسَ**»)(٣).

٦ ـ وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «**تَعَلَّمُوا القرآنَ، وسَلُوا اللهَ به الجنَّةَ، قبلَ أن يَتعلَّمَه قومٌ يَسْأَلونَ به الدنيا، فإنَّ القرآنَ يَتعلَّمُه ثلاثةٌ: رجلٌ يُبَاهِي به، ورجلٌ يَسْتَأْكِلُ به، ورجلٌ يَقرؤُه للهِ**»(٤).



(١) أخرجه أحمد: ٣/١٤٦، ١٥٥، وفيه ابن لهيعة، لكن يشهد له الحديثان السابقان ويتقوَّى بهما، فهو حسن لغيره.

(٢) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة والبزار وغيرهم، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، انظر: تخريجه في: النبوءات (٧٣، ٧٤، ٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩١٧)؛ وأحمد: ٤/٤٣٢ ـ ٤٣٣، ٤٣٦ ـ ٤٣٧، ٤٣٩؛ والبغوي (١١٨٣)؛ وقال الترمذي: حديث حسن ليس إسناده بذاك؛ وحسَّنه الألباني بشواهده في صحيح الترمذي (٢٣٣٠)، والصحيحة (٢٥٧)، وصحيح الجامع (١١٦٩) و(٦٤٦٧).

(٤) أخرجه ابن نصر في قيام الليل، ص٧٤؛ والبغوي (١١٨٢)؛ وعزاه الحافظ في الفتح: ١١/٣٣٣ شرح الحديث (٥٠٥٨) لأبي عبيد في (فضائل القرآن)؛ والحاكم وصحَّحه، وأقرَّه الحافظ عليه؛ وصحَّحه الألباني بطرقه وشواهده في الصحيحة (٢٥٨).

أولاً: توضيح وبيان لمدلولات الأحاديث ومعاني مفرداتها[١]:

●● (نقترئ): الاقتراءُ افتعالٌ من القراءة، وقرأ واقترأ: بمعنًى.

ـ «**يُقِيمُونه**»: أي يُصْلِحون ألفاظَه وكلماته، ويتكلَّفون في مراعاة مخارجه وصفاته.

ـ «**السَّهْم**»: عودٌ من الخشب يُسوَّى، في طرفه نَصْلٌ يُرمى به عن القوس.

ـ «**القِدْح**»: السَّهْم قبل أن يُعمل له ريشٌ ولا نَصْلٌ.

ـ «**يُثقِّفُونه**»: ثَقَّف الشيءَ: أقامَ المُعوَجَّ منه وسوَّاه؛ أي: يُبالِغون ويتكلَّفون في مراعاة مخارج الحروف والألفاظ.

ـ «**يتعجَّلُونه**»: أي: يَطلُبون بقراءته العاجلةَ من عَرَض الدنيا والرفعةَ فيها.

ـ «**ولا يتأجَّلُونه**»: أي: لا يُريدون به الآجلةَ، وهو جزاء الآخرة.

ـ «**اقرؤوا فكلٌّ حسنٌ**»: أي: فكلٌّ واحدة من قراءتكم حسنة مرجوة للثواب إذا آثرتم الآجلةَ على العاجلة، ولا عليكم أن لا تُقيموا ألسنتكم إقامة القِدْح.

ـ «**نَشْواً**»: هكذا بالتسهيل جمع ناشئ، كخادِم وخَدَم. والناشِئُ هو الحَدَثُ الذي جاوز حَدَّ الصِّغَر. يريد جماعة أحداثاً.

ـ «**مَزَامير**»: جمع مِزْمَار، وهو الآلة التي يُزَمَّر بها، وزَمَّر إذا غَنَّى.

ـ «**لِيُغَنِّيَهم**»: يقرأ القرآن بنغمات مُطْرِبة. والتغنِّي: تحسينُ القراءة وتَرْقِيقُها، وكل مَن رَفَع صوتَهْ ووالاه؛ فصوتُه عند العرب غِناء.

●● هذه الأحاديث تصِفُ أقواماً مِن قُرَّاء القرآن يتَّخذون من تلاوته حرفة ومصدراً لكسب الرزق، والمباهاة في حسن الصوت وتجويد الأداء، والمبالغة

(١) أخذت هذه المعاني من: عون المعبود: ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦؛ النهاية في غريب الحديث؛ جامع الأصول: ٢/ ٤٥٠؛ لسان العرب؛ المعجم الوسيط.

والتكلّف في مخارج الحروف، ويتطلّبون رزق الدنيا العاجل ولا يحتسبون في ثواب الله الآجل في الآخرة.

وقد أخبر الرسول ﷺ بصفة هؤلاء ونَعَى عليهم، وحذَّر من فعلهم، وحضَّ على تلاوة القرآن بلا تكلُّف وبلا مبالغة، والاحتساب في ذلك لوجه الله تعالى، كما كان عليه صحابته الكرام ﵃. فخرج ذات مرة على مجلس من مجالسهم، فوجدهم مشغولين بقراءة القرآن، فأثنى عليهم قائلاً: «**اقرؤوا، فكلٌّ حسنٌ**»، أي: فكلُّ قراءة من قراءتكم حسنة مرجوّة للثواب، إذا آثرتم الآجلةَ على العاجلة، وأخبرهم أنه سيجيءُ أقوامٌ يُقيمون حروف القرآن وألفاظه، ويجوّدونها بتفخيم المخارج وتمطيط الأصوات، يَطلُبون بقراءته العاجلةَ من عرض الدنيا والرفعةَ منها، ولا يريدون به الآجلةَ وهو ثواب الآخرة[١].

ومن هؤلاء الأخلاف مَنْ يكون كبيراً شهيراً يُشار إليه بالبَنَان في تلاوة القرآن وجمال الصوت ودقَّة الأداء والمبالغةِ في نطق الكلمات والحروف من مخارجها، ومنهم ناشئة صغار.

وهؤلاء وأولئك يؤدُّونه بالألحان، ويتَّخِذونه مزاميرَ، ويتغنَّوْن به ويتَمَشْدَقُون، ويأتون به بنغمات مُطْرِبة. وقد كَثُر ذلك في هذا الزمان، وانتهى الأمر إلى التباهي بإخراج ألفاظ القرآن عن وضعها، يقدِّمون (يعني الناس) أحدهم لِيُغَنِّيهم بالقرآن بحيث يُخرِجون الحروفَ عن أوضاعها، ويَزيدون ويَنقصون لأجلِ موافاة الألحان وتوفّرِ النغمات، وإنْ كان المقدَّم أقلَّهم فقهاً، إذْ ليس غرضُهم إلا الالتذاذَ والاستمتاعَ بتلك الألحان والأوضاع[٢].

ثانياً: أحاديث أخرى في الباب، وتحقق النبوءة قديماً وحديثاً:

●● عن عُقبة بن عامر ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**سَيَخْرج قومٌ من أمتي يَشْربونَ القرآنَ كَشُرْبِهم الماءَ**».

---

(١) انظر: عون المعبود: ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) انظر: فيض القدير، للمناوي: ٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

وفي رواية: «**كَشُرْبِهم اللَّبَنَ**»(١).

وعن بَشِير بن أبي عَمْرو الخَوْلانيِّ: (أن الوليدَ بن قَيْس التُّجِيبي حدَّثه: أنه سمعَ أبا سعيد الخُدْرِيَّ ﷺ يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يكونُ خَلْفٌ بعدَ ستِّينَ سنةً، أضاعُوا الصلاةَ واتَّبَعُوا الشهواتِ فسوفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً. ثم يكونُ خَلْفٌ يَقْرؤونَ القرآنَ لا يَعْدُو تراقِيَهُمْ. ويقرأُ القرآنَ ثلاثةٌ: مؤمنٌ، ومنافقٌ، وفاجرٌ**».

قال بَشير: فقلتُ للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافقُ كافرٌ به، والفاجرُ يَتَأَكَّلُ به، والمؤمنُ يؤمنُ به)(٢).

●● وقد ظهرتْ مبادي تحقق النبوءة في بعض مظاهرها منذ عهد الصحابة، حيث كان قلَّة من القرَّاء يتأكَّلون بالقرآن، ويتعجَّلُون الأجرَ ولا يتأجَّلُونه.

ففي حديث عمران بن حُصَيْن المتقدِّم أنه مرَّ على رجل يقرأ القرآن على قوم، فلما قرأ سأل الناسَ العطاء، فقال عمران: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم ذكر قولَ النبي ﷺ في أمثال هذا الرجل الذي يتأكَّل بكتاب الله تعالى.

وفي حديث عبد الله بن مسعود في «الموطأ»: (وسَيَأْتي على الناس زمانٌ قليلٌ فقهاؤُهُ، كثيرٌ قُرَّاؤُهُ، يُحْفَظُ فيهِ حروفُ القرآنِ وتُضَيَّعُ حدودُهُ)(٣).

(فقد عابَ آخرَ الزمان بأن قرَّاءَه لا يَفقهون ولا يعملون به، وإنما غايتُهم منه

---

(١) أخرجه الفريابي في فضائل القرآن، ص١٨٧ (٢)؛ والروياني في مسنده: ١٠/ ٥٩ (١)، والطبراني، وقال الهيثمي في (المجمع: ٦/ ٢٢٩): رواه الطبراني ورجاله ثقات؛ وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٨٨٦)، وصحيح الجامع (٣٦٥٣).

(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ٣٨ ـ ٣٩؛ وابن حبان (٧٥٥)؛ والحاكم: ٢/ ٣٧٤، ٤/ ٥٤٧؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ٢/ ٥٣٣، والدلائل: ٦/ ٤٦٥؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ والألباني في الصحيحة (٣٠٣٤).

(٣) أخرجه مالك: ١/ ١٧٣ منقطعاً موقوفاً، وتقدم في صدر النبوءة ما يشهد لصحته.

تلاوته. وفيه أن كثرة القراء دليلٌ على تغيُّر الزمان، وفي الحديث مرفوعاً: «**أكثَرُ منافِقي أمَّتي قرَّاؤها**»(١)!..

وقال مالك: قد يقرأُ القرآنَ مَنْ لا خيرَ فيه، والعِيَان في أهلِ هذا الزمان على صحةِ معنى هذا الحديث كالبرهان)(٢).

وقال المُنَاوي في شرح قوله ﷺ: «**ونَشْواً يَتَّخِذونَ القرآنَ مزاميرَ**»: (يتغنَّوْن به، ويتَمَشْدقون، ويأتون به بنغمات مُطْرِبة، وقد كثُر ذلك في هذا الزمان)(٣).

نقول: أما في عصرنا فإن الأمر قد استَفْحَل، واستَحْكَم تحقُّقُ النبوءة بكل مظاهرها ووجوهها، فكثيرٌ من قرَّاء زماننا يتنوَّقُون في الأداء، ويتكلَّفون في تحسين الأصوات، ويُبالغون في مخارج الحروف والألفاظ، ويتأكَّلُون بكتاب الله، ويَلتمسون به المِدْحة والثناء والوجاهة والرفعة والمال، وإلى الله المشتكى!.

ثالثاً: واقع حال كثير من قرّاء زماننا، وانطباق النبوءة عليهم:

●● إن التلاوة الحقيقية للقرآن واجب كبير يحتاج إلى الرجال ذوي القلوب الحاضرة والنفوس العامرة والعقول الواعية المتدبرة، ومن ثَمَّ كان أثرها عميقاً في الأخلاق والأعمال. أما تلاوة التحسين والتزويق والتمشدق والتمطيط، والتكلّف المموج في نطق الحروف من مخارجها، والترجيع المتعمَّد للآيات لِلَفْتِ انتباه السامعين، والتنقل بين القراءات في الآية الواحدة، مع الذهول والانصراف عن معاني الآيات وتدبُّر توجيهاتها وإشغال القلب والفكر بها ـ كل ذلك مما لا يُغني القارئَ والسامع شيئاً، لأن الشكل لا يغني عن الموضوع.

وعيبُ كثير من قرَّاء القرآن الكريم الآن أنهم لم يَعرفوا القرآن وحياً يحرك

---

(١) أخرجه عن ابن عمرو: أحمد؛ والطبراني في الكبير؛ والبيهقي في شعب الإيمان؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٢٠٣)، والصحيحة (٧٥٠) وفيها تتمة تخريجه.

(٢) شرح الزُّرْقاني على الموطأ: ١/ ٤٥٧.

(٣) انظر: فيض القدير: ٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

القلوب، وثقافةً تُفيق الألبابَ، وخبرةً بالأنفس والآفاق، إنه ترديد ألفاظ وأنغام وحسب.

إنهم يجيدون أداءَ صور التلاوة، وعلمَ مخارج الحروف، والوقوفَ والمدود وأخواتها، دون أن يشربوا روح الآيات المتلوَّة، ودون نفاذٍ إلى الجوهر واللب والتفاعل القلبي الحي الرقراق مع معانيها ومدلولاتها.

فالمسلم عندما يتلو القرآن الكريم يراه يَعْرِض نفسه متسللاً إلى أقصى الضمير، محاوراً كلَّ الهواجس المتحركة في أعماق الإنسان، يناجي برقَّة حيناً، ويخاطِب بشدَّة حيناً آخر، قد يُعْرِض إعراضاً سريعاً ليعودَ على عَجَل، وهو في حالَيِ الإعراض والعودة يطلب من المرء أن يفكّر ويتأمل ويُنصِف ويستقيم[1].

●● وترى جمهرة من قرَّاء زماننا يتأكّلون بقراءة القرآن في المآتم والأحفال والمناسبات وغيرها، ويجعلونه وسيلة لاصطياد الهبات والأُعْطيات والهدايا والمكرمات من هنا وهناك.

وتسمع الواحدَ منهم يقرأ قراءةً متكلَّفة يتنطَّع فيها، فيتلو بضع آيات بنَفَس واحد، ويُعالج في أدائها أعظمَ الشدَّة والمشقَّة، فتنتفخُ أوداجُه ويحمرُّ وجهه، حتى ليكاد يُغشى عليه مما يُصيبه من الضِّيق في تكلُّفه! وكثيرٌ ممن حوله ساهون لاهون لا يتدبّرون معنىً ولا يفهمون قيلاً؛ فهو يتلو: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢]، فيقولون بعد فراغه: يا سلام، الله يزيدك! ربنا يبارك لك!.. ويتلو قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥ ـ ١٦]، فيقول السامعون: الله... الله... أَعِدْ يا شيخنا!.

هذا فضلاً عمَّا نراه في المآتم والحفلات؛ القارئُ يقرأ، وغالبُ الحاضرين لا يُعيره بالاً، هذا يتحدَّث مع ذاك، وهؤلاء يتناقشون في موضوع يهمهم،

(١) جهاد الدعوة، ص٨، ١٤.

وآخرون مشغولون باستقبال هذا أو وداع ذاك... فأيةُ ثمرةٍ مرجوَّة من هذه القراءة؟ وماذا يَجني قارئ القرآن منها سوى حظِّه من الدنيا وتعجُّلِ الأجر كما قال ﷺ.

●● وقد رأيْنا كثيراً من القرَّاء، ومنهم مشاهير وأسماء لامعة بارزة، ليستقدمهم بعضُ الزعماء والوجهاء في (المواسم الدينية) مثل: رمضان والأعياد ونحوها، لإحياء الليالي بتلاوة القرآن، فيأتون إلى هذا البلد، ويسافرون إلى تلك الدولة، فيجلسون سويعات يقرؤون القرآن، ويُظهِرون خلال ذلك التنطُّعَ والتكلُّفَ المرفوضَ، وواقعُ حالهم لا يتصل بالكتاب العزيز كبيرَ اتصال، بل إنهم في بقية الليل يسهرون في المقاهي، ويَقضُون الساعات في اللهو والعبث كمشاهدة المسلسلات وشُرب القهوة والشاي والدخان والأرجيلة! مع ما يتخلل ذلك من ضحكٍ ومُزَاح وهَذَر شديد، فأيُّ قارئ للقرآن هذا؟! وبماذا رَجَع من حفظه للكتاب العزيز وتلاوته غير تعجُّل الأجر من مال ومديح وثناء وإعجاب؟!.

إن هذا النمط من القرَّاء مثالٌ قبيحٌ لحملةِ القرآن، وتصديقٌ واضح للنبوءة النبوية الجليلة الخطيرة.

رابعاً: وقفة وعبرة:

●● القرآن الحكيم دستورُ دولة ومنهجُ حياة للأمم والجماعات والأفراد، يربي العقول، ويزكّي النفوس، ويُحيي القلوب، ويقوِّم السلوك، وينمي الفضائل، ويمحو الرذائل... وفيه دعوة للتفكّر والتأمل وسباحة الفكر في السماء والأرض وما بينهما وما تحت الثرى.. وفيه إشادةٌ بذوي البصائر والألباب والتفكّر والاعتبار، وثناءٌ وحَضٌّ على الصلاح والتقوى والإحسان، وتقريعٌ وتوبيخٌ لمساوئ الأخلاق والأفعال.. وفيه شفاء ورحمة للإنسان...

أمرنا الله سبحانه فيه أن نقرأه على مَهْل وتدبُّرٍ وتأمّلٍ، لننالَ الثمرة وهي الخشوع والالتزام؛ فقال تعالى:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الصافات: ٢٩].

(القرآن غزير المعاني، مفعَم الحقائق، بَيْدَ أن الطريق لاستبانة هذا كله إدمانُ النظر، وتعميقُ البصر، وطَرْقُ الأبواب دون سآمة، فإن حُسن الفهم عطاءٌ أعلى قبل أن يكون كدَّ الذهن وطولَ التلاوة.

وهو كتاب مبارك، دراستُه زكاة للفؤاد، ونورٌ على الطريق.

وتطبيقُه دعمٌ للسلطة، وترشيدٌ للحكم، وخيرٌ لا تفنى ينابيعُه.

والمؤسف أن أمتنا تقرأ القرآن أحرفاً وتسمعه أنغاماً، فهل ترجع من ذلك بشيء يرفعها إلى مصافِّ أولي الألباب؟)[1].

والذي يهمل قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقولَه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، هو الذي يهمل قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

●● إن القرآنَ بما فيه من أوامر وتوجيهات، وتشريعات وتعليمات، وقصص وعِظات؛ أشعةٌ تتجمَّع في حياة القارئ له لتسدِّد خَطْوَه، وتُلهِمَه رُشْده، وتجعله في الوجود موصولاً بالحق لا يتنكّر له، ولا يزيغُ عنه. والذين لا يستفيدون من صلتهم بالقرآن هذا الضياء الكاشفَ، وهذه الهدايةَ الكريمةَ، فلا خيرَ في تلاوتهم، ولا أثرَ لحفظهم هذا الكتاب العزيز[2].

(١) علل وأدوية، ص٥٣.

(٢) انظر: جدد حياتك، ص٨٨.

لذلك أشادَ النبي ﷺ بمن يتلو كتابَ الله تعالى بتدبُّرٍ وخشوعٍ، فقال: «**إنَّ من أحسنِ الناس صَوْتاً بالقرآنِ الذي إذا سَمِعْتُموه يَقرأ حسبتُموهُ يَخشَى الله**»[١].

ونَهى عن مجافاتِه والتكلّفِ في تلاوته والتأكّلِ به، فيما رواه عبد الرحمن بن شِبْل قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**اقْرَؤُوا القرآنَ، ولا تَغْلُوا فيه، ولا تَجْفُوا عنه، ولا تأكُلُوا به، ولا تسْتَكْثِرُوا به**»[٢].

وأما ما رُوي عن حذيفةَ بن اليَمان ﵄ مرفوعاً: «**اقْرَؤُوا القرآنَ بلُحُونِ العرب وأصواتها، وإياكم ولُحونَ أهلِ الكتابَيْن وأهلِ الفِسْق**»؛ فهو حديث ضعيف[٣]، ويخالِف الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي ذكرناها.

●● وفيما قدَّمناه من أحاديث في صدر هذه النبوءة بيانٌ واضح: أن الرسول ﷺ لم يكن يعلِّم أصحابه التجويدَ ومخارجَ الحروف، وكذلك أصحابه لم يُؤثَر عنهم التكلّف في هذا العمل أو أنهم كانوا يعلِّمونه للتابعين، ولو كان واجباً لسَبَقُونا إليه.. بل كان في الصحابة العربي والأعجمي، وعندما خرج عليهم النبي ﷺ وهم يقرؤون قال: «**اقرؤوا فكلٌّ حَسَنٌ**»، ثم ذَمَّ المتنطِّعين في القراءة[٤].

وفي الصحيحين وغيرهما: عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٩)؛ وصحَّحه الألباني في صحيحها، وصحيح الجامع (٢٢٠٢)؛ وانظر: رواية أخرى في: الصحيحة (١٥٨٣).

(٢) أخرجه أحمد: ٣/٤٢٨، ٤٤٤؛ وأبو يعلى (١٥١٨)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٣٣٢)؛ وابن أبي شيبة: ٢/٢٩٢، وغيرهم، وذكره الحافظ في الفتح: ١١/٣٣٣ (٥٠٥٨) وقال: سنده قوي؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٠٥٧). **لا تجفُوا عنه**: لا تبعدوا عن تلاوته. **ولا تغلوا فيه**: لا تجاوزوا حدَّه من حيث لفظُه، أو معناه بأن تتأوَّلوه بباطل. **لا تستكثروا به**: أي لا تجعلوه سبباً للإكثار من الدنيا.

(٣) ضعيف الجامع الصغير (١٠٦٧).

(٤) إتحاف الجماعة: ٢/١٢٣.

«الماهِرُ بالقُرآنِ مع السَّفَرةِ الكرامِ البَرَرةِ، والذي يَقرأُ القرآنَ ويَتَتَعْتَعُ فيه، وهوَ عليهِ شاقٌّ، له أجْرَانِ»[١].

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)؛ ومسلم (٧٩٨) واللفظ له؛ وأبو داود (١٤٥٤)؛ والترمذي (٢٩٠٤)؛ والنسائي في الكبرى (٧٩٩١) وأطرافه؛ وابن ماجه (٣٧٧٩)، وغيرهم.

إخبار النبي ﷺ
عن قبض العلم ورفعه ونزول الجهل

١ ـ عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله لا يَقْبِضُ العلمَ انْتِزاعاً يَنْتَزِعُه من العِبَادِ، ولكنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَماءِ، حتى إذا لم يُبْقِ عالِماً، اتَّخَذَ الناسُ رُؤوساً جُهَّالاً، فَسُئِلوا، فأَفْتَوْا بغيرِ علْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا**» لفظ البخاري.

وفي رواية أخرى للبخاري: «**فَيَبْقَى ناسٌ جُهَّالٌ، يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُون بِرأْيِهم، فَيُضِلُّونَ ويَضِلُّونَ**».

وفي رواية لابن حِبَّان: «**حتى إذا لَمْ يَبْقَ عالمٌ، اتَّخَذَ الناسُ رُؤَساءَ جُهَّالاً، فَسُئِلوا...**».

وفي رواية للنسائي وابن عبد البر: «**إنَّ الله لا يَنْتَزِعُ العلمَ من الناسِ بعد أن يُعطيَهم إيَّاه، ولكنْ يذهبُ بالعلماء، كلما ذَهَب بعالمٍ ذَهَب بما معه من العلم، حتى يَبْقى مَنْ لا يَعلم، فَيَضِلُّوا ويُضِلُّوا**»[1].

٢ ـ وعن أبي وائلٍ قال: كنتُ جالساً مع عبدِ الله ـ بن مسعود ـ وأبي موسى ـ الأشعريِّ ـ فقالا: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ بينَ يَدَيِ السَّاعةِ أَيَّاماً يُرْفَعُ فيها العِلْمُ، ويَنْزِل فيها الجهلُ، ويَكْثُر فيها الهَرْجُ**» والهَرْجُ: القَتْلُ[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠) و(٧٣٠٧)؛ ومسلم (٢٦٧٣)؛ والترمذي (٢٦٥٢)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٧٦) و(٥٨٧٧)؛ وابن ماجه (٥٢)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٠٦)؛ وأحمد: ٢/ ١٦٢، ١٩٠؛ وابن حبان (٤٥٧١) و(٦٧١٩) و(٦٧٢٣)؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ١٨٠ ـ ١٨٢؛ والبغوي (١٤٧)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٦٢ ـ ٧٠٦٥)؛ ومسلم (٢٦٧٢)، واللفظ له؛ وابن ماجه (٤٠٥٠) =

٣ ـ وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أشراطِ الساعةِ أن يُرْفَعَ العِلْمُ، ويَثْبُتَ الجَهْلُ، ويُشْرَبَ الخمرُ، ويَظْهَرَ الزِّنى**» لفظ البخاري.

وفي رواية ابن عبد البر: «**ويُبَثّ الجهلُ**»[1].

٤ ـ وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**يُقْبَضُ العِلْمُ، ويَظْهَرُ الجَهلُ والفِتَنُ، ويَكْثُر الهَرْجُ**» قيلَ: يا رسولَ الله! وما الهَرْجُ؟ فقال هكذا بيدِه فحرَّفَها، كأنَّه يريدُ القتلَ[2].

❁ ❁ ❁

أولاً: معاني مفردات الأحاديث ومدلولاتها:

ـ «**ولا يَقبِضُ العلمَ انتزاعاً**»: أي لا يَقْبِض العلم بمحوِه من صدور حَفَظَتِه، ولكن بموت العلماء، فإذا ذهبوا ذَهَب العلم معهم.

وقد جاء في بعض روايات الحديث: «**أَلَا إن ذهابَ العلم ذهابُ حَمَلَتِه** ـ ثلاث مرات ـ».

وفي رواية أخرى: «**ولكن يَقبِض العلماء فيرفَع العلمَ معهم**».

وفي رواية ثالثة: «**ولكن ذهابهم قبضُ العلم**»[3].

= و(٤٠٥١)، وأحمد: ١/ ٣٨٩، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٥٠؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣١٦) و(٣١٧)؛ وأخرجه الترمذي (٢٢٠٠) عن أبي موسى وحده.

(١) أخرجه البخاري (٨٠) وأطرافه؛ واللفظ له؛ ومسلم (٢٦٧١)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٧٤)؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ١٨٣؛ وبأطول منه: الترمذي (٢٢٠٥)؛ وابن ماجه (٤٠٤٥)؛ وابن حبان (٦٧٦٨)، وفيه زيادة في التخريج.

(٢) أخرجه البخاري (٨٥)؛ ومسلم (١٥٧) بعد الحديث (٢٦٧٢)، وغيرهما؛ وانظر: تتمة تخريجه في: النبوءة (٥٥).

(٣) الفتح: ١/ ٣٧١ شرح الحديث (١٠٠)، ١٧/ ١١٠ شرح الحديث (٧٣٠٧).

ويوضح ذلك رواية النسائي: «**كلَّما ذَهَب بعالمٍ ذَهَب بما معه من العلم، حتى يَبْقى مَنْ لا يَعْلَمُ**»[(١)].

وبهذا فسَّره عمر رضي الله عنه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَظْهَرُ الفِتنُ، ويَكْثُر الهَرْجُ**»، قلنا: وما الهَرْجُ؟ قال: «**القتلُ، ويُقْبَضُ العِلمُ**» فقال عمر ـ لمَّا سمع أبا هريرة يَأْثُرُهُ عن رسولِ الله ﷺ ـ: أَمَا إنَّ قبضَ العلمِ ليس بشيءٍ يُنتزع من صدور الرجال، ولكنَّه فناءُ العلماء[(٢)].

ـ «**هذا أوانُ يُرفع العِلمُ**»: المراد برفْعِه موتُ حَمَلَتِه من العلماء، فكلَّما مات عالمٌ يَنقص العلم بالنسبة إلى فقدِ حامله، ويَنشأ عن ذلك الجهلُ بما كان ذلك العالم ينفردُ به عن بقية العلماء[(٣)].

وقوله ﷺ: «**هذا أوانُ**» ليس المقصود عهده المبارك، بل في وقت يكون بعدَ أيامه، وبعد ذهابِ مَن تَبِعَه وخَلَفَه بالرُّشْد والهداية من أصحابه رضوان الله عليهم، ومن سائر أمته سواهم.

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢][(٤)].

وفي حديث جُبير بن نُفير عن عوف بن مالك وشدَّاد بن أوس، قال شَدَّاد لجبير: (هل تدري ما رَفْعُ العلم؟ قال: قلت: لا أدري، قال: ذهابُ أوعيتِه)[(٥)].

---

(١) السنن الكبرى (٥٨٧٧).

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣١٨) واللفظ له؛ وأحمد: ٢/ ٤٨١؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ١٨٠؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط. وانظر: الفتح: ١٧/ ١١٠.

(٣) الفتح: ١/ ٣٣٨ (٨٠)، ١٦/ ٣١٠ (٧٠٦٢).

(٤) شرح مشكل الآثار: ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٥) جامع بيان العلم: ١/ ١٨٤.

ـ «**هذا أوانُ يُختلَس العلم**»: أي: يُستلَب ويُؤخَذ بسرعة في غفلة من الناس.

فكأنَّ الرسول ﷺ لمَّا نظر إلى السماء أُرِيَ فيها الزمانَ الذي يُرفع فيه العلمُ، فقال ما قال من أجل ذلك[١].

ـ «**ويَثْبُت الجهل**»: من الثبوت.

وفي رواية «**يُبَثّ**»: أي يُنشر ويَشيع.

وفي أخرى: «**يَنْبت**»: من النبات.

وكلٌّ تفيد تأصُّلَ الجهل وانتشارَه وشيوعَه.

وفي رواية: «**ويَنزل الجهل**»: فعندما يُقبض العلماء ويَذهب العلم معهم، ينزل الجهل ويكثُر الجُهَّال.

ـ «**لم يبقَ عالمٌ**»: بفتح الياء، وعالم: فاعل، وفي رواية: «**لم يُبْقِ عالماً**»: أي لم يبقِ الله عالماً، وفي رواية لمسلم: «**لم يتركْ عالماً**».

ـ «**رؤوساً**»: جمع رأس، وفي رواية: «**رؤساء**»: جمع رئيس، أي: مَرَاجِعُهم ومُفتوهم وقادتُهم ومسؤولوهم جماعةٌ من الجَهَلة.

ـ «**فأَفْتَوْهُم بغيرِ علمٍ**»: توضِّحها رواية: «**فيُفتون برأْيِهم**» دونما علمٍ بكتاب الله وسنَّة رسوله وأقوالٍ الأئمة والعلماء، فيَضِلّون هم بقولهم على الله بجهل، ويُضِلون مَن يَستفتونهم[٢].

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (لا يزالُ عالمٌ يموت وأَثَرٌ للحقِّ يَدْرُسُ، حتى يكثُرَ أهلُ الجهل وقد ذهبَ أهلُ العلم، فيعملون بالجهل، ويَدينون بغير الحق، ويَضِلُّون عن سواء السبيل)[٣].

---

(١) جامع الأصول: ٨/ ٣٧؛ شرح مشكل الآثار: ١/ ٢٨١.
(٢) انظر: الفتح: ١/ ٣٧١، ١٧/ ١١١.
(٣) جامع بيان العلم: ١/ ١٨٧.

ثانياً: كلمة حول مدلول الأحاديث وأقوال الصحابة في ذلك:

●● المقصود بقبض العلم ورفْعِه وفناءِ العلماء وذهابِ علمهم معهم إنما هو باعتبار الأكثرية، فلا ينافي أن يكون في الأمة عدّة علماء يُوثَق بهم، وإليهم يرجع المتثبتون(١).

والمراد بالعلم في هذه الأحاديث هو علمُ الكتاب والسنَّة والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية، والعلماء المَعنيُّون بالقبض هم حَمَلَة تلك العلومِ الشريفة من محدِّثين وفقهاء ومفسِّرين وأصوليين وغيرهم، ممن تقوم بهم علوم الشريعة بمختلِف أنواعها وفروعها، فَهُم ورثةُ الأنبياء، وبذهابِهم يذهب العلم وتموت السنن وتظهر البدع ويعمُّ الجهل.

وأما علوم الدنيا فإنها في زيادة، وليست هي المرادة في الأحاديث، بدليل قوله ﷺ: «**فَسُئِلوا، فأَفْتَوا بغير علم، فضَلُّوا وأَضَلُّوا**»، والضلال إنما يكون عند الجهل بالدين(٢).

ولأهمية هذا الأمر وخطورتِه كان من جملة القضايا التي نبَّه عليها وحذَّر منها النبي ﷺ في أواخر عمره المبارك؛ فعن أَبي أُمامَةَ الباهِليِّ رضي الله عنه قال: (لمَّا كانَ في حجة الوداع، قام رسول الله ﷺ ـ وهو يومئذٍ مُرْدِفٌ الفَضْل بن عباس ـ على جَمَل آدَم، فقال: «**يا أيها الناسُ! خُذوا من العلم قبلَ أن يُقبض العلم، وقبلَ أن يُرفَع العلمُ**»...) الحديث، وفيه: أن أعرابيّاً سأل النبي ﷺ، فقال: (يا نبيَّ الله، كيف يُرفع العلم منَّا وبين أَظْهُرِنا المصاحفُ، وقد تعلَّمنا ما فيها وعلَّمناها نساءَنا وذَرارينا وخَدَمَنا؟ قال: فرفع النبي ﷺ رأسَه، وقد عَلَتْ وجْهَه حُمرةٌ من الغَضَب، قال: فقال: «**أيْ ثَكلتك أمُّك، هذه اليهود والنصارى بين أَظْهُرهم المصاحفُ، لم يصبحوا يتعلَّقوا بحرف مما**

---

(١) تكملة فتح الملهم: ٥/ ٢٦٧.

(٢) انظر: أشراط الساعة، ليوسف الوابل، ص١٣٣.

جاءَتْهم به أنبياؤهم! أَلَا وإنَّ مِن ذهاب العلم أن يَذهَبَ حَمَلَته ـ ثلاث مرات ـ»)[١].

●● قال أبو الدرداء: (ما لي أرى علماءكم يَذهبون، وجُهّالكم لا يتعلّمون، فتعلموا قبل أن يُرفع العلم، فإنَّ رفعَ العلم ذهابُ العلماء)[٢].

وقال حُذيفة بن اليمان: (قبضُ العلمِ قبضُ العلماء)[٣].

وقال ابن مسعود: (عليكم بالعِلم قبل أن يُقبض، وقبضُه ذهابُ أهله)[٤].

وعن عمَّار بن أبي عمار قال: (لمَّا مات زيدُ بن ثابت، قَعَدْنا إلى ابن عباس في ظل القصر، فقال: هكذا ذهابُ العلم، لقد دُفن اليومَ علمٌ كثير)[٥].

ثالثاً: تحقق النبوءة وأقوال العلماء في ذلك:

نقل الحافظ في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**يَتَقارَبُ الزمانُ، ويَنْقُصُ العلمُ**[٦]**، ويُلقى الشحُّ، وتَظهرُ الفِتنُ، ويَكْثُر الهَرْج**»[٧]، عن ابن بَطّال قال: (وجميعُ ما تضمَّنه هذا الحديث من الأشراط قد رأَيْنَاها عِيَاناً: فقد نَقص العلم، وظَهر الجهل، وأُلْقِي الشح في القلوب، وعَمَّت الفتن، وكَثُر القتل).

ثم عقَّب الحافظ قائلاً: (الذي يَظهرُ أن الذي شاهَدَه كان منه الكثير مع

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٢٦٦، واللفظ له؛ والدارمي (٢٤٠)؛ والطبراني في الكبير، وذكره الحافظ في الفتح: ١/ ٣٧١، ١٧/ ١١٠، ١١٣، وسكت عليه، وله شواهد كثيرة.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٤٥)؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ١٨٩ بأطول منه.

(٣) أخرجه الدارمي (٢٤٤).

(٤) شرح السنة: ١/ ٣١٧.

(٥) أخرجه ابن سعد: ٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٢؛ والفسوي: ١/ ٤٨٥؛ والطبراني (٤٧٤٩)؛ والحاكم: ٣/ ٤٢٨، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٦) وفي رواية: «**العمل**».

(٧) انظر: شرح الحديث وتخريجه في: النبوءتين (١٣٩) و(١٤٣).

وجود مقابِله، والمرادُ من الحديث استحكامُ ذلك حتى لا يَبْقى مما يقابِلُه إلا النادر، وإليه الإشارة بالتعبير بقبضِ العلم فلا يَبْقى إلا الجهلُ الصِّرْف، ولا يَمْنَع من ذلك وجودُ طائفةٍ من أهل العلم لأنهم يكونون حينئذٍ مغمورين في أولئك)[١].

نقول: ابن بطَّال من كبار علماء المالكية في القرن الخامس الهجري، توفي سنة (٤٤٩هـ)، ولا شكَّ في صواب ما ذَهَب إليه الحافظُ ابن حجر، فلقد كان في زمان ابن بطَّال في القرنين الرابع والخامس جماهير من أئمة الإسلام وأساطِين العلم في كل فن من العلوم الإسلامية، كالحديث وعلومه، والفِقه وأصوله، والتفسير والقراءات، والتاريخ والتراجم، واللغة وآدابها، وسوى ذلك.

وأشار الحافظ الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) إلى حديث «قَبْض العلمِ» في خاتمة (الطبقة الثامنة) من كتابه «تذكرة الحفاظ»، وبيَّن وجودَ الكثرة الغامرة من علماء الحديث في ذلك الزمان، ثم قال: (فلقد تفانَى أصحابُ الحديث وتلاشَوا، وتبدَّل الناس بطلَبة يهزأُ بهم أعداءُ الحديث والسنَّة، ويَسْخَرون منهم. وصار علماءُ العصر في الغالب عاكفين على التقليد في الفروع، من غير تحريرٍ لها، ومُكبِّين على عقليات من حكمة الأوائل وآراء المتكلِّمين، من غيرِ أن يتعقَّلوا أكثرها؛ فَعَمَّ البلاءُ، واستحكمتِ الأهواء، ولَاحَتْ مبادي رفْع العلم وقَبْضِه من الناس)[٢].

وقال الذهبي أيضاً في نهاية (الطبقة العشرين): (وقد قَلَّ مَنْ يعتني بالآثار ومعرفتِها في هذا الوقت، في مشارق الأرض ومغاربها، على رأس السبعمئة؛ أمَّا المشرقُ وأقاليمه: فَغُلِق الباب، وانقطَعَ الخِطَاب، والله المستعان. وأمَّا

---

(١) الفتح: ١٦/٣٠٧ شرح الحديث (٧٠٦١).

(٢) تذكرة الحافظ: ٢/ ٥٣٠.

المغربُ وما بقي من جزيرة الأندلس: فيندُر مَن يعتني بالرواية كما ينبغي، فَضْلاً عن الدِّراية)[١].

وقال الحافظ ابن حجر المتوفى سنة (٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م) بعد أن ذكر كلامَ ابن بَطَّال المتقدم: (وقد مضَى من الوقت الذي قال فيه ابنُ بطال ما قال نحوُ ثلاثمئة وخمسين سنة، والصفاتُ المذكورة في ازدياد في جميع البلاد، لكنْ يقلّ بعضُها في بعض ويكثُر بعضها في بعض، وكلما مَضَتْ طبقةٌ ظهر النقصُ الكثير في التي تليها»[٢].

رابعاً: ذهاب العلماء وقبض العلم في زماننا:

ومنذ نحو أربعة قرون وإلى الآن تشهدُ الأمة الإسلامية تراجعاً خطيراً في ميادين العلوم الإسلامية المتنوعة: من علوم القرآن والقراءات، والسنَّة وعلومها، والفقه وأصوله، واللغة وآدابها، والتاريخ، والتراجم، والرجال، والاجتماع، والفكر، وغير ذلك... وأُصيبت الأمة بفقر شديد من العلماء المبحِّرين والأئمة المجدِّدين والمفكّرين المبدعين، وطرأ عليها قحطٌ ثقافي مخيف صَنَع بها الدواهي.

ومُنِيَ المسلمون بضَعْفِ الثقافة الدينية الصحيحة الشمولية والمتخصصة، وذلك حين ذَهَب العلماء، وخفَّت مجالس العلم، وتقلَّصَتْ حَلَقات الدين الحيّ في المساجد والجمعيَّات الإسلامية، فازداد الجهل بدين الله انتشاراً، وسَهُل على الناس قبولُ كلِّ ما يسمعون أو يُلْقَى إليهم من الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ في المجالس، أو الصحف، أو المجلات، أو الإذاعات، أو الخُطَب الجُمَعيَّة[٣]...

---

(١) تذكرة الحافظ: ٤/ ١٤٨٥؛ وكتابي: أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ٦٨ ـ ٦٩.
(٢) الفتح: ١٦/ ٣٠٧.
(٣) من مقدمة العلامة عبد الفتاح أبو غدة لكتاب: المنار المنيف، ص٥.

واتَّخذ قبضُ العلم ورفعُه ونقصه، وذهابُ العلماء وفناؤهم، ونزولُ الجهل وثباته وانتشاره، صوراً متعددة وأشكالاً متنوعة في زماننا، نومئ إلى أبرزها:

١ ـ ذهاب صنف من العلماء، أو تأخيرهم ووضع الحواجز أمام أنشطتهم وإسكات أصواتهم وصرف الناس عنهم:

أولئك هم العلماء الربانيون، المجدِّدون المصلِحون، الموسوعيون، الدرَّاكون لحقائق الإسلام، الخبراء بكليات الدين وأصوله وأولوياته وشموله، الفاقهون لدينهم ولعصرِهم، فيَجمعون بين الأصالة والمعاصرة دونما ذوبان أو جمود.

وتُيَسَّر السُّبُل لأنصاف العلماء والأصاغر والأغرار والمتنطِّعين الذين يُؤْثِرون التعقيدَ والتشديد والمعاسَرةَ، أو التساهلَ الشديد إلى حدِّ تمييع الأحكام والانفلات من الثوابت والقيود، أو لا يعرفون فقه الأولويات ولا ترتيب شعب الإيمان.

٢ ـ كثير من المعارف الإسلامية كأنما كُتب عليها أن تتبع الأدنى في كل نسق:

فتراث الأئمة الفحول في التفسير وعلوم القرآن، والسنة وعلومها، والفقه وأصوله، والعربية وعلومها وآدابها... يُطوى كثيرٌ منه ويختفي، على حين تُنشر في كل مكان آثار المؤلفين من الدرجة الثالثة فمن تحتهم!.

وتصور الأدب العربي لا يُعرف إلا من مؤلفات عبد الله باشا فكري أو البهاء زهير مثلاً! ويُقصى عنه إقصاءً: المعري وأبو تمام والمتنبي وأضرابُهم.

إن ذلك يعطيك صورةً للثقافة الإسلامية بعد أن يُحذف منها ابنُ حزم وابن الجوزي وابن تيمية وابن القيّم وأمثالهم[1]!..

وقُلْ مثلَ هذا عن تراث المفكّرين المجددين والدعاة الكبار في هذا العصر،

---

(١) ظلام من الغرب، ص٣٠١.

حيث هناك محاولات مستميتة تمكُر بالليل والنهار لتحولَ دونَ الناس وصول نتاجات فكر هؤلاء الكبار إليهم.

وهذا من أخطر صور قبضِ العلم.

٣ ـ الازورار عن تعاليم الإسلام وتجفيف المنابع وإزاحة الكبار عن مراكز التأثير وفسح المجال للأغرار:

فهناك عملٌ دؤوبٌ من الحكومات العلمانية والأحزاب اللادينية والنُّخَب المعادية؛ تعمل لإزاحةِ توجيهات الإسلام الحاسمة من حياة الناس في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية، وإسقاطِ الأخلاق من عرشها إلى حضيضها، ومكافحة أهل الذِّكْر والعباقرة من العلماء والمفكّرين والمصلحين، وإسدالِ الستار على علومهم وجهودهم في هذه الميادين، وتقريب أصحاب العلوم الغَثَّة والأقوال المعلولة والعقول الملتاثة وأشباه العلماء.

٤ ـ شيوع الجهل بكثير من علوم الإسلام الأصيلة:

فقد انتشر الجهل في جمهور عريض من المسلمين بعلوم التفسير والقرآن والحديث والفقه والعربية والتاريخ والعبادات والأخلاق... وكَثُرت القَصَص الضعيفة، والروايات الواهية، والحكايات الخرافية الغريبة التي تستجلبُ الغوغاءَ وتربِّي النفوسَ على الخرافات والأوهام والسطحية والسذاجة، حتى شاعت الأحاديث المكذوبة والواهية على ألسنة الناس، وشَملَتْ ـ للأسف ـ ميادينَ العلم عند الخطباء والمحاضرين والمدرسين، بل وكثير ممن يُسمَّون بالعلماء ويتصدرون شاشات التلفاز ويُنصِت إلى أحاديثهم الملايين!.

والذي يتأمَّل كل هذا يتحقق من صدقِ قوله ﷺ: «**ويُقبض العلم**».

٥ ـ إعراضُ الجماهير العريضة من المسلمين عن علوم الإسلام:

يتجلى ذلك في الإعراض عن طلبِها من منابعها، وتعلّمِها من مصادرها الأصيلة الراسخة؛ عند العلماء وفي حَلَقات العلم في المساجد، وفي دور العلم والمكتبات وكليات ومعاهد الدراسات الإسلامية والعلوم الشرعية، والانصرافُ

الفاحش من الناس عن تعلُّمِ الأساسيات التي تقوم بها عباداتهم وشعائرهم على أسس صحيحة.

٦ ـ انتشار الثقافات الغَثَّة والمعارف الهزيلة والعلم المغشوش:

مما يقرؤه الناس ويسمعونه ويتناقلونه عن الصحف والمجلات والإذاعات والقنوات الفضائية، التي يستولي على كثير منها ويَكتب في أعمدتها الأغرار والأصاغر، ممَّن لم يُؤتَ من العلم إلا النَّزْر اليسير.

وهذه الثقافة الضَّحْلة والقراءة الغَثّة زاحَمَتِ العلومَ الأصيلة ونَحَّتْ المعارفَ العميقة والثقافات المتينة الشاملة.

٧ ـ بروز كتَّاب ومؤلفين يتبنون الأفكار المضادة للإسلام:

كالذين يتبنَّون الفكرَ اليساري أو الإباحي أو اللاديني، ويَسْعَون في العدوان على علوم الإسلام ومبادئه وحقائقه، والتلاعبِ بكتابه وسنّة نبيِّه ﷺ وتاريخه وتراثه.

ويتمُّ تشجيع هذا الصنف من الكتّاب وترويجُ بضاعتهم. والمتكلِّمات باسم النساء والجمعيات النسائية، ممَّن يهاجِمنَ الحجابَ ويَدْعين للسفور، ويشجِّعن على الاختلاط بلا قيود.

وهذا كله من أمثلة نزولِ الجهل وثبوتِه وبَثِّه، ومزاحمةِ العلم الصحيح الأصيل، وبالتالي قبضه ورفعه.

٨ ـ الجهل العام بعلوم الإسلام بين عامة الأمة:

وهذا واضح لا يحتاج مزيد بيان، فجمهورٌ عريض من الأمة الإسلامية يفتقِر إلى الأساسيات التي يقوم بها دينُه، وتصحُّ بها عباداته وبيوعه وشراؤه وحياته الأسرية والاجتماعية. ووصل هذا البلاء إلى أوساط المثقفين وحَمَلَة الشهادات المتوسطة والعليا، حيث تجد جهلاً مُزْرياً بأصول الإسلام، وأركانه وشعائره وشرائعه، وبُثَّ الجهل بينهم بَثّاً، وقُبض العلم الشرعي، كما نطقت به هذه النبوءة.

كل ما سبق وغيره يحدث في عصرنا هذا، وهو تصديق واضح لما جاء في النبوءة من قبض العلم وذيوع الجهل.

ويُضاف إليه ويؤكِّده ذهابُ العلماء العاملين، والدعاة المصلحين، والمربين المخلصين، والمفكّرين المجددين. . .

أولئك السادة الأماجد الذين أخذتْهم يد المنية في هذا العصر، فكان فناؤهم مزيداً لقبضِ العلم وذهابِه. .

ومن الكبار الذين أُصِيبت الأمة بفَقْدِهم في العقود القليلة الماضية:

١ ـ المحدّث الكبير أحمد محمد شاكر.

٢ ـ الفقيه الشهير محمد أبو زهرة.

٣ ـ الداعية المجاهد المجدد مصطفى السِّباعي.

٤ ـ المفكّر الشهيد سيد قطب.

٥ ـ مفكّر القارة الهندية أبو الأعلى المودودي.

٦ ـ مفكّر المغرب الإسلامي مالك بن نبي.

٧ ـ المفسِّر الشهير محمد الطاهر ابن عاشور.

٨ ـ علامة اليمن ومؤرِّخها إسماعيل بن علي الأكوع.

٩ ـ فقيه الأمة مصطفى الزَّرقا.

١٠ ـ الفقيه الداعية الأديب علي الطنطاوي.

١١ ـ المفكّر الداعية الكبير محمد الغزالي.

١٢ ـ المفسِّر اللغوي محمد متولي الشعراوي.

١٣ ـ المؤرِّخ المجاهد محمود شيت خطاب.

١٤ ـ عالم الجزيرة وفقيهها عبد العزيز بن باز.

١٥ ـ جغرافي الجزيرة ومؤرِّخها حمد الجاسر.

١٦ ـ العالم الأديب المؤرِّخ خير الدين الزركلي.

١٧ ـ محدِّث العصر محمد ناصر الدين الألباني.

١٨ ـ المحدِّث الفقيه المحقق عبد الفتاح أبو غُدّة.

١٩ ـ المحدِّث عبد القادر الأرنؤوط.

٢٠ ـ العلَّامة المفكّر عبد الرحمن حبنكة.

٢١ ـ الداعية الحكيم المربي الكبير أبو الحسن الندوي.

٢٢ ـ الحافظ الناقد عبد الله بن الصدّيق الغُماري.

٢٣ ـ المربي الداعية أحمد عز الدين البَيانوني.

٢٤ ـ علَّامة العربية الكبير محمود محمد شاكر.

٢٥ ـ والأديب الناقد الدكتور محمد محمد حسين وغيرهم.

وحسبك بهؤلاء السادة الكبار خسارة للمسلمين، وحسبك بذهابهم قبضاً للعلم ورفعاً له.

خامساً: دروس وعبر[1]:

في هذه النبوءة دروس كثيرة وعِبر جليلة، نومئ لها إيماءات معبِّرة:

١ ـ الحثُّ على تعلُّم العلم وحفظِه، فإنه لا يُرفع إلا بقبض العلماء.

٢ ـ الحضُّ على نشر العلم قبل أن يموت العالم الذي يحمله، فيؤدي إلى رفع العلم.

٣ ـ التحذير من ترئيس الجهلة والأصاغر.

٤ ـ حضُّ العالم تلاميذَه على الأخذ من غيره، لتنوُّع المعارف والعلوم والمواهب.

٥ ـ التثبت في أخذِ العلم وتحمُّلِه، ثم في أدائه ونَشْره.

---

(١) انظر: شرح مسلم، للنووي: ٨/ ٤٧٨؛ الفتح: ١/ ٣٣٧، ٣٧٢، ١٧/ ١١٥.

٦ ـ اعترافُ العالم لغيره من العلماء بالفضل والرسوخ في العلم؛ خلقٌ رفيع ينبغي شيوعه في ميدان العلم.

٧ ـ ذَمُّ مَن يُقدِم على الفتوى بغير علم وحجَّة ويُفتي بالظن.

٨ ـ الرأي المذموم ما خالفَ الكتابَ والسنَّة، والاجتهادُ مطلوب من أهله الذين يملكون آلاته وتوفَّرت فيهم شروطه.



إخبار النبي ﷺ عن رفع الخشوع من الأمة

١ ـ عن جُبَيْر بن نُفَيْر قال: (حدَّثني عَوْف بن مالكٍ الأَشْجعيُّ: أن رسولَ الله ﷺ نظرَ إلى السماء يوماً، فقال: «**هذا أوانُ يُرْفَعُ العِلْمُ**» فقال له رجلٌ من الأنصار يُقال له: زياد بن لَبِيد[1]: يا رسولَ الله! يُرْفَعُ العلمُ وقد أُثْبِتَ ووَعَتْهُ القلوبُ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**إنْ كنتُ لأَحسَبُكَ من أفقهِ أهلِ المدينة**»! ثم ذَكَر ضلالةَ اليهودِ والنصارى على ما في أيديهمْ من كتابِ الله. فَلَقِيتُ شَدَّادَ بنَ أَوْس، فحدَّثْتُه بحديث عَوْف بن مالكٍ، فقال: صَدَقَ عوفٌ، أَلَا أُخْبِرُكَ بأوَّلِ ذلك يُرْفَعُ؟ قلتُ: بلى، قال: الخشوعُ، حتى لا تَرَى خاشِعاً)[2].

٢ ـ وعن جُبير بن نُفَيْر، عن أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قال: (كنَّا مع رسول الله ﷺ، فَشَخَصَ ببصره إلى السماءِ، ثم قال: «**هذا أوانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ من الناس حتى لا يَقْدِرُوا منه على شيءٍ**» فقال زياد بن لَبِيد الأَنصاريُّ: كيفَ يُخْتَلَسُ منَّا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لَنَقْرَأَنَّهُ ولَنُقْرِئَنَّهُ نِساءَنا وأبناءَنا. فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زيادُ،**

---

(١) هذا هو الصواب في اسمه، وفي سنن النسائي وشرح مشكل الآثار وصحيح ابن حبان: (لَبيد بن زياد)، وهو مقلوب، وقد نبَّه على ذلك الحافظ في «الإصابة» في ترجمة زياد بن لَبِيد.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٨٧٨)؛ وأحمد: ٦/ ٢٦ ـ ٢٧؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٠١)؛ والطبراني في الكبير: ١٨/(٧٥)؛ والبزار (٢٣٢)؛ وابن حبان (٤٥٧٢) و(٦٧٢٠)؛ والحاكم: ١/ ٩٨ ـ ٩٩؛ وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ١٨٤؛ والخطيب في اقتضاء العلم (٨٩) واللفظ له؛ وصحَّحه الحاكم وأقره الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

إنْ كنتُ لأَعُدُّكَ من فُقهاءِ أهلِ المدينةِ، هذهِ التوراةُ والإنجيلُ عند اليهودِ والنصارى، فماذا تُغني عنهم؟!» قال جُبير: فلَقيتُ عُبادَةَ بن الصَّامتِ، قلتُ: أَلَا تسمعُ إلى ما يقولُ أَخُوكَ أبو الدرداء؟ فأخبرتُه بالذي قال أبو الدرداء، قال: صَدَقَ أبو الدرداء، إنْ شئتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بأوَّلِ علمٍ يُرْفَعُ من الناس؟ الخُشوعُ، يُوشِكُ أن تدخلَ مسجدَ جماعة فلا تَرَى فيه رجُلاً خاشِعاً)[١].

٣ ـ وعن أبي الدرداءِ رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**أَوَّلُ شيءٍ يُرْفَعُ من هذه الأمةِ الخُشوعُ، حتى لا تَرى فيها خاشِعاً**»[٢].

٤ ـ وعن شَدَّاد بن أَوْس رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أَوَّلُ ما يُرْفَعُ من الناسِ الخُشوعُ**»[٣].

❁ ❁ ❁

أولاً: معاني مفردات الأحاديث ومدلولاتها[٤]:

ـ **(شخص ببصره)**: رَفَعَه فلم يَطْرِفْ. وشَخَصَ بصرُ فلانٍ فهو شاخِصٌ، إذا فَتَحَ عَيْنَيْه وجَعل لا يَطْرِف. وشُخُوصُ البَصَر: ارتفاعُ الأجْفانِ إلى فَوْق وتحديدُ النظرِ وانزعاجُه.

وشَخَص ببصرِه: إذا نظر إلى شيء دائماً، فلا يردّ عنه نظره، كنظرِ المبهوتِ!.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٣) واللفظ له؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٠٤)؛ والحاكم: ١/ ٩٩؛ وقال الترمذي: حديث حسن غريب؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٣٧)، وصحيح الجامع (٦٩٩٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير؛ وقال الهيثمي في (المجمع: ٢/ ١٣٦): إسناده حسن؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٩).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير: ٧/ ٢٩٥ (٧١٨٣)؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٧٦).

(٤) انظر: المفردات، للراغب، ص٢٨٣؛ شرح مشكل الآثار: ١/ ٢٨١؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٤١٧ ـ ٤١٨؛ لسان العرب (خشع).

ـ «**يُخْتَلَس العِلم**»: أي يُستَلَب ويُؤخذ بسرعة في غفلة من الناس.

ـ «**الخشوع**»: هو الإخباتُ والتواضع والخضوع والتذلُّل لله ﷻ، والسكون والسكينة والوقار، ولينُ القلب ورقَّتُه، والحِرص على رضا الله، ورجاءُ رحمته والخوف من سَخَطه وغضبه، وظهورُ ذلك على الجوارح وفي الأقوال والأعمال والحركات بالعين واليد واللسان.

وسخاءُ العَبْرة في مواطن الاعتبار، وحضورُ القلب في الصلوات والخلوات وعند اشتداد الأزمات، وعدمُ الطيش والصَّخَب وتجاوز الحَدّ وتوقُّدِ سَوْرة الغَضَب إلا إذا انتُهكت الحرمات.

والخشوع يَنتظِم القلبَ والجوارحَ، وهو أعمُّ من الخشية التي محلُّها القلب وحده.

ثانياً: الخشوع منهج الأنبياء ودأب الصالحين:

●● أثنى الله سبحانه في كتابه العزيز على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وعباده المؤمنين؛ بأنهم كانوا خاشعين لله، يدعونه تضرّعاً وخفية رغباً ورهباً، يمشون على الأرض بسكينة وتواضع، ويغضون من أصواتهم، ويطامنون من نفوسهم، وتتجلَّى مظاهر الخشوع على حركاتهم وجوارحهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

ولجلالةِ الخشوع وأهميته في تربية العقول وتهذيب النفوس وإصلاح القلوب، كانت أوامر الله سبحانه به من أوائل ما تنزَّل به الوحي الأمين على رسول الله ﷺ في بدايات عُمُر الدعوة بمكة المكرمة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (ما كانَ بينَ إسلامِنا وبينَ أنْ عاتَبَنَا اللهُ بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، إلَّا أربعُ سِنينَ)(١).

ثالثاً: نماذج من أحوال الخشوع في حياة سيدنا رسول الله ﷺ وأصحابه والصالحين من بعدهم:

•• عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه إذا ركع قال: «**اللهمَّ لكَ ركعتُ، وبكَ آمنتُ، ولكَ أسلمتُ، خَشَعَ لكَ سَمْعِي وبَصَري ومُخِّي وعَظْمِي وعَصَبِي**»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ كان إذا رَكَع قال: «**اللهمَّ لكَ ركعتُ، وبكَ آمنتُ، ولكَ أسلمتُ، وعليكَ توكلتُ، أنتَ ربّي، خَشَع سَمْعي وبَصَري ودَمِي ولَحْمِي وعَظْمي وعَصَبي للهِ ربِّ العالمين**»(٣).

وكان من دعائِه ﷺ ما رواه زيد بن أَرْقَم رضي الله عنه عنه: أنه كان يقول: «**اللهمَّ إنِّي أَعوذُ بكَ من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يَخْشَعُ، ومن نفسٍ لا تشبَعُ، ومن دعوةٍ لا يُستجابُ لها**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٧) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (١١٥٠٤).

(٢) طرف من حديث طويل أخرجه مسلم (٧٧١) وغيره؛ وتخريجه في السنن الكبرى، للنسائي (٦٤١)؛ وابن حبان (١٧٧١ ـ ١٧٧٤).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦٤٢)؛ والصغرى ٢/ ١٩٢؛ وصحَّحه الألباني في صحيحها (١٠٠٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)؛ والنسائي في الكبرى (٧٨١٥)؛ وفي الصغرى: ٨/ ٢٨٥.

وفي تلاوته ﷺ للقرآن الكريم جاءت عدَّة أحاديث صحيحة، تعبِّر عن عميقِ خشيته، وتمامِ خشوعه، إذا رتَّلَ آيات الكتاب العزيز:

قال رسول الله ﷺ: «**شَيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها قبل المَشيب**»(١).

وقال ﷺ: «**شَيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها مِن المُفَصَّل**»(٢).

وقال ﷺ: «**شَيَّبَتْني هودٌ، والواقعةُ، والمُرسَلاتَ، وعمَّ يتساءلونَ، وإذا الشمسُ كُوِّرَت**»(٣).

وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: «**إقْرأْ عَلَيَّ**»، قال: قلتُ: أَقرأُ عليكَ وعليكَ أُنْزِلَ؟! قال: «**إنِّي أَشتهي أنْ أَسْمَعَهُ من غيري**» قال: فقرأتُ «النساء»، حتى إذا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٤١] قال لي: «**كُفَّ**» أو «**أَمْسِكْ**»، فرأيتُ عينَيْهِ تَذْرِفَانْ!).

وفي رواية لمسلم: (فرفعتُ رأسي، فرأيتُ دموعَه تَسِيلُ)(٤).

●● عن الأَعمش، عن أبي صالح قال: (لمَّا قَدِمَ أهلُ اليمن في زمان أبي بكر، فسَمِعوا القرآنَ، جعلوا يَبْكُون، فقال أبو بكر: هكذا كنَّا، ثم قَسَتِ القلوبُ!)(٥).

وحدَّث عبد الله بن شَدَّاد عن صلاة عمر بن الخطاب فقال: (سمعتُ نَشِيجَ عمر رضي الله عنه وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ سورةَ يوسف حتى بَلَغ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]).

---

(١) أخرجه ابن مردويه؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٢١).
(٢) أخرجه سعيد بن منصور؛ وابن مردويه؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٢٢).
والمفصل: من سورة (ق) إلى آخر القرآن على الصحيح.
(٣) أخرجه الترمذي؛ والحاكم، وغيرهما؛ وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٢٣).
(٤) أخرجه البخاري (٥٠٥٥) واللفظ له؛ وأطرافه في (٤٥٨٢)؛ ومسلم (٨٠٠)، وغيرهما.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٢٩٦.

وقال عُبيد بن عُمير: (صلَّى بنا عمر بنُ الخطاب صلاة الفجر، فافتتح سورة يوسف، فقرأها حتى إذا بَلَغ: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الآية: ٨٤]، بكى حتى انْقَطَعَ، فرَكَع)[(١)].

ويحدِّث هانئ مولى عثمان بن عفان فيقول: (كان عثمانُ إذا وقَفَ على قبرٍ يبكي حتى يُبِلَّ لحيتَه!).

وكان عبد الله بن عُمر عندما يتلو قولَ الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]؛ يقول: هو عثمان بن عفان[(٢)].

وروى عبد الله بن عبيدة قال: (رأتْ صفيّةُ زوجُ النبي ﷺ قوماً قرؤوا سجدةً، فسجدوا، فنادَتْهم: هذا السجودُ والدعاءُ، فأينَ البكاءُ؟!)[(٣)].

●● عن الأعمش قال: (كان أبو صالح السَّمَّان يؤمُّنا، فكان لا يُجِيز القراءة من الرِّقّة)[(٤)].

وقال الأعمش: (كان إبراهيمُ التَّيْمِيُّ إذا سجدَ كأنَّه جِذْمُ حائطٍ ينزل على ظهره العصافير!)[(٥)].

وقال ثابت البُنَانيُّ: (لقد كنَّا نتبعُ الجنازةَ، فما نَرى حول السرير إلا متقنِّعاً باكياً أو متفكِّراً، كأنما على رؤوسهم الطير)[(٦)].

وقال العلاء بن سالم: (كان منصور بن المُعْتَمِر يصلِّي في سطحه، فلما

---

(١) انظر: كتابيَّ: الخلفاء الراشدون، ص١٢٣ ـ ١٢٤؛ وأعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ١٥٧.

(٢) انظر: كتابيَّ: الخلفاء الراشدون، ص٢٨٦، ٢٨٧؛ أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ٢٠٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٢٩٨.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٢٩٨؛ وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٥/ ٣٧.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٥/ ٦١. **جذم حائط**: أصله وبقيَّته.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٣١٨.

مات قال غلام لأمّه: يا أمَّه، الجِذْعُ الذي في سطح آل فلان ليس أَراه؟ قالت: يا بني! ليس ذاك بِجِذْع، ذاكَ منصورٌ، وقد مات رحمه الله)[1].

وأمثال هذه الأخبار في حياة السلف كثيرة جدّاً تفوت الحصر.

رابعاً: الخشوع في الصلاة:

قرنَ القرآن الحكيم بين فلاحِ المؤمنين وبين خشوعِهم في صلواتهم، وأوضَحَ بأن أولي العلم بالله وجلاله يخرّون له سجداً ويبكون خشوعاً وإعظاماً له سبحانه.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وهذه مبالغة في صفتِهم ومدحُ لهم، وحُقَّ لكل من توسَّم بالعلم وحصَّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذلّ[2].

وخشوعُ المؤمن خلق رفيع يجمّل سيرته، ويزيِّن أعماله، ويُضيء سبيله، ويحبِّبه إلى الله وإلى عباده. وآكَدُ ما يكون الخشوع في الصلاة، فهي أعظم أركان الدين، وبمقدار ما يَهَبُ لها المصلي من روحه وقلبه وجوارحه بمقدار ما ينال من بركاتها ويفوز بثوابها.

عن عبد الله بن عَنَمَة المُزَنيِّ، (عن عمَّار بن ياسر: أنه صلَّى صلاة فخَفَّفَ فيها، فقال له: لقد صلَّيتَ صلاة خَفَّفْتَ فيها! قال: هل رأيتَني انتقصتُ شيئاً من حدودها؟ قلتُ: لا. قال عمارٌ: بادرتُ وسواسَ الشيطان، إني سمعتُ رسول الله

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥/٤٠٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/٢٩٦.

ﷺ يقول: «إنَّ العبدَ لَيَنْصَرِفُ من صلاته، وما كُتِب له منها إلا عُشْرُها، أو تُسْعُها، أو ثُمْنُها، أو سُبْعُها، أو سُدْسُها، أو خُمْسُها، أو رُبْعُها، أو ثُلْثُها، أو نِصْفُها»(١).

وعن عُقْبة بن عامر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما مِن مسلم يتوضأُ فيحسنُ وُضُوءَه، ثم يقوم فيصلِّي ركعتين، مُقْبِلٌ عليهما بِقَلْبِه ووجْهِه، إلاَّ وَجَبَتْ له الجنّةُ»(٢).

وأما صلاةُ رسول الله ﷺ فكان فيها ـ وفي كلٍّ خيرٍ ـ إمامَ الخاشعين المُخْبِتين؛ يروي عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه فيقول: (رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصلِّي وفي صَدْرِه أَزِيزٌ كأَزيزِ المِرْجَلِ من البُكاءِ!).

وفي رواية: (كان يُسْمَع للنبيِّ ﷺ أَزيزٌ بالدعاءِ وهو ساجدٌ كأَزيزِ المِرْجَلِ)(٣).

وعلى هَدْي النبي ﷺ سار أصحابه الكرام رضي الله عنهم، وقد تقدَّم ذِكر طرف من ذلك، ومنه ما رواه نافع قال: (كان عبد الله بن عمر يقرأ في صلاته، فيمرُّ بالآية فيها ذِكْر النار، فيقف عندها ويدعو ويستجير بالله منها).

وقال نافع: (كان ابن عمر إذا قرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، بكى حتى يغلِبَه البكاء)(٤).

(١) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٠٣) واللفظ له؛ وأبو داود (٧٩٦)؛ وأحمد: ٤/٣١٩، ٣٢١؛ والنسائي في الكبرى (٦١٤) و(٦١٥)؛ وابن حبان (٨٨٩)، وحسَّنه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤) واللفظ له؛ وأبو داود (١٦٩) و(٩٠٦)؛ والنسائي في الكبرى (١٧٧)، وفي الصغرى: ١/٩٥.

(٣) أخرجه أبو داود (٩٠٤)؛ والنسائي في الكبرى (٥٤٩) و(٥٥٠) و(١١٣٦) و(١١٧٩٩)، وفي الصغرى: ٣/١٣؛ وابن حبان (٦٦٥) و(٧٥٣)؛ وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٤) انظر كتابي: أعلام الحفاظ والمحدثين: ٣/٢٦ ـ ٢٧.

وروى صالح بن رستم، عن (ابن أَبي مُلَيْكَة قال: صحبتُ ابنَ عباس من مكةَ إلى المدينة ومن المدينة إلى مكة، فكان إذا نزلَ منزِلاً قام شَطْرَ الليل، فأكثرَ في ذلك النَّشيج! قلتُ: وما النَّشيج؟ قال: النَّحيب، البُكاء، ويقرأ: ﴿وَجَآءَتْ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [قٓ: ١٩])[١].

خامساً: مسببات الخشوع:

مما يساعد المرءَ على خشوعه ين يدي ربه، ورقَّةِ قلبه، وإخباتِه في صلاته:

١ ـ تعظيمُ حقِّ الله سبحانه وإجلالُه واستحضارُ قدرته ورحمته وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور.

٢ ـ تعظيمُ قَدْر الصلاة والاستعداد لها بالطهارة الحسية من وضوء وطهارة البدن والملبس والمكان، والطهارة المعنوية بالقلب الحاضر والكسب الطيِّب والإخلاص لله.

٣ ـ التفكّر في آيات الكتاب العزيز وهو يسمعها أو يتلوها، ويتدبَّرها، ويُقبل عليها بروحه وقلبه، ويَشغل نفسَه بالدعاء رَغَباً ورَهَباً.

٤ ـ استحضار أمر الآخرة والموت والبعث والنشور والحساب، وأجر المصلِّين الخاشعين، وعقوبة الذين هم عن صلاتهم ساهون.

٥ ـ تركُ مشاغل الدنيا وراء ظهره من أموال وأعمال وأولاد، وتذكيرُ النفس دوماً بأن الانشغال بذلك مما يَصُدُّ عن الصلاة ويَذهبُ بخشوعها وأجْرِها.

٦ ـ تذكُّرُ هَدْي النبي ﷺ وصحابته وقصصهم الرائعة في الإقبال على الصلاة والخشوع فيها.

٧ ـ الاجتهاد بالذكر الكثير الطويل والدعاء المأثور، اقتداءً برسول الله ﷺ،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٣٢٢.

والتأكيد على الأدعية التي يطلب المرء فيها الفوز بالجنة وثواب الآخرة، له ولأهله ولوالديه.

٨ ـ إزالةُ ما يَشغل القلبَ ويشتِّت الفكرَ من رسومات ونقوشات وأصوات وحضور طعام ومدافعة الأَخبثَيْن وما في معنى ذلك.

٩ ـ استحضار ثواب الخشوع في الصلاة والخشية من الله، والبكاء والتحزُّن عند سماع الآيات التي تتحدث عن الثواب والعقاب.

سادساً: من ثمرات الخشوع:

حسبُ الخشوع فَضْلاً وكفاهُ شرفاً أنه يزيِّن صاحبَه بالتواضع والسكينة والوقار والتعقل والآداب الجميلة وحسنِ العاقبة في الدنيا والآخرة، ويجنِّب المرءَ الزلل والصَّخَب والطيشَ.

ومن أجَلِّ تلك الثمار ما ادَّخَره الله سبحانه للخاشعين من الثواب الكبير والأجر الجزيل عنده.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يَلِجُ النارَ أحدٌ بَكَى من خَشيةِ الله ﷻ حتى يعودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ، ولا يجتمعُ غبارٌ في سبيلِ الله ﷻ ودخانُ جهنَّمَ في مَنْخِري مسلم أبداً**»[١].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عَيْنانِ لا تمسُّهُما النار: عينٌ بَكَتْ من خشيةِ الله، وعينٌ باتَتْ تحرُسُ في سبيلِ الله**»[٢].

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ليسَ شيءٌ أحبَّ إلى الله من**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١١)؛ والنسائي في الكبرى (٤٣٠١)، والصغرى: ٦/ ١٢؛ وأحمد: ٢/ ٥٠٥؛ والحاكم: ٤/ ٢٦٠، واللفظ له؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ وصحَّحه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٣٩) وقال: حسن غريب؛ وصحَّحه الألباني؛ وانظر: صحيح الجامع (٤١١١ ـ ٤١١٣).

قَطْرتين، وأَثَرَيْن: قطرةِ دموعٍ من خشيةِ اللهِ، وقطرةِ دمٍ تُهراق في سبيل الله، وأمَّا الأَثَران: فأَثَرٌ في سبيل الله، وأثرٌ في فريضة من فرائضِ الله»[1].

سابعاً: واقع حال المسلمين وتحقق النبوءة:

●● المتدبّر لِما قدمناه عن حقيقة الخشوع وأبعاده ومجالاته، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ، وكيف فهموا الخشوعَ وطبَّقوه في حياتهم، وخَضَعوا لله وأخبتوا له ولانَتْ أنفسُهم لآيات كتابه، وتواضعوا للناس وخفضوا الجَناح للمؤمنين من عباده. . .

المتدبِّر لكل هذا يعلم أن أسلافَنا لمّا خضعوا للحق وخَشَعتْ له قلوبهم وجوارحهم؛ خضعتْ لهم الدنيا، وأقبلَتْ عليهم الأمم طائعةً مؤمنةً، ولانَ لهم القاسي، وفُتحت لهم القلوب، وطويت لهم الأرض القريب منها والبعيد.

ولحكمةٍ بالغةٍ قَرَنَ النبي ﷺ بين رفع العلم ورفع الخشوع، وجاء الحديث عنهما في سياق واحد. ولحكمةٍ عليا كذلك قرن القرآن بين العلم والخشية في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

فالذي يعلمُ حقَّ العلم قَدْرَ ربِّه سبحانه وجلالَه وعظمتَه، ويدرك معاني أسمائه الحسنى، ومدلولات صفاته العلى؛ يخضعُ له ويخشع ويلين ويتواضع، ويُقبِل عن علمٍ على طاعة ربه العظيم الجليل.

والذي يعلم معاني الآيات الكريمات وهو يتلوها، ويتدبَّر مدلولاتها، ويَسْبح في آفاقها، ويستنبط حِكَمها وأحكامها، ويدرك ثمراتها ـ لا بدَّ لقلبه أن يخشع، ولعقله أن يَذِل ويخضع، ولجوارحه أن تسجد وتركع!.

والذي يعلم سيرة النبيين ﷺ وهَدْيَ سيد المرسلين ﷺ في خضوعهم لربهم، وخشيتهم له، وخشوعهم بين يديه وإخباتِهم له في كل أحوالهم ـ يُدركُ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٦٩) وقال: حديث حسن غريب؛ وحسَّنه الألباني، وشعيب الأرنؤوط.

ما للخشوع من أهمية وجلالة في حياة المرسلين وأئمة العلماء العاملين والصالحين.

والذي يعلمُ ثمراتِ الخشوع وفوائدَه في جمال السيرة وحُسْنِ الهدي والصدق في الدعوة إلى الله بالقول والفعل، ثم الجزاء الأوفى في الآخرة ـ يستيقنُ أهميةَ هذا الخُلق النبيل وسببَ احتفاءِ الرسول ﷺ واعتنائه به قولاً وعملاً.

من يدرك ذلك كله يعلم دقة الوصف النبوي في بيانه أن أول ما يرفع من العلم: الخشوع.

فالأميّون والجَهَلة والساهون اللاهون، والسادرون الغافلون يَرْسُفون في قيود الأرض التي تقعد بهم عن التحليق في الآفاق ليذوقوا حلاوة الخشوع ومعانيه السامية، فأول ما يُرفع منهم الخشوع.

●● لذا استغرب الصحابي زياد بن لَبِيد رضي الله عنه عندما حدَّث النبي ﷺ فقال: «**هذا أَوانُ يُخْتَلَسُ العلم من الناس حتى لا يَقْدِروا منه على شيءٍ**»، وأيَّد ذلك فقال: (وكيفَ يُختلَس منَّا وقد قرأْنا القرآنَ؟ فوالله لَنَقْرَأَنَّه، ولَنُقْرِئَنَّهُ نساءَنا وأبناءَنا).

فأبانَ له رسول الله ﷺ أن العِبرة ليست بوجود النصوص، بل بفهمها والعمل بها، فَهَا هُمُ اليهود والنصارى بين أيديهم كُتبهم، لكنهم ما استفادوا منها شيئاً.

وهذا ما تخوَّف منه النبي ﷺ على أمته وحذَّرها منه، وضرب للمسلمين المثال من أهل الكتاب تبصرةً وذكرى لأولي الألباب، وأخبر أن المسلمين سيطرأ عليهم زمان يَضِلُّون فيه الطريق القويم، ويُرفع العلم ويقلّ الخشوع بين الناس.

وهذا ما كان.

قال الطحاوي: (في الأوان الذي يُرفع فيه العلم، ونعوذ بالله منه، لأنه هو الزمان الذي لا خشوعَ فيه مع الناس، وإذا لم يكن معهم الخشوع، كانت معهم القسوةُ والاستكبار، ونعوذ بالله من ذلك)[1].

ونحن نعوذُ بالله من ذلك أيضاً، فلقد استَشْرَتْ بين الناس في هذا الزمان خلائقُ الاستكبار وقسوة القلب، وذَوَى في النفوس الإخباتُ والتواضع، وانحسرَ من كثير من الأفئدة التذلُّلُ بين يدي الله تعالى، ورُفع الخشوع من قلوب جماهير عريضة من المسلمين، ووقع المحذور الذي خوَّف النبي ﷺ أمتَه منه.

•• لقد راجَتْ بين المسلمين أشكالُ العبادات ورسومُها وطقوسُها وحركاتها وممارساتها برتابة، بعد أن فَقدت روحَها وتمَّ تفريغُها من محتواها من الخشوع والتضرّع والإنابة والخضوع والتدبّر والفهم، وفَقدتِ الصلوات والأذكار والتلاوة والدعوات وجهتها السماوية وقيمتها الروحية ونتائجها الاجتماعية عندما تُمارس حركات بدنية وحسب!.

إن هناك أقواماً كثيرين يجيدون أداءَ صور العبادات دون أن يشربوا روحها، ويحسنون إقامةَ الرسوم والأشكال دون نفاذٍ إلى الجوهر واللبِّ في منطق العقيدة وفروض الإيمان[2].

إنهم يعيشون مأساة خلقية ولو لم يدروا بها، فالعبادات شُرعت للتزكية والتربية وصَقْل النفس وتهذيبها وصلتها بالملأ الأعلى، ولتنعكس على سلوكيات المسلم في الحياة، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

---

(١) شرح مشكل الآثار: ١/ ٢٨٣.
(٢) انظر: علل وأدوية، ص٥٩؛ كفاح دين، ص٢٢٠.

وقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وحسبك أن تدخل مساجدَ المسلمين، أو ترقُب صلواتهم وأذكارهم وخلائقهم عندما ينتظرون الصلاة أو يقومون في الصف أو يفرغون من أداء الصلاة، أو يحيون ليالي رمضان بصلاة التراويح، أو يُنصتون للإمام في صلاة الجمعة وخطبتها، أو يُشَيِّعون جنازة أو يؤدُّون العزاء بميت... لترى مصداقَ قول النبي ﷺ: «**ويُرفع الخشوع**»!.

إنما هي في كثير من الحالات ركعات وحركات وركوع وسجود وتمتمات، أما الصفوف فكثير منها معوجَّة ومخلخلة، والقلوب ساهية لاهية، والعقول مشتتة تَسْبح في أجواز الفضاء وتجري في مناكب الأرض لتُحصي أعدادَ المال وتدبِّر أمور الشركات وأحوال العقارات والممتلكات، ورُبَّ مصلٍّ ليس له من صلاته إلا الركوع والسجود، ورُبَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش... والله يتولى الصالحين الخاشعين.

وحالُ كثيرٍ من المسلمين الآن كما قال أبو الدرداء ﷺ: (تعوَّذُوا بالله من خشوع النفاق! قيل: يا أبا الدرداء! وما خُشوع النفاق؟ قال: أن تَرى الجسدَ خاشعاً والقلبَ ليس بخاشع)(١).

صدق رسول الله ﷺ؛ لقد قلَّ الخشوع حتى لا ترى في مسجد الجماعة خاشعاً حقَّ الخشوع.

أينَ الخاشِعُ الذي خَشَع قلبُه ورقَّ طبعه وهدأتْ في الصلاة نزعاته وجوارحه؟!.

أين الخاشع المُقبِل على صلاته المتدبِّر لِما يتلوه ويسمعه؟!.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: في مصنفه: ٨/ ٣٢١.

أين الخاشع المتضرِّع المتذلِّل الذي يُسمع في صدره أَزيزٌ كأزيزِ المِرْجَل كما كان حال النبي ﷺ وأصحابه؟!.

أين الخاشع الذي يَنخرِط في عبادته ذِكراً وتسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتعظيماً وإنابةً وتوبةً وندامةً؟!.

أين الخاشع الذي فرَّغ قلبَه من مشاغل الدنيا وتثمير الأموال والصفق في الأسواق وهموم الزوجة والأولاد؟!.

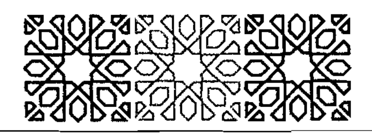
أين الخاشع الذي لا يتبرَّم بالإمام إذا أطال بعضَ الشيء في القيام أو الركوع أو السجود؟!.

أين هؤلاء؟!..

لقد قلَّ الخاشعون في المساجد والصلوات والتهجد والقيام والصيام وعند حضور الجنائز والصلاة عليها وتشييعها ودفنها والتعزية بها...

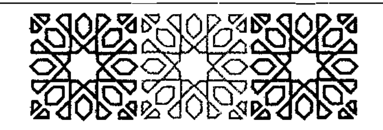
أما في باقي شؤون الحياة فانتشرت القسوة، وغِلظ القول، وفظاظةُ الطبع، وعنفُ التعامل، وكثرةُ عَبَثِ الجوارح من العين إلى الأذن إلى اللسان... ولا حول ولا قوة إلا بالله.





الفصل الحادي عشر

نبوءات عن ظواهر طبيعية





إخبار النبي ﷺ بوقوع طاعون عَمَواس

١ ـ عن أبي إدْريس الخَوْلانيِّ قال: سمعتُ عَوْفَ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: (أتيتُ النبيَّ ﷺ في غزوة تَبُوكَ، وهو في قُبَّةٍ من أَدَم، فقال: «**اعْدُدْ سِتّاً بينَ يَدَي الساعةِ: مَوْتي، ثم فتحُ بيتِ المَقْدسِ، ثم مُوْتَانٌ يأخُذُ فِيكُم كقُعَاصِ الغَنَم، ثم استفاضةُ المالِ حتى يُعْطَى الرجلُ مئةَ دينارٍ فَيظلُّ ساخِطاً، ثم فِتنةٌ لا يَبْقَى بيتٌ من العَرَب إلا دَخَلَتْهُ، ثم هُدْنةٌ تكونُ بينَكم وبينَ بني الأَصْفرِ فَيَغْدِرُونَ، فيأْتُونَكُم تحتَ ثمانينَ غايةً،تحت كلِّ غايةٍ اثنا عشرَ أَلْفاً**») لفظ البخاري.

وفي رواية ابن ماجه: «**ثم داءٌ يَظْهَرُ فِيكُم، يَستشهِدُ الله به ذَرارِيَّكُمْ وأَنْفُسَكُم، ويُزَكِّي بِهِ أَعْمَالَكُم**»[(١)].

٢ ـ وعن سَلَمة بن نُفَيْل السَّكُونيِّ رضي الله عنه قال: كنَّا جُلوساً عند النبيِّ ﷺ وهو يُوحَى إليه، فقال: «**إنِّي غيرُ لابثٍ فيكُم، ولستُم لابثينَ بَعْدِي إلا قليلاً، وستأْتُوني أَفْنَاداً، يُفْنِي بعضُكُم بَعْضاً، وبينَ يَدَيِ الساعةِ مُوتَانٌ شديدٌ، وبعدَه سنواتُ الزَّلَازِلِ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٦)؛ وابن ماجه (٤٠٤٢)؛ وأحمد: ٦/ ٢٢، ٢٥، ٢٧؛ والطبراني في الكبير: ١٨/ (٧٠) و(٧١) و(٧٢) و(٩٨) وغيرها؛ وابن منده في الإيمان (٩٩٨) و(٩٩٩) و(١٠٠٠)؛ وابن حبان (٦٦٧٥)؛ والبيهقي في السنن: ٩/ ٢٢٣، وفي الدلائل: ٦/ ٣٢٠ ـ ٣٢١، ٣٨٣؛ والحاكم: ٣/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧، ٤/ ٤١٩، ٤٢٢ ـ ٤٢٣؛ والداني (٤٢٧) و(٥٢٣) و(٥٢٥)؛ والبغوي (٤٢٤٨). وانظر: النبوءة (٢٥).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ١٠٤؛ وابن حبان (٦٧٧٧) واللفظ له؛ وأخرجه ضمن حديث طويل: =

أولاً: كلمة بين يدي النبوءة وتوضيح معاني المفردات:

تضمَّن هذان الحديثان الإخبارَ بعدَّة أمور مستقبلية، وقد وقعتْ جميعُها ما عدا قتال بني الأصفر وهم الروم، وتناولنا في كتابنا هذا عدداً منها، وبقي تفصيلُ القول في «**الموتان**» و«**الزلازل**».

ونتحدّث هنا بشيء من التفصيل والبيان عن إخباره ﷺ بوقوع الموت الذَّريع في أمته، ومتى تحقق ذلك وكيفيته.

ـ «**المُوْتَان**»: بوزن البُطْلان، الموتُ الكثيرُ الوقوعِ[١].

ـ «**قُعَاص الغَنَم**»: داءٌ يأخذُ الدوابّ فيَسِيل من أنوفها شيءٌ فتموت فجأةً.

والقُعاص: داءٌ يأخذ في الصَّدْر كأنه يَكْسِر العُنُق، ومنه أخذ الإِقْعاص: وهو أن تضرِبَ الشيءَ أو ترميَه فيموت مكانَه[٢].

والمقصود بالموتان في الحديث هنا هو (وباء الطاعون)[٣] الذي وقع أيام فتوحات الشام، فاجتاح المسلمين وقضَى منه آلافٌ من الأنفس الطاهرة.

ثانياً: تحقق النبوءة:

●● وهذه النبوءة مما جاء مصداقُه وتحقُّق وقوعُه بُعيد وفاة سيدنا رسول الله ﷺ بنحو سبع سنين، في منتصف خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، في السنة الثامنة عشرة للهجرة، حيث وقع (طاعون عَمَواس) في غور الأردن، واشتعلَ

= النسائي في الكبرى (٤٣٨٦)، وفي الصغرى: ٦/ ٢١٤ ـ ٢١٥؛ والطبراني في الكبير (٦٣٥٧ ـ ٦٣٦٠)؛ وصحّحه شعيب الأرنؤوط؛ والألباني في صحيح النسائي (٣٣٣٣)، والصحيحة (١٩٣٥). وانظر: النبوءة (٤٠). قوله: (**«أفناداً»**: أي جماعات متفرقين، قوماً بعد قوم، واحدُهم: فِنْد.

(١) النهاية في غريب الحديث: ٤/ ٣٧٠؛ لسان العرب: ٢/ ٩٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث: ٤/٨٨؛ لسان العرب: ٧/٧٨؛ الفتح: ٧/ ٧٨٢ ـ ٧٨٣ (٣١٧٦).

(٣) انظر: التعريف بهذا الوباء الخطير في: النبوءة التالية.

شَرُّه بين المسلمين، ووقع بسببه الموت الكثير الذي وصفه الحديث (بالموتان)، وشَبَّهه بذاك الداء العُضال الذي يصيب الماشية ويقتلُها قتلاً ذَريعاً سريعاً.

وقد ذَكر أن المقصود بـ «**الموتان**» هو طاعون عمواس عددٌ من العلماء: على رأسهم الصحابي الجليل عوف بن مالك راوي الحديث، وهو أدرى بتأويله وتنزيله على معناه ومراده.

ففي رواية الإمام الحاكم في «المستدرك»: (لمَّا كانَ عامُ عَمَواس قال عوف بن مالك لمعاذ بن جبل: إنَّ رسول الله ﷺ قال لي: «**اعدُدْ ستّاً بين يدي الساعة**»، فقد كان منهن الثلاث[1]، وبقي الثلاث، فقال معاذ: إنَّ لهذا مدة)[2].

والإمام الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة»[3]؛ حيث قال: (باب ما جاء في إخبار النبي ﷺ بالطاعون الذي وقع بالشام في أصحابه في عهد عمر بن الخطاب). ثم أخرج حديث عوف بن مالك.

والإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»[4]... وغيرهم.

●● وذكر المؤرِّخون أن الطاعون وقع في بلدة (عَمَواس)[5] سنة (١٨هـ)، وانتقل إلى (غور الأردن)، وأخذ شَرُّه ينتشر في جيوش المسلمين، حيث كان قسم كبير جدّاً منهم فيه، وعلى رأسهم: أبو عبيدة بن الجراح ـ وهو أمير الناس ـ ومعاذ بن جبل وشُرَحْبيل بن حَسَنة وجماعة من أشراف الصحابة وأكابرهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أنَّ عمر بنَ الخطاب رضي الله عنه خرجَ إلى الشام، حتى إذا

(١) يعني: موت النبي ﷺ، وفتح بيت المقدس، وهذا الطاعون. الفتح: ٧/ ٧٨٤.
(٢) المستدرك: ٤/ ٤٢٣.
(٣) دلائل النبوة: ٦/ ٣٢٠.
(٤) الفتح: ٧/ ٧٨٣.
(٥) بلدة تقع جنوب شرق الرملة من فلسطين، على طريق رام الله إلى غزة، تبعد عن القدس حوالي (٣٠كم). انظر: المعالم الأثيرة، ص٢٠٢.

كان بِسَرْغ(١) لقيَهُ أمراءُ الأجناد ـ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابُه ـ فأخبرُوه أن الوباءَ قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادْعُ لي المهاجرين الأوَّلين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرَهم أن الوباءَ قد وقع في الشام، فاختَلَفوا، فقال بعضُهم: قد خرجنا لأمرٍ، ولا نرى أن ترجعَ عنه، وقال بعضُهم: معك بقيَّةُ الناس وأصحابُ رسول الله ﷺ، ولا نَرى أن تُقْدِمَهم على هذا الوباء. فقال: ارتفِعُوا عنِّي. ثم قال: ادْعوا لي الأنصار، فدعوتُهم، فاستشارهم، فسَلَكوا سبيلَ المهاجرين، واختَلَفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عنِّي. ثم قال: ادْعُ لي من كان ها هنا من مَشيخة قريشٍ من مُهاجرةِ الفتح، فدعوتُهم، فلم يختلِفْ منهم عليه رجُلان؛ فقالوا: نَرى أن ترجع بالناس ولا تُقْدِمَهُم على هذا الوباء. فنادى عمرُ في الناس: إني مُصَبِّحٌ(٢) على ظَهْرٍ، فأَصْبِحوا عليه. فقال أبو عبيدة بن الجراح: أَفِراراً من قَدَر الله؟! فقال عمر: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة(٣)! نعم نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله، أرأيتَ إن كانتْ لك إبلٌ هَبَطَتْ وادياً له عُدْوَتانِ(٤): إحداهما خَصِبَة، والأخرى جَدْبَة، أليسَ إنْ رعيتَ الخَصِبَة رعيتَها بقَدَرِ الله، وإنْ رعيتَ الجَدْبَة رعيتَها بقَدَرِ الله؟! قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيِّباً في بعضِ حاجته ـ فقال: إنَّ عندي في هذا عِلْماً، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إذا سَمِعْتُم به بأرض فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وَقَع بأرض وأنتم بها فلا تَخْرُجوا فِراراً منه**». قال: فحمدَ الله عمر، ثم انصرَفَ)(٥).

ورجَع عمر بمن معه إلى المدينة النبوية، وعاد أبو عبيدة ورؤوس الأجناد

---

(١) هي (المدوّرة) اليوم، مركز الحدود بين الأردن والسعودية، من طريق (حالة عمّار).

(٢) **مُصَبِّح**: مسافر في الصباح.

(٣) أي: لعاقَبْتُه، أو: لكان أولى منك بذلك، أو: لم أتعجب منه، ولكن أتعجب منك مع علمك وفضلك كيف تقول هذا!.

(٤) **عدوة الوادي**: طرفه المرتفع منه.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٢٩) واللفظ له؛ ومسلم (٢٢١٩)؛ ومالك: ٢/ ٨٩٤ ـ ٨٩٦؛ وابن حبان (٢٩٥٣)، وغيرهم.

ومن معهم إلى جيوشهم في غور الأردن، وشَرُّ الطاعون لا يزالُ يَستطير ويذهَبُ بأرواح الناس حتى تفانَوا. وكان يؤرِّق عمرَ سلامةُ جنده من هذا الوباء الوبيل، وأراد أن يستنقذَهم من بَرَاثِنه وفَتْكِه، فأرسل أوامره وتوجيهاته إلى أبي عبيدة أن يَرحَل بالمسلمين من أرض الغور، وهي أرض غَمِقة[1] وخِمَة، فيها المستنقعات والنُّزوز فاسدة الريح، ويَظْهَر بهم إلى أرض مرتفعة نَزِهَةٍ فسيحة طيِّبة الريح بعيدةٍ عن الوَخَم، ورَغِبَ إليه أن يأتيه في المدينة لحاجته إليه، فظنَّ أبو عبيدة أن عمر إنما أراد استنقاذَه دون بقية الناس، فاعتذر إلى عمر.

وكان أمير المؤمنين عمر قد تأوَّلَ حديثَ عبد الرحمن بن عوف، ورأى أنَّ النهيَ عن الخروج إنما هو لمن قَصَدَ الفِرار متمحِّضاً فِراراً من قدر الله، معتقداً أن فراره يسلمه من الموت، لا لمن يخرج من الأرض الوبيئة للتداوي أو الرحيل إلى أرض نزِهة طيبة الهواء، فذلك جائز.

وتابع عمرَ على هذا الرأي جماعةٌ من الصحابة، أما أبو عبيدة فوقف عند ظاهر الحديث، ولم ينأَ بنفسه عن بقية المسلمين، يَسَعُه ما يسعُهم، وهو ينتظر الشهادة.

وكتب عمر إلى أبي عبيدة: إن الأردن أرض غَمِقَةٌ، وإن الجابِيَة أرض نَزِهةٌ، فاظْهَرْ بالمسلمين إلى الجابية[2].

●● وقد ذكر كثير من العلماء (الطواعين) التي وقعت في تاريخنا الإسلامي حسب بلدانها وتواريخها، منهم: ابن قُتيبة في كتابه «المعارف»، وابن أبي الدنيا في كتابه «الطواعين»، وابن الجوزي في «المنتظم»، وابن عساكر والذهبي وابن كثير في تواريخهم، والسيوطي في كتابه «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، وذكر البَرْزَنْجي خلاصة جيدة في كتابه «الإشاعة».

---

(١) غَمِقة: أي قريبة من المياه والنُّزوز. والغَمَق: فسادُ الريح وخُمومها من كثرة الأَنْداء فيحصل منها الوباء.

(٢) من كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٣٢٩ ـ ٣٣٢.

وأفاد أولئك المؤرِّخون: أنه **مات من جيوش المسلمين في (غور الأردن) في طاعون عمواس سنة (١٨هـ) نحو خمسة وعشرين ألف نفس، من الصحابة والتابعين وذراريهم، ﷺ وأجزل مثوبتهم.**

●● **ومن مشاهير من استشهد من الصحابة في طاعون عمواس**[١]:

أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جَبَل، وشُرَحْبيل بن حَسَنة، والفَضْل بن العباس، وأبو مالك الأشعري، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وأبو جَنْدَل الذي جاء يوم الحديبية يَرْسُف في قيوده، وسُهَيل بن عَمْرو والد أبي جَنْدَل.

ثالثاً: أجر مَنْ مات بالطاعون:

أشار حديث عوف بن مالك الذي صدَّرنا به النبوءةَ إلى ثواب مَن ابتُلي بالطاعون وصبر عليه؛ ففي رواية ابن ماجه: «**ثم داءٌ يَظهرُ فيكم، يَستشهِدُ اللهُ به ذَرَارِيَّكُم وأنفسَكم، ويُزكِّي به أعمالَكم**».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**الطَّاعُونُ شهادةٌ لكلِّ مسلمٍ**»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الشهداءُ خمسةٌ: المَطْعُونُ، والمَبْطُونُ، والغَرِقُ، وصاحِبُ الهَدْم، والشهيدُ في سبيل الله**»[٣].

وعن عائشةَ رضي الله عنها زوجِ النبي ﷺ: (أنها سألَتْ رسولَ الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرها نبيُّ الله ﷺ أنه كان عذاباً يبعثُه الله على من يشاء، فجعلَهُ الله رحمةً

---

(١) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص١٧٠ ـ ١٨٥؛ سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٣٠؛ البداية والنهاية: ٧/ ٩٣ ـ ٩٦.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٣٠)؛ ومسلم (١٩١٦)؛ وأحمد: ٣/ ١٥٠، ٢٢٠، ومواضع أخرى؛ والبغوي (١٤٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٢٩)، وأطرافه في (٦٥٣)؛ ومسلم (١٩١٤)؛ والنسائي في الكبرى (٧٤٨٦)؛ والترمذي (١٠٦٣)؛ وابن حيان (٣١٨٨)، وغيرهم.

للمؤمنين، فليس من عبدٍ يقع الطاعون، فيمكُث في بلدِه صابراً يَعلمُ أنه لن يُصِيبَه إلا ما كَتَب الله له، إلا كان له مثلُ أجرِ الشهيد)[١].

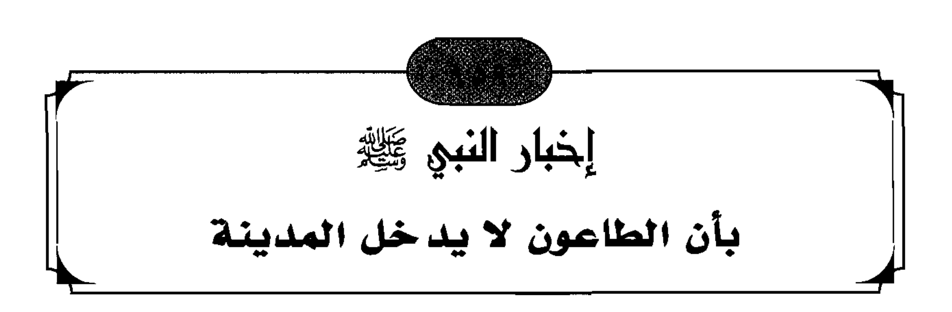
وعن العِرْباضِ بن ساريَةَ رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «**يَخْتصِمُ الشهداء والمُتَوَفَّوْنَ على فُرُشِهم إلى ربِّنا في الذين يُتَوَفَّوْنَ من الطاعون، فيقول الشهداءُ: إخوانُنا قُتِلوا كما قُتِلنا، ويقول المُتَوَفَّوْنَ على فُرُشِهم: إخوانُنا ماتوا على فُرُشِهم كما مِتنا، فيقول ربُّنا: انظُروا إلى جِراحِهم، فإنْ أَشْبَهَ جراحُهم جراحَ المقتولين، فإنهم منهم ومعهم، فإذا جِراحُهم قد أشبَهَتْ جِراحَهُم**».

زاد أحمد: «**فَيَلْحَقون بهم**»[٢].



(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٤) وطرفاه؛ والنسائي في الكبرى (٧٤٨٥).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٣٥٧)، وفي الصغرى: ٦/ ٣٧ ـ ٣٨؛ وأحمد: ٤/ ١٢٨ ـ ١٢٩؛ وحسَّنه الحافظ في الفتح: ١٣/ ٩٩ شرح الحديث (٥٧٣٤)؛ وصحَّحه الألباني في صحيح النسائي (٢٩٦٦).



إخبار النبي ﷺ بأن الطاعون لا يدخل المدينة

١ ـ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**علىٰ أَنْقَابِ المدينةِ ملائكةٌ، لا يَدْخُلُها الطَّاعُونُ ولا الدَّجَّالُ**»[١].

٢ ـ وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**المدينةُ يأْتِيها الدَّجَّالُ فيجدُ الملائكةَ يَحرُسُونَها، فلا يَدْخُلُها الدَّجَّالُ ولا الطَّاعُونُ، إنْ شاءَ الله تعالَى**». لفظ أحمد وابن حِبَّان.

وفي رواية للبخاري وأحمد: «**فلا يَقْرَبُها الدَّجَّالُ ولا الطَّاعُونُ إنْ شاءَ الله**»[٢].

❁ ❁ ❁

أولاً: لمحة موجزة عن الطاعون[٣]:

سبب الطاعون هو (ميكروب صغير) يبلغ طوله ميكروناً ونصفاً ـ والميكرون واحد من مليون من المتر ـ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٠) وطرفاه، واللفظ له؛ ومسلم (١٣٧٩)؛ والنسائي في الكبرى (٣٢٥٩) و(٧٤٨٤)؛ ومالك: ٢/ ٨٩٢؛ وأحمد: ٢/ ٢٣٧، ٣٧٥، ٣٧٨؛ والداني (٦٤٠)؛ والبغوي (٢٠٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٣٤) و(٧٤٧٣)؛ والترمذي (٢٢٤٢)؛ وأحمد: ٣/ ١٢٣، ٢٠٢، ٢٧٧؛ وابن حبان (٦٨٠٤).

(٣) من كتاب: العدوى بين الطب وحديث المصطفى ﷺ، للدكتور محمد علي البار ـ من الإنترنت.

وقد اكتُشف ميكروب الطاعون عام (١٨٩٤م) في الوباء الذي اكتَسح الصين، اكتشفه عالمان في (هونج كونج) كل على حِدَة.

وفي عام (١٨٩٨م) قام العالم الفرنسي (بول لويس سيمون) بتجارب، وأثبتَ أن الذي ينقل ميكروبَ الطاعون (برغوثُ الفئران)، وعادةً يعيش الميكروب على الحيوانات القارضة، فإذا ما ابتدأ الوباء انتقل بواسطة البراغيث والحشرات إلى الفئران المنزلية ومنها إلى الإنسان. كما قد ينتقل الميكروب بواسطة جرذان البواخر التي تعيش في مخازن السفن.

ويتكاثر الميكروب في معدة البرغوث حتى يسدَّها، فيزداد إحساس البرغوث بالجوع، ويزداد عندئذ نَهَمُه وقرْصُه وعضُّه، فيمصّ الدم فتدخل الميكروبات محل الوخزة والقرصة.

وينتقل الميكروب بواسطة الأوعية اللمفاوية الموجودة في المَرَاقّ[1]، أما إذا كانت العضَّة في اليد أو الذراع فتنتقل الميكروبات إلى غدَّة الإبط اللمفاوية، فإذا كانت العضة في الوجه أو العنق انتقلت الميكروبات إلى غدَّة في العنق.

ثانياً: أنواع أعراض الطاعون:

الطاعون نوعان:

الأول: الطاعون الغُدَدِيّ: وهو الذي ينتشر في الفئران وينتقل منها إلى الإنسان بواسطة عَضّ الحشرات وأهمها البراغيث، فينتقل الميكروب بواسطة الأوعية اللمفاوية من موضع عَضَّة البرغوث إلى الجلد عند اتصال الأوعية اللمفاوية، وأهمها الموجودة في المَرَاقّ وهي المنطقة الأربية عند اتصال الفخذ بالبطن، وغُدَد الإبط اللمفاوية، وغُدد العنق اللمفاوية، وتتضخم هذه الغُدد وتتورَّم وتمتلئ صَديداً.

---

(١) **مَرَاقُّ البطن**: ما رَقَّ منه ولانَ في أسافِله ونحوها.

والنوع الثاني: **هو الطاعون الرئوي**: وهو أشدُّ فتكاً من الطاعون الغُددي، ولا يكاد ينجو منه أحد.

ثالثاً: تحقق النبوءة:

●● يُخبِر النبي ﷺ بأن المدينة النبوية محميَّة من بلاء الطاعون الفتَّاك، وأنَّ أهلَها ومَن لاذَ بها وجاورَ فيها مأمونون من ذلك الوباء الذي حرَّم الله عليه دخولها، مثلما أن الدجال سيُمنع عند ظهور فتنته من دخولها.

وأقام الله سبحانه على أنقابها[1] ـ وهي طُرقها وفِجَاجها ومداخلها وأبوابها ـ ملائكة يحرسونها من خطر الطاعون وفتنة الدجال.

وفي الحديث عن أبي هريرة وسعد بن مالك رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«اللهمَّ بارِكْ لأهلِ المدينة في مُدِّهِم وفي صاعِهم، وبارِكْ لهم في مدينتِهم...»** الحديث، وفي آخره: **«أَلَا إنَّ المدينةَ مشتبكةٌ بالملائكة، على كل نَقْب منها مَلَكان يَحرُسانها، لا يَدخُلها الطاعون والدجال، من أراد أهلَها بسوءٍ أذابَهُ الله كما يَذوبُ الملحُ في الماء»**[2].

وهذا من بركة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ومن فضائلها الكثيرة وبركات السكنى فيها.

●● وقد صدَّقتِ الأيامُ هذا الخبرَ الصحيح، ووقع الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ، فقد ذكر العلماء من المؤرِّخين وشرَّاح الحديث ومن صَنّف في (الطواعين) أن هذا الداء الوبيل قد اجتاح كثيراً من أمصار الإسلام شرقاً وغرباً على مدار السنين، وبقيت المدينة المنورة محميَّة، لا يستطيع الطاعون أن يرومها بسوء.

---

(١) أصل النَّقْب الطريقُ بين الجبلين.

(٢) أخرجه الحاكم: ٤/٥٤٢؛ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/٤٤٦، شرح الحديث (٧١٣٤)، وسكت عليه.

ووقعت طواعين كثيرة منذ عهد عمر الفاروق ﷺ وإلى أيامنا، ولا تزيد الوقائع هذه النبوءة إلَّا ترسيخاً وتصديقاً.

ومن البلدان والدول التي اجتاحها الطاعون: عَمَواس، والبصرة، والكوفة، وواسط، والمَوْصل، وبغداد، والجزيرة، وعموم العراق، ودمشق، وحلب، والشام عموماً، والقاهرة، ومصر، واليمن، والحجاز، وشيراز، وأَصْبَهان، وأَذْرَبِيجان، وأرض فارس، والهند، وبلاد الروم.

وفي سنة (٧٤٩هـ) وقع طاعون لم يُعهد نظيرُه في الدنيا، فإنه طَبَّقَ الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وعَمَّ جميعَ أجناس بني آدم، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر، وشمل بقاعَ الدنيا من الصين وحتى الأندلس، ودخل مكة المكرمة.

وعصمَ اللهُ سبحانه المدينةَ النبوية وأهلَها من شرِّه[١].

قال الحافظ: (فكان منعُ دخولِ الطاعون المدينةَ من خصائص المدينة ولوازمِ دعاء النبي ﷺ لها بالصحة. وهذا من المعجزات المحمدية؛ لأن الأطباء من أوَّلِهم إلى آخرهم عجزوا أن يَدفعوا الطاعونَ عن بلد بل عن قرية، وقد امتَنَع الطاعون عن المدينة هذه الدهور الطويلة)[٢].

وأمَّا ما ذكره القُرطبي في «المُفْهِم» فقال شارحاً قوله ﷺ: **«لا يَدخُل المدينةَ الطاعونُ»**: (المعنى: لا يدخلُها من الطاعون مثلُ الذي وقع في غيرها كطاعون عَمَواس والجارِف).

فقد ردَّه الحافظ فقال: (وهذا الذي قاله يقتضي تسليمَ أنه دخلها في

(١) الفتح: ١٣/ ٩٣ شرح الحديث (٥٧٣١)؛ الإشاعة، ص١١١. وقد فصَّلْتِ القولَ فيه التواريخُ المستوعبة لتلك الحقبة، انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ٢٢٥ ـ ٢٣٠؛ النجوم الزاهرة: ١٠/ ١٥٥ ـ ١٦٨، وقد أطنب في الحديث عنه.

(٢) الفتح: ١٣/ ٩٤.

الجملة، وليس كذلك، فقد جَزَم ابن قُتيبة في «المعارف» وتبعه جمعٌ جَمّ من آخرهم الشيخ محيي الدين النَّووي في «الأذكار»؛ بأن الطاعون لم يدخل المدينة أصلاً)[١].

رابعاً: استشكال وجوابه:

وقد أبدى الحافظ في «فتح الباري» استشكالاً فقال: (وقد استُشكل عدمُ دخول الطاعون المدينة مع كون الطاعون شهادة).

ثم نَقل في رفع الاستشكال عدَّة أجوبة، ومن أحسنها قولُه: (ويظهرُ لي جوابٌ آخر ـ بعد استحضار الحديث الذي أخرجه أحمد من رواية أبي عَسِيب ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني جبريلُ عليه السلام بالحمَّى والطاعون، فأمسكتُ الحُمَّى بالمدينة، وأرسلتُ الطاعونَ إلى الشام، فالطاعونُ شهادةٌ لأمَّتي، ورحمةٌ لهم، ورِجْسٌ على الكافرين**»[٢] ـ وهو:

أن الحكمةَ في ذلك أنه ﷺ لمَّا دخل المدينة كان في قلَّة من أصحابه عدداً ومدداً، وكانت المدينة وَبِئة كما سبق من حديث عائشة، ثم خُيِّر النبيُّ ﷺ في أمرين يَحْصُل بكل منهما الأجر الجزيل، فاختار الحمَّى حينئذ لقلَّة الموت بها غالباً، بخلاف الطاعون. ثم لمَّا احتاجَ إلى جهاد الكفار وأُذِن له في القتال، كانت قضيةُ استمرار الحمى بالمدينة أن تُضعِف أجسادَ الذين يحتاجون إلى التقوية لأجل الجهاد، فدَعَا بنقل الحمى من المدينة إلى الجُحْفَةِ، فعادتِ المدينةُ أصحَّ بلاد الله، بعد أن كانت بخلاف ذلك.

ثم كانوا من حينئذٍ مَن فاتَتْه الشهادة بالطاعون، ربما حَصَلَتْ له بالقتل في سبيل الله، ومن فاته ذلك حصلت له الحمى التي هي حظُّ المؤمن من النار. ثم

---

(١) الفتح: ١٣/ ٩٣؛ وانظر: الأذكار، ص١٣٠.

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٨١، وغيره؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧٦١).

استمرَّ ذلك بالمدينة تمييزاً لها عن غيرها، لِتحقُّقِ إجابةِ دعوته ﷺ، وظهورِ هذه المعجزة العظيمة بتصديق خبره هذه المدة المتطاولة، والله أعلم)[١].



(١) الفتح: ١٣/ ٩٤.

إخبار النبي ﷺ بخروج نارٍ بأرض الحجاز تضيءُ أعناقَ الإبلِ ببُصرى

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تَخْرُجَ نارٌ من أرضِ الحِجازِ تُضِيءُ أعناقَ الإبِل بِبُصْرى**»[1].

❁ ❁ ❁

أولاً: تحقق النبوءة:

يُخبِر النبي ﷺ بخروج نار، أي بُرْكان، في أرض الحجاز، يكون من هَوْلِه وشدته وعِظَمِه أنَّ ما يَقذِفه من حُمَمٍ بركانية ملتهبة تُضيء بلهبها الكونَ من حولها، حتى يصل ضوؤها إلى بصرى الشام في بلاد الشام، فتُرى صفحةُ أعناقِ الإبل في الليل بضوئها.

وقد وقع الأمر كما أَخبر ﷺ، وذلك في جمادى الآخرة من سنة (٦٥٤هـ)، حيث اندفع بركانٌ هائل في شرق المدينة النبوية على نحو (٤٠كم) منها، واستمرَّ أزيدَ من شهر، ورأى أهلُها هولَه وشدَّته ورُعْبَه، وكَتَب الواعون كتباً في وصفه غاية في الدقة والروعة، وأرسلوا بها إلى بعض الأمصار الإسلامية، ومنها كتب

(١) أخرجه البخاري (٧١١٨)؛ ومسلم (٢٩٠٢)؛ وابن حبان (٦٨٣٩)؛ والحاكم: ٤/٤٤٣؛ والداني (٥٣٢)؛ والبغوي (٤٢٥١). وبُصْرى: مدينة بحوران تبعد عن دمشق نحو (١٣٠كم)، جنوبها إلى الشرق قليلاً. وتبعد عن المدينة المنورة (١٣٠٠كم) بطريق السيارات، و(٩٤٠كم) خط نظر.

كثيرة وَرَدَتْ إلى دمشق، ودوَّنها المؤرِّخ العلّامة الحافظ الحجة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المَقْدسي الدمشقي المعروف بأبي شامَةَ ـ المتوفى سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) ـ في كتابه «ذيل الروضتين»، وهو ممن عاصَرَ الحدثَ الرهيب وتحقُّقَ المعجزة النبوية، كما كَتَب في خبره ممَّن عاصَرَه: الإمام النووي، والقُرطبي صاحب «التذكرة».

وأذكر هنا جملةً من الكُتب التي وَردتْ إلى دمشق وأثبتَها أبو شامة، ونقلها عنه ابن كثير في «البداية والنهاية»، وغيرُه من الأئمة، وأُعَلِّق عليها تعليقاتٍ علمية توضيحية لِما ورد في هذه الكتب؛ تبياناً لها بما يناسبُ لغةَ العلم في عصرنا، وإبرازاً لعظمةِ المعجزة وكثرةِ اللطائف والرحمات الربانية التي رافقتِ الحدثَ المهول!.

●● قال أبو شامة في حوادث سنة (٦٥٤هـ): (وجاء إلى دمشق كتبٌ من المدينة ـ على ساكِنها السلام ـ بخروج نار عندهم، في خامس جمادى الآخرة، وكُتبت الكُتُب في خامس رجب والنار بحالها، ووصلَتِ الكتب إلينا في عاشر شعبان)[١].

ثم قال: (بسم الله الرحمن الرحيم، وردَ إلى مدينة دمشق في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمئة كتبٌ من مدينة رسول الله ﷺ، فيها شرحُ أمرٍ عظيم حدث بها فيه تصديقٌ لما في الصحيحين: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تخرجَ نارٌ من أرض الحجاز، تضيءُ أعناقَ الإبل ببصرى**».

فأخبرني بعضُ مَن أثِقُ به ممن شاهدها بالمدينة، بَلَغه أنه كُتب بتَيْماء[٢] على ضوئها الكتب. قال: وكنَّا في بيوتنا تلك الليالي، وكأن في دار كل واحد

(١) ذيل الروضتين، ص١٩٠.

(٢) مدينة في السعودية تقع شمال المدينة، وتبعد عنها (٤٢٠كم).

منّا سِراجاً، ولم يكن لها حرٌّ ولَفْح[١] على عِظمها، وإنما كانت آيةً من آيات الله تعالى.

قال أبو شامة: وهذه صورةُ ما وقفتُ عليه من الكتب الواردة فيها:

لمَّا كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمئة، ظَهر بالمدينة دويٌّ عظيم[٢]، ثم زلزلةٌ عظيمة[٣] رجَفَت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب، ساعةً بعد ساعةٍ إلى يوم الجمعة[٤] الخامس من الشهر المذكور. ثم ظَهرتْ نار عظيمة في الحَرَّة قريباً من قُريظة، نبصرُها من دورنا بداخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة، إشعالها أكثر من ثلاث منائر[٥]، وقد سالت أودية منها بالنار إلى وادي شظا سيلَ الماء، وقد سدَّت مسيَل شظا وما عاد يَسيل[٦]! واللهِ لقد طلعنا جماعة نبصرها، فإذا الجبال تسير نيراناً، وقد سدَّت الحرة طريق الحاج العراقي، فسارت إلى أن وصلت الحرة[٧]، فوقفتْ بعد أن أشفقنا أن تجيءَ إلينا، ورَجَعَتْ تسير في الشرق، ويَخرُج من وسطها سهول وجبال نيرانٍ تأكُل الحجارة، فيها أنموذجٌ عمَّا أَخبر

(١) هذا من آيات الله وفضله ورحمته بالمدينة وأهلها، أن لا يكون لهذا البركان الهائل درجة حرارة عالية تسخِّن هواءَ المدينة، فالمعروف علمياً أن درجة حرارة محيط البركان قد تصل إلى مئة درجة مئوية.

(٢) ليس لهذا أي تفسير علمي، لأن أدقَّ أجهزة إنذار رصد الزلازل لا تزيد عن التنبؤ به قبل (٤) دقائق، وهذا الدويُّ قبل البركان بأيام فيه تنبيهٌ وتحذير لأهل المدينة مما سيحدث، ليأخذوا حِذْرَهم، وهذا محضُ فضلٍ من الله تعالى.

(٣) الزلزال يسبق البركانَ دائماً، لأن الزلزال يُحدِث في سطح الأرض شقّاً (فالقاً) ليسمحَ بخروج مقذوفات البركان فيما بعد.

(٤) أي: إن الزلزال استمر ثلاثة أيام، ساعة بعد ساعة، وهذا يعرف علمياً (بتوابع الزلازل).

(٥) أي: توجد للبركان ثلاث فُوَّهَات.

(٦) لأن الحُمَم البركانية بعد أن تصلَّبتْ سدَّت مسيلَ الماء.

(٧) أي: حَرَّة المدينة وهي صخور سوداء بركانية مكونة من (البازلت).

الله تعالى في كتابه العزيز فقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢ ـ ٣٣]، وقد أكلت الأرض.

وقد كتبتُ هذا الكتاب يومَ خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمئة، والنارُ في زيادة ما تغيَّرت[١]، وقد عادت إلى الحِرار في قريظة ـ طريق عِير الحاج العراقي ـ إلى الحَرَّة كلها نيران تشتعل، نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعيلُ الحاج.

وأمَّا أم النار[٢] الكبيرة فهي جبالُ نيرانٍ حُمر[٣]، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من قريظة وقد زادت، وما عاد الناس يرون أي شيء بعد ذلك، والله يجعل العاقبة إلى خير، فما أَقْدِر أن أَصِف هذه النار).

قال أبو شامَةَ: (وفي كتاب آخَر: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمئة، وفي شرقي المدينة نارٌ عظيمة، بينها وبين المدينة نصفُ يوم[٤]، انفجرتْ من الأرض، وسالَ منها وادٍ من نار حتى حاذَى جبلَ أُحد، ثم وقفتْ وعادتْ إلى الساعة، ولا ندري ماذا تفعل! ووقت ما ظهرتْ دخل أهلُ المدينة إلى نبيِّهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم، وهذه دلائل القيامة).

وقال أبو شامة: (وفي كتاب آخر: لمَّا كان يومُ الإثنين مستهلّ جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمئة، وقع صوتٌ يُشبه الرعد[٥] البعيدَ، تارة

---

(١) يعني: أن البركان استمر شهراً، وهذا شيء غريب جدّاً وخلاف المألوف من أن ثوران البراكين لا يزيد عن عدة أيام.
(٢) أي: مركز البركان ومعظمه.
(٣) الحُمَمُ البركانية التي تتصلَّب بعد أن تبرد، ويصبح لونها أسود.
(٤) أي: نحو (٤٠كم)، فيوم المسافر يقدر بنحو (٨٠ كم).
(٥) هذا مثل قوله في كتاب سابق: (دوي عظيم)، ولا يوجد له تفسير علمي، والأغرب أنه بقي على هذه الحالة يومين، وهو إنذار إلهي ورحمة بأهل المدينة ليأخذوا حِذْرهم.

وتارة، أقام على هذه الحال يومين، فلما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور، تَعْقُبُ الصوتَ الذي كنا نسمعه زلازلُ، فتقيمُ على هذه الحالة ثلاثةَ أيام، يقع في اليوم والليلة أربعَ عشرة زلزلةً! فلما كان في يوم الجمعة خامس الشهر المذكور، انْبَجَستِ الحَرَّة بنار عظيمة يكون قَدْرُها مثلَ مسجد رسول الله ﷺ، وهي برأيِ العين من المدينة، نشاهدُها وهي ترمي بشَرَرٍ كالقَصْر كما قال الله تعالى، وهي بموضِعٍ يُقال له: (أجيلين). وقد سالَ من هذه النار[1] وادٍ يكون مقدارُه أربع فراسِخ، وعرضُه أربعة أميال، وعمقُه قامة ونصف[2]، وهي تجري على وجه الأرض، ويخرج منها أَمْهاد[3] وجبالٌ صِغار، ويسير على الأرض وهو صخر يذوبُ حتى يبقى مثلَ الأُنك[4]، فإذا خمد صار أسود[5]، وقبل الخمود لونه أحمر. . وقد حَصَل بطريق هذه النار إقلاعٌ عن المعاصي، والتقربُ إلى الله تعالى بالطاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها).

وقال أبو شامة: (ومن كتاب شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحُسيني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه: لمَّا كان ليلةُ الأربعاء ثالث شهر جمادى الآخرة، حَدَث بالمدينة في الثلث الأخير من الليل زلزلةٌ عظيمة أَشْفَقْنا منها، وباتَتْ باقي تلك الليلة، تُزلزِل كلَّ يوم وليلة قدر عشر نوبات[6]. والله لقد

---

(١) هي الحُمَم البركانية السطحية (اللافا).

(٢) الفرسخ: (٥٤٤٤ متراً)، والميل: (١٨٥٠ متراً)، والقامة: (٦ أقدام) أي (متران)، فيكون طول الوادي نحو (٢٢كم)، وعرضه أكثر من (٥,٥كم)، وارتفاعه (ثلاثة أمتار)، وهذا شيء هائل جدّاً ومخيف!.

(٣) المُهْد: النَّشْزُ من الأرض، أي كالتِّلَال.

(٤) الرَّصاص.

(٥) إذا خَمَدَ جَمَد وتصلَّب وأصبح أسودَ اللون، وهو المعروف بالبازلت، واللون الأسودُ فيه هو لون أكاسيدِ الحديد المادة الغالبة في تركيب الحُمَم السطحية (اللافا).

(٦) أي: عشرة توابع زلزالية، وهذا شيء غير عادي، إذ أقصى عدد للتوابع هو (٢ ـ ٣)، والذي حدث هنا فيه مزيد تنبيه، للحيطة والحذر.

زُلْزِلت مرةً ونحن حولَ حجرة رسول الله ﷺ اضطربَ لها المِنبر، إلى أن أَوْجَسنا[١] منه صوتاً للحديد الذي فيه، واضطربتْ قناديلُ الحرم الشريف النبوي، ودامتِ الزلزلة إلى يوم الجمعة ضُحىً، ولها دويٌّ مثل دويِّ الرعد القاصِف. ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحَرَّة في رأس (أجيلين) نار عظيمة مثلُ المدينة العظيمة، وما بانت لنا إلا ليلة السبت، وأَشْفَقْنا منها وخِفنا خوفاً عظيماً. وطلعتُ إلى الأميرِ وكلَّمْتُه وقلتُ له: قد أحاطَ بنا العذاب، ارجِعْ إلى الله تعالى! فأَعْتَقَ كل مماليكه، وردَّ على جماعة أموالَهم، فلما فعل هذا قلت له: اهبط الساعةَ معنا إلى النبي ﷺ، فهبط، وبِتْنا ليلةَ السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم، ولا بقيَ أحدٌ لا في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ. وأشفقنا منها، وظهر ضوؤها إلى أن أُبْصِرَتْ من مكة ومن الفلاة جميعها! ثم سال منها نهر من نار[٢]، وأخذ في وادي (أجلين) وسدَّ الطريق[٣]، ثم طَلَع إلى بحرة الحُجَّاج، وهو بحرُ نار يجري وفوقه جمرٌ يسير، إلى أن قطعتِ النارُ الوادي وادي الشظاة، وما عاد يجيء في الوادي سيلٌ قط[٤]، لأنها حرَّة تجيءُ قَدْر قامتين وثلث علوُّها[٥]!.

وبالله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدَّرة، والمدينة قد تاب جميع أهلها، ولا بقي يُسمع فيها رَبَابٌ ولا دُفٌّ ولا شُربٌ. وتمَّت النار تسير إلى أن سدَّت بعضَ طريق الحاجِّ وبعضَ بحرة الحاجِّ، وجاء في الوادي منها إلينا قَتِير[٦]، وخِفْنا أنها تجيئنا، واجتمع الناس ودخلوا على النبي ﷺ وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة.

---

(١) أي: سَمِعنا، أَوْجَستِ الأذنُ صوتاً: سمعَتْه.

(٢) هي الحُمَم البركانية السطحية (اللاڤا).

(٣) لأن المقذوفات البركانية بَرَدتْ وتصلَّبتْ.

(٤) لأن الحُمَم البركانية المتصلِّبة سَدَّتْ مسيلَ الماء.

(٥) أي: نحو (٥ أمتار).

(٦) غَبرَة يعلوها سوادٌ كالدخان.

وأما قَتيرها الذي مما يلينا فقد طَفِئَ بقدرة الله ﷻ، وإنها إلى الساعة ما نَقصتْ[١]، إلا ترمي مثلَ الجِمال حجارةً من نار، ولها دويٌّ ما يَدَعُنا نرقدُ ولا نأكل ولا نشرب، وما أَقْدِرُ أصِفُ لك عِظَمها ولا ما فيها من الأهوال.

وأبصرها أهل يَنْبُع، ونَدَبوا قاضيهم ابنَ سعد، وجاء وعَدَا إليها، وما أصبح يَقْدِر يصفُها من عِظَمها.

وكتب الكتاب يوم الخامس من رجب وهي على حالها، والناس منها خائفون، والشمس والقمر من يوم طلعتْ ما يَطلعان إلا كاسِفَيْن[٢]، فنسأل الله العافية).

قال أبو شامة: (وبانَ عندنا بدمشق أثرُ الكسوف[٣] من ضَعْفِ نورِها على الحيطان، وكنّا حيارى من ذلك، إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار).

ثم قال أبو شامة: (ومن كتاب آخَر من بعض بني الفاشاني بالمدينة يقول فيه: وصل إلينا في جمادى الآخرة نَجَابةٌ من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرقٌ عظيم، حتى دخل الماء من أسوار بغداد إلى البلد، وغَرِق كثير من البلد، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير وثلاثمئة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير بل تَلِف كلُّه، وأشرف الناس على الهلاك، وعادتِ السفن تدخل إلى وسط البلد وتخترق أزقَّة بغداد.

قال: وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم: لمَّا كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين، عاد الناس يسمعون صوتاً مثلَ الرعد ساعة بعد ساعة، وما في السماء غيمٌ حتى نقولَ: إنه منه، يومين إلى ليلة

---

(١) وهذا كما سَلَف شيء غير مألوف بأن يستمر البركان شهراً كاملاً.

(٢) بسبب الأبخرة والأدخنة المتصاعدة والمرافقة للحمم المندفعة، وهي كثيرة إلى درجة أدَّتْ معها إلى حَجْب ضوء الشمس والقمر، فالناس يبصرونهما وكأنهما كاسِفان، وليس الأمر كذلك، فمن المعروف علميّاً أن لا علاقة بين البراكين وبين الكسوف والخسوف.

(٣) ليس هو بكسوف كما أوضحناه.

الأربعاء. ثم ظهر الصوت حتى سمعه الناس، وتزلزلت الأرض ورَجَفت بنا رجفةً لها صوت كدويِّ الرعد، فانزعج لها الناس كلهم وانتبهوا من مراقدهم، وضَجَّ الناس بالاستغفار إلى الله تعالى، وفزِعوا إلى المسجد وصلَّوا فيه. ودامت ترجفُ بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها، ويوم الخميس وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة الخامس من الشهر ارتجَّتِ الأرض رجَّة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسُمِع لسقف المسجد صَريرٌ عظيم، وأشفَقَ الناس من ذنوبهم، وسكنتِ الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر. ثم ظهرتْ عندنا بالحَرَّة وراءَ قُريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع الناس لها روعةً عظيمة، ثم ظَهر لها دخان عظيم[1] في السماء يَنعقِد حتى يبقى كالسحاب الأبيض إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة. ثم ظهرتْ لها أَلْسُن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها العَلَقة[2]، وعَظُمَتْ، وفَزِع الناس إلى المسجد النبوي، وأقرُّوا بذنوبهم وابتهلوا إلى الله سبحانه، واستجاروا بالله عند قبر نبيِّه ﷺ، وأتى الناس إلى المسجد من كل فَجٍّ ومن النخل، وخرج النساء من البيوت والصبيان، واجتمعوا كلهم فأَخْلَصوا لله. وغَطّتْ حمرةُ النار السماءَ كلها، حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقنَ الناس بالهلاك منها أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصلٍّ، وتالٍ للقرآن، وراكعٍ، وساجدٍ، وداعٍ إلى الله، ومتنصِّل من ذنبه، ومستغفر وتائب، ولَزِمت النار مكانها، وتناقص تضاعُفها ذلك ولهيبها. وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يَعِظُونه، فَطرح المَكْس، وأَعْتَقَ مماليكَه كلَّهم وعبيده، وردَّ علينا كل ما لنا تحت يده وعلى غيرنا.

وبقيت تلك النار على حالتها تلتهب التهاباً وهي كالجبل العظيم وكالمدينة العظيمة ارتفاعاً وعَرضاً، يخرج منها حصًى يصعد في السماء ويهوي فيها،

(١) هي الأبخرة والأدخنة المرافقة لاندفاع الحُمَم البركانية.

(٢) هو الحبل المعلَّق بالبَكَرَة.

ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد، وبقيتْ كذلك أياماً. ثم سالت سيلاناً في وادي (أجيلين) تنحدر مع الوادي إلى الشظاة، حتى كادت تقارب حرَّة العريض، ثم سَكَنَتْ ووقفتْ أياماً. ثم عادت النار تخرج وترمي بحجارة خلفها وأمامها حتى بَنَتْ لها جبلَيْن خَلْفَها وأمامها، وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياماً، ثم إنها عَظُمَت الآن وسَنَاها إلى الآن، وهي تَتَّقِد كأعظم ما يكون، ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل إلى ضحوة، ولها عجائب ما أَقْدِر أن أشرَحَها لك على الكمال، وإنما هذا طَرَفٌ منها كبير يكفي. والشمس والقمر كأنهما منكسفان[١] إلى الآن.

وكتبتُ هذا الكتاب ولها شهرٌ وهي في مكانها ما تتقدَّم ولا تتأخَّر).

وقد قال فيها بعضهم أبياتاً:

(يا كاشفَ الضرِّ صَفْحاً عن جرائِمنا ... لقد أحاطَتْ بنا يا ربُّ بأساءُ
نشكو إليكَ خُطوباً لا نطيقُ لها ... حِمْلاً ونحنُ بها حَقّاً أَحِقَّاءُ
زلازلاً تخشَعُ الصُّمُّ الصِّلابُ لها ... وكيف يَقوى على الزَّلْزَالِ شمَّاءُ
أقام سَبْعاً ترجُّ الأرضُ فانْصَدَعَتْ ... عن منظرٍ منه عينُ الشمسِ عَشْواءُ
بحرٌ من النار يجري فوقَهُ سفنٌ ... من الهِضاب لها في الأرضِ أرساءُ
يُرى لها شَررٌ كالقَصْر طائشةٌ ... كأنها دِيمَةٌ تَنْصَبُّ هَطْلاءُ
تَنشقُّ منها قلوبُ الصخر إن زَفَرتْ ... رُعْباً وتَرْعَدُ مثلَ السيفِ أضواءُ
منها تكاثَفَ في الجوِّ الدُّخانُ إلى ... إن عادَتِ الشمسُ منه وهيَ دَهْمَاءُ
قد أَثَّرَتْ سفعةٌ في البَدْر لفحتُها ... فَلَيْلَةُ التِّمِّ بعدَ النورِ ليلاءُ
تحدِّثُ النَّيِّرَاتُ السبْعُ أَلْسُنَها ... بما يُلاقي بها تحتَ الثَّرى الماءُ
وقد أحاطَ لظَاهَا بالبُروج إلى ... أن كادَ يُلحِقها بالأرض إهواءُ

(١) هذا كلام دقيق وعلمي؛ لأنهما يبدوان منكسفين وليسا كذلك.

فيا لَها آيةٌ من معجزاتِ رسو — لِ الله يَعْقِلُها القومُ الألبَّاءُ
فباسمكَ الأعظمِ المكنونِ إنْ عَظُمَتْ — منا الذنوبُ وساءَ القلبَ أسواءُ
فاسْمَحْ وهَبْ وتفضَّلْ وامحُ واعفُ وجُدْ — واصفَحْ فكلٌّ لِفَرْطِ الجهلِ خَطَّاءُ
فقومُ يونسَ لمَّا آمنوا كُشِفَ الْـ — عَذَابُ عنهم وعَمَّ القومَ نعماءُ
ونحنُ أمةُ هذا المصطفى ولنا — منه إلى عَفوِكَ المرجوِّ دعّاءُ
هذا الرسولُ الذي لولاه ما سُلِكَتْ — مَحَجَّةٌ في سبيلِ الله بيضاءُ
فارْحَمْ وصلِّ على المُختارِ ما خَطَبَتْ — على عُلا منبرِ الأوراقِ وَرْقاءُ)[1]

●● ونقل الحافظ ابن كثير عن أبي شامة ما قدَّمناه، وذكر الحديثَ الوارد في هذه النبوءة، ثم قال: (وقد وقعَ هذا في هذه السنة ـ أعني سنةَ أربع وخمسين وستمئة ـ كما ذكرنا، وقد أخبرني قاضي القضاة صدرُ الدين علي بن أبي القاسم التَّميمي الحنفي الحاكمُ بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة، وجرى ذكْر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار في هذه السنة، فقال: سمعتُ رجلاً من الأعراب يُخبر والدي ببُصْرى في تلك الليالي أنهم رأَوا أعناقَ الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرتْ في أرض الحجاز.

قلت[2]: وكان مولده[3] في سنة ثنتين وأربعين وستمئة، وكان والده مدرِّساً للحنفية ببُصْرَى، وكذلك كان جَدُّه، وهو قد درَّس بها أيضاً، ثم انتقل إلى دمشق فدرَّس بالصَّادِريَّة[4] وبالمُقَدَّمِيَّة[5]، ثم ولي قضاءَ القضاة الحنفية، وكان مشكورَ السيرة في الأحكام.

---

(١) ذيل الروضتين، ص١٩٠ ـ ١٩٣؛ البداية والنهاية: ١٣/ ١٨٧ ـ ١٩١.
(٢) القائل هو ابن كثير.
(٣) أي: القاضي صدر الدين، انظر: ترجمته في: الجواهر المضية: ٢/ ٥٨٦.
(٤) انظر: الدارس في تاريخ المدارس: ١/ ٥٣٧.
(٥) في البداية والنهاية: (المعدمية)، تصحيف، انظر: الدارس: ١/ ٥٩٤، ٥٩٩.

وقد كان عمرُه حين وقعتْ هذه النار بالحجاز ثنتي عشرة سنة، ومثلُه ممَّن يَضْبِطُ ما يَسمع من الخبر أن الأعرابيَّ أَخبر والده في تلك الليالي. وصلوات الله وسلامه على نبيِّه سيدنا محمدٍ، وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً)[١].

●● وممَّن تحدَّث عن هذه المعجزة الإمام القُرطبي في «التذكرة»، وممَّا ذكره: (أنه كان يأتي المدينة ببركة النبي ﷺ نسيمٌ بارد). وأن بعضَ أصحابه رأى هذه النار من مسيرة خمسة أيام من المدينة، أي من نحو (٤٠٠كم)! وأنها رُئِيتْ من مكة ومن جبال بصرى[٢].

ونقله عنه الحافظ في «فتح الباري»[٣].

وقال النَّووي: (وقد خرجَتْ في زماننا نارٌ بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمئة، وكانت ناراً عظيمة جدّاً، من جَنْب المدينة الشرقي وراء الحَرَّة، تواتر العلمُ بها عند جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني مَن حضرها من أهل المدينة)[٤].

ثانياً: وقفة وعبرة:

في هذه النبوءة عِظات جليلة وعِبر بليغة تتجلَّى في لُطف الله ورحمته بالمدينة المنورة وأهلها، على ساكنها أفضل وأزكى وأعطر الصلوات والتسليمات.

فمع ضخامة هذا البركان الهائل، واستمراره مدة طويلة، والكميات العملاقة التي قذفها من الحُمَم البركانية المنصهرة، والوادي الكبير الذي سار بتلك الصخور الذائبة الحمراء، والزلازل التي سبقَتْه... مع كل ذلك نجد البركات والرحمات واللطائف تتنزل على المدينة وتُحيط بها وتحفظُها وأهلَها من المكروه، ومن مظاهر ذلك:

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ١٩١ ـ ١٩٢.

(٢) التذكرة، ص٥٨٠ ـ ٥٨١.

(٣) الفتح: ١٦/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧ شرح الحديث (٧١١٨).

(٤) شرح صحيح مسلم: ٩/ ٢٥٦.

١ ـ عدم ارتفاع درجة حرارة الجو فيها، بل كان يأتيها نسيم باردا!.

٢ ـ الإنذارات المتنوعة والمتتابعة، ليأخذ الناس حِذْرَهم: من دويٍّ هائل، وصوت يشبه الرعد، وزلازل متتابعة.

٣ ـ توقُّفُ سيلان الحُمَم عندما اقتربَتْ من المدينة، مع أنها لو تابعت زحفَها، لأكلَتْها بمن فيها، لأنها صَهرتِ الجبالَ وأذابت الجلامدَ، فكيف بالبيوت وأهلها!.

٤ ـ عدمُ حدوث انهيارات أو هدم للبنيان أو شهداء بين الناس، حيث إن جميع الكتب التي وصفت الحادثة المروِّعة لم تذكر أن ثَمَّةَ قتلى، ولو أن ذلك وقع لبادَرَ الكُتَّاب الواعون بتسجيلها، فهي أهم من كل التفاصيل التي وردت بها الكتب.

كل هذا الرحمات من فضلِ الله تعالى وجميلِ لطفه، وببركة الرسول الأعظم ﷺ ودعواته المباركة للمدينة الطيبة وأهلها.



إخبار النبي ﷺ عن ظهور معادن يخرج إليها ويستثمرها شرار الخلق

١ ـ عن زيد بن أَسْلَم، عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: (أُتِيَ النبيُّ ﷺ بقطعةٍ من ذَهَب، وكانت أولَ صدقةٍ جاءتْ به بنو سُلَيم من مَعْدن لهم، فقالوا: يا رسولَ الله! هذه من مَعْدِنٍ لنا، فقال رسول الله ﷺ: **«تكونُ معادنُ ويكونُ فيها شِرارُ خَلْقِ الله»**).

وفي رواية: **«إنَّها ستكونُ معادنُ، وسيكونُ فيها شرُّ الخَلْق»**(١).

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«يَظهر مَعْدِنٌ في أرض بني سُلَيم، يَخرج إليه شِرار الناس، أو يُحْشَر إليه شِرار الناس»**. لفظ أبي يعلى.

وفي رواية للطبراني في الأوسط: **«لا تقومُ الساعةُ حتى تَظهر معادِنُ كثيرةٌ، لا يَسكُنُها إلا أراذلُ الناس»**(٢).

٣ ـ وعن زيد بن أَسْلَم، عن رجلٍ من بني سُلَيم، عن جدِّه: أنه أتى النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ٦/ ٥٣٠؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٣/ ٧٨ وعزاه للطبراني في الصغير والأوسط، وقال: رجاله رجال الصحيح؛ وقال الألباني في (الصحيحة: ٤/ ٥٠٧): رجاله ثقات. والرواية الأولى للبيهقي والثانية للطبراني.

(٢) أخرجه أبو يعلى: ٤/ (١٥٢٠)؛ وقال الهيثمي في (المجمع: ٣/ ٧٨): رجاله ثقات. وذكر الرواية الثانية في المجمع: ٧/ ٣٣١، وقال: فيه من لم أعرفه. ومنازل بني سليم شرقي مكة والطائف.

بفِضَّةٍ، فقال: هذه من مَعْدِنٍ لنا، فقال النبي ﷺ: **«ستكونُ معادنُ يَحْضُرها شِرارُ الناسِ»**[١].

۞ ۞ ۞

أولاً: بيان مدلول النبوءة وتحققها:

●● يخبر رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث بأنه سيظهر في قادم الأيام في بلاد المسلمين معادِنُ يحضُرها ويسعى إليها ويتكالَب عليها شرارُ الخلق، وقد وقع ذلك منذ نحو خمسة عقود، واستَحْكَم تحقّقُه الآن في بلاد العرب والمسلمين.

وقد ذهب إلى أن هذه النبوءة قد تحقَّقتْ في زماننا جماعة من المعاصرين، منهم: العلّامة المحدث ناصر الدين الألباني، فقال رحمه الله بعد أن صحَّح الحديث:

(ومما لا شك فيه أن شرارَ الناس هم الكفار، فهو يُشير إلى ما ابتُلي به المسلمون اليوم من جَلْبِهم للأوروبيين والأمريكان إلى بلادهم العربية، لاستخراج معادنها وخيراتها)[٢].

ونحن نؤيد ما ذهب إليه الشيخ ونؤكّده ونوضّحه.

فالمتأمّل في النصوص التي أوردناها يجد أن النبي ﷺ قال: **«تكون معادن»**، **«ستكون معادن، يظهر مَعْدِن»**، ولفظ الجمع يُفيد أن هناك معادنَ كثيرة

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٤٣٠؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٤/ ٦٥ وقال: رواه أحمد:، وفيه راوٍ لم يُسَمَّ، وبقية رجاله رجال الصحيح.
نقول: هذه الأحاديث يقوّي بعضها بعضاً، وترتقي إلى درجة الحديث الصحيح، ولذا صحح الألباني حديث أحمد هذا بشاهديه السابقَيْن. انظر: الصحيحة (١٨٨٥)، وصحيح الجامع (٣٦٢٥).

(٢) السلسلة الصحيحة: ٤/ ٥٠٧.

متنوعة، وهذا حق، وكلمة «**ستكون**» للمستقبل، و«**يظهر**» تفيد الظهور والوضوح والكثرة بعد أن كانت مختفية مدفونة في باطن الأرض.

وقوله ﷺ: «**يحضُرها شِرارُ الناس**»، «**يخرج**»، «**يُحشر**»، «**يكون فيها**»، كله يدلُّ على أن أناساً لا خلاقَ لهم، ولا عهودَ عندهم، ولا مواثيقَ تردعهم، ولا وازعَ يَكبح جماحهم ـ هم الذين يقومون باكتشافها واستخراجها واستثمارها وانتهابها؛ لأنهم: «**شر الخلق**» و«**شرار الناس**» و«**أراذل الناس**».

وقوله ﷺ: «**يَخرج**» و«**يُحشر**»؛ يدل على تقاطُرِهم من بلدان متعددة وبأعداد غفيرة كما يستفاد ذلك من كلمة «**يُحشر**»، تستقطبُهم هذه الكنوز المدفونة.

●● ومن خلال هذا البيان والتوضيح لمعاني ألفاظ الأحاديث ومدلولاتها، وبالتأمل الطويل لِما يحدُث من انتهاب خيرات المسلمين وثرواتهم من معادن مدفونة في بلادهم؛ نجدُ مصداقَ هذه النبوءة واقعاً مشهوداً في أيامنا.

فمنذ عقود وإلى الآن تتقاطر إلى البلاد العربية والإسلامية الشركات العملاقة من أوروبة وأمريكة والصين واليابان وغيرها من أهل الشرك والأوثان؛ يُنقِّبون عن المعادن المختلفة! وهم الذين يَملِكون الخبرات المتخصصة، والآلات العملاقة اللازمة، والدراسات العلمية الجادة الهادفة، فيستخرجون تلك الثروات المدفونة في باطن الأرض، ويصنِّعونها ويستثمرونها وينتهبون معظمَ عائداتها، ولا يعودُ على أهلها وأصحابها إلا الفُتات!.

ثم إن أصحابها هؤلاء لا حولَ لهم ولا طول، سواء في الخبرات والكفاءات أو التنقيب والاستخراج أو التسويق والاستثمار!.

حقّاً إن هذه «**الكنوز من المعادن**» في بلادنا يَخرج إليها ويُحشر إليها ويحضُرها شرار الخلق وأراذل الناس، كما قال النبي ﷺ!.

والكارثة الكبرى أن هذه الخيرات تفجَّر مَعِينُها في زمن صعب جدّاً.

إن العرب والمسلمين في تخلُّفٍ حضاري ومادي وعلمي، لا يتأهَّلون معه

كي يحضروا بقوة فاعلة ويَفْرِضوا إرادتهم وكوادرَهم في ميادين التنقيب والاستخراج والتصنيع والاستثمار، فيكون النهبُ من قِبل «**شرار الناس**» في ذروته، وأما ما يعود على المسلمين ـ أصحاب تلك المعادن والكنوز ـ فهو على صورة أموال أو مواد استهلاكية أو أغذية أو كماليات أو أسلحة لا تُجدي نفعاً في كثير من الحالات... ويعيشون على هذا الفُتات، فلا يؤسِّسون حضارة ولا يبنون دولة قوية ولا اقتصاداً متيناً يحفظ للأجيال القادمة حياتها ومستقبلها..

●● وفي البلاد العربية والإسلامية أنواع كثيرة من الثروات المعدنية التي تتصارع عليها الدول الصناعية الكبرى، ويمكن تصنيفُها علميّاً إلى ثلاثة أقسام رئيسة(١):

١ ـ **المعادن الفلزية**: وتشتمل على مجموعة من المعادن على رأسها: الحديد والنحاس والذهب والفضة والبوكسيت والكروم والرصاص والمنغنيز والنيكل والقصدير.

٢ ـ **المعادن اللافلزية**: وتشتمل على مجموعة من المعادن على رأسها: البوتاسيوم والفوسفات والنترات والحجر الجيري والناري والكبريت.

٣ ـ **معادن الوقود والطاقة**: وتشتمل على الفحم والبترول والغاز الطبيعي.

وهذه الأخيرة هي الأخطر والأعظم من بين تلك الثروات على أهميتها، حيث يمتلك العالم الإسلامي (٧٨٪) من احتياطي العالم من البترول، وهو يشكل القلب النابض للصناعة، بل هو عصب الحياة في زماننا.

لكن المرارة التي تعتصِر القلوبَ الحيَّة أن هذا الكنز الثمين ينتهبُه «**شِرارُ الخلق**» الذين «**يَخرجون، ويُحشرون، ويَحضُرون**» من دول شتى، يستغلّون شعوبَنا، ويَسْرِقُون خيراتنا، حتى إن (الدول المصدِّرة للنفط) وخلال أكثر من

---

(١) جغرافية العالم الإسلامي، ص١٦١ ـ ١٦٢.

خمسين عاماً، لا تزال في عداد (الدول النامية) ودول العالم الثالث من النواحي العلمية والاقتصادية والبنيوية والحضارية!

ثانياً: تنبيه:

جاء في موضوع النبوءة حديث صحيح له معنى آخر لمَّا يتحقق بعد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كَبِدِها أمثالَ الأُسْطُوانِ من الذَّهَب والفِضَّة، فيجيءُ القاتلُ فيقولُ: في هذا قَتَلْتُ، ويجيءُ القاطِعُ فيقولُ: في هذا قَطعتُ رَحِمِي، ويجيءُ السارقُ فيقول: في هذا قُطِعَتْ يَدي. ثم يَدَعُونَه فلا يأخُذونَ منه شيئاً**»[1].

وفي رواية: «**تقيءُ الأرضُ أفلاذَ كَبِدها من الذَّهَب والفِضَّة، ولا يُنْتَفَعُ بها بعدَ ذلك اليوم، يَمرُّ بها الرجلُ فيضرِبُها برِجْلِه، ويقول: في هذه كان يَقتتِلُ مَن كان قَبْلَنا، وأصبحتِ اليومَ لا يُنتفَعُ بها**»[2].

فهذا سيكون في آخر الزمان ولمَّا يتحقق بعد؛ بدليل قوله: «**يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئاً**»، وقوله: «**ولا يُنتفع بها بعد ذلك اليوم... وأصبحتِ اليوم لا يُنتفع بها**».



(١) أخرجه مسلم (١٠١٣) واللفظ له؛ والترمذي (٢٢٠٨)؛ وابن حبان (٦٦٩٧). **الأسطوان**: جمع أسطوانة؛ وهي السارية والعمود، وشبَّهه بالأسطوان لعِظَمِه وكثرته.

(٢) طرف من حديث أخرجه ابن حبان (٦٨٥٣).



إخبار النبي ﷺ بمجيء سنوات تكثر فيها الزلازل

١ ـ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتى يُقْبَضَ العِلْمُ، وتَكْثُرَ الزَلَازلُ، ويَتَقاربَ الزَّمانُ، وتظهرَ الفِتَنُ، ويَكْثُرَ الهَرْجُ** ـ وهو القتلُ القتلُ ـ **حتى يَكْثُرَ فيكمُ المالُ فَيَفِيضُ**»(١).

٢ ـ وعن سَلَمة بن نُفَيْل السَّكُونيِّ رضي الله عنه قال: كنَّا جُلوساً عندَ النبي ﷺ وهو يُوحَى إليه، فقال: «**إنِّي غيرُ لابثٍ فيكم، ولستُم لابِثينَ بَعْدي إلا قليلاً، وسَتَأْتُوني أَفْنَاداً يُفْنِي بعضُكم بَعْضاً، وبينَ يَدَي الساعةِ مُوْتَانٌ شديدٌ، وبَعْدَهُ سنواتُ الزَّلَازِلِ**»(٢).

❁ ❁ ❁

أولاً: بيان مدلول النبوءة وتحققها:

●● **الزلازل**: هي عبارة عن هزات سريعة وقصيرة المدى تتعرض لها القشرة الأرضية خلال فترات متقطعة نتيجة للاضطرابات التي يتعرض لها باطن الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٦) واللفظ له؛ و(٧١٢١)، ومواضع أخرى مطولاً ومختصراً؛ وأحمد: ٢/ ٥٣٠؛ والداني (٢٤٣) و(٢٤٤) و(٤٣٩) و(٤٤٠)، وانظر: النبوءة (٥٥) و(١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ١٠٤؛ وابن حبان (٦٧٧٧)؛ والحاكم: ٤/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، وصحَّحه على شرط الشيخين، وقال الذهبي: لم يخرجا لأَرْطاة بن المنذر وهو ثَبْت، والخبر من غرائب الصحاح. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح. وانظر: النبوءة (٤٠) و(١٥٨).

والنبوءة التي بين أيدينا من أشراط الساعة المتوسطة، التي بدأ ظهورها منذ زمن؛ وهي في ازدياد مطَّرِد، كما يدلّ عليه الواقع المشاهد والدراسات الإحصائية لعدد الزلازل السنوية أو خلال كل مئة عام.

وقد عَدَّ جماعةٌ من العلماء هذه النبوءة من الأمور التي ظَهرت وانقضتْ، منهم القرطبي في «التذكرة»، والسفاريني، وصدِّيق حسن خان، والبَرْزَنْجي الذي أورد في كتابه: «الإشاعة» جملةً من الزلازل القوية والمدمّرة التي سجلَتْها كتبُ التاريخ، منذ سنة (٢٣٢هـ) إلى سنة (١٠٠٠هـ)[١].

ويبدو أن ما ذهب إليه هؤلاء العلماء وجيه وسديد.

وقال الحافظ عند شرح قوله ﷺ: «**وتكثُر الزلازل**»: (قد وَقَع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المرادَ بكثرتها شمولُها ودوامُها)[٢].

فيظهر من كلامه أنه يرى أن هذه النبوءة قد ظَهرتْ مباديها ولم تَستحكم.

●● والذي نذهبُ إليه من تأمُّلِ الأحاديث، واستقراءِ الواقع المشهود، وما يطرأ على الأرض من زلازل، وما يسجِّله المتخصصون في هذا الميدان من معلومات وإحصاءات: أن هذه النبوءة قد ظَهرتْ مباديها منذ زمن بعيد، وهي الآن قد اسْتَحْكَمَت.

ثانياً: الزلازل في المئة السنة المنصرمة:

وتشير الدراسات التي دُوِّنت حول الزلازل من حيثُ عددُها ومواقعُها وقوَّتُها والدمارُ الذي تخلِّفه: أنه خلال المئة السنة المنصرمة وقعت الزلازل التالية:

---

(١) انظر: التذكرة، ص٥٩٣؛ لوامع الأنوار: ٢/ ٦٧؛ الإذاعة، ص١٠٧؛ الإشاعة، ص٩٠ ـ ٩١.

(٢) الفتح: ١٦/ ٤١٩ (٧١٢١).

ـ سنة (١٩٩٩م):

يناير: في مدينة أرمينية الكولومبية.

مارس: زلزال هزَّ شمال الهند.

أغسطس: زلزال مروِّع في تركيا.

سبتمبر: هزَّة قوية في اليونان.

وأعنف زلزال يضرب تايوان.

نوفمبر: زلزال عنيف آخر في تركية.

ديسمبر: زلزال يضرب الجزائر.

ـ سنة (١٩٩٨م):

مايو: زلزال في أفغانستان.

يونيو: زلزال يهزّ منطقة أَضَنه جنوب شرقي تركيا.

يوليو: زلزال في غينيا الجديدة.

ـ سنة (١٩٩٧م):

زلزال يهز شمال غرب إيران.

ـ سنة (١٩٩٥م):

يناير: زلزال في اليابان.

نوفمبر: زلزال يضرب منطقة الشرق الأوسط، مركزه في خليج العقبة، تأثرت به مصر والأردن وفلسطين والسعودية، وشعر به سكان سورية ولبنان وقبرص.

مايو: زلزال في روسية.

ـ سنة (١٩٩٤م):

زلزال في كولومبية.

ـ سنة (١٩٩٣م):

زلزال في الهند.

ـ سنة (١٩٩٢م):

زلزال يضرب مصر.

ـ سنة (١٩٩٠م):

زلزال عنيف في إيران.

ـ سنة (١٩٨٩م):

زلزال يضرب كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

ـ سنة (١٩٨٨م):

زلزال قوي يدمّر شمال غرب إرمينيا.

ـ سنة (١٩٨٥م):

زلزال عنيف يهزُّ العاصمة المكسيكية (مكسيكو).

ـ سنة (١٩٨٠م):

زلزالان عنيفان متتاليان يضربان مدينة (الأصنام) ـ الشلف حالياً ـ غرب الجزائر.

هزات أرضية في جنوب إيطاليا.

ـ سنة (١٩٧٦م):

زلزال مدمّر في مدينة صينية قَتل نصفَ مليون شخص.

ـ سنة (١٩٦٠م):

أقوى زلزال على النطاق العالمي في تشيلي، أزال عن وجه الأرض قرى بكاملها.

ـ سنة (١٩٥٤م):

زلزال يضرب مدينة الأصنام الجزائرية.

ـ سنة (١٩٥٠م):

زلزال عنيف يضرب ولاية آسام الهندية.

ـ سنة (١٩٤٨م):

زلزال شرق بحر الصين.

ـ سنة (١٩٣١م):

زلزال في بحر الشمال في بريطانيا.

ـ سنة (١٩٢٣م):

زلزال مركزُه خارج العاصمة اليابانية (طوكيو)، حَصَد أرواح (١٤٢٠٠٠) مئة واثنين وأربعين ألف شخص.

ـ سنة (١٩٠٦م):

سلسلة هزات عنيفة ضربت سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة الأمريكية، قتلت نحو ثلاثة آلاف شخص[١].

●● ومجملُ عددِ الزلازل في القرن العشرين أكبر مما كان عليه في القرن التاسع عشر.

---

(١) تاريخ الزلازل خلال مئة سنة ـ من الإنترنت.

بل يُلاحَظ من هذا العرض الذي أثبتناه تزايد نسبة الزلازل ضمن القرن نفسه، بالمقارنة بين العقد الأول من القرن العشرين والعقد الأخير منه.

ويشير علماء الزلازل إلى أن الزلازل المدمِّرة الكارثية المعروفة باسم (التسونامي) كان عددها (اثنين) في القرن التاسع عشر، وأصبح (أربعة) في القرن العشرين.



إخبار النبي ﷺ عن كثرة موت الفجأة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ من أَمَاراتِ الساعةِ: أن يُرى الهلالُ لليلةٍ فيُقال: لليلتينِ، وأنْ تُتَّخَذَ المساجِدُ طُرُقاً، وأنْ يَظهرَ موتُ الفَجْأَةِ**».

وفي رواية: «**إنَّ من اقترابِ الساعةِ: فُشُوَّ الفالجِ، وموتَ الفجأةِ**»[1].



أولاً: تحقق النبوءة:

●● هذا خبر نبوي صادق تحقَّق وقوعُه في زماننا على أوضح وجه وأكمله، واللفظ النبوي «**يَظهر**» و«**فشوّ**» يَصِف تماماً حالات موت الفجأة التي تَبْغَتُ الناسَ وتذهب بأرواحهم دون أن تُمهِلهم، بطُرق متنوعة وأسباب شتى.

فلقد انتشر في زماننا ما يُعرف بالجلطة القلبية التي توقف عمل القلب فيموت الإنسان، أو السكتة الدماغية التي تعطِّل عمل الجهاز العصبي فيموت الإنسان بغتة، ولهذا وذاك أسباب متعددة؛ منها فسيولوجية (وظيفية)، وأخرى خارجية ناتجة عن الهموم المتراكمة والأزمات النفسية والمفاجآت المُحزِنة

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير: ٢/١٢٩؛ والضياء في المختارة (ق ١٦١/ ٢)؛ وابن عدي في الكامل: ٢/ ٢٩١ ترجمة (٤٤٥)؛ وعبد الرزاق (٦٧٨٠)؛ والدينوري في المجالسة: ٢/٢٧٠؛ وأخرجه مرسلاً عن الشعبي: الداني في الفتن (٣٩٥) و(٣٩٩)؛ وحسَّنه الألباني بشواهده في الصحيحة: ٥/ ٣٦٧، ٣٧٠ (٢٢٩٢)، وصحيح الجامع (٥٨٩٩). وانظر: مجمع الزوائد: ٧/ ٣٢٥؛ المقاصد الحسنة (١٢٠٣).

الصارمة وعوامل الكبت والقهر والإذلال، والتسابق المادي على الكسب وما يتولد عنه من خسائر فادحة... هذه العوامل كلها تتعاون على الإنسان وتحمِّله ما لا يطيق، فتطحنُه برَحَاها الباطشة، وتعصف بأنفس الكثيرين ممن لا يحسنون التوكل على الله والاستسلام للقدر الحكيم الأعلى والاحتساب للدار الآخرة، مما يخفِّف المصيبة ويهوِّن الهموم، لذا ترى كثيرين ممن يختزنون الهموم ويتلقون الأنباء المفجعة، مادية أو معنوية، يَخِرُّون صرعى لساعتِهم.

هذا لون من أنواع موت الفجأة.

●● وثَمَّةَ نوعٌ آخَر أشدُّ فتكاً وأوسعُ دائرة، يَحصُد أرواحَ الآلاف كل سنة في طول البلاد وعرضها؛ إنه ما ينتج عن حوادث السيارات المروِّعة التي تُهلِك كثيراً من الأنفس ولا تستثني صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى! وما يجري على الطرقات يبرهن على انتشار موت الفجأة، حيث ترى الإنسان في سيارته أو في الحافلة وغيرها، وبخطفة البصر يقع الحادث وينتج عن الصدام عشرات ومئات الموتى يوميّاً هنا وهناك.

وقلْ مثلَ ذلك في حوادث تصادم القطارات، وغرقِ السفن والمراكب والعبَّارات، والطائرات التي تحمل مئات الركاب، ولَخَللٍ فنيٍّ أو ظروف كونية تتحطَّم الطائرة، ويموت من فيها بلمحة البصر! إنه موت فجائي ظاهر ومتفشٍّ في هذا الزمان...

وهو أمر واضح للعِيَان.

ثانياً: عبرة وعظة:

●● وعلى المسلم أن يَبقى دائماً على استعداد للموت، فلا يدري متى يأتيه، وكيف تكون منيَّتُه، وأين تَدهمه! قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

فهذا توجيه إلٰهي للإنسان كي يبقى على إسلام وإيمان وتقوى واستعداد لآخرته؛ حتى إذا فَجِئَه الموت كانت خاتمته حسنة.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن موتِ الفجأةِ، فقال: «**راحةٌ للمؤمن وأخذةُ أَسَفٍ للفاجِرِ**»[١].

وعن عُبيد بن خالد السُّلَمي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**موتُ الفجأةِ أخذةُ أَسَفٍ**»[٢].

فموتُ الفجأةِ راحةٌ للمؤمن من ضَنْك الدنيا، وما قد يَنزلُ به عند الكِبَر من أمراض تُقعده أو ضَعْف بأجهزته بحيث لا يقوم بشؤونه الخاصة فيضجرُ به أهلُه، أو يُصاب بخَرَفٍ ونحوه... فيكون موت الفجأة راحة له من كل ذلك.

وهو أخذةُ أسفٍ، أي: غضبٍ، على الفاسق والفاجر؛ حيث لا يُمهِله فيستعدّ للآخرة بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله وتقديم أعمال البر، فيَقْدَم على سوء عمله فجأة!.

ولقد كان الصالحون يوصون دوماً باغتنام الفرص، وتقديم الأعمال الصالحة، وملازمة الإنابة والتوبة، وفي هذا يقول الإمام البخاري:

اغْتَنِمْ في الفراغِ فَضْلَ رُكوعٍ ... فَعَسى أن يكونَ موتُكَ بَغْتَهْ
كم صحيحٍ رأيتَ من غيرِ سُقْمٍ ... ذهبتْ نفسُه الصحيحةُ فَلْتَهْ[٣]

وبهذه النبوءة ينتهي كتابنا هذا، نسأل الله القبول وحسن الخاتمة.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه أحمد: ٦/١٣٦؛ وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٢١٢): سنده صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٠)؛ وأحمد: ٣/٤٢٤، ٤/٢١٩؛ وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود، وصحيح الجامع (٦٦٣١)؛ وعبد القادر الأرنؤوط في جامع الأصول: ١١/٨٧ - ٨٨.

(٣) كتابي: الإمام البخاري، ص٢٩٢.



الخاتمة

ينبغي لمن يرى المعجزات والبيِّنات ويتحقق الأدلَّة ويَشهد تصديقَ النبوءات ووقوعَ الأشراط والعلامات؛ أن يزدادَ تصديقُه ويرسخَ يقينُه، ويعتلي بإيمانه بالرسول الخاتم ﷺ ورسالته الخالدة التي أكملها الله للمسلمين ورضيها لهم ديناً وشريعة.

كما ينبغي له أن يُؤْثرها على كل دين ومذهب وفكر ومنهج سواها، ويعتزَّ بها ويستمسك بعُراها ويلتزم بهداها، ويُعلن ذلك بجرأة وبسالة قولاً وعملاً ومسلكاً ومنهجاً، ويرتقي في ذلك إلى درجة أولئك الأماجد الكرام من سحرة فرعون الذين كانوا قبل ساعة يؤمنون بجِبْتِه وطاغوته، ويقولون: ﴿... أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١ ـ ٤٢]، وجاؤوا بسحر عظيم واسترهبوا الناس، ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]، فلما عايَنُوا الحقَّ خضعُوا له ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨].

فتهدَّدَهم الطاغوت وتوعَّدهم، وأَرْعَد وأَزْبَدَ، وطغَى وبغَى عليهم، فكان كما قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧١ ـ ٧٣].

إن آيات الله وبيِّناتِه ومعجزاتِ رسول الله ﷺ ودلائلَ نبوَّته وعلامات صدقه

وأمارات خلود رسالته وسموّها وعلوّها؛ تَتْرا ليلاً ونهاراً، مع توالي الأيام وتقلُّب الأمم، وفي آفاق السماء وجنَبات الأرض وحَيَوات الناس... إنها تمتد في الزمان والمكان طولاً وعرضاً وعمقاً.

وفي ذلك دعوة جادة دؤوبة لا تكلُّ ولا تملُّ للمؤمن أن يزكوَ إيماناً، وللمستيقن أن يزدادَ يقيناً، وللمبتلى أن يأمل فَرَجاً ومخرجاً، وللداعية أن يأخذ زاداً جديداً، وللمبتعد عن الحق أن يدنو منه قرباً، وللغافل أن يتنبَّه، وللساهي أن يستيقظ، وللعاصي أن يتوب، وللشارد أن يؤوب، وللمسؤول أن يَنصح، وللحاكم أن يُنصف ويعدل، وللغني أن يشكر ويبذل، وللفقير أن يعمل ويصبر، وللرجل أن يؤدي المهمة، وللمرأة أن تكابد المسؤولية، وللمتعجِّلين أن يتريَّثوا، وللخارجين أن يتبصَّروا، ولأصحاب الهوى أن يثوبوا ويؤوبوا، ولدُعاة الضلال أن يعتبروا، ولحمَلَة الحق أن يصمدوا ويستمروا، فالله وليُّ المؤمنين والعاقبة للتقوى.

إنه لا يصحُّ في شِرعة العقل والمنطق وبروز الأدلة وقيام البراهين وتوالي البينات؛ أن يبقى المرء سادراً في غيِّه، مستغرِقاً في شهواته، مستسلماً لتقلبات الزمان وعواصف الفتن وتوجُّهِ التيارات؛ فيكون ريشة في مهبِّ الريح لا يَنْصِب لنفسه هدفاً ولا يُقيم له غاية، ولا يدري حكمة من وجوده وحياته وعمله ومماته! ومن الحماقة بمكان أن يكون المرء كما قال الشاعر التائه:

جئتُ لا أعلمُ من أينَ ولكنِّي أَتيتُ!

ولقد أبصرتُ قدَّامي طريقاً فمشَيتُ!

وسأَبْقَى سائراً إنْ شئتُ هذا أَمْ أَبَيْتُ!

كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟

لستُ أَدري!

ولماذا؟ لستُ أَدري!

لست أدري(١)!

وفي أحاديث النبوءات التي أوردناها في هذا الكتاب وفصَّلنا القولَ في أنواعها المتعددة، عِبَرٌ وبصائر، فالتاريخ مرآة للزمان، وأخبارُ الماضيين زاخرةٌ بالمواعظ، وباعثةٌ على الصبر والتأسي وحسنِ التهدِّي، وحصولِ ملكة التجارب لاجتناب المضار واستجلاب المنافع... ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

●● لقد تناول هذا الكتاب محاورَ عديدة وكبيرة في مسيرة الإسلام وتاريخ المسلمين، وتقلُّبات الزمان بالأمة الإسلامية في مراحل المدِّ والجزر، والعُسر واليسر، والازدهار والانحطاط، والسلامة والفتن، والصلاح والفساد، والحرية والجَبْرية، وانتَظَم ذلك حياة الأفراد والجماعات والمذاهب والحركات والراعي والرعية.

وحاولنا فيه التركيزَ على معالم كبرى، وتسليطَ الأضواء على ميادين جليلة شائكة زلَّت فيها الأقدام، أو تاهَتْ عنها الأقلام، أو تلاعَبَتْ بها الأهواء... ومن أبرز ذلك:

● **تجلية أمور الفتن الكبرى** التي وقعتْ في تاريخنا واكتوت بها أمتنا، وتوخَّيتُ فيها جانبَ الاعتدال والإنصاف ـ حسب اجتهادي ـ وبخاصة التي لابَسَها الصحابة الكرام(٢).

وأبرزتُ جوانبَ العِبر والأسوة، ومواطنَ الخلل والخطأ، ومسالكَ السلامة إبَّان الخوض في معامعها أو الاكتواء بلَظاها والتأثر برَحَاها الطاحنة.

● **وتناول الكتاب في محاوره الكبرى الحديثَ عن فتن الدنيا والمال،**

---

(١) من قصيدة «الطلاسم»، للشاعر إيليا أبو ماضي.

(٢) وقد فصلت القول فيها في كتابيَّ: الخلفاء الراشدون؛ والعشرة المبشرون بالجنة.

والنظرةَ الإسلامية الصحيحة للغنى والفقر، وسلوك الأمة عبر تاريخها الممتد في هذا الميدان الخطير، وأكدنا على أن «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» و«**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**».

● **وأعطيتُ فكرة شاملة مركَّزة هادفة عن الغزوات والفتوحات والفاتحين** وأخلاقهم وتمثُّلهم مبادئَ الإسلام وهديه في ذلك. وبَثَثْتُ في ثناياها العلامات الهادية وأسرجتُ الأضواء الكاشفة؛ ليبقى المسلم على ذُكْرٍ، وليتضحَ للقارئ أن لا فاصلَ بين الفتح وأخلاق الفاتحين.

● **وتحدّث الكتاب عن قيام الأمة الإسلامية دهراً طويلاً شَغلتْ فيه حيِّزاً ناصعاً في تاريخ الإنسانية، وأنشأتْ حضارة مثلى**، قادت البشرية إلى الحق والهدى والخير، وكان المسلمون في عنفوان فتوحاتهم رحماء أُساة، ولو شاؤوا لأبادوا طوائف كبيرة وصغيرة، فما فعلوا ذلك وحاشاهم أن يفعلوه، فدينُهم ينهاهم عن هذا، ولو فعلوا لسكَتَ التاريخ كما سكت لإبادة المسلمين في الأندلس وفي الشطر الشرقي للاتحاد السوفييتي، وفي البلقان وسواه مما يجري الآن على يدي الصليبية واليهودية والوثنية..

هَلْ كانَ دينُ ابنِ عدنانٍ سوى فَلَقٍ ... شَقَّ الوجودَ وليلُ الجهلِ يَغْشَاهُ
سَلِ الحضارةَ ماضِيها وحاضِرَهَا ... هل كان يتَّصِلُ العهدانِ لولاهُ
هي الحنيفيَّةُ عينُ اللهِ تَكْلَؤُهَا ... فكلَّما حاوَلوا تشويهَهَا شاهُوا
وكيفَ ساسَ رعاةُ الإبْلِ مملكةً ... ما ساسَها قيصرٌ من قبلُ أو شاهُ
سَنُّوا المساواةَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمٌ ... ما لامرئٍ شَرفٌ إلا بتَقْوَاهُ[١]

● **وقصدتُ إلى التركيز على جانب التفاؤل والبشريات**، لبثِّ روح الأمل وشحذِ الهمم على العمل، ومطاردةِ التشاؤم واليأس والقنوط من نفس القارئ،

---

(١) من قصيدة «وقفة على طلل»، للشاعر محمود غنيم، نقلاً عن كتاب: سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ص١٣٢.

ذلك أن تياراً مريضاً يسعى بطيب نيَّة أو بسَذَاجة أو بخُبثٍ لإشاعة اليأس من الإصلاح، بحجَّة فساد الزمان، وغربةِ الإسلام، وتكالبِ الأعداء، وغفلة الأمة واتباعها سَنَن اليهود والنصارى، وسيادةِ الحكم الجبري، وأن القابضَ على دينه كالقابض على الجمر...

وهذا التيار المتقاعس أو المثبِّط المغرِض أضرُّ بالأمة من الفتن وأسلحة الأعداء على تنوّعها وفتكها.

● **وتضمن الكتاب حديثاً طويلاً عن ائتمار الأعداء بالأمة والكيد لها في الليل والنهار**، وأعمالِ الهدَّامين المنبثين في نسيجنا الاجتماعي قديماً وحديثاً. فبيَّنّا أصنافهم، وذكرنا أعمالَهم وميادينَ أنشطتهم وأمثلةَ كبرائهم وخطورتهم على الأمة ودينها وتاريخها وتراثها.

ولم يكن قصدُنا من ذلك إقناعَ هؤلاء، إذ إن أكثرهم دعاةٌ وليسوا طلابَ حقّ، فلا يُخرِجهم من ضلالهم إلا أن يشرحَ الله صدرهم للإيمان ولا يأس من رحمته سبحانه، وإنما هَدَفْنا إلى التنبيه على ما يخفَى من حِيلهم وأساليبهم وأعمالهم؛ نصيحةً لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

● **وألحَّ البحثُ كثيراً على معلمة بارزة** في مواطن كثيرة من أصناف النبوءات، **وهي أن على المسلمين أن لا يُلقوا بفَشَلهم وضعْفِهم وتأخّرهم وانكسارهم وتفتُّتِ دولهم وكياناتهم على الأقدار وعلى الائتمار وكيدِ الأعداء، ويبرِّئوا أنفسَهم من المخالفات والقصور والتقصير.**

إنه يجب علينا أن نمتلك الشجاعة الأدبية، ولا مناصَ لنا من ذلك إذا أردنا الإصلاح والنجاح والفلاح، من أن نُحصي مغانمنا ومغارمنا، ونعترف بأخطائنا وخطايانا، وأن ما أصابنا كان بما كسبتْ أيدينا، ويعفو الله عن كثير.

ينبغي الاعترافُ الشجاع بمعاصينا العَقَدية والعبادية والسلوكية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية والمادية والعلمية.. فذلك مفتاح الحل وبداية تقويم السلوك وتصحيح المسار.

والنبوءات التي فصَّلْنا القولَ فيها في هذا الكتاب كلُّها قد تحققت ووقع مصداقها كما أخبر به النبي ﷺ.

وثمَّة نبوءاتٌ أخرى جليلة كبيرة وخطيرة لمَّا تتحقق بعدُ، ولسوف تشهد السنوات القادمة والأجيالُ اللاحقة وقوعَها حسب تقدير الله تعالى وكما أخبر رسولُه ﷺ. **ومن أبرزها**:

١ ـ هيمنةُ الإسلام على الأديان كلِّها ودخوله كلَّ بيت حتى لا يَبقى بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله كلمة الإسلام.

٢ ـ فتح رومية «رومة» عاصمة إيطاليا.

٣ ـ عودة بلاد الحجاز جنات وأنهاراً.

٤ ـ الرخاءُ المادي وفيضُ المال حتى يَطوف الرجل بصدقته من الذهب فلا يجد من يقبلها.

٥ ـ خروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه.

٦ ـ مُلْكُ رجلٍ يُقال له: الجَهْجَاه.

٧ ـ انحسار الفرات عن جبل من ذهب والنهي عن الأخذ منه.

٨ ـ رفع الأمانة من قلوب الرجال.

٩ ـ قتالُ المسلمين اليهودَ حتى ينطق الحجر والشجر.

١٠ ـ قتال الروم والملحمة الكبرى، ومجيءُ الروم تحت ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفاً.

١١ ـ الهجرة إلى بلاد الشام، وعُقْر دار المؤمنين الشام عند نزول الفتن.

١٢ ـ ظهور المهدي.

١٣ ـ خروج جيش يقصد الكعبة فيُخْسَف به في البَيْداء.

١٤ ـ نزول عيسى ﷺ.

١٥ ـ ذهاب الشحناء والتباغض والتحاسد.

١٦ ـ انتشارُ الأَمَنَةِ بين الحيوانات المفترسة والأليفة، فيَرعى الأسد مع الإبل، والنمر مع البقر، ويَلعب الصبيان مع الحيَّات.

١٧ ـ السِّبَاع تكلِّم الإنسَ، وتكلِّم الرجلَ عَذَبةُ سوطه وشِراكُ نَعْله.

١٨ ـ انتفاخُ الأهلَّة.

١٩ ـ حصار أهل المدينة وقاطنيها وخروج أهلها منها.

٢٠ ـ عودة عبادة الأوثان إلى الجزيرة العربية حتى تُعبَد اللات والعُزَّى.

٢١ ـ توقُّفُ الحج فلا يُحجّ البيت.

٢٢ ـ يَقتل الرجلُ جاره وأخاه وأباه.

٢٣ ـ مرور الرجل بقبر الرجل وتمنِّيه أن يكون مكانه.

٢٤ ـ التسافُدُ على قارعة الطريق تسافُدَ الحمير.

٢٥ ـ ذو السُّوَيْقتين من الحبشة يَهدم الكعبة حجراً حجراً.

٢٦ ـ يَدْرُسُ الإسلام حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا صدقة.

٢٧ ـ حدوث الخسف والقذف والمسخ.

وغير ذلك، وهي جديرة بأن يُصنَّف فيها كتاب مستقل.

هذا فضلاً عن علامات الساعة الكبرى التي تسبق الساعة بزمن يسير نسبيّاً.

وإني لأرجو الله ﷻ أن يتقبل هذا العمل ويجعله في صحيفة الحسنات، ويكتبه في العلم النافع الذي يستمر ثوابه ويتوالى أجره إلى يوم الدين.

وأسأله عزَّ شأنه أن يُضاعِف الأجر لناشرِه أستاذنا الفاضل محمد علي دولة

الذي يحمل رسالة نشر العلوم الإسلامية، ولا يألو جهداً في خدمة الكتاب الإسلامي.

كما أدعوه تعالى أن ينفعَ به المسلمين عامتهم وخاصتهم، وأن يشارك كل منهم في تأدية حقِّ البلاغ ونشر العلم النافع؛ امتثالاً لأمر نبيِّنا ﷺ في قوله: «**بلِّغوا عنِّي ولو آية**».

وأَضْرَعُ إلى الله وأدعوه مع الإمام ابن الجوزي إذ يقول:

«**اللهمَّ لا تُعذِّب لساناً يُخبِر عنك، ولا عَيْناً تنظرُ إلى علوم تدلُّ عليك، ولا قَدَماً تمشي إلى خدمتك، ولا يداً تكتُب حديثَ رسولك، فبعزَّتِكَ لا تدخلْني النار، فقد عَلِمَ أهلُها أنّي كنتُ أَذُبُّ عن دِينِك**».

وكما بدأتُ بأصدق الكلام وأجلِّه، أختمُ كذلك بخيره: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥].

والحمد لله رب العالمين.

عبد الستار الشيخ

المراجع

١ ـ **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، للدكتور محمد محمد حسين، دار النهضة العربية ـ بيروت.

٢ ـ **إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة**، لحمود بن عبد الله التويجري، دار الصميعي ـ الرياض.

٣ ـ **الاحتشام والسلوك العام وأثره في المجتمع**، كلية الشريعة ـ جامعة الشارقة، الإمارات.

٤ ـ **أحمد أمين مؤرِّخ الفكر الإسلامي**، للدكتور محمد رجب البيومي، دار القلم ـ دمشق.

٥ ـ **الأدب المفرد**، للإمام البخاري، اعتنى به محمد هشام البرهاني، الإمارات.

٦ ـ **الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة**، للسيد محمد صديق حسن خان، دار ابن كثير ـ دمشق.

٧ ـ **الأذكار**، للإمام النووي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الملاح ـ دمشق.

٨ ـ **الأرض المقدسة بين الماضي والحاضر والمستقبل**، لإبراهيم العلي، منشورات فلسطين المسلمة.

٩ ـ **أساس البلاغة**، للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة ـ بيروت.

١٠ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، لابن عبد البر، طبع مع الإصابة، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١١ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، لعز الدين ابن الأثير، دار الفكر ـ بيروت.
١٢ ـ **الإسلام الممتحن**، بقلم محمد الحسني، ترتيب أبي الحسن الندوي، دار ابن كثير ـ دمشق.
١٣ ـ **الإسلام والاستبداد السياسي**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.
١٤ ـ **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.
١٥ ـ **الإسلام والطاقات المعطلة**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.
١٦ ـ **أسماء الخلفاء والولاة**، لابن حزم، رسالة ملحقة بجوامع السيرة، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف ـ مصر.
١٧ ـ **الإشاعة لأشراط الساعة**، للبرزنجي، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث ـ القاهرة.
١٨ ـ **أشراط الساعة**، ليوسف بن عبد الله الوابل، دار ابن الجوزي ـ الدمام.
١٩ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، لابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٢٠ ـ **أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم**، لابن حزم، رسالة ملحقة بجوامع السيرة، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف ـ مصر.
٢١ ـ **أصول الحديث علومه ومصطلحه**، للدكتور محمد عجاج الخطيب، دار الفكر ـ بيروت.
٢٢ ـ **الاعتصام**، للإمام الشاطبي، تقديم واعتناء محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢٣ ـ **أطلس التاريخ العربي الإسلامي**، للدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر ـ دمشق.
٢٤ ـ **الأطلس المدرسي للمرحلة الثانوية**، مؤسسة فهد المرزوق الصحفية ـ الكويت.
٢٥ ـ **أطلس الوطن العربي والعالم**، دار القلم العربي ـ حلب، سورية.

٢٦ ـ **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، لمحيي الدين الدرويش، اليمامة ـ دمشق، دار ابن كثير ـ دمشق.

٢٧ ـ **الأعلام**، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت.

٢٨ ـ **الإعلام بوفيات الأعلام**، للذهبي، تحقيق رياض عبد الحميد مراد وعبد الجبار زكار، دار الفكر المعاصر ـ بيروت، دار الفكر ـ دمشق.

٢٩ ـ **أعلام الحفاظ والمحدثين عبر أربعة عشر قرناً**، لعبد الستار الشيخ، دار القلم ـ دمشق.

٣٠ ـ **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، لابن القيم، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ـ صيدا، بيروت.

٣١ ـ **اقتضاء العلم العمل**، للخطيب البغدادي، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٣٢ ـ **الإكمال**، لابن ماكولا، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلِّمي، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت.

٣٣ ـ **الإمام البخاري**، لعبد الستار الشيخ، دار القلم ـ دمشق.

٣٤ ـ **الإمام البخاري وصحيحه**، للدكتور عبد الغني عبد الخالق، دار المنارة ـ جدة.

٣٥ ـ **أمتنا بين قرنين**، للدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق ـ القاهرة.

٣٦ ـ **الأمصار ذوات الآثار**، للذهبي، تحقيق قاسم علي سعد، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.

٣٧ ـ **الأنساب**، للسمعاني، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي وآخرين، الناشر محمد أمين دمج ـ بيروت.

٣٨ ـ **البابية والبهائية**، للدكتور أسعد السحمراني، دار النفائس ـ بيروت.

٣٩ ـ **البداية والنهاية**، لابن كثير، مكتبة المعارف ـ بيروت.

٤٠ ـ **بنو إسرائيل في ميزان القرآن**، بقلم البهي الخولي، دار القلم ـ دمشق.

٤١ ـ **البيان النبوي بانتصار العراقيين على الروم «أمريكا وبريطانيا»**، للدكتور فاروق الدسوقي، بدون دار نشر ـ مصر.

٤٢ ـ **بينات الرسول ﷺ ومعجزاته**، لعبد المجيد الزنداني، دار الإيمان ـ الإسكندرية، دار القدس ـ صنعاء.

٤٣ ـ **تاريخ الإسلام**، للذهبي، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٤٤ ـ **تاريخ الإسلام السياسي**، للدكتور حسن إبراهيم حسن، دار الجيل ـ بيروت، دار النهضة المصرية ـ القاهرة.

٤٥ ـ **التاريخ الأوسط**، للإمام البخاري، تحقيق محمد بن إبراهيم اللحيدان، دار الصميعي ـ الرياض.

٤٦ ـ **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٧ ـ **تاريخ الخلفاء**، للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

٤٨ ـ **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، دار طيبة ـ الرياض.

٤٩ ـ **تاريخ دمشق**، لابن عساكر، تحقيق جماعة من أهل العلم، دار الفكر ـ دمشق.

٥٠ ـ **تاريخ الدولة الأموية**، للدكتور محمد سهيل طقوش، دار النفائس ـ بيروت.

٥١ ـ **تاريخ الدولة العباسية**، للدكتور محمد سهيل طقوش، دار النفائس ـ بيروت.

٥٢ ـ **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مجمع اللغة العربية ـ دمشق.

٥٣ ـ **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ـ مصر.

٥٤ ـ **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم**، لمحمد بن طاهر الكردي المكي، دار خضر ـ بيروت.

٥٥ ـ **التاريخ الكبير**، للإمام البخاري، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار الفكر ـ بيروت.

٥٦ ـ **تاريخ واسط**، لأسلم بن سهل الواسطي (بحشل)، تحقيق كوركيس عواد، عالم الكتب ـ بيروت.

٥٧ ـ **تاريخنا المفترى عليه**، للدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق ـ القاهرة.

٥٨ ـ **تبصير المنتبه بتحرير المشتبه**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق البجاوي والنجار، المكتبة العلمية ـ بيروت.

٥٩ ـ **التحريف المعاصر في الدين**، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم ـ دمشق.

٦٠ ـ **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، للمباركفوري، دار الحديث ـ القاهرة.

٦١ ـ **تدريب الراوي**، للسيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر ـ بيروت.

٦٢ ـ **تذكرة الحفاظ**، للذهبي، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار الباز ـ مكة المكرمة.

٦٣ ـ **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، للقرطبي، تحقيق خالد بن محمد بن عثمان، مكتبة الصفا ـ القاهرة.

٦٤ ـ **الترغيب والترهيب**، للمنذري، تحقيق مصطفى محمد عمارة، دار الحديث ـ القاهرة.

٦٥ ـ **التصريح بما تواتر في نزول المسيح**، لمحمد أنور شاه الكشميري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ودار القرآن الكريم ـ بيروت.

٦٦ ـ **تغليق التعليق**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق سعيد عبد الرحمن القزمي، المكتب الإسلامي ـ بيروت، دار عمار ـ عمان.

٦٧ ـ **تفسير القرآن الحكيم**، الشهير بتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة ـ بيروت.

٦٨ ـ **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير، دار ابن كثير ـ دمشق.

٦٩ ـ **تقريب التهذيب**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة ـ بيروت.

٧٠ ـ **تكملة فتح الملهم بشرح صحيح الإمام مسلم**، لمحمد تقي العثماني، دار القلم ـ دمشق

٧١ ـ **تلخيص الحبير**، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة ـ بيروت.

٧٢ ـ **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة**، لابن عَرَّاق، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧٣ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**، للإمام النووي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧٤ ـ **تهذيب التهذيب**، لابن حجر العسقلاني، دار الفكر ـ بيروت.

٧٥ ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، للمزي، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٧٦ ـ **توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧٧ ـ **توضيح المشتبه**، لابن ناصر الدين، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٧٨ ـ **جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ**، لابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، دار الفكر ـ بيروت.

٧٩ ـ **جامع بيان العلم وفضله**، لابن عبد البر، دار الفكر ـ بيروت.

٨٠ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**، للطبري، دار الفكر ـ بيروت.

٨١ ـ **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، للقرطبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، مكتبة الرشد ـ الرياض.

٨٢ ـ **جدد حياتك**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

٨٣ ـ **الجرح والتعديل**، لابن أبي حاتم، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار الفكر ـ بيروت.

٨٤ ـ **جغرافية العالم الإسلامي**، للدكتورة سارة حسن منيمنة، دار بيروت المحروسة ـ بيروت.

٨٥ ـ **جمل فتوح الإسلام**، لابن حزم، رسالة ملحقة بجوامع السيرة، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف ـ مصر.

٨٦ ـ **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٨٧ ـ **جهاد الدعوة**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

٨٨ ـ **جوامع السيرة**، لابن حزم، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف ـ مصر.

٨٩ ـ **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**، لعبد القادر القرشي، تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو، هجر ـ القاهرة.

٩٠ ـ **حاضر العالم الإسلامي**، مذكرة للدكتور محمد الإسكندراني والدكتور محمد علي القوزي، كلية الإمام الأوزاعي ـ بيروت.

٩١ ـ **حصوننا مهددة من داخلها**، للدكتور محمد محمد حسين، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٩٢ ـ **حلية الأولياء**، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٩٣ ـ **حياة الصحابة**، لمحمد يوسف الكاندهلوي، تحقيق نايف العباس ومحمد علي دولة، دار القلم ـ دمشق.

٩٤ ـ **خالد بن الوليد**، لمحمد الصادق عرجون، دار الأندلس.

٩٥ ـ **الخلفاء الراشدون**، لعبد الستار الشيخ، دار القلم ـ دمشق.

٩٦ ـ **خلق المسلم**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.
٩٧ ـ **الدارس في تاريخ المدارس**، لعبد القادر بن محمد النعيمي، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية ـ مصر.
٩٨ ـ **دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية**، للدكتور حسان حلاق، دار النهضة العربية ـ بيروت.
٩٩ ـ **الدراية في تخريج أحاديث الهداية**، لابن حجر العسقلاني، علق عليه عبد الله هاشم اليماني، دار المعرفة ـ بيروت.
١٠٠ ـ **الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.
١٠١ ـ **دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين**، للدكتور جميل عبد الله المصري، دار القلم ـ دمشق.
١٠٢ ـ **دول الإسلام**، للذهبي، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.
١٠٣ ـ **الدولة الأموية**، للدكتور يوسف العش، دار الفكر ـ دمشق.
١٠٤ ـ **الدولة الأموية**، للدكتور علي محمد محمد الصلابي، مكتبة الصحابة ـ الشارقة.
١٠٥ ـ **دولة السلاجقة**، للدكتور علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة ـ بيروت.
١٠٦ ـ **ديوان وليد الأعظمي**، الأعمال الشعرية الكاملة، دار القلم ـ دمشق.
١٠٧ ـ **ذكر أخبار أصبهان**، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٠٨ ـ **الذيل على الروضتين**، لأبي شامة المقدسي الدمشقي، دار الجيل ـ بيروت.
١٠٩ ـ **رجال الفكر والدعوة**، لأبي الحسن الندوي، دار القلم ـ دمشق.
١١٠ ـ **رجال من التاريخ**، لعلي الطنطاوي، دار المنارة ـ جدة.

١١١ ـ **الرحلة في طلب الحديث**، للخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١١٢ ـ **الرسالة**، للإمام الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية ـ بيروت.
١١٣ ـ **الرفع والتكميل في الجرح والتعديل**، لمحمد عبد الحي اللكنوي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.
١١٤ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، لابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
١١٥ ـ **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، لمحمد بن يوسف الصالحي، تحقيق جماعة من أهل العلم، لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة.
١١٦ ـ **سر تأخر العرب والمسلمين**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.
١١٧ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض.
١١٨ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض.
١١٩ ـ **السلطان عبد الحميد الثاني**، للدكتور محمد حرب، دار القلم ـ دمشق.
١٢٠ ـ **السلطان محمد الفاتح**، للدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي، دار القلم ـ دمشق.
١٢١ ـ **السلطان المظفر قطز**، للدكتور قاسم عبده قاسم، دار القلم ـ دمشق.
١٢٢ ـ **السنة**، لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت.
١٢٣ ـ **السنة ومكانتها في التشريع**، للدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي ـ بيروت.
١٢٤ ـ **سنن الترمذي**، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٢٥ ـ **سنن الدارقطني**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
١٢٦ ـ **سنن الدارمي**، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١٢٧ ـ **سنن أبي داود**، تعليق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار الحديث ـ بيروت.
١٢٨ ـ **السنن الكبرى**، للبيهقي، وبذيله **الجوهر النقي**، لابن التركماني، دار الفكر ـ بيروت.
١٢٩ ـ **السنن الكبرى**، للنسائي، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
١٣٠ ـ **سنن ابن ماجه**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٣١ ـ **سنن النسائي (الصغرى)**، بشرح السيوطي وحاشية السندي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١٣٢ ـ **السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها**، لأبي عمرو الداني، تحقيق الدكتور رضاء الله المباركفوري، دار العاصمة ـ الرياض.
١٣٣ ـ **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، تحقيق جماعة من أهل العلم، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
١٣٤ ـ **السيرة النبوية**، لأبي الحسن الندوي، دار القلم ـ دمشق.
١٣٥ ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق.
١٣٦ ـ **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**، للدكتور محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم ـ دمشق.
١٣٧ ـ **شخصيات وأفكار**، للدكتور عدنان محمد زرزور، دار الإعلام ـ عمَّان.
١٣٨ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد، دار الفكر ـ بيروت.

١٣٩ ـ **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك**، لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني، نشر وزارة الأوقاف بالإمارات.

١٤٠ ـ **شرح السنة**، للبغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٤١ ـ **شرح صحيح مسلم**، للنووي، باعتناء عصام الصبابطي وحازم محمد وعماد عامر، دار أبي حيان ـ القاهرة.

١٤٢ ـ **شرح مشكل الآثار**، للطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٤٣ ـ **الشمائل المحمدية**، للترمذي، باعتناء عزت عبيد الدعاس، دار الحديث ـ بيروت.

١٤٤ ـ **صحيح البخاري**، الطبعة السلطانية، مطبوعة عن النسخة اليونينية، دار الجيل ـ بيروت.

وصحيح البخاري، باعتناء الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ـ دمشق، ودار اليمامة ـ دمشق.

١٤٥ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته**، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ دمشق، بيروت.

١٤٦ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٤٧ ـ **صحيح سنن الترمذي**، لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

١٤٨ ـ **صحيح سنن أبي داود**، لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

١٤٩ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**، لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

١٥٠ ـ **صحيح سنن النسائي**، لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج.
١٥١ ـ **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٥٢ ـ **الصراع بين الإيمان والمادية**، لأبي الحسن الندوي، دار القلم ـ دمشق.
١٥٣ ـ **صورتان متضادتان**، لأبي الحسن الندوي، دار البشير ـ جدة.
١٥٤ ـ **صيانة صحيح مسلم**، لابن الصلاح، تحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت.
١٥٥ ـ **صيحة تحذير من دعاة التنصير**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.
١٥٦ ـ **الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية**، لأنور الجندي، دار القلم ـ دمشق.
١٥٧ ـ **الضعفاء الكبير**، للعقيلي، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٥٨ ـ **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ دمشق، بيروت.
١٥٩ ـ **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، لشمس الدين السخاوي، دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
١٦٠ ـ **طبقات خليفة بن خياط**، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، بغداد.
١٦١ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، لتاج الدين السبكي، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، هجر ـ القاهرة.
١٦٢ ـ **طبقات الفقهاء**، لأبي إسحاق الشيرازي، دار القلم ـ بيروت.
١٦٣ ـ **الطبقات الكبرى**، لابن سعد، دار الفكر ـ بيروت، مصورة عن طبعة دار صادر ـ بيروت.
١٦٤ ـ **ظلام من الغرب**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ بيروت.
١٦٥ ـ **عبد الحميد بن باديس**، لمازن صلاح مطبقاني، دار القلم ـ دمشق.

١٦٦ ـ **العبر في خبر من عبر**، للذهبي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٦٧ ـ **العثمانيون**، للدكتور محمد سهيل طقوش، دار بيروت المحروسة ـ بيروت.

١٦٨ ـ **العز ابن عبد السلام**، للدكتور محمد الزحيلي، دار القلم ـ دمشق.

١٦٩ ـ **العشرة المبشرون بالجنة**، لعبد الستار الشيخ، دار القلم ـ دمشق.

١٧٠ ـ **علل وأدوية**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

١٧١ ـ **العلم**، لأبي خيثمة زهير بن حرب، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٧٢ ـ **علوم الحديث**، لابن الصلاح، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، دار الفكر ـ دمشق.

١٧٣ ـ **العواصم من القواصم**، لابن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب، دار الجيل ـ بيروت.

١٧٤ ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي، باعتناء عصام الصبابطي، دار الحديث ـ القاهرة.

١٧٥ ـ **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٧٦ ـ **فتاوى الشيخ محمد أبو زهرة**، جمع ودراسة الدكتور محمد عثمان شبير، دار القلم ـ دمشق.

١٧٧ ـ **فتاوى مصطفى الزرقا**، اعتنى به مجد مكي، دار القلم ـ دمشق.

١٧٨ ـ **فتح الباري**، لابن حجر العسقلاني، باعتناء محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية ـ مصر.

وفتح الباري، طبع على نفقة الشيخ محمد بن راشد حاكم دبي، دار أبي حيان ـ القاهرة.

١٧٩ ـ **فتح الملهم بشرح صحيح الإمام مسلم**، للشيخ شبير أحمد العثماني، دار القلم ـ دمشق.

١٨٠ ـ **الفتن**، لنعيم بن حماد، تحقيق أيمن محمد محمد عرفة، المكتبة التوفيقية ـ القاهرة.

١٨١ ـ **فتنة الهرج**، للدكتور عبد العزيز صغير دخان، مكتبة الصحابة ـ الشارقة.

١٨٢ ـ **الفَرْق بين الفِرَق**، لعبد القاهر البغدادي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة ـ بيروت.

١٨٣ ـ **فصل الخطاب في مواقف الأصحاب**، لمحمد صالح الغرسي، دار القلم ـ دمشق.

١٨٤ ـ **الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحل**، لابن حزم، دار الفكر ـ بيروت.

١٨٥ ـ **فقد جاء أشراطها**، لمحمود عطية محمد علي، رمادي للنشر ـ الدمام.

١٨٦ ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، لعبد الرؤوف المناوي، دار المعرفة ـ بيروت.

١٨٧ ـ **فقه أشراط الساعة**، للدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، دار طيبة ـ الرياض.

١٨٨ ـ **فقه السنة**، للسيد سابق، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٨٩ ـ **فقه السيرة**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

١٩٠ ـ **فوات الوفيات**، لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت.

١٩١ ـ **قادة فتح بلاد فارس**، لمحمود شيت خطاب، دار الفكر ـ بيروت.

١٩٢ ـ **قادة فتح الشام ومصر**، لمحمود شيت خطاب، دار الفكر ـ بيروت.

١٩٣ ـ **قادة فتح العراق والجزيرة**، لمحمود شيت خطاب، دار الفكر ـ بيروت.

١٩٤ ـ **القاديانية**، للدكتور أسعد السحمراني، دار النفائس ـ بيروت.

١٩٥ ـ **القاموس المحيط**، للفيروز آبادي، مكتبة النوري ـ دمشق.

١٩٦ ـ **قطف الأزهار في كشف الأسرار**، للسيوطي، تحقيق الدكتور أحمد بن محمد الحمادي، إصدار وزارة الأوقاف ـ قطر.

١٩٧ ـ **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث**، لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد بهجة البيطار، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى الحلبي.

١٩٨ ـ **قواعد في علوم الحديث**، لظفر أحمد العثماني التهانوي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ بحلب.

١٩٩ ـ **القيامة الصغرى**، للدكتور عمر سليمان الأشقر، دار النفائس ـ عمَّان.

٢٠٠ ـ **الكامل في التاريخ**، لعز الدين ابن الأثير، دار الفكر ـ بيروت، مصورة عن طبعة دار صادر ـ بيروت.

٢٠١ ـ **الكامل في ضعفاء الرجال**، لعبد الله بن عدي الجرجاني، دار الفكر ـ بيروت.

٢٠٢ ـ **كتب التاريخ للمرحلتين الإعدادية والثانوية ـ وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات.**

٢٠٣ ـ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، للزمخشري، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢٠٤ ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، لإسماعيل بن محمد العجلوني، باعتناء أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢٠٥ ـ **كشف المنن في علامات الساعة والملاحم والفتن**، لمحمود رجب حمادي الوليد، دار ابن حزم ـ بيروت.

٢٠٦ ـ **كفاح دين**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

٢٠٧ ـ **كيف نكتب التاريخ الإسلامي**، لمحمد قطب، دار الشروق ـ القاهرة.

٢٠٨ ـ **اللباب في تهذيب الأنساب**، لعز الدين بن الأثير، دار صادر ـ بيروت.

٢٠٩ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر ـ بيروت.

٢١٠ ـ **لسان الميزان**، لابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، مصورة عن طبعة حيدر آباد.

٢١١ ـ **ليس من الإسلام**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

٢١٢ ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**، لأبي الحسن الندوي، الدار الشامية ـ بيروت.

٢١٣ ـ **المبشرات بانتصار الإسلام**، للدكتور يوسف القرضاوي، دار القلم ـ دمشق.

٢١٤ ـ **المجددون في الإسلام**، لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب ـ القاهرة.

٢١٥ ـ **مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية**، السنة «٢١» العدد «٦٤» ـ الكويت.

٢١٦ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي، باعتناء حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢١٧ ـ **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي وابنه، بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.

٢١٨ ـ **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، لمحمد حميد الله، دار النفائس ـ بيروت.

٢١٩ ـ **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة الأموية**، للشيخ محمد الخضري، دار المعرفة ـ بيروت.

٢٢٠ ـ **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة العباسية**، للشيخ محمد الخضري، دار المعرفة ـ بيروت.

٢٢١ ـ **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

٢٢٢ ـ **محمد رسول الله ﷺ**، لمحمد الصادق عرجون، دار القلم ـ دمشق.

٢٢٣ ـ **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، لابن منظور، تحقيق جماعة من أهل العلم، دار الفكر ـ دمشق.

٢٢٤ ـ **المد والجزر في تاريخ الإسلام**، لأبي الحسن الندوي، دار القلم ـ دمشق.

٢٢٥ ـ **مدينة القدس**، للدكتور إسحاق موسى الحسيني، دار القلم ـ دمشق.

٢٢٦ ـ **مراحل ظهور البدع**، للدكتور أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار عالم الكتب ـ الرياض.

٢٢٧ ـ **المستدرك**، للحاكم، وبذيله **التلخيص**، للذهبي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢٢٨ ـ **مسند أحمد**، تحقيق محمد سليم سمارة وزملائه، المكتب الإسلامي ـ دمشق، بيروت.

ومسند أحمد، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة التراث الإسلامي ـ القاهرة.

ومسند أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢٢٩ ـ **مسند الحميدي**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، عالم الكتب ـ بيروت.

٢٣٠ ـ **مسند الطيالسي**، دار المعرفة ـ بيروت.

٢٣١ ـ **مسند أبي يعلى**، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون ـ دمشق، دار الثقافة العربية ـ دمشق.

٢٣٢ ـ **مشكاة المصابيح**، للخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ دمشق، بيروت.

٢٣٣ ـ **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية ـ بيروت.

٢٣٤ ـ **مصطفى السباعي الداعية المجدد**، للدكتور عدنان محمد زرزور، دار القلم ـ دمشق.

٢٣٥ ـ **المصنف**، لابن أبي شيبة، باعتناء سعيد محمد اللحام، دار الفكر ـ بيروت.

٢٣٦ ـ **المصنف**، لعبد الرزاق الصنعاني، تحقق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي ـ دمشق، بيروت.

٢٣٧ ـ **المصنوع في معرفة الحديث الموضوع**، لعلي القاري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات ـ بحلب.

٢٣٨ ـ **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار المعرفة، بيروت.

٢٣٩ ـ **المعالم الأثيرة في السنة والسيرة**، لمحمد محمد حسن شراب، دار القلم ـ دمشق.

٢٤٠ ـ **معجزات الرسول ﷺ التي ظهرت في زماننا**، للدكتور عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مكتبة الإيمان ـ القاهرة.

٢٤١ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار الفكر ـ بيروت، مصورة عن طبعة دار صادر ـ بيروت.

٢٤٢ ـ **معجم القواعد العربية**، لعبد الغني الدقر، دار القلم ـ دمشق.

٢٤٣ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، رتبه لفيف من المستشرقين، دار الدعوة ـ إستانبول.

٢٤٤ ـ **المعجم الوسيط**، لأحمد حسن الزيات وزملائه، مجمع اللغة العربية بمصر، نشر دار الدعوة بإستانبول.

٢٤٥ ـ **المعرَّب**، لأبي منصور الجواليقي، تحقيق الدكتور ف. عبد الرحيم، دار القلم ـ دمشق.

٢٤٦ ـ **معرفة علوم الحديث**، للحاكم، تحقيق السيد معظم حسين، دار إحياء العلوم ـ بيروت.

٢٤٧ ـ **المعرفة والتاريخ**، للفسوي، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

٢٤٨ ـ **معركة المصحف في العالم الإسلامي**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

٢٤٩ ـ **مغالطات**، لمحمد قطب، دار الشروق ـ القاهرة.
٢٥٠ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم ـ دمشق.
٢٥١ ـ **مفهوم التجديد**، للدكتور محمود الطحان، مكتبة دار التراث ـ الكويت.
٢٥٢ ـ **المقاصد الحسنة**، للسخاوي، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٢٥٣ ـ **الملل والنحل**، للشهرستاني، تحقيق أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة ـ بيروت.
٢٥٤ ـ **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، لابن القيم، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ بحلب.
٢٥٥ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢٥٦ ـ **من فقه الدولة في الإسلام**، للدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق ـ القاهرة.
٢٥٧ ـ **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.
٢٥٨ ـ **منهج دراسة التاريخ الإسلامي**، للدكتور محمد أمحزون، دار طيبة ـ الرياض.
٢٥٩ ـ **منهج النقد في علوم الحديث**، للدكتور نور الدين عتر، دار الفكر ـ بيروت.
٢٦٠ ـ **من نبوءات الرسول ﷺ (حديث الخلافة والأمراء)**، لإبراهيم محمد العلي، دار القلم ـ دمشق.
٢٦١ ـ **من نبوءات الرسول ﷺ (حديث سنين الخداع)**، لإبراهيم محمد العلي، دار القلم ـ دمشق.
٢٦٢ ـ **المهدي**، للدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، دار طيبة ـ الرياض.

٢٦٣ ـ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الرياض.

٢٦٤ ـ **موطأ مالك**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢٦٥ ـ **ميزان الاعتدال**، للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة ـ بيروت.

٢٦٦ ـ **الميسر والقمار**، للدكتور رفيق يونس المصري، دار القلم ـ دمشق.

٢٦٧ ـ **نبوءات الرسول ﷺ**، لحسام سليمان الأسعد، دار النفائس ـ عمَّان.

٢٦٨ ـ **نبوءات الرسول ﷺ**، لمحمد ولي الله الندوي، دار السلام ـ القاهرة.

٢٦٩ ـ **النبوءة والسياسة**، لجريس هالسل، ترجمة محمد السماك، دار الشروق ـ القاهرة.

٢٧٠ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لابن تغري بردي، باعتناء محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٧١ ـ **نزهة الألباب في الألقاب**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن محمد السديري، مكتبة الرشد ـ الرياض.

٢٧٢ ـ **نسب قريش**، لمصعب الزبيري، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف ـ القاهرة.

٢٧٣ ـ **نصب الراية لأحاديث الهداية**، للزيلعي، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة ـ جدة، مؤسسة الريان ـ بيروت.

٢٧٤ ـ **نَكْت الهِمْيَان في نُكَت العُميان**، للصفدي، باعتناء أسعد طرابزوني الحسيني.

٢٧٥ ـ **نهاية العالم**، للدكتور مصطفى مراد، دار الفجر للتراث ـ القاهرة.

٢٧٦ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لمجد الدين ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ـ بيروت.

٢٧٧ ـ **النهاية في الفتن والملاحم**، لابن كثير، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار الحديث ـ القاهرة.

٢٧٨ ـ **أبو هريرة**، لعبد الستار الشيخ، دار القلم ـ دمشق.

٢٧٩ ـ **هموم داعية**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

٢٨٠ ـ **الوافي بالوفيات**، لصلاح الدين الصفدي، تحقيق جماعة من أهل العلم، طبعة فرانز شتاينر.

٢٨١ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الفكر ـ بيروت.

٢٨٢ ـ **الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين**، للدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العمري، دار إشبيلية ـ الرياض.

٢٨٣ ـ **اليهود المعتدون**، لمحمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق.

٢٨٤ ـ **يوسف بن تاشفين**، للدكتور حامد محمد خليفة، دار القلم ـ دمشق.

٢٨٥ ـ **اليوم الآخر في ظلال القرآن**، جمع وإعداد أحمد فائز، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

• وغير ذلك كثير من كتب المغازي والسير والرجال والتراجم والفتوحات والتواريخ وسواها.





فهرس الموضوعات



الفصل السادس

نبوءات في الأهواء والكذب وانتشار الضلال والفساد

الفصل السابع

نبواءت في مقارفة الكبائر وانتهاك المحرَّمات

الفصل الثامن

نبوءات في فتن الدنيا والمال

الفَصْلُ التَّاسِعُ

نبواءت في الأخلاق والعبادات والآداب والمعاملات

الفصل العاشر

نبوءات في العلم

الفصل الحادي عشر

نبوءات عن ظواهر طبيعية



تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١